
العدد ٢٣٥
الرسالة

6me Année, No. 235 — Lundi - 3 - 1 - 1938

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ٢٣٥ « القاهرة في يوم الاثنين أول ذى القعدة سنة ١٣٥٦ — ٣ يناير سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـــرس

الرسالة

في عامها السادس

تنقل اليوم خطوتنا السادسة في سبيلنا القاصدة إلى غايتنا البعيدة؛ وليس لنا عدة غير الإيمان، ولا زادٌ غير الصبر، ولا عونٌ غير الله. وعَسِيٌّ بالمؤمن الصابر المتوكل أن يبلغ وإن طال الأمد!

تعودنا منذ صدرت الرسالة أن نتحدث إلى قرائها وأصدقائها في مثل هذا اليوم من كل عام، نجدد لهم العهد الذى أعطيناه، ونعرض عليهم الشوط الذى قطعناه، ونتصل من وراء الغيب بأرواحهم العارفة العاطفة الآسية، نسترفه بنجواها من الشقةِ الجاهدة، ونستعين بهداها على المرحلة الجديدة

أما العهد فإننا نجدده ونوكده. ولله علينا ألا يحله إلا خروج النفس أو نكول العافية. وأما الشوط فكان رهَقَه محنةَ المجاهد وبلاء الدليل. انبثقت على جانبيه العوائق المثبطة من إلحاح المرض وغلاء الورق واضطراب السياسة ونغل الصداقة وشيوع الأدب الهزيل. فثبتت الرسالة في مكانها لا تهن، واستقامت في طريقها لا تحيد. وطريقها هو الطريق الوحيد الذى سنه الخُلق



الفاضل ؛ وهو أقرب الطرق إلى الغاية لأنه مستقيم . على أن استقامته طالما كانت — وا أسفاه — علة الإبطاء والبعد . فقد يعترضك وأنت مطمئن إلى السير فيه النهر الذى لا يُعبر ، أو الجبل الذى لا يجتاز ، أو العقبة التى لا تقتحم ، أو السبع الذى لا يُهاجَم ؛ فتقف مضطراً تعالج هذا العائق بالعزيمة والحيلة والجهد ، لأن الأخلاق الرقيبة لا تنفك تهيب بك من جهاتك الست :

« لا تتنكب الجادّة المثلى ، ولا تزغ عن الصراط السوى »

وتنظر حواليك فلا تجد إلا الفراغ والوحشة ، لأن الركب الذى كنت تسايره راعه الأمر وخذله الصبر وأعجلته الغاية ، فتبدد ذات اليمين وذات الشمال يرتاد المسالك السهلة ، وخلَّفك وحدك على سواء الطريق عرضة للجوع والخوف ! فإذا سمعت من هذا السائر المتروك صرخة ثائرة فاعزُ حدتها إلى الحائل الذى قام ، وإلى الرفيق الذى نكص !

***

ليس من طبع الرسالة أن تمالق الرغبات بالتَّمْنية ، ولا تستميل الشهوات بالوعد . فإن العمل الصامت أنطق الأدلة على توخى الحق ؛ والماضى المعلوم أضمن الوثائق للمستقبل المجهول .

هذه مجلدات الرسالة التسعة ! أليست هى شهادتها الصادقة على أنها أوفت بما عاهدت القراء عليه من إحياء الأدب القديم ، وإنشاء الأدب الحديث ، وتدعيم الأدب المصرى بقواعد الفن ، وتطعيم الأدب العربى بنتاج الآداب الأُخَر ؟

أليست هى ديوان العرب المشترك جمعت فيه الأشتات إلى الأشتات ، ووفقت بين الأصوات والأصوات ، ثم ألَّفت من هذه الآلات المنفردة جوقة موسيقية متحدة تسكب فى مسامع الوجود أناشيد الخلود ؟

أليست هي كِتاب الشرق الجديد تجد فى صفحاته المشرقة روحيته وريحانه ، وتحس فى معانيه ومراميه إلهامه وإيمانه ؟

إن الإشادة بمجهود الرسالة حق علينا لأولئك الأقلام الكريمة التي أخلصت لله وللناس وللفن فجعلت منها هذه المجموعة التى لا تجد لها مثيلاً فى عصر من عصور اللغة

***

ليت شعري متى تغلط الأيام فنكتب هذه الكلمة السنوية خالية من الشكاة والألم ؟ هيهات هيهات لما نود ! إن شكوى الرسالة فى كل عام هى شكوى الأدب في كل يوم . وستدوم إن شاء الله ما دامت الحكومة لا تبالى الأدب ، والطبقة المتعلمة لا تقرأ الجد ، والكثرة الفاحشة لا تعرف القراءة .

قلنا وقال الناس لولاة الأمر إن الأمة لا يمكن أن تكون جسماً من غير عقل ، ومنفعة من غير عاطفة ، ومادة من غير أدب ؛ وإن الحكومة التي لا يعدو همها إصلاح الأرض وتوفير العدة وتقويم البدن لا تخلق إلا مجتمعاً من الشهوات الفاجرة والنزوات الثائرة والغرائز الخشنة ؛ وإن المدرسة وحدها لا تستطيع مهما انفسح ذرعها واتسع مداها أن تربى العقول وتهذب الأخلاق وتثقف العواطف . فأخطروا ببالكم أولئك المجاهدين فى سبيل الروح ، المجدين في خدمة الفكر ، الذائدين عن قدس الخلق ؛ أولئك هم الأدباء الأحرار الابرار الذين يبلغون رسالة الحق فى كتاب، أو يؤدون أمانة الخير فى صحيفة . أعينوهم على أكلاف العيش بالرعاية ، وشجعوهم على إجادة الإنتاج بالجوائز . ولا تكلوهم إلى هوى النفوس وجهل العامة فينطفئوا انطفاء السراج فى عين الأعمى ، ويموتوا ميتة البلبل فى أذن الأصم

ولكن الأديب كتب عليه أن يجاهد ويجالد ويضحى . لا يستمد العون إلا من ربه ، ولا يلتمس العزاء إلا من قلبه ، ولا يبتغى الثواب إلا من سلطان ضميره .

والرسالة لا تملك أن تحيد عن الطريق الوعر الشائك الذى نهجه الله لعباده المصطفين من رجال الدين والعلم والأدب . وحسبها أن تحيا بالعمل سعيدة ، وأن تموت فى الجهاد شهيدة !

على ذلك تجدد العهد لأصدقائها وقرائها مرة أخرى ، معتمدة على فضل الله ، معتدة بإخلاص القلب ، معولة على إتقان العمل ؛ وفى بعض ذلك الضمانُ الأوفى والسندُ الأقوى والمرفأ الأمين

احمد حسن الزيات

في الأدب وغيره

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

زارني مرة لفيف من الشبان قال قائلهم : إنهم جاءوا ليسألوني عن رأيي في الأدب ويستفتوني في مسائل ، فساءني هذا ولم يسرني ، فقد كنت مشغولاً ، وكان العمل الذي ينبغي أن أفرغ منه كثيراً ، فسألت الذي كان يتكلم : « كم سنك ؟ ولا تخش أن أذيع السر ؟ »

قال « ثنتان وعشرون »

قلت « يا أخي ، إني كنت في مثل سنك صاحب رأي ، في الأدب وغيره ، وصاحب مذهب أدعو إليه وأحاول هدم ماعداه ؛ وكان لي ديوان شعر مطبوع ، وزوجة ووظيفة أيضاً . ولا أنكر أن رأيي قد تغير في مسائل كثيرة ، ولكن هذا لماذا ؟ إنه دليل على أني أديم النظر والتفكير والتدبر ، ولعلي كنت في أمسي على صواب ، وعسى أن أكون في يومي على خطأ ، ولكن المرء لا يطالب بالتوفيق ، وإنما عليه أن يسعى ، وأنا أذكر لكم هذا لأني أتعجب لكم وأستغرب أمركم . فلماذا بالله لا تنظرون بعيونكم ، ولا تفكرون بعقولكم ؟ ولماذا ينبغي أن أتعب أنا لكم — أقرأ وأحصل وأفكر وأنخل وأغربل ، وأنتم مستريحون ليس عليكم إلا أن تتجشموا تعب الحضور إلى هنا ، وإلا أن تؤدوا أجرة الترام ، أو الأمنيبوس ، ومن يدري لعلكم آثرتم المشي فإنكم شبان أقوياء ، والأحذية التي تبلى يؤدي ثمنها آباؤكم فلا خسارة عليكم تشعرون بها ، وليبق القرش فوق القرش ليتيسر أن تقضى السهرة في مرقص ! »

فضحك أحدهم ، ورآه الآخرون يضحك ، فابتسم البعض وقهقه البعض ، فقلت ، وأنا أحس أن عفريتا قد ركبني : « صحيح قولوا ... كم كتاباً عنيتم بأن تشتروا في حياتكم منذ عرفتم الكتابة والقراءة إلى الآن — أعني غير الكتب المدرسية التي لا تفتحونها إلا لأداء الامتحان ؟ »

فلم يجيبوا ، وماذا عسى أن يقولوا ، وأنا أعرف أن هذا الجيل يندر فيه من يحصل من العلوم أو الفنون أو الآداب شيئاً غير ما يتلق في المدرسة ؟ وحتى الذي يفيده في المدرسة ينساه بعد الامتحان ، ولم يسعني وأنا أحاول أن أوقظ نفوسهم وأبث فيهم روح الطلب إلا أن أذكر كيف كنا في صبانا نفرح بما يجتمع في أيدينا من المال القليل ونخف به إلى المكاتب ونروح ندير عيوننا في مئات الكتب المرصوصة على رفوفها ولا نخرج إلا وقد نفد ما معنا أو كاد

وكان الذي أسخطني على هؤلاء الشبان هذا الكسل والاعتماد على الغير ، والرغبة في إفادة المعرفة — كائنة ما كانت قيمتها — بلا عناء أو مشقة . ومن أدراهم أن ما يسمعون مني أو من سواي هو الصواب ؟ وهم يتلقون ماتفضى به إليهم من رأي ناضج أو فطير بالتسليم والتصديق وبلا مناقشة

وأحسست من هيئاتهم ونظراتهم أن الأولى بي أن أدخر جهدي ، فأسلمت أمري لله وقلت لهم : « تفضلوا ... سلوا مابدا لكم »

فأدنوا كراسيهم ، وقد نسوا العلقة التي استقبلتهم بها ، وأقبلوا عليّ يسألونني عن الأدب والغاية منه ، فضحكت وقلت : « والله ما أعرف له غاية ؛ وإني لحي ، ولكني أجهل الغاية من الحياة ، فكيف تريدون مني أن أعرف الغاية من الأدب ؟ وأعترف أني كنت قبل سنوات طويلات المدد ، قد أقنعت نفسي بأن للأدب غاية ، وكان الذي جسم لي الوهم هو ما قرأته في هذا الباب ، فرحت أنسج على منواله وأقول كلاماً شبيهاً به ؛ ويتفق أن يقع في يدي شيء مما كتبته في ذلك الزمان فلا يسعني أن أضحك ساخراً ، لأنه كان من الجهل أو التقليد — كلا . لا أعرف غاية للأدب ... وقولوا ما شئتم ، ولكن الحقيقة هي أني نظرت ونظرت ، وحدقت ، وحملقت ، حتى كادت عيني تخرج ، فلم أر شيئاً ؛ وأني فكرت وفكرت ، فلم يهتد عقلي هذا إلى شيء . وكل ما أعرفه هو أني أزداد حيرة كلما علت بي السن ، وإن كل ما كنت أعده من الحقائق الثابتة يخامرني الآن فيه شك كبير ... والسبب في ذلك ، فيما يبدو لي ، هو أني أتلقى ما أقرأ بالتسليم ، أما الآن فأنا أجادل وأكابر بالخلاف في كل شيء ، وقد ينتهي بي الأمر إلى التسليم والموافقة ، ولكني أجد لذة في هذه المكابرة »

فسألني بعضهم : « لماذا قل الشعر السياسي فى هذا الزمان ؟ »

قلت : « لا أدري ، وعسى أن يكون السبب أن الناس صاروا أصح فهماً للأدب ، وأتم إدراكاً له ، وأكبر عقولاً ، وأوسع نفوساً . نعم أظن هذا هو السبب ، فقد كان الشعر السياسي هو الذى يكثر فيه القول ، وكان شعراء ذلك الزمان إذا قالوا فى غير الحوادث لا يفعلون ذلك إلا على سبيل التسلي ، وليقال عنهم إنهم يجيدون النظم فى كل باب . ولكن الناس يدركون الآن أن شعر الحوادث ليس إلا باباً واحداً صغيراً من مئات وآلاف من أبواب القول ، أو من « بواباته » . ولم يكن شعر الحوادث شيئاً مستحدثاً أو جديداً ، لأنه لم يكن أكثر من ضرب من التقليد للشعر القديم ، فكما كان المتنبي يقول فى حروب سيف الدولة ، كذلك كان شوقى يقول فى الخديو وأعياده ورحلاته وفى السلطان وأعماله ، ثم بعد ذلك فى الحوادث السياسية التى يلح عليه أصدقاؤه أن ينظم فيها كلاماً . وكان حافظ يقول فى العميد البريطاني وفى سياسة الإنجليز ، لأنه لم يتصل بأمير كما اتصل شوقى ، فحل الشعر أو الرأى العام عنده محل الأمراء الذين كان الشعراء السابقون ينظمون الشعر لإرضائهم ، واقتضت المنافسة بين الرجلين أن يكون حافظ شاعر الشعب ، كما كان شوقى شاعر الأمير . وقد تغير كل هذا ، وزهد الأدب الحديث فى التقليد ، ونظر رجاله بعيونهم ، وأحسوا بأعصابهم ، وفكروا بعقولهم ، ففتحت لهم آفاق رحيبة جداً صرفتهم عن القول فى الحوادث العارضة ، وشغلتهم بما هو أعمق وأصدق فى الحياة ؛ فلست تراهم يقولون فى الحوادث إلا إذا استفزت نفوسهم وحركتها تحريكاً قوياً يجرى الشعر على ألسنتهم ، لا تكلفاً ولا تقليداً ، بل لأنهم لا يسعهم فى هذه الحالة إلا أن يقولوا . ولا شك أن ثم أسباباً أخرى ، أسوق منها على سبيل التمثيل ، أن الأدباء يعمل أكثرهم فى الصحف ، وهم يكتبون كل يوم تقريباً فى الحوادث ، فلا معنى لأن يقولوا الشعر فيها أيضاً ، إلا إذا عرضت مناسبة فذة قوية تحرك النفس كما قلت . والكتابة أسهل ، والإقناع بها أقرب ، والشعر لا يصلح للجدل السياسي كما تصلح الكتابة ، ولكنى أعتقد أن صحة الإدراك للأدب هي السبب الأول ، كائنة ما كانت الأسباب الأخرى . ولا مانع من أن يقول الشاعر فى السياسة والحوادث إذا أحس دافعاً إلى ذلك ، كما يقول فى غير ذلك إذا بمثته البواعث »

فنهضوا ، ومدوا أيديهم ليصافحونى ، وتمتم بعضهم بالشكر ، فابتسمت وقلت لهم « والله إنى لتحدثنى نفسى بأن أنقض لكم كل ما سمعتم منى ، وأن أثبت لكم أن كل ما قلت خطأ فى خطأ ، وأن الصحيح والصواب غير ذلك . وإنى لقادر على هذا . والسر فى قدرتى أنى أراكم أهملتم هذه العقول التى ركبها لكم الله ؛ ولا شك أن له سبحانه وتعالى حكمة فى خلق عقول لا يريد أصحابها أن ينتفعوا بها . فليتكم تستطيعون أن تعيرونى بعضها مادمتم لا تنتفعون بها ، فإن رأسى قد كل وتعب ومل »

فضحكوا وانصرفوا ، وقعدت وأنا أهز رأسى وأمط بوزى آسفاً متعجباً ...

ابراهيم عبد القادر المازني

ليلى المريضة بالعراق

للدكتور زكى مبارك

— ٤ —

— ضابط فى الجيش العراق أبوه من مصر وأمه من لبنان؟ كيف اتفق ذلك يا ظمياء ؟

— لذلك يا سيدى تاريخ ...

— انتظرى قليلا ... قبل أن ندخل فى تاريخ ليلى مع الضابط عبد الحسيب ، أحب أن أسأل : هل كان حبها لذلك الضابط أول حب ؟

— نعم يا سيدى أول حب

— منذ كم سنة أحبت ذلك الضابط ؟

— منذ اثنى عشر عاماً

— تذكرى يا ظمياء أنك قلت إن ليلى فى حدود الأربعين فهل يُعقل أن تظل عذراء القلب إلى الثامنة والعشرين ؟

— نعم يا سيدى ، وما أقوله تشهد به الست جميلة ، وتعرفه الخالات والعمات والجارات فى شارع العباس بن الأحنف وشارع صريع الغوانى

— ولكن هذا غير معقول ، فما يمكن أن تظل فتاة عذراء القلب إلى الثامنة والعشرين !

— أنت يا سيدى غريب بهذه المدينة ولا تعرف النساء فى بغداد

— بغداد فى عينك يا ظمياء ! وهل بغداد تحمى المرأة من أن تكون لها عين تنظر وقلب يميل ؟

— أؤكد لك يا سيدي أن ليلى لم تحب أحداً قبل الضابط عبد الحسيب

— ولكن كيف اتفق أن تظل بلا زوج إلى الثامنة والعشرين ؟

— لقد حفيت أقدام الخاطبين وهي ترفض بلا سبب معقول

« فدونت فى مذكرتى أن الفتاة التى ترفض الزواج ، ويطول بها ذلك ، لا بد أن تكون أصيبت بنوبة حب ، ولا بد أن يكون ذلك الحب صور لها فحولة الرجل فى صورة فلسفية أو أدبية ، ولكن هذا الحب سيظل مجهولاً ما دامت ليلى تكتمه ، وما دام النساء اللائى يحطن بها يتمتعن بقسط وافر من الغفلة ، على قلة ما نرى من النساء الغافلات . ويظهر أن موقفى سيكون دقيقاً فى المؤتمر الطبى ، لأن المؤتمرين سيسألون عن الصور الفلسفية والأدبية لفحولة الرجال فى أخيلة النساء ، ولكن لا بأس فهى فرصة طيبة لشرح آراء شيث بن عربانوس فى هذه القضية . على أنى سأجد مفاتيح هذا السر المدفون حين أقف على قصة الضابط عبد الحسيب، وربما كان من الخير أن أرجع إلى البحث الممتع الذى نشره الدكتور عبد الواحد بك الوكيل عن أثر الحب فى الأمراض العصبية »

— دكتور ! ماذا تكتب ؟

— اسمى يا بلهاء

— هذا جزاء من يصنع الجميل !

— أستغفر الله : إنما أردت أن أقول اسمى يا ظمياء . أنا يا بنيتى أقيد ملاحظات تنفعنى في مداواة ليلى ؛ ومرضها كما تعلمين عصيب ، وأحب أن أستعد لمداواتها أتم استعداد ، والله المعين

« ولكن ألا يمكن أن يقال إن ليلى مرضت فى صباها بالغفوة الروحية ، ولم تفق إلا فى الثامنة والعشرين ؟ ومن يصدق حديث الغفوة الروحية ؟ لقد كنت الطبيب الوحيد الذى استكشف هذا المرض الخبيث ، وألقيت عنه محاضرة فى باريس بعد أن أديت الامتحانات النهائية فى الطب ، ثم نشرت خلاصة بحثي في المجلة الطبية المصرية ، ولم أظفر ، وا أسفاه ، بغير السخرية يواجهنى بها زملائى فى مصر ، ويراسلنى بها أساتذتى في باريس »

— دكتور ، ألا ترى كيف أقفقف من البرد ؟

— اسمى يا بلهاء ، فما عندى لك دفء

« وما الذي يمنع من انتهاز هذه الفرصة الثمينة ، فرصة انعقاد المؤتمر الطبي في بغداد ، لاعلان نظرية الغفوة الروحية بطريقة دولية ؟ إن الشواهد تحت يدي ، فأنا أعرف ناساً بأعيانهم انخرطوا فى سلك الكهنوت وهم شبان ، وعاشوا عيش الطهر والعفاف إلى سن الثلاثين . ثم استيقظت أرواحهم فجأة فهربوا من الكنائس والصوامع وأقبلوا على الدنيا إقبال المنهومين ، ومنهم صديق فلان الذى عرفته فى حانات مونمارتر سنة ١٩٢٧ وصديق

فلان الذي عرفته في مرقص الكوبول سنة ١٩٣٣ ، ولكن كيف أقول هذا الكلام فى المؤتمر الذى يعقد فى بغداد وأنا أشتغل بالتعليم فى بغـداد ؟ الخطب سهل : أنا أتكلم فى المؤتمر باسم الدكتور مبارك الطبيب ، والناسُ جميعاً يعرفون أنى أحرزت الدكتوراه فى الطب قبل أن أحرز الدكتوراه فى الآداب ».

— دكتور ، أروح ؟

— وين تروحين ؟ اجلسى يا بلهاء

— أنا اسمى ظمياء

— اجلسى يا ظمياء

«ولماذا أفضح نفسى فى المؤتمر بأحاديث مونمارتر ومونبارناس؟ لماذا لا أكتفى بالشواهد التي أعرفها فى مصر ؟ ألم يكن صديقنا فلان من أعف النـاس فى صباه ؟ ألم يكن يحوقل ويستغفر ويسترجع حين يطرق أذنيه بيت من النسيب ؟ رحمة الله على أيامه الطيبات ، أيام كنا نتقرب إلى الله بتقبيل يمناه ! فمن يصدقنى اليوم إذا قلت إنه كان فى صباه فتى عفيفاً ؟ وكيف يصدقنى الناس إذا ادعيت ذلك وهو اليوم ألطف ما جن وأظرف عربيد ؟ ! »

— دكتور !

— اخرسى يا بنت !

— شنو ؟

— ما أدري شنو ! !

« إن حال ليلى فى جوهره يرجع إلى فرضين : الفرض الأول أن تكون رأت فى مطلع صباها صورة مست شغاف القلب ثم اختفت تلك الصورة ، وظلت المسكينة تترقب ملامحها فى أوجه الخاطبين بدون أن يتحقق لها رجاء ، فلما وقع بصرها على الضابط عبد الحسيب رأت فيـه ملامح الحبيب الضائع فأقبلت عليه وقد استيقظ هواها القديم بيقظة مرعبة ضجت لها بغداد ؟ والفرض الثانى أن تـكون أصيبت بالغفوة الروحية ، ذلك المرض الخطر الذى تفردت باستكشافه والذى سيجعل لى مقام صدق فى عالم الطب ، وقد عاشت المسكينة تحت سيطرة هـذا المرض إلى أن بلغت الثامنة والعشرين ثم عوفيت فجأة ، فكانت عيناها الناعستان وابتسامتها الساحرة من نصيب الضابط عبد الحسيب »

— دكتور ! طال مقامى عندك ، وليلى ستظن الظنون !

— أى ظنون يا ظمياء ؟

— قد تحسبك كالطبيب فلان الذى خُرِّبت عيادته بسبب امرأة ألمانية كانت تزوره فى المشيات

— وأنت تلك الألمانية يا ظمياء ؟ ما هـذا الغرور الفظيع الذي لا تخلو منه امرأة شوهاء !

« وهنا ضحكت المرأة جميلة ضحكةً رجّت أركان البيت ».

— اعقلى يا ظمياء ! أنا رجل غريب ، والغريب يدخل سجن الفضيلة وهو راغم . فأنت فى حماية هذا التخوف ، تخوف الغريب من قالة السوء . وسأعيش فى بلدكم ما أعيش ، ثم أخرج باذن الله وأنا أبيضَ الصحائف وضاح الجبين

— هل معنى ذلك أني فى أمان ؟

— فى أمان يا ظمياء ، سبحان الله !

— أنت تهيننى ! فأنا عندك فتاة شوهاء لا تهيج الغواية في قلوب الرجال !

« وهنا دونت فى مذكرتى أن المرأة لا يسرها أن تكون فى أمان ، لأنها لا تكون فى أمان إلا حين تزهد فيها القلوب . وأشهد أن ظمياء فتاة شريفة ، ولكن تغلب عليها نزعة الجنس ، فهى تحب أن يكون شرفها بفضل التصون ، ويؤذيها أن تصل إلى الشرف عن طريق الزهد ، الزهد فيما تدعيه لنفسها من حسن مرموق »

— دكتور ، أروح ؟

— وين تروحين ؟ حدثينى عن قصة ليلى مع الضابط عبد الحسيب

— كانت بداية القصة فى سنة ١٩٢٦ حين ثار حزب الشعب على المرحوم عبد المحسن السعدون ، وكانت الجرائد العراقية أطنبت فى وصف المعرض الزراعى والصناعى الذى أقيم فى الجزيرة بالقاهرة فى ذلك التاريخ ، وكانت ليلى ضجرت من ضجيج السياسة في بغداد فاستأذنت والديها رحمهما الله لترى ذلك المعرض علها تنسى ضجيج بغداد ، فرفض أبوها ، وشجعتها أمها ، والمرأة تغلب الرجل حين تشاء ، فلم ينتصف شهر آذار ، شهر الأزهار والرياحين ، إلا وليلى تطالع سِفر الحياة على شواطىء النيل وطن مولاى الطبيب

« للحديث بقية » زكى مبارك

سنان شيخ الجبـــل

صفحة من تاريخ الأدب السياسي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

في القرن السادس الهجري (القرن الثاني عشر الميلادي) كانت الأمم الإسلامية تجتاز مرحلة عصيبة من تاريخها، ففي هذه الحقبة استقر الفرنج الصليبيون في فلسطين وثغور الشام، وقامت مملكة نصرانية لاتينية في بيت المقدس في قلب ديار الإسلام، وانقسمت الكتلة الاسلاميـــة في الشرق إلى دويلات صغيرة متنازعة؛ ونشب بين الإسلام والنصرانية في تلك المهاد صراع مستمر طويل الأمد؛ وكانت المعارك سجالاً بين هـــذه القوى الخصيمة المتفرقة؛ ولـكن الفرنج الصليبيين احتفظوا لأنفسهم مدى حين بنوع من التفوق؛ ذلك لأن الخلافة الفاطمية كانت تجتاز مرحـــلة انحلالها، وكانت الإمارات الاسلامية في شمال الشام مشغولة بمعاركها المحلية؛ وكان الفرنج ينتهزون الفرص السانحة فيعملون على إذكاء الخلاف ويظاهرون أميراً على أمير، ويحققون لأنفسهم ما استطاعوا من الأسلاب والمغانم

في تلك الفترة العصيبة المضطربة كانت الشام فوق كونها مسرحاً للحروب الأهلية والمعارك الصليبية المتواصلة مسرحاً لنشاط بعض الجماعات السرية التي الفت فرصتها في تلك الفوضى السياسية والاجتماعية الشاملة، وكانت في مقدمة هـــذه الجماعات طائفة فرسان المعبد أو الدواية، وطائفة الاسبتارية [1] وطائفة الإسماعيلية الباطنية؛ وكانت الأولى والثانية طائفتين نصرانيتين ظهرتا بعد قيـــام المملكة الصليبية، وأنشئتا في البداية لبواعث وظروف دينية، ثم انقلبت كلتاهما بعد ذلك إلى جمعية سرية فدائية وكانت الثالثة تحسب ضمن الطوائف الاسلاميـــة المذهبة، وقد أنشئت في أواخر القرن الخامس على يد داعية اسماعيلي بارع هو الحسن بن الصباح الحميري، ونظمت أولاً في شمال فارس، حيث استحالت غير بعيد إلى عصابة إرهابية قوية تعتصم ببعض القلاع المنيعة، وتعتمد في تنفيذ مآربها على الارهاب السياسي والاغتيال المنظم؛ وفي أوائل القرن السادس لما اشتدت مطاردة الأمراء السلاجقة للاسماعيلية في فارس، فر بعض دعاتهم إلى الشام، ولبثوا حيث يبثون هناك دعوتهم سراً؛ وكان الأمراء المحليون مثل صاحب حلب وصاحب دمشق يلجأون أحياناً إلى هؤلاء الدعاة الخطرين في تنفيذ مشاريعهم واغتيال خصومهم، وبذلك أضحوا قوة سياسية يحسب حسابها، ولما كثر جمعهم وقوى أمرهم طلب زعيمهم بالشأم بهرام الاسترابادي من صاحب دمشق حصناً يأوي إليه مع أنصاره، فأقطعه قلعة بانياس (سنة ٥٢٠ هـ)، فتحصنوا بها، ولم يأت منتصف القرن السادس حتى كانت لهم في الشام سلسلة من القلاع المنيعة بين طرابلس وحماة، يتخذونها قواعد للإغارة والدفاع، وحتى غدوا عاملا قوياً في حوادث هذا العصر وتطوراته

كان الدواية والاسبتارية يعملون في البداية لخدمة القضية الصليبية ونصرة الأمراء الصليبيين، وكانت نظمهم ووسائلهم تشبه من بعض الوجوه نظم الاسماعيليـــة ووسائلهم من حيث اعتمادهم على التآمر والدس والاغتيال المنظم؛ ثم استحالوا غير بعيد إلى جماعات سرية نفعية ترتكب جرائمها، وتبحث عن مغانمها حيثما استطاعت دون النظر إلى اعتبار الدين أو القومية. أما الاسماعيلية فإنهم بالرغم من ثوب الرياء المذهبي الذي أسبغوه على عقائدهم الدينية والسياسية، ظهروا على مسرح الحوادث طائفة مغامرة لا عهد لها ولا ذمام تبحث وراء طالعها في هذا المعسكر أو ذاك، وتتقلب في خدمة المسلمين والفرنج طبقاً للحوادث والظروف، وتدس ما استطاعت بين أمراء الفرنج وأمراء المسلمين لتجني ثمار دسها؛ وكان يحسب حسابها أعظم وأقوى الأمراء من الفريقين؛ وقد ارتكب دعاتها عدة جرائم سياسية رنانة ذهب ضحيتها جماعة من أكابر الأمراء والقادة، وكان لها أثر كبير في تطور الحوادث والمعارك في بسائط الشأم

* * *

كان الإسماعيلية يمثلون في الشأم نفس الدور الذي كان يمثله زملاؤهم في فارس، وكان أولئك الدعاة والمتآمرون الأذكياء

---

[1] الأولى هي بالفرنسية Les Templiers والثانية Les Hospitalies

يبثون أينما حلوا بذور التوجس والروع ، وكانوا يعتنون بقلاعهم الشاهقة يتحينون فرص العمل الخفي النادر ؛ وكان الفدائية منهم — وهم الذين يناط إليهم تنفيذ الجرائم السياسية — رجالاً من أخطر طراز يمتازون بالإقدام المدهش ، لا يتهيبون الموت ، ولا يردهم عن غايتهم شيء ؛ ولم يتخذ زعماء الإسماعيلية قط لقب السلطنة أو الإمارة ، ولكنهم كانوا يقنعون بلقب المقدم أو الشيخ أو شيخ الجبل ؛ وكان هذا اللقب الأخير يطلق بنوع خاص على زعيم الإسماعيلية في الشام ، وإن كان الرحالة مركوبولو الذي عرف الإسماعيلية ودعاتهم في فارس يحدثنا بأن كبيرهم ينعت أيضاً بشيخ الجبل ؛ وعلى أي حال فإن كلمة الشيخ تعني هنا السيد أو الرئيس خلافاً لما ذهب إليه الرواة الفرنج المعاصرون من اعتبارهم الشيخ هنا بمعنى « الرجل العجوز » . وهو خطأ شائع في معظم التواريخ الفرنجية

وكان مقدم الاسماعيلية أو شيخ الجبل في الشام في أواسط القرن السادس زعيماً وافر الجرأة والذكاء هو راشد الدين سنان ابن سلمان ؛ ولا تعرف الرواية سناناً إلا بأنه مقدم الاسماعيلية ، ولا تحدثنا عن أصله ونشأته ، ولكن لا ريب في أنه أحد أولئك الدعاة المغامرين الذين يكتنف الغموض حياتهم الأولى ، ثم يظهرون فجأة على مسرح الحوادث . وكان مقره في حصن مصياب (أو مصياف) على مقربة من طرابلس وهو يومئذ أمنع حصون الاسماعيلية بالشام ؛ وكان هذا الداعية الاسماعيلي يخفي مشاريعه ومطامعه الدنيوية تحت ستار من الورع المؤثر ، ويبدو دائماً في صفة الإمام الديني ، ويرتدي الثياب الخشنة ، ويعظ أنصاره طول اليوم من فوق رابية ، ويحيط كل حياته بحجاب من الغموض حتى قيل إنه لم يوقظ نائماً أو آكلاً أو شارباً ؛ على أنه كان بالرغم من هذه المظاهر الورعة الخلابة مغامراً لا ذمام له ، يتربص فرص الوثوب والفتنة ، ويتقلب في خدمة الصديق والعدو معاً ؛ ولم ير سنان بأساً من محالفة الفرنج الصليبيين ، فنراه يتصل بأموري ملك بيت المقدس ، ويرسل إليه الداعي بهاء الدولة سفيراً ليسعى لديه إلى إعفاء الاسماعيلية من الجزية التي تعهدوا بدفعها ؛ وينجح السفير في مهمته ، ولكن قتله الدوايه (فرسان المعبد) حين عودته ؛ وخشي ملك الفرنج عواقب هذه الجريمة ، فاعتقل القتلة وقضى عليهم بالسجن ، وذلك استبقاء لمودة الاسماعيلية واتقاء بطشهم

ولعب سنان في حوادث هذه الفترة دوراً عظيماً ؛ ومع أنه لم يكن قوياً بجسمه وقواه المادية ، فقد كان قوياً بدسائسه ووسائله الإرهابية الخطرة ؛ وكان أمراء الشام المسلمون يرهبون جانبه ويلتمسون محالفته ؛ ولما تألق نجم صلاح الدين وقبض على زمام الأمور في مصر اتجهت أبصار خصومه إلى الاسماعيلية أو الحشيشية كما تسميهم الروايات المعاصرة ، لما عرف من أنهم كانوا يأكلون أوراق الحشيش ؛ ففي سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) دبر أنصار الدولة الفاطمية الذاهبة مؤامرة لقلب حكومة القاهرة ، واغتيال صلاح الدين ، وفكروا في الاستعانة بالفرنج كما فكروا في الاستعانة بسنان شيخ الجبل ، فبعثوا إليه ليدبر كميناً لاغتيال السلطان (صلاح الدين) على يد بعض الفدائية سواء في الشام أو في مصر ووعدوه بالمنح والعطايا الجزيلة ؛ ولكن سرعان ما افتضحت المؤامرة وقبض على مدبريها وأعدموا ، ولم تسنح الفرصة في هذه المرة ليعمل شيخ الجبل ؛ ولكن الفرصة سنحت غير بعيد ؛ ففي أوائل سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ م) كان صلاح الدين على رأس جيشه في شمال الشام على مقربة من حلب ، وكان من برنامجه سحق الإمارات المستقلة التي تمزق الشام وتجعل منه فريسة هينة للفرنج الصليبيين ؛ وكان أتابك الموصل عز الدين مسعود يخشى على ملكه إذا استولى صلاح الدين على الشام ، فاتفق مع سنان شيخ الجبل على اغتيال صلاح الدين أثناء وجوده بالشأم ؛ وكان الاسماعيلية أو الحشيشية يرون في تقدم صلاح الدين خطراً داهماً على سلطانهم فكانوا يرحبون بكل مؤامرة أو مشروع لسحقه ؛ وفي الحال بعث سنان بعض الدعاة الفدائية إلى معسكر السلطان (صلاح الدين) فاندسوا إليه متنكرين . وفي ذات مساء استطاع أحدهم أن يصل إليه وهو في خيمة بعض الأمراء يفحص خطط الدفاع ، ثم انقض عليه وطعنه في رأسه بخنجره ، وكان صلاح الدين يعرف غدر الباطنية ويحترز منهم بارتداء الدروع المصفحة ، فحالت قلنسوته الصلبية دون إصابته ؛ فحول القاتل عندئذ خنجره إلى خده فجرحه جرحاً شديداً ، ثم دفعه إلى الأرض وحاول أن يجهز عليه ؛ وذهلت بطانة السلطان لهذه المفاجأة الغادرة مدى لحظة ، ولكنهم بادروا إلى القاتل ، وطعنه

أحد الأمراء بسيفه فأرداه؛ فبرز من جوانب الخيمة آخرون من الباطنية الفدائية متنكرين فى زي الجند، وحاول أحدهم أن ينقض على السلطان، فتلقاه بعض البطانة وقتلوه، واشتد الاضطراب والهرج، وقتل فى هذه الواقعة عدة من الدعاة الاسماعيلية؛ ونجا صلاح الدين من خناجرهم بأعجوبة، وانهار مشروع شيخ الجبل وحلفائه مرة أخرى

وأدرك صلاح الدين ما يحيق به وبسلطانه من الخطر من غدر الاسماعيلية ومؤامراتهم، فعول على مهاجمة قلاعهم وسحق نفوذهم، فسار إليهم فى العام التالى (سنة ٥٧٢ هـ)، وحاصر مصياب أمنع قلاعهم، وفيها مركز زعامتهم؛ فاستغاث سنان شيخ الجبل بصاحب حماة وهو خال السلطان، ورجاه أن يشفع لديه فيهم، وتعهد له بالتزام الحيدة والولاء نحو السلطان، وهدده فى نفس الوقت إذا أبى هذه الشفاعة، فخشى الأمير من وعيدهم، وبذل وساطته لدى السلطان حتى أقنعه بالعفو عنهم، فغادر قلاعهم بعد أن أخذ عليهم المواثيق والعهود؛ ولزم الاسماعيلية وزعيمهم بعد ذلك خطة الولاء نحو السلطان إما خشية سطوته، وإما لأنهم خشوا رجحان كفة الصليبيين إذا اختفى صلاح الدين من الميدان

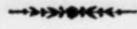
ولبث الاسماعيلية من بعد شيخهم سنان زهاء قرن آخر، يتمنعون بقلاعهم فى الشام، وينتهزون فرص المعارك والأحداث المختلفة ليظهروا على مسرح الحوادث حينما آنسوا الغنم، وشغل بلاط القاهرة عنهم طوال هذه الحقبة بمكافحة الفرنج ورد الخطر الصليبي؛ فلما كان عهد الظاهر بيبرس، سارت حملة مصرية إلى الساحل فى سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م)، وحاصرت قلاع الاسماعيلية، واقتحمت مصياب أمنع حصونهم ومقر زعامتهم وخربت قلاعهم ومزقت قواهم كل ممزق؛ وبذلك انهار نفوذهم في الشام كما انهار فى فارس قبل ذلك بقليل واستحالت هذه الطائفة الإرهابية الخطرة بعد ذلك إلى شراذم لا أهمية لها سواء من الوجهة السياسية أو المذهبية، وانتهى بذلك تاريخها الحافل بالجرائم والمؤامرات المدهشة

محمد عبد الله عنان

فى ليلة رأس العام

أنا ... بين الطبيعة والله!

للأستاذ على الطنطاوى



انصرف الطلاب إلى بنية النوم حين سمعوا الساعة الكبيرة تطنّ عشر طنات، وخلت ردهة المكتبة ونشر عليها الصمت أجنحته السود، فلم أكن ألمح فى خلاله إلا رنين طنّات الساعة وأصداء أصوات الطلاب الذين كانوا هنا منذ لحظة واحدة يتسامرون ويتحدثون ... ترنّ هذه الأصداء فى أذنى، فإذا أنا أراها بعينى تتراقص بين طيات الصمت الأسود حتى تنحدر إلى أغواره العميقة، ويشمل السكوت الرهيب بنية التدريس (فى كلية بيروت الشرعية) ويتمدّد فى أبهائها وغرفها وممرّاتها ...

فجلست أصغى إلى أناشيد الصمت التى كانت تسمع من حولى باستمرار فأجدها تملأ قلبى مرارة وأسى ...

ثم رفعت رأسى فجاءةً إلى التقويم فنظرت فيه وجد بصرى عليه ... أمن الممكن هذا؟ أيحدث هذا كله فى هدوء ... يموت فى هذه الليلة عام ويولد عام، يمضى الراحل بذكرياتنا وآلامنا وآمالنا إلى حيث لا يعود أبداً، ويقبل القادم فاتحاً ذراعيه ليأخذ قطعة من نفوسنا، وقسما من حياتنا، ولا يعطينا بدلاً منها شيئاً ... وهل الحياة إلا أعوام فوق أعوام؟ وهل النفوس إلا الذكريات واللذائذ والآلام؟

وجلست بين المأتم والمولد أفكر وأتذكر وأحلم ... ولقد تعوّدت أن أجلس هذه الجلسة كلما تصرّم عام، أصفّى حالى مع الحياة، أنظر ماذا أخذت، وماذا أعطيت، وأراقب هذه القافلة من السنين التى بدأت مسيرها منذ ... منذ بدأ الزمان، لست أدرى متى بدأ الزمان، والتى تنتهى حيث لايدرى أحد

تعوّدت أن أعطى نفسى من فكري ساعة فى العام، أفكر فيها فى نفسى وفى الوجود ...

***

نظرت فلم أجد حولى إلا كتاب التفسير أحضر منه درسى

الذى سألقيه غداً ، وكتب البلاغة التى أكسر بها دماغي وأدمغة الطلاب فى غير طائل ... فنحيتها كلها ووجدت ركام (الوظائف) التى يجب علىّ أن أنظر فيها وأصححها ، وأقرأ كل ماتفيض به هذه القرائح الفتية من سخف وهراء ، يدعوه أصحابه (إنشاء) ... فبعثرتها فى غيظ وحنق ...

أنا فى هذا البلاء منذ عشر سنين ، عشر سنين يالها من دهر طويل ! كان ربيع حياتى ، وزهرة شبابى ، أضعته كله فى هذا العناء ، فماذا استفدت ؟ لا شئ إلا أن أحرقت نفسى كالشمعة لأضيء لهؤلاء الفتية طريقهم إلى المجد ، هؤلاء الذين أحببتهم وأخلصت لهم الحب ، وعشت بهم دهراً ولهم ، واعتصرت ماء شبابى لأنضر شبابهم ، ثم فرّق الزمان بينى وبينهم ، فلم أعرف مكانهم من الشام أو العراق ، ولم يعرفوا مكانى لأنهم لم يفكروا فى أن يعرفوه ...

إذن فأنا أحترق كالشمعة : بالحقيقة المرّة المروّعة : بالشمعة شبابى التى ذوت وخبت وأوشكت أن تنطفئ :

إنى أعيش فى العدم ، أعيش فى الماضى بالذكرى ، وفى المستقبل بالأمل ، مع أن الحاضر وحده هو الموجود ، لقد مضى الغد إلى حيث لا رجعة ولن يأتى المستقبل أبداً ...

أين هو هذا المستقبل ؟ ومنذا الذى يستطيع أن يصل إليه ؟ لقد جلست فى مثل هذه الليلة من العام الذى يموت الآن ، فى شرفة منزلى بالأعظمية (بغداد) أحلم بالمستقبل بهذه الليلة التى كانت هي مستقبلى ، أسعى إليها ، وأؤمل أن أدركها ، فلما أدركتها صارت (حاضراً) ، وطفقت أسعى إلى مستقبل آخر . إننى كالثور يسعى ليدرك حزمة الحشيش التى يراها على شبر واحد منه فيهلكه السعى ، ولا ينالها أبداً ، لأنها معلقة بقرنيه تسعى أمامه !

يومض شعاع الأمل من بين فرج الغد ، فنسعى لندركه فلا نجده إلا سرابا . إن الأمل مصباح لا يضيء إلا من بعيد . أفليس من سخافات الفكر الانسانى أن يضع في اللغة كلمة الأمل ولفظة المستقبل ؟ أليس وجودهما في المعاجم دليلاً على تأخر البشرية وانحطاطها ، وأنها لم تدرك بعد حقائق الحياة ؟

لقد كنت فى (الأعظمية) غبياً جاهلاً ، لأنى كنت مطمئناً متفائلاً . كنت كلما ودعت بالخيبة عاما ، انتظرت آمالى عند آخر ، ولكنى صحوت الآن فلا آسف على ماض ، ولا أؤمل في مستقبل

لقدْ قدر علىّ ألا أشهد ولادة العام إلا غريباً عن موطنى بعيداً عن أهلى تارة في مصر ، ومرة بالحجاز ، وحيناً في العراق . وهأنذا الآن غريب من جهتين : هذا السد الهائل من الجبال : جبال لبنان بينى وبين إخوتى في دمشق ؛ وهـذا البحر الواسع بيني وبين أخى في باريز ؛ والدهر والأبدية بينى وبين آمالى ؛ والقبر بيني وبين والديّ ؛ وأنا بعد هذا كله غارق في كتب البلاغـة ، (ووظائف) الانشاء ، نسيت مشروعاتى الأدبيـة التي رسمت خططها ، وأقمت أسسها ، وأهملت بحوثى ومطالعاتي ، وبعت ذكائي ومواهبي وشبابي برغيف من الخبز ...

هذا ما قدر علىّ ، وإني راض بما قدر :

***

انى أعيش الآن بلا غاية ، ولـكنّ غايتى أن أعيش ، أن أثبت وجودى في هذه الدنيا ، كتلميذ كسلان ما جاء ليتعلم ، ولـكن ليعدّ فى التفقد موجوداً ، أو موظف خامل مقصر ...

فلماذا إذن أعيش ؟

ألأن لى حق الحياة ؟ فلماذا لا يكون لى إذن حق الموت ؟ ألا أملك أنا أمر نفسى ، ولـكن من أنا ؟ ومن نفسى ؟ أأنا اثنان فى واحد ؟ ...

إننى لا أستطيع التفكير في هذا ...

***

وملأ نفسى الشعور بالوحشة ، وأحسست فى نفسى وفيما حولى فراغاً مخيفاً ، وشعرت كأن هذه الغرفة تتسع ثم تتسع ، حتى صار بين الجدران فضاء لا يدركه البصر !

ثم ضاق بى الفضاء — حتى كدت اختنق فيه ، فخرجت إلى الشارع ... وكان موهن من الليل ...

***

تركت ميدان البرج يضحك بالـكهرباء ، ويرقص على ألحان الأشعة ، التى تنسكب على الميدان من ذرى البنى الرفيعة فتغمره بجو فاتن وتسيل على جوانبه ، وتنسج فوقه شبكة من الأشعة منسوجة من ملايين الخيوط الملونة بمئات الألوان ، وتركت الناس يحتفلون بعيـد رأس السنة ، يتأملون معانى الوجود ، وفلسفة الخلود ،

وحقيقة الزمان فى هـذه المراقص الصاخبة ، الغارقة فى الخمر والعهر ...

ويممت شطر البحر أمشى فى الطرق المظلمة المنعزلة الخالية إلا من أعقاب السابلة ممن هو حليف البؤس أو الرذيلة نخلا الجو لفكرى فانطلق ...

قالت النفس : إن العالم يموت ، أفلا نودّعه بحسرة ... أو نسكب على جدثه عبرة ؟

فلم يعرف العقل ما هو الموت ولم يصدق بوجوده ...

قال العقل : ما هو الموت ؟ إن كان انتقالاً من حال إلى حال فليس موتاً ؛ وإن كان الموت عدماً فإن العدم ليس له وجود أبداً

قلت : ولكن أبى قد مات ؟

قال : لا ، إنه لم يمت ، إنك تذكره ويعيش حيًّا فى ذاكرتك ، وليس فى الذاكرة شىء ليس له وجود فى الواقع

قلت : وأين يوجد ؟

قال : لست أدرى ، هو فى ذاكرة الكون

قلت : إن العام يموت الآن !

قال العقل : إن العام (٣٦٥) يوماً وبعض من اليوم هو ست ساعات و(٤٧) دقيقة ، وبعض منها هو (٣٣) ثانية ، وبعض الثانية فلنفرض هذا البعض (٢٠) ثالثة ، وبعض الرابعة فلنفرض هذا البعض (٢٥) خامسة وبعضاً ... وهكذا يمشى العقل حتى يصل إلى أصغر الأجزاء الزمنية ، ولكنه لا يزال يمشى لا ينتهى أبداً ... إن عام الهجرة مثلاً لا تزال له بقية فى الوجود ، أجزاء من الزمن بالغة فى الصغر حداً لا يدركه العقل ، ولكن تدركه الذاكرة ... إن هذه البقايا هى ذكريات الأعوام الماضية فى نفس العام الجديد !

قلت : إنى لم أفهم شيئاً !

وقفز عقلى فجأة من أجزاء الزمن الصغيرة إلى الزمان المطلق ، وراح يمشى على هـذا الخط الطويل يقطعه فى لحظة ، ولكنه لا يستطيع أن يبلغ طرفيه ، فلا ينى يحاول بلوغهما ولا ينقطع عن السؤال ... إلى أين ينتهى هذا الخط ؟ من أين يبدأ ؟ أليس له نهاية ؟ ما هى اللانهاية ؟

وذهب العقل يفكر : إن عمر عشر حشرات ساعة من عمرى ، وعمر عشرة رجال ساعة من عمر الصحراء ، وعمر الصحارى كلها ساعة من عمر الشمس ، فما هى الساعة إذن ؟ ما هو العام ؟ ما هى حقيقة الزمان ؟

وما هو المكان ؟ إنى لم أر مكاناً قط ، ولم أر إلا موجودات لا أعرف نهايتها ، ولا أدرك آخرها ، فكيف لى أن أرى مكاناً ليس فيه شى ؟ ماحقيقة المكان والزمان ؟ ما عمرها ؟ ماذا وراءهما ؟

ألا أستطيع أن أعرف هذا العالم الهائل الذى تحجبه عن عينى هذه الطبيعة كما تحجب الكف الدنيا الواسعة وهى كف واحدة ...

وضجرت من هذه الفلسفة ، فانصرفت عن العقل وتركته يهذى وحده

وكنت قد بلغت البحر ، فوقفت فى حجر الطبيعة أتأمل وأناجى وأحلم ...

لقد نفضت يدى من الناس ولجأت إلى هذه الطبيعة السخية الوفيّة الوادعة الجميلة أجد عندها أنس نفسى وراحة قلبى ، أنظر إليها فتمحى هذه الابعاد والمسافات ، وتبدو لعينى لوحة فنية حافلة بالألوان التى لا يستطيع أبرع مصوّر أن يجمعها فى لوحة . ومن لعمرى يصوّر ألوان الغروب ، أو ألوان الزهر فى الروض أو يثبتها على لوحة بالألفاظ والأوزان أو بالأصبغة والألوان ؟ إن الطبيعة أبرع فى الألوان ، ولكن الفن البشرى أبرع فى الأصوات. إن الطبيعة ليست موسيقية فنانة ... عندها من الألوان مالا نهاية له ولكن ليس عندها إلا هدير الموج ، وخرير النهر ، وحفيف الأشجار ، وتغريد البلابل ، وسجع الحمام ، وقصف الرعد ... هذه موسيقاها ، ومن هنا كانت الموسيقى أسمى الفنون لأنها ابتكار وتجديد ، على حين أن الأدب والتصوير تقليد ...

هذه الطبيعة التى أجد فى حماها الحب والعاطفة والجمال ، كلما لجأت إليها فراراً من الناس ، وضيقاً بالحياة ، وما ذهبت مرة إلى بسّيمة[1] وأطللت من (بيت طه) على هذا الوادى الصغير الذى يشبه همسة حلوة من همسات الحب ، أو بيتاً بارعاً من قصيدة الجمال ، إلا نسيت الدنيا كلها وأحسست أنى مع حبيب قد وضع رأسه على فخذى ، ونام ... هـذا الوادى الذى تجرى فيه العين

(١) قرية حلوة صغيرة تختبئه بين الجبال على القرب من العين الخضراء ، وهى اليوم مصطاف الشاميين القريب ، ومتنزهم الفاتن الحبيب

الخضراء لينة الأعطاف ، فاتنة المحاسن ، كأنها فتاة مدللة تخطر بحسنها وفتنتها على سفح الجبل ، تغمز بردى بعينها وتغريه بجمالها وهو يلحقها جرياً فى بطن الوادى ، متحدراً متكسراً كشاب قوى متين العود ، جهير الصوت ، قد اكتملت رجولته كما اكتملت أنوثتها ، وأشجار الحَوْر (حُور كواشف عن ساق) يرقصن فى عرس الفتاة المدللة والفتى القوى ، رقصة الحب ، يتمايلين على العروسين وقد تعانقا بعد قليل ، وضم الفتى عروسه حتى اختفت بين ذراعيه ، وطار بها إلى دمشق ، لتكون جلوتها فى الغوطة جنة الأرض ...

وهذه الجبال الحمراء ، تقوم على الباب ، تحرس الوادى أن يدخله واش أو عذول يفجأ العروسين العاشقين ، وتمنع الشمس الملتهبة أن تدنو منهما أو تعكر عليهما خلوتهما ، فيبقى الوادى جنة تجرى من تحتها الأنهار ، والدنيا من حوله فى جحيم الصيف ...

***

غبت فى تأملي وأنا على شاطئ البحر فلم ينبهنى إلا المطر يساقط على وجهى ويدىّ ، فنظرت فإذا السحب قد نسجت فى السماء ليلاً آخر ، وإذا المطر يهبط بشدة ، ثم يستحيل برداً طياشا؛ ثم تهب الريح وتجن الطبيعة جنونها ، فتنطلق تعول وتولول ، وتنتف شعرها ، وتحطم كل مابلغته يدها ، فاجت نفسى واضطربت كهذا البحر الذى يزمجر ويلكم صخور الشاطئ حتى تكل سواعده ، فيستلقى على الرمال فلا تكون إلا لحظة حتى ينزل سوط الرياح على ظهره دراكا ، فيهب فزعاً مرتاعاً ، ويعود إلى ضرب الصخر فى غير ما طائل ، والريح تدير هذه المعركة كلها ، تقفز على رؤوس الجبال ، وتبعثر البرَد يميناً وشمالاً ، وتنثر الرياح ثم تجمعها ثم تعبث بها ...

جنت الطبيعة جنونها ، ولكنني لم أخفها ولم تكبر فى عينى ، وإنما ازدريتها وأبغضتها ، ما هذه المخلوقة الضعيفة العاجزة التى لا يدرى بها أحد من سكان هذا الكون الواسع ؟ لقد رأيتها من قمة لبنان نقطة ، فكيف يراها المشترى ؟ وهل يعبأ نجم القطب بثورتها وجنونها ..؟

وانصرفت إلى نفسى أفكر آسفاً ...

إن العام يتصرم وليس حولى صديق أطمئن إليه ، وأحمل معه أعباء الوداع ، وأشاركه دمعة يذرفها معى على الفقيد الراحل ، وبسمة يمنحها هذا المولود الجديد ...

عرفت أن الصداقة ليس لها وجود ، فنفضت يدى منهم ولجأت إلى الطبيعة أتخذها صديقى المخلص وأوليها حبى وقلبى فكانت هذه هى النتيجة . صادقت مجنونة طياشة بكاشة لا تعرف إلا التخريب والتدمير وتجهل ما هو الحق ، وما هو الشعور ؟

أهذا كل ما لى عندك يا صديقتى ؟ ألجأ إليك فى ساعة من أحرج ساعات حياتى قد تركت فيها أهلى وعفت صحبى لألقى بنفسى فى أحضانك ، وأخفى وجهى بين ثدييك ، وأنشق عبيرك الطاهر ، وأغتسل بدموع محبتك وعطفك ، وأدفن آلامي فى صدرك ، فلا تلقينني إلا بهذا الجنون وهذا العويل ؟

كلا ، إنك لا تعرفين الحق ولا الشعور !

***

وأين لعمرى مكان الشعور من الطبيعة ؟

أنا أشعر بجمال الربيع ، ولكن هل يشعر الربيع بجمال نفسه ؟ لقد رأت الكونتس دى نواى فى الطبيعة مخلوقاً حياً ذا شعور وعانقت الربيع ، وجالست السماء ، ولكن ما ذا رأى الربيع فى الكونتس دى نواى ؟ هل يفرق الربيع بين الفتاة تقطف الزهرة لتقدمها بفمها إلى حبيبها ، والبقرة تقطف الورقة لتملأ بها معدتها

وأنت أيها الجبل ؟ كم رأيت من الفواجع التى تفتت الأكباد وتذيب القلوب ، فهل شعرت بشىء منها ؟ هل حزنت هل تألمت ؟

أشعرت بالأمس القريب يوم عصفت الأثرة برؤوس نفر من القواد ، فأطاموا بأفواههم شعلة السلام ، وملأوا العالم ظلاماً ثم نهضوا يبنون من الجماجم مجدهم فى التاريخ ، فلما امتلأت الأرض بالدم وتغطت بالجثث ، وغسلت بالدموع ، وتجلببت بالآلام والأوجاع والثكل واليتم ، ولما كان الأمهات يبكين أبناءهن الذين ضاعت قبورهم كما ضاعت أسماؤهم ، والأطفال يهتفون : بابا . ينادون من ليس يجيب ... كان القواد العظماء يحتفلون بالظفر ... أشعرت بشىء من ذلك يا لبنان ؟ أشعرت بالأرامل والصبايا والأطفال يفتشون عن الخبز .. الخبز الأسود ، فلما لم يجدوه توسدوا رجلك ونظروا إليك صامتين . ثم ماتوا جائعين .. كما مات ألوف وألوف فى سبيل مجد القواد الظافرين !

ألان قلبك الذى قدّ من جلمد الصخر ؟ أذرفت يا لبنان من عيونك الصافية دمعة حنان ؟

وكم رأيت يا لبنان من متع الحب ! وكم أوى إليك العاشقون فاستظلوا بظلك ، وتعانقوا فى حجرك ، وشربوا خمر العيون ، وسكروا بنجوى الحب ، وتحدثوا بوسوسة القُبَل ، ونسوا الدنيا كلها والزمان والطبيعة ، ونسوا أنفسهم حين التقت الشفاه بالشفاه ، وأغمضت العيون لترى القلوب مفاتن هذا العالم المسحور وتستمتع بهذه الدنيا المعطرة الحلوة الغنية دنيا القبلة الكاملة

أهاج ذلك عاطفتك يا لبنان ؟ أحرك قلبك كل ذلك أيها الشاب التياه الذى يخطر بحلله الخضراء الزاهية ويتيه بعطره الخالد ؟

فأين هو مكان الشعور من الطبيعة ؟

أأنت أيها البحر الرقيق السيال أرهف شعوراً وأرق عاطفة ؟ أيحزنك منظر البؤس والشقاء ، وأنت تلتهم الأحياء ، وتخنق البشر ، وتفتح فاك لابتلاعهم ، أأنت ذو الشعور ؟ ...

أين هو الشعور ؟ وأين أجد العاطفة فى الطبيعة ؟ أأبتغيها فى البركان الهائل المحرق ، أم فى العاصفة العاتية المدمِّرة ؟

* * *

وأين هو الحق فى الطبيعة ؟

أنا أرى فى الطبيعة عاصفة تكسر الأغصان ، وتقلع الأشجار ؛ وأرى صاعقة تهدم الدور ؛ وأرى سيلاً يجرف المدن ، ويكتسح فى طريقه كل شىء ؛ وأرى البركان الثائر ؛ وأرى الرياح العاتية . كل هذا وجود مادّى للقوة ، فأين هو الوجود المادى للحق ؟

لقد انتضح الأمر ، وخسرت صديقتى الطبيعة الجامدة الظالمة الميّتة ...

فلمن ألجأ ؟

* * *

لمن ألجأ ويحك يا نفس ؟ هذا العام يوشك أن يموت !

فعجزت النفس ولم تجب ، وانطلق العقل يتفلسف ، قال : إن فى الطبيعة لحسًّا وتمييزاً ، ضع ذرة واحدة من الفحم ، وخمساً من الايدروجين يأخذ الفحم أربعاً ويدع الواحدة ، ومهما ضاعفت العدد تبقى النسبة ثابتة ، أفليس هذا دليلا على أن الجماد يميز ؟

وضع الذهب بين عشرة معادن وألق عليه الزئبق فانه يعانق الذهب ويدع كل ما عداه ، أفليس فى هذا دليل على أن فى الجماد شعوراً وعاطفة ؟

ولكنى لم أنتبه لما قال العقل ؟

* * *

ونظرت إلى البحر فقلت : ما البحر ؟ ما الطبيعة ؟ أنا لا أرى إلا هذا العالم المادى ؛ ولكن ماذا وراء المادة من عوالم ؟ إن الروح أول محطة فى طريق هذه العوالم ، فهل استطعنا أن نبلغها ؟ إن العقل البشرى يمشى إليها منذ بدأ صناعة التفكير ، ولا يزال فى الطريق لم تبن له معالمها ... إنه تعب وملّ ويئس ... افتح الآن أى كتاب من كتب (علم النفس) إنك لا ترى فى فهرسه اسم الروح ولا النفس ...

وفكرت فى العام الراحل فقلت : ما هو العام ؟ ما وجوده ؟ ما حقيقته ؟ ولم أسمع جواباً فأغمضت عينىّ كما أغمضت قبة الأعظمية عينيها منذ عام ، ولكنى لم أحلم ولم أتذكر ، وإنما لبثت صامتاً محدقاً فى غير شىء كالأبله أو المشدوه ، وتركت عقلى المغرور يتيه وحده فى قضاء اللانهاية ... إنه لا يستطيع أن يعرف شيئاً مما وراء المادة ... كما أن عقل الجنين لا يقدر أن يعلم شيئاً عن هذا العالم ولا يؤمن بوجوده ...

وكنت قد نسيت الطبيعة الجامدة الميتة التى لاشعور فيها ولا عاطفة ، ونسيت هذه المخلوقات التافهة الحقيرة التى يدعونها (الناس) ، ونسيت هذه الذرة التائهة فى رياح الوجود التى اسمها (أنا) ، وتوجهت إلى العظيم الباقى الذى هو وحده الخير المطلق والحق والجمال .. توجهت إلى الله أسأله أن يلبس هذا العام القادم ثوب السعادة ، ويضفى على العام الراحل حلة الغفران . اللهم آمين

« بيروت » علي الطنطاوي



بين القاهرة واستنبول

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ٤ —

متاحف طوب قبوسراى

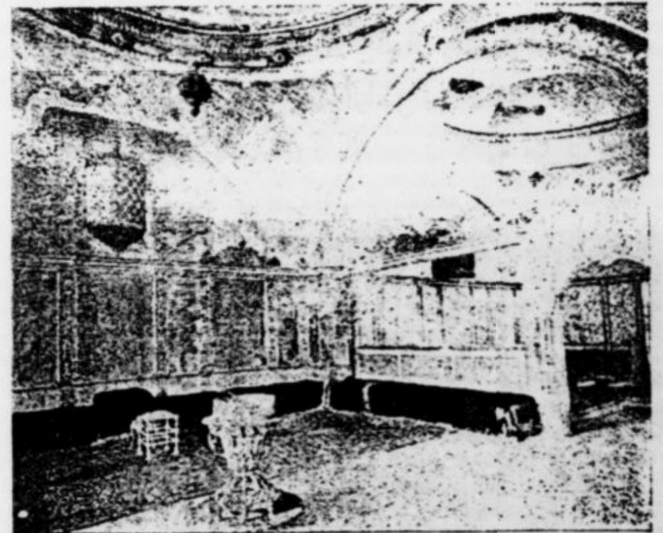
يا أخى صاحب الرسالة :

سلام عليك والله يرعاك

أكتب إليك اليوم بعض ما شهدته أمس فى متاحف قصر طوب قبو الذى كان مباءة السلاطين عصوراً متطاولة . وعسى أن أكتب إليك من بعد طرفاً من تاريخ هذا القصر الأفيح الذى يمتد على إحدى هضاب المدينة من جامع أيا صوفيا إلى رأس السراى (سراى بورنو) على بحر مرمرة :

للقصر أسوار بعد أسوار . الأبواب الخارجة تؤدى إلى حدائق واسعة . وقد ذكرت فى رسالتى السابقة أحد هذه الأبواب حين ألجأني المطر إليه

سرنا فى الحديقة حتى انتهينا إلى باب آخر اسمه باب السلام فولجناه إلى حديقة أخرى واسعة تحيط بها أروقة ، ويبدو فيها إلى اليسار بناء ذو قباب ، أمامه رواق جميل . دخلنا فإذا حجرتان تتصل بهما حجرة مغلقة . اسم هذا البناء « قبة آلتى » أى تحت القبة . وكان فى العصور الغابرة مجلس الوزراء . وكان الوزراء من أجل



قبة آلتى (تحت القبة)

هذا يسمون وزراء القبة أو جلاّس القبة (قبة نشين) . فالحجرة التى إلى اليسار فيها أرائك للوزراء تتوسطها أريكة الصدر الأعظم



خزانة السلاح

ويرى فوق مجلس الصدر نافذة عليها شباك من الحديد ناتئ كان السلاطين يشرفون من هذه النافذة ليسمعوا مفاوضة الوزراء أو يروا استقبال الصدور السفراء . وكتبت إلى جانب النافذة كلمة الشهادة وطرتان ، بخط السلطان أحمد الثالث ، والحجرة التى إلى اليمين كانت للكتّاب وفيها طرة للسلطان مصطفى الرابع ، وسجادة يقال إنها نسجت قبل خمسة قرون . وكانت الحجرة المغلقة لاستراحة الكتاب

وبنى هذا البناء فى عهد سليمان القانونى سنة ٩٣٣

ووراء هذه البَنيّة برج يعلو فى الهواء ٤٢ متراً عليه منظرة تطّلع على المدينة كلها وكان حوله بناء

وعلى مقربة من « قبة آلتى » حجرة كبيرة هى اليوم خزانة الأسلحة القديمة أسلحة الملوك والأمراء . يرى الداخل أمامه بلطات كثيرة من سلاح مماليك مصر ، وإلى يمينه خزائن زجاجية يطّلع فيها على سيوف لبايزيد وسليمان . وهذا سيف السلطان الغورى وهذا سيف طومان باى . وأما سيف قايتباى هذا فقد طبعه من حديد وجده عند الحجرة النبوية سنة ٨٨١ . وهذان سيفان لمحمد الفاتح ؛ هذا الطويل المحلّى للمحافل ، وهذا القصير العاطل للمعارك

وبينا نتأمل هذه السيوف ونعجب من قدمها ، أرانا المعرض ما هو أبعد فى التاريخ وأجل شأناً ؛ هذا سيف عليه اسم معاوية

وهذه سيوف أموية طويلة مستقيمة، وهذا سيف لعبد الله بن عمر، وآخر لكعب الأحبار. وهذا السيف الطويل العريض المذهّب قائمه قد كتب عليه: « معاذ بن جبل كاتب رسول الله » بل هذا سيف عثمان بن عفان. سمعت حبنا بالذِكر ولم أكدرها بتحقيق الأسانيد

وتقدمت قليلا لأرى دروعاً لمماليك مصر: فهذه درع كاملة: قميص وسراويل وعلى الصدر أضلاع من الحديد

ومشيت إلى جانب آخر من الحجرة فرأيت الأقواس والسهام ريشها ونصالها، والجُعَب، وهي قِسيّ تركية من نبات القرنين العاشر والثالث عشر هـ. وهذه جعاب (تراكش) محلاة مزركشة، وهذه درع هنجارية محلاة الصدر بالذهب والفصوص الكريمة، وهذه درع كتب عليها اسم الشاه عباس الصفوى، ولا أدرى أي العباسين الأول أم الثانى؟

وليت شعرى لمن هذه الدرع التى اتخذت جُنة من الآيات والدعوات تقرأ عليها: يا خفيّ الألطاف نجنا مما نخاف. فالله خير حافظاً، يا مالك الملك، يا منجى من المهالك، أنت الباقى وكل شيء هالك. وبيّن أن السجع يقتضى أن يكون: يا مالك الممالك الخ ولعله تحريف الكاتب أو الطابع

سنتقدم ونمر إلى خفتانات من الجلد أو النسيج الصفيق ومغافر من الجلد والحديد. بل هذه مغافر للخيل؛ والفرس صديق الفارس في المآزق يحتاط له كما يحتاط لنفسه. وكانت الخيل تلبس المغافر على رؤوسها والتجافيف على أبدانها. وفى شعر أبى الطيب:

حواليه بحر للتجافيف مائج يسير به طود من الخيل أيهم

ثم ترى قوائم أعلام يعلم الله ماشهدت من ظفر وهزيمة، ثم بنادق من عصور مختلفة فيها المحلى بالصدف الذي يضرب بالزند والصوان، وفيها بنادق القلاع الثقيلة، وضروب أخرى كثيرة

— ٢ —

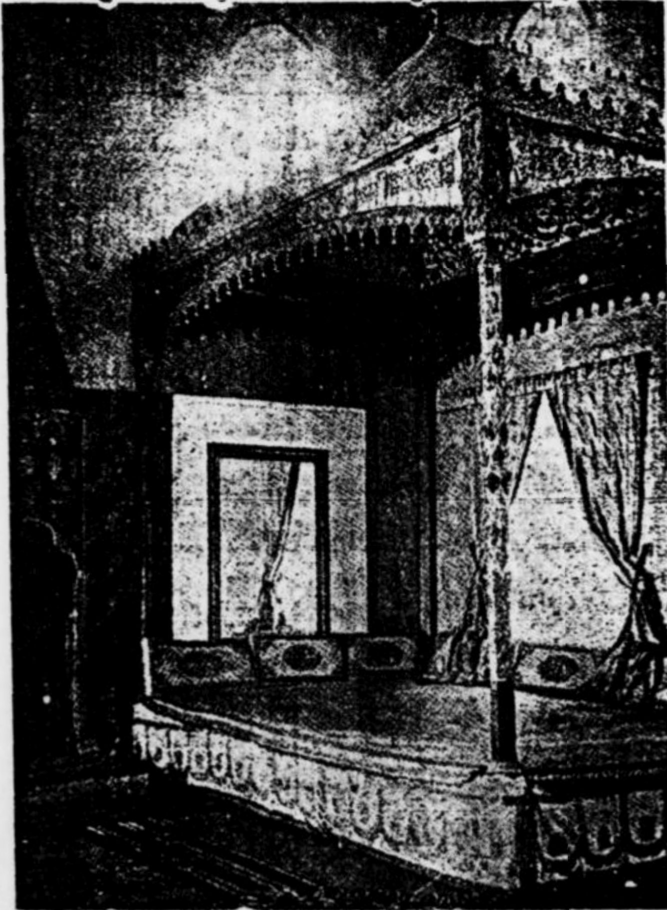
تركنا خزانة السلاح وسرنا حتى اجتزنا الباب الثالث إلى رحبة واسعة، ويفضى الباب إلى رواق مستطيل مع الجدار، وعلى الباب من الداخل كتابة وثلاثة ألواح مستديرة فيها أسماء السلاطين وتواريخ ولايتهم ووفاتهم من عهد عثمان إلى محمد السادس وهى تشغل لوحين ونصف الثالث، وبقى الفراغ فيه ناطقاً بانتهاء الدولة

وأمام الباب حجرة يتقدمها رواق. وهى حجرة العرض (عرض أوده سى) وكانت مجلس السلطان لمقابلة السفراء، ورجال الدولة أيام الأعياد وفيها سرير منجد تعلوه قبة من الخشب المصنَع المزين وكان أثاث الحجرة وزينتها من آيات الإتقان والبذخ ولكنها احترقت سنة ١٢٧٣ وبقى بعض آثارها

وفى جانب الحجرة نافورة يقال إنها كانت تفتح حين يُسر السلطان حديثه حتى لا يسمع الذى فى الخارج

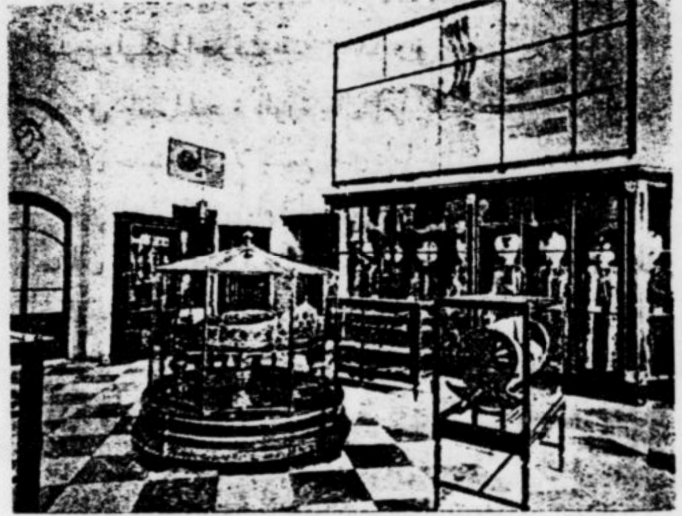
وفي الرواق الذى أمام الحجرة حجر من المرمر يقال إن قتلة السلطان سليم الثالث وضعوا جثته عليه وأروها للصدر علمدار مصطفى باشا

وتقدمنا فلنا ذات اليمين إلى (الخزينة) وفيها من نفائس التاريخ وأعلاق الملوك ما يكل الطرف دون تأمله؛ الحجرة الأولى والثانية بهما أدوات الطعام والقهوة من الصينى الجيل فى ندرة من الألوان، وفتنة من بدائع النقش، صحون وطسوت وأباريق وفناجين، وأدوات من البلور والنحاس المذهب، وخوانات من الفضة ومواقد الخ الخ



حجرة العرض

هذهَ المرائى اللألاءة تبهر العين حيثما توجهت فتشغل الناظر عن التفكير فيما وراءها من التاريخ . قلت ماذا أرى وماذا أدع ؟ هذه للعابر متعة دقائق ، وللباحث درس أشهر ، وللمفكر عبرة الدهر



حجرة الملابس

ثم حجرة الملابس ، ياله منظراً مهيباً ومقاماً هائلا ! صف ينتظم السلاطين من الفاتح إلى عبد المجيد . ها أنت ذا فى حضرة السلاطين الذين رجفت بهم الأرض قروناً وامتلأت صفحات التاريخ أجيالاً . هوّن عليك لا تُرَع . ما هى إلا ألبسة تحملها أعواد . أجل ! هذه الجبة ، وهذه العمامة الكبيرة ، وهذه الشارة (سرغوج) التى تعلو العمامة محلاة بالماس ، وهذا الخنجر المذهب الذى تثقله هذه الزمردة الكبيرة — أجل هذا لباس الفاتح وزينته وسلاحه ، ولكن لا تُرَع إن هو إلا لباس على أعواد . إضحك إن شئت ، وتحدث كما تشاء ، ولا تأخذك هيبة الفاتح وصولته ، وإن شئت فقف خاشعاً مطرقاً مفكراً فانها ذكرى واقعة وتاريخ ماثل ، فاذا أخذتك سورة الذكرى واستشعرت رهبة الملك فارفع رأسك وانظر فليس أمامك الفاتح ، ولكن جبته وقفطانه وعمامته وخنجره

وانظر بجانبه ملابس بايزيد الصوفى : عقد من الزمرد حول حلقة من الجواهر يزين هذه العمامة ، وعلى مقبض الخنجر ثلاث قطع من الفيروزج زرقاء صافية . وتقدمت فوقفت أمام سليم وسليمان ! ولست أبالى حضرة سليم وسليمان ، فقد ذهب الدهر بسليم وسطواته ، وذهبت الريح بملك سليمان

وانظر إلى من بعد سليم وسليمان : هذان سليمان الثانى ومحمد الرابع على رأسيهما عمارتان تخالفان ما رأيت قبلا ، عمارة حمراء عليها لفافة صغيرة ، وشارة عظيمة جداً ؛ ثم انظر العمائم الطويلة المضلعة على رأس مصطفى الثانى ومن بعده

وهذا محمود الثانى الذى بذل فى الإصلاح جهده وبطش بالإنكشارية بطشته فى زى أوربى على رأسه طربوش عليه قطيفة سوداء وشارة . ثم عبد المجيد على رأسه الطربوش والشارة فقط . وهكذا يسير التاريخ متمهلاً من أبهة الماضى واستقلاله وجلاله إلى يسر الحاضر وتقليده وجماله

وفى وسط الحجرة صوالج لعبت بالأمور حتى لعبت بها الأقدار . وليت شعرى ما خَطبُ هذا المهد السلطانى الصغير ؟ بل أى طفل من بنى السلاطين ترجّح فيه ، وأى يد من أيدي الأميرات أو الخادمات هزته ؟ وماذا كان حظ صاحبه من هذا المهد إلى ذاك اللحد ؟

وأما هذا العرش العظيم المسبغ الجوانب ذو القوائم الأربع فيقال إنه عرش الشاه اسماعيل ...

وبعد فيا صديقى الزيات ! أخشى أن يطول الحديث فليقف الكلام عند عرش اسماعيل وموعدنا الرسالة المقبلة إن شاء الله

والسلام عليكم ورحمة الله عبد الوهاب عزام

أناشيد صوفية

جيتانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ٥٧ —

انتظمْ في نشيدى الأخير كل فنون الطرب : الطرب الذي يكسو وجهه بخضرة النبات المتراكم ؛ الطرب الذي يبعث التوأمين — الموت والحياة — فى أنحاء الأرض يطوّفان معاً ؛ الطرب الذى يهبط جارفاً فى ثنايا عاصفة فينفث فى الحياة روح اللذة والمرح ، الطرب الذى يستقر فى هدوء وعبراته على زهرة اللوتس الحمراء وهى تتفتح ؛ الطرب الذى ينثر كل ما يملك على الثرى ثم هو لا يستطيع حديثاً

— ٥٨ —

نعم ، أنا أوقن بأن هذا ليس شيئاً سوى حبك ، يا حبيب القلب ! هذا الشعاع الذهبى المتألق على أوراق الشجر ، هذه السحب المتكاثفة وهى تسبح في الفضاء ، هذا النسيم العليل وهو يهب نديًّا يداعب وجهى

لقد ملأ نور الصباح عينىّ ، وهو رسالتك إلى قلبى ، إن وجهك يطل علىّ من علٍ ، وعينيك تحدقان فى ، وقلبى يلمس قدميك

— ٥٩ —

على شاطىء بحر الكون اللانهائى يتلاقى الأطفال ، ومن فوقهم السماء تمتـد في سكون إلى اللانهاية ، وبإزائهم الأمواج المضطربة تزمجر ، وعلى شاطىء بحر الكون اللانهائى يتلاقى الأطفال فى هياج ومرح

وهم يتخذون من الرمال قصوراً ، ومن الأصداف الفارغة لُعباً ؛ ويشيدون من الأوراق الذابلة قوارب يدفعون بها على صفحة الماء الغَمْر فى لذة . إن الأطفال يجدون السلوة على شاطىء بحر الكون

إنهم لا يستطيعون السباحة ولا يعرفون كيف تلقى الشباك . إن الغواص يندفع يفتش عن اللآلىء ، والتاجر ينطلق على الفلك يجمعها ، ولكن الأطفال يجمعون الحصى وينثرونه لأنهم لا ينقبون عن الكنوز الخفية ، فهم لا يعرفون كيف تلقى الشباك

البحر يموج كأنه يقهقه ، ورمال الشاطىء الصفراء تشف عن بسمة رقيقة ، والأمواج إلى جانب الأطفال تردد أغانى لا معنى لها كأنها صوت أم تهدهد طفلها وهو فى مهده . إن البحر يداعب الأطفال ، ورمال الشاطىء الصفراء تشف عن بسمة رقيقة

على شاطىء بحر الكون اللانهائى ، يتلاقى الأطفال والعاصفة تزمجر فى الفضاء ، والسفن تتحطم فى مجاهل الأمواه . الموت هناك ، وهنا الأطفال يلعبون . على شاطىء بحر الكون اللانهائى يتلاقى الأطفال لقاءهم العظيم

— ٦٠ —

أفيستطيع إنسان أن يعرف من أين يهبط النوم الذى يداعب جفنى الطفل ؟ نعم ، إن الاشاعة تدوى أنه يتخذ له مسكناً فى القرية الجميلة التى بين تفاريق الغابة الظلماء لا ينيرها سوى الشعاع الضئيل المنبعث من الفراش المضيء ، هناك تتدلى زهرتان فيهما الحياء والفتنة تنفثان ريح النوم فينطلق ليقبل عينى الطفل

أفيستطيع إنسان أن يعرف من أين تهب البسمة الساحرة التى ترتسم على شفتى الطفل وقد غمره النوم ؟ نعم ، إن الاشاعة تدوي أن شعاعاً رفيقاً نديًّا انبعث من القمر وهو هلال فلمس حافة سحابة من سحب الخريف وهى تكاد تتلاشى ، فولدت — أول ما ولدت — الابتسامة فى أحلام الصباح الندي ... هذه هى الابتسامة الساحرة التى ترتسم على شفتي الطفل حين يغمره النوم

أفيستطيع إنسان أن يعرف أين كان يتوارى النشاط الحلو الرقيق الذى يضطرم فى أطراف الطفل ؟ نعم ، حين كانت الأم فتاة ألقت بقلبها فى هدوء بين خفايا الحب ... الحب ، إنه هو النشاط الحلو الرقيق الذى يضطرم فى أطراف الطفل

— ٦١ —

حين أحمل إليك — يا بنىّ — اللُعب الجميلة الملونة أستطيع أن أعرف لماذا ارتسمت هذه الألوان على السحب ، على الماء ، ولماذا صبغت الأزهار اليانعة بألوان جذّابة .. حين أحمل إليك - يابنى - اللُعب الجميلة الملونة ، حين أغنى أمامك لترقص على نغم أغانىّ ؛ أعرف حقاً لماذا تنبعث الموسيقى من حفيف أوراق الشجر ، ولماذا يُرسل الموج ألحانه فى قلب الأرض الصامتة .. حين أغني أمامك لترقص على نغم أغانىّ

حين أقـدم لك الحلوى فتتقبلها فى شغف ؛ أعرف أنا لماذا امتلأ كأس الزهرة رحيقاً ، ولماذا انضمت الفاكهة على عصير حلو ... حين أقدم لك الحلوى فتتقبلها فى شغف

فى العدد الماضى سقط سهواً نشيد (٥٣) وأوله : ما أجمل سوارك

١٠٠٢

حين أقبل جبينك – يا عزيزى لتبسم ؛ أستطيع أن ألمس اللذة فى شعاع الصباح المنير ، وأن أحس النشوة التى تنفثها فى نسمات الصيف ... حين أقبل جبينك لتبسم

— ٦٢ —

أنت عرّفت علىّ أصدقاء لا أعرفهم ، وحبوتنى بمكان فى كل دار وليس لى واحدة منها ، وأنت كشفت لى عن كل مبهم ، ومننت علىّ برفيق فى الغربة

إن قلبى ليضطرب حين أهجر مأواى الذي سكنت إليه . لقد نسيت أن القديم يتحدّر إلى الحديث فيعيش معه ، وأنك أنت أيضاً بين صراع الحياة والموت ، على هذه الأرض أو على سواها ، تقودني أنت أنىّ شئت ... وأنت رفيق الأوحد فى هذه الحياة الأبدية ، رفيق الذي يجذب إليك قلبي بنفثات من الطرب المجهول

إن الذى يعرفك لا يستشعر الغربة فى هذا العالم ولا تسد فى وجهه الأبواب . أوه ، تقبل صلواتى كى لا أفقد لذة لمساتك – أيها الفرد – فى سبيل المجموع

— ٦٣ —

عند منحدر النهر الوحش ، وبين الحشائش النامية سألتها « يا سيدتى ، إلى أين تذهبين وأنت تسترين سراجك بين طيات ملاءتك ؟ إن داري مظلمة خاوية فأعيريني ضوءك ! » فأرسلت من عينيها السوداوين نظرات نفاذة اخترقت أستار الظلام ، واستقرت على حيناً ثم قالت « لقد جئت إلى النهر لأضع مصباحى على صفحة الماء حين ينطفئ مصباح النهار » فوقفت وحيداً بين الحشائش أرقب نور مصباحها الخافت وهو يتناثر بدداً على صفحة الماء

وفى صمت الظلام سألتها : « يا سيدتى ، لقد همد مصباحك فإلي أين تنطلقين ومعك سراجك ؟ إن دارى مظلمة خاوية فأعيرينى ضوءك ! » فأرسلت من عينيها السوداوين نظرات نفاذة استقرت علىّ حيناً ، ثم قالت : « لقد جئت لأقدم مصباحى إلى السموات » فوقفت أرقب الضوء الخافت وهو يضطرب – دون جدوى – فى الفضاء

وفى أعماق الليلة الظلماء سألتها : « يا سيدتى ، لماذا تضمين مصباحك إليك ؟ إن دارى مظلمة خاوية فأعيرينى ضوءك ! » فتلبثت قليلاً تفكر ثم نظرت إلي وقالت : « لقد جئت بمصباحى لأنضم إلى الحفل » فوقفت أرقب الضوء الخافت وهو يغوص وسط المصابيح

كامل محمود حبيب

من الشعر الانجليزى

القبرة

للشاعر العبقرى الانجليزى « شيلى »

للأستاذ خليل هنداوى

« تعد هذه القطعة أكمل ما جاء فى الشعر الانجليزى وقد نظمها صاحبها فى إيطاليا ، وهو فى الثامنة والعشرين من عمره . وقد قالت امرأته : إنه كان فى أحد أيام الصيف يتجول فى الغابات وقد سمع صوت قبرة ، فأوحت إليه قصيدة من أسمى قصائده » (خ . ه)

سلاماً عليك أيتها الروح المرحة !
أنت لستِ بطائر
يا من تسكبين من السماء ومن الطباق المجاورة
ألحاناً مبتكرة – علينا – يطفح قلبك بها
تطيرين إلى الأعلى ، دائماً إلى الأعلى
وتنقذفين من الأرض كسحابة من نار ،
وتطيرين فوق الأعماق الزرقاء
شادية وأنت محلقة
محلقة وأنت شادية لا تنتهين .
وفى لمعات الشمس الغاربة التى يسطع لها السحاب
تسبحين وتركضين كفرح طليق متوثب بدأ سباقه ؛
صفرة المساء الأرجوانى تنتشر حولك
وكنجمة غمرها نور النهار الواضح تصيحين متوارية ،
ولكنى لا أزال أسمع هتافك الطروب .
الفضاء والأرض مفعمان بصوتك
كمهدهما عند ما يرسل القمر أشعته من وراء سحابة منعزلة
فى الليلة الصافية
والسماء يفيض على حواشيها شعاعه

***

خرير الينابيع بين الأعشاب اللامعة

والأزهار الناعمة التي ينبهها المطر
وكل ما أطرب وأفرح وسر ألا يفوق لحنك منه شيء
علمنا أيها الطائر !
أي جمال في أفكارك !
فإني لم أسمع مقطوعة في حب أو خمر تفجر في النفس كمثل ما يفجره لحنك من الغبطة الإلهية
إن ألحان العرس وأغاني النصر إذا قيست إلى الحانك لا تبدو إلا ضجة فارغة أو فراغاً لا معنى له .
لأية غايات تتراءى ينابيع صيحاتك الفرحة ؟
أية حقول وأية أمواج أو جبال ؟
وأية مشاهد في الأرض أو في السماء ؟
وأي حب للقريب ؟ وأي جهل للشقاء ؟
إن العناء لا يسكن مع فرحك الظاهر القوي ؟
وخيال الضجر لا يمسك أبداً
إنك تحبين ولكنك لم تعرفي أبداً شبح الحب الكئيب
سواء كنت نائمة أو يقظى ، فإن لك أفكاراً على الموت أثبت حقيقة مما نحلم نحن به
وإلا فكيف تسبح أنغامك كالأمواج البراقة ؟
إننا ننظر أمامنا ووراءنا ، وإنا لنشحب بعد الفناء ؛
وضحكتنا الأكثر صفاء هي مشوبة ببعض الألم ؛
وأجمل أغانينا الأغاني التي ترجع لنا أفكارنا الكئيبة ،
على أننا لو قدرنا أن نجتنب الخوف والبغض والكبرياء
ولو ولدنا لكي لا نبكي أبداً ،
فاني لا أدري كيف لا يستطيع فرحك أن يستعطف أنفسنا !
إن فنك الذي يزدري الأرض
يكون — عند الشاعر — أفضل من أوتار الألحان الرائعة
ومن كل الكنوز التي تصونها الكتب .
آه لو علمتني — أيتها القبرة — نصف فرحك الذي يعرفه قلبك
أو صوتاً مطرباً يفيض من شفتي يسمعه مني الناس كما أسمع الآن

قبرة شـــيللي

للشاعر الانجليزي توماس هاردي

كتبت في إيطاليا حيث كتب شيللي مقطوعته الشهيرة «القبرة»

هنا بعض شيء — حول هـذا المكان — يستريح ملاصقاً أميناً للأرض الناسية العمياء
بعض شيء ترك قلب الشاعر فياضاً
قبضة مجهولة من تراب لا يرى
تراب القبرة التي سمعها شيللي وخلدها لكل الأزمان
على أنها لم تعش إلا كمثل عصفور من العصافير
ولم تعلم أنها أصبحت مخلدة
قضت حياتها المذبة ثم سقطت يوماً كتلة من ريش وعظام .
أما سؤالك كيف هلكت وهي ترجع أنشودة الوداع
وأين استقر رمادها
فهذا أمر مجهول .
ربما تستريح تحت عيني في التراب
وربما تخفق بين أوراق الرياحين
وربما تنام في ظاهر لون عنقود يتلون في منحدر التلال بعيداً عن البحر
ألا فتشن عنها أيتها الجنيات !
ألا فتشن عن هذه القبضة الصغيرة من الرماد من غير ثمن
وخذن آنية موشاة بالفضة مغشاة بالذهب ، مرصعة باللؤلؤ
إننا سنضعها فيها بأمان ، ونسلمها إلى أبد الزمان
لأنها بلغت ذروة الذهول السامي في التفكير والألحان

خليل هنداوي

فلسفة التربيـــة

كما يراها فلاسفة الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ٥ —

الديمقراطية والحياة المثلى

« أية قطعة من الخليقة هو الانسان ؟ كم هو عظيم فى عقله وليس بمحدود فى ملـكاته ؟ وكم هو رائع وسريع فى صورته وحركته ؟ وكم هو كالملاك فى عمله وكالإله فى فهمه ؟ إنه جمال العالم وتاج الحيوان !! »
شكسبير — هملت

« على التربية اليوم أن تصلح الاخطاء التى فشلت السياسة فى إصلاحها ، وأن تخدم قضية الديموقراطية أفضل خدمة »
Bode, Modern Ed. Theories

عرضت عليك فى المقال السابق ألواناً من أغراض التربية وصوراً ، وأشرت إلى دقة الموضوع وصعوبته ، ثم تركته مفتوحاً لرجال التربية فى الشرق كيما يدلى كل منهم فيه برأيه الخاص ؛ وأعود اليوم فأجول بك فى « الحيـاة المثلى » ما دمنا نريد من التربية أن تعدّنا لمثل تلك الحياة ...

ولـكن ترى ماذا عسى أن تكون هـذه « الحياة المثلى » لذلك « الإنسان العظيم » الذى تصوره شكسبير ؟! وأى علم من العلوم ، أو فن من الفنون ، يصلح للخوض فى ذلك الموضوع غير الفلسفة والشعر ؟! ومن أين تستمد التربية هـذه الحياة إذا هى لم تستمدها من الفلسفة والشعر ؟!

الحق أن الناس قد اختلفوا وما زالوا يختلفون فى تصورهم للحياة ، وأن الفلاسفة والشعراء قد تباينوا تبايناً عظيما فيما قد رسموه لها من « مثل عليا » دافعوا عنها ودعوا الناس إليها ! وأنت ترى بعد ذلك أن الموضوع خطير كل الخطورة ما دامت حياتنا هنا واحدة لا عودة لها ولا تكرار !

إذن فيم تقوم « الحياة المثلى » ؟ أفى الزراعة وحكمة الأقدمين كما يقول « غاندى » ؟ أم فى السرور كما يزعم « ماتيو أرنولد » ؟ أم فى العمل بالتئام مع إرادة حاكم الـكون كما يردد « زينو » ؟ أم فى النشاط الفكرى الدائر حول أسمى موضوعات الفكر — وهو الله — كما يؤكد « أرسطو » ؟ أم فى إشباع الحاجات الطبيعية دون إفراط أو تفريط كما يطالب « سبنسر » ؟ أم فى التأمل فى الجمال المطلق كما يسمو « أفلاطون » ؟ أم فى حياة الفضيلة كما نصح الرواقيون ؟ ، أم فى الحياة الطبيعية البعيدة عن العلم والفن كما صرح « روسو » ؟ أم فى آداء الواجب لحسب كما ألح « كانت » ؟

تلك جميعاً تصورات « للحياة السعيدة » فيها من التشابه والاختلاف الشئ الـكثير . ولقد حاول « ديوى » فى نزعتـه الاجتماعية الجارفة أن يدلى برأيه فى الموضوع فقال : « إن السعيد من الناس هو من ينظر إلى قوى نفسه من ناحيتها الاجتماعية فلا يدبر أمراً أو يرغب فيه إلا بالإشارة إلى أثره فى الجماعة التى هو جزء منها . ذلك أن سعادته إنما تقوم فى تنمية « النشاط الاجتماعى » دون النظر إلى ما عسى أن يكون فى ذلك من لذة أو ألم [١] » ومعنى ذلك أن الإنسان — مهما سما فى الفكر أو اعتنى بالمادة — لايستطيع أن يتذوق السعادة الحقة إلا فى ظل الجماعة التى هو جزء منها ، والتى لها عليه واسع الفضل وعظيم النعمة ؛ وليست هـذه النزعة فى الواقع إلا صـدى لتيار « الديمقراطية » الذى أغرق بأمواجه المدوية الجارفة خرافة « التفريق بين الناس » ، وحمل « الشعب » على ظهره إلى فردوس الـكرامة والرقى !

وماذا عسى أن تكون هذه الديمقراطية ؟ وماذا عسى أن تكون تطبيقاتها فى التربية ؟

أما هى فيعرفها « ديوى » بأنها « حكم الشعب لأجل الشعب وبالشعب [٢] » ! ويفسرها بأنها اشتراك الأفراد فى المصالح العامة بحرية تامة وفى دائرة الخير العام [٣] ؛ هذا بينا يعرّفها « باستور » « بأنها النظام الذى يمكن الجميع من تحقيق أقصى مجهوداتهم »

وأما تطبيقاتها فى التربية وفى غير التربية فخطيرة وعظيمة بحيث لايكاد يتسع لها مثل هذا البحث ... وحسبك أن تعلم

(١) أنظر A Source Book of The Philos. of Ed. by Kilpatrick فصل « غاية التربية »
(٢) أنظر كتابه The Schools of To morrow
(٣) وكتاب Democracy and Education

آثارها فى نظام الحكومة [1] ، ونظام العمل والمال ، ونظام التعليم الشعبي ، بل نظام العالم كله كما يتصوره السلميون العالميون لتعلم حقيقة ما أقول :

وهاهوذا « وولف يشترط فى أعمال الفرد الديمقراطى أن « تكون شائقة جذابة وإلا دفعت به إلى الفساد الخلق » !

وهاهوذا « هوبهوس » يحرم الحرب فى الديمقراطية لأنه يراها تقتل « الحرية » ، وهذه — كما تعلم — أساس الديمقراطية

بل ها هوذا الأستاذ Bode يرى مع « ديوى » وغيره أن الديمقراطية يجب أن تسود التربية فى جميع مراحلها وتطبيقاتها ويرجو من التربية ذاتها أن تكون خير مساعد فى نشرها كيما تستطيع غداً أن تصلح تلك « الأخطاء الهائلة » التى رزح العالم تحت أثقالها سنين طوالاً ، وكان الجاني عليه فيها سياسة عمياء ، ونزعة حمقاء ، وجهل مطبق !

تطبيقات الديمقراطية على التربية

وما دمنا هنا إزاء التربية فلا بد من أن نجعلها صالحة لخلق ذلك المجتمع الديمقراطي المنشود — لابد من أن نجعلها تعد الفرد لا لملء مركز خاص كما كان الحال فى « خرافة الطبقات » ، بل لخلق مركز مناسب يعمل فيه كوحدة مرنة متسقة محترمة قادرة على مواجهة التغير المنتظر فى كل وقت ، وغير خاضعة لسياسة تعسفية مفروضة !

ولم ذلك ؟ ألم تفشل مدارسنا الراهنة فى تعليمنا أن الحياة مغامرة فيها من الفاجآت القاسية بقدر ما فيها من الداعبات الهينة ؟ ألم تخرج لنا أولئك المتكبرين المتعجرفين الذين لا يصلحون لشيء غير ملء المقاعد وتسويد الأوراق ، والذين تقوم بينهم وبين الشعب هوة من الانسانية الكسيرة ، والكرامة المهيضة ، والشرف المذبوح ؟

نريد إذن عالماً أحسن ؟ ! عالماً لاتثور فيه الحرب ، ولاتطغى الآلة ، ولا يذبح فيه « العلم المادى » الايمان فيؤخر السمو الخلق ويعوقه عن اللحاق بالتقدم العلمي ! ! عالماً لا يدخل عليه التغير الحتمى فيغرق أبناءه فى جحيم من الفوضى كما نرى فى كل مرحلة انتقال تجتازها أمة من الأمم أو مجتمع من المجتمعات ! !

وسبيل ذلك كله هو تحويل « المدرسة والتدريس » إلى « شيء آخر » تنمو فيه شخصية الطفل ، وتقوى على مواجهة الظروف ، وتكون مرنة لا تأسرها العادات ، وذات فراغ كاف يكسبها حكمة العلم ورقة الفن ويسمو بها فوق الآلات ! ! ذلك إلى عمل « مفهوم » وشائق وجذاب ، وإلى ثقافة راقية تفهم صاحبها مركزه فى الكون ووظيفته فى الجماعة التى يجب أيضاً أن تكون مفهومة لديه ! ! ثقافة خالية من « لصوص التاريخ وسفاكيه » كما يقول هازلتاً « برناردشو » وبذلك يكون لدينا عضواً فعّالاً ، متعاوناً مستقلاً ، عادلاً ، يحترم المعارضين ، ويشك ، وينقد ، ويجازف ، ويسمو في إنسانيته فوق المجاوات ، عضواً يرى السلاح حقارة كما يقول « برتراند رسل » ، ويمقت البدع الدينية ومروجيها من ذوى الطيالس واللحى ، عضواً كله إقدام وتفاؤل وأمل ، لاخوف وتردد ويأس ...

وستسأل بعد ذلك عن الأساس الفلسفى الديمقراطى ؟ ! وسأجيبك أن الله الذى خلق الإنسان « على مثله وصورته » ما كان ليرضى له ذلاً أو استعباداً ، أو أى مظهر آخر من مظاهر الاستبداد الذى يخمد إنسانيته ويعوقها عن كمالها المنشود

أوَ ليس « الإنسان » عظيماً فى عقله، وغير محدود فى ملكاته، ورائعاً فى صورته ، وسريعاً فى حركته ؛ وكالملاك فى عمله ، وكالإله فى فهمه ؟ لأنه جمال العالم وتاج الحيوان ؟

إذن فما لنا نأبى عليه إنسانيته الرفيعة هذه ، ونلقى به فى هوة فيها ما شئت وما لم تشأ من حيوان وشيطان ؟

« يتبع »

محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية

(1) ومهما يكن لها فى ذلك النظام من عيوب فانا نرى مع الأستاذ جوستاف لوبون أنها خير نظام وجد حتى الآن .. أنظر كتابه روح الاجتماع

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعى

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٢٠ —

تحت راية القرآن

الجديد والقديم ...: هنا ميدان الخصومة بين الرافعى وأدباء عصره ؛ فمنذ نحَلَه أديبٌ منهم زعامة المذهب القديم فى مقال كتبه لمجلة الهلال سنة ١٩٢٣ ، نشط الرافعى ليجاهد هذه الدعوة التى يدعون إليها بتقسيم الأدب إلى قديم وجديد ؛ إذ لم تكن هذه الدعوة عنده إلا وسيلة إلى النَّيل من العربية فى أرفع أساليبها ، وسبيلاً إلى الطعن فى القرآن وإعجاز القرآن ، وباباً إلى الزراية بتراث الأدباء العرب منذ كان للعرب شعروبيان . ومن ذلك اليوم نصب الرافعى نفسه ووقف قلمه على تفنيد دعوى التجديد ؛ فجعل همَّه من بعدُ أن يتتبع آثار الأدباء الذين ينتسبون إلى الجديد ليردَّ عليهم ويكشف عن باطلهم . وما كان يرى فى عمله ذلك إلا أنه جهاد لله تحت راية القرآن ؛ فمن ذلك كان اسم كتابه الذى جمع به كل ما كتب فى المعركة بين الجديد والقديم ، من سنة ١٩٠٨ — ١٩٢٦

هو كتاب لم ينشئه ليكون كتاباً ، ولكنها مقالات تفرقت أسبابها واجتمعت إلى هدف واحد ، وكانت مزقاً مبعثرة فى عديد من الصحف والمجلات فجمعها بين دفتى كتاب ، فاجتمع بها رأى الرافعى فى القديم والجديد على اختلاف أسبابه ودواعيه وما كُتب له ؛ على أنك لا تكاد تبلغ من صفحات هذا الكتاب إلى الصفحة المائة من أربعمائة حتى يخلو الميدان من كل أنصار الجديد إلا رجلاً واحداً هو الدكتور طه حسين بك ، ويتوجه إليه الخطاب والرد فى كل ما بقى من صفحات الكتاب ؛ فكأنما أنشأ الرافعى وجمعه كتاباً للرد عليه هو وحده ، وكأنه هو وحده الذى يدعو إلى الجديد وينتصر له ويحمل رايته ؛ فإذا أوشكت أن تفرغ من الكتاب فرغت من الرافعى ومن رأيه ومن حديثه ، لتقرأ جلسة من جلسات البرلمان يرأسها سعد ويتداول الحديث فيها طائفة من النواب عن طه حسين ورأى طه حسين فى الأدب وفى الدين وفى القرآن ، ويحتدم فيها الجدل بين حكومة عدلى وبرلمان سعد فى شأن هو إلى الأدب أدنى منه إلى السياسة ؛ وإنها لجلسة ممتعة خليقة بأن تكون فى موضعها من كتب الأدب وتاريخ النقد الأدبى

وليس الكتاب على استواء واحد فى أسلوبه ؛ ففى المقالات الأولى منه تقرأ رأى الرافعى هادئاً متزناً فيه وقار العلماء وحكمة أهل الرأى ورحابة صدر الناقد البرىء ؛ فإذا وصلت من الكتاب إلى قدْر ما ، رأيت أسلوباً وبياناً غير الذى كُنت ترى ، وطالعتْك من صفحات الكتاب صورة جَهْمةٌ للرافعى الثائر المغيظ المحنق ، جاحظ العينين كأنما يطالِب بدم مطلول ، مُزْبد الشدقين كالجمل الهائج ، منتفخ الأنف كأنما يشم ريح الدم ، سريع الوِثاب كأن خصماً تراءى له بعد ما دار عليه طويلاً فهو يخشى أن يفر ، وهو هنا يعنى طه حسين وحده !

وليس عجيباً أن ترى هذين اللونين من النقد لأديب واحد بين دفتى كتاب ؛ فإن هذه المقالات وإن صوَّبتْ إلى هدف واحد قد اختلفت دواعيها وأسبابها ومن كُتبت له ؛ وقد كان بينها فى التاريخ الزمنى سنوات وسنوات ، والكاتب المتجدد لا يثبت على لون واحد من عام إلى عام

على أنك تقرأ للرافعى من هذا الكتاب رأيه فى طريقة تدريس الأدب بالجامعة غداة تأليفها سنة ١٩٠٨ ، فتراه يدعو إلى مذهب جديد فى تدريس الأدب ، وتقرأ له — من الكتاب نفسه — ردَّه فى سنة ١٩٢٦ على طه فى طريقته الجديدة لتدريس الأدب ، فتراه ينكر عليه هذا الجديد ؛ فتعلم من هذا وذاك أن الرافعى لم يكن يعنى بحملته أن يناهض كل جديد ، بل كانت غايته أن يردَّ إلى الأفواه كل لسان يحاول بدعوى الجديد أن ينتقص من القديم ليخلص من ذلك إلى النيل من لغة القرآن ولغة الحديث ومن تراث أدباء العربية الأولين

ليس يعنينى هنا أن ألخص رأى الرافعى فى الجديد والقديم ، فراجع البحث عن رأيه في ذلك واسعة مستفيضة ، إنما قصدت إلى تعريف هذا الكتاب إلى قراء العربية فى عرض موجز ووصف كاشف ؛ أما ما دون ذلك فله من شاء من أهل الرأى والنظر ، وله منى غير هذا المجال من الحديث

* * *

والآن سأتجاوز الفصول الأولى من الكتاب لأتحدث عن أسلوبه فى سائره ؛ ويبدأ هذا الجزء من صفحة ١٠٤ — ٤٠٥ وفيه تفصيل ما كان بين الرافعى وطه حسين منذ بدأت الخصومة بينهما حول « رسائل الأحزان » إلى أن انتهت عند مجلس النواب حول كتاب « فى الشعر الجاهلى » ، وهو فصول عدة ، فيها ألوان من النقد مختلفة ، وأساليب فى البيان متباينة ؛ ففيها

التهكم المر ، وفيها الهجوم العنيف ، وفيها المصانعة والحيلة ، وفيها ردُّ الرأي بالرأي ، وفيها تقرير الحقيقة على أساليب من فنون النقد ، وفيها المراوغة ونصب الفخاخ للإيقاع ، وفيها الوقيعة بين فلان وفلان ، وفيها الزُّلفى إلى فلان وفلان ، وفيها العلم والأدب والاطلاع الواسع العميق ، وفيها شطط اللسان ومر الهجاء ؛ وفيهـا فن بديع طريف ، فيما حكى الرافعي عن كليلة ودمنة ...

ولكن أكثر هذه الفصول يطرد على مثال واحد إذا أنتَ نظرتَ إليه في جملته ، فيبدأ كل فصل منها بأسلوب أليم من التهكم يفتنّ الرافعي فيه فنوناً عجيبة حتى يبلغ نصف المقال ؛ ثم يميل إلى طرف من موضوع الكتاب المنقود ، فيتناوله على أسلوب آخر هو أقرب الأمثلة إلى ما ينبغي أن يكون عليه النقد الأدبي ، لولا عبارات وأساليب هي لازمة من لوازم الرافعي في النقد إذا كان بينه وبين من ينقده ثأر ... بَلَى إنها نموذج عال في النقد العلميّ الصحيح لولا تلك العبارات وهذه الأساليب !

كليلة ودمنة

على أن مبالغة الرافعي في التهكم قد شَقَّقتْ له فنوناً من المعاني والأساليب ، لولا الناحية الشخصية منها لكانت نماذج لها اعتبار وقيمة في أدب الإنشاء ؛ وأبدعُ هذه الأساليب حديثُه عن كليلة ودمنة وما نَحَلَهما من الرأي في طه حسين . وكليلةُ ودمنة كتاب في العربية نسيج وحده ، لم يستطع كاتب من كتاب العربية أن يحاكيه منذ كان ابن المقفع ، إلا مصطفى صادق الرافعي . وكانت أول هذه المحاكاة اتفاقاً ومصادفة ، في مقالة من مقالات الرافعي في طه حسين ؛ إذ أراد أن يتهكم بصاحبه على أسلوب جديد ، فبعث كليلةَ ودمنة ليقول على لسانهما كلاماً من كلامه ورأياً من رأيه ؛ فلما أتم تأليف هذا الفصل عاد يقرؤه ، فإذا هو عنده يكاد من دقة المحاكاة وقرب الشبه أن ينسبه — على المزاح — إلى ابن المقفع فلا يشك أحد في صدق روايته ، فنشره بعد ماقدّم له بالكلمة الآتية : « عندي نسخة من كتاب كليلة ودمنة ليس مثلها عند أحد ... ما شئتُ من مثل إلاوجدته فيها ؛ وقد رجعتُ إليها اليوم فأصبتُ فيها هذه الحكاية ...

« قال كليلة : أمَا تضرب لي المثل الذي قلتَ يا دمنة ؟ قال دمنة : زعموا أن سمكة في قدر ذراع ... ... » ومضى في اختراعه وتهكمه حتى انتهى إلى رأي دمنة في الدكتور طه حسين...[1]

ثم استمر ينقل عن (نسخته الخاصة) من كليلة ودمنه ما يجعله مقدمة القول للتهكم فيما يلي من مقالات في الرد على الدكتور طه حسين ، فنشر منها ثمانية فصول طريفة ممتعة في كتاب المعركة . وإن قارئٌ هذه الفصول الثمانية ليرى فيها لوناً طريفاً من أدب الرافعي ، لو أن الظروف واتته لأتمه فأنشأ به في العربية إنشـاء جديداً له خطر ومقدار . على أن الرافعي لم يكن يقصد أول ما قصد أن يتمه كتاباً ، إنما دفعه إلى إنشاء هذه الفصول السبعة بعد الفصل الأول ، ما لقي من استحسان القراء لهـذا اللون الجديد من أساليب التهكم في النقد ؛ وأحسب أن الدكتور طه حسين نفسه كان معجباً بهذه الفصول الثمانية من كليلة ودمنه مع ما يناله فيها مما يؤلم ويسيء ، كما كان يعجب فلان بما ينشر له من الصور الرمزية الساخرة لأن فيها فناً ومقدرة ...!

وانتهى الرافعي من حديث كليلة ودمنة بعد انتهاء هذه المعركة وظلّ مهملاً (نسخته الخاصة) ست سنين بعـد ذلك ، حتى تذكرها في سنة ١٩٣٢ أو ١٩٣٣ في إبان المعركة بينه وبين العقاد حول « وحي الأربعين » فنشر الفصل التاسع منها في البلاغ بعنوان « الثور والجزار والسكين » ثم نشر في الرسالة سنة ٩٣٥ الفصل العاشر بعنوان « كفر الذبابة ! » يعني بها مصطفى كمال وحركته الدينية ، وفصلا آخر لا أذكره

وقد كان في منية الرافعي أن يتم هذه النسخة من كليلة ودمنة يعارض بها كتاب ابن المقفع أو يتمه ، ولـكنه لم يوفق ، وكان في ذلك خير ؛ فهذه الفصول في موضعها من الكتب التي نشرت بها أجمل وأخفّ ، وإفرادها بالنشر يحملها على تكلف الصنعة ويباعد بينها وبين أذواق القراء . على أن هذه الفصول لا اتصال بينها في موضوعها بحيث تصلح للنشر متساوقة متتابعة كما تتساوق الفصول والأمثال في كتاب ابن المقفع

* * *

هذا مجمل الرأي وملخص الموضوع في كتاب المعركة تحت راية القرآن وما احتواه . وهو وكتاب آخر اسمه « على السفود » خلاصة مذهب الرافعي في النقد وأسلوبه في الجدال ؛ وفيهما أشلاء المركتين الطاحنتين بينه وبين طه وبينه وبين العقاد ، بدمائهما ، ورِمامهما ، ولهيبهما المستعر ، ودخانهما الخانق ، وغبارهما الكثيف..

لو تجرد هذان الكتابان من بعض ما فيهما لكانا خير ما أنتجت العربية في النقد ، وأحسن مثال في مكافحة الرأي بالرأي مع الاطلاع الواسع والفكر الدقيق . ولـكن وا أسفا ، إن الإطار يحجب ما في الصورة من جمال ، فمنذا — غير مالك الصورة — يستطيع أن يحطم هذا الإطار ليجلوا الصورة في جمالها على أعين الناس !

« شبرا » **محمد سعيد العريان**

(١) المعركة : ص ١٧٩ — ١٨٠

نهضة القصة فى لبنان

للسيدة وداد سكاكيني

كان من حظ لبنان أن هبت عليه ريح الثقافة اللاتينية بعد الحرب الكبرى ، فدبت فى أرجائه حياة أدبية جديدة نفخت فى أبنائه روحاً طموحا ، فذاق المتعلمون منهم أطيب ثمار الآداب الفرنسية ؛ ومنها فن القصة الذى كان له فى نهضة فرنسا الحديثة تأثير كبير سارها فى شتى مناحى الحياة . وليس بغريب أن يسمو فن القصة فى أمة ناهضة استيقظت على صرير الأقلام الحرة ، فقد عرف قادتها فى الرأى والتفكير كيف يشقون الدروب للموهوبين فى القصة والأقصوصة فكرموهم أجل تكريم وضمنوا لهم حياة راضية حفزتهم للإجادة بالتنافس، فتسابق البارعون منهم إلى المجامع العلمية والندوات الأدبية يرفعون إليها قصصهم لينالوا جوائزها المعدة للفائزين

وأولى هذه الجوائز التى ظهرت فى فرنسا اعترافاً بالسمو الأدبى جائزة غونكور ، وما تزال موضع رجاء يتطلع إليه الأدباء بلهفة وإكبار . وقد تعد لديهم أعلى مكانة وأرفع قدراً من مقعد خالد فى الأكاديمية . وهناك جائزة فمينا وميركوردو فرانس والشاعر مالارميه ، كما أن المجمع الفرنسى يهب كل عام آلاف الفرنكات للمجيد فى كتابة القصة

ليس بعجيب كما أسلفت إذا كانت الأمة الفرنسية تعنى وهي فى أوج مجدها بالفن القصصى وتحذو حذو الروس لتمهيد السبيل لعباقرة الرواية الذين استطاعوا أن يخلقوا بفنهم الرفيع آفاقاً جميلة تعيش فيها جماعات وأفراد تترفع عن الإسفاف وتدنو من الكمال ، إذ ليس مثل القصة وسيلة لسرور الأسرة ورفعة الوطن ورقى المجتمع . ويحق للقصة أن يسطع نجمها فى الآداب العالمية لأنها أصدق مصور للحياة بأفراحها وأتراحها ، تؤدى أغراض الانسانية المنوعة على الوجه القريب الكامل ، وتبث فى النفوس ما ترمى إليه من أهداف وآراء بسهولة وإغراء

ولقد تأثرت ناشئة لبنان فى عهده الجديد بآداب الفرنسيس الطريفة فذاقوا حلاوتها ، ونشقوا عبيرها ، وكان من إقبالهم عليها وفهمهم إياها ما نراه اليوم من شغف ظاهر بفن القصة ومحاولات موفقة فى إنشائها وترجمتها ، وتوجيهها إلى الصدق والإبداع .

إذن لم يشهد لبنان نهضة فى الفن القصصى إلا منذ عهد غير بعيد لأنها فى أدبه العربى الحديث وليدة الأمس القريب ، وكما يكون كل عمل فى أوله غثاً وكل غيث قطراً ، فكذلك ابتدأت القصة حياتها فى لبنان ، وكان أول من أطلع من أفقه شمسها فى نهضتها الحديثة كرم ملحم كرم ، فقد أنشأ مجلته « ألف ليلة وليلة » لتكون عاملاً قوياً فى بناء القصة العربية ، فكان يزجى لقرائه كل أسبوع هدية أدبية إما من وضعه أو تعريبه ، وما زال هذا دأبه منذ عشرة أعوام ونيف ، ولكنه برغم ما أوتى من موهبة فنية مرهفة ولسان عربي مبين لم يطبع قصصه الأسبوعية إلا قليلاً بطابع الآداب الرفيعة ، فقد دعته مساوقة أكثر القراء إلى أن ينزل بقصصه إلى مراتبهم ووفق متناولهم من ثقافة أو معرفة ؛ وعذره فى ذلك أنه يقدم للجموع ما يفهم ويرغب ويعود عليه بما يثبت قدمه فى عمله الصحافى . فلو أن الحكومة اللبنانية تسير على غرار الحكومات فى الغرب فتخصص الاعانات المالية والجوائز للكتاب الذين لهم فى يقظة الشعب وتغذيته وإصلاحه أكبر الأثر كى يتوفروا على أعمالهم الأدبية ويخلوا إلى تجويدها والتفوق بها بسكينة واطمئنان المعاش — لكان هذا الأديب زعيم القصة بلا منازع فى نهضتها الحديثة بلبنان . بيد أن الأستاذ كرماً مع انهماكه بجهده المرهق الموزع بين الصحافة والأدب استطاع أن يخلد فنه القصصى فى روايتيه « صرخة الألم » و « المصدور » وبعض أقاصيصه البارعة التى كفلت له منزلة القصصى العربى فى عصرنا الحديث . على أن مجهوده فى سبيل القصة بلبنان سيسجله تاريخ هذا الفن العريق بأحرف من نور .

ولن ينسى فضله المنشئون المخلصون الذين عرفوا من تأليفه وتعريبه معنى القصة فسلكوا سبيله ، بالاقتداء والاحتذاء ، مكان له فضل البادئين السابقين إلى توجيه الفن القصصى اتجاهه الراهن

وحين ملأ الأستاذ كرم أجواء لبنان وبيئاته بشذا رواياته قام نفر من نوابغ الكتاب ينشرون القصة والأقصوصة فى معناها الحديث . وهذه الطائفة من الأدباء وُفقت فى محاولتها ففتحت فى الأدب القصصى فتحاً مبيناً ، إذ اتسع أفقه وتوفرت موضوعاته ورأينا من أجله حدباً عليه وتشجيعاً لكتابه ، فقد أقامت مجلة « الدهور »[1] البيروتية مباراة للأقصوصة عام ٩٣٤ فاز بجائزتها الكاتب فؤاد الشايب وهو من أدباء الشام الذين يملأون ما يكتبون بأدب الصراحة والحياة

(١) خلفت هذه المجلة فى بيروت أول صدورها مجلة « المعمور » التى كان ينشرها فى مصر الكاتب المفكر اسماعيل مظهر ولكنها احتجبت بعد ظهورها بضعة أعوام وكان لها نزعة خاصة فى تحرير المجتمع وإصلاحه

وفى العام الماضى تبرع الشاعر يوسف غصوب بجائزة للأقصوصة العربية في جريدة « المكشوف » اللبنانية تعززاً لهذا الفن الذى يقدره الشاعر وله فيه صور خالدة . وقد نالت جائزة غصوب كاتبة هذه السطور . وما انفك الأدب العربى فى لبنان مولياً وجهه شطر القصة موالياً السير إلى الأمام بهمة المضطلعين بتسديد خطواته من الأعلام الغُيُر

على أن من البر بالحقيقة ومن الواجب عليَّ - خدمة للتاريخ - أن أذكر أديبين كان لهما أثر واضح فى النهضة القصصية الجديدة ، فقد كتبا الأقصوصة ببراعة وشجاعة فوُفِّقا فيها وتهافت قراؤهم عليها ، فاستحقا الشكر لدفعهما النشء العربى عن تلك الأقاصيص المبتذلة التى تنشرها الصحف التجارية لتسلية القراء ولهوهم

لقد نوهت الأقلام فى العامين الماضيين بقصص الأديب الموهوب توفيق يوسف عواد الذى أكب على كتابة الأقصوصة التى تمثل الطبقة الدنيا فى المجتمع اللبنانى ، وكان الفن معواناً له على وصف البؤس العنيف الذى يفتك بأبناء الشوارع والصعاليك وذوي العاهات . غير أنه يغلب على نسج قصصه الأسلوب الصحفى بحكم عمله اليومى . وقد نشر مجموعتين : « الصبي الأعرج » و « قميص الصوف » والأمل معقود بهذا الشاب ، فان له شأناً فى القصة اللبنانية . وأقول اللبنانية لأن قصصه موسومة بكل ماهو لبنانى إقليمى . وليس هذا بضائره فان أكابر القصصيين فى عصرنا يمتاز كل منهم بوصف ناحية من نواحى الحياة أو بدرس أطوار جماعة من الناس أو بتصوير الألوان المحلية فى البيئة التى يعيش فى جوها ، ويتنفس هواءها ويرى نورها

وبينما الناس معجبون بباكورة عواد القصصية أقبل عليهم أديب رفيع العماد هو خليل تقى الدين . لقد نشر قصصه العشر أو التسع على الأصح لأن إحداها مترجمة لا موضوعة فرفع بأسلوبه المشرق وديباجته الأنيقة قدر الأقصوصة العربية ، ورأينا فى قصصه التى سلخها من صميم الحياة ما هو حرى بأن يتخذ مثالاً للرواية الفنية الحديثة

لا أعدو الحقيقة ولا أغلو إذا قلت إن هذه البوادر الطيبة كانت تباشير النهضة القصصية فى لبنان ففيها الأمل كل الأمل بتقدمها وازدهارها . وكيف كان الأمر ليقظة القصة ونهضتها فى لبنان ، فإن مصر اليوم زعيمة القصة العربية ، وهى السباقة فى حلبتها والقدوة لغيرها ، ولن ينزع منها زعامتها الأدبية هراء حاسد ولا حملة حاقد

هذا قول عاجل . وسأعود قريباً إلى دراسة المؤلفات اللبنانية فى القصص وتحليل مضامينها وألوانها

وداد سكاكينى

الحضـــارة المصرية في عهد الدولة القديمة

بحث للعلامة الأثري اريك بيت

للأستاذ احمد نجيب هاشم

(تابع)

دل قيام الملكية الواحدة فى مصر على تقدم عظيم ، تقدم جعل كثيرين يعتقدون أنه راجع إلى إغارة شعب أجنبي أكثر حضارة ، ولكن المستكشفات الحديثة لا تؤيد هذا الرأي . أجل إن مقابر الأسرة الأولى تفوق بمراحل مقابر ما قبل الأسرات مباشرة ، ولكن يجب أن نتذكر أن هذه المقابر الأخيرة إنما هى مقابر عامة الناس، ولم يعثر على مقابر ملوك ماقبل الأسرات ، فلا يصح أن نقرن مقابر عامة الناس فى عصر ما بمقابر ملوك فى عصر آخر

والحقيقة نفسها توضح لنا كيف أن الكتابة تظهر فجأة في الأسرة الأولى بشكل بعيد عن حالها الأولية ، إذ كان الخط المستعمل هو الخط الهيراطيقى ، وهو كما لا يخفى اختزال للهيروغليفى فلابد إذن أن يكون هذا الأخير مستعملاً قبل حكم الأسر بزمن طويل . وإذا قصرنا أنفسنا على نوع واحد من المقابر رأينا أن الانتقال من قبل الأسرات إلى عهد الأسرات حدث تدريجياً . ثم إن الأعمال الفنية فى الفترة الأخيرة السابقة للأسرات ومن أهمها لوح « نارمر » الأردوازى ومقبض سكين جبل العرك تدل على أن فن الأسرة الأولى هو ثمرة نمو تدريجي لأهل البلاد

أما وقد قامت الملكية فكان لابد للأنظمة الاجتماعية والسياسية أن تتطور إلى حد بعيد ، ولم يكن الملك المصرى فى أول الأمر إلا رئيساً محلياً ممتازاً

وكان رئيس القبيلة حاكما وكاهناً أكبر ومشرعا لقبيلته فأصبحت هذه الوظائف كثيرة على الملك بعد أن اندمجت القبائل قهراً وطوعا وأصبحت مصر مملكة واحدة ، لذلك اضطر أن يتنازل عن بعض هذه الوظائف ، ولكنه ظل نظريا الكاهن الأكبر لكل إله ، فتراه في نقوش المعابد يرأس كل الحفلات الدينية الهامة ، وإذ كان من المستحيل أن يوجد في مكانين فى آن واحد كان لابد أن ينوب عنه كهنة ، وبذلك نرى فى أيام المملكة القديمة نواة طائفة الكهنة المحترفين آخذة فى التكون

ولا نعرف شيئاً كثيراً عن تاريخ الملكية فى عهد الأسرات الثلاث الأولى ؛ فاذا وصلنا إلى الأسرة الرابعة وجدنا مادة كثيرة نستطيع أن نكون منها صورة هامة عنها ، ومع ذلك يجب أن نذكر أن مادتنا هذه تتكون إلى درجة كبيرة من ألقاب، وهذه قد تكون مضللة لاسيما وأن فرعون كان يغدقها عن سعة على المقربين اليه حتى اضطر أصحاب الوظائف الحقيقية أن يلجأوا فى كثير من الظروف إلى إضافة كلمة الحقيقى بعد لقبهم تمييزاً لهم عن غيرهم (١)

الحكومة المحلية

كانت حكومة البلاد فى يد إدارات محلية تشرف عليها الحكومة العليا وعلى رأسها الملك . وكانت الولاية هى الوحدة الادارية ويرأسها الأمير أو حاكم الاقليم ، وكان حاكماً وقاضياً ومديراً فى ولايته وهو فوق ذلك الكاهن الأكبر لإلهها المحلى ويتمتع بحرية كبيرة داخل حدود ولايته

على أن هذا الحاكم كان مسئولا أمام الحكومة العليا عن ضرائب ولايته ، وعن إدارته لها إلى حد ما . والظاهر أن انقسام البلاد إلى إمارات على هذا الشكل هو أثر لانقسامها إلى قبائل قبل هذا التاريخ . وكان الأمراء يتوارثون الحكم فى الولايات بعد موافقة الملك لأن الأرض نظرياً كانت كلها ملكه

الحكومة العليا

وليست معلوماتنا عن الحكومة العليا أكثر منها عن الحكومة المحلية إن لم تكن أقل ؛ فالملك هو الرئيس الأعلى ، وفى عهد الأسرة الثالثة بدأ فرعون يختار وزيراً لمساعدته فى المسائل القضائية والادارية ، ونجد أن ملوك الأسرة الرابعة يختارون وزراءهم من أبنائهم ، ثم أصبح فرعون يختار وزيره بعد ذلك من أسرة أخرى إذا شاء . وكان أكثر رجال المملكة مسؤولية لأنه كان الرئيس المباشر لأعمال الموظفين فى الحكومة الفرعونية كافة من إداريين وكتبة من أكبرهم إلى أصغرهم ، وكان يشترط فيه أن يكون بارعاً فى فن العمارة ، ومن أهم وزراء الأسرة الثالثة الوزير الحكيم « امحتب » الذى برع فى الطب والعمارة وشيد لمليكه زوسر هرم سقارة المدرج

(١) برستد تاريخ مصر ترجمة الدكتور حسن كمال

ويساعد الملك غير الوزير عدد من الموظفين، وكانت أعمال خزانة الدولة فى يد بيت الفضة والشونة المزدوجة إشارة إلى الشونة الملكية، كذلك نسمع عن كنوز الاله أى الملك وكنوز ملك الوجه البحرى (وهذا من غير شك لقب قديم ظل بعد اتحاد القطرين) ونقرأ أيضاً عن مراقبى بيت الفضة ومخازن الغلال. ويرجح أن تجزئة إدارة القطر المصرى بين وجهيه لم تذهب إلى أبعد من التجزئة الاسمية، وقد حافظ المصريون على هذا الازدواج الاسمى فى مصالح الحكومة، مع أن وجهى مصر انضما معاً تحت إدارة واحدة، وإنما فعلوا ذلك احتراماً للقديم الراسخ فى الأذهان [1] ولكن بالرغم من أن الملك اضطر أن يتنازل عن بعض وظائفه إلا أنه ظل ملكاً مطلقاً

من السهل أن نتبين مزايا هذا النظام وعيوبه، فمتى كان فرعون قوياً يمكنه أن يضع حداً لمطامع الأمراء فالنظام سليم لأن الحكومة فى كل اقليم كانت فى يد أشخاص خبيرين بالشئون المحلية. أما إذا كان الملك ضعيفاً فان تلك السلطة الهائلة التى يتمتع بها الحكام المحليون تصبح خطراً على الدولة يهدد كيانها، ولهذا السبب عينه يرجع سقوط الدولة القديمة فى نهاية الأسرة السادسة ثم إغارة الأسيويين أثر ذلك على الدلتا فقد أخذت قوة الأمراء تزداد تدريجياً على حساب الملكية

والآن علينا أن نسأل كيف كان نظام المجتمع فى ذلك العصر؟

الملك وبلاطه

كان على رأس الدولة الملك وبلاطه، وقد كونوا بيروقراطية كبيرة تهتم بالألقاب اهتماماً عظيماً فنرى ألقاب البعض يقرب عددها من الثلاثين أو الأربعين أغلبها لا معنى له، وبجانب هذه البيروقراطية المركزية نجد بيروقراطية أخرى مشابهة لها فى قصبة كل إمارة، وكان لكثير من هؤلاء الموظفين أملاك واسعة فى ولاياتهم

الفلاحون

يفصل الموظفين عن الفلاحين بون شاسع، لأن هؤلاء كانوا يشتغلون كعبيد فى مزارع الملاك، يحرثون الأرض ويروونها، ويتعهدون الماشية والأغنام، ولا نسمع عن وجود طائفة وسطى بين الطبقتين الآنفتى الذكر؛ فإن كان هناك طبقة من هذا النوع — ولا بد أن التجار وأصحاب المهن والحرف كونوا طبقة — فإنها لم تكن غنية بدرجة تكفيها لأن تفاخر بفضائلها فى مقابر منقوشة نقشاً جميلاً، ولا بد أنها كانت معتمدة على نفسها ولم تعد من طبقة الخدم، لأننا نجد الأمراء يولعون برسم خدمهم على جدران مقابرهم. كذلك لا نعرف شيئاً عن مركز الكهنة الاجتماعى، وإنما نعرف أن عددهم كان وافراً، وأنهم كانوا يعيشون على الهبات التى تقدم إلى المعابد؛ وإن صح لنا أن نذكر تعميماً عن الحياة فى المملكة القديمة فإننا نميل إلى القول بأن الأمراء وكبار الموظفين كانوا سعداء الحظ بينما كان الفلاحون تعسين فهم عبيد يلحقون بالضياع الواسعة، وينتقلون من مالك إلى آخر كأنهم جزء لا يتجزأ عن الأرض ليس لهم حقوق على أسيادهم، إذا ارتكب واحد منهم أقل هفوة فالجلد المضنى عقابه، وأشد من هذا وأنكى أنه لم يكن لهم سيد واحد بل اثنان، فاذا جاء الفيضان وغطى ماؤه الأرض وأصبح العمل فى الحقل مستحيلا لمدة طويلة كان على الفلاح أن يقوم بعمل آخر فى خدمة الملك، إذ عليه أن يذهب لينقل الأحجار التى قطعها العمال من المحاجر الواقعة تجاه منف فيشتغل هو وزملاؤه تحت إشراف موظفى الحكومة، وينقلون الأحجار فوق الحقول المغطاة بالمياه إلى حيث يريد الملك أن يبنى هرمه، ولم يكن لهذه العملية نهاية فان أول ما يفكر فيه الملك عند إخلائه العرش هو بناء مقبرة له، فاذا أتمها قبل أن يموت أخذ يحسن ويوسع فيها، وإذا انتهت أيامه فهناك هرم خلفه لابد من بنائه

وقد اهتم المصريون القدماء، كما نفعل اليوم بفيضان النيل. وهذا أمر طبيعى فان سقطت الأمطار بغزارة على الجبال القائمة فى الجنوب الشرقى من مصر خافوا فيضاناً عالياً يهدد حياتهم، ويغرق جزءاً كبيراً من أراضيهم، وإن قلت الأمطار توقعوا فيضاناً منخفضاً يتلوه قحط ومجاعة فى البلاد، فكانوا إذا اقترب وقت الفيضان يتحدثون عن النعم التى يغدقها عليهم «نيل طيب» ويبدؤون فى البحث عن الوسائل التى يجب عليهم اتخاذها وقت الخطر، إذ كان كل واحد منهم يتأثر بهذا الحادث السنوى - كل حريص على محصوله - أما موظف الحكومة فعليه أن يحسب مقدماً مقدار ما ستأخذه الحكومة من محصول كل شخص، وهذا هو الضريبة الرئيسية. كذلك كان يعد الحازمون من الحكام العدة لإطعام فقراء إقليمهم إذا ما انخفض الفيضان، ويخزنون الحبوب للمستقبل إن كان المحصول أكثر من المتوسط

(البقية فى العدد القادم)

احمد نجيب هاشم

(١) برستد: تاريخ مصر ترجمة الدكتور حسن كمال ص ٥٤



رسالة الشعر



تحية الرسالة

فى مستهل عامها السادس

للأستاذ محمود الخفيف

البَسي الحسن رداءً وامـلأى الدنيا رُوَاءَ
ابزغى كالشمس نوراً وحياة وعــــلاءَ
أقرضى الشرقَ سَنَاهُ وخُـذِى الحمدَ جَزَاءَ
واسحبى فى المجدِ ذيلاً لم يُعَوِّدْ خُيَلَاءَ
وارفعى للنجم طرْفاً أبداً يَهْـوَى السماءَ
وانشرى ماسِرْتِ فى الأر ض طموحاً وإباءَ
واجعلى عهدَكِ فى الشَّرْ قِ ســلاماً وإخاءَ
أيقظِى العِزَّةَ فيــه والعــلا والكبْرِياءَ
جَـدِّدِى رُوحاً بهـا أمـــس على الدُّنْيا أضاءَ
لَمَعَتْ فى طور سـينا ومَشَتْ تَبغى حِـراءَ

* * *

ايهِ ياشمسُ ، بهـا الشر ق مع النيـل استضاءَ
جَمَعَتْ فَضْلًا وعلماً وجَـــلَالًا وذكاءَ
الشبابُ الطامحُ الحُرُّ اجْتَــلى فِيكِ اللواءَ
سار فى ضوئك للعلـــياء ما شِئْتِ وشاءَ
رقرق الأضواء فى الآ فاق واجتـازى العماءَ
وابعثي فيها من الرأ ي وميضاً وســناءَ
احْفِزِى للفوز أبنـا ء كراماً بُسَــلَاءَ
ذَكِّرِيهِمْ عَهْدَ قَوْمٍ رفعوا أمس البنـاءَ
عصبة شـقوا إلى العزَّ ة والنصرِ الجِوَاءَ

* * *

يا ابنةَ الضَّادِ لَكُمْ أحْـــسَنْتِ فى الضَّادِ البَلَاءَ
قد سما فَضْلُكِ حتى فَاتَ فى القَدْرِ الثناءَ
دانَ بالفَضْلِ لك اليا نِـعُ والغَضُّ سـواءَ
وجَـدَا عِنْـدَكِ خِصْباً وحيـــاةً ونَماءَ
وجَنَى حُلْوَا وسَلْسَا لاً وظِلاً وشِــفاءَ
وجَمَــالاً عَبْقَرِيًّا وصـــفاءً وبهاءَ
أنْتِ أوحَيْتِ إلى الأفْـــرَاخِ فى الرَّوض الغِناءَ
وبعثتِهم عن الماضِـــين سلوى وعَزَاءَ
أنْتِ قَرَّبْتِ على البُعْـــدِ بَنِيكِ الفصحاءَ
وحَشَدْتِيهم على الحـــق جنوداً أوفياءَ
فِتْيَةً صاروا بِمَسْعاَ كِ لِمِصْرٍ أوْلِيَـاءَ

* * *

طُفْتِ بالـكأس دهاقاً وسَقَيْتِ النُّــــدَماءَ
أدَباً كالكوْثَرِ العَـذْ بِ نَقَاءً وَصَفَاءَ
فيهِ آمـــالُ بِلَادٍ بِتْنَ لِلْمَجْدِ ظِماءَ
وسُلَافاً من حَدِيثٍ يَمْلأُ القَلْبَ انتشاءَ
كنسيم الصُّبْح يجرِى عَاطِرَ الذَّيلِ رُخاءَ
باعثاً ذِكرى عهودٍ قد توائبْنَ انقضاءَ

نجوى الحرية (١)

للأستاذ محمد بهجة الأثري

الحسنُ أنتِ مثالُهْ   والكونُ أنتِ جمالُهْ
وأنتِ في دَيْرِ قلبي   تسبيحُهُ وابتهالُهْ

***

عَبَدْتُ فيكِ الكمالا   كما عَبَدْتُ الجمالا
ما أنتِ إلا مَلاكٌ   عن العيوبِ تعالى
أشْبهتِهِ رِقَّةً والـ   ـسماحةَ وخيالا
فما أرى لكِ بين الـ   ـملا ـ لعَمْري ـ مثالا
وإنما أنتِ معنى   في الكونِ أعيا مِثالُهْ

***

رُوحٌ ولكنْ مُجرَّدْ   نعَمْ، ونُورٌ مُجسَّدْ
غشَّاه، وهو لمُوعٌ،   إفرِنْدُهُ فتوقَّدْ
تألُّقَ البرقِ في الأفـ   ـقِ وهْوَ يُنْضَى ويُغْمَدْ
والبَدْرِ في صفحةِ الما   ءِ، والنسيمُ تَنَهَّدْ
يابَسْمَةَ الكونِ أنتِ الـ   ـهوَى وأنتِ وِصالُهْ

***

البدرُ لاحَ تماماً   يَفيضُ منكِ سَناهُ
والزَّهرُ فاح ذكيًّا   يَنِمُّ عنكِ شذاهُ
والقطرُ ساح نقيًّا   يَرْوي صفاكِ صفاهُ
والفجرُ لاح بهيًّا   من وجنتيكِ ضياهُ
والطيرُ ناحَ شجيًّا   عليكِ منكِ انفعالُهْ

***

رقَّتْ حواشيكِ حتى   رقَّ الهوا لِخلالِكْ
لكن قلبكِ قاسٍ   على مُريدِ وِصالِكْ
بخِلْتِ حتى خيالاً   فمَنْ له بخيالِكْ؟
أينَ الوعودُ اللواتي   منَّيتِني باقتبالِكْ؟
شهرُ الصيام تولَّى   فالعيدُ أينَ هلالُهْ؟

***

غُمَّتْ عليهِ السماءُ   أم طاوَلَتْ (أسماءُ)؟
بلى، وما كانَ ظني   ألَّا يكونَ الجلاءُ
مارستُها فتأبَّى   عليَّ منها الولاءُ
أهكذا كلُّ حسنا   ءَ ما لديها وفاءُ؟
ياوَيْحَ صبٍّ تعايا   في الوصلِ عنه غزالُهْ

***

يارَوْحَ قلبي المُعنَّى   كلُّ الوعودِ رياحُ
مافي الأماني أمانٌ   إنْ لم يُعنكَ السلاحُ
تلكَ العروسُ ولكن   أينَ الصِّداقُ المتاحُ؟
قد زاحمتْكَ عليها   مناكبٌ وصِفاحُ
فاحتلْ عليها عسى أنْ   يُجْدي الكريمَ احتيالُهْ

«بغداد»   محمد بهجة الأثري

(١) من ديوان « ظلال الأيام » الماثل للطبع

وبياناً مثل وَشْيِ الرَّ   وضِ قد راقَ ابتداءَ
يُعْجِبُ الراسخَ صوغاً   واتِّساقاً وجَلاءَ
ويُرى الناشئَ فنًّا   يتوخَّاهُ اقتداءَ
ضمَّ للقلب معاً والعـ   ـقلِ ريًّا وغِذاءَ

***

يا عَروساً عيدُها يُو   حي إلى النفسِ الوفاءَ
لستُ أنسى لكِ عندي   مِنناً غُرًّا وضاءَ
كشفَتْ يُمْناكِ عن عيـ   ـني وعن قلبي الغطاءَ
حُزْتُ في حِجْرِكِ فضلاً   وصحِبْتُ الفضلاءَ
يا عَروسَ السِّحرِ والحِكـ   ـمةِ مُلِّيتِ البقاءَ
وتزيَّدتِ على الدَّ   هرِ عُلُوًّا وارتقاءَ
عشتِ للفصحى لواءً   ومناراً ورجاءَ

(القاهرة)   الخفيف

أحب وأحتقر!

للأستاذ أمجد الطرابلسي

أحبُّ الجبالَ الشامخاتِ كأنها ... على جبهةِ الدنيا تصولُ عواتيا
تضاحكُ من عصفِ الرياحِ وزأرها ... وتحتضنُ السيلَ الحرونَ المعاديا
وتلهو عن الزلزالِ وهو مزمجرٌ ... يضجُّ ببطنِ الأرضِ غضبانَ واريا
وأحتقرُ الكثبانَ تُرعشها الصَّبا ... ويفزعها الإعصارُ إن مرَّ لاهيا
وتحملها الأرياحُ أنّى توجّهت ... ألاعيبَ في أسفارها وألاهيا

* * *

وإني لأهوى السيلَ ينحطُّ مزبداً ... ويدفقُ جيّاشاً ويهدرُ صاخبا
عتيًّا على السدِّ المنيعِ يدكُّهُ ... ويحملهُ نحو السهولِ خرائبا
يمرُّ على العشبِ الضعيفِ مسامحاً ... ويلتقفُ الدوحَ العنيدَ المغالبا
وتحقرُ عيني جدولاً في خميلةٍ ... يحوّلُ طفلُ الحيِّ مجراهُ لاعبا
يكدّرهُ حتى النسيمُ ملاطفاً ... ويفزعهُ حتى فمُ الطفلِ شاربا

* * *

أحبُّ العقابَ الجونَ يختالُ في الذرا ... ويركبُ متنَ الجوِّ جذلانَ باسما
ويخترقُ الريحَ العصوفَ لقصدهِ ... ولو حطّمت من جانحيه القوادما
يموتُ ولا يشكو الجراحَ ولا ترى ... له آكلاً بين الأنامِ وهاضما
وأحتقرُ الورقاءَ تألفُ سجنها ... وتبكي وما تلقى من الناسِ راحماً
وهل غيرُ ضعفِ الورقِ سوّغَ حبسها ... وصيّرَ شدواً نوحها والمآتما

* * *

وإني لأهوى نحلةً تدهمُ الربا ... فتنهلُ من ثغرِ الزهورِ رحيقها
ترشّفُ من كأسِ الأقاحي صبوحها ... ومن خمرةِ الوردِ النديِّ غبوقها
حصانٌ تروعُ العاشقين بوخزها ... إذا ما تمنّوا لو يذوقون ريقها
وتحقرُ عيني نملةً تألفُ الوَنى ... وتملأُ من بخسِ الفتاتِ خروقها
تدبُّ على الأقدامِ هوناً وذلةً ... وتسلكُ من تحتِ النعالِ طريقها

* * *

أحبُّ شموخَ الدوحِ في ربواته ... يجابهُ هولَ العاصفاتِ ويثبتُ
أبيًّا على حربِ الأعاصيرِ ظافراً ... تكرُّ جموعاً حولهُ فتشتّتُ
وإن خرَّ في الميدانِ بعد نضالها ... تراها عليه نائحاتٍ تصوّتُ
وأحتقرُ الأعشابَ تحني رءوسها ... فتسلمُ من ريبِ المنونِ وتفلتُ
تدورُ مع الإعصارِ حيثُ يديرها ... ويلطمها هوناً فترضى وتسكتُ

* * *

وإني لأهوى الليثَ يستعذبُ الطوى ... ويأنفُ أن يدني إلى جيفةٍ يدا
يسيرُ أشمَّ الأنفِ مستكبرَ الخطا ... فترجفُ البيداءُ إن راحَ أو غدا
ويجبهُ وحشَ البيدِ في حرِّ وجهها ... ولا يدري أعداءه متصيّدا
وتحقرُ عيني ثعلباناً مخادعاً ... جباناً خليعَ القلبِ يغدرُ بالعدا
يصيبُ فضالاتِ السباعِ وينثني ... ليشكرَ رزّاقَ العبيدِ ويحمدا

* * *

أحبُّ الفتى يفري الفلاةَ مهجّراً ... فلا يشتكي أيناً ولا يتظلّمُ
إذا لذعتهُ الشمسُ سدّدَ وجههُ ... إليها حديدَ الطرفِ لا يتبرّمُ
ويمشي على الرمضاءِ متئداً الخطا ... جليداً، ونيرانُ الرمالِ تضرّمُ
وأحقرُ نكساً يستظلُّ بغيره ... ويخفضُ رأساً وهو شاكٍ يدمدمُ
تساورهُ الأشباحُ في القفرِ رهبةً ... فيرعشُ منه القلبُ والطرفُ والفمُ

* * *

أحبُّ الفتى والغلُّ يثقلُ عنقهُ ... وسيفُ الأعادي بين عينيه مشهرُ
يصيحُ بأعلى صوتهِ ينكرُ الأذى ... ويضحكُ من بطشِ الطغاةِ ويسخرُ
ويشمخُ بالأغلالِ رأساً وإن غدت ... تحزُّ ومن أنيابها الدمُ يقطرُ
وأحتقرُ الأحرارَ يحنونَ رأسهم ... وليس عليهم سيّدٌ أو مسيطرُ
إذا كانَ قلبُ المرءِ عبداً ورأيه ... فقل لي — هديتَ الخيرَ — ماذا تحرّرُ

(دمشق)

أمجد الطرابلسي



أقصوصة من لويزا ألكوت

في عيد الميلاد

للأستاذ دريني خشبه

قبل أن يتنفس صباح عيد الميلاد استيقظت الفتاة (جو) والفجر لم يكد ينبلج في الأفق الشرقي ، ولا الخيط الأبيض قد انسرق من زجاج النافذة لينير ظلام الحجرة الدافئة ... ولكن جو استيقظت مشوقة إلى هدايا العيد ، ومدت يدها الصغيرة المرحة إلى جوربها المعلق في (شباك) السرير ليملأه الملاك بأحب اللعب... واشد ما شعرت بالخيبة حين وجدت الجورب فارغاً مما أملت أن يمتلئ به ، فكتمت أنفاسها ، وأخفت حسراتها في أغوار قلبها ، ودست يدها تحت الوسادة التي تحدرت فوقها دموعها ... بيد أن أصابعها اصطدمت بشيء يشبه الكتاب تحت الوسادة ، فأمسكت به ، فإذا هو كتاب حقاً ذو جلد سميك مقوى ، لم تدر من وضعه هنا ... وقفزت من فراشها ، وأشعلت المصباح ، ونظرت في الكتاب ، فراعتها جلدته الجميلة الزرقاء ، وصوره الخلابة الملونة ، وطبعه الأنيق المتقن ... وقرأت فيه قليلاً فعرفت أنه قصة حاج يطوف بأقصى الأرض ليبلو أعاجيب الدنيا ... فتبسمت جذلاً ، وبادرت إلى أخواتها توقظهن :

— « ماجي ! إنهضي يا أختاه ... لقد أهدى إلى الملاك كتاباً فيه صور جميلة ... بث ! قومي ! إستيقظي ! أنظري إلى الكتاب الذي أهداه الملاك إلى ! إيمي ! هلمي فتفرجي ... ! »

واستيقظت ماجي فسألت أختها وهي تفرك عينيها أين وجدت الكتاب ؟ فلما أخبرتها أنها وجدته تحت الوسادة ، دست ماجي يدها تحت وسادتها فوجدت كتاباً مثل كتاب أختها ، ولكن جلدته خضراء ، ورأت فيه صوراً رائعة ملونة أجمل من الصور التي في كتاب أختها ... ففرحت فرحاً شديداً ... وثنا استيقظت بث ، وجدت هي الأخرى كتابها ذا الجلدة الحمراء ، وكذلك وجدت إيمي كتابها ، ولكن إيمي وجدت جوربها ممتلئاً بالحلوى والمُلَبس والفستق ، فصاحت بملء فيها صيحة الفرح ، وراحت تنافس أخواتها وتفخر عليهم ... وقد أحس أخواتها بانتصارها حقاً ، واتهمن الملاك الكريم بأنه لم يعدل في القسمة ، وإلا فإنه كان ينبغي أن يملأ جورباتهن كما ملأ جورب إيمي ... وطال حوارهن ، واشتد صخبهن ، وكان حواراً وصخباً مملوءين بالضحك ، مفعمين بالاستبشار بعيد الميلاد السعيد ... وكانت بهجة تلقين بها العيد قبل مطلع الشمس كالبهجة التي يتلقى بها الطفل قبل أن يولد

وذهبت جو إلى غرفة أمها — وكان أبوها على سفر — لتوقظها فلم تجدها ، وظنت لساعتها أنها ذهبت إلى الكنيسة لتشكر للملاك الكريم ما أتحف بها بناتها من الكتب الجميلة ذوات الصور الملونة ، وما .. أتحف به إيمي من الحلوى .. فعادت جذلانة إلى الغرفة ، وما كادت تتحسس جوربها المعلق في (شباك) السرير حتى وجدته مثقلاً ! فاستبشرت وطفر قلبها ، وأفرغت ما في الجورب فوجدت قدراً هائلاً من الفستق المعالج بالسكر والكستناء المثلوجة ... شيء عجيب حقاً ، لقد تحسست الجورب منذ ساعة فلم يك فيه شيء من هذا ... لله ذاك الملاك الكريم البار ... وعجب البنات عجباً شديداً ، فذهبت كل تتحسس جوربها فوجدته مفعما ... فطرن من الفرح ، واشتد الصخب من جديد وعلا الضحك ... وأشرقت الشمس ... ووقفت جو وسط

أخواتها تهتف كأنها امبراطور : « أخواتى ! إسمى يا بت ، أصغى يا ماجى ... اتبعى يا إيمى ... لنبق على الحلوى حتى تعود أمنا فتشركنا فيها ... ولنشرع من الآن في قراءة الصفحة الأولى من الكتاب الجديد ، حتى إذا عادت الوالدة سرت بذكائنا سروراً لا مزيد عليه ... وبذلك نرضى الملاك الكريم الذى أتحفنا بالكتب وبالحلوى ، ولم يعدنا صغاراً فلم يتحفنا بما كان أحجى أن يتحفنا به من اللعب ... هو ملاك كريم على كل حال فلنشكره قبل أن نبدأ ...

ورفع الصغار أيديهم إلى السقف ... وركعن على ركبهن ورحن يشكرن الملاك الكريم ، ثم اعتدلن ، وأخذن فى قراءة الصفحات الأوليات ... وكان منظرهن كمنظر الملائكة الأطهار الأبرار الأخيار . وإن تكن إيمى الصغرى لم تكن تفكر فى هذا الملاك الذى ضايقها بهذا الكتاب ، ولم يتحفها بلعبة تفخر بها على أترابها إذا كان الصباح ، وبرز الأطفال فى الشارع يتنافسون ويفخرون ... ولم تكد تفهم من أجل هذا سطراً واحداً من الصفحة الأولى من كتابها ، بل سمرت وجهها فى الصورة الملونة ، وراحت تفكر وتدمن التفكير ، فى شح هذا الملاك الكريم باللعبة التى لا محيص منها فى عيد الميلاد !

ولم يكد الصغار ينتهين من قراءتهن حتى دخلت أمهن وفى إثرها حنّة الخادمة العجوز ، مثقلتين بكثير من اللعب وشىء غير قليل من الرقائق والشطير والفطير وحلوى الكاكاو للإفطار ولقينها بالبشر ، ولقيتهن بقبلة سعيدة طبعتها على جبين كل منهن إلا إيمى الصغيرة فقد طبعت لها قبلة طويلة على خدها .. وسرعان ما غفرت إيمى للملاك الكريم ما كان منه من شح بلعبة عيد الميلاد حين أخذت حصانها الخشبي الكبير فعلَت صهوته ، وأنشأت تمرح وتصخب ، وتقول : « كتاب ! أنا لم أقرأ حرفاً واحداً من الصفحة الأولى يا جو ... » ولكن جو نظرت إليها فى ظرف ، ثم قالت لأمها : « ولكننا قرأنا الصفحة الأولى كلها يا أماه ، وسنقرأ كل يوم صفحة أو صفحتين حتى نفرغ من كتبنا ... حقاً إن بابا نويل لملاك كريم » فردت بت تقول : « ويظهر أنه يجيد الرسم ويحذق التلوين يا أماه ! أنظري صوره الجميلة التى رسمها فى كتابى » ... فتضاحكت أخواتها ، ولكن الأم الرزينة لم تضحك ، فتساءلت جو : « لم لا تضحكين يا أماه ؟ فيم تفكرين ؟ فى أبى ..؟ سيأتى حالاً ... هو لا شك يفضل أن يقضى عيد الميلاد بيننا ! » فقبلتها أمها قبلة تفيض حناناً وحباً ، ثم قالت : « اسمعن يا صغيراتي ... لقد ذهبت فأحضرت لكنّ اللعب من بابا نويل ، وحينما كنت عائدة سمعت أنيناً فى منزل جارتنا الفقيرة ، فطرقت بابها ففتحت الباب ابنتها الكبرى ، فلما سألتها ما هذا الأنين ذكرت لى أن أمها كانت تلد ، وأنها وضعت غلاماً لا تدرى فيم تلفه لتقيه البرد ، وقالت لى إنهم لا يملكون حطباً يستدفئون به ولا طعاماً يأكلونه فى هذا العيد السعيد ، فدخلت فسلمت على الأم ، ورأيت وليدها ، ورأيت الصغار محتشدين فى الفراش الفقير وهم ينتفضون من البرد ، ويلتصق بعضهم ببعض ليستدفئوا ... وراعنى أن يطلب أخوهم الوحيد الأصغر طعاماً فتنظر إلىّ أمه ، وتمتلئ عيناها بالدمع ولا تقول شيئاً ... منظر مؤلم حقاً يا جو ... أليس كذلك يا بت ؟ »

وتنظر جو إلى أخواتها ، وتبتلل عيناها بالدمع ، وتقول : « مؤلم جداً يا أماه ! » وتقول إيمى : « وأين بابا نويل ؟ لِمَ لم يرسل إليهم حلوى وفطيراً كما أرسل الينا ؟ » فتقول الأم : « يظهر أنه نسى يا إيمى ... جو ... أليس يحبنا الله ويدخلنا جناته إذا نحن حملنا حلوانا وفطيرنا ، وذهبنا لنفطر مع هؤلاء المساكين ! »

فتسكت جو لحظة ، وتنظر إلى أخواتها ، ثم تقول : « والله إنها فكرة جميلة يا أماه ... هيا ... سأحمل جوربى كله بما فيه من كستناء وفستق » وقالت بت : « وأنا أيضاً ... ولكن الحلوى لا تشبع الجوعانين ... هاتى الفطير ياحنة » وتقول ماجى : « لا ... سأحمل أنا الفطير ... لتحمل حنا الحطب ... » أما إيمى ، فقد نظرت إلى أمها مرة ، وإلى الكتاب أخرى ، ثم قالت : « وأنا ... سآخذ هذا الكتاب لأفرحهم بصوره ... أنا لا أستغنى بحال عن حلواى ! » فضحكت الأم ، وضحكت حنة ، ولكن جو قالت لأختها جادة : « سندخل نحن الجنة ونتركك ببابها يا إيمى ! » فقالت الفتاة وقد صدقت قول أختها : « بل أدخل قبلكن ... سآخذ لعبتى أيضاً ... »

وحملت كل منهن حلواها ... وتذكرت جو اللعب ، وما عساها تبعث فى المساكين من مرح فى هذا اليوم المبارك ، فأسرعت إلى الدولاب فأخرجت كل اللعب القديمة ، وكان فيها (طراطير !) من العام الماضى ، فأحضرتها ، وألبست كلا من أخواتها طرطوراً ، ثم انطلق الجميع بأحمالهن إلى بيت جارتهن .. ولم يكن الشارع قد ازدحم بكثير من المارة ، فكن يتضاحكن مرة ، وينتفضن من البرد الشديد أخرى ...

وطرقن الباب فانفتح ... وتقاطرن داخل البيت ، وأخذن ينشدن نشيد عيد الميلاد ، وعلأن البيت سعادة وبهجة . وقصدن إلى السرير فأيقظن الصغار ... وأسرع هؤلاء وعيونهم تفيض دمعاً ودهشاً .. وجعلوا يحملقون فى الملائكة الأطهار اللائى جئن يسعفنهم بالحلوى والغذاء والسعادة ... أما حنة فقد أوقدت الحطب ... وأما الأم البارة فقد أخذت الوليد من أمه البائسة ولفته فى مزق أحضرتها لهذا الغرض ، ثم جلست تواسى الوالدة المسكينة بكلمات طيبات

وأقبل المساكين والمسكينات على الفطير يلتهمونه التهاماً ، كأنهم قد لبثوا أياماً دون أن يذوقوا طعاماً ... وكان البنات يشهدن ويعجبن ، لأنهن لم يرين ناساً يأكلون بهذه السرعة ، ولا طعاماً يزدرد بهذا الشره ... ولكن جو كانت تنظر وتتألم ثم تصطنع العبث وتجهد أن تضاحك الصغار ما استطاعت ... ثم إنها أخذت الطراطير من أخواتها ، فجعلتها على رؤوس البائسين ... وهنا أخذ هؤلاء يضحكون ويقهقهون ... ونسوا ما كان بهم من فاقة وعوز وجوع ، حين دبت الدماء حارة في أبدانهم من الشبع ، فلما أخذت جو تفرق اللعب القديمة بينهم ثارت بينهم وبينهن عاصفة من المرح ، وسرت فيهم موجة جارفة من السرور ... وقالت فتاة منهن صغيرة : « شكراً لك يا بابا نويل ، لقد حسبنا أنك نسيتنا ، ولكنك أرسلت إلينا اللعب والطعام والحلوى ... والنار ... النار اللذيذة التي تؤججها أمنا حنة ... فشكراً لله وشكراً لك ... وشكراً لأخواتنا هؤلاء .. »

وكانت الأم تصغى إلى ما تقول ابنتها ، وعيناها تفيضان بالدمع .. فتواسيها الأم الأخرى ، وتمسح عبراتها بأطيب الكلم الصالح ..

وعادت العائلة المقدسة أدراجها إلى المنزل

وجلسن حول المائدة كعادتهن كل يوم ، فقدم لهن الفطور العادى من لبن وجبن وخبز ، فأقبلن عليه ، واحتسين الشاى ، وأحسسن إحساساً عميقاً بسعادة فذة فى نوعها ... سعادة لا تقدر الحلوى ولا يستطيع الكستناء ولا الفستق أن يصنع شيئاً منها .. سعادة الخبز والبر ... وسعادة التقوى ... وسعادة الله !

وجلست الأم مع ذلك تشكر بناتها ، وتذكر لهن ما كان يصنع القديسون والشهداء فى هذا اليوم من ضروب الإيثار وفنون التضحية ... وكان البنات يصغين فى لهفة واشتياق ويكاد الدمع ينهل من عيونهن

ونهضت كل إلى لعبتها لتفرح بها

ونظرت إيمى إليهن ... وكانت قد حملت حصانها فأهدته لجماعة المساكين ... ولم يهمها قط أن تكون عاطلا وأخواتها حاليات .. فتأثرت الأم ، وانطلقت معها إلى بائع اللعب ، فاشترت لها حصاناً أكبر من الذى تصدقت به على الفقراء ، فعادت إيمى وقلبها يفيض بالبشر ، وراحت تفاخر أخواتها ، وأخواتها مع ذلك قانعات راضيات

وبينا هن ضاحكات مستبشرات ، إذا بطارق بالباب ، فتمضى حنة لترى ، وتعود لتذكر أن الجار الغنى ، صاحب القصر المنيف القريب ، يريد لقاء سيدتها ...

وتلقاه السيدة فى غرفة زائريها المتواضعة ... ويشدهها منه أن ترى معه سلة كبيرة بها أشياء فهمت أنها هدية ...

— مرحباً يا سيد ! عيد سعيد إن شاء الله !

— عيد سعيد يا سيدتى

ترى ما الذى جاء بهذا الرجل الغني فى هذا الصباح ؟ لقد عرف عنه أنه رجل عزوف عن الناس ، عزوف لأنه غني ... هو يرى نفسه من طبقة غير طبقة هؤلاء المساكين الذين إذا تصدقوا بحلوى عيد الميلاد لم يجدوا حلوى غيرها ! فماذا جاء به ، وهو هو الذى كان يمر بصاحب هذا المنزل فلا يقرئه السلام من عظمة وكبرياء ... ! لقد كان فيه انقباض دائماً ... وكان يشيح بوجهه عن إخوته من بنى آدم ... فماذا جاء به اليوم ؟ ثم ما هذه

السلة التي غطاها بورق كثيف ؟ هذا تطور عظيم فى حياة هـذا الجار الجافى الغليظ المتكبر ، فا باله يا ترى ؟

— لقد شهدت ياسيدتى ماصنعت صباح اليوم ، فتأثرت من عاطفتك الكريمة وإيثارك العجيب !

— عفواً يا سيدي ... أشكرك

— ولست أدرى إذا كنت مخطئاً ...

— مخطئاً فى أي شيء ..؟

— لقد رأيت أن أقدم لصغارك شيئاً من الحلوى تعوض عليهم ما تصدقوا به ... فلقد علمت منذ أيام أن زوجك الفاضل قد فصل من عمله لخطأ ارتكبه ... وأنتم لا بد فى ضيق مالى ... فإذا تفضلت فأخذت هذا القدر القليل من المال أكون شاكراً

وهنا ... إحلولكت الدنيا بأسرها فى عينى الأم ، وضاع ما شعرت به منذ الصباح من الغبطة والبشر ، وانقلب الهناء الذى غمر قلبها فى عيد الميلاد هماً وغماً وابتئاساً !

— ما ذا تقول ياسيدى ؟

— أقول إننى شهدت ما صنعت للعائلة البائسة ، وتأثرت جد التأثر من صنيعك الجميل ، مع ما أنت فيه من الضيق

— وأنت ما شأنك وما أنا فيه ؟

وارتبك الرجل وتلعثم لسانه ، وأنشأ يقول :

— لا ... لا ... شئ ... فقط ... أردت أن أساعدك !

— على كل حال أنا أشكرك ، ولكنى أسائلك : هل بهذا الأسلوب تفهمون الخير أيها الأغنياء ؟

— لا أفهم ما تقولين !

— لا تفهم ما أقول ، فكيف إذن فهمت أننا محتاجون ، ولم تفهم أن جارتنا البائسة كانت فى أشد العوز والحاجة إلى مساعدة أمثالك !

— هذا حق ... هذا لا ريب فيه

— وما دام هذا حقاً ، فلم لا تفعل ؟!

— لقد أخطأت

— إذن لقد أحضرت لنا حلوى فى هذه السلة ؟

— أجل ... لقد فعلت ؟

— وماذا دفعك إلى هذا ؟

— محبة الخير ، وتأثرى بما شهدت

— وكيف لم تتأثر بما علمت من بؤس جارتنا ؟

— لا أدرى والله !

— إذن تذهب إليها بهذه السلة فهى فى أشد الحاجة إليها ، ولا تنس أيضاً أن تنفحها بالمال الذى أعددته لنا ...

— سأفعل ! اسمحى لى بالانصراف إذن !

— لا ... انتظر قليلا ! أتحب يسوع أيها العزيز ؟

— وكيف لا أحبه !

— إذن فاخرج من مالك عن شيء يكفل الستر لجارتنا .. فانك غنى جداً ... أتعرف أن زوجها قد مات ؟

— لا والله ... لم أكن أعرف !

— إذن لقد عرفت مبلغ فاقتها !

— ... ؟ ...

— إذن فانك خارج عن بعض مالك لها ولأبنائها ... هل علمت أنها وضعت غلاماً سادساً اليوم ؟

— لا والله ... لم أدر إلا منك !

— إذن فقد لمست بيديك مبلغ حاجتها إلى بر أمثالك !

— ... ؟ ....

— انطلق إذن ! سأزورها اليوم وسأرى ما ذا تصنع !

***

وانطلق الغنى ذو الجاه والثراء الضخم ... ولكن ... إلى داره

وبعد ساعة أو نحوها طرق البيت صاحب الدار ، ووجهه طافح بالبشر ، ضاحكاً متهللاً ... وزف البشرى إلى زوجته ، وأخبرها أنه بُرِّيء وعاد إلى عمله ، ومنح مكافأة مالية ... وقد أحضر حلوى كثيرة لأطفاله ، ولعباً شتى لعيـد الميلاد ... فلما قصت عليه قصة الصباح ، وما كان من أمر جارهم الغنى ، تمتم وعيناه تغرورقان بالدمع : « إذن .. تعيش المرأة وأولادها معنا .. »

دريني خشبة



الآداب والشعر عند المصريين القدماء

ألقى العلامة الأستاذ الدكتور شايدل أستاذ الأثريات المصرية بجامعة لا يبزج محاضرة شائقة في متحف الجامعة على الآداب والشعر عند الفراعنة، فذكر أن الفراعنة فضلا عما تركوا لنا من النقوش وأوراق البردى الأثرية الفياضة بالمعلومات التاريخية والقضائية والطبية، قد تركوا لنا تراثاً أدبياً بمعني الكلمة؛ فمن ذلك باب القصص الخرافي، وقد ترك الفراعنة لنا منه نوعاً معروفاً هو القصص المتعلق بدخول اللصوص إلى غرف الكنوز الملكية ومن إحدي هذه القصص اقتبس الشاعر الألماني بلاتن مسرحيته المشهورة: «كنز رامسنيت»، وهناك نوع آخر من القصص النثرى يتعلق بتواريخ الملوك وسير الآلهة، وتمجيد الحوادث التاريخية الهامة. أما الشعر الغنائي فانه يتمثل في الأناشيد الدينية الحماسية والتوسل إلى القوة العليا. ومن أناشيد الحب التي تمثلها أنشودة سالومنيس. وقد وجدت على جدران القبور أغنية عمال، ومنها أنشودة شهيرة تجرى على لسان الذين يحملون الهودج ويختتمونها بطلب العطية. على أننا نجد أعظم ثروة أدبية للفراعنة فى كتب الموتى التي توضع فى التابوت إلى جانب الموتى، ففيها أقوال ومواعظ أخلاقية، وفيها أحاديث الحكمة التي تشرح للناس كل شئون الحياة، وتصرف الانسان إزاء الضيف، وإزاء المستجير، وعلاقة الزوجين وواجباتهما. وفى هذه الأحاديث نجد الأدلة على سمو تفكير المصريين القدماء. ومما هو جدير بالذكر أن الشعر عند الفراعنة لم يصدر عن لسان شاعر بعينه، ولكنه صادر عن مجموعة الشعب وباسم الشعب

العلم والدين

كانت العلاقة بين العلم والدين وما تزال من أهم المسائل التي تشغل الذهن البشرى فى كل عصر وقطر؛ وقد كان لها فى تفكيرنا العربى نصيب وافر، ولابن رشد الفيلسوف فى ذلك رسالة شهيرة. على أنها اتخذت فى العصر الحديث صورة نضال عنيف بين الدين والعلم على أثر الاكتشافات البيولوجية والطبية الحديثة التي قام بها علماء مثل داروين ولامارك فى أصول الأنواع وغيرها. وأنكر بعض العلماء الأقطاب مثل باستور أن يكون بين العلم والدين اتصال أو اتفاق. ورأى مفكرون من الغلاة مثل الفيلسوف مكس نرداو أن العلم يهدم الدين؛ ولكن رأى كثير من العلماء أيضاً أن لا تناقض بين العلم والدين، وأن الوفاق بينهما ممكن غير مستحيل

وقد صدر أخيراً فى هذا الموضوع كتاب خطير بقلم العلامة الدكتور جورج ريجار الأستاذ بجامعة لوزان عنوانه «دراسة بيولوجية وعلمية لمسائل الدين العظمى» Etude biologicpe et Scientifique des grands problémes réligieux والدكتور ريجار طبيب وعالم بارع، وهذا ما يسبغ على بحثه قيمة خاصة. وقد تناول فى كتابه جميع المسائل الهامة التي تتعلق بهذا الموضوع الدقيق، مثل الجبر، والتحكيم الحر، والأخلاق البيولوجية، والمعاناة والألم والله والدين. ويلجأ المؤلف فى عرضه لهذه الموضوعات الدقيقة إلى الوقائع المادية، ثم يستخلص منها النتائج الفلسفية والأخلاقية. ومما يلفت النظر أنه على رغم مادته العلمية الخالصة يبدو مؤمناً، وهو يحاول أن يدعم إيمانه بالأدلة العلمية والعقلية، ويقدم أدلته بصورة متزنة معقولة؛ وهو يعارض بشدة أولئك الذين يرون فى العلم عدواً لدوداً للدين. على أنه يرى من جهة أخرى أن التعاليم الدينية يجب أن تتطور وأن تساير العقل الوضعى حتى يمكن أن يفتح الطريق لقيام العقائد الروحية فى صورة تلائم اتجاهات التفكير الحديث

وعلى مثل الدكتور ريجار نشر العلامة الأثرى الدكتور فيجال أخيراً رسالة يدلل فيها على أن المباحث الأثرية والتاريخية فى تراث مصر القديمة تقدم إلينا كثيراً من الأدلة والحوادث المادية التي تتفق تمام الاتفاق مع منطوق كثير من السير والتعاليم الدينية

الرافعي وخصومه

أخي الأستاذ الزيات

تحيتي إليك، وإلى الوجوه التي أحبها بنادي الرسالة، وجوه الأدباء الأمجاد الذين يرون في مسامرتك معاني لا يجدونها في الطواف بشارع فؤاد وشارع إبراهيم وشارع ...

وبعد فهل تعلم أني صبرت طويلاً على الأستاذ محمد سعيد العريان؟ لقد صبرت عليه لغرض نبيل يعرفه، ويعرفه أصدقاء تحملهم أقدامهم إلى الزمالك ومصر الجديدة. ولكنْ للصبر حدود، فقد شاء أن يسم أدباء مصر بميسم العقوق حين زعم أن خصوم الرافعي لم يرثوه. وهو قد شاء أن يضيفني إلى خصوم الرافعي مع أن الخصومة لم تشبَّ بيننا غير خمس مرات. وإن الجزع ليبلغ مني كل مبلغ حينما أتذكر أني كنت آخر من خاصمه الرافعي في دنياه، ولكن الأديب العريان نسي أو تناسى أني كنت أول من رثى الرافعي في خطاب نشرته جريدة المصري، وأثنى عليه كل الذين قرؤوه وعدوه دليلاً على وفاء الخصوم الشرفاء

ولم أتفرد برثاء الرافعي يوم مات، فقد رثاه الأستاذ المازني بمقال بليغ نشرته جريدة البلاغ، ونشرت الرسالة وغيرها مقالات كثيرة تشهد بأن المصريين لم ينسوا ذلك الفقيد

فكيف صح للأستاذ العريان أن يزعم التفرد بأحياء ذكرى الرافعي؟

إنني أرجوه أن يتثبت مما يقول، فإن له في هذه المقالات أخطاء كثيرة. وقد آذاني ما كتبه عن (فلانة) التي جلست مني جنباً إلى جنب أربع سنين في الجامعة المصرية، وعرفت من شؤونها مالا يعرف. وآذاني وآذى الحقيقة بما كتب عن الدكتور طه حسين، لأنه يوهم قراءه بأن الرافعي كسب المعركة، مع أن التاريخ الذي نسيه يشهد بأن الدكتور طه حسين كان معقول القلم واللسان بفضل الإشارات التي صدرت إليه بأن يترك العاصفة تمر حتى لا يُهزم أنصاره أمام الحكومة وأمام البرلمان

وجملة القول أن ما كتبه ذلك الأديب عن خصوم الرافعي يحتاج إلى تصحيح. فإن لم يرجع إلى الأسانيد فسنعاونه على تحرير هذه المسائل بعد حين. والسلام

زكي مبارك
ضيف العراق

الاحتفال بتوزيع جوائز نوبل

قرأنا في البريد الأخير تفاصيل الاحتفال الفخم الذي أقيم في ستوكهلم في العاشر من ديسمبر احتفاء بتوزيع جوائز نوبل على مستحقيها من مختلف الأمم. والعاشر من ديسمبر هو تاريخ وفاة الفرد نوبل المخترع السويدي الكبير وواقف هذه الجوائز الشهيرة

وعقد الاحتفال في بهو الموسيقى الكبير بحضور ملك السويد وأعضاء الأسرة الملكية، ورجال الحكومة، وممثلي الدول الأجنبية؛ وبعد أن ألقى رئيس لجنة الهبة خطابه قدم الفائزين بالجوائز تباعاً، وكان كل يتسلم من يدي ملك السويد التحويل المالي والشهادة الفخرية والشارات الذهبية التي يستحقها. وكان أول المتقدمين الأستاذان: دافيد سون الأمريكي، وتومسون الانكليزي، وقد نالا معاً جائزة العلوم الطبيعية، وكلاهما قام بأبحاث هامة في مسألة تعرض اللور للتيارات الكهربائية. ثم تقدم الأستاذان هوارث الانكليزي وكارير السويسري، وقد نالا معاً جائزة الكيمياء، وذلك لمباحثهما عن أنواع الفيتامينات. وتلاهما الأستاذ زنث جيرجي المجري وقد نال جائزة الفسيولوجيا والطب من أجل مباحثه في عمل الأكسوجين والهيدروجين في حرق أغذية الجسم البشري. ثم تلاه الكاتب الفرنسي روجيه مارتان دوجار الذي فاز بجائزة الأدب من أجل قصته الشهيرة «آل تيبول»

وأقيمت في مساء نفس اليوم في «البهو الذهبي» مأدبة فخمة جريا على الرسوم المعتادة وخطب فيها مسيو دوجار، فنوه بالدور العظيم الذي تؤديه الآداب لخدمة السلام، وقال إنه يعتبر أن فوزه بجائزة نوبل لم يكن من أجل كتابه فحسب، ولكن بالأخص من أجل المعنى السلمي الذي يمثله هذا الكتاب، وما ورد فيه عن صيف سنة ١٩١٤ من الصور المؤثرة، وأن في عبر الماضي ومآسيه ما يكفي لأن يحمل الأمم على التبصر والاعتبار

إليك

قرأت في كلام أديب مشهور هذه العبارة: «إليك الدينار في سبيل فلانة» يقصد بإليك هاك، خذ. فتذكرت نقد الأستاذ عبد العزيز الميمني في (سمط اللآلي) وهو «الذي يستعمله المصريون كلهم ولا أستثني منهم أحداً، إليك بدل هاك هو غلط فاحش» والنقد حق، وقوله «لا أستثني منهم أحداً»

باطل وخطأ متفاحش . وهذا الإطلاق شيء عجيب ، ففي العصر كثيرون لم يغلطوا فيما نقده ، منهم حضرته (أعني الأستاذ اليمني) وإن غلط في غيره ...

وإليك من أسماء الفعل . قال سيبويه في (الكتاب) : « وإليك إذا قلت : تنحَّ . وحدثنا أبو الخطاب أنه سمع من العرب من يقال له : إليك ، فيقول : إليَّ ، كأنه قيل له : تنحَّ ، فقال : أتنحّى »

وفي (النهاية) : « وفي حديث الحج : وليس ثَمَّ طرْد ، ولا إليك ، إليك ، هو كما يقال : الطريق الطريق ، ويُفعل بين يدي الأمراء ، ومعناه تنحَّ وابعدْ ، وتكريره للتأكيد »

وممن غلط في (إليك) هذه من المتقدمين مهذب الدين احمد ابن منير الطرابلسي في قصيدته المشهورة التي مطلعها :

عـذبتَ قلبي يا تَـتَرْ وأطرت نومي بالفِكَرْ

فقال في أحد أبياتها :

وإليكها بدويـــةً رقت لرقتها الحضرْ

(الاسكندرية) (***)

فردنند دلسبس ومحمد سعيد باشا

لفردنند دلسبس صفحة من تاريخ مصر الحديث تجمع بين مجده الباهر وشقاء المصريين بهذا المجد ... وقد قرأنا كتاباً ألفه عن هذا الفرنسي الكاتب المؤرخ الكبير هـ . ج . سكونفيلد وأصدره منذ أسابيع ، وتناول فيه بطبيعة الحال نشأة دلسبس والصداقة المتينة التي كانت بين والده وبين عزيز مصر الكبير محمد علي . وأول مجيء دلسبس ليعمل قنصلا لفرنسا (الذي نعرفه أنه عين مساعداً للقنصل الفرنسي في مصر) في الديار المصرية ، وكيف قرأ كتاب المسيو لوبير مهندس الحملة الفرنسية عن مشروع شق قناة تربط البحر الأحمر بالبحر الأبيض إذ هو في الحجر الصحي قبل دخوله مصر ... ثم الصداقة التي توثقت بين الأمير محمد سعيد وبين دلسبس والتي عقدت أواصرها (أطباق المكرونة !) تلك الأطباق التي كان لها الفضل الأكبر في شق قناة السويس ... وقد أغرقنا في الضحك المزوج بأشد الآلام عند ما قرأنا ما ذكره المؤلف من حديث هذه المكرونة العجيبة وهو تخريج سيكلوجي عجيب يقفنا على الطرائق الحديثة في كتابة التاريخ ، ومـدى ما يلقف به المؤرخون براهينهم في تعليل الحوادث ... فلقد ذكر المؤلف أن محمداً علياً لم يعجبه أن يري ولده سعيداً ذا جسم ضخم كثير اللحم والشحم فحرم عليه ألواناً من الطعام وأمر ألا يقدم إليه شيء منها ، ثم عهد به إلى فردنند ابن ماتيو دلسبس صديقه الحميم فعلمه ركوب الخيل وحبب إليه فنوناً من الألعاب والرياضة البدنية ... ولكن هذه الرياضة كانت تجهد الأمير الصغير وتورثه جوعاً شديداً ، ولم تكن مقادير الطعام التي تقدم إليه لترد مسغبته ، فكان ينسرق من القصر ويهرول إلى منزل فردنند فتقدم له هناك أطباق المكرونة ، فيقبل عليها إقبالاً شديداً ... ومن هنا ، تضاعف هيام سعيد بفردنند ، فلما ولي أمر مصر بعد عباس ، كان فردنند قد ترك القطر وتقلب في مناصب سياسية هامة أشهرها هذا المنصب الذي مهد له القيام بالدور الخطير الذي لعبه في سبيل تقريب وجهة النظر بين دولته ، والجيوش الفرنسية وبين زعيم إيطاليا مازيني ... وما إن علم فردنند بتربع صديقه سعيد على أريكة مصر حتى أرسل إليه يهنئه فأرسل إليه سعيد يستدعيه ... وكانت ذكريات أطباق المكرونة أول حديث دار بينهما بعد هـذا الفراق الطويل ... وفي نفس اللحظة تكلم دلسبس عن مشروع قناة السويس فوافقه سعيد باشا ونسي وصايا أبيه بوجوب الإعراض عن هذا المشروع ... ومن المؤرخين من يعزو نجاح المشروع إلى شغف سعيد باشا بركوب الخيل ، وإعجابه بدلسبس كراكب ماهر ... وسيان ...

تجديد قصر هشام بن عبد الملك

من أخبار دمشق أن مدير الآثار كتب إلى وزارة المعارف السورية يطلب إليها رصد ٢٥ ألف ليرة سورية في ميزانية دار الآثار لتجديد قصر هشام بن عبد الملك المكتشف في قرية الحير وإلحاق هذا القصر ببناء متحف دمشق الجديد

وقد كتبت الوزارة إلى رياسة مجلس الوزراء للموافقة على هذا المبلغ فعاد الجواب بالموافقة بعد أن اتخذ المجلس قراراً رقم ١٩٥ بهذا الشأن

لذلك أرسلت وزارة المعارف إلى رياسـة المجلس النيابي استناداً على كتاب مدير الآثار بلزوم اعتماد المبلغ المذكور في ميزانية الآثار لتتمكن من إعادة قصر هشام الذي يعد من أكبر الآثار في البلاد السورية ونظراً لقيمته من الوجهة التاريخية والأثرية

مدارس الفوهرر العجيبة

لاتنى النازية الهتلرية تبتكر الغرائب لخلق ألمانيا الجديدة . ومن آخر أنبائها أنها اعتزمت إنشاء أربع مدارس حديثه ليتعلم الشبان فيها مايسمونه هناك Nazi Weltanschauung أو مراقبة التطور العالمى ، أومايعني بالانجليزية World outlook ، إن خاننا التعبير العربى . وستضم كل من هذه المدارس ألف تلميذ من خيرة شباب ألمانيا ؛ ويختار طلبتها بشروط خاصة من حيث الذهن والجسم . ويمكث تلاميذ كل مدرســة عاماً واحداً فى مدرستهم ينقلون بعده إلى مدرسة أخرى — فيبدأ التلاميذ تعلمهم فى مدرسة بوميرانيا التى تبعـد عن شمال برلين أربع ساعات بالقطار ، ثم ينقلون إلى المدرسة الثانيـة عند الحدود البلجيكية ليلبثوا بها عاماً ينقلون بعده إلى المدرسة الثالثة عند شاطئ بحيرة كونستانس فى أقصى الجنوب ، ثم ينقلون إلى مدرسة مارينبرج عند الحدود الشرقية . وسيتعلم التلاميذ فى هذه السنين الأربع أرق الأساليب السياسية وفن الحيـاة على أن تناط بهم بعد تخرجهم كل الوظائف التى يراد بها تنوير الشعب وقيادته وبث روح الوطنية بين أفراده . ومعنى هذا أن يأتى يوم لا يتولى وظيفة من وظائف الدولة رجل جاهل بما تتطلبه الدولة ويقتضيه مستقبل ألمانيا ... أما كيف يعـد الأطفال للالتحاق بهذه المدارس فتتولى الدولة انتخاب الصبية فى سن العاشرة على أن تلحقهم بمدارس خاصة حتى يبلغوا الثمانى عشرة ، ثم ينخرطون بعد ذلك فيما يسمى (معسكر العمل) حيث يقضون ستة أشهر يباشرون خلالهـا أعمالاً عامة تعودهم شظف العيش والحياة الخشنة ، حتى إذا انتهت الأشهر الستة انخرطوا فى صفوف الجيش حيث يعملون فى فصائله المختلفة لمدة عامين يلتحقون بعدهما فى وظائف الدولة لمدة سنة يستطيع كل منهم خلالها أن يتزوج ويكون أسرة ؛ فاذا تصرم العام اختير من بين الجميع ألف طالب كدفعة أولى لمدارس الفوهرر ، ويطلق عليهم حينئذ لقب Junkers أو الشباب (الجنتلمان) — وسيتحرى فى اختيار هؤلاء أن يكونوا جميعاً من طول واحد ، وأن تكون صدورهم من مقاس متفق عليه ، وأن يكونوا ألمانيين خلصاً ومن جنس نوردى آرى لم يمتزج بدم جنس آخر إلى ما قبل سنة ١٨٠٠ ... وسينشئون فى هــذه المدارس تنشئة أسبرطية بكل معانى الـكلمة فيزاولون الرياضة ويشبون على الشجاعة والإقدام والتضحية

أما المنهاج الدراسى ، فسيتعلم التلاميذ فى مدرسة بوميرانيا ثقافة العصرين الحجرى والحديدى ... وبالطبع سيقحم مجد ألمانيا فى هذين العصرين إقحاماً قومياً ... وفى مدرسة الحدود البلجيكية سيلقنون دروساً فى الديانة المسيحية باعتبارها إحدى السياسات التاريخية فينقد المذهب البروتستانتى كما ينقد المذهب الـكاثوليكى بحرية مطلقة ... أما فى مدرسة الجنوب الباڤارية فسيتعلمون النازية الحديثة وعلم الأجناس الجديد من وجهة النظر الهتلرية ... فاذا ذهبوا إلى مدرسة الحدود البولندية تعلموا ثمت فنون الدعاية الجديدة والمشروعات المتعلقة بسياسة ألمانيا الشرقية كما تناولها هتلر فى الـ Mein Kampf

وليتساءل القارىء بعد هذا : إلى أين تسير ألمانيا ؟ !

جوائز جونكور وفمينا

منحت أكاديمية جونكور أخيراً جائزتها السنوية للـكاتب البلجيكى شارل بلسنييه Ch . Plisnier من أجل كتابه «الزواج» Mariages الذى صدر منذ عام ؛ وهذه أول مرة تمنح فيها هذه الجائزة الفرنسية كاتباً غير فرنسى ، وليس فى قانون أكاديمية جونكور ما يحرم نيل جائزتها على غير الفرنسيين ؛ ولـكنها تجرى في ذلك منذ نشأتها على تقاليد الأكاديمية الفرنسية التى تقضى بألا يتشرف بعضويتها غير الفرنسيين . ولـكن حدث فى صيف هذا العام أن زار وفد كبير من أعضاء الأكاديميـة البلجيكية زملاءهم أعضاء الأكاديمية الفرنسية ، وكانت الـكاتبة الشهيرة كوليت قد منحت عضوية الأكاديمية البلجيكية ، لأن النساء لا يقبلن فى الأكاديمية الفرنسية ، فرأت أكاديمية جونكور من جانبها أن تخرج على تقليدها القديم ، وأن تمنح جائزتها للـكاتب المتفوق فى الـكتابة بالفرنسية ، واختارت لذلك شارل بلسنييه

ونالت مدام رايمون فنسان جائزة « فمينا » عن روايتها « الريف » Campagne ، وهي كما يدل عنوانها قصة تصف الحياة الريفية . وقد نشأت مدام فنسان نشأة ريفية ولم تتلق دراستها المدرسية إلا فى سن متأخرة ، ولـكنها تتمتع بمواهب أدبية بديعة

ونال الـكاتب الناقد رومان روسل جائزة الحلفاء الأدبية عن روايته « واد بلا ربيع » La Vallèe Sans Printemps



أبو تمام والمقتطف

لأستاذ جليل

قالت مجلة (المقتطف)(١) الغراء فى حديثها عن كتاب (أخبار أبى تمام) للصولى : « أبو تمام أمير من أمراء العصر العباسى ، خرج لأهل عصره بجديد لم يألفوه فخرجوا عليه ، وساعد فى ذلك وجود البحترى فناصره الناس ، وفضلوا رقته ورشاقة ديباجته على تعاظل أبى تمام وتعمقه ، وطالت الخصومة ، وكسب الأدب منها ما كسب من كتب النقد ، وكان مما كسبه كتاب الصولى الذي أراد به الانتصار لأبى تمام على كتاب الآمدي (الموازنة بين أبى تمام والبحترى) الذى ناصر فيه مؤلفه البحترى

***

قول المقتطف : (أبو تمام أمير من أمراء العصر العباسى) فيه بعض التسامح ، فما كان حبيب أميراً من الأمراء ، وما ترفعه عندنا إمارة ، ولن تخفضه قروية ؛ وفلاح عامل أو عالم خير من آلاف من أمراء أغبياء كسالى ، وقد كان ابن أوس فلاحاً ابن فلاح من قرية جاسم

***

قول المقتطف : (خرج لأهل عصره بجديد لم يألفوه فخرجوا عليه) فيه لبس كثير ، فقد جاء أبو تمام بما جاء به ورأى الناس إبداعاً ونبوغاً وعبقرية فبهرهم ذلك واستجادوه واستجزلوه وتقبلوه (ولم يخرجوا على صاحبه) ولم ينكر ذاك الشعر العُلْوى(٢) العبقرى ولم يعبه إلا جاهل أو حاسد أو عدو . ومتى تخلص النابغون أو العبقريون من منا كرين ومعادين ؟ وإن عاب الطائى مثل ابن الأعرابي ودعبل فقد أجله أيما إجلال مثل المبرّد وابن الزيات . وقصة أرجوزة حبيب وابن الأعرابى (وهى مشهورة) تبين مقدار المداوة إذا اشتدت وجارت . ودعبل، أقواله وأهاجيه مساخر دعبلية ... وقد أعلن أبو الفرج فى كتابه (الأغانى) والصولى فى (أخبار أبى تمام) مقاصد ناقدين فى نقدهم جبياً .

قال أبو الفرج : « هم أقوام يتعمدون الردىء من شعره فينشرونه ويطوون محاسنه ، ويستعملون القحة والمكابرة فى ذلك ليقول الجاهل إنهم لم يبلغوا علم هذا وتمييزه إلا بأدب فاضل وعلم ثاقب » وقال الصولى : « صنف ألّف فى الطعن عليه كتبا ليجرى له ذكر فى النقص إذ لم يقع له حظ فى الزيادة ، ومكسب بالخطأ إذ حُرِمَه من جهة الصواب » وإن شاعراً أخمل فى زمانه ثمانمائة شاعر — إلا واحداً — كلهم مجيد لا يستبدع أن يعاديه معادون ، ويبنحه شويعرون ، وينفر عليه ويغلى شعراء مبرزون . ومن يقرأ شعر ابن الرومي فى البحترى يستعجب ويستغرب فى الضحك ، يقول فى مقطوعة خلاصتها : « أن الشاة لا تجزع من ألم الذبح ولا السلخ لكنها تشفق أن يكتب فى جلدها شعر البحتري »

***

قول المقتطف : « فناصر الناس البحترى وفضلوا رقته ورشاقة ديباجته على تعاظل أبى تمام وتعمقه » هذا القول هو الظلم العبقرى (١) ، وللمعاظلة معانٍ كلُّها شر ؛ والتعمق هنا هو التنطع . وهذا تصوير لشعر ابن أوس مستشنَع ، ووصف منكر . ولوقالت (المقتطف) وفضلوا رقة البحترى على جزالة أبى تمام لا قتربت من الحق ، فقد قال صاحب (المثل السائر) : « اعلم أن الألفاظ تجرى من السمع مجرى الأشخاص من البصر ، فالألفاظ الجزلة تتخيل فى السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار ، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوى دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج ؛ ولهذا ترى ألفاظ أبى تمام كأنها رجال قد ركبوا

(١) جزء دسمبر ٣٧ (٢) شعر علوي : عالى الطبقة

(١) الظلم العبقرى : الشديد قال : ظلم لعمر الله عبقرى

خيولهم ، واستلأموا سلاحهم وتأهبوا للطراد . وترى ألفاظ البحتري كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلى [١] » وهى طبيعة المرء (أو مزاجه) تدعوه إلى طريقة فى القول بل عقيدة فى الدين فيستفيد لها ويستجيب . ولن تضير ذا الرقة رقته ، ولن تعيب ذا الجزالة جزالته ؛ وقوة حبيب ماحرمته لطفاً ، وسهولة البحترى ما منعته فحولة . فوصف صاحب المثل هو قول عدل فى شعر الطائيين من جهة الألفاظ ؛ وأما من جهة « الاستخراجات اللطيفة والمعانى الطريفة » كما يقول المبرد أو لطف المعاني وسموها أوالعبقرية الشعرية ، فالبحترى دون أبي تمام ، والوليد في ذلك تلميذ حبيب . وما أصدق البحترى إذ يقول : « أنا والله تابع لأبى تمام ، لائذ به ، آخذ منه ، نسيمى يركد عند هوائه ، وأرضى تنخفض عند سمائه [٢] » وفى (الموشح): « سرقات البحترى من أبي تمام نحو خمسمائة بيت » وعندى أنها أكثر مما قال . وهنا نكتة تروى فى هذا المقام : رآنى ذات يوم أديب شاعر أقرأ فى كتاب فقال : ماهذا ؟ قلت : شرح ديوان أبى تمام . فلما أبصر الكتاب وعرفه قال : هذا ديوان البحتري. قلت : نعم . ففهم النكتة . وليس القصد من هذا الكلام تنقص البحترى وتهجينه ، بل تقرير الحق وتبيينه . والبحترى هو صاحب القول الطل الجميل ، وهو فى الشعر العربى ثالث ثلاثة ما جاء قبلهم ولا بعدهم مثلهم . وأستاذ الاثنين — على إبداعهما وعلوهما — هو حبيب . وإن شئت فقل كما قال المتنبى : « حبيب أستاذ كل من قال الشعر بعده [٣] » وأبو الطيب يدرى بما يقول ، ويعرف ما يعنى ، وهو خرّيجه وإن لم يَجْثُ بين يديه ، ومعانى أبي تمام فى أبيات المتنبي سوافر غير متلثمات ، ينطقن بالحق فصيحات

وعناية حبيب بألفاظه مثل عنايته بمعانيه لا كما جاء فى (موازنة الآمدى) : « إن اهتمامه بمعانيه أكثر من اهتمامه بتقويم ألفاظه ، وأنه إذا لاح له المعنى أخرجه بأى لفظ استوى من ضعيف أو قوى » فإن هذا قول باطل ، الحق يعانده ، والأدلة تُدحضه ، وسبك حبيب العجيب يكذبه ؛ فليس فى العربية شاعر احتفل فى المعنى واللفظ معاً احتفال أبى تمام ، فهو إذا غزا المعنى العالى أنزله من اللفظ فى خير مكان ؛ فهو محكم المعنى مرصّن اللفظ « وإذا لم ينهض بالمعنى الشريف الجزل لفظ شريف جزل لم تكن العبارة واضحة ، ولا النظام متسقاً ؛ وتضاؤل المعنى الحسن تحت اللفظ القبيح كتضاؤل الحسناء فى الأطمار الرثة » [١] . وفى (العمدة) لابن رشيق قال : «قال بعض من نظر بين أبى تمام وأبى الطيب : إنما حبيب كالقاضى العدل يضع اللفظة موضعها ، ويعطى المعنى حقه بعد طول النظر والبحث عن البينة ، أو كالفقيه الورع يتحرى فى كلامه ويتحرج خوفاً على دينه ؛ وأبو الطيب كالملك الجبار يأخذ ماحوله قهراً وعنوة ، أو كالشجاع الجرىء يهجم على ما يريده لا يبالى ما لقى ، ولا حيث وقع »

وقد حقق حبيب جل شعره ، وأحكم نظم أكثره ، وله المتوسط ، وله الردىء ، والجيد جيد ، والغث غث ، فصف كلا بصفته ، ولا تلبس الحسن بالقبيح ، وخذ الطيب وذر الخبيث ، « وليست إساءة من أساء فى القليل وأحسن فى الكثير مسقطة إحسانه » كما قال أبو الفرج

* * *

قول المقتطف : (وكان مما كسبه كتاب الصولى الذى أراد به الانتصار لأبى تمام على كتاب الآمدى : الموازنة بين أبى تمام والبحترى) فيه تسامح كثير ، فقد ألف الصولى كتابه والحسن ابن بشر الآمدى شادٍ لم يجادل ولم يوازن ولم يؤلف شيئاً . وليس فى الكتابين دليل على أن أحدهما قصد مناقضة الآخر . فالصولى ينعى على جماعات مقالات لهم زائفة ، والآمدي يوازن بين الطائيين وضلعه مع الوليد على حبيب . وممن يعنيهم الصولى أدعياء فى الأدب أو علماء من دعاة القديم ، والآمدى أديب يكبر الشعراء المحدثين .

* * *

المقتطف مجلة أجلها ، وكيف لا أعظم صحيفة كريمة منشئها علامة العرب ومعلمهم (الدكتور يعقوب صروف) لكنها قالت فقلت

قارىء

(١) راجع (زهر الآداب) الثالث ، (الصفحة ٢٠) : (أبو تمام والبحترى) فهناك حديث طريف يبين شيئاً من قدر حبيب
(٢) الموشح للمرزبانى (٣) الصبح المنبى

(١) العقد ، والعبارة الأخيرة من قول أبى تمام :
كسيت سبائب لؤمه فتضاءلت كتضاؤل الحسناء فى الأطمار

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧


العدد ٢٣٦
الرسالة

6 me Année, No. 236

Lundi - 10 - 1 - 1938

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ٢٣٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ٨ ذى القعدة سنة ١٣٥٦ — ١٠ يناير سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـــرس

التأليف والنشر فى مصر

للدكتور عبد الوهاب عزام

حدثنى بعض الأصدقاء أن أحد أصحاب المعالى وزراء الدولة فى الحكومة القائمة دعا إليه جماعة من الكتاب وحدثهم فى تنشيط التأليف فى مصر ومكافأة المؤلفين ووعد فى هذا وعوداً حسنة الخ

وهذا رأى محمود نرجو أن يتلوه العمل فيؤتى ثمراته بعد حين ؛ وهذه فرصة أنتهزها للتنبيه إلى أمر طالما أهمّ المفكرين من قراء العربية فى الشرق والغرب ، وطالما ترددت منه الشكوى وأُخِذت به مصر قبل الأقطار الأخرى ؛ ذلكم أمر النشر نشر الكتب القديمة والحديثة التى مات مؤلفوها . فهو أمر تتحكم فيه الفوضى . يستطيع الواحد من تجار الكتب أن يعمد إلى كتاب من الأمهات فى الأدب أو التاريخ أو غيرهما ، ويعهد به إلى من يصححه ويقدمه للطبع . وحسب هذا المصحح أن يستطيع قراءة الكتاب قراءة يتصرف فيها خياله وحظه القليل من العلم ، ونشاطه التى تحده المكافأة القليلة التى ينالها من الناشر ، ووجدانه الذى لا يحفل بالأمانة العلمية كثيراً . وأحياناً يتصدى لنشر الكتب بعض العارفين بأساليب النشر الحديثة ، فيعهد بتصحيحه إلى بعض الأسماء النابهة ، ويتخذ من وسائل الترويج

مايشاء له طمعه فى الربح والصيت ؛ فيستبشر الأدباء ويرجون خيراً ويتربصون على قلق حتى يظهر الكتاب فيكبوا على قراءته ، فإذا الأمر لا يعدو ما ألفوه من طرق النشر التى لا تصوّب غلطاً ، ولا تزيل شكاً ، ولا تنال طمأنينة القارئ

لا يجوز الباحث أن يتابع الأدلة من الكتب المشوّهة ، أو الكتب التى بذل فى تصحيحها جهد قليل قصّر بها دون الغاية :

نشر بعض الناشرين كتاباً قديماً فى الفرق الإسلامية فمرّ على أغلاطه لم يعرض لها وحرّف بعض عبارات ظنها غلطاً وهي صواب . وحسبي أن أذكر من فَعَلاته هذه الواحدة : ذكر المؤلف رجلاً فنسبه إلى قبيلة وقال إنه « من نَوْر هَمْدان » أى قبيلة نَور إحدى قبائل همدان لا من قبيلة نَور الأخرى إحدى قبائل مضر . فحرّف الناشر الكلمة إلى « تنور هَمَـذان » وامتنّ على القراء فى الحاشية بأنه أدرك الحق فى هذه الجملة المحرفة . وأذكر أن ناشراً عمد إلى ترجمة كتاب كلستان للشيخ سعدى الشيرازى الشاعر الفارسى العظيم فطبعــه وكتب على صفحة العنوان : « كتاب جلستان : بقلم العلامة جلستان الفارسى »

وليس العهد بعيداً بكتاب معجم الأدباء ، وما أُهمل من غلطاته ، وحرّف من عباراته ، وزيد عليه من شرح يتجلى فيه الخطأ والفضول . وقد أُخرج للناس فى موكب من التشهير والترويج ، وهو فى الحق حرىّ أن يكون عيباً لمن أخرجه وعاراً على وزارة المعارف التى احتملت التبعة فيه فكتبت على صفحة العنوان : « راجعته وزارة المعارف » . وكنت كتبت خمس مقالات فى نقد الجزءين الأول والثانى ثم وعدت القارئ أن أعود إلى النقد بعد أن تطبع الأجزاء الأخرى لأبين أهى خير من هذين الجزءين أم مثلهما . وأُملى أنى للقراء بهذا الوعد بعد هــذا المطال الطويل . بل كتب الأدب التى بأيدى الطلاب في مدارس الوزارة فيها كثير من الغلط . وإذا وقع الغلط والتحريف فى مثل هذه الكتب فماذا يرجى من الكتب السوقية التى يتولى نشرها تجار أكبر همهم النفقة القليلة والربح الكثير ؟

كان أسلافنا يكتبون الكتب بأيديهم إذ لم تكن عندهم من وسائل الطبع والتصوير ما عندنا . فكان عليهم أن يصححوا كل نسخة من كل كتاب . وقد اضطلعوا بهذا العمل الفادح جهد طاقتهم وبذلوا فيه من فكرهم وعافيتهم ونومهم وراحتهم ما تشهد به آثارهم وأخبارهم . كان المتأدب منهم يقرأ الكتاب على أديب ثقة ، ويكتب عليه أنه قرأه على فلان ، ويغلب أن يكون الشيخ الذى قرىء عليه الكتاب قد قرأه على آخر ، وهكذا حتى تنتهى القراءة إلى المؤلف أو الشاعر أو الكاتب . ويكتب هذا السند المتصل على الكتاب فيعلم قارئه أن بيده كتاباً عُمدة يطمئن إليه ، بل فعلوا هذا فى الدواوين المتواترة التى يتداولها الحفظ والنسخ كل حين كديوان المتنبى . وعندنا اليوم نسخ من الديوان تحمل سندها من أبى الطيب إلى سبعة قرون أو أكثر من بعده . وهذا العكبرى شارح الديوان في القرن السابع لم يجز لنفسه أن يشرحه حتى قرأه على شيخين من شيوخ الأدب : مكى بن ريان بالموصل ، وعبد المنعم بن صباح التيمى بمصر . وقد وضع أسلافنا أصولاً اصطلحوا عليها وسموها «أصول السماع » بينوا فيها كيف يتثبّت راوى الخبر أو راوى الكتاب حتى يتحرّز عن الغلط جهده .

ومن عجيب ما يروى فى هذا ما حدثني به بعض الثقات أن القاضى عياضا ذكر فى كتابه « الإلماع فى أصول السماع » أن أبا علىّ القالى صاحب الأمالى أعار الحكم المستنصر الأموى خليفة الأندلس كتاباً من كتبه وطالت غيبة الكتاب عنه . فلما رُدّ إليه أبطل الرواية به وقال لا آمن أن يكون قد أصابه تحريف وهو فى يد غيرى

ذلكم جهد السلف ودأبهم فى التثبت ، على ما حمّلهم هذا من عناء ونصَب . فكيف وقد تيسر طبع الكتب بما خلقت المدنية الحاضرة من وسائل — كيف نتهاون فى التصحيح والتحقيق فنخرج كتباً تنوء بأغلاطها ؟ إن ناشر الكتاب اليوم يكفيه أن يصحح نسخة واحدة لتصحّ له آلاف النسخ فيتواتر الكتاب ، ويؤمن عليه الغلط والتحريف ، والزيادة والنقص من بَعد . ليت شعرى بأى عذر نعتذر ، وبأى تعلة نتعلل ؟ لا عذر ولكنه التهاون والكسل أو القصور والجهل وليس فيها خيار لمتخير

فالذي نرجوه أن تؤلف الحكومة أو تكل إلى الجامعــة ، تأليف هيئة لمراقبة النشر وبخاصة نشر الكتب القديمة فلا يؤذن لناشر أن ينشر كتاباً حتى تتوثق هذه الهيئة أن القائمين على تصحيح الكتاب أهل لتصحيحه وإخراجه على حال يسكن إليها أولو العلم والأدب . ولهم فى لجنة التأليف والترجمة والنشر أسوة حسنة ومثال صالح

ذلكم أقرب إلى التحقيق ، وأبعد من الفوضى ، وذلكم

فى علييـــن

للأستاذ عباس محمود العقاد

سلفادور مدرياجا أديب اسبانى كان أستاذاً للدراسات الاسبانية بجامعة أكسفورد . ثم ظهر فى عالم السياسة الأوربية على أعقاب الثورة التى قام بها في بلاد الاسبان جمهرة الأدباء والمثقفين ، فمثل حكومته فى عصبة الأمم والولايات المتحدة وفرنسا ، وراجت تواليفه التى تتمثل فيها عبقرية بلاده ، فترجمت إلى معظم اللغات الغربية

وقد لازمته روح الأدب حتى فى أعماله السياسية فرويت له طرائف شتى أثناء المناقشات المحتدمة في مشاكل الدول وأزمات الحكومات ، ومنها أنه حضر « مؤتمر السلاح » وسمع ما يقترحه كل فريق من الدول القوية من تقييد هذا السلاح أو السماح بذاك على حسب اختلاف العدة عند كل فريق ، فأصغى إلى الأعضاء الجادين في مناقشاتهم ومساجلاتهم ثم قال :

« أيذكر مسيو لتفينوف خرافة الحيوانات التى اجتمعت للبحث فى التقليم والتجريد ؟ لقد نظر الأسد فى ذلك المؤتمر إلى النسر ثم قال : علينا أن نلغى المخالب ؛ ونظر النمر إلى الثور ثم قال : علينا أن نلغى القرون ؛ ونظر الثور إلى النمر ثم قال : علينا أن نلغى الأظافر ؛ ونظر الدب إليهم أجمعين ثم قال : بل نلغى كل شئ إلا حق الصراع والعناق ! »

وعجب الناس من هــذه المؤتمرات التى تجتمع ثم تفترق ، وتفترق ثم تجتمع ، وهى لا تأتى بنتيجة وتعلم أنها غير آتيــة بنتيجة . فذهب إليه مراسل بعض الصحف وسأله : ما جدوى كل هذا الاجتماع والافتراق وكل هذا الافتراق والاجتماع ؟ وما يعنى الساسة المحنكون بهذا العناء فى غير طائل ؟ فكان جواب مدرياجا للمراسل :

« أسمعت قصة الصبي اليهودى ؟ إن كنت لم تسمعها فاعلم أن صبياً يهودياً تعود أن يصرف ريالاً أرباعاً ثم يصرف الأرباع سنتيمات ثم يعود فيرد السنتيمات في دكان آخر إلى أرباع فريال صحيح ؛ وهكذا كل يوم بغير تحول ولا انقطاع . فتعقبه بعضهم يوماً بعد يوم ولحق به فى طريقه بين الدكاكين فسأله كما تسألنى الآن : فيم هذا العناء على غير جدوى؟ قال الصبى : لابد من يوم يقع فيه بعض الناس في خطأ حساب ، ولن أكون أنا بعض الناس هؤلاء ! »

وقس على ذلك طرائفه التى يتناول بها معضلات السياسة بين الجد والمزح والنوادر والأمثال

آخر كتاب لهذا الأديب اللبق الأريب ظهر فى اللغة الانجليزية هو كتابه « فى عليين » وهو على هذه الوتيرة محاورات وأمثال ومحادثات وقعت كما تخيلها في عليين بين أرواح العظماء المرفوعين إلى السماء :

منها روح ڤولتير الفرنسى وجيتى الألمانى وكارل ماركس زعيم الاشتراكية وواشنطون ونابليون ومارى ستيوارت ونخبة من طراز هؤلاء

وهى غير مقصورة على أرواح الأموات دون الأحياء ، بل يشترك فيها بعض الاحياء الذين يستدعيهم أولئك العظماء من الأرض فى حالة النعاس أو حالة الغيبوبة

ويدور البحث بين هذه الأرواح فى كل ما يخطر لتلك العقول من مسائل الفن والسياسة والاجتماع ، ويتخلل ذلك كلمات بعضها مخترع وبعضها مما روى عن قائليه أثناء الحياة ؛ وقراءتها من أمتع ما يطلع عليه القارئ فى الأدب الحديث

من أمثلة ذلك أنهم اختلفوا على مشاركة الولايات المتحدة للأوربيين فى حل المعضلات العالمية . فأمر واشنطون باستدعاء روح من رجال مجلس الشيوخ المعارضين فى ذلك . فجاء الروح وكان أول ما استشهد به قول الرئيس واشنطون فى خطاب الوداع ، وجرى الحوار على هذا المنوال

الشيخ – ولم ياسيدي ؟ إن الجواب لظاهر . وتوقيراً لذكرى

أجدر بنا وأولى بسمعتنا ، وأحفظ لتاريخنا وآدابنا . فإن توهم متوهم أن الخطب فى هذا أمر يوكل إلى الزمن إصلاحه ولا يحتاج إلى عناية الأمة والحكومة فليسأل الباحثين من علمائنا وأدبائنا ليشكوا إليه ما قاسوا من الكتب المحرفة ، والنصوص المضللة . وإنا لراجون أن تبادر الحكومة إلى تبشير الأدباء بما تعتزم فى هذا الأمر العظيم ثم تتبع البشرى العملَ والوعدَ الإنجاز

عبد الوهاب عزام

الرئيس واشنطون أعيد كلماته التي يعيها جميع الامريكيين في أطواء القلوب ... لقد قال : « إن لأوربا طائفة من المصالح الأولية التي لا مصلحة لنا فيها أو تكون علاقتنا ، بها جد بعيدة ، ومن ثم تتورط في أسباب الخلاف والشقاق التي لا تنى تتعاقب وتتلاحق ، وهي أسباب غريبة عن شواغلنا ، فليس من الحكمة أن نزج بأنفسنا في غمارها ، ونعقد الروابط المصطنعة بيننا وبينها ، في أحوال سياستها المألوفة أو علاقات الصداقة والعداوة بين أجزائها »

ثم قال : « إن سياستنا هي أن ندير شراعنا بعيداً عن رياح الدول الأجنبية »

فالتفتوا جميعاً إلى القائد واشنطون فإذا به يقول :

واشنطون - يجيب : إنني لم ... متى قلت ذلك ياحضرة الشيخ الموقر ؟

الشيخ - إخالك أنت الرئيس واشنطون . إنك لشبيه بتمثالك ولكن ليس بالشبه كله ، أفأنت الرئيس واشنطون بعينه ؟

واشنطون - نعم ياسيدى : ما يخلد منه

الشيخ - إنى سعيد بلقائك أيها الرئيس . إن الكلمات التي سمعتها هذه اللحظة مقتبسة من خطاب وداعك

واشنطون (متذكراً) - وما ذاك ؟

الشيخ - حسن أيها الرئيس . إنه الخطاب الذى ألقيته لدواع لست أذكرها الساعة ، ولكني أذكر منها أنك ألقيته يوم اعتزمت ألا تغزو ميدان الانتخاب للرآسة

واشنطون - أغزو ؟ أنا ما غزوت قط ميدان الانتخاب ، ولكني أفهم ماتعنيه وإن كانت عباراتك غريبة عنى بعض الغرابة

الشيخ - لم تكن من عباراتك . إلا أننا نحفظ دروسك عن ظهر قلب . لا اشتباك في المسائل الأجنبية !

واشنطون - ومع هذا ياحضرة الشيخ أقول لك إن الابتعاد عن حوافر الخيل سياسة حسنة لصغار الجراء ، ولكنها ليست بالسياسة الحسنة لكبار الأفيال

***

ومن أحاديث الرسالة كلمة توجهها مارى ستيوارت إلى الشاعر جيتى - وهو أستاذها ودليلها في السماء - فتقول له :

« إنك أيها الأستاذ العزيز تطلب « الحرية في النظام » ولكني أرى أن الحرية راجحة على النظام ، لأن الحرية خلاقة موجدة . أما النظام فقصاراه أن يحفظ ما هو موجود ، وهو يحفظ كل شيء ؛ وياله من شيطان مسكين : يحفظ ما يستحق الحفظ وما هو حقيق بالتلف والزوال ، وكأنه ربة البيت المجنونة بالشح والتدبير ، فهو يحيط الحياة بنطاق من حديد ؛ ثم تأتى الحرية - حرية الأرواح القوية - فتحطم النطاق ولا تزال تفتحه فتحاً يوسع أطراف الحياة »

ومن أقوال ماري ستيوارت في هذا الحديث : « ليست الحياة متاجرة ، ولكنها مقامرة . وليست هي مقامرة الرجل مع رجال آخرين ، وإنما هي مقامرة الرجل مع الحياة نفسها »

ويقول فولتير في بعض أحاديثه : « لست أزعم أنني موضع ثقة الإله وأنني مؤتمن على سره كالدكتور جيتى الذى يطلع على الأسرار الإلهية ! بل إنني معترف بقلة الفهم لأساليبه ، ومن ثم لست على يقين من أسباب لجميع هذه الأشياء »

فيقاطعه واشنطون قائلاً : لا بد من أسباب على كل حال .

فتصيح بهم مارى ستيوارت : أفكل شيء يجرى على حكم العقل وحكم أسبابه ؟ ما أحسب ذاك !

فيجيبها كارل ماركس : « ليست الدنيا مستشفى مجاذيب »

فيعود فولتير قائلاً : «أحقاً ؟لست أدرى، ولكن إذا جرت الأمور على هوى أتباعك الاشتراكيين وأتباع الامبراطور - يعنى نابليون - العسكريين . فمن يدرى ؟ »

***

ومن فكاهات فولتير في الرسالة قوله : « إن مذهب الشيوعيين الذين يدعون إلى استيلاء الحكومة على كل شيء لا يختلف عن مذهب الرهبان الذين يقولون باستيلاء الكنيسة على كل شيء » ثم يقول: «إن الشيوعيين هم الطبقة المصرية لطائفة اليسوعيين ! الغاية تبرر الواسطة ، وإلا فالأقوال الحتمية والتعميم والطاعة ، كأنما الإنسان جثة ميتة باختياره ، وإلا فهو جثة ميتة على الفور بغير اختيار ، ولا احتمال لمذهب غير المذهب ، ثم لا بد من تسليم البضاعة ... »

***

ويدور بعض الأحاديث في الرسالة عن الحرب كما يلي :

كارل ماركس - حرب . حرب . في أوربا كثير من أسباب الحرب غيرى أنا ...

جيتى - على التحقيق ، ولكن أوربا كانت تعالج إصلاحها ومحوها ، وإليك مثلاً عصبة الأمم

كارل ماركس - فشل كامل !

جيتى ـ أتراك تنفض يديك من الشيوعية عند أول تجربة فاشلة ؟

كارل ماركس ـ كلا ! لأننى موقن بنجاحها الأخير

جيتى ـ وكذلك نجاح العصبة الأخير لا شك فيه

نابليون ـ لا . لا يا دكتور جيتى . هذا يدهشنى أن أسمعه من رجل حكيم كما عهدتك

جيتى ـ إنما دهشتى من دهشتك

نابليون ـ نهاية كل قول أن الحضارة قائمة على القوة

واشنطون ـ كلا . بل الحضارة قائمة على العقيدة

كارل ماركس ـ العزة الإلهية مرة أخرى !

واشنطون ـ ليس هذا ماعنيت الساعة يا سيدى . وإن كنت أرى أننا لو تعمقنا فى الرأى الذى أبديته فنحن منتهون لا محالة إلى العزة الإلهية

نابليون ـ ولكنك حين تقول إن الحضارة قائمة على العقيدة أيها الجنرال ماذا تريد ؟

واشنطون ـ أعنى الصلة الروحية التى تبعث الناس إلى عمل يعلو على مآربهم الحيوانية القريبة . أفتحسب أن جنودك ماتوا من أجلك لأنك أكرهتهم على ذلك ؟

نابليون : إنما أحسب جيشى دعامة حضارتى ، وإن جيشى على كل حال قوة !

واشنطون ـ ما كان جيشك إلا شجاعة ، وإيمان بك ، وحب لفرنسا

نابليون ـ ومدافع وذخائر وطعام

واشنطون ـ كل أولئك « مادة ميتة » بغير العقيدة

نابليون ـ أتريد عقيدة بغير مدفع ؟

واشنطون ـ خير من مدفع بغير عقيدة

جيتى مخاطباً نابليون ـ فالى يا سيدى ! تذكر معركة فالى ؟ لقد غلبت العقيدة بغير المدفع على المدفع بغير العقيدة فى تلك المعركة . إننى معك أيها الرئيس ، وإنى لشاكر لك إجابة الامبراطور وإن كان توجيه سؤاله إلى لعجبه من إيمانى بعصبة الأمم . ولقد أردت أن أقول له إننى لم أؤمن بالعصبة إلا لإيمانى بأن الجماعة من الناس ينبغى أن تبادر إلى حكم نفسها ساعة وجودها أو ساعة شعورها بوجودها ، فأما وجد الشعور بالجماعة الدنيوية فالحكومة الدنيوية لابد لها من وجود »

***

ومناقشة أخرى تدور بين فولتير وكارل ماركس عن سخافة الروايات الروسية الحديثة ، فيشير ماركس إلى أسباب اقتصادية لسخافتها ، ويعود فولتير فيقول :

فولتير ـ حتى تثبت أن غباوة جماهير المدينة نجمت من أسباب اقتصادية

كارلس ماركس ـ حقيقة ذلك ظاهرة

فولتير ـ بل هى على نقيض ذلك ، فما الأسباب الاقتصادية إلا وقائع ثانوية ؛ أما الوقائع الأولى فهى دوافع النفوس

كارل ماركس ـ كلمات وليس إلا كلمات

فولتير ـ أأنت فأر مدينة أم فأر خلاء ؟ تلك حقيقة ثانوية أما الحقيقة الأولى فهى أنك فأر على كل حال »

***

وجيء إلى السماء بوليام جننجز بريان الذى حارب أستاذاً لأنه علم مذهب داروين فى بعض المدارس الأمريكية

قال فولتير ـ فما هو إلا أن ارتفع إلى هنا حتى مثل بين يدى العزة الإلهية . فتهلل وليام جننجز بريان بشراً ، ولكنه لم يلق ترحاباً من جانب العزة الإلهية . فقال وهو فى حماسة تشغله أن يلمح ما حوله من قلة الترحاب فى هذا الجو لأنه قد صعد فى الأرض بحماسة كافية لاجواء عديدة : رب . هأنذا . لا يزال يغشانى غبار المعركة . لقد كانت حرباً زبوناً ، ولكن الظفر كان لنا

فأجابه الله بصبره السماوى ـ إن لغة المعركة والحرب والظفر لا تعجبنى

قال بريان ـ لكنك يا ألله رب الجنود . أو ليس هذا اسمك فى كتاب العهد القديم ؟

قال الرب فى حلمه السرمدى بلطف ما به : لقد كنت يومئذ ناشئاً ألهم أنبياء اسرائيل الهام الناشئين ! ولعلك نسيت أننى أرسلت إليكم منذ عشرين قرناً رسول حب وسلام

فحار بريان ثم توسل قائلا وهو فى ريب مما يسمع : ولكني يا رباه قد حاربت أعداءك

فوسعه حلم الرب وسدده إلى الصواب وهو يوحى إليه أن

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ٥ —

أخبار قصيرة

١ — إعترضت مجلة الحاصد على عبارة «ليلى المريضة بالعراق» وقالت : إن البيت المشهور يجعلها مريضة فى العراق لا بالعراق، وتسألنا عن معانى الباء، ولكنا نعرف أن الجدل فى النحو أخرج سيبويه من بغداد وهو محموم، فلنصرح بأن الباء فى العنوان القديم لم يكن لها فى ذهننا معنى غير الظرفية، على حدّ ما قيل

ليس لى يا بنى أعداء . كل مالى يابنى خلائق

فاضطرب الكتابى المسكين والشك يأكل قلبه، وصاح : لكن آراء دارون رباه تخالف أقوال كتابك

فأكد له الله قوله فى حلم وحزم : « كل ما أخلص كاتبوه فى كتابته فهو وحى من عندى، وكل ما استقام على الصراط فهو من مصدر الاستقامة »

* * *

وفى بعض المحادثات يقول ماركس لجيتى: إن من يعمل يعيش. فيقول جيتى: إنك إن أقمت حق العامل على عمله لا على صنعته الإنسانية قتلته، ولا سيما حين تكثر الآلات وتقل الحاجة إلى الأعمال والعاملين

وهكذا تفيض الرسالة بالطرائف التى لها مثل هذه الطلاوة أو هذه الدقة أو هذه الفكاهة . وقد رأيت أن أشرك قراء العربية فى نصيب منها حتى ينقلها ناقل برمتها وهى قلما تربى على مائة صفحة صغيرة

عباس محمود العقاد

حاشية : للأستاذ أديب عباسى جواب منى على مناقشته التى عقب بها على بعض مقالاتى السابقة . وربما أضفت إلى هذا الجواب بيان ما سأل عنه الأستاذ عبد الحميد العبد وطلب المزيد من شرحه ، وأقول لحضرته إن اسم الكتاب الذى سأل عنه بالانجليزية هو Nations can live at Hone واسم مؤلفه Dr Willcox

ومن يك أمسى بالمدينة رحله فانى وقيار بهـا لغريبُ

فاتركنا ياسيد أنور ما تركناك !

٢ — نشرت جريدة البلاد كلمة لحضرة سكرتير الاذاعة اللاسلكية ينفى بها ما نشر فى مجلة الرسالة عن إغفال أسطوانة السيدة نادرة :

يقولون ليلى فى العراق مريضة فياليتنى كنت الطبيب المداويا

ويؤكد أنه لم تصدر أية إشارة من أية جهة بمنع هذه الأسطوانة من الاذاعة، ونجيب بأننا سمعنا ذلك الكلام من ليلى وهى عندنا أصدق

٣ — كثر الاستفهام عن السيد الذى يقيم بالكاظمية والذى تفضل فهدانى إلى منزل ليلى، ولكن لذلك السيد مكانة اجتماعية تجعل من العسير أن نصرح باسمه فى هذه الأحاديث الوجدانية

٤ — طلب جماعة من أدباء بغداد أن أعلن أن ليلاى غير ليلى الزهاوى، فان الزهاوي كانت ليلاه هى العراق، وأنا أصرح بأن ليلاي فى بغداد هى ليلى المريضة فى العراق، وهى معروفة لجميع الناطقين بالضاد

* * *

وبدت لى ظمياء فتاة شاعرة العواطف حين وصفت آذار بأنه شهر الأزهار والرياحين . وغلب الأدب على الطب فأحببت أن أعرف كيف رأت مصر وكيف رأت النيل . والحق أن ظمياء فى جوهرها فتاة مليحة، ولكنى أغالب نفسى فأقول إنها شوهاء مداراة للمرأة جميلة التى تفحص أسارير وجهى بعينين كأنهما عينا العُقاب، وما أدرى والله كيف نجحت في اصطناع التجمل والتوقر وكنت طول حياتى مفضوح النظرات

— ظمياء

— نعم يا مولاى

— كيف كان طريقكما إلى مصر يا بنيّتى ؟ بالسيارةِ أم بالطيارة ؟

— لم يكن السفر بالطيارة مألوفاً فى سنة ١٩٢٦ وإنما ذهبنا بالسيارة إلى الشام، ثم اخترقنا فلسطين حتى وصلنا إلى قناة السويس، وقد قضينا على شاطىء القناة ثلاث ساعات مرت كلمحة الطرف بفضل ما غرقنا فيه من التأملات

— وهل التأمل يقصر الوقت يا ظمياء ؟

— لا أعرف يا سيدى الطبيب ، وإنما أذكر أن ليلى كانت تحفظ قصيدة شوقي في قناة السويس فظلت تنشد طول الوقت وهي في حلاوة الرشأ النشوان

— لا أعرف أن لشوقى قصيدة فى قناة السويس ، وإنما أعرف أن له فيها آية من آيات النثر الفنى

— لا . يا سيدى ، هي قصيدة

— هل تحفظين منها شيئاً ؟

— أحفظ المطلع :

تلك يا ابْـنَيَّ القناه لقومكما فيها حياه

— هذه ليست قصيدة يا ظمياء

— ليلى تقول إنها قصيدة

— القول ما قالت ليلى ! ثم ما ذا يا ظمياء ؟

— كانت ليلى تنشد ما تنشد ثم تحاورنى فى أمر المصريين الذين حفروا القناة ، ومن رأى ليلى أن حفر القناة أعظم عمل قام به المصريون فى التاريخ

— ولكنها أضرت مصر يا ظمياء

— هذا يا سيدى كلام الساسة لا كلام الأطباء . وهل يضر مصر أن تكون صاحبة الفضل على العالمين فتنشىء من المرافق ما بخلت به الطبيعة القاسية على الانسانية ؟ إن الحياة يا سيدى الطبيب لا تنهض إلا بفضل التضحية ، وقد ضحت مصر بمالها وسلامتها فى سبيل الانسانية ، وسيجزيها الله على ذلك خير الجزاء

— هذه فلسفة يا ظمياء ، وما تهمنى الآن ، ثم ماذا ؟

— ثم دخل الليل ونحن على الشاطىء ، وطلع القمر فتحول الوجود إلى موجة فضية تفتن القلوب ، ونظرت إلى ليلى فرأيت انعكاسات القمر على وجهها آية من آيات السحر والفُتون

— دخلنا فى الغزل يا ظمياء

— أنت الذى شجعتنى على الوصف يا مولاى

— اسمى ، هنا سؤال مهم : هل رأيت ليلى على القناة فى حال تختلف عما كنت تعهدين وهى فى بغداد ؟

— أنا أصغر من ليلى سنًّا كما تعرف

— مفهوم ، مفهوم ، وهل تخفى على مثلى هذه الفروق !

— لم أكن أعرف يومئذ ما هو الحب ، لولا علاقة سطحية بابن عمي عبد المجيد

— يظهر أنك فتاة متعبة وحمقاء . ماشأنى بعلاقاتك السطحية أو العميقة مع ابن عمك عبد المجيد ؟

— أنا أريد يا سيدى أن أقول إنى لم أكن يومئذ أدرك كيف تتغير أسارير الفتاة حين يطلع القمر ، أو حين يهب النسيم ، وإنما فطنت إلى ذلك بعد ما ثارت العواصف حول ليلى . وأقول لك إنى فهمت الآن أن ليلى كانت تتأهب لحب مجهول ، فقد كان للقمر على وجهها أضواء وظلال يطير لهما لب الحكيم ، وقد مددت ذراعىّ فطوقتها فانعطفتْ علىّ وقبلتنى قُبلة عطف لن أنساها ما حييت !

« وهنا تذكرت الوجه الذى كان القمر يسبغ عليه ألوان الأضواء والظلال ، وجه الانسانة النبيلة التى أتحفتنى بصورتها الغالية لأدفع بها ظلام الليل فى بغداد . وكدت أتنهد ثم تماسكت ولى قدرة على ضبط النفس فى بعض الأحوال »

— كفى ، كفى

— تحب يا سيدى أن أصف كيف رأينا القاهرة أول مرة ؟

— إن كنت تحبين ذلك ...

— أحب أن أقول لتسمع الست جميلة ، فهى تحب ذلك

— وأنا أيضاً أحب أن أسمع وصف القاهرة ، فقد طال شوقى إلى القاهرة

— تعرف يا سيدى محطة باب الحديد ؟

— أراها يا بنيتى فى طيف الخيال !

— لقد أرهقنا الحمالون ...

— أنت يا ظمياء تتكلمين بلغة السائحين . إن لمحطة باب الحديد سحراً لا تعرفينه يا حمقاء .

« ثم سكتّ لحظة ، فقد تذكرت أنى زرت تلك المحطة أكثر من مئة مرة على غير ميعاد ، لأشهد أسراب المودعين والمودعات فى القطار الذى يقوم إلى بور سعيد كل مساء . وتذكرت أنى كنت أضحى بمكانى فى قطار البحر فلا أصعد إليه إلا بعد أن يدق الناقوس لأمتع عينى وقلبى بالحسن الذى يموج

فوق الرصيف . وتذكرت الفتاة التي استقبلتها في تلك المحطة عند منتصف الليـل في الشتاء الماضي ، تلك الفتاة التي جاءت من نورمنديا خاصة لتزور مي الأهرام في ليـلة قمراء . تذكرت وتذكرت حتى كاد يفضحني الدمع ، ولله الأمر من قبل ومن بعدُ ، وهو وحده يعلم ما يقاسي قلبي من الغربة بين القلوب »

— ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم اخترقنا شارع كامل

— هو اليوم شارع إبراهيم

— أفادك الله !

— يا لئيمة ، فيك أشياء من دعابة بغداد !

— ثم نزلنا عند أسرة عراقية تقيم في شارع قصر النيل ، وكانت ليلى قد تعبت فظلت في البيت يومين كاملين

— وهل في الدنيا إنسان يرى القاهرة أول مرة ثم يحبس نفسه في البيت يومين ؟

— قلت إن ليلى كانت تعبت ، والحق أن ربة البيت التي نزلنا فيه نهتنا عن الخروج ، لأننا نزلنا القاهرة ملفوفتين بالثياب على نحو ما ترى عقائل بغداد ، وكانت تلك السيدة تخشى إن خرجنا بتلك الصورة أن يرانا الجمهور من الغرباء ، والغريب لا يسلم من فضول النـاس . وفي يومين اثنين أحضرت تلك السيدة الكريمة ما ترى أن نلبس من الثياب . أما أنا ففرحت بثيابي ورأيت أني تجددت ؛ وأما ليلى فقد غضبت أشد الغضب وأعلنت أن الخروج بهذه الثياب ينافي الحياء . وفي الحق أن ليلى بدت في تلك الثياب كالحورية الهاربة من الفردوس ، فقد كان يجب أن تمشي في الجادّة [1] وهي سافرة الوجه ، وكان الثوب المصري يكشف بعض الطلائع من صدرها الجميل . ولو رأيت ليلى في تلك الساعة وهي غاضبة لرأيت العجب العجاب ، فقـد توهمت المجنونة أن الشبان المصريين سيخطفونها حين تقع أبصارهم على حسنها المرموق ، وبلغ بهـا الوهم أن تزعم أن خطفها سيكون فضيحة للعراق

وعندئذ قهقهت ربة البيت وقالت : « اسمعي يا ليلى ، إن المصريات لا يخرجن إلى الشارع بهذا الثوب وإنما يلبسن فوقه المعطف . فسكنت ليلى قليلاً ، ثم لبست المعطف فوق الفستان ، ونظرت في المرآة فرأت أن حالها مقبول ، ولم تر بأساً من الخروج بهذه الصورة لرؤية المعرض»

— ثم ماذا ؟

— وخرجنا فعبرنا جسر قصر النيل

— هو اليوم جسر اسماعيل

— أفادك الله !

— يا مضروبة ، هل تخرجتِ في الأزهر الشريف !

— دخلنا المعرض ، أو دخلت أنا ثم تبعتني ليلى ، وقد كانت على غاية من التهيب والاستحياء ، ثم رأينا أفواجاً من الشبان قيل إنهم طلبة الجامعة المصرية وعلى رأسهم أستاذ يشبه سيدي الطبيب

« وهنا ابتسمت ابتسامة خفيفة لأنه لا يبعد أن أكون ذلك الأستاذ ، فقد كنت صحبت جماعة من تلاميذي لزيارة المعرض ، فيهم ابراهيم رشيد وابراهيم نصحي ومحمود سعد الدين الشريف ومحمود محمد محمود ومحمد عبد الهادي شميره ومصطفى زيور وعزيز عبد السلام فهمي ومحمد حمدي البكري وعبد الحميد مندور ومحمود الخضيري ، ويسرني أن أقول إنهم أصبحوا اليوم رجالاً يتشرفون بخدمة الوطن الغالي . ثم شعرت بحسرة لاذعة حين تذكرت أنه كان يمكن الفرار من أولئك الطلبة الشياطين لرؤية من في المعرض ، ولعلني كنت أعثر بليلى فأصبح من أقطاب الشعراء ، ولـكن ما فات فات فاقتل نفسك إن شئت يا صريع الملاح »

— ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم طوفنا بالمعروضات فلم يرقنا غير معروضات سليم عبده

— مات ، يرحمه الله

— يا عيني ، لقد كان رجلاً لطيفاً ، ومن عنده اشترينا أشياء كثيرة ، وقدم إلينا هدايا لا نزال نحتفظ بها إلى اليوم

ـ ثم ماذا ؟

ـ ثم ركبنا القطار ، قطار المعرض ، وكان أمامنا شاب يسارقنا النظر بعينين خضراوين ، فتكلفت الشجاعة وهممت بزجره ، ولـكن ليلى ضغطت على يدي فاعتصمت بالصفح الجميل

« للحديث بقية »

زكي مبارك

(١) الجادة في بغداد هي الشارع

فلسفة التربيـــة

كما يراها فلاسفة الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ٦ —

تطبيقات الديمقراطية على التربية والثقافة المثلى فى جماعة ديمقراطية

« إن الانسانية التى تخلصت من الرق تستطيع التخلص من الحرب »
« سير فردريك بلوك »
« يستطيع التاريخ أن يغير عقل الأمة أو يصلحه تبعاً لطريقة تدريسه »
« موسار »

عرفت فى المقال السابق كيف يؤمن « جون ديوى » وغيره بالديمقراطية كمحور « للحياة المثلى » ، وكيف يريد أن يتخذ من التربية وسيله فعّالة لتحقيق تلك « الحياة » ؛ وسترى فى هـذا المقال ما تتطلبه الديمقراطية فى المعلمين والمتعلمين والمدارس والمواد وطرق التدريس جميعا

١ — فى المعلم

وأنت تعرف من هو المعلم . هو الذي قال فيه شوقى إنه كاد أن يكون رسولا ، وإنه ذلك الذى يبنى أنفساً وعقولا ! ! ؛ ولقـد حاول « فروبل » أن يبرر عمله « العظيم » فقال : « إنه جزء من الكون ، فعمله إذن جزء محدود فى الكون ، ومركزه يلتئم تماماً ومركز الكون ، ولذلك عند ما يفرض قوانينه على الطفل لا يفعل أكثر من إخضاعه لقوانين الوجود الخالدة » ، وقال : « تتعارض القوى فى الطبيعة لتتلاشى وينشأ منها قوة جديدة . وكذلك الأمر بين المعلم والمتعلم » ...[1] هـذا المعلم يجب أن يكون « ديمقراطيا » أولا وقبل كل شئ ، ديمقراطياً فى خلقه الخاص ، وديمقراطياً فى طريقة احتكاكه بالتلاميذ حتى لا يحجر على شخصياتهم . زد على ذلك أن « الدولة » يجب أن تكون « ديمقراطيـة » معه هى أيضاً ! يجب أن تشركه فى وضع « المقرر » ، ويجب أن تطلعه على الكتب المدرسية ، ويجب أن تأخذ رأيه فى أنسب طرق التـدريس لأنه المنفذ الروحى والمادى للخطط الموضوعة ، فما يجوز أن تفرض عليه هذه الخطط فرضا ، ولأنه المتصل بالعقول الناشئة فهو أقدر من غيره على فهم استعدادها ، ولأنه المجرب لهذا النهج أو ذاك فيجب أن يكون لرأيه التقـدير الواجب ؛ أما أن تبعث إليـه البرامج ويساق سوقاً إلى تدريسها ، وأن يُحمل النشء على الرجوع إلى كتب يراها هو غير متمشية وما انتهى إليه من رأى ، وأن يقترح ويكتب ، ويصرخ ويستغيث دون ما جدوى ، كأنما هو فى وادٍ والدولة فى واد آخر — فذلك كما ترى هدم لركن من أركان التربية جدير وخطير ، وإغفال لتجارب ناطقة لا سبيل إلى التقدم السريع إلا بالاستفادة منها[1]

٢ — فى المتعلم

وأما هذا فما يجوز أن يكون شخصيـة سلبية تستمع إلى الدرس دون ما فكر ، وتحفظه وتميه على أساس « الطريقة الصماء » وتذهب إلى المدرسـة كارهة وتخرج منها مسرورة ، فإذا كانت الحياة المستقلة طار العلم وانمحى ، وحل الكسل والفراغ الآثم والاستمتاع الحقير ، هـذا إلى الفشل فى معالجة أهون مسائل الحياة ، وإلى الكبرياء والترفع عن « السوقة » والأعمال الحرة ! أجل ! ... ما يجوز شيء من هـذا ... ! وإنما يجب أن نسير معه على أساس البحوث النفسية الصحيحة التى تقول مثلاً إن « العقل » إذا مر فى الحياة بمشكل راح يحدده ويفكر فى وسائل حله ، فيفترض الفروض ويحققها ويمتحنها ؛ أو أن الشيء لا يثير الاهتمام ولا يعلق بالذاكرة إلا إذا كان شائقاً ومتصـلاً بالحياة اتصالاً وثيقاً ... إلى آخر هذه النظريات التى نعرفها ولا نعرف السبيل إلى تحقيقها ... ! وإذن فلتكن موضوعات الدراسة على هيئة مشاكل يقف الطفـل حيالها « موجباً » أى محدداً ومفترضاً ومحققاً ومجرباً ، ولتكن بقدر الإمكان متصلة بالحياة حوله حتى يستسيغها فى مراحله الأولى ، ويقبل عليهـا بلذة

(١) أنظر فصل الأساس التصورى للتربية من كتاب : J. Adans, Evolution of The Eod. Theory

(١) ونرى من حسن الحظ أن الوزارة عندنا قد بدأت تطبق هذه القواعد تطبيقاً محموداً بما تطلبه من تقارير واقتراحات

وشغف ، وبذلك وبغيره ننتهي إلى جعل « التعليم » عملية لذيذة لا أهوال بها ولا مكاره ، وجعل « المعرفة » متعة سامية بريئة يقبل « المتخرجون » على التزود منها أثناء فراغهم بدلا من الجلوس فى المقاهي وغير المقاهى مما تعرف ومالا تعرف ياقارئي العزيز ! ، هذا إلى خلق الشخصية الديمقراطية التي تتعاون مع غيرها فى المسائل العسيرة كما تعاونت بالأمس فى موضوعات الدراسة ، والتي تستطيع أن تكافح حقاً فى الحياة وتحتقر « الديوان » وتمضى إلى الكفاح بجرأة وبأس وإقدام ...

٣ — فى المدرسة

وأما المدرسة فهى كما تعلم البيئة التي تمدنا للحياة الخارجية ، ولذلك يجب أن يشملها التغيير ، وأن تنقلب انقلاباً خطيراً ؛ ومعنى هذا أن تصبح دار عمل وتجريب شائق لذيذ مجهد كله حرية وتعاون واحترام ؛ ففيها يزرع التلاميذ الشجرة ويشاهدون نموها ويسجلونه قبل أن يقرؤا عنه ، وفيها أدوات البناء والطهي ، والغزل والنسج ، وأشغال الخشب والإبرة وما أشبه ؛ ويقف المدرس هنا ليضع الطفل أمام التجاريب ويشعره بحاجته الماسة إليها[1] . وبذلك تكون المدرسة كما يقول الأستاذ «يعقوب فام»: «صورة مصغرة للمجتمع البشرى ، فهى إذن ليست وسيلة للجمعية البشرية . والفرق بينها وبين المجتمع هو أولاً أنها صورة مصغرة له ، وثانياً أنها يسهل التحكم فى عواملها بخلاف المجتمع ، وثالثاً أنها غير معقدة ؛ فهى ليست إذن مكاناً للتعليم فقط ، وإنما هى للأطفال دنيا يعيشون فيها ويصرفون جهودهم ونشاطهم ثم يتعلمون » ... « ومثل هذه المدرسة لا تشوق دون جهد ، ولا تجهد دون تشويق ، وإنما يتأتى ذلك عن ربط المادة نفسها بحياة المتعلم[2] »

وعلى ذلك لا يكون الطفل فيها دائرة معارف متحركة فحسب وإنما يكون آخذاً بناصية الوسائل والأدوات والمصادر التي تساعده فى البحث الذى يجريه بنفسه متعاوناً ومسترشداً . وهكذا يستطيع أن يعيش وينمو على أساس الديمقراطية والعلم ...

فهنا إذن تعاون بحت ، وتنافس فى الكيف لا فى الكم ، وتعليم للحياة بالحياة ، وعمل منتج ذو غاية ، ودرس لمواد متصلة لا منفصلة انفصالاً لا مبرر له ، واحترام للعمل والعاملين ، واكتساب للنظرة العلمية التجريبية الصحيحة ، علم مقرون بعمل ، وغنى إلى جانب فقير ، وعمل طامح مستبشر يرنو إلى شيء أكثر من ورقة ممهورة بخاتم الوزير !

٤ — فى الثقافة

ويتبقى بعد ذلك أن نقرر روح الثقافة المثلى فى الجماعة الديمقراطية . وحسبك أن تعلم أن هذه الثقافة لا تفرق بين النظر والعمل تفريقاً كبيراً ، وتنظر « للتغير » كقانون عام يتطلب المرونة المطلقة والتجديد السريع ، ولا تأخذ بغير الطريقة العلمية التي لا طلاسم فيها ولا خزعبلات ؛ ولا تفرق بين مسلم ومسيحى ويهودى خشية أن تلوث تاريخ العالم بالدماء كما قد تلوث طوال الماضى الأثيم . الدين عندها لله والجميع لديها إخوان . ثم هى لا تستعبد الفكر قط ، ولا تغرس فيه الأفكار الاجتماعية أو السياسية الخاطئة بالإيحاء الآثم . العقل عندها مقدس فما يجوز أن تشوهه ، ومثلها الأعلى فى قيمة الدراسات هو ما تقدمه من خير يكمل الفرد والجنس[1] ، ومذهبها التوازن بين الجسد والقلب والعقل حتى لا يؤدى الأمر إلى وحشية رائعة من جانب أحد أركان هذا الثالوث ضد الركنين الآخرين[2] وغايتها خلق ذلك الرجل المثقف الثابت فى تتبع ما يريد ، المستعد لتعديل خطته إذا لزم الأمر ، المتفتح العقل لكل ما تقدمه العلوم والفنون ، النابذ للأحكام التقليدية متى ما اقتنع بخطئها ، المرحب بالأفكار الجديدة ، ولكن بعد نقدها وتمحيصها ، المتقدم للمساعدة كلما استطاع ، والمقنع المجتمع بأهليته للثقة والاحترام . ذلك الرجل الذى لا يسيء إنساناً بقصد أو بغير قصد ، والذى يترك مالا يعرف لأنه لا يقوى على معرفته ، والذى هو أبدا مطمئن البال ومصدر راحة لنفسه ولغيره . ذلك الذى هو حكيم لسعة اطلاعه ، والذى لا يحكم إلا بعد تمحيص وروية[3] والذى يحسن مخاطبة الناس جميعاً برقة ولباقة وظرف ؛ والذى يعرف معنى ما يقول ويتكلم بصراحة ووضوح وجلاء ، ذلك الذى يعبر بفكره

(١) أنظر كتاب Ch. Ridery. Classification des Caracters P 194
(٢) أنظر له كتاب التربية والأخلاق

(1) Bode Amode Phelos. Of Ed .
(2) Ch. Mason An essay Towaras a Thilos. of Ed.
(3) Ruediger Principle of Ed ucetion

الزمان والمكان ويفهم نفوس الغير سريعاً . ذلك الذى يعلم شيئاً عن كل شيء ، وكل شيء عن شيء ما ، فلا تكون « الانسانيات » وغيرها عنده مجهولة كل الجهل ؛ ذلك الذى ليس باللاذع في نكاته ، وليس بالمسرف المتبذل فى شهواته ، لأن الجسد عنده هيكل الروح المقدس ؛ ذلك الذي إذا شهد التمثيل المحزن أو المضحك استمع له في صمت وجلال وانفعل فى صمت وجلال ! ذلك الذى لا يذهب إلى الحرب إلا مقتنعاً بجدارة السبب والذى يعيش مسروراً دائماً مهما أخطأ ، فاذا مات لم يطمع فى أن يسجل له ذووه على قبره مفخرة واحدة !! (1)

وهذه الثقافة كما ترى تدعو للعالمية بكافة الطرق ، وتستبدل بأبطال الحرب أبطال الانسانية والعلم ، وتدرس التاريخ تدريساً بعيداً عن العصبيات الوطنية كما نصح المسيو موسار فى مؤتمر التربية الخلقية الذى عقد بباريس منذ أعوام ، أعنى أنها لا تعتبر نابليون بطلاً مغواراً وقائداً عظيماً بقدر ما تصوره مصلحاً لم تبق من آثاره إلا تلك الأعمال السلمية النافعة .

« يتبع » محمد حسن ظاظا

مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية

(1) Sturt & Oakden : Metter & Melhod.

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٢١ —

شاعر الملك فؤاد

وهذا فصل آخر مما يتصل بموضوع الحديث عن الرافعى فى النقد ؛ إذ كان هو أولَ ما بين الرافعى والأستاذ عبد الله عفيفي ؛ فانى لأقدّم به للقول عن خبر ما كان بينهما من الخصومة التى مهّدت للرافعى من بعدُ أن ينشئ كتابه (على السّفود) فى نقد ديوان الأستاذ العقاد

* * *

فى سنة ١٩٢٦ كان ناظر الخاصة الملكية هو المرحوم محمد نجيب باشا ، وكانت السياسة المصرية تسير فى طريق ذى عِوَج ، مهّد لطائفة من رجال الحكم والسياسة أن ينشئوا حزباً ينسبون إليه الولاء للقصر ؛ فهيّئوا لطائفة غيرهم من السياسيين أن يزعموا أنهم أولياء على حقوق الشعب ، حراسٌ على سلطة الأمة ، فنشأت بذلك قوة بإزاء قوة ، وتناظر سلطان وسلطان ، وكان لكل طائفة لسان وبيان ...

فى تلك الآونة ، تقدم المرحوم محمد نجيب باشا إلى الرافعى أن يكون شاعر الملك ؛ فلقي ذلك العطفَ الكريم بحقه من الشكر والرضى وعرفان الجميل

وشاعرُ الملك أو شاعرُ الأمير لقب قديم فى دولة الأدب ، وله فى تاريخ العربية تاريخ ، منذ كان النابغة والنعمان ، وزهير وهرم بن سنان ، والأخطل وبنو أمية ، والنواسيّ وأبو العتاهية فى بنى العباس ، والبحترى فى إمارة المتوكل ، والمتنبي فى بلاط سيف الدولة ؛ إلى شعراء وملوك لا يحصيهم العدّ . ولا ننس فى تاريخ مصر الحديث أن نذكر الشاعرين : أبا النصر ، والليثى ؛ وليس بعيداً عنا أمير الشعراء المرحوم شوقى بك « شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية » ، وقد كان من الولاء والحب لمولاه بحيث لم تطمئن السلطة الحاكمة إلى بقائه فى مصر بعد خلع الخديو عباس ، فنفتْه إلى الأندلس

ولقد كان شاعر الملك قبل الرافعى هو الشاعر المرحوم عبد الحليم المصرى ؛ فلما مات تطلعت إلى موضعه نفوس الشعراء ؛ وكان أكثرهم زلفى إلى هذا المنصب هو المرحوم حافظ ابراهيم ، إذ كان ما يزال فى نفسه شيءٌ يهفو به إليه ، مما كان بينه وبين شوقى من المنافسة الأدبية فى صدر أيامه على رتبة شاعر الأمير

* * *

وعاد الرافعى إلى الشعر بعد هجر طويل ؛ إذ كان آخر ما نشر من الشعر هو ديوان النظرات فى سنة ١٩٠٨ ، ثم لم يقل بعده إلا قصائد متفرقة في آماد متباعدة ، لحادثة تنبعث لها نفسه ، أو خبر ينفعل به جنانه . وكان أكثر ما قال الشعر فيما بين ذلك فى سنة ١٩٢٤ ، فى إبان العاصفة الهوجاء من حبّ فلانة ، وأكثر شعره عنها منشور فى كتبه الثلاثة التى أنشأها للحديث عن هذا الحب ؛ ثم انبعث البلبل ينشد أهازيجه من جديد ، على الشجرة

الفينانة فى حديقة قصر الملك ، فصغت إليه القلوب وأرهفت له الآذان ...

واستمر يرسل قصائده فى مديح الملك لمناسباتها ، من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٠ ، حتى وقع بينه وبين الأبراشى باشا أمر — بعد موت المرحوم نجيب باشا — فسكت ، وعاد ما بينه وبين الشعر إلى قطيعة وهجران ، بعد ما أنشأ الخصومةَ بينه وبين عبدالله عفيفي ... وعند الأستاذ إسماعيل مظهر تفصيل ما سأرويه من خبر هذه الحادثة بعد

* * *

وقصائد الرافعى فى مديح الملك فؤاد نظام وحدها فى شعر المديح : تقرأ القصيدة من أولها إلى آخر بيت فيها ، فتقرأ قصيدة فى موضوع عام من موضوعات الشعر ، ليس من شعر المديح ولا يمتّ إليه ؛ فلولا بيتان أو أبيات فى القصيدة الحسينية أو السبعينية يخص بهما الملك ويمدحه ، لما رأيتها إلا قصيدة من باب آخر ، تسلكها فيما تشاء من أبواب الشعر إلا باب المديح . إقرأ قصيدة الخضراء — يعنى الراية — وقصيدة الصحراء فى رحلة الملك إلى الحدود الغربية ، واقرأ غيرها ؛ فإنك واجدٌ فيه هذا الذى ذكرت ، وواجدٌ فناً فى الشعر تعرف به الرافعى فى المديح فوق ما عرفتَ من فنونه ؛ فإذا حققتَ هذه الملاحظة فى مدائح الرافعى وثبتتْ عندك ، فارجع إلى تاريخ هذه الفترة من السياسة المصرية ثم التمسْ لها تفسيراً من التفسير ، أو فارجع إلى تاريخ الرافعى نفسه واذكر ما تعرف من أخلاقه تعرف تفسيرها ومعناها

لقد كان الرافعى يجهل السياسة جهلاً تاماً ، ولكن كانت فيه أخلاق السياسىّ ناضجة تامة : من الاحتيال ، والرّوَغان ، وحسن الإعداد للتخلص عند الأزمة . بلى كانت له أخلاق السياسيين فى إبداع الحيلة والاستعداد للمخرج ، ولكن لم يكن له فى يوم من الأيام هوى مع أحد من أقطاب السياسة ، أو يعرف له رأياً فيها ، أو يدرى من خبرها أكثر مما يدري رجل من سواد الناس يقرأ جرائد المتطرفين والمعتدلين على السواء

* * *

ولم يكن للرافعى أجر على هذا المنصب فى حاشية الملك ، إلا الجاه وشرف النسب ، وجواز مجانى في الدرجة الأولى على خطوط سكة الحديد ، ودلال وازدهاء على الموظفين في محكمة طنطا الكلية الأهلية ، حيث كان يعمل جنباً إلى جنب مع مئات من الكتبة والمحضرين وصغار المستخدمين ... ... !

ولكنه إلى ذلك قد أفاد من هذا النسب الملكى فوائد كبيرة ؛ فقد تعطف الملك الكريم فأمر بطبع كتاب (إعجاز القرآن) على نفقة جلالته ؛ كما أذن بإرسال ولده محمد فى بعثة علمية لدراسة الطب فى فرنسا ؛ فظل يدرس فى جامعة ليون إلى سنة ١٩٣٤ على نفقة الملك ، حتى شاء الإبراشى باشا لسبب ما أن يقطع عنه المونة الملكية ولم يبق بينه وبين الإجازة النهائية غير بضعة أشهر ، فقام أبوه بالإنفاق عليه ما بقى . ومن أجل ما كان يرسل إلى ولده كل شهر فى فرنسا من نفقات العيش والجامعة كان هو يعمل فى (الرسالة) بأجر ، وإن عليه من أعماله الخاصة ما ينوء به جسدُه وتَنتَهِك أعصابه ... !

* * *

قلت إن الرافعى ظل فى حاشية الملك فؤاد إلى سنة ١٩٣٠ ثم كان بينه وبين الأبراشى باشا أمر — بعد موت المرحوم نجيب باشا — فسكت ؛ إذ خشى أن تعصف به السياسة أو تعبث به الدسائس فترمى به إلى تهلكته ...

حدثنى الرافعى قال : « كنت في عهد نجيب باشا أذهب إلى القصر فيلقانى بوجه طلق ، ويحتفى بى ، ويبسط لى وجهه ومجلسه ، ويثلج صدرى بما يروى لى من عطف المليك ورضاه ؛ فما أغادر القصر إلا وأنا أشعر كأن نفسى تزداد عمقاً وتمتد طولا وتنبسط سعة ؛ ثم جاء الابراشى باشا ، فلم تدعنى داعية إلى لقائه حتى كان يومٌ وجدتُنى فيه منطلقاً إلى هناك ، لأسأله فى أمر من الأمر ...

قال : « وذهب الساعى إليه بالبطاقة ودعانى إلى الانتظار ، فجلست ، وما أظن إلا أنها دقائق ثم أُدْعَى إليه ... وطال بى الانتظار ، ومضت ساعة ، وساعة ، وساعة ، وأنا فى هذا الانتظار بين الصبر والرجاء ؛ وحولى من ذوى الحاجات وجوه عليها طوابع ليس على وجهى منها ، ونظرت إليهم وإلى نفسى فضجرت ، فعدت أستأذن عليه وقد جال بنفسى أنه قد نسى مكانى ، فعاد إلىّ حاجبه بقول : الباشا يعتذر إليك اليوم ، ويسألك أن تمر به غداً فى الساعة كذا ...

قال الرافعي : « وآذاني ذلك ونال مني ، ولكني اعتذرت عنه . فلما كان الغد ، جاءني النبأ ينعي إلي زَيْنَ الشباب المرحوم أمين الرافعي بك ؛ فآذاني الهمُّ وثقل عليّ ، وضاقت نفسي بما فيها وتوزعتني الوساوس والآلام ؛ وما نسيت وأنا أمشي في جنازة الفقيد العظيم أن عليّ موعداً بعد ساعات ، فما هيل عليه التراب حتى كنت في طريقي عدواً إلى القصر وفاء بالوعد الذي اتَّعدْتُ ، وجعلت من وراء ظهري ما عليّ من واجب المجاملة لمن جاءوا يعزُّونني في أخي وابن عمي وصاحب الحقوق عليّ . لقد كان الذي مات زعيماً من زعماء الوطنية له مقداره ، ولكني جعلت الوفاء بالوعد فوق ما عليّ من الواجب للزعيم الذي مات ؛ وإنه لأخي ، وإن في أعراقه من دمي وفي أعراقي ... !

قال : « ووقفت بالباب أنتظر أن يؤذن لي فأدخل ، وطال بي الانتظار كذلك وإن في دمي جمرات تتلهب . ومضت ثلاث ساعات وأنا في مجلسي ذاك أطالع وجوه الداخلين والخارجين من غرفة الباشا ولا يؤذن لي ... !

قال الرافعي : « وهاجت كبريائي وثارت حماقتي ... لا أكذبك يا بنيّ ، إن فيّ لحماقة . ولكن ... إن صرامة عمر بن الخطاب قد انحدرت إليّ في أصلاب أجدادي من النسب البعيد ؛ ولكن صرامة عمر حين انحدرتْ إليّ صارت حماقة . إن هذه الحماقة عندي يابني هي تلك البقية من صرامة عمر ، بعد ماتخطَّتْ إليّ هذا الزمن البعيد في تاريخ الأجيال ... ![1]

قال : « ولما بلغ الحنق بي مبلغه نهضت وفي يدي عصاي ، فتقدمت إلى الباب خطوة فدفعته بالعصا وأنا مغيظ محنق ، فإذا أنا أمام الإبراشي باشا وجهاً لوجه ، وإلى جانبه رجل أوربي يحدثه ...، فلم أعبأ ، ولم أكترث ، ولم أذكر وقتئذ أين موضعي وموضعه ، فقلت ما كنت أريد أن أقول ، وانتصفت لنفسي ، وثأرت لكبريائي . وأحسبني قد خرجت يومئذ عن حدود اللائق في الحديث معه ، ولكني لم أُلقِ بالا إلى شيء من ذلك . وما كان في نفسي إلا أنني قد قلت ما ينبغي أن أقول لأحفظ كرامتي وأصون نفسي ، ولا عليّ بعد ذلك من غضبه أو رضاه ...

« ولكن ... ولكنه مع ذلك لم يغضب ، ولم يعتب ، بل اعتذر إليّ وألحّ في الاعتذار ... وصدَّقته حين ابتسم ... ! »

* * *

وأسرها الإبراشي باشا في نفسه ؛ فلما كان الموسم التالي نظم الرافعي قصيدته وأرسل بها إلى القصر ، ورُصِفَت حروفها مشكولة في مطبعة دار الكتب — كما جرت العادة — ثم أُرسلت بحروفها مجموعة إلى الجريدة المختارة ، ومعها قصيدة أخرى مرصوفة مشكولة مزيَّنة ، من نظم الأستاذ عبد الله عفيفي المحرر العربي بديوان جلالة الملك . ونُشرت القصيدتان جنباً لجنب في جريدة واحدة ، وعلى نظام واحد ، وكلاهما في مدح الملك ، فما يفرق بينهما في الشكل إلا توقيع الشاعرين في ذيل الكلام

وقرأ الرافعي قصيدة منافسه الجديد ، فثار وزمجر ، وقال لمن حوله : « أترون كيف يصنع بي ؟ إنه يريد أن ينال مني . (يريد الأبراشي) أهذا شعر يقرن إلى شعري ؟ أيراني وإياه على سواء ؟ أيحسب أن الأدباء سيخدعهم هذا الزخرف في الطباعة فيجعلون صاحبه شاعراً من طبقتي أو يجعلونني شاعراً من طبقته ؟ أيراني من الهوان بمنزلة الذي يرضى عن هذا العبث ؟ أفيريد أن يمهِّد لصاحبه حتى يخلعني عن مرتبة « شاعر الملك » ليجعله مكاني ؟ أم يراه أهلاً ليقاسمني المنزلة والمقدار عند صاحب التاج ... »

ومضى الرافعي يومه يفكر ويقدر ، وما كان إلا في مثل حال الرجل الذي يعود إلى داره التي يملك فإذا له فيها شريك يحتلها بقوة ساعده لا بحقه ؛ فما يجد له حيلة في إجلائه عن الدار إلا أن يرفع أمره إلى القاضي ... وكان القاضي عند الرافعي في هذه القضية هو الرأي الأدبي العام ، فرفع أمره إليه ...

وتحدث بنيته إلى صديقه الأستاذ اسماعيل مظهر صاحب مجلة العصور ، فأوسع له صفحات من مجلته ليبدأ الحملة على الأستاذ عبد الله عفيفي في مقالات عنيفة صارخة بعنوان : على السَّفُّود !

وما كان الرافعي يجهل أنه يتناول موضوعاً دقيقاً حين يعرض لنقد هذا الشاعر ؛ فإنه ليعلم علم اليقين أن هذه المقالات سيكون لها صدى بعيد ، تصل به إلى آذان لا يسره أن تعلم من كاتب هذه المقالات ، فتنكر وأخفى نفسه ...

« لها بقية »

محمد سعيد العريان

(١) تشبه هذه الكلمة أن تكون هي كلمة الرافعي بنصها كما حكاها لي ، وقد كتبتها في مذكرتي بعد حديثه بساعات ، فنقلتها اليوم من هذه المذكرة

في سبيل الإصلاح

أخلاقنا ...

للأستاذ علي الطنطاوي

نحن اليوم (في أكثر بلدان الشرق الإسلامي) في دور يقظة، ومطلع نهضة، ولكل نهضة جسم وروح؛ أما الجسم فهذه السياسة وما يتصل بها، وهذه الدواوين الحكومية وما يكون فيها، وهذه القوانين والأنظمة وما ينشأ عنها؛ وأما الروح فهو الأخلاق والعقائد والمثل العليا. فروح الحكم الإخلاص والقناعة والعدل بين الناس، وروح الوظيفة الاستقامة ومعرفة الواجب، وروح الديمقراطيـة الإرادة المشتركة وضمان المصلحة العامة، وروح المدرسة تنشئة جيل المستقبل على المثل العليا، وروح الصحافة نشر الحق والفضيلة والخير ... فهـل امتدت نهضتنا إلى الروح، أم هي قد اقتصرت على الجسم وحده، لم نعن إلا به، شأننا في كل أمر من أمورنا حين نهتم بالقشور ونقف عند الظواهر؟

الجواب عند القراء، لا حاجة إلى إثباته في هذا المقال. ولكنّ الحاجة ماسة إلى كتّاب ومربين وعلماء، يَسْتَقْرون أخلاقنا التي نحن عليها، ويصنفونها ويقوّمونها، ويرون ما يجب أن يبقى فيعملون على تثبيته ونشره، وينظرون ما ينبغي أن يبدّل أو يعدّل، فيسخّرون المدرسة والصحافة والقوانين لتبديله وتعديله، لتنشأ أمة المستقبل على الأخلاق الصالحة التي تستطيع أن تبلغ بها ما تريد من مجد وعلاء، وتتبوأ المكان اللائق بها بين الأمم، وتاتي هذه الأخلاق التي ورثناها من الحكم التركي الطويل، وبلغت بنا قعر الهاوية التي نحاول اليوم النجاة منها، ونعود إلى أخلاقنا الإسلامية التي قبسها منا الغربيون فأفلحوا بها ونجحوا ...

* * *

من هذه الأخلاق التي يجب أن نتخلص منها أننا لا نعرف التعاون ولا نقدر أن نعمل مجتمعين. فالفرد منا عامل منتج، ولكن الجماعة عاجزة عقيمة، ومن نظر إلى انتشار الشركات في الغرب على اختـلاف أنواعها، والجمعيات على تنوع غاياتها، والأحزاب والنوادي، ورأى ما عندنا من ذلك رأى أنه ليس إلى المفاضلة من سبيل ... وعـلّة ذلك الأنانية المفرطة، والأثرة الجامحة، وحب الذات الطاغي، فالرجل منا يريد أن يكون هو كل شيء في الجمعية أو الشركة، رئيسها إن كان لها رئيس، أو ناموسها (سكرتيرها) إن لم يكن رئيس، وعضو الإدارة إن كان مجلس إدارة، وأن يكون له الرأي إن أخذت الآراء ... بل إنا نرى كلا منا يعطل أعمال الآخرين ويبطلها، ويعمل على هدمها، بينما نراه مؤمناً بلزومها، معتقداً بالحاجة إليها، ساعياً إلى القيام بمثلها، فهو يعرف الحاجة إلى ناد أدبي ولكنه يحارب النادي لأنك أنشأته أنت؛ وهو يعلم الحاجة إلى مدرسـة دينية ويدعو إليهـا، ولكنه إذا رآها قد فتحت ونالت قسطاً من النجاح أصلاها حرباً حامية، وجعل أكبر همه هدمها وتخريبها. ذلك أن دعوته الأولى لم تكن عن إخلاص ولم يكن يريد بها وجه الله والمصلحة، ولكنه يريد الفخر والشهرة والنفع واللذة، فلما رآك أنت السابق إليها والذاهب بفخرها، خان المصلحة وعصى الله ليرضى أثرته ويستجيب لأنانيتـه ... وهو شاعر بالحاجة إلى جمعية خيرية يسعى إلى تأليفها بحماسة وجد ودأب قد ملأت فكرتها نفسه وحياته فهو لا يتحدث إلا بحديثها، ولا يشتغل إلا لتأسيسها، فإذا تم له الفلاح بعد التعب والكفاح وقامت الجمعية ولم يكن هو الرئيس أو هو الناموس انفصل عنها وحاربها حرباً لا هوادة فيها وسعى إلى هدم ما بناه بيده ...

هذا داء مَن أشد أدوائنا الخلقية، إن لم نعالجه فشت جرثومته في جسم الأمة، فشلّت أعضاءها وعطلت أعمالها:

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه ... إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم؟

وأين هو الاخلاص، وأين هو الصدق، فيمن يدعو إلى الخير أو الدين أو الفضيلة، وغايته استغلال الدين والخير والفضيلة لمصلحة نفسه وإطاعة هواه؟

* * *

ومن هذه الأخلاق أننا لا نعرف قيمة الوقت، وأنا نضيع أوقاتنا سدى، ونذهب أعمارنا عبثاً لا نعرف لها قيمة وهي أثمن ما نملك. وإذا كان فينا من يحسن الاستفادة من وقته، وينفقه

فى علم أو أدب أو شيء مما ينفع الناس ، لم يعدم من الثقلاء من يضيع عليه وقته ، ويسرق عمره ولا يتوهم أنه أساء أو أخر ... وما أظن أن فى القراء من لا يذكر حادثة في هذا الباب ... كنت ذاهباً إلى المدرسة ذات مرة ، وكان عليّ محاضرة لم يبق دون موعدها إلا مسافة الطريق ، وكنت مسرعاً لا أكاد أبصر طريق فاعترضني رجل كبير كان ناظراً للمدرسة الثانوية التى كنت فيها وله فى البلد حرمة ومقام ، فأقبلت عليه أحييه وأفهمته برفق أن عليّ محاضرة قد حان موعدها فقال : طيب ... لحظة . وانطلق يتكلم ، فلا والله ما سكت إلا بعد ساعة ونصف ساعة ألقى هو فيها المحاضرة عليّ ، وأنا أتململ وأتحرك ويربد وجهي وأحس النار تشتعل فى عروق ... فلما انتهى قال :

— أظن أننا وقفناك ... عدم المؤاخذة !

قلت : أستغفر الله ، ومضيت عنه ...

* * *

هذه علة أخرى من عللنا الأخلاقية ... لاشك فى أنها من أشدها وأدواها لأن حفظ الوقت آكد وسيلة إلى النجاح ، وخير طريقة لرفعة الفرد والمجموع . أذكر أن الدكتور نمر تحدث إلى قراء المقتطف فى العدد الخاص بعيد المقتطف بين لهم أن أثمن ما استفاده من الأمريكان في كليتهم هو تقدير الوقت ، وأن ذلك هو الذى أعانه وزميله الكبير الدكتور صروف على النجاح وأتاح لهما تحقيق هذا المشروع المظيم ، والأمريكان خاصة والغربيون على التعميم يعرفون كيف يستفيدون من أوقاتهم ، فيقوم أحدهم فى اليوم بأعمال لا تقوم بمثلها الجماعة منا فى أسبوع . وكذلك كان أجدادنا الذين تركوا هذه الآثار العلمية الضخمة ، وكان فيهم من بلغت تصانيفه الثلاثمائة فما فوقها .. كانوا يحسنون الاستفادة من أوقاتهم ، ولا يدعون دقيقة واحدة تمرّ إلا فى عمل مفيد ، أو راحة مقدرة ، أو قضاء حق لله أو للجسم أو للعيال .. والوقت لا يضيق بعمل إذا عرفنا طريق استغلاله والانتفاع به . ولو أحصى الواحد منا ما يذهب من عمره هدراً فى المقاهي أو دور اللهو ، وفى الأحاديث الفارغة ، ومطالعة الصحف الجوفاء ، والمجلات المؤذية ، وقدر ما يمكن أن يعمل فى مثل هذا الوقت من جليل الأعمال ونافعها لهاله الأمر ورأى شيئاً عظيما

وانظر إلى التلميذ إذا دهمه الامتحان كيف يقرأ الكتاب فى ليال ويحفظه كله ، والموظف إذا اضطر إلى العمل ، أو الصحفى إذا كان موسم من مواسم الصحافة ، والمؤلف إذا طمع فى الجائزة الكبرى ؛ أنظر إلى هؤلاء كلهم ، وانظر إلى هؤلاء الأفراد الممتازين الذين يشتغلون بالسياسة ويبرزون فيها ، ويؤلفون فى الأدب وينبغون فيه ، ويطالعون كثيراً من الكتب ، ولا يقصرون فى حقوق أنفسهم وأهليهم ، وحقوق الناس ، تعلم أن الوقت واسع جداً ، ولكن الجاهل المهمل يضيقه على نفسه

* * *

ومن الأخلاق التى يجب أن نتعلمها تقدير المصلحة العامة . وإهمالنا هذه المصلحة باب آخر من أبواب الأثرة (الأنانية) منشؤه أن أكثر الحكومات التى تتالت على بلدان الشرق الإسلامى فى هذه القرون الأخيرة لم تكن من الشعب ولا إلى الشعب ، ولم تكن تحرص على مصلحته ، فزالت ثقته بها ، ونظر إليها نظره إلى عدو مقاتل ، وغدا يرى كل أذىً يلحقه بها ، أو مال يستلبها إياه ، أو حق لها يضيمه ، يرى كل ذلك بطولة وفخراً ، وغدا كل واحد منا يسعى جهده ليفرّ من الخدمة العسكرية أو يحتال بحيلة تنجيه من دفع الضرائب ، أو يتوسل بوسيلة إلى اختلاس مال الخزينة . ولعل له في ذلك عذراً ، هو أن الخدمة العسكرية كانت لحماية الحكومة دون الشعب ، والضرائب لحياتها هي ؛ وكان مال الخزينة مالها ينفق على أفرادها . ولا تزال الموازنة عندنا إلى الآن مصروفاً ثلثاها على الموظفين رواتب لهم وأجوراً ، والثلث أو مادونه على المصلحة التى أنشئت من أجلها الحكومة

ونحن فى حاجة إلى التخلص من هذا المرض . نحن فى حاجة إلى الإيمان بأن مصلحة الفرد فى مصلحة المجموع وأن رفعته فى رفعة الأمة ... يجب أن تسأل الأم ابنها كل ليلة : ماذا عملت لأجل الأمة ؟ بماذا خدمت اليوم الوطن ؟ هل أحسنت إلى سائل ؟ هل تبرعت بقرش لجمعية خيرية ؟ هل تعلمت مسألة نافعة ؟ هل كنت مهذباً مع رفاقك ؟ ويجب أن يسأل كل منا نفسه هذا السؤال عند ما يضع رأسه على الوسادة قبل أن يستسلم إلى النوم

* * *

ومن هذا الباب إطاعة القوانين واحترام النظام، ذلك الذى لم نتعلمه بعد ولا نعرفه أبداً لأن زماناً غبر (ولم يتبدل بعد) كانت القوانين والأنظمة توضع فيه لغير مصلحتنا وتفرض علينا فرضاً فتعودنا ألا نطيعها وألا نحترمها، ولكنا دخلنا اليوم فى طريق الاستقلال (أو كأنْ قد) وصرنا نضع قوانيننا (إلى حد ما) بأنفسنا فيجب أن يتبدل ذلك كله وأن يرسخ فى نفوسنا احترام القوانين وإطاعتها، لا خوفاً من العقاب بل لأن إطاعتها واجبة

ومن هذا الباب أو ما هو شبيه به احترام الراحة العامة. نمتُ ليلة فى فندق كبير فى بيروت، فنزل فى الغرفة اللاصقة بغرفتى جماعة من أكابر حلب حلّوا بعد نصف الليل فبعثوا أحدهم بحاجة لهم إلى السوق، فلما بلغ الشارع ذكروا حاجة أخرى يأمرونه بقضائها فأطل أحدهم من شرفة الطبقة الخامسة وناداه وكلمه بصوت يوقظ الموتى، فلم يبق حيٌّ في الفندق إلا قام. ولما عاتبوه ولاموه لم يستطع أبداً أن يفهم أو يتصوّر أنه أتى أمراً نكراً.

وانحدرت مرة من الأعظمية إلى بغداد فى سيارة عامة من هذه السيارات التى يسمونها هناك (الباص) فركب معنا جزار معه خروف مسلوخ وضعه على ركبته وألقى برقبته على ثيابى، ورأيت الناس ينظرون إليه نظر المقرّ الموافق فاضطررت إلى النزول من غير أن أشتبك معه بقتال

وكثيراً ما نسمع رجلاً أو جماعة يمرون فى الشارع قبيل الصبح فيأخذهم الطرب فيغنون بمثل الصوت الذى ذكره ربنا فى الكتاب، ولا يقدّرون أو يتصورون أنهم يسيئون إلى أحد

ولا يمضى على الواحد منا يوم لا يرى فيه ما يسوء ويزعج من بصاق فى الترام أو المقهى، أو حديث فى المكتبة العامة، أو خصومة حامية في المسجد، أو غير ذلك من المزعجات المنغصات التى لا يزيلها إلا عناية المدرسة بتعليم الطلاب احترام الراحة العامة، وحث الصحف الشعب على ذلك...

* * *

ومن الأخلاق التى يجب أن نسرع إلى تعلمها احترام الواجب والاستقامة والاصغاء إلى صوت الضمير. إن المعلم لا يتورع إذا أمره رئيس أو رجاه صديق أو ناله منفعة، أن ينجح التلميذ الذى يستحق السقوط فى الامتحان، وأن يزيد فى الدرجات وأن يفعل كل شىء؛ والقاضى لا يمتنع عن تبرئة الظالم وعقاب المظلوم؛ والوزير لا يتقاعس عن إيثار الشفاعات والوساطات على الكفايات والشهادات؛ والطبيب لا يبالى بأن يجهض أو يأتى كل أمر يستطيعه مادام فى ذلك لذة له أو فائدة؛ والموظفون يقبلون الرشوة والناس يعطونها؛ ولا تكاد نجد من عرف الواجب عليه وأكبره إكباراً، وضحى فى سبيل القيام به بكل شىء. ولا أعنى أن كل المعلمين أو القضاة أو الوزراء أو الأطباء متنكبون سبيل الشرف مضيعون للواجب، ولكن الذى أعنيه أن بهم من هذا شأنه، وأن احترام الواجب لم يذع فينا ولم يصبح شعاراً دائماً لنا، وأن المدرسة والصحافة والقانون وواضعه، كل أولئك مقصرّون لا يولون هذا الأمر ما يستحق من العناية والاهتمام فى حين أنه من الأسس الثابتة والدعائم الكبرى فى بناء الأمم

ونحن فى حاجة إلى تعلم الصدق، لأن الكذب قد فشا فينا وعم وأصبح أسهل شىء علينا، فنحن نكذب فى الأمور الهينة ونكذب فى الجليلة، ونعلم أولادنا الكذب. من منا لا يقرع بابه فيقول لابنه: قل له إن أبى ليس هنا! ومن منا يلقى رفيقاً له أو رجلاً يعرفه فيقول له: كيف حالك أو زُيك؟ فلا يقول له: بغاية الشوق، وهو لا يشتاقه ولا يفكر فيه، وقد يكون مبغضاً له يرى البعد عنه غنيمة... فمجاملاتنا وحياتنا الاجتماعية كلها قائمة على الكذب. ومن جرب أن يصدق يوماً كاملاً رأى العجائب، وقد أدرك ذلك العامة فجاء فى أمثالهم (الصادقة): الكذب ملح الرجال، والعيب على الذى يصدق...

* * *

هذا وشبهه (وما أكثر أشباهه) روح النهضة وقوامها، فاذا لم تعتن به الحكومات والأحزاب والجمعيات والمدارس، ومن يشتغل بالوطنية، ويبث فى نفوس الأطفال، ويوضع فى نظم التربية والتعليم، كانت نهضتنا جسماً لا روح فيه!

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هُمُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

علي الطنطاوى
المدرس فى الكلية الشرعية بيروت

الكميت بن زيد

شاعر العصر المرواني

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

— ٥ —

وقد روى لنا أبو الفرج الأصبهاني هذه الروايات الثلاث في سبب المنافرة بين الكميت وخالد بن عبد الله ، وكان عليه أن يبين لنا وجه الصواب فيما تتعارض فيه من وجوه كثيرة ، ولكن أبا الفرج رحمه الله لم يكن يعني في الأكثر بنقد رواياته ، وإنما كان يهمه جمعها وسردها ، وعلى القارئ بعد هذا أن يحكم رأيه فيها

فالرواية الأولى تذكر أن سبب المنافرة بينهما قصيدته التي هجا فيها اليمن :

« ألا حُيِّيتِ عنَّا يا مَدِينَا »

وقد اتفقت الرواية الثانية في هذا معها على خلاف قليل بينهما ؛ أما الرواية الثالثة فتذكر أن سبب المنافرة بينهما شعر الكميت الذي حرض فيه هشاماً على خالد ، واتهمه فيه بأنه يريد خلعه . وتفيد هذه الرواية أن قصيدة الكميت التي هجا فيها اليمن كانت بعد سجنه لا قبله ، وأنه قالها رداً على الأعور الكلبي في قصيدته التي رمى فيها امرأة الكميت بأهل الحبس ، ويقول فيها :

« أسْودِينَا واحْمِرِينَا »

والرواية الأولى تذكر أن خالداً روى الهاشميات جارية واحدة والرواية الثانية تذكر أنه رواها ثلاثين جارية

والرواية الأولى تذكر أن أبان بن الوليد البجلي عامل واسط هو الذي سعى في تهريب الكميت من السجن . وقد اتفقت الرواية الثانية في هذا معها على خلاف قليل بينهما ، أما الرواية الثالثة فتذكر أن الذي سعى في تهريبه عبد الرحمن بن عنبسة ابن سعيد

والرواية الأولى تفيد أن خالد بن عبد الله كان بالكوفة حينما أمر بسجن الكميت . وهكذا تفيد الرواية الثانية ، وإن كانت تفيد مع هذا أن خالداً قرأ على أبان بن الوليد كتاب هشام بقتل الكميت ، مع أن أبان بن الوليد كان في ذلك الوقت بواسط . أما الرواية الثالثة فتذكر أن خالداً كان بواسط حينما أمر بسجن الكميت ، وأنه كتب بسجنه إلى واليه بالكوفة

والرواية الأولى تذكر أن الكميت حينما أتى الشام مشت رجالات قريش في أمره إلى عنبسة بن سعيد بن العاص ، فمشى فيه إلى مسلمة بن هشام فأمنه وأجاز أبوه هشام أمانه ؛ أما الرواية الثانية فتذكر أنه حينما أتى الشام قصد مسلمة بن عبد الملك ، وتذكر أن مسلمة لا عنبسة هو الذي مشى فيه إلى مسلمة بن هشام ، وأن مسلمة بن هشام أجاره فلم يجز أبوه جواره ، فاحتال له بقبر أخيه معاوية وأولاده ، وقد اتفقت الرواية الثالثة معها في هذا على خلاف قليل بينهما

والرواية الأولى تذكر أن الكميت حينما عرض عليه الالتجاء إلى مسلمة بن هشام رضي به ، وقد اتفقت الرواية الثانية في ذلك معها على خلاف قليل بينهما ، أما الرواية الثالثة فتذكر أنه لم يرض بالالتجاء إليه ، وأنه قال لمسلمة بن عبد الملك حينما عرض ذلك عليه : بئس الرأي ! أضيع دمي بين صبي وامرأة ، فهل غير هذا ؟

وهذه هي أهم وجوه الخلاف بين هذه الروايات المضطربة ، وقد يكفي هذا عند بعض الناس لدفعها كلها ، وعدم الوثوق بشيء منها ، ولكن ما قيمة البحث في هذا العصر إذا كانت تقنعه هذه الغاية السهلة ، ويكفيه في مثل هذا أن يقول إني أشك في هذه الرواية ، أو نحو هذا مما لا يكلف الباحث عناء ولا تعباً ؟ وإنما قيمة البحث الحديث في تمحيصه أمثال هذه الروايات ، والاجتهاد في ترجيح بعضها على بعض ، والوصول إلى الحقيقة بالتعمق في البحث

ونحن نرجع أن الهاشميات نفسها هي التي كانت سبباً في المنافرة بين الكميت وخالد بن عبد الله ، لأنه لا يعقل أن يسكت خالد عن تبليغ أمرها إلى هشام بن عبد الملك ، وهي من الخطورة بهذا الشأن الذي أقام هشاماً وأقعده حينما بلغته . وقد كانت هذه العهود مملوءة بالوشايات والدسائس ، وكان ولاة بني مروان معرضين بهذا للنكبات الشديدة التي كانت تصيبهم منهم ، ولا يخفى أمرها على من يعرف تاريخهم . ولا شك أن هذا كان يوجب على هؤلاء الولاة أن يحتاطوا لأنفسهم في مثل هذه الأمور ، وألا

يسكتوا عن تبليغ مثل الهاشميات إلى ملوكهم إلى أن تبلغ من غيرهم ، ويتخذ بها أعداؤهم حجة عليهم عند ملوكهم

وقد يكون حديث الجاريات الحسان اللاتى رواهن خالد الهاشميات صحيحاً ، ويكون هذا منه تلطفاً فى الحيلة إلى تبليغها إلى هشام بن عبد الملك ، أو تخلصاً من تبعة تبليغها عند قوم الكميت وأشياعه ، لأن حال الولاة فى مثل هذه العهود المضطربة يكون مضطرباً بين إرضاء ملوكهم وإرضاء الرعية الناقمة عليهم . والظاهر كما يؤخذ من بعض هذه الروايات أن خالداً هو الذى سهل للكميت سبيل الهرب من سجنه ، وأنه كان يسلك بذلك كله موقفاً يخرجه من هذه المشكلة . وقد أرضى هشام بن عبد الملك وجعل لنفسه بعض العذر عند أنصار الكميت ، إذ كان يؤثر فى سياسته ملاينة الشيعة

أما المعارضة بين الكميت والأعور الكلبي فالظاهر أنها كانت بعد سجن الكميت ورضا هشام عنه ، كما يؤخذ من الرواية الثالثة لأنه كان يمدح فى قصيدته التى يعارضه فيها بني مروان ويفخر بهم عليه ، وقد كان قبل سجنه يطعن فيهم أشد طعن ، ويهجوهم فى هاشمياته أشد هجاء ، فلا يعقل أن يجمع فى هذا العهد بين هجائهم ومدحهم والافتخار بهم ، وهو لم يلجأ إلى مدحهم إلا مضطراً بعد ما لقى من السجن والحكم عليه بالقتل

ومما يؤيد هذا ما رواه أبو الفرج الأصبهانى قال : أخبرنى عمى وابن عمار ، قالا حدثنا يعقوب بن اسرائيل ، قال حدثنا إبراهيم بن عبد الله الطلحى عن محمد بن سلمة بن أرتبيل : أن سبب هجاء الكميت أهل اليمن أن شاعراً من أهل الشام يقال له حكيم بن عياش الكلبي كان يهجو على بن أبى طالب عليه السلام وبنى هاشم جميعاً ، وكان منقطعاً إلى بنى أمية ، فانتدب له الكميت فهجاه وسبه فأجابه ولج الهجاء بينهما ، وكان الكميت يخاف أن يفتضح فى شعره عن على عليه السلام لما وقع بينه وبين هشام ، وكان يظهر أن هجاءه إياه فى العصبية التى بين عدنان وقحطان ، فكان ولد إسماعيل بن الصباح بن الأشعث بن قيس وولد علقمة بن وائل الحضرمى يروون شعر الكلبي ، فهجا أهل اليمن جميعاً إلا هذين ، فإنه قال فى آل علقمة :

ولولا آلُ علقمةَ اجتدعْنا ... بقايا من أنوفٍ مُصَلَّمينا

وقال فى إسماعيل :

فإنَّ لإسماعيل حقًّا وإنَّنا ... له شاعبو الصدع المقاربِ للشَّعْبِ

وكان لآل علقمة عنده يد ، لأن علقمة آواه ليلة خرج إلى الشام ، وأم إسماعيل من بنى أسد ، فكف عنهما لذلك

فهذه الرواية صريحة فى أن هذه المناقضة كانت بعد الذى وقع بين الكميت وهشام من عفوه عنه ، فلا يصح أن تكون هى السبب فى المنافرة بين الكميت وخالد بن عبد الله ، وما جرته هذه المنافرة من السجن ثم العفو ، بل الظاهر أن بنى مروان بعد أن وصلوا إلى إسكات الكميت ، عن المضى فى هاشمياته أخذوا يعملون على إبطال أثرها فى النفوس ، فسلطوا الأعور الكلبي على مناقضتها ، وهجاء على عليه السلام وبنى هاشم جميعاً

وأما ماذكر فى الرواية الثالثة من أن سبب المنافرة بين الكميت وخالد شعر الكميت فى تحريض هشام على خالد ، واتهامه إياه بأنه يريد خلعه — فهو أقرب إلى الصحة مما ذكر فى الرواية الأولى والثانية ، ولعل الكميت فعل هذا سعياً فى إفساد الأمر بين بنى مروان وولاتهم ، لاحباً فى هشام وإرادة النصح له . وما نريد بعد هذا أن نمضى فى تمحيص ما تعارضت فيه تلك الروايات ، لأن ثمرة هذا التمحيص لاتوازى عناءنا فيه ، ولا تذكر بجانب الملل الذى يصير بنا إليه

وقد أخذ الكميت بعد عفو هشام عنه يمدحه ويمدح ولاته ووجوه دولته ، ويقبل فى ذلك صلاتهم وجوائزهم ، ولكن مدحه لهم فى نظير ذلك كان مدحاً تجارياً كسائر ما مدحوا به من شعراء عصره ، ولم يكن لغاية نبيلة كتلك الغاية التى مدح بها بنى هاشم فى هاشمياته

والحقيقة أنه لم يكن مخلصاً فى مدح بنى مروان مع ما كان يناله من دنياهم ، وإنما كان يأخذ فى ذلك بالتقية التى يأخذ بها الشيعة في مذهبهم جميعاً ، ولم يكن ذهابه إلى هشام بالشام إلا برضا أهل البيت وشيعتهم ليحقنوا بذلك دمه ، ويخلصوه مما كان يراد به

وإذا كان الكميت قد أجاد في مدح بنى مروان فإنما كان ذلك منه لأنه كان شاعراً فحلاً لا يرضى أن يكون شعره فى ذلك

دون غيره ، فكان بذلك يقضي حق شعره عليه ، ولا يقضي حق بني مروان في عطائهم وبذلهم له ، لأنه لم يكن من أولئك الشعراء الذين يمدحون للعطاء ، كما سبق ذلك في رفضه عطاء بني هاشم على مدحه لهم . وقد قال أبو الفرج الأصبهاني : أخبرني محمد بن خلف بن وكيع ، قال حدثني أبو بكر الأموي ، قال حدثني إسماعيل بن حفص ، قال حدثنا ابن فضيل ، قال سمعت ابن شبرمة قال : قلت للكميت إنك قلت في بني هاشم فأحسنت ، وقلت في بني أمية أفضل ، قال : إني إذا قلت أحببت أن أحسن . فلم يكن الكميت إذن يمدح بني مروان عن عقيدة كما كان يمدح بني هاشم ، ولم يكن إحسانه في مدحهم إلا لأنه إذا قال أحب أن يحسن قوله لئلا يؤخذ عليه من الناحية الشعرية ؛ ولكنا نخالف ابن شبرمة فيما ذكره من أن ما قاله في مدح بني مروان أفضل مما قاله في مدح بني هاشم ، لأن أشعاره في مدح المروانيين لا تمتاز عن سائر المدائح الجوفاء في الشعر العربي ، ولا يصح أن تذكر بجانب الهاشميات التي سلك فيها الكميت ذلك المسلك الجديد في المدح ، وقام بما يجب عليه لأمته من مقاومة ذلك الحكم الظالم

وهناك بعد هذا أخبار متوافرة تدل على ما ذكرناه من رضا بني هاشم بما سلكه الكميت مع بني مروان ، وعلى أن هذا لم يقطع صلته بهم في السر والعلن ، وقد كانوا مع رضاهم بمسلكه معهم يحاسبونه إذا أسرف في مدحهم ، فلا يتركهم حتى يرضيهم بصرف هذا المدح عن ظاهره ، فكان يؤوله على نحو ما يفعل بعض الباطنية من الشيعة في تأويلاتهم

قال أبو الفرج الأصبهاني : أخبرني جعفر بن محمد بن مروان الغزالي الكوفي ، قال حدثني أبي ، قال حدثنا أرطاة بن حبيب عن فضيل الرسان عن ورد بن زيد أخي الكميت ، قال : أرسلني الكميت إلى أبي جعفر فقلت له : إن الكميت قد أرسلني إليك وقد صنع بنفسه ما صنع ، فتأذن له في مدح بني أمية ؟ قال : نعم ، هو في حل ، فليقل ما يشاء

وقال أيضاً : أخبرني محمد بن خلف بن وكيع ، قال حدثني إسحاق بن محمد بن أبان ، قال حدثني محمد بن عبد الله بن مهران ، قال حدثني ربعي بن عبد الله بن الجارود بن أبي سبرة عن أبيه قال : دخل الكميت بن زيد الأسدي على أبي جعفر محمد بن علي عليهما السلام فقال له : يا كميت أنت القائل :

والآنَ صرتُ إلى أُمَيَّـــةَ والأمورُ إلى المصايرْ

قال : نعم قد قلت ، ولا والله ما أردت به إلا الدنيا ، ولقد عرفت فضلكم ، قال : أما إن قلت ذلك إن التقية لتحل

وقال أيضاً : قال محمد بن أنس حدثني المستهل بن الكميت ، قال : قلت لأبي : يا أبت إنك هجوت الكلبي فقلت :

ألا يا سلم مِنْ تِرْبِ أفي أسماء من تِرْبِ

وغمزت عليه فيها ففخرت ببني أمية وأنت تشهد عليها بالكفر ، فألا فخرت بعلي وبني هاشم الذين تتولاهم ، فقال : يا بني أنت تعلم انقطاع الكلبي إلى بني أمية وهم أعداء علي عليه السلام ، فلو ذكرت علياً لترك ذكري وأقبل على هجائه ، فأكون قد عرضت علياً له ، ولا أجد له ناصراً من بني أمية ، ففخرت عليه ببني أمية وقلت : إن نقضها على قتلوه ، وإن أمسك عن ذكرهم قتلته غماً وغلبة ، فكان كما قال ، أمسك الكلبي عن جوابه ، فغلب عليه وأفحم الكلبي

وإذا كان ذلك كله قد تم برضا بني هاشم وتدبيرهم لشاعرهم فلا يمكن أن يؤخذ عليه شيء فيه ، أو يقدح به في عقيدته وإخلاصه ، بل إن في ضن بني هاشم عليه بالقتل ، وإيثارهم له مواراة بني مروان على بذل دمه في سبيلهم — لدلالة كبيرة على عظم تقديرهم له ، وأنهم كانوا يثقون به إلى آخر حدود الثقة

عبد المتعال الصعيدي

مقدمة حضـارة العرب

لغوستاف لوبون

« تتمـــــة »

للأستاذ خليل هنداوى

والآن عرضنا من مناهج البحث ما نخاله كافياً فيما يتعلق بدرس الحوادث التاريخية ، بل سيكفي منه ذكر الأكثر ضرورة إن تصور العلة التى تهيمن اليوم على درس الأشياء العلميـة تهيمن كذلك على درس المسائل التاريخية ، والمناهج التى تتعلق بهذا تتعلق أيضاً بذلك . فإن حادثاً اجتماعياً إنمـا يجب درسه كحادث طبيعى أو كيميائى مهما ذهب أمره ، فهو خاضع لبعض مذاهب ، أو قل إنه خاضع لسلسلة مرتبة من الضرورات المحتمة . فالإنسان يعمل والقوة السامية تقوده سواء دعوت هـذه القوة الطبيعية أو المناية أو القـدر أو الحظ . ونحن منذ الولادة حتى الموت تفيض علينا قوات من الخير والشر لا نستطيع لهـا قهراً ولا غلبة . وغايتنا الكبرى هى الوصول إلى معرفة بعض أحوال وأسباب من مظاهرها

وتاريخ الإنسانية نستطيع أن نعتبره سلسلة واسعة كل أجزائها متماسكة . قد تمود أجزاؤها الأولى إلى أبعد جذور فى أرضنا . والحادث التاريخى مهما ذهب أمره هو دائماً نتيجة حلقة طويلة من الأحداث الداخلية . فما الحاضر إلا لِدة الماضى . والمـاضى يحمل الغد فى أطوائه كجنين ، وفى الحوادث الحاضرة يستطيع العقل الموهوب أن يتلو التعاقب اللانهائى للأشياء . ولـكن مثل هذا العقل يبدو أنه لن يظهر أبداً . فبينا نعمل على معرفة مجموعة العاملين الذين ولدوا الحاضر ومعرفة قوة كل واحد منهم نرى من المحال إخضاع هؤلاء العاملين للتحليل . فعلم النجوم يعجز عن أن يعين بواسطة الحساب الهدف الذي يرمى إليه جسم يخضع لثلاثة أجسام فقط ، فكيف والحالة هـذه فى مسألة تضم ملايين الأجسام ؟

إن كل الشرائع الوهمية التى يخال أنها تؤخذ من دراسة التاريخ ماهي فى الحقيقة إلا تثبيت امتحانى لبعض الأعمال . وبها يمكننا أن نقارنها مع الملحوظات الامتحانية التى يقوم بهـا أصحاب علم تقويم البلدان

هنالك مليون من الناس يستطيعون أن يتنبأوا بكل يقين عمن يموت منهم فى عهد ما وفى عهد آخر ، وعما ينشأ فيهم من جنايات لأن تجاريب الماضى تسهل لهم هذه التنبآت . إن الصعود إلى أسباب الأعمال الملحوظة مستحيل أبداً ، والعاملون الجازمون هم عدد كثير ، واستمالة الصعود بعيداً فى سلسلة الأسباب التى تعين أو تحدد حادثاً اجتماعياً قد ألقت شيئاً من الـكره لعلم التاريخ فى نفوس العلماء الذين حاولوا التعمق فيه . وهنالك عالم نبيه هو « رينان » نعت علم التاريخ بأنه علم حقير وهمى ، لا يكاد يُرفع حتى يتقوض بدون نهاية ، ولا يُشيَّد حتى يتهـدم ؛ وهو أحد الأشياء المهملة بعد مئة عام . على أنه سيأتى دور فى حياة الإنسان نراه لا يتعلق بماضيه لمصلحة ما . وإنى لأخشى جداً أن كتابة كتابنا فى المجتمع الأدبى والفنى الذين صحوا ووضحوا بعض الآثار التاريخية أن يبلوا قبل أن يُتلَوا »

والـكاتب نفسه يفكر فى أن المستقبل سيكون للعلوم الطبيعية لأنها هى العلوم التى ستعطينا سر الوجود والعالم والإله كما ينبغى أن يُعطى هذا السر . لـكل إنسان حق التأمل فى هذا ، ولـكن شيئاً واحداً حتى الآن لم يحقق أملاً من آمالهم ، ولا فكرة من أفكارهم . وهاهى ذى العلوم الوضعية لم تعطنا شيئاً عن العلة الأولى لحادث واحد ، وهى لا تـكتشف إلا بساطة العلاقات التي تؤلف قواها الظاهرة ، حتى إذا اصطدمت بحوادث مركبة رأيتها تتلاشى وتضل فى الظنون والأحداس . إن العلوم الحديثـة قد بدأت بصورة ضعيفة أن تتمتم (من التمتمة) فى الجواب عن أسئلة يضعها الإنسان كل يوم . فمن المهـد إلى اللحد تفرس الطبيعة طريقنا بمسائل لا تقبل الحل . ورغبتنا فى المعرفة ، هـذه الرغبة المتأججة لا ينطفئ أوارها أبداً . العلم يستدعى أفكاراً ولـكنه لا يحل مسائل . وكرتنا الأرضية ستعانق فى الفضاء العوالم القديمة الباردة قبل أن يجيب أبو الهول الخالد على سؤال واحد

يجب علينا ألا نقف على باب العلوم مغررين بأنفسنا ، طالبين إليها أن تعطينا مالا تقدر عليه . إنها تقدر أن تعطينا ما تتبين به حالة إنسان أو حيوان أو مجتمع أو نبات ، وما نضم به صورة أمينة لدراسة عصرٍ ما . ومانبين به سلسلة من أمهات الحوادث

التاريخية . وحذار أن نطلب أكثر من هذا إلى المؤرخ

على أن العمل مع هذا هو من العسر بمكان لما يقتضيه من الاعتناء . فالمواد التي تسمح لمؤرخ أن يضم منها صورة لحضارة ما يعسر عليه جمع أطرافها . والأعسر من ذلك أن يخرج بها إلى حيز العمل . إذ ليس في تسلسل ذراري الملوك ، ولا في قصص المعارك والحروب التي تشكل لب التاريخ الدرسي نستطيع أن نبحث عن تلك المواد . وإنما نجدها في درس اللغات والفنون والآداب والمعتقدات والتعاليم السياسية والاجتماعية لكل عصر من العصور . وأما المواد الغريبة لحضارة ما فلا يمكننا أن نعتبرها نتيجة هوى الناس أو القدر أو إرادة الآلهة ، ولكنها وليدة الحاجة والفكر والعاطفة في الذراري التي تجلت فيها ، فإن ديناً ما وفلسفة ما وأدباً ما وفناً ما قد يحتوي على أشكال ثابتة من الشعور والتفكير ولا يحتوي على غيرها . ومما لا جدال فيه أن الأعمال والآثار تتلو علينا أفكار أصحابها . إنها تقرأ علينا أفكارهم وتسمح لنا بأن نؤلف صورة ذلك العصر . ولكن هذه الصورة تبقى ناقصة فيجب علينا أن نوضح تركيبها ، لأن الشعب الذي يُدرس في لحظة معينة لم يتكون في وثبة واحدة . وإنما هو وليد ماض طويل بعيد ، ووليد مؤثرات مختلفة للبيئة التي نشأ فيها وخضع لها ، ولذلك وجب علينا أن نرجع إلى ماضي ذلك الشعب حتى يمكننا تحليل وضعه الحاضر . وبالإمكان أن ندعو دراسة هذا التكوين القائم من مواد مختلفة متنوعة يتألف منها المجتمع بعلم الجنين . وهذه الدراسة تغدو قاعدة راسخة للمؤرخ في عمله ، كما هو الحال في أن علم تشكل الكائنات الحية أصبح اليوم أمتن قاعدة وأصدق مرجع لعلماء طبقات الأرض

كائنات حية ومجتمعات يجب أن تمر بتطور بطيء يبدل مظاهرها الخارجية قبل أن تصل إلى حالات الكمال ، وهذه المظاهر المختفية لا يوحيها علينا التاريخ دائماً . فكم من حدود لهذه المظاهر قد توارت حالياً ! وإنما الملاحظة وحدها تسمح لنا بأن نستدعي الحدود الضرورية ؛ وكالكائنات الحية نرى أن كل المجتمعات لم تبلغ بذات الأجيال انقلابها ، وأنت ترى أن كثيراً منها لم يجتز بعد هذه المراحل التي انتهى العرب من اجتيازها ، هذه المراحل التي تمثل صورة الماضي الثابتة . وقد يستطيع السائح في أرجاء الأرض أن يرى المجاري الرئيسية أو المراحل الأساسية لتاريخ الانسانية منذ العهد الحجري حتى العهد الحاضر

وبهذا يمكننا أن نتوصل إلى تمثيل ماضي شعب ما ، وتمثيل تطور المواد التي تألفت منها حضارتها

هنالك مواد مختلفة : منها العمارة والأدب واللغة والتعليم والاعتقاد نستطيع أن نستفيد منها في بناء تاريخ الحضارة وتكوينها ، ولكن من النادر أن نملك عليها جميعها . وفي مثل هذه الحالة نجتزيء بما نقدر أن نجمعه منها لنجد المفقود ! وذات النظرية التي تسمح لنا بأن نعرف حيواناً ما بمجرد اطلاعنا على قطع من هيكله العظمي هي النظرية التي يجب أن نفرضها في التاريخ ، إذ أن مظهر بعض الصفات يستلزم دائماً وجود صفات أخرى

على أن كل هذه المواد التي نحددها قد تكون ناقصة في بعض الحالات بالنظر إلى الوضوح ، فالعلم الحديث سيترك مواد أكثر صحة ودقة للجيل القادم . وقد يسهل التنبؤ بأن مؤرخي المستقبل سيكتبون كتباً في التاريخ تختلف عن كتبنا فيه ، ففي تاريخ حضارة القرن العشرين سيكون الموضوع خاضعاً بدون ريب لعنوان الأثر مرفقاً برسوم وخرائط وخطوط نافرة تمثل كل أطوار الحوادث الاجتماعية ، وأن عظمة ما ، وقوة ما ، وبقاء ما ووزناً ما نستطيع أن نستشفه خلال خط مرسوم أو سطر مرقوم

وليس هنالك حادث نفسي أو اجتماعي مهما كان مركباً يفترض بأنه لا يمكن اعتباره كقيمة رياضية يمكن حلها عددياً ، وإنما يكفي أن نجد له في مواده الضرورية مقياساً ، فان علم تقويم البلدان هو أقل العلوم الحديثة تقدماً في طريق التكوين . والذي علمنا إياه هذا العلم يسمح لنا بأن نستكشف ما سوف يعلمنا إياه في المستقبل . فانتاج بلد وانفاقه وغناه وحوائجه والقابلية الخَلقية والخُلقية للذرية التي تقطنه ، واختلاف عواطفها ومعتقداتها وتأثير القائمين عليها ، كلها أشياء قد جلاها لنا القومون بأعداد يجمعونها اليوم

ونحن نرقب هذا الجيل القادم الذي تتبدل فيه الشاحنات التاريخية بصور وخرائط ومعارج هندسية تمثل حالة كل الحوادث الاجتماعية وأطوارها المتبدلة ، وإنما يجب الجهد الكثير في انتقاء الصور الأكثر وضوحاً من الصور التي تركها لنا الماضي ، ومن هذه المواد التي أحصيناها نمسك المواد الضرورية التي تقدم لنا صورة واضحة شاملة للحضارات الغابرة وتاريخ تكونها ، ولكي نستطيع أن نخرج هذه المواد إلى حيز العمل وجب علينا أن ندرس هذه البقيات التي تركتها هذه الحضارات في مواطنها

فإن مشهد الأشياء وحده يمكن أن يعطينا من ماضى ذلك النبيب مالا يمكن أثراً غيره أن يعطيه . والعلوم الطبيعية والاجتماعية لا يمكن أن يتعلمها الإنسان مجردة فى الكتب ، ولا سيما إذا كانت المسألة الشعبية كمسألة العرب الذين تمددت آثارهم فى البلدان التى ازدهرت فيها حضارتهم وشمت مدنيتهم . فعند ذلك يجب أن تدرس بيئتهم درساً لازماً لامندوحة عنه . وليس هناك إلا الرحلات والأسفار تنقذنا من نير الآراء المصنوعة والأوهام الثقيلة الموروثة . وسيجد القارئ الأصول التى طبقناها هنا بصورة موجزة . وهذه الأصول ستقود القارئ إلى أن يتجرد من الآراء المدرسية فى أكثر المسائل التى تمس الشرقيين من ديانة محمد صلى الله عليه وسلم والرق والحروب الصليبية والعلوم والمعارف والفنون وأثر العرب فى أوربا وغير ذلك ...

— ٣ —

على أن البقايا التى تخلفت من حضارة العرب هى بقايا كثيرة العدد ، كافية لأن ندرسها بأجزائها الضرورية . إننا سنأخذ أكثرها من الآثار الفنية والأدبية والعلمية والصناعية والاعتقادية ؛ ومن بين هذه الآثار كلها ستكون أكثر استيحاء من الآثار التصورية ، فهى بشكلها الملموس تكلم عقولنا بوضوح . فيها نجد التعبير الصادق عن الحاجات والعواطف والأجيال التى ولدت فيها ، وفيها نحس أثر الذرية والبيئه إحساساً جلياً . ففى آثار عصر ما مهما كان نوع منتجاته يستطاع استقراء ذلك العصر استقراء تاماً . فقافلة فى العصر الحجرى ، وهيكل مصرى ، ومسجد أو كنيسة ، وملجأ قطر ، ومخدع غانية ، وحسام ذو قبضتين ، ومدفع ثقيل الوزن ، فى كل هذا ماهو أفصح بياناً من المناقشات . ولوصف الآثار الفنية للشعب يوجد طريقة واحدة هى تقديمها ؛ فإن صور (البارتنون) والحمراء وفينوس فى نظرنا أفضل من مجموعة كتب يكتبها كل مؤلفى العالم عليها . ولاعتقادنا بأهمية هذه الصور التى تنقل إلى العقل الصورة الكاملة للعصر الذى قامت فيه عمدنا إلى أن نلتقط هذه المنتجات ؛ والقارئ الذى يلتفت فقط إلى الصور المرسومة فى هذا الكتاب قد يكون أكثر علماً بحضارة العرب وأطوارها التى تحملتها فى أقطار مختلفة من قارئ قصر اطلاعه على مطالعة الكتب التى تبحث عنها ، وإن وضع الآثار تحت العيون يغنى فى الوقت ذاته عن الأوصاف المسهبة التى لا تعطى أية فكرة عن الأشياء التى تزعم أنها تصفها

وقد يقال بحق : إن مائة صفحة مكتوبة لا تساوى صورة تامة بل قل — ولا غلو — ولا مائة كتاب

عند ما نعمل على تحديد الأشكال نجد أن الكلمات فى أية لغة غير كافية . ولا سيما إذا كان الموضوع يمس الشرق حيث تكون الصور ضرورية . هنالك بالعيون وحدها تمكن معرفة مناظره ومعابده وآثاره الفنية والذرارى المختلفة التى تولت أمره ؛ والأسلوب الفنى بتصويره لن يعطى أبداً ذلك التأثير الذى يعطيه مشهد الأشياء من حيث صورتها الأمينة

ولكن هذه الآثار وهذه المشاهد والأعمال الفنية وأشكال الذريات وفصول الحياة إنما ينبغى أن يذهب الإنسان بعيداً فى درسها ، وإذا أراد درسها بأمانة فان الصورة وحدها تستطيع أن تمطيها ، ومن الصورة تأخذ الصورة الأمينة . وإن أياماً تمدها أيام لا تسمح للفنان الماهر مهما ذهب بأن يبلغ الاتقان الذى تحققه الصورة فى ثوان معدودة

إذا أريد الاختصاص فقط بتمثيل العمارات فإن فناناً ماهراً يكون له الزمن مادة لا قيمة لها قد يصل إلى أن يتنازع مع الصورة ولكن إزاء ألوف الفصول من الحياة الشاملة التى تؤلف جزءاً كبيراً من وجود الشعب لا يمكن أن يثار نزاع حولها . فالصورة الحقيقية هى وحدها القادرة على تصوير الأشياء فى حركاتها بأمانة من شارع حى ومن جواد يعدو خبباً ، ومن موكب عرس وغير ذلك . ومن عهد قريب شاعت مذاهب جديدة تدعوا إلى السياحة والرحلات وقد نفذت هذه المذاهب للمرة الأولى فى هذا الأثر .

وقد لعب الرسم دوره فى كل شىء وعمل على أن يظهر بأمانة من عمارة ، ومن أكوان ، فالصورة الشمسية يجب أن تحل محله الآن ، والصورة فى كتب العلم والتاريخ والأسفار تكون الوسيلة الوحيدة ، ولقد تكون شاقة فى الأسفار النائية ، ولكنها ضرورية لكل مسافر ولكل عالم

فإذا كانت الصورة العامة بما تضمنت من عوامل تعطى القارئ صورة واضحة عن الزمان الذى قامت فيه فالغاية إذن أصبحت محققة والهدف المنشود موجوداً

« إنتهت المقدمة »

خليل هنداوى

***

سننشر بعض فصول من الكتاب تدل على إيمان الرجل بحضارة العرب والعمل على إبرازها بإيمانه القوى وبيانه الساطع

قبرة شيلي

للأديب نظمي خليل

نقل الأستاذ خليل هنداوى إلى قراء الرسالة فى العدد ٢٣٥ قصيدة القبرة للشاعر شيلي نقلا مختصراً فآثرت أن أنقلها على نصها الكامل

سلام عليك أيها الروح الخفيف !

سلام عليك أيها الطائر الذى لم تلامس الأرض ، ولكنك تحلق فى أطباق السماء العامرة بينابيع الفن الأصيل حيث تنسكب فى قلبك !

تشيل من الأرض وتسمو عالياً وعالياً كسحابة من نار وترفرف بجناحيك فى طبقات الجو الصافى . ثم تشدو وأنت تحلق وتحلق وأنت تشدو !

فى الأنوار الذهبية للشمس الغارقة فى بحار السحب تطير وتسبح ... !

أيها الطائر . إنك وإن كنت بعيداً عن أنظارنا ، ولكني أسمع أنشودة سرورك ...!

تملأ الأرض والجو بصوتك إذا ما خلع الليل رداء السحب وسقطت أشعة القمر الباردة فغمرت الكون ...!

أما أنت ، فلن ندركك . فما الذى يشبهك ...؟

إن قطرات المياه التى تسحها السحب لا تبهجنا كتلك القطرات الموسيقية التى تهبط من لدنك !

إنك شاعر مختبىء فى ضوء الفكر يترنم بأناشيد الخلود حتى يتنبه له العالم فيحنو على الآمال ولا يعبأ بالمخاوف

أو كعذراء كريمة الأصل فى قصرها الحصين قد اختلست ساعة تسرى عن نفسها جوى الحب بموسيقاها العذبة التى تغمر خميلتها ...!

أو كحشرة ذهبية وهاجة في أرض ندية ترسل لونها الشفاف فى صمت وخفاء بين الأزهار والحشائش التي تحجبها عن الأنظار !

أو كوردة مستترة فى أوراقها الخضراء تفتحت أكمامها بريح ساخنة ففاح شذا عرفها القوى الجذاب ... !

إن صوت قطرات الربيع على الحشائش النضرة كان مبهجاً عذباً ، ولكنها دون موسيقاك ... !

خبرنى أيها الخيال أو العصفور أي أفكار سامية أفكارك ؟

إن لغتك أسمى من لغة الحب وحميا الكأس !

أهو نشيد مرتين ، أم أغنية نصر قد بارتك . فلم تكن إلا ادعاء كاذباً ... !

من أى الينابيع تستقى سعادتك ... أمن الحقول ، أم من الأمواج ، أم من الجبال ، أم من الأجواء ، أم من السهول .. ؟

إن سرورك العميق الصافى لن يفتر أو يقل .. !

شبح الكدر لن يحوم حولك .. !

إنك تحب . ولكنك لم تعرف ثمالة الحب المحزنة

تفكر فى الموت يقظان ونائماً . وفى أشياء أسمى وأصدق مما نحلم به نحن الفانين وإلا فكيف استطعت التحليق فى هذا الجو البللورى

أما نحن ، فإننا ننظر أمامنا وخلفنا . ونذوب أسى للشيء الغامض الخفى ويشوب سرورنا بعض الألم .. !

إن أعذب أناشيدنا ما كانت تفصح عن أحزن الأفكار لو استطعنا أن نزدرى البغضاء بالكبرياء والخوف . بل لو خلقنا لا نذرف دمعة واحدة لما عرفنا سر اقترابنا من فرحك دائماً !

أيها المزدري الأرض ، إن مهارتك كانت أجدى على الشاعر من ضروب الأصوات السارة ، ومن جمع الكنوز التي تحتويها بطون الكتب !

هبنى نصف الفرح الذى حواه فؤادك .. !

لقد خرج هذا الخلق الموسيقى من شفتى .. !

وعلى العالم أن يصغى كما أصغى أنا الآن .. !

نظمي خليل

أناشيد صوفية

جيتـــانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ٦٤ —

أى شراب مقدس تريد أن ترشف — يا إلهى — من كأس حياتى المترعة ؟

يا شاعرى ، أفيلذك أن ترقب خلقك من خلال عينىّ ، وأن تقف عند أذنىّ صامتاً تتسمع لحنك الخالد ؟

إن دنياك عبارات تضطرب فى خيالى ، وإن مرحك يبعث فيها النغم الموسيقى . لقد نزلت لى عن نفسك فى رضا لتستشعر حلاوة كمالك فىّ

— ٦٥ —

تلك التى تستقر دائماً فى أعماق حياتى ، فى تباشير الصباح اللامعة المضيئة ، تلك التى ماترفع النقاب عن وجهها أبداً فى ضوء النهار ، تلك — يا إلهى — هى هديتى أزفها إليك ملففة فى لحنى الأخير

لقد تساقطت حولها عبارات الاستعطاف كليلة ؛ ورحت أستميلها عبثاً بكلمات فيها الشوق والحنين

إننى أضطرب فى أنحاء الأرض وهى ماتنفك فى زاوية من قلبى ، ومن حولها يشب ويخبو غالى حياتى وغثها

وهى قد سيطرت على خواطرى وأفعالى ، على غفوتى وأحلامى ؛ غير أنها سكنت وحيدة وفى منأى عنى

كم من إنسان طرق بابى يسأل عنها ثم ارتد فى يأس

ليس فى العالم من توضحها وهى ماتبرح فى خلوتها تنتظرك

— ٦٦ —

إنك أنت السماء وأنت العش فى وقت معاً

ياذا الجمال ، إن الذى فى العش هو حبك الذى يغمر الروح باللون والصوت والأريج

إن الصبح يسفر وفى يمناه سلته الذهبية وقد امتلأت بالزهور الجميلة يكلل بها وجه الأرض

والليل يسدل أستاره على المروج المحلة وما فيها سوى أعشاب تعافها الأنعام ، وعلى الطرقات الموحشة ، وبين يديه جرته الذهبية وفيها رشفات باردة من الأمان ، أتى بها من المحيط الغربى الساجى

ولكن هناك ... هناك حيث تمتد السماء إلى اللانهاية فتجد الروح مكاناً فسيحاً ترفرف فيه ، يتألق دائماً النور الأبيض فلا نهار ولا ليل ، ولا شبح ولا لون ، ولا ... ولا حديث

— ٦٧ —

إن شعاع شمسك ينطلق إلى أرضى ممتد الذراعين ، فيقف بإزاء بابى طيلة اليوم ليرتد إليك وبين يديه معانى عبراتى وأنّاتى وأغاريدى

فى لذة النشوة لففت صدرك المرصع بالنجوم فى ملاءة من السحب الندية استحالت إلى أشكال وطيات ثم بهرجتها بأصباغ ماتزال تتغير

إنها براقة متقلبة ، رقيقة دامعة ومظلمة ، لذلك أنت تتعشقها أيها الطاهر النقى ، وهذا هو السبب فى أنك تخيرتها لتغطى على ضوءك الساطع المهيب بظلها الرفيق

— ٦٨ —

إن تيار الحياة الذى يتدفق فى عروق صباح مساء هو الذى يتحدر فى أنحاء العالم فيهتز على نغم لحن جميل

وهو الحياة التى تخترق الأرض مرحة فى نبات لا عداد له ثم تتفجر عن موج مضطرب من الأوراق والأزهار

وهو الحياة التى تُهدهد فى مهد محيط الحياة والموت ، بين المد والجزر

إننى أستشعر الجلال فى أطرافى من أثر لمسات دنيا الحياة ؛ وكأن كبريائى وهي أثر خلجات الحياة فى العصور الماضية ، كأنها تضطرب فى عروق هذه الساعة

— ٦٩ —

أفلا يلذك أن تطرب لهذا اللحن الحلو ، وأن تتقاذفك نشوته المروعة فتغمرك وتحطمك ؟

إن كل الأشياء تندفع فى طريقها فلا تستأنى ولا تعقب ، وما من قوة تستطيع أن توقف تيارها وهى تندفع فى طريقها إلى الأمام

كن بازاء هذه الأشياء فى مَيعة حضرها : الموسيقا السريعة والأيام وهى تقبل لترقص حيناً ثم تدبر ... إن الألوان والألحان والأريج تتدفق جميعاً فى المجرى اللانهائى فى نشوة الطرب ... الطرب الذى يتناثر ويتضعضع ويفنى فى كل حين

— ٧٠ —

لأن أعزز نفسى وأبعثها فى جميع النواحى ، فاني أنشر على ضيائك أستاراً من الظل ذات ألوان ، لأن نفسى كأنها هي فتاتك (مايا)[1]

لقد أسدلت دونك حجاباً ثم أعلنت عن ذاتك في فنون كثيرة ، ولكن هذا الانفصال الذاتي حل فى جسمى أنا

وتردد صدى اللحن العنيف فى أضعاف السماء فى أشكال مختلفة من الدمع والابتسام من اليأس والأمل ؛ والموج يعلو ويهبط ، والأحلام تتبدد وتتجمع ، ولكن فىّ بعض نفسك

وعلى الستر الذى أقمتَ رسوم كثيرة صوّرتها ريشة الليل والنهار ؛ ومن ورائها عرشك وقد نسج فى منحنيات غامضة أخاذة ليس فيها الخطوط المستقيمة القفرة

إن المهرجان العظيم ... مهرجانك وإياى قد هزّ آفاق السماء واضطربت نغماتك وإياى فى أرجاء الهواء ، وانطلقت تفتش عنك وعنى كل الأجيال الماضية

— ٧١ —

إنه هو ... هو الباطن ، الذى أيقظ الحياة فى نفسى بلمساته الخفية العميقة

إنه هو الذي نفث من سحره فى هاتين العينين ، ووقّع فى سرور على أوتار قلبى لحن الطرب والألم فى وقت معاً

إنه هو الذى نسج خيوط (مايا) فى أصباغ حائلة من الذهب والفضة ... أصباغ زرقاء وخضراء ؛ ومن بين ثناياها أطلّت قدمه ، وبلمسة من لمستها ذهلت عن نفسى

إن الأيام تطلع علينا ثم تنطوى ، وهو هو الذى يحرك قلبى فى فنون كثيرة ، وأساليب مختلفة ، وخفقات من الفرح والألم

كامل محمود حبيب

(١) مايا : هى فى الدين الهندي فتاة وهمية سماوية تمثل إرادة الخالق النشطة

الحضـــارة المصرية
في عهد الدولة القديمة

بحث للعلامة الأثرى اريك بيت

للأستاذ أحمد نجيب هاشم

« تتمـــة »

ولما كان الكهنة هم أكثر الناس علماً كان منهم الموظفون المسئولون عن الفيضان وعمل الترتيبات اللازمة له فكان بمعابدهم مقاييس لمعرفة زيادة النيل، وكانت بسيطة التكوين، كل منها بئر حلزونية أو مربعة الشكل توجد على مقربة من النهر ومتصلة به فكل ارتفاع أو انخفاض فى النهر يصحبه بطبيعة الحال المثل في البئر، وبالبئر أرقام تقيد هذا الارتفاع أو الانخفاض، وبها درجات يستطيع المرء أن ينزل عليها كي يقرأ مستوى المياه الذى وصلت إليه يوماً بعد يوم فيعرف مقدار الزيادة، ولما كان الفيضان يبدأ غالباً حوالى الوقت نفسه كل عام سهل على الكهنة ملاحظة هذه العملية وتدوين أرقامها، وبموازنتها بالأرقام التى قيدوها في السنوات السابقة أمكنهم أن يعرفوا حالة الفيضان المقبل إن كان مرتفعاً أو منخفضاً بالنسبة لسابقه، وبذا كان فى استطاعتهم أن يحددوا الوقت الذي تفتح فيه الجسور كى تغمر المياه الأرض كلها فإن كان الفيضان مرتفعاً جداً أرسلوا تحذيراً إلى الناس كى يقيموا السدود، وكانت الحكومة فى هذه الساعة تسخر كل الناس فى هذه العملية، وكان للفيضان أثر آخر، ذلك أن مياهه بعد أن تغمر الأرض مدة ستة أو سبعة أسابيع كانت تمحو الحدود التى بين أرض الفلاح وزميله أو تغطيها بالطمى، فعمد المصريون إلى مسح الأرض كى يعرف كل فرد مساحة أرضه بالضبط، وبذلك بدأوا علم الهندسة إذ وجدوا في مسح الأرض أضبط مقياس وأنه أفضل من وضع أحجار على الحدود، ولا تزال مشكلة ضبط الحدود موجودة فى مصر، فالنيل فى أثناء الفيضان يزيد مساحة الأرض الواقعة على حدود الصحراء، ولذا يحاول الفلاحون هناك الانتفاع بهذه الزيادة التى تسمى بطرح البحر بضم جزء منها إلى أملاكهم القليلة، وقد لا تبلغ هـذه الزيادة ثلاثين أو ستين سنتيمتراً كل عام ولكنها تزداد على مر السنين، ولذلك يهتم مفتشو الحكومة بحراستها كما كان يفعل زملاؤهم منذ آلاف السنين

الفنون

الحفر والرسم : رأينا نواة التقدم الفنى فى العهد السابق للأسرات إذ وصل الحفر البارز درجة عالية كما تدل على ذلك مقابض السكاكين العادية والألواح الأردوازية والتماثيل التى وجدت فى « قفط » كذلك يرينا لوح « نارمر » الذى يرجع إلى أول الأسرة الأولى كثيراً من قواعد الرسم التى استعملت فيما بعد في الفن المصرى، فالرسوم الدقيقة القليلة البروز كانت مناسبة لمملكة تسطع فيها الشمس ويشتد الظل، وقدر للحفر نجاح عظيم فى تاريخ مصر، وليس فى وسعنا أن نتتبع هذا التطور فى الأسرات الثلاث الأولى لقلة الأمثلة وبعد بعضها عن بعض، ولو أن لوح قبر الملك «زت» وقطعاً صغيرة كثيرة من مقابر الملوك فى « أبيدوس » تدل على تقدم مضطرد فى الأسرتين الأوليين لا سيما من حيث القدرة الفنية وحسن استعمال المواد، ثم تصل هذه الأمثلة فجأة إلى أجمل مقابر الأسرتين الخامسة والسادسة كمقبرة « تى » فى سقارة فهناك نرى الفن المصرى فى أوج عظمته وتنتقل العين بين الرسوم انتقالا سهلا، وهذه هى ميزة الفن في هذه الفترة، ولكن نلاحظ أن قواعد المنظور تكاد تكون معدومة فى رسوم هذا العصر ونقوشه، فاذا أريد رسم شيء فوق آخر فما على الفنان سوى أن يضعه فوقه، كذلك كان يرسم الانسان عادة جانبياً، ولكن مع ذلك نشاهد كتفيه كأنما ينظر إليها من الأمام، وعلى هـذه الطريقة استمر المصريون يرسمون نقوشهم طول عهد المملكة القديمة وبالرغم من هذه الغلطات فان النقوش البارزة على الألواح الخشبية التى عثر عليها فى مقبرة حى من الأسرة الثالثة تعد من أجمل القطع الفنية فى العالم، فهي تمتاز بما تبعثه فى النفس من أفكار لا نهاية لها

النحت : وقد سار النحت جنباً إلى جنب مع الرسوم البارزة، فأخرجت مصر من الأسرة الرابعة إلى السادسة أكبر مقدار أخرجته من التماثيل فى تاريخها بعد ذلك . وكان الدافع إلى عمل التماثيل دينياً أكثر منه فنياً إذ اعتقد المصريون أن الشخص بعد

موته يعيش فى مقبرته عيشة لا تختلف كثيراً عن حياته فى الدنيا فاهتموا بتحنيط جثته مخافة أن يلحق هذه الومياء العطب ورأوا ضرورة وجود التمثال حتى يحل فيه الروح ، وإلى هذا الاعتقاد الغريب يرجع الفضل فى وجود كثير من أجمل التماثيل فى العالم وقد وضع المصريون بعض التماثيل من الخشب ومن الحجر ، والقليل منها من الجرانيت والصوان ، وصنعوا كثيراً من التماثيل من حجر الجير الملون ، ومن أهم تماثيلهم تمثال « خفرع » المصنوع من الصوان وتمثال « شيخ البلد » « والكاتب الجالس القرفصاء » المحفوظ باللوفر « وتمثال نفرت مع الأمير راع حوتب الذى وجد بميدوم وهو محفوظ الآن بالمتحف المصرى »

العمارة

بدأ ظهور فن العمارة فى مصر منذ أخذ إنسان ماقبل الأسرات يبطن جدران مقبرته بقوالب من طمى النيل المجفف فى الشمس ، ولعله استعمل هذه القوالب فى بناء بيته الساذج الأول ولا يبدأ أهم دور فى تطور العمارة فى مصر إلا ببدء العصر التاريخى إذ استعمل الحجر لأول مرة فى البناء فى عصر الأسرة الأولى فبنيت أرضية مقبرة الملك « دن » بأبيدوس من حجر الجرانيت وهذا أقدم مثل معروف لنا ، وبعد أن تنقضى أسرة كاملة نجد فى مقبرة « خاسخموى » أول ملوك الأسرة الثالثة حجرة بأكملها مبطنة بالحجر الجيرى

ولا بد أن فن البناء تقدم بخطى حثيثة فى الأسرتين الأولى والثانية ، وتدل الحفريات الحديثة فى سقارة على أنه وصل إلى درجة عالية أيام الأسرة الثالثة ، ولذا يعتبر العلماء أن هذا التقدم هو نهاية لا بداية عصر معمارى عظيم فقد عثر هناك على أعمدة من الطراز الدورى Doric وكانت النماذج الوحيدة المعروفة لهذا الطراز هى تلك التى عثر عليها فى مقابر الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة فى بنى حسن ، أى بعد النماذج السابقة بحوالى ٩٠٠ سنة

ويلى آثار سقارة من حيث الترتيب الزمنى معابد أهرام الدولة القديمة ومعابد الشمس فى أبى صير ، وإذ كانت عمارة هذا العصر معروفة لنا من المبانى الجنائزية فعلينا أن نبحث أولا تطور بناء المقبرة عند أولئك المصريين الأول

أخذت المقبرة فى أواخر عهد ما قبل الأسرات تتطور فى إحدى طريقين منفصلين وهما المقبرة ذات الدرجات والمقبرة التى فى شكل حفرة ولكل منهما تطور طويل فى عهد الدولة القديمة

تكوّن كل قبر مصرى من جزأين رئيسيين : اللحد وهو تحت الأرض وتدفن الجثة فيه ثم مكان العطايا وهو فوق الأرض ويضع فيه أقارب الميت الهبات اليومية من طعام وشراب وغير ذلك مما يحتاجه كي يواصل حياته فى القبر ، ويحتمل أن بعض المقابر الأولى كانت خلواً من هذا الجزء أو لعله اقتصر على كوم من الرمل أو الحصى ، وسواء هذا أو ذاك فقد تطور هذا الجزء منذ عهد الأسرة الأولى إلى شكل مصطبة ذات جوانب مائلة فى أحدها كوة صماء لوضع العطايا تجاهها

وبتولى الأسرة الرابعة الحكم كانت هذه المبانى البسيطة قد تطورت إلى تلك المصاطب الحجرية الهائلة التي بناها الأشراف لأنفسهم حول أهرام ملوكهم ، ويقع اللحد تحت المصطبة الأولى نفسها وبداخل المصطبة حجرات لوضع العطايا من أكل وشراب

اختلف هذا النظام اختلافاً بسيطاً فى الهرم ، أجل كان الملك يدفن فى حجرة تحت الأرض منحوتة في الصخر ويعلوها هرم كان كالمصطبة تذكاراً ظاهراً فوق القبر إلا أن الهرم لم يكن بداخله حجرات العطايا بل بنيت هذه فى الجهة الشرقية منه ونظراً لكثرتها فقد أطلق عليها اسم معبد الأهرام ؛ فان كان الهرم هو تطور المصطبة كما يقول البعض فما المعبد إلا تطور الكوة الصماء التى كانت توضع العطايا تجاهها

ولما كان الهرم ومعبده قائمين على هضبة مرتفعة عن مستوى الحقول المحيطة بهما بنحو ١٠٠ قدم فقد بنى صاحبه طريقاً منحدراً مرصوفاً كي يسهل الوصول من الوادى إلى المعبد وبنى في أسفل هذا الطريق معبداً صغيراً سمى بمعبد الوادى ، ويقول البعض إن زيارة المعبد الرئيسى كانت قاصرة على أقارب فرعون ورجال بلاطه وإن معبد الوادى كان لزيارة عامة الشعب

ويرى فريق آخر أن معبد الوادى لم يكن سوى مكان يتطهر فيه الزائر قبل أن يصل إلى المعبد الرئيسى ، وما المعبد المعروف بمعبد أبى الهول إلا معبد الوادى لهرم « خفرع » وقد

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٣٢٦ — لا تجعل قلبك مثل السفنجة

في (مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة) لابن قيم الجوزية: قال لي شيخ الإسلام [1] (رضي الله عنه) — وقد جعلت أورد عليه إيراداً بعد إيراد —: (لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المُصْمَتة [2] تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها، فيراها بصفائه، ويدفعها بصلابته. وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليك صار مقراً للشبهات)

فما أعلم أني انتفعت بوصية كانتفاعي بذلك

(١) ابن تيمية (٢) مسدودة، مغلقة

٣٢٧ — يزيدهم حرصاً على الإسلام

في (الأحكام في أصول الأحكام) لابن حزم: أن رسول الله لما خرج إلى بني قُرَيظة والنَّضِير قال له أبو بكر وعمر: يارسول الله، إنّ الناس يَزيدهم حرصاً على الإسلام أن يروا عليك زِيّاً حسناً من الدنيا، فانظر إلى الحُلَّة التي أهداها لك سعد بن عبادة فالبسْها، فليَرك اليوم المشركون أنّ عليك زيّاً حسناً

قال: أفعلُ

٣٢٨ — إن الاحتمال قبر المعايب

قال الأنباري في (طبقات الأدباء): كان شيخنا ابن الشجري (هبة الله بن علي) وقوراً في مجلسه، ذا سمت [1] حسن لا يكاد يتكلم في مجلسه بكلمة إلا تتضمن أدب نفس أو أدب درس. إختصم إليه يوماً رجلان من العلويين فجعل أحدهما يشكو ويقول عن الآخر: إنه قال فيّ كذا وكذا. فقال له الشريف (ابن الشجري): يا بُنيّ، احتمل فان الاحتمال قبر المعايب [2]

وهذه كلمة حسنة نافعة فإن كثيراً من الناس تكون لهم عيون فيغضون عن عيوب الناس ويسكتون عنها فتذهب عيوب لهم كانت فيهم، وكثير من الناس يتعرضون لعيوب الناس فتصير لهم عيوب لم تكن فيهم

٣٢٩ — يريد أن يموت

أبو القاسم اليزيدي: كان أبو عمرو بن العلاء في مجلس إبراهيم [3] بن عبد الله، فسأل عن رجل من أصحابه فقدَه، فقال لبعض من حضره: اذهب فاسأل عنه. فرجع فقال: تركته يريد أن يموت. فضحك منه بعض القوم وقال: في الدنيا إنسان يريد أن يموت!

فقال إبراهيم: لقد ضحكتم منها عربية؛ إن (يريد) في معنى

(١) سمت سمتاً: كان ذا وقار وهو حسن السمت: الهيئة

(٢) المعايب، المكايد، المعايش، المخايل، لا تهمز والقاعدة مشهورة

(٣) أخو محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية

كشف الأستاذ سليم بك حسن تحت الطريق الواصل بينه وبين المعبد الرئيسي للهرم نفسه عن أقدم نفق في العالم نحته مهندس ذلك الملك العظيم في الصخر الصلب كي يختصر المسافة لمن يريد الوصول من الجهة الشمالية للهرم إلى جهته الجنوبية ويوفر عليه السير الطويل حول الطريق المذكور

وتبين لنا هذه المعابد الأولى أغلب مظاهر المباني الدينية المصرية كما نراها فيما بعد هذا العصر، فكلها متينة البناء والمسقف منها مسقف بكتل حجرية أفقية قائمة على أعمدة لا أقبية فيها، على أن المصريين لم يجهلوا طراز القبو كما يتضح ذلك من مقابر الأسرة الثالثة. وهكذا نجد في الدولة القديمة الظاهرتين الأساسيتين في بناء المعابد المصرية، فهناك البهو ذو السقف الكامل القائم على أعمدة موزعة في كل أنحاء أرضية المعبد، وهناك أيضاً البهو ذو الأعمدة ويتكون من فناء مفتوح يمتد على جانب أو أكثر فيه جزء مسقف يقوم سقفه على صف أو صفين من الأعمدة

ومن المباني الدينية التي تنتسب إلى عصر الدولة القديمة معابد الشمس التي بناها ملوك الأسرة الخامسة في أبي صير وكانت تشبه معابد الأهرام السالفة الذكر من حيث وجود معبد الوادي والمعبد الرئيسي والطريق المنحدر الواصل بين الاثنين، ولكن بدلا من الهرم الذي كان يقام فوق المقبرة بنا ملوك الأسرة الخامسة هرماً ناقصاً صغيراً تعلوه مسلة هي رمز إله الشمس «رع»

احمد نجيب هاشم

يكاد ، قال الله تعالى : (جداراً يريد أن ينقض [١]) أى يكاد

فقال أبو عمرو : لا نزال بخير ما كان فينا مثلك

٣٣٠ — وأرى الغيب فيه مثل العيان

أبو القاسم المحسن بن عمرو بن المعلى :

لست أدرى ولا المنجم يدرى ما يريد القضاء بالإنسان
غـير أنى أقول قول محق وأرى الغيب فيه مثل العيان :
إن من كان محسناً قابلته بجميـل عواقبُ الاحسان

٣٣١ — اتفاق عجيب

قال ابن بسام : من عجائب ما جرى لأبى العلاء صاعد بن الحسين البغدادى — الوافد على الأندلس — أنه أهدى أيّلا إلى المنصور بن أبى عامر — ملك الأندلس — وكتب على يد موصله قصيدة منها :

عبدٌ جذبتَ بِضَبْعِه ورفعت من
مقداره أهـدى إليك بأيل [٢]
سميتُـه (غرسيّـة) وبعثته فى حبله ليصحّ فيه تفـؤّلى [٣]

فقضى فى سابق علم الله أن ملك الروم (غرسية) أسر فى ذلك اليوم الذي بعث فيه بالايل بعينه ، وسماه باسمه على التفاؤل ، وكان غرسية أمنع من النجم . وسببُ أخذه أنه خرج يتصيد فلقيته خيل للمنصور من غير قصد فأسرته وجاءت به ، فكان هذا الاتفاق مما عظم به العجب

٣٣٢ — لكن عندى عتيق سنتين

قال ياقوت : قال المرزبانى : قال عبد الله بن عياش : كنت أنا وسفيان الثورى [٤] وشريك بن عبد الله (القاضى ، الفقيه) نتماشى [٥] بين الحيرة والكوفة فرأينا شيخاً أبيض الرأس واللحية حسن السمت والهيئة ، فظننا أن عنده شيئاً من الحديث ، وأنه قد أدرك الناس [١] . وكان سفيان أطلبنا للحديث ، وأشدنا بحثاً عنه ، فتقدم إليه وقال : يا هذا ، هل عندك شيء من الحديث ؟ فقال : أمّا حديث فلا ، ولكن عندى عتيق سنتين

فنظرنا فإذا هو خمار ... !

(١) يريد أن ينقض : استعيرت الارادة للمداناة والمشارفة كما استعير الهم والعزم لذلك ، قال حسان :

إن دهراً يلف شملى بجمل لزمان يهم بالاحسان

وسمعت من يقول عزم السراج أن يطفأ ، وطلب أن يطفأ (الكشاف)

(٢) جذب بضبعه (بعضده) وأخذت بضبعيه ، ومددت بضبعيه إذا نعشته ونوهت باسمه (الأساس) أهدى إليه بايل : زاد الباء ، يقال : أهدى له واليه هدية ، وفى شعر بشار : (لم تهدنا نعلا ولا خاتماً) وأصله عندي : لم تهدلى أو هو من عبث بشار

(٣) تفأل به وتفاءل

(٤) أحد الأئمة المجتهدين ، والنسبة إلى ثور بن عبد مناة

(٥) نتماشى : نمشى معاً . وفى التاج : تماشوا مشى بعضهم إلى بعض

٣٣٣ — ... قبل مضى أسبوع

فى (حلبة الكميت) : لشمس الدين النواجى : يقال : إن من نظر إلى البدر فى ليال متعددة ، وخاطبه بهذين البيتين وهو مشغوف القلب اجتمع بمن يحب قبل مضىّ أسبوع وهما :

يا أيها القمر المنـير الزاهر الأبلج البـدر البهى الباهر
بلغ شبيهتك السلام وصف لها شوقى وأنى فى هواها ساهر [٢]

٣٣٤ — كتبه على بن الحسن الجوينى

ياقوت الحموى : كان من شيمة الجوينى الكاتب أنه ما كتب شيئاً بخطه كثر أو قلّ ، دق أو جلّ إلا يكتب فى آخره [٣] : كتبه على بن الحسن الجويني

(١) يعنى بالناس الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين

(٢) فى (مسالك الأبصار) قيل انه قيل فى راهبة فى دير العذارى ، وفى (اليتيمة) : أنشدنى السرى الرامي هذين البيتين لأبي علي الدامغانى ثم وجدتهما لغيره ، ويروي الثانى

بلغ شبيهتك السلام وهنها بالنوم واشهد لى بأنى ساهر
وأنا أروي خبر النواجي غير مسؤول عنه ...

(٣) فهذه العادة وهذا الولع قديمان فى أصحابنا الخطاطين شركاء الناس فى أسمائهم وكتبهم ... والجوينى زعيمهم



رسالة الشعر



في عيد الاحسان

فاروق حبك في القلوب عقيدة

للأستاذ محمود حسن اسماعيل

نوران: نور هدى ونور تبسم ... سطعا، فراح الشعر يسطع من فمي
فهتفت: يا دنيا الملائك طهري ... وتري، ومن آيات وحيك ألهمي
هاتي لي النغم الجديد، بغيره ... ما اهتز للشعراء سمع الأنجم
هاتي فإن بعرش مصر مملكا ... تاج العصور بمثله لم ينعم
أوفى فرحت إلى الخمائل هاتفاً: ... هاتي الشذا من زهرك المتبسم
فضي لحون الطير من لهواتها ... ومري أغانيها ترن بمرقمي
ودعي الصباح ونوره، ودعي الضحى ... وعبيره ينساب طهراً في دمي
إني سأهتف للمليك بآية ... بيضاء مثل جبينه المتوسم
مولاي! فاهتز الوجود مهللا ... طرباً، وإن لم يشد أو يتكلم
من رام تغريداً بظلك فليكن ... لبلابل الخلد السواجع ينتمي
الله أكبر! ما لسمعك هزة ... بسوى حمام الجنة المترنم!

***

«فاروق» حبك في القلوب عقيدة ... أخذت سراها في القلوب مع الدم
قسمت مع الإيمان قدس مكانه ... في الروح، وهو لغيرها لم يقسم
الشرق يقرأ في جبينك آية ... فجر الربيع بنورها لم يوسم
النيل فسرها له متخايلاً: ... هذي منارة كل قلب مظلم
فيها عزاء الشرق عن آلامه ... ومناه بعد أسى وطول تجهم
الله سطرها لتاريخ الحمى ... بشرى وثوب للعلا وتقدم!

***

يا عاهل الإسلام كرم عصره ... وأثر به حلك الوجود المعتم
ألقت إليك يد الحنيف زمامها ... فأقلت عثرتها، وقلت لها اسلمي!
وبعثت عهد الراشدين بصولة ... شرع السماء بها حديد المعصم
فرعيت عن الصولجان ومجده ... وخطرت في ورع النبي الملهم
وحملت مسبحة كأن مدارها ... فلق الهدى للحائر المتبرم
حباتها فلذ القلوب خواشعا ... عطلن باللثمات آمال الفم
نسق من الملك انفردت بعزه ... لسواك في التاريخ لم يتقدم

***

في دولة الإحسان قامت عصبة ... للخير في جنبات عرشك تحتمي
تأسو إذا جرح الزمان، وتنبري ... قدراً يكفكف دمعة المتيتم
كم ثاكل ردت فواجع قلبها ... نعماً، وأسبغت النعيم لأيم
ستارة الأعراض يغمر جودها ... ليل الحرائر في بياض الأنعم
وترابها للمعوزين غرائس ... للقوت، تثمر في خريف المعدم
تعطي ولا منٌّ يشوب عطاءها ... وتجود جود العدل للمتظلم
منن تدب إلى النفوس خفية ... يجري بها قدر الإله المنعم
فكأنها الأحلام تهبط في الدجى ... للبائسين بخشعة وتحرم
شرف العطايا أن تزف وحيدة ... كالسر بين تخفر وتحشم!
هي كعبة - للبؤس من إحسانها ... بشر النبات بغيثه المترحم
للعلم في أكنافها ري النهى ... ولشكوة العلات برء المسقم
مولاي أسعدها بنورك إنها ... بهداك تفرع سابحات الأنجم
هم سبقن خطى الزمان بعزمة ... أوقدتها سبق القضاء المبرم
هتفت بك الدنيا فرد هتافها ... شعب يفدي بالقلوب وبالدم!

محمود حسن اسماعيل

حـــواء

للاستاذ ابراهيم العريض

تمثّل الحبُّ للفنان بين يديْ ذكراه كالنار تغشى طورَ سيناءِ
وقال حين رآه فى تململه يقلّب الطرفَ بين الزهر والماء :
« يا من عكفتَ على الدنيا وزينتِها
حتى صممت عن الأنغامِ من نائى (١)
تحيا الحياةَ بلا إلفٍ تلوذ به إلا ارتيادَك فى أفياءِ فيحاء
حتى كأن ضلوعاً أنت حاملها تُطْوَى على كبدٍ ليست بحرَّاء
هذا الوجودُ إطارٌ لا كِفاءَ له وغاية الفنّ فيه رسمُ حوّاء
لهـا الشبابُ الذى تَشْنَى برُقْيته
ما كابد القلبُ من صدٍّ وإغراء
لها الجمالُ الذى تعنو لعزته فيما تشاهدُ من ظلٍّ ومن ماء
لها الوداد الذى تَبقى أشعتُه تنير خطوكَ فى طوفانِ أهواء
كأنها الشمس إشراقاً.. تبادلها مرآةُ قلبك لألاءً بلألاء
لا تكذبِ النفس فى مجد حلُمت به
فلست تحسن إلا قولَ : أهواها
***
شغفتَ بالحسن لاتنفكّ تطلبُهُ عيناك.حتى ولو فى كأسِ صهباءَ
وليس أجملَ مافى الكون من أثرٍ
إلا اقتباساً بدا منٍ شكل حسناء
أنظر إلى شفتيها.هل ترى زَهراً يفترّ عن نُقَط كالطلّ وطفاء
أنظر إلى وجنتيها . هل ترى شفقاً
يلوح من شَعْرِها فى وسْطِ ظلْماء
أنظر إلى ناظريها.هل ترى ألَقاً كأنه صادرٌ عن كوكب ناء
مافى الطبيعة من حسن فمنعكسٌ
عن صدرها البضّ فى عينيك يا رائى
وأطيب الطيب مافى الخلد من زَهَرٍ
وإنما غرسَتْهَا كفُّ حوّاء
فكيفَ تُكبِرُ من شأنِ الجميلِ ولا
تُثيبُهَا عن يدٍ قَبِلْتَ بيضاء
وما تؤمّل فى الفردوسِ منفرداً لولا رجاؤك أن تحظى بلقياها »

ابراهيم العريض

(١) نائى : قيثارتى

هي عينــاك

للأديب حلمى عطا الله

حرقةٌ فى القلب يذكيها الألم
صدمة للنفس يتلوها النـدم
وأنا وحدى أسـير الليل أطوى الظلماتِ
لا أبالي ماأرى فى وحدتى من عقبات
أسـدل الليل جناح الحلم فوق الفلوات
ألم الليـل شديد الوطء مرّ العبرات
هى أشجانى التى توقظ فىَّ الحسرات
يا لعينيك التى تحرمنى طعم السبات :
هي عيناك التى تحرقني فأهـيم
هي عيناك التى تشعلنى كالجحيم
***
قسوة الهجر على القلب العليل تقتله
كثرة التبريح بالجسم الهزيل تثقله
هذه شكواى من عينيك ياذات الدلال
من يراعيها ويرعانى إذا طال النضال ؟
هل أذوق الشهد أم أقضى حياتى فى الخيال ؟
أم أقاسى الصدَّ ؟ كلا ، إن هذا لمحال
أنا لا أطمع فى النوح ففى النوح الزوال
أنا لا أبغى سوى الوصل ، فذا الوصل الحلال
هى عيناك التى تأمرنى فأطيع
هي عيناك التى تذهلنى فأضيع

حيفا — حلمى عطا الله



أقصوصة لاذعة من أناطول فرانس

مشعوذ المـــادونا (١)

للأستاذ دريني خشبة

كان يعيش في أيام الملك لويس "مُشَعْبِذٌ" فقير من كومبين يقال له بَرْنَابَا ، وكان لا ينى يذرع أقطار الأرض ليعرض على الناس ألعابه الخارقة التى كان يبهرهم بها فى خفة وحذق وبيدٍ صناع . وكان ينتهز أيام الصحو فينتحي ناحية فى الميادين العامة ، ثم يفرش على الأرض قطعة من بساط خَلَقٍ لم يكن يفارقه أينما سار ... وبكلمات يقولها ، وإشارات وحركات علمه إياها مشعبذ أكبر منه سناً يجتمع حوله أطفال وغلمان ومتسكعون ، ثم يسوق الفضول غيرهم فيكون فى حلقة من النـاس من كل صنف يستهويهم بشعبذاته ، ويثير عجبهم بالبراعة الفائقة التى يقف بها سُكُرُّجَةً (٢) من صفيح مطلى على أرنبة أنفه ، وهو مع ذلك يميل ويميد ويتخلج ... فاذا فرغ من هـذا انقلب فى الهواء فوقف على رأسه ويديه ، ثم راح يرسل فى الهواء كرات ستـّا صغيرة من نحاس أحمر لامع ، فيتلقاها بقدميه العاريتين فى مهارة خارقة ، بحيث لا تسقط منها واحدة حتى يستوى ؛ وكان الناس يختلفون فى أمر هذا المشعبذ ، ولكنهم سرعان مايتفقون على أنه أُلْعُبَان داهية حين يتقوّس ويتقوس ، حتى يعمل بجسمه المنقلب عجلة من لحم ، ثم يرسل فى الهواء اثنتى عشرة سكيناً (١) مرهفة فيظل يتلقفها بيديه فى سرعة تخطف البصر وتُطلق أيدى النظارة بالتصفيق ، وحناجرهم بالهتاف الطويل ، ثم يمطرون بساطه الخلق بالدّوانق (٢) والدريهمات

ولم يكن برنابا مع ذلك بدعاً من الناس ، فلقد كان واحداً من هذه الآلاف المؤلفة التى تكتسب الكفاف من العيش بعرق جبينها ، وكان يشقى كما يشقى إخوانه البائسون فى كل زمان وفى كل مكان ، بل لقد كان نصيبه من شِقوةِ الحيـاة ، ومضض العيش ، والأوزار التي كتب فى الأزل أن تنقض ظهور الناس جيلاً عن جيل عن أبيهم آدم ، كبيراً مضاعفاً ...

ولم يكن يستطيع أن يصل عمله الشاق المضنى فى كل وقت ، فهو واحد من مئين من الأحياء التى يعج بها العالم ، ويزخر بها وجه الأرض ، والتى تحتاج إلى حرارة الشمس ، ودفء الهواء ، لتدب الحياة فيها وتنتعش ... لذلك كان الشتاء أكبر أعدائه ، إذ كان يقاسيه كما تقاسيه الشجرة التى نفضت أوراقها ، وبدت خلاله نِصفَ ميتة ... وكان الصقيع الذى يغطى وجه الأرض بقضه وزمجه ، ويثلج يديه وقدميه ، فتسقط الكرات وتجرحه السكاكين ، ولكنه مع ذلك يبسم ويهش ، متشبها بالصُّرْصُر المذكور فى قصة مريم الأفرنسية ، والذى يشدو ويرقص جَوْعانَ من ... البرد ! ! أو من الجوع ... أو منهما معاً ! !

وكان لسذاجة قلبه ، وقناعته ، يقاسى فى سكون وصمت . فلم يفكر مرةً فى كيفية توزيع الثروة بين الناس ، ولا فى علة هـذا التفاوت الكبير بين أقدار البشر ، وكلهم من آدم ، وآدم من تراب ... لا ... لم يفكر برنابا الطيب فى شئ من هذا ولا ذاك ، بل كان مؤمناً ساذج الإيمان ، وكان يعتقد أن الخير الذي فاته فى هـذه الدنيا لابد مواتيه فى الآخرة ، وأن سيئات

(١) المادونا لقب يطلقه مسيحيو أوروبا على مريم البتول . ولأناطول فرانس قصص طويلة وقصيرة كثيرة العدد ، ولكن هذه الأقصوصة تفردت من بين قصصه بأنها أصدق صورة لفن الكاتب العظيم الذى مات وهو يسخر من العالم ومن فيه

(٢) السكرجة (بضم وضم وضم مشدد) : آنية بين القصعة والطبق

(١) سكين مذكر ومؤنث ويغلب عليها التأنيث فى مصر

(٢) الدانق بفتح النون وكسرها سدس الدرهم

هذه الحياة ستحتسب في صحيفته حسنات يوم يوفى للناس حسابهم.

ولم يكن برنابا من هؤلاء اللبّقين الألِبّة الذين باعوا أنفسهم لسيد الأبالسة، بل كان يؤمن بالله ولا يكفُرُه، ويلهج لسانه دائماً باسمه، وكان يحيا حياةً أمينةً طاهرة كلها تقوى وعفة، ولم تحدثه نفسه مرة أن يمد عينيه إلى ما متع الله به جاره من زوجة جميلةٍ حلوةٍ مفتان، مع أنه لم تكن له زوجة حلال ... وكان يؤمن بخطر المرأة على شباب الرجل وعنفوانه، وكانت له أسوة بما حدث من ذلك لشمشون كما هو مشهور مأثور

وهكذا لم يك برنابا بهيميًّا ولا شهوانيا، بل هو لم يفكر مرة في هذه اللذة الدنسة التي تستعبد أمثاله من المشعبذين، بيد أنه إن سلم من ذاك، فلقد كانت تأسر لبّه الخمر، وكان يرى فيها منجاة من فتنة النساء والوقوع في كيدهن؛ ولم يكن برنابا مدمناً مع ذاك، وإن أحب الخمر وصبا إليها من كل قلبه، لا سيما إذا كان الفصل شتاء والطقس بارداً زمهريرا ... فإذا استثنينا شغفه بالخمر وجدناه رجلاً صالحاً يخاف الله ويبتهل إليه، وتملأ قلبه محبة العذراء، مريم الطاهرة البتول، التي كان يخبت لها ويصفيها عبادته، ويركع بين يَدَيْ صورتها كلما دخل كنيسة فيصلي هذه الصلاة: «مولاتي! أبتهل إليك أن تباركي حياتي في هذه الدار حتى يتأذن الله فيقبضني إليه، فإذا فعل، فاشفعي لي عنده أن يفيء عليّ من نعيم الخلد. آمين!»

***

وانطلق في أمسية يذرع الطرقات غِبَّ مطرٍ وابلٍ حزيناً واجماً كاسف البال، وتحت إبطه كُراه[1] ومِزْقة البساط وفيها سكاكينه، وكل همه أن يجد خاناً يؤويه فيقضي فيه ليله على الطوى، لم يذق عشاء ولم يتبلّغ بلقمة ... فبينا هو هائم على وجهه هكذا، إذا به يرى راهباً يذرع الطريق مثله، وفي مثل الجهة التي يسير فيها، فحياه في أدب وظرف، ورد الراهب تحيته بأحسن منها، ثم قال يحدثه:

— مرحى أيها الرفيق! مالك مُسَرْبَلاً بهذه الثياب الخضر من ناصيتك إلى إخمصيك ... أذاهب أنت لتمثل البلياتشو[2] في ملهاة خرافية؟

— كلا والله أيها الأب! إن اسمي برنابا، وحرفتي الشعبذة وحبذا لو كان عملي أن آكل متبطلاً، وأسمن وأستريح من عناء الحياة!!

— أتعني ما تقول أيها الأخ برنابا؟ حذار من أن يكون في ستور كلامك لَمْز أو كناية! فإن أشرف عمل في هذه الحياة الدنيا هو أن تبيع نفسك لله ... الرهبانية يا برنابا ... إن الراهب ما ينى يسبح بحمد الله، وباسم العذراء، وبأسماء القديسين! ألاَ وإن حياة الراهب أنشودة سرمدية ليسوع المسيح!

وقال برنابا يجيبه: «إني أقر أنني تكلمت كما يتكلم الجهلاء أيها الأب، فعفواً ومعذرةً ... إن بيننا أَبَـوْناً شاسعاً وفارقاً عظيما، وإنه إن يكن لشعبذاتي قيمتها عند الناس، فكذلك نُسْكُك وتَرَهُّبُك مع فارق ما بين الصناعتين، لأنك مهما عجزت عن رقصة أقوم أنا بها في منتهى ما تتصور من سهولة ويسر، ومهما عجزت عن أن تقف سُكُرُّجَتِي هذه على أرنبة أنفك وتميل كما أميل، وتميد وتتخلج، فإن لرهبانيتك مع ذاك قيمتها التي لا تساميها قيمة عملي الحقير وصنعتي التافهة ... أيها الأب الكريم: تالله إنه ليس أحب إليّ من أن أنقطع مثلك للعبادة فألهج بذكر الله، وأستقل عن العالمين ليتحد قلبي بالبتول المقدسة ... العذراء الطاهرة التي كرست نفسي وحياتي لعبادتها ومحبتها! وإنه ليس آثر عندي من أن أهجر حرفتي التي عرفت بها في ستمائة قرية وقرية، من سواسون إلى بوفيه، لكي أذهب إلى الدير، وأخلص للتأمل والعبادة والتَّرَهّب!»

ووقرت سذاجة المشعبذ في فؤاد الراهب، واستشف فيه نفساً نقية وقلباً صالحاً، من تلك القلوب النقية التي قال المسيح في أصحابها: «عليهم السلام في الأرض» فقال يجيبه: «إذن هلم معي أيها الصديق برنابا وسأدخلك الدير الذي أنا رئيسه، وإني أسأل الله الذي هدى مريم المصرية في مهامه الصحراء أن يوفقني في هدايتك إلى ما فيه خلاصك»

وهكذا أصبح برنابا «البلياتشو!» راهباً:

***

وبهره أن يرى إخوانه الرهبان يخلصون في محبتهم للعذراء إخلاصاً عجيباً، ويكرسون حياتهم ونبوغهم وجميع ملكاتهم

(١) كرى وزان ضحى وكرين بالضم والكسر وكراب جمع كرة

(٢) البلياتشو كلمة أعجمية يرادفها البهلول بالعربية أي الضحاك

لخدمة مجدها وتخليد ذكراها ... فهذا رئيس الدير يؤلف فى فضائلها المؤلفات ، ويشيد فيهن حسب السُّنَّة بأياديها على العالمين وهذا الأخ موريس يتناول مسودات تلك المؤلفات فيسطرهن بيده النابغة الصناع ، وبخطه الرائق الشائق على رقوق[1] وكواغد ثم هذا الأخ الاسكندر ينقش فيهن نقوشه ، ويرسم تصاويره ، فيجعل مليكة السموات جالسة على عرش سليمان ، وقد ربضت عند قدميها أربعة أسود ضياغم تحرسها وتسهر عليها ، ومن فوق الهالة التى تنعقد بالنور حول رأسها ترف سبع حمامات وُرْق هن هدايا روح القدس السبع : الخوف ، والتقوى ، والمعرفة ، والقوة والعدالة ، والذكاء ، والحكمة ، وجلس معها ست عذارى حسان ذوات شعر مُعْنْدَوْدِن ذهبى : الدعة ، والكبرياء ، والاعتزال والاحترام ، والعذرية[2] ، والطاعة ... هذا وقد سجد عند قدميها شبحان عاريان يشعان نوراً ولألاء ، وكانا يمثلان الأرواح الخاطئة ، وكانا يتوسلان إلى العذراء أن تدرك أصحابهما برحمتها التى وسعت كل شىء فتمنحهم الخلاص

وقد صور الأخ الاسكندر فى صحيفة أخرى أمنا حواء فى حضرة العذراء البتول حتى يرى القارىء كيف تتمثل الخطيئة والفداء فى حواء الذليلة ومريم الشماء !

ومن أحسن صوره أيضاً صورة بئر المياه الحية ، وصورة النبع ، والزنبقة ، والقمر ، والشمس ، والجنة المغلقة ، وما إلى ذلك مما ورد ذكره فى نشيد الإنشاد ... فهذه ، وصورتا بوابة السموات ، ومدينة الإله ؛ كلها صورت فى محبة العذراء ورسمت باسمها

وكان الأخ ماربود كذلك من أطفال مريم المخْلَصين ... وكان ما يفتأ ينحت التماثيل من الحجارة فتتشعث لحيته وشعره وأهدابه بغبار الرخام الأبيض ، وتنتفخ عيناه وتنهمر مدامعه ؛ وبالرغم من سنه المتقدمة ، وشيخوخته الضعيفة ، فلقد كان ماربود يصل ليله بنهاره فى عمل التماثيل فى حب مريم لتباركه ، وتثبت خطاه نحو الأبدية ... وكان يمثلها محمولة فى محفة ، وتتألق على جبينها هالة من أغلى اللآلئ ... وكان ينصِّب أكبر النصب فى تمجيد ثنايا ثوبها من فوق قدميها ليسترهما ... القدمين الحبيبتين قدمى العذراء ، اللتين قال فى صاحبتهما النبى : « حبيبتى أشبه بجنة مغلقة ! »

وكان يمثلها أحياناً طفلة رائعة فينانة ، تكاد تنطق فتقول : « يا يسوع ! أنت إلهى ! »

وكان فى الدير رهبان شعراء ما ينون ينظمون فى العذراء المقدسة أغانيهم باللسان اللاتينى ... وكان فيهم زجّال بيكاردى ينقل أغاريدهم إلى اللسان العامى الرشيق

* * *

شهد برنابا هذه الحماسة التى جعلت إخوانه الرهبان يتنافسون فى خدمة العذراء وتقديسها ، وتكريس كل ملكاتهم لعبادتها بالقلب وبالذهن وباليد وباللسان ؛ فحزن حزناً شديداً ، وراح يندب حظه ، ويبث جهله المطبق وسذاجته وقلة معرفته ، وكان يمشى مرة فى ظلال الحديقة الصغيرة التى يحضنها سور الدير ، فجعل يتفجع ويقول : « وا أسفا لشد ما يحزننى ألا أستطيع أن أعبد عذرائى تلك العبادة القيمة التى يؤديها رفاق الرهبان مع ما بذلت من حبى لها ، وبرغم ما وقفت كل تقديسى عليها ! ما أتعسنى إذن يا أم الإله ! أنا هذا الجاهل الغبى الذى يعبدك بلسان لا يعى إلا أتفه الأدعية وأحقر التسبيحات ، وهو مع ذاك يرددها لا كما ينبغى ... وبلى من غبى جاهل لا قدرة له على فن جميل ، ولا عمل من ورائه طائل ! أين أنا مما ينحت الناحتون للعذراء البتول ، وما يصور المصورون ، وما ينظم أولئك الشعراء من أغراد وأوراد : وا أسفاه ! إنى لا أملك من كل ذلك قليلاً ولا كثيراً ! »

وهكذا ظل برنابا يتفجع ويتألم

وجلس مرة يصغى إلى رفاقه بينما كانوا يتلهون بالحديث فيما بينهم ، فسمع أحدهم يقص حكاية الراهب الذى عاش عمره جميعاً لا يستطيع أن يعبد العذراء إلا بهذه العبارة القصيرة المقتضبة : سلام على مريم ... سلام على مريم ... يرددها فى صباحه وفى مسائه ، ولا يفتر عن ترديدها لسانه ... وكان إخوانه يزدرونه لجهله وقلة عرفانه ، فلما مات ، وأقبلوا عليه ، رأوا ، ويا ما أغرب

---

(١) جمع رق بكسر أو فتح : جلد كان يكتب عليه قديماً ومثله كاغد

(٢) لم نجد فى العربية مصدراً من (عذراء) وهى الحالة التى تكون فيها الفتاة هكذا ، فاستعملنا هذا المصدر وهو مرادف Virginity أو Virginité

ما رأوا ، أربع[١] وردات نواضر قد خرجت من فه ، فعرفوا أنهن يرزن ثمة تقديساً للأحرف الأربعة التي يتركب منهن اسم العذراء ... وهكذا تقدّس الراهب بعد موته ، وبعد ما لقى من ازدراء رفاقه في الحياة الدنيا ...

ولما سمع برنابا هذه الحكاية ابتهجت نفسه وغمر السرور قلبه وعظمت ثقته في مريم البتول الخيرة ... بيد أنه لم يتسل بهذا المثل الجليل ، لأنه كان يود لو استطاع أن يصنع مثل ما يصنع إخوانه من تقديس العذراء بالقلب وباللسان وباليد ... فراح يفكر ويفكر ، ويُعمل ذهنه في الوسيلة التي تُنيله ما يريد ... ولكن ... عبثاً حاول أن يجد برنابا تلك الوسيلة ، فكان كل يوم يمضي يزيد في أحزانه ، ويضاعف أشجانه

ثم استيقظ صبيحة يوم مشرق وقد بدا في وجهه البشر ، وشاع في أعطافه السرور ، فانطلق من صومعته إلى الكنيسة فدخلها ، وأقفل عليه بابها ، ثم لبث فيها أكثر من ساعة من الزمان ، وخرج وقت الغداء فلم يغب طويلا ، ثم عاد إليها ، وأقفل عليه الباب كما فعل في الصباح ...

وظل منذ ذلك اليوم يذهب إلى الكنيسة في مثل هذه الساعة التي لا يفكر أحد من الرهبان في الذهاب إليها ، لاشتغالهم بما أخذوا به أنفسهم من كتابة ونسخ وتصوير ونحت ونظم ... وتبدل حال برنابا ، فلم يعد يعاوده وجومه ، وذهب عنه هذا الحزن الذي كان يلازمه دواماً ... غير أن سلوكه الفاجىء قد أثار الغرابة والدَّهَش في نفس رئيس الدير ، الذي كان واجبه يقضي عليه بمعرفة كل ما يعمل رهبان الدير حتى في سرهم ونجواهم ، فصمم أن يعلم من أمر برنابا ما أراد برنابا أن يجعله سرًّا مكتوماً ...

ففي إحدى خلوات برنابا ، ذهب الرئيس في صحبة زميلين من أكبر رهبانه سناً ، ليروا ماذا يصنع أخوهم داخلَ الكنيسة ، ووقفوا يلاحظونه من ثقوب في الباب

ما شاء الله !!

لقد شهدوا الراهب المشعبذ وقد (تَشَقْلب !!) أمام صورة العذراء المقدسة ، بحيث وضع رأسه ويديه على الأرض ، ثم راح يرسل كراته في الهواء ويتلقفها برجليه ، ثم يتحوى ويتكور ، ويرسل سكاكينه المرهفة ويتناولها في خفة ورشاقة بكلتا يديه ، كما كان يصنع في أيامه الخوالي التي أكسبته الصيت والأحدوثة وأطيب الذكر .. ولم لا يصنع ؟ أليس بهذا يضع ملكاته وخبرته الفنية وطول دربته في خدمة العذراء كما يصنع رفاقه ؟ وما يصنع رفاقه غير هذا ؟

لكن رئيس الدير لم يفهم شيئاً من ذلك ، ولم يفطن إلى غرض المشعبذ النبيل ، بل صاح وصاح معه زميلاه ، ولمنوه أشد اللعن بما دنس هذا المكان المقدس واستباح حرمته ! لقد كان الرئيس يعرف أن برنابا رجل ساذج مغفل ، ولكنه ظن هذه المرة أنه قد فقد صوابه ، فاندفع داخل الكنيسة واندفع في إثره زميلاه ليقذفوا به خارجها ... ولكن ! يا للمعجزة ! لقد رأوا الصورة المقدسة تتحرك .. تتحرك ، وتتقدم نحو برنابا .. وقد مدت ذراعها الجميلة النقية ، وراحت تمسح قطرات العرق التي كانت تتصبب فوق جبينه ، بمنديلها الأزرق الحريري

وسجد رئيس الدير حتى مست جبهته رخام الأرض وسجد وراءه زميلاه ، وجعلوا يصلون هذه الصلاة

« مباركون الذين تطهرت قلوبهم وخلت من الخبث ، لأنهم سيرون الله ! »

دريني خشبة

---

(١) في الأصل خمسة وقد استبدلناها بأربعة لأن أحرف مريم أربعة ، وهن خمسة في الفرنسية وغيرها Maria



متى تستقر نظم الدراسة فى مصر ؟

أشرنا فى هذا المكان من قبل إلى المشروعات الجامعية الجديدة التى وضعتها وزارة المعارف لتعديل نظم الدراسة فى الجامعة المصرية ، ومنها مشروع يقضى بتخفيض مدة الدراسة فى كلية الحقوق وإنشاء قسم جديد للتخصص (الدكتوراه) ؛ وكان هذا التعديل مقدمة لمشروع شامل يتناول نظام الدراسة فى جميع كليات الجامعة المصرية . فالآن نقول إن النية قد اتجهت إلى إلغاء هذه التعديلات كلها ؛ وقد قيل فى ذلك إن القوانين الجديدة قد وضعت بسرعة ودون تمحيص، ولم يؤخذ فى شأنها رأى مجالس الكليات المختصة ، وإن تعديل دستور الجامعة هو قبل كل شىء من شئون الجامعة ذاتها . وهذا كلام منطقى ومعقول ؛ ولكن وراء ذلك كله حقيقة يجب أن تقدر قدرها ، وهو أن هذا التعديل والإلغاء طوراً بعد طور سياسة خطرة على التعليم الجامعى فضلاً عن التعليم العام ، وأنه يجب أن يوضع حد نهائى لهذه الثورات الفجائية فى نظم التعليم الأساسية . ذلك أن هذه النظم مسألة قومية عامة يجب ألا تتغير بتغير الوزارات . وقد عانى التعليم وعانت الجامعة المصرية فى عشرة الأعوام الأخيرة كثيراً من جراء هذه السياسة التعليمية المضطربة . وإذا كانت نظم التعليم لم تستقر بعد فإنه يحسن أن تبحث فى روية وتمحيص ، ثم توضع على أسس قومية ثابتة بعيدة عن العواصف والنزعات المختلفة . أما تلك التعديلات الفجائية السريعة التى أكثر ما يقصد بها تخفيف أعباء الدراسة عن جيل متبرم من الطلبة فهى خطر كبير على مستوى التعليم ومستقبل الجيل

الإسلام وكيف يعرضه كاتب تركى

كان الجنرال محمود مختار كترجيوغلو ، أحد ساسة تركيا قبل الحرب قد وضع كتاباً عن القرآن وتعاليم الإسلام يعرض فيه ما يتفق مع المبادىء الحديثة من أصول الإسلام ؛ وظهر هذا المؤلف بالألمانية ضمن مجموعة الكتب الشرقية بعنوان : « العالم الاسلامي على ضوء القرآن والحديث » Die Welt des Islam im Liehte des Koran und Hadith وفى سنة ١٩٣٥ ظهرت ترجمة فرنسية لهذا المؤلف بعنوان « حكمة القرآن » La Sagesse Coranique ، وبها تصدير بقلم المستشرق المعروف الأستاذ ماسنيون الأستاذ فى الكوليج ده فرانس ؛ وظهرت أخيراً ترجمة انكليزية لهذه الترجمة الفرنسية بعنوان : « حكمة القرآن » The Wisdom of the Quran بقلم المستر جون نايش J. Naish

وفى هذا الكتاب عرض لأصول الإسلام مستقاة من القرآن والحديث ؛ ولكن على نمط جديد . ذلك أن المؤلف كما يبدو فى مقدمته متأثر جداً بوجهة النظر الغربية ومطاعن الغرب فى القرآن وأصول الإسلام . وهو يزعم أولاً أن القرآن لم يكن كتاباً منزلاً ، وإنما هو من صنع النبي وصحبه ؛ ثم يعرض مبادىء الإسلام وتعاليمه بصورة يحاول بها إخراج هذه المبادىء والتعاليم عن حقيقتها الإسلامية المعروفة ؛ ويحاول أن يقرب بينها وبين بعض المبادىء والنظريات الغربية . وهو بهذه الصورة يعتبر فى الواقع من الكتب الطاعنة فى الإسلام . ومن بواعث الأسف أن يكون مؤلف هذا الكتاب تركيا مسلما من رجال تركيا القديمة التى اشتهرت بالتمسك بأصول الإسلام . ولو صدر من أحد الدعاة الكماليين لما كان فى صدوره ما يلفت النظر، لأن تركيا الكمالية دولة لا دينية . وعلى أى حال فلعل الجهات ذات الشأن تعنى ببحث هذا الكتاب الإلحادي لترى ما إذا كان يسمح بتداوله فى بلد إسلامى كمصر (م)

إلى الدكتور زكي مبارك

يا أخي العزيز

قرأت رسالتك إلى الأستاذ الزيات ؛ ولقد سرني والله أن تُعنىَ وأنت في العراق بدفع تهمة العقوق عن أدباء مصر ، وإنها لعاطفة وطنية نبيلة أعرف كلّ العرفان ما يدفعك إليها وأنت بعيد . ولقد كنت أتمني لو كان دفاعك إلى جانب الحق لأدعَ لك أن تُزهىَ وتستطيل بين أدباء بغـداد ما شئت أن تزهى وتستطيل . ولـكني لا أريد أن أظلم الحقيقة يا صديقي في سبيل رضاك . ورغمي أن أصرّ على اتهام الأدباء المصريين بهذه التهمة السوداء ! ... وإلا فهل ترى العربية قد وَفَتْ دَينها للرافعي لأنك والأستاذ المازني قد كتبتما مقالين في رثاء الرافعي غداةَ مَنْـعَـاه ؛ ولأن طائفة كريمة من الأدباء لم تكن بينهم وبين الرافعي خصومة ، قد نشروا في الرسالة مقالات في رثاء الرافعي؟

ما أهون شأن الرافعي وأهْوِنْ بأدباء مصر جميعاً إن كان إلى هذا ينتهى عندهم واجب الوفاء للراحل الذي عاش في خدمة العربية وآدابها خمساً وثلاثين سنة من عمر التاريخ ، كلها جهاد ونشاط ودأب ، ومات ولم يجاوز السابعة والخمسين ... !

وتغضب يا صديقي لأني أضفتك إلى خصوم الرافعي في التعداد والإحصاء مع أن الخصومة لم تنشب بينكما غير خمس مرات ؛ فمعذرة إليك أيها الصديق من هذه التهمة الباطلة لأن الخصومة لم تنشب بينكما غير خمس مرات ... على أن لي رجاء إلى الله – أيها الصديق – أن يكون هذا الحرص الشديد على نفى ما كان بينك وبين الرافعي من خصومة ، عاطفة صادقةً ورأياً صريحاً ؛ فإن شيطاناً تعرفه يهمس في أذني بأنك لم تكن لتحرص كل هذا الحرص إلا زلفي إلى أدباء العراق لأن هواهم مع الرافعي

وبعد فوالله ما كان لي أن أزعم التفرد بذكرى الرافعي ولا قلتُها ، ولو قلتها لما كَذَبْت ؛ ولوددتُ والله أن أكون آخرَ مَن يُذكَر في الـكاتبين عن ذكرى الرافعي ولا أشهد في أدباء مصر هذا العقوق !

أما (فلانة) فخلِّ عنك حديثها يا صاحبي ، فما أظنك كنت تنتظر أن تقول لك وأنت تجلس معها جنباً إلى جنب في الجامعة : « إن بيني وبين الرافعي لشأناً مما يكون بين الرجال والنساء ! » على أني قد حدَّدت ما كان بينها وبين الرافعي بزمانه ، بين سنتي ١٩٢٣ ، ١٩٢٤ ؛ وما كان بينك وبينها يومئذ شيء ولا كانت تجلس إليك ؛ لأنها كانت قد زهدت في دروس الجامعة قبـل ذلك بسنوات وانقطع الود الذى كان وتجافى جنبٌ عن جنب ... !

فإن كنتَ ما تزال تنكر ما رويتُ من خبرها وخبر الرافعي بعد هذا فالتمس العلم عند غيرى ، فستجد كثيراً من أصدقائك الذين تثق بهم يعرف من خبرها ومن خبره ما أعلم وما رويت ؛ وما كنت شاهد مجلسهما فأروي عن عيان ، ولـكنه من حديث الرافعي تحدّث به إليّ وتحدّث إلى كثير ؛ وعند الدكتور محمد الرافعي من رسائلها إلى أبيه بخطها ما يشهد لى ويحسم كلّ خلاف

وتزعم أنني حاولت إبهام قرائى بأن الرافعي قد كسب المعركة بينه وبين الدكتور طه حسين . فليكن هذا الزعم صحيحاً ياصديقي فلا علىّ منه ؛ وإن وقائع الدعوى لمبسوطة أمام الأدباء يحكم فيها من يشاء بما يشاء ؛ وليس يهمني أن يكون الحكم للرافعي أوعليه ما دمت أكتب للتاريخ

أما بعد فأين هي الأخطاء التي تراها في هذه المقالات ؟ وما أصبرك عليها يا سيدي وللتاريخ حق عليك وللعربية حق ؟

إنه واجب أؤديه غير مأجور عليه من أحد إلا وفاء لصديق أحللته من نفسي وأحلّني من نفسه ، ووفاء للتاريخ ؛ فإن كان فيما أكتب عنه شيء تراه إلى الخطأ فإن للعلم أمانة عندك لا يقيلك منها شفيع الزمالك ومصر الجديدة ... وإنه ليسرني أن يكون الدكتور زكي مبارك هو الذي يحاول تصحيح أخطائي وبيني وبينه ما بين القاهرة وبغداد ؛ ولـكن احرص يا صديقي على أمانة العلم . ولا تكن أخطائى عندك من مثل ما قدمت : دعوى بلا بينة ، وإلا فَراحةٌ لك أولَى وأنا عذيرك

والسلام عليك ورحمة الله ؟

« شبرا » محمد سعيد العريان

من أوراق البردى المصرية

كتب العلامة الأثري الدكتور فريد مان ، لمناسبة ما قرره مؤتمر الأوراق البردية من الانعقاد في مدينة فينا لسنة ١٩٣٩ ، يصف مجموعة أوراق البردى المصرية والعربية القديمة التي تحتفظ

بها المكتبة الوطنية النمسوية ويقول إن هذه المجموعة هي الثانية في العالم من حيث كميتها وقيمتها الأثرية ، وإنها حملت من مصر إلى النمسا في أواخر القرن الماضي ، واشتراها الأرشيدوق رينر ثم وهبها بعد ذلك للمكتبة الوطنية . ومن أنفس أوراق هذه المجموعة وثيقة ترجع إلى نحو ثلاثة آلاف عام ، وهي وثيقة زواج تعس تبسط فيها الزوجة ، واسمها أرتميزا ، قصة شقائها وبؤسها ، وهي يونانية تزوجت في مصر ، ثم أساء زوجها معاملتها فكتبت قصتها وشفعتها بالدعاء بلعنه . وكان المعتقد في ذلك العصر أن مثل هذه اللعنة تلحق المذنب ما دامت محفوظة في أحد المعابد المقدسة ، وهو نوع من السحر الأسود كان ذائعاً في العصور القديمة . ثم وثيقة عربية كتبت على البردي وترجع إلى القرن الأول الميلادي وموضوعها كتاب غرام بعث به عاشق إلى حبيبته ، وحملته حمامة من الحمام الزاجل إلى حيث توجد المحبوبة ، وعدة كتب فرعونية من كتب الموتى وغيرها . وستعرض هذه المجموعة لأنظار العلماء حينما ينعقد مؤتمر أوراق البردي الثاني . ومن المعروف أن هذا المؤتمر قد اعترف بوجود علم جديد يسمى « علم الوثائق البردية » أو البابير ولوجيا

مغامرة علماء في القطب الشمالي

نذكر أن بعثة جوية من العلماء الروس كانت قد طارت منذ أشهر إلى القطب الشمالي ، ونزلت هنالك على بسيط من الجليد وأقامت منازل من المطاط لإقامتها ، وكانت الطائرات السوفيتية تمونها بما تحتاج إليه من الأغذية والشحم ؛ ولكن حدث بعد أسابيع من إقامتها في هذا الجليد النائي أن انفصلت الكتلة الثلجية التي تعيش فوقها وذلك في شهر مايو الماضي وأخذت تسبح ببطء نحو الجنوب ؛ وعليها من علماء البعثة الأساتذة بابانين وكرنكيل وشرشوف وفيدروف ومنازلهم وأدواتهم العلمية ، وبذلت من ذلك الحين عدة محاولات لإنقاذهم من هذا المأزق دون جدوى ، فاكتفت السلطات بتموينهم من الجو . وأخيراً صرح الأستاذ أوتوشميدت رئيس البعثة ، وكان قد عاد إلى موسكو قبل انفصال الجليد ، أنه لم يبق خطر على البعثة ، لأن الكتلة الثلجية التي تعيش عليها تسير في طريقها جنوباً ، وقد تصل إلى جزيرة الأرض الخضراء في شهر ابريل أو مايو ، ويفصل بين القطب الشمالي وساحل الجزيرة الخضراء الشمالي الشرقي مسافة شاسعة قطعت بها إلى الآن كتلة الجليد نحو ألف وخمسمائة كيلو متر منذ ٢١ مايو الماضي ، وهي تسير بسرعة ستة كيلو مترات في اليوم . والكتلة الثلجية صلبة جداً وعمقها ثلاثة مترات ومساحتها كيلو مترين . وتستعد الحكومة السوفيتية لأن ترسل إلى الأرض الخضراء سفينة الجليد « مورمانتز » لتختبر حالة الثلوج وتتصل بالعلماء المحصورين بالراديو ، وتهيء مطاراً في جزيرة رودلف القريبة من مكان الحادث

اقتراح

سيتحدث كثير من العلماء والأدباء عن الأزهر وتاريخه وشئونه بمناسبة عيده الألفي ؛ وسنعلم عنه كثيراً فوق ما نعلم اليوم ، على حين أن هنالك معاهد عظيمة لا تقل عن الأزهر في أمجادها وعظمتها وخدمتها للعلم والاسلام لا نعلم عنها شيئاً ، كجامع القرويين في فاس ، وجامع الزيتونة في تونس ، وجامع النجف في العراق ، على حاجتنا الماسة إلى معرفة طرق التدريس فيها وأوضاعها وأحوال طلابها ومدرسيها ، لأننا في مطلع نهضة عامة وتعارف بين الأقطار الإسلامية ، ولا يتم التعارف إلا إذا بدأ من المدارس والجوامع مصانع الرجال ومعامل المستقبل . فهل يتطوع بعض الأدباء من إخواننا الفاسيين ، أو التونسيين ، أو النجفيين ، ممن له وقوف على سير هذه المعاهد وأوضاعها فينشر فصولاً مختصرة في الرسالة يبين فيها تاريخ هذه المعاهد ، والأدوار التي مرت عليها ، وطبقات الطلاب والمدرسين فيها ، والكتب المقررة ، وأصول الدرس فيها ، فيخدم بذلك التاريخ والعلم والنهضة الجديدة ؟

« بيروت » علي الطنطاوي

من برجنا العاجي

ابتداء من العدد القادم ستنشر الرسالة للأستاذ توفيق الحكيم تحت هذا العنوان الدائم خطرات في الأدب والاجتماع والفن فنلفت إليها أنظار القراء



كتاب قصص القرآن

للأساتذة

جاد المولى بك ، محمد أبو الفضل ، علي البجاوي ، السيد شحاته

للأستاذ أحمد أحمد التاجي

عرضه للكتاب ومنحاه

عرف الناس من سنين أن فى الأدب العربى كنوزاً مخبوءة تحت الرجام ، ودرراً منثورة فى قاع اليم ، تحتاج فى استخراجها إلى الغواص الماهر . ولكن أحداً لم ينبر لتلك الكنوز يرفع عنها الأنقاض ، ولتلك اللآلىء يستخرجها من الظلمات ويعرضها للأنظار

ومن بضع سنوات فقط قام نفر من الكرام — والكرام قليل — ينبشون الأطلال ويستخرجون اللآلى ، فحظى أدبنا فى السنوات الأخر بما لم يحظ بمثله فى السنين الخوالى

رأينا الأستاذ « الزيات » يكتب فى جريدة « النديم » أولا « والرسالة » ثانياً قصصاً رائعة اقتبسها من أنوار العربية وحلاّها وجلاّها ، وزاوج بين الحقيقة والخيال فيها . فزفها للقراء عرائس مياسة . وكانت قصة وضاح أول ما طرق سمعى على ما أذكر فى هذا المنهاج

وكتب الدكتور « طه » فى هامش السيرة فكان أجمل آثاره عند كثير من الناس . وتقدم « الرافعى » إلى الميدان فجال وصال وأتى بما لم يأت به إنسان . ولكنه فى بعض أقاصيصه أمعن فى السير وراء الأفكار يطاردها ويولدها فاختفى وراءها فكتب فأغرب فعز أدبه على كثير من الناشئين

ومع ذلك فإننا نعتبر «وحى القلم» أعظم مجهود فى إحياء روائع الأدب القديم . وكتب الأستاذ الحكيم «محمد» وحباه الله التوفيق

وتنبه الأدباء لهذه الناحية ، فاقتحموا المناجم ، وغاصوا وراء كريم المعادن ، وخرجوا بملء أيديهم جواهر ونضاراً ونشروا ما عثروا عليه فى المجلات والصحف فأعجبوا وأطربوا ، من هؤلاء الأساتذة « الطنطاوى » و « خشبة » و « العريان » و « عين شوكة » وغير هؤلاء

وأعود الآن إلى الكتاب الذى دعانى إلى التمهيد بهذه الكلمات ألا وهو « قصص القرآن » فأقول إنه يسلك فى نهج « وحى القلم » إنْ لم يكنْها أو تكنْهُ فإنه

أخوها غَـذَتْـهُ أمُّـهُ بلِبانها

رأيت فيه مجهوداً عظيما لذلك النفر الكرام جمع حلاوة اللفظ ، وإشراق الفكرة ، ولطف الانسجام بين المبنى والمعنى والحقيقة والخيال . فجاء كخيال الحسناء فى المرآة . ولا بدع فهو ظل لقصص الله ، ولو جاز لى أن أقتبس كلمة سعد العالية لقلت : « إنه تنزيل من التنزيل ، أو قبس من نور الذكر الحكيم »

جرى الأفاضل وراء ما قصه الله الذى يقول : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هـذا القرآن » فأفاضوا القول فى كل قصة ، وبسطوا ما ذكر رمزاً فى كتاب الله ، وحشدوا الأسباب وعللوا ، واستخرجوا الموعظة وذيلوا ، وحققوا الزمان والمكان والإنسان ، وصوّروا البيئة بجميل الألوان ، ونطقوا عن الألسنة بما يجارى الحق والتاريخ وإن كان لقاحاً بين الحقيقة والخيال ، فأتوا بالعجب العجاب . والكتاب جليل الموضوع لم يطرقه أحد من قبل — على ما نعرف — بهذا البيان والاستعداد ، وهو من الكتب التى تألفها الروح وتجد فيه غذاءها . غير أن بعض قصصه — وهو قليل — نزل أسلوبه عن معظمه ، وأظن ذلك من ضرورة الشركة ، وهو على كل حال كتاب قيم جليل

أحمد أحمد التاجي

حركة الكشف

للكشاف أحمد الشربيني جمعة الشرباصي

بين يديّ الآن هذا الكتيّب الصغير ، دفعه إليّ رسول من مؤلفه يرجونى أن أنظر فيه وأكتب عنه ، وأنا رجل عفتُ الكتابة عن المؤلفين والكتب من زمان ؛ فما بي طاقة على أن أظلم نفسى فأقول للمسيء أسأت فأتعرض لغضبه أو عتبه ، وما لى طاقة على أن أغش قرائى فأقول عن الردىء إنه حسن وما فيه إلا حسن العاقبة لنفسى ...

ولكن ما بال هذا الكتاب يدعونى إليه فأفرغ له ، فلا أدعه حتى أتمه ، ولا أتمه حتى أهم بالكتابة عنه ، ولا أهم بالكتابة حتى تنثال علىّ المعانى انثيالا ويمضى بي الفكر إلى غايته ؟

لا ، لم يكن هو الكتاب ما دعانى إلى ذلك بما فيه ولكن بما حوله ، وليست هى مادته ولكن مؤلفه وظروفه : هذا فتى أزهرى يطل عليك وجهه فى الصفحة الأولى من الكتاب ، بعمامته الصغيرة ، وجبته المزرورة ، وبنيقته الراغية البيضاء ... وما كنتَ تتوقع هذا ولا شك ، وأحسبك ستدهش دهشتى حين تقرأ هذا فتسأل نفسك : ما لهذا الفتى الشيخ ؟ وما جاء به إلى هنا ؟ وستفكر في كل جواب لسؤالك إلا أن يكون هذا الشيخ الصغير هو مؤلف الكتاب ...

إي وربى إنه هو مؤلفه ، وإنه هو هو أحمد الشربينى جمعة الشرباصى الكشاف ، بعمامته الصغيرة ، وجبته المزرورة ، وبنيقته البيضاء ... كشاف أزهرى بعمامة ! لوددت والله بما تشاء من ثمن أن أرى هذا الكشاف الشيخ فى ملابس الميدان ، لأرى كيف يستر ركبتيه العاريتين فى سراويله القصير وعلى رأسه عمامته وعلى ظهره راويته وسفرته ...

ها هو ذا أزهرى فتى يضرب المثل لإخوانه الأزهريين فى الفتوة الرحيمة التى تعمل للإنسانية . يا له من فتى متمرِّد ! لا ، لا تسموه متمرداً ، إنه فتى يعرف ما عليه من تبعات الرجولة فى غد فأعدّ للغد عدته ، فلا عليه إن كان هو وحده الفتى الكشاف في الأزهر الكبير وروافده . إننى لفخور به

ليت شعرى ، هذه فرق الكشافة تنتظم تلاميذ المدارس عامة فلماذا لا نرى فى الأزهريين فرقة كشافة ؟ أترى تلاميذ المدارس أُلدن الصغار أقدر على خشونة الكشافة من شباب الأزهر ، أم يرون الفتوة عاراً لا تليق برجال الدين ... ؟ إنهم لأصح جسما وأوفر نشاطاً وأقدر على مشقات الكشف والرحلة من هؤلاء الصغار ، وإنهم ليعلمون علم اليقين أن دينهم هو دين البساطة التى يؤثرها الكشاف ، ودين القوة التى يدعو لها الكشاف ، ودين النجدة التى يعدّ لها نفسه الكشاف ، فأين هى فرق الكشافة في الأزهر وروافده ؟

إن لدى لكلاماً كثيراً أخشى أن أقوله فيغضب من لا أريد أن يغضب ، فحسبي ما قدّمت من قول وحسب الأزهريين ، وليس حسبهم أن يكون فيهم كشاف واحد يشعر بوجود نفسه هو هذا الكشاف !

وبعد فهذه خواطر من وحى هذا الكتاب فى نفسى ، وما أريد أن أعرّف عنه بأكثر من ذاك ؛ ولكنه كتاب نافع على كل حال : نافع للأزهريين عامة ليعرفوا به عن الكشافة ما قد يحببهم فيها فيكونون جنودها ، ونافع للكشافين عامة ليبصرهم بكثير مما قد يغيب عنهم من واجبات الكشاف ، ونافع لمعلِّمى فرق الكشافة فى مختلف المدارس لعلهم يجدون فيه مادة يدرِّسونها ، ونافع لكل قارىء لأن فيه أبواباً من العلم والتاريخ والتسلية تلذ كل قارىء ؛ وقد نفعني أنا أيضاً لأنه نبهنى إلى ما قدمت من قول عن الرياضة والكشف والرحلات فى برنامج دراسة الأزهريين . أترى مؤلفه قد انتفع به كما انتفع كل هؤلاء ؟

بارك الله فى هذا الكشاف البطل ونفع به

(س)

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧


العدد ٢٣٧
الرسالة

6 me Année, No. 237
Lundi - 17 - 1 - 1938

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة
مـص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ٢٣٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٥ ذى القعدة سنة ١٣٥٦ — ١٧ يناير سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـــرس

النشر فى مصر

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

قرأت ما كتبه الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام عن « التأليف والنشر فى مصر » . وقد روى فيه أن أحد أصحاب المعالى وزراء الدولة فى الحكومة القائمة دعا إليه جماعة من الكتاب وحدثهم فى تنشيط التأليف فى مصر ومكافأة المؤلفين ووعد فى هذا وعوداً حسنة

وهذا صحيح ، فقد روى لى مثله صديق من الكتاب ، ولا علم لى بمـا ينوى وزير الدولة أن يصنع ، وأحسبه لا يزال يستطلع الآراء ويستشير أهل الذكر فى هذا ، فلندع له بالتوفيق ، ولنسأله تعالى ألا يشغله بما هو أهم وأولى بعناية وزراء الدولة ، من شئون الدولة ؛ ولو كنت مكانه لكان حسبي أن أستطيع تنظيم أمور النشر على وجه صالح ونحو عادل ، ولتركت غيرى من الوزراء يحملون الأعباء الأخر

وخلاصة التجارب فى هــذا الباب أن الأدب فى مصر لا يُعوَّل عليه فى أمور المعاش ، وأن الأديب الذى ليست له صناعة أخرى يرتزق منها ويحيا بها خليق أن يموت جوعا . وقد كان المرحوم السباعى يقول على سبيل المزاح : إن الأديب ينبغى أن

يكون أديباً وشيئاً آخر ... طبالاً ، أو زماراً ، أو عواداً ، أو غير ذلك مما يجرى مجراه . والذى كان يقوله هازلاً . هو الجد الصميم . ودع الطبل والزمر وما إلى هذا فما كان يريد إلا السخرية والنكتة ، وكانت المرارة التى يحسها فى نفسه تفيض على لسانه على هذا النحو . على أن الواقع مع ذلك أنه لا غنى للأديب فى مصر عن مرتزق غير الأدب ، يجعل معتمده بعد الله عليه . وما أعرف فى هذا البلد أديباً وسعه أن يجتزئ بالأدب ؛ ولو كان هذا مما يدخل فى الطاقة عندنا لكنتُ من أحق الناس بالقدرة عليه

وكلام فارغ كل ما يقال عن الحرفة وإدراكها للأديب ، فما تفعل ذلك إلا فى مثل بلادنا ، وحتى أدباء العرب وشعراؤهم لم يدركهم شئ من الحرفة ، وإنما كانوا هم المجانين ، إلا إذا كان المقصود أن بلاء الحرفة من النفس ؛ على أن هذا مبحث آخر ، قد نعود إليه فى فصل آخر

وقد جربت كل وسائل النشر فى مصر ، وانتهيت إلى أن الأمر لا ينقصه سوى التنظيم . ففى مصر والبلاد العربية الأخرى عدد كاف من القراء يستطيع الكاتب أو الشاعر أن يعول عليه وهو مطمئن إليه ، ولكن من العبث والعنت أيضاً أن تجشم الأديب فوق عمله أن يقوم بأعباء الطبع والنشر ، وأن تتوقع أن يجنى من كل هذا العناء ربحاً عادلاً . وليس لهذا الخلط من نتيجة سوى الاضطراب وفقدان الحقوق . وقد جرب كل أديب فى مصر أن يتولى هو هذه الأعباء جميعاً وأن ينهض وحده بها جملة ، فأخفق . وليس الإخفاق ألا تجني شيئا ، بل أن تجنى كل شئ ولا تشعر أنك جنيت شيئا . ولا أذكر هنا ما جرب غيرى ، فبحسبي ما جربت ، وقد نشرت كتباً توليت أنا أمر طبعها ونشرها ، ونفدت فى زمن معقول ، ولكن أصحاب المكاتب يختلفون ، ولا سبيل إلى الاستغناء عنهم ، وفيهم الأمين ذو الذمة ، وفيهم الطامع المنهوم الذى لا يشبع ولا يرضيه إلا أن يخطف كتبك بغير ثمن . ومع ذلك لا يسعنى إلا أن أعترف بأنى ربحت ، وإن كنت لم أشعر بذلك ولم أر له أدنى أثر فى حياتي . وإذا حسبت الحساب على الورق وأحصيت ما أنفقت وما حصلت كانت النتيجة أنى جمعت مبلغاً من المال لا يستهان به ، ولكنه مال على الورق ، لأنى أنفقت جنيهات رجعت إليّ قروشاً مبعثرة ذهبت إلى الشيطان

وجربت أن ينفق غيرى على طبع كتبي ويتولى عنى نشرها ثم نتحاسب ، فوقع لى ما يضحك وما يبكى . وأحب أن أستثنى طائفة من الجادين المخلصين ، وأقول بعد ذلك إن بعضهم نشر لى كتاباً طبع منه أربعة آلاف نسخة نفدت كلها فى عام ، وشرع يطبع لى كتاباً ثانياً ، فقلت أحاسبه ، وطلبت منه نصيبى ، فكان جوابه الظريف أن دع الكتاب الأول فما أعرف أين ذهب ، ولعله سُرق أو حرق ، ولنقصر الحساب — فى أوانه — على الكتاب الثانى إن شاء الله !

فقلت له : ياأخى غفر الله لك ! هل حسبتنى هاوياً ؟ أم ظننت أنى بائع كوارع ؟ إن هذه صناعتى وهى مرتزق ، فاذا لم آخذ حق فكيف بالله أعيش ؟

فابتسم وربت لى على كتفى ملاطفاً ، وقال : « العفو ! العفو يا أستاذ ، لا تقل هذا الكلام ! سبحان الله العظيم ! »

يعنى أنه لا ينبغى لى أن أقول إن هـذه صناعتى ومرتزق ! ويظهر أنه كان صادقاً وكنت أنا المخدوع ، فقد عشت من غير أن آخذ منه حق — ولا نصف مليم واحد منه !

وينفد الكتاب — عدة آلاف من نسخه — ثم يتبين لك أن الاسكندرية أو طنطا أو المنيا تسمع به وأن ما بيع بيع معظمه فى مدينة واحـدة هى العاصمة ، والباقى رص فى الصناديق وشحن على البواخر إلى الهند والعراق ومدغشقر الخ وتجيئك الكتب تترى بذلك ، فتعلم أن النشر غير منظم ، وأنه كان فى وسعك أن تخرج للناس من كتابك أضعاف ما أخرجت لو أن هناك نظاماً

والعلاج عندى ليس أن تمين الحكومة الأدباء ، فإن هذا يفضى إلى الظلم والغبن ، ولكل حكومة من تؤثرهم بعطفها وبرها ؛ والأدب ينبغي أن يبقى حراً ، وإلا فسد ، وتعفن . ولو أن الحكومة أرادت الإنصاف وصدقت نيتها فيه ، لوجدت أن الأمر يوشك أن يفشو عليها ، والنتيجة المحققة على كل حال هى التمييز والغمط

إنما العلاج الصحيح العملى أن تقوم شركة ذات رأس مال كاف تتولى النشر ، وتنظم أسواقه فى البلدان العربية كلها ، وترتب الأمر فيما بينها وبين الصحافة على نحو يكفل التنويه الوافى

في أوانه ، وقد استطاعت دور السينما أن تنظم علاقتها بالصحافة على وجه مرضى ، فلن تعجز عنه دار للنشر . وبذلك يستريح الكتاب ويطمئنون على حقوقهم ، ويثقون بسمة النشر ويوقنون من إمكان التعديل على ما يخرجون كما يفعل زملاؤهم في الغرب

وفي هذه الحالة يتسنى ما لا يتسنى الآن : الطبع الجيد ، والحجم الموافق ، والربح المضمون ، ومع ذلك انتظام عمل الأديب وإتاحة الفسحة الكافية من الوقت للتفكير والكتابة والإتقان هذه — فيما أعتقد — هي الوسيلة العملية ؛ فإن الأسواق موجودة ، والقراء يعدون بالآلاف في كل قطر ، والصحافة أداة وافية : فالأمر لا ينقصه إلا التنظيم ؛ وهذا لا يكون إلا بالمال الكافي ، فهاتوا لي المال ، ثم انظروا ماذا أصنع لكم يا إخوان ! ولا تخافوا أن أبدده . نعم . ستحدثني نفسي بذلك وتحاول أن تحملني عليه ، ولكني سأقاومها ، وسأروض نفسي على هذه المقاومة من اليوم ، فلا تخشوا شيئاً ، ولا تقلقوا على مالكم ، ومع ذلك فلان أبدده أنا خير من أن تضيعوه أنتم . ومتى كنتم تحسنون الإنفاق ؟

إبراهيم عبد القادر المازني

ليلى المريضة في العراق

للدكتور زكي مبارك

— ٦ —

وما كادت ظمياء تفوه بالعبارة الأخيرة حتى ابتدأت أوقن بأني سأهتدي إلى سرّ ليلى . وقد عرفت أيضاً أنه لابدّ لي من التجمل والتوقر حتى يصل الحديث إلى مداه ، فقد قضيت دهري وأنا أرعن أهوج لا أكاد أسمع الحديث عن الحب حتى يفتضح وقاري أشنع افتضاح . ولن أنسى ما حييت تلك الخسارة الفادحة التي قضت بأن يطوى عني إلى الأبد سر السيدة (ن) فقد كانت عرفت من صواحبها أن شفاءها عندي ، وجاءت الشقية إلى عيادتي بشارع المدابغ ، فلما فحصتها تبين أن العلة لها سبب مدفون ، وكنت بحمد الله ولا أزال من أقدر الأطباء على تفرس المحجب من سرائر النفوس ... انهدّت تلك السيدة على المقعد ، وبدأت أحاورها في ماضيها لأعرف سرّ العلة ، فما كادت تقرأ السطر الأول من صحيفة ذلك الماضي حتى طار صوابي ، فوضعت يمناها على صدري ، ولكن الشقية لم تمهلني وأفلتت كالظبي المذعور . وبذلك طُوِي عني سرها إلى الأبد . وكانت تلك الحادثة سبباً في انتقالي من شارع المدابغ إلى شارع فؤاد

وما أحسب ظمياء إلا صورة من السيدة (ن) وربما كانت أفظع وأعنف فهي عراقية ، والعراقيون تغلب عليهم سرعة الانفعال ؛ والمرأة العراقية فيما سمعت ورأيت لا تسكن إليك إلا إن ضمنت حسن الأدب وكرم العفاف ، وهي عندئذ لا تحتاج إلى من يستدرجها لمسول الأحاديث ، وإنما تنطلق كالبحر الثجاج ؛ فاذا ارتابت في أدبك ... لا أدري ما تصنع فإن الله رحمني من أمثال هذه المواقف منذ قدمت العراق ، وهو عز شأنه قادر على أن يردّني إلى وطني مُشرق الجبين

وجملة القول أني تجلدت وتماسكت ، فمضت ظمياء تتحدث ، ومضى المطر يقرع النوافذ كأنه عذول ، وبين القلب الخافق والسحاب الدافق صلات يعرفها من يؤمنون بوحدة الوجود

— ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم وقف قطار المعرض ، فلم تنزل ليلى ولم ينزل الفتى ذو العينين الخضراوين . ودار القطار دورة ثانية قطعتها في ذهول

— وأنت أيضاً تحبين يا ظمياء ؟

— ألست إنسانة ، يا سيدي الطبيب ؟

(وهنا رأيت من الحزم أن أعلن نزاهتي ، فأفهمتها أني أنكر عليها هذه البدوات ، لأن الذي يهمني هو الوقوف على سر ليلى ؛ وأشهد أني لم أجد صعوبة في اصطناع هذا النفاق ، فقد مرنت عليه بفضل ما ابتليت بالمنافقين الذين تقدموا وتأخرت . ويكفي ما مر بي من التجارب ، وأخشى أن تقنعني الأيام بأن النفاق سيد الأخلاق)

— أنت يا مولاي طلبت أن أقص الحديث كما وقع

— كما وقع لليلى ، لا كما وقع لك يا ظمياء ، فأنت في عافية وليلى هي المريضة ، والحكومة المصرية لم تكلفني استقصاء أخبار المتيمين في العراق ، وإنما كلفتني مداواة ليلى المريضة في العراق

— فهمت يا سيدى فهمت

— زين ، زين ، ثم ما ذا ؟

— ثم وقف القطار فتلاحظ العاشقان

— عاشقان ؟ وهل يتم العشق فى لحظة ؟ هل نحن فى السينما يا ظمياء ؟

— وقع التلاحظ بين ليلى وبين ذلك الفتى ، والتعبير بالعشق من عندى

— شىء جميل : فى أية مدرسة تعلمت يا ظمياء ؟

— فى المدرسة التى تعلمت فيها ليلى ، وهى المدرسة التى أنشأها حكمت سليمان فى سنة ١٩١١ بعد إعلان الدستور العثماني ؛ وكان حكمت سليمان مدير المعارف فى بغداد ، وكان تعليم الفتاة فى تلك الأيام من المسائل التي يختلف حولها المسلمون ، فكانت ليلى أولى فتاة قيّـد اسمها فى تلك المدرسة

(وهنا دونت فى مذكرتى أن ليلى قديمة العهد بالثورة على مأثور التقاليد ، وهذه نقطة مهمة سأعرضها على المؤتمر الطبي ، ولعلها تكون السبب فى كشف كثير من الأسرار ، فالثورة على التقاليد تحدث رجّـة فى المخ والأعصاب ، كما حدثنا المسيو ديبويه وهو يحاضرنا بكلية الطب فى باريس ، وهو أستاذ فاضل كنت السبب فيما وقع بينه وبين زوجته من شقاق)

— وهل درتم بالقطار دورة ثالثة ؟

— لا ، يا سيدى ، فقد خشيت ليلى أن تفطن إليها العيون فنزلت ونزل الفتى ، ولكنه أقبل عليها يقول : هل أستطيع أن أرشد السيدة إلى محتويات المعرض ؛ فانى أراها غريبة بهذه البلاد ؟ ولكن ليلى لم تلتفت إليه ، وانصرفنا ساكتين . وعرف الفتى أن سهمه أخطأ فمضى كاسف البال

— وبعد ذلك ؟

— مضينا بعد ذلك إلى البيت الذى نزلنا فيه بشارع قصر النيل ، وكان الحديث على المائدة من أشهى ما يكون ، فقد كانت الجرائد نشرت حديثاً لرجل مشهور اسمه سعد زغلول ، وكانت ربة البيت تحبّ إمتاعنا بصور الجـدل السياسى فى مصر ، فأحضرت نحو عشرين جريدة فيهـا الرفض والقبول لذلك الحديث ، ثم أحضرت صورة كاريكاتورية نشرت فى الكشكول لكاتب معمم اسمه عبد العزيز البشرى فيما أتذكر ، وصورة أخرى للشيخ بخيت وهو يعترض على دخول السيدات أروقة البرلمان ، وكان الجو كله جو ضحك ، ولكن ليلى لم تبتسم . ولعلها لم تعرف كيف كان الطعام في ذلك اليوم

— مسكينة ليلى !

— نعم ، ياسيدى ، مسكينة ، فقد قضت ليلة مؤرَّقة ، ثم أزعجتنى من نومى قُبيل الفجر لأستعد للعودة إلى المعرض

— ورجعتما إلى المعرض ؟

— رجعنا ، رجعنا ، وركبنا القطار عشرين مرة

— عشرين مرة ؟ ولماذا ياحمقاء ؟

— لنرى الفتى ذا العينين الخضراوين !

— ورأيتماه ؟

— مارأيناه ، وإنما رأينا أنضر منه وأصبح ، رأينا فتياناً كاللؤلؤ المنثور هم الشاهد على أن مصر من الحقول التى تُنبت الجمال . وقد أمتعت عينى بمن رأيت ، ولكن ليلى ظلت صريعة الهم والبلبال

— مسكينة ليلى !

— هل تسمح لى أن ألطم ياسيدى ؟

— تلطمين ؟ إنك لبغدادية ظريفة ياظمياء . ما يهمنى أن تلطمى ، وإنما يهمنى أن أسمع بقية الحديث

— لم تكن ليلى تقول إنها ترجع إلى المعرض لتبحث عن ذلك الفتى ، وإنما كانت تدّعى أنها تحب الوقوف على سرّ تقدم الزراعة والصناعة فى الديار المصرية . وحملها هذه الدعوى المزيفة على شراء عدة نماذج مما أنتجته حقول سملاى ، وهى النماذج التى عرضها السيد محمد محمود

— سمعت بمعروضات هذا السيد يا ظمياء

— وكتبت ليلى مقالة فى وصف المعرض نشرتها فى جريدة « البلاغ »

— سبحان الله ! لقد قرأت تلك المقالة في ذلك الحين وكنت أحسبها من إنشاء ليلى الصحيحة فى حلوان

— لا ، ياسيدى ، هى من إنشاء مولاتى ، شفاها الله !

— آمين ، ثم ماذا يا بلهاء ؟

— قلت إن ليلى كانت تتردد على المعرض بدعوى الاطلاع على أسباب تقـدم مصر فى الزراعة والصناعة ، أما أنا فكنت أعرف ماذا تريد ، وقد استمرت هذه الدعوى أسبوعين ، ثم يئست ليلى مما تريد ، فلم تذهب إلى المعرض بعد ذلك

— وبهذا انتهت القصة ؟

— لا ياسيدى ، فقد زعمت ليلى أنها شبعت من المعرض ، وشبعت من الأخبار الحديثة فى القاهرة ، وصرحت بأنها تحب أن ترى القاهرة المعزّية ، علها ترى ما يذكرها بأحياء بغداد ؛ فصحبتنا ربة البيت إلى حى يسمى الغورية ، فدخلنا الحمزاوى والفحامين ، وشهدنا حارة اسمها وكالة (أبو زيد) وفيها تجارة السيد (... ...) الذي يبيع أدوات السمنة للسيدات ، فوقفت ليلى عنده لحظة ، ثم انصرفت . وفى خان الخليلى رأينا سـيدة ملفوفة كأنها من عقائل بغداد ، فحيتنا على غير معرفة ، فردّت ليلى التحية بلهفة واشتياق . وأحببت أن أعرف سر هذه الحماسة من ليلى ، فنظرت إلى تلك السيدة فرأيت عينيها خضراوين !

— أعوذ بالله !

— تستعيذ بالله يا سيدى من ذلك ؟

— نعم ، أستعيذ بالله من شر العيون الخضر ، فهى سبب بلائى فى هذا الوجود . ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم عرضت تلك السيدة أن تصحبنا لزيارة معالم القاهرة وقالت إن زوجها أستاذ فى الأزهر وأنه ينتظرها عند المعلم حسين الجريـى . ونظرت فرأيت ليلى تمشى وهى نَشوى من الانشراح كأنها تلمح من وراء الغيب أعلام الأمل المرموق

وما هى إلا لحظات حتى كنا فى حضرة شيخ جليل اسمه الشيخ دعّاس

— الشيخ دعّاس ؟

— نعم ياسيدى ، الشيخ دعاس ، وهو الذى أنجب أحمد وابراهيم وجلى وسيد ومحمود ، وهم زينة الرجال فى بلاد النيل

— رضى الله عنهم أجمعين ، ثم ماذا ؟

— ثم تعلل ذلك الشيخ بضيق الوقت ، ودعانا إلى تناول القهوة فى منزله ، فركبنا سيارته ومضينا إلى داره فى حىّ الزمالك . ولـما دخلنا أبصرنا فتاة هى قيد العيون ، بل قيد القلوب ، اسمها درية ، فسألنا عنها فعرفنا أنها ابنة الشيخ دعاس ، وابنة السيدة نجلاء ، ونظرت ليلى إلى تلك الفتاة فلم تر عينيها خضراوين ، وإنما رأت عيونها عسلية ، وهو اللون الغالب على عيون المصريات ، وهو لون ينطق عن السحر الحرام والحلال

— اتق الأدب يا ظمياء ، فأنت فى حضرة طبيب !

— الطبيب يسمع كل شئ !

— أمنت وصدقت !

— ومضت درية تناغم أمها باللغـة الفرنسية . فسألت عنها فقيل إنها تلميذة بمعهد الليسيه

(وهنا أجهدت ذاكرتى لأعرف من هى تلك التلميذة ، ثم تذكرت أننى لم أتصل بمعهد الليسيه إلا فى سـنة ١٩٢٨ والحمد لله على ذلك ، فـما يسرنى أن تكون تلميذاتى محوراً لأمثال هذه الأحاديث)

— نعم يا ظمياء

— وبدا لليلى أن تسأل عن السر فى اختلاف ألوان العيون ، فأجابت السيدة نجلاء بأن درية صورة لأبيها الشيخ دعاس ؛ أما ابنها فهو صورة أمه اللبنانية . فقالت ليلى : وهل اللبنانيون خضر العيون ؟ فأجابت السيدة : أنا لبنانية الوطن ، تركية الأصل . فقالت ليلى : ومعنى هـذا أن لك ابناً أخضر العينين ؟ فقالت السيدة : نعم ، وهو المحروس عبد الحسيب ، وهو طالب بمدرسة البوليس ، وسيحضر بعد قليل

« للحديث بقايا »

زكى مبارك

سفارة ألمانيـــة

إلى بلاط قرطبة

فى عهد عبد الرحمن الناصر

للأستاذ محمد عبد الله عنان

فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) كانت أسبانيا المسلمة (الأندلس) قد بلغت ذروة قوتها؛ وكانت إلى جانب الدول النصرانية الثلاث: الدولة البيزنطيـة، ومملكة الفرنج، والامبراطورية الألمانية، رابعة الدول الأوربية العظمى؛ بل ربما كانت يومئذ أعظم الدول بما اجتمع لها من عناصر الفتوة، ومنعة الجانب، وروعة الملك، ورفيع الحضارة. كانت حقبة زاهرة، تعاقب فيها فى قيادة الغرب الإسلامى ثلاثة من أعظم قادة الإسلام وساسته، هم عبد الرحمن الناصر، فولده الحكم المستنصر، ثم الحاجب المنصور. وكان عهد الناصر بلا ريب أسطع هذه العهود وأعظمها، وفيه بلغت الأندلس ذروة القوة والازدهار، وفيه قامت الخلافة الأموية فى الغرب قوية موطدة، بعد أن اختفت من الشرق قبل ذلك بمائة وثمانين عاماً. وكانت قرطبة فى عهد الخلافة الأموية عاصمة الغرب الفكرية والاجتماعية؛ وكانت فى الطرف الآخر من أوربا تبث أضواء حضارة جديدة لم تلبث أن لعبت دورها العظيم فى تكوين الحضارة الأوربية

وقد تبوأت أسبانيا المسلمة مركزها الدولى فى الغرب. كان بلاط قرطبة يرتبط مع معظم الدول الأوربية بعلائق دبلوماسية منظمة؛ وكان أخص هذه العلائق مع الدولة البيزنطية فى الشرق، ومملكة الفرنج فى الغرب. ومنـذ عهد عبد الرحمن بن الحكم (عبد الرحمن الثانى أو الأوسط) نرى سفارات الدول النصرانية تتوالى على بلاط قرطبة؛ وكان أهم هذه السفارات يومئذ سفارة تيوفيلوس امبراطور قسطنطينية فى سـنة ٢٢٥ هـ (٨٣٦ م) ومقصدها أن تعقد الدولة البيزنطية مع الدولة الأموية تحالفاً على الدولة العباسية؛ ورد عبد الرحمن على هذه السفارة بأن أرسل وزيره يحيى الغزال سفيراً إلى الامبراطور لينظم بينهما علائق الصداقة والتحالف. وتبادل عبد الرحمن بن الحكم أيضاً السفارة مع ملك النورمانيين عقب الغزوات التى قام بها النورمانيون فى الأندلس، وانتهت بردهم وهزيمتهم

وفى عهد عبد الرحمن الناصر توالت سفارات الدول النصرانية على بلاط قرطبة، وكان أشهرها وأهمها سفارة قسطنطين السابع امبراطور قسطنطينية فى شهر صفر سـنة ٣٣٨ هـ (٩٥٠ م). وتقدم إلينا الرواية الإسلامية وصفاً شائقاً لتلك السفارة الشهيرة، وتصف لنا احتفال الناصر باستقبالهم فى أروع المظاهر والرسوم، وتنقل إلينا أقوال الخطباء المسلمين فى ذلك الحفل الباهر

***

وفي سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٦ م) وفدت على الناصر سفارة من أوتو الكبير امبراطور ألمانيا؛ وكان يومئذ أعظم أمراء النصرانية كما كان الناصر أعظم أمراء الإسلام. وكان بين الملكين العظيمين علائق ومراسلات منتظمة، بيد أنها لم تكن ودية دائماً. ولا تحدثنا الرواية الإسلامية عن سفارة أوتو (أو أوتون) إلى الناصر بأكثر من الإشارة إليها؛ بيد أنها كانت سفارة هامة، وكانت ذات غاية خاصـة وذات مغزى خاص. وكان سفير الامبراطور إلى الخليفة حبراً من أكابر الأحبار هو يوحنا أسقف جورتسى. وترك لنا يوحنا تفاصيل سفارته فى ترجمة حياته (Vita) وخلاصتها أنه سار إلى قرطبة ليسعى لدى الناصر فى أمر المستعمرات والعصابات المسلمة التى انتشرت فى أنحاء سافوا، وفى كثير من آكام الألب. وكانت غزواتها الناهبة تمتد حتى شمال سويسرة، وكان أمراء النصرانية التى تهدد هـذه المستعمرات أملاكهم ورعاياهم قد فزعوا إلى الامبراطور أوتو باعتباره زعيم النصرانية وأقوى أمرائها، وطلبوا منـه أن يتوسط لدى خليفة المسلمين عبد الرحمن الناصر فيستعمل نفوذه السياسى والروحى لإجلاء هذه المستعمرات عن معاقلها أو على الأقل لوقف اعتدائها وعبثها. فنزل الامبراطور عند تضرعهم وبعث سفيره إلى الناصر، فقصد يوحنا إلى قرطبة عن طريق فرنسا، ومعه طائفة من التحف والهدايا طبقاً لرسوم العصر. ولما وصل إلى دار الخلافة استقبل بحفاوة كبيرة، وأنزل فى منزل خاص؛ ولـكنه لم يقدم إلى الناصر فى الحال، بل استبقى مدي حين فى شبه اعتقال محوطا بالاكرام والرعاية؛

ويوضح لنا يوحنا بواعث هـذا الاعتقال فيقول لنا : ان الخليفة كان يحقد على الامبراطور لأنه كان قد تعرض للاسلام في بعض كتبه إلى الناصر، واعتقل مدى حين سفيراً نصرانياً كان الناصر قد أوفده إلى بلاطه، فرأي أن يقابل تصرف الامبراطور بمثله، ويعتقل سفيره أعني يوحنا حتى يتحقق من عواطفه ونياته. وبعث الناصر إلى الامبراطور سفيراً، واختار لهذه السفارة قساً من رعاياه النصارى اتباعاً لتقليد جرى عليه الخلفاء فى معظم سفاراتهم إلى القصور النصرانية . وكان اوتو يومئذ مشتغلا ببعض الحروب الداخلية، فأبدى تساهلا فى قبول وجهات نظر الخليفة، ولم يثر من المجادلات مااعتاد أن يثيره، وأكد صداقته لخليفة المسلمين. وعاد السفير إلى قرطبة يحمل إلى الناصر تحيات اوتو وتأكيداته الودية، فارتاح الناصر لهـذه النتيجة، وأذن باستقبال يوحنا سفير الامبراطور . واستقبل يوحنا استقبالا فخما ظهرت فيه عظمة البلاط الأموى، وتحدث إلى الناصر عن مهمته وغاية سفارته . ولسنا نعرف ماذا كانت نتائج هذه السفارة، لأن يوحنا لم يحدثنا عن ذلك فى روايته ؛ ولكن المرجح أن وجهة النظر التى أبدتها حكومة قرطبة هى أنها ليست لهـا أية علاقة بالمستعمرات العربية فى غاليس وسويسرة، وانها لا تتحمل تبعة أعمالها، ولا تستطيع أن تتدخل لديها . وهو استنتاج يؤيده صمت الرواية العربية عن ذكر أخبار هذه المستعمرات، مما يدل على أن حكومة قرطبة لم تكن تعنى كثيراً بشأنها، وإن كانت بلا ريب تنظر إلى غزواتها فى الأراضى النصرانية بعين العطف والتأييد

على أن الرواية الكنسية من جهة أخرى تحدثنا عما أفضى به الناصر إلى يوحنا من الملاحظات السياسية والادارية ؛ فقد بسط ليوحنا خططه فى السياسة العامة، وأنحى باللائمة على الامبراطور أوتو لأنه يضع ثقته فى أشرافه ؛ ومثل هذه السياسة لا تزيد الاشراف إلا غروراً، ثم تنتهى بهم فى أواخر الأمر إلى العصيان والثورة . ولهذه الملاحظة السياسية التى توردها الرواية الكنسية عن الناصر أهمية خاصة، وهي ليست إلا صدى لسياسة الخلافة الأموية وسياسة الناصر ذاته ؛ ذلك أن الناصر كان يعتمد فى تنفيذ سياسته على طبقة الموالى والصقالبة، ولا يثق بالاشراف وزعماء القبائل من العرب . وكان من آثار هـذه السياسة أن جعل الناصر بطانته من الصقالبة المستعربين، ورفع كثيراً منهم إلى مناصب النفوذ والثقة فى الحكومة وفى الجيش . وكان الناصر يخشى منافسة الرؤساء ذوى العصبية ويقصيهم عن كل نفوذ، ويخضعهم لهؤلاء الصقالبة الذين اتخذهم فى يده آلات طائعة تعبر عن خططه ورغباته . وكان لهذه السياسة أثرها فى توطيد سلطان العرش، والقضاء على سلطة الزعماء المحليين، وعلى مطامع الرؤساء المتطلعين، ولكنها كانت من جهة أخرى خطراً على العرش إذ عرضته لسخط الأشراف والزعماء العرب، وخطراً على الجيش إذ كان سواد ضباطه من العرب الذين يعتزون بعصبيتهم ويسوءهم أن تضار هذه العصبية ويعتدى عليها . وظهر أثر هذه السياسة فى أواخر حكم الناصر إذ ظهرت أعراض الوهن والانحلال فى الجيش ؛ ثم ظهر خطرها على العرش فيما بعد إذ غدا عرضة لمطامع المتغلبين والمتنافسين

* * *

تلك هى قصة هذه السفارة الشهيرة التى وجهها الإمبراطور أوتو الكبير إلى عبد الرحمن الناصر، وتشير الرواية الاسلامية إليها فى عبارات موجزة[1] مما يدل على أنها لم تفطن إلى أهميتها السياسية والاجتماعية، ذلك لأنها كانت سفارة من نوع خاص، ولم تكن متعلقة بالشئون والعلائق الدبلوماسية العامة، ولم تكن الإمبراطورية الألمانية الناشئة مشهورة فى بلاط قرطبة شهرة الدولة البيزنطية أو مملكة الفرنج، ولكن التفاصيل الشائقة التى تقدمها إلينا الرواية الكنسية تدلى بأهميتها وطرافتها، وأول ما تدل عليه ما كان لبلاط قرطبة فى عهد الناصر من الهيبة والنفوذ حتى فى دول كألمانيا لم تكن تربطها بالأندلس مصالح أو علائق دبلوماسية مباشرة ؛ بيد أن أهم ما تدلى به هذه السفارة هو صفة الزعامة والارشاد التى كان يبدو بها بلاط قرطبة، فقد رأينا الناصر يلقى درساً فى السياسة والادارة على الأمبراطور أوتو، وهي صفة كان فى ظروف الأندلس يومئذ ما يبرر اتخاذها، فقد كانت الأندلس عندئذ فى أوج قوتها وعظمتها، وكانت حكومة قرطبة فى نظمها السياسية والادارية والاجتماعية نموذجاً لأعظم

(٢) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٧١ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤

الفهم الفلسفي
للثورة على الأخلاق

للأستاذ عبد العزيز عزت

سيدى الأستاذ الزيات

قرأنا بإعجاب فى الرسالة الغراء ما كتبتموه ، وما سطره أساتذة الأدب العربى فى الثورة على الأخلاق ، فأكبرنا فيكم نزعتكم إلى تأييد الفضيلة بهذا الأسلوب . وقد لاحظت بجوار ذلك غياباً نسبياً للفهم الفلسفى فى ذلك الحوار الأدبى ، مع أن الموضوع يمت إلى صميم الفلسفة بصلة وصلات . لهـذا دعانى الواجب الفلسفى أن أحرر هذه الكلمة لعلها تلقى بعض الضوء من هذه الناحية على هذا الموضوع :

فهم بعض الناس فى مصر الثورة أنها النزاع بين وجهتى نظر متناقضتين ؛ فهناك أنصار القديم ، وهناك المجددون ؛ وهناك رجال الدين ، وهناك « المستغربون » ؛ وهناك أصحاب الفضيلة ، وهناك « المسترذلون » . نزعة « التثنية » هـذه Dualisme فى تصور الشىء وضده ، هى نزعة « حربية » لا تليق بطبيعة التفكير جرتها علينا من بعيد الحضارة الفارسية التى يسودها مذهب زرادشت Zeroastre فى كتابه الأفستا Avesta الذى يقول بتنازع قوة الشر « أهرمن » وقوه الخير « أهورا » . وكذلك جرتهـا علينا — فيما أرجح — من قريب مبادىء الثورة الفرنسية فى تصور معنى الحرية والاستقلال ؛ فهناك ابن الوطن Le citoyen من ناحية ، وهناك الملك من ناحية أخرى ؛ ذلك لأن التفكير فى ذاته وسيلة سلمية هادئة لخلق « التماسك » فى عقلية الفرد ، وخلق التماسك فى عقليـة المجتمع ؛ وهذا التماسك هو الانتقال من حالة نوعية إلى حالة من نفس النوع يجوز لها التخصيص . فكل ثورة هى نهاية ظاهرة لحالة تطور هادىء سبقته ، وتضمنت هذه الثورة ؛ فهى إذاً حاضر لماض سبق قد مهد لها ، وهى حاضر كذلك لمستقبل يأتى ، تمهد هى له الثورة فى نظر الفيلسوف الألمـانى شيلنج Schelling لا يمكن أن تنفصل عن التطور وعناصره الثلاثة : الماضى ، والحاضر ، والمستقبل . (التطور هنا لا يقصد به نظرية داروين وسبنسر التى أثبت خطأها أستاذنا الفيلسوف لالاند Lalande فى كتابه : « خداع التطور » Les illusions évolutionistes ؛ وإنما التطور الذى نزل من فلسفة أفلاطون وقالت به المدرسـة الألمانية الحديثة وخاصة هيجل Hegel وشيلنج Schlling وهو التطور المنطقى لمظاهر التاريخ عامة) . فالثورة بهذا الفهم هى عنصر أكيد للسلام والتقدم

ولنأخذ مثلاً ثورة أفلاطون فى العهد القديم . هـذه الثورة كما يحدثنا الفيلسوف الألمانى زللر Zeller في كتابه « فلسفة أهل اليونان » الجزء الأول — جمعت بين الفلسفة الطبيعية التى سادت التفكير اليونانى إلى ما قبل سقراط ، وجمعت الفلسفة المنطقية التى وجدت فى عصره عند السوفسطائيين ، وكذلك الفلسفة الأخلاقية التى قال بها سقراط ، ففيها يلتئم عنصر الماضى وعنصر الحاضر وكذلك عنصر المستقبل ، لأن فلسفة أفلاطون ضمنت الحياة للفلسفات المنطقية والأخلاقية من بعده ، الأولى فى تلميذه أرسطو والثانية فى زعيم الرواقيين كريزيب Chrysippe ومن أخذ عن هذين الفيلسوفين إبان القرون الوسطى من عرب ، ورومان ،

وأرق حكومات العصور الوسطى ؛ وكانت الحضارة الأندلسية فى سائر نواحى الحياة العامة والخاصة مضرب الأمثال فى الروعة والبهاء ؛ وكانت نبراسا تمتد أضواؤه إلى أقاصى أوربا ؛ وكان للزهراء عاصمة الناصر وبلاطه فى الأمم الشمالية شهرة سحرية ، حتى أن الراهبة السكسونية هرو-ويتا تغنت بجمالها وروعتهما فى قصائدها اللاتينية وأسمتهما « زينة الدنيا » (1)

والخلاصة أن عظمة الأندلس يمكن أن تقرأ فى هذه الصفحات المطوية من تاريخ العلائق الدبلوماسية بينها وبين الأمم الأوربية أكثر مما تقرأ فى تاريخها الخاص : ففى هذه الصفحات نجد صوراً كثيرة مؤثرة من ذلك الاجلال الذي كانت تفرضه الأندلس إبان عظمتها على أمم الغرب والشمال

محمد عبد الله عنان

(1) دوزى — (الطبعة الأولى) ج ٣ ص ٩٠ — ٩١

ومسيحيين . وهكذا بعد أن كانت الفلسفة المنطقية من قبل أفلاطون سبيلاً للشعوذة والسفسطة والثرثرة ، أصبحت فلسفة محترمة تبغى إقامة العلم والبحث عن الحقيقة المجردة . كذلك بعد أن كانت الفلسفة الأخلاقية من قبله وسيلة لإخضاع الفرد فى المجتمع اليونانى أو الدولة الحاكمة ، أضحت سبيلاً لتحريره وتقوية إرادته

ومثل آخر فى العهد الحديث : ثورة كانت Kant الألمانى فهى قد جمعت بين تيار الماضى — بالنسبة إليه — وهو تيار فلسفة ديكارت Descartes حينما يتكلم عن ملكات العقل ، وتيار الحاضر — بالنسبة إليه — وهو تيار الفلسفة الإنجليزية الممثل فى فلسفة دافيد هيوم David Hume ، لأن (كانت) نفسه يقول إن هيوم «أيقظه من سباته الفكرى» . ونجد أثر هذا ظاهراً عند ما يتكلم كانت فى أثر الحواس فى نظرية المعرفة ؛ أما عنصر المستقبل فهو أن كانت Kant كفل الحياة من بعده لفلسفات تنطق تارة باسم العلم مثل فلسفات أوجست كنت ، وكورنو Cournot ، وفلسفات تنطق باسم المنطق والإلهيات مثل فلسفة لاشلييه Lachelier ، وفلسفة بوتروه Boutraux (اقرأ كتاب أستاذنا العلامة الكبير لاسباكس Lasbax أستاذ الفلسفة بجامعة كليرمون ، ورئيس المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية ، والسكرتير السابق للوزير بريان Brian ، وعنوانه : « المنطق وتطور العالم »

وعليه فالثورة فى التفكير هى عنصر للسلام أى التوفيق بين الماضى والحاضر الفكرى ، ومظهر للتقدم ، أى يجب أن تكفل خلق تيارات جديدة للفكر فى المستقبل .

أما الآن فلنتحدث عن الثورة « الأخلاقية » . الثورة فى مجال الأخلاق تتضمن الإقرار بوجود هذا المجال ، وتميزه فى نفس الوقت عن المجالات الأخرى كمجال النفس والاجتماع والمنطق ، والاقرار كذلك بأن له طبيعة خاصة وأصولا للتفكير فيه ، وإلا أصبح البحث عبثاً ، والجدال رغاء ، وقلبت الأوضاع ، وأنكر التاريخ ، وجحدت المجهودات القائمة للفلاسفة . فنحن إذاً لا نوجه كلامنا إلى أصحاب الرذيلة الذين بخسوا الفضائل حقها .

ولكنا نوجهه إلى الأساتذة أصحاب الفضيلة فنقول :

الثورة فى مجال الأخلاق لا تبنى على إنكار الفضائل ، وتجاهل أمر الثورات الأخلاقية فى تطور التفكير البشرى ، ولكن على علاقة الفضيلة بالرذيلة أولا ، وعلى استعراض التصور النوعي للفضيلة فى الثورات الأخلاقية

(١) أما عن تحديد علاقة الفضيلة بالرذيلة فلا يمكن البحث عنها خارج فلسفة الرواقيين ، لأنه أعظم مبدأ أخلاق وجد إلى الآن فى تطور التفكير الإنسانى ، وذلك لأنه قضى على مبادئ الأخلاق التى تقدمته بتعاليمه السامية . فبينما سقراط يجتهد أن يتخذ من الأخلاق سبيلا لتقييد حرية الفرد وإخضاعه للدولة الحاكمة فى المجتمع اليونانى ، نرى أفلاطون يفترض السوء فى طبيعة الإنسان ويجتهد بعد ذلك أن يرفعه إلى قداسة عالم المثل . كذلك أرسطو فهو يميز وينوع بين خلق الله فيقر الرق والاستعباد ، ويضع أخلاقه للسادة من الناس ، والأرستقراطية التى قضت مباشرة على مبادئه وأضحى فكره ميتاً بعد حروب الاسكندر الأكبر ، لأن المجتمع اليونانى فى ذلك الزمان أصبح فى حاجة ماسة لمن يخاطبه بلغة قليلة التجريد — أقرب إلى الواقع منها إلى الخيال ، يتحقق خلالها ذلك الفهم الواسع الذى أدركه اليونانيون باحتكاكهم بعد تلك الحروب بسائر الأمم الأخرى ، لهذا لاقت تعاليم الرواقيين نجاحاً عظيما وخاصة تعاليم كريزيب Chrysippe (اقرأ كتاب أستاذنا أميل برهييه Emile Bréhier وعنوانه كريزيب فى مجموعة ألكان Alcan لكبار الفلاسفة) لأنها ألغت الرق ، وجعلت الناس سواسية كأسنان المشط أمام القانون الأخلاقى ، وافترضت الخير فى طبيعة الإنسان . وأهمية هذا المذهب لا تقف عند هذا الحد لأنه ساد بعد ذلك كل العالم الرومانى ، وعالم القرون الوسطى فى أوروبا خلال آباء الكنيسة . والأهم من ذلك أخيراً أن زعماء الفكر الحديث عندما كتبوا فى الأخلاق تأثروا بالرواقيين ، فمثلا ديكارت فى خطاباته مع البرنسيس اليزابث ، وسبينوزا Spinoza فى كتاب « الأخلاق » ، وكانت Kant فى كتابه عن الأخلاق

فالرواقيون آباء الأخلاق لم ينكروا فى ثورتهم الفضائل ولم يبخسوا كذلك الرذائل حقها وما لها من أهمية فى الحياة ؛ غير

أنه يستحيل فى نظرهم فصل الاثنين عن بعضهما ، لأن الإنسان مركب من روح وجسم — وهى البداهة كلها — فله شهوات تدعو إلى الرذيلة ، وله غايات روحية سامية يريد تحقيقها ؛ غير أن الشهوات والميل إلى الرذيلة ليست بطبيعية فى الإنسان ، فالإنسان كأساس خَيِّر بطبعه ، ولكن الحياة الخارجية المادية ومغرياتها هى التى تفسد عليه داخليته ونفسه الطاهرة . ولما كان أغلب الناس لا يمكنهم التضحية بمغريات الحياة الخارجية ، اضطر الرواقيون ألا يتجاهلوا أمر الرذيلة وأثرها فى التخلق فحسبوا لها حساباً بل جعلوا منها ضرورة لازمة للفضيلة ؛ ويقدمون لذلك ثلاث حجج ، (يجدها القارئ فى كتاب أستاذنا برهييه Bréhier والأستاذ بيفان Bevan)

أولا — حجة بالمقارنة ؛ فالرذيلة تابعة للفضيلة وشرط أساسى لها ؛ ويضربون لذلك مثلا جمال رأس الانسان الذى يتضمن فى نفس الوقت نوعاً من الضعف هو رقة عظامه وتعرضه فى أي لحظة للأخطار الطارئة ، فاذن ليس هناك جمال خالص من ضعف أو قبح يشوبه ، كذلك (ut...sic) ليس هناك فضيلة خالصة ولا بد للرذيلة أن تلازمها فهى ضرورية لها

ثانياً — حجة منطقية : تتلخص فى أن النقيضين متضامنان ؛ فالخير يتضمن الشر فى تصوره ، والحسن يتضمن القبيح فى إدراكه ، والفضيلة تتضمن الرذيلة وهلم جرًّا ...

ثالثاً — حجة أخلاقية : يقول الرواقيون : الرذيلة ليست من طبيعة مغايرة للفضيلة ، فكلاهما من نوع واحد . وليست الرذيلة هى حرباً على الفضيلة ، وإنما هى فضيلة ضالة ، والعقل فى تصورها وفعلها خاطئ ، ومهمة الأخلاق هى العودة بما ضل إلى الطبيعة الخيرة الأولى

هذا الفهم للعلاقة بين الفضيلة والرذيلة اضطر الرواقيين إلى تصور نوعين من الأخلاق : أخلاق لا يصح أن نسميها « خارجية » نجدها فى كتاب « الواجبات » لشيشرون ، وهى تختص بمغريات الحياة الجارية وتنبني على ما يجب فعله وما لا يجب أن يفعله الانسان فى يومه ، والتحقير من أهمية الماديات لتغير قيمتها بتغير الأشخاص والأزمان والأصقاع ، فهى أشياء عارضة ، وينبنى الزهد فيها ، والاعراض عنها ، فهى أخلاق تهتم بتخفيف وطأة الرذيلة

وأخلاق تسميها « داخلية » تبنى على رياضة الارادة ، أساسها ضبط النفس وغرضها الوصول إلى الخير المطلق ، ونجدها فى كتاب شيشرون المسمى De finibus ، وهي مايصح تسميتها كذلك بلغة العلم الحديث « أخلاق نظرية » ترمى إلى خلق الانسجام بين إرادة الوجود فى الفرد ، وإرادة الوجود فى العالم ، وإرادة الوجود فى المجتمع

كذلك الاستعراض النوعى للفضائل فى ثورات الأخلاق ، يدل دلالة واضحة على أن هذه الثورات لم تكن حرباً على الفضيلة ولم تكن للحط من قيمة الانسان إلى قدر هو أرفع منه ؛ وإنما كانت برداً وسلاماً عليها ، ترسم سبل الوصول إليها وامكان تحقيقها : فالثورة اليونانية الأخلاقية كما يذكر الفيلسوف بوترو فى كتابه (مسائل فى الأخلاق والتربية) كانت ترمى إلى رفع الانسان إلى القداسة العقلية بحيث يصبح العالم بيتاً للانسان والآلهة (أنظر كذلك شيشرون «طبيعة الآلهة») . ويتحقق حلم الرواقيين فى خلق مدينة العقلاء فيسود السلام على الانسانية ، باحسان كل إنسان إلى أخيه فلا يبقى هناك فضل « ليونانى » على أجنبى

والثورة الدينية فى الأخلاق : إبان القرون الوسطى ويمثلها فيلون الاسكندرى فى اليهودية ، والغزالى فى الإسلام ، والقديس أوغسطين فى المسيحية ، تتلخص كلها فى تلك النزعة القديمة الشرقية التى اختص بها الجنس السامى وهى فكرة الخطيئة الأولى وما تتطلبه من التحلى بالفضائل كوسيلة لإنقاذ خلق الله من وصمتهم والعود بهم إلى جنات الخلد والنعيم (أنظر كتاب مُنْك Munk « فى الفلسفة العربية واليهودية » ، وكذلك كتاب أستاذنا العلامة جلسن Gilson بالكليج دي فرانس وعنوانه : «المسيحية والفلسفة »

ثم جاءت بعد ذلك الثورة الحديثة فى الأخلاق تقيم الفضائل وتناصرها ولكنها تفهمها بشكل آخر جديد ، فبينا نجد القداسة العقلية عند اليونان ، والقداسة الربانية عند اليهود والمسلمين والنصارى ، نجد القداسة العملية النفعية عند الانجليز فى شخص هبز Hobbs ومدرسة بنتام Bentham ، وميل mill ، وسبنسر Spencer (أنظر جيو Guyau الاخلاق عند الانجليز وأيضاً سبنسر التطور والأخلاق

أصبحت الأخلاق عنـدهم تهتم بالحياة الجارية وتتأثر بالفهم الرياضى فأضحت « حساباً للذات » من وجهات الكم والكيف ، والبقاء ، والزوال ؛ وأصبح الفرد وأنانيته محوراً للأخلاق . ظهرت ثورة أخلاقية جديدة فى ألمانيا هى ثورة كانت Kant تذكرنا بآراء الرواقيين فى العهد القديم لأنها ترتكز على فكرة الواجب L'idée du devoir المجرد عن الغايات النفعيـة والأغراض العارضة ، وأن الإنسان فى تخلقه يجب أن ينظر إلى ثلاثة أفكار : أولاً : أن يكون التخلق واحداً لكل الناس . ثانياً : أن يحترم الإنسانية فى شخصه . ثالثاً : أن يتخلق وأن يملى على نفسه تخلقه دون أن يخضع فى ذلك إلى مؤثر ما . لهذا كانت نهاية مبدئه الإرادة الحرة (أنظر دلبوس Delbos فلسفة كانت Kant

ونحن بعد هذا لا نريد أن نعدد الأمثلة أكثر من ذلك لنثبت أن للأخلاق والثورة عليها أو فيها طبائع وأصولا ومبادئ لا تبرر مطلقاً ماذهب إليه الثائرون . لهذا غضبت النفوس الكريمة وناصرت الفضائل التى هى السبيل الوحيد لوجود الضرر كمفكر ، لأن ديكارت لا يفصل التخلق عن المعرفة والسبيل الوحيد كذلك لوجود الفرد اجتماعياً ، لأن دوركيم لا يؤمن بقيمة الفرد إلا إذا آمنت الناس من حوله بما ينطق ويفكر . فما كتبه الأستاذ الزيات ، وعزام ، والخولى هو لسان المجتمع فى هذا الموضوع المعبر الصادق عن المشاعر الخفية التى تكنها نفوس المصريين أجمعين من حولهم ، فليكفر إذاً هؤلاء الثائرون — اعتباطاً — عن آرائهم ، فالرجوع إلى الحق فضيلة

عبد العزيز عزت
خريج جامعات القاهرة وباريس ، وكليرمون
عضو بعثة الجامعة المصرية لدكتوراه الدولة

فلسفة التربيـــة

كما يراها فلاسفة الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ٧ —

« إذا أمسك الله تعالى بالحق فى يمينه ، وبالدافع الدائم إليه فى يساره ، ثم أمرنى بالاختيار : لسقطت على يده اليسرى وقلت اعطنى هذا أيها الأب الأقدس ، لأن الحق الخالص ليس إلا لك »

ليسنغ Lessing

« ... وثقافة الانسان لا تقدر بمقدار ما قرأ من الكتب وما تعلم من العلوم والآداب ، ولكن بمقدار ما أفاده العلم ، وبمقدار علو المستوى الذى يشرف منه على العالم ، وبمقدار ما أوحت إليه الفنون من سمو فى الشعور وتذوق للجمال »

أحمد أمين

المنهج والطريقة

رأيت فى المقال السابق كيف تمتد يد « الديمقراطية » إلى « المعلم » و « المدرسة » و « الطالب » لتصلح من شأن التربية ما قد أفسدته النظم البالية والتقاليد الرثة ، وسترى اليوم ماينبغي أن يكون عليه المنهج وطريقة تدريسه حتى لايكون الأمر مجرد « إنهاك عصبي » لا أكثر ولا أقل ..!

يقسم الأستاذ « هورن »[1] العلوم إلى خمس طوائف : فنية ، وتشمل : العمارة والحفر والتصوير والموسيقى والأدب والدين ؛ وإرادية وتشمل : النظم والأخلاق والقوانين ؛ وعلمية عقلية وتشمل : المنطق والميتافزيقا والجمال واللغة والأخلاق النظرية ؛ وعلمية مادية غير عضوية وتشمل : الطبيعة والجيولوجيا والجغرافيا والفسيوجرافيا والفلك والمعادن والكيمياء ؛ وعلمية مادية عضوية وتشمل : الحياة والنبات والحيوان والفسيولوجيا والتشريح وتاريخ الإنسان والاجتماع والاقتصاد

وأنت ترى أن كلا من هذه العلوم يعالج إحدى نواحى الكون معالجة خاصة ، وأنها جميعاً ذات قيمة «ذاتية» كما يقول«هربارت» ولكنا فى ناحية « الثقافة العامة » على الخصوص مضطرون إلى التفريق بينها فى الدرجة والضرورة فلا نفضل منها إلا مايتفق وغايتنا . ومن هنا كان ذلك الخلاف الهائل فى آراء علماء التربية وأساليبهم ؛ « فهربارت » يطالب بقيمة المادة « الذاتية » بصرف النظر عن نتائجها وآثارها ، و « ديوى » يصر على اختيار المواد « النفعية » وفقاً لمذهبه العملى ، و« ريدجر Ruediger » القائل بفكرة الملاءمة مع البيئة[1] يعطينا قيماً آلية وأخرى ثقافية . فالأولى منها التحضيرى كمواد القراءة والكتابة ، ومنها العملى كمواد اللعب ، ومنها « الاجتماعى » كمواد الأجناس والأديان[2] والأخلاق والتاريخ والأدب ، ومنها « التقليـدى » كالخطابة والجدل ؛ أما الثانية — الثقافية — وهى أرقى القيم جميعاً ، فتدخل فيها المواد التى تحرر العقل وتهذب العواطف وترقى بالشعور ، كالفلسفة الخالصة والأدب المجرد

هـذا وقد رتب الفيلسوف « سبنسر » المواد تبعاً لأهميتها وضرورتها فجعل علوم « الصحة » على رأسها ، وتليها علوم « التربية » ثم علوم « السياسة والاجتماع » ثم علوم « الفراغ » أى « الفنون » ... !

أما « رسل » فقد فضـل المواد التى « تُبقى وتحفظ قوة الخلق والتضلع والحيوية فى الفرد ، وتعينه على التمتع بالحياة ذاتها

وأما الأستاذ « أمير بقطر » فيقول بانتخاب المواد التى تفتح على الطالب أكثر من باب واحد[3]

ولقد أدلى الأستاذ « أحمد أمين » برأيه فى الموضوع فقال[4] « إذا كانت قيمة الثقافة الذاتيـة هى أبداً فى مقدار ماترفعه فى المثقف من وجهة النظر إلى الأشياء وتقويمها قيما جديدة أقرب إلى الصحة ، أسلمنا ذلك إلى نتائج خطيرة ، فدين خير من دين بمقدار ما تحاول تعاليمه من رفع مستوى النظر إلى الله وإلى الحياة ، وعلم خير من علم باعتبار ما يؤدى إليه من نظر راق صحيح . وثقافة الانسان لا تقدر بمقدار ما قرأ من الكتب وما تعلم من العلوم والآداب ، ولكن بمقدار ما أفاده العلم وبمقدار علو المستوى الذى يشرف منه على العالم ، وبمقدار ما أوحت إليه الفنون من سمو فى الشعور وتذوق للجمال

(١) انظر كتابه Horn Aphilos, of Eaucation

(١) ويكون ذلك بالتقدير المتزايد للبيئة مع الانسجام والسيادة والقدرة على الانتفاع بقوى الفرد وجعلها نامية فعالة منتجة

(٢) ولسنا نوافق الأستاذ « ريدجر » فى جعله قيمة الدين آلية فحسب

(٣) لا أذكر مع الأسف عدد « مجلة التربية الحديثة » الذى جاء به هذا الرأى

(٤) أنظر مجلة الرسالة السنة الثانية عدد ٢٣ مقال « قيمة الثقافة »

وأنت ترى معى أن تلك النظرة من الأستاذ حصيفة كل الحصافة وبعيدة الغور وسامية المنطق ، وأن نظرة « ديوى » مشوبة بالنفع العملى الذى يشوه فلسفته الخاصة ، وأن ترتيب « سبنسر » يقلل من شأن تلك المتعة « العقلية والفنية » التى جعلها « هورن » جوهر الثقافة الحقيقية

ومهما يكن من شىء فما دامت غاية التربية هى خلق الحياة الاجتماعية المثلى . وأعنى بها تلك الحياة « التى يستطيع الفرد أن يجد فيها مجالاً لتحقيق مستلزمات حياته الأدبية والعقلية والروحية والمادية على أتم وجه بحيث يتسنى له أن ينمو ويتقدم أخلاقيا وروحياً ومادياً وعقلياً نمواً تتطلبه طبيعته وتستطيع أن تحققه الظروف مع البيئة [1] » أقول ما دامت تلك هى غاية التربية فيجب أن نحاول تطبيق ذلك على مواد المنهج وطريقة تدريسها

« فالمادة » يجب أن تكون تامة الوفاء بما تتطلبه « المرحلة » البدنية والنفسية من نمو ، ويجب أن تكون محبوبة للطفل شائقة لديه لا هى بالسهلة ولا هى بالصعبة ، ويجب أن تكون مستمدة من الحياة ومرنة تلائم الاختلاف بين عقول الأفراد ، ويجب أن تظهر للطفل كأنها مادته الضرورية الخاصة ، ويجب أخيراً أن تكون « بحيث ترتفع به إلى مستوى أرق فى العمل والشعور لا مجرد إنهاك عصبي [2] »

وإذا كان الناقد الألمانى « ليسنغ » يقول إنه يفضل « الدافع الدائم للحق » ما دام الحق الخالص ليس لغيره سبحانه وتعالى ، فإننا يجب أن نتجنب حشو المنهج بالمواد ونكتفى بإثارة حب البحث فى الطالب ناظرين دائماً إلى الكيف لا إلى الكم حتى يكون المتعلم دائماً ذا عقل خصب لا يهرم بكبر السن ، ولا ينوء تحت أثقال معلومات مهوشة ، ولا ينى يبحث ويطلع بعد الدراسة محتفظاً بربيع الحياة

وما دامت دراسة « الطبيعة » ذاتها وسيلة للاحتفاظ بالحياة وللمتعة فيها والرفاهية ، فلا تعارض إذاً بين الدراسات الطبيعية العلمية والدراسات النفسية الفنية ، وإذاً فليكن فى المنهج ثقافة عامة توسع الإدراك وتدقق الفهم ، وتاريخ وجغرافيا يزيدان فى معنى التجارب الإنسانية وثروتها ، وعلوم طبيعية تفتح مجالاً للعقل وتؤدى به إلى الصيغ والقوانين الكلية ، ولعب يجعل الدراسة شائقة وينفس عن الغرائز ، وفلسفة خلقية وميتافيزيكية واجتماعية توطد من مركز الناشىء فى المجتمع والكون وتفهمه علاقة الأرض بالسماء .. !

أما الطريقة فلا تكاد تقل خطورة عن المادة ، بل إن المستحدثات في التربية لتنصب عليها بوجه خاص ، ذلك أن دراسة علم النفس للطفل وقواه قد كشفت عن أصول أساسية ينبغى أن يتبعها « المعلم » فى تدريسه ، ومن هذه الأصول ألا تكون الطريقة « قياسية » إلا فى آخر مراحل التدريب ؛ أعنى أنها يجب أن تكون استقرائية قائمة على المشاهدة بحيث تجعل الطفل فى حالة « اختبار » حقيقية يرغب فيها لذاتها ، وتنبه فكره إلى المسائل التى يعالجها ، وتتيح له القدرة على تدبير هذه المسائل بمعرفته وملاحظته ، وتجعله مسئولاً عن حل الحلول التى تعرض له بطريقة منظمة ، وتعطيه أخيراً الفرصة التى يختبر بها صحة فروضه ويتأكد من صحتها

هذا إلى وجوب تفهيم الطفل قيمة ما يدرس ومدى نفعه فى الحياة العملية والمنوية ليزداد جهده فيه وإقباله عليه ، وليكون قلبه معه دائماً فى عمله ، وإلى وجوب وقوف المدرس بين بين [1] فلا يترك الطفل يمضى إلى إشباع ميوله دون رقابة ، ولا يملى عليه ما يريد إملاء قسريا ، بل يتبين ما يتحفز فيه من غرائز وميول ويقدم له ما يساعده على ما يريد

ولما كانت الطريقة هى ترتيب المادة بحيث تكون أكثر فاعلية فى الاستعمال فإنها لا تكاد تخالف المادة قط . أليس من « يأكل » يتناول طعاماً هو « الأكل » نفسه ؟ [2]

وقد نجم من فصل الطريقة عن المادة قلة فرص التجاريب أمام الطفل ، وسوء فهم النظام والشوق ، والعناية المقيتة بالحفظ وحده ، وجعل عملية التعليم ميكانيكية عديمة الروح ، فأدى الأمر إلى تخشب آلى « بسبب الفصل بين العقل وبين النشاط الذى له من خلفه غرض يدفعه [3] »

أفرأيت هذا كله ؟ أفلا حظت ما فيه من قوة ونفع وسمو ؟ إنهم هكذا يفكرون فى أمريكا وكذلك يطبقون [4] ...

(يتبع)

محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية

---

(١) انظر مجلة الرسالة السنة الثانية عدد ٢٣ مقال قيمة الثقافة

(٢) انظر كتاب الأستاذ « ديوى » Democracy and Educ وقد لخصته الآنسة المربية إحسان القوصى فى رسالة صغيرة

---

(١) انظر ... A Source Book

(٢) انظر التربية والأخلاق للاستاذ فام (٣) من كلام للاستاذ ديوى

(٤) ومن حسن الحظ أن مصر قد بدأت تأخذ بذلك الاتجاه كما لوحظ فى الفصول التجريبية ومعهد فاروق الأول

بين القاهرة واستنبول

للدكتور عبد الوهاب عزام

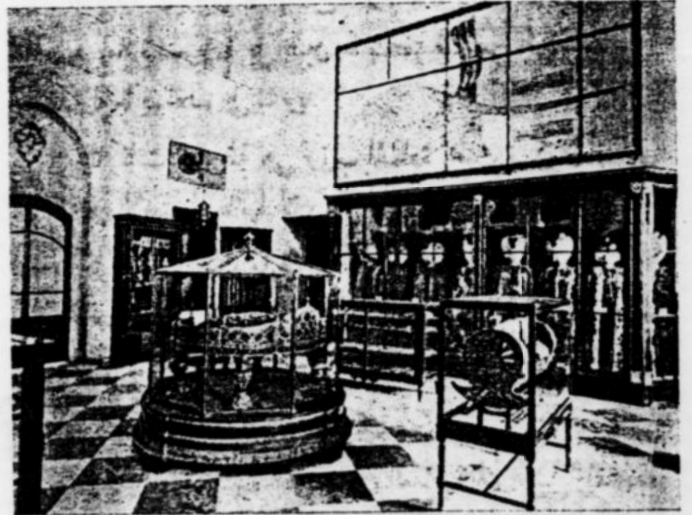
— ٥ —

متاحف طوب قبوسراى

يا أخى صاحب الرسالة

سلام عليك

وقفت بك فى الرسالة السابقة على عرش الشاه إسماعيل الصفدى . وجدير أن نطيل الوقوف عند هذا العرش الذى بذلت الصناعة وسعها فى هندسته وتذهيبه وترصيعه وتلوينه ، ولاءمت فيه يد الإتقان بين الذهب والمينا والزمرد والياقوت ، وألفت بين ألوانها تأليفاً متآلفاً مرضياً ، وقد أرى فيه الذكَر تتلألأ تلألؤ الجوهر



عرش إسماعيل فى وقاية من زجاج ويرى فى وسطها

وقفت عند هذا العرش أذكر الشاه إسماعيل هذا الملك الجبار الذى نشأ فى زلازل الحادثات حتى ملك أزمة دولة مبتدأة وهو لم يبلغ الحلم ؛ وما لبث أن مد سلطانه ما بين العراق إلى الهند ، ثم أورث أبناءه دولة لا تزال آثارها شاهدة بمآثرهم ، ناطقة بعظمة ملكهم ، مذكرة بما طوى الدهر من سلطانهم

هذا العرش ما خطبه ، ما باله وخزائن سلاطين آل عثمان ؟ هنالك ذكرت جلاد سليم وإسماعيل ، وذكرت موقعة جالدران الموقعة التى كادت تذهب بدولة إسماعيل الناشئة ؛ لو لا أن عاقت سليماً العوائق . وجالدران وأرمديد وشمالى أزربيجان اصطفت فيه جنود سليم وجنود إسماعيل سنة ٩٢٥ من الهجرة . قسم سليم جنوده ، وجعل الانكشارية فى القلب واتخذ مكانه خلفهم ، وجعل المدافع وراء الجناحين وشد بعضها إلى بعض بالسلاسل . وصف إسماعيل جنوده ، وتولى قيادة الجناح الأيمن مائة وخمسون ألف جندى صمدت لمثلها ؛ فانظر هذه الحرب المتأججة يضرمها ثلاثمائة ألف !

ويحمل إسماعيل الفتى الشجاع ، معتزاً بجنده ، مفتخراً بنسبه العلوىّ ، مصمماً أن ينتصر أو يقتـل ، ويشق جناح العثمانيين الأيسر ويحسب أن النصر مقبل عليه

وتظاهر جناح العثمانيين الأيمن بالهزيمة وانقسم ، فتحمل ميسرة اسماعيل وترمى بنفسها فى الفرجة بين القسمين فإذا هى أمام المدافع ، وإذا النيران تأخذها من كل جانب . لا تتبدل الحال ويواتى العثمانيين الظفر

ويسقط اسماعيل عن جواده جريحاً وينجيه من الأسر القريب الفرار إلى تبريز

وبادر سليم يجمع الغنائم ، ويزهى بمـا نال من ظفر على عدوه الجبار

وسليم يدخل تبريز بعد ثلاثة عشر يوماً دون حرب ، وكانت تبريز يومئذ دار الملك وبها خزانة اسماعيل قد جمع فيها ما أخذ من التيموريين وغيرهم من الأمراء الذين غلبوا على ممالكهم . وبينما يدبر للاستيلاء على ملك اسماعيل كله يرى بين جنوده أمارات العصيان فيرجع أدراجه قانعاً بما أحرز من نصر وما ملك من بلاده . ثم لم يقم فى تبريز إلا ثمانية عشر يوماً

هذا العرش مما غنم سليم فى هذه الحرب الضروس

وذكرت حينئذ الرجل الكبير قانصوه الغورى الذى خشى صولة سليم فمالأ الشاه اسماعيل فأفسد ما بينه وبين العثمانيين



للأستاذ توفيق الحكيم

ما أطول حديثنا الصامت فى برجنا العاجى ! هذا البرج الذى يحرسه « تنين » الوحدة ! وما أكثر تلك الخواطر التى تمر برؤوسنا أحياناً كالطيور العابرة دون أن نقتنص منها شيئاً ! هنا داخل هذا الإطار وبين هذا السياج سأحبس ما يقع منها تحت ذاكرتى . وإن خواطرى لكثيرة ، لأن أوقات عزلتى طويلة ؛ وليس لى علم بلعب النرد ولا غيره من وسائل قتل الوقت ، فالوقت عندى هو الذى يقتلنى لأنى لا أعرف كيف أقتله . ولقد حاولوا كثيراً فى صباى أن يعلمونى تلك الألعاب التى تلهى الناس عن أنفسهم فى أوقات الفراغ ، ولكنى كنت أنسى دائماً فى المساء ما علمونى إياه فى الصباح ؛ ولم ينفع فى أمرى تعليم ولا تفهيم . وخرجت من عهود الصبا دون أن أحذق لعبة أو أحجية . شىء واحد كان يلهيني ويسرنى ، وقد كان عندى بمثابة النرد والأحاجى : ذلك هو الجدل حول فكرة من الأفكار . ولكم أتعبت كثيراً من أولئك الذين كانوا يلعبون معى هذا الضرب من الشطرنج فى وقت من الأوقات! لقد كنت أضيع عليهم نهاراً بأكمله دون أن أمل ؛ وإن رؤوسهم لتكل فما أرحمهم ولا أرحم نفسى . إن حب التفكير لنقمة . آه لو علم الناس كيف يعيش الأدباء ورجال الفكر ؟ ! إذن فليعلموا أن القدر يوم دفع الأدباء إلى الوجود صاح فيهم ساخراً : «اذهبوا فإن لكم الفكر ، ولكن ...» ولم يتم كلامه وابتسم ابتسامة هى أبلغ من التعبير

نعم . ما من أديب أو مفكر إلا أدرك أخيراً بعد أن قطع شوطاً من الحياة أن شيئاً آخر ربما كان أجدى عليه من الفكر قد سُلب منه إلى الأبد ! إنَّا نحسد أحياناً بقية الناس . وإنى لأتصور القدر وهو يشيع الآخرين إلى باب الوجود فيقول لهم : « اذهبوا فإن لكم الحياة ... ولكن ... »

أجل إنه يبتسم لهم كذلك عين ابتسامته الساخرة ، ولكن هؤلاء الناس لا يفهمون مطلقاً أن القدر قد سلبهم شيئاً . وهنا الفرق بيننا وبين بقية الناس : إننا نحن رجال الفكر ندرك تمام الإدراك ما سُرق منا وما فقدناه ؛ أما الآخرون فلا يعلمون . وهذا سر عذابنا نحن

والآن وقد تكشفت لنا حياتنا الفكرية عن برج مرتفع لا خروج لنا منه ؛ برج يملؤه السكون ولا نسمع فيه غير صدى أصواتنا الضائعة ؛ فلنتكلم إذن بين تلك الجدران . فإن رجع الصدى يؤنس على الأقل وحشتنا

توفيق الحكيم

وتتابعت الأحداث حتى كانت وقعة مرج دابق فى رجب سنة ٩٢٢ قبل وقعة جالدران بسنين ثلاث . وتصورت سليما يحرز نصراً بعد آخر ويطوي مملكة بعد مملكة بجنده وعدده ، ولا سيما هذه المدافع التى لم يتسلح بها محاربوه

وعدت أتذكر ما أعقبتْ عداوة سليم واسماعيل من عداوة بين المسلمين ، وما أثارا من ضغينة بين أهل السنة والشيعة ، وما كان القتال إلا على السلطان والجاه وإنما كانت المذاهب تعلة

ثم تمادت الفكر وتوالت الذكر فأخذت أقيس الرجال الثلاثة واحداً بآخر ، وأتذكر ما كان منهم فى السياسة والعلم والأدب . وقلت : هؤلاء الثلاثة الذين سيطروا على وسط البلاد الاسلامية كانوا يمثلون ثقافة الأمراء المسلمين . وفيما أثر عن ثلاثتهم من شعر نماذج من أدب أمرائنا فى القرن العاشر الهجرى . وهممت أن أكتب إليك فى هذا ياصاحب الرسالة ثم تذكرت أنى أصف آثاراً فى متحف ، وأن الكلام على قانصوه وإسماعيل وسليم جدير أن يستأثر بمقال أو أكثر

ولعلى أجد لذلك فرصة بعد

عبد الوهاب عزام

أناشيد صوفية

جيتـــانجالي

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ٧٢ —

إننى أبرأ من الاستسلام ، وأنا أستشعر الحرية تحوطني فى لذة وطرب

وأنت — دائماً — تفرغ فى كأسى من رحيقك العطر ذى الألوان رشفةً سائغة ، فتفعم هذا الإناء الأرضى

إن دنياى ستشعل من نورك مصابيحها العديدة ، وتضعها أمام محراب معبدك

لا ، لن أغلق أبواب حواسى ، فإن لذاذات البصر والسمع واللمس تحمل فى ثناياها نشوة منك

نعم ، إن أوهامى ستتحرّق فى شعلة من مرح ، وإن رغباتى ستتفتح عن ثمرة من حب

— ٧٣ —

لقد خبا ضوء النهار وانتشرت عتمة الغسق على الأرض ، وآن لى أن أنطلق إلى الغدير لأملأ جرّتى

ونسمات الليل تشجيها موسيقا الموج الحزينة . آه ، إنها تنادينى لأندفع فى أصفاف الظلماء ، وما فى الطريق الموحش من عابر سبيل ، والريح تزف زفيفاً ، وصوت خرير الموج يتصاعد هائجاً من جوف النهر

لست أدرى إذا كنت سأعود إلى الدار ؛ ولست أدرى من عساى أن ألتى على الطريق . إن هناك فى القارب الذى يرسو فى الناحية الضحلة من النهر ، رجلاً مجهولاً يعزف على قيثاره

— ٧٤ —

إن آلاءك تفيض علينا فتسد مآربنا ، ثم ترتد إليك وما نقصت شيئاً

فالنهر يجد كل يوم عملاً ، وهو يندفع إلى النأية بين الحقول والقرى ، ولكن مجراه المستمر يهفو نحو قدميك ليغسلهما

والزهر يتأرّج فيملأ الهواء عطراً شذيًّا ، غير أن غايته أن يقدم نفسه إليك

إن الاندفاع فى عبادتك لن يجدب العالم

ومن نفثات الشعراء خذ ما يحلو لهم ، ولكنك ما تزال غرضهم الأسمى الذى إليه يشيرون

— ٧٥ —

وعلى مر الأيام ، أفتسمح لى — يا إله الحياة — أن أقف بإزائك وجهاً لوجه ؟ وفى خضوعى وذلتى ، أفأقف بإزائك — يا إله الكون — وجهاً لوجه ؟

وتحت سمائك العظيمة ، فى وحدتى وسكونى وذِلة قلبى ، أفأقف بإزائك وجهاً لوجه ؟

وفى دنياك الصاخبة وهى تضطرب بالكد والتناحر ، وبين الزمر المتدافعة ، أفأقف بإزائك وجهاً لوجه ؟

وحين ينتهى عملى فى هذه الدنيا أفأقف — يا ملك الملوك — وحيداً صامتاً بإزائك وجهاً لوجه ؟

— ٧٦ —

لقد عرفتك إلهاً لى ثم تنحيت جانباً ... فأنا لم أعرفك أخاً فأندفع إليك ، ولا أباً فأنحنى أمام قدميك ، ولا صديقاً فأشد على يديك .

ولم أقف حيث أراك تهبط فتهدى نفسك إلىّ ، فأضمك إلى صدرى وأتخذك رفيقاً

إنك أخ بين إخوتى غير أنى لا أعيرهم انتباها ، فأنا لا أقسم بينكم حبي ، ولكنى أخصك بجميع قلبى

فى حالَىْ نعيمى وبؤسى لا أسكن إلى رجل بل أعتمد عليك أنت . إننى لأنزوى وفى نفسى أن أنزع عنى ثوب الحيـاة لأننى لا أريد أن أغتمر فى خضمها

— ٧٧ —

فى بدء الكون ، والكواكب تسطع — أول ما سطعت —

فى تألق ، إجتمع الآلهة فى السماء ، وانطلقوا يغنّون « أوه ، ما أجمل صورة الكمال ! ما ألذ الطرب المحض ! »

وعلى حين فجأة دوّى صوت من بينهم « إنه ليخيل إلىّ أن هناك نقصاً . إن إحدى حلقات الضوء مفقودة ؛ إن كوكباً قد ضاع ! »

فانقطع وتر القيثارة الذهبي ، وأمسكوا جميعاً عن الغناء ؛ ثم صاحوا فى فزع « نعم ، إن الكوكب المفقود أشد الكواكب لمعاناً ، لقد كان زينة السماء ! »

وراحوا — منذ ذلك الحين — يفتشون عنه فى دأب ونشاط ، وغمرتهم الصيحة ، ففقدت الدنيا — فى ثناياها — بهجتها الوحيدة !

وفى هدأة الليل وسكونه تبادلت الكواكب الابتسامات والهمسات « عبثاً تفتشون ! إن الكمال التام فوق كل شىء ! »

— ٧٨ —

ليست غاية جهدى أن ألقاك على الأرض ، فإذا أريد أن أستشعر — دائماً — فقد النظر إليك ... ولكن لا تمح ذكراك من قلبي لحظة واحدة ، ثم ذرنى أحمل آلام الحزن لفقدك فى غفلتى وفى يقظتى

وحين أقضى أيامى بين الحشد فى سوق الحياة فتمتلىء يداى بالكسب ، استلبني من نشوة الربح ؛ ولا تمح ذكراك من قلبى لحظة واحدة ، ثم ذرنى أحمل آلام الحزن لفقدك فى غفلتى وفى يقظتى

وحين أجلس على جانب الطريق أستجم من أثر الأين والبُهر ، فأنشر فراشى على الثرى ؛ ألقِ فى روعى أن رحلتى ماتزال طويلة ؛ ولا تمح من قلبى ذكراك لحظة واحدة ، ثم ذرنى أحمل آلام الحزن لفقدكِ فى غفلتى وفى يقظتي

وحين تتزيّن حجراتى وتتصاعد أنغام القيثار وترتفع رنات الضحك ، دعنى أشعر كأننى لم أدعك إلى دارى ... ولا تمح ذكراك من قلبى لحظة واحدة ، ثم ذرنى أحمل آلام الحزن لفقدك فى غفلتى وفى يقظتى

— ٧٩ —

أنا كأننى نُثار سحابة خريف تضطرب عبثاً فى أرجاء السماء ؛ آه ، إن شمسى دائماً تتألق ! إن لمساتك لم تحولني إلي بخار فأكون شعاعاً منك يحصى عدد الشهور والسنين التى تنفصل عنك

وإذا كانت تلك إرادتك ، وهذه هى غايتك ، فاجذب إليك حطامى المنقض ، واصبغه بالألوان وزينه بالذهب ؛ ثم ارسله بين هوج الرياح ليبدو فى فنون أخّاذة

وإذا كانت مشيئتك أن تنتهى من عملك والليل ساج ؛ فسأذوب وأتلاشى بين أضعاف الظلام ، أو فى بسمة الصباح اللامع ... فى الصفاء والنقاوة

— ٨٠ —

فى أوقات الفراغ آسى أنا على أيامى الضائعة ؛ ولكنها - يا إلٰهى - لم تضع ، فأنت قد بسطت يديك على كل ساعة منها إنك تستقر فى أعماق كل شىء ، فأنت تنفث فى الحبة فتصبح نبتة ، وتنفخ فى الكِم فيتفتح عن زهرة ، وتنضج الزهرة فتحور ثمرة

لقد كنت أستشعر الجهد والضنى فاستلقيت على فراشى وفي خيالى أن كل عمل فى العالم قد وقف ؛ وعند الصباح انطلقت إلى حديقتى فألفيتها تموج بالزهر الغض

— ٨١ —

إن الزمان لا نهائى بين يديك ياسيدى ، وليس هنا من يستطيع أن يحصى عدد اللحظات

الليل والنهار يتعاقبان ، والدهر يتفتح ويذوى كأنه زهرة ؛ وأنت وحدك تعرف كيف تبقى ، والقرون يتلو بعضها بعضاً ، تدفع زهرة بريّة صغيرة إلى الكمال

لم يبق من وقت نضيعه فلنتدافع نحو الفرصة السانحة ، فنحن فقراء يؤذينا الكسل

وهكذا تصرم الزمن وأنا أحبو منه كل شاكٍ يعتقى ، فأقفر محرابك من القرابين

وعند الغروب انطلقت أشتد نحو بابك خيفة أن يغلق على ، غير أنى وجدت أنه ما يزال فى الوقت بقية

كامل محمود حبيب

أبو إسحاق الصابي

للأستاذ عبد العظيم على قناوى

— ٣ —

لابد للكاتب الحريص أن يتحرى النواحى التاريخية التى تتصل بالحياة الأدبية عند ما يعرض حياة رجل كأبى إسحاق الصابى خبَّ في السياسة ووضع ، وارتفع بأسبابها ووقع ؛ ليتبين هل كان بؤس ذلك الرجل طوال عمره أثر سرف فى خطته ، ونتيجة سفه فى مسلكه ؟ أم أن جيله الذى نشأ فيه هو رأس نكباته ، وأس ويلاته ؛ حتى صار البؤس على وجهه كتاباً مسطورا ، والشقاء فى حياته طريقاً مرسوما ؛ لذلك أرى وصف الحالة السياسية فى العصر الذى عاش فيه موجزا

ولد أبو إسحاق فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، والخلافة مزعزعة الأركان ، واهية البنيان ، يتبارى فى تقويض دعائمها وتهوين رواسخها أمراء متعددون ، وقواد متحفزون ، شغلتهم نفوسهم عن دولتهم ، فهم يبغون لشخوصهم ملكا عضودا ، ولذواتهم نهوضاً وسمودا ؛ لا يبالون أن يبنوا ذلك على أنقاض منعة الإسلام ، أو على انتهاك حرمة السلام ؛ وكان المتألبون أجناساً شتى ؛ فللترك طوراً القدح المعلى والنصيب الأعلى ، وللديلم حيناً القوة والبطش ، والمنعة والبأس ، والأمة حيال أولئك وهؤلاء كأسراب القطا تتخاطفها البزاة الجارحة ، أو كقطعان الحملان تتناهبها الذئاب الضارية

وفى الثلث الثانى من هذا القرن استتب الأمر قليلا لآل بويه واطمأن إليهم الملك ، فاستولى معز الدولة بن بويه على بغداد بعد أن انتشر فيها الفساد ، وطغت عليها الفاقة ، واجتاحتها المخمصة ؛ حتى هجرها أهلها إلى المدائن والقرى يستمطرون الرحمة ، ويبحثون عن الطمأنينة والدعة ، وبعد مدة خلع معز الدولة الخليفةَ المستكفى بالله ؛ لاتهامه إياه بدسائس يحوكها ضده ، وتدبيرات ينسجها فى الخفاء له ، وولى بعده ابن عمه المطيع لله ، وكان هذا كرة صولجانها معز الدولة ، وخلة سيفها آل بويه ؛ يأمرون فيأتمر ، ويشيرون فيصنع ، ويشاءون فينفذ ؛ أما أن يكون له من الأمر شىء ، فذلك مالا سبيل إليه . وظل ذاك شأن معز الدولة يدير شئون الأمة متفرداً ، ويقضى فى سياستها متوحداً ؛ حتى أدركه المنون منتصف القرن الرابع . فتولى الملك بعده ابنه بختيار ، وتلقب بعز الدولة ، وقد أشرف على الخلافة أحد عشر عاماً ، وهو لاهٍ عن أمرِ وَليَه ، وملك سَلَبه حتى سُلبه ؛ لها بالغوانى الكواعب والمغنيات الكواكب ، فبرز له منافس قوى أوتى نبلاً وبعد همة ونباهة ذكر وحسن أحدوثة هو عضد الدولة ، فدخل بغداد فاتحاً ، وقبض على محمد بن بَقية وزير عز الدولة وصلبه على رأس الجسر ، وهو المرثى بالقصيدة الخالدة لأبى الحسين الأنبارى وأولها:

علو فى الحياة وفى الممات ... لحق تلك إحدي المعجزات

فى هذا العصر أهلَّ أبو إسحاق ودرج ، وشب واكتهل ، وشاب وهرم ، فلا بدع أن يناله ما ناله ، ولكن البدع أن يخرج من هذا المعترك لا عليه ولا له ؛ إذ معنى هذا أنه كان فى الأدباء من النكرات ، وفى رجال الدولة من الإمعات ، وإن حياته لتنبئ عن غير هذا ، فقد اعتقل فى عصر معز الدولة عند ما ناب عن الوزير المهلبي على ديوان الوزارة والرسائل لخروج الوزير إلى الشام مقاتلاً ، فقتل بعمان ، وقبض على عماله جميعاً وعلى رأسهم أبو إسحاق ومن قوله وهو معتقل :

يا أيها الرؤساء دعوة خادم ... أوفت رسائله على التعديد
أيجوز فى حكم المروءة عندكم ... حبسي وطول تهددى ووعيدى؟
قلدت ديوان الرسائل فانظروا ... أعدوت فى لفظى عن التسديد؟
أعلىَّ رفع حسام ما أنشأته ... فأقيم فيه أدلتى وشهودى

ولما فك اعتقاله خدم عضد الدولة وهو بفارس ، بالشعر والكتابة يفيض عليه المدح ويضفى الثناء حتى صار الصابى من جملة خاصته ، وموضع ثقته ومحبته ، ومحل رفده ورضيخته ؛ وحتى همَّ بالنزوح معه إلى فارس بعد حلف عقد بينه وبين عز الدولة بختيار خوف سطوته ، وخشية بطشه وفتكه ؛ لتوثق علاقته بعضد الدولة ، ولكنه — وهو من عرفنا رعاية لأهله ، وحدباً على ولده — خاف أن يأخذ عز الدولة البرىء بالمذنب ، والمحسن بالمسيء ، فينال أهله منه سوء لا يجد لرده دفعاً ، ويصيبهم منه شر لا يعرف له درءا ، فيكون كمن يفدى نفسه بولده ، ويستخلص

دمه بدماء ذوى قرابته ، وما عرفنا فيه خيانة للجار الجنب ، فكيف به يسلم بنيه وذويه ، ويخرج مع البازى عليه سواد ؟ عرف عضد الدولة ما يعتلج فى نفسه ، وما يضطرب به فكره ، فجعل أمنه فى سربه جزءاً من الحلف ، وسلامته فى ولده شرطاً من شروط العقد ، فنص فيه على حراسته فى نفسه وماله ، وترك تتبعه فى شىء من أحواله . وبعد مزايلة عضد الدولة بغداد استخفى خائفاً ، واستتر متوجساً شرا ؛ حتى توسل أحد أصدقائه إلى عز الدولة وإلى وزيره ابن بقية أن يهبا له أمناً ، ويبذلا له عونا ، فقبلا التوسل وتركاه طليقا ، وما لبثا أن قيداه سجيناً بإغراء ابن السراج[1] لهما به ، وفي هذا يقول ياقوت فى معجمه «وجرت له فى هذه النكبة خطوب أشفى فيها على ذهاب النفس ، ثم كفاه الله بأن فسد أمر ابن السراج مع ابن بقية بما عامله بالعلة التى عرضت له ، فقبض عليه ، ونقل القيد من رجل أبى إسحاق إلى رجله[2] » وفى محبسه هذا كتب إلى ابن بقية يستعطفه ويستميحه :

ألا يا نصير الدين والدولة الذي ... رددت إليها العز إذ فات رده
أيعجزك استخلاص عبدك بعدما ... تخلصت مولاك الذى أنت عبده ؟

وصفا له الجو ، وهدأت عواصف الشر ، فاستخدمه عز الدولة فأخلص ، واصطفاه فكان نعم المصطفى ، وكتب له كتباً كانت مثار حنق عضد الدولة ، ومدار إحنه ، ولشد ما غضب عندما أنشأ كتاباً عن الخليفة الطائع لله يشيد فيه بعز الدولة ، ومنه « وقد جدد أمير المؤمنين له (أى لعز الدولة) مع هذه المساعى السوابق ، والمعالى السوامق ، التى يلزم كل دان وقاص ، وعام وخاص ، أن يعرف له حق ما كرّم به منها ، ويتزحزح له عن رتبة المماثلة فيها » فقد أحفظه هذا التعريض أعظم حفيظة ، واضطغن عليه أشد ضغينة ، فلما ملك بغداد سنة سبع وستين وثلثمائة هجرية أمره أن يؤلف كتاباً فى مناقبه ، وفى آثار الدولة الديلمية ، وذكر فتوحها ، فأطاع . وبينا هو فى تأليفه وتصنيفه ، وتسويده وتطريسه زاره فى داره عدو فى ثياب صديق ، وسأله عما يعمل ، فزعم عنه أنه قال : أباطيل أنمقها ، وأكاذيب ألفقها ، فحركت القالة المزعومة فى عضد الدولة كوامن غيظه ، وأثارت منه عوامل ضغنه ، فأمر بإلقائه تحت أرجل الفيلة ، ولولا أن استشفع فيه من أصدقائه نصر بن هرون ، ومطهر بن عبد الله ، وعبد العزيز بن يوسف ، لكان فى ذلك اليوم من الهالكين ؛ فقد أقبلوا على الأرض يقبلونها بين يدى ملكهم ضارعين مستشفعين راجين متوسلين ؛ حتى صدر أمره باستحيائه مع اعتقاله ، واستصفاء أمواله ، فبقى فى معتقله هذا ثلاث سنوات وسبعة أشهر وأياماً ، وإن جاء ذكرها فى شعره أربعاً على سبيل التجوز فى قصيدة يسترحم بها عضد الدولة ، وقد خرج لزيارة مشهد أمير المؤمنين سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وأولها :

توجهت نحو المشهد العلم الفرد ... على اليمن والتوفيق والطائر السعد
تزور أمير المؤمنين فيا له ... ويالك من مجد منيخ على مجد
فلم يُر فوق الأرض مثلك زائراً ... ولا تحتها مثل المزور إلى اللحد

وفيها يقول :

أمولاى : مولاك الذى أنت ربه ... إليك على جور النوائب يستعدى
وهذى يدى مدت إليك بقصة ... أعيذك فيها من إباء ومن رد
أمانى شتاء ليس عندى دثاره ... سوى لوعة فى الصدر مشبوبة الوقد
فلو أن برد الجلد عاد إلى الحشا ... وفار الحشا الحران منى على الجلد
أزيحت لنفسى علاناها فأعرضت ... عن البث والشكوى إلى الشكر والحمد
وداويت داءى النقيضين ذا بذا ... أعدل إفراطاً من الضد للضد

ومنها :

فلا تبعدنى عنك من أجل عثرة ... فإن جياد الخيل تعثر إذ تخدى
ولو كنت تنفى كل من جاء مخطئاً ... إذن لعممت الناس بالنفى والطرد
ومن زلّ يوماً زلة فاستقالها ... فذاك حقيق بالهداية والرشد
توالت سنى[1] أربع ومدامعى ... لها أربع كالسلك سل من العقد

(١) هو محمد بن المظفر بن السراج ، ترجم له البغدادى فى كتابه فى الجزء الثالث فما قال : إنه مات لتسع بقين من جمادى الأولى سنة عشر وأربعمائة ، عن أربع وسبعين سنه
(٢) الجزء الثانى ص ٣٦ « الطبعة الأخيرة »

(١) كذا باليتيمه وهو تحريف ولعلها سنون ، ودخل التفعيلة الثانية القبض ، وفى البيت الأخير جاءت رؤيا مقصوداً بها البصرية ، فجيئها حجة معاضدة لمن يقول إن الرؤيا تصدق على الحلمية والبصرية

أحوم إلى رؤياك كيما أنالها
حيام العطاش الناظرات إلى الورد

ويبدو لى أنه أفرج عنه عقب هذه القصيدة ، ولكنه ما سلم حتى ودَّع ، وما هنئ حتى ووسى ؛ إذ قبض عليه مرة أخرى عند ما فتح بغداد للمرة الثانية بعد أن استشفع لديه قبل وصوله إليها بأبى سعد بهرام بن أردشير ، وسأله أن يذكره لدى عضد الدولة ، ويقيم له عذره ، ويوضح له أمره ؛ فكان جواب عضد الدولة العفو والمغفرة فى كتاب طويل منه : « ومن كانت به حاجة إلى إقامة معذرة ، واستقالة من عثرة ، أو الاستظهار في مثل هذه الأحوال بوثيقة ، فأنت مستغن عن ذلك بسابقتك فى الخدمة ومنزلتك من الثقة ، وموقعك لدينا من الخصوص والزلفة » . ومنه : « فاسكن إلى ذلك واعتمده ، ولك علينا -- الوفاء به — عهد الله وميثاقه ، وقد حملنا أبا سعد — أعزه الله — فى هذا الباب ما يذكره لك . والله نستعين على النية فيه وهو حسبنا »

ودخل عضد الدولة بغداد وهو عنه راض ، وبرحها إلى إلى الموصل وهو إلى ولاء الصابى مطمئن ، ولكن الوشاة — وما أكثرهم — نبشوا الدفائن ، وأخرجوا كتباً من عز الدولة إلى أحد عماله بخط الصابى ؛ وفى بعضها قدح فى عضد الدولة ، ورفعوها إليه ، فكتب من الموصل بالقبض عليه ، ولعل حديثه هو عن نفسه أدق من حديثنا عنه ، فهو يقول :

« كنت[1] جالساً بحضرة أبى القاسم المطهر بن عبد الله وزير عضدالدولة فى يوم القبض علىَّ إذ وردت النوبة ، ففضت بين يديه وبدأ منها بقراءة كتاب عضد الدولة ، فلما انتهى إلى فصل منه وجم وجوماً بان فى وجهه ، فقال لى أبو العلاء صاعد بن ثابت : أظن فى هـذا الكتاب ما ضاق صدراً به ، وقمت من مجلسه لأنصرف ، فتبعنى بعض حجابه ، وعدل بى إلى بيت من داره ؛ ووكل بى ، وأرسل يقول لى : لعلك قد عرفت منى الانزعاج عند الوقوف على الكتاب الوارد من الحضرة اليوم ، وكان ذلك لما تضمن من القبض عليك ، وأخذ مائة ألف درهم منك ، وينبغى أن تكتب خطك بهذا المال ، ولا تراجع فيه ؛ فو الله لا تركت تمكنا فى معونتك وتخليصك إلا بذلته . وقد جعلت اعتقالك فى دار ضيافتى ، فطب نفساً بقولى ، وثق بما يتبعه من فعلى » كما قبض على ولديه أبى على المحسن ، وأبى سعيد سنان ؛ وقد وفى الوزير أبو القاسم بما وعد ، فسأل عضد الدولة إطلاقه واستخلافه لقيام أبى القاسم على رأس جند لقتال صاحب البطيحة ، فقال له : أما العفو فقد شفعناك فيه ، وينبغى أن تعرفه ذلك وتقول له إننا قد غفرنا لك عن ذنب ، لم نعف عما دونه لأهلنا يعنى : عز الدولة والديلم ، ولأولاد بيتنا — يعنى : أبا الحسن محمد بن عمر وأبا أحمد الموسوى ، ولكننا وهبنا إساءتك لخدمتك وعلينا[1] المحافظةَ فيك على الحفيظة منك ، وأما استخلافك إياه بحضرتنا فكيف يجوز أن ننقله من السخط والنكبة إلى النظر فى الوزارة ولنا فى أمره تدبير ، وبالعاجل ، فتحمل إليه من عندك ثياباً ونفقة وتطلق ولديه ، وتقدم إليه عنا بعمل كتاب فى مفاخرنا . فحمل إليه المطهر ما أمر به الملك وأطلق ولديه ، ورسم له تأليف الكتاب وبقى الصابى فى محبسه يؤلف حتى أتم المؤلف ، فلم يفرج عنه لوقته بل قيل : إنه أخر الافراج عنه سنة ، فلما رفع إليه إحدى قصائده يطلب فيها الصفح عنه والافراج ، قرئت عليه ولديه بعض أصدقاء أبى اسحاق ومنهم أبو الريان حامد بن محمد وعبد الله بن سعدان فقبلا الأرض وقال أحدهما : إن من أعظم حقوقه علينا وذرائعه عندنا أن عرفناه فى خدمتك ، وخالطناه فى أيامك . قال : فإذا كان رأيكما فيه ، فأنفذا وأفرجا عنه ، وتقدما إليه بملازمة داره إلى أن يرسم له ما يليق بمثله ، فأفرج عنه قبل وفاة عضد الدولة بأيام ، وقيل بل بقى فى السجن حتى أفرج عنه ابن عضد الدولة أبو الحسين تاج الدولة

وإنى أرجو غير فاخر أن أكون قد وفقت فى سرد وقائع هذا الجزء من حياته ، وقربت بين الروايات المتضاربة عن اعتقالاته ، مستنداً فى ذلك الترتيب على التاريخ السياسى للدولة البويهية ، وفى المقال التالى نتحدث عن كتابته

عبد العظيم على قناوى

(١) كتاب معجم الأدباء . الجزء الثانى ص ٤٠ الطبعة الاخيرة

(١) ضبط شارح المعجم المحافظة بالضمة وأرى أنها مفتوحة لأنها مفعول « نعى » وهو فعل متعد بأى المضارع لا أنها مبتدأ مؤخر . وسياق العبارة يؤيد هذا الرأي

علاقة الدين بين العرب والصين

بقلم بدر الدين الصيني

معتقدات الصين القديمة

كان للصينيين دين قبل وصول الديانات الأجنبية إليهم مبنى على الأوهام والخرافات ، كما كان الشأن فى كل أمة من الأمم فى الأزمان الغابرة ؛ واتخذوا الأجرام السماوية والظواهر الطبيعية معبودات لهم غير معتقدين بخالق جبار يخضع لتصرفه كل شىء من الموجودات والكائنات ، فكثرت فيهم الآلهة وتنوعت طرق عباداتهم (١)

فالحكماء الذين ظهروا فى أرض الصين بعد زمن الخرافات وطلوع فجر التاريخ الصحيح ، فى شخصيات « لوتس Laotze » و« كانفوشيوس Confucius » و « مونشيوس Moncius » و « مائى تس Maitze » ، لم يأت واحد منهم بنظام دينى يسير عليه الصينيون كافة . إلا أنهم جميعاً يعتقدون بما وراء الطبيعة ، فمثلاً « الطريقة » عند «لوتس» هى شىء ليس بصورة ولا صوت يبقى دائماً ، لا يفنى أبداً ، ووجوده قبل كل كائن مصدر لجميع الموجودات وروح تحيا بها . فهذا التعريف لطريقة « لوتس » يوافق ما نعتقد بصفات الله . وأما «السماء» فى عقائد كانفوشيوس فهو صاحب السلطة الاخير الذى إذا أغاظه الإنسان بارتكاب الكبائر فلا سبيل له إلى النجاة ، فلذلك يقول : « أين الدعاء من إغاظة السماء ؟ »

لا فرق بين « سماء » كانفوشيوس و « سماء » مونشيوس لأن الثانى تلميذ الاول ، فهو يحذو حذوه فى التفكير والبحث الفلسفى ؛ وأما « مائى تس » فدينه دين المحبة والمؤاخاة ، يحب الصلاح والسلام ويكره الفساد والقتال ؛ ومبادئ حبه تشابه مبادئ حب الدين المسيحى ، وأصول أخوته تماثل أصول أخوة الاسلام ؛ لكنه لم يضع نظاماً لإظهار هذا الحب وهذه الاخوة فالكف عن القتال والنهب والامتناع عن السرقة والحسد فى اعتقاده من دواعى التحاب ومقويات التآخى ، وغير ذلك

هذه الديانات كلها تخالف الإسلام فى مسئلة الحشر والنشر والحياة بعد الموت من جهة الاعتقاد ، وفى مظاهر العبادات من حيث العمل — لأن أهلها لا يعتقدون بالحشر والنشر ، ولم يأتوا بنظام خاص للعبادات — لعلّ هذا هو السر الذى يُبقى أهل الصين فى معتقداتهم القديمة مع أن أغلبهم دانوا بالديانة البوذية التى أصلها من الهند ، وهذا التدين لم يحدث فى اعتقاداتهم شيئاً من التغيير ، مع أن الديانة البوذية قد أثرت فى أدبيات الصين وفلسفتها تأثيراً بيناً . فرجل الدين من أهل الصين يدين بمجموع عقائد ومبادئ هذه الديانات المذكورة ، فلذلك تروتهم يتعبدون على مبادئ كانفوشيوس حيناً وعلى « طريقة لوتس » حيناً آخر ، مع أنهم يتعصبون للبوذية إن دانوا بها ، أو للمسيحين إن كانوا مسيحيين . هكذا شأنهم في أمر الدين حتى الآن

دخول الديانات الأجنبية الى الصين

معتقدات الصين القديمة التى ذكرتها آنفاً ، بطبيعتها ومبادئها لا تنافى الديانات الأجنبية التى كانت سائدة فى آسيا أوسطها وأدناها ، فسهل على البوذية أن تتسرب إلى الصين عن طريق تركستان فى القرن الثانى للميلاد ، وامتزجت بمعتقدات الصين ، فصارت الآن ديناً شبه دين الدولة فى الشرق الأقصى ؛ مع أن مذهب كانفوشيوس أو « طريقة لوتس » أجدر بهذا الاحترام ولها نفوذ فى كل ناحية من نواحى حياة الشعب الصينى بظل باقياً حتى يغلبه أثر الإسلام إن قدر الله للإسلام نهضة جديدة فى تلك الديار فى المستقبل

من الديانات الأجنبية التى تسربت إلى الصين قبل الإسلام المانوية والمجوسية والنسطورية ؛ فدخول المانوية الصين كان فى القرن السابع للميلاد جاء إليها من تركستان لأن أغلب أهلها قد اعتنقوا هذا الدين قبل ظهور الإسلام ، فانتشر رويداً رويداً إلى شمال الصين وغربها حتى أسس المعابد لمعتنقيه فى الشطر الأول من القرن الثامن للميلاد فى بعض المدن الشهيرة ، ولهم هيا كل كثيرة في ولايات « هانان Hanan » و « شانسى Shansi » وكثرة أصحاب هذا الدين يمكن أن نعرفها من الواقعة التى وقعت

(١) إلهيات الصين ص ١٢

فى عهد « ووشونك » (٨٤١ — ٨٤٦ م) . وكان هذا الامبراطور متشبثاً « بطريقة لوتس » ومتعصباً لها ، فاضطهد أهل الديانات الأخرى وهدم كثيراً من معابد المانوية والمجوسية والنسطورية . فقتل فى عاصمة الصين وحدها ٧٢ نسمة من راهبات المانوية ، ففنيت هذه الديانة من الصين بعدئذ [١]

أما المجوسية ، كما أشار إليها سليمان السيرافى والمسعودى وغيرهم من كتاب العرب ، فدخلت الصين قبل الإسلام على الأقل بقرن ، ولكنها لم تنتشر إلا فى دائرة محدودة . فلما فتح العرب إيران وقضوا على دولة كسرى فر يزدجرد إلى الشرق ولجأ إلى عاصمة الصين ، فأنشأ فيها معبداً للمجوسيين ، وكان معه جماعة من علماء المجوسية فبثوا دعايتهم فى شمال الصين ، لكن هذه الديانة غير مقبولة عند الصينيين . فالذين دخلوا فيها قليلون جداً . وقد محيت آثارها فى سنة ٨٤٦ م كما أسلفنا

وأما الديانة النسطورية فوصلت إلى الصين فى سنة ٦٣٥ م ، وذلك بناء على ما ثبت فى كتابة تاريخية [٢] وجدت بمدينة تشانغ أن Chang-An وأول من جاء إلى الصين للدعاية إلى النسطورية كان رجلاً يدعى أولوبن Olopen [٣] ويظهر من تاريخ الصين أنه استوطن تشانغ ، وأنه بنى معبداً للنسطوريين يسكن فيه واحد وعشرون راهباً ؛ وكان أولوبن رئيسهم ؛ ثم انتشرت هذه الديانة فى بعض العواصم وأنشأوا معابد فيها ، فنقشوا أعمالهم فى الألواح الحجرية ونصبوها فى المعابد تذكيراً وتخليداً ، فالعبارات التى نقشت فى هذه الألواح مدونة الآن فى تاريخ الصين العام [٤]

وبعض الكتب العربية يذكر أيضاً ذهاب النسطوريين إلى الصين . مثل ابن النديم ، فانه روى فى الفهرست أن الجاثليق قد بعث ستة من علماء النساطرة إلى الصين للارشاد والدعاية فمات منهم خمسة ورجع سادس وهو من أهل نجران إلى الروم بعد الاقامة بالصين نحو ست سنين فى سنة ٣٧٧ هـ [٥]

(١) Yung Tung Chiang ; out line of Av Chine Civilization; P. 269.

(٢) أريد بكتابة تاريخية ما تسمى Inscription بالانكليزية

(٣) Hirth : China and the Roman orient ; P. 286.

(٤) Out line of the Chinese Civilization; P. 267

(٥) ابن النديم ص ٤٩١

وكان لهذه الديانة قدم ثابتة فى نفوس الصينيين ، ولعلها تؤثر فى حياتهم إلى حد ما إذا طال أمدها فى الصين ، لكن مشيئة الله لم ترد انتشار هذه الديانة فى الشرق الأقصى فطرد مبشروها ، وهدمت معابدها فى أواخر القرن التاسع للميلاد ، وحكاية الراهب النجرانى أيضاً تشير إلى ذلك

الأغلاط التاريخية فيما يتعلق بدخول الاسلام الى الصين

لقد أطلت فى ذكر هذه الديانات الأجنبية مع أن محور بحثي فى هذا الموضوع هو دخول الاسلام ، وإنى مضطر إلى أن أفعل هذا لأن الأغلاط التاريخية التى تتعلق بدخول الاسلام لا يمكن أن تستدرك إلا بمعرفة تواريخ هذه الديانات ودخولها إلى الصين .

لقد قيل ان الاسلام قد وصل إلى الصين في عهد « كائى وانغ ــ Kai - Wang » من « أسرة هوى ــ Hui Dynasty » ومعنى ذلك أن دخول الاسلام الصين قد وقع بين سنتى ٥٨٩ و ٦٠٥ م ، وهذا مستحيل لأن محمداً رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم يبعث بالرسالة إلى العالم كافة إلا سنة ٦١٠ م

ومن رأيى أن القائل بهذا القول قد أخطأ في هذه النقطة لحسب المجوسية التى دخلت الصين فى أواخر القرن السادس للميلاد دين الاسلام الذى دعا إليه صاحب الرسالة بعد نبوته ، مغالطاً فى دليله إذ قال إنها ديانة جاءت من « الغرب » بالغين [١] ففهم من « الغرب » « العرب » ووقع فى خطأ فاضح دون أن يشعر أن الاسلام لم يكن له وجود فى جزيرة العرب قبل سنة ٦١٠ من تاريخ الميلاد . فظهر من هذا الاستقراء أن الدين الذى وصل إلى الصين فى عهد « كائى وانغ » كان فى الحقيقة المجوسية لا الاسلام . وعندنا شهادة نقلية فى الكتب الصينية غير تلك الدلائل العقلية التى أشرت إليها آنفاً ، ونعرف أن بعض المجوسيين قد وصلوا إلى « تشانغ آن » فى أول عهد « كائى وانغ » وأنشأوا المعابد وكانوا يغنون فى صلواتهم فيها . ومن أناشيدهم الدينية نوع يقال له « موفوش » [٢] يوجد ذكره فى « ديوان أغانى الصين » وفسر صاحب الديوان هذه الكلمة بأنها نوع من الأغانى الدينية

(١) والمراد من « الغرب » فى الكتب الصينية القديمة ما يقع فى غرب الصين إلى البحر الأبيض واستنبول

(٢) The Chinese (Dictionany) P. 223. (G. Section)

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الغبطة القاسرة

وسار زارا يقطع أبعاد البحر تساوره مثل هذه الهموم، وتدور به مثل هذه الأسرار، حتى إذا تخطى مجال أربعة أيام عن الجزر السعيدة وما ترك عليها من صحبه، اشتدت عزيمته فتغلب على آلامه، وثبّت قدميه فى موقفه متجهاً إلى مقدراته مناجياً سريرته وقد عاد إليها مرحها وسرورها قائلاً:

لقد فزعت إلى عزلتى لأننى تقت إليها، فأنا الآن منفرد أمام صفاء السماء ومدى البحار، وقد خطا النهار إلى عصره وما التقيت بأصحابى للمرة الأولى إلا فى وقت العصر، وفى مثل هذا اليوم اجتمعت بهم للمرة الثانية. والعصر هو الساعة التى يهدأ فيها اضطراب الأنوار جميعها لأن السعادة الذاهبة بدداً منشورة على مسالكها بين السماء والأرض تتجه إلى الاستقرار فى روح الضياء. وها إن السعادة تحوّل اضطراب النور إلى سكون

فيالعصر حياتى! إن سعادتى هى أيضاً قد انحدرت يوماً إلى الى الوادى تطلب مستقراً فلقيت هذه الأرواح النيّرة تفتح لها اللجأ الأمين

يا لعصر حياتى! لكم تخليت عن أشياء فى الحياة توصلاً إلى مغارس أفكارى الحية وإلى أنوار الصباح تدور فى ذراها أسمى أمانىّ وآمالى

لقد طلب المبدع يوماً رفاقاً له وفتش عن أبناء آماله فأدرك أنه لن يجدهم إذا هو لم يخلقهم خلقاً

لقد أتممت نصف مهمتى باتجاهى نحو أبنائى وبعودتى إليهم، وقد وجب على زارا أن يبلغ نفسه الكمال من أجل هؤلاء الأبناء. وما يحب الإنسان من صميم قلبه إلا ابنه ونتيجة جهوده، وحيث يتجلى الحب الأشد فهنالك تكمن القوة المولّدة؛ ذلك ما أدركته بتفكيرى

إن أزهار أبنائى لا تزال تتفتق فى الربيع والريح تهب على صفوفهم فتهزها؛ فأبنائى أشجار حديقتى ونبت خير أراضى

إن هذه الأشجار متراصّة فى منابتها على الجزر السعيدة، ولسوف أقتلعها واحدة فواحدة لأغرسها متفرقة فتتعلم احتمال العزلة وتنشأ فيها الأنفة والحزم لينتصب كل منها تجاه البحر وقد تعدّب جزعها وتعقدت أغصانها كمنائر حية للبقاء القاهر

على كل شجرة أن تشخص فى مهب العواصف المترامية إلى البحر حيث يتدافع الغمر إلى قاعدة الجبل فلا تغفل ليلاً ونهاراً عن تفحص سرائرها. عليها أن تتحمل التجارب ليعلم أنها من سلالتى وأنها تحدرت من أصلى تعززها الإرادة الجالدة فتبدو صامتة حتى عند ما تتكلم، وإذا ما استسلمت تبدو معطية وهى آخذة. وهكذا يتحول من يمشى على أثر زارا بأضرابه وبابداعه إلى شخصية تحفر شريعتى على ألواحى فيكتمل بذلك كل شىء

وهأنذا من أجل هذه الشخصية وأمثالها أسعى إلى تكوين شخصيتى فأمتنع عن ورود السعادة مقتحماً كل شقاء فى آخر تجربة أتحملها لأدرك سريرتى

لقد آن الأوان لرحيلى وقد نبهنى إلى وجوب الرحيل خيال المسافر وأطول الأزمان وأعمق الساعات صمتاً إذ نفخ

للمجوسيين الذين وردوا إلى الصين فى عهد «كاى وانغ» وهذا دليل قاطع يرد على من يدعى دخول الاسلام فى هذا العهد

أما اتصال الاسلام بالصين فكان عن طريقين: طريق البر وطريق البحر. كان قتيبة ابن مسلم الباهلى الذى فتح كاشغر فى سنة ٩٦ هـ، هو الأول الذى بعث وفداً من العرب بطريق البر إلى امبراطور الصين فى أواخر تلك السنة فعرضوا عليه أحد الأمور الثلاثة: الاسلام والجزية والمحاربة. ولابن الأثير فى هذا الوفد أقوال طريفة توجد فى تاريخ الكامل، وللقارئ أن يرجع إليه فى هذا الصدد، وأما وصول الاسلام إلى الصين بحراً ففيه اختلاف بين المؤرخين فى سنة الوصول وفيمن هو أول من جاء بالاسلام إلى أقرب مرافىء الصين «كانتون»

(لها بقية)

بدر الدين الصينى
عضو من البعثات الصينية
بالأزهر الشريف

الريح فى فتحة القفل فتراجعت درفة الباب قائلة : هيا

ولكننى كنت مقيداً بحبي لأبنائى يأسرنى تشوق إلى هذا الحب لأصبح فريسة لهؤلاء الأبناء فأضحى من أجلهم نفسى ؛ وما الشوق عندى إلا صورة ظاهرة لحقيقة فنائى . إن أبنائى لى وفى هـذا التملك يجب أن يضمحل كل شوق مستحيلاً إلى عقيدة مكينة

وكان رأسى يلتهب بشمس محبتى فاتحرق بحرارة دمى فرأيت أشباح الشكوك تدور بى من كل جهة فتمنيت أن يلفحنى قرّ الشتاء حتى تصطك أسنانى من رعشة الصقيع ، وما عتم أن اكتسح نفسى ضباب الجليد ، فشق الماضى لحوده وبعث منه الآلام التى دفنت وهي حية فيها ، وما تناولها الفناء لأنها كانت نائمة طى أكفانها

وكان كل شيء يشير إليّ بأن قد حان زمن الرحيل ولكننى كنت لا أنتبه إلى هـذه الدعوة حتى تحركت أعماق ولسعتنى ثائرات أفكارى . وباليت لى القوة للتغلب على ارتعاشي عنـدما أشعر بقوة التفكير فى أغوارى تحاول أن تخترق لها منفذاً ، فإننى لا أزال أحس باختلاج قلبي عندما أتنصت لدبيب أفكارى وهى تحاول الانجلاء لى . إن فى صمتك نفسه أيتها الفكرة ما يشد على عنقى وأنت أشـد صمتاً من أغوارى . ولكم حاولت أن أستخرجك من الأعماق أيتها الفكرة نخاننى العزم واكتفيت بإضماري إياك فى ذاتى . إننى لم أتصل بعد إلى جرأة الأسد وإلى منتهي إقدامه

إنك لجدّ ثقيلة فى أغوارى أيتها الفكرة ولسوف أجد يوماً قوة الأسد وأتخذ صوتي زئيره فأرفعك من النور إلى المنبسط ، حتى إذا ما تغلبت بذلك على نفسى تدرجت إلى انتصار أعظم أختتم به أعمالى . وإلى أن أبلغ هذا الظفر سأبقى تائهاً على بحار لا أعرف لها ساحلاً تداعبنى خطرات الأحداث فأتلفت إلى ما ورائى وإلى ما أمامى ولا أعلم أين المنتهى

ألم تحن بعد ساعة جهادى الأخير أم هى ماثلة أمامى الآن ؟ والحق أن البحر والحياة يحيطان بى بجمالها الفتان ويعلقان أبصارهما عليّ

فيالعصر حياتى ، يا للسعادة تتقدم ساعة المساء ، يا للمرسى فى وسط العباب ، يا للسكون فى قلب الارتياب ، إننى أحاذر كنّ ولا أثق بكنّ جميعاً

أما والحق إننى أخشى جمالكن الغدّار كما يخشى العاشق ابتسامة تجاوزت حد التلطف فى افترارها . إننى أرفع عنى ساعة السعادة كالغيور يصد عن محبوبته ولما يزل العطف يتجلى فى قسوته وجفائه

بُعداً لك أيتها الساعة السعيدة ! فقد اجتاحتنى بحلولك غبطة قاسرة وأنا أتوقع أعمق الأحزان . لقد جئتنى فى غير الأوان

بُعداً لك أيتها الساعة السعيدة ! اذهبى واطلبى لك ملجأ هنالك فى مقر أبنائى ، سارعى إليهم وباركيهم قبل حلول المساء وأنيليهم سعادتي

لقد اقترب الغسق وجنحت الشمس إلي الغروب فتوارت عني سعادتى

هكذا تكلم زارا ...

وبات يتوقع نزول شقائه به طوال ليله ، غير أنه انتظر عبثاً إذ بقى الليل منيراً ساكناً واستمرت السعادة تخطو مع الساعات مقتربة إليه . وما لاح الفجر حتى بدا زارا يتضاحك قائلاً :

إن السعادة تتأثرنى لأننى لا أتأثر النساء ، وهل السعادة إلا امرأة ؟

قبل بزوغ الشمس

أيتها السماء الرافعة قبابها فوق رأسى نقية صافية ، أيتها السماء السحيقة وقد غادرت فى أبعادك الأنوار ، إننى أشخص إليك فتمتلكنى رعشة الأشواق الإلهية

أنا لا أسبر أغوارى إلا إذا سموت إلى عليائك ، ولا أشعر بطهارتى إلا حين يجللنى صفاؤك

إنك تحجبين نجومك كما يتلفع الإلـه بسنائه . أنت صامتة وبصمتك تذيعين لى حكمتك

لقد تجليت لى اليوم فى سكونك على زبد الآفاق فأعلنت لروحى المزبدة ما فيك من حب وعفاف . جئت إلي جميلة مقنعة بجمالك تخاطبيننى بلا كلام وتعلنين حكمتك وما كنت أعلم ما فى روحك من عفاف . أتيت إلى قبل بزوغ الشمس أنا المنفرد فى عزلتى

أنا وأنت صديقان منذ الأزل فأحزاننا واحدة كارتياعنا ، وعمق أغوارنا وشمسنا واحدة أيضاً . وما نتناجى إلا لوفرة ما نعلم ثم يسودنا الصمت فنتبادل ما أعرف وما تعرفين بلغة البسمات . أفما بعثت أنوارك من مكمن أنوارى أفليست فكرتك أختاً لفكرتي ؟

لقد تعلمنا كل شيء سوية وتدربنا سوية على الاعتلاء فوق ذاتنا متجهين إلى صميمها مبتسمين بافترار لاتعكره الغيوم . وبلفتات صافية نغرقها في سحيق الابعاد في حين تتدافع كالأمطار تحتنا النزعات المكبوتة وأهداف الأخطاء

إلى مَ كانت تتوق نفسي عند ما كنت أذهب في الليل شارداً على مسالك الضلال ؟ وماذا كنت أطلب في تسلق الجبال نحو قممها ؟ أفما كنت أنت مقصدي أيتها السماء . وهل كانت أسفاري جميعها إلا ذهاباً مع حافز التدرب ؟ وهل كان لإرادتي من هدف غير التحليق في الأجواء ؟ وهل أبغضت شيئاً بغضي الغمام وكل نقاب يلفع الضياء ؟ لقد كرهت بغضي نفسه لأنه يعكر صفاءك أيتها السماء

إنني أنفر من هذه الغيوم تمر كأنها قطط برية تزحف زحفاً لأنها تختلس مني ومنك أيتها السماء الحقيقة الإيجابية الثابتة في كل شيء ؛ فأنا وأنت ننفر من هذه الدخيلات المكرات من هذه الغيوم الكاسحات ، فما هي إلا كائنات مختلطة في نوعها يسودها التردد فلا تعرف أن تلعن باخلاص ولا أن تبارك باخلاص . وخير لي أن ألجأ إلى مغارة أو أسقط في هاوية من أن أقف أمامك ياسماء الضياء وقد عكرت صفاءك الغيوم الكاسحات . ولكم وددت لو أنني أسمر أردانها على آفاقك بسهام البروق الذهبية ثم أنزل عليها الرعود تهوى قاصفة على مراجل أحشائها . إنني أود قرعها بعصا الغيظ لأنها تحجب عني حقائقك أيتها السماء المتدة بأغوار أنوارها فوق رأسي كما تحجب حقيقتي عنك

لخير لي أن أسمع هزيم الرعود وولولة العواصف من أن أتنصت إلى مواء هذه الهررة الزحافة المترددة . في المجتمع أمثال لهذه الغيوم يسيرون مترددين بخطوات الذئاب وقد وقفت أشد بغضي عليهم

« على من لايعرف أن يمنح البركة أن يتعلم إنزال اللعنات »

ذلك ما ألهمتنيه السماء الصافية مبدأ ينير سمائي كالكواكب في أشد الليالي قتاماً

ما دمت فوق أيتها السماء الصافية المتألقة بالأنوار فإنني لا أنقطع عن منح البركة وإيراد بياني إيجاباً وتأكيداً لأنير بعقيدتي جميع الأغوار المظلمة

لقد جاهدت طويلاً حتى أصبحت مباركاً ومؤكداً . وما ناضلت إلا لأحرر ذراعيّ فأبسطهما للبركة ؛ وتقوم بركتي على الاعتلاء فوق كل شيء كما تعتلي السماء والسقوف المكورة وقباب الأجراس والغبطة الدائمة . فطوبى لمن يبارك هكذا . لأن كل الأشياء قد تعمدت من ينبوع الأبدية وماوراء الخير والشر ؛ وما الخير والشر إلا خيالات عابرة وأحزان بليلة وغيوم مترا كضة إلى الفناء

والحق أن من البركة لا من اللعنة أن نعلم بأن فوق كل شيء تمتد سماء الصدفة وسماء البراءة وسماء الحيرة وسماء الاضطراب

إن كلمة الصدفة لأقدم ما في العالم من نسب للأشياء ؛ وقد أرجعتُ كل الأشياء إلى هذا النسب النبيل فأنقذتها من عبودية القصد والهدف . وهكذا رفعت الحرية والغبطة السماوية عالياً ونصبتها كالقباب فوق جميع الأشياء إذ علمتُ أن ليس من إرادة أبدية تعلو بها لتبسط مقاصدها فوقها

لقد وضعت حداً لهذه الإرادة بل لهذا الجنون وهذا الاضطراب عندما علمت أن الوقوف عند الحقيقة كان مستحيلاً وسيبقى مستحيلاً . فما هنالك إلا قليل من التعقل وذرات من الحكمة تتلقفها الكواكب لخميرة امتزجت بالأشياء جميعها ولولا الجنون لما امتزجت بها

ليس للإنسان أن يعطي من الحكمة إلا قليلاً . غير أنني وجدت في كل مكان عقيدة لها سعادتها وهي تفضيل الرقص على أرجل الصدفة العمياء

فيا أيتها السماء الممتدة فوق رأسي ، أيتها السماء الصافية المتعالية ، لقد أصبح كل صفاء فيك قائماً على اعتقادي بأن ليس في الكون عنكبة خالدة ، وليس فيه من الحكمة ما تنسجه العناكب . فلتكن مجالاتك أيتها السماء مسرحاً لخطرات الصدف الإلهية ، أو فلتكن خواناً يدحرج عليه الآلهة نردهم ، فعلام يعلو أديم وجهك الاحمرار ؟ أترى جاء بياني مبهماً أم وردت بركتي لك لعنة عليك ؟ أم أخجلك أن أنفرد بك فأردت أن أنواري وأكف عن الكلام لأن الفجر قد لاح على الآفاق ؟

إن في العالم من الأغوار ما لا يدركه النهار ، ومن الأشياء ما يجب كتمانها أمامه ، وقد باغتنا النهار ، فلنفترق

أيتها السماء الممتدة فوق رأسي بطهرها واضطرامها . أيتها الغبطة المتجلية قبل بزوغ الشمس ، لقد باغتنا النهار فلنفترق

هكذا تكلم زارا .... (يتبع)

عروس المــــاء

للأستاذ ابراهيم العريض

لذتُ خلف الغصون في عزلةٍ لا أملهـــــا
وحـــوالىَّ خضرة بَلّها ما يبلهـــــا
من نُهير زها على جانبيـــه محلهـــا
فإذا راقت السما ء بدا فيها ظلها
وزهور يلوح كالـــقُرط فى الأذن طَلُّها
جادها الماء قبلةً ومضى يـــستقاها
وانبرى البلبل الوديـــع لها يـــستغلها
فكأن الحياة ثمَّــــتَ للحب ... كلهـا

* * *

أنا فى نشـــوة أحدِّ ث نفسى بما أراه
وأرى ملء ناظر ىَّ حياة — هي الحياه
تحت ظل يكاد يشـــتعلُ الزهر فى مداه
وسكونٍ يمـــدُّه بلبلٌ بالذى شداه
وكأنَّ الوجودَ يبـــسم حولى بما حواه
وإذا بى أحسُّ خلـــفى حراكاً على المياه
فتلفتُ مســـتريـــباً إلى النهر... من أتاه
آه ... ماذا شعرتُ فى الـ بائر تحت الضلوع ... آه

* * *

وتواريتُ فى الصخو ر وجانبتُ حدَّها
وسددتُ الصدوع حو لى ما اسطعتُ سدها
حذراً أن تنمَّ بى قبلَ أن أستجدها
نظرةٌ كالوميضِ تبـــتدرُ العينُ ردها
لا تسلنى بمن رأيـــتُ فأضمرتُ ودها
إذ تمثّلتْ كالشعا عِ على الموج قدها
يتهـــــادى منعَّماً فترى الماء ضدها
كلما دافعتـــهُ جلّـــلَ بالشعرِ خدها

* * *

فتمنيتُ لو دنت لى قريباً كما هيه
فأرى شعرَها يبلّـــلها وهى عاريه
وأرى طرفها تصـــدُّ به صدَّ عافيه
وأرى فى تورّدِ الـــخدِّ أشياءَ ثانيه
وأرى حُقّتين وسَطـــهما بعضُ غاليــه
تستمران فى النهو ضِ وإن تحْنُ جاثيه
وأرى الماء قد كسا ها على المتن حاشيه
فغدت من مهابةِ الـــحسنِ تبدو ككاسيه

* * *

وانثنت نحو ناتىء فانثنى الموجُ صفهَا
ترتمى فوقَ صدره بيـــدٍ ... ما أخفها
فاستوت عنده بحيـــثُ ترى العينُ نصفهَا
فأمرّت على السوا لفِ بالرفقِ كفها
تنفضُ القطرَ عن غزيـــرٍ من الشعرِ لفها
ثم قامت فطوّقَ الـــماءُ كالرَّيْطِ خلفها
غـير أنى غضضتُ طر فىَ عن أن يشِفها
هى حوريّةٌ من الـ إنسِ ... والماء زفها

* * *

وتخيـــلتُ أننى قائمٌ فى جِـــوارها
حينَ تنسابُ بالحريـــرِ — وإن لم يُوارها
حولَ ساقَين عاطِليـــن — يدٌ[1] فى سوارها
ثم تحنـــو لترتدى ما نضت من وقارها
فإذا عادلت بـــه سرّةً فى مـــدارها
أرسلت ظُلمةَ القميـــصِ على ضوءِ نارها
وإذا ما مشت تموَّ جَ ما فى صدارها
فتثنَّى عليهمــــا فضلةٌ من خمارها

* * *

واكتست... ثم أبصرتْ بى عنـدَ انحدارها
فاستفزّت ... كأنها صُورةٌ فى إطارها

« البحرين » ابراهيم العريض

(١) فاعل « تنساب » فى البيت المتقدم

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٣٣٥ — سبحان الله !

فى (بغية الوعاة) : الشيخ ضياء الدين القرمى العفيف العلامة المتفنن[1] كان إماماً عالماً بالتفسير والرواية والمعانى والبيان والفقه ، وكانت لحيته طويلة بحيث تصل إلى قدميه ، ولا ينام إلا وهى فى كيس ، وإذا ركب تتفرق فرقتين . وكان عوام مصر إذا رأوه يقولون : سبحان الله ! فكان يقول : عوام مصر مؤمنون حقاً لأنهم يستدلون بالصنعة على الصانع[2] ...

٣٣٦ — ألم تسمع بفتكة جساس ؟

أبو بكر بن جزى فى طبيب يهودى :

وربَّ يهوديٍّ أتى متطبباً ليأخذ ثارات اليهود من الناس
إذا جسَّ نبضَ المرء أودى بنفسه سريعاً ، ألم تسمعْ بفتكة جسّاس؟!

٣٣٧ — كنت أكون إذن أحمقين

فى (ألف با) لأبى الحجاج البلوي : دخل جحا[3] ذات يوم دار الرحا فجعل يأخذ من قمح الناس ويجعله فى قفته فقيل له :

(١) أنكر أستاذ كون (المتفنن) في العربية إذ لم يجدها فى (القاموس) واللفظة فى اللغة وفى كلامهم . وأورد (الأساس) الفعل و (التاج) المصدر و (اللسان) الاسم والمصدر

(٢) السيوطى : وقع فى كلام الشيخ ضياء الدين اطلاق (الصانع) على الله وهو جار فى ألسنة المتكلمين ، وانتقد عليهم بأنه لم يرد اطلاقه على الله وأسماؤه توقيفية . وأجاب التقى السبكى بأنه قرىء شاذاً : (صنعه الله) بصيغة الماضى فمن اكتفى فى اطلاق الأسماء بورود الفعل اكتفى بمثل ذلك ، وأجاب غيره بأنه مأخوذ من قوله (صنع الله) ويتوقف أيضاً على القول بالاكتفاء بورود المصدر . وإنى لأعجب من قول القائل إنه لم يرد ، وهو في حديث صحيح : (إن الله صانع كل شىء وصنعته) أخرجه الحاكم

(٣) جحا معدول عن جاح لا ينصرف ، وجحا خطأ ، وثاقف (لاعب بالسيف) ورمي كما قال الميدانى ، وهناك جحا التابعى ، وجحا صاحب التفسير واسمه الخواجة ناصر الدين (توفى سنة ٣٨٠) كما فى (نزهة الجليس) وجحا التركي هو العربي ، ولأبى اليمن الغفارى مؤلف فى نوادر جحا يشتمل على ألف ورقة

وفى (أساس البلاغة) : قيل لجحا : على من تخالتك ؟ قال: على أمى وأخياتي. يضرب فيمن قوته على الضعيف

لأى شىء تضع هذا ؟ فقال : لأنى أحمق . فقيل له : فلمَ لا تجعل شيئاً من قمحك فى قفاف الناس ؟ فقال : كنت أكون إذن أحمقين ...

٣٣٨ — أقمنه مقام هزؤ

فى (سرح العيون) لابن نباتة المصرى : روى أن المأمون كان قد انحرف عن سهل[1] بن هرون إلى أن دخل عليه يوماً فقال: يا أمير المؤمنين ، إنك ظلمتنى وظلمت فلاناً الكاتب . فقال : ويلك وكيف ؟! قال : رفعته فوق قدره ، ووضعتنى دون قدرى ، إلا أنك فى ذلك أشد ظلما . قال : كيف ؟ قال : لأنك أقمته مقام هزؤ ، وأقمتنى مقام رحمة . فضحك المأمون ، وقال : قاتلك الله ما أهجاك ! ورضى عنه

٣٣٩ — ولكن سليقى أقول فاعرب

فى (تاريخ اليمن) لنجم الدين عُمارة اليمنى : جبلا عكاد[2] فوق مدينة الزرايب وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم ، لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا قط بأحد من أهل الحاضرة فى مناكحهم ولا مساكنهم . وهم أهل قرار لا يظعنون عنه . ولقد أذكر أنى دخلت زبيد فى سنة (٥٢٠) أطلب الفقه دون العشرين ، فكان الفقهاء فى جميع المدارس يتعجبون من كونى لا ألحن فى شىء من الكلام ، فأقسم الفقيه نصر الله بن سالم الحضرمي بالله لقد قرأ هذا الصبي فى النحو قراءة كثيرة . فلما طالت المدة والخلطة بيني وبينه صرت إذا لقيته يقول : مرحباً بمن حنثت فى يمينى لأجله . ولما زارنى والدي وسبعة من إخوانى

(١) البيان والتبيين : من الخطباء والشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار ، والكتب الكبار المجودة (لا المجلدة كما فى طبعة هذا الكتاب) والسير الحسان المولدة والأخبار المدونة — سهل بن هرون الكاتب صاحب كتاب (ثعلة وعفرة) فى معارضة كتاب (كليلة ودمنة) وكتاب (الاخوان) وكتاب (المسائل) وغير ذلك

(قلت) : أخبرنى الفقيه (القانونى) الأستاذ جريس صفا أن عنده نسخة مخطوطة من كتاب (ثعلة وعفرة) وقد توفى هذا الفاضل منذ سنين فهل لحقته تلك النسخة اليتيمة ؟

(٢) فى (القاموس المحيط) : عكاد كسحاب جبل قرب زبيد أهلها باقية على اللغة الفصيحة ، وفي (التاج) : عكاد كسحاب جبل باليمن قرب مدينة زبيد حرسها الله وسائر بلاد الاسلام ، أهلها باقية على اللغة الفصيحة إلى الآن ، ولا يقيم الغريب عندهم أكثر من ثلاث ليال خوفاً على لسانهم

فى زيد أحضرت الفقهاء فتحدثوا معهم فلا والله ما لحن أحد منهم إلا لحنة واحدة نقموها عليه

٣٤٠ — ما يقول هذا ؟

فى (خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر) للمحبي : مر بعض الظرفاء بغلام جميل فعثرت فرس فى طين أصاب وجه الغلام منه نزر ، فقال الظريف : « يا ليتنى كنتُ ترابا ! »

فقال بعض المارّين للغلام : ما يقول هذا ؟

فقال : « ويقول الكافر : يا ليتنى كنت ترابا » ...

٣٤١ — يعشق مطلق الجمال

فى (شذرات الذهب ، ونفح الطيب) : كان ابن الفارض [1] عشاقاً يعشق مطلق الجمال حتى إنه عشق بعض الجمال ، وولع به فكان يستأجره من صاحبه ليتأنس به [2] ، فقيل له : لو اشتريته فقال : المحبوب لا يُملك . وزعم بعض الكبار أنه عشق بَرنية [3] بدكان عطار

وذكر القوصى فى (الوحيد) أنه كان للشيخ جوار بالبهنسا يذهب إليهن فيغنين له بالدف والشبابة [4] وهو يرقص ويتواجد . وكان أيام النيل يتردد إلى المسجد المعروف بالمشتهى فى الروضة ويحب مشاهدة البحر [5] مساء ، فتوجه إليه يوماً فسمع قصاراً يقصر ويقول :

قطع قلبى هــذا المقطّع لا هو يصفو أو يتقطع

فصرخ وسقط مغمى عليه فصار يفيق ويردد ذلك ويضطرب ثم يغمى عليه وهكذا

٣٤٢ — الأمن ، الصحة ، الغنى ، الشباب

فى (العقد) : قال الحجاج بن يوسف لخريم الناعم : ما النعمة ؟

(١) الفارض : الذى يكتب الفروض للنساء على الرجال بين يدى الحكام (ابن خلكان ، الشذرات)

(٢) تأنس به : أنس به

(٣) البرنية : إناء من خزف ، شبه فخارة ضخمة خضراء وربما كانت من القوارير الثخان الواسعة الأفواه ج برانى (التاج)

(٤) فى (شفاء الغليل) : شبابة بالتشديد قصبة الزمر المعروفة ، مولد ، قال :

ومطرب قـد رأينا فى أنامله شبابة لسرور النفس أهلهـا
كأنه عاشق وافت حبيبتـه فضمها بيـديه ثم قبلهـا

(٥) كل ماء كثير عند العرب بحر

قال : الأمن . فإنى رأيت الخائف لا ينتفع بعيش

قال له : زدنى

قال : فالصحة ، فإنى رأيت المريض لا ينتفع بعيش

قال له : زدنى

قال : الغنى ، فإنى رأيت الفقير لا ينتفع بعيش

قال له : زدنى

قال : فالشباب ، فإنى رأيت الشيخ لا ينتفع بعيش

قال له : زدنى . قال : ما أجد مزيداً [1]

٣٤٣ — ... ما سمعناه فى كتاب الأغانى

مسعود الدولة النحوى مقـدم الشعراء فى أيام الأفضل أحمد بن بدر الجمالى أمير الجيوش المصرية :

ما أطاقوا تأمّـل الجيش حتى كحلت كل مقلة بسنـان
غنّت البيض فى طُلاهم غناء ما سمعناه فى (كتاب الأغانى)!

٣٤٤ — خلعت مالا تملك على من لا يقبل

حكي عن الشريف المرتضى أنه كان جالساً فى عِلِيّة [2] له تشرف على الطريق ، فمر تحته ابن المطرزي الشاعر يجر نعلا له بالية وهى تثير الغبار ، فأمر بإحضاره ، فلما حضر قال له : أنشدنى أبياتك التى تقول فيها :

إذا لم تبلغنى اليكم ركائبى فلا وردت ماء ولا رعت العشبا

فأنشده إياها ، فلما انتهى إلى هذا البيت أشار الشريف إلى نعله البالية وقال : أهذه كانت من ركائبك ... ؟

فأطرق المطرزى ساعة ، ثم قال له : لما عادت هبات سيدنا الشريف (أيده الله) إلى مثل قوله :

وخذا النوم من جفونى فإنى قد خلعت الكرى على العشاق [3]

عادت ركائبي إلى مثل ما ترى لأنك خلعت ما لا تملك على من لا يقبل ...

(١) فى (تاريخ بغداد) : القاضى أبو يوسف (يعقوب صاحب أبي حنيفة) رؤوس النعم ثلاثة : فأولها نعمة الاسلام التى لا تتم نعمة إلا بها ، والثانية نعمة العافية التى لا تتم الحياة إلا بها ، والثالثة نعمة الغنى التى لا يتم العيش إلا بها

(١) العلية (بضم العين وكسرها وكسر اللام وتشديدها وتشديد الياء) الغرفة والجمع العلالى ، قال الأزهرى : علية (بالكسر) أكثر من علية (بالضم) وعلي (بكسر العين واللام وتشديد الياء) جمع علية

(٢) وقبله :

يا خليلى من ذؤابة بكر فى التصابى رياضة الأخلاق
غنيانى بذكرهم تطربانى واسقيانى دمعى بكأس دهاق



ما بعد الطبيعة

MÉTAPHYSIQUE

للأستاذ محمد حسن البقاعي

كان علم مابعد الطبيعة يعرف فى القرون الأولى باسم (الفلسفة الأولى) وأول من أطلق عليه هذا الاسم هو أرسطو . أما مخترع كلمة (ميتافيزيك) فهو (آندرونيكوس Andronicus) من جزيرة رودوس . والسبب الذي دعاه إلى تسمية هذا العلم بما بعد الطبيعة هو أن الفلسفة الأولى جاءت فى كتب أرسطو بعد الطبيعيات ، فأطلق عليها اسم ما بعد الطبيعة

أما موضوع ما بعد الطبيعة فهو درس الموجود من حيث هو موجود ؛ فهي تتعمق فى الأسباب وتبحث فيها أكثر من كل العلوم ، أى هى تبحث فى العلل الكافية لنفسها بنفسها والتى تنشأ عن كل المعلولات . ولقد حدد الفلاسفة موضوع ما بعد الطبيعة فقالوا : علم ما بعد الطبيعة يدرس الوجود المطلق وهذا الوجود يظهر لنا بصورتين :

١ — الصورة الطبيعية المادية ٢ — الصورة المعنوية

فعلم ما بعد الطبيعة يدرس الطبيعة والنفس ومباحث الفكر والعالم الخارجي والداخلي ، وهو على نوعين :

١ — الكونيات العقلية Cosmologie rationnelle وهو علم ما بعد الطبيعة الذى يدرس الطبيعة والمادة والحياة ، فهو يبحث إذن فى الطبيعة المادية

٢ — النفسيات العقلية Psychologi rationnelle وهو علم ما بعد الطبيعة الذى يدرس مسألة الفكر وطبيعته ، والروح وماهيتها . فهناك إذن مسألتان : مسألة المادة ومسألة النفس ؛ وهذان المبدءان يحتاجان إلى مبدأ يكون علة لهما وهو الإله جلّ شأنه . فعلم ما بعد الطبيعة يبحث في غاية الغايات وهو الله تعالى . ولنبدأ الآن بالبحث فى المادة التى هى من الكونيات العقلية فنقول :

١ — المادة La Matière

كثيراً ما بحث الفلاسفة فى المادة من القرون الأولى إلى العصر الحاضر ، ويتلخص بحثها فى نقطتين أساسيتين :

١ — الوصول إلى معرفة الأسباب التى تجعلنا نعتقد بوجود المادة

٢ — الوصول إلى معرفة حقيقة المادة بعد أن نقبل وجودها

أما وجود المادة ففيه مذهبان : مذهب الرأى العام والحس السليم ، ومذهب الفلاسفة . فرأى العام يقبل وجودها لأنه كوجودنا ، ولأن الحياة العملية تسمح لنا بالاتجاه فى العالم الخارجى دون أن تخولنا حق الشك فى وجوده . ففكرة المادة وطبيعتها لا يصعب على الرأى العام والحس السليم بيانهما بياناً واضحاً ؛ فإننا نجدها مركبة من معان مألوفة . وكنا نعتقد أن المادة هى جوهر دائم وراء الأعراض يتغير من صورة إلى أخرى دون أن ينعدم أو يزول . وإذا رجعنا إلى دستور العالم الكيميائى الفرنسى (لافوازن Lavoisier) المسمى بمبدأ بقاء المادة القائل : « لا خلق ولا فناء فى هذا العلم بل الشكل فى تحول » علمنا أن المادة تتحول من شكل إلى آخر ؛ فالخشب مثلاً يتحول إلى رماد وغاز ، ثم تتكاثف الغازات ... وهكذا . فالمادة على كل حال موجودة لا تتلاشى . ونحن نعتقد أيضاً أن المادة غير متجانسة ، فهى تتصف بصفات مختلفة باختلاف الأجسام التى تتركب منها ؛ فلكل جسم له مادة لا تشابه مادة الجسم الآخر ؛ فمادة الكبريت غير مادة الصوديوم ، ومادة الصوديوم غير مادة النحاس ، وهكذا . وهذه المادة عاطلة فهى لا تتحرك من نفسها لأنها غير قادرة على تبديل حالة سكونها بحركة ، أو تغيير شكل حركتها التى هي خاضعة لها

وأما الفلاسفة فقد ذهبوا فى وجود المادة مذاهب شتى ، حتى أن (زينون ده ليه Zènon d' Eié) أحد الفلاسفة الخياليين فى القرون الأولى بحث فى إثبات وجودها (وكان ذلك يحتاج إلى إثبات) فقال : إن فكرة المادة لو حللناها لوجدناها مجموعة متناقضات لأن العناصر التى يتركب منها جوهر المادة

كالزمان والمكان والحركة كلها متناقضة . فالحركة كلها تناقض وعلى ذلك فلا وجود للمادة أصلاً . وهو ينكر وجود الحركة كما ينكر معنى الزمان بالمعنى المعروف ومعنى المكان بالمعنى المألوف . وأدلته على إنكار الحركة كثيرة ، منها أن الأرنب إذا لحق أرنباً آخر وكان بينهما مسافة وكانت سرعة الخلفي نصف سرعة الأمامي فإنه لايلحقه أبداً ، لأنه بحسب الحساب الرياضي يلحقه في اللانهاية ؛ وهما لايستطيعان أن يذهبا إلى اللانهاية . فنرى أن بحثه أوصله في النهاية إلى إنكار وجود المادة . وكان (ديوجين) يعترض على زينون فيمشي ويقول : ياأستاذ ، هأنذا أمشي فلم تنكر الحركة؟

وقد بقيت هذه الأدلة إلى زمان (ليبنيز Lèibniz) و (ديكارت Descartes) على بساط البحث ، ولكن (هنري برغسون H. Bergson) رد عليه ردوداً كثيرة ؛ كما أن حساب ليبنيز (النهاية الصغرى) ليس هو إلا رداً على زينون وأدلته الفاشلة . هذا وإن فيثاغورس وأفلاطون وتلاميذه يقررون أيضاً أن الوجود الحقيقي ليس وجود الأشياء المحسوسة بل هو وجود المعقولات فقط ؛ لذلك فإن رجال الكهف (كهف أفلاطون [1]) أي الناس كافة لايرون إلا خيالات حقيقية . فقيمة العالم الخارجي في نظر أفلاطون الذي يعد في طليعة الخياليين هو هذه الخيالات . وقد أعطى أفلاطون للمعقولات وجوداً بالنسبة للعالم الخارجي المحسوس . لذلك فإنه يسمى خيالياً وجودياً

أما في العصر الحاضر فقد ظهر أناس دافعوا عن الخيالية أمثال فيخته وهيكل . ولكن (بركليس) أخذ مذهب الخياليين وقال بعدم وجود العالم مستنداً في تحليله إلى المعرفة التي توجد عندنا عن العالم الخارجي ، ولكننا نعلم أن هذه المعرفة الموجودة فينا ناشئة عن الاحساس ؛ وقديماً قال أرسطو : الاحساس أول العلم . فهذه الاحساسات التي هي أول العلم وأساسه هي شخصية وكيفية ؛ ومجموع صفات الأجسام يمكن أن يرجع بالنسبة إلينا إلى هذه الاحساسات التي لولا وجودها عندنا لما استطعنا أن نطلع على الأجسام . فالجسم إذن هو مجموع إحساسات إذا حذفت لايبقى من الجسم شيء . يقول (بركليس) إنني لا أعرف الجوهر ولكني أعرف العرض . وهل ندرك الأعراض إلا بالاحساسات . فالاحساسات هي تغيرات نفسية تتأثر من الجواهر وتجعلنا ندرك الأعراض الناشئة عنها

وقد قسم (بركليس) الأحوال الناشئة في الذهن والصفات الموجودة في الأجسام إلى قسمين : (١) الصفات الثابتة كالحرارة والطعم والنور (٢) الصفات الأولى كالامتداد والمقاومة اللذين لاندركهما إلا مصحوبين بصفات ثابتة مثل الحرارة والنور والطعم . فالأجسام كلها تستحيل إلى هذه الصفات الأولى والثابتة . ونحن لاندركهما إلا بالاحساسات — كما تقدم — فكثير من معلولات النفس يبين لنا أن الادراك والوهم متعاونان في الطبيعة وأنه لا يمكننا تمييز أحدهما عن الآخر . أضف إلى ذلك أننا عند ما ندرك العالم الخارجي لا نستطيع في محاكمتنا أن يحصل عندنا منه إلا فكرة ، والفكرة هنا كل الحقيقة . لذلك فاننا لا نمتزج في نفوسنا في كل إدراكاتنا . وهذا هو نفس دستور بركليس القائل Etre, c' est être plus — أي الوجود هو الادراك . فهل العالم الخارجي موجود لأننا ندركه أم ندركه لأنه موجود ؟ فبحسب دستور بركليس موجود لأننا ندركه

ويمكننا في مناقشة أدلة بركليس أن نقتصر على ذكر الاعتراضات التي وجهها الوجوديون على هذه الأدلة ؛ فقالوا إن إحساساتنا ناشئة عن الأشياء الخارجية وهي منتظمة ، ومتفقة لأننا نرى ماراه غيرنا ، فنحن إذن متفقون بالأشياء التي نراها . فالقوانين التي تخضع لها إحساساتنا تجعلها معقولة في نظرنا . وهذا ما كان يدعو (ليبنيز) إلى القول : « إن إدراكاتنا ليست إلا عبارة عن أحلام مرتبط بعضها ببعض ، بل هي أحلام ذات إحساس . أي أنها منبعثة من وجود خارجي » فالوجوديون رفضوا بذلك نظرية الخياليين وقالوا إن العالم الخارجي موجود ...

أما البحث في طبيعة المادة فتناول الفرضيات التي دافع عنها العلماء فيما يتعلق بماهيتها وذلك يتخلص في نظريتين عامتين :

١ — نظرية الميكانيكية . Le mècanisme

٢ — نظرية الحركة . Le dynamisme

فالميكانيكية تستدل في دراسة الجسم الاعتباري الكيفي بالاعتبار الكمي . فكل التبدلات في الأجسام يمكن أن نرجعها إلى الميكانيكية وهي تتبدل بحسب تقدم العلم ؛ وأول شكل للميكانيكية هو ما نجده عند ديموقريطس الذي يقول : إن العناصر الأولى في الجسم هي الجوهر الفرد (أتوم) وهو لا يُرى ولا يتناهى الجواهر الفردة من طبيعة واحدة ولكن لها أشكالاً مختلفة ؛ ويتمدد هذا الجوهر الذي هو متين صلب لا يتبدل حاله ولا وزن له . فتتكون الأجسام ، ولا يوجد في هذه الجواهر

(١) يفرض أفلاطون أن الناس عامة أشبه شيء برجال يسكنون كهفاً لا يخرجون منه أبداً ولا يعلمون ماذا يوجد خارجه . ولكن جدرانه شفافة تعكس خيالات الاشياء الخارجية ، فهم يرون خيالات حقيقية للاجسام . ولا يستطيع أحد أن يرى حقيقة الاشياء إلا الفيلسوف

حرارة ولا لون ولا صوت . فهو يؤكد أنه لا يوجد شيء محسوس في هذه الحقيقة الوجودية التي سماها جوهر أفرد . لذلك قال : إن الجواهر لا كيفية فيها بل هي كمية ؛ فهو يقربها من صفة حسية . ويمكن اعتبار نظريته هذه كتجربة أولى علمية لتوضيح الأشكال بصورة أولى ميكانيكية . ومن أشهر الفلاسفة الذين طبعوا على غرار ديموقريطس هو (أبيقور) فقد نسج في ذلك على منواله وزاد عليه بإعطائه الجوهر الفرد قوة الانحناء أي جعله يستطيع أن يغير الجهة التي يتحرك فيها إذ جعل فيه قوة خاصة

والشكل الآخر الميكانيكية هو نظرية (ديكارت ، وسپينوزا) اللذين يعتقدان أن جميع خواص الأجسام يمكن إرجاعها إلى الحركة . ومن هنا نشأت جملة ديكارت المشهورة (أعطني حركةً وامتداداً وأنا أكوِّنُ العالم) . ولكن هذا القول يحتاج إلى برهان بل إلى براهين ؛ فديكارت يعتقد أن الحركة والامتداد هما العنصران الفعالان في تكوين هذا العالم ؛ وقد أنكر بذلك قدرة الإله وأثبت الفاعلية لأحد مخلوقاته الذي لا يستطيع أن يغير حالة سكونه بدون قوة إلهية تسيطر على الامتداد وتهيمن على الحركة فتبعث فيهما الحياة . ويظهر لنا أن رأى ديكارت فاسد ، وإن كان قصده بالامتداد العاري عن كل صفة حسية كالحرارة واللون أي هو الحيز الهندسي الذي لا يوجد فيه آتوم حسي بل هو الفراغ اللانهائي

ولقد تطورت الميكانيكية بعد ديكارت تطوراً هاماً ؛ ففي العصر الحاضر، ليس الجوهر الفرد كما كان عند ديموقريطس وأبيقور بسيطاً لا يتجزأ بل هو مختلف عن رأيهما كل الاختلاف . فمبدأ الاحتفاظ بالقوة وتناقض القدرة وخاصة تشعع الراديوم هو الذي جعلهم يعتبرون الآتوم مركباً من الألكترونات السالبة التي تدور حول عقدة مركزية Noyau موجبة ومسافاتها كنسبة بُعد الأرض عن الشمس ... فإنهم يكادون يرجعون كل الأجسام إلى عنصر واحد ، حتى أن (غوستاف لوبون) قال : إن هذه الآتومات تسبح في أثير سيَّال غير مادي تتكون منه جواهر الأشياء

يستند أصحاب هذه النظرية إلى الاحساس ، فقد قال أحدهم (هلمولتز) إن الاحساس نسبي ؛ فكثيراً ما يكون المؤثر واحداً وتختلف الحساسية ويختلف الاحساس وبالعكس . فالاختلافات الظاهرة في العالم الحسي ناتجة إذن عن اختلافات الحس الموجود . لذلك قيل : إن عنصر الأشياء هو واحد ؛ ولهم أدلة أخرى يصلون بها إلى إثبات وصف الحادث وهي التجارب التي قام بها (هو يكنس) و (دوفريل) و (آراغو) وهي مسألة الاهتزاز والانتشار للنور . ولكنه ظهر أخيراً أن النور يكون بالتموج

وعند ما ظهرت هذه الأدلة قبلها العلماء في بادئ الأمر ظناً منهم أنها منتجة . ثم انتقدها كثيرون منهم وأثبتوا بُعْدَها عن كنه الحقيقة . فدليلهم الذي يعلنون به أن القدرة في العالم لها كمية ثابتة لا يسمح لنا بإرجاع كل القدرة إلى قدرة واحدة . وأول شيء يجعلنا نحجم عن قبول رأى الميكانيكية هو وجود بعض الحوادث التي لا يمكن أن تنعكس ، فلو كانت ميكانيكية لانعكست. فالشمس مثلاً تشرق من الشرق وتغرب في الغرب فهذه لا يمكن أن تنعكس ؛ وهذا دليل واضح على وجود قوة تحركها في هذا الاتجاه . وقد انتقد (ليبنز) رأى ديكارت فقال : إذا قبلنا أن الامتداد يجوز أن يكون فيه حركة أو سكون ، فلو فرضنا جسما مثل (ح) تحرك في هذا الامتداد وصادف جسما آخر (ب) في حالة السكون ، فهذا الأخير لا يبقى ثابتاً بل يتحرك ، ولكن حركته ليست نفس حركة (ح) بل يقاومه بكتلة ، وهذه الكتلة تنقص من سرعة الجسم (ح) . نستنتج من ذلك أن الامتداد والحركة ليسا كافيين ، ولو كانا كافيين لما كان يجب أن ينقص من سرعة (ح) وحركته

إذن يوجد في المادة شيء غير الحركة والامتداد وهو القدرة المدخرة التي هي عبارة عن قوة تتصف بها الأجسام ولا يمكن الاستغناء عنها فهي قوة كامنة تسمى (المونَاد Monade) فهي جوهر روحي تتكون من الأجسام وبواسطته يمكن تعليل المقاومة

أما كل من دافع عن نظرية القدرة فإنه يستبدل أجزاء الآتوم بالقدرة وهي الحقيقة الجوهرية الكامنة في قلب كل الأشياء . فقد قال (أوسفالد) : عند ما نصاب بعصا فهاذا نشعر ، أبا العصا أم بالقدرة ؟ بالطبع نشعر بالقدرة التي هي الشيء الايجابي الثابت الموجود في كل الأشياء . وهي ليست واحدة في جميع الأجسام ؛ بل تتصف بأشياء مختلفة متناسبة مع شخصيتها وخواصها النوعية . والصعوبة في ذلك هي أن قوة تصدر هذه القدرة هل هي مركبة من عناصر بسيطة بقوة الارادة كما يظن (هوكسلي Huxley) ؟ على أن القدرة الفعالة لا يمكن أن تعتبر إلا كحالة شعورية فقط ؛ وهذا يمكن أن يظهر غريباً . ولكن إذا حاول الانسان أن يهتم بما يفهمه عن القوى المتجهة الواحدة منها نحو الأخرى يرى أنه يدركهما كأنهما يتحركان الواحد نحو الآخر بسرعة ما . وعند ذلك لا يتصور إلا الحركة تاركاً القوة جانباً . واما أن يتصور كل جزء كأنه مصحوب بشيء يشابه حالته كحالة الارادة وهو يعلم هذه الجهة . ونحن نشك أن صعوبة التفكير بالقوة شيء غير مقابل بالارادة . فليبنز إذن يقترب من الحلول الأخيرة عن طبيعة المادة

(انتهى بحث المادة) دمشق **محمد حسن النقاعي**



أقصوصة من ٥ . سناكبول

أحلام فضية

للأستاذ دريني خشبة

من نجوة[1] (بون بك) يشرف الناظر على مرأى عجيب من رؤوس الأيك النائم في الغابة ، والحياة الدائبة الصاخبة في الوادى ، وأبراج (تور) المنطبعة في أديم الأفق . والشعاب الملتوية بين الدوح الجبار ... ثم ... هذه الرقائق من الفضة تنساح في مجرى اللوار ، راقصة على رنين النواقيس من ڤيروفلاى ، مضطربة تحت أقدام أرليان ، متلاشية في لا نهائية البعد مما يلى المنبع ... في شعاف السِّقِن

ومع ذلك ، فلم يكن فوق بون بك غير سنديانات أربع ، منهن دوحة جدّة ، عظيمة الجذع ذاهبة الأفنان ، وإن يكن قد نخرها الزمان ، ونامت قرونه في الكهف الكبير الذى احتفرته في أصلها ... ثم شجيرات حفيدات تينع في الربيع ، وتنضر في الصيف ، وتتجرد فيما سوى ذلك من فصول السنة . ولم تغير الثورة شيئاً من معالم هذا الغاب ، على كثرة ما غيرت من معالم فرنسا ، فهذا هو العم العجوز المتداعى « چين كابوش » ما يزال يقطع الخشب من الغابة ويُحمّله إلى شاتود نيفر ، وما يزال يعالج الشجر ويصيد الأرانب ، ويؤدى الأعمال التى كان يؤديها أبوه وجده من قبل ، والتى كان يؤديها آباؤه الأولون ... وإن له لآباء أولين يتلاشون في لا نهائية الأزل ، كما يتلاشى اللوار في ظلام السِّقِن ... فاذا قدر لك مرة أن تلقاه في أحد شعاب الغابة ، لقيت رجلاً من القرون الغابرة لا يعرف عن زماننا شيئاً ، ولا تربطه بالعصر الحديث رابطة ؛ وكذلك تلقى بنته الجميلة الساذجة العذراء مارى ، التى إن حدثتها حدثتك قطعة من الغابة لا تدرى ما وراءها ... على أنها مع ذاك تصبيك وتفتنك ، وتسحرك بجمالها العميق الملنوز ، وتتأرّج في نفسك وقلبك كما تتأرج البنفسجة الفيحاء ، لا تدرى من أين يسبيك جمالها

أما أبوها — العم چان — فقروى — لا ، بل ريفى قح ، يحسبه من يلقاه نابى الذوق ، جافى الطبع ، لأنه لا يعرف قوانين التقاليد التى تفرضها حياة المدن على سكانها ، ومن هنا عدم تمييزه بين طبقات الناس ، فهم جميعاً سواء عنده ، حتى رئيس الجمهورية الذى كان يجوب غاب ڤيروفلاى مرة ، فلقيه فحياه ؛ وكان چان يحتسى كأساً من الخمر ، فلم يلتفت للحاكم الأعلى حتى أتى على النُّطف الأخر في الكأس ، وبعد أن مسح فمه بكمه ، وتجشأ وتمتّق ، قال للرئيس : « أجل ، أعرف أنك الرجل الذى يختاره الفرنسيون ليمثل دور الملك في باريس ! » .

وماذا تنتظر من حَمّاع أحطاب وإنسان غابٍ أن يقول غير هذا ؟

وربما كان للأسطورة التى تناقلها آل كابوش أباً عن أب ، وجداً عن جد ، في طويل الأزمان والآباد ، أثر في هذه العنجهية التى تبدو أحياناً في أخلاقهم . ذلك أنهم كانوا دائماً يفخرون أن ملك الغابات في الزمن القديم كان رئيس قبيلتهم ... فإذا كلم چان رئيس الجمهورية بهذه اللهجة ، فأحجى بالرئيس أن يشكر الله ، لأنه فرد عادى جداً إذا قيس بچان سليل ملوك الغاب ! !

***

ما كان أجملَ الأصيلَ فوق البون بك وقد جلست مارى الساذجة فوق العشب الحلو ، تحت السنديانة الكبيرة ، تعمل بأبرتها في جورب الصوف الخشن الذى كانت تبيع ما تصنع منه في نهاية كل شهر لبازين العجوز تاجر الملابس في بورجه ! لقد كانت تتحدث إلى عنـزها المربوطة في جذع السنديانة كلما ضجرت من العمل ، كما كانت تغنى بصوتها الرنان الجميل فتغمر

(١) النجوة والنجا والمنجى والنجو ما كان أكبر من الربوة وأصغر من الجبل

الغابة المنتشية بألحانها ، وتمتلىء أجواء الوادى الساكن بأغانيها الطورينية الحبيبة ، التى لم تعرف النوتة ، ولم تأخذ طريقها إلى البيان ، بل احتفظت بريفيتها المقدسة لتخرج من فم مارى ، كما تخرج موسيقى الملائكة من قدس السماء !

ما كان أجمل الأصيل فوق البون بك حين جلست مارى فوق عشبه ، وقد أخذ الخريف يواسى الناس بأنفاسه الربيعية ، وقد راحت مارجوت — العنز السعيدة — تقضم الحشيش الحلو مرة ، وتصغي إلى غناء مارى أخرى ... ومارى ، فيما بين هـذا وذاك تعمل أناملها فى الجورب الذى أوشك أن يتم ، لتتم به الاثناعشر جورباً ، ولتنطلق بها فتاة البون بك إلى التاجر بازين فتتسلم منه ثمنها ، وتعود بالحلوى والفطير فتملأ فم مارجوت !

لقد جلست مارى تعمل وتغنى ، بينما كان السادة الباريسيون أصحاب الفيروفلاي ، وأصحاب قصرها المنيف المنيع الذى تأخذه العين فى أفق الغابة فترى منه أبراجه الشواهق ، يصيدون الأرانب فى المتائه والمسارب ، ويطلقون بنادقهم على القنافذ والثعالب ، فتتردد طلقاتها فى أذنى مارى ، وتثير فى قلبها الصغير شتى الهواجس والأفكار ...

« الإبرتان الشقيتان !! » هكذا كانت الفتاة تفكر ...
« لا بأس ، صبراً يابازين صبراً ، ها قد أوشكت أفرغ من هذا العناء الذى تشتريه منى بفرنكات معدودة لانكاد تكفي ثمناً لمسح حذاء واحد من سادتنا ... أوه ! يالك من عقدة خبيثة ! إذهبي إلى الشيطان ! ألا ما أصعب إصلاح العقدة المختلطة : إنها كاللغز الذى لايمكن حله ! ما هذه الطلقات النارية ياسادة ! ! إرحموا الثعالب والأرانب ، وارحموا أبى جان المسكين ! ماذا يصيد هو إن لم تبقوا على أرنب واحد ! هذا بلاء والله ! أوه ! وارحتاه لك يا أبى ! إن صيد أرنب أو أرنبين أيسر عليك من قطع عسلوج واحد مع فرق ما بين الأجرين ! الأغنياء ! الثروة التى لايحصيها عد ! ... ... الخ ... »

وسمعت الفتاة صوت بوق يُدَوِّى فى آفاق الغابة شغلها عن إبرتيها ، وعن غنائها ، وعن مارجوت ... وعن كل شىء ... حتى عن هذه السلسلة غير المنتظمة من الأفكار الفضولية التى كثيراً ما تزدحم بها رؤوس الناس ، لأتفه مايثيرها من الأسباب وأرسلت عينيها فى شعاب الغابة مرة ، وفى مسايل اللوار أخرى ، فرأت السادة الأغنياء قد فرغوا من صيدهم ، وقد حمل خدمهم أحمال القنص على خيول ضخمة ، وانطلق الجميع يعدون نحو القصر المنيف ، كما تعدو السمادير أمام العين العشواء ، وكما تنطلق أحلام النائم فى كل صوب ... حتى غابوا عن بصرها

وعادت مارى إلى إبرتيها بعد إذ ثابت إلى نفسها ... وبدأت تعمل وتغني من جديد ! ولم تكد تفعل حتى سمعت صوتاً حنوناً يهتف بها ، فأرسلت عينيها فى كل حدب ، ولكنها لم تر أحداً ... وارتبكت هذه المرة ، وحاولت أن تعمل ، ولكن العقد اختلطت أكثر من ذى قبل ، وعاد الصوت الحنون يهتف وينادى ... ونظرت مارى ، وبحثت بعينيها فى كل مكان ، فإذا بنبيل من السادة الصيادين يناديها فى السفح البعيد ، ويشير إليها بيده الآمرة أن تذهب إليه

لم تتحرك مارى ، بل ظلت ساكنة صامتة ... وكأنما غيظ النبيل من سكونها ، فغمز حصانه الكبير غمزة فانطلق يطوى النجوة صعداً فى غير مبالاة ، كأن الدنيا بأسرها ملك له ولأجداده الخيول من عهد عاد ! حتى الخيل تعرف الصفاقة أضعاف مايعرف النبلاء !

لقد كان رجلاً عملاقاً له مهابة وفى عينيه نُبـل ، وله لحية خفيفة فوق صدغيه قد وخطها الشيب فجعلها سنجابية حائلة كلون السحب فى أوائل الخريف ... وكان عريض المنكبين بارز الصدر واسعه ، عظيم القامة ، يشغل الناظر إليه عما يلبس من غريب الثياب التى تتخذ للصيد فى غاب فرنسا ... فلا خافية النسر التى راح النسيم يداعبها فوق مفرقه ، ولا الجوارب الجلدية وما فوقها من أخفاف ، ولا هذه السراويل الفضفاضة التى تغطى ظهر الجواد ، ولاتلك القفازات اللامعة التى تحجب يديه ، ولاهذه النياشين التى تتوهج فوق صدره ، والقلائد الذهبية التى تتحوى حول عنقه ... لا شىء من هذا أو ذاك قد بهر عينى مارى كما بهرها هذا الجسم الهرقلى ، وذاك الوجه الصارم ، والرجل العملاق !

واقترب الجواد بمن عليه ...

وتبسم النبيل وكأنما كانت الدنيا كلها تبتسم معه ، وحيّا مارى ، ثم قال :

— « قصر فيروفلاى ياجيلتى ! قصر فيروفلاى ! أتستطيعين أن تدليني عليه ، أوتعلميني الطريق التى أسلكها لأبلغه ؟ لقد ضاعت

سبيلي في شعاب غابتكم المضلة ، فهل لك في أن تصحبيني، ياغادة ؟ »

لقد نظر النبيل إلى ماري فحمد الله والصدف أن ضلت سبيله ، ليلقى هذه الجنّية الريفية الحسناء في هذا الأصيل الجميل من أصائل الخريف ، وفوق هــذه النجوة الناضرة المطلة على الغابة الشاسعة جميعاً ... ولقد كان يبلع ريقه مرة بعد أخرى وهو يكلمها ، وكان يكلمها بعينيه الجائعتين ، أكثر مما كان يكلمها بلسانه اللاهث الظامىء ، وكان يحس قلبه وهو يخفق ويخفق ، كأنما يبتغى أن يثب إلى عينيه ليشبع من مرءى ماري هو الآخر ! ! يا لسحر الجمال ! لقد عجب النبيل كيف عاش عمره الطويل المفعم بلا حب ، وفي الدنيا العريضة مثل هــذه الفتاة التي تسجد تحت قدميها القلوب !! لقد جعل جسمه يرتجف فوق الجواد ، وجعل يقلب عينيه في الفتاة التي انعكست على وجهها آراد الشمس الغاربة فصبغته بالذهب ، وتركت في جبينها وخديها سَـفْعاً من اللهب يشبه الشفق ، يزيده فمها الصغير الخبيث اشتعالا !

— « أوه يا سيدي ! إنه هناك وراء هذا الدوح ، وهو قريب جداً من هنا ... أنظر ... ها هي ذي أبراجه تلوح وراء الغصون العارية ... ثم هاهي ذي الطريق واضحة بينة ! »

وكانت ماري قد نهضت من مكانها وهي تقول ماتقول ، وتشير بيديها ، فينحسر الـكُـمّان عن مرمر الذراعين اللدنتين ، وطرف الثوب عن جزء من الساقين الجميلتين ، فيجن جنون النبيل الجليل !

وفي الحق ... لقد خفق قلب ماري هو الآخر ، لأنه أحس بمـا ينبعث من عيني الرجل من الصبوة والشغف ... وما كان يسيل في ألفاظه من الرقة والضراعة ، وإن لم يعبر عنهما إلا بهذا الروح الذي يُفهم من غير أن يُرسم ! !

ووثب الرجل من فوق جواده ، ووقف قريباً من ماري ، ثم راح ينظر في الأفق ويتماشى ويقول :

— « أجل ... ها هي ذي أبراجه ! ولـكن أنَى لي أن أهتدى إليه في غابتكم المضلة ... تعالي يا صغيرتي فدليني عليه ... إني أخشى أن أبيت ليلي في الغابة مع أرانبكم وثعالبكم !

— « بكل سرور يا سيدي ... لا أحب إلى من أن أفعل ... هلم !

— وهذه العنز ؟ أتتركينها هنا ؟

— « أوه ! انِ ما رجوت ستنتظرني هنا ياسيدي ! وأين تذهب ما لم أعد اليها ... ثم هي مربوطة مع ذاك !

— « اذن ، هلمي !

وانطلقا نحو السفح ، ثم مضيا في طريقهما ... هي الى جانبه ، أو في ظله ! وهو ، وحصانه من ورائه ، ينظر صامتاً ... ساكناً

* * *

وفكرت ماري في اللهجة التي كان يكلمها بها فشاع فيها نوع من الزهو ، ثم اتسع خيالها فوثقت أنه أحبها ، بل هو يكاد يعبدها ، وكان هذا الاحساس يملأ الدنيا في عينيها سعادة ، وفي قلبها بهجة ... وعرفت من ثيابه ومن منطقه أنه ليس من هــذه الجهة من جهات فرنسا ... قد يكون ضيفاً على آل فيروفلاى ... على كل حال هو ليس من هذا الأقاليم ...

وأخذ الرجل يخلق الأحاديث ليسمع صوت ماري ... هذا الصوت الموسيقي العذب الذي كان يملأ سمعيه وينفذ إلى أعماق قلبه كأنه رنين القُبل ! وكانت هي تجيب في ظرف وتيه وأدب ، فتخلب لب الرجل ، وتذيب نفسه الوامقة بمـا تكسر من مخارج الـكلمات ، وما توشي في أواخر الجمل ، كأنها الربيع الفينان ينثر وروده ورياحينه في أكناف الحديقة ! !

ولقد كان القصر على بعد فرسخ أو نحوه من النجوة ، ولقد كان قصراً عتيقاً من عهد شارل التاسع ، ولـكن الغابة كانت مع ذاك أقدم منه عهداً ... بل كانت هي هي الغابة منذ كانت هناك غابات في جنبات فرنسا ، ومنذ كان جد ماري ملـكا عليها في بطن الأزل !!

وذكرت ماري هذا الجد الملك ، فسرى في أعطافها الـكبر القديم الذي ما يفتأ يسرى في أعطاف آبائها وأهلها ... وللحال آمنت أنها جديرة بقلب هذا النبيل ، وأنه سيكون فخوراً بها !!

ونظر النبيل إلى جنبات الغابة فتغيرت في عينيه صورتها الجافة الخريفية التي انطبعت فيهما منذ الصباح ، وصارت جنة فيحاء آهلة بالحور العين أمثال اللؤلؤ المـكنون ، منضورة بالورد عبقة بأريج الرياحين كهذه الجنة التي وعد المتقون ! لماذا ؟ لم يدر الرجل ... لـكنه كان يؤول كل ذلك بوجود ماري الجميلة إلى جانبه ... ماري ، التي غيرت نظرته إلى الحياة ، فجعلتها مشرقة باسمة ، بعد أن كانت قمطريراً كالحة ، لا تصلح لهذا العبث الذي كان يقرأ عنه في الـكتب ، والذي سماه الشعراء بالحب ...

ولم تزل ماري تسلك بالرجل في هذا المنعرج وذاك المنعرج ، ولم تزل تسير به في متائه كثيرة ، وتخطو به في فجاج كامن مصائد

ونخاخ نصبها أبوها للأرانب ، حتى وقفا آخر الأمر لدى بوابة عتيقة ... هي من غير شك أعتق من القصر الذي تؤدي إليه وأذهب منه في البلى

وكانت البوابة صغيرة واطئة ، فصاحت ماري فجأة وهي تقول : « أوه يا سيدي ! لن يستطيع حصانك أن يدخل من هنا ... أوه ! لقد نسيت ، ليتني ذهبت بك إلى باب القصر ! »

فتضاحك النبيل ثم قال : « ليس هذا شيئاً ... إني سأربطه هنا ، وهو ينتظرني كما تنتظرك ... ما ... ما ... ما اسم عنزك ؟ »

— مارجوت يا سيدي

— مارجوت ! إي والله مارجوت ... ولكن ما سنك يا ... عزيزتي ؟

قال ذلك وقد أرسل أصابعه المرتعشة تربت تحت ذقنها الجميل وعينيه المشوقتين تسبحان في جمالها الريان !

— أنا ؟ سني ست عشرة سنة !

— ما شاء الله ! سن فينانة ! واسمك إذن ! ؟

وقال ذلك أيضاً بعد أن صعد آهة عميقة كادت تحرق بحرها صدره

— ماري ... ماري يا سيدي !

— ماري ! ماري ! وحسب ! ؟

— ماري كابوش يا سيدي !

— ماري كابوش ... حسن جداً ! ماري كابوش اسم جميل ظريف ، بيد أنني سأطلق عليك من الآن اسم (زهرة الغابة !)

ثم تقدم فأخذ رأسها الصغير في يديه المتخاذلتين ، وطبع على جبينها قبلة عميقة حارة ، استودعها كل أماني حبه ، ثم دس يده في جيبه وقال :

— «والآن ... تقبلي مني هذا القليل ... من ... الذهب ... للذكرى ... لا للفائدة ! » ولما نظر في حافظته لم يجد بها إلا قطعة فضية واحدة ... وحدجته ماري بعينين جريئتين ثم صاحت به في رقة وحب : « أوه ياسيدي ! ليست بي حاجة إلى نقود فأذكرك بها ... إني سأذكرك إلى الأبد ... لن أنساك ! »

وامتلأت عيناها بالدموع فجأة ... وأحست بقلبها يرتعد ويخفق ... وودت لو استطاعت فهربت في شعاب الغابة ، لولا أنها نظرت إلى الرجل فوجدته مثلها ممتلىء العينين بالدموع ... وصدره يعلو ويهبط ، آية على مافيه من مثل ما في قلبها !

— ليس في حافظتي إلا هذه ... لتكن تذكاراً مني على كل حال !

— تذكار أحتفظ به إلى آخر رمق في حياتي ياسيدي !

— « أوه ! دائماً ياسيدي ياسيدي ! ناديني باسمي المجرد ياماري ! أنا أدعى هنري ... ! ليت لي مثل سنك ياماري ! ليت لي مثل سنك ! »

— حسبك قلب مثل قلبي يا ...هـ ... هـ ...

— هنري ... ! ماري ... ماذا بك ...

وجعلت الفتاة تبحث الأرض بعينيها مرة ... وتحدق بهما في وجه هنري مرة أخرى ... ثم تناول الرأس الصغير مرة ثانية فطبع عليه قبلتين حملتا سر قلبه ، وودعها وهو يقول لها :

— هنا ياماري يجب أن نلتقي الليلة بعد أن يشرق القمر !

وأومأت ماري برأسها الصغير ... وانطلقت تعدو كالمجنونة في ظلام الغابة ...

***

ولم تفتأ ماري تستعيد الذكريات الحبيبة التي لم تمض عليها هنيهات ... ولم تفتأ تردد هذه النداءات الجميلة « يا جميلتي ... يا صغيرتي ... أوه شيري ! ! يا عزيزتي ... إلى هذه المترادفات التي يمتلئ بها قاموس الحب ، وألواح المنزل الإلهية المقدسة ... هل هو حلم ؟ !

نبيل من أماثل نبلاء فرنسا يحب هذه الريفية الساذجة التي لا قيمة لها إلا مسحة من جمال ؟ هذا النبيل العظيم الذي يملك أن تكون له جنة من حسان باريس ، تشغفه هذه القروية من بنات الغاب ؟ بل هو حلم ... بل هو حلم !

وعادت إلى البون بك ففكت رباط مارجوت ، وحملت سلة أشغالها ، وعادت أدراجها إلى كوخ أبيها مصدعة القلب ، واجمة الروح ، كاسفة البال ، لا تفكر إلا في هذه اللحظة الناعسة التي لقيت فيها هذا النبيل .. أو لم تلقه .. لأنها ظنت أنها كانت تحلم !

وأقبل أبوها فأعدت له عشاءه فالتهمه ، ثم انبطح على فراشه الخشن فلم يلبث أن نام ، وراح يغط في سبات عميق

وجلست هي في غرفتها تجتر أحلامها ، وتصور الحادث الأكبر الذي زعمته حدث لها ... ولكن رنين القبل على ... جبينها .. ! كان ما يزال يرن ويطن .. والنداءات الغزلية كانت ما تزال تتردد في مسمعيها ...



العربية والانكليزية

كتب كاتب فى جريدة « الأجيشيان جازيت » عن تعلم المصريين اللغة الانكليزية يقول إن المصريين فى مقدمة الشعوب التى تتقن التكلم والنطق بالانكليزية، ولكنهم لا يصلون فى ذلك إلى براعة السويديين والهولنديين وإن كانوا يفوقون الألمان والفرنسيين في ذلك بمراحل؛ ويرجع ذلك إلى أن الطلبة المصريين يتلقون اللغة الانكليزية فى مراحل الدراسة الأولى من الأساتذة الانكليز أنفسهم، ويخصصون لدراستها فى الأسبوع عدة ساعات، وبذلك تتاح لهم فرصة ملائمة لتلقى نطقها ولهجتها من أبنائها الأصليين، وبذلك ينجون من اللهجات الغريبة التى تخالطها أحياناً فى البلاد الأخرى

وفى قول الكاتب كثير من الصحة، ولكننا نستطيع أن نزيد على قوله أن الطلبة المصريين لم يبلغوا فى تحصيل اللغة الانكليزية ما كان حقيقاً بهم أن يبلغوه فى مثل هذه الظروف والفرص الملائمة، فالحصص التى تخصص لتدريس الانكليزية فى مدارسنا الثانوية تكاد تعادل الحصص التى تخصص للعربية، ومع ذلك فقد لوحظ أن الطلبة يلاقون فى تعلمها صعاباً شديدة، وأنهم ما زالوا فى تعلمها فى مستوى لا يبعث على الرضى. وقد كان لهذه المسألة ضجة فى العام الماضى اهتم لها رجال التعليم والمسئولون من رجال وزارة المعارف

على أن الذى نريد أن ننوه به هنا هو أنه إذا كان للمصريين حظ من إتقان اللغة الانكليزية سواء فى التحدث أو الكتابة بها فإنه من بواعث الأسف أن يجيء هذا الاتقان فى أحوال كثيرة على حساب اللغة العربية. وإذا كان ضعف الطلبة فى اللغة الانكليزية قد لفت نظر المسئولين من رجال التربية، فان ضعفهم فى اللغة العربية كان أيضاً باعثاً إلى الاهتمام والنظر

وفى رأينا أن اللغة العربية ما زالت مغبونة الحق فى مدارسنا الثانوية، وقد كان طغيان الانجليزية والفرنسية على مناهج التعليم

وانهزم الظلام فجأة فهبت إلى النافذة فرأت القمر ينبثق من الأفق الشرق، ويكسو بنوره الأحمر البركانى جوانب السماء رهبة. ثم ارتفع مليك الليل رويداً فابيض نوره، وجعل كلما ارتفع ينشر فى الوجود أضواءه ولألاءه ... فاعتزمت مارى أن تخرج إلى موعدها ... ولو كان حلماً حقاً ...

وانسرقت الفتاة فى ظلام الكوخ الذى كان يملأه شخير أبيها النائم رهبة ثم انفتلت إلى الغابة ... الغابة الفضية الصامتة التى كانت حينذاك أشبه بمعابد الهنود، فجعلت تتسرب فى شعابها وكلما تحرك غصن أو برز أرنب وجلت المسكينة وجلا شديداً، وهى التى كانت تحرس الغابة فى الليالى المظلمة من الذؤبان والسباع. ثم لم تزل تسير فى هرولة ... ولم يزل قلبها يخفق ويدق ... ولم يزل خيالها يمتلىء بالمخاوف ... حتى كانت عند البوابة القديمة! وا أسفاه! تبدد الحلم الفضى ... إن هنرى ليس عندها! وتلبثت مارى تتنسم أثر هنرى ... لكنها لم تجد شيئاً ... فعادت محطمة ذاهلة موهونة ... واخترقت الغابة وهى لا تخشى من أشباحها شيئاً ... إذ ما يهمها أن يفترسها الذئب أو يحرقها العفريت؟! لا يهم ...

***

ورأت أنواراً ساطعة تنبعث من الكوخ ... وسمعت فيه ضجة ... فخشيت أن تدخل ... وظنت أن أباها افتقدها فلم يجدها فولت هاربة

ولكن هنرى كان قد لمحها من نافذة كوخ أبيها، فانطلق فى إثرها .. ثم عاد معها إلى الكوخ لتعانق أباها الذى يقول لها:

— « هنيئاً لك يا ماري ... هنيئاً لك يا هنرى ... لك أكبر الشرف يا بنى أن تكون سليلة ملوك الغاب زوجتك! »

وهكذا تحقق الحلم الفضى!

دريني خشبة

فى الماضى مفهوماً، وكانت لذلك ظروفه وبواعثه . ومن الحق أن نقول إن هذا الافتئات على حقوق العربية فى الماضى كانت له آثار سيئة فى تكوين الأسس التى قام عليها التعليم القومى فى العهد المنقضى؛ ولكنا لا نفهم لماذا يبقى هذا الافتئات باقياً إلى اليوم بعد أن تحررت برامج التعليم من القيود التى كانت تحول فى الماضى دون تقديم العربية على سواها

إن تعليم اللغات الأجنبية الحية من العناصر الجوهرية فى تكوين الثقافات الحديثة؛ ولا شك أن الانكليزية والفرنسية من أهم اللغات الثقافية، ولكن الذى نرجوه هو ألا يبقى هذا العنصر الأجنبى كما كان فى الماضى أداة للغزو الثقافى والمعنوى على حساب اللغة القومية، وأن يقتصر الأمر فيه على الاغتراف من مناهل الثقافة والعرفان

هل كانت الفيوم منزل شعب فى العصر الحجرى

عثر المنقبون أخيراً فى بقعة أثرية على مقربة من بحيرة قارون بمديرية الفيوم على جمجمة بشرية قديمة جداً . وقد عرضت هذه الجمجمة على العلامة الدكتور درى أستاذ التشريح بكلية الطب المصرية، فقرر بعد الفحص أنها لرجل بالغ، ويغلب على الظن أنه كان ضعيف العقل نظراً لصغر حجمها عن الطبيعى . على أن هذا الفحص التشريحى ليس أهم ما فى الموضوع، وإنما المهم هو القيمة الأثرية؛ فقد عرفت هذه البقعة المجاورة لبحيرة قارون بأنها كانت وطن شعب مصرى قديم يرجع إلى آلاف السنين قبل الميلاد . ووجد فيها العلماء المنقبون ولاسيما العلامة الألمانى بونكر كثيراً من الآثار التى تدل على أن هذه البقعة قد عرفت العصر الحجرى . ودلّ فحص الجمجمة المشار إليها من الوجهة الأثرية على أنها لإنسان عاش منذ نحو ثمانية آلاف عام . فاذا صح ذلك فان علم الآثار المصرية يخطو خطوة جديدة نحو معرفة التاريخ المصري القديم . ذلك لأن قدم الوثائق الفرعونية التى عثر عليها ترجع إلى نحو ثلاثة آلاف عام قبل المسيح أى إلى خمسة آلاف عام؛ ولكن هذه اللقطة الجديدة إذا عززت ببعض آثار أخرى توجد فى نفس المنطقة وتماثلها فى القدم، قد توجه أنظار الباحثين إلى مرحلة أقدم جداً من تاريخ مصر الفرعونية

هذا وقد أحال الدكتور درى هـذه المسألة إلى العلامة فى الأجناس الدكتور تيودور منود مدير متحف التاريخ الطبيعى بباريس، فأجاب بأن خواص الفلين فى الجمجمة المشار إليها توجد الآن عند كثير من فصائل الزنوج فى أفريقية الشمالية، وفى الصحراء الكبرى . وتاريخ هذا الانسان مجهول، ويوجد بين القبائل المغربية قبائل تحمل جماجها بعض هذه الخواص

وإذن فالمسألة ما تزال موضع البحث والتحقيق

جائزة فاروق الأول

استقر الرأى على أن يطلق على الجوائز التى اقترحها الدكتور حافظ عفيفى باشا لتشجيع الحركة الادبية والعلمية: جوائز فاروق الأول في الادب وفى غيره من الفروع والفنون التى يستحق صاحبها من أجلها تلك الجائزة . ورأت اللجنة جعل الموضوعات التى تدخل فى نطاق الجائزة ستة تتصل بالحياة المصرية فى الأدب والقصص والاجتماع والتشريع والتعليم والزراعة

وتقرر أن تكون قيمة كل جائزة خمسمائة جنيه وأن يكون التقدم إليها مرةفى كل عامين . ورأت اللجنة توثيقاً لأواصر اللغة وتوحيداً للثقافة بين أبناء الأمم الشرقية إباحة دخول المسابقة فى جوائز الأدب والقصص والاجتماع للشرقيين من أبناء العربية

ودرست اللجنة طريقة اختيار المؤلفات، وهل ينحى فيها نحو « جائزة نوبل » أو يكتفى بأن يتقدم الكتاب والمؤلفون بكتبهم وتآليفهم مطبوعة طبعاً جيداً . وقد استقر الرأى على الأخذ بالطريقة الأخيرة

وعند إقرار المبدأ تؤلف اللجان الفنية المختصة كل عامين لبحث ما يتجمع لديها فى هذا الصدد . وقد لوحظ فى جعل المدة سنتين أن تتاح الفرصة الكافية لكبار المؤلفين لإجادة ما يكتبون وما يؤلفون

لجنة تنظيم الصحافة

يشتغل صاحب المعالى الدكتور محمد حسين هيكل بك وزير الدولة، ببحث المسائل التى درستها اللجنة الحكومية « لتنظيم مهنة الصحافة وترقية شؤونها »

وقد استقر الرأى على أن ينضم إلى اللجنة أعضاء جدد من كبار الموظفين وأصحاب الصحف

وسيرأس اجتماعها القادم صاحب الدولة رئيس الوزراء

مهرجان الأدب فى الزفاف الملكى

فكر جماعة من قادة الفكر وزعماء الدولتين الشعر والنثر فى اشتراك الأدب فى ابتهاج البلاد بالزفاف الملكى ، وقد اجتمع فريق منهم فى مكتب حضرة صاحب العزة محمد العشماوى بك وكيل وزارة المعارف وتدارسوا هذه الفكرة ثم أقروها واتفقوا على تأليف لجنة فرعية من بينهم لوضع برنامج المهرجان والاتصال باللجنة الرئيسية المعهود إليها تنظيم حفلات الزواج الملكى . وستجتمع اللجنة الرئيسية على أثر فراغ اللجنة الفرعية من مهمتها لتضع البرنامج النهائى للمهرجان

المؤتمر الدولى السابع لتوحيد قانون العقوبات

فى يوم الأربعاء الماضى تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك فأناب عنه من افتتح المؤتمر الدولى السابع لتوحيد قانون العقوبات رسمياً فى دار الأوبرا الملكية ، وفيما يلى بيان موجز عن تاريخه

تألفت بعد الحرب العظمى أول هيئة اهتمت بتوحيد قانون العقوبات وهى الجمعية الدولية لتوحيد قانون العقوبات . ولما كثر عدد المشتركين فيها فكر مسيو بيلاسكرتير الجمعية العام ومندوب رومانيا الدائم لدى عصبة الأمم فى عقد مؤتمرات لبحث الموضوعات التى تهتم بها الجمعية ، وكان أن أنشأ المكتب الدولى لتوحيد قانون العقوبات .وقد جاء فى المادة الأولى من قانونه الأساسى أن غايته دراسة اقتراحات الدول والهيئات التابعة لمجلس عصبة الأمم والهيئات الخاصة الأخرى المؤدية إلى توحيد قانون العقوبات والقيام بالأعمال التمهيدية لتحديد المسائل التى يمكن الاتفاق على توحيد القانون فيها ، والسعى لعقد مؤتمرات دولية والعمل على دوام الصلة بين أعمال المؤتمرات التى تعقد . وأخذ الاهتمام بأعمال المكتب يزداد ونفوذه ينمو حتى أصبح لأكثر الدول مندوبون فيه

وقد عقدت ستة مؤتمرات فى بروكسل وباريس وفارسوفيا وروما ومدريد وفى كوبنهاجن على التوالى . وأولها مؤتمر بروكسل وقد عقد فى سنة ١٩٣٧

معهد التعاون الفكرى وشعبته فى مصر

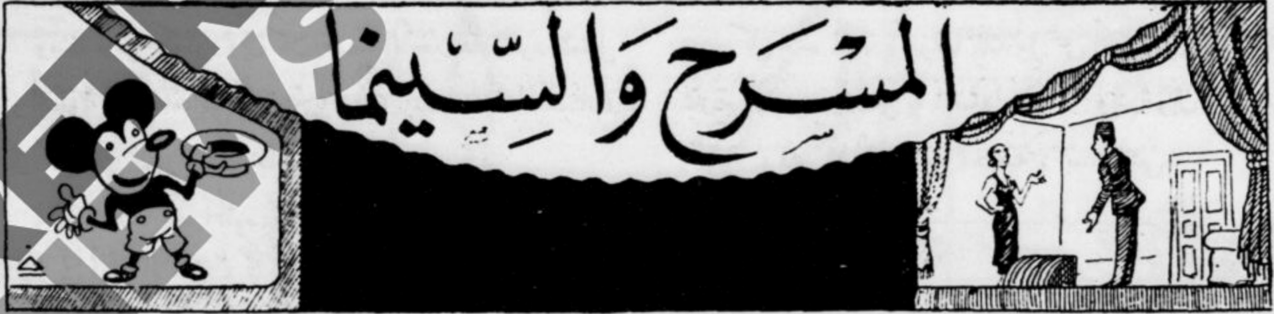
كانت وزارة المعارف قد عهدت إلى عميد كلية الآداب زيارة المعهد الدولى للتعاون الفكرى فى خلال الصيف الماضى ووضع تقرير عنه ، وقد رأى أن يبحث الأمر مع صاحب السعادة على الشمسى باشا ممثل مصر فى جامعة الأمم قبل وضع تقريره

ومتى تم وضع هذا التقرير بدأت الشعبة المصرية عملها . وقد صدر قرار وزارى بتأليفها من حضرات أصحاب السعادة والعزة وكيل وزارة المعارف ، ووكيل الخارجية ، ووكيل الحقانية ، ومدير الجامعة المصرية ، وعمداء كليات الجامعة ، ورئيس المجمع اللغوى ، وناظر معهد التربية للبنين ، وناظر دار العلوم ، ومدير مصلحة الآثار المصرية ، ومدير دار الآثار العربية ، وأمين المتحف القبطى ، ومدير دار الكتب المصرية ، ورئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ورئيس الجمعية الجغرافية الملكية ، ورئيس الجمعية الملكية للاقتصاد والتشريع ، ورئيس الجمعية الطبية المصرية ، ورئيس الجمعية الرمدية ، ورئيس المجمع العلمى المصرى ، ورئيس المجمع المصرى للثقافة العلمية ، ورئيس جمعية محبى الفنون الجميلة ، ورئيس جمعية علم أوراق البردى ، ورئيس الجمعية الصحية المصرية

وقد ترك للأساتذة أعضاء الهيئة اختيار الرئيس والسكرتير الفنى لها من بينهم . وسيكون أول عمل تقوم به وضع اللائحة الداخلية لتنظيم الأعمال حتى يصدر بها قرار وزارى من معالى وزير المعارف

حول جائزة جونكور

لاحظ بعض الأدباء كما لاحظت المكشوف أننا ذكرنا فى باب البريد الأدبى فى عدد سابق أن الكاتب البلجيكى ش . بليسينيه نال جائزة جونكور فى العام الماضى عن كتابه (أزوجة) مع أنه نالها عن كتابه (جوازات مزورة) . وهذا الخبر نقلناه عن ملحق الأحد الأدبى لجريدة Neues Wiener Tagblatt النمسوية لمراسلها الباريسى . وهو صحيح ولكنه ناقص . وبيان ذلك أن بليسينيه رشح منذ العام الماضى لنيل الجائزة بروايته الأزوجة Mariages ، ولكن ترشيحه أرجىء يومئذ لاعتبارات تتعلق بجنسيته لأنه غير فرنسى . وفى هذا العام قدم روايته الجديدة Faux Passports وانتهت أكاديمية جونكور إلى مبدأ جديد فى مسألة الجنسية ، وقررت أن تمنح بليسنيه الجائزة عن روايتيه الذكورتين . وهـذا هو ما صرح به رئيس الأكاديمية مسيو روزنى Rosny نفسه فى خطابه يومئذ



السينما والأدب

بقلم محمد على ناصف

في عامي ١٩٣٢ ، ٣٣ كان الفلم البوليسي أكثر أنواع الأفلام شيوعاً وأوفرها غلة على أصحاب الشركات

وفى عام ١٩٣٤ اختص بمرتبة النجاح الأولى الفلم الموسيق ، وجاء دور الفلم التاريخي في الموسم التالى

ثم كان الطابع المميز لإنتاج الموسم الماضى أقدام الشركات على إخراج الأعمال الأدبية الكبرى ؛ فشهدنا « حلم منتصف ليلة صيف » و « روميو وجولييت » لشكسبير و « البعث » و « أنا كارنينا » لتولستوى و « دافيد كوبرفيلد » و « قصة مدينتين » لديكنز و « مونت كريستو » و « الفرسان الثلاثة » لاسكندر دوماس الأب ، و « غادة الكاميليا » لدوماس الابن . و « جحيم دانتى » وغير ذلك من الأفلام التى لم تعرض للآن فى بلادنا مثل « الجريمة والعقاب » لدستويفسكى ، و « كما تشتهى » لشكسبير .

إذا تتبع القارئ هذا البيان المجمل تبين حقيقة ناصعة : تلك أن السينما تتطور من حين لآخر ، وأنها تأخذ فى تطورها اتجاهاً ثقافياً يقرب إلينا معنى السينما وما تستطيع أن تحققه من آمال كبار

لقد كان كثير من الأدباء والفنانين في أول عهود السينما يترفعون عن العمل من أجلها ويحسبونها سلعة ذات بهرج لاصلة لها بالفن ، حتى صرح بعض كبار الكتاب ومن بينهم الكاتب الانجليزى جورج برنارد شو بأنهم لم يسمحوا بإخراج كتبهم على الشاشة . وقد كتب لويجى بيرانديللو مقالاً فى إحدى المجلات الأدبية عام ١٩٢٧ يحاول فيه الإقناع بفشل الفلم الناطق

واليوم يتهافت كل كاتب وفنان على السينما ، ولا نستثنى أشدهم غلواً فى المحافظة والاتزان . فبرنارد شو نفسه لايشغله الآن شاغل أكثر من إعداد مسرحيتيه « جان دارك » و « بيجماليون » للسينما . فإذا علمت أنه قد أخرج له قبل ذلك مؤلفان ولم يلقيا نجاحاً يذكر ، إذا علمت ذلك ، أدركت قوة إيمان الكاتب الساخر بما كان يسخر منه

ولقد يعجب القارئ كذلك لو علم أن برنارد شو قد ظهر فى فلم طويل مع زميله جون درنكوتر وسيرأوستن تشمبرلن لمناسبة حفلات تتويج ملك الانجليز

ولقد أذيع أخيراً أن مستر ونستن تشرشل قد كلفه ألكسندر كوردا بعمل سيناريو عن حياة لورنس المعروف باتصاله بقضية العرب

ويعد هـ . ج . ولز الكاتب الانجليزى المبتدع فى طليعة الكتاب اهتماماً بالسينما ؛ فقد أخرج له ثلاثة كتب فى العامين الأخيرين كتب هو بقلمه سيناريو أحدها Hngs to Come



برنارد شو يتحدث إلى وندى هيلر التى تمثل دور البطولة فى فلم « بيجماليون »

ومثله نوبل كوارد وإن كان هـذا الأخير قد انفرد بتمثيل دور البطولة فى فلم أمريكى لم يعرض إلى الآن بمصر The Scoudrel ونال كلٌ من الفيلم وممثله نجاحاً كبيراً

ولقد شاهدنا أخيراً الموسيقار ليوبولدستكوفسكى وأوركستراه الشهير فى أحد الأفلام ، كما أن شركات السينما لا تدع جهداً فى سبيل التعاقد مع كل فنان يصلح مادة للسينما . وقلما يظهر فى عالم الفن كتاب أو مسرحية ناجحة دون أن تلقى اهتماماً من أحد الرواد . حتى لقد قيل إن إحدى الشركات راقها عنوان مسرحية فدفعت من أجل العنوان أربعة آلاف جنيه ولم تحفل بالموضوع

ولا أنسى فى هذا المجال الكاتب الفرنسى مارسيل بانيول صاحب « توباز » الذى ألف شركة سينمائية لإخراج كتبه





مستر ونستن تشرشل الذى يضع الآن سيناريو عن حياة الكبتن لورنس من شخصياته المغفور له الملك فيصل

كل هذه أمثلة أسوقها للتدليل على أن السينما قد أخذت تمتزج بالأدب وتتصل به اتصالاً وثيقاً وإنها وإن كانت متعة الجماهير ، فهى كذلك متعة للخاصة لا يعدلها شىء



هـ . ج . ولز فى ضيافة الطفلة الممثلة شيرلى تمبل بهوليوود

والسؤال الذى قد يتردد هنا : « ما مصير المسرح الآن ؟ »

محمد على ناصف

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧



6 me Année, No . 238 — Lundi - 24 - 1 - 1938

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العـدد ٢٣٨ « القاهرة في يوم الاثنين ٢٢ ذى القعدة سنة ١٣٥٦ — ٢٤ يناير سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة





الزواج الملكي السعيد

في صباح الخميس العشرين من يناير كانت مصر كلها نطاقاً من الولاء والدعاء والبشر حول قصر القبة العامر!

في هذا اليوم الموموق، وفي هذا القصر المرموق، وضعت مصر المجيدةُ الخالدة تاجها الثاني على جبين ملكتها الطاهر!

في الساعة الحادية عشرة من ضحى هذا النهار الضاحك كان مولانا الفاروق يتم نعمة الله عليه بالزواج الموفق الباكر!



هل رأيت قبل اليوم أمة بأسرها تحتشد هازجة في مهرجان؟

هل سمعت في غير مصر ستة عشر مليوناً يهتفون بالحب لإنسان؟

هل علمت قبل فاروق أن اتفق مثل هذا الحب لسلطان؟

* * *

المدافع المبشرة تقصف في كل ثكنة، والموسيقى المطرِّبة تعزف في كل ساحة، والنواقيس المجلجلة تجلجل في كل كنيسة، والمذياع الجهير يرسل الأناشيد في كل جو، وهتاف الشعب المبتهج يهزج في كل نسيم، وتصفيق الجماهير المحتشدة يُدوِّي

فى كل شارع ، وزغاريد العقائل والأوانس تنطلق من كل شرفة ، وأدعية الترفئة والتهنئة ترتفع من كل قلب ، وصوت الإمام المراغي ينبعث بالصيغة الشرعية من الحجرة الملكية رهيباً كأمر الله ، جليلاً كصوت الرسول ، فيربط بالدين قلباً بقلب ، ويصل بالدعاء ملكاً برب ، ويقرن فى الدنيا تاجاً بتاج

فهل رأيت بعين الحلم ما رأت عيناك فى هذا القران ؟

وهل سمعت بتاجين صاغهما الله من حب وإيمان ؟

وهل اجتمع الدين والدنيا لغير فاروق فى هذا الزمان ؟

***

عهدنا بنشوة العرس تبسط قلبي العروسين ؛ فإن زادت أبهجت قلوب أسرتين ؛ فإن زادت أنعشت نفوس قرية

ولكن عرس الفاروق بدعٌ من الأعراس لم يسجل مثله التاريخ . وإلا فمتى وأين كان العرس الذى يشعر كل مواطن أنه عرسه ، فى بيته فرحه وفى نفسه مرحه وفى قلبه أنسه ؟ لقد تبدلت الحياة غير الحياة فى ثلاثة أيام على ضفاف النيل المقدس . فالجهود المسخرة لأكلاف العيش تقف ، والعداوات المسعَّرة لمطامع النفس تبوخ ، والأقلام المتسافهة على وجوه الصحف تكف ، والقلوب المختلفة تأتلف على شعور واحد : هو أن وطنها مصر وملكها فاروق ! فلا وساطة بين الملك وشعبه ، ولا علاقة بين المرء وحزبه ؛ كأنما أصبح الناس من وحدة الهوى أسرة فى رُقعة أمة ، وغدا الفاروق من شدة العطف أباً فى عرش ملك !

***

قد يكون لعرس الفاروق أمثال تطاوله فى الفخامة وتفاضله فى السعة ؛ ولكن مزيته الظاهرة أنه عرس قومى ساهم فيه كل امرئ بنبض من قلبه وفيض من جيبه . فلم يبق بلد فى القطر ، ولا أحد فى الناس ، لم يقدم إلى العريس الأعظم هدية فاخرة ، أو تهنئة خالصة ، أو دعوة مستجابة ! وتسأل الملايين الوافدة من كل قرية ، والأمواج الدافقة فى كل طريق : أمصدر هذا البشر الذى يترقرق فى جباهكم ، ويتألق على شفاهكم ، هو هذه الأضواء الساطعة والزينات الرائعة والمباهج الخلابة ؟ فيجيبونك إنما هو حب المليك الصالح وجد متنفسه فى هذا الظرف السعيد فانقلب نشوة من نشوات السعادة يضيع فى حمياها التدافع بالظهور ، والتصادم بالصدور ، والنوم على الأفاريز ، والضلال فى الشوارع . وهم فى هذا المزدَحم الضاغط يتجهون إلى القصر ولا يذكرون غير الملك ، كما يتجه الحجيج الحاشد إلى البيت ولا يذكر غير الله !

***

مولاى يازين الشباب ! لَنِعْمَ المثل العالى لناشئة الجيل أنت ! إن فى برك بشعبك ، وفى إيمانك بربك ، وفى إحصانك فى بكور السن ، وفى إقدامك على عزم الأمور ، وفى ثباتك على تقلب الحوادث ، لدستوراً من الخلق العظيم تصح عليه القلوب المريضة ، وتنتعش به الآمال المهيضة ، وتشتد به العزائم الرخوة ، ويزكو عليه ثرى الوادى الحبيب الخصيب فيعود فينبت تلك الأدواح الشم التى فاء إلى ظلها وأكَلها العالمَ القديم فاغتذى واسترفه

***

مولاى يا أمير المؤمنين ! لنعم الامام العادل لدولة الإسلام أنت ! إن فى رفعك منار العدل ، وفى إيثارك جانب الحق ، وفى إعزازك كلمة الدين ، وفى تجديدك ما رثَّ من أسباب الخلق ، وفى إحيائك ما عفا من سنن السلف ، وفى أخذك نفسك الملكية الشابة بسمْت الرسالة وسيرة الامامة ، لومضةً من ومضات الروح الإلهى تبعث الحياة فى هذا الهيكل العظيم الرميم فتعيده قوياً كما نشأ ، عظيما كما شب ، حرياً بأن يبسط على الخافقين جناحه ، ويستأنف في المشرقين دعوته وإصلاحه

***

مولاى يا وريث الفراعين ! لنعم الملك الصالح لمصر العريقة أنت ! إن فى جمعك إلى مزاياك الخاصة رأىَ العبقرى محمد علي فى العُدَّة والقوة ، وحبَّ العزيز إسماعيل للحضارة والفن ، وميلَ العظيم فؤاد إلى الثقافة والعلم ، لضماناً لمصر الناهضة أن تساهم فى بناء المدنية من جديد ، وأن تصل حاضرها الطريف بماضيها التليد !

نضَّر اللهُ بالملكةَ السعيدة عهدك ، وثبّتَ الله على المملكة الرشيدة مجدك ، وأدام الله على الأمة المجيدة سعدك ، فإنك يا مولاى لدولتك ورعيتك ومِلّتك نعم المولى ونعم النصير

احمد حسن الزيات

زواج ملكى

للأستاذ عباس محمود العقاد

لورنس هوسمان أديب شاعر رسام إنجليزى اشتهر بمسرحياته الصغيرة التى كتبها عن حياة الملكة فكتوريا ونشرها أخيراً « نادى اليمين » الذى يعارض جماعة الشمال من أصحاب المبادئ الاشتراكية والدعوات الانقلابية . وإحدى هذه المسرحيات مقصورة على المناقشة بين اللورد ملبورن والملكة فكتوريا عن مسألة الزواج الملكى وقد دار فيها بينهما هذا الحوار :

فكتوريا — إننى لم أفكر فى أحد ما على التخصيص ... أعنى أننى لم آخذ بعد قراراً حاسماً

ملبورن — يفرج عنى أن أسمع هذا يا مولاتى ، وأفهم منه إذن أن صاحبة الجلالة لا تزال طليقة الرأى ...

فكتوريا — طليقة الرأى ؟ نعم . نعم ، لا شك أننى صاحبة الخيار فى الأمر يالورد ملبورن

ملبورن — وكيف لا ؟ هذا ما أعنيه طبعاً ولا أشير بغيره لحظة

فكتوريا — لكن هناك أموراً قد عقدت النية عليها وبتتُّ فيها

ملبورن — مثل ماذا ؟

فكتوريا — أن يكون زواجى يالورد ملبورن زواج عاطفة

ملبورن — ذلك مايستطاع تدبيره فيما أعتقد يامولاتى بغير مشقة

فكتوريا — أعنى أننى أريد إنساناً أجل خلائقه ، وأستطيع أن أحبه وأن أرتفع إليه

ملبورن — ترتفعين إليه ؟ !

فكتوريا — نعم يالورد ملبورن . وربما استغربت ماتسمع ؛ إلا أننى أريد زوجاً أتطلع إليه حقاً بعد أن تكمل له الدربة على المرتبة التى سيشغلها

ملبورن — آه . هو كذلك ، هو كذلك . إننى واثق من إمكان وجوده . وإذ كانت صاحبة الجلالة قد أعربت عن طلاقة رأيها فى هذا الصدد فعندى الساعة بيان بالأسماء المحتملة

فكتوريا — آه . لورد ملبورن ، ما أعجب هذا ! كم عددهم ؟

ملبورن — حسناً مولاتى . هم فى الوقت الحاضر خمسة وحسب ، ولكننا ننتظر آخرين ...

فكتوريا — تنتظرون ؟ !

ملبورن — أريد أن أقول إننا نستخبر خبرهم

فكتوريا — وكيف تستخبرون ؟

ملبورن — عن كل شيء يامولاتى ، وهو واجبنا المفروض علينا ، فليس من شأنى أن أعرض على صاحبة الجلالة أحداً يتجه إليه اعتراض على وجه من الوجوه

فكتوريا — وقد وجدت منهم خمسة حتى الساعة ... ما أرعك يا لورد ملبورن !

ملبورن — تحدثت يامولاتى عن « المحتملين » ... ولا يزال الاستخبار جارياً عن الآخرين ، وأنا قائم بالبحث الآن ، ولعله لا يبقى منهم بعد مراجعة صاحبة الجلالة غير واحد

فكتوريا — أود أن ألقى نظرة على بيانك يالورد ملبورن

ملبورن — إن أذنت مولاتى فبعد تمهيد وجيز عن الملاحظات التى تهدينى فى بحثى أعرض بيانى لنظر مولاتى ، ولموافقتها فيما أرجو

فكتوريا — لا يسعنى أن أوافق على خمسة !

ملبورن — على سبيل المراجعة الأولى لم لا يا مولاتى ؟ من خمسة يجرون تختارين السابق

فكتوريا — يجوز ألا أختار أحداً إلى زمن طويل ، ولكن على كل حال هات ما عندك . إننى مصغية ومهتمة

ملبورن — إن المزايا التى يمتاز بها قرين يليق بصاحبة الجلالة هي ولا ريب مزايا فريدة أو مزايا خاصة . ولعلى لا أعدو وصفها الصحيح إن قلت غريبة . فمن الواجب أولا أن يكون من سلالة ملكية ، ومع هذا يجب ألا يكون وارثاً مباشراً أو مرجحاً لعرش من عروش الملك أو الإمارة

فكتوريا — ولم لا يا لورد ملبورن ؟

ملبورن — لأن وراثته ربما جرت يا مولاتى إلى بعض

المشكلات السياسية . إن تاج هانوفر قد تجاوزك إلى غيرك لأن قانون الوراثة يقصر ولاية الملك على الذكور ، وتلك مناسبة سعيدة فيما أحسب ، فنحن لا نحب مزيداً من تيجان هانوفر ، وإن البلاد لأحسن حالا بغير تلك التيجان

ولنعد إلى المزايا المطلوبة يا مولاتي . فالقرين اللائق بصاحبة الجلالة ينبغي فوق عراقته الملكية وبعده عن وراثة العرش أن يكون أميراً من بيت لا هو بالصغير المفرط في الصغر ولا هو بالخطير المفرط في العظم . إذ لا مناص لنا من اجتناب المحالفات المعقدة . وينبغي بعد هذا أن يدين بالعقيدة البروتستانتية

فكتوريا — أجل . أجل . فليس في مقدوري أن أتزوج برجل « بابوي »

ملبورن — نعم يا مولاتي ليس في مقدورك . إن قانون الولاية يمنع ذلك . ثم ينبغي أيضاً أن يكون شاباً كي يصبح قرين حياة لصاحبة الجلالة ؛ وينبغي أن يعرف أو يتعلم اللغة الانجليزية ، وأن يكون صالحاً لاقتباس العادات والتقاليد القومية . وإن هـذه المزية الأخيرة لأصعبها جميعاً لما هو معروف من تحرج الانجليز مع الأجانب

فكتوريا — لكني يا لورد ملبورن أحسب ما تقول سيجعل الأمر مستحيلا

ملبورن — حاشا يا مولاتي . غاية ما هنالك أنه سيضيق نطاق الاختيار . ولا بد من العثور على أحد قادر بعد الاصطباغ بالصبغة الانجليزية أن يقتبس عاداتها ومشاربها . وقد حدث هذا فإن ابن عمك الأمير جورج أوف كامبردج مثلا يتخذ على عجل صورة الانجليزي المطبوع ، ولا تمضي سنوات خمس أو نحو ذلك حتى يتعود أن يجفو الأجانب كما يجفوهم

فكتوريا — لكن أتراك تجفو الأجانب يا لورد ملبورن ؟

ملبورن — كلا يا مولاتي ! كلا ! وإنما أصطنع جفاءهم بعض الأحايين لأسباب سياسية

فكتوريا — حسن . وماذا بعد ما تقدم ؟

ملبورن — يجمل به فوق ما تقدم يا مولاتي أن يملك بعض الثروة وإن لم تكن عظيمة ؛ فإن البرلمان سوف يتكفل بما هو لازم ؛ ويجمل به أن يكون صاحب سمت لائق بمقامه ، وأن يكون على جانب من العقل لكن على غير جانب عظيم منه !!! إذ لا يحق له أن يتعرض لشؤون السياسة

فكتوريا — هذا حق ، ولن أسمح له بالتعرض لتلك الشؤون

ملبورن — ثم ينبغي أن يكون صحيح الجسم سليم التكوين ، منحدراً من « أصل أصيل » ... وهذا أصعب ما عانيناه في المسألة إذ كان « الأصل الأصيل » في الأسر الأوربية المالكة من أندر الصفات

فكتوريا — وضح من فضلك ، فإني لا أكاد أفهم . ويخيل إلى أن كلمة « الأصل الأصيل » تنصرف إلى الماشية

ملبورن — هي كذلك يا مولاتي في بعض معانيها ؛ بيد أنها تعني أيضاً ما ينحدر من الوالد إلى الولد . ونحن نجدها في الوصية الثانية حيث تنبئنا أن خطايا الآباء تنصب على الأبناء ؛ وكذلك الفضائل . ففي بعض السلالات الملكية قد امتزجت الخطايا والفضائل حتى لنخشى المزيد من امتزاجها والخلط بينها . ولهذا كان القران بين الأمراء الأقارب غير محمود المشورة

فكتوريا — أوه !

ملبورن — أعني على الجملة لا على التقصي . وفيما يرجع إلى بعض الفروع من شجرة أسرتكم يا مولاتي ينطبق هذا لسوء الحظ أشد انطباق . ومن ثم لم أضمن بياني اسمي اثنين من أبناء عمومتك على الرغم من ذكرهما لي ، وإنهما لولا ذلك لكانا من أصلح المرشحين لتلك المكانة ، وهما صاحبا السمو الأمير إرنست والأمير ألبرت من ساكس كوبرج جوتا

فكتوريا — ومع هذا كانا يلوحان لي على أتم صحة وقوة عند ما رأيتهما منذ سنتين

ملبورن — في الظاهر يا مولاتي ، والظواهر طالما تخدع . والمسألة بعدُ دقيقة ، بل مؤلمة ، غير أني لم أضمن اسميهما — اتباعاً لما عندي من الأنباء الطبية — في البيان الذي أتشرف الآن بعرضه على صاحبة الجلالة (وينهض ويقدم إليها البيان فتعبره بلمحة واحدة)

فكتوريا — أوه . ولكن هل تراني أعرف أحداً منهم ؟

ملبورن — جلالتك تعرفين أحدهم حق المعرفة

فكتوريا — أوه . لا أحسب . أتعني الأمير جورج ؟ إنه ابن عمي أيضاً

ملبورن — في فرع آخر يا مولاتي ، وليس على هذا الفرع اعتراض من ذاك القبيل

فكتوريا — أوه ، لكننى لا أستطيع أن أقبل ابن عمي جورج ... إنه ... إنه

ملبورن — ليس من يريد أن يمس حق جلالتك فى اختيارك ... هناك غيره

فكتوريا — إلا أننى كما قلت لا أعرف أحداً منهم

ملبورن — يسهل إصلاح ذلك يا مولاتى . تدعينهم إلى البلاط واحداً واحداً ولا تقولين شيئاً ، ثم تصرفينهم ولا تقولين شيئاً . أو تقولين ما بدا لك ، ويبقى من يبقى ، أو يعود كرة أخرى

فكتوريا — لكننى أنا التى أختار . أليس كذلك ؟

ملبورن — نعم أنت التى تختارين يا صاحبة الجلالة ، ولا ضرورة تلجئك إلى الزواج إن أبيت

فكتوريا — أوه ، لكن لا بد من الزواج . هكذا كانت أمى تقول فى كل حين

ملبورن — وهكذا سمعت . على أن مسألة لها مثل هذه الخطورة قلما يسمح فيها لولاء البنوة أن يؤثر فى اختيار صاحب الجلالة . وإنما أقول يا مولاتى إنه على فرض أن هناك محاولة من محاولات التأثير على اختيارك فى وجهة من الوجهات فالواجب يقضى علىّ لما قدمت من أسباب أن أعارض

فكتوريا — لورد ملبورن ، إننى لن أقبل معارضة ما فى أمر من الأمور التى على هذا النحو . إنها لن تؤثر فى رأيي لحظة

ملبورن — لا ؟

فكتوريا — على التحقيق ، وربما أثرت على النقيض فى وجهة أخرى

ملبورن — فهمت يا مولاتى ، وأنا أشاطرك شعورك ، ولا أقول كلمة أخرى ، وإنما أكل المسألة إلى حسن رأيك ، وإلى ضميرك

فكتوريا — أوه ، ما أكرمك معى يالورد ملبورن ! وكم ذا أتعلم منك !

ملبورن — بل كم ذا أتعلم أنا من مولاتى . لقد خدمت ملكين أسن من صاحبة الجلالة ، إلا أننى لم أخدم أحداً يصغى إلى المشورة بما تبدين من حكمة وحسن إصغاء

فكتوريا — (ناهضة) أستودعك إذن يالورد ملبورن . أتبقى معك البيان أم تتركه هنا ؟

ملبورن — باذنك يا مولاتى . اذكرى ما قلته أو تفضلى بنسيانه ... فالاختيار لك وحدك وليس لأحد غيرك

فكتوريا — نعم ، ولكنك لم تُرنى بعدُ صورة من الصور

ملبورن — صوراً يا مولاتى ، ولماذا الصور ؟

فكتوريا — لا يسعنى أن أختار أحداً حتى أرى ملامح وجهه ، فليس هذا بالانصاف لهم ولا هو بالانصاف لى

ملبورن — تستطيعين أن تأمرى بدعوتهم .

فكتوريا — كلا ! لا أنوى أن أدعو أحداً إن لم يعجبنى مرآه

ملبورن — إن الصور لخادعة فى بعض الأحيان يا مولاتى

فكتوريا — هذا صحيح . وقد رأيت منذ أيام صورة لابن عمى الأمير جورج أوف كمبردج ؛ فاذا به يلوح فيها وهو جميل

ملبورن — أستطيع أن أحصل على صورهم جميعاً يا مولاتى حسب مشيئتك ، ولكن المصورين فى البلاط — مثلهم كمثل رؤساء الوزارات — يعرفون واجباتهم ، ولا يعملون إلا ما هو منظور منهم أن يعملوه ، فإن لم يقدروا على عمله فعليهم أن يذهبوا

فكتوريا — (وهى ذاهبة إلى المائدة) ... هذه صورة أرسلت إلى والدتى منذ أيام : صورة ابن عمى الأمير البرت

ملبورن — (وقد تبعها إلى المائدة) ... أوه .. آه . نعم

فكتوريا — لا شك أنه نشأ جميلاً . ليس فى استطاعة مصور بلاط أن يتخيل صورة على هذا المثال

ملبورن — من يدرى يا مولاتى ؟ من يدرى ؟ إن الخيال ليجمح . . . فأما وقد استغنينا عن بيان الأسماء فهل أمضى الآن في جمع الصور لصاحبة الجلالة ؟

فكتوريا — أوه . كلا ! يا لورد ملبورن . لم أكن جادة حين ذكرت هذا

ملبورن — ولا أنا يا مولاتى . إلا أننى أتوسل إلى صاحبة الجلالة أن تفكر فى هذا الأمر جادة . . . إن مصير هذه البلاد لفى هذه اليد الصغيرة « وينحنى على يد الملكة مقبلاً »

***

هذا الحوار طريف شائق مفيد من جوانب كثيرة ، لأنه

الملك الشاب

رمز الأماني الجديدة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

من أعجب الحقائق التي تقوم عليها الحياة في الجماعات الإنسانية أن جملة آرائها وعقائدها وغاياتها ، هي آراء موتاها وعقائدهم وغاياتهم ، وكل أمة تعرف ضرباً من تحكم الموتى في حياة الأحياء . ومن أمثلة ذلك : الوصية التي يتركها الذين يرحلون عن هذا العالم الفاني ، ويخلّفون بها مالهم لهذا أو ذاك ، بلا شرط أو بشرط يحتمون على الوارث التزامه . ومن أمثلته عندنا الوقف الذي تبقى شروطه نافذة جيلا بعد جيل ، ولا يكاد أحد يملك تغييراً لها ، أو يعرف له حيلة فيها إلا النزول على حكمها . وكل من يعرف شيئاً من التاريخ لا يسعه إلا أن يفطن إلى سيطرة الماضي على الحاضر ، وإلى أن عقول الذاهبين هي التي تسير الأحياء ، أو تقيدهم كما يقيد الواقف ورثته ويحدّ من تصرفهم فيما يخلّف لهم . وأضرب مثلا قريباً لهذا ما نزال نقرؤه في الصحف ونسمعه من أفواه الناس ، من قولهم : «مبادىء سعد» . وقد انتقل «سعد» إلى رحمة ربه ونفض يده من شئونها ، وخلا قلبه من همومها وآمالها ، ولكن يده لاتنفك تمتد من ظلمة القبر ، وتدير الرؤوس إلى هنا وههنا . وليس من همي في هذه الكلمة أن أستقصي كل مظاهر هذه الحقيقة الثابتة ، فان حسبي أيسر الاشارة إليها ، وفي مقدور كل قارىء أن يتوسع كما يشاء في رد حاضر الجماعة إلى ماضيها القريب والبعيد . وكل ما أريد أن أقوله هو أن كل ماتنطوي عليه الجماعة من آراء سياسية أو اجتماعية ، وما لها من عادات وخصائص ، له تاريخ طويل ، وأن كل جيل يجيء يتلقى هذا الميراث عن سلفه ، وأن التغيير الذي يقع لا يكون في العادة إلا بطيئاً . وكثيراً ما يخفى أمره حتى على الذين يكونون أداة له ، ولكنه يتفق أحياناً أن يقع للجماعة حادث أو حوادث ترجّ كيانها وتزلزل قواعد حياتها وتفكك الإطار الذي يحيط بصورتها الثابتة ، وتبت صلتها — إلى حد ما — بماضيها الطويل ، وتغريها بالتماس طابع آخر غير الذي درجت عليه ، وتدفعها في اتجاه جديد ، بروح جديدة ، وخصائص لا تطابق كل المطابقة ما كان مألوفاً ومعهوداً فيها .

وقد حدث هذا في مصر مرتين فيما أعلم ، فأما في المرة الأولى فكانت الرجة التي أحدثت الانقلاب السياسي والاجتماعي سببها الثورة التي قامت في سبيل الاستقلال ، وهو انقلاب بعيد المدى ما على من يشك فيه إلا أن يرجع البصر إلى ما كانت عليه حياتنا معشر المصريين قبل هذه الثورة ، وما صارت إليه بعدها ؛ وقد تناول كل وجه من وجوه حياتنا السياسية والاجتماعية ، ولم يسلم منه شيء . وقد كان من الممكن أن يقع هذا التحول بغير حاجة إلى زلزلة الثورة ورجاتها العنيفة ، ولكنه كان خليقاً أن يكون بطيئاً جداً ، وغير محسوس ، وعلى أجيال طويلة ؛ غير أن الثورة القومية عجلت به ، من حيث نشعر ولا نشعر ، فأصبحنا فإذا نحن أمة أخرى ، لها في الحياة آراء جديدة ، وعزمات لم تكن معهودة ، وآمال وهموم ومساع لا نكران أنها كانت تدور في نفوس البعض ، ولكن السواد الأعظم كان ذاهلاً عنها ، وقد لا تكون هذه الثورة التي انطلقت من عقالها في سنة ١٩١٩ سوى موجة صغيرة من ذلك البحر الأعظم الذي أزخرت الحرب

يرينا نمطاً من أدب الحديث بين الملوك والوزراء في بلاط الإنجليز، ويرينا نمطاً من الشروط السياسية التي تلاحظ في زواج الملوك الأوربيين والملكات الأوربيات ، ويرينا نمطاً من اللياقة التي يتذرع بها الساسة هناك إلى تصريف المسائل الدقيقة . ويحسن الاطلاع عليه ، والأمة المصرية تبتهج بزفاف المليك الفاروق حفظه الله وأدام أيامه ، ليتم الاطلاع على الفارق بين تقاليدنا وتقاليد الغربيين في هذه الشؤون ؛ فقد فرض العرف القديم وفرضت المواقف السياسية قيوداً على ملوك الغرب لا محل لها من العادات الإسلامية والشرقية . ومن ثم كان زواج الملوك المصريين أقرب إلى الديمقراطية وإلى الحرية وإلى المعاني الإنسانية مما يكون بين الأمم الغربية ، وهي فيما توحيه الظواهر مهد الحرية في مسائل الزواج .

عباس محمود العقاد

تياراته التي ما فتئنا نرى فعلها وأثرها في أمم أخرى كثيرة غيرنا، ولكن هـذه الموجة الصغيرة كانت حسبنا، وقد جاءت بالاستقلال آخر الأمر، ولكنها جاءت بشيء آخر، فكانت ختام عهد في حياة الأمة، وبداية عهد غيره له طابع مختلف جداً.

وهنا موضع الكلام في المرة الثانية، وبها يتم التحول الذي بدأته الثورة.

كانت قيادة الأمة في الثورة التي استعرت في سنة ١٩١٩ للشيوخ، وكان الزمام في أيديهم، وكان العبء السياسي على كواهلهم، وكانوا ولا شك يمثلون آراء البلاد واتجاه النفوس فيها، وقد فازوا لأمتهم بما كانوا ينشدون لها، والذي جادوا به هو الذي قدروا عليه، ولو كان في الوسع مزيد لزادوا، ولكنهم تولوا أمراً لا يسعهم فيه أكثر مما وفقوا إليه. وقد أصبحنا بذلك أمة مستقلة، ولكنا أصبحنا بهذا أيضاً أمة محتاجة إلى مثل عليا جديدة، ومساع غير تلك التي بلغتنا هذه القاصية — قاصية الاستقلال — وقد كنا خلقاء أن نشعر بالحيرة والارتباك لو لم يقع ذلك الحادث الجديد الضخم في حياتنا، وهو ارتقاء الملك الشاب فاروق الأول عرش البلاد. ذلك أن شيوخ الأمة لا يستطيعون أن يمثلوا أكثر مما مثلوا، ولا يسعهم في العهد الجديد أن يكونوا رمز الآمال الجديدة التي أنشأها تغير كياننا السياسي

لقد صرنا أمة حديثة، كأنما أفاض عليها الاستقلال ثوباً من الشباب النضير، فهي أحس بفيض الحياة وقوتها منها بما خلعت ونضت من الهلاهيل التي كان الاستعباد يكسوها، وما صدعت من القيود العارقة التي كانت تقعد بها عن السعي وتلزمها سكون الوهن وعجز الشيخوخة. والأمم في مثل هذه الحالة يقل صبرها على حكم الأيدي التي تمتد من وراء القيود، ويكون همها ما أمامها من حياة لا ما خلعته عنها من أكفان الذلة والهوان، ويكون مطلبها رمزاً تتعلق به آمالها وترحب به آفاقها

وقد قيض الله لها ذلك الرمز، فولى أمورها ملكاً غض الشباب، شامت الخير كله من لمحاته، وآنست الرشد أجمعه من حركاته وسكناته، فافتتنت به، ولها العذر واضحاً، والحق صريحاً فما يمثل آمال الشباب إلا الشباب، وهـذا هو بعض السر في السحر الذي لملكنا: إنه شاب فياض الحيوية زاخر الآمال عظيم الثقة بأمته ومستقبلها، شديد الإيمان بالله وبالمجد الذي كتبه تعالى لها، وإنه قام على العرش قبل أن تدرك الحيرة شعور الشباب في الأمة؛ وقد كان المغفور له الملك فؤاد يدرك ذلك، ولهذا أعده للعهد الجديد خير إعداد

ومن فضل الله على الأمة أنه ملك سمح عظيم مروءة النفس، ومتواضع كريم، ورقيق حليم، ووثاب بعيد مرامي الهمة، وصادق العزم صارم الإرادة، وعالي المنزع شديد الطموح، يحب الأمة ويثق بها فإذا كان قد سحر الأمة فلا عجب. بل العجب العاجب ألا يسحرها.

ومن هنا فرحة الأمة به، وبكل ما يفرحه

وأمر آخر يجعل الأمة أعمق حباً له، وأشد تعلقاً به، ذلك أنه ليس مديناً بعرشه إلا لله جل جلاله، فقد ورث عرشه بحقه الصريح فيه، فهو لا يمكن أن يشعر بغير فضل الله عليه، وهو لهذا أول ملك حر في مطلع عهد الحرية، والأمة تدرك هذا حق الإدراك، ولهذا يفيض قلبها بالحنو والحب كلما رأت مظاهر توجهه الصادق إلى الله تعالى

ويشاء الله أن يجعله موفقاً في كل عمل، فقد أسر قلوب الشعب يوم خطب لنفسه من بنات رعاياه، وقد صارت اليوم ملكتنا بسنة الله الرضية. ولو أنها كانت بنت أعرق الملوك لما كانت أحب إلى هذه الأمة، ولا أندى على قلوبها، ولا أجل في عيونها، ولا أسمى فيما تحس نفوسها

لقد خلط الملك نفسه بنفوس أمته، فهي تشعر أنها منه وإليه. وتحس أنه ملكها بأدق ما تفيده هذه الاضافة من معنى

بارك الله في الملكين، وهنيئاً لهما وللأمة

إبراهيم عبد القادر المازني

مهرجان المليك

للأستاذ محمود الخفيف

بَكَرَت تُفْصِحُ عن وجدانها ... أُمَّةٌ حُبُّكَ من إيمانها
طَرِبَ الليلُ على أوضاحها ... وانجلى الصُّبْحُ على ألحانها
وصحا الشرقُ على موكبها ... وسِمَاتِ العيد في أوطانها
شاعَتِ الرَّوعةُ في أفراحها ... وتجلَّى الصِّدْقُ في بُرْهانها
أعلَنَتْ بعضَ الذي تُضْمِرُهُ ... من مَعانٍ هن في إمكانها
أبدًا لم تَطلُع الشمسُ على ... مِثلِ ما تُبدِيهِ في إعلانها
مَرَحٌ في كلِّ نادٍ ومُنًى ... تعجز الألسُنُ عن تبيانها
وأحاديث كأنفاسِ الربى ... تَنْهَلُ الأنفسُ من ريحانها
وأغاريدُ كما شاء الهوى ... رَنَّةُ الإخلاص في تحنانها
وَقْعُها في القلبِ أحلى نَغْمَةً ... من هتاف الورْق في أفنانها
اسمُكَ الميمونُ في مَطلعِها ... والولاء الحقُّ من أوزانها

***

مهرجانُ العُرْسِ لم يسلف به ... زمَنٌ في الغُرِّ من أزمانها
لا ولا الشَّرْقُ رأت آفاقُهُ ... مِثلَ هذا السحرِ في أركانها
عزَّ في الهندِ على أقيالها ... وعزيزُ الدُّرِّ في تيجانها
وعلى هرون في أفراحه ... وليالي الأنس من بغدانها
وأنو شروان في دولته ... والملوك الصِّيد من ساسانها
مهرجانٌ تشخصُ الدنيا له ... ومعاني البِهْرِ في أجفانها
طاوَلَ الشمسَ سناءً وسنًى ... وارتدى ما جلَّ عن عِقيانها
لَبِسَ الوُدَّ على زينتهِ ... ومعاني الحب في رَيْعانها
زهراتٌ لم تُقلِّبْها يدٌ ... أين غالي الدُّرِّ من أثمانها
لم تَشُبْهُ خُدَعُ الدنيا ولا ... سَطوَةَ الزائف من سلطانها

***

صَفْحَةُ الوادي عليها رَوْنَقٌ ... يَمْلِكُ الحُسْنَ على شُطْئانها
أخذَتْ زُخْرُفَها وازَّيَّنَتْ ... ببديعِ الوَشْيِ من ألوانها
وانحنى النهرُ عليها مُعْجَبًا ... يَغبطُ الفُلْكَ على رُبَّانها
هزَّتِ الواديَ من أركانه ... فَرْحَةٌ واتتْهُ في إبَّانها
هاهنا وَرْدٌ، وريحانٌ هنا ... ورموزٌ زِيدَ في إتقانها
وطيوفٌ حُوَّمٌ خافقةٌ ... أرسلتها الخُلْدُ عن ولدانها
وجموعٌ تلتقي مَزْهُوَّةً ... بضروب اللهو في ميدانها
فَرْحَةٌ في الكوخ والقصر معًا ... في قرى مِصْرَ وفي بلدانها
في صعيدِ الأرض، في أبطحها ... في ربوع النيل من سودانها
يَلْتقي الناسُ عليها عُصْبَةً ... شيبُها والغُرُّ من شبانها
زُمْرَةُ المحراب من أشياخها ... ورُعاةُ الدَّيْرِ من رُهبانها
صاحبُ الجاه على تُرْبتها ... ومُجيلُ الفأس في غيطانها
ردَّها في العَيْنِ أبهى مَنْظَرًا ... قُرَّةُ الأعْيُنِ من غلمانها
أقبلَت والحسنُ في غُرَّتها ... تُبهِجُ النظَّارَ من ضيفانها
دلَّهَتْ مِصرَ وفاضت فسرت ... هِزَّةٌ منها إلى جيرانها

***

مَلِكَ النيلِ تلاقت أُمَّةٌ ... أفصحت بالبِشْرِ عن شكرانها
شكرت بعضَ الذي أسديتَهُ ... فتهانيها صدى عرفانها
لكَ في الخير يدٌ هطَّالةٌ ... لا تني تُغْدِقُ من إحسانها
وسجايا قد تفرَّدْتَ بها ... أجمعَ الشعبُ على استحسانها
قد حملتَ العبءَ فيها يافعًا ... فتشأوتَ الشمسَ في ميزانها
إن دجا الرأيُ عليها والتوى ... فسنا رأيِكَ من فُرْقانها
عَشِقَتْ فيكَ شبابًا ناضرًا ... دبَّ مثلَ الروح في جثمانها
تُقبِلُ الدنيا فلا تزهى بها ... وتطيع اللهَ في عصيانها
زدتَ بالتقوى جلالًا وهدًى ... وأوَتْ منكَ إلى عُنْوانها
أنبتَ المجدُ بمصرٍ دوحةً ... أنت أزكى الشُّمِّ من عيدانها
يا مليكًا باهت الدنيا به ... أمةٌ تُعليك عن رُعيانها
أنت يا فاروقُ في مقلتها ... وهيَ كالمقلةِ من إنسانها

الخفيف

من الأعراس الإسلامية الشهيرة

زواج قطر الندى الطولونية بالخليفة المعتضد بالله

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت الدولة الطولونية أولى الدول الاسلامية المستقلة بمصر، وكانت أقصرها حياة، ولكنها لم تكن أقلها قوة وبهاء، فهي لم تعمر سوى سبعة وثلاثين عاماً (٢٥٤ — ٢٩٢)، ولكنها سطعت خلال حياتها القصيرة كما تسطع الدول العظيمة. ثم انهارت فجأة كأنها صرح أسس على الرمال، ذلك لأنها كانت تدين بوجودها وقوتها لمؤسسها العظيم أحمد بن طولون؛ فلما توفى أحمد فى سنة ٢٧٠ هـ، وخلفه ولده خمارويه، لبثت الدولة مدى حين تحتفظ بلونها الزاهر؛ ولكن عوامل الانحلال السريع كانت تعمل لتقويض دعائمها التى لم تكن قد رسخت بعد. وكان خمارويه أميراً مترفاً ينثر حوله ما استطاع من ألوان الفخامة والبهاء، فعنى بتوسيع القطائع[1] وتجميلها عناية فائقة، وزاد فى قصر أبيه زيادات كبيرة، وأنشأ له قصراً خاصاً بذل فيه من صنوف البهاء والبذخ آيات عجيبة، وجعل فيه بركة من الزئبق الخالص، وديواناً ملوكياً نحاسياً عليه قبة عظيمة، وداراً للسباع، ومسارح للطيور وغيرها. وكانت هذه الألوان الزاهرة تسبغ على الدولة الطولونية مظهراً بارزاً من القوة والعظمة، ولكن النضال المستمر الذى اضطرت إلى خوضه كان يستغرق قواها ومواردها، ويعرضها لتلك الزعازع والمفاجآت التى تنذر الدول الناشئة بالفناء الكامل

وكانت الدولة الطولونية تستظل منذ قيامها بلواء الخلافة الإسمى؛ ولم يشأ مؤسسها النابه أن يخرج على هذه السلطة الروحية التى يستمد منها شرعية حكمه واستقلاله. وحذا ولده خمارويه حذوه، فدعا للمعتمد العباسى، ثم دعا من بعده للمعتضد. على أن هذا الاستظلال الإسمى بلواء الخلافة لم يحل دون تعرض الدولة الطولونية لهجمات عمال الخلافة وأوليائها الآخرين. واضطر خمارويه، كما اضطر أبوه من قبل أن يخوض غمار معارك دفاعية متصلة؛ ولما ولى المعتضد الخلافة فى أواخر سنة ٢٧٩ هـ، بعث إليه خمارويه بالهدايا الملوكية المعتادة، فبعث إليه المعتضد بكتاب الولاية والخلع التقليدية، وانتظمت العلائق الودية بين الخلافة والدولة المصرية، بشروط وعهود معينة. ورأى خمارويه من جهة أخرى أن يوثق هذه العلائق بمشروع مصاهرة اقترحه على الخليفة، وهو أن يزوج ابنته أسماء الملقبة بقطر الندى لولده وولى عهده المكتفى بالله؛ فوافقه المعتضد على هذا المشروع على أن يتزوج هو قطر الندى. واغتبط خمارويه بعقد هذه الصلة الوثيقة بينه وبين الخلافة، وبعث الخليفة مندوبه وصديقه الحسن بن عبد الله الجوهرى المعروف بابن الجصاص إلى مصر ليتولى إحضار العروس إلى بغداد، وليشرف من قبله على أهبات القران الخلاق.

***

وكان زواج المعتضد بقطر الندى من أعظم الحوادث الاجتماعية فى التاريخ الإسلامى، وكانت هذه الأميرة المصرية النابهة من أجمل نساء عصرها وأكملهن فى العقل والخلال؛ وكانت وقت خطبتها صبية فى نحو الخامسة عشرة؛ وكان أبوها خمارويه يعبدها حباً؛ فلما وقع الاتفاق على زواجها من المعتضد أحيط عقدها وزفافها بأروع ما يتصور الانسان من مظاهر الفخامة والبهاء. وكان صداقها ألف ألف درهم، ولكن خمارويه أنفق فى تجهيزها أضعاف أضعاف هذا القدر. وكان جهازها مضرب الأمثال فى البذخ الطائل الذى تكاد تحسبه من مناظر ألف ليلة وليلة. وقد نقلت إلينا الرواية بعض تفاصيل مدهشة عن جهاز قطر الندى وزفافها؛ فذكرت لنا أن خمارويه قدم لابنته فيما قدم دكة أربع قطع من ذهب وعليها قبة من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة جوهر لا تقدر، ومائة هون من ذهب؛ ومن الحلى والثياب روائع يعجز عنها الوصف، حتى قيل إن من بينها ألف تكة من الحرير قيمة الواحدة منها عشرة دنانير؛ وهى واقعة ينوه بها المقريزى ويتخذها دليلا على بذخ هذا العصر الطائل، ويقول لنا إن أسواق القاهرة في عصره أعنى فى أوائل القرن التاسع كانت تعجز عن أن تقدم تكة واحدة بهذه القيمة؛ ويقول لنا القضاعى إن ابن الجصاص، وقد تولى

(١) القطائع عاصمة الدولة الطولونية، وكانت تقع فى شمال شرق الفسطاط فيما بين جامع ابن طولون وجبل المقطم

إعداد الجهاز والاشراف على النفقة تحقيقاً لرغبة خمارويه ، حينما قدم إليه ثبت النفقة ذكر له أنه لم يبق منها للتسوية سوى « كسر » قدره أربعمائة ألف دينار ، وإذن فما بالك بالنفقة كلها إذا كان هذا كسراً منها فقط ![1]

وفى أواخر سنة ٢٨١ هـ ، تم تجهيز قطر الندى ، واتخذت الأهبة لارسالها إلى الخليفة . وهنا أيضاً يجب أن نرجع الذهن إلى قصص ألف ليلة وليلة ، لكى نتصور ما أحيطت به رحلتها من مصر إلى بغداد من مظاهر النعماء والفخامة والترف . فقد شاء خمارويه أن يجعل لابنته من تلك الرحلة الشاقة نزهة بديعة ، فأمر أن يقام على طول الطريق من مصر إلى الشام ثم إلى بغداد فى نهاية كل مرحلة منزل وثير تنزل فيه قطر الندى وحاشيتها ، وتتمتع فيه بجميع وسائل الراحة . وأنفقت فى هذه الرحلة مبالغ طائلة ؛ وخرجت قطر الندى من القطائع فى ركب ملكى عظيم يشرف عليه ابن الجصاص مندوب الخليفة وجماعة من الأعيان ، ومعها عمها شيبان بن أحمد بن طولون ؛ وصحبتها عمتها العباسة إلى آخر حدود مصر من جهة الشام ؛ « وكانوا يسيرون بها سير الطفل فى المهد ، فاذا وافت المنزل وجدت قصراً قد فرش ، فيه جميع ما يحتاج إليه ، وعلقت فيه الستور ، وأعد فيه كل مايصلح لمثلها فى حال الاقامة ، فكانت فى مسيرها من مصر إلى بغداد على بعد الشقة كأنها فى قصر أبيها تنتقل من مجلس إلى مجلس »[2]

ووصل ركب قطر الندى إلى بغداد فى فاتحة المحرم سنة ٢٨٢هـ فأنزلت فى دار صاعد . وكان المعتضد غائباً بالموصل ، فلما علم بقدمها عاد إلى بغداد ، وزفت إليه فى الخامس من شهر ربيع الأول في حفلات عظيمة باذخة أسبغت على بغداد مدى أيام حللا ساطعة من البهاء والبهجة . وسحرت قطر الندى الخليفة بجمالها وخلالها البارعة ، وتفوقت فى حظوتها لديه على سائر حظاياه . ومما يروى أن المعتضد خلا بها ذات يوم فى مجلس أنس ، فلما ثقل رأسه من الشراب وضع رأسه على حجرها ، فلما استغرق فى النوم ، وضعت رأسه على وسادة وغادرت المجلس ؛ فلما استيقظ ولم يجدها استشاط غضباً وناداها وعنفها على تصرفها ، فأجابته : « يا أمير المؤمنين ماجهلت قدر ماأنعمت به علىّ ، ولكن فيما أدبنى به أبى أن قال : لاتنامي مع الجلوس ، ولا تجلسى مع النيام[3] »

محمد عبد الله عنان

(١) المقريزى فى الخطط (الطبعة الأهلية) ج ٢ ص ١١٢

(٢) المقريزى فى الخطط ج ٢ ص١١٣ (٣) ابن خلكان ج ١ ص ٢١٨



« كل شىء يزدهر فى مملكة تمتزج فيها مصلحة الشعب بمصلحة الملك » تلك كلمة قالها « لابروبير » فى كتابه « الأخلاق » تقابلها كلمة أخرى في كتاب للهند عن رجل دخل على مليكه فقال له : « أيها الملك إن بقاءنا موصول ببقائك ، وأنفسنا متعلقة بنفسك .. »

وضعتنى هذه الأقوال لحظة موضع التأمل وقلت فى نفسى إن هذه النظرة إلى « الملك » لا يمكن أن تكون وليدة الأوضاع الاجتماعية وحدها أو المبادىء السياسية أو العقائد الدينية . فالشرق والغرب لا يتفقان هكذا إلا على شىء يخرج من نبع طبيعتنا الانسانية . إن الشعوب منذ فجر حياتها كانت دائماً ترى الأمة هى الجسم والملك هو « الرأس » بمعناها الطبيعى « الفسيولوجى » . هذا صحيح لاريب فيه ، والملك هو الحاكم المطلق فى نظام الملوكية المطلقة . أما والأمة فى النظم الديمقراطية هى التى تتولى الحكم فمن الحق أن نتساءل عن صحة تلك النظرة القديمة . قليل من التأمل يهدينا إلى هذه النتيجة : إن الأمم فى شبابها كالفتى ، تستهوى عقله كل مظاهر القوة ، وتسيطر على رأسه كل أحلام الفتوة ؛ فهى تجمع كل السلطة لتعطيها ذلك الحاكم المطلق الذى يدير كيانها ويحرك جسمها ويهز عضلاتها ، إلى أن تمضى أيام الصبا وفورة الشباب وتدخل الأمة فى طور الرجولة والاستقرار ، فتحزم أمورها المادية بنفسها ، وتترك مليكها يشتغل بما يشتغل به الرأس الحقيقى من شئون الفكر ومسائل الثقافة . وهنا نرى الملك فى الشعوب الديمقراطية قد انصرف عن وظيفة الحكم المادى إلى وظيفة أخرى تشبه وظيفة الرأس فى جسم الانسان المفكر ، فينقطع هو إلى التوجيه الفكرى لأمته وتشجيع العلوم والآداب والفنون ، وختم كل مظاهر النشاط الأدبى والمادى فى الدولة بطابع الحضارة . فالملك فى كل زمان ومكان هو الرأس دائماً ؛ على أنه فى الأمة الفتية رأس فتى ، وفى الأمة العريقة رأس رجل .

توفيق الحكيم

زفاف ملكة القلوب
ويلهلمينا الهولندية

للأستاذ محمد لطفى جمعة

أخى الأستاذ صاحب الرسالة:

تفضلت فطلبت إلىّ أن أكتب فصلاً يتصل بزفاف أحد ملوك الغرب بمناسبة الأفراح الفذة النادرة التى تقام فى القاهرة لقران الملك الصالح السعيد فاروق الأول، فصادف تفضلك هوى فى نفسى لأننى أشعر نحو شخص جلالته بحب وتقدير لا يعدلهما إلا ولائى لعرشه واستبشارى وتفاؤلى بعهده. وأعتقد أن عاطفتك نحو جلالته إن لم تزد على عاطفتى فى هذا المضمار فهى تساويها لأن هذا الملك الشاب أثَّر أول ما أثَّر فى قلوب المثقفين المهذبين أمثالك، ولذا رأيتَ أن تقف عدداً من رسالتك أو معظمه على مشاركة الأسرة والأمة أفراحهما، ونعمت الفكرة الملهمة التى ستلقى قبولاً ورضى من قرائك كافة فى سائر أنحاء العالم العربى.

***

وأول ما خطر ببالى زفاف ملكة هولاندا ويلهلمينا وزوجها الأمير ألبرت وقد شهدته بنفسى إذ كنت فى سياحة فى تلك البلاد العجيبة[1] التى هى أقرب إلى القطر المصرى بوديانها وخضرتها ومزارعها الناضرة وأخلاق أهلها الوادعين، وكانت الأميرة ويلهلمينا نفسها تدعى «ملكة القلوب» لما حباها الله من الجمال والجلال ورقة الحاشية، فكانت محبوبة من شعبها وإن نسب الحاسدون إليها شيئاً من الكبر والخيلاء وزعموا أنهما زالا مع الزمن بعد أن أحسنت القيام على حكومتها فى رفق ولطف سياسة، وأصبحت بصيرة بوجوه التدبير والإدارة، خبيرة بتصريف الأمور، حتى كتب «فان كيكم» أحد وزرائها عقيب زفافها يقول: «إن ملكتنا أعقل أهل المملكة» ووافقه على ذلك من زفاقه الوزراء من كان لا يزال يرقب الملكة عن كثب ويدرس أحوالها وينظر إلى مستقبلها فى اسطرلاب الحوادث المغيبة.

(١) تسمى هولاندا مصر أوروبا لأنها تضارعها فى الخصب والزراعة وتزيد عليها أن لها مستعمرات كبيرة فى الشرق من بقايا أيام قوتها وهى تنتج الكاكاو والأرز والشاى وأنواع العطارة والبخور.

كان البرنس ألبرت خطيب الملكة من صفوة أشراف الطراز الأقدم، وكان قد ورث ثروة طائلة عن آبائه واتخذ لنفسه معلمين من الانجليز بعد أن نال إجازات من جامعتى برلين واكسفورد، وآوى إلى ضياعه التى يملكها فى هولاندا فغرس بستاناً على نمط جديد، وابتنى لنفسه قصراً على خطة من بنات فكره، وجعل ينفق فى سبيل العناية بالمثوى وتمهيد البستان وتنظيمه ما شاء الجمال وحسن الذوق، حتى استنبت أزهاراً نابغة من الخزامى والورد الأزرق

وكان يعلم أن الملكة الشابة تحبهما وتختارهما وتفضلهما على غيرهما من الأزهار فأهدى إلى جلالتها كل ما أخرجه البستان من الورد الأزرق الغض والخُزامَى، فأصبح من أقرب الأمراء إلى البلاط، وقبلت الملكة ووالدتها دعوته إلى حفلة شاي أنيقة أقامها فى عيد ميلادها فى قصره، وكانت الملكة الوالدة قد آمت[1] من زوجها وكسرت شبابها على تربية ابنتها «ويلهلمينا» وتثقيفها وإعدادها للعرش إذ كانت ولية العهد والوارثة الوحيدة بعد أبيها وفى تلك الحفلة ظهر البرنس ألبرت أجمل مظهر وأبدعه وأروعه وكان فتى رشيق القد ممشوق القامة يختال فى حُلة عسكرية فائقة. ولما علم بدنو موكب الملكتين (الوالدة والجالسة على العرش وهى التي زفت إليه بعد قليل) امتطى صهوة جواد سابح ينهب الأرض وراح يستقبل موكب المركبة الملكية، ولم تكن السيارات قد ملأت العالم كما هى الآن، فوقع من قلب الملكة الشابة خير موقع، ورنت إليه بعين الرضى والسرور حتى أنه أثناء الحفلة أوعز لأمه الأميرة بياتريس أن تلمح إلى الملكة الوالدة لتجس نبضها فى الخطبة فانتهزت الأميرة فرصة الرضى وفاتحتها، فابتسمت وقالت: «إن فى أمور الدولة ما يشغلنا عن استعجال المتوقع، وفى انتظار الفرص ما يصرفنا عن استدراج البعيد» ثم أمرت لا بنتها ما أمرت،

(١) آمت: تأيمت من زوجها ومكثت زماناً لا تتزوج

فتهلل وجه الملكة الشابة التي ما زالت ترنو إلى الأمير وتخالسه النظر فى إعجاب وحياء . وفى الواقع أن الأمير كان خير من يصلح للملكة على الرغم من إقبال الأميرات الأجنبيات عليه ومبالغتهن فى إظهار ميولهن وأمانيهن بأن تكون واحدة منهن عروساً له . ولكنه كان عنهن منصرفاً لا يكاد يكترث لهن ، فأوّلن ذلك بأنه لا بد أن تكون لقلبه سيدة استأثرت باحتلاله وامتلاكه والتربع على عرشه . وكن فى حديثهن صادقات

وكذلك كانت فئة كبيرة من الأمراء يمللون أنفسهم بحظوة القرب من الملكة الشابة والارتباط بينها المالك برابطة المصاهرة والنسب ، ولكن والدتها ووزراءها والقيمين عليها كانوا يفضلون أميراً من خلاصة الشعب وسلالته كما فعل جلالة مليكنا المحبوب أعزه الله

وكانت ويلهلمينا الملكة الشابة فى السابعة عشرة من عمرها . كان يضىء محياها الجميل عينان زرقاوان براقتان كأنهما نبعان من ينابيع ماء الحياة ، ومن العجب أن ترى جذوة النار فى زرقة البحر ! ولها من شعرها الأصفر البراق ضفائر يضل النظر فى استحسان دقتها وغزارتها ، وقد صدق من وصفها بأنها تمثال فاتن من صنع الاغريق بقى مكنوناً في صميم صدر الدهر حتى كشفت عنه الطبيعة المنعمة ، وأظهرته العناية الملهمة ، فبدا ملكة على الأفئدة قبل أن تكون صاحبته ملكة على العرش ! ! وكانت وحيدة أمها ، وولية العهد ، وصاحبة التاج المرموق ، الذي يهيمن على ستين مليوناً من البشر فى شرق آسيا الجنوبى ، غير خمسة ملايين من أهل بلادها الأصلاء [1] وهي على جانب عظيم من الثقافة والغنى ومكارم الأخلاق وكرم النفس والوداعة والرحمة ، على عكس ما قال الحاسدون ، فكانت أمها وأقاربها ورجال حكومتها وأهل البلاط يبالغون فى ترفيهها وتدليلها . وكان ينتظر من وراء ذلك وبسببه أن يكون لها على أهلها

(١) ومعنى هذا بلغة الاستعمار أن لكل هولاندى من رعاياها اثنى عشر رجلا من الاندوسيين الذين نرى أشباههم فى معاهد العلم بالقاهرة وأندونوسيا مجموعة جزائر وحواضر من أغنى بلاد الشرق وأخصبها وقد اخترع الهولنديون طائرات سريعة للوصل بين العاصمة والمستعمرات النائية .

وحاشيتها وخدمها ، وكل من لابسها وجالسها ، فرط جرأة وتسحب ؛ ولكن الأمر كان على العكس فقد كانت وادعة متواضعة ، شديدة الحياء والإيمان والتوقير لكل كبير ، جمة الحنين لذكرى أبيها الذى مات وتركها فى المهد صبية ، وكان يتمنى أن يسهر على تنشئتها فيشهد زفافها ، ولكن توفاه الموت قبل أن يدرك غايته . وقد اختلفوا فى البائنة التى قبضها (البرنس كونسورت) أي الصهر الملكى الذى أسعده الحظ بزواجها ، فقيل مليون كورون ذهباً ، وقيل مليونان . ولكن الصحيح أنه قبض ثلاثة ملايين وتسلم زمام إحدى الجزائر المملوكة للتاج بغير شريك وهى تدر خيرات كبرى من الزرع والضرع والكنوز

وبعد قليل من تلك المقابلة صار الأمير بمكانة الزوج المنتظر ولم تمض بضعة أشهر حتى تم الزفاف فى مدينة لاهاى (ذي هاج) عاصمة هولاندا . وكان ذلك فى صيف عام ١٩٠٦ . وقد قضى العروسان شهر العسل على شاطىء سكفيننجن [1] وهي ضاحية الاستجمام والاستحمام تبعد عن العاصمة بضعة أميال . وكان عقد الزواج فى هيكل القصر . ومن أبدع مظاهر زينته أولئك الفتيات القرويات ذوات الفتنة الضاحكة والسذاجة المستملحة وسحر البساطة المستعذبة اللواتى اشتهرن فى أنحاء أوربا بجمالهن وعفافهن وميلهن للمداعبة البريئة . وقد رغبت الملكة الشابة أن يشتركن فى زفافها ، لشدة حبها لشعبها وعطفها على رعاياها ولا سيما من كان منهن فى سنها ومن جنسها اللطيف .

فكنت ترى بجانب جورج الخامس (وكان ولى عهد بريطانيا لأن الملك إدوارد السابع ورث العرش عن والدته الملكة فكتوريا) بثيابه الرسمية المرصعة بالجواهر والأوسمة الرفيعة ، والسيف المحلى بالذهب والحجارة الكريمة ، والحمائل العسجدية من المخمل الثمين وقد وضع على رأسه خوذة من الذهب الخالص وزانت وجهه لحية شقراء ، وليوبولد الثانى وهو الآخر شيخ هم أبيض الشعر وردى الوجنتين أزرق العينين ، وقد أبى إلا أن يلبس ثياباً هولاندية

(١) من أجمل وأروع شواطىء الدنيا وأجمل من أوستند وأطهر وبها فندق مشيد من الحديد المموه بلون براق ورماله ذهبية هينة المنحدر لينة الملمس وهو على مقربة من لاهاي كرمل الاسكندرية

مبالغة منــه فى التقرب الذى يقتضيه حسن الجوار وانفرد بين الملاك بهدية من تحف الـكونجو ، وهى تماثيل من الأبنوس والعاج مُنزَّلة بالذهب تمثل آلهة وفرساناً وغزلاناً وأيائل وفيلة وطيوراً من أجمل وأروع ماوقعت عليه العين . وكان ليوبولد الثانى يملك ولاية الـكونجو الحرة ملك السيد المطلق لا تشاركه فيها حكومة

وكان ليوبولد الثـانى بقدر قسوته على رعاياه الإفريقيين ذا حنان وشفقة على رعاياه الأوربيين ، وكان يعطف على جارته ملـكة هولاندا لشبابها ، ويرى أن يفرط فى مجاملتها والحلول فى نظرها محل والدها الذى كان من أصدقائه الحميمين

وكانت من الدعوات الإمبراطورة أوجينى بجلالة قدرها وعبرة شيخوختها ، أتت من لندن مستندة إلى ذراع دوق كونت وقد اتشحت ثياباً بيضاء موشاة « بدنتلة » بروكسيل ، قدرت ببضعة ملايين من الفرنكات ، ووضعت على رأسها توبجاً من الزمرد الأخضر المتلألئ على شعر جبينها الأبيض ، وزينت صدرها « بعنياتير » صورة مصغرة لولدها الأوحد (نابليون الرابع) الذى اغتاله المقاتلون فى زولولاند وهو يحارب متطوعاً تحت راية الإنجليز بعد أن فقد ووالداه عرش فرنسا عقيب حرب السبعين

وقد أهدت الإمبراطورة إلى العروس حليًّا وعقوداً من خزانة كنوزها ، وإلى العـُرْس (برنس البرت) سيفاً من سيوف نابوليون بونابرت . وأرسلت جمهورية فرنسا هيئة شرف حربية ومدنية من الوزراء والسفراء والنواب وقد لبسوا الثياب الملـكية وشارة الجمهورية (شريط مثلث الألوان) وحملوا على صدورهم نياشين الجمهورية ووسام (زايدرزى) وهو أرفع وسام هولاندى ، وأرسلت مستعمرات هولاندا فى الشرق الأقصى (جزيرة جاوى وأندونسيا) وفوداً من سلاطينها وأمرائها ، وقد زانوا الاحتفال بثيابهم الشرقية الفضفاضة وعمائمهم المرصعة بالجواهر ، وكان أجلهم وأظهرهم غنى ووقاراً السلطان محمود بن تبنى حليف هولاندا وصاحب عرش جزيرة بيهالو — هوى ، وكان حاكما شرقياً مسلماً شديد الشكيمة واسع الحيلة ، لم تستطع واحدة من دول الاستعمار إخضاعه ، فحالفته محالفة الند للند ؛ وكان يزين نحره وصدره بجواهر لا تقدر بمال ، وأهدى إلى العروسين تحفاً قيمة منها سيوف هندية ولوحات منقوشة ومرصعة ، وأقداح من الذهب للشاى وصناديق من العاج لصيانة الحلى

وكان هذا السلطان الشرقي يسير فى مكان ظاهر من الموكب وحوله بقية الأمراء من وطنه . وكفاهم فضلاً أنهم سافروا فى البر والبحر أربعين يوماً ليشتركوا فى المهرجان قبل اختراع الطائرات .

وكانت تحمل أذيال الملـكة العروس ، وهى من الفراء الموشاة بالذهب والدر المنضد ، فتيات وأطفال كاللؤلؤ المنثور ، نشأوا فى الهواء الطلق تحت ظلال أشجار البلوط ورضعن ألبان أمهات صحيحات الأبدان قويات البنية فكانوا وكن زينة الموكب . ولا مراء فى أن لـكل أميرة أو قرينة وزير أو عقيلة سياسىّ مشاركة فى الاحتفال أن تبتسم من سلامة الفطرة التى كانت متجلية فى وجوه الهولانديات ، لأن العزلة والحـرية والصحــة الشاملة استنبتت و نمّت قبل الأوان فى قلوبهن عواطف ونزعات وأهواء وشهوات لا تحسها ولا تدركها فتيات أوروبا الغربية . فكنت ترى بعض الأميرات والوصيفات وسيدات الشرف يضحكن فى خفر ضحكاً رينًا لا يؤثر فى بساطة الجمال الهولاندى وجليل محامده التي لولاها ما ظهر في تاريخ تلك البلاد (منذ الاحتلال فى عهـد فيليب الثانى) مثقال ذرة من العظمة الانسانية[1]

ولـما كانت الملـكة احتجاجية المذهب (بروتستنت) وكان الأمير كاثوليكياً ، فقد عقد المقعد مرتين . والقى خطبة الزواج بالهولاندية والانجليزية والألمانية والفرنسية فان كروب متزنجر كبير أساقفة لاهاي أمام الهيكل الذى شهد زواج والدة الملـكة وجدتها وحفلة إعلان استقلال (نيذرلاندز أو بيياس Bays - Bas (الأرض الواطئة) من حكم اسبانيا الذميم

وقد ذرفت الملـكة الوالدة دمعتين من دموع الفرح والذكرى لفراق زوجها وهو والد العروس ، وكانت تتمنى أن يكون على قيد الحياة ليقدمها لعرسها ، وقد حل محله الملك الشيخ ليوبولد الثانى لأن له من الحظوة والزلفى والدالة والوجاهة عنـد ملوك

---

(١) ألف أحد مؤرخى الانجليز كتاباً في خمسة مجلدات عن تاريخ هولاندا وعظمتها وانحدارها وما وقع لها من الحروب مع فرنسا وانجلترا واسبانيا ومن أروع صحفه خطبة البرجو مستر وهو يسلم عاصمة الملك للاسبان

أوروبا منزلة رفيعة وشأناً عظيماً . وكان الأمراء الشرقيون على غاية السرور، ولم يحسوا شيئاً من التجانف والتجافي اللذين يلقونهما في بلاد الشرق من الحكام الهولنديين والانجليز ، ما عدا السلطان محمود فقد كان آية في الجد والوقار كأنه لا يخلو من التفكير والشجون على فرط اكتراث الملوك واحتفالهم بشأنه ، ولكنه ممن لا تفتنهم مظاهر الأبهة ولا تأخذ بألبابهم نفخة الحياة الدنيا

وكان الشعب مشاركا في الأفراح ليلاً ونهاراً ، ولم تبق شيخة أو كهلة أو فتاة في بيتها ، وكن يلهجن بذكر العروسين ويفضن في شرح حالها وأمرهما حتى أصبحا مجال البحث وموضع الحديث في كل شارع وطريق وزقاق ومحفل

ومن أساطير ذلك الزفاف الملكي أن الملكة العروس دست على خطيبها فتاة ذات حسن رائع من وصيفاتها وقالت لها : « اذهبي وانظري ألبرت خطيبي والحصيه فحصاً ثم عودي فخبريني أي امرئ هو ، وصفيه لي وانعتي خلاله ومزاياه وشمائله وسجاياه »

ونسي واضع الأسطورة أو واضعها أن الملكة إنما خطبت عرسها على عينها وتخيرته بنفسها وأحبته للوهلة الأولى ، ولكن ما الحيلة في أخلاق الشعوب وخصوبة أخيلة النساء وتزيدهن حتى فيما ليس لهن به من علم ؟ وحتى لو كن من أهل الشمال الأوربي البعيدات القاصيات النائيات عن الشرق وأساطيره . ولكن المرأة هي المرأة في كل زمان ومكان من شمال القطب حيث يقطن الإسكيمو إلى جنوب أرض النار (تيراد يلفويجو) !

وما أنس لا أنس الزينات التي قامت على قدم وساق في البر والبحر ، فقد أمرت الملكة ألا يخرج صائد ولا باحث عن رزقه بين الأمواج خلال أسبوع الزفاف ، وأجرت على الفقراء والعائلين أرزاقاً أغنتهم عن خوض غمار البحار في سبيل القوت والصيد فحشدوا سفائنهم ومراكبهم وزوارقهم وزينوها بالأعلام والمصابيح ، وأقاموا مراقص شعبية تسمى بالهولاندية كيرمس أو (دعكة) يشربون فيها الجعة والجبن اللاذع ، ويختالون في سراويلات ملونة ويحتذون أحذية من الخشب المنحوت ، وهم بين كهل وفتى يراقصون الفتيات على أنغام الموسيقى الهادئة ذات الحنين الشجي ؛ ولا يدرى مقدار ما يحمل أولئك الفتيات البحريات من أهل ساحل هولاندا من فتنة السذاجة المستملحة وسحر البساطة المستعذبة إلا من رآهن رأي العين . وقد كان هذا الزفاف في عرفهن طارئاً عظيماً وحادثاً جليلاً ، وقد اتخذن من التحلي والتزين له واقعة وتاريخاً وذكرى خالدة . وقد صورت الصحف مناظر الموكب والأفراح والمراقص ، وما أزال أذكر صورة بالألوان البهيجة تمثل امرأة عانساً في الأربعين من العمر دهنت وجهها وزججت حاجبيها لترقص مع شيخ بحار من صائدي الحيتان وقد اصطنع لنفسه لحية تحيط بذقنه وعارضيه دون أن تدنو شعرة واحدة من شفتيه ووجنتيه ، واتخذ على رأسه قلنسوة خضراء ذات صنع عجيب ووضع أعجب ، وفي فمه غليون ضخم قصبته من خشب القرو ، وخزانة الطباق فيه ويسمونها (الفرن) من القيشاني

أما الشوارع في يوم الزفاف وليلته فكانت تعج بمئات الألوف من أهل البلاد والسائحين والمصورين والصحفيين وأقاموا متاحف ومعارض لمتاجر البلاد ومنتجاتها من خيرات البر والبحر . ومن متاحف تلك الفترة مجموعة فريدة من تصاوير رمبراندت الهولندي ومؤسس تلك المدرسة العريقة في إتقان الألوان ومحاكاة الطبيعة في درس علم التشريح ، وقد يبلغ ثمن بعضها مئات الألوف من الجنيهات

(من ذكريات قديمة) **محمد لطفي جمعة**

زفاف فاروق

للأستاذ محمود غنيم

طربت لعرسك مصر يابن فؤاد فكأن عرسك ملتقى الأعياد
بالفطر والأضحى الكنانة تحتفى فيه ، وبالنيروز والميلاد
فى كل قلب مهرجان قائم وبكل أذن قام يهتف شاد
ملك قد اقترن السرور بمهده فكأنما كانا على ميعاد
أو ما ترى قلب الدجى متوهجاً يبدو كقلب الصب يوم بعاد
نقشت حواشى الليل نقش صحيفة بالنور لا بيراعة ومداد
لم تبد أنجمه لترسل ضوءها لكن لتشهده مع الشهاد
غنوا لفاروق فألفيت اسمه أشجى صدى من رنة الأعواد
وزهت ثريات حلفت بأنها ليست كنور جبينه فى النادي
قذفوا «النيازك» فى الفضاء نخالها مشبوبة من عزمه الوقاد
أغنته عن باق الزهور خلائق نفاحة مثل الزهور نواد
ماذا أقول عن البدور وعرسها؟ عرس البدور يجل عن إنشادى
خل الشباب الغض فى ريعانه وعراقة الآباء والأجداد
ودع العلا والمجد و يحك جانباً فى الصمت مايغنى عن التعداد
نثروا الزهور وقمت أنثر بينهم شعرى، وشعرى طارفى وتلادى
إن الزهور قصيرة أعمارها وقصائدى تبقى على الآباد
شعر تود الحور عند سماعه لو صغن منه قلائد الأجياد

* * *

قل للشباب أصبت أية قدوة فى شخص فاروق وأكبر هاد
لما رأى ولع الشباب بكل ما فى الغرب صاح بهم وقال: بلادي
وبنى بها ريحانة مصرية معصومة من هجنة الأولاد
عذراء نضرت الكنانة عودها من أهل بيت ناطق بالضاد
رشفت من النيل العتيد رحيقه وتفيأت منه ظلال الوادى
ولو ابتغى شمس الضحى عرساً له لرأيتها هبطت من الآراد
قل للغريب بقلبه وغرامه ما أقفرت مصر من الأغياد
لا تبن بامرأة وتهدم منزلاً خير الزواج تزاوج الأنداد
لستم بمصريين حتى تؤثروا مصراً بكل محبة ووداد
كم فوق شط النيل أهيف شادن فتن الغصون بقده المياد
يرنو بلحظ فاتن بل فاتك فتك السيوف وهن فى الأغماد
من عهد «فاتنة القياصر» لم تزل مصر مراح نواعم الأجساد

* * *

فاروق كم لك آية شعبية كبرى تمس شغاف كل فؤاد
أحصنت فى شرخ الشباب وطالما ألقى الشباب إلى الهوى بقياد
قالوا: كبحت النفس. قلنا فارس يعتاد منذ صباه كبح جياد
ومن الشبيبة حكمة ورجولة لا تحسب الأعمار بالأعداد
هات المسرة واسق شعبك إنه شعب إلى كأس المسرة صاد
لم يستظل بمثل عهدك مذ هوى عن عرشه فرعون ذو الأوتاد
درجت قرون وهو عان مرهق يكفيه ما عاناه من إجهاد
بعد السهاد يطيب للعين الكرى والنصر يدرك بعد طول جهاد
وطن عتيد من شبيبتك اكتسى حلل الشباب قشيبة الأبراد
حتى سألت: أمصر فى شرخ الصبا أم مصر أقدم من ثمود وعاد ؟
طوقت أعناق البلاد بطول ما أسديت من منن و بيض أياد
فعجبت كيف أسرت مصراً بعد ما
حررتها من رق الاستعباد

* * *

يا ثالث العمرين أنت أريتنا بالعين ما يروى عن الزهاد
قد جئت فى جيل يصلى جاهداً ويصوم لا لله بل للزاد
حرصوا على الدنيا. وكل جديدة تبلى وكل ذخيرة لنفاد
فلعل أنفسهم بهديك تهتدي فتروج سوق الروح بعد كساد
وهي الحنيفة دين كل حضارة وعدالة وهداية ورشاد
شاء المهيمن أن تكون عمادها هيهات يتركها بغير عماد
اختلت فى برد الزفاف وفى غد تختال فى برد النبى الهادى

إن الخلافةَ كلما ذكر اسمُها … شخصت إليك حواضرٌ وبوادِ
يا رُبَّ يومٍ فيه قد وفدت على … مصرٍ ، ومصرُ كثيرةُ الوفَّادِ
إنَّا أويناها غداة تشرَّدَتْ … وَعدت على دار السلام عوَادِ
أوَمَا استعارَ التركُ منا تاجها … لجبين «محمود» ورأس «مراد»
منذا سواكَ يعيدُ عهدَ أُميَّةٍ … بدمَشْقَ والعباس فى بغدادِ
أصميتَ بالتقوى صُدورَ معاشرٍ … مسخوا محيًّا الدين بالإلحادِ
لله إذ تَرِدُ المصلى خاشعاً … تسعى إليــه بخطوك المتهادى
وكأنَّ ركبَكَ لا يسير على الثرى … وكأن جبريلاً لركبك حادِ
ملك يتوجُ مَفرِقيْه بالتقى … نورُ الصلاح عليه أبلجُ بادِ
عجباً له يخشى الزمانُ نزالَه … وعليه تبــدو خشيةُ العبَّادِ
إنَّا عجمنا عودَه فإذا له … وجهُ البــدور وصولةُ الآسادِ
حلوٌ مريرٌ صارمٌ متسامحٌ … أرأيت كيف تقابلُ الأضدادِ؟
ماعيــدُه إلا غداةَ تعدُّه … فى شــعبه فرداً من الأفرادِ
عرشٌ على الدستور قام أساسُه … فإذا به أرسى من الأطوادِ

* * *

بُوِّئْتَ يافاروقُ عرشاً كان فى … أيدى فراعنة بمصرَ شِــدادِ
هم شاركوا الأرباب في مَلَكُوتها … كم صاح صائحهم وقال : عبادى
ضِمنوا بقاء رسومِهم وجسومِهم … والحادثات روائحٌ وغوادِ
قم سائل الأهرامَ عن تاريخهم … ما فصَّل التاريخَ مثلُ جمادِ
هُنَّ الثقاتُ من الرواةِ برئْنَ من … عصبيــة وسَلِمْنَ من أحقادِ
فأعِدْ لنا عهدَ الجدود وهات ما … تركوا لمن تركوا من الأحفادِ
هَات الذخائرَ والسلاحَ لأمةٍ … عزلاء واستكثرْ من الأجنادِ
هــذا الزمانُ مسلحٌ لا يحتمى … بعهود سِلْمٍ أو صكُوكِ حيادِ
أو ما رأيت الطامعين بخيلهم … حول الحمى يقفون بالمرصادِ
فاجعلهُ إن ذاقوه سمًّا ناقعاً … واجعله إن مَسُّوه شوك قتادِ
فاروقُ دم واسلم لشعب مخلصٍ … بنفيسه وبنفســه لك فادِ
سل كل قلب فى الكنانة نابضٍ … عما يريد يجبكَ أنتَ مرادى

كوم حمادة — محمود غنيم

زواج أمير عربي بأميرة هندية

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —

ماذا يخط القلم فى هذا الفرح المتلالئ ، والسرور المزدهر ، والقلوب الخافقة ، والأيدى الصافقة ، والزينات الساحرة ، والأضواء الباهرة ؟ ماذا يخط القلم فى أمة بل أمم خفقت قلوبها حباً ، وانطلقت ألسنها دعاء ، وتوجهت إلى هذا الوجه الأغر ، والطلعة المباركة ، إلى الملك الشاب الصالح جلالة الملك فاروق ؟ ماذا يخط القلم إلا أن يشارك العيون متعتها والنفوس بهجتها ، والقلوب أدعيتها ، فيجول فى مجال واسع من الفرح الحاضر ، أو يقلب صفحات التاريخ عن صفحة من الجمال والسرور لألاءة ، أو يطمح فى المستقبل إلى حقب من المجد وضّاءة تظللها السعادة واليسر ، والصفاء والبشر .

قلبت صفحات التاريخ فعبرت من عرس إلى عرس حتى وقفت على عرس كان في الهند فى القرن الثامن الهجرى ، ورأيت من غرابته وطرافته ما يؤهله لأن يعرض على قراء الرسالة فى هذا الأسبوع المبارك .

— ٢ —

كان السلطان محمد بن غياث الدين تُغلُق شاه يملك دهلى وما يتصل بها وبلاد الدكن (١) ، فى الربع الثانى من القرن الثامن الهجرى (٧٢٥ — ٧٥٢ هـ) ؛ وكان ملكاً ذكيًا سخيًا عظيم البطش ، جبّار السطوة .

وكان يحتفى بالغرباء الوافدين عليه ولا سيما العرب وخاصة من انتمى منهم إلى بيت النبوة ؛ كان يبذل لهم من ماله ، ويوطئ لهم من كنفه ، ويبلغ من إكرامهم وإجلالهم ما يملأ النفس عجبا .

— ٣ —

وكان آل ربيعة من طئ أمراء على قبيل عظيم من العرب فى أطراف الشام ؛ فى عهد الدولة الأيوبية ودولة المماليك ؛ كان ملوك مصر يستنجدونهم فى الملمات ، ويفوضون إليهم الرياسة على القبائل ، ويبالغون في إكرامهم إذا وفدوا عليهم ؛ وقد قدم منهم فرج ابن حيّة على المعز ايبك فأنزله بدار الضيافة أياماً وأنفق على ضيافته وهداياه ستة وثلاثين ألف دينار .

وكان من أمرائهم فى القرن السابع والثامن إلى آل مُهَنى ابن عيسى . « وكلهم رؤساء أكابر ، وسادات العرب ووجوهها ؛ ولهم عند السلاطين حرمة كبيرة ، وصيت عظيم ، إلى رونق فى بيوتهم ومنازلهم

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم
مثل النجوم التى يسرى بها السارى (١) »

— ٤ —

قدم الأمير سيف الدين غدا بن هبة الله بن مُهَنَّى على السلطان محمد فأكرم وفادته وأنزله بقصر فى دهلى يسمى : « كُشك لعل » أى القصر الأحمر ، وأغدق عليه العطايا وأكثر الهدايا ، ثم زوجه أخته الأميرة فيروز

وكان الرحالة ابن بطوطة إذ ذاك مقيما بدهلى فى كنف هذا السلطان ، فشهد العرس العظيم ، وتولى بعض شؤونه ، ووصف زفاف الأمير سيف الله والأميرة فيروز . فانظر كيف وصف :

« ولما أمر السلطان بتزويج أخته للأمير غدا عيَّن للقيام بشأن الوليمة ونفقاتها الملك فتح الله ، وعينني للازمة الأمير غدا ، والكون معه فى تلك الأيام . فأتى الملك فتح الله بالصيوانات فظلل بها المشورتين (٢) بالقصر الأحمر المذكور وضرب فى كل واحد منهما قبة ضخمة جداً وفرش ذلك بالفُرُش الحسان

وأتى شمس الدين التبريزى أمير المطربين ومعه الرجال المغنون والنساء المغنيات والرواقص ، وكلهن مماليك السلطان

(١) دكهن ومعناه الجنوب القسم الجنوبى من بلاد الهند .

(١) صبح الأعشى ج ٢

(٢) المشور كلة يستعملها ابن بطوطة فى معنى فناء الدار

وأحضر الطباخين والخبازين والشوائين والحلوانيين ، والشربدارية والتنبول داران (١) وذبحت الأنعام والطيور وأقاموا يطعمون الناس خمسة عشر يوماً ، ويحضر الأمراء الكبار والأعزة ليلا ونهاراً

فلما كان قبل ليلة الزفاف بليلتين جاء الخواتين (٢) من دار السلطان ليلاً إلى هذا القصر فزيّنّه وفرشنه بأحسن الفُرُش واستُحضر الأمير سيف الدين ، وكان عربياً غريباً لا قرابة له ، فحففن به ، وأجلسنه على مرتبة معينة له — وكان السلطان قد أمر أن تكون أم أخيه مبارك خان مقام أم الأمير غدا ، وأن تكون امرأة أخرى من الخواتين مقام أخته ، وأخرى مقام عمته وأخرى مقام خالته ، حتى يكون كأنه بين أهله — ولما أجلسنه على المرتبة جعلن له الحناء في يديه ورجليه ، وأقام باقيهن على رأسه يغنين ويرقصن وانصرفن إلى قصر الزفاف . وأقام هو مع خواص أصحابه

وعين السلطان جماعة من الأمراء تكون من جهته (الأمير) وجماعة يكونون من جهة الزوجة ، وعادتهم أن تقف الجماعة التي من جهة الزوجة على باب الوضع الذي تكون به جَلْوتها على زوجها ، ويأتي الزوج بجماعة فلا يدخلون إلا أن يغلبوا أصحاب الزوجة ، أو يعطونهم آلاف الدنانير إن لم يقدروا عليهم

ولما كان بعد المغرب أُتي إليه بخلعة حرير زرقاء مُزَرْكشة مرصّعة ، قد غلبت الجواهر عليها فلا يظهر لونها مما عليها من الجواهر وبِشاشيّة مثل ذلك . ولم أر قط خلعة أجمل من هذه الخلعة ؛ وقد رأيت ما خلعه السلطان على سائر أصهاره مثل ابن ملك الملوك عماد الدين السمناني ، وابن ملك العلماء ، وابن شيخ الإسلام ، وابن صدرجهان البخاري ، فلم يكن فيها مثل هذه

ثُم ركب الأمير سيف الدين في أصحابه وعبيده ، وفي يد كل منهم عصا قد أعدّها ، وصفوا شبه إكليل من الياسمين والنسرين وله رفرف يغطي وجه المتكلل به وصدره ؛ وأتوا به الأمير ليجعله على رأسه . فأبى من ذلك ، وكان من عرب البادية لا عهد له بأمور الملك والحضر ، فحاولته وحلفتُ عليه حتى جعله على رأسه

وأتى باب الصرف ويسمونه باب الحرم ، وعليه جماعة الزوجة فحمل عليهم بأصحابه حملة عربية وصرعوا كل من عارضهم فغلبوا عليهم ولم يكن لجماعة الزوجة من ثبات . وبلغ ذلك السلطان فأعجبه فعله

ودخل إلى المشور وقد جعلت العروس فوق منبر عال مزين بالديباج ، مرصع بالجوهر ، والمشور ملآن بالنساء والمطربات قد أحضرن أنواع الآلات المطربة ، وكلهن وقوف على قدم إجلالاً له وتعظيماً . فدخل بفرسه حتى قرب من المنبر ، فنزل وخدم (١) عند أول درجة منه . وقامت العروس حتى صعد فأعطته التنبول بيدها . فأخذه وجلس تحت الدرجة التي وقفت بها . وُنثرت دنانير الذهب على رؤوس الحاضرين من أصحابه ، ولقطتها النساء ، والمغنيات يغنين حينئذ ، والأطبال والأبواق والأنقار تضرب خارج الباب ثم قام الأمير وأخذ بيد زوجته ، ونزل وهي تتبعه . فركب فرسه يطأ به الفُرُش والبُسُط . ونُثرت الدنانير عليه وعلى أصحابه وجُعلت العروس في محفّة ، وحملها العبيد على أعناقهم إلى قصره والخواتين بين يديها راكبات ، وغيرهن من النساء ماشيات . وإذا مروا بدار أمير أو كبير خرج إليهم ، ونثر عليهم الدنانير والدراهم على قدر همته حتى أوصلوها إلى قصره

ولما كان الغد بعثت العروس إلى جميع أصحاب زوجها الثياب والدنانير والدراهم . وأعطى السلطان لكل واحد منهم فرساً مسرجاً مُلجماً ، وبدرة دراهم من ألف دينار إلى مائتي دينار وأعطى الملك فتح الله للخواتين ثياب الحرير المنوّعة والبدر ؛ وكذلك لأهل الطرب — وعادتهم ببلاد الهند ألا يعطى أحد شيئاً لأهل الطرب . إنما يعطيهم صاحب العرس . وأُطعم الناس جميعاً ذلك اليوم . وانفض العرس

وأمر السلطان أن يعطى للأمير غدا بلاد المالوة والجزات وكنباية ونهر والة وخيل فتح الله المذكور نائباً عنه عليها ، وعظّمه تعظيماً شديدا . اه

عبد الوهاب عزام

(١) الشربدارية القيمون على الشراب والتنبول نبات هندي أحمر يؤكل كثيراً ويقدم للضيوف والتنبول دار من يتولى تقديم التنبول

(٢) الخواتين جمع خاتون وهي السيدة باللغة التركية

(١) خدم : حيا بالانحناء

بالرِّفاءِ يا فاروق

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

في الروضة الشريفة المطهرة ، وإلى جانب المنبر النبوى الكريم ، أخذ القوم مجلسهم كما تعودوا أن يجلسوا كل يوم ؛ يجلس عليّ وعثمان وطلحة والزبير ، وسعد وابن عوف وإخوانهم من المهاجرين في سبيل الله ، يتباحثون فيما يتصل بشؤونهم ، ويتحدثون بما يهم المسلمين وينفعهم ؛ وكان لابد أن يوافيهم عمر في مجلسهم ، وينقل إليهم ما انتهى إليه من أخبار الأمصار وسير الولاة في الناس ، ويستشيرهم فيما حمل إليه من الآفاق ، فيشيرون عليه [1] ، ولكن عمر لم يحضر اليوم كعادته ، ولقد انتظره القوم أكثر مما يجب فما وافى إليهم ، قال قائل منهم : ترى ما الذى تأخر بابن الخطاب عن مجلسنا ، وأنا أعلم عنه صحة البدن وتمام العافية ، وما أعرف أن عنده من رجال العرب أو أن هناك ما يشغله عنا ، ويحمله على الخلف والتخلف ؛ فلعله قد نسى مجلسنا اليوم ، وما أحسبه قد نسيه من قبل !

قال عثمان : رفقاً يا قوم بابن الخطاب ، فقد ألقيتم عليه أعباءكم كلها فنهض بها صبوراً أميناً لا يألو جهداً في تدبير أموركم ، ولا يدخر وسعاً في سبيل راحتكم وراحة المسلمين كلهم . ولقد وسوس الناس منذ أيام فيما بينهم بأن عمر يريد أن يعرس لنفسه ، وهو جاد في اختيار الزوجة الصالحة ليفرغ لأمور الحكم بكل جوارحه ، وأحسب أن الله قد وفقه لما يحبه هو لنفسه ، وما يحبه له المخلصون من صلاح الحال ، وسعادة البيت ، فقد انتهى إلى سمعى أنه اختار لنفسه أم كلثوم بنت أبى بكر ، ومن كبنت الصِّديق حسباً ونسباً ، وصلاحاً وجمالاً ؟ فإن كان عمر قد تأخر عنا اليوم ، فلعله قد تأخر لهذا الأمر ليتمه على نفسه ، وليفرغ منه إلى غيره ، فما بالكم تلومون الرجل على فترة انتهزها لنفسه ، واغتنمها لتدبير بيته ؟ على أنه قد وقف عليكم كل وقته ، ومنحكم جميع تدبيره ...

قال طلحة : ولكنى أعرف يا ابن عفان أن عمر قد رُدَّ في خطبة بنت أبى بكر ، وقد كان من خبر ذلك أنه لما كشف عن رغبته لعائشة أجابته إلى طلبه ووعدته بتحقيق رغبته ، وقالت له : إن الأمر كله لك ونحن طوع أمرك ، فأنت أمير المؤمنين وصاحب الرسول ، وخليفة أبى بكر ، ولكنها إذ ذكرت الخبر لأم كلثوم رغبت عنه ، وقالت : إن عمر رجلٌ خشن العيش ولا طاقة لى باحتماله ، فتحيرت عائشة وأرسلت إلى المغيرة بن شعبة لعله يحتال في رد عمر بالخير ، فالتقى به المغيرة وقال له : بلغنى يا أمير المؤمنين أنك خطبت لنفسك أم كلثوم بنت أبى بكر ، وهذا أمر أعيذك بالله منه ، وأرى من الخير لك ولها ألا يتم ، وما أقول هذا رغبة بك عنها أو رغبة بها عنك ، ولكنى أقوله يا عمر لأنى أحبك وأبنى لك سعادة البيت ، فأنت تعلم ويعلم الناس جميعاً أن بنت الصديق قد نشأت في كنف أبيها ، وقد كان رحمه الله لين الجانب ، طويل الأناة ، رحب الصدر ، كبير الرفق ، فتعودت ابنته ألا تعامل إلا بلين الجانب وطول الأناة ورحابة الصدر وحسن الرفق . فلما انتقل أبو بكر إلى جوار ربه انتقلت ابنته إلى جناب عائشة ، وعائشة كما تعلم امرأة ، عندها من العطف واللين والرفق أكثر مما كان في نفس أبى بكر . وأنت يا عمر رجل شديد المراس ، قوى الشكيمة ، تأخذ الناس بالشدة والعنف ، وأنت على النساء أشد ، وفي معاملتهن أعنف ، ونحن نهابك وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك ، فكيف بها إن خالفتك في شيء فسطوت بها ؟ لا جرم كنت قد خلفت أبا بكر في ولده بغير ما يحق عليك ، وأبو بكر مكانته في المسلمين كبيرة ، وحرمته عندنا واجبة ، فليس من صواب الرأي وسداده أن تكون لك ابنته على ما تعودت في حياتها ونشأت في تربيتها ، وعلى ما أنت عليه من ميول وأخلاق شديدة . وإذا كنت قد كلمت عائشة ، فأنا أكفيك أمر عائشة ؛ وإذا كنت ترغب في الزوجة الصالحة ، فأنا لك بأم كلثوم بنت عليّ من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقد انتهى الأمر على هذا التدبير

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٧ ص ٣٨

يا ابن عفان ، وقد علمت أن مسعى المنيرة قد ارتاحت له عائشة ، واطمأن إليه عمر ، وطابت به نفس ابنة الصديق

قال ابن عوف : ألا تقصرون من حديث عمر ؛ فها هو ذا مقبل علينا يقتصد فى مشيته ، وإنى لألمحه منبسط الأسارير مفتر الثغر ، فلا بد أن يكون وراءه بشرى حميدة ، تطيب لها القلوب وتطمئن بها النفوس ، وما أتوقع من ذلك إلا الخير فيما تتحدثون به ، فانتظروا ... وأقبل عمر على القوم بالسلام وأخذ مجلسه بينهم وهو يقول : رفئونى يا أصحاب الرسول ، رفئونى يا أبناء العشيرة . قالوا جميعاً : قد رفئناك ولكن بمن يا أمير المؤمنين ؟ فما انتهى إلينا فى أمرك خبر قاطع ، ولا صح عندنا نبأ صادع

قال عمر : إنه لخير وبركة إن شاء الله ، فقد سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : كل نسب وسبب منقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي ، وأنا والحمد لله قد وصلت به السبب ما استطعت ، فصحبته على الجهاد فى سبيل الله ، باذلا فى ذلك وسع الجهد وطاقة النفس . وقد أحببت أيضاً أن أتصل بنسبه فأتصل به من الجهتين وأجمع إلى نفسي الفضيلتين ، وأوثق رباطى بعروته التى لا انفصام لها ، وقد رأيت أن تكون وصلتى فى ذلك ورباطى أم كلثوم بنت على ابن أبى طالب ، فأبوها ابن عم النبى وصاحبه ، وأمها فاطمة ابنته الحبيبة ، فلعلى أكون قد وفقت إلى ما أردت ، ولعل الله بفضله وكرمه يجعلها لنا خيراً وعلينا بركة

قال قائل : نعم ما اخترت يا أمير المؤمنين ، وحبذا ما رأيت فانه الرأى الجميل ، وأم كلثوم من الحسب والنسب فى المقام الكريم ، والمكان الرفيع ، ولكنا نعلم أن علياً قد حبس بناته على بنى جعفر ، وإنه ليشتد فى ذلك ما وسعته الشدة ، فهل أجابك إلى خطبتك ، وحقق لك رغبتك ، ووصلك بنسب النبى كما تحب ؟

قال عمر : إن لذلك قصة يا أخى ، لو تعلمونها جميعاً لقلتم معى حيا الله ابن أبى طالب وجزاه خير ما يجزى به الرجل الكريم ، والعبد الصالح ، فانى إذ مددت له اليد فى ذلك قال : يا أمير المؤمنين نعم إنى حبست بناتى على بنى جعفر ، ولكنى لا أعدل بك آل جعفر جميعاً ، وأنت ما أنت فى صحبة النبى ونصرة الاسلام والجهاد للحق ؛ غير أن أم كلثوم صبية حدثة ، أحسبها لا تقوم لك بحق الزوج ، ولا تستطيع أن تصبر على شدتك ، وربما تحملت من ذلك فوق طاقتها . قلت : هون عليك يا ابن أبى طالب ، فو الله ما على ظهر الأرض رجل يرصد من حسن صحابتها ما أرصد ، وأنا إن نقلتها من كنف أبيها فسأنقلها إلى كنف ألين وأرحب . ألا تعلم أنى سأرعى فيها حق الله ، وحق جدها الرسول ، وحق أمها فاطمة ، وحقك أنت يا على ؟ وإذا صح لى أن أستهين بحقك أو حق فاطمة ، فما يصح لى أن أسخط الله وأغضب الرسول

ومع هذا كله فقد انطلق عنى على وما أجابنى إلى شيء ، ولا وقفنى على نهاية يصح أن أنتهى إليها . وانقضت فترات قضيتها فى تقليب الرأى وتدبير الأمر ، والحدس بما سيكون من أمر ابن أبى طالب معى ، وإذا بأم كلثوم تحضر عندي ، وإذا هى واقفة بين يدىّ على يدها بُرد مطوىّ ، تقول : إن أبى يقرئك السلام ، ويقول لك : إن رضيت البرد فأمسكه ، وإن سخطته فرده عليه . قلت لها : بارك الله فيك وفى أبيك ياسليلة الرسول ، أبلغيه أنا قد رضينا بالبرد غاية الرضا (1) ، فان رأى أن يسبغه علينا فله الفضل . ثم انطلقت عنى وقد علمتُ أن أباها قد قبل خطبتى ، وحقق رغبتى ، ثم مال على عليّ — وكان إلى جانبه — وقال : أليس كذلك يا ابن أبى طالب ؟

قال على : هو كذلك يا أمير المؤمنين ، فبارك الله لك فيها ، وبارك لها فيك . واعلم يا ابن الخطاب أنه إذا كانت الرغبة منك دعتك إلينا ، فإن الرغبة فيك أجابتك منا ، وقد أحسن بك ظناً من أودعك كريمته ، واختارك ولم يختر عليك ، وقد زوجتك ابنتي على كتاب الله ، إمساك بمعروف أو تسريح باحسان . وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل الأصهار صلة للأرحام المتقطعة والأنساب المتفرقة ، فابتهل إليه أن يزيدنا بهذا الاصهار تمكينا وصلة على ما يحبه ويرضاه .

قال عمر : وأنا قد أمهرتها أربعين ألفاً ... وإنى لأقول ما قال النبى فى ذلك : اللهم بارك لى فى أهلى وبارك لأهلى فى ، وارزقنى منها وارزقها منى ، واجمع بيننا ما جمعت فى خير ، وإذا فرقت بيننا ففرق فى خير ، اللهم جنبنى الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنى

قال الجالسون جميعاً : وإذن فبالرفاء والسعد يا أمير المؤمنين ، وبالرفاء والسعد يا فاروق

محمد فهمى عبد اللطيف

(1) طبقات ابن سعد ج ٨ ص ٣٣٩

زفاف بوران الى المأمون

للأستاذ محمد طه الحاجري

سرى الخبر في بغداد أن أمير المؤمنين المأمون قد أزمع البناء على بوران بنت الحسن بن سهل . ولقد طالما كان البغداديون ينتظرون هذا الخبر ، ويستشرفون له ، ويعنون أنفسهم بمظاهر الفرح الشامل ، والطرب الكامل ، تنمر الجو من حولهم ، ويتجردون فيها من همومهم ، ويمسحون بها على ما بقى من آثار الفتن الماضية فى ذكرياتهم . فما إن انبعث ذلك الخبر حتى سرى فى بغداد كلها ، وأصبح حديث القوم الشهى إلى أنفسهم ، الحظىّ عند أخيلتهم ، وانتشر فى المدينة جو من السعادة والغبطة جدير ببغداد الطروب

ثم علم القوم أن أمير المؤمنين قد أجمع على أن يتم على الحسن تكرمته ، ويبالغ فى ملاطفته ، فيجعل الزفاف فى بيته ؛ وأنه منحدر فى دجلة إلى ضيعته فى « فم الصِّلح » حيث يقيم ؛ فتهيأت بذلك الفرصة السعيدة لنفوسهم المرحة ، فأخذ كثير من فتيان بغداد وسرواتها يعدون العدة للخروج فى موكب الخليفة . فما جاء موعد الخروج حتى كانت دجلة تموج بالسفائن والزوارق من شتى الأشكال ، وقد ركبها ألفاف من الناس من مختلف الطبقات : فهؤلاء من أهل اليسار والنعمة ، قد نضدت لهم الفرُش ، ووفرت لهم أسباب الترف ، ووسائل الطرب ، من قيان مثقفات ، ودفوف وعيدان ، وما إلى ذلك . وأولئك من أهل الحرفة ، فهم يلتمسون النجعة ، ويرجون التوسعة ، ويأملون أن ينالهم من ذلك الفيض الفياض ما تثلج له صدورهم

ثم نزل المأمون من قصر الخلافة ، وحوله أصفياؤه وأصحابه إلى السفينة المعدة له ، واتخذ مكانه فيها . وسارت السفينة جنوباً تتهادى فى سيرها ، ومن ورائها تلك السفن والزوارق ، تنطلق منها نغمات العيدان ، وأصوات القيان ، حتى امتلأ جو دجلة مرحاً ونشوة

وكان يسير بازاء ذلك الموكب النهرى الجميل الذى يمثل النزعة الفنية البغدادية ، موكب رائع رهيب يمثل القوة العسكرية العباسية ، يتألف من قواد الدولة وأجنادها ، وقد ركبوا خيلهم وأخذوا سلاحهم وارتدوا أروع ثيابهم ؛ وسار على رأسهم العباس ابن المأمون ؛ وهكذا أخذ الخليفة طريقه إلى دار صهره .

وكان الحسن بن سهل قد ترك بغداد فراراً بأعصابه الرقيقة من زحمتها العنيفة ، وأبعد فى جنوبها حيث يطيب الهواء ويسود الهدوء ؛ فاتخذ له قصراً ومعسكراً فى بقعة هادئة جميلة ، عند « فم الصِّلح » إلى شرق دجلة : يشرف عليه الجبل من شرقيه ، وتجرى دجلة إلى غربيه ، وينساب نهر الصِّلح فى شماله ، وتضطرد من حوله الكروم والبساتين ، وتنفح عليه الأزهار والرياحين .

ولما علم الرجل أن أمير المؤمنين قد أزمع تشريفه فى داره للبناء على ابنته استطار فرحا ؛ ثم ما لبث ذلك الفرح أن أخذ يعبر عن نفسه تعبيرات فنية رائعة تجلت فى قصره الذى أخذ يتأنق فى تزيينه ، حتى صار فتنة للناظرين ، ويبالغ في تأثيثه ، ليكون جديراً باستقبال الخليفة فيه . وكان مزاجه الشعرى يملى عليه بعض الصور الشعرية الرائعة التى كان يخترعها الخيال الفارسى المترف ، والتى كانت موضع الإعجاب فى ذلك العصر ، فيسرف فى تمثيلها ، ويتأنق فى تصويرها ، كتلك الصورة التى اخترعها الحسن بن هانىء ، وافتتن بها أهل عصره :

كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء در على أرض من الذهب

فلم يأل فى ذلك جهداً ؛ ففرش القاعة الكبرى التى أعدها لاستقبال المأمون ببساط نسيجه من خيوط الذهب ، وقد تناثرت فوقه حبات اللؤلؤ ؛ وهو يتألق ويمج الأشعة فى أضواء الشموع ، وأي شموع ! إنها شموع مصنوعة من العنبر ، تسطع بالنور وتنفح بالعطر ؛ فجعل كل ذلك يبعث فى القاعة جواً سحرياً أخاذاً ، تسبح به الروح فى أحلامها ، وكأنما نرى فيه صورة من الجنة وأخيلتها .

وأما الطريق ما بين القصر ودجلة فقد مهّد وحف بما شاء الخيال المترف أن يحف به من زينة أخاذة . وقد أقام الحسن فى طرفه على شاطئ النهر جوسقاً جميلا ، نضدت فيه الفرش ، وأعد لاستقبال العباس بن أمير المؤمنين . وكان الحسن فى ذلك اليوم

الموعود جالساً فى ذلك الجوسق ينتظر ، حتى وصل الموكب العسكرى يقدم موكب الخليفة ، فاستقبله الحسن وإن وجهه ليطفح بشرا ، ثم مضى به إلى القصر ، ولم يمض قليل حتى وقفت سفينة الخليفة على باب الحسن فى نهر الصلح ، فقام إليـه الرجل وهو لا يكاد يكاتم سروره بما أفاء عليـه الخليفة من شرف يقصر عنه كل شرف ، بزواجه ابنته ، وتشريفه بيته

وأمضى المأمون ليلته فى سمر وطرب ، وكانت «فم الصِّلح» تموج بالوافدين عليها من أهل العساكر والقرى ممن جاءوا يشهدون المهرجان العظيم ، فضلا عمن كانوا فى موكب الخليفة من البغداديين بين أصوات المزاهر والقيان تشق أجواز الجو ، وتملؤه بأسمى مظاهر البهجة والهناءة . وقد شاء المأمون أن يمد فى أسباب الفرح لهـذه الأسرة ، وأن يربط بين القلوب فيها ، فأمضى فى الليلة التاليـة زواج محمـد بن الحسن بن سهل بابنة عمه العباسة بنت الفضل

فلما كانت الليلة الثالثة كان زفاف بوران إلى المأمون . وكان زفافاً اقترن بمظاهر النبل العربى والترف الفارسى ؛ واجتمعت لديه عظمة المأمون وكرم الحسن ، وكان مبعث بركة على الأسرة العباسية وعلى رجالات الدولة ، وعلى أهل الحرفة ، وذوى البؤس والمسكنة

فقد ذكروا أن المامون أذن في هذه الليلة للسيدة زبيدة أن تؤدى حجها ، وكانت ممنوعة منه ، وكان هذا المنع أثراً من آثار الفتنة التى كانت قائمة بين المأمون وابنها الأمين

كما عفا عن ابراهيم بن المهدى ، وكان أسيراً لديه ، بعـد الثورة التى ثارها عليه ، محاولاً انتزاع الخلافة لنفسه ؛ ثم خلع عليه ، وقلده سيفه ، ورد إليـه ماله ورفع مكانه ، وأتاح للأدب العربى أن يظفر بأمتع ما قاله شاعر فى الشكر العميق والاعتراف بالجميل

وهكذا مسح على قلوب أسرته فشفى جراحها ، واستل ما كان قد بقى عليه من حفائظ فيها . وما أمجده عملا إنسانياً كان ذلك الزواج الانسانى النبيل مثاره ومبعث خيره

وأما الحسن فقد كان مضرب المثل فى الحفاوة والترف فقد بالغ فى ذلك مبالغة الرجل يرى كل شىء من ذلك قليلا فى جانب ما يشعر به ، وما يحسب أنه قد ناله ؛ فاستوقف أنظار الناس بإسرافه ، حتى أصبح موضع أحاديثهم ، ومثار عجبهم وتعجيبهم ، ومن صور ذلك الاسراف شمعة عنبر أوقدها ليلة الزفاف ، تزن أربعين منا ، أى ثمانين رطلا أو تزيد ، وقد أقامها فى « تَوْر » من الذهب ، مبالغة فى السرف ، حتى لم يفت المأمون فيما قالوا أن يلاحظ هذا ويأخذه عليهم . وحسبك هـذا المثل وما تقدم لتتصور مقدار ما بلغ إليه الترف فى هذا الزفاف البديع

كما أقام الولائم الفخمة لـكل من كان هنالك من قواده وعساكره ، ورجال المأمون وحاشيته ، ثم تلك الجموع الحاشدة التى اجتمعت للمشاركة فى الفرح ، والتى يكفى للدلالة عليها أن نذكر أن طائفة الملاحين فيها كانت تبلغ نيفاً وثلاثين ألفاً ، وقد ظل كل يوم يجددها ويفتن فيها ، وقد أحاطها بكل مظاهر الجمال والفرح ، كما كان لا يفتأ يخلع على القوم شتى الخلع ، حتى عاد المأمون إلى بغداد بعد أن قضى هنالك سبعة عشر يوماً ، كان مبلغ ما أنفق فيها على ما يقول الطبرى وابن الطقطقى وغيرهما خمسين مليوناً من الدراهم

أما هباته فى تلك المناسبة السعيدة ، على القواد ومن إليهم من أمراء الهاشميين ، فقد كانت بدعاً فى أسلوبها ومقاديرها ، غاية فى الـكرم والأريحية ، تضمن لأصحابها الثراء الدائم ، فقد كتب رقاعاً بأسماء طائفة من ضياعه ، ثم وضعها فى بطاطيخ من العنبر ، ونثرها عليهم ، فـكل من وقعت فى يده رقعة باسم ضيعة بعث فتسلمها ، ملـكا خالصاً له ، وتذكاراً بليغ الأثر فى حياته لذلك الزواج الميمون

وحين أزمع المأمون المسير بزوجه إلى بغداد بعث إليه بعشرة ملايين درهم ، فما حملت إليه حتى ثارت به أريحيته فأخذ يغدقها فى قواده وأصحابه ، وخدمه وحشمه ، ثم مضى مع الخليفة يشيعه وعاد بعدها إلى داره قرير العين مطمئن الضمير

وأما بوران فقد مضت مع زوجها العظيم ونزلت دار الملك والخلافة ، فكانت درته اللامعة ، بجمالها الفتان ، وذوقها المرهف وذكائها الوقاد ، ومعرفتها الواسعة ، وأدبها العظيم

ولقد ظل زواج المأمون ببوران غرة فى التاريخ الاسلامى ، بما قام عليه من أشرف معانى الوفاء والرعاية ، وما اقترن به من أعظم مظاهر النبل ، وأبهر دلائل الـكرم والأريحية

محمد طه الحاجرى

آيات القران الملكى

للأستاذ عبد العظيم على قناوى

تيهى واثنى أعطافك يامصر ، وميسى وجرى أطراف الفخر ، وازهى واهنئى بأطياف البشر ترفرف فوق قصور ربك ، وتخفق على دور أهلك أبد الدهر ؛ فهذا فاروق المحبوب المفدى ، وفرقدك الشرق سؤدداً ومجداً ، وسناك المعرق نبلاً وخلداً ، يضم إلى آيات جلاله آية فريدة تتطامن لها العظمة ، ويلبس من الطهر حلة وحيدة يختال بها فتهتف له الجلالة ويحصن دينه القويم ؛ ومن غير المليك للدين حصناً ، بالشمس طلعة والشرف ملكة ، وزين التاج بأنصع جوهرة فى جيد المملكة ، فتهفو لاسميهما المحبوبين أفئدة الأمة ، وتقر بقرانهما السعيد السيادة والمعزة

وما تلك الزينات الموضونة ، والأقواس المنضودة ، والأعلام المرفوعة ، والثريات المؤتلفة المتلألئة ، والكواكب المؤتلفة المتعانقة ، إلا غيض من فيض شعور هذا الشعب المجيد بولائه السعيد بوفائه ، وذرة من طود استبشاره الأشم ، وغبطته بهذا القران الموسوم باليمن ، المعقود بناصيته السعد . وإن دلت الاحتفالات على شىء فإنما تدل على أن الأمة لا يرضيها أن تعلن عن تعلقها بشخص فاروق العظيم ، وولائها لعرشه المجيد ، بالكلم الطيب ترتله ، والدعاء الصالح ترفعه ، والأهازيج تنشدها ، والأغانى تنظمها ، فحسب — بل بالبشر يفيض على كل محيا ، والانشراح يفعم كل فؤاد ، والسرور يملأ كل نفس ، والزينات والثريات يباهى بها كل بيت كواكب السماء ونجومها . ولو أتيح للشعب أن يعلن عن زهوه بمعقد مجده ، وعن فخره بمناط سعده ، وعن حدبه على موئل عزه بكل ما يشاء ، لاستبدل بتلك الثريات أفئدة وضاءة متألقة ، يقرأ فيها رب التاج سطوراً من الحب المبين ، ولجعل من أكباده مواطئ لقدميه ؛ فالطنافس والبسط والخز والديباج ، أدنى من أن تكون للمليك فى ذلك اليوم الأغر موطئاً ، ولصاغ للملكة الفريدة من أحداق العيون قلائد تزهو بها على خرائد الماس والجوهر ؛ ولكن حسب الشعب نعماء أن مليكه يشعر بما يضفيه عليه من الولاء

ولا يقف بنا الفرح الزاخر والسرور الساحر عن استخلاص بعض آيات القران الباهرة ، وبيناته الواضحة الرائعة ، التى نستخلصها على الأخلاق فترى فيها مجداً ، وتضفيها على الدين فيستعيد عزة وسمداً مثل علىّ جيل ، يضرب به زين الشباب لشباب الجيل ، حفاظا على سنن الدين القويم ، وإحياء لسنن الرسول الكريم ، ومن أولى من جلالة المليك التقى بآثار النبى تخليداً ، ومن سوى جلالته يتخذ الشبان سنته تقليداً ؟ فدونكم فتيان النيل وشبابه زهرات مصر اقطفوها فى تقوى وإيمان ، لا فى طيش وعدوان ، فذلكم هو المثل الأعلى للطهر فاسلكوه ، والمهيع الواضح للنبل فانهجوه ، والخطة المثلى للأخلاق فاحتذوها ، فانكم محتذون بأسمى جناب وأحب الأحباب ، وحينئذ ترفعون ركن الخلق والدين ، وهما لسيادة الأمم الحصن الحصين .

وفى تبكير مولانا الفاروق بالقران — فى عصر طغت فيه الإباحية باسم المدنية ، وجرفت فيه المادة كل معنى سام شريف ، واضمحل وازع العقل واستشرى داء العاطفة — معنى عال جليل ، فقد رمى — حفظه الله — إلى أن يبقى ثوبه عفاً لا تعلق به ريبة ، ومحيطه طاهراً لا تحوم حوله ظنة ، ودينه قويماً لا ترقى إليه شبهة ، فأملك فى تلك السن ، لأن فى ذلك كمال الإيمان ، فلقد أملك رسول الله صلى الله عليه وسلم بأم المؤمنين خديجة رضى الله عنها ، وسنه إحدى وعشرون سنة « على ما أرجحه من الآراء » ، وفى حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام ما يدل على توفيق رب التاج فى دينه ودنياه ، فقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يامعشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء » فليكنا المحبوب الصالح ينفذ دعوة الرسول الأمين ، ويدعو من يرى فى جلالته نبراسه ، وكل مصرى يراه كذلك ، إلى ذلك النهج القويم

وتخير الفاروق — أعزه الله — بصادق فطرته ، وصائب إرادته ، وسامى حكمته ، نجيبة نبيلة ، هى سليلة الطهر والشرف

الجلوة الملكية

للأستاذ ابراهيم مأمون

أي مجد حيال مجدك يُذكرْ ؟ هذه الشمسُ في رحابك تُنثَرْ
وابنُها البدرُ مذ رآكَ على العر ش تجلّيت ، للوراء تأخّرْ
ونجومُ السماء تنتظم الأفْـــقَ توشّيه من سناك المنضَّرْ
والنهار الضحوك يبتدر الشمـــس بوجه على الأْريكة أنورْ
والنسيم الخفيّ يستاف ريا كَ ، ومن فوحه أريج وعبهر
والرياحين في الرياض تواثبـــن يُضمّخن من شَذاك المعطّرْ
والصِّبا الغضُّ: في المواكب ينسا ب انسياب الجمال في الروض أزهر
والكهولات زايلت كل كهل في مدًى يزحم النفوس ويبهرْ
والأغانيّ رَنّحت أذنَ الدهـــر فوافى لدى زفافك يسمُر

* * *

هذه هذه أغاريد مصر ؟ أم هو الكون بين نايٍ ومزهر؟
ضَجَّ في سمعه الهتاف ودوّى منطق النيل في البلاد وزمجر
لَهوات الطيور تبتدع الشد و وتوليه صوت مصر المطهر
سال لحناً على شفاهِ مجاليـــها ، ومن نَفحة السماء تحدّر
في أغانٍ عُهِدن في شدْو « داو د » ، ومن لحن بُوقه تتفجّر
وهتاف جرى على قصب الخلـــد ، فغنت به ضفاف الكوثر

* * *

سرتُ والشعرَ في زفافك يا فا روق أحدو البيان غير مؤخر
وأناديه : إيه شعري ، فهذا هو مجلاك ، والكنانة مِنبر !
هات ياشعرُ من رصين القوافي هات بكرَ الخيال غير مُزَوَّر

وربيبة العز والمجد ، وتليدة الحسب والنسب ، فحباها قلبه ، وأولاها لبه ، ووقف عليها حبه ، فأعز باختياره شعبه ، إذ اصطفاها من صميمه ، ليمتزج دماء الملك في جلاله وصفائه ، بدم الشعب في وداعته وإبائه . سنة كريمة سنها من قبله والده العظيم ، فوهب الله لمصر فاروقها المجيد ؛ له من خلق الملوك سناؤه وسموه ، ونبله وعلوه ، ومن خلال الشعب تواضعه وسجاحته ، وديمقراطيته وسماحته ، فَمَلَكَ بشيمه قلوب أمته ، وتطلعت إلى جلالتــه الشعوب الإسلامية ترى فيه مجدد شباب الإسلام بفتوته ، ومعيد مجد الفراعنة بحكمته ، وعرف له سامى عراقته ملوك الغرب ، فأحبوه مليكاً نبيلا ، وعظموه صديقاً خليلا . ثم إن المليكة الفريدة في المرحلة الأولى من حياتها مُهجرة مثقفة ، متعلمة مهذبة ، متصلة اتصالاً روحياً وثيقاً بالمُلكِ وتقاليده ، فهي قد جمعت كل مؤهلات الملكة العظيمة ؛ فكأن القدر والله مدبره ، والدهر ورب الخلق يسيره ، كان يعدها في نشأتها الأولى لهذا المستقبل العظيم ينتظرها ببشر غامر ، ويمن وافر ، فتتبوأ عرش الفراعنة تكلؤها عين رحيمة ، ويرعاها حدب جميل . فجلالته البر الرحيم ، والندب الكريم ، فنشأت محبة للعلم مقبلة على دروسه لم تشغلها بحبوحة الثراء ، ولا رفاهية السراة العظماء ، عن أن تبذ قريناتها في رشف العلوم ، وتبهر أترابها بفطنة تستشف بها المعارف ، وتبعث الخشية في نفوس صويحباتها بما ترتل من آى القرآن الكريم ، فكأنها كانت تعلم أن ستزف لناصر الدين والعلم والمعارف فهي تعمل لتقر عينه بما تتحلى به من أفانين العلم .

أليس كل هذا من علائم التوفيق واليمن ، ومن بشائر الخير والسعد ؟ وإنه لقران مبارك نتوسم أن يؤتى — إن شاء الله — أحسن الأثمار وأنضر الأزهار ، وأن تعقبه أيام خالدات في جبين مصر تملأ عطف المصرى تيهاً ، وآلاء سنيات للإسلام ترفع له مناراً ، وأياد على الوطن سخيات تعلى له شماراً ، فتنال الأمة في عهد الفاروق المفدى الحسنيين ، ويبلغ مجد مصر الخافقين ، وترفل فريدة في ظل رب العرش قريرة العين بخير من تظل السماء ، منشرحة الصدر بالنجب من الأمراء ، بسّامة الثغر بما تراه من الحب والولاء ، حينما تسمع القلوب والأفواه ترفع إلى الله خير الدعاء :

يحيا الملك ! تحيا الملكة !

عبد العظيم على قناوى

لاتطف بى على عوانس ماضيـــك . ومِل بى إلى البيان تمصَّـ
فاستوى يرسلُ المعانيَ أبكا   راً ، ويُضنى الخيال لا يتعثر
ومضى بى كما أردت إلى العر   ش ، ومن دوننا جلالةُ عبقر
فإذا الساح والمواكب فيها   حاشدات تسبى النفوس وتسحر
وإذا الشعر لا يشاء مضيًّا   وإذا بى عن المدى أتأخر !!
وإذا الحشد لا يطيق سكوتا   شهد العرشَ والمليكَ فكبَّر
وإذا مصر بالهتاف تدوّى   ذاك ركب الفاروق ، الله أكبر!

* * *

عجزت ريشة المصور وارتـــدَّ   يراع الأديب غير مؤزَّر
واتبذتُ القرطاس والقلم الفخـــمَ   ،وأنكرت كل ما كان يُسْطر
وتسللت فى الرياض لعلّى   بجلال الرياض أحظى وأظفر
فإذا الصمت يحتوينيَ حيرا   نَ ، وشعرى هناك غير مُيسَّر
ورأتنى بلابل النيـل أسعى   فتساءلن : ما لذاك تحيَّر ؟
قلت: أرجو الإلهام من نفحة الر   وض أحيّى بهِ الزفاف الموقر
فتهامسنَ : ما لذاك ؟ وعن أيّـــة   حالٍ يرى المحاكيَ عبَّر ؟
أم عن العرش فى الجلالة يبدو   ضاحيَ الوجه ، باسم الثغر ، أحور؟
أم عن المُلك بات ينتظم الشعـــب   ، كأن العباد للبعث تحشر ؟
أم عن الليل بات يستبق الصبـــح   بوجهٍ من المواكب أقمر ؟
أم عن الضوء فى ائتلاق من البيـــت   يريك النهار أو هو أبهر ؟
أم عن الغِيد يحتشدن جماعا   ت وفى ركبها العفاف يُنضَّر ؟
أم عن الزهر فى فروع العذارى   يتهادين كالغصون تؤطَّر ؟
أم عن الجلوة المهيبة تسعى   فى احتشادٍ به الكمال تخفَّر ؟
أم عن الدين فى المحاريب يجثو   بالدعاء المجاب للعرش يجأر ؟
أم عن الجحفل العرمرم فى السا   حة يهتزّ للّواء المظفَّر
أم عن الخيل فى رحابك يرقصـــن   وفى موطن المنى تتبختر ؟
أم عن الحائمات هزّمن فى الجـــو   ومن نشوة العلا تهدّر ؟
أفحمتنى ، فقلت : ويحك ماذا   صُغتهِ أنت؟ فانتحت تتفكر!

قلت : إيه بلابل النيل شدوا   إن وصف البيان فى الحق قصَّر!
فتناجين — والحقيقة تهفو —   هكذا الوصف ، نحن فى الأمر نُعذر
قلت : إيه بلابل النيل إيهٍ   إن جُهد المُقلّ فى الحفل يشكر

* * *

هل أتاك الحديث من شفةِ الوا   دي بيوم على الزمان مُشهَّر
أو رأيت الرحاب عادت سماء   بسوى وجهك المضيء المدنّر
مهرجانٌ على المشارق ضافٍ   يحشد الدهر رائعاً يتجمهر
هــذه مصر تحتفى بيفاع   ساس بالحكمة الشئون ودبّر
يافعٌ ، أروعُ الفؤاد ، مُزكّى   طيبُ النفس بالحنيف تدثّر
بلغ الرشدَ يوم نُزّىَ في المهـــد   ، وما كان فى الأمور بإمَّر
من وفاء البلاد إكليله السمْـــحُ   ومن حبها المؤكد يُضفَر
وله الشمس وهى تاج المعالى   تاج عزٍّ ، على سواه تكبّر !
لم يُتح قبلُ للعباهل فى الأر   ض ولم يُتخذ لهامةِ قيصر
رامه الشعب للمُمَلَّك رمسيـــس   ، وللفاطمىّ رجّاه جوهر

* * *

يا مليك البلاد : ذلك يومٌ   فى حشيد الأيام لن يتنكر
خفّ فى قدسه فراعنة الوا   دى نشاوى الخطا تدِل وتفخر
وكأن الوفود من «عين شمس»   ومن «الكرنك» المخلّد تخطر
وكأنّ الزفاف فى «طيبة» المجـــد   وحشد الجموع حول «الأقصر»
ههنا الصِّيد من فراعنة الوا   دي يرون البلاد فى العرس تزخر
ذاك «وادى الملوك» ينتظم النيـــل   جلالاً على السفائن تمخر
فانظر النيل والمواخر فيه   تلق دنيا من الزمان تُنشَّر
تلق عرش البلاد من «آل خوفو»   ضاحيَ الحشد بين جند وعسكر
وترى «أحمسَ» الجرىء يزجّي   سفن المجد تستزيد وتكثر
وانظر السُفُنَ فى الوشائع نشوى   إن فيها «تحتمسَ» النيل يزأر
أمنتْ مصرُ من عوادي الليالى   وزمان الفاروق بالعدل أسفر

ابراهيم مأمون
المدرس بمدرسة فؤاد الثانوية بالزقازيق

عروس صاحب الجلالة فرعون الصغير

للأستاذ دريني خشبة

استيقظ أهل طيبة فى هدأة الفجر الأول من أيام الربيع على أصوات طبول فرعون التى أخذت تدوى فى الأفق ، وترن فى ظلال المعابد ، وتنسكب مع الشفق الوردى فى أذنى أمون رع[1] وترف فوق مسلات الكرنك مع هُورس[2] الكريم

واستيقظت الآلهة كلها تبارك الجيش ، وتحرس صاحب الجلالة وتغسل الأعلام المصرية المنَشَّرة بدموع الندى ... تلك الدموع العطرية التى كانت تترقرق من أعين الربيع مما هزّه من فرح ، وما سوى فيه من شباب فرعون

واهتز حابى[3] العظيم تحت الأسطول اللَّجِب الذي صدحت موسيقاه لتمتزج بموسيقى الجيش ، فتتدفق فى قلوب الشعب المزدحم فوق العُدْوَتين[4] ألحاناً من الحماسة ، ونورانية من الحب ، وقُدسيةً من الولاء ، تنعقد فوق هامة المليك هالةً من إعزاز رعاياه ، وإكليلاً من وفاء الأمة النبيلة صاحبة المجد ...

وَيْلٌ للحثيين ! ![5]

لقد أغراهم بمصر أن رأوا على عرشها الملك الشاب تحتمس فغرتهم الأمانى ، وهاجت فى قلوبهم الأحقاد القديمة ، ووسوست لهم شياطينهم أنها الفرصة النادرة التى يدركون بها ما لم يدركوه فى عهد آبائه ، فتألبوا ، وثاروا ، وجمعوا الجموع لغزو مصر

ولكن ... طاشت أحلامهم ... ففوق عرش النيل ملك ، وفى مصر أمة ، وملء الوجهين قلوب فياضة بحب فرعون يوجهها أنى يشاء ... وها هو ذا الجيش تنتظم صفوفه كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، وها هو ذا الأسطول يتهادى على أعراف الموج فى النيل نحو الشمال ... وها هى مصر كلها تحملق مُغضَبة نحو المشرق ، ساخرة مستهزئة بأعدائها الكلاب الذين طالما حطمتهم فى ديارهم ، وألبستهم لباس الذل والخوف ، فلما صفحت عنهم إذا هم ينشِفرُون !

* * *

واستيقظت حَتَاسُّو ، عروس فرعون ، وفتحت نافذتها لتشهد المنظر الرائع ، ولترى إلى زوجها الشاب يستعرض الجيش وقد استوى فوق جواده الأبيض المختال ، وراح يتهادى بين صفوف الجند ، كأنما يرسل من عينيه المصريتين سحراً فى قلوب المحاربين ، ومن فوق رأسه تاج المملكة المتحدة يشع سناه فى غبشة الصبح ، فكأنما يملأ الآفاق ذَهَباً

لقد كانت ليلة طويلة دجوجية ، تلك الليلة التى قضتها حتاسُّو بين وصيفتيها النائمتين الحالمتين ، تفكر فى مليكها الذى أقبل فى المساء يودعها ويتزود منها لرحلة الغد إلى بلاد الحثيين ... لقد كانت تراه ما يزال جالساً إليها يحدثها ويسامرها ، ويرسل عينيه الحبيبتين فى عينيها المذعورتين ، ويرسل معهما روحه فتعانق روحها ، وقلبه فيتحسس قلبها ، وشعوره الفائر ، فيتحد بشعورها . . . ثم تذكر رنين صوته العذب الموسيقى يترقرق فى أذنيها فيملؤها بالأحلام ، ورنين قبلاته الحارة الطاهرة تهمهم على فمها الشتيت الحلو فتحمل إليه سِرّ الخمر الإلهية التى لا غَوْل فيها ولا تأثيم ... فتبكى ... ! ولم لا ... ؟ أليس من البكاء بكاء تحمل دموعه رسالة الروح فتذهب بها إلى الله اللطيف العلى ، فتكون عنده صلاةً ليس مثلها صلاة ! ! ذلك بكاء المحبين ...

* * *

ورحل فرعون الشاب بأساطيله وجنده

ولكن طيبة العظيمة لم يدم لها هذا الصفو الجميل الذى ودعت

---

(١) أمون إله طيبة ورع إله منف واتحدا فكونا إلهاً واحداً بهذا الاسم

(٢) هورس هو ابن آزوديس وكان يرمز له بالصقر

(٣) حابى هو اسم النيل وربه فى الميثولوجيا المصرية

(٤) عدوة النيل شاطئه

(٥) ألد أعداء مصر فى الزمن القديم

تحت بنوده ملكها . . . ذلك أن أم العروس الصون شوهدت في فجر اليوم الثاني راكعة في المعبد الكبير أمام المذبح ، بين يدى أمون رع ، تبكى وتصلى ، وتتوجع وتتصدع وتشكو إلى الله بثها الذى لم يعرف أحد سببه

وقد وقف الكهنة حولها في ذهول وخشوع ، ولم يجسر أحد منهم أن يسألها عما ألم بها ؛ بيد أن رئيس المعبد تقدم إليها آخر الأمر في أدب وضراعة ، وربت قليلاً على كتفها ، ثم مد يده الواهية المعروقة إلى يدها المرتجفة المحزونة ، فنهضت وهى لا تكاد تنى مما يعصف بها من هم وشجو ...

وسار الكاهن الأكبر بين يديها إلى صومعته ؛ وكان الكهنة يتلون أوراد الفجر وأناشيد الصباح فتهتز جوانب المعبد بحسن إنشادهم وروعة ترتيلاتهم ، فتنهمر دموع الأم ، وتقف أمام هذه الصورة ، وبين ذلك التمثال باسطةً ذراعيها ، وداعية الآلهة ، متمتمة بكلام خفى غير مفهوم ...

— ماذا يا ابنتى ! فيم مجيئك في هذه الساعة من الفجر ؟ وفيم هذا البكاء وتلك الصلوات ... ؟ تكلمي ... ! ألست أباك ؟

— تباركت أيها الأب . . . ولكن ليحضر نائب صاحب الجلالة ، فالخطب جلل ... وتكاد نفسى تتصدع ...

— نائب صاحب الجلالة ؟ أى خطب جلل يا أربابى ؟ ! أمون رع ! ! لطفك ياربى المقدس !

وأرسل الكاهن الأكبر رسوله إلى نائب الملك فجاء مهرولاً في ثياب النوم ، وجعل يلهث من الفزع والتعب ، ويسأل الكاهن فيم أرسل إليه ، وماذا أصاب والدة الملكة ... فأشار الكاهن إلى الأم الباكية ، فالتفتت إليه مذهولةً وقالت :

— ابنتى ! ابنتى يا نائب صاحب الجلالة !

— الملكة !

— بل العروس !

— ماذا ؟ ماذا أصابها ؟

— لا أدرى ... ! إنها ليست في القصر ! لا هى ، ولا وصيفتاها !

— هل فتّشت الغرف ؟

— كلها !

— والحديقة ؟

— وطيبة جميعاً ...

— جريمة ! إن في الأمر جريمة ... لا بد من تبليغ مولاى !

وكاد النائب المسبوه يرسل صيحة ذعره في المعبد ، لولا أن أشار إليه رئيس الكهنة ، فصمت ... وقال فتاح الكاهن الأكبر :

— أتحسب أن من الخير أن نحمل هذا النبأ المروّع إلى ملكٍ ذهب أمس ، وأمس فقط ، على رأس جنوده ليؤدّب أعداءه ؟ لا ، لا ، ليس هذا عندى برأى ... إنها أول حربٍ يشنها الملك ، فكيف نُثنيه بمثل هذا عن عزمه ؟ !

— فما الرأى إذن ؟

— اهدأ يا نائب صاحب الجلالة ، فنحن بين يدَىْ أمون ، ويوشك رَعْ أن يهدينا بِسَنانوره ولألاء حكمته

ويرى الكاهن الأكبر أول شعاعة من شعاع الشمس تدخل من كوة الشرق في الصومعة ، فيأمر المؤذن فيؤذن بصلاة جامعة ، لرع ... رب المشرقين !

وينتظم الكهنة صفوفاً أمام المذبح الكبير ، ويبدأ رئيسهم إنشاده ، فيأخذون في ترتيل جميل ، وتركع (تى) ، ويركع آنيو ، ويصليان مع الكهنة ... حتى إذا فرغ الجميع من صلاتهم خلا رئيس المعبد إلى آلهته ، ثم أقبل على نائب الملك وأقبل على تى بوجه مشرق متهلل وهو يُسبِّح ويقول : « بخير ... »

***

« بخير ؟ وأى خير في أن تختفى عروس فرعون ، فإذا آب من حربه لم يجدها ؟ ومنذ الذى يستطيع أن يلقاه حين يصل إلى طيبة فلا تكون عروسه أول من تلقاه بها حاملةً له باقةً ناضرةً من أزهار اللوتس المقدسة ؟ واأسفاه عليك يا ابنتى ؟ واأسفاه على الأحلام الضائعة ! »

وهكذا راحت تى تندب حظها ، وتذرف الدمع من أجل ابنتها ، وكلما زارها كبير الكهنة فواساها لم تلق بالها إليه ،

حتى اسَّاقطت نفُسُها أنفُساً ، وحتى براها الحزن ، وشفها الوجد ، وأوهاها طول البكاء

وكتموا الخبر حتى لا يصل إلى فرعون فيفت فى عضده ، ويوهى من جَلَده ، ويكون سبباً فيما لا يوده له إلا عدوه

ثم أرسل تحتمس رسالة إلى عروسه أخذتها أمها ، فلما فضتها ، انهمرت عيناها بالدموع الحرار من أجل حتاسو ، التى أرسل الملك يخبرها أنه اجتاز حدود مصر إلى بلاد الأعداء ، وأنه يقبلها على هذا البعد الشاسع بينهما ، ويسألها أن تصلى له وتركع بين يدى آمون رع من أجله ... ومن أجل مصر ... التى يفتديها الجميع ، ويعيش من أجلها الجميع ، ويموت فى سبيلها الجميع

واضطرت الأم المحزونة أن تزور رسالة تبعث بها إلى صاحب الجلالة على لسان عروسه تشكره فيها وتتمنى له الخير والنصر ؟

وكانت الرسالة جافة خالية من روح الحب الذى يملى على صاحبه ويوحى إليه ، ويُنضر طِرْسه بألوان الورد ، ويعطره بأنفاسه ... فلما قرأها تحتمس هاجت الوساوس فى قلبه ، وإن يكن قد تجلد وصبر ولقى فرعون أعداءه ...

وكانت جيوشهم تغمر السهل والجبل ، وقنابلهم [1] تزحم البر والبحر ، وهم على كثرتهم سابغون فى دروعهم مُقَنَّعون فى حديدهم ، تصهل خيلهم فتتجاوب أصداؤها فى جنبات الوادى وترغى فتشق عنان السماء ... وقد آنس الملك ضعفاً وقلة فى ميسرتهم فانقض عليها بميمنته ، واستطاع بعد عناء أن يزحزحها ، لكن المدد الذى وصل من وراء المجشَّبتين أفسد على فرعون خطته ، فتقهقر قليلا ليأمن التفاف الأعداء ، الذين غرهم نكوص ميمنة مصر ، فهجموا بجموعهم كلها ؛ وحمى وطيس القتال فى القلب واليسرة والميمنة ... وثار النقع ... وارتفع أنين القتلى فى كل مكان ... وانطلق عزيز النيل يصيح فى جنوده ويحرضهم ويُثبت أقدامهم ، ويذكرهم بمجد بلادهم ... وكانت كلماته تثير فيهم الحمية ، وتلهب صدورهم بنار الوطنية ، فيهجمون غير مبالين ، وينقضون على أعدائهم غير هيابين ، حتى زلزلوهم عن مراكزهم . وزادهم حماسة أن رأوا قلب الحثيين ينتقض على قادته ، ويولى بعض عساكره الأدبار ، فاقتحموا وراءهم الحلبة وأوقعوا فيهم حتى أثخنوهم ... وأبصرت ميمنة الحثيين وميسرتهم ما حل بالقلب فبهتوا ، وخارت عزائمهم ، وساعد ذلك المصريين فانقضوا عليهم كالصواعق من كل مكان ...

وظن المصريون أنهم ظهروا على أعدائهم فجعلوا يتصايحون ويهتفون ، ويهنىء بعضهم بعضاً ، والعدو مازال صامداً فى مكانه . وفطن قائد الحثيين إلى ذلك فبدا له أن يذهب فى كوكبة من أشجع فرسانه فيلتف بمركز القيادة فى صفوف المصريين الخلفية وسرعان ما أنفذ الفكرة

وكادت حيلة القائد تنجح ، لولا أن فطن إلى ذلك أحد فرسان المصريين فصاح ببعض ضباط الجيش قائلا : « أيها الجنود دافعوا عن مليككم . . . الحثيون يوشكون أن يحدقوا به » . وتلفت الضباط فرأوا كوكبة الحيثيين مسرعة إلى مركز القيادة

فصاحوا بجنودهم ، وانطلقوا فى إثر الفارس الذى نبههم فاشتبكوا مع الأعداء فى ملحمة هائلة ، أبلى فيها بلاءً حسناً ... وهرب الحثيون ... ولكن الفارس المسكين سقط جريحاً ، وانبطح من فوق جواده بين القتلى العديدين ... وتقدم إليه فارسان شجاعان فحملاه إلى المعسكر حيث ضمدا جراحه وجلسا عند سريره يواسيانه

وانتصر فرعون مصر ، وطهر الأرض من رجس الحثيين !

وعاد إلى معسكره فمنح الفارس الجريح أسمى ألقاب الجيش ورفعه إلى مرتبة قائد ، ثم ذهب إليه بنفسه فأبدى له إعجابه بشجاعته وحسن بلائه

* * *

وذاعت أنباء النصر فى مصر فغمر الفرح رعايا فرعون ، وراح الجميع يقيمون معالم الزينة على مساكنهم ومتاجرهم ، وانطلقت زرافات الكهنة ترتل أورادها فى شوارع المدن ، وبدت طيبة فى أبهى حللها ، ورفرفت الأعلام على الهياكل ودور الحكومة ، وتدفق حابى بالبركات فى أرجاء البلاد

وذهب نائب الملك وفى معيته كبير الكهنة للقاء صاحب الجلالة على حدود البلاد ، وليجنباه الخبر المفزع الهائل ... خبر

(١) القنابل فرق الجيش

اختفاء عروسه ... أو ليكونا على الأقل معينين له على تحمل الصدمة ...

وقد سألها جلالته عنها حين لقيهما فكتما عنه الأمر، لتتم للبلاد أفراحها ؛ واعتزما ألا يقولا له شيئاً حتى يستقر فى عاصمة ملكه

وكم حدّث عزيز مصر نفسه أنه كان أحجى بحتاسو لو خرجت إلى الحدود للقائه ، كما خرج نائبه وكبير الكهنة وكبراء الدولة ....

لكنه مع ذاك تجلد واصطبر ...

ووصل إلى طيبة ... ولكن حتاسو لم تسرع للقائه ، فماذا جرى ؟ ! وبدلاً من أن تذهب حتاسو إلى قصر الملك لتهنئه ، فقد ذهبت أمها الواهية المتداعية . فما إن وقعت عيناه عليها حتى سألها :

— ماذا ؟ أين حتاسو ؟ ؟

فتبسمت الأم المذهولة وقالت :

— فى سريرها يا مولاى !

— فى سريرها ؟ أهي مريضة ؟

— أجل يا مولاى

ونظر نائب الملك إلى كبير الكهنة ثم راح يسر إليه : « يا للآلهة ! إن تى وفية للملك مخلصة . . . إنها تأبى أن تكون أول من يبلغ الملك نبأ اختفاء عروسه ! ! »

قال الملك :

— إذن نمضى نحن فنراها

***

ودخل صاحب الجلالة غرفة حتاسو ، فوجدها طريحة الفراش ، وقد ربطت فخذها وذراعها بأربطة وضمادات . . . وكانت تغط فى سبات عميق ، وكان وجهها مع ذلك مشرقاً جميلاً ساحراً كعادته . . . ولم يملك تحتمس إلا أن ينحنى فيطبع قبلة اللقاء على فم عروسه ...

وانتفضت حتاسو من سحر القبلة العزيزة ، ولما فتحت عينيها ، رأت صاحب الجلالة منحنياً فوق وجهها ، ودمعة غالية تترقرق فى مقلتيه ... فهبت من سريرها باسمة سعيدة ، وأنشأت تقول :

— أهنئ مولاى بالنصر الحاسم

وتحدرت الدموع من عينى الملك ، ثم قال لعروسه :

— ماذا بك يا حتاسو ! ؟

فقالت له :

— لا شيء ! جروح هينة من معركة مجدُّو ! !

— معركة مجدُّو ؟

— إي يا مولاى ... مجدُّو ... مجدُّو ! ألا تعرف الفارس أحميس الذى رفعته إلى رتبة قائد ؟ هو أنا ! وهاتان صاحباي :

***

وبعد شهر واحد لبست البلاد زخرفها وازينت واحتفلت بزفاف صاحبي الجلالة .

دريني خشبة

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ٧ —

وعند هذا الحد من الحديث تذكرت ليلى

تذكرت العبارة البغدادية الطريفة التى طلّت بها قلبى منذ أول زيارة ، فقد قالت حين رأتنى أهمّ بالرواح :

« فراقك صعب ، سيّدى »

ورأيت من الخير أن أصرف ظمياء . وكانت لى سياسة أوحاها الشيطان ، فقد رأيت الفتاة تقص أحاديث الشيخ دعاس وزوجته بجلاء بحماسة سحرية ، ورأيتها تطنب فى وصف ابنتهما الجميلة ، تلك الفتاة التى اسمها درية ، وهو اسم لا أدرى كيف يلذع قلبي ، ولكن لا موجب للمضىّ فى سماع ما تقول ظمياء فى وصف درية ، فليس من الحزم أن تقول ظمياء كل ما عندها فى ليلة واحدة . وهل أضمن رؤيتها بعد ذلك إن تمّ هذا الحديث ؟ من الخير أن أصرف هذه الفتاة وهى فى نشوة الحديث فلا أتعب فى رَجْعها إلى منزلى حين أشاء

ولكن كيف أصرفها وقد استأنست كل الاستئناس ؟

يجب أن أصرفها بعلة طبية لتهيّأ للمرض ، فقد أمسيت أشعر بوجوب أن تصبح هذه الفتاة من مرضاى ؛ ولا بدّ للطبيب من مريض ؛ وستعافى ليلى باذن الله ، فلتكن لى ذخيرة ألتمس بها البقاء في بغداد . وكذلك صوّبت بصرى إلى الفتاة وقلت :

ما هذا الذى أرى بوجهك يا ظمياء ؟

فانزعجت الفتاة وقالت بصوت مقتول : إيش بى يا عمّى ؟

فقلت وأنا أتكلف الحزن : سأخبرك يا بنيتى حين أجىء لعيادة ليلى . فاذهبي الآن واستريحى ، وتجنبي التعرض للتيارات الوجدانية

فخرجت الفتاة مذعورة لا تُلوى على شىء . والجمال الساذج يفتن القلوب حين يكربه الانزعاج

***

فراقك صعب ، سيّدى

كذلك قالت ليلى

فراقك صعب ...

أى والله ، فراق صعب ، ياليلى ، وفراقك أصعب . فمتى يكون اللقاء ؟

وأويت إلى فراشى فى ليلة باردة لم يدفئها غير الذكريات . ثم خرجت مبكراً فى الصباح فرأيت بغداد تموج بالحديث عن ليلى والدكتور زكى مبارك وانتخاب مجلس النواب

أعوذ بالله !

ثم سألت فعلمت أن مجلة الرسالة نشرت كلمة عن ليلى المريضة فى العراق ، فتذكرت الخطاب الخاص الذى أرسلته إلى الأستاذ الزيات منذ أسابيع . وما أتهم هذا الصديق بسوء النية فى نشر ذلك الخطاب ، فهو رجل عاش سنين فى بغداد ولم ير ليلى بعينيه ، فهو يحب أن يراها مع قرائه بأذنيه ، تأسياً بقول الشريف الرضى :

فاتنى أن أرى الديار بطرفى فلعلى أرى الديار بسمعى

ومضى يوم ، ويوم ، وأيام ، وأنا طعمة الألسنة والعيون فى كل مكان

وكانت فرصة تذكرت فيها ما جنيت على نفسى فى السنين الخوالى ، فقد كنت عدوّ نفسى من حيث لا أريد . أنا الطبيب الذى أضاعه الأدب فلم يبق أمامه غير احتراف الصحافة والتعليم . ولو لا جناية الأدب لكنت اليوم عميد كلية الطب بالجامعة المصرية ، وأنا عند المنصفين أعرف بالطب من العميد المعروف

تذكرت وتذكرت ...

تذكرت العيادة التى أقمتها فى الزمالك مع زميلى الدكتور أديب نشوان ، وهى عيادة كان يُرجَى أن تكون مضرب المثل فى عالم الطب ، ولكن مقالاتى فى جريدة البلاغ جنت على فلم يعد أحد يصدق أنى طبيب

وتذكرت مجلة (طبيب القلوب) وكانت والله مجلة لطيفة ، ولكنى تفلسفت فى الدراسات النفسية ، ثم ما زلت أوغل فى التفلسف حتى حسبنى القراء من العابثين ؛ وعطّلت المجلة ، ولا تزال إلى اليوم فى نزاع حول ما تراكم عليها من ديون

وقد نجا زميلى بجلده ، وكيف لا ينجو وهو جبان ! وبقيت أنا أضع الدينار بجانب الدينار لأتخلص مما جناه قلمى البليغ !

يرحمك الله يا أبى ! فكم نصحتنى ولم أنتصح ! كم قلت إن الطبيب لا يليق به أن يتحدث فى أشعاره عن الخدود والعيون والنحور والثغور ، ولا ينبغى له أن يتفجع على مواسم الروح فى

مصر الجديدة والزمالك . ولكنى أحسنت الظن بالناس فانطلقت أشدو وأترنم ، فكان جزائى أن أعيش عيش المشرَّدين بين القاهرة وباريس وبغداد

تذكرت وتذكرت لو تنفع الذكرى !

تذكرت العيادة الجميلة التى أقمتها فى شارع فؤاد بعد أن خُرِّبت عيادتى بشارع المدابغ بسبب السيدة (ن) ، وكانت عيادتى بشارع فؤاد تبشر بمستقبل رائع ، فقد كانت مجهزة على أحدث طراز ، وكان فيها ممرضة جميلة تخلب عقول النساء قبل أن تخلب عقول الرجال ؛ ولكن الله ابتلانى بطائفتين من الناس كانوا السبب فى خراب تلك العيادة الفيحاء : الطائفة الأولى جماعة الأصدقاء الذين يرون من حقوق الصداقة أن أدوايهم بالمجان . أما الطائفة الثانية فهم الأدباء الذين جعلوا عيادتى سامراً يلتقون فيه كل مساء . وفى تلك العيادة تألفت رابطة الأدب القديم وجمعية عطارد وأصدقاء أفروديت . وفى تلك العيادة قامت المعارك بين القديم والجديد ، وفيها نظِّم أول مؤتمر لكليات الجامعة المصرية ، وفيها أسست نقابة المحبين

ومالى أكتم حقائق التاريخ ؟ إن هذه المذكرات لن تنشر فى حياتى ، ولن يراها الزيات ولا غير الزيات . فلأدوِّن فيها كل شىء وليقل الناس بعدى ماشاءوا ، فسأكون فى شغل عنهم بما أعد الله للأشقياء من نعيم الفراديس . وهل يُرضى الله فى كرمه أن نشقى فى الدارين ؟

كانت عيادتى بشارع فؤاد هى الملاذ لكل أديب لا يجد فى جيبه خمسة قروش يجلس بها جلسة لطيفة فى مشرب ... أو مشرب ... أو مشرب ... ولا موجب لذكر أسماء هذه المشارب فأصحابها لئام لا يستحقون الاعلان ، وأخشى أن يعيشوا بعد أن أموت . أليس فيهم الرجل اللئيم الذى استقبل فى حانته صديق .. فلما انصرف سألنى عن اسمه فطويته عنه . وكان اللئيم يريد أن يعرف ما هو اسم ذلك الشاب الذى يخاصر تلك الشقراء ؟ وكان ذلك الصديق من كبار الموظفين بوزارة . . .

إن القاهرة ليس فيها مشرب أمين يأتى فيه الرجل حبيبته وهو فى أمان من عيون الرقباء

وهذا الكلام الذى أدونه فى مذكراتى هو السبب فى خرابى ، فأنا طبيب دقيق الإحساس ، ودقة الإحساس فى زماننا من أشنع العيوب . ومن حسن الحظ أن هذا الكلام سيُطوى إلى حين ، لأنى سأدفن مذكراتى بالمكتبة العامة فى بغداد ، ولن يطلبها مجلس كلية الآداب بالجامعة المصرية إلا بعد مئات من السنين . وستكون لكلية الآداب جهود مشكورة فى درس النثر الفنى فى الأدب الطبى !

ألا فليعلم الجمهور الذى يخلفنا بعد مئات السنين أن الأدب أضاع ثلاثة من الأطباء كانوا يعيشون فى مصر ، وهم محجوب ثابت ، وأحمد أبو شادى ، وزكى مبارك

ولكن هل ضاع محجوب ثابت ؟ وكيف ؟ لقد اشتغل بالتمثيل السينمائى فنجح أعظم نجاح . وقد تفضل سعادة الأستاذ طه الراوى وكيل وزارة المعارف العراقية فدعانا منذ ليال لتناول طعام العشاء . وعلى المائدة تحدث الأستاذ منير القاضى فأشاد بنبوغ محجوب ثابت فى التمثيل وجزم بأنه أبرع من الممثل زكى طليمات . وعندئذ أحسست الغيرة تلهب أحشائى ، فهذا زميل أضاعه الأدب وحفظه التمثيل

وأبو شادى أحيته المعامل البكتريولوجية ، فهو يفحص (عيّنات) الجراثيم ثم يخلد أصنافها بالشعر البليغ . أما زكى مبارك فقد أضاعه الأدب جملة واحدة . وإنى لأخشى ألا يستمع إليه أحد إن وصف لمريض شربة زيت ؛ ومع أنه ظفر بألقاب كلية الطب وكلية الآداب فقد ضاع فى الكليتين ، فهو عند كلية الآداب رجل طبيب ، وعند كلية الطب رجل أديب ، وعند الله جزائى !

* * *

ومما زاد البلاء أننى صرحت بأن ليلى تقيم فى شارع العباس ابن الأحنف ، وهو شارع معروف فى بغداد ، فما الذى كان يمنع من اختراع اسم موهوم أضلل به أهل الفضول ؟ كذلك أمسيت فى حيرة وارتباك ، فما توجهت إلى ليلى إلا رأيت الشارع بعجّ بالمتطلعين . ويحسن النص على أن المدنية الحديثة جنت على بغداد أعظم جناية ، فليس فيها شارع ولا حارة ولا درب ولا عطفة إلا وهو مضاء بالكهرباء ، وبذلك ضاع علينا الحظ الذى كان يتمتع به المتنبى إذ يقول :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

وفى بغداد شرطة لا تعرف التغافل الظريف الذى تصطنعه شرطة باريس . وليلى نفسها لا تخلو من عنجهية البدويات ،

وأنا نفسي لا أحسن الصبر وهو أقل ما يتخلق به الأطباء

وفي معمعة هذا الكرب وقع حادث ظريف، فقد تلقيت صكا من مجلة الهلال على بنك إيسترن في بغداد، تلقيته في ساعة ضيق، فمضيت إلى البنك لأتقاضاه وأنفق محصوله على نفسي وعلى بعض مرضاى من الملاح.

ولكن إدارة البنك رفضت تسليم المبلغ الميمون وقالت: هات جواز السفر، أو أحضر رجلاً يعرفك. فقلت: أما جواز السفر فلا سبيل إليه لأن المطر ينهمر والطريق كله أوحال. وأما البحث عن رجل يعرفني فهو سهل، ولكنه لا يتم بدون فضيحة البنك. فقال فريق من الموظفين: وكيف؟ فقلت: لأن مما يفضح بنك إيسترن أن يجهل زكي مبارك وهو رجل يشار إليه بالبنان في كل أرض، وفي صدره ودائع أغلى وأنفس مما تحفظ أقوى الخزائن في أعظم البنوك. وعندئذ ضجّ موظفو البنك بالضحك والقهقهة الساخرة؛ ولكن أحدهم ترفق وقال: أنت الطبيب الذي جاء يفتش عن ليلى والذي ينشر نتائج بحثه بمجلة الرسالة المصرية؟

فقلت: نعم!

فالتفت ذلك الموظف إلى زملائه وقال: يا جماعة. هذا هو الطبيب الذي جاء يفتش عن ليلى!

وما كاد يفوه بهذه الكلمات حتى أقبل الموظفون لمصافحتي. وفي لحظة واحدة تسامع مَن في البنك بقصتي، وقد استظرفوني جداً، بالرغم من أني أحمل أنفاً أعظم من أنف ابن حرب، كما قال الأستاذ حسن فهمي الدجاني، زميلي في أيام البؤس، يوم كنت تلميذ الشيخ سيد المرصفي بالأزهر الشريف. وصحبني ذلك الموظف إلى مكتب المدير فشربت عنده كأساً من قهوة أبي الفضل لا قهوة أبي نواس. ولم يفتني أن أسأل عن اسم ذلك الموظف الأديب الذي يقرأ مجلة الرسالة وهو في البنك — وتلك إحدى الأعاجيب — فعرفت أنه يسمى ألبرت داود يعقوب، فمضيت وأنا أرتل الآية الكريمة: «يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين»

* * *

فقد نفعني الأدب في بنك إيسترن، فهل ينفعني عند ليلى؟

وهل نفعني الأدب عند عروس دمياط حتى ينفعني عند عروس بغداد؟

أمري إلى الهوى!

* * *

ظهر المقال الثاني في مجلة الرسالة وفيه كلام عن وزير المعارف ورئيس الوزراء، وقد صارحني الأستاذ عبد الجليل الراوي بأن لذلك عواقب ...

فليكن هذان المقالان كل ما أرسل إلى الزيات، ولتكن هذه الحوادث بداية لرجوعي إلى العقل، فأنا لا أزال شابا، ومن السهل أن أحسّن سمعتي وأن أعيد تنظيم عيادتي في شارع فؤاد، فلولا جناية الأدب لكنت اليوم أغنى الأطباء

على أنه لا موجب للندم على المقالين اللذين نشرتهما الرسالة، فقد أصبح العراق جذوة وجدانية، وصار اسم ليلى بداية كل حديث ونهاية كل حديث في الأندية والمعاهد، بغض النظر عن الفتنة التي ثارت بسبب ليلى في الرستمية، وبغض النظر عن المشاجرة التي وقعت من أجلها في كلية الحقوق ... وينبغي أن أسجل أن هذين المقالين جذبا الأنظار إلى المؤتمر الطبي، فقد حدثني الدكتور حسين كامل أن طلبات الاشتراك بلغت المئات في أسبوع واحد. والسبب لا يخفى على من سيقرأون مذكراتي في السنين المقبلات، فقد صار مفهوماً أن ليلى ستحضر جلسة الافتتاح، وإلى ذلك أشارت جريدة البلاد وجريدة العقاب وجريدة الرأي العام وجريدة الهدف، وأنكرت ذلك مجلة الكفاح وقالت: إنه لا يليق بأمة اسلامية أن تعرض امرأة لعيون الناظرين؛ وفات مجلة الكفاح أن المؤتمر لا يعقد هذه السنة في بغداد إلا بسبب النظر في أمر ليلى المريضة في العراق

ولكن هل أسمح بخروج ليلى؟ هل ضاقت الحيل حتى أمكن الناس من رؤية ليلى؟

رباه! لقد بدأت أشعر بالغيرة على ليلى، فهل تكون الغيرة نذيراً بهبوب عاصفة الحب؟

أمري إلى الهوى!

* * *

نشرت جريدة البلاد في أبرز مكان كلمة تحت عنوان:

«أنشودة اللقاء»

ثم قالت إنها تلقت قصيدة موجهة إليّ بتوقيع (ليلى المريضة) وأنها حولت القصيدة إلى الدكتور زكي مبارك راجية أن يكون

أناشيد صوفية

جيتـــانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ٨٢ —

يا أماه ، سأنظم من عبراتى ... عبرات الأسى ... عقداً جميلاً أزيّن به جيدك

لقد أحسنت الكواكب صنعة الخلاخيل الضوئية لتزين بها قدميك ، ولكن عقدي سيكون على صدرك

إن الثراء والشهرة هما بعض نفحاتكِ ، وهما لكِ حين أمنح وحين أمنع ؛ ولكن أشجانى هى لى وحدى ، وحين أقدمها إليك تبدّلينى بها عطفاً وحناناً

— ٨٣ —

إنها غصة الانفصال هى التى تنتشر فى أرجاء العالم فتحور فى الفضاء اللانهائى أشكالاً وفنوناً عديدة

إنه أسى الانفصال هو الذى ينبعث — فى صمت الليل — من نجم إلى نجم ثم يرتد إلى لحن بين حفيف الأوراق فى حلوكة الليالى المطيرة من شهر يوليه

إنه الألم العميق الذي يهبط إلى قرار الحب والرغبة ، إلى الآلام والأفراح فى دور الناس . وإنه هو الذى يذوب دائماً فيفيض فى قلبى الشاعر ألحاناً

— ٨٤ —

حين يخرج الجند — لأول مرة — من فناء سيدهم ، أين كانوا يخفون قوتّهم ؟ أين كانت دروعهم والسلاح ؟

لقد كانوا يبدون مساكين لا حول لهم ولا جاه ، وهم يحملون القِسيّ والسهام أول ما خرجوا من فناء سيدهم

وحين يرتدون إلى فناء سيدهم ، أين يوارون قواتهم ؟

لقد طرحوا السيف جانباً ، وألقوا القوس والسهم ، وعلى جباههم ترف نسمات السلام ؛ غير أنهم خلفوا من ورائهم ثمار حياتهم حين ارتدوا إلى فناء سيدهم

— ٨٥ —

إن الموت ، وهو خادمك ، يقف ببابى . لقد اجتاز البحر المجهول ليبلغنى رسالتك

الليل داج ، وقلبى ينتفض من أثر الرعب ... ولكنى سأحمل مصباحى ، وأفتح بابى ، وأرحب به ، لأنه هو رسولك الذى يقف ببابى

سأتوسل إليه فى ذلة وأسكب الدمع أمامه . سأتوسل إليه ، وأضع كنز قلبى عند قدميه

سيرتد وقد أتم عمله ونشر ستاراً حالكا على صباحى ، ونفسى الضعيفة ما تنفعك فى دارى الوحشة لتكون قربانى الأخير إليك

— ٨٦ —

وفى أمل اليائس انطلقت أفتش عنها فى زوايا حجرتى ؛ فما وجدتها

إن دارى صغيرة ، وما فقد منها قل أن يعود ثانية

ولكن اللانهاية — يا سيدى — هى قصرك المشيد ، وحين رحت أفتش عنها وقفت ببابك

وفى الليلة الظلماء وقفت تحت عرشك الذهبى ... تحت سمائك ورفعت بصرى إلى وجهك

له فيها شىء من العزاء

وقد تلقيت القصيدة وتأملت الخط ، فعرفت أنها من ليلى غير ليلاى

ونشرت جريدة العقاب كلمة قالت فيها إننى شرعت فى تعلّم الطب ، وذلك دليل جديد على أن شهرتى الأدبية أضاعت منزلتى فى عالم الطب ، فمتى يشفينى الله من الغرام بالأدب وصحبة الأدباء ! آه ! آه !

هذا خبر جديد، فقد أخبرنى الدكتور حسين كامل أن الزيات سيحضر إلى بغداد لشهود المؤتمر الطبى ، وأنا أفهم جيداً ماذا يريد . وهل تجوز علىَّ الحِيَل وأنا خِرِّيج مونمارتر ومونبارناس؟ هيهات هيهات !

أترك هذا العبث فى تدوين مذكراتى ، وأمضى لعيادة ليلى ، فقد طال الشوق إلى صوتها الرخيم و ... عينيها الناعستين . أليست هى التى قالت : فراقك صعب ، سيّدى !

فراق صعب ؟ نعم ، إن ليلى تقول ذلك ، والقول ما قالت ليلى ، ولو كره السفهاء من العذال

(للحديث بقية) زكى مبارك

جئت إلى حافة الأبدية حيث لا شيء يفنى ... لا الأمل ولا السعادة ولا وجهك وهو يتراءى من خلال العبرات

أوه، أغمس حياتي الخاوية في هذا الخضم، وأغمرها في أعماق الكمال ثم دعني استشمر — مرة واحدة — اللذة المفقودة في لمسة من لمسات خلود العالم

— ٨٧ —

يا إله المعبد الخرب! قد انقطعت أوتار القيثارة التي أوقع عليها لحن الثناء عليك، والنواقيس — في سكون الليل — لا تعلن عن ميعاد الصلاة لك؛ والهواء حواليك ساكن هادىء

لقد هبت نسمات الربيع في مسكنك الخالي وفي عطفها سيل من الزهور ... الزهور التي لا تقدم إلا في أوقات عبادتك

وعبدك، عابر السبيل؛ ما يزال يلحف، يطلب بعض رحمتك فما ينال شيئاً، وفي الغسق، حين تختلط النار والظلماء بما على الأرض من كآبة وعبوس، يرتد هو إلى معبدك الخرب وفي قلبه الظمأ

يا إله المعبد الخرب! كم من عبد يقبل إليك في صمت؛ وكم من ليلة من ليالي التهجد تدبر وفي أضعافها سراج منطفىء!

وكم من صورة جميلة زوقتها يد الفن الخادع ثم هي تندفع في مجرى النسيان المقدس حين يأتي عليها الزمن

ولكن إله المعبد الخرب ما يبرح في منأى عن العبادة في إهمال مروع

— ٨٨ —

لا صخب ولا صياح ... تلك مشيئة سيدي؛ لذلك سأتحدث في همس، وسيكون صوت قلبي دندنة فيها نغم لحن

إن الناس يشتدون إلى سوق الملك، وهناك البيّعان؛ غير أني رجعت قبل أن يحين وقت الانصراف ... غادرت السوق عند الظهر وهو ما يزال يموج بالناس

إذن دع الأزهار تتفتح في حديقتي وإن لم يكن قد آن أوانها، وأرسل النحل في الهاجرة يطن طنينه الضعيف

لقد قضيت ساعات طوالاً في صراع حادّ بين الفضيلة والرذيلة؛ والآن ها هو رفيقي يريدني على أن ألق بقلبي بين يديه؛ وأنا لا أدرى، لعلما أراد أن يدفعني إلى ما لا خير فيه

كامل محمود حبيب

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٣٤٥ — لعبة الدبوق

في (نثار الأزهار) لابن منظور: الدَّبّوق [1] كرة شعر ترمى في الهواء، ثم يتلقاها الغلام ضارباً لها تارة بصدر قدمه، وتارة بالصفح الأيمن من ساقه اليمنى، راداً إياها إلى العلو على الدوام. ومن بديع التشبيه قول الارّجاني في غلام يلعب بالدبوق:

يهتز مثل الصعدة السمراء
فقده من شدة التواء
كالغصن تحت العاصف الهوجاء
تراه من تمدد الأعضاء
كأنه كواكب الجوزاء

٣٤٦ — انما رغبتنا في العفاف

في (كنايات الأدباء) لأحمد بن الجرجاني الثقفي: من كناية العامة: إذا قال أحدهم: سلامتها خير من كل شيء. فقد ولدت امرأته اثنين في بطن ...

وإذا قال: انما رغبتنا في العفاف. فقد تزوج قبيحة فقيرة...

وإذا قال: لقمة البيت أطيب من كل شيء. فقد فاتته دعوة

وإذا قال: وما شهدنا إلا بما علمنا. فقد ردت شهادته في حق من شهد له ...

وإذا قال: مابجلال الله من باس فقد تزوجت أمه ...

٣٤٧ — الاقتصاد، البخل

في شرح النهج لابن أبي الحديد: الفرق بين الاقتصاد [2] والبخل أن الاقتصاد تمسك الانسان بما في يده خوفاً على حريته وجاهه من المسئلة، فهو يضع الشيء موضعه، ويصبر عما لا تدعو ضرورة إليه، ويصل صغير بره بعظيم بشره، ولا يستكثر من

(١) الدبوق كتنور لعبة يلعب بها الصبيان معروفة (التاج)

(٢) ما عال من اقتصد ولا يعيل أي ما افتقر من لا يسرف في الانفاق ولا يقتر (النهاية) واقتصد فعل لازم

المودات خوفاً من فرط الاجحاف به [1] ، والبخيل لا يكافىء على ما يسدى إليه [2] ، ويمنع أيضاً اليسير من استحق الكثير ، ويصبر لصغير ما يجرى عليه على كثير من الذلة [3]

٣٤٨ — دع أيهما شئت وخذ الآخر

في (الأغاني) : قال على بن عبد الله الجعفرى [4] مرت بى امرأة فى الطواف وأنا جالس أنشد صديقاً لى هذا البيت :

أهوى هوى الدين واللذات تعجبنى
فكيف لى بهوى اللذات والدين ؟

فالتفتت المرأة إلىّ وقالت : دع أيهما شئت ، وخذ الآخر ..

٣٤٩ — ١٤ يوماً ... !

فى (شـذرات الذهب) : حكى غير واحد أنه وجد بخط الناصر [5] (الأموى) أيام السرور التى صفت له دون تكدير يوم كذا من شهر كذا ، من سنة كذا ، ويوم كذا من كذا ، وعدت تلك الأيام فكان فيها أربعة عشر يوماً ... !

٣٥٠ — نسب بين حيطان

قال رجل لعبد الملك بن الزيات : أمتّ إليكم بجوارى

فقال : نسب بين حيطان ...

نظم ذلك بعضهم فقال :

أرى الجوار نسباً بين الجدر

(١) تكليفه مالا يطاق ، افقاره وذهاب ماله

(٢) أسدى إليه : أحسن. (التاج) أسدى إليه معروفاً اتخذه عنده (المصباح) وفى هذا العصر يقول بعضهم : أسدى إليه شكراً ...!

(٣) فى (الكلم الروحانية) : أفلاطون : البخل يحسن لرفيع التوضع وللنبيه الخمول ، وللموصول الوحشة والتفرد ، ويجب إليه أن يكون رغبة بعد أن كان راعياً خوفاً من غائظ المؤن عليه ، والسخاء فى ضد هذه الحال والاعتدال أخذ بأحسن ما فيهما

(٤) هو صاحب الأبيات المشهورة . (وقف الهوى بى حيث أنت الخ وقد عزاها أبو تمام فى (حماسته) إلى أبى الشيص الخزاعى (محمد بن عبد الله) وعزاها الأصبهانى إلى على بن عبد الله هذا

(٥) عبد الرحمن بن محمد كانت ولايته من الغريب لأنه كان شاباً وأعمامه وأعمام أبيه حاضرون فتصدى إليها واحتازها دونهم ، ووجد الأندلس مضطربة بالمخالفين مضطرمة بنيران المتغلبين ، فأطفأ تلك النيران ، واستنزل أهل العصيان ، واستقامت له الأندلس فى سائر جهاتها بعد عشرين سنة من أيامه ، ودامت أيامه نحو خمسين سنة استفحل فيها ملك بنى أمية بتلك الناحية ، وهو أول من تسمى منهم بالأندلس بأمير المؤمنين (النفح)

والعطف والرقة حيناً والخور
طباع نسوان وصبيان غرر [1]

٣٥١ — ما الذى نستعمله مما تبيحه الشريعة

فى (وفيات الأعيان) : كان الأمير قرواش [2] بن المقلد (صاحب الموصل والكوفة والانبار) كريماً وهّاباً ذهاباً ، جارياً على سنن العرب [3] ، نقل عنه انه جمع بين أختين فى النكاح فلامته العرب على ذلك

فقال : خبّرونى ما الذى نستعمله مما تبيحه الشريعة [4] ؟ ..

٣٥٢ — النرجس

لما قدم على بن سعيد المغربى المؤرخ مصر المحروسة صنع له أدباؤها وليمة فى بعض منتزهاتها [5] ، وانتهوا إلى روض نرجس [6] فجعل أبو الحسين الجزار يطأ عيون النرجس برجليه ، فأنشده ناصر الدين حسن بن النقيب :

ياواطىء النرجس ، ما تستحى   أن تطأ الأعين بالأرجل [7]

فتهافتوا على هذا البيت وراموا إجازته فقال ابن أبى الأصبع :

فقال : دعنى لم أزل محنَقا   على لحاظ الرشأ الأكحل

وكان أمثلَ ماحضرهم ، ثم أبوا أن يجيزه غير ابن سعيد فقال :

قابل جفونا بجفون ولا   تبتذل الأرفع بالأسفل

(١) الغرة : الغفلة وقلة الفطنة والتجربة ، وهو غار وغر (وجمع هذا أغرار وغرار ككتاب) وغرير (وجمعه أغراء وأغرة) والأنثى غرّ وغرة فذلك الجمع (غرر) فى بيت الراجز لم تقيده كتب اللغة — التى بين يدي — وكم فات ، كم فات هذه المعجمات ...

(٢) ابن خلكان : قرواش بكسر القاف وسكون الراء : فعوال من القرش : الكسب وفى النجوم الزاهرة : قرواش بفتح القاف ومعناه باللغة التركية عبد أسود . وفى (الدمية) من شعره :

لله در النائبات فانها   صدأ اللئام وصيقل الأحرار

(٣) يريد البدو ، وقد تورط ابن خلكان فى هذا المعنى تورط ابن خلدون . العرب هذا الجيل الخاص سكان المدن والقرى (الكليات) وفى (تهذيب الأزهرى) رجل عربى وجمعه العرب ، والأعرابى البدوى والاعرابى إذا قيل له يا عربى فرح بذلك وهش له ، والعربى إذا قيل له يا أعرابى غضب له (رواه اللسان)

(٤) فى (النجوم الزاهرة) بعده . فهذا من ذلك . فى (الوفيات) : كان قرواش يقول ما فى رقبتى غير خمسة أو ستة من أهل البادية قتلتهم وأما الحاضرة فما يعبأ الله بهم

(٥) المنتزه — مثل المتنزه — فى نثرهم وشعرهم منذ القرن الثالث كثير ، وفى (النفح) لحميد بن مالك فى دمشق :

فكلها بمجال الطرف منتزه   وكلهم لصروف الدهر أقران

(٦) بالفتح والكسر وهو دخيل والكسر أحسن إذا أعرب (اللسان)

(٧) حذفت همزة الاستفهام ، فى المغنى : الأخفش يقيس ذلك عند أمن اللبس



جوائز فاروق الأول

من الطوالع السعيدة لعهد فاروق الأول — حفظه الله — أن تحظى دولة الأدب والتفكير بأول قسط مشكور من حقها في التشجيع والرعاية؛ فقد انتهت وزارة المعارف بعد طول البحث إلى إقرار مشروع خطير لتشجيع العلوم والآداب يتلخص في ترتيب ستة جوائز ثمينة للمتفوقين في مختلف نواحي التفكير؛ وقد أشارت الرسالة في عددها الماضي إلى قيم هذه الجوائز وأنواعها. وصاحب الفضل الأول في تقديم هذا المشروع هو سعادة الدكتور حافظ عفيفي باشا وزير الخارجية المصرية سابقاً وسفير مصر الحالي في لندن؛ وهو فوق كونه من رجالات مصر المعدودين مفكر وأديب بارع، وله مواقف مشهودة في تعضيد الحركة الفكرية، وهو الذي أنشأ «السياسة الأسبوعية» التي كانت قبل أعوام أعظم الصحف العربية الأدبية

ومما يذكر بالحمد لوزارة المعارف أنها لم تنس الأقطار العربية الشقيقة في ترتيب هذه الجوائز الأدبية الثمينة، فقد تقرر أن يسمح لأبناء العربية من الأقطار الأخرى بالتقدم إلى هذه المباريات في جوائز الأدب والقصص والاجتماع نظراً لما هنالك من وجوه التعميم في هذه الميادين، ورغبة في تشجيع الآداب العربية بصفة عامة، وتقوية للروابط الفكرية والثقافية بين مصر والأقطار العربية الشقيقة

ونحن نغتبط بهذه الخطوة الموفقة التي تتخذها وزارة المعارف لتشجيع الحركة الفكرية في مصر والأقطار العربية؛ ونزيدها توفيقاً ويمناً أن الجوائز الجديدة تحمل اسم صاحب الجلالة الملك «فاروق الأول»؛ بيد أننا نحب أن نرى فيها باكورة فقط، ونرجو أن توفق مصر إلى المزيد منها على يد هيئاتها ومعاهدها العلمية الكبيرة. فعلى الجامعة المصرية والجامع الأزهر أن يساهما في ذلك العمل الجليل، وأن يرتب كل منهما جوائزه الخاصة لتشجيع الحركة الأدبية والعلمية؛ وعلى جميع هيئاتنا العلمية الأخرى أن تقوم بواجبها في ذلك السبيل

المتحف الزراعي المصري

في يوم الاثنين ١٧ يناير الجاري افتتح صاحب الجلالة الملك فاروق الأول متحف فؤاد الزراعي بالدقي بالجيزة؛ وهذا المتحف على حداثته يعتبر في رأي الخبيرين أعظم متحف في العالم من نوعه. والفضل في إنشائه يرجع إلى جلالة المغفور له الملك فؤاد الأول. وقد بدئ بإنشائه في سنة ١٩٣٠، وأراد الملك الراحل أن يكون معهد ثقافة زراعية علمية، فحملت إليه النماذج الزراعية من كل ضرب، وعرضت فيه مجموعات بديعة من الأزهار والحبوب والأدوات المنزلية، وهيأ كل الحيوانات المصرية الأليفة ومومياتها وأنواع الأسماك المتوطنة في النيل منذ القدم وأدوات صيدها؛ وعرضت النباتات المصرية منذ عصر الفراعنة والعصور الإسلامية. وبالجملة فقد غدا المعرض على حداثته معهداً عظيماً للثقافة الزراعية والنباتية والحيوانية خلال العصور التي توالت على وادي النيل. وسيعمل المتحف في القريب العاجل على ضم جميع التحف والعاديات التي لها علاقة بالزراعة القديمة، ونماذج من أدوات الزراعة والفلاحة والصيد التي كانت تستعمل خلال العصور المختلفة

ويقدر ما أنفق على هذا المتحف المصري العظيم منذ إنشائه إلى اليوم بنحو ثلاثمائة ألف جنيه مصري، وهي قيمة يدل إنفاقها على ما وصل إليه المتحف من الضخامة وحسن الاستعداد لأداء مهمته

وقد تفضل جلالة الملك فتفقد أقسام المتحف المختلفة، وشاهد عرض فلم علمي زراعي يبين تربية النحل وحلج القطن

ومما يبعث على الغبطة أن مدير المتحف الحالي هو مصري من

الاخصائيين في الشئون الزراعية ، وقد كان إلى عهد قريب من الأجانب

فصل المؤتمرات الدولية بالقاهرة

أصبحت القاهرة من العواصم العالمية التي تتجه إليها أنظار المؤتمرات الدولية ، وفيها يعقد كل عام في فصل الشتاء على الأخص عدة مؤتمرات دولية هامة ، بدعوة سابقة من الحكومة المصرية وقد عقد بها في هذا الفصل إلى الآن مؤتمران دوليان كبيران هما مؤتمر الرمد الدولي ، ومؤتمر توحيد قانون العقوبات الذي اختتمت اجتماعاته منذ أيام قلائل . وسيعقد في القريب العاجل مؤتمران دوليان آخران هما مؤتمر القطن الدولي ، ويفتتح في ٢٦ يناير الجاري ، ومؤتمر اللاسلكي ويفتتح في أول فبراير ؛ والأول من المؤتمرات الدولية التي تعلق عليها مصر أهمية خاصة باعتبارها في مقدمة دول العالم التي تنتج القطن وتعتمد في مواردها على تصريف محصوله . وقد كانت مصر دائماً عضواً بارزاً في مؤتمرات القطن الدولية وكانت لها في هذه المؤتمرات جهود مشكورة في التنويه بأحوال الزراعة القطنية وتجاربها العلمية وآفاتها وتصنيف محاصيلها . ولا يقل مؤتمر اللاسلكي عن سابقه أهمية لأن مصر أصبحت بعد تقدم اللاسلكي من أهم المراكز العالمية للمواصلات الأثيرية ، وتشترك معظم الدول الكبرى في كلا المؤتمرين

محاضرة عن فلوبير بالقاهرة

ألقى العلامة الفرنسي الأستاذ هنري جيلمان نزيل مصر الآن ، بدعوة من كلية الآداب ، في قاعة الجمعية الجغرافية الملكية ، محاضرة شائقة عن الكاتب القصصي الفرنسي الكبير جوستاف فلوبير ، قدم فيها عنه لسامعيه صورة مؤثرة ؛ وذكر أن فلوبير إنما يدرس في كتابات شبابه وما خلفه منها بعد موته ، وأنك تجد فلوبير في أطوار حياته شخصاً يبدو في ألوان مختلفة . وقد مرض فلوبير في حداثته مرضاً عصبياً خطيراً حول مجرى حياته إلى ناحية لم يكن يتوقعها ، فلم يفكر في أن ينشئ له حياة أو مدرسة ، ولكنه جنح إلى التفكير العميق ، وانتهى إلى اعتناق المبادئ التي جعلت منه شخصية مدهشة . وخلاصتها احتقار الوصول إلى الغايات الشخصية ورفض استخدام المواهب لتحصيل الربح المادي ، وتخصيص الحياة للفن « المقيم » ومجانبة هذا المجتمع وهذا العالم . ومن ثم كان فلوبير يصور في كتبه هذا العالم بطريقة يترك الحكم عليها لقارئه ، ولا يتدخل هو للتأثير فيه

على أن فلوبير لم يستطع أن يحرص على هذا المثل دائماً ، فقد خرقه في حياته مرتين : الأولى بسبب امرأة هي لويز كوليه ، والثانية بسبب محاولة الحصول على النجاح . بيد أنه لم يكن محباً مستسلماً ، ولم تملكه المرأة إلا ردحاً ضئيلا وانتهى بينهما كل شيء في سنة ١٧٥٥ ؛ ولم يمض طويل على ذلك حتى اضطر فلوبير أن يسعى إلى المال والشهرة لكي يتدارك النكبة المالية التي أصابت ابن أخته ، فتقدم إلى المسرح بقطعته « المرشح » Le Candidat ولكنه لقي خيبة أمل ؛ فرتد إلى عمله وكتاباته التي كانت تلخص كلها في وصف الحياة البشرية ، وكانت « مدام بوفاري » و « التربية العاطفية » و « القلب الساذج » من أروع ما كتب في هذا الميدان

ونالت محاضرة الأستاذ جيلمان نجاحاً عظيماً ؛ وكان الأستاذ يلقي محاضرته بذلاقة خلبت ألباب السامعين .

أسواق الأدب بين الركود والازدهار

خطب الروائي الانكليزي الكبير السير هوج والبول في معرض للكتب أقيم أخيراً في جلاسجو ، فقال انه توجد أزمة كتب في العالم البريطاني ، وأهم أسبابها تخفيض أثمان الكتب إلى حد غير معقول . وقد ترتب على ذلك أن فقد كثير من الكتاب مورد أرزاقهم ؛ ووقعت الأزمة بنوع خاص على الكتب القيمة لأنها اليوم ضحية منافسة شديدة من كتب تنشر بالملايين ولا يجد القارىء وقتاً للتحقق من قيمتها . ومن رأى الكاتب الكبير أن البؤس الذي تعانيه الحركة الأدبية من جراء هذه الحالة لا يقل عما كانت تعانيه منذ ثلاثين عاماً

وقد أنشىء في انجلترا « مجلس قومي للكتب » مهمته أن يعمل على ترقية القراءة وترويج الكتب ، وهو يسعى إلى هذه الغاية

بمختلف الوسائل ، ومن ذلك إقامة المعارض السنوية ، وإقامة أسابيع خاصة لأصناف من الكتب المختلفة ؛ وقد ساعدت هذه الوسائل على تخفيف الركود الذى أصاب حركة النشر فى الأعوام الأخيرة

على أنه بينما يشكو العالم البريطانى من ركود الكتب وبؤس الحركة الأدبية إذا بسوق الأدب والكتب تزدهر فى روسيا السوفيتية ازدهاراً شديداً . وقد نشر أخيراً إحصاء مدهش عما أخرجته دور الكتب الروسية التى تعمل تحت رقابة الحكومة من الكتب فى عهد السوفييت ، خلاصته أن هذه الدور كانت تخرج فى سنة ١٩١٨ فى اليوم ٣٠٠ ألف مجلد ؛ ولكنها أصبحت فى سنتى ١٩٣٦ و١٩٣٧ تخرج فى اليوم مليوناً وربع مليون مجلد . ومن هذه طبعات رخيصة من الآداب الروسية والعالمية . ومنذ سنة ١٩١٧ إلى اليوم أخرج من كتب مكسيم حوالى ٣٢ مليون نسخة ، و ١٩ مليوناً من كتب الشاعر بوشكين ، و ١٤ مليوناً من كتب تولستوى ، وأخرجت ملايين أخرى من كتب الكتاب الروس الآخرين . هـذا عدا ما تخرجه دور النشر الروسية من الترجمات للكتاب الأجانب ، وأشهرهم اليوم فى روسيا سنكلير ، وموباسان ، وهوجو ، وزولا ، وبلزاك ، وأناتول فرانس ودكنز ؛ وفى ذلك ما يدل على التقدم الهائل الذى حققته روسيا السوفيتية فى مكافحة الأمية وترقية التعليم

وفاة الأستاذ محمد صادق عنبر

يعز علينا أن ننعى لقراء الرسالة فى بهجة الفرح وبهرة السرور بزفاف المليك أديباً من أعلام البيان العربى ، هو الأستاذ صادق عنبر

كان الأستاذ طيَّب الله ثراه بقية خير من تلك الطائفة الرشيدة الصالحة التى غذت الناشئين وبصرتهم بالأساليب المشرقة منذ ثلث قرن ، فكان من أنصار الديباجة القوية ، والأسلوب البيانى المستمد من بيان القرآن ونبعته . وكان أسلوبه يشبه أسلوب المرحوم الأستاذ الرافعى ، فقد كان يعجب بفنه وطريقته ، ويأخذ نفسه على الجرى فى حلبته . ولقد عمل فى الصحافة مدة من الزمن ، فاشتغل فى اللواء ثم فى الأخبار ثم فى الأهرام ، ولكنه ظل على سليقته الأدبية ، وظل أسلوبه أسلوب الأديب له روعته ورونقه . وآخر ما أخرجه من الآثار جملة من الرسائل الغرامية وضعها على لسان ليلى وقيس ، ونحا فيها منحى الرافعى فى أوراق الورد ، ثم « كلمات فى كلمة » كان ينشرها منذ أيام وكان ينوى جمعها فى كتاب .فلعل أصدقاءه يقومون له بحق الصداقة فيجمعوا من آثاره ما تناثر كما قام هو بحق الوفاء لصديقه المرحوم أمين الرافعى

تماثل النابغة مى

شق على نفس الأدباء كثيراً ما ألم بنابغة الأدب الآنسة مى من مرض لازمها نحو عامين ، فحال بينها وبين القلم ، وحجبها عن ميدان لها فيه جولات صادقة ، وجهود موفقة ، حتى برز اسمها بين الأعلام البارزين فى الشرق العربى .

ولقد تناقلت الصحف العربية فى مصر وسوريا ولبنان هذا الأسبوع الخبر بأن الآنسة النابغة قد تماثلت من مرضها ، وقد أذن لها أطباؤها فى الخروج من المستشفى الذى كانت تعالج فيه إلى منزل استأجرته فى بيروت فى مكان هادىء لائق ، وستكون معها ممرضتها التى لازمتها مدة المرض

ونحن نرجو للآنسة الفاضلة تمام التماثل ، ونسأل الله أن يسبغ عليها ثوب العافية ، وأن يمد فى حياتها العزيزة ، فإنها ولا شك ثمرة ناضجة قلما يجود بها الزمن على الشرق الحديث

مجمع اللغة الملكى فى مؤتمر بغداد الطبى

قرر مجمع اللغة العربية الملكى الاشتراك فى المؤتمر الطبي العاشر المزمع عقده ببغداد فى الفترة القائمة بين التاسع والثالث عشر من فبراير . وقد ذكر المجمع فى مذكرته إلى وزارة المالية أن الغاية من هذا الاشتراك هو تبادل الرأى فى توحيد المصطلحات الطبية فى اللغة العربية ، واقترح ندب الأستاذين الشيخ احمد على الاسكندرى وعلى الجارم بك لتمثيل المجمع فى تلك الدورة وقد وافقت وزارة المالية على هذه المذكرة

كتاب شائق عن شعب غريب

صدرت أخيراً ترجمة فرنسية لمؤلف يمتاز بطرافته العلمية والتاريخية هو كتاب العلامة الدانماركي بركت سميث عن قبائل الإسكيمو،وعنوانه Moeurs et Coutumes des Esquimaux والعلامة بركت سميث هو مدير المتحف الوطني فى كوبنهاجن ، وهو أشهر حجة معاصر فى أحوال هذا الشعب القطبي الغريب.

وتسكن قبائل الإسكيمو كما هو معروف فى أطراف الجزيرة الخضراء (جرينلند) وشمال الأسكا وعلى أطراف بوغاز بيرنج وأطراف الأرض الجديدة الشمالية ؛ وكان أول من عرفه بعض الملاحين من جزيرة « ايسلنده » فى القرن التاسع الميلادى ، ثم عرفه النورمانيون واحتلوا شواطىء الجزيرة الخضراء حيناً حتى أواخر القرن الخامس عشر ؛ وجاء من بعدهم الرحالة الانكليزى مارتن فروبشر فازدادت معرفة العالم المتمدن بقبائل الاسكيمو . وقام المكتشفون الروس والدنماركيون برحلات عديدة فى هذه الأنحاء الثلجية النائية . ولما احتلت الدانمارك أطراف الجزيرة الخضراء قام علماؤها بمباحث كثيرة عن أصل الاسكيمو وأحوالهم ؛ وأنشىء فى كوبنهاجن متحف طبيعى للاسكيمو هو أعظم متحف من نوعه

وقد اختلفت آراء العلماء فى أصل هذا الشعب الغريب الذى لا يزيد تعداده اليوم على أربعين ألف نسمة موزعة بين هذه الأنحاء الشاسعة ، فذكر بعضهم أنه من سلالة « الفليولوتين » الذين يرجعون إلى العصر « المجدليني » ولكن الظاهر أن هذا الرأى لا يعتبر نهائياً من الوجهة العلمية . وما زال علماء الأجناس والبيولوجيا والأنتروبولوجيا يحاولون الوقوف على أصول هذا الشعب . ويمتاز الاسكيمو بقصر القامة وبسطة العظام ؛ وهم ضعاف على الأغلب ويعيشون فى ثلج دائم وينقرضون بسرعة . وقد رأت الأمم التى تهتم بمصير هذا الشعب والمحافظة على بقيته الباقية من الانقراض أن تعقد في شهر أغسطس الآنى مؤتمراً علمياً لمباحث الأجناس والأنتروبولوجيا ، وسيكون للاسكيمو من مباحثه أكبر شأن

ويستعرض الأستاذ بركت سميت فى كتابه المشار إليه تاريخ الاسكيمو وأحوالهم الجنسية والاجتماعية ، ويستند فى معلوماته إلى الدرس والمشاهدة الشخصية لأنه عرف الأرض الخضراء منذ حداثته ، وعاش بين الاسكيمو ردحاً من الزمن ، ودرس لغتهم وعاش عيشتهم ، ويصف لنا عقليتهم وأحوالهم النفسية والاجتماعية ببراعة ، وكتابه كالقصة الشائقة ينتقل الانسان فيه بين عجائب وغرائب مدهشة

ويهيب الأستاذ بركت فى كتابه بالأمم الأوربية أن تعمل لصون هذا الشعب المسكين من الانقراض ، وأن تبذل وسعها للمحافظة على هذه التحفة الانسانية »

هل يشفى غبار الصحراء مرض السل

من أنباء ألمانيا الأخيرة أن حواراً علمياً هاماً يدور فيها حول اختراع طبي قام به العلامة الطبيبى الدكتور أرنست جيركى لشفاء مرض السل . وللدكتور جيركى رأى غريب فى ذلك وهو أن السل يمكن شفاؤه باستنشاق غبار الصحراء ، وقد انتهى إلى ذلك بعد تجارب طويلة ، وأنشأ بالفعل لذلك جهازاً طبياً يعرف بجهاز جيركى يمكن للمريض أن يستنشق بواسطته غبار الصحراء المودع فيه بطريقة فنية ، وتفيده المثابرة على ذلك فائدة كبيرة وتنتهي بتقوية الرئتين والسير نحو الشفاء . ويقول الدكتور جيركي أن ما يلاحظ من شفاء المرضى الذين يقيمون فى أعالى الجبال إنما يرجع إلى استنشاق هذا الغبار بالذات وهو يهب من الصحراء فى مواسم معينة حتى يصل إلى هذه الأنحاء ، وأنه يمكن بواسطة جهازه أن يستغنى المرضى عن الاقامة فى المناطق الجبلية والسفر إلى مصر وغيرها من الأقاليم الصحرية

وقد أنكر بعض العلماء نظرية جيركي وحمل عليه بالأخص عالم طبيبى سويسرى هو الدكتور مير كوفر ، وقال ان نظريته لا ترجع إلى أصول علمية ، وأنها مضاربة لاتزيد عن زعم أولئك الذين قالوا من قبل بأن السرطان يمكن أن يشفى بالأشعة وأمثالها ؛ وأن غبار الصحراء لا يهب إلا على شواطىء البحر الأبيض المتوسط والجهات القريبة ولا أثر له فى أعالى الجبال

وما زالت النظرية موضع الجدل الشديد فى مختلف الأوساط العلمية .

مناهج التاريخ العام ورأى الحكومة المصرية

تلقت وزارة المعارف من القومسيون الدولي لعصبة الأمم كتاباً انتظم مشروع تصريح خاص بإعادة النظر فى الكتب الدرسية . وقد جاء فيه أن العصبة ترغب فى توطيد العلاقات وتوثيقها بين الأمم والممالك المختلفة ، ومن أجل هذا ترغب ألا يقف الأمر فى دراسة التاريخ فى المدارس عند التاريخ القومى ، بل يجب أن يتضمن المعلومات الوافية عن الأمم الأخرى

ورغبة فى توكيد ارتباط المصالح بين الدول ، فإن الرأى يتجه فى تدريس التاريخ العام إلى استنباط العناصر التى تهيىء أسباب هذا التوكيد والارتباط

وترى العصبة أن يستبعد من الدراسات التاريخية فى الكتب تقرير كل إيعاز أو إيحاء ، وكل تفسير للأحداث التى تثير فى الناشئين روح الحقد والكراهية ، والتى يكون من نتائجها تكوين رأى في أمة ضد أخرى

ونوه سكرتير العصبة العام في كتابه باقتراح يرمى إلى إنشاء هيئات محلية فى كل دولة تتصل بالشعبة الدولية فى جنيف ، وأن يترك لها أمر الحلول التى تؤدى إلى الأغراض المتقدمة . ولهذا حرصت جامعة الأمم على توجيه هذه الآراء والأفكار إلى الممالك والدول المشتركة وغير المشتركة فيها

وقد أحالت وزارة المعارف هذا الموضوع إلى الأستاذ محمد قسم بك ناظر دار العلوم ، فدرس المشروع دراسة دقيقة ووضع تقريراً عنه ، وقد أقرته الحكومة المصرية وتقرر رفعه إلى العصبة

وقد جاء فى هذا التقرير أن المناهج المصرية الدراسية تتفق والأغراض المشار إليها ، وذلك لعدة أسباب ، منها ما يرجع إلى موقع البلاد الجغرافى وحكم مركزها القديم واتصالها بالشرق والغرب ، فضلاً عن أن مناهج التاريخ ولا سيما فى الدرجات الثانوية من التعليم بل والابتدائية لا تقتصر على الجانب القومى

وأما عن توكيد ارتباط المصالح بين الدول ، وخاصة فى العصور الحديثة ، فان مفردات مواد التاريخ وضعت من الوجهة الفنية في مصر على قاعدة اشتراك المصالح بين الدول الأوربية المختلفة

وأشار التقرير إلى مسألة الايعاز والايحاء وتفسير الوقائع فقال إن الروح القومية المصرية السائدة فى الكتب المصرية عامة هى روح الصداقة والود والتعاون بين أمم العالم قاطبة بغير استثناء ، على أن هذا لا يمنع من تسرب بعض التعليقات التى تسىء إلى بعض الأمم فى الكتب الدراسية من غير قصد ، ومرجع هذا تأثر بعض المؤلفين بالمراجع الأجنبية التى يأخذون عنها فينقلون وهم حسنو النية بعض الآراء والتعليقات التى تسىء إلى بعض الدول وقد لا تتفق والواقع . وكثيراً ما يتأثر بعض المؤلفين بالبيئة التى يدرسون فيها والمراجع التى يرجعون إليها

مانى والمانوية

ما يزال العلماء الأجانب يعنون بفلاسفة الشرق عناية عجيبة ، على حين لا نعنى بهم نحن إلا عناية طفيفة تجئ مع تفاهتها ذيلاً لما يكتب غيرنا عنهم . . . وقد تصفحنا كتابا بالانجليزية عن مانى والمانوية وضعته الأديبة الفاضلة ا . س . دروور E. S. Drower وطبعته جامعة أكسفورد على نفقتها الخاصة، وحسبك هذا دليلاً على قيمة الكتاب . وقد حدث أن عين زوج المؤلفة الفاضلة مستشاراً قضائياً فى العراق سنة ١٩٢٢ ، فانتهزت هى هذه الفرصة وكانت تسكن فى بغداد ، فاختلطت بأحفاد المانوية الذين لا يتجاوز عددهم خمسة آلاف فى كل العراق ، وعرفت الكثير عن عقائدهم وعاداتهم وطقوسهم المذهبية وحفلاتهم الدينية ، ثم عقدت أواصر الصداقة بينها وبين زعمائهم فاستطاعت أن تطلع على كتبهم القديمة النادرة التى لم يتيسر لأحد العلماء الاطلاع عليها من قبل لشدة حرص أصحابها عليها واحتفاظهم بها جيلا بعد جيل . والفصول التى كتبتها المسز دروور عن المانوية قيمة حقاً ، ولا نغالى إذا قلنا إنها نور جديد ألقته المؤلفة الفاضلة على هذا الدين القديم لا نكاد نجد مثله فيما كتبه ابن حزم أو الشهرستانى أو البيرونى أو ابن نباتة أو اليعقوبى أو غيرهم من مؤرخى المسلمين — بل لا نغالى أيضاً إذا فضلناه على ما كتبه العلامة بيرون فى كتابه A Literary History of Persia عن المانوية — والكتاب خليق بأكثر من هذه الشذرة وسنعود إليه

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾


العدد ٢٣٩
الرسالة

6 me Année, No . 239
Lundi - 31 - 1 - 1938

بدل الاشتراك عن سنة
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٣٩ « القاهرة في يوم الاثنين ٢٩ ذى القعدة سنة ١٣٥٦ — ٣١ يناير سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـــرس

من مشاهد المهرجان

كنت أمشى فى شارع إبراهيم عصر يوم الأحد الرابع من أيام الزفاف الملكى السعيد ، ونظرى وفكرى يتبعان فلول الزوار وهم يسيرون زمراً فى باحة الطريق يلقون أنظارهم الطائرة على بقايا الزينة من أقواس وأعلام ، وينفقون قروشهم الأخيرة فى مغريات النفس من شراب وطعام ؛ وكان الملايين الثلاثة الذين ساهموا بآمالهم وأموالهم فى زفاف الفاروق قد انتشروا فى ميادين القاهرة وفنادقها وحدائقها ثم تركوها أشبه بمروج الربيع نفشت فيها قطعان الشاء فجعلتها كالصريم ؛ ولكن هذه الأفواه الفرحة التى لم تفتر عن الضحك والهتاف ، أو عن المضغ والارتشاف ، قد أفعمت جيوب القاهرة مالاً وغمرت جنوبها بهجة . فكان منظر هذه الشراذم المتخلفة وهم يودعون مجالى العُرس والأنس يبعث فى النفوس شعور الأسف على انقضاء فترة من فترات الجنة اجتمعت فيها القلوب على السرور المصفى والوداد المحض

كنت أقول لنفسى وأنا أسير الهوينى فى غمر من الصفاء استفاض على أوجه الناس حتى شاع حولهم فى النسيم وشعَّ فوقهم فى الأفق : متى يتاح لسلائل الطين أن ينزعوا من صدورهم الجشع والأثرة فيعيشوا كما عاشوا فى هذه الأيام حُشْداً على الخير عكفاً على الجمال خلصاً على المودة ، ولهم على الله هواء يفعم كل رئة ،

وغذاء يتخم كل معدة ، ورخاء يعمر كل قلب ؟

ليت شعرى أيعجز ابن آدمَ ومعينه نور قلبه ووحى ربه وهدى عقله أن يجعل دنياه الفانيـة كرياض الطير مسارح للشدو ومجاليَ للبهجة ومشارع للحب ، فيعيش على فضل الله كما تعيش الطير تغدو خِماصاً وتروح بطاناً وتغفو أوامن ؟ إن بقاء النفس أو القوت، وبقاء الجنس أو الأنثى ، هما الأصلان لكل غاية،والمصدران لكل عمل ، فهل أعيا على شريعة الخالق وفلسفة المخلوق أن تهذبا هاتين الغريزتين فتقطعا أسباب الشر وتقلعا أصول الجريمة ؟

ألا ... ولكننى شعرت فجأة بجسمى الطليق الهائم ينحصر فى زحمة ضاغطة من السواعد والأكتاف ، فاطّلعت فرأيتنى أضطرب فى سـيل دافق من الأخلاط والطوائف يموج بعضهم فى بعض، ويهدرون بذكر الله هديراً طغى على كل صوت وغطى على كل حركة . كان ذلك موكب الطرق الصوفية تجمَّعت ألوفه من جوانب القطر ليرفعوا إلى ملكهم الصالح فاروق تهنئات الطريقة . لم أستطع الخلوص إلى طوار الشارع من شدة الزحام ، ولم أطق السير لا إلى الخلف ولا إلى الأمام ، فتركت نفسى إلى تدافع الموكب أرسب فى لجحه وأطفو على أمواجه حتى انصبَّ فى ساحة عابدين . وهنالك رأيت على حواشى الميدان صفوفاً متراصة من الناس يحجزها عن الموكب الذاكر سلسلة من الجنود والشُّرط ؛ ووجدت نفسى تحت البنود الخفاقة وبين الفرق الدفاقة أمام الشرفة الغربية من قصر المليك ، وقد شرِقَت من حولى الساحة على رحبها بالطوائف المختلفة الإشارات والشارات والأناشيد ، تملأ السماء بالأنغام ، وتجلل الأرض بالأعلام ، وتجعل من الميدان غابة من شجر الزان تسقسق تحت أفيائها الوريفة أسراب من الطيور الغريبة

أدركتِ القوم حال من حميا الوجد فترنحوا مهللين ومنشدين ، واختلطت على غير نظام ولا انسجام هتفات الناس ونقرات الدفوف وصدحات الناى، فما كنت تسمع إلا لجباً لا يتبين فيه نشيد ولا يتميز به نغم . ثم قرّت فورة القوم حين تنقّل على أفواه المريدين أن جلالة الفاروق سيشرق عليهم ، فخشعت الأصوات وسكنت الحركات واتجهت النظرات إلى الشرفة الملكية يرقبون منها طلعة المحيا الأبلج الموموق ؛ ولكن الشرفة ظلت فى سدلها القرمزى المتوّج كأنها شفق الفجر يبشر بالحياة والنور والبهجة قبل أن تهصر الطبيعة ستائرها الوردية عن خِدْر الشمس . فلما طال الانتظار عاد النقباء والخلفاء يرتبون ما يقول الأتباع عند تجلى المليك :

—لا ينبغى أن نصفق كما يصفق الأفندية — لا يجوز أن نهتف كما يهتف العامة — قولوا فى صوت واحد : الله ! الله ! — بل قولوا : الله أكبر ! — ولم لا نقول: عاش الملك الصالح ! عاش أمير المؤمنين ؟

— هذه الجهة تهتف بهذا ثلاثاً ، ثم تسكت فتهتف الجهة الأُخرى : ليحى حامى الإسلام

— أرى أن يهتف المرغنية : عاش ملك مصر والسودان ، ويهتف النقشبندية : عاش خليفة الرحمن ، ويقول الرفاعية ...

— لا لا . هذه كلها هتفات لا تزكو بأهل التصوف . اتفقوا على دعاء واحد تجأرون به إلى الله أن يحفظ عبده الفاروق لإعلاء كلمته وإعزاز دينه

وأخذت كل طائفة تروض ألسنتها على النـداء والدعاء وأعينها شواخص إلى شرفات القصر ونوافذه

لعل الملك يخرج من هذا الباب يا فرحات ! أظنه يطل من هذا الشباك يا مسعود ! ربما يخرج إلى الميدان مع المشايخ فيعرض (الأشاير)

ثم انعقدت الألسنة وعُلقت الأنفاس واتجهت الأنظار بجاذب خفى إلى الشرفة . وهنالك تجلى ملك الناس للناس !! فهل رأيت البحر إذا مار به الإعصار ، أو الغابة إذا رجفت بهـا العاصفة ؟ لقد أصيب القوم بما أصيب به الكليم يوم الجبل ، فوقعوا فى بُحْران من الحماسة السَّكرى لا يملكون غير حناجر تصيح ، وشفاه تدمدم ، وأذرع تلوّح ، وأكفٍّ تصفق

تلك حال القروى الذى زعموا أنه بات ليلة القدر سهران يقلب طرفه فى النجوم يرصد (الطاقة) أن تنفتح فيطلب الى الله الغنَى والعمر ؛ فلما جاءت الساعة المرقوبة وانشقت السماء عن كوة من النور تلتهب التهاب البوتقة ، التمس لسانه فلم يجده ، فانطلق يعوى عواء الذئب حتى ثاب الى نفسه فارتد من العواء إلى البكاء .

وجلال الفاروق قبس من جلالة السماء، وفيض من قداسة الأنبياء ، فهل تقوى على بَهره عين ، وهل يثبت على سحره فؤاد ؟

احمد حسن الزيات

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ٨ —

... ومضيت أعود ليلى مرة ثانية ، بعد أن قبّلت الصورة التى أدفع بهـا وحشة الليل فى بغداد ، وبعد أن قرأت الرسائل المطرة التى وردت من مدينة ... وكذلك أعددت قلبى للرفق واللطف ، وأنا فى عالم الطب كالبلبل فى عالم الأغاريد ، لا أطرب إلا بعد مناجاة الأحلام ، ولا يطرب إلا بعد أن تضوع من حوله أرواح الأزهار . فهل تعرف معنى ذلك تلك الانسانة التى بلغ بها العناد أن تصرح بأنها لن تفتضح فى حبى إلا يوم يظهر أنهـا دفعتنى إلى الخلود ؟ رباه ! ماأصعب تكاليف الخلود ! ولـكن كيف ألقى ليلاى ؟

إننى أخافها أشد الخوف ؛ فقـد بدت لى فى المرة الماضية على جانب من الوعورة ، ولا يبعد عندى أن تكون حمقاء ، فان الجمال يورث أهله بعض خصال النزق والطيش ؛ وأنا والله على استعداد لمقابلة الشر بالشر ، فان رمتنى بالحمق رميتها بالجنون ، ولـكنّ ذلك لا يقع بدون جزاء ، فقد تفسد الملائق بين مصر والعراق

فراقك صعب ، سيدى ! كذلك قالت ليلى منذ ليال

فما الذى يمنع من الأدب ؟ وهل كُتب علىّ أن أظل دهرى شقيًّا لا أعرف غير الرجس ؟ مالى لا أجرب الحب العذرى مرة واحدة فى حياتى ؟ مالى أحرم قلبى أطايب العفاف ؟ آمنت بالله ! وهل كنت فاسقاً حتى أفوه بمثل هذا القول ؟

إنك يا ربى تعلم كيف ابتدأت وكيف انتهيت . انك يا ربى تعلم أنى أشرف مخلوق سوّته يمناك ، مع استثناء الأنبياء ؛ ولـكنى طبيب جنى عليه الأدب فسار فى بقاع الأرض أنه من الفاسقين

* * *

كيف ألقى ليلى ؟ تلك هى النقطة ، كما يقول لافونتين !

ألقاها بالتجارب التى أفدتها فى باريس ، فقد وردت مدينة النور أول مرة فى سنة ١٩٢٧ وكنت سمعت أنها مدينة تموج بالهوى والفُتون ، فكان أكبر همى أن أعيش فيها عيش المجانين بعد أن عانيت الأمرّين من عيش الجفاف فى شارع الحزاوى وعطفة الجمالية !

ودخلت السربون ، سقاها الغيث وجمل الله لها لسان صدق فى الآخرين ، فكانت عيني لا تقع على الأساتذة ، وإنما كانت تقع على الطالبات ، وهنّ فى دروس الأدب أكثر من الطلاب . والفتيات هناك يفهمن وحى العيون ، وكان يتفق أن تلقانى فتاة بعد المحاضرة فتقول : من فضلك ياسيد ، هل عندك مذكرات عن دروس المسيو شامار ؟ فأجيب : نعم ، ياآنستى ! فتقول : هل تتفضل فتعيرنى إياها لأنسخها ثم أردها إليك ؟ فأقول : وهل لمثلى أن يرفض ما تطلب هاتان العينان ! فتنظر الفتاة إلىّ نظرة سخرية وتنصرف !

وحدث مرة أن قالت لى فتاة ربًّا الجسم كأنها من دمياط : هل لك يا سيد أن تتفضل فتعيرنى مذكراتك عن دروس المسيو مورنيه ؟ فقلت : لك ذلك ياآنستى ، ولـكنى لن أعود إلى السوربون إلا بعـد يومين . فهل أستطيع أن أراكِ غداً عندى فى الساعة الخامسة لأقدم إليك المذكرات ؟ فأجابت بالقبول بعد أن استفهمتْ عن اسم الشارع ورقم البيت

وما كاد يحين الموعد حتى كانت المائدة مجهزة بأطيب ما تعرف فرنسا من ألوان الشراب . ثم مضت ثوان ودقائق وساعات ، ولم تحضر الفتاة ، عليها وعلى أمها اللعنات !

وفى ذات يوم قالت إحدى زميلاتى فى الدرس إنها تجيـد الرقص ، فقلت إنى لاأحسن منه غير « الحنجلة » ، ورجوتها أن تعيننى على إتقان ذلك الفن الجميل ، فأجابت جواباً كله إغراء . ولـكننى اشترطت أن يكون ذلك فى غرفتى حتى لا يعرف أهل باريس أننى رجل « غشيم »

وانتظرت ، ثم انتظرت ، ثم انتظرت ، ولم تحضر الراقصة الحسناء !

ولم تمض أسابيع حتى شاع فى جميع أروقة السوربون أنى فتى ماجن خليع ، فكنت ألقى أطيب التحيات ولا يجيبنى مجيب . والشيطان يشهد أنى كنت فى ذلك المهد أعظم مغفل عرفته باريس ونظرت فرأيت فتياناً أقل منى فتوة وجاذبية يعيشون فى

ظلال الحب عيش الملوك ، فعرفت أنهم يحسنون ما لا أحسن من فن الغرام ، وللغرام فنون

ولكن أين أذهب ؟ لقد ضاع حظى فى كلية الآداب ، فهل أذهب إلى كلية العلوم؟ وكيف وهى أيضا من السوربون؟ فلم يبق إلا أن أذهب إلى كلية الطب لأقيم فيها تجارب الحب من جديد ، بعيداً عن جوّ الأراجيف الذى خلقتــه خلقاً بفضل الغفلة والجهل

وكانت فرصة عرفت فيها قيمة الشر فى خَلْق الرجال . فلولا الحب ما عرفت كلية الطب ؛ ولولا الطب ما شرفتنى الحكومة المصرية بمداواة ليلى المريضة فى العراق

أقول إنى ذهبت إلى كلية الطب بعد أن صقلتنى التجارب ، وبعد أن عرفت أن من العيب أن أخيب فى باريس وأنا شاعر سنتريس ؛ فلم تمض أيام حتى كنت فى تلك الكلية فتى الفتيان . وبيان ذلك أنى كنت أخفى عواطفى كل الإخفاء ، فكنت ألقى الفتاة فلا أحدثها عن عينيها وخديها وشفتيها ونهديها — وما أجمل نهود الفتيات فى باريس ! — وإنما كنت أسارع فأتحدث عن حدائق الحيوانات في القاهرة وأقول إنها أجمل ما يعرف العالم من حدائق الحيوان . فان اعترضت إحدى الفتيات وفضلت حدائق الحيوان فى لندن تحمست وقلت إن هذا مستحيل ، لأن مصر هى البلد الوحيد الذى يطيب فيه العيش لأنواع الحيوان !

وما كنت أكتفي بهذا ، بل كنت أخترع أسماء وهمية للباحثين والمفكرين ، فكنت أقول إن بلدنا هو الذى نبغ فيه فلان وهى أسماء تحلّي بها بعد ذلك بعض الناس !

وفى أثناء تلك الأحاديث الوهمية تجول عيناي فى أعطاف الفريسة الحسناء ، فان بدا لها أن تعترض على ما تقول عيناى ، أنكرت ماتقول عيناى : وهل كنت مسئولا عما تقوله عيناى ؟ وما هى لغة العيون ؟ وهل للعيون لغة ؟ إنْ هذا إلا اختلاق !

وما زلت أوغل فى المداهنة والنفاق حتى تقدمت إحدى الفتيات وقالت : ما أجمل عينيك يا مسيو مبارك ! فتكلفت الغضب وقلت : أنا أكره المزاح ! فطوقتنى بذراعيها وقالت : أنا أحب الشبان العقلاء ! فقلت : وأنا أحب المجانين من الفتيات ؟ وكانت لحظة ستنصب لها الموازين يوم يقوم الحساب !

* * *

وفى ظلال هذا الروح الطيب مضيت لعيادة ليلى ، وقد صممت على الخوض فى أحاديث لا تتصل بالحب . وما قيمة التجارب إن لم تنفع وأنا فى ديار الاغتراب ؟

دخلت على ليلى فى ليلة مطيرة غاب فيها القمر وغابت النجوم ، فتفضلت حرسها الله ومدت يديها الناعمتين لماونتى على دَرَج السلالم ، فشعرت كأن خيوطاً من نور تجذبنى إلى العِلِّية ، وقد تكلفت التعب والضعف لأرى كيف تجذبنى تلك الأنامل الرقاق . وكانت لحظة سحرية لا يعرفها إلا من أسدلت عليه الستائر فى ليلة قمراء بالقصر الذى يعرفه القلب فى الشارع رقم .. بالضاحية ... إحدى ضواحى القاهرة الفيحاء

رباه ! إن القاهرة نعمة من نعمك على عبادك ، فاجعلها عامرة أبد الآبدين ، واجعلها إلى يوم القيامة عروس الشعر والخيال ، بل احفظها واجعلها شقيقة الفردوس يوم يلقى المخلصون جزاء ما يعملون ! رباه ! إن القاهرة هى الشاهد على أن اللغة العربية خليقة بالسيطرة فى عالم العلم والمدنية . رباه ! إن القاهرة من أجمل ما خلقت من المدائن فاجعلها كنانتك واحفظها من السوء حتى أعيش فيها عيش السعداء ، وحتى يعيش فيها أبنائى وأحفادى وأحفاد أحفادى عيش النّضرة والنعيم ، على وفاق وسلام مع جميع الأقطار العربية

* * *

كانت ليلى فى زينتها ، وكنت فى عقلى !

وكان فى نيتى أن أثير الجدل حول « قضية الأخلاق » التى اشتجرت فيها أقلام الحولى وعزام والزيات ؛ وكنت أنوى أن أقرر أن المنافقين ينجحون باسم الأخلاق ، فكيف لا ينجح بها الصادقون ؟ وكنت أحب أن أقول أيضاً إن الثورة على الأخلاق كالثورة على الدين ، فالذين يثورون على الدين لا يبغضونه من حيث جوهره ، وإنما يحاربون الأبالسة الذين يسترون سوآتهم بتكلف الغيرة على الدين . وكذلك يثور على الأخلاق من يؤذيهم أن يغار المنافقون على الأخلاق . وكان من شهوة النفس أن أعلن فى حضرة ليلى أن أهل البلادة يسترون تخلفهم بالأخلاق ، فاذا رأوا رجلا قوىّ القلب مُشرق العبقرية ، أسرعوا فاتهموه بضعف الأخلاق لينفض الناس من حوله ويخلو لهم الميدان . ومن أجل

هذا كان من النادر أن يمر بهذه الدنيا رجل عظيم بدون أن تطول في تجريحه ألسنة المتخلفين والمنافقين . وهل سلم الأنبياء من ألسنة الناس ؟

كان في نيتي أن أصول وأجول في حضرة ليلى ، فأعظم لذة في الدنيا أن يعذب لسانك ، وتقوى حجتك ، في حضرة امرأة حسناء . والكلام في هذا الموضوع يسهل عليّ بفضل ما أضعت من العمر في دراسة علم النفس وعلم الأخلاق ، وبفضل ما ابتلاني الدهر من معاشرة أهل الرياء

ولكن ليلى ابتدرتني وقالت :

هل قرأت العدد الأخير من مجلة الرسالة ؟

وما كادت شفتاها تفصحان عن هذا السؤال حتى كاد قلبي يتخلع ، فقد تذكرت أنني رجعت عن عزيمتي في طيّ هذه الذكرات وأرسلتها جميعاً إلى الزيات . وهل أخاف ليلى أكثر مما أخاف سعادة الأستاذ محمد العشماوي بك الذي أوصاني بالاعتصام بالعقل يوم سفري إلى العراق ؟ وما وجه الخوف ؟ إن مذكراتي بريئة من العبث ، وأنا أعيش في بغداد عيش النساك ، وإن لم يكن لي فضل في هذا التنسك ، فإن الحفلة التي كرمني بها أدباء بغداد جعلتني ممن يشار إليهم بالبنان ، ولم يبق من ميادين الهزل غير تذكر الأحلام القديمة ، أحلام القاهرة وباريس

ثم تشجعت فقلت : ماذا في مجلة الرسالة ؟

فقالت : إن الأستاذ سعيد العريان يتحداك

فبلعت ريقي ، وحمدت الله . وهل يؤذيني أن يتحداني كاتب من الكتاب ؟ يرحم الله الأيام الماضية حين كان الأدباء يتهيبون المرور في طريقي ، وحين كانت مقالاتي في جريدة البلاغ كالسيف المصلت على رقاب الكتاب والشعراء والمؤلفين . يرحم الله الأيام الماضية حين كان أعاظم الرجال يسرهم ويشرفهم أن أهجم عليهم في جريدة البلاغ . ولكن وا أسفاه ! أنا اليوم أعيش في قفصين من الفولاذ . وهل كان الدكتور طه حسين يمزح حين قال : تذكر يا صديقي أنك أصبحت موظفاً في حكومتين ، وأن مركزك دقيق ؟

* * *

لقد قرأت كلمة الأديب العريان ، ولكن لا بد من التجاهل لتعيدها ليلى على مسمعي ، فإن الهجوم عليّ يعذُب ويطيب حين أسمعه من ليلى . وهل كانت رخامة الصوت إلا عند ليلى ، ليلى التي زعموا أنها مريضة في العراق ، مع أن في صوتها من الحلاوة ما يهد رواسي الجبال ؟

وقرأت ليلى :

« ولقد سرني والله أن تُعنى وأنت في العراق بدفع تهمة العقوق عن أدباء مصر ؛ وإنها لعاطفة وطنية نبيلة أعرف كل العرفان ما يدفعك إليها وأنت بعيد »

— أعيدي يا ليلى

— ولماذا ؟

— أعيدي يا ليلى ، ففي مصر إنسان يشهد بأني أعرف معنى الوطنية ! وهل كنت في حاجة إلى من يشهد لي بصدق الوطنية ؟ عشنا وشُفنا !

— ولكنه يتهمك بعد ذلك بمصانعة أهل العراق !

— أنا أصانع أهل العراق ؟ وهل صانعت أهل مصر حتى أصانع أهل العراق ؟ لقد جنت عليّ الشجاعة ما جنتْ فلم أتهيب ولم أتوجع ، وتركت الجبناء يتمتعون بمناصب كنت بها أحق ، فكيف جاز لأديب مصري أن يتهمني بالمصانعة في معاملة أهل العراق ؟

إسمعي يا ليلى . إن هذا الأديب نسي أن مجلة « الرسالة » لها في العراق قراء يعدون بالألوف ، ونسي أن كلمته قد تؤذيني ، وهذا الأديب الطيب القلب نسي أيضاً أن أهل العراق لن ينتظروا شهادته في عبقرية زكي مبارك ، ونسي كذلك أنني لا أحتاج إلى أسناد يتفضل بها كاتب يجهل الرافعي إمام الأدباء . فأنا أعيش في مصر والعراق بفضل الله وبفضل عزيمتي ، وإن كنت لا أنكر أن في مصر إخواناً كراماً يجعلون سيرتي مسك الختام في كل حديث

إسمعي يا ليلى . إن أدباء مصر لا يعرفون عواقب ما يكتبون . أليس من البلاء أن أنفق أوقات الفراغ في الدفاع عن مصر والمصريين ؟ أليس من البلاء أن يكون من واجبي أن أتنقل في الأندية والمجتمعات لأصحح الأغلاط التي ارتكبها الكتاب المصريون ؟ إن مصر ليس لها مطامع في العراق ، ولكن ما الموجب لحرمان مصر من مودة أهل العراق ؟ إن العراقيين يروننا إخوانهم

أهلاً وسهلاً ! فبأى حق يستبيح ناس فى مصر أن يفوهوا بكلمات ينفر منها أدباء العراق ؟

إن مصر تنفق ألوف الدنانير لتؤسس صداقات ومودات فى الأقطار الأوربية والأمريكية ، فكيف يغيب عنها أن تنفق الكلمات الطيبات لتؤيد ما يربطها من العلائق بالأقطار العربية ؟

هل يعلم أدباء مصر — ولا سيما أعدائى — أنى أدفع عنهم السوء فى العراق ؟

إسمى يا ليلى . إن أهل بلدكم يقولون إن زكى مبارك لا يزال يحافظ على مصريته . وهذا حق ، ولكننى أتشبث بمصر فى سبيل الأمة العربية ، فاللغة العربية هى الرباط الوثيق الذى سيكون فى المستقبل أساس ما سيعرف الشرق العربى من قوة البنيان

* * *

وكنت وصلت إلى حد من التأثر انزعجت له ليلى . فقالت : هوّن عليك يا صديقى !

فنظرت إليها نظرة الطفل المكروب إلى أمه الرءوم ثم قلت : ليلى ، إنها سنة واحدة أقضيها فى العراق !

فقالت وهى تتنهد : ستبقى عندنا طول حياتك .

فأجبت : على شرط أن تعفونى من هفوات الكتاب المصريين الذين أحمل جرائرهم صباح مساء

فقالت ليلى : وعلى شرط أن تنسى مصر الجديدة والزمالك !

فقلت : ذلك إليك يا ليلى !

فصوبت إلى عينين عاتبتين ، فعرفت أنها تبغض التشبيب

ما أجمل ليلى حين تعتب بعينيها ! إن ليلى جميلة يا بنى آدم ، وإنها لخليقة بأن تنسينى من فى مصر الجديدة ومن فى الزمالك ، إن جاز لقلب مثل قلبى أن يعرف العقوق

— ليلى !

— نعم يا مولاى !

— ليلاى !

— لست ليلاك !

— معذرة يا ليلى ، فأنا طبيب جنى عليه الأدب . وهذه عبارة شعرية سبقت إلى اللسان

— ماذا تريد أن تقول ؟

— أريد أن أقول ... أريد أن أقول إنى سأعيش فى بلدكم سنة واحدة ، أعنى أننى سأفارقك بعد أشهر معدودات

— هذا وعيد ؟

— لن أعيش فى بلدكم إلا إذا عينتنى الحكومة المصرية واعظاً فى بغداد

— واعظ ؟ ما هذا الكلام ؟ هل جننت ؟

(وقد انتشيت من هـذه العبارة لأن المرأة الجميلة لا تصف الرجل بالجنون إلا إذا ارتفع بينه وبينها التكليف)

— ما جننت ، وإنما أقول إن المصريين والعراقيين يحتاجون إلى من يرعى العلائق بين البلدين فلا ينشر خبر فى جرائد العراق عن مصر ، ولا ينشر خبر فى جرائد مصر عن العراق ، إلا بعد أن يمر على رجل حكيم يفهم عواقب ما تنشر الجرائد والمجلات

— وأنت ذلك الرجل الحكيم ؟ آمنت بالله !

— إسمى يا ليلى . إن المحررين فى الصحف يحتاجون إلى لجام من العقل والذوق

— دع هذا ، وحدثنى عما تعرف من أسرار ليلى المريضة فى لبنان

— تريدين (فلانة) التى قيل إنها كانت تحب الرافعى ؟

— نعم ! وهذه أهم نقطة تعنينى في كلمة الأديب العريان

— وأنا أريد أن أمن على مصر وأدباء مصر فأقول إنى قضيت فى بغداد سنة كسبت لوطنى فيها ألوفا من الأصدقاء

— أنت تمن على وطنك ، والمن على الوطن لا يليق بكرام الرجال

— وماذا أصنع إذا كان وطني لا يعرف غير من يمنون عليه ؟ ! وهل يعرف وطنى أنى أكتب فى كل أسبوع أكثر من تسعين صفحة وأشتغل أكثر من سبع عشرة ساعة فى كل يوم ؟ هل يعرف وطنى أنى أهتم بالمصريين المقيمين فى العراق أكثر مما أهتم بنفسى ؟ هل يعرف وطنى أنى أزور كلية الحقوق مرتين فى كل يوم لأطمئن على صحة الدكاترة عزمى وفهمى وسيف؟

— ومن هؤلاء ؟

— هم أساتذة فى القانون لا فى الطب ، وهم من أبناء القرن التاسع عشر

« وكانت غلطة فظيعة ، فإنه لا ينبغى أن تعرف ليلى من

المصريين أحداً سواى »

— حدثنى عن ليلى المريضة فى لبنان

— كانت ليلى المريضة في لبنان زميلتى فى الدرس يوم كنا طالبين فى الجامعة المصرية ؛ وكنت أتقرب إلى قلبها باغتياب الأساتذة ، فأزعم أن الكونت دى جلارزا لا يفهم الفلسفة ، وأن الشيخ المهدى لا يعرف أسرار الأدب ، وأن الشيخ الخضرى لا يدرك حقائق التاريخ ، وأن اسماعيل بك رأفت يجهل الجغرافيا ووصف الشعوب !

— يظهر أنها طالبة شقية !

— كانت أشقى من ليلى المريضة في دمياط

— أنا لا يهمنى إلا الوقوف على أسرار ليلى المريضة فى لبنان

— إنتظرى ، إنتظرى ، إن الله مع الصابرين

« للحديث بقية وبقية » زكى مبارك

ظفر المكيافيلية

وإلام يدفع العالم هذا الظفر ؟

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لما وضع المؤرخ والفيلسوف السياسي نيكولو ما كيافلى ، كتابه « الأمير » فى سنة ١٥١٣ متضمناً لمذهبه الشهور فى الحكم والسياسة ، لم يكن يتوقع أن يغدو كتابه بعد أربعة قرون إنجيلاً لنوع جديد من الحكم يحاول اليوم أن يفرض مبادئه على العالم ، ولم يكن يتوقع بالأخص أن تغدو آراؤه السياسية نبراساً لإيطاليا الجديدة يدفعها إلى طريق السلطان والقوة ، أو يتصور أن هذه الآراء قد تغدو يوماً مثار حرب عالية طاحنة بين المبادئ السياسية والاجتماعية الخصيمة . ذلك أن مكيافيلى كتب كتابه فى عصر كانت إيطاليا تنقسم فيه إلى عدة جمهوريات وإمارات صغيرة ، يناقس ويقاتل بعضها بعضا ، وتتقلب إماراتها ورياساتها بين عصبة من الزعماء والمتغلبين ؛ واستوحى معظم آرائه من دراسته لأحوال هذه الدويلات الصغيرة ، وهذا الرهط من الأمراء المتنازعين ، واتخذ أميره الأمثل من رجال من طراز هذا العصر شقوا طريقهم إلى السلطان والملك بوسائل مثيرة من العنف والخيانة والغدر ؛ وكان أقصى أمانيه حينما وضع « الأمير » ، وأهداه إلى أميره وحاميه لورنزو دى مديتشى أمير فلورنس ، أن يكون كتابه مرشداً لأمراء عصره فى تفهم أساليب الحكم التى تلائم روح العصر ، وتلائم مطامع الزعامات المحلية التى كانت تضطرم يومئذ فى دائرة محدودة ، قوامها عدة من الولايات والمدن الإيطالية .

كانت المكيافيلية إذن شعار عصر خاص ومجتمع خاص ؛ وكان طابعها القاتم ، وما انطوت عليه من المبادئ المنيفة التى لا ضمير لها ولا وازع ، والتى تتغاضى عن كل المثل الإنسانية والأخلاقية ، يسبغ عليها دائماً فى نظر المجتمعات الرفيعة لوناً من الشذوذ البغيض الذى تأباه السياسة المستنيرة . ومن ثم كانت الفلسفة المكيافيلية على كر العصور مضرب الأمثال للسياسة البغيضة .

وليس من موضوعنا أن نتبسط فى شرح المكيافيلية وأصولها ، ولكنا نورد من أقوال واضعها هاتين الفقرتين اللتين تتضمنان لب النظرية المكيافيلية فى الحكم والسياسة :

١ — « لا يستطيع الأمير العاقل وليس عليه أن يحفظ العهد ؛ إذا كان مثل هذا الوفاء قد ينقلب ضده ، وإذا زالت الأسباب التى حملته على قطعه

٢ — « ليس من الضرورى أن يتصف الأمير بالخلال الحسنة التى ذكرتها ، ولكن من الضرورى أن يبدو كأنه متصف بها .. ولا يستطيع الأمير ، ولا سيما الأمير الجديد ، أن يراعى كل الأمور التى يقدر الناس من أجلها لأنه كثيراً ما يرغم لكى يحفظ الدولة على أن يتصرف بغير ما يقضى به الإخلاص والصداقة والإنسانية والدين ، وإذاً فمن الضرورى أن يكون ذهنه متأهباً للعمل وفقاً لتقلب الريح والجدود »

هذا هو لب النظرية المكيافيلية فى الحكم . ويكفى أن نقرأ كلمة « الدولة » مكان كلمة « الأمير » لنسبغ على هذه النظرية طابعها الحديث ؛ وفى التاريخ كثير من الأمراء والطغاة الذين حكموا قبل مكيافيلى بنفس الروح والوسائل التى نادى بها مكيافيلى ، وفيه كثير من الأمراء والساسة المحدثين الذين

أعجبوا بمبادئ مكيافيلي وطبقوها في عصور تعتبر فيها هذه المبادئ من ألوان الغدر السياسي والاجتماعي الذي يصم الدولة المتمدنة ؛ وما زالت المكيافيلية إلى يومنا محكوماً عليها ، ومازالت تعتبر دائماً منافية لجميع المبادئ الحرة والإنسانية التي تقوم عليها المدنية الحديثة

على أن هذه الحقيقة التاريخية القديمة تختفي اليوم شيئاً فشيئا ؛ فلم تعد المكيافيللية في عصرنا فلسفة سياسية منبوذة ، ولكنها تغدو بالعكس حقيقة واقعة تطبقها وتؤمن بها دول عظيمة . ذلك أن الفاشستية الإيطالية والأنظمة الطاغية المماثلة الأخرى تقوم في جوهرها على الفلسفة المكيافيلية ؛ وقد أسبغت وسائلها وأساليبها على نظريات فليافيلي شرعية جديدة ، وغدت هذه النظريات اليوم أساسا لنوع جديد من الحكم والسياسة تقوم عليه عدة دول قوية جديدة ؛ ففي إيطاليا وألمانيا وروسيا تجد نظريات مكيافلي اليوم ميدانا شاسعاً لتطبيقها

* * *

وقد تناول هذا الموضوع الخطير أخيراً كاتب ومؤرخ فرنسي كبير هو مسيو لوى دى فيلفوس L. de Villefosse ، في كتاب قيم عنوانه « نحن ومكيافيلي Machiavei et Nous » درس فيه حياة الفيلسوف دراسة وافية ، وانتقل منها إلى عصر التطبيق ، فذكر أن الفاشستية هي أعظم تجربة مكيافيلية عرفها التاريخ ، وأن فكرة السنيور موسوليني في توحيد الشعب هي فكرة مكيافيلية محضة . « أن تكون الدولة (وفي لغة مكيافيلي الأمير) كل شيء والفرد لاشيء ، وأن تكون الدولة مصدر كل السلطات والقوانين ، وأن تطرح كل اعتبار أخلاقي في تحرى غاياتها » هذا هو شعار الفاشستية ، كما يعرفها الأستاذ دى فيلفوس ، وهذا هو شعار الدول الطاغية الأخري التي تقوم على أصولها ؛ وهذه هي نفس الرسالة التي بشر بها الفيلسوف الإيطالي في كتابه « الأمير »

وكما أن الفاشستية تقوم من الوجهة العملية على أسس المكيافيلية فهي أيضاً تؤثر لغتها وأساليبها الدبلوماسية ؛ فزعيم الدولة الايطالية يستعمل اليوم نفس الوضوح الجاف ، والصراحة المثيرة ، في تمجيد وسائل العنف وأساليب القوة الهمجية ، ويبدى نفس الاغتباط في تمزيق جميع المثل العاطفية ، ويتقدم إلى العالم باسم الدولة وضرورة قيامها على أنقاض جميع العناصر والاعتبارات الانسانية ، وبأنها مصدر الحق ومجمع القوى ؛ ثم هو يرجع مثله الأعلى إلى نفس الكعبة المقدسة التي مجدها مكيافيلي ، وهي « رومة » وعظمتها الخالدة

فالفاشستية هي إذن ذروة النجاح العملي في تطبيق الفلسفة المكيافيلية ؛ وإذا كانت المكيافيلية قد استطاعت من عصر إلى آخر ، وفي بعض الظروف والمناسبات أن تحقق لمحات من الظفر ، فإنها اليوم على يد الفاشستية تحقق ظفرها كاملا . وخلاصة شعارها الظافر الذي نادت به منذ أربعة قرون هو شعار الدول الفاشستية المعاصرة ، وهو أن النصر الحقيقي إنما هو للقوى المسلحة والوسائل المدمرة ، وإن كل سياسة لا تقوم على الحقائق العملية مصيرها إلى الفشل المحقق ، وإنه لاحق للضعيف والأعزل في البقاء ، ولا وجود لمثل أو مبادئ مثلى لا تدعمها القوة المادية

بل ويرى الأستاذ فيلفوس أن ظفر المكيافيلية لم يقف عند هذا الحد ؛ ذلك أن هذا الظفر يشمل ميادين لم تكن تصلح بطبيعتها ولا بمبادئها لاعتناق المكيافيلية وتطبيقها وهي الدول الديموقراطية ؛ ولكن الدول الديموقراطية ترى نفسها اليوم مضطرة إلى أن تتحوط لخطر الدول الفاشستية المدججة بالسلاح ، وأن تقابل القوة بالقوة محافظة على سلامتها وكيانها ، فهي بذلك مضطرة إلى أن تقتبس نوعاً من المكيافيلية التي لا ترغبها ولا تؤمن بها ، وهذه هي حقيقة محزنة ، ولكنها حقيقة لا ريب فيها

* * *

هذه هي خلاصة الحقائق التاريخية الجديدة التي يبسطها الكاتب الفرنسي في مؤلفه بسطاً قوياً شائقاً ؛ ونقول إنها حقائق تاريخية لا تعوزها الأدلة الواقعية . وما ذا تكون المكيافيلية إذا لم تكن هي نفس النظم التي تطبق اليوم بمنتهى العنف والصرامة في إيطاليا الفاشستية ، وألمانيا النازية ، وروسيا البلشفية ؟ إن هذه النظم جميعاً تقوم على نوع من الزعامة الممعنة في الطغيان والاستئثار بكل السلطات ، وهذه الزعامة ذاتها تستتر وراء فكرة الدولة ؛ ولم يبق للفرد اليوم وجود في ظل هذه النظم المطلقة ، ولم

يبق له شيء من الحقوق أو الحريات العامة ، فهـذه كلها تفيض وتنمحى فى شخص الدولة ؛ والدولة أو أولئك الذين يمثلون باسمها يضعون أيديهم على مصاير الأمة أرواحها وعقولها وجسومها وكل ماملكته أيديهم ، ويتخذون من التشريع المدعم بالقوة القاهرة سلاحاً لفرض كل تجاربهم الإصلاحية على الشعب ، ويزعمون أن مناهجهم الإصلاحية هي السبيل القويم لتحقيق عظمة الأمة وخير الشعب ؛ وقد يعتمدون فى هذا السلطان فضلاً عن قوة الجيش العامة على صفوف حزبية كثيفة من الشباب المسلح المدرب على أساليب العنف ؛ وتسيطر هـذه التجارب والمحاولات الإصلاحية على حياة الفرد الخاصة فضلاً عن الحياة العامة ، فترسم له خطط أعماله وتفكيره واعتقاده واتجاهاته وتصرفاته كلها دون أن تكون له إرادة الاختيار أو المعارضة ، وتجرى هذه المحاولات جميعاً باسم الدولة التى تقبض عليها الزعامة المتربعة فى دست الحـكم

وهذه الزعامة المطلقة العاملة باسم الدولة هى بعينها « أمير » مكيافيلى ، واستتارها وراء فكرة الدولة إنما هو نوع من النفاق السياسى الذى أوصى به مكيافيلى

وكما أن المـكيافيلية تبدو واضحة فى خطط السياسة الداخلية لهذه الدول المطلقة ، فهى تبدو واضحة أيضاً فى السياسة الدولية الخطرة التى تجرى عليها هذه الدول في تنظيم علائقها مع الدول الأخرى ؛ فالقوة في نظرها هى أساس الحق والعهود ، والمواثيق الدولية لاقيمة لها فى نظرها مادامت لاتتفق مع مصالحها ومراميها . وهذه هى الصورة الحديثة لمبدأ مكيافيلى فى قوله : « إن الأمير كثيراً ما يرغم لحفظ الدولة على أن يتصرف بغير ما يقضى به الإخلاص والصداقة والانسانية والدين » ولقـد رأينا إحدى الدول العظمى تلغى ما بقى من تعهداتها فى معاهدة الصلح ، وتنكر ما وقعته من مواثيق دولية لصون السلام بحجة أن هذه النصوص والعهود تصطدم مع مصالحها الوطنية ولم يبق اليوم مبرر لبقائها بعد أن تغيرت الظروف التى أبرمت فيها ، ولم تفعل ذلك إلا بعد أن آنست من نفسها قوة تدعم بهـا خطوتها . بيد أن الروح المـكيافيلية تبدو بنوع خاص فى اعتداءات بعض الدول القوية على الدول الضعيفة وغزوها أو استعمارها ، وقد كان غزو الفاشستية للحبشة والاستيلاء عليها بلا ريب أسطع المغامرات المـكيافيلية فى عصرنا ، فقـد انتهكت فيه جميع المعاهدات التى عقدت والمواثيق التى قطعت باحترام سلامة الحبشة واستقلالها، ولم تخف الفاشستية أنها أقدمت على هذه الخطوة الجريئة تحقيقاً لمطامعها الامبراطورية

وها نحن أولاء اليوم نشهد نفس التجربة المحزنة فى أسبانيا وفى الصين

فإلى أى مصير يسير العالم فى ظل هذه المبادئ المنيفة الخطرة ؟ يقول لنا مؤلف كتاب « نحن ومكيافيلى » إن مدى الشر الانسانى لم ينقص وإن العناصر السيئة في الأفراد تجمع من جديد لتطلق بعد ذلك من عقالها فى أعمال العنف والشر ، وأنها قد تدفع العالم إلى كارثة أفظع وأروع من كارثة الحرب الـكبرى

ونخشى أن يكون فى ظواهر العصر وتطورات السياسة كثير مما يدعم هذا التكهن المروع

محمد عبد الله عنان

التنويم المغنـــاطيسى
وقراءة الأفكار فى القديم
لأستاذ جليل

هذ التنويم المغناطيسى قديم ، وقد عرفته الحضارة العربية يوم كانت ، وقيدته بالكتاب ، وأثبته بعضهم فى مجلة العجائب وجريدة ماوراء الطبيعة ، وحاول العلماء تعليله وتفسيره فعجزت ذرائع علمهم فى ذلك الوقت عما حاولوا . وهل اهتـدى اليه علم الغربيين إلا منذ حين ؟

وأول من ذكر التنويم المغناطيسى فى العربيـة — وان لم يسمه باسمه — هو (أوحد الزمان أبو البركات هبة الله بن على بن ملكا البلدي[1]) فى كتابه (المعتبر) منذ أكثر من (٨٠٠) سنة

قال الوزير جمال الدين يوسف القفطى فى كتابه (إخبار العلماء بأخبار الحكماء) : « هبة الله بن ملكا[2] أوحد الزمان طبيب فاضل عالم بعلوم الأوائل ، وقريب العهد بمن زماننا . كان فى وسط المئة السادسة ، وكان موفق المعالجة لطيف الإشارة . وقف على كتب المتقدمين والمتأخرين فى هـذا الشان واعتبرها واختبرها ، فلما صفت لديه وانتهى أمرها إليه صنف فيها كتاباً سماه (المعتبر) أخلاه من النوع الرياضى وأتى فيه بالمنطق والطبيعى والإلهي فجاءت عبارته فصيحة ، ومقاصده فى تلك الطريق صحيحة . وهو أحسن كتاب صنف فى هذا الشان »

وقال ابن اصيبعة فى (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) : « أبو البركات هبة الله بن على بن ملكا كان فى خدمة المستنجد بالله (العباسى) وكان له اهتمام بالغ بالعلوم وفطرة فائقة فيها ، وله من الكتب كتاب (المعتبر) وهو من أجلّ كتبه وأشهرها فى الحكمة »

وهذه قصة ذلك التنويم كما حدّث أبو البركات :

(١) نسبة إلى (بلد) وهى من مدن العراق

(٢) هنا وفى شرح النهج ابن ملكا وفى عيون الأنباء والوفيات ابن على ابن ملكا . وفى الوفيات ملكان

« والمرأة العمياء التى رأيناها ببغداد ، وتكررت مشاهدتنا لها منذ مدة مديدة قدرُها ما يقارب ثلاثين سنة ، وهى على ذلك إلى الآن تُعرض عليها الخبايا فتدل عليها بأنواعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها دقيقها وجليلها ؛ تجيب على أثر السؤال من غير توقف ولا استعانة بشىء من الأشياء ، إلا انها كانت تلتمس أن يرى أبوها (المرء) الذى يسأل أو يسمعه ، فيتصور الدهاء أن الذى تقوله باشارة من أبيها ، وكان الذى تقوله يبلغ من الكثرة إلى ما يزيد على عشرين كلمة ، وإنما كان أبوها يقول إذا رأى ما يراه من أشياء كثيرة مختلفة الأشكال والأنواع في مرة واحدة كلمة واحدة ، وأقصاه كلمتان ، وهى التى يكررها في كل قول ، ومع كل من يسمع ويرى : (سلْها ، وسلها تخبرك ، أو قولى له ، أو قولى يا صغيرة) وقد عاندته يوماً وحاققته فى ألاّ يتكلم ألبتة ، وأريته عدة أشياء ، فقال لفظة واحدة ، فقلت له : الشرط أملك . فاغتاظ ، قال : ومثلك يظن أنى أشرت إلى هذا كله بهذه اللفظة . واسمع الآن ، ثم التفت إليها وأخذ يشير بأصبعه إلى شىء وهو يقول تلك الكلمة ، وهى تقول : هذا كذا ، وهذا كذا ، على الاتصال من غير توقف ، وهو يقول تلك الكلمة لازيادة عليها ، وهى لفظة واحدة بلحن واحد ، وهيئة واحدة حتى ضجرنا ، واشتد تعجبنا ورأينا أن هـذه الإشارة لو كانت تتضمن هذه الأشياء لكانت أعجب من كل ما تقوله العمياء . ومن عجيب ما شاهدنا من أمرها أن أباها كان يغلط فى شىء يعتقده على خلاف ما هو به ، فتخبر هى عنه على معتقداتها كأن نفسها هى نفسه . ورأيناها تقول ما لا يعلمه أبوها من خبيئة فى الخبيئة التى اطلع عليها أبوها . وهذا أعجب وأعجب ، وحكاياتها أكثر من أن تعد . وما زلت أقول إن من يأتى بعدنا لا يصدق ما رأيناه منها »

وقد أورد ابن أبى الحديد خبر (العمياء) هذه فى بحثه عن المغيبات فى شرح (النهج) وقال قبل روايته : « وقد يقع الاخبار عن الغيوب بواسطة اعلام إنسان آخر ذلك الغيب ، لنفسه بنفس المخبر اتحادا وكالاتحاد ، وذلك كما يحكى أبو البركات بن ملكا الطبيب فى كتاب المعتبر » :

وعدّ الرازى تلك العمياء (كاهنة) فقال فى تفسيره (مفاتيح

الغيب) : « الكاهنة البغدادية التى نقلها السلطان سنجر بن ملك شاه من بغداد إلى خراسان وسألها عن الأحوال الآتية فى المستقبل ذكرت أشياء ثم انها وقعت على وَفق كلامها .

وأنا قد رأيت أناساً محققين فى علوم الكلام والحكمة حكوا عنها أنها أخبرت عن الأشياء الغائبة أخباراً على سبيل التفصيل وجاءت تلك الوقائع على وفق خبرها . وبالغ أبو البركات فى كتاب (المعتبر) فى شرح حالها ، وقال لقد تفحصت عن حالها مدة ثلاثين سنة حتى تيقنت أنها كانت تخبر عن المغيبات إخباراً مطابقاً »

وليست (العمياء) بكاهنة [1] ، وليس الذى تقوله من أنباء الغيب ، وما ذلك إلا (التنويم المغناطيسى) الذى عرفناه فى هذا الزمان ، وهو اليوم حرفة محترفين ، ومِصيدة متصيدين .

***

روى المقريزي فى (عقوده) هذا الخبر ونقله السخاوى فى (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) :

« كان أحمد بن عبد الخالق البدر القاهرى إذا كتب له البيت من الشعر أو نحوه فى ورقة لم يرها ودفعت إليه ، ويده من تحت ذيله قرأها ، ويده وثوبه يحولان بين بصره وبين رؤيتها ، إلا أنه كان يمر بيده على المكتوب خاصة فيقرأ ما كتب فى الورقة ، امتحناه بذلك غير مرة ، وشاهدت غيره يفعل مثله أيضاً »

والذى رواه المقريزى إنما هو من (قراءة الأفكار) وهو من ضروب المسمى عند الفرنج (Télépathie) وقد رأينا المنومين يفعلونه كثيراً

وذكر القفطى فى كتابه (إخبار العلماء بأخبار الحكماء) رجلا اسمه (مخرج الضمير) فقال : « هذا رجل اشتهر بهذا الاسم ، وكان يدعى المعجز فى إخراج الضمير ، فانطلق عليه ذلك » ثم روى قصة من قصصه ، و (إخراج الضمير) مثل : (قراءة الفكر) أو هو هى ، والحكايات الصحيحة لبعض المتصوفة في المخاطبة أو المراسلة النفسية (الكهربية) هى من هذا الباب

***

كنت قد أقرأت حديث ذلك التنويم القديم المنومين : الدكتور سلمون والدكتور داهشا) فقالا : هذا هو التنويم المغناطيسى بنفسه ، وسلّم سلمون ودُهش داهش [1] ! وسلمون هذا شاب من دمشق ، وداهش فتى من بيت المقدس ، وهذه الدكتورية وهذه التسمية أو التعمية هى أفنون من أفانين هذا التنويم ... وما أقول ذلك لائماً أو عائباً ، إنى أعلم أن عمهما يقول لهما يا منومان ، يالا عبان ، العبا كما تهويان ، وتسميا وتلقبا بما تريان ...

وكلٌّ فى هذه الدنيا إما منوِّمٌ مستهوٍ وإما منوَّمٌ مستهوًى . وما الأول — يا أخا العرب — إلا مثل الثانى ؛ فالستهوِى مستهوًى ، والقاهر مقهور ، والمستعبِد عبد ، والحر غير طليق ، وذو الارادة فاقدها ، والكون فى موج القدر

وبصير الأقوام مثلى ، أعمى فهلمو فى حندس نتصادمْ [2]

بل ليس الناس كلهم أجمعون غادين ورائحين وعاملين ومتناحرين على الرغيف — إلا نائمين منوَّمين ، إلا فى شبه الحالة المسماة عند الفرنج (Somnambolisme وما الانسان إلا النائم السائر [3] Somnambule) « وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود »

مفتحةٌ عيونُهُمُ نيامُ [4]

وما يشعرون وما يستيقظون إلا وقت الموت . و« الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا [5] » (ىه)

---

(١) الكاهن هو الذى يخبر عن الكوائن فى مستقبل الزمان ، ويدعي معرفة الأسرار ، ومطالعة علم الغيب (التعريفات) والكهانة مخرقة والكاهن مشعبذ ، ولابن خلدون بحث عن الكهانة خذله فيه التحقيق

(١) داهش فى اللغة خطأ ، دهش الرجل فهو دهش (بفتح الأول وكسر الثانى) ودهش كعنى فهو مدهوش ، وأدهشه فهو مدهش والمفعول مدهش (بضم الأول وفتح ما قبل الآخر) واندهش ومندهش من جماعة داهش

(٢) صاحب اللزوميات (الحندس) الليل الشديد الظلمة ، والحنادس : ثلاث ليال في الشهر لظلمتهن

(٣) النائم السائر هو الذى يمشى ويعمل ويتكلم وهو نائم ، قال معجم لاروس: Somnambule qui marche, agit. parle tout en demeurant dans l'état de sommeil

(٤) المتنبي ، وصدره (أرانب غير أنهم ملوك) وهو من قصيدة فيها هذا البيت وهو تاريخ موجز للحياة :

إذا كان الشباب السكر والشيب (م) هما فالحياة هي الحمام

(٥) حديث ، وفى (المحاسن والمساوى) ابن المعتز : أهل الدنيا كركب يسار بهم وهم نيام

النار المقدســـة

للأستاذ عبد المنعم خلاف

أنضجت قلبه النار المقدسة التى أنضجت قبله قلوب رعاة القطيع ... ورواد الطريق ، وآباء الإنسانية البلهاء ... فغدا يسير على الدنيا وله فيها زفير وشهيق مكتومان لا يحسهما إلا من يتصل به عن قرب فيفتح له قلبه الكبير الذى فيه كل آلام الناس ، وكل فجائع الناس ، وكل مسئوليات الناس ... كأنه أب ذو عيال ! وكأنه مسئول عن ذنوب البشر فهو يبخع نفسه أسفاً ويسيل نفسه حسرات . !

سألته مرة : لم تحمل على قلبك الدنيا ؟ ولم تجتر آلامها وتمضغ أسقامها ، ولست فيها حاكماً ولا شرطياً ! ؟ فقال : بليت بالنظارة الناقدة إلى العيوب ، وبالعجز عن وسائل الإصلاح ، فكان لى ما تراه من إدمان المضغ لأحاديث الشقاء وأمانى الشفاء !

***

مات أبوه فبكت عينه وقلبه ذلك البكاء الرحيم لألم الحب والرحمة والفقد ساعات ... ثم نامت عينه ونام جسده بجوار جثة أبيه حتى صباح الدفن والضريح كأن شيئاً لم يحدث ... ولكنه لا ينام إذا مات من دينه أو وطنه شىء ... حتى يكاد يجن من الأرق ، لولا أن يتداركه الله بالنسيان والسلوى

***

ينخل الرجال والأعمال ، ويرى ما وراء الوجوه ويقرأ ما بين السطور ... فتروعه عورات الحقيقة العارية فى الناس ... إذ يرى الجهل والإثم والدجل والخيانة والأنانية والبلاهة ... فيسأل السماء : أهــذه هى الانسانية أثمن وديعة فى الأرض حاكمة ومحكومة ؟ !

مرهف حسُّه : فيرى كل شىء ويشم كل شىء ويسمع كل شىء حتى امتلأ وأتخمته الدنيا بما فيها ؛ فضوى جسده ، وتوسعت نفسه على حسابه

استقى لنفسه من الأنهار الكبيرة الجارية ، ومن الجداول الصغيرة ، ومن البرك الآسنة ، وحط على الزهرة والشوكة ، والجبل والحصاة والنار والماء ... فاصطرعت فيه الأضداد .

يعيش فى سجن من وصايا الدين والعلم والخلق كأنه (ديدبان) فهو مسجون وسجان ...

متيقظ للزمان ... يعيش كل دقيقة ... ويحسب كل نفس ، ويصحب نفسه دائماً حتى أصيب بالذهول عن الناس .

يتكلم مع كل شىء ؛ فيقول لكل حق أنت صديق ، ولكل باطل أنت عدوى ... لا يؤمن بالذكاء ؛ لأنه يدلس ... ولكن يؤمن بالطبع لأنه صريح ...

***

يريد أن يعلم الناس كيف يحبون ؛ وهم يرونه ميتاً ... فأين الملتقى ؟ !

يقول لهم : لا تأكلوا الثُّفل ... والحروف ... والحجارة.. واكتفوا بالعصارة والمعنى والروح ؛ فيقولون له : أنت تمضغ ماء وهواء ... !

***

يا رحمتاه لمثل هذا ما دام حيًّا ... فإذا مات فوارحمتاه للناس!

إن هذا وأمثاله هم أعضاء الإنسانية وأوتادها . من أجلهم وجدت على الأرض ، وإن نارهم مُوقَدة من القبس الخالد الذى أضيئت به السموات وقام عليه صلاح العالم

يكفى أن أنظر إلى واحد من هؤلاء حتى أهتدى إلى نفسى الضائعة ، فأجدها تحت ركام من ضجة الدنيا ... فأقول لها : تعالى وارمضى لفائف صدرك فى هذه النار المشبوبة فى هـذا الرجل المحترق المضىء وتطهرى بها وارجعى إلىّ ...

ولقد وجدت واحداً منهم وعشت معه سنتين ، رأيت على ضوئه كل شىء في موضعه الحقيقى من الدنيا ، فحملنى على احترام الإنسان والثقة بما فيه من عالم طاهر مؤنس إذا صُفِّى جوهره من الخبث والشوائب بهذه النار

بل لقد حملنى على احتقار أكثر القوالب الإنسانية التى تملأ الأسواق والشوارع ... وجعلنى أدور دورة «ديوجين» بمصباحه وأنشد مع القائل :

ما أكثر الناس! لا بل ما أقلهم! الله يعلم أنى لم أقل فندا
إنى لأفتح عينى حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا

أو مع المتنبي : « أرى أناساً ومحصولى على غنم ! »

أو مع الآخر :

لا تعجبنــكَ الثياب والصور تسعة أعشار من ترى بقر !
فى خشب السرو منهمُ مَثَل له رُواء وما له ثمـــر

***

وياويلى من الإنسان ! إنه يشغلنى دائماً بصوره التى لاعداد لها كلما رأيت وجهاً له ... وأقسم غير حانث أنى لا أعرفه ولا أدركه ، رغم خبرى به فى هويتى ودمى وصورتى : وإن نفسى التى بين جنبى هى القفل والغَـلَق الذى حال بينى وبينـه حتى عييت ويئست ...

بل يا ويلى من نفسى واحتكاكها بما وراء الحياة الظاهرة والصور والأشخاص والمواد ... ومن طلبها المزيد من هذا الاحتكاك الذى يعطبها ويتركها ذاهلة ماضية إلى غير وجه الحياة الذى يمضى عليه الناس ...

ولـكن لا ... ! بل يالذتى من غريزة التكوين والتخريب هذه التى تريني كل شيء كامل كومة من الأنقاض ... وكل شيء مخرب خلقاً سويًّا ... !

أليس الرجل طفلاً كبيراً ؟

***

يلذ لى أن أراقب الناس وقتاً طويلاً فى الشارع ، وأشبع عينى وما وراءها من أنواعه واختلافه ... لأزداد به جهلاً ...

بل إنى أذهب إلى « السينما » لأراه فى جميع بقاعه وألوان معاشه واختلاف سحنه وألوانه ولغاته ، لأخرج بعد ذلك مبلبل الفكر فيه فى سوء ظن تارة ، وفى إحسان تارة أخرى

بل إنى أطوف كل يوم قبيل نومى بخيالى عليه فى جزره النائية فى المحيطات ، وفى القطبين ، وفى خط الاستواء ، وفى هضبة التبت ، وفى سفوح الهند ، وفى رمال العرب ، وفى ... وفى ... لأعيش فى غيبوبة الصحو قبل غيبوبة النوم !

***

لقد رأيته قاتلا ومقتولا ... جنينا محمولا وميتاً ملحوداً ... عاهراً وناسكا ... جميلاً وقبيحاً ... رجلاً بشَمَر وجُهومة ، وامرأةً بزينة ونعومة ... عالماً يضيء استراليا وهو فى أوربا ، وجاهلا قَدْماً عارياً آبداً عاجزاً أن يمد أصابع يده ... فذهبت من نفسى قداسته وانحطت هيبته ...

والذي حارت البرية فيــه حيوان مستحدث من جماد !

***

أجل ! إنى رأيت مخه ... ورأيت قلبه ... فلم أر شيئاً غريباً عما آكله من الغنم والثيران ... ولذلك كفرت بالجسد كفراً لا إيمان بعـده أبداً ... ورحت أبحث عن الإنسان — ذلك المجهول ... فلم أعثر إلا على لمحات عنه خلال كلمات ليست منه وإن كانت بألفاظه . وهى كما رواها محمد :

« إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد »

« وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ... »

« ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم ... »

« هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ... »

« لقـد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين »

***

يا يد الله ! يخيل للانسان العاجز أنك تخرجين الصنعة من مخابير ومسابير ومجلات ودواليب في مصانع وحظائر . وأنك تستخدمين طلاسم ولوغاريتمات ومعادلات ... كما يفعل هو إذا أراد أن يحاكى أو يوحد بين ذرتين أو يفصل بينهما . ولذلك سألكِ ابراهيم أحد المقربين إليك : رب أرنى كيف تحيي الموتى فأريته ذلك الـكَـيْف . ولـكنه لم ير شيئاً أكثر من أنه دعا مَواتاً فاستجاب له حياً ! إنه لم ير شيئاً ...

إن كل آلائك كلمة واحدة من حرفين اثنين بِكَـيْلِـنَا نحن ولـكنها عندكِ خارجة عن حدود التعداد والقياس

إنكِ يد تتكلم كلمات وراءها حقائقها المُـنجزة التى لا تنفد ولو كُـتبت بما فى الأرض من شجرة أقلاماً ممدودة بماء البحر من بعده سبعة أبحر ...

***

قال « اسحاق نيوتن » ما معناه : إن خالق هذا الـكون على

علم تام بعلم الميكانيكا .. تماماً كما يقول الطفل : إن الملك عنده مائة دينار

ومن هنا آفة الفكرة فى « الألوهية » عند أكثر الناس إذ جعلوا « الله » على صورتهم وبمنطقهم ... !

* * *

قالت القدرة المطلقة للعجز الانسانى : تَهَجَّ هذه الأبجدية التى شئت أن تراها وحدها منى وهى حسبك من معرفة . ولكنه تخطى البُدائيات وخاض فى المجاهل فضل فى فلسفاته وفرضياته حتى عاد لا يرى تلك المشيئة الغالية

« حددوا المادة وأنا أتكفل بتحديد الروح » . هذا قول « مِلِكَن » العالم الطبيعى الذى قاس مقدار الشحنة الكهربائية على الألكترون ، والذى اكتشف أشعة تفوق أشعة إكس مئات الأضعاف في قوة اختراقها للمواد ... لم يتخط عقله إلى البحث فى الروح قبل أن يدرى ما هي المادة ... ولعمر الحق إن مثل هذا لن يضل ...

* * *

سأراك أيتها الشمس فى عينى جديدة كل صباح ... وأنت يا عالم الظلام ...

وأنت أيتها الأشجار سأصحبك بلفتاتى الذهنية كلما رأيتك قائمة بالفرع ساجدة بالجزع فى محراب الطبيعة ...

ويا أيها الماء والحيوان والإنسان والجبل والحصى ...

ياسائر ماخُلق من الآيات التى نمر عليها ونحن عنها معرضون

أقسمتُ لا أبرح أراكِ جديدةً عجيبةً مثيرة للفكر فى الرأس والدم فى القلبِ ... حتى لا أنسى ... حتى لا أنسى !

عبد المنعم خلاف



يتساءل بعض الناس كيف لا يستطيع أدباؤنا أن ينتجوا إنتاج أدباء الغرب ؟ أما أنا فأتساءل كيف استطاع أدباؤنا أن ينتجوا إطلاقاً ، ولماذا هم ينتجون ؟ إن موقف أدبائنا اليوم ليدعو إلى العجب . إنهم فى موقف لم يقفه أدب ولا أدباء فى عصر من العصور . إن المعروف فى كل عصر أن الأدب يرعاه دائماً تشجيع طبقة من الطبقات . ففى عهد الارستقراطية كان فى كنف الملوك والخلفاء والأمراء والنبلاء ، يتبارون فى حمايته ، ويتسابقون فى إعلاء كلمته . وفى عهد الديمقراطية الحديثة وانعدام الأمية انتقل أمره إلى يد الشعب المتعلم فهو الذى يثيب الأديب بالتهافت على اقتناء كتبه ، وهو الذى يحوطه بمظاهر الاحتفال والتقدير . أما أدبنا اليوم ، فهو حائر كاليتيم بين أرستقراطية لا وجود لها ، وإن وجدت فلا شأن لها بأدب ولا أدباء ، وبين ديمقراطية إسمية فى شعوب لم يتم تعليمها ، فهى بعد لا تعنى بأدب ولا أدباء . فأنا ننتج ونحن نعرف أن إنتاجنا لا يهم الحكام ولا المحكومين ، وأن ثمرات هذا الفكر الذى أضعنا من أجله كل حياتنا الجميلة لن يجنيها غير نفر قليل ممن ينظرون إلى استشهادنا بعين الرثاء . نعم إن هو إلا استشهاد ، هذا الأدب فى هذه البلاد ... لا شىء غير ذلك . وإنى قد سألت نفسى مراراً لمن أنشر كتبى ؟ فكان الجواب : إنى انما أفعل من أجل أولئك التسعة أو العشرة من الأدباء الكرام الذين يفهموننى لأنهم يعانون عين الألم ، وينتظمون معى فى سلك العذاب ، ويدبون مثلى على أقلامهم فى تلك الحياة الطويلة الجرداء ، كأنها صحراء من الجليد لا يهب علينا فيها غير صقيع الإهمال من الشعب وأصحاب السلطان ، ولكننا مع ذلك نسير ونسير متجلدين ، أيدى بعضنا فى أيدى البعض كأننا منفيون فى مجاهل سيبيريا ... ومانحن فى الحقيقة أكثر من ذلك ... مانحن إلا منفيون فى مجاهل « فكرنا » الذى يجهله الناس .

توفيق الحكيم

كلمة لبنـــان (*)

فى مهرجان القرآن الملكى السعيد

للأستاذ أمين بك نخله

باسم القلم فى لبنان ، بل باسم القلم اللبنانى فى كل أرض ، بل باسم اللبنانيين فى دارهم وفى كل دار لهم على جنبات المعمور ، أرفعُ هذا الصوت على النيل ، في فرحة البيت المصرى بصاحب التاج ، فينجلى الحجاب ، ويبشُّ وقار المـُلك ويأنس عرش (محمد على) لرسول الأحبة من أرض (بشير) :

فيا فاروق ، يا لابس المطرف (العلويّ) ووارث الميثاق : هذه رسالات الوفاء فى يدى ، أحملها إليك من وراء قنال (السويس) ، من نهايات شطه الآخر ، حيث لا ينبسط القنال فى ظن القلوب بين بيروت والقاهرة ، ولا يشطر دار الهوى فى خطرات (محمد على) وسرائر (بشير) ، فكأن معاول (دى ليسبس) عند عقدة (الأبيض المتوسط) و (الأحمر) ، ووشك التلاق بين لونى آسيا ، وأفريقيا ، فى مخطط الدنيا ، لم يُسمع لها رنّة على الساحل الشرقى من (المتوسط) !

وهكذا تسلم علاقة الماضى بين جبل المقطم وجبل الأرز ، لا يحول دونها خط (السويس) فى الخارطة ، وهى من إرث الوجدان قبل عهد الخلائق بالورق ...

كان التراب أمس — كما تدرى — أوفر أثراً من الماء فى علائق البشر ، وتعمير الممالك ، ونقل المدنيات ؛ بل كان مدار العقل القديم فى تأليف الأمم ، ومزج الأجناس ، قبل أن يصبح المدار على دم العرق ، وهوى الضمير ، ولغة الفم ، ففى ذلك الأبد السحيق كان من المتحتم أن يغدو هذا الشاطىء الشرقي المنطرح من مباسط (طوروس) إلى مشارف (أسوان) ملعباً لدورين ينقص تاريخ البشر يوم يسقط لهما ذكر ! لنا دور منهما ولمصر الآخر . فرجّت كرة الأرض يومئذ من الحركة الشرقية . فالملعب عريض ، قبالة الأمم على (المتوسط) ، والرواية رواية المدنية ، وأصحابها أساتذة الأزمنة فى رفع الحجر إلى الجو ، وإخراج النبتة من الأرض ، وإبراز خاطرة البال فى حـلّة الحرف ، وربط هذه المخيّـلة البشرية بالغيب العالى ، فشهدت الدنيا القديمة ، للمرة الأولى ، كيف المهد بآفاق يراد لها وحدة ، وشعوب يراد لها تأليف ، وإذا الشمس لا جديد تحتها ؛ فكرّة من صوب مصر علينا ، وكرّة من صوبنا على مصر ، حتى تتعب الأزمنة بين أخذ ورد . فكان عبثاً مجىء (كنعان) من جوار الجبل اللبنانى ، ووادى مصر أغبر ، وماء النيل هدره ، فيمسح بالخضرة ، ها هنا ، على كل فج عميق . وكان عبثاً أن يقطع (تحتمس) إلينا ، حتى يبلغ ضفاف (الفرات) ويكاد يشرف على صفرة آسيا ، كما كان من العبث أن يقطع (سلاتيس) إليكم حتى يبلغ ضفاف النيل ويكاد يشرف على سواد افريقيا . بل كان من العبث فوق ذلك أن نتلاقى على الملعب : فرعونية من جانب ، وفينيقية من آخر . نمدكم بالحرف واليد والشراع ، وتمدوننا بالخاطرة والصنع والوسق ، فتدق البشائر فى الدنيا بأول العهد بالعلم والصناعة والتجارة

ولا تقف المحاولة عند ربط صعيد بصعيد ، وعلم بعلم ، ومصلحة بمصلحة ، بل جاوز الأمر إلى الديانة . فاذا الإله اللبنانى (أدونيس) تحت القناطر فى (أسوان) ، وإذا الإلـه المصرى (أوزيريس) فوق المذابح فى لبنان . فألف الأول في العصبية الدينية زرقة السماء المصرية على خضرة الجبل اللبنانى ، كما جمع الآخر أمواج (أفقا) إلى أزباد النيل . ولـكن الوحدة فى التيجان والرايات وأجناس القبائل لبثت على ذلك كله غير مستطاعة ، حتى إذا دار بنا الفلك بعد ملىٍّ من الدهر ، وطلعت علينا أمم الفتوح واحدة واحدة من الأشوريين إلى الرومان ، خفتت على هـذا الشاطىء الشرقي صيحة الوحدة

ثم انقلب أمر الدنيا ، ثم جاء (الإنجيل) ، فنوَّرت هاتيك الجهات على مقربة من لبنان . ثم نوّر لبنان بالسبب الجديد ؛ وما هى حتى جاء كم مرقس يكرز ، فكأنما عدنا إلى المحاولة . ويلمع في الأيام بعد ذلك ضياء من صوب (البحر الأحمر) ، فتلألىء (مكة) وتغرق بلاد العرب فى اللألاء (القرشى) . فإذا القضية لقومية ، فوق كونها لديانة . فتنقل شعاع (القرآن) فى مشرق (المتوسط) على الدروب الباقية من ذلك الغرض القـديم . وشرعت الرايات (المحمدية) تخفق فى دمشق على خطوتين من جبل اللبنانيين ،

(*) نص الخطاب الذى ألقاه الأستاذ أمين بك نخلة مندوب الصحافة اللبنانية فى الاذاعة المصرية مساء الجمعة ٢٨ يناير الحالى

فأقبلنا فى الزمن (الأموى) نتب من (كتاب) العرب، وندير ألسنتنا فى الفصاحة؛ كما أقبلتم على يد (ابن مروان) تتلقون عقيدة الكتاب الجديد، وتتلقنون لسانها؛ فكان أن جمعت رابطة الفم بين هذا (الوادى) وذلك (الجبل)، بعد أن جمعها تارات فى المحاولة على المصلحة والعلم والديانة، وعلى دفع الفتح، وتحمل الأمم الغربيــة. ولكن تلك الرابطة التى تضم الفم إلى الفم، كانت أشد الروابط، فتلاقينا معاً على ملعب (المتوسط) كرة أخرى. أما الغرض القديم فكان فى نقلة الزمن قد تحول من نحو إلى نحو، بل انتقل من جنس فى الجمة الشرقيــة إلى جنس؛ فضج السكون بالعرب، ورقصت فصاحتهم على (شنيل) الأندلس، كما رقصت على (نيل) الكنانة، وغدوا وراحوا على الممالك، حتى لقد تصايحوا بالضاد على أبواب فرنسا

وتسكن العروبة بعــد الدور المظيم، وتجىء العثمانية تملأ الملعب، فنمتليه ومصر؛ وتتعاقب فصول فى الرواية التركية الطويلة، وتختلف وجوه؛ وكانت مغارب الشمس قد أضاءت وطفقت مشارقها تعتم. فيرج المدفع فى (عكا)، ويقطع على (بونابرت) طريق (الهند) ويرد يد الإسكندر الثانى عن تغيير خارطة العالم:

فيا صاحب الجلالة

فى تلك اللفتة من التاريخ جاء جدك... وقد كان من الاتفاق أن يولد بونابرت فى (أجاكسيو) خارج فرنسا فى العام الذي ولد فيه محمد على في (قوله) خارج مصر. فلما غلغلت الشمس الفرنسية فى جوف (البركان المنطفئ) وراء (الأوقيانس)، وأخــذت الشمس المصرية تتعالى فى سموات التاريخ — وكأنما أنوارها تتفلت من وحشات ذلك الغروب البعيد — كان من الاتفاق أيضاً أن ينهض عرش عصامى فى الشرق، حيث يهوى فى الغرب عرش عصامى؛ فيتربع (محمد على) فى مصر، ويعود الشاطئ الشرق على يديه إلى المحاولة. وأنت تدرى أن كرة الأرض قد صغر حجمها فى عيون أساتذة الطمع، منذ ما قامت أوربا على قدميها، وأصبح قيد الشبر من أرض على خليج يحله فاتح فى الأعصر الحديثة، بمثابة نصف قارة يخوضه فى الأعصر القديمة فاتح مثله؛ فلم يخرج (محمد على) على قاعدة الأساتذة، ولكن قيد شبره كان كبيراً... فصهلت خيل (طوسون) و(إبراهيم) على سيف (البحر الأحمر) الشرقى، وفى صحراوات (الحجاز)، ومشارف (نجد)، ولوحت أعرافها تحت (إسماعيل) على (البحر الأزرق)، وخطرت عمارة (إبراهيم) بين عينى الجزائر (اليونانية)، ثم طلعت أعلامه علينا من (العريش)، فقطعت من يافا العربية إلى (قونية) التركية خلف (طوروس)، وكادت تطل على خليج (البوسفور)!

أما لبنان فأقبل على المحاول المصرى الكبير في إجابة من النفس. إذ الملعب المشرق لنا فيه سابقة الخطرات. فلا عجب أن تصبح يد (بشير) فى يد (محمد على) — وكان سيد (الجبل) قد نفضها قبــل من نابليون نفسه — عند أسوار (عكا)...! ثم تنسخ فى المحاولة الجديدة صورة أختها تلك، فيرتبط الجبل اللبنانى بالوادى المصرى فى العلم، بعــد أن ارتبط به فى الحد والمصلحة واللسان؛ وفى دين (ابن مروان) ودين (مرقس)؛ فأظلنا (القصر العينى) معاً، وجمعتنا مطبعة (بولاق) على المتعات فى الفلك والزراعة والهندسة والجغرافية

وكما كانت المحاولة فى الأمس العتيق تساجلاً بين نضرة من هنا ونضرة من هناك، كذلك كان الأمر فى أعقاب القرن الماضى؛ يوم أصبح العلم العربى لا يطلع له قمر إلا من أرضنا، فبعثنا بالمتعات فى الأدب والفن والتاريخ واللغة، وجاء الرد بعد الأخذ، وصحت المقابلة فى التاريخ! وإذا كانت رياح العربية تهب اليوم من مصر ومن عندنا فى آن معاً، حتى ليكاد يختلط الطيب فنتقاتل على نحر الشيوع، فما هى إلا من أهبة يأخذها التاريخ لتدوين هذا النسق الجديد من المحاولة التى لم ينقطع خيطها، والحمد لله...!

فيا صاحب الجلالة

شرفاً لعرشك فهو كرسى النيل، وقد ظلل نصف الحضارة البشرية؛ وتيهاً لمطرفك فهو ثوب (محمد على) وقد فيأ نصف الحضارة العربية. فشاطر عرشك فى محاولة الشرق القديمة، وساهم مطرفك فى المحاولة الحديثة؛ فإذا تسلمت بكفيك الفضتين وديعة الماضى الباهظة، فلا خوف عليها، وأبيك (يا ابن فؤاد)! وإن لبنان الذى شرفنى بالوقوف بين يديك، فوق تشرفى بالكلام

بحث سيكولوجي

إعمــــل ماتخشاه

للأستاذ أحمد المغربي

من أشهر المجلات الشهرية العالمية وأوسعها انتشاراً وأغزرها فائدة ، هي مجلة « زبدة القراء » Readers Digest التي يشرف على تحريرها نفر كبير من مشاهير الأدباء والعلماء ، وقادة الفكر المحدثين . ولعل خير وصف لها تسميتها « بمجلة المجلات » . ذلك لأن القائمين على إدارتها يختارون لها من عشرات المجلات أطيب الآثار الأدبية وأوثق الآراء العالمية وأحدث الأنظمة الاجتماعية وما إليها ، ثم يجملونها ويوجزونها في صفحات قليلة يعرضونها على قرائهم بصورة جذابة وطريقة خلابة تستلفت أنظارهم ، وتستهوى أفئدتهم ، وتسحر عقولهم ، فيقبلون على انتهال مواردها اقبالاً يفوق إقبال الصادى في الصحراء على موارد الماء

وميزة أخرى يتحتم على ألا أغفل ذكرها ، هي أن القارئ يجد في القسم الأخير منها موجزاً لكتاب في مختلف ألوان الأدب والقصص والعلوم ، تقره في كثير من الأحيان ، جمعية « كتاب الشهر » وتوصى بمطالعته بعد أن تكون قد اختارته من مئات الكتب التي صدرت في تاريخ صدوره

ولا شك في أن مثل هذا العمل المثمر والانتاج النافع يسدى إلى القراء خدمات جليلة . ذلك لأن الانسان ، بلغ ما بلغ من حب المطالعة لا يستطيع ، بل إنه ليعجز عن أن يطالع جميع ما يصدر من كتب ومجلات ، مهما اتسع وقته وتوفر فراغه .

ولا ريب أيضاً في أن الأستاذ الزيات يشاركني في اعتقادي ، ونحن في مستهل نهضتنا الفتية المباركة ، بأن حاجتنا مُلِحة جداً إلى مثل هذه المجلة الفريدة ، مع نبل الرسالة التي تحملها رسالته ، فعسى أن تكون كلمتي هذه حافزاً له في تحقيق هذه الفكرة وسد هذه الثغرة

كاتب هذا المقال الذي نقتبسه من هـذه المجلة هو الدكتور هنرى لنك Henry C. Link ، رئيس دائرة الخدمة السيكولوجية في مدينة نيويورك . وتضم هذه الدائرة جماعة من علماء النفس الذين يقومون بإرشاد من يستشيرهم في المشاكل التربيوية والمهنية والشخصية . ولا يزال كتاب الدكتور لنك الأخير : « العودة إلى الدين » يتمتع بشهرة واسعة وإقبال عظيم ، بالرغم من مضى أكثر من سنة ونصف سنة على نشره

يستهل الكاتب حديثه قائلاً :

لقد نازعتني عوامل التردد والإحجام قبل أن قررت الكتابة في موضوع « الأوهام والمخاوف » ، ذلك لأن طائفة كبيرة من المخاوف التي تعتور نفوس الناس ، إنما هي بلا جدال تعزى إلى كثرة ما كتب في هـذا الصدد . وكم كنت أتمنى لو أن لفظة « مركب الضعة أو الشعور بالحطة » inferiority complex لم تخرجها المطابع إلى الوجود ، إذن لما خطر للملايين البشر بأنهم مصابون بذلك ، ولنقص خوف من مخاوفهم ووهم من أوهامهم

والواقع أن معظم المخاوف لا تنشأ عبثاً ، بل تتولد عموماً من الإغراق في المطالعة والإكثار من التفكير والكلام . فنحن نتعهدها ونرعاها ونغذيها حتى تستحيل من أمر بسيط في غاية البساطة ، وشيء تافه بعيد عن الخطورة ، إلى هم مقيم وعذاب أليم

إن الأم التي تكثر من مطالعة الكتب المختصة بتربية الأطفال وتحرص كل الحرص على الإحاطة بدقائقها وأسرارها تصبح شديدة المخاوف . والفتاة التي تهتم بمظهرها الخارجي وتكلف كل الكلف بأناقتها سرعان ما يزداد قلقها ويتعاظم هلعها مما يراه الناس فيها ، والجماعات التي تدقق البحث في أحاديثها ومناقشاتها عن وضع البلاد يؤول تشاؤمها في الغالب إلى الخوف

وصلتني رسالة من فتاة تبتدئ كما يلي :

باسمه ، لا يبرح على العهد . فدارنا الشرق ، وأهلنا العرب ، ولساننا الضاد ، نشمخ به في الأفلاك ...

ويا صاحب الجلالة

مقبلٌ أنت — يا ربيع الوادى — على سنَّة الثمر ، غِبَّ الزهر ، فتصبح المثال العالى لجيل الشرق الطالع ، في مباكرة ذلك النعيم الاجتماعى ، الذى يأنس له العقل والدين ، ويحمد (واديك) طيب الموسم ، وينظر لبنان إلى البركة بعين الصديق .

إذا شاء الله أمين نخلة

١٢ ـ ١٠

« منذ أن بلغت السادسة عشرة من عمرى كنت أخاف من التحدث إلى الغرباء . ثم تستمر الرسالة فى تعداد مخاوف أخرى ، كالخوف من رئيسها ، والخوف من الرجال ، والخوف من سوق السيارة ، والخوف من تقديم تقرير في ناد للبنات ، وغيرها من المخاوف التى يبلغ عددها» . وجيمها مخاوف من صعيد مشترك واحد ، يقاسى منها ملايين البشر . والنتيجة لهذه المخاوف ، فى كل حالة تقريباً هى واحدة : نوع من الشلل الزاحف ، شعور بالبؤس والاختناق والروع والرعب والهزيمة

***

شكا إلىّ شاب بأن النوم يجفوه ، وبعد أن شرح لى شرحاً بسيكولوجياً مسهباً علة ماأصابه سألنى : « هل تستطيع أن تساعدنى على التخلص من هذه الهواجس والوساوس ؟ فأجبته : لا . فتوسل إلىّ قائلاً : إذن ، ماذا أستطيع أن أعمل ؟ فاقترحت عليه أن يركض فى الليل حول الحي الذى يعيش فيه حتى يكل وينصب ويبلغ به الجهد حداً يشعر معه بأنه سوف يسقط على الأرض إعياء . وقلت له : إن ما تحتاج إليه ، هو الإجهاد ؛ لقد أنهكت قواك البدنية فى التفكير والتخيل والأحلام ؛ فاذا ركضت ركضاً مكداً مجهداً فلا تلبث أن تشعر بالارتخاء والفتور فتنام ؛ إنك لشدة ما فكرت ، جررت نفسك إلى الخوف ، بفكرك ، وإنك لقادر على أن تفر منه بساقيك »

ولقد فعل !

***

قدمت إلىّ والدة منذ أمد غير بعيد ، هذا الملخص المهم لتاريخ حياتها : « كنت وأنا فتاة ، تعرونى مخاوف كثيرة تسبب لى قلقاً واضطراباً ، منها الخوف من الجنون ، ولقد استمرت هذه المخاوف حتى بعد زواجى . إلا أنه بعد مدة قصيرة ، رزقنا طفلاً ثم انتهى بنا الأمر إلى أن أصبح لدينا ستة أولاد . ولما كنت أقوم بنفسى بجميع أعمالى البيتية كنت كلما بدأت أشعر بالقلق ، أسمع بكاء الطفل أو نزاع الأطفال ، فأبادر إلى تهدئة أحوالهم . أو كنت أتذكر فجأة بأن وقت الغداء قد حان ، أو بأنه يتحتم علىّ أن أتم كى الملابس ، فكانت المخاوف التى تنتابنى تُقطع على الدوام بواجبات عائلية ، وعلى مر الأيام تلاشت تدريجياً . وأنا الآن ألقى عليها نظرة لمجرد اللهو والسلوة »

وقد يكون مغزى هذه الحادثة ألا يكون للوالدين ستة أطفال ، ولكن الميل إلى تقليل عدد أفراد العائلة وزيادة أوقات الفراغ ، يؤدى ، في الحقيقة ، إلى توليد المخاوف . ومن الحقيقة أيضاً ، أن الكثيرين ممن تلازمهم هواجس مقلقة ، قد يجدون لذة جديدة فى الحياة لو أنهم يهتمون بشئون أناس آخرين بواسطة الاشتراك فى الأعمال الاجتماعية المحلية .

أنت لا تحب مثل هذه الأعمال ؟

إذن ، يجب أن تتذكر بأن كل خطوة فى التغلب على الخوف تتطلب ، فى البداية ، قوة إرادة

إن الذين تعلموا الغطس ، مثلاً ، يذكرون المصاعب التى أصابتهم . فأنت أول فى الأمر ، توازن نفسك ثم تميل إلى الأمام ، فتتردد فترتد إلى الوراء خوفاً وهلعاً ، ثم تحاول مرة ثانية فتنسحب . وأنت فى كل تردد تزداد مخاوفك . وأخيراً تثور ثائرتك ويشتد غضبك من هذا الخور والجبن ، فتقذف بنفسك دون أن تبالى بانحراف ذراعيك ، أو تكترث لاعوجاج ساقيك . تصعد ، بعد ذلك ، كسيفاً مضطرباً ، وتزداد حالتك سوءاً حين تسمع قهقهة أصدقائك وتشاهد سخريتهم . فلو أن مخاوفك ، فى هذه النقطة ، حالت دون أن تقوم بمحاولات أخرى لما تعلمت الغطس ؛ ذلك لأن مخاوفك تصبح غير قابلة للقهر . ولكن لو أنك تشبثت وداومت على القيام بغطسات مؤلمة خرقاء غير لبقة ، لأمكنك الغطس بهدوء ونعومة ، والصعود مرتاح الفكر ناعم البال . ولقد كنت فى طريقك إلى أن تصبح غطاساً ماهراً

تلك هى السيكولوجيا الأساسية للتغلب على الخوف ، واكتساب الثقة والإيمان بكل ناحية من نواحى الحياة ؛ وليس ثمة مفر من هذه الطريقة . يتحتم علينا ، بين آونة وأخرى ، أن نخوض جدول الحياة ونغوص فيه ، فنضيف نصراً إلى نصر ، وننتقل من فتح إلى فتح ، متغلبين على ما يعترض سبيلنا من مخاوف وأوهام ، الواحد بعد الآخر . وكما قال امرسن : افعل الشيء الذى تخاف منه فان موت الخوف محقق . والواقع أن مخاوفنا هى القوى التى تكوننا حين نعالجها بشدة وحزم ، وهى التى تحطمنا إذا ما عولجت بالتردد والحيرة والتوانى والتمهل

سألنى شاب منذ مدة غير طويلة أن أقترح له بعض أعمال صعبة يقوم بها ، وقال لى « إن كتابك يوصى بالتمرن على الرقص

وكرة السلة أو بعض المباريات الرياضية والبردج وحفلات السمر والألعاب ، ويقول بأن على الانسان أن يعمل حتى الأشياء التي ينفر منها ويبغضها ؛ على أنني لم أكن أكرهها وأنفر منها فحسب ، بل كنت أخاف من القيام بها . بيد أنني عزمت على تجربتها . فمر على ردح من الزمن الرهيب كنت أشعر فيه بالبؤس والتعاسة وأعاني فيه عناء كبيراً وعذاباً مريعاً ؛ ولكن سرعان ما زالت مخاوفي واستعدت نشاطي وانكببت على هذه المشروعات الجديدة . والواقع أنني أتمتع بحياة جديدة تضفي على نفسي ألواناً من الهناء والصفاء حتى بت أخشى أن أميل إلى حياة الراحة والترف . وأود منك أن تخبرني ببعض الأعمال التي أجد في القيام بها مشقة حقيقية .

إن هذا الشاب تعلم درس استخدام مخاوفه كواسطة للفوز والانتصار والهناء والمرح البهيج . واتجه إلى حياة أوسع نشاطاً وأغزر حيوية من الناحيتين الحيوية والفكرية

والخطوة الأولى في التغلب على الخوف هي أحياناً عملية بسيطة أولية جداً . أتذكر شاباً غمرته المخاوف إلى حد كما كان يتمكن من الكلام بصوت مسموع . كان يعمل في مصرف كبير ويعرف اثنى عشر رجلا في دائرته ، إلا أنه عند ما كان يذهب إلى مكتبه لا يحيي أحداً . فاقترحنا عليه أن يبدأ بتحية رفاقه من صميم قلبه قائلاً : صباح الخير ، إبراهيم ، يا أهلا ، زهير ، .. صباح الخير ، يا سيدي ، أثناء مروره بهم . فجرب ذلك وكانت تجربته مرضية مدهشة حتى أنه تشجع لتجربة أعمال أشد صعوبة كان الفوز في أحدها يقوده إلى فوز آخر

إن أكثر المخاوف شيوعاً وانتشاراً ، كالخوف من الجنون أو الاضطهاد والظلم ، أو الخوف من الأغراب والأجانب ، أو الضعة هي عادة ، نتيجة فشل الانسان في التغلب على مخاوف صغيرة كافية وقهرها بمثل هذه الطريقة التي أشرنا إليها . إلا أنها تعزى أحياناً ، إلى أن الانسان ، لسبب ما ، كالفشل في الحب ، أو موت قريب عزيز ، أو لكوارث مالية ، أو لخسارة عمل أو وظيفة — ينزوي عن الناس وينسحب من أعماله المألوفة . ويتحتم على الانسان ، إذا ما منى بكارثة ، خصوصاً ألا يتابع أعماله القديمة فحسب بل يوجه إرادته ويعزم عزماً أكيداً على أن يبدأ بمساع جديدة يستحسن أن تكون مكدة عنيفة .

ومع أن التعاميم مخطرة جداً فإني أجرأ على القول بأن في قرار معظم المخاوف فكراً مجهداً ، وجسماً خاملا ، ولهذا فإنني نصحت كثيراً من الناس في سعيهم وراء السعادة أن يقللوا من استعمال رؤوسهم ويكثروا من إستعمال أذرعهم وسيقانهم في عمل أو لعب مثمر نافع . فنحن نولد المخاوف بركوننا إلى الراحة ، ونتغلب عليها باللجوء إلى العمل ؛ وما الخوف إلا نذير الطبيعة بدعوتها إلى العمل

إن ملايين البشر الذين يعتمدون في معاشهم على المساعدات الحكومية إنما هم يربون في أنفسهم المخاوف والأوهام من حيث لا يشعرون . وقد يكون من الواجب المحتم علينا أن نضع نصف سكاننا في مخيمات الخدمة الاجتماعية (C. C. C. — هي مخيمات تضم عدداً من الشبان في سن الدراسة الثانوية والجامعية العاطلة عن العمل ، تستخدمهم الحكومة الأميركية في القيام ببعض الأعمال الاجتماعية كتعبيد الطرق وبناء الجسور والمحافظة على الغابات من الحريق الخ ... لقاء أجور زهيدة تدفع قسما منها إلى أهليهم كما أنها تهذبهم في المخيمات تهذيباً منظما وتدربهم على الأعمال الفنية التي تفيدهم بعد تخرجهم فيها) حتى نستأصل شأفة المخاوف التي تقلق الأمة

والخوف في أدواره الخفيفة الأولية يتخذ شكل النفور من بعض المشاريع والاشمئزاز من بعض الناس وانتقادهم ، فيقيم بذلك شاهداً ودليلا على أن الانسان يبرر خموله المستمر .

إن العالم ملىء بالمستائين والساخطين ، غني بالشيوعيين والنظريين الاجتماعيين ، لأنهم لا يريدون أن يغيروا أنفسهم ، يتحدثون عن تغيير نظام العالم بأسره . ويظهر أن الكثيرين منهم لا يدركون انه ، في أي نظام اجتماعي ، مهما كان نوعه ولونه ، لابد من وجود مفاسد ومساوىء ، وهم بأحاديثهم يصوبون غضبهم من العالم ويسبغون على سخطهم وتذمرهم رداء من الحكمة والتعقل بدلاً من أن يسخطوا على أنفسهم ويهبوا إلى القيام بعمل صالح نافع

(بغداد) احمد المغربي

مدرس العلوم الاجتماعية بدار المعلمين الابتدائية

الخلـــــود

L' IMMORTALITÉ

للشاعر الفرنسى الكبير لامارتين

ترجمة السيد أحمد عيتانى

أحب لامارتين « ألفير » حباً ملك عليه حواسه ومشاعره وكاد يقرب من العبادة إلا أن القدر أبى أن يمتعه بهذا الحب طويلا ، فبينما هو يقضى إلى جانب محبوبته ألذ ساعات العمر وأعذب أوقات الحياة ، إذا بالنبأ يفاجئه بأنها مريضة ومشرفة على الموت ، فينال هـذا النبأ منه وينظم آلامه وشجونه فى تلك القصيدة التى ينظر فيها إلى الموت نظرة المنقذ الذى ينقل الانسان من آلام الحياة الفانية إلى سعادة الحياة الأبدية

لقد آلت شمس أيامنا منذ فجرها إلى الإصفرار !

فهى لا تكاد ترسل نحو جباهنا الكليلة

سوى بضعة أشعة مرتجفة تقاوم الظلمة !

ولكن الظلمة تنمو ، والضياء يتلاشى ، وينمحى كل شىء ويزول !

***

ألا فليرتعد سواي أمام هذا المشهد ! ولتخنه قواه !

وليبتعد مرتجفاً عن شفا الهوة !

وليعجز عن الاستماع بعيداً دون أن يجزع

إلى أنشودة الموت البائسة التى يتهيأ لالتقاطها ، أو إلى الزفرات المختنقة تصعدها حبيبة أو شقيق

فتعلق حول أطراف سريرها الكئيب !

أو إلى الناقوس المدوى ،

تنشر دقاته المضطربة بين الملأ أن فلاناً قد قضى !

***

سلاماً أيها الموت ! أيها المنقذ السماوى !

إنك لا تظهر لى فى هذا الشكل الرهيب

الذى ألبسك إياه الوهم والرعب زمناً طويلا !

إن ذراعك لا تحمل ذلك الخنجر الهدام !

إن جبينك ليس مرعباً ! وإن عينك ليست غادرة !

إن رباً لطيفاً يسوقك لتخفيف الآلام !

إنك لا تهلك ! إنك تنقذ !

وإن يدك لرسول سماوى يحمل شعلة إلهية !

***

عند ما تنطبق عينى المتعبة على ضوء النهار

ستأتى ، وتغرق جفونها بنور أشد نقاوة منه !

ويفتح أمامى الأمل ، وأنا أحلم فى القبر على مقربة منك أبوابَ عالم أبهى من هذا العالم !

***

تعال إذاً وأنقذنى من قيودى الجسدية !

تعال وافتح لى سجنى ! تعال وأعرنى جناحيك !

ما يلهيك ؟ ! إظهر ! ولأقذف بنفسي أخيراً

نحو هذا الكائن المجهول : مبدأى وغايتى !

***

من فصلنى عنه ؟ ! من أنا ؟ ! وما يجب أن أكون ؟ !

إنى أقضى ولا أفهم معنى الحياة !

أيتها الروح ! أيها الضيف المجهول ! يا من أسائلك عبثاً !

فى أية سماء كنت تقطنين قبل أن تكونى فىّ ؟ !

أية قوة قذفت بك إلى هذه الكرة الأرضية ؟ !

وأية يد ألقت بك فى سجنك الصلصالى ؟ !

أى روابط خفية ، وأى عقد مدهشة

جعلتك تقيمين فى الجسد ، وجعلت الجسد مالكا لك !

أى يوم تنفصلين فيه عن المادة ؟

وإلى أى صرح جديد تغادرين الأرض ؟

أتنسين عندها كل شىء ؟ !

أتعودين بعد القبر إلى الحياة ؟ !

أتبدأين حياة ثانية ؟

أم ستعملين ، وقد تجردت إلى الأبد من قيودك الفانية على التلذذ بحقوقك الخالدة

فى جوار الله مبدأك ومعادك !

***

أى نعم . ذاك ما أتمناه يانصيفة حياتى !
ذاك ما جعل نفسى مطمئنة
وقادرة على النظر ، دون ماذعر إلى قسمات وجهك الوسيمة
تذوى عليها ألوان ربيعك الساطعة !
ذاك ما جعلك تربنى أبتسم
وأنا أموت شاباً فريسة تلك الطعنة التى أصبت بها !
ذاك ما جعل دموع الفرح تلمع فى عينى
عند رؤيتك الأخيرة ، فى وداعنا الأخير !

* * *

« أمل باطل ! » هكذا سيقول أتباع أبيقور !
إنهم سيقولون : « يا فاقد الشعور ، يا من يخدعك غرورك الكثير !
أنظر حواليك : فكل شىء يبدأ ويتلاشى !
كل شىء يسير إلى نهاية ! وكل شىء يولد ليموت !
إنك ترى الزهرة تذوى فى تلك الحقول الصفراء !
والأرزة الشامخة تسقط فى الغابة تحت أعباء السنين لتفنى خلال الأعشاب !
إنك ترى البحار تجف في أحواضها الناضبة !
والسموات نفسها قد أخذت بالاضمحلال !
حتى الشمس ، ذلك الكوكب الذي كتم الزمن مولده
تسير مثلنا نحو الفناء !
ولسوف يبحث البشر عنها يوماً فلا يجدونها ، فيتيهون فى الفضاء الفارغ !
إنك ترى الدهور حواليك ، فى الطبيعة كلها !تترا كم غباراً على غبار !
وإنك لترى الزمن يخطو خطوة واحدة فيطويك مع كبريائك !
وينقلب كفناً لجميع ما أنتج !
والانسان ! والانسان وحده ! يا للجنون المظيم !
يظن أن سيعود ثانية إلى الحياة فى أعماق لحده !
ويحلم بالخلود ، بعد أن حطمه الزمن
وحملته العاصفة إلى العدم !

* * *

ألا فليحبكم سواى يا فلاسفة الدنيا !
ودعوني ووهمى ! فالأمل يجب علىّ وهو حبيب إلىّ !
إن عقلنا ليتعثر ويختلط عليه الأمر
نعم إن العقل ليسكت ، ولكن القلب ليجيب !

* * *

أما أنا ، فحينما أرى الكواكب
وقد تاهت عن طريقها السوي فى السهول السماوية
يصطدم بعضها ببعض فى حقول الأثير
وتنقلب دون ما غاية في السموات المذعورة ؛
حينما أسمع الأرض تئز وتتحطم ،
حينما أرى كرتها الشاردة المنعزلة
تسبح بعيدة عن الشموس ، باكية إنسانها الهالك !
لتضل فى حقول الليل الأبدى !
حينما أكون آخر شاهد لتلك المناظر الرهيبة ؛
حينما أظل محاطاً بالموت والظلمة
وبالرغم من وحدتى وجزعى
سأمل فيك أيها الكائن الحق اللطيف
وسأنتظرك أيضاً ، وأنا فى العوالم البالية
مؤمناً بعودة الفجر الأبدى !

* * *

ما أكثر ما غمرتنى وإياك تلك الظلمة ونحن بعيدان عن العالم ، يحدونا الأمل
تارة على قمم الصخور الهرمة ! وأخرى على ضفاف البحيرة الكئيبة القاحلة !
أثناء مقامنا السعيد ... حيث بدأ حبنا الخالد
لدي النظرة الأولى كما تذكرين !

* * *

لقد كانت الظلال ، وهى تنحدر من وراء الجبال
بقطعها الطويلة ، تحجبها عن أبصارنا !
فلا تلبث كواكب الليل الغريبة

بعد برهة من الزمن
إن ترحف دون ما جلبة أو أبهة
وترد على أبصارنا ما حجب عنها
وتسبغ على الأرض ثوباً من الأنوار الضئيلة
كما يسبغ المصباح نوره القدس على المعابد المقدسة التي أضاءها النهار بنوره
فينير منهـا الهياكل بعد ما تأخذ أشعة المسـاء تدريجاً بالاصفرار !

***

هنا كنت تفتشين ، وكنت تنتقلين ببصرى
من السماء إلى الأرض ، ومن الأرض نحو السماء
وكنت تقولين : « إيه يا إلٰهي الخفي »
إن الطبيعة هيكل لك
إن العقل ليراك فى كل بقعة تتأملها العين منها
إن هذا العالم مرآة لكمالك الذي يحاول العقل إدراكه !
وصورة له وانعكاس عنه !
إن النهار نظرتك ، والجمال بسمتك !
إن القلب ليعبدك في كل ناحية !
وإن النفس لتحيا بك !
أيها الخالد الأبدى ! أيها القدير اللطيف !
إن جميع تلك النعوت ليست كافية لتصور عظمتك !
إن العقل ليعنو أمام جوهرك العظيم !
فيمجد عظمتك حتى لدى سكوته !

***

إلا أنه وهو ذاك العقل المنهزم يا إلٰهى
حينما يشعر أن الحب سر وجوده
يندفع بذاك القانون الجليل نحوك
متشوقاً إلى حبك ومتحرقاً إلى معرفتك

***

لقد كنت تقولين ، وقد وحد قلبانا زفراتهما المتصاعدة
نحو هذا الكائن المجهول الذى نمت عليه آمالنا !
كنت تقولين ونحن جاثون أمامه وقد أحنيناه فى خلقه
وحمل إليه الفجر والمساء تمجيدنا إياه !
كنت تقولين وقد أخذت عينانا المنتشيتان
تارة تتأملان الأرض : منفانا نحن !
وأخرى تتأملان السماء مقامه هو ! :
« آه لو أن الله يستجيب دعواتنا فى هذه الساعة التى تحاول بها نفسنا الفرارة خلاصها وتحطيم قيدها وإسارها !
فيرسل علينا من علياء سمائه طعنة تحررنا كلينا !
إذا لرجعت روحانا نحو مبنعهما دفعة واحدة !
ولصعدنا على جناح الحب فى ثنايا اللانهاية كأنهما خيط من نور ! حتى تصلا ، وقد اجتازتا فى سيرها العوالم معاً
أمام الله ، وقد ذهلتا عن ذاتيهما
فتعيشان إلى الأبد ممتزجتين فيه !

***

أتريننا مخدوعين بهذه الآمال ؟ !
أصائران نحن إلى العدم ؟ !
أمقدر على أرواحنا الفناء ؟ !
أتقاسم الروح والجسد مصيره بعد خلاصها منه ! فتفنى معه فى ظلمات القبر
وتتحول إلى غبار ؟ ! أو تتلاشى كما يتلاشى الصوت فى الفضاء ؟ !
أو لا يبقى ، بعد الفراق الفادح واللوعة الضائعة
جزؤ يحبك من ذاك الذى كان يحبك ؟ !
آه يا إلفير ! لا تسائلى سوى نفسـك عن ذلك السر العظيم !
وانظرى إلى من أحبك وهو يموت
ثم أجيبى :

احمد عيناني
عضو بعثة أساتذة جمعية المقاصد فى مصر

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

– ٢٢ –

الرافعي وعبد الله عفيفي :

لم يكن الأستاذ عبد الله عفيفي خصماً للرافعي على الحقيقة ، ولا أحسب أن أحدهما كان يرضيه أن يكون بينهما ما كان ولا سعى إليه ؛ ولكن الأستاذ عفيفي فى مكانه من ديوان جلالة الملك ، وفى موضعه عند الابراشي باشا ، قد دارت به المقادير دورتها حتى وقفته مع الرافعي وجهاً لوجه ، وجعلته بالموضع الذى لا يستطيع واحد منهما فيه أن يتجاهل أنه أمام خصم يحاول أن يظفر به . ومن هنا نشأت الخصومة بين الرافعي وعبد الله عفيفي

على أن هذه الخصومة بينهما تختلف عن سائر الخصومات التى نشبت بين الرافعي وأدباء عصره ، فهنا لم تنشأ الخصومة إلا للتزاحم على رتبة « شاعر الأمير » ؛ على حين كانت أكثر خصومات الرافعي ذياداً عن الدين وحفاظاً عن لغة القرآن ، فما كنت ترى فيها إلا التراشق بألفاظ الكفر والزيغ والمروق والإلحاد ؛ أما هنا فكانت المعركة تدور وما فيها إلا التهمة بالغفلة وفساد الذوق وضعف الرأى وقلة المعرفة ... ومابدٌّ من أن يكون فى نقد الرافعي أحد هذين اللونين : الاتهام بالزيغ ، أو الاتهام بالغفلة ، ولا ثالث لهما . ومن هنا فقط نستطيع أن نزعم أن الرافعي لم يكن موفقاً فى النقد ، مع أهليته واستعداده وإحاطته الواسعة وإحساسه الدقيق ؛ إذ كان أول ما ينبغى أن يتصف به الناقد هو عفة اللسان والاقتصاد فى التهمة وضبط النفس ...

وثمت شيء آخر يفرق بين هذه الخصومة وبين سائر الخصومات : هو أن هذه المعركة كانت إيجابية من طرف واحد ، على حين ظل الطرف الثانى صامتاً قارًّا فى موضعه ، لم ينبس بكلمة ولم تبدر منه بادرة مشهودة للدفاع ... !

***

كتب الرافعي مقالات ثلاثاً بعنوان « على السَّفُّود » فى نقد ثلاث قصائد أنشأها الأستاذ عبد الله عفيفى فى مديح الملك — والسفُّود هو الحديدة التي يُشْوَى عليها اللحم — وهو عنوان له دلالته ، وفيه الإشارة والرمز إلى ماحوت هذه المقالات من الأساليب اللاذعة والنقد الحامى . وإذ لم يكن توقيع الرافعى فى ذيل هذه المقالات ولا كان يريد أن يُعرف أنه كاتبها — فإنه خرج عن مألوفه فى الكتابة وفى نمط الكلام ، فاسترسل ماشاء كأنه يتحدث في مجلسه إلى جماعة من خاصته : لا يعنيه الأسلوب ولا جودة العبارة ولا عربية اللفظ ، بقدر مايعنيه أن يتأدَّى معناه إلى قارئه في أى أسلوب وبأية عبارة ؛ فكثر الحشو فى هذه المقالات من الكلمات العامية والنكات الدائرة والأمثال الشعبية ، ولكنه إلى ذلك لم يستطع أن يتخلص من كلٍّ لوازمه فى النقد والكتابة ، فبقيت له خفة الظل وحلاوة اللفظ وقسوة النقد ، إلى بعض عبارات فى أسلوبه تنم عليه وتكشف عن سره .

ولم يذكر الرافعى حين أنشأ هذه المقالات أنه يتناول بهذا النقد شاعراً من شعراء القصر له حظوة عند رئيس الديوان الملكي ، وأن هذا الشعر الذى يفريه ويكشف عن عيبه إنما أنشأه ناظمه فى مديح الملك . أو لعل الرافعي كان يذكر ذلك ولكنه يحسب نفسه بنجوة من التهمة لأنه لم يوقع بإمضائه على هذه المقالات ؛ فلم يتحرج مما كتب ، وأتى القول على سجيته فى صراحة وعنف وقسوة ، ولم يصطنع الأدب اللائق وهو يتحدث عما ينبغي أن يكون عليه الشعر الذى يقال فى مدح الملك وما لا ينبغى أن يقال ؛ فجاء فى بعض كلامه عبارات لا يسيغها الذوق الأدبى العام عند ما يتصل موضوع القول بالملك الحى الذى يحكم ويدين له الجميع بالولاء . وكأنما ركبته طبيعةٌ غير طبيعته خيَّلتْ إليه أنه يكتب في نقد شاعر من الماضين يمدح ملكاً من ملوك التاريخ ، فلم ينظر إلى غير الاعتبار الأدبى الخالص من دون ماينبغى أن يُراعى من التقاليد واللباقة السياسية عند الحديث عن الملوك

وانتهت أُولى هذه المقالات إلى القصر ، فمالت الأفواه إلى الآذان ، وتهامس القراء همساً غير خفى ، ثم جهروا يتساءلون : من يكون هذا الكاتب ؟ ولكن أحداً منهم لم يفطن إليه ولم يعرف الجواب ، وأنفذوا دسيساً إلى الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب المصور يسأله فلم يظفر منه بجواب

ونُشر المقال الثانى والثالث ، فلم يلبث أن انكشف السر ؛

ونم الرافعي على نفسه بلسانه في مجالسه الخاصة ... أو نم عليه أسلوبه وطريقته في النقد

وجاءه سائل من القصر يسأله ويستوثق من صحة الخبر في أسلوب السياسي البارع : « ... وكيف تأذن لنفسك أن تقول ماقلت في شاعر من شعراء الملك، وأن تكتب عنه بهذا الأسلوب ؟ أفيتفق مع الولاء لصاحب العرش أن تكتب ما كتبت لتصرف الشعراء المخلصين عن ساحة الملك ... ؟ أم تريد ألا ينطق أحد بالثناء على صاحب التاج وألا يكون اسمه على لسان شاعر ؟ أم هي دسيسة تصطنع الأدب لتفض المخلصين من رعيته عن بابه ...؟»

وغص الرافعي بريقه ، وتبين الهاوية تحت قدميه يوشك أن يتردى فيها بحيلة بارعة ، وأحس الابراشي باشا من ورائه يحاول أن يدفعه بعنف لينتقم لكبريائه التي مسها الرافعي بمجانته منذ بضعة أشهر ...

وحاول النجاة بنفسه من هذه المكيدة البيتة ، فلم يجد له وسيلة إلا الصمت فأوى إليه . وانقطع ما بينه وبين القصر من صلات ، إلا الصلة العامة التي بين الملك وبين كل فرد من رعيته . وكان أخوف ما يخاف الرافعي أن تكون خاتمة ذلك هي انقطاع المونة الملكية عن ولده الذي يدرس الطب في جامعة ليون على نفقة الملك ؛ ولكن ذلك لم يكن إلا بعد هذه الحادثة بأربع سنين (في سنة ١٩٣٤) لسبب آخر ، ولم يكن باقياً بين الدكتور الرافعي وبين الإجازة النهائية غير بضعة أشهر كما تقدم القول

***

لقد كثر ما استغل خصوم الرافعي السياسة لينالوا منه . ولقد كثر ما اتهموه من أنه من أدوات الإبراشي باشا في محاربة سلطة الأمة ، وأنه صنيعته ومولاه ؛ على حين كان هذا الموقف هو كل ما بين الرافعي والإبراشي باشا من صلات الود والموالاة ! فما انقطعت صلة الرافعي بالقصر إلا في عهد الإبراشي ، وما كان معه يوماً على صفاء . على أنه كان تلميذاً معه في مدرسة المنصورة الابتدائية فيما أذكر ...

ولقد كتب كاتب من خصوم الرافعي غداة دالت دولة الإبراشي ، فصلاً مؤثراً ... بعبارات بليغة ... في صحيفة من صحف الشعب ، يصف جناية الإبراشي باشا على الأدب ؛ وكان من براهينه على ذلك أنه اصطنع الرافعي ليحارب بقلمه ولسانه سلطة الأمة ... وقرأت هذه المقالة مع الرافعي ، ونظرت إليه فإذا هو يبتسم ابتسامة مرة ، ثم قال : « هذا أديب يتحدث عن جناية السياسة على الأدب ... أرأيت ... صدق ! لقد جنت السياسة على الأدب [1] »

***

لم يكن لهذه المقالات الثلاث التي كتبها الرافعي عن الأستاذ عبد الله عفيفي صدى في غير هذه الدائرة المحدودة ؛ على أنها أنشأت بينهما خصومة صامتة ظلت مع الرافعي إلى آخر أيامه ، وظلت مع الأستاذ عفيفي في أحاديثه الخاصة إلى أصدقائه ، وإلى طلابه في كلية اللغة العربية بالأزهر ...

فلما مات المرحوم شوقي بك في خريف سنة ١٩٣٢ ، كتب الرافعي عنه مقاله المشهور في مجلة المقتطف ، وذكر فيما ذكر فيه أن شوقي بك لو كان مصرياً خالص المصرية لما تهيأت له الأسباب النفسية التي بلغت به مبلغه في الشعر ؛ لأن الطبيعة المصرية لا تساعد على إنضاج المواهب الشعرية ، ولا تعين على إبراز الشاعرية الكامنة في كل نفس.

هو رأي أبداه فيما أبدى من الرأي ، لم يقصد به التعريض بأحد أو الحط من مقداره . وقد يكون رأياً إلى الخطأ أو إلى الصواب ، وقد يتكافأ فيه كفتا الخطأ والصواب ، ولكنه رأي أبداه الرافعي مجرداً من الهوى ، لا يعني به إلا أن يستوفي عناصر بحثه . ولكن خصومه تناولوه على ألوان وفنون

أما طائفة فمالت به إلى السياسة ، وقال قائلهم : هذا رجل ليس منا ، يريد أن ينكر فضل مصر عليه وعلى آله ، فيتهمها بالعقم وركود الذهن وجمود العاطفة فيجردها من الشعراء ... ومضى في دعواه . ذلك سلامه موسى ... !

وأما ثانية فقالت : وهذا قول يعنينا به نحن الشعراء المصريين ليجردنا من الشاعرية في قاعدة عامة لا تستثني أحداً إلا من انحدر إلى مصر وفي أعراقه دم غريب ... ومضت هذه الطائفة تنقض دعواه وتسفه رأيه بما تسوق من الأمثال وتذكر من أسامي الشعراء المصريين

وانتضى الأستاذ عبد الله عفيفي قلمه ليكتب في (البلاغ)

(١) سنتحدث عن هذا الموضوع حديثاً أكثر صراحة في كتابنا : « المؤثرات السياسية في جيل من الأدباء » الذي نعده للنشر بعد الفراغ من هذه المقالات إن شاء الله

مقالاته الأسبوعية بعنوان (مصر الشاعرة) يذكر فيها من شعراء مصر فى مختلف الأجيال منذ كانت مصر العربية، ما يراه ردًا على دعوى الرافعى. ومضى فى هذه المقالات بضعة أسابيع يضرب على وتر واحد، ثم ملّ هذه النغمة فراح يتصيد موضوعات أخرى من مشاهداته وآرائه في الناس والحياة؛ ولكن عنوان (مصر الشاعرة) ظلّ على رأس هذه المقالات يبحث عن موضوعه ... فكان حسْب الأستاذ عفيفى فى هذه المقالات أن أنشأ هذا العنوان فى الرد على الرافعى ...!

* * *

وقد ظل الرافعى إلى آخر عمره يذكر أيامه وهو شاعر الملك، ثم ما كان بينه وبين الابراشي، وبينه وبين عبد الله عفيفى. وما كانت تظهر للأستاذ عفيفى فى الصحف مدحة ملكية، فى موسم من المواسم أو عيد من الأعياد، حتى يتناولها الرافعى فيقرأها إلى آخرها، ثم يلتفت إلى جليسه فيقول: « ما ذا رأيت فيها من شعر ومن معنى جديد؟ » ثم يسترسل فيما تعود من المزاح والتندر

وقد ذكرت فيما قدمت من هــذه المقالات أن الرافعى كان يسمى كل جميلة من النساء « شاعرة »، فمنهن كالمتنبى، ومنهن كالبحترى، ومنهن بشار بن برد، ومنهن عبد الله عفيفى

فهذه الأخيرة عنده هى ذلك النوع (البلدى) من نساء الطبقة الثالثة، التى تبدو ملفوفة (محبوكة الأطراف) فى ملاءتها السوداء، غضةً بضَّــة، تستهويك بجمال الجسم دون جمال المعنى، وفيها أنوثة الدم واللحم ولكنها جامدة العاطفة عقيم الخيال ...

معذرة إلى الأستاذ عبد الله عفيفى! فإنما أنا راوية أكتب للتاريخ، وما شهدت إلا بما علمت، وعلىّ تبعة الرواية وعلى غيرى تبعة الرأى. وللأستاذ عفيفى في نفسى رغم أولئك كل إجلال واحترام

« شبرا » محمد سعيد العريان

* * *

إلى الأصدقاء: الأستاذ عبد الرحيم شمد بَرسى مطروح، والأديب أحمد الصاوى فضل الله بأم درمان، والسيدة أمينة العيدروس بواد مدنى، والآنسة فدوى طوقان بنابلس، والأديب السيد الصباحى ببورسعيد، لأشكر لهم، وستجمع هذه المقالات بعد تمامها إن شاء الله فى كتاب، وفلانة هى هى التى عرفها كل من كتب إلى؛ ولا أظن أن حفلة تأبين الرافعى ستقوم هذا العام لأننا لم نعرف بعد كيف يكون الوفاء لأدبائنا الراحلين. وعند الدكتور زكى مبارك أن مقالة يكتبها، هى حسب العربية فى الوفاء لمن يموت من أدباء العربية، ولو كان هذا الراحل هو مصطفى صادق الرافعى! يرحمه الله!

أناشيد صوفية

جيتـــانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ٨٩ —

فى اليوم الذى يطرق الموت بابك، ما ذا تقدم إليه؟

آه، سأضع أمامه كأس حياتى المترعة لكيلا يرتد صفر اليدين

سأقدم له كل ما يحلو من ثمار أيام الخريف وليالى الصيف، وكل ما كسبت والتقطت فى حياتى المليئة بالجد ... سأقدمها كلها إليه عند آخر لحظة من لحظات حياتي ... حين يطرق الموت بابى

— ٩١ —

أيها الموت، يا من هو آخر أمل فى الحياة، تعال واهمس فى أذنى!

الأيام تمر وأنا أرقب لقياك؛ فمن أجلك أنشأت فى حياتى والسرور والألم معاً

أنا، وكل ما أملك، وكل ما آمل، وكل حين ... كل أولئك يندفع إليك فى أعماق الخفاء. إننى أبتغى النظرة الأخيرة من عينيك ثم لتكن حياتى شيئاً تملكه أنت إلى الأبد

لقد صففت الزهور، والأكاليل تنتظر العروس. وبعد العرس ستنقلب العروس من دارها لتلقى سيدها — فى خلوة — فى هدأة الليل وسكونه

— ٩١ —

أنا أوقن بأن اليوم الذى أحرم فيه النظر إلى الأرض آت لا ريب فيه! وأن روحى ستفزع عنى فى صمت. فيسدل على عينى آخر ستار من أستارها

ولكن النجوم ما تزال تتألق فى غسق الليل، والصبح ما يبرح يتنفس فى حينه، والساعات تمر جياشة كأنها الموج المضطرب وفيها اللذة والألم فى وقت معاً

وحين تتراءى لى ساعتى الأخيرة يتصدع أمام عينى حجاب الزمن. فأرى من خلال لمات الموت ... أرى دنياك وفيها

كنوزها المهملة ؛ وما فيها سوى منزل وضيع وحياة حقيرة

دع كل ما أندفع عبثاً فى إثره وكل ما أصيبه ... دعه يمر

ولكن مُنّ عليّ بكل ما كنت أزدريه وأعرض عنه

— ٩٢ —

لقد اعتزمت الرحيل فودعونى يا إخوتى ! سأنحنى لكم جميعاً فى رفق ثم أنطلق

ها كم مفاتيح دارى تخذوها ... سأنزل لكم عن حق فيها ... ولن أطلب إليكم شيئاً سوى كلمة عطف

لقد تجاورنا طويلا ؛ ولقد نلت أكثر مما أستطيع أن أعطي

والآن ابتسم الفجر وفزع عني السراج الذى أضاء ركنى المظلم زماناً ؛ ونادانى الداعى ، وهأنذا على استعداد للرحيل

— ٩٣ —

فى ساعة الرحيل ، تمنوا لى السعادة ، يا رفاقى ! فالفجر يلمع فى السماء والطريق أمامى لاحب جميل

ولا تسألوا عما أتزود به فأنا أندفع فى طريقى قفر اليدين ممتلئ القلب بالإيمان

سألبس إكليل العرس ، ولن ألبس ثياب الرحيل الحمراء القاتمة ؛ ورغم أن فى الطريق مخاوف فقلبى مطمئن ساكن

ستبزغ نجوم الليل حين تنتهى رحلتى ، سترن فى مسمعى ألحان الدجى الشجية تتصاعد عند باب ملك الملوك

— ٩٤ —

لم يكن لى أن أعرف اللحظة التى أخطو فيها خطواتي الأولى نحو الحياة

أى قوة جعلتنى أتفتح فى هذه المتاهة الواسعة كما يتفتح كم غضّ فى مضلات الصحراء تحت ستر الظلام

وعلى ضوء الصباح فتحت عينى فما استشعرت فى نفسي الغربة عن هذه الدنيا ؛ لأن قوة خفية لا اسم لها ولا شكل ، ضمتنى إليها تهدهدنى كأنها أمى

بمثل هذا ستبدو أمامى هذه القوة الخفية نفسها ... ستبدو عند موتى كما عهدتها ، وكما أحببت الحياة سأحب الموت

إن الطفل ليصيح حين تنتزعه أمه عن ثديها الأيمن . ولكنه سرعان ما يجد فى الثدى الأيسر سلوة وعزاء

— ٩٥ —

فلتكن كلمة وداعى حين أبرح هى: إن ما رأيته هنا هو المثل الأعلى

لقد رشفت بعض الرحيق الخفى من زهرة اللوتس المنشورة على محيط النور . لهذا فأنا سعيد ... فلتكن هذه هى كلمة وداعى

وفى هذا الملعب اللانهائى وجدت نفسى لهوها ؛ وفيه استطعت أن أنظر إليه نظرة خاطفة ... إليه هو الذى لا شكل له

وارتعد جسمى كله واضطربت أطرافى بلمسة من لمساته هو... هو الذى لا يلمس ؛ وإذا حان حَيْنى فليأت ... فلتكن هذه هى كلمة وداعى

— ٩٦ —

حين أجد لذتى معك لن أسأل : من عسى أن تكون ؛ فأنا لا أعرف الخداع ولا الخوف ، لأن حياتى كانت صاخبة

وفى بكرة الصباح ستوقظنى من غفوتى فى رفق كأنك صديق ، ثم تقودنى في سرعة من طريق إلى طريق

أنا — فى هذه الأيام — لا يعنينى أن أدرك معنى الأغانى التى تترنم لى بها ؛ غير أن صوتى يوقع اللحن ، وقلبى يرقص على النغم

والآن ، وقد تصرم زمان اللعب ، ماذا عسى أن تكون هذه النظرات الفجائية التى تتساقط على ؟ إن الدنيا مطرقة فى خشوع ونظراتها معلقة بقدميك وكواكبها صامتة

كامل محمود حبيب

في المهرجان الملكي

هنيئاً لك اليوم السعيد !!

للأستاذ على الجارم بك

صفا ورده عذبا ، وطابت مناهله   وجلت يد الدهر الذي عز نائله
وأقبل منقاد العنان مذللا   تطامن متناه ، ودانت صوائله
يطأطئ للفاروق رأساً وتنحنى   أمام سنا الملك المهيب كواهله
تلفت فى الآفاق شرقاً ومغربا   فلم ير فى أنحائها من يماثله
رأى ما رأى ! لم يلق عزماً كعزمه   تقد مواضيه ، وتفرى مناصله
يذوب مضاء السيف عند مضائه   فما هو إلا غمده وحمائله
إذا ما انتضاه فالسعود أعنة   إلى ما يرجى ، والليالى رواحله
رأى طلعة لو أن للبدر مثلها   لما انحدرت دون النجوم منازله
عليها شعاع لو رمى حائل الدجى   لفاخر وجه الصبح فى الحسن حائله
تراها فتنفضى للجلال ، وربما   تشوف لحظ العين لو جال جائله
هو الشمس يدنو فى الظهيرة ضوءها   ويصعب مرآها على من يحاوله
هو الروض ، أو أزهى من الروض نضرة   إذا داعبت وجه الربيع خمائله
هو الأمل البسام ، رف جناحه   فطارت به من كل قلب بلابله
هو الكوكب اللماح ، يسطع بالمنى   وتنطق بالغيث العميم مخايله
ترى بسمة الآمال في بسماته   وتلمح سر النبل حين تقابله
شباب كما يصفو اللجين ، كأنما   تملأ من ماء الفراديس ناهله
يفديه غصن الدوح ريان ناضراً   إذا اهتز فى كف النسائم مائله
تطلع رمح الخط يبغى اعتداله   فعاد حسيراً ينكت الأرض ذابله
ومن أين للرمح المثقف عزمه   ومن أين للرمح الطويل طوائله ؟
إذا حفزته الحادثات رأيته   وقد شك أحشاء الحوادث عامله
علاء تحدى الدهر فى بعد شأوه   فمن ذا يدانيه ؟ ومن ذا يفاضله ؟
ورأى كأنفاس الصباح وقد بدا   تشف مجاليه ، وتهفو غلائله
وخلق كمخضل النسيم بروضة   ذوائبه نفاحة وجدائله
يمس جبين النيل فى رفق عاشق   وتفتح أكمام الزهور مساحله

* * *

دعوت إليك الشعر فانقاد صعبه   وقد كان قبل اليوم شمساً جوافله
وما كدت أدعو الوحى حتى سمعته   تبادهنى آياته ورسائله
خيال إذا أرسلته إثر نافر   أتت بأعز الآبدات حبائله
ولفظ كوجه الروض فى ميعة الضحى   وقد صدحت فوق الغصون عنادله
إذا قلته ألقى عطارد سمعه   وساءل شمس الأفق من هو قائله
وإن سارت الريح الهبوب بجرسه   فآخر أكناف الوجود مراحله
إذا ذكر الفاروق فاض معينه   وتجت قوافيه ، وعبت حوافله
يقول وما لى حين أكتب قوله   من الفضل شىء غير أنى ناقله
رأى ملكاً يحيا القريض بوصفه   فضائله جلت ، وعمت فواضله
رأى ملكاً يزهى به الدين والتقى   شمائل أملاك السماء شمائله
رأى ملكاً كالنيل ، أما عطاؤه   فغمر ، وأما المكرمات فساحله
فغرد بالأجواء باسمك طيره   وردد فى الآفاق ذكرك هادله
وصاغت لك التبر المصفى فنونه   وحاكت لك البرد الموشى أنامله
ولم يبق من نسج السحائب زهرة   ترف ندى إلا حوتها فواصله
وصب شعاع الشمس تاج مهابة   لمن توجته بالفخار فضائله
وفك رموز السحر من أرض بابل   لأجلك حتى استنجدت بك بابله
أعدت له عهد الرشيد فأسرعت   إلى سدة الفاروق تشدو بلابله
وما أنت فى الأملاك إلا قصيده   تفاعيلها البر الذى أنت فاعله
يهب طريح الشعر فى دولة النهى   وتلهم أسرار البيان مقاوله

* * *

حملت له الريحان يوم زفافه   نضير الحواشى بنشر المسك خاضله
أزاحم للفاروق حشداً كأنه   خضم من الأمواج ، ضاقت سبائله
يغطى أديم الأرض عز اختراقه   وسدت على أقوى الرجال مداخله
إذا أنت لم تعرف مدى أخرياته   فسل طرفك المحدود أين أوائله
حملت له الريحان ، أرفع معصمى   إلى المالك الفرد الذى فاز آمله
وقد ملأ الأنس الوجوه فأشرقت   من البشر حتى كاد يقطر سائله
طلعت على الجمع الحفيل بموكب   يبادلك الشعب الهنى ، وتبادله
مواكب لم يعرف لرمسيس مثلها   ولا خطرت فى مثلهن قنابله
يحيط بها عز المليك ومجده   وتزحمها فرسانه وصواهله
إذا امتلك الحب النفوس هفت له   سراعا ، وأعطت فوق ما هو سائله
رأوك فمالوا بالهتاف كأنما   ينافس ند نده ويساجله

كأنهم جيش النمائم أرقت رواعده جفن الدجى وزواجله
فلا عين إلا وهى ترتقب التى ولا صدر إلا فارح القلب جاذله
وقد رفعت أعلام مصر خوافقاً ينازلها مس الصبا وتنازله
فإن كان من عين ، فإنك نورها وإن كان من قلب ، فانك آهله
وإن كان من دهر فأنت نعيمه وإن كان من فضل ، فانك باذله
رأى فيك هذا الشعب آماله التى تمنى على الأيام وهى تماطله
أحبك حتى صار حبك روحه ونور أمانيه الذى لا يزايله
فمن شاء برهاناً على صادق الهوى فتلك الجموع الزاخرات دلائله
نثرت بذور الحب فى كل مهجة وتلك التى تهفو إليك سنابله
حبالك يا فاروق للدين عصمة وأعمالك الغر الجسام معاقله
منابره تهتز باسمك فوقها وتلتف من شوق عليك محافله
تعفر بالترب الجبين الذى عنا له الشرق وانقادت إليه جحافله
له لمحات المشرفي ازدهت به على كل أبناء الغمود صياقله
لياليك أقمار الزمان وسعده وأيامك البيض الحسان أصائله
قد اختارك الرحمن موضع فضله إذا عز موصول فقد جل واصله

***

هنيئاً لك اليوم السعيد الذى زها على الدهر لما لم يجد ما يشاكله
يذكرنا المأمون يوم زفافه وقد مشت الدنيا إليه تجامله
وسال به سيل النضار كأنما تفجر من بين السحائب وابله
وأين من المأمون أو من زفافه جلالة ملك أعجزت من يطاوله؟
أبى الدهر أن يلقى ليومك ثانياً يقاربه فى نبله أو يعادله
تخيرت من وادى الكنانة زهرة تتيه بها جناته وظلائله
فريدة مجد ، يعرف المجد قدرها وتزهى بها يوم الفخار عقائله
ودرة خدر أقسم الخدر أنه على مثلها لم تُلق يوماً سدائله
يتيه بها ضافى الشباب ونضره وتسمو حواليه بها ، وعواطله
تخيرتها فوق السحاب مكانة وأصفى من الماء الذى هو حامله
حباها إله العرش أكبر نعمة لجلت أياديه ، وعمت جلائله
فعش فى رفاء بالبنين ممتعاً يضيء بك الوادي، ويخضر ماحله
ودم لبني مصر أماناً ورحمة فأنت حمى النيل الوفى ، وعاهله

على الجارم



أقصوصة سيكلوجية من كاى بويل

كيف تنفس فى قلبها الحب

للأستاذ دريني خشبة

كانت تجلس هى وجدّتها العجوز الحَيْزَبون فوق حَيْد الجبل على مقعد خشبي صنع لهما خصيصاً فى هذه الجهة لكثرة ما بَسَق فيها من الأيْك ... وكانت السماء ترسل عليها مدراراً من الغيث ، وكان الهواء بالرغم من ذلك دافئاً جميلا منعشاً

وكانت الفتاة تتلو فى كتاب عن الأدب الانجليزى ، والجدة مُصغية ساكنة ، فلما انهمرت شآبيب المطر أقفلت الفتاة كتابها ، وراحت تصغى بدورها لهذه المحاضرة الطويلة الممتعة التى أنشأت جدتها تلقيها فى حماسة عن اللغة والأدب ، وعن دكنز وإليوت وثاكراى وغيرهم من فحول رجال الأدب فى العصر الفكتوري وتنعى على الأدباء فى هذا العصر هراءهم الذى يؤلفون فيه الكتب من غير أن تكون لهم مُثل عليا يؤلفون من أجلها ، ويبشرون بها بين الناس ...

وكانت الجدة لا تبالى أن تضرب لحفيدتها الأمثال بما ورد فى قصص أولئك الفحول عن الحياة والعمل والأخلاق ... والحب...

فهذه بِكّى شارب بطلة قصة ثاكراى الخالدة (١) لا ترى شَيناً فى أن تنفع زوجها بمجازفة غرامية يكون فيها حبيبها رجلاً شيخاً ضعيفاً ... وهذا لورد لِسْتَر فى قصة سكوت (٢) لايرى بأساً فى أن تُقتل حبيبته إيمى حتى لاتقف عقبةً فى سبيله إلى عرش انجلترا ... وهذا فلان ، ثم ذاك فلان ... أما فى هذا العصر ... فماذا يصنع الأدباء ؟ !

(١) يقصد المؤلف قصة سوق الأباطيل Vanity Fair

(٢) يقصد المؤلف قصة كنلورث وكانت اليصابات تهوى اللورد

وكانت الأمثال التى تضربها الجدة المتحمسة تطن فى أذن الفتاة الصغيرة كما يطن النحل فى الخلية الفارغة... ذلك أن فؤادها كان خالياً من هذا الوحى الجديد الذي نبه فيه غرائز حواء ، من غير أن تعرف الفتاة علة هذا القَبس المقدس الذى بدأ يذكو فى أعماقها ، والذي نعرف سلفاً أنه فجر الحب وخيطه الأبيض الجميل

ثم حدث أن أقبل فتى وفتاة فى هذه اللحظة ، وطفقا يَتَوَقَّلان (١) فى الجبل ، فلما جاوزا ، نظرت الجدة إلى الشاب نظرة المشغوف الظمىء... ثم رددت طرفها فى الفتاة كأنما استيقظ فى فؤادها العجوز ماضيه الجميل الوارف النَّدِىّ ... الفعم بالمغامرات ! !

وصَعّد الفتى والفتاة ... وظلت العجوز تتبعهما بعينيها المشوقتين ... وكانت الفتاة قد حَسَرت عن ساقيها خشية أن يصيب الوحل حاشية ثوبها الوردى المفهاف ، فبدا جزء عظيم من الساقين الجميلتين ... وكانت تدلف أمام الفتى ، فحسبت العجوز وغالت فى الحسبة ؛ ثم التفتت إلى حفيدتها تقول : « عجيب جداً أمر هذا الفتى وهذه الفتاة ! كل يوم في هذه الساعة يقبلان إلى الجبل ويصعدان فيه ، ويغيبان فى الدوح ... لن هذا أمر يثير الشك ، ويبعث على الريب ! تُرى ماذا يصنعان ثمت ؟ شاب ريّان يتدفق الدم حارًّا فى عروقه ، وله قلب ينبض بموسيقى الحياة ، وفم تخرج منه الكلمات عذبة سحرية ، وعينان زرقاوان ترتسم فيهما صوَرُ هذه الدنيا لا كما ترتسم فى عينين سواهما ... ووجه مشرق وثغر باسم . يخلو بهذه الفتاة فى تلك الغابة لغير ماسبب ! ومع ذلك فالفتاة غضة يانعة . تتأرج كما تتأرج الزهرة إبان الربيع ويتورد خداها كما تتورد تيجانه ... يا للساقين ! ! أبداً لا يخلب ألباب الشباب مثلهما أبداً ! ! ... »

ثم أفاقت الجدة من سَكرتها فوجدت حفيدتها ذاهلة عن

(١) وقل فى الجبل وتوقل صعد

نفسها وقد أخذت القناديل الرائعة التي تحترق في سُوَيدائها تشع السناء من عينيها ، وأرهفت أذنيها تتلقفان الكلام العجيب الحلو الذي كان يخرج من فم الجدة ، والذي لم تكن الفتاة تحسن أن تقول مثله

— « تُرى ؟ فيم تساؤل جدتي عن الفتى والفتاة ؟ ! وفيم خلوتهما بين الأيك في مثل هذا الوقت من كل يوم ؟ وأي شك يثيره أمرهما ثمت ؟ شاب ريان ! ألا ما أجمل هذا الوصف البديع وأنا أفهم أن يكون الانسان ريانًا ، ولكن ما هذه الدماء الحارة التي تنصبب في عروق هذا الشاب ؟! ذاك شيء غريب لا أفهمه ! وهذه الموسيقى التي ينبض بها قلبه ما ذا تكون ؟ ولماذا تكون في قلبه موسيقى ؟ ولم لا تكون الموسيقى في أذنيه كما هي في آذان جميع الناس ؟ أية موسيقى هذه التي تكون في القلب يا ترى ..؟ وكلماته العذبة السحرية ما هي ؟ قد تكون من صنف هذه الكلمات التي تقولها جدتي ... إنها تكون جميلة جداً إذا استطاع الشاب أن يقول مثلها ؛ وأحسبه لا يستطيع ، لأن جدتي كبيرة ، وقد قرأت كثيراً في الأدب ، ووعت كل ما جاء في القصص ... وأنا نفسي لا أشعر بأية طلاوة فيما ترغمني على قراءته لها في هذا الكتاب العتيق الجاف ، مع أنها تكاد ترقص طرباً عند بعض فقراته ؛ ولا أدري لماذا تفرح بهذا الهراء السخيف الذي لا أفهمه . لقد قصت عليّ من أمر بكّا شارب والفتاة المسكينة إيمي ، وكان قصاري حكمي على شارب أنها سافلة قليلة الأدب لأنها لم تحب زوجها كما أحب أنا أمي . وبمثل ذلك حكمت على هذا اللورد التاعس ليستر الذي ضحى إيمي ليتزوج الملكة ... ولكن ... لماذا حزنت إيمي ؟ ولماذا أحَبَّته ؟ هل كانت يتيمة ليس لها أم تحبها ولا أب يحبه ؟ ولكن هذا كله ما قيمته إذا قيس بالموسيقى التي ينبض بها قلب الشاب ... »

ومرت هذه الخواطر كلها في قلب الفتاة في اللحظة القصيرة التي تلت صمت الجدة ، ثم سألتها حفيدة في سذاجة الصبي وطهارته — « بالله ياجدة ! ما هذه الموسيقى التي ينبض بها قلب أحد من الناس ؟ »

وانفرج فم العجوز عن ابتسامة كبيرة ، ثم ربتت بأناملها المرتجفة على خد الصغيرة ، وقالت لها : « اقرئي » ، وأطاعت الفتاة ، وراحت تقرأ كالببغاء ، ولا تكاد تفقه شيئاً مما تقرأ

***

واعتدل الجو ، وسكنت الريح ، واهتز النبات ينفض قطرات المطر كالطيور الصغيرة ... وانتشرت عصافير السنونو في السهل الفياح توقع على شجيراته ألحانها ، وأشرقت الشمس لتشترك في مهرجان الطبيعة بآرادها الذهبية الناصعة ... ولبثت العجوز تنتظر عودة الفتى والفتاة بنفس مشوقة وقلب خفِق ، حتى أقبلا آخر الأمر ، وفي وجه الفتى صُفرة وفي ساقيه رجفة ، وقد مشت الفتاة هذه المرة في إثره ، لا تعرف العجوز لماذا ...

ولما جاوزا أرسل الفتى نظرة وسنانة من عينيه النافذتين ناحية فتاتنا حفيدة العجوز ... ثم مضى في سبيله حتى كان في سفح الجبل .. وهنا نهضت عجوزنا مهرولة إلى السفح كذلك ، وحفيدتها تتعثر في خطاها خلفها ، وفي قلبها سرب من الهواجس عن هذه الموسيقى التي تستطيع القلوب أن تنبض بها ... ثم عن هـذه النظرة التي رمقها بها الشاب العابر ، والتي لم تعرف بم تفسرها..

« إنه شاب ريان كما ذكرت جدتي ، وإن له لعينين نفاذتين كما قالت ... ولكني لم ألمسه حتى أحس دمه الذي يتـدفق في عروقه فأعرف إذا كان حاراً حقاً ... وكذلك قلبه الذي ينبض بالموسيقى ... لابد لكي يسمعها الإنسان من أن تكون له (سماعة) طبيب أو على الأقل ، لابد من أن يضع الانسان أذنه فوق صدره ، ليعرف ما هنالك .. على أن وجهه أصفر كاللوتس.. فما السبب يا ترى ؟ هل هو مريض ... ؟ »

وظلت هذه الهواجس تضطرب في صدرها ، وجدتها تنهب الطريق في إثر الفتى والفتاة ، حتى إذا كانت حذاءهما ، أقرأتهما سلاماً جميلا ، فردّاه أحسن رد وأطيبه ، وافتر فم الشاب عن ابتسامة حلوة حيا بها الفتاة ... فلم تدر كيف ترد عليه ابتسامته...

وجلست الفتاة تقرأ لجدتها في ضوء مصباح عليل . وجدتها ما تلبث أن تتثاءب وتتثاءب ... حتى تضايقت حفيدتها من ذلك ولم تبال أن تقول :

— إذن نبقى القراءة إلى الصباح ياجدة ، ولا بد أن تذكرى لي شيئاً عن هذه الموسيقى العجيبة التي تنبض بها القلوب

فقهقهت الجـدة حتى بدت نواجذها وقالت : هل تذكرين حيناً كنت أزوركم وذهبنا في المساء إلى (السرك) ؟ فلما انتهت الموسيقى قلت لكم إنها لِبَاخ ؟ » فعبست الفتاة ، وقالت : « ومن

باخ يا جدة ؟ » فأجابتها : « موسيقى عظيم يا تلدا » فقالت تلدا : « وما شأنه فيما سألتك عنه ؟ » فقالت الجدة : لقد كان باخ يوقع على بيانه بأنامله، وفى الحقيقة لقد كان يوقع عليــه بقلبه؟ » فتجهمت تلدا وقالت : « تعنين أنه كان يتكئ على البيان بصدره؟ فتضاحكت العجوز وزجرت تلدا، ثم قالت لها : « هذه يا تلدا أشياء كالعلوم التى تتلقنيها فى المدرسة، هل تستطيع فتاة فى السنة الأولى أن تفهم درساً من دروس السنة الخامسة ؟ » فهزت الفتاة رأسها الجميل وقالت : « طبعاً هذا غير ممكن ! » فقالت الجدة : « فهذا مثل ذاك يا بنية ! » ثم أمرتها أن تقرأ، ففتحت الكتاب وما كادت تقلب صفحاته باحثة عن الباب الذى كانت تتلوه، حتى تثاءبت جدتها بشدة، فجعلت تلدا تقلب وتقلب إلى أن أغمضت العجوز عينيها، وألقت على سنادة الكرسى رأسها، وغطت فى سبات عميق

* * *

وقذفت تلدا الكتاب على سريرها، ثم انطلقت إلى مكتبة جدتها فجعلت تقلب فى الكتب، وتنظر إلى الرسوم والصور، حتى عثرت آخر الأمر على قصة دانتى الرائعة المسماة (الكوميديا الإلهية)، وكانت نسخة هذه القصة مصورة حافلة بالرسوم الزاهية بالألوان الطبيعية ... فجلست تتفرج بها، وتنعم النظر فيها، حتى اهتدت إلى الصورة الخالدة الباهرة، صورة بولو وفرنشسكا، وهما متعانقان فى الجحيم، وقد انطبق فم بولو على ثغر حبيبته، وراح يقبلها تقبيلا حاراً، يخفف عنهما ما هما فيه من عذاب السعير

ولبثت تلدا تنظر فى الصورة وتتعجب ... « ترى ماذا يصنع هذا الشاب الريان فى هذه النار المتقدة ؟ إنه يضع وجهه فى وجه امرأة ويقبلها كما تقبلنى أمى حينما أكون مغضبة : ألا يحس هذه النار المتأججة حوله ؟ هل هــذه المرأة ابنته ؟ لا شك أنها ابنته، وإلا فلماذا يقبلها ! »

ثم قرأت فى أسفل الصورة هذه السطور :

« بولو يقبــل حبيبته فرنشسكا فى سواء الجحيم، غير عابئ بالنيران التى تشتعل فى ساقيه وتلتهب من حوله ... وهكذا قضى الله أن يكون الحب عزاء للمحبين حتى فى وهادِ سقر ... فهو الماء العلوى الذى يطفئ النار المندلعة بين جوانحهم والقبلة ثمرته الشهاة، وخمرُه وجناه ! »

وبرقت عينا تلدا، وحملت الكتاب ذا الصور إلى حيث راحت جدتها تغط وتزعج البوم بشخيرها :

— جدة، جدة، استيقظى !

— ماذا ... ما ... ذا ...

— استيقظى وحياةِ أبيك !

— ماذا يا تلدا ؟ لماذا لا تقرئين ؟

— ها أنا ذى أقرأ والله ! اسمعى :

ثم شرعت الفتاة تقرأ السطور التى تحت صورة بولو وفرنشسكا!

— ما هذا يا تلدا ؟ ! الكتاب تأريخ للأدب الإنجليزى، وبولو وفرنشسكا شخصان خرافيان اخترعهما دانتى الإيطالى ! هاتى الكتاب !

وتناولت العجوز الكتاب، ونظرت فى الصورة، ثم عبست وبسرت وأقفلته لترى ما هو ...

— هذه كوميدية دانتى من أين جئت بها ؟

— من المكتبة ...

— آه ياخبيثة ... كان يجب أن أبقى المفتاح معى ... الصور التى من صنف هذه الصورة، والموسيقى التى تنبض بها القلوب، من دروس السنة الخامسة، ولا تستطيع تلميذة السنة الأولى أن تفهم دروس السنة الخامسة !

* * *

وفى صبيحة اليوم التالى قرع الباب قادم فأهرعت تلدا لتلقاه

— أهو أنت ؟

— أجل، هو أنا !

— وأين الفتاة التى كانت معك أمس فوق الجبل ؟

— فى المنزل

— وما هذا الورد الجميل ! أتُعطينى وردة ؟ !

— إنه كله لك !

— كله ؟ !

— أجل ...

— والفتاة التى كانت معك، ألا تأخذ منه شيئاً ؟

— إنها أختى !

— أختك ؟ وهل أختك لا تحب الورد ؟

— ومن ذا الذى لا يحب الورد ؟ إنها تحبه جداً

— إذن لا آخذه كله يجب أن تبق بعضه لأختك

ثم صاحت جدتها تسألها مع من تتكلم ، فقالت للشاب :

— ما اسمك أيها الشاب ... الر ... يان ؟

— فكتور !

فصاحت تجيب جدتها :

إنه فكتور يا جدة !

— فكتور ؟ ! ومن فكتور ؟

— أجل فكتور ... الشاب الذي رأيناه على الجبل أمس

وأقبلت العجوز الحيزبون مُهرْولة فسلمت على الشاب ودعته إلى حجرة الجلوس ، فدخل ومعه باقة الأزهار الكبيرة

— مرحباً بك يا فكتور ، كم أنا سعيدة بك

وكانت تتكلم وذكرياتها القديمة ثائرة كلها في صدرها العجوز والدم العجوز يتدفق فى عروقها الضعيفة ... والمفاجأة الحلوة تعقد لسانها فتأخذها ربكة مضحكة

— هذا الورد جميل ... أوه ... ذاك سوْسَن ما أبهاه ! وبنفسج ، لمن حملت كل هذا يامسيو فكتور ؟

— لـ ... لهذه الأخت الصغيرة ... و ... لك يا أماه

وبلعت العجوز ريقها ، ونظرت إلى حفيدتها فى حنق ، وقالت للشاب :

— والفتاة الجميلة التى كانت معك أمس ؟

فقالت تلدا :

— إنها أخته يا جدّة

— أخته ؟ أحقاً هي أختك ؟

فقال الفتى : « إى وربى ، إنها أختى »

فقالت العجوز : « إذن ... احمل هذه الباقة إليها ... فهى بها أحق ... »

فقال الشاب : « ولكنى قطفتها بيدىّ من حديقتى هدية لحفيدتك : »

وتدخلت تلدا فقالت له : « من حديقتك ؟ إذن أنت تملك حديقة ؟ »

فقال لها : « أجل ، وهى حديقة غناء ، تليق بك »

فقالت له : « وهل تأذن لى فى زيارتها ؟ »

فقال : « ولم لا ... إنك تكونين أبهى زهرة فيها ... »

ولم تطق العجوز أن تسمع إلى كل ذلك ، فصرخت صائحة « كفى ! حَسْبُك ، أرجوك »

بيد أن الفتى ما زال بها حتى وعدت أن تزوره فى صحبة حفيدتها بعد يوم أو يومين

***

وكثرت زيارات العائلة المقدسة لحديقة الفتى ، وتوثقت بينهما عرى الصداقة والتحاب ، وكانت أخته الجميلة التى حسبتها العجوز حبيبته من قبل تلقاها فيأنسان إليها

وذهبت تلدا مرة وحدها تزور حديقة فكتور ففرح بها أيما فرح ، وقطف لها أحسن وردة وأبهاها ، وجاءها بتفاحة كبيرة حمراء ؛ ثم جلس بجانبها برهة ، وجعل يحدق فيها ببصره

ثم اقترب منها فلم تبتعد ...

ولمس جسمه جسمها فأحست بدفء ، ولكن ليس كالدفء الذى ينبعث من النار ... ثم لمحت فى عينيه شيئاً غريباً فلم تجسر أن تسأله عنه ... ثم مد إليها يده فمدت إليه يدها ... فأخذها فى كلتا راحتيه

وتركت الأزهار تسقط على العشب أمامهما

وأبصرت عبرة تترقرق فى عينيه فسألته لماذا يبكى ؟ فلم يجب ثم ارتبك قليلاً وقال لها بلسان متلعثم : « تلدا ! » فقالت له : « نعم يا فكتور ؟ » فقال لها والخجل يبعثر الحروف من شفتيه : « أتأذنين لى فى ... قُبلة ... ؟ »

***

وسمعا وراءهما هاتفاً يقول :

« فرنسسكا ... پوْلو ... »

فنظرا ... فإذا هى الجدة العجوز الحيزبون

وكان هذا فى سن تلدا التى لم تبلغ الثالثة عشرة ... وبعد ثلاث سنين أُخر ... كانت موسيقى جميلة تصدح فى حديقة فكتور ، انتظاراً لقدوم عروسه تلدا

دريني خشبة



المهرجانات الأدبية في موكب الزفاف الملكي

كان زفاف الفاروق الميمون موسماً من مواسم الأدب والشعر، اهتمت له جميع الهيئات الرسمية وغير الرسمية، فأعدت الحفلات الحافلة، وأقامت المهرجانات الفخمة، وتبارى الشعراء والخطباء في وصف اليوم الرائع وكلهم مجيد محسن. فأقامت جمعية الشبان المسلمين حفلة شائقة افتتحها الأمير عمر طوسون بكلمة طيبة، وأقامت اللجنة الأهلية مهرجاناً رائعاً في دار الأوبرا تكلم فيه نخبة طيبة من رجال المواهب في الشعر والخطابة، وأقامت الجامعة الأزهرية حفلا مهيباً حضره رئيس الوزراء وخطب فيه شيخ الأزهر وكثير من الأعلام، وإنما كان أروع وأفخم جميع الحفلات والمهرجانات ذلك المهرجان الكبير الذي أقامته وزارة المعارف في دار الأوبرا الملكية في الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الاثنين الموافق ٢٤ يناير سنة ١٩٣٨ م، فقد حضره مندوب جلالة الملك، وألقى وزير المعارف كلمة الافتتاح، ثم تعاقب على منصة القول حضرات الأساتذة الشعراء علي الجارم وخليل مطران ومحمد الهراوي وعلي محمود طه، والأساتذة الخطباء عباس محمود العقاد وأحمد أمين وابراهيم المازني وعبد العزيز البشري. وقد زاد في روعة المهرجان وأفاض عليه روح الفكاهة والبهجة أن الخطباء والشعراء عُرضوا على الجمهور عرضاً مسرحياً فكاهياً ضمن صورة تاريخية مسرحية لمجالس الشعر والأدب في عصر الرشيد وضعها الأستاذ توفيق الحكيم وهي فكرة طريفة لم يسبق إبداعها في مثل هذه المناسبات، وقد صدحت فرقة الهواة الموسيقية تحت رياسة الدكتور الحفني بالأنغام العذبة الشجية في البدء والختام

متحف فلسطين

افتتح أخيراً في بيت المقدس متحف عظيم، قد يغدو في المستقبل القريب المتحف الثاني في الشرق الأدنى من حيث أهميته الأثرية بعد متحف القاهرة، ولهذا المتحف قصة ترتبط أيضاً بذكر متحف القاهرة؛ ففي سنة ١٩٢٣ عرض الثري الأمريكي الشهير روكفلر كما نذكر، على الحكومة المصرية هبة مالية عظيمة لبناء متحف مصري عظيم، ولكن الحكومة المصرية اعتذرت من قبول هذه الهبة نظراً لما اقترن بها من شروط غير مقبولة؛ فمنذئذ تدخل بعض علماء الآثار في الأمر وفي مقدمتهم العلامة الأستاذ برستيد، وتوسطوا لدى الثري روكفلر في أن يحول مشروع الهبة إلى حكومة فلسطين، فنزل عند هذه الرغبة وقدم إلى الحكومة الفلسطينية هبة قدرها مليونان من الدولارات (أربعمائة ألف جنيه) لبناء متحف عظيم في فلسطين يضم آثار الأرض المقدسة؛ وتبرعت الحكومة بالأرض التي يقام عليها المتحف وهي تبلغ نحو عشرة فدادين تقع في الجانب الشمالي الشرقي من المدينة وتشرف على جبل الزيتون، وقبة الصخرة، وربى شرق الأردن

وأقيم المتحف في هذا الموقع التاريخي على أحدث الأصول الفنية، وقسم إلى أروقة تظللها حنيات معقودة، وأقيمت في شماله حظيرة بها فسقية عربية جميلة؛ ونظمت أروقته تنظيما تاريخياً لتكون معرضاً لتاريخ فلسطين في جميع أطواره، وجمعت فيه كل الآثار التي وجدت في فلسطين حتى اليوم، ومنها آثار العصر البرنزي حتى عصر الكنعانيين. وسيخصص فيه قسم لعرض الزخارف العربية التي استخرج معظمها من أطلال قصر هشام ابن عبد الملك التي اكتشفت أخيراً بالقرب من أريحا، وقسم آخر للتحف المصرية الآشورية، وهكذا. وقد فتح للجمهور رواق واحد هو الذي يضم آثار العصر البرنزي؛ وذلك حتى يتم تنظيم الأقسام الأخرى

وقد أثار افتتاح هذا المتحف الجديد اهتماماً في الدوائر الأثرية والمعتقد أنه سيكون الى جانب آثار بيت المقدس التاريخية عاملاً جديداً في إغراء السياح من أنحاء العالم على زيارة الأراضي المقدسة

حرب الأثير

يشهد العالم اليوم أغرب حرب عرفت في التاريخ فهي ليست صراعاً بين الجيوش والقوى المادية ، بل هي صراع بين وسائل الدعاية لغزو أعظم حشد ممكن من العقول والقلوب . ولم يبق الراديو أداة للدعاية القومية أو المحلية فقط بل غدا أداة للدعاية العالمية يرسل أمواجه فيما وراء البحار إلى مختلف الأمم ؛ فمن محطة باري الإيطالية تسمع الأمم العربية منذ أعوام خطباً عربية في مختلف الشئون وتسمع أبناء العالم بالعربية وتسمع الموسيقى العربية ؛ ولم يكن القصد من ترتيب هذه البرامج العربية في محطة إذاعة أوروبية إمتاع الأمم العربية فقط أو تحري غايات ثقافية ، بل رتبت بقصد التأثير في عقول السامعين وتوجيههم إلى ناحية معينة من التفكير السياسي . ومنذ أسابيع قلائل أنشئت في لندن محطة للاذاعة العربية تنحو نحو المحطة الايطاليـة في إذاعة الخطب والمحاضرات والموسيقى العربية من العاصمة الانكليزية ؛ ومع أنها أنشئت في الحقيقة لمقاومة الأثر الذي تحدثه محطة باري في نفوس الأمم العربية ، فإنها لم تسلك سبيل الدعاية المفرقة ، على أنها تؤمل على أي حال أن تلطف من هذا الأثر الذي اعتبر في لندن ضاراً بهيئة انكلترا وسمعتها في الأمم العربية . والذي يلفت النظر في أمر هذه الحرب الأثيرية الغريبة هو العبرة التي يمكن للأمم العربية أن تستخلصها منها ؛ فهي في كلتا الحالتين الميدان المختار لاحداث الأثر والآثار المنشودة ، وهي المقصودة بالتوجيه والتحريك ، ولا ريب أن الأمم العربية ليست من الغفلة بحيث يفوتها هذا الاعتبار

في مجاهل التركستان

عاد أخيراً إلى ألمانيا العلامة الرحالة الألماني الدكتور فلشر بعد رحلة خطرة في مجاهل التركستان دامت أربعة أعوام ، واستقبل في برلين بحفاوة عظيمة ؛ وكان قد بدأ رحلته في سنة ١٩٣٤ ، وذلك بقصـد استكشاف الخواص المغنطيسية والمعدنية للمنطقة الشاسعة التي تقع بين الصين والهند ، فقصد إلى نانكين ومنها إلى التركستان في قافلة مؤلفة من زميل له وستة من الصينيين وأربعين جملاً ، ولقي من الصعاب والمتاعب مالا يوصف من اعتداء قطاع الطريق وتمرض رفاقه ، والمرض المتكرر والحر المرهق . ولما وصل إلى خوتان قبض عليه الحاكم وألقاه مع رفيقه في السجن وصادر ما يحملانه من الآلات الفلكية والعلمية ؛ ولبثا في السجن ستة أشهر ، ثم أفرج عنهما أخيراً بتدخل ممثل انكلترا ؛ فاستأنفا رحلتهما إلى « لي » بعد أن عبرا جبال الهملايا الشامخة

وأنفق الدكتور فلشر أربعة أعوام في الدرس والاستكشاف وفي رأيه أن هذه المناطق غنية بالبترول ولا سيما في شرق التركستان حيث تبدو آثار الزيت مائلة في مياه الأنهر ، كذلك هناك ما يحمل على الاعتقاد بوجود الذهب في سهل كشغر نظراً لأن الأهالي يحرزون كثيراً من تراب هذا المعدن النفيس

وقد زار الدكتور فلشر هذه المناطق من قبل في سنة ١٩٠٣ حيث سافر من طشقند في التركستان الروسية إلى منغوليا وكنسو ، وفي سنة ١٩٢٦ عاد إلى طشقند وسار منها إلى تنجار ، ثم عاد الى الهند بطريق كشمير ، فهو بذلك من العلماء الخبيرين بهذه المنطقة وخواصها

نسائم الأستاذ الجارم

الأستاذ علي الجارم الأديب الكبير وخليفة (شوقي) في مصر عند طائفة يقول في لاميته في المهرجان الملكي :

يفديه غصن الدوح ريان ناضراً   إذا اهتز في كف النسائم مائله

فجاء بالنسائم جمعاً للنسيم أو للنسمة ، والمعروف أن جمع نسيم أنسام وجمع نسمة نَسم وسالمها نسمات ، ولم ترد هذه (النسائم) في كلام إسلامي أو مولد . دع عنك المخضرم والجاهلي ، والمتأخر والعصري ما هما حجة

(الاسكندرية)   (***)

مخطوط للموسيقى موتسارت

ظهرت أخيراً تحفة أثرية جديدة للموسيقي الأشهر موتسارت هي عبارة عن مذكراته التي كانت يكتبها (بالألمانية) عن حياته وتآليفه الموسيقية في مذكرة جيب صغيرة ، وقد كانت هـذه التحفة في حوزة أحد الهواة الانكليز ، فعمل أخيراً على تصويرها ، وطبعها أحد الناشرين الانكليز ، ولم يغير شيئاً فيها بل نقلها كما هي في لوحات (أكليشهات) مصورة ، وبذلك يستطيع القارىء أن يقرأ فيها محتوياتها بخط الموسيقي نفسه

وفاة مستر كيلوج

ليس فى الدنيا رجل محب لسلام العالم لا يعرف مستر كيلوج صاحب الميثاق المعروف باسمه لعدم اتخاذ الحرب وسيلة لحسم النازعات التى تحدث بين الدول ... هذا الميثاق الذى حمل غصن الزيتون طويلا والذى أقرته الدول قاطبة، وكانت اليابان ثم إيطاليا أول من جعله قصاصة ورق لاقيمة لها من حيث القيمة الفعلية ...

مات مستر كيلوج فى ٢٢ ديسمبر الماضى فى سن الحادية والثمانين بعد حياة موفورة مليئة بجلائل الأعمال ... حياة غالية غزيرة الحب للإنسانية، هى المثل الأعلى لما يجب أن تكون عليه حياة العظماء العصاميين فى كل زمان ومكان

ولد كيلوج فى ديسمبر سنة ١٨٥٦ من أبوين فلاحين وعمل فى المزرعة مع أبيه ثم تردد على مدرسة أولية تعلم فيها القراءة والكتابة ورشف قدراً تافهاً من المعلومات البسيطة أغراه بالدراسة العالية بطريق المراسلة والانتساب من الخارج حتى نال إجازته التى فتحت له باب المجد على مصراعيه فما زال يرقى من منصب إلى منصب حتى عين سنة ١٩٢٤ سفيراً لبلاده (الولايات المتحدة) فى لندن وفيها سعى حتى عقد ميثاقه ضد الحرب بين الدول ثم نقل إلى واشنطون ليظل سكرتيراً للجمهورية طوال رئاسة مستر كوليدج (١٩٢٥ — ١٩٢٩) ثم عين قاضياً لمحكمة (الهاج كورت) ...... وهكذا كانت حياته سلسلة من المفاخر سيزهى بها اسمه على اسكندر قيصر روسيا وولسن رئيس أمريكا وغيرهما من خدام السلام

صومبارت والوطنية الاشتراكية

أفلحت النازية — أو أفلحت الاشتراكية الوطنية الألمانية — فى خلق فلسفة جديدة ثابتة الدعائم هي الآن ألد أعداء الماركسية أو بالأخرى الشيوعية، وقد كتب العلامة فرنر صومبارت Werner Sombart كتابه المظيم (فلسفة جديدة اشتراكية Deutsche Sozialismus فلفت إليه الأنظار بما تناول به كتاب كارل ماركس (الرأسمالية الحديثة) من النقد المر والتجريح البارع، وقد ارتفع العلامة صومبارت بكتابه هذا إلى مرتبة هيجل فى الوطنية الألمانية، والألمانيون يتخذون من كتابه إنجيلاً جديداً يذكى فيهم روح المطامع العالية التى نفختها فيهم النازية والتى نفخها فى أسلافهم هجل من قبل. وصومبارت يدعو إلى فلسفة إيجابية تأتى من الله مباشرة، فلا تعرف هذه الطريق الملتوية المكتظة بالوسطاء من قسس وأحبار ودهاقين؛ وهذا هو الذى أثار عليه الكنيسة وخلق منها عدوًّا داخليًّا لألمانيا النازية، بل هو أيضاً ما ألب الألمان على اليهود وحفزهم إلى طردهم خارج الوطن الألمانى القدس لأن النازية لا تعنى بشىء أكثر مما تعنى بالوحدة فى كل شىء

تاريخ ابن حيان

صدر أخيراً القسم الثالث من الجزء الذى انتهى إلينا من تاريخ ابن حيان مؤرخ الأندلس مطبوعاً بعناية بعض المستشرقين وقد نشر هذا الجزء بأقسامه الثلاثة عن مخطوط وحيد تحتفظ به مكتبة «بودليان» الإنكليزية؛ وتبدو نفاسته وأهميته متى علمنا أن مؤلفه أبو مروان ابن حيان هو أعظم مؤرخى الأندلس المسلمة؛ وهو جزء من تاريخه الشهير المسمى «المقتبس فى تاريخ الأندلس» وفيه يستعرض تاريخ الأندلس منذ الفتح إلى أوائل الطوائف، ويعنى عناية خاصة بترجمة العلماء، ويتعلق الجزء المنشور بعهد الأمير عبد الله الأموى (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ) وهو عصر من أخطر عصور الدولة الأموية، وفيه كانت ثورات الأندلس الشهيرة ومنها ثورة ابن حفصون أعظم ثوار الأندلس؛ هذا ويظن بعض العلماء المطلعين أن كتاب «المقتبس» بأكمله لم يفقد نهائياً، وأنه ربما وجدت منه نسخة فى بعض مجموعات المغرب؛ خصوصاً وأنه كان حتى القرن الحادى عشر الهجرى مرجعاً للكتاب المتأخرين ومنهم المقرى

مقدمة ابن خلدون بالفرنسية

منذ نحو قرن وضع المستشرق الفرنسى البارون دى سلان ترجمة فرنسية لمقدمة ابن خلدون، صدرها بترجمة لحياته مشتقة مما كتبه ابن خلدون نفسه عن حياته فى «التعريف» وقد لبثت هذه الترجمة عمدة المستشرقين حتى يومنا؛ وقد فكر لفيفهم فى إعادة طبع هذه الترجمة وتنقيحها وإخراجها فى ثوب جديد؛ وبالفعل صدرت أخيراً طبعة جديدة لترجمة دى سلان تفضل الترجمة القديمة بكثير، وهى كالقديمة فى ثلاث مجلدات كبيرة، منقحة مهمشة ذات فهارس جديدة



في منزل الوحي

بقلم الدكتور محمد حسين هيكل بك

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

لعل فريضة من فرائض الإسلام وشعائره لم تخدم الثقافة الإسلامية ، وتنفع الأدب العربي كما خدمت في ذلك فريضة الحج وأفادت ، فإن جل الذين كتبوا الرحلات ، وألفوا في التاريخ الإسلامي خصوصاً تاريخ بلاد العرب ، ووصف طبيعتها وجغرافيتها وتقويمها ، هم من الذين كانوا يقصدون إلى أداء الفريضة المقدسة ، وزيارة الروضة المطهرة . وكتاب « في منزل الوحي » إنما هو أثر من تلك الآثار التي فاض بها الشعور الإسلامي ، والاتجاه الروحي نحو تلك البلاد الطيبة التي تنزع إليها النفوس ، وتهفو نحوها الأرواح ، وتطمئن بذكرها القلوب . وقد وصف المؤلف الفاضل كتابه وتحدث عن القصد الذي قصده من تأليفه فقال : « وليس هذا الكتاب مرجعاً من مراجع التاريخ الإسلامي ، ولا شيء فيه من تقويم بلاد العرب ، إنما هي وقفات وقفتها في بلاد الوحي ومنزله ، أستوحي فيها مواقف محمد عبد الله ونبيه ورسوله ، وهناك في هذه المواقف تجردت نفسي وسمت روحي وكرت بالعصور والقرون أطويها ، ورحت أتمثل هذا الهادي الكريم ، وأتمثل المسلمين من حوله ، ألتمس في ذلك الأسوة والعبرة ، آملاً أن أشرك فيهما إخواني المؤمنين بالله ، وبما جاء من عند الله . لم أتقيد في هذه المواقف بما جاء في كتاب غير كتاب الله الكريم ، ولم أخضع تفكيري لحكم غيري ، وما كان لي أن أخضعه ، فقد كنت أحس في كثير من هذه المواقف أنني بين القوم أسمع وأرى ، وأتمنى لو كنت أجاهد معهم ، فأفوز فوزاً عظيماً ، وما كان لي أن أفعل ثم أخدع نفسي فأزعم أنني إذ أحدث الناس إنما أقص عليهم ما رأيته وما أحسست به في حين لا أقص إلا ما رآه غيري ، وما سبقني إلى تسطيره . لقد تركت نفسي على سجيتها تتوجه بوحي روحي ، وتستلهم الحق مما حولي ، وتستعرض ما تستلهمه على حكم عقلي وتقدير ضميري ، ثم سطرت ما اجتمع من ذلك لا أبغي به إلا رضا الله »(١)

هذا كلام المؤلف الفاضل في وصف كتابه ، وهو كلام ، على ما أرى ، فيه شيء من التواضع يغطي جانباً من الحق ؛ وقد تكون هذه نية الدكتور هيكل في تأليف كتابه ، أراده على أنه « ليس مرجعاً من مراجع التاريخ الإسلامي ولا شيء فيه من تقويم بلاد العرب وإنما هي وقفات في بلاد الوحي ومنزله » ولكنه على ما يظهر غلب على أمره فجاء كتابه مرجعاً من مراجع التاريخ الإسلامي ، وجاء خير دليل يجب أن يصحبه كل راحل إلى تلك البلاد ، وجاء أيضاً من أهم التقاويم لكثير من الأماكن في بلاد العرب ، ثم جاء مشروع إصلاح قويم يهم من يهمهم « العناية بهذه البلاد المقدسة ودراسة حاضرها وماضيها دراسة علمية دقيقة ، وما يدعو المفكرين والساسة أولي العزم ليعملوا على إصلاح هذه البلاد »(٢) ، ثم هو نفحة روحية من أثر الرسول الكريم فاض بها قلب خافق وشعور دافق . فإذا كانت نية الدكتور هيكل على ما ذكرنا من قبل ، فلا شك أنه قد غلب على أمره ، وتجاوز رغبته في إخراج كتابه ، وتحديد الموضوع

(١) ص ٢٠ من الكتاب
(٢) ص ٢٩ من الكتاب

الذى أراد أن يجرى فى حلبته ؛ وهو تجاوز قد اقتضته طبيعته ، ودفعته إليه صناعته ، فكان ذلك من حظ العربية وحظ قرائها وحظ رواد تلك البلاد المقدسة

نعم ! هو تجاوز اقتضته طبيعة هيكل ، لأن هيكلا كما نعرف صحافى ، والصحافى من طبيعته لا يقف عند شئ ولكنه يحب أن يقف على كل شئ ؛ ثم هو أديب دقيق الشعور وافر الإحساس يتأثر ويهتاج لكل ما يراه ويقع عليه حسه ، فإذا وصف أضفى على وصفه الإحساس والشعور وخلقه خلقاً حياً كله الروعة والجلال ؛ ثم هو عالم ناقد ينظر إلى كل شئ بعين فاحصة ، وفكر صائب وتقدير سديد ، وهذه الغريزة فى نفسه هي التى جعلته يقول ما يقول عن حق « إن لحكمى المكان الأول من الاحترام عندى ، وإذا لم يكن من حسن القصد أن نعجل بالحكم قبل أن نطمئن إليه وقبل أن تتم بين أيدينا أسبابه ، وكانت العجلة طيشاً غير جدير بمفكر يحترم عقله فليس من حسن القصد ولا من احترام الفكر عقله أن ينحل نفسه حكم غيره قبل أن يمحصه حتى يطمئن ضميره إليه ، ومن الجمود الذى لا يقاس إليه طيش أن نأبى تقليب الأمور على وجوهها جميعاً حتى نطمئن إلى بلوغ غاية ما نستطيع من الحق فيها [1] »

وأحب لك أن تتأمل الكتاب بنفسك ، وأن تصحب مؤلفه الفاضل من « عزم السفر » حتى « أوبة الرضا » فستقضى فى ذلك سفرة سعيدة ، ورحلة طيبة ، يسعد فيها عقلك بكثير من العلم والمعرفة ، ويفوز منها قلبك بكثير من البهجة والانشراح ، وتطيب بها روحك على خير ما تطيب به الأرواح من ذكر الماضى وأثر الدين ؛ غير أنى أحب لك أيضاً أن تكون صبوراً مع هيكل ما وسعك الصبر ، إذ تراه يسير سيراً بطيئاً فيقف بك عند كل أثر من آثار الرسول ، ينبش الماضى ، ويسأل التاريخ ، ويفحص المعالم ، ويستوحى الروح ، ويحكم العقل ، ويقارن بين ما يرى وما يسمع ، فإذا طفت معه مثلاً فى أنحاء مكة الحديثة ، فكن شديد الاحتمال إذ تراه يدخل بك فى كل زاوية ، وينعطف بك على كل ثنية ، وينحدر بك إلى كل مغار ، ويرتفع بك إلى كل نجد ، ويدفعك دفعاً حتى بين النؤى والأثافى ، والأحجار والصخور ، ويقف بك عند كل أثر ظاهر ، وكل مظهر قائم . وإذا ما صحبت هيكلا مثلاً إلى أسواق العرب فاصبر إذ تجده يطيل عليك فيحدثك عن الأسواق الثلاث فى العهود القديمة ، ويتلمس لك موقع المجنة وموقع ذى المجاز ، ويكشف لك عن أسباب الخصومة فى الأسواق العامة ؛ ثم يحدثك عما كان يجرى فى عكاظ وعن موقف النبي صلى الله عليه وسلم فى تلك السوق ، ثم يسرد الأقوال التي قيلت فى ذلك من قبل محاولاً أن يطبقها على ما يرى وأن يقيسها بمقياس العقل . نعم أحب لك أن تكون صبوراً مع هيكل إذا رأيته فى جميع المواقف يبحث ويتقصى ويطيل النظر والتأمل فإنه إنما يقف بك على آثار ومعالم لحياة قوم ملأوا الدنيا بمجدهم ، وأسعدوا العالم بهديهم ، وأفعموا التاريخ بذكرهم .

أما نفس هيكل فى هذه المواقف فهى نفس مطمئنة يقول هو عنها بأنها « قد سمت إلى حيث لم تسم من قبل قط [1] » وهو يحدثك عن شعوره فى ذلك فيقول : « رأيت نور الله ماثلاً فى كل دقيق وجليل من خلقه ، ورأيت آية الهدى متجلية يشهدها كل من أراد أن يفتح لها قلبه وبصيرته ، ورأيت سنته فى الكون تبتدى لكل من أخلص إلى الحق وجهة ثابتة لا تبديل لها ، رأيت هذا كله رأى العين ، وآمنت به إيمانى بما يقع عليه حسى ، وما تلمسه يدى ، وأيقنت أن العلم بهذا كله هو الحياة الراضية المرضية [2] »

وما نفس هيكل فى ذلك وشعوره إلا طراز من النفس السامية على حقيقتها ، ونمط من الروح الشرقية التي تمجد الدين أبداً ، وتقدس المنويات أبداً ، إذ ترى سعادتها فى الروحيات أكثر منها فى الماديات

والظاهر أن هيكلا فى حياته الروحية الجديدة قد اتصل بالقرآن اتصالاً وثيقاً ، وتغذى بألفاظه وأسلوبه كما تغذى بمعناه وروحه ، وإنك لتلمح أثر ذلك واضحاً جلياً فى تعابيره خصوصاً إذا ما تحدث عن معانى الإسلام تعمر القلوب ، وسمو الإيمان يغمر الأرواح والنفوس . انظر إليه وهو يصف الحجاج محرمين فى طريقهم إلى مكة فيقول : طبع هذا المنظر أعمق الأثر فى نفسى

(١) ص ٢١ من الكتاب

(١) و (٢) ص ٦٢٧ من الكتاب

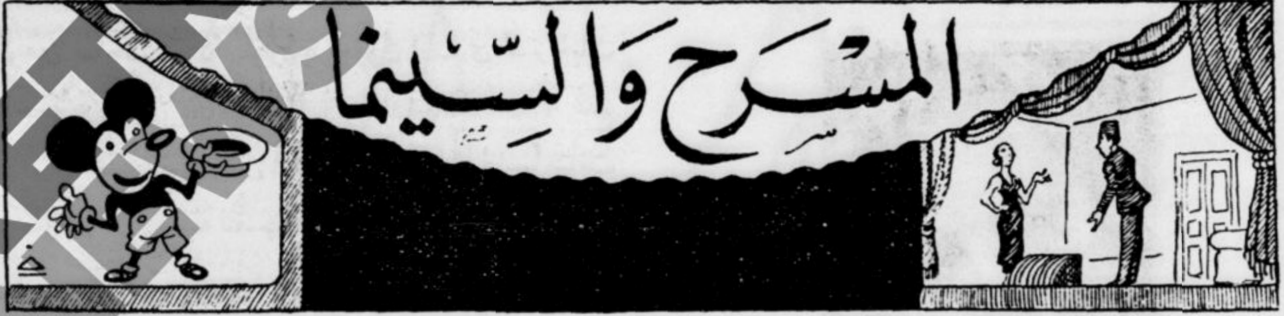
فهذه القوافل من المشاة والركبان تقصد إلى غاية واحدة وترجو فى ربها الرجاء الأسمى ... ليس يذكر أحدهم ماله من ثروة أو جاه أو ولد ، وإنما يذكر أنه هو وهؤلاء المسافرين معه إخوة فى الله وأنهم جميعاً قد أتوا قاصدين بيته ، ملبين داعيه ، ليشهدوه على أنفسهم وليطهروا بين يديه مما قدمت أيديهم ، وليبدؤا بذلك حياة جديدة يبتغون فيما أتاهم الله الدار الآخرة ، ولا ينسون نصيبهم من الدنيا ويحسنون كما أحسن الله إليهم ، ولا يبغون الفساد فى الأرض . لهذا جاءوا من كل فج عميق ، ولهذا ركبوا البر والبحر واستهانوا بالمشقة ونسوا كل شيء إلا الله ، ولهذا أحرموا آية إخائهم ومساواتهم إيذاناً بأن أقربهم إلى الله أتقاهم ، ومظهراً لميلادهم الروحى الجديد ، ليتخذوا من هذا الميلاد عدتهم لحياة جديدة ، ولهذا تتصل قلوبهم وإن اختلفت أجناسهم وألوانهم ولهجاتهم ، وهم يعبرون عن هذا الشعور بالتلبية تنفرج عنها شفاههم فى حبور وغبطة مطمئنين إلى رحمة الله ومغفرته ، إنه يغفر الذنوب جميعاً ، لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء(١)

فهيكل كما ترى مولع بآيات القرآن يقتبسها لأسلوبه ، ويقحمها فى عباراته ، ويستخدمها استخداماً طلياً منسجماً يدل على مهارة وتمكن . ولقد بلغ من ولعه بألفاظ القرآن أن آثر كلمة « طوّع » على مرادفتها فى الاستعمال ، فعبر بها مراراً إلى حدٍّ يلفت النظر ، حتى أنه ليستخدمها فى مواضع قد تكون مرادفاتها أولى بها ، وقد لا تؤدى المعنى إلا على شىء من التسامح ، ولكن هيكلاً يؤثرها لأنها لفظة قرآنية فهى حلوة سائغة . وإن من العجيب حقاً أن يؤثر هيكل ألفاظ القرآن كل هذا الإيثار ، وأن ينتفع بأسلوبه إلى هذا الحد الذى يفوق فيه أولئك الذين شبوا على مدارسة القرآن ، وقضوا أعمارهم فى مزاولة عباراته والبحث فى نصوصه على حين أنه قد نشأ نشأة مدنية كما يقولون ، وتثقف ثقافة تتصل بالغرب أكثر مما تتصل بالشرق ، وما آثاره الأولى إلا لون من ألوان تلك الثقافة الأجنبية . وإنما يسر لهيكل أن يندمج فى حياته الروحية كل هذا الاندماج ، وأن يتصل بثقافة القرآن وأسلوبه كل هذا الاتصال ، أنه ذو موهبة فنية ، وطبيعة أدبية صافية ، والأديب إذا ما صفت طبيعته ، وخلصت نفسه ، ينطبع على الحياة التى يريدها وكأنها حياته التى تعودها حياته ، ويفنى فى البيئة التى يلابسها فإذا هو صورة قوية رائعة لما فيها من الألوان والمظاهر ، ويخضع حواسه فى الانفعال للفكرة يريد تنفيذها فينجلى لك صادق الأحساس صحيح الغرض ، وهذا هو السر فى أنك ترى الكاتب أو الشاعر يدرج بين صخور البادية وعلى أشواكها فتلمح فى أسلوبه وتفكيره الشدة والجفوة ، ثم ينتقل إلى مطارف الحضارة فاذا به هين لين مذلل الفكر يجرى أسلوبه فى مثل رقة الماء والهواء . وهذا هو السر أيضاً فى أنك ترى الكاتب أو الشاعر يحدثك مثلاً عن البؤس فيجيد الحديث على أنه ليس بيائس ، ويقول فى النسيب والغزل فيملك عليك نفسك مع أنه ليس بغزل ولا محب ، فكيف بذلك الأديب أو الشاعر إذا كان صادق العاطفة ، خالص الرغبة ، صافى النفس والروح كهيكل فى حياته الجديدة ؛ لا شك أنه يكون شيئاً كبيراً ، ويكون أثره أثراً قوياً رائعاً كهيكل « فى منزل الوحى »

وأما بعد فقد أطلت على القارئ ، ولنا وقفة أخرى مع « هيكل » فى منزل الوحى سيرى القراء فيها لوناً طلياً من ألوان الفكر الروحى الذى يحترم العقل ويمجد الحق

محمد فهمى عبد اللطيف

(١) ص ٦١ من الكتاب



محنة المسرح

بقلم محمد على ناصف

تساءلنا فى العدد الماضى عن مصير المسرح بعد طغيان السينما واجتذابها أنظار الأدباء والفنانين فضلاً عن توطد مكانتها بين الجماهير

وقبل أن نجيب على هذا السؤال دعنا نستمع إلى حديث لأدولف زوكور كبير مؤسسى شركة برامونت السينمائية لعله يغنى أو يمهد للجواب

يقول زوكور لأحد الصحفيين الأمريكيين : « إن شركته متعاقدة مع ٨٣ ممثلا وممثلة ، منهم ٦٤ أتوا عن طريق المسرح والباقون خمسة أطفال ، وأربعة من محطات الاذاعة ، واثنان من الأوبرا ، واثنان من الأندية الليلية ، واثنان من الفرق الموسيقية وآخران عن طريق المسابقات الصحفية ، وواحد من الألعاب الأولمبية ، وآخر من أحد معاهد التمثيل ! ! »

فالغالبية الكبرى إذن قد تخرجت على المسرح ، وأكثر الباقين قد كسبوا كذلك خبرة تمت إلى المسرح بصلة

وليست هذه الحال فريدة بأمريكا ؛ فان المسرح في كل بلد يمد السينما بحاجتها من الممثلين ... كما أن له نصيباً كذلك من تقديم طائفة من كبار المخرجين السينمائيين أمثال رينهاردت ولوبتسن وماموليان وديتريل وغيرهم

نستخلص من ذلك أن تغذية السينما بحاجتها من الفنانين إنما هى خطوة تالية لنهوض كفايات مسرحية

ولكننا إذا نظرنا إلى حديث أدولف زوكور من ناحية أخرى فماذا نستخلص من وراء قوله إنه متعاقد مع ٨٣ منهم ٦٤ من المسرح ؟

أوليس معنى ذلك أن السينما تجرد المسرح من قواه وكفاياته ، وأن المسرح أصبح وسيلة أو قنطرة عبور إلى السينما ؟

أجل ، هنا يتكشف الستر قليلا عن محنة المسرح ، فاذا سفرت حقيقة تلك المحنة ، فانما هى كلمة تضيء بنور يخطف الأبصار : « المال »

المال هو الذى يسلب المسرح جاهه ويقلم أظافره

المال هو الذى يخلب بريقه ألباب الكتاب والممثلين والفنانين فيجذبهم من أنوار المسرح الباهتة إلى أنوار الأستديو الساطعة

والواقع أن هؤلاء الأمريكيين لا يحسبون حساباً للمال ، أو أنهم يحسبون حساباً عجيباً ؛ ففى العام الماضى ابتاع هارى



أدولف زوكور — رأس شركة برامونت

كوهين صاحب شركة كولومبيا حقوق إحدى المسرحيات الناجحة بيرودواى You Canit Take Et With You بمبلغ ٤٠٫٠٠٠ جنيه ، نعم أربعين ألفاً ، وكان هذا رقماً قياسياً شاءت شركة راديو أن تكسبه لنفسها فدفعت خمسين ألفاً من الجنيهات فى مسرحية آبوت Room Service

وقبل ذلك بعام دفع سام جولدوين ١٦٠٫٠٠٠ دولار إلى سنكليرلويس فى روايته Dodsworth التى شهدناها فى الموسم الماضى .

إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة التى قد يعتبرها المرء أمثلة لشغف هؤلاء القوم بالبذخ والاسراف

فأى كاتب يستطيع أن يحمل نفسه على الاقتناع بعد ذلك بما يقدمه له الناشر أو القارئ ؟ أى كاتب لا يحلم الآن بمجد هوليوود ومال هوليوود ؟ إن عمل الكاتب فى الفيلم يذاع أكثر من عمله فى المطبعة بمئات المرات، فضلاً عن هذه الآلاف من الجنيهات

لقد طالب محصلوا ضريبة الدخل فى أمريكا ب . ج . وودهاوس أحد كتاب السيناريو بمبلغ ٥٠٫٠٠٠ جنيه ... فإذا كانت هذه ضريبة دخل ، فكم بلغ إذن دخل الرجل ؟ !



ماكس رينهاردت
يدرب جان موير على مشهد بفيلم « حلم منتصف ليلة صيف »

ويستوى فى التمثيل هنا المخرجون والممثلون ؛ فإن ماكس



هيلين هايز
التى اعتزلت السينما وهى فى أوج مجدها

رينهاردت عاهل المسرح الكبير رأى تلامذته فى هوليوود يثرون ويشتهرون من الأفلام ، وهو باق فى ڤينا يشهد ركود المسرح ، رأى إيرفنج تالبرج يتقاضى أسبوعيًّا من شركة مترو ٢٫٤٠٠ جنيهاً مع ١٠ ٪ من أرباح الشركة ، ورأى المخرج العادي يأخذ في الفيلم الواحد عشرين أو ثلاثين ألفاً من الجنيهات فلم يطل انتظاره وحزم أمتعته ورحل إلى هوليوود فأخرج « حلم منتصف ليلة صيف » وهو يأخذ عدته الآن لإخراج فيلمه الثانى « واتتون »

وأبهظ الأجور فى أمريكا من نصيب ممثلى السينما ، فقد أصبح من الأمور العادية أن يأخذ الكوكب من الفيلم الواحد خمسين ألف جنيه ، ومثل هذا الأجر كفيل باقتلاع أى ممثل من فوق خشبة المسرح

فاذا استثنينا القليل من الممثلين الذين لا تستعبدهم تماماً شهوة المال فيقسمون أوقاتهم بين العمل فى المسرح والعمل فى الاستديو مثل والترهاستون وهنرى فوندا ومثل هيلين هايز التى تركت الشاشة وهى فى أوجها ، وبعد أن اكتسبت التمثال الذهبى من أكاديمية الصور والفنون لأحسن ممثلة سينمائية فى أول فيلم مثلته — إذا استثنينا مثل هؤلاء فانا لا نغالى إذا قلنا إن الدولار هو الذى هزم المسرح

محمد على ناصف

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧



6me Année, No. 240

Lundi - 7 - 2 - 1938

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٤٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ٦ ذى الحجة سنة ١٣٥٦ — ٧ فبراير سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـــرس

المـــرأة والأدب

قال لى صديق أديب :

إن من يقرأ الرسالة فى مصر من الأمصار النائية ، أو فى عصر من الاعصار الآتية ، يحسبها تصدر أو كانت تصدر فى بلد ليس فيه نساء . والرسالة كما نعتقد تسجل ظواهر النهضة المصرية ، وتصور مظاهر العبقرية العربية ؛ فهل خلوها من أثر المرأة معناه أن المرأة لا تزال بمعزل عن نهضة الفكر فى مصر، وحركة الأدب في الشرق ؟

وهــذا السؤال نفسه ألقاه علىّ أكثر من تحدثوا إلىّ فى الرسالة أو فى المرأة أو فى الأدب . والجواب عنه ميسور على من عرف كيف تربى البنت وتثقف الأم وتؤلف الأسرة . فنصفنا الجميل الشاعر كما يعبرون اليوم لاتزال كثرته الفاحشة على جهالة الأمية وسذاجة الفطرة . أما قِلّته الضئيلة فبين طبقة علمتها المدارس المصرية تعليماً فجّا لا يمهد للعقل طرائق المعرفة ، ولا يكشف للنفس آفاق الحياة ، فعلمها محدود بالتعليم الأولى أو التمريض العملى ، وأدبها واقف عنـد قراءة المجلة الخفيفة وكتابة الرسالة العادية ؛ وبين طبقة ثقفتها المدارس الأجنبية فهى غزيرة الأدب صحيحة الفكر سليمة الذوق لطيفة الحديث ، ولكنها لا تعلم من

لغتها وأدبها غير القشور ، ولا تعرف عن دينها وتاريخها غير الشُّبَه ، ولا تجد في مكتبتها مؤلفاً شرقياً ، ولا ترى على مكتبها ريشة عربية . وقد كتبت إليّ آنسة من هذه الطبقة كتاباً بالفرنسية ، فلتها على أن تقحم هذا اللسان الغريب بين لسانين عربيين ، فردت عليّ بذلك اللسان نفسه تقول ما ترجمته :

« لو كنت كتبت إليك بعربيتي لحسبتني طفلة تجمجم بالكلام ولا تبين ؛ ويكون من وراء ذلك أنك لا تفهمني ولا تفهم عني . فكتبت إليك بالفرنسية لأن الإنسان يميل بطبعه إلى جهة القدرة لا إلى جهة العجز ، ويؤثر بغريزته جانب الكمال على جانب النقص . ولئن تعرضت بذلك إلى غضبك ، لقد نجوت ولله الحمد من سخرك ؛ وسخطك عليّ أحب إلى كرامتي من استخفافك بي »

فالطبقة الواقفة على الأعراف بين الجهل والعلم لا تستطيع بنصيبها الأخس من الثقافة أن تسبُر عقل الرجل ولا أن تصور قلب المرأة ؛ فمثلها مثل الجمهور الأوسط من سواد الشعب يعلو على العامة بمتاع جسمه ، ويسفل عن الخاصة بغباء ذهنه . والطبقة القائمة على البرزخ بين الشرق والغرب لا تستطيع كتلك أن تساهم في الأدب العربي بشعاع من الروح ولا بنتاج من العقل ، لأنها مصرية القلب أجنبية اللسان ، تغرِّبُ بهذا وتُشرِّق بذاك ، وتنام هنا وتحلم هناك ، وتأكل وتشرب فيظهر أثرها في مصر ، ثم تقرأ وتكتب فيظهر أثرها في الخارج . فسيداتنا العبقريات الحسان : سيزا نبراوي ، ونعمت راشد ، وقوت القلوب ، وإيمي خير ، لا يمكن أن يتصل تفكيرهن بالأدب العربي مادمن يجهلن لغة القرآن ، ويحتجن في إفهام قومهن إلى ترجمان

على أن في هاتين الطبقتين شواذ لا يستطعن لقلتهن أن يكنّ طبقة ثالثة . وهل تستطيع أن تعد في أقطار العربية كلها أكثر من الدكتورة أسماء فهمي ، والماجستيرة سهير القلماوي ، والفضليات الكواتب ابنة الشاطئ وجميلة العلايلي وفلك طرزي ووداد سكاكيني ؟

هؤلاء على تفاوت بينهن يُجدن التفكير والتعبير ، ويعطرن من حين إلى حين وجوه الصحف وصدور المجالس بأنفاسهن العبقة وأحلامهن الجميلة ؛ ولكن فحولة الأدب في أنوثة العاطفة لم نجدها في امرأة بعد « باحثة البادية » و « مي » ؛ وباحثة البادية في ظلال الخلد ، ومي وا أسفاه على سرير المرض !

***

تلك حال المرأة مع الأدب . وهي حال اقتضتها طريقة التعليم وطبيعة المجتمع وحداثة النهضة . فمن الطبيعي ألا يجد فيها الأدب رفداً من إنتاج ، ولا الأديب مدداً من وحي . ومن البديهي ألا تحس أنت في الرسالة وفي سائر المجلات سحر المرأة فتشكو الاعتلال والنقص ، وألا يجد صديقنا الحكيم في المجالس والأندية عطر المرأة فيشكو الجفاء والجدب . وما دامت المرأة غائبة عن الأدب وعن المجتمع فهيهات أن يبرءا من علل الجفاف والإسفاف والسآمة والفوضى

يريد صديقنا توفيق الحكيم أن يجرب في برجه العاجي أثر المرأة الفاتنة في مجلس جماعة من الأدباء سماهم . وقد كتبت في العدد التاسع من (الرسالة) ما يصح أن يكون نتيجة لهذه التجربة قلت : « لاحِظْ مجلساً من مجالسنا اجتمعت فيه الرجال شباباً وشيباً فماذا تجد ؟ تجد الحركات العنيفة والأصوات الناشزة والمناقشات الفجّة والأحاديث الجريئة والكلمات المندية والذوق العامي والإحساس البطيء ؛ ثم لاحظْ هذا المجلس نفسه وقد حضرته امرأة ، تجد الحركات تتزن والأصوات ترق والمناقشات تُنتج والأحاديث تحتشم والكلمات تُنتقى والذوق يسمو والإحساس يدِق ؛ ذلك لأن الرجل حريص بطبعه على أن يجمِّل سمته في عين المرأة ، ويحسن صوته في أذن المرأة ، ويسوغ رأيه في عقل المرأة ؛ والأخلاق المكتسبة تبتدئ بالتطبع وتنتهي إلى الطبع »

فمتى يُتاح للمرأة يا ترى أن تُدرك خطرها في غير الحب ، وأثرها في خارج البيت ، فتؤدي أماناتها على الوجه الأكمل ، وتُبلِّغ رسالتها على الطريق الأسدّ ؟

احمد حسن الزيات

فى معرض الآراء

للأستاذ عباس محمود العقاد

كتب الأستاذ أديب عباسى فى بعض الأعداد القريبة من الرسالة مقالاً سأل فى عنوانه : « هل انتهت السياحات والكشوف الظاهرة فى القرن السابع عشر أو بعده ؟ » ثم عاد سائلاً فيه : « أصحيح أن الكشوف الظاهرة أو الكشوف الجغرافية انتهت فى القرن السابع عشر أو حواليه ، ومن ثم بدأت الكشوف الباطنة للنفس كنتيجة لانصراف الذهن البشرى عن الدراسات والسياحات الظاهرة إلى الدراسات والسياحات الباطنة ؟ ! إننى أشك فى صحة هذا الزعم ، بل أكاد أنفيه قاطعاً »

ثم استطرد فى جوابه قائلاً : « ليست السياحات الظاهرة وقفاً على الضرب فى مجاهل الأرض واكتشاف كل رجأ من أرجائها ؛ وليس الاستشراف للمجهول فى خارج حدود النفس الإنسانية قاصراً على الحدود الجغرافية لقارات الكرة الأرضية ؛ فهناك السماء بعوالمها الشاسعة، وأكوانها المبثوثة فى رحاب الكون، وأسرارها المحيرة ؛ وثمت الذرة بصفاتها العجيبة وسلوكها الغريب وأسرارها الدقيقة ؛ وهناك أمواج الأثير من ضوء وحرارة وكهرباء وأشعة كونية . . . » إلى أن قال :

« من يستطيع أن يقول : إن الكشوف الظاهرة التى تمت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وبداءة هذا القرن فى عوالم الطبيعة والحياة تقل روعة وأسراً للخيال وشدّها للإنسان عن أروع المغامرات الجغرافية التى تمت فى القرن السابع عشر أو بعده؟ ثم هذه الكشوف الجغرافية ذاتها هل انتهت حقاً فى القرن السابع عشر ؟ أين مغامرات سكوت وشا كلتون وبيرو وغيرهم . . . . »

***

ومن طرائف المناقشات أن تأتى هذه المناقشة من الأستاذ أديب عباسى تعقيباً لما أسلفناه فى مقال « الحدود الحاسمة » الذى قلنا فيه إننا قد نستغنى فى الحدود والتعريفات عن الإحصاء والاستقصاء لما هو معلوم غنى عن البيانات من ضرورات الاستثناء فى كل قاعدة . فاذا قال الإنسان إن النهار مضىء وإن الليل مظلم فليس من الواجب بعد ذلك أن يحصى أيام الغيم ولا الأغوار المحجوبة التى تظلم بالليل والنهار

فقد حدثت كشوف جغرافية فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، ولكنها كلها لا تخرج عن « التتمات » التى تأتى بعد الفراغ من الأسس والأركان واستقرار البناء على نظامه الأخير .

وكذلك نقول مثلاً إن القرن التاسع عشر كان قرن الانقلاب الصناعى ولا نمنع بذلك استمرار الاختراع فى عالم الصناعة إلى القرن العشرين بل إلى هذه الساعة

فالأرض نفسها كانت مجهولة قبل الكشوف التى بلغت أوجها فى القرن السابع عشر وما حواليه

والبنية الإنسانية نفسها كانت مجهولة قبل تلك الكشوف ، فكان من الناس من ينازع فى شكل الأرض وفى القرار الذى هى قائمة عليه ؛ وكان منهم من يزعم أن الإنسان فى بعض الأصقاع يشبه الكلاب أو يشبه الفيلان ، ويجري التناسل بينه وبين فصائل شتى من الحيوان

فلما انتهت كشوف القرن السابع عشر انتهى الخلاف فى أمر الأشكال والظواهر ، وانفتح المجال للبحث فى الحقائق والبواطن ، أو لمعرفة الإنسان نفساً بعد أن عرفناه تركيباً ووضعناه فى موضعه من عالم الأحياء الظاهرين

ولقد ذكر الأستاذ « أديب » كشوف الكواكب وكشوف الذرة وأمواج الأثير والأشعة الكونية ، إلى أمثال هذه الكشوف العلمية التى حدثت بعد القرن السابع عشر ولا تزال تحدث فى هذه الأيام

ولكن ماشأن هذه الكشوف وما نحن فيه ؟ وأين هى من « الحاسة الاجتماعية » التى تتعلق بها القصص وأبطال الرواية وأبطال السياحات ؟ أوالتى تتعلق بها الديمقراطية وما لها من الأثر فى وصف المجتمع وتحليل أفراده وطبقاته ؟

فالسائح الذى يعود من الأقطار الأسيوية وقد روى لأبناء وطنه أنباء البذخ والفخامة ونوادر الذهب والفضة والجواهر والنفائس فى أيدى الناس ؛ يلهب أشواقهم ويعلق آمالهم وأحلامهم وأوهامهم أضعاف أضعاف ما يفعله كشف الذرة وما إليه من كشوف لا تتصل « بالحاسة الاجتماعية » إلا من بعيد

وألف كشف من كشوف « الذرة » لا يغير وصف الأبطال

فى القصص والروايات إلا أن يصل إلى اختراع طيارات أوسفن أو أسلحة أو ما شابه هذا من أمور تتصل « بالحاسة الاجتماعية » على نحو من الأنحاء

فالمعول فيما كنا نبحثه من اختلاف وصف الأبطال في القصص بين العصور القديمة والعصور الحديثة إنما هو على شعور الناس بها ، أو تعلق « الحاسة الاجتماعية » بموضوعها ، وليس المعول على حدوثها فى عالم الواقع أو تسجيلها في دواوين العلماء

و « الذرة » بعد لا يكشفها إلا عالم أومشتغل بعلم وصناعة ؛ أما البقاع فيكشفها كل من شاء الرحلة من المغامرين ، ويعنى بها كل من قعد وراءهم من المتخلفين ، ويشتغل بها من يراقب الجماهير ويدرس النفوس ويسجل أطوار الشعوب والأفراد . فهى لاتنعزل عن الحياة الاجتماعية ثم الحياة النفسية التى هى موضوع الروايات ومحور وصف الأبطال ، وليست كذلك كشوف الكواكب أو كشوف الذرات

ولعل فيما تقدم توضيح ما التبس على الأستاذ « أديب » فهو غنى عن المزيد من التوضيح

***

وقد كتب إلينا الأستاذ عبد الحميد العبادى يسأل عن كتاب الدكتور ويلكوكس واسمه باللغة الإنجليزية ، فذكرنا هذا الإسم فى العدد ال(٢٣٦) من الرسالة ، ووعدنا بالإجابة عما استوضحه الأستاذ من أثر الطريقة الزراعية الحديثة فى أحوال العالم بأسره ، وأنه ربما فاق فى اتساعه وبعد مداه أثر الانقلاب الصناعى منذ قرن من الزمان

أما شرح الطريقة الزراعية العلمية التى تكفل لكل قطر من الأقطار أن يعيش على موارده الداخلية فليست الرسالة محله ، ولسنا نحن أصحاب الاختصاص فيه

وأما الأثر الاجتماعى فيستطاع العلم به إذا عرفنا ما كان من أثر الانقلاب الصناعى فى القرن الماضى ، وعرفنا البواعث التى أفضت إلى ذلك الأثر ولا تزال تفضى إليه

إن الانقلاب الصناعى قد أحوج الدول إلى مستعمرات لجلب « الخامات » وبيع المصنوعات وتسخير الأيدى العاملة بأبخس الأجور

وإن الانقلاب الصناعى قد أخرج للأمم طبقات العمال وأثار بينهم وبين أصحاب الأموال ذلك الصراع الذى قوض ما قوض من دول ، وأقام ما أقام من مذاهب فى السياسة والدين والأخلاق

وإن الانقلاب الصناعى قد أذكى ضرام التنافس بين الحكومات ، وأنشب ما أنشب من حروب وثورات

فكل هذا يتغير لا محالة إذا استغنت كل أمة عن الخامات واستغنت عن الأسواق

كل هذا يتغير إذا نجحت طريقة المجددين فى الزراعة العلمية واستطاعت الأمم أن تعيش على مواردها الداخلية كما يقول الدكتور ويلكوكس فى كتابه الذى أشرنا إليه

كل هذا يتغير ، ويتغير معه تقسيم المجتمع وتقسيم الثروة وتقسيم عناصر الحكومة وتقسيم عوامل السياسة وما يتبعها من أهبة الحرب وأهبة الفتح وأهبة « التحالف » من جهة ، والتمادى والتباغض من جهة أخرى

لاخامات فى الخارج فلا مستعمرات ، ولا أسواق فى الخارج فلا منافسات ، ولا احتكار فلا تكديس للثروة ولا نزاع بين العاملين وأصحاب رؤوس الأموال ، ولا تسليح من ثم ولا توجيه للمصانع إلى غير المفيد من صناعات العمار والإنشاء دون التدمير والتقويض . وإذا احتاجت الأمم إلى بعض الخامات أو بعض الأسواق ، فإنما يكون ذلك فى أمان واستقرار وتعاون واشتراك على النحو الذى يجري به البيع والشراء بين الأفراد ، أو على النحو الذى يجرى به التبادل بين جماعات التعاون ولا سيما فى بلاد الشمال ونعنى بها بلاد الدنمرك والسويد والنرويج

ذلك مجمل الدعوة التى يبشر بها المجددون فى علم الزراعة والشفقون على بنى الإنسان من أهوال الحروب

والمذهب معقول فى أصوله وفروعه . ولو أنه مشكوك فى مقدماته أو فى نتائجه لكان مع ذلك جديراً بالبحث والمتابعة والجد فى تحقيق ما يستطاع من خيراته وحسناته ، لأن متابعة الأحلام قد تجوز إذا عظمت الغاية وعظم الخطر المرهوب . وأى غاية أعظم من اتقاء الحروب ؟ وأى خطر أعظم من خطر الفجائع التى تطبق على الشعوب المسوقة إلى تلك الحروب ؟

إن متابعة الأحلام قد تجوز فى هذا المقام ، فكيف بالبحوث العلمية وكيف بالوقائع والأرقام ؟

عباس محمود العقاد

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ٩ —

خرجت من عند ليلى وقد انتصف الليل ، فما كدت أبلغ الجادّة حتى لمحت إنسانة تعدو خلفى فى الدربونة [1] فالتفت فاذا هى ظمياء .

— دكتور ، متى أرجع إليك ؟

— حين تشائين باظمياء ، ولكن ما الموجب لهذا الاستعجال؟

— هل نسيت البقية من قصة ليلى مع عبد الحسيب ؟

— ما نسيت . ارجعى إلىّ مساء الغد يا ظمياء ، ومعك ماعون من الكُبّة الوصلية [2]

***

لا موجب للنفاق فى هذه المذكرات . إن ظمياء فيما يظهر تشتهى أن تتكلم فى عبد الحسيب ؛ وأنا فيما يبدو أشتهى الكلام عن درية ؛ وأكرر ما كتبته من قبل : (إنى لا أعرف كيف يلذعنى هذا الاسم) وربما كان هذا من جنون الشعراء ، فأنا شاعر مقل ، ولكن الإقلال لايمنع من التشرف بجنون الشعراء . ولعل الإقلال أدل على الجنون ؛ وإلا فما كان الذى يمنع من أن أفجع العالم بعدة دواوين ليصبح شعرى حديث الأدباء فى سائر البلاد ؟

درية ! درية ! ما أعذب هـذا الاسم ! وما أشقانى فى (استلطاف) الأسماء !

***

رجعت إلى المنزل وأنا أتشوق إلى اقتيات النعاس ، فقد كنت انتشيت فى حديث ليلى ، والمنتشون يتشوقون إلى الهجود ؛ كذلك سمعت . ولكنى صادفت ما أطار النوم من رأسى ، فقد وجدت جريدة الشباب بين البريد وفيها هذه الكلمات :

« فجع الأدب والعلم ونكبت الأخلاق الكريمة بوفاة الأديب الكبير المحقق والكاتب العبقرى المنقطع النظير المرحوم الأستاذ محمد صادق عنبر المنشىء الشهير واللغوى المعروف ، فقوبل الخبر بحزن شديد ، وألم عميق ، لما اشتهر عن المرحوم من واسع العلم والاطلاع وصدق الوداد ومكارم الأخلاق »

وقد هدّنى هذا الخبر المزعج ، ونشر أمام عينىّ كثيراً من الصور والأطياف ، فتذكرت أنى رأيت صادق عنبر أول مرة سنة ١٩٢٣ فى جريدة الأخبار ، فسألنى عمن أفضل من الشعراء فقلت : شوقى . فقال : أسألك عن الشعراء الثلاثة . فقلت : من هم ؟ فقال : أبو تمام والبحترى والمتنبى . فقلت : أنا أفضل الشريف الرضى على هؤلاء الثلاثة . فاستغرب وقال : هذا كلام لم يقل به أحد سواك !

وتذكرت أنى كنت أتلقى مجلة النهضة النسائية وأنا فى باريس سنة ١٩٢٧ وفيها رسائل وجدانية عنوانها : (الرسائل الضائعة) وهى رسائل نفيسة بقلم صادق عنبر ، فلما لقيته بعد حين أثنيت عليها ، فقال وهو يتوجع : ليتها كانت صحيحة ، فهى خيالية ! فقلت : ليتك تمضى فى هذا النظام البديع !

وبعد رجوعى من باريس فى سنة ١٩٣١ كان أول من سأل عنى ، فمررت عليه فى قلم المطبوعات فحبسنى ساعتين ليمتع أذنىّ برسائله : (رسائل الحب بين قيس وليلى) فقلت : أهى أيضاً رسائل خيالية ؟ فتنهد وقال : لو كانت تنبىء عن وجد دفين لما كان جسمى أضخم جسم فى هذه البلاد ؟ فنصحته بتكلف العشق، ليخف وزنه فيمسى وهو فتى رشيق ؟

وتذكرت أنى أردت مداعبته فى جريدة البلاغ سنة ١٩٣٥ فذهب إلى صديق الأستاذ كامل كيلانى وقال له : قل للدكتور زكى مبارك : إن صادق عنبر لن يقرأ البلاغ ولن يعرف ماذا يقول ؛ فليثق حضرته بأن الأرض لن تُزلزل تحت قدميّ ، ولن يتقوض ماضى صادق عنبر لأن زكى مبارك يهجم عليه فى جريدة البلاغ !

وتذكرت والدمع يملأ عينى أن الأستاذ محمد على الطاهر أراد أن يحتفل بسفرى إلى العراق فدعانى إلى الغداء عند العجاتى مع جماعة من أهل الأدب والعلم والبيان ، كان فيهم الأستاذ صادق عنبر ، ولكنه يومئذ لم يشترك فى أطايب الحديث ، فهل كان انتهى من دنياه ؟

يرحمك الله يا صديقى ، ويرحم عهدك فى جريدة اللواء ، يوم كان أكثر كتّاب اليوم أطفالاً يلعبون !

***

(١) الدرب فى مصر هو الدربونة فى العراق

(٢) الكبة عند العراقيين هى الكبيبة عند السوريين ، ويقال إن الكبة للوصلية كانت السر فى براعة أبى إسحاق فى الغناء

الشجي يبعث الشجي !

هل أستطيع أن انتهز هذه الفرصة فأدون فى هذه الذكرات حادثة عجزت عن تدوينها منذ أشهر طوال ؟ هل أستطيع أن أقول بصراحة إننى كنت من أشد الناس ارتياحاً إلى اصطحاب الجدل السياسى فى مصر ؟ لقد آن لقلبي أن يفصح عن بلائه المكنون . إن الجدل السياسى فى مصر كان نعمة وارفة الظلال لأنه استطاع أن يشغل صديقى الأستاذ عباس الجمل عن أفدح نكبة أصيب بها فى دنياه ، وهى احتضار (١) الغصن المطلول الذى اسمه طاهر عباس الجمل الطالب بكلية الحقوق

آن أن أصرح بأن هذا الأديب المفقود كان يحفظ ديوانى ، وأنه تفضل فأسمعنيه قبل أن يذهب إلى دمياط بيوم واحد . آن أن أصرح بأن هذا الشاب كان يرانى أكرم أصدقاء أبيه ، وكان يرى من البر أن يحفظ أشعارى ويقتنى مؤلفاتى . آن أن أبكى هذا الشاب النبيل الذي كان أطهر ضحية ظفرت بها الأمواج

لقد حضرت الذكرى الأخيرة من ذكريات سعد زغلول وكان مجلسى فى السرادق يواجه مجلس النقراشى باشا فلم أسلم عليه ؛ وظن بعض الحاضرين أننى خشيت أن يكون فى السلام عليه ما ينقض مودتى للنحاس باشا . فهل أستطيع أن أنص فى هذه الذكرات على أننى لم أخف يومئذ إلا أن يقع بصرى على الأستاذ عباس الجمل فأذكره بتلك المصيبة التى تذيب لفائف القلوب ؟

كان طاهر الجمل لا يلقانى فى الطريق إلا دعانى إلى رؤية منزلهم الجديد فى مصر الجديدة ، وكان يغرينى فيقول : إن لونه كالشليك !

ولكنى لم أطعه ولم أر المنزل . وما أظننى سأراه فى بقية حياتى ، لأن جزعى على طاهر خليق بأن يقتلنى إذا رأيت ما كان يهواه فى دنياه

أخى الأستاذ صادق عنبر

أرأيت كيف كانت مصيبتى فيك باباً من البلاء !

إن طاهراً في نضارته كان مثلك فى ذكائك ؛ وعبقرية النضارة لا تقل روعة عن عبقرية الذكاء . وأنت قد تجد من يجبر الرسائل الطوال فى الثناء عليك ، ويقيم لك حفلات التأبين ؛ أما طاهر الجمل فيستصغر ناس قدره ، لأنه كان طالباً بالسنة الثالثة بكلية الحقوق ، فلم يبق إلا أن أقف وحدى لبكاء تلك الزهرة النضيرة التى اقتطفها الموت فى شاطىء دمياط

وما يؤذينى وأنا أكتب هذه الكلمات إلا أن تحمل نسائم الهواء إلى الأستاذ عباس الجمل أننى فكرت فى طاهر ، فيتذكر أننى ما عزيته فيه ، فيتجدد عتبه على صديقه القديم ، أو يؤذيه أن يتذكر ابنه بعد تناس ؟ ولكن كيف يتناساه بعد أن نعم بوجهه وروحه سنين وسنين ، وأنا ما نسيته مع أن بصري لم يقع على وجهه الجميل غير مرات ؟

يا طاهر !

أذكرنى عند ربك ، وقل إن فى سكان الأرض ناساً يحفظون الجميل !

* * *

وقضيت تلك الليلة وأنا مؤرق الجفون ؛ وزاد فى الغم والحزن أن الوهم خيل إلىّ أن صادق عنبر قد يكون مات بسبب ليلى ، مع أن ليلاه خيالية ، فكيف يكون مصيرى وليلاى امرأة رخيمة الصوت ساحرة العينين تقيم بشارع العباس بن الأحنف فى بغداد ؟ !

وفكرت ثم فكرت ، والشجون من جملة الأرزاق !

ولكن وقع حادث طريف خفف ذلك البلاء :

فقد صمم سعادة وكيل وزارة المعارف العراقية أن يزورنى فى منزلى ليؤدى واجب التحية لرجل هجر وطنه وأهله ليتشرف بخدمة الأدب العربى فى العراق ؛ وكانت زيارته فى الليل ، فراعه أن يرى الظلام يغمر السلالم والدهاليز ، فاستشاط غضباً وقال : كيف يجوز لصاحب هذا المنزل وهو عضو بمجلس النواب أن يهمل الإضاءة الواجبة ، وهو يعلم أن من سكان منزله صاحب النثر الفنى ؟ سأعرف كيف أحاسب ذلك النائب وكيف أقهره على تعميم النور في دهاليز ذلك البيت ؟

فقلت وأنا أتخوف العواقب : أنا مطمئن إلى هذا الظلام يا سعادة الأستاذ !

فقال: وأنا أخشى أن تشكونا إلى مجلة الرسالة أو جريدة البلاغ

(١) الاختضار بالخاء المعجمة هو الموت فى عهد الحداثة والشباب

ولم يمض يومان حتى نفذ النائب المحترم ما أراد سعادة الوكيل؛ ولكن ظمياء استرابت بهذه الأنوار ورفضت دخول البيت!

— ماذا تخافين يا ظمياء؟

— أخاف الأقاويل والأراجيف

— من المفهوم أنك وصيفة ليلى، وأنى طبيب ليلى

— هذا كلام لا يصدقه غير المطلعين على ما جرى فى هذا الشأن من المخابرات بين الحكومة العراقية والحكومة المصرية

— والجمهور؟

— أترى الجمهور يصدق حقيقة أنك جئت لمداواة ليلى المريضة فى العراق؟

— خبر أسود!

— خبر أسود، خبر أبيض، خبر بنفسجى، خبر عنابى، خبر برتقالى، خبر بنى، خبر خمرى، أنا لا أدخل هذا البيت فى هذه الأنوار وكل سكانه يعرفون أنك رجل وحيد

— نعم، أنا رجل وحيد

— وحيد، أعنى تعيش وحدك

— مفهوم، يا ألأم النساء فى بغداد

— إيش لون؟

— لاشىء، أقول إنه لا موجب لهذا التخوف، فأنا طبيب ليلى وأنت وصيفة ليلى

— اسمع يا دكتور، أنا أثق بأمانتك، وليلى لم تنهنى عن التودد إليك، ولكنى لا أقبل أن أكون مضغة الألسنة في هذا الخان

— ومن الذى سيعرف مثلا أنك ظمياء؟

— يجب أن تفهم أنك فى بغداد!

— باسم الله الحفيظ!

— اسمع يادكتور! يظهر أنك رجل طيب أكثر مما يجب. إن التعرض لأقوال الناس كالتعرض لأقوال الجرائد؛ وربما كان كلام الجرائد أسلم عاقبة من كلام الناس، لأنك تستطيع أن تكذب ماتنشر الجرائد من الباطل فتدفع ماتؤذيك به من بهتان؛ أما كلام الناس فلا سبيل إلى دفعه لأنه ينتقل من أذن إلى أذن ومن لسان إلى لسان، ثم لا تمضى غير أيام حتى يأكل لحمك المفترون، ويأتم بسيبك الأبرياء

— وماذا أصنع يا ظمياء؟

— ارحل عن هذا البيت

— وكيف بعد أن تكلف صاحبه ماتكلف فى تبديد الظلمات؟

— اختلق سبباً من الأسباب

— أختلق؟!

— الأختلاق مما يجوز فى بعض الأحيان

وعندئذ تذكرت أن الأستاذ بهجة الأثرى كان اقترح على صاحب البيت أن ينظم الحمّام ولم يفعل؛ فطمأنتُ ظمياء. ومضيت فقضيت معها السهرة فى بيت أمها، وهو منزل صغير فى درب ضيق لم أسأل عن اسمه، وهو درب يشبه ما يسمونه فى مصر: شق الثعبان

وفى صباح اليوم التالى قابلت حضرة النائب المحترم وذكرته باقتراح حضرة الأستاذ بهجة الأثرى، فأراد أن يتحلل من الوعد فتكلفت الغضب وقلت فى سخرية مصطنعة: كذلك تكون وعود النواب!!

ولم تمض غير ساعات حتى انتقلت إلى منزل آخر فى شارع السموءل

ولكن كيف انتقلت بهذه السرعة فى يوم واحد؟

ذلك أمر كان يعجز عنه السنهورى والزيات وعزام

والواقع أني رجل خطر جداً، فقد أمسيت أعرف بغداد كما أعرف باريس؛ ومعرفتي بهاتين المدينتين تساوى جهلى بمدينة القاهرة التى لا أعرف منها غير ثلاثة أحياء. أما الاسكندرية فلا أعرف منها غير الشاطئ الذى تعطره أنفاس الملاح فى الصيف

* * *

ولكن لماذا اخترت شارع السموءل؟

لأنه شارع البنك وجميع سكانه من أهل المال، وأهل المال فى الأغلب لايعتدون على الأعراض، وإنما يعتدون على الجيوب. فالشرطة في مثل هذا الشارع لا تفكر في الفجرة وإنما تفكر فى اللصوص، وكذلك تعودني ظمياء بلا تهيب، لأن المآثم فى

هذه الجادّة قليلة الخطور بالبال ، وذلك كل ما أتمناه للسلامة من أهل الفضول

وقد عزّ عليّ أن يتطاول بنو إسرائيل على اسم السموءل فيسموا به شارع البنك ؛ وكان السموءل على يهوديته عربياً سخى اليدين ، فما كان ضرهم لو نطقوا اسمه على طريقتهم فقالوا (صمويل). ثم تذكرت أن السموءل كان أقدم من عبّر عن ضمائر البنوك حين قال :

ونـنكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول

فالبنك هو الذى ينكر ما تقول ، ولا تستطيع أن تنكر ما يقول ، فهو الفيصل في التصحيح والتزييف

ولعل انتقالى إلى شارع السموءل يدخل على طباعى بعض التعديل . ولعلي أكتسب شيئاً من أخلاق بنى إسرائيل ، فان الحب يبدد ما أجمع من المال . أليس من السفه أن أراني مسئولاً عن طوائف من البيوت تُسدَل ستائرها على طوائف من الوجوه الصِّباح ؟ وهل رأى الناس حالاً أغرب من حالى وأنا أنفق على بيت فى النمسا منذ سبع سنين لأن فيه فتاة جميلة كانت ترافقنى فى السوربون ؟

أمرى إلى الهوى !

* * *

تركت أول منزل سكنته فى بغداد . ويا حسرة القلب على فراق ذلك المنزل الجميل ! فقد كان صورة صحيحة للمنزل الذى كنت أسكن فيه حين كنت طالباً بالازهر الشريف . كان صورة لربع يعقوب بالنورية ، على أيامها السلام ! وكانت جاراتى فى ذلك الربع من الغيد الحسان ، وكان فيهن اسرائيلية تأتمننى على كل شىء وتقول : الشيخ زكى مسلم ولكنه ابن حلال

وكنت حقاً ابن حلال . كنت مستقيماً أؤدى الفرائض وأقرأ الأوراد ، وما تغير حالى إلا منذ استطعت أن أقول : بونجور مدموازيل ! بونسوار مدام !

لم أفارق منزلى فى شارع الرشيد بدون حسرة لاذعة ، فقد أقمت فيه ثلاثة أشهر أنشأت فيها تسعمائة صفحة ، واستقبلت فيه ظمياء تسع مرات ، وهو يذكرني بمأواى القديم فى ربع يعقوب الذى ألفت فيه كتاب الأخلاق عند الغزالى ، واستقبلت فيه الشيخ الزنكلونى والشيخ عبد المطلب ؛ ويذكرنى بأول منزل سكنته فى مصر الجديدة وهو الذى ألفت فيه كتاب التصوف الإسلامى ، واستقبلت فيه الدكتور طه حسين والمسيو لالاند والمسيو ماسينيون ؛ ويذكرنى بغرفتى بشارع أراس فى باريس ، وهى الغرفة التى ألفت فيها كتاب النثر الفنى ، وسمعت فيها أنغام اللغة الفرنسية كما ينطقها بناتها ، وكما يلحن بها الانجليزيات والأسبانيات والنمسويات والألمانيات ، ولا سيما الشقراء التى ما كانت تتكلم بغير الغناء :

هل الله عافٍ عن ذنوب تسلَّفتْ أم الله إن لم يَعْفُ عنها يعيدها ؟

أمرى إلى الهوى ! !

* * *

لقد انزعج صاحب المنزل حين رأى الحمالين من الأكراد ينقلون أثقالى ، وبالغ فى التلطف ليردنى إلى المنزل . ولكن هيهات ، فأنا طبيب أفسده الأدب والطبيب الفاسد لا يطاق

أنا أعرف أنى خاصمت نائباً ، ولكن يعزينى أن نواب العراق لا يلتفتون إلى المسائل الشخصية ، فلن ينالنى شر من هذا النائب على الاطلاق . وسأرجو الأستاذ معروف الرصافى أن يصلح ما بينى وبينه إن رأيت ما يوجب ذلك ... وهل من الكثير أن أخرج على أصول الأدب والذوق فى سبيل ظمياء ؟ إن هذه الوصيفة تعرف جميع أسرار ليلى ، وهى أيضاً ستحدثنى عن درية . ويا لوعة القلب من طيف درية ! فهل يتلطف الحظ فيمتعنى بهوى امرأة تحمل هذا الاسم الجميل ؟ !

* * *

إن أحزانى لا تحملها الجبال ، ولكن الله بعباده رؤوف رحيم؛ فهو يسوق إلىّ موجبات الابتسام ، أنا الرجل الحزين الذى لم يعرف قلبه الفرح منذ سنين ، وكيف أفرح وقد طلبنى أبى يوم موته أكثر من خمسين مرة فلم أكد أصل إليه حتى بكته النائحات ؟

انتظرت ظمياء في المنزل الجديد وأنا محزون ، وأشهد أنى مُكره على تأدية هذه الخدمة الوجدانية ، فما أعرف كيف يصير حالى مع ليلى ، ولعلها تماثلت وعرض الطبيب !

ودخلت ظمياء وهي تُرغي وتُزبد

— هل عرفت ما صنعت المرأة جيلة ؟

— ماذا صنعت ؟

— لقد مزقت قمصانك بعد أن غسلتها و كوتها

— عجيب ! ولــاذا ؟

— لأنها قرأت فى مجلة الرسالة أن اسمها جيلة ، واسمها الحقيق هو ...

وعندئذ ضحكت ضحكة قوية كادت تمحو سطور الأحزان من القلب العميد

إن تلك المرأة لم تعرف إحسانى إليها بتلك التسمية ، فقــد خلعت عليها اسماً أحبه أصدق الحب ، ورحمتها من الاسم الذى كانت تحمله ، لأنه يقربها من شيخ أبغضه أشد البغض ، ويكفى أن يكون اسمها واسمه مبدوءين بحرف الحاء

تلك امرأة حمقاء ! ولـكنى لن أنسى معروفها عندى ، فقد كانت أول امرأة خدمتنى فى بغداد . ولو رآها الجاحظ لصاغ لها عقود الثناء

— ظمياء

— نعم يامولاى

— لا أريد أن أسمع اسم هذه المرأة مرة ثانية ، ولا أحب أن أراها بعد أن مزقت قمصانى

— وأنا أكره لسيدى الطبيب أن يتصل بهذه المرأة فقد بدأت تغتابه منذ يومين

— تغتابنى ؟ وما عساها أن تقول ؟

— تقول إنك تحب ليلى

— أنا أحب ليلى ؟ وهل جننت حتى أحب امرأة عليلة لا تملك من شواهد الحياة غير صوت يَغوم وطرف يشيع فيــه التكسر والنعاس ؟

— إيش لون ؟

— ما أدرى يا ظمياء

— الأفضل أن نعود إلى قصة عبد الحسيب

— أو قصة درية

— قصة عبد الحسيب

— قصة درية ، قصة درية

— وهل تكره قصة عبد الحسيب ؟

— قصى على حديث الأخوين : درية وعبد الحسيب

— وأخذت ليلى تقلب الجرائد بحضور السيدة نجلاء فرأت فى السياسة الأسبوعية مقالة فى رثاء أستاذ مستشرق اسمه بول كازانوفا كتبها أستاذ مستغرب اسمه طه حسين . وتدخل الشيخ دعّاس ليشرح المراد من الاستغراب والاستشراق

« للحديث بقايا » زكى مبارك

الأدب فى العراق

كلمة تمحيصية أولى

للأديب السيد عبد الوهاب الأمين

— ١ —

الأدب بعد الحرب

دعى القرن العشرون قرن المدنية والنور ؛ ولقد كانت مفاخر العصور السابقة من طراز آخر غير المدنية وغير النور ، فمفهوم « المدنيـة » لا زال مقروناً بالحرب والدمار ، ولا يزال النور مقصوراً على الماديات دون المعنويات . وقد قامت بعد الحرب العظمى هيجة صاخبة أيقظت جميع الشعوب ، كان قوامها نهضة أدبية شاملة ، لا تزال بقايا منها محتفظة بفعالية ظاهرة . وها نحن أولاء نرى فى كل يوم دليلاً جديداً على هذه النهضة الأدبيـة الكبرى ، فيما تستبق إليه المطابع العربية من نشر مؤلفات جديدة لشخصيات أدبية عالية من طراز لم تعهده البشرية قبل الحرب العظمى ؛ فكان من الطبيعى أن يثار التسآل عن هذا الأدب وهذه النهضة الأدبية ، وما محصولها وقوامها وجدواها ؟ وهل الأدب لهو يزجى الإنسان به ساعات فراغه ليعتصم به من مفاسد الفراغ كما يقول الشاعر ؟ أو هو ضرورة من ضرورات الحياة المدنية ودلالة على الحياة المعنوية المكتملة ؟

إن كانت الحياة لهواً فالأدب كالحياة لهو لا مفر منه ، وإن كان يفوقها بأنه لهو له جدواه ودلالته ، وهى مقصورة الدلالة على أنها لا جدوى لها ؛ وهو إحدى ضرورات الحياة الشاعرة المدركة ودلالاتها ؛ وبغير فضيلتى الشعور والإدراك لا تبقى من معانى الحياة غير الناحيـة البهيمية التى يترفع البشر المدرك أن يقتصر عليها . والأدب — وهو وصف الحياة الصادق — مقرون بالحياة ومحمول عليها ؛ فإن كانت حياة رفيعة فهناك أدب رفيع ، وإن كانت منحطة فأدب منحط ؛ وفى هذه الناحية يؤيدنا التاريخ تأييداً لا يستدعينا البرهان

ونعتصم بالتاريخ مرة أخرى فنراه يقول : « إن نهضة من النهضات فى الشعوب العالية لم تتم إلا بعد أن تقدمتها حركة أدبية » . وقد سجل هذا التاريخ فى صفحاته مجداً لفولتير ورسو كمجد نابليون وروبسبير ؛ ولسنا نعنى أن الأدب بصورة مجردة يتقدم ظهوره فى نهضات الشعوب ، بل المقصود أن تقدم ظهوره فى مثل هذه الحالات إنما هو دليل قاطع على نهضة تلك الشعوب وإنذار وبلاغ بنهضة مقبلة على الفور ، وما نريد أن نعنى بالأدب غير البلاغ والإنذار

هل الأدب ضرورة ؟

ليس من شك فى أن الأدب ضرورة

وهو ضرورة لا تشبه غيرها من ضرورات الحياة الكبرى ، لأنها ضرورة شديدة الشبه بالحياة نفسها كما تقدم ، وذلك لأنها حياة أخرى من دون لحم ودم . أو هى الحياة نفسها مخلدة على الورق ، وفى بطون الكتب . وليس المقام مقام تمجيد للأدب ومغالبته فى الحياة ، وإنما هو مقام تعريف بقدره ومكانته بوجه عام ، وما دمنا نريد لحياتنا العامة تقدماً واضطراداً . فأحرى بنا أن نوجه أنظارنا لتعرف آثار هذه النهضة المقبلة وما يجب أن يسبقها من البعث الأدبى

نظرتنا الى الأدب ونتائجها

لذلك ينبغى أن نغير نظرتنا إلى الأدب ، تلك النظرة السطحية التى تعودنا منذ عشرات السنين أن ننظرها إلى المحصول الأدبى وإلى أشخاص الأدباء ، سواء الأحياء منهم والأموات . يجب أن نفهم أن الأدب ليس تزجية الفراغ ، أو سمر العاطل ، أو منادمة الميسور ، أو ما يدخل فى أمثال هذه المعانى مما درجنا على اعتقاده ، فالأدب كما يفهم غيرنا قوة فعالة فى الحياة اليومية والحياة العامة بصرف النظر عن مفهومه ودلالته

إن هناك خطراً خلقياً عظيم الأثر سنتعرض له ، إذا استمرت نظرتنا إلى الأدب على ما هى عليه الآن من السطحية وقلة الشأن من جهة ، ومن الخطأ الشائع فى مفهومه وإدراكه من جهة أخرى . فالأديب فى نظر الأكثرين منا هو الشخص الذى يعيش على هامش الحياة ولا يقيم وزناً لخارجياتها وماديا‌تها ، ولا يسأل عما يقول أو يفعل ، ويكفى أن يوصف الانسان « بالأديب »

لكى يفهم السامع أنه أمام شخص غريب الأطوار يعيش فى عالم لا علاقة له بالحاضر ولا يطلب منه الاستعداد للمستقبل . وكذلك يتلقى أكثرنا كتابات الأدباء وقصائد الشعراء على أنها أقرب ما تكون إلى الآثار والعاديات

وقد كان لهاتين الحالتين نتيجتان أولاهما مادية والأخرى روحية ، فالأولى أننا أصبحنا فقراء فى أدبنا عالة على آداب غيرنا . فنا من ينصرف إلى قراءة الأدب باحدى اللغات الأجنبية إن كان يحسنها ، والذين يجهلون تلك اللغات قد تعودوا القناعة بما تصدره مصر وسورية وبقية البلاد العربية من مطبوعات وكتب . والنتيجة الروحية هى هذه الحالة التى نوشك أن نحس بها جميعاً من القنوط من بعث أدبى لا نحس الحاجة إليه ، ويقنعنا أن نكتفى بالتعيش على فيض مما تصدره جاراتنا العربيات من أدب يختص بهن ، ولا يطمئن حاجاتنا الروحية أو يعبر تمام التعبير عن إحساسنا الفنى

أدبنا كما ينبغى أن نفهمه

الأدب كما يفهمه هذا العصر لا ينحصر — كما يعتقد الكثيرون منا ممن اقتصرت ثقافتهم على نوع واحد من أنواعه — فى القدرة على الأداء والتعبير الجميل ، بل أصبح — بفضل الطباعة والصحافة — يضم إليه أشتاتاً أخرى من فنون لم تكن فى العهد القديم تقرن به ؛ وتطورت تسمياته فأصبحنا نسمع الآن « بأدب البحر » و « أدب الموسيقى » و « أدب الموقد » وما إلى ذلك من التسميات . وعهدنا نحن بالأدب أنه محصور فى اللغة والبديع ، والأمالى ، والمقامات ، وما إليها . ولكل من هذه الفنون — طبعاً — أصول ليس فى مكنة الأديب أن يتعداها أو يغفل عنها ؛ ومن هنا نتج الضيق فيما نسميه نحن أدباً ويسميه الغربيون عنا Folklore بينما هم يسمون الأدب باسم آخر

ولو أردنا أن نحصر مفهوم الأدب كما يدركه أبناء العصر الحاضر لما عجزنا عن ذلك فحسب ، بل لكان عملنا — لو تم — ناقصاً فى ذاته ، بالغاً ما بلغ من كمال ؛ ذلك لأن المفهوم عنه لن يقف عند ما سوف نصل إلى تحديده وتعريفه ، بل سيخلق وشيكاً غيره وغيره من فنون لا نستطيع منذ الآن أن نعطى فكرة عنها

فنحن الآن مثلاً لا زلنا نعيش فى أدب الترسل واجترار الكلام على الأصول القديمة ؛ أما فى العالم فقد حدثت بعد دورنا هذا آداب جديدة : كأدب المقالة ، وأدب القصة ، وأدب الرواية ، وأدب الترجمة Biography ولن يستطيع أى مفكر وأديب كبير أن يتنبأ عن أدب العصر المقبل : ما هو ؟ وكيف سيكون ؟ وماذا يفيد ؟ وما أسلوبه ؟

علم الأدب

إننا نفهم الأدب الآن فهماً غريباً لا هو بسبيل فهم الأقدمين له ، ولا هو على شاكلة ما يعنيه الغربيون ويصطلحون عليه ؛ فقد كان شأنه فى القديم عظيماً ، وكان شخص الأديب عنصراً فعالاً فى الحياة العامة . وحسبنا دلالة على مفهوم الأدب وفعاليته فى تلك العصور ومقام الأديب في الحياة الاجتماعية أن الأقدمين كانوا يعزون الأدب فيسمونه « علماً » وهم يقصدون بالعلم ما نقصد العلم به الآن بهذه التسمية فيقولون « علم الأدب » ! ويصفون الأديب بأنه عالم فى علم الأدب

تطور مفهوم الأدب والصحافة

والأدب فى العصر الحاضر له مفهوم تطور وترقى حتى زاد فى علوه على ما كان له من المكانة فى العصور القديمة ، وأصبح شأنه فى الحياة العامة أعمق وأخطر مما كان عليه فى العصور التى سبقت المدنية الحديثة ، وأصبح الانسان لا يستطيع أن يتصور بلداً متمدناً من دون صحف وطباعة . وقد حاول أحد الكتاب أن يستمر فى خياله عن مدنية كهذه ، فانتهى به الأمر أن وكل نتائجها إلى الجنون . فقد أصبحت الصحافة سلاحاً وكانت فى بداية أمرها لا تزيد على وسيلة بسيطة لزيادة المعلومات العامة ونشر الأخبار ؛ وصارت « القصة » الفنية الأدبية وسيلة العالم فى الدعوة إلى نظرية من نظرياته ، والفيلسوف إلى نشر فلسفته ، والسياسى إلى الدفاع والدعاوة عن سياسته ، وغدا شخص الأديب متمتعاً بأكثر مما كان يتمتع به شخص الأمير من التجلة والاحترام والتقدير والمهابة فى العصور السابقة

الأدب كما نفهمه نحن

أما ما نفهمه نحن عن الأدب فانه ينحط إلى أقل من اللهو والمجانة، وبعض أساليب اللهو عندنا تستدعينا شيئاً من الجد والهمة في إحضارها والاستعداد لها، أما الأدب فلا نكاد نعتبره من الملاهى التى نجد فى الحصول عليها، فان حصل من تلقاء نفسه فانه لا يكاد يعنينا إلا أن نكون نحن في حالة لهو، أو نتلقاه على أنه صنيعة لاه غير مسؤول عما يقول، فى ساعة لهو خالية من خير أو من جد أو من منفعة. وهذا نهاية ما يصل إليه سوء فهم الأدب، وسوء تأويله، وخطر حالة مثل هذه لا يقتصر على تشويه جمال الأدب نفسه، بل يتعدي ذلك إلى خلق شعور العجز والمحاكاة والتقليد الأعمى كما نرى جماع ذلك فى حياتنا الأدبية الحاضرة

لقد آن لنا أن ندرك حظ الأدب ومغالبته فى الحياة العامة وتأثيره فى إعداد الأجيال المقبلة الاعداد الذى يتفق مع ماسيحتاجون إليه من كفاءة وقدرة. ونحن مسؤولون أمام التاريخ عن إهمال الناحية الأدبية والفنيه فى حياتنا، كأفراد، وكأمة، وكحكومة. وما دمنا نسعى إلى النهوض فى جميع مناحى حياتنا العامة فأحرى بنا أن نضع نصب أعيننا ضرورة اعتبار الأدب بوجه عام من أهم ما ينبغى السعى على إحيائه والعمل على النهوض به. ولن يستدعينا العمل لهذه الغاية ما يستدعى الحياة المادية من تضحية فى النفوس والأموال والكفاءات والجهود، بل كل ما نحتاجه فى هذا المضمار هو تحسين نظرتنا إلى الأدب ومعناه وأثره واعتباره من الضرورات التى ينبغى أن نوحد الجهود فى سبيل العناية بها فى غمار ما نحن آخذون بسبيل السعي إليه من نواحى الحياة الأخرى، والكف عن اعتباره ألهية لا تستحق عنايتنا إلا بعد الاجهاد والنصب كما نتناول ألهيات الحياة وتفاهاتها. ولا نطمع فى أن يصل تقديرنا هذا للأدب إلى أكثر مما وصل إليه فعلا فى أيام المتنبى وأبى نواس ومن عداهما وإن كان يحق لنا أن نحذو حذو أوربا والغرب فى هذا المضمار وأن يكون تقديرنا له كتقديرهم له سواء بسواء

« للحديث بقية – بغداد » عبد الوهاب الأمين



التجارب هى إحدى وسائل « العلم »، ولعل ساعة « التجربة » هي أمتع لحظات « العالِم ». خطر لى مرة أن أقوم بتجربة غريبة ممتعة: أن أضع امرأة فاتنة بين إخوانى الأدباء الأفاضل: العقاد وطه والمازنى وأحمد أمين والزيات والبشرى؛ ثم أنظر بعد ذلك ما يكون. إنى على ثقة أنهم لن يناموا ليلتهم قبل أن يسطر كل منهم على الورق أشياء قد تكون من أجمل ما كتبوا. إن المرأة الجميلة فى مجلس الأديب لها فعل السحر. تستطيع بغير عصا أن تخرج جواهر البيان من أفواه الأدباء؛ إننا لا نكاد نجد أدباً من الآداب العظيمة لم يرو لنا خبر المرأة فى مجلس الأدب؛ فاذا راجعنا الأدب العربى القديم وجدنا ذكر الجوارى اللواتى كالشموس، الضاربات بالعود، اللاعبات بالنرد، الراويات للشعر؛ وإذا نظرنا فى آداب الغرب فى كل عصر وجدنا أخبار « الصالونات » وما فيها من أقمار كلهن ذكاء وثقافة ودلال. نعم؛ وهل يمر يوم على أديب من أدباء الغرب لا يجلس فيه إلى مائدة تزينها باقات النساء الجميلات؟! فيلبث ساعة يتحدث إلى ملكين رقيقين عن يمينه ويساره يقطر الوحى من شفتيهما، ثم يعود إلى عزلته وكتبه وورقه ليفيض فى إنتاجه الأدبى، هذا الإنتاج الذى نراه بعد ذلك آية من آيات الإعجاز! أما نحن فلا عرب بلغنا ولا غرب، ولا شموس حولنا ولا أقمار؛ ولكننا أدباء كالعناكب ننسج فى الظلام، ونعيش فى الجدب والحرمان؛ ومع ذلك ننتج أحياناً، وهنا حقاً آية الإعجاز! إن أولئك الذين يتهمون أدبنا الحديث بالتقصير هم قوم ظالمون أو أغرار لا يبصرون. إن أدباءنا المعاصرين لجبابرة مستبسلون، ومجاهدون مستشهدون، لم يعرف مثلهم أدب من الآداب. فما من أدب فى التاريخ استطاع أن يظهر فى ظروف اجتمعت على خنقه كهذه الظروف. اللهم إنا شهداء! اللهم إنا شهداء!

توفيق الحكيم

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٢٣ —

الرافعي والعقاد

لقد مات الرافعي — رحمه الله — فانقطع بموته ما كان بينه وبين خصومه من عداوات. وما أريد أن أوقظ فتنة نائمة يتناولني لهيبها أولَ ما يتناول، فما لى طاقة على حمل العداوة، ولا اصطبار على عنت الخصومة، ولا احتمال على مشقة الجدال؛ وإنما هو تاريخ إنسان له على العربية حق جحده الجاحدون فنهضت للوفاء به؛ فإن كنت أكتب عن أحد من خصومه أو أصحابه بما يؤلم أو يسيء فما ذلك أردت، ولا إليه قصدت، ولا به رضيت؛ ولكنها أمانة أحملها كارهاً، وأضطلع بعبئها مضطراً، لأؤديها إلى أهلها كما تأدَّت إليّ. وإني لأعلم أني بما أكتب من هذا التاريخ أضع نفسي بالموضع الذي أكره، وأتعرض بها لما لا أتوقع؛ ولكن حسبي خلوص النية، وبراءة الصدر، وشرف القصد؛ ولا عليّ بعد ذلك مما يكتب فلان، ولا مما يتوعَّد به فلان؛ فإن كان أحد يريد أن يصل بي ما كان بينه وبين الرافعي من عداوة فانقطعت، أو يربط بي رابطةً كانت بينه وبين فلان فانفصمت، أو يتخذ من الاعتراض عليّ زلفى إلى صديق يلتمس ودَّه، أو يجعل مما يكون بيني وبينه سبيلاً إلى غرض يرجو النفاذ إليه، أو وسيلة إلى هوى يسعى إليه — إن كان أحد يريد ذلك فليمض على إرادته، وإن لي نهجي الذي رسمْت، فلتفترق بنا الطريق أو تلتق على سواء، فليس هذا أو ذاك بمانعي من المضيّ في سبيلي. ومن الله التوفيق!

***

وهذه خصومة أخرى من خصومات الرافعي، ومعركة جديدة من معاركه. وإني لأشعر حين أعرض لنبش الماضي فأذكر ما كان بين الرافعي والعقاد، أني لكن يدخل بين صديقين كان بينهما في سالف العمر شحناء ثم مسحت على قلبيهما الأيامُ فتصافيا، فإنه ليُذكِّر بما لا ينبغي أن يُذكر. والموت يحسم أسباب الخلاف بين كرام الناس؛ فإذا كان بين الرافعي والعقاد عداوةٌ في سالف الأيام فقد انقطعت أسبابها ودواعيها، فإن بينهما اليوم لبرزخاً لا تجتازه الأرواح إلى أخراها إلا بعد أن تترك شهواتها وأحقادها وعواطفها البشرية. فهنا ناموس وهناك ناموس، ولكل عالم قوانينه وشريعته؛ فما تخلص ضوضاء الحياة إلى آذان من في القبر، ولا ينتهي إلى الأحياء من عواطف الموتى إلا ما خلفوا من الآثار في دنياهم

هنا رجل من الأحياء، وهناك رجل في التاريخ، وشتان بين هنا وهناك؛ فما أتحدث اليوم عن خصومة قائمة، ولكني أتحدث عن ماض بعيد. والرافعي الذي يحيا بذكراه اليوم بيننا غير الرافعي الذي كان، فما ينبغي أن تجدد ذكراه ماضيَ البغضاء، وهذا عذري فيما أذكر من الحديث ...

لم يكن بين الرافعي والعقاد قبل إصدار الطبعة الملكية من إعجاز القرآن غير الصفاء والود؛ فلما صدر هذا الكتاب في طبعته الجديدة أحدث بينهما شيئاً كان هو أول الخصام ...

حدثني الرافعي قال: « سعيت لدار المقتطف لأمر، فوافقْت العقاد هناك، ولكنه لقيني بوجه غير الذي كان يلقاني به، فاعتذرت من ذلك إلى نفسي بما ألهمتني نفسي، وجلسنا نتحدث. وسألته الرأي في إعجاز القرآن، فكأنما ألقيت حجراً في ماء آسن ... ... ومضى يتحدث في حماسة وغضب وانفعال، كأن ثأراً بينه وبين إعجاز القرآن. ولو كان طعنه وتجريحه في الكتاب نفسه لهان عليّ، ولكن حديثه عن الكتاب جره إلى حديث آخر عن القرآن نفسه وعن إعجازه وإيمانه بهذا الإعجاز ... ... أصدقك القولَ يا بني: لقد ثارتْ نفسي ساعتئذٍ ثورة عنيفة، فكدت أفعل شيئاً. إن القرآن لأكرم وأعز ... ولكني آثرت الأناة ... »

قال الرافعي: « وأخذت أناقشه الرأي وأبادله الحوار في هدوء وإن في صدري لَمِرجلاً يتلهب؛ إذ كنت أخادع نفسي فأزعم لها أنه لم يتخذ لنفسه هذا الأسلوب في الهجوم على فكرة إعجاز القرآن

إلا لأنه حريص على أن يعرف ما لا يعرف ، وعلى أن يقتنع بما لم يكن مقتنعاً به ؛ فأخذت معه فى الحديث على هدوئى وثورة أعصابه .. ولم أفهم إلا من بعدُ ما كان يدعوه إلى ماذهب إليه .. »

قال : « لقد كان العقاد كاتباً من أكبر كتاب الوفد ، ينافح عنه ويدعو إليه بقلمه ولسانه عشر سنين ، وإنه ليرى له عند « سعد » منزلة لا يراها لكاتب من الكتاب ، أو أديب من الأدباء ، وإن له على سعد حقًّا ؛ ولكن سعداً مع كل ذلك لم يكتب له عن كتاب من كتبه : « كأنه تنزيل من التنزيل ، أو قبس من نور الذكر الحكيم » وكتبها للرافعى وليس له عليه حق مما عليه للعقاد ... »

قال الرافعى : « ... من هنا يا بنى كانت ثورته . كانت ثورة الغيرة ... لا ثورة الأديب الناقد الذى لم يقنع بما كتب الكتَّاب عن إعجاز القرآن فهو يلتمس المعرفة والاقتناع . وعرفْتُ ذلك من بعدُ ، فما بدا علىَّ ما فى نفسى من الانفعال ، ومضيت معه فى الحديث فى وجه جديد . قلت : أنت تجحد فضل كتابى فهل تراك أحسن رأياً من سعد ؟ »

قال الرافعى : « وفهم ما أعنيه فقال : وما سعد ؟ وما رأى سعد ؟ »

قال الرافعى : « وطويت الورقة التى كان يكتب فيها حديثه[1] فقبضت عليها يدى ثم قلت : أفتراك تصرح برأيك هذا فى سعد لقرائك وإنك لتأكل الخبز فى مدح سعد والتملق بذكراه ... ؟ قال : فاكتب إلىّ هذا السؤال فى صحيفة من الصحف تقرأ جوابى كما عرفته الآن ... ! »

قال الرافعى : « وابتسمت لقوله ذاك وأجبته : يا سيدى ، إن الرافعى ليس من الحماقة بحيث يسألك هذا السؤال فى صحيفة من الصحف ، فتنشر السؤال ولا ترد عليه ، فيكون فى سؤالى وفى صمتك تهمة لى ، وتظل أنت عند قرائك حازماً أريباً بريئاً من التهمة مخلصاً لذكرى سعد ! »

قال الرافعى : « وما قلتُ ذلك — وإن ورقته فى يدى أشد عليها بأناملى — حتى تقبض وجهه ، وتقلصت عضلاته ، ثم قال فى غيظ وحنق : ومع ذلك فما لك أنت ولسعد ؟ إن سعداً لم يكتب هذا الخطاب ، ولكنك أنت كاتبه ومزوِّره ، ثم نحلته إياه لتصدر به كتابك فيروج عند الشعب ! »

قال الرافعى : « وما أطقت الصبر بعد هذه التهمة الشنيعة ، ولا ملكت سلطانى على نفسى ، فهممت به .. فدخل بيننا الأستاذ صروف ، فدعا العقاد أن يغادر المكان ليحسم العراك ويفض الثورة ! »

* * *

هذه رواية الرافعى ، حدثنى بها غير مرة فى غير مجلس ، كما تحدَّث بها إلى غيرى من أصدقائه وخاصته ؛ فما لى فيها إلا الرواية والتصرف فى بعض الكلام تأدباً مع الأستاذ العقاد وكرامة لذكرى الرافعى

على السفود

وفرغ الرافعى من مقالات عبد الله عفيفى التى كان ينشرها بعنوان (على السَّفُّود) ؛ ثم ذهب مرة لزيارة صديقه الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب العصور ، فسأله تتمة هذه السلسلة فى نقد الأستاذ عفيفى ، فاعتذر الرافعى وقال : حسبي ما كتبت عنه وحسْبه . قال الأستاذ مظهر : فاكتب عن غيره من الشعراء . إن فى هذه المقالات لمثالا يحتذيه الذين يريدون أن يحرروا بالنقد عقولهم من عبادة الأشخاص ووثنية الصحافة !

فتنبه الرافعى إلى شىء فى نفسه ، وجلس إلى مكتب فى دار العصور فكتب مقاله الأول من كتاب على السفود ؛ وتوالت مقالاته من بعد فى أعداد المجلة متتابعة فى كل شهر . فلما تمت هذه المقالات نشرها الأستاذ اسماعيل مظهر فى كتاب قدم له بمقدمة بامضائه يبين فيها ما دفعه إلى نشر هذا الكتاب الذى لم يكتب على غلافه اسم مؤلفه ، ورمز إليه بكلمة « بقلم إمام من أئمة الأدب العربى »

وفى الأسبوع المقبل إن شاء الله حديثنا عن الكتاب ونهجه

« شبرا » محمد سعيد العريان

* * *

إلى الأديب أحمد سعد الهوارى بحلوى لأشكر له ، وأعتذر من عدم نشر مقاله ؛ لأنى لا أريد أن يصرفنى عن هذا الحديث شىء من جدال الرأى فيما لا يغير شيئاً من حوادث التاريخ

(١) كان الرافعى أصم كما يعرف القراء ؛ فمن ذلك كان أكثر ما يدور بينه وبين الناس من الحديث كتابة فى ورق !

مصر وفلسطين

لأستاذ جليل

سمع الناس فى الخافقين منذ أشهر كلة مصر الإسلامية العربية فى (دار المصبة) فى شأن فلسطين وذلك التقسيم المقطِّع المزِّق ، وتلوا فى هذا اليوم كتاب رجال من (دار الندوة) ومجلس الشيوخ فيها إلى سفير الانكليز ، وفى الكتاب ما فيه . وهذه كلة ذات زئير وتهيم قالها مصر منذ قرون حين سأل الغرب مثل الذى يبغيه اليوم . وقد رواها (صبح الأعشى) عن (التعريف بالمصطلح الشريف) ، وإنها لتنادى مفصحة مبينة على أن مصر هى مصر فى كل وقت ، وأنها لن تنام عن مظاهرة أخ فى الدين أو العربية مستطاعة . وفى رواية (التعريف) ألفاظ عامية لا تنحط بها قيمتها بل تغليها ؛ وإن كثيراً من الباحثين اليوم ليهتمون بالوقوف على مثلها . وهذه هى الطرفة التاريخية :

«قال فى «التعريف» : أما الرِّيد فرَنسى فلم يرد له إلا رسول واحد أبرق وأرعد ، وجاء يطلب بيت المقدس على أنه يفتح له ساحل قيسارية أو عسقلان ، ويكون للإسلام بهما ولاة مع ولاته ، والبلاد مناصفة ومساجد المسلمين قائمة ، وإدارات قومتها دارّة ، على أنه يبذل مائتى ألف دينار تعجل وتحمل فى [كل] سنة ، نظير دخل [نصف] البلاد التى يتسلمها على معدل ثلاث سنين ، ويطرف فى كل سنة بغرائب التحف والهدايا . وحسّن هذا كُتّاب . . . . . . كانوا صاروا رءوساً فى الدولة بعمائم بيض وسرائر سود ، وهم أعداء زرق ، يجرعون الموت الأحمر ، وعملوا على تمشية هذا القصد و إن سرى فى البدن هذا السم وتطلب له الدرياق فمز

وقالوا : هذا مال جليل معجل ؛ ثم ماذا عسى أن يكون منهم وهم نقطة فى بحر ، وحصاة فى دهناء ؟

قال : وبلغ هذا أبى رحمه الله فآلى أن يجاهر فى هذا ، ويجاهد بما أمكنه ، ويدافع بمهما قدر عليه ، ولو لاوىَ السلطان على رأيه أن أمشى إلى أولئك الافكة ، وقال لى : تقوم مي وتتكلم ، ولو خضبت ثيابنا بالدم ، وأرسلنا قاضى القضاة القزوينى الخطيب ، فأجاب وأجاد الاستعداد ، فلما بكرنا إلى الخدمة وحضرنا بين يدى السلطان بدار العدل ، حضرت الرسل وكان بعض أولئك الكتبة حاضراً ، فاستعد لأن يتكلم ، وكذلك استعدينا نحن : فما استتم كلامهم حتى غضب السلطان وحمى غضبه ، وكاد يتضرم عليهم حطبه ، ويتعجل لهم عطبه ، وأسكت ذلك المنافق بخزيته ، وسكتنا نحن اكتفاء بما بلغه السلطان مما رده بخيبته ، فصد ذلك الشيطان وكفى الله المؤمنين القتال ، ووردت على راميها النصال ؛ وكان الذى قاله السلطان : وَالْكم أنتم عرفتم ما لقيتم نوبة دمياط من عسكر الملك الصالح ، وكانوا جماعة أكراد ملفقة مجمعة ، وما كان بعد هؤلاء الترك ، وما كان يشغلنا عنكم إلا قتال التتر ، ونحن اليوم بحمد الله تعالى صلح (نحن وإياهم) من جنس واحد ما يتخلى بعضه عن بعض ، وما كنا نريد إلا الابتداء ؛ فأما الآن فتحصلوا وتعالوا وإن لم تجوا فنحن نجيكم ولو أننا نخوض البحر بالخيل ؛ وَالْكم صارت لكم ألسنة تذكرون بها القدس ؛ والله ما ينال أحد منكم منه ترابة إلا ما تسفيه الرياح عليه وهو مصلوب ! وصرخ فيهم صرخة زعزعت قوائم ، وردهم أقبح رد ، ولم يقرأ لهم كتاباً ولا رد عليهم سوى هذا جواباً »

(الأسكندرية) (***)

فلسفة التربيـــة

كما يراها فلاسفة الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

« ليست الجماعة مجرد علاقات ، ولكنها في كل منا . ثم هي ترتفع في أعظمنا إلى الدرجة القصوى »

« ماك إيفر »

« لو قد نشأ الفرد على المرونة والتجديد : لما استطاعت يد الرجعية الآثمة أن تعوق سير الحضارة ، وأن تعبث بجلال الانسانية »

(***)

« ليس في الطبيعة فرد مطلق غير الله تعالى . وما الفرد من بني الانسان إلا جزء من والديه ومن خبئة الحياة الأولى بل ومن الانسانية ماضيها وحاضرها »

« برجسن » (وغيره)

الجماعة والفرد

رأيت فيما سبق بعض تطبيقات الديموقراطية ، على الثقافة والمنهج ، والمعلم والطالب ، والمدرسة وطريقة التدريس ، وأحب اليوم أن أكمل الناقص في ذلك ، وأوضح الغامض ، ولا سيما من ناحية الجماعة والفرد وما ينبغي أن يكون بينهما من علاقة ديموقراطية صحيحة تغرسها التربية الحديثة وتنميها

ما الجماعة وكيف نشأت ؟ اختلف العلماء في ذلك وتباينوا ؛ ومن أشهر نظرياتهم في ذلك دعوى « العقد الاجتماعي » التي قال بها « روسو » ومهما يكن من شيء فالجماعة الحق يسود فيها التبادل كما يقول « نوفيكو » ، كما أنها ليست مجرد علاقات أفراد بعضهم ببعض ، ولكنها روح دافع غلاب في كل فرد كما يقول « ماك إيفر » ، وها هو « هوبهوس » يقول إن الجماعة توجد في أفرادها ، وإن كل فرد فيها مركز اتصال ، وإن هذا الانصال يتوقف قوة وضعفاً على الفرد نفسه ويؤثر فيه ، وإن الأفراد إنما يتحسن شأنهم ويرتقي باتصالهم بغيرهم [1]

وقد يبدو للبعض أن الرجعية والبطء في التطور والتجديد طبيعة في الجماعة ثابتة ، ولكن الراجح أن التربية العقيمة هي المسئولة عن ذلك كله . ولذلك نرى التربية الديموقراطية تدعو إلى سعة الصدر وحرية الفكر ومرونة العادات ، وتصرح قائلة على لسان (جون ستيوات مل) : « ويل للزمن الذي لا يجرؤ على الشذوذ فيه إلا الأقلون [1] » !

أما الفرد فهو أنت وأنا أيها القارىء العزيز ! وكم احتُقر وازدرى في الدهور الغابرة ، وحُرم حرية الفكر والحركة والحياة ، وكم اعتز بشخصيته ، وعلا وتكبر ، واعتبر نفسه مقياساً للأشياء جميعاً من حق وباطل ، وخير وشر ، وجمال وقبح — في عهد السفسطائيين ؛ ولو شئت الحقيقة في أمر هذا الفرد لعرفت أنه لا يستطيع أن يكون « مطلقاً » بحال من الأحوال ! وهل من مطلق في الطبيعة غير الله ؟ سر إلى الصحراء إذا شئت وعش هناك وحيداً إذا استطعت ، فلن تجد « الجماعة » إلا محيطة بك عن يمينك وعن شمالك ومن خلفك ومن قدامك ، ألم ترث عنها ماقد ورثت عن آبائك وأجدادك ؟ ألا تفكر بمنطقها ؟ أولا تهجس بلهجتها ؟ ثم ألا تستفيد من تجاربها العملية في كل ما تتخذ من سلاح وغطاء ودثار ؟

نحن إذاً مدينون للجماعة حاضرها وماضيها بكل شيء تقريباً وإذاً فلا أقل من أن نعطيها من أنفسنا بعض هـذا الدين الذي لو عشنا دهوراً لما وفيناه ؛ ولكن الجماعة مع ذلك مدينة لبعض الأفراد هي أيضاً ؛ ألا يقول « كارليل » ما تاريخ الإنسانية إلا تاريخ عظمائها ؟ وإذاً فلا أقل أيضاً من أن تحترم الجماعة الفرد وتشجعه على خدمتها ، وتسمح له بإصلاح ما فيها من عيوب والسمو بها إلى مثله العليا . وإذ كان الجمال في الفن هو « كثرة » تسيطر عليها « وحدة » كما يرى الأستاذ « كوزن » في كتابه الفريد : « الخير والحق والجمال » ، فإن (السير برسى نن) يرى أن تاريخ الإنسانية يتطور ويتقدم نحو « الفردية » المتزنة ، وكلما قطع في تطوره شوطا كلما كانت الحياة أسمى وأهنأ وأرفع وأخصب

وإذا كان الأمر كذلك فماذا عسى أن تكون العلاقة الصالحة بين كل من الجماعة والفرد ؟

يقول هوبهوس « يجب أن تنمو الجماعة وحدة متناسقة فلا يتضخم فيها « فرد » ويصير مارداً على حساب الجميع »

ويقول الأستاذان « ديوى ونفت » إن مقياس كل نظام

(١) أنظر .،. A source Book فصل الجماعة والفرد

(١) أنظر كتاب الحرية للفيلسوف المذكور ترجمة الأستاذ طه السباعي

اجتماعى هو : « هل يجعل قدرة الفرد حرة فى زيادة الخير العام ؟ وهل يسمح بمساواة الجميع فى فرصة إظهار الكفايات ؟ » بل إن (ديوى) ليقف عند كل نظام سياسى أو غير سياسى ليرى أى دوافع يثيرها ؟ وأى أثر له على من ينفذونه ؟ أهو يحرر القوى ؟ وإلى أى حد ؟ وللجميع أو للأقلية ؟ وهل تسير القوى التى يحررها فى طريق معقول ؟ وإذا كان النظام نظام تعليم نراه يسأل « هل يرهف الحواس ويدرب العقول ؟ وهل يثير حب المعرفة فى النفوس ؟ وما هو نوع « حب المعرفة » هذا ؟ أهو عرضى يطفو أم جوهري يغوص ؟[1] » ، وهكذا دواليك..

بقى أن نتساءل وما « المصير » ؟ أإلى ماهو أحسن كما يقول التفائلون ؟ الواقع أن الجماعة فى تطور دائب مستمر وإن كنا لا نستطيع أن نعتبر كل تطور نجاحاً . وبعد الوقوف على آراء — هوبهوس — وديوى — وفاجيه — وشو — ويود — ومل — وبيرى[2] — فى ذلك الموضوع نستطيع أن نقول: إن « النجاح فى الجماعة ليس أوتوماتيكياً بل يعتمد على الإرادة والقصد ، وإن الهرم فى الأمة يمكن أن يجتنب تماماً بمرونة العادات ، وإن مذهب « إمكان التحسين » خير من التفاؤل البحت أو التشاؤم البحت ، لأنه وحده يبعث على الأمل والرجاء ، ويمنع الغرور واليأس ، وإن « حرية الفكر » هى أهم عامل فى التطور نحو « الأحسن » وخصوصاً إذا اقترنت ببنية بريئة فاضلة ونفوس حازمة عاقلة ، وإن « انحطاط » العهود التاريخية المظلمة ليس غير حقارات أفراد ، وطوائف ، وأحزاب ، وجماعات ، أكثر مما هو حقارات أمم وشعوب . وإذاً فتقدم الإنسان بيده لا بيد الطبيعة الصماء ، وذلك طبعاً أفضل له وأشرف . وهاهو ذا تقدم العلم يقول لنا أن ليست هناك غاية موضوعة ، ولكن هناك ما يمكن أو ما يجب أن يكون

ولكن تُرى من يدفع الجماعة إلى هذا « المصير » ؟ وكيف السبيل إلى ذلك الدفع ؟ يرى « أرسطو » أن ذلك هو واجب الحكومة وسبيله التربية ، ولكن « ديوى » يخشى إشراف الحكومة لأنه يعتبرها أكثر جموداً وتلكؤاً من المجتمع ، ولذلك نراه يعتمد على «الهيئات الحرة» أكثر مما يعتمد عليها ؛ وهاهي ذي الحكومات كثيراً ما تخطىء في الخطط وتجني على الديموقراطية جناية نكراء ، ألم تحول إيطاليا المدارس إلى ثكنات عسكرية يحرم فيها النشء من أشياء فى الحياة كثيرة ، ويساق سوقاً إلى نظام تعسفى مرذول فرضته سياسة خاصة قوامها الوطنية المتعصبة التى لا يضيرها احتراق بعض العالم ما دام فى ذلك خير لها ؟

* * *

وبعد فتلك هى الجماعة ، وهـذا هو الفرد كما تتصورهما الديمقراطية الحديثة ، جماعة مرنة متجددة ، وفرد حر خادم مطيع ثم تقدم يدفع بهما معاً نحو « الأحسن » قوامه الحرية والنية الفاضلة ... ولما كانت التربية هى الوسيلة الوحيدة الفعالة الجديرة « بخلق » هذه الجماعة وذاك الفرد ، فإنها يجب أن تكون بحيث تستطيع خلقهما خلقاً صحيحاً يقى الإنسانية آفات الرجعية والجمود ، ويوفر عليها حقارات أولئك الذين يسودون صفحات التاريخ ! . ومعنى هذا أن تكون المدرسة مجتمعاً صغيراً تتوافر فيه جميع الأسباب التى تحرر العقول ، وتطهر النفوس ، وتغرس التعاون والإيثار ، وتمهد للمجتمع الفاضل المنشود ... ويتطلب ذلك بالطبع اتباع طريقة فى التدريس خاصة ، والعناية بدراسة معينة ، أو معاملة الطلبة على أساس ديموقراطى مرسوم ؛ ولست تطمع من غير شك فى أن أمر معك بكل التفاصيل . وحسبك أن تعلم أن رياضة الغلبة والتعصب والأنانية والتنافس ، لا تؤدى بنا إلى شىء من هذا كله ، وأن حشو العقول لا يحررها ولكنه يشلها ويبلدها ، وأن الاهتمام بالحروب والاطناب فى سير أبطالها يبرر ما فيها من نهب وسفك وهدم وتدمير لدى الناشئ الساذج البرىء ، وأن الدروس الإلقائية التى لا تطبيق فيها ولا تعاون لا تعمل أكثر من تكوين أفراد « لأنفسهم » قبل أن يكونوا لغيرهم ، وأن إعطاء كل شىء للطالب وتوفير مجهود البحث والاطلاع عليه يجعله اتكاليًا عديم الثقة بنفسه والاعتماد عليها . وأن ... وأن ... وأن ... مما قلت وما سأقول ، وما تستطيع أن تدركه أنت دون ذكره أو الإشارة إليه ! كل ذلك لا يخلق الجماعة الديموقراطية المرنة المتجددة ، ولا يتمخض إلا عن عقول العصافير ، وإلا عن نفوس يملكها الركود والخمول ، وعن طوائف العصبية والانخذال، ونزعات الرجعية والأنانية والشهوة والجمود... وها أنت ذا ترى العالم يمجد سياسة الحروب ويدعو إليها ويجد وا أسفاه من الشعوب جنوداً مثلهم الأعلى الإسكندر وهانيبال

(١) أنظر A source Book (٢) أنظر A source Book

المثل الأعلى للشاب المسلم (*)

للأستاذ علي الطنطاوي

كما أراد الشاعر الفرنسي الأشهر بول فاليري أن يحاضر بدأ بتعريف مدلول الكلمات التي يتألف منها عنوان المحاضرة. وهذه هي عادة أجدادنا، إذا أخذوا في الكلام على علم من العلوم أو بحث من المباحث، فليس عليَّ إذن من بأس إذا اتبعتها هذه الليلة، فبدأت محاضرتي بتعريف المثل الأعلى، والكلام على صفات الشباب الأساسية، وتلخيص القول في الأسلام ...

إنه ليس فيكم أيها السادة من هو راض عن حالته، مطمئن إليها، وليس فيكم من لا يتصوَّر حالة خيراً منها، فإن كان عالماً فكر فيمن هو أعلم منه، وإن كان غنياً تصوَّر من هو أغنى. فاذا صار مثل من يتصوَّره من الأغنياء، أو يفكر فيه من العلماء، طمح إلى درجة أعلى، ومنزلة أسمى، لا يكاد يبلغها حتى يزهد فيها، ويطمع فيما وراءها. وإذا أنتم استعرضتم أعلم العلماء، وأجمل الفتيات، وأبهى الرياض، وأبرع الصور، وأفخم البنى، لرأيتم الذهن البشري، يتخيل على أهون سبيل، عالماً أكبر، وفتاة أجمل، وروضة أبهى، وبنية أفخم، وصورة أبرع ... ثم يبالغ في التخيل حتى يستقر على مرتبة، ويثبت في منزلة لا يرى فوقها منزلة، فتكون هي المثل الأعلى

فالمثل الأعلى إذن هو أسمى ما يتصوره العقل البشري ... والمُثُل تتعدد بتعدد الناس، فلكل مثله الأعلى في الحياة، وعدد الأشياء فلكل شيء صورته الكاملة، ولكنها تجتمع كلها على افتراقها، وتتحد على تعددها، في أشياء ثلاثة نبه إليها أفلاطون وأخذ بها الناس في كل عصر ومصر، وأجمعوا على إجلالها، واتخاذها مثلهم العليا، وغاياتهم السامية؛ وهنَّ: الحق والخير والجمال

هذا هو المثل الأعلى. أما الشباب، وهل أحتاج إلى تعريف الشباب؟

الشباب الحياة، والحياة الشباب، (روائح الجنة في الشباب)(1)

خَـلَقٌ العيش في المشيب ولو كا ن نضيراً وفي الشباب جديده(2)

الشباب يا سادتي الواحة الفريدة في صحراء الحياة، هو الربيع في سنة العمر، هو البسمة الوامضة على ثغر الزمان القاطب. الشباب في الأمة قلبها الخافق، وعيونها الناظرة، وأيديها العاملة

لست أعني هذا الشباب الغض الغريض، الحلو الناعم، الذي يجرح خديه لمس النسيم، ويدمى بنانه مسُّ الحرير، والذي يرق حتى يسيل من العيون نظرات ساحرة مغرية، ويدق حتى يستحيل إلى فكرة تطير كالفراشة بين أزهار الجمال في روضة الحب، أو نسمة معطرة تهب من حراش فتاة فتانة، أو قبلة فيها خمر وعسل تجمع لذائذ الدنيا في رشفة مسكرة ... لست أعني هذا الشباب الفاتن المتأنث الذي يسبي القلوب، ويسلب النفوس، ويعيش للهوى والأحلام، ويبدأ تاريخ حياته بالحاء (ح) فلا يتلبث أن ينتهي بالباء (ب) ...

إنما أعني الشباب الحيَّ العامل القوي المتين، الذي وضع له غاية في العيش أبعد من العيش، ونظم نفسه حلقة في سلسلة شعبه، واتخذ له مطمحاً، ومثلاً عالياً، ثم عمل على بلوغه، وسعى إليه باندفاع الصواعق المنقضة، وقوة العواصف العاتية وثبات الطبيعة، وألقى في سفر حياته الراء بين الحاء والباء؛ وهل الحياة إلا حرب دائمة ونضال مستمر، فتنازع على البقاء، وتسابق إلى العلاء

لا يبقى غير الصالح، ولا يصلح غير القوي ... هذه هي الحقيقة الباهرة، هذا هو القانون المقدس الذي لا يلغيه برلمان، ولا يعبث به إنسان، ولا يخرج عليه إنس ولا جان ولا حيوان، لأنه من قوانين الله التي كتبها على صفحة الوجود يوم أخرجه من العدم، وقال له كن فكان

(1) أبو العتاهية (2) البحتري

(*) « خلاصة المحاضرة التي ألقيت في نادي (اتحاد الشبيبة الاسلامية) في بيروت مساء الخميس ٢٦ ذي القعدة سنة ١٣٥٦ الموافق ٢٧ يناير ١٩٣٨ »

وقيصر ونابليون (1) ... أفكان ذلك يتأتى لو درس الطفل تاريخ الإنسانية لا تاريخ الوحوش؟

وحسبي اليوم ذلك وإلى اللقاء حيث نرى لوناً آخر من الكلام

(يتبع) محمد حسن ظاظا

مدرس الفلسفة بمدرسة شبرا الثانوية الأميرية

(1) خطب موسوليني يوم أن انسحب من عصبة الأمم، فندد بسياسة جنيف — سياسة الضعف — وطلب من قومه أن يوافقوه على أن إيطاليا أصبحت حرية تمجد القوة، فوافقوه في سيل جارف من الهتاف والتصفيق!!

الجراد يأكل البعوض ، والعصفور يفترس الجراد ، والحية تصطاد العصافير ، والقنفذ يقتل الحية ، والثعلب يأكل القنفذ ، والذئب يفترس الثعلب ، والأسد يقتل الذئب ، والانسان يصطاد الأسد ، والبعوض يميت الانسان ... هذه هي السلسلة الالٰهية الخالدة لا تبديل لها ولا تغيير . إما أن تقتل الأسد ، وإما أن يقتلك البعوض

فيا شباب ! لا يغلبكم البعوض ، ولكن اغلبوا الأسود !

***

الحق ثقيل ، ولكن الحق أحق أن يقال . فأرجو ألا يغضب مَن ههنا ممن يحسبون أنفسهم شيوخاً إن خاطبت الشباب ، وقلت إن المستقبل للشباب . ولكن من هم الشباب ؟ يصف أندريه موروا الشباب بالرغبة الأكيدة في حياة العاطفة والحب ، وحياة الحماسة والبطولة ، أي بالمجون والاستهتار ، والميل إلى الإصلاح ، والإخلاص للمبدأ والزعيم ، والاندماج والفناء في المجموع (في الجمعية أو الحزب أو الأمة) وبأنهم أدنى إلى المثل العليا ، وبأن شعارهم الإقدام والتعجل والسرعة وبعض الأناة والانتظار [1] . الشباب بهذه الصفات ، ليس الشباب بورقة النفوس وسجل الميلاد ؛ فكل من مات قلبه ، وانطفأت شعلة حماسته ، وضاعت مثله العليا ، وأحس بأنه قد بلغ مأمله فلم يعُدْ له أمل ، فهو شيخ ولو كان في العشرين من سنه . وكل من كان له قلب ، وكانت له آمال ومطامح ، وكل متحمس مندفع شاب ولو شاب !

فلا تغضبوا ياسادتي الكهول إذا قلت إن المستقبل للشباب ، ورفعت من شأن الشباب ، فإن فيكم شباباً ولو ابيضت لحاهم ورءوسهم ، وانحنت ظهورهم ، وتجعدت جباههم . هم شباب العزائم والقلوب ! وهؤلاء الخاملون من الشباب هم الشيوخ . لا تعجبوا ياسادتي ، فلقد كان شوقي شيخاً في مطلع شبابه يوم كان شاعر الأمير ، ثم عاد شوقي شاباً في كهولته يوم صار شاعر الآمال والآلام ، شاعر العروبة والإسلام ...

***

بقي عليّ تعريف الإسلام ، ولكن من العبث يا سادتي أن أعرّف الأسلام ، وأنا أحاضر قوماً هم بحمد الله مسلمون ، ولا يكون مسلماً من لا يعرف ماهو الأسلام ، ولاصلة له بعلومه ، ولا اطلاع له على أحكامه ، ولا وقوف له على أمره ونهيه ، وعند أمره ونهيه . إن من العبث أن أقول لكم إن ديننا إيمان وعقائد ، وإسلام وعبادات ، وإحسان وأخلاق ، وسياسة وشريعة ، وإن له في كل جانب من جوانب الحياة مصباحاً يضيء ، ومناراً يهدي ، وإنه لا يفارق المسلم أبداً ، ولا يدعه لحظة . إن كان وحده ، منفرداً بنفسه كان معه الاسلام يأمره بأن يحاسب نفسه ، ويتوب من ذنبه ، ويتأمل في بديع صنع الله في نفسه وفي العالم ، ويستدل بالصنعة على الصانع ، وبالأثر على المؤثر . (وفي أنفسكم) أكبر الدلائل ، وأقوى الحجج ، (أفلا تبصرون ... ؟) أو لا يتفكر هؤلاء الجاحدون (أخلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ؟) . (أو لم يتفكروا في أنفسهم ؟ ما خلق الله السموات والأرض إلا بالحق وأجل مسمى) ، (أفلا تتفكرون) . وإن كان المسلم في المجتمع كان معه الاسلام ، يبيّن له سبيل الحكمة ، ويدله على صراط الأخلاق المستقيم ، ويأمره بأن يحسن استعمال هذه القوى التي وهبها له الله ، فلا يتبع بها ما ليس له به علم ، (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) ولكن يستعملها في سبيل العلم ، العلم كله حتى الفلك والجيولوجيا وعلم الأجناس ، هذه العلوم من آيات الله . ألم يأمر الله بهذه العلوم التي يمنعها بعض مشايخ العصر ؟ قال تعالى : (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين) ، (إنما يخشى الله من عباده العلماء)

ينظم الإسلام العلاقة الاجتماعية خير تنظيم ، ويبني الأمة أمتن بناء ، يبدأ بإنشاء الأسرة فيجعل لها رأساً مسئولا ، له حق الطاعة لينتظم الأمر ، وتتم المصلحة ، وعليه واجب العدل والعمل ، وجعل الرجل هو الرأس [1] لطبيعة تكوينه وخلقته ونوع عمله وغايته (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) وجعل على النساء

(١) أندريه موروا : عن كتاب (طريق السعادة) تعريب سعيد القضماني — وهو مجموعة محاضرات في السعادة والزواج والأسرة — خليق بكل شاب أن يقرأها

(١) ومن آيات الله في ملكوته أن الرأس لا يكون إلا مذكراً في اللغة وفي الحياة ، ولكن أكثر الناس غفلوا عن الآيات فأنثوه فقالوا في صحفهم : هذه الرأس ، وقالوا في بيوتهم : هي الرأس !

واجباً ، ولكنه أعطاهنّ حقاً مثله (ولهنّ مثل الذى عليهنّ بالمعروف) ، ورفع من شأن التربية ، وجعل للمربين الأولين ، للوالدين أرفع مقام ، وجعل طاعتهما مقرونة بالتوحيد الذي هو رأس الدين وبيت قصيده ودعامة بيته . قال عزّ من قائل : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) ووضع خير القواعد وأحكمها للزواج والطلاق [1] والإرث ، وينظم الاسلام أمور الأمة ، ويقيمها على أساس من الفضيلة والعدل . (قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق) ويشرع لها القوانين الثابتة المحكمة في معاملاتها ، والقواعد الأخلاقية السامية فى علاقاتها الخاصة ، ويدعو إلى ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة والدليل الواضح والبرهان القاطع ، لا بالارهاب ولا بالترغيب . (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً) ودعا المخالفين إلى المحاجة والمناظرة ، وإقامة الأدلة (أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم) (أإله مع الله قل هاتوا برهانكم) . وعاب الاسلام التقليد والجمود واتباع الآباء والأجداد ، وإهمال العقل ، ودفع الناس إلى التفكير ، وإقامة البراهين العقلية والأدلة اليقينية ، أى أنه دعا منذ (١٤٠٠) سنة إلى الطريقة العلمية التى يفخر بها علماء اليوم ويظنونها من ابتكارهم وأثراً من آثار حضارتهم . قال تعالى يذم أهل الجمود وينعي عليهم (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ؟)

إنكم تعرفون هذا كله أيها السادة لأنكم مسلمون ، وإن من العيب أن ألقيه عليكم فما جئت لأعرّف الاسلام ولا أرد تعريفه . ولكن أحببت أن أوجه أبصاركم إلى مسألتين مهمتين :

أما المسألة الأولى فهى أن ديناً يضع للعقل قواعد فى التفكير ، ويشرع للعلم طريق البحث ، وينظم حياة الفرد وحياة الأسرة ، ويكون هو القانون المدنى والجزائى ، والقانون الدولى ، والأخلاق والفلسفة — إن ديناً هذا شأنه لا يصح أن يعدّ مع الأديان التى لا تتجاوز أحكامها عتبات معابدها ، ولا يجوز أن نطلق عليه ما يطلقونه عليها من أحكام . فاذا قبلنا بمبدأ فصل الدين عن السياسة مثلا وهو مبدأ محترم ، فلا يصح أن نستنتج منه وجوب فصل الاسلام عن السياسة ، لأن الاسلام ليس ديناً ، ولكنه دين وسياسة . هل تستطيعون يا سادتي أن تحذفوا سورة براءة مثلا من القرآن لأنها سياسة .. ؟ وإن قبلنا مبدأ استقلال العلم عن الدين لأن الدين لا يستند إلى البحث العلمى ولا إلى العقل فلا يصح أن نسحب هذا الحكم على الاسلام لأن الاسلام ليس ديناً وسياسة فقط . ولكنه دين وسياسة ومنطق وعلم ...

هذه يا سادتى حقيقة ظاهرة ظهور الشمس، ولكن أكثر شباننا لا يرونها ، خفيت عنهم ، وغربت هذه الشمس من أفق تفكيرهم ، فتخبطوا فى ظلام ليل أليل ، فلذلك ترونهم يأخذون كل ما يقوله الافرنج عن دينهم فيطبقونه على الاسلام ، على الاختلاف بينهما ، والتباين بين طبيعتيهما ...

ولعل من هذا الباب تسمية العلماء برجال الدين وإنها لتسمية باطلة فشت على الألسنة وعم بلاؤها ونسى المسلمون أنهم كلهم رجال الدين . دين الاسلام ، دين المساواة والسمو والعمل ، ليس فيه طبقات مميزات من طبقات ، وليس أحد أحق به من أحد ، وليس فيه جماعة هم وكلاء الله ، يحلون ويحرمون ، وهم أصحابه الأدنون وأهلوه الأقربون ، وغيرهم الأبعدون ، ولكن المسلمين كلهم (أبناء النبى وعترته والفارسين والصينيين) وكل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ... لا فضل لأحد منهم على أحد إلا بالتقوى والعلم والقيمة الشخصية : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى) ... (يا فاطمة بنت محمد ، لا أغنى عنك من الله شيئاً) ...

فلا تقولوا للعلماء رجال الدين، ولا تحملوهم وحدهم واجبات الدين ، فان رجال الدين هم كافة المسلمين . ليس عندنا إلا العلم والتقوى ، فمن كان عالماً عظمناه وسألناه ، ومن كان تقياً أحببناه وأجللناه ، ومن أخطأ وحرف رددناه أو ردعناه كائنا من كان ذلك المخطىء وذلك الناقد . ليس الناقد بأقل من تلك العجوز ، وليس المنقود بأجل من عمر !

هذه المسألة الأولى . أما المسألة الثانية التى أحب أن أوجه إليها أنظاركم ، فهى أن الدين على ما يفهمه العلماء من أهل أوربا هو الذى ينظم علاقة الانسان بالله ، وبما خلق الله من المخلوقات المغيبات وراء المادة وبالعالم الآخر ، فلا علاقة له بالحياة السياسية ولا الأوضاع الاجتماعية ، ولا بالقوانين والنظم ، ولا يصح أن تبنى

(١) لا تفتش عن قواعد الطلاق المحكمة إلا فى كتاب العلامة الشيخ احمد شاكر .

عليه الجامعة الوطنية . هذا ما يقرره العلماء الذين بحثوا فى هذه الجامعة وطبيعتها وقيمتها ، وفى مقدمتهم (رينان) فى محاضرته المشهورة التى ألقاها فى السربون سنة ١٨٨٢ . وهذا صحيح فى الأديان ولكنه ليس بصحيح فى الاسلام ، لأن الاسلام ذاته وطنية ، ورابطة اجتماعية معنوية ، ليست قائمة على لغة ولا على أرض . ولكن على ما يسميه (أرنست رينان) بالارادة المشتركة ويجعله أساس الرابطة الوطنيــة . فليس وطن المسلم مكة ولا المدينة ولا البلد الذى ولد فيه ، ولكن وطن المسلم المبادئ الاسلامية ، فحيثما وجدت هذه المبادىء وحيثما كان أهل (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فثمّ وطن المسلم . وعندى أن هذه الرابطة الاسلامية رابطة (إنما المؤمنون إخوة) معجزة من أعظم معجزات الاسلام لأنه أقر منذ أربعة عشر قرناً المبدأ الذى اهتدى إليه العقل البشرى سنة ١٨٨٢ م وسار منذ أربعة عشر قرناً فى الاتجاه الذى يسير فيه العالم اليوم . لقد سقط اليوم مبدأ القوميات الذى دعا إليه الرئيس ولسن بعد الحرب ونهضت المبادىء الفكرية الاقتصادية ، فانقسم العالم كما ترون إلى جهات ثلاث : الديموقراطية والشيوعية والفاشية . وكما أن الشيوعى الفرنسى أخو الشيوعى الروسى ولو تناءت الديار وتباينت اللغـات واختلفت الأجناس فكذلك المسلم أخو المسلم ، أينما كان وكيفما كان . وكما أن الفاشىّ الايطالى أقرب إلى الاسبانى الفاشى من أخيه الاسبانى الشيوعى فكذلك المسلم الهندى أقرب إلىّ من غير المسلم ولو كان عربياً هاشمياً قرشياً !

وليس هـذا مجال البحث فى الجامعة الاسلامية ، وطريق تحقيقها ، فان لهـذا البحث موطناً آخر [1] وما أردت إلا لفت أنظاركم إلى هذه الناحية من الاسلام ، لأقول بأن الشاب المسلم لا يستطيع أن يندمج فى أى رابطة دولية تقوم على أخوّة غير الأخوّة الاسلامية ، ولا يقدر أن يدعو إلى أى رابطة قومية أو جنسية لأنه ليس من المسلمين من دعا بدعوة الجاهلية ..

« البقية فى العدد القادم »

على الطنطاوى

(١) وإن هذه الجامعة التى تستقر اليوم فى قلوب المسلمين عقيدة من عقائد الدين الأول ، وأملا من آمال الحياة السامية ، ستغدو فى الغد القريب حقيقة واقعة مشاهدة ، وقد بدت بوادرها فى اتجاه مصر العظيمة إلى الاسلام ، ورجوعها إلى الدين ، يقدمها أمير المؤمنين الملك الصالح (فاروق) أعز الله به الدين وحقق فيه آمال المسلمين

نظر ونقد

شعراؤنا فى موكب الزفاف

كان زفاف الفاروق حرسه الله بهجة غمرت جنبات مصر ، وهزت شعور أبنائها على اختلاف طبقاتهم بالجـذل والسرور ، فنهضوا يتسابقون فى إعلان جذلهم وسرورهم بشتى المظاهر والظواهر ، فإذا مصر من ذلك فى صورة رائعة من الواقع رجحت الخيال ، وأصغرت مالها من الأشباه والنظائر فى التاريخ ، وازرت بمـا يمثله القصص الموضوع عن « الليالى الملاح » فى ألوان الترف والنعيم ، واشتمال الأنس والصفاء ، ومهـارة العقل فيما أبدع ، وجمال الفن فيما نوّق ؛ على أنها تنفرد فى هذا كله بجلال الاخلاص ، وصفاء الحب ، وروعة التمجيد . وسيكون للتاريخ من ذلك صفحة وضاءة مشرقة ، لم تكن له فى الأيام الخالية ، أخشى أن يطالعها الناس فيما بعد فيقولوا : إنها تلفيق الخيال ، وصنيع الكذب ، كما نقول نحن فى ليالى ومحافل ألف ليلة وليلة وأشباهها من القصص المختلق

لقـد شهد المصريون جميعاً ذلك اليوم ، وامتلأت نفوسهم وقلوبهم بروعته وجماله ، واستطاع كل فرد وكل جماعة أن تعبر عن شعورها بذلك أوضح تعبير وأجله ، فكان اليوم فى كل مناحيه ومظاهره يوم الشعراء ؛ الشعر يبدو فى مجاليه ، والحسن يزهو فى حواشيه . هو دنيا تفيض بالجمال والجلال ، وشمس تشع على الكون نور البهاء والرواء ، فأينما سرحت النظر وجدت حفزاً للشعور ، وإرهافاً للإحساس ، وتزكية للعواطف ؛ والشعراء كما نعلم أوفر الناس شعوراً ، وأرهفهم إحساساً ، وأزكاهم عاطفة ، تلك هى مواهبهم التى تميزهم عن سائر الناس ، وتطوّع لهم الصناعة الشعرية دون غيرهم ، فكان لا بد أن تفيض نفوسهم بمـا رأوا قوافىَ كلها الإحساس بالجمال والجلال ، وأن يجرى شعرهم بما فى نفوسهم أوزاناً صادقة منسجمة هى لحن الزمن الباقى على الزمن ، ونغمات الأجيال المتعاقبة على كر الدهور

على هذا الاعتبار كان الشعر سجلاً خالداً لحوادث التاريخ ،

وعظائم الدهر، وروائع الأيام؛ وعلى هذا الاعتبار اندفع الشعراء قديماً يتحدثون عن زفاف المأمون إلى بوران، وهو زفاف له فى التاريخ خبر مشهور، وهو يشبه زفاف الفاروق فى كثير من الأفراح والمعالم؛ وعلى هذا الاعتبار أيضاً انتظرنا وانتظر الناس ما وراء شعرائنا فى اليوم الحافل، والزفاف الذى لم يعهد مثله فى عصر من العصور، وقلنا: لعلهم يتركون فى ذلك للأجيال المقبلة صفحة قوية بروعة التصوير وإبداع المعانى، وجمال الأسلوب، وانسجام الخيال، وسلامة الذوق

ولقد قال شعراؤنا فى يوم الزفاف ما وسعهم القول، ففاضت أنهار الصحف بكثير من الكلام الملفق المجنح الأشطار مقدماً بالتقاريظ والتزكية، وأقيمت حفلات متعددة «أراق» فيها الشعراء على «مناضد» الشعر ما أعدوا لذلك من كل «خريدة عصماء» رسم حدودها الخيال وياله من خيال... ونسق وشيها الذوق وإنه لذوق... وأبدع معانيها العقل وأى عقل... وقد سمعنا الجمهور يهتز لكل ذلك طرباً، ويصفق من العجب تصفيقاً عالياً مُدوياً أدمى الأكف، وصك المسامع، وأضجر الأعصاب. ولو كان الحكم الأدبى ومقاييس الشعر هى على ما يرى الجمهور وتقدّر الصحافة لكان شعراؤنا على ذلك قد بلغوا الذروة التى لا تطاول، ولكان شعرهم آية الابداع والاختراع، فمن حقه البقاء والخلود والإجلال والتقديس، ومن الواجب علينا أن نعتز به ونفاخر، وأن نكتبه فى «القباطى» ونعلقه بأستار... بأستار ما لا أعرف!!

ولكن الحكم الأدبى فى تقدير الفن والأدب إنما هو للذى يستطيع تعليل حكمه كما يقول العقاد. فاذا عجز عن الحكم استطاع أن يعلل عجزه بكلام سائغ فى الأفهام، ولا يكون ذلك إلا ناقد ذو ثقافة أدبية واسعة، وطبيعة فنية موهوبة، ونظر مميز فاحص. فهو الذى يمكنه أن يميز الجوهر من الخزف، والدر من الصدف؛ وهذا التمييز هو المعول عليه فى التقدير الحق، وهو الحكم الأدبى الصحيح الذى يرمقه المعنيون بدراسة التواريخ الأدبية للأمم والأفراد، ثم هو الذى سيبقى على الزمن على حين تطير الفواقع والقواقع، وتموت التقاريظ الأدبية الرخيصة، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض. وأنت أبقاك الله تعلم حق العلم أن حكم الناقد إنما يكون له هذا المقام من الاجلال والاكبار والتقديس والتقدير إذا ما تجرد من الهوى والميل، وتنكب التدليس والتمويه، وارتفع عن الارتباطات الشخصية وعلاقات الصداقة، وكان القصد فيه الحق للحق، والفن للفن والانصاف مجرداً عن كل غاية ومأرب، فان الأمور الشخصية والميل مع الهوى شر ما منيت به أعمال الخير فى كل عصر ومصر، وشر ما منى به النقد الأدبى فى مصر على الخصوص، وشر ما منى به الأدب فى جميع نواحيه على تقدير صحافتنا سددها الله إلى الرشد، فكان من وراء هذا أن ساء ظن الناس فى أهل الأدب والنقد، وأصبح وجود الناقد الحر فى اعتقادهم كوجود الغول والعنقاء والخل الوفى!

ولقد انتوينا أن نتناول شعر الزفاف بالنظر والنقد على ما يتفق وحرمة النقد البرىء، وكرامة الفن المهذب، ومهمة «الرسالة» الشريفة. سنقول للمحسن أحسنت، وللمسىء أسأت. سننظر إلى ما قيل لا إلى من قال، لا نخضع فى ذلك إلا لوازع الضمير وسلطان الحق، ومعايير الفن. ويعلم الله لقد حفلنا لذلك ما وسع الجهد، فسبقنا إلى كل حفل، ونهضنا إلى كل جمع، واستمعنا وقرأنا كل ما قيل وما نشر حتى ما لا يستحق أن يسمع ولا أن يقرأ. ولعلنا بهذا العمل نكون قد سجلنا على صفحات الرسالة، وهى سجل الأدب الخالد، لوناً طريفاً من ألوان الأدب لا يخلقه إلا المناسبات الطيبة، والفرص السعيدة، وما أقلها فى تاريخ الأمم، وما أندرها فى حياة الأفراد

ولا أكتمك الحق إذا قلت لك إن شعراء الزفاف قد قصروا عن الشأو، وقعدوا دون الغاية، وخيبوا الأمل، وكان الأمل فيهم كبيراً، وخذلوا الشعر وكنا نرجو للشعر على أيديهم نصراً مبيناً!! الأمر الذى جعلنا نعتقد اعتقاداً صحيحاً أن الميدان قد خلا من بعد صاحب الشوقيات، وأن الشعر عند شعرائنا تلفيق وشعوذة وصناعة احتطاب على حد تعبير الرافعى رحمه الله، فليس هناك إلا إحساس ضئيل إن دل على شىء فانما يدل على أن فى نفس صاحبه شاعرية كنبوة مسيلمة...

لقد كان يوم الزفاف حافلاً بمعالم الزينة والبهجة، يفيض كما قلنا بالجمال والجلال، والبهاء والرواء، فكان فى كل منظر

شعر ، وفى كل مظهر سحر ، وفى كل وضع فن ، فلو فاز ذلك اليوم بشاعر كابن الرومي أو شوقى لربح الشعر والفن ؛ ولكن كل هذا لم يكن له مع الأسف أدنى أثر فى إحساس شعرائنا ، فطاروا بخيالهم إلى عنان السماء ، يصفون النجوم وجمالها ، والأفلاك ومداراتها ، وراحوا يُنطقون الطيور بالسجع ، والعنادل بالتغريد ، وقفزوا إلى الرُبى قد غطاها الزهر والنور وما فى مصر شبه رابية من ذلك ! واهتموا كثيراً بداوود ومزماره ، وعنوا جميعاً أن يُذكرونا بيوم الحشر والنشر ، وكأنهم لم يعرفوا من سجايا المليك إلا الذهاب إلى المساجد وصباحة الوجه فوقفوا عند هـذا الحد وما زادوا ! ! ثم هم قد جروا على طريقة لا تُرضى فى الأسلوب الشعرى . يريد بعضهم أن يقوى فيتعجرف ، ويروق لبعضهم أن يلين فيسخف ؛ أما الإحساس بما كان من بهجة الزفاف ، وروعة الزينة ، واشتمال الصفو ، وفرح الشعب ، وتزاحم المواكب ، وعرض الجيش ؛ وأما الملك يبادل شعبه على هذا كله حباً بحب ، وعطفاً بعطف ، كل هـذا لا نجد له ذكراً فى شعر الزفاف . فكأن غاية القول عندنا أن نترسم السابقين فى إحساسهم وخيالهم وأسلوبهم ، لا أن نقول كما نحس وعلى ما نرى وبما نسمع ! !

إن شعر الزفاف فى الواقع قد جاء فاقداً للخصائص المميزة ، وهي لا شك كل شيء فى الشعر خصوصاً شعر الوصف والمديح . فمن السهل جداً أن يحول ذلك الشعر إلى حفل آخر ، ومن السهل جداً على شعرائنا أن يقصدوا به إلى أى موقف . فلو وقفوا مثلاً فى يوم عيد الميلاد الملكى المقبل ينشدون شعرهم هـذا للجمهور لصفق لهم الجمهور وقرظتهم الصحافة . أليس من الزول كما يقول المعرى أن يقف أحد أولئك الشعراء فيلقى مطولة فى حفل حافل وكلها تمجيد لجلالة الملك وإشادة بأخلاقه وليس فيها ذكر للزفاف ولا أى خبر عنه ؟ ! ومن يدرى لعل ذلك الشاعر كان قد قال قصيدته هذه فى عظيم من قبل ، ولعله ينوى أن يقولها فى عظيم من بعد ! وقديماً دخل أحدهم على سلم الخاسر فوجده يعمل قصائد بعضها فى رثاء أم جعفر وأم جعفر باقية ، وبعضها فى مدح رجال لم تعين أسماؤهم بعد ! فقال: ماهذا ياسلم ؟ قال: وما أصنع يا أخى وقد تحدث الحوادث فجأة فيطلب إلينا القول ولا يرضى منا إلا بالجيد !!

ولكن ما عذر شاعرنا وزفاف الفاروق لم يكن فجأة وإنما كان حديث الناس منذ زمن طويل يتسع لكل شيء

نحن لا نتجني على الحق ، ولا نحب أن نلقى الكلام على عواهنه ، ولكن نحب أن نشرح ونطل ، وأن نقدم الأمثال والشواهد ، ولذلك آثرنا أن نقف مع كل شاعر على حدة فنقرر ماله وما عليه ، وموعدنا بذلك المقالات الآتية إن شاء الله

« م . ف . ع »

أناشيد صوفية

جيتانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ٩٧ —

سأزينك بالرايات والأكاليل علامة غلبتك علي ؛ فما كان فى قوتى أن أدفع عن نفسى الهزيمة

لا ريب ، فكبريائى قد عُصف بها ، وحياتى تصدعت عن آلام مبرّحة ، وقلبي الخاوي تفجر عن لحن موسيقى كأنه اليراع المثقب ، وهذه الأحجار الصماء ستحور عبرات

لا ريبَ فى أن أوراق زهرة اللوتس لن تظل متماسكة أبد الدهر ؛ وأن رحيقها المكنون سيبدو فى وقت مّا

ومن خلال السماء الزرقاء ستحدق عين فىّ ثم تناديني فى صمت ، فأنفض عنى كل شيء ... كل ما أملك ... ثم أتقبل القضاء المحتوم عند قدميك

— ٩٨ —

حين ألقى بالدفة من يمينى ألقى بها لأنه يكون قد آن لك أن تديرها أنت ، وسيتم كل ما تريد فى لحظات ، وعبثاً هذا الجهاد

إذن ألق السّلم — يا قلبي — واصبر فى صمت على ما مُنيت به من إخفاق ، وثق بأنه من حسن حظك أن تستقر هادئاً فى مكانك ... مكانك الذى حللت

إن مصابيحي تنطفىء عنـد كل هبة نسيم ، وإني لأنسى ذلك حين أنطلق أضيئها

غير أني سأكون — في هذه المرة — حازماً ، فأظل في غسق الظلماء ، أنشر فراشي على الأرض ؛ وإذا طاب لك هذا — يا سيدي — فتعال إليّ في صمت ، واتخذ لك مجلساً بإزائي

— ٩٩ —

لقد اندفعت إلى أعماق بحر الأشباح علّي أجد الدرة الكاملة التي لا شكل لها

لن أبحر — بعد — على قاربي المحطم من مرفأ إلى مرفأ ؛ فما أطول الأيام حين أقضيها بين أمواج تتقاذفني !

والآن ، فأنا أستشعر في نفسي الشوق إلى أن أغتمر في الخلود .

سأندفع إلى مجلس السمر ، حيث اللجة ما لها من قرار ، وحيث الموسيقى تتصاعد مختلطة في غير نغم ... سأندفع إلى هناك وبين يديّ قيثار حياتي

سأوقع عليها ألحان الأبدية ، وحين آتي على آخر لحن ألقي بها عند قدمي السكون

— ١٠٠ —

لقد أفنيت عمري أفتش عنك بأغانيّ . إنها هي التي قذفت بي من باب إلى باب ، ومن خلال نبراتها لمست كل ما حولي ، فانكشف أمام عينيّ العالم ، فأحسست به

إنها أغانيّ هي التي علّمتني كل دروس الحياة ، وهي التي كشفت لي عن مسالك غامضة ، وحسرت لي عن كواكب تتألق في أفق قلبي

وهي قادتني إلى مفاوز في عالم من السرور والألم معاً ؛ وأخيراً ، ماذا عسى أن يكون باب هذا القصر الذي دفعتني هي إليه والليل ناشر أستاره ، فوقفت بإزائه وقد تمت رحلتي ؟

— ١٠١ —

إنني أباهي صحابتي بمعرفتك ، وهم يلمسون شعاعك في كل ما أعمل فيندفعون إليّ يسألون : « من عسى أن يكون ؟ » فما أدري بماذا أجيب ... ثم أقول : « حقاً ، إني لا أستطيع قولاً » فيتهكمون عليّ بكلمات لذّاعة ثم ينصرفون عني في ازدراء ، وأنت جالس هناك تبسم

وصفتُ أحاديثي عنك في أناشيد يتدفق في ثناياها السر الدقيق من قلبي ، فاندفعوا إليّ يسألون : « خبّرنا عن معاني حديثك » فما استطعت حديثاً ... ثم قلت : « من عساه أن يعرف ؟ » فابتسموا في تهكم ثم انصرفوا عني في ازدراء جامح ، وأنت جالس هناك تبسم

— ١٠٢ —

في تحية واحـدة إليك — يا إلهي — دع كل حواسي تنطلق فتلمس هذا الكون عند قدميك

وكما تتعلق سحائب يوليه وقد أثقلتها القطرات المكفوفة ، دع قلبي ينحن عند بابك في تحية واحدة إليك

واجعل أغانيّ تنتظم كل الألحان المتضاربة في تيار واحد ثم تدفق إلى خضم السكون لتكون تحية واحدة إليك

وكما ينطلق سرب من الكراكي وقد أهمته الغربة ... كما ينطلق في دأب ونشاط — صباح مساء — ليبلغ أعشاشه على قنن الجبال ، دع حياتي تتخذ طريقها إلى مستقرها الأبدي لتكون تحية واحدة إليك

(تمت)

كامل محمود حبيب

من أدب العصر

بين ديكى وكلبى

للشيخ حسن عبد العزيز الدالى

ديكى العزيز !

بقروش فوق الستين اشتريتك يا ديكى العزيز ، بعد بحث طويل عنك فى الأسواق . وما أكثر الديكة من إخوانك أيها الديك ، ولـكن قليلاً منهم ما يشبهك . وأين من الديكة جمال ريشك ، وطول عُرفك ، وثقل وزنك ، وخفة روحك ؟ صفات ما اجتمعت قبلك فى ديك . فأنت الذى كنت أبحث عنـه فى الأسواق بذاته وعينه وخصوصيته ، حتى عثرت بك !

وعنيت بأمرك يا ديكى كل العناية ؛ فأفردت لك جناحاً خاصًا تسرح فيه وتمرح ، فتنفش ريشك الأخضر الجميل ، وتخفق بجناحك الزاهى الممدود ، وتدلى عرفك الأحمر الطويل ، وتكركر بصوتك الموسيقى الصادح : كُر كُر كُرْ .....

بيدى كنت أقدم إليك الطعام فى الأطباق الصينى فى وجبات منتظمة الميعاد ، شهية المذاق ، مغذية سائغة ، استعداداً ليومك المعهود بعد ثلاثة أسابيع ، يومَ تُزَفُّ فى الصحفة الـكبيرة ، لتكون عشاء العروسين فى ليلة الزفاف . أىّ شرف كنت أُعدّ لك أيها الديك ؟ ولـكن ...

ليت شعرى ماذا أصابك أيها الديك ... ؟ لقـد كنت فى زيارتك أمس بعد الغروب ورأيتك وأنت تقفز بخفتك ونشاطك إلى العريش الذى اتخذته لك بيتاً عند ما يجن الظلام ... ويلى منكم يا معشر الديكة ! لا يفارقكم الزهو والخيلاء : فى النهار كرٌّ وفرٌّ وعُجْبٌ وكبرياء ، وفى الليل لا يرضيك أن يمس جنبيك التراب فتأبى إلا العلاء ... ؟ بَـلى ، رأيتك أمس يا ديكى فى خفتك ونشاطك ، وعافيتك وصحتـك ، وحوصلتك مملوءة ، وعرفك ريّان ؛ فماذا دهاك فى الصباح يا ديك ؟

يا أسفا وقد غدوت عليك لأقدم إليك الفطور بيمينى فإذا أنت جثة هامدة ، ملقى على الأرض ، معفر بالتراب ، تحت السرير الذى ارتقيته أمس مزهوًا أمام عينى !

لقد أحزننى مرآك يا ديك على هذه الحال ، وبجوارك ذلك الـكلب الصغير « بيتر » الذى أصفاك الود منذ حللت الدار !

ما بك من جرح أيها الديك يُظن أن صديقك الأمين قد أحدثه بك فى ثورة طيش ، وما بك رضٌّ يحتمل أن يكون من جراء سقوطك من مرقدك فى غفوة حلم ؛ وهذا مكانك دافئٌ لا إمكان لأن ينالك فيه برد ... إذن فماذا ... ؟

لا بد من تشريح الجثة لمعرفة سبب الوفاة . ليس فى الأمر جريمة على ما أعتقد وأرى ! أهى سكتة قلبية ؟ أهى ذبحة صدرية ؟ أهو تصلب فى الشرايين ... ؟ ليتنى أعرف يا ديكى العزيز ... !

يا للقدر ! لقد كنا نأمل أن يكون تشريحك بين العروسين فى ليلة الزفاف ، فكيف يطاوعنى قلبى أن أبدلك منهما مبضع الطبيب البيطرى ... !

* * *

هذا صديقك « بيتر » يهز ذيله فى حيرة ، وينكت الأرض برجليه فى ألم ، ويعوى من قلبه فى صوت مبحوح . ماذا يريد ياترى ؟ أيطمع أن يرشـدنا إلى القاتل وليس هناك جريمة ؟ أم يريد أن يقوم هو بعملية التشريح وتمزيق اللحم بعد ما أصبح الديك لا يصلح للعروسين ، أم ... أم هو يبدى الحزن على صديقه الفقيد ويريد أن يحفر له قبره بيده ...؟

من يدرى أى سر يعتمل فى صدر هذا الحيوان ! لقد تركناه لحاله وما فهمنا قصده ، واتجهنا إلى هذا الفقيد نفكر فيما نصنع به ، وأخيراً شيعناه بنظرة وداع ، وعقدنا العزم على أن نجعله طعاماً لبيتر . ما أشـد ظلم الإنسان للحيوان ، حتى على الموت ! لقد قطعنا فخذ الديك فنزعنا ما بها من ريش ، ثم جعلناها وجبة الطعام لبيتر ... ولـكن ... ياعجبا ! إن بيتر يأبى أن يأكل من لحم صديقه الذي مات ، على شهوته وجوعه . ها هو ذا يعمد إلى الريش المنزوع فيجمعه بفيه ثم يغطي به هـذه الفخذ العارية . لقد قام الـكلب بواجبه ، فكفّن صديقه فى أثوابه وواراه التراب !

يا للوفاء ! الـكلب يأبى أن يأكل لحم صديقه ميتاً وإنه لا يعف عن طعام ، والانسان — ويلى على الانسان ! — والانسان لا يتعفف أن يأكل لحم أخيه .. إن فى الـكلاب لنُبلاً وشهامة .. !

لله أنت يا بيتر ، وفى ذمة الله يا ديكى !!

حسن عبد العزيز الدالى
عمدة كفر دميرة القديم

معاودة الذكرى

تحفة من الشعر الغنائي الرائع

للشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين

عاوَدَ القلبَ حنينُهْ مَن على الشوق يعينُهْ
ويح قلبي من غرامٍ هاج بالذِّكرى كمينُهْ
يا لخفَّاقٍ إذا ما قَرَّ هزَّته شُجونُهْ
واصلٌ مَن صَدَّ عنه صائنٌ من لا يصونه
خانه الصبر ولولا الصدُّ ما كان يخونه
يا زمانا لم تكن إلاَّ هُنيهاتٍ سنينه (١)
كنتَ رَوضاً حالياً بالوصل قد رَفَّت غصونه
حُلُمٌ إن يَمْحُه الدهرُ فى الذكرى تصونه
كلَّما منَّاه ظنٌّ عاد باليأس يقينه
آه لو تدرين مابي ضاق بالقَيْد سَجينه
إنَّها تدرى ولكن لِصبا الغِيدِ فُتونه
أنتِ لى كلُّ شئونى وبلَ من أنتِ شئونه
كان لى دمعٌ فمالى جَفَّ مِن دمعى مَعِينه
مَن لصَبٍّ غدَر الوا فِى به حتى جفونه
سكن الليلُ فما لِلقلبِ يجفوه سُكونه
كلما ظَنَّ سُلُوًّا كَذبتْ فيه ظنونه
لا أذُودُ الحبَّ عن قلبي ولو شُقَّ وَتِينُه
كم فنونٍ ذاق فى الحبِّ وللحُبِّ فُنونه
فليَذُق ماشاء منه مارَعَى العهدَ أمينه
أيها اللائم دَعْهُ فلَهُ فى الحبِّ دِينهُ

أحمد الزين

(١) كذا ، ولعلها على رأى من يعرب (سنين) بالحركات

الضياء

للأستاذ أمين نخله بك

هذه القصيدة أهديت يوم نظمت إلى « مدموازيل كلير» ومن المحزن كثيراً أن تكون «مدموازيل كلير» قد غرقت فى — ضمير الفناء — فى أرض فرنسا ، على حين أن الأدب العربى يستقبل اليوم «الضياء» فيطرب لها ويتلألأ بها ، وصاحبتها التي من أجلها ألفت قوافيها وجمت لفظاتها غائبة عن الدنيا فى عتمة عميقة

فلتكن هذه القصيدة ، إذن ، ألطف زهرة على ألطف تراب فى أرياف « إيل ده فرانس » البعيدة ... قال الأستاذ نخله :

عاش لنا الصبحُ ، ومات المساءْ فى الصبح ألقاكِ، والقَى الضياءْ !
كأنَّ لطف الله ، سبحانه زحزح عند الصبح ذاك الغطاءْ
فالحمد لله على نعمةٍ تشمل حتى لون خيط الهواء !

***

إن الظلام المرتمي لجة أعمق غوراً من ضمير الفناء ..
يبتلع الدنيا على رحبها ويمسح الحسن ، ويطوى الرواء
لولا الضياء النمح ما اخضوضرت منابت العشب ، ولا ازرقَّ ماء !
فى دورة الجدول حمدٌ له وفى الأفانين عليه الثناء
ماالعيشُ،لولا الضوء، مالونه!؟ مانضرةُ الرغد ، وصفوُ الهناء؟!

***

ياضوء مشعشعٌ،أنت عيدُ الضحى عيدُ الشعاع الطلق ،عيدُ الفضاء
يا ناسجَ السحبِ على نوله أحسنتَ،فاسحبْ ذيلها ماتشاء
يا كاسيَ السنبلِ من عسجدٍ اخلع على الكرمة هذا الكساء!
إن الدوالى ، وعناقيدها سخيَّةٌ ،فاسكبْ لها عن سخاء
ياضوء ، يا أنس المغانى ، ويا بشائر الخير ولمع الرجاء
لك الحبورُ الذهبيُّ ، الذى راح على الوادى صباحاً وجاء!
رُبَّ شعاعٍ منكَ شكَّ الدجى فقام بالجرح ، وفى الفجر ناء
خلِّ الدجى يبكي على ملكه مقطَّب الوجه ، حوالى السماء!

***

من مبلغي من معمعان الهوى دفقة ضوء ، لا يليه انطفاء
أغرقُ فى النور حبيبى ، وفى زواخر الوهج وسكب البهاء..

أمين نخله

رسالة العلم

ما بعـــد الطبيعة

الحيـــاة

للسيد محمد حسن البقاعى

— ٢ —

إن الإنسان ليتساءل فيقول : ما هو أساس الحياة ؟ تُرى هل هو نموّ الحسّ وحركاته وألمه وعضويته ؟ فهذه المسألة لا يمكن الجواب عليها إلا بالاستعانة بالعلم والفلسفة . على أن البحث فى الحياة ليس إلا التفتيش عن الحى هل هو ناشىء عن مادة أو هل الحياة الموجودة فى الجسد مُحَصّلةٌ لأمور مادية أم خاضعة لمبدأ روحى عقلى ؟

ولعمرى إن النوص فى بحث الحياة وسبر غورها ليتطلب البحث فى النظريات التى وضعها الفلاسفة من القرون الأولى حتى عصرنا الحاضر . وهذه النظريات على نوعين :

(١) النظريات الآلية Mècanisme

(٢) النظريات الحركية Dynamisme

أما خلاصة ما يقوله واضعو النظريات الآلية فهي : إنه من الممكن تعليل الحياة بالخواص الموجودة فى كل نوع من أنواع المادة ، أى يمكن تعليل الحياة بالحركة التى تصحب المادة . فقد قال (فاندال) : « ليس تشكل نبات أو حيوان أو تبلور إلا حادثة ميكانيكية لا تختلف عن قضايا الميكانيك الاعتيادية إلا أن العناصر فيها بسيطة جزئية » على أن كيفية الحركة مركبةٌ ، فهي تعلل كل شيء بالمادة ، مثال ذلك : تركيب الماء من (H^2o) ليس هو إلا تركيباً مادياً ويدعمون نظريتهم هذه بسلسلة من الأدلة الطبيعية

الدليل الأول : إننا نستطيع إرجاع كل شيء من مظاهر المادة إلى حركة ، فالحرارة والنور يرجعان إلى اهتزاز وحركات فَلِمَ لا نعتبر الحياة مثلها ونرجعها إلى الحركات ؟

الدليل الثانى : إن مبدأ (لا فوازيه Lavoisier) المشهور ، والمعروف بمبدأ حصانة المادة وبقاؤها لخير دليل على أن الأجساد الحية لا يوجد فيها شيء غير المواد الكيميائية التى تنتج بتحليلها تحليلاً كيميائياً ، إذ أننا لو وزنّا المواد الحاصلة بعد التحليل الكيميائى ووزنا الجسم المحلل قبل ذلك لوجدنا هناك تعادلاً

الدليل الثالث : كنا نعلم أن التركيب الكيميائى يعطى مُركباتٍ ذات خواص لا توجد فى العناصر المركبة ، فتركيب كلور الصوديوم (cl Na) من الكلور والصوديوم يكسب المركب خواص مغايرة لخواص كل من عنصريه (cl) ؛ (Na) فَلِمَ لا تكون الحياة مركباً ناشئاً من مركبات مختلفة ؟

الدليل الرابع : لقد سمحت لنا التجارب الحديثة بمشاهدة بعض المماثلات والمناسبات الغريبة بين بعض صور الموجودات الحية وبين صور بعض الأجسام البللورية ؛ فمن هنا نرى أنه يمكن إيضاح الحياة ميكانيكياً مثلها

ولكن هذه الأدلة لم تسلم من الاعتراض ؛ فقد اعترض عليهم بعض الفلاسفة فقالوا : (إن العلماء حتى اليوم لم يستطيعوا أن يركبوا الحياة) غير أن هذا الاعتراض يستند إلى أساس أو هى من بيت العنكبوت . وهذا الأساس ليس إلا تلك التجربة التى قام بها (باستور) وأثبت عدم إمكان التوالد العضوى . فاذا لم يوصلنا العلم حتى الآن إلى تركيب جسم حى فلا بد أننا في المستقبل نستطيع ذلك . على أن كلام باستور : (إن الحى لا يتولد إلا من الحى) لا يمكن أخذه كمبدأ أساسى ما دام العلم فى ارتقاء وتقدم مستمرين ، وها هو (ليبنيز Léibniz) يقول : إن كل شيء فى العالم يحدث ميكانيكياً . ولكن يجب أن نرتقى إلى مبدأ أعلى ، وهو المبدأ الميتافيزيكى ليتجلى لنا إيضاح الميكانيكية نفسها : على أن فى الحياة نظاما واتساقا خاصا لا يمكن

تعليله فى الحياة الميكانيكية فقط ؛ مع أننا لا ننكر أن كثيراً من الحوادث الحيوية يمكن تعليلها بالحوادث الميكانيكية . فقد قال (كلود برنارد Claude Bernard) : ليس تكوُّن الجسم الحيوى من مجموعات عناصر كيميائية هو كل ما تمتاز به ، بل هو الحياة أى القوة الحيوية التى لا توجد فى الكيمياء ، كاتجاه أعضائنا كل منها إلى غاية كغاية القلب وغاية المعدة ... فنحن فى هذه النظرية فى عالم الافتراض ؛ لذلك نقول : إن كلاًّ من هاتين النظريتين : الميكانيكية والديناميكية تستطيع دحض الأخرى وتقويضها

ولقد اعترض (هنرى برغسون H. Bergson) على نظرية الميكانيكية فقال : الحياة كلها إبداعٌ فهى مبدعة : أى أن تيار الحيـاة يأتى دائماً بالجديد . فالحوادث الحيوية فيها عدم تنبؤ (Imprèvisibilité) ولا يمكننا أن نتنبأ بأن الأحفاد فيهم صفات الأجداد ، وهذا ما يدعونا إلى عدم إيضاح الحياة

وزيادة على ذلك فإن الحوادث الحيوية الموجودة فى الجنين لا يمكن إيضاحها بصورة ميكانيكية : فنرى أن الشبكة المينية عند ذوات الفقرات ناشئة عن اتساع القسم الدماغى فى الرشيم الحديث بينما هى عند النواعم مشتقة من الأدَمَة أى من الخارج بصورة مباشرة لا بواسطة الدماغ . ومن هنا نرى أن العضو الواحد فى حيوانات مختلفة لا يتشكل من نفس العنصر . والسبب فى ذلك لا يمكن تعليله بالعناصر الميكانيكية فى الرشيم ولا بشروط الإقليم والبيئة الموجود فيها الرشيم . فتجدنا مضطرين إلى افتراض مبدأ مسيطر أى غاية واتجاه . وإذا اعترضنا على الميكانيكية والحركية هل نصل إلى شاطىء الصواب ؟ كلا ! فلا يسعنا لحل هذه المسألة إلا الرجوع إلى نظريات غير الحركية والآلية علنا نقرع باب الحقيقة ونلمسها بأناملنا العشر . فلنبدأ بذكر النظرية الحيوية (Vitalisme)فنقول: إن أصحاب هذه النظرية هم لروه(P. Leroux) وبارتس) وكافة أطباء مدرسة (مونبيليه) وهم يعتقدون أن الحياة لم تنشأ إلا عن مبدأ خاص لا روح ولا شىء آخر ، بل هو مبدأ حيوى وسط بين الروح والجسد ... وقد تتجلى للقارىء قيمة هذا التعليل بمجرد ذكره فهو بدلاً من أن يوصلنا إلى حل هذه المسألة ؛ أوجد لنا معضلة أخرى لذلك فان الحيويين مثل (بروسن) و (كابانيس Cabanis) وغيرهما من مدرسة باريس غيروا رأيهم فقالوا : ليست الحيـاة ناشئة عن مبدأ مفارق للجسد والروح ؛ ولا عن خواص المادة . بل هى ناشئة عن خواص معينة حيوية من نوع ثابت معين موجود فى الجسد ، أى أن المادة فيها خاصة الحياة عدا خواصها المعروفـة . وإذا عَرَّجنا الآن على نظرية العضوية القائلة : (إن الحياة هى وجود الأعضاء فى الجسم على هذه الصورة فهذا الوضع هو الذى أكسبها خاصة الحياة) نجد أننا لم نزل فى غياهب جهل بحقيقة الحياة ؛ بل كدنا أن نرتبك أكثر مما كنا فيـه . إذن فلنبحث الآن فى النظرية النفسية (Psychologisme) وهى النظرية التى تقول : (النفس مبدأ الحياة الاساسى) . فان الحياة تفارق الجسد عند ماتفارقه النفس ، وهى مبدأ العقل أيضاً فإننا نجد علاقة صحيحة بين الحياة العاقلة والحياة المادية أى أن مبدأ العقل هو مبدأ الجسد . ويثبت أصحاب النظرية النفسية رأيهم هذا بوجود الوحدة فى الجسد بالرغم من هذه الكثرة ، فبما أن فى النفس غاية واحدة فهى إذن المبدأ الأول للحياة ولا يمكننا إيضاح هذه الوحدة وهذا التناسق إلا بهذه الغاية الموجهة ، ألا وهى النفس . على أننا لا نعرف بأية صورة تؤثر الروح في الجسد ؛ وهذا الأمر شغل كثيراً من علماء النفس وعلماء الاجتماع والفيسيولوجين ، ولم يستطيعوا التوصل إلى حل معقول . فنحن إذن لا نزال فى عالم الفرضيات ؛ أضف إلى ذلك ما يعرضه بعض الفلاسفة على أصحاب هذه النظرية من الأسئلة ، فقد قالوا : إذا كانت النفس لها تلك القدرة التى يسندونها إليها — أى هى التى تحمى الجسد — فلماذا تتركه يفسد فيزول أو يمرض ؟ وكيف توضح الحوادث التى تحدث فى الجسد بعد مفارقة الروح له كأن يطول الظفر بعد الموت وينمو الشعر ؟ وماذا نقول إذا علمنا أن بعض البوليب التى تعيش فى المياه الحلوة إذا قطعت بصورة عرضية ، أى إذا شطرت شطرين ، يكون كل شطر منهما ذا حياة جديدة ويعيش ؟ ألم يقرروا أن النفس لا تنقسم ؟ إننا نجد هذه النظرية لا تخلو من الصعوبات أيضاً .

ولقد وضع (داروين وكروسى) نظرية دعيت بالنظرية الروحية الكثيرة العناصر الحيوية فتقول : (الحياة ناشئة عن الروح والجسد معاً أى عن عنصرين . فلا يعتبر الجسم مادة عاطلة لاحياة فيها ، بل هو مستعمرة لحجيرات كثيرة كل منها لها حياتها الخاصة ؛ والنفس توجد هذه الحياة الكثيرة العناصر وتوجهها



أقصوصة حكيمة من جولد سمث (١)

الجندى الاجذم (٢)

للأستاذ دريني خشبة

يجهل نصف الناس كيف يعيش نصفهم الآخر ! !

تلك ملاحظة عامة شائعة ؛ بل ليس فيما يلاحظ الناس أكثر منها شيوعاً . . . وهي مع ذاك ملاحظة صادقة ؛ فهموم العظماء ما تلبث أن تفشو وتفشو ، وتذيع أنباؤها حتى تصبح مِلء الأسماع ، وملء الأفواه ، وحتى تصبح حَبتها قبة ، وحصر مَنها عِنَبة ؛ وذلك بما يعطها به الرواة ، وما يُضفون عليها من الزخرف الزائف ، والهرج المقيم ... ويبتعث هذا فى نفوس المهمومين طائفاً من الزهو فيلتذون همومهم ، ما دامت تجعلهم أبطالاً فى تقدير الأغرار

هذا ، وليس فخراً أن نحتمل الرُّزْء فى ثباتٍ وفى جلدٍ ليسا طبيعةً فينا ، ولا أصلاً فى جِبلتنا ، بل هما صدًى للخُيَلاء التى يثيرها فينا إعجاب الناس بنا ، واستعظامهم لنا

أما العظيم حقاً ، فهو الذى ينزل بساحته الخطب فيصمد له ، ولا يحفل به ، فى حين لا خِلٌ فيواسيه ، ولا صديق فيشجعه ... بل .. ولا بارقة من أمل فتسرى عنه ... ذلك رجل ينبغي علينا احترامه ، ويجب أن نتخذه لنا قدوة ، مهما يكن ... من السوقة هو ... أو من عِلية الناس

ياما أتعس حظ الفقير ! !

إن الرجل الغنى إذا أصابته ضرّاء ، وقد لا تكون من الضرّاء فى شىء ، تناقل الناس ضرّاءه ، فهولوا بها ، وأفاضوا فيها ، بَيْنَا يُرزأ الفقير بأضعاف ذلك فلا يلتفت إليه أحد ، ولا يعتدّ به مخلوق ... وإن مصيبةً واحدةً من مصائبه فى سحابة يوم لترجح مصائب العصبة أولى الحول من السادة العظماء فى حياتهم جميعاً ...

إن من أصغر جنودنا وبحارتنا العادين مَنْ إن ينزل به الخطب لا تتصور فدحه عقولنا ، فيصبر له فى عظمةٍ وتسليم وإيمان ، دون أن يشكو أو يتململ ، أو يتسخط على قضاء الله ، ودون أن يُشهد الناس !... هذا ... وقد تكون أيامه كلهن نوازل يأخذ بعضها برقاب بعض

لشد ما كنت أضيق ذرعاً بأوفيد وشيشرون ورابوتين

---

(١) من أحسن الكتاب والشعراء الانجليز ، وأمتعهم وأغزرهم فكرة وأعمقهم فلسفة ، هو أوليفر جولد سمث ، وقد حال دون انتشار أدبه فى اللغات الأخرى قوة أسلوبه ، وصعوبة ترجمته إلى لسان آخر ... وقد حرصنا على أن تكون أقصوصته هذه صورة صادقة منه ، فلا يهولن القارئ هذه المقدمة الطويلة التى قدم بها لقصته ، فمقدماته كمقدمات شو ، أحسن من قصصه .

(٢) الأجذم : الذى بترت يده أو أصابعه

إلى جهة واحدة)

فهذه النظرية لم تكن أسعد حظًّا من رفيقاتها السابقة ، بل هى لا تختلف عن نظرية مدرسة مونبيليه من حيث توضيحها للحياة بالحياة نفسها

وفى ختام هذا البحث لا يمكننا إلا القول : الحياة هى قوة إلـهية كامنة يبثها الله تعالى فى الموضع الذى خصصه لها وهى كل جسم صالح للحياة . وقد تبين لنا أن العقل البشرى منذ القرون الأولى إلى العصر الحاضر لم يكتشف كنهها ، فهو إذن عاجز عن إدراك الحقيقة النهائية للحياة ، ولعل الله يكشف لبعض الأدمغة الواسعة عنها فيخلص طائفة كبيرة من عناء التفكير فيها ويردعهم عن الوقوع فى الزلات الجسيمة وارتكاب الأخطاء العظيمة

(انتهى بحث الحياة ويليه بحث الروح)

« دمشق » محمد حسن البقاعى

حينما كنت أقرأهم فأراهم يشكون ويبرمون ويتسخطون، ويندبون حظهم العاثر، وطالعهم النحس... ولماذا؟؟ لأن أحدهم لم تسعده المقادير بزيارة هذا المكان أو ذاك، مما وقر في باله أنه كان حرياً لو قطف ثمار السعادة فيه.. وليس هذا الهم من الهموم الإسعادة صرفة إذا قيست بما يجرعه البائسون من غصص الحياة كل يوم ...

لقد كان أولئك يحيون في بُلهنية وسعة، يحف بهم حشمهم، ويسجد تحت أقدامهم خدمهم، لا يحملون هماً من هموم المادة، ولا يبالون كلفة من كلف الحياة... كل هذا بينما كان كثيرون من بني جلدتهم يجوبون الآفاق في ظمأ ومسغبة، لا يكادون يجدون الكِنّ الذي يدرأ عنهم عاديات الجو وتقلباته...

كل هذه الخواطر دارت بخلدي حينما لقيت فجأةً، ومنذ أيام خلت، رفيقاً بائساً كنت أعرفه إذ أنا صبي؛ يطوف في أزقة المدينة وهو يتكفف الناس، وقد جعل يقزل[1] برجلين إحداهما من لحم وعظم... والأخرى من خشب... ومن فوق كاهله سترة بحّار بالية، يتوكأ بها على عكازةٍ نابية

وهالني أن أراه قد آل إلى هذا المآل... فلقد كنت أعرفه أميناً دائباً شديد الدؤوب إذ كان يعمل في الريف... فبعد أن دسست في يده ما هو حسْبُه، رغبت إليه في أن يقص عليّ قصة حياته، وطرفاً من أنباء مأساته... وأرسل صديق الجندي الأجذم، وقد كان جندياً حقاً وإن بدا في ثياب بحار، أظافره تعيث في جلدة رأسه، ثم اتكأ على عكازته، فعرفت أنه يجمع أشتات الذكريات التي تتألف من أسرابها قصته، والتي ساقها في حديث طويل طال هكذا:

« لا أستطيع أيها السيد أن أدّعي أن مصائبي قد فاقت مصائب سواي، أو أنني لقيت من العنت ما لم يلق غيري، إذ أنني، فيما عدا هذه الساق المبتورة، وتلك الأصابع المجذومة، وما اضطررت إليه من المسألة والتكفف، لا أجد والحمد لله ما أشتكي منه!! وإن هذا زميلي تِبْز الذي فقد ساقيه جميعاً، وإحدى عينيه، والذي أقعده كل ذلك عن السعي وراء رزقه... فأين أنا مما آل إليه؟ شكراً لله!

ولقد وُلدت في شُبْشَير، ومات أبي — وكان من العمال — ولما أبلغ الخامسةَ بعد، فأرسلت إلى ملجأ إحدى الكنائس ذوات الضياع... ورفض القساوسة أن يبقوا عليّ لأنني لم أستطع أن أنتسب لديهم، ولأنني لم أستطع أن أخبرهم أين وُلدت؛ ومن لي بهذا وأبي — وقاك الله! — كان رجلاً آفاقياً، لا ينتهي من تطواف إلا إلى تطواف! وقذفوا بي من أجل هذا إلى ضيعة كنيسة أخرى، فأرسلتني بدورها، ولنفس الأسباب، إلى ضيعة ثالثة، فرابعة، فخامسة، وهكذا دواليك، حتى حسبتني أقضي الحياة في هذا التشرد الطويل دون أن أستقر، لولا أن تغلبت مروءة الانسانية آخر الأمر، فخجلت إحدى الكنائس أن تطردني من ضيعتها، فبقيت ثمت، وألحقت بكُتّابها لأتعلم الهجاء، بيد أنني وا أسفاه لم ألبث به طويلا، إذ آنس فيّ مُعلم المصنع الملحق بالكنيسة جسماً يافعاً وذراعاً مفتولة لا أيسر عليها من حمل الدق والمطرقة فاختارني لمعاونته في عمله... وبقيت هناك خمس سنوات كانت أسعد فترة في حياتي لسهولة العمل، وطراوة العيش، وإقبال الزمان... ذلك أنني لم أكن أعمل كل يوم أكثر من عشر ساعات (!)، ومع ذلك فقد كنت أعطى نصيباً وافراً من اللحم والشراب يتناسب مع مجهودي الضئيل، ومع أنني كنت أشتهي لو قضيت حياتي كلها ثمة فإنهم كانوا يحبسونني داخل الكنيسة، بحيث لم يسمحوا لي قط أن أعدو وصيد بابها، خشية أن أفر إلى ملجأ آخر... ولا أدري لماذا كانوا يظنون مثل هذا الظن، والكنيسة كلها كانت رحلاً لي، وحوشها[1] الكبير أمرح فيه حيث أشاء...

« ثم نقلت بعد أن شببت إلى مزرعة مجاورة لأعمل فيها من مطالع الفجر إلى غسق الليل، ثم أعود إلى الكنيسة لأنام، وكنت أحمد الله على أن يسر لي أمر طعامي وشرابي، وعلى أن حبب إليّ عملي الذي كنت أقبل عليه في رضى وقناعة... ولما مات المعلم الذي لزمته طوال هذه المدة، كان طبيعياً أن أهجر الضيعة لأشق طريقي في الحياة بنفسي، ولأكدح في سبيل رزق فرحت أزرع الأرض، وأتنقل من قرية إلى أخرى، وأشبع إذا لقيت ما أعمله فأوجر عليه، وأجوع إذا لم ألق عملا حتى أوشك أن أقضي من الطَّوى[2]

(١) قزل من باب فرح وضرب مشى وتستعمل للأعرج فقط

(١) الحوش كلمة عراقية وهو شبه الحظيرة والمصريون يستعملونها بكثرة
(٢) الطوى بالفتح الجوع

« ثم حدث أن كنت ماراً ذات يوم في طريق وسط مزرعة لحاكم الاقليم فلمحت أرنباً برياً يرتع ويلعب ويقضم العشب ، فوسوس الشيطان فى صدرى أن أحذفه بعصاى ... ففعلت ... وقصمت ظهره ، ثم هرولت إليه فحملته وأنا فرح بهذا الصيد ، وما كدت أمضى حتى لقينى الحاكم صاحب المزرعة نفسه وانطلق يسبنى ويلعننى ، ويرمينى بكل موبقة ، ويشتمنى فيقول ويقول ... ثم أمر بالقبض على ، وإحضارى أمامه لأثبت شخصيتى وليرى إن كنت متشرداً أو جوّاب آفاق ... وقد وقفت أقبل الأرض بين قدميه وأترضاه وأستعطفه ، ثم جعلت أسرد له ما أعرف من أرومتى ونشأتى وآبائى ، حتى لم أبق شاردة ولا واردة إلا قصصتها . ولـكنه وا أسفاه تجهم وقال : إنى لم أستطع أن أثبت له شخصيتى .. ثم حوكمت بعد هذا ـ أعاذك الله ـ بتهمتين عجيبتين ، أما إحداهما فخرق قوانين الدولة بما قصمت ظهر الأرنب ، وأما الأخرى ... فلأنى فقير معدم ... لا أمامي ... ولا ورائى ! وأرسلونى إلى نيوجيت بلندن لأننى من أرض الوطن فى زمرة المجرمين والمتبطلين

« وبالرغم مما يزعمه الناس عن الحيـاة في السجن ، فلقد وجدته لطيفاً ظريفاً كما وجدت أى مكان غيره فى العالم .. وماذا غير أن يأكل الإنسان ويشرب ملء بطنه ، وينام ملء عينيه ، دون أن يعمل عملاً ما ... ! لعمرى لقد كنت أوثر أن أبقى هناك إلى الأبد ، لو لم يأخذونى بعـد خمسة أشهر إلى الميناء ، حيث شُحنتُ أنا ومئتان غيرى من ذوى البطالة فى فلك كبيرة ، ما لبثت أن همت بنا فى موج كالجبال إلى مزارع المستعمرات وراء البحار وقد تركونا لـكثرتنا الهائلة ننام فى ممر ضيق بين القمرات (١) ، فاختنق من اختنق ، وعاش من عاش ، وكانوا يقذفون بمن مات فى اليم ليدفن فى بطون السمك ، وتالله لقـد دفن فيها نصفنا أو يزيد ... أما من نجا ، فقد اعتل جسمه وخارت قواه ، وهُزل هزالاً شديداً

« وبلغنا الشاطىء ، وباعونا كالرقيق للمزارعين ، وظللت أفلح الأرض مع العبيد ، ولو قد تعلمت الهجاء لنجوت من حمارة الشمس الاستوائية ، ولقمت بعمل أسهل ... ولا أطيل عليك ، فلقد لبثت في عملى المتصل سبع سنين سرّحنا بعدها وهفا القلب إلى الوطن ... واشتاقت النفس إلى انجلترا الأم التى أهواها من كل قلبي ، وأخلص لها الحب من أعماق ، فلبثت أياماً أفكر فى الأوبة وأعدّ لها عدّتها ، وحرصت على ألا أقع فيما وقعت فيه من قبل من تهمة البطالة والتشرد ، فلم أذهب قط بعيداً عن حدود المدينة ، بل رحت أذرعها مشرقاً ومغرباً وأنتظر يوم الرحيل ... واستعنت بأداء بعض الأعمال التافهة على التوقّى من أعين الشرطة

وكنت أشعر بسعادة عميقة أثناء هـذه الفترة التى تسبق عودة النازح إلى أرض الوطن ... ولـكن ... حدث ما لم يكن قط فى حسبانى ، فبينما كنت عائداً أدراجى من بعض عملى إلى منزلى ، إذا رجلان قويان يلـكماننى لـكماً كاد يحطم رأسى ، وإذا بى أهوى إلى الأرض فى غير وعي ... حتى إذا أفقت إذا هما يأمراننى أن أنهض ثم إذا هما ينطلقان بى إلى الحاكم الذى يطلب إلى ما يثبت شخصيتى ! حتى إذا عجزت هذه المرة كما عجزت فى الأولى ، تُرك لى أن أختار إحدى اثنتين لا ثالثة لهما ، فإما أن أنطلق من فورى فأعمل بحاراً على ظهر مركب يوشك أن يبحر أو أن أنضوى إلى صفوف الجند فأحارب أعداء المملـكة ... ولم يكن بد من أن أختار الجندية التى شعرت فيها بكرامتى خصوصاً بعـد أن حاربت فى وقعتين كبيرتين هما معركة القال الخالدة ، ومعركة فونتنوى التى لن أنساها ما حييت ... ولم يمسسنى ضر فى أى منهما ، اللهم إلا جُرح هنا ... فى هذا المـكان الرحب من صدرى ، استطاع طبيب فرقتنا الحاذق النطاسى أن يشفيه سريعاً

« وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ، ودخلنا فى السلم كافة ، سُرِّح كثير من الجنود فكنت منهم ... ولم أستطع أن أضطلع بالأعمال الشاقة التى كنت أحتملها من قبل ، لأن جرحى كان ينغَل (١) أحياناً فيؤلمنى ويقعدنى عن أى عمل ... ثم انضممت إلى جيش شركة الهند الشرقية فحاربت الفرنسيين في ست معارك دامية ، أبليت فيهن جميعاً بلاء حسناً ، ولو كنت قد أسعدنى الحظ فثقفت بالـكتابة والقراءة لارتقيت إلى مرتبة (أونباشى) ... وشاء الجد العاثر أن يلم بى مرض يقعدنى عن الحياة العسكرية القاحمة ، فيهيج فى قلبي حنينه القديم ، وفى نفسى توقها إلى الوطن ؛ فأنتوى الأوبة من جديد ، وإن فى جيبي لأربعين جنيهاً

(١) القمرة حجرة فى السفينة لم نقف عليها فى المصادر العربية ولعلها رومية

(١) نغل : الجرح من باب فرح فسد

حمراً رنانة ... وكان ذلك فى إبان الحرب الحاضرة ؛ وكم كنت أحلم أحلاماً لذيذة سعيدة إذ أنا على ظهر الفلك ، وأفكر فى كيف أنفق هـذا القدر غير القليل من الذهب الوهاج ... وكانت الحكومة فى حاجة ماسة إلى الرجال ، فلما أهابت بأبناء الوطن انضويت إلى الصفوف وأنا فى عرض البحر ، فعملت بحاراً فى إحدى وحدات الأسـطول ، من غير أن تكون لى أية دراية بأعمال السفانة الحربية ولا غير الحربية ... وطالما اتهمنى الربان بأنى أعرف من الأعمال البحرية ما أنا مخفيه ، إيثاراً للعمل الحربى في البر ، فكان يضربنى ضرباً مبرحاً لم يكن يخفف من أوجاعه فى نفسى إلا الأربعون جنيهاً التى ادخرتها وا كتنزتها فى جيبى ، والتى كثرتها بما ضممت إليها مما كنت أقتصد بعد

وقد ضلت سفينتنا مرة ، فأسرتنا وحدة بحرية فرنسية ... وبهذا — وا أسفاه — خسرت نقودى كلها ... ... ونزلنا إلى البر فى ميناء برست ، ولم يحتمل رفاق الملاحون زحمة السجن وهواءه الخانق ، فمات أكثرهم ... أما أنا فقد بقيت فيمن بقى ؛ ويبدو أن ما تعودته من الحياة فى أشباه هذا السجن ، قد جعلنى أحتمل ما لم يحتمل زملائى

وبينما كنت نائماً على أرض السجن ، وأنا ملتفع بنطانى الدافئ ، إذا بى أستيقظ على صوت الربان الذى جعل يلكزنى لأصحو ... وقال لى فى صوت خافت ، وهو يحمل مصباحاً أخفت من ضوئه : « جاك ! جاك ! هل لك فى أن تحطم رأس (الديدبان) لنلوذ بالفرار يا صاحبى ؟ ! » ولم يكن أحب إلىّ من أن أفعل . فوافقت على هذه المجازفة التى رغبها إلى كراهيتى للفرنسيين ، الذين أعدّهم أمة من العبيـد ... والذين لا يلبسون فى أرجلهم إلا (القباقيب !)

ولم يكن معنا سلاح ما ... بيد أننا كنا على ثقة دائماً من أن إنجليزياً واحداً يسعه أن ينتصر على عشرة من الفرنسـيين . . . وهكذا انطلقنا إلى حيث انكمش الحارسان فى ركن بعينه من البرد ، فانقضضنا عليهما ، وانتزعنا منهما سلاحيهما ، ثم حطمنا رأسيهما ، ولذنا بالفرار إلى الشاطئ ... ولحق بنا تسعة ممن بقى من أسرانا ، فركبنا زورقاً كبيراً ، وأبحرنا من فورنا

« ولبثنا نصارع الموج ثلاثة أيام سوياً ، حتى أضرّ بنا الجوع ، وأوشك أن يهلكنا الظمأ . . . ثم اقتربنا من مركب كبير فحسبنا أن يد العناية قد أرسلته إلينا لتنشلنا مما نحن فيه .. فإذا هو مركب من مراكب (قراصين) البحر ، استطاع رجاله أسرنا . . . وكم كان فرحهم بنا عظيما ، لأننا أيد عاملة تنفعهم فيما هم بسبيله من أعمال القرصنة .. وقد رضينا نحن بالعمل معهم ، إذ كان لا بد مما ليس منه بد .. ولم يكن حظنا بساماً هذه المرة ؛ فلقد شاء سوء الطالع أن نشتبك فى قتال بيننا وبين ال (بومبادور) القوية التى يملك قراصينها أربعين مدفعاً صالحة كلها للعمل ، بينا لم نكن نملك أكثر من عشرين وثلاثة مدافع . . . ومع ذلك فقد قاومنا ما وسعنا أن نفعل ، بل بدا لنا أننا نرى النصر قاب قوسين أو أدنى ، فى نفس اللحظة التى تمت هزيمتنا فيها ... وعلة ذلك كثرة من قتل من رجالنا ، وقلة الأيدى التى لم يكن يسعها أن تُعمل المدافع كلها لنحوز النصر ...

« وهكذا شاءت القادير أن أكون مرة أخرى فى قبضة الفرنسيين ... ولشد ما فزعنا أن يرسى بنا ثانيةً فى برست ، إذن ما كان جزاؤنا إلا القتل هناك... لكننا رسونا في ميناء أخرى ، فنجونا ... وقد نسيت أن أذكر لك أننى فقدت إحدى ساقىّ ، وأربعاً من أصابعى ، وأصبت بأربعة جروح كبيرة فى هذا القتال الهائل ... أواه يا سيدى ؟ ! أواه لو أسعدنى الحظ فكنت قد فقدت هذه الساق وتلك الأصابع فوق بارجة من بوارج الوطن ... ؟ ! إذن لكفلتنى الحكومة ، وحبست على معاشاً كاملاً طوال الحياة ... ولكن ... ! ما حياتى ؟ إن من الناس من يولد وفى فمه ملعقة من فضة ، وإن منهم من يولد وفى فمه مغرفة من خشب ... ! ! على أنه مهما يكن من أمرى ، فإنى أحمد الله القدير الذى حبانى عافية وصحة ، ووهبنى النعيم والحرية ورزقنى محبة بلادى ... بلادى ذات المجد ... إنجلترا ... إنجلترا الأم ... عاشت انجلترا ! »

* * *

ثم مضى عنى ، وغادرنى فى حيرة من رضاه بما هو فيه ، وتسليمه الجميل لما صنع الله ! ! حقاً ... إن التمرس بالبؤس يعلمنا كيف نستهين به ، أضعاف ما تعلمنا ذلك الفلسفة ! !

دريني خشبة



مؤتمر المواصلات السلكية واللاسلكية

وهذا مؤتمر دولى آخر يعقد فى القاهرة ويفتحه جلالة الملك « فاروق الأول » ، هو المؤتمر الدولى للمواصلات السلكية واللاسلكية ؛ وهو رابع مؤتمر دولى يعقد فى القاهرة فى هذا الفصل بعد مؤتمر الرمد الدولى ، ومؤتمر توحيد قانون العقوبات ، ومؤتمر القطن الدولى ؛ وقد أشرنا إليها جميعاً فى حينها . ويعتبر مؤتمر المواصلات السلكية واللاسلكية الذى عقد فى أول فبراير الجارى من أعظم المؤتمرات التى عقدت فى مصر فى الأعوام الأخيرة إن لم يكن أعظمها جميعاً ، فقد مثلت فيه ثلاث وستون دولة وهو أكبر عدد من الدول اجتمع فى مصر فى مؤتمر واحد . ويرجع ذلك إلى أهمية المسائل التى يعالجها المؤتمر ، وإلى أهمية الدور الذى لمصر بفضل موقعها الجغرافى الفريد فى المواصلات اللاسلكية . وقد كانت مصر فى مقدمة الدول التى أدخلت فيها المواصلات الحديدية والتلغرافية ، وهى اليوم فى مقدمة الدول التى يحتم عليها موقعها الجغرافى بين قارات العالم القديم ، وظروفها الدولية الخاصة ، أن تكون من أعظم مراكز المواصلات اللاسلكية فى العالم

وقد جرى جلالة الملك فى افتتاح هذا المؤتمر على سنته المشكورة التى استنها ، وهى افتتاح المؤتمرات الدولية التى تعقد فى مصر باللغة العربية ؛ وألقيت أيضاً خطبة الافتتاح الرسمية من وزير المواصلات بالعربية ؛ وهذا تقدير كريم للغة البلاد وتشريف يبعثان إلى الغبطة والحمد

مؤتمر طبي عربي

يعقد فى التاسع من فبراير الجارى بمدينة بغداد - كما ذكرنا من قبل - مؤتمر طبي عربي دعت إلى عقده فى العاصمة العراقية الجمعية الطبية المصرية ؛ وسيتفضل صاحب الجلالة ملك العراق بافتتاح هذا المؤتمر الذى سيعقد فى قاعة الحفلات الكبرى بسراى أمانة العاصمة ، ويستمر عقده أيام عيد الأضحى ؛ وقد هرع إلى شهود هذا المؤتمر عدة من أكابر الأطباء المصريين وأساتذة كلية الطب ، وفى مقدمتهم على ابراهيم باشا وسليمان عزمى باشا ؛ وكذلك بادر إلى شهوده جماعة كبيرة من أطباء الأقطار العربية الشقيقة ، من فلسطين وسورية والحجاز

وسيكون عقد هذا المؤتمر العربى فرصة جديدة لتقوية أواصر الثقافة الطبية والاجتماعية بين مصر وشقيقاتها

فى مملكة سبأ

أذاعت بعض الصحف الخارجية أخيراً بعض بيانات أفضى بها الرحالة المستشرق الانكليزى المعروف المستر سنت جون فيلبي المعروف بالحاج عبد الله ، والذى يقيم في جدة منذ أعوام طويلة ، وتربطه بالملك ابن السعود صداقة متينة — عن اكتشافاته لآثار مملكة سبأ فى « الربع الخالى » . وكان قد حاول اختراق هذه المنطقة قبله رحالة فتى ألمانى يدعى هانز هلفريس ، ولكنه وقع في أيدى البدو ، ثم بعث به إلى الشاطئ ؛ ومع ذلك فقد استطاع أن يلتقط بعض صور فوتوغرافية مدهشة ، منها صورة أطلال مدينة حصينة على رؤوس الجبال ، وبها أبنية متهدمة عالية ترتفع عدة طبقات ، وآثار أطلال ضخمة تضارع الأطلال الفرعونية فى روعتها ؛ فحفزت هذه الصور بعض العلماء المغامرين إلى محاولة اختراق « الربع الخالى » ؛ وكان الحاج عبد الله فيلبي بمركزه فى المملكة السعودية ، واعتناقه الإسلام ، ومعرفته الواسعة للغة العربية ولهجات القبائل ، أسبقهم وأقدرهم على أداء هذه المهمة ؛ فجهز فى العام الماضى قافلتين إحداهما من السيارات والأخرى من الجمال ، واخترق الصحراء الغربية من مكة إلى المكلا عاصمة حضرموت ، ثم عاد غرباً نحو اليمن ، واخترق اليمن من الجنوب

إلى الشمال ؛ واستطاع أثناء رحلته الشاقة أن يقوم باكتشافات أثرية هامة ، وأن يحقق الأسباب التاريخية والجغرافية التي أدت إلى خراب مملكة سبأ ، وفي رأيه أن هـذا الخراب يرجع إلى عاصمة مملكة سبأ التي كانت تحيط بها سلسلة من البراكين الثائرة ، وأن الزلازل هي التي قضت عليها منذ نحو ألفي عام ، كما قضت على مدينة بومبياي الرومانية الزاهرة ، وبذلك امحت مملكة سبأ من صفحة التاريخ

وقد أثارت رحلة الحاج فيلبي واكتشافاته اهتماماً في جميع الأوساط العلمية والأثرية

رابطة دولية للكتاب

تألفت في لوزان جمعية أدبية كبيرة لحماية الكتّاب وترويجه باسم « رابطة الكتاب » ، وانتظم فيها عدد كبير من أكابر الكتاب والمفكرين مثل رومان رولان وجورج دوهامل واندري جيد وغيرهم ، وقد وصف دوهامل أغراض هذه الجمعية في مقال ذكر فيه « أنها تقوم بمهمة بديعة ، لا في سبيل ترقية ذوق القراء لدى جمهور عظيم من الناس فحسب ، ولكن أيضاً في سبيل إذكاء ثقافة إنسانية عاليـة ، ومن ثم فانها غدت تضم صفوة المفكرين في أوربا »

وتعنى رابطة الكتاب الدولية عناية خاصة بحماية الذوق الثقافي بعد أن جنت عليه جهود الراديو والسينما ، والصحافة الاخبارية السطحية ، وبعض الناشرين الذين يتجرون في الأدب الرخيص ، وإعادة الكتاب القيم إلى مركزه الرفيع . وقد انضم إلى الرابطة جماعة من الناشرين المحترمين الذين يعنون بنشر الكتب القيمة ، ووضع نظام لإخراج سلسلة من الكتب والمؤلفات الرفيعة في مختلف المواد ، وروعي أن تكون في الغالب كتباً جديدة ؛ وستقدمها الرابطة إلى القراء بأثمان تكاليفها دون أن تسعى إلى ربح ، وقد أصدرت فعلاً عدة مؤلفات نفيسة من كتب راموز ومسترال ومكسيم جوركي وتولستوي وغيرهم

جيته بطل قصة مسرحية

مثلت أخيراً في المسارح الألمـانية « كوميديا » جديدة عنوانها « مقابلة مع أولريكا » بقلم الكاتب المسرحي زجموندجراف وفيها وصف لفصل غرامي من حياة جيته شاعر ألمانيا الأكبر فيدو الشاعر على المسرح وهو في شيخوخته عاشقاً لفتاة تدعى أولريكا ليفتوف كان قد قابلها أثناء استشفائه في مدينة ماريناباد ورغب في زواجها ، ولكن حالت دون رغبته ظروف خاصة ، وهي واقعة حقيقية في حياة الشاعر الكبير ، وقد لقيت القطعة من جراء ذلك نجاحاً عظيما

جوائز قومية ألمانية لتشجيع العلوم والآداب

في العام الماضي قررت الحكومة الألمانية أن تحرم على العلماء والكتاب والفنانين الألمان قبول أية جائزة دولية أو أجنبية للعلوم أو الآداب أو الفنون ؛ وقررت من جانبها أن ترتب جوائز ألمانية قومية تمنح لأقطاب العلم والأدب الألمانيين ، وتكون في أهمية جوائز نوبل من حيث قيمتها المادية والأدبية ؛ ولذلك سبب قد يذكره القراء ، وهو أن لجنـة جامعة استوكهلم منحت في العام الماضي جائزة نوبل للسلم للكاتب الألماني كارل فون وسيتسكي ، وكان لذلك صدى سيء لدى الحكومة الألمانية لأنها تعتبر الكاتب المذكور من خصومها لأنه ديموقراطي ، وكان قبل قيام الحكومة النازية يدعو إلى السلام ونزع السلاح . فلما قام الهتلريون في الحكم قبض عليه ولبث في معتقله حتى منح جائزة نوبل للسلام ؛ واعتبر الهر هتلر أن في منحه الجائزة على هـذا النحو إساءة لألمانيا وتعريضاً بنظمها وسياستها ، فأصدر قراره بتحريم الجوائز الدولية على جميع الألمان

وقد احتفل في ٣٠ يناير الماضي ، وهو يوم ذكرى قيام الحكومة النازية في الحكم بتوزيع الجوائز القومية الألمانية لأول مرة على مستحقيها ؛ فمنحت جوائز في العلوم والآداب والفنون إلى كل من العلامة الرحالة الدكتور ولهلم فلشنر الذي عاد أخيراً من رحلته الطويلة في مجاهل آسيا الوسطى ، والدكتور روزنبرج الكاتب النازي الشهير ، والأستاذ الدكتور زاوربروخ الجراح الشهير ، والأستاذ تروست الذي توفي أخيراً ، والدكتور أوجست بير . وقد استقبل الزعيم هتلر المنعم عليهم بالجوائز في يوم ٣٠ يناير وأثنى على علمهم وعبقريتهم ، وقدم إليهم بنفسه براءات الجوائز المذكورة ، وهي عبارة عن نجمة من الماس في وسطها رمز الإلهة منيرفا ؛ هـذا عدا الهبات المالية التي سيحصل عليها الفائزون وهي كبيرة

ديوان اسماعيل صبري باشا

يسرنا أن نزف إلى قراء العربية أمنية من أعز أمانيهم طالما تاقت نفوسهم إلى تحقيقها ، وهي إعداد ديوان أستاذ الشعراء وحامل لواء الشعر الحديث المرحوم اسماعيل صبري باشا . وهذا الديوان الحافل بطرائف شعره يطبع الآن في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بعد أن أتم حضرة الشاعر الرواية الأستاذ أحمد الزين ضبطه وشرحه وتصحيحه على أتم وجه وأحسنه . ولا شك في أن ظهور هـذا الديوان الخالد يعد حادثاً أدبياً ذا بال في عالم الشعر ، فهو بحق حلقة اتصال بين الجيل الماضي والجيل الحاضر

ويحسن بنا أن نشير إلى ما كان بين الأستاذ احمد الزين وبين المرحوم صبري باشا من مودة وثيقة دامت سنين طويلة فلا عجب إذا تولى هو إخراج هذا الديوان وفاء لصديقه وقياماً بالواجب الأدبي نحو فنـه . وقد وصل إلى علمنا أنه ستقام حفلة ذكرى للفقيد بعد إتمام طبع هذا الديوان ، رحم الله صبري باشا وجعل في أثره الخالد عزاء عن فقده

مذكرات لورد بيرون

تحتفل الأندية الأدبية في انجلترا وفي العالم بمضي ١٥٠ سنة على ميلاد الشاعر العظيم جورج جوردون بَيْرون المولود في سنة ١٧٨٨ والمتوفى سنة ١٨٢٤ ... وسيستفيد العالم من إحياء هذه الذكرى فائدة جليلة وذلك بمـا اعتزمه بعضهم من نشر مذكرات الشاعر النثرية التي كتبها بين سنتي ١٨١٩ و ١٨٢١ وهو مقيم إذ ذاك في إيطاليا والتي حال دون نشرها ما جاء فيها من تصريحات بيرون الشائنة فيما يتعلق بصلاته الغرامية والتي لا يسمح القانون الانجليزي بتداولها في أيدي الناس لـكونها من المحظورات التي يتنافى ذيوعها مع الأخلاق الانجليزية المحافظة ... والمفهوم أن إذاعة هذه المذكرات سيكون بموافقة الحـكومة وبعد حذف الفقرات الصريحة الصارخة التي لم يبال اللورد أن يثبتها بقلمه فيها

والمعروف من تاريخ حياة بيرون أنه نشأ نشأة مستهترة لا تعرف للعرف حرمة ولا للشرائع سلطاناً . فمن هذا أنه صبا إلى أخته وافتتن بها ، ثم اتصل بها اتصالاً يخجل القلم من تسجيله هنا ... ومن ذاك أيضاً أنه ألف جماعة خمرية كان يحتسي أفرادها الخمر من جماجم الموتى التي كانوا يسرقونها من المقابر ... وبحسب القارىء هذان المثالان عن شذوذ الشاعر العظيم الذي كان أديب الألمـان جيته يعجب به ويقول فيه إنه يصدر في شعره عن أمواج البحر الدفاقة ، وينفث فيها رقة الأثير

وكان بيرون وثنياً شـديد الولوع بالإغريق ... ومن هنا عبادته للجمال وترديده أسماء آلهتهم في شعره ... ومن هنا أيضاً دفاعه الحار عنهم في الحرب الاستقلالية التي لاقوا فيها الرعب من البطل المصري إبراهيم باشا ... وقد حضر بيرون حصار مسولونجي ونظم فيه إحدى غرره ، ولا ندري إن كان القائد المصري قد قابله أم لا . هذا وسنفرد له فصلاً خاصاً في عدد آخر

الأدب الكاريكاتوري

كان ظريفاً جداً هذا العمل الجليل الذي ساهم به الأستاذ توفيق الحـكيم في مهرجان الأوبرا للزفاف الملـكي والذي أظهر فيه أدباء العصر على خشبة المسرح في رواية تمثيلية ... ونحن نضع لهذا اللون من الأدب اسماً فندعوه الأدب الـكاريكاتوري ، وهو غير الأدب الهزلي أو (الـكوميدي) . وقد وضع أساس الأدب الـكاريكاتوري الشاعر اليوناني أرسطوفان منـذ أربعة وعشرين قرناً ، وكان يتناول في (كاريكاتورياته) شخصيات عصره والعصر الذي سبق بالنقد والتسفيه و (التضحيك) . وخص الشاعر يوربيدز بكثير من هـذه (الـكاريكاتوريات) ؛ ولم يستطع مع ذلك أن يقلل من قيمة مواطنـه العظيم أو أن يخفض من قدره . وقد ألف شاعرنا الخالد أبو العلاء كتابه (رسالة الغفران) على هذا النحو ، فطاف بصاحبه ابن القارح في المحشر وفي دركات جهنم ... وفي جنات عدن ... وفعل مثل ذلك دانتي الليجيري في الـكوميديا الإلـهية

وقد كتب الأديب الـكبير ولز آخر قصصـه على النمط الـكاريكاتوري . وقد صدرت هذه القصة في يناير الماضي واسمها (الأخوة) وهي نقد لاذع لطغاة العصر الحاضر وفي مقدمتهم هتلر وموسوليني وستالين ، وبالطبع قد أطلق أسماء غير هذه على أبطاله

الإذاعة المدرسية في مصر وفي انجلترا

في الوقت الذي تنطفئ فيه حماستنا في مصر للإذاعة المدرسية لنشتغل بالسفاسف السياسية التي استغرقت كل جهودنا ترتفع النسبة المئوية لهذه الإذاعة في إنجلترا وبلاد الغال (ويلز) فتزيد ٢٧ ٪ في خريف ١٩٣٧ على ما كانت عليه في خريف ١٩٣٦، ويرتفع عدد المدارس التي تنتفع بهذه الإذاعة هناك فتصبح (٧٢٨٠) مدرسة بين ابتدائية وثانوية. ويشجع هذا النجاح المطرد ولاة الأمور هنا فيفكرون في الوسيلة التي ينشرون بها الاذاعة في المدارس التحضيرية ورياض الأطفال؛ وقد انتفعت بطبيعة الحال مدارس اسكتلنده بهذه الاذاعة وإن لم يكلفها ذلك شيئاً. ويقدرون هذه المدارس الاسكتلندية بألف مدرسة أو زهائه. وكانت الموضوعات الطريفة التي أُلقيت كثيرة متنوعة، ولكن التلاميذ كانوا يصغون في الأكثر لموضوعات الأسفار والرحلة في البلدان الأجنبية، ثم تلي هذه الموضوعات المتعلقة بدراسة غرائب الطبيعة؛ وقد اجتمع للتلاميذ الانجليز عاملان هامان في تثقيفهم الحديث، وذان هما التعليم بالسينما والتهذيب بالاذاعة المدرسية، وليس من هذا شيء عندنا

الطيران والخرائط الجغرافية

معظم الخرائط الجغرافية التي بأيدينا قديم غير مضبوط، ويرجع وضعه على هذا النحو الذي نراه إلى مائة سنة على الأقل وقد أخذت صور لنهر النيل مثلاً من الجو أظهرت ما في خرائطنا القديمة البالية من الأخطاء الفاحشة التي لم يعد يخلق بنا أن نغضي عنها. وقد تنبهت لهذا أكثر الدول الأوروبية ولا سيما ألمانيا، فعملت على تلافيه، وساعدها تقدم الطيران وانتشاره عندها على وضع خرائط متقنة تداركت بها ما فشا في خرائطها القديمة من أخطاء. ويقال إن في النية عقد مؤتمر عالمي لدراسة هذا الموضوع ولوضع خرائط جديدة للعالم بأسره من الجو. وحبذا لو تم هذا المشروع

مسرح روسي عجيب

من أنباء روسيا أن المخرج العظيم ماير هولد قد عصفت به ريح السياسة العاتية.. وأن مسرحه الكبير قد أغلق.. ويذيع الشيوعيون أن ماير هولد قد وقع في فضيحة لم يذكروا لنا ماهي وهكذا تلطخ الشيوعية مجد الأبطال الروسيين الذين أدوا لأوطانهم وللعالم أجل الخدمات ... ومن هذه الأنباء أيضاً أن مخرجاً جديداً يدعى أوخلوبكوف قد أسس على أنقاض مسرح ماير هولد مسرحاً غريباً لم يؤسسه على ما عرفه العالم من النظام الشائع لدور التمثيل، إذ يدخل المُشاهد صالة المسرح فلا يرى ستاراً وينظر هنا وهناك فلا يجد خشبة المسرح التي تمثل فوقها الرواية ... وأغرب من هذا أنه يجد الكراسي غير مصفوفة في اتجاه خاص يدل على مكان المسرح ... فاذا آن أوان التمثيل وجد الممثلين معه في الصالة، ووجدهم في الشرفات (البناوير) ووجدهم في كل مكان ... حتى في السقف ... ويقولون إن الروايات التي تمثل ثمت موضوعة خصيصاً لهذا المسرح، لتتفق وهذه الطريقة العجيبة من طرق الاخراج ... ويبدو أن الروايات الأجنبية، بل الروسية نفسها، التي لم تؤلف لتؤدى على هذا النمط الحديث من فن الاخراج، تسقط سقوطاً فاحشاً حين تؤدى فيه. وقد كتب أحد النقاد الألمان فصلاً مضحكاً عما شاهده في هذا المسرح، وكان قد حضر تمثيل روايات حنة كرنينا لتولوستوى وحديقة الكراز لأنطون تشيخوف ودرامة عطيل ... فسمى ما شاهده من تمثيلها (تهريجاً شيوعياً!!)



الى حياة روحية

٢ – فى منزل الوحى

بقلم الدكتور محمد حسين هيكل بك

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

إلى حياة روحية تسمو بالنفس، وتضيء القلب، وتهذب العواطف، وتحد من النزعات والأهواء، وتصل أسبابنا بالسماء.. هذا هو ما يدعو إليه هيكل ويحبذه، بعد أن شهد ما شهد من مظاهر الحياة الروحية فى آثار النبي العربى، ورأى كيف يفعل الإيمان الأعاجيب فى مواطن لولاه ما كان للإنسان بها طاقة؛ ويعجب هيكل من الذين ينكرون الحياة الروحية ويتنكبون طريقها، ويسأل فى تعجب واستنكار فيقول: « فما بال قوم في عصور وبلاد مختلفة جحدوا الحياة الروحية وكفروا بفضل الإيمان ؟! » ثم يمضى هيكل ينعى على الماديين هذا الجحود لتلك الحياة، ويرده إلى خطأهم فى فهم الحياة الروحية على حقيقتها، وتصويرهم لها تصويراً بعيداً عن الفهم والواقع، فهم يحسبونها خارجة على نطاق العقل، لا تخضع لقوانين العلم فى تعليل الظواهر والمظاهر، مع أن سبيل الحياة الروحية الصميمة إنما هو الاحاطة بالعلم فى أحدث ما وصل إليه، واتخاذه وسيلة للنظر فى آيات الله وهى لا تنكر العقل إلا إذا قيد النظر وقيد العقل معه، ومن ثم كان الجحود عدواً للحياة الروحية، ثم يلمع هيكل إلى الغاية من الحياة الروحية وصلتها بالنفوس فيقول: « والناس يستجيبون بطبيعتهم إلى الدعوة الروحية لأنهم يبتغون الحق بفطرتهم، ولولا ما يعد لهم فيه دعاة المادة من أسباب الضلال إذ يغزونهم بمتع الحياة ولذاتها لانهارت فوارق كثيرة ليس يبقيها إلا هذا الضلال ولتقاربت الأمم بدل أن تتباعد، ولأخلصت القصد فى سعيها إلى السلام بدل أن تجعل من نذر الحرب هيا كل عبادتها، ولكانت خطا الإنسانية فى سبيل التقدم ناحية الكمال أسرع وأهدى سبيلاً، ولو أن الناس لم يتنكبوا طريق الهدى لنعموا اليوم بما يلتمسونه من سعادة، ولعلهم تنكبوا هذا الطريق لأنهم بعد فى جهالتهم، ولأن ما بلغوا من العلم لا يزال قاصراً دون هدامم والعلم الناقص داعية الضلال ! »[1]

وهيكل إذ يقول: «إن الناس يستجيبون بطبيعتهم إلى الحياة الروحية لأنهم يبتغون الحق بفطرتهم» يقرر حقيقة قد قررها الدين، وجاء بها الاسلام، ففى القرآن الكريم « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها » وفى الحديث الشريف « كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه »، وهيكل إذ يرى أنه لولا ما يعده دعاة المادة من أسباب الضلال، لانهارت فوارق كثيرة ولتقاربت الأمم بدل أن تتباعد. إنما يرى حقيقة لا تنكر، بل إنها حقيقة يقررها كثير من أهل الفكر والثقافة، ويرونها الملجأ الذى سيلجأ إليه العالم بعد أن يضنيه وينهكه ذلك النضال المادي العنيف، ولقد كان من حسن التوافق أن أقرأ هذا الكلام لهيكل وقد وافتنى جريدة الأهرام وفيها نبأ من لندن يقول: إن اجتماعاً عقد فى « هيكل » العاصمة تحت رعاية جمعية الأديان المتعددة، وقد أوضحت السيدة الناطقة باسم هذه الجمعية أن غرضها إيجاد وحدة عالية بواسطة التفاهم الروحى وقد تكلم إمام جامع ووكنج فقال: « إن الوقت قد حان لجميع الأديان كى تدفن أحقادها، وتتحد على مقاومة موجة الكفر المتعالية، والتمسك بالأمور المادية فى العالم وإهمال الأمور الروحية، وقال: إن جميع الأديان تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، فهى تشترك فى وحدة أساسية، وهى تتفق على الايمان بوجود الله وعلى تجلى الله للانسانية، فيجب علينا إذن أن نتفاهم

وليطمئن هيكل وليطمئن إمام جامع ووكنج. فان ذلك الحلم

(١) ص ٦٣٦ من الكتاب

اللذيذ لا بد أن يتحقق ، لا أقول سيحققه فرد من الأفراد أو جماعة من الجماعة ، وإنما أقول سيحققه الزمن بسننه وطبيعته وأفاعيله ، وغداً سنرى وإن كنت لا أعلم متى يكون ذلك الغد أفي القريب أم في البعيد ، ولكني لست مع الدكتور هيكل إذ يعلل جحود الماديين للحياة الروحية بالجهل ونقص العلم ، فان في الماديين الجاحدين أساطين العلم ، ومن هم في الذروة التي لا تطاول عقلاً وثقافة ، وإنما يرجع هذا الجحود على ما نرى إلى اعتقاد يقوم في أذهان أولئك الناس ، وهو أن العقل كل شيء في الحياة ، لا قول إلا قوله ، ولا منطق إلا منطقه ، فمن الواجب أن نخضع لمنطقه كل ما نرى من المظاهر والظواهر ، حتى ما يتصل بميولنا وعواطفنا ، وفاتهم أن هناك القلب ، يجب أن نجعل له اعتباراً كبيراً في شؤون الحياة ، إلى جانب العقل ، ويجب أن نعتقد بأن له منطقاً كمنطق العقل إن لم يكن أجل وأدق ، وهو وحده الذي يشعرنا في رحلة الحياة الشاقة ببرد الراحة ، ويقع من نفوسنا اللاغبة موقع الماء العذب من نفس الصادي في اليهماء القاحلة ، ولا شك أننا لو طاوعنا هؤلاء الناس وجعلنا العقل كل شيء لصارت الحياة جحيما لا تطاق ، ولفررنا من شقائها كما يفر الناس في هذه الأيام بالموت والانتحار ، بل ولتمردنا على كثير من النظم والأوضاع والشرائع الطيبة الصالحة التي تكفل السعادة للمجتمع ، والتي لا يمكن أن يجحدها الماديون أنفسهم ، وأنت أبقاك الله تأمل في نفسك ساعة وانظر فيما يحف بك من النظم الاجتماعية والقيود الثقيلة التي تربطك بالمجتمع الذي تعيش فيه ، والسلاسل والأغلال التي تثقل جيدك وتنقض ظهرك من واجبات نحو الأسرة والأب والأم والزوجة والوطن والدين والتقاليد وفكرات الشرف والعرض وما إلى ذلك ، واستسلم إلى العقل وحده وانزل على حكمه في تلك الأمور عامتها تجده يجيبك عليها جوابا لا يرضاه العقل نفسه ، لأن الطبيعة قد خصت الإنسان بشيء يمتلك ناصية عقله ويتحكم فيه التحكم كله ، شيء آت من الناحية الروحية القلبية التي هي مصدر العواطف والمشاعر والتي هي مسيطرة عليها ، وإذن فالعقل ليس كل شيء في الحياة كما يزعم الماديون ، وعبثاً حاول بعض الفلاسفة أن يجعلوا العقل حد الدين ، وأن يشرعوا للناس المذاهب الفلسفية النفعية ، فنشروا كتباً « في دين الطبيعة » لتأييد مذهبهم ، وموهوا على الناس إذ زعموا أن العلم ينافي الدين ، فوقع الإنسان في مأزق من مآزق البعد عن الشريعة الأدبية كاد يتداعى معه أساس المدنية ، حاول هؤلاء أن يجدوا في عقل الإنسان وحده هادياً ومرشداً أميناً بصفته فرداً صالحاً من مجموع إنساني ، يختط له خطة من السلوك والأخلاق جديرة بأن يحفظ نظام الهيئة البشرية التي يجب أن تقوم على أساس من الإحساس الأدبي ، أخفقوا سعياً وضلوا سبيلا ، لأن الطبيعة لم تحب الإنسان بشيء من هذا . رجع الناس بعد ذلك مؤمنين بأن وازع ما بعد العقلية ، أول عنصر من عناصر المعتقد الديني بل نواته ، وأنه الضابط الذي يضبط علاقة الفرد بالجماعة في كل حالة من الحالات[1]

ولكن أي لون من ألوان هذه الحياة الروحية يجب أن يختار الشرق حتى يفوز بالغاية ؟ !

يرى بعض المفكرين في مصر أن لون الحياة الغربية هو اللون الصالح ، فراحوا ينقلون للشرق آثار الغرب في ذلك ما وسعهم النقل ؛ وقد كان هيكل على هذا الرأي من قبل ، ولكنه خرج عليه إذ لمس فيه الخطأ الواضح ، وهو يتحدث عن ذلك فيقول : « لقد خيل إلى زمناً — كما لا يزال يخيل إلى أصحابي — أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى النهوض ، وما أزال أشارك أصحابي في أنا ما نزال في حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله ، لكني أصبحت أخالفهم في أمر الحياة الروحية ، وأرى أن ما في الغرب منها غير صالح لأن ننقله ، لأن تاريخنا الروحي غير تاريخ الغرب ، وثقافتنا الروحية غير ثقافته » وبعد أن يكشف عن وجه الفرق في ذلك يدل على اللون الصالح للشرق من الحياة الروحية ، وهو في كلامه يتحدث عن خبرة وتجربة فيقول : وقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية والروحية لنتخذها هدى ونبراساً ، لكنني أدركت بعد لأي أنني أضع البذر في غير منبته ، ورأيت أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر ، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو ، ولأبناء الشرق في هذا الجيل نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها بعد حين

وهذا كلام أصاب فيه هيكل شاكلة الصواب ، وشرحه شرحاً وافياً كافياً في منزل الوحي ، فجاء كتابه صفحة روحية مشرقة ، وفكرة صالحة يجب أن يطالعها أبناء الشرق لتنمو في نفوسهم ، فتؤتي ثمرها الطيب

محمد فهمي عبد اللطيف

(١) بين الدين والعلم ص ١٢ ترجمة اسماعيل مظهر



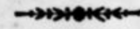
فى النقد

١ — يحيا الحب

٢ — جارى كوبر فى نيويورك

٣ — مدخل الممثلين STAGE DOOR

بقلم محمد على ناصف



يحيا الحب

قصة هذا الفلم من النوع الكوميدى الشائع الآن فى الأفلام الأمريكية Light Comedy . وكثيراً ما تكون موضوعات هذه الأفلام تافهة ، غير أنها تعوض هذا النقص بجمال الحوار وتعدد المفاجآت المبتكرة وبراعة التمثيل وحسن الاخراج. وقد جاء كذلك «يحيا الحب» من حيث فراغ الموضوع ... فلننظر إلى نواحى الفلم الأخرى

كان الحوار ركيك الأسلوب خالياً من النكتة والمفاجأة القوية . وقد أثر هذا الضعف فى عمل المؤلف ، وفى عمل الممثل ، وفى عمل المخرج

فمن ناحية التأليف رأينا البرتقال يجنى فى الصيف ، وموظفاً لا يعرف رئيسُه أصلَه حتى ولا من شهادة الميلاد

ومن ناحية التمثيل رأينا إحدى الشخصيات خليطاً بين أستاذ فى العلوم ومهرج

وليس أدعى إلى إفساد عمل المخرج من أن يتعهد موضوعاً عادى التأليف ضعيف السيناريو مضطرب الشخصيات

ومآخذ الاخراج كثيرة فى « يحيا الحب » أهمها فى رأيى خلو الفيلم من الحركة

ولقد ذكرت أن قصة الفيلم من النوع الكوميدى ولكنها لم تعالج على هذا الأساس فى كثير من الأحايين ، لم يعالجها كريم فى مشهد ذلك الحلم المبدد ، ولم يعالجها رامى فى أغانيه ، ولم يعالجها عبد الوهاب فى ألحانه وتمثيله ، وأحسب أن مشهد تكسير العود مثلا كان من المستطاع أن يكون من أجمل المشاهد الكوميدية لولا أنهم أخرجوه كأنه مشهد بطل مصروع أو مدينة مخربة

والفلم على وجه عام فقير من ناحية التمثيل إذا استثنينا شخصية رضوان باشا التى مثلها عبد الوارث عسر ، ولولا اضطراب شخصية مجاهد بك (أستاذ العلوم) لاعتبر أمين وهبه من المجيدين ، ولم يكن عبد القدوس فى أحسن حالاته

ولقد حاول عبد الوهاب كثيراً ولكنه لا يزال فى حاجة إلى محاولات أخرى ليبدو ممثلاً ، ولم يكن مستحسناً ظهوره تارة بالنظارة وأخرى بدونها . وما يقال عن عبد الوهاب من



عبد الوارث عسر ممثلا « رضوان باشا » فى « يحيا الحب »

التمثيل يمكن قوله عن ليلى مراد ، ولو أن هذا أول أفلامها . وتمتاز ليلى بوجه حسن وعود رشيق يصاحبان للشاشة ، وصوتها كذلك لا شك فى جماله .

وأصلح ألحان الفلم كانت فى الموسيقى المصاحبة للشريط وهى من وضع عزيز صادق

أما أغانى الفلم فإذا استثنينا أغنية « يا وابور قولى رايح على فين » وأغنية أخرى على الأكثر ، فإن الأغانى الباقية غير مناسبة لطبيعة الفيلم ، وقد ماثلتها الألحان كذلك فكانت مليئة باللوعة والتأسى والتفجع

والتصوير فى « يحيا الحب » جميل أحياناً ، وأحياناً أخرى على النقيض

وما نرجوه لأفلام عبدالوهاب هو أن نحس بتطورها من حسن إلى أحسن وقد أصبحت شركة قديمة غنية جديرة بالاهتمام والمحاسبة

جارى كوبر فى نيويورك

Mr Deeds Goes So Sown لشركة كولومبيا من أحسن أفلام الموسم الماضى ، وقد نال عنه مخرجه فرانك كابرا الجائزة الذهبية من أكاديمية الصور والفنون ؛ وكانت جمهرة النقاد لا تشك فى أن جائزة التمثيل من حق جارى كوبر لدوره فى هذا الفيلم لولم تذهب إلى بول ميونى فى « حياة لويس باستير » ، ولا يفضل عمل المخرج أو الممثل فى هذا الفيلم عمل كاتبه الفذ روبرت ريسكين فالفيلم متعدد نواحى العظمة ؛ ولذلك كان استديو مصر موفقاً فى اختياره لعمل « دوبلاج » ينطقه بالعربية



فرانك كابرا
مخرج « جارى كوبر فى نيويورك »

وهذه فكرة طريفة قد تلاقى نجاحاً من الناحية المادية وخاصة وهى فى بداءتها ، ولكنى أحسب أن التقدير يختلف من الناحية الفنية ، وخاصة إذا كان الفيلم قريباً من درجة الكمال كالذى نحن بصدده ؛ فلو أن النقاد الذين حكموا له بالتفوق شهدوه كما يعرض الآن لتغير حتما رأيهم ؛ فجارى كوبر قد فقد جزءاً كبيراً من شخصيته بفقدان صوته مقابل صوت خال من التأثير وقوة التعبير ؛ وروبرت ريسكين قد انحط أسلوبه وفترت نكتته ؛ وفرانك كابرا قد أثرت هذه العوامل على مجهوده الكبير فقل شأنه

وقد يكون عمل الأستديو أقرب إلى الإجادة لو أنه بذل عناية أكبر بلغة الحوار وبتخير أصوات تلائم شخصيات الفيلم وتمايز بعض أصواتها عن بعض ، إذ أنه رغم تشابه الأصوات فى الفيلم فإن أكثر من شخصية واحدة قد أنطقت بصوت واحد ، وهذا اضطراب كان تلافيه من البدهيات



كاترين هيبورن
الممثلة الأولى فى « مدخل الممثلين »

مدخل الممثلين

شهدنا منذ أسابيع قليلة فيلم Astar Es Barn وهو أول فيلم يمثل مدينة السينما على حقيقتها . وقد لقى بهذه الصفة — فضلاً عن استكمال صفات الفيلم الأخرى ـ نجاحاً مدوياً بأمريكا وأوروبا وقد أعقبه فيلم Stage Door عن حياة المسرح فصادف نفس النجاح إن لم يفقه فى قوة الإخراج وجمال السيناريو

وهو منقول عن مسرحية ناجحة لأدنا فيربر وجورج كوفمان مثلت طويلاً على مسارح برودواى . وأعدها للسينما مورى ريسكيند وأنتونى فيلر وأخرجها لشركة راديو جريجورى لاكافا الذي لا نزال نذكر له « رجلى جودفرى » My Man Godfrey

وقد بلغ كل من لغة الحوار والتمثيل والاخراج فى هذا الفيلم مستوى رفيعاً سيظل أثره ماثلا فى أذهاننا طويلا

محمد على ناصف

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧



6 me Année, No . 241

Lundi - 14 - 2 - 1938

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٤١ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٣ ذى الحجة سنة ١٣٥٦ — ١٤ فبراير سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـــرس

فى القرية

من أحاديث العيـــد

أصبحت القرية الصغيرة غارقة فى ضباب أمْشير البارد الأهوج كأنها قِطَع السحاب المركوم جثمت من ثقلها على الأرض . فالجو على قول «هوجو» كستار الغيب المسدول ، والنسيم على قول « ابن المعتز » كذيل الغلالة المبلول ، ووجه السماء كوجه الصحراء فى يوم الدجن لا ترى فيـه إلا تلولاً من الغمام الجون وسهولاً من السحاب الهِفّ[1] . وكانت جدران المسجد تعج بالتكبير والتهليل ، وأفنية الدور تنعم بالعناق والتقبيل ، والطرقات من البيوت إلى الزاوية ، ومن الزاوية إلى المقبرة ، تزدان بالشباب القروى القوى العامل ، وهو يطفر من مرح الصبى ، ويخطر فى زينة العيد ، فيكسب الطبيعة العابسة المقرورة بشراً من طلاقة وجهه ، وقبساً من حرارة قلبه

أخذت « المناظر » والمصاطب زخرفها بالقوم بعد أن أقاموا الصلاة لله ، وأدّوا الزيارة للموتى ، وقدموا التهنئة للأهل ، وانفضوا ثقالاً عن سماط العيد ، ودارت عليهم أكواب القرفة وسكائر

(١) الغمام الجون : الأسود ؛ والسحاب الهف : الرقيق الأبيض

الطِّباق ، وتشققت بينهم مقطَّعات الحديث ، فترامت إلى عيد الملة بحج البيت ، وعيد الأمة بمولد الفاروق ، وعيد الأسرة بيوم الأضحى . وكان اجتماع هذه الأعياد السنوية الثلاثة في يوم العيد الأسبوعي من مصادفات الدهر النادرة ، وموافقات القدَر البعيدة ، فتألقت في وجوههم أضواء مختلفة من السرور ، وتدفقت فى قلوبهم أحاسيس شتى من اللذة ؛ منها المنبثق عن مشرق الإيمان بالله ، ومنها الصادر عن منبع الإخلاص للمليك ، ومنها المنبعث عن فيض النفس الراضية تفتحت فى حرارة الحب كما تتفتح الأكمام فى دفء الربيع

* * *

من الصعب أن تقيد الأحاديث المرسلة إذا جرت بين قوم لا يؤمنون بقواعد الجدل ، ولا يحفلون بأمانة التاريخ ، ولا يرون الحق للمتكلم أن يتم كلامه أو يشرح رأيه . وحديث الناس فى القرية كشقشقة العصافير فى الشجرة ، تسمع كل عصفور يغرد ، ولا ترى عصفوراً واحداً يسمع !

— كل عام وأنتم بخير . واللقاء فى العام المقبل إن شاء الله على عرفات !

بهذه التحية وهذه الأمنية أبتدأ الحديث ؛ وكأنما كان لفظ عرفات سبباً من الجذب الروحى حوّل عواطف القوم وأمانيهم إلى مكة ! فالذين حجوا أخذوا يذكرون وهم فى غمرة الشوق ونشوة الذكرى ، تجلى الألوهية فى مهابط الوحى ، وإشراق النبوة فى مطالع الرسالة ، ويروون عن كل منسك حديثاً ، ويقصون عن كل موقف حادثة . والذين لم يحجوا يصغون إلى صرف الحديث وهم من فعله الساحر فى هيام غالب وطرب نزوع . ثم رجع الحديث مشرقَ الحواشى معطر الأطراف من الكعبة إلى عابدين ، فأفاضوا فى صلاح الملك الشاب وبره ، إفاضة الخيال الشاعر فى عدل عمر وفضل الرشيد . فهذا يقول إن جلالته يزور القرى متنكراً ليرى بنفسه منابت الشر ومواطن الفقر ، فإذا كتب الله النعمة لبيت من البيوت عطفه إليه فدخله دخول الرحمة ، وحل به حلول السعادة . ثم يروي الأعاجيب فى هذا الباب مما تناقلته الأفواه فى الأسواق ورددته الألسنة فى المجالس . وهذا يذكر أن الشيخ فلاناً رأى جلالته فى المنام والنبي يقبله قبلة الرضى ، ويقلده سيف الخلافة ، ويَعِده نصر الله مادام على النهج الواضح والعمل الصالح والوحدة الجامعة . وذلك يقرر أن غضب الملك الصالح من غضب الله ، إذا صُب على الباغي لا تعصمه منه قوة ، ولا تدفعه عنه كثرة . لأن غضبه فوق الهوى والطمع ، فلا يكون إلا للعدل فى جوهره ، وللشعب فى صميم حقه

ثم انتقل الحديث من غضب الملك إلى حل مجلس النواب ، ففاضت البشاشة من الوجوه وقالوا بلهجة الآسف الحزين :

عدنا إلى الحرب الضروس ، تفتك أسلحتها الأثيمة بالأموال والأنفس والأخلاق والقرابة . فالانتخاب بما تمه ومغارمه هو المظهر الذى نحسه ونعرفه من مظاهر الدستور . وفترة الانتخاب هى الفرصة التى نرى فيها النائب طول الدورة البرلمانية . ومعركة الانتخاب بين الحكومة والأحزاب ، وبين المرشحين والطلاب ، هى التى تحمل أولياء الحكومة وأغنياء الأمة على أن يذكروا القرية ، ويزوروا الفلاح ، ويعطفوا على بؤس الأجير ، ويمسحوا على رأس العامل ، ويعدونا المواعيد ، ويمنونا المنى ، ويصوروا لنا البرلمان فى صورة المسيح المنتظر ؛ فلا ظلم وهو منعقد ، ولا بؤس وهو قائم ! فنقطع فى رضاهم القرابة ، وننقض فى سبيلهم الجوار ، ونتحمل فى نجاحهم العنت ؛ حتى إذا فاز النائب ، والتأم المجلس ، وحكم الدستور ، انصرف البرلمان إلى الأحزاب ، واشتغلت الحكومة بالموظفين ، واهتم النائب بنفسه ! أما القرية والفلاح ، وأما الدائرة والناخب ، فمرآهم مقتحمَ العين ، وشكواهم دبرَ الأذن

* * *

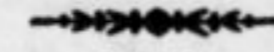
ذلك بعض حديث القوم . وهو على سذاجته أو قل على تفاهته أخف على القلب وأندى على الكبد من حديث يزوره كاتب يتعاطى الأدب ، أو خطيب يحترف السياسة .

احمد حسن الزيات

من مآسي التاريخ الاسلامي

فرار عبد الرحمن الداخل

للأستاذ محمد عبد الله عنان



ليس بين أمراء الدولة الأموية ، سواء فى الشام أو الأندلس ، من تقدم إلينا حياته وسيرته تلك الصفحة المدهشة التى يقدمها إلينا عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل ؛ فقد كان هذا الأمير بطل مأساة خارقة مؤثرة ؛ ولم تكن روعة هذه الصفحة فى أنه أقام من العدم ملكاً عظيماً فقط ، وأقام لمجد أسرته الذاهب صرحاً شامخاً فحسب، ولكن روعتها تبدو بنوع خاص فى معترك المحن الأليمة التى نشأ فى غمارها هذا الأمير القوى النابه . وإذا كانت حياته السياسية لا تحمل على كثير من الحب ، وتبدو لنا حياة مغامر يشق طريقه إلى السلطان بوسائل ليست دائماً مشروعة ، فان المحنة التى طبعت بها حياته الخاصة ، وما صقلت هذه المحنة من خلاله الباهرة ، لما يستثير منا أيما عطف وإعجاب

وقد لا نجد لحياة الداخل صورة أبلغ وأقوى من تلك التى رسمها لنا خصمه وعدو أسرته أبو جعفر المنصور العباسى إذ نعته بصقر قريش ، ولخص لنا حياته المدهشة فى قوله : « عبر القفر ، ودخل بلداً أعجمياً منفرداً بنفسه ، فمصر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودون الدواوين ، وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه بحسن تدبيره ، وشدة شكيمته . إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان ، وذللا له صعبه ؛ وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها ؛ وأمير المؤمنين بطيب عترته واجتماع شيعته ؛ وعبدالرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد برأيه ، مستصحب لعزمه ، وطد الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور ، وقتل المارقين ، وأذل الجبابرة الثائرين »

تلك هى حياة عبدالرحمن بن معاوية ، حياة نشأت من العدم ، وسلسلة حافلة بالمحن والصعاب الفادحة ، تبدأ فى المشرق بفرار عبد الرحمن أمام مطارديه وقتلة أسرته ومنتصبى عرش آبائه وأجداده ، وتنتهى فى المغرب وبسائط الأندلس بالظفر والملك الموطد . ولقد كان هذا الفرار أول وأعجب فصل فى هذه المأساة ، وكان عنوان القدر المدهش يدبر من الحوادث الواقعة ما لا يخطر تصوره على الذهن المغرق فى الخيال

كانت سنة ١٣٢ هـ سنة حاسمة فى تاريخ الاسلام والخلافة ، ففيها انهار صرح الدولة الأموية تحت ضربات بنى العباس ، وقامت فى المشرق خلافة جديدة هى الخلافة العباسية ؛ ورأت العصبة العباسية الظافرة أن تتوج ظفرها بسحق الأسرة التى استولت على تراثها واجتثاث أصولها وفروعها ، فنظمت مطاردتها الشهيرة لبنى أمية ، وتتبعتهم بالقتل الذريع فى كل مكان ، وقتلت منهم جماعة كبيرة من الأمراء والسادة ، ولم تبق حتى على النساء والأطفال ؛ ولكن هذه المطاردة الدموية الشاملة لم تجتث الشجرة من أصلها ، وشاء القدر أن يفلت بعض فروعها ، وأن يزكو ليستعيد أصله الراسخ فى أرض أخرى ؛ فكان ممن نجا من الذبحة الهائلة فتى من ولد هشام بن عبد الملك ، اختاره القدر ليحمل مصاير الدولة الأموية إلى وجهة أخرى

هذا الفتى هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام . وكان وقت أن حلت النكبة بأسرته يقيم مع أهله وإخوته فى قرية تعرف بدير حنا من أعمال قنسرين ، وفيها كان مولده قبل ذلك بعشرين عاماً ؛ وكان أبوه معاوية قد توفى شاباً فى أيام أبيه هشام ، فكفله وإخوته جدهم هشام ؛ ولما وقعت النكبة وأمعن الظافرون فى مطاردة بنى أمية فر عبد الرحمن بأهله وولده إلى ناحية الفرات وحل هنالك ببعض القرى ، واختفى بها حيناً يدبر أمره ؛ وكان يرقب الموت فى كل لحظة ، ولكنه كان فى الوقت نفسه يتجه بذهنه إلى مستقبل بعيد غامض . وبينا هو فى هذا الجزع القاتل يدبر أمره ، إذا بجند المسودة تطوق القرية ، وتستقصى آثار بنى أمية ؛ وإذا بعبد الرحمن يرى شبح الموت أمامه فجأة ، فيحاول اجتنابه بالفرار من مطارديه

وقد انتهت إلينا عن هذا الفرار قصة مؤثرة نقلها إلينا مؤرخ أندلسى مجهول عن لسان عبد الرحمن ذاته [1] ، ونقلها

(١) وردت هذه الرواية في كتاب « أخبار مجموعة فى فتح الأندلس » لمؤلف مجهول ص ٥١ — ٥٣

عنه بعد ذلك أبو حيان مؤرخ الأندلس (١) وخلاصتها أن عبد الرحمن حينما علم أن القرية قد غصت بجند المسودة ، بادر إلى شيء من المال فحمله ، وفر مع أخيه الأصغر ، وهو صبي في الثالثة عشرة من عمره ، وقصدا إلى شاطىء النهر (الفرات) فدل عليه بعض الخونة فما شعر إلا والخيل في أثره ، فألقى بنفسه في النهر مع أخيه وأخذا يقطعانه سباحة ، واستطاع عبد الرحمن أن يصل إلى الضفة الأخرى ؛ ولكن الغلام عجز عن قطعه ، وآثر أن يعود إلى الضفة الأولى بعد أن وعده الجند المطاردون بالأمان ؛ ولكنه ما كاد يقع في أيديهم حتى انقضوا عليه وقطعوا رأسه أمام عيني أخيه وقلبه يتفطر روعة وأسى

ولما أمن عبد الرحمن خطر مطارديه سار متخفياً إلى الجنوب وقطع فلسطين ثم مصر ، وهو يحمل حياته في كفه متأهباً للقاء الموت في كل لحظة . وكانت عيون العباسيين ترقبه وتشيعه خلال هذه الهضبات والفيافي الشاسعة ، وتكاد تكشفه من آونة إلى أخرى ؛ ولكن طالعه كان يهديه ، فجاز مصر إلى برقة ناجياً بنفسه ، والتجأ إلى أخواله بني نفرة ، وهم بطن من برير طرابلس وكانت أمه بربرية منهم تدعى راح ، وأقام لديهم يرقب الفرص ، وأنفذت إليه أخته أم الاصبغ موليبه بدراً وسالماً ومعهما شيء من المال والجوهر . والظاهر أن عبد الرحمن كان يتجه منذ الساعة الأولى ببصره إلى افريقية ، وأن نفسه كانت تحدثه بما قد يكون له في الأندلس من شأن . فلما هدأ روعه استأنف سيره ، ونفذ إلى افريقية يحاول اختراقها ؛ وكان المتغلب عليها يومئذ عبد الرحمن ابن حبيب الفهري ، وكان وقت أن دالت دولة بني أمية في المشرق قد دعا لبني العباس ، وكان يخشى على سلطانه من ظهور بني أمية في إفريقية ، فطارد اللاجئين إليها منهم ، وقتل بعضهم واعتقل البعض الآخر وصادر أموالهم . ولما شعر بظهور عبد الرحمن بن معاوية حاول القبض عليه ، ولكن عبد الرحمن استطاع أن يتجنب المطاردة ، وأن ينجو مع صحبه إلى المغرب الأقصى

وهنا تتفتح آمال عبد الرحمن وأطماعه ؛ فعلى مقربة منه في الضفة الأخرى من البحر بلد غني زاهر من تراث الدولة الأموية الذاهبة لم تمتد إليه يد المسودة ، ولم تقتحمه دعوتهم ، وفيه عصبة قوية من بني أمية وأنصارهم ومواليهم ، وفيه يستطيع — إذا حالفه حسن الطالع — أن يعيد بناء الصرح الذي انهار في المشرق ، ويستأنف لأسرته حياة جديدة في السلطان والملك . وكانت الأندلس في الواقع ، منذ انجلت عنها يد السلطة المركزية ، مهبط الطامعين والمتغلبين ، وكان يحكمها ويقودها يومئذ يوسف ابن عبد الرحمن الفهري ؛ وكان قد وليها قبل ذلك بنحو عشرة أعوام باتفاق الجماعة عقب معارك داخلية طاحنة ، ولكن حكمه لم يتوج قط بالصبغة الشرعية ؛ ولم تستكن الأندلس نهائياً إلى حكمه بل كانت تتطلع دائماً إلى مصيرها وترجو أن تظفر بالاستقرار السياسي في ظل أميرها الشرعي . وهكذا فإن عبد الرحمن الأموي حينما سبر غور أحوال الجزيرة على يد بعض رسله وموالي أسرته ، آنس أملاً في العمل وفي النجاح ؛ ثم عبر إلى الجزيرة ، والتقى في أنصاره وعصبته بيوسف وقواته في « المسارّة » على مقربة من قرطبة في أوائل ذي الحجة ١٣٧ هـ (٧٥٦ م) ؛ وكان النصر حليفه ، إذ هُزم يوسف وحلفاؤه هزيمة شديدة ، ودخل عبد الرحمن قرطبة في يوم الأضحى ، واستقبلت الأندلس عهداً جديداً

***

على أن يوم المسارة كان بالنسبة لعبد الرحمن فاتحة الظفر لا غايته ؛ فقد استطاع بعد أحداث وخطوب جمة أن يجوز إلى الأندلس ، وأن يفتتح عاصمتها وينتزع إمارتها لنفسه ؛ ولكنه ظفر بعرش لم يتوطد سلطانه ؛ وكان ثمة بينه وبين ملك الأندلس الحقيقي مراحل شاقة ؛ بيد أن هذا الفتى الذي شحذت المحنة والخطوب همه ، استقبل مهمته الفادحة بعزم مدهش ، وقضى بقية حكمه وحياته ثلاثة وثلاثين عاماً يغالب صعاباً لا نهاية لها . وكانت الأندلس خلال هذه الفترة كالبركان الثائر ، يضطرم كل يوم في ناحية ، فلا تكاد الثورة تخمد في ناحية منها حتى تضطرم في ناحية أخرى . وكان عبد الرحمن في خططه وأساليبه طوال هذه المعركة مثال الجرأة والصرامة والقسوة ، بيد أنها لم تكن شهوات طاغية ظامئ إلى الدم ، بل كانت أساليب عنف يمليها العنف والخطر الداهم . كان عبد الرحمن يعيش من يوم إلى يوم في غمر الخلاف والثورة والخيانة ، ولم يترك له الكفاح المضطرم المستمر فرصاً كثيرة لأعمال السلم ، بيد أنه خرج ظافراً من المعركة ، ظافراً

(١) أوردها المقري عن ابن حيان في نفح الطيب ج ٢ ص ٦٢ و ٦٣

باعادة الصرح الأموى الذى تهدم فى الشرق ؛ وتوطيد دعائم الملك الذى غلب ، وإنشاء أسرة أموية جديدة فى الغرب ، قدر لها أن تسير بالأندلس فى سبيل العظمة والفخار أحقابا

بيد أن هذا الظفر الباهر كانت تنشاه دائماً آلام نفس معذبة ذلك أن المحنة طبعت نفس عبد الرحمن وروحه إلى الأبد بطابع الكآبة والشجن ؛ وهو لم ينس قط أنه سليل دوحة تقصفت واجتثت أصولها الراسخة حيث كانت يانعة زاهرة ، وأنها اجتثت فى مناظر دموية مروعة كان من شهودها وكاد يغدو فى ضحاياها ؛ ومن ثم نراه حتى آخر حياته محزون النفس يتلهف على ماضيه ، ويبكى مجد أسرته ، ويتحسر على فراق وطنه ، وعلى نفيه وغربته وقد انتهت إلينا من شعره أبيات مؤثرة تفصح عن آلامه المعنوية مثل قوله فى التشوق إلى ربوع الشام :

أيها الراكب الميمم أرضى أقـرِ من بعضى السلام لبعضى
إن جسمى كما علمت بأرض وفؤادى ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفونى غمضي

وقوله وقد رأى فى الرصافة [(١)] نخلة منفردة :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى
وطول التنائى عن بنىَّ وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة
فمثلك فى الاقصاء والمنتأى مثلى [(٢)]

تلك هى مأساة عبد الرحمن الداخل ؛ ونقول مأساة لأن الظفر الذى اختتمت به لم ينزع عن هذه الحياة الشاقة لونها المؤسى . وقد كان الداخل بلا ريب من أعظم شخصيات التاريخ الأندلسى ؛ بيد أنه فى حياته الخاصة يبدو لنا دائماً ذلك الطريد الذى تثير محنته وآلامه فى النفس شجناً ، قبل أن تثير أعماله الحافلة فى النفس إعجاباً

محمد عبد الله عنان

(١) رصافة قرطبة ، وقد أنشأها الداخل تشبها بجده هشام حيث أنشأ الرصافة بالشام

(٢) وفى نسبة هذه الأبيات إلى الداخل خلاف

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ١٠ —

أقف قليلاً حتى أستعد لتدوين ما سمعت من ظمياء . وأشهد أنى سمعت بقية حديثها وأنا كاره ، لأن اسم عبد الحسيب أصبح يزعجنى ، فهو الحبيب الأول ، وأنا إن شاء الهوى سأكون الحبيب الثانى . وحماسة ظمياء فى سرد القصة قد تنتهي بتذكير ليلى بماضيها فتنتكس وتضيع من يدى ، لا قدَّر الله ولا سمح . وهل أملك زمامها إلا إن وصلتُ بها إلى ساحل العافية ؟ كتب الله لها السلامة ، وشفى من أجلها جميع المرضى من الملاح !

ومن واجبي نحو نفسى أن أنص بصراحة على أنى لست لئيما كل اللؤم فى هـذه القضية — وما أبرّئ نفسى ، إن النفس لأمارة بالسوء ، إلا ما رحم ربى — فأنا أحب أن تُعافَى ليلى لأنفرد بهواها ، ولكنى مع ذلك أشعر فى بعض الأحيان أنى أخدمها باخلاص ، فانه يعزّ علىّ والله أن تُعطب سيدة لها مثل طرفها الساحر ، وصوتها الرخيم . يعزّ علىّ أن تعطب مثل تلك الانسانة وإن خلت منها يدى ، وهذه فيما أظن أول مرة أشعر فيها بحلاوة الصدق ، فقد مضت أعوام وأنا لا أداوى امرأة جميلة إلا هممت بخطفها من زوجها . وقد وقعت لى من ذلك حوادث سيطول عليها ندمى ، حين أثوب إلى رُشدى ، أنا الطبيب الآثم الذى زعزع عروش السعادة فى كثير من البيوت

أنا أشعر حقاً وصدقاً أن ليلى تهمنى ؛ وأشعر حقاً وصدقاً أنى مستعد للتضحية بنصيبى من هواها ؛ ولكن ما الذى يمنع من الجمع بين المزيتين : عافيتها وسعادتى ؟ يمكن بسهولة أن تصير محبوبتى بلا بنى ولا عُدوان ، والخلاصة أنى أريد أن يُنسى اسم عبد الحسيب ، ولكن كيف ؟ إن قصته تهمنى جداً ، لأنها ستعلمنى كيف أسوس ليلى ، وهذا بيت القصيد ، فقد أصبح مفهوماً عندى أنه كان (عبيطا) لا يعرف ما يأتى وما يدع . وكان مصيره أن يُحرم عطف ليلى ، فيمرض هو فى مصر ، وتمرض هى فى العراق ، وما أحب أن أكون ثالث المرضى !

يضاف إلى هـذا أن ظمياء ستتكلم أيضاً عن درية أخت عبد الحسيب ؛ وهذا الاسم يهمني جداً ، ولا أعرف السبب في ذلك ، ولعلى أعرف بعد حين ، فقد تتذكر الإنسانة التي تحمل هذا الاسم الجميل أن الفتى الذي كان يصارحها وتكاتمه لم ينس أن جسمها كان أخصب جسم تبختر واختال في شارع فؤاد . ولعلها تمرض هي أيضاً فيُدعى لهـا الطبيب الذي يداوى ليلى المريضة في العراق

درية ، متى تمرضين ؟ إخص عليك ! بل متى تتصنعين المرض لأراك — في غير ريبة — ممدَّدة على السرير ؟ متى ؟ متى ؟ إن بلائى سيطول !

***

أنا أغار من اسم عبد الحسيب ، فليؤجِّل حديثه لحظات ، ولأدوِّن بعض الوقائع المتصلة بهذه الأحاديث

١ — بجوار دار المعلمين العالية رجل يجلس على الأرض و (يضرب الرمل) وهو معروف لسائر أهل بغداد ، وهو يذكرنى بأمثاله من الذين كنت أستخبرهم مصيرى في الحب حين كنت أمشى بشارع الخليج . وما كنت أول محب استخبر الرمل ، فزميلى البهاء زهير تنطق أشعاره بأنه كان يعرف جميع من (يضربون الرمل) بالقاهرة

أقول إنى أقف دقائق كل صباح حول بساط هذا الرجل وأنا في طريقى إلى الدرس ، والطلبة يرون فلا ينتقدون أستاذهم ، لأنهم سمعوا أنه أديب فيلسوف لا يهمه غير الوقوف على أحوال المجتمع . ولكن الواقع غير ذلك ، الواقع أنى بدأت أتخوف مصيرى في هوى ليلى ، وأصبحت كالطفل أصدّق كل شيء . ولكن كيف أستخبر الرمل والطلبة يغدون ويروحون وأكثرهم يحمل المصورات الشمسية ، وفي مقدورهم أن يأخذوا صورتى على تلك الحال ويقدموها إلى الجرائد فأصبح محور السمر الساخر في الأندية والمعاهد ؟

الحل سهل : أنتظر ذهاب الطلبة للغداء ثم أعرج على ضارب الرمل لأشوف بختى

كذلك فعلت

وبلاه ! ماذا تصنع المقادير ؟

أنا أجلس أمام أحد الدراويش في بغداد لأشوف بختى ، وأنا الذى غلبت الساحر الهندي على شاطيء الاسكندرية في صيف سنة ١٩٣٤ ؟

ليت أيامي تعود !

فما زلت أذكر كيف أعطانى ذلك الساحر الهندى عشرين ديناراً في سبيل أن أترك له التفرد بقراءة الكف لمن يحج ذلك الشاطيء من الظبيات

وخلاصة القصة أني ذهبت في ضحى يوم صائف إلى خليج ستانلى ، ونزلت بثوب البحر إلى ملعب الغزلان ، فرأيت فقيراً هندياً يقرأ الكف لفتاة ناهـد تشبه أفروديت ، أو تشبهها أفروديت ، فجلست بجانبهما جلسة الباحث المتعقب ، لا جلسة اللاهى اللاعب ، وما هى إلا لحظات حتى قلت بصوت الواثق بصحة ما يقول : على رِسلك أيها الساحر ، فأنت فيما يظهر قليل العلم بأسرار الكف ، وما يجوز لك أن تشغل فتاة بمصيرها على غير هدى . أين تعلمت هذا العلم أيها الدرويش الجهول !

فانزعج الرجل انزعاجاً شديداً ، وفقراء الهنود ضعاف العزائم والقلوب في أكثر الأحيان

ونظرت الفتاة في استغراب وقالت : وحضرتك تعرف علم الكف ؟

فقلت ، وأقسم ما قلت غير الصدق : نعم أعرف علم الكف وهو خير ما تعلمت في باريس !

فانعطفت الفتاة في تخاذل وقالت : تسمح تقرأ لى كفى !

فأخذت يدها ونظرت إلى صدرها مرة وعينيها مرتين ، ثم شرعت أقص عليها أخبار المستقبل وما فيه من ابتسام وأنين

وما هى إلا دقائق حتى كنت ساحر الشاطيء

فهل تعود أيامى ؟ هل تعود ؟ أمرى إلى الهوى !

وتخاذل الساحر الهندى وتضعضع وأقبـل يسر في أذنى : تتفضل بكلمة ؟ فقلت: نعم . وانتحينا بعيداً عن أسماع الظباء فقال: أعرف أنه لا يفل الحديد إلا الحديد ، وأعرف ثانياً أنى أعلم منك بقراءة الكف ، ولكنى واثق بالهزيمة إذا ناضلتك ، لأنك تحدث الفتيات بأحاديث أجهلها كل الجهل ، ويغلب على ظنى أنك لا تقرأ الكف ، وإنما تقرأ العيون ، ولا علم لى وحياة غاندى بلغة العيون

فقلت : وماذا تريد ، أيها الشيخ ؟

فقال : أرجو أن تبيعني هذا الميدان

« وعندئذ تذكرت أني موظف في الحكومة المصرية وأن من الممكن أن يتعقبني مندوب (آخر ساعة) أو مندوب (روز اليوسف) أو مندوب (الصباح) ، وأن من العقل أن أقبض ما يمكن قبضه وأترك الميدان »

— وماذا تقدم يا شيخ ؟

— أقدم عشرة دنانير

— أنا أترك لك هذا الميدان من أجل عشرة دنانير؟ هيهات!

— يا سيد ، أنت في وطنك وأنا غريب

— ونحن لا نترك خيرات بلادنا للأجانب

— أنا لست أجنبياً بالمعنى البغيض لهذه الكلمة ، فأنا مسلم مثلك وأتكلم اللغة العربية

— إنك رجل لبق يا شيخ ، ولكني لا أترك هذا الميدان بعشرة دنانير

— أنا لم أغنم من هذا الموسم غير أربعين ديناراً

— أنت إذاً جهول ! ولو كنت مكانك لجمعت ألف دينار في شهرين

— هذا ما وقع وأنت تعرف يا سيدي أن عمل السحر صار قليل المكاسب بفضل المقالات التي تكتب ضده كل يوم . وأنت يا زميلي تعرف ما جنت علينا حذلقة أصحاب الجرائد والمجلات

— إذن تدفع عشرين وتحفظ لنفسك عشرين

فقبل الرجل وقدم المبلغ ، فأخذته وانصرفت

وقد علمت بعد ذلك أن عرائس الشاطئ شككن في قدرته على فهم أسرار الكف فبار سوقه وضاع

أما أنا فقضيت في دراسة هذا العلم النفيس حتى تفوقت فيه ، ولكل مجتهد نصيب

***

أليس من الغريب أن يكون هذا حالي في العلم بمصاير القلوب ثم أجهل مصير قلبي ؟

إن هذا لدليل على ضعف القدرة البشرية ، إن كان ذلك ما يرتاب فيه الزنادقة والملحدون

جلست إلى الرمل أستلهمه وأستوحيه ، والأمر للهوى

— بابا ، بابا

— نعم يا عمي

— لك أعداء في الشام ، وسينصرك الله عليهم

— طيب ، طيب ! (وماذا جنيت حتى يكون لي أعداء في الشام أو لبنان ؟)

— ولك أعداء في مصر ، وسينصرك الله عليهم ، قل آمين

— آمين ، آمين !

— ولك في العراق فرد عدو (يعني عدواً واحداً)

— طيب

— ويجيء إليك فرد مكتوب

— من وين يا عمي ؟

— من بغداد

— خير ، خير

— وأنت تحب فرد امرأة ، وأكو [1] ناس يحسدونك

— أكو خوف يا عمي ؟

— ما كو خوف ، ولكن احترس

فنفحت الرجل درهماً[2] ومضيت

وبالقرب من جامع مرجان سمعت صوتاً يناديني فالتفت فإذا أحد سعاة البريد يقدم إليّ خطاباً فعجبت من أن تفضحني ليلى إلى هذا الحد ، ونظرت فرأيت العنوان مكتوباً بهذه الصورة الطريفة :

« لحضرة الأستاذ الخفيف الروح الدكتور زكي مبارك يسلم إليه أثناء تجواله في شوارع بغداد ! ! »

شيء ظريف حقاً ! وأي ظرف أروع وأمتع من أن تصبح دار إقامتي موزعة بين شوارع بغداد ، وأن ترى مصلحة البريد أنها مسئولة عن البحث عني في شوارع بغداد ؟

إن مرسل هذا الخطاب لا بدّ أن يكون أظرف الناس . وإذا كان العنوان بهذه الصورة من اللطف فسيكون الخطاب ولا ريب آية الآيات في خفة الظل ولطف النسيم

---

(١) أكو : يوجد ، ويقابلها (ماكو) أي لا يوجد . في اللهجة العراقية

(٢) كلمة (درهم) لا تزال حية في العراق وهي قطعة تساوي (الربع ريال) في العملة المصرية

ولكنى ما كدت أفض الظرف وأنظر الخطاب حتى انزعجت . فهو بغير إمضاء وكاتبه ينهانى عن عيادة ليلى ، ويهددني بالقتل ... أمري إلى الله لا إلى الهوى !

ورأيت أن أحتاط لنفسى فذهبت أستشير صديقاً بالمفوضية المصرية سبقنى إلى العراق بسنتين ؛ فكان من رأيه أن أبلغ الخطاب إلى الشرطة . وأكد لى أن العراقيين لا يعرفون المزاح فى هذه الشؤون . وبعد ساعة من تسلم الخطاب كنت عند سعادة رئيس الشرطة ، فكان أول كلامه بعد رد التحية أن قال :

— إيش لون ليلى ؟

— أهدّد من أجلها بالقتل !

وقدمت إليه الخطاب فكان يقرأ والغضب ينقله من لون إلى لون ، ثم ابتسم فجأة وقال :

— ولكنه صفح عنك !

— صفح عنى ؟ وكيف ؟

— ألم تقرأ هذه الجملة ؟

ونظرت فإذا فى نهاية الخطاب « ولكنى عدلت عن هـذا الخاطر لأني إذا قتلتك قتلت معك علماً غزيراً فى الطب ، وذوقا دقيقاً فى الأدب » فعجبت أن تفوتنى هذه الجملة ، ولكن يظهر أن انزعاجى صرفنى عن استيعاب الخطاب ؛ والتهديد بالقتل يصنع أشنع من ذلك . عافى الله قراء هذه المذكرات من الأسواء

ولما اطمأننت إلى صفح غريمى فى هوى ليلى تشجعت وقلت : ومع هذا فأنا لا أبالى أحداً ، وقديماً قال جميل :

فليت رجالا فيكِ قد نذروا دمى وهمّوا بقتلى يابثين لقونى
إذا ما رأونى طالعاً من ثنيّـة يقولون من هذا وقد عرفونى

فقال رئيس الشرطة وهو يبتسم : يجب أن تثق يا دكتور أن العراقيين يفدون ضيوفهم بالأرواح ، وهم لا يخافون عليك إلا عادية هواك

***

٢ — تفضل سكرتير محطة الاذاعة العراقية فدعانى لإلقاء محاضرة عن الحِكم العطائية ؛ وأنا فيما يظهر رجل خدّاع ، فقد ظن الأستاذ فؤاد جميل أنى أصلح الناس للكلام عن حِكم ابن عطاء الله ؛ ولعل حياتى فى بغداد هى التى هدته إلى ذلك ، فقد رآنى أحفظ آداب الصيام ، وأؤدى الفرائض والنوافل ، فظننى رجلاً تقياً ، ونسى هذا الأديب أن الغريب لا فضل له فى التخلق بمكارم الأخلاق . وهل يستطيع رجل مثلى أن ينحرف عن الصراط المستقيم فى بغداد ؟ إن استقامتى فى هـذه المدينة ليست إلا ضرباً من الآداب الصناعية ، ولن تكون لهـا قيمة إلا إذا عاملنى الله عز شأنه بالمثل المأثور :

« يؤجر المؤمن رغم أنفه »

وهنا أشعر بأن الله تباركت أسماؤه خصنى بمزية قليلة الأمثال ، فأنا أحاسب نفسى قبل أن يحاسبنى الناس ، وأدوّن عيوبى قبل أن يدونها الكرام الكاتبون ، وربما كنت الرجل الوحيد الذى يخفى حسناته — إن كانت له حسنات — حتى لا تزل قدمه فى مزالق الرياء

أقول إنى ألقيت محاضرة في محطة الاذاعة عن حِكم ابن عطاء الله ، ولكنى ما كدت أودع جمهور المستمعين حتى كان المذياع يجلجل :

يقولون ليلى فى العراق مريضة
فياليتنى كنت الطبيب المداويا

وكانت لحظة طرب لن أنساها ماحييت ، فاسم ليلى يشوقني ، وبفضل ليلى رأيت العراق . وبدا لى أن أسأل عن صاحب الفضل في إمتاعى بهذا الصوت ، فعرفت أنه الأستاذ يونس بحرى صاحب جريدة العُقاب . ويونس بحرى أديب شرب ماء النيل ، وذاق لذة الأسمار فى القاهرة ، وعرف كيف تطيب الأصائل والعشيات فى مصر الجديدة والزمالك والمعادى وحلوان ، وتمرغ على الرمل المقدس : رمل الأسكندرية وبورسعيد ودمياط ، وقد شاء له وفاؤه لمصر أن يؤنسنى بهذا الصوت ، لأنه يعرف أنى طبيب ليلى ، ولأنه يعرف أن السيدة نادرة حضرت نادى الصحافة منذ سنين فلم تر إلا أن تجلس بجانبي عند أخذ الصورة التاريخية ليصح لها أن تقول إنها رسمت وبجانبها قلب خفّاق

وليس من التزيد أن أقول إنْ محاضراتي فى الاذاعة ينتظرها الناس فى جميع أرجاء العراق ؛ وكذلك كان إلقاء ذلك الصوت بعد محاضرتي شاهداً على حلاوة الدعابة العراقية التى خلدها أبو الفرج الأصفهانى على وجه الزمان

***

جلست بعد المحاضرة أستمع هذا الصوت ، والرفاق يضجون من حولى بالضحك ، وفاتهم أنى صرت كالذي قال :

بكت عيني اليسرى فلما زجرتها عن الحلم بعد الجهل أسبلتا معا

فقد كنت أعرف أن ليلى تسمع ، وكنت أعرف أنها ستطرب لهذا الصوت الذى حبسه البغداديون عن أذنيها خمس سنين ، وكنت أعرف أنها لو رأتني لقبّلتنى . ولكن هل تقبّلنى ليلى ؟ ليت ثم ليت !

وخرجت من دار الإذاعة فعبرت دجلة من الكرخ إلى بغداد وأنا في ذهول ، فحدثتنى النفس بحلاوة الغرق فى ذلك النهر الذى وعى ما وعى ، وضيّع ما ضيّع ، من أسرار القلوب . ثم تذكرت ديونى فى القاهرة ، ديونى للوجوه الصِّباح التى تعطّر بأنفاسها نسائم مصر الجديدة والزمالك ، وديوني لعرائس دمياط اللائى تفردن بنعومة الأجسام وعذوبة الأحاديث :

رباه صُنْتَ فؤادى من الأسى والحنين
ولم تشأ لضلوعى غير الجوى والشجون
فكيف تصفو حياتى من الهوى والفُتُون
أم كيف تُرجى نجاتى من ساجيات الجفون

وهل من الإثم فى هوى ليلى أن أحنّ إلى هوايَ فى القاهرة عروس الشرق ؟

هل من الإثم فى هوى ليلى أن أتذكر غَبُوق بمصر الجديدة وصَبُوحى بالزمالك ؟

هل من الإثم فى هوى ليلى أن أقول إني أبذل دمى إن استطعت لأقضى ليلة واحدة فى ضيافة ليلى الصحيحة فى حلوان ؟

متى تعود أيامى وأستأنف اختطاف القبلات فى القطار بين المعادي وحلوان ؟!

وما كنت أنتظر أن يخط قلمى أمثال هذه الاعترافات ، ولكنى أحب أن تغار الإنسانة التى سيخلّد اسمها شارع العباس ابن الأحنف فى بغداد ، فإن غارت فهى ليلى بنت ليل وإلا فهى صخرة تغمرها الثلوج فى أقاصى الشمال

وأقسم لئن لم تنته عن تغافلها البغيض لأحدثنّها عن ليالىّ وأيامى في فندق مينا هاوس بسفح الأهرام ؛ ولئن فعلت لأسوّبنّ إلى صدرها سهماً مسموماً لا يُرجى منه شفاء

ليلى ، يا بنت الفرات !
أسرى وأسرك إلى الهوى ، فإليه ترجع القلوب !

***

ألم يأن لى أن أعود إلى حديث الضابط عبد الحسيب ؟

إن حديثه لن يصل إلى ليلى حتى أكون أنسيتُها كل من فى الوجود . وهل أمكنَ يوماً أن يكون لي فيمن أحب شريك ؟

فلنقص حديث ذلك الغريم بلا تهيب ولا إشفاق

قالت ظمياء (وما أعذب كلام ظمياء)

— وأفاض الشيخ دعاس فى شرح الاستشراق والاستغراب ففهمنا أن المستشرق هو الذي يدّعى علم الشرق ، والمستغرب هو الذى يدّعى علم الغرب . ثم تشعب الحديث من فن إلى فن ، فانتقلنا من الأدب إلى السياسة ؛ وليلى لم تشاطرنا الحديث ، فقد كانت مشغولة البال بانتظار عبد الحسيب . وكانت ترجو أن يكون هو الفتى الذى رافقناه فى قطار المرض . وبعد ساعات مرت على ليلى كأنها أعوام دخل شاب أخضر العينين ، وكان هو يا مولاى ، هو نفس الفتى الذى دارت معه ليلى فى قطار المرض دورتين

— وكيف كان التلاق ؟

— فرّت ليلى من وجهه فرار الظبية الضعيفة من القانص الظلوم ، فانزوت فى أحد أركان البيت . وألحت السيدة نجلاء فى أن تتفضل ليلى بالسلام عليه ، فاعتذرتْ بأن سلام الفتاة على الفتى وهى ليست من محارمه أدب تنكره حرائر العراق

« للحديث شجون »

زكى مبارك

فلسفة التربيـــة

كما يراها فلاسفة الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ٩ —

« يتفتح الطفل باللعب كما تتفتح الزهرة »

« فروبل »

« الفرق بين مخ أرق قرد وأحط إنسان أكبر بكثير من الفرق بين مخ أرق إنسان وأحط إنسان »

« البيولوجيا »

الناحيتان البيولوجية والفسيولوجية

شرحنا في المقالات السالفة عملية التربية على ضوء الفلسفة وأشرنا إلى بعض « ما يجب أن يكون » وعلينا اليوم أن نرجع إلى « مجموعة العلوم » التي تتناول « الانسان » بالدراسة والتحليل لنسمع كلمتها فيه، ولنتخذ من نتائجها المحتومة كل ما يفيدنا في تكوين « بطلنا المنشود » ! وفى ذلك بالطبع من زيادة الشرح وتكميل النقص ما فيه

ستسأل : وما هذه « العلوم » ؟ وسأجيبك بأن مايهمنا منها هو علوم الحياة ووظائف الأعضاء والنفس والاجتماع ؛ ثم ستسأل: وما علاقة ذلك بالفلسفة ؟ وسأقول إن من خصائص الفلسفة الحديثة النظر فى مبادىء العلوم ونتائجها ، والخروج منها بوحدة متسقة منسجمة فيها من المعنى الجامع ، والتفسير الشامل ، والاتجاه العام ، الشىء الكثير . وما دمنا فى التربية حيال تلك القطعة الفذة من الخليقة « وأعنى بها الانسان » فلا بد لنا أولا من أن نحاول فهمها وكشف خفاياها ، حتى لا تكون أقوالنا عنها خيالية غير مجدية ، وحتى نستطيع بعد حل لغزها بالعلوم المختلفة أن نسير بها إلى كل ما تتطلبه طبيعتها ، وتحتمله قواها ويسمح به استعدادها . فترى ما هى كلمة البيولوجيا والفسيولوجيا فى الانسان ؟ الجواب كما يلى :

الناحية البيولوجية

وقد أصبحت هذه الناحية هامة وجديرة بالاعتبار فى التربية ولا سيما بعد أن ظهرت « نظرية التطور » ووضعت الانسان فى مكانه بين سائر المخلوقات . ولعلك تعرف أن محور البحث هنا يدور حول الكائن الحى من حيث ملاءمته بين نفسه وبين بيئته . ومع كل فلا يهمنا من ذلك فى التربية إلا المخ ، والطفولة ، والعقل

(١) فأما المخ فقد ثبت نهائياً أنه فى « الانسان » أكبر الأمخاخ بالنسبة للجسم ، وأن الفرق بين مخ أرق قرد وأحط إنسان أكبر بكثير من الفرق بين مخ أرق إنسان . وقد لوحظ أن القابلية للتعلم والتهذيب تتمشى مع كبر المخ تمشياً مطرداً [١] ، وإذن فمعنى كبر المخ في الانسان هو القابلية العظمى للتربية ، وقيام المخ ذاته مقام الانتخاب الطبيعى وجوهرية عملية التعليم ذاتها بالنسبة للانسان والقدرة الكبيرة على التخلص من الغرائز أو تهذيبها مادام المخ يستطيع أن يقوم مقامها .

(٢) وأما طفولة الانسان فهى أطول طفولة معروفة ، إذ بينما يصير فرخ الطير قادراً على الاستقلال بنفسه بعد أيام قليلة ، لا يصير ابن الانسان كذلك إلا فى سن لا تقل عن العشرين فى الشعوب الراقية على الخصوص . وإذن فالتربية السليمة هنا أداة لا مندوحة عنها لاحكام عملية النمو وتحقيق آمال الجماعة فى أفرادها

(٣) بقى « العقل » وقد أثبتت جميع تجارب الباتولوجيا والتشريح والفصل الجزئى علاقته التامة بالمخ المشتمل على المراكز العليا التى تقوم بالعمل المروّى تاركة الأفعال العكسية واستجابات الغرائز للمراكز السفلى فى العمود الفقرى . وهذا « المخ » قابل للتربية كما يقول الأستاذ Halleck ولا سيما فى سن الطفولة والشباب لأنه يكون حينذاك « مرناً » سريع التأثر ، وإذاً فيسور تقوية نسيجه وقواه بتكوين عادات عصبية توفر الوقت وتترك للعقل فرصة للتفكير فيما هو أرقى من « الدفاع » [٢] الذى يبدو أنه الوظيفة الأساسية للجهاز العصبى عند الحيوانات جميعاً . والتربية هنا توقظ القوى النائمة ، وتحفز المستيقظة ، وتربط الرذيلة بالألم ، والفضيلة باللذة ؛ وتغرس العادات الحسنة التى قد تعادل الغرائز فى قوتها . ويؤكد الأستاذ Lankester بعد هذا

---

(١) ويسرنا هنا أن نقول : إن « ابن مسكويه » الفيلسوف الاسلامى قد سبق البيولوجيا الحديثة فى تلك الملاحظة السديدة وقد توفى فى سنة ٤٢٠ هـ

(٢) ويدخل فى الدفاع المأكل والمشرب والنسل والمقاتلة وكل ما يضمن البقاء للكائن الحى

أن الجهاز العصبي فى الأمم المتعلمة أقدر على قبول التربية منه فى الأمم الأخرى. وإذاً فالفرق بين الوحشية والتمدن هو فى الحقيقة فرق بين مخ يستجيب صاحبه للغرائز الطبيعية استجابة الحيوان، ومخ يستجيب صاحبه لها استجابات حرة مهذبة معدلة فيها التسامى والتعويض، والكبت والتحور!

ولكن هل ترمى التربية إلى جعل جميع أعمالنا آلية عديمة الشعور؟ الجواب كلا! ذلك أن العقل الآلى لا يصلح قط للظروف الاجتماعية الدائمة التغير والتشكل. وإذاً فهى ترمى إلى إدخال عنصر « الشعور » فى الأعمال حتى يمكنها إحكام التصرف على ضوئه المنير، وحتى تستطيع أن تشرق به على « اللاشعور » فتضيء ظلمته، وعلى الزمن فتنبهنا إليه، وعلى « المثل الأعلى » فتطمح بنا نحوه. وهناك لا نكون مجرد « آلات » تذهب إلى العمل وتعود منه إلى البيت، ثم تخرج إلى المقهى، وهكذا دواليك على نحو أوتوماتيكي خاص؛ وإنما نكون فى أعمالنا كائنات حساسة شاعرة تحيا حياة اجتماعية خصبة فيها التقليد النافع، والتضحية السامية، والمحبة النابضة، والمنافسة السليمة، والقابلية لإصلاح أنفسنا وعاداتنا كلما شعرنا بالنقص ورأينا الكمال[(١)]

أما النظرة العامة التى نخرج بها من هذه الناحية البيولوجية فهى العيش أولاً ثم الكماليات، العيش ثم الفلسفة والفن؛ هذا إلى جعل « الطفل » موجباً يؤثر لا سالباً « يتأثر »، لأن المخلوقات الحية قد تشكلت ردود أفعالها أكثر مما تشكلت بالبيئة. ويقتضى بالطبع جعل المدارس دور « نشاط » نظرى وعملى لا دور حشو واستماع، والنظر إلى التربية ذاتها كمعوض أساسى يسد للإنسان ذلك النقص الهائل الذى لا نجده فى الحيوان، وكأسلوب من « المواءمة المثلى بين المرء وبيئته » كما يقول الأستاذ هورن Horn [(٢)]

الناحية الفسيولوجية

أما هذه الناحية فنقول مع بعض مذاهب الفلسفة إن الحياة قد بدأت بالمادة ثم بالروح، وإن الجسم والعقل لم يتلاش بعضهما فى بعض بالرغم من شدة امتزاجهما، فهما يكونان وحدة متسقة ويؤثر بعضهما فى بعض تأثيراً كبيراً. ألا تنمو قوى العقل بالحس والحركة؟ أو ليست الإرادة حركة مروّى فيها؟ أو ليس « الشعور » — بعد هذا — صدى للإرادة والمعرفة؟

ولذلك تنحصر مهمة التربية هنا فى تسليح الجهاز العصبي بردود أفعال حرة منها الاعتيادى — عن طريق العمود الفقرى — ومنها المروّى فيه — عن طريق المخ — وفى الاستفادة من نتائج التجارب القائلة بأن العمل ينهك المخ فلا يكون لعمله بعد أربع ساعات قيمة ما، وبأن المخ يحتاج إلى غذاء خاص من الهواء النقى وغيره، وبأن القوى العقلية تمر فى مراحل تمتاز أولاها بسيادة « الذاكرة »، وثانيتها بسيطرة « الخيال »، وثالثتها بحكم « الفكر »، وبأن التعب العقلى يمكن أن يجتنب إلى حد كبير بتنويع العمل على المراكز المخية المختلفة، وبأن صحة الجسم واجبة والعدل بين مجهود الجسم والعقل أوجب، وبأن وبأن مما لا يتسع المقام لذكره...

هذا إلى أنها — تمشياً مع الحقائق أيضاً — تنصح بإدخال « العمل اليدوى » و « اللعب » فى عملية التدريس. ذلك أنها تعتبر الأول خير أداة للتعبير عن النفس، ولتنمية العقل وتدريب الحواس، وربط المواد، وتقوية الإرادة، واكتساب الذوق الجميل، وغرس القدرة على الإنتاج، وتعويد الدقة، وحب العمل واحترام العمال، وتقدير العاملين[(١)]!. وأما الثانى — وهو اللعب — فيقول عنه « فروبل » إنه يجعل الطفل يتفتح كالزهرة ويقول عنه شلر Schiller : « إن الإنسان لا يكون إنساناً إلا به » ذلك أنه بعيد الغور فى طبيعة الإنسان، حتى أن الشعوب نفسها لتلعب أحياناً وتلهو كالأطفال، وأنه ذو وظيفة أساسية فى الحياة وإن اختلف العلماء فى كنهها[(٢)]، وأنه إذا ما دخل فى العمل الجدى جعله سهلاً مستساغاً وهيناً محبوباً. أليس الفن نفسه صدى للعب الخيال المنتج؟ وإذاً فلا مندوحة لنا من العناية به فى المدرسة والتدريس، ولا مندوحة لنا من أخذ الجميع بالألعاب

---

(١) طبق هذا على رجال المقاهى والحانات وما أشبههم، فإنهم جميعاً يصدرون فى سلوكهم عن عادات غير مرنة، ويحتاجون إلى « شعور كامل » بنقصهم وبكمال غيرهم أولا، ثم إلى إرادة قوية ثانياً ليقلعوا عن هذه العادات

(٢) أنظر كتابه A Philos. of Ed.

(١) وبذلك لا يكون العمل وصمة لدى شبابنا النابهين، ولا يكون العمال حثالة الشعب فى نظر المتعلمين!

(٢) أنظر نظريات شبلر وسبنسر ولازاروس وجبروس وبلدوين بكتب علم النفس المختلفة

المثل الأعلى للشاب المسلم

للأستاذ علي الطنطاوي

تتمة ما نشر فى العدد الماضى

لقد انتهينا من تعريف المثل الأعلى والشباب والاسلام ، فلنشرع فى الموضوع :

قلت إن أندريه موروا وصف الشباب بصفتين أساسيتين : هما الحب والبطولة . أما الحب فهو عماد الحياة وركنها وأساسها ، لا معدى عنه ، ولا منجى منه . وأحسب أن الشباب الحاضرين ، بل وكثيراً من الشيوخ يصفرون لى وينزلوننى عن المنبر ، إذا أنا قلت لهم : « لا تحبوا » ، وكيف أقولها ؟ أجننت حتى أقول : « حطموا القلوب » ، ودوسوا العاطفة . وماذا يبقى لنا إذا خسرنا العاطفة ؟ لقد خسر ادوار عرش بريطانيا العظمى ، ولكنه ربح العاطفة فلم يخسر شيئاً . لقد أنسته عينا مدام سمبسون ملك انكلترا ، فهل كان ينسيه هذا الملك الضخم ، وهذا التاج المرصع ، عينى سمبسون لو أنه هجرها ... ؟

العاطفة هي التى تدير دولاب حياتنا ، وتسيّر أمورنا كلها ، أما العقل فلا يصنع وحده شيئاً . من يذكر منكم أنه مشى خطوة واحدة برأى العقل وحده ؟ العقل يا سادتى فيلسوف أعمى ، حكيم مقعد ، ينادى بصوت خافت ضعيف ... أما العاطفة فهى القوة ، هي النشاط ، هى الحياة ...

أنا لا أقول اقتلوا العاطفة ، لأن فى موتها موتنا ، ولكن أقول إن العاطفة تضيق حتى لا تشمل إلا شخصاً واحداً ، وتنحط حتى تنزل من قلب هذا الشخص إلى ما تحت القلب ، إلى ما تحت ... السرّة ! وتسمو حتى تحيط بالمثل الانسانية العالية ، وتمتّ حتى تشمل الأمة كلها ، بل الانسانية جمعاء . فاسموا بعواطفكم عن مواطن شهواتكم ، واخرجوا بها من ذواتكم ، وقفوها على أمتكم وبلادكم

أحبوا ، فإن الذى لا يحب لا يكون إنساناً ، واذكروا واحلموا وتألموا ... ولكن افهموا الحب بمعناه الواسع الذى يشمل كل ما هو حق وخيّر وجيل ... لا المعنى الضيق العقيم ، الذى لا يتجاوز حدود جسم امرأة ... أحبوا ، ولكن ابقوا مسلمين . إن للمسلم قلباً ، قال الله عز وجل : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب[1] أو ألقى السمع وهو شهيد » ، ولكن المسلمين يغضون عيونهم وقلوبهم وفروجهم (إلا على أزواجهم أوما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) . أحبوا ولكن ابقوا رجالاً . إن الرجل إذا أحب لم يبكِ ويتذلل ويأرق الليل ، ولم يلق شفتيه على قدمى المرأة ، كما كان يفعل لا مارتين ، ولكنه يقوم قائماً على مشط رجله ، ثم يقول لها ، بعينيه النافذتين ، وعضلاته الحجرية ، وإرادته الماضية ، ورجولته البادية : « تعالى ! »

أحبوا ولكن ابقوا أفراداً من هذه المجموعة البشرية التى هى الأمة ، لا يقطعكم الحب منها ، ويُبعِدْكم إلى الحياة الفردية الوحشية ، فتنكروا كل شىء ، وتنسوا الدنيا ، وتتجاهلوا الحياة إلا إذا أشرقت عليها نظرة من المرأة وأضاءت فى أرجائها كلة منها . ولا تقيموا الدنيا وتقعدوها ، وتغرقوا الأرض بالدموع لأن الحبيبة المحترمة لم تمنح قبلة وعدت بها ، ولم تصل وقد لوحت

(١) مهما كان معنى القلب هنا ...

التى تقوى شخصيتهم ، وتجمل أجسامهم ، وتبث فيهم الروح الاجتماعية والجرأة والحرية والديمقراطية والإقدام وضبط النفس والإيثار . ولكن ليكن مبدؤنا دائماً فى الباريات العامة والخاصة هو أن « الخسارة بحق خير من الفوز بباطل ! » ، ولنتجنب ما استطعنا ألعاب المنافسات الحقيرة والعصبيات التافهة والانهاك الشديد ؛ وبذلك تكون المدرسة فردوساً يحفه المرح ويسرى فيه العمل الصحى بجميع نواحيه ، وتكون التربية « مواءمة عليا بين المرء النامى الجسم وبين بيئته[1] »

وإلى اللقاء حيث أحدثك عن الناحية النفسية فالناحية الاجتماعية

« يتبع »

محمد حسين ظاظا

مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية الأميرية

(١) أنظر الكتاب الآنف للأستاذ هورن

بالوصل ، تنظمون الأشعار فى هـذه الكارثة ، وتنشئون فيهـا الفصول ، تبكون وتستبكون ، ثم تنامون آمنين مطمئنين ، والنار من حولـكم تأكل البلاد والعباد ...

الشعر شعور ، فأى شعور وأى حس فيمن يرى أمة كريمة مجيدة بقضها وقضيضها ، ومفاخرها وتاريخها وحياتها وأمجادها تطرد من ديارها ، وتخرج من بيتها – وهى أمتـه ، وأفرادها إخوته – لتعطى مساكنها إلى أمة من أسقط الأمم : أمة ضربت عليها الذلة والمسكنة وباءت بغضب من الله ، وغضب من الناس والحق والفضيلة والتاريخ ، ويرى صدورها مفتحة للرصاص ، وشيوخها مسوقين إلى حبال المشانق ، وشبابها فى شعاف الجبال وبطون الأودية يدفعون الظلم بالدم ، وأطفالها ونساءها بين لصين: لص ديار ، ولص أعراض ، لص يحارب بالذهب ، ولص يقاتل بالبارود – ثم لا يحس بهذا كله ، ولا يدرى به ، ولا يفكر فيه ، لماذا ؟ لأن الشاعر المسكين مصاب متألم ... ماله ؟ ما مصابه ؟ إن حبيبته لم تمطه خدها ليقبله ...

إن العاطفة إذا بلغت هذا المبلغ كانت جريمة .

* * *

وما دمنا فى حديث الحب فلنوف الحديث حقه . إن لى تعريفاً قديماً للحب ، هو أنه المرقد (البنج) الذى وضعه الله لتمام عملية التناسل التى لا بد منهـا لبقاء النوع البشرى ، والتى لا يصبر الانسان على احتمال قذارتها وآلامها لولا هذا المخدر ، فأول الحب إذن ووسطه وآخره الاجتماع الجنسى والسلام ، أما الحب العذرى الافلاطونى العفيف فليس إلا إحدى الأكاذيب الجميلة ، التى لا يصدق بها عاقل . من أجل ذلك يشك العقلاء فى عفاف المرأة المحبوبة ، وينظر المسلمون إلى الحب نظر الريبة ... إنى لألحظ فى وجوهكم معنى الاستنكار والاعتراض ، وأرى فيها بوادر الثورة... لا يا سادتى ... أنا لا أنتقد الحب ، ولا أشك فى جماله ، ولـكن أسألـكم وأرجو أن تجيبونى بإنصاف : من هو الذى يسمح لي فيكم أن أحب زوجته أو أخته ؟ لا تغضبوا يا سادتى ... فمـا أردت إلا التمثيل فجاء المثل غليظاً نابياً ، وإنى ليسرنى أن تستهجنوه ، لأن هذا دليل على أنكم للحقيقة أشد استهجاناً ...

فلنعلن إذن أن هذا الحب المعروف اليوم ، مما يأباه الاسلام ويتنافى مع المثل الأعلى للشاب المسلم ، ولـكن ماذا يصنع الشباب ؟

الجواب : يتزوجون ...

نعم يتزوجون . إن حياة العزب حياة خطرة على نفسه وعلى المجتمع . إنه صندوق دناميت يوشك أن ينفجر فى كل لحظة فيدمر سعادة أسرة من الأسر ، وينقض دعامة من دعائم الوطن . إن حياة العزب حياة فارغة من كل شىء لأنها فارغة من الزوجة ولو امتلأت بكثير من النساء (غير الزوجات) . إن أفكار العزب مهما اختلفت مناحيها وتعددت متوجهة إلى وجهة واحدة ، تسعى إليها بشدة وعنف كما تسعى السيول من كل جهة إلى قعر الوادى ، إنه لا يجتمع عزبان إلا نظما مؤامرة على الأخلاق والعفاف

لست أبالغ ... أنا أيضاً شاب عزب ! ولـكنى كسائر العزاب لا أحمل ذرة من اللوم ، وليس علىّ شىء من الذنب . الذنب عليكم أيها الآباء . إنكم تبيعون بناتكم . إنكم تصاهرون المال والجاه والأرستقراطية الزائفة ، إن حفلات العرس وحدها تخرب بيتى العروسين ... فما قولـكم فى المهر والأثاث ؟ وما قولـكم فى شاب مثلى فى رأسه شىء ، وليس فى جيبه شىء من مال ؟ كيف يتزوج ؟

لا أحب يا سادتى أن أكون منحطاً إلى هذه الدركة من الاستئثار و (الأنانية) فأستغل اجتماعكم لسماع محاضرتى لأعلن عن نفسى ، وأعرضها خاطباً مستجدياً ... ولـكنى أحبّ أن تفكروا فى هذا الأمر تفكيراً جدياً . إننا قد شبعنا من الخطب ومللنا من المقالات ، فهل فيكم أب مسلم له بنات يكون قدوة طيبة للآباء المسلمين الطيبين ، فيفتش عن شاب صالح جاد فيزوجه بما يستطيع من المهر والنفقات : بخمسين ليرة سورية [1] بثلاثين لم لا ؟ أهى تجارة ؟ أتريد زوجاً لبنتك صالحاً تسعد به ويسعد بها ، وينشئان أسرة شريفة مستورة سعيدة أم تريد ذهباً تبيع به ابنتك ؟

هذا دواء هذا المرض العضال . هذا حل المشكلة . فاذا لم تحلوها اليوم لا تنحل أبداً ، إذا لم تداووا المرض اليوم يموت المريض ...

فيا وجهاء هـذا البلد ، الوجاهة بالعمل النافع ، وبالتقوى والاصلاح ، لا بالمال ولا بالفخفخة الفارغة ، ولا بالعظمة الجوفاء ولا بالمراتب العالية ، فاعملوا أو فتنحوا عن أماكنكم لمن يعمل !

* * *

(١) الليرة السورية ٢٠ فرنكا فرنسياً – أى نحو ١٣ قرشاً مصرياً

وإن من الحماقة التى ليس وراءها حماقة أن تبنى الأسرة الثابتة على عاطفة متبدلة متحولة . من الحماقة أن يبنى الزواج على الحب . منذَ الذى يبنى داره على كِثب من الملح فى طريق السيل ؟ الحب فراشة حلوة ، فيها أجمل الألوان ولكنها لاتعيش إلا يوماً واحداً . الحب زهرة فوّاحة ليس لها في الروض مثيل ، ولكنها تذبل عند أول لمسة . من رأيي فى الحب أنه لا يكون إلا إذا كان أمل ، وكان مع الأمل حرمان ، كالكهرباء لاتضىء المصباح إذا التقى فيها القطبان المختلفان . أنت تحب المرأة لأنك لا تقدر عليها ، فتسبغ عليها من خيالك ثوباً تراها فيه أجمل الناس ، فإذا قدرت عليها ، وخلعت هـذا الثوب عنها ، عادت امرأة كسائر النساء . أنظروا إلى الزوجين الحبيبين فى شهر العسل ، وقد ذهبا يسيحان ينعمان بالخلوة الحلوة ، فى أجمل البقاع ، أو أكبر المدن ، تحسبوا أن السعادة قد جمعت لهما من أطرافها ، ولكن اقتربوا منهما تروا أنهما لا تمر إلا أيام حتى لا يجدا ما يتحدثان به ، إلا حديث الأيام الأولى ، يوم كان أمل وكان حرمان ، ثم تمضى الليالى ، وتبلى جدّة هـذا الحديث ، فلا يبقى بينهما كلام ...

وماذا فى لغة الحب ، غير (أحبّكِ) و (أحبّكَ) رددها مائة مرة فإنكم تنامون ...

فلنعلن إذاً أن بناء الزواج على الحب وحده لا يرضاه الإسلام ، لأنه لا يرضاه العقل ... فهل نعود إذن إلى طريقتنا الأولى : تخطب لى عمتى أو خالتى ، وتنتقى لى الزوجة على رأيها ، وأنزل أنا على حكمها ، وأعلق مستقبلى بها ، وأمضى العقد وأمشى إلى حفلة العرس ، وأنا لا أعرف مالون عين العروس وما شكل أنفها ؟

هذه طريقة سقيمة عقيمة ... فماذا نصنع إذن ؟ ما هى الطريقة المثلى ؟ هى ياسادتى طريقة الإسلام . إن الإسلام منح الخاطب (بعد أن يتم الرضا عنه ، ويرجح جانب قبوله صهراً) أن يرى وجه المرأة وكفيها ، أن يجلس معها (بحضور وليها) ... هذه هى سنة الدين ، ولكن الآباء جاهلون ، يأبون أن يرى الخاطب الصالح وجه الفتاة ، ثم يخرجونها إلى الأسواق ، متبرجة متهتكة ، يرى أكثر من وجهها وكفيها الفاسق والخبيث ، وكل من كان فى الطريق ، حتى الحمار !

إننا تركنا قواعد الإسلام ، فتركنا الفلاح والنجاح

« البقية فى العدد القادم »

على الطنطاوى
المدرس فى كلية بيروت الشرعية



فكرة الضحية وإهراق الدم للمعبود لم تزل باقية إلى اليوم . فالوثنية قد خلفت تقاليد لم يكن محوها من اليسير . إن ذبح الخروف فى العيد الكبير إن هو إلا ظل باهت لتلك العهود التى كان يُدفع فيها الآدمى للذبح عند أقدام الهيا كل . ولكن الزمن غير الشكل ولم يغير المبدأ . إن الانسانية فى تطورها لا تمحو شيئاً غرس فى طبيعة الانسان من قديم ... ولكنها تبدل فى لونه وطلائه ، وتعدل فى ملامحه وتكسوه ثياباً أخرى ، وتسميه اسماً جديداً يتفق مع روح العصر الجديد . فالانسان لا يتغير . إنما يتطور . ولم ينب ذلك عن حكمة الأديان . فهى فى تعاقبها لم تنسخ كل مارسخ من عقائد الانسان . ولكنها أخذت أكثر هـذه العقائد بالرفق ، فهذبت من وسائلها وغاياتها . فالضحية الآدمية جعلتها ضحية من الحيوان ؛ والغاية منها ، وقد كانت إرضاء المعبود وحده ، حولتها إلى إرضاء الله بإرضاء الفقير فى يوم العيد

هنالك شيء ينبغى أن نتدبره إذا أردنا إحداث انقلاب فى حياة البشر . الحذر كل الحذر من أن نقتلع شيئاً من جذوره ، فإن ما نبت فى قلب البشرية لا يقتلع . إنما نحن نستطيع دائماً أن نهذب ذلك الغرس وأن نميل به إلى حيث تريد ريحنا . وأن نبدل بما نشتهى ألوان أزهاره وثماره ، وأن نولد منه أقوى الأشجار ... وهكذا نخرج للحياة مما كان وعلى أساس ما كان ، ذلك الذى يقول فيه الناس إن عين الشمس لم تره . آه ! ما أصدق تلك الكلمة : لا جديد تحت الشمس . نعم . إن يد « الطبيعة » لا تبرز جديداً ولا تميت قديماً ، ولا تمحو من الوجود ، ولكنها تعدل وتبدل فى الوجود . فلنتذكر دائماً أن لا شيء ينعدم فى الطبيعة . وليست « المادة » وحدها هى التى لا تنعدم ، كما يقول الكيمائيون . كل شيء لا ينعدم في هذا الوجود . إن الطبيعة لا تعرف كلمة « العدم » ولكنها تعرف كلمة « التحول »

ذلك أسلوب الخالق الأزلى

توفيق الحكيم

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٢٤ —

« ... إنه ليتفق لهذا الكاتب من أساليب البيان ما لا يتفق مثله لكاتب من كتاب العربية فى صدر أيامها ! »

عباس محمود العقاد

الرافعي والعقاد

ذلك كان رأى العقاد فى الرافعى قبل بضع عشرة سنة من هذه الخصومة التي أروى خبرها . وشتان بين هذا الرأى يبديه العقاد سنة ١٩١٧ فى مقال ينشره ليعرِّف بكتاب من كتب الرافعي أنشأه في ذلك العهد ، وبين رأيه الأخير فى المهذار الأصم مصطفى صادق الرافعى كما يسمه فى سنة ١٩٣٣ !

إن هذه الخصومة العنيفة بين الرافعى والعقاد قد تجاوزت ميدانها الذى بدأت فيه ، ومحورها الذى كانت تدور عليه ، إلى ميادين أخرى جعلت كلاً من الأديبين الكبيرين ينسى مكانه ويغفل أدبه ليلغ فى عرض صاحبه ويأكل لحمه من غير أن يتذمم أو يرى فى ذلك معابة عليه . وكان البادئ بإعلان هذه الحرب هو الرافعى فى مقالاته على السفود ...

هم ثلاثة أو أربعة من كتاب العربية فى الجيل الحديث كانت لهم هذه الخلة المرذولة فى النقد وفى أساليب الجدل . هذان اثنان منهم وكان للرافعى مع كل واحد من الاثنين الآخرين معركة . على أن أشد هذه المعارك عنفاً وأبعدها عن حدود الأدب اللائق هى المعركة بينه وبين العقاد ! .

وكان بدء هذه المعركة كما قدمت حديثاً خاصاً بين الرافعى والعقاد فى دار المقتطف ، حول حقيقة إعجاز القرآن ، وكتاب إعجاز القرآن . وكان للعقاد فيهما رأي غير رأى الرافعى ، فكانت غضبة الرافعى الأولى لكرامة القرآن والعقادُ ينكر إعجازه ؛ ولكتابه والعقادُ يجحد فضله ؛ ثم كانت الغضبة الثانية للتهمة التى رماه بها العقاد حين جبهه بأنه افترى كتاب سعد ونحَلَه إياه فى تقريظ إعجاز القرآن ليروج عند الشعب ...

فثمة سبب عام أنشأ هذه الخصومة ، هو إيمان الرافعى بإعجاز القرآن إيماناً لا يتناوله الشك ؛ وسببان خاصان : هما رأى العقاد فى كتاب الرافعي ، ثم تهمته له بأنه مفتر كذاب ... !

تُرى أى هذه الأسباب الثلاثة هو الذى أثار الرافعي فدفعه إلى الخروج عن الوقار والأدب الواجب فيما أنشأ من مقالات «على السفود» ...؟ الرافعى يقول : إنها غضبة لله وللقرآن، وللتاريخ رأى آخر سيقوله فيما بعد ، لست أدرى أيفارق الرأى الأول أو يلتقى وإياه على سواء ... !

ولكن كتاب على السفود مع ذلك لا يتناول مسألة المسائل فى هذا الخلاف ؛ فلا يتحدث إلا عن شعر العقاد وديوان العقاد ؛ ثم عن أشياء خاصة تعترض فى فضول القول وحشو الكلام ؛ فأين هذا مما دارت عليه المعركة من أسباب الخصام ... ؟ الرافعى يقول : هذا أسلوب من الردّ قصدتُ به الكشف عن زيف هذا الأديب والزراية بأدبه ؛ حتى إذا تقررت منزلته الحقيقية فى الأدب عند قراء العربيــة ، لا تَراهم يستمعون لرأيه عند ما يهم بالحديث عن إعجاز القرآن . وهل يحسن الحديث عن إعجاز القرآن من لا يستقيم منطق العربية فى فكره ، ولا يستقيم بيانها على لسانه؟... هكذا يقول الرافعي ! ...

ومن ثم بدأت المعركة على أعين القراء ...

***

يقول الأستاذ إسماعيل مظهر فى مقدمته لكتاب « على السفود » :

« ... أردنا بنشر السفود أن نرضى من أنفسنا نزعتَها إلى تحرير النقد من عبادة الأشخاص ، ذلك الداء المستعصى الذى كان سبباً فى تأخر الشرق عن لحاق الأمم الأخرى ...

« ... ونقدم بهذه المقدمة تعريفاً لما قصدنا من إذاعة هذه المقالات الانتقادية التى أعتقد بأنه لم يُنسج على منوالها فى الأدب حتى الآن !

« وعسى أن يكون السفود (مدرسةً) تهذيب لمن أخذتهم

كبرياء الوهم ، ومثالاً يحتذيه الذين يريدون أن يحرروا بالنقد عقولهم من عبادة الأشخاص ووثنية الصحافة ! »

أما أن تكون هذه المقالات الانتقادية لم يُنسج على منوالها فى الأدب الحديث فَنَعَم ، وأما أن تكون مدرسةً للتهذيب ومثالاً يحتذيه النَّقَدةُ فلا ... فليس بنا من حاجة إلى أن يحتذى النقدةُ هـذا المثال فى أسلوب النقد والجدل فيزيدوا عيباً فاحشاً إلى عيوب النقد فى العربية

والحق الذى أعتقده أن فى هذا الكتاب — على ما فيه — نموذجاً فى النقد يدل على نفاذ الفكر ودقة النظر وسعة الإحاطة وقوة البصر بالعربية وأساليبها . ولكن فيه مع ذلك شيئاً خليقاً بأن يطمس كل ما فيه من معالم الجمال فلا يبدو منه إلا أَدَمُّ الصور وأقبح الألوان ، بما فيه من هُـجْر القول ومر الهجاء ؛ ولئن كان هذا مذهباً معروفاً فى النقد للرافعى وخصمه واثنين آخرين من كتاب العربية فى هذا الجيل — إننا لنريد للناقدين فى العربية أن يكونوا أصحَّ أدباً وأعفَّ لساناً من ذاك ... !

ذلك رأى قلته للرافعي — يرحمه الله — فما أنكره علىّ ولا اعتذر منه ؛ فما يمنعنى اليوم شىء أن أعلنه صريحاً إلى الأدباء .

ولقـد همّ الرافعى منذ سنوات ثلاث أن يجمع كل ما كتب فى النقد بعد كتاب (المعركة) فى كتاب واحد ؛ فأبديت له الرأى أن يضم إلى هذا المجموع مقالات (على السفود) بعد أن يجردها مما يعيبها حرصاً على ما فيها من الفن ؛ فارتاح لهذا الرأى واطمأن إليه ، ولكنه لم يفعل ، إذ حالت الحوائل دون تنفيذ فكرته

وإنها لخسارة أن ترى التمثال الفنى البديع مغموراً فى الوحل فلا تصل إليه إلا أن تخوض له الحمأة المنتنة وهيهات أن تُقبل عليها النفس ؛ وإنها لخسارة على العربية أن ترى هذا الفن البديع فى النقد يتكنفه هذا الكلام النازل من هجر القول ومر الهجاء

ولقد كان الرافعي نفسه يعترف بأن فى الكتاب ما لم يكن ينبغي أن يقول ، وبأن خصمه بما قال فيه كان يملك أن يسوقه إلى المحاكمة ؛ ولكن الرافعي مع ذلك كان مطمئناً إلى شىء آخر ...

قال الرافعي : « ... قال لى قائل : لقد قلت فى العقاد ما كان حرياً أن يقفه وإياك أمام القضاء ! ... ولكنى يا بنى كنت على يقين بأن العقاد لن يفعلها ؛ إننى كنت أهاجم العقاد بمثل أسلوبه فى النقد ، وإن معى لورقات بخطه لا يسره أن أجعلها دفاعى أمام المحكمة فيخسر أكثر مما يربح . ولقد قرأت من هذه الورقات على مستشار كبير فأيقن بما أنا موقن وحكمْ لى بحكمه ... ! »

ذلك حديث الرافعى ... فهل كان هذا حسْبَه من العذر فيما كتب ؟

على أن كثيراً من قراء على السفود لم يعرفوا كاتبه إلا بعد سنين ؛ وكان فى هذا خير للرافعى ولسمعته الأدبية ولمكانه من نفوس القراء ؛ إذ كان العقاد يومئذ هو كاتب الوفد الأول ، والوفدُ هو الأمة كلها ، قراءها وعامّتها وشيوخها وشبابها ؛ فكان العقاد بذلك هو عند الشعب إمام الكتاب وأمير الشعراء ، لا يعاديه إلا خارج على الأمة أو مارقٌ من الوطنية ، ولو كانت عداوته فى مسألة أدبية لا تتصل بالسياسة ، ولو كانت مناقشته حول إعجاز القرآن ... !

***

ثم كانت هُدْنةٌ بين الرافعى والعقاد ، صمت فيها الخصمان طويلا وكل منهما يتربص بخصمه ليضربه الضربة القاضية ، فلما مات المرحوم شوقي بك فى خريف سنة ١٩٣٢ ، انتهز العقاد نُهزة ليبدأ مع خصمه معركة جديدة لم تكن هى آخر العراك بينهما

« شبرا » محمد سعيد العريان

أبو إسحاق الصابي

للأستاذ عبد العظيم على قناوى

— ٤ —

كان العصر الذي نشأ فيه أبو إسحاق الصابى عصراً زاخراً بالكتاب النابغين والشعراء المجيدين ممن خلفوا للغة ثروة ثمينة خالدة، وتركوا في الأدب روحاً فريدة صافية؛ إذ لم يعد الخيال وقفاً على الشعر، بل تعداه إلى الكتابة والنثر، فضرب الكتاب به في ضروب متنوعة لم تعهدها العربية، وساروا به في دروب متشعبة لم يألفها من قبلهم، وإن أغرم بها وسار على نمطها من جاء بعدهم. ولعلّ من أعظم البواعث على رقى النثر والشعر في هذا العصر ذلك الاضطراب الذى انتظم جميع شئون الدولة؛ فهناك اضطراب دينى يدفع إلى الجدل والمناظرة، والنقد والمدافعة؛ واضطراب سياسى، يسوق إلى المؤازرة والمعاضدة، والمنافسة والمعارضة، فكان ذلك الجو المضطرب جو صفاء للغة وآدابها، وهذا العصر المكهرب عصر ازدهار للنثر والشعر على السواء، فاتسع أمام هؤلاء وهؤلاء أفق الابتكار، ولمع مجال الابتداع، وأوحى إليهم ذلك المعترك المنطق الخلاب، والخيال الصافى والبيان الرائع والنسج الساحر، فجاء نتاجهم عصارة أذهانهم، وذوب أفكارهم، وصفوة قرائحهم؛ تعمقاً في إبراز فكرهم واضحة جلية، وتمعلاً في تنسيق آرائهم ناصعة صفية؛ لتبدو للقارئ مصقولة مستساغة يرضاها عقله البرىء؛ إذ لا يعتورها وهن ولا التواء، ولا يكتنفها غموض أو إبهام، وكثيراً ما كانت تدفعهم أحداث السياسة ودفع ما قد ينتظرهم من كوارث، وخوف ما ربما استقبلهم من حوادث، فيما لو تغير مجرى الأمور إلى الكتابة اللولبية، لا تكاد تتبين مرماها، ولا تعرف مأتاها أو مؤداها، إمعاناً في الإيهام، وإيغالاً في الإبهام. وناهيك بمصر نامت فيه السكينة وصحت الفتنة، وأشرقت الأسارير، وأظلمت السرائر؛ فملوكه متنافسون، وأمراؤه متنابزون، وقواده متحفزون، لايخشى أحد هؤلاء قربى، ولا يأبه لزلفى، كلما جمعتهم جامعة فرقتهم شيعاً مآربُ، وإذا ألف بينهم حلف نقضته دوافع، وأولئك جميعاً يريدون الأدب للسياسة فرساً ذلولا يركبون متنه وسيفاً مسلولاً يشهرونه على ضفنهم، والويل أى ويل لمن تخلف عن الطاعة أو نكص دون تنفيذ الإرادة، إنه إذن لمن المنبوذين المبغضين، ينتظره الحيف ويترصد له الظلم كل مرصد. ومن هنا كان البطش يمعض الكتاب والشعراء سنة مسنونة، فمن أمن اليوم فهو قليل الأمن والدعة غداً، ومن سعد فترات ترقبه النحس سنوات

ومن كتاب ذلك العصر الذى أسلفت وصفه الرئيس ابن العميد، والوزير ابن عباد، والكاتب أبوبكر الخوارزمي؛ ومن شعرائه أبو فراس الحمدانى، وأبو الطيب المتنبى، والشريف الرضى. ولقد كان الصابئُ مع معاصرته لأولئك الأفذاذ الذين قلما يجود الدهر بأمثالهم، أو يسمح بمن يجرى على غرارهم جلة — مرموق الأثر، مومرق الخبر؛ يجرى اسمه على الألسنة فى مراتع اللهو والأنس، أو مهامه اليأس والبؤس، وتتناقل أنباءه الأندية إن أصابته غبطة ونعماء، أو مسته مخمصة وضراء، وتعمر به المحافل والمجالس متى صفرت منه المعاقل والمحابس، وهكذا دواليك يظهره تاريخه حركة دائبة، لا تقفها نعمى تركن بها الدعة، ولا تفدحها بؤسى، فتستسلم للشدة، فهو كادح في الحالين، وأداة عاملة لا يعطل محركاتها ميسرة أو معسرة. ولكأنى به يشحذه طول الضراب، ويستثير شعوره أمل الثواب، ويستحيي وجدانه توقع العقاب، فيأتى بما يلذ السامع سمعه، ويعجب القارئُ وقعه، وسيبرز هذا الوصف واضحاً جلياً ما سأقدمه بين يدى الكتاب من كتاباته، وما أعرضه على الشعراء من فرائد أبياته، فسنرى أن أروع نثره وأقواه ما جاء فى الشكوى؛ وأرق شعره وأرقاه ما جرى فى العتبى، ولقد عرف له فضله حامدوه وحاسدوه، ونفس عليه أدبه شاكروه وكافروه، وحسبه ذلك فخراً

نعم إن الصابى كان في الشكوى والاستماح، والنصح والاستنصاح قوى الصوغ والنسج رائع التصوير والخيال بارع المنطق والبرهان، لا تعوزه الحجة، ولا تنأى دون غرضه المحجة. وإذا كان « خير الأدب ما انبعث عن عاطفة صحيحة لا مريضة » فشكوى الاعتقال وذم الحبس يصدران عن عاطفة صحيحة قوية لا سقيمة ضعيفة؛ ودعك من حبس الجسم والحد من حريته،

فذلك أهون خطبه وأيسر أمره ، وإنما مس الشكاة تصدر عن سجين العقل معتقل الفكر مرهف الحس ، فذلك إذ ينثر أو يشعر يعبر تعبيراً قوياً جياشاً يستثير به العواطف الكامنة ، ويستجيش المشاعر الهامدة ، ليبعث فيها عواطف ثائرة للعطف عليه ولتستحيل المشاعر الخامدة مشاعر مشتملة للبر به ، ومن يطالب مثل ذلك بالصبر والسلوى والسكون إلى البلوى وعدم الشكوى ، أو يعتبر إعلان ألمه خوراً في أدبه ، أو استظهار الناس إلى معونته ضعفاً في خلقه ، متطلب في النار جذوة نار ، أو هو كما قيل :

ومن البلية أن يسام أخو الأسى رعىَ التجلد ، وهو غير جاد

ولو أن أبا اسحاق كان في سياسته كما كان في ديانته ، يكتب عن إيمان ، ويصدر عن عقيدة (مهما كانت حقيقتهما) لنجا بعض النجو من كثير مما أمضه ، ولكنه كما روى الثعالبي كان يكتب كما يؤمر ، وكان كالمركب السهل يوجهه راكبه حيثما شاء ، فهو يتحدث بما يمليه عليه ربه ، ويعبر عن أفكار مولاه ، ومع هذا فانه يأتي بالمعجب ، فكيف به إذ يكتب عن عاطفة أو يشعر عن حافزة ؟ إنه ليجمع بين اللفظ الرشيق والمعنى العميق ، ومن ذلك الذي يبلغ به فنه الجمع بين لغة الألفاظ ولغة العواطف إلا الكاتب المالك عنان قلمه ؟ (لأن[1] الألفاظ « كما يقول الأستاذ أحمد أمين » لم توضع لنقل العواطف ، وإنما وضعت لنقل المعاني ، والألفاظ أعجز ما تكون عن نقل عاطفة الأديب إلى القارىء ، فكيف أنقل إعجابي بالطبيعة ، أو أنقل حباً ملأ جوانحي أو غضباً استفزني ، أو رحمة ملكت مشاعري ! لم توضع الألفاظ لشيء من ذلك ، وإنما وضعت لنقل مقدمات ونتائج منطقية ، ولكن ما حيلتنا وقد خلقنا عاجزين لم نمنح لغة العواطف ، ولا بد لنا من التعبير عنها ونقلها إلى قارئنا وسامعنا ، لذلك استخدمنا لغة العقل مرغمين ، وأردنا أن نكمل هذا العجز بضروب من الفن كموسيقى الشعر من وزن وقافية ، وكالسجع وكل ضروب البديع ، وليس القصد منها إلا أن نكمل نقص الألفاظ في أداء العواطف) إذا كان ذلك الرأى صحيحاً ولا إخاله غير ذلك ، فقد بلغ الصابي أفقاً لم يبلغه كاتب سواه .

ويجدر بنا إذ نتحدث عن نثر الصابي أن نقسمه أقساماً ثلاثة : النثر الديواني ، والاخواني ، والنثر العام غير المقيد بأحد هذين الوصفين

فأما كتابته الديوانيـة فكان يصورها باللون الذي يريده عليه سيده ويرسمها بالريشة التي يهبها له ، فتارة تبرز سافرة واضحة هينة لينة ، ناصعة الكلمات رقيقة الفقرات رفيقة اللمزات والغمزات ، تبعث في نفس قارئها الرضا إن كان غاضباً ، وتوليه العتبي إن كان عاتباً ، والسكون إن كان عاصفاً ، وربما لمحت في ثناياها الحكمة العابرة ، والأمثال السائرة . فمن ذلك قوله يؤلف بين عز الدولة وابن عمه عضد الدولة على لسان أولهما :

« والله العالم أنى مع ما عودنيه الله من الاظهار ، وأوجدنيه من الاستظهار ، ومنحنيه من شرف المكان ، وظل السلطان ، وكثرة الأعوان — لأجزع في مناضلة عضد الدولة من أن أصيب الغرض منه ، كما أجزع من أن يصيب الغرض مني ، وأكره أن أظفر به ، كما أكره أن يظفر بي ، وأشفق من أن أطرف عيني بيدى ، وأعض لحمى بنابى »

وأحسبه خشى أن يدور بخلد أحد أن عز الدولة يتهافت على مرضاة قرنه أو أنه يرهب مصاولته وضغنه ، فبدأ الكتاب بأسلوب القوى الصارم ، واستهله بلهجة الغالب الظافر ، فذكر العز والمنعة ، والقوى والمنة ، والملك والسلطان ، والجند والأعوان وتأييد الله له ، والتفاف الأمة حوله ، ثم ثنى بالغرض الذي اليه أراد ، وهي فطنة وذكانة في جزالة ورصانة . ومن ذلك قوله أيضاً وفيه حكمة ومواعظ ، وتبصرة وذكرى ، وإن أنكر عليه الحكمة إلا قليلاً الدكتور زكى مبارك في كتابه النثر الفنى حيث يقول : « وقد تصفحنا رسائله غير مرة لنرى أثر الحكمة فيها فوجدناه ضئيلاً » :

« إن انتثار النظام إذا بدا — والعياذ بالله تعالى — لم يقف عند الحد الذي يقدر فلان أن يقف عنده ، ولم يخصص الجانب الذي يظن أنه يلحقه وحده ، بل يدب دبيب النار في الهشيم ، ويسرى كما يسرى النغل في الأديم ؛ وكثيراً ما تعدى الصحاح مبارك الجرب ، ويتخطى الأذى إلى المرتقى الصعب »

وتارة يشاء الموحى إليه صرامة وحزماً ، فتقرأ له كتباً أقوى من كاتبها منة ، وأرصن من منشئها قوة ، تخالها إذ تقرؤها لرجل مارس الحروب ، وخفقت فوق رأسه الألوية والبنود ، وسبح

(١) الرسالة . السنة الأولى العدد الحادى عشر

فوق متون الجياد ، وأوتى قوة وعزمة فى القياد والجلاد ؛ فهو يتقمص روح مليكه ، أو يستعيره قلبه الفتى عند ما يهم بكتابة رسالة من هذا النوع . وكأنى به يمصر فكره ، ويقدح ذهنه ، ويكد عقله ، ليأتى بالمعانى الشاردة تتصدع لها القلوب ، والألفاظ الصادعة تصك الآذان ؛ فكل كلة من كلمه وعيد ونذر ، وكل فقراته نار يتطاير منها الشرر ؛ وقد يخلطها أحياناً بالسخرية اللاذعة ، والتهكم الساخر والهزء الممض ، دون إفحاش فى ذلك أو بذاءة . فمن ذلك ما كتبه على لسان عز الدولة إلى سبكتكين الغزنى :

« ليت شعرى بأى قدم توافقنا ، وراياتنا خافقة فوق رأسك ، ومماليكنا عن يمينك وشمالك ، وخيولنا موسومة بأسمائنا تحتك ، وثيابنا المنسوجة فى طرزنا على جسدك ، وسلاحنا المشحوذ على أعدائنا فى يدك » . ويقول له أيضاً :

« تناولتك الألسنة العاذلة ، وتناقلت حديثك الأندية الحافلة ، وقلدت نفسك عاراً لا يرحضه الاعتذار ، ولا يعفيه الليل والنهار » . ويحدث عنه فقال :

« هو أرق ديناً وأمانة ، وأخفض قدراً ومكانة ، وأتم ذلاً ومهانة ، وأظهر عجزاً وزمانة من أن تستقل به قدم مطاولتنا ، أو تطمئن له ضلوع على منابذتنا ، وهو فى نشوزه عنا وطلبنا إياه كالضالة المنشودة ، وفيما نرجوه من الظفر به كالظلامة المردودة »

ومن هذا الطرز قوله أيضاً :

« ولما بَعُد صيته بعد الخمول ، وطلع سعده بعد الأفول ، وجمت عنده الأموال ، ووطئت عقبه الرجال ، وتضرمت بحسده جوانب الأكفاء ، وتقطعت لمنافسته أنفاس النظراء ، نزت به بطنته فأدركته شقوته ، ونزع به شيطانه ، وامتدت فى الغى أشطانه »

وإنا لنجد فى كتبه ورسائله محاولة قد تكون ناجحة فى هدم الرجال وتخضيد شوكتهم وتعضيد قوتهم ، تلك هى التهوين من شأنهم والحط من قيمهم ، فيصمهم بوصمة الذل ، ويسمهم بسمة الرق ؛ وذلك أحزّ فى النفس ، وأعلق بالذهن ، وأجرى على الألسن ؛ وربما كان حديث تنادر ، وطرف فكاهة . وهو يلم بالموضوع الذى يتناوله ، فلا يترك فيه فرجة إلا سدها ، ولا كوة إلا رقعها ، وربما استخدم فى سبيل ذلك الطب الذى تعلمه فى يفعه استخداماً نافعاً ؛ فقد عهد الخليفة إلى عالم بالقضاء فكتب إليه يوصيه ، فكانت وصاته خليطاً من حكمة الأطباء ، وطب الحكماء ، فذكره بأن البطنة شر الأدواء ، ونبهه على أنها تذهب الفطنة ، ثم بصره عواقب البطر ، وخوفه آثار الشره ، وأنهما يفسدان عليه أمره ، ويحطان من قدره ، وإليك كتابه :

« وأمره أن يجلس للخصوم وقد نال من المطعم والمشرب طرفاً يقف به عند أول حده من الكفاية ، ولا يبلغ منه إلى آخر النهاية ، وأن يعرض نفسه على أسباب الحاجة كلها ، وعوارض البشرية بأسرها ، لئلا يلم به من ذلك ملم ، ويطيف به طائف ، فيحيلانه عن رشده ، ويحولان بينه وبين سداده »

وهذه فقرات من رسالة يصف فيها حرباً نشبت بين المسلمين والروم ، وكانت الغلبة للمسلمين ، يصور فيها الحرب وقد حمى وطيسها ، واشتمل أوارها ، فتتخيل إذ تقرؤها أنه أحد قوادها وبطل من أبطالها ؛ فإنه ليميت النخوة فى النفوس ، ويثير الحمية فى الرؤوس ، فكأنه يشرع الأسنة لا اليراع ، ويشهر الرماح لا الأقلام ؛ وإن القارئ ليحسب أن كاتب الرسالة رجل من صفوة المسلمين ، وتقى من خلاصة المتقين ، لا صابئ من الكفار الجاحدين ، فهو يقول :

« فلما استعرت الملحمة ، وعلت الغمغمة ، ودارت رحى الحرب ، واستحر الطعن والضرب ، واشتجرت سمر الرماح ، وتصافحت بيض الصفاح ، تداعى الأولياء بشعار أمير المؤمنين المنصور ، وتنادى الكفار بالويل والثبور ، فنكصوا على أقدامهم مجدين فى الهزيمة ، واعتدوا الحشاشات لو سلمت لهم من أعظم الغنيمة ، واستلحمتهم السيوف ، واحتكمت فيهم الحتوف ، وأخذ المسلمون منهم الثار ، وعجل الله بأرواحهم إلى النار »

ورسائله الديوانية كثيرة ، فلقد خدم عدة ملوك ، وطال به العمر فاتصل بكثير من الولاة والأمراء . ولعل ما بين أيدينا من كتابته فى هذا الباب قُل من كُثر ، فقلما يعنى المؤرخون بمثل هذه الرسائل ، وإلا لكان له ولغيره ممن اتصلوا بالسلطان عن قرب أو بعد مجلدات يعيا بها العبء ، فلنجاوز هذا الضرب من النثر ، فقد عرضنا منه ما فيه الغناء ؛ وسنتحدث مستقبلاً عن الضربين الآخرين إن شاء الله ، ولم تقف بنا دورة الفلك

عبد العظيم على قناوى

الترجمة

خطرها وأثرها فى الأمم المختلفة

للدكتور عبد العزيز عزت

١ – عند الرومان

تمر على الأمم فى تاريخها فترات تشعر خلالها بحاجة إلى رفع نفسها إلى مستوى من سبقها من الشعوب فى مضمار التقدم الفكرى ، فيحدث إبان ذلك نوع من الهجرة الثقافية فى أنواع المعارف المختلفة وخاصة فى مجال الفلسفة ، لأنها حتى منتصف القرن الثامن عشر ، أى قبل أن تأخذ فلسفة كانت شكلها الحاسم ، كانت تفهم بأنها مجموع العلوم الإنسانية . ومن الطرق التى تمهد لهذه الهجرة الثقافية : الحروب تارة كما حدث إبان الحروب الصليبية من اشتباك التفكير المسيحى والتفكير الإسلامى ، وتارة التجارة فهى بجوار ما تحمله من السلع تحمل على وجه خاص تفسيراً لها وشرحاً عقلياً . وأمر الفينيقيين Phéniciens معروف فى هذا الباب ؛ ومنها الرحلات وأهميتها ظاهرة عند أفلاطون وتأثره بالتفكير المصرى القديم كما يلاحظ ذلك عنده فى مقدمة كتابه « طيماوس » Timée ، وكذلك عند ابن خلدون فى « مقدمته » ؛ ومنها البعثات العلمية فى خارج البلاد كبعثات فرنسا فى ألمانيا ، فرافيسون Ravaisson يشيد بذكر أستاذه شلنج Schelling ، وأستاذنا بوجليه Bouglé يشيد بذكر اهرنج Ihring ؛ وكبعثات مصر فى فرنسا ، فهناك من ينطق باسم جوستاف لوبون G. Lebon ، وهناك من يبشر باسم ديكارت وغير ذلك . ولكن مهما يكن لهذه الطرق من الأهمية فى هجرة الثقافة ، فهى فى نظرى ناقصة لأنها لا تخلق إلا عرفاً تقافياً .

ومن أصول العرف عامة ألا يستقر على قرار متين ، لأنه يخضع لظاهرة التقليد فى المجتمعات البشرية كما يؤكد ذلك العلامة تارد Tarde فى كتابه « القوانين الاجتماعية » . لهذا لزم خلق قانون وضعى للثقافة يحدد شرعتها واتجاهها ويضمن لها الاستقرار والإنتاج خلال نزعة معينة ، وهذا لا يمكن تحقيقه إلا بالترجمة La traduction ، فهى الأساس الأول الذى عليه يبنى « التماسك » الفكرى فى عقلية الفرد ، والتماسك الفكرى فى عقلية المجتمع

وأهمية الترجمة تتلخص فى أربعة أفكار نجدها عند زعيم الأدب الفرنسى وأستاذه السابق بمدرسة المعلمين العليا بباريس العلامة لانسون Lanson فى « مجلة التاريخ الأدبى لفرنسا » عام ١٨٩٦

أولاً – تمهد الترجمة لخلق « فكرة عامة » عن الشعب المترجم عنه ، لأن الشعب المترجم إليه سيهتم فى ذلك الحين بتعرف تاريخه فى كل نواحيه ، وحالته السياسية والاجتماعية الراهنة ، وآدابه وفنونه ، وسائر أنواع نشاطه التى تكوّن حضارته فى مجموعها

ثانياً – الترجمة تحقق « الاستفادة المؤكدة » فى موضوعات معينة ، خلال تيارات محدودة للفكر ، إبان زمن معين للشعب المترجم عنه ، فهى استفادة مباشرة تفصيلية تشتق من مطالعة الكتب المترجمة ذاتها

ثالثاً – الترجمة تخلق موجة فكرية فتوجه الرأى فى الشعب المترجم إلى غايات معينة ، هذه الموجة هى موجة « تقليدية » فهى استفادة غير مباشرة ، وذلك بأن يأخذ كتاب الشعب المترجم إليه نفس موضوعات التراجم ولكنهم يعالجونها من وجهة نظرهم الخاص بهم فى بلادهم ، أى الاستمرار بالاستفادة المباشرة من قراءة التراجم لمعالجة موضوعات تحل بروح وطنية على ضوء ما تحتويه التراجم من علم جديد ، فهى تمهد الاستمرار الوطنى الأهلى « بالاستفادة المؤكدة »

رابعاً – بعد هذا ينتج عن الترجمة نوع من الانسجام بين عقلية المترجم عنه والمترجم إليه ، وهذا الانسجام هو تداخل عقليتهما ، وظهور نوع من التشابه فى ألوان تفكيرهما ، فيحصل ضرب من الاتحاد فى الذوق والتفكير والميول ، ويكتسب نشاط الاثنين نفس الشكل ، ويتجهان إلى نفس الغاية

لهذا عند ما أحس الرومان أنهم أهل حروب وسفك دماء يفرضون استعباد السيف باسم القانون والتشريع على الهادئين المطمئنين من خلق الله – ذهبوا إلى اليونان القدماء ينشدون أصول العقل ، واتزان الحس ، ومنطق الجمال ، ليقللوا من حدة طباعهم ، وتنافر غرائزهم ، ولينعموا – قليلاً – بما للانسانية

من معان سامية ، وآيات قدسية ، وأهم من يمثل حركة الترجمة عندهم هو بلا شك ، شيشرون Ciceron ، ولقد حاول دراسة هذا الرجل كل من العلامة فان هوسدو Van Heusde ، والعلامة بوهور Baumhauer ، الأول يبحث عن أثر أفلاطون فى مؤلفاته والثانى عن أثر أرسطو فيها ، وذهبا إلى طريقة عقيمة فى ذلك تتلخص فى مقارنة النصوص وتشابه معانيها ، مع أن شيشرون أخذ العلم والفلسفة فى بلاد مختلفة وليس فى أثينا Athènes فقط مهبط المشائين من الفلاسفة ، فهو قد ساهم فى تأثره العقلى لمدارس فلسفية مختلفة ، فدرس بجوار ذلك على فدروس Phaedrus الأبيقورى ، وفيلون دى لاريس Philon de Larisse ومن ينتمى إلى تعاليم الأكاديمية الجديدة كأنطيوخس Antiochus ؛ ودرس على الخصوص على ديودوتس الرواقى Diodotus ومن ينتمى إلى هذه المدرسة كبسدونيس Posidonius ، ثم إنهما لم يرجعا إلى الصفات الأساسية التى تميز العقلية الرومانية وأخصها كما يذكر العلامة Thiancourx — الجمع — L'éclectisme ، فحقيقة نجد عنده أثراً لأفلاطون وأثراً لأرسطو وإنما كذلك « وقبل ذلك » هناك أثر الرواقيين والأكاديمية الجديدة ، فهى التى سادت تربيته عند ما رحل إلى بلاد اليونان ، وهى التى سادت كذلك فى كل مكان فى زمانه وقبل زمانه ، لأن حروب الاسكندر الأكبر عاقت انتشار مذاهب أفلاطون وأرسطو سواء فى المجتمع اليونانى أم المجتمع الرومانى — كما يؤكد العلامة جانيه Janet : فبعد هذه الحروب حدث كما يحدث عادة بعد انتهاء كل حرب من ضعف أخلاقى لهبوط قيمة الحياة فى إفهام المحاربين والانغماس فى اللذات كنتيجة للانتصارات ، وكذلك ضياع الفهم السياسى وأهمية الفرد فى المجتمع ، وكذلك انعدام الروح الدينية والاهتمام بالنتائج المادية للغزو ، وهذا بطبيعة الحال يجني على التصور السامى لغايات النفس فى أمور الحياة . ولما كانت فلسفة أفلاطون كأساس فلسفة « طبيعية » تهتم بفهم عالمنا الخارجى على قياس عالم داخلى هو عالم الأفكار الخالدة ، ولما كانت فلسفة أرسطو Aristote كأساس فلسفة منطقية تبنى إقامة العلم والوصول إلى الحقيقة المجردة ، شعر اليونان بعد تلك الحروب بحاجة إلى فلسفة جديدة تسمو بنفوسهم إلى مستوى أرفع مما وصلوا إليه ، أى كانوا بحاجة ماسة إلى فلسفة أخلاقية ، لهذا سادت مباشرة تعاليم الرواقيين وظل أرسطو نسياً منسياً حتى القرن التاسع الميلادى حيث ولد من جديد عند العرب ، ومن جديد كذلك إبان القرن الثالث عشر الميلادى عند آباء الكنيسة في أوروبا خاصة القديس البير الكبير Albertus huagnus ، والقديس توماس St Thomas فهذه هي الحوادث التاريخية الصريحة التي بدونها لا يمكن أن يفهم المنطق التاريخى للفلسفات فى جولاتها المتعاقبة

على أية حال لقد كان شيشرون « زنجياً أبيض » Un nègre blanc لأسياده اليونان القدماء فى تفكيره وهو يعترف بذلك فى نص صريح تعبنا فى استخلاصه من مؤلفاته حيث يقول فى الأتيكوس ad atticum, XII, S2 ما ترجمته : « إن مؤلفاتى لم أجد فى كتابتها عناء كبيراً ، لأنني بحثت فقط عن الاصطلاحات التى وفقت فى وضعها »

وفي واقع الأمر أن أغلب مؤلفات شيشرون إن لم تكن كلها عبارة عن « ترجمة حرفية » للكتب اليونانية القديمة ، بل أحياناً يعجز عن وضع الاصطلاحات لبعض التعابير اليونانية فيتركها على حالها دون نقل ، كما فعل بعد ذلك العرب في كلمة « ميتافيزيقا » و « إيساغوجى » ، فهو يترك مثلاً اللفظين اليونانيين لكلمتى الأفكار والمفريات عند ما يعرض للأخلاق العملية ، ونجد فى وضوح أثر أفلاطون ظاهراً فى نواميس شيشرون the lahibus ، وجمهوريته the Republica وفيهما يعرض فهمه للسياسة ، فهو يبني تحقيق دولة فيها تمتزج مبادئ الملكية والارستقراطية والديمقراطية فى آن واحد ، حتى يستقيم ظل الحكم وتسود الطمأنينة بين عباد الله ، لأن الحكومات القائمة فى عهده يعتبرها صورية تتخذ من الحكم سبيلاً لفرض السيف على رقاب الناس ووضع الحبل فى أعناقهم باسم الحرية تارة وباسم الصالح العام تارة أخرى . وأثر أرسطو على الخصوص فى التوسكيلان Tusculanes وفي هورتنيوس Horten Sius حيث يعرض فى الأول للنفس الإنسانية فى أصلها وطبيعتها وقدرتها فى التصور وأنواع ملكاتها المختلفة ، وخاصة الشهوات والانفعالات النفسية فى كل نواحيها بدقة تفوق الوصف ؛ وفى الثاني يعرض للأسباب التى دعته لدراسة الفلسفة وأهمية أرسطو فى هذا الباب

« البقية فى العدد القادم »

عبد العزيز عزت
خريج جامعات القاهرة ، وباريس ، وكليرمون
عضو بعثة الجامعة المصرية لدكتوراه الدولة

التاريخ في سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الأحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

— ١ —

يا شباب الوادي ! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم



ما أحوج بني الانسان كلما قطعوا شوطاً في طريق هذه الحياة ، أن يديروا وجوههم لحظة عن الأفق الذي يستقبلون ، وأن يرجعوا إلى ما استدبروا من آفاق متطلعين إلى تلك النجوم الزواهر التي تلتمع على جوانبها ، والتي ستبقى هناك ساطعة باهرة ما دار الفلك وما تصرمت السنون

أجل ، ما أحوج الانسانية أن تهتدي في سبيلها بهدى الذين رسموا لها ذلك السبيل ؛ وما أحرى قافلتها كلما آدها العبء ، أو أعياها السير ، أو اعترضتها العقبات ، أن تستأنس بقبس من تاريخ أولئك البواسل الأبرار الذين تتألف من سيرهم مجتمعة سيرة البشرية في هذا الوجود

وها نحن أولاء نتجه بعقولنا وقلوبنا إلى سيرة الزعيم « لنكولن » رئيس الولايات المتحدة ، أحد أبناء الانسانية الفرِ الميامين وأحد أفذاذها البواسل . ولا لوم علينا معشر الشرقيين إذا تخطينا مشرق الأرض إلى مغربها ، بل إذا تخطينا الدنيا القديمة إلى الدنيا الجديدة ، متخذين قبسنا في هذا الحديث من وراء المحيط . لا لوم علينا في ذلك ، فأبناء الانسانية العظماء متى اجتازوا باب الخلود صاروا للعالم كله ، ولا اعتبار في ذلك لشرق ولا لغرب

وما هذه الدنيا الجديدة التي أخرجت بطل حديثنا وما فصلها في تاريخ الوجود ؟ برزت الولايات المتحدة كدولة من دول العالم على حين غرة ، فكان بروزها السياسي شبيهاً بما يزعمه الجغرافيون عن وجودها المادي ، إذ يقولون إن أمريكا ، أو الدنيا الجديدة قد برزت من تحت الماء في حركة من حركات هذا الكوكب ! وما كان بروزها السياسي في الحق إلا حركة من حركات الشعوب في هذا المضطرب الواسع الذي نسميه العالم ؛ حركة لم تكن متوقعة من قبل ، ولم يكن يظن أحد يوم بدأت أنها واصلة إلى ما وصلت إليه !

سمع الناس في أوربا قبل أن تنبعث الرجفة الكبرى من فرنسا بسنوات قليلة عن أنباء عجيبة تأتيهم من وراء المحيط . سمعوا عن الحرية يرف جناحاها الجيلان ويتهلل وجهها الأبلج في تلك الربوع الفسيحة التي وجه كولمبس أنظار العالم القديم إليها قبل ذلك بنحو ثلاثة قرون ؛ وسمعوا عن أختها الديمقراطية ترفع علمها وتشهر سلاح الايمان واليقين ، سلاح « جان دارك » الخالد في وجه الطغيان المربد العبوس ؛ سمعوا عن مراكب من الشاي تقذف حمولتها في البحر وتأكلها النيران ، وسمعوا عن جموع ثائرة تلتقي هاتفة صاخبة ، وعن جنود تحشد خفافاً وثقالا ، ثم ما لبثوا أن علموا أن الناس روعوا هنالك وزلزلوا زلزالا شديدا

وجاءت الأنباء تترى بعد ذلك عن حرب طاحنة ، تسمع في ضجيجها صيحات الاستقلال وحقوق الانسان حتى ترامت إليهم الأخبار عن انتصار يتلو انتصاراً تحت راية « واشنجطون » . وأخيراً علموا أن انجلترا سلمت مغلوبة على أمرها واعترفت في عام ١٧٨٣ م بمولد دولة جديدة انتزعت منها انتزاعاً ؛ ورأى العالم في ذلك دليلاً جديداً على أن الايمان يفعل أكثر مما يفعل الحديد والنار !

ولدت دولة جديدة كانت قبل ذلك ولايات متنافرة متباغضة

ولكنها وجدت نفسها بعد مولدها مملقة فراضت أحرارها على خشونة العيش، وما كان هؤلاء الأحرار بعد استقلالهم ليشتروا به ثمناً قليلاً وهم سلائل أولئك الذين هاجروا من قبل فى سبيل الحرية إلى هاتيك الأصقاع من موطنهم الأصلى فى انجلترا. لذلك تحملوا الفاقة وأخذوا يكدحون كدحاً شديداً، وتولت قبائل منهم حين ضاقت بهم المدن أصقاعا من الأرض البكر تنمو فيها الألفاف والأحراج من وحشى النبات، يشقونها ويفلحونها، ويعيشون فيها عيشة أولية كأنما عادت الانسانية في أشخاصهم تبدأ حياتها من جديد!

وكان هؤلاء فى أصقاعهم هذه منعزلين عن عالم المدنية الانعزال كله، يقيمون الأكواخ من كتل الخشب فى جوانب الغابات، ويعيشون على الصيد وعلى قليل من الزرع، ويفعلون ما كان يفعل آباء الانسانية الأولون، يتعرضون لعشرة الطبيعة ولا يأمنون شرة الوحوش ولا هجوم القبائل الأصلية من «الهنود الحمر» ويتناثرون هنا وهناك فى مساحات هائلة يمشون فى مناكبها جماعات ضئيلة العدد حتى ليخيفهم الفضاء وحده ولو لم يكن فيه شيء من عوامل الخوف

فى هذه البيئة الساذجة وفى كوخ حقير من الخشب يقوم وسط فضاء الطبيعة الرهيب الرحيب، فتح إبراهام لنكولن عينيه على هذا الوجود فى اليوم الثانى عشر من شهر فبراير عام سنة ١٨٠٩ م!

خرج الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة، بل خرج إبراهام لنكولن أحد الفلائل الأفذاذ الذين تفخر البشرية بانتمائهم إليها من هذه البيئة ودرج من ذلك الكوخ. وما كان ذلك ليعيبه، بل إنه لمن دواعى الفخار إن قدر لمثل هذا العظيم أن يزهى أو يفتخر. وهو لعمرى مدين بجانب كبير من عظمة نفسه وسمو روحه إلى تلك البيئة التى خرج منها؛ ذلك أنه نجا على نقاء عنصره وصفاء روحه من زخرف الحياة وغرورها، ومن مفاسد المدنية وأوضارها، ومن أوهام المجتمعات وكواذب أحلامها، فخلص له معدنه الحر وبقى نقياً لم تعلق به الأوشاب؛ وصار فى جميع أفعاله تتكشف جوانب نفسه عن طبيعة صادقة كأنما تتحرك عن إلهام أو تعمل بوحى! وتمثلت فيه البشرية فى سذاجتها وكمالها وفى ضعفها وقوتها وفي إسفافها وعلوها؛ وصار الناس يلمحون فى سجاياه براءة الطفل وتوقد عاطفته إلى جانب نزعات الفيلسوف ورجاحة عقله! وكم للفقر من يد على العظماء! وكم أخرجت مثل تلك البيئة الطليقة الخالصة من رجال أماثل ومصابيح أعلام قادوا القافلة واستقاموا على الطريقة، أو على الأصح استقامت بهم الطريقة ووضحت المحجة!

ذلك هو لنكولن الناشىء فى الشوك من أيامه، وتلك هى صفاته فى جملتها كما ستتضح لك فيما سيأتى من حديثه. وكأنك تقرأ سجاياه فى أسارير وجهه؛ وتحس فيها ما تعوده في حياته من البأساء والضراء. فإذا نظرت إلى صورته رأيت شبح حياته الأولى فى رأسه الأشعث، ولمحت زكانة نفسه في جبهته العريضة العالية المجعدة، وأحسست طيب قلبه وصفاء طويته ورقة عاطفته ونفاذ بصيرته فى عينيه الوديعتين المتسائلتين، وتبينت صرامته ومضاء عزيمته فى أنفه الغليظ الأشم. ثم أبصرت قوة صبره وشدة تحمله وروعة استسلامه تختلج كلها على شفتيه المضمومتين المعبرتين عن مض الحوادث، وطالعتك من هاتيك الملامح فى جملتها سذاجة الأطفال وهيبة الرجال؛ ثم تهلل من وراء ذلك كله سر العبقرية الذى يدق عن كل وصف ويسمو على كل تحليل!

فتح الوليد عينيه على الوجود فى لوح أقيم من الكتل الخشبية فى مقاطعة كنتوكى بعد استقلال الولايات بنحو ستة وعشرين عاماً، فنما كما ينمو وحشى النبات فى ذلك الإقليم! نما على ما تجود به الحيوانات من ألبانها، وتدثر بجلودها، ثم تغذى ثمار الشجر واضطجع فى مهد من أوراقها الجافة كأنه فرخ من أفراخ الطير.

ولما بدأ يدرك الأشياء وجد عالمه فى ذلك الكوخ الذى لم يكن يزيد اتساعه على أربعة أمتار فى مثلها والذى لم يكن فيه من الأثاث إلا وحشيه وغليظه، من جلود مجففة إلى آنية جافة شوهاء إلى قطع غليظة من الخشب سوتها فأس أبيه التى كان يراها بين آونة وأخرى معلقة على الحائط بجانب أداة أخرى كانت تبدو غريبة فى عينه الغريرة، تلك هي بندقية أبيه التى كان يحملها على كتفه كلما سار نحو الغابة، فهى لذلك تختفى فى النهار وترى بالليل على حائط الكوخ

وكانت الغابة أو كان الجزء المحيط منها بالكوخ هو نهاية

ما يصل إليه خيال الطفل من هذا الوجود . وحسبه الآن من الوجود أن يلعب ويمرح فى هذا المضطرب وإن لم يكن له فيه من رفقة سوى أخته التى تكبره بمام ؛ وأن يستمع إلى ما ترويه له أمه من أقاصيص وأنباء يلتهما التهاماً وأن يصغى إلى ما تجيب به عن أسئلته الكثيرة

على أنه كان ينظر إلى الغابة نظرة الرهبة والدهشة معاً ؛ وكان يعجب كلما رأي أباه مقبلا من بين الأشجار ، بندقيته على كتفه ومموله فى منطقته ، وفى يده طائر أو حيوان يدفعه إلى أمه إذا وصل إلى الكوخ فتأخذه فى فرحة ظاهرة وتهيء الطعام للأب وللأسرة جيماً

فى هذه السن الباكرة يرى الغلام الحياة من قرب رؤية مباشرة ، فهو يعيش كما كان يطلب « روسو » فى أحضان الطبيعة حيث يرهف حسه ويقوى وجدانه ويعمق خياله وتنبسط نواحى نفسه الصغيرة وتستشف ما فى هذا الكون العجيب من سحر وجمال وتستشعر ما فيه من سر ورهبة

أليس يرى من كثب كيف تطعم الأسرة وكيف تكتسى ؟ أليس يرى التعاون بين الوالدين وما ينتج من راحة واطمئنان ؟ أليس يرى الكدح فى سبيل العيش ؟ وحسبه فى سنه أن يرى ذلك وأن يلمسه

على أن مجال الحياة يتسع أمامه بعد أن تخطى سنته الخامسة إذ انتقلت الأسرة فأقامت كوخاً جديداً على طريق مطروقة كانت تؤدى إلى إحدى المدن القريبة . وهناك يرى الغلام أنماطاً من الناس غادين رائحين ويرى دواب وعربات وأشكالاً من الملابس تختلف اختلافاً كبيراً عما اعتاد رؤيته على جسد أبيه ، فيتأمل ويعجب بينه وبين نفسه

وفى السابعة من عمره يصحب الغلام أباه إلى الغابة ، هنالك حيث بدأ يقوم بنصيبه من العمل ، فيساعد ذلك الأب الذى يقطع الأخشاب ويصنع الأثاث ويبيعه ، ويكسب من وراء ذلك نقوداً تحتاج إليها الأسرة ، وإنه لفخور الآن بمساعدة أبيـه ، لا يحفل بتعب فى تلك المساعدة التى يباهى بها أخته ، وإن كانت هى أيضاً تقوم بنصيبها فى مساعدة أمها ؛ ولكن هل كانت « سارا » تستطيع أن تسوى الخشب وتجره وترتبه ؟ هل كانت تستطيع أن تحمل الصيد إلى الكوخ كما كان يفعل « أيب[1] » الصغير ؟

كان لا ينقطع عن العمل إلا فى أيام الآحاد ، إذ يجلس وأمه وأخته وأباه أمام الكوخ فيستمع فى شغف ولذة لما تلق أمه من أقاصيص وما تتلو من حكايات مشتقة من الإنجيل . ولقد أحدثت تلك الحكايات فى نفس الغلام أثراً عميقاً وظلت مسحتها الدينية تلازمه بعد ذلك فى جميع أطوار حياته

وجاء بعض ذوى قرباه فأقاموا إلى جوارهم وأقبل الغلام على خاله وخالته يستزيدهما الأنباء والأقاصيص ، وكم كان معجباً بتلك الخالة التى تكتب وتقرأ وتحبذ أن يتعلم الغلام القراءة والكتابة على الرغم من إعراض أبيه عن ذلك وعدم اهتمامه به

وبدا للغلام يوماً فسأل عن أسرته ، وأين نشأت ، وممن انحدرت ؟ فسمع ردوداً مبهمة لم ترو ظمأ نفسه ، وماذا كان يتوقع الغلام ؟ أكان يحسب نفسه سليل سادة أكابر ؟ ولكن ما كان أبعد فكره عن هذا ؟ وهل رأى غير بيئته وأسرته ؟

ولئن سمع غيره من الأطفال من آبائهم عما كان عليه جدودهم من عظمة وماتقلبوا فيه من نعيم الحياة ورفيع المناصب ، لما كان لمثله أن يسمع شيئاً من هذا . وأنى له ذلك وهو ابن الأحراج والأدغال ! ؟ . وغاية ما سمعه عن جده ما حدثه به أبوه ذات مرة ، أنه بينما كان يساعد أباه — جد « أيب » — فى الغاب ومعه أخواه إذ انطلقت رصاصة من بين الأدغال فأصابت ذلك الأب فخرصريعاً ، وجرى الأخوان نحوالكوخ ، وبرز من بين الأشجار أحد الهنود الحمر وحمله يريد أن يأخذه إلى داخل الغابة بعد موت أبيه ، لولا أن صوب أكبر الأخوين بندقيته التى أحضرها من الكوخ مسرعاً ، إلى رأس ذلك الهندى فأرداه قتيلاً

فسمع الطفل ذلك الحديث وقد علقت أنفاسه ودق قلبه إذ رأى مبلغ ما أحدق بأبيه من الخطر ، ورأى أنه أشرف على الموت لولا بسالة عمه لذهب كما ذهب جده ، وهاله موت جده على تلك الصورة ، وكان ذلك كل ما عرفه عن ذلك الجد ، أو قل كان

(١) Abe اسم أطلق على الغلام على سبيل التدليل وصار يعرف به بين الناس حتى انتخب رئيساً للولايات المتحدة

جوامع النجف الاشرف

للشيخ ضياء الدين الدخيلي

من ذكرياتي التي أنتعش كلما حلقت في سمائها سويعات ممتعة ألقيت فيها محاضرة على زمرة من أساتذة العالم العربي في مدرسة، طالما حنت أضلاعها على جهابذة قادوا الرأي العام الإسلامي وبقوا مصابيح هداه في عصر كانوا هم المهيمنين على جميع مقدرات أمة القرآن. منذ بضع سنوات طرق النجف الأشرف وفد الجامعة المصرية وفي طليعته الأستاذ أحمد أمين والأستاذ الزيات حين كان رسول الأدب إلى عاصمة المأمون. إذ ذاك تحفزت لمقابلة تلك العبقريات اللامعة التي أنفقت ليالي في الاستمتاع بثمراتها الفنية بالغذاء الروحي؛ ما هي إلا خطوات أثقلتها الخواطر والعزمات حملتني أن أغادر مدرسة السيد كاظم اليزدي (إحدى المدارس الإسلامية الكبيرة في النجف الأشرف) لاستقبال موكب الثقافة، وإذا بجلبته تملأ مدخل المدرسة الشمالي، فوقفت تحت مصباح زيتي بلفظ أشعته الباهتة كأنه رمز عصر ينقرض؛ في سكون المدرسة الذي زاده اعتكار الليل وروعة المفاجأة — هيبة وجلالاً — وقفت أحدث أفلاذ القاهرة عن قطعة من جسم مزقته الحوادث القاسية عن الحركة العلمية والأدبية في هذا البلد الطيب، أحاطوا بي يصغون إليّ وقد تآلفت القلوب الخفاقة وألهبت العواطف دم العروبة الإسلامية فكللنا بهالة من روابط روحية قدسية. وتمضي الأيام وإذا بسماحة السيد أمين الحسيني ورفيقه دولة محمد علي علوبة يزوراننا فأجتمع بهما في نفس البنية لأحدثهما عن حياتنا الدراسية، فأجد في إقبالهما وابتهاجهما طلائع الوحدة العربية الإسلامية تتجلى متجلبية هذه النزعة للتعارف فالتآلف فالتضام؛ وحقاً إن الحركة العلمية في هذه البقعة وأساليب الدراسة — ذات أطراف وأفانين شائقة تتطلع لتفرسها النفوس تواقة لما فيها من مزايا وصبغة خاصة وليدة عوامل عديدة لم تجتمع لغير هذه المعاهد، فقد لاحظت ذلك حتى في الغربيين إذ جاءنا سرب من الأمريكان والانكليز منذ أيام فزاروا المدرسة وبينت لهم طرفاً من سير الدراسة وترجمت لهم إلى الانجليزية حديث بعض إخواني من أساتذة ذلك المعهد، فأثار الوضع إعجابهم ولم نشعر إلا وآلات التصوير صوبت شطرنا تلتقط المشاهد المختلفة كأنها تحاول أن تلقي علينا درساً عن تقديس السياح الغربيين للمادة المحسوسة في موضع لم يكترث فيه أبناء مصر وسورية لغير روحياته، وكم بين الشرق والغرب من شذوذ وفوارق!

الحياة المدرسية في حاضرتنا متشعبة الأطراف، حسبي أن أزودك منها بقطفة العجلان ولمحة الطائر، مخططاً لك فكرة عامة سوف أشفعها بتفصيل واف قد يرضي الأستاذ علياً الطنطاوي ومن شاطره رغبته

يزدحم في جوامع النجف الأشرف ألوف المهاجرين لانتجاع الثقافة الاسلامية قد امتطوا ظهور الأسفار من كل حدب وصوب من شتى الأقطار الشيعية. ففيها العشرات من سورية من جبل عامل وغيره، والألوف من مختلف أنحاء إيران وفيها من سمرقند وبخارى وغيرهما من تركستان، وفيها من أذربيجان وفيها الكثير من الهند والأفغان وهضبة التبت، هذا عدا من يرتادها من أطراف العراق ومن شيعة الحجاز. لذلك قد شيدت في النجف الأشرف

هذا هو نصيب جده من العظمة ومن جاه الحياة! ولكن متى كان الإنسان بجدوده وآبائه؟ وأي فضل لامرئ يرث الجاه ولا يكسبه ويُعطى العظمة ولا يبنيها؟

تلك هي حياة «أيب» وذلك هو محيطه وهو في السابعة. أجل هي تلك حياة رئيس الولايات المتحدة في أولى مراحلها في أحراج مقاطعة كنتوكي حيث لا مدنية ولا تعليم ولا رفاهة! كلا، بل لقد ذهب الغلام إلى المدرسة في خاتمة تلك المرحلة؛ ولكن أية مدرسة هي؟ كانت كوخاً من كتل الخشب أقيم كما أقيم كوخه الذي يعيش فيه، وكانت تبعد عنه نحو أربعة أميال، وكان يذهب إليها كلما استطاع أن يطلقه أبوه من أعمال التجارة في الغابة فيجلس ساعات مع الصبية على الأرض إلى معلم يعلمهم الهجاء بأن يناولهم كتاباً واحداً يمر عليهم جميعاً الواحد بعد الآخر فيتعلمون الحروف ورسمها ونطقها! ويسأل الصبي نفسه في لهفة شديدة متى يستطيع أن يكتب ويقرأ كما تفعل خالته وأمه؟ إن ذلك غاية مبتغاه ومنتهى هواه

(يتبع) الخفيف

المدارس العديدة ذات الغرف المعدة لإيواء الغرباء حيث يكفل المجتهدون (وهم أئمة الشيعة الذين يرجعون إليهم فى بيان أحكام دينهم مستنبطيها من القرآن والحديث وأسس التشريع الإسلامى) ضمان معاشهم وتجهيزهم بأهبة الدراسة، ينفقون عليهم من بيوت المال التى تصب فيها الشيعة الذهب والفضة من كل ناحية وجانب باسم الزكاة والخمس وحق الإمام وأثلاث الموتى وغير ذلك من الوجوه الشرعية



نموذج من مدارس النجف وهي صورة القسم الشمالى من الصحن العلوى المقدس

يبدأ الطالب بدراسة النحو والصرف فينكب على الأجرومية ثم شرح القطر لابن هشام، ثم شرح ألفيــة ابن مالك لابن بدر الدين (هذا منهاج الطلاب العرب، أما الفرس فيدرسون كتباً بعضها بالفارسية يليها مجلد باسم جامع المقدمات، ويدرسون شرح السيوطى لألفية ابن مالك) ثم يتناول الطالب مغنى اللبيب لابن هشام، ثم يشرع فى المنطق فيدرس حاشية الملا عبد الله على منطق التهذيب، ثم شرح الشمسية، ويتوسع بشرح المطالع ومنطق إشارات ابن سينا وشرحه وكتب كثيرة كحاشية الخبيصى ومختلف كتب المنطق مجهداً نفسه بمراجعة الشروح والحواشى عليها بأسلوب ودراسة لا تعرف النظرة السطحية؛ ومن ثم ينكص قافلاً إلى الأدب فيدرس شرح التفتازانى المطول لتلخيص المفتاح فى المعانى والبيان والبــديع ويتوسع بمراجعة الإيضاح ومفتاح العلوم للسكاكى، وشرح السيد الشريف للقسم الثالث منه، ولا يذر مؤلفاً فى البيان إلا ويوسعه تمحيصاً

وبعد علوم البيان يخوض الطالب غمار التشريع الاسلامى وقد سبب انفتاح باب الاجتهاد عنـد الشيعة أن تشعبت أطراف علم الفقه وكثرت المؤلفات فيه وفى أصوله

نبدأ بدراســة (المعالم) فى أصول الفقه للشيخ حسن ابن الشهيد الثانى نضم إليها كتاب (الشرائع) فى الفقه للمحقق الحلى ثم ندرس (القوانين) فى الأصول للمحقق القمى مع (شرح اللمعة الدمشقية) فى الفقه والأصل للشهيد الأول والشرح للشهيد الثانى ثم ندرس (الكفاية) فى الأصول للشيخ ملاً كاظم الخراسانى ثم فى الأصول العملية (رسائل) الشيخ مرتضى الأنصارى مع كتابه فى الفقه (المكاسب) ولا يقنع الطالب بهذه الكتب بل يكثر الترداد على المصادر الأخرى للتوسع فيطالع فى الأصول (بحر الفوائد فى شرح الفرائد) وحاشيتي سلطان والشيخ محمد تقى على المعالم و (حقائق الأصول) و (عدة الشيخ الطوسى و (أنيس المجتهدين) و (تشريح الأصول) للشيخ ملا على النهاوندى و (خزائن) الدربندى و (منهاج الأصول) و (غاية المسئول) و (شرح العضدى) و (تهذيب الأصول) إلى غير ذلك من الكتب العـديدة فى الأصول التى قضيت فى دراستها زمناً ذهبياً (بأوراقها الصفراء) ونطالع فى الفقه (جواهر الكلام) وهو فى عدة مجلدات من أهم الكتب يتوسع مؤلفـه كثيراً فى أبحاثه ولا يترك مذهباً فى المسألة لا ينقد أدلته، و (الحدائق) و (المسالك) و (المدارك) و (البرهان القاطع) و (تذكرة العلامة) و (قواعده) و (سرائر) ابن ادريس و (الرياض) و (مستند الشيعة) و (مختلف) العلامة و (تحريره) و (جامع المقاصـد) و (جامع الأعرجى) وشرح منظومة بحر العلوم و (كشف الغطاء) و (المبسوط) و (طهارة) الشيخ وهو مجلد واحد، وقد وجدت للعلامة الشيخ دخيل كتاباً فى عشرة مجلدات أسمـاه (بأنوار الفقاهة) وإن هـذه المجلدات العشرة كلها تبحث فى فصل واحد فى الفقه وهو فصل الطهارة فياله من توسع فى البحث.!

وبعد دراسة كتاب (الرسائل) فى الأصول يحضر دروس العلماء الكبار الذين يحاضرون في التشريع الاسلامي وأصول الفقه متخللة أبحاثهم جولات فى علم الرجال وفي التفسير والفلسفة (التى يدعونها هنا الحكمة) إذ يرتفع المجتهد على منبر عالٍ حيث يزدحم تحته المئات من الرؤوس (البيضاء والسوداء بعمائمها) تلك الرؤس التي هذبتها الدراسات الفردية فعادت لا تستند إلى كتاب

تفتحه بينها وبين أساتذتها كما كانت فى الأول ، إنما يتناول المجتهد أطراف العلم فيناقشه طلبته بكل حرية ويتنقلون في الفصول المختلفة من دون التزام بكتاب واحد وإنما يستعرضون المذاهب فى المسألة وينقدونها من جميع وجوهها على ضوء حرية الفكر ثم يرجحون مايختارونه من الآراء ، وهنا يقضى الطالب عدة سنوات حتى يدرك درجة الاجتهاد وهى ملكة يقتدر بها على استنباط أحكام الشرع الشريف من مصادرها ، حينئذ يمتحنه مجتهدو عصره ليعطوه إجازة الاجتهاد وهى الشهادة العليا . وفى السنين الدراسية الأخيرة يتجه البعض إلى دراسة الكلام والفلسفة الاسلامية فيدرس فيهما (شرح المنظومة) للسبزوارى و (شرح التجريد) للعلامة الحلى و (شرح إشارات ابن سينا للخواجه نصير الدين الطوسى و (أسفار) ملاصدرا و (الشوارق) لعبد الرزاق اللاهجى و (الشفاء) لابن سينا . والحق أن جوامع النجف الأشرف تدرس الفلسفة الاسلامية بتوسع لا مزيد وراءه . كنت أدرس شرح إشارات ابن سينا لدى شيخ فارسي يدعى (الدامغانى) فكان يتمعن فى تدقيقه فلا يدرس فى اليوم أكثر من نصف صفحة أو ربعها بالرغم من أن الدرس يستغرق ساعة أو أكثر وكنا نذهب إلى داره بعد الظهر بقليل وذلك فى صيف النجف الأشرف تكليف شاق لا يطاق لشدة الحرارة فى هذه البقعة الجافة . فى هذه البلدة الجاثمة على حدود الصحراء العربية الملتهبة بضرام حصاها ولا سيما أنى كنت أخرج من سراديب مدرسة السيد كاظم اليزدى التى تتوغل عميقة فى الأرض حيث تغوص بك فى مناخ بارد شتوى يضطرك إلى الالتحاف بما يقيك أذى البرد القارس . ولربما يتذكر تلك السراديب الأستاذان الزيات وأحمد أمين وصحبهما فقد أنزلت الوفد إلى سراديب المدرسة وحملت له المصباح وجلنا فى أحشاء هذا المعهد العلمى . ولكم أعجبت تلك السراديب السياح فكتبوا عنها الكثير وهى ابتكار لطيف فى التغلب على الطبيعة القاسية والتمرد على عذابها - ولكن أستاذى الدامغانى كان أقسى . فكم أجهدنا فى خوض معارك الفلاسفة الدامية يقذف بنا فى جحيم الخصومة العنيفة بين الخواجه نصير الدين الطوسى وبين محمد بن عمر الخطيب الرازى وكل منهما شارح للأشارات ، ولكنى ابتليت قبله بأستاذين درست عليهما الفلسفة فى حلقتين كبيرتين تضم العراقى والفارسى والتركى والسورى الخ كأنها سفينة نوح فى الأساطير ، كان كل من هذين الأستاذين مفتونا بسعة اطلاعه فى المذاهب الفلسفية وما نسجه العقل البشري من أحابيل وأضاليل وما كشف النقاب عنه من حقائق ناصعة فكانا غفر الله لهما يركضان بنا فى ميادين واسعة من أفكار فلاسفة اليونان من مشائين وإشراقيين ومن محاجّات فرق الملة وطوائفها من أشاعرة ومعتزلة وشيعة وصوفية وباطنية حلولية إلى غير ذلك ؛ فاذا حمى الوطيس بين هذه المذاهب فليس عليك إلا أن ترهف سمعك ليفيض عليك هذان الأستاذان بخلاصة جهودهما الفكرية ، ألا أزيدك أن النجف الأشرف فى هذا العصر تدرس الطب اليونانى القديم وفيها أطباء من خريجى جوامعها يعالجون الأمراض المختلفة حسب تعاليم شرح النفس فى الطب وغيره ؛ وفى جوامع النجف الأشرف يدرس علم الهيئة والفلك عدا العلوم الرياضية الأخرى ؛ أما علوم الأدب من لغة وعروض وقافية وتاريخ أدب وشرح النصوص الأدبية ، أما التاريخ الإسلامي والعلوم الاجتماعية ، فان طلبة جوامع النجف الأشرف لا يتركون كتاباً جديداً إلا ويقتنونه موسعيه بحثاً وإنعام نظر ، وقد خرجت هذه المدرسة كثيراً من الشعراء النابغين

والمكتبات فى النجف كثيرة منها الخصوصية وبعضها يفتح لعامة الناس كمكتبة آل كاشف الغطاء ومكتبة المعارف . وعندى مكتبة تضم حوالى ألف كتاب كثير منها مخطوط عزيز ، وقد زارها البحاثة عبد العزيز الميمنى الهندى المعلق على أمالى القالى فرأى كتاباً مخطوطاً قديماً أعجبه فقال : « لو ضربت آباط الإبل إلى الصين ولم أحظ بغير رؤية هذا الكتاب لكفانى ذلك غنماً »

وإن الطلبة هنا مشغوفون باستشراف الحركات الأدبية فى العالم العربى من مصر وسورية والمهجر ، ولمؤلفات (لجنة التأليف والترجمة والنشر) سوق رائجة لدينا

ولكننا لا يسعنا أن نفيض فى الحديث أكثر من هذا فيمل القارئ الكريم وإنما هذه نبذة تحدثت بها بصفتى أحد خريجى هذه الجوامع المقدسة

(النجف الأشرف — العراق) ضياء الدين الدخيلى



رسالة الشعر



ذكرى ياسين باشا الهاشمي في الموصل

ياسين البطل (١)

للأستاذ أنور العطار

يا صورةً ملؤها الإحسانُ ساميةً   قبستُ من وحيها الشعرَ الذي أجدُ
غنى بها الدهرُ مزهوًّا بروعتها   وعاش يمرحُ في أعطافها الأبدُ
يمدُّها النورُ بالأفلاكِ ساطعةً   حتى تكادَ من الأضواء تتقدُ
قالوا لمن صغت حرَّ الشعرِ تكرمةً   ومن ترى بثناء الدهرِ ينفردُ
فقلتُ «للهاشمي» الفذِّ أحكمُهُ   وأنتقي الكَلِمَ الباقي وأحتشدُ
«ياسينُ» نورٌ من الإخلاصِ مؤتلقٌ   من نفحةِ اللهِ لم يُخصص به أحدُ
من معدنِ الحزمِ والتصميمِ جوهرُهُ   يكونُ حيثُ يكونُ الرأيُ والسددُ
إذا العروبةُ لم تسلك محجتَهُ   يومَ الهزاهزِ لم يبرحْ بها أودُ

* * *

ضمنتَ للوطنِ المجروحِ عزتَهُ   فأنتَ آمالُهُ الكبرى وأنت غدُ
أما تذكرُ أياماً له غبرت   وملءُ أحشائها الترويعُ والسهدُ
تفتحت حفرُ الأجدادِ صارخةً   وهبَّ من رقدةِ الآبادِ ملتحدُ
شببتها ثورةً حمراءَ لاهبةً   تكادُ من هولها الأطوادُ ترتعدُ
لسانُها في الفضاءِ الرحبِ مندلعٌ   ووجهُها في فمِ الجوزاءِ منعقدُ
يسيلُ «دجلةُ» صخاباً بها حنقاً   يرغو على ضفتيه الثأرُ والضمدُ
وأنتَ في غمراتِ الموتِ تقحمها   تظلُّ نفسكَ روحٌ للعلى ويدُ
في فتيةٍ حلبوا الأيامَ أشطرَها   وصافحوا الموتَ لم يفترْ لهم جلَدُ
عاشوا جمالَ الدُّنا حتى إذا نزلت   بهم مناياهمُ بين الورى خلدوا
كأنما يبدءون العمرَ ثانيةً   فإنْ همُ لفظوا أنفاسهم ولدوا
كأنهمْ في فضاءِ اللهِ ألويةٌ   دمُ الجهادِ على أطرافها يقدُ
والمخلصون جلالُ الكونِ ما طلعوا   والمخلصون سنا الأيامِ ما همدوا
في العبقريةِ أحقابٌ لهم قشبٌ   وفي البطولةِ آبادٌ لهم جددُ

* * *

حلقتَ كالنسرِ في الجوزاءِ مرتقياً   وخلفكَ الناسُ في أثوابهم جمدوا
يرونَ فيكَ مضاءً لا كفاءَ لهُ   وعزمةً تخلقُ الأبطالَ أو تلدُ
خفضوا الهامَ إعجاباً وتكرمةً   والناسُ إن بهرتهم خلةٌ حمدوا

* * *

أُقصيتَ عن وطنٍ مارمتَهُ بأذى   وعشتَ تبني له العلياءَ أو تعدُ
تنكرت لك دنيا لا ذمامَ لها   وخانكَ الصحبُ والأدنونَ والبعدُ
أيرتعُ الغرُّ في أمنٍ وفي دعةٍ   وأنت ناءٍ عن الأوطانِ مبتعدُ
من همَّ يسألُ عن «ياسينه» لهفاً   مشى به القيدُ أو أوى به الصفدُ
لما نعيتَ إلى أرضِ العراقِ ضحًى   ضجَّ الفضاءُ وضجَّ السهلُ والجلدُ
وزوعت فئةٌ للبغيِ جاحدةٌ   حاقَ الشقاءُ بها والنحسُ والنكدُ
خافوكَ ميتاً وما بالميتِ من فرقٍ   لما نعيتَ تهاووا ثمت افتقدوا
كأنهم في سوادِ الليلِ أخيلةٌ   لولا الخيالاتُ في دنياكَ ما وجدوا
لم يلبثوا أن تواروا في معايبهم   وجرعوا الموتَ لم يفطن لهم خلدُ

* * *

(١) « ألقيت هذه القصيدة باسم « نادي الجزيرة » في الحفلة التأبينية الكبرى التي أقامتها « الموصل » تذكاراً لمرور عام على وفاة الزعيم العربي الخالد المغفور له « ياسين باشا الهاشمي »

مشت « دِمشقُ » وراء النَّعشِ جازعةً
يكادُ يُضْعِفُها الأحزانُ والكمدُ

تبكي ابنها البرَّ قد أودى الِحمامُ به فضاع فى موته التِّبيانُ والرَّشَدُ
عمَّ الذُّهولُ رِباعَ الشام من أسَفٍ كأنها مُقلةٌ دَمْعاء أو كَبِدُ
قد فجَّرَ الألمُ الجبارُ أدمُعها كما تفجَّر يومَ العارضِ البرَدُ
لا الأُنْسُ يضحكُ فى أرجائها ألقاً ولا النعيمُ على جناتِها يفدُ
إلا الكآباتِ تعلو الأفْقَ غامرةً وللكآباتِ صوتٌ صارخٌ فردُ
لَهْفي عليها ولهف العُرْبِ قاطبةً مات الحبيبُ ومات القائدُ النَّجدُ

* * *

ياسينُ لا تحتفِل كيداً رمَوْكَ بهِ ولا يهولنَّكَ ما حاكوا وماسرَدوا
فأنت كالشمس إن تَسْمُ العيونُ لها ترتدُّ عنها وفى أجفانها رَمَدُ
لم يلبث الحقُّ أن لاحت مَخايلُه وغاب فى طيِّه البُهتانُ والفَنَدُ
إن أرجَفوا فضلالٌ ما نعوجُ بهِ كم يضحكُ اليمُّ إن أرغى به الزَّبَدُ

* * *

دعِ المُفنِّدَ يمعنْ في غَوايتهِ فليس يرْفعُ إلا الواحدُ الصَّمَدُ
إنْ يَكتبِ اللهُ للإنسانِ مَكرُمةً لا يمحُها الخلقُ بل لا يطوِها الأمَدُ
خُذِ الخلودَ نقيًّا ما به دَخَلٌ وَخَلِّ هذا الورى يذهب به الحسَدُ

* * *

يا بانيَ المجدِ لم تضْعُفْ دعائمُهُ كلٌّ على ما بنيتَ اليومَ مُعتمِدُ
سرْ فى لواءِ الهدى جَذْلانَ مُغتبطاً فالقومُ قومُكَ ما حادوا ولا رَقَدُوا
قد صفَّقتْ لبُوَاتُ العُرْبِ شِكتَها وحدَّدَ النَّابَ فى عِرِينهِ الأسَدُ

« الوصل » أنور العطار

صـــلاة شاعر !

وقال: أُصلِّي، قلتُ: صلِّ جماعةً لنعرض قبل الحشر بين يدَىْ ربّي
ورتلْ من القرآن سورة يوسف!! أُرتِّلْ - كاشاء الهوى - آيةَ الحبّ

وحى صـــورة

بقيَّةٌ من صِبا (حمدى) أشاهدها فأسألُ الدهر عنها كيف أبقاها
كأنَّها نفحة للحسن خالدة عزَّت على الدهر أن يمحو محيَّاها

(المطرية) عبد الله حبيب

أقـــوام بادوا

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

مفتاح القصيدة

جعلوا لطبع اللؤم كل قداسة وتحرزوا من سنة المختار

المختار هو النبي صلى الله عليه وسلم ، وكل من نبذ سنة الله ورسوله لابد أن يصير إلى ما هو موصوف فى هذه القصيدة من الصفات ؛ ونعنى بالنبذ نبذ القلب وإن لم ينبذ اللسان ، ولا نعنى أحداً بالذات وإنما هى صفات يعرف كل منصف منها أنها شائعة حيث الاضمحلال والبوار

القصيدة

تركوا اللباب وشاقهم ماشانهم من بهرج فى مطلب غرار
عاشوا عبيد كلامهم لم يدلفوا من خلفه لحقائق الأفكار
جعلوا حطام اللؤم أعلى مكسباً وأعز محمـــدة ليوم فخار
يخفون أوزار النفوس بمنطق فيتم فاضح خافىَ الأوزار
حسبوا اغتياب الغائبين مطهرًا لنفوسهم من خزية أو عار
كل يغار من الإجادة جهده مثل النساء تغار كل مغار(1)
يحكى عظيمهم الحقير سفالة متكثراً بدناءة الأنصار
يخشى البرئ قضاءهم من خطة لم تُعْفِ ناساً من هوى الأصهار
العـدل فيهم أجر كل مملِّق جعل النفاق عصابة الأبصار
كل يعاقب من يريد أليفه ضراً له لا الكره للاشرار
الكـذب عجز فيهم وخساسة والصدق عبد مزدرًى متوارى
ندم المجيـد على إجادة قوله أو فعله من ضـيعة وضرار
الضيم ما يجزى اللئامُ مُجوِّداً فيصون كلٌّ عجزه لفخار
سبقٌ بمضمار الحياة يحوزه مُتَخلِّفٌ بالغش فى المضمار
وتفرقوا إلاَّ لدى التهويش والـــتضليل فهو مؤلف الدُّعَّار
وتخالهم حشرات روث مالهم إلا به حظ من الإكثار
وكأن كل إجادة قد دهورت من عقلهم فى بؤرة الأوضار
فـكأنما أذهانهم بالوعة أخفت نفيس الدر فى الأغوار
كل يلوذ بأثرة ويخالها الـ إيثار بئس مزيف الإيثار

(1) تغار النساء فى أمور الجمال واللباس ، أما ضعاف العقول من ذوى النفوس المسفة فتغار من كل إجادة فى القول والعمل ، وهذا أعظم أسباب تأخر الأمم لأنهم يحاربون كل مسببات التقدم ، ويهذر من يقول إنها لا تهزم فى أماكن الانحطاط

فعاله ومقاله وسكوته ... للؤم لا فضلاً وحسن جوار
دأبوا على إخفاء حق مالهم ... فى حجبه من مكسب ونضار
لؤم لعمرك لامدى لصياله ... وضؤولة تحدو لسفل قرار
الطيش أغلب للتأمل فيهم ... حتى لدى العظماء والأخيار
سبق اللسان حصاتهم فكأنما ... سكر العقار لهم بغير عقار(1)
رانت على مهجاتهم وقلوبهم ... وعلى الحجا والسمع والابصار
شيم تُوُرِّثُ حقبة عن حقبة ... كتخلف الأرجاس فى الأنهار
أو مادهى أوصال جسم من ضنى ... يمضي ويترك باقى الآثار
جعلوا لطبع اللؤم كل قداسة ... وتحرزوا من سنة المختار(2)
هاتِ المُرَبِّى للكبار ولا تقل ... يا أين مُعْوِزَ رشده لصغار
هيهات يصلح نشء قوم لم يجد ... خُلق الكِبار يضيء مثل منار
عدوى الضؤولة والخساسة فيهمُ ... عدوى الوباء تسير كل مسار
قوم إذا ابتدروا السباب رأيتهم ... يطلون موضع عُرّهم بالقار(3)
متعاظمين على نجاسة أنفس ... نتجت نتاج الدود فى الأقذار
ستر الخسيس خساسة بخساسة ... فى أنفس الأعوان والأنصار
متعظما يبدو كريماً سامياً ... متحلياً بفضائل الأطهار
وترى الوقار ولا وقار وإنما ... أخفوا دعارة أنفس بوقار
ودعوا إلى الإصلاح دعوة مائق ... يسعى إلى الأرباح سعى تجار
هم يبتغون الجاه إنْ لم يبتغوا ... ما لا بدعوة مصلح ثرثار
لم تَدْرِ وَحْىَ المصلحين حصاتهم ... فتشبثوا بزوائف الأفكار
صارت وسائل عيشهم ما غاله ... من طبع لؤم سائق لبوار
فقد الحياء صغارُهم من ضيعة ... فغدوا كبار الفخر غير كبار
صنعوا الأذى من غير ما سبب ولا ... يؤذي لغير القوت وحش ضاري
ضلت غرائز شرهم عن أصلها ... فى صون عيش أو لدفع ضرار
ففدت دناءة أنفس وخساسة ... كيداً بلا كسب ولا أوطار
وحديثهم كالحك يهتك عرهم ... فأخو السفاهة منه كاسٍ عاري
العدلِ ما وهب السمير سميره ... والرأى للأوشاب والأغمار

---

(١) الحصاة العقل والرأى

(٢) أخلاق اللؤم لم تعدم نصيراً يبررها من مذاهب الفلسفة الحديثة فضلا وإنما هو اللؤم الذى يبرر اللؤم بالفلسفة

(٣) العر هو الجرب والقار هو الزفت

جرأت صعاليك على مالم يكن ... في فهمهم فقضوا بغير تمارى
فوضى لعمرك لاصلاح لشأنها ... كيف الصلاح لأمرها وهارى
عادوا الذكاء خساسة فكأنما ... نبذ الذبالة فى الظلام السارى
إلا الدعاوى الباطلات فإنها ... عادت كعود مزيف الدينار(1)
سل صفحة التاريخ كم قوم به ... أجراه مجرى الدهر فى مضمار
أقوام أدهار مضت بعض لها ... ذكرى وبعض مالها من دارى
قد أبدلوا طبع السفال بأنفس ... من طبعها المتصاعد السوّار
صاروا إذا غضبوا وإنْ سُرُّوا وإن ... درجوا لأمر ثالث بمدار
يتمرغون مجانة فنفوسهم ... وجسومهم كمزابل الأوزار(2)
كتمرغ المفلوك دغدغ جلده ... عض من البرغوث فى الأقذار(3)
وصموا الشباب ولم يكن من طبعه ... خلق اللئيم العاجز الغدار
إن الشباب مروءة وسذاجة ... وترفع ينبو عن الأوضار
تخذوا السفال مِجَنَّهُم ليصونهم ... من صولة الغلاّب والمغوار
فغدا السفال سعادة ومسرّة ... عبث الخنا ومجانة الفجار
نبذوا الحياء وكيف ترجو أمة ... للنائبات مجانة العهار
قد قيل فى فقد الحياء رجولة ... فقد الحياء أنوثة الدعار
طبع المجانة عم حتى خلته ... كيداً يحاك عليهم بسرار
أم وُرِّثُوهُ عن الجدود غنيمة ... يطفو الذليل بها على الأقدار
ويُذِلُّ من عنت الحياة وضيمها ... بسعادة المجان والفجار
وتكايدوا كيد العبيد ولم يكن ... كتنابذ بطبائع الأحرار
واستمرأوا مرعى الغباوة والخنا ... إلفَ السجون لطول عهد إسار
هزموا الدهور الغازيات بهزلهم ... فمضت وظلوا رهن عقر الدار
فإذا الدهور جديدة غلاّبة ... وإذا اللئام فريسة الأدهار
درجوا على درج الحياة إلى الردى ... من بعد جهل راقهم وصغار

عبد الرحمن شكرى

---

(١) العملة المزيفة تطرد العملة الصحيحة من السوق كما يعرف الاقتصاديون وكذلك الذكاء المزيف كثيراً ما يطرد الذكاء الصحيح من سوق الحياة

(٢) مزابل جمع مزبلة

(٣) المفلوك هو الفقير المعدم



ما بعد الطبيعة
NETAPHYSIQUE

الروح L, âme

للسيد محمد حسن البقاعى

— ٣ —

لقد بحثنا فى الفصلين السابقين عن المادة والحياة ، وأتينا على ذكر النظريات والنتائج التى وصل إليها الفلاسفة على اختلاف آرائهم ، وتعدد مذاهبهم . ولا يسعنا الآن إلا أن نقول : إن نتائج تلك الأبحاث والبراهين والاعتراضات التى أثارها الفلاسفة للوصول إلى كنه المادة وحقيقة الحياة ، لم توصل العقل البشرى إلى نتيجة حاسمة ، بل لا تزال الصعوبات قائمة . ولكننا نظن ، أن الله سبحانه وتعالى سوف لا يعدم البشرية من نور مفاجىء يرسله إلى عقل بعض الفلاسفة الجادّين فى الوصول إلى الحقيقة النيرة فى هذه الأبحاث ؛ فيكشف اللثام عن تلك المسائل التى لم تتعدَّ حيز الفرض والاعتراض ، ويأخذ بيد العقل البشرى إلى شاطىء السلامة ، فيخرجه من الظلمات إلى النور . وها نحن مقدمون على البحث فى الروح فنقول :

إن البحث فى الروح لم يكن نصيبه أكثر من نصيب البحث فى الحياة ؛ فخلاصته ما شغل عقول الفلاسفة من معرفة حقيقة الروح وماهيتها هو إقرارهم — إقراراً ضمنياً — بعجز العقل البشرى عن سبر غورها ، وقرع باب حقيقتها . فإن الروح هي من أمر الله ، فكيف يتأتى لعقل قاصر إدراك ماهية أمر الله تعالى — وهو لم يستطع إدراك الأشياء البسيطة بالنسبة إلى الروح مثل المادة والحياة

وسنأتى الآن على ذكر النظريات التى وضعها العلماء والفلاسفة الذين عالجوا البحث فى الروح وطمحوا فى الوصول إلى حل نهائى معقول ؛ ولكنهم — ويا للأسف — لم يصيبوا غرضهم المقصود . فالبحث فى الروح إما أن يكون عن طريق الرأي العام والحس السليم الذى يقرر أن الروح والجسد تختلفان فى طبيعتهما : ويضع الروح فوق الجسد أى إنه يقرر : أن الحياة النفسية فوق الحياة الجسدية ، ويعتبر الروح مبدءاً معنوياً يدير الجسد .

وإما عن طريق آراء الفلاسفة والبحاثين التى يمكن تقسيمها مبدئياً إلى قسمين :

١ — نظرية الماديين Le matèrialisme

٢ — نظرية الروحيين Le spiritualisme

أما الماديون فيقولون : (لا يجوز أن نقبل أن الروح والجسد تختلفان بطبيعتهما ، أى لا يمكننا القول بأنهما عنصران بل عنصر واحد) فهى إذن نظرية توحيد لا نظرية تثنية[1] وهى تجعل النفس خاضعة للعناصر المادية التى فى الجسد . وهم يستندون على طائفة من الأدلة التى يمكن أن تعتبر فيزيولوجية وهى :

١ — إن ما توصل إليه الفلاسفة من تعيين مناطق الكلمات والرؤية والنطق فى الدماغ يثبت لنا أن كثيراً من الأمراض العصبية تولد بذاتها اختلافات نفسية واختلافات فكرية .

٢ — إن الدورة الدموية فى الدماغ تزداد أثناء التفكير . وقد ذكر الدكتور جميل صليبا [2] أن العالم الايطالى (موسو) شاهد أدمغة أشخاص أصيبوا بمرض فى الجمجمة فرأى من وراء القحف أن العمل الذهنى والاضطراب النفسى والأحلام كل ذلك يبعث على إزدياد ضغط الدم فى الدماغ ؛ حتى لقد فكر في إثبات ذلك بتجربة محسوسة فصنع ميزاناً كبيراً على صورة منضدة يمكن أن ينام عليها الشخص ؛ فكلما أجهد الشخص النائم فكره رجحت جهة الرأس من الميزان لانصباب

(١) نظرية التثنية : هى القائلة بأن الروح من طبيعة تختلف عن طبيعة الجسد وأهم واضعيها هو (ليبنيز)

(٢) كتاب علم النفس للدكتور جميل صليبا صفحة (٧١)

الدم عليها . فيستنتج من ذلك أن الحياة الجسدية هي للمؤثر الأول على الحياة النفسية

٣ — نرى فى علم التشريح أن ارتقاء الجملة العصبية متناسب مع ارتقاء الحوادث النفسية . فكلما تكاملت الجملة العصبية تكاملت الحوادث النفسية؛ فالأفاعيل الفيزيولوجية إذن ترافق الأفاعيل النفسية

٤ — إن التأثير الحاصل من الجسد فى النفس كتأثير الصحة والمرض والكبر فى النفس نبرهن على اتحاد الجسد والنفس فى الماهية

٥ — لقد بَيَّنتْ مباحث علماء (البسيكوفيزيولوجيا) — بالرغم من كونها ابتدائية أولية — أن هناك قوانين تربط الحوادث النفسية بالحوادث المادية ، فيقول (فيخنر) : إن النفس من محصول الجسد ، ولكن الشعور فى هذه النظرية ليس إلا عرضاً زائلاً كالنور وتأثيره فى حركة القطار ... فلو عرفنا أحوال (لوتر Luther) الفيزيولوجية فهل نستطيع أن نكتشف الأسباب التى دفعته للقيام على البابا ؟ الجواب على هذا السؤال بحسب هذه النظرية التي ليست إلا نظرية الشعور الملحق (Epiphènonèmisme) هو بلا شك (كلمة نعم !) . أما القول في مناقشة هذه النظرية فيتلخص فى أربع فقرات :

١ — نستطيع أن نقول عن هذه النظرية إنها لا تزال فى عالم الخيال؛ فقد أخطأت باعتبارها أن الشروط الضرورية فى الفكر هي المادة

٢ — إذا أنعمنا النظر فى هذه النظرية وجدناها لا توضح الشعور بل تعتبره حادثة زائدة لا أثر لها فى الحوادث النفسية ؛ على أننا لا ننكر اتصال الجسد بالروح ؛ ولكن هؤلاء الماديين تجاوزوا هذه الحدود ، فهم يعتبرون الأموز النفسية ناشئة عن الجسد بينما نجد بينهما موازاة فقط ؛ ويقررون أن الشعور ناشىء عن الحركة ، مع أن بينهما فرجة فى الحقيقة . ولو سَـلَّمنا أن الشعور حادثة عرضية فكيف يمكن إيضاح ارتقائه على مَرِّ العصور وتكامله تكاملاً تدريجياً ؟ ألم يقرر الفيزيولوجيون أن العضو الذى لا فائدة منه يزول فى التطور ؟ فكيف بنا ونحن نراه يرتقى ويتكامل عوضاً عن أن يضمحل ويتلاشى ! إذن لا بد أن يكون حادثة من حوادث النفس لا ... بل هو ذلك الحَدْسُ النفسى الذى نطلع به على حوادثنا النفسية

٣ — إنهم ينكرون تأثير الحوادث الروحية (النفسية) ولا ينكرون العكس مع أننا نعلم أن للفكر والعاطفة وغيرها من الحياة الانفعالية تأثيراً بيناً فى الجسد . وقد وضع الفيلسوف (ويليام جمس W: James نظرية يدعم بها رأى القائلين بتأثير النفس فى الجسد فقال : (لا يمكن أن نقبل أن الجسد يؤثر فى النفس ونترك تأثير النفس في الأخير) لأننا نرى أن الشخص عند ما يبكى لا يكون بكاؤه فجأة بل لا بد من أن يحزن أولاً ثم يبكى ؛ إذن لا يمكن للمرء إهمال الفكرة . وكثيراً ما استغرق الانسان فى فكر من الأفكار ، فأنساه استغراقه هذا ألماً من آلامه المـادية . فالرغائب والأهواء تلعب دوراً هاماً فى الجسد وتسبب حركته ، وهذا كله كاف لدحض حجة الماديين التى يمكن أن تعتبر حجة بتراء

٤ — إننا نرى أن الحاضر مثقل بالماضى ، وهو يهيىء للمستقبل فتتجمع آثار الماضى فى الحاضر . إذن فالحاضر والماضى متصلان ؛ واتصالهما هذا يؤول إلى القول بأن كل حالة من أحوال النفس تحوى كل حالات النفس ؛ فالكل موجود فى الجزء ، والجزء موجود فى الكل ؛ ولكن الحقيقة أن الكل موجود فى الكل . وكل هذا مخالف لاعتقاد الماديين بل يستحيل عليهم قبوله ؛ فلا يستطيع الماديون إذن أن يوضحوا أمراً هاماً جداً وهو الحكم والمحاكمة ؛ ولا اتفاق الناس وتبادلهم بالأفكار ؛ بل يقولون إن تبادلهم فى الأفكار إنما يكون باتفاقهم فى الحوادث الفيزيولوجية ؛ فليست هذه النظرية إلا ضرباً من الخيال فهى نظرية ميتافيزيكية أكثر مما هى عقلية

أما اللاماديون أى الروحيون الذين عارضوا نظريات الماديين فقد قالوا : يجب أن نقبل وجود شيئين مستقلَّيْن عن بعضهما بطبيعتهما ، أى هما مختلفان بمادّتهما . وأول مدافع بل أول واضع لهذه النظرية هو أفلاطون الذى يقول : « إن النفس هي أخت المثل العليا الخالدة ، وهى خالدة مثلها ؛ فالنفس إذن محبوسة فى الجسد كأنها فى حجرة من حجرات هذا الجسد ؛ أى إن النفس كالرُّبان فى السفينة يُسيِّرها ولا يتأثر بما تتأثر به هذه السفينة . وعلى ذلك فالموت هو رجوع النفس إلى أخواتها حيث تسترجع علمها الأبدى الذى نسيته فى الجســد » . أما (ديكارت) فهو يعتبر أيضاً أن النفس والجسد من طبيعتين مختلفتين ؛ فماهية النفس هى الفكر ، وماهية الجسد هى الامتداد ؛ فهما إذن غير متجانسين ولا مُنْشا كلين ، بل لـكل منهما طبيعة خاصة به . إلا أنه ينكر على أفلاطون قوله بعدم اتصالهما ببعضهما

وتشبيه النفس بربان السفينة الذى لا يتأثر بما تتأثر به السفينة فيقول : « إننى لا أنكر أن لى جسداً يتألم عند ما أشعر بألم ؛ وأحس بالجوع والعطش عند ما يكون بحاجة إلى الأكل والشرب ؛ وإننى لست ساكناً بجسدى كما يسكن الرُّبان فى السفينة بل أنا أكثر من ذلك ؛ أنا متصل بجسدى أكثر من اتحاد الربان فى السفينة ، ولو كنتُ مثلة لكنت إذا جُرحت لم أتألم ، بل على الأقل كنت أرى جرحاً فقط دون أن أشعر بألم ، فأنا إذن عبارة عن شخص مفكر »

فديكارت إذن يقول بتأثير الجسد فى النفس ويقول : « إن الحركة لا تتغير » أى لا تزيد كمية الحركة فى العالم . وهو يصرح بقبوله لفكرة العلاقة بين الجسد والنفس ، ولكنه يوضح هذه العلاقة بقوله : « إن كلا من — الروح والجسد يؤثر فى الآخر بمعونة الإله » . ولقد اعتبر بعض الفلاسفة أن هذا الإيضاح مبهم وقالوا : إن إيضاح تلاميذ (ديكارت) أتم وأوسع من إيضاح (ديكارت) نفسه . فتلميذه (ماليبرانش) الذى وضع نظرية الأسباب المصادفة — أى العلل الاتفاقية — يقبل كل أقوال أستاذه ويشعر بالصعوبة فى اتحاد الجسد فى النفس وكيفيته وأسبابه ؛ ولكنه يحل ذلك بشرح مبتكر ، فيقول : « إننى أرى أن الروح لا تؤثر فى الجسد والجسد لا يؤثر فيها ، فمن الذى يؤثر إذن ... ؟ لا شك أن الإله وحده هو الذى يؤثر . مثال ذلك : عند ما تحترق يدى فلا تستطيع نفسى أن تحدث فىَّ الألم بل الإله هو وحده الذى يحدث فىَّ الألم » . فمن ذلك ترى أن (ديكارت) و (ماليبرانش) قد فتحا فى حل مسألة الروح فتحاً جديداً ؛ فهما بتعليلهما هذا يقرَّان بالعجز عن إدراك حقيقة اتحاد الروح بالجسد . وليس هـذا إلا رضوخاً للحق واعترافاً بالواقع ؛ فيجب عدم الاكتراث باعتراضات بعض الفلاسفة المتعنتين أو الملحدين على الأصح ، فهـم يقولون : « يؤخذ على ديكارت إسناده كل فعل إلى الإله ، وتوقفـه على إرادته ومعونته ؛ فبذلك يحذف كل فاعلية للجوهر اللامتناهى ، ويجعل الإله كعامل من العمال غير كامل لأنه صنع آلة لا تمشى إلا إذا كان هو موجوداً فيها »

فمناقشة هذا الاعتراض تتلخص بقولنا : ليس هذا الاعتراض إلا كلمة حق أُريدَ بها باطل . ولنفرض أن للجوهر فاعلية ، فمن أوجد هذه الفاعلية ؟ ومن أوجد الجوهر ؟ ومن هو مرتِّب ومنسق هذا النظام في عالم الكون والفساد ... ؟ هل يستطيع هؤلاء المعارضون المنكرون للقوة الإلهية أن يجيبوا على هذه الأسئلة بأن المؤثر والفاعل الأول لذلك هو غير الله عز وجل ؟ هبهم أجابوا بذلك وقالوا : إن الطبيعة هى الفاعلة ، فما هى هذه الطبيعة وممَّ تتركب ؟ وما هو مبلغ قوتها واقتدارها ؟ . لا شك أنهم يقفون حيارى تجاه هذا الأمر ولا يسعهم إلا الرجوع إلى القدرة الإلهية ...

ولقد وضع (سبينوزا Spinoza) نظرية جعل فيها الإمتداد والفكر جوهراً واحداً وقال إنه جوهر الإله ؛ بل قال إن كل الجواهر كالروح والجسد هى أعراضٌ لجوهر الإله . فهذه النظرية تسمى بالنظرية الحلولية Le panthèisme ؛ فهو ينتقل من مذهب التثنية إلى مذهبٍ حلولى واحدٍ مُوحدٍ لجميع الجواهر . وخلاصة هذا المذهب هى : لا يوجد غير الإله ؛ وكل ما نراه هو أعراضٌ وصفاتٌ له ؛ فالجواهر إذن هى لا نهاية في لا نهاية ؛ ولكننا لا نعرف منها إلا صفتين فقط وهما : الإمتداد والفكر لننظر إلى العالم المحسوس فنرى لوناً وصوتاً وحركة ، وكل هذه هى عبارة عن أحوالٍ وهى متناهية ، إلا أن عددها غير متناهٍ ، فالفكر صفة الإله وأحواله غير المتناهية كالرغائب والذكريات ... فأحوال الامتداد الإلهى هى الأجسام ؛ وأحوال الفكر الإلهى هي النفوس وعلى ذلك فالعالم والاله شىء واحد . ويقسم هذا المذهب الطبيعة إلى قسمين :

١ — الطبيعة الطابعة La nature naturante

٢ — الطبيعة المطبوعة La nature naturée

فالطبيعة الطابعة هى مجموع العلل الثابتة الدائمة الموجودة فى جوهر الاله ؛ والمطبوعة هى مجموع الأعراض المتغيرة المتبدلة التى لا تستقر على حال . فبحسب هـذه النظرية يكون الانسان مركباً من مجموع نوعين من الأحوال الالهية ؛ وهما الفكر والجسد ولا يمكن أن يعتبر جوهراً ؛ وعلى ذلك فلا يوجد عقل ولا إرادة بل إرادات ، فمجموع الأحوال النفسية يوازيها مجموع الأحوال الجسدية ، فهى تشبه نظرية الموازاة Le parallèlisme فهذه النظرية لا تقبل تأثير النفس فى الجسد ولا العكس بل تقول إن بينهما موازاة فقط ؛ وهى تنكر الحرية ؛ واعتراضنا عليها



الوحدة والجريمة

للكاتب الإنكليزي القدير لورد ليتون

للأستاذ أبو جاويد أكمل

ولدت انجليزياً ولكني قضيت الأيام الأولى من عمرى فى بلدة نائية أجنبية، وليس لى إخوة ولا أخوات، وقد توفيت والدتى وأنا فى المهد فوجدت فى والدى الرفيق والمعلم والصديق، وقد كان هذا الوالد الأخ الأصغر لأسرة شريفة وبيت عريق. أما ما حدا به إلى ترك بلدته وأصدقائه وتجنب المجتمعات والإقامة ببلدة كالصخرة فقصة قائمة بذاتها لا دخل لها بقصتى هذه

قلت إن والدى أقام ببلدة كالصخرة لأن بلدتنا لم تكن فى الواقع إلا كذلك: قفار حالكة عرضة للسافيات، وأشجار عجزت عن النمو، وعشب جاف، وتجاويف لم تهتد إليها النجوم ولم يعرف ضوء الشمس مكانها إلا من بعض فجوات بالصخور التى تعلوها، تجتازها مياه قاتمة مغبرة ترغى وتزبد أثناء سيرها فى طريقها الصخرى. هضاب غطتها الثلوج المتراكمة تأوى إليها الطيور الجارحة وينبعث منها صوتها المرعب المخيف إلى عنان السماء التى أبت أن تتدثر بالسحب على ما بها من شحوب وخوف وهرم. كل هذا ينم على حال تلك البلدة التى سلخت بها الأيام الأولى من حياتى. أما مناخها فلم يغير من المناظر التى تحيط بمنزلى إلا قليلاً وإن كان فى بعض الأحياء الأخرى يحل صيفها الفاجىء الذى لا يعقبه خريف بشهوره الثلاثة لطول شتائها؛ وربما فى فترات قصيرة الأمد يذوب الثلج فى الأودية وتفيض المياه ويظهر نبات أصفر غريب يفتر ثغره عن بسمات خبيثة موجهة لبعض أجزاء من هذه الصخرة العالية لأمثال هذه المناظر التافهة من تقلبات الفصول. قضيت أيام حياتى عاماً

هو نفس الاعتراض على النظرية المادية السابق

أما (ليبنيز Lèibniz)؛ فيقول إن مذهب الحلول هو مذهب فاسد لا يستند إلى مبدأ ديكارت. ويجب أن تكون هذه المبادئ نفسها فاسدة لأنه لا يمكن أن ينتج الفاسد من الصحيح، فهو إذن ينتقد مبدأ ديكارت. وقد وضع نظرية تدعى (نظرية الموناد Monàde) التى لا تقبل أن الجوهر هو إمتداد بل هو فى القوة. فالروح والجسد من طبيعة واحدة؛ وبما أن النفس مركبة من موناد واحد فالانعكاسات التى تنعكس فيها تظهر جلية، بعكس الجسد المركب من مجموع الموناد. فالانعكاسات فيه مختلطة وكل موناد ينعكس على الآخر، فموناد النفس ينعكس على الجسد؛ وموناد الجسد ينعكس فى موناد النفس؛ على أن ليبنيز لا يستطيع أن يقبل كيف يؤثر جسم فى جسم فيقول: «أخذت أتأمل فى مسألة إتحاد الروح بالجسد، فلم أجد واسطة تدخل بعض أشياء فى النفس، وبالعكس لم أدرك أن جوهراً يؤثر فى جوهر؛ فلا أستطيع قبول تأثير الجواهر بل أقول: لا يؤثر إلا الاله» ومن هنا نشأت نظريته المساة (نظرية التناسق Harmonie pèctablie) التى يقول فيها: إن كل موناد هو عبارة عن عالم صغير يعكس كل العوالم الأخرى ولكن بارادة الاله وحده. ويقول أيضاً: إن الاله خلق النفس أو أى وحدة أخرى حقيقية؛ بصورة أن كل شكل يتولد داخلها بعضويته بالنسبة إليها: وبصورة متوافقة تماماً مع الأشياء الخارجية؛ وهذا التوافق مراد منه — أى من قبل الاله — ولعمرى إن نظريات ليبنيز لهى خلاصة ما توصل إليه جمهور الفلاسفة فى أمر الروح؛ ولقد انكشفت له الحجب عن الحقيقة، وهو الفيلسوف الأوحد الذى يكاد يقترب من الحقيقة الناصعة

محمد حسن البقاعى

فماماً . وكان والدى مغرماً بالعلوم الطبيعية ومشاركاً فى باقى العلوم فدرس لى كل ما عنده . وكان للطبيعة الفضل فى سد النقص بما أوحت إلى قلبي من دروس عميقة صامتة وهى تكشر عن نابها وتبتسم . علمت قدمى الركل وذراعى اللكم ونفثت فى رغباتى روح الحياة وألهمت طباعي الجد لا الهزل . علمتنى كيف أعانقها وإن كان قواما معوجاً وشكلها غير مغر . أفر من سواها وأهرب من مصادقة رجل وأخشى من ابتسامة أنثى . أهرب من بكاء الطفولة وأخشى من التقيد والآمال وملذات الوجود كما أخشى من اللعنة والعذاب؛ ومع ذلك كانت لى فى هـذه الصخرة العابسة وتحت هذه السماء الشـاحبة متعات لا يهتدى إلى كنهها أهل الحضر الذين يجدون لذتهم في أريج العطر وعبيق الورد، فما هذه المتعات؟ إن لها من التنوعات والأشكال المختلفة عشرات الألوف كما لها من أفياء السرور، ولكن ليس لها من الأسماء المتداولة إلا اسم واحد، فما هي هذه المتعات؟ هي «الوحدة»

مات والدى وأنا فى الثامنة عشرة فانتقلت إلى كنف عمى وأزمعت الرحيل إلى لندن فوصلتها نحيفاً عبوساً مفتول الساعد قوى البنية؛ بيد أنى فى نظر من حولى كنت وحشاً فى هيئتى وطباعى . كان لهم أن يضحكوا منى، ولكنى أرهبتهم بصورتى؛ وكان لهم أن يغيروا من طبعى، ولكنى أثرت فيهم وألقيت على بهجتهم رهبة فكانوا وجلين منى وإن لم أتكلم إلا نادراً ولم أجالسهم إلا مجلس الغريب الصامت النقاد . ما من أحد منهم يستطيع معاشرتى ويكون مسروراً أو مرتاحاً . هذا ما شعرت به وقد أبغضهم إذ لم يمنحونى حبهم

مضت ثلاث سنين بلغت فيها سن الرشد، فطالبت بثروتى واحتقرت الحياة الاجتماعية، وذبت شوقاً مرة أخرى إلى الوحدة، فصممت على الرحيل إلى الأراضى النائية الخاليـة من السكان، تلك الأراضى التى لم يرجع منها زائر يتحدث عنها ممن طوحت بهم الأقدار فى أحضانها

استأذنت عمى وزوجه وأولاده وبدأت الحج فاجتزت الرمال المحرقة، وقطعت الفيافى الشاسعة، حتى وصلت إلى غابات أفريقيا الكثيفة التى لم تطأها قدم، ولم يشوش صوت إنسان هـذا الجلال المهيب الذى يخيم على وحدتها كما كان يخيم قبل الوجود على العوالم المضطربة . هناك حيث تنمو الفطرة الأزلية وتذبل بغير إزعاج أو تغيير يطرأ عليها من اضطراب ما يحيط بها من العوالم . هناك حيث تنبت البذور أشجاراً تعيش أعماراً لا تحصى ولا تعد، ثم تتساقط أوراقها ويسطو عليها البلى ويعتريها الفساد ويدركها الفناء . هناك حيث يخطو الزمن المتثاقل لم يشهد تقلباته الهائلة الصامتة إلا أسد شارد، أو أفعوان جسيم، يكبر مائة مرة تلك البوا التى يباهى السائحون برؤيتها . هناك تحت الظلال الوارفة التي آوى إليها وقت القيلولة كنت أسمع وقع أقدام كالجند وأصغى إلى وسوسة الأشجار الباسقة وهى تدك وتنهدم، وأرى من خلال فروع الأشجار الملتفة البهموث عابراً سبيله الوعر وعيناه تتقدان كالجمر وأنيابه البيضاء فى فكه الشرس جاثمة براقة كأعمدة من الصوان تشع فى غار . ذلك هو الوحش الذى جعلت له دون غيره هذه الفدافد موطناً؛ ذلك هو الوحش الذى لم يتبدل من يوم أن عرفت المياه سبيلها فى الكون؛ ذلك هو الوحش الذي لم تبصره عين آدمى غيرى

تسللت فصول الأعوام لم أحصها عدًّا، إذ لا أنيس يحببها إلىَّ، ولا أثر يترسم من أعمال ابن آدم القذرة ينغصنى فيها . أقول كرت الفصول ونضج شبابى حتى بلغت الرجولة وجلل الشيب مفرقى بالثغام، ولم ألبث أن استولى علىَّ ميل دفين لا يقر على حال وناجيت قلبي المذنب أن لابد من نظرة أو عودة إلى عشيرتى

فقفلت أطوى الفدافد إلى أن بلغت المدائن فتدثرت بلباس أهلها إذ لم أكن فى البيداء إلا عارى الجسد، ولما بلغت الثغر أقلتنى سفينة إلى انجلترا كان فيها رجل هو وحده الذى لم يتجنب صداقتى ولم يخش غضبى، يستولى عليه النزق، ويملأه الغرور، ويتيه عجباً كما يختال عادة هؤلاء الذين استوطنوا المدائن، واتخذوا الكلام غذاء عقولهم . كان طفيليًّا سخيفاً ونسيجاً قذراً من آراء سافلة، وكان الرعب الشائن هو الخصلة الفريدة التى لم تفارقها نفسه، فحال أن ترهبه أو تسكته أو تهزمه؛ يتعقبنى دائماً ويلازمنى كظلى ليس لقوة أن تنزعه منى، وكلما بصرت به شعرت بدوار، وكان من هؤلاء الطغام المحتقرين الذين ترتعد الفرائص لرؤيتهم

كنت أقاطعه مراراً كلما خاطبنى . ولكم هممت أن أقبض عليه وأقذف به إلى البحر للحيتان التى كانت تسبح ليل نهار حول السفينة بعيون براقة وأنياب تواقة، إلا أن نظرات الجميع كانت

متجهة إلينا فكبحت جماح نفسي وعدلت عن ذلك مغمضاً عيني على مضض ؛ وكلما فتحتهما ثانية وجدته بجانبي وصوته الأجش يرن في أذني الكارهة سماعه

في ذات ليلة تنبهت من نومي على صياح الرجال وهم يقسمون فأسرعت إلى سطح السفين وكنا قد ارتطمنا بصخرة فما أروعه منظرا ! إنه كان هائلا . فضوء القمر هادىء والبحر على فيروزته نائم . في وسط هذا السكون الصامت الناعم الذي شمل كل شيء انمحى أثر ثلثمائة وخمسين نسمة من الوجود . لزمت عزلتي لم أساعد أحداً من المغرقين بل ظللت أنظر ، وإذا بصوت كصوت أفعى ينساب إلى أذني فالتفت ورأيت مزعجي وقد انعكس ضوء القمر على وجهه وهو يتمتم كالسكارى وعينه الذابلة الزرقاء تحملق وهو يقول : لا نفترق حتى في هذا المكان

جرى الدم حاراً في عروقي وعزمت على أن أرميه في البحر الذي كان يغمرنا سريعاً ، ولكن خيل إلى أن القمر يرمقني كما ترمقني عين السماء ولم أتجاسر على أن أقتله . ولما كنت لا أستطيع البقاء كي أموت مع المغرقين قذفت بنفسي نحو صخرة وقد طاردني حوت فأرهبته ، وبعد برهة وجيزة كان لديه القدر الكافي لإشباع نهمه سمعت دوياً فصيحات يأس ممتزجة مزعجة ، يأس ثلثمائة وخمسين قلباً سكنت في لحظة . قلت في نفسي وقد داخلني سرور عميق إن صوته لا محالة بين أصواتهم وقد افترقنا . وما وصلت الشاطىء حتى اضطجعت للنوم

وفي صباح اليوم الثاني انفتحت عيناي على أرض أجل من أحلام الشباب وقد ابتسمت الشمس وأشرقت على أنهار فضية ، ومالت الأشجار بثمار أرجوانية عسجدية ، وتلألأ كالماس الندى في أرض تحلت بأزهار ذات أريج عبق ممتع ، وقد حلقت عشرات الألوف من الطير بأجنحة براقة امتزجت ألوان قزح بها وطارت من على النبات والأشجار وملأت الجو تغريداً من سرورها . البحر يزأر تحت قدمي لا أثر في جبينه اللامع لتأكل سالف ؛ أما السماء فكانت تدفىء عروقي بأشعتها الذهبية التي لم تعترضها سحب . استيقظت نشيطاً مرحاً وجست خلال هذا المكان الجديد الذي اهتديت إليه فتسلقت تلا ووجدت أنني في جزيرة صغيرة لا أثر لرجل فيها ، فارتاح قلبي وصحت طرباً لما رأيت أني سأكون وحيداً مرة أخرى ، ولكني لم أكد أنحدر من التل وأصل إلى نهايته حتى لمحت رجلاً يقترب مني . نظرت إليه فارتاب ، قلبي ثم دنا مني فاذا بالبغيض المضطهد يقف أمامي بعد أن نجا من الغرق! لقد عاد بتمتمته وعينه البراقة ، وما لبث أن طوقني بذراعيه فشعرت بأن أفعى تحتضنني وقال بصوت أجش خشن : مرحى مرحى ! سنبقى معاً أيها الصديق

فنظرت إليه وأنا مقطب الجبين لم أتلفظ بكلمة ، وكان بجانب الشاطىء غار كبير فقصدته ودخلت فيه وهو يتبعني قائلا : سنعيش في هناء هنا لا نفترق إلى الأبد . فارتعشت شفتي وانقبضت يدي.

قد انتصف اليوم وغلبني الجوع فخرجت واصطدت غزالاً وشويت جزءاً منه على نار من أخشاب عطرية فأخذ الرجل يأكل ويزدرد ويقهقه ، وتمنيت لو غص بالعظام . ولما انتهى قال ليس لدينا هنا إلا النذر اليسير من الانشراح ، بيد أني لم أزل محافظاً على صمتي ، وأخيراً تمدد في ركن من الغار ونام ، فنظرت إليه ورأيت نومه عميقاً ثم خرجت ودحرجت حجراً كبيراً عند باب الغار واتخذت سبيلي إلى الجزء المقابل من الجزيرة . وجاء دوري في الضحك ووجدت غاراً آخر وهيأت فراشاً من العشب والأوراق ، ومن الأخشاب صنعت منضدة ، وتطلعت من فوهة الغار فرأيت البحار العريضة أمامي وقلت الآن سأكون منفرداً . ولما أقبل اليوم الثاني خرجت مرة أخرى واصطدت جدياً وعدت به وجهزته كما سبق . ولما كنت غير جائع لم أستطع تناول الطعام وهمت على وجهي في أنحاء الجزيرة ، وعند عودتي كانت الشمس قد غربت فدخلت الغار ، فجلست على فراشي ؛ ولكن بجوار منضدتي كان الرجل الذي ظننت أني دفنته حياً بالغار الأول . وما إن وقع نظره عليّ حتى ضحك وألقى بالعظمة التي كان ينهشها وقال : آه لقد عولت على أن تعلمني خدعة نادرة ، ولكن بالغار نفقاً لم تفطن إليه وقد خرجت منه للبحث عنك ، وهذه مسألة هينة ، لأن الجزيرة صغيرة ، أما وقد تقابلنا فلا فراق بعد

فقلت : قم واتبعني . ففعل ، وما ترك من الطعام كان قذى في عيني لأنه مد إليه يده ، وأخيراً فكرت أأزرع ليحصد هذا المخلوق ؛ وشعرت بقلبي وقد تحجر

صعدت إلى صخرة عالية وقلت : انظر حولك وتطلع إلى هذا الجدول الذي يشطر الجزيرة فستقيم في شطر وأقيم في الآخر. ومن

الحال أن تجمعنا بقعة واحدة أو يضمنا خوان ، فقال : لا يتأتى ذلك إذ ليس فى مقدورى أن أصطاد النزلان أو أقتنص الجديان . وإذا لم تتعهدنى بالغذاء فسأموت جوعاً . قلت : ألا توجد فاكهة وطيور تستطيع اقتناصها ، وسمك يقذف به البحر ؟ فقهقه وقال : لا أهواها كما أحب لحم الجديان والنزلان . فقلت : افهم الآن وانظر إلى هذا الحجر الداكن من الشاطئ الثانى لهذا الجدول . سأترك لك كل يوم عنده جدياً أو غزالاً حتى تنال من الطعام ما تشتهى ، ولكن إذا اجتزت هذا الجدول ودخلت فى ملكى فمن المؤكد أنى سأذبحك . نزلت من الصخرة وأرشدت الرجل إلى شاطئ الجدول ، فقال : لا أعرف السباحة ، فحملته على كتفى واجتزت الجدول ووجدت له غاراً وهيأت له فراشاً ومنضدة كما صنعت لنفسى ، ثم تركته ، ولما حاذيت شاطئ الجدول ثانية كدت أطير من الفرح ورفعت صوتي قائلاً : سأكون الآن وحيداً

مر يومان وأنا منفرد ، وفى الثالث خرجت للقنص وكان وقت القيلولة وأعيانى التعب حينما عدت ؛ وإذ دخلت مغارتى وجدت الرجل منطرحاً على فراشي وقال : ها ، ها . أنا هنا لقد سئمت الوحدة فى منزلى وجئت لأعيش معك ثانية . فعبست وقطبت ما بين حاجبى وقلت : من المؤكد أنى ذابحك . وجذبته من فراشي بذراعى وأخذته فى الهواء الطلق ووقفنا سويا على الرمال قريباً من البحر العظيم . استولى علىّ الخوف وداخلنى ذعر من السكون الشامل الذى يخيم على الوحدة مع أني لا أبالى بالناس لو أحاطوا بنا آلافاً لذبحته أمام أعينهم . وما راعنى إلا أننا وحيدان فى الصحراء لا ثالث معنا إلا الله . أرخيت عنان قبضتى ، وقلت له : أقسم لى بأنك لا تضايقنى بعد ، وأنك تحافظ على حدود منازلنا ولا تجتازها وأنا أعفو عنك . فقال : لا أستطيع القسم ، وخير لى أن أموت فى الحال من أن أفارق وجه آدمى صبوح ولو كان عدواً لى . ولهذه الكلمات عاودنى حنق فطرحته أرضاً ووضعت قدمي على صدره ويدى فى عنقه ، فحاول الخلاص برهة ، ثم كان جثة هامدة . تولانى الخوف على أثر ذلك ؛ ولما نظرت إلى وجهه ظننت أنه عاد إلى الحياة وخيل إلى أن عينه الذابلة الزرقاء ترنو إلى ، وأن ابتسامته الخبيثة لم تفارق شفتيه ، كما أن يديه اللتين كانتا قابضتين على الرمال فى حشرجة الموت امتدتا نحوى فضغطت على صدره مرة أخرى وحفرت حفيراً بجانب الشاطئ وواريته للتراب وقلت : صرت الآن وحيداً

هنا تجلت لى المعانى الحقيقية للوحدة والكآبة ولعدم الاستقرار وللعزلة ، فارتعشت وترنح كل عضو من هيكلى الجبار كأنى طفل ترتعد من الظلام فرائصه ، وقفّ شعر رأسى وتقلصت عضلاتى ، ولم أستطع البقاء فى هذه البقعة دقيقة واحدة ، ولو عاد إلى فيها شبابى . غادرتها هرباً وجبت هذه الجزيرة ، وكلما يممت شطر البحر اصطكت أسنانى واشتقت إلى صحراء شاسعة لا نهاية لها أتوارى فيها إلى الأبد

عند الغروب عدت إلى مغارتى وجلست فى زاوية من الفراش وأخفيت وجهى بكلتا الراحتين ، وتوهمت أنى أسمع ضوضاء فرفعت بصرى . ولعمرى لقد رأيت الرجل الذي أجهزت عليه ودفنته مقيما بالطرف الثانى من الفراش

هناك على بعد ست أقدام منى كان جالساً يشير إلى رأسه وينظر بعين شاحبة ويقهقه . وليت الأدبار من النار ودخلت فى غابة واستلقيت ، ولكن هناك على بعد ست أقدام منى كان وجه ذلك الرجل أيضاً

أيقظت شجاعتى وخاطبته ولكن لم يبد جواباً . حاولت القبض عليه فأفلت وكان على بعد ست أقدام ، ووجهه دائماً أمامى خررت على الأرض ساجداً وغطيت وجهى بأديمها وآليت لا أرفع رأسى حتى يحين الليل وينسدل الظلام

وقتئذ قمت وعدت إلى الغار واضطجعت فى فراشى ، فنام بجانبى الرجل ، فغضبت وحاولت أن آخذ بتلابيبه فلم أتمكن

أخيراً أغمضت جفنى ورقد بجانبى . مرت الأيام والحال لا تتغير فى الداخل ولا فى الخارج ، فى المنزل وفى الفراش ، فى القيام وفى الرقاد ، بالليل أو أثناء النهار . هناك فى طرف فراشى وعلى بعد ست أقدام لا أكثر ولا أقل كان الميت الشاحب

وما كدت أنظر إلى الأرض الجميلة والسماء الصافية وإلى هذا الصاحب المخيف حتى قلت : لا أعيش وحيداً بعد ذلك ، فضحك الرجل بملء شدقيه . رست فى النهاية سفين فحييتها وأقلتنى وما وطئت قدمى سطحها حتى ظننت أنى نجيت من مزعجى ، ولكن سرعان ما رأيته يعتلى سطحها ، واجتهدت عبثاً أن ألقيه فى اليم ، ولكنه كان بجانبى دائماً يأكل معى وينام كسابق عهده

وصلت إلى مسقط رأسى واندمجت فى الزحام . شهدت الولائم وسمعت الألحان ، جعلت ثلاثين رجلاً يجالسون معى وظللت أراقبه



تنظيم أوراق البردى المصرية

كانت الحكومة المصرية قد استدعت فى العام الماضى العلامة الأثرى الألمانى الدكتور هوجو إبشر أمين المحفوظات البردية فى متحف برلين ليقوم بإصلاح مجموعة البردى المصرية وتنظيمها . وفى المتحف المصرى مجموعة كبيرة من هذه الوثائق القديمة التى لم تنظم ولم تعرف جميع محتوياتها بعد ؛ وقد قدم الدكتور إبشر إلى مصر فى شهر مايو الماضى وقضى ثلاثة أشهر فى تنظيم المجموعة البردية بالمتحف المصرى ، ولكنه لم يستطع يومئذ أن يتم كل مهمته ، وما زال كثير من الوثائق البردية فى حاجة إلى عنايته

ومن ثم فقد استدعى الدكتور إبشر لاستئناف عمله في القاهرة مرة أخرى ؛ وقد قدم العلامة إلينا منذ أيام قلائل ليتم تنظيم مجموعة البردى ؛ وسوف ينتهز هذه الفرصة لزور البقاع الأثرية التى وجدت فيها مجموعات من البردى ، ولا سيما منطقة بحيرة قارون التى وجدت فيها منذ أعوام أوراق بردية ثمينة تحتوى على شروح كاملة لبعض كتب الفيلسوف مانى ؛ وشروح أخرى لمذهب زرادشت ؛ وقد نقلت هذه المجموعات من مصر سراً إلى برلين ، وتولى الدكتور إبشر تنظيمها وقراءتها ، وكان لظهورها ضجة كبيرة فى جميع الأوساط الأثرية

وقد روت الصحف الألمانية بهذه المناسبة أن الدكتور إبشر سيقوم لجلالة ملك مصر بمهمة خاصة ، وهى إصلاح خريطة قديمة ثمينة لإفريقية كانت ملكاً لمحمد على باشا رأس الأسرة المالكة ، وقد بليت وتآكلت بعض أجزائها ، وكان المغفور له الملك فؤاد يتوق إلى إصلاحها وردها إلى أصلها ؛ وسيقوم الدكتور إبشر بهذه المهمة ، وهو اليوم أشهر علماء الصيانة الأثرية

معرضان للفن الأجنبى فى مصر

نظم فى هذا الأسبوع معرضان للفن الأجنبي بدار الجمعية الزراعية الملكية بالقاهرة ، أحدهما معرض هولندى للتجارة والصناعة ، وقد افتتح فى الخامس من فبراير الجارى ؛ والثانى

ليلاً ونهاراً ، ولكن رفاق كانوا واحداً وثلاثين وأخيرهم كان أكثرهم ألفة وعشرة

فخاطبت نفسى : أهذا وهم أم هو خداع الحواس ؟ ولا بد أن أستشير الاخصائيين فى هذا الاضطراب لكي أعود إلى الوحدة ؛ دعوت عرافاً ذائع الصيت فى طرد ما علق برأسى من الأوهام واستحلفته أن يكتم السر ورويت له قصتى ، وكان رجلاً جريئاً عالماً فوعدني الخلاص والنجاة ، ثم سألنى مبتسما : أين هذا الشخص الآن فانى لا أراه ، وإن كان حقاً ما تقول فان حواسى لا تقل إدراكا عن حواسك ؟ وكان فى خطابه كما يكون الأستاذ مع تلميذه وأنا لا أعارضه ولا أساجله ، وأمرت الخدم أن يهيئوا غرفة ويكسوا أرضها بالرمل . ولما صدعوا بالأمر التمست من طبيبي أن يتبعني إليها وأحكمت رتاجها ، فسألني : أين الشخص الآن ؟ فقلت : إنه على بعد ست أقدام منا . فابتسم الطبيب فأهبت به أن ينظر إلى الأرض وأشرت إلى بقعة منها قائلا له : ما ذا ترى ؟ فارتجف وتعلق بى حتى لا يهوى ثم قال حينما دخلنا : كان الرمل ناعماً ولكنى أرى فى هذه البقعة أثراً لأقدام آدمى ، فضحكت ومشيت مع رفيق الحى إلى الأمام وقلت له : انظر ماذا يتبعنا كلما تحركنا ، فحاول الطبيب أن يتنفس الصعداء ثم قال : صاحب هذه الأقدام ، فصحت به فجأة صيحة اليائس الغضوب : ألا تستطيع أن تدربنى وهل قضى على ألا أعيش بعد منفرداً ؟ غير أنى رأيت آثار هذا الهالك تخط على الرمل هذه الكلمات :

« لم تخلق الوحدة للمجرمين . الأفكار السيئة رفيقات الساعة ، ولكن الأعمال السيئة صديقات إلى قيام الساعة »

أبو حازم أكمل

معرض فرنسى للفنون الجميلة والزخارف الفنية ، وقد افتتح فى الثامن من فبراير ، وتفضل صاحب الجلالة الملك فاروق الأول بافتتاحه بحضور مسيو جان زاي وزير المعارف الفرنسية الذى قدم إلى مصر خصيصاً لذلك ، وعدة من الشخصيات الكبيرة مصرية وأجنبية . وقد بذلت الحكومة الفرنسية فى تنسيق هذا المعرض جهوداً عظيمة ، وعرضت فيه مجموعات فنية نادرة من الصور والتحف الفنية الدقيقة استحضرت من فرنسا ؛ وهذا دليل جديد على ما تبديه فرنسا فى العهد الأخير من الاهتمام بتوطيد نفوذها الثقافى بمصر بعد أن تطورت الأحوال السياسية والاجتماعية عقب عقد المعاهدة المصرية وإلغاء الامتيازات الأجنبية

ذكرى الفيلسوف شوبنهاور

تحتفل ألمانيا فى العشرين من الشهر الجارى بذكرى فيلسوفها العظيم شوبنهاور لمناسبة انقضاء مائة وخمسين عاماً على مولده . وتقام لهذه الذكرى بالأخص حفلات عظيمة فى مدينة دانتزيج مسقط رأس الفيلسوف ومدينة فرانكفورت حيث قضى شطراً عظيما من حياته . وستذاع فى كل منهما محاضرات وخطب بالراديو عن الفيلسوف الراحل وآثاره وآرائه ، ويقام فى كل منهما حفل تذكارى رسمى ، وتوضع أكاليل الزهر التى ترسلها مختلف الهيئات العلمية على قبره فى فرانكفورت

وكان مولد الفيلسوف فى دانتزيج سنة ١٧٨٨ ، ولكنه لم يلبث بها طويلا فغادرها مع أسرته سنة ١٧٩٣ . وبعد أن قضى حداثة مضطربة ، درس فى برلين وجتنجن ، ثم قدم إلى فرانكفورت فى سنة ١٨٣١ فاستقر بها حتى وفاته فى سنة ١٨٦٠ . وفى سنة ١٩١١ ألفت فى ألمانيا جمعية شوبنهاور ، وفى سنة ١٩٢٩ نظمت هذه الجمعية جميع الوثائق والمراجع المتعلقة بحياته وفلسفته ، وأنشأت مكتبة عظيمة نادرة تضم جميع الكتب والشروح المتعلقة بفلسفته

وقد كان شوبنهاور من أعظم فلاسفة العصر الحديث ، وفلسفته تمتاز بطابع واضح من التشاؤم ، وأعظم كتبه هو كتاب « العالم كإرادة وفكرة » ، وفيه يبسط أعظم وأقوى آرائه ، ونظرياته الفلسفية ، وقد ترجم إلى معظم اللغات الحية . وله عدة كتب ورسائل فلسفية أخرى ، مثل كتاب « الإرادة فى الطبيعة » وكتاب « الأساس الرباعى لمبدأ العقل الكافى » ورسالة فى « الرؤيا واللون » وغيرها ، بيد أنها دون كتابه الجامع قوة وطرافة . وقد تأثر شوبنهاور فى فلسفته بأفلاطون وكانت تأثيراً كبيراً ؛ بيد أنه يعتبر مؤسس مذهب فلسفى جديد فى التشاؤم . وقد كان لتفكيره ونظرياته أثر كبير فى تطور الفلسفة الألمانية فى أواخر القرن التاسع عشر

من مكتشف أستراليا

ثار فى الأسابيع الأخيرة جدل علمى تاريخى بين الصحافتين الانكليزية والهولندية حول المكتشف الحقيق للقارة الأسترالية وذلك لمناسبة الاحتفالات التى أقيمت أخيراً فى أستراليا لمناسبة مرور مائة وخمسين عاماً على تأسيس أول مستعمرة أوربية فى خليج « بوتانى » ، والمعروف أن هنالك رأيين فى هذا الموضوع : الأول النظرية الهولندية ، وهى ترجع الفضل فى اكتشاف أستراليا إلى البحارة الهولنديين فى أواخر القرن السابع عشر ، والثانى نظرية بعض المؤرخين الانكليز وهى ترجع الفضل فى هذا الاكتشاف إلى الرحالة الانكليزى الكبتين كوك بين سنتى ١٧٧٦ و ١٧٧٩ . والواقع أن الرأى الأول أقوى وأرجح ، والبحارة الهولنديون هم أول من أطلق اسم أستراليا على هذه القارة ، وظهر هذا الاسم لأول مرة فى كتاب ظهر فى امستردام سنة ١٥٩٧ وسميت فيه هذه الأرض الجنوبية Terra Australis وقد كان البحارة الهولنديون يبحثون قبل ذلك عن قارة مجهولة فى الجنوب ، وهم الذين وضعوا أول تحديد علمى لموقعها

وقد بسط هذه النظرية العلامة المؤرخ الهولندى هيريس فى كتابه ، فذكر أن الرحالة الهولندى دوفكن اكتشف جزءاً من خليج كربنتاريا فى سنة ١٦٠٥ ؛ وفى سنة ١٦١٦ سار الرحالة ديرك هارتوجس إلى المياه الجنوبية فى السفينة الهولندية اندراخت ووصل حتى خليج شارك . وتدل وثائق العصر على أن هذا الرحالة هو أول أوربي وضع قدمه فى أستراليا

وعلى ذلك فانه من الخطأ أن ينسب فضل اكتشاف القارة الجنوبية إلى الكبتين كوك الذى لم يزر هذه المياه إلا بعد ذلك بنحو مائة وخمسين عاماً . على أن كثيراً من المؤرخين الانكليز يفضل هذه النظرية التى يستند إليها استعمار انكلترا للقارة الأوسترالية ، وما زال هذا الرأى يلقى على طلبة المدارس ؛ وقد كررته بعض الصحف الانكليزية فى المناسبة الأخيرة ، أما الكبتين كوك فان فضله لا ينكر فى اكتشاف الجزائر الأقيانوسية فى هذه المياه

مخطوط جديد للشاعر بيرون

لمناسبة الاحتفالات التي أقيمت أخيراً في أثينا تخليداً للذكرى المائة والخمسين لمولد الشاعر الإنكليزي الأشهر (لورد بيرون)، والتي أشارت إليها الرسالة في عددها الماضي، أعلن الأستاذ سقراط كوجياس الأكاديمية الأثينية غداة الاحتفال بأنه عثر في مخطوطات المكتبة الوطنية اليونانية على مخطوط جديد للشاعر الكبير هو عبارة عن القسم الأول لقصيدة « تشايلد هارولد »؛ وفي ظهر المخطوط مذكرة بخط الشاعر عن إحدى قرى جزيرة دلفي. ومسودة القصيدة ملأى بالتصحيحات والتعديلات التي لم تظهر فيما ظهر من طبعات هذه القصيدة الشهيرة. ولم يعرف بعد كيف وجد هذا المخطوط في المكتبة الوطنية، ولكن وجد في ذيله بالإنكليزية ما ترجمته: « مهدى إلى فرنند كلادان المعجب باللورد بيرون، من أخته أوجستالاى » أعني أخت الشاعر؛ ووجد هامش آخر فيه: إن المخطوط كتب بيد الشاعر، وأهدى منه إلى كلادان هذا، وهو أحد أشراف أثينا في هذا العصر ومن هواة الخطوط الأثرية

موسم فاجنر في لايبزج

في أنباء ألمانيا الأخيرة أنه تبدأ منذ ١٣ فبراير الجاري في مدينة لايبزج حفلات الموسيقى الشهير ڤاجنر، وتمثل فيها أوبراته الخالدة كلها، ومنها تآليف حداثته، وسيراعى في تنظيم أدوارها ما وضعه ڤاجنر نفسه فيما بعد. وقد استدعى بهذه المناسبة عدة من أكابر الفنانين الأجانب الذين اشتهروا لتمثيل أوبرات ڤاجنر إلى لايبزج للإشتراك في هذا الموسم، وسيعاد تمثيل هذه القطع الشهيرة وعددها ثلاث عشرة من ٢٠ أبريل إلى ١٩ يولية القادم، وقد اتخذت استعدادات فنية وموسيقية عظيمة لجعل موسم ڤاجنر من أعظم المواسم الفنية العالمية، واختيرت مدينة لايبزج لأنها مسقط رأس الموسيقى العظيم، وفيها بزغ مجده الأول

مصير اللغة الانجليزية

أذاع ولز محاضرة من لندن عن اللغة الانجليزية في ديسمبر الماضي تناول فيها جملة تنبؤات طريفة عن مستقبل هذه اللغة، وقد وازن ولز بين الانجليزية واللاتينية، وبينها وبين اللغات السامية فطمأن سامعيه إلى استحالة أن يكون مصير الانجليزية كمصير هذه اللغات؛ فالظروف التي ساعدت على تمزيق اللاتينية مثلا إلى فرنسية وإيطالية وقشتالية وقطلونية ... الخ قد زالت في العصر الحديث، أو أن الاختراعات، وأهمها البخار والكهرباء والطباعة والراديو، قد جنبت اللغات عامة والانجليزية خاصة شر المنقلب الذي انتهى إليه حال اللغة اللاتينية

الانجليزية لغة عالمية

وقد تنبأ ولز أن الانجليزية ستكون لغة عالمية في العاجل القريب، لأن الثلثمائة مليون الذين يتكلمونها في مختلف أنحاء العالم قد اختاروها أداة للتعبير عن خلجاتهم مختارين غير مجبورين، وذلك لما آنسوا فيها من السهولة واليسر والطواعية ... ولكن ولز يبدى تألمه من بطء انتشار الانجليزية في غير الامبراطورية البريطانية من سائر الدول، حتى في الولايات المتحدة الأمريكية التي تنازع الانجليزية فيها منازعة قوية لغات شتى، أهمها الفرنسية والاسبانية والألمانية



6 me Année, No . 242

Lundi - 21 - 2 - 1938

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٤٢ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٠ ذى الحجة سنة ١٣٥٦ — ٢١ فبراير سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـــرس

صاحب المعالى هيكل باشا

أنت يا أخى أول أديب فى مصر العظيمة رفعه الأدب المحض إلى منصب الوزير ورتبة الباشا . وأقول « الأدب المحض » وإن كنت لا أنكر أن لثقافتك وكياستك وسياستك أثراً ظاهراً فى هذا الحادث الأدبى الخطير : لأن الأدب بمعناه الأصح لا يكمل إلا بهذه الصفات ، ولأن أدبك على الأخص مثال الأدب الكامل الذى يقوم على ألزم الخصائص للانسان وهى سراوة الخلق وذكاء القريحة وسداد الذهن وسعة الثقافة . وإذن لا نستطيع أن نحلل تركيبك الأدبى إلى فقيه وأديب وصحفى وسياسى ، مادام أسلوبك الفكرى مزيجا من أولئك جميعاً . فإذا كان غيرك قد وصل بالأدب من غير خلق ، أو بالصحافة من غير أدب ، أو بالسياسة من غير صحافة ، فإنك لم تصل إلا بهذا الأدب الشامل الذى يشرق فيه وميض الروح ويسيطر عليه نبل النفس . لذلك نعد بلوغك هذه الغاية من المجد انتصاراً للأدب المجاهد ، وترضية للقلم المجهود ، وتمكيناً للفكر الجميل أن يؤدى رسالته فى عالم أوسع وعلى طريق أسدّ ؛ ولذلك نجعلك من بين الوزراء الصلة الطبيعية بيننا وبين أولى الأمر ؛ فقد قطعوا أسبابنا الواصلة ، وسفهوا حقوقنا المعلومة ، واعتقدوا أننا

حلًى تزين ولا تنفع ، ودُمىً توجد ولا تعيش

فمن غيرك اليوم يا باشا يستطيع أن يسمعهم أن الأدباء بعد انقطاع الوحي هم رسل الله وكتبه : في أقلامهم أقباس الهداية ، وفي أفواههم أبواق اليقظة ، وفي أيمانهم مفاتح الخلود ؟

مَن غيرك اليوم يا باشا يستطيع أن يقنعهم أن الشعب بغير صوتهم لا ينهض ، والجيش بغير روحهم لا ينتصر ، والرأى بغير منطقهم لا يجتمع ، والحكومة بغير سلطانهم لا تحكم ؟

من غيرك يا باشا يستطيع اليوم أن يقول لولاة الأمر، لِعيشه فيهم وقربه منهم ، إن الأدباء هم الذين ينشئون الصحف للجمهور ، ويؤلفون الكتب للقراء ، ويدبجون الخطب للزعماء ، ويصوغون الشعر للوزراء ، ويكتبون التاريخ للملوك ؟

الأدب يا باشا كما تعلم هو شعاع الحس اللطيف ، وعطر النفس الزكية ، وزاد الإنسانية الدائبة من أفكار السلف وتجارب الماضى

والأدباء يا باشا كما تعلم هم أوصياء الخليقة على تراثها العقلي ، يحفظونه ويزيدونه ، ويتصرفون فيه ، ويجعلون منه مرشداً للحائر وقصداً للجائر وسنداً للضعيف

وقد عرفت الأمم الرشيدة فضل الأدب والأدباء فأطاعوهم كالقادة ، واتبعوهم كالرسل، ورفعوهم كالمصابيح . ولكن الأدب في مصر كما تعلم يا باشا لا يزال فريسة الإهمال والفوضى : يكابد طغيان السياسة فى استسلام ، ويجاهد سلطان الجهالة فى يأس ، ويقاسي مضض الحرمان في ضراعة ؛ وأولوا الأمر يقابلون جهده بالاستهانة ، ويكافئون بره بالعقوق ، ويستغلون سلطانه فى الصحف وعلى المنابر ، ثم لا يدخلونه فى الحساب يوم الغنيمة .

والأدباء فى مصر كما تعلم يا باشا لا ينفكون يؤدون رسالة الروح المضنية في بسالة وصبر ، وقرائحهم المجهودة تنضح بالمداد كما تنضح الجباه الناصبة بالعرق والصدور المحاربة بالدم ؛ ثم لا يلقون ممن يحملون لهم الشعلة إلا ما لقى أصحاب الرسالات من الكفران الغادر والخذلان المهين . وما حال الأدب فى الأمة الأمية إلا كحال النبوة فى الأمة المشركة ، إذا لم يكن له سند من الله وعون من الحكومة ذهب ذهاب المصباح فى عواصف البيد المظلمة

فالأديب المضطر إنما يشتق للقوت لا للفن ، ويسعى للحياة لا للمجد ، وينتج للحاضر لا للمستقبل ؛ وإذن لا يكون الأدب إلا كما ترى : بخسٌ فى الكيف ، ونقصٌ فى الكم ، وشعوذة فى الوسيلة ، وإسفاف فى الغاية

كل ذلك علمتَه وكابدته وشكوتَه أيام كنت معنا في الطريق المزدحم الصاخب ، تعرض على فقراء المعرفة غذاء العقل والروح من عصارة مخك وقلبك ، فيعرضون عنك ويأبون إلا خَنْزَرَةً تسُوف التراب وتلغ فى القذر .

فماذا أعددت يا باشا لهذه الأعصاب المحترقة التى لا تبغى من الناس إلا أن يستفيدوا من احتراقها النور والحرارة ؟

لا نريد أن نصف لك العقدة ولا أن نقترح عليك الحل ، فإن ذلك بجانب علمك وخبرتك وتجاربك أنفال وفضول . وقصارى ما نرتجيه أن تبسط الحكومة على الأدب ظل الحماية ، فما يستطيع لضعف دولته وجهل رعيته أن يستقل . نريد ألا تدعوه لأهواء الجمهور ودوافع الحاجة ، فإن فى إخضاع الأدب لشهوات الناس وضرورات العيش إفساداً لملكة الذوق وتكديراً لنقاء الضمير وتشويهاً لجمال الوحى .

ليس الأدب من المهانة بحيث تتخطاه رغبة الأمة . وليس الأدباء من الكثرة بحيث تضيق بهم معونة الحكومة ؛ ولكن السياسة الحزبية فى البلد الجاهل تقلب الأوضاع ، وتغير المقاييس ، وتعامل كل فرد بحسب ما له من الدالة ، وتقدر كل شيء بمقدار ما فيه من السياسة . فالكتابة فى غير السياسة لغو ، والسياسة على غير مذهبهم هَذَر !

فهل آن للأدب أن تنهض به عواثر الجدود ، وللأدباء أن ترف عليهم ذوابل المنى ؟ إن الأدب الذى رفعك هذه المكانة وبوأك هذا المجلس ينتظر منك البر ، وإن الأدباء الذين صافيتهم على الشدة وعاهدتهم على التأييد يرجون منك الوفاء . فاخرج من عهدة ما وعدت يا صديقي واليد طائلة والرأى نافذ ، قبل أن تعود بعد عهد طويل زاهر إلى المكتب الذى ليس فوقه محفظة ، ولا أمام بابه حاجب ، فلا تملك إلا ما تملك من الشكاة والألم

احمد حسن الزيات

تحيـــة شوبنهور

للأستاذ عباس محمود العقاد

صديقنا القديم من جديد !

يوم قرأت أنهم سيحتفلون فى معاهد الغرب الفلسفية بانقضاء مائة وخمسين سنة على مولد « شوبنهور » كان شعورى بهذا النبأ كشعور السالك فى الطريق يلقاه على حين غرة صديق قديم مستحب اللقاء مذكور البدوات ، على شوف إلى مراجعة عهده السابق واستئناف عشرته القديمة

هذا أنت يا صاح ؟

وأين كل هذا الزمن الطويل ؟

فقد مضت فترة ليست بالقصيرة لم أصاحب فيها هذا « المعرى » من بنى الجرمان ولم أراجع كتبه ولم أساجل آراءه وخواطره وأفانين تفكيره ، فلما سمعت أنه سينبعث من جديد فى ذكرى ميلاده ، وأن ميلاد إمام المتشائمين القائلين بأن الولادة أدعى « الذكريات » إلى الحزن والندم — سيصبح فى الملأ كله موعداً للغبطة والتبجيل ، وأن الدنيا ستشهد هذا الحادث المتناقض كما شهدت نقائض شوبنهور فى إبان حياته — عادت إلى الذهن تلك النقائض كلها وتلك الطوائف المقرونة بها ، ولاح لى شوبنهور الظريف وهو أول ما يلوح للذهن منه قبل الفيلسوف وقبل الشيخ الوقور

وتلك أولى النقائض والبدوات من صاحبنا القديم : فيلسوف متشائم ولا يذكره الذاكر إلا ابتسم لفكاهاته ونكاته وغرائب عاداته ، وولع الدنيا بمناوأته واستخراج شكاياته

فإذا ذكرت « شوبنهور » فأنت تذكر الرجل الذى يبشر بالفناء ويستنكر الحياة ، ثم يسمع بظهور الهواء الأصفر فى برلين فلا يقف فى طريقه هرباً حتى يبلغ فرنكفورت ، ولا يعود منها حتى بعد جلاء الوباء بسنين

وتذكر الحكيم الزاهد فى عرض الحياة وهو لا يترك دانقاً من حسابه فى المصرف ، ولا يضع النقد إلا فى صندوق مكتوب عليه « مادة طبية » ... كما فعل العطار الذى يكتب عنوان الفلفل على صندوق الحلوى !

وتذكر الراهب الذى يعربد حتى يلحق به تلاميذه فى بيوت بنات الهوى ، وينفى لذاذات الدنيا وقد أخذ من جميع لذاذاتها بما استطاع من نصيب

وتذكر المبشر بالبرهمية فى بلاد الغرب وقد سمى كلبه « أتما » أى روح الوجود !! وأبى الصبية من جيرانه إلا أن يسموه شوبنهور الصغير ، إذ لم يكن فى البيت صغير غير ذلك الكلب المسكين ... الذى قال بعض المعجبين بالفيلسوف إنه هو أيضاً لا بد أن يكون من المتشائمين ، ولا بد أن يبدو على وجهه ما يبدو على وجه أستاذه من عبوس ظريف

وتذكر الفيلسوف وقد جلس إلى مائدته فى المطعم وأخرج من جيبه كعادته كل يوم جنيهاً انجليزياً فوضعه على المائدة بحيث يراه الحاضرون ، ثم يفرغ من طعامه فيرده إلى جيبه ويقول : « قد كسبت الرهان » ... أى رهان ؟؟ رهانه مع نفسه أن زوار المطعم من الضباط لن يتكلموا ذلك اليوم فى شئ غير النساء والكلاب وخيل السباق !

وتذكر طالب الجائزة من جامعة كوبنهاجن برسالة لا نظير لها فى كتابات عصره ، فلما ضنت عليه الجامعة بالجائزة — غفلة منها عن قيمة الرسالة — طبعها وكتب عليها بالخط العريض : « لم تظفر بالجائزة من جامعة كوبنهاجن » ... كأن هذا تزكية لها وضرب من الاعلان !

وتذكر المتهكم الحانق الذى نقم على بعض الممثلين ارتجاله العبارات من غير كلام المؤلف حتى شكاه الكتاب إلى مدير المسرح فنهاه وأنذره بالفصل إن عاد إلى مجونه ... قال شوبنهور : فلما ظهر بعدها فى المسرح على ظهر جواده نسى الجواد موقفه وأتى بصوت لا يسمح به فى مسارح التمثيل ، فارتبك الممثل وصاح بالجواد : ألم تعلم أنهم يحرمون علينا الارتجال بغير تلقين ؟!

تذكر هذا وأشباهه قبل أن يطرأ على بالك شأن الفيلسوف العظيم وتفصيل ذلك الذهب المستفيض الزاخر المجتمع من بديهة الحكمة وسليقة الفن وشعور الرجل المتصل بالحياة على غير انقطاع ولا مجافاة ، كمجافاة النساك فى صوامع الدين ، أو النساك

في صوامع العلم والدراسة

فإذا ذكرت ذلك المذهب فلملك واجد فيه من وشائج القربى مثل ما وجدت من طرائف صاحبه ونقائضه وأفانينه . لأنه مذهب شعر بفحواه كل شاب عالج الفلسفة والمشتغل بالتفكير في أوائل هذا القرن العشرين

لقد كان التشاؤم طبيعياً معقولاً في زمان شوبنهور فأصبح طبيعياً معقولاً أن يتصل الرأي والشعور بينه وبين الشبان في مثل عهده وفي مثل حاله وإن لم يكونوا على مثاله في مزاجه وأطواره

وخير ما قرأناه في تعليل التشاؤم عند ذلك الفيلسوف الكبير كلمة « دورانت » مقدم طبعته وملخص فلسفته حيث يقول عنه وعن بعض معاصريه :

« لماذا كان النصف الأول من القرن التاسع عشر مبعثاً لتلك الأصوات من أصداء العصر ينطق بها الشعراء المتشاءمون على غرار بيرون في انجلترا ودى موسيه في فرانسا وهيني في ألمانيا وليوباردى في إيطاليا وبوشكين ولرمنتوف في روسيا ، عدا الموسيقيين من أضراب شوبير وشومان وشوبان بل بيتهوفن المتشائم الذي حاول أن يقنع نفسه أنه من المتفائلين ؟ بل فوق ذلك جميعه فلسفة الحكيم العميق في تشاؤمه ارثر شوبنهور ؟

« لقد ظهرت مجموعة الويل والهول المسماة بـ « الدنيا إرادة وفكرة » سنة ١٨١٨ وكانت سنة الحلف المقدس بعد أن قضى الأمر في معركة واترلو وخمدت الثورة وقذفت الحوادث بابن الثورة إلى صخرة في البحر السحيق يبلى عليها ويذوى . وإن قبساً من تقديس شوبنهور للإرادة مأخوذ ولا شك من ذلك الأقنوم الفخم المخضب بالدماء المجسد في شخص ذلك الكورسيكي الصغير ، وإن قبساً من قنوطه وإحجامه عن الحياة مأخوذ ولا شك من جوانب جزيرة القديسة هيلانة حيث صارت الإرادة إلى الهزيمة والفشل في النهاية ، وأصبح الموت وهو الظافر الوحيد الحوم على ميادين تلك الحروب ، وقد عاد البوربون إلى عرشهم ، ورجع الأمراء والنبلاء يطالبون بأرضهم ، وراح خيال الاسكندر الطامح إلى السلام يحتضن في غفلة منه عصابة تقضي على التقدم من كل صوب وفي كل مكان . فقد ولى العصر العظيم وقعد جيتي يحمد الله على أنه ليس بالشاب الفتيّ في عصر مفروغ منه مقضي عليه بالختام

« خشمت أوربا ، وانقرض ألوف الألوف من أشد الرجال ، وخربت بطاح واسعات ، وكتب على الحياة في كل موضع على القارة الأوربية أن تبدأ من جديد وأن تبدأ من أعمق الأعماق كي تستعيد في ألم وبطء شديد ذلك الفيض الذي التهمته الفتن والحروب . وكان شوبنهور يسيح خلال فرنسا والنمسا في سنة ١٨٠٤ فيروعه ما يشهد من الفوضى والقذارة في القرى ، ومن الفقر والبؤس بين الفلاحين ، ومن القلق والشقاء بين المدائن والحواضر . ذهبت حروب نابليون وأعداء نابليون وخلفت وراءها ندوب الويل والهلاك على وجه كل بقعة من هاتيك البقاع : فموسكو في الرماد ، والبلاد الانجليزية على ما أصابها من نخر الانتصار قد مُني فيها الفلاحون بكساد القمح وغلات الزراعة ، ومُني فيها صناع المعامل بكل ما يبتلى به الصناع في معمل لا رقيب عليه ولا حسيب ، وزاد تسريح الجنود في نكبات البطالة . وروى كارليل عن أبيه في تلك الآونة أن العمال كانوا يذهبون يومئذ فرادى إلى البرك والجداول يملأون بطونهم بالماء بدل الطعام ولا يعنيهم إلا أن يستروا ما بهم من الضنك عن الآخرين . ما كانت الحياة قط أفرغ من معنى ولا أخس مما كانت يومذاك »

هذا منشأ الفلسفة الشوبنهورية من أحوال السياسة وأطوار الدول والمجتمعات . ولهذه الفلسفة منشأ آخر من أطوار الفكر والعقيدة لا يقل في أثره عن حروب نابليون وهزائم الجيوش ، وذاك هو شيوع الشك في العقائد والأديان والأمثلة العليا بين الأوربيين بعد عصر النهضة العلمية وعصر الثورة الفرنسية ، فلا أمل في الدنيا ولا في الآخرة ، ولا معنى للسعي ولا للقعود ، ولا خير في التفكير ولا في التسليم ، ولا مناص بعد ذلك من ترجمة هذه الحالة في فلسفة منظمة منسوقة مقنعة كتلك التي بشر بها صاحبنا رسول التشاؤم ونذير الفناء

أي حالة هي أشبه بحالة الشاب القارئ في أوائل القرن العشرين من حالة ذلك العصر أو حالة ذلك الانتقال ؟

كل شاب يخرج من حظيرة البيت إلى معترك العالم فإنما يخرج من دنيا أحلام وظنون إلى دنيا صراع لا هوادة فيه ، ولا سيما في أوائل القرن العشرين حيث كان للعقائد سلطان ، وكان للأمثلة العليا بين الشرقيين خاصة مجال لم تضيقه الحقائق والتجاريب

لهذا كان بين شوبنهور وكثير من الشبان القارئين عندنا نسب قريب فى أوائل هذا القرن العشرين . ثم تقلبوا مع الحياة فنسوه بعض النسيان من أثر الواقع تارة ومن أثر التشاغل تارات ، أو من أثر التصحيح والتهذيب الذى لا محيص عنه مع تعاقب الأيام وتعدد القراءات

فلما قيل إن العالم سيحتفل بميلاد إمام المتشائمين كان فى القول ما يشبه الفكاهة والدعابة ؛ ولو قيل إن العالم سيحتفل بيوم وفاته لكان في القول بعض المجاراة لموضوع الاحتفال وصاحب المذهب . ولكن الرجل ظريف على الرغم منه ومن فلسفته ، فلتكن هذه من دعابات الزمن معه ، ومن وفاء الزمن له فى قرن واحد

أما فلسفة الرجل بتفاصيلها فيطول شرحها ولا يتسع لها مقال ولا سلسلة مقالات ، وهى مستمدة من حياته ومن سيرته ومن عصره . فمن عرف تاريخه عرف الكثير من بواعث آرائه وعلل أحكامه ، وعرف مكان الصدق فى المطابقة بين الوحى ومصدره وبين البيئة والتعبير عنها . ومجمل تلك الفلسفة فى سطرين : أن الإرادة هى صاحبة السلطان فى أعمال الأحياء وحركات الحياة ؛ وأن الإنسان يلتمس الأسباب والبراهين لأنه يريد ، ولا يريد لأنه يلتمس الأسباب والبراهين ؛ وأن الفكرة تلغى الإرادة وتشل الحركة وتنتهى بالحياة إلى سكون كسكون « النرفانا » عند الهنود ؛ وأن الإرادة تتعلق بالفردية ، أما الفكرة فتتعلق بالعمومية الشائعة فى الكون كله . ومن ثم يجيء الفن والدين والعبقرية على رأس الفكرة ومن وراء الإرادة أو من وراء عالم الأعمال والحركات ، فالمصير الذى يطوينا جميعاً ويطوى أعمالنا وآمالنا إنما هو الفناء أو ما يشبه الفناء

وفى مقال آخر سنطابق بين سيرة الرجل وفلسفته ، وبين العرض والجوهر فى هذه المطابقة . وحسبنا الآن وهم يحتفلون بميلاده فى الثانى والعشرين من شهر فبراير أن نزجى إلى ذكراه تحية المودة والإكبار ، وأن نهتف به : مرحى ! ومرحباً صديقنا القديم من جديد !

عباس محمود العقاد

غريب الهوى في عيد القمر

للدكتور زكى مبارك

أتذكرُ يا قلبى ؟

أتذكرُ أن من الناس من يقول : (عيد الأضحى) ، وأن منهم من يقول : (العيد الكبير) ، وأن أهل سنتريس يقولون : (عيد القمر) كأنما عزَّ عليهم أن يبقى القمر بلا عيد ؟

ليت شعرى أظلّ أهلى وأهلك يسمونه عيد القمر ، أم تغيرت من بعدنا الأسماء ؟

كان لى أهل ، وكان لك أهل ، يا قلبى

أما أهلى فبخير ، وإن كنت أتوجع كلما ذكرت أن أولئك الأهل خلا ناديهم من وجه أبى ؛ وكان لك أهل يا قلبى ، ولكن أخبارهم غابت عنى منذ أزمان . فان كانت عندك أخبار فحدثنى عنهم ، فما أحب لك أن تعيش فى دنياك عيش الغريب !

لا تكتم عنى شيئاً يا قلبى ، فما لك فى الدنيا آسٍ سواى . أما رأيت كيف كانت أحاديث الناس فى هذا المساء ؟ فما لقينى أحد من أعضاء المؤتمر الطبى إلا سألنى عن صحة ليلى . وما أذكر أبداً أن أحداً سألنى عنك ! وكذلك جاز أن يسأل الناس عن صحة القاتل ويسكتوا عن فجيعة المقتول ! والويل كل الويل للمغلوب

* * *

إن ليالى الأعياد ترجعنى إليك يا قلبى

فهل تذكر يوم كنا طفلين ، حين كان من المألوف أن يزور الناس المقابر وفى أيديهم المصابيح ؟ وهل تذكر أننا سألنا مرة عن الحكمة فى حمل المصابيح فى الليلة المقمرة ، ليلة عيد القمر ، فكان الجواب أن الأموات يأنسون بالأضواء ؟

فهل تسمح بأن أحمل مصباحاً فى هذه الليلة ، وأخرج معك لزيارة المدفون من أوطارك وأحلامك ؟ ولكن أين المقابر التى دفنت فيها أوطارك وأحلامك حتى أونسها بضوء المصباح ؟ أين ؟ لا أين ، فانى أخشى أن تكون المقادير صنعت بأحلامك ما يصنع البحر بما يُدفن فيه من سرائر القلوب !

حدثنى أين دفنتَ أحلامك ، فانى أعرف أنك قليل البخت فى دنياك . ولو كان لك بخت لما جاز أن تبيت مشرَّد الأمانى فى ليلة عيد

قلبي ، قلبي !

يرحم الله غربتك بين القلوب !

قلبي !

أتذكر ما صنعتُ فى سبيلك ؟

لقد فررت بك من سعير الحب فى القاهرة ، ونقلتك إلى بغداد : دار السلام ، فهل كانت بغداد يا قلبي دار سلام ؟ أم كان اسمها من أسماء الأضداد ؟

لقد تجهمتْ أبشع التجهم حين وقع البصر عليها أول مرة ، واستقبلتني بوجه يتطاير منه شرر القسوة والوعورة ، فقلت : لا بأس ، فهى هدنة يستجمّ فيها قلبي ، ليقوى على مناضلة العيون حين يرجع إلى القاهرة . ولكنك استوحشت وأخذت تفتش عن « عيون المها بين الرصافة والجسر » وقد انخدعت لك فتركتك ترود مراتع الغزلان وأنا آمن ، فقد كنت سمعت أن بغداد لم يبق فيها للحب سامر ولا أنيس ، ثم وقعت الواقعة وأسرتك عيون المها بعد أسبوعين اثنين من قدومنا بغداد

قلبي !

لقد كان يعز عليّ أن تخرج من بغداد بلا هوى ، فمن الفضيحة لبغداد أن لا تكون فيها عيون ترى فتصيب ، ولكنى ما كنت أحب أن أحملك جريحاً محطّماً إلى الأنامل الرقاق التى تعبت في تضميد جروحك بين مصر الجديدة والزمالك . وما كان يخطر بالبال أن تكون دار السلام دار حرب ، وأن تتألب ظباؤها على قلب أعزل كان يرجو أن لا يعرف البلاء وهو ضيف العراق

من كان يظن أن هذه المدينة الجافية التى لا تعرف غير وصل النهار بالليل فى سبيل الرزق أو المجد ، من كان يظن أن مثل هذه المدينة تعيش فيها مباسم وعيون لا تتقى الله فى الناس ؟ من كان يظن أن ينعدم كرم الضيافة فى بغداد حتى يستبيح ظباؤها انتياش قلبٍ غريبٍ لا يملك من وسائل الدفاع غير الأنين ؟

أهذا جزاء الصنع الجميل فى بغداد ؟

أهذا جزاء من يملأ الصحف العربية بالثناء على العراق ؟

سيعود ناس إلى أوطانهم صِحاح القلوب ، وأعود إلى وطني بقلب ممزق لم تبق منه غير أطياف من الأشلاء

* * *

بغداد !

لقد كاد يسفر الصبح ولم تَغفُ عيناى . أ كذلك تكون ليالى الأعيـاد ، يا بغداد ؟ ليتنى أعرف أين يقيم اللصوص الذين سرقوا النوم من جفونى ! ليتنى أعرف أين يقيم أولئك اللصوص فأنتقم منهم أشنع انتقام بتقبيل جفونهم فى غفوات الليل !

بغداد !

خذى من نومى ما تشائين ، بل خذى من دمي ما تشائين ، فلن أنسى ما حييت تلك المؤامرة الوجدانية : مؤامرة العيون : عيون المها ، على قتلي ؛ فان من الشرف أن يكون المرء قتيل المَـها فى بغداد

إى والله ! هذا الصبح يتنفس وما غفت عيناى . فهل تعرف الظباء التى كانت تعترض طريقى لتصرعنى أننى لا أزال بين الأحياء ؟ أنا أدعوها إلى مناضلتى مرة ثانية ، وموعدنا بَهْو أمانة العاصمة يوم الأربعاء

* * *

أحبابى فى مصر الجديدة والزمالك !

ناموا هانئين وادعين ، وانهبوا ما شئتم من أحلام الأمانى ، فسأغفر لكم جريمة النسيان والعقوق

أحبابي في بغداد !

تذكروا أن الشاعر لم يَعْنِ أحداً غيرى حين قال :

وكل محبٍّ قد سلا ، غير أننى غريبُ الهوى ، ياويح كل غريب !

زكى مبارك

حـــدود الحق والواجب

للأستاذ عبد الرحمن شكرى
مفتش التعليم الثانوى

إنى أرى أن رقى كل أمة لا يقاس بما فيها من مسببات الرفاهية والثروة أو معدات القتال إذا كان احترام حدود الحق والواجب غير شائع بين أبنائها. فإنها إذا فقدت هذا الاحترام فقدت العروة الوثقى التى تعتصم بها للمحافظة على مسببات الثروة والرفاهية وللانتفاع بمعدات القتال والدفاع. وإذا عرضنا حياة الأمم وتاريخها الاجتماعى وجدنا أن مسببات الثروة لا تلبث أن تزول إذا كان نظامها الاقتصادى غير مؤسس على احترام حدود الحق والواجب. إنها قد تزدهر فيها الثروة حيناً، وقد يؤجل لها الخراب المحتوم زمناً ربما طال، وربما يغرها طول هـذا الزمن الذى تستمر فيه رفاهيتها وثروتها بالرغم من ضياع احترام أبنائها لحدود الحق والواجب؛ وما طول تأجيل خرابها إلا لما يزال فيها من العناصر الصالحة والقوة المدخرة من عهد الماضى الصالح، كالقوة التى تدفع المرء إذا نزل من سيارة سائرة فيسير هو أيضاً بعد نزوله منها؛ وقد تكون خطوات سيره قليلة أو كثيرة، ولكنه إنما يسير إلى الأمام مدفوعاً لا مختاراً. وكذلك الأمة التى تنزل عن احترام حدود الحق والواجب إذا تقدمت فإنما يكون سيرها سيراً آلياً لا فضل لها فيه، ولا يلبث أن ينتهى، إلا إذا أدركتها أسباب جديدة تدعو إلى استمرار سيرها. وينبغى ألا نستبطئ أو نستعجل انتهاء تقدم مثل تلك الأمة التى فقد أبناؤها احترام حدود الحق والواجب، فان خطوات الأمم أطول مدى من خطوات المرء الذى ينزل من سيارة سائرة؛ وقد تستجد أمور تزيد خطوات سيرها إلى حين، وكلما كانت السيارة التى ينزل المرء منها أسرع فى سيرها كانت خطوات المرء الذي ينزل منها أكثر.

وهذه الظاهرة تشاهد فى أمور مختلفة من أمور الأمم، فهى إذا فقدت احترام حدود الحق والواجب لم يكن الخراب مقصوراً على حالتهـا الاقتصادية، بل هو يشمل أيضـاً خراب الأسرة وخراب التعليم وخراب كل شىء. وكثيراً ما نرى فى التاريخ جيوشاً أقل عدداً وعدة تهزم جيوشاً أكثر عدداً وعدة من جيوش أمة فقد أبناؤها احترام حدود الحق والواجب. وهذا لا ينفى انتصار الفريق الأكثر عدداً وعدة إذا ظفر الفريقان المتحاربان بقدر متكافئ من احترام حدود الحق والواجب

ولكن القارئ غير الملم بحقيقة الأمر ربما يظن أن انتصار جيوش الدول الأوربية على جيوش الدول الشرقية كان دائماً بسبب كثرة حظ الجيوش الأوربيـة من عدد القتال وآلاته الحديثة. نعم إن الأمر كان كذلك فى معارك كثيرة، ولكنه لم يكن دائماً على هذه الحال. ففى واقعة بلاسى فى الهند كان جيش سراج الدولة أكثر عدداً وعدة، وكان قد اشترى من الفرنسيين مدافع وأسلحة كثيرة، ولكنه — بالرغم من ذلك كله — دارت عليه الدائرة

وفقـدان احترام حدود الحق والواجب يفسد أيضاً أداة الحكومة وأداة التعليم، ويفسد صلات أعضاء الأسرة الواحدة كما يوقع بين الأسرة والأسرة؛ وهذا الفساد وهذا الخراب لا شك من مظاهر التدهور مهما كان فى الأمة من مسببات الثروة أو مظاهر الحضارة والتفكير والأدب. فمن المعروف فى التاريخ أن مظاهر الحضارة والتفكير والأدب والفنون قد تزدهر حتى والأمة على حافة التـدهور؛ وقد تستمر وهى آخذة فى التدهور فنحسب هذه المظاهر نضوجاً، وإن كانت نضوجاً فهى نضوج العطن العفن كالفاكهة التى تعطن من كثرة النضج

ولقد كانت فى أواخر مراحل الدول الإغريقية والرومانية والفارسية والعربية مظاهر كثيرة من مظاهر الحضارة والأدب والفنون حتى بعد أن أخذت فى التدهور

ولاشك أن فقدان احترام أبناء الأمة لحدود الحق والواجب يفسد عليهم مظاهر الحضارة والتفكير والأدب، ولكن هذا الفساد قد يعمل في السر عمل السوس ولا يظهر فى أعظم أشكاله خطراً إلا فى النهاية. وفى بعض الأحايين لا يحترس أبناء الأمة ولا يأخذون الحيطة والحذر لمنع أسباب التدهور اغتراراً منهم بكثرة المدارس، وأنواع التعليم، وكثرة الصناعات، ورواج التجارة وانتشار التفكير، وكثرة المؤلفات والمؤلفين، وازدياد الأرض

المزروعة ، وغير ذلك من مظاهر الحضارة ككثرة المباني الشاهقة الحديثة ، والشوارع المنتظمة ، والميادين الفسيحة ، والسيارات الفخمة ، ومهيئات الراحة والرفاهية ، ودواعي الاطمئنان وما يجلب اللذة والسرور ...

فإذا تنبه أحدهم إلى أمر ضروري وهو احترام حدود الحق والواجب وافتقده ولم يجده في النفوس بالرغم من كثرة المدارس والسيارات والعمارات والمنشآت وغيرها من وسائل الحضارة ، وإذا حذرهم وقال لهم إن افتقاده لا بد أن يؤدي حتماً إما آجلاً وإما عاجلاً إلى التدهور والخراب ـ عدوه متشائماً وخدروا عقولهم تخديراً بأن يحسبوا أن وسائل الحضارة هذه من مدارس وعمارات وميادين وسيارات وغيرها لا بد أن تجلب لنفوسهم هذه الصفة الضرورية وهي احترام حدود الحق والواجب ، إذا كانت حقيقة ضرورية لا غنى عنها إذا أريد تجنب التدهور لأنهم لا يستطيعون أن يتصوروا كيف أن كل مظاهر الحضارة هذه لا تحميهم من التدهور والخراب إذا افتقد شيء غير مرئي ولا منظور وهو احترام حدود الحق والواجب

وهؤلاء الذين يأملون أن تعصمهم المنشآت والعمارات والسيارات والمدارس والميادين وغيرها من التدهور ، لأنها في ظنهم لابد جالبة هذا الشيء المطلوب ، وهو احترام حدود الحق والواجب ، ربما كانوا أقل ضرراً من الفريق الذي يتبجح ويقول إن الحضارة الحديثة مؤسسة على عدم احترام حدود الحق والواجب ، وإن كان هذا الفريق يصوغ قوله في قالب آخر فيقول مثلاً : ينبغي ألا نيأس ، فإن التفكير الحديث قد قلب الأخلاق رأساً على عقب ، وألغى الأخلاق القديمة وجاء بأخلاق تناسب رجل المستقبل . أو يقولون : إن الإنسان الذي يريد أن يكون رجلاً ينبغي أن يحرر نفسه من قيود الأخلاق القديمة . كأن الفلسفة الحديثة يمكنها أن تعطل سُنة من سنن الحياة ، وهي سنة تدهور الأمم إذا فقدت احترام حدود الحق والواجب

ومما يدعو إلى الأسف انتشار هذه النغمة بين بعض المثقفين المفكرين الذين كان ينبغي أن يكونوا أكثر فهماً لحقائق الحياة الثابتة والذين يستطيعون أن يروا كيف سرت هذه الحقائق في الماضي في حياة الأمم ، والذين ينبغي أن يفهموا أن ما يدعون إليه من الأخلاق الجديدة ماهو إلا عدم احترام حدود الحق والواجب ذلك الاحترام الذي إذا فقد تدهورت الأمة التي تفقده كما يشهد التاريخ

وهناك فريق آخر أكثر صراحة وأكثر أثرة وهم يفهمون حقيقة الأمر ، ولكنهم يقولون : الطوفان بعدنا . ويريدون أن يستفيدوا من فقد احترام حدود الحق والواجب ، وأن يعيشوا بهذه الفائدة قبل الطوفان

وهناك فريق آخر يدرك حقيقة الأمر ، ويحاول أن يزيل الخطر وأن يصلح الأمر ، ولكن بقوة مشلولة ، لأن الله إذا أراد بأمة سوءاً شل إرادتها وقوتها ، وهذه الطوائف الأربع هي الطوائف التي تكون في الأمة التي فقدت احترام حدود الحق والواجب .

وإذا نظرنا إلى بلادنا وجدنا مظاهر الحضارة من مدارس ومنشآت وعمارات وصناعات وميادين فسيحة وسيارات ، ووجدنا من يظن أن هذه الأمور تعصم من التدهور الذي ينشأ من افتقاد احترام حدود الحق والواجب ، ووجدنا أيضاً طائفة من هذه الطوائف الأربع ، ووجدنا أيضاً ... فقدان احترام حدود الحق والواجب ، والشواهد على فقدانه لا يمكن أن تحصى فهي كعدد الرمال على شاطئ البحر

ولكني سأقص على القارئ حوادث تدل على أن فقدان احترام حدود الحق والواجب أمر قد تفشى حتى في نفوس أرق الطبقات.

والحادثة الأولى حدثت عند ما كنت ناظراً لمدرسة ثانوية في الأقاليم ، ورسب ابن أحد كبار رجال الإدارة وابن أحد كبار رجال البوليس في امتحان النقل . ويكفي أن نقول (أحد كبار الرجال) وكان رسوبهما في اللغة الانجليزية ، ورفض الأستاذ الانجليزي مراقب تصحيح المادة أن يزيد درجتي الطالبين في الامتحان ، والقانون يقضي أنه لا يمكن أن تزاد درجة إلا بواسطة مراقب التصحيح ، والنظم الحديثة التي كانت سائدة وقت الحادثة تحرم على ناظر المدرسة أن يزيد هو الدرجة ، فحاولت أن أطلع أحد الكبيرين على حقيقة الأمر ، وعلى حدود حقوقي وواجباتي كناظر مدرسة ، وعلى أن القانون يحرم عليّ زيادة الدرجة وإنجاح الطالبين ، فقال أحدهم : أنا لا أفهم كيف أننا نتصرف في تطبيق قانون يتوقف عليه حياة الناس ، ويتوقف عليه امتلاك كم لما يملكون ، وأنت لا يمكنك أن تتصرف في تطبيق قانون (مدرسي) لا أقل ولا أكثر ! ثم ذهب ولم يصدق قولي . والحادثة الثانية تشبه هذه الحادثة تمام الشبه ، ولكنها حدثت في مدرسة

قريبة من القاهرة، فقد رسب أيضاً طالب فى اللغة الانجليزية، ورفض المراقب زيادة الدرجة وإنجاح الطالب، وأبى أبو الطالب، وكان من الوجهاء العظام، إلا أن يحمل لى ضغينة شديدة وأن يثير ضدى غيره من الناس وإن كنت لا أملك وسيلة قانونية لزيادة الدرجة إذا رفض مراقب اللغة الانجليزية أو غيرها من المواد إنجاح الطالب. كما أنى ما كنت أملك وسيلة لمنع مراقب التصحيح من إنجاح الطالب لو أراد إنجاحه، ورأى أنه يستحق النجاح، وفى هذا العجز عن منعه من إنجاح الطالب ما يدل على العجز عن منعه من إسقاطه ما دام يستعمل حقه القانونى وما دام الطالب يستحق التقدير الذى قدره له مراقب التصحيح

وقد اتضح لى أن أولياء أمور الطلبة فى مثل هذه الأحوال يريدون أن يوسطوا بعض المشتغلين بالتعليم فيزيد هؤلاء النار أجيجا. وقد ذكرت الآن حادثة ثالثة حدثت فى المدرسة الأخيرة وهى أن طالباً أهان أستاذاً فرفت الطالب بضعة أيام، فجاء إلىّ والده وقريبه وهما من الأعيان ومعهما ثالث من المشتغلين بالعلم والتعليم، وحاولوا من غير تلطف بل بوجاهتهم ونفوذهم: وقبل أن يعرفونى بأنفسهم أن يحملونى على نقض ما أبرمت، ورأيت أنى لا أملك حق السماح للطالب أن يهين أستاذه، فرفضت، فحملوا لى الضغينة وكان أشدهم ضغينة ذلك المشتغل بأمر التعليم.

وذكرت حادثة أخرى مثلها حدثت فى مدرسة من مدارس الوجه البحرى، وتدخل أيضاً أحد المشتغلين بالتعليم بخطاب شفاعة من القاهرة فتلطفت فى رد طلبه، فحمل لى ضغينة العمر. والذى أعرفه أن الطلبة كانوا قديماً لا ينقمون العقاب المدرسى إذا عرفوا حسن نية موقعه، ولكن الحال قد تبدلت الآن لسوء قدوة الكبار. فإذا كان بين الطلبة من لا يحترم حدود الحق والواجب فقد لقنوا ألا يحترموه، بل لقنوا أن احترامه ضعة ومهانة. وكثيراً ما كنت أشاهد أن الطالب قد يتذمر من العقاب ولكنه يعود إلى الصفاء والولاء. أما الشفيع المخذول فإنه لا ينسى أبداً أنه قد رفضت شفاعته، وهذا كان قبل أن تسرى طباع الكبار إلى الطلبة. ومن عجائب الدهر أن أشد الناس لوماً للطلبة وتعنيفاً لهم وذماً لسلوكهم هم فى كثير من الأحايين أسوأ قدوة للطلبة، وهم على نفس الطباع والخصال التى يذمونها فى الطلبة والتى سرت منهم إليهم، وهؤلاء هم الكبار على اختلاف طبقاتهم وأعمالهم.

عبد الرحمن شكرى

(١٩ ـ ١٠)



يدهشنى فى حياة الملكة فكتوريا تلك الإرادة التى استطاعت بها أن تفصل بين «واجبها» كملكة تحكم، وبين «قلبها» كامرأة تحب. إنها كانت مشغوفة بزوجها الأمير «ألبرت»، ومع ذلك أقصته أول الأمر فى قسوة عن دفة الملك وشئون الحكم، وهو الرجل الذكى الواسع الاطلاع، فكانت تدرس هى معضلات الدولة وتتركه هو يقتل الوقت بالقراءة وعزف الموسيقى. آه! ما أحوجنى أنا إلى مثل هذه المرأة التى تتركنى أقرأ وأكتب وأسمع الموسيقى، وتنصرف هى إلى حمل المسؤوليات وحل مشاكل العيش... شىء آخر يعجبنى فى تلك الملكة العظيمة: إنها كانت تقرأ. إنى أحب الملوك والقادة الذين يقرأون. تلك هى الوسيلة التى بها يعرفون حاجات شعبهم. لقد قرأت فكتوريا بعض قصص «ديكنز» التى يصف فيها شقاء الطبقات الفقيرة، وأحست وهى فى أبراج قصرها ما يعانيه ألوف من البشر يطؤهم ظلم أرستقراطية جامحة بعرباتها الفخمة وخيولها المطهمة، فأدركت من خلال سطور ذلك الأديب كيف أن فى بلادها عالماً آخر مهملاً يئن من الجوع والبؤس ولا يلتفت إليه أحد. فتركت الملكة الكتاب وقامت صائحة مرتاعة لم يهدأ لها قرار حتى مدت يدها إلى أولئك المناكيد، فرفعت عن أعناقهم نعال الفئة الباغية، وأطلقتهم يعيشون فى هواء الحرية والرخاء كما يعيش الآدميون. فى مصر والشرق أيضاً بنى وبغاة، وظلم وظالمون من جميع الأنواع؛ وفيهما كذلك فقر وشقاء وجهل وظلام فى كل ركن من الأركان. ولقد يسألنى سائل: أين هو الأديب الذى يصف كل هذا البلاء، ويصور هذه الدنيا التعسة المهملة التى لم تمتد إليها يد إصلاح منذ أجيال؟ جوابى على هذا السؤال بسيط: هات لى من يقرأ، أحضر لك من يكتب. إن الطاهى لا يوجد إلا إذا وجد الآكلون. إن الشرق لن يتغير حتى يعلم قادته كيف يملؤون أدمغتهم بكل ما يمكنهم من فهم حال شعوبهم. إن ربان السفينة لا يركب البحر قبل أن يعرف بعض أسرار الريح والماء ونجوم السماء. فلنرج دائماً ممن يمسك بالزمام أن يمسك أيضاً بالكتاب

توفيق الحكيم

بين الوطنية والأممية

للأستاذ ساطع بك الحصرى

مدير الآثار بالعراق

الوطنية من أهم وأقوى النزعات الاجتماعية المتأصلة فى النفوس البشرية ، ومع هـذا فهى لا تسلم من أعداء وخصوم ، يسعون إلى كسر قوتها وإزالة تأثيرها ... إننى سأتحدث إليكم عن أهم أعداء الوطنية وأخطر خصومها ...

عنـد ما أقول « أعداء وخصوم » لا أقصـد بقولى هذا « الأشخاص والأفراد » بل أقصـد « الميول والنزعات » .. لا أقصد الأشخاص والأفراد الذين يعادون وطنهم ، ويخونون أمتهم .. بل أقصد الميول النفسية والنزعات الفكرية التى تعاكس الدواعى الوطنية ، وتوجه العواطف والأعمال إلى اتجاه يخالف اتجاهها ...

إن أهم وأعم الميول النفسية التى تعارض الوطنية وتعاديها بهذه الصورة هى « الأنانية » ... لأنها توجه النفوس نحو المصالح والملذات الذاتية ، وتحملها على تقديم هذه المصالح والملذات على كل شىء .. فى حين أن « الوطنية » — بعكس ذلك — تدعو إلى « الإيثار » و « التضحية » ، فى سبيل الوطن والقومية .. إنها تطلب من كل شخص أن يحب وطنه ويخدم أمته بكل ما أوتى من قوة ، وأن يضحى بشىء كثير من راحته وهنائه فى هذا السبيل ، حتى أنها تطلب منه أن يوصل هـذه التضحية إلى درجة « بذل النفس والحياة » عند اللزوم ..

ولذلك نستطيع أن نقول : إن الأنانيـة تعمل على الدوام عملاً معاكساً لدواعى الوطنية ... فالوطنية لا تستطيع أن تنمو وتقوى دون أن تتغلب على الأنانية المعادية لها

غير أن الأنانية لا تعادى النزعة الوطنية وحدها ، بل تعادى جميع الفضائل والنزعات الأخلاقية ، على اختلاف أنواعها .. فكسرقوة الأنانية ليس من الأمور التى تتطلبها النزعة الوطنية وحدها ، بل هو من الأمور التى تتطلبها سائر النزعات الأخلاقية بأجمعها

فنستطيع أن نقول لذلك : إن خلال النضال العنيف الذى يحدث بين الوطنية والأنانية لا تبقى الوطنية بدون أنصار ... بل إنها تجد لنفسها عدة أنصار من سائر النزعات الأخلاقية التى تشترك معها فى هذا النضال ...

* * *

غير أن هناك بعض النزعات التى تعادى الوطنية دون أن تعاكس سائر الفضائل الأخلاقية ؛ فالوطنية لا تجد لنفسها أنصاراً من تلك الفضائل خلال مناضلة مثل هـذه النزعات ، فتتحمل أعباء هذا النضال بمفردها بطبيعة الحال

أما منشأ هذه النزعات المعادية للوطنية فهو الآراء والمذاهب الفلسفية والاجتماعية التى تعتبر الوطنية من « النزعات البالية المضرة » فتدعو الناس إلى نبذها والتخلص منها

لعل أقدم هذه الآراء والمذاهب هى الفكرة التى تعرف فى بلاد الغرب باسم الـ « كوزموبوليتيه » cosmopolitisme بمعنى « مواطنية العالم » — أو بتعبير أقصر « العالمية » — هـذه الفكرة تدعو الناس إلى الترفع عن « النزعات الوطنية الخاصة » وتطلب إليهم أن ينزعوا إلى « حب العالم » دون أن يفرقوا بين مختلف الأوطان

أما الملاحظات التى تستند إليها « فكرة العالمية » فيمكن أن تلخص بهذه الكلمات :

ما الفرق بين الأوطان المختلفة ؟ ألم تكن كلها من أجزاء الأرض التى نعيش عليهـا ؟ وما قيمة الحدود التى تفصل الأوطان بعضها عن بعض ؟ أفلم تكن كلها من الأمور الاعتبارية التى أوجدتها الوقائع الحربية أو المناورات السياسية ؟ وما الفرق بين الأمم المختلفة ؟ ألم تنحدر كلها من أصل واحد ؟ أفلا يجدر بالانسان — وهذه هى الحال — أن يسمو بأفكاره وعواطفه فوق الأوطان وفوق الأمم ، فيعتبر الأرض بأجمعها « وطناً » كما يعتبر أبناء البشر بأجمعهم « مواطنين » ؟

لقـد مر — فى الحقيقة — فى تاريخ حياة البشرية عهوداً طويلة ، كانت فيها « الرابطة الوطنية » ضيقة محدودة لا يتعدى نطاقها أسوار بعض المدن . كما كانت فيها الرابطة القومية محدودة المدى ، لا يتجاوز تأثيرها حلقات بعض القبائل . فقـد شهد التاريخ « الدور » الذى ارتفعت فيه الحدود من بين المدن التى

كانت متحالفة ، وانتفت فيه الضغائن من بين القبائل التي كانت متعادية ... فتوسعت فيه فكرة الوطنية والقومية إلى ما وراء حدود المدن ونطاق القبائل ، فوصلت إلى الحدود التى نشاهدها فى الحالة الحاضرة . إن سلسلة التطورات التى حدثت بهذه الصورة إلى الآن ، تدل على أن هذا التوسع سيستمر على الدوام ، فسيأتى يوم تندمج فيه الأوطان المختلفة بعضها فى بعض ، إلى أن يصبح « العالم » « الوطن المشترك » لكل الناس ، كما تمتزج فيه الأمم المختلفة بعضها ببعض إلى أن تصبح « الانسانية » بمثابة « القومية المشتركة » بين جميع أبناء البشر . وأما «النزعة الوطنية» التى نعرفها الآن فستزول حتماً بتقدم البشر وتسامى العواطف ، وستترك محلها لعاطفة إنسانيـة ، وأخوة شاملة ... فيجدر بالمفكرين أن يسبقوا سائر النـاس فى استقبال هذا التطور الجديد ، فيسموا بأنفسهم — من الآن — فوق الوطنيات الخاصة ويعملوا بهذه الصورة على تعجيل حلول عهد الانسانية الحق ...

هذه هى سلسلة الآراء والملاحظات التى تستند إليها فكرة « الكوزموبوليتية » ، « فكرة العالمية » ...

لا شك فى أن هذه الآراء لا تخلو من قوة جذب وإغراء : لأنها تفسح أمام الأذهان مجالا واسعاً لأحلام الاخوة البشرية وأماني السلم الدائم ، وتصور أمام الخيال عالماً جديداً أرق وأسمى من العالم الذى نعيش فيه الآن ... فمن الطبيعى أن تستولى هذه الآراء — من الوهلة الأولى — على بعض النفوس التواقة إلى الكمال ، ولو كان فى الخيال ...

فقد انتشرت الفكرة — فعلاً — انتشاراً كبيراً بين المفكرين فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر ... ولا سيما في ألمانيا ، وحيث أصبحت النزعة السائدة فى عالم الفكر والفلسفة .. فكان معظم الفلاسفة والأدباء — من كوته إلى لسينغ ، ومن هردر إلى شللينغ — يقولون بها ويدعون إليها ؛ فكان « كوته » — مثلاً — يترفع عن النزعة الوطنية ، ويقول «وقانا الله إياها» ، وكان «هردر» يعتبر الوطنية «من النزعات التى لا تليق بالمستنيرين والمفكرين » ...

ومما يجدر بالانتباه والملاحظة أن هذه النزعة الفكرية — مع انحدارها فى الأصل من روح التشوّق إلى الكمال — تتفق — فى النتيجة — مع روح الاستكانة السلبية ، وتكتسب لذلك قوة من ميول الأنانية الخفية ...

لأن «فكرة الانسانية والعالمية» نزعة أفلاطونية ، لا تتطلب من الفرد عملاً فورياً وتضحية فعلية ، فى حين أن الوطنية نزعة واقعية تتصل بالحياة الحالية ، وتتطلب من المرء أن يقوم ببعض الأعمال والتضحيات بصورة فورية ؛ فالانصراف عن النزعة الوطنية ، استناداً إلى « الفكرة الانسانية » يكون بمثابة الانصراف عن الأعمال الايجابية استكانة إلى الأوضاع السلبية .. ولهذا السبب يتفق هذا الانصراف اتفاقاً كبيراً مع روح الأنانية ، التى كثيراً ما تتقنّع بأقنعة خداعة تستر وراءها كثيراً من الميول النفعية ...

لقد انتبه « جان جاك روسو » إلى هذه الحقيقة ، فانتقد « الفكرة العالمية » بأسلوب لاذع ، فقال : « إن بعض الناس يحبون أبناء الصين ، لكى يخلصوا من الواجبات الفعلية التى تترتب عليهم من جراء حب أبناء وطنهم الأقربين »

وعلى كل حال يمكننا أن نقول : إن فكرة « العالمية » انتشرت فى القرن التاسع عشر انتشاراً كبيراً بسبب تشوق المفكرين إلى الكمال الخيالى من جهة ... وبدافع ميل الناس إلى التخلص من ثقل الواجبات الفعلية من جهة أخرى

وهذا الانتشار صار عظيماً فى البلاد الألمانية بوجه خاص ؛ أولاً : لموافقة الفكرة لروح الفلسفة السائدة بين مفكرى الألمان عندئذ ، وثانياً : لعدم اصطدامها هناك بنزعة وطنية قوية بسبب انقسام الألمان إلى دويلات كثيرة ، واشتباك منافع هذه الدويلات وأمرائها اشتباكاً يحول دون نمو النزعات الوطنية والقومية نمواً سريعاً ... إننا نجد فى إحدى الكلمات التى كان قالها المفكر الألمانى « شله يجل » دليلاً قاطعاً على ما أسلفناه ؛ فقد قال : من العبث أن نحاول تكوين أمة ألمانية ، فالأجدر بنا أن نأخذ بالفكرة العالمية ، ونخدم الإنسانية ... »

واستمر الحال فى البلاد الألمانية على هذا المنوال حتى غزوة نابليون وهزيمة « يه نا » ...

ولا شك فى أن الانهزام الهائل الذي منى به الجيش البروسى فى واقعة « يه نا » كان من أبرز نتائج ضعف النزعة الوطنية

وانتشار الفكرة العالمية ... فإن الجنود كانوا ينهزمون من ساحة القتال تاركين أسلحتهم فيها دون أن يحاولوا استعمالها لصد غارة العدو الزاحف إلى بلادهم

غير أن كل ما حدث بعد ذلك بدد الأحلام العالمية والأماني الإنسانية التي كانت مستولية على النفوس ... وأظهر لكل ذي عين بصيرة الفروق الهائلة بين « الوطن » الذي ينتسب إليه وبين غيره من الأوطان ... وبين « الأمة » التي ينحدر منها وبين غيرها من الأمم ...

فإن الذين كانوا انهزموا من ميدان القتال دون أن يستعملوا أسلحتهم لصد غارة الجيوش الأجنبية اضطروا — بعد بضع سنوات من تاريخ الواقعة — إلى الانخراط في سلك الجيوش المذكورة ليخدموا مآرب قائدها الخاصة ... إنهم أرغموا على التجنيد وعلى العمل تحت إمرة قواد فرنسيين ليحاربوا — رغم أنوفهم — الدول والأمم التي أراد زعيم الفرنسيين الاستيلاء عليها دون أن يكون في كل ذلك أدنى مصلحة لهم ولوطنهم الخاص ولأمتهم الحقيقية ...

وهكذا قد شاهد مفكرو الألمان بأعينهم أنه بينما كانوا يغطون في أحلام الإنسانية والعالمية استولت على بلادهم جيوش أمة بعيدة عن تلك الأحلام ، ومتشبعة بروح الوطنية بأشد وأحد أشكالها ، فأخذت تلك الأمة تسيطر عليهم وتستعبدهم ، وتذيقهم أنواع الذل وتسوقهم إلى حيث تريد ...

فكان من الطبيعي أن تنقلب الآراء والنزعات في ألمانيا انقلاباً هائلاً تحت تأثير الدروس القاسية التي ألقتها هذه الوقائع والنكبات .. وفي الواقع لم يمض على واقعة « يه نا » مدة طويلة ، حتى تركت الفكرة العالمية محلها لحماسة وطنية شديدة ويقظة قومية جبارة ... وهذه الحماسة الوطنية واليقظة القومية هي التي أدت إلى نهضة بروسيا الملومة ، وخلصتها من نير الفرنسيين ثم قادت الأمة الألمانية بأجمعها نحو الاستقلال والوحدة والقوة والعظمة ...

ومن المفيد لنا أن نتتبع هذا التطور العميق فيما قاله وكتبه البعض من مفكري الألمان أنفسهم في ذلك العهد .. أود أن أذكر لكم مثالين بارزين : أحدهما من الحكماء وهو « فيخته »

والثاني من الشعراء وهو « آرنت »

عند ما يذكر اسم — فيخته — في ألمانيا ، يتبادر إلى الأذهان الخطب الحماسية التي وجهها « إلى الأمة الألمانية » خلال أيام النكبات التي بحثنا عنها ، تعتبر هذه الخطب من أهم عوامل النهضة في ألمانيا ، ومن أقوى موجهات القومية فيها ...

ألقى فيخته خطبه الأربع عشرة في مدرج جامعة برلين ، عند ما كانت الجيوش المحتلة تقوم باستعراضات متوالية في شوارع العاصمة البروسية وميادينها ... تحتوي هذه الخطب على نظرات فلسفية في تاريخ حياة الأمة الألمانية ، وأبحاث شيقة عن الحيوية الكامنة فيها وعن وسائل التربية التي تكفل تجديد حياتها ... وكل هذه النظرات والأبحاث ترمى إلى غاية واحدة ، هي استنهاض الهمم في سبيل بعث الأمة الألمانية ، وإعادة بناء مجدها..

إن خطب فيخته تنم عن روح وطنية متأججة ، وتدعو إلى نزعة قومية متعصبة ، ولا سيما الخطبة الختامية ، فانها تعتبر آية من آيات التحميس والاستنهاض . يوجه « فيخته » في خطبته هذه بعض الكلمات إلى الشباب ، ثم إلى الكهول ، ثم إلى رجال الدولة والمفكرين والأدباء ، وأخيراً الأمراء ، مصدراً كل واحدة من هذه الكلمات بقوله : « إن خطبي تستحلفكم وتبتهل إليكم ... »

بعد ذلك يضطرم حماسة ، فيقول لجميعهم : « إن أجدادنا أيضاً يستحلفونكم مني ، ويضمون صوتهم إلى صوتي (ويأخذ في تصوير صوت الأجداد) بأسلوب حماسي جذاب . ثم يعقب ذلك بقوله : « إن أخلافكم أيضاً يتضرعون إليكم » . ويشرح صوت الأخلاف بأسلوب مؤثر خلاب

وأخيراً ينهي الخطبة بكلمات تدل على شعوره بغرور قومي عميق : « ... ولو تجاسرت لأضفت إلى كل ما تقدم قائلاً : إن القدرة الفاطرة أيضاً تستحلفكم وتستنهضكم ... لأنه لم يبق على وجه الأرض أمة حافظت على بذور قابلية التكمل البشري بقدر ما حافظت عليه أمتكم المجيدة ... فإذا سقطت الأمة الألمانية سقط معها الجنس البشري بأجمعه ، ولا يبقى له أدنى أمل في السلامة ... »

(يتبع) ساطع الحصري

التاريخ فى سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الأحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

— ٢ —

يا شباب الوادى ! خذوا معانى العظمة فى نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامى العظيم

ما لبثت الأسرة أن رأت فى عميدها « توماس لنكولن » ميلاً شديداً إلى الرحيل من « كنتوكى » إلى حيث يسهل عليه كسب قوته وقوتها مع اليسير من الجهد ، وكان توماس من النفر الذين يضيقون بالجهد والذين يطلبون أكلاف العيش من أيسر سبلها فهو لذلك لا يكدح إلا مضطراً ؛ وما فتئ يذكر اسم « انديانا » مقروناً بالخير والبركة وهو يزين لزوجه الرحيل إلى تلك الجهة ، ثم ذهب تخبرها بنفسه وعاد بعد قليل يحمل إليها متاعه وأسرته . وما كان أسرعه بعد عودته فى توطيد ما اعتزم ! حزم متاع بيته وحمله على جوادين أعدهما لذلك ، وكان ابنه « أيب » يركب معه على ظهر أحد الجملين ، وتركب زوجه وابنته « سارا » على الآخر وقضوا فى الطريق زهاء أسبوع يشقون فى سيرهم الأحراج ويجتازون بعض مجارى المياه ، فاذا جنهم الليل قام عميد الأسرة على حراستهم حتى ألقوا رحالهم آخر الأمر فى « انديانا »

وشمر توماس لنكولن عن ساعديه وشمر معه أيب وأهوى بفأسه على الأشجار يقطعها ويشقها ويسوى فروعها وابنه يعاونه ما وسعه العون وهو لا ينى يشق هاتيك الخشبة ، ويقطع تلك ويشذب هذه ، حتى تم له إعداد ما يلزم لإقامة كوخ تأوى إليه الأسرة ، ثم دعا إليه بعض جيرانه ليساعدوه فى رفع تلك الأخشاب بعضها فوق بعض . وكان رفع الأخشاب عملية يدعى إليها الجيران فيلبون فى سرور وإخلاص ، وكان يجرى فيها من فنون اللهو والمزاح ومن ضروب التندر واللعب بقدر ما يكون فيها من مشقة ونصب

أقامت الأسرة فى انديانا ، وتركت موطنها فى كنتوكى ، وإنك لترى هذا الارتحال من مكان إلى آخر ومن مقاطعة إلى مقاطعة أشبه بتنقل البدو فى الصحراء . ليس بين الحياتين من فرق إلا بمقدار ما يكون بين الغابة والبيداء ، وبين البيت يتخذ من الشعر أو يقام من كتل الخشب ؛ ومن ثم فليس بين المعيشتين من فرق من حيث أثرهما فى الخلق والخيال إلا بقدر ما يقوم بين الطبيعتين من اختلاف

وكان لهذا الترحال أثره فى نفس الغلام ، إذ أخذ الوطن منذ ذلك الحين يتسع فى نظره ويمتد حتى أصبح وطنه هو أمريكا كلها ؛ فهو مرتحل أبداً ما دام العيش يتطلب الارتحال ، وهو متخذ من كل مكان وطناً يتصل بنفسه ويعلق بخياله ، وظل ذلك شأنه حتى انتهت إليه زعامة الولايات جميعاً وحتى أخذ بيده مقاليد الحكم فيها

وكانت الحياة فى انديانا سهلة لا تكلف الناس عناء ولا ترهقهم عسراً ، إذ كانت تقوم على الصيد ، وكانت الحيوانات موفورة فى الغابات لمن يطلب الصيد ، ولكن تلك المعيشة كانت إذا قيست إلى معيشة المدن بعيدة كل البعد عن أسباب الرفاهة ، بل عن أبسط وسائل الراحة ، وحسبك دليلاً على ذلك أن الملابس كانت ما تزال تتخذ من جلود الحيوانات ، إلا فى بعض الأحيان حين كان يغزل الصوف وينسج بالأيدى وفى الأكواخ ، وأن البيوت كانت كما رأيت ، وما كانت تفتقر إليه تلك الأصقاع من المتاجر أو سبل الاتصال أو دور الاستشفاء أو دور التعليم إلا ما كان منها فى أبسط حالاته ، أو غير هذه من مظاهر العمران المعروفة فى غير تلك البيئة من البيئات

على أن الصبى كان مغتبطاً بيته الجديد فى أنديانا ، يأنس بكثرة الجيران هنا ، ويرى الحياة أكثر نشاطاً وأوسع مجالاً ، ولقد جاء ذوو قرباه فأقاموا معهم حيث كانوا يقيمون . ومرت الأيام فى هدوء وسلام وصفو ، وكان كل يقوم بنصيبه من العمل لم يتخلف عن ذلك حتى الصغار ؛ فهذا (أيب) وكان غلاماً قوى الساعدين — على نحافته — يبذر الحب فى الربيع ، ويشترك فى الحصاد وقت الصيف ، ويطعم الخنازير ، ويحلب الأبقار ، ويساعد أباه فى أعمال النجارة ؛ وهذه سارا تساعد أمها فيما لا يحسنه أيب

من أعمال البيت . وظل هذا حال تلك العشيرة مدة عامين

ولكن الزمن القاسي يأبى عليهم أن يظلوا فى أمنهم وسكنهم فتنتابهم حمى مروعة ينوء بها الناس والدواب ، ويحار الكبار والصغار فى أمرها وهم لا يجدون طبيباً . وهيهات أن يظفروا بطبيب إلا أن يقطعوا نيفاً وثلاثين ميلاً على الأقل . وهل كانوا يستطيعون أن ينتقلوا بضع خطوات ؟ ... لقد هدهم المرض فرقدت الأم ورقد الجيران من ذوى القربى . ثم جاء دور أيب وأخته ... وأخيراً حم القضاء ووقعت الكارثة فماتت الأم وقد أضنتها الحمى وفتكت بجسدها النحيل ! ماتت الأم ورزئ أيب بأول صدمة من صدمات الأيام . وأى صدمة ! لقد ضاقت فى وجهه الدنيا ، وأحس معنى اليتم إحساساً قوياً زاد من وقعه ما فطر عليه الصبي من عمق الخيال واشتداد العاطفة . ولقد ظل واقفاً أمام تلك البقعة من الأرض التى دفنت تحتها أمه حتى تناوحت من حوله رياح المساء ، ومشت فى الأفق ظلال الطفل ، فذرف الدمع سخيناً وعاد إلى الكوخ كسير القلب موجع النفس يحس كأنه غريب فى هذا الوجود الواسع !

وكان قد سبق أمه إلى الموت أبوها وأمها ، ذهبا كما ذهبت ضحية تلك الحمى القاسية ، وعلى ذلك صارت ربة الأسرة سارا الصغيرة التى لا تزيد سنها على الثانية عشرة ! وكانت سارا تخدم أباها وأخاها فيما يلزمهما من شؤون البيت ؛ ولكن الرجل لم يطق صبراً على تلك العيشة ، فترك — بعد سنة من وفاة زوجته — ابنه وابنته وصحبتهما طفلة دونهما فى العمر هى بقية العشيرة ؛ ثم عاد إليهم فى عربة يجرها أربعة من الجياد ! ونزلت من العربة سيدة يذكر أنه رآها قبل ذلك فى كنتوكى ، ونزل منها غلام وأختان له ، وكانت تلك السيدة — كما عرف — زوج أبيه !

ودهش أيب لما رأى من متاع جديد ! فقد رأى سرراً حقيقية وكراسى وخواناً ومائدة ومُدًى وسواها مما لم تقع عليه عينه من قبل بين جدران الكوخ . وسرعان ما توثقت عرى المودة بين الجميع ، فكوّن الصغار رفقة تربطها المودة والمحبة ، لا يحسون جوراً فى المعاملة من جانب ربة البيت الجديدة ؛ فلقد كانت امرأة صالحة طيبة القلب ، رقيقة العاطفة حلوة الشمائل ، ذكية الفؤاد ، ازدادت محبة فى نفس أيب إذ رأى منها — فوق ما أولته من عطف — ميلاً إلى تعليم الصغار ، وسمعها تجادل زوجها فى ذلك وتصر على أن يذهبوا عصبة إلى المدرسة ؛ وكان الزوج في بداوته يقدم الفأس على القلم ويضن بابنه وقد أنس من قوة ساعديه ومهارة يده أن يرسله إلى المدرسة وهو أحوج ما يكون إلى مساعدته ، ولكن رأيها تغلب فى النهاية وسار الأولاد إلى المدرسة وكانت على مسافة ميل ونصف ميل من كوخهم

وفي المدرسة أقبل أيب على تعلم القراءة والكتابة إقبالاً لم يعرف له مثيل فى قرنائه . أليس ذلك غاية مبتغاه ومنتهى هواه ؟ . لقد كان يعمد إلى قطع الفحم إذا عاد إلى الكوخ فيكتب بها على غطاء صندوق من الخشب تارة ، أو على ظهر لوح الخشب الذى كانوا يحركون به النار تارة أخرى ! يكرر ذلك فى غير ملل مع صعوبة الكتابة بالفحم على مثل تلك الأشياء . وأنى له الحبر والورق إلا ما ندر من قصاصات رديئة كان يضن بها على التمرن فلا يخط عليها إلا ما يحسنه فيزهى به ويباهي ... هكذا تعلم إبراهام لنكولن القراءة والكتابة !

لكن أباه لا يهتز لذلك ولا يهش له ، بل إنه ليقطع عليه أكثر الأحيان هويته فيستصحبه إلى الغابة ليعاونه فيما كان يراه أجدى على الأسرة من الأعمال . وهو يرى فيه الآن وقد ناهز الرابعة عشرة خير عون له إذ كان الفتى حاذقاً قوياً حتى لتبدو قوته مدهشة تحمل على العجب ما رأى الجيران مثلها قط فيمن كان فى مثل عمره . ورأى فيه أبوه فوق ذلك قدرة على الرماية تجلت له فى حادثة واحدة ولكنها كانت مقنعة : تناول البندقية ذات يوم وصوبها نحو فرخ برى فأصابه فى مهارة وخفة ... على أنه قد جزع وأخذه الرعب وندم على ما فعل ، وعافت نفسه هذا الفعل وما فيه من قسوة ، وما رآه أحد بعدها يصوب سلاحاً نحو مخلوق ...

وما كان إذعان إبراهام لأبيه إذا دعاه ليصرفه عما مالت إليه نفسه ، فكان يختلس الساعات فيكتب ويقرأ ويكتب ويقرأ والشوق يحدوه واللذة تدفعه حتى صار قادراً على تناول الكتب ! وأول ما تناوله من الكتب الانجيل وخرافات إيزوب وروبنسن كروزو ورحلة الحاج . وكم كان لهذه الكتب من أثر فى خياله ووجدانه ، ذلك أن نفسه أخذت تتفتح للحياة كما تتفتح الزهرة أحست دفء

الربيع ونوره وصفاءه ! وتاقت تلك النفس الذكية إلى تاريخ العظماء ، فقرأ حياة هنرى كلى وحياة فرانكلن ثم حياة وشنجطون بطل الاستقلال وزعيم الحرية . ولقد كان جد معجب بهذا الزعيم العظيم مأخوذاً بما يطالع من مواقفه فى حرب الاستقلال ، مسحوراً بما تجلى فى تلك الحرب من أعمال البطولة . ولا يخفى ما تركته مثل هاتيك المطالعة من عميق الأثر فى تلك النفس الوثابة الجياشة بأنبل المعانى

وعرف عنه وهو فى السادسة عشرة من الشمائل ما لا يتحقق إلا للمصطفين الأخيار . كان على قوة جسمه مضرب المثل فى دماثة الخلق وعفة اللسان واليد ، وكان حديث القوم فى أمانته ونزاهته وسمو أدبه . تحدثت عنه زوج أبيه مرة فقالت : « لم يوجه إلى مرة كلمة نابية أو نظرة جافة ، ولم يعص لى أمراً قط سواء أ كان ذلك في مظهره أم فى حقيقة أمره » ويروى عنه أنه استعار من أحد الجيران كتاباً عن وشنجطون لمؤلف آخر فأقبل عليه يطالعه حتى جن عليه الليل فوضعه فى شق بين الكتل الخشبية فى أحد جدر الكوخ فبلله المطر ، فلما رآه فى الصباح اشتد أسفه وحمله إلى صاحبه ، وهو لا يقوى على الوقوف أمامه من شدة الخجل ، ولا يدرى كيف يعتذر ! ثم بدا له فعرض على صاحب الكتاب أن يدفع ثمنه ، وكان ذلك الثمن أن يأجره الرجل عنده ثلاثة أيام فى عمل من أعمال الزراعة ! وقد تم له ذلك فطابت به نفسه وصار الكتاب ملكا له ، وذلك ما اغتبط له أشد الاغتباط

وراح يقرأ وهو يقتبل شبابه كل ما تصل إليه يده . يقرأ فى ضوء النهار حتى ينقضى فيقبع فى الليل إلى جانب الموقد يقرأ على ضوء الحب ! لا يكل له طرف ولا تأخذه سنة حتى لينسى طعامه وشرابه إذا كان حيال فقرة قوية أو حديث ساحر

ومالت نفسه إلى تفهم أسرار الحياة وهو بعد فى تلك السن ، فأخذ يتأمل ويتأمل ، يلتقط جريدة قديمة فيقرأ فيها مايعجب له ولا يفهمه ، يقرأ عن الانتخابات وعن مسألة العبيد ، ويسمع أشباه ذلك فى الكنيسة وفى أحاديث الجيران فيعجب بينه وبين نفسه ، وهو لايدرى كنه هذه الأشياء على وجه اليقين

وأخذ يدرس من كثب طباع الناس ، وكانت له نظرة نافذة إلى أعماق الأشياء ، وكانت نفسه بطبيعة تكوينها تنفعل للجمال والحق وتنفر من الشر وتنأى عنه . لو رآه خبير بطباع البشر يومئذ لظن أنه حيال شاعر تنبسط جوانب نفسه ، وتتهيأ لرسالة من الرسالات روحه . ولقد كان إبراهام يكتب الشعر يومئذ ويقرأه على خلانه ؛ وصارت للشاعر بيرنز عنده مكانة سامية حتى لقد حفظ ديوانه عن ظهر قلب ، وصار لا يقدم عليه شاعراً سوى شكسبير

عجيب حقاً أمر هذا الفتى الذى تنقسم حياته بين المدرسة وبين أعمال النجارة فى الغابة ، والذى يقرأ مثل هذا النوع من الكتب قراءة تمعن وتمحيص ! ولكنها العبقرية تتفتح وتعلن عن وجودها بشتى الصور والأساليب ، وهى هى الجوهر الثابت لا تدركه الأبصار وإن أحسته القلوب والعقول .

هو الآن يتخطى السادسة عشرة ، طويل الجسم مديد القامة عريض الصدر ، ولكنه نحيف تستوقف الأبصار نحافته كما يستوقفها طوله ، وهو على نحافته قوى الجسم قوة ما توافت لمثله فى هذه السن ؛ وكأنما تجمعت تلك القوة فى ساعده ، فليست هناك دوحة تقوى عليه إذا هو أهوى بفأسه عليها . بذ أباه فى قطع الأشجار وتسوية الأخشاب ، وغالب أقرانه فى الغابة حتى سلموا له بالتفوق مكرهين

وكانت هيئته وحشية بسبب شعره الأشعث المغبر وهندامه الساذج المتهدل ، وتقاطيع وجهه المسنون الذي يبرز فيه الأنف بروزاً شديداً فيبدو كأنه أضخم من حقيقته ، ولذلك ما كان يطمع ابراهام وهو فى سن الأحلام والتظرف أن تنظر إليه فتاة نظرة ذى علق ... وهل كان يتجه خياله إلى شئ من هذا ؟ حسبه ما هو فيه مما هو أسمى من ذلك وأجدى

ولاحظ عليه أقرانه شيئاً من الشذوذ يومئذ ، فهو يلقى بفأسه أثناء العمل فى الغابة ويخرج من جيبه كتاباً فيقرأ ويقرأ فى صوت جهورى كأنه خطيب ... وهو يضحك أحياناً بلا سبب ظاهر وقد يعلو فى ضحكه مبتدئاً من ابتسامة حتى يصل إلى قهقهة ، وهو على رقة عاطفته ورفق قلبه يقوم للجيران إذا دعوه بأعمال الجزارة فيقتل لهم الخنازير يوقذها فى جباهها فى جرأة وسرعة ..

وبينا يرى الناس منه ذلك يعجبون العجب كله إذ يرونه يمد يد المساعدة إلى الضعفاء والبؤساء . لقى وهو فى طريقه مع رفيق له رجلاً قد ألقاه جواده فى الطريق وقد ذهبت الخمر بلبه ، فما زال به يوقظه وهو لا يستيقظ ولا يفيق ، فتبرم صديقه ، فرد عليه أنه

لا يستطيع أن يترك هذا الرجل على الرغم من سكره فريسة للبرد وحمله على ظهره إلى كنه ؛ وأقام إلى جانبه ردحاً من الليل . وسمعه الناس يعلن عطفه على الهنود الحمر قائلاً إنهم أصحاب تلك الأرض وإنهم أخرجوا من ديارهم وأنهم لذلك جديرون بالرحمة والعطف ! . ولم يقف به عطفه عند الإنسان ، بل لقد أظهر غير مرة الرأفة بالحيوان ، فوقف ذات يوم ينقذ كلباً وقع فى الثلج وقد ناله فى ذلك من التعب ما ناله . ورأى بعض خلانه يلعبون بسلحفاة أوقدوا على ظهرها ناراً فمنعهم وذهب من فوره فكتب موضوعاً فى الرفق بالحيوان وقرأه على من صادفهم من جيرانه !

ومما يعرف من ميوله يومئذ ميله إلى المحاماة ، ولعل مرد ذلك إلى حدبه على المستضعفين . عرف هذه المهنة حين قصد ذات يوم إلى جلسة قضائية فى بلد قريب ليتفرج ، وقد أعجب بدفاع أحد المحامين ودفعه إعجابه إلى أن يتقدم إلى ذلك المحامي مهنئاً ، فاقتحمته عين المحامي المدل بنفسه وازدراه وهو يرى من هيئته ورث ثيابه مايرى ، ولم يدر أنه كان يزدرى من سيكون يوماً رئيس الولايات المتحدة ! ومنذ ذلك اليوم تاقت نفسه إلى معرفة القانون علّه يستطيع أن يخطب ويدافع فينصر المظلومين ، فلقد صار ذلك العمل محبباً إلى نفسه .

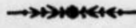
ولكن أنى له المال الذى يهيىء له سبل الدراسة والظهور فى المجتمعات ؟ أنى له المال وهو لا يكاد يراه . ها هو ذا يصنع قارباً بيديه ويحمل فيه بعض حاصلات إقليمه ليبيعها فى سوق قريبة ولكنه يبيعها بثمن زهيد ؛ بيد أنه حدث أن حمل فى تلك الرحلة بعض الناس فى قاربه من شاطئ النهر إلى حيث أدركوا قارباً بخارياً فى عرض النهر ، وما كان أعظم دهشته حين مد إليه أحدهم يده بقطعتين من الفضة كانتا تساويان ريالاً ، وما كان أعظم فرحه بذلك . أشار إلى ذلك الحادث يوماً وهو فى منصب الرياسة يخاطب صديقه ستيوارت فقال : « إنى لم أكد أصدق عينى . ربما رأيت ذلك ياصديقى أمراً تافهاً ، أما أنا فإنى أعتبره أهم حادث فى حياتى . لقد كان من العسير علىّ أن أصدق أنى — وأنا ذلك الفتى الفقير — قد كسبت ريالاً فى أقل من يوم ؟ لقد اتسعت الدنيا فى ناظرىّ وبدت لى أكثر جمالاً ؛ وازداد أملى وثقتى بنفسى منذ تلك اللحظة » .

(يتبع) الخفيف

المثل الأعلى للشاب المسلم

للأستاذ على الطنطاوى

تتمة



هذه هى الصفة الأولى للشباب ، وهذا هو المثل الأعلى فيها . تزوج ثم أحب زوجتك ، وأولها قلبك ، وامنحها عاطفتك . أما الصفة الثانية فهى البطولة ، وحظ الشباب المسلمين فيها أوفى من حظوظ شباب الأمم . وعلى الشباب المسلمين واجب أضخم ، ذلك أن المصلحين كانوا يتلفتون قبل عشرين عاماً فلا يرون حولهم إلا ظلاماً لا تسطع فى ثناياه بارقة أمل ، ونوماً (أو قل موتاً) لا ترى فى خلاله أمارة حياة ، وخيبة مستمرة فى السياسة والعلم والعمل ؛ ثم انجلت الحرب العامة عن جسم واحد ، حاول الأقوياء الغالبون أن يخالفوا فيه سنة الله ونواميسه فى كونه ، فيجعلوا الرأس يحيا وحده ، واليدين تعيشان وتفكران على استقلال ، والقلب يصبح إنساناً برجلين ؛ فقرروا أن تكون هذه الحكومات الكثيرات المضحكات فى بلد مجموع سكانه أقل من نصف سكان لندن ، فكأنهم جرّبوا ألا يكون الواحد ربع الأربعة ، بل يكون كل واحد أربعة كاملة !

كان المصلح يرى ذلك كله ولا يرى إلى جانبه ما يبعث فى النفس أملاً أو يحيى فيها رجاء ، فكان يتشاءم ويقنط ؛ ولكن الزمان يا سادتى قد تحوّل ، وختمت يد القدرة المجلّد الثانى من تاريخ الأمة الإسلامية ، ذاك الذى سجلت فيه عصر الانحطاط والتأخر ، وافتتحت اليوم المجلد الثالث من هذا التاريخ لتسجل فيه عهد البعث والتقدم . إن المصائب التى اشتدّت وآلمت ، وتتالت وتعاقبت ، قد نبّهت وأيقظت ، وحذّرت وأنذرت ، فأفاقت شعوب هذا الشعب الإسلامى مذعورة تفتش عن طريق الحياة ، وتبحث عن سبيل العمل ؛ وظهرت بوادر يقظة قوية ، ونهضة شاملة ، ولكن (يا سادتى) ينقصنا الإيمان بهذه الحقيقة الواقعة فليكن اجتماعنا هذا تبشيراً بها ودعوة إليها . يجب أن نؤمن بهذه النهضة إيماننا بوجود أنفسنا ، ويجب ألا يبقى فينا متشائم

لقد نهضنا ، ولكن القافلة تجتاز اليوم أشد مرحلة من الطريق ، وأخطر مغارة فى هذه البادية . كانت القافلة تسير نائمة يقودها أدلاء جهلوا الطريق ، وحادوا بها عن المحجة ، وتنكبوا بها الصراط المستقيم ، فلما سمعت صوت القدر على لسان أولئك الأعلام : الأفغانى ، ومحمد عبده ، والقاسمى ، والشيخ طاهر ، والألوسى ، وسعد ، ورشيد رضا ، وشكيب أرسلان ، والرافعى وأمثالهم — أفاق منها من أفاق ، فنهض وفتح عينيه من لم ينهض ، وقال كلٌّ كلمته ، فوقعت المعركة بين الداعين المصلحين والأدلاء الجاهلين ، وانقسم الناس بينهم انقساماً ؛ فكانت بلبلة ، وكانت جلبة ، وكان اضطراب ، ولكن القافلة تمشى ... تمشى على الطريق لأنها أفاقت ، ومن أفاق وانتبه لا يتبع دليلاً جاهلاً

إن هذه النَّبتة على قوتها مختفية بين مئات من الأعشاب الجافة التى بقيت من الموسم الماضى ، إنها ستشق طريقها من بينها وتحيا من دونها ، لأن النبتة الجديدة أمُّ المستقبل : نصيبها الغد ، وتلك الأعشاب بنت الماضى فستذهب مع الأمس إلى غير ما رجعة . إن صوت النهضة الجديدة ، صوت الحق ، ضائع الآن فى الصيحات التى تُدوّى اليوم فى الأسماع صدى للأصوات الماضية لا يلبث أن يخفت ، لأن الصدى ينتهي ، أما الصوت فانه يبدأ

***

هذه النهضة واضحة ، فآمنوا بها يا شباب ، وانظروا إلى الحياة من ناحية الأمل المشرق الواسع لا من جهة اليأس الضيق القاتم

إن شبابنا متشائمون : اقرؤا قصائد الشعراء من الشباب ، إنها مليئة بالآلام ، مغمورة بالكآبة ، غارقة فى الدموع . اسمعوا موسيقى الشباب كلها بكاء ، كلها نحيب : يا لوعتى يا شقايا ، ضاع الأمل من هوايا ... فما لشعرائنا وموسيقينا الشباب لا يرون في الدنيا لذة ولا سروراً ؟ لم يبصرون ظلام الليل ولا يرون بهاء الشمس ؟ لم يفكرون فى وحشة الخريف ولا يفكرون في روعته ؟ لم ينتبهون إلى عُرى الشتاء ولا ينتبهون إلى خشوعه ؟ إن كلّ ما فى الدنيا جميل بهيّ ولكن فى عين الشاب الصحيح القوى . أما المريض ، أما المسلول المحطوم ، فلا يرى إلا الظلام . فياشبابنا داووا نفوسكم من سُل ّ اليأس

***

لقد استدار الزمان كيوم ظهر الاسلام ، واحتضرت الحضارة وكادت تأتى عليها مادية الغرب ، فتذهب بها كما كاد يذهب بالحضارة الأولى تَفَسخ الحكومتين الكبيرتين فارس والروم . إن العالم اليوم بين حجرى الرحا التى تطحن المدنية ، وتتركها هباء منثوراً كما تكهن وِلز . العالم بين مادية الغرب وحياته الحديدية الآلية وروحية الشرق الأقصى وفناء الهنود فى ماوراء المادة ، ولا سبيل إلى النجاة إلا بالنهج السوي نهج الاسلام

فيا شباب المسلمين تجردوا لأداء الواجب ، وإسماع العالم صوت الاسلام

إن هذا الدور الذي تجتازه اليوم أمم الشرق الإسلامى ، يشبه دور البعث « الرونسانس » فى أوروبا ، وعلى الشباب أكبر الوجائب فى هذا الدور

على الشباب واجب علمى هو أن يبعثوا المكتبة العربية القديمة بحلل جديدة ، وأساليب مستحدثة . إن فى هذه الكتب الصفراء علماً جماً ولكنه مطمور تحت أنقاض الأسلوب الماضى . فى كتب الفقه مثلاً ما يستنبط منه القانون الأساسى ، والقانون الجزائي ، والقانون المدنى ، والقانون الادارى ، وقانون أصول المحاكمات ، ولكن هذه الكتب موضوعة على طريقة لا نسيغها اليوم ، ولا نألفها ولا تصلح لنا ولا نصلح لها ، وإن كانت تصلح كل الصلاح فى عهد من ألفوها ، فيجب على الشباب أن ينقطع منهم فئة إلى دراسة هذه الكتب وتفهمها ، ومعرفة ما فيها ، واستخلاص موادّها العلمية ، وعرضها بشكل جديد

إن الأساليب (يا سادتى) أزياء ، وقد تبدل الزي اليوم ، فليأخذ الخياط الماهر هذا الثوب القديم ، وليصنع من قماشه ثوباً جديداً ، على ألاّ يضيع منه خيطاً واحداً . إن من العار أيها السادة أن ترتقي أساليب التأليف فى كل العلوم ونبقى نحن ، فى علومنا ، على ما كنا عليه . إن الذين كتبوا هذه الشروح وهذه الحواشى وهذه التقارير عظماء أجلاء ، لأنهم

أنتجوا شيئاً ، وعرضوه على أحسن شكل بألفه عصرهم ، وليس عليهم من ذنب ، ولكن الذنب علينا ، نحن الذين لا يؤلفون ، ولا يشتغلون ، ولا ينتجون ، وإنما يعيشون عالة على أجدادهم كهذا النبات الطفيلي الضعيف الذي يتمسك بأقدام النخلة الباسقة

***

وإن على الشباب واجباً اجتماعياً هو أن يدرسوا الإسلام ، ويكشفوا عن رأيه في هذه المعضلة الاجتماعية : إن العالم سيضيع بين الاشتراكيين والماليين الفرديين ، ولا طريق إلى النجاة إلا الطريق الأوسط الذي يهبط عن خيالات الشيوعيين وأحلامهم التي لا تتحقق أبداً ، ويترفع عن أفق الماليين الذين يستعبدون الناس بأموالهم ، ويسخرون المجموع لمصلحة الفرد

وإني على يقين أن للإسلام القول الفصل في هذا الباب ، ولكن أحداً من العلماء لم يكلف نفسه عناء البحث عن رأي الاسلام الاجتماعي

وإن على الشباب المسلمين واجباً أخلاقياً ، هو إنقاذ العالم المتردّي في مهاوي الرذيلة التائه في مهامه الظلام . ارفعوا منار الاسلام ، وانشروا مكارم الأخلاق التي بعث نبيكم صلى الله عليه وسلم لإتمامها

أليس من العجيب يا سادتي أن يُسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن المؤمن : هل يسرق ؟ هل يزني ؟ فيجيب باحتمال ذلك ، وإن كان نادراً ، فاذا سئل : هل يكذب المؤمن ؟ قال : لا . أليس من العجيب أن يجعل النبي صلى الله عليه وسلم الكذب ثلث النفاق ، وإخلاف الوعد الثلث الثاني ؛ ثم يكون في المسلمين اليوم أكذب الناس ، وأخلفهم للمواعيد ؟

أليس عجيباً أن يأخذ الإفرنج غير المسلمين أخلاقنا ، فتكون لهم عادة وطبعاً ، ويضيع المسلمون أخلاقهم ؟

أليس عجيباً أن يقول الله في كتابه : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) ، ثم يكون المؤمن أذل الناس في نفسه وأضيع الناس لكرامته ، ويكون المسلمون أمة ذليلة بين الأمم ، لا عزة لها ولا كرامة ؟

فيا شباب المسلمين تخلقوا بأخلاق الاسلام وانشروها بين الناس وانقذوا بها العلم

***

أتحبون بعد هذا أن ألخص لكم المثل الأعلى للشاب المسلم ؟

بسم الله الرحمن الرحيم :

والعصر ، (إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا) بالله وعلموا أنه الأول والآخر ، وأنه المريد القادر ، وأيقنوا أن كل شيء بإرادته ، لا شريك له في ملكه ، ولا شفيع عنده إلا باذنه ولا يعلم الغيب إلا هو ، فلم يغفلوا عنه ، ولم يعبدوا غيره ، ولم يقدسوا سواه ، ولم ينتظروا النفع والضر إلا منه ، وعلموا أن له جنداً لا نراهم وملائكة وجناً ، وعوالم لا نبصرها ، وآخرة وجنة وناراً ، وسموات وعرشاً ... وأنه بعث أنبياء وأنزل كتباً (وعملوا الصالحات) فأدوا حق الله عليهم من صلاة وزكاة وصيام وحج ، وتقربوا إليه بالنوافل والأعمال الحسنة ، وأدوا حق الناس فلم يتعدوا على أحد في ماله ولا عرضه ولا جسمه ، وأدوا حق أهليهم ووالديهم ومن له فضل عليهم ، وأدوا حق الأمة بالسعي في نجاحها وتقوية روابطها العامة ، وضمان مصالحها المرسلة ، والعمل على كل ما يرفع شأنها ، ويعلي مقامها بين الأمم من علم أو فن أو صناعة أو زراعة ، أو وعظ وإرشاد ، أو تعليم وتهذيب ، (وتواصوا بالحق) ، أوصوا به نفوسهم ، ووصوا به غيرهم ، وتحروه في أمورهم ، فكان الحق إمامهم ودليلهم ورفيقهم وقائدهم ولم يكونوا من أنصار الباطل أبداً ، فلا يقبلون من المبادىء والعلوم والفنون إلا ما هو حق لا باطل فيه (وتواصوا بالصبر) على أداء الواجب وعلى التواصي بالحق ، واجتناب الباطل والابتعاد عن الرذائل مع منازعة النفس إليها ، وإقبالها عليها . هذا هو المثل الأعلى للشاب المسلم : إيمان كامل لا شرك فيه ، وتصديق بكل ما جاء من عند الله على مقدار ما جاء عند الله ، وعبادات منزهة عن البدعة ، وعمل صالح ينفع الفرد والمجموع ، ودعوة إلى الحق وتمسك به ، وصبر على تحقيق هذا المنهج ، وأداء هذه الواجبات

علي الطنطاوي
المدرس في كلية بيروت الشرعية

مهداة إلى جماعة دار العلوم العليا بمصر

حلم !

في ملتقى العواصم

للأستاذ عبد المنعم خلاف

من مبلغ عني تلاميذ علم الاسكندرى ومحبي شعر الجارم بمصر أنى ظفرت بما لم يظفروا به وشهدت ما لم يشهدوا ... ؟ شهدت شيخ الأدب العباسى أستاذنا الجليل ومؤدب الجيل الشيخ أحمد الاسكندرى المتليّ بدنيا بغداد — يدب على أديم بغداد « ملتقى العواصم » ويناقل الخطو على مواقع أقدام الجاحظ ... وعلى فمه ابتسامة عريضة شفافة أعرف معناها معرفة التلميذ معانى أستاذه . هى ابتسامة للأرواح والأطياف التى تطفر من رأسه الكبير لتعيش فى جوها وملاعب وجودها الأول ... أو هى ابتسامة الحاج إلى كعبة فكره ومعالم أنسه الروحى

ويشهد الأدب أني حين أدرس « العصر العباسى » فى كلية دار العلوم بالأعظمية أو المدرسة المتوسطة الغربية ، أستحضر صورة مجلسه فى دار العلوم بمصر وإيمانه بهذا العصر وامتلاءه من علومه وآدابه وأخباره ؛ ويشاء الله أن أراه فى بغداد لأحظى بالصورة الكاملة للعالم والمعلوم

ومن مبلغهم أخرى أنى رأيت للمرة الثانية قلب شاعرنا الموسيقى المثل على بك الجارم يرقص على الأجواء التى رقص عليها قلب النواسي والبحترى وابن الرومى وأبى تمام ... فى الضوء الذى بنوا منه أبياتهم الخالدة ... ويسكب فى أسماع أحفاد بابل سحر بابل ... من الخمر التى عتقت ألفاً فى دِنانٍ من الأذهان . حادرة من إبريق إلى إبريق حتى رأيناها شيِّقةً ريِّقةً مترقرقة فى فيه... ويهمس فى أذن دجلة الراقدة ، بصدي الأصوات البعيدة التي رفّت عليها أيام أن كانت حدائقَ وبلابل وظلال بنود ، ومعسكر جنود ، وسوامر إنشاد ، وملتقى كل واد ... وفى عينيه بريق وتحديق إلى السماء التى أوحت بكواكب الأشعار إلى مفرغى قلوبهم فى قلبه ، وباسطى أجنحتهم على خياله ... ؟!

إنى رأيت ذلك كله ... وكان لا بد لى منه ... كان لا بد من الاسكندرى فى دار العلوم العليا بمصر حتى أعرف العراق فى عالم الفكر ذى الوقود الأبيض ...

وكان لا بد من الجارم حتى أعرفها فى عالم القلب ذى الوقود الأحمر ... وكان لا بد أن أراهما معاً فى بغداد حتى تتم الصورة ويشبع الخيال الجائع فيمزج الثلج بالنار !

ولقد سمعت الجارم العام الماضى فى رثاء الزهاوى ولكن جو الرثاء لم يكن طليقاً أمام هذا الطائر الصداح

ثم كان صباح المؤتمر الطبي العربى فى « بهو أمانة العاصمة » ببغداد ، وجلس شاعرنا قلقاً فى مجلسه من فيض شعوره « بجو الساعة » الذى قذف فى قلوب الجميع ، حتى أبناء العلم والمخابير والمباضع ، شعلة الشعر والاحساس بالتاريخ الذى يسير فى الدم .. والحاضر الذى يخلق الثقة ، والمستقبل الذى ينادى إلى العمل .

وجلس الإسكندرى يتفرس ويقلب الصور ويستحضر البعيد ... من ابن سينا والرازي والزهراوى ، وجلست أرقبهما وأرصد طرفى عليهما وأتسلل بقلبي إلى قلبيهما فيرجع بالذكرى بعيدة وقريبة .

ثم ابتدأ الجو الروحى بكلمة فخامة رئيس الوزراء جميل بك المدفعى التى يستجل بها ويقول — وهو رجل مسئول — « ولا شك أن وحدة النزعة العلمية والأدبية هى فى الوقت ذاته تمثل وحدة الفكر والرأى بينكم وتؤلف منكم أخوة من أمة واحدة عبثا حاولت الحدود والحواجز أن تفرق بين قلوبكم وأهدافكم ... »

ثم يقف بعد فخامته الدكتور شوكة الزهاوى رئيس الجمعية الطبية العراقية فيقول : « إن من جملة ما يقوم به هذا المؤتمر من الأعمال الصالحة هو توحيد صفوف أطباء العرب وجمع آرائهم حول مكافحة الأمراض ومعالجتها بالطرق الفنية فضلا عن أنه يقرب الأقطار العربية من بعضها ويبعث على تكاتفها وتعاضدها فى مختلف النواحى الحيوية ، وأعد هذا المؤتمر خطوة مباركة منبعثة من الشعور المتقابل ونتيجة من نتائج الثقافة العامة التى أخذت تتغلغل فى بلادنا العزيزة وفاتحة عهد حافل بالأمانى السامية ... »

ثم يعقبه سعادة على باشا ابراهيم بخطابه الجليل الذى يقول

فيه : « ولعمرى إنه لأسبوع مبارك ميمون الطلعة بوقوف الأطباء فى بغداد إبان وقفة الحج فى عرفات نفسم إلى دعواتهم المتصاعدة إلى السماء فى رحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) دعاءنا أن يبسط على بلاد الناطقين بالضاد ظل رضاه ونعمته وأن يوطد بالاتحاد سؤددها وبالعلم عروشها ويغمر بالسلام والصحة ربوعها »

ثم يقف الدكتور كامل رجيمة فيرفع صوت سورية العربية المجاهدة العاملة بقصيدة عصماء برهنت على أن حرفة الأدب تتسلل دائماً إلى كل مهنة فى سورية

***

ثم وقف الجارم يرسل قلبه فى صوته المعهود الذى يخيل إلىّ أنه كله هاء عميقة ... من فرط الشجو وإثارة النفس واستحضار المعانى الكامنة التى لا تظهر وتستعلن إلا إذا تلا لها ساحر رُقْيَة ... أو عزف لها عازف برَنَّة ... أو شدا لها شاد بحَنَّة ... أو خيل لها مخيل بريشة ...

ووقف يقلب وجهه فى السماء والأرض والجهات الأربع فى قلق وغيبوبة شاعر ... ويمسح على أبصار الجمع بحركاته ويرسل نشيده ، فيخيل إلينا من سحره أن كلماته أجسام تسمى ... أو أمواج تطغى على قلوبنا فتملؤها بالذكرى الجادة ، ثم بالفخر النافخ ، ثم بالضحك المرسل ، ثم بالعزم الممرّس الدافع ، ثم بالأمل القريب ، فيخرج الدكتور زكى مبارك — طبيب ليلى المريضة بالعراق — عن طوره وعن حدود وقار الحفل فيستعيد ويطلب المزيد وبخاصة إذا جاء بيت فيه ذكر « الحسان » ووعود الحسان

ثم ينتهى الحلم السعيد بجوه الروحى وقلوبنا راقصة وأكفنا دامية ؛ ويقبل الأدباء والأطباء على الجارم يطلبون منه ثمن دواء للأكف المتسلخة والقلوب الجريحة ... ويقبل « طبيب ليلى » فيطبع على خديّ الجارم بك قبلتين ذواتى رنين أدار الأبصار إلى مصدر ضجتهما ... ثم ينقلب يفخر علىّ بأنه نال بهما ما لم أنلْ ... ثم يرتد إلى الجارم بك يبشره بأنه من أول الداخلين إلى الجنة جزاء خدماته بشعره للغة القرآن ... ولله فى الدكتور زكي شؤون !

***

وكنت أرقب خلسة وجهى طبيبين أوربيين أخذا مجلسهما بجانبى ، يستمعان فى غير فهم إلى ما يقال ، ويريان صداه صفق كف بكف وتلاقى هتاف بهتاف فأعرف ما يقول قلباهما الفقيران جداً إلى الشعور بمثل هذه الأخوة الملموسة المعانة بين أبناء الشرق الإسلامى ...

هنا الأخوة من غير دم ... والواشجة من غير نسب ... والحب من غير غرض ... والتفدية من غير ثمن ... والتلاقى من غير رياء ... والكلام من غير تخبيء يا أوروبا !

هنا التاريخ لا يزال واحداً فى العقول والقلوب والألسنة والأهداف حتى فى وحدة الأمراض ! كما يقول الدكتور شوكة الزهاوى

***

خذاها منى يا أستاذَىَّ تحية فى نشوة الذكرى وسكرة الآمال أنا اليقظان أبداً ... الساهد القلب أبداً ... العائش في التاريخ أبداً ... تاريخ المجد والحياة ! ومعكما السلامة

« بغداد » عبد المنعم خلاف

فلسفة التربيـــة

كما يراها فلاسفة الغرب

الناحيتان الاجتماعية والنفسية

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ١٠ —

« لا يعيش المرء بالخبز وحده »

« الانجيل »

« إن عقل الرجل ليضيق ، وإن مشاعره إزاء غايات الانسانية لتتحجر إذا ما قصر فكره على الحشرات ، أو المعادلات الجبرية ، أو تدبيب أسنان الدبابيس ! »

« جون ستيوارت مل »

« لا كمال إلا باتحاد الجهد والشوق ، وهنا يكون المرء سابحاً «مع» التيار ؛ أما الشوق دون ما جهد فطفو فوق التيار، كما أن الجهد دون ما شوق سباحة ضد التيار »

« هورن »

رأيت فى المقال لآنف ما تستطيع أن تستفيده التربيــة من علمى الحياة ووظائف الأعضاء . وسترى اليوم فائدتها بالمثل من علمى النفس والاجتماع

الناحية الاجتماعية

وتتلو هذه الناحية ناحية الفسيولوجيا . والتربيــة هنا هى الأسلوب الذى يجعل الفرد مشاركا فى حياة الجنس ، ويعنى بعلاقته مع غيره من أعضاء الجماعة ومثلهم العليا . وعناصر هذه الناحية ثلاثة : الإدراك والوجدان والنزوع ، أى الحق والجمال والخير .

١ — أما « الحق » فسبيله « العقل » الذى يبدأ بالمحسوس وينتهى بالمعقول ، والذى تشمل علومه « الموضوعيــات » و « الذاتيات » على السواء . وتعرفنا هــذه « العلوم » بالعالم وتشجعنا على البحث وتحررنا من الأوهام . فدراسة الطبيعة مثلا تقوى فينا « الملاحظة » و « الاسـتقراء » وبعد « النظر » و « التجويد » ، وتمكننا من السيطرة على القوى الطبيعيــة ، وتنتهى بنا إلى فكرة « الوحدة » التى يندمج فيها الكون كله . ودراسة الرياضة تعطينا كما يقول المسيو Berthelot : فكرة واضحة عن « القياس » ، وتنتهى بتفكيرنا إلى نتائج مؤكدة ، وتبث فينا احترام الحق ، وتقدم لنا أكبر أداة للبحث الدقيق فى علوم الطبيعة . أما الفلسفة والأخلاق واللغة والفن والدين فقيمتها جميعاً عظيمة إلى أبعد حد وإن خلت من النفع المحسوس كما يتهكم دعاة « الخبز » ! ؛ ألم يقل الإنجيل « لا يعيش المرء بالخبز وحده » ؟ أو لا ترتفع هــذه العلوم بالمرء إلى عليين وتجعله فوق البشر ؟

٢ — وأما « الجمال » فسبيله العاطفة ويشمل الفن والدين . والجمال المحسوس وحدة تسيطر على كثرة ، وتبدو فى مادة تجسم معنى . وأرقى الفنون هو « الأدب » ، وأرق ما فى الأدب « الشعر » ، والعلاقة بين الفلسفة والأدب هى أن هذا يعبر عن الحياة بالإلهام ، وتلك تعبر عنه بالنطق ؛ كما أن العلاقة بين الفن والدين هى أن هذا تعبير عن الشعور إزاء الشىء الإلهى ، وذلك تعبير عنه إزاء الشىء الجميل . هذا وقيمة الفنون فى التربية عظيمة بحيث لا سبيل إلى إغفالها . أليس الإحساس بالجمال أمتع شعور يستطيع أن ينعم به العقل ؟ أو لا يمدنا ذلك الإحساس بقوة سامية تعيننا على الرفعة فى الحياة ؟ أو لم يعترف « دارون » بطل التاريخ الطبيعى المشهور فى مذكراته الخاصة : أن انكبابه على « العلم البحت » قد أفقده لذة ذلك الشعور العظيم بالجمال ؟ أو لم يصرح بأنه لو ارتد صغيراً لأخذ نفسه كل يوم بترتيل قصيدة من الشعر ، وسماع لحن من الموسيقى ، ورؤية آية من آيات الفن لئلا يفقد على مر الزمن أسمى شعور بالسعادة يتاح للإنسان ؟ وكذلك قيمة الدين فى التربية عظيمة ولاسيما فى هذا العهد المادى الجشع الذى يملأ الإنســان عتواً وغروراً . ذلك أن الشعور الأساسى فى الدين هو الضعف والاعتماد ، ويؤدى ذلك بنا إلى الاحساس « بالجوهر الخالد » فى أمثل صوره وأعظمها ، وإلى الفناء فيــه والرضا بقضائه وقدره فيسهل علينا احتمال الحياة ، ونقدم على الكفاح فيها بقوة وبأس وإقدام . ولـكن لما كانت دراسة الدين فى المدارس تؤدى أحياناً إلى نزعات وعصبيات

طائفية ، فان الأمل فى « المعلم » وفى لباقته وحسن منزعه لم يزل كبيراً . ذلك أنه يستطيع أن يكون أمام التلاميذ « نبياً » لا شيخاً ولا حاخاماً ولا مطراناً !

٣ — وأما « الخير » فسبيله « الارادة » ويشمل الأخلاق والقانون والنظم والدساتير والتاريخ . ويرى « هيجل » أن هذا الأخير (التاريخ) « هو النحو الذى يكافح به الحق على مسرح الحياة ، والذى تحقق به إرادة الانسان إرادة الله » ؛ أما الدساتير فهى إرادة الأمة ممثلة فى وثيقة ، وأما القوانين فهى إرادة الجماعة فيما يخص خيرها العام [1] ، وأما الأخلاق فهى كلمة الضمير فيما يخص قدر الانسان وأعماله مع الناس ، ومجال الحرية فيها أفسح وأسمى من مجال القانون ... وقيمة هذه العلوم فى التربية عظيمة أيضاً ، إذ بهـا يعلم الناشىء مركزه فى الجماعة ويدرك أنه غاية ووسيلة معاً ، كما أنه يستمد من التاريخ ملكة الحكم الصحيح ويملأ ذاكرته وخياله بحوادث فريدة ومثـل عليا وبطولات فذة ؛ وهـذا وغيره يجعله عضواً اجتماعياً يفهم ما له وما عليه ، ويصدر أحكامه الخلقية والدستورية على المواقف المعقدة التى تعرض له فلا يكون مجرد « إمعة » يصفق لكل متكلم ، ويتشيع لكل كاتب ، ويعبد ما لا يستحق أن يعبد ، ويتغير ويتحول بهبوب العواصف الطبيعية أو المصطنعة ... ! كما أنه يجعله طامحاً أبداً إلى أن يكون بطلاً هو أيضاً ، فيقف موقف الجهاد الذى وقفه « وشنطن » ، أو يصرخ صرخة الحق التى صرخها « سعد زغلول » !

وأما فائدة الجماعة ذاتهـا من التربية فلا تكاد تقدر — إذ هى تحفظ لها « الماضى » وتصونه كالحارس الأمين [2] كما تستطيع الأجيال أن تبنى عليه لتعليه ، وهى تصون الحاضر وتسعد أهله وتقوى الرأى العام كما قال الزعيم وشنطن ، وتحرر الناس وتضمن لهم حكومة صالحة . ثم هى تمحو الإجرام أو تقلله بفضل تنميتها للشعور والإرادة والمسئولية ، وبفضل تحويلها النزعات الشاذة إلى نواح أخرى صالحة ، وتقويتها الشعور ضد الإجرام . يقول الأستاذ « فالكنر » إن الإجرام يقل فى الأمم المتمدنة من حيث معناه الأدبى ، فإن وجد بعد ذلك إجرام بالمعنى القانونى فإنما مرجعه ظروف أخرى تقتضى الإصلاح والتعديل [1] ؛ وأخيراً تضمن التربية مستقبل الجماعة إلى حد كبير . أليس الإبقاء على الماضى الجدير بالإبقاء تحسيناً للمستقبل ؟ أو لا يزيد امتلا كنا للطبيعة كل يوم بفضل ما ندخله على الماضى من تحسين ؟ أو لا توجد علوم الطبيعة عملاً لملايين العمال ؟ أو لا تخرج لنا أولئك العلماء الأفذاذ يخضعون البحر والجبل والهواء لإرادتنا ؟ ثم إذا كانت التربيـة لا تخلق عبقرية الفنان أو العالم أو الفيلسوف أفليست تصيدها بشبكتها المحكمة ؟ أو ليست تمدها بمادة الإزهار والإيناع ؟ [2]

وإذاً فالتربية فى هذه الناحية الإجتماعية ، كما يقول الأستاذ هورن : « هى أحسن وسيلة للملاءمة بين الفرد وبين البيئة العقلية والعاطفية والإرادية »

الناحية النفسية

وأما هذه الناحية فتبحث فى طبيعة النشاط العقلى ، وفى نوع النمو العقلى ، وفى صفات العقل النامى :

١ — فمن حيث طبيعة النشاط العقلى : يرى الجميع أن العقل أساس الإدراك والوجدان والنزوع ، وأنه لا ينمو بغير عمل كما هو الشأن فى كل شىء ، وأنه مرتبط فى نموه بنمو الجهاز العصبى وبدرجة احتكاكه بالوسط حوله ، وأنه يحتاج فيما يتعرض له من تقليد وشوق وجهد إلى رعاية حتى يكون نموه كاملاً . فمثلاً يجب أن يرى الطفل مُثلاً حسنة يقلدها ، ويجب أن تكون المدرسة آية فى النظافة والنظام والجاذبية والجمال حتى يرتاح إليها ويعمل بتعاليمها ، ويجب أن تكون شخصية المدرس قوية تحمل

(١) ويكون علم القانون مع علم الدستور علم السياسة

(٢) ويقول فيلسوف : « إذا هدم صرح العلم الذى أقامته الانسانية فى قرون طويلة فلن يستطيع أحد إعادة بنائه سريعاً سوى الله تعالى »

(١) ومن هنا كان ماينفق على التعليم يعوض فى نواحى المحاكم والسجون والمستشفيات والاصلاحيات وغيرها

(٢) أثبت الاحصاء أن الخالدين من رجال الجامعات أكثر من غيرهم . فمن كل أربعين جامعيا يخلد رجل واحد بينا لا يخلد من كل ألف من غير الجامعيين غير واحد . وكل خريج جامعى يعادل ٢٥٠ رجلا عادياً (أنظر كتاب هورن فى فلسفة التربية)

النشء على احترامها وحبهـا والأخذ منها [1] ، هذا من حيث التقليد الذى هو إعلان للنفس يؤدى إلى الاستقلال

أما من حيث الشوق فيجب أن يكون موضوع الدراسـة مثيراً لرغبة الطفل وحافزاً لاهتمامه ، لأن ذلك كما يرى الأستاذ « شيرمان » أهم كلمة فى التعليم . وأضمن سبيل لإثارة الشوق هو المدرس نفسه إذا كان محباً لمهنته ومتحمساً لمادته . وأما من حيث الجهد — وهو ما يبذله المرء فى عمل لا يساير شعوره — فيجب — لتقويته — غرس الآمال العـذبة البعيدة فى نفوس الناشئين ، ويجب تعويدهم مخالفة أهوائهم فى أمور طفيفة كل يوم حتى تكون لديهم المناعة الكافية ضـد كل إغراء دنئ . ويجب التوفيق بين الشوق نفسه والجهـد بحيث يصبح الأول كالنسيم الذى يهب على سفينة حياتنا أحيانا ، ثم ينحرف عنها أحياناً أخرى ، فيقوم لنـا الجهد حينئذ مقام المجاديف التى توصلنا إلى البر سالمين ، ولنعتقد أبداً أن الـكمال كائن فى اتحاد الشوق والمجهود حتى يكون المرء سابحاً « مع » التيار لا فوقه ولا ضده ...

٢ — وأما من حيث نوع النمو العقلى فقد أثبت علم النفس أن هناك مراحل تجب رعايتها فى حلقات التربية والتعليم حتى يكون النمو سليما . فالطفولة مثلاً تمتاز باللذة والألم وتزعزع الإرادة . وإذاً فلتكن التربية هنا حسية بحتة كثيرة التسامح واللعب . وفى الشباب الباكر تنمو الصداقة والحب ، والطموح وروح الاجتماع ، وإحساس الخير والجمال ، كما تتذبذب الأخلاق وتسود العاطفة . وإذاً فلتكن الدراسة هنا مليئة بالتاريخ الطبيعى ، والسياسى ، وبالقصص السامى ، وبكل ما يؤدى إلى سرعة الحكم ودقته ، وإلى كل ما يتسامى بالعواطف والغرائز ويغرس روح المحبة والتعاون ، وبرشد الناشئ إلى كيفية حماية نفسه مما يتعرض له من عادات سرية وسقوط خلقى وانهيار جنسى ... (وإن كان لا يزال هناك من يعتقد أن التحدث فى مثل ذلك للشبان وقاحة وفسق ..!!) ؛ وفى الشباب المتأخر تتمركز الشخصية ويستقر العقل وتسود الوحدة . وإذاً فلتكن الدراسة هنا مرتقية إلى نظرات كلية جامعة لقوانين الوجود العامة ... ويتلخص هذا كله فى أن الطفل « يرى » ، والشاب الباكر « يفهم » ، والشاب المتأخر « يتأمل ويحكم »

٣ — بقيت صفات العقل النامى ، ويمكن إيجازها فى أن التعليم نشاط وخلق لا تسلم وقبول ، وتأمل وتفكير لا وعى وحفظ ، وقوة معرفة أكثر منه معرفة فحسب : حواس مرهفة ، وعقل واسع المدى راغب فى المعرفة برىء الاتجاه ؛ وحب للحق المجرد عن التدجيل والتهويش ؛ ومعرفة بالعالم لا تترك شيئاً فيه خرافياً ، وإحاطة بالنفس بعد الاحاطة بالعالم ؛ وخيال يقدم الفروض للعلم والابداع للفن ، والاحياء للتاريخ ؛ وحكم مدرب حصيف عام النظرة منطقى الخطوات ؛ وذوق جميل مهذب يدمج الانسان فى الكون ويجعله جميلا فى كل شىء ؛ وشعور أخلاقى راق يدرك الخير والشر ، ويحكم على الخير والشر ، ويلوح بساعد الارادة القوية أمام كل إغراء حقير ؛ وحب للعمل وتلذذ به ؛ وإحساس بالسعادة يمتلك قوى الشخص جميعاً ويجعله يعيش هانئاً مطمئناً حى الضمير حر الارادة جرىء الجنان ؛ واتفاق مع السماء واطمئنان للنهاية المحتومة التى تنقلنا من عالم ناقص إلى عالم كامل . هذا إلى تواضع نزيه ، وعشق لأحسن ما فى الحياة كله حماس ؛ ووفاق تام مع النفس لا يترك فى الشخص أدنى نزاع ؛ وتعليم للغير هو رسالة النور تبدد ظلام الحياة ؛ وحياة تفنى النفس فى الـكون لا الـكون فى النفس ، ولا تشغل المهندس أو الطبيب عن نواحى العيش الأخرى بما فيها من خير وجمال ...

يقول « هكسلى » : « للرجل المثقف جسم خاضع لارادته ، وعقل صاف متئد القوى سهل العمل ملئ بما فى الطبيعة من حق عظيم وقوانين كلية . هذا إلى امتلاء بالحياة المنسجمة الخادمة لضميره الحى ، وإلى حب للجمال وكره للقبح ، وإلى احترام للنفس وللناس ، وإلى وفاق تام مع الطبيعة يفيدها فيه ويستفيد منها ، ويسير معها كوزيرها أو ترجمانها وهى كأمه الحنون »

وتكون التربية هنا هى « الملاءمة بين الرجل التام النمو الجسمى والعقلى ، وبين بيئته العقلية والعاطفية والارادية » [1]

(١) قال القديس بطرس للمسيح عليه السلام : « إلى من تذهب أيها الأب الأقدس ؟ إن كلامك فى الحياة كلام الخلود »

(١) أنظر كتاب الأستاذ هورن فى فلسفة التربية ، وقد اعتمدنا عليه فى هذه المقالة والمقالة السابقة اعتماداً كبيراً

أصالة التربية

بقيت كلمة صغيرة نختم بها هذا البحث الذى مهدنا به لنقد التربية فى مصر ، وهى كيف تفسر الفلسفة إمكان التربية من الناحية الميتافيزيكية ؟ يقول « كانت » في كتابه عن التربية : « إذا تدخل مخلوق أرقى منا فى تربيتنا فلسوف نرى إلى أى مستوى يبلغ الإنسان ، وإن الإنسان لا يصير إلى ما يستطيع أن يكونه إلا بالتربية . كما تسأل : أين هى النفوس التى فطرها الطبع على الشر حتى تبقى مستعصية على حزم أم رحيمة وسلطة أب محب ؟ » . فترى هل يقوى المدرس حقاً على التأثير فى الناشئ ، أو بالأحرى هل الإنسان « حر » حتى تصلحه التربية ؟ أما العلم فيقول « بجبرية » المادة وباعتماد العقل — وهو أساس التربية — على « مادة المخ » ... فكيف إذاً نستطيع تغييره ؟ ينقذنا الأستاذ « هيزنبرج[1] » فيقول : « إن « جبرية » المادة نفسها موضع شك لأنا لانستطيع التنبؤ بحالة « الأتوم » المستقبلة إلا بمعرفة مركزه وسرعته في لحظة واحدة . وذلك محال ... ومع كل فها هو الإنسان قد خلق لنفسه دنيا واسعة عريضة من التأمل ، وبما يخلقه وتطور وتغير ، وخرج على ما قد خاله « قانوناً » ، مما يثبت أنه « حر » بالفعل . وإذا قال قائل : إن العالم يسير وراء « غاية » خفية ، وإن الإنسان لجزء منه مضطر أن يحقق « مجبوراً » هذه الغاية ؟ سألنا : وهل تمنع « حريته » من تحقيق الغاية الكبرى إذا كانت هذه الحرية محدودة بحدودها الخاصة ؟ إن القول بالغائيـة والجبرية الضيقتين يجعل الإنسان مجرد ألعوبة ، ومسؤوليته الخلقية مجرد تناقض محزن . يقول برجسن فى كتابه[2] : « الحريه تجربة راسخة وإن كان الفكر ينكرها »

(يتبع) محمد حسن ظاظا

مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية الأميرية

***

يسرنى أن أسجل هنـا شكرى « للرسالة » الغراء على تكرمها بافساح صدرها لهـذا البحث المتواضع ، وأعدها وأعد القراء الكرام بتطبيق الحقائق الآنفة على التربية فى مصر ابتداء من العدد القادم إن شاء الله ، وأرجو كل من يريد أن يتكرم على بملاحظة ما أن يكتب إلى على مدرسة شبرا الثانوية الأميرية للبنين

(١) أنظر كتاب Attlee في « الفلسفة في نظرية التربية »

(٢) أنظر كتابه Les Donnèes Immed. de La Cone.

موت سقراط

La Mort de Socrate

للشاعر الفرنسى الكبير لامارتين

ترجمة السيد احمد عيتانى

تذكر لنا الرواية اليونانية أن سقراط حينما حكم عليه بالموت أشار عليه أصدقاؤه بمغادرة أثينا والنجاة بنفسه ، فأبى عليهم ذلك ، وآثر الموت على الفرار . ولما قدمت إليه كأس السم تجرعها بجرأة ورباطة جأش ، ولم يكد يفرغ من تناول مافيها حتى أجال نظره بين أصحابه ، فلمح عبراتهم تتساقط على وجناتهم حزناً عليه ، وألماً لما حل به ؛ فآلمه هذا المشهد ، ووقف فى أصدقائه خطيباً وهو فى نزاعه الأخير ، يشرح لهم الموت ونظرته إليه ، ويطلب إليهم أن يكفوا عن البكاء . وقد نظر الشاعر الفرنسى الكبير لامارتين إلى هذه الرواية ، فنظم حوادثها فى شعر يفيض رقة وعذوبة وجمالا وسلاسة ، وجعل عنوانها « موت سقراط » . وفيما يلى خطبة سقراط بعد تجرعه السم ، وهى من أروع ما جاء فى هذه القصـيدة الفذة « أحمد عيتانى »

ماذا ؟ ! أتبكون أيها الأصدقاء ؟ !

أتبكون وقد تحررت روحى من أثقالها الجسدية الدنيئة

فهى كالبخور تحرقه الكاهنة

على وشك الطيران نحو الآلهة ؟ !

أتبكون أيها الأصدقاء

حينما ترحب روحى بهذا اليوم الطاهر

الذى كانت تطمح إليه ؟ !

حينما توشك على السفر فى رحله مقدسة

تبحث فيها عن الحقيقة

فتعثر عليها ، وتتعرف إليها ؟ !

***

إذاً علام الحياة إذا لم يكن مصيرنا للموت ؟ !

علام أحببت الألم فى سبيل العدالة ؟ !

علام كانت نفسى الحبيسة

تقاوم حواسها وميولها الدنيئة العنيفة

أثناء تلك الميتة التى تسمونها الحياة ؟ !

ماذا عسى تكون الفضيلة بغير الموت أيها الأصدقاء ؟ !

ذاك ثمن المعركة ، ذاك تاج سماوى

يمنحنا إياه حكم زكى فى نهاية المرحلة

***

إن صوت جوبيتر يدعونى إليه
ألا فلنقدسه أيها الأصدقاء
فإنى أستمع إليه الآن !
لقد كان بوسعى ، لو رغبت فى بقية من الأجل
أن أحمل السماء على ترديد ندائها إلىّ .
ولكن ، لِتحفظنى الآلهة من هذا !
فأنا حين تدعونى إليها ألبيها عبداً مطيعاً !

***

وأنتم أيها الأصدقاء : إذا كنتم تحبوننى
فأريقوا على رؤوسكم العطور ،
شأنكم فى أبهج أعيادكم ،
وعلقوا على حائط سجنى قرباناً ،
ثم خذوا بيدى نحو ذراعي الموت ،
وقد توجتم جباهكم بأطواق الرياحين
كما يؤخذ بيد العريس الشاب إلى سرير زفافه ،
وقد أخذت الجموع المتدافعة
تنثر أمامه الأزهار ، أمام عتبة عروسه !

***

وبعد ، فما الموت ؟ إن هو إلا تحطيم هذه العقدة الدنسة ؛
إن هو إلا فسخ هذا الاقتران الشائن بين الروح والأرض ؛
إن هو إلا إزاحة عبء ثقيل نرى به فى القبر !
إن الموت انتقال أيها الأصدقاء ، وليس فناء !
والإنسان ما دام رازحاً تحت هذا الجسد المقيد به
يزحف بعناء عظيم نحو الخير الحق .
وما دامت رغباته السافلة تقطع عليه هذا السير
فسيسير وراء الحقيقة بخطوات راجفة ، وربما أضاعها أيضاً !
ألا إن من يصل إلى آخر حياته التي يرجوها
ويبدو له شعاع فجر يومه الأبدى
ليعودُ ثانية نحو السماء ، وكأنه شعاع من أشعة السماء !
ويرتدُّ ثانية إلى جوار الآلهة ، بعد ما أُقصى عنها
حيث يحتسي بشَرهٍ ذلك الرحيق المسكر
ويبدأ حياته من ذلك اليوم الذى يقضي فيه !

***

ألا إن الموت ألم ، والألم شر أيها الأصدقاء !
ولـكن ما يدرينا ذلك ؟ !
ولو كانت ساعة الموت الرهيبة
ساعةً يتألم فيها جسمنا الفانى
كما تتألم الضحية الذبيحة
أو ليس عن الشر يصدر كل الخير ؟ !
إن الشتاء ليتمخض عن الصيف ، وإن الليل لينكشف عن النهار !
لقد وضع الله تعالى بنفسه هذه السلسلة ،
ونحن ، وقد جئنا إلى هذه الحياة على الرغم منا ؛
فليست هذه الميتة الهائلة التى يرهبها ضعاف النفوس
إلا ابتداء حياتنا فى العالم الخالد !

***

ولـكن ، أيكفى أن نموت لنبعث ثانية ؟ !
لا ! بل يجب أن نحرر أنفسنا من نير حواسنا
ونعملَ لنصرتها على ميولنا الفانية !
يجب أن تـكون حياتنا هذه موتاً طويلاً !
إن حياتنا معركة ، والموت انتصار لنا فيها !
إن الأرض لدار يطهر فيها الإنسان نفسه ؛
فعليه ، وهو فيها على عتبة الموت قد تجرد عن حواسه ،
أن يقذف إلى النار بثوبه الدنس
قبل أن يتقدم بروحه ، ضحيةً طاهرةً
إلى الآلهة الزكية فى الدار الصالحة !

***

إنهم (الأشخاص الصالحين) يلحقون بالأبطال والآلهة لدى الاشارة الأولى !
يلحقون بهم فى السماء حيث لا يوجد موت !
إنهم يلحقون بهؤلاء الذين دمروا شهواتهم إبان حياتهم القصيرة
فأخضعوا المادة للعقل وأذلوها له .
هؤلاء الذين خضعوا للشرائع والقانون ،
وأصغوا إلى صوت ضميرهم الداخلى ،
واتبعوا طريقاً سوياً بعيداً عن الناس ،
وخدموا الآلهة وعبدوها ، وفى ذلك أصل الفضيلة ،
وأحبوا الحقيقة ، وتألموا للفضيلة ،
فاستمادوا حريتهم من الآلهة ابنة السماء

احمد محمد عيتانى
عضو بعثة جمعية المقاصد فى معهد التربية

١٠ • ٢٠

الترجمة
خطرها وأثرها فى الأمم المختلفة
للدكتور عبد العزيز عزت

٢ - عند الرومان

ونجد أثر الرواقيين والأكاديمية الجديدة فى كل كتبه الأخرى وعلى الخصوص فى « غايات الخير والشر » وهو أهم كتاب لشيشرون بإجماع مؤرخى الفلسفة ، ويشرح فيه الأخلاق النظرية ، وهى ترتكز على حرية الإرادة التى تتضمن سياسة النفس الفردية وانسجامها مع منطق المجتمع البشرى ، وتفهم إرادة الوجود العالى الذى فيه الإنسان جزء بسيط فى مرتبة الكائنات المختلفة التى تتسلسل في درجات متصاعدة حتى تبلغ القداسة السماوية . كذلك فى كتابه الواجبات ويشرح فيه الأخلاق العملية معلناً أن مغريات الحياة الخارجية أعراض زائلة يجب الزهد فيها ، ويجب التماس النافع منها لتقوية روح الإنسان لفعل الخير ومقاومة الشهوات الجامحة والانفعالات الثائرة ، كى يصل الإنسان إلى تلك الجنة النفسية الداخلية التى يصورها الرواقيون فى تفكر الفلاسفة والحكماء ، وكذلك فى « طبيعة الآلهة » حيث يعرض للإلهيات والطبيعة . وبينما يتأثر فى الجزء الأول منها بأبيقور ومذهبه فى اللذة فى مجال الأخلاق وفلسفة الطبيعة عامة ، يتأثر فى الجزء الثانى بفلسفة الرواقيين من حيث خلق العالم وترتيب نظامه وعناصره ومخلوقاته ، ثم هرمه وتناقصه حتى المبدأ الفطرى الأول حيث تحصل الطهارة ويخلق العالم من جديد وتتم دورة نظامه . وهو أهم هذه الأجزاء لأنه يبسط آراء كرزيب وكليانت ، وفى الجزء الثالث يحدثنا كوتا عن آراء أرسطو

وبجوار ذلك ترجم شيشرون الكتب الآتية من أولها لآخرها وهى كتاب لزينوفون ، (ولقد ضاعت هذه الترجمة) وكتاب البروتا جوراس لأفلاطون وهى من كتب عهد الصبا حيث يتأثر أفلاطون بتعاليم سقراط الأخلاقية إذ يتساءل فيها عن صفات الفضيلة : أهى طبيعية فينا أم هى مكتسبة بالتعلم والتمرين والعادة ؟ (ولقد ضاعت هذه الترجمة)، وترجم لأفلاطون كذلك كتابه العظيم الخالد ، الذى يلخص كل فلسفته وكل العلم اليونانى حتى زمان أفلاطون وهو كتاب « طيماوس » وفيه يتكلم أفلاطون عن رحلاته وعن روح العالم ، وكيف تتوسط بين الخالق الفنان وبين سائر المخلوقات التى تنتظم فى ترتيب يحقق جمال عالم المثل . وبعد أن يعرض لطبائع المخلوقات بالتفصيل مبتدئاً من الله ومعقباً بالعالم السماوى ثم بالإنسان والحيوانات والنباتات والجمادات ، يمهد لرأيه فى السياسة الذى يبسطه بعد ذلك فى « جمهوريته » وفى نواميسه . « فطيماوس » هذا هو أهم كتاب فى نظرى تركه العالم اليونانى وسار سواء فى العالم الرومانى عن طريق شيشرون أم فى العالم العربى بعد ذلك حيث ترجمه حنين بن إسحاق وأصلحه يحيى بن عدي كما يؤكد ذلك العلامة لكليرك فى كتابه « تاريخ الطب عند العرب » الجزء الأول ، وكما يؤكد القفطى في مقالته عن أفلاطون فى أخبار الحكماء . ولقد شرحه أخيراً بالفرنسية أستاذنا العلامة ألبير ريفو فى مجموعة بيدى

فمؤلفات شيشرون بنوعيها سواء المترجم منها أم التى يسودها الترجمة فى أغلب أجزائها تدل دلالة واضحة على أنه لا أهمية لشيشرون كمؤلف ، لأنه لم يضف شيئاً جديداً إلى ما قاله اليونان القدماء . وهذا راجع إلى أن عقلية الرومان عقلية عملية تهتم بالحياة الجارية أكثر من الحياة الفكرية ، وبحياة الفتح والغزو أكثر من حياة الاستقرار والانتاج ، وبحياة القهر والاستعباد والقانون والعقاب أكثر من حياة الحقيقة المجردة والخطأ الفكرى وإصلاحه وواجب الفضيلة وتأنيب الضمير . عقلية تمتزج بعوارض الدنيا ، وإذا أرادت أن تتحرر من قيود المادة هامت على وجهها فى ميدان العقل . فنجد مثلا شيشرون يخطىء فى التعليق على آراء الفلاسفة كما يفعل عند ما يتكلم عن عناصر المادة فى الكاديميك مما دعا العلامة تيوكور فى رسالته لدكتوراه الدولة أن يصفه بأنه فيلسوف بالواسطة لا بالذات . وأهمية شيشرون فى نظر هذا العلامة تنحصر فى أن مؤلفات شيشرون تكون موسوعة لا يسبر غورها لفلسفة اليونان وخصوصاً للفلاسفة الذين جاءوا بعد أفلاطون وأرسطو مباشرة وضاعت كتبهم أى الفلاسفة

الرواقيون ، لأن العلامة لوسيان ليني فى شرحه « لنواميس » شيشرون يذكر أن لكريزيب نحو ستمائة كتاب أغلبها إن لم يكن كلها قد فقد . ولخلق مثل هذه الشخصية العظيمة يرجع أستاذنا إميل برهييه E, Bréhier فى كتابه عنه إلى شيشرون فى كل صفحة من صفحاته . ولزيادة الدقة فى البحث نذكر أن الكتب الرواقية المفقودة والتى نستعيض عنها بمؤلفات شيشرون هى كتب الرواقيين القدماء أى زينون وكليانت وكريزيب ، وليست كتب الحديثين منهم أى بنيتيوس وبسدونيس الذين كادوا يعاصرون شيشرون فى زمانه ، ونحن فى هذا نعتمد على رأى العلامة جورتز

ويجب ألا يتطرق إلى ذهن القارىء أن ضعف شيشرون فى هضم الفلسفة يرجع إلى عيب فى مداركه ، فللحكم عليه يجب ألا نتأثر بحالتنا الراهنة للفلسفة فى أوروبا ، وإنما يجب أن نرجع إلى حالة الفلسفة فى عهده . فسنجد أن ما نسميه الآن ضعفاً كان قوة ، وكان هو سيد العبقريين فى زمانه بين أهله وعشيرته ، بل إن ما نسميه الآن ضعفاً كان فضيلة لها ميزتان : الأولى أنه أخلص لعبقرية جنسه فأثبت أنه عريق فى الرومانية يمت إلى أهله بأصل ثابت ، فلم ينفرد عنهم بقوة التجريد . الثانية أنه لم يتصرف فيما نقله عن فلاسفة اليونان فكانت مؤلفاته أو بالأحرى « ترجماته » خير معبر صادق عما ضاع من نصوص ، وخير معين على تتبع حركة الفكر عند اليونان دون ضياع حركة ما

ويجب أن يعلم القارىء مع ذلك أن شيشرون لم يكن فيلسوفاً « محترفا » وإنما كان على وجه الخصوص سياسياً ماهراً وخطيباً مصقعاً لم يعرف التاريخ له مثيلا ، وأنه اتخذ من الفلسفة وسيلة لتدعيم مركزه فى الأوساط الرومانية وبين أعضاء مجلس الشيوخ بروما ، فكلما حيل بينه وبين منبر الخطابة ذهب إلى الفلسفة ليشرح إلى بنى وطنه أصول المعرفة فيتصل بهم عن طريق العقل والآراء فلا ينسونه وهو بعيد عن حظيرة السياسة . كذلك وجد فى الفلسفة وسيلة لتربية ابنه ، وسائر أبناء وطنه فهو يقول : « إذا كان الخطيب المصقع له الحق أن يعلم ذلك الفن الذى أثبت قدرته فيه مرات ، فللسياسى الحق أن يلقن شباب المستقبل بعضاً من المبادئ والدروس البالغة » (إقرأ لكليرك « مؤلفات شيشرون الجزء الثانى عشر صفحة ٣) . ويذكر العلامة بيشون فى كتابه « تاريخ الأدب اللاتينى » أن شيشرون اتخذ من الفلسفة وسيلة لتفهم القانون الرومانى الذى ساد فى زمانه واستيحاء هذا القانون خلال تلك المبادىء العقلية فى خلق فلسفة سياسية نجدها فى جمهوريته ونواميسه . والفلسفة بعد ذلك كانت وسيلة للعزاء فى آخر حياة شيشرون لأنه فقد زوجته بعد حياة ثلاث وثلاثين سنة واضطر إلى الزواج من أخرى صغيرة السن لم تستقم سيرتها مع ابنته التى ماتت بعد ذلك فى شبابها المبكر ؛ فلزم الحزن وسطر كتابه « التأسى » (اقرأ القسيس العلامة برتران فى كتابه « منتخبات من مؤلفات شيشرون فى الفلسفة ») وعليه فالفلسفة عند شيشرون لاحقة بالسياسة وتابعة لها وهى وسيلة عنده لا غاية ، وإن كان هذا يقلل من قيمته كمؤلف إلا أن مؤلفاته لنفس هذا السبب ذات قيمة تاريخية عظيمة جداً .

ومهما يكن من شىء فشيشرون فى جملة القول يتأثر فيما يبسطه فى كتبه بمذهب الرواقيين ومذهب الأكاديمية الجديدة ؛ وإن مؤلفاته تحل محل المؤلفات اليونانية الضائعة فلا تضيع حركة تاريخ الآراء والمذاهب عندهم . ثم إن لمؤلفاته قيمة أخلاقية إذ شرحت للناس طوال القرون الوسطى فى أوروبا أصول الفضائل العملية والنظرية لأن أفلاطون وأرسطو لم يعرفا على حقيقة أمرهما إلا عن ترجمة آباء الكنيسة للتراث الاسلامي ، وبمساعدة علماء اليهود في اسبانيا إبان القرن الثالث عشر الميلادى . ولها فى النهاية قيمة أدبية لأن أسلوب شيشرون له مميزاته ، فهو يبسط الآراء لا فى شكل متتابع بل فى شكل حوار ؛ فهو يقلد أفلاطون فى ذلك ، ولم يخرج عن هذه القاعدة من مؤلفاته إلا ال de officiis أى الواجبات ؛ وال Paradox أي المحيرات

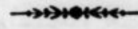
عبد العزيز عزت

عضو بعثة الجامعة المصريه لدكتوراه الدولة

في المؤتمر الطبي ببغداد

بغـــداد

للأستاذ علي الجارم بك



بغداد ! يا بلد الرشيـدِ ... ومنارة المجـد التليـدِ
يا بسمة لما تزل ... زهراء فى ثغر الخلود
يا موطن الحب المقـيـ ... ـم ومضرب المثل الشرود
يا سطر مجـد للعرو ... بة خُـط فى لوح الوجود
يا راية الإسلام والإ ... سلام خفاق البنود
يا مغرب الأمل القـد ... يم ومشرق الأمل الجديد
يا بنت دجلة قد ظمئـ ... ـت لرشف مبسمك البرود
يا زهرة الصحراء رد ... ى بهجة الدنيا وزيدى
يا جنة الأحلام طا ... ل بقومنا عهد الرقود
يا بهرة الملك الفسيـ ... ـح وصخرة الملك الوطيد
يا زورة تحيي المنى ... إن كنت صادقة فعودي

* * *

بغـداد يا دار النهى ... والفن ، يا بيت القصيد
نبت القريض على ضفا ... فك بين أفنان الورود
سرق التدلل من (عنا ... ن) والتفنن من (وحيد)
يشدو كأن لهاته ... شُـدَّت على أوتار عود
بغداد أين البحترى وأين ... أين ابن الوليـد ؟
ومجالس الشعراء فى ... بيت ابن يحيى والرشيد
أين القيان الضاحكا ... ت يَمِسن فى وشي البرود
الساحرات الفاتنا ... ت الحسن من هيف وغيد
الساهرات مع النجو ... م الآنفات من الهجود
من كل بيضاء الطلى ... مهضومة الكشحين رُود
يخطرن حتى تعجب الأغـ ... ـصان من لين القدود
وإذا سفرن فأين ضو ... ء الشمس من شفق الخدود
يعبـثن بالأيام وال ... أيام أعبث من وليد !
خبأ الجمال لهن ... كنزاً بين سالفة وجيد

* * *

كم جاش جيشك بالفوا ... رس من أساورة وصيد
للنصر فى أعلامهم ... صلة بأبناء الغمود
مجـد إذا صورته ... عجز الخيال عن الصعود
وجهود جبارين تصـ ... ـغر دونها شم الجهود
الرسل تتلو الرسل من ... بيض صقالبة وسود
ساروا (لقصر الخلد) يمـ ... ـشى طرفهم وهج الحديد
يتعثرون كأنهم ... يمشون فى حلق القيود
الجو يسطع بالظُّبا ... والأرض تزخر بالجنود
حتى إذا رجعوا بدا ... بجباههم أثر السجود

* * *

الفلسفات عرفتها ... والعلم طفل في المهود
والغرب ينظر فى خمو ... د نحو قاتلة الخمود
كم موئل للمستجـ ... ـير ومنهل للمستفيد
(والجاحظ) المرح اللعو ... ب يغوص للدر الفريد

* * *

بغـداد يا وطن الأدي ... ب وأيكة الشعر الغريد
جددت أحلامى وكنـ ... ـت صحوت من عهد عهيد
جمح الخيال فما اطمـ ... ـأن ولا استقر إلى خلود
جاز القرون النائيا ... ت وفك أسرار العقود
ذكر المهود فأنَّ للذ ... كرى وحن إلى المهود
واهتاجه الطيف البعيد ... فجن للطيف البعيد
وصبا إلى ظل العرو ... بة فى حمى الملك العتيد
يا أمة العرب اركبى ... ملء العنان ولا تهيدى
سودى . فآمال المنى ... والعبقرية أن تسودى
هذا أوان العدو لا الإ ... بطاء والمشى الوئيد
الجد أن تتوثبي ... وإذا وثبت فلا تحيدى
وتحلقى فوق النجو ... م بلا شبيه أو نديد

وإذا شدا الكون الفا | خر كنت عنوان النشيد
لا تخطى حد العلا | ما للمعالى من حدود
من يصطد النمر الوثو | ب يعف عن صيد الفهود

***

هذى طلائع نهضة | ذهبت بآثار الركود
بغداد أشرق نجمها | وبدا بها سعد السعود
سلكت إلى المجد القديم | محجة النهج السديد
وزهت بأقصار المدى | وسطت بأظفار الأسود
بغداد إنا - وفد مصر | نفيض بالشوق الأكيد
جئنا نحيى العلم والـ | آداب فى العدد العديد
لقياك عيد للمنى | فزنا بها فى يوم عيد
أهلوك أهلونا وأبـ | ـناء العشيرة والجدود
بين القلوب تشوف | كتشوف الصب العميد
حتى يكاد يحب نخـ | ـلك نخل أهلى فى (رشيد)(1)
شطت منازلنا وما احتا | ج الفؤاد إلى بريد !
الرافدان تمازجا | فى الحب بالنيل السعيد
وتعانق الظلان : ظـ | ـلا (الطاق) والهرم المشيد

***

جئناك نستبق الخطى | أنضاء أودية وبيد
طالت بنا الصحراء حتى | خلتها أبد الأبيد
يتخلص المرى المديد | بها إلى مرمى مديد
كتخلص الحسناء من | وعد طوته إلى وعود
بحر بلا شطآن يز | خر بالتنائف والنجود
وسفينتى (نون) بها | ما فى فؤادى من وقود
جئنا إلى الغازى سليل | العرب والحسب المجيد
نختال بين هباته | فى ظل إحسان وجود
أحيا المنى بالعزم والتد | بير والسعى الحميد
وغدت به سوح العر | وبة منهلا عذب الورود
فى نهضة الفاروق والغـ | ـازى غنى للمستزيد
فاروق منبثق الرجا | ء وملتقى الركن الشديد
ما عاش عاش الشرق فى | عز وفى عيش رغيد

محمود غنيم

(1) بلدة مصرية وهى بلد الشاعر

وحى الشاعرية

عصريات

للأستاذ حسن القاياتى

الكيدُ ما تُعلِن السَّجايا | والحقدُ ما تضمرُ الطوايا !!
يا عصرُ ما فيك من عوادٍ | يا عهدُ ما فيك من خفايا ؟؟
ما للثنايا تَرِفُّ بِشْرا | على الجوى يصدعُ الحنايا ؟(1)
لا قُدِّس العصرُ من أوانٍ | تُذَمُّ فى حمده التحايا !!
عَلامَ تُزْهَى بفجر علمٍ | كأنه للدجى بقايا ؟ ؟
لدى البغايا لنا خلالٌ | وما لنا فتنة البغايا !!
نُطالعُ الحفْلَ بالمخازى | يا قُبحُ لا تنظرِ المرايا(2)
لو شمْتَ نزهتَ مانوارى | أقمتَ فى مرقص العرايا !!
إنَّا لَفِى الخُلْدِ من زمانٍ | تُنيل فِرْدَوْسُهُ الخطايا
جيلٌ تَباهَى بلُبِّ حُرٍّ | وظلَّ عبداً لدى العطايا !!
رَغِّبْ وأَوْعِدْ فسوى تحوى | ضمائر الصيد فى الهدايا !!
مَن ادَّعَى أنه طليقٌ | إلام يختال فى السبايا ؟؟

***

يا عصرُ ما فيك من فتونٍ | لا رُشد فيه سوى المنايا ؟؟
سَلِ الأضاليل كيف لاقت | حُنوَّ موسى على الوصايا ؟؟
شَقِيتَ بالحق فنترمه | بحيث تشقى به القضايا
صباحةُ الحق حجبتْهُ | فقرَّ والحسنَ فى الخبايا !!
لا يحسنُ العدلَ من تولّى | فغادرَ العدلَ فى الشكايا(3)
جَزالةُ الرأى من فؤادى | يطير من فتنةٍ شظايا

***

(1) الحنايا : هى حنايا الضلوع
(2) المرايا : جمع المرآة
(3) الشكايا : جمع الشكية

جاذَبتُ عصرى مُنَى سَرِيٍّ فَعَرْبَدَ العصرُ فى مُنَايَا
شـدا فأشجى بكل وَاهٍ لبُلبُـل العصر مشتكايا
قيل:انتخابٌ. فقلت: سَبْقٌ إلى الـكرامات بالدنايا
وَقيعةٌ والخنــا قِسِيٌّ وهدبة والنُّهى رمايا
هوَى الـكراسيِّ والغوانى أنّى تَغَنَّتْ به الضحايا
حديث نَدْبٍ لناخبيه شكَاة آسٍ إلى البـلايا
سُرًى تُباعُ القلوبُ فيـه سـوافر الهون أو نقايا[1]
من شام فالنقد والتَّهادِى أو شَمَّ فاللحم والقلايا[2]
صِلْنِي بدينارك المرجَّى أَهَبْكَ خيرَ الورى مزَايَا

* * *

لعينىَ النبل حين أغزو قُوَى مبـارىً فى سرايا
مشوا إلى الـكيد فى الغوانى فلا سراةٌ ولا سَرَايا[3]
شكا من الجوع فاشتكانى مُرَفَّهُ العيش فى حمايا
للخبز دون الجلال تُسْبَى فَوَاتِنُ المــال والصفايا
بكى عدوى إلى صَـفيِّى فردَّه الدمعُ من عِدَايا
ضَعْفٌ ترامى عليه ضعفٌ كالغيد مالت على الحشايا[4]
لَدَى العشايا حمـدت رأياً فسَلْهُ ما أنتَ فى الغدايا ؟؟
سَماَ بِطِفل الجلال شعبٌ ثَوَى بمعْليه فى الزَّوايا
سَماَ وما لَقَنوهُ حرْفاً كوثبة الميْت إن تحايا !!
من سوَّد النذل في الأعالى فهَدَّ للحفرة الثنايا ؟؟[5]
هى السجايا لخيثُ جارت ترَقَّبْ الجور فى القضايا

* * *

(١) النقايا بالفتح : جمع النقاية بالضم وهى خيار الشئ وصفوته
(٢) القلايا : ما يقلى من اللحم يراد بها دعوات الطعام والمأدبات
(٣) السراة والسرايا : أشراف الأمة وشريفاتها
(٤) الحشايا كالمقاعد المحشوة أو الوسائد
(٥) الثنايا : الجبال ، أو الطرق فى الجبال

هوَى بيانٌ كما تَلاشَى تبسُّمُ الدلِّ فى الثنايا !!
بيـــان هادٍ غذته آيٌ من المثانى فوق آيا
يراعةٌ صُرِّفَتْ جمَالاً كما يشق اليراع نايا[1]
يا سقطة والفنون ليلٌ كسقطة الشمس فى العشايا
إن عزَّنى بالنجاح نذْلٌ فرُبَّ لـكعاء فى الحظايا
أَدَلَّ شــــعْبٌ على فتَاهُ ليضحك المجـد من فتايا !!
على قطيعٍ سَرَى غبيٌّ بلغتَ ياراكب المطايا
بالعلم فليصحب الليـالى من صَاحَبَ القفْرَ بالرَّوايا[2]

* * *

تَبًّا لعصر الجلال يمشى لسُدَّة الجهـل فى الرعايا
يا مُنصف اللُّبِّ كم أجارِي بصبيةٍ أَلْبت صَبَايا ؟؟
أنصف بوزنى ومن يُبارى فلا هواهُ ولا هوَايا
باعد سجاياه من خلالى وقس حجاه على حجايا
من اعتلى والهـدى حُلاه شأَوْتُهُ والهدى حُلايا
العزُّ فى النفس ، رُبَّ وَغْدٍ بمجـده تشرف البرايا

* * *

وَيْحَ الأمانىَّ كم تُعادِى حلو الأمانىِّ والسجايا ؟؟
إنى وللحمــــد ما أعانىَ كالبـدر في ظلمة سُرَايَا
بَرٌّ إذا حَفَّتِ العوادى تَنَهَّدَ الناسُ من حشايا
أصُـدُّ والحظ يبتغينى أقول باسمى دعا سوايا
الُحرُّ يمشي إلى المسـاعي كمشية النحل في الخلايا

« السكرية ــ دار القاياتى » حسن القاياتى

(١) اليراع : القصب المتعارف تصنع منه الأقلام ونايات الغناء ، واحدته يراعة وهى القلم
(٢) الروايا : الجمال تحمل قرب الماء للمسافرين أو هي القرب نفسها يحملها المسافرون



من الأدب الإيطالي

حياة جـــديدة

من دومنيسكو ماريا مانلي

للأستاذ دريني خشبة

رآها أنطونيو فشُغف بها حباً ، وكانت نظرته الأولى إلى وجهها المشرق الجميل الرائع فاصلاً عظيما في حياته التي جدّ بها الظمأ ، ففجأها وابل من كوثر الحب ، فرويت ، ولكنه وا أسفاه كان رِوًى أحرّ من قاتل الظمأ ، وآلم لنفسه من شديد الجواد وأحبته جينفرا ، وكانت تقضي لياليها مثله مؤرقة مسهدة ، تفكر في روحه الشاعرة الحلوة التي تطل عليها من عينيه الحبيبتين وقلبه الذي يرسل إليها نبضاته الموسيقية على أجنحة الأثير ...

ولبث أنطونيو يجد في ميادين الحياة ليبني دعامة مستقبله على لبنات من مادتها ، حتى إذا تقدم إلى والد جينفرا تقدم وفي يديه حفنة من ذهب قارون لاتطمئن ألباب الآباء إلا إليه ، ولا تطبُّ إلا به ، ولا تقيس العيش إلا بمعياره ... وكان يعمل دائباً وفي عينيه صورة جينفرا ما تفارقهما ، وفي قلبه المعمود تمثالها المعبود ما يبارحه ، حتى إذا تصرمت سنون أربع طوال كالدهر وتقدم إلى والدها دلجي اميرا يخطب إليه ابنته ، رده الأب الجبار رداً لا رحيماً ولا كريماً ، لأن فتى من أسرة أجولانتي يقال له فرانسيسكو كان قد تقدم إلى الرجل يخطبها على نفسه ، فقبل الرجل يده ، من غير أن يستشير ابنته ، ومن غير أن يقيم للحب الذي صهر فؤادها وزناً ، مع علمه به ، ورثائه لها من أجله ...

وكانت المادة التي عمل أنطونيو على اكتسابها جهده سبب رد الوالد التاجر إياه ، لأن أسرة الفتى فرانسيسكو كانت أسرة جاه ويسار ومجد ، وإن يكن الفتى نفسه من هذا الشباب القَنِع الذي لا خير فيه ، وإن يكن قلب جينفرا لم يجْزِه إلا صدوداً ، ولم يُشعره إلا جفاء وسلواناً

ولكن ما قيمة أن تأبى الفتاة في هذا العصر المنيف الظالم مالا يأباه أبواها من أمر لا يعنيهما بقدر ما يعنيها ، لأنه أمر حياتها ولأنه أمر سعادتها أو شقوتها ؟ لا ! لا قيمة لاعتراض الفتاة ... وهي مرغمة على أن تقر صاغرة ما اختار لها أبواها ... وإن كرهت ... فلا بد إذن من أن ترضي جنيفرا بهذه الزيجة لأنها صفقة من صفقات قارون ، وصفقات قارون رابحة مطلقاً ، لأنها تمشي بالفتاة على أرض من ذهب ، وإن تك في قلبها جحيما من لظى ولهب ، وهكذا زفّت جينفرا المسكينة إلى زوجها المفروض عليها ... وهكذا انتصر العالم الفاني على العالم الباقي ، وصرع شيطان الأرض ملاك السماء ، وتسلط التراب على الروح فعفر وجهها الحر الكريم

وذهبت الفتاة إلى زوجها جسما بلا روح ، ودمية من اللحم والدم والعظم ليس لها قلب ، لأن روحها وقلبها مع رجل آخر غير هذا الرجل ... مع أنطونيو لا مع فرنسيسكو ... مع الحبيب الذي منحها وجوده ، وجعلها علة بقائه ، مع الشاب الذي نوى ملء جوانحها يضرمها بأخلاصه ، ويؤججها بآماله التي انهارت في الأرض ، وثبتت في السماء ...

* * *

وذهب أنطونيو يبكي من أعماقه ، وينشد النظرة الخاطفة من حبيبته في الكنائس والمسارح والمجتمعات ، ويقسم جهد أيمانه أن يعيش على ذكراها ، وألا يتصل بأنثى من بنات حواء ما دامت جينفرا قد أفلتت من يديه . ولم لا ؟ أليس بحسبه أن يعرف أن قلبها له ، وأن جسمها لزوجها الذي لم يكن لها يد في اختياره ، ولابد من الرضاء به ؟ ثم أليس بحسبه أن يكون وفياً

لها مادامت قد أرغمت على شيء لا يستطيع أحد أن يرغمه هو على مثله ؟ ! ، وما الفرق بين أن ترغم جينفرا فتتزوج ، ولا يرغمه أحد فيتزوج ؟ إنه إن فعل فانها تفضله ؛ وإن لم يفعل عاش كما عاش المحبون المخلصون من قبل، وعاش خالداً في القديسين الخالدين

* * *

في سنة ١٤٠٠ نكبت أكثر المدن الايطالية بطاعون عظيم ذهب ضحيته أكثر سكانها ، وكانت قرى بأكملها تصبح خلاء من أناسيها وحيوانها ، وكانت فلورنسا الجميلة ، عروس المدائن الايطالية في ذلك العصر من أكثر البلدان ضحايا وشهداء

ولم تسلم جينفرا من هـذا الوباء ، بل تعذبت به طويلا ، وكلت حيـل الأطباء في سبيل إنقاذها ، فأسلموها للمقادير ، وانصرفوا عنها يائسين .. ولم تمض أيام حتى وقعت فريسة لنوبات جنونية كانت تعصف بها عصفاً شديداً ، وتعذبها عذاباً مبرحاً، وتذيب من حولها قلوب ذويها أسفاً عليها ... وأغمى عليها مرة إغماءة قاسية لحسب أهلها أنها أسلمت الروح... وسواء أحسبوا ذلك أم لم يحسبوه فإنهم كانوا قد ضاقوا بمريضتهم ذرعا ، وملئت قلوبهم منها ذعرا ، لأن أنفاسها وباء ، وزواقها داء ، وأنينها لهم أنين ، وحملها عبء إن كانوا قد استطاعوا حمله أياماً فانهم عليه مع هذا الجنون غير صُبّر

وكان الناس لا يتورعون أن يدفنوا مرضاهم أنصاف أحياء خشية استفحال الوباء ، فلمـا أغمى على جينفرا ، وطال عليهم إغماؤها ، وقر في قلوبهم أنه الموت ، فجهزوها مسرعين ، وحمل تابوتها طائفة من القسيسين فهرولوا به إلى مدفن العائلة ، وكان قبواً عظيما تحت الأرض بعيداً من المدينة ، فدفنوها فيه في احتفال بسيط ؛ ووقف زوجها وأهلها وعارفو فضلها يذرفون عبراتهم على ثراها ... ثم انصرفوا ... وأقبل أنطونيو المحزون يبكيها بدوره ، ويسكب عليها شئونه لا كما يسكبها غيره من الناس ، بل كما ينبغي أن يفعل العاشق الصب وسـّد الناس قلبه تحت الثرى و الصفاح

كذا فليجل الخطب ، وليفدح الأمر ، وليبك أنطونيو رونديللي !

لقد وقف المسكين على ثرى معبودته ، وعند قبوها الهائل ، وراح ينثر بقايا روحه على جدثها الطاهر العزيز ... ثم جلس في ذهول وفي شبه إغماء ، وانطلق يحلم بماضيـه الجميل ، ويرسل عينيه وراء سجفه الشفشافة ليراه جالساً إلى جينفرا يناجيها ، ويتحدث إليها حديثاً كقطع الروض ، ومنضور الورد ، ويقبلها تلك القبل الحالمة الناعمة فوق ثغرها وفوق نحرها وفوق ذراعيها .. ثم يفيق المسكين ... فيراه جالساً يبكي ... فوق قبرها ... وهي تحت هـذا الجندل المركوم والتراب المهيل جثة هامدة ساكتة صامتة ، لا يتحرك لسانها ، ولا تنفرج شفتاها ، ولا يتفتح الورد في خديها ، ولا ينبعث النور واللألاء من جبينها ووجنتيها فيحس كأنما روحه تساقط مع أنفاسه الباردة لتثوى مع جينفرا تحت التراب .

ويقف أنطونيو فجأة ويحدج القبر بعينيه الباكيتين ، ويقسم أنها ليست فيه ! ... ليكُن ! قد يكون ما يعني روحها .. أو .. ذكرياتها .

ثم يمضي إلى المدينة ، ويذهب إلى منزله مصدوع القلب ، ذائب النفس ، خفق الأحشاء ، ليس أسمج في عينيه من هذه الدنيا الكريهة النادرة !

* * *

لم تكن جينفرا قد ماتت كما وهم القوم ، بل كانت مغمى عليها إغماء شـديداً ... وليت أنطونيو ما فارق ثراها ، حتى يسمع صوتها الضعيف داخل القبو بعد إذ انصرف بلحظات ...

لقد هبت المسكينة من غفوتها في العالم الآخر ، فجاهدت كثيراً حتى نهضت من تابوتها ، وسرعان ما عرفت مصيرها فلم تُذعر ولم تنزعج مع ما كانت تضيق به من برد المقبرة وهوائها المرطوب ، وريح اكتوبر القارسة

ثم أنشأت تعالج التخلص من تلك الأكفان التي لم تخلق للبوس هذه الحياة الدنيا ، وكانت تسبح بأسماء الآلهة والقديسين وتتوكل عليهم فيما هي فيه من الضيق ، وكانت شماعة ضئيلة من أشعة القمر تنسرق إلى القبو من شق صغير فيه ، فكانت لها في شدتها وحرجها كبسمة الأمل الحلو الذي ضاعف جهادها في سبيل الحيـاة ... واستطاعت بعد لأي أن تخلص من بعض أكفانها ، وأن تخطو في ضعف وإعياء نحو باب القبو ...

وتهالكت على نفسها حتى صعدت فوق الدرج .. وهناك جلست لتستريح لحظة ، وتستجم لما أمامها من العمل ... حتى إذا أحست في ذراعيها قوة أعملتهما فى الحجارة التى كانت تسد باب القبو ، والتى كانت تتماسك بطبقة رقيقة من الملاط ، كانت ما تزال لينة رطبة ، فسهل على جينفرا إزالة بضعة منها ، بحيث أحدثت ثغرة تكفى لخروجها فى شيء من الصعوبة ، وقليل من العناء

وشجعها ما كانت فيه من هلع على نفسها داخل القبو ، وما نالته من الظفر فاحتملت قر الليل وصرير الريح ووحشة الوادى ، وجعلت تخطو بقدمين متخاذلتين فى الطريق القفر إلا من أشعة القمر ، المنجرد إلا من عشب هنا وعشب هناك ، حتى وصلت إلى المدينة ...

لله ما أروع هـذا الشبح السارى فى ضوء القمر يدب على التراب الندى بقدمين عاريتين ، وفى أكفان حريرية كأنفاس البخار تصّاعد من النبع !

ولله هذا الوجه الشاحب الذي برز الساعة من ظلال الموت وحدود الفناء ، وجعل يتدَهْدَى فى طرقات المدينة حتى بلغ دَاىْ كاَرْاَجولى !

لقد كان فرنسيسكو جالساً يستدفئ بالقرب من النار المتأججة فى الدفأ ، ووجهه عابس وجبينه مقطب ، وعليه من بداوات الأسى وعلائم الحزن ما كان ينبئ عما في قلبه من ثورة الوجد على عروسه التى لم يمش في كنفها الوارف أكثر من أشهر ثلاثة ثم قضت ... وفاز بها الطاعون دونه !

وكان يهم أن يخلع ثيابه ، ثم يمضى لينام ، لولا أن سمع صوتاً خافتاً وراء الباب ، ونقراً خفيفاً ضعيفاً على الباب ، فذهب ليرى من الطارق بلَيْل ؟

لله ما كان أروع القمر السارى فى ملكوت الله وهو يلقى أشعته على الشبح الواقف لدي الباب !

لشد ما ذعر فرنسيسكو ...

لـكنه ركع أمام الشبح ، وأخـذ يرسم علامة الصليب بسبابة مرتعشة ، ونظرات مغضية ، ثم نهض فتوسل إلى الروح الـكريم أن يذهب ... فلما لم تتحرك جينفرا مما دهاها من الدهش ... أغلق فرنسيسكو الباب ، وأحكم رتاجه ... ومضى إلى فراشه وبه رجفة تزلزله زلزالاً عظيماً ... ثم نذر أن يتصدق على روح زوجته ما وسعه ذلك ، وأن يقيم على جدثها الطاهر ما لم يؤد لها من قُدّاسات

وبكت جينفرا ما شاء لها أن تبكى ، ثم جعلت تجمجم وتقول : « وَىْ ! أذاك هو مدى ما أحببتنى يا فرنسيسكو ؟! وى ! لا بد أننى كنت عبئاً عليك ، ووزراً تنوء به ، وتود لو تخلصت منـه ! وا أسفاه ! أين أذهب يا ربى ؟ أأفلت من ظلام القبر لأموت من البرد والضنى والجوع فى أشعة القمر ؟ » .
وذكرت أن بيت أبيها قريب فانقلبت ... وشرعت تخطو ...

ولم يكن أبوها هناك ...

وكانت أمها فى الطابق العلوى ، توشك أن تمضى إلى سريرها فتنام ... فلما سمعت همس جينفرا وصوتها الخافت المستنجد أطلت من النافذة لترى من الطارق ...

وكان الشبح المريض المهزول يتكئ على مصراع الباب مما به من ونى وإعياء ؛ ولم تَسْتَرِب به الأم المحزونة ، فقالت له وهى تتوسل إليه : « انصرف فى سلام أيتها الروح ... ! » ثم أغلقت النافذة ، وانكفأت إلى فراشها لتصل أحزانها على جينفرا ... !

وَعرَتْ الفتاة رعشة من الحسرة لا من البرد ، فشدت ذراعيها ، وذهبت على وجهها لاتعرف أيان تمضى ... ثم خطر لها أن تلجأ إلى بيت من بيوت أعمامها ، فلم تصل إليه إلا بعد أن جلست مرات ومرات تستريح وتستجم ، وتمزج دموعها وأحزانها بضياء القمر الذى كان يبدو كأنه يبكى لها ويرثى لحالها ، ويحوطها بغلالة دافئة من قمرائه

وا أسفاه عليك يا جينفرا !

لقد وقفت بباب عمها فلم تلق أطيب مما لقيت في المرات السابقة ، ثم وقفت بباب عمها الثانى ، فعمها الثالث ، ثم بباب خالها ، فخالها الآخر ، فأبواب جميع أقاربها ، فكانوا يردونها على أنها روح سارية ، ويغلقون أبوابهم جميعاً دونها

واعتزمت آخر الأمر أن تلجأ إلى مُسْتَرَاح سان بَرْتولوميو لتنام فيه أو لتموت فيه ، ولتستريح من هذه الدنيا التى تجهمت لها ، وعبست بألف وجه من وجوه أقربائها ... وما كادت عيناها الحزينتان تنمضان كما تنمض النرجسة الذابلة ، حتى خطر لها أن

تنهض من فورها ، وتمضى إلى بيت حبيبهـا الوفى ، أنطونيو روندينللى ، وإن تكن بينها وبينه مسافة طويلة ، ضاعفها ضربها فى المدينة أضعافاً مضاعفة ...

ثم هجست فى ضميرها بكلمات باكيات فكأنما كانت تقول : « ولكن ! ... ماذا أنتظر من رجل لتى الويلات منى ومن ذَوِىّ ؟ وماذا عساه يصنع لى وقد ذادني كل أهلى عن منازلهم ؟ يا رب ! وحق أسمائك ما خنته ! وحق ربوبيتك ما ضَيّعت موثقه ! »

وذهبت تدلف إلى بيت أنطونيو وتهدج ، حتى كانت لدى الباب ، فوقفت تستمع إلى دقات قلبها ، قبل أن تصغي إلى نقرها فوقه

وفتح أنطونيو البـاب ... ولم يكد يقع بصره عليها حتى تقدم نحوها بدافع غريب قوى من الحب ، أو من الشجاعة ، ولم يتقاعس كما تقاعس ذَوُوها ، ثم طفق يحملق فيها ويقلب فيها عينيه من إخمصيها إلى ذؤابة رأسها ، فلما أيقن أنها هى ، تنفس صعداء ، وقال : « أأنت حقاً جينفرا ؟ أم أنت روحها القـدّيسة المطهرة ؟ » ولم ترد عليـه ، بل أرسل الحب ذراعيه القويتين إليها ، فاحتملها كالطفلة ، ثم أخذ يصيح من الجذَل ، داعياً أُمّه وخدَمه ليزف إليهم البشرى ، ولكن سرعان ما ارتد هؤلاء من الفزع حين أقبلوا ليرَوْا فيما دعاء أنطونيو لهم ، لما رأوه يحمل فتاة كالشبح فى أكفان ! !

وهرول بهـا أنطونيو إلى مخدعه فسجّاها فى سريره ، وهتف بخادمٍ فأحضرت الموقد ليدفئها بما بقى فيه من قَبَس ، ثم دعا أمه فطمأنها ، وجلست مع الفتاة فى السرير تضمها وتجعلها فى حضنها لتدفئها كذلك

وكان الهلع يغشى أنطونيو خشية ألا يشيع الدفء فى كيان حبيبته البارد المرتجف ، فتذهب ضحية القر ؛ بيد أنه اطمأن حينما رآها تثوب ، وكان فرحه بها أشد من حزنه عليها ، عند ما فوجئ بنبأ وفاتها ، وجلس عنـد قدميها فوق أرض الغرفة يرعاها ويتولاها بعنايته ، غير مطمئن إلى ما كانت تبذل أمه من التلطف بها ، والحدب عليها

وانتعشت جينفرا ، فهبت من السرير فجأة ، ونزلت إلى الأرض ، ثم أهوت على قدمي أنطونيو تقبلها ، وتريق عليها دموع محبتها وشكرانها ، وترجوه أن ينشر عليها جناح الطهر من وده وصداقته ، وأن ينسى إلى حين ما أنها حبيبته ، وإن تكن تمد نفسها خادمةً له ، وترتضى العبودية فى كنفه ... ثم ذكرت والدموع تحجب عينيها ، ما كان من شجاعته عند ما رآها أمام بابه ، فلم يفر ولم ينزعج كما فر أهلوها وانزعجوا ... وارتبك أنطونيو ، وهم من مجلسه فركع أمامها ، وراح يطلب صفحها عما عسى أن يكون قد بدر منه ، مما أثار ظنونها ...

ولم تستطع جينفرا أن ترد عليه بلسانها ، فأخذت كفيه ، وضغطت عليهما بكفيها الواهيتين ، ثم انطلقت تغمرهما بالقبل ، وتنضحها بالدموع ... وكان التأثر قد بلغ من أنطونيو مبلغاً عظيماً ، فراح يبادلها دموعاً بدموع ، وينكر على نفسه أنه أدّى لها يداً غير ما يقتضيه الواجب والمروءة والانسانية ، وأنه لم يكن ينتظر جزاء على ما صنع إلا أن تتدفق الحياة فى جينفرا العزيزة ... المعبودة !

ثم سألها إن كانت تحب أن ينهض معها من فوره فيردها إلى ذراعى زوجها . قال :

« لا ترتبكى يا جينفرا ... إن هذا واجب ... إنى أحضك عليه وإن يكن فى قضائه قضاء علىّ ... »

وامتزج بكاء جينفرا بجوابها فقالت : « كلا ... كلا ... كلا ... لن أعود إليه ... لا أود أن أراه ... إنى أوثر أن ألقى فى دير فأعيش فيه ميتة ، على أن أعود إلى فرنسيسكو ... وفضلاً عن هذا .. فلقد فرق بينى وبينه الموت .. لقد مت فى اعتباره .. ومشى فى جنازتى ... ووسدنى التراب بيـديه ... وقبل ساعة كنت أطرق بابه ، فلمـا رآنى فزع وطردنى ... وأغلق الباب دونى ... أرجوك يا أنطونيو ... أرجوك ألا تردد اسمه أمامى ... وإن أرغمنى أحد على العودة إليـه فسأشكو أمرى إلى القضاء العادل ليفصل بيننا من جديد ... سأقصد إلى كل محكمة ... إلى كل سلطة دينية ... لقد شهدوا جميعاً أننى مت ، وصرحوا بدفنى فدفنت حية ، وله ؟ لا لشئ إلا ليستريحوا منى ؛ أفإن شاء القضاء السماوى أن أنهض فى رمسى بمعجزة ، وعدت إلى الدنيا ولم أمت فى القبر أشنع موتة ، جاءوا من كل فج لينااوئونى ، ويحجروا علىّ من جديد ؟! »

وصمتت جينفرا ، وأكب أنطونيو يسكب عبراته تحت قدميها الجميلتين المرتعدتين ، وما كانت دموعه تلك إلا دموع الفرح بما سمع من حسن توكيداتها

ولبثت جينفرا لدى حبيبها الأول الوفي

ثم حدث أن رأى فرنسيسكو أجولانتي غادة هيفاء من ذوات اليسار فغزل بها وغزلت به ، وأغرم كل بصاحبه ، فعقدا النية على الزواج ... وما أن علم أنطونيو بذلك حتى انتهز هو أيضاً فرصته ، وجعل يسعى لدى فرنسيسكو حتى اشترى منه كل جواهر جينفرا ، وهو لا يدرى أنها حية ترزق ، وأنها قد نجت من براثن الطاعون والفناء بإرادة السماء ... وعادت من عالم القبور لتخلق خلقاً آخر

* * *

في صبيحة يوم من أيام الآحاد ذهب أنطونيو رونديناللي من أعيان فلورنسة ، ومعه السيدة جينفرا دِجلي أميرا ، وأمه العجوز الوقور المتضعضعة ، وخادم من خدم قصره ، إلى كنيسة المدينة الخالدة ليعقد على حبيبته جينفرا

وهناك في بهو الكنيسة الكبير ، التقى هذا الجمع اليسير بجمع آخر حاشد غاية الحشد ، فيه الفتى فرنسيسكو أجولانتي وأمه وملأ عظيم من ذويه وأصدقائه ... ذاهبين للعقد على غادة فرنسيسكو الهيفاء الفنية المثرية ، ولما يمض على دفن جنيفرا ثلاثة أشهر أو نحوها ... والمؤلم المبكي أن أمها الساذجة كانت من ضمن المحتفلات بزوج ابنتها السابق ... فما كادت العيون والأرواح تتعارف حتى ساد بهو الكنيسة صمت كصمت القبور ، ووقف الجمعان خاشعين خائفين ، ينظر بعضهم إلى بعض ولا يصدقون ما يرون !

تُرى ! من يتقدم ومن يتأخر ؟

ولم تنتظر جينفرا طويلا ... بل تقدمت مسرعة نحو أمها التي أخذت تحدق فيها بصرها ، وترنو إليها مبهوتة مشدوهة

« أحقاً هذه جينفرا ابنتي ؟ لم يكن شبحاً ما رأيت إذن ... ويلاه ! ... ولكن ... كيف عادت إلى هذه الدنيا يا ترى؟ وأنى لها هذا الشباب وتلك النضارة ؟ إنها تميس في شفوف وأفواف »

ولم تتركها جينفرا لتصل هذه السلسلة من أحلام اليقظة ، بل قطعتها عليها قائلة :

« أما وقد ذهبتم بي إلى القبر فوسدتموني التراب بعد إذ شهد أطباؤكم بموتي ، وبعد أن نثر القس زيته المقدس على جثماني معلنا بذلك أنني انتهيت من هذه الدنيا ، فإني أعلن بدوري أنني لم أعد أمت إليكم بوشيجة ، لاسيما بعد أن رفضتم جميعاً إيوائي حين عدت إلى دنياكم بمعجزة من معجزات القدر في حين قد آواني ملاكي أنطونيو رونديناللي فأعادني إلى الحياة والحب ، ولولا ذاك لقتلني البرد والمرض أمام باب من أبوابكم ، ولعدت إلى القبر عودة لا رجعة لي بعدها إلى دنياكم ... من أجل هذا كله أقرر أمامكم وأمام الحبر الجليل سيد هذه الكنيسة ، وفي هذا المكان المقدس أنني أصبحت ملكا لحبيبي ... وأنني إنما جئت اليوم ليشهد الله لنا ... »

ثم ودعت أمها ، وبعض الأعزاء من ذويها ، وانفلتت إلى أنطونيو فضمته على مشهد من الجميع ... وهنا ... تأخرت جماعة فرنسيسكو حتى يروا بماذا يحكم الحبر الجليل ... فوقف هذا ... وهتف بأنطونيو ثم بجينفرا فباركهما ، وكتب لهما ، ودفع الصحيفة إلى أحد الرهبان فتلا مافيها بما لا يزيد عما ذكرت جينفرا من الحجج ... ثم دعا للكنيسة ... وتم القداس لبسيط فكان أروع قداس أبرم في كنيسة فلورنسا منذ أنشئت ...

دريني خشبة



تكريم شاعر الهند محمد اقبال

من أنباء الهند الأخيرة أنه أقيمت فى جميع المدن حفلات لتكريم الشاعر الفيلسوف الهندى الكبير السير محمد إقبال بمناسبة عيد ميلاده (٩ يناير) وألقيت فى هذه الحفلات الخطب والقصائد فى نواحى شعره واستعراض مناقبه وخلاله . واشترك فيها كبار الكتاب والشعراء الهنود من كل الطوائف

وكانت أهم تلك الحفلات فى بلدة حيدر آباد ، حيث رأس الحفلة حضرة صاحب السمو أعظم جاه ولى عهد مملكة حيدر آباد وفى بلدة لاهور حاضرة إقليم بنجاب حيث يقطن الشاعر ، فرأس فيها الحفلة الأولى السير كوكل شند نارنغ (وهو عالم هندوكى كبير) ؛ وألقى فيها عقب تلاوة القرآن الأستاذ يوسف سليم شستى ، والعلامة الفاضل عبد الله يوسف على ، والدكتور شكرورتى (وهو عالم هندوكى كبير وأستاذ بكلية F.C. بلاهور) والأستاذ كورشرن سنج (وهو عالم كبير من أتباع ديانة سيخ وأستاذ فى كليتهم المسماة « خالصة كالج » بلاهور) والسيد بشير احمد ، والأستاذ السيد نذير نيازى محاضراتهم القيمة . ثم تلاهم حضرات الشعراء نور محمد ، وجلال الدين ، وحامد على خان ، فألقوا قصائدهم . ورأس الحفلة الثانية والثالثة حضرة صاحب العزة السير عبد القادر ، وألقى فيها حضرات الشعراء أسلم جيراجپورى (وهو أستاذ بالجامعة الملية الإسلامية بدهلى) ، والأستاذ سراج الحق ، والأستاذ خوشى محمد قصائدهم الرائعة . وألقى كذلك الأستاذ خواجه غلام السيدين عميد الجامعة الإسلامية بعليكره محاضرة قيمة ، كما ألقى الدكتور محمد دين تاثير محاضرته العلمية فى شعره وألقى الشاعر حفيظ هوشيارپورى قصيدته الرائعة فنالت استحسان الجميع

وخلاصة ما قال الخطباء ، هو أن السير إقبال يعتبر اليوم بتمكنه من الشعر والفلسفة فى الشرق والغرب ذهناً عالياً ، وداعية وطنياً عظيما يعمل على إزالة الفوارق الجنسية والطائفية ؛ وهو اليوم فى طليعة زعماء الشعر الأوردى والفارسى معاً ؛ وقد ذاعت شهرته منذ سنة ١٩٠٨ كشاعر عميق الفكرة وترجم ديوانه الفارسى « أسرارى خودى » (أسرار النفس) إلى الانكليزية بعناية المستشرق المعروف الأستاذ نيكلسون ؛ والسير اقبال سليل أصل كريم من علماء كشمير ، وقد تلقى تربية متينة فى معاهد لاهور وعليكره ، وفى كليات أوربا ، وكان تلميذاً للسير توماس أرنولد والسير عبد القادر الهندى الذى كتب ترجمته ؛ وهو ينظم شعره بافاضة مدهشة ، ويستطيع أن ينشده غيباً بسهولة ، وفى كتابه « تنظيم التفكير الدينى فى الاسلام » (بالانكليزية) نراه داعية إلى إحياء الدين على ضوء التطورات الحديثة ؛ ومن رأيه أن الحياة التى تستحق الحب هى حياة النشاط والدأب ، والتى تتخللها الصعاب والمتاعب ، وشعره فى الأوردية يعتبر من أثمن وأجل تراث ظفرت به إلى يومنا

ومع أن السير إقبال مسلم صادق العقيدة والنزعة ، فهو لا يكتب أو ينظم بروح طائفية . وهو يحاول أن يصور الاسلام فى أصدق وأبسط مبادئه الديموقراطية ؛ وهو وطنى كبير يدعو إلى مبادىء الوحدة والاخاء

ذكرى السيد جمال الدين الأفغانى

السيد جمال الدين الأفغانى ضحى حياته فى خدمة الشرق الإسلامي وغذى النهضات المصرية والعربية والإيرانية والهندية فى العصر الحاضر بأعماله المجيدة وآرائه السديدة ، ومع ذلك لم تقم بما وجب عليها من تكريمه وتبجيله لا فى حياته ولا بعد وفاته . حتى ضريحه لم يبن إلا أخيراً وعلى نفقة المستشرق الأمريكى مستر كرائن . وقد فكر أخيراً المسلمون فى الهند فقرروا إحياء ذكراه فى ٩ مارس القادم فى طول الهند وعرضها وهو اليوم الذى انتقل فيه المرحوم إلى الرفيق الأعلى . وحبذا لو نهجت الأمم الإسلامية الأخرى منهج المسلمين فى الهند فيكون الاحتفال بذكراه عاماً فى يوم واحد

كتاب عن الشئون المالية للأمم الاسلامية

صدر فى مدينة فينا منذ أيام قلائل كتاب بالألمانية من نوع جديد يعالج ناحية هامة من نواحى الحياة العامة في الأمم الإسلامية عنوانه : « من عالم الماليـة فى الأمم الاسلامية Aus der Finanzwelt des Islams » بقلم الـكاتب الاقتصادي الدكتور يوسف هانس J. Hans ، وقد زار المؤلف مصر منذ أشهر قلائل واستقى كثيراً من المعلومات والمواد المتعلقة ببحثه . وهو يعالج الشئون الماليـة لمصر وباقى الأمم الاسلامية بوضوح وإيجاز ، ويستهل بحثه بفصل تمهيدي عن التطورات السياسية التى جازتها الأمم الإسلامية منذ نهاية الحرب الـكبرى ، ثم يتناول أحكام الشريعة الإسلامية فى الربا ، وما تعلق بتنظيمه في القوانين الدنية بمصر وتركيا ، ويتحدث بعد ذلك عن النقد والسياسة النقدية في الأمم الإسلامية ، ويخص كلا منها بفصل يتحدث فيـه عن أهم العوامل والظروف الاقتصادية المتعلقة بها ؛ ويتناول بحثه الأمم الآتية : تركيا ، والعراق ، وإيران ، وأفغانستان ، ومصر ، وسوريا ، وفلسطين ، وشرق الأردن ، والمملكة العربية السعودية واليمن ، وحضرموت ، ويقدم عن كل منها خلاصة حسنة عن أحوالها المالية والنقدية ؛ ويقدم إلينا فى هـذه البحوث الدقيقة معلومات طريفـة عن طرق النقـد والتعامل والموارد المالية لـكل منها

ويخص المؤلف مصر بفصل يتناول فيه أحوال الورق النقدي (البنكنوت) وإنشاء بنك مصر والدور الذي لعبه فى الحياة الاقتصادية المصرية منذ سنـة ١٩٢٠ إلى يومنا . ويقدم إلينا إحصاءات مقارنة عن أعمـاله وميزانيته . كذلك يقـدم إلينا خلاصة حسنة عن الميزانية المصرية ، ومركز مصر المالى

ولا ريب أن هذه ناحية هامة من نواحى الحياة العامة للأمم الاسلامية لم يتناولها الـكثيرون من قبل ، ولم تظهر فيها بالعربية كتب أو بحوث ذات شأن

وقد تخصص المؤلف من أعوام طويلة فى هذه المباحث النقدية والمالية ، وقصر جهوده على دراستها فى الأمم الشرقية والاسلامية وأخرج من قبل كتابين فى هذا الباب هما « النقد والذهب فى آسيا » و « التطورات النقدية فى الشرق » وكلاهما بالألمانية

ذكرى الفيلسوف سويدنبورج

احتفلت السويد بذكرى فيلسوفها ومفكرها الأكبر أمانويل سويد بنورج لمناسبة انقضاء مائتين وخمسين عاماً على مولده . وتلقت لجنة الذكرى رسائل تقدير للفيلسوف الراحل من ملك السويد وملك إنكلترا والرئيس روزفلت . ويعتبر سويد بنورج من أعظم أساتذة التفكير الحديث . وكان مولده فى سنة ١٦٨٨ ، ووفاته سنة ١٧٧٢ ؛ ودرس دراسة مستفيضة ونبغ فى الرياضيات والفلسفة الطبيعية وترك تراثاً فكرياً عظيماً ، واشتهر بالأخص بكتبه ورسائله الفلسفية ، وفى مقدمتهـا كتابه عن « فلسفة اللانهاية وأسباب الوجود » و « عبادة الله وحبه » و « الجنة والنار » و « الحب الإلٰهى والحكمة الإلٰهية » وله عدة كتب ورسائل أخرى في الرياضيات والفسيولوجيا والعلوم الطبيعية وغيرها . وقد وضع معظم مؤلفاته باللاتينية ، وترجم الـكثير منها إلى معظم اللغات . وقضى سويد بنورج حياة طويلة حافلة ، وملأ العالم بكتبه وأفكاره ، وقضى أعوام حياته الأخيرة فى إنكلترا وهولنده . ولقى كثيراً من عنت خصومه ولا سيما رجال الدين ؛ وحاول بعضهم أن يرميه بتهمة الـكفر والمروق ، ورفعت عليه القضية الجنائية بالفعل ولـكنه برئ ، وفشلت مساعى خصومه من الأحبار الناقمين

كتاب جديد للرئيس هريو

ظهر أخيراً كتاب جديد للـكاتب والسياسى الفرنسى الـكبير إدوار هريو رئيس مجلس النواب الفرنسى عنوانه : «Lyon n'est plus» ، وليس الرئيس هريو زعيماً سياسياً فقط ، ولـكنه أيضاً كاتب عبقرى ومن أعضاء الأكاديمية الفرنسية . وكتبه الأدبية والسياسية تفيض طرافة وقوة ، وكتابه الجديد عن تاريخ الثورة الفرنسـية فى ليون . وليون هى بلده ومسقط رأسه ، وهو إلى اليوم عمدتها ونائبها . وقد لعبت هذه المدينة دوراً كبيراً في الثورة ، وكانت بعد باريس قلبها النابض . ويقص الرئيس هريو حوادث الثورة فى ليون بأسلوبه القوى الساحر ، ويعرضها بروح المؤرخ المنصف المنزه عن الأهواء والنزعات . وسيكون كتاب الثورة فى ليون أول قسم من سلسلة كتب عن الثورة ينوى أن يخرجها الرئيس هريو

التمثيل فى المدارس

أصدر معالى بهى الدين بركات باشا وزير المعارف قراراً بتأليف لجنة من الأساتذة محمد قاسم بك ناظر مدرسة دار العلوم ومحمد رفعت مراقب تعليم البنات المساعد، وتوفيق الحكيم مدير إدارة التحقيقات عهد إليها دراسة موضوع التمثيل في المدارس المصرية دراسة مستوفاة على أساس أنه أداة صالحة تستعين بها الوزارة فى تثقيف طلاب المدارس وتهذيبهم، وتصفية ذوقهم وتنقيته، ومساعدتهم على حسن الأداء وإجادة النطق والتعبير. وستجتمع اللجنة للمرة الأولى فى غضون هذا الأسبوع

وتتجه اللجنة فى دراستها إلى استيفاء هـذا الموضوع من أصوله، والخروج عن القاعدة العتيقة السابقة، والتقدم إلى الوزارة بمشروع جديد كبير يرقى من شأن المسرح، ويحقق الأغراض التى تنشدها الوزارة فى هذا الشأن

وسيكون لعلاج رواية المسرح المدرسى أوفى نصيب من تلك الدراسة، فسيقضى على الفكرة القديمة الغالبة، وهي اختيار روايات مثلت من قبل فى بعض دور المسرح المصرى، وبذلك تصبح للمسرح المدرسى روايات تتفق والقاعدة السليمة التى ينشأ من أجلها هذا المسرح

وستقوم اللجنة إلى جانب هـذه الدراسة التمثيلية بدراسة أخرى تتفرع عن الحاجة إلى فن الالقاء، وتدريسه فى مدارس المعلمين كما ستعنى بتهيئة الأساتذة الذين سيشرفون على التمثيل فى مدارس الحكومة وغيرها من المدارس الخاضعة للتفتيش

جمعيات تحفيظ القرآن فى المدن والقرى

يشتد الضغط هذه الأيام على الأزهر الشريف وعلى المعاهد الدينية اشتداداً عجيباً بعد ما كان من انصراف الناس عنها قبل خمس سنين أو سبع؛ والضغط ملحوظ، بل هو على أشده فى المعاهد الابتدائية، وهذه حالة تبعث على الإعجاب والرضى لتنبه الشعور الدينى فى قلوب المسلمين، وتفضيلهم التربية الدينية التى تناولها الإصلاح الكثير على التربيـة فى المدارس التى تقذف كل عام بمئات المتبطلين للشوارع والمقاهى ... ونحن لا نغض بهذا من قيمة التعليم المدنى، ولكنا نقرر أن التعليم الدينى الذى أدخلت عليه إصلاحات كثيرة مدنية قد أوشك أن يبذ التعليم المدنى الصرف من كل الوجوه. ولو عنى الأزهر بتقرير دراسة لغة أو لغتين أجنبيتين فى معهد أو معهدين من معاهده لسبق المدارس المدنية بألف شوط فى مضمار الحياة ...

على أننا نتساءل: لمن كان الفضل فى هذه النهضة التى تشبه البعث؟! ليس شك فى أن كثيراً من الفضل راجع إلى الرجل المصلح الذي وجه الأزهر هذا التوجيه، ولكننا لا نخفى أن أكبر الفضل فى تزويد الأزهر بالأبناء النابغين هو لهؤلاء الرجال الذين فكروا فى إنشاء مدارس تحفيظ القرآن، فهذه المدارس لم تخدم القرآن فقط، بل خدمت الأزهر خدمة عظيمة خالدة ... ولكن مالية هذه المدارس ضعيفة لاعتمادها على موارد غير ثابتة، فهل كثير على الأزهر وأوقافه العظيمة وعلى وزارة المعارف أن تمد إليها يد المساعدة؟!

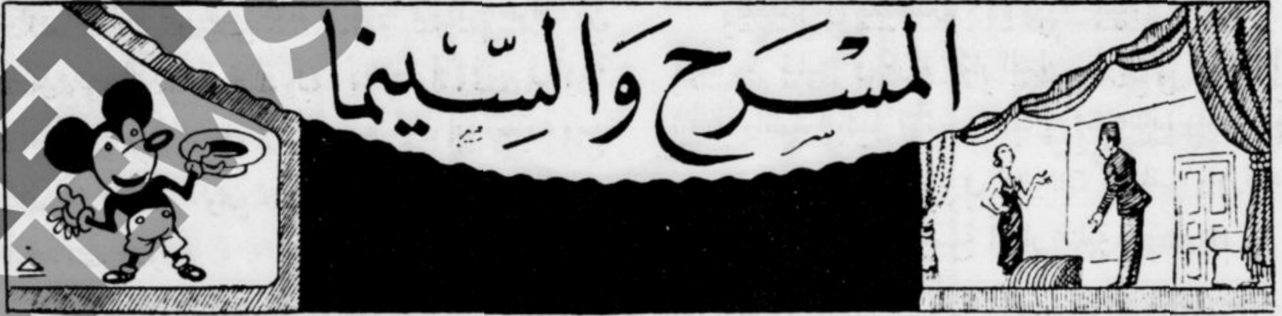
سارة للأستاذ عباس محمود العقاد

نشر الأستاذ الجليل عباس محمود العقاد قصة وجدانية تحليلية بعنوان (سارة) وهى فيما نظن أول ما عالج أو نشر من هذا النوع. لذلك سنفرد لها فصلاً خاصاً فى عدد آت من الرسالة. وهى ذات حجم لطيف وطبع أنيق؛ وتقع فى قرابة مائتى صفحة، وتباع بعشرة قروش فى أغلب المكاتب

غرفة قراءة للمتحف المصرى

فى الأخبار الانجليزية أن غرفة القراءة بالمتحف البريطانى ستظل مفتوحة للزوار ساعة بأكملها فوق الوقت المعتاد. ولا ندرى ماذا يمنع مصلحة الآثار عندنا من إنشاء قاعة للقراءة بالمتحف المصرى على نمط قاعة المتحف البريطانى؟ هل المتحف المصرى (للفرجة) فقط؟ وهل يصح أن يكون كذلك وعلى مقربة منه جامعة مصرية باذخة بها كلية للآداب، وفى مصر نهضة، وفي مصر قراء ...؟

وعلى ذكر هذه القاعة التى نأمل أن يفكر المتحف سريعاً فى إنشائها نتساءل أيضاً: ماذا يمنع علماء الآثار المصريين وعلى رأسهم الأستاذ سليم حسن بك من التأليف فى تاريخ مصر القديم بالعربية؟ أو على الأقل لماذا لا يترجمون كتبهم إلى لغتنا؟



هنرى إيرفنج HENRY ERIVNG

١٨٣٨ – ١٩٣٨

بقلم محمد على ناصف

منذ مائة عام فى مثل هـذا الشهر من اليوم السادس على الترجيح كان مولد الطفل جون هنرى بردريب ، ولم يكن بعد « هنرى إيرفنج »

ولد فى سومرست ، وقضى سنيه الأولى الباكرة فى كورنوول. وفى الحادية عشرة انتظم بإحدى مدارس التجارة بلندن وتركها بعد سنتين ليلتحق بأحد مكاتب المحاماة حيث كان من المأمول أن يكون كاتباً نابهاً . وبعد عامين آخرين (١٨٥٣) حدث له وهو فى الخامسة عشرة مثل ما حدث للممثلين العظيمين تالما وكين فظهرت دلالات ميوله إلى المسرح

وقد أشبع هوايته بعض الشبع بتعرفه بعد عام إلى وليام هوسيكنز الممثل الذى تلقى عليه هنرى أول دروسه فى التمثيل فيما بين الثامنة والتاسعة من صباح كل يوم قبل ذهابه إلى العمل .



ظل هنرى طوال مدة عمله بمكتب المحاماة نهبا موزعا بين وساوس أحلامه وزخارفها ، بين جحيم المكتب ونعيم المسرح ، فكان يجلس إلى مائدة الكتابة ينسخ الصحائف ويدون الأرقام..

متحف لمكسيم جوركى

افتتح أخيراً فى موسكو متحف ضخم لآثار الكاتب الروسى الأشهر مكسيم جوركى ؛ وقد توفى هذا الكاتب الكبير منذ نحو عامين ، وترجمته الرسالة فى حينه . ويضم المتحف الجديد أحد عشر بهواً عرض فيها كل ما يتعلق بحياة جوركى وكتبه ومخطوطاته وآثاره المختلفة ، وخصص فيها بهو لقطعه المسرحية ، عرضت فيه نماذج من أشخاص مسرحياته . وقد خصت حكومة موسكو جوركى بهذا التكريم باعتباره « عميد الأدب السوفيتى الاشتراكى الجديد وزعيمه » . والواقع أن جوركى هو أعظم كتاب الثورة الاشتراكية بلا نزاع ، كما كان تولستوى فى أواخر القرن الماضى أعظم كتاب الثورة الاجتماعية الروسية . وقد عرض قضية العمال وبؤس الطبقات العاملة فى قصصه أقوى عرض . ومما تجدر ملاحظته أن الحركة الأدبية فى روسيا الإشتراكية تبوأت مكانتها من القوة والازدهار ، ولم تتعرض لها الحكومة بأكثر من التوجيه نحو الغايات الثورية التى تطبع سياستها الاقتصادية والاجتماعية ، ولم تلق شيئاً من ذلك الاضطهاد الشامل الذى قضى على الأدب الألمانى فى ظل النظام الهتلرى

ولـكنه كثيراً ما كان يحس فجاءة بجمهور كبير من حوله ، من الحسان ، ومن الكبار ، يتطلع إليه ، ويصفق له ، فيهيم في أودية الخيال ويقفز من لباس إلى لباس ، ومن مكان إلى مكان ، ومن شخص إلى شخص ، ومن عصر إلى عصر ... ذلك نعيم المسرح (فترة راحة صغيرة)

« أكتب هذا ثانية ياسيد برودريب لو تفضلت »

(شخص أقبل ثم ذهب . سكون مخيم قابض)

وسرعان ماهبط السيد برودريب من حالق . سرعان ما تتبخر الأحلام وتتجسم الحقائق ، وتتكدس الأوراق أمامه ، وتتراجع الـكلمات الحلوة من فوق شفتيه لينطق بجملة واحدة مريرة ... « هذا جحيم المكتب »

ولم يطل تردده بين نعيمه وجحيمه . فذات مساء في أواخر يولية سنة ١٨٥٦ كان وليام هوسكينز جالساً أمام نار الدفأة مستغرقاً في بعض شئونه ، وإذا بطرق متواصل على بابه لم يدعه طويلاً رب الدار الذي أسرع نحو الباب ، فإذا به يجد الطارق تلميذه هنري ، وقد بدا مشرق الوجه بنور باهت هادىء أوضح ما يرى على وجه تخلص صاحبه من عذاب طويل .

علم الأستاذ أن تلميذه قد انتهى من الاختيار ، وأنه اختار النعيم الذي ارتآه

وقد ودعه هوسكينز في ذات الليلة بعد أن سلمه خطاباً فضه هنري في الطريق فطرب من كلمات الثناء التي قدمه بها معلمه إلى ا . د . دافيز بمسرح الليسام Ly ceum بسندرلاند . ولم يكن في تقدير هوسكينز أو هنري أو دافيز أو أي أحد أن هذا الزائر الجديد سيصبح مدير الليسام وأحد قادة المسرح في جميع العصور

وفي ١٨ من سبتمبر عام ١٨٥٤ رفع الستار لأول مرة على هنري كممثل محترف . وكانت كلمات المسرحية الأولى « إنا نبدأ المسعى » ... ولم تكن بداءة مشجعة لهنري ، فقد نصحه بعض الناقدين وقتئذ بمغادرة المدينة على أول باخرة فاستجاب إليهم ، ولـكن ليواصل جهاده في أدنبره حيث قوبل في أول الأمر بالصفير والهزء كممثل طريد ، ولـكنه سرعان مانقض هذا الحـكم ، وسرعان ما أصبح نجم الليسام وأحب ممثل إلى الجماهير

ولقد مثل في هذه الفترة ٤٢٩ دوراً مختلفاً في ٧٨٢ يوماً ، وهذا رقم قياسي في تاريخ كبار الممثلين . مثل في جميع أنواع المأساة والملهاة : مثل الذئب في Little Bo. Peep وأوجور في Puss - in - Boots وكاسيوفي Othello وسيلفيو وأورلاندو في As You Like Et وسبعة أدوار مختلفة في Hamlet

وفي عام ١٨٧١ ظهر لأول مرة على الليسام بلندن وصار من ذلك الحين « هنري ايرفنج »

وقد عزي إلى إيرفنج أنه لم يكن يحفل باختيار ممثلين تتكافأ صفاتهم مع صفته ومكانته ، حتى قال برنارد شو في إحدى مقالاته في النقد سنة ١٨٩٧ : « إن المرء في الليسام معرض للجنون في الفترات التي يخلو المسرح فيها من هنري إيرفنج وأليس بترى » غير أن هناك من ينتحل الأعذار لإيرفنج في هذا الصدد لاشتغاله ممثلاً ومديراً ومخرجاً في آن واحد ؛ فلم يكن يستطيع فوق ذلك أن يتفرغ لشئون تلاميذه وممثليه . ومن هؤلاء المدافعين عن هذه النظرية Dame May Whitty التي سافرت إلى هوليوود قريباً ، وكانت في صباها من ممثلي الليسام ...

وعلى ذكر شو نقول إنه من الـكتاب القليلين الذين اجترأوا على نقد إيرفنج ؛ وكان أكثر ما يأخذه عليه مسخه لشكسبير وإهماله لإبسن . ففي شكسبير كان شو يعتقد أن الجماهير تذهب لمشاهدة إيرفنج لا من أجل الـكاتب الانجليزي الـكبير . وأما مسرحيات إبسن فقد كان إيرفنج يتخلى عنها لألين بترى وجنفياف وارد في الأدوار الرئيسية

ومهما قيل في إيرفنج فليس هناك من ينكر فضله بين زعماء المسرح الخالدين

ولقـد قدر أخيراً لجون هنري برودريب ابن أحد فلاحي سومرست أن يأتي مضجعه الأخير في وستمنستر آبي مقر عظماء الانجليز باسم « سير هنري إيرفنج » وأن يكون الممثل الوحيد الذي يقام له تمثال في لندن يحج إليه في السادس من هذا الشهر كبار ممثلي انجلترا يحيون أعظم رجل عرفه المسرح الانجليزي

محمد علي ناصف

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧



العدد ٢٤٣
الرسالة

5 me Année, No. 243 — Lundi - 28 - 2 - 1938

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ٢٤٣ « القاهرة في يوم الاثنين ٢٧ ذى الحجة سنة ١٣٥٦ — ٢٨ فبراير سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـرس

محنة الآنســـة مى

أمسكنا عن الحديث فى محنة الكاتبة النابغة مي ضناً على فضول الناس أن يتخذ أرجح العقول وأبرع الأذهان مجالاً للظنون الكاذبة وموضعاً للفروض الجريئة . وكنا منذ سفرها إلى الجبل منذ عامين نتنسم أخبارها من كل مصرى يصيف فى لبنان ، وسورى يُشتى بالقاهرة ، فلم يقع لنا من ذلك ماينقع الشوق أو يُطمئن الخاطر ، حتى أخذت صحف بيروت فى الأسابيع الأخيرة تذكر من حال الكاتبة الجليلة ما يثير الهم فى الصدور ويُضرم الحزن فى الأفئدة ، وحتى أهاب رئيس المجلس النيابى السورى بأعضاء المجلس النيابى اللبناني وهو يزور ندوتهم فى منتصف هذا الشهر قال :

« كيف لا تهتمون بهذه النابغة اللبنانية ؟ وكيف تسجن (مي) بين جدران أربعة فى مستشفى المجانين ولا يثور الرأى العام اللبنانى ويظل هذا الخبر سراً مكتوماً ؟ لقد كان حديثها لى حلواً لا إبهام فيه ولا تعقيد . لقد وجدت فيها (مى) الكاتبة الشاعرة التى عرفناها فى الماضى ، فكيف دبرت هذه المؤامرة الدنيئة على نابغة النابغات ؟ أنقذوا مى وابذلوا جهدكم فى الترفيه عليها . وحرام أن تعامل الأنوثة التامة والنبوغ والعبقرية هذه المعاملة التى عوملت بها مى » (1)

(1) جريدة بيروت ١٥ / ٢ / ١٩٣٨

وجرائد بيروت آذانها أقرب إلى استقطار الخبر على صحته ، والأستاذ فارس الخورى بك ممن يُعتقد قوله ويُعتمد خبره ، والقنصل المصرى سمعنا أنه تدخل فى الأمر ؛ وتدخله دليل على أن هناك مجانفة للحق ومخالفة للعدالة ؛ فلم يبق إذن شك فى أن صديقتنا (مى) تكابد من ظلم القدر ولؤم الناس ما لا يجوز الصبر عليه ولا ينبغى السكوت عنه

* * *

كانت مى فى النصف الأول من سنة ١٩٣٥ مرهفة الطبع جمة النشاط دائبة الإنتاج لا تبخل بظرفها وأدبها على سامر ولا صحيفة ؛ وكان أكثر نشاطها حينئذ مصروفاً إلى مجلة الرسالة ومحطة الإذاعة . ومن أثر ذلك تلك المسابقة[1] الأدبية التى اقترحتها على الشعراء ، وذلك «المجلس النادر[2]» الذي أقامته للصلح بين بعض الأدباء . وكانت في مجالسها الخاصة تصرِّف الكلام وتساجل أعيان الأدب ببديهة حاضرة ولقانة عجيبة ، تمثل لك صورة من صور أولئك الأديبات اللآتى أنشأن باستعدادهن للأدب مجالس فى عهوده الزاهرة ، كسكينة ابنة الحسين ، والولادة ابنة المستكفى ، ومدام دي رمبوييه ، ومدام جوفرين ، والأميرة نازلى فاضل ، وأضرابهن ممن وفَّقن بين اللغة والبلاغة ، وبين الأدب والذوق ، وبين الفن والسمو ؛ ثم وشين ثقافة عصورهن بألوان شتى من أناقة العرض وجمال الأداء وحسن المبادهة . وكان من حسن حظ الرسالة أن وقعت بقلب الكاتبة العظيمة ، فكانت كلما صدرت فى يومها تحيينى مى بالتليفون تحية الروح الملهم من عالم الغيب ، والأمل المشجع من وراء الغد ، فكان ذلك يبسط من انقباضى عن الناس ، ويجرئنى على إغباب الزيارة للأديبة الكريمة . وكان يصحبنى إليها صديقها الأستاذ عنان فنجدها وحدها أو معها الأستاذ خليل ثابت ، فنسمر عندها هزيعاً من الليل تناقلنا شجون الحديث بصوت جميل النغم ، ومنطق رخيم الحواشى ، وعقل سريع الإدراك ، وظرف بارع الفاكهة ، حتى أقبل الصيف وعقدت سمائمه على وجهى (الوادى) غشاء من الزفير والدخن ، فلحظنا ذات مساء على الآنسة المتهللة بطبعها انقباضاً فى المزاج واضطراباً فى النفس ، سببه على ما قالت خلاف طرأ بينها وبين محطة الإذاعة ، فقد أرادت أن تذيع خطابها من غير أن تطلع عليه الإدارة ؛ وأبت عليها عزتها أن تقبل تنبيه المذيع اللين إلى أن قانونها يحتم الاطلاع على ما يلقى قبل إذاعته . فانصرفت غاضبة على الرغم من اعتذار الإدارة عن هذا التنبيه وقبولها أن تذيع مى من غير قيد ولا شرط . فهوَّنا عليها الحادث وجلونا عن صدرها همه . ولكن الأمر بعد ذلك عظم فى نفسها وأصبحت تظن أن الحكومة تضطهدها وتراقبها فقررت ألا تخرج من البيت ، وشعرت أنها غير مقدورة ولا مشكورة فصدفت عن الكتابة ، واقتصرت من الغذاء على شراب الليمون ، ومنعت إذنها عن الناس فلم يدخل عليها إلا أربعة أو خمسة من أصدقائها الأدنين . ودخلنا عليها ذات ليلة فوجدناها كئيبة النفس كأنما انصرفت من جنازة حبيب . فسألناها ما بها ، فقالت إنها الساعة مزقت وأحرقت ستة وثلاثين مخطوطاً من رواياتها ومقالاتها آخرها رواية (المصرى الجديد) لأنها لم تجد رداً على ظلم الحكومة وعقوق الناس أبلغ من هذا الصنيع . فبدا على وجوهنا سهوم الأسى والجزع على هذه الثروة الأدبية تخسرها العربية من بلاغة مى . كل ذلك ومي محافظة على هدوء الطبع ورصانة العقل وألمعية الذهن وسلامة الحديث ، فعزونا هذه الحال النفسية إلى حزنها على أمها ، ووحدتها فى بيتها ، وعزلتها عن أهلها ، فأشرنا عليها مع الطبيب أن تسافر إلى لبنان انتجاعاً للراحة وطلباً للنسيان وابتغاء للأنس ، فكانت ترفض ، حتى حملها بعض قرابتها على أن تسافر فسافرت ، وفى مرجونا أن تعود مى إلى مصر رخية البال سعيدة النفس رافهة البدن ، وما كان فى حسبان أحد ممن ساعد على هذا السفر أن مي معبودة القلوب وريحانة المجالس وفخر النهضة تقع فى حبالة الطمع الدنىء والهوى المريض والذمة الغادرة ، فيعتقلونها فى مستشفى الجنون اعتقال الشريدة ، ثم يغشُّونها بالحجب ، ويحيطونها بالأسرار ، ويشدونها بالترك ، حتى تجهلها الحياة وينساها الناس ويخلص لهم الغنيمة

إن الآنسة مي التى غذت نهضة الفكر العربى مدى ربع قرن ، فكان لها فى كل موضوع رأى ، وفى كل قلب ذكرى ، وفى كل مكتبة أثر ، لا يمكن أن تضيع هذه الضيعة الذليلة بين مصر ولبنان . وسينظر الناس ماذا يصنع جمهور الأدبين وحكومة البلدين بعد ما برح الخفاء وانكشفت النية وانهتك ستار المأساة

احمد حسن الزيات

(١) الرسالة عدد ٧٩ (٢) الرسالة عدد ٨٣

اللورد كتشنر

كما يصوره صاحب « المشرقيات »

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

راقتني من كتاب « المشرقيات » للسير رونالد ستورس، على الخصوص، طائفة من الصور الوصفية لجماعة من مواطنيه الانجليز الذين كان يعمل تحت رياستهم . وكان السير رونالد هو السكرتير الشرقي لدار المعتمد البريطاني في مصر، أو قصر الدوبارة كما كانت تسمى قبل الحرب، وقد ظل يعمل تسع عشرة سنة في مصر وفلسطين بعد فتحها وجلاء الترك عنها، ويقوم بأثقل الأعباء وأخطر المهمات، وهو يعد — في اصطلاح الوظائف — « ظهورات » والمراد بذلك أنه غير « مُثبت » ولا يحسب له معاش، ولا يمنح شيئاً سوى الشكر والثناء إذا ترك الوظيفة أو استغنت عنه حكومته . ولم ينتظم في سلك الموظفين الدائمين إلا بعد أن تخلى الجيش البريطاني عن إدارة فلسطين وأسلم الأزمة إلى حكومة مدنية برياسة مندوب سام

فهذه واحدة قد تكون فيها عبرة للمصريين

ومن أشهر المتمدين البريطانيين الذين تعاقبوا على مصر قبل الحرب وبعدها اللورد كتشنر، وقد قص عنه السير رونالد بضع نوادر تصوره أبرع تصوير . منها أنه على أثر مقدمه، سبقه السير رونالد — وكان لا يزال المستر ستورس — إلى قصر الدوبارة، وجلس إلى مكتبه ينتظر أن يقرع له الجرس . وكانت حكومته قد أنبأته أنه سيكون مع اللورد كتشنر « تحت الاختبار » فاذا رضي عنه فيها، وإلا فهو مفصول لا محالة . ولم يكن المستر ستورس يرجو خيراً، أو يطمع في رضى رئيسه، فراح يحسب ما ادخره ليرى هل يكفي لنفقات السفر على الدرجة الأولى وهو عائد إلى بلاده . وإذا بالجرس يدق، فنهض ودخل على كتشنر يحمل إليه آلافاً من برقيات التهنئة التي تلقتها الدار

قال ستورس: « وكان الفيلد مارشال يحدق في مكتبه وهو يسأل عن هذه الأوراق ما هي . فأخبرته، فسألني ماذا أنوي أن أصنع بها ؟ فقلت: إن رأيي هو أن التهنئات الواردة من أعضاء الأسرة المالكة ومن الوزراء الحاليين والسابقين يكون الرد عليها بضمير المتكلم إذا كانت هناك معرفة شخصية، أو بضمير الغائب إذا لم تكن ثم معرفة كهذه بينه وبين مهنئيه، وأن غير هؤلاء من الأفراد المعروفين أو الجديرين بالاحترام يتولى السكرتير الشرقي شكرهم، وأن الباقين يكون جوابهم — الصمت

« فأدهشني وأفزعني أن أتلقى منه أمراً بالمساواة بينهم جميعاً . وقد تعود الفيلد مارشالات الطاعة السريعة التي لا تعرف التردد أو المناقشة ؛ ولعل اللورد كتشنر أصرمهم في هذا . وقد بدا لي وأنا واقف أمامه أن المجادلة لا محل لها، وخاصة ممن كان مثلي مدنياً لا عسكرياً ؛ ولكنه لم يسعني مادمت في وظيفتي، إلا أن أكون مستحقاً للأجر الذي أتقاضاه عليها، ولذلك تشددت وأنا على مقربة من الباب، وأجريت لساني بما يفيد الطاعة، وزدت على ذلك أن في وسعنا على كل حال أن نهمل النتائج . وكنت كأني في حلم، وكأني أحس ـ لا أسمع ـ سؤاله « أي نتائج ؟ »

فقلت بلهجة اليائس: إن أهل الطبقة الأولى سيرون أنهم أهينوا لأنهم عوملوا كأهل الطبقة الثانيـة، وإن أهل الطبقة الثانية سيعدون هذه سابقة، وينتظرون في كل حال أن يُسووا بمن فوقهم، وإن أهل الطبقة الثالثة سيستخدمون اسم سعادته (يعني كتشنر) في ابتزاز المال من الجهلاء والأميين من أبناء الريف .

«وساد سكون مزعج سألت نفسي فيه — بسرعة البرق — إذا طردت هل يسعني أن أسافر على الدرجة الأولى، ولو بطريق البحر الطويل ؟ وسمعت كما يسمع الحالم صوتاً يقول: « اصنع مابدا لك» واستيقظت في غرفتي حيث عجلت بارسال ردود الشكر قبل أن يغير رئيسي رأيه

وفي الأسبوع الأول من عهد كتشنر، سمع المستر ستورس أن طائفة من الوظفين الانجليز ينوون أن يستقيلوا، بعضهم لكراهتهم له، والبعض الآخر لأنهم يتوقعون منه أن يقيلهم . فرأى المستر ستورس من واجبه أن يبلغه ذلك من غير أن يذكر له أسماء . فقال له كتشنر: « إذهب إلى النادي (تيرف كلوب) وأعلن هناك أن عندي هنا في هذا الدرج استمارات مطبوعة بقبول الاستقالات » . فأذاع المستر ستورس هذا الخبر، فلم ترد استقالة واحدة !

ويقول المستر ستورس إنه اشتاق إلى الاطلاع على هـذه الاستمارات العجيبة ، ففتح الدرج فألفى فيه صندوقاً فيه سجاير !

وتغدى سلاتين باشا مرة مع كتشنر ، فقال على الطعام ، تمهيداً للكلام فى أمر « معاشه » :

« إن من دواعى أسفى أنى لم أوفق فى حسن تدبير الجانب المالى من حياتى »

فقال كتشنر : « إن من يعرفك ياعزيزى سلاتين لا يخطر له غير ذلك »

ولم يكن هذا بالرد المشجع على الاسترسال ولكن سلاتين باشا لم ينهزم فقال :

« هأنذا ظللت فى أسر المهـدى اثنتى عشرة سـنة ، عارياً مكبلاً أكثر الوقت ، وقد وقعت فى هذا الأسر وأنا فى الخدمة ، ومع ذلك لم آخذ قرشاً واحداً طول هذه المدة »

فكان رد كتشنر : « صحيح ياسلاتين ، ولكنك لاتستطيع أن تزعم أنك أنفقت شيئاً فى هذه المدة ! »

وبعد هذا الجواب انتقل الحديث فجأة إلى الطيران ومحصول القطن !

ولما جاء إلى مصر كامل باشا الذى تولى الصدارة العظمى فى تركيا أربع مرات ، زاره اللورد كتشنر فى فندق سميراميس ، فتذكر كامل باشا أنه لما كان والياً فى الأناضول كان كتشنر قنصلاً لدولته هناك ، فقال كتشنر :

« نعم ، ولكنك توقلت فى معارج الرقى بسرعة ، أما أنا فكنت يومئذ قنصلاً ، وقد احتجت إلى ثلاثين سـنة لأصبح قنصلاً عاماً » !

وكان إذا جاءه البريد من لندن ، يفتح منه أول ما يفتح ، كتاب وكيله الذى يصف له فيه مبلغ التقدم فى إعداد بيته هناك وإصلاحه . ويقول ستورس : إن العمل فى بيت كتشنر استغرق سنوات وسنوات ، لأنه كان ينفق عليه مما يستطيع أن يدخره من مرتبه . وكان هذا البيت هو كل ما يعنيه من أموره الخاصة ؛ وشاء القدر ألا يسكنه قط ، لأنه غرق قبل أن ينتقل إليه

ولم يكن يحسن الكتابة أو يقبل على القراءة ويعنى بالاطلاع مثل كرومر . وكان قلما يلعب غير الشطرنج فى القطار أو على الباخرة . ولم يكن له ذوق غورست وفهمه للموسيقى والعلوم الطبيعية ، أو ولع اللنبي بالألعاب الرياضية والشعر ، ولكنه كان مشغوفاً بالعاديات وفنون الزينة

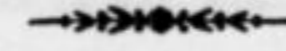
وقد قامت الحرب ، وهو فى إجازته فى انجلترا ، فأراد أن يعجل بالعودة إلى مصر لأنه كان يخشى أن تـكل إليه حكومته وظيفة استشارية . فلما صار على ظهر الباخرة تلقى برقية من رئيس الوزارة يطلب بقاءه ، فعاد إلى لندن ومعه السير رونالد ستورس وفى نيته ألا يقبل شيئاً دون وزارة الحربية مع اطلاق يده فيها . فأعطوه ما طلب . فأراد أن يتخذ السير رونالد سكرتيراً خاصاً له وأمره أن يستأجر له بيتاً ، ويجيئه بسيارة من طراز «رولز رويس» وأن يذهب إلى الخارجية للاتفاق معها على الانتقال مع كتشنر إلى الحربية . وكان السير رونالد لا يريد هذا الانتقال لأنه ليس من رجال الحرب ولا دراية له بشئونها ، ولكن كتشنر كان رئيسه — لأنه لم يستقل من وظيفته فى مصر — فأطاع . فأبى رجال الحربية أن يسمحوا بهذا النقل ، ولكنهم كرهوا أن يعارضوا كتشنر ، فكلفوا ستورس نفسه أن يتولى هو عنهم إقناعه وإبلاغه أنهم محتاجون إليه فى مصر

فلما عاد إلى وزارة الحربية ألفى كتشنر يغسل وجهه ، وهو نصف عار ، ووراءه عدد من القواد الفرنسيين ، فانتظر حتى فرغ مما هو فيه ، ثم أخبره الخبر ، فاقتنع كتشنر ، وقال : إن رجال الخارجية على حق . وكان من مزاياه — على ما يروى السير رونالد ستورس — أنه لا يتردد فى الرجوع إلى الحق ، ولا يخجل أو يستنكف من ذلك

ابراهيم عبد القادر المازنى

اختلاف
حدود الحق والواجب

للأستاذ عبد الرحمن شكري
مفتش التعليم الثانوي



إن حدود الحق والواجب تختلف فى الأماكن المختلفة بعض الاختلاف كما أنها قد تختلف في الأزمنة المختلفة أو فى المكان والزمان لاختلاف الطبائع والصفات النفسية وما يتبعها من الآراء . وهذا الاختلاف فى تعريف حدود الحق والواجب وتعيينها قد يغر الناس فى عصور الانقلاب الاجتماعى فينبذونها كلها ويحاولون أن لا يتقيدوا بها وأن لا يجعلوا لها شأناً، ويحسبون أن الحياة تستطيع أن تقوم وأن تحسن وتصلح من غيرها ، ويغالطون أنفسهم كى يستثمروا نبذها لجلب مطالب وقضاء لبانات

والحقيقة أن للحق والواجب حدوداً لا يختلف فيها أحد وإن اختلف الناس فى حدود حقوق وواجبات أخرى ، وأن كثيراً من الناس ينبذون حتى الحدود التى يعترفون بها عجزاً عن كبح أثرتهم وأن الحياة لا تصلح إلا بنصيب كبير من احترام حدود الحق والواجب التى تحددها القوانين الانسانية والضمير والشرائع الدينية حتى فى عصور التغير الاجتماعى التى يكثر فيها العبث بتلك الحدود ، بل ربما كانت تلك العصور أحوج إلى طوائف من الناس يزداد تشبثها بتلك الحدود حفظاً للتوازن الحيوى لأن الحياة قائمة على التوازن وسنته هى سنتها . ومن درس كتب التاريخ وجد فى الأمم المختلفة حتى فى إبان الثورات والحروب والكوارث الطبيعية وفى وسط ماتبتعثه من الاضطراب الخلق والاجرام — أناساً يعملون أعمالهم اليومية فى حدود الحق والواجب ، وأناساً يزداد تشبثهم بتلك الحدود حسب سنة التوازن الحيوى التى أشرنا إليها

ومن الناس من يقول إن حدود الحق والواجب إذا استعبدت الناس استعباداً مطلقاً وتقيدوا بحروفها دون معانيها وظروفها منعت من تحوير الحقوق والواجبات لإنمائها وتحسينها كما يتطلبه رقى الانسانية . ولعل الصواب الذى فى هذا القول أقل من المغالطة المقصودة أو غير المقصودة ، وأقل من سوء التطبيق الذى تدفع إليه الرغبة فى التخلص من بعض تلك الحدود ، وأقل من الغفلة التى تمنع من يقول هذا القول من أن يعرف أن أكثر الحقوق والواجبات اللازمة لرقى الانسانية معروف ، وإنما هو القصور عن عليائها الذى يمنع من الرقى فى أكثر الأحوال

ولا ننكر أن بعض عصور الانقلاب الاجتماعى التى جرت فى أذيالها شيئاً مما دعا إلى طمس بعض حدود الحق والواجب القديمة قد أدى إلى تعديل وتحوير وتحسين في حالة الانسانية ، ولكن المصلحين المثقفين كانوا يختلفون عن الدهماء وأمثال الدهماء ، فإن المثقفين كانوا يعتبرون هذا الطمس ضرراً عارضاً مؤقتاً لابد من منع شره من أن يستطير ، وأنه ليس سبب الرقى ولا أساسه ، وأنه ينبغي قصره على الحد الذي يمكن الدهماء إذا كانوا لا يمكنون إلا معه من الرغبة فى الحقوق والواجبات الجديدة . أما أمثال هؤلاء الدهماء وأنصاف المثقفين وذوو الأثرة والجشع والمكر والخبث ممن ينعق فى أثر كل مصلح فيحاولون طمس جميع حدود الحق والواجب كى ينتفعوا ولا يبالون ما يكون بعد انتفاعهم

وبالرغم من سنة التوازن التى تؤدى إلى زيادة تشبث بعض الطوائف الإنسانية إذا نقص تشبث غيرها بحدود الحق والواجب قد يتدهور المجتمع الإنسانى بسبب قوة عوامل الخراب التى تطغى وتشل أثر هذه السنة حتى ولو كان التغير المطلوب مما يرجى فيه خير الإنسانية ، وبعض التغير لا رجاء فيه فتكون المصيبة أكبر والخسارة مضاعفة

ومن المستطاع التمييز بين وهن حدود الحق والواجب الناشئ من التغير المؤدى إلى رقى ، وبين وهيها الناشئ من تغير لا يؤدى إلى رقي — وإن اختلطا في أذهان الناس ونفوسهم — فالوهى الأول لا يكون شاملاً لجميع الطوائف والطبقات والأفراد ، بل نرى من الطوائف من لا يتأثر به ولا سيما طائفة المحافظين على القديم . أما الوهى الثانى الذى يؤدى إلى تدهور فيكون شاملاً ، ومن دلائله أن الطائفة المحافظة على القديم قد تكون من أكثر الطوائف تأثراً به بالرغم مما يتفاخر أفرادها من المحافظة على حدود الحق والواجب . والنوع الأول مقصور على بعض حدود الحق

والواجب غير شامل لها ، وإنما يقصر على ما يراد تعديله وإعاؤه من الحق والواجب . أما النوع الثانى فانه يظهر بمظهر شامل لجميع حدود الحق والواجب أو أكثرها ؛ والنوع الأول نرى من خلفه حقوقاً وواجبات أخرى يتقيد بها الانسان . أما النوع الثانى فلا يلبيح بشيء من ذلك

وبهذا القياس نستطيع أن نقيس حالة الأمم . فاذا كان احتقار حدود الحق والواجب شاملاً لطوائفها وطبقاتها حتى وإن أنكر بعضهم شموله ، وإذا كان غير مقصور على بعض الحدود ، وإذا كان لا يبشر بحدود أعلى وأتم وأحسن ، وإذا لم كان غير مصحوب بالغيرة على المثل العليا ، ولم تكن تلك المثل الداعية إليه ، فهو نذير شؤم وتدهور واضمحلال .

ولكن مما يؤسف له أن بعض المثقفين لا يميزون هذا التمييز ولا يعيرون هذا القياس اهتماماً بل يكتفون برؤية مظاهر تغير اجتماعى مصحوبة بومى حدود الحق والواجب فيحسبون أن ذلك إنما كان لتسهيل قبول حدود حقوق وواجبات جديدة أكثر قداسة ، ويفترضون أن مظاهر التغير هذه لا بد أن تؤدى إلى الرقي المؤجل الدائم . ومما يسهل انخداعهم أن تكون تلك المظاهر مصحوبة برقى فى الماديات ، ويحسبون أن ذلك الرقي فى الماديات سيكون خالداً ومؤدياً حتماً إلى زيادة حدود الحق والواجب متانة وظهوراً فى النهاية وإن أضعفها وطمسها فى البداية ، ولا يميزون أنواع ذلك الضعف والطمس ولا يقيسونها بما ذكرنا من الشرائط . وربما يسهل انخداعهم أيضاً أن بعض المصلحين يعمدون إلى إضعاف تلك الحدود أو بعضها تقريباً لمبادئ جديدة كما يُعمل الهادم معوله فى البناء القديم كى يهدمه وكى يؤسس مكانه بناء جديداً . وأكثر هؤلاء يحسبون أنه مهما بلغ من الفساد بسبب طمسهم حدود الحق والواجب فانهم قادرون على علاج الفساد الذى سببوه . وهذا نوع من الغرور يختص به بعض دعاة الاصلاح ويسلكهم فى زمرة المفسدين الذين لا يبالون أصلحت الدنيا أم خربت ، حتى أن المفكر لا يستطيع أن يميز بين الطائفتين وأن يحكم على رجل من أى نوع هو

وينبغى للمفكر أن يميز بين المجتمع الانسانى والبنيان ، فالبناء حجر أصم يمكن هدمه وإقامة بناء آخر مكانه ولا خطر في ذلك إذا تهيأت الأسباب والوسائل ، أما المجتمع الانساني فهو حى نام شبيه بجسم الانسان الحى النامي لا بالبناء الأصم ، والذين حاولوا إدخال إصلاحاتهم على اعتبار أن المجتمع كبناء من حجر أصم ما لبثوا أن عرفوا خطأهم ، وزادتهم خبرتهم وزادتهم أخطاؤهم يقيناً أن المجتمع الانسانى ليس كالبناء المصنوع من حجر أصم بل كجسم الانسان النامي الحي ، ولكن بعض هؤلاء أخطأ فى حسابه وبالغ فأفلتت منه الأمور واضمحلت . وينبغى لكل من يعالج أمراً من أمور المجتمع الانساني أن يقدر أنه قد يكون مخطئاً أو مغالياً حتى على شدة الثقة برأيه فيتخذ الحيطة . واجتماع هذه الأمور لا يكون إلا فى مراتب الثقافة الانسانية العالية . وينبغى لهذا المعالج لأمور الناس أن يحذر من أن يؤدى عمله إلى احتقار حدود الحق والواجب احتقاراً يصبح ناراً تلتهم كل الحقوق والواجبات أو تحاول التهامها ويصير مرضاً مزمناً فى المجتمع الانسانى ، وهو إذا حاول استخدام احتقار حدود الحق والواجب الناشيء من المكر والخبث والجشع ، واستثمارها بتقديم أصحاب هذه الصفات كان عمله آفة لا إصلاحاً ، وصارت أمور الناس ضيعة يستغلها من لا يبالى أصلحت الدنيا أم خربت . وقد يستغلها ويخربها باسم الاصلاح بقدوته ونفوذه العلنى والسرى ، والثانى شر من الأول لأنه مختف فيندفع صاحبه غير هياب ولا وجل فى إفساد الأخلاق والذمم والضمائر والنفوس . ويكون معالج أمور الناس الذى قدمه كالمرأة التى تغزل بيد وتنقض غزلها باليد الأخرى ، وربما سطت بتلك اليد الأخرى على غزل غيرها ونسجه فتتلفه أيضاً .

عبد الرحمن شكري

بين تيمورلنك وبايزيد

قصة الملك الأسير في قفص من حديد

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لما زرت أنقرة عاصمة تركيا الجديدة منذ أعوام ، وتأملت المدينة الناشئة التي اختارها القدر لتكون مبعث حياة جديدة للأمة التركية ، تذكرت أن هذه الهضاب القفرة التي تحيط بالعاصمة التركية الجديدة كانت مسرحاً لحدث عظيم في تاريخ الدولة العثمانية ، وأنها إذا كانت اليوم مركز القوة والحياة في تركيا الجديدة ، فقد كانت ذات يوم مبعث الدمار والويل لدولة بني عثمان وكادت أن تكون قبراً لسلطانهم الناهض ومجدهم الفتي

كان ذلك في سنة ١٤٠٢ م ، حينما انقض تيمورلنك الفاتح التتري بجيوشه الجرارة على هضاب الأناضول كالسيل ، وحينما نشبت في هاتيك الهضاب الوعرة بينه وبين السلطان بايزيد الأول موقعة أنقرة الشهيرة التي سحقت فيها قوى آل عثمان وأسر ملكهم وأمراؤهم ، وكادت تمحى دولتهم من الوجود لولا أن تطورت الحوادث بعد ذلك بسرعة ، وتوفى الفاتح التتري بعد ذلك بقليل ، وانهارت دعائم ذلك الصرح العسكري الهائل الذي شاده تيمور بغزواته وفتوحاته وانتصاراته العظيمة

وكان تيمور قد بدأ حياة الفتح بعد ذلك بنحو ثلاثين عاماً، وخرج من سمرقند عاصمة ملكه الناشىء يثخن في الأمم والممالك المجاورة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، ويفتتح قطراً بعد قطر ، ويسحق مملكة بعد أخرى ؛ فلم يمض على هذا البدء ثلاثون عاماً حتى استطاع أن يجتاح جميع الممالك الواقعة بين سمرقند والشام ، وبين قزوين والخليج الفارسي ، وأن يفتتح الهند وخوارزم وفارس والجزيرة والقوقاز وأرمينية ، وأن يبسط حكمه الشامل على تلك الممالك والأنحاء الشاسعة ، وأن يبلغ ذروة الظفر والسلطان الباذخ

وفي سنة ١٣٩٩ م خرج تيمور من سمرقند بجيشه الظافر لآخر مرة ؛ وكان قد نفذ إلى الهند قبل ذلك العام وأثخن في بسائطها وقواعدها ؛ واستولى على دهلي حاضرتها ، وتم بذلك افتتاحه لممالك آسيا الوسطى ؛ واخترق تيمور بجيشه أواخر فارس واتجه نحو بلاد الكرج وأرمينية ؛ وكانت هذه المنطقة مثار خلاف دائم بينه وبين بني عثمان ، إذ كانوا يغيرون عليها من وقت إلى آخر ؛ وكانت أملاك تيمور وبني عثمان تلتقي هنالك عند أرضروم والفرات ؛ وزحف تيمور على سيواس ، وكان الترك العثمانيون قد احتلوها قبل ذلك بقليل ، واستولى عليها ؛ وبلغت هذه الأنباء سلطان الترك بايزيد الأول ، وهو معسكر بجيشه تحت أسوار قسطنطينية يحاصرها ، فلم يستطع شيئاً ؛ واخترق تيمور بلاد الأناضول ، وزحف نحو الشام وهي يومئذ ولاية مصرية ، يقصد افتتاحها ؛ ثم يفتتح مصر ؛ وبذلك يبسط سلطانه على الشرق الإسلامي بأسره . واستولى تيمور على مدينة حلب في مناظر هائلة من السفك والعيث والنهب ، وانقض سيل التتار المخرب على ربوع الشام يثخن فيها ويحمل أمامه كل شيء . وزحف الغزاة على دمشق في أوائل سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) ؛ فروعت مصر لهذه الأنباء ، وهرع ملك مصر الناصر فرج بجيوشه لملاقاة الفاتح التتري ونزل بدمشق في جمادى الأولى ، واشتبك جند مصر مع جند الفاتح في معارك محلية كانت سجالاً ؛ ولكن السلطان اضطر أن يعود فجأة إلى القاهرة لأنباء مزعجة نميت إليه فترك دمشق لمصيرها ؛ واستولى تيمور على دمشق صلحاً ، ولكنها لم تنج من سفكه وعيثه ؛ على أنه لم يمكث طويلاً بالشام إذ وصلته الأنباء عن أهبة بايزيد وحركاته ؛ فغادر الشام شرقاً إلى الفرات ، ثم سار شمالاً الى بلاد الكرج ، وأشرف مرة أخرى على حدود مملكة « الروم »

* * *

وهنا تبدأ بين هذين العاهلين العظيمين وقائع تلك المعركة الشائقة التي تسبغ عليها تفاصيلها لوناً من الخيال الساحر ، فقد استقبل تيمور سفراء بايزيد وأنبهم على مسلك مليكهم ، وكتب إلى بايزيد رسالة يلومه فيها على حمايته لبعض الأمراء الذين خرجوا عليه ، ويفاخره بفتوحاته الباهرة وسلطانه الباذخ ويحذره من سطوته وبطشه ويتحداه في عبارات جافية مثيرة ؛ فرد عليه بايزيد برسالته الشهيرة التي تذكرنا عباراتها وأسلوبها برسائل الملوك الأقدمين وعهد الأساطير ، وفيها يسخر منه وينتقص من قدره وقدر فتوحاته وغزواته ، وينسب توفيقه فيها إلى غفلة الزمن وإلى

ضآلة شأن خصومه ، ويحمل على و له فى الحرب والسياسة ، ويرميه بالعدوان والغدر ، ويرمى جنده ومواطنيه التتار بالعجز والخور ؛ وينوه بقوته ومقدرة جنده ، وعظيم استعداده للحرب والطعان . على أن ذلك لم يكن شيئاً بالقياس إلى ذلك التحدى الغريب الذى اختتم به بايزيد رسالته إلى تيمور ، إذ يقول له : « فان لم تأت تكن زوجاتك طوالق ثلاثا ؛ وإن قصدت بلادى وفررت عنك ولم أقاتلك فزوجاتى إذ ذاك طوالق ثلاثا » . ويعنى ابن عربشاه مؤرخ تيمور [1] عناية خاصة بذكر محتويات الرسائل التى تبادلها الملكان ، ويقول لنا إن تيموراً حينما وقف على هذا القسم الغريب الذى يلقيه بايزيد فى وجهه ثارت نفسه غضباً ، « لأن ذكر النساء عندهم من العيوب ، وأكبر الذنوب » ، فكيف بهذه الإشارة المثيرة إلى نساء الفاتح وحليلاته

وهكذا اعتزم العاهلان أن يخوض كلاهما ذلك النضال الذى يشهره كلاهما فى وجه الآخر ؛ فبادر تيمور إلى الزحف فى جيشه الزاخر شرقاً نحو هضاب الأناضول ، ونفذ إلى مملكة الروم ، واستولى في طريقه على مدينة قيصرية ، ثم اخترق نهر هاليس ، وطوق مدينة أنقرة ؛ وكان بايزيد قد استطاع فى الفترة التى قضاها تيمور فى الشأم أن يجمع قواته وأن يستكمل أهبته . وتقول لنا الروايات المعاصرة إن جيش التتار بلغ يومئذ زهاء ثمانمائة ألف مقاتل ، وأن جيش الترك بلغ زهاء أربعمائة ألف ، وهي أرقام هائلة فى تلك العصور وخصوصاً إذا ذكرنا ما كانت عليه وسائل النقل والتموين يومئذ من نقص وصعوبة . وكان الجيش العثمانى يتفوق على جيش التتار بنظامه ، ويمتاز بالأخص بفرق الانكشارية الجريئة ؛ ولكن جيش التتار فضلا عن تفوقه العددى ، كان متفوقاً فى روحه المعنوي . وكانت هذه الانتصارات المتوالية التى أحرزها التتار ما بين السند والأناضول قد بثت فى نفوس الغزاة روحاً من الثقة الوطيدة . ولما وقف بايزيد على مقدم تيمور هرع إلى لقائه فى ظاهر أنقرة ، وكان هذا اللقاء الشهير بين الجيشين العظيمين فى يوم الأربعاء ٢٧ ذى الحجة سنة ٨٠٤ [2] (أواخر يولية سنة ١٤٠٢) وأبدى بايزيد وجيشه شجاعة فائقة ؛ ولكن

(١) فى كتابه عجائب المقدور فى أخبار تيمور

(٢) ابن عربشاه (مصر) ص ١٣٠

سرعان ما دب الوهن إلى قواته ، وانسحب بعضها من الميدان باغراء تيمور ووعوده . وسرعان ما حلت النكبة بالترك فمزقت قواتهم وسحقت ، وأسر بايزيد وعدة من ولده وآله ؛ وفر ولده سليمان فى بقية من الجيش صوب العاصمة ؛ وطارد الغزاة العدو المهزم ، واستولوا على كوتاهية ؛ ثم زحف محمد سلطان حفيد تيمور إلى بروصه عاصمة مملكة الروم فاستولى عليها ، وعاث فيها ونهب القصور الملكية وسبى حريم السلطان ، وفر سليمان إلى الشاطىء الأوربى حاملاً ما استطاع إنقاذه من خزائن أبيه . وسحق ملك بنى عثمان تحت سنابك الغزاة مدى حين

وهنا تعرض للحرب صفحة فى تلك المأساة الشهيرة ، فان ابن عربشاه مؤرخ تيمور يقول لنا إن الفاتح التترى سجن بايزيد فى قفص من الحديد كما فعل قيصر مع سابور ملك فارس [1] ؛ وهى رواية عربية تؤيدها الروايات اليونانية واللاتينية المعاصرة ؛ بيد أن رواية ابن عربشاه ليست فى حاجة إلى التأييد ، فهو مؤرخ معاصر كتب روايته بعد وفاة تيمور بنحو ثلاثين عاماً فقط ، واستقى مادته فى سمرقند ذاتها حيث عاش مع أسرته ردحاً من الزمن وسمع أقوال رواتها وشيوخها المعاصرين لتيمور ، واستقاها كذلك من بلاط السلطان محمد الأول بن السلطان بايزيد ، حيث قضى فى خدمته حيناً وتقلد لديه ديوان الانشاء ، واطلع على جميع المصادر والوثائق التركية والفارسية التى تتعلق بسيرة تيمور وغزواته ؛ وإذن فليس فى روايته عن القفص الحديدى الذى سجن فيه بايزيد ما يدعو إلى الريب

وهنالك رواية أخرى يقدمها إلينا مؤرخ فارسي معاصر ، هو شرف الدين على الذى كتب سيرة تيمور بعد وفاته بعشرين عاماً ، تحقيقاً لرغبة حفيده السلطان ابراهيم . وخلاصة هذه الرواية هو أن تيمور حينما علم بأن السلطان الأسير (بايزيد) قد اقتيد إلى خيمته ، نهض للقائه ، وأكرم وفادته ، وأجلسه إلى جانبه ، وعتب عليه فى لفظ رقيق ، وحمله تبعة ما وقع ، ووعده بصون حياته وشرفه ؛ فتأثر بايزيد لكرم خصمه ، وأعرب عن ندمه وقبل منه خلعته ؛ وعانق ولده موسى الذى أسر معه والدمع ينهمر من عينيه ؛ وأنزل السلطان وباقى الأمراء الأسرى منزلا حسناً . ولما وصلت زوج السلطان وهى الملكة رسبنا اليونانية وابنتها

(١) ابن عربشاه (مصر) ص ١٣٩

وباقي حريم السلطان ، حملن إليه مكرمات معززات . ولما دعى السلطان إلى الحفلة التي أقامها تيمور ابتهاجاً بالظفر ؛ وضع تيمور التاج على رأسه ، ووعده برد عرشه وملكه ، ولكن السلطان الأسير مالبث أن توفى ، فحزن تيمور عليه وأمر بدفنه بين مظاهر التكريم في المدفن الذي أقامه لنفسه في بروصه ، واختار ولده موسى ملكاً على الأناضول

على أن هذه الرواية لا يمكن أن تنال من الثقة ما تناله منا رواية ابن عربشاه ، فهي على ما يلوح رواية قَصْرٍ أريد بها تمجيد ذكرى الفاتح وعرض مناقبه . ويحاول المؤرخ الفيلسوف جيبون أن يوفق بين الروايتين ، فيقول لنا إن رواية شرف الدين في شقها الأول صحيحة لاريب فيها ، فقد استقبل تيمور أسيره برقة وأكرم وفادته ، ولكن بايزيد قابل كرمه بكبرياء وغطرسة ، فاستاء تيمور واعتزم أن يقود أسيره في ركبه الظافر إلى سمرقند ؛ ولكن محاولة بذلت لإنقاذ الملك الأسير حملت تيمور على التشدد في معاملته ، فزج به إلى قفص من الحديد ، اقتداء بما قرأه في بعض السير القديمة من أن سابور أحد ملوك الفرس وقع في قبضة قيصر فسجنه في قفص من الحديد[1] . ويضيف ابن عربشاه إلى ذلك أن تيموراً أراد أن يذهب في التنكيل بأسيره إلى ذروة القسوة والمهانة ، فدعاه ذات يوم إلى حفل أنس عقده ؛ ولما جاء دور الشراب ، التفت بايزيد فإذا بنسائه وجواريه يتولين سقاية الفاتح وصحبه أمام عيني مليكهن ؛ وقد كان ذلك من تيمور مبالغة في الانتقام من خصمه والتشفي منه لما اجترأ عليه من ذكر النساء في مكاتبته[2] . وقد كان لهذه الآلام المادية والمعنوية أثرها في الملك الأسير ، فلم يمض على محنته بضعة أشهر حتى توفى في غمر الحسرات والأسى ، وكانت وفاته في مارس سنة ١٤٠٣ م

وكانت هذه أيضاً آخر غزوات تيمور وانتصاراته ؛ فلم يمض قليل على عوده إلى مملكته حتى لحقه المرض وتوفى في شهر فبراير ١٤٠٥ ؛ وكانت وفاته نذير انحلال ذلك الصرح الشامخ الذي شاده بعبقريته وظفره وسعد طالعه

محمد عبد الله عنان

(١) جيبون : Decline and Fall of the Roman Empire الفصل الخامس والستون

(٢) ابن عربشاه ص ١٣٣

عبرة السيرة

بين يدي « العدد الممتاز » من الرسالة

للأستاذ علي الطنطاوي

إن مائة ألف قارىء في مشارق الأرض ومغاربها ، سيأخذون (غداً) العدد الممتاز من (الرسالة) وسيقرؤونه وسيحيي في نفوسهم هذه الذكرى العظيمة المحبوبة التي نقف عندها في كل رأس عام هجرى ، كما يقف المُصْحِر في واحة مخضرة ظليلة... ننشق منها عبير المجد ، ونتسمع أغاريد النصر ، ونجتلي في طلعتها طيف الأيام الباسمة التي كان من قطوفها ألف معركة ظافرة حملت غارها الراية الاسلامية ، وألف مدرسة وألف مكتبة نالت ثمارها وجنت ثمارها البلاد الاسلامية ، وكان من حصادها هذه الحضارة التي نمت في أفيائها الانسانية ، وكانت إحدى الحضارات العالمية الثلاث بل كانت أسماها (من غير شك) وأحفلها بالعظمة والفضيلة والحق !

نقف كل عام لنحيي ذكرى الهجرة ونحييها ، فنكتب فيها ونقرأ ونذكر ونتأمل ، ونرتفع على جناح هذه الذكرى إلى جوّ عال من العظمة والفضيلة والشرف ، نبقى فيه مابقي المحرَّم ، فإذا مر مر معه كل شيء : صوّحت الآمال ، وهجعت الذكريات ، وعدنا نتخبط في سواد اللجة ... لا نربح من هذه الذكرى إلا ما يسيل على أقلام أولئك الأعلام البلغاء من طرائف البيان يحويها عدد الرسالة الممتاز ، ولا نفيد من المحرم إلا ما (قد) نقرؤه في الصحف والمجلات من القصص والقصائد والمقالات . وكثير مما يكتب في العدد الممتاز ، وبعض مما ينشر في الصحف والمجلات ، قيم ثمين ، نعتده ثروة جديدة تضم إلى آدابنا الغنية الحافلة بثمرات القرائح الخصبة المرعة في الأعصار الطويلة ، ولكن ذلك لا يكاد يجدي علينا في نهضتنا إذا نحن لم نحي هذه الذكرى إحياء ، ونكتبها مرة ثانية على صفحات الوجود ، ونأخذ منها عبرة تنفعنا في نهضتنا ، وهذا ما أنشىء له العدد الممتاز ، وهذا ما يراد من إصداره .

وفي هذه السيرة من القوة والسمو والحياة، ما يغذي عشرين نهضة ويمدها بالقوة، لا تدانيها في هذا سيرة في التاريخ ولا تشبهها، بل إن هذه السيرة أعجوبة التاريخ ومعجزته، وهي خيال بالغت الدنيا في تزيينه وتزويقه، وأودعته مثلها العليا كلها. فجعله الله حقيقة واقعة ...

ولقد قرأت هذه السيرة مرات الله أعلم بعددها، في كتب لا أكاد أحصيها، ثم عدت اليوم أقرؤها لأجد في ثني من ثناياها قصة مطوية أو حادثة مختبئة، أبني عليها فصلاً أكتبه للعدد الممتاز، وفي ظني أني لن أسير في قراءتها إلا قليلا حتى أملها وأعزف عنها لأني لا أجد فيها — وقد قرأتها حتى حفظتها — خبراً جديداً ... وأقسم أني لم أسر فيها غير بعيد حتى أحسست بلذة فنية تمتلك عليّ أمري، وتستأثر بنفسي، كاللذة التي أمسها عند ما أقرأ الأثر الأدبي البارع لأول مرة، وتغلبني حتى تضطرني أحياناً إلى قطع القراءة لأمسك بقلبي الواجب، أو أمسح عيني المستعبرة، أو أصغي إلى صوت الحق في ضميري، ومنادي الفضيلة في قلبي؛ ثم أسير فيها، فأنتقل من اللذة الفنية، والشعور بالجمال، إلى شيء أعلى من الفن وأسمى من الجمال: أحس بحلاوة الإيمان؛ وإن للإيمان لحلاوة عرفها من عرفها، وجهلها من جهلها، فمن عرف درى ما أقول، ومن جهل لم ير إلا حروفاً فارغة من المعنى ... وإذا جاء الايمان جاءت معه البطولة بأروع أشكالها، والتضحية بأعجب أنواعها، وجاء معه الصبر والإيثار والقوة والشعور، وكل فضيلة من فضائل البشر ... وكذلك كانت حياة أصحاب هذه السيرة!

كانت حياةً أسمى وأجل من كل حياة عرفتها أو قرأت عنها أو تخيلتها: معرفة للغاية التي خلق الله الناس من أجلها، وجهاد في سبيل هذه الغاية، وجرى على هذا الجهاد، وترفع عن خدع الحياة وألاعيبها، واتصال بالله يكاد والله يرفعهم من رتبة الإنسانية إلى رتبة الملائكة ويخرج بهم من ثوب الجسم المادّي، حتى يكونوا روحاً خالصاً ...

عرفوا ما هي الغاية من الحياة وفهموها، على حين جهل الناس هذه الغاية فهم يسألون أبداً: لماذا نعيش؟ أوخدعوا عنها بغايات دنيئة قريبة ... أما هؤلاء الغربيون فحسبوا الغاية من الحياة هي الحياة. جعلوا السبب هو المسبَّب، والوسيلة هي الغاية، فعمدوا إلى تَرْفيهِ الحياة، واستخدموا لأجل ذلك ما قدروا عليه، فصارت حضارتهم آلية جامدة، وصاروا لطول ما اشتغلوا بالحديد والنحاس يفكرون بعقول من حديد ونحاس، وانقطعت صلتهم بالروح وانبتّوا مما وراء المادة ... وأما هؤلاء المشرقيون، من الهنود وأمثالهم، فساروا على الضد، وأهملوا الجسم وعاشوا للروح، فظنوا بأن غاية الحياة الفناء في المطمح الروحي، فقتلوا أجسامهم، وأعرضوا عن دنياهم، وأغرقوا أعمارهم في تأمل لا أوّل له ولا آخر، ولا جدا منه ولا منفعة .. أما الفلاسفة فكان منهم الماديون الذين بلغ من وقاحتهم أن أنكروا الروح إنكاراً وجحدوا الله، وقال متكلمهم: (إن الدماغ يفرز الفكر كما تفرز الكبد الصفراء ...) فجعل الفكر مادة سائلة ... ومنهم الروحيون الذين كانوا أصحّ نظراً، وأدنى إلى الحق، ولكنهم لم يصلوا إليه ... تساءلوا منذ بدؤوا يفكرون: لماذا نعيش؟ ولا يزالون مختلفين يتساءلون هذا السؤال الذي عرف المسلمون وحدهم جوابه، حين قرأوا قول الله الذي أنزله على عبده ورسوله:

« وما خَلقتُ الجنَّ والإنسَ إلاّ ليعبدون »

استدلّ المسلمون بالمخلوق على الخالق، وأرشدهم الله إلى عظمة هذا الكون (المكوَّن) فعرفوا منها ما لم يعرفه أصحاب الفلك من العلماء الماديين، غاية ما يعرف هؤلاء أن بيننا وبين الشمس كذا، وأنها أكبر من أرضنا هذه بكذا، ثم إن من هذه الكواكب كواكب لو ألقيت الشمس فيها لكانت رملة في صحرائها، أو نقطة من مائها، وما بين مشرق كوكب منها ومغربه أضعاف أضعاف ما بين الشمس والأرض، وغاب عنهم ما بعدُ من الكواكب، ووقفت دون رؤيته نظاراتهم ومكبراتهم، وعجزت عن الإحاطة به عقولهم وتصوراتهم، فسموه (فضاء غير متناهٍ)، كما يظنّ الطفل أن البحر لا ينتهي وليس له آخر ... وهل شيء ليس له آخر، إلا مَنْ هو الأول والآخر؟ أما المسلمون فعرفوا أن وراء هذا الفضاء مخلوقاً عظيماً، يحيط به (كالسقف المرفوع) لا تقاس به هذه الكواكب إلا قياس (المصابيح) إلى السقف، تهون عنده هذه الكواكب العظيمة وتضؤل، لأن له من الكبر والجلال ما لا نجد في لغتنا هذه التي وضعت لهذه

الأرض الحقيرة كلمة تدل عليه ؛ هـذا المخلوق هو السماء الدنيا ، ومن فوقها ستّ سموات أخرى طباقٌ بعضها فوق بعض ، ومن فوقها أشياء أجلّ وأكبر ، لا تكاد هذه السموات تعدّ إذا قيست بها شيئاً ، هي العرش والكرسى ، وهناك الجنة، عرضها السموات كلها والأرض ... هذه هى المخلوقات ، التى كانت بكافٍ ونون ، فما ظنك بالمكوِّن الباقى ؟ ومن عرف هـذا الجلال للمخلوق ، كيف يكون إجلاله للخالق ؟ وهل يجد لحياته غاية إلا الاتصال به وعبادته ؟ وهل يقف به عقله وهمته فى هذه الأرض ؟ ... أى شىء هى الأرض فى هذا الكون ؟ ما هى فى جنب الله ؟

فهموا عقيدة القضاء والقدر أصحّ فهم وأجوده — وعقيدة القدر محنة العقل البشرى ، تزل فيهـا العقول الكبيرة وتضل المدارك العالية — فكان فهمهم إياها أعونَ شىء لهم على ماوفقوا إليه من عمل ، وأمضى سلاح بلغوا به ما بلغوا من ظفر . علموا أن كل شىء بخلق الله وبعلمه ، ولكن الله لم يضطر أحداً إلى الخير اضطراراً ، ولم يجبره على الشر إجباراً ، وإنما أعطاه العقل المميز ، ودله على الطريقين المختلفين ، وقال له : هذا إلى الجنة والسعادة ، وهذا إلى النار والعذاب ، وتركه وعقله ... وأنه قدّر الأرزاق فلا زيادة ولا نقصان ، وحدّد الآجال فلا تقديم ولا تأخير ، فما كان لك سوف يأتيك على ضعفك ، وما كان لغيرك لن تناله بقوتك ؛ وإذا جاء أجلك فلا تستأخر لحظة ولا تستقدم . رفعت الأقلام وجَفّت الصحف ... فمضوا لا يهابون الموت فى سبيل الله ولا يخافونه ، لأنهم آمنوا إيماناً بأن المرء ليس أدنى إلى الموت ، وهو فى غمار المعركة الحمراء منه وهو فى كسر بيته بين أهله وولده...

ولكن المسلمين الأولين لم يلقوا بأيديهم إلى التهلكة اعتماداً على أن الأجل محدود ، ولم يُعرضوا عن سنن الحياة التى لا تجد لها تبديلا ، بل اتبعوا قوانين الوجود ، وساروا على نهج الحق ، وحرصوا على الحياة حين يكون الواجب داعياً إلى الحياة ، ورضوا بالموت حين يدعوهم الواجب إلى الموت ... ولم يعرفوا هذا التوكل السخيف ، فيناموا ويتقاعسوا عن العمل ، لأنهم علموا أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، ولكن الله يرزق الناس بعضهم من بعض. وقرأوا فى القرآن قول الله الذى أنزله على عبده ورسوله : « فإذا عزمْتَ فتوكل على الله» فعزموا على العمل ، وتوكلوا فلم يتكاسلوا عنه ، ولم يتكالبوا على الدنيا ؛ وجدّوا كل الجد ، ولكنهم لم يطلبوا شيئاً إلا من طريقه المشروع ، وعملوا لدنياهم كأنهم يحيون أبداً ، ولكنهم عملوا لآخرتهم كأنهم يموتون غدا

عرفوا هذه العقيدة على وجهها ، فكانوا أعزّ الناس على الناس ، ولكنهم كانوا أذلهم لله وللمؤمنين ؛ وكان منهم أزهد الناس وهو أغناهم ، لأن المال كان في يده لا فى قلبه ؛ وكان منهم الملك الزاهد ، والعالم الغنى ، والفقير العزيز ... وما شئت من خصلة من خصال الخير إلا وجدتها فيهم

كانوا إذا قرأوا فى الصلاة قوله تعالى : « إيّاكَ نعبدُ وإيّاكَ نستعين » كانوا صادقين ، لا يعبدون إلا الله ، ولا يستعينون إلا به ؛ لا يسألون غير الله مالا يقدر عليه إلا الله ، ولا يستعينون بالأموات الذين عجزوا عن معونة أنفسهم . ولقد قرأت السيرة وتلوت القرآن ، فلم أجد فى القرآن إلا أن محمداً صلى الله عليه وسلم بشر كسائر البشر ، في تركيب جسمه ، وصحته ومرضه وطبيعة فكره ، وخطئه وصوابه ، ولكن الله اختاره للرسالة الكبرى ، فعصمه من كل ما يدخل الخطأ على الرسالة ، أو يؤدى إليه ، أو يشين الرسول ، فكان صادقاً مصدقاً ، لا ينطق عن الهوى ، ولا يقول (إذا بلغ عن ربه) إلا الحق ، ولا يشرع من الدين إلا ما أذن به الله . وكان منزهاً عن الذنوب والمعايب التى لا يليق بصاحب الرسالة أن يتصف بها ، فإذا جاوز الأمر تبليغ الرسالة وما يتصل بالدين إلى أمور الدنيا فهو بشر يخطئ ويصيب ، وإن كان من أكثر الناس صواباً ، وأقلهم غلطاً لأنه كان أكمل الناس عقلاً وأثقبهم بصيرة ؛ وما دام بشراً فإنه يموت إذا جاء أجله . وإنه الآن ميت ليس حياً فى قبره كما يظن الجهلة من العوام وأشباه العوام ، ويعنمون الناس أن يقولوا إنه ميت ، وقد قال الله ذلك فى كتابه ، وقاله أبو بكر صاحب الرسول وصديقه على منبر الرسول فى مسجده ، بحضرة أصحابه وعترته . أما الذى قاله عمر ساعة من نهار فانما كان مصدره الألم الفاجئ ، والحب الطاغي على الفكر ، فلما سمع من أبى بكر ما سمع ، لم تحمله رجلاه فسقط ... قرأت السيرة من ألفها إلى يائها ، فلم أجد أحداً من المسلمين دعا الرسول أو لجأ إليه إذا حاق به الخطب الذى لا يقدر

البشر على دفعه ، وإنما كانوا يلجؤون إلى الله ويدعونه ، لا يقولون مقالة البوصيرى :

يا أكرم الرسْل ، مالى من ألوذ به

سواك ... عند حلول الحادث العمم !

ولا قول الآخر يخاطب عبد الله ورسوله بهذا الخطاب الذى لا يخاطب به مؤمن إلا الله وحده :

يا أكرم الرسل على ربه .. ...

عجل بإذهاب الذى أشتكى فان تأخرت فمن أسأل ؟

لا يدرى من يسأل إذا تأخر رسول الله بإذهاب الذى يشتكى ؟ وهو يقرأ كل يوم سبعة عشرة مرة (على أقل تقدير) : « إيّاكَ نعبدُ وإيّاكَ نستعين » ؟ ! ولم أجد صحابياً لجأ إلى الرسول بعد موته يستشيره فى أمر ، أو يراه فى منام فيبنى على رؤياه حكما ويأخذ منها علماً . ولقد اختلفوا على الخلافة والنبى صلى الله عليه مسجًّى في بيته لم يدفن ، فما فكروا أن يلجؤوا إليه وأن يستشيروه ، وهل يستشار الميت ؟

صدقوا بإمكان المعجزات والكرامات (وهى ممكنة والإيمان بإمكانها من أصول الدين) ولكنهم لم يكونوا يفهمونها على نحو ما نفهمها اليوم ، ولم أجد للصحابة — وهم أفضل المسلمين — مثل هـذه الكرامات التى نقرأ حديثها ونسمعه كل يوم ... ووجدت كتب السيرة كلما تأخر بها الزمن ، زادت فيها أحاديث المعجزات حتى بلغت هذه الموالد العامية (مولد البرزنجى وشبهه) التى جاء فيها ما نصه : « ونطقت بحمله صلى الله عليه وسلم كل دابة لقريش بفصيح الألسن القرشية ! » ... « وتباشرت به وحوش المشارق والمغارب » ... « وحضرت أمه ليلة مولده آسية ومريم فى نسوة من الحظيرة القدسية ... ! »

* * *

وقرأت السيرة كلها ، ودققت فى كل سطر منها فما شممت رائحة اختلاف بين المسلمين ، لا فى العقيدة ولا فى المذهب ولا فى الطريقة ، وإنما المسلمون كلهم إخوة في أسرة واحدة ، عقيدتهم واحدة ، عقيدة بلغت من الوضوح واليسر و (البساطة) إلى حيث لا تدع مجالاً لاختلاف . وهل يختلف فى أن الواحد يساوي الواحد ؟ هذه هي عقيدتنا ... ولكن المتكلمين أدخلوا فيها مسائل ليست من العقيدة فى شىء ، وملؤوا بها كتبهم التى عقدوا فيها هذه العقيدة حين حشوها بحكاية كل مذهب مخالف والرد عليه . وجئنا نحن نزيد البلاء بلاء حين نحفظ الطلاب هذه المذاهب والرد عليها وقد انقرض أصحابها منذ دهور ...

أما هذه (الطرق) فليست فى أصل ولا فرع ، ولا تكاد تمشى مع المأثور من الذكر ، وإن أكثرها مسخرة ولهو ولعب : رقص سموه ذكراً ، وغناء دعوه عبادة ؛ فما أدرى أهم أنبياء بعد محمد ؟ (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) ؟ وإلا فما بال هذه الحمحمات وهذه الدمدمات ، وهذه الطامات المخزية التى نشهدها فى تكية الدراويش المولوية وأشباهها من دور أصحاب الطرق أو ... قطاعها !

ولقـد قرأت السيرة كلها وأجهدت نفسى لأجد شيئاً من الأشياء ، أو مكاناً من الأمكنة قدسه المسلمون وتبركوا به ، فلم أجد إلا ما كان من تقبيل الحجر الأسود أو استلامه . وقول عمر : « إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله قبلك ما قبلتك » ... وتمنيت أن أرى في السيرة ذكر المحمل الذى صار فى مصر من شعائر الحج ، يتبرك عظماء مصر بلمس عنان جمله ، ويعرض ذلك في (أفلام السينما) على أنه من أركان الحج . وأجد فى السيرة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان — وهو يعانى آلام مرض الموت — ينهى عن اتخاذ القبور مساجد ، فأعجب من حال المسلمين اليوم إذ لا أرى مسجداً كبيراً إلا بنى على قبر أو كان فيه قبر ...

* * *

هذا قليل من كثير عرضته مثالاً لما فى السيرة من عبرة تنفعنا فى نهضتنا ، ودرس يفيدنا فى حاضرنا . فكرت قبل عرضه وترددت ، ثم آثرت إرضاء الحق ومصلحة الأمة ، ففتحت هذا الباب لندخل إلى هذه السيرة العظيمة فلا نخرج منها إلا بالحياة والعز والمجد ، والمزايا التى تعيد للأمة الإسلامية مكانتها فى الدنيا !

(بيروت) علي الطنطاوى

بين الوطنيـــة والأممية

للأستاذ ساطع بك الحصرى

مدير الآثار بالعراق

— ٢ —

تصوَّروا أيها السادة أن هـذا المفكر الذى استرسل فى التحمس إلى القومية الألمانية بهذه الصورة العجيبة، كان قد ظل بعيداً عن التفكير فى الوطن والوطنية حتى نكبة «يه نا» الألمية... إنه تجاوز العقد الرابع من عمره، ولم يكتب كلمة واحـدة عن الوطن والوطنية، مع أن أبحاثه الفلسفية كثيراً ما كانت تتناول مسائل الحياة الأخلاقية والاجتماعية ... بل بعكس ذلك، أظهر ميلاً واضحاً نحو النزعة العالمية حتى أنه فى أحد الدروس التى ألقاها فى الثانية والأربعين من عمره — احتقر «الذين يرون وطنهم فى الأرض والأنهر والجبال»، فقال: «إننى أسأل: — ما هو وطن الأوربى المسيحى المتمدن حقيقة؟ — هو أوربا بوجه عام، والدولة الأوربيـة التى تشغل الصف الأعلى فى سلم الحضارة على وجه أخص ...» وكان يشير فيخته فى قوله هـذا إلى الدولة الفرنسية نفسها!

إن المدة التى مرت بين نشر هذه الكلمة وبين حـدوث واقعة «يه نا» كانت عبارة عن تسعة أشهر فقط! وأما المدة التى مرت بين نشر هذه الكلمة وبين إلقاء الخطب الوطنية التى بحثت عنها، فلم تتجاوز ثلاث السنوات! ... فإن الوقائع التى حدثت خلال هذه المدة القصيرة اضطرت فيخته إلى الانتقال من الفكرة العالمية المتساهلة إلى النزعة الوطنية المتشددة، وجعلته من أشد المتعصبين للقومية الألمانية، ومن أقوى وأنشط الداعين إليها

وأما (آرنت) فقد اشتهر بأشعاره الوطنية التى أيقظت فى نفوس الألمان روح الحماسة والتضحية، وأوقدت فى قلوبهم ضرام النخوة والحمية فى تلك الأيام المملوءة بأنواع المصائب والنكبات

فاسمحوا لى أن أسوق إليكم نموذجاً من أشعاره الحماسية قال:

«أعطونى وطناً حراً، وأنا أرضى أن أفقد كل شهرتى، فيصبح اسمى منسياً، لا يذكر فى غير دارى ودار جارى...

«أعطونى بقعة أرض فى جرمانيا، يستطيع فيها العندليب أن يغرد دون أن يرمى بسهم فرنسى ...

«أعطونى كوخاً حقيراً يستطيع أن يصيح ديكى فوق حاجزه، دون أن يقع فريسة فى يد فرنسى... وأنا أصيح عندئذ مثل الديك وأغرد مثل العندليب بكل فرح وسرور، ... ولو أفقد كل ما ملكته يداى، فلم يبق لى شىء يستر جسمى غير قميص بال ...»

تصوروا أيها السادة أن هذا الشاعر الذى أظهر مثل هذا الشعور الوطنى الرقيق بهذا الشكل الطريف، فى هذا الشعر الحماسى، وفى مئات من أمثاله ... هذا الشاعر أيضاً كان بعيداً عن فكرة الوطن والوطنية — بتأثير النزعة العالمية السائدة حوله إذ ذاك — حتى حروب نابليون ... إنه اعترف بذلك هو نفسه، فقال: «إننى عرفت وطنى فى ثورة الغضب، وأحببته فى ساعة النكبة، وآمنت بأنه لا بشرية بلا أمم، ولا أمة بلا وطن حر ...»

أعتقد أن هذين المثالين يكفيان لإظهار التطور العميق الذى حدث فى الآراء والنزعات فى البلاد الألمـانية عقب استيلاء الفرنسيين عليها، فى العقد الأول من القرن التاسع عشر ..

نستطيع أن نقول إن الفكرة العالمية فقدت قوتها ونفوذها فى ألمانيا تماماً، وتركت محلها لروح وطنية متأججة، استمر اضطرامها طول القرن التاسع عشر ..

مع هذا لم تندثر تماماً فى سائر البلاد، بل بعكس ذلك — وجدت فى بعضها تربة صالحة لنموها — تحت شـكل جديد، هى فكرة «السلم الدائم العام ...»

فقد تألفت عدة جميات تدعو إلى السلم والتآخى، منذ سنة ١٨١٤، وأخذت تسعى لنشر مبادئها بين المفكرين والناس بصور ووسائل شتى: إنها أخذت تدعو إلى توحيد الأوطان؛ حتى أنها لم تتردد فى بعض الأحيان فى توجيه حملات عنيفة على الوطنية فى سبيل هذه الدعوة .. إن فكرة السلم والتآخى وجدت بهذه الصورة عدداً غير قليل من الأنصار والمريدين، بين الأدباء والمفكرين ورجال الدين .. وصار هؤلاء يعقدون سلسلة مؤتمرات أممية .. بقصد نشر فكرة السلم والتآخى بين الأمم ..

غير أننا إذا تتبعنا سير انتشار هذه الفكرة، نجد أن هذا الانتشار لم يجر باطراد، على وتيرة واحدة — فإن الفكرة كانت

تنتشر انتشاراً لا بأس به مدة من الزمن ثم تتقلص وهلة ، عند ما تصطدم بالوقائع ، وتشهد حدوث حروب جديدة ، فتبدد الأحلام المستولية على الأذهان ، وتثير ضغائن جديدة بين الأمم ...

نستطيع أن نجد خير مثال لذلك فيما كتبه وقاله الشاعر الفرنسي العظيم « فيكتور هوجو » . انجذب هـذا الشاعر إلى فكرة توحيد الأوطان ، ونشر ألوية السلم على العالم . فاشترك في مؤتمرات السـلم ، وألقى في بعضها بعض الخطب ، وأرسل إلى بعضها بعض الرسائل ؛ وفي كل ذلك أظهر نزوعاً شديداً نحو السلم العام ، وإيماناً عميقاً في أمر توحيد الأوطان .. وتخيل في إحدى خطبه العهد الذي ستتحد فيه الدول الأوربية بأجمعها ، والعهد الذي ستتصافح فيه الولايات المتحدة الأوربية « مع الولايات المتحدة الأمريكية » من وراء البحار ، وتوحد أعمالها لخير البشر العام ... كما حلم في العهد الذي ستنتقل فيه المدافع إلى المتاحف ، وستترك القذائف محلها إلى أوراق التصويت في ندوة عالية ، تكون السيادة فيها للمناقشة العلمية والرأي الحر ... وتحت تأثير هذه الأحلام وجه الشاعر دعوة حارة لإزالة الحدود والفوارق من بين الأمم ، قائلاً : إن رأس البلاء هو الحدود ؛ لأن مفهوم الحدود يتضمن المخفر ، والمخفر يتطلب الخفير ، والخفير يستوجب الجيش ، والجيش يدعو إلى الحرب ... فلنحذف الحدود .. لكي نرى ألوية السلم سائدة على العالم ، وروح الأخوة منتشرة بين البشر ...

ومن غريب الصدف أن هوجو كان قد أرسل هذا البيان إلى مؤتمر السلم الذي انعقد في لندن سـنة ١٨٦٩ ، أي قبل نشوب حرب السبعين بسنة واحدة فقط ! وما كادت الحرب تنشب بين فرنسا وألمانيا ، حتى ترك الشاعر هذه الأحلام جانباً وأخذ يبدع سلسلة أشعار حماسية ، تتأجج فيها روح وطنية ثائرة ...

إن هذا الشاعر لم يكن من الشواذ في هذا الباب . بل ظهر له أمثال كثيرون في كثير من البلاد ... فعدد غير قليل من المفكرين انجذبوا مدة من الزمن إلى فكرة توحيد الأوطان ، ثم عادوا إلى النزعة الوطنية والقومية تحت تأثير الوقائع والحادثات ..

لا ننكر أن بعضهم ظل متمسكاً بهـذه الفكرة طول حياته ، كما فعل « تولستوي » الشهير ... فإنه ظل يدعى أن الوطنية من بقايا العهود الهمجية وأن من يعيش عيشة فكرية حقيقية لا يمكن أن يعترف بالوطن والوطنية ... وظل يدعو الناس إلى نبذ النزعات الوطنية مهما كانت أشكالها ، وإلى الامتناع عن الحروب مهما كانت الأسباب الداعية إليها ... غير أن (روزفلت) الكبير أجاب على آراء « تولستوي » في إحدى خطبه بكلمة طريفة جداً قال :

« نعم، قد يأتي عهد — في أغوار عصور المستقبل البعيد — تفقد فيه الوطنية قيمتها وفائدتها ... كما أنه قد يأتي عهد يندثر فيه نظام الأسرة فالزواج ... غير أنه يجب أن نعرف جيداً أن الرجل الذي لا يفرق بين وطنه وسائر الأوطان — في المجتمع الذي نعيش فيه الآن — يكون عنصراً مضراً ، كالرجل الذي لا يفرق بين زوجته وسائر النساء ... »

إن دعاة السلم العام والأخوة البشرية الشاملة الذين ظهروا طول القرن التاسع عشر ، وفي أوائل القرن العشرين ، حتى الحرب العالمية — كانوا يتكهنون بقرب تحقق أحلامهم وأمانيهم ... غير أن الوقائع والحادثات كانت تأتي على الدوام معاكسة لتلك الأماني والأحلام ... كانوا يتكهنون بأن ساحات الحرب ستتحول إلى أسواق تجارية . غير أن الوقائع أتت بنتائج معكوسة لذلك تماماً ، لأن الأسواق التجارية أصبحت مثاراً للحروب ...

كانوا يقولون بأن المدافع ستنتقل إلى المتاحف ... ولا ننكر أنه قد حدث شيء من ذلك ، فإن المدافع التي كان يعرفها هؤلاء الدعاة انتقلت فعلاً إلى المتاحف ؛ غير أن ذلك لم يحدث من جراء انتصار فكرة السلم العام ، كما أنه لم يؤد إلى تقوية الفكرة المذكورة ... بل إنه حدث من جراء اختراع أنواع جديدة من المدافع تفوق قوتها الحربية قوة تأثير المدافع القديمة مئات من الدرجات ...

كانوا يوجهون أنواع السهام إلى « الحدود » التي تفصل الدول بعضها عن بعض ؛ وكانوا يتمنون زوالها خدمة للسلم العام فقد حدث فعلا في الحدود التي كانوا يعرفونها ، انقلابات عظيمة أدت إلى تبدل عشرات منها وزوال مئات ... غير أن كل ذلك لم يحدث على أساس توحيد الأمم بأجمعها ، ولا على أساس توحيد

الأمم المتمدنة وحدها ... بل حدث من جراء تحقيق النزعات القومية ، وإعادة بناء الدول حسب مقتضيات تلك النزعات ... فقد اتحدت الدويلات الكثيرة التي كانت تنقسم إليها بعض الأمم ؛ فكونت دولة كبيرة أشد وطنية وأصلب قومية من جميع الدويلات التي اندمجت فيها ... هذا ومن جهة أخرى قد تجزأت بعض الدول الكبيرة التي كانت تتألف من أمم مختلفة النزعات ، وانقسمت إلى عدة دول مستقلة ؛ غير أن ذلك أيضاً حدث بتأثير النزعات القومية ، وأدى إلى تقوية تلك النزعات ...

تجاه هذه النتائج الفعلية فقدت الفكرة العالمية كل ما كان لديها من قوة ؛ فأخذت فكرة السلم العالم ونزعة الأخوة البشرية اتجاهاً جديداً يختلف عما كان يقصده دعاة العالمية كل الاختلاف .

هذا الاتجاه الجديد ، هو الدعوة إلى التعاون والتضامن بين الأمم داخل نطاق الوطنية والقومية تماماً . فلتبق كل أمة متمسكة بوطنيتها على أن تحترم وطنية الأمم الأخرى أيضاً . فلتبق كل أمة مستقلة فى شؤونها على أن تتعاون مع سائر الأمم فى مختلف ساحات النشاط البشرى من العلم والثقافة إلى الاقتصاد والمواصلات ...

إن هذه النزعة الجديدة لم تكن من نوع التمنيات الخالية ، . بل هي من النزعات العملية التي أنتجت نتائج باهرة ، وساعدت على تكوين « مؤسسات أممية » كثيرة ... من « اتحاد البرق والبريد الأممى » إلى « مؤسسة التعاون الفكرى الأممى » ... ولا سيما بعد الحرب العالمية ...

فنستطيع أن نقول لذلك : « إن نزعة الوطنية خرجت سالمة ظافرة من الكفاح العنيف الذى حدث بينها وبين فكرة العالمية بأشكالها المختلفة ... »

***

غير أن الوطنية — بالرغم من تغلبها على النزعات المعادية التي ذكرناها آنفاً — وجدت نفسها منذ مدة ، أمام نزعة معادية أخرى ، أشد خطراً من جميعها . هذه النزعة هي « الماركسية » — نسبة إلى مؤسسها « كارل ماركس » — وبتعبير آخر هي :

« الأممية الشيوعية »

إن دعاة هـذه « النزعة الأممية » لم يحلموا بآمال السلم العام ، ولم يعللوا أنفسهم بأمانى الأخوة البشرية الشاملة ... بل على العكس من ذلك آمنوا بضرورة الحرب ، واستعدوا لها ؛ غير أنهم قالوا إن هذه الحرب يجب أن تكون من نوع جديد . يجب أن تنشب بين الطبقات المختلفة لا بين الأمم المختلفة . يجب على عمـال العالم أن يتحدوا على اختلاف أوطانهم ليحاربوا الرأسماليين مهما كانت قومياتهم ...

إن دعاة الأممية الشيوعية يريدون تغيير نظام المجتمع الحالى من أساسه ، ويعتقدون أن ذلك لا يمكن أن يتم دون ثورة وحرب ، ويقولون بأن هـذه الثورة يجب ألا تتقيد بقيود الوطنية بل يجب أن تعمل ضدها ...

يقول الماركسيون إن الوطنية من وسائط حكم الرأسمالية ، هى من الأسلحة التي تستعملها الرأسماليـة لخداع الصعاليك ، واستخدامهم لأغراضها الخاصـة فلا يمكن أن يتأسس النظام الشيوعى ما لم تهدم فكرة الوطنية الخداعة وتمحى الحدود التى تولدت منها ... فالأممية الماركسية تدعو إلى نبذ الفكرة الوطنية ، ومحاربة الرأسمالية ، أينما كانت ، وبأية واسطة كانت ... لذلك تطلب إلى العمال أن يتحدوا دون أن يلتفتوا إلى الحدود التي أقامتها النزعات القوميـة الوطنية ، ودون أن يتقيـدوا بالروابط التي أوجدتها هذه النزعات ، ولهذا السبب تبدأ دعوة الماركسيين كل يوم بهذه الصيحات :

« يا عمال العالم اتحدوا ... »

تدعو الماركسية جميع عمال العالم إلى الاتحاد ، لأنها تقول بأن وطن العامل هو المعمل وحده ... وأما مواطنه الحقيقى فهو العامل الذى يكد مثله مهما كانت قوميته ؛ كما أن عدوه الأصلى هو الرأسمالى الذى يستغله مهما كان الوطن الذى ينتسب إليه ... فعدوّ العامل الفرنسى مثلا — ليس الجندى الألمانى أو الانكليزى أو الروسى — بل هو الرأسمالى ، سواء كان من الفرنسيين أو الألمان أو الانكليز أو الروس ... فيجب على جميع عمال العالم أن يتحدوا لمحاربة الرأسماليين على اختلاف أوطانهم وقومياتهم ..

(البقية فى العدد القادم)

ساطع الحصرى

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ١١ —

وصلت طلائع من كتائب المؤتمر الطبي فى صباح اليوم . فليكن من هواي أن أتسمّع أحاديث الأندية فى المساء

* * *

لم يصل إلى فندق تايجرس غير طبيب واحد . وقد قضيت معه لحظة ففهمت أنه خالى الذهن من الغرض الصحيح لمقد المؤتمر الطبي فى بغداد . وليس هـذا بمستغرب من مثله ، لأنه بولونى لا يعرف ما يساورشعراء العرب من المعضلات الوجدانية . وقد حاولت أن أفهمه أن المؤتمر إنما يعقد فى بغداد لمعاونتى على مداواة ليلى فلم يفهم إلا أن اسم ليلى قد يكون اسماً لمرض من الأمراض . وما علينا إذا لم يفهم البولونيون !

* * *

لم يعرفنى أحد من أطباء فلسطين وسورية ولبنان ، فالذين قرأوا (مدامع العشاق) يحسبوننى فتى لا يجاوز الثلاثين ، والذين قرأوا (الأخلاق عند الغزالى) يحسبونني شيخاً يصافح الثمانين ؛ وهم جميعاً يعتقدون أنى مطربش لا مُسَدَّر ، فدخولى بينهم بالسدارة يوهمهم حتماً أنى من فتيان العراق

وكذلك استطعت أن أسرق أحاديثهم فى فندق اسبوريا من حيث لا يشعرون

تحدث طبيب منهم قال : ما كنت أحسب الزمن يسمح بمثل هذا الجنون ؛ وما كنت أظن أن الجمية الطبية المصرية تدعو أطباء العرب لعقد مؤتمر طبي يختبر حال ليلى المريضة فى العراق . ولولا لجاجة زوجتى ما حضرت ، فهى ترى التخلف عن هذا المؤتمر تحدِّياً للجنس اللطيف

واعترضه آخر فقال : هى فرصة طيبة لمشاهدة ليلى . وهى أيضاً مواساة للطبيب المصرى الشهير زكى مبارك الذى هجر وطنه وأهله فى سبيل الوجدان ، ومن الواجب أن يكون بين أبناء العرب أطباء يتخصصون فى طب القلوب

وقال ثالث : الذى يهمنى هو مشاهدة ليلى ثم دعوتها لشرب كأس أو كأسين فى فندق الفرات

وقد ضج الحاضرون بالضحك والقهقهة وكادوا يجمعون على طرافة هذا الإسفاف

* * *

كنت خليقاً بالحزن على ما صار إليه أدب الناس ، ولكنى حزنت على نفسى . حزنت حتى غلبنى الدمع

فهؤلاء الذين يتصورون أن العافية لا تطلب لليلى إلا لتصلح لمعاقرة الكأس ، هؤلاء تقدموا وتأخرت ؛ هؤلاء تفردوا بالفوز وتفردت بالخيبة . وهل كنت أقل سفهاً منهم حتى يفوزوا وأخيب ؟

إن خراب عيادتى فى شارع المدابغ ، وتدهورعيادتي فى شارع فؤاد ، وحياتي المشردة بين القاهرة وباريس وبغداد ، كل أولئك النكبات سَهدُّ من عزيمتى ، أنا الطبيب المسكين الذى أضاعه الأدب فلم يعد يصلح لغيرطب القلوب ، فى زمن خلا من القلوب

* * *

لن أسمح بخروج ليلى ، ولن يراها أحد من أعضاء المؤتمر الطبي بعد الذي سمعت

ولكن هل كان ما سمعت هو كل السبب فى حماية ليلى من أهل الفضول ؟

الحق أنى مريض بالغيرة . مريض ، مريض لا يرجى له شفاء .

وكان مرض الغيرة خف بعض الخفة فى سنة ١٩٢٧ ثم عاد فأضرعنى

وتفصيل ذلك أنى جلست أصطبح فى قهوة الروم فى باريس ، فرأيت فتاة فصيحة العينين تجالس رجلاً فانياً ، فأخذت أداعبها بنظراتى ؛ وكنت فتى فصيح العيون يرسل بعينيه إشارات وخطابات وبرقيات إلى من يشاء ؛ وكانت الفتاة تفهم عنى فتعبس تارة وتبسم تارة وفقاً لسياق الحديث . ورآها ذلك الشيخ موزعة بين الابتسام والعبوس ، فسألها فلم تنكر ، فأشار إلى أن أقترب فاقتربت ، فقال بلهجة صارمة : ماذا تريد ؟

وقد أزعجنى السؤال ، وتخوفت العواقب ، فقد كنت فى كل أدوار شبابى أبغض الذهاب إلى إدارة الشرطة ، ولو لتأدية شهادة ؛ وتلطف الله عزت قدرته فستر عيوبى ، وأعفانى من ذل الاستجواب في مراكز البوليس . تباركت يا إلـهى وتعاليت ! فلولا لطفك لأذلتنى شماتة الأعداء

وكنت فى تلك الساعة أتصور بشاعة الذهاب إلى إدارة التحقيق فاضطربت وتلعثمت

وأعاد الشيخ سؤاله : ماذا تريد؟ خبرنى ماذا تريد ؟

فجمعت قواي وقلت : سيدى ، أنا شاب من الشعراء ، أنا من سلالة العباس بن الأحنف ؟

فهدأ الشيخ قليلاً وقال: ومَن العباس بن الأحنف ؟ فأجبت: هو الذى يقول :

أتأذنون لصبٍّ فى زيارتكم   فعندكم شهوات السمع والبصر
لا يضمر السوء إن طال الجلوس به   عف الضمير ولكن فاسق النظر

وترجمت له البيتين ترجمة مقبولة فابتسم وقال : ومعنى ذلك أنك تحب أن ترى وجه هذه الفتاة وتسمع صوتها ؟ فقلت : إن سمح سيدى ! فقال : Mais vous êtes mal placé

ففهمت إشارته ودنوت فزاحمت بركبتى ركبة الفتاة

رباه ! متى تعود أيامى !

وأفهمنى الشيخ أنه شاعر سويسرى ، وأنه لا يرجو من هذه الفتاة إلا أن تكون مصدر الوحى . وتلطف فقال إنه يسمح لى بمصاحبتها حين أشاء

فقلت : عفواً ، يا سيدى ، فجيبي يعجز عن تكاليف الحب

فقال : لك الحب ، وعلىّ التكاليف

فأهويت على يده فقبلتها قبلة ما سمحت بمثلها لشيوخى فى الأزهر الشريف

وكانت فرصة عرفت فيها أن الغيرة لها حدود

ولن أنسى ما حييت عبارات ذلك الشيخ الجليل فقد كان يسألنا بعد كل نزهة : ماذا صنعتم يا أطفالى ؟ فكنت أقول مثلا : رأينا پارك سان كلو ، وطربنا لجمال الطبيعة هناك

فيقول : ثم ماذا ؟

فأجيب : ثم رجعنا

فيقول فى ألم وسخرية : وهذا كل ما صنعتم ؟ !

وتفهم الفتاة ما يريد الشيخ فتقول : أؤكد لك يا مولاى أن المسيو مبارك ليس من العقلاء . وكان يدهشنى أن يستريح الشيخ لهذا التصريح فأمضى وأقص ما افترعنا من المغامرات

رباه ! متى تعود أيامى !

ولم يدم هذا النعيم غير أربعة أشهر ، ثم سافر الشيخ والفتاة إلى جنيف ، وعاد مرض الغيرة يساورنى من جديد . وسأكون بالتأكيد من أشرف صرعاه

ولكن هل تكون هذه الغيرة ضرباً من الغباوة والحمق ؟

لا ، لا ، وإنما هى فيض من المروءة والشرف ، فقد قضيت دهرى وأنا أحقد على من يهينون الجمال . ولهذا سبب معقول ؛ فالمرأة التى تجود عليك بابتسامة يكون من حقها عليك أن تحفظ معها الأدب فى السر والعلانية . والمرأة تعطى كثيراً جداً حين تجود بابتسامة . والعاشق فى جميع أحواله أقل تضحية من المعشوق ، لأن العاشق يأخذ والمعشوق يمنح ، والفرق بين الحالين بعيد . ولكن أين من يفهم المعانى ؟

وقد أهلكنى مرض الغيرة وأفسد جميع شؤونى وكاد يرزأنى بالخراب . ولولا عناية الله لكنت اليوم ممن ينبذهم المجتمع ويتحاماهم الأهل والأقربون

فقد كان لى صديق من كبار الموظفين ؛ صديق فيه شىء من الظرف وأشياء من السخف . وكان هذا الصديق يحب أن يطوف بى على رفيقاته من حين إلى حين ؛ وكنت أعرف ماذا يريد ؟ كان يريد أن أتعلم التسامح لأطوف به على رفيقاتي حين يشاء . وكنت أعرف ما يضمر وأسكت ، لأنى كنت أحب أن أقف على أمراض المجتمع لأحاربها عن علم لا عن جهل

وفى ذات يوم ابتدرنى بهذه العبارة فى لهجة جدّية :

— يا دكتور زكى ، يا حضرة الفيلسوف ، أما تحب أن تعرف رأى إخوانك فيك ؟

— رأى إخوانى ؟ وماذا يرى إخوانى ؟ فما كنت إلا خير صاحب وأكرم رفيق

— أنا ؟ أنا بخيل ؟ وكيف وكان إخوانى يغامرون ماطاب لهم الهوى ، اعتماداً على الجيب الملآن ، جيب الرجل الذى يجوع ليشبع الرفاق ؟

— هم لا يتهمونك بالبخل من الناحية المادية ، وإنما يتهمونك بالبخل من الناحية الغرامية

وعندئذ شعرت بأنى مقبل على خطر فقلت :

— وماذا يريد إخوانى ؟

— يريدون أن تطوف بهم على رفيقاتك

فقلت : ليس لى رفيقات

فقال : يا سيدى ، ياسيدى ، على منطق الدكاترة !

فقلت : أؤكد لك ولسائر الإخوان أنى لا أعرف غير الكتاب والقلم والدواة والقرطاس

فقال : تعجبني حين تتخذ من حياتك العلمية ستاراً لحياتك الغرامية !

فقلت : أتحداك أن تذكر اسم امرأة واحدة يتصل بها غرامي

فقال : هل تنكر أن لك علاقات مع السيدة (...)

ونطق السفيه المجرم باسم امرأة مصونة أفديها بروحى . فلطمته لطمة أطارت ما كان وقع على صدره من أغربة الأحلام والأماني فنظر إلى فى تخاذل وقال : وَحْش !

فقلت : ولا يؤدب الأوباش غير الوحوش

وأراد أن يجمع ما تناثر من أشلاء شجاعته ليقابل العدوان بالعدوان ، فنظرتُ إليه نظرة ساخت بها روحه ، فانصرف وهو يقول : طوِّل بالك !

وقد طوّلت بالى ، وكنت أتوقع أن يعود بعد ساعة أو ساعتين وفى يده مسدّس ، ولكنه لم يعد أبداً

ثم عرفت بعد حين أنه انتقم منى على طريقة أمثاله من الأنذال ، فكان يرسل الخطابات المجهولة إلى الدوائر التى يؤذيني أن أُذكر عندها بالقبيح ، فتلطخت سمعتى بالمنكرات فى أقل من أسبوعين

رباه ! ماذا نعاني فى سبيل المروءة والشرف ؟

ومشيت يوماً فى شارع فؤاد أروّح عن نفسى قليلاً برؤية اللؤلؤ المنثور ، اللؤلؤ الذى يتوهج بذلك الشارع في الأصائل والعشيات ، فلقيني صاحب قديم فقلت : من أين قدمت ؟

فقال : كنت فى منزل (... باشا)

فقلت : وكيف حاله ؟ فقد طال شوقي إليه

فقال : لم أجده فى المنزل ، وإنما جلست مع زوجته لحظة ، جلسة بريئة بالطبع

فنظرت إليه نظرة ساخرة وقلت : أتريد أن توهمنى أنك كنت تملك الفجور وعففت مع أنك أضعف من الخصيان ؟

وخلاصة القول أنى أتهم المجتمع ، وأرى من النذالة أن نعرض بناتنا وأخواتنا وزوجاتنا للناس . ولا يضايقنى أن يغضب صديق الدكتور إبراهيم ناجى وهو يكرر كلمة المرحوم زكي باشا إذ قال : إن زكى مبارك عاش فى باريس ما عاش وظل مع ذلك فلاحاً من سنتريس

نعم ، فلاّح ، ثم فلاّح ، فإن شاء أبنائى أن يثوروا على أبيهم الفلاح فليحملوا إن استطاعوا رذائل المجتمع . أما أنا فقد نجوت ولله الحمد ، فكانت زوجتى ترفض أن تستقبل أخاها الشقيق وأنا غائب . ويسرنى أن أسجل اعترافى بالجميل لزوجتى الفلاحة التى سارت سيرة أمها وجداتها فحفظت قلبى سليما من الهموم التى تزلزل عزائم الرجال

وإذاً فلن تخرج ليلى ولن يراها أعضاء المؤتمر الطبى

كذلك صممت ولن أرجع عما صممت

* * *

ومضيت إلى دار المعلمين العالية فإذا خطاب بالبريد الجوى وعلى غلافه :

« وزارة المعارف العمومية »

« مكتب الوكيل »

وزارة المعارف ومكتب الوكيل ؟ وبالبريد الجوى ؟

يا فتاح يا عليم !

أتكون وزارة المعارف أرادت أن ترجعنى إلى مصر للتفتيش بالسنة التوجيهية والعياذ بالله ؟

أتكون وزارة المعارف فكرت فى الغاء انتدابى لمداواة ليلى المريضة فى العراق ؟

ومرّت بالبال خواطر كثيرة ، إلا خاطراً واحداً ، هو أن تكون وزارة المعارف فكرت فى تسديد ما عليها من الديون . وهل فى الدنيا إنسان يبادر بتسديد ما عليه من ديون بلا طلب وبلا إلحاح ؟ إن ديونى على وزارة المعارف ديون ثقيلة ؟ ولن تدفعها إلا يوم يشهد معالى الوزير أو سعادة الوكيل بأننى رجل مظلوم لن يصل إلى مناصب تلاميذه إلا بعد أعوام طوال

ثم تشجعت وفضضت الخطاب فإذا سعادة العشماوى بك يخبرنى بأنه قادم مع أعضاء المؤتمر الطبى ، وأنه يسره أن يرانى وأن يرى المصريين المقيمين بالعراق

ولكن لماذا اختصني سعادة العشماوى بك بهذا الخطاب ؟

أغلب الظن أن يكون بعض الدساسين كتب إليه أنى لا أؤدى الواجب فى خدمة ليلى ، فهو يريد أن يرى بعينيه ما صنعت فى خدمة ليلاى

وإذاً فسيكون من الحتم أن تخرج ليلى لحضور حفلة الافتتاح

فما هذه المشكلات التى تثور فى وجهى من حين إلى حين ؟

من حق العشماوى بك أن يرى ليلى ، ومن حقى أن أحجب عنه ليلاى

وأشهد أنى قضيت يومين فى درس هذا الوضوع الخطير .

وكنت لا أعرف بالضبط : هل أغار على ليلى ؟ أم أخاف على العشماوى بك ؟ والحق أني أغار على ليلى وأخاف عليه ، أما غيرتى على ليلى فهى مفهومة لا تحتاج إلى شرح ؛ وأما خوفى عليه فيرجع إلى اعتقادى أنه من أرباب القلوب . وربمـا جاز لى أن أصرح بأنه كان من عبيد الجمال فى صباه ؛ وإلا فكيف اتفق أن يكون دائماً من أنصار الآداب والفنون ؟ وهل يعطف على الأدب والفن غير أرباب القلوب ؟

***

ثم مرّ بالبال خاطر سخيف ؛ ولـكن لا بدّ من تدوينه فى هذه الذكرات . ألم أقل أنى أدوّن عيوبى قبـل أن يدوّنها الكرام الـكاتبون ؟

أنا مفتش بوزارة المعارف المصرية ؛ ومن واجبى نحو نفسى أن أحسّن علاقاتى بوكيل الوزارة . أستغفر الله ! فـا أردت إلا أن أقول سعادة الوكيل . ولا تؤاخذنى يا عشماوى بك فـا أقصدك بالذات . وسعادة الوكيل يستطيع أن يكتب مذكرة يقول فيها إنه ثبت أن مواهب الدكتور زكى مبارك أعلى من مستوى التفتيش ، وإنه لا بدّ من تحويله إلى منصب مناسب بالجامعة المصرية

وهنا وجه الخطر ، فناصب الجامعة لاتنفعنى ، لأنى لا أستطيع أن أشفي بها ما فى نفسى من مرض السيطرة ، لأن السيطرة فى الجامعة مقصورة على العمداء ، والظروف الحاضرة لا تمنحنى العمادة ولو فى كلية الآداب ، لأن العمادة تتوقف على شرطين : أصوات الأساتذة ، وموافقة الوزير . والأساتذة لن يعطونى أصواتهم أبداً ، لأنى جرحتهم جميعاً فى جريدة البلاغ ؛ والوزير الحاضر وهو معالى بهى الدين بركات باشا لن ينسى أنى هجمت عليه فى مقال نشرته بجريدة المصرى . ومن المحقق أنه لن ينتقم منى ، ولـكن من المحقق أيضاً أنه لن يتحمس لا نصاق فيرانى أصلح الناس لمنصب العميد

لا بدّ لى على أى حال من أن أبقى مفتشاً بوزارة المعارف . وهل فى الوزارة منصب أعظم من منصب المفتش ؟ إن لى فى هذا المنصب ذكريات تقضى بأن أخاطر في سبيله بكل شىء إلا ليلى ، إلا ليلى ، إلا ليلى

منصب المفتش منصب عظيم جداً ، فمن كان فى ريب من ذلك فليسمع :

دخلت المدرسة التوفيقية صباح يوم ، فهالنى أن أرى مظاهر القلق فى جميع الصفوف ، فقلت للناظر : ما هذه الجلبة ؟ فقال : إن التلاميذ يتطلعون من النوافذ ليمتعوا أنظارهم بطلعة سعادة المفتش . فقلت فى تعجرف : هذا أدب ما بعد الحرب ، وكان الواجب أن يقهرهم الخشوع . فقال الناظر : الرأى لك يا سعادة المفتش !

وقد عزّ علىّ أن يجاملنى الناظر إلى هذا الحد ، مع أنه أكبر منى سناً وعلماً ، ولـكن ماذا أصنع وأنا لا أخلو من لؤم ، ومن حق أن أستفيد من فساد المجتمع ؟

ودخلت يوماً المدرسة الإبراهيمية فوجدت مدرساً كان من زملائى . وكان فيما أذكر أبصر منى بالدقائق النحوية والصرفية واللغوية ، فأبيت إلا أن أتعجرف عليه وأستطيل . وجدته يطلب من التلاميذ أن يتكلموا عن فوائد السينما ، فقلت : لماذا لا تقول الخيالة ؟ ورأيته يمرّ على كلمة « تطوّر » فى دفاتر التلاميذ فلا يصححها ، فحاسبته أشـد الحساب فقال : إن الله يقول فى كتابه العزيز « وخلقنا كم أطواراً » فقلت : نعم إن الله خلقنا « أطواراً » ومن أجل ذلك لا يصح أن « نتطور » يا أستاذ !

وقد هدانى اللؤم إلى أن أقترح على وزارة المعارف أن تعهد إلىّ التفتيش فى المدارس الأهلية والأجنبية ، لأن التفتيش فى مدارس الحـكومة يضايقنى قليلا ، إذ كان المدرسون فى المدارس الثانوية قد ثبتت صلاحيتهم للتدريس منذ سنين ؛ وأمثال هؤلاء لا يمكن قطع أرزاقهم بسهولة . أما المدارس الأجنبية والأهلية فيمكن فيها زعزعة مركز المدرس بإشارة أو إشارتين ؛ وكذلك أستطيع السيطرة بلا عناء

ومن مزايا التفتيش أن يحفظ التلاميـذ أشعارى بفضل « لباقة » المدرسين . وأذكر أنى دخلت يوماً إحدى المدارس فأردت أن أختبر الطلبة فى المحفوظات ، فرأيت تلميذاً قيل إنه ابن وزير سابق . فقلت : أسمعنى يا شاطر بعض ما تحفظ ، فابتدأ يصيح :

قال سعادة الدكتور زكى بك مبارك :

يا جيرة السين يحيـا فى مرابعكم
فتى إلى النيـل يشكو غربة الدار
جَـنَتْ عليه لياليه وأسلمه
إلى الحـوادث حبٌّ غير أبرار

فخشيت التورط فى سماع شعرى فأشرت على الطالب بأن ينشد شعراً غير هذا ، فصاح :

وقال سعادته أيضاً :

نسيتم العهد واسترحتم من لوعة الحافظ الأمين

فأسكتّ الطالب وقلت للأستاذ : أليس لدى الطلبة محفوظات غير أشعار زكي مبارك ؟

فقال : لقد أعطيتهم خمس قطع من أشعار زكى مبارك وثلاث قطع من أشعار على الجارم ، فحفظوا شعرك وصعُب عليهم حفظ شعر الجارم

فقلت : هذا عجيب ، مع أن شعر الجارم لا بأس به !

وأنا موقن بأن الطلبة والأساتذة يسخرون منا ، ولكن ما الذى يمنع من أن نستفيد من فساد المجتمع ؟

***

والتفتيش سيكون قنطرة لعضوية المجمع اللغوى . ولكنه لن يكون كذلك إلا إذا عرفت كيف أستفيد . وأنا قد عرفت ، ولله الحمد . وهل من الصعب أن أجلس فى مكتب تفتيش اللغة العربية ثم أنقد تقارير المدرسين ؟ جاءنى يوماً تقرير من الأستاذ الأول فى مدرسة أسيوط الثانوية ، فأخذت التقرير إلى البيت ، وكتبت تقريراً بما فى التقرير من أغلاط لغوية ، ورجعت في اليوم التالى فحدثت جميع الموظفين بهذه الفضيحة ، فلم ينقض اليوم إلا وأنا عمدة المحققين ، وجهبذ المدققين

وكنت نسيت الموضوع الأصيل الذى كُتب من أجله ذلك التقرير ولكن لم يسألنى أحد ماذا فيه

وربما كانت مدرسة أسيوط الثانوية لا تزال تنتظر رأى الوزارة فى موضوع ذلك التقرير إلى اليوم ، والصبر طيِّب !

وكان لى أسلوب فى مضايقة المدرسين ، أسلوب بديع ؛ ولكنى لم أبتكره مع الأسف ، وإنما ابتكره شيوخٌ لنا من قبل . كنت آخذ كراريس التلاميذ إلى البيت ، وأدرس موضوعاً واحداً من كل كراس . أدرسه بدقة وأمامى المعاجم والمراجع لأبين ما فات المدرسين من أغلاط ، وأنسى أن المدرس لا يستطيع أن يستشير المعاجم فى كل كراس . ولكن ماذا يهمني ؟ المهم أن يشيع فى بقاع الأرض أنى محقق مدقق لأكون خليفة

الموامرى بك على الأقل ، وذلك مغنم ليس بالقليل ، وهو بفضل هذه الحذلقة مضمون

ومن عادتى أن أدعو المدرسين الذين أفتش عليهم « للتفضل » بانتظارى فى المدرسة بعد خروج التلاميذ ، وأكون تغديت وأخذت نصيبي من القيلولة ، ويكون هم قد اكتفوا بما تيسر من الشطائر الجافة ، وقضوا الوقت فى التحضير والتصحيح ، وتكون النتيجة أن أقدم عليهم بعافية ، وأن يتلقونى وقد نال منهم الاعياء ، فأُرغى وأزبد ماشاء التعسف ، ويصدهم التعب عن درء الشر بالشر فيسكتون

***

قلت إنى أفضل المدارس الأهلية والأجنبية على المدارس الأميرية لأستطيع قطع الأرزاق حين أشاء . ثم تبينت وأنا راغم أن الأرزاق بيد الله ، وأنى لا أملك إيذاء مخلوق ، وأن اللؤم الذى تنطوى عليه نفسى لن يضر أحداً غيرى ، فقد ذهبت للتفتيش على المدرسة المرقسية بالأسكندرية . ذهبت إليها فى يوم مطير يحبس موظفى البنوك فى البيوت . وكان أهم ماصنعته فى ذلك اليوم أن أعدّ الغائبين ، ثم كتبت إلى الوزارة تقريراً مزعجاً أقول فيه إن المواظبة منعدمة فى المدرسة المرقسية ، وإن ستة أسباع التلاميذ كانوا غائبين يوم حضرت للتفتيش

وما كان الغائبون (ستة أسباع) ولكني رأيتها كلمة لم يكتبها أحد من قبل . وما فضل التجديد إن لم أبتكر بعض التعابير ؟

وقد أرسلت الوزارة تستجوب المدرسة ، فكتبت إدارة المدرسة إلى الوزارة أن اليوم الذى غاب فيه التلاميذ كان يوماً مطيراً عاصفاً ، وأن الزوابع هدمت بعض مبانى الشاطئ وأغرقت ثلاث سفائن ، وأن حضرة المفتش يعرف ذلك ويذكر أنه تزحلق ثلاث مرات فى الطريق ، وأن منظره فى ذلك اليوم كان يخلق الإشفاق فى أقسى القلوب

ودعاني وزير المعارف يسألنى ، فقلت يا معالى الوزير : أنت تعلمت فى فرنسا وزرت جميع الممالك الأوربية . فهل رأيتهم يرون المطر من الأعذار ؟ والأسكندرية كلها مرصوفة الشوارع ، ومن الواجب أن نشدد فى المواظبة لنخلق فى الجو المدرسى طوائف جديدة من التقاليد

ويظهر أن الوزير استراح إلى تذكيره بأيام الشباب فى فرنسا

واستظرف كلمة التقاليد فقال : أحسنت أحسنت ! ويشهد الله أني لم أكن يومئذ من المحسنين

أما التفتيش فى المدارس الأجنبية فلى فيه نوادر تضحك الثوا كل ، وربما جاءت مناسبة لسردها فى هذه المذكرات

والحاصل ـ كما يقول أهل بغداد وكما كان يقول الأزهريون ـ الحاصل أننى أريد التلطف مع سعادة العشماوى بك لأبقى مفتشاً وأنتقم من المدرسين الذين يهمّون بنقد مؤلفاتى وأشعارى فى الجرائد والمجلات

وهو سيسأل عن ليلى ، فلا بأس من أن يرى ليلى . وما أظنه سيخطفها من يدى ، ولكن مرض الغيرة تعاودنى أعراضه من حين إلى حين

* * *

وشاع فى أروقة وزارة المعارف أن العشماوى بك حضر قبل الموعد ، فمضيت للبحث عنه فى فنادق بغداد فعرفت أنه لم يحضر . فتمنيت لو أسمع أنه عدل نهائياً عن الحضور مع شدة الشوق إليه

وفى مساء اليوم التالى سألت فعرفت أنه فى المفوضية المصرية ، فذهبت للسلام عليه فاستقبلني بالعناق ، فعرفت أن الشر الذى ساورنى كان من أوهام الظنون

وبعد لحظة دعانى إلى حديث خاص فقلت : لعله خير . فقال: كيف حال ليلى ؟ لا تكتم عنى شيئاً ، فليس لك فى وزارة المعارف صديق أخلص منى . إنهم يشيعون فى مصر وفي العراق أنك لا تخدم ليلى بإخلاص ، فهل هذا صحيح ؟

فقلت : إنك تعلم يا سعادة الأستاذ أنى لا أملك غير ذخيرة الإخلاص . وقد بذلت فى سبيل ليلى مابذلت ، وعند الله جزائي

فقال : هذه مسألة هينة ، وسيحكم فيها المؤتمر الطبى

فقلت : أى مؤتمر يا مولاى ؟

فقال : المؤتمر الذى نظمته الجمعية الطبية المصرية لمعاونتك على مداواة ليلى المريضة فى العراق

فقلت : وإذا كانت ليلى لا تريد أن ترى أحداً غيرى من الأطباء ؟

فقال : ليس الأمر إلى ليلى ولا إليك ، فقد تكونان عاشقين يطيب لكما الاستشهاد فى الحب . ويجب أن تفهم أن الحكومة لا تقبل أن يتحول الجد إلى مزاح

وارتفع صوت العشماوى بك ، فأقبل عزام بك يسأل عما بيننا من خلاف . فلخصت القضية فقال : وما الذى يخيفك من أعضاء المؤتمر الطبى ؟

فقصصت عليهما ما سمعت فى فندق استوريا . فتأثر العشماوى بك وقال : الحق معك يا دكتور زكى . ولكن ماذا أقول حين أرجع إلى مصر وليس مهى وثيقة رسمية عن صحة ليلى ؟

وهنا ظهرت البراعة السياسية لوزير مصر المفوض فى العراق فقال : تحضر ليلى حفلة الافتتاح وهى متنكرة فى زى امرأة حضرية عرفت أزياء باريس ، ويسلم عليها سعادة العشماوى بك نائباً عن وزارة المعارف ، وفضيلة الشيخ السكندرى نائباً عن المجمع اللغوى ، وسعادة الدكتور على باشا إبراهيم نائباً عن الجامعة المصرية ، وبذلك ينفضّ الإشكال

* * *

ومررت على فندق مود فرأيت جماعة من الأطباء يتحدثون عن آمالهم فى مشاهدة ليلى فقلت : موتوا بغيظكم إن كنتم صادقين

وتلفتّ فرأيت بهو الفندق يموج بكرام العراقيين الذين جاءوا للتسليم على العشماوى بك ومن بينهم أصحاب السعادة طه الراوى وساطع الحصرى وتحسين ابراهيم وابراهيم حلمى العمر فحدثتهم بما وقع بينى وبين سعادة العشماوى بك فقالوا : الرأى رأيك فى هذه القضية ، فأنت وحدك طبيب ليلى المريضة فى العراق ، ونحن لا نشير أبداً بتمريض ليلى لأعين الناس ، ولو كانوا أطباء

إلى هنا سارت الخطوات بسلام

فما الذى سيجدّ فى أيام المؤتمر ؟ ما الذى سيجدّ ؟

لُطفك اللهم ورحمتك ، فان قلبى يحدثنى بأنْ ستقع غرائب يشيب لها مَفْرِق الوليد . قلبى يحدثنى بأنى مقبل على أيام تموج فيها الفتن والمعاطب ، وما كان قلبى من الكاذبين

بغداد ، بغداد !

خذى زمامى ، فأنا فى يمناك طيّعٌ ذلول . وليكن مايكون . فانى واثق بأن الله لن يفضح الشاعر المخلص الأمين

« للحديث شجون » زكى مبارك

فى معرض الآراء

للأستاذ أديب عباسى

أعتقد أننى أنصف الأستاذ العقاد وأختار اختياراً عادلاً إذ أقتبس الفقرات التالية من مناقشته لردى السابق ، فأحاول مناقشتها فيما يأتى من هذه الكلمة . قال الأستاذ :

« ومن طرائف المناقشات أن تأتى هذه المناقشة من الأستاذ أديب عباسى تعقيباً لما أسلفنا فى مقال الحدود الحاسمة الذى قلنا فيه إننا قد نستغنى فى الحدود والتعريفات عن الاحصاء والاستقصاء لما هو معلوم غنى عن البيان من ضرورة الاستثناء فى كل قاعدة . فاذا قال الانسان إن النهار مضىء وإن الليل مظلم فليس من الواجب بعد ذلك أن يحصى أيام الغيم ولا الأغوار المحجوبة التى تظلم بالليل والنهار »

« فقد حدثت كشوف جغرافية فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، ولكنها كلها لا تخرج عن التتمات التى تأتى بعد الفراغ من الأسس والأركان واستقرار البناء على نظامه الأخير »

« فلما انتهت كشوف القرن السابع عشر انتهى الخلاف فى الأشكال والظواهر وانفتح المجال للبحث فى الحقائق والبواطن أو لمعرفة الانسان نفساً بعد أن عرفناه تركيباً ووضعناه فى موضعه من عالم الأحياء الظاهرين »

« ولقد ذكر الأستاذ « أديب » كشوف الكواكب وكشوف الذرة وأمواج الأثير ... التى حدثت بعد القرن السابع عشر ولا تزال تحدث فى هذه الأيام »

« ولكن ما شأن هذه الكشوف وما نحن فيه ؟ وأين هى من الحاسة الاجتماعية التى تعلق بها القصص وأبطال الرواية وأبطال السياحات ... ؟ »

***

قلت أخشى أن يجرّنا الخوف من « الحدود الحاسمة » إلى الترخّص فى الدقة العلمية والضبط الفكرى وهما السمتان اللتان تتّسم بهما اليوم جميع مباحث العلم وكثيرٌ من مباحث الأدب والفلسفة أيضاً . نحن لا ننكر أنه يجب أن يُستغنى فى الحدود والتعريفات عن الاحصاء والاستقصاء — كما رغب الأستاذ العقاد — فلا نعير الاستثناء بالاً كبيراً ، ولكن على شرط ألا يبلغ هذا الاستثناء الحدّ الذى ينقلب التعريف عنده أو الحدّ من الضدّ إلى الضد

فما قول الأستاذ إذا صارحناه أن هذه الاكتشافات الجغرافية التى جاءت « بعد الفراغ من الأسس والأركان واستقرار البناء على نظامه الأخير تكاد — فى رأينا — تفوق فى إثارة الحسّ الاجتماعى الذى ينوّه به الأستاذ تنويهاً قوياً اكتشافاتِ القرن السابع عشر فى الأمريكتين وأفريقيا وآسيا جميعاً ؟

ماذا كانت حوافز الارتياد والاكتشاف الصحيحة فى القرن السابع عشر ، ثم ماذا كانت النتائج القريبة والبعيدة لذلك ؟ قبل أن نحاول الاجابة عن هذا السؤال نقرر أن الكشوف الجغرافية يجب ألاّ تقدَّر تقديراً هندسياً ولا تحسب بكذا ألوف وملايين الأكيال والأميال إذا أردنا تقدير الأثر النفسى أو الحسّ الاجتماعى لها فى نفوس الروّاد والقاعدين وراءهم من شعوبهم أو غير شعوبهم

هذا كولب أعظم المكتشفين ، أى إحساس اجتماعى وأية معانٍ إنسانية كانت تحفزه إلى الكشف والارتياد ؟ أنقول : لقد جهز كولب مراكبه وأعد عدته وغامر مغامرته استجابة لما كان يجيش فى نفسه ونفوس قومه من حب الاطلاع على الشعوب المجهولة والأقطار الأهولة الضائعة وراء الاطلانطيك ، فيستطيع أن يصحح للناس آراءهم الخاطئة فى هاته الشعوب والأقطار ؟ أم الأصح أن نقول : إن كولب غامر مغامرته ليصل إلى الهند التى لم تكن مجهولة إذ ذاك ، ويفتح طريقاً للاتجار وتبادل السلع معها ، غير الطريق القديم ، فقاده وهمه إلى أرض جديدة وشعوب جديدة غير أرض الهند وغير شعوبها ؟ فأية حاسة اجتماعية فى هذا ، وأى معنى من معانى التواصل الانسانى الصحيح ؟

ثم هذه الشعوب التى كانت وراء كولب ؟ ! ألم يخفَ كولب ويوشك أن يدب اليأس المرير إلى صدره فى الانتقال من عاصمة

إلى عاصمة من عواصم أوربا يستجدي مناصرة الأمراء والملوك قبل أن تمنّ عليه إزابيلا بما منّت ومكّنته من المضيّ في مغامرته؟ قابل هذا بما يلاقيه الرائد اليوم من العطف والتشجيع المادي والأدبي من جميع طبقات الشعب ، فتدرك أي فرق ثمة بين العصرين !

هذا ولينظر الأستاذ العقاد ما أصاب كولمب بعدها من حمق الغفلة ، ولؤم المنافسة ، ليدرك أيّ المعاني الانسانية وأي الحواس الاجتماعية ، وأي الشكر لهذا الفتح المظيم قد أثار كولمب في صدور قومه ! !

قد يقول الأستاذ العقاد : ليس من الضروري أن تكون الغاية ما ذكرنا من حب التواصل الإنساني والاستجابة لدواعي الغريزة الاجتماعية ، ويكفي أن تجيء النتيجة كذلك في هذه المغامرات والكشوف . أحسب أن الأستاذ يعفيني هنا من الإجابة الطويلة . فهو لا ريب يعلم علم اليقين النتائج المحزنة التي أفضى إليها اكتشاف كولمب ودي جاما ومجلان لأميركا وغيرها من الأقطار المجهولة ، ويعلم أن الذهب والفضة والقتل والتحريق والتدمير والاسترقاق والاستعمار كانت النتائج الأولى لذلك الاكتشاف ؛ فأية حاسة اجتماعية هنا وأي تواصل صحيح بين الناس ؟ !

قابل بين أغراض الاكتشاف وحوافزه ونتائجه هذه في القرن السابع عشر ، وبينها في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، فترى كيف يجب ألا نقدر الاكتشافات الجغرافية ، من حيث الحس الاجتماعي ، تقديراً هندسياً .

فأنا أرى أن ارتياد القطبين والمعيشة بين الاسكيمو ودراستهم درس العطف والفهم الصحيح لقيمة الحياة البشرية ، وأرى أن اختراق رمال الربع الخالي والاطلاع على نماذج الحياة الأولى في البادية العربية أجل وأسمى في الأغراض والنتائج الانسانية من كشف الأميركتين وأفريقيا والهند جميعاً . وأرى أن الفتاة التي تقضي السنين في إحدى جزر الباسفيك تدرس الحياة الجنسية لأهل تلك الجزيرة وتكتب كتاباً رائعاً تقول فيه : إن هذا الشعب الذي لا يزال على الفطرة أكثر إنسانية وأعظم مدنية في ممارسة الغريزة الجنسية من أرقى الشعوب الأوربية . هذه الفتاة في رأيي أعظم في مجال إثارة الإحساس الاجتماعي والتقدير الصحيح لمركز الرجل المتمدن من جميع الروّاد القدماء

هذا ويجب ألا يفوتنا أن عصرنا وحده هو عصر الارتياد الجغرافي الزماني ؛ فالباحث الأثري اليوم بمعوله ومجرفته في رمال مصر وربى فلسطين وصحراء العراق يفعل ما لم يفعله ملاح أو رائد من الروّاد القدماء

نضيف إلى هذا أن دارون عاد من طوافه بقارات العالم بأعظم أداة من أدوات إزالة الجهل والغرور والاعتقاد بالكيان الأوحد المنعزل ، حينما سوى بين الإنسان والإنسان ، ووصل بين الإنسان والحيوان ، ولم يكن هذا طبعاً في القرن السابع عشر

***

وأخيراً كشوف الكواكب وكشوف الذرة والأثير وسؤال الأستاذ : « ولكن ما شأن هذه الكواكب وما نحن فيه ؟ وأين هي من الحاسة الاجتماعية التي تعلق بها القصص وأبطال الرواية وأبطال السياحات ؟ »

وهل قلت قط إن الكواكب أو الذرة أو الأثير تثير حسًّا اجتماعيًّا في النفوس ؟ هل قلتها صراحة أو ضمناً ؟ إنني أتهم نفسي وأعود إلى مقالي أقرأه حرفاً حرفاً فلا أجد شيئاً من ذلك وإنما أجد هناك أنني قلت : « ليست الكشوف الظاهرة قاصرة على الضرب في مجاهل الأرض واكتشاف أرجائها المجهولة ، وإنما هنا لأنواع وضروب أخرى من الكشف الظاهري لا تقل روعة وشدهاً للخيال وصرفاً للإنسان من داخله إلى خارجه عن أعظم المغامرات الجغرافية [1] » . وقد سقت ذلك في معرض التدليل على أن بواعث الانصراف من الداخل إلى الخارج لا تكفي لتعليل

---

(١) هنا نجل الأستاذ العقاد أن يذهب به السهو بحيث يقدر أن الغربيين (وهم المعنيون بهذا الحديث) مثل معظم الشرقيين في ضؤولة الثقافة وعدم الاحاطة بمختلف العلوم والمعارف فلا يعنون بكشف علمي يكشف . ويكفي أن يلاحظ الأستاذ رواج المجلات العلمية في أوروبا من شهرية وأسبوعية ثم كيف تذاع أخبار الاكتشاف الهامة على أسلاك البرق فإن لهذا دلالته التي لا تنكر

ظاهرة الاختصاص وبروز الفروق فى الأدب . فهذا عصرنا ملىء ببواعث الانصراف من الداخل إلى الخارج كما كان العصر السابع عشر ، ولكن علم النفس مع ذلك يتقدم باطراد ، ولكن الرواية النفيسة التحليلية تحتل المكانة الأولى فى مكتبة الأدب الحديث

وأحسب أن من الخير أن أعيد هنا ما كنت ذكرته فى مقالى السابق تعليلا لظهور الدراسات الباطنة وما تلاها من تأسيس علم النفس التحليلى الذى تهداه أدباء الأجيال الحديثة فى كتابة القصة النفيسة أو التحليلية فقد قلت هناك :

« إن هذه الدراسات الباطنة للنفس كانت مظهراً عادياً يتساوق مع المظهر العام لنشاط الفكر البشرى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فلما كشفت الكشوف الفلكية والطبيعية والكيميائية والفزيولوجية ، كشفت كذلك الكشوف فى مجاهل النفس وخوافى الحس . فذ اصطنعت الطريقة العلمية فى البحث وأخذ العلماء يجرون على أسلوب المشاهدة والفحص والاختبار اتخذت دراسة النفس خطة منظمة مجدية ، فظهر أولا علم النفس العام وتلاه علم النفس التحليلى ؛ ولكنا نعود ونقول إن هذه الدراسة لم يكن الحافز فيها والباعث عليها انتهاء الكشوف الظاهرة ، وإنما كان الحافز عليها اتساع هذه الكشوف وسيرها على خطة علمية منظمة مُجدية شملت الجماد والحيوان والانسان جميعاً ... الخ »

***

وأخيراً نحن نسلم للأستاذ العقاد بنظريته جملة إذا فسر لنا نشأة علم النفس العام والتحليلى بعده معزولين عن فروع المعرفة الأخرى فى القرن السابع عشر وبعده ، أما إذا اضطر أن يعيد علم النفس فى نشأته وتقدمه إلى حظيرة العلوم الأخرى من حيث الصلة والزمن ، فأحسب أن نظريته لا تسلم له مهما حاول أن يستفيد من « الحس الاجتماعى » و « الدراسة الباطنية » و « الدراسة الظاهرية »

وفى الختام آمل ألا أكون أثرت فى صدر الأستاذ الكبير بهذا الكلام غير الشعور الذى يثيره طلب الحق ونشدان الصدق

أديب عباسى



مضت أعوام عديدة على ذلك اليوم الذى شعرت فيه بغتة بدوار الصعود الفكرى ، على أثر مطالعات كثيرة وتأملات عميقة فى عزلة طويلة . وبدا ذلك على وجهى فسمعت طبيباً يسدى إلى النصيحة أن أترك كل شئ وأذهب من فورى إلى البحر ، أستنشق الهواء وأغمض عينى بغير تفكير . لقد كنت أحسب التأمل كل شئ فى حياة الأديب ؛ وكنت أعتقد أن حياتى ستمضى قراءة كلها وتفكيراً على ذلك النحو وبذلك المقدار ، فكنت أستهول العاقبة وأتساءل عن النتيجة

ومرت الأيام فإذا بى أنصرف بعض الشئ عن المطالعة والتأمل . وإذا الأعوام تنفق فى شئ آخر لم يكن فى الحساب: هو البحث عن الجسم الذى تحل فيه تلك الأفكار الهائمة كالأرواح . هنا وضحت لعينى المعضلة . وفهمت أن التفكير فى ذاته يسير ، ولكن العسير هو أن أقيم « الفكرة » على قدميها كائناً نابضاً يتحرك ويسير . إن القليل من عمر الفنان هو الذى يبذل فى التفكير الصرف ، والكثير منه هو الذى يذهب فى سبيل صنع ذلك اللحم والدم الذى ينبغى أن تسكنه الأفكار

إن « الطبيعة » أستاذنا الأعظم نحن الأدباء والفنانين ، تفكر هى أيضاً ، غير أنها لا تفكر « كلاماً » فهى تجهل « اللغات الحية » ، ولكنها تفكر « مخلوقات حية »

« تفكير » الطبيعة «أسلوب» . وإن طريقتها الواحدة فى تركيب الكائنات جميعها : من عالم الجراثيم إلى عالم الأجرام لهى وحدها التى نقرأ منها تفكيرها . « الخلاق » فى الفن أيضاً لن يستحق هذا الاسم حتى يصبح التفكير عنده مماثلاً لتفكير الطبيعة ، فيملك تلك القدرة السحرية أو الهبة السماوية التى بها يخرج أفكاره من رأسه تجرى لابسة أثواب الحياة

كذلك خالقو الشعوب وبناة الحضارات ، كل عبقريتهم أنهم لا يفكرون « كلاماً » ، وأن الأفكار والتأملات عندهم هم أيضاً لا تكتب كما هى ولا تقال ، إنما ترى قائمة متحركة فى صورة أمة ناهضة أو على شكل ثورة متفجرة

ذلك معنى «الخلق» . وتلك هى «الأفكار» فى لغة كل خلاق

توفيق الحكيم

التاريخ في سير أبطاله

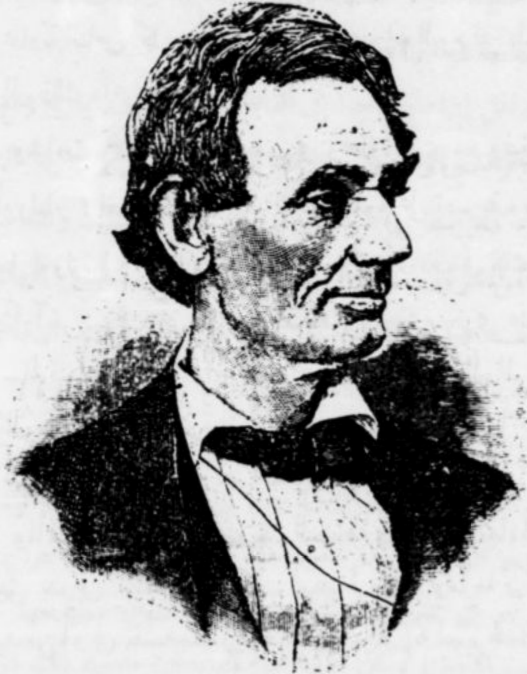
ابراهام لنكولن

هدية الأحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

— ٣ —

يا شباب الوادي ! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم



ما كانت الفاقة لتعوق ابن الأحراج عما كانت تتوق نفسه إليه . وهيهات أن تركن النفس الكبيرة إلى دعة أو ترضى بمسكنة . ها هو ذا فتى الغابة يهدف للثامنة عشرة ، لا يذكر أنه منذ قوى على حمل الفأس كان كلا على أحد . بنى نفسه كأحسن ما تبنى النفوس ، غذاء جسده من قوة ساعده ، وغذاء روحه من توقد ذهنه ودأبه وجلده وبعد همته

كان ابراهام عصامياً في أوسع وأدق معنى لتلك الكلمة ؛ عال نفسه وربى نفسه وعلم نفسه . وكان على استغنائه عن الناس يخفض جناحه للبعداء والأقربين . ولله ما أجمل تلك النفس في تواضعها ودماثتها ، وما أجمل ذلك التواضع من فتى لا يرى لامرئ عليه يدا ؛ وهو لولا كرم عنصره ونقاء جوهره جدير أن يدل بذلك وأن يزهى ؛ وما الإنسان ؟ أوليس هو يطغى أن رآه استغنى ؟

استغنى ابراهام بجده وقناعته في مطالب معيشته عن الناس ، ولكنه أحسن معاشرة الناس وأنسوا منه لين الجانب وعذوبة الروح وهدوء الطبع وشدة الحياء . على أن ما زادهم محبة له وإقبالاً عليه حلاوة حديثه وحصافة رأيه وأصالته ، وكان قد أحب منذ أن أعجب بذلك المحامي الدل أن يتحدث إلى الناس ما واتته فرصة إلى ذلك ، وهو بطبعه بارع السياق قوى الحجة تمتاز كلماته — وإن لم يقصد — بقرب المأخذ وبعد المرمى ، وهي صفة سيدرك فائدتها في مستقبل أيامه

ساقت إليه الأقدار وهو في التاسعة عشرة عملاً خرج به من الغابة أياماً إلى دنيا الحضارة ! فقد استأجره أحد ذوي الثراء في تلك الجهة ليذهب ببضاعة في قارب إلى مدينة نيوأورليانز ؛ وقبل الفتى وإن قلبه ليخفق ، وإن نفسه لتتنازعها عوامل الخوف والأمل والرضاء وحب الاستطلاع . وما له لا يخاف وهو لم يقم بمثل تلك الرحلة الطويلة من قبل ، ولا عهد له بالمدن وعيشتها وأهلها ؟ ولكنه قبل وتأهب . وما كان حب المال هو الذي حفزه إلى القبول ولكنها كانت رغبته الشديدة في رؤية الدنيا ! وهو يومئذ تواق إلى المعرفة ، لهج برؤية الحياة في بيئة غير الغابة

وخرج معه فتى من أهل الجهة ليعاونه ، واتخذا سبيلهما في نهر الأهايو ومنه إلى ذلك النهر العظيم : نهر المسيسبي ، حتى إذا أتيا مدينة نيوأورليانز بعد أن قطعا ألفاً وثمانمائة ميل ، رأيا خلالها على الضفاف حيوانات وأشجاراً وأناساً غير ما ألفا في إقليمهما . وكم كانا معجبين بما رأيا وما سمعا ممن أويا إليهم من سكان البلدان التي نزلا عندها ليالي رحلتهم . ولن ينسى الفتى ما رأى من بطولة أيب حين هاجمهما ذات ليلة وهما في نومها سبعة من الزنوج ، فقد رآه يعمد — وقد أفاق على همسهم — إلى مجراف فيحاربهم في بسالة حتى يضطرهم إلى الفرار وهم منه خائفون

دخل إبراهام وصاحبه مدينة نيوأورليانز ، ولك أن تتصور مبلغ ما بعثته تلك الزيارة من أثر في نفسه ، وقد جاء وهو يافع من الغابة فرأى مدينة كبيرة لأول مرة ! وأية مدينة هي ؟ لقد رآها تموج بأنماط من الناس وأخلاط من العبيد . ما هؤلاء السادة الذين تغدو وتروح بهم المركبات الفخمة ؟ وما هؤلاء النسوة اللائي يخطرن في دلال ويبرزن في عطاف الثراء والنعمة ؟

ما هؤلاء وما هؤلاء ممن يرى أمام ناظريه ... ؟ وما هذه الدنيا التي يضطربون فيها وما حياتهم وما مبلغ بعدها من حياة الغابة ... ؟ ثم ما هؤلاء العبيد ... ؟ أجل ما هؤلاء العبيد وما حظهم من تلك الحياة الفوارة بالقوة والجاه ؟ أهؤلاء هم الذين قرأ عنهم وسمع من أخبارهم مالم يفهم على وجه اليقين ؟ نعم هؤلاء هم العبيد ... وهو محررهم ومحطم أغلالهم في غد !

عاد إبراهام بعد أن أدى مهمته على خير وجه ، وقد قضى في رحلته هذه ثلاثة أشهر بعيداً عن أنديانا ، ولكن ما تركته تلك الأشهر الثلاثة في نفسه من الأثر يجعلها كما لو كانت ثلاث سنين ، فقد أحست نفسه الفرق بين المدنية والهمجية إحساساً قويًّا . إنه يتساءل بينه وبين نفسه : أي الحياتين أقرب إلى المدنية حقًّا ! عاد إلى موطنه ، ولكن أي موطن وهو ابن الأحراج ربيب الترحال والأسفار ؟ لقد شد أبوه الرحال من جديد على رأس الأسرة إلى مقاطعة جديدة هي الينويس ، يحفزه نفس الدوافع التي حركته من كنتوكي إلى أنديانا ؛ وكان إبراهام هذه المرة عضد أبيه ، فهو يومئذ في الحادية والعشرين . ولما حطوا رحالهم بعد أسبوعين قام كوخهم الجديد على ما شقت يده الفتية من أشجار . لقد صغرت أمام قوته ومهارته قوة أبيه ومهارته ، وسرعان ما أصبح أيب حديث الجيران في البقعة الجديدة

عمد إلى الزراعة فحرث قطعة من الأرض وبذر فيها القمح وسورها بسور من قطع الخشب سوتها فأسه ، وكان يعاونه في ذلك فتى من ذوي قرباه ؛ وترك أيب القمح ينمو وتناول فأسه وراح يعمل في الغابة أجيراً وقد ذاع صيته وتقدمه أينما سار ، وهو يحس اليوم أن دخله من فأسه زيد هنا عما كان يحصل عليه في أنديانا . ولكن أي دخل هذا إذا هو قيس إلى ما عسى أن يكسبه رجل غيره في بيئة أخرى ؟ . لقد استأجره أحد الأثرياء ليقطع له خشباً يسور به مزرعته ، فرضي أيب أن يقدم لذلك الرجل أربعمائة قطعة من الخشب نظير كل « ياردة » من القماش الساذج الذي طلبه أيب ليتخذ منه سروالاً !

وتجلت للناس فتوته وشهامته في عدة مواقف ، فهو لا يفتأ يمد يده إلى البائس والملهوف في كرم وإخلاص ، وهو لا ينى يضرب بفأسه في نشاط وإقبال ، ولقد تحداه ذات يوم رجل ذو قوة وبأس أن يصارعه ، فنازله على كره منه ، إذ كان ينفر من القسوة والعنف ، وما لبث أن غلبه على أعين الناس فازدادوا له إكباراً

وما انصرف ابراهام يوماً عن المطالعة على الرغم من شواغله ، فأوقات فراغه للقراءة لا لغيرها مما يقضى فيه الفراغ من ملاذ الحياة ومباهجها . وأي شيء هو أحب إليه من القراءة والدراسة ؟ يا عجباً ! هل كان يدري أن القدر يمده لأمر خطير سوف ينقل به تاريخ بلاده من صفحة إلى صفحة ؟ ! كانت قراءته يومئذ في القانون ، فقد ألقت المصادفات في يده كتاباً يدور البحث فيه على قوانين المقاطعة الجديدة . على أنه قد قرأ قبل ذلك كتاباً غير هذا في القانون ، فهو جد مشغوف بالمحاماة والخطابة ، وكأنه كان يهيئ نفسه لهذه المهنة التي هام بها وجدانه ، وهو بفطرته ميال إلى محادثة الناس كما سلف أن ذكرت ، وإنه اليوم ليخطبهم كما دعا إلى ذلك داع

وشاءت الأقدار أن يذهب في رحلة أخرى مع رفيقين إلى نيوأورليانز ؛ فقد اختاره أحد التجار ليقوم على تصريف بضاعته وجعل له ولزميليه أجراً في نظير ذلك . ولقد صادف في تلك الرحلة حادثاً آخر : ذلك أن القارب اصطدم بحاجز صخري عند بلدة نيو سالم فتعلق وانحدر وأوشكت حمولته أن تهوى إلى الماء لولا ما كان من مهارة أيب وقوة ساعديه ، تلك المهارة التي أعجب بها نفر من أهل تلك البلدة وقد تجمعوا يشهدون الحادث

ولما فرغ ابراهام من أمر تلك البضاعة ولى وجهه تجاه أسواق الرقيق يدرس حالها من كثب وهو لم ينس يوماً ما تركه حال العبيد من أثر في نفسه منذ زيارته الأولى . ألا إنه ليهتم لهذا الأمر أكبر اهتمام ويقلبه في خاطره على كافة وجوهه ، كل ذلك في عمق وتمحيص فتلك خلة من أبرز خلاله ؛ فهل كان يعلم ابن الغابة أنه سيؤدي للعالم من عنده رسالة جديدة ويخطو بالانسانية خطوات واسعة نحو النور بتحريره هؤلاء العبيد وفك أصفادهم ؟ كلا ! ما كان يدور بخلده يومئذ شيء من هذا

رأى ويا لهول ما رأى ! رأى في تلك الأسواق جماعات من السود ذكوراً وإناثاً جيء بهم قسراً من مواطنهم مقرنين في الأصفاد يباعون كما تباع الماشية ، يلهب التجار جلودهم بالسياط ويسوقونهم كما تساق الأنعام كأنهم لا يمتون إلى البشرية بصلة . وما كانت نفسه الكبيرة ، وما كان قلبه الرحيم ليمر بتلك المناظر كما يمر غيره من الناس ، كلا بل ستبقى مسألة العبيد في أعماق نفسه حتى يحين الفرصة

أخذت عيناه فيما رأى فتاة جميلة المحيا مرهفة القوام يعرضها الباعة على النظار وهى نصف عارية كما يعرضون فرساً كريمة ، وقد افتتن بقسماتها وقوامها الشاهدون ؛ وإبراهام تتحرك نفسه من أعماقها ويتألم ما وسعه الألم . وصفه أحد زميليه فقال: « رأى لنكولن ذلك وإن قلبه ليدمى . لم تتحرك شفتاه وظل صامتاً ، ومشت فى وجهه كدرة الهم ؛ وأستطيع أن أقول وأنا به عليم ، أنه فى تلك الرحلة قد كون لنفسه رأيه فى مسألة العبيد »

ومما روى عنه فى تلك الرحلة أن عرافة لقيته فقالت وهو يمازحها : « يافتى سوف تكون رئيساً للولايات ويومئذ سيتحرر جميع العبيد » وما كانت كلمات العرافة إلا كلمات القدر تجرى على لسانها في نبوءة عجيبة !

وقفل إبراهام راجعاً إلى الغابة وقد ازدادت تجاربه ومعرفته بالحياة والناس وهو فى سن الدراسة والتطلع إلى معرفة النفس البشرية وما تنطوى عليه من معانى الخير والشر . ولقد سلمت نفسه من شرور المدنية ، فلم تعلق بها أوشاب ! وهل كان لنفس مثل نفسه حصنتها الشدة وعصمتها الحياة المحصورة في الغابة ، أن تزل أو ترق إليها غواية ؟

لم يقم إبراهام طويلا فى كوخ أبيه ؛ فما لبث أن خرج فى طلب العيش . وقد أدرك أنه بعد أن تجاوز الحادية والعشرين يستطيع أن يغادر أباه ليقوم على شؤونه بنفسه . خرج من الكوخ إلى غير عودة إليه ! فترى به النوى مطارحها كلما تصرمت الأيام ، وكان أول عمل قام به أن فتح له ذلك الرجل الذى استأجره فى رحلته الثانية إلى أورليانز — حانوتاً في نيوسالم وأقامه فيه ليبيع نائباً عنه وذلك لما خبر من مهارته وأمانته . ولقد قطع أيب المسافة إلى نيو سالم على قدميه ؛ وأخذ يبيع فى الحانوت فى خفة ولباقة كأنه مارس التجارة من قبل . وأتاح له ذلك العمل فرصة لقاء الناس ، ولقد رأوا من خلاله ما امتلك به قلوبهم ؛ رأوا منه لين الجانب وسعة الصدر وحلاوة اللسان وسرعة اليد وحسن الملاطفة والممازحة ، ورأوا منه فضلا عن ذلك جميعاً الأمانة كأعظم ما تكون الأمانة . وأتاح له ذلك العمل أيضاً أوقاتاً يقضيها فى المطالعة فكان يتمدد على ظهر صندوق ويقرأ حتى يقصده مشتر فيبيعه ما يطلب ثم يعود إلى كتابه

ولشد ما أعجب الناس بإبراهام وخلاله وصار يعرف بينهم باسم أيب الأمين ، وصارت تلك الصفة منذ ذلك اليوم أشهر صفاته وأحبها إليه وإلى الناس . حدث أنه أعطى لامرأة ذات مرة على جهل منه مقداراً من الشاى أقل من حقها ، فلما أدرك ذلك سار إليها آخر النهار مسافة طويلة يحمل إليها باقى الشاى ؛ وحدث أنه أخذ خطأ بعض دريهمات من رجل فلما عد ماله آخر النهار سأل عنه حتى اهتدى إليه ودفع له دريهماته . وكان الناس يعلمون هذا وغيره فيقبلون عليه معجبين . ولم ينس فى تلك البلدة ما جبلت عليه نفسه من النجدة والمروءة والحدب على الضعفاء . ونمى أمره فى ذلك إلى جماعة من الفتيان فى البلدة كانوا يجعلون العربدة هويتهم والشغب مسلاتهم ؛ وكان على رأسهم فتى مفتول الساعدين شديد المراس يقال له أرمسترنج . فجاءوا عصبة إلى ابراهام يسخرون منه ويتحدونه أن ينازل زعيمهم ، وهو يعرض عنهم وتأبى عليه نفسه أن يحفل بهم ؛ ولكنهم يسرفون فى التحدى والقحة ، حتى يخرج إليهم ويسير إلى قائدهم ويشتد الصراع بين الفتيين ويستجمع ابن الغابة قوته ويدفع خصمه فإذا هو ملقى على وجهه متدحرج كأنه كتلة من الخشب ! والفتية لا يصدقون أعينهم من الدهش . ولقد نهض صاحبهم فصافحه وسلم له بالغلبة . وشاعت فى الناس بطولة فتى الحانوت وشدة بأسه . وما كان ابراهام غليظاً أو رجل شر ، بل لقد كان يسعى أبداً في القضاء على الإحن والمنازعات ، وكم له من يد فى هذا المضمار

عرف الناس ابراهام فوق ذلك باستقامته فما عهد عليه من سوء قط ؛ كان لا يقرب الخمر ولا الميسر ولا يعرف الفواحش ماظهر منها وما بطن . وأين ذلك الرجس من تلك النفس العصامية الطامحة ؟ إن له من نفسه خير عاصم ، وله من الكتب ما يملأ به فؤاده ؛ وكانت كتبه إلا قليلاً مستعارة ؛ يسمع عن كتاب يطلبه فيجده عند أحد الناس فيسعى إليه ويرجوه أن يعيره إياه حتى يقرأه فيعيده إليه ؛ ومن ذلك أنه سمع وهو فى الحانوت عن كتاب فى قواعد اللغة الانجليزية ، وكان قوى الرغبة فى تعرف قواعد اللغة ليستعين بها على ضبط عبارته ، فمشى نحو ستة أميال حتى جاء صاحب الكتاب فأعاره إياه، فأكب عليه حتى أتقن فهمه . ومما قرأه ايب في تلك الآونة صحيفة كانت تكتب فى السياسة ، اشترك فيها وهو مملق ، وكان يقبل على قراءتها فى لذة واستمتاع قراءة تعمق ودراسة

ساقه إلى السياسة رجل رأى من فطنته وطلاقة لسانه وصدق إخلاصه وتطلعه إلى المعرفة ما أيقن معه أن سوف يكون له شأن غير شأنه إذ ذاك. وكان إبراهام يحادث الناس كما ذكرنا كلما سمحت بذلك فرصة، وقد ألفوه جذاب الحديث بارع السياق يضرب الأمثال فى غير توقف ويسوق الأدلة فى غير عوج! وإنك لترى من ذلك أنه يستطيع أن يخوض السياسة، فماذا اعتزم؟ عقد النية على أن يتقدم للناس ليختاروه نائباً عنهم في مجلس مقاطعة النيويس! وكان فى تواضعه يرى الخطوة جريئة. على أنه كان يدرك أن اليد قصيرة والجيب خال والجاه منعدم. فعلام يعول ابن الغابة وإلى من يستند؟ ليس أمامه غير نفسه؛ ولكن حسبه تلك النفس

وكان أيب فى الثالثة والعشرين من عمره وإنه ليحق لنا أن نتساءل كيف خلت حياته إلى ذلك اليوم من الحب على قوة روحه ونبل عواطفه وشدة بنيته؟ الحق أنه كان ينفر من النساء ومخالطتهن، وكان شديد الخجل خافض الطرف متلجلج اللسان متبلبل الخاطر كلما وجد نفسه على رغمه فى مجلس يضم فتاة أو فتيات. وكان هذا الحياء الشديد مما عرف من صفاته؛ بيد أنه يحس اليوم كأن شيئاً يختلج بين جنبيه، فلقد زار ذات ليلة ذلك الرجل الذى وجهه إلى السياسة في خانه، وكان صاحب ذلك الخان؛ ورأى هناك ابنته، وكانت حسناء فى الثامنة عشرة، فمال إليها قلبه ولكنه ما لبث أن علم أنها خطيبة فتى غيره؟ وهل كان لمثله أن يطمع فى تلك الفتاة على ما هو فيه من خصاصة وعلى ما كان ينعم به أبوها من ثراء؟

وهو فى شغل اليوم بالسياسة؛ ذهب إلى الخان حيث يجتمع فتية الحى ورجاله، وبعد أن استمع إلى حديثهم برهة وثب إلى مرتقى وقام فيهم خطيباً! ولعلها كانت أولى خطبه إذا أردنا معنى الكلمة. راح يحدثهم عن رغبته فى الإصلاح وعن أفكاره فى السياسة؛ ولما كان يجهل السياسة العليا فقد قصر حديثه على إصلاح الطرق والأنهار وهو جد خبير بها. ومما قاله «إن سياستى قصيرة حلوة كرقصة العجوز، إنى أحبذ مشروع المصرف الأهلى وأحبذ الإصلاح الداخلى والحماية الجمركية. هذه هى ميولى ومبادئي السياسية، فان اخترتمونى فأنا شاكر وإلا فلن يغير ذلك شيئاً من نفسى» وقال فى نداء مطبوع أذاعه فى الناس «ولدت ونشأت فى مدارج متواضعة، وليس لدى ثراء أو أهل ذوو جاه، أو أصدقاء يقدمونى إليكم؛ وقضيتى مبسوطة بين أيدى الناخبين الأحرار، فان اخترت فقد أولونى جميلاً لن أوفيه مهما بذلت فى خدمتهم، وإن أملت عليهم حكمتهم أن يتركونى حيث أنا فانى قد ألفت من مواقف الانخذال ما لا أحس معه لذلك غماً»

تلك هى صراحة لنكولن، وتلك هي بسالته تتجلى فى كلماته كما تجلت فيها بساطته وإخلاصه وسمو تواضعه وعزة نفسه

وكان صاحب الحانوت قد أدى بمسلكه المعوج إلى بيع حانوته إلى تاجر آخر، وترك إبراهام أول الأمر بلا عمل، ولم يكن لديه مال يستعين به حتى على القوت، اللهم إلا ما تسوقه الأقدار إليه من وجوه الرزق. ومنها أنه قاد زورقاً بخارياً ليخرجه من منطقة عسيرة فى مجرى الماء، وكان أجره على ذلك أربعين دولاراً

وساقت إليه الأقدار بعد ذلك عملاً غريباً بالنسبة إليه! ذلك هو التطوع مع فرقة من شبان الجهة لمحاربة الهنود الحمر! وكان كبيرهم —ويعرف باسم الصقر الأسود— قد هاجم البيض يريد أن يسترد أرضاً كان باعها للحكومة؛ وما كان أيب يميل إلى الحرب ولكنه تطوع إذ لم يجد لديه عملاً، ولعل تطوعه هذا وما عساه أن يبديه فى الحرب يشفع له فى الانتخاب ويزيد صيته رفعة... وعلى ذلك خرج مع المتطوعين على رأس فرقة ولكن الحرب لم تدم طويلا، ولا هي استدعت مقاومة عنيفة. وما عرف عنه أنه مس إنساناً بأذى وهو فى الميدان، بل لقد تجلت مروءته فى حادث نرويه لدلالته على نفس أيب وخلقه: آوى إلى معسكر المتطوعين أحد رجال الصقر الأسود وفى يده بطاقة أمان من أحد القواد؛ ولكن بعض المتطوعين وكانوا محنقين هموا به ليقتلوه فوقف بينهم وبينه ابراهام، وبنادقهم مصوبة إلى صدره وهو يصرخ فيهم «إنكم لن تقتلوا هذا الرجل» ولم يكن بعيداً أن تنطلق إليه الرصاصات فى ثورة غضب كتلك الثورة ولكن الله سلم ونجا الرجل ونجا مخلصه!

وبعد أن رجع أيب إلى نيوسالم جرت الانتخابات ولكنه خذل فيها، إذ لم يكن الحزب السياسى الذى يدين بمبادئه محبوباً يومئذ للناس! خذل ابراهام ولكن طابت نفسه الأمر وارتاحت، ذلك أنه وجد أن أكثر أصوات بلدة نيو سالم كانت له

«يتبع» الخفيف

تحية العام الهجرى الجديد

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

يوم تبسّم فى الأيام وازدهرا ... وسيرةٌ عطّرت من لطفها السيرا
يا يومُ حدّث شباب النيل وارو لهمْ ... وقصّ من ذكرك العالى لهم خبرا
واجمع على الدين والأخلاق عقدهمُ ... فقد تفرق هذا العقد وانتثرا
وأضيع ُالناس من يقضي الحياة ولا ... يقضى من الدين والدنيا بها وطرا

* * *

يا رب أدرك من الإسلام أمته ... واجمع على نهجك الأفراد والأسرا
يا حارس الروض إن الروض إن عصفت ... به الأعاصيرُ جف الروض وانتثرا
والدوحُ إن لعبت ريح السموم به ... لا يُنبتُ الغصنَ أو لا يُطلع الثمرا..

* * *

هلاَّ تعيدون للإسلام صولته ... وللعروبة ما ولّى وما غبرا ؟
دار (ابن لقمان)[1] لا زالت معالمها ... فاسأل بها اللهو أو فاسأل بها الحجرا
دار أفاء على الإسلام صيّبها ... وطوّحت بالصليبيين والأمرا..
سلوا الفرنجة لما ألقوا فرقا ... وطيّروا فى نواحى الملة الشررا
استأصلتهم سيوف المسلمين كما ... تستأصل الريح في هبّاتها الشجرا

* * *

هيّا انصروا المبدأ الدينيّ مبدأكم ... فالله ينصر مَن للملة انتصرا
الدين قد كان يمشى لا عثار به ... ما باله اليوم فى آماله عثرا
قد كان إخوانكم لا يقدمون على ... مخاطر المجد إلا ذللوا الخطرا
ولا يبالون إن ساروا لمحمدة ... طال الطريق بهم لله أم قصرا..

* * *

الدين والخلق العالى يؤيده ... سيرفعان لكم بين الأنام ذُرا
لا خير في الدين إن لم يحمه خلق ... ولا صلاح له إن ضل أو فجرا

* * *

سافرتُ للغرب والآمال تدفعنى ... أكرِمْ به للأمانى والعلا سفرا
رأيتُ فيه الليالى وهى عاصفة ... والبحرَ مضطربا والجو معتكرا..
شَطَّ المزار فما شطّت فضائلنا ... ولا تغيّرَ منا القلب أو نفرا
إن الغريب وإن طابت مناظره ... رنا إلى الوطن المحبوب أو نظرا..
لا اللهو فى الغرب أنسانا مبادئنا ... ولا أضاع لنا من ديننا الذكرا
رأيت فى الغرب، أخلاقاً مطهرة ... كما رأيت به الأرجاس والقذرا
إنا أخذنا محاراً لا غناء به ... وغيرُنا أخذ الأصداف والدررا

* * *

بالأمس قامت لنا فى الدين قائمة ... ما بالنا اليوم عفّينا به الأثرا
إنا فتحنا به الدنيا مطأطئةً ... وباسمه قد غزونا البدو والحضرا
سلوا القياصر تلقوا عندها نبأً ... وسائلوا الفرس تلقوا عندها خبرا
هنا رأينا بساط الفرس مندثراً ... مخرقاً .. ولواء الروم منكسرا..

* * *

يا مرسل الدين قد أرسلته حكما ... وصُغْتَه رحمةً بالناس أو عبرا
ألَّفتَ منه سبيل العدل فأْتلفَتْ ... وجئتَه داعياً للحق فانتصرا
بعثتَ بالسيد الهادى رسالته ... نوراً على الأرض يمحو الشك والخطرا
ويملأ الأرض من صافى رسالته ... صفواً كما امتلأت من قبله كَدَرا

* * *

وارحمتا لنبى فى قبيلته ... كم ثبطوه وودُّوا أنه عثرا
يظل يسقيهمو ودًّا ومرحمةً ... وهم يساقونه من لؤمهم كَدِرا
عجيبة أنه يسعى لينفعهم ... ويشتهون له المكروه والضررا

* * *

يا أحمد الخير قد آذوك وانصرفوا ... يؤلبون عليك الجمع والزمرا
حاشى لربك لم تحذر بوائقهم ... (ولا ينال العلا من قدم الحذرا)
لما استمرتْ قريشٌ فى غوايتها ... صبرتَ لله . والعقبى لمن صبرا
هاجرت لله من قدس إلى قدُس ... وسرت تطوى إلى غاياتك المدرا
فيالها هجرةً لله خالصةً ... تدفّق الدينُ منها بعدُ وانهمرا

(المنصورة) **محمد عبد الغنى حسن**
مدرس بالمدرسة الثانوية

[1] دار ابن لقمان التى أسر فيها لويس التاسع وهى لا تزال باقية فى المنصورة



أقصوصة من جبرييل دانونزيو

سنسناتوس (١)

مأساة عاشق مخبول

للأستاذ دريني خشبة

كان يتثنى كأنه غصن بان ؛ وكان نحيلاً معروقاً فى غير طول ، وله لِبْدَةٌ تهدَّل كغابةٍ من أشجار الكستناء فوق كاهله وكتفيه ، ثم تتحوى ذوائبها وتغدودن حين يعبث بها الهواء ، فتكون كعُرْفِ الفرس . أما لحيته ... فيهودية كثة مغبرة ، غير مُحلقة ، تعلق بها دائماً نثائر من القش ... أما عيناه فسادرتان ترنوان أبداً إلى قدميه الحافيتين ! فإذا حدث أن رفعهما إلى أحد فإنهما تقذفان فى قلبه الذعر ، بما ركب فيهما من ألغاز وأسرار ... فهما تارة تشفّان عن بَله ، وتنمان عن عتـه ؛ وتارة أخرى تتأججان بنيران حامية كنيران الحمّى ... ثم تنطفئان بغتة ، فتراهما حائلتين آسنتين كمياه المستنقع ... فإذا لمح بهما خطفتا كسيوف طليطلة (٢) !

وكانت له (جاكتة) حمراء يلقيها على كتف واحد كما يلتفع الأسبان عباءاتهم فى كبرياء وزهو ، فكان إذا مشى بَدَح فى عظمة وجلال

ويدعوه الناس سِنْسناتوس ، ويقولون إن به لوثة أصابته إثر حب خانه فيه محبوبه ، فلم يملك إلا أن يطمنه ، ويمضى على وجهه فى الأرض حيران

وكانت سنه عند ما عرفته ستا وسبعين ، بينما كنت أنا فى الثالثة عشرة ... وقد رأيته تخلبنى ... وكان اليوم قائظاً ، والماء يغمر الميدان ، والأرصفة تتقد بحر الشمس ، ولم يكن ثمة مخلوق غير كلاب قليلة سائبة ... ولا صوت إلا جعجعة الطاحونة القريبة

وكنت لا أمل أن أقف نصف ساعة ألاحظ سنسناتوس من وراء ستار النافذة ، وهو يمشي متثاقلاً مختالاً ، وقد اشتد قيظ الظهيرة ؛ وكان يدلف أحياناً نحو الكلاب فى هدوء ومهل حتى إذا ظن أنها أمنته ، التقط حجراً وحذفها به ثم اعتدل وولاها دبره ، كأنما يوهمها أنه لم يمسها بأذى ... وقد تجتمع الكلاب حوله فلا تنفك تبصبص بأذنابها ... ويفتر هو باسماً ... ثم يضحك ضحكات بائسة ... فلا أملك إلا أن أضحك أنا أيضاً !

وتشجعت يوماً فأطللت برأسى من النافذة ، ثم هتفت به : « سنسناتوس ! » فاستدار حوله ، حتى إذا بصر بى تبسم ضاحكا ، فقطفت قرنفلة جميلة من طاس أزهاري وأرسلتها إليه ... ومنذ ذلك اليوم ، ونحن صديقان ... وأى صديقين ؟!

وقد سماني « كيرلى لوكس ! » . ففى أمسية يوم سبت من شهر يوليو بينما كنت واقفاً على الجسر الجميل أرقب سفائن الصيد عائدة أدراجها ، ومن خلفها الشمس الرائعة تصبغ السحاب بالذهب ، وتُوشى حواشيه بالقِرمز ، وتنصب بالنهر فى لجة البحر ذَوْباً من اللألاء واللُّجين ... فى حين تنعكس العُدْوتان ، وما نما فوقهما من قصب وغاب ، وما بسق عليهما من حور وشاهبلوط ، فى مائه العذب ، فتكسوانه حُلةً من سندسٍ وإستبرق !

وكانت الزوارق تلقى مراسيها فى بطء وتتضامُّ على رُوَيد ، وشُرُعها البرتقالية تصطفق وتتكسر ، فترتسم عليها النقوش

---

(١) من الأقاصيص التى يبدو فيها دانونزيو أديب إيطاليا العظيم مصوراً أكثر مما يبدو روائيا

(٢) نسبة السيوف إلى طليطلة نسبة أندلسية مستحدثة ، وعرب المشرق ينسبونها إلى الهند أو إلى اليمن فيقولون هندوانى ويمانى ومهند ويمان ، وعجيب بقاء النسبة الأندلسية فى الأدب الايطالى إلى اليوم

العربية ، فتبدو غرابيبَ سودا ... وقد بدأ الصيادون ينزلون أسماكهم من زورقين كبيرين ، فرحين جذلين بما رزقهم الله ، منشدين متغنين

وتلفتُ حولى لجأة فرأيت سنسناتوس واقفاً حيالى والعرق يتفصّد من وجهه ، وقد خبأ شيئاً فى يده وراء ظهره ، فددت إليه يدى الذعورة المرتجفة ، وناديته : « أوْه ! سنسناتوس ! » ورفت على شفتيه ابتسامة ساذجة كابتسامة الطفل ، ثم مد إلىّ يده وفيهـا باقة رائعة من أزهار الخشخاش ، وسنابل القمح ، فاختلطت حمرة (أبى النوم) بذهب البُرّ ، حتى ما تمالكت أن صحت : « شكراً لك وألف شكر ! ألا ما أجمل وما أبهى !! » وبدلاً من أن يرد علىّ ، فقد أرسل أصابعه فوق جبينه ووجنتيه لينزح العرق ، ثم حملق فى يده وحلق فىّ ، ثم ضحك من أعماقه ضحكاً رقيقاً باكياً ... وقال : « لقـد وجدت تلك الأزهار الأرجوانية نامية وسط حقل من القمح ، فأحببت أن أقطفهن لك ... ألا ما أجمل وما أبهى ! ! لقد قطفتهن لك ، ولم أبال الشمس التى كانت تصب نيرانها فوق رأسى ! »

وكان يتكلم فى هدوء واستسلام ؛ وكان يرسل الكلمة ويستأنى ، ثم يرسل الأخرى ويستجم ؛ وكان يبدو عليه التعب ، لـكنه كان يحاول وصل كلامه حتى لا يفلت منه زمامها ... وكان يبدو كأن ألف فـكرة تزدحم فى رأسه ، وألف صورة من صور ماضيه المؤلم تربك تفـكيره ... فكان يستذكر منهـا الصورة والصورتين والثلاث ، ويترك الباقيات تتفرق كِسرب من اليعاسيب ... وكنت ألمح ذلك فى عينيه ... فيزداد تفرسى فى وجهه الذى كان يبدو لى جميلاً رائعاً ... وكأنما لحظ ذلك منى ، فالتفت إلى الزوارق لجأة وقال : « أنظر ... الشُرُع ! ما أجمل الشرُع ! شراعان رائعان : أحدهما فى الماء والآخر فى الهواء ! » أى أنه لم يكن يعرف أن الشراع الذى فى الماء ما كان إلا صورة منعكسة ؛ ولقد حاولت أن أفهمه ذلك ... وقد أطلت فى الشرح إلا أنه كان يبدو كالذاهل عما أقول ... وكانت كلمة « شفشاف » تصدمه ، وتقِرُ فى أذنه

وتمم بهذا النداء : « ديا فانوس ! ! » ... ثم تبسم ، وعاد يحملق فى الشراع العجيب !

وانتثرت بَتلة من أزهار الخشخاش فسقطت فى الماء ، فجعل يتبعها بنظره حتى غابت ، ثم أنشأ يقول : « إنها ذاهبة ... ذاهبة بعيداً ! » وكانت نبرات الأسى تتكسر فى أطراف صوته ، كأنما فقد شيئاً عزيزاً عليه !

وصمتنا لحظة ، ثم سألته : «ألا تخبرنى مابلدك ياسنسناتوس؟» لـكنه التفت عنى وأشاح ، ثم مد بصره فى السماء الزبرجدية الصافية ، حيث ذهبت الجبال فى السماء كالجبابرة التى تغط وتتثاءب ؛ وكان الجسر البعيد الممتد فوق النهر يُقطّع السماء إلى صور جميلة بارعة ، وقد أخذت ظلال الشاطئ الأخضر المنعكسة فى مائه تتحول إلى لون داكن قاتم ، يختلط بأهازيج الصيادين ونكاتهم المرحة الساذجة

وأشرقت أسارير صاحبى قليلاً ، ثم أسرع يقول :

— أجل ... لقـد كان لى بيت أبيض ، وكانت له حديقة صغيرة تنمو فيها أشجار الخوخ ... وفى المساء ... كانت تِرْزا تأتى إلىّ ... جميلة حُسّـان ... مفتان ! ... عيناها ... ولـكن ... هُوَ ! هُوَ !

ثم صمت لجأة ... لأن الهواجس السوداء كالخفافيش طافت برأسه لجأة ... وانطفأ البريق الذى كان يشع من عينيه فصارتا غامتين قاتمتين !

بيد أنه لم يلبث أن انفرجت أساريره ، وأشرق وجهه ... ثم لوى عنانه ، وذهب عنى ، وهو ينشد ويغنى :

Amoi, Amoi, aecirecheme sa rame.

وهو غناء لا أدرى ما ذا كان يقصد به !

* * *

ولقيته بعد ذلك مرات ، وكنت كلما رأيته ماراً بمنزلنا دعوته لأعطيه شيئاً يأكله ، أو يتبلغ به ، وأعطيته مرة دريهمات كنت قد أخذتها من أمى ، فما كدت أضعها فى يده ، حتى نظر إليها هازئاً ساخراً ، وردها إلى فى امتعاض ، وولى مدبراً ... وفى المساء لقيته عند آل بورتانوفا ، فتقدمت إليه قائلاً: «سنسناتوس! اغفرلى ... و ... اعف عنى ! » ولـكنه هام على وجهه ، واختفى فى الغابة

وفى صباح اليوم التالى ، وجدته ينتظرنى قريباً من منزلى ، فلما رآنى تبسم ابتسامة محزونة ، ومد إلىّ يده الواهية بباقة

يانعة من أزهار المرغريت ... وكانت عيناه دامعتين ، وشفتاه مرتعشتين ... مسكين ! لك الله يا سنسناتوس !

ومرة أخرى ، بينما كنا جالسين فى طرف الطريق المروش بالشجر ، فى أواخر شهر أغسطس ، والشمس الغاربة تختفي رويداً وراء الجبال ، والأصداء المختلفة تتجاوب فى جنبات السهل القار الهادئ بين لحظة وأخرى ... وحواشى الأدغال الصنوبرية تبتعد وتبتعد حتى تتناهى في ظلام البحر ، وقد أخذ القمر النحاسى يبزغ فى هوادة وبطء خلال السحب العجيبة الرائعة ... حينئذ ... نظر سنسناتوس إلى القمر ، وحدق فيه بصره ... ثم أخذ يتمتم ويجمجم ... ويقول : « أنظر ... إنك تستطيع الآن أن تراه .. وليس فى وسعك الآن أن تراه ! أجل ... قد يمكنك أن تراه الآن ... وقد لا يمكنك قط أن تراه !

وظل برهة يتأمله ثم عاد يقول :

« القمر ! ! إن له لسِنّينِن وأنفاً وفماً مثلنا نحن البشر ! ! ومن يدرى فيم عساه يفكر ... من يدري ؟ ! »

ثم شرع يغنى أغنية سَجْواء من كاستللامير ... أغنية طويلة كثيرة الرفع والخفض ، مما يتغنى به أهل تلك الهضاب فى ليالى الخريف ، فى عقابيل الحصاد .. وبعد لحظات لحنا فى ظلام البعد مصباحىْ قاطرة مقبلة ، كأنما يتأججان فى فحمة الغَسَق كما تتأجج عينا هَوْلة ... وقد مرّ القطار وهو يهزم كالرعد فوق الجسر ، ويرسل صفارته الهائلة ، وينفث دخانه القاتم ... وبعد لحظة غاب فى الأفق ، وساد الصمت ، وعاد الهدوء إلى الكون

وهب سنسناتوس واقفاً فقال :

— إذهب ... إذهب ... انطلق بعيداً ، أيها التنين ، بما أجج الشيطان فى صدرك من نار ومن حُمَم ! ! »

ولن أنسى ماحييت فَزْعَة سنسناتوس حين مرّ بنا القطار .. فلقد رَعد فجأة ، وجَرْجَر فى هدوء الطبيعة ، فأيقظ صاحبي المجنون من تأملاته وروّعه ... فلما عدنا أدراجنا إلى القرية ... لم يصح من أحلامه قط ! !

***

وذهبنا مرة معاً فى أصيل يوم جميل من أيام سبتمبر إلى رِسيف البحر ... وكانت لانهائية الماء الأزرق العميق تضطرب تحت بيضة الأفق التى كانت تلتمع بأمواه السماء ... وكانت قوارب الصيادين تتهادى فوق العباب الزاخر ، مَثْنى مَثْنى ، كأزواج من طير عظيم مختلف أنواعه ، وقد نَشَرت أجنحتها الصفراء والقرمزية ... ومن ورائنا نهضت كثبان الرمال الشاحبة ، الممتدة فوق الشاطئ القاتم ، حتى تتصل بسندس النَّبْت من وراء

وانطلق سنسناتوس يحدّث نفسه فى صوت حنون أخاذ ، كالذي تولاه طائف من الذعر والدهش : « البحر ... الخضم ... الأزرق ... خِضمٌ ... خِضم ... وفيه سمك كِبار تأكل الناس ! وفى أعماقه أوركوس المحبوس فى قفصه الحديدى ! ! إنه هناك يستغيث ويستنجد ، ولا من مغيث ولا منجد ... إنه سيظل هناك إلى الأبد ... وفى المساء تمر به السفينة ... التى ترى الموت من يراها ! ! »

وسكت سنسناتوس ... ثم هب من مقامه ، فتهادى نحو الماء ، حيث وقف عند هامش الموج الذى أخذ ينضح قدميه

وبعد فهل نستطيع أن نستشف تلك الأفكار التى كانت تحوم كالسمادير فى رأسه الفقير المريض المختل ؟ أجل ... لقد كان يتخيل دُنى من ورائها دُنى ... بعيدة ... نائية ... متألقة ... وكان يرى أطيافاً من الألوان المضطربة ، بعضها عريض طويل ، وبعضها لانهائي ، وبعضها عجيب غريب ... ولشد ما كان يضل إدراكه فى تيه هذه الظلال التى لم يكن يدرى كُنهها

وكنت أدرك هذا من عباراته التى يربطها رابط برغم ما كانت تصور به المناظر الرائعة فى سذاجة ...و ... عمق فى آن واحد!

ولم ينبس ببنت شفة حينما كنا نطوى الطريق عائدين إلى القرية ... وكنت أنظر إليه لحظة بعد أخرى ، فتتردد فى فؤادى هواجس شتى ... ولما اقتربنا من الطريق ، نظر إلى فجأة وراح يقول فى صوت هادئ متهدج ، بعد أن قبض على يدى : « إن لك أماً تنتظرك لتقبلك عند ما تعود إلى البيت ... ! »

وكانت الشمس تهبط إلى خدرها خلف الجبال فى سماء صافية وكان النهر يضطرب بأشعتها الذهبية الرائعة ... فلما قال لى ما قال سألته بدوري ، والدموع تترقرق فى مقلتىّ : « وأنت أين أمك الآن يا ترى ؟ ! » بيد أنه اشتغل عنى بعصفورَىْ جنة ، فانحنى

إلى الأرض حين رآها ، وتناول حجراً ثم سدده إليهما فى انتباه عظيم ، كأنما حسب أنه يصمم بندقية وأرسله فى عنف ... وطار العصفوران كسهمين مُرَاشَيْن من غير أن يصيبهما أذى ...

وقال سنسناتوس ، وهو ينظر إليهما يزفان إلى السماء اللؤلؤية مفترًّا عن فيه : « طِيرَا ... طيرا ... طيرا ... طيرا » يرددها فى نغمة متسقة أربع مرات

* * *

ولقد لاحظت تبدّلاً فى سلوكه منذ بضعة أيام ... وكان يبدو كأنما تشتعل الحمى بين جنبيه ... مسكين ! ... لقد كان ينطلق وسط الحقول يعدو ويجري ، فلا يقف حتى يهده التعب ، فيسقط ويتحوى كالثعبان ، ويبرّق بعينيه المفزوعتين فى شمس الظهيرة الساطعة ! فإذا كان الأصيل ألقى جاكتته فوق كتفه وراح يتخلج كالأشراف الأسبان ، فى خطى واسعة بطيئة مهطعاً مرة ، مستأنياً متمهلاً مرة أخرى

وقد أهملني ... ولم يعد يحضر لى باقات الخشخاش ولا أزاهير المرغريت ... ولشد ما أحزنني ذلك منه برغم إشاعات الهُجر ، وألسن السوء التى كانت تقدح فيما بيني وبينه ...

ففى صبيحة جميلة مشرقة ذهبت لألقاه حيث تعودنا أن نتقابل ، لكنه لم يمن بى ، ولم يتوجه بعينيه نحوى ... فقلت له وقال لى :

— ماذا يا سنسناتوس ؟ !

— لا شيء !!

— هذا كذب ...

— لا شيء !!

— هذا كذب ... هذا كذب !!

وكنت ألمح فى عينيه لهباً يتأجج فيهما ، فالتفت حيث كان يرسل بصره ، فرأيت فتاةً جميلةً فلاحةً ، واقفةً فوق وصيد دكان قريب

وسمعته يتمتم فى تحرّق وشغف ، وقد اصطبغ جبينه بورس الحب : « تريزا !! تريزا !! ... » ثم تحدرت عبراته فجأة ... لقد رأى المسكين فى الفتاة الفلاحة طيف تريزا ... تريزا الجميلة... حبيبته التى خلبت لبه ، وخبلت عقله ، وسحرت فؤاده !

ولقيها بعد ذلك بيومين ، فهرول نحوها وهو يبكى ويقول : « أنت أجمل من شمس الضحى ! » ... ولكن الفتاة القاسية مدت يدها البضة ولطمته فى حر وجهه !

ولمحه غلمان فأحدقوا به ... ثم طفقوا يلمزونه ويستهزئون به وأخذوا يحذفونه بأعواد الكرنب الملقاة فى الشارع ، فأصابه أحدهم بعود منها فى وجهه ...

وثار سنسناتوس ! وانطلق فى إثر الغلمان كالثور المجروح ، وأمسك بأحدهم فرفعه فى الهواء ، ثم ألقى به على الأرض ... كحزمة من الخرق !!

* * *

ورأيت رجلين من الشرطة بعد ذلك يقتادانه تحت شباكى ، والدم يتحدر من وجهه فيضرّج لحيته الكثة ، وقد حنا رأسه توقياً لسخريات الناس به ... ... فبكيت !! بل استخرطت فى البكاء !!

ولحسن الحظ لم يكن الفتى قد أصيب إلا بسحجات بسيطة فأطلق سراح سنسناتوس بعد يوم أو يومين ...

مسكين سنسناتوس ! لقد غدا مسبوهاً شارد اللب أكثر مما كان ، وأظلت وجهه سحابة من الحزن لم تنجل ... وشهدته ذات مساء يعدو كالكلب فى أزقة القرية المظلمة

* * *

وفى صبيحة جميلة من أيام أكتوبر ، مموهة السماء بلون البنفسج وأضواء الشمس ، وُجدت جثة سنسناتوس ممزقة مهشمة فوق شريط السكة الحديدية مما يلى الجسر ... فهنا إحدى ساقيه ... وهناك ... على مسافة خطوات ... ساق أخرى جرها القطار وراءه ... وظل الدم يتدفق من الرأس الذى نزعت عنه لحيته ... وقد جحظت عيناه لتثيرا الرعب فى قلوب أبناء آدم !

مسكين سنسناتوس !! إنه لا بد قد ذهب هناك ليرى إلى الهولة التى تنطلق فى جوف الوادى ، فتذهب بعيداً ... بعيداً... كما تعوّد أن يقول ... التنين الهائل الذى أجج الشيطان النار فى صدره ...

— « تريزا ... ... »

دريني خشبة



كتاب مصري جديد لإميل لودفيج

لم تمض أشهر قلائل على ظهور كتاب « النيل » الذي وضعه المؤرخ الألماني الكبير إميل لودفيج حتى ظهر له كتاب جديد يتناول أيضاً موضوعاً مصرياً شائقاً هو « كليوباترة » ؛ وكما أثار كتاب « النيل » إعجاب القراء والنقدة ، فقد أثار الكتاب الجديد أيضاً إعجاب الدوائر الأدبية . وكتاب كليوباترة دراسة تاريخية بديعة لحياة هذه الملكة المصرية الخالدة ، وشخصيتها الساحرة ، وموتها المؤسي ؛ وقد ظهرت عن كليوباترة كتب كثيرة من أقلام كتاب أعلام ؛ ولكن كتاب لودفيج يمتاز بأسلوبه الساحر الذي تخال عند قراءته أنك تقرأ قصة شائقة لا دراسة تاريخية معقدة ؛ وهذه أعظم مزايا أميل لودفيج كمؤرخ ، فهو يكتب التاريخ الحق ، ولكن بأسلوب خاص ، فيتخذ من حوادث الحياة اليومية ، والصفات والعواطف الشخصية مادة لا يفطن إليها الكثيرون من كتاب التاريخ ؛ ويرى في هذه الأعمال والحوادث البسيطة ما لا يراه في الحوادث العامة التي ترتبط بحياة مترجمه ؛ والترجمة التاريخية تعتمد في الغالب على هذه الحوادث العامة ، ولكن إميل لودفيج يعتقد أن الدراسة الشخصية للعواطف والميول والشهوات الخاصة تفصح عن شخصية المترجم أكثر من أي شيء آخر ؛ وهو مع ذلك يكتب التاريخ ولا يحيد عنه

وهذا المزيج القوي من نظرة لودفيج إلى التاريخ يتخذ صورة ساحرة في كتاب كليوباترة ؛ فهذه الملكة الحسناء التي كانت أول ملكة جلست على عرش الفراعنة ، والتي انتهت بحياتها دولة البطالسة ، يرسمها لنا لودفيج بكل جمالها كامرأة ، وجلالها كملكة ، ويصور لنا دقائق حياتها الشخصية والعامة تصوير المؤرخ الدقيق والقصصي البارع ؛ وهو يصل في كتابه الجديد إلى ذروة فنه كمترجم لا يجارى لشخصيات التاريخ البارزة ؛ وقد وضع الكتاب بالألمانية ، وترجم في الوقت نفسه إلى الانكليزية ، كمعظم كتب لودفيج

وفاة شاعر روسي مسلم

توفي في روسيا أخيراً الشاعر سليمان ستالسكي S. stalsky وهو مسلم من أهالي داغستان ، ولد منذ نحو سبعين عاماً ، ونشأ في أسرة فقيرة من الفلاحين والرعاة ، ولم يتلق تربية مدرسية ما ، بل نشأ أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ومع ذلك فقد نظم الشعر منذ حداثته ، وطارت شهرته منذ نحو أربعين عاماً في القوقاز وفي روسيا كلها ، وكان يميل بالأخص إلى نظم القصائد الريفية والشعبية . ولما قامت الثورة البلشفية كان سليمان ستالسكي من أقوى دعاتها في بلاد داغستان والكرج التي ينتمي إليها ستالين زعيم روسيا الحالي ، وقد لفتت قصائده الوطنية التي ترجم الكثير منها إلى الروسية أنظار الزعماء والمفكرين ، ولفتت إليه بالأخص أنظار مكسيم جوركي عميد الأدب الروسي الثوري فنعته بأنه « هوميروس القرن العشرين » ؛ وكان في أعوامه الأخيرة موضع عطف ستالين ، وعطف زعماء الأدب الروسي كله لما تحتويه قصائده من قوة الفطرة وحرارة الاخلاص ؛ وكان لوفاته وقع عميق في موسكو وفي روسيا كلها

كتاب عن طاغور

يصدر في أوائل الصيف القادم كتاب بالانكليزية عن شاعر الهند وفيلسوفها رابندرانات طاغور عنوانه « طاغور ، شخصيته وعمله » Togore Personality and work ، بقلم الأستاذ لسني Lesny ، وهو عبارة عن دراسة تحليلية دقيقة لشخصية الشاعر الكبير ، وآرائه الشعري والفلسفي ، ومدى تأثيره في الأدب الهندي والأدب العالمي . والكاتب من أصدق أصدقاء الشاعر

وأعظم المتخصصين فى دراسة الأدب الهندى؛ وقد وجه إليه طاغور كتاباً أثبت فى صدر الكتاب وجاء فيه: «إنها لمعجزة أن تنفذ فى مثل هذا الوقت القصير إلى روح اللغة البنغالية وإلى آثارى؛ ولم أر من قبل قط مثل هذه المقدرة النقدية فى كاتب أجنبى آخر»

علماء فوق الجليد

كانت الحكومة الروسية قد أوفدت منذ بضعة أشهر بعثة من العلماء الروس إلى القطب الشمالى لتقوم ببعض الأبحاث الجوية والمائية فى هذه المناطق الثلجية؛ فطار أعضاء البعثة إلى القطب فى طيارات صنعت خصيصاً للطيران فى هذه الأنحاء، واستطاعت البعثة أن تنزل فوق منبسط من الجليد على مقربة من القطب، وأن تهيء مكاناً لسكناها، ومطاراً لنزول الطيارات، ومرصداً للقيام بأبحاثها؛ واستمرت تجرى أعمالها بضعة أسابيع والطيارات تختلف إلى مقامها لتموينها بالطعام والوقود والشحم؛ ولكن حدث فى ديسمبر الماضى أن ذابت الثلوج حول مقام البعثة، وانفصلت الكتلة الثلجية التى تحتوى على مساكنها وآلاتها، ثم ترك هؤلاء العلماء البواسل دون مأوى ودون طعام فوق كتلة متحركة من الجليد أخذت تسير بهم ببطء إلى مصير مجهولة. وكان من حسن الطالع أنهم احتفظوا بآلة اللاسلكى، فبعثوا إشارات الاستغاثة إلى روسيا، واهتمت حكومة موسكو واتخذت كل أهبة لإنقاذ العلماء البواسل

ومنذ أسابيع تحلق الطيارات وتسير نسافات الجليد إلى حيث مقر البعثة؛ وفى الأنباء الأخيرة أن النسافتين تيمر ومورمان استطاعتا تحطيم الجليد، واللحاق بالعلماء المنكوبين بعد أن سارت بهم قطعة الجليد التى بقوا عليها نحو ألفى كيلو متر من القطب حتى شواطىء الأرض الخضراء، واستطاعتا إنقاذهم وإنقاذ آلاتهم وموادهم العلمية

وتقول الأنباء أيضاً إن رئيس البعثة العلامة الشاب بابانين استطاع أن يقوم في الحوض القطبي ببحوث هامة، ودلت التجارب المختلفة لسبر أغوار الجليد أن هنالك تياراً حاراً يأتى من الأطلانطيق؛ واكتشف العلماء أيضاً وجود بعض الطيور على مقربة من القطب وهو ما كان يظن استحالته؛ ووضع العلامة الفلكي فيدروف خريطة فلكية للمنطقة القطبية؛ وجمعت البعثة كثيراً من المواد والحقائق العلمية عن خواص المناطق القطبية المختلفة.

قاموس سياسى

أصدرت الأكاديمية السياسية الدولية بباريس قاموساً من طراز جديد، هو القاموس السياسى (الدبلوماسى) Dictionnaire Diplomatique، وقد وضع بإشراف الكاتب المعروف مسيو فرانجليس سكرتير الأكاديمية، وأحد مندوبى فرنسا لدى عصبة الأمم، واشترك في وضعه سبعة وعشرون رئيس حكومة، وأكثر من خمسمائة وزير وسفير منهم أقطاب السياسية العالمية مثل الرئيس روزفلت وإيدن وموسولينى وشاخت وبنيس وهيروتا وغيرهم، وعولجت فيه أهم المسائل الدولية المعاصرة بأقلام هؤلاء الأقطاب. غير أن أهم مزايا القاموس السياسى، هو أنه مرجع شامل لجميع الأنظمة والمعاهدات السياسية والدولية الجديدة التى عقدت بين مختلف الدول فى الأعوام الأخيرة، مثل الأنظمة والمعاهدات الجديدة الخاصة بمصر والهند وسوريا، ومسائل البحر الأبيض، ونزع السلاح البحرى، وتجارة السلاح، ونظام اللاجئين، ومسائل الصين واليابان والحبشة وغيرها مما يشغل الدول والسياسة الدولية الحاضرة؛ وقد رتبت هذه المجموعة على مثل القاموس ليسهل استعراضها؛ وهى تقع فى ثلاثة مجلدات كبيرة، ولا ريب أنها مرجع نفيس للباحثين فى التاريخ السياسى المعاصر

مؤتمر عام للأدب العربى

تلك فكرة جميلة يسعى لتحقيقها السيد محمد الفاضل بن عاشور بتونس، ومهمة هذا المؤتمر على ما جاء فى برنامجه، السعى لتوحيد طرق الثقافة ودراسة الآداب العربية فى جميع أقطار العروبة، وإنشاء مدون عن أطوار الأدب العربى فى كل قطر من تلك الأقطار، وتوكيد الصلات بين رجال القلم من أبناء العربية، وإنشاء لجان فرعية للمؤتمر فى كل قطر تتلقى بحوث ونظريات

الأدباء لإحالة المفيد منها إلى المؤتمر بعد دراستها ، وتقوم برحلات القصد منها استطلاع مدى الحركة الأدبية ، والسعى فى إنشاء كليات أدبية فى الجهات التى لم تؤسس فيها كليات لذلك . والشرط فى ذلك كله أن تكون العربية الفصحى لسان أعضاء المؤتمر ولغة لجانه وقراراته ونشراته ، وستصدر نشرة دورية تكون سجلاً للمؤتمر فى جميع خطواته التى يخطوها فى سبيل غايته

هذا وقد تألفت لجنة تحضيرية فى تونس تضم جلة من الأساتذة الأفاضل برياسة السيد محمد بن عاشور ، وهى توالى اجتماعاتها بمعهد ابن خلدون للعمل على تحقيق الفكرة وإخراجها إلى الوجود ؛ والرسالة وهى سجل الأدب العربى ترجو للسادة الأفاضل التوفيق فى غايتهم الشريفة ومهمتهم النبيلة

قاعة القراءة بالمتحف البريطانى

جاء فى عدد الرسالة رقم (٢٤٣) بين نبذ البريد الأوربى خبر بأن غرفة القراءة بالمتحف البريطانى ستظل مفتوحة للزوار ساعة كاملة فوق المعتاد . ثم علقتم على هذا النبأ بأن تمنيتم لو عنيت مصلحة الآثار فأنشأت قاعة القراءة بالمتحف المصرى على نمط قاعة المتحف البريطانى ، وهى تمنيات طيبة صادرة من قلب محب للعلم حريص على نشره . بيد أنى أخشى أن إيراد الخبر على هذا الوجه يجعل القارئ العام الذى لا يعرف شيئاً عن قاعة المطالعة Reading Room بالمتحف البريطانى يحسب أنها لا تحوي سوى الكتب الخاصة بالآثار ووصفها — في حين أن المتحف المذكور ينقسم إلى قسمين رئيسين : المكتبة وقسم الآثار ، وتعد المكتبة أكبر مكتبات العالم كله ، وقاعة مطالعتها التى ورد ذكرها فى هذا النبأ قاصرة على طائفة معينة من المتعلمين ، فلا يسمح بالدخول فيها للاطلاع إلا لمن يقوم بأبحاث عميقة فى مختلف العلوم والفنون وعليه أن يعين فى طلبه نوع هذا البحث والمدة التي يريد أن يتردد فيها على القاعة من أجله ، وهى تفتح أبوابها لهذه الطائفة فقط من الساعة التاسعة صباحاً إلى الساعة السادسة مساء (قبل التغيير الأخير) وهى لا تعير كتباً فى الخارج ، ثم إن القانون الانجليزى يفرض على كل ناشر أن يبعث إلى المكتبة المذكورة بنسخة من كل مطبوع يطبع فى الجزر البريطانية

أما قسم الآثار فزيارته مباحة لكل من يريد وبلا مقابل ، على هذا نرى أنه ليست هناك علاقة بين المتحف البريطانى وبين قاعة المطالعة فيه سوى أنهما فى بناء واحد — ونلاحظ أن وظيفة هذه القاعة تشبه إلى حد ما وظيفة دار الكتب الملكية عندنا . وقصارى ما نرجيه أن تنشئ الحكومة فى بعض أحياء القاهرة مكتبات عامة للجمهور تخفف الضغط على المكتبة الملكية بحيث تصبح هذه الأخيرة قاصرة على طائفة معينة من القراء وأهل العلم والبحث

نجيب احمد هاشم

الاسلام فى العالم

ظهر فى لاهور (الهند) كتاب « الإسلام فى العالم » لمؤلفه الدكتور زكى على ؛ وعلى رغم أن المؤلف الفاضل مصرى النشأة والمربى فقد كتب كتابه هذا باللغة الانجليزية . لأننا أحوج ما نكون اليوم إلى أن ننشر تاريخنا ومبادئ ديننا على أعين الأجانب ليروا ...

والكتاب قسمان : الأول يتحدث عن النشأة الأولى للإسلام منذ ظهور أول قبس من نوره حتى استيلاء العرب على الأندلس ؛ والثانى يعرض النهضة الإسلامية الحديثة فى لمحات خاطفة تشمل الأقطار الإسلامية جميعاً : تركيا الكمالية ومصر المستقلة وفلسطين وشمال أفريقية والصين والهند وأفغانستان والعراق وإيران و ...

وفى الكتاب أبحاث قيمة لمسائل ذات شأن منها : ما عساه أن يكون وراء النهضة الإسلامية الحديثة ؟ أفتحمل فى أضعافها ثورة جامحة تعصف بسلام أوروبا ؟ أفتكون من القوى الإسلامية المختلفة جبهة شديدة تتدافع سيلاً جارفاً من الجيوش الثائرة فتلتهم ماعداها من الدول والممالك شأن المسلمين في عصرهم الأول ؟ ماذا عسى أن تكون سياسة الدول الإسلامية الكبرى فى الحرب العالمية القادمة ؟ أفنستطيع أن نجد الوفاق بين العالم الإسلامي والغرب المسيحى ؟ و ... و ... مما يضطرب فى خواطر القادة والزعماء ... وفى الكتاب ولا ريب أبحاث طريفة ممتعة يجدر بالمشتغلين بأمور الاسلام والعرب والشرق أن يطلعوا عليها

الفتاة الصينية والتعليم

تبدأ نهضة الفتاة الصينية منذ سنة ١٩٠٧ فقط، أي أنه قد مضى على نهضتها ثلاثون عاماً هي مع قصرها في حياة أمة عظيمة قديمة كالصين حقبة مليئة بجلائل الأعمال التي تمت للفتاة الأوربية في قرن بأكمله، وبعد مصادمات عنيفة بين الجنس اللطيف الناعم والجنس القوي الخشن. والفضل في نهضة الفتاة الصينية ترجع إلى سيدة عظيمة تدعى شيوشان Ch'iu Chin، لا كما هو الحال عندنا إذ ترجع هذه النهضة إلى الجهود الجبارة التي قام بها المرحوم قاسم بك أمين. وقد دعت شيوشان إلى وجوب إنشاء المدارس للفتاة الصينية، ووجوب الإقلاع عن التقاليد التربيوية الكونفوشية التي تحرم على البنت نور العلم الحديث، فلم تزل تكتب وتخطب وتشن الحرب على القابضين على زمام الأمر من أتباع مانشو حتى فازت في سنة ١٩٠٧ بإنشاء المدارس الأولية للفتيات ومدارس التربية للمعلمات. ولم يمض ربع قرن حتى كان في الصين مليونان من تلميذات المدارس، وحتى أصبحت نسبة الفتيات من طالبات الجامعات ١٤٫٥ ٪ من عدد الذكور... والأعجب من كل ذلك أن الفتاة الصينية نالت المساواة بالرجال في جميع الحقوق المدنية والسياسية قبل أن تفوز بها أختها في كثير من الممالك الأوروبية.

وفاة الشاعر أحمد نسيم

في غضون الأسبوع المنصرم طوى الموت صحيفة الأستاذ أحمد نسيم الشاعر المعروف، وكان رحمه الله شاعراً في شعره معنى اسمه كما يقول مطران، فله عرف أبي الطيب، ونفحات النسيم. ولقد قضى الشطر الأول من حياته ينافح عن الوطن بشعره إلى جانب حافظ، وله في ذلك « وطنيات نسيم » جزآن كلاهما صيحات في جانب الوطن، وجدال في السياسة. ثم عين مصححاً في دار الكتب، واستطاع أن يخدم الأدب في حدود تلك الوظيفة، فأشرف على جملة نافعة من مطبوعات الدار كديوان مهيار والنابغة الشيباني وصرور وجران العود وغيرهم، ولقد ظل عاملاً إلى آخر حياته، على الرغم من تمكن الداء وإلحاح العلة

ونود أن نعود بالحديث الشامل إلى ذلك الشاعر في فرصة أوسع

جمعية بناء جامع فارسوفيا

جاءنا من الأستاذ الفاضل صاحب الامضاء ما يأتي:

أرجو نشر نداء جمعية بناء جامع فارسوفيا في مجلتكم الغراء وإني أتقدم إليكم بجزيل الشكر

لا تخفى عليكم المساعدة التي تقدم بها إخواننا المسلمون بالهند لصاحب الفضيلة مفتي إسلام الجمهورية البولونية الدكتور يعقوب سينكيفش الذي يتبعه ١٥٠٠٠ من مسلمي التتار في تأسيس جامع يؤمه المسلمون في فارسوفيا. ولما كانت المادة تعوزه لإتمام تشييده رأى صاحب الفضيلة عمل رحلة إلى البلاد المصرية والجهات العربية يستحث فيها أهل المروءة على مد يد المساعدة حتى يتم تشييد هذا الجامع. هذا وإني أضع تحت تصرفكم البيانات الكافية عن انتشار الاسلام في بولنده إذا ما رغبتم في ذلك لتنوير الرأي العام لديكم. وبنشركم هذا النداء في مجلتكم تقومون نحو إخوانكم المسلمين في بولنده بأجل الخدمات التي نشكركم لأجلها. وإنا نرجوكم إرسال بعض النسخ من مجلتكم التي تنشر فيها كلمتنا والسلام عليكم ورحمة الله

برلين ٣٠ يناير سنة ١٩٣٨ — مصطفى كوبجي

أصول الفواكه والبقول

قدم العلامة الفرنسي الأستاذ بيفو إلى أكاديمية بوردو بحثاً علمياً مستفيضاً عن أصول معظم الفواكه والبقول التي تنمو الآن في أوربا؛ وخلاصة بحثه أن معظمها قد نقل إلى أوربا من آسيا ومصر، فشجرة الخوخ مثلا قد نقلت من الصين، ونقلت شجرة المشمش من التركستان، ونقلت شجرة اللوز من أفغانستان، كما نقلت شجرة الزيتون من مصر، وعرفت أشجار الكروم في أوربا لأول مرة في غاليس (جنوب فرنسا)، والمفهوم أنها نقلت من آسيا، ونقلت بذور الذرة من المشرق أيضاً، وكان أول من زرعها القوط في اسبانيا، أما البطاطس التي تعتبر اليوم أهم الخضر الأوربية فهي أمريكية الأصل، وقد نقلت بذورها لأول مرة من شيلي في أمريكا الجنوبية على يد المستعمرين الأسبان



نظر ونقد

٢ – شعراؤنا في موكب الزفاف
الجارم بك

ولنقف أول ما نقف مع أستاذنا الجارم بك ، فقد كان في شعراء الزفاف أبعدهم صوتاً ، وأطولهم نفساً ، وأشدهم عارضة ، وأسمحهم قريحة ، وأطوعهم بياناً . لم يرض لنفسه أن يكون « مفرد » القصيد ، فأرسل « الجارمية » في إثر « الجارمية » ، وكل جارمية تهدف إلى المائة أو تزيد ، ولقد أدى ذلك كله بأدائه الجارمي الرائع ، ولحنه القوي الحنون ، فبلغ من رضا الجمهور والصحافة غاية لا تتجاوز ، حتى كان من هذا الرضا أن اتفق الناس على أنه طليعة الشعراء ، وأنه جاء كالبعث لما بعد شوقي وحافظ

على أن الجارم لم ينتظر تقريظ الجمهور ، وتقدير الصحافة ، وحكم النقد ، فسبق الجميع بالشهادة لنفسه ، وقدر مرتبته فكانت إلى جانب لبيد ... وازدرى بشاراً حتى أثار الغبار في وجهه ... وادعى أن « الوحي » قد بادهته آياته ورسائله ! واسمع له جانباً من تلك الشهادة إذ يقول مخاطباً الفاروق :

دعوت إليك الشعر فانقاد صعبه ... وقد كان قبل اليوم شمساً جوافله
وما كدت أدعو الوحي حتى سمعته ... تبادهني آياته ورسائله !
خيال إذا أرسلته إثر « نافر » ... أتت بأعز الآبدات حبائله
ولفظ كوجه الروض في ميعة الضحى
وقد صدحت فوق الغصون عنادله
إذا قلته ألقى عطارد سمعه ... وسائل شمس الأفق من هو قائله
وإن سارت الريح « الهبوب » بجرسه
فآخر أكناف الوجود مراحله !

ومهما يكن في هذه الأبيات من الذهاب بالنفس إلى حد الاغراق ، فأنا لا أنكر على الجارم بك أن يذهب بنفسه في تقريظ شعره ، فقديماً قال شيخنا أبو الطيب : «وما الدهر إلا من رواة قصائدي»

على أني مع الأستاذ الجارم في أنه صاحب خيال يقتنص كل « نافر » ، وأن لفظه كوجه الروض في ميعة الضحى ، وأن أسلوبه حلو الجرس والتقاسيم ، ولكنا كنا نود أن نرى مع هذا كله الاحساسَ الذي هو الشعر ... ودقة التصوير التي هي حقيقة الفن ... وصلة التعبير بالعصر التي هي دليل الطبع ... ولقد بادهت الجارم بك آيات الوحي ورسائله حقاً كما يقول ، ولكنه ليس الوحي الذي يهبط من سماء الشعر على الشاعر الصافي القريحة ، القوي الطبع ، الذي يرى ويلمس من بدائع الوجود ما يحلم به الغير ، والذي تنكشف له بواطن الأمور فتنطبع في ذهنه وتظهر في بيانه صوراً فنية رائعة ؛ تبرزها الشاعرية فإذا هي أبرع وأملح من الأصل ... وإذا هي جمال في جمال وحسن فوق حسن ؛ وإنما هو الوحي الذي يهبط من العلم بالعربية والاحاطة بدواوين السابقين ، فإذا ما قرأت شعر الجارم في الزفاف ، أحسست كأنك تقرأ تشبيهات كانت صوراً لحياة بدوية خالية ، وقد مضى بها الزمن وطواها التقدم الحديث ؛ ولقد تحاول أن تلمح عنده شيئاً من روح العصر فيعييك ذلك

ودونك الجارمية التي ادخرها الجارم ليوم وزارة المعارف في الاحتفاء بالزفاف ، فصال بها وجال بين جدران « الأوبرا » الملكية ، ونقلها المذياع إلى الناس ونقل معها إعجاب السامعين في تصفيقهم وهتافهم فاسمع له إذ يقول في مطلعها ، والمطلع هو موطن البراعة كما يقول علماء البديع :

صفا ورده عذباً وطابت مناهله ... وجلت يد الدهر الذي عز نائله
وأقبل منقاد العنان مذللاً ... تطامن متناه ودانت صوائله

يطاطئ للفاروق رأساً وتنحنى أمام سنا الملك المهيب كواهله

فهذا شعر — كما ترى — يملأ سمعك بقوة لفظه ، ويخلب لبك برقة جرسه ، ولكن انظر وتدبر . ألست معى على أن هذا المطلع إنما كان موضعه اللائق أن يكون فى التهنئة بفتح أو أي أمر عظيم يعز إدراكه ، وتبعد غايته ، ويطلب بالمجاهدة والمغالبة حتى يصح لشاعرنا أن يقول « وجلت يد الدهر الذى عز نائله » وأن يكون على حق إذ يصفه بأنه أقبل منقاد العنان يطاطئ الرأس للفاروق ؟ ثم ألست معى فى استنكار هذه الصورة الغريبة «النافرة» التى اقتنصها خيال الجارم بك ، وتحملها ذوقه وارتضاها تقديره ، فقدم الدهر لسنا الملك المهيب يمشى على أربع ، قد تطامن متناه ، ودانت صوائله ؟ ! لقد أنكر القدماء على الطائى قوله :

سأشكر فرجة اللبب الرخى ولين أخادع الدهر الأبى

فاستقبحوا استعارة الأخادع للدهر ، وعدوها خارجة عن حد الاستعمال والعادة ، فكيف لو أدركوا الجارم يصور الدهر وله عنان ومتنان وصوائل ورأس وكواهل ؟ على أني أعرف أن علماء اللغة وإن اختلفوا فى تحديد الكاهل ، إلا أنهم اتفقوا على أن للشيء كاهلاً واحداً ، ولكن الجارم يصور الدهر وله كواهل كثيرة وهذا لا يصح إلا على تخريج بعيد إن جاز فى كتب الأزهر فلن يجوز فى الشعر

وبعد هذا المطلع « الذى رأيته » يتدفع الجارم فى تمداد سجايا الملك وإكبار فضائله ، ولا شك أن فضائل الفاروق — كما يقول الجارم — إنما يزدهى بها الشعر ، ويحيا بوصفها القريض ، وقد ذكر الجارم من فضائل الملك أول ما ذكر قوة العزم فقال :

يذوب مضاء السيف عند مضائه فما هو إلا غمده وحمائله

وهذا بيت قوى رائع يذكرنا لفظه ومعناه بقول المعرى :

يذيب الرعب منه كل عضب فلولا الغمد يمسكه لسالا

وبقوله :

فإن كان فى لبس الفتى شرف له فما السيف إلا غمده والحمائل

وأصل ذلك كله قول أبي تمام صاحب الجارم ودليله فى مدح المعتصم :

وجرد سيف الحق حتى كأنه من السل مودٍ جفنه وحمائله

عيال عليه رزقهن شمائله

ثم يمضى الأستاذ الجارم فى الاشادة بالملك إلى أن يقول :

هو الأمل البسام رف جناحه فطارت به من كل قلب بلابله

وأحب لك أن تتأمل هذا البيت ، ففيه شعر ، وفيه روعة ، وفيه الحقيقة الصادقة ، ولكن الجارم أبى إلا أن يعيد معناه ضئيلاً فيقول :

ترى بسمة الآمال فى بسماته وتلمح سر النبل « حين تقابله »

ونعوذ بالله من « حين تقابله » فإنها ضعف من الضعف ، وكأن الجارم لم يكتف بهذا فانحدر بالمعنى إلى وضع أضأل وأضأل إذ يقول :

رأى فيك « هذا » الشعب آماله التى تعنى على الأيام وهى تماطله

وينتقل الجارم بعد ذلك فيصف الملك باعتدال القوام فيقول :

يفديه غصن الدوح ريان ناضراً إذا اهتز في كف النسائم مائله

وجمع نسمة أو نسيم على نسائم خطأ من الأخطاء الشائعة التى يعنى بالتنبيه عليها أستاذنا الكبير ، وقد سبقنا أحد الأفاضل فأشار إلى هذا الخطأ فى عدد سابق من الرسالة

ثم يعود الجارم بعد ذلك كله فيكرر الإشادة بعزيمة الملك وطوله فيقول :

علاء تحدى الدهر فى بعد شأوه فمن ذا يدانيه ومن ذا يفاضله
ورأى كأنفاس الصباح وقد بدا تشف مجاليه وتهفو غلائله

وأنا أبقاك الله لا أفهم وجه الشبه فى قوله « كأنفاس الصباح » وقد كان الأنسب أن يقول : كأنوار الصباح حتى يلائم وجه الشبه ما جاء في بقية البيت

ثم يقول الجارم بك :

رأى ملكاً يحيا القريض بوصفه فضائله جلت وعمت فواضله
رأى ملكاً تزهى به الدين والتقى شمائل أملاك السماء شمائله
رأى ملكاً كالنيل أما عطاؤه فغمر وأما المكرمات فساحله

وهذا شعر حسن ، غير أن الجارم لم يترك شيئاً من اللفظ والمعنى للطائى إذ يقول :

إلى قطب الدنيا الذى لو بفضله مدحت بنى الدنيا كفتهم فضائله
من البأس والمعروف والدين والتقى

إلى أن يقول :

هو البحر من أى النواحى أتيته فلجته المعروف والجود ساحله

وتأمل ياصاح قول الطائى « كفتهم فضائله » وقول الجارم « وعمت فواضله » ، ثم قابل بين قول الطائى « هو البحر » وقول الجارم «ملكاً كالنيل» لتعرف الفرق بين المحكى والصدى

ثم يقول الجارم :

حملت له الريحان أرفع «ممصمى» إلى الملك الفرد الذى فاز آمله
وقد ملأ الأنس الوجوه فأشرقت من البشر حتى كاد يقطر سائله

وكلة « الممصم » كلة ضعيفة لا تليق بالجارم الفحل ، ثم ما سائل البشر الذى يقطر ؟ لعله كماء الملام فى شعر أبى تمام

وبعد أن فرغ الجارم من مدح الملك أخذ فى مدح المليكة ، فذكر أن الفاروق قد تخيرها فريدة المجد والنبل والجاه ، ونسى الشاعر المظيم حقيقة السر في هـذا الاختيار ، ذلك الاختيار « الشعبى » النبيل الذى استنه الملك فؤاد وتبعه فيه الفاروق . وإذا غفل الشاعر عن هـذه الحقائق الجليلة التى هى حياة الشعر وروحه وعصبه ، خصوصاً فى مثل هذا الموقف التاريخى الحافل ، فما يكون شعره بعد ذلك ؟ !

وعلى هذا انتهى الجارم من قصيدته : مدح الملك والمليكة وزكى نفسه وشعره ، وكان كل ما عنده من حديث الزفاف تزاحم المواكب واحتشاد الناس ... فلننتظر فلعل الرجل يكون قد أبر وأوفى فى جارميته الأخرى ولعله يكون قد أدى بها حق الزفاف

(م . ف . ع)

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾



6 me Année, No . 244

Lundi - 7 - 3 - 1938

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الإعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ٢٤٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ٥ محرم سنة ١٣٥٧ — ٧ مارس سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـــرس

صفحة

في حفلة أدبيـــة !

أدبت السيدة إيمى خير مأدبة لرجال الأدب ونسائه ، كانت على رأى من شهدوها مظهراً لذلك الأدب النغل الذى يعييك أن تعزوه إلى وطن وتنسبه إلى أمة

تفرنس فيها المدعوون حتى حماة اللغة والأدب ! بعضهم ملكته الحذلقة فاستكثر ظرفه وعلمه على اللغة العربية ، و بعضهم غلبته المجاملة فخاطب الأديبات بلغتهن ولغتهن الفضلى هى الفرنسية . وكان الذين يتعصبون للعربية أو يتأدبون بالانجليزية قلالاً قد انتثروا فى غمار الحفل أول ما دخلوا ؛ فلما أنكروا اللسان المتحدث بين القوم تراجعوا متزايلين مستوحشين إلى هامشه ثم طفقوا ينظرون بعين المتفرج المتعجب إلى جمع المذكر والمؤنث وهما يضطربان فى الأبهاء والحجر على غير قياس :

هذا يمثل الباريسى اللبق فيسلك طريقته فى السلام ، و يتخذ لهجته فى الكلام ، ويسمُتُ سَمْتَه فى التظرف ؛ وهذه تمثل إحدى (عالمات) موليير فتتصنع المعرفة ، وتتكلف الذكاء ،وتقدِّر نفسها بالقياس الطويل والوزن الثقيل فيمالق الذكى ويصدق الأبله ؛ وهـذان يتضاحكان لحركة لاحظاها أو نـكتة قالاها ، ثم يكتكتان فى الضحك ليلفتا إليهما السمع المشغول والنظر الغافل ؛ وهاتان تتحدثان ووجهاهما متقابلان ، ونظراهما متدابران ، وكل

منهما تبحث ذات اليمين وذات الشمال عن محدث أو معجَب؛ وهؤلاء يتناقشون فى موضوع غريب بلسان غريب لم يوحه الوطن الذى نحيا به، ولا المجتمع الذى نضطرب فيه، ولا الأدب الذي نعيش له، وإنما أوحاه رأى فى كتاب أو مقال فى صحيفة جاء به البريد الأخير من البلد الذى استوطنوه بالفكر واستقبلوه بالعبادة!

حدثنى أحد الذين دُعوا إلى هذه المأدبة وهو أديب ظريف لا يعرف لغة هذا الصالون قال: كنت جالساً وراء القوم كأننى أحد (أولاد البلد) فى دار من دور السينما يشاهد فلماً فرنسيًا، فهو يرى ولا يعلم، ويسمع ولا يفهم، ولكنه مأخوذ بالمناظر التمثيلية التى تتقلّب على عينيه فيغيب وهو حاضر، ويحلم وهو يقظ. فإذا خشيت أن يلحظ الناس انقباضى عنهم بطول القعود قمت أتنقل بين المثنيات والجموع، فأجدنى أشبه بالأطرش فى الزفة، يرى الوجوه تنبلج، والشفاه تنفرج، والأيدى تتحرك، وهو شاخص البصر، مفغور الفم، لا يدرى ما الذى يشيع السرور ويبعث الضحك.

ثم جلستُ على مقربة من الأستاذ المازنى فرأيت ربة الدار تقبل عليه وتقدم إليه سيدة يقولون إنها من الأديبات النوابه. عرّفت إليها الأستاذ ونوهت بأثره فى الأدب ومكانه من النهضة، ثم تركتهما معاً وذهبت إلى غيرهما. وانتظر الأستاذ أن تتحدث إليهِ السيدة الأديبة فى قصة من قصصه أو فى رأى من آرائه، فيكون فى ذلك بعض الترضيـة للأدب العربى المهان فى بلده وبين قومه؛ ولكن السيدة الأديبة بدأت الحديث بهذا السؤال:

حضرتك من مصر ولاّ من الشام؟

ولا أدرى أألقت على المازنى كلاماً فيه معنى أم ذَنوباً فيه ماء؟! فقد تخلص منها بلباقة وأقبل علينا يقول:

— وا ضيعتاه! أبعد ثلاثين عاماً قضيتها فى الأدب أكتب فى كل يوم مقالاً، وألقى فى كل أسبوع محاضرة، وأخرج فى كل سنة كتاباً، أجد فى المتعلمات بالقاهرة من تسأل: أمن الشام أنا أم من مصر؟!

* * *

هذه حفلة أقامتها صاحبتها الأديبة لصحابتها الأدباء، وقد رأيت وسمعت كيف كان حرص أدبائنا على اللغة، وإلى أين بلغ علم أديباتنا بالأدب. فهل تصدق أن يكون لهؤلاء أدب مستقل وهم ينكرون أن لهم لغة مستقلة؟ لا جرم أن هـذا النوع من الأدب الحرام يزيف الأديب على أمته كما يزيفه على الأمم الأخرى. وإذا جاز لأولئك السيدات الأديبات أن يلغَين بغير لغتهن، بحكم نشأتهن وطبيعة ثقافتهن، فكيف يجوز لأساتذة اللغة وزعماء الأدب أن يديروا فى أفواههم ذلك اللسان الأجنبى وما كانت قيمتهم فى الناس ودعوتهم إلى هذا الحفل إلا لأنهم يحذقون اللغة العربية، ويتزعمون الثقافة العربية؟!

إن من هوان نفسك عليك وإهانة جنسك فى الناس أن تتكلم غير لغتك فى بلدك وبين قومك من غير ضرورة ولا مناسبة؛ فإن ذلك إن دل على شيء فإنما يدل على عدم استقلالك فى خليقتك وعقيدتك ونمط تفكيرك وأسلوب عملك

هل تستطيع أن تدلنى على بقعة من بقاع الأرض غير مصر ولبنان يجتمع فى دور من دورها مجلس من مجالس الأدب يحضره لفيف من أساتذة الجامعة وجهابذة الأدب وأقطاب الصحافة، ثم لا يكون حديثهم إلا بالفرنسية، ولا يدور نقاشهم إلا على موضوعات أجنبية؟؟

يا قومنا إن لغة المرء تاريخه وذاته، فالغض منها غض منه، والتفضيل عليها تفضيل عليه، ولا يرضى لنفسه الضعة والصَّغار إلا مهين أو عاجز!

احمد حسن الزيات

تحيـــة شوبنهور

للأستاذ عباس محمود العقاد

— ٢ —

ختمنا مقالنا السابق واعدين أن « نطابق فى مقال آخر بين سيرة الرجل وفلسفته ، وبين العرض والجوهر فى هذه المطابقة »

وإنما رأينا ضرورة هذه المطابقة لأننا اعتقدنا أن كثيراً من القراء سيلمحون جانباً من التناقض الكبير بين دعوة الرجل وسيرته فى حياته : بين رجل يزدرى الحياة ويستمتع بلذاتها ، ورجل يقتضى مذهبه الزهد وهو يحرص على المال ، ورجل يهرب من الوباء وهو يبشر « بالنرفانا » والفناء ، ورجل عبوس الرأي مشرق الفكاهة

فمن المفيد ولا ريب أن نبين وجهة النظر التى تتجه إليها فى تعليل ذلك التناقض ، وأن نشرح التوافق الباطن فى هذا التناقض الظاهر ، وأن نقول إن مذهب الحرص ومذهب التشاؤم كلاهما يصدر عن منبع واحد ، فلا اختلاف هناك ولا غرابة من وراء الحجاب ، وإن بدا لنا الأمر على ظاهره مختلفاً جد الاختلاف مستغرباً جد الغرابة

كان شوبنهور إمام المتشائمين الساخطين على الحياة المستريبين بالناس ، المتوجسين من ضمائر الغيب

كان لا يسلم وجهه قط إلى حلاق مخافة أن يذبحه أو يجرحه ، وكان يغلق الأقفال على أدوات تدخينه مخافة أن تمزج بالسموم ، وكان ينام وإلى جانبه مسدساته محشوة مهيأة للإطلاق ، وكان لا يطيق معاشرة الناس ولا سماع الأصوات ، وكان يقول إن الحياة نقمة لا تحمد ومحنة لا تطاق

كان كذلك وكان يخاف الموت ويهرب من الطاعون ، فكيف يكون التوفيق بين هذا الفزع من الموت وذلك التشاؤم بالحياة ؟

هما فى الحقيقة شيء واحد !

فالمتشائم لا يتشاءم إلا لأنه شديد الإحساس بالخطر ، شديد الغلو والاغراق فى هذا الإحساس ؛ وليس مقتضى ذلك أن يطمئن إلى الأوبئة والأمراض ويركن إلى السرائر والنيات كما يلوح فى بادئ الرأى ، بل مقتضاه أن يفزع من النذير إذا كان غيره لا يفزع من الحقيقة الواقعة ، وأن يكتفي بالايماء إذا كان غيره لا يكتفى إلا بالصيحة العالية ، وأن يهرب من الطاعون قبل أن يهرب منه المستريحون المطمئنون إلى العيش الواثقون بالمصير

وكان شوبنهور يبغض الحياة ويستمتع بلذاتها ، فكيف يكون التوفيق بين البغضاء والاستمتاع ؟

هما كذلك شيء واحد فى الحقيقة . فلولا أنه يحب الاستمتاع بها لما أبغضها ، ولولا أن الرجل يعرف لذة المشوقة لما استعرت في نفسه بغضاؤها حين يحال بينه وبين متعتها كما يشتهيها ، ولولا الإحساس المرهف لما كان الألم ولا كانت الحاجة إلى الترفيه عن النفس المتألمة بالاقبال على اللذات والتشاغل بالسرور ، فإنما اللذات هنا ترياق لا يحتاج إليه إلا من هو مريض فى المستشفى ، بل هو مرقد لا يحتاج إليه إلا من فارقه الرقاد ولازمه السهاد

وكان شوبنهور ينفر الناس من الدنيا ويحرص على ماله ولا يفرط فيه ، فكيف يكون التوفيق بين مذهب التنفير ودافع الحرص الشديد ؟

هما أيضاً شيء واحد فى بواطن الأمور

فالحرص على المال علامة فى بعض حالاته على الحذر الشديد من الناس ، وقلة الركون إلى الوفاء والإخلاص والمعونة من الأصدقاء والأقرباء ، فإذا افتقر إليهم فهو على يقين أنهم لا يسعفونه ولا يحفلون بما يصيبه ، وإذا نظر إلى المستقبل فهو على يقين أنه سيفتقر أو يستهدف للنكبات والمتاعب ، لعظيم خوفه من العواقب وإشفاقه من غدرات الحوادث ، وعلى قدر هذا الخوف وهذا الإشفاق يكون الحرص على المال الذي ينفعه حين لا ينفعه صاحب ولا قريب

وكان شوبنهور عبوس الرأى مشرق الفكاهة كثير التنكيت والتبكيت ، فكيف التوفيق بين الخصلتين ؟

لا ضرورة إلى الإطالة فى التماس التوفيق بينهما ، فهما متفقتان لا تتعارضان

فالمرهف الإحساس يتألم ، والمرهف الإحساس يفطن للفارق الدقيق بين طوايا الناس ودعاواهم ، وهذا — أي الفارق الدقيق بين الطوايا والدعاوي — هو ينبوع التهكم الذى لا ينضب

ومبعث الفكاهة ومادة «القفش» كما نقول فى لغتنا نحن المصريين

والمرهف الإحساس من جهة أخرى يشعر بالألم فيحتاج إلى الضحك والسخرية وعنده المادة موفورة كما أسلفنا، فيتزود منها حيناً بعد حين بما يريحه إذا التمس الراحة، وما يصول به على خصومه إذا تعاوروه بالإساءة والإيذاء، وهو يتهمهم أبداً بأنهم يفعلون ذلك وإن لم يفعلوه

ومن راقب إخوانه وعشراءه عرف بالتجربة والمشاهدة أن النكتة المريرة أنفذ وأمضى وأدعى إلى المفاجأة من نكات المرح والخفة والمجانة، ولا سيما إذا اقترنت بالذكاء الثاقب والخبرة الواسعة والاطلاع الموفور، وكل أولئك كان من خصال شوبنهور ولوازم طبعه، ولو ضعفت مرارته لضعفت فكاهته على خلاف المنظور فى ظواهر الصفات

وهكذا يؤدى بنا تطبيق المنطق على الخلائق الإنسانية إلى نقيض التبادر من قريب، فنستغرب الأمر لأول وهلة ثم نمضى قليلاً إلى ماوراء ذلك فإذا المستغرب هو المألوف، وإذا المألوف فيما زعمنا أولاً هو الغريب البعيد

وخطأ أن يقال إن منطق العواطف غير منطق العقول... كلا! بل هما منطق واحد فى جميع الحالات، وكل ما هنالك أننا لا نستحضر وجوه المقارنة جميعها إذا بحثنا فى ظواهر العواطف والأخلاق، فإذا استحضرناها وجمعنا أسبابها فالحكم على كل حال لا بد أن يطرد ويستقيم

وهكذا نصنع إذا حكمنا فى قضية لها عشرون شاهداً من الجانبين ولم نسمع إلا خمسة شهود من جانب واحد. فهل يجوز لنا إذا اختل حكمنا أن نقول إن منطق القضايا المدنية أو الجنائية غير منطق العقول؟ كلا. بل نقول إن المنطق واحد لا تناقض فيه، ولكننا نحن نسينا أسبابه وأغفلنا جوانب الحكم والمقابلة

من هنا يتبين لنا أن «شوبنهور» يعرض لنا صورة منسوقة من سيرته وفلسفته، وأن شذوذه هو اللون الصادق فى جلاء تلك الصورة والموافقة بين أنوارها وظلالها، وأنه ابن مزاجه وتكوينه فى كتبه وفى حياته، كما كان ابن زمانه وأسرته وبلاده وما اختبره واطلع عليه

وما من رأى فى كتب الفيلسوف إلا وله مرجعه إلى حالة من حالات زمانه أو دخيلة من دخائل بيته، فقد رأينا كيف علمه سقوط نابليون أن العمل للإرادة وأن الارادة إلى فشل وحبوط. فهل من علة لتقسيم الارادة والذكاء بين الرجل والمرأة أو بين الآباء والأمهات؟ أو هل من علة لحقده على جنس النساء وكراهته للنسل والزواج؟

نعم. علة ذلك أن أباه كان من رجال الأعمال وقد مات مجنوناً وقيل إنه بخع نفسه بيديه، وإن أمه كانت ذكية حصيفة تكتب الروايات وتنافس ابنها فى عالم التأليف، وكانت تعيش بعد أبيه عيشة مريبة فاعتزلها ولم يرجع إليها بقية عمرها. فمن ثم كان اعتقاده أن الولد يرث الإرادة من الأب والفكرة من الأم، وأن تمام الفكرة والإرادة فى الإنسان إنما يكون على هذا المنوال، فيصبح وهو مثال الدنيا التى تنتهى من الإرادة إلى الفكرة إلى « النرفانا » وما يشبه الفناء

شوبنهور عجيب، وأعجب ما فيه أن شذوذه كله يستقيم مع التعليل وتتفق فيه الظواهر والأسباب، ويعرض لنا نموذجاً صادقاً لنقائض الأخلاق، وهي فى باطن الأمر أقرب ما تكون إلى المألوف المطرد المنظور

عباس محمود العقاد

مظاهر داء الشعور بالحقارة

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

من الأمراض الاجتماعية التى حققها المفكرون حديثاً ، مرضان نفسيان : الأول داء الشعور بالعظمة ، وقد يظهر بمظاهر العظمة أو بمظاهر التواضع المكذوب الذى ينم عن الكبر ؛ وداء الشعور بالحقارة، وهذا أيضاً يظهر بمظهرين مختلفين : مظهر التواضع المتناهى وتحقير النفس ، ومظهر التعاظم الذى يراد به ستر مايشعر به المرء من احتقاره لنفسه . وهذا الشعور قد يكون مؤسساً على أمور فى العقل الباطن فلا يتنبه صاحبه إلى حقيقة أمره ولا يعرف أنه مريض بداء الشعور بالحقارة

وقد يختلط المرضان لأن كلا منهما يظهر إما بالتعاظم وإما بالتواضع ، ويغالى فى التعاظم أو التواضع ، ولكن تعاظم المصاب بداء الشعور بالعظمة يكون مقروناً بشىء من الاطمئنان والثقة . وقد يبلغ الاطمئنان مبلغاً يجعل صاحبه لا يدرك سخر الناس ؛ أما تعاظم المصاب بداء الشعور بالحقارة فهو تعاظم يساوره القلق وغطرسة تنتابها حُمّى الحقد والحسد ، فالخلط بين الداءين من هذه الناحية يدل على خطأ فى الاستقراء ونقص فى الخبرة وخطل فى التفكير . وكذلك الخلط بين تواضع المصاب بداء الشعور بالعظمة وتواضع المصاب بداء الشعور بالحقارة ؛ فالتواضع الأول مقرون بالثقة أيضاً ، ويظهر من ورائه اطمئنان صاحبه إلى عظم نفســه . أما تواضع المصاب بداء الشعور بالحقارة ، فهو تواضع يظهر من ورائه الحقد والحسد ؛ وليس من لوازم داء الشعور بالحقارة أن يجمل مظهريه مظهر التعاظم ومظهر التواضع فى رجل واحد فى أوقات مختلفة . إنه قد يفعل ذلك ولكن كثيراً ما نرى أنه يختص رجلاً بالتعاظم وآخر بالتواضع ؛ وأكثر شيوع داء الشعور بالحقارة يكون فى الأمم التى لبثت عصوراً طويلة مغلوبة على أمرها ، ولا يهم التمييز بين أصحاب الغلبة فى تفسير نشأة هذا المرض الاجتماعى

وأكثر ضرر داء الشعور بالحقارة يكون إذا صال به وجال أناس قد بلغوا شيئاً من الجاه والمنزلة والثروة أو كانت لهم سلطة ، فإن اقتران القدرة به والنفوذ والسلطة مفسدة وأى مفســدة . وكذلك إذا كان صاحبه قدوة لغيره ، فإنه يفسد النفوس بما ينشره هذا الداء الوبيل داء الشعور بالحقارة من الأحقاد والضغائن والأكاذيب والشرور والحقارة والفساد ، ولا تستطيع أمة أن ترقى إلا إذا تمكنت من اقتلاع جرثومة داء الشعور بالحقارة من نفوس أفرادها ، وإلا إذا عالجته فى مدارسها علاجاً نفسياً صحيحاً باطلاع الطلبة والتلاميذ على حقيقة نتائجه ، فإن نتائجه قد تظن محمدة واعتزازاً بالنفس ، أو قد تظن غير ذلك على حسب مايظهر به داء الشعور بالحقارة من المظاهر سواء مظاهر العظمة التى يساورها القلق والحقد والحسد أو مظاهر التواضع التى تساورها هذه الأمور أيضاً . ومن الحكمة جمع الشواهد والأدلة وتفسيرها ، فالغيبة والنميمة مظهران من مظاهره ولا شك ، لأن منشأهما الرغبة فى الإستعلاء بوسائل غير مشروعة يتخذها من يشعر فى نفسه بالعجز عن أسباب الاستعلاء الفاضلة لتمكن داء الشعور بالحقارة من نفسه ، وكذلك حب الظهور من شواهد هذا الداء وأدلته ولو كان ظهوراً يؤدى إلى ضياع الثروة والعقارات والفدادين . ومن شواهده الولوع بالفكاهة اللاذعة للسخر حتى بالغرباء ، كل هذه محاولات من المرء أن يقهر شعوره بحقارة نفسه وأن يقنعها بأنه أفضل من غيره . ومن شواهد داء الشعور بالحقارة أيضاً عدم احترام حدود الحق والواجب ، لأن العظيم حقاً يجد من عظم نفسه الحقيقى ما يسليه عن الفشــل فى نيل أمر تمنع من نيله حدود الحق والواجب ، أما الذى يشعر فى نفسه بداء الحقارة ، فإنه يرى فى طمس حدود الحق والواجب زيادة فى قدرته وعظمته وشفاء لما يشعر به من ألم الحقارة أو لما يتحسسه فى أعماق العقل الباطن من هواجس هذا الداء إذا كان صاحبه لا يدرك حقارة نفســه أو لألم الحقارة وهواجس العقل الباطن معاً . ومن شواهد هذا المرض وأدلته أيضاً الامتعاض من لباب الأمور ، فإن صاحبه يكره اللباب المحض الصريح لأنه يشعر أنه يبرز عجزه ويهتم للبهرج المزيف لأنه براق خادع ولا يكلف ما يكلفه اللباب . وليس من الضرورى أن يكون المريض بداء الشعور بالحقارة غبياً أو بليداً . وهــذا الشعور بالحقارة قد يعظم فى نفس صاحبه حتى أنه قد يدفعه إلى الاثم والجرم الشنيع . وقد يصير جنوناً أو شبه جنون وحتى تصبح نفس صاحبه كالفرزات القذرة التى يتصاعد منها الذباب الكثير الألوان ، فمن ذباب أزرق وذباب أصفر وآخر أسود وغيره أحمر إلى آخر أنواع هذا الذباب الذى ينبعث من الأقذار . وقد

يعظم داء الشعور بالحقارة فى نفس صاحبه حتى كأنما يخيل له أن الأرض لا تستطيع أن تحمل ثقل شعوره بحقارة نفسه وهى هي الأرض التى حملت الجبال وحملت الناس والحيوانات حتى الحيوانات الهائلة التى اندثرت قديماً ؛ وهى الأرض التى حملت طوفان نوح وفلكه المشحون وحملت حماقة الناس وآثامهم وغباوتهم وجهلهم من عهد سيدنا آدم ، وحملت الأرض كل هذه الأشياء ولكن كأن المسكين يخشى أن تلك الأرض نفسها ربما لا تستطيع أن تحمله وأن تحمل ثقل شعوره بحقارة نفسه . وهذا الشعور بالحقارة مما يزيد الحياة مرارة وألما . وله عدوى في بعض البيئات مثل عدوى الأمراض الجثمانية المعدية . ومن درس التاريخ عرف أن الأمراض النفسية تكون لها فى بعض الأحايين عدوى مثل عدوى الأمراض الجثمانية المعدية . أو لعل تلك الأمراض النفسية تكون مصحوبة بأمراض عصبية كمرض (الهستريا) . وقد شوهدت عدوى تلك الأمراض النفسية وشوهد وباؤها بصفة خاصة في عصور الانقلاب الفكرى والاجتماعى والاقتصادى وفى عصور الكوارث الطبيعية الكبيرة والثورات والحروب ، ولكنها تظهر فى شكل أقل شدة وحدة فى حياة الناس اليومية

وداء الشعور بالحقارة قد يصيب الغني كما يصيب الذكى ، وقد يصيب الوضيع المنزلة كما قد يصيب الرفيع المنزلة الذى ارتفع بعد ضعة أو ارتفع أبوه أو جده بعد ضعة أجداده . وهو فى أشد حالاته يكون مصحوباً بجنون خلق لا يميز صاحبه الخير من الشر ، ولكن ليس كل جنون خلق يكون مصحوباً بداء الشعور بالحقارة

والشواهد على وجوده كثيرة ؛ فالوضيع الذى يتعالى ويتعاظم مصاب به ، والرفيع المنزلة الذى تصيبه حمى إذا رأى ميزة فى إنسان أو استضعفه وحاول القضاء عليه بوسائل تنجيه من العقاب والمؤاخذة . ومثله مثل الفلاح الذي يسلط الأشقياء على الناس لسبب تافه أو لغير ما سبب إلا حب الأذى وحب الظهور . وقد عرفنا أناساً من هـذا القبيل يصابون (بالسادزم) نسبة إلى الكونت دى ساد الفرنسى الذي كان مصاباً بداء التلذذ بالتوحش والقسوة . فترى أن داء الشعور بالحقارة فى أشـد حالاته يكون مصحوباً بالجنون الخلقى وبجنون التلذذ بالتوحش والقسـوة . وسنحصى بعض شواهد هذا المرض فى مقال آخر

عبد الرحمن شكرى
المفتش بوزارة المعارف



طالما جلست فى صباى ساعات طويلة أتأمل قوافل النمل تسير على الحيطان . وكنت أحياناً أدنو منها وأصيح بأصوات مدوية ، فما يبدو عليها أنها سمعت شيئاً ؛ فالنظام هو النظام ، والخطى هى الخطى ، والتجارة الضخمة المحمولة على الأعناق : وهي جناح « صرصار » كبير ، مازالت تتهادى مطمئنة فى طريقها إلى عاصمة المملكة العتيدة داخل ذلك الثقب البارز فى أسفل الجدار . وكانت الجيوش قد قاربت المدينة ؛ وخرجت جيوش أخرى تستقبل القادمين وتحمل عنهم بعض العبء . وكأن الجميع فى فرح وحركة ولغط لا يصل صداه إلى مسامعى الغليظة ؛ كما أن أصواتى الراعدة لا تبلغ آذان تلك المخلوقات الدقيقة . فحدثتنى النفس أن أحدث حدثاً فى تاريخ هـذه « البشرية » الصغرى ، فأتيت بكوب من ماء وصببت مما فيه على القوافل الظافرة . ولبثت أنظر إلى الكارثة فى ابتسام ، فإذا شمل الجيوش قد تمزق ، وإذا الذعر قد دب فى الجموع . ولكن الفلول سرعان ماعادت تحمل « التجارة » من جديد فى حرص المستميت . عند ذلك أقصيت الكوب وقد تحرك قلبي وقلت في نفسى : إن هـذه المملكة ولا ريب تأخذ الآن عبثي على سبيل الجد ، وأنها ولاشك تحسب ماحدث الساعة ظاهرة من ظواهر الطبيعة القاسية . فما هذا عندها إلا سيل العرم ، أو طوفان هائل ، أو قضاء هبط من السماء . وتأملت لحظة شأننا نحن « البشرية » الكبرى ، وقلت : من أدرانا أنا لسنا أحسن حالاً من هذا النمل ؟ ومن أدرانا أن ما نسميه ظواهر جوية وطبيعية من زوابع وأمطار وزلازل وبراكين ليس إلا عبث مخلوقات أخرى ذات أحجام وصفات لانستطيع لها تصوراً ؟ ومن أدرانا أن ليست فى هذا الكون أصوات هيهات لآذاننا الصغيرة أن تدرك وجودها ؟ لم لا نكون نحن أيضاً نملاً أرق من هذا النمل وأحط من نمل آخر من جوهر آخر لا نعرف ماهو ؟ إن الله لأعظم مما نظن ؛ وإن حواسنا لأقل إدراكا لما فى الكون مما نتخيل !

توفيق الحكيم

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ١٢ —

... وبكّرت إلى منزل ليلى بكور الندى لأدعوها إلى شهود حفلة الافتتاح . فوجدت الشقية فى الفستان المصرى الفضّاح الذى زارت به معرض القاهرة فى ربيع سنة ١٩٣٦ ، وكان يجب على ذلك الفستان أن (يذوب) بعد أن (ذابت) به أكباد وقلوب ، ولكنها حفظته تذكرةً لحبها الأول ، الحب المشئوم الذى أورثها الضنى والذبول ، الحب الذى عجز عنه الأطباء والذى أجاهد فى خلاصها منه بحب أقوى وأعنف ، إن كانت الصبابات القديمة أبقت فى عزيمتى ذخيرة للجهاد .. وقد اهتاجت الغيرة فى صدرى حين رأيت ذلك الفستان فكدت ألطم ليلى على خدها الأسيل . ثم تراجعتُ حين تذكرت أن بلواها من بلواى . وهل كان حبي فى بغداد أول حب حتى أنتظر أن تحبنى ليلى أول حب ؟ إن المسكينة تعرف أن طبيبها من قدماء المحاربين ، وتعرف أنه لم يحمل النظارة إلا بعد أن تعبت عيناه من نضال العيون . فليكن أنسها بحبي أنس الجريح بالجريح ، ولتفهم أني أشفيها من جواها لتشفينى من جواى

وقديماً قال الشاعر :

يا خليلىّ والرفيق مُعينٌ	أسعفانى ببعض ما تملكانِ
أبتغى آسياً فقد عِيل صبرى	من توالى الوجيب والخفقانِ
أبتغى صاحباً توله قبلى	وشجاه من الجوى ما شجانى
فلقد يُسعف الجريح أخاه	ويواسى الضريب فى الأحزانِ

***

وبعد تناول ما تيسر من الصَّبوح خرجنا فى سيارة إلى بهو أمانة العاصمة ، فترجلت عند باب المعظَّم لتدخل وحدها ، ومضيت أحمل آمالى وآلامي ، فلما وصلت إلى مدخل البهو اعترضنى أحد الضباط قائلاً : سيدى ، هذه الحفلة خاصة بالأطباء . فقلت : وأنا طبيب ليلى . فابتسم وقال : تفضل ، تفضل

وسألت بعد ذلك عن الرجل الشهم الذى أفسح الطريق لطبيب ليلى فعرفت أنه السيد سليم محمود معاون مدير شرطة السير والمرور ، وسيحدثنا الضابط عبد الحسيب فيما بعد أن الغرام بالأدب من أظهر صفات الضباط بالعراق

وكانت ليلى تعرف أن طبيبها يكره أن تأخذها العيون ، فنظرت فى أماكن السيدات فلم تجد أصلح من جيرة السيدة التى تنطق أساريرَ وجهها بأصدق معانى الكرم والنُّبل ، عقيلة الرجل الشهم الذى يمثل المروءة المصرية فى العراق

أما أنا فأخذت مكانى بين الدكتور عُسَيران والدكتور عَلاَّوى .

وكنت — مع الأسف — ذهبت إلى الحفلة وأنا أضمر الشر للأستاذ على الجارم ، فقد كـتِب فى منهاج الاحتفال أنه « شاعر مصر » وأنا أبغض الألقاب الأدبية . فلما وقف ليلقى قصيدته لم أصفق ، وأعديت مَن حولى بروح السخرية فلم يصفقوا ، ولكن الجارم قهرني وقهر الحاضرين جميعاً على أن يدموا أكفهم بالتصفيق .

وغاظنى أن تصفق ليلى لشاعر يرى بحكم منصبه أنه رئيسى ، لأنه كبير المفتشين بوزارة المعارف المصرية . ولولا حكم الأقدمية لكنت الرئيس وكان المرءوس ، ولكن ماذا أصنع وقد سبقنى إلى الأستاذية بأعوام طوال ؟

وأنا والله أظلم نفسى بهذا الكلام ، فما أذكر أبداً أنى حقدت على إنسان . وما أذكر أبداً أنى عرفت معانى الحسد والضغن إلا على الدهر المخبول الذى يتسفل فيرفع الأدعياء . وقد هجمت على شاعرنا الجارم عدة مرات ، وحاربته فى وزارة المعارف يوم رأى زميلى الأستاذ أبو بكر أن يكتب في نشرة رسمية أنه أمير الشعراء . وقد عرف الجارم خطر ما أصنع ، فكان هو أيضاً يحاربنى فى مكتب تفتيش اللغة العربية ؛ ولولا سماحة الأستاذ جاد المولى بك لكانت النتيجة أن أعيش بين المفتشين بلا صديق

فيا أيها العدوّ المحبوب الذى اسمه على الجارم ، تذكر أنك كنت حقاً وصدقاً شاعر مصر فى المؤتمر الطبي العربى ، وستمر أجيال وأجيال ولا ينساك أهل العراق

وهل تعرف مصر أنك رفعت رأسها فى العراق وأنك كنت

خليفة شوقى فى المعانى وخليفة حافظ فى الالقاء ؟

إننى أطلب المستحيل حين أطلب من مصر إنصافك . وهل أنصفتنى مصر حتى تنصفك ؟ هل أنصفتنى مصر وكنت مجنونها وكانت ليلاى ؟

يرحمنى الله ويرحمك ، فعنده وحده جزاء المجاهدين

***

وعند نهاية الاحتفال دعوت ليلى للتسليم على سعادة العشماوى بك ، وسعادة على باشا ابراهيم ، وفضيلة الشيخ السكندرى

أما العشماوى بك فسلّم تسليما خفيفاً ، سلم تسليم « المتباهين » ليظهر أنه أكبر من أن يفتنه الجمال ، والعشماوى بك « يتباله » فى جميع الأحوال ، وقد درسته حق الدرس ، فعرفت أنه يحمل كبداً أرق من أكباد المحبين ، ولكن له قدرة عظيمة على « التباله » فمن الذى علّمه هذا الأسلوب ؟

وقد حقدت عليه ليلى ، فليعرف سعادته أن غضب ليلى سيحل عليه ، وسيرى عواقب ذلك فى الأيام المقبلات !

أما يخجلُ وقارُك مرة ياعشماوى بك ؟ اتق الذوق إن لم تتّق الجمال !

وقد قهقه الشيخ السكندرى حين رأى ليلى وقال : كنت والله أحسبك تمزح يا دكتور زكى ، وما كنت أظن أنك جئت حقيقة لمداواة ليلى المريضة فى العراق

والشيخ السكندرى معذور ، فهو يظن أن العشق انتهى من الدنيا بعد قيس وليلاه ، وأن الناس لم يعودوا يحبون غير الملوخية الخضراء !

أما الدكتور على باشا إبراهيم فنظر إلى ليلى نظرة الأرقم وقال : ما أستطيع الحكم بشفاء ليلى إلا بعد أن أفحصها بنفسى

ورأت ليلى أنى غضبت فقالت : إنى أحترم رأى سعادة رئيس المؤتمر الطبى ، ولكنى أفضل الموت على الحياة فى سبيل الأدب مع طبيبى الخاص

ولم أرد أن تطول اللجاجة بينى وبين رجل كان رئيس اللجنة التى أديت أمامها الامتحان النهائى فى كلية الطب ، فأخذت بذراع ليلى وانصرفت

وأراد سعادة العشماوى بك أن يترضانى فرفضت ، لأنى كنت أعرف ما يريد . وهل كان يريد غير إيناس عينيه بوجه ليلى ؟ إطّلَع من « دُولْ » يا سعادة الوكيل !

وفى الطريق سألتنى ليلى عن العشماوى بك ، وقد ساءها أن يتلقاها بوجه صامت التقاسيم ، فشهدت عند ليلى بأنه رجل فاضل ، وأن جموده فى حضرتها لم يكن جمود استهانة ، وإنما كان جمود تعقُّل ، والرجال الرسميون يغلب عليهم التعقل فى أكثر الأحيان !

فهل يعرف سعادة العشماوى بك أننى ذكرته بالخير فى حضرة ليلى ؟

لا أمُنُّ عليه ، فهو يستحق ذلك ، وأكثر من ذلك

***

وفى مساء ذلك اليوم أرادت ليلى أن تحضر معى فى الحفلة التى أقامها فخامة رئيس الوزراء ، فقاومتها مقاومة شديدة ، وكانت حجتى أنها ستكون من الحفلات التى يختلط فيها الحابل بالنابل ، وأنه ليس من العقل أن تتعرض ليلى لأنظار المئات من الناس ، وفيهم الفاضل والمفضول

وكنت على حق فى منع ليلى من حضور حفلة المساء ، فهى امرأة محجوبة عن المجتمع منذ سنين ؛ وسيكون مَثلها حين ترى اختلاط الرجال بالنساء مَثل العين الرمداء التى تواجه الشمس بعد أن حجبها الطبيب عدة أسابيع فى الظلام ، ولكنها ألحت ، ثم انتقلت من الالحاح إلى التوسل ، ومن التوسل إلى البكاء ، والمرأة أقوى ما تكون حين تنتحب ، فتخاذلت وقلت فى نفسى : لعل هذه اللجاجة تعود عليها بالنفع ، ولعلها حين ترى تسامح المجتمع الحديث لا ترى غضاضة فى أن أغازلها حين أشاء

ولكن هذا الخاطر تبدّد فى مثل لمحة الطرف ، فأنا أعرف أن وزير المعارف من علماء النجف ، وهو بالتأكيد يكره سفور المرأة ، وإن ساير العصر فأباح اختلاط الجنسين فى المعاهد العالية . ومن المحتمل أن يكره ظهور ليلى فى المجتمع بلباس السهرة . ومالى لا أقول الحق كله فأقرر أن أهل العراق فى النجف وغير النجف ينظرون إلى سفور المرأة بعين الارتياب ؟ مالى لا أذكر بصراحة أن أكثر وزراء العراق يكرهون حضور زوجاتهم فى الحفلات الساهرات ؟ مالى لا أنص — للحقيقة والتاريخ — على أن

وزراء العراق أكثرهم من رجال الجيش ، والجيش يطبع أبناءه على الخشونة والصرامة والعنف ، وأنهم لأجل ذلك من أغير الناس على كرامة ربات الحجال ؟

وأخيراً أعلنتْ ليلى بالرفض المطلق ، فأغربت فى البكاء والنشيج

غضبة الله عليك يا ليلى وعلى جميع بنات حواء !

ورأيتُنى مع الأسف طفلاً فى حضرة هذه المرأة ، فقد استبكتنى فبكيت

ومع ذلك جمعت أشلاء عزيمتى وأصررت على الرفض

وعندئذ تدخلت ظمياء وهى تقول : هل لك أن تسمح بأن تخرج ليلى معك فى ثياب فتًى من الأعراب ؟

فكدت أطير من الفرح لهذا الاقتراح الطريف ، ومضت ظمياء فأحضرت ملابس ابن عمها عبد المجيد ، فلبست ليلى بسرعة البرق ، وخرجت معى

ولكنا ما كدنا نخطو بضع خطوات حتى تنبهت إلى الخطر المخوف ، فقد تذكرت أن ليلى وهى فى ثياب الفتى البدوى لن تقضى السهرة كلها فى صمت ، وهل يمكن لامرأة أن تسكت ؟ وليلى تملك صوتاً هو فى ذاته من كبريات الفضائح ، وقد نصصت فيما سلف على أن لصوتها رنيناً مبحوحاً لم تسمع مثله أذناى على كثرة ما تذوقت من بُغام الملاح

فالتفت إليها وقلت : ليلى ، ليلاى ، اسمعى واعقلى ، فإن صوتك سيفضحنا فى الحفلة

فقالت : أتعهد بالصمت المطلق

فقلت : وكيف ؟ وهل أضمن السلامة من واغل سخيف يسلم علىّ عمداً ليظفر منك بتحية ، فتكون نبرة واحدة من صوتك المقتول نذيراً بعواصف الفضائح ؟

ولنفرض أنك تلزمين الصمت ويلزم الناس الأدب فكيف تخفين هذه المشية ؟

إن مشيتك ياليلى فضيحة ولو لبست ثياب الجاحظ ، والسامرون ينظر بعضهم إلى بعض ، وأنت ستخطرين حتماً بين السامرين ، وما أضمن أن يتأدب الجميع فلا تطرق سمعك كلمة نابية أقع بسببها فى معركة تطنطن بها الجرائد فى مصر والشام والعراق

إعقلى يا ليلى ، إعقلى ...

ولكن اللئيمة لم تسمع ، ومضت تخطر فى الطريق ، فلطمتها لطمتين ورجعتها صاغرة إلى البيت ، فودّعتنى وهى تقول : سلمت يداك ، فإنى أحب الرجل البطاش

* * *

دخلت الاحتفال فوجدته يموج بالطرابيش فتهيبت وتخوفت وانتظرت حتى يأخذ المدعوون أمكنتهم من السماطين ، لأتخيّر مكاناً ليس فيه طرابيش . ولا أدرى ولا المنجم يدرى كيف أخاف الطرابيش ! وربما كان السبب فى ذلك أنى أريد أن أحيا فى الحفلة حياة سعيدة ، وهى لا تكون كذلك إلا إن خلت من التوقر ، وما يمكنني أن أخرج على التوقر فى حضور المطربشين . وهل لبست السدارة إلا لأنجو من عنجهية المطربشين ؟

عفا الله عن مصر ! فقد قتلت ما فى صدرى من شاعرية بفضل ما درجت عليه من التزمت والجمود

ولكن أين أجلس على المائدة ؟ أين ؟ أين ؟

الحمد لله ! هذا مكان يزدان بعمامتين من وطن سيدنا عمر ابن أبى ربيعة رضى الله عنه ، وكان عمر بن أبى ربيعة من المجاهدين الذين قال فيهم جميل :

يقولون جاهد يا جميل بغزوة ... وأى جهاد غيرهن أريد
لكل حديث عندهن بشاشة ... وكل قتيل بينهن شهيد

ومن مزايا سيدنا عمر بن أبى ربيعة أنه وُلدَ فى الليلة التى مات فيها سيدنا عمر بن الخطاب . وقد اشترك هذان القرشيان فى الجهاد ، فكان ابن الخطاب يغزو الممالك والشعوب ، وكان ابن أبى ربيعة يغزو الأفئدة والقلوب

وأريد أن أقول إن عمر بن أبى ربيعة لا بد أن يكون ترك فى الحجاز بعض التقاليد الصالحات ، وقد أجاز له القرشيون أن يقول :

نظرت إليها بالمحصَّب من مِنًى ... ولى نظر لولا التحرج عارمُ

ولا يمكن أن يكون النظر إلى امرأة فى المؤتمر أخطر من

النظر إلى امرأة فى المحصَّب ، وما جاز فى مكة وهى بلد حرام لايمنع فى بغداد وهى بلد حلال

وكذلك اطمأننت على المائدة كل الاطمئنان

ولكن ما هذه المفاجآت ؟ أرانى لا أخرج من مأزق إلا وقعت فى مأزق

هذه عمامة ثالثة ، وهى من نوع خطر ، لأنها عمامة وزير المعارف ...

ونظرت فرأيتني فرغتُ من التهام الحساء ، وتغيير المكان بعد ذلك باب من السخف

وما الذى يخيفنى من وزير المعارف وهو من كبار الشعراء ولا يخلو شاعر من صبوات ؟

ما الذي يخيفنى من جيرة شاعر سليم الذوق مثل معالى الأستاذ محمد رضا الشبيبى ؟

يخيفنى أنه أديب صار وزيراً ، وحياتى امتلأت بالأكدار والأوحال بفضل صحبتى لرجل أديب صار من الوزراء . وأنا فى فى هذه المذكرات لا أتجنى على أحد ، وإنما أسجل صور المجتمع . وكان فى مصر أديب يعطف على أدبى أشد العطف ، فلما صار وزيراً فسد حالى عنده أشد الفساد . كان فى حاله الأول يقول : زكي مبارك شاب يجىء منه ؛ وكان فى حاله الثانى يقول : مذهب زكى مبارك فى الأدب سيفسد عشرة أجيال

وقد تعبت فى تعليل هذه الظاهرة النفسية ، ثم اهتديت إلى أن الأدباء الوزراء يهمهم أن يصححوا مراكزهم فى المجتمع ، ذلك بأن المجتمع يتوهم وهو خاطىء أن الأدباء يستبيحون من ألوان الحياة ما لا يستبيح ، فالأديب حين يصير وزيراً يضيّع وقته فى تصحيح مركزه الذى جرّحته أوهام المجتمع ، فينقلب إلى رجل متحرج متكلف لا يعوزه غير عمامة عجراء ليصبح شيخ الأزهر أو نقيب الأشراف

وكنت خليقاً بأن أعلل النفس بأن ما أخافه فى مصر قد لا أخافه فى العراق

ولكنى تذكرت حكاية الثعلب الذى همّ بالرحيل عن مصر فى سنة ١٩١٦ فقد سألوه : لماذا تهاجر يا أبا الحصين ؟ فقال : « ألم تعلموا أن السلطة العسكرية قررت جمع مافى مصر من جمال ؟ فاعترض عمدة الباجور وقال : وهل أنت جَمل ؟ إنما أنت ثعلب . فقال الثعلب وهو يحاور حضرة العمدة : إلى أن يثبت أنى ثعلب لا جَمل أكون ضِعت

وكذلك أخشى أن أضيع قبل أن يثبت أن العقلية العراقية تباين العقلية المصرية . وعلى أساس هذا المنطق جلست على المائدة فى غاية من الأدب والاحتشام . وأنا رجل يزدان بالأدب فى قليل من الأحيان

* * *

ولكن معالى وزير المعارف ستشغله ألوان الطعام عن مراقبة ما يصنع زكى مبارك ! !

وهل كنت مغفَّلاً حتى تفوتني هذه الحقيقة الأولية ؟

انتظرتُ حتى عَلَتْ قعقعةُ الشوكات والملاعق والسكاكين وأرسلت بصرى فرأيت امرأة تحادثنى عن بُعد بعينين ترسلان أشعة العذوبة والحلاوة والرفق

ورأيت الفرصة سانحة لدراسة هاتين العينين لأضع عنهما فصلاً فى كتاب (سحر العيون) الذى شرعت فى تأليفه منذ أعوام . وحضور هاتين العينين زاد اقتناعى بفوائد المؤتمرات ، ولا سيما المؤتمرات الطبية ، وسأكون بإذن الله عضواً فى جميع المؤتمرات لأجد المواد الشائقة لكتاب (سحر العيون)

ورأت المرأة أنى أسأت الأدب فصوبتْ سهام عينيها لتقتلنى ، ولكنها لم تفلح ، فقد حاربتنى قبل ذلك عيون وعيون ثم نجوت . ولو كانت العيون تقتل حقيقة لكان لى ضريح يزوره العشاق فى باريس

فإن سأل قارىء هذه المذكرات عن جوهر هاتين العينين فأنى أجيب بأنهما توحيان الحب ، ولا توحيان الاثم . وسأعيش ما أعيش وأنا أتشوف إلى تقبيل قدمى هذه المرأة التى سحرت المؤتمر وهى فى سذاجة الأطفال . وربما كنت أول من نظر إليها بعين الطُّهر والعفاف . ولو كنت مثَّالاً لاشتريت الساعة بألف دينار لأضع منها تمثالاً يفضح تمثال أفروديت . وليتها تعرف ذلك فيستهويها حب المال ، لأنى لن أفرغ من صب تمثالها

فى أقل من عامين . وعلىّ عهد الله أن أقنع منها بما يقنع السارى من بدر السماء

قلت فيما سلف إني رجـل مفضوح النظرات . وكذلك وقعتُ ، فلم تمض لحظات حتى تنبه زوجها إلىّ ، فما كان يسير بها إلا وحوله جيش من المعارف والأصدقاء ليصدّ غارة الاثم والفتون

وماذا يهمنى ؟ إنه يتوهم أنى سأحاول مع زوجته ما حاوله عمر بن أبي ربيعة مع زوجة أبي الأسود الدؤلى فى الطواف ، ولـكنه مخطىء ، فأنا بالتأكيد أحسن أخلاقاً من أستاذى عمر ابن أبي ربيعة ، وأنا قد تفوقت على أساتذتى فى أشياء كثيرة ، منها هذا الشيء . أنا أَجِدُّ وعمر كان يمزح ، وهل ترك ابن أبي ربيعة غير أشعار ملوّنة بالمجون ؟ أما أنا فسأترك بعون الله ورعاية الهوى ثروة فلسفية تشرح ما استبهم من أسرار الجمال

سيعادينى هذا الزوج وسأعاديه ، ولـكنى سأعرف كيف أتقى شره فأدرس عَينىْ زوجته من بعيد بحيث لا يجرؤ على اتهامى بالفضول

وأسارع فأقرر أنى اشتركت فى جميع الحفلات والرحلات لأستطيع التمكن من دراسة هاتين العينين ؛ واستعنت بالدكتور محمد صبحى بك فى تحديد ما خفى علىّ من الدقائق البصرية ، ولم يبق إلا شيء واحد هو الوطن الذى تسرح فيه هذه العيون فكيف أصل إلى ذلك وزوجها بالمرصاد ؟

انتظرت وانتظرت ، ثم انتظرت ، إلى أن جمع بيننا زحام المرقص بعد ثلاث ليال ، فدنوت منها فى خفية وقلت :

tu m'oublieras un jour !

فقالت فى عبارة تجمع بين العتْب والرفق : « دخيلك ، دخيل ألله ، اتركنى لحالى ! »

فعرفت أنها من بنات عمنا القديم دماشق بن قانى بن مالك ابن أرنخشد بن سام بن نوح عليه السلام

رباه ! أنت تعلم ما نعانى فى سبيل الحقائق الأدبية والذوقية والفلسفية ، وتعلم أن الناس لا يجزوننا بغير العقوق ، فاغمرنى بلطفك واكتبنى عندك من الصادقين

* * *

وأعود إلى حفلة رئيس الوزراء فأقول إنها كانت في غاية من الجفاف ، فلم يشرب فيها المدعوون غير أقداح الماء القراح . وقد تشاكى السامرون بعضهم إلى بعض ، وعرف أحد الأطباء ما فى نفسى فقال : هل سمعت تصريح معالى أمين العاصمة ؟ فقلت : لا . فقال : إنه يقول إن هذه الليلة من ليالى مكة ، وأنه سيرينا فى مساء الغد ليلة من ليالى بغداد

وطاش صوابى فمضيت أبحث عن أمين العاصمة لأسجل عليه الوعد ؛ فرأيته يحادث رجلاً عرفت فيما بعد أنه وزير المالية ، فما كاد يرانى حتى قال : أنا أفتش عليك يا دكتور مبارك

فقلت : وأنا أفتش عليك يا معالى الأمين . ولـكن قبل أن أخبرك لماذا أبحث عنك ، أسألك لماذا تبحث عنى ؟

فقال : كنت أحب أن أوجه نظرك إلى وجوب خلع السدارة فى السهرة

فقلت : وأنا لا أخلع السدارة لأنى أكره أن أعطيها أدب القُبَّعَة

فقال : ولـكن نحن اصطلحنا على خلع السدارة فى المجتمعات

فقلت : هذا غير صحيح ، فقد رأيت عشرات من النواب يحملون السدائر فى حضرة جلالة الملك وهو يلقى بنفسه خطاب العرش . ورأيت ثلاثة من النواب يخطبون وهم مسدَّرون . وزرت معالى رئيس مجلس النواب في بيته فكان يحمل السدارة وهو فى غرفة الاستقبال . والصحف تنشر صورة جلالة الملك مسدراً وهو يقرأ الفاتحة على قبر أبيه

فقال : قلت لك إننا اصطلحنا على خلع السدارة فى المجتمعات

فقلت : وأنا أرى الشواهد التى قدمتها كافيـة لإقناعك بوجوب التسامح فى هذا الاصطلاح

فقال : أنت أستاذ وأعمالك قدوة ، وأخشى أن أقول إنك تعطل ما نسعى إليه من جر الشعب إلى المدنية

فقلت : وأنا أخشى أن تجروه إلى الحيوانية

فظهر الغضب على وجهه وقال : ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟

وعرفت أن الموقف سيسوء فأسرعت إلى تحديد ما أريد وقلت : أقول يا معالى الأمين إن الانسان هو الحيوان الوحيد

الذى يغطى رأسه ، وما عداه من الحيوان لا يعرف تغطية الرأس . وكذلك أحكم بأن كشف الرأس يقرب الانسان من الحيوانية

فأخذنى من يدى وانتحى ناحية وقال : كيف تقول أمام معالى وزير المالية إننا حيوانات ؟

فقلت : معاذ الأدب أن أقول ذلك ، وإنما شرحت المسألة من وجهة علمية ، فقررت أن الانسان هو الذى يغطى رأسه من بين سائر الحيوان

فقال : ولكنك على كل حال جرحتنى ، فان كنت جاداً فلتعلم أنه لا يستطيع أحد فى العراق ولا فى مصر أن يخاطبني بمثل هذا الكلام . وإن كنت مازحاً فاسمح لى أن أصارحك بأن للرجل أن يمزح ، ولكن ليس له أن يخرج على الذوق

فقلت : ما كنت جاداً ولا كنت مازحاً ، وإنما كنت أقرر حقيقة علمية

فقال : يظهر أن ما سمعت عنك صحيح

فقلت : وماذا سمعت ؟

فقال : سمعت وقرأت أنك رجل مشاغب ، ومن واجبى أن أنبهك إلى أنى سحبت منك الدعوة لحضور السهرة المقبلة

فقلت : ذلك ما لا تملك

فقال : ستعرف أن ذلك مما أملك

وانصرف وانصرفت

***

ورجعت إلى منزلى مُبَلْبل الخواطر وأنا أقول : هذا ذنب ليلى ، هذا جزاء من يخالف ليلى ، فلو كانت ليلى معى فى السهرة لغُفِرت جميع ذنوبي ، فقد علّمتنى التجارب أن الرجال الذين لهم زوجات سوافر تُقضى لهم مصالح لا تُقضى لأمثالنا أبداً ، نحن المحافظين المغفلين الذين يجهلون خُلق الزمان

أيستطيع أمين العاصمة أن يحجبنى عن ليلة ببغداد بعد أن أضعت من العمر ما أضعت فى التغنى بتاريخ بغداد ؟ أفى الحق أنه أعرق منى لأنى من مواليد مصر وهو من مواليد العراق ؟

سترى يا أمين العاصمة أينا أقرب إلى قلب بغداد ، وسترى فى الليلة القادمة كيف تلقانى وألقاك

(للحديث شجون) زكى مبارك

بين الوطنيـــة والأممية

للأستاذ ساطع بك الحصرى

مدير الآثار بالعراق

تتمـــة

يجب أن تتفكك أوصال الأوطان الموجودة وتنحل الروابط الوطنية الحالية ... يجب أن تزول كل هذه الروابط التى تجمع « العمال وأصحاب رؤوس الأموال » فى كل وطن تحت لواء واحد ، وتفرق بين العمال الذين ينتسبون إلى دول وأوطان عديدة ... يجب أن تترك هـذه الروابط الوطنية محلها إلى رابطة جديدة مؤسسة على أساس الطبقات ... بهذه الصورة وحدها يتم النصر للنظام الشيوعى فى كل العالم ، وبهذه الصورة وحدها تتم سيادة العمال ورفاهتهم ...

هذه هى — على وجه الإجمال — أهم الآراء التى تدلى بها « الشيوعية الأممية » فى أمر النزعات الوطنية ...

إن هـذه الدعاية الشيوعية كانت تقوم على عواتق بعض الأفراد والجميات ، حتى زمن الحرب العالمية ... غير أن الشيوعيين تمكنوا — فى أواخر الحرب العالمية — من الاستيلاء على مقاليد الحكم فى دولة من أعظم دول العالم ، وأسسوا فيهـا نظاماً شيوعياً ... وهذه الدولة الشيوعية — أى روسيا السوفيتية — أخذت على عاتقها مهمة الدعوة إلى الشيوعية فى كل أنحاء العالم ، وصارت تقوم بهذه المهمة بكل ما لديها من وسائط مادية ومعنوية ، من أموال وافرة إلى تشكيلات منتظمة ...

إن آلام الفقر وآمال الرفاهة التى تستولى على نفوس العمال من جهة ، والدعاية الخلابة التى تقوم بها روسـيا السوفيتية — مستندة إلى تشكيلات واسعة النطاق ومحكمة الترتيب — من جهة أخرى ... قوّت النزعة الأممية الشيوعية فى بعض البلاد ، وأقامت بهـذه الصورة أمام النزعة الوطنية عدواً جديداً خطراً جداً ...

والنزعة الوطنية لم تتقاعس عن العمل تجاه هذا العدوّ بطبيعة الحال . إنها أخذت تناضل الشيوعية بحزم شديد وقوة كبيرة ،

فانتصرت عليها فى بعض البلاد ، كما فعلت النازية فى ألمانيا والفاشية فى إيطاليا ... غير أن النضال لا يزال سجالاً بين النزعتين ، مادة وجهاراً ، كما فى أسبانيا ، أو معنى وخفية — كما فى عدد غير قليل من سائر البلدان

فيجدر بنا أن نتعرف إلى أوجه هـذا النضال من قرب ، وبشىء من التفصيل :

إن الانقلاب الصناعى الذى بدأ فى أوائل القرن الأخير — والذى لا يزال يستمر إلى الآن — زاد فى فروق الثروة بين الناس زيادة هائلة ، وأوصل مشاكل المعيشة إلى درجة لم يسبق لها مثيل ... لا شك فى أن هذا التطور العظيم الذى حدث فى الحياة الاجتماعية كان يتطلب نظرات وأنظمة حقوقيـة جديدة تضمن للكل حق الحياة والعمل بالعدل الذى يقتضيه هذا التطور العميق .

غير أن الحكومات لم تقدر خطورة هـذه الأوضاع حق قدرها ، فلم تقدم على سن القوانين الضرورية لمعالجتها ... وذلك أفسح مجالاً أمام أصحاب رؤوس الأموال للاستبداد بحياة العمال بدون تأمل ، وللاسترسال فى استغلال أتعابهم بدون إنصاف ... وهذه الحالة ولدت الاشتراكية التى أخذت تطالب الحكومات بوضع حد لهذا الاستبداد ، وسن قوانين جديدة تثبت حقوق العمل وتضمن إنصاف العمال ، وتمنع تضخم رؤوس الأموال على شقاء الآلاف بل الملايين من العمال ... غير أن الحكومات قاومت فى بادئ الأمر الحركة الاشتراكية ومطالبها مقاومة شديدة ، وهـذه المقاومة أدت إلى حدوث سلسلة ثورات واعتصابات عنيفة كما أدت إلى تفرع الاشتراكية إلى فروع ومذاهب متنوعة . فاختلفت لذلك المذاهب الاشتراكية اختلافاً كبيراً من المعتدلة إلى المتطرفة ، ومن الوطنية إلى الأممية

إن الشيوعية هى « الطريقة المتطرفة » التى قامت لمعالجة قضية العمل على أساس هدم كل شىء يقف حجر عثرة فى سبيلها ، ولم تتردد فى إدخال « الوطنيـة » أيضاً فى عداد الأمور التى لا لزوم للتمسك بها .. حتى أنها أوصلت المغالاة إلى درجة القول بأن الوطنية أيضاً من المؤسسات التى يجب هدمها ...

وأما المذاهب الاشتراكية الأخرى ، فإنها تسعى إلى معالجة المشكلة دون أن تسترسل فى تضحية المؤسسات الاجتماعية وهدمها ، ودون أن تتهاون فى « الوطنية » فتقدم على مخالفتها ...

فإن « الاشتراكية الوطنية » — مثلاً — تقول بأن الحياة الصناعية تحتاج إلى معالجة جدية ، غير أن هذه المعالجة يجب أن تبقى دائماً داخل نطاق الوطنية ... إن للعمال حقوقاً طبيعية يجب أن ينالوها ، غير أنه يجب أن يعرفوا — فى الوقت نفسه — أن هناك أمة يجب أن يخدموها ، ووطن يجب أن يعتزوا به ، ودولة يجب أن يعتمدوا عليها ... ولأصحاب رؤوس الأموال أيضاً حقوق يجب ألا يفقدوها ، غير أنه يجب أن يعرفوا هم أيضاً أن هناك أمة ووطناً ودولة ، وأن الأموال التى تحت حيازتهم لم تتكون وتتجمع إلا بفضل مساعى العمال وبفضل أعمال الدولة التى تضمن الأمن العام ، وتنشىء المرافق العامة . فللدولة والأمة والعمال أيضاً حق فى هذه الأموال . فعلى الحكومة أن تتولى بنفسها تنظيم العلائق بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال على ضوء هذه الأسس ؛ عليهـا ألا تترك هاتين القوتين وشأنهما تتنازعان ، وعليها أن تعمل كل ما يمكن عمله لجعل هاتين القوتين متآزرتين كما تقتضيه مصالح الأمة والوطن ...

فنستطيع أن نقول بهذا الاعتبار إن الاشتراكية الوطنية السائدة فى ألمانيـا تكون قطباً معاكساً للشيوعية الحاكمة فى روسيا ... وأما النظم النقابية المؤسسة فى إيطاليا فهى أيضاً تقف فى هذه القضية بجانب الاشتراكية الوطنية موقفاً معاكساً لموقف الشيوعية ...

فإن الشيوعية لا تبالى بالوطنية ، وتدعو إلى الأممية ؛ فى حين أن النازية — مثـل الفاشية — تتمسك بالوطنيـة وتعارض الأممية ...

إن عنصر الأمميـة الذى يدخل فى تكوين الشيوعية هو الذى يجعلها خطراً على كيان سائر الدول ، ويضطر الأحزاب الوطنية فيها إلى مقاومتها بشدة ، ومناضلتها بعنف ... لأن البلشفية لا تهدد كيان الدول والأمم من جراء احتمال إقدامها على شن الغارة عليها بواسطة حملات عسكرية ترسلها من وراء حدودها فقط ... بل تهـدد كيان الدول والأمم فى داخلها

من جراء الدعايات التى تقوم بها بين أهليها ، وبواسطة التشكيلات التى توجدها بين أبنائها ...

وهذا الذى يجعل النضال بينها وبين معارضيها عنيفاً جداً ...

ماذا يجب أن يكون موقفنا نحن — أبناء العرب — من هذا النضال العنيف ؟ بين هذه المذاهب الاجتماعية المتضاربة ؟

أولاً — يجب أن نلاحظ قبل كل شيء أن المشاكل التى نعانيها نحن أبناء العرب تختلف اختلافاً كبيراً عن المشاكل التى تعانيها تلك البلاد ؛ فمن الخطأ أن نفكر فى اقتباس نظام من تلك النظم على علاته ... غير أن موقف هذه النظم المختلفة من النزعة الوطنية والقومية يجب أن يدلنا على النظام الذى يجب أن نتباعد عنه كل التباعد ، ونحذر منه كل الحذر ...

ويجب علينا أن نلاحظ فى الوقت نفسه ، أن الأضرار التى تنجم من الاصغاء إلى الدعاية الأممية لا تكون متساوية فى كل البلاد ، بل إنها تزداد وتنقص ، نظراً إلى ضعف النزعة الوطنية والقومية السائدة فى البلاد أو قوتها

تصوروا الأمة ناهضة متحدة متصفة بشعور قوى عميق ، ونزعة وطنية شديدة ، قد تأصلت الوطنية والقومية فى نفوس أبنائها حتى أنها دخلت فى طور الافراط والتعدى ، فصارت تحمل القوم على التوسع على حساب غيرها عن الأمم . لا شك فى أن رياح النزعة الأممية إذا هبت على النفوس فى مثل هذه الأمة لا تستطيع أن تجتث شجرة الوطنية من جذورها ، فلا يتعدى تأثيرها حدود بعض الاضرار الطفيفة من نوع إسقاط الأوراق أو كسر الأغصان ... إن انتشار فكرة الأممية بعض الانتشار بين أبناء تلك الأمة لا يزعزع بناء الوطنية زعزعة خطرة ، وكل ما يعمله ينحصر فى كسر ثورة الافراط ، وتخفيف أطماع التوسع والاستعمار ...

ثم تصوروا أمة — بعكس تلك — متأخرة فى حضارتها ، متفرقة فى سياستها ، مترددة فى وطنيتها ، استيقظت من سبات عميق فى عهد قريب ؛ فلم يمض على يقظتها الوقت الكافى لاختمار الفكرة القومية فى نفوس أبنائها ، فلم يتم بعد « تكوّن الشعور القومى » و « تأصل النزعة الوطنية » فى تلك النفوس . لا شك فى أن تأثير الرياح « الأممية » على أمة كهذه الأمة يكون خطراً جداً ، لأنه يوقف اختمار الفكرة القومية فى بدء عملها ، ويحول دون تكوّن الشعور القومى العام فى بدء عهده ؛ ويميت تباشير النزعة الوطنية الحق قبل أن تتأصل فى النفوس ..

إننى أعتقد بأن نظرة واحدة إلى حالة البلاد العربية والأمة العربية — على ضوء هذه الايضاحات — تكفى دلالة قطعية على أن انتشار النزعة الأممية — ولو قليلا — يكون مضراً جداً ، بل مهلكاً وقتالاً بالنسبة إلى أبناء الضاد ...

فينبغى علينا أن نبذل أقصى الجهود لمنع تسرب النزعة الأممية إلى النفوس فى جميع الأقطار العربية

هذا ، وقد لاحظت أن بعض الشبان ، فى مختلف البلاد العربية ، يخلطون بين قضية السياسة الخارجية وأمر النظم الداخلية خلطاً غريباً . فكثيراً ما يتساءلون خلال مناقشة مثل هذه المسائل : أية دولة أكثر مطامع في البلاد العربية ؟ هل لروسيا مطامع استعمارية فى البلاد العربية ؟ ألم يكن خطر الاستعمار الايطالى أكبر من سائر الأخطار ؟

إننى أعتقد أن وقوف هذا الموقف تجاه المسائل الداخلية والاجتماعية لا يتفق مع منطق السياسة والاجتماع ، لأن علائق الدول الخارجية لا تتأسس على أشكال نظمها الداخلية . فالدول تتفق أو تتخاصم حسب منافعها ، دون أن تنظر إلى مشابهة أشكال إدارتها أو مخالفتها . فقد رأينا — مثلا — خلال الحرب العالمية أن فرنسا اتفقت مع انكلترا وروسيا ، مع أنها كانت جمهورية ، فى حين أن انكلترا كانت ملكية دستورية وروسيا القيصرية كانت من الحكومات الاستبدادية . وقد انضم إلى هذه الدول الثلاث ، خلال الحرب العالمية ، عشرات من الدول الأخرى على اختلاف نزعاتها فى السياسة الداخلية

فيجب علينا أن نتنقد كل الاعتقاد بأن اعتناق أى مذهب اجتماعى لا يخلصنا من الأخطار المحدقة بنا ، كما أن عدم اعتناق أى مذهب من المذاهب الاجتماعية لا يعرضنا إلى أخطار خارجية غير الأخطار التى تحيط بنا ...

فعند ما ننعم النظر فى أمر صلاح أو عدم صلاح النظام الشيوعى لبلادنا لا يجوز لنا أن نبنى أحكامنا على سياسة إيطاليا أو روسيا فى الأمور الدولية بوجه عام ، أو فى أمور البلاد

العربية بوجه خاص ... بل يجب أن نفكر فى صلاح أو عدم صلاح هذا النظام بالنظر إلى أحوالنا الداخلية فقط ...

وربما كان وضع الدولة التركية تجاه هذه المسألة من أحسن الأمثلة وأقطع الأدلة فى هذا الباب

تعلمون أن تركية مدينة بشىء كثير من حياتها الآن إلى أوضاع روسيا السوفيتية ... لأن الدولة الروسية كانت عدوة تركيا التاريخية حتى نهاية الحرب العالمية ... غير أنها بعد أن تبلشفت تركت عداءها القديم ، بل بعكس ذلك أخذت تسند الدولة التركية ضد الدول الأوربية ، وصارت تساعدها بكل الوسائط الممكنة ، وفعلاً أمدتها بالأموال والأسلحة والعتاد خلال مناضلاتها الاستقلالية ، وحافظت على هذه السياسة نحوها منذ ذلك الحين . فتركية كانت أول دولة تصادقت مع روسيا السوفيتية ، وهى لا تزال من أخلص أصدقائها ... وهى مع كل هذا من أشد أعداء البلشفية ، وهى تطارد وتعاقب بشدة كل من ينتسب إلى الشيوعية أو يقوم بدعاية للشيوعية ... وروسيا البلشفية لا تزال صديقة تركية ، بالرغم من مخالفة الأخيرة للنظم البلشفية فى أمورها الداخلية ...

هذه حقيقة واقعية ... وكثيراً ما يصادف المرء فى الصحف التركية عدة فصول فى وصف حفلات التكريم التى تقام للوفود الروسية ... وبجانب هذه الفصول عدة فقرات تذكر أخباراً متنوعة عن محاكمة الأشخاص الذين سجنوا لانتسابهم إلى الشيوعية ، وعن الأحكام العقابية التى صدرت عليهم من المحاكم المختصة

فلا بد لي أن أذكر فى هذا الصدد كلمة مشهورة قالها أحد عظماء فرنسا خلال مناقشة برلمانية ، قبل مدة تزيد على نصف القرن : كان « جول فرى » من أبطال الفكرة العلمانية فى فرنسا . حارب الكهنوتية أشد المحاربة ، ووضع القوانين التى تحدد ساحة عمل رجال الدين تحديداً كبيراً ، وسعى طول حياته إلى حرمانهم حق فتح المدارس والاشتغال بالتربية والتعليم ... ومع كل ذلك لم يتوان عن مساعدة رجال الدين فى الأعمال التى يقومون بها خارج فرنسا ... حتى أنه لم يتردد أحياناً فى مساعدة أعمال الإرساليات التبشيرية بالوسائط الدبلوماسية أو بالقوة العسكرية ... فقد اعترض البعض على هذه السياسة المتناقضة ، واستنكروا حماية أعمال رجال الدين في خارج فرنسا فى نفس الوقت الذى كانت تمنع فيه هذه الأعمال داخل فرنسا ... فصعد « جول فرى » على المنبر وقال كلمته المشهورة : إن عداوة الكهنوت ليست من الأمتعة التى يجوز تصديرها إلى الخارج ...

وأراد أن يقول بذلك : إن عداوتنا للكهنوت يجب أن تبق من خصائص سياستنا الداخلية وحدها ... وهذه العداوة يجب ألا تمنعنا عن الاستفادة من رجال الدين فى سياستنا الخارجية فى أمر توسيع نفوذنا خارج فرنسا ...

إننى أعتقد بأن الوقائع والحقائق التى سردتها لكم لا تترك مجالاً للشك فى أن كل من يقول بوجوب اعتناق المذهب الشيوعى لدفع أخطار دولة أو لاسترضاء أخرى يكون قد سلك مسلكا لا يقره « منطق الحقائق » بوجه من الوجوه ...

فعلينا أن ننظر إلى القضية فى ذاتها كمسألة داخلية صرفة مجردة عن كل الاعتبارات الخارجية فنسأل أنفسنا : هل يجوز لنا أن نصغى إلى نداء الأممية الشيوعية أم لا ؟ ...

إننى أعتقد أن وضع المسألة على هذا الشكل الواضح لا يترك مجالاً للتردد فى الجواب اللازم لها ...

فقد قال أجدادنا :

بلادى وإن جارت على عزيزة ... وأهلى وإن ضنوا على كرام !

أعتقد أن هذا القول يتضمن أحسن وأبلغ الأجوبة على نظرية الأممية الماركسية ...

لا أود أن أقول ـ بذلك ـ إنه يجب علينا أن نترك الأمور على حالها ، فلا نفكر فى إزالة الجور عن أفراد الأمة ... بل أقول — بعكس ذلك — يجب علينا أن نبذل كل الجهود لإصلاح الأحوال وإزالة الجور بأعظم ما يمكن من السرعة ... على ألا نخرج فى أعمالنا وتدابيرنا عن مقتضيات الوطنية ، وأن نعتقد فى كل حين : أن الوطن قبل كل شىء وفوق كل شىء ...

ساطع الحصرى

فلسفة التربيـــة

تطبيقات على التربية فى مصر

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ١١ —

« التربية مهمة دينية ورسالة مقدسة »
« هربارت »
« من بدير المدرسة يوجه مستقبل الأمة »
« بسمارك »
« أم المسائل فى مصر مسألة التربية والتعليم ، فلو أن كل مصرى وضع فى تشييدها لبنة لأقنا للوطن صرحاً يبقى ما بقى الزمان »
« الملك فؤاد » (١)

١ — اليوم والغد

رأيت فيما سلف ضرورة الفلسفة للتربية ، وتبينت الكثير من تلك « الأصول العامة » التى تقيم عليها الأمم الديمقراطية الحديثة تربيتها الصالحة وتعليمها السليم . والحق أن ذلك كله لم يكن غير مقدمة عامة أحببت أن أمهد بها لنقد التربية والتعليم فى مصر وطننا المحبوب . فلعلك قد وعيت ما قدمتُ وتود صادقاً أن ترى إلى أى طريق نحن مسوقون ، وأين نحن من تلك الأصول وهاتيك الفروع . ولعلك تشعر معى أن مثل ذلك الموضوع خطير كل الخطورة ، ودقيق كل الدقة ، لأنه وحده بيت الداء ومناط الرجاء ، وأننا محتاجون فيه إلى كثير من الصراحة وسعة الصدر حتى نستطيع أن نشخص الداء على حقيقته ، ونقرر الدواء الناجع والعلاج الصحيح ! ثم لعلك ترى أننا اليوم فى عصر جديد يتطلب منا تربية خاصة تحقق الأمل فى توطيد الديمقراطية وصون الاستقلال ، وبعث المجد القديم ، وتزعم الشرق الحديث ، وإعلاء القومية إزاء مطامع الطامعين ، ومسايرة الحضارة جرياً وراء قفز المتقدمين ... ! أجل ، ولعلك قد استطعت أن تتبين أن نهضتنا الحديثة ما تزال مشوبة بضعف فى الخلق والتواء فى الشخصية ، وضيق في العقل وانحلال فى الشعور ، وأننا قد أصبحنا مهددين بثورتين جارفتين وقانا الله شرهما : إحداهما ثورة المتعلمين العاطلين ، والأخرى ثورة الجاهلين القانعين ...! أجل ؛ ولعلك قد استطعت أن تدرك أنه لا سبيل إلى تحقيق شىء من هذه المشروعات الاجتماعية الإصلاحية الكثيرة التى يقترحها المقترحون ، إلا إذا كوّنا أولئك « الرجال البواسل » الذين نستطيع أن نعهد إليهم حقاً بمباشرة تنفيذها ، لأن نفوسهم قد تهيأت بالفعل لها وآمنت بها ... وأن الدولة التى تنفق على التربية والتعليم كثيراً وتخصهما بأعظم عنايتها تحيط نهضتها بكل أسباب القوة والنجاح ، وتوفر على نفسها من الجهود والمشقات ، والأموال والاضطرابات ، مالا أول له ولا آخر (١) ...

لعلك إذن تعرف ذلك كله ، وتود حقاً أن تعلم أين نحن وإلى أين نسير ؛ وتعجب كل العجب من إغفال الأحزاب السياسية فى هذا البلد لقضية التربية والتعليم كجزء من برامجها لا يتجزأ ، وكخطة فى الإصلاح جوهرية لها فلسفتها المعقولة وحدودها المرسومة (٢) ، وكوسيلة لتحقيق الأمانى القومية تغنى عن التشريع المزعزع ، وتمهد لنتائج وأحوال مضمونة كل الضمان ومؤكدة كل التأكيد .. !

أجل ! ولعلك تعجب كذلك من ندرة البحوث التى يقدمها الكتاب والمحاضرون للرأى العام فيما بين الآن والآخر متعلقة بذلك الشأن ، ودائرة على الخصوص حول التجريح وإظهار العيوب ! ! كأنما الموضوع مقدس لا يجوز الاقتراب منه ! أو كأنما هو ضئيل الشأن فى حياتنا المادية والمعنوية فلا ضرورة للاهتمام به ! ! أو كأنما هو سر من أسرار الدولة لا داعى لإشراك الرأى العام فيه ! !

أجل ، ولعلك تقول معى الآن إن النهضات الكبرى التى

---

(١) من حديث جلالته رحمه الله تشرف بسماعه منه الأستاذ العمروسى وورد فى أول كتاب « فى التربية والتعليم » للأستاذ

(١) فمثلاً نشر التعليم بين الطبقات الفقيرة يقلل فيها الجرائم والأمراض فتقل بالطبع نفقات المحاكم والمستشفيات والسجون ... ومثلاً بناء منازل صحية للقرويين قبل غرس مبادئ الصحة فيهم لا يؤدى إلى أكثر من استبدال بيت ببيت ! !

(٢) تحررت ألمانيا من بطش فرنسا عن طريق إصلاح مدارسها وانتصرت إنجلترا فى الحرب العظمى عن طريق ملاعبها ! !

ازدانت بها صفحات التاريخ لم تقم إلا على أساس من النقد الذى هدم البالى وأقام الجديد ، وأننا فى نهضتنا وظروفنا الحاضرة محتاجون كل الاحتياج إلى هذا النقد الحر النزيه ، وإلى سعة فى الصدر تسمح به وتشجعه وتقابله بالكثير من الهوادة والرفق ، وتصفح عما قد يتعرض له من خطأ وشطط ... !

قالوا وما زالوا يقولون : لنستر العيوب لنستر العيوب ! وأقول وما زلت أقول : وماذا بعد ستر العيوب ؟ وما جدوى السير فى طريق شائك نهايته تعسة إذا كانت القافلة التى تسير فيه هى قافلة الأمة ؟ ؟ على أنى لست أذهب في التشاؤم إلى هـذا الحد فأدعى أن تعليمنا شائك كله ونهايته تعسة كلها ؟ ! بل إنه لمن الخير أن أسجل بمداد الفخر أننا قد بدأنا نلمس الضعف منذ أعوام ونعمل على إصلاحه ، فراحت وزارتنا تطلب رأى الخبيرين ، وراح أحد وزرائنا يكتب بنفسه فى التعليم الثانوي ، وأقيمت بالفعل مدارس جديدة ، وأدخلت إصلاحات مهمة وخطيرة . هـذا إلى ما يُدرس الآن تمهيداً لاعتماده وتنفيذه... وتلك ولا ريب باكورة طيبة تذكر بالشكر لرجال المعارف ويرجى منها خير جزيل . وما دام الأمر كذلك فلا مندوحة لنا كرجال تربية من معاونة الوزارة فى مهمتها بتقديم آرائنا وتجاربنا وكل ما نملك من قول أو فعل يحقق للوطن أمانيه وينجيه من عيوبه وأمراضه ...

فترى ما هي هذه العيوب وتلك الأمراض ؟ كل منا يستطيع أن يذكر الكثير من ذكرياته كطالب ومن تجاربه كمعلم ، وكل منا يستطيع أن يقرر أن ماضينا كطلبة ملئ بألوان من التربية لا تتفق وتلك الأصول التى قدمناها في كثير ولا قليل ، ولا تصلح إلا لأن تكون ذكريات مرة فيها ما يضحك ويبكى ويؤلم ويؤسف(١) ، وكل منا يستطيع أن يقرر أن حاضره كمعلم مشوب بأساليب من النقص بعضها هين يسير وبعضها ثقيل عسير . ومن اشتغل منا « بالتعليم الحر » أو درسه عن كثب يستطيع أن يقدم للقراء قصة فيها من المآسى والفواجع ما يثير التقزز والاشمئزاز ويبعث على الأسف والرثاء(٢) ؛ ولقد كنت أعد نفسى

(١) وحسبك أن تذكر هنا العصا والحبس وغيرهما خصوصاً إذا كنت قد أمضيت صباك فى غير مدارس الحكومة

(٢) ولا وجود بالطبع لمثل هذه القصة فى الجمعيات المحترمة التى لا تبغى الربح بقدر ما تبغى خدمة الأمة . وقد شربت بنفسى الكأس المرة فى إحدى الجمعيات « الأخرى » وأطمع أن أعرض على القراء فى الفرصة المناسبة قطرات منها ليعلم من يريد أن يعلم أهي جمعية للدين ونبل الأخلاق أم هى عصابة لسلب المال عن طريق مستور !!

وأنا — أكتب مقدمتى للقراء — لمثل هذا النقد البرئ ، فوقعت فى يدى رسالة حديثة صغيرة بالانجليزية لأحد أساتذة المعهد(١) وهو الدكتور « جاكسون » ، تناول فيها بعض نواحى التربية فى مصر بالنقد الحصيف والاقتراح الصائب ، فأعجبت بها كل الاعجاب ، وشعرت أنها قد ذكرت الكثير مما كنت أريد وزادت عليه ، ولذلك لم أر بداً من تلخيصها والتعليق عليها وتقديمها لقراء العربية كنظرة عامة جادت بها قريحة انجليزى خَيِّر خدم التربية فى مصر ودرسها عن كثب ، وأبى إلا أن يرد لهذه البلاد العزيزة فضلها عليه بشئ من النقد والإرشاد

فإلى اللقاء إذاً حيث نستعرض هذه النظرة ونتبعها بأخرى . وإلى اللقاء حيث أسمعك ما قد يصلنى من إجابات حضرات رجال التعليم من مفتشين ونظار ومعلمين على الأسئلة الآتية :

١ — ما هى أهم عيوب التربية المصرية فى العصر الحاضر ؟

٢ — وما هى الأغراض التى يجب أن تتوخاها التربية المصرية حتى تحقق للوطن أمانيه الجديدة ؟

٣ — وماذا يروقك فى ماضى التربية وحاضرها ؟(٢)

« يتبع »

محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بشبرا الثانوية الأميرية

(١) معهد التربية

(٢) أكون شاكراً كل الشكر إذا تكرم حضرات رجال التربية بردود مختصرة على هذه الأسئلة

محنة الآنسه « مي »

للأستاذ عبد الله مخلص

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

عزيزي صاحب الرسالة

سلام الله عليك ورحمته . وبعد فقد ذكرتم في العدد ٢٣٨ من (الرسالة) الغراء تماثل النابغة الآنسة (مي) زيادة من مرضها الذي لازمها نحو عامين ، وبشرتم أهل العلم والفضل بهذه البشرى التي أثلجت الصدور وأقرت الأعين ، فقمتم بعملكم هذا بحق الأدب عن كل أديب جزاكم الله خير الجزاء

ولكن قارئ هذا الخبر يظن أن الآنسة (مي) كانت حقيقة مريضة في لبنان وأنها الآن في دور النقاهة ، مما يخالف الواقع ويسدل ستاراً كثيفاً على المأساة التي أراد بعض من لا أخلاق لهم أن يمثلوها ويحولوا بين هذه العبقرية وبين ما كانت تنثره من الدرر الغوالي وتبديه من الأفكار النيرة وتخدم به المجتمع العربي

وأظنكم لا تضنون على قادري قدر (مي) وعارفي فضلها بإزاحة ذلك الستار الأسود عن تلك النفوس المريضة والوجوه السود التي قذفت بأرق شخصية أدبية في المارستان ثم بالمستشفى تحت جنح الظلام ومنعتها من الاختلاط بالناس فجعلوا منها ميت الأحياء

وعلى هذه العقيدة أكتب للرسالة الغراء — لا لك ولا لي ، ولكن للحقيقة والتاريخ — عما أصاب (مي) من المصائب ، وانتابها من النوائب ، في خلال السنتين المنصرمتين حتى عادت شبحاً من الأشباح تنقم على البشرية الظالمة وتعتب على جيرانها الأقربين ، وخصوصاً سيدات العرب اللائي انتصرت لهن في كل مواقفها . وإلى القارئ العزيز فصول هذه المأساة وله أن يحكم بنفسه في أي عصر من عصور المدنية نحن ؟ وما هذا الذي يجري في معاهد العلم والفن من المآسي والمخازي التي تشيب لهولها الولدان وتضطرب الأفئدة ؟

لا شك في أن كل أديب وأديبة في لبنان ومصر وفلسطين وسورية والعراق وجميع بلدان العرب يعرفون فضل (مي) على النهضة العلمية عامة والنهضة النسائية خاصة ، ولكنهم ربما لا يعرفون أين نبتت هذه الزنبقة العطرة ، فرأينا أن نقتضب من سيرتها ما يجب معرفته

الآنسة مي هي ماري ابنة المرحوم الأستاذ إلياس زيادة من عرمون عزيز في لبنان الذي كان مسقط رأسها ومنبت غرسها كما كانت مصر التي انتقلت إليها مهبط أنسها ومهوى نفسها

وهناك في بلد العلم في العالم العربي بدأت حياتها المجدية المفيدة فنشرت كتاب باحثة البادية [1] وهو بحث انتقادي طبع سنة ١٩٢٠ ثم عززته بثان وثالث هما ابتسامة ودموع أو الحب الألماني طبع سنة ١٩٢١ ، وكلمات وإشارات وهو يحتوي على خمس عشرة خطبة ألقتها في مناسبات مختلفة وهو أول كتاب جمعت فيه خطب سيدة شرقية عربية وقد طبع سنة ١٩٢٢

ثم كتاب بين الجزر والمد ، ودمعة وابتسامة ، وظلمات وأشعة ، وقد طبعت جميع هذه الكتب في سنة ١٩٢٣

ثم كتاب الصحائف الذي طبع سنة ١٩٢٤ وكتاب سوانح فتاة والمساواة ، غير الأبحاث الناضجة والآراء الاجتماعية الصائبة التي كانت تنشرها في المجلات والصحف حتى وصلت إلى درجة كانت جريدة الأهرام الكثيرة الأنصار الواسعة الانتشار تفتح لرسائلها صدرها وتجعلها أولى مقالاتها

ومما يدل على علو منزلة الآنسة (مي) أن بين الذين قرظوا كتابها (المساواة) الأمير شكيب أرسلان فكتب له المرحوم الدكتور يعقوب صروف أحد صاحبي المقتطف رسالة جاء فيها ما يلي :

« والمساواة مقالات نشرت أولاً تباعاً في المقتطف ثم جمعت وطبعت كتاباً على حدة فراقني جداً وصفكم له ، وأرجح أنها لم تترجم شيئاً ترجمة لأنها تتكلم مي في كل الموضوعات الأدبية والفلسفية كما تكتب ، فإنها قوية الذاكرة إلى حد يفوق التصور ، وقد قرأت كثيراً من الكتب في اللغات التي تحسنها : الفرنساوية والانكليزية والايطالية حتى لقد تستشهد في كلامها مي بأبيات من شكسبير أو بيرون كما تستشهد بالمتنبي والمعري

وحفظت أيضاً كثيراً من قصائد شوقي والمطران وحافظ وأظنها تصوغ معانيها في ذهنها بالفرنساوية والانكليزية قبلما تعبر عنها بألفاظها العربية »

(١) هو الاسم المستعار الذي كانت تتستر وراءه السيدة ملك ابنة العالم المصري المعروف المرحوم حفني ناصف في كتابة مباحثها النسائية

وشاء القدر أن تفقد مي والديها واحداً إثر واحد كما يفقد كل إنسان أبويه في هذه الحياة ، ولكن مي الشاعرة العطوف الرقيقة الحواس تزلزل منها هاتان الصدمتان قوتها واحتمالها ، وتساورها الهموم والأحزان فتقبع في عقر دارها تناجي نفسها وتندب حظها بفقد أعز الناس عليها ، فيأتي إليها بعض ذوي قرباها في ثياب الحمل وهم ذئاب خاطفة ويحملونها على السفر إلى لبنان وطنها الساحر على أمل أن تجد في جوه الجميل ومائه النمير ومناظره الخلابة وجباله الشم ماترفه عن نفسها المشوبة بالأكدار

وتحقن مي بمصل مخدر سواد ليلة من الليالي فتصبح بياض نهارها بين المجانين في مستشفى الأمراض العقلية المسمى بالعصفورية في ضاحية بيروت فتثور ولكن على من ؟ وتستنجد ولكن بمن ؟ إنها أصبحت في عداد الذين أفقدتهم صدمات الحياة الرشد وأقعدتهم المصائب هـذا المقعد الأليم . وتنقطع مي عن الطعام والشراب إلا ما تسد به الرمق وتستبقي بواسطته الحياة

وبعد أن تقضي السنة في ذلك المارستان [1] ينقلها أولئك الذئاب إلى مستشفى ربيز في بيروت ولكن يحوطونها برقابة شديدة ويمنعونها من الاختلاط بأحد لئلا يطلع على ما بيتوا لها من شر مستطير وأعدوا لها من ظلم صارخ فتتم سنة أخرى بين العقلاء الذين لا تستطيع الدنو منهم والتحدث إليهم

ويسعف الحظ فيؤتى بسيدة من آل الجزائري في دمشق إلى المستشفى وتوضع في غرفة مجاورة لغرفة مي السجينة فتسمع (مي) صوت السيدة وهي تتململ في فراشها من شدة الألم الذي أعقب عملية جراحية فتفتح الباب الموصل بين الغرفتين بجهد وتدخل إلى غرفة السيدة الجريح لمواساتها على تخفيف آلامها وتكرر مي هذه الزيارات ليلاً في خلسة من الرقباء

وتستأنس السيدة الجزائرية بجارتها الحنون لا سيما بعد أن اندمل جرحها فتسألها عن حالها وسبب مقامها في المستشفى فتنفجر (مي) بكل ما في نفسها من آلام وتشكو أمرها وما تقاسيه من عنت الظالمين إلى السيدة التي تألم كثيراً لها وتستعين بأوليائها من الرجال على كشف مظلمتها ويقوم هؤلاء السراة الأمجاد أحفاد الأمير عبد القادر الجزائري ويعملون على إطلاق سراحها

وينتهي الأمر بتدخل إدارة الأمن العام وإخراج (مي) النابغة من سجنها

فتعود الذئاب الخاطفة التي تخشى أن ترد إلى (مي) حقوقها الشرعية بالتصرف في أموالها وحليها ومكتبتها الغنية التي وضعوا أيديهم عليها ظلماً وعدواناً ، وتصرفوا بها تصرف المالك في ملكه اعتسافاً وطغياناً — يعودون إلى مزاعمهم الأولى من اختلاط عقلها وضعف مداركها ويلحون باستشارة أهل الاختصاص من الأطباء ، وتكون النتيجة دعوة طبيبي مستشفى العصفورية وربيز لمعرفتهما السابقة بحالتها وطبيبين آخرين ، فتقرر هذه الهيئة الطبية المستشارة أن حالتها الحاضرة تبعث على الرضى ، ولكن بالنظر لضعف جسمها يخشى أن تتأثر أعصابها مرة أخرى ، ولذلك يشيرون عليها بقضاء دور النقاهة في منزل مناسب ببيروت

وتنقل بالفعل إلى ذلك المنزل هي وممرضتها الموكول إليها أمر العناية بها والقيام على حاجاتها ولوازمها

وعقيدة الطبيب في مريض من مرضى العقول لها تأثيرها في نفسه ، فهو يظن به الظنون ولا يريد أن يقتنع بصحة مداركه مهما كانت ظواهره حسنة ولعل هـذا هو الذي حدا بالطبيبين المداويين لها قبلا على الإصرار على رأيهما فيها إن لم يكن هناك دافع آخر يدفعهما إلى ذلك التعنت

ويستمع الناس ولا سيما الطبقة المستنيرة إلى ما آل إليه أمر (مي) فيأتون زرافات ووحداناً إلى كعبة الفضل يحجون إليها ويكون في طليعة هؤلاء الحجاج الكرام صديقنا فارس بك الخوري رئيس المجلس النيابي السوري وقرينته الفضلى . واستمع إلى ما يقوله هذا الرئيس الجليل لمندوب أكبر صحيفة يومية لبنانية عن الآنسة (مي) :

« يمكنني أن أقول بكل صراحة إنني تحدثت إلى أناس كثيرين في بيروت فلم أر فيهم من هو أعقل من الآنسة (مي) . وأزيد على ذلك أنني سمعت من بعضهم أخطاء لم تفه (مي) بواحد منها . فهي بحالة عقلية تامة ، ولكن صحتها الجسدية ضعيفة جداً

(١) بيمارستان كلمة فارسية استخدمها العرب للمستشفى الذي يوضع فيه المرضى والأعلاء ولكنهم اليوم يطلقونه في بلاد الشام على مستشفى الأمراض العقلية الذي أقيم في بعض المارستانات القديمة ويقولون له مارستان كما عربوه قديماً

ومما قالته لي والألم ينبعث من عينيهـا : « تصور مى زيادة على بعد عشرين دقيقة من بيروت قلب الشرق العربي وعاصمة لبنان الجبل الخالد ومهد الحضارة والنور وأم الجامعات والمؤسسات العلمية ودار الجميات الأدبية والخيرية ومركز جمعية النهضة النسائية . أجل تصور (مى) سجينة على بعد عشرين دقيقة من البلد الذي ذكرت »

ثم تلتفت مي إلى السيدة قرينته فتقول لها :

« أهذا ما كنت أنتظره يا سيدتي ؟ أهذه هي المكافأة التي أعدتها لي المرأة الشرقية بعد جهاد طويل ؟ أهذا ما تلقاه الأديبة في الشرق ؟ »

ولم يقتصر عمل فارس بك على الإدلاء بآرائه إلى الصحف ، بل إنه ذهب وبرفقته الأمير عادل أرسلان إلى ندوة المجلس النيابي اللبناني وتحدث عن زيارته لي وعن الأثر المؤلم الذي تركته هذه الزيارة في نفسه

وشاع ما عوملت به مى من العمل السيء وذاع في لبنان فراع الناس ما سمعوا وأذهلهم ما قرءوا ، فاندفع أنصار الفضيلة إلى الأخذ بضبعها وشد أزرها ورد عاديات العادين عنها ، وتقدم الجميع المحامي المشهور معالى الأستاذ حبيب أبي شهلا وزير الداخلية السابق في الحكومات اللبنانية المختلفة ، وتطوع للدفاع عن حقها الهضيم وحريتها السليبة أمام القضاء الذي أقيم لإنصاف المظلوم من الظالم ، والأخذ للضعيف من القوى ، فسر الناس لهذه الغضبة المضرية والنعرة الانسانية ، وبدءوا يذكرونها بكل شفة ولسان ، ويكبرون هذا العمل من شخصية كبيرة مشهورة في الأوساط القضائية والادارية ، وهم على مثل اليقين من حصول القصد ونجاح المسعى لما عرف عن معالى الأستاذ أبي شهلا من قوة الحجة ووفور العلم وصحة المنطق مما يضمن الفوز له في هـذا المعترك

وبلغ أمر مى إلى أسماع الفلسطينيين الذين يجلون هذه النابغة ويبجلونها ككل عربي فقامت أقرب مدينة من فلسطين إلى لبنان وهي عكا تثأر للفضيلة وتنتصر للعلم والأدب وتقـدمت بواسطة الهاتف برسالة إلى المحامى الأستاذ حبيب أبي شهلا على يدي كاتب هذه السطور هذا نصها :—

إن يحدثكم الآن وحوله جماعة من أدباء وعلماء هذه المدينة التاريخية عكا يتوجهون بخالص الأماني وكبير الرجاء إلى الوزير الذي لم تبطره النعمة ولم تمنعه من الدفع عن المظلومين لتتولوا بما عرفتم به من الهمة المشكورة والغيرة المحمودة الدفاع عن مفخرة أدبيات العرب في القرن العشرين ونابغة النساء في الأقطار العربية الآنسة مى زيادة

إن إنقاذها من هـذه الكارثة يسجل لكم يداً كبيرة مشكورة بيضاء في خدمة الأدب العربي واللغـة العربية فنرجو أن يحقق الله على يديكم هذه المبرة العظيمة لنهضة النساء في هذا الشرق العربي المتطلع إلى المستقبل الباسم بهمة أمثالكم وتقبلوا تحياتنا في هذه المدينة ...

ومما أذكره عن (مى) أني كنت في بيت المقدس في أوائل سـنة ١٩٢٣ فجاءته الآنسة (مى) زائرة دارسة وراح الأدباء والفضلاء للترحيب بها والتعرف إليها ، وقصدت أنا ورفيق لي إلى زيارتها في النزل الذي نزلت فيـه فلم نجدها إذ ذاك ، وفيما نحن عائدون قال لي صاحبي وهو يحاورني : أتدرى أن علم (مى) جنى عليها ؟ فقلت له : أفصح عما في ضميرك فيظهر أن للكلام بقية . فقال : أنا أحد الذين كانوا يرون السعادة كل السعادة في الاقتران (بمى) لما وهبها الله من الخلق الجميل والصفات الطيبة ولكني كنت أرى أن مستواها العلمي فوق مستواى فلم أجرأ على طلب يدها . قال : وكان لي أمثال كثيرون ولكنهم كانوا يرون رأيي فيها وكنا حين نلتقي بمى النابغة نشعر بعاطفة الاكبار والاجلال لآدابها الرفيعة

والذي قال لي هذا القول لم يكن من عامة الناس بل هو من خريجي الجامعة الأميركية ومن أصحاب الثروات الطائلة والذين أثروا في الحياة الاجتماعية والمدنية ، ولكنه كان يرى نفسه دونها في العلم والفضل ويعترف بذلك ، فانظر ماذا كان مصير هذه العلوم والفضائل بين أعدائها الألداء ، عاملهم الله بما يستحقون وأذاقهم عذاب الهون

عبد الله مخلص

التاريخ في سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الأحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

— ٤ —

يا شباب الوادي ! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم

وماذا يصنع وقد خذل في الانتخاب وآل الحانوت إلى ما آل إليه جزاء بما فعل صاحبه ؟ الحق أنه ألقى نفسه في مأزق ولعله كان يندم بينه وبين نفسه أن ترك حياة الغابة ... ماذا يصنع ابراهام ليكسب قوت يومه ؟ ليس أمامه الآن غير التجارة ، لذلك اتخذ له شريكاً واشترى ما بقي من الحانوت من ذلك الرجل الذي اشتراه من قبل وعاد يبيع الناس من بضاعته ، وقد حمل العبء كله إذ كان صاحبه لا يكاد يفيق من سكره . على أنه كان عبئاً هيناً إذا كان البيع قليلا لقلة البضاعة ولقلة المشترين . وكان في البلد حانوت آخر سطا عليه أولئك الفتية المعتدون لما شجر من خلاف بين صاحبه وبين زعيمهم آرمسترنج ، وعرض صاحب ذلك الحانوت بضاعته للبيع فاشتراها ابراهام ، ولكن بطريق الدين ؛ كتب على نفسه مائتين وخمسين دولاراً وعد بدفعها حين يتيسر له ذلك ... ولكن صاحبه لا يكاد يفيق من سكره فهو كلٌّ عليه أينما يوجهه لا يأت بخير ؛ وليس لدى أيب مال ليدفع إليه نصيبه ويخلص منه .

وأراد الله أن ييسر له أمره بعض اليسر ، فاختير حاملا للبريد في تلك الجهة ؛ اختاره القائمون بالأمر لما علموا من أمانته ونشاطه ؛ وفرح ابراهام بما ساقه الله إليه ، فقد حاقت الخسارة بالتجارة وخرج منها بدين أثقل كاهله كان يسميه لفداحته بالنسبة إليه الدين الأهلي ! ... فرح ابراهام بعمله الجديد وأقبل عليه في همة إذ أتاح له ذلك العمل أن يتصل بالناس وأن يتعرف أحوالهم ويدرس طبائعهم من قرب ، وهو كاف بذلك حريص عليه يريد به أن ينفذ إلى أعماق النفس كما هو شأنه في كل ما يعرض له . وحبب إليه ذلك العمل ، فوق ما كان من اتصاله بالناس ، مامهده له من سبل القراءة ، فهو يقرأ الصحف قبل أن يعطيها أصحابها ، وهو يلتهم الكتب في ساعات فراغه التهاماً . وكان أكثر ما يقرأ يومئذ كتب القانون ، ولعله كان ينوي أن يتخذ المحاماة عملاً له ، فلقد كان الناس يأتونه ليحكموه فيما يشجر بينهم من خلاف ، وهو عندهم القوي الأمين ؛ لا يتحيز إلى شخص أو فئة ، ولا يتعثر في أمر ، ولا يسمح لأحد أن يلبس أمامه الحق بالباطل ، كل ذلك في رفق ودراية ولباقة ... وكان إذا عرض له أمر رده إلى ما عرف من القانون ليتبين وجهه ، أو أفاد من دراسته وبحثه علماً جديداً . وقد ألقت الأقدار إليه ذات يوم كتاباً في القانون يقع في أربعة أسفار عثر عليه كما يعثر على كنز . وبيان ذلك أنه اشترى بثمن بخس من رجل انتوى الرحيل بعض متاعه ، وكان صندوقاً به أوراق ، قلبه فعثر في قاعه على كنزه وهو كتاب « نظرات في تاريخ انجلترا » لمؤلفه بلاكستون ، وكان من أشهر ما كتب في القانون في تلك الأيام !

وهو يعيش اليوم على راتبه الضئيل من عمله في البريد ومما كان يرسله الناس من قوت إلى الأسرة التي كان يقيم بينها نظير ما كان يقدمه إليهم من نصح أو يسوي بينهم من خلاف . وإنك لتلمح شخص المحامي الناشئ في شخص عامل البريد هذا ... على أنه تقدم فعلاً ليدافع عن بعض الناس أمام المحلفين في بعض

الجلسات القضائية فى تلك الجهة . وعرف بسداد الرأى وقوة المارضة ومتانة الحجة ، وما وقف يدافع يوماً إلا عما يعتقد أنه الحق

ومست قلبه فى تلك الأيام لذعة من الألم ، فقد ألم به ما يلم بالشباب من علل الشباب ، وانعقدت أمام بصره سحب قاتمة من الهم كان مبعثها مادب فى قلبه من أمل جديد نحو آن ابنة صاحب الخان ، فلقد علم ، وهو صاحب البريد ، أن فتاها انصرف عنها ونسى ما كان بينها وبينه لما نزل بأبيها من فاقة ، وخيل إلى أيب أنه اليوم يستطيع أن يصل إلى قلبها ، لولا مزاحم جديد يُدِلُّ عليه بماله وهو لا يدانيه فى كفاية ولا خلق ... على أنه فى خجله من النساء لا يعرف ما يأخذ مما يدع ، فهو فى حيرة من أمره ، وهو كما علمت متقد العاطفة موفور القوة مشبوب الخيال ، وذلك ما صور له طيوفاً من الشجن أخذت تتزايد حتى ليضيق بها قلبه ويكاد الأمر أن يصل به إلى القنوط . روى عنه أنه قال لأحد خلانه : « ربما ظهر منى حينما أكون فى رفقة أننى أستمتع بالحياة فى نشوة ، ولكنى إذا أويت إلى عزلتى أخذتنى غالباً حال من الهم حتى لا أجرؤ أن أحمل معى مبراة »

وللشباب هواجس وأحلام يحار المرء فى تفسيرها وتعرف مصدرها ، فهى من خفايا النفس الإنسانية ، وكثيراً ما ينقبض المرء وهو فى حال من الرضا أو هو فى مثل حال الرضا ... هل كان مرد همه إلى طموح نفسه وتوثب همته ؟ أم كان ذلك إلى نوازع قلبه وهواجس خاطره ؟ هل كان أيب يحب آن حقاً كما يكون الحب ، أم أن إحساسه بما ينقص قدره فى أعين الفتيات كان هو مبعث هواجسه ومدعاة زلفاه ؟

إن فى انصرافه إلى عمله وهو يحمل الخطابات فى قبعته من دسكرة إلى دسكرة ما يلهيه بعض الوقت ، وإن له فى الكتب لعزاء وسلوة : له فى شكسبير وبرنز ما تأنس به روحه ويثلج خاطره ، وله فى تراجم العظماء — وقد كان مقبلا عليها — من معانى السمو ومواقف البطولة ما يبهج نفسه ويثبت قلبه

وأضيف إلى عمله فى البريد عمل آخر دله عليه أحد خلصائه وهو تخطيط الأرض ورسم الصورات للطرق الجديدة التى كانت الحكومة تنشئها وتوضح معالمها للناس ليهتدوا بها فى مسيرهم فى تلك الأصقاع . ولقد حذق ابراهام هذا العمل الجديد وصار بعد توزيع البريد — وهو قليل — يحمل منظاره ولوحته وقلمه ويتنقل بين الأحراج يرسم الطرق ، وكان يأتى ذلك بما عرف عنه من الدقة فى كل ما يعهد به إليه ... ولكن الدائنين لم يدعوه فيما هو فيه ، فأقبل أحدهم وباع جواد ابراهام وسرجه ولجامه فى مزاد نظير ماله ؛ وقد عزّ على ابراهام أن يشهد هذا البيع فابتعد حتى يتم ؛ ولكن صاحباً له يدعى جرين تقدم فدفع المال المطلوب وخلص له الجواد ولقيه فقال له : « رد لى هذا المال حينما تصبح قادراً على ذلك ، فإن لم تقدر فلا عليك منه ياصديق » وأراد بعض الدائنين أن يبيعوا تلك الأدوات التى يقتات من العمل بها فجمع لهم بعض ذوى المروءة من أهل الجهة ما كانوا يطلبون من المال وأعفوا أدوات صاحبهم من ذلك البيع . ولقد مات جرين بعد حين وقام ابراهام يرثيه فاستعصت عليه الكلمات ولم يجد لديه غير الدموع

وجاء موعد الانتخابات وتقدم ابراهام من جديد يقدم نفسه للناس ، وكتب له النجاح هذه المرة ؛ وذهب ليتخذ مقعده فى مجلس الينويس نائباً عن جهة سنجمون وكان المبدأ الذى نجح عليه هو مبدأ الهوجز إذا أردنا السياسة ، وهو مبدأ الفضيلة والنبل والسمو إذا أردنا الخلق ...

ذهب عامل البريد ومخطط الأرض إلى حيث يجلس مع المنتخبين، وإن له فى السياسة لشأناً بعد حين . هو الآن فى الخامسة والعشرين وقد اختاره الناس لما خبروا من خلاله وما رأوا من من سعة اطلاعه ورجاحة عقله ؛ ولكنه فقير فكيف يذهب فى ملابسه البالية إلى المجلس ؟ ... اقترض ذلك الشاب المدخر لرياسة أمريكا فى غد — بعض النقود فاشترى حلة جديدة وذهب إلى فانداليا عاصمة الينويس فاتخذ مكانه بين ممثلى الولاية ... جلس يدرس ويفكر ، لا تفوته عبارة ولا تفلت منه قضية ، وكانت مشكلة العبيد تشغل بال الناس يومئذ فى وضع من أوضاعها ، كما كانت تشغل بالهم أمور أخرى تنحصر فيما كانوا يتوخون من وجوه الإصلاح فى التجارة والصناعة وسبل الاتصال . اتضح من خلال إبراهام فى المجلس ما عطف عليه القلوب ، فقد رأى منه زملاؤه الإخلاص والحماس فى غير تعصب ، فهو يدافع عما يعتقد أنه الصواب أو الحق فى قوة وفى إصرار يشبه العناد ، حتى إذا تبين له أن الحق فى جانب مجادله سلم له فى سرعة تسليم

الرضاء والغبطة . ورأى منه زملاؤه فوق ذلك قوة فى التعبير عما يريد كان مبعثها حسن اختيار اللفظ أو كان مبعثها لقانة تواتيه بالكلمة المطلوبة لا تزيد ولا تنقص . ولقد أعجبوا منه بتلك الخلة التى ستكون فى غد جانباً من أهم جوانب زعامته ... وأنسوا منه خارج المجلس إلى خلة أخرى من خلاله اشتهر بها منذ كان فى الغابة ، تلك هى تلاوة الحكايات ، فهو ما يفتأ يقص عليهم من قصصه ما يطربهم ويعجبهم

وكان ابراهام يزور نيوسالم كلما سمح له وقته بزيارة . وهو اليوم يحب آن كما يكون الحب . أ كبرت صفاته وأعجبت برجولته وصارت لا تعدل به غيره ؛ ثم أحبته وليس بعد الحب رابطة . وأنى ابراهام نفسه — وهو من عرفت قوة عاطفة وصحة وجدان — فى ربيع العمر حقاً ، لا يرى حوله إلا جمال الربيع ونشوة الربيع ، ولا يحس إلا سحر الربيع ووحى الربيع ، يروح ويغدو مع صاحبته وكأنهما من فرط مرحهما طائران من طيور الخمائل ... ولكن وا أسفاه ! لن يطول هذا الربيع ، بل إنه لينقلب إلى جحيم فى سرعة خاطفة ! ... نزلت الحمى كما نزلت من قبل فى كنتوكى فكان من ضحاياها طائره الجميل ! وغدا ابراهام يرمض الحزن قلبه ويأكل الجوى أحشاءه ... وتلك هى الصدمة الثانية بعد فجيعته فى أمه تحل به ، فكأنها الضربة تأتيه فى مقتل ! لقد وهنت عزيمته وخارت قوته وذوى عوده ، وصار الناس يرونه أحياناً هائماً على وجهه وهو يهذى كأن به جنة ، حتى نصح له طبيب أن يرحل ، فنزل ضيفاً عند أسرة صديقة كانت تقيم فى مكان بعيد عن نيوسالم ، ولكن همه ذهب معه إلى هناك حتى لقد شاطره الحزن ذات ليلة نفر من جلسائه حين سمعوه يصرخ من أعماق قلبه : « لا أطيق أن أذكر أنها ترقد هناك وحدها حيث ينزل المطر وتصخب العاصفة فوق قبرها » ولكم قطع من الأميال مرات بعد ذلك على قدميه فحج إلى ذلك القبر وبلله بدمعه !

ولكن اليأس يسلمه ثانية إلى الحياة حيث لا حيلة فى البلوى ولا معدى عن الحياة ... ويحين موعد الانتخابات مرة ثالثة فيتقدم فيفوز وقد ازداد الناس محبة له كما ازدادوا له إكباراً بقدر ما اكتسب من خبرة فوق ما سلف من خبرته ، وأظهرته الانتخابات هذه المرة للعامة خطيباً كأحسن ما يكون الخطيب ، قام يحمل عليه أحد خصومه من الحزب الديمقراطى ، وكان قد حصل بتغييره مبدأه على مرتب سنوى غير قليل ؛ وقد علم الناس أنه كان يقيم فى منزل أنيق فى سبرنجفيلد فى قمته تلك الحديدة التى يضعونها هناك لتمنع الصواعق . ولقد أسرف ذلك الخصم فى الطعن على ابراهام وأعلن أنه يريد أن يحط من قدره في نفوس الناس . فوقف ابن الأحراج ورد عليه بقوله : « رأى هذا السيد أن يشير إلى حداثة سنى ، ولقد نسى أنى أ كبر فى العمر مني فى ألاعيب الساسة وتجارتهم . إني أود أن أعيش كما أود أن أرقي وأن تلحظ مكانتى ، ولكنى أفضل الموت على أن أحيا فأرى اليوم الذى أفعل فيه ما فعل ذلكم السيد ، فأغير مبدئي من أجل ثلاثة آلاف دولار فى العام ، وأرانى بعد ذلك مضطراً أن أقيم على رأس بيتى مانعة للصواعق لأحمي ضميراً آثماً من غضب رب أسأت إليه »

وإنك لتتبين مهارته السياسية فوق ما تلمح من صفاته فى هذا الخطاب الذى أرسله إلى أحد رجال الحزب الديمقراطى .

كتب لنكولن [1] « أنبئت أنك أذعت فى النـاس أثناء غيابى فى الأسبوع الماضى أن لديك حقيقة أو حقائق لو اطلع عليها الناس لقضت نهائياً على أملي وأمل ن . ادوارد فى حركة الانتخاب القائمة ، ولكنك تأبى عليك مجاملتك إياى أن تعلنها . وأنا أقول لك إنه ما من شخص يطلب الجميل أ كثر مما أطلب ؛ كذلك قلَّ فى الناس من يقبل الجميل كما أقبل ؛ ولكن الجميل إلى فى هذه الحال معناه الجور فى حق الناس ؛ ولذلك فإنى أستميحك أن تنصرف عنه . إن حيازتى ثقة أهل سنجمون ذات مرة أمر واضح ؛ فإذا كنت قد أتيت أمراً من شأنه إذا عرف أن يحرمنى تلك الثقة ، سواء كان إتيان ذلك الأمر عن إصرار أو عن خطأ فإن الذى يعرف هذا الأمر ثم يخفيه إنما يخون صالح بلاده . وأنا لا يقوم فى ذهنى شىء عما عساه أن تكون الحقيقة أو الحقائق التى تتحدث عنها واقعية كانت أو مزعومة ؛ بيد أن ما أعهده فيك من الصدق لا يسمح لى برهة أن أشك فى أنك على الأقل تعتقد ما تقول . إني أرانى مديناً لك بهذا الاعتبار الشخصى الذى أظهرته نحوى ، ولكنى آمل أن ترى إذا تأملت من جديد أن صالح الناس أهم من ذلك . وعلى هذا فلا تتحرج أن تعلن الحق . وأؤكد لك أن ذكرك ما لديك من الحقائق فى صدق وأمانة لن يفصم ما بينى وبينك من عرى الصداقة . هذا وإنى أرجو أن

(1) Speeches aud Lettere of Abraham Lincoln P. 2.

يأتيني رد منك على هـذا ولك الحرية أن تنشر الكتابين إذا أردت » .

اقرأ هذا الخطاب تر كيف ملك إبراهام قلوب الناس بأمانته وإخلاصه ودماثته . ثم انظر إلى قوة حجته وروعة منطقه ودهائه؛ وتأمل فى أدبه وتحشمه وهو يرد الاهانة عن نفسه .. تلك لعمرى خلال أحرار الشمائل وعظماء الرجال ...

فاز لنكولن فى الانتخاب وحق له أن يفوز . ولقد خطب الناس مرة فكان مما قاله : « سأسعى أن يفوز جميع البيض من يدفع منهم ضرائب ومن يحمل السلاح بحق الانتخاب (لا أستثنى من ذلك النساء بأى حال) فاذا انتخبت فسأعتبر أهل سنجمون جميعاً هم مرسلىّ سواء من اختارنى منهم ومن لم يفعل ، وحينما أعمل فى المجلس كنائب عنهم سوف أصدر فى عملى عن إرادتهم فى كافة الأمور التى أستطيع أن أعرف إرادتهم فيها ؛ وفى غير ذلك سأسير وفق ما يمليه على تقديرى مراعياً مصالحهم أبداً »

ذلك هو دستور لنكولن وتلك هى أخلاقه فى مجال السياسة ذلك المجال الذى سينضج فيه شخصه وتكتمل رجولتـه وتبرز مواهبه وتسفر مظاهر عبقريته . كان له فى المجلس أصدقاء منهم ثمانية كانوا مثله فى طول القامة ، ولقد كانوا يجلسون رفقة يتحدثون ، فعرفوا باسم التسعة الطوال ، ولـكن ابراهام كان أطولهم باعاً في المعرفة وأعلاهم مقاما فى الخلق، فلقد ظهرت صفات ابن الغابة لهم فى وضوح ، فهم معجبون بدماثته وأناته وبعد نظره ، وهم مفتونون ببلاغته وأسلوبه في الحوار والمجادلة ، وهم يغبطونه على سعة صدره وشجاعته وصراحته ، يحمدون له رقة عاطفته وشفقته وسلامة طويته ، وهم فوق ذلك يلذهم حديثه وتطربهم أقاصيصه ويأسر قلوبهم تواضعه وأدبه وسذاجته

وإنه اليوم ليقرأ قراءة منظمة فقد مرّ العهد الذى كان يتناول فيه أى كتاب يصادفه . هو اليوم يقلب صفحات التاريخ فليس ألزم منها لرجل السـياسة ؛ وهو يستزيد من القانون نصوصه وفقهه ؛ وهو يدرس أحوال أمريكا من شتى نواحيها ؛ يطيل النظر فى تاريخ ساستها ويتأمل فى مناهجهم فى الاصلاح وأساليبهم فى توطيد سياستهم ؛ يستوعب ذلك كله ليسير على ضوئه فيما هو مقبل عليه . ومما استرعى اهتمامه يومئذ مسألة العبيد وتاريخها وتطورها ومكانها من السياسة العامة

يتخذ اليوم ابراهام لنكولن مكانه المرة الثانيـة فى مجلس مقاطعة النيوس وهو فى السابعة والعشرين ، ولا يدرى هو ولا من يحيطون به من ممثلى الجهات فى ذلك المجلس ماذا يخبئه الغد لذلك الرجل الطويل القامة ، عامل البريد ، مخطط الأرض ، ابن الأحراج ، ربيب العسر والفاقة ومحن الأيام !

(يتبع) الخفيف

من والد إلى ولده

للأستاذ محمود خيرت بك

المهندس الشاب أبو بكر خيرت ، ولد صديقنا الشاعر محمود بك خيرت، هدية من هدايا النبوغ لمصر . تخرج في هندسة العمارة من مدرسة الفنون الجميلة العليا بباريس بدرجة التفوق والامتياز ، ثم بهر بأعماله الفنية رابطة المهندسين فى فرنسا وانجلترا فمنحوه الجوائز والأنواط تقديراً لنبوغه ؛ وتقدم إلى المسابقة التى اقترحها بنك مصر لفندقه وعمارته فى ميدان ابراهيم بالقاهرة فأحرز قصب السبق على ثلاثة وعشرين مهندساً عالمين من أجانب ومصريين وفاز بالجائزة الأولى الممتازة ، وكرمه المهندسون المصريون وعلى رأسهم معالى حسين سرى باشا ، فهز كل أولئك من شعور أبيه فعبر عن سروره بولده واعترافه للبنك ، وشكره لله ، بهذه القصيدة:

أين حُسن الربيع فى إقبالِه   تتنشّى مِن الصَّفا فى ظلالِه

وابتهاجُ السماء والبدر سارٍ   يتهادى فى هالةٍ من جلاله

واهتزازُ الغصون تشدو القماري   فوقها شَدْو زاخرِ الشوق وَالِهِ

وابتسامُ العروس فى ثوبها الشّـــفِّ تبدَّت أعطافُها من خلاله

أين هـذا من مُنتدًى غمَرَته   نشوة البشر يوم عيد احتفالِه

كرّموا فيه صفوةً من شبابٍ   هام بالفن وارتوى من زلاله

وفتًى منهمُ عرفناه لمّا   أحرز السبق رابضاً فى مجاله

والدّجى مظلم الجوانبِ إلاّ   إن بدا فى السماء وجهُ هلاله

كان للفن من حضارة ميناَ   والأُلَى قد سروْا على مِنواله

روعةٌ تسحر النفوس ومعنًى   يفتن المعجَبين سحرُ جماله

إنما كرّت الليالى عليَه   فطوتْه موسّداً فى رمالِه

لانرى حسنه البديعُ ولا نَأْ   ـمَس من مجده سوى أطْلاله

كالأسير الهزيل تنكره العَـــيْن وتبكي عليه فى أغلاله

آن أن يرسل الزمان إليه   مِن بَنيه من حَلَّه مِن عقاله

بعثَ الفنُّ من ثراهُ أبو بكـــرٍ وأوفى على نواحى كماله

كان برًّا ومَن أحنُّ على الفـــنِّ طواه الزمان من أشباله

أين شوقى وأين حافظُ كانا   ينظمان الجُمان فى رئباله

يافتى مصرَ مَن بِمدحك أولى   مِن أبٍ أنت ذخره فى اكتهاله

كم جَرى دمعهُ على عارضَيه   هاطلا كالسحاب فى تَهطاله

يوم آثرتَ الاغتراب لكيما   تأخذ العلم نافجا عَن رجاله

كان من نفسك الشجيّة أشهي   من حبيب شجاكَ يومُ وصالِه

تتقرّاهُ عند كل صباحٍ   وترى إن غفوْت طيف خياله

شارداً لا يقرّ جنبك إلاّ   إن رشفت العتيق من جِريْاله

فتنقّلت كالهلال وهل يصـــبح بدراً إلا بفضل انتقاله

لم يكن مسرفا أبوك لدى الظّـــنِّ ولا كان سابحاً فى ضلالِه

يوم ألفاك وحدةً لجلال الفـــن تُحيي الرثيث من آماله

فلقد شاءت المقادير أن عُد   تَ إليه وأنت مِن أبطاله

والذى يعشق العلى يسهر اللّيْـــل طويلا وجدّه رأس ماله

ذاك فضل أفاضه بنك مصر   هو بعض الطَّريف من إفضاله

كل يوم نرى له حسَنَاتٍ   نخرهُ أنّها صَدى أعماله

وينمّ العبيرُ عَن عاطر المسْـــكِ وكسْبُ السّباق عَن خيّاله

أنت يا بنكُ للكنانة عصر   ذهبيٌ يجرّ ذيل اختياله

كنتَ للنّيل مطلع استْهلاله   ورأيناك غاية استقلالِهِ

قُمت بالعبء أنت وحدك لايا   ـويك عنه الثقيل من أحماله

ومهَرت البلاد صرحاً سيبقى   للمدى شامخاً على أمثاله

شاهداً أن مصر فيها شبابٌ   لا يُدانيه غيره فى نضاله

قد كسبتَ الرضى من الله والنا   س وكنتَ المشكورَ فى أفعاله

محمود خيرت

وحى الشاعرية

للأستاذ حسن القاياتى

---

١ — الدينار فى الطبق

هى فتنة بنضارة الأُفُقِ   فتألّقى يا أنجم الغَسَق

تهدى إليَّ البدرَ هالَتُهُ   كتحية الدينار في الطبق



أقصوصة من بول هيس (١)

جنـــون ...

للأستاذ دريني خشبة

كان الصبح يتنفس عليلاً فى الأفق الشرقى ، وكان الفيزوف ينفث دخانه فينعقد سحاباً طويلاً داكناً فوق نابولى والقرى المجاورة ، وكان البحر النائم ملقياً رأسه الجبار على أواذىّ سورنتو ، حيث انتشر الصيادون فوق الشاطىء وفى الماء وفوق الزوارق يعملون ويدأبون ، لا فرق بين شيبهم وشبابهم ، وكانت النساء يرفرفن فوق الأسطح القريبة كالأعلام المُنَشَّرة يؤدين أعمال الصباح ... وكان الكل مبتهجاً سعيداً ولاسيما الفتى البحار أنطونيو الذى وقف في زورقه يملأ ناظريه من جمال الطبيعة المتبرجة فوق الشاطىء الإيطالى الفتان

لقد كان أنطونيو سعيداً هذا الصباح ، لأن كثيرين من

(١) من أدباء بلاط ملك مكسمليان ملك بافاريا سنة ١٨٥٤ ومن أبرع كتاب الأقاصيص

٢ — اليوسفى

ويوسفىٍّ أصفر أنيقِ تحيـة الصديق للصديق
وتحفـة العشيق للعشيق جرّدته من قشره الرقيق
فجاء مثـل الرَّكبِ الحليق

٣ — الورد يعصر

تنظّرَ صُبح النجم والصبح يسفر لدى كبرياء الخطب والعزم أكبرُ
فتى النُّبل يزكو بين لينٍ وشدّةٍ فكالورد يُستهدى وكالورد يعصرُ

أهل سورنتو يذهبون في مثل ذلك اليوم من كل أسبوع إلى قرية كابرى ليبيعوا فى سوقها ويشتروا ... ولم يكن سعيداً لكثرة زبائنه فقط ، بل كان سعيداً لشيء آخر ... شيء عزيز ... شيء هو حلم القلوب ، وغذاء النفوس ، ومسبح الخيال ، ومستراد الحلم ..

وأقبل قسٌّ من سورنتو ، فجعل يدلف حتى وقف على السّيف أمام أنطونيو ... ثم قفز فكان فى الزورق ، والفتى مع ذلك فى شغل عنه ... وعن الدنيا جميعاً

— أنطونيو يا بنى ! ! ماذا يمنعك أن تبحر قبل أن تشتد الشمس ؟

— لا شيء أيها الأب ... سنبحر حالاً !

ولكن أنطونيو كان لا ينى يبحث فى الشاطئ بعينيه ، يرسلها وراء أيكة ... وكان القس القلق يرى فى نظراته الحائرة طيف حبيب تائه ... فى عالم مجهول ... ! ! فيعذره ! !

ثم بدت فتاة جملت تخطر بين دَوْح السنديان وتُلوح بمنديلها فوق الشاطئ ، فهفا قلب أنطونيو ، وطفح وجهه بالبشر المفاجئ وارتجفت يده ، وشاع فيه مرح عجيب ، فسأله القس :

— وبعدُ يا أنطونيو ؟ ! ألا تبحر بنا يا بنى ؟

— سنبحر ... سنبحر أيها الأب ...

وكانت الفتاة تتواثب فوق النؤى خفيفة رشيقة ، فلما اقتربت هبّ الملاحون الخبثاء يغمزون ويلمزون ، وإن فرض عليهم وجود القس احتشاماً كان يغيظهم ويحنقهم ... ثم ركبت فى فلك أنطونيو ، ووقفت قريباً من القس الذى حياها قائلاً :

— لوريلّلا ! ! عِمى صباحاً يا صغيرتي ! أتصحبيننا إلى كابرى ؟

— أجل يا أبانا

— أحسب أن ليس معك نقود من أنطونيو ؟ ! أوه ! إن أنطونيو شاب طيب ... وهو بلا ريب لا ينتظر من أمثالك

أجراً ... بل بالعكس ، لقد فرش لك قيصه ، ولم يفعل ذلك من أجلى ... ولكن أين عشرة قسيسين مثلى ، فى فتاة ريانة مثلك ، فى نظر هؤلاء الشباب ! ! وماذا تحملين إلى كابرى يا لوريللا ؟ »

وقبل أن تجيبه الفتاة مدت يدها إلى قيص أنطونيو فنحته ، ثم جلست وقالت تجيب الأب :

— ثوب ، وحرير ، ورغيف أيها الأب ... الثوب لامرأة تصنع الأشرطة فى أنا كابرى ! والحرير لامرأة أخرى ... والرغيف لى ... أتبلغ به ...

— والحرير من غزلك أنت ؟

— أجل أيها السيد

— أذكر أنك كنت تصنعين الأشرطة بيديك ؟ أليس كذلك ؟

— بلى أيها الأب ، ولكن أمى قد تقدمت بها السن ، ثم هى مريضة ، بل شبه مقعدة ، ونحن فقراء ... فن لنا بنول نشتريه وليس معنا من ثمنه شيء ؟

— أمك ؟ ! وا أسفاه ! لقد أذكر أننى رأيتها فى عيد الفصح الماضى !

— أجل ... ولكنها مريضة اليوم ... وهى تقاسى من زوابع الربيع ما لا تقاسيه فى فصل غيره ... أضف إلى ذلك زلازل الڤيزوف ورجفاته ...

— صلى من أجلها يا فتاتى ، واضرعى إلى العذراء أن تكلأها ... ولكن ... خبرينى يا لوريللا ... لقد سمعت الملاحين الخبثاء يلمزونك وأنت مقبلة ، فيقولون لك (هلمى أيتها العربية...) وهو نداء لا يليق بمسيحية تقية مثلك ، فا سبب هذا ؟

— إنهم طالما يدعوننى كذلك ، مستهزئين بى ، لأننى لا أشركهم فى رقصهم وغنائهم وسائر عربداتهم ... وهذا بالرغم من مسالمتى لهم دائماً ...

وأغضت الفتاة ، وجعلت تبحث فى خضرة المياه بعينيها المحزونتين ، كأنما راعها ما عرف القس من أمرها وأمر هؤلاء الملاحين ...

وساد الصمت ، وكان أنطونيو قد دفع الفلك فى البحر فاحتواها الماء ، وصارت سورنتو تبتعد وتبتعد ، وتسطع منازلها البيضاء فى خضرة حدائق البرتقال ، وفوهة الڤيزوف تقذف بمثل ما فى صدر لوريللا من حميم ... ثم سألها القس :

— ألم تعودى تملين من أمر المصور شيئاً يا لوريللا ؟ لقد سمعت أنه ذهب إليك مرة ليعمل لك صورة ، وأنك رفضت فلمه ؟

— ولم يريد أن يصورنى أنا من دون بنات سورنتو ؟ إن منهن من هى أروع منى جمالا وأكثر فتنة ! فلم يصورنى أنا ؟ لقد ذكرت أمى أنه ربما تصبانى بها ، أو أتلف بها روحى ، ومن يدرى فربما أضمر بها قتلى ؟ من يدرى ؟ !

— يا صغيرتى لا تصدقى هذه الخزعبلات ! ألا تؤمنين بالله ؟ ألا تتقين أنك دائماً فى حفظه ؟ وأن شعرة واحدة منك لن يصيبها أذى إلا باذنه ؟ فماذا يصنع واحد من بنى الموتى بصورة فى يده إن أراد بك سوءاً ؟ ... على أننى أعرف أنه كان مغرماً بك ، مشغوفاً بجمالك ... وأنه لذلك أراد الزواج منك ، لكنك أبيت ! ولست أدرى لماذا ... إن الناس كلهم يمدحونه ويطرون أخلاقه ... ولقد كان فى وسعه أن ينتشلكم مما تقاسون من ضيق وشظف ، ويريحكم من عناء ما تنسجون من أجل الحياة ...

— تالله يا أبانا لقد كان فقرنا سبب إحجامنا ... إذ كيف يطيق ما نحن فيه من عوز ، وما تقاسى أمى من مرض ؟ لقد كنا نصير كلاً عليه ... هذا ... وأنا ؟ ! كيف أعيش فى كنفه ذليلة بفقرى وبيئتى ؟ هل أنا سينوره ؟ ! ماذا يقول لرفاقه حين يغشون داره ؟ إنه يهرب منى حينذاك ... أو ... يذوب حياء

— كيف تقولين هـذا يا لوريللا ؟ ! إن الرجل الذى يحب لا يبالى ما تقولين ... على أنه كان يستطيع أن يهاجر إلى بلد بعيد فيعيش فى جنة بفنه ، ويسعد بك إلى الأبد ... أوه ! ... لقد كان رسولا من السماء بعثته لإنقاذكم فطردتموه !

— لا علينا من ذلك أيها الأب ! إننى من جهتى ... لا أرغب فى الزواج مطلقاً ...

— تعنين أنك نذرت أن تكونى راهبة ؟

— ... ؟ ...

— عنيدة ! ما أحسبك تريدين أمك إلا مرضاً يا لوريللا ؟ بأى حق ترفضين هذه اليد الكريمة التى بسطتها لك السماء لتخلصك ولتنقذ حياة والدتك ؟

— آه ! إن لدى سبباً ... بيـد أننى لا أبتغى أن أبوح به لأحد !

— حتى ولا لى ؟ ! ولا لى أنا ... موضع اعتراف العذارى

جيماً ؟! أنا يا لوريللا الذى طالما كنت صديقك ومفزّع الأحزان عن فؤادك ؟

— ... ؟ ...

— لا ، لا يا صغيرتى ! إنك لا تعرفين من هذه الحياة الإقليلاً ، فأزيحى عن فؤادك ما ينوء به ... ثم إنى أعدك أن أكون أول مؤيد لك إن كنت على حق ...

وقبل أن تجيبه لوريللا ، أرسلت عينيها ناحية الملاح الشاب الذى كان موزع الفكر بين الحبيبة وبين الشراع وبين البحر ... والذى كان يحجب عينيه بطرف من وفاء رأسه وهو مع ذلك مصغ لحديث القس

ثم تكلمت لوريللا فذكرت للحبر الجليـل ما يفزعها من الزواج ، لأنها تحتفظ بذكريات مشجية مما كان يحدث بين أبويها من نضال وشقاق ... « حتى لقد كان لا يتورع أبى من مد يده إلى أمى بالضرب المبرح الذى كان سبب ما تقاسيه اليوم من الأمراض ... أبداً لا أنسى هذه الوحشية أيها الأب ، تلك الوحشية التى أسميها وحشية الزواج ، والتى من أجلها أوثر أن أظل عانساً إلى الأبد ... ثم أنا لا أعرف قيمة هذه العلاقة التى تنشئونها بين رجل وامرأة ، فيظل الرجل قويًّا وتظل المرأة ضعيفة ، يقبلها إذا أراد ، ويتجهمها إن شاء ، ويلعب بها كما تلعب الرياح بالريشة التى لا حول لها ... أوه ! أقسم لك أيها الأب لو أننى كنت فى مقام والدتى لعرفت كيف أذود وحشية زوجى وأدفع أذاه ! ! تالله لأسقيته ضعف ما كان يحاول أن يسقينى ! مسكينة يا أمى ! لقـد كنت ضعيفة فلم تحاولى أن تدافعى عن نفسك ، وسميت ضرب أبى إياك محبة ، والسكوت عن هذا الضرب طاعة ... »

ويحاول القس أن يخفف من نقمتها على حيـاة الزوجية ، ولـكن محاولاته تذهب مع الريح ؛ ويذكر لها أن الأزواج ليسوا سواسية ، وأنهم ليسوا جميعاً قساة القلوب غلاظ الأكباد كما تظن ، وأن الشاب المصور الذى أحبها كان له قلب رءوف رحيم بحكم فنه وميوله الروحية العالية ... ولـكن لوريللا تدفع عظاته فى ثورة جامحة ونقمة على الرجال لا تعرف التسليم

ويسمع أنطونيو هذا كله ... فيقف من الفتاة على مثل فوهة فيزوف !

***

ومتع النهار ، وألقت الفلك مراسيها عند كابرى ، ونزل أنطونيو فى المـاء ليحمل القس إلى الشاطئ ، ثم عاد ليحمل لوريللا ...

— لا ... لن يحملنى زجل ماحييت !

ثم حسرت عن ساقيها ... الساقين الجميلتين المرمريتين ... ونزلت إلى الماء السعيد ! حاملة حزمتها ... وتبعها أنطونيو ... وفوق كتفه سلة من البرتقال سيبيعها فى سوق كابرى

ورجاها القس أن تذكره عند أمها ، وأن تذكر لها أنه ربما زارها غداة غد ... ثم أخـذ طريقه إلى كابرى ... وأخذت طريقها إلى أنا كابرى ...

وكانت فى نفسها أشياء .. وكانت فى نفس أنطونيو أشياء .. فلما بعد القس التفتت فجأة لترى إلى أنطونيو فى الفلك .. فما كان أشد حياءها حين رأته خلفها ، وعيناه مسمرتان فى عينيها !

وباع أنطونيو برتقاله ... وعاد فى ساعة إلى الفلك ... وجلس فيه على أحر من الجمر ينتظر عودة لوريللا !

وما هى إلا ساعة أو نحوها حتى أقبلت الفتاة تتهادى كالقطاة وقد نهد ثدياها واهتزا ، ولعبت فوقهما شياطين البحر الأبيض .. فلما رآها أنطونيو وثب فى الفلك ، ونشر الشراع ، ورفع المرساة واستعد للاقلاع بصاحبته من فوره

وجلست لوريللا فى طرف المركب ، وولت ظهرها للملاح الشاب ، بحيث لم يكن يستطيع أن يرى إلا صورة جانبية (بروفيل) من وجهها الجميل ، مطبوعة فى السماء الصافية مرة ، وفى الماء الساكن مرة أخرى

لقد كان نصف فمها الجميل الخمرى الأحمر ، وخدها الأسيل الوردي ، ووجنتها الناصعة ذات الزغب ، وعنقها الطويل الشفشاف ، لقد كان ذلك يثير فى قلب أنطونيو صنوفاً من العذاب الخائف ، والألم الذعور ... لا عهد له بمثلها أبداً ...

ولم يقلع أنطونيو ... وأخرجت الفتاة رغيفها وأخـذت تتغدى ...

وأخرج الملاح برتقالات فقدمها لها وقال : « لا تحسبى أننى ادخرتها لك ... بل ... لقد سقطت من غير قصد من السلة قبل أن ننزل إلى البر ، فان شئت فكليها ...

— بل كلها أنت ... فالخبز القفار يكفينى !

— إنهن خير ما يؤكل فى هذا الحر القائظ ، لا سيما وقد مشيت كثيراً !

— لقد شربت فى الطريق ، وهذا حسبى !

— إذن ... خذيها لوالدتك !

— عندنا برتقال كثير ، وسنشترى غيره إن نفد !

— وماذا لو أخذت هذه البرتقالات ، وقدمتها إليها مع تسلياتى ؟!

— وكيف ، وهى لا تعرفك ؟

— خبريها عنى !

— أخبرها عنك وأنا لا أعرفك ؟

لقد كذبت لوريللا فى هذه الدعوى ... فلقد كانت تعرف أنطونيو ، وكان أول هذه المعرفة فى يوم كان يبثها حبيبها المصور هواه عند شاطئ البحر

يا له من يوم هائل ذلك اليوم ! لقد لمح نفر من الملاحين الحبيبين الصغيرين يتناجيان فتغامزوا بهما ، ثم أنشأوا يحذفونهما بحصوات ... لكن أنطونيو الشجاع ، لم يرضه ذلك المسلك المعيب الشائن من رفاقه ، فانبرى لهم ، ودفع عن الحبيبين أذاهم... فكيف مع ذلك لا تعرفه لوريللا ! ؟

ثم جلسا صامتين ... وبدا للملاح العاشق أن يبحر من فوره قبل أن يصل أحد فيتلف عليه تدبيره الذي خطر له فى مثل البرق

وتعمد أنطونيو أن يدخل بالفلك فى صميم البحر ... ليكون بعيداً من الشاطئ ما استطاع ... فلما حصل ثمة ... أنزل الشراع فجأة ، وترك الفلك تتقاذفها الأمواج ... ثم توجه نحوها وهتف بها يقول :

— أنت لا تعرفيننى ؟ إذن يجب أن أضع حدًّا لعبثك بى ! وينبغى أن أطلعك على ما أترع به قلبي بسببك ... إننى لا أطيق أن أصبر على طول صدك يا لوريللا ... !

— ماذا تعنى ؟ أى صد وأى عبث ؟ أتعنى أنك تحبنى ؟ إذن فاعلم أنني لن أحبك ، ولن أقبل أن أتخذك بعلاً ؛ لا أنت ولا أحداً غيرك ، أسمعت ؟.

— كلام ترسلينه فى الهواء ! غرور وخيلاء ! أليس لك قلب ؟ لم جئت إلى هذه الدنيا إذن ؟ إنك أنثى ، أليس كذلك ؟ فلم خلقت أنثى ؟ إنك لا بد متزوجة يوماً ما ... ولو رغمك !

— من يدرى ؟ هل اطلعت الغيب ؟ ثم ما أنت وهذا ؟

— ما أنا وهذا ؟ ألم تدركى بعد ؟ إني أخشى أن تكونى من نصيب غيرى ! إن هذا يخرج بى عن صوابى ! إنه يصيبنى بالجنون

— وإذا أصبت بالجنون ، فما أنا وذاك ؟ هل وعدتك بشيء فأنت تجن إذا أخلفتك موعدى ؟ أى حق لك علىّ ؟ !

— أى حق ؟ حق عظيم يا لوريللا ... حق ليس صكا على ورق ، بل هو هنا ... فى صفحة قلبى ... حق يجعلك لى من دون العالمين ... لن أطيق أن أراك ذاهبة إلى قداس مع سواى؟! الموت دون ذاك ... !

— أنت حر تقول ما تريد ... ولن تخيفنى تهديداتك ... ثم أنا حرة كذلك ...

— وينبغى ألا تمادى فى هذا الغى ... إنى لن أسمح لفتاة شموس عنيدة مثلك أن تعذبنى هذا العذاب الطويل ... هذا غير محتمل ... أنت هنا فى قبضتى ... ويجب أن تنفذى مشيئتى ! !

— إذا استطعت أن تفعل شيئاً فدونك ! ... أتريد أن تقتلنى ... إن ... خالفتك ؟

— أنا لا أحب أن أصنع شيئاً فاتى على نصفه ، وأترك النصف الآخر ... إن هذا البحر الزاخر اللجى يسعنا جميعاً ، ولن يضيق بى وبك ... يجب أن نقر فى أعماقه معاً ... أنا ... وأنت

ثم انقض عليها وأمسك بذراعها ، وحاول أن يحملها ليهبط معها إلى البحر ... بيد أنه صرخ فجأة ... لأن لوريللا كانت فى هذه اللحظة كاللبؤة المغضبة ... فقد فتحت فمها الجميل الفاتن ثم أهوت على يمين أنطونيو ، فقضمت أنامله ، وانبجس الدم الحار الثائر متفجراً كأنه يتدفق من ينبوع ...

— ها ... أرأيت ؟ ها قد امتثلت لأوامرك كما ادعيت ... والآن ... ربما ما تزال تحسب أننى فى قبضتك ... أنظر ! !

ثم قفزت فى البحر الهائج الجياش ... وغاصت فى الماء ...

وصرخ أنطونيو ... وأرسل عينيه المفزوعتين تبحثان فى اللج ، وتضربان فى ثنايا الموج ... لكنه لم ير شيئاً ... ولما التفت إلى الخلف ، وجد الفتاة تسبح نحو الشاطىء ، وهى تكافح العباب المتلاطم ، وتركب بجسمها الأهيف الجميل فوق أعراف الموج المضطرب

— لوريللا ... لوريللا ... قنى ... عودى إلى الفلك ...

إن المسافة طويلة... نحن من الشاطىء على ثلاثة فراسخ يا أختاه... لكن الفتاة أصمت أذنيها ... وانطلقت تسبح ...

وفى سرعة البرق ، نشر أنطونيو شراعه ، ولوى عنان الزورق الكبير ، وذهب فى إثرها ... وجعل يرجوها ويتوسل إليها ... لكنها مضت فى سبيلها فى البحر سَرَباً ...

— لوريللا ... وماذا تصنعين إذا بلغت الشاطىء ؟ إننا على مسيرة ساعات من سورنتو ... عشرون ميلا يا أختاه ! !

ولم تعره لوريللا التفاتاً ... بل ذهبت تذرع البحر فى غير مبالاة ... فلما كانت على سَبحة أو سبحتين من الشاطىء ، لوت رأسها نحو الفلك ، وقالت لأنطونيو مستهزئة : « أما وقد وصلت فسأركب ... وحسبي أن أريتك أننى لست فى قبضتك ! ! »

وتعلقت فى حبال السفينة ، ووثبت كالغزالة ، وراحت تعصر الماء من ملابسها ، فانهمر من تضاعيفها غزيراً ثجاجاً

ونظرت إلى يديه ، فوجدت الدم ما يزال يتدفق من يده ، فنزعت منديل رأسها ، وألقته إليه قائلة : « خذ ... أربط بهذا جرحك » لكن أنطونيو لم يفعل ، بل ظل يرنو إليها بعينين جائعتين ظامئتين معجبتين ... فتقدمت هى ، وربطت يده ، ثم جلست بجانبه ، وتناولت أحد المجذافين ، وراحت تعمل به فى الماء ، لأن الريح كان قد تغير هبوباً ... وحدجته لوريللا وقالت له : « وسترى أيضاً أننى أعرف منك بصناعتك ... هلم فاعمل كما أعمل إن استطعت ...

* * *

وكانت أم الملاح الشاب تنتظره عند المرفأ ، فلما رأت ما به سألته ماذا أصابه .. لكنه تضاحك ، وقال إن مسماراً خدشه ..

ونزلت لوريللا ... وهتفت بالملاح أنها ستعوده ، وستأتيه بحشائش وأعشاب لها نفع عظيم فى مثل جرحه

ولم ينم أنطونيو برغم ضعفه الشديد وإعيائه المضنى ، ولم يخف ألمه برغم الماء الساخن الذى أعدته له أمه ، والذى نضحه على الجرح مراراً .. بل ظل الدم يتدفق .. وظل الفتى يتقلب .. وظل مع ذلك يفكر فى لوريللا

وكان ينظر إلى منديلها كأنه قُنية غالية ، أو نفحة من السماء أو تذكار عزيز لهذه المعركة التى انهزم فيها فى عرض البحر ... وفى ... معمعان الحب !

وفى الوقت الذي قطع أنطونيو فيه كل أمل من لقاء لوريللا... وفى هدأة الغسق الساكن ... دخلت لوريللا الجميلة الهيفاء ... لوريللا ... الحلم الجميل الساحر ... تحمل الأعشاب التى وعدت أن تأتى بها لمعالجة الجرح ، فقال لها أنطونيو :

— آه ... منديلك ، لقد أتيت تفتقدين منديلك

لكنها لم تجب ... بل بحثت عن وعاء ، وتناولت يد أنطونيو ففكت الرباط عن الجرح ، وكان قد تورم قليلا ، فغسلته بماء عصرت فيه من أعشابها ، ثم وضعت من الأعشاب عليه ما لا يؤذيه ، وربطت اليد المحمومة الساخنة برباط نظيف تيلى أحضرته معها ... فما هى إلا لحظة حتى زال ألم أنطونيو ... فافتر باسماً وهو يقول :

— أشكرك يالوريللا ... وإذا كان لى أن أطلب شيئاً ، فهو أن تغفرى لى !

— بل أنا الذى أطلب الصفح يا أنطونيو ... فبى الحق ... لقد غاليت معك فى هذه الوسائل العنيفة ... والآن ... ما بال هذه المضّة ؟ !

— لقد صنعت ما صنعت دفاعاً عن نفسك ... وأنا ما أزال أشكرك !

— وشىء آخر يا أنطونيو ! ألا تدرى أنك قد فقدت (جاكتتك) فى البحر وفيها نقودك ... أجور المسافرين ... وثمن ... البرتقال !

— هذا لا يهم يالوريللا !

— بل ... لقد كنت أوثر أن أعوضك عنها لو استطعت.. على أنى لا أملك إلا هذا الصليب الفضى ... خذه ... لقد تركه لى المصور يوم أن جاء يخطبنى

— وما أنا وهدية من خطيبك ؟ إنى لن أمسه أبداً

— لا تحسب أنى أقدمه هدية بدورى ... لا ... بل خذه فإنه ينفعك !

— بل خذيه وانصرفى مشكورة

وأخذت المنديل والصليب ، ثم وضعتهما فى السلة الصغيرة التى حملت فيها الأعشاب ... وحينما حاولت أن تنهض من جانب أنطونيو ... نظرت إليه ... وإذا عبرات حرار تنحدر فوق خديها فجأة ... وينظر إليها الملاح النائم ... فينهض كالظليم ...



وفاة دانونزيو شاعر ايطاليا العظيم

نعى البرق فى ٢ مارس الجارى شاعر إيطاليا العظيم جبرييل دانونزيو Gabriele D'Annunzio عن ٧٥ سنة مليئة حافلة ، وبعد حياة مشكورة موفورة ... وقد ولد الشاعر سنة ١٨٦٣ ، وظهر أول دواوينه سنة ١٨٨٠ ، أى فى سن السابعة عشرة ، ثم والى نشر أشعاره بعد ذلك فدل على حيوية دائبة ونبوغ عظيم . وقد كان دانونزيو مولعاً بمواطنه الكبير كاردوتشى الذى يطلق عليه الايطاليون (أبا الشعر) وأبا الأدب الايطالى الحديث ، ولذا فقارئ دانونزيو يحس تأثره فى كثير من الأحيان بكاردوتشى ولا سيما فى قصيدته الطويلة (أنشودة للشيطان) التى ثار فيها على المسيحية وعزا إليها انحطاط إيطاليا وتأخرها بعد أن كانت سيدة العالم فى زمن الرومان ... على أن دانونزيو مزيج عجيب من الاغريق واللاتين والفرنسيين والانجليز ، وقد ترك فيه كل من هؤلاء أثراً كبيراً كان يطفو بأدبه على عباب آدابهم الزاخرة ، ومع ذلك فقد كانت له شخصيته القوية المستقلة ... وكثير من نقاد الآداب يخالفون الإيطاليين فى نسبة نهضة الأدب والشعر فى إيطاليا إلى كاردوتشى ، فينسبونها إلى دانونزيو ... وهذا حق ... فقد أدخل دانونزيو على الشعر الإيطالى كثيراً من صنوف التجديد استعارها له من الشعرين الانجليزى والفرنسى ، واستطاع أن يلفت إليها مواطنيه ، بل أن يفتنهم بها ... وكان يتوسل إلى ذلك بالأغانى ، حتى إذا استساغوها أنشأ ينظم لهم الأقاصيص الغنائية فأقبلوا عليها إقبالاً شديداً

والميزة التى يتفرد بها دانونزيو على جميع شعراء العصر الحاضر هى قدرته القوية على الوصف . وفى قصة (الرسالة) التى نشرت فى الأسبوع الماضي دليل على ذلك وإن تكن أقصوصة قصيرة . ودانونزيو يصف الوصف البارع ثم يضفى على وصفه أزهى ألوان الطبيعة ، وهو هنا مصور دقيق يربط اللون بالضوء ربطاً عجيباً ... وقد يشغله ذلك عن القصة نفسها ، ولذلك يضيق به بعض قرائه فى حين يفتتن به بعضهم افتتاناً يخرج بهم إلى حد الغرام ... وأستاذ دانونزيو فى تلوين أشعاره على هذا النحو هو الشاعر الانجليزى كيتس

وقد كان دانونزيو مولعاً بالأسلوب الجزل والعبارة الفخمة ، وكانت له قدرة مدهشة على استعمال الغريب استعمالاً يجعله أرق فى فؤاد القارئ من الموسيقى ... وذلك ملحوظ فى شعره ونثره على السواء

وكما كان دانونزيو إمام شعراء إيطاليا فكذلك كان إمام كتابها ... وستعيش قصصه ، وتخلد ، لأنها قصص من النمط العالى الرفيع ... وإذا كان هناك ما يؤسف له فى هذه القصص ، فذاك ... هو هذا الإفحاش البالغ ، والأدب المكشوف الذى كان دانونزيو مولعاً بهما فى شبابه ، مما جعله زعيم المنحطين فى الأدب الإيطالى الحديث ... ولعله قد تأثر بالمنحطين فى الأدب الانجليزى وعلى رأسهم أوسكار وايلد وجويس ولورنس

وأحسن قصصه هى على التوالى (طفل السرور Il Piacere) والفريسة — وانتصار الموت — وعذارى الصخور — ولهب الحياة

ومن أروع دراماته فرنشسكا دراعيمنى وجيوكندا . هذا

ويأخذها فى ذراعيه ... ويطبع على فمها الصغير المرتجف قبلة ... ليس مثلها قط قبلة ... ثم ينحط فى فراشه فيبكى ... ويستخرط فى البكاء ...

— لوريلا ... أليس الأفضل أن نتزوج ؟!

— وهل فى الدنيا أفضل من ذلك يا أنطونيو ... ؟

دريني خشبة

وسنعرض لبعض آثاره فى أعداد تالية

وقبل أن نختم هذه النبذة يجب أن نشير إلى سخط الأدباء فى العالم أجمع أثناء الحرب الحبشية حين أرسل الشاعر تحيته إلى الجنود الإيطاليين الذين ذهبوا إلى الحبشة لتقتيل أبنائها ... والشاعر معذور بطبعه فى موقفه إزاء هذه الحرب ، فلقد كان جندياً وكان طياراً وقد اشترك فى حرب فيومى المعروفة

المجمع اللغوى فى دورته الأخيرة

اختتم المجمع الملكى للغة العربية دورة اجتماعه الخامسة فى الشهر الماضى بعد أن عقد خمساً وثلاثين جلسة نظر فى أثنائها فى كثير من المصطلحات فى علوم الأحياء والرياضة والطبيعة ، فأقر منها قرابة خمسمائة مصطلح ، ثم نظر فيما قدم إليه من قوائم الأعلام الجغرافية التى أخرجها حضرات الأعضاء على القواعد التى وضعها المجمع فى كتابة الأعلام الأجنبية بحروف عربية فأعاد النظر فيما سبق أن أقره

واستأنف البحث فى قواعد جديدة وقرر إعادة القوائم إلى الأعضاء لمراجعتها وإصلاحها بحسب القواعد التى استحدثت

ثم نظر فى قائمة وضعها الأستاذ الدكتور نلينو عضو المجمع وأحصى فيها ما عثر عليه من الأغلاط الشائعة فى المصورات الجغرافية المستعملة فى المدارس المصرية والشرقية فيما يتعلق بالبلاد الآسيوية الإسلامية والسودان وصحراء لوبيا . فناقش المجمع فى هذه القائمة وراجعها على المصادر المعتمدة ثم قرر إرسالها إلى وزارة المعارف لكى تتلافى هذه الأغلاط

وكذلك بحث المجمع فى موضوع إصلاح الكتابة العربية وابتكار طريقة للكتابة تغنى عن الشكل وتضمن النطق الصحيح فتألفت لذلك لجنة طلب إليها أن تواصل البحث والمراجعة وتعد نتائجها للدورة المقبلة

ومن قرارات المجمع فى هذه الدورة الاتصال بأصحاب الآلات الكاتبة المشهورة والتفاهم معهم على وضع الرموز التى أقرها المجمع للأعلام الجغرافية بين حروفها ، وطبع المصطلحات التى أقرها فى العلوم والفنون والآداب فى قوائم مستقلة على ترتيب معجمى تيسيراً لإذاعتها ، والاتصال بالجهات الرسمية فى الدول للحصول على القوائم الشاملة لأعلام البلاد كالجامعة العثمانية للحصول على أسماء بقاع الهند ومصلحة الصحراء للحصول على أسماء الأمكنة بين النيل والبحر الأحمر واتحاد البريد الدولي للحصول على دليل البريد الذى يصدره .

معاهد الأزهر واللغة الأجنبية

جاء في بريد الرسالة (٢٤٢) وهي تتحدث عن اشتداد الرغبة فى الأزهر ومعاهده والاقبال عليه – أنه (لو عنى الأزهر بتقرير دراسة لغة أو لغتين أجنبيتين فى معهد أو معهدين من معاهده لسبق المدارس المدنية بألف شوط في مضمار الحياة)

وهذه مسألة ظاهرة الفائدة ، وقضية واضحة اللزوم ، وليس من حاجة إلى تجربتها فى معهد أو معهدين من معاهد الأزهر ، بل الواجب تعميمها فى كافة المعاهد على أنها قد جربت في (كلية بيروت الشرعية) التى أقدم على إنشائها برغم الصعوبات والمعارضات وقلة الواردات سماحة مفتى لبنان الأستاذ الشيخ توفيق خالد ، فكانت فائدتها جليلة جداً ، إذ أصبح طلابها يستطيعون إذا شاءوا دخول لخوض البكالوريا العامة ، كما أنهم يستطيعون أن يدخلوا فى إحدى كليات الأزهر العالية . ثم إن كليتنا تدرس مقرر الأزهر الثانوى كاملا وتزيد عليه اللغة والآداب الفرنسية ، وهى كما قال سعادة العشماوى بك وكيل وزارة المعارف المصرية فى زيارته الأخيرة إياها فى هذا الأسبوع : « ليست إلا معهداً من معاهد الأزهر » وترى المدرسون فى الأزهر الشريف خريجى هذه الكلية فى العام المقبل إذا شاء الله

هذا هو الطريق الوسط الذى لا طريق غيره . فيا ليت هذا الطريق يكثر سالكوه ، فينشأ أمثال هذه الكلية فى الشام والعراق . ويا ليت المدارس المدنية تنى (أيضاً) بتدريس القرآن والعلوم الاسلامية . إن لم يكن ذاك لأنها دين لا بد منه فليكن تدريسها لأنها مواد علمية قيمة ، وثقافة لا بد منها لكل رجل مهذب ، وعالم متخصص

على الطنطاوى

بين سابور وفالريانه

جاء فى مقال الأستاذ محمد عبد الله عنان (بين تيمورلنك وبايزيد) المنشور فى العدد الأخير من الرسالة أن تيمورلنك وضع بايزيد بعد أسره فى قفص من حديد كما فعل قيصر الروم مع سابور ملك الفرس

وهذا على النقيض مما وقع تماماً ، إذ أن سابور الأول هو الذى أسر قيصر الروم الذى ظل فى أسره إلى أن مات

وذلك أن سابور بعـد فترة هدوء بينه وبين الروم مدة أربعة عشر عاماً تقريبا — كان فى خلالها منهمكا فى حروب مع أعدائه الطورانيين المتاخين لحدوده الشرقية — رأى أن الفرصة مناسبة ، بسبب اضطراب الحالة الداخليـة فى الامبراطورية الرومانية ، لاقتطاع بعض أجزائها المتاخمة لحدوده الغربية وضمها إلى رقعة ملـكه الواسـعة . فسار على رأس جيش كبير يرفرف عليه علم قارس الرصع[1] وبدأ بمهاجمة المدينتين الحصينتين إدسا ونصيبين اللتين لم تلبثا أن وقعتا فى قبضة يده

وكان قيصر الروم إذ ذاك هو الامبراطور فاليريان Valerian فهرع لملاقاة عدوه ومحاولة صـد تياره الجارف ولـكن بمناورة حربية بارعة تمكن سابور من وضع الامبراطور فى موضع لم يجد معه بداً من الاستسلام بجيشه بأسره لسابور الظافر

وبعد الانتهاء من فتوحاته التي اقترنت بالنار والدم عاد سابور إلى عاصمة ملـكه حاملا معه أسيره الامبراطورى الذى ظل فى أسره إلى أن مات

ولا يعلم بالضبط مدى صحة الإشاعة التى تقول إن سابور كان يضع أسيره فى قفص من حديد ولا يبعد أن يكون قد فعل ذلك زيادة فى النكاية بالروم وإمعاناً فى إهانتهم وإذلالهم ، غير أن بعض المؤرخين يستبعد ذلك ويرجح أن سابور كان يعامل فاليريان معاملة حسنة بل وكان يوليه شيئاً من الإكرام

أما بعد وفاة فاليريان فالمحقق أن سابور أمر بنزع جلده وحفظه تخليداً لنصره الباهر على الروم ولإضافته إلى مفاخر فارس الحربية

وقد سجل سابور أيضاً هذا الحادث الفريد بنحته نحتاً بارزاً ضخما على الصخر بالقرب من السابورية وهى المدينة التى أنشأها سابور وسماها باسمه ، فى هذا النحت نرى سابور ممتطياً صهوة جواده وقد ركع فاليريان على الأرض أمامه ووقف خلف سابور عشرة فرسان يمثلون الجيش الفارسى الظافر ، بينما اصطف خلف فاليريان عدد من الجنود الرومانية يمثلون الجيش الرومانى المأسور

هذه ملاحظة عنت لى لدى قراءة مقال الأستاذ عنان الشائق رأيت أن أسجلها خدمة — كالمعتاد — للحق والتاريخ

قارىء

(١) وهو العلم الذى وقع بعد أربعة قرون تقريباً من ذلك التاريخ لأول وآخر مرة فى قبضة العرب فى موقعة القادسية الخالدة . ولهـذا العلم قصة خيالية (legend) شائقة ربما عدنا إليها

النشاط المدرسى فى المدارس المصرية

اقترح علماء التربية عطلة بعد الظهر في منتصف الأسبوع لاراحة المدرس والتلميذ على السواء ولتكون فترة استجمام وتجديد قوى الذهن لبقية أيام الأسبوع ... وكان جميلا جداً أن يطبق هذا النظام فى مصر ، فعطلت الدراسة بعد ظهر يوم الاثنين من كل أسبوع ، وقد تحقق أثر هذه العطلة القصيرة ، وبدا النشاط الذهنى فى المدارس عامة نتيجة له ... ولـكن سرعان ما انعكست الآية وضاعت الفائدة من هذه العطلة بتكليف الجماعات المدرسـية بالحضور بعد ظهر يوم الاثنين إلى مدارسهم لتسخيرهم فى ألوان من الأذى والارهاق ، يسمونها ألوان النشاط المدرسى ... وهو نشاط أشبه بالركود ، بل الموت ! فهذه جماعة تعمل أشغالا من الأركب بعد الغداء بساعة أو ساعتين ، وتلك أخرى تنشد أناشيد ميتة لا روح فيها ، وثالثة اجتمعت للتفرج بكتب لا غناء فيها ، ورابعة ، وخامسة ، والـكل يشكو فى سره إلى الله من هـذا التكليف السخيف الذى أطار من خيرة التلاميذ عطلة بعد ظهر الاثنين التى أصبح التلميذ الغبي وحده هو الذى ينتفع بها . ولا ندرى لم لا يخصص وقت للنشاط المدرسى فى صلب جدول توزيع الحصص ليشترك فيه جميع التلاميذ ، وليكون أجدى مما هو فى شكله المرهق وأسلوبه السقيم ؟

(معلم)

أول نشرة جوية فى التاريخ

منذ مائة سنة (١٩ يناير سنة ١٨٣٧) أصدر شاب إيرلندي يدعى بَتْرِك مارفى أول نشرة جوية عرفها التاريخ لسنة كاملة تنبأ فيها عن الحالة الجوية لأيام السنة يوماً فيوماً من حيث الحرارة والبرودة والمطر والزوابع . والعجيب فى أمر هذا الشاب أنه لم يكن من علماء هـذه الأبحاث المناخية ، لـكنه مع ذاك تنبأ فى نشرته أن الحرارة ستنخفض إلى أدناها فى يناير من ذاك العام ، وحذر الناس بالفعل من العواقب الوخيمة التى ستنجم عن هذا الانقلاب الناخى المفاجىء ... لـكن الناس وفى مقدمتهم العلماء سخروا منه واستهزأوا به ، فلما كان الأجل المضروب صدقت نبوءة مارفى إلى حد بعيد ، فاشتد البرد وانخفضت درجة الحرارة فى جهات شتى إلى ١٤ تحت الصفر (٤٦ درجة تجمدية !) وبدأ الناس يموتون بالمئات في الشوارع والحقول ، وأخذت القطط

والكلاب تفنى بالآلاف كل يوم ، وانفجرت مواسير المياه وأنابيب الغاز فى أكثر المدن وتلفت المحصولات ، ونفقت البهائم وعمت المصائب والويلات ، وعجزت الحكومة عن مقاومة الكارثة وتخفيف آثارها ... ولما خفت وطأة البرد أهرع الناس إلى (دكان) يترك مارفى ليشتروا نشرته ، وأقبلوا من كل صوب يتلقفونها بثمنها (شلن ونصف) واشتد زحامهم حتى استدعى ذلك تدخل البوليس ... وقد يعجب القارئ إذا عرف أن كل مطابع المدينة كانت تعمل ليل نهار فى طبع الأعداد المطلوبة والتى انتشرت في أنحاء بريطانيا خاصة وأوروبا عامة ... ولم تمض سنوات حتى أصبح مارفى من أغنياء العالم وعلمائه على السواء

استراليا بعد ١٥٠ سنة من الاستعمار البريطانى

فى ٢٦ يناير الماضى أتم الاستعمار البريطانى لقارة استراليا سنته الخمسين بعد المائة ، إذ يرجع تاريخ هذا الاستعمار المتيد إلى ٢٦ يناير سنة ١٧٨٨ ، حينما أقلع القبس أميرال آرثر فيليب بجانب عظيم من الأسطول البريطانى لإنشاء ويلز الجديدة الجنوبية أولى المستعمرات الانجليزية فى هذه القارة الغنية الواسعة . هذا ويرجع الفضل فى استكشافات استراليا إلى الكابتن كوك قبل قيام هذا الاستعمار بسبعة عشر عاماً (١٧٧٠) . والشعب الاسترالى الذى هب هذا العام يحتفل بتلك الذكرى العظيمة هو شعب راق متمدين ، لا يقل حضارة عن إنجلترا نفسها ، وقد أنشأ مدناً جميلة آهلة بالسكان على الشاطئ الشرقى والجنوبى الشرقى من القارة لا تقل بهاء عن أجل المدن الأوروبية . وهذا الشعب مولع (باليوجنية) أى علم استحداث الأحياء الراقية من الأحياء الوضيعة . وقد أفلح فى إيجاد الخيول الاسترالية القوية والخنازير السمينة والأغنام التى تمد العالم بنصف محصوله من الصوف النظيف الناعم ، والأرانب التى تغمر فراؤها أسواق لندن وباريس . وقد نجحوا نجاحاً عجيباً فى الانتخاب النباتى ، فهذا قمحهم الجيد يغمر الأسواق وهذه فاكهتهم تباع فى مصر بأرخص مما تباع فاكهة ممالك البحر الأبيض

والاستراليون أذكياء جداً ، ولعل السبب فى ذلك هو أن ٩٠٪ منهم أحفاد المجرمين وذوى السوابق من البريطانيين الذين نفوا من انجلترا لاستعمار استراليا

الجريدة أم المجلة ؟

مما نشكر عليه الجرائد المصرية إفرادها إحدى صحائفها للفنون والعلوم والآداب ، وهذا خير ولا تثريب على جرائدنا فيه . بيد أننا نلاحظ أن كثيرين من أدبائنا الجهابذ وعلمائنا الأجلاء يؤثرون الجرائد ببحوث جليلة الفائدة فى التاريخ والآداب والعلوم والفنون ، قد لا ينتفع بها عامة القراء ، وقد لا يلتفت إليها خاصتهم ، وإذا راقت أحدهم وقرأها فقد لا يستطيع الاحتفاظ بالصحيفة أكثر من يوم أو يومين ، بله عاما أو عامين ، ومن هنا تضيع قيمة البحث وتندثر فائدته ، ولو قد نشر فى مجلة من مجلات مصر المحترمة لوجد طائفة كبيرة من خاصة القراء تعرف له قيمته وتحتفظ به إلى ماشاء الله . وأمثال هذه البحوث كثيرة ، وقد قرأنا منذ حين بحثاً جليلاً فى تحقيق أسماء المدن الأسبانية وآخر فى أصول الأدب المصرى القديم ، وثالثاً فى تاريخ الكتابة الهيروغليفية .. الخ ... فأين هى هذ البحوث اليوم ؟! (د . خ)



النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة

تأليف الأستاذ محمد عرفة

بقلم الأديب محمد فهمي عبد اللطيف

منذ أعوام نشبت معركة أدبية بين الجامعة والأزهر حول نسبة الشعر الجاهلي ، وكانت شعواء صاخبة جرفت إلى ميدانها كثيراً من رجال الفكر وأعلام الأدب ، واتخذت من صفحات الصحف وردهات الأندية ميداناً واسعاً شاملاً ، وعج عجيجها فاتصلت بالسياسة وكان لها حديث تحت قبة البرلمان كاد أن يطيح بوزارة ، واتصلت بالدين فكان اتهام أمام النيابة واحتكام إلى القضاء ؛ ومع هذا كله فقد انتهت تلك المعركة وما تركت إلا النقع يخنق النفوس ، والغبار يقذى العيون ، وبقيت نسبة الشعر الجاهلي كما هي خاوية لا تقوم على تحقيق ثابت ، واهية لا ترتكز على بحث علمي صحيح ، معقدة لا يجليها رأى مبتدع ، مظلمة لا ينيرها فكر ثاقب

واليوم تنشب المعركة ثانية بين الأزهر والجامعة حول النحو وقواعده والنحاة وجهودهم . فالأستاذ إبراهيم مصطفى الأستاذ بكلية الآداب في كتابه « إحياء النحو » ينتقد النحويين في قصرهم مباحث النحو على الإعراب والبناء ، دون أن يبحثوا خصائص الكلام من التقديم والتأخير ، والنفي والاستفهام ، والاثبات والتأكيد ، ثم يرد على النحاة في زعمهم أن الإعراب أثر لفظي لا يؤدي معنى ، ولا صلة له بتصوير المفهوم ، وإثبات أن حركات الإعراب دوال على معان قصدت من الكلام ، فالضمة علم الاسناد ، والكسرة علم الاضافة ، والفتحة علم الخفة ، ثم هو ينتقد النحاة في زعمهم أن هذه الحركات اجتلبها العامل ، وراح يثبت أن المتكلم هو الذي أحدثها ، وخالفهم فذهب إلى أن التنوين علم التنكير ، فلك في كل علم ألا تنونه

والأستاذ محمد عرفة الأستاذ بكلية اللغة العربية يرى في ذلك منكباً للقصد ، وحيفاً على الحق ، فوضع للرد عليه كتابه (النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة) وهو يعتقد أن الأستاذ مصطفى قد نحل النحاة مذاهب لم يقولوها ونقدها وأبان خطلها ، كما أنه قعّد قواعد في العربية لو أخذ الناس بها لغيرت من روح العربية ولأفضى ذلك إلى فهم كتاب الله وسنة رسوله على غير وجههما ، حتى لقد عمم في الطعن ولم يخصص ، فأدخل سيبويه وكتابه ! يقول الأستاذ عرفة : «ولقد تمثلت هؤلاء النحاة وهم في أجداثهم يهضمون هذا الهضم بعد أن ملأوا الدنيا علما ، ويحاف عليهم هذا الحيف وقد خرست ألسنتهم الناطقة ، وإذ قد آلوا إلى ما آلوا إليه ، فقد صار حتماً على أبنائهم أن يردوا عنهم هذه التهم كما هو الواجب الانساني ، وواجب الأساتذة على أبنائهم الذين هذبوا عقولهم ، ثم واجب اللغة العربية وواجب العلم في نفسه ، وأخيراً واجب التلاميذ على أساتذتهم »

و « الفكرة » في كتاب الأستاذ عرفة هي مجاوبة للفكرة في كتاب « إحياء النحو » ، فهو يرى أن النحو العربي في حاجة إلى تبسيط قواعده وعرضه بطريقة تقربه من طبيعة المتكلمين وتكشف عن سر العربية ، ولكن على نمط قويم لا على ذلك النمط الذي انتهجه صاحب « إحياء النحو » فحادبه عن السداد ، ولو ثبت لكان خطراً على اللغة العربية ، وعلى فهم كتاب الله وسنة رسوله

ولقد أعجبني الأستاذ عرفة في ثبات جنانه فما اشتط في الخصومة ، ولا جمح به القلم ، فإذا هو مع خصمه من أول الكتاب إلى آخره على ما تقضي به كرامة العلم والخلق الحميد ، عف الأسلوب ، مهذب العبارة ، نزيه الغرض ، صريح في الحق ، لا يخاتل صاحبه ولا يموه على قارئه ؛ إن قسا فبالحجة ، وإن

احتكم فالى النصوص المدونة والنقول الثابتة ، وإلى العلم والمنطق تلك هى معركة اليوم بين الجامعتين ، وذلك هو مداها : أستاذ يهاجم وأستاذ يدافع الرأى بالرأى ، والحجة بالحجة ، و«الكتاب» « بالكتاب » ، وما نريد أن نزيد مدى المعركة على هذا الحد ، ولا أن يخرج عن هذا الاعتبار ، ولا نحب أن تتجاوز الأستاذين إلى غيرهما حتى ينتهيا إلى آخر الشوط ، ويصلا إلى نتيجة ترضى الحق والعلم

أما الآن فالكلمة نحب أن نسمعها من صاحب « إحياء النحو » فهو أولى الناس بالذود عن حوضه ، وخير من ينافح عن فكرته ، خصوصاً وأنه يريد أن يعمم هذه الفكرة فى وزارة المعارف وأن يقحمها فى مناهج التعليم ؛ وقيل إنه قابل الوزير لذلك الغرض فشجعه الوزير ووعده الخير . فليتقدم الأستاذ مدافعاً عن نفسه أو مسلماً لخصمه ؛ وعلى أى حال سواء أمكنه أن ينهض بفكرته وأن يرفع لواءها سليماً من الطعن ، أو نكص بها مردوداً من قريبه ومنازله ، فإنه مشكور له أجر المجتهد أخطأ أم أصاب ، وحبذا الناضل والمنضول في سبيل الحقيقة العلمية خالصة لله منزهة عن الأغراض

محمد فهمى عبد اللطيف

رئيس التحرير وقصص أخرى

(مجموعة أقاصيص أصدرها الأديب صلاح الدين ذهنى)

للأستاذ زكى طليمات

القصة المصرية تسير بل تركض ...

فقد أطلت برأسها علينا فى (حديث عيسى بن هشام) للمويلحى تخفى وجهها بخمار عربى من وشى أنامل تذكرنا بنسيجها الأول فى (مقامات الحريرى) و (بديع الزمان) ، إلى أن أسفرت عن وجهها مصرية من غير نقاب فى (زينب) لهيكل ، إلى أن صلب عودها واستفاضت بشرتها بحمرة مياه النيل فى قصص محمود تيمور ، وقبل ذلك فى أقاصيص شقيقه محمد ، إلى مالم تدخره حافظتى من أسماء قصاصين من أدباء مصر والشرق العربى أبوا إلا أن يفاصموا بأقلامهم في معالجة هذا اللون الجديد من الأدب العربي .

منذ ذلك الحين والقصة المصرية توالينا بنتاج لا ينقطع ، وكأنها تأبى إلا أن تكون شغل الأدب والنقد فى هذه الأيام

القصة المصرية صبية جامحة تياهة مزهوة فهى لا تعرف فضيلة التواضع ، تتحدث بصوت جهير كلما ملكتها شهوة الكلام ، ولا تدرى فعل التفكير والمراجعة وأثر التحرى والاستجمام فى إتيان الوثبة الواسعة ؛ وما هذا بالأمر المستغرب لأنه يرجع إلى طبيعة الشىء . وكأنى بالأديب المصرى اليوم ، وقد استشعر ماهية شخصيته بتأثير النضال الاستقلالى وبعوامل النزاع القوى وبما يعمر رأسه من أصداء الأدب الغربى وفى مقدمتها القصة . كأنى به أصبح لا يرتاح إلى الإفصاح عن خلجات نفسه والشكاية من هصره إلا عن طريق التدخل فى أديم شخصيات يبتدعها خياله بعد أن ينتزع معينها من البيئة التى يعيش فيها ، فيسجل ببراعة دقائق هذه الشخصيات فى سرد قصصى يطريه الحوار وتغلفه أجواء تفيض بالصبغة المصرية المحلية ، وتتمشى فيها أعراق من الإنسانية العامة . وأغلب الظن أن القصة المصرية أصبحت المجال الذى يعمل فيه الأديب المصرى اليوم لاستخلاص (المصرية) ولاستكمال مقومات أدب حديث ؛ وهى مظهر من مظاهر تحررنا من أساليب الأدب العربى القديم بعد أن غمرتنا أمواج ثقافة غربية جديدة ، وطالعتنا أحداث الزمن بما جعلنا ننفر إلى الجهاد فى سبيل حياة مستقلة

ومهما حاول النقد مخلصاً أن ينال من القصة المصرية بإخراج أكثر نتاجها من دائرة الفن الرفيع فلن يستلبها بهاء الشباب وروعة الفتوة . وإذا لم نجد فيها — وأعنى أكثريتها — عمق التفكير وجزالة الطبع القوى وصدق التحليل النفسى الذى يحس به ولا يلمس ، وطرافة المعالجة ، فحسبنا أنفاس عطرة دافئة تهب علينا من بين سطورها ، هى أنفاس مؤلفيها ، وهم أدباء يحاولون أن يدخلوا لوناً جديداً على الأدب العربى وأن ينشئوا أدباً قومياً

أكتب هذا وأمامي مجموعة أصدرها الأديب الشاب (صلاح الدين ذهنى) باسم (رئيس التحرير وقصص أخرى) ، وهي مجموعة تقف بجدارة إلى جانب أحسن ما أخرجته أقلام القصاصين الحدبثين من المصريين . ولعل أبين ما تمتاز به أنها

جاءت فى أسلوب يتسامى بجزالته عن مثيله فيما قرأت من قصص الناشئين من القصاصين

إلا أن الجزالة فى اللفظ والفصاحة ليست كل شىء فى الأسلوب، وهو من معانى القصة قوالبها وأداة معالجتها. والحكم على طرافة القصة ومنزلتها من الأدب الرفيع لا يكون العمدة فيه موضوعها، بل أسلوب معالجة هذا الموضوع. وما ترك الأول للآخر فكرة أو موضوعاً لم يعالجه أو يشر إليه؛ فقد يحدث أن يعالج الموضوع الواحد عدد كبير من الكتاب، ولكن التفوق والخلود لا يكتبان إلا لواحد منهم، وهو من يكون قد حذق معالجة هذا الموضوع وبرع فيه

والمعالجة الطريفة لموضوع القصة تكون فى حبكتها الشيقة وإنزالها في القالب الذى تخرج منه منسقة الحوادث من غير عنت، متينة البناء فى غير افتعال، متزنة محكمة الأسلوب، تومىء وتفصح، وتقطر وتفيض. وحظ القصص التى بين يدي مما ذكرت غير متجانس، فبعضها يأخذ سمت المعالجة الطريفة فى خطو وئيد، والبعض الآخر يتعثر فى نواح من نواحيه، إلا أنها عثرات سرعان ما تقال. ويبدو هذا فى القصة الأولى من المجموعة وعنوانها (حسنة)، فى حين أن قصة (رئيس التحرير) تعد أنموذجاً لحذق كاتبها من حيث معالجة الموضوع وخصب البيان. وحسبنا من المؤلف أن يصيب مرة ويخطىء مرات، وهو فى الحالتين لا يألو جهداً فى أن ينزع نحو الكمال الفنى المنشود

و(رئيس التحرير) قصة فكهة (كاريكاتورية) الأشخاص والأسلوب. وأبين ما تبين عنه هذه القصة نزعة ساخرة يفيض بها قلم كاتبها، وهى نزعة يخالطها الأسى وتمازجها الشكاية فى قصة (مذكرات فنان) حيث نرى المؤلف متبرماً بمجتمعه متململاً بما شاع فيه من التطاول والادعاء؛ ينقد عن ملاحظة دقيقة أوضاعه المقلوبة، مما يدل على أن (صلاح الدين) على حس مرهف وعين بصيرة بحقائق الأشياء وتفاريق الألوان فى مجتمعه، فهو يرى ويشعر ويحيا ويتألم ويسخر ويصخب، وشأنه فى هذا شأن صفوة الشباب المعذب فى هذا الجيل، ولعل هذه القصة أحسن ما تكشف عن نفسية المؤلف

وللريف فى هذه المجموعة من القصص شأن يذكر، وأحسن ما جاء فى قصصه تلك الصبغة الريفية التى تطالع القارئ فيحس بريح القرية ملء أنفه وبهدوئها يشمل أعصابه

وللمؤلف جولات أخرى فى موضوعات الحياة التى تتصل ببيئته، فهو تارة تراه متدخلاً في زوايا البيوت، وأخرى متغلغلاً فى طوايا السرائر؛ وهو فى معالجة هذه الموضوعات يركض ويتباطأ، ويهبط ويصعد، ويستقيم ويلتوى؛ ولكنه يريد دائماً أن يذهب بعيداً ليستقر فى آفاق طريفة من التأمل والتفكير، وهو فيما يريد أن يذهب إليه يصيب مرة ويخيب أخرى، وهو فى خيبته غير مهزوم

زكى طليمات



ســاعة التنفيذ

إنتاج استوديو وهبي

على ستار «كوزمو»

ممثلو وممثلات الفلم

أمينة رزق — لطفية نظمى — زوزو نبيل — زينات صدقى — ليلى سلطان — لطفية أمين — يوسف وهبي — عبد القادر المسيرى — عبد العزيز أحمد — حسين صدقى عبد المجيد شكري — أبو العلا على — لطفى الحكيم — توفيق صادق — محمد ابراهيم — محمود المليجى

ملخص الرواية

عاد رؤوف سامي (يوسف وهبي) من أوربا بعد أن أصبح طبيباً فوجد خطيبته سامية (أمينة رزق) زوجة لفؤاد بك راجى التاجر الثرى مع أنها لا تزال تكن له الحب فتتوثق العلاقة من جديد بين رؤوف وسامية ...

وقد نتج من هذه العلاقة طفل لرؤوف من سامية ولكنه شرعاً يعتبر ابناً لفؤاد بك ... تعرف الدكتور رؤوف بفؤاد بك فأكرمه وأحله محل الأخ ، فأخذ ضمير رؤوف يؤنبه ، وأراد أن يقطع علاقته بسامية ؛ غير أن الظروف جعلت فؤاد بك يعرف تلك العلاقة الأثيمة . وفاجأ ذات مرة زوجته بين يدى صديقه ، فلم تتحمل الزوجة الصدمة وألقت بنفسها من النافذة تاركة الزوج والخليل والابن (إحسان) ، وحين كانت تلفظ النفس الأخير باحت لزوجها بسر مولد إحسان ، وطلبت إليه أن يحتفظ بالطفل الذى كان محبوباً من الجميع

توارى رؤوف غير أن توبيخ ضميره طارده وأفقده مركزه الأدبى والمادى ، وقد أراد أن يكفر عن ذنوبه فاصطدم بحوادث عديدة صيرته بين كبار المجرمين ، وقد جعل رؤوف حياته وقفاً على خدمة ولده الذى لا يعرفه ، فكان يحميه عن بعد دون أن يعرف سر أبيه ...

وحدث أن أراد أحد الخدم أن يفشى سر مولد إحسان وقد تقدم للانتخابات لمجلس النواب خدمة لخصمه ، فقتله رؤوف وقبض عليه وسيق إلى المحاكمة وإذا بالمحقق هو ولده إحسان وكيل النيابة ... قدم رءوف للمحاكمة وكان إحسان فى ذلك الوقت قد اعتزل الوظيفة ، وأصبح محامياً وعضواً بمجلس النواب ... وفى جلسة محكمة الجنايات فوجىء رؤوف بابنه إحسان وقد دفعه دافع خفى للدفاع عن أبيه دون أن يعرف الحقيقة ... وطلب منه أمام القضاة أن يعترف بأسباب الجريمة فهو يشعر أن المجرم قد اقترف القتل لسبب نبيل .. فما كان من الوالد إلا أن سخر بدفاعه ووقف يؤكد للمحكمة أنه مجرم وقاتل وعريق فى الاجرام ... وبينما كان حكم الاعدام ينفذ في الوالد .. كان الولد يهنأ بعروسه فى شهر العسل

يوسف وهبي

ويقوم الأستاذ يوسف وهبى فى هذا الفلم بأدوار ثلاثة ، فهو المؤلف والمخرج وممثل البطل ... وهو فى ذلك يشبه الممثل الكبير شارلى شابلن الذى يؤلف ويخرج ويمثل أفلامه القوية الناجحة ، ونحن نهنئ الأستاذ يوسف وهبى على هذا المجهود الكبير

ونؤجل نشر نقدنا الفنى لهذا الفلم إلى الأسبوع المقبل

السيدة منيرة المهدية

تعود إلى المسرح

وأخيراً عادت السيدة منيرة المهدية إلى الظهور بعد احتجابها الطويل فى المسرحية الجديدة «الاوبريت» (الأميرة روشنارا الهندية) وهي من تأليف الكاتب المعروف الأستاذ بديع خيرى وتلحين الأستاذ زكريا أحمد. وسنتناول فى الأسبوع المقبل نقد هذا الفلم من جهاته الفنية

الأميرة كوكا

بطلة فلم (تاجر اللح)

ابتداء من اليوم تقدم سينما رويال بالقاهرة فلم (جريكو) أو (تاجر اللح) الذى أخذت أكثر مناظره فى مصر وبين ظهرانينا



كوكا وبول روبسون

وبطل الفلم رجل أسود له شهرة فى عالمى التمثيل والغناء تضارع شهرة أقوى ممثل أومغن من الجنس الأبيض، إن لم تفقه. وقد سبق أن رآه جمهورنا ناجحاً قوياً فى عدة أفلام على ستار أكثر دور السينما فى مصر ... واسم هـذا الزنجى الشهير بول روبسون

أما بطلة (تاجر اللح) فهى فتاة مصرية اسمها الحقيقى ناجية ابراهيم، ولقبها الانكليز فى جرائدهم بالأميرة (كوكا) فأصبحت تعرف بهـذا اللقب . وهى فتاة برنزية اللون ذات عينين خلابتين وجسم معتدل مما ساعدها على ارتقاء سلم النجاح فى عالم السينما بسهولة وسرعة

وقد اضطرت ناجية ابراهيم إلى السفر مرتين إلى بلاد الانكليز لإتمام إخراج هذا الفلم العظيم ... وهناك فى إنجلترا تعلمت كوكا رقصـــة الـكلاكيت التى أصبحت تتقنها .. غير أن هذه الرقصـة قد كلفتها كثيراً ، فإنها مازالت حتى الآن تعانى الأمرين من آلام ظهرها

وسنرى أى نجاح تصيب هذه النجمة المصرية الجديدة .. !

بدرية رأفت

بطلة الفلم المصرى الجديد:

نفوس حائرة

تعرض سينما الكوزمو فى هـذه الأيام إشارة إلى فلم مصري جديد ستظهر على ستارها عما قريب

ذلك هـذا الفلم هو (نفوس حائرة) وأما أبطاله فهم بدر لاما ، وبدرية رأفت ، وعبد السلام النابلسى ، وسميحة



بدرية رأفت

فهمى ، وفؤاد المصرى الخ ...

والمخرج هو الأستاذ ابراهيم لاما المخرج المعروف، وقد أخرج لنا بضعة أفلام مصرية ناجحة

فؤاد زمكحل



النجمان المعروفان إيريك ليندن وسيسيليا باركر
كما يبدوان فى منظر من « ربيع الغرام »
الرواية القوية التى تعرضها سينما ريجال بالقاهرة ابتداء من اليوم (الاثنين ٧ مارس)

وزارة الصحة العمومية

تقبل عطاءات بمكتب حضرة مدير مخازنها لغاية الساعة العاشرة من صباح يوم ١١ ابريل سنة ١٩٣٨ عن توريد :

١ — الزجاج والقطرميزات وأوراق الساحيق وأنابيب الكاوتشوك والفلين وأسطوانات الأكسوجين الخ ...

٢ — الميكروسكوبات ولوازمها

ولغاية الساعة العاشرة من صباح يوم ٩ مايو سنة ١٩٣٨ عن توريد القطن والغيارات والماكينتوش الخ ... اللازمة للوزارة لعام ٣٨ / ٣٩ — والعطاءات يجب أن تكتب على استمارة خاصة تطلب من إدارة مخازن الصحة العمومية بالقاهرة ومن القنصليات الملكية فى الخارج ماعدا انجلترا حيث يمكن الحصول عليها من المكتب الهندسى للحكومة المصرية بلندن مقابل دفع ٥٠ مليما عن كل من مناقصتى الميكروسكوبات والقطن والغيارات ، و ١٠٠ مليم عن كل قائمة من مناقصة الزجاج — ويمكن الاطلاع عليها بمراكز الغرف التجارية بالقطر المصرى

وكل عطاء غير مصحوب بتأمين ابتدائى ٢٪ من قيمته لا ينظر فيه ويجب أن يوقع على شروط التوريد والقائمة من مقدم العطاء

٢ — ٢ ٣٦٠١

إدارة البلديات العامة

طرق

تقبل العطاءات بادارة البلديات العامة لغاية ظهر ١٩ مارس سنة ١٩٣٨ عن توريد وتركيب طروفيات وتوريد حجر دبش وزلط ورمل لمجلس قنا المحلى وتطلب الشروط من الادارة نظير ٢٠٠ مليم

٢ — ٢ ٣٥٩١

إدارة البلديات العامة

قسم الكهرباء

تقبل العطاءات بادارة البلديات بمصر حتى ظهر يوم ١٤ ابريل سنة ١٩٣٨ عن توريد فحم غاز الاستصباح لعملية الانارة بالغاز ببورسعيد . وتطلب الشروط من الادارة نظير مائتى مليم

١ — ٢ ٣٦٢٧

وزارة الزراعة

تقبل العطاءات بادارة المخازن والمشتريات والورش بالدقى لغاية الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ٢٠ مارس سنة ١٩٣٨ عن توريد أدوات خيام لأعمال دودة القطن لعام ١٩٣٧ / ١٩٣٨ ويمكن الحصول على الشروط والمواصفات من الادارة المذكورة يومياً ما عدا العطلات الرسمية مقابل دفع مبلغ ٣٠ مليما

٣٥٩٠

محكمة السنطه الأهلية

إعلان بيع

فى القضية المدنية ن ١٩٨٥ سنة ١٩٣٦

إنه فى يوم الثلاثاء ٥ ابريل سنة ٩٣٨ الساعة ٨ أفرنكى صباحا بسراى المحكمة سيباع بالمزاد العلنى الأطيان الآتى بيانها بعد الملوكة إلى الست زنوبه وحسين أولاد المرحوم محمد احمد كله والست زنوبه ابراهيم كله القيمين بمصر بشارع الطباخ ن ١١ بالعباسية بمنزل محمد افندى فؤاد تبع قسم الوايلى وهذا بيان الأطيان

١٣ س ٥ ط أطيان كائنة بزمام شبرابلوله السمنودية مركز السنطه بحوض رزيق بالقطعة ضمن ١٧ يحد بحرى بسيونى بك الخطيب وأخوانه والشرق ترعة عمومية والقبلى ورثة حنا بك رزق والغربى سكة زراعية عمومية

١٣ س و ٥ ط خمسة قراريط وثلاثة عشر سهماً لا غير

وهذا البيع بناء على طلب الست زينب احمد نيازى القيمة بمصر بالعباسية وبناء على حكم نزع الملكية الصادر من هذه المحكمة بتاريخ ٢٤ اكتوبر سنة ١٩٣٧ المسجل بمحكمة طنطا الأهلية فى ٢٦ اكتوبر سنة ٩٣٧ ن ٩٠٦ سنة ٩٣٧

وهذا البيع وبناء لمبلغ ٢٠ ج خلاف الصاريف وما يستجد منها بثمن أساسي قدره ١٦ ج خلاف المصاريف وشروط البيع وجميع الأوراق مودعة بملف القضية بقلم كتاب المحكمة لمن يريد الاطلاع عليها فعلى من له رغبة فى الشراء الحضور فى الزمان والمكان المحددين أعلاه للمزايدة قانوناً كاتب البيوع

في يوم ٢٠ مارس سنة ١٩٣٨ الساعة ٨ صباحاً والأيام التالية بناحية العقال القبلى مركز البدارى إذا دعت الحالة سيباع علناً المواشى الموضحة بالمحضر ملك سيد محمد مكى من الناحية نفاذاً للحكم نمرة ٨٤٧ سنة ١٩٣٧ مدنى البدارى وفاء لمبلغ ٨٤٢ قرش صاغ وذلك بخلاف أجرة النشر كطلب مهنى فرغلى من الناحية فعلى راغب الشراء الحضور


العدد ٣٤٥
الرسالة

6 me Année, No . 245

Lundi - 14 - 3 - 1938

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٤٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٢ محرم سنة ١٣٥٧ — ١٤ مارس سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـــرس

« ســـــارة »

للأستاذ عباس محمود العقاد

كنت أقول للذين يحلو لهم أن يصنفوا الكتَّاب إلى كاتب مقالة وكاتب قصة وكاتب نقد وكاتب سياسة وكاتب تمثيل : إن الكاتب الخليق بهذا الاسم يجب أن يكون أولئك جميعاً . فإذا قصر جهده على بعضها فليس معنى ذلك قصوره عن بعضها الآخر، بل معناه أن عمل الكاتب فى التعليم أو فى الصحافة ، أو حظ الأمة من الحضارة والثقافة ، أو حال المجتمع من الرخاء والاستقرار، يساعد اتجاهاً على اتجاه ، ويُغلِّب نوعاً على نوع . وما الكاتب إلا فنان موهوب ميزته تأليف الكلام الجميل تعبيراً عما يقع فى حسه وعلمه ، وتصويراً لما يجرى فى خياله وذهنه ؛ فاذا استمد الإلهام والمعرفة أحاط إحاطة (الجاحظ) و(جيته) ، وإذا استملى الشعور والعاطفة ألم إلمام (البديع) و(موسيه) . وانفساح ذرعه أو انحصار طبعه لا يدخل فى حسابه بالزيادة ولا بالنقص ، لأن الأصل فى فنه أن يجيد الكشف عما يحس والابانة عما يعلم

قالوا إن العقاد باحث جرىء الرأي ، وناقد نافذ البصيرة ، وجدلى دامغ الحجة ، ولكنه لا يملك أن يكون قصصياً يكشف بالوحى حجب الغيب ، ونمنمق بالخيال صور الحقيقة ، ويحيي بالعاطفة خمود الفكرة ، وتلمسوا لذلك الأدلة والعلل من طبيعة مزاجه

واتجاه تفكيره وروح أسلوبه ، حتى رووا عنه أنه عاب القصة ونفى أن تكون نوعاً جدياً من أنواع الأدب . وكان الذين يسمعون هذا الكلام يقابلونه بالتصديق ويؤيدونه بالواقع ، فكنا نقول لهؤلاء إن الذي يعرض هذا العرض ، ويصف هذا الوصف ، ويحلل هذا التحليل ، لا يُعضل عليه — إن أراد — أن ينقل المشهد الذي رآه ، ويقص الخبر الذي علمه . وليس القصص كله خيالاً حتى يسوغ في العقل أن الكاتب الذي يضيق خياله ويضعف وهمه باتساع عقله وقوة فكره يقصر باعه عن القصة

وجاءت (سارة) والرأى على ما خيّل الراءون فأقرت الأمر في موضعه من صميم الحق ؛ وقدمت الدليل القاطع على أن هذه الشخصية الأدبية قد بلغت الغاية في كل ناحية من نواحي الأدب ، حتى الناحية التي لم تتجه إليها إلا منذ أمس .

وهل صحيح أن أمس كان أول عهد العقاد بالقصة ، وأن سارة كانت أول ما كتب العقاد من القصص ؟ الحق أن الكاتب المطبوع يولد وفي قريحته أصول الأنواع الأدبية ؛ تنمو بنموه ، وتطوّر بتطوره ، وترقي برقيه ؛ ولكن ذلك يحصل لبعضها بالفعل ، ويحصل لبعضها الآخر بالقوة . فلو أن العقاد كتب (سارة) أيام كتب (مجمع الأحياء) لكان من الراجح أن يكتبها من نوع غير هذا النوع ، وبأسلوب غير هذا الأسلوب ؛ ولكنه كتبها حين كتب (سعد زغلول) فجاءت من النوع التحليلي البارع ، وبالأسلوب المنطقي المشرق . والقصة التحليلية هي آخر أطوار القصة ، كما أن الشعر الفلسفي هو آخر مراحل الشعر . ونتاج الذهن يتطور بين الطفولة والكهولة في الفرد والأمة والخليقة ؛ فالأسطورة تنتهي إلى القصة ، والملحمة تصير إلى الرواية ، وشعر الغناء يؤول إلى شعر الفلسفة

***

(سارة) قصة فتاة مثقفة لعوب أرملة ، وصفها العقاد في فصلين لا نجد كثيراً من أمثالها في أدب العالم ، وهما (من هي) و (وجوه) . عرفها همام المهذب المثقل الطيب القلب وهو في وسط عقده الرابع أعزب وحيد ، فشغفته حباً للأسباب التي حللها الكاتب في فصل من هذه الفصول ؛ ثم وصلت بينهما الطبيعة بالصلة التي لا حيلة فيها لانتظار ولا اختيار ولا خبرة ؛ وظلت هي على غريزتها الأنثوية تعابث وتخابث وتلبس تارة لباس (مانون) ، وتارة أخرى لباس (مادلين) ؛ وظل هو على شكيكته العلمية يؤوِّل ، ويعلل ، ويفرض الفروض ، ويثير الشكوك ، ويقوى حيناً فيكون (دون جوان) ، ويضعف حيناً فيكون (دى جِريو) حتى ذوى الحب بين الشك منه والسأم منها فتفرق العاشقان

ليس في القصة إذن حادثة تروعك ، ولا مفاجأة تدهشك ، ولا عقدة تشوقك ؛ ولكن هذا الحادث العادي المطروق أصاب ذهناً شديد النفاذ ، وفكراً دقيق الملاحظة ، وشعوراً صادق الحس ، فتجلى في (سارة) صوراً واضحة الخطوط ، ناطقة الملامح ، عبقرية الألوان ، تمثل هذه المرأة في جميع حالاتها وعلى كل وجوهها تمثيلاً عارياً لا ينفع فيه ثوب رياء ولا ورق تين . ولعل الطريف في (سارة) أنها تحلل تركيب العشق في قلبي عاشقين من ذوى الثقافة والفكر ، فتنتهي إلى أن الفلسفة لا تجعل من العاشقة إلا امرأة كـكل امرأة ، ولا من العاشق إلا رجلا كأى رجل

***

أما أسلوب (سارة) فهو أسلوب العقاد : صريح لا رغوة فيه ، جلي لا غبار عليه ، مستقيم لا التواء به ؛ يتصل فيه اللسان بالعقل فلا يلغو ، ويعتمد فيه القلم على القريحة فلا يهن . على أن العقاد في سارة قد احتفل لأسلوبه واحتشد لفنه فجاء من النمط العالي ، لا تجد خللاً في سبكه ، ولا قلقاً في اطراده ، ولا وهناً في منطقه ، ولا سقطاً في ألفاظه ، ولا شططاً في معانيه . وفي رأيي أنك لا تعرف العقاد على حقيقته إنساناً وفناناً إلا في (سارة)

إن سارة تقدم مثلاً جديداً في بلاغة الأسلوب ، وتفتح فصلاً جديداً في أدب القصة ، وتسجل اتجاهاً جديداً في أدب العقاد

احمد حسن الزيات

عود إلى داء الشعور بالحقارة

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

والمصاب بداء الشعور بالحقارة إذا أفدته علماً أو مالاً تباهى به عليك وتلمس الوسائل كى يظهر بمظهر المانح كأنما يمنحك فضلاً أو عوناً، إما بأخذه ما أخذ منك، وإما بدلا منه. وهو لا ينسى لك فضلاً ويحسدك على نعمتك حتى تزول ولو كان في زوال نعمتك زوال نعمته، ويحاول أن يخفى فضلك عليه حتى على أكثر الناس علماً بما أفدته، ويحاول أن يجند منهم أعواناً له ضدك بأن يظهرك بمظهر المداوة لهم وقلة الخير والزهد فيهم، فإذا عاتبته واضطررت أن تذكره بمعونتك كى تبتعث الحنان فى قلبه عدّ إشارتك التى استثارها بعمله أو حديثه امتناناً منك عليه، فيزداد لك عداوة. وهو بالرغم من مقابلته المعروف بالاساءة يطمع فى المزيد مما عندك وإن ظهر بمظهر العائف له. وهو سلاح فى يد أعدائك حتى وإن لم يدر ذلك، لأنه قد يغالط نفسه أو يغالطونه ويخادعونه

ومن المصابين بداء الشعور بالحقارة من ينغص عيشة من يعاشره باظهار حدة الطبع ورفع الصوت والعراك، لأنه يرى فى كثرة العراك تعاظماً وتعالياً يخفى ما يشعر به فى سريرة نفسه من الوجل والخوف من أن يحقر. ومن المصابين بهذا الداء من يعد سفاهة لسانه سياجاً يحوط به عظمته الموهومة التى يخفى بها ماهو كامن فى سريرة نفسه من الشعور بالحقارة التى قد يظنها عظمة

ومنهم من يتلمس الفرص كى يسمع الناس صوته كأنما صوته جرس يدق إيذاناً بالعظمة التى يخفى بها خوفه من التحقير

وترى الواحد من هؤلاء لا يتعفف عن مدح نفسه والاشادة بآرائه وأفكاره وإعجاب الناس بها واحترامهم إياه بسببها، وهذه الخطة قد تكون مكراً ووسيلة كوسيلة التاجر فى الاعلان عن بضاعته وإن عرف أن بضاعته غير مزجاة؛ وصاحبها مع ذلك مطمئن النفس لا يبالى إذا لم يصدقه السامع، ولكنها قد تكون خطة مسعور متكالب على الناس يرجو احترامهم ولا يستطيع أن يعيش من غيره ولا يهنأ حتى ولو فقد مثقال ذرة منه، وهو يتفرس في وجوه الناس كى يرى هل صدق السامع حديث إعجاب الناس به. وكلما كان الرجل من هؤلاء المصابين بداء الشعور بالحقارة مفلساً من المال أو الجاه أو العلم كان حقده أشد، ونكايته أنكى، وصوته أكثر إيذاناً بالمظمة التى يحاول أن يخفى بها المرض. وقد تزول أسباب المرض من إفلاس فى مال أو علم أو جاه، ولكنه يبقى طبعاً فى النفس لا تستطيع مداواته. ومن العجيب فى أمر المصابين بداء الشعور بالحقارة أنهم قد يخلصون أو يتظاهرون بالاخلاص — وهو الصواب — لمن لا يرجون منه خيراً ولا نفعاً، ويختصون بالاعنات من يرجى منه الخير أو من أصابهم منه خير، لأن الدَّينَ ربما عدوه نقصا. وهؤلاء المصابون بداء الشعور بالحقارة يود بعضهم بعضا بالغريزة، ويساعد بعضهم بعضا ما دام ليست بينهم خصومة على خير مرجو، وما دام لا يحجب أحدهم الآخر عن الظهور؛ وهم عند ما يساعد بعضهم بعضا يكونون كأنما هم حِلف على الباطل قد عمل بحرف الحديث: (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوما) وأغفل معناه الحقيقى؛ وهم إذا تعاونوا على الباطل يعرفون أنهم لا يشبعون نهمهم من العظمة الباطلة التى يخفون بها ما كمن من الشعور بالحقارة إلا بالتساند؛ أما إذا تخاصموا على مظهر من مظاهر التعاظم فلا يتعففون من التحارب بأقذر سلاح كما كانوا يتعاونون به

وهم يضحون بالسعادة والصحة والمال وبأحب عزيز وبسعادة كل من يموقهم كى يبلغوا مظاهر التعاظم التى يخفون بها ما كمن فى العقل الباطن وفى السريرة من الشعور بالحقارة. وإذا بلغ هذا المرض أشده لم يحجم صاحبه عن الجرائم؛ وقد يؤدى إلى الجنون وهو مرض شائع، وبعض مظاهره ليست حادة ولا مسببة للحزن والتعاسة كما تسبب حالاته الشديدة. فمن حالاته البسيطة التى ربما كانت تدعو إلى الفكاهة أن يقابلك إنسان مصاب بهذا المرض وهو يعرف اسمك تمام العرفان فيناديك باسم آخر، فإذا كان اسمك محمدا قال: كيف حالك يا مصطفى بك؟ وهو يفعل ذلك كى يشعرك أنه أعظم شأناً من أن يتذكر اسمك؛ فإذا صححت له اسمك اعتذر ثم يعود بعد قليل فيناديك بالاسم الخطأ: قائلاً أليس الأمر كذلك يامصطفى بك؟ ولا يناديك باسمك مهما صححت خطأه. ومنهم الصغير المنزلة الذى يقابلك فيتلطف فى الحديث فإذا لمح إنساناً يعرفه رفع صوته بلهجة الآمر كى يشعر السامع أنك تقبل منه هذه اللهجة لعظم أمره. ومنهم صاحب الأباريق فى قصة الموظف المشهورة الذى أحيل على الماش فاشترى أباريق وملأها ماء وجلس عند المسجد الجامع يقول لكل طالب ماء بلهجة الآمر: خذ هذا ... لا تأخذ ذاك. وهذا المثل الأخير قد

يكون من أمثلة داء الشعور بالعظمة ، والحقيقة أن مظاهر داء الشعور بالعظمة ، ومظاهر داء الشعور بالحقارة قد تختلط ، ولكن المحك الذي تعرف به وتميز هو إما ثقة صاحب الداء بنفسه وعظمتها ثقة لا تدعو إلى القلق ، وإما أن مظاهر تعاظمه يخالطها القلق والحقد والحسد والدناءة والسفالة ، فالأول أكثر اطمئناناً حتى أنه قد لا يشعر بسخر الساخر به ، وقد يكون في تكبره كريماً أو رحيم النفس ، وهو إذا ارتكب إثماً فإنما يرتكبه باسم العظمة والاصلاح ، ويرتكبه وهو مطمئن وادع لا حقد يشوب إثمه ولا قلق ولا دناءة كما تشوب هذه الصفات إثم المصاب بداء الشعور بالحقارة ، والأول إذا تواضع تواضع في كبر البالغ الواثق بنفسه ، وإذا تكبر تكبر بكبر الواثق بنفسه الذي لا يشعر بسخر الناس به ، وهذا المصاب بداء العظمة لا يتلصص في تحايله ووسائله كما يفعل صاحب الشعور بالحقارة الذي هو أميل إلى الكيد والدس

والموظف الصغير المنزلة في المصرف أو في الدواوين الذي يتعالى ويتعاظم ويتصام ويتفخم ويحملق في وجوه أصحاب الحاجات ويتباطأ في إجابتهم من غير سبب أو معذرة إنما هو مصاب بداء الشعور بالحقارة . ولعله يتشفى بهذه الأحوال مما أصاب نفسه من تعاظم من هو أعلى منه منزلة ، تعاظماً شعرت به الذلة والمسكنة. وفي بعض حالات هذا المرض لا ترى سبباً ظاهراً له ، فقد يصاب به الرجل من بيت عز وعلم فتتلمس العلل الخفية فتقول هل طغى عليه أبوه في تربيته في الصغر طغياناً يشعره الذلة والمسكنة ، فاذا ورث أباه غطى ما ورثه على ذلك الداء من غير أن يعصمه من الأقوال والأعمال الناشئة منه ، أم هل ورث هذا الشعور عن أجداده ، أم أنه داء يعدى كما تعدى بعض الأمراض النفسية بالمحاكاة ولطول العشرة وحكم البيئة

ومما يلاحظ أن المحاكاة والعشرة والبيئة قد تنقل مظاهر هذا الداء في المدارس من تلاميذ مصابين به إلى تلاميذ على الفطرة والسذاجة . ولعل المدارس المصرية أكثر مدارس العالم ديمقراطية لكثرة مجانية الفقر للتفوق ولانخفاض المصروفات فهي تساعد انتقال الصفات من طبقة إلى طبقة ، فالفقراء يحاكون الأغنياء فيخسرون ، وأبناء الأسر الطيبة تحاكي أبناء أسر أقل طيبة فيخسرون أيضاً وإن كان لهذه الديمقراطية مزايا

عبد الرحمن شكري



من أحب المطالعات إلى نفسي كتب العالم الرياضي «هنري بوانكاريه» . عندي من مؤلفاته ثلاثة كتب : «العلم والطريقة» و «العلم والفرض» و «قيمة العلم» . قرأتها لأول مرة منذ عشر سنوات . وأعود إليها من حين إلى حين . إنها لتسحرني كما تسحر الأطفال قصص ألف ليلة وليلة . فأنا الآن لا أقرأ كثيراً كتب الأدب . لأني أنا نفسي أصنع كتباً في الأدب . ولكني أحب أن أصغي إلى أولئك الذين يبحثون في صمت عن الحقيقة . هؤلاء الذين عندهم ما يقولون ولكنهم يترفعون عن الكلام . فإن الحقيقة التي يحاولون أن يتصيدوا شبح خطاها خلف « الميكرسكوبات » و « التلسكوبات » لأروع من أن توضع في ألفاظ وعبارات . على أن ما يعنيني من كلام هؤلاء العلماء ليس الأرقام والمعادلات أي « الوسائل » ، ولا يعنيني كذلك ما وصلوا إليه من « نتائج » ، ولكن الذي أقرأ من أجله كتبهم هو تلك الإشراقات الذهنية التي تلمع من خلال بحوثهم فتضيء جانباً من جوانب الفكر المهجورة . ليس العلم في ذاته هو الذي يهمني ، ولكن هي «العقلية العلمية» في مصادمتها ومواجهتها للأشياء . لا شيء يلذ لي مثل مجالسة «عالم» متسع الأفق . وهذا النعت لا ألقيه جزافاً ، فان من كبار رجال العلم من هم ضيقو الأفق ، أي سجناء معادلاتهم وأرقامهم ، يصلون بها مع ذلك إلى نتائج باهرة في صميم العلم ، ولكنهم قلما ينظرون إلى العالم الخارجي . إنما الطراز الذي أقصد ، هو طراز رجل العلم المطبوع الذي يخرج بعد ذلك لينظر بعين العلم وعقلية العلم إلى الكون بمعناه الواسع . هي « فلسفة العلم » . ما أريد هنا بعد هذه القراءات أن يتضح لي أنا « رجل الأدب » كيف أن مخلوقاً آخر يسمى « رجل العلم » ينظر إلى ذات الأشياء التي أنظر إليها ويفكر في هذا الكون الذي أفكر فيه ولكن بعين أخرى وعقل آخر . ومن يدري ؟ لعل أكثر هؤلاء العلماء هم أيضاً لا يلذ لهم شيء مثل قراءة ومجالسة « رجال الأدب » فما الأمر في باطنه إلا شوق وحب استطلاع بين نوعين مختلفين من هذا الحيوان المفكر

توفيق الحكيم

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ١٣ —

لقد آذانى معالى السيد أرشد العمرى ، وكظمت غيظى فلم أسمعه ما يكره ، وقلت فى نفسى : إن الرجل تصور أننى أهنته فسحب منى الدعوة ، والجروح قصاص

وقلت : هم سيقضون السهرة فى الرقص وسأقضيها فى التأليف وأنا أجد لذة ممتعة حين أرانى أجدّ فى وقت يلعب فيه الناس

وتذكرت أنى أشغل مطبعتين فى بغداد ، وأن من الخير أن أعتكف فى المنزل فأحضر بعض الوقود لجحيم المطابع

وكذلك اطمأننت إلى الزهد فى ليلة بغداد التى وُعِدَ بها المؤتمرون !

* * *

ولكن ما هذه الدعوة الجديدة ؟ هى دعوى لسياحة طريفة فى ضواحى الكرخ وبغداد ، نتفرج بها على إسالة الماء . وأنا قد أمضيت نحو خمسة أشهر محبوساً بين المكاتب والأوراق ، ولم أر فى بغداد غير الجادة والدربونة ودار المعلمين العالية وكلية الحقوق وما تيسر من سواد العيون

وسرت مع السائرين للتفرج على إسالة الماء وأنا أرمى إلى غرضين : الأول الترويح عن النفس ، والثانى كتابة بحث لمجلة المقتطف عن تكوين الصهاريج

فهل روحت عن نفسى وأعددت موادّ البحث المنشود ؟

ما صنعت شيئاً من ذلك ، وإنما دارت الأرض تحت قدمىّ حين رأيت صاحبة العينين ، فكان المهندسون يشرحون الدقائق العلمية فى تقطير المياه لتزويد الكرخ وبغداد بالماء النمير ، وكنت أنظم الخطط لأكون دائماً بالقرب من صاحبة العينين . ومن العجيب أن أمرى لم ينكشف ؛ ومضى المهندسون وهم يعتقدون أننى كنت المستمع الواعى ، وأن سائر المستمعين لم يفهموا إلا أن الكرخ وبغداد تسقيان من دجلة لا من الفرات

ولمثل هذه المواقف منحنا الله نعمة العقل !

ومضينا فتناولنا الشاى والفاكهة فوق العشب الأخضر وبين الأشجار التى أذوتها أرواح الشتاء ، وأُدير على الحاضرين صوت أم كلثوم :

على بلد المحبوب وديني زاد وجدى والبعد كاوينى

فكانت بلد المحبوب عندى هى المائدة التى تجلس عليها صاحبة العينين ، ولكن أين من « يودينى » هناك ؟ إن أسوان أقرب من هذه المائدة وليس بينى وبينها غير ثلاث خطوات

يا مسافر على بحر النيل أنا لىَّ فى مصر خليل

فرمقتني صاحبة العينين بنظرة حنان . فمن الذى أعلمها أنى نشأت فى ديار النيل ؟ مَنْ أعلمها ذلك وعلى رأسى سدارة ، والمصريون كلهم مطربشون !

وهممت بالتسليم عليها ، ولكن صدتنى العصابة التى كانت تحرسها منى ، وصدنى أن مكانى كان قريباً من مكان رئيس الوزراء ثم تقوض المجلس وانفض الناس ، والدنيا اجتماع وافتراق

* * *

كيف السبيل إلى رؤية هذه الظبية فى المساء ؟

إنها ستكون بالسهرة البغدادية التى وُعد بها المؤتمرون

وأنا ممنوع من سهرة بغداد

ولكن من الذى يمنعنى ؟

هو أمين العاصمة حضرة صاحب المعالى أرشد العمرى .

أهلاً وسهلاً بمعالى الأمين !

أأنت الذى يمنع الدكتور مبارك من ليلة بغداد بعد أن كتب عن مجد بغداد ما لم يكتب مثله كاتب فى قديم ولا حديث ؟

أنت مهندس بغداد ، وأنا أديب بغداد ، وسترى لمن يكون الخلود ...

* * *

وأخذت أفكر فيما سأصنع ، فهذه الظبية ستكون فى الرقص وسأجد الفرصة لمخاصرتها مرة أو مرتين بعد أن يتلطف الشراب فى رياضة العصابة التى تحرسها منى !

وأنا قد تعلمت الرقص فى باريس وأخشى أن أنساه ، وحياة العلم مذاكرته كما قال القدماء

وهل من الإثم أن أهتم بمذاكرة ما تعلمت ؟ وهل أنفقت من الوقت والمال فى سبيل الرقص ما أنفقت لتضيع منى فرصة لن تعود من فرص بغداد ؟

لا بُدَّ من حضور هذه السهرة .

لا بُدَّ مما ليس منه بُدُّ

* * *

ولكن كيف ألقى معالى أرشد العمرى وهو غضبان ؟ أنقف فنتناوش ونتضارب ؟ وهل أرسلتنى مصر إلى العراق لأصنع ما يصنع الأطفال ؟

لو كانت المسألة بينى وبين هـذا الرجل مسألة شخصية لضاربته وقاتلته بلا تهيب . وما أحسبه يزعم أنه أقوى منى ، ولكن المسألة أنى مصرى وهو عراقى ، وأنا أنفق دمى فى خلق الصلات بين مصر والعراق ، وإقامتى فى بغداد أقنعتنى بأن مصر لا بدَّ لها من مودة العراق ، فالعراق يكاد يكون هو الشعب الوحيد الذى يسلم فيه المصريون من أذى الناس . وهذه العواطف ليست جديدة عندى ، وإنما تلقيتها منذ سنة ١٩١٧ عن الأستاذ أحمد صالح حين كان يدرس التاريخ القديم بالجامعة المصرية ، فقد حدثنا عن مودات صوادق أقامها الحِلف الشريف بين المصريين والبابليين ، وما جاز فى عهد الجاهلية لا يستحيل فى عهد الاسلام إلا أن نكون من الأغبياء

وتذكرت أن بغداد تحوطنى بأشرف معانى العطف ، وأنه ليس من الذوق أن أحرج رجلاً هو أمين بغداد ، وهو أكبر منى سناً ولعله أكثر تجربة ، والتحامل عليه ضرب من العقوق

وتذكرت شعار مصر وشعار العراق

أما شعار مصر فهو : « أحرار فى بلادنا ، كرماء لضيوفنا »

وأما شعار العراق فهو :

سيوفنا قاطعة لِلَّى يقابحنا ورقابنا قنطرة لِلَّى يسامحنا

وتذكرت أصل الخلاف فوجدته يرجع إلى كشف الرأس فى السهرة ، وأنا أكره كشف الرأس لأنه قد يجرّ إلى الزكام ، وأنا مدرس ، والمدرس المزكوم منظره سخيف ، فما الذى يمنع من الذهاب إلى السهرة بالطربوش وهو لا يجب خلعه فى السهرات

هذا حلٌّ موفَّق ، ولكن لابدّ من الاحتياط ، والاحتياط هو أن أذهب قبل الموعد بساعة إلى مكان الاحتفال عملاً بمذهب حلفائنا الفضلاء أبناء العم جون بول ، ومذهبهم هو أن تحتلّ أولاً ، ثم تفاوض بعد ذلك !

* * *

كان طريقى من باب المعظَّم إلى بهو أمانة العاصمة يوحى الشعر والخيال ، فقد كانت ليلة عيد ، وكان القمر ينظر إلىّ فى ترفق كأننا فى سنتريس ، ولكن صدرى كان مكروباً بعض الكرب . فقد كانت ليلة العيد لا تقع إلا وهى موعد غرام ، وهى فى هذه المرة قد تكون حومة قتال

مشيت مشية المتمهل لأجتلى طلعة القمر ، أو لأؤخر الشر لحظات .

فلما دخلت البهو وجدته خالياً ، وكيف لا يكون كذلك وقد سبقتُ الموعد المحدد للسهرة بأكثر من ثلاثة آلاف ثانية ؟ لقد وجدت البهو كالقلب الخلىّ الذى تفكر القادير فى شغله بالحب ، وجدته كالغادة التى تنتظر العاشق الصوال

دخلت وحدى وتلفتُّ فلم أجد أحداً ؛ وبعـد لحظة لمحت شبح معالى الأمين وهو يتمرن على الطواف قبل قدوم الحجيج

وبعد دقائق نظرت فرأيت رجلاً يعدو إلىّ عدْواً فقلت : هذه طليعة الشر ، وتأهبت للصِّيال

ولكن الرجل أخلف ظنى كل الإخلاف ، فقد حيانى أجمل تحية ، وأخذ يدى برفق فدلنى على القصف فحسبته صديقاً قديماً أنستنيه الأيام ، فقلت :

سيدى ، هل لك أن تُذَكرنى متى تلاقينا أول مرة ؟ أترانى عرفتك فى القاهرة أو فى باريس ، ذكرنى فقد نسيت !

فأجاب في لطف :

ما أذكر يا مولاى أننا تلاقينا قبل اليوم ، وإنما رأيت الطربوش فوق رأسك فعرفت أنك من مصر العزيزة ، وللمصرى على العراق حقوق الأخ الشقيق

فرفعت الكأس وقلت : تعيش بغداد ، ويحيا العراق . !

وسألت بعد ذلك عن اسم هـذا الرجل الشهم فعرفت أنه المهندس نجيب نورس الياور ، وكذلك استحال على معالى أمين العاصمة أن يلقانى بغير الابتسام

* * *

نحن الآن فى بغداد ، فى ليلة ما رأى مثلها الرشيد ، وإن تعبَ الواصفون فى التذكير بليالى الرشيد . هي ليـلة بغدادية لا قاهرية ، لأن القاهرة حين تعرف أمثال هذه الليلة تنقلها نقلاً عن الغرب ، ويختاف حولها الفقهاء ؛ أما بغداد فتعرف الليالى الساهرة عن الآباء والجدود . هى ليلة سيذكرها من رآها وستحتل أقطار ذهنه إلى اللحظة التى يعانى فيها سكرات الموت ؛ هى ليلة تمثل الفتوة العراقية وتذكر الجاهلين بأن الشعب الطروب لن يموت

كان الناس كلهم فى سماحة الملوك ، وكنت وحدى أبخل الحاضرين ، فقد سألنى رجل عظيم متى أرقص ، فكذبت عليه وقلت لن أرقص ، مع أنى ذهبت إلى ناحية قصيّة وراقصت ثلاث فتيات ، وعاقرت الثغور سبعين مرة أو تزيد ، وعند الـكرام الـكاتبين جريدة الحساب

لا أدرى والله ماذا صنعت فى تلك الليلة ، إلا حادثتين اثنتين : الأولى حين دخلت المقصف بعد الدورة الرابعة من دورات الرقص فقد ارتفعت الأصوات : يحيا الدكتور زكى مبارك ! وكان الأستاذ على الجارم بك بين الحاضرين فانتظرت أن يهتف باسمى فلم يتردد كما كنت أتوقع ، وإنما هتف هتاف الصديق ؛ ثم شق الصفوف إلىّ فعانقنى وهو يقول : أنا فرحان لك يا دكتور زكى ! فرحان لك يا أخوى ، فرحان لك يا حبيبى ، فرحان لك يا نور العيون يا زهرة مصر فى العراق

وإنما عددت هذه حادثة لأن المواطنين لا يفرح بعضهم لبعض إلا فى قليل من الأحيان

ولا مؤاخذة يا جارم بك ، يا حبيبى يا نور عيونى ، يا أحلى من ملح رشيد !

أما الحادثة الثانية فهى طرفة لا تقع من رجل سواى

فقد عثرت فى الطواف على فتاة خشنة جافية تصلح لأن تكون مديرة لإحدى المدارس الثانوية ، ولـكنها لا تصلح لأن تكون غادة فى مرقص ، فقلت فى نفسى : ماالذى يمنع من التصدق على هذه الفتاة بقبلة أو قبلتين ؟

وأنا فى الحقيقة « رجل إنسان » كما يعبر أهل القاهرة ، أو « رجل آدمىّ » كما يعبر أهل دمشق . وما أذكر أبداً أن سائلا سألنى وخيبته ، وأنا لا أستحى من الجود بالقليل لأنه على كل حال أفضل من المنع ؛ وقد أكرمنا الله بالغنى ، فمن اللؤم أن نكون بخلاء

طافت هذه الخواطر بنفسى وأنا ألمح تلك الفتاة الجافية فقلت إن لياتى هذه لن تخلو من سيئات ، ولا بد من حسنة تمحو ما سأقترف من سيئات ، فتوكلت على الله وأقدمت

سلمت على الفتاة فاستراحت للسلام ، وإن كنت لا أعرفها ولا تعرفني

وقبلت يدها فابتسمت

فقبلت جبينها وخديها ، ثم قبلت جبينها وخديها ، وانصرفت ولـكنى لم أكد أخطو بضع خطوات حتى سمعت رجلاً يصيح : يا دكتور مبارك ! يا دكتور مبارك !

فالتفتُّ مذعوراً فاذا سكرتير مجلس الوزراء . فقلت : وقعت الواقعة وحقّت الفضيحة ، وجمعتُ أشتات قواي وقلت : نعم ، يا سيد !

فقال : لن نحاكمك إلا إلى قول شاعركم شوقى

فقلت : وماذا قال شوقى ؟

فأجاب إنه قال :

نظرة فابتسامةٌ فسلام   فكلام فموعد فلقاء

فهو قد فرض أن تسبق القُبلة بستة أشياء ، وأنت قبّلت بدون مقدمات

فقلت : يا سعادة الأستاذ ، لقد عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء . إن شوقى قال هذا البيت منذ خمسين سنة يوم كان القطار أسرع ماعرف الناس ، ونحن اليوم فى عصر اللاسلكى والطيران فلا تلمنى إن قبّلت بدون مقدمات ، فمن العقل أن نتخلق بأخلاق الزمان

طابت السهرة وطابت ثم طابت ، وعرفت فيها طبيباً نبيلاً كان يصادقني عن طريق مؤلفاتى ، وسيكون من الذين أقبل من أجلهم ثرى بغداد يوم أفارق بغداد ، وصداقة الأرواح شىء نفيس ، ومودة العقول من ذخائر الرجال

وكانت ليلتنا كما قال ابن المعتز :

ثم انقضت والقلب يتبعها · فى حينما وقعت من الدهر
فأين ليلتنا من الدهر ؟ أين ؟ أين ؟ إنك يا دهر لظلوم !

كنت أول من دخل البهو فى تلك الليلة ، وكنت آخر من خرج ، ولولا الحياء لطلبت البيت هناك لأستنشق ما بقى من أنفاس الظباء

رجعت إلى المنزل ، ولا أذكر كيف رجعت ، فقد استيقظت قبيل الشروق ، فرأيت مصابيح البيت كلها مضاءة ، ورأيتنى فى ثياب السهرة كما كنت ، فعرفت أننى دخلت البيت بلا وعى ولا إحساس

ولكن لا بأس فقد عشت ليلة من ليالى بغداد

وإلى معالى أرشد العمرى تحيتى وثنائى !

***

هذا صباح العيد ، وهذا طوافى برياسة مجلس الوزراء ، أصافح الرجال الذين عناهم الشريف الرضي حين قال :

محاسن أقمار الدجى بوجوههم فنبهرها نوراً ونثلبها سعداً
تخالهم غِيداً إذا بذلوا الندى وتحسبهم جناً إذا ركبوا الجردا

هذا هو الرجل العذب الروح النبيل الشمائل جميل المدفعى رئيس الوزراء الذى لا يصدق من يرى صباحة وجهه أنه من صناديد القتال ، والليث لا يكون شتيماً فى كل حين

وهذا وزير المواصلات ، الصديق الذى أحببته منذ رأيته فى سهرات رمضان

وهذا وزير الداخلية يلوم ويعتب لأنه يرانى أستبيح من أساليب التعبير ما لا يستبيح أدباء باريس

***

ويتفضل صديق عزيز فينقلنى بسيارته إلى منزل صاحب الفخامة نورى باشا السعيد ، وكنت أتمثل نورى باشا رجلاً كهلاً أضوته السنون ، فأراه فتًى خفيف الروح كأنما قدم بالأمس من ملاعب مونبارناس ؛ ويقبل علىّ فخامته فيقول : أنا تلميذك بالفكر ، يا دكتور مبارك ، لأنى قرأت جميع مؤلفاتك

ويروعنى هذا اللطف فأقول : « لقد علم الله كرم نفسك فحفظ عليك شبابك يا فخامة الرئيس »

ويقبل علىّ الحاضرون فيسألون عن صحة ليلى ، فيبتسم نورى باشا ويقول :

« إن ليلى المريضة فى العراق هى شبكة ينصبها الدكتور زكى مبارك لتقع فيها احدى الليليات »

وأتألم من ذلك فأقول : « إن مولاي نسى أنه تلطف فأعان الضابط عبد الحسيب على الانخراط فى سلك الجيش العراق سنة ١٩٢٦ »

ويمسح نورى باشا جبينه ويقول : « تذكرت ، تذكرت ، شفى الله ليلى على يديك »

***

ثم نمضى فنزور معالى مولود مخلص رئيس مجلس النواب فنرى الرجل الذى أفهم العالم أن من واجب الجيش الانجليزى أن يحسب ألف حساب للجيش العراقى ، ونسمع الفصاحة العربية التى كانت تعذُب وتطيب على ألسنة الغزاة الفاتحين

وفى مساء يوم العيد نحتفل بعيد صاحب الجلالة فاروق الأول احتفالاً فخماً يشاركنا فيه أقطاب العراق

وفى اليوم التالى أمضى لإلقاء محاضرتى فى المؤتمر الطبي فيقبل علىّ عشرون طفلاً وهم يصيحون : « الدكتور زكى مبارك ، الدكتور زكى مبارك »

ويجيء صديق من الأطباء السوريين فيقول : « لقد صارت طلعتك بهجة لأطفال بغداد يا دكتور مبارك ! » فينهمل دمعى وأقول : « نعم ، فهذه الطفلة تشبه كريمة ، وهذا الطفل يشبه عبد السلام ، وهذا يشبه عبد المجيد ، وتلك الفتاة تشبه زينب ، وهذا الفتى يشبه سليمان »

أبنائى الأعزاء ، لقد نهبتنى منكم بغداد ، فاغفروا لى ذنبي فما ذقت حلاوة العيش إلا فى بغداد

***

تحدثت عن الليلة السعيدة التى أقامها معالى أمين العاصمة ، وكنت أحسبها خاتمة الليالى الملاح ، ثم ظهر أن هناك ليلة أروع وأظرف ، وهى ليلة الجمعية الطبية العراقية . فلنذكر بالتفصيل ما وقع فى تلك الليلة من ضروب الفُتون ، فقد تمر أعوام قبل أن تشهد مثلها بغداد ، وقد تسكت عنها الأقلام فتذهب ذكراها من القلوب

ومن الواجب علىّ وقد أجاب الأطباء دعوتي فعقدوا المؤتمر العاشر فى بغداد ليعاونوني على مداواة ليلى ، من الواجب أن أسجل بقلمى ما صنعوا من الطيبات حين عطروا بغداد بليال أروع وأنضر من ليالي الرشيد ، ولن يكون هذا آخر العهد بالأنس يا بغداد .

« للحديث شجون » زكى مبارك

الى سر السيد جمال الدين

بمناسبة ذكرى وفاته

للأستاذ عبد المنعم خلاف

على القبر الذى فى ضفاف البوسفور سلام دائم كِفاء الحرب الدائمة التى شنها مدى عمره على الطواغيت الثلاثة : الجهـل والاستبداد والتفرق ... عناصر الشر العريق الخالد ، وثالوث الشقاء الأسود الذى تبتلى به الإنسانيـة حين يراد ضياعها وإهدارها وتبديد معناها

وسلام على القصر الذى سلسله فيه عبد الحميد بسلاسل الذهب وأضواه فيه بالموفور الميسور من الغذاء والديباج والخز ... وخنقه فيه بشذا الورد والريحان ... ثم أعجل أجله بالطب ... حتى اطمأن إلى أن درع روحه قد ووري التراب ...

وقبلات طاهرة مقدسة على اليد البالية التى أشارت لمحمد عبده وسعد زغلول وشكيب أرسلان وغيرهم إلى الطريق فسلـكوا بالقطيع فيه ليخرجوه من المهالك والمضايق والجدب والعقم ...

***

يا أيتها النفس المطلقة الحرة التى ضرب الله بها مثلاً لسطوة العلم والروح وبطشهما بقوة الملك والسياسة ... تُرَى ما الذى تَيَّمك حتى يَتَّمك من الأرض والوطن وفطمك من حياة الزوجية والاستقرار والهدوء والعيش السالم الناعم ؟!

ترى ما الذى شرد النوم من جفونك ورمى بجسمك المرامى القاصية ، وجعلك « طيراً على كل غصن » يضرب بجناحه فى أجواء الشرق الإسلامى ويصرخ فى الأرض النائمة ليوقظ صرعى الطواغيت الثلاثة فى الهنـد والأفغان وإيران والعراق والشام والحجاز ومصر وتركيا والمغرب ... ؟

ثم ما الذى شرد النوم من جفون « جونبول » وعبد الحميد وناصرشاه وتوفيق ، حتى طاردوك وتآمروا ودبروا وكادوا واحتالوا باليد الباطشة الحمراء ... و« العين » الرنانة الصفراء ؟.

أهو روح النار التى كانوا يخافونها على ما جمعوه من هشيم ... ؟

أهو روح القوة التى خافوها من مثل صيحتك فى ميدان باب الخلق بالقاهرة بكلمتك المشهورة : « أيها الفلاح المصرى الذى يشق الأرض بالمحراث ، لم لاتشق به قلوب مستعبديك ؟! » فخشوا أن تحيل النفوس الخزفية إلى حديد ذى بأس شديد ... وأن تركِّب براثن ومخالب وأنياباً لذوات الحوافر والأظلاف ، والقواضم والأضراس من القطعان السائمة التى ترعى لتذبح أو تحلب أو تجرجر الأثقال الدائمة أو تدور على نفسها فى الحظائر تمضغ الجفاف وتجترُّه فى غيبوبة عن الدنيا ذات الجنات والأنهار والعيون ... ؟

أم هو روح الحق الذى تقمصك فجمل مرآك ومنطقك ومجلسك ثلاثة مفاتيح تفك الأغلاق والأقفال والقيود عن العانين المأسورين للأصنام الإنسانية والطواغيت الثلاثة ؟

أم هو روح النور الذى مددْت خيوطَه إلى كل عين رأتك فرأت به الظلام الممدود على الشرق والواقعَ الأليم على الاسلام ؟

أم هو روح الثورة التى تضرمها عيناك فى كل قلب يراك حتى ولو من وراء عدسة المصور ... وأنت فى بطن الأرض ؟!

بل كل هؤلاء جميعاً هو سرك الذى أعيا أعداءك جهادُه ..

***

رأى الدنيا ذات الصبح العريض المالىء للآفاق ، المشرق على الناس من الغرب . وهو فى أعماق الشرق بين جبال الأفغان أو إيران فقبس لمصباحه منه وأخذ عصاه رحالةً يقرع أبواب المسلمين النائمين الحالين من الحاكمين والمحكومين ، وينفخ فى بوقه هاتفاً بالصوت الموقظ المنَـذر فى الأرض النائمة ، مشيراً بعصاه إلى الضوء الجديد فى الأفق البعيد ...

ثم سار فى خرائب الممالك الاسلامية وأطلال المجد القديم يلتقط النفوس الدُّرِّية والحديدية من الخزف والحطام والتراب . ويقبض عليها بيديه القويتين فما يتركها حتى يصقلها وتمسها كهرباؤه وتتصل بمرجل الثورة في قلبـه ثم ينثرها على الآفاق الاسلامية تكهرب الجو وتضيء وتزن وتحطـم ...

سَلِم من خديعة الشيطان ومكره بالعلماء رجال الدين الذين يكتفون فى جهاد الإثم والجهل بأن يعكفوا على الدفاتر والمحابر فيسْـكروا بما فيها كما يسكر العاكفون على الخمر فيفنيون عما

حولهم من أحداث الدنيا وسياسة الحياة ، ويتركون القلوب فارغة ويملأون الرءوس بالبلبلة والأحافير والأعاجيب الألفاظ . يبتغون الخلود بزعمهم فى التاريخ والصحف ... وهم يفقدون نفوسهم فى الحياة

فبَرِئ جمال الدين من العلم الصامت البارد وأدخل تعاليمه إلى نفوس تلاميذه ومريديه فى حرارة بعد أن هزهم هزاً عنيفاً ، وكتب رسالته على أرواحهم ومات فقيراً من ميراث الورق المسطور ... الذى يتباهى به أكثر العلماء الحفاظ ، بعد أن عاش فى ألفاظه وتعاليمه وعلم تلاميذه أن يعيشوا كذلك ... ولذلك أحدث كل منهم ثورة وسار على قدم أستاذه فسجن وعذب ونفى وشرد

***

هذه مقاطع آلامه كما رواها تلميذه الأمير شكيب أرسلان

« لا أريد أن أمس المسلمين بكلمة ، هؤلاء قوم كلما قال لهم الانسان : كونوا بنى آدم ... أجابوه : إن آباءنا قد كانوا كذا وكذا ... وعاشوا فى خيال ما فعل آباؤهم غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينفى ما هم عليه اليوم من الخمول والضعة »

« قد فسدت أخلاق المسلمين إلى حد أن لا أمل بأن يصلحوا إلا بأن ينشأوا خلقاً جديداً وجيلا مستأنفاً . فحبذا لو لم يبق منهم إلا كل من هو دون الثانية عشرة من العمر ، فعند ذلك يتلقون تربية جديدة تسير بهم فى طريق السلامة »

« إن المسلمين قد سقطت هممهم ونامت عزائمهم وماتت خواطرهم وقام شىء واحد منهم وهو شهواتهم [(١)] »

وهذه مطالع آماله كما ترجمها تلميذه الأكبر الامام محمد عبده :

« صفاء العقول من كدر الخرافات وصدأ الأوهام ، والاسلام يقتضي ذلك ، لأن أول ركن بنى عليه صقل العقول بصقال التوحيد وتطهيرها من لوث الأوهام ... وأن تكون نفوس الأمم مستقبلة وجهة الشرف طامحة إلى بلوغ الغاية منه ما عدا رتبة النبوة فإنها بمعزل عن المطمع ...

« وإن دين الاسلام فتح أبواب الشرف فى وجوه الأنفس وكشف لها عن غايته وأثبت لكل نفس صريح الحق فى أى فضيلة

(١) حاضر العالم الاسلامى

« وليس الاسلام كدين « برهما » الذى قسم الناس إلى أربعة أقسام وقرر لكل منزلةً لا يتجاوزها ... ولا هو كاليهودية التى تخص شعب اسرائيل بالكرامة والاجلال وتذكر غيرهم بالتحقير ، ولا هو كالمسيحية التى تذهب إلى أن رؤساء الدين أقرب إلى الله من جميع البشر وأنهم وساطة رضاء الله ...

« وأن تكون عقائد الأمة مبنية على البراهين القويمة مجانبةً مُطالَمة الظنون وتقليد الآباء كما يحتم القرآن

« وأن يكون فى كل أمة طائفة تختص بتعليم سائر الأمة ، وطائفة أخرى تقوم على النفوس بالتهذيب والتعديل ... »

وهذه عزائم جهاده في السياسة كما لخصها الأستاذ الجليل مصطفى عبد الرازق بك :

١ — تخليص بلاد الإسلام من نفوذ أوروبا وخصوصاً انجلترا .

٢ — تخليصها من الاستبداد وإنشاء النظم الحرة الدستورية فيها

٣ — جمع كلمتها بجميع فرقها تحت زعامة واحدة

وهذه وسائله السريعة التى تخيرها لتحقيق غاياته كما رآها « تشارلز آدمز » : « الثورة السياسية التى عرف أنها أسرع الطرق وآكدها لتحرير الشعوب الإسلامية وتغذيتها بالحرية الضرورية لتنظيم شئونها . أما وسائل الإصلاح التدريجى والتعليم فكان يرى أنها بطيئة جداً غير محققة العاقبة »

فهو الذى أوحى بالثورة الفارسية التى بدأت بالهياج ضد احتكار التنباك فى سنة ١٨٩١ وانتهت بوضع دستوره فى أغسطس سنة ١٩٠٦ ، ووالاها بالتشجيع والتأييد

وهو الذى مهد بتهييجه المتواصل للحركة التركية الموفقة التى قامت سنة ١٩٠٨

وهو الذى دفع الحركة الوطنية المصرية التى ساء ختامها بفشل الفتنة العرابية

وهكذا كان أيان يذهب يترك وراءه ثورة تغلى مراجلها [(١)]

***

وصفوه لنا ...

فقالت أقلام الشرق : « حنيفى حنفى مع ميل إلى مشرب

(١) من كتاب الاسلام والتجديد تعريب عباس محمود

السادة الصوفية رضى الله عنهم » « هو حليم يسع حلمه ماشاء الله أن يسع إلى أن يدنو أحد ليمس دينه أو شرفه فينقلب إلى غضب تنقض منه الشهب ، فبينما هو حليم أواب إذا هو أسد وثاب ... »

« وبالجملة فلو قلنا إن ما أوتيه من الذكاء هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء لكنا غير مبالغين »

هذا بعض قول محمد عبده فيه . وهاك بعض ما قاله الأمير شكيب :

« كان فى أطوار حياته فيلسوفاً كاملاً عالماً عاملاً ... فكان يفطم نفسه عن الشهوات ، ولا يرى من اللذات إلا اللذة العقلية . وقد حاول السلطان عبد الحميد أن يعلق قلبه بالمال والبنين ويشغله بزينة الدنيا وراوده على الزواج فأبى وأعرض وقال له : « قضيت حياتي مثل الطير على الغصن ، فلا أريد في آخر أيامى أن أتعلق بعائلة » وقال فى مثل هذا المقام : « لم تدخل روح الفلسفة فى هذه الأمة »

وقالت أقلام « رينان » و « روشفور » و « براون » من الغرب :

« كنت أتمثل أمامى عند ما كنت أخاطبه ابن سينا أو ابن رشد أو واحداً من أساطين الحكمة الشرقيين »

« السيد جمال الدين الأفغانى من سلالة النبي ، والمعدود هو أيضاً أنه أشبه بنبي ... »

« كان رجلاً ذا خلق قوي ، غزير العلم موفور النشاط ، لا يجد الوهن إليه سبيلاً ، جريئاً مقداماً ؛ وكانت فصاحته لا تجارى خطيباً كان أم كاتباً ؛ وكان لطلعته هيبة فى النفس وعظمة وجلال ؛ وكان فيلسوفاً وكاتباً وخطيباً وصحافيًّا ، ولكنه كان فوق ذلك سياسيًّا ... »

***

سياسى يغربل الحوادث ويعلق عليها ويرسم حدود الدولة والحكم الصالح للأجسام ... وحبر دينى يصقل جوهر الإنسان ويرسم حدود الحكم الصالح للأرواح ... وفيلسوف يخشى على حكمته التى رأى أمته فى حاجة ماسة إليها ، أن يجلب لها ضرائر تكيدها وتصرفه عنها ، فلم يتنع صاحبة يبنى لها عشاً أو يقيم لها سقفاً يحن إليهما ويجبن بهما ويبخل ...

وصوفىٌّ لا يُخدع بالتراب المزوَّق ، وينفق من الكنوز الخفية فى ملكوت السموات والأرض . ولذلك أبى قبول الرتب والأوسمة التى عرضها عليه السلطان ، فلما سئل فى ذلك قال : « أ أكون كالبغل يحمل على صدره الجلاجل ؟! »

وكذلك لما أصدر الخديو توفيق أمره بنفيه وعرض عليه قبيل السفر أحد أصدقائه الأثرياء من المصريين بعض النقود ليستعين بها فى السفر قال له : « أبقها لك فان الأسد لا يعدم فريسة أينما حل [(١)] »

***

رجل رمزى فنان ! رأيت له صورتين ما يفطن إلى شرح وضعه فيهما أحد فيما أعلم : إحداهما صورته وهو واقف قابض بيده على نموذج الكرة الأرضية . وهو رمز عظيم ومعنى جليل يدل على اتساع روحه ورحابة نفسه

وثانيتهما صورته وهو على سرير المرض فى أواخر أيامه ، وقد أمسك بيده المصحف الكريم ومسبحة ، وبسط أمامه صحيفة أفرنجية ، وذلك رمز واضح الدلالة على المعانى التى كانت تملك نفسه من الدين والتصوف والسياسة ، وخلاصة مفيدة عن ذلك الرجل الذي التقى فيه الشرق والغرب لقاء عجيباً !

يلتفت إليك الشرق الاسلامى كله فى هذه الأيام يا أيها القبر الذى ضم جثمان نذيره فى القرن التاسع عشر بعد أن ختله مرض الجبابرة والعباقرة : السرطان .. أو غول السياسة .. كما يتحدثون والديان أعلم !

عبد المنعم خلاف

(١) سمعتها من السيد رشيد رضا رحمه الله

فلسفة التربيـــة

تطبيقات على التربية في مصر

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ١٢ —

«لا معرقل لنهضة الأمة أشد وأفدح من تباعد ثقافتها وانقسام عقليتها»

« *** »

« لقد قررنا أن نجعل كل مواطن موضع عناية الدولة وحمايتها ، فعشرات الملايين محرومة الآن مما نسميه بمقاييسنا الدنيا « ضرورات الحياة » ! ولذلك سيكون مقياس نجاحنا هو : لا هل أضفنا زيادة لأغلب أولئك الذين عندهم الكثير ! بل هل قدمنا الكفاية لأولئك الذين ليس عندهم إلا أقل القليل » ؟!

« الرئيس وشنطن »

٢ — الأمية وانقسام الثقافة

تبينت فى المقال السابق أهمية الموضوع وخطورته بالنسبة لمصر ولا سيما فى عصرها الراهن ، وعلمت بأمر هذه الرسالة النقدية الحصيفة التى قد أخرجها « الدكتور جاكسن » أخيراً متناولاً فيها بعض نواحى النقص بالتجريح والعلاج ، وستقرأ منذ اليوم تلخيصاً وتعليقاً على هذه الرسالة الفريدة ، كما ستقرأ فيما بعد ما أستطيع أن أقدمه من ملاحظات واقتراحات ...

١ — فرصة ملائمة للإصلاح

والحق أن الفرصة الحاضرة ملائمة من جميع نواحيها لإصلاح التربية فى مصر . ذلك أن تيار الوطنية الجارف قد أوجد شعوراً عاماً بوجوب النهضة ، وبعث المجد القديم ، والاحتفاظ بما كسبنا من حقوق ، فالتنبيه إلى أن التربيـة الصالحة خير أداة لتحقيق هذه النهضة المنشودة يجد صداه بسهولة فى الرأى العام ، ويجد مكانه اللائق به فى برامج الأحزاب ونفوس الزعماء ؛ وإذاً فلا مندوحة لنا من انتهاز هذه الفرصـة الواتية والعمل على الاستفادة منها ، ولنحذر تماماً مغبة الاندفاع الكلى إلى شئون الدفاع الوطنى وحده لأن السيف كما يقولون لا يعمل إلا فى يد بطل ! ولنكتف بما كان فنصرف الطلبة إلى شئون الدراسة وحدها لأن السياسة قد جنت على ثقافة البلد وأخلاقه بتخفيضها نسبة النجاح نزولا على صيحات الكسالى الراسبين !!

٢ — الحاجة إلى الزعماء الكثيرين

فترى إذاً ما هى حاجة النهضـة المرموقة ؟ أحسب أن هذه النهضة تتطلب أولاً وقبل كل شئ زعماء كثيرين جديرين ، يستطيعون أن يحملوا الشعلة وينطلقوا إلى تبديد الظلام فى شتى نواحى الضعف والنقص بقلوب فتية ، ونفوس حازمة ، وضمائر نقية تقدر المسئولية وتتفانى فى التضحية وضرب المثل الأعلى ؛ زعمـاء لا سياسيين فحسب ، ولكن أخلاقيين واقتصاديين ورياضيين واجتماعيين وغير ذلك ممـا تتطلبه نواحينا الكثيرة المتباينة ... ويقع عبء تخريج هؤلاء الزعماء على المدرسة والبيت بما فيهما من معلمين وآباء !! أو قل إنه يقع على المعلمين بوجه خاص ، فإذا نجحنا فى إخراج هؤلاء فقد وضعنا الأساس القوى المكين . ولا سبيل إلى هذا النجاح إلا بتعليم إنسانى يحفز ويثير ويقوى الشخصية ويخلق رجل المشروعات ...! وهنالك تنحط الزعامة على كثير من الخريجين وتسعى إليهم ...! أما تعليم الحفظ والاستيعاب والجمود والانكماش فلا يخرج إلا أفراداً مصبوبين فى قالب واحد ، لا خلق فيهم ولا تكوين ، ولا إزهار ولا إبداع !

٣ — محو الأمية وتوحيد الثقافة

ثم ماذا ؟؟ يتبقى بعد تكوين هؤلاء الزعماء أن نجد « الشعب » الذى يتبعهم عن فهم وتقدير وبحماس واتحاد ؟ ! فهل لدينا ذلك الشعب ؟ ثمانون فى المـائة يا عزيزى أميون ! وأغلب الأقلية المتعلمة لا يدرى من شـئون العلم غير مجرد القراءة والكتابة ! ! وأغلب ما يتبقى بعد ذلك سطحى الثقافة فج العلم ملتوى الشخصية خامـد الشعور ! ! ثم ليت هؤلاء — مع الأقلية الراقيـة الثقافة — متحدين فى العقل والقلب والعقائد والأمانى ! ! أليس فيهم المصرى الشرقى والمصري الغربى ؟ ؛ أليس فيهم المعمم بكل ما له من منطق يخالف الطربش ولا يكاد يتفق معه فى فهم الحياة ولا سيما ناحيتها الحديثة ؟ ؟ كيف إذاً نستطيع أن نرجو لهذه الأمة نهضة وهى جاهلة ومنقسمة ؟ ؟ كيف نستطيع أن نسوقها إلى الحرية والاستقلال والمجد وسوادها الأعظم يعيش كما تعرف فى كفاف العيش ، وظلام العقل ،

ومستوى الحيوان ؟ ! وكيف نستطيع أن نطمع في اتحادها وزهرة رجالها متباعدون لا يجمعهم عقل واحد ، ومتنازعون يحاول كل منهم أن يفرض تقاليده على الآخر ؟ ؟

٤ — روح التعليم الراهن

ومع كل فهل روح التعليم فى الثقافة الشرقية (وتتمثل فى الأزهر الشريف وكلياته وما يقترب منه) والثقافة الغربية (وتتمثل على الخصوص في المدارس الابتدائية والثانوية والخصوصة والجامعة) صالح كل الصلاح ؟ يرى « الدكتور جاكسون » أن ذلك الروح ما يزال مشوباً فى كلتا الثقافتين بألوان من النقص كثيرة . فالتعليم الشرقى بالرغم من سموه على التعليم الغربي بروحانيته العالية ، وأخلاقه الدينية ، وعقائده السليمة ، يعنى كثيراً بالتكرير والتقليد لا بالكشف والخلق والإبداع . ولذلك كانت نتائجه سالبة أكثر منها موجبة ، وكان أثر خريجيه فى إصلاح الشعب أقل مما يجب وإن كان فى مجموعه عظيماً . ولئن قيل إن العلوم الحديثة قد أدخلت أخيراً فى هذه الثقافة فالراجح أن إدخالها لم يزل شكلياً فى طريقته ونتائجه ، ولذلك لم تزل هناك حاجة قصوى للتعديل فيه والإصلاح ؛ أما التعليم الغربى فنواحى نقصه كذلك كثيرة . ومن هذه النواحى إخراج الطالب مخالفاً لتقاليد عائلته وأمته ومنقسماً عليها ، وراغباً فى التجديد الأعمى الذى لا يحفظ له شخصيته كمصرى وشرقى ، ولئن كانت به عناية أكثر بالكشف والخلق والابداع فان تكوين الروح الاجتماعية ما يزال ضعيفاً فيه ؛ وعنايته بالحفظ والحشو تكاد تطغى به على غيرها

هذا من ناحية . ومن ناحية إعداد « المعلمين » فى كلتا الثقافتين نرى كذلك من التباعد وعدم توحيد الجهود واختلاف النزعة الشيء الكثير[١]... وقد نجم عن ذلك تباعد طوائف المعلمين فى المشرب وعدم تعاونهم واتحادهم فى دراسة قضية التربية مع أنهم جميعاً تلك الطائفة المختارة التى قد ألقت إليها الأمة بفلذات أكبادها لإعدادها خير إعداد ! أفى المحامين أو الأطباء انقسام وتباعد كما فى المعلمين[٢] ؟

(١) فمثلا فى مصر ثلاثة معاهد مختلفة لتخريج معلمي اللغة العربية وهى الجامعة ومعهد التربية — ودار العلوم — ومدارس المعلمين ! !

(٢) وأثر ذلك التباعد فى « قضية المعلمين » ذاتها لا يحتاج إلى بيان . ونرجو أن يتسع لنا الوقت فيما بعد لنتناول حياة المعلم الحاضرة وما يجب أن تكون عليه بالنقد والاقتراح

٥ — ضرورة التقارب والتوحيد

هناك نزاع إذاً بين الثقافتين عنيف ، والواجب هو التقريب والتوحيد بقدر المستطاع ؛ مهما حاولنا أن نبقى الشرق شرقاً والغرب غرباً ، لأن الاتصال بينهما يزداد كل يوم ويتضاعف ، ولأن فى الغرب من القوة والحياة كل ما هو جدير بالاتساق والانسجام مع عظمة الشرق ومجده ! لسنا ندعو إذاً إلى طغيان أحدهما على الآخر ، لكننا نريد تناسقاً يخلق لنا حياة أغنى وأعمق وأكثر بعثاً للرضى والتآلف والارتياح . يقول فرويد Froude « إن عدم التغيير موت » ! فلنأخذ من الغرب مثلاً رياضته وهندسته وتربيته وفنه ، ولنبق للشرق خلقه وكرمه وروحانيته ، وليكن رائدنا فى جميع ما نأخذ وما ندع هو الرغبة فى التقدم الذى يحفظ لنا شخصيتنا ولا يتركنا متخلفين وراء الغرب ، ولتكن خطتنا هى التقريب بين المعاهد المختلفة لتحسين خططها وتوحيد غرضها وتقليل نفقاتها ، بحيث ينجم عن ذلك التقارب تعاون متناسق يعمل من أجل غرض واضح مرسوم . ذلك أن العقل الناجح هو ذلك الذى تعمل خلاياه باختلاف ولكنها ترجع جميعاً إليه كعقل واحد منتظم . وإذا بحثنا عن ذلك العقل الموحد فى هيئاتنا التعليمية لم نجد بين خلاياه اتصالاً معقولاً ، ولم نجد له غرضاً واحداً موضوعاً تعمل الجهود المختلفة على تحقيقه

٦ — اقتراحات للإصلاح

ولئن كانت مصر قد أخذت بكثير من نواحى العلاج ، وستستفيد بلا ريب من احتكاكها بعصبة الأمم فى نواحى الصحة والطفولة والعمال والتعاون الفكرى فلا شك أنها محتاجة لبحث الشئون الآتية كوسائل ضرورية للعلاج :

(١) النظر فى أية ثقافة جديرة بالتشجيع ؟ وأية حياة مثلى يجب أن تسيطر على نظام التربية ؟[١]

(٢) نشر التعليم ومحو الأمية والارتقاء بمستوى السواد

(١) ونستطيع أن نرجع هنا للمقدمة السابقة الطويلة التى قدمناها . ولعلك ترى معى وجوب العناية بالناحية الخلقيــة والقومية والاجتماعية والدينية فى ثقافتنا . هذا إلى جعل عملية الثقافة ذاتها متفقة وأصول التربية الحديثة التى تنص على تقوية الفكر واستعمال اليد وإرهاف الحس وتغذية الشعور . الخ فلا يتعلم الأطفال القراءة والكتابة فقط . بل يفكرون لأنفسهم ويصدرون أحكاماً نزيهة عادلة على الأشياء كما هى ، ويساهمون فى المجتمع فخورين بعضويتهم فيه مقدرين لعظمائهم وفنهم وتقاليدهم وأديانهم ، ناظرين إلى دولتهم كعنصر عامل فى العالم الأكبر له مكانته الحاضرة ومجده القديم

حلبي يزور باريس

في سنة ١٨٦٧

للدكتور حسين فوزي

هذا الحلبي هو الخواجة فرنسيس، شخص إلى باريس لدراسة الطب سنة ١٨٦٦ وترك لنا عن رحلته أثراً فذاً : كتاباً طبع فى بيروت سنة ١٨٦٧ ، عثرت عليه أخيراً في مكتبة المرحوم والدى . والغالب أن الخواجا فرنسيس كان رجلاً رقيق الحال ، لا لأن كتابه الذى يقع فى سبعين صفحة قد طبع على نفقة غيره فحسب ، بل لأن « غيره » هذا نعت نفسه بالعبد الفقير حنا النجار . تصور إذاً ما ذا كان المؤلف وهذا ناشره عبد فقير ! ومع ذلك عنى هذا العبد الفقير بكتاب الخواجا عناية فائقة ، فوشى أركان غلافه بنقوش ملتوية ورسوم ورود وأوراق أشجار ، وطبع فوق عنوان الكتاب طغراء فرنسية يظهر للمدقق فيها شكل نسر نابليونى واقف على حسام يتطاير منه الشرر (أو هى صواعق جوبيتر ؟) ويحيط به قلادة « اللجيون دونير » يتدلى منها الصليب الذى خصصه نابليون لرجاله الشجعان . والعبد الفقير حنا النجار كان رجلا عصرياً محباً للتقدم إذ طبع على ظهر الغلاف قاطرة بخارية ذات مدخنة عالية ترسل عموداً كثيفاً من الدخان ، وباخرة ذات مدخنة أعلى تطلق سحباً من الدخان وهى تمخر العباب برفاصات جانبية كالتى لا نزال نراها فى بواخر النيل

ورحالتنا يمكن أن يلقب بذى الصناعتين ، فهو مالك لأعنة النظم والنثر ، شاعر حتى فى نثره ، وناثر حتى فى شعره . وسنرى كيف استطاع أن يمهد إلى النظم بوصف نثرى لباريس ، وكيف عهد إلى النثر بوصف شعرى لمدينة النور

أسلوبه صور تتوالى . فهو يرى « الحسد والطمع لابسين أجساماً نارية ذريعة المنظر ، وجالسين فى ذلك السحاب على مائدة السكر » والسحاب هو الذى رآه الخواجا فرنسيس « على الأفق نارياً كثيفاً ذا لون كأنه من مصبغة الموت ، تقشعر منه الأبدان وتزهق الأرواح ، ومصنوع من زفرات البشر ، وكان الخمر دماء ، والأقداح جماجم ، وهما يصرخان الخ » ويرى أقواماً « يرضمون الذل من أثداء أمهاتهم وعلى ظهورهم أحمال ثقيلة تحنيهم إلى الأرض ، وفى أيديهم حقاق فولاذية مطبوقة على أفكارهم وحريتهم » كما يرى « راية المصائب والأوصاب تخفق على كل هامة ، ورياح الآلام والأوجاع تعصف بكل روح ... » وهو إذا ركب السفن « امتطى ظعن البخار ، وأخذ يطوى بيد البحار »

والخواجا فرنسيس كما ترى فيلسوف متشائم ، فهو يبدأ كتابه بالقول إنه لما « أدرك رشده ، وبلغ أشده ، دخل العالم ليتجسسه ويرى كيف يجب اعتباره منه . فعند ما تبصره كافياً ، وجده سوقاً عظيما لا حد له ، وجميع الخلائق أقامت فيه حوانيتها وكلها تنادى على بضائعها ، وكأنما لا يسوغ لأحد مشترى شيء من هذا السوق مالم يضع على عينيه نظارة تختلف لوناً وقوة ... فكل يرى هذا السوق على كيفية نظارته وماهية نظره . فالبعض لا يشاهدون فيه معتبراً سوى معدنى الذهب والفضة ، فيندفعون جاحاً إلى نوالها على أى أسلوب كان »

ولعلك حذرت أن رحالتنا الخواجا فرنسيس ليس من هؤلاء وليس من البعض الذين « لا يفهمون العالم سوى مقر اللذات والطرب ، لأنهم لا يدركون بنظاراتهم سواها ، فلا يعتبرون إلا ها . فيعيشون ناشرين شراع الليل ، وطاوين بساط النهار فى الولوع والسكر والرقص والخلاعة . هذا إذا لم ينهرهم حارس هذا السوق ، أعنى به ذلك العفريت الجهنمى المدعو الزمان »

« يتبع »

الأعظم إلى حيث تتحقق الحياة الديمقراطية الصحيحة

(٣) تعديل التعليم الثانوى على نحو أكثر تحقيقاً للحياة العملية والاجتماعية درءا لأزمة البطالة الراهنة

(٤) تقريب معاهد الثقافة بعضها من بعض على النحو الآنف . ويشمل هذا التقريب الطلبة والمدرسين على السواء

(٥) حسن اختيار المعلمين والارتفاع بمستواهم حتى تصبح مهنتهم جديرة بالاحترام اللائق مغرية للنبهاء والنابغين بالعمل فيها

(٦) تكوين مجلس أعلى للتعليم يضم كبار رجال التربية إلى جانب رجال الاقتصاد والدين والفكر والاجتماع

ولما كانت ناحية محو الأمية وتثبيت قدم الديمقراطية أهم هذه النواحى جميعاً ، فإنا سنتعرض لها بإسهاب فى العدد القادم إن شاء الله

محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بشبرا الثانوية الأميرية

أما هو « المسكين » فقد كانت نظارته لسوء حظه مصنوعة من أشنع الألوان ، وأبشع الأشكال » لأنه حين وضعها على عينيه « وجد عالماً ذريعاً ترتعد منه الفرائص ، وتميد عمد القلوب وينبو عنه كل ذوق سليم » . ولا داعى إلى الاسترسال فى نقل الصورة المدلهمة التى يرسمها لنا الخواجا فرنسيس ، فهو متشائم فحسب ، وقد رأى هـذه السوق « المدعو عالماً » ، فخلا فى نفسه ليرى أى بضاعة يبتاعها » فلم يجد « أشرف من انتقاد هـذه الحوادث ، والبحث عن حركات هذا العالم » فهو يريد أن يكون كاتباً أخلاقياً « moraliste » ، وكتابه سوف يظهرنا على مبلغ نجاحه فى هذا السبيل

إلا أنه ، وقد بلغ العشرين ، شرع « يمتحن نفسه ليرى ماذا جنى من الثمرات . ولـكنه لم يجد فى مخيلته سوى كمية وافرة من ألوف مسائل العلم العربى — نحن فى سـنة ١٨٥٦ — ولم يعثر فى خزانته على غير كتب مطولات ومختصرات فى النحو والصرف وما يلحقها» . وهو إذ تأمل «الفائدة لم يجدها سوى نظم الشعر» فهو يقول فى تواضع مؤثر «فها أنا شاعر إذا أراد شعراء العصر» ولـكنى لا أحسب شعراء عصره — وأقل منهم شعراء عصرنا — يريدون تضخم الصناعة إلى هـذا الحد ! ثم هو على كل حال لم يهمل أن يلاحظ « جملة أضرار تقابل هـذه الفائدة . وهى أولاً كساد سوق الشعر ، ومقت العامة له» — أما نحن الخاصة فسوف نذوب صبابة فى شعره بعد لحظة — لذلك أوحت إليه « كراهته تلك الفائدة المفتداة بأخر سنى حيوته أن يتعكف إلى طلب العلوم العالية واللغات » . ثم اتفق له أحد مهرة أطباء الانكليز « فألقى ثقله على مسايرته ، وبدأ يدرس عليه العلوم الطبية وهو في سن الخمسة والعشرين ، حتى هضم أربع سنين كوامل على هذه الدراسة ، وصار طبيباً » وعلى رأي المعلم وحده مع الأسف ، أما فى رأى ما « تقول المدارس فقد كان جهولا »

وشرع « يباشر الأمراض متلاعباً بصناعة إيبوقراط » . ثم أوعز إليه ضميره أن يرحل إلى « باريس محط عرش الافرنسيس » . وكان لهذا الحادث الهام الفضل فى الـكتاب الفذ الذى نلخصه لقراء « الرسالة » بعد سبعين سنة من نشره

فى اليوم « الواقع فى ٧ إيلول ١٨٦٦ ، وهو داخل فى دايرة الثلثين » خرج من « أبواب الشهباء صحبة الـكروان ، ممتطياً ظهر كديش أخى قزل » (ألم أقل إن الخواجافرنسيس شاعر فى نثره ؟) فبلغ « الاسكندرونة مينا حلب » . وترك لنا وصفاً للطريق يوقف الشعر هلعا . فمن « أوعار ملقاة فى الطريق كأنها أمواج البحر الجامد » إلى « جبال صلعاء القمم » إلى « هضاب ممحلة منفردة كاللصوص فى درب أبناء السبيل » ومن « عواصف وقواصف تهب من مرابضها الجهنمية على السرى » إلى « أنهار راكدة على فراش الأوصال تمارض سير القوافل» . وفى إحدى مراحل هذا الطريق « ينجلى » الخواجا فرنسيس فنتعرف إليه لأول مرة ناظماً ، ولا أقول شاعراً فان شاعريته قد بزغت فى نثره كما رأينا . وقد أسالت « جمرة الفراق جودة قريحته فهرع إلى القلم ونقش أبياتاً كأنها منشودة من أحد أعراب البادية ... إلا قليلا » . وقد حكم إذ ذاك أن للشعر « علاقة ثابتة مع الموضوعات التى يراها الشاعر » . وسأوفر عليك عناء قراءة هذا الشعر البدوى الذى كتب فى بادية الشام ما بين حلب والاسكندرونة . ويكفى أن تعلم بما فيه من حداء السرى والخيام والحى والعيس . وقد لا تمانع فى أن تسمع بيتين من جزل شعر الخواجا فرنسيس :

فهل ذكرت تلك المنيعة فى الخبا شريداً طحاه البين وهو غلامها
وهل علمت أسماء ـ وهي عليمة ـ صبابة نفس قد تسامى مرامها

نسيم الصبا هل ... إلى آخر البيت

وهو رجل غدا الآن واسع الخبرة بالدنيا إلى حد أن يختتم قصيده قائلاً :

ومن خبر الدنيا وأدرك شرها تساوى لديه حربها وسلامها

وقد تأثر عند مشاهدته مدينة الاسكندرونة « حينما أذكر الشكل الدولى حول هذا المرفأ ولوائه ! » وكان تأثره « صاعقة لأنه رآها هاوية في أعمق هاوية من القهقرة » أهذا « مينا حلب مدخل تجارة الزوراء وتركستان ، ومخرج أنسجة ومحصولات عربستان ، صابرة مرسحاً للاعب الخراب .. حتى تكاد أن لا تعتبر سوى كمبصقة للبحر ، أو مداس للدهر ؟ »

وامتطى «ظهر البخار ، وأخذ يطوى بيد البحار ، حتى عانق باع اللاذقية » ولـكنه لم ينزل إليها « وخفقت به أجنحة البخار إلى مدينة طرابلس ، فوجدها ظريفة وعليها أبهة العمار ، وكأنها تهم إلى التقدم فتدفعها نحوس الأقدار »

ثم زار بيروت ورأى أن لا بدع فى أن « جلست هـذه

المدينة على الرتبة الأولى ما بين مدن سوريا . وأصبحت مبزغاً لكل نور » وبعد نهاية « أجل المرسى عاود إلى المركب وطار به إلى يافا ، فنزل إليها بعد تردد وخوف من مطاردة الأمواج ، الداعة الهياج » ولكنه ما عتم أن عاد آسفاً على الشجاعة التي بذلها في منازلة أحط صعاليك المدن كما يقول

بعد ذلك أخذت « تخفق له أجنحة نسر البحر إلى جانب الاسكندرية » فبلغها بعد ثمانية أيام من مغادرته حلب ورأى فيها مدينة « قائمة على ساق التجدد » ، ودعاها تاج الشرق وعنوان المغرب . ووجد فيها وقود « النور الايدروجيني خاصة في الساحة المدعوة عندهم بالمنشية »

ثم « أوحت له شياطين الملل أن يرحل إلى القاهرة . فركب أجنحة عفريت البر ، فطار به كالباشق — يقيناً إن الرجل شاعر غير نادم ! — حتى أوقعه هـذا العفريت بعد خمس ساعات على مدينة الأهرام ، أعني الأثر الوحيد الذي أبقته القدمية تميمة على رأس هذه المدينة . وجعل يتفرج على مشتهرات القاهرة مدة ستة أيام ، فلم يعثر على ما يستحق الذكر أو يروق الخاطر — حتى ولا النور الايدروجيني ؟ — سوى خزانة التحف المصرية وجامع القلعة الذي بناه محمد على باشا من الحجر الكهربائي — لم أعرف قبلا أن هذه ترجمة albâtre ! — مع السرايا المحاذية له . كما بنى سرايا شبرى ذات الحوض المرمرى العظيم الذي أنشأه لكى يتنزه فيه على قارب تجدفه جوار حسان (كذا !) أما الأزبكية الشهيرة فلا عادت تنطوي سوى على بعض أشجار بلح مغروسة بين أمواج الرمال »

أما أسواق القاهرة « فلا يوجد أقبح منهـا لشدة ضيقها وأوخامها ، حتى أن البعض لشدة ضناكته يكاد أن يرفض مسير اثنين معاً ، ولا يقبل الضوء ، ولا يوجد شارع يعتبر بالنسبة إلى البقية سوى الشارع الملقب بالموزكى أو طريق الافرنج حيثما اختار التجار الحلبيون إقامة حوانيتهم »

ووجد مع ذلك في هذا البلد « كثيراً من الآثارات والبقايا القديمة ... وعدداً جزيلاً من الجوامع وأخصها جامع الأزهر الذي كان زاهراً بعلوم العرب وفنونهم ، وقد تقوض حسب اقتضاء روح العصر بالمدرسة العالية التي جددها حضرة اسماعيل باشا قبل مصر » — لو رأى الخواجا فرنسيس هذا الجامع في أيامنا !

وعاد رحالتنا إلى الأسكندرية « يستنظر المركب الذي سيصحبه إلى أوروبا . وورد الصاحب المستنظر فقلع معه الخواجا فرنسيس في ١٤ تشرين الأول . وفي صباح العشرين منه انقض به باشق البحار على مدينة مرسيليا ، ووجد ذاته حينئذ مرتاحاً في حضن الغرب ، متخطراً تحت سماء أوروبا » ؛ وبعد إقامته ثمانية أيام في هذه المدينة « المصاغة من عسجد الظرافة ، والمطرزة بلؤلؤ الجمال ، ركب بخار البر في طريق الحديد وأخذ جهة ليون »

وهنا يصف الرحالة الفذ شعوره في بخار البر وطريق الحديد ، وحيال المناظر التي مرّ بها معترفاً « بعجزه عن الشرح ، وموجز القول بأن تلك المساحات التي مرّ عليها ، فلوات وجبالاً وهضاباً ، كانت بستاناً واحداً ومدينة واحدة ؛ وما كان يشاهد لون التراب الطبيعي سوى بين اسطوانات طريق الحديد ، حيثما تكر المجلات »

ولم يزل الخواجا فرنسيس « مضطجعاً في المركبة الطائرة على أجنحة البخار ، مطلاً من كواتها البلورية على نفايس هذه الطبيعة إلى أن حط به طائر النار على مدينة ليون نحو نصف الليل ، حيثما كانت سابحة في أنوارها المرمرية »

وهنا تعاود رحالتنا جنة الشعر ، فيهرع إلى القلم ليحبس هذه الخيالات المنثورة في بيوت منظومة ، ولكنه يبدو في هذه المرة شاعراً حضرياً عصرياً ، ألم يحكم بأن للشعر « علاقة ثابتة مع الموضوعات التي يراها الشاعر ؟ »

إلى جنة الفردوس هل أنا سائر ... ترى أم إلى دنياء أخرى مسافر

وهل أنا مع نسر السما طائر إلى ... سما أم بخار المـاء بي هو طائر

وعهدي أن الماء يضعف إن غدا ... بخاراً فكيف الآن ذا الضد صائر

ويواصل نظمه ثلاثين بيتاً يتغزل في « عفريت البر وباشق البخار » ويقارن بين راحة السفر على أجنحته وتعب الأسفار على ظهور الإبل :

ولم يبق من ظعن سوى المجلات في ... حديد تكر الدهر وهي صوابر

أبت غير نيران اللظى علفاً لها ... وهن على خير المشيم دوائر

ولما لمع وجه الصباح ، نهض من فراش النعام وطفق يطوف ليون ليتفرج على ما تشتمل عليه من المحاسن واللطايف ؛ وهو

يذكرنا إذ يتغنى بجمالها وكمالها وما « اجتمع لها من القومات الدنية والأدوات التمدنية بأن أول من شرع فى رفع شأنها أحد أولاد قلويس (Clovis) ملك النولين ذى الشهرة العظيمة فى غاليا la Gaule بادخاله إلى هذه المملكة جملة نظامات وتجديدات لمع بها زمانه ، وأهمها إدخاله الديانة المسيحية فى النولين بعد أن أدخلته فيها امرأته بقصها عليه أخبار قسطنطين الكبير ، وباقناعها له أنه إذا سلك مسلك ذاك الملك المتنصر بالتنصر ، إنما يقهر نظيره كل أعدائه »

وركب الخواجا فرنسيس نسر البحار بعد تمضية ثلاثة أيام فى ليون ، فطار به إلى باريس حيث وصل قرب انفلاق الصباح

ولنا أن نتوقع انفجار — أو ربما قال انفطار ؟ — نفس رحالتنا فى قلب باريس ، وأن نترقب هبوط وحى الشعر عليه . ويظهر أن خواجتنا رجل يحسن « الإخراج » فهو تاركنا نشتاق إلى شعره بعد أن حببنا إليه ببعض الخطرات ، ليمضى فى وصف نثرى لباريس حتى قبيل آخر الكتاب ، ثم هو مطبق علينا بقصيدة مخمسة عددت شطراتها فكانت خمسمائة شطرة والعياذ بالله . وبذلك يكون الخواجا فرنسيس قد أفرغ فينا شعره مرة واحدة

وكان المتوقع أن يترك رحالتنا للشعر مهمة التعبير عن إحساساته في باريس ، وأن يودعه تفكيره العالى ، تاركاً للنثر وصف المتاحف والميادين . ولكن رجلنا شعره منثور ونثره منظوم كما سبق لنا القول ، فبينا هو يتغنى نثراً بباريس « مركز مجد العالم ، ومصب أنهار العجايب ، وموقع أنوار التمدن ... وها قد أخذت عيناه ترى ما كان يراه ذاك الذى خطفته أرواح الآلهة إلى السماء الثالثة » إذا به يصطحبنا بشعره كأنه « بيديكر » فينصح بأن نترك الدرس لنتمشى فى شوارع باريس :

يا صاحبي حتىم ترعى الوسوسة ها كافة الدراس عافوا المدرسة
وكل نفس قد غدت مستأنسة بهدنة فى الدرس تطفى قبسه
وتضرم الأشواق ضمن الصدر
هيا بنا نسع إلى البولفار إلى مكان الشهب والأقمار
حيث نرى بدايع المعمار مقرونة ببـدع الأفكار
حيث الغنى حيث افتقار الفقر
كى فسر بنا إلى فندوم حتى نرى تمثال ذى الهجوم[1]

(١) يقصد نابليون طبعاً !

يجلى على عموده المنظوم من سلب الحرب مع الخصوم[1]
بطرس نابليون عالى الذكر[2]
ها قد نظرنا أثر الشقاق[3] فلننطلق لساحة الوفاق[4]
ذات رنين الصيت فى الآفاق ذى ساحة تسطو على الأحداق
وتسكر العقـل بغير خمر
ولننعطف نحو مقام التوللرى أعنى بلاط العاهل الظفر[5]
هناك بستان عجيب المنظر فكله شوارع من شجر
وفسـحات زخرفت بالزهر

كلا ! لست أنوى أن أسرد عليك كل هذه الخريدة العظيمة ، والدرة اليتيمة . إنما أنا أقتطف من شطراتها الخمسمائة هنا وهناك لأجمع لك باقة عاطرة من شعر الخواجا فرنسيس . ثم أى بأس فى هذه النزهة الباريسية الفريدة ؟ الناس يرتادون باريس فى « الأتوكار » ، والمعلم فرنسيس يصطحبك بقصيدته الحماسية إلى كثير من أماكنها الهامة . ها هو ذا يناديك من بوقه الشعرى :

فلنطلق المسـعى لدار اللوفر
ها قد بلغنا الآن دار التحف حتى نرى عالم دنيا السلف
نرى حيوة الناس في المهد الخفى وهتك ستر الزمن المنصرف
كل له داب بهتك السر
جماعة الأشـور والعمالق يبدون من ذاك الظلام الغاسق
يجلون فى الثياب والقراطق طبق لباس الناس فى المشارق
فذاك زى الشرق منذ الفطر
كذا نرى جميع أعمال اليد منهم وكل الأدوات الشرد
وكل معبود لهم ومعبـد لكنما المضحك فى ذا الصدد
إلههم ثور برأس حـبر[6]
وهكذا سكان مصر السالفة مع آل أشور لهم محالفة
كانوا على الأرض أجل طايفة أجسادهم محنطات واقفـة
ولا نرى هذا سـوى فى مصر

(له بقية) حسين فوزى

(١) عمود فاندوم صب من المدافع التى غنمتها جيوش نابليون
(٢) أنظر ورقة ميلاد نابليون لتعرف إذا كان بطرس من أسمائه
(٣) يقصد الحرب
(٤) أى ميدان الكونكورد
(٥) نابليون الثالث فى قصر التويلرى وقد أحرق القصر بعد سقوط الامبراطورية الثانية
(٦) أترى التنكيت البارع الممتع ؟ presque voltairien

جمال الدين الافغانى

للأديب محمد سلام مدكور

بمناسبة مرور إحدى وأربعين سنة على وفاته إذ توفى فى يوم ٩ مارس سنة ١٨٩٧ ودفن بالأستانة فى مقبرة « نشان طاش » حتى شيد له مقبرة خاصة المستر « كراين » سنة ١٩٢٧ م

بهذا الاسم تنطق ملايين الشفاه عند ذكر نهضات الشرق وعند أى مناسبة سياسية أو ظاهرة وطنية ، يذكرونه بالثناء والإعجاب ، ويتناولونه بالمدح والفخار ؛ يتعجبون لصبره وأناته وعمله وجهاده ، وكلما ذكروه أو تكلموا فى تاريخه فكأن وحياً من الشجاعة هبط عليهم ، وروحاً من العزة سرت فيهم ، ودبيباً من اليقظة نبههم ؛ فقد كان جريئاً فى الحق ، قويًّا فى وجه العدو ، رابط الجأش ثابت الجنان ، فى نفسه ثورة مشتعلة ولهب يتطاير ، وآمال وثابة إلى المجد والرفعة

نكتب عن السيد جمال الدين ، ومن الفخر أن يتحدث المرء عنه ما وسعه الحديث ، وأن يطنب فى سيرة شخصيته الفذة ما شاء ؛ فالتحدث عن تاريخ هذا الفيلسوف الحكيم يشرح الصدر ويغمر النفس بالفرح والإعجاب ؛ والإطناب فى الكلام عن هذا الزعيم الكبير لا يمله إنسان

فلجمال الدين أثره البين فى نهوض الشرق وتطلعه إلى الحرية ، فقد ظل الشرق زمناً طويلاً خاملاً يرزح تحت نير العبودية ، ويرسف فى أغلال الاستعمار ؛ فلما جاء السيد جمال الدين نفخ فيه روح اليقظة ، وأهاب بالأمم الإسلامية أن تطرح ذلك الجمود الفكرى وتلك الأوهام التى ليست من الإسلام فى شىء ، والتى كانت سبباً فى تأخر المسلمين

فكان شأن السيد جمال الدين فى الناحية الدينية مثل شأن « مارتن لوثر » فى الديانات المسيحية ؛ وكان شأنه فى الناحية الفكرية مثل « جان جاك روسو » وغيره من فلاسفة الفكر ؛ وكان شأنه فى السياسة وتحرير البلاد من يد الغاصب مثل شأن « واشنطن » محرر « أمريكا » و « مازينى » محرر إيطاليا وغيرهما من رجال السياسة

وبالجملة كان لجمال فى كل ناحية من نواحى الإصلاح والتجديد أثر ظاهر وفضل لا ينكر

ولقد كان من مبادئ السيد جمال الدين : « أن الإسلام والذل لا يجتمعان فى قلب واحد » ولعمرى إنه لمبدأ خالد يكتب بماء الذهب فى تاريخ أعظم عظماء الاسلام ويضمن له البقاء والخلود ويسمو به إلى مراتب أقرب إلى مراتب الملائكة والأنبياء

نعم إنه لآية من آيات الحق ، ووحى هبط من السماء ، وتأييد من الله يؤيد به عباده المصلحين ، وهداية من الرحمن ونعمة يسبغها الله على من يشاء إنه عليم قدير

أى مسلم يقرأ هـذا المبدأ القويم دون أن يسكب الدمع مدراراً ، ودون أن تذهب نفسه حسرات على ما كان للمسلمين فى غابر الأزمان من عز وسؤدد ، وما هو عليه أكثرهم اليوم من الذلة والانحطاط

نعم فهو يلفظ القول ليصيب به موقع الماء من ذى الغلة ، وينزل فيه بالحكمة التى هى أبعد من العنقاء وأعلى منالاً من الجوزاء إلى مستوى تستطيع أن تحله الدهماء ، إن فى ذلك لعبرة

تلك هى روح السيد جمال الدين ، وهذا هو مبلغه من التأثير فى نفوس الطالبين ، وكذلك الزعامة الصادقة ، والهداية الموفقة ، وذلك صنع الله لعباده من المصلحين

وهذا لعمرى هو الذى جمع الناس عليه وجعلهم من جميع الطبقات يهرعون إليه ومكن له فى نفوس الملوك والعظماء والعامة والدهماء ، فاستطاع أن يظفر بالجو الصالح لبث هدايته حيثما حل وأينما ارتحل

وأرى أن السيد جمال الدين فى آرائه وحكمته ، وعلو نفسه ، وكرم أخلاقه ونبله زعيم إسلامى بعثه الله ليجدد للاسلام حياته التى كانت زاهرة زاخرة فى عهوده الأولى ، ويكون هذا أصدق شاهد على قول النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »

فقد كان أول المجددين فى القرن التاسع عشر الحكيم القدير والمصلح المظيم ، والمجاهد الكبير ، والثائر الخطير السيد جمال الدين سيد النابغين ، وأمير الخطابة والبيان ، فيلسوف الاسلام وآية الحق القاهرة ، وحجة الشرق الناهضة ، وكوكب الاصلاح الذى ظهر ساطعاً فى آفاق الشرق بعد أن كان فى ظلام حالك

كانت حياة هذا الفيلسوف سلسلة جهاد موفق ، وحلقة كفاح مثمر ، حياة خصيبة ممرعة ثرية ممتعة لها من الآثار الحميدة

والأيادى البيضاء والأعمال المجدية ما لا سبيل إلى تقديره ؛ فلقد كان يجول بفكره فى ميدان مترامى الأطراف من متنوع الفنون ، ويتناول فى مباحثه أجل الشئون مما يهم البشر ، يهتك غشاء الباطل عن الحق بنظرات نافذة وتفكير صحيح

والحقيقة التى لا شك فيها أن المرء لا يكاد يقف على عمل من أعماله أو رأى من آرائه ، أو يقلب صفحة من حياته حتى يشعر أنه بين يدى ذهن مستقل جبار لا يرتضى دون الحرية مطلباً ، ولا يبتغى غير محاربة الاستبداد شيئاً

بقى السيد جمال مناراً وهاجاً فى الحرية يهتدى به ، ومرجعاً صادقاً يفزع إليه في شتى نواحى الأمور . ولا بدع فانه يمثل لمبدأ خالد لن يغير تيار الحوادث منه ما دام الانسان إنساناً

ولست مغالياً فى مدح السيد جمال ، ولا أكيل له تلك العبارات جزافاً مندفعاً وراء العاطفة ، إذ هناك الكثير من الكتاب الغربيين الذين لا تربطهم أية صلة بجمال الدين إلا الاعتراف بالفضل ، والتقدير للنبغاء والمصلحين ، فهذا « هنرى روشفور » الكاتب الفرنسى الشهير يقول فى كتابه « ماجريات حياتى » :

« السيد جمال الدين من سلالة النبي ، والمعدود هو أيضاً أنه أشبه بنبي . ثم قال : إننى شعرت نحو هذا الرجل بعاطفة الحب التى أجدها تربطنى بكل داع إلى ثورة أو مقاوم لسلطة »

وهاك (رينان) الفيلسوف الكبير يقول عنه : « يخيل إلىّ من حرية فكره ، ونبالة شيمه وصراحته ، وأنا أتحدث إليه ، أنني أرى وجهاً لوجه أحد من عرفتهم من القدماء الفلاسفة ، وأنى أشهد ابن سينا ، أو ابن رشد ، أو واحداً من أساطين الحكمة الشرقيين الذين ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرير الانسانية من الإسار »

جميل جداً أن نسمع تلك الحقيقة من فلاسفة الغرب ، وأن يشهدوا بفضله وعلمه ، وقوته وحكمته ، وهم الذين لم يستفيدوا منه شيئاً طائلاً ، وليس بجميل منا نحن الشعوب التى رضعت من ثدى علمه ، واستفادت من إرشاده ، وتمتعت بالحرية التى كان ينشدها أن نجهله أو نتجاهله ، وألا نحتفل بذكراه ونضع الأسفار الضخمة فى تاريخ حياته وتحليل نفسيته

* * *

اذكروا الرجل ، واحتفلوا بيوم ذكراه فإن فى ذكراه عظة وعبرة ... اكتبوا المقالات الطوال ، واقرضوا الشعر الرصين ، فليس هو بالذى ينقضى عمله بموته ، وإنما هو صاحب العمل الخالد والمجد الدائم ، إنما هو رجل الأمم والجماعات

فيا أيها الشعب الإسلامى ، ويا أبناء الشرق ، هذا هو السيد جمال الذى ما اتخذ له وطناً ولا ولداً ، فليس هو بالذى تتناساه الشعوب أو تهمل ذكراه الأمم

أما أنت أيها الشعب المصرى فهذا الذى أنقذك من براثن الظلم والجبروت ، وعادى من أجلك دول الاستعمار ، وقضى شطراً كبيراً من حياته فى المدافعة عنك ومناصرتك ، ولاقي الصعاب والأهوال

أما أنتم يا رجال النهضة ، ويا زعماء البلاد ، ويا نواب الأمة فهذا السيد جمال الذى بعث فى نفوسكم تلك الروح وعمل جهده على إيجاد الحياة النيابية فى مصر

أما أنتم يارجال الدين ، وياعلماء الأزهر ، لكم وحدكم يوجه العتاب . ألم يكن جمال هذا هو المحرر للأزهر من ذلك الجمود الفكرى الذى كان راسخاً فيه ؟ ألم يكن جمال هذا هو الذى خرج لكم فى مدرسته الامام الخالد الذكر الشيخ (محمد عبده) وكان يقول عنه عند نفيه « خرجت من الدنيا ولم أترك مؤلفاً ولا ولداً ولكن تركت لكم محمد عبده وكفى به لمصر عالماً »

أما أنت أيتها الصحافة ، أما أنت يا لسان الأمة الناطق ، وآيتها البينة وحجتها القوية ، وميدانها الفسيح ؛ أما أنت يا مشعل الوادى ، ويا منار الأفكار ، فهذا السيد جمال الذى أنبتك فى مصر وجعل منك ذلك المصباح الوهاج ، فهذا أستاذك صاحب العروة الوثقى

أما أنت أيتها الروح المقدسة الطاهرة الزكية البريئة العالية السابحة فى ملكوت الله . أما أنت يا روح جمال فإليك أتقدم بالاحترام الفائق والاجلال التام ، والمعذرة الصادقة عن تقصيرنا السابق ، وغفلتنا الطويلة

وإنى أخيراً لأفتخر بالسيد جمال الدين الأفغانى فى الإسلام وأقول « حسبه من عظمة ومجد أنه فى تاريخ الشرق الحديث أول داع إلى الحرية ، وأول شهيد فى سبيل الحرية »

محمد سلام مدكور
مؤلف كتاب جمال الدين الأفغانى

الكميت بن زيد (*)

شاعر العصر المرواني

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

— ٦ —

وقد كان هناك من لا يعذر الكميت فى مدحه بنى مروان بعد بنى هاشم ، ويصفه فى ذلك بالتردد والرياء والنفاق ، وكأنه لا يرى فى هذه التقية التى يأخذ بها جمهور الشيعة ما يبرر العذر ، ويمنع من توجيه اللوم

وإني لا أنكر أن التقية تدل على شيء من ضعف النفس ، وأن التاريخ يذكر بالاعجاب والتقدير تلك المواقف الباهرة التى لم يأخذ أصحابها بالتقية ، وآثروا تضحية النفس على الاذعان للخصم ، ولكنى أرى أن من الضعف ما قد يكون أجدى من القوة ، ولهذا مدحت الحيلة كما مدحت الشجاعة ، ومدحت المداراة كما مدحت الصراحة ، وقد يكون فى المداراة رجولة حرة كريمة جديرة بالعطف والرحمة ، بعيدة من اللوم والمؤاخذة ، وقد رثى المتنبى لمثل هذه المداراة فى قوله :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى
عدواً له ما من صداقته بُدُّ

فيا نكدَ الدنيا متى أنت مُقصرٌ عن الحرّ حتى لا يكون له ضدُّ
يروحُ ويغدو كارهاً لوصاله وتضطرُّهُ الأيام والزمن النكدُ

وكان أبو مسلم الخراساني ممن يأخذ الكميت بهذا الاذعان لبنى مروان ، وقد دخل عليه المستهل بن الكميت يوماً فقال له : أبوك الذى كفر بعد إسلامه ! فقال : كيف وهو الذى يقول :

بِخاتَمِكم كرهاً تجوزُ أمورهمْ فلم أرَ غصباً مثله حين يُغصبُ

فأطرق أبو مسلم مستحيياً منه

وذكر أبو الفرج الأصبهانى أن المستهل بن الكميت دخل على عبد الصمد بن على فقال له : من أنت ؟ فأخبره ، فقال له : لا حياك الله ولا حيا أباك ، هو الذى يقول :

فالآن صِرْتُ إلى أُميــة والأمور إلى المصاير

قال : فأطرقت استحياء مما قال ، وعرفت البيت ، قال ثم قال لى : ارفع رأسك يا بنى ، فلئن كان قال هذا فلقد قال :

بِخاتَمِكم كرهاً تجوزُ أمورهُم فلم أر غصباً مثله حين يُغصبُ

قال : فسلى عنى بعض ما كان بي ، وحادثني ساعة ثم قال : ما يعجبك من النساء يا مستهل ؟ قلت

غَرّاء تسحب من قيامٍ فَرْعَها جَثْلاً يزيّنه سوادٌ أفحمُ
فكأنها فيه نهار مشرق وكأنه ليل عليها مظلم

قال : يا بنى هذه لا تصاب إلا في الفردوس ، وأمر له بجائزة

والظاهر أن هذه الحادثة كانت قبل حادثة المستهل مع أبى مسلم الخراسانى ، وأن المستهل عرف من هذه الحادثة كيف يتخلص من أبى مسلم بهذا البيت الذى ذكره له عبد الصمد بن على وقد عرف المستهل بعد هذا كيف يؤول هذا البيت :

اليوم صرت إلى أميــة والأمور إلى المصاير

حين عيره به أبو العباس فقال : أبى إنما أراد — اليوم صرت إلى أمية والأمور إلى مصارها أى بنى هاشم

ولا يبعد أن يكون الكميت قد أراد هذا المعنى الذى ذكره ابنه المستهل ، فقد كان شاعراً عالماً يعرف مرامى الكلام ، ولا يقول الشعر إلا بعد التأنى والتدبر ، وكان يصير فى ذلك إلى الغرض البعيد ، ويرمي إلى الغاية الخفية ، ومن هذا ما ذكره محمد ابن أنس ، قال : حدثنى المستهل بن الكميت قال قلت لأبى يا أبت إنك هجوت الكلبي فقلت :

ألا ياسَلْم من تِرْبِ أفى أسماء من ترب

وغمزت عليه فيها ، ففخرت ببنى أمية وأنت تشهد عليها بالكفر ، فألا فخرت بعلى وبنى هاشم الذين تتولاهم ؟ فقال : يا بنى أنت تعلم انقطاع الكلبي إلى بنى أمية وهم أعداء على عليه السلام ، فلو ذكرت علياً لترك ذكرى وأقبل على هجائه ، فأكون قد عرضت علياً له ولا أجد له ناصراً من بنى أمية ، ففخرت عليه ببنى أمية وقلت إن نقضها على قتلوه ، وإن أمسك قتلته غماً وغلبته ، فكان كما قال ، أمسك الكلبي عن جوابه ، فغلب عليه وأفحم الكلبي

نعم إنه يمكن أن يؤخذ على الكميت أنه لم يكن يتعصب فى

(*) أنظر العدد ٢٣٦

شعره لأهل البيت إلا لقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا نوع من العصبية التي ينكرها الاسلام، وهو لا يهتم في حكم المسلمين إلا بمحاربة الظلم وإقامة دعائم العدل، ولا يهمه بعد هذا نظام الحكم الذي يحقق هذه الغاية، ولا أشخاص القائمين بهذا الحكم، فالناس سواء فيه، وكلهم صالحون له، ولا فرق فيه بين هاشمي وغير هاشمي، ولا بين عربي وعجمي

ولكن هذا لا يصح أن يؤخذ على الكميت أيضاً، لأنه لم يكن يدعو في شعره إلى أهل البيت من أجل تلك العصبية المنكورة في الاسلام، وإنما كان يدعو إليهم لأنهم كانوا أمثل الناس لحكم المسلمين في عصره، وإصلاح الفساد الذي ظهر في المسلمين بسبب حكم بني مروان الذي كان يقوم على تلك العصبية فكان المسلمون في حاجة إلى حكم إسلامي ينظر إلى كل شعوبهم على السواء، ولا يقوم على أساس العصبية التي كان يقوم الحكم عليها عند الفرس والروم وغيرهم، وكان بنو هاشم أجدر الناس بالقيام بهذا الحكم الصالح، لأنهم كانوا ألين طباعاً من بني مروان، وأقرب منهم إلى فهم الغاية التي قام الاسلام من أجلها، وإلى السير بالحكم بين الناس على أنه وسيلة لا غاية

وقد حكم بنو العباس من بني هاشم بعد بني مروان فكان حكمهم أشبه بحكم الخلفاء الراشدين من حكمهم، ولم يفرقوا فيه بين عربي وعجمي، بل رفع الأعاجم فيه رؤوسهم حتى ساووا العرب وأخلصوا للاسلام إخلاصهم، وقد بذلوا في خدمة العلوم على اختلاف أنواعها ما يفتخر به المسلمون في عصرنا على غيرهم، وإذا كان لهم في حكمهم أيضاً سيئات فإنها كانت قليلة بجانب حسناتهم.

ونعود بعد هذا كله إلى أمر الكميت بعد عفو هشام عنه، ورجوعه فائزاً بذلك على خالد بن عبد الله القسري، فقد فسد بعد هذا ما بينهما، وكان للكميت معه أخبار بعد قدومه إلى الكوفة بالعهد الذي كتبه هشام له، ولم يجعل فيه لخالد إمارة عليه، فكان خالد يلاينه حيناً ويقسو عليه حيناً، وكل منهما يخادع صاحبه، وينتظر السوء به. فلما أدبر أمر خالد وتحدث الناس بعزله عن العراق أظهر الكميت شماتته به، وقد مر عليه خالد يوماً فلما جاز تمثل بهذا البيت:

أراها وإن كانت تحَبُّ كأنها ... سحابةُ صيفٍ عن قليل تَقشَّعُ

فسمعه خالد فرجع وقال: أم والله لا تنقشع حتى يغشاك منها شؤبوب برد، ثم أمر به فجرد فضربه مائة سوط، ثم خلى عنه ومضى

وقد كان للكميت مدائح في خالد لعلها كانت قبل أن يفسد بذلك ما بينهما، أو لعلها كانت في بعض ما يزول فيه شيء من تلك الجفوة، وقد يكون هذا من تلك التقية التي أخذ بها نفسه بعد أن عفا هشام عنه، على أن خالداً كان للشيعة خيراً ممن ولى العراق بعده، وقد روى محمد بن كناسة أن الكميت دخل على خالد القسري فأنشده قوله فيه:

لو قيل للجود من حليفُك ما ... إنْ إلاَّ إليك يَنتسِبُ
أنت أخوه وأنت صورتهُ ... والرأسُ منه وغيرُك الذَّنب
أحرزتَ فضلَ النضالِ في مَهَلٍ ... فكلَّ يوم بكفِّك القصب
لو أن كعباً وحاتماً نُشرا ... كانا جميعاً من بعض ما تَهَب
لا تُخلفُ الوعدَ إن وعدتَ ولا ... أنت عن المعتفين تحتجب
ما دونك اليوم من نوالٍ ولا ... خلفك للراغبين منقلبُ

فأمر له بمائة ألف درهم

وكان خالد قد ولي العراق سنة خمس ومائة، وقد طالت ولايته على العراق وتمتع الناس ببعض من الأمن في ولايته، ولم يكن شديداً على الشيعة كغيره، وكان إلى هذا جواداً كثيراً العطاء، خطيباً مقدوراً من خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة، ولكنه كان يتهم في دينه، وكانت أمه نصرانية فبنى لها كنيسة تتعبد فيها، وقد عزل عن العراق سنة عشرين ومائة. ويقال إن سبب عزله أن امرأة أتته فقالت: أصلح الله الأمير، إني امرأة مسلمة؛ وإن عاملك فلانا المجوسي وثب عليَّ فأكرهني على الفجور وغصبني نفسي، فقال لها: كيف وجدت قلفته؟ فكتب بذلك حسان النبطي إلى هشام فعزله وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفي، وهو ابن عم الحجاج بن يوسف، وأمره بمحاسبته ومحاسبة عماله، فأخذ يوسف خالداً وعماله وحاسبه وعذبه، ثم قتله في أيام الوليد بن يزيد سنة ست وعشرين ومائة

وقد تكون هذه التهم من اختلاق أعداء خالد عليه، وقد يكون السبب الحقيقي أن هشاما أراد أن يأخذ العراق بالشدة

بعد أن فشا فيه التشيع على عهد خالد بن عبدالله ، وجاهر به الكميت وغيره من شيعة أهل البيت ، فاختار لهم ذلك الثقفى ليأخذهم بما أخذهم به قبله الحجاج ابن عمه ، فسار فيهم سيرته . وكان من ضحاياه زيد بن على بن الحسين رضى الله عنه (١)

فاضطرب الكميت بعد هذا فى أمره ، وقد سبق أن زيداً دعاه إلى الخروج معه فلم يجب دعوته ، ولكنه ندم على هذا بعد قتله ، وقال يلوم نفسه :

دعانى ابنُ الرسول فلم أجبْه ... ألهْفى لهْف للقلب الفَرُوق
حِذارَ منيَّةٍ لا بُدَّ منها ... وهل دُون المنية من طريق

وقال يهجو يوسف بن عمر :

بعِزُّ على احمـدِ بالذِى ... أصاب ابنه أمس من يوسُف
خبيث من العصبة الأخبثين ... وإن قلتُ زَانِينَ لم أقْـذف

وقد كان مع هـذا يظهر التقرب إلى يوسف بن عمر ، ولا يبخل عليه بشيء من المدح . روى أنه دخل عليه بعد قتله زيداً فأنشده قوله فيه :

خرجتَ لهم تمشى البراحَ ولم تكن
كمن حِصْنُهُ فيه الرِّتاجُ المضبَّبُ
وما خالدٌ يستطعم الماءَ فاغرًا
بعدلِكَ والداعى إلى الموت يَنعب

يعرض بخالد وقد خرج عليه الجعفرية وهو يخطب على المنبر ينادون : لبيك جعفر ، لبيك جعفر ، وهو لا يعلم بهم ، فدهش فلم يعلم ما يقول فزعاً ، فقال : أطعمونى ماء ، ثم خرج الناس إليهم فأخذوهم

وكان الجند القائمون على رأس يوسف يمانية فتعصبوا لخالد ، ووضعوا ذباب سيوفهم فى بطن الكميت فوجئوه بها وقالوا : أتنشد الأمير ولم تستأمره ! فلم يزل ينزفه الدم حتى مات ، ولا يبعد عندى أن يكون هذا بتدبير يوسف ليتخلص منه ، فليس من المعقول أن يجرؤ هؤلاء القوم على هذا مع ما سبق من عداوة يوسف لخالد

وقد مات الكميت سنة ست وعشرين ومائة ، وكان وهو يجود بنفسه يقول : اللهم آل محمد ، اللهم آل محمد . وقد أوصى ابنه المستهل أن يدفنه بموضع يقال له (مكران) غير ما يدفن الناس فيه بظهر الكوفة ، فكان أول من دفن فيه من بنى أسد

عبد المتعال الصعيدى

***

حاشية : ذكرنا أن الأعور الكلبي رمى امرأة الكميت بقصيدة يقول فيها « أسودينا وأحمرينا » وهذه رواية الأغانى ، وقد وجدنا هذا البيت فى شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك :

فما وجدت نساء بنى تميم ... حلائل أسودين وأحمرينا

وسنعود إلى ذكره فى مناقضات الكميت مع الأعور الكلبي

(١) وهذا أيضاً مما يؤيد ما ذكرناه من أن قتل زيد كان متأخراً على شناهيات الكميت

التاريخ فى سير أبطاله

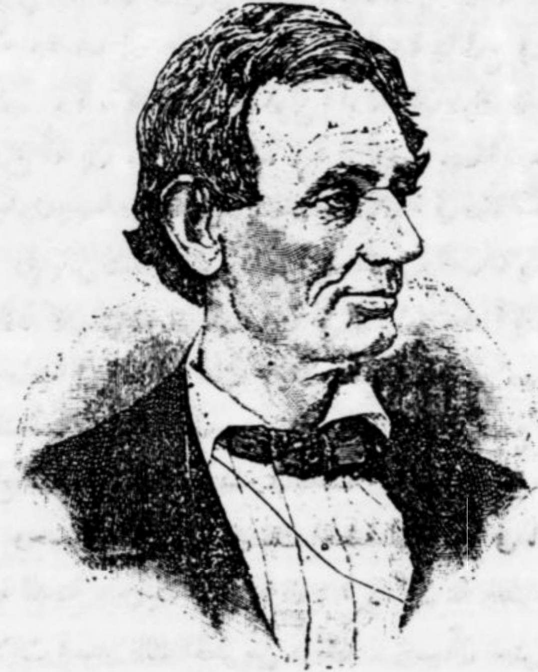
ابراهام لنــــــكولن

هدية الأحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

— ٥ —

يا شباب الوادى ! خذوا معانى العظمة فى نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامى العظيم



أبرزت السياسة مواهب ابن الأحراج وأثارت ما استكن فى نفسه من معانى الانسانيـة الصادقة ؛ وأخذت الأيام تعـده ليؤدى للبشرية رسالة ... والعبقرى مهما تناول من عمل فهو إنما يفرغ عليه من نفسه فيلبسه من المعانى مالا يستطيعه أو يحلم به الرجل العادى ؛ ولقـد يكون العمل فى ذاته متواضعاً فما هو إلا أن يمر به قبس من روحه حتى يصبح وقد استعظم واستعلى وخرج بذلك عن ذاتيته

أخذ الطوال التسعة يعملون عملهم مع أقرانهم فى المجلس ، وكانت تشغلهم يومئذ مسائل كثيرة ، فالبلاد تواقة إلى الاصلاح المحلى فى شتى ضروبه ، ومسألة العبيد يتزايد خطرها يوماً بعد يوم .. ولـكن ابراهام حيال مسألة عارضة ، تلك هى الدعوة إلى نقل مقر المجلس إلى مدينة أخرى يراها أحسن موقعاً وأوسع مجالا من فنداليا ؛ وهو فى ذلك يعبر عن رأى الكثيرين من ناخبيه ، وما زال بالمجلس حتى ظفر بعد جهد — هو ومظاهروه — باقناعه ، ومن ثم أصبح مقر مجلس المقاطعة فى سبرنجفيلد ...

دخل إبراهام سبرنجفيلد على جواد هزيل استأجره ، يحمل كل مايملك من متاع الدنيا فى عِدل صغير ، وفى جيبه مبلغ لايقل عن سبعة دولارات ! وكاهله ما زال مثقلا بما سماه الدين الأهلى .. دخل المدينة الجديدة لايدرى أين يتخذ مأواه ، أو على الأقل أين يلقى رحاله لساعته . وسيظل فى هذه المدينة حتى يخرج منها إلى واشنجطون العظيمة ليأخذ مقعده فى البيت الأبيض !

وكانت المدينة يومئذ آخذة فى الاتساع والنمو يسكنها ألف وثمانمائة نسمة ، بيد أنها كانت لا تزال تعلق بها مسحة من الغابة إذ كان منبتها كغيرها أول الأمر وسط الأحراج ؛ فهى كصاحبنا أبت تخلع عنها ما تخلف فيها من حياة الغابة شيئاً فشيئا

قصد إبراهام إلى حانوت يملكه رجل من كنتوكى كانت له به من قبل معرفة طفيفة ، وأقبل على ذلك الرجل ومتاعه على ذراعه يسأله عما يلزم من المال لشراء سرير وفرش ، فلما أخبره الرجل بما يلزم أخذته الحيرة وقال له : « إنى سأحترف المحاماة ولى فى الربح أمل ، فهل لك أن تعطينى طلبتى على أن تمهلنى إلى عيد الميلاد القادم ؟ » ثم أردف قائلاً : « وإذا أنا عجزت يومئذ عن أن أدفع لك حقك فلست أعلم هل أستطيع أن أؤدى لك ذلك أبدا ؟ »

وكان الرجل طيب القلب فمـا لبث أن ملكته الشفقة على ذلك الغريب الذى يبدو له من أمانته بقدر ما يبدو من فقره ؛ لذلك آواه عنده وعرض عليه أن يقتسم وإياه سريره القائم فى حجرة صغيرة هناك فوق الحانوت ؛ وصعد إبراهام إلى الحجرة فألقى عدله . ونزل وعلى وجهه أمارات الرضا ...

كان إبراهام مزمعاً أن يتخذ من المحاماة مرتزقاً ، وهو قد ترك العمل فى البريد وفى تخطيط الأرض منذ أن هم بالرحيل إلى سبرنجفيلد ، فأقبل على كتب القانون يستزيد منها علما ؛ وكان يعيره بعض الكتب محام فى المدينة يدعى ستيوارت . ورأى ستيوارت من ذكاء صاحبه وطيب سريرته وحسن طويته ما دعاه إلى أن يشركه فى العمل معه ؛ وقبل إبراهام ذلك مغتبطاً مسروراً يحس كأن الأيام توشك أن تبسم له بعد تجهم وعبوس ، فله اليوم فى السياسة مجال وله فى المحاماة مجال

بيـد أن هناك من الأمور مالا يزال يكدر خاطره ويكرب

نفسه ... ذلك ما كان من غرامه الثانى إن جاز لنا أن نسمى علاقته الجديدة بعد موت آن غراما

الحق أن هـذا الجانب من حياة لنكولن ، جانب علاقته بالفتيات ، أمر يدعو إلى العجب حتى ليحمله المرء على ما كابد من شذوذه أكثر مما يحمله على ما كان من حصافته ولقانته . عرف لنكولن فيمن عرف من أهل نيوسالم امرأة كانت تضنيفه أحياناً فتحسن ضيافته ، وظل يغشى منزلها زمناً حتى أصبح كأنه من أهلها . وحدثته تلك المرأة فيما حدثته عن أخت لها غائبة ألقت عليها من الصفات ما تبتكره أخت لأختها حين تبحث لها من الشباب عمن يطلب يدها . ورد إبراهام مرة فقال وهو لا يدرى أمازح هو فيما يقول أم جاد : إنه يرحب بالزواج من تلك الأخت ، وكان قد رآها قبل ذلك بثلاثة أعوام ، فلما عادت كانت تجلس إليه ويجلس إليها ...

وصور له خياله الخصب أن كلمة ميثاق لن يسمح له ضميره أن يتحلل منها . بيد أنه فى حيرة دونها كل ما سبق من حيرة ! لا يحس فى قلبه ما يحسه المرء حين يمر به طائف من الحب ؛ وهو مع ذلك لا يستطيع أن يقطع أنه لا يحبها !

لعل ما هو فيه اليوم من أمور السياسة ومن شؤون المحاماة يصرفه حيناً عن وساوسه وهواجسه ؛ لقد أخذ ستيوارت القضايا الكبيرة وترك لإبراهام ما خف من القضايا ؛ ولكن الحوادث ساقت إليه قضية معقدة كسبها ونمى إلى الناس خبرها فما لبث أن أصبح فى مهنته الجديدة ملحوظ المكانة

وكان دستوره فى المحاماة منبعثاً من أعماق نفسه ، لذلك كان قائماً على توخى الحق والدفاع عنه ونصرة المظلومين والضعفاء ؛ كان لا يقبل قضية لا يقتنع بصدقها ، ولا يقرب قضية يعلم أن الدفاع فيها يمس الخلق من قريب أو من بعيد ، وكان أسلوبه فى المحاماة كذلك صورة لنفسه ، لا يعرف اللجاج ولا المطاولة ولا يلتوي فى أمر أو يخفى فى نفسه شيئاً لثاية فى نفسه إلا إذا كان ذلك لستر عرض أو لحفظ كرامة ، على ألا يكون للمجاملة حساب فى نفسه إذا انبنى عليها إساءة إلى الفضيلة أو انتقاص للعدالة

وخفت وطأة الأيام عليه حيناً ، فكانه فى المحاماة — وهو يومئذ لم يعد الثامنة والعشرين — كما علمت ؛ ومكانه في السياسة قد جعله رأس حزبه فى المجلس ، وهو كما مر بك حزب الموجز ؛ وهو إلى ذلك حبيب إلى أهل سبرنجفيلد لما كان له من يد فى نقل المجلس إليها ، ولما آنسوا من طلاوة حديثه وروعة قصصه وعذوبة نفسه . ولقد توثقت المودة بينه وبين الكثيرين وعلى الأخص بينه وبين سبيد صاحب الحانوت ...

وكان من أحب الساعات إليه تلك التى يجتمع فيها وجماعة من حزبه فى حانوت سبيد فيتحدثون ويقلبون الآراء فى السياسة وقضاياها . ومن تلك الجماعة من سيكون لهم فى غد شأن فى سياسة بلادهم ، على أنه مهما يبلغ من شأنهم فسيظل دون ما سيكون لإبراهام من شأن . وممن كانوا يختلفون إلى ذلك المنتدى رجل من الحزب الديمقراطى صغير الجرم يدعى دوجلاس ، عرف لنكولن أيام كان المجلس فى فنداليا ، وقد اشتهر بلباقته وحدة ذكائه وعرف إلى جانب ذلك بالأثرة والغيرة والطمع فى عليا المراتب . وكأنه كان يغار من لنكولن ؛ أو لعله كان يدرك منذ ذلك التاريخ أنه إن بذ الرجال جميعاً فإنه لن يلحق بهـذا الرجل . وسيكون بينهما من التنافس ما يفتح صفحات ممتعة فى حياة لنكولن

ولم يكن نشاط لنكولن قاصراً على المجلس والمحكمة وحدهما بل لقد كان نشاطه خارجهما باعثاً على الاعجاب جديراً بالثناء ، فهو داعية إلى الثقافة ، حاث على الإصلاح بما ينشر ويذيع ؛ وذلك لعمرى جد عجيب من رجل كان قبل ذلك يمضى سنين يقطع الأخشاب فى الغابة يشترى بالمئات منها سروالا !

وحسبك منه ما ترى فى تلك الخطبة التى ألقاها فى ناد من أندية المدينة ، وإليك بعض ما قاله : « إذا كان ثمة خطر يتهدد الولايات فمصدر ذلك الخطر من داخلها . يجب أن نعيش أبداً أمة حرة أو نقتل أنفسنا ؛ إنما أشير إلى ما يتزايد من عدم مراعاة القانون فى البلاد » ثم يذكر حادثاً خطيراً من حوادث الاغتيال ويعلق عليه بقوله : « تلك هى المناظر التى تتزايد يوماً بعد يوم فى هذه الأرض التى اشتهرت أخيراً بحب القانون والنظام ... وماذا عسى أن نصنع لنقف فى وجه هـذا ؟ . الجواب يسير : ليقسم كل أمريكى ، كل عاشق للحرية ، كل ذى نية طيبة نحو الفـلاح ، ليقسم بكل بما جرى من دماء فى الثورة ألا يتعدى قوانين البـلاد فى أي جزئية منها ، وألا يسمح للغير بتعديها ، وكما فعل رجال عام ١٧٧٦ فى تعضيدهم حركة إعلان الاستقلال ، كذلك ليفعل اليوم كل أمريكى فى حرصه على الدستور والقانون ؛ وليقدم كل في سبيل ذلك حياته وشرفه المقدس وما ملكت يداه . إن فى النابهين الطيبين من الناس ممن تتوفر فيهم الكفاية لأن

يحسنوا أى عمل يوكل إليهم — كثيرين لا تمتد أطماعهم إلى ما هو أبعد من مقعد فى المؤتمر أو من مركز فى الحكومة أو من وصول إلى كرسى الرياسة ؛ ولكن هؤلاء لا ينتمون إلى أسرة الضراغم ولا إلى جماعة النسور . واهاً ! أتظنون أن مثل هذا يملأ عين اسكندر آخر أو قيصر ثان أو نابليون جديد ! كلا . إن العبقرية الشامخة لتحتقر الطريق التى وطئتها الأقدام من قبل ... لقد كانت العواطف قبل عوناً لنا ولكنا لن نركن إليها اليوم ولسوف تكون فى المستقبل عدواً لنا ؛ ألا لتكن الحكمة الباردة الحاسبة التى لا تعرف العواطف هي التى تمدنا بما يلزمنا فى مستقبلنا من أسباب القوة والدفاع »

يا ابن الغابة يا ربيب الفقر والبأساء ! أنى لك هذا كله ! ألا إنها العبقرية تستعلن فى الخطابة وتحمي على الحماسة وإن خفيت في الحديث الهادئ أو فى القصة الوادعة !

وماذا يريد لنكولن بإشارته إلى العبقرية الشامخة وما تتطلع إليه ؟ هل كان يرسم لنفسه ما يجب أن يفعله في غد ؟ كلا . ما كان يدرك يومئذ أو يحس أن له فى غد من عمله ما هو حرى أن يملأ عين اسكندر آخر أو قيصر ثان أو نابليون جديد

ومما عرف عنه فى السياسة موقفه فيما كان فى تلك الأيام من أمر العبيد . فلقد انبعثت صيحات قوية من أولئك المتطرفين من أهل الشمال الذين أهابوا بالمؤتمر أن يعلن تحرير السود فى جميع الولايات ؛ وهو يومئذ مطلب جرئ بل لقد كان يعد فى تلك الأيام حلماً من الأحلام . وقف إبراهام من تلك الدعوة موقفاً ينطوى على الكياسة وبعد النظر ، ويكشف عن ناحية أخرى من نفس هذا السياسى الناهض ، تلك هى ناحية التعقل والنظر إلى حقائق الأمور دون مغالطة فيها أو تغاب عنها

كان إبراهام يمقت نظام العبيد من أعماق نفسه وها هو ذا يجد نفسه اليوم بين أمرين : تطرف الداعين إلى القضاء على هذا النظام طفرة ، وما اتخذه مجلس مقاطعته من قرارات رجعية لم يستطع هو وأنصاره تلافيها . أما عن قرارات المجلس فإنها كانت على الأرجح تعبر عن ميل أعضائه وخاصة الديمقراطيين إلى محاربة الدعوة القائمة لتحرير العبيد ؛ وكان أن أعلن إبراهام هو وزميل له احتجاجاً على قرار المجلس يتضمن أنهما وإن كانا يريان مسألة العبيد قائمة على الجور وخطل السياسة إلا أنهما يعتقدان أن ما يدعو إليه المتطرفون إنما يساعد على ازدياد الخلاف بين الولايات ؛ كذلك هما يعتقدان أن موقف المجلس فى قراراته لا يطابق الدستور . ولقد ذاع فى الناس هذا الاحتجاج فأضافوه إلى ما عرفوا عن لنكولن من حميد الخلال ؛ وها هو ذا ينتخب للمرة الثالثة وهو فى التاسعة والعشرين ؛ يطول باعه فى المحاماة كلما تصرمت الأيام ، وترسخ قدمه فى السياسة ، ويعلو كعبه فى الخطابة . وكان أكبر معارضيه ومناوئيه إذ ذاك دوجلاس وكانت له مواقف يظهر فيها على إبراهام فى المجلس بلفتات ذهنه ولباقته ، وسرعة انتقاله من فكرة إلى فكرة ومن قضية إلى قضية ؛ ولكن إبراهام كان المتفوق الظافر إذا كان الأمر أمر إخلاص أو أمانة أو بعد نظر أو دقة تحليل . وأحب الناس فى المجلس وفى خارجه مما أحبوا من صفات لنكولن الخطيب تساوق عباراته ودقة ألفاظه في التعبير عما يريد ؛ وأحبوا منه فوق ذلك براعته فى التهكم ، تلك الخلة التى كان لا يطيقها معارضوه ، كما أنسوا إلى تلك الأمثال البارعة التى لم يك يفتأ يضربها للناس فى جلاء وبصيرة يستعين بها على بيان ما يريد

لم تلهه السياسة وشواغلها ولا المحاماة وقضاياها ، ولا الجلسات فى حانوت سبيد وما كانت تثير فى نفسه من لذة ... لم يلهه ذلك كله عن نوازع قلبه وخلجات نفسه ؛ وأنى له ذلك وقد كانت ماري أوين ، تلك الفتاة التي ارتبط بها ، تلقاه بعد أن تزور أحياناً بعض ذوى قرباها فى سبرنجفيلد فتراه ويراها ، كما كان هو يذهب إلى نيوسالم فيغشى بيت أختها . إن أمره عجب فى ذلك ! لا يستطيع أن ينصرف عنها ولا يستطيع أن يؤمن أنه يحبها ! تلك حال من حالات الشباب ؛ أو هي حال من حالات لنكولن العجيب

كانت علاقتهما علاقة فتور يتجلى لهما في عدة مواقف ، ولكنهما كانا فى موقف تحسب الفتاة أنه لم يبق إلا أن يتقدم صاحبها بالاقتراح ، ويحسب الفتى أنه لم يبق إلا أن تنأى بجانبها عنه فتريحه . لقد كان منقبض النفس لهذه الحيرة يجعل للمسألة من الأهمية أكثر مما لها . نلمس ذلك فى مثل قوله : « لم أجدنى مرة مدة حياتى فى قيد حقيقياً كان أو خيالياً أرغب فى التحرر منه مثلما أرغب فى التحرر من هذا القيد »

وجمع أمره فكتب إليها خطاباً رقيقاً محكماً يشير فيه إلى دخيلة نفسه ويتلمس معرفة طويتها دون أن ينالها بكلمة قاسية . تكلم عن فقره وما عسى أن تجد عنده من تكون زوجاً له ، ثم

قال « ربما كان ما قلته لى من قبيل المزاح وإلا فأظنني لم أفطن إلى مرماه . إن كان كذلك فدعيه إلى النسيان ، وإن لم يكن كذلك فإنى أحب أن تفكرى تفكيراً جدياً قبل أن تقطعى فى الأمر ؛ وسأكون عند ما قلت إذا كان ذلك ما تشائين . وإنى أرى ألا تشائى ذلك فإنك لم تتعودى البأساء وربما كان الأمر أقسى مما تخالين » وكتب لها بعد ذلك خطاباً أكثر صراحة جاء فيه : « إذا كنت تشعرين أنك مقيدة نحوى بأى رباط فإنى أميل الآن إلى أن أطلقك منه إذا كانت هذه بغيتك ؛ بينما أرانى من جهة أخرى أميل إلى أن أمسكك علىّ إذا اقتنعت أن ذلك يزيد من سعادتك بقدر خليق بالاعتبار . تلك فى الحقيقة هى المشكلة بالنسبة إلى »

تلك هى تعللات المتردد الحائر تصور لنا حالا من الحالات المستعصية على الفهم ، بيد أن المسألة قد آلت آخر الأمر إلى الرفض وانصرفت عنه مارى أوين . وظل بعد انصرافه عنها حائراً لا يدرى أيحمل ذلك على الفوز أم يحمله على الخيبة ؛ على أنه يعلن فى عزم مصمم أنه لن يفكر بعد فى الزواج

ومن العظماء من تنطوى نفوسهم على نواحى ضعف تكافئ نواحى القوة فيها ؛ ومن هؤلاء لنكولن ، من نواحى ضعفه هذه الحيرة الخوارة إذا كان الأمر أمر نساء ؛ فهل كان يرى فى سكنه إلى زوجة قيداً يحرمه من حريته ، أم هل كانت تعوزه الكفاية لهذا الغرض ؟ من العسير أن نرد هذا إلى سبب واضح محدود ..

ومابله يتورط بعد ذلك فى صلة جديدة ؟ ! ينصرف عن مارى أوين ليتصل بمارى تود ؟ كانت هذه الفتاة تنتمى إلى درجة دونها درجته ، وكانت مهذبة مثقفة ، شديدة الذكاء ، تدير الحديث إذا جمعها بالنابهين من أهل المدنية مجلس ، فتسخرهم بتوقد الذهن وقوة البادهة ولطف الإشارة وأناقة العبارة . وكانت مارى إلى ذلك ذات طمع وطموح ، فكانت نظرتها إلى الشباب من طبيعة نظرتها إلى الحياة ؛ المقدم فيهم عندها من تعرف أنه إذا نالت يده يخطو بها إلى ما تمد إليه عينيها وخيالها من جاه ونفوذ . وكانت فتاة قلقة كأنها من فرط توثبها الطائر الدل لا يحط على غصن إلا ليثب منه إلى غصن ...

وكان لنكولن ممن يختلفون إلى دارها الجميلة التي تدور بها حديقة صغيرة فينانة ، كما كان دوجلاس ممن يختلفون إلى تلك الدار ؛ كأنما صحت عزيمة هذا الرجل أن يأخذ على منافسه كل طريق ! وأخذت الرجلين عينا مارى السريعتان النافذتان ولكنهما استقرتا على إبراهام . وكان دوجلاس خليقاً أن ينال عندها الحظوة بما كان يبدو من ذكائه ودهائه ولباقته وكياسته ، وبما كان يشع من ظرفه وحسن سمته وأناقة هندامه ، ولقد كان يبتغى إليها الوسيلة ، لا تفلت منه فى ذلك فرصة ولا تفوته حيلة . ولكنها اتجهت إلى ابن الغابة فى هندامه المهدل القصير على جسمه الرهف الطويل ولم ينب فى عينيها وجهه المسنون الذي يحمل من البلاهة بين يديها قدر ما يحمل من هموم الأيام ، ولم ينب عن ذوقها شعره الأشعث الذى يصور للعين ألفاف الغابة !

ومضت الأيام وابراهام يتزيد من حبها بقدر ما يفقد دوجلاس ؛ ولكنه يسر إلى صديقه سبيد أنه لا يشعر نحوها من الحب بما عساه أن يفضى إلى الزواج ، ويهم أن يكتب إليها ذلك ، فيشير عليه صاحبه أن يشافهها بالأمر ، فيفعل ، ولكنه يعود إلى صاحبه ليخبره أن لا مناص ولا حيلة ، فهو اليوم رهين أسير ، ذلك أنه ما كاد ينبئ مارى بما يعتقد حتى هبت من مقعدها صارخة تقول : أصبح المخادع هو المخدوع ! قال لنكولن : « ووجدت الدموع تنحدر على خدى أنا فأخذتها بين ذراعى وقبلتها »

وظلت مارى بعد ذلك مدة عامين تحرص على ابراهام وتتحايل على كسب قلبه ؛ فلقد كانت ترى منه ما يبشر بأملها المرجو ، قالت عنه بعد ذلك بسنين : « لم يكن مستر لنكولن من الوجاهة كما كان مستر دوجلاس ، ولكن الناس لم يكونوا يلحظون أن قلبه كان من الكبر بقدر ما كان ذراعه من الطول » . ولكن ابراهام كانت تأخذه من الهم غاشية كلما مال الحديث إلى الزواج ، وعاد إليه تردده وتلدده ، وعاودته الرغبة فى التخلص من مارى تود كما تخلص قبل من مارى أوين . وكان يومئذ فى حال إن لم يحملها على الخبل تحار على أى شىء غيره نحملها . وحسبك أنه ابتعد عنها بغتة فى اليوم السابق ليوم الزفاف ، وهو يأمل أن يسترد احترامه لنفسه ومقدرته على الحكم ، ولكنه أحس أن فعلته هذه ضد الشرف فحاق به اليأس . كتب إلى صديقه سبيد : « إما أن أموت وإما أن تتحسن حالى ، ولكن بقائى فيما أنا فيه من المستحيل » وبعد ذلك بأيام كان عند الطبيب

الخفيف

أناشيد غزلية

البستانى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

« تشكى إلى كثير من صحابتى ومن قراء (الرسالة) الغراء بعض ما وجدوا فى أناشيد جيتانجالى من شـدة وصعوبة وصلابة ؛ وفى الحق لقد وجدت فيها قوة السبك ومتانة الأسلوب وعمق الفكرة الفلسفية ، فما استطعت أن أنحرف عما أراده المؤلف لأناشيده . وأنا أريد أن أنقل إلى العربية ترجمة صحيحة فيها الأمانة والدقة والاتقان ، فجاءت كما قرأها القارىء وكما تحدث إلى عنها المتحدث ... »

« ولقد وعدت رفاقى أن أرفه عنهم بعض ما نالهم من أناشيد جيتـانجالى بأناشيد أخرى فيهـا رقة النسيم العليل وابتسامة الفجر الضاحك ، وحلاوة الأمل الباسم ... تلك هى أناشيد (البستانى) التى أقدمها للقراء اليوم وما بعده ، وهى أناشيد غزلية كتبها طاغور بالهندية وترجمها هو إلى الانجليزية وهى ٨٥ نبضة من نبضات قلب شاعر سما بقلبه وعقله معاً فوق الانسانية ليهبط عليها بوحى من نفسه الشاعرة الرقيقة »

« وهى كلها نوع من الغزل الرقيق الرفاف لم نر مثله فى اللغة العربية . فها هى ذى أترجمها كلها — إن شاء الله — والله أسأل أن يوفقنى ... » كامل

— ١ —

الخادم — أسبغى على خادمك بعض فضلك يا مليكتى !

الملكة — لقد انفض السامر وتفرق الخدم ، فلماذا جئت وقد انفرط عقد الليل ؟

الخادم — حين تخلو مليكتى إلى نفسها أبتغى أنا إليها الوسيلة. لقد جئت لأسألك ما ادخرت لخادمك من عمل

الملكة — وماذا تبتغى فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟

الخادم — مرى فأكون بستانىّ حديقة أزهارك

الملكة — يا للحمق !

الخادم — سأنفض عن نفسى كل عمل سوى هذا سألقى بسيفي ورمحى معاً جانباً . لا تقذفى بى إلى غيابة قصورك النائية ، ولا تدفعى بى إلى ميدان القتال ؛ ولكن مرى فأكون بستانىّ حديقة أزهارك

الملكة — وماذا تريد أن تعمل هناك ؟

الخادم — سأقوم على خدمتك فى ساعات الفراغ وأتمهد حشائش الطريق لتظل خضراء ناضرة ... الطريق الذى تجتازين كل صباح حيث تتناثر على قدميك أوراق الزهور التى تسير الهوينى فى طريق الفناء ، كأنها تحييها فى ولاء

وأرجّح بك الأرجوحة بين أغصان الدوح ، حيث تجهد أشعة القمر نفسها أن تندفع خلال أوراق الشجر لتقبل ذيل مرطك

ثم أترع مصابيحك بالزيت العطر حين توشك أن تنضب ، وأنثر على موطىء قدميك الصندل والزعفران فى دقة وإتقان

الملكة — وماذا تنتظر من أجر ؟

الخادم — أجري أن تأذني فأمسك بيدك البضة الناعمة التي كأنها زهرة اللوتس الناضرة ، فأزين معصمها بسوار من زهر ؛ وأصبغ أخمص قدميك بعصير الزهر الأحمر ، ثم أنفض عنها ما عساه أن يعلق بها من ذرات التراب

الملكة — لقد أجبت سؤلك يا خادمى ، فاذهب فأنت منذ الآن بستانىّ حديقة أزهارى

— ٢ —

« آه ، أيها الشاعر! إن المساء يقبل فى أناة ، فيدب الشيب فى شعراتك »

« أفتسمع من خلال تأملاتك وأنت في خلوتك رسالة الغيب ؟ »

قال الشاعر : « حقاً ، إنه الليل ، وأنا جالس أتسمع لأن صوتاً سيرتفع — في جوف الليل — من جانب القرية »

« وأنا أرقب القلوب الشابة وهى تتلاقى بعد تيه ، فتنطلق نظرات الهوى تطلب الوسيقى لتصدع من حواليها السكون وتتحدث حديثها »

« من ذا يستطيع أن ينسج أغانيها على منواله إن أنا انزويت على شاطىء الحياة لا أستشعر فى نفسى سوى الموت والحياة الأخرى ؟ »

« لقد توارى أول نجم بزغ عند الغروب »

« ووميض نار الموتى [1] إلى جانب النهر الهادىء يخمد رويداً رويداً »

(١) نار الموتى : هى نار تشب عنـد الهنود ليحرقوا فيها جثث موتاهم وهو بعض طقوسهم الدينية

« وعواء أبناء آوى يرتفع من جنبات المنزل الموحش فى ضوء القمر الشاحب »

« وإذا تلبث مسافر هنا قليلاً ليرقب الليل ، وأطرق حيناً ليسمع همهمة الظلماء ؛ فمن ذا الذى يسكب فى مسمعيه أسرار الحياة إن أنا أوصدت دونه بابى لأتحلل من قيود الانسانية ؟ »

« إنها خرافة : أن يدب الشيب فى شعراتى »

« إننى دائماً شاب كأصغر شباب القرية ، وشيخ كأكبر كهولها »

« بعض الناس ترتسم على شفاههم ابتسامة عذبة رقيقة ، والبعض يشع من نظراتهم الخبث »

« بعض تنهمر عبراتهم فى وضح النهار ، والبعض يكفكفون دموعهم فى هدأة الليل »

« كل أولئك فى حاجة شديدة إلىّ ، فأنا لا أجد فى عمرى منفسحاً لأفكر فى الحياة الآخرة »

« إننى أعيش مع كل أولئك ، فاذا يضيرنى إن دبّ الشيب فى شعراتى »

— ٣ —

عند الصباح طرحت شبكتى فى البحر

ثم جذبتها من الهوة السحيقة فألفيت فيها أشياء ذات بهجة وجمال : بعض يشع كالابتسامة ، وبعض يلمع كالعبرة ، وبعض يتألق كأنه خد عروس

وعند الأصيل عدتُ إلى دارى أحمل ثقل يومى ؛ وعلى جانب الطريق رأيت التى أحب جالسة فى الحديقة لا تجد عملاً فهى تعبث بأوراق زهرة

فاندفعت إليها وألقيت ثقلى عند قدميها ثم وقفت بإزائها صامتاً

ونظرت هى إلى أشيائى ثم قالت : « ما أعجب ما أرى ! ماذا يفيد كل هذا ؟ »

فأطرقت ملياً والخجل يمر كى عركا ، ثم طاف بخاطرى «أنى لم أجهد نفسى فى سبيل هـذا ، ولم أدفع له ثمناً ؛ إن كل ذلك لا يستأهل أن يكون هديتى إليها »

فقذفت بها جميعاً — واحدة فواحدة — إلى الطريق

وحين أسفر الصبح جاء السائحون أرسالا ، فالتقطوا كل ما قذفت به وحملوه إلى بلاد نائية

كامل محمود حبيب

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى

٣٥٣ — على هذا بنيت الدنيا

أنشد عمر (رضى الله عنه) قول عَبْدة بن الطيب

والمرء ساع لأمر ليس يدركه

والعيش : شح وإشفاق ، وتأميل [١]

فقال : ما أحسن ما قسّم ! على هذا بنيت الدنيا

٣٥٤ — بلى ، إن للعينين فى الصبح راحة

فى (الموشح) للمرزبانى : الشعراء على أن الهموم متزايدة بالليل — متفقون ، ولم يشذ عن هـذا المعنى ويخالفه منهم إلا أحذقهم بالشعر . والمبتدىء بالاحسان فيه امرؤ القيس [٢] فانه بحذقه وحسن طبعه وجودة قريحته كره أن يقول : ان الهم فى حبه يخف عنه فى نهاره ويزيد فى ليله ، فجعل الليل والنهار سواء عليه فى قلقه وهمه وجزعه وغمه فقال :

ألا أيها الليل الطويل ، ألا انجلى بصبح وما الاصباح منك بأمثل

فأحسن فى هـذا المعنى الذى ذهب إليه وإن كانت العادة غيره ، والصورة لا توجبه . ثم صبّ الله على امرىء القيس بعده شاعراً أراه استحالة معناه فى المعقول ، وأن القياس لا يوجبه ، والعادة غير جارية به ، حتى لو كان الرادّ عليه من حذاق المتكلمين ما بلغ فى كثير نثره ما أتى به فى قليل نظمه ، وهو الطرماح بن حكيم فانه ابتدأ قصيدة فقال :

ألا أيها الليل الطويل ألا اصبح ببَمّ وما الاصباح فيك بأروح [٣]

فأتى بلفظ امرىء القيس ومعناه ثم عطف محتجاً مستدركا فقال :

---

(١) فى (مفضلية) طويلة جيدة ، مطلعها :

هل حبل خولة بعد الهجر موصول أم أنت عنها بعيد الدار مشغول

(٢) امرؤ يعرب من مكانين (الهمزة والراء) ومن العرب من يعربه من الهمزة وحده ويدع الراء مفتوحة (التاج)

(٣) بم : (بالفتح وتشديد الميم) مدينة جليلة من أعيان مدن كرمان (معجم البلدان) وفى (اللسان) : للطرماح : أليلتنا فى بم كرمان أصبحي

بلى ، إن للعينين فى الصبح راحة
لطرحهما طَرْفَيهما كلَّ مطرح

فأحسن فى قوله وأجل ، وأتى بحق لا يدفع ، وبين عن الفرق بين ليله ونهاره

٣٥٥ — أحسن منها على حيطانه جيرانها

فى (كتاب الصناعتين) : قيل لبعضهم ما بلغ من حبك لفلانة ؟

فقال : إنى أرى الشمس على حيطانها أحسن منها على حيطان جيرانها

٣٥٦ — أبو رياح

فى (ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب) للثعالبي : أبو رياح تمثال فارس من نحاس بمدينة حمص على عمود حديد فوق قبة كبيرة بباب الجامع — يدور مع الريح حيث هبت ، ويمينه ممدودة ، وأصابعها مضمومة إلا السبابة ، فإذا أشكل على أهل حمص مهب الريح عرفوا ذلك به ، فإنه يدور بأضعف نسيم يصيبه ولذلك كنى بأبى رياح . وقد يقال للرجل الطائش الذي لاثبات له : (أبو رياح) تشبيهاً به ، وقيل :

أفّ لقاض لنا وقاح | أمسى بريئاً من الصلاح
كأنّ دنيته عليه | غراب نوح بلا جناح[١]
وليس فى الرأس منه شئ | يدور إلا أبو رياح ...

٣٥٧ — فليس لخوفه يبدين حرفا

قال جحظة : كنت مع ابن الرومى فرأينا (أبا رياح) على دار ابن طاهر . فقلت له : صف هذه الشرفات وأبا رياح ، فقال :

ترى شرفاتها مثل العذارى | خرجن لنزهة فقعدن صفا
عليهن الرقيب أبو رياح | فليس لخوفه يبدين حرفا

٣٥٨ — حرمته مأواه ومرعاه

فى (السلوك) للمقريزى : فى سنة (٦٦٤) اشتد إنكار السلطان للمنكر ، وأراق الخمور ، وعفى آثار المنكرات ، ومنع الخانات والخواطئ بجميع أقطار مملكته بمصر والشام . قال ابن المنير قاضى الأسكندرية لما وردت إليه المراسيم بالأسكندرية وعفى متوليها أثر المحرمات :

ليس لإبليس عندنا أربٌ | غيرُ بلاد الأمـير مأواه
حرمتَه الخمر والحشيش معاً | حرمتَه مأواه ومرعاه

وقال أبو الحسن الجزار :

قد عُطل الكوب من حبابه | وأخلى الثغر من رضابه
وأصبح الشيخ وهو يبكى | على الذى فات من شبابه

٣٥٩ — دعنى أمش فى ضوء رضاك

فى (أمالى) القالى : قال جحظة : دخل رجل على عمر بن فرج فتنصل إليه من ذنب له فرضى عنه ، فلما خرج قال : ياغلام ، خذ الشمعة بين يديه

فقال : دعنى أمشِ فى ضوء رضاك[١] . فاستحسن ذلك وأمر له بصلة حسنة

٣٦٠ — فيأخذها غيرهم فيزن فيها

فى (إرشاد الأريب) : جرى مع أسعد بن المهذب[٢] حديث النحويين وأن أحدهم ينفد عمره فيه ولا يتجاوزه إلى شئ من الأدب الذى يراد النحو لأجله من البلاغة وقول الشعر ومعرفة الأخبار والآثار وتصحيح اللغة وضبط الأحاديث . فقال الأسعد هؤلاء مثلهم مثل الذى يعمل الموازين وليس عنده مايزن فيه ، فيأخذها غيرهم فيزن فيها الدر النفيس والجوهر الفاخر والدنانير الحمر[٣]

قال ياقوت : وهذا عندى من حسن التمثيل

---

(١) الدنية : قلنسوة محددة الطرف يلبسها القضاة والأكابر ، وليست من كلام العرب إنما هى من الألفاظ المستعملة فى العراق (الشريشى) دنية القاضى قلنسوته شبهت بالدن (القاموس) الدن : الرقود العظيم ، الراقود : إناء خزف مستطيل مقير

(١) فى شرح النهج لابن أبى الحديد : رضى بعض الرؤساء عن رجل من موجدة ثم أقبل يوبخه عليها فقال : إن رأيت ألا تخدش وجه رضاك بالتوبيخ فافعل

(٢) نظم سيرة صلاح الدين ، وكتاب كليلة ودمنة ، وله ديوان شعر ، وفاته سنة ٦٠٦ (الوفيات)

(٣) الذهب أحمر وأصفر قالوا : الأحمران والأصفران : الذهب والزعفران

مرأى الجمال وذكرى الجلال

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

مقدمة : لمناظر الطبيعة الرائعة الجليلة لذة فى النفوس مثل مناظر الجبال الشاهقة والهاويات العميقة والأعاصير وأثرها والبحار وأمواجها ، وهي تبعث اللذة فى النفس حتى فى مخاوفها إذا لم تملك مخاوف مناظرها النفس بالذعر والرعب ، وقد ينقلب الحنين المقهور فى النفس إلى الجمال فيصير ولوعاً بمناظر الجلال والروعة ، كما أن مناظر الجلال والروعة قد تشحذ الحنين إلى الجمال وتذكر المرء به ، وقد تطغى كل من العاطفتين على الأخرى ولهما أيضاً صلات أخرى غير ما ذكرنا . ومن مسرات التفكير والفنون أن يتتبع الانسان صلات العاطفتين فى نفسه وهذه القصيدة من قبيل هذا التتبع (الناظم)

ذكرتك فى البحار الزاخرات وفى مجرى السفين الجاريات
كأن البحر حى ذو جنان وموج اليم نبض النابضات (١)
وفى ذاك الجلال بلاغ راء وروع للنفوس الواعيات
ولكنى ذكرتك يا حبيبى كما حن المريض إلى الحياة
كما حن الهزار إلى ربيع وأفنان الرياض على الأضاة (٢)
وكم غلب الجمال على جلال كما غلب الرقاد على التفات
ذكرتك والقبور ترد طرفى وتسخر من هيام بالشيات (٣)
وتخبرنى بأن الحب فانٍ وأن العيش صنو للممات (٤)
ولكنى ذكرتك يا حبيبى وذاك الذكر خير الذكريات
ذكرتك والسقام يبيد لبى ويسلى النفس عن ماضٍ وآت
ويلهى النفس عن حب وشعر وعن سحر العيون الساحرات
ولكنى ذكرتك يا حبيبى كذكرى للسنين المقبلات
ذكرتك فى الطلول الدارسات وآثار العصور الغابرات (٥)
أرى الأهرام كالأعلام تزهو على عبث الصروف المهلكات (٦)
فأبصر من مضوا وأرى اعتزازاً لهم بالمصبيات الفانيات
فيضؤل عيش هذا الناس حتى لينسى المرء ذكر المصبيات
ولكنى ذكرتك يا حبيبى كذكرى للأمور الخالدات

عبد الرحمن شكرى

(١) الجنان القلب (٢) الهزار طائر — الأفنان الغصون — الأضاة غدير الماء (٣) الشيات ألوان الحيوانات (٤) الصنو بكسر الصاد القريب من أصل واحد (٥) الطلول جمع طلل آثار المبانى (٦) الأعلام الجبال

معاودة الذكرى

للشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين

سبق أن نشرنا أبياتاً غير مرتبة بعث بها إلينا الأستاذ من هذه القصيدة الرائعة ، وقد أرسل إلينا حضرته بنصها كاملاً ، وها هى :

عَاوَدَ القَلْبَ حنِينهُ مَنْ عَلَى الشَّوْقِ يُعينهُ
وَيْحَ قلْبِي مِنْ غرامٍ هَاجَ بالذِّكْرَى كمينهُ
يا لخفَّـــاقٍ إذا ما قَرَّ هَزَّتْه شُجُونهُ
واصِلٌ مَن صدَّ عنــه صائن من لا يَصُونهُ
خانَهُ الصَّبْرُ ولولا الصَّـــدُّ ما كان يخونهُ
يازَماناً لم تكُنْ إلاَّ هُنَيْهاتٍ سنينُـه (١)
كنتَ رَوْضاً حالياً بالـــوَصْلِ قد رَفَّتْ غُصونهُ
حُـلُمٌ إنْ يَمْحُهُ الدَّهْـــرُ فَفِي الذِكرَى مَصُونهُ
كلَّمـــا مرَّ بقلبى ذِكْرُهُ جُنَّ جنُونهُ

***

لَوْ شَهِدْتِ النَّجْمَ أرْعَا هُ وَتَرْعَانى عيُونُهُ
أو رأيتِ الليـل أشكو هُ وتَشْكُونى دُجُونهُ
ومِهادَ النـوم كم يقــسُو على جَنْبَيَّ لِينهُ
آه لَوْ تَدْرِينَ مَا بِى ضَاقَ بِالقَيْدِ سَجِينهُ
أنتِ تدرين ولـكن لِصِباَ الغِيــدِ فتُونُهُ
أنتِ لى كلُّ شُئُونِى وَيْلَ مَنْ أنْتِ شُئُونهُ
كانَ لِى دَمْعٌ فَمَالِي جَفَّ مِنْ دَمْعِى مَعِينهُ
مَن لِصَبٍّ غَدَرَ الوَا فِى به حَتَّى جُفُونهُ
كُلَّمَا مَنَّاهُ ظَنٌّ عادَ بِاليأْسِ يقِينهُ

***

(١) سنينه باثبات النون على مذهب من يعرب سنين بالحركات ومنه الحديث اللهم اجعلها عليهم سنيناً كسنين يوسف



أقصوصة من تشيكوف

١ – فى القرافة (١)

للأستاذ دريني خشبة

« الريح موشكة أن تهب فتكون عاصفة ، والليل موشك أن يضرب فوقنا بجِرانه ، أفلا يخلق بنا أن نعود أدراجنا إلى المدينة ؟ ! »

هذا حق فلقد كانت الرياح تزمزم فى أشجار البتولا (٢) فتملأ مخارف الوادى بأوراقها اليوابس ، وكانت شآبيب البرد قد أخذت تَنهل فوق رؤوسنا فتنضح ثيابنا وتلفحنا ببَرد شديد ؛ وانزلجت رجل أحدنا فتعلق بصليب شاحب شاخص ليتفادى السقوط فى الوحل ، فلما اعتدل وقف مسبوهاً أمام اللوحة الرخامية وراح يقرأ اسم صاحب المقبرة :

« ييجور جريازنوروكوف ... مستشار ملكى وفارس »

أوه ! لقد كنت أعرف هذا السيد ، المغفور له ، لقد كان مشغوفاً بامرأته حباً ، وكان يمتثل أوامر ستانسلاف ... ولم يقرأ فى حياته شيئاً ... وكانت معدته تهضم الحديد ... فيا للحياة التى كانت حرية أن تمتد وأن تستطيل ! لماذا مات يا ترى هذا ال (ييجور) ؟ ! إنه لم تكن به حاجة إلى الموت ، فلماذا قضى ؟ ! وا أسفاه عليه ! إنما هى عين المنية التى لا تنفع فيها التمائم قد أرصدت له ؛ فراح المسكين ضحية التجسس والفضول ! !

ذاك أنه كان يسترق السمع يوماً خلال ثقب المفتاح في منزل بعض أهله ، وكان من دأبه أن يتلصص عليهم دائماً ، فانفتح الباب فجأة ، وانفدغ الرأس الكريم ، وسقط ييجور يتشحط فى دمه ، ثم مات على الأثر !

وصاحب هذه المقبرة !

مسكين جداً ... لم يكن يعاف شيئاً فى حياته ، كما كان يعاف الشعر ... والشعراء ! فانظروا كيف سخر به الشعر الذى كان يعافه ، ويشمئز منه ، ويضيق به صدره ! لقد جصّصوا مقبرته كلها بأبيات من الشعر هى السخف بعينه ... مسكين يا هذا ، ذق إذن ... وتقزز ما شئت ... إنك لأنت العزيز الكريم !

من القادم يا ترى ؟

إنه فقير آفاق يلبس معطفاً كله مِزَق وأسمال ! وىْ ! إن له لوجهاً ناصعاً ! بخٍ بخٍ أيها البائس ! إنه يتأبط زجاجة من البودكا ! ترى منذا الذى يشرب نخبه هنا هذا الفقير ؟ ها ها ! !

---

(١) ذكر صاحب القاموس أن القرافة هى قرافة القاهرة خاصة والمقصود بها هنا الجبانة

(٢) البتولا (Pirch) شجرة صلبة الخشب ذات لحاء أبيض ناعم تغرس عادة فوق المقابر الروسية

سَكَنَ اللَّيْلُ فَمَا لِلْقَلْبِ يَجْفُوهُ سُكُونُهْ
كَمْ وَكَمْ أَقْسَمَ أَنْ يَسْلُوَ فَمَا بَرَّتْ يَمِينُهْ
كُلَّمَا ظَنَّ سُلُوًّا كَذَبَتْ فِيهِ ظُنُونُهْ
كَمْ فُنُونٍ ذَاقَ فِى الْحُبِّ وَلِلْحُبِّ فُنُونُهْ
فَلْيَذُقْ مَا شَاءَ مِنْهُ مَا رَعَى الْعَهْدَ أَمِينُهْ
أَيُّهَا اللَّائِمُ دَعْهُ فَلَهُ فِى الْحُبِّ دِينُهْ

أحمد الزين

إن الفتى يحمل نقله (مَزَّته[1]) في جيبه حَوَايا[2]، فهي تظل معه لتودع العالم هي الأخرى!

وترنح الرجل قليلاً، ثم سأل في صوت مبحوح محشرج:

— أين قبر موسخين الممثل يا هذا؟

وقدناه إلى قبر موسخين الذي مات منذ حولين

وسألته أنا وفي نفسي منه أشياء:

— أ كاتب حكومي أنت يا صاح؟!

فقال:

— كلا! بل أنا ممثل! ماذا أصاب الناس في هذا العصر؟ مالهم لا يفرقون بين الموظفين والممثلين؟ ولكن... حسن؟ لا ضير!

***

لقد اندثر قبر موسخين أو كاد، ولقد سطع منه ريح كريه منتن، ونمت فوقه أعشاب الفناء الشاحبة الشوكية حتى أوشكت تخفيه عن الأبصار! إنه لا يشبه القبور الجاثمة هنا... يا للصليب المعوج الرخيص المائل المكسو بالطحلب[3] السادر المكتئب، الذي يبدو كأنه سيموت هو أيضاً!

لقد نقشت على اللوحة المتآكلة هذه العبارة التي ذهبت يد الفناء ببعض حروفها:

(... الصديق المنسي، موسخين!)

فيا للزمان!

لقد أودى بالحروف الأولى التي كانت تحمل هـذه العبارة أكذوبة الأكاذيب!

قال الممثل:

« ويحك يا موسخين، وسحائب رضوان الله عليك!! ما أشقاك بهؤلاء الممثلين ورجال الصحافة، الذين اكتتبوا بنقود ليشيدوا ضريحك ونُصُبَك ثم أكلوها فيما بينهم...! أسحتهم الله بأكلهم هذا المال!»

ثم سجد في خشوع وعفر وجنتيه وجبينه بالثرى المندّى

وقلت أسأله:

— ماذا تعني يا صاح؟ كيف أكلوها فيما بينهم؟

فقال:

— ما أيسر هذا أيها الأخ! لقد فتحوا الاكتتاب، وأعلنوا أسماء المتبرعين في الصحف... ثم... لا ضريح ولا نصب، لأنهم أكلوا النقود فيما بينهم... وكان الله حسيبهم...! وأنا بالطبع لا أقول هـذا استنكاراً لصنيعهم، ولكن لتعلم ماصنعوا... نُخبكم أيها السادة، ونُخب الراقد هنا ـ موسخين ـ المسكين! في سبيل ذكراه الخالدة هذه الكأس!»

واحتسى كأس البودكا، والتهم حوية من حواياه، ثم قال:

— يقول الغربيون (في صحتكم) حين نقول نحن (نخبكم).. فيالله! أي صحة في ابنة الكرم، وأي عافية في أن يصبح الفتى مجنوناً بها، عاكفاً عليها، مخبولاً مدمناً؟... هذا... وأي ذكرى خالدة نرجوها لهذا الفتى؟! إن الذكرى الخالدة معناها الألم الخالد... وخير من ذاك أن نبتهل إلى الله ليجعلها ذكرى... مؤقتة، وهما في مذهبي سيان!

— إن هذا حق لا ريب فيه! فقد عاش موسخين رجلاً ذائع الصيت طائر الذكر، ولما مات حملوا عشرين إكليلاً من أنضر الأزهار حول نعشـه... وما كاد يوسّد في الثرى حتى نسيه الجميع!

— ومن نسيه؟! لقد كان محبوه، والمعجبون به، في المقدمة!! ومن ظل إلى اليوم يردد ذكراه؟! أعداؤه يا سادة! أعداؤه الذين عاش طوال عمره يشنّ عليهم حربه الضروس الشعواء!!

— فأنا مثلاً... لن أنساه ماحييت! أبدا، أبداً... فأنا لم ينلني منه غير الأذى، لقد كان مولعاً بإلحاق الأضرار بي! فأنا لا أحبه، بل، أمقته!

فقلت له: وكيف كان إيذاؤه لك يا صاح؟

فتأوه من أعماقه، وانتشرت سحابة من الهم فوق وجهه الكاسف، ثم قال: «أبلغ الإيذاء أيها الصديق! لقد كان لصاً خبيثاً محتالاً، فلا عفا الله عنه!! أتصدق أنني لم أصبح ممثلاً

(١ — ٢) المزة هي الخمر ونحن نستعملها هنا بمعناها المعروف لدى الخمارين (الطعام القليل الذي يؤكل مع الخمر) على سبيل المجاز. والحوايا أحشاء البهيم الداخلية والمقصود بها هنا (السجق)

(٣) خضرة تعلو الماء الآسن وسطح البناء من الندى

إلا بفضل إصغائى إليه وشغفي به ، وإنعام النظر إليه ؟ لقد خلبنى بفنه ، وسحرنى بلفتاته ، ونفث فى صدرى روح الكبر والغرور والخيلاء فنزحت عن الديار بسببه ، واحتملت بلاء الغربة فى سبيل ما وعدنى من الغنى الضخم ، والثراء الواسع ... ولكن ... واحسرتاه عليّ !! إنى لم أجن من كل مواعيده إلا الدموع والأشجان !! وإلا الجد العاثر الذى هو نصيب المثل من الحياة !!

« لقد فقدت كل شىء !! فقدت شبابى ، فقدت عِفتى ، فقدت أخلاق ، فقدت استقامتى ، ثم ... فقدت الله !!

« هأنذا يا صاح لا أملك الدانق الذى أمتِع به نفسى ، وأرفه به عن قلبى ... وهاك حذائى !! يا ربى لقد خصّفته حتى استحييت من كثرة الخصف ، فها هو عقبى نعْل له !!

« وهاك (بنطلونى) !! لقد رفوته ورقعته ، حتى لقد ذهب الأصل وبقى الرقع !!

« وهاك وجهى القبيح الشائه ... أليس يبدو كأنما هبره[1] كلب !!

« ثم إيمانى ؟ ! لقد انتزع اللئيم إيمانى بالله ، وأغرانى بحرية الفكر ! ؟ ها ... حرية الفكر ؟ ! هذا الدماغ الفارغ العاجز يجب أن يكون حر التفكير ؟ ! أسمعت ؟ ! أليست هذه خرافة ؟ أللص ! لقد سلبنى لبي وسرق منى عقيدتى وإسلامى لله ! ثم أى جدوى عادت على ؟ ماذا كان الثمن الذى اقتضيته حينما خسرت حسن اعتقادى ؟ ! لاشىء !

« لقد اشتد البرد أيها السادة ، والريح يا رفاق ريح صر ، أفلا تشربون كأساً ؟ ! إن بالقارورة الصفراء ذات الأعنة ، ما يكفينا جميعاً ... ألا تشربون ؟ !

« هلم نشرب نخب هذا الجبار الثاوى هنا

« إنى لا أحبه ... بل ... إنى أمقته

« إنه ميت ... لقد انتهى فيما كان يزعم ... لن تقوم له قيامة بعد اليوم الملحد الكافر ... أوه ! مالى أسبه وقد كنت أحبه ؟ ! إنه كل شىء لى فى هـذه الحياة ! إنه كأى جزء من جسمانى عزيز عليّ ! آه ! لن أراه بعد اليوم !

« لقد قال الأطباء إنى سأموت قريباً بسبب إدمانى ، ولذا أتيت إلى قبره أودعه ، إذ ينبغى أن نصفح عن أعدائنا وأن نغفر لهم خطاياهم ! ألسنا سائرين فى دربهم الأبدى ؟

* * *

وهنا بدا لنا المثل فى مسوح ملك الموت ففزعنا ، وتركناه يناجى موسخين ، وسرنا فى طريقنا السادر الوحش مدبرين ! وظلّنا رذاذ خفيف حلو فأنعش نفوسنا التى وجمت منذ حين

وعند المنعطف الذى يؤدى إلى المدينة حيث تنتثر الحصباء الناصعة كالدر فوق الأرض المرصعة بالبَرَد ، لقينا جنازة مقبلة .. جنازة صغيرة متواضعة ... أربعة أشخاص لاغير يحملون نعشاً حزيناً ... عاطلا !

وكان الظلام قد نشر فوق الكون طيلسانه ، فأخذ حاملو النعش يهرولون بحماهم وهم يتزلجون ويتخلجون ، والآلة الحدباء تتأرجح فوق أكتافهم ذات اليمين وذات الشمال

« يا رفاق ! ما هـذه الدنيا ؟ إننا لم نمكث هنا غير ساعة أو ساعتين ، وهذا هو الميت الرابع ! ... هلموا بنا ... »

دريني خشبة

(١) هبره : قطعه ومزقه



الذكرى المئوية لمستشرق كبير

أقام مجمع العلوم والآداب فى باريس احتفالاً مهيباً فى يوم ٢٦ فبراير المنصرم لمناسبة الذكرى المئوية لوفاة العلامة سيلفستر دى ساسى المستشرق المشهور بين أهل الفكر فى الشرق والغرب، والذى كان سكرتيراً دائماً لهذا المجمع، وقد افتتح الاحتفال رئيس المجمع بخطاب شامل عن المستشرق المظيم قال فيه: إن سيلفستر ولد فى ٢١ سبتمبر من سنة ١٧٥٨ فى أسرة فقيرة لاطائل لها من نشب أونسب، إذ كان أبوه جان سيلفستر مسجل عقود، أماصاحب الترجمة واسمه الأصلى أنطون إيزاك فإنه لم يسافر فى حياته إلا مرة واحدة، إذ ذهب إلى جنوى للبحث عن مخطوطات شرقية، وكان يقضى وقته فى العاصمة متنقلاً من معهد إلى معهد، ومن مكتبة إلى مكتبة، فهذا الرجل الذى أطلع الغرب على أسرار الشرق لم يذهب قط إلى الشرق، وإنما تلقى معلوماته من المخطوطات النادرة، وتلقف الأخبار التى كان ينقلها إليه تلاميذه وأصدقاؤه

ولقد حذق سيلفستر العربية كما عالج العبرية والسريانية، ولقد انتهج فى دراسة العربية نهجاً مهلاً يتفق من الوجهة المنطقية مع الأساليب الفرنسية ووضع كتاباً على هذا النهج لتدريس العربية فى مدرسة اللغات الشرقية فوفق كل التوفيق. وقد كان ينشر في جريدة العلماء، والمجلة الأسيوية، وجريدة دائرة المعارف، كل مجهوده فى دراسة الأدب العربى وحضارة الشعوب الإسلامية، وإخراج المخطوطات النادرة، وكان فى جملة ما عنى به من كتب الأدب العربى «مقامات الحريرى» فنشرها كلها شرحاً ومتناً، وهو أول من نشر كتاب «كليلة ودمنة» لابن المقفع، وصدره بدراسة وافية فى أصل الكتاب وتاريخه وترجمته.

ثم قال رئيس المجمع: «لقد كان سيلفستر ممثلاً لضمير الشرق الحى المنبعث بين الغربيين، وقد كانوا يعدونه بعد وفاة العلامة كونياى أكبر عالم فى فرنسا ولم يأت بعده من يماثله فى التفوق بالعلم إلا العلامة باستور الكبير»

دار الكتب فى عهد جديد

دار الكتب المصرية في حاجة إلى إصلاح شامل ونهضة قويمة طالما نادى بها الأدباء والمفكرون فى مصر، وقد لمس هذه الحاجة الماسة معالى وزير المعارف فاجتمع بمجلس الدار الأعلى الذي يتولى رياسته، وقد بحث فى طرق الإصلاح اللازمة، فوافق المجلس على تأليف لجان كل لجنة تتولى ناحية من نواحى الإصلاح والنهوض، فلجنة لدراسة الميزانية واقتراح سياسة إنشائية عامة لرفع مستوى الدار حتى تتمشى والتقدم الحديث الذى يشمل كل مرافق البلاد، ولجنة مهمتها دراسة موضوع إحياء الأدب العربى وبعث المخطوطات المطمورة النافعة الجديرة بالبعث والإحياء، ولجنة تقوم بوضع تشريع لحماية المخطوطات النادرة على نمط التشريع الخاص المعمول به فى حماية الآثار المصرية، على أن تقدم هذه اللجان تقاريرها فى أجل لا تتجاوز غايته ستة أسابيع

ونحن نرجو نهضة موفقة لدار الكتب على يدى معالى الوزير المصلح بهى الدين بركات باشا فتتسع خطواتها فى خدمة الأدب والثقافة فى مصر والشرق

محاضرة عن الدستور الانجليزى

قام الاتحاد الانجليزى المصرى بتنظيم سلسلة من المحاضرات الدستورية، وقد ألقى المحاضرة الأولى من هذه السلسلة حضرة الأستاذ ا. الكسندر المحامى بالقاهرة فى قاعة جمعية علم الحشرات الملكية، وقد كان موضوع هذه المحاضرة الدستور الإنجليزي وقد ابتدأ المحاضر القول بكلمة عن الدساتير عامة، فقال: إن

الدستور أداة صالحة في أيدي الرجال المصلحين كما أنه أداة فاسدة في أيدي المفسدين، وإن الحكومات الدستورية في مصر ستمر حتماً بهذه التجارب، وستجتاز كل هذه الأطوار، كما وقع لكل حكومات الأمم الدستورية العريقة؛ ثم استطرد في الحديث عن الدستور المصري وتكلم عن العلاقة بينه وبين الدستور الانجليزي ثم قال: إن هذا الدستور المصري الشاب قد أصبح موضع إعجاب المفكرين والمشرّعين في العصر الحديث

وقد توسع الأستاذ في الحديث عن الدستور الإنجليزي، فأبان كيف بلغ قوته العظيمة دون أن يكون دستوراً مكتوباً، ثم قال: إن موضع الإعجاب الحقيقي بالدستور الإنجليزي هو مبادئ الحكم الوطيدة التي يدعمها ذلك الدستور، ويرعاها في نزاهة وحكمة وتقدير صحيح

جوائز أدبية بمناسبة الزفاف الملكي

أقامت اللجنة الأهلية الأدبية في الأسبوع الماضي حفلاً بدار الاتحاد النسائي لتوزيع الجوائز على الفائزين في المباراة الأدبية التي أقامت مهرجانها بدار الأوبرا الملكية أيام الزفاف، وقد حضر الحفل كثير من وجوه الفضل والأدب، وقد وزعت الجوائز على اعتبار أن قصائد الأساتذة فوق المباراة، وقد نال الأنواط الذهبية من الطلبة الأديب عبد العظيم بدوي بدار العلوم والأديب حسن جاد بكلية اللغة العربية، والأديب محمد علي الشلق من أدباء لبنان، كما نال كثير من الطلبة أنواطاً أخرى فضية وبرنزية

حول قصة سابور وقيصر

نشرت الرسالة في عددها الماضي (رقم ٢٤٤) كلمة بتوقيع قارئ ذكر فيها أنه جاء في مقالي «بين تيمورلنك وبايزيد» (المنشور في عدد ٢٤٢) أن تيمورلنك وضع بايزيد بعد أسره في قفص من حديد كما فعل قيصر مع سابور ملك الفرس، وافترض «قارئ» أن في ذلك خطأ تاريخياً شاء أن يحمل نفسه مؤونة الرد عليه

وعرض الأمر على هذه الصورة بعيد عن الحقيقة أيما بعد، فلم أقل في مقالي ما زعم «قارئ» أنني قلت به وكل ما هنالك أنني ذكرت في معرض النقل عن ابن عربشاه مؤرخ تيمور مانصه: «وهنا تعرض أغرب صفحة في تلك المأساة الشهيرة فان ابن عربشاه مؤرخ تيمور يقول لنا إن الفاتح التتري سجن بايزيد في قفص من الحديد كما فعل قيصر مع سابور ملك فارس» (عجائب المقدور ص ١٣٩)؛ فهذه كلمات ابن عربشاه بنصها لم أشأ أن أعرض لها بإثبات أو نفي لأنها لم تكن مقصودة لذاتها؛ وهذا ما كان حرياً بكاتب الكلمة أن يذكره، ولكنه أغفل ذكره، وشاء أن ينسب القول إلي لحكمة لم أفهمها

على أني أزيد أيضاً أن ابن عربشاه لم يكن مخطئاً في إشارته، وأن «قارئاً» خلط بين واقعة تاريخية وبين أسطورة، فقصة سابور ملك الفرس مع الامبراطور ڤاليريان قيصر الرومان لا الروم (وهذا تفريق تاريخي لابد منه) وانتصار سابور عليه على مقربة من حصن «الرها» القديم (سنة ٢٦٠ م) وأسره حتى وفاته، أشهر من أن يخطئ في نقلها أو ذكرها أحد؛ وهذا ما لم يقصد ابن عربشاه أن يشير إليه، وإنما قصد الإشارة إلى أسطورة تاريخية مشهورة أخرى ينسب وقوعها إلى ما بعد ذلك بنحو أربعين عاماً، وخلاصتها أن الامبراطور جاليريوس ڤاليريوس (وليس ڤاليريان) حينما انتصر على الفرس في جبال أرمينية (سنة ٢٩٧م) أسر ملكاً أو أميراً من أمراء الفرس يدعى سابور ووضعه في جلد بقرة؛ أو على قول بعضهم في قفص من الحديد؛ وتنسب بعض الروايات هذه الواقعة إلى الامبراطور مكسميان؛ بيد أنها تعتبر كلها في عرف التاريخ أسطورة لا سند لها (راجع أدوارد جيبون — Roman Empire — الفصل الخامس والستين والهوامش)

وإذا كان «قارئ» ينشد الحقيقة فإنا ننشدها جميعاً بيد أنه يحسن دائماً أن توضع الحقائق موضعها وفي مناسباتها الصحيحة

محمد عبد الله عنان

تبسيط النحو والصرف

أصدر معالي وزير المعارف قراراً وزارياً بإنشاء لجنة لتبسيط النحو والصرف والبلاغة ومهد القرار لتأليفها بما يلي:

بما أن الوزارة سبق لها أن عملت على تبسيط قواعد النحو والصرف والبلاغة فيما أخرجت من الكتب، وكان لهذا العمل نتيجة مرضية

وبما أن هذه الخطوة التي خطتها الوزارة في الماضي لم تكن كافية، إذ لوحظ أن صعوبة قواعد النحو والصرف والبلاغة لا تزال قائمة، وأن المعلمين والمتعلمين يبذلون جهداً كبيراً ووقتاً

طويلاً فى تعليمها وتعلمها ، ولا يصلون بعد هذا كله إلى نتائج تتفق مع ما يصرف من زمن وجهد

وبما أننا نرى تشكيل لجنة مهمتها البحث فى تيسير قواعد النحو والصرف والبلاغة ، وتتقدم باقتراحاتها فى هذا الشأن مبينة مشروع التبسيط الجديد ، والأسس التى تشير بوضع قواعد النحو والصرف عليها ، على ألا يمس أصول اللغة العربية ، ولا شكلاً من أشكال الإعراب والتصريف ، وكذلك تبين اللجنة ما تراه من التغيير فى طرق تدريس علوم البلاغة وتبويبها

أما اللجنة فتؤلف من الأساتذة : عميد كلية الآداب ، والأستاذ أحمد أمين الأستاذ بها ، والأستاذ على الجارم بك مفتش أول اللغة العربية ، والأستاذ محمد أبو بكر إبراهيم المفتش بالوزارة ، والأستاذ إبراهيم مصطفى الأستاذ المساعد بكلية الآداب ، والأستاذ عبد المجيد الشافعى الأستاذ بدار العلوم

وقد حدد القرار مدة لا تتجاوز الشهرين تعرض اللجنة بعدها نتيجة عملها على الجمهور لتتبين الوزارة الآراء التى يبديها فيها المثقفون فى مصر وغيرها من البلاد العربية

مجلة رسمية للتربية والتعليم

أصدر معالى وزير المعارف قراراً بانشاء لجنة تضع نظاماً لإصدار مجلة فى التربية والتعليم ، وفيما يلى نصه بعد الديباجة :

نظراً لأن المصلحة تقتضى التعجيل في العمل على تحقيق التعاون الفكرى المنظم بين المشتغلين بأمور التربية والتعليم من طريق البحث فى كل ما يتصل بهما من الموضوعات وتهيئة الفرص والوسائل لكل قادر على البحث فى هذه المسائل أن يظهر ما يستطيعه من جهد فى هذا السبيل

وبما أننا نرى — تحقيقاً لهذا الغرض — أن تصدر وزارة المعارف مجلة تبحث فى شئون التربية والتعليم وتنشر فيها آراء الخبراء والفنيين فى هذه الشؤون وتمد رجال التعليم بنتائج الأبحاث الجديدة فيها ، وتذاع بواسطتها مشروعات الوزارة الفنية مما يساعد على إنهاض التعليم ونشر وسائل الإصلاح فى معاهده المختلفة . لذلك قرر :

المادة الأولى — تصدر وزارة المعارف العمومية مجلة للتربية والتعليم لتحقيق الأغراض المشار إليها فى ديباجة هذا القرار

المادة الثانية — تؤلف لجنة من وكيل الوزارة رئيساً ، ووكيل الوزارة المساعد والسكرتير العام للوزارة والأستاذ أحمد أمين الأستاذ بكلية الآداب ، والأستاذ إسماعيل القبانى ناظر مدرسة فاروق الأول والأستاذ عبد العزيز القوصى المدرس بمعهد التربية أعضاء

وتقوم هذه اللجنة باقتراح نظام لهذه المجلة من ناحية تحريرها وماليتها وإدارتها على أن تقدم اقتراحاتها فى مدة لا تتجاوز شهراً

اضطراب فى نسبة بيت شعرى

جاء فى شواهد تلخيص المفتاح للخطيب القزوينى عند الكلام على تنكير المسند إليه هذا البيت :

له حاجبٌ عن كل أمر يشينه وليس له عن طالب العرفِ حاجب

وقد نسب هذا البيت فى مفتاح العلوم للسكاكي إلى ابن أبي السمط ، وتبعه فى هذا الخطيب القزوينى فى الايضاح ، وكذا تقى الدين السبكى فى عروس الأفراح فقال : ومثل فى الايضاح للتعظيم والتحقير بقول ابن أبي السمط وهو مروان بن أبي حفصة ، وذكر البيت ، وكذلك صاحب معاهد التنصيص فى شرح شواهد التلخيص ، ولكنه حينما أراد أن يذكر ترجمته على عادته فى شرح هذه الشواهد قال : وابن أبى السمط اسمه ... وقطع الكلام فلم يتمه ، والظاهر أنه توقف فيه ومات قبل أن يصل إلى معرفة اسمه . وقد تبعهم العلامة الدسوقى فى حاشيته على شرح السعد ، ثم قال : وهو من قصيدة من الطويل ، وقبل هذا البيت :

فتًى لا يبالى المدلجون بناره إلى بابه ألا تضىء الكواكبُ

يصمُّ عن الفحشاء حتى كأنه إذا ذكرت فى مجلس القوم غائب

وقد ذكر الأستاذ الجليل الشيخ أحمد المراغى فى كتابه «علوم البلاغة» أن هذا البيت لمروان بن أبى حفصة ، ولم يقل إنه لابن أبى السمط

فاذا صح أن هذا البيت لمروان ابن أبى حفصة فانه كان يكنى أبا السمط لا ابن أبى السمط ، وكذلك كان يكنى حفيده مروان الأصغر ، وهو مروان بن أبى الجنوب بن مروان بن أبى حفصة فكانت كنيته أبا السمط أيضاً ، وعلى هذا يكون فى نسبة ذلك البيت لابن أبى السمط تحريف بزيادة لفظ ابن ، وقد أردت قبل القطع بهذا الحكم أن أرجع إلى قراء مجلة الرسالة الغراء ، فلعل عندهم فى هذا علم ما لم أعلم

عبد المتعال الصعيدى

الآداب أم العلوم ؟ أيهما سبق ؟

أذاع فى هـذا الموضوع من محطة لندن الدكتور ل . ب . جاكس فى فبراير الماضى. وهو موضوع طريف حبذا لو ساجل فيه أدباؤنا ، لأنه يستوعب مدنيتنا الحاضرة ، ويعرض لدقائقها بالتفصيل . وقد قسم الدكتور جاكس العلوم فجعلها شعبتين ، شعبة تتعلق بالإنسان فتتناول علم الأجناس وعلم النفس وعلم وظائف الأعضاء والاجتماع والدين وعلم الدول والأخلاق ... الخ . وشعبة تتعلق بالمـادة فتتناول البخار والكهرباء واللاسلكى والديناميت والريون (الحرير الصناعى) والأصـباغ والغازات والفلك وعلم طبقات الأرض ... الخ

ثم عرض الدكتور للعلاقة بين كل من العلوم والآداب وكيف يخلط الناس بين فروعهما فيجعلون الفلسفة والأخلاق وعلوم النفس والدين فروعاً من الآداب ، وينكر ذلك العلماء فيجعلونها علماً خالصاً

ويحل الاشكال فيرمز للعلوم بفرنسيس بيكون وللآداب بمعاصره العظيم وليم شاكسبير ، فأيهما سبق ؟ لا شك أن شاكسبير أعظم من معاصره بيكون ... ولـكن الدنيا سارت فى طريق بيكون ولم تسر فى طريق شاكسبير ... وهذا حق ، ولـكن ماذا أصابت الدنيا من اتجاهها ذاك ؟ هل أصابت الخير حين اتبعت وصية بيكون فى وجوب اتخاذ التجربة فى العلوم وإهمال المنطق ، أم أصابت الشر المستطير بمـا أغرته التجربة من هذا التقدم العلمى الباهر ؟ !

ومسألة أخرى ، ماذا لو أن الدنيا سارت فى طريق شاكسبير وأهملت طريق بيكون ؟ أليس طريق شاكسبير هو طريق الفضيلة ؟ ألم يكن شاكسبير ينشد الطوبى وأن يكون فى الأرض ملائـكة ؟ أفليس إلا العلوم تصل بالناس إلى هذا الأفق الأعلى ؟

هذا موضوع طريف حبـذا لو ساجل أدباؤنا (وعلماؤنا طبعاً !) فيه

الشرقيون وتعلقهم بالدين

طاف المستر روم لاندو فى ممالك الشرق الأدنى فزار مصر وفلسطين وسوريا وتركيا واليونان وبلغاريا والعراق والحجاز واليمن ثم عاد إلى انجلترا حيث أصدر كتابه الطريف (البحث عن الغد) Search For Tomorrow تناول فيه الأحوال الدينية فى الشرق .

وقد قابل فى مصر أحمد حسنين باشا حينما كان رائداً لحضرة صاحب الجلالة الملك ، والأستاذ الأكبر الشيخ المراغى ، وقد أثنى عليهما ثناء مستطاباً هما له أهل ، فقد استطاعا أن يعطياه فكرة طيبة عن الاسلام والمسلمين ، وعن الروحية القوية بيننا وبين الله سبحانه ، وأكدا له أنه لولا الاسلام لغزت الشيوعية مصر . وقد اقتنع المستر لاندو بهذه الحقيقة ، ولمس بيديه هذا السور المنيع بيننا وبين الفوضى . ومما زاده تحققاً أنه لمس تلك الحقيقة أيضاً فى سائر الممالك الاسلامية التى زارها ، حتى تركيا التى فصلت الدين عن الدولة . وقد أعجب المستر لاندو بمسلمى فلسطين وقرر أن نضالهم ضـد اليهود نضال من النوع الصليبي ، أى أنه للدين وللوطن على السواء . وقـد نعى على اليهود ماديتهم المسترذلة واحتقارهم للروحيات ، وانصرافهم عن معابدهم الجميلة التى أقاموها (للزينة !) فى تل أبيب ، وقد عاب صلفهم كذلك

وقد مدح المؤلف الرئيس أميل إده ، كما أعجب بجلالة الملك ابن السعود ، الذى كان يكلمه بقلبه قبل أن يكلمه بلسانه ... وكذلك أثنى على فضيلة المفتى وعلى بطريق دمشق

ومما عابه على الناس فى اليونان تفشى المعتقدات الوثنية بينهم على رغم تمسكهم بالمسيحية السمحاء وإخلاصهم لها

ترجمة انجليزية علمية للالياذة

عني الأستاذ العلامة الجليل روبنسون سمث بترجمة الإلياذة لهوميروس ترجمة علمية دقيقة بحيث قد ذلل المصطلحات اليونانية القديمة الواردة فى الأصل الإغريقى للملحمة وهى المصطلحات التى يضطر المترجمون الآخرون فى كل لغة أن يغفلوها لعدم فهمهم إياها أو لأنها أصبحت من العبارات البائدة التى يعجز الفيلولوجيون (علماء اللغات) عن فك رموزها . وقد وفق الأستاذ روبنسون إلى ذلك توفيقاً عجيباً ، وأفرد لهذه العبارات مجلداً كبيراً ألحقه بالترجمة التى حرص على أن تشمل الأصل والترجمة الإنجليزية معاً .

وهو عمل شاق يستحق من أجله أكبر الثناء وسينتفع به جميع طلاب الأدب الـكلاسيكى فى كل زمان ومكان ، بل سيصبح جل اعتماد المشتغلين بالأدب الإغريقى على هذه الترجمة الفذة فى كل ما يتعلق بهوميروس



الفصـــــول والغايات

تأليف أبي العلاء المعري

ضبطه وصححه وشرحه وعلق عليه : الأستاذ محمود حسن زناتي

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

هـذا كتاب أنشأه المعرى ، وقد وصفه ياقوت فى معجم الأدباء فقال : «ومن كتبه الـكتاب المعروف بالفصول والغايات ، والمراد بالغايات القوافى ، لأن القافية غاية البيت أى منتهاه ، وهو كتاب موضوع على حروف المعجم ما خلا الألف ، لأن فواصله مبنية على أن يكون ما قبل الحرف المعتمد فيها ألفاً ، ومن المحال أن يجمع بين ألفين ، ولـكن تجىء الهمزة وقبلها ألف مثل العطاء والكساء ، وكذلك الشراب والسراب فى الباء ، ثم على هذا الترتيب ، ولم يعتمد فيه أن تكون الحروف التى يبنى عليها مستوية الاعراب بل تجىء مختلفة

وفى الـكتاب قواف تجىء على نسق واحد ، وليست المطلقة بالغايات ، ومجيئها على حرف واحد مثل أن يقال : عمامها وغلامها وغمامها ، وأمرا وتمرا وما أشبه ، وفيه فنون كثيرة من هـذا النوع ، وقيل إنه بدأ بهذا الـكتاب قبل رحلته إلى بغداد ، وأتمه بعد عوده إلى معرة النعمان ، وهو سبعة أجزاء »

ولـكن هذه الأجزاء السبعة التى ذكرها ياقوت قد استبدت بهـا عوادى الزمن ، ومحن الأيام ، فضاعت فى أجواء العصور الخالية فيما ضاع من تراث المعرى الحافل ، بل من تراث العرب أيام حملة الصليبيين الأولى على الشام وسقوط المعرة فى أيديهم سنة ٤٩٢ هجرية ، وبقى الناس لا يعرفون من الفصول والغايات إلا اسمه ، وإلا هذه الكلمة التى أوردها ياقوت فى وصفه ، وإلا فرية افتراها كاشح ، إذ زعموا أن المعرى قد عارض به القرآن ، وأنه سئل فيه فقال : حتى تصقله الألسنة أربعمائة سنة فى المحاريب .

مكتبة خاصة بجورج برنردشو

ارتفع الأديب الايرلندى العظيم برنردشو إلى مرتبة الخالدين وبلغ إعجاب الـكثيرين به إلى حد الهوَس . ومن الأنباء الأخيرة أن الدكتور أرشيبولد هندرسون ، الأديب الـكبير الذى كتب أول ترجمة لشو ، قد أنشأ مكتبة حافلة كل ما فيها يتعلق بشو . فمن ذلك جميع كتبه ورسائله وإذاعاته ، ودراماته وقصصه ، فى اللغة الانجليزية وفى جميع اللغات التى ترجمت إليها ، ومنها العربية طبعاً ، وكل ما كتب عن شو فى جميع لغات العالم ، فى الـكتب وفى الصحف ، وفى المجلات ، بل وفى المحاضرات ... وكان جل حرص الدكتور هندرسون أن يجمع الطبعات الأولى لـكتب شو ، وإن إحداها اليوم ، ولا سيما القديمة ، لتساوى آلاف الجنيهات ... وبعد أن اجتمع للدكتور من ذلك جميعاً ما يعد تحفة بحق ، أهداه كله حلالاً خالصاً إلى جامعة ييل فى شيكاجو . وقد تصفحنا مجلة ييل Yale University Gazette (المجلد ١٢ — الجزء ٢) فهالنا هذا الثبت الجليل عن شو الذى جمعه كله الدكتور هندرسون

هدية أخرى لجامعة ييل

وقد أهدى المستر جورج . ت . كيتنج إلى جامعة ييل هدية أخرى هى عبارة عن مكتبة حافلة تحوى كل ما كتب الأديب الخالد جوزيف كونراد من قصص ومقالات وحكايات قصيرة ، سواء ما كتب منها بقلم الأديب نفسه وما ترجم من آثاره إلى اللغات الأخرى ، وقد اشترى من أرمل الأديب مخلفات أدبية جليلة القيمة كبيرة القدر يذكرون أنه دفع ثمناً لها آلافاً عديدة من الجنيهات

فهل يفكر أدباؤنا وذوو اليسار فينا فى إهداء آثار أدبائنا إلى الجامعة المصرية ؟ وهل فكرت الجامعة المصرية فى إنشاء متحف لما يصل إليها من هذا السبيل ؟

واقد بقيت التهمة كما هي غير لازبة وغير مردودة ، وكان عذر الأدباء في ذلك أنهم لم يتيسر لهم الاطلاع على هذا الكتاب

وكأن الله قد أراد أن يبرئ ساحة الرجل من هذه التهمة الشنعاء ، وأن يكشف حقيقته وموقفه من جهة الدين بعد أن ظل ذلك غامضاً في القرون الغابرة ، إذ عثر أحد الأدباء على الجزء الأول من هذا الكتاب في دشت اشتراه من وراق بمكة ، وإذا بالكتاب عظة دينية ، قد أنشأه المعرى في « تمجيد الله والمواعظ » ، وإذا به وعاء قد أترعه المعرى بشتى العلوم من اللغة والأدب والعروض والنحو والصرف والأمثال والتاريخ والحديث والفقه والفلك وعلم النجوم ، وغير ذلك مما لم يثبت جمعه ولا إيراده بالطريقة التي سلكها شيخ المعرة . ذلك أنه يملى الفقرة على تلاميذه ثم يختمها بالغاية ، وهي عنده بمنزلة القافية من بيت الشعر . وقد تطول الفقرة وقد تقصر ، ثم يملى التفسير في أعقاب كل فقرة ، وأحسب أن إملاء التفسير كان رغبة من طلابه لتوضيح ما يخفى عليهم فهمه وإدراكه ، لأنه أملى أشياء في الكتاب ولم يفسرها ، وربما كان ذلك لوضوحها لدى طلابه ، فإذا انتهى من التفسير وأراد العودة إلى الاملاء قال « رجع » كأنه يريد نفسه أو يريد رجع إلى الإملاء . والكتاب كله على هذا النسق ، والجزء الذي بين أيدينا منه يبتدئ من أثناء حرف الهمزة وينتهي بحرف الخاء ، يقول ناشره الفاضل : « لقد بحثت عن باقي الكتاب في كل المظان فلم أجد له من أثر »

أما الذي نهض إلى إخراج هذا الأثر النافع فهو أستاذنا الفاضل الشيخ محمود حسن زناتي أمين الخزانة الزكية سابقاً ، فتولى تحقيقه وضبطه وتفسير غريبه وأنفق عليه من جهده وماله وراحته مدى عام كامل حتى جلاه للناس في حوالى خمسمائة صفحة من القطع الكبير في طبع أنيق ومظهر لائق . ولاشك أن الأستاذ الفاضل قد لاقى كثيراً من العناء في عمله ، وأدى في ذلك جهداً ما كان يستطيع أن يؤديه إلا تلميذ الشنقيطي اللغوي والمرصفي الأديب ؛ ذلك لأن لغة المعرى الأدبية لغة غامضة قد تقف المعاجم التي بين أيدينا دون إجلاء غامضها وكشف المعنى المقصود من اللفظ ، وإنما يستطيع كشف ذلك من ارتاض على أساليب المعرى ولغته . ولا شك أيضاً أن الأستاذ الفاضل بهذا العمل الجليل قد خدم الأدب والعربية ، والحقيقة والتاريخ ، إذ كشف للأدباء ناحية من نواحي المعري ظلت مطموسة في القديم والحديث ، وإذ يسر لأهل الضاد الانتفاع بهذا الأثر النافع . وقد كانوا في لهفة شديدة إليه

وحسبنا هذا القدر اليوم إشارة إلى قدر الفصول والغايات ، وإشارة إلى الجهد الذي بذله مصححه الفاضل ، وحسب القارئ أن يطلع على الكتاب حتى يقدر هذا الجهد بنفسه ، أما الكتاب من حيث قيمته الفنية ، ووضعه الأدبي ، ومن حيث هو صورة لنفسية المعرى ورأيه وفكره وفلسفته فسيكون ذلك موضوع مقالات نرجو أن تتسع لها صفحات الرسالة في القريب

محمد فهمي عبد اللطيف

المسرح والسينما

مراقبة الأفلام

عرض فلم «حوادث ١٩٣٨» وقد لاحظت من تفكك هذا الفلم فى بعض أجزائه أن يد الرقيب قد أعملت مقصها فى أكثر من موضع فاستبعدت بعض المشاهد غير اللائقة بالفلم، ونحن نحمد «مراقبة الأشرطة السينمائية» على أن يكون عملها هذا من محققات المراقبة الحاسمة، وإن كنا لا ننسى أن عين الرقيب تغفل — أو كانت تغفل — أحياناً. ونكتفى بأن نذكر دليلنا من فلمين حديثى العرض A Day At، Fifty Roads To Town The Races فقد كان فيهما من المشاهد النابية مالا نود أن يسمح بمثلها فى المستقبل

وقد أصبحت مراقبة الأفلام من الأمور التى تنال من اهتمام الحكومات نصيباً يزداد يوماً بعد يوم تمشيا مع تطور السينما وخطورتها؛ فلو أن المطبعة والاستديو اشتركا فى موضوع واحد لكان فى مقابل كل فرد يقرأ الكتاب عدة مئات يشهدون الفلم. فاذا كانت هناك مراقبة أدبية حازمة على المؤلفات فمن الواجب أن تكون المراقبة أشد حزماً على الأفلام، وبخاصة أن الفلم صور وحديث فأثره أبقى وأوضح من الكتاب المقروء.

ويقيني أنه لو كانت لدينا مثل هذه المراقبة لما انحط مستوى أكثر أفلامنا تبعاً لأسلوبها المبتذل وموضوعاتها الجوفاء

ولقد قيل إن الحكومة كانت تنتوى سن قانون لهذا الغرض، وإنها قد ألفت لجنة في أواخر العام الماضى ظلت تنعقد وتنفض وتفكر وتقترح ثم تنعقد وتنفض، والأمر الذى لم تقترب منه خطوة واحدة هو «التنفيذ»

فإذا تحققت ظنوننا يوماً وقيل إنا بدأنا نعمل، فإني آمل أن تهتدى حكومتنا فى تشريعها لمراقبة الأفلام على ضوء القوانين التى تسنها البلاد الراقية، وفى مقدمتها القانون الانجليزى، لأنه قانون معتدل لا يذهب إلى الجمود ولا ينزلق إلى حد التطرف

فالرقيب الانجليزى يجعل همه أولاً منع الأفلام التى تخدم أهواء السياسة أو الأفكار الخاصة أو المذاهب الخطرة أو التى تتعرض للأديان، وفيما عدا ذلك فإنه يعطي الأفلام إحدى صفات ثلاث:

١ — عام Universal
٢ — للراشدين Adulted
٣ — مرعب Horrible

فأفلام الصفة الأولى هي التى يجوز للأسرة جميعاً مشاهدتها. وأفلام الصفة الثانية المحظورة على الغلمان هى الأفلام الغرامية المبتذلة وأفلام المرايا والأفلام التى تنصر الجريمة والمجرمين

أما الصفة الثالثة الخاصة بالأفلام المرعبة فهى حديثة الإضافة فى المراقبة الانجليزية، وقد عنى بها الرقيب حظر هذا النوع من الأفلام على الأطفال بعد أن تمدد وتنوع ووضح خطره

كما أن هناك أنواعاً أخرى من الأفلام لم يعن بها المشرع الإنجليزى أو الفرنسى أو الأمريكى؛ تلك الأفلام التى تسيء إلى الشرق عامة وإلى مصر خاصة. هذه الأفلام جديرة بأن تكون فى المحل الأول من عناية الرقيب. ولقد عرضت علينا — وا أسفاه — طائفة كبيرة من هذه الأفلام نحسب أن منعها كان أفضل وأبقى على الكرامة وعلى الفائدة المرجوة من السينما

وثمت نوع آخر من الأفلام التى تظهر فيها ضروب من القسوة على الحيوانات تحت ستار الصيد أو القتال أو غير ذلك.

وفى ٩ ابريل الماضى أثار سير روبرت جورر في مجلس العموم البريطانى مناقشة حادة حول فلم «فرقة الإنقاذ» The Charge Of The Light Brigade الذى عرض ولا يزال يعرض بمصر لإظهاره نوعاً من القسوة على الجياد في مشهد هجوم لجأ المخرج فيه إلى حيلة تكسب الفلم صفة الجد فد أسلاكا دقيقة تعلو قليلاً عن سطح الأرض تعثرت بها الجياد عند الهجوم فسقط بعضها جريحاً.

محمد على ناصف


هجوم جنود السواري فى فلم «فرقة الانقاذ» حيث مدت الأسلاك

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧

العدد الهجري

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

عدد ممتاز

العدد ٢٤٦ — ٢١ مارس سنة ١٩٣٨ — السنة السادسة

6 me Année, No. 246

Lundi - 21 - 3 - 1938

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٤٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٩ محرم سنة ١٣٥٧ — ٢١ مارس سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـــرس

العام الهجرى

١٣٥٧



أهلاً هلال المحرم والعالم المسكين يكاد يفلت من قيوده ويتحلل من نظمه؛ فكأنما ارتد إلى عهوده الأولى يترصد الفرائس فى ألفاف الشجر وأجواف الحفر، ويتعقب الطرائد فى بطون الأودية ومخارم الجبال، ثم يشتد عليه سلطان الغرائز المهلكة فيستنشي رَوْح الحياة فلا يجده، ويلتمس ظل الأمان فلا يدركه، ويبتغي عزاء النفس فلا يناله

هذه أوربا العالمة العاملة القوية، قد استحال بنو آدم فيها

إلى هيا كل صناعية ، تتحرك بالبنزين ، وتسير بالقيادة ، وتعمل بالحيلة ، وتهتلك فى السبق ، حتى أوشكت أن تصطدم فتتحطم

أين الروح الذى كان يحييها ؟ وأين النور الذى كان يهديها ؟ رجعا إلى مصدرهما الإلهي فى الشرق يوم تجهمت لحواريى المسيح ، وتنكرت لخلائف محمد ، وبنت الأخلاق على قواعد الاقتصاد ، والديمقراطية على استبداد الأحزاب ، والسلامَ على طغيان القادة . فكان من ذلك تجيعتها الألمية فى سلامها ونظامها وخلقها ، لأن مطامع الاقتصاد لا يقوم عليها خُلق ، ونوازع الأفراد لا يثبت بها نظام ، ونوازى القواد لا يدوم عليها عهد؛ حتى عصبة الأمم التى جمعت فيها أوربا ما بقى لديها من هدى الأنبياء وحكمة الفلاسفة ، دفن أشلاءها هتلر فى النمسا ، بعد ما قطع أوصالها الدتشي فى الحبشة ! ! فخال أوربا اليوم كحال الضوارى الأوابد ، تتباعد بالأثرة ، وتتدانى بالخديعة ، وتتدافع بالقوة؛ ثم أعوزتها الأنياب والأظفار فجعلت مصانع التجار مسالح ، وصهرت أجور العمال أسلحة . وأخذ الساسة والطغاة يتجاوبون بالزئير فوق المنابر ، فملأوا الصدور بالرعب ، وزعزعوا البيوت بالقلق ، وسمموا الحياة بالهمّ ، ونزعوا من قلوب الناس طمأنينة العيش وحرية التصرف ولذة التملك ، فانقلبوا عبيداً مسخرين لهذه النظم الطاغية ، لا يجدون سلاماً فى الأرض ، ولا يعتقدون نعيما فى السماء !

أخطرْ ببالك أم التمدن الحديث ، فهل تجد غير صولة تناهض صولة ، ودولة تبلع دولة ، وأنظمة عراها تغير الإنسان فهى تُحتضَر ، وأخرى هدى إليها الضلال فهى تُنتظر ؛ والشعوب بين أنصار هذه وأنصار تلك مواد تهلك فى التجارب ، وأموال تنفق فى الأهبة ، وأرواح تزهق فى الصراع ، وآمال تذهب مع الريح ؟

دع هذا العالم المجهود البائس وجُل جولة بالفكر فى بلاد العالم الإسلامى ، فهل تجد إلا السلام فى المجتمع ، والوئام فى الأسرة ، والسكينة فى النفس ، والرضا فى العيش ، والثقة فى الحاكم ، والأمل فى الله ؟ ذلك هو الفرق بين نظام يضعه الخالق ونظام يضعه المخلوق . وذلك هو الفرق بين مجتمع يعيش بالروح ، ومجتمع يعيش بالآلة . وذلك هو المفهوم من دين سماه الله الإسلام [1] ، وجعل تحية أهله (السلام) ، وقرن فيه الصلاة دائماً بالسلام ، وعرّف أهله بأنهم (الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً)

ذلك هو معنى الإسلام وذلك هو مبدأه . وتستطيع أنت بأيسر الفهم أن تُرجع أصول الإسلام وفروعه إلى تحقيق هذا المعنى وتطبيق ذلك المبدأ ؛ فالصوم والصلاة سلام الفرد . والحج والزكاة سلام المجتمع ؛ والسنن والأنظمة والآداب التى انشعبت من هذه الأصول دستور ثابت خالد يحقق لهذا الإنسان ، طريد العدوان وعبد الطغيان ، أحاديث أحلامه ، وهواجس أمانيه ، من الأخوّة التى يعم بها النعيم ، والمساواة التى يقوم عليها العدل ، والحرية التى تخصب فيها المدارك ؛ لأنه دستور لم يوحه الجوع ولا الطمع ، وإنما أوحاه الذى خلق الموت والحياة ، وجعل الظلام والنور ، وأوجد الفساد والصلاح ، ليدرأ قوة بقوة ، ويصلح نظاماً بنظام ، وينقذ إنساناً بإنسان

إن الإسلام بشريعته السمحة ، وسياسته الحكيمة ، قد أزال الفروق ، وعدّل المقاييس ، وألّف القلوب بالبر ، وشفى الصدور بالتعاون ، فلا يمكن أن يعيش فى ظله نظام هادم ولا نحلة مفرقة . إفتحوا ثغوره للنظم الحمراء التى تشيع الفزع هنا ، وتثير الحرب هناك ، فسترونها تفد جارفة وفود النسور الخاطفة ، ثم لا تلبث أن تقع من دون ذراه المنيعة ، مهيضة الأجنحة ، ناسلة الريش ، لا تقوى على زفيف ولا حفيف ! وفى تركية الدليل الحاسم ، فإن بينها وبين الشيوعية جواراً وصداقة وعلاقة؛ ومع ذلك لم تستطع الشيوعية — على فجورها وجرأتها — أن تقتحم على الإسلام غِيله .

إن فى الإسلام من ديمقراطيته واشتراكيته وأخوّته مناعة على كل شر ، ومثابة لكل جنس ، ومودة لكل دين . فانتصاره انتصار للعقل ، وانتشاره انتشار للعدل ، وسيادته سيادة للسلام !

احمد حسن الزيات

(١) الاسلام معناه السلام ، ولذلك جعل مقابلا للجهل وهو السفه . ويؤيد هذا المعنى تفسير الرسول (ص) للمسلم بأنه من سلم الناس من لسانه ويده

عبرة الهجرة

لإمام المسلمين الأستاذ الأكبر
الشيخ محمد مصطفى المراغي
شيخ الجامع الأزهر



يذكرنا كر الغداة ومر العشى وما فيهما من نُعمى وبؤسى، وشدة ورخاء، وإقبال وإدبار — تقلبَ الأحوال وتبدلها فى هذه الحياة. ويذكّر كل أحد من الخلق بطىِّ صحيفة من صحف الأجل، وبالخاتمة التى لا معدى عنها، وفي ذلك عبرة. « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب »

ويذكرنا العام الهجرى خاصة بأكبر حادث فى تاريخ الإسلام له أجل الأثر فى انتصاره، وفيه أكمل عبرة:

شريف من أشراف قومه، وقومه من أشرف الأقوام؛ ورجل قوى الخلق، حلو الشمائل، فصيح اللسان، قوى البيان، كامل الإنسانية، مهذب الطبع، رضى النفس، شجاع مؤيد بالوحى الإلـهى وبقوة الحق — ينبو به وطنه ومكان مولده، فيهجر أرضاً حُلت فيها تمائمه، ويفارق دياراً عرفها وعرفته، ومشاهد حلَت لنفسه واتصلت بها، وأهلاً وإخواناً أعزاء

رجل هذه صفاته، وتلك مكانته، يضيق له صدر القوم، ويتنكر له الناس، ويكيدون له حتى يخرجوه! رجل هذه صفاته، يفارق دياره وأهله؛ ولو لم يكن صاحبَ دعوة إلى الحق وإلى غير ما ألفه النـاس وأخذوه عن الآباء والأجداد، لـكان المحبب إلى النفوس، والمرموق بالأبصار، والمفدى بالأهل والولد. لـكن الحق أزعج الباطل فلم يطق صبراً، ودفع أهله إلى قتله أو إخراجه؛ « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين »؛ وغطى على القلوب فأفسد على العقل ملكة التقدير « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا، لو نشاء لقلنا مثل هذا، إن هذا إلا أساطير الأولين »

هذا موضع العبرة

وليس من غرضنا أن نلم بتاريخ الهجرة وما لابسها، فذلك معروف فى السير، كذلك ما لاقاه النبى صلى الله عليه وسلم، وما أصاب صحبه المتقين من جهـد البلاء، وجهل الجهلاء، وكيد الـكائدين، لا يغيب أكثره عن أكثر المسلمين

***

الأجسام الإنسانية معرضة للأمراض كسائر الـكائنات الحية؛ وقد تعطل الأمراض وظائف الأعضاء أو تضعضعها. ومن الأمراض ما هو خاص ببعض البلاد أو بعض البيئات. وحال النفوس الإنسانية لا يختلف عن الجسوم: تصاب بالجهل، وبالعناد، وبالغرور، وبالحرص على لذات الدنيا من مال وثراء وجاه وعزة، وبالحقـد على أصحاب النعم موروثة ومكتسبة، وبحب الانتقام والإسراف فيه، وبحب ما هو موروث عن الآباء والأجداد من مال وعقار وصفات وخلال وعقائد وتقاليد

مثل هذه النفوس المريضة لا يسهل تحولها من الشر إلى الخير، ولا يسهل قبولها الحق وهى بحاجة إلى داع قوى بصبره، قوى بحجته، فيه من المناعة الخلقية ما يقوى به على احتمال الأذى والمكروه فى نفسه وذويه، وعلى احتمال ما يرى به مما يستفز الحليم، ويستنفد صبر الـكريم، ويعجب له الرجل العادي، ويعده ضعيفُ الطبع شذوذاً وخروجاً عن المألوف. تجمعت هذه الأمراض فى قريش فاستعصى العلاج وتحير الحق، ولم يكن أمامه إلا أن يخلد إلى الذلة والاستكانة، أو يفر بنفسه من عنت الباطل إلى أن يجد السبيل ويعد العدة لمنازلته؛ فليست هذه البيئة مما ينفذ إليها ضياء الحق بالدليل والحجة، بل هي فى حاجة إلى السيف يضرب الرقاب ويفلق الهام، وإلى أسنة الرماح تصل إلى القلوب فتشعرها بوجوب التنبه والإصغاء إلى صوت الحق. تلك أسباب الهجرة. وقد ترك النبي صلى الله عليه وسلم هذه البيئة الموبوءة خوف أن يختنق الحق

فى مهده ، ورجاء أن يجدله متنفساً فى أرض حرة تحضنه ، وأن يجد له قوة تمينه ، حتى يحين الأجل المضروب ، ولكل أجل كتاب

هاجر وتم له ما أراد ، إذ فتح الله له فتحاً مبينا وأعز دينه وأعلى كلمته ونصر جنده ، ودانت له تلك القبائل التى ناصبته العداء ، ولم يرض إلا بعد أن رضى الحق وانتصر ، وبعد أن انتصرغفر . فهو خادم الحق وأمينه ، وناصره ومعينه ، لا يرى أن نفسه له ، ولا أن أهله له ، ولا أن شيئاً فى الحياة له ، بل كل شيء عنده وفى مقدوره للحق وفى سبيل الحق . ولم يكن السيف فى يده إلا مشرط الجراح يبتر به ما فسد من الأعضاء ، ولم تكن الأسنة إلا الإبر التى يبزل بها الطبيب مكان الداء ليخرج أذاه . وليس بدعاً من الحوادث حادث الهجرة وما لابسه إذا عُرض على مقاييس العقول واعتبر الناس بسنن الاجتماع وهديه . ولا تزال هذه السنن مستمرة فى هذه الحياة ؛ ولا زالت تعمل عملها وتحدث أثرها . والعاقل من يعتبر . « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين »

وقد سار النبى صلى الله عليه وسلم على هذه السنن ، وامتاز بأكمل ما امتازبه الأنبياء وكبار الدعاة إلى الحق من اليقظة والحكمة ، وتخير الأوقات والأمكنة ، واختيار الأصحاب والأنصار . ولم ير الاكتفاء بالحجة والبرهان فى مواضع لاتنفع فيها الحجة ولا يقنع البرهان ، بل أعمل الحيلة وأدار الرأى وطلب القوة فى مظانها . لذلك كانت الهجرة ، وبذلك أدرك ما أراد . فظهر الإسلام وبسط ظله على أمم قوية كثيرة العدد والعُدد ، وحوّل أولئك الأميين إلى أئمة هدى وولاة عدل وفقهاء نفس وساسة يفخر التاريخ بهم ، وعلماء تروى آثارهم ويتحدث الناس بطيب أخبارهم ، وأساة للإنسانية وجروحها تتفجر منهم ينابيع الرحمة ويضعون نظم الإصلاح وقواعد الاجتماع . رفعوا قدر العلم بعد أن أنكروه ، وجعلوا العقل هادياً ومرشداً ، والقرآن إماماً . لم يخونوا أمانات الله ورسوله فأحياهم الله حياة طيبة ، وأعدّ لهم مكان صدق عند مليك مقتدر

« يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون . يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون »

محمد مصطفى المراغى

البحث عن غد

للأستاذ عباس محمود العقاد



الغربيون اليوم معنيون بالبحث فى مسائل الشرق من جوانبه كافة : من جانب السياسة ، لأن نهضة شعوبه تضطرهم إلى حسبان حسابه والعدول عن خطة استغلاله والسيطرة عليه ؛ ومن جانب الدين ، لأنهم حائرون فى شئونهم الروحية يلتمسون الهداية من مهبط الأديان ، أو يقابلون بين سلطان الدين عليه وسلطان الآراء الحديثة عليهم ؛ ومن جانب التجارة ، لأن العلاقات التجارية بين الدول الكبرى لا تستغنى عن أسواق الشرق ومنابع الثروة فيه ؛ ومن جانب السياحة والرحلة واستكشاف مواقع التاريخ القديم ، وكل جانب تتحول إليه عناية الباحثين فى مسألة عامة

ومن الباحثين الصحفيين المشغوفين بالمسائل الروحية « روم لاندو » صاحب كتاب « الله محجة مغامراتى » ، وصاحب هذا الكتاب الذى عنوانه « البحث عن غد » ، وموضوعه استطلاع أحوال الشرق القريب من جانب الدين والنهضة النفسية إن صح أن نطلق عليها هذا الاسم تمييزاً لها من النهضة العلمية البحت والنهضة الصناعية الاجتماعية التى تقابل نظيرتها فى الأقطار الغربية

حضر إلى مصر وتحدث فيها إلى رجالات الفكر والسياسة ولخص هذه الأحاديث فى كتابه ، وسنعرض لها جميعاً ، ونبدأ بنقل حديثه مع رئيسى الجامعتين الأزهرية والمصرية ، حيث قال بعد تمهيد طويل للحديث مع صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ

(1) Search for Tomorrow, by Rom Landau

مصطفى المراغى وقد زاره فى بيته بحلوان :

« سألنى : هل تبحث عن المسائل الدينية أو مسائل ما وراء الطبيعة ؟ ولما كان الفارق بين هذه وتلك ليس بالفارق المظيم فى نظرى أجبته بشئ من الروغان : كلاهما ؛ إلا أننى أشد عناية بما وراء الطبيعة

فقال الشيخ العلامة : قليلة المحصول ، قليلة المحصول جداً

وكانت لهذه الكلمة دلالتها ، لأنها تشير إلى طبيعة الإسلام العملية كما تمثلت فى أكبر رعاته بين المصريين

ومع علمى ببعض العلم بأساليب المناقشة الشرقية لاحظت على الأستاذ المراغى أنه يتنحى عن الجواب فى كثير من الأحيان ، وأن أسلوبه أسلوب رجال السياسة ؛ وناهيك بهم إذ يكونون شرقيين مع ذلك ، وعلى خبرة بالمواقف المعضلة ، وحرص من التورط فى التصريح ، فهو فى البيئة الغالبة على فقهاء الإسلام لامراء

وعدت أقول : لقد سمعت أن الشبان عندكم يجنحون إلى نزعات « التفكير الحر » ويحاولون أن يزيدوا القرابة بين الدين والعلم . فهل صحيح ما سمعت ؟

فقال الشيخ : « لا أظن الشبان المصريين أقل تديناً اليوم من أمس ؛ إذ ليس فى القرآن ما يعارض الحقائق العلمية ، ولا تناقض بينهما فى شئ

وأردت أن أخوض فيما هو أصرح وأجرأ مما تقدم فسألت : ألا ترى أن العنصر الروحى — أو الغيبي المتصل بما وراء الطبيعة — هو أهم العناصر فى الديانات ؟

قال الشيخ فى سكينة ولطف : من ذا الذى يعلم كنه الله وكنه الروح ؟ إن بعض أساتذتنا يتحدثون عن المادة كأنها حقيقة ، وبعضهم يتحدثون عنها كأنها وهم أو فرض مفروض ؛ وليس من يعلم الصواب علم اليقين ، فإن القرآن لا يفصل بين القولين ، ولكنه يحكم حكمه فى أمور شتى كأمور الزواج والمواريث والمعاملات

فسألته : وماذا تقولون فى قبول العلماء لنظرية قدم المادة ؟

ولا ريب أن الأستاذ المراغى لم يكن يتوقع قط أننى علمت شيئاً عن هذه القضية ، إلا أنه لم يظهر الدهشة ، ولم يبد عليه إلا قليل من مفارقة السكينة التى لزمته حتى الساعة كأنها قناع لإخفاء ماوراءها من قلة الاكتراث . فقد انبعثت الحياة من خلالها وقال:

« إنك لم تقع على الخبر الصحيح فى هذه القضية ، فليس هناك إلا أن عالماً كتب رسالته فى علم الأصول ليعبر فيها عن رأيه وما انتهى إليه اجتهاده »

فبادرت قائلاً : ألم يكن صاحب الفضيلة وأعوانه من العلماء مرجع الامتحان فى هذه القضية ؟

فابتسم الشيخ المراغى وهو يقول : « إن رأياً كهذا قد كان يحسب من الزندقة قبل خمسين سنة ، وما كان أحد ليجسر على تقديمه فى جامعة إسلامية . فما أعظم التغير فى أطوار الزمان ! نحن اليوم أدنى إلى الحرية والسماحة »

واستطرد الكاتب إلى أسئلة وأجوبة من هذا القبيل ، انتهى منها إلى المذاهب الاجتماعية والشطط فى الدعوات الفكرية ، وسجل رأى الشيخ الأكبر أن الوقاية من جميع ذلك إنما هى الدين وتعليم الإسلام على أصوله

* * *

أما حديثه مع صاحب المعالى أحمد لطفى السيد باشا فقد مهد له بوصف الأستاذ وملابسه الإفرنجية الأنيقة ومعيشته المصرية ، ثم استهله بهذا السؤال :

« ما هى أكبر رسالة ثقافية قامت مصر بأدائها فى رأيكم خلال القرون الأربعة التى خضعت فيها للحكومة التركية ؟ »

فأجاب وأصابعه النحيلة تعبث بحبات المسبحة العاجية :

« إنما هي عمل الجامع الأزهر فى جميع الكتب الفقهية »

فقلت : ألا ترون أن حصر رسالة ثقافية تؤديها الأمة فى عمل واحد لا يتجاوز جمع الموضوعات الفقهية خليق أن يشير إلى شيء من ضيق النطاق ؟

فرفع لطفى باشا حاجبيه هنيهة واضطرنى بذلك أن أعقب على ما أسلفت مستدركا :

« إن كثيراً من الغربيين يزعمون أن تفكير العرب تفكير « تجريدى » ... فإذا كانت العبقرية القومية لا تخرج فى مدى القرون الأربعة ثمرات ثقافية غير الفقه والشريعة فهذا الزعم ليس بالمخالف كل المخالفة للإنصاف فيما يلوح لأول نظرة »

فسألنى : ماذا تعنى بالتفكير التجريدى ؟

قلت : إن التفكير الانجليزى مثلاً واقعى مجار للحوادث ، لأنه يتناول كل حادثة كما تعرض فى حينها ، وهو من ثم نقيض

الفروض النظرية والمباحث الجدلية . أما تفكير العرب فهو رهن بالقواعد المرسومة والنظريات المعلومة ؛ ويلوح عليه أنه شبيه بهندسة البناء العربية ، لا يحتوى صورة من صورة الحياة الماثلة فى بنية الإنسان وملامح وجهه ، وكل ما فيه هندسة وتناسق خطوط ... »

قال لطفى باشا وهو يشفع كلامه بابتسامة معتذرة :

« آسف لأننى لا أستطيع مجاراتك فى حكمك . فالذى يبدو لى أن الفكر العربى أشد إيغالاً فى الواقعيات من الفكر الأوربى . وهـذه شريعتنا الدينية التى استشهدت بها على نزعته التجريدية تتناول شؤون الحياة اليومية ولا تقتصر على مسائل اللاهوت والأخلاق كما هو الحال فى الشريعة المسيحية ؛ وهى تفيض بالوصايا فى أمور المعيشة والزواج والميراث وما شا كل ذلك . وأحسب أننا أقرب إلى معرفة الحقيقة حين ندرس « مخيلة » الأمة كما تتمثل فى دياناتها . فكيف ترى « المخيلة المسيحية » تتصور السماء والفردوس ؟ إن سماء المسيحيين هي نعيم غير ذى أشكال ، أو هى شىء لا يسمك أن تراه ولا تقع عليه العيون ، بل شىء لا يسمك أن تحيط به فى الخيال . أما المسلمون فكيف تراهم يتخيلون السماء ؟ إنهـا دار حقيقية فيها اللبن والعسل والمسجد ، وفيها الأزهار والأشجار والحور العين ، وهى كلها حقائق ومشاهدات ... أفليس هناك معنى ملحوظ لاتفاق المخيلة الدينية بين المسيحيين والمسلمين فى «ميدان سلبي» حين يتكلمون عن الجحيم؟ ففى هذا الميدان ترسم المسيحية نفسها صورة مشهودة هى صورة النيران والنفط الغالى وعذاب الأجساد

قال الكاتب : فأحجمت عن الجهر بملاحظة سنحت لى تلك اللحظة ، وفحواها أن المبالغة فى تمثيل الخيال تقترن عادة بالقصور فى ملكة البناء والانشاء الواقعية ، وآثرت أن أسأل :

ألا تزال الديانة قوة فعالة في الحياة المصرية ؟

فأجابنى الباشا : « فعالة على الأرجح فى عالم الاسلام أعظم من فعلها فى عالم المسيحية ، لأن شرائعنا كلها قائمة على القرآن ؛ ومن العسير فى البلاد الاسلامية أن تفصل بين الدين والحياة اليومية »

قلت : على أننى قد أخبرت أن الشبان المصريين يهجرون عقائد آبائهم جنوحاً منهم إلى البدع الغربية

قال : أعجب لو صح ذلك ... فلعلهم لا يغشون المساجد ولا يشهدون صلوات الجمع ، ولكنهم على الجملة متدينون ، وربما كان منهم أناس من الدارسين للفلاسفة الغربيين قد ألحدوا فى الدين إلا أنهم شذوذ قليل

فسألته : أيعنى المصريون عناية ما بما وراء الطبيعة أو بالأسرار الخفية والسبحات الصوفية ؟

قال : « ذلك نادر فى « فلسفتنا الحاضرة » . غير أن فلسفتنا وأدبنا لا يزالان فى مفتتح الحياة ؛ وينبغى ألا تنسى أن أربعة قرون من الحكم التركى قد عطلت ثقافتنا وتركتنا نحاول من جديد

فانتقلت إلى حديث الجامعة العربية وسألته : « وهل بعـد انقضاء السيادة التركية أو السـيادة الانجليزية يهتم المصريون بالجامعة العربية ؟

فرد الباشا جازماً : أما سياسياً فلا ، لأن الفوارق بين الشعوب العربية المختلفة جد كبيرة ؛ أما من الوجهة الثقافية فهى ممكنة ، وهي على ازدياد فى جوانب الشرق الأدنى ؛ ولكنها ليست بالسياسية ، لأن الجامعة العربية من حيث هي نزعة سياسية اختراع نَجَم فى الصحافة الانجليزية على ما أذكر ، ولا يحضرنى اسم صاحبه وإن كنت أرجح أنه مراسل للتيمس كان يراسلها من النمسا قبل أربعين سنة

وتنقل الحديث فى بعض الموضوعات الشرقية ثم سأل الكاتب : ما ظنك فى حقيقة ما يقال من أن الوطنية المصرية توصد ما بين المصريين وسائر العالم ، وتجتهد فى إبدال كل مصرى بكل أجنبى ؟ أتؤمن بامكان هذه العزلة ؟

قال الباشا : الحق أننى لا أومن بذلك ؛ ولعل محدثيك قد أخطأوا التقدير ، فان الوطنية عندنا لا تجور على الثقافة . ونحن إذا اكتفينا بمن هم عندنا من الأساتذة الأجانب فسبب ذلك قلة المال . إن الأستاذ الانجليزى يكلفنا من ثمانمائة إلى تسعمائة جنيه فى العام ، وليس ذلك بالميسور لنا إلا فيما ندر

وانتهى الحديث بعد تعقيب موجز فى هذا الموضوع ، وسنعود إلى سائر الأحاديث وإلى التعقيب عليها فى مقال تال

عباس محمود العقاد

من ذكريات الماضي

خطرات الشك فى صدور الشباب

للأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق بك

أستاذ الفلسفة بكلية الآداب



قضيت صدر النهار فى خمول من أثر البرد الذى نالنى وكدت آوى إلى مضجعى مريضاً، ولكننى طاردت الضعف وتكلفت القوة واشتغلت ساعة مع زميل لى فرنسى، ثم اشتغلت من بعده وحدى.

وزارنى بعد الظهر ثلاثة من أصدقائى المصريين فقطعنا زمناً فى الحديث والسمر، وذهب عنى شئ من الفتور فنهضت للخروج معهم. على أن الطقس كان ذا رطوبة وإن لم يكن كثير البرودة. وانصرف اثنان منهم وبقى ثالثهم معى فقال: إني سأحدثك بأمر عقيدتى لتعلم موطن القوة والضعف منها. أما الايمان بالله فقد وصل عندى إلى حد الاذعان الذى لا تزلزله ريبة؛ وأما الرسل فما أراهم إلا رجالاً من صفوة أممهم وُهبوا أنفساً كبيرة، وعقولاً راجحة، فعملوا على إسعاد الناس وتقريبهم من الخير، ووضعوا لذلك قوانين هُدوا إليها كما يهتدى الحكماء إلى وضع قواعد لإصلاح المجتمع الإنسانى أو إلى كشف ما خفى عن غيرهم من أسرار الكون

ولما رسخ فى يقينهم أن ما وصلت عقولهم الصافية إليه هو الحق، قالوا إنه من الله وسموه وحياً؛ وكأنما قولهم هذا من باب ثقة العالم بعلمه، ولكنه لا يجعل آراءهم وما جاءوا به بنجوة من تمحيص العقول، ولا يمنحهم من الثقة فوق ما يكون لإخوانهم الحكماء المصلحين فى كل زمان

سمعت قوله كله بإصغاء تام ولم أقطع عليه الطريق فى حديثه ولا أظهرت له إنكارا، ولم ييئسنى عدوله عما أعتقده الحق من عدوله إليه، ذلك بأنه يتكلم بروية، ويعبر عما فى نفسه، ويدلى بالحجة القائمة عنده؛ ومن كان هكذا عظم الرجاء فى عرفانه للحق إذا سطع له برهانه

أخذت أولاً فى اختبار إيمانه بالله لأذهب به من طريق الترتيب الطبيعى فوجدته لا يخالف فى شئ مما أثبتته الأديان لله وجعل أساساً للإيمان، ثم انتقلت به إلى أمر الآخرة فقال إنه فى شك منها ولم يعطها حظها من النظر. فقلت له إن الإيمان بالحياة الثانية ينبغى أن يكون موضع بحثك قبل أن تصل إلى الرسالة؛ وبسطت له ما تهدى إليه الفطرة ويدركه بادئ النظر من وجود دار جزاء ينال فيها المحسن ثواب إحسانه، ويُسأل فيها المسيء عن إساءته. ومن أيقن بأن الله حكيم لزمه بالبداهة أن يقر بأن الناس لم يخلقوا سدى — أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون — عند ذلك قال إنه لا بد لى من فضل تفكير فى هذا. وهبني أذعنت له فماذا تقول فى المرسلين؟ فقلت له ما عندى من أدلة الحاجة إلى الرسالة التى ينبغي أن تكون من عند الله، لأن كثيراً من تعاليم الرسل لا يستقل العقل البشرى بها. وقد جاء كل رسول ببينة تؤيد دعواه أنه مرسل من عند الله. وإليك معجزة محمد عليه الصلاة والسلام وهى القرآن الكريم، فهل ترى أن بشراً يقدر على مثله؟ ونازعنى فى ما سقته إليه من الأدلة ونازعته، حتى سكت فسكت عنه، وتركته إلى نفسه يعرض عليها أدلة المخالف ويراجع أدلتها هى. وأرجو أن أعود إليه مرة أخرى فيكون الحق قد مهد لنفسه سبيلاً إلى قلبه. وإني وإياه لطلاب هدى.

ولوددت أن يبادر شبابنا بطلب اليقين إذا تلجلج الشك فى صدورهم، فإن ذلك أحرى بأن يقتلع الشبه قبل رسوخها. وفلان ... أمثلهم فى هذا وإن كان يغلبه الشباب حيناً على الغضب لرأيه إذا شاء مجادله أن يظهر بالغلبة عليه »

هذه صورة من صور الحوار الذي كان يجرى أحياناً بين شبابنا طلاب العلم في أوربا فى صدر هذا القرن عند ما كانت تتسرب إلى نفوسهم الغضة نزعات الشك فى العقائد، وكانت نزعات الشك في العقائد يومئذ تشتعل فى أوربا اشتعالا

وقد يكون فى نشر هذه الصورة عبرة لشباب اليوم

ولسنا ندرى كيف يفعل شباب اليوم حين تتسرب نزعات الشك إلى عقائدهم

مصطفى عبد الرازق

سر العظمة

للأستاذ توفيق الحكيم



ينبغي لمن أراد أن يدرك سر عظمة النبي أن يتخيل رجلاً وحيداً فقيراً تمكنت من قلبه عقيدة فنظر حوله فإذا الناس كلهم في جانب، وإذا هو بمفرده في جانب. هو وحده الذي يدين بدين جديد، بينما الدنيا كلها: أهله وعشيرته، وبلده وأمته، والفرس والروم والهند والصين وكل شعوب الأرض لا يرون ما يرى، ولا يشعرون له بوجود. هذا موقف النبي، وهذا موقف العالم: رجل عاطل من كل قوة وسلاح، إلا مضاء العزيمة وصلابة الإيمان، أمام عالم تدعمه قوة العدد والعدة، وتؤازره حرارة عقيدة قديمة شب عليها وورثها عن أسلافه، واتخذت لها في قرارة نفسه وأعماق تاريخه جذوراً ليس من السهل اقتلاعها على أول قادم. فالنبي هو ذلك القادم الذي يريد أن يقتلع تلك الجذور ويضع مكانها غرساً جديداً. والعالم القديم هو ذلك السادن القوى لتلك الشجرة المتيدة، يذود عنها وتأبى كرامته أن يفرط في ورقة منها. إنها إذن « مبارزة » بين فرد أعزل، وبين عصر بأسره يزمجر غضباً: عصر زاخر بأسلحته ورجاله، وعقائده وفقهائه، وعلمائه ومشاهيره، وتقاليده وماضيه، ومجده وتاريخه... هذه المبارزة الهائلة العجيبة من يستطيع أن يقدم عليها غير نبي... على أن المعجزة بعد ذلك ليست في مجرد التحدي ورمي « القفاز » وارتفاع ذلك الصوت الضعيف على شاطئ ذلك البحر الطامي العجاج: « أن اترك أيها العالم دينك القديم واتبعني ». ذلك الصوت الذي لا جواب عليه إلا السخرية طويلة وقهقهة عريضة... وليست المعجزة كذلك في مجرد شفاء الأصم وإبراء الأعمى، إنما المعجزة حقيقة هي أن يخرج مثل هذا الرجل الوحيد الأعزل من هذه المعركة المخيفة ظافراً منتصراً؛ فإذا هذا العالم العتيد كله يجثو عند قدميه منكس الأسلحة، وقد انقلبت سخريته خشوعاً طويلاً، وقهقهته صلاة عميقة. كيف ربح هذا الرجل الموقعة؟ ما وسائله؟ هل كانت له خطط وأساليب وقوة من شخصه مكنته من النصر؟ أو أن الله هو الذي نصره دون أن يكون لشخصية النبي دخل في الانتصار؟ عقيدتي دائماً أن شخصية النبي لها أثر كبير

وهنا معنى الاصطفاء، فالله يختار من بين البشر عظيماً له كاهل يحتمل عبء الرسالة، ويوحي إليه بالعقيدة ثم يتركه يجاهد في سبيلها. فالنبي ليس آلة تحركها يد الله في كل خطوة؛ إنما هو رسول عهد إليه تبليغ دين والعمل على إذاعته بين الناس بالوسائل التي يراها الرسول كفيلة ببلوغ الغاية. فالله لا يريد نشر الأديان بين البشر إلا بالوسائل البشرية. فهو لا يتدخل بقدرته العلوية فيفرض الدين فرضاً على الناس كما تفرض عليهم الزوابع والأمطار؛ ولكنه يحب دائماً أن يخلي بين « الدين » وبين « الناس » حتى يتغلغل الدين من تلقاء نفسه في نفوسهم بجمال نوره وحده؛ ولكن أعين الناس لا ترى في كل الأحيان؛ فهم يعيشون في أعماق ماضيهم كالأسماك العمياء في أغوار المحيطات. هنا تبدأ متاعب النبي؛ وهنا تبدو عظمته؛ وهنا تظهر المعجزة الحقيقية وهي إبراء الأعمى، لا أعمى واحد ولكن ملايين العميان. فهو الذي يفتح أبصارهم على نور طالما جحدوا وجوده: نور الدين الجديد الذي أتى به. وهنا ينبغي التساؤل: كيف استطاع النبي أن يُري الناس ما يَرى، وأن يقنعهم بما جاء به؟. الجواب بسيط: حياة النبي وخلقه. إن الناس لا تقتنع بالكلام وحده. إنما يؤثر فيها الفعل والمثل. إن الناس يوم أيقنوا أن محمداً لا يسعى إلى غنى ولا إلى مُلك؛ وأنه يريد أن يبقى فقيراً يشبع يوماً ويجوع أياماً، وأن كل تلك المخاطر التي يتعرض لها في كل خطوة، وأن كل ذلك الهوان الذي يناله من سفهاء القوم وأكابرهم ... وأن كل

ذلك الجهاد الذى ملأ به حياته بأكلها إنما هو فى سبيل « المقيدة » التي يقول لهم عنها ؛ منذ ذلك اليوم الذى اجتمع فيه كبراء أمته وعرضوا عليه ثروتهم ووعدوه أن ينصبوه عليهم ملكاً على شرط أن يتركهم على دين آبائهم ، فرفض المال والمجد والسلطان ، وأبى إلا شيئاً واحداً صغيراً : « أن يؤمنوا معه بفكرته » ؛ عند ذاك أدرك أولئك القوم جميعاً أن الأمر جد لا هزل ؛ وأنهم أمام رجل لا كـكل الرجال ؛ وأن الآدمى الذى لا يغريه فى الحياة شىء ، ولا يعيش إلا من أجل فكرة ، لا بد أن يكون قد أبصر فى هذه الفكرة جمالاً لم يبصروه هم . « فكرة » لا تقوّم بمتاع من أمتعة هذه الدنيا الرخيصة ، و « جمال » يضحى فى سبيله خير ما فى الحياة . أمام هذا الرجل أخذ الناس يفكرون ملياً . وثبت لمن كان قد ارتاب فى أمره أن مثله لا يمكن على الأقل أن يكون أفاقاً يعمل لمغنم . إنما هو رجل صادق مخلص ، لا مطمع له من تلك المطامع التي يسعى إليها الناس فى هذه الدار . عند ذاك بدأ كثير من الناس يجلسون إليه ويصغون إلى كلامه ... فوسيلة النبي الأولى وخطوته التي نزل بها الميدان هى إقناع هذا الخضم الصاخب من الخلق أنه مجرد عن الغايات الدنيوية . وهنا كانت قوته ؛ فإن أمضى سلاح فى يد رجل يريد أن يقارع البشر ، هو أن يواجه البشر بيد خالية من أغراض البشر

ولكن هذا لا يكفى . فالناس قد تقتنع بأمانة النبي ، وقد تستمع إلى ما يقول ، ولكنها لا تستطيع أن تنبذ فى يوم وليلة كل ماضيها لتؤمن بهذا الكلام الجديد . إن صدر الجماهير كصدر المحيط العميق ذى الماء الكثيف ، يدفع إلى سطحه كل جسم غريب ، ولا ينفذ إلى أعماقه إلا شىء ذو وزن ، بعد زمن وجهد . وإن الناس لشديدة الحرص على ما تسميه كنوز تراثها وتقاليدها . فما أدراهم أن هذا الكلام الجميل الذى جاء به هذا النبي ذو الحديث الطلى ليس إلا بضاعة زائفة ووهماً خلاباً لعب بلب هذا الرجل ؟ ولم لا يكون هذا الرجل الأمين المسكين فريسة مرض ومس ؟ ماهو الأجدر بهم عندئذ ؟ يطلبون له الطب حتى يبرأ ، أو يلقون بكنوزهم ويتبعون حلمه ومسه . لقد وضعت المسألة إذن وضعاً آخر ، واتخذت الحرب ميداناً جديداً . ماذا يصنع النبي ؟ لا بد له من أن يبدد ضباب الشك المخيم على الأذهان حتى يصل إليها نور الدين . هنا صفتان لازمتان : الصبر والمثابرة ، فإن العاقبة فى الحرب لمن صبر وثابر . وإن أمامه خصماً جديداً ، هو الشك الذى يقوم الآن فى رؤوس الناس . فإن كان حقيقة رجلاً عظيماً فليقتل هذا الشك بمفرده . وما هو بشك رجل واحد ، إنما هو شك أمة طامية . ولقد جاهد الرسول فعلاً فى كل لحظة من لحظات حياته ، إلى أن استطاع ذات يوم أن ينقل العقيدة التي فى قلبه حارة قوية إلى قلوب الناس جميعاً . وهنا كان النصر الأخير ، وتمت المعجزة . وتمكن هذا الرجل الواحد من أن يضع العالم في قبضته ، ويخضعه لفكرته ، ويطبعه إلى أبد الآبدين بخاتمه ، ويدخل إلى صدره أشعة نور جديد ؟

توفيق الحكيم

رعاية الطفولة في الإسلام

للمربية الفاضلة الأستاذة
أسماء فهمي



درج أكثر الناس في قياس مجد الأمم وحضارتها بمقاييس شتى أهمها النبوغ في الفنون والعلوم، أو ارتقاء النظم والقوانين، أو التفوق الحربي ووفرة الغنى واتساع الملك وقلما جعلوا رق الأمة الوجداني وتغلغل مبادئ الرحمة والإحسان فيها من أول مقاييس الرقي الهامة. وما دامت هذه الناحية لا تلق من الدراسة والعناية ما يرجح كفتها، ويرفع قيمتها، لتكون الحجر الأساسي في بناء الحضارة، فسيظل العالم ولا شك بعيداً عن روح السلام والوئام

ولقد كان للحضارة الإسلامية أوفر الحظ من مبادئ العطف والإنسانية التي تجلت في نواح عدة من الحياة، فظهرت مثلاً في معاملة المسلمين لسكان البلاد التي خضعت لسلطانهم مما أنساهم عدة أجيال مذلة الفتح، كما ظهرت في معاملة الرقيق والمرأة، وتجلت في الرعاية العظيمة التي كان يعامل بها الأطفال. على أن تلك الناحية الخطيرة التي يجب أن تعتبر بحق المقياس الأول للرقي، لم تنل كل ما تستحق من الاهتمام، فلم تأخذ مكانة المقاييس الأخرى بعد. وعلى ذلك فليس أنسب من أن ننتهز فرصة حلول العام الهجري الجديد لندرس ناحية من نواحي الرقي الوجداني عند المسلمين في العصور الماضية، فنتعرف اهتمامهم بشئون الأطفال، وتربيتهم للنشء، لنسبر غور مبادئ الرحمة فيهم

لم يكن الاهتمام بشئون الأطفال مقصوراً على الدين الذي حرم قتل الأبناء خشية الإملاق، وصان حقوق اليتامى وأموالهم، ووضع القوانين للحضانة، وقيد سلطة الأب على أبنائه، ورفع مكانة الأمة إذا أنجبت ولداً لسيدها فأصبحت بسبب وليدها في مأمن من البيع والشراء؛ بل إن موضوع تربية الطفل ووجوب تعهده بالرفق والعناية لاقى أكبر الاهتمام من كتاب المسلمين ومفكريهم. وإن روح الرفق لتبدو واضحة قوية في كل ما كتبوا. والواقع أن الشاعر العربي الرقيق العاطفة لم يكن هو وحده الذي عبر بوضوح عن هذه النزعة الانسانية إذ قال:

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض

بل إن الفيلسوف والمربي عالجا الموضوع بنفس الروح. فلقد اهتم بهذه الناحية نفر من أشهر مفكري الإسلام مثل ابن سينا والغزالي والعبدري وابن خلدون. وسنشير إلى بعض آرائهم تسجيلاً لناحية من نواحي الرقي الوجداني الذي تمتاز به الحضارة الإسلامية عما سبقها من الحضارات كالحضارتين الأغريقية والرومانية

فابن سينا يجعل أساس التربية مراعاة ميول الأطفال واستعدادهم، حتى لا يُرهَق الأطفال بأعمال يصعب عليهم أداؤها لأنها لا تجرى مع رغباتهم. وعلى ذلك فابن سينا يحترم الميول مهما كانت متواضعة. كذلك عالج هذا الفيلسوف مشاكل التأديب بطريقة يتجلى فيها الحزم الممزوج بالرفق، فرأى أن يجنب الصبي معايب الأخلاق بالترهيب والترغيب، والإيناس والإيحاش، والإعراض والإقبال، وبالحمد مرة وبالتوبيخ مرة أخرى، ما كان كافياً؛ فإن احتاج للاستعانة باليد لم يحجم عنها. وليكن أول الضرب قليلاً موجعاً كما أشار به الحكماء من قبل، بعد الإرهاب وبعد إعداد الشفعاء. وهكذا لا يجعل ابن سينا القسوة والضرب أول وسيلة للتأديب، بل هو لا يلجأ إلى الضرب إلا إذا فشلت الوسائل الأخرى

ولقد حدد علماء المسلمين عدد الضربات التي توقع على الطفل بثلاث، كما عينوا المواضع التي يحدث فيها الضرب حتى لا يتعرض الطفل للأذى

والغزالي الذي يعتبر حجة الإسلام، والذي كان لآرائه أكبر الأثر في تفكير المسلمين في العصور التالية، يتكلم عن الطفولة بعطف ورقة لا حد لهما. فهو يصف الطفل بأنه «أمانة عند والديه،

وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة ... » ومن ثَمّ يجب على ولى أمر الطفل أن يقوم بإرشاده بأمانة وإخلاص . وهو يوجب مراعاة شعور الطفل فيقول : « إن الطفل المستحى لا ينبغى أن يهمل ، بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه » ، كما يرى : « ألا يؤخذ الطفل بأول هفوة ، بل يُتغافل عنه ولا يُهتك سره ، ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد فى إخفائه » ؛ كما ينصح للمربى : « أن ينظر فى مرض المريض وفى حال سنه ومزاجه وما تحتمله نفسه من الرياضة ويبنى على ذلك رياضته »

والعبدرى الذى عاش بمصر فى القرن الثامن للهجرة يحمل حملة شعواء في كتابه (مدخل الشرع الشريف) على مؤدبى عصره ، وينعى على أولياء أمور الأطفال أنهم يقسون على الصبيان فيضربونهم بعصا اللوز اليابس وبالجريد . ويصر على أن يأخذ المعلم الأطفال بالرفق ما أمكن . ولكن إذا اضطر المربى إلى أن يضرب الصبي على تركه الصلاة متى بلغ السن التى تجيز ذلك ، فلا بأس أن يضربه ضرباً غير مبرح ، ولا يزيد على ثلاثة أصوات شيئاً إلا فى حالات نادرة جداً . وهنا يحدد عدد الأصوات بعشرة ، وهو الحد الأقصى . ولا ينسى العبدرى أن يذكر المربى بتفاصيل عدة لا يخرج مرماها عن مراعاة المسلمين لشعور الأطفال . فهو ينصح المؤدب مثلاً ألا يسمح للتلاميذ أن يحضروا غداءهم معهم إلى المكتب ، أو يحملوا نقوداً لشراء ما يرغبون من الطعام ، حتى لا يتألم الطفل الفقير الذى لا يمكنه مجاراة الموسرين فى مظاهر يسرهم . وعلى ذلك فهو يفضل أن يرجع الأطفال أجمعون إلى منازلهم للغداء

ويرى العبدرى أيضاً أن يلعب الأطفال لعباً جميلاً بعد انصرافهم من المكتب حتى تذهب عنهم آثار التعب والملل ، وحتى يستأنفوا دروسهم بشوق واهتمام

ولقد عقد ابن خلدون فى مقدمته الشهيرة فصلاً فى أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم ، ولا سيما فى أصاغر الولد . وذكر أن كل من كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو الخدم سطا به القهر ، وضيق على النفس فى انبساطها ، وذهب بنشاطها ، ودعاه إلى الكسل ، وحمل على الخبث والكذب ، وفسدت معانى الإنسانية فيه ... وهكذا وقع لكل أمة حصلت فى قبضة القهر ونال منها العسف

كذلك لم تكن رعاية الأطفال مقصورة على المفكرين والمشتغلين بالتربية ، بل قام المحسنون بانشاء المعاهد الخيرية لتعليمهم وحمايتهم . وكثير من الكتب الإسلامية تفيض بذكر الكتاتيب التى بنيت لتعليم اليتامى والمساكين وإطعامهم وكسوتهم . ولقد ساهمت المرأة المسلمة بقسط وافر فى هذا الميدان ، إذ يذكر المقريزى فى كتابه الخطط أسماء كثير من النساء اللاتى قمن ببناء الكتاتيب وحبسن عليها الأموال والأملاك لتعليم أبناء الفقراء كتاب الله . وكثيراً ما كان يبنى الكتاب بجانب المدرسة والبيمارستان مما سهل بطبيعة الحال حصول الأطفال على العلم والعلاج

وبلغ من عناية المسلمين بأمر الأطفال أن كلف رئيس الشرطة بتفقد أحوال الكتاتيب لمنع تعليم البنات الصغار أشعار الغرام والمجون مما قد يكون له أثر السيء فى أخلاقهن ، ولحماية الأطفال مما قد يصيبهم من قسوة المعلمين . وهكذا لم تقف الدولة موقفاً سلبياً فى أمر تربية الأطفال

من كل ما تقدم يتبين لنا مقدار تغلغل مبادئ العطف والإنسانية فى ناحية من أهم نواحى الحياة الإسلامية . على أن تقديرنا لمبادئ هذه الرحمة المتجلية فى الاهتمام بالأطفال لا يجعلنا نغض الطرف عن أن المسلمين لم يتخذوا الوسائل الكافية لحماية الطفولة ولسد حاجاتها فى النواحى المختلفة ، فلم يكن لديهم مثلاً قوانين تحمى الأطفال من مزاولة بعض الأعمال التى قد تعوق نموهم ، وتحدد السن التى لا ينبغى تشغيل الأطفال قبل بلوغهم إياها ؛ كما لم يحددوا سناً لبدء الزواج ، فكانت الفتاة تتزوج فى سن مبكرة ، وترهق بواجبات الأمومة والزوجية وهى لم تزل بعد طفلة . كذلك لم تتوفر المنشآت الخيرية التى تكفى لسد حاجات الفقراء وذوى العاهات . على أن ذلك النقص فى وسائل العلاج لا يقلل من قيمة مبادئ العطف والإنسانية التى بنى عليها الإسلام ، ولا تُخفى روح الإحسان التى تفيض بها الحضارة الإسلامية ، والتى ظهرت فى ميدان الرفق بالأطفال

وإذا كان الغرض الأول من دراسة نواحى الحضارات الغابرة هو تفهم نواحى حياتنا الراهنة والوقوف على مقدار تقدمنا أو قصورنا ، فأنا لا نتمالك أن نشعر بالخزى من أنفسنا عند ما نستعرض أعمال السلف ونقارنها بجهودنا الضئيل على رغم ما لدينا من وسائل

الهجرة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى



يبدو لى من مراجعة السيرة النبوية الشريفة أن الهجرة إلى المدينة لم تجئ عفواً ولا كانت من وحى الساعة، وإنما كانت خطة محكمة التدبير طال فيها التفكير بعد أن اتجه إليها الذهن اتجاهاً طبيعياً أعانت عليه الحوادث

وكان النبى عليه الصلاة والسلام فى أول الأمر يشير على المسلمين الذين ضاقوا ذرعاً بما كانت قريش تنزله بهم من الأذى أن يتفرقوا فى الأرض، وينصح لهم أن يذهبوا إلى الحبشة ليأمنوا الفتنة عن دينهم ويرتاحوا من العذاب الغليظ الذى كانت قريش تصبه عليهم حتى يأذن الله بالفرج. وأكبر الظن أنه كان يريد أن يؤمِّن هؤلاء المسلمين على دينهم من ناحية، وأن يحمل قريشاً على التوجس من عاقبة هذه الهجرة الأولى إلى الحبشة عسى أن تنزع إلى الاعتدال والهوادة. ومن الثابت على كل حال أن قريشاً أزعجتها هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة فبعثت إلى النجاشى برسولين منها ومعهما الهدايا ليقنعاه برد هؤلاء المهاجرين إلى مكة، ولكنى لا أظن أنه كانت لهذه الهجرة إلى الحبشة غاية أبعد من ذلك، فما كانت أكثر من معاذ إلى حين، وتدبير ألجأت إليه الحاجة لما اشتدت المحنة بالمسلمين، وتلويح لقريش بامكان العون والمدد من هذه الناحية. على أن بعد الحبشة واختلاف أهلها ولغتها ودينها ثم الثورة التى ما لبثت أن شبت على النجاشى وكان من أسبابها إيواؤه المسلمين والعطف عليهم — كل هذا كان من شأنه أن يصرف عن الحبشة ويدعو إلى التفكير فيما هو أصلح منها

واختلف الحال فى مكة أيضاً إلى حد ما بعد أن أسلم عمر ورفض الاستتار والاستخفاء، وشرع يناضل قريشاً ويدفع المسلمين إلى الصلاة فى الكعبة نفسها، وأسلم رجال غير قليلين من قريش، فصارت لجاجة قريش فى تعذيب المسلمين وتقتيلهم كما كانت تفعل غير مأمونة العاقبة. نعم ظلت قريش تؤذى المسلمين وتسئ إليهم، ولكن المسلمين كثروا وصار محمد يعرض نفسه على القبائل وإن كان لم يفز بطائل كبير ولا كفت قريش عن مساءاتها إليه

وقد كبر الشأن واتسعت رقعة الأمل، ولكن التفكير فى أمر قريش وفى الراحة من عنتهم وفى الوسائل المؤدية إلى نشر الدين بأسرع مما ينتشر بقى واجباً ملحاً، ولا سيما بعد أن حوصر المسلمون فى الشِّعب، ونقضت الصحيفة، ومات أبو طالب وخديجة، وازداد أذى قريش، وردته القبائل عما كان يدعوها إليه من الدخول فى الاسلام؛ وتوالت السنون على هذا الحال، فكان من الطبيعى أن يفكر النبى عليه الصلاة والسلام فى مخرج حاسم يفرج الكرب ويزيل المحنة ويفسح مجال الأمل ويوطد الأمر. وأحسب أن من الطبيعى والمعقول أن يفكر فى يثرب أول ما يفكر، وأن تكون هذه أبرز ما يبرز وأول ما يخطر على البال وأسبق ما يرد على الخاطر، فقد كانت يثرب طريقه فى الزمن السالف أيام كان

وتجارب ومعرفة. وعلى الرغم من مرور كل هاتيك السنين لم تتقدم غير خطوات قليلة في ميدان الرفق بالأطفال. فثلاثة أرباع أطفالنا إما مصابون بداء الجهل والأمية وهو أصل كل شقاء، وإما جياع حفاة عراة تموج بهم الطرقات، وإما مرضى بأدواء شتى بسبب إهمالهم وحرمانهم حتى من ماء الشرب النقى. وأخشى كثيراً أن نظهر فى مؤخرة الأمم فى الحضارة والرقى إذا اعتبرنا مقياس التقدم الحقيقى هو مبلغ تغلغل مبادئ العطف والانسانية التى تقل مظاهرها لدينا لسوء الحظ

وفى ضوء هذه المآسى، ولشعورنا بما قدمنا وما أخرنا، يبدو لنا الماضى عظيماً حقاً، فنتجه إليه باعجاب وخشوع، ونتحدث عن آثاره حيناً من الدهر نشعر بعده بشىء من راحة المعترف بالفضل المقر بالذنب

أسماء فهمى

الأستاذة بمعهد التربية. درجة شرف فى التاريخ ودرجة الأستاذية فى التربية من انجلترا

يعمل فى التجارة ، ولم تكن طريقه فقط بل كانت له بها علاقة تجارة أيضاً ؛ وله فيها عدا ذلك بعض ذوى القربى ونعنى بهم أخوال جده من بنى النجار ؛ ثم إن أباه عبد الله بن عبد المطلب مدفون فيها ، وقد كانت أمه فى حداثته تزور هذا القبر فى كل عام ، وكانت تستصحب ابنها معها . وقد شاء القدر أن تمرض أمه وهى عائدة من إحدى هذه الزيارات وأن تموت وتدفن فى الطريق بين مكة ويثرب . فما من شك فى أن يثرب كان لها نوطة بقلبه وعلوق بنفسه فما يسعه أن ينسى طفولته ويتمه وأباه الدفين هناك وأمه الراقدة فى الفلاة على طريقها

وقد كان النبي صلوات الله عليه يعرض نفسه على القادمين من يثرب كما كان يعرض نفسه على رجال القبائل الأخرى ، فأسلم أولا من الأوس واحد ، ثم أسلم من الخزرج نفر استجابوا لدعوته وحدثوه بما بين الأوس والخزرج من العداوة التى بثها اليهود فيهم ليظفروا بهم ويتحكموا فيهم . وكان اليهود قد نجحوا فى إيقاد نار الفتنة بين هاتين القبيلتين ، ولكنهم نجحوا فى أمر آخر لم يكونوا يقصدون اليه ، فقد كان اليهود وهم أهل كتاب يذمون إلى الأوس والخزرج ما هم فيه من الوثنية والشرك ويحدثونهم عن دينهم وكتابهم ، فتركوا فى نفوسهم أثراً روحياً لم يكن لمثله وجود فى أهل مكة . وقد عرف النبى عليه الصلاة والسلام هذا كله وعرف أيضاً أن الفريقين المتعادين — الأوس والخزرج — قد فطنوا إلى ما هم فيه من الشر ، وانتهوا إلى أن يجمعهم الله بعد طول العداوة ، وأدرك أن دعوته خليقة أن تلقى هناك من حسن الاصغاء وطيب القبول ما لا تظفر بمثله فى مكان آخر وبلد غير يثرب . وقد صدق ظنه وتفتحت القلوب فى يثرب لدعوته ؛ ولم يمض إلا عام واحد حتى جاءه رجال من يثرب يبايعونه البيعة التي تعرف ببيعة العقبة الأولى على ألا يشركوا ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يكذبوا ولا يعصوا الله . ومما يدل على قيمة هذه البيعة أن النبى احتاج أن ينفذ إلى يثرب من يقرىء المسلمين بها القرآن ويعلمهم ويثقفهم فى الدين . وكانت هذه فاتحة ميمونة لانتشار الاسلام فى يثرب على صورة جدية وفي نطاق واسع

وكان مقام المسلمين فى يثرب طيباً محموداً لا أذى فيه ولا مشقة ، فغير معقول ألا يفكر النبى فى اتخاذ يثرب مهجراً للمسلمين الذين يعانون الأمرين فى مكة ، ولنفسه أيضاً إذا كان لا بد من ذلك ولا معدى عن ذلك ... إن التفكير فى ذلك هو تفكير يبعث عليه ويوحى به واجب الدفاع عن النفس . يدل على ذلك أن النبى فى العام التالى — لما قدم مكة عشرات من مسلمى يثرب — لقيهم واقترح أو طلب أن يعقد مع مسلمى يثرب حلفاً دفاعياً لرد عدوان المشركين . وقد تم له ما أراد وعقدت بيعة العقبة الثانية وهي أول تدبير عملي فى سبيل الدفاع عن النفس . وقد أزعج خبرها قريشاً جداً فاضطربت وأشفقت وذهبت تسعى لتستوثق من الخبر ، فان صحة الخبر معناها ذهاب كل أمل فى التغلب على النبي ... وقد بلغ من جزعهم من هذا الحلف وصحة تقديرهم لعواقبه المحققة أن قريشاً ائتمرت بالنبى تريد قتله ودبرت ذلك فعلا وأحكمت التدبير كما هو معروف مشهور ، فأدى ذلك إلى التعجيل بهجرة النبى نفسه

وقد كانت الهجرة في سبيل الله وللدفاع عن النفس ولكنها أدت إلى أمور شتى . فقد كان النبى فى مكة حسبه أن يتقى أذى قريش ويتجلد ويصبر على عنتهم واضطهادهم ، فلما هاجر لم يبق لمثل هذا الصبر مسوغ ، ولا بالمسلمين إليه حاجة ، وقد كثروا وصارت لهم قوة من جموع الأنصار والمهاجرين معاً . ففى وسعهم أن يردوا الأذى بالأذى ويقابلوا العدوان بالعدوان . ثم إن كثرة المسلمين فى يثرب جعلتهم جماعة يجب فضلا عن تثقيفهم فى الدين تنظيم أمورهم والنظر فى مصالحهم وإقامة علاقاتهم بغيرهم على قواعد مرضية . وقد بدأ التشريع الاسلامى بعد الهجرة ، وبدأت كذلك الحروب باللسان ثم بالسلاح ، وبدأ التعرض لتجارة قريش . ولا حاجة بنا إلى التفصيل فانه تاريخ معروف ؛ ويكفى أن نقول إن الهجرة أتاحت للمسلمين أن يكونوا أمة ، وأن ينتظموا كما تنتظم الأمم ، وأ كسبتهم مركزاً تسنى لهم بفضله أن يتحكموا فى مكة اقتصادياً وحربياً أيضاً ؛ وقد انتهى الأمر بالفعل بفتح مكة وإعلاء كلمة الله

ويكفى للدلالة على ما كان للهجرة إلى يثرب من قيمة فى التاريخ الإسلامي أنه لما أريد بعد ذلك تأريخ الحوادث أشار عمر ابن الخطاب رضى الله عنه باتخاذ عام الهجرة مبدأ لهذا التاريخ . والواقع أن هذه الهجرة كانت هى الباب الذى فتحه الله لنشر الدين وإعلاء شأنه والقضاء على الشرك والكفر ، وجعل من العرب أمة لها فى العالم مقام وفى حياته أثر . ولو أن الهجرة كانت إلى الحبشة لما أثمرت شيئاً من هذا ، ولخرج الأمر على كل حال من جزيرة العرب ، ولكان الأرجح ألا ينتقل العرب إلى حال أخرى .

مجد العرب والإسلام

للأستاذ عبد الرحمن شكري



في سنة ١٩٠٩ كنت في جامعة من جامعات انجلترة، وكان أحد أساتذتنا في الجامعة قد دعاني إلى وليمة أعدها إليَّ كما دعوته إلى مثلها؛ وكانت هذه الدعوات عادة الأساتذة والطلبة، فجلسنا إلى مائدة الطعام ولم يمنعنا من الحديث فيما هو عملنا وبحثنا وهو التاريخ كما تفعل كل طائفة، فإن الناس لا يمتنعون حتى في مباذلهم وأوقات راحتهم عن الحديث في أعمالهم اليومية. ولما كان الإنجليز أمة تجار وتكثر في إنجلترة الدكاكين فقد اشتقوا في لغتهم عبارة يعبرون بها عن هذه الظاهرة. فكلما تكلمت طائفة في أمر من أمور أعمالها اليومية قالوا إن حديثهم كان دكانا أو عن الدكان حتى ولو كانت الطائفة من المشتغلين بالعلم وليس لهم دكان

فأخذنا في الحديث عن التاريخ والحضارات، وكان أستاذنا صاحب الدعوة قد عودنا الصراحة في القول والتفكير والبحث، فكان لا يخفي رأيه في أمور حضارتنا كما كنا لا نخفي رأينا عنه في أمور قومه وتاريخهم وحضارتهم. وكانت المناقشة لا تتعدى الوقار والأدب. فقال الأستاذ إن التاريخ يدل على أن مظاهر الرحمة في الحضارات والدول الأوربية قديماً وحديثاً كانت أعظم من مظاهر الرحمة في الحضارات والدول الشرقية، وقال إن هذا يدل على أن الحضارات الأوربية قديماً وحديثاً أرقى من الحضارات الشرقية، وكان الأستاذ يعرف حوادث تاريخ الشرق والغرب في القرون الوسطى لأنه كان أستاذ تاريخ تلك العصور فذكر لنا قصة رجل خرج على الرشيد فظفر به الرشيد ومثل به تمثيلاً شنيعاً، ثم ذكر قصصاً عن سلخ بعض الفاطميين أسرى من أسراهم وهم على قيد الحياة. فقلت يا أستاذ: هذا تعميم كبير، ولا يتفق مثل هذا التعميم مع العلم الذي يتقضى فروق الزمان والمكان واختلاف طبائع الناس وحكامهم وتباين آرائهم وميولهم النفسية؛ وذكرت له كيف أن سيدنا علي بن أبي طالب (رضه) عند ما أصابه عبد الرحمن بن ملجم أوصى قبل موته ألا يمثلوا بقاتله. وذكرته بالتمثيل الشنيع الذي كان حظ من يحاول قتل أمير أو ملك من ملوك أوربا في تلك العصور؛ وذكرت له قصصاً من قصص عدل الخلفاء الراشدين وأخرى من قصص حلم معاوية للدلالة على اختلاف الطبائع وسموها، فذكرت فيما ذكرت قصة المرأة التي لم تجد قوت عيالها وكيف بكى عمر بن الخطاب (رضه) من خشية الله عند ما سمع صياحها واستغاثتها، ووصفت اهتمامه وخدمته لها وهو خليفة وحاكم من كبار حكام الدنيا؛ وذكرته بتقرب الإغريق وهم منبع النور والرحمة والعلم والحضارة في أوربا إلى آلهتهم بالضحايا البشرية في عصر من أزهى عصورهم وهو عصر حربهم مع الفرس، فقد أسروا أولاداً صغاراً من بيت

ولو أنها كانت إلى اليمن مثلاً لكان الأغلب أن تبقى مكة بمعزل عن الاسلام، ولكن المدينة كانت على طريق التجارة إلى الشام، فالذي يستولي على الأمر فيها يتسلط على مكة ويتحكم في حياتها كما حدث بالفعل

ولا شك أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يفكر في المدينة من زمان طويل قبل أن يقصد إليها، فقد كان كل شيء يدعو إلى ذلك: حنين قلبه ومصلحة المسلمين في الدفاع عن أنفسهم أولا ثم في التغلب على مكة والقضاء على شرك قريش. ولعل من الدلائل على طول التفكير واتجاه النفس وعلى الإيحاء أيضاً أن النبي كان أول الأمر يتجه في الصلاة إلى المدينة جاعلاً قبلته المسجد الأقصى، فلما انتهى هذا الدور جعل الكعبة قبلته في الصلاة فوجه المسلمين صوب مكة حتى استولى عليها

ابراهيم عبد القادر المازني

***

حاشية — لا أحب أن يفهم أحد أن اتخاذ الكعبة قبلة كان القصد منه الايحاء إلى المسلمين بالاتجاه إليها والرغبة في الاستيلاء عليها، فما أريد أكثر من أن تحويل القبلة إلى الكعبة كان هذا بعض نتائجه (المازني)

الأمارة فى فارس فقدموهم ضحايا لآلهتهم كى تمنحهم النصر. وذكرته بالرومان وما جره ازدراؤهم للحياة البشرية من الفظائع، وقلت إن القسوة ليست مقصورة على الشرق، وليست الرحمة مقصورة على الغرب؛ وذكرته بفظائع الأشراف والأمراء فى قلاعهم فى العصور الوسطى وما نال اليهود وغير اليهود من أهوال؛ وذكرته بجرائم عصر إحياء العلوم وهو من العصور الأوربية الزاهرة وأساس حضارتها الحديثة؛ وأشرت إلى محاكم التفتيش وتمثيلها بضحاياها؛ وذكرته بالفظائع الدينية والسياسية فى عهد أسرتى تيودور وستوارت، وقبلها في عهد أسر بلانتاجنت ويورك ولانكستر؛ وذكرته بقسوة القانون الذى كان يشنق الطفل الصغير الجائع من أجل لقمة، وبمغالاة رجال القانون فى أوربا في العصور الوسطى مغالاة أدت بهم إلى محاكمة الحيوانات العجم وشنقها أو إعدامها أو التمثيل بها بعد محاكمة طويلة تذكرنا بقول الشاعر العربى وهو يسخر من حاكم أحمق:

أقاد لنا كلباً بكلب ولم يدع ... دماء كلاب المسلمين تضيع

وذكرته بالويل والهلاك وكانا نصيب كثير من النساء اللواتى كن يتهمن بالسحر فى أوربا حتى فى العصور القريبة المتحضرة. ثم ذكرته بما كانت عليه أوربا من القسوة والهمجية بينما كانت مظاهر الرحمة والنور تنبعث من أسبانيا العربية. وذكرته بما كان يرتكب فى الحروب الدينية فى أوربا من قسوة لا حد لها وتمثيل شنيع؛ وذكرته باستعباد الأطفال والنساء فى المصانع قبل التشريع الحديث؛ وذكرته بأسبانيا وما صنعته مع العرب واليهود، وما ارتكبته فى ممتلكاتها الأمريكية مع الهنود الحمر من فظائع تقشعر منها الأبدان، وما فعله المخاطرون الأوربيون فى جزر المحيط الهادى من قسوة، وما فعله رجال بعض الدول الأوربية — حتى فى عصرنا هذا — مع السكان الآمنين فى أوقات الحروب من قسوة وتعذيب وتقتيل وتمثيل. قال الأستاذ: كل هــذا لا شك فيه، ولكن كان الحكام فى أوربا إذا فعلوا شيئاً مما ذكرت يجدون فى شعوبهم من يجرؤ على نقدهم؛ أما فى الشرق فلا. فذكرت له كيف كان الواعظ يدخل على الخليفة فيقرّعه حتى يبكى كما فعل أحدهم مع هرون الرشيد، وذكرت كيف أن من القضاة من كان يزهد فى منصب القضاء وإن أوذى من أجل رفضه. قال الأستاذ: يخيل إلى أن الحكم على حياة أمة من الأمم حكماً عاماً من حيث مظاهر الرحمة أو القسوة فيهـا من الصعوبة بمكان، أو لعله ليس من المستطاع، لأن المؤرخين لم يكن ميزانهم للحضارات وقياسهم لها بميزان الرحمة ومظاهرها فلم يحصوها كلها، ولو فعلوا لاستطعنا أن نحكم بإحصائهم. قلت: إذاً لا نستطيع أن نقول على التعميم إن مظاهر الرحمة فى الحضارات الأوربيـة كانت دائماً أكثر من مظاهرها فى الحضارات الشرقية أو العربيـة الإسلامية. قال الأستاذ: ربما كان الأمر كما تقول، ولكن العرب أصلهم قوم بدو، والرحمة فى كثير من الأحايين لا تصل إلى قلوب البدو، لطبيعة أرضهم الجرداء القاسية وصعوبة نيل الرزق، فأعدتهم أرضهم القاسية بقسوتها. ولعلك تذكر غارات القبائل بعضها على بعض حتى بعد الإسلام، وما كان يحدث فى تلك الغارات فى بعض الأحايين من قتل النساء والأطفال. ولعلك تذكر أيضاً كيف كانوا يعاملون الحجاج الذين يقصدون مكة. ومن أجل هذه الطباع فيهم دخلت الحدود فى الإسلام لتكبح جماح البدو، وأريد تطبيقها فى بلاد طبيعة أهلها وطبيعة أرضها غير هــذه الطبيعة. ومن أجل شدة الحر فى بلاد العرب وإطلاق البدو أنفسهم على سجيتها دخل فى الإسلام رجم الزانى ثم نقل إلى بلاد أخرى. قلت: يا أستاذ فرض على الحاكم أن يدرأ الحدود بالشبهات، وذكرت له قصة عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع أبى بكرة، وكيف أنه جعل يتلمس الشبهات فى شهادة الشهود حتى نجى الرجل من حد الزنى، وذكرته أن التعزير من عقوبات الإسلام، وذكرته بما يفعله الناس فى أمم أوربا وأمريكا إذا قصر القانون أو استبطأوه، فإنهم يختطفون المتهم ويعاقبونه أقسى عقاب، وقد يمثلون به أشنع تمثيل؛ وقد يكون الرجل بريئاً مما نسب إليه. وذكرته بما تفعله أحدث الدول الأوربية إذا اضطرب حبل الأمن فى بقعة شرقية. وقلت له إن الحدود لم تمنع انبعاث مظاهر الرحمة والنور فى أسبانيا العربيـة بينما كانت أوربا غارقة فى بحر من ظلمات الجهل والقسوة، ويشهد بذلك كثير من المؤرخين الأوربيين

وإلى هنا انتهى حديثى مع ذلك الأستاذ الجامعى بعد أن ذكرته بأن سوء ظن الأمة بالأمة، وأهل القارة بأهل قارة أخرى، هو من قبيل سوء ظن الإنسان بإنسان آخر لا يعرفه أو لا يعرف عنه إلا القليل، وهى ظاهرة فى النفس الإنسانية عامة

يستوى فيها العالم والجاهل والفطن والغبى والمنصف والظالم

أقول إن هذه الظاهرة هى سبب ما نراه من نكران بعض المؤرخين الأوربيين لفضل العرب على الحضارة الأوربية أو تهوينهم أمر أثر العرب فى تلك الحضارة ، فبعضهم لا يقرون للعرب إلا بأنهم كانوا قنطرة عبرت عليها علوم الحضارة الأغريقية الرومانية إلى الحضارة الأوربية الحديثة ، وبعضهم يقول إن الحضارة الأوربية كانت نامية لا محالة حتى لو أن أوربا لم تتأثر بالحضارة العربية . ويقول إن العرب لم يكونوا كل مصادر الحضارة الأغريقية ، وإن المصادر الأخرى الأوربية كانت أجدى وأنفع وألصق . ومما يؤسف له أن بعض الشرقيين قد جاروا هؤلاء فى دعواهم من غير تقص ولا بحث عميق

إن الحضارة الأوربية كانت حقيقة نامية لا محالة لأسباب داخلة فى تاريخها ؛ ولولا استعداد الأوربيين للتأثر بالحضارة العربية ما أمكنهم قبولها ؛ واستعدادهم هذا يدل على بدء نحو الحضارة فيهم ؛ ولكن هذا لا ينفى أنهم تأثروا بالحضارة العربية تأثراً كبيراً . ولا تزال المعركة الكلامية قائمة بين من يمجد أثر العرب فى الحضارة الأوربية ومن يقلل من أثرهم من المؤرخين . والفريق الثانى ينظر إلى العيوب ويغفل عن الحسنات ، فينظر مثلا إلى إضاعة بعض علماء العرب وقتهم وجهدهم فى محاولة كشف إكسير الحياة أو حجر الفلاسفة ، ويغفل كشوفهم العديدة وفضلهم على العلوم الحديثة على اختلاف أنواعها ، فيغفل فضلهم فى نقل الورق إلى أوربا ، ولولاه ما أجدى اختراع المطابع وتحسينها ، ولا كانت للحضارة الحديثة مظاهرها الشاملة ؛ ويغفل ما نقلوه إلى أوربا من المصنوعات والمنسوجات والمزروعات المختلفة ، وما أعطوهم من مخترعات مثل الأسطرلاب وبيت الأبرة والعدسة ؛ ويغفلون فضلهم على الطب والتشريح والفلك والعلوم الرياضية وأنواع الهندسة والكيمياء ، كما يغفل أثرهم وقدوتهم في وسائل الرى وإعداد المدن بوسائل الراحة والرفاهية والنظافة كما فعلوا فى إسبانيا وغيرها . ويغفل أثرهم فى العلم والتعليم وكيف انتشر التعليم والاشتغال بالعلم انتشاراً لم يكن له مثيل . وقد أقر المؤرخ دريبر فى كتاب (نحو الفكر الأوربى) بهذا التعصب ضد الحضارة الإسلامية كما أقر به ماكاب في كتاب (مجد إسبانيا العربية) .

وقد ظهر أثر العرب فى التحاق أبناء الأغنياء الأوربيين بمدارسهم ، وكانوا يتجشمون الأسفار من أجل ذلك . وقد تعلم فى مدارس العرب بعض رجال الدين المسيحى ومنهم البابا سلفستر ؛ ونشر العرب مبادئ الفروسية وأخلاقها وسجاياها من شهامة ونجدة ظهرت فى بدء عصر الفروسية ، وكان لهم أثر فى تكوين آداب اللغات الأوربية الحديثة ، فظهر أثرهم فى شعراء الرومانس والتروفر والتروبادور كما ظهر فى آراء المصلحين الدينيين وفى رحلات الكشوف

والمؤرخ (ماكاب) رأى يتفق ورأيه الدينى وهو أن الحضارة العربية فى الأندلس لم يقض عليها الترف والتنعم والضعف ، وإنما قضى عليها التعصب الدينى من جانب الأسبان المسيحيين بعد أن أضعفها التعصب من جانب المرابطين والموحدين وإن صدوا الأسبان عنها زمناً . ولا يقصر هذا المؤلف وصفه على الحضارة العربية فى الأندلس ، بل يصف الحضارات العربية فى بقاع أخرى ولم يكن العرب وحدهم بناة هذا المجد وهذه الحضارة ، بل اشترك فى بنائهما الأمم التى اعتنقت الإسلام وتعلمت اللغة العربية حتى صارت لغة لها

عبد الرحمن شكرى

الى حجاج الجامعة المصرية

محمـــــد يرجع !

للأستاذ عبد المنعم خلاف



محمد يرجع ويعمل عمله من جديد فى نفوس الشباب وبناديهم إليه ليربيهم فى المهد الذى أنشأ فيه نفوس أبوتهم الأولى

وهم يلبون نداءه سراعاً ، خفافاً وثقالا ، وفى طليعتهم ملك ... لأنهم أدركوا ببداهة الشباب وإحساسه بحاجات زمانه أنه نداء لا يمكن أن يعلو عليه لغو أو يحجبه ضجيج

وقد سارت إليه جماعات منذ سنوات تسمعه ينطق في القرن العشرين جديداً عجيباً غريباً كما كان جـديداً عجيباً غريباً منذ ألف وثلاثمائة

بيد أن أدعى جماعة إلى الالتفات إليها هى هذه الجماعة الجامعية التى يحدو لها عقل « أمين » وروح « عزام » وخلق « العبادى »

***

لقد افتتحت الجامعة حياتها بروح تمرد وثورة على محمد ... ولكن مَن هذا الذى يغالب محمداً ولا يُغلب ، ويحتك بروحه ولا يفطس ويجذب ؟! لقد استطاع روح الحق الذي تمثل فيه أن يكب كل عنيد على ذقنه ساجداً ، ويأخذه إليه طائعاً أو كارهاً .

وقد عودنا تاريخ دعوته أنها تنمو حين تقاوَم ، وتبدو حين تحجب

ألم يغزُ التتار دياره ، ويخربوا آثاره ، فغزا قلوبهم ودوخ رءوسهم ؟

ألم يرد الصليبيون محوه فمحا خرافاتهم وضلالاتهم وفتح أعينهم على مبادئ الحياة الجديدة ؟

ألم يعزم المستعمرون على تكبيل أهله بالقيود الأبدية فأضرم من ناره على الحديد فأساله ، وأذاب أغلاله ؟

ألم يحاول المخدوعون الحالمون أن يهدموه فى نفوسهم ونفوس أمتهم فاذا به يعلو ويعلو فيخنق أصواتهم ويحطم معاولهم ثم يضطرهم أخيراً إلى البناء فيه ؟

***

من معجزات الاسلام أنه عزته اليوم تبنى على أيدى أحرار الفكر الذين أعلنوا فى كل مناسبة أنهم يؤمنون بحرية البحث .

وكأن القدر يقول للناس : هؤلاء الذين تظنونهم سبب شكوكم قد آمَـنوا فآمِنوا

ومن العجيب أيضاً أن الحج الذى هو منطقة كثير من التعبديات والرموز يكون أول مظاهرة روحية عملية تقوم بها الجامعة العقلية !

والأعجب أن تنبت الفكرة فى الجامعة لا فى الأزهر !

حادث عظيم فى طريقنا إلى الحياة القويمة لا ريب !

***

حج مبرور من بُناة العقل إلى أرض الروح . الروح الذى لم يجدوه فى الدفاتر والمخابر فراحوا يبحثون عنه فى الصحراء ... الكتاب الكبير المسطور بالرمال الخالدة والكلمات الصامتة التى قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شاب مثلهم ففهم بها خبر السماء وطلاسم الوحى

لا أستاذية ولا « دكترة » ولا مخابر ومنابر ، وإنما هناك هيا كل خالدة عامرة أبداً بالنجوم ، ومحاريب يسجد فيها الصباحَ والمساء ، ومنصات تقف عليها الطبيعة صامتة متجردة لا تتشح «بالروب» ولا تهز ذقنها كما يهز العلماء لحاهم حين يلقون الدروس!

***

عشتم أياماً فى التاريخ ، على هامش الحياة، فى مركز الأرض ، فى مهد الانسان ، فى حضن الأم الوالدة ، فى مكان الخالد ، فى البدائيات

التفتت إليكم الجبال والرمال والآثار التى تعرف محمداً وأصحاب محمد من الشباب ، إذ كنتم أول فوج عجيب زارها فى القرن العشرين ، فعرفت أن الزمان يتمخض عن شيء

فاقلتم الخطا على مواقع أقدام رسولكم الأعظم وتلاميذه الأبطال ... فأحاطت بكم الأرواح والأطياف لتنظر براعم الربيع الجديد وتربيها ، وتعمل سحرها فيها

سيكون لكم في التاريخ الجديد ما كان لنقباء « بيعة العقبة » في التاريخ القديم ، يا نقباء الجامعة . فافهموا ما يشير إليه الزمان

***

وقفتم في مركز الدائرة التي يقف المسلمون على محيطها بالاعتقاد في الله الواحد، وبالمساواة في الشرع الواحد ، وبالأخوة في الدين الواحد ، وجباه المسلمين في المشرقين والمغربين تحيط بكم من جميع الآفاق ساجدة يصعد إلى الله الأعلى كلها الطيب وعفرها الطاهر ... وتسافر إليكم نظراتها مخترقة الحجب والسدود حتى ترى في الغيب ما ترون في الشهادة ...

تجردتم عن المخيط من الثياب وعن الزينة والنعومة والتطرية وخرجتم نساكا شعثاً غبراً طالت أظفاركم وتهدلت شعوركم ، وكل منكم ناحل ضامر في استغراق روحي عميق ، نظيف المادة طاهر الخلق ... إنه مشهد « سينمائي » جيل تمثلون به حياة الأنبياء .. فصلوات الله عليكم !

نقل الله لكم ناس الدنيا جميعها لتسمعوا النشيد الخالد يرتلونه مجتمعين بلغة « الكتاب » لغة الأمة الأمية الخالدة ... ولتعرفوا معنى التوحيد الذي أراد الإسلام أن يطبع الإنسانية عليه ... ولتروا الأحلام الكبيرة التي طافت بعقول الفلاسفة ، حقائق وأجساداً تمشي على الأرض في « المدينة الفاضلة » الآمنة ... أم القرى

هل يمكن أن يخرج مثل هذا أكبر فنان ؟ لا فالواقع هنا أكثر من الخيال ، فلا حاجة إلى الكلام أو الأصباغ ...

***

رأيتم بدء النور في « غار حراء ... » ، وبدء المحنة في شعاب مكة ... وبدء الفرج في « غار ثور » ، وبدء الأمل في « بدر » وبدء البذل في « أحد » ... وبدء النصر في « الحديبية » ، وبدء الوحدة في مكة

ورأيتم نهاية النبوات وخاتمة الرسالات تسكن أشباراً من الأرض القاحلة بعد أن صاحت في آفاق المشرق والمغرب والشمال والجنوب « بالكلمة العليا » التي قام عليها صلاح العالم ، وبأن « الزمن قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » فيجب أن تبدأ الانسانية عهداً جديداً

وحقيق على من رأى معالم البدء والنهاية من جهاد الرسول الأعظم أن ينقل صورها إلى كل نفس ، وأن يحافظ على حياتها دائماً في قلوب الناس وأفكارهم حتى لا يطمسها جهل أو عقوق

ومسألة المسائل أمامنا وأمامكم أن نؤمن وأن نعلم وأن نعمل .

فاعملوا لذلك عمل المنقذين الذين يدركون شقاء الناس والعلاج الذي في مواريث الرسول الأعظم

***

ليس يغنينا علم ولا فلسفة إذا لم يكن لنا إيمان ... لأن العلم والفلسفة من مخلوقات الانسان .. ولن يعبد الانسان ما قد خلق ويسعد به ... أما الإيمان فهو الكنز الخفي الذي ننفق منه سراً وجهراً ولا ينفد ، فنحن به في غنى دائم لأننا منه في فيض دائم . وقد تنحط الانسانية بالعلم ، وقد تهذى بالفلسفة وتتفرق بها شيعاً وقبائل ، ولكنها تبنى دائماً بالايمان وتلتقي في قدسه ورحابه

فزاوجوا بين ثلاثة الأقانيم هذه وأخرجوا منها معنى الحياة الخالدة للانسانية الفانية التي تأتي إلى الدنيا ولا تعرف لماذا أتت .. وتمضي إلى الأخرى وهي تحسب أن كل تاريخها في الأرض قبر من القبور ...

أشبعوا الكفايات الإنسانية الثلاث التي أشار إليها « برتاندرسل » .. أشبعو « كفاية الاعتقاد » بالدين ، وكفاية الإثبات » بالعلم ، « وكفاية التأمل » بالفلسفة حتى توجدوا النفس الكاملة

وتلك رسالة الجامعة وهي تدركها لا ريب .

« بغداد » عبد المنعم خلاف

ذكرى الهجرة

طريق الجهاد

للأستاذ محمد عبد الغني حسين

قم باسم ربك للجهاد وناضـــــلِ
واصدع بصوت الحقِّ صوتَ الباطلِ
لا ترهبنك من قريش عصبةٌ ... ما بين لاهٍ فى الضلال وغافلِ
أترك منازلهم وخلِّ ديارهم ... حُشْداً تعجُّ بجمعها المتطاول ..
دعهم يثيرون القلوبَ سخائما ... ويؤلبون عليك كلَّ مُصاول
ويجرِّئون عليك كلَّ مُسَفَّهٍ ... دانٍ إلى الإسفاف أرعنَ جاهلِ
هيهات ما لحقوا مَداك بطالع ... منهم ولا خَبأوا سناك بآفل
(الشِّرك) لم تفلح لديك شراكُه ... يوماً ولم تظفر لديك بطائل..

* * *

يا أيها الواعى رسالةَ ربه ... اللهُ سيفك فى القتال فقاتل
قوِّم بهذا السيف ركن المنحنى ... وأقم بهـــذا الرمح عودَ المائل
واهجم على الباغي بغير تهجم ... واحمل على العادى بغير تحامل
وأضئْ سبيل المشركين ولقِّهم ... وَحىَ النبيِّ وملهمات الـكامل
واطلع كما طلع الربيع مبشراً ... بالخير فى البلد الجديب الماحل
وانشر على الدنيا السلام وقل لها ... طيبى بأمن فى رباعك شامل
واجمع من الشمل المفرَّق أمةً ... قد أُحكمت بوشائج ووصائل
قامت إلى (كسرى) تدك بناءه ... وتهدُّ من (إيوانه) بمعاول
ومشت (لقيصر) فى علاه كأنها ... قدَرٌ يصول بعزة وتطاول
البَرُّ سيَّال الأباطح حافلٌ ... والبحر عالى المتن حشدُ الساحل

* * *

آذاك قومك فاحتملت لأجلهم ... عَنَتَ اللجوج وسَوْءَةَ المتحامل
وصبرت والدنيا تهونُ لصابر ... وحملت والبلوى تخف لحامل
يا أوسع الدنيا العريضة فكرةً ... أيضيق صدرك بالخيال الزائل؟
من كان فى الله الكريم جهادُه ... لم يَعْىَ مِن عبء الحياة بكاهل
عاداك أهلك فى الديار وأسرفوا ... واستنجد المخذول بالمتخاذل !
نَفَسوا عليك بأنفس مشبوبة ... تغلى بنار الحقد غلىَ مراجل
عادَوْك لما كنت أكمل عقدهم ... والناس أعداء المثال الكامل

* * *

إضرب بسيف الله كل منافق ... واغلب بمكر الله كل مخاتل
واصدع بأمر الله إن سبيله ... وضح المعالم مستقيم الداخل
واظهر فإن الله جارك فى الوغى ... وسهامُ قوسك فى الزحام النابل
لا تخش من تلك الجموع فإنها ... عند اشتباك الأمر جد قلائل..

* * *

يا أيها الهادى بذلت على رضًى ... والنصر عاقبة الكريم الباذل
وضحتْ دلائلُ من هداك وضوَّأتْ
(وقريشُ) سائرةٌ بغير دلائل
يمشون فى الجهل القديم وقيده ... وظلامه كالعاثر المتثاقل
ماضر لو تبعوا خطاك وأخلدوا ... للسلم في الربع الأمين الآهل؟
لكنهم رجعوا إلى أجدادهم .. ... واستعصموا منهم بركن مائل..

* * *

يا أيها المعصوم حسبك قَوْمةً ... لله مالقى الهدى من جاهل
مالت (قريشُ) إلى الهوى وتآمرت
وأســـــاء جاهلها الكبير لعاقل
كان «الإله» بها صناعة ناحت ... ووليد أنملة وطُعمة[1] آكل!
عميتْ محجاتُ البيان وأشكلت ... وتشابه الصوَّال بالمتصاول ...
وطغى على أرض الجزيرة جارف ... كالسيل فى إثر الغمام الهاطل
غطَّى على «قيس» فأغطش ليلها ... واجتاح ما أبقى الزمان (بوائل)
فوضى .. فما سعدوا برأى صالح ... فيهم ولا ظفروا بحكم عادل

* * *

جاهدت لله الكريم فلم تمل ... لهوًى ولم تجنح لرأى باطل
حتى إذا آذاك قومك لم تجد ... غير الرحيل فكنتَ أشرف راحل
يومٌ بدأتَ به الحياة جديدةً ... لله واستأنفتها مِنْ قابل ...
(الفتح) جاءك فيه بين أسنةٍ
(والنصر) جاءك فيه تحت عوامل[2] ..
ذكرى سنحييها لعل طريقها ... يهدى الشبابَ إلى الطريق الحافل!

محمد عبد الغني حسين
مدرسة المنصورة الثانوية

(١) كان بعض عباد الجاهلية صنع صنما من العجوة ثم أكله ...!
(٢) العوامل جمع عامل وهو قائم الرمح

الحكومة الإسلامية الأولى

للأستاذ الشيخ علي الخفيف
مدير المساجد



دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى ربه . فبدأ دعوته في مكة حيث نشأ ، ومكث بها داعياً ثلاث عشرة سنة تبعه فيها السابقون الأولون من المؤمنين وهم قليل. فأوذوا في أنفسهم وأموالهم وفتنوا في دينهم . وحيل بين الدعوة وبين ظهورها ونشرها ، كما منع الناس من أن يطرق الحق آذانهم أو تصل الذكرى إلى قلوبهم . وكان ذلك بأيدي أولى القوة والحماية ، وبأعين أهل الحكم والولاية . وكان المؤمنون يومئذ فئة قليلة لا يملكون قوة ولا يستطيعون دفاعاً ولا يجدون أمناً ولا عدلاً . فلم يجدوا سبيلاً لحياتهم إلا الهجرة من ديارهم

هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وهاجر إليها المؤمنون من قبله ومن بعده يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله ، فحلوا على الرحب والسعة بين إخوانهم وحلفائهم من الأوس والخزرج الذين آزروهم ونصروهم وأشركوهم في ديارهم وأموالهم ، وعقدوا معهم أخوة كوّنت منهم جميعاً جماعة لها من الأسرة توادها وتراحمها وتعاطفها واجتماعها على زعيم رءوف بها حريص عليها ، وفيها كل خصائص الدولة من التماسك والمنعة والخضوع لنظام واحد ، والسعي إلى غاية مشتركة ، والاختصاص بوطن معلوم

لقد كانت الهجرة النبوية بداية لعهد جديد افتتح به العالم طريق كماله الإنساني ، وحياته المفكرة ، ونظره المستقل ؛ فتغيرت لذلك وجهة الأمن ، وتبدل مجرى الحوادث ، وبدأ التاريخ فصلاً جديداً لتطور فكري منشؤه البحث والنظر ، وانقلاب اجتماعي أساسه المساواة والتعاون ، وانكشاف ديني غايته تزكية النفس وتكميل الخلق . ولم يكن للهجرة ذلك الأثر إلا لأنها هيأت للمسلمين قيام دولة إسلامية قامت بنشر الدعوة وحمايتها وإيصالها إلى من كان محجوباً عنها . ثم دافعت عن كل من دان بها ، فإذا الناس بهديها مهتدون ، وبنورها مستضيئون ، وبتهذيبها مفلحون، وبآثارها متمتعون

بدأت هذه الدولة يوم أن دخل النبي (ص) المدينة المنورة ، واستقر بها زعيماً للأوس والخزرج ومن هاجر إليهم من قريش ومن لازمهم من مسلمي العرب ، فتألفت منهم جماعة متحدة جعلت المدينة مقراً لها ووطناً ، واتخذت أوامر النبي (ص) ونواهيه نظاماً وحكماً ، فكانت منهم دولة يحكمها الرسول له فيها سلطان الحكومة كاملاً ؛ فهو صاحب الولاية العامة ، وهو مصدر التشريع ، وله القضاء وإليه التنفيذ ، يدير الشؤون ويقود الجيوش ، ويجبي الأموال وينفقها في وجوهها ويوزعها على مستحقيها ، ويعقد العهود ويقوم على الوفاء بها وينبذ إلى من نقضها ، ويحمل الناس على الخطة المثلى ويهديهم صراطاً مستقيماً

وكانت هذه الشؤون على عهد الرسول قريبة النور بسيطة التركيب رقيقة الحاشية قليلة العدد محدودة المكان ترجع في بساطتها ورقتها إلى ما ألفوه يومئذ من معيشة بدوية ، واعتادوه من عادات فطرية ، وتوارثوه من تقاليد طبيعية ، إذ كان نظام الحكم مستمداً من نظمهم المألوفة عندهم المعروفة لديهم ، ولكن استمداده لم يتجاوز الصور والأوضاع إلى ما كانت تحويه تلك النظم الجاهلية من هضم لحقوق الضعفاء ، وظلم للأبرياء ، وأخذ بالشبهات ، وتصديق بالخرافات ، واعتماد على الترهات ، بل كان خالصاً من الظلم ، نقياً من الدنس ، بريئاً من العيب ، صالحاً لزمانه ، ملائماً لأهله ، كفيلاً بتحقيق مصالحهم وتوفير طمأنينتهم وسد حاجاتهم . ذلك بأن أمره كان إلى الرسول يتلقى فيه وحي ربه ، ويهتدي في ترتيبه وتدبيره بهديه ، ويجتهد في تكميله بحكمته ونظره ، حسبما تقتضيه المصلحة والحاجة ، وعلى ضوء ما يدعو إليه التطور الجديد وتهدي إليه الحوادث

من ذلك يتبين أن نظام الحكومة الإسلامية الأولى لم يكن نتيجة خالصة لتطورات حكمية سالفة، ولا أثراً لثورات ماضية، كما لم يكن فكرة أفضت إليها أزمات استعصى حلها، أو حاجات تعذر قضاؤها، أو اختلاف في طرق الحكم لم ينته إلا بانكشافها، وإنما كان هدياً نبوياً وتوفيقاً إلهياً أخذ من النظم المألوفة والتقاليد الموروثة ما لاءم الفِطر وصلح على الزمن وأوصل إلى الغاية، ثم نفى منها الفاسد الخبيث مما ساير الأهواء وأورثته المطامع والشهوات، ولم يعلُ فيما ابتدعه من ترتيب ووضعه من أسس ومبادئ عن مستوى الز ن ومدارك العامة من أهله واستعدادهم الاجتماعي وبيئاتهم الحاضرة، بل راعى في تشريعه جميع ما يلابسهم ويتصل بهم من ثقافة وتربية وعادات ووطن ودين اختير لإعلاء كلمته ونشر دعوته، وكذلك راعى الزمن وسيرة الحوادث وتقلباتها، والجماعات وتطوراتها، والحاجات وتغيراتها

لهذا جاءت أسس الحكومة الإسلامية قواعد كلية ومبادئ عامة جديدة لا يبليها الزمن، ومستقيمة لا يقومها التطور، ومثبتة لا تنال منها الحوادث، صارمة صريحة صالحة لكل أمة، ملائمة لكل زمن، قائمة في كل مكان. وهذه بعض تلك القواعد نكتفي بذكر أهمها لأن استيعابها لا يتسع له المقام ولا يناسب الحال:

١ — العدل: أمر الإسلام بإقامته وكرر الأمر به في صور شتى تارة بذكره كقوله تعالى: «اعدلوا هو أقرب للتقوى»، وقوله: «وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل»، وتارة بالنهي عن الظلم وكراهة أهله كقوله: «إن الله لا يظلم مثقال ذرة، إن الله لا يحب الظالمين»، وقوله عليه السلام: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده»

٢ — المساواة: قرر الإسلام مبدأ المساواة في قوله تعالى: «إنما المؤمنون إخوة» وقوله: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم» وقوله عليه السلام: «المسلمون كأسنان المشط» وقوله: «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم»

٣ — التآلف والوحدة: دعا الإسلام في أكثر من موضع إلى الوحدة وعدم الفرقة، فقال تعالى: «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم» وقال: «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً» وامتن بها فقال لرسوله: «لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم» وقال عليه السلام: «المسلمون يد على من سواهم»

٤ — الشورى: حض الاسلام عليها فأمر بها نبيه بقوله: «وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله»، ومدح بها المؤمنين إذ وصفهم بها فقال: «وأمرهم شورى بينهم»

٥ — النصيحة: ويدخل فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد عني بأمرها الاسلام فجعلها من الدين، قال عليه الصلاة والسلام: الدين النصيحة، قالوا لمن يا رسول الله؟ قال لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم. ولعن الله بني إسرائيل لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، وقال لبئس ما كانوا يفعلون. وقال عليه السلام: إن الله يرضى لكم ثلاثاً ثم ذكر منها: أن تناصحوا من ولاه الله أمركم

٦ — التعاون: فقد أمر به الكتاب فقال: «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان»

على هذه القواعد التي تقيم الحكم على أساس متين وتكفل له تحقيق أكمل غاياته قامت حكومة الرسول (ص) في المدينة المنورة وفيما جاورها من الأماكن القريبة. ولبساطتها وقلة التفرع في شؤونها وبعدها عن التشعب وعدم سعة أرضها كان أمر تدبيرها في جميع نواحيها إليه صلى الله عليه وسلم مباشرة. وساعد في ذلك أن أصحابه كانوا لأوامره مطيعين، ولأقواله حافظين، وبأفعاله مقتدين، ينشدون العدل ويطلبون الحق، يرون سعادتهم في طاعته وترسم آثاره، وشقاءهم في مخالفته وتنكب طريقه

وكانت الولايات على عهد الرسول تكاد تنحصر في قيادة الجند وولاية الصلاة والتعليم، وولاية الصدقات والأموال، وولاية القضاء والمظالم، وولاية التشريع

فأما قيادة الجند فكانت اليه. يدعو إلى الجهاد ويعبئ الجيش ثم يقوده بنفسه، ويشرف على ترتيبه وخططه، فاذا لم يخرج معه عهد إلى بعض أصحابه في ذلك ممن عرف بالكفاية في الحروب والحذق بفنونها والبصر بمكايدها. ولم يكن

له عليه السلام جيش خاص يقوم بذلك دون بقية المسلمين ، بل كان جميع المسلمين جنداً محاربين لا يعفى من الخروج إلا من أقعده المرض أو الضعف المعجز ، أو لم يجد نفقة ، وكان فى ذلك حزنهم وعظيم كربهم ، حتى أنزل الله تعالى قوله : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل ، والله غفور رحيم . ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه ، تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون) . كذلك كان يعفى من الخروج من عهد اليه بعمل عام فى المدينة أو لحقته ضرورة لافكاك منها ، على أن يكون له سهمه فى الغنائم . وكانت نفقاتهم فى أموالهم وأرزاقهم من مال الله الذى آتاهم أو فى أموال المحسنين منهم ممن كانوا يخرجون عن بعض أموالهم لهذه الأغراض . ولم يكونوا محصورين فى ديوان لعدم الحاجة إلى هذا الإحصاء لأنهم كانوا جميعاً محاربين ، ولم تتخذ سجلات الجيوش إلا فى عهد عمر رضى الله عنه

وأما ولاية الصلاة والتعليم فكان عليه السلام يؤمهم فى المدينة ويعنى بتعليمهم دينهم وإرشادهم أشد عناية ، لأن ذلك كان من أهم أغراض الرسالة . كان يعلمهم بنفسه ، يقوم بذلك فى المسجد ، وفى كل مجلس يجلسه ، وفى كل مقام يقومه ، فى الحضر والسفر ، والسلم والحرب ؛ وكان يحض المتعلم من أصحابه على أن يعلم الناس ، ويشجع من قام بذلك بقيامه على حلقته فى المسجد . وكان يستعين فى ذلك بأمثل أصحابه يرسلهم إلى الجهات النائية أو القبائل التى دانت بالاسلام ليؤموهم ويرشدوهم ويعلموهم القرآن وأحكام دينهم . ومن عنايته صلى الله عليه وسلم بالتعليم أن جعل فداء المعسر من أسرى بدر إذا كان قارئاً كاتباً تعليم عشرة من غلمان المدينة

وأما ولاية الصدقات والأموال فكانت جبايتها إلى من يختارهم من أصحابه العالمين بأحكامها ، يجمعونها من أهلها فى بلادهم المختلفة ويحضرون بها إلى النبى صلى الله عليه وسلم فيوزعها لوقتها دون أن يدخر منها شيئاً . ولذا لم تكن لهذه الأموال على عهده خزائن لحفظها ولا سجلات لقيدها ، وإنما وجد ذلك بعد وفاته صلى الله عليه وسلم . وذلك يرجع إلى قلة ما كان يجمع منها على عهده وحاجة المسلمين إليه وقيامهم جميعاً بالدفاع والغزو . ولم تكن موارد هذه الأموال يومئذ تتعدى الصدقات والغنائم والجزية ؛ وكانت مصارفها ما بينه الكتاب الحكيم فى قوله تعالى : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل) وفى قوله تعالى : (واعلموا أن ماغنمتم من شىء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) .

وأما ولاية القضاء والمظالم فكانت إليه فى المدينة المنورة وما جاورها من الأماكن ، إذ لم تكن الخصومات كثيرة إلى الدرجة التى تدعو إلى الاستعانة بغيره . ولم تكن مع ذلك خصومات حقيقية ، بل كان أكثرها لايعدو أن يكون اشتباهاً فى وجه الحق ، فإذا بينه عليه السلام بعد الترافع إليه فما أسرعهم إلى الرضا والتنفيذ دون حاجة إلى دافع أو ملجىء . على أنه عليه الصلاة والسلام لم يستغن عن معاونة غيره فى الحوادث التى تتطلب الانتقال ، وفى البلاد النائية التى فتحها الله عليه كاليمن والبحرين ومكة وغيرها ، فولى فيها ولاة جمع لهم بين ولاية القضاء والصلاة والصدقات والحرب ، وربما فرق بينها حسبما تدعو إليه الظروف والمصالح

وأما ولاية التشريع فكانت له وحده لأنه إنما أرسل ليشرع للناس دينهم ويهديهم إلى ربهم ، ويسلك بهم طريق سعادتهم وفلاحهم ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، لا ينطق فيه عن هوى ، وإنما يصدر فيه عن الوحى ينزل به الروح الأمين على قلبه فيقرؤه على الناس قرآناً مبيناً ، أو يحدثهم به حديثاً نبوياً ، أو يعلمهم إياه بفعل يأتيه أمامهم فيقتدون به ؛ فإن لم يكن وحى صدر عن البحث والنظر ينتهيان إلى استنباطه الحكم المطلوب معتمداً فى ذلك على ما استقر فى نفسه من روح الوحى وما يُراعيه من مصالح الناس . وليس لغير الرسول أن يتولاه ، وليس له إلا الاجتهاد في تفهم النصوص وتطبيقها على الحوادث ، وإذا صدر منه ما أقره النبي كان شرعاً بإقراره عليه السلام لا بصدوره من صاحبه ؛ غير أن ما كان يليه الرسول أو يأتيه لم يكن كله دينا بل كان للدنيا منه كثير ؛ وما شرعه فى النوع الأول يجب اتباعه

ولا يجوز فيه تغيير ، وما اتبعه فى النوع الثانى يصح أن يناله التغيير والتبديل تبعاً لتطور الزمن وتغير الناس واختلاف العادات ، لأن الشأن فيه أن يسير مع المصلحة ويتقيد بالمنفعة ، فجاز أن يتسع للبحث وأن يتقبل الخلاف . وكثيراً ما عدل الرسول عن رأيه إلى رأى أصحابه ، وغير من رأيه حين اقتضت المصلحة التغيير . وقد ولى عليه السلام كثيراً من أمور الدنيا بحكم ولايته العامة فسلك فيها سياسة دعت إليها حاجات حاضرة وعادات قائمة ومصالح يومئذ مطلوبة ، فإذا ما انتهت تلك الحاجات وتغيرت تلك المصالح وتطورت تلك العادات كان على المسلمين من بعده أن يغيروا فيها تبعاً لذلك ؛ وقد حصل منهم ذلك فعلا بعد وفاته صلى الله عليه وسلم فى كثير من النظم

هذه هى أهم الولايات على عهد الرسول ولم تقتصر أعمال الحكومة فى عهده عليها بل تجاوزتها إلى كثير من الأعمال التى دعت إليها الحاجة واقتضاها ضبط الأمور وتنظيم العمل مثل الكتابة ، والمحاسبة ، والترجمة ، وحفظ الختم ، وحفظ السر ، والعسس بالليل والحراسة فيه ، فكان لكل هذه الأعمال عمال من أصحابه يقومون بها تحت رقابته وارشاده

كان عليه الصلاة والسلام المرجع فى كل هذه الأعمال يقوم على تدبيرها وتصريف شؤونها بما يوحى إليه فى ذلك من ربه أو بما يهديه إليه رأيه بعد بحث ونظر ومشورة يختص بها أولي الرأى والبصيرة من صحابته كحمزة بن عبد المطلب وأبى بكر وعمر وعلى وغيرهم ؛ فكان عليه السلام يستشيرهم فى كثير مما يعن من الأمور التى لم ينزل عليه فيها كتاب ، وبخاصة ما كان منها متصلاً أو متعلقاً بالغزو والدفاع ، فاستشار الأنصار يوم بدر فى قتال المشركين ، فقال له سيد الأوس سعد بن معاذ : « والله لو استعرضت بنا هذا البحر لخضته لنخوضنه معك » . وأخذ برأى الحباب ابن المنذر الأنصارى حين رآه ينزل عند أدنى ماء من بدر فقال له : « أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر أم هو الرأى والحرب والمكيدة » فقال له عليه السلام : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » فقال : « يا رسول الله ليس لك هذا بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فننزله » فقال عليه السلام : « قد أشرت بالرأى » ثم استشار أصحابه فى أسري بدر وأخذ برأى من أشار عليه بقبول الفداء فعاتبه الله فى ذلك وأثره . واستشارهم فى إطلاق زوج ابنته زينب ورد قلادتها التى أرسلت بها فداء إليها . واستشارهم فى غزوة أحد أيقيم بالمدينة حتى يلقى العدو على أبوابها أم يخرج إليه ، وكان يرى المقام، ولكنه أخذ برأى الجمهرة منهم. واستشارهم فى طريقة الدفاع عن المدينة يوم الخندق. ولو أردنا أن نعدد ما استشار فيه عليه السلام أصحابه لطال بنا القول وما أحصينا أكثره ؛ وإن ذلك ليكفى فى أنه عليه السلام وهو الموحى إليه المعصوم كان يعتمد فى حكومته على مشورة أصحابه يبحث معهم الأمر ، يحزبهم ويناقشهم فيه حتى ينتهوا فيه إلى الحق ، فلا يكون لأحد بعد ذلك خلاف . وذلك ما أدبه به ربه عز وجل بقوله : «وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله » . وكان عليه السلام إلى هذا عادلا لا يميز بين أصحابه ولا يكرم عليه من بينهم قريب لقرابة أو ذو جاه لجاهه ، بل أنه ليسوى بينهم وبينه فيرضى أن يقاد من نفسه . لقد تقدم إليه بعض صحابته يوماً ما بشفاعة فى قطع يد امرأة مخزومية فقال عليه الصلاة والسلام : أشفاعة فى حد من حدود الله ؟ والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها . ولقد أتاه يوماً رجل يتقاضاه ديناً فأغلظ له ، فهم به بعض أصحابه ، فقال عليه السلام : دعوه فان لصاحب الحق مقالا . وقال له أحد الأعراب وقد رآه يقسم بعض الغنائم : إعدل . فأجابه بقوله : فمن يعدل إن لم أعدل ؟ خبت وخسرت إن لم أعدل . ومر عليه السلام بسواد بن غزية فى غزوة بدر وهو خارج عن الصف فضربه بالقضيب فى بطنه وقال له استقم يا سواد . فقال سواد أوجعتنى يا رسول الله وقد بعثت بالحق والعدل فأقدنى من نفسك . فكشف له الرسول عن بطنه وقال : استقد يا سواد . فاعتنقه سواد وقبل بطنه وقال إنما أردت أن يكون آخر العهد أن يمس جلدى جلدك ؛ فدعا له بخير

يرى مما ذكرنا أن حكومته صلى الله عليه وسلم كانت شورية ما أمكن أن يكون للمشورة محل ، لأنها كانت فى كثير من الأمور تستند إلى الوحى ، ولم تكن عصمة الرسول وما أعطيه من الدرجة الرفيعة لتمنعه من أن يستشير أصحابه ، وذلك ليعلمهم البحث ويهديهم إلى النظر الصحيح ، وإلى وسائل الحكم الصالح المنتج ، وليشعرهم بوجودهم ويعودهم تحمل نتائج بحثهم وتفكيرهم

وفى ذلك تطبيب لنفوسهم وتوفير لمرضاتهم . وقد كانت رياستها إليه وحده بحكم رسالته واختياره من ربه لإظهار دينه ونشر تعاليمه . فلما توفى كان لا بد للمسلمين من أن ينظروا فيمن يخلفه فى تلك الرياسة العامة ، فكان أول من بادر إلى التفكير فى ذلك جماعة الأنصار من الأوس والخزرج ، فاجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة ، ولم يكد يلتئم اجتماعهم حتى وصل نبؤه إلى أبى بكر وعمر فأسرعا إليهم ، وكان بينهم نقاش وجدل فيمن هو أولى بالخلافة . أيليها أحد الأنصار أم أحد المهاجرين الأولين من قريش ، أم تكون شركة بينهم من الأنصار أمير ، ومن المهاجرين أمير ؟

لم يكن القوم يومئذ داعين إلى عصبية ولا طامعين فى تغلب وجاه ، ولا نافسين بعضهم على بعض مراكزهم ، ولكنهم فوجئوا بوفاة الرسول دون أن يستخلف أو يسن لهم فيه سنناً أو يشرع لهم فيه شرعاً ، يستبين به وجه الحق ويتميز به الخليفة ؛ فأسرعوا إلى بحث ذلك خشية الفرقة ، يبتغون الحق ، ويتبينون الصواب ، ويستجلون المصلحة ، فما إن خطبهم أبو بكر حتى ظهر لهم جميعاً الحق واندفعوا وراء عمر رضى الله عنه مبايعين أبا بكر ، حتى لقد سبقه بعضهم إلى يده وإن كان أسبقهم إلى طلب بيعته . لقد اتفقوا فى ذلك الاجتماع على أن يكون خليفة يخلف الرسول إمامته ، وعلى أن يكون الخليفة واحداً لا متعدداً ، وعلى أن يكون أبا بكر رضى الله عنه . وما ذاع ذلك حتى كان فيه رضا أولى الرأى من بقية المهاجرين والأنصار ، فأقبلوا على أبى بكر بالمسجد مغتبطين مبايعين ، ولم يتريث إلا بعض بنى هاشم ، تباطأوا ثم بعد ذلك بايعوا ، ولم يكن تباطؤهم مانعاً دون تمام خلافته وأخذه فى مباشرة أسبابها فى سيره فى حكومته على نهج الرسول

ولقد انتهى المسلمون فى أمر إقامة الخليفة إلى نتائج قيمة وثمرات صالحة طيبة ، أضاعها الخلف فحرموا طيباتها ، ومنوا بشرور تجنبها وويلات مجافاتها ، فأصابهم ما أصابهم مما هم فيه من الضعف والمهانة حتى أصبحوا أمماً مستعبدين أو جماعات متخاذلين

أولها — أن الخليفة نائب عن الأمة وولايته مستمدة من ولايتها ، وسلطانه فرع من سلطانها ، فقد اختار المسلمون أبا بكر بعد وفاة الرسول من بينهم وأقاموه خليفة عليهم ليسوسهم ويدبر أمورهم وفق كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومهتدياً فى ذلك بهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعتضداً بمشورة أولى الرأى منهم ، فهو وكيلهم فى ذلك ومعقد نظامهم ورأس وحدتهم ؛ وهو فى هذا الأمر كما كان الرسول ، غير أنه لا يأتيه الوحى ولا يزيد في الدين ولا ينقص منه ، ولا يمتاز فيه عن سائر أمته إلا بما قد يمتاز به أى فرد من أفرادها من سعة فى العلم وزيادة فى الفقه وتعمق فى النظر وإجادة فى الاستنباط

ثانيها — أن الخليفة لا يكون إلا واحداً حتى لا يكون تعدده مثار خلاف أو فرقة بسبب ما قد يحدث لكل من شيعة تشيع له أو حزب ينتصر لرأيه ، وحتى لا يكون فى تصريف الأمور اختلاف يعوق دون الاسراع في تدبيرها وتلافى الأخطار التى قد تتعرض لها الدولة

ثالثها — أن اختيار الخليفة وانتخابه ليس إلا لمن يقدر خطر الخلافة ويزن نتائجها ويعرف ما يجب أن يتوفر فى الخليفة من جدارة وأهلية وقدرة وكفاية . وهؤلاء هم أولو الرأى فى الأمة المعروفون فى الصدر الأول بأهل الحل والعقد ؛ أما غيرهم فالشر كل الشر فى إيكال ذلك إليهم ، لأنهم يستمعون لكل صيحة ، ويهيمون مع كل ناعق ، يخدعهم الرياء والسمعة ، ويغريهم الطلاء والبهرج ، وتطمعهم الأكاذيب ويعميهم الجاه والثراء . وأهم ما يلاحظ اليوم على المجالس النيابية من عيوب عدم كفاية أعضائها ، ووجودهم إنما يرجع إلى سوء اختيارهم ، وذلك بإيكاله إلى من لا يحسنه

رابعها — خضوع الأقلية فى ذلك لرأى الأكثرية حتى لا يتفرق الأمر وينقطع الحبل

وهناك نتائج أخرى لا يتسع المقام لتفصيلها ، ولذا نكتفى بهذا البيان عسى أن يكون فاتحة بحث جديد فى تفصيل أسس الحكم الاسلامي ، ومبدأ اتجاه فى إقامة الحكومات الاسلامية اليوم على سنن الحكومة الاسلامية الأولى حتى يعود للمسلمين على أيدى حكوماتهم ما كان لهم أيام حكومتهم الأولى من عزة ومجد وسؤدد .

على الخفيف

محمد الزوج

مؤامرة في بيت الرسول

للأستاذ محمود غنيم

— ١ —



دنت الرءوس من الرءوس، وهمست الأفواه في الآذان أن رسول الله غاضب. ورسول الله غاضب حقاً، غاضب على نسائه جميعهن حتى عائشة — وكم لعائشة من دالة عليه! — لقد كان يطوف بأبوابهن أصيل كل يوم، فما باله الآن في عزلة تامة لا يطرق لإحداهن باباً، ولا يكشف لها حجاباً؟

طال غضب الرسول، وطال احتجابه، فلم يعد الأمر سراً يحبس في الصدور، أو يتناجى به اثنان في همس، ولكنه تجاوز الصدور إلى الشفاه، والإسرار إلى الإعلان، والاثنين إلى الجماعة، حتى أصبح حديث الأندية في يثرب، وموضع التكهنات والتخرصات؛ والغمرة لا تنجلي، والغمام يتراكم في الأفق، واللازبة تشتد، حتى ترددت على الألسن كلمة «الطلاق» بما تحمل في طياتها من بشاعة وهول، وحتى أشيع أنه على وشك الوقوع، أو أنه وقع فعلاً وقضى الأمر

ولكن أين أبو بكر وعمر؟ أين كبار المهاجرين والأنصار؟ ألا يقابلون الرسول فيضعوا حداً لهذه التخرصات؟ كلهم تحدثه نفسه بذلك، ولكنه لا يقدم عليه. إن رسول الله ملء العيون، ملء القلوب، فلا يكلَّم إلا حين يبتسم؛ ولكنه عابس الوجه متغضن الأسارير، فمن هو الشجلع الذي يغامر بنفسه في هذا الميدان؟ لهم أن يخوضوا المعامع، ويقتحموا على اليهود حصونهم، ويرووا ذباب سيوفهم من دماء المشركين في بدر؛ أما أمام الرسول فهم عيون خاشعة، ورءوس منكسة، وأفئدة هواء

إيه يا نساء النبي، ويا أمهات المؤمنين، ما فعلتن برسول الله؟

— ٢ —

عجباً لرسول الله! تجبى إليه الأموال من كل فج في جزيرة العرب، ويضع يده على كنوز خيبر وقريظة والنضير، وتنتهب خزائن اليهود في لظى الحروب التي شنها عليهم، ثم يعود إلينا صفر اليد، طاوي البطن، ونحن نشاركه الطوى، ونقاسمه ألم الحرمان، أيرضيك هذا يا عائشة؟ وأنت يا حفصة؟ أجيبي يا سودة. وأنت يا أم سلمة مالك لا تتكلمين؟

على هذا النحو من الحديث جرت الألسنة في بيت عائشة، وقد انعقد المؤتمر من أمهات المؤمنين، وكلهن تائق إلى شيء من الترف يرجو أن يساهم فيما أفاء الله على رسوله، بعد أن حملت إليه الجزى، ووصلت إليه هدايا أرباب التيجان؛ فإذا هو يبعثر النضار ذات اليمين وذات اليسار، ثم يقنع بالعيش الطليف، والمأكل الطفيف، وينام بجانب زوجاته على بساط من أدم حشوه ليف

أوَليس من حق نساء النبي أن يطمحن إلى ما هو فوق هذا المستوى من المعيشة، ويتطلعن إلى لون آخر من ألوان الحياة؟ ولم لا يفعلن وفيهن بنت أبي سفيان، وأبو سفيان زعيم قريش، وفيهن بنت حيي بن أخطب، وحيي كبير بني النضير، وفيهن غير هاتين ممن كن يرفلن في مطارف النعيم، ويجررن أذيال الرفه في بيوت آبائهن؟ فكيف لا يتبرمن بهذا اللون من الحياة الذي يعالجنه في بيت رسول الله؟

ولقد كن يلتمسن له شيئاً من العذر لو لم يكن هذا الشظف من صنع يده، ووليد زهده، وعزوفه عن الدنيا؛ أما والأمر ليس كذلك، فما هن والصبر عليه؟

لقد اتسعت آفاق معلوماتهن عن الدنيا، وعرفن كثيراً عن قيصر في الروم، وكسرى في الفرس، والنجاشي في الحبشة، والمقوقس في مصر؛ وهن يرين أنفسهن تحت أمير تدين له جزيرة العرب بالطاعة لا يقل خطراً عن هؤلاء الأمراء

وهل المرأة إلا المرأة منذ تحدرت من أعماق التاريخ إلى أحدث عصور المدنية والنور؛ امرأة البدو، هي هي امرأة الحاضرة؛ همها الأول زينتها. هي من ناحيتها تريد أن تساعد الطبيعة التي

سلحتها بالنعومة والجمال أداتي جاذبية وإغراء لحفظ النسل ، كما سلحت الزهرة بطيب العرف وألوان الطيف ، حتى تجتذب الطيور فتكون رسلاً تحمل حبوب التلقيح

لم يكن بدعاً إذن من نساء الرسول أن يأتمرن به على هذا النحو ، حتى إذا دخل عليهن أحطن به إحاطة السوار بالمعصم ، وانطلقت ألسنتهن في حماس

ولكن سيد الرسل يعتصم بسيد الأخلاق ، ويقابل الأمر بابتسامة هادئة ، ثم ، ثم لا يفعل شيئاً

— ٣ —

ما بال رسول الله يبطىء في بيت زينب ؟ ألم يأته نبأ عائشة وسائر زوجاته وهن ينتظرنه على أحر من الجمر ، ويعددن له الثواني والدقائق ؟

اعتاد الرسول أن يطوف ببيوت نسائه غب صلاة العصر ، ولكنه اليوم يحتبس في بيت زينب زمناً طويلا ، وعقارب الغيرة تنفث لعابها في نفوس عائشة وصواحبها . وهل تسلم المرأة من الغيرة وإن كانت زوجة رسول ؟

انعقد المؤتمر في بيت عائشة ، وطرح المسألة على بساط البحث ، ثم قرر قراراً طابت به نفوس الجميع

لقد تعودت زينب أن تسقي الرسول عسلا ذا رائحة حادة ، فما ضر المؤتمرات أن يتخذن من حلاوة هذا العسل أداة انتقام مرة ، وسلاحاً يشهرنه في وجه الرسول ؟ إيه يا حفصة ! إيه يا سودة ! إذا انصرف الرسول عن زينب إلى أيتنا فلتبد شيئاً من الاشمئزاز ، ولتقل إني أشم ريح مغافير[1] . ونساء الرسول يعلمن مبلغ حرصه على النظافة ، وعلى طيب نكهة فيه ، ويعلمن أن الطيب إحدى ثلاث حُبِّبْنَ إليه ، وأن النظافة وتطهير الجسد حجران يقوم عليهما دينه الجديد ، فما ضرهن أن يستغللن هذه الناحية في هذا الظرف ؟

ثم يتم الرسول طوافه فاذا برائحة المغافير تدخل كل أنف ، وتخرج من كل فم ، فيحرمه على نفسه ، ثم ينكشف له السر

(١) المغافير : طعام حلو حاد الرائحة كريهها كان مألوفاً عند العرب

ولكن سيد الرسل يعتصم بسيد الأخلاق ، ويقابل الأمر بابتسامة هادئة

— ٤ —

زادت الصَّلاَّت واحدة بميلاد الطفل إبراهيم ، وارتفعت مارية الجارية المصرية إلى مصاف زوجات الرسول من الحرائر العربيات . ها هو ذا يأمر أن يقام لها بيت يتاخم بيوت نسائه ، بعد أن كانت تقيم بمكان ناء ، وينظر اليها نظرة القرين إلى القرين ، لا نظرة السيد إلى ملك اليمين . وها هو ذا يغدو ويروح وطفله على ذراعه يدلله ويناغيه ، ويعطر جبينه بوابل من قبلات لا تستشعر لذتها إلا شفاه الآباء ، ولم لا يفعل ؟ أليس محمد بشراً قبل أن يكون رسولا ؟ لقد هدف محمد للستين أو نيف عليها وليس له ابن من صلبه ، ولقد تزوج بعد خديجة غير واحدة فلم تبشر إحداهن بخصب . وها هو ذا يرى حياته تبدأ من جديد ، وصفحة طفولته تنشر من جديد في شخص الطفل ابراهيم . فلم لا تقر عينه بطفله ، ويرفع أمه إلى مقام الحرية من أجله ، ودين محمد يمقت الرق الذي ورثه جيله عن القرون البائدة ، ويتشوف إلى الحرية ويتمحل لها الأسباب ؟

ولكن عقارب الغيرة تعاود دبيبها من جديد . لقد كانت كل واحدة من أمهات المؤمنين تشتهي أن تكون أم الغلام ، فأبت المقادير عليهن ذلك ، ومنحته جارية لا تمت إلى العرب بنسب

لا غرو أن يحدث ذلك في نفوسهن غيرة ، وإن شئت فقل حفيظة على أم ذلك الغلام . ولعل تلك الحفيظة تجاوزت أم الغلام إلى الغلام نفسه . ولعلهن أسرفن في ذلك حتى هممن بأمر جلل ، هممن أن يشككن الرسول في صحة نسبة الغلام إليه حتى أنه ليدخل به يوما على عائشة ، فيوجه نظرها إلى ما بينهما من شبه ، فتهز كتفيها هزة النفي والانكار ، بل تصرح بذلك في مواجهة الرسول ، فلا يسعه إلا أن يرميها بالغيرة ، ثم ينصرف

بيد أن الأمر لم يقف عند هذا الحد

هذه حفصة تغادر بيت بعلها إلى بيت أهلها لبعض الشؤون . وهذا رسول الله في بيت حفصة . وهذه مارية أم الغلام تدخل عليه ، ثم يكون بينهما ما يكون بين المرء وزوجه ، ولكن حفصة تعود في وقت كان من الخير ألا تعود فيه ، فتري مشهداً مريباً ،

أو تمده هي مربياً ، فتعاتب الرسول قائلة : « لولا هواني عليك ما فعلتها » ولكن الرسول يهدىء من روعها ، ثم يعتذر ، ثم يستكتمها الأمر ، فتعد ، ولكن متى كان للمرأة — وإن كانت زوجة رسول الله — أن تمسك لسانها عن سر إلا كما يمسك الماء الغرابيل ؟

أصبح الرسول فاذا سره أذيع من يوم حليمة ، وإذا سائر نسائه يتحدثن به ، ويعلقن عليه بما يحلو لهن

وهنا لا يعتصم سيد الرسل بسيد الأخلاق ، ولا يبتسم ابتسامته الهادئة ، ولكن يغضب الرجل الحليم ، وتكون القطرة التي فاضت بها الكأس ، والقشة التي قصمت ظهر البعير

لا بد من درس قاس يقف هذا التيار ، ويعيد إلى منزل الرسول صرح السعادة المنهار ، ثم ، ثم تكون العزلة

ولكن ، ليت شعرى إلى أى حد كان تأثير هذا الدرس فى نفوس أمهات المؤمنين ؟

— ٥ —

أرأيت ندامة الكسعى على قوسه ؟ أرأيت رسول الله وقد فتر عنه الوحى ثلاث سنوات ، ذهبت فيها نفسه حسرات ، حتى ليكاد يردى نفسه من شاهق ؟

تلك كانت حال نساء الرسول مدة عزلته ـ شهر أو قرابته ـ يقرعن السن ، ويعضضن البنان ، وتتنصل كل منهن ، وتلقى إحداهن التبعة على غيرها ، وينحين باللائمة على أنفسهن . مابالنا نحرج رسول الله ؟ أيكون هذا جزاء نصير المرأة من المرأة ؟

أى والله ما برزت شخصية المرأة ، ولا أخلى لها مكانها فى المجتمع إلا محمد ؛ محمد الذي انتشل المرأة من الهوان الذى تحدر إليها من أعماق التاريخ . لقد حرم وأدها صغيرة ، وجعل لها حق اختيار الزوج كبيرة ، وجعل لها نصيباً من الميراث بعد أن كانت العرب لا تورث إلا من يحمل السلاح ، ويقدر على الكفاح من الرجال دون النساء ، بله الأطفال

أما كانت المرأة عند الأثينيين معدودة من سقط المتاع ، حتى أنها لتباع وتشرى فى الأسواق ؟ أما كان الأسبرطيون يبيحون لأى عدد من الرجال الاشتراك فى زوجة واحدة ؟ أما كانت بعض طوائف اليهود يعتدون البنت فى مرتبة الخادم ، ويجيزون لأبيها بيعها ، ويحرمونها الميراث إلا عند فقد الذكور ؟ أما كانت المرأة تعتبر عند بعض الجاهلية ميراثاً يورث ، حتى أن المرأة لتؤول ملكيتها إلى ابنها بعد وفاة زوجها ؟

كان طبيعياً أن يذكر نساء النبي ذلك كله ، وأن يتحدثن مدة عزلة الرسول التى كان وقعها شديداً على أنفسهن . وكيف لا تكون كذلك وقد كان الرسول فى بيته نمطاً وحده ، يعامل نساءه على أسلوب لم تألفه العرب ؟ هو فى بيته مثال الدعة والأريحية كثير التدليل والمداعبة لنسائه ، حتى ليجترئن عليه بما لا يجترئن به على آبائهن وإخوتهن . قال عمر : « راجعتنى امرأتى فى شأن من الشؤون ، فانتهرتها فقالت : عجباً لك يا ابن الخطاب ! ما تريد أن أراجعك فى أمر وإن ابنتك لتراجع رسول الله حتى يظل يومه غضبان »

كان النبي صاحب الغزوات والملاحم ينقلب فى بيته ملاكاً وديعاً ، حتى أنه ليصلى فيتسلق ظهره الحسن بن على ، فيطيل سجوده ، حتى يترجل الغلام من تلقاء نفسه . وكان رحيما بنسائه ، حتى أنه لفى بعض رحلاته ، بمعض زوجاته ، فيغذ قائد راحلتهن السير ، فيقول له : « رفقاً أنجشة[1] بالقوارير »

هكذا كانت معاملة النبي لنسائه ، فمن لهن بالجلد على جفائه ؟ ومن الذى يخرجه من عزلته ، ويعيده إليهن سيرته الأولى ؟ إنه عمر

— ٦ —

ما كان عمر ليسعده التجلد على عزلة النبى أكثر من شهر ؛ عمر الرجل الصريح ، الشجاع فى الحق ، الذى ليس أقرب إليه من حسامه ينتضيه فى كل موقف ، والذى تسلل المسلمون إلى المدينة لواذاً نخرج هو جهاراً نهاراً يقول : من أراد أن تثكله أمه ، أو ييتم ولده فليتبعنى »

أخذ عمر سمته إلى مُعتَزَل الرسول لا يلوى على شىء ؛ حتى إذا كان منه عن كثب نادى رَباحا غلام الرسول : يارباح

(١) أنجشة : اسم قائد الراحلة ، وهو رجل حبشى

استأذن لى مولاك فى الدخول ؛ بيد أن الغلام يدخل ثم يعود بلا إذن . فيعاود عمر الكرة ، فيعود الغلام بلا إذن ، فيهتاج عمر ، فيقتحم المكان داخلا قائلا : يا رسول الله ، إن كنت ظننت أننى جئت من أجل حفصة ابنتى ، فوالذى بعثك بالحق ، لولا رهبتى إياك لوجأت عنقها ، ولكنى أريد أن تضع حداً لتخرصات المتخرصين

ثم يلتفت عمر ، فلا يرى غير قبضة من شعير ، وجسد طاهر أثر فيه الحصير ، فيبكى حتى تخضل لحيته ، ولكن رسول الله يهش لعمر ، ويهدئ من روعه ، ثم يغادر المكان إلى حجرات أمهات المؤمنين ، ثم يأمر بهن ، فيدخلن واحدة واحدة ، ويبدأ بعائشة :

إيه يا عائشة ! إنه قد ألقى إلىّ قول كريم « يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما ... الآيات » فأيهما تختارين ؟

أيهما تختار ! وهل يحتاج الأمر إلى الروية وكد الذهن ؟ ما كان لعائشة أن تختار غير الله ورسوله ، وما لغيرها من أمهات المؤمنين أن يخالف عائشة فى الاختيار

وبذلك عاود بيت النبي صفاؤه وسكونه ، وانقشعت عن أفقه تلك السحابة التى أظلته ردحاً من الزمن ، وكان الدرس ناجحاً

— ٧ —

وبعد ، فإنما أردت بهذا الفصل أن أعرض لحياة النبى المنزلية ولبعض المشاكل الزوجية التى كانت تعترضه ، ولأسلوبه فى معالجة تلك المشاكل ، حتى نعرف محمداً الزوج ، كما عرفنا محمداً القائد ومحمداً المشرّع ، وما أكثر عظمة النبى التى تحتاج إلى الدرس والتمحيص . على أن الناحية الزوجية ليست أقل خطراً إذا لاحظنا أن حياة الرسول فى بيته كانت بمثابة الحجر الأساسي لكل بيت مسلم ، وأن الأمة تتكون من مجموع بيوتها

ولعل القارئ لا يرتاع لتلك المؤامرات التى كانت تدبر فى بيت الرسول ، فقد تكون هينة لينة إذا قيست بما اعتيد تدبيره فى بيوت الأمراء من المؤامرات التى تنضح بالدماء

ولقد كانت حياة النبى فترة انتقال فى كل ظاهرة من ظواهر الحياة العربية ، وكانت المرأة حديثة عهد بالحرية . وقلما يحسن استعمال الحرية من هو حديث العهد بها ، كما يحسنه الناشئ عليها الدارج فى بحبوحتها

على أن توفيق النبى فى إدارة شؤون بيته لم يكن دون توفيقه فى حروبه ؛ ولعل مما يسترعى النظر أن كثيراً من القواد البارزين الذين عرفوا كيف يديرون دفة السياسة فى أممهم ، قد عجزوا عن إدارة بيوتهم . ولست أحدثك عن امرأة نوح أو امرأة لوط اللتين ورد ذكرها فى التوراة والقرآن ، ولكنى أستطيع أن أذكر لك طائفة من أبطال التاريخ الحديث . ولعل من هؤلاء « نابليون » عاهل فرنسا و « مصطفى كمال » عاهل تركيا

ولعل حكمة الرسول فى إدارة شؤون بيته تتجلى بشكل أوضح ، إذا لاحظت أن سقفه كان يظل أمشاجا من الزوجات ، تفصلهن عنه فوارق بعيدة المدى ، كما تفصل بعضهن عن بعض أمثال تلك الفوارق ، فلقد كان فيهن من تصغره بنيف وأربعين عاما ، ومنهن ثيبات كن تحت أزواج قبله ، وكان بينهن من اعتنقت الاسلام بعد اليهودية ، ومن اعتنقته بعد المسيحية ، ومن اعتنقته بعد الوثنية ، وكان منهن ابنتا أصفى أصفيائه أبى بكر وعمر ، وابنة أعدى أعدائه أبى سفيان ، إلى غير ذلك من الفوارق التى تجعل إدارة دفة البيت أمراً عسيراً

وإنى لأرجو بعد هذا ألا أكون قد تدخلت بين الرسول وزوجاته إلا بمقدار ما صورت العبرة . والحق أني أشعر فى قرارة نفسى أن الموضوع وعر شائك ، ولعل وعورته هى التى حببت إلى اقتحامه ، وإن كنت أخشى أن يقال لى ما قالت « أم سلمة » أم المؤمنين لعمر بن الخطاب ، حينما ذهب إلى بيتها ينحى عليها باللائمة فى هذا الشأن فأجابته : « عجباً لك يا ابن الخطاب تدس أنفك فى كل شيء ، حتى فيما بين الرسول وزوجاته ! » فكأنما صبت عليه ذنوبا من ماء بارد ، فغادر بيتها ، وانصرف ، يقتلع رجليه من الأرض اقتلاعاً

« كوم حمادة » محمود غنيم

يسر الإسلام

للأستاذ الشيخ عبد العزيز البشري



لقد يملك كثرة الناس العجب من تمام عظمة الاسلام في هذا الصدر اليسير من الزمن وبلوغه مابلغ في غير عنف ولا مطاولة يكافئان هذا المجد كله ولا معظمه. ولست الآن بصدد ترديد ما أثر التاريخ ولا ما دوّن المؤرخون في فتوح الإسلام وانتشاره السريع العجيب في قواصي الأقطار وأدانيها، وما كان لأهله في كل مكان من منعة وعزة وسلطان، فذلك شيء قد فاضت به الكتب، واحتفلت بتفصيله الأسفار الضخام؛ وبحسبي — فيما جردت له هذا الكلام القصير — أن ألفت القارئ إلى أن أمة بادية جاهلة صائلة يكون منها في هذا الزمن ما كان من العرب بفضل الاسلام. هذا فتح، وهذه سيادة، وهذا تعمير وتثمير، وهذي علوم وفنون وصناعات، وهذي حضارة لا تتعلق بأذيالها أعلى حضارات التاريخ!

لعمري ما هذا كله؟ وكيف كان؟ وكيف تأتى بهذه السرعة لدولة الإسلام؟

اللهم إن أوثق يقيني أن مرجع هذا أجمعه إلى ما في هذا الدين من يسر عظيم

الدين يسر، وبفضل هذا اليسر كان من دولة الاسلام ما كان!

ستقول: إن الإسلام ما ساد إلا لأنه حق، وأقول لك: وهل ثمة أيسر من الحق أو أعسر من الباطل؟ ومتى احتاج الحق في تجليته إلى عنف أو إلى جهد؟ إن الباطل هو الذي يحتاج إلى هذا وهذا، وقل أن يثبت له مهما قرار!

وإذا قيل إن الإسلام دين الفطرة، فمعنى هذا أنه دين اليسر، لأن ما جاء على حكم الفطرة لا عسر فيه ولا مشقة. أما ما جاء على جهة التكلف والتصنع فذلك الذي يقتضي كثيراً أو قليلاً من الجهد والعناء

الدين يسر، وإن هذا اليسر ليغمره من جميع أقطاره. أرأيت أيسر من دعوته: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله). وأي شيء لعمري في هذه الجملة ينشز على الفهم؛ بل أي شيء فيها يتعثر فيه الذهن وتضيق عنه مساحة أدنى التفكير؟

هذا اليسر في هذا الحق الذي ليس وراءه حق، هو الذي سلك أقطار الأرض بدعوة الاسلام، واستفتح لها قلوب الأمم والجماعات في غير علاج ولا استكراه!

هذه الدعوة اليسيرة الواضحة لقد تغنت بنفسها عن العنف والاضطرار: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي). بل لقد استغنت عن استدراج الناس بفنون الإغراء والاستهواء

وهذه تكاليف الاسلام، ما قامت فيها مشقة إلا قامت بإزائها رخصة؛ ولا كان في أحدها على أحد عسر إلا ذلل بين يديه طريق العذر. وهل بعد ذلك اليسر كله يسر؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه». وقال تعالى في كتابه الكريم: (وما جعل عليكم في الدين من حرج) صدق الله العظيم

لم يقتض الاسلام أحداً احتمال ما لا طاقة له باحتماله، فهذه تكاليفه، من استطاع القيام بها، وإلا تخفف منها في حدود أحكام الشرع الكريم، حتى تكافئ طاقته ويتسع لها ذرعه، ولا يتحرج بها وسعه، مقبولاً عذره، مكفولاً عند الله أجره

ولعل من الخير أن أنبه في هذا المقام إلى شيء حقيق بالانتباه: ذلك بأن من القواعد المسلمة أن الضرورات تبيح المحظورات، (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه) فالتفريط في غير ضرورة، والتخفف من أحكام الشرع من غير داع جدي إثم من الآثام. ومن القواعد الأصولية المقررة أن الضرورة تقدر بقدرها. ولا شك بعد هذا في أن تتبع الرخص وتلمس المعاذير

إنما هو ضرب من الاحتيال للتهرب من تكاليف الدين ، وهيهات لا ينطلي على الله محال !

***

ومن يسر هذا الدين أنه لم يُقم بينك وبين ربك أية واسطة . وليس من شك فى أن ما تستطيع أن تتناوله بنفسك أيسر عليك وأدنى إليك مما لا تستطيع تناوله إلا بواسطة غيرك . فاذا زلّت بك القدم ، وقلّبك الشيطان فى المنكر ، أقبلت على ربك ، وسألته قبول توبك ، والعفو عما أسلفت من ذنبك ، مطمئناً إلى (أن الله يغفر الذنوب جيماً) . ليس بك حاجة إلى من يمهد بين يديك سبيل المعذرة ، ولا من يعانى لك استخراج العفو والمغفرة

***

وبعد ، فان من يسر هذا الدين شدة تسامحه ؛ ولا يذهب عنك أن هذا التسامح إنما كان من أبلغ الأسباب فى عظمته

لا يدعوك الاسلام إلى كراهة ما يصدر عن مخالفك فى الدين لأنه يخالفك فى الدين ، بل يدعوك إلى أن تكره منه ما يُكرَه ، وتقرّ منه ما يُحبّ ويُؤثَر ، فهو وأخوك المسلم فى هذا بمنزلة سواء

ولقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس جُبة رومية ، وقال تعالى فى كتابه الكريم : (وطعام الذين أوتوا الكتاب حلٌ لكم وطعامكم حلٌ لهم) ، ولا ريب فى أن لهذا ولهذا دلالة كان لها أعظم الآثار فى نهضة الاسلام !

لم ينفر المسلمون من مخالفيهم فى الدين ولا فى الجنس ، ولم يحتجز بهم تعصب عن مخالطتهم والاتصال الوثيق بهم ، والانتفاع بكفاياتهم والأخذ عنهم . ولم يكد يستقيم أمر الملك لهم حتى أقبلوا على علوم من سبقوهم فترجموها إلى لغتهم ، وجعلوا يتروونها ويشيمون الأذهان فيها ، ويطبعونها على غرار عقولهم ، ويزيدون فيها ما فتق الرأى والذكاء لهم . كذلك كان شأنهم فى الفنون ، فقد حذقوها أتم الحذق ، وبرعوا فيها أعظم البراعة ، وأداروها على أذواقهم ، حتى انسق لهم منها فن خاص ؛ وناهيك بالفن العربيّ الذى ما برحت آياته مسطورة على جبين الزمان

***

أرجو أن تكون قد اطمأننت بعد هذا ، إلى أن اليسر فى الاسلام ، كان من أبلغ الأسباب فى عظمة الاسلام

عبد العزيز البشرى

بين الشك واليقين

للأستاذ أحمد خاكى



تطغى على العالم اليوم موجة من الشك تكاد تخترم بقية اليقين التى يحرص عليها الفلاسفة . وقد أسرفت الجماهير فى الشك حتى لقد أصبح هو القاعدة لكل تفكير ، وأصبح اليقين شذوذاً لهذه القاعدة ؛ وحتى ليكاد الانسان يجزم بأننا نجتاز عصراً من عصور السفسطة التى فقدت عندها المعانى والأمثلة العليا أكثر قيمتها . وقد عانت تلك المعانى وهذه المثل العليا ما عانت لاختلاف وجهات النظر بين فريق وفريق ؛ وكل فريق يذهب إلى ما يذهب إليه لأنه يرضى حاجة ملحة فى نفسه ، فهو يتعلق به لأنه يرى فيه إرضاء لنزعاته الجامحة سواء أكانت نبيلة أم وضيعة . وقد أدى ذلك إلى أن تضعضعت قواعد الايمان وحل الشك فى كل بيئة سياسية أو اجتماعية يتذرع به كل مفكر حتى تستوي له الغاية التى يريد . ولعلنا لن ندرك حاجة العالم اليوم إلى اليقين حتى نبحث أصول الشك ، ولأننا نريد أن نقيم مثلاً أعلى يتألف قلوبنا ، فينبغى أن نتعمق البحث فى أصل ذلك الاضطراب الذى يصطخب به العالم

والحق أن الشك فى العصر الحاضر قد أدرك ما أدرك من القوة لأنه لبس لبوساً علمية خالصة . فقد ذهب كل فريق إلى الرأى الذى يرضيه ، لكنه جاهد فى إرضاء تفكيره بأن اتخذ من العلم مسوغاً يضعف ويقوى . وأصبح الشك لذلك علمياً يقوم على دراسات شتى . ووجد المفكرون والسياسيون فى تلك

الدراسات معيناً لا ينضب من القضايا يستدلون بها على ما يعملون مهما نبا عن جادة الخلق القويم . وسنحاول فى هذه المجالة أن نفصل تلك الدراسات المتشككة حتى نرى سبيلا واضحة إلى دراسة المثل الأعلى الذي نحاول أن نقيمه فى مصر

***

والشك قد ضرب فى أطواء الفكر الحديث حينما حل علم النفس محل فلسفة الأخلاق . فقد أصبح هذا العلم بعد ذلك مورداً يستمد منه كل مفكر قواعد يفسر بها الظواهر العقلية والنفسية . ولقد أقامت الفلسفة قبل ذلك ما أقامت ، يؤمن الناس والعلماء بأصولها ، لكنهم لم يقفوا إلا قليلا يحاجون طبيعة الايمان . ولم يكن هؤلاء ولا أولئك يفرقون بين مراتب العقيدة ولا ألوان التفكير ، ولكن حينما أبديت للعالم أصول علم النفس بما تحملته من مباحث التحليل النفسى، وبما تضمنته من وصف نفسية الجماعة ، وبما فرقت بين العقل الواعى وبين العقل الباطن — حينما أبدي كل ذلك تطرق الشك فى قيمة الفكرة ، وأصبح الناس لا يرون للعقيدة نفس السلطان الذى كان لها فيما مضى ، بل لقد ذهبت الكثرة من علماء النفس ووراءهم الجمهرة من سائر العلماء إلى أن الفكرة شيء والعمل شيء آخر

ويرجع الشك فى قيمة الفكرة إلى أن علم النفس الحديث يرى أن الانسان مسيَّر أمام جملة من العوامل التى لا يحكمها العقل بل هى فى الواقع مؤثرات ودوافع تدفع بالانسان إلى أعمال أكثرها قد تحرر من سلطان التفكير القويم . وإنما يسيِّر الانسان عند هؤلاء الرغبة والعاطفة والمزاج قبل الفكرة والعقل والفلسفة . وقد كانت فلسفة الأخلاق تؤمن بأن لكل فكرة مسيراً تنتهجه ، فهى لا تنتهى عند مجرد التفكير وإنما تمتد إلى العمل والتنفيذ . فالفكرة لها شطران من تعقل وسلوك ، ولا يكون لها أثر خلقى حتى تنقلب إلى هذا السلوك . لكن علم النفس حلّ فى تاريخ الفكر الحديث محل علم الأخلاق ، فباعد ما بين شطرى الفكرة ، وعالج الاحساس الضئيل مجرداً عن العمل ، وباين ما بين العقيدة والسلوك . وقد أدى ذلك إلى ذلك التناكر الذى نشهده اليوم بين ظهرانينا .

وعلم النفس لا يستطيع أن يخلق لنا مثلا أعلى لأنه غير قادر على تثبيت قِيَم الأشياء . ذلك لأنه علم وصفى يسير فى نطاق ضيق من التجارب التى تختلف على عقل الانسان وحسّه . ولأنه علم تجريبى ، فقد عالج حالات شاذة أو غير شاذة من غير أن يقيم معايير يستطيع المرء أن يتخذها لنفسه غاية أو سبيلا . فحينما طغى علم النفس على فلسفة الأخلاق فَقَدَ العالم كثيراً من الغايات الفلسفية التى كان قد استقر على الايمان بها . واستشرف قادة الفكر لحالة من الشك طافت بنفوسهم حتى أصبحوا يشكُّون فى مبلغ عقائدهم هم أنفسهم .

وقد كان الفرد ضحية من ضحايا الدراسات النفسية ، لأنه تضاءل ثم تضاءل أمام دراسة الجماعة حتى لم يَعُد له إلا المكان الأدنى . ومن العجز أن نطالب الديمقراطية بما نطالبها به من تقدير المسئولية إذا كانت قد أنكرت المدرسة الحديثة حدود الفرد هذا الانكار . وإذن فالعبث بعينه هو أن نتهدّى بعلم النفس فى سيرنا إلى المثل الأعلى ؛ والعبث بعينه هو أن نحاول تأليف غاية نبيلة تتألف أصوله . فعلماء النفس يصفون حالات الجماعة ونفسية الجماهير بما يحكمها من عقلية الرعاع ، وبما يشينها من العقل الباطن غير المفكر . وكان حقيقاً بكل ذلك أن يدفع بالعالم إلى الشك، وأن يزعزع إيمان الناس فى سمو المثل الأعلى . فقد أصبح الفرد يرى نفسه غير الملوم ، لأنه يتخذ من وجوده فى الجماعة ذريعة للتزكية والتبرؤ .

ولم ينفرد علم النفس بين العلوم فى إنتاج ذلك الجو المتشكك الذى يكاد يعصف بالفكر الحديث ؛ فالتاريخ وعلم الاجتماع كلاهما يعاونه فى ذلك . أما التاريخ فقد حاول المؤرخون أن يطبقوا على حوادثه مقاييسهم العلمية . وما زالوا يفصلون فصوله ويؤصلون أصوله حتى خيل إليهم أنهم قد استخلصوا من صحائفه طرقاً علمية محددة . وفى كل ذلك غبن للفرد وحيف من مكانه ، لأن التاريخ العلمى تنكرَ لفلسفة الخلق ، وجافى فكرة السلوك ، وازورَّ عن تقدير الفرد ، وحاول أن يقيم قواعد تستمد سلطانها من الجماعة . وقل مثل ذلك عن علم الاجتماع الذى ينكر مسئولية الفرد ويلاشيها فى الإرادة العامة ، والذى يخلو من أصول خلقية تنشىء الفكرة وتخرج منها عملاً نافعاً طيباً ينتجه الفرد

والحق أن علم النفس والتاريخ وعلم الاجتماع كل أولئك علوم

تجريبية لا خير فيها إذا حاولنا أن نقيم منها مثلاً أعلى ، فهي لن تزيد إيماننا فى سمو الفكرة ، ولا عقيدتنا فى سيطرة العقل على العمل . وكلما أمعنا فى دراستها زادتنا شكاً فى أصول الخلق وفى فلسفة الحياة . فهى تعالج ظواهر نفسية أواجتماعية أو اقتصادية ، لكنها لا تأتى بجديد في قيم الأشياء ، ولا تخلق ميزاناً عادلاً لحقائق الخلق ؛ وإنما نفيد من هذه العلوم إفادة سلبية لأنها جميعاً تبسط لنا حالات النفس والاجتماع التى ينبغى أن نتجنبها ؛ وهى لا تمحضنا الإيمان فى فكرة من الأفكار ، لأنها تبسط الشروح التى تؤيد كل فكرة . فعندنا أن الإغراق فى دراسة مثل تلك العلوم هو السبب فى حالة الشك العلمى التى ملكت مذاهب التفكير على كل مفكر ، وهى التي وجهت كل فرد وجهة من لا يؤمن بشىء هو فى نفسه حسن أو جيل نافع ، حتى أصبحت الفكرة الحديثة ضرباً من ضروب السفسطة الخادعة . وذلك عندنا هو السبب فى التناقض الدريع الذى خلق ذلك النضال الكاذب حول ألفاظ تكاد تخلو من المعانى ، وحول معان لايدين لها الناس بالولاء

* * *

وكما أن فلسفة الخلق قد تلاشت فى علم النفس ، فكذلك قد تلاشت الفلسفة السياسية فى علم الاقتصاد . ذلك بأن العالم قد أعمته اقتصادياته عن المثل العليا التى أقامها الفلاسفة والحكماء ، وأسرف فى اتخاذ مبادئ الاقتصاد إنجيلاً لا يكاد يؤمن إلا به . فكما أن الفرد يرى فى أصول علم النفس أن إرضاء النزعات والرغبات فيه شفاء لما يحز فى النفس من ألم ممض ، كذلك ترى الجماعات أن فى إرضاء رغباتها ونزعاتها الاقتصادية شفاء لما تعانيه من جفوة وشقاء . والاقتصاد كما هو الآن علم المنافسة الحادة على احتكار المادة والتطاحن على الكماليات ؛ وليس يخفف من حدته أي فكرة واضحة عن المعانى الأولى ؛ وليس ينهنه من شدته أى قوة دافعة إلى المثل الأعلى . وقد كان الاقتصاد نفسه مَعيناً يستمد منه المؤرخون وعلماء النفس ما يرونه من القضايا ليتشككوا فى قيم الخلق العام

* * *

تلك إذن هى الدراسات التى نفخت روح الشك فى العالم الحديث ، وزلزلت اليقين الذى استهدى به الفلاسفة الخلقيون والسياسيون عندما كان العالم أشد من ذلك إيماناً . وقد اضطربت قوائم السياسة والاجتماع والاقتصاد لهذه الحالة التشككية ، لأن العلماء أنكروا قوة الخلق فى الفرد ، وأنكروا كذلك قوة الخلق فى الجماعة ، فأدى ذلك إلى حالة من الاستهتار بالمثل العليا يعانى منها الغرب ما يعانى اليوم . وحينما ينادى الفلاسفة فى أوربا بفكرة السلام ، وحينما يعلنون للملأ سخطهم على الحرب ، فليس لنا إلا أن نسخر من كل ذلك ، لأننا نعلم فى نفس الوقت أن قادة الفكر عندهم قد سوّغوا الحرب بآلاف من الأدلة التى استخرجوها من علم النفس والاقتصاد والتاريخ والاجتماع . وإذا سمعنا بعد ذلك عن العدل والإخاء والمساواة والمحبة فينبغي علينا ألا نؤمن بأن أوربا شديدة الايمان بكل ذلك ، لأن مذاهب عملية تناقض كل هؤلاء قد شاركت حياة نظمهم الاجتماعية والاقتصادية . وشبت معها وهى ما زالت تدرج فى عنفوانها مع المدنية الحديثة والسياسة التى يؤمن بها الجمهرة من الناس قد تأثرت تلك الفلسفة العلمية التى أنتجتها دراسة تلك العلوم . وقد مشت الحضارة الغربية بيننا بما تحمله من كل ذلك ، فاشتعب الناس فى مصر فئات متنافرة يلاحون عن مذاهب لا أصل لها فى صميم الفكرة . وكانت نتيجة كل ذلك فوضى اجتماعية ضربت بجرانها فى كل وجه من وجوه الحياة عندنا . ولن نستطيع أن ندرس المثل الأعلى حتى نقرر المبادئ التى ينبغى أن نلتزمها فى حياتنا العقلية والسياسية والاجتماعية ، وحتى نقدر الحقائق التى نمنو لها ونستهدى بها . ينبغي علينا أن نقدر قبل كل شىء أصالة الرأى والشرف والصدق فى حياة الفرد . وينبغى علينا أن نقدر مبادئ الحرية والنظام والديمقراطية والقومية والعالمية فى حياة الجماعة . يجب أن يكون ذلك الخطوة الأولى التى نخطوها لتنشئة المثل الأعلى — هل نؤمن بكل هؤلاء ؟ أنؤمن ببعضها ولا نؤمن بالبعض الآخر ؟ هل ينبغى أن يكون إيماننا من النوع الفلسفى الفعال أم من النوع النفسى الكاذب ؟ كل ذلك يجب أن نقرره قبل أن نقيم بناءنا ، فاذا استوت نفوسنا على الايمان خلقنا فكرة لها أثر فى العمل ، وكونا عقيدة لها سلطان على السلوك

* * *

ولعل أول ما ينبغى أن نعنى به فى هذا السبيل هو تنشئة الفرد .

وقد أسلفنا أن تلك الدراسات المتشككة قد أنكرت ما للفرد من وزن في حياة الجماعة حتى لقد أصبح الفرد يحتمي في نتائج تلك الدراسات ، فيرى نفسه غير مسئول عن الحالة السيئة التي وجد نفسه فيها . وإذا كان مثل هذا الاتجاه قد أساء إلى الحياة السياسية والاجتماعية في الغرب ، فإنه يفسد حياتنا العامة نحن أيضاً . وهو عندنا أفدح أثراً ، لأن الفرد من نفسه مضعضع مستضعف . فنحن إذن نبدأ بتنشئة الفرد ، لأن التنظيم العقلي عند الفرد أساس للنظام الاجتماعي العام . فبين عقلية الفرد وبين نظام الجماعة صلات تتوثق وتتوافق كلما أحسنت تنشئة الفرد . ولذلك فلا بد لنا من أن نلقنه فلسفة يقيم بها قيماً ثابتة في حياته . فلابد لنا من أن نكمل الدراسات التجريبية التي ذكرنا بدراسة الفلسفة الخلقية . ولابد لنا من أن نقيم أسساً لخلق الفرد من تربيتنا العامة ومن معايير خلقية خاصة نكمل بها دراساتنا في التاريخ والاقتصاد والاجتماع وعلم النفس

ثم علينا بعد ذلك أن نخفف كثيراً من غلوائنا في تقدير الجماعة ما لها وما عليها ، لأن هذا في نظرنا قد بعث سورة الشك التي أخذت بأكظام السياسيين والمفكرين في العصر الحاضر . وإذا نحن حاولنا أن نتخذ طريقاً وسطاً بين الفرد والجماعة استطعنا أن نجد خطة مثلى تداول بين الطرفين . ولا مناص هنا أيضاً من أن نضم أصول الفلسفة السياسية إلى أصول الاقتصاد ، وأن نتخذ من ذلك الائتلاف معايير نطبقها على مبادىء السياسة والخلق العام . فاذا نحن خلقنا من كل ذلك فلسفة خلقية أو سياسية عامة كان ذلك كسباً في سبيل المثل الأعلى

* * *

وبعد ، فاننا إذا تصفحنا تاريخ العقائد ، وإذا حاولنا أن نستخرج منها فلسفة خلقية أو سياسية ، فلن نجد خيراً من المثل العليا التي تنزل بها الاسلام . وقد بدأ الاسلام والعالم في مثل ما عليه الآن من التبهّم والتشكيك ؛ لكنه ما لبث أن فاض نوره على العالم من أقصى الأرض إلى أقصى الأرض ، وتجسمت الفكرة الأولى في نظام خاق للفرد ونظام خاق للجماعة على أكمل ما يكون . فاذا نحن حاولنا دراسة المثل الأعلى فعلينا بتلك الرجعة إلى المعايير الخلقية التي قامت عليها سيادة المسلمين

وإذا قام قادة الفكر منا يوجهون حياتنا نحو قيم خاصة لحقائق الحياة ، فإن الجمهرة وراء هؤلاء القادة سوف يهفون إلى القيم الصحيحة التي تنزل بها الدين . ذلك عندنا نهاية السفسطة الخبيثة التي نعانيها اليوم ، وذلك تنظيم لحياتنا الاجتماعية التي زلزلها الفوضى . والفرد عندنا في كل ذلك أساس ينبغي أن نبدأ به ؛ وتربيته غاية في نفسها ؛ والدين يعترف أول ما يعترف بسمو الفرد وخطره ، ويجب أن نعترف نحن أيضاً بهذا السمو

ولعل الاسلام أكثر الأديان تحديداً لواجبات الفرد وحدوده ؛ ولعله أشد الأديان احتفاء بخلق مثل أعلى يحدو الجماعة . وفي الاسلام فلسفة خلقية واضحة ليس علينا إلا أن نجلوها ، وفيه أيضاً فلسفة سياسية تعتمد على طائفة من المعاني . وإنما مال بنا عن كل تلك الأصول إيماننا بما حاول الغرب أن يقيمه من مثل عليا . ومثل الدراسات التي عالجنا تسيطر على حياة الغربيين . وإذا نحن حاولنا أن نقيم مثلا أعلى فعلينا أن نتخذ منها مُعيناً ، ولكن علينا ألا نسمح لها بأن تكون أخاذة مسيطرة

والفلسفتان الخلقية والسياسية أفضل ما ندعو لهما ، لكن دراستهما سوف تقتصر على القادة دون العامة ، وعلى المتعلمين دون الجهلاء . ولكن الدين عندنا هو الذي يجمع بين الفلسفتين ، ويوازن بين الفريقين ، ويؤلف بين القلوب ، ويبث في النفوس روحاً فعالة لا تستأني ولا تستريب . وهو بعد ذلك أشد ما نحتاج إليه ليقيم لنا قيماً أخرى غير التي أقامها الغرب ، ومعايير أخرى غير التي فرضها علينا الغرب

أحمد فاكى

ابن دقيق العيد

للدكتور محمد مصطفى زيادة
الأستاذ المساعد بكلية الآداب



يظفر القارئ في تاريخ المماليك بمصر بشخصية رجل لا تربطه بغالبية أهل ذلك العصر المنيف صلة دنيوية ، لتنزهه عن المادة، وعزوفه عن شهوة المناصب وزخرفها ، ذلك هو قاضى القضاة ابن دقيق العيد (٦٢٥ — ٧٠٢ هـ) وهو الشيخ تقى الدين أبو الفتح محمد بن على بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة القشيرى المنفلوطى الشافعى المالكى المصرى

وكان أصل لقب «ابن دقيق العيد» الذى عُرف به في كتب التاريخ حسبما ورد فى النويرى[1] أن جده وهْب بن مطيع لبس فى يوم عيد ثياباً بيضاء ، فرآه جماعة من أهل الريف فقال قائل منهم كأن ثيابه دقيق العيد لبياضها ، فلزمه هذا اللقب ، واشتهر به بيته وسلالته

تولى ابن دقيق العيد منصب قاضى القضاة بالديار المصرية سنة خمس وتسعين وستمائة هجرية ، والسلطان يومئذ الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى ؛ وكان قبل توليته تلك الوظيفة الكبرى قد درّس بالمدرسة الناصرية بالشافعى وبدار الحديث الكاملية وغيرها ، وصنّف التصانيف فى فقه المذهبين المالكى

(١) النويري : نهاية الارب (مخطوط بدار الكتب المصرية) ج ٣٠ ص ٣٣٦

والشافعى ، وفى الحديث ، وأفتى الفتاوى الكثيرة التى برهنت على أنه ثبت وحجة فى علم الشريعة ؛ وعُرف فى جميع أدوار حياته بالشدة فى الحق ، والسير على مقتضى أصول الدين لا يحيد عنها قيد أنملة ، مهما كلفه ذلك من غضب سلطان أو أمير . وقد نقل عنه حسبما ذكر ابن العماد[1] أنه قال: «ما تكلمتُ بكلمة ولا فعلتُ فعلاً إلا أعددت له جواباً بين يدى الله تعالى »

ظل ابن دقيق العيد متولياً لمنصب قاضى القضاة بالديار المصرية حتى وفاته سنة ٧٠٢ هـ وكان كثير التطلع إلى أخبار نوابه بالأعمال المصرية ، يبعث إليهم بكتبه المشتملة على المواعظ والتحذيرات من عواقب الغفلة والاهمال فى الأحكام . وقد نقل النويرى[2] أحد هذه الكتب التى أنفذها ابن دقيق العيد سنة ٦٩٧ هـ ونصه : «بسم الله الرحمن الرحيم : الفقير إلى الله محمد بن على (يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة ، عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون). هذه المكاتبة إلى فلان وفقه الله لقبول النصيحة ، وآتاه لما يقربه قصداً صالحاً ودنيا صحيحة . أصدرناها إليه بعد حمد الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ويمهل حتى يلتبس الإمهال بالاهمال على المغرور ، تذكرة بأمر ربك ، فإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ؛ وبحذره صفقة من باع الآخرة بالدنيا فما أحد سواه مغبون ، عسى الله أن يرشده بهذا التذكار وينفعه، وتأخذ هذه النصائح بحجزته عن النار ، فإنى أخاف أن يتردّى فيجر من ولاّه — والعياذ بالله — معه . والمقتضى لإصدارها ما لمحناه من الغفلة المستحكمة على القلوب ، ومن تقاعد الهمم على ما يجب للرب على المربوب ، ولا سيما القضاة الذين يحملون عبء الأمانة على كواهل ضعيفة ، وظهروا بصور كبار وهي نحيفة . والله إن الأمر لعظيم ، وإن الخطب لجسيم ، ولا أرى مع ذلك أمناً ولا قراراً ولا راحة ، وإلا رجلاً نبذ الآخرة وراءه ، واتخذ إلهه هواه ، وقصر همّه وهمته على حظ نفسه من دنياه ، فغايتُه مطلب الحياة والمنزلةُ فى قلوب الناس وتحسين الزّى والملبس ، والركبة والمجلس ، غير مستشعر خسّة حاله ولا ركاكة مقصده ،

(١) ابن العماد : شذرات الذهب (طبعة مصر) ج ٦ ص ٥
(٢) النويرى : نفس المرجع ج ٢٩ ص ٣١١ ا وما بعدها

فهذا لا كلام معه ، فإنك لا تُسمع الموتى وما أنت بمسمع من فى القبور . فاتق الله الذى يراك حين تقوم ، واقـعِر أملك عليه فالمحروم من أمله غير مرحوم . وما أنا وأنتم أيها النفر إلا كما قال حبيب العجمى ، وقد قال له قائل : « ليتنا لم نخلق » فقال : «قد وقعتم فاحتالوا» . وإن خفى عليك بعض هذا الخطر وشغلتك الدنيا أن تقضى من معرفته الوطر ، فتأمّل كتاب النبوّة : إن القضاة ثلاثة ، وقوله صلى الله عليه وسلم لمن خاطبه مشفقاً عليه : « لا تأمرنّ على اثنين ، ولا تَلِـيَنّ مال يتيم » ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم اه

وقد حدث في سنة ٦٩٧ هـ ، والسلطانُ يومئذ الملك المنصور حسام الدين لاجين ، أن نائب السلطنة منكوتمر أراد أن يستخلص من ابن دقيق العيد حكماً فى قضية ميراث لأحد أصحابه بغير بيّـنة شرعية ، فامتنع قاضى القضاة من ذلك وهو عالم بأن منكوتمر أقوي شخصية فى الدولة قاطبة ، وتردّدت الرسل بينهما وابنُ دقيق العيـد لا يتحرك عن موقفه ؛ فأغاظ ذلك منكوتمر وأرسل أحد الأمراء الكبار إلى قاضى القضاة لعلّه يفوز منه بطائل . وقد أورد المقريزى[1] قصة هـذا الحادث فى تفصيل ، فذكر أن منكوتمر بعث إلى ابن دقيق العيد يعلمه أن تاجراً قد مات وترك أخاً ولم يخلف غيره ممن يرثه ، وأراد أن يثبت استحقاقه الإرث بمجرّد هـذا الاخبار عنه ، فلم يوافق قاضى القضاة على ذلك . وتردّدت الرسل فخرج منكوتمر من ذلك وبعث إليه الأمير كُرْت[2] الحاجب ؛ فلما دخل كرت وقف بعد ماسلّم ، فقام له القاضى نصف قومة ، ورد عليه السلام وأجلسه . وأخذ كُرْت يتلطف به فى إثبات أُخُوّة التاجر بشهادة منكوتمر ؛ فقال له ابن دقيق العيد : « وماذا ينبنى على شهادة منكوتمر ؟ » فقال له : « يا سـيدي ! ما هو عنـدكم عدل ؟ » فقال : « سبحان الله ! » ثم أنشد :

يقولون هـــذا عندنا غير جائزٍ
ومنْ أنتمُ حتى يكونَ لكم عِنْدُ ؟

وكرر ذلك ثلاث مرات ثم قال : « والله متى لم تقم عندي بيّـنة شرعية ثبتت عندى وإلاّ فلاحكمت له بشىء باسم الله» فقام كرت وهو يقول : « والله هـذا هو الاسلام » . وعاد إلى منكوتمر واعتذر إليه بأن : « هذا الأمر لا بد فيه من اجتماعك بالقاضى إذا جاء دارَ العدل »

فلما كان يوم الخدمة ومرّ القاضى على دار النيابة بالقلمة ، ومنكوتمر جالس فى الشباك ، تسارعت الحجاب واحداً بعد آخر إلى القاضى وهم يقولون : «ياسيدى ! الأمير ولدك يختار الاجتماع بك لخدمتك» فلم يلتفت إلى أحد منهم . فلما ألحوا عليه قال لهم : « قولوا له : ما وجبت طاعتك علىّ » والتفت إلى من معه من القضاة وقال : «أشهدكم أنى عزلت نفسى باسم الله . قولوا له يولّ غيرى » وعاد إلى داره وأغلق بابه ، وبعث نقباءه إلى النواب فى الحكم وعقاد الأنكحة بمنعهم من الحكم وعقد الأنكحة

فلما بلغ السلطان ذلك أنكر على منكوتمر وبعث إلى القاضى يعتذر إليـه ويستدعيه ، فأبى واعتذر عن طلوعه . فبعث إليه الشيخ نجم الدين حسين بن محمد بن عبود والطواشى مرشداً ، فما زالا به حتى صعدا به القلمة . فقام إليه السلطان وتلقاه ، وعزم عليه أن يجلس فى مرتبته ، فبسط منديله — وكان خرقة كتان خَـلِقة — فوق الحرير قبل أن يجلس كراهة أن ينظر إليه ، ولم يجلس عليه . وما برح السلطان يتلطف به حتى قبل الولاية ، ثم قال له : «ياسيدي ، هذا ولدك منكوتمر خاطرك معه ، أدعُ له» وكان منكوتمر ممن حضر ، فنظر إليه قاضى القضاة ساعة وصار يفتح يده ويقبضها وهو يقول : « منكوتمر لا يجئ منه شئ » وكرّرها ثلاث مرات وقام . فأخذ السلطان الخرقة التى وضعها على المرتبة تبرّكا بها ، وتفرّقها الأمراء قطعة قطعة ليدّخروها عندهم رجاء بركتها

هذا هو ابن دقيق العيد وتلك شدة مراسه فى الحق

محمد مصطفى زيادة

---

(١) المقريزي : السـلوك (طبعة الدكتور زيادة) ج ١ ص ٨٤٨ وما بعدها

(٢) Zetterstceén : Beiträge zur Geschichte der Mamlûk-ensultane (Brill 1919) P. 10

من صميم السيرة

الإسراء

للأستاذ أمجد الطرابلسي

رقدتْ ملءَ عينها البيداءُ   واحتوتها في سرِّها الظلماءُ
وأوى موكبُ الطيورِ إلى النخـلِ   وحنَّتْ لزُغْبها الورقاءُ
والمها أطبقتْ على الصفوِ عينيـها، ومالت إلى الكِناسِ الظِّباءُ
سكنَ الليلُ، لا هتافٌ ولا عزْ   فٌ ولا آهةٌ ولا ضوضاءُ
ليس إلا النجومُ تهمسُ فرحى   في الرحابِ العُلى فتُصغي الجِواءُ
وسجتْ مكةٌ، فلا اللهوُ لهوٌ   في حِماها، ولا الغناءُ غناءُ
أطفأتْ في الخيامِ كلَّ سِراجٍ   رقصتْ فوقَ ثغرِهِ الأضواءُ
وانقضى كلُّ سامرٍ أثملتهُ   بالفنونِ الرُّواةُ والشُّعراءُ
وتهادى النسيمُ بين الرَّوابي   كلما هبَّ هدَّه الإعياءُ
ملءُ أعطافهِ أريجُ الخزامى   وبقايا الكؤوسِ، والأنداءُ
نامتِ البيدُ! هل رأيتَ سريراً   رقدتْ فوقَ صدرِهِ عذراءُ؟
الطُّيوفُ الفرحى تطوفُ حواليـهِ   كما طافَ بالقلوبِ الهناءُ
والمنى الضاحكاتُ تلثمُ خدَّيـها   فيفترُّ ثغرُها الوضَّاءُ
يا جمالَ البيداءِ! ماذا ينالُ الـوصفُ منهُ، وما يُصيبُ الثناءُ؟!
كلُّها السِّحرُ والرحيقُ المُصفَّى   كلُّها الشعرُ والهوى والبهاءُ
كلُّها المجدُ والبطولةُ والسؤْ   دُدُ والعزُّ والندى والإباءُ!

* * *

إيهِ يا منبعَ الصَّناديدِ يا بيـدُ إذا رجَّ جانبيكِ نداءُ!
يا مهبَّ الفرسانِ إن صرَخ المجـدُ يناديهمُ وهزَّ اللواءُ!
نامَ يا بيدُ في سكونكِ ندبٌ   حفِظتهُ وهدْهدتْهُ السماءُ
سهرتْ حولَهُ العنايةُ ترعا   هُ وحامتْ من فوقِهِ الآلاءُ
من ذؤاباتِ هاشمٍ كلُّهُ طُهـرٌ ونبلٌ ورحمةٌ ووفاءُ
أروعٌ أينَ من عزيمتهِ السيـفُ ومن جودِ كفِّهِ الأنواءُ!
عربيٌّ تهلَّلَ الكونُ لمّا   كرَّمتهُ النبوَّةُ الغرَّاءُ
شعَّ منهُ الهدى فهاجتْ وماجتْ   حنقاً — جاهليَّةٌ رعْناءُ
دينُها البغيُ والتناحرُ والثا   راتُ والبطشُ والأذى والدماءُ
فاحفظيه يا بيدُ فهو رجاءُ الـسكونِ وسطَ الظلامِ وهو الضياءُ
ما يدومُ العمى إذا أسفرَ الحقُّ   ولا النورُ والظلامُ سواءُ!!

* * *

إيهِ يا نائماً تداعبُ جفنيـهِ الخيالاتُ والرؤى الشمّاءُ!
يا نبيّاً في صدرِهِ خفقَ الكو   نِ جميعاً، جراحُهُ والدواءُ!!
يا رسولاً ترنو لطلعتهِ الأمْـلاءُ حيْرى قد عمَّها الإدجاءُ!
أيُّها النائمُ انتبهْ! قد أتاكَ الـرُّوحُ يحدوهُ من علاهُ القضاءُ
والبُراقُ السعيدُ حمحمَ في البا   بِ اشتياقاً فاهتزَّتِ الصحراءُ
طِرْ عليهِ تمضِ القفارُ سِراعاً   تحتَ وثباتِهِ ويُطوَ الفضاءُ
طِرْ عليهِ إنَّ العوالمَ نشوى   مُذْ أتتها عن سعيكَ الأنباءُ
والسمواتُ تستعدُّ لمسرا   كَ وقد زغردتْ بها البُشراءُ
تتغنَّى فيها الملائكُ فرحى   وتهادى البشائرَ الأنبياءُ
رفرفا في سماءِ مكةَ: فالريـحُ ذلولٌ تحتَ البراقِ رُخاءُ
وامضيا تمحُ الفلا والمسافا   تُ كأنَّ ابتداءهنَّ انتهاءُ
فإذا شِمتُما على البُعدِ سينا   ءَ ولاحتْ كثبانُها السمراءُ
فاهبطا، طرفةَ العيونِ، إليها   يا لَرُبَّى لما رأتْ سيناءُ!!
يومَ ناجى الكليمُ في جانبيها   ربَّهُ، ملءُ أصغريهِ الرجاءُ
فهوى مُرعشاً وقد هالهُ النو   رُ وأعشى عيونَهُ اللألاءُ
ثمَّ سيرا حتى إذا (بيتُ لحمٍ)   دوَّمتْ من بروجِها الأصداءُ
فاهبطا تُربَها الذكيَّ فمنهُ   «أسفرَ الرِّفقُ والهدى والحياءُ[1]»
وأتيا المسجدَ الذي باركَ اللـهُ حواليهِ منذُ كانَ البناءُ

---

(١) : قال شوقي :
ولد الرفق يوم مولد عيسى   والمروءات والهدى والحياء

فاسجدا فيه للذى غمَرَ الكو ... نَ نداهُ وعطفهُ والرضاء
صلّيا يَبْسِمِ المُصَلّى ابتهاجاً ... لكما فى الدُّجى ويَشْدُ الفِناء
واعرجا صاعدَيْن سبعاً طِباقاً ... لا حجابٌ، لادُجْيَة، لا عماء
ألَقٌ باهرٌ ، وبحرٌ من النو ... رِ خِضَمٌ ، ورَوْعَةٌ ، وصَفاء
ليس إلا ملائكٌ تحمل البــــشرى ورسْلٌ أحِبّةٌ أصفياء
اصعدا فى الجمال حتّى تجلّى ... لكما سِدْرَةُ العُلى العَصماءُ
وانظرا من علٍ إلى هذه الأجْــرامِ طرًّا ، يَجِلُّ عنها الهباءُ
نظـــرةً تُنْظَمُ العوالمُ والآ ... بادُ فيها وتلتقى الأملاء
اسموا ، اسموا فما أعظم الأنْــفُسَ تَفْنى من دونِها العلياء !
ما أجلَّ الأرواحَ تعلو وتعلو ... ثم تعلو ، وإن تناهى العَلاء !
ما أحبَّ الفَناءَ فى النُّورِ إمّا ... كُرِهَ اللَّبثُ فى الثرى والفَناء !

***

إيه مسرى النبيّ! قد تُنكر الأنْــوارَ والفجرَ مقلةٌ عمياءُ
ما على جاحديك لومٌ إذا ضلّــوا ، هلِ الناسُ كلُّهم أنبياء ؟!

***

معرجَ المصطفى ! إليكَ التّحايا ... شعشعَتها دموعُنا والدّماء
بورِكتْ أرضُكِ النّديّةُ يا قد ... سُ ووشّتْ رياضَك النَّعماء !
أنتِ أمُّ الدُّنى ، ومهدُ النُّبُوّا ... تِ ومنكِ استفاءتِ الآناء
فيكِ موسى ألقى عصاهُ ارتياحاً ... بعد أن طوّحتْ بهِ الأرزاء
والمسيحُ العظيمُ فيكِ تجلى ... يملأُ الأرضَ من هُداه السَّناء
علَّمَ الكونَ رحمةَ العبدِ للعبــدِ ، فلا قسوةٌ ولا إيذاءُ
وغــذاه الحبَّ الطَّهورَ فلا بغــضٌ ، ولا نفرةٌ ، ولا أعداء
يا حماةَ المسيحِ فى القدسِ ! ما فى
دينِهِ أن يعذَّبَ الضُّعفاء !
ليس فيه طردُ الهزارِ من الأيــكِ لتحتلَّ وَكْرَهُ رقطاء !
يا جيوشَ الصليبِ فى القدسِ ! ما فى
شرعِهِ أن تُقَتّلُ الأبرياء !
ليس فى شرعِهِ هوانُ المواثيــقِ ، إذا ما تواثقَ الشُّرَفاء !
ليس فيه أن يبذلَ العَربُ الأنــفُسَ كى تسترقَّها «الحلفاء» !
يا لدمعِ المسيحِ ما كان أصفا ... ه ! ولكنّ روحَكم كدراء !
سائلوا مهدَهُ المُطَهَّرَ هل صا ... نته إلا العُروبةُ العَرْباء ؟!
سائلوه يا ناسُ عن عُمَرَ الفا ... روقِ : «ما كانَ عدلُه والوفاء؟»
سائلوه عن ابنِ أيُّوبَ لما ... عصفتْ جُنّةٌ بكم هَوجاء
يومَ جاءتْ جيوشُكم مثلما انحطّــتْ على المَنهَلِ النُّسورُ الظِّماء
تُغرِقُ المهدَ مثلما تُغرقُ المسـجدَ منها الدِّماء والأشْلاء
يومَ ضاقتْ عنها الأباطحُ فى البــرِّ وناءتْ بحملِها الدَّأْماء
يُلهِبُ الحقدُ والعِداء ما قيــها ، وتنزو فى صَدْرِها الأدْوَاء
وابنُ أيُّوبَ يُطفئُ النّارَ بالحِلْــمِ وتجري بنصرِهِ الأنباء
ويفكُّ الملوكَ صفحًا ومَنًّا ... بعدَ أسْرٍ يعزُّ فيهِ الفِداء
أنتُمُ تَعرفونَ عدلَ صلاحِ الــدّينِ وسْطَ العجاجِ يا طُلقاء ؟
لم يهجكم للنّارِ دينٌ ، ولكنْ ... جَشَعُ الذّئبِ أثملتهُ الدّماء
أى دينٍ يُحِلُّ ذبحَ اليتامى ... أىُّ شرعٍ تُبادُ فيه النساء
الأحابيشُ دينُهم مثلكم سَمْــحٌ كريمٌ ، لكنَّهمْ ضُعفاء
وجلودُ الغزاةِ بيضٌ لِطافٌ ... أين منهنَّ جِلْدَةٌ سوداء ؟!
إنما العُربُ نعمةُ اللهِ فى الأرْ ... ضِ وهمْ فى ظَلامِها الأضواء
لَهُمُ العِزُّ والنُّبُوَّةُ فيهــا ... ولَهُمْ دونَ أهلِها الكبرياء
حملوا مشعلَ الحضارةِ والكو ... نُ ظلامٌ وحـــيرة وعَماء
هم شموسُ الوَرى وصَفْوةُ خلقِ اللّــه والمُخلَصونَ والحُنَفاء
كلُّ مجدٍ لمجدِهم يخفضُ الرّأْ ... سَ خشوعاً ولو نمته السَّماء !!

***

دمتِ قُدْسَ العُلى ودام لكِ العِزُّ
وذلّتْ فى غابكَ الدُّخَــلاء
دمتِ فوقَ السُّها ودامَ لكِ العزْ ... بُ فداء ، وطابَ هذا الفداء !

(دمشق) **أمجد الطرابلسى**

— ٥ —

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا...

للأستاذ أحمد الشايب
مدرس بكلية الآداب

— ١ —



قال الراوي: كانت السنة الثامنة منذ هاجر الرسول عليه السلام من مكة إلى المدينة، وكان صلح الحديبية الذى يقف الحرب بين المسلمين والمشركين سنوات عشرا يقطع عامه الثانى، ويتيح لقريش فى مكة فرصة التروّى لعلهم ينجون بكرامتهم وحياتهم من هذه الدعوة المحمدية، والنصرة الإلهية. وكان المسلمون فى المدينة، مهاجرين وأنصارا، يستبعدون مدى هذه الهدنة، ويعدونها نيلاً من عزتهم الدينية، وقد علموا «لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين» وما كان لهم أن ينقضوا عهداً فى أعناقهم أو يفكوا عقداً للرسول باذن الله تعالى. ولكن الله قدر وقضى — لتصدق الرؤيا توًّا ويكون الفتح المبين — أن تغدر قريش؛ فقد ثار بنو بكر ابن كنانة على خزاعة، وهم على ماء لهم بأسفل مكة يقال له الوتير يطلبونهم بدماء قديمة، وكانت قريش ترفد بنى بكر بالسلاح، وتقاتل معهم خزاعة مستخفين بالليل حتى جاوزوا خزاعة إلى الحرم. فلما انتهوا إليه قال بنو بكر لزعيمهم: يا نوفل، إنا قد دخلنا الحرم، إلهكَ! إلهكَ! فقال: كلمة عظيمة: لا إلهَ له اليومَ! يا بنى بكر أصيبوا ثأركم، فلعمرى إنكم لتسرفون فى الحرم، أفلا تصيبون ثأركم فيه؟!

قال الراوى: فلما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة وأصابوا منهم ما أصابوا ونقضوا ما كان بينهم وبين الرسول من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة، وكانوا فى عقده وعهده، خرج عَمرو بن سالم الخزاعى، ثم أحدُ بني كعب، حتى قدم على الرسول المدينة، فوقف عليه وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى الناس فقال:

إن قريشاً أخلفوك الموعِدا وتقضوا ميثاقك المؤكَّدا
فانصر هداك الله نصراً أعْتدا وادعُ عبادَ الله يأتوا مَددا

فقال رسول الله: نُصرتَ يا عَمرو بن سالم. ثم عرض لرسول الله عَنان من السماء، فقال: إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب. ثم خرج بُدَيل بن وَرْقاء فى نفر من خزاعة حتى قدموا على الرسول المدينة فأخبره بما أصيب منهم وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس: كأنكم بأبى سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد في المدة! ومضى بُدَيل بن ورقاء وأصحابه حتى لقوا أبا سفيان بن حرب بعسفان قد بعثته قريش إلى الرسول ليشد العقد ويزيد فى المدة، وقد رهبوا الذى صنعوا. فلما لقى أبو سفيان بُديل بن ورقاء قال: مِن أين أقبلت يا بديل؟ وظن أنه قد أتى الرسول. قال سِرت فى خزاعة فى هذا الساحل وفى بطن هذا الوادى. قال: أو ما جئت محمداً؟ قال: لا. فلما راح بُديل إلى مكة قال أبو سفيان: لئن كان جاء بُديل المدينة لقد علف بها النوى، فأتى مبرك راحلته فأخذ من بعرها ففتَّهُ فرأى فيه النوى، فقال: أحلف بالله لقد جاء بُديل محمداً

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فلما ذهب ليجلس على فراش الرسول طوته عنه. فقال: يا بُنية، ما أدرى أرغبتِ بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى؟ قالت: بل هو فراش رسول الله وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش الرسول. قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر. ثم خرج حتى أتى الرسول فكلمه فلم يرد عليه شيئاً. ثم ذهب إلى أبى بكر فكلمه أن يكلم له رسول الله، فقال: ما أنا بفاعل. ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال: أأنا أشفع لكم إلى الرسول؟! فوالله لو لم أجد إلا الذَّر لجاهدتكم به. ثم دخل على علىّ بن أبى طالب وعنده

فاطمة بنت رسول الله وعندها الحسنُ بن على يدب بين يديها ، فقال : يا على إنك أمسُّ القوم بي رَحِماً وإنى قد جئت فى حاجة فاشفع لى إلى رسول الله ، فقال : ويحك يا أبا سفيان ! والله لقد عزم الرسول على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه . فالتفت إلى فاطمة فقال : يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمرى بُنيَّك هذا فيُجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت : والله ما بلغ بنىَّ ذاك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : يا أبا الحسن إنى أرى الأمور قد اشتدت علىَّ فانصحنى . قال : والله ما أعرف لك شيئاً يغنى عنك شيئاً ، ولكنك سيدُ بنى كنانة ، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك . قال : أو ترى ذلك مغنياً عنى شيئا ؟ قال : لا والله ما أظنه ، ولكنى لا أجد لك غير ذلك . فقام أبو سفيان فى المسجد فقال : أيها الناس إنى قد أجرت بين الناس ، وركب بعيره وانطلق . فلما قدم على قريش ، قالوا : ما وراءك ؟ فقص عليهم ما جرى ، فقالوا : ذلك لا يغنى شيئاً ، قال : ما وجدت غير ذلك

— ٢ —

قال الراوى : وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بالجهاز وأمر أهله أن يجهزوه . فدخل أبو بكر على ابنته عائشة زوجة الرسول ، وهى تحرك بعض جهازه عليه السلام ، فقال : أى بنية، أأمركم رسول الله أن تجهزوه ؟ قالت : نعم فتجهز . قال : فأين ترينه يريد ؟ قالت : والله ما أدرى . ثم إن الرسول أعلم الناس أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجد والتهيؤ وقال : اللهم خُذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها . فلما أجمع السير إلى مكة كتب حاطبُ بن أبى بَلْتعةَ اللخمى كتاباً إلى قريش يخبرهم أن الرسول إليهم سائر ؛ ثم أعطاه امرأة وجعل لها جُعلاً على أن تُبلغه قريشاً فجعلته فى رأسها ثم فتلت عليه قرونها وخرجت به . ولكن الخبر قد أتى الرسول من السماء بما صنع حاطب ، فبعث علىَّ بن أبى طالب والزبير بن العوّام فأدركا المرأة فالتمسا الكتاب فى رحلها فلم يجدا شيئاً . فقال لها على : إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك . فلما رأت الجد منه قالت : أعرض ، فأعرض فحلّت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منه فدفعته إليه ، فلما أتى به الرسول دعا حاطبا ، فقال : يا حاطبُ : ما حملك على هذا ؟ فقال : يا رسول الله أَمَا والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت ، ولكني صانعت القوم لأهل وولد لى بين أظهرهم . فقال عمر ابن الخطاب : دعنى فلأضرب عنقه فإن الرجل قد نافق . فقال الرسول : وما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لسفره واستخلف على المدينة كلثوم بن حصين الغفارى . وخرج لعشر مضين من رمضان ، فصام وصام الناس معه ، حتى إذا كان بالكديد بين عسفان وأمج أفطر ؛ ثم مضى حتى نزل مَرّ الظهران — فى عشرة آلاف من المسلمين — وهو واد قرب مكة ، وقد عميت الأخبار عن قريش ، فلا يأتيهم خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يدرون ما هو فاعل

وخرج فى تلك الليالى أبو سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء ، يتحسسون الأخبار ، وينظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به ! وكان العباس بن عبد المطلب قد لقى الرسول ببعض الطريق مهاجراً بعياله ، وكان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته والرسول عنه راض . قال العباس فقلت : واصباح قريش ! والله لئن دخل رسول الله مكة عنوة دون أن يأتوه فيستأمنوه ، فهو هلاك قريش إلى آخر الدهر . قال : فجلست على بغلة رسول الله البيضاء فخرجت عليها حتى جئت الأراك لعلى أجد من يأتى مكة فيخبرهم بمكان الرسول ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة . قال : فوالله إنى لأسير عليها وألتمس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان ، وأبو سفيان يقول له : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً ، فيقول بديل : هذه والله خزاعة حمشتها الحرب ، فيقول أبو سفيان : خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها . قال العباس : فعرفت صوته ، فقلت : يا أبا حنظلة ، فعرف صوتى فقال : أبا الفضل ؟ قلت : نعم . قال : مالك فداك أبى وأمى ؟ ! قال ، قلت : ويحك يا أبا سفيان ! هذا رسول الله فى الناس ، واصباح قريش والله ! قال : فما الحيلة ؟ قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب فى عجز هذه البغلة حتى

آتى بك رسول الله فأستأمنه لك . قال : فركب خلفي ورجع صاحباه ، فجئت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة الرسول وأنا عليها ، قالوا : عم رسول الله على بغلته ؛ حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال : من هذا ؟ وقام إليّ ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال : أبو سفيان عدو الله ! الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد . ثم خرج يشتد نحو الرسول فلاحقته إليه ، فقال : يارسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعنى فلأضرب عنقه . فقال العباس : إنى قد أجرته يا رسول الله . فقال الرسول: يا عباس إذهب به إلى رحلك فإذا أصبحت فائتنى به . قال : فلما أصبحت عدوت به إلى رسول الله فلما رآه قال : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إلـه إلا الله ؟ قال : بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إلـه غيره لقد أغنى عنى شيئاً بعد . قال : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ قال : بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أما هذه والله فان فى النفس منها حتى الآن شيئاً . فقال له العباس : ويحك أسلم واشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك . قال : فشهد شهادة الحق فأسلم . قال العباس : قلت يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً . قال : نعم ، مَن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومَن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . فلما ذهب لينصرف قال الرسول : ياعباس احبسه بمضيق الوادى عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها . قال : فخرجت حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أمرنى رسول الله أن أحبسه ، ومرت القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة قال : ياعباس من هذه ؟ فأقول سُلَيم ، فيقول مالى ولسُلَيم ؟ ثم تمر القبيلة فيقول ياعباس مَن هؤلاء ؟ فأقول مُزينة ، فيقول : مالى ولمزينة . حتى مرّ الرسول فى كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار لا يُرى منهم إلا الحدق من الحديد . فقال سبحان الله يا عباس مَن هؤلاء ؟ قلت : هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار . قال: ما لِأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيما . قال العباس : قلت يا أبا سفيان إنها النبوة . قال : فنعم إذن . قلت : النجاء إلى قومك . فلما جاءهم صرخ بأعلى صوته : يامعشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به . وأذاع فيهم ما جعل له الرسول فخراً ، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد آمنين

— ٣ —

قال الراوى : إن أسماء ابنة أبى بكر قالت : لما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بذى طوى عند مكة قال أبو قحافة — والد أبى بكر وكان كفيف البصر — لابنة له من أصغر ولده : أى بُنيَّة اظهرى بى على أبى قُبيس . قالت : فأشرفت به عليه فقال : ماذا ترين يا بنية ؟ قالت : أرى سواداً مجتمعاً . قال : تلك الخيل . قالت : وأرى رجلاً يسعى بين يديه ذلك السواد مقبلاً ومدبراً . قال : ذلك الوازع الذى يأمر الخيل ويتقدم إليها ثم قالت : قد والله انتشر السواد . فقال : قد ، والله دفعت الخيل فأسرعى بى إلى بيتى . فانحطت به الفتاة وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته . قالت : وفي عنق الجارية طوق من ورق فيلقاها رجل فيقتطعه من عنقها . فلما دخل الرسول مكة ودخل المسجد أتى أبو بكر بأبيه يقوده . فلما رآه الرسول قال : هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتيه فيه ! قال أبو بكر : يا رسول الله هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى إليه أنت . قال : فأجلسه بين يديه ثم مسح صدره ، وقال له : أسلِم فأسلَم . ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته وقال : أنشد الله والاسلام طوق أختى ! فلم يجبه أحد فقال : أى أُخَيَّة احتسبى طوقك . ثم فرق الرسول جيشه من ذى طوى ، فدخلت فِرَقه مكة من نواحيها ونزل الرسول بأعلى مكة وضربت له هناك قبة

وكان صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل ، وسهيل بن عُمر ، قد جمعوا أناساً بالخَنْـدَمة — جبـل بمكة — ليقاتلوا المسلمين . وكان حماس بن قيس من بنى بكر يُعِـدُّ سلاحا قبل دخول الرسول . فقالت له امرأته : لماذا تُعد ما أرى ؟ قال : لمحمد وأصحابه . قالت : والله ما أرى أنه يقوم لمحمد وأصحابه شيء . قال : والله إنى لأرجو أن أُخدِمَكِ بعضهم . ثم شهد الخندَمة مع صفوان وسهيل وعكرمة وأناس من المشركين فهزمهم رجال خالد بن الوليد ، فخرج حماس منهزماً حتى دخـل بيته ، ثم قال لامرأته : أغلقى علىّ بابى . قالت : فأين ما كنت تقول ؟ فقال : إنكِ لو شهدتِ يوم الخندمه إذ فر صَفوانُ وفر عكـرِمه

وابو يزيد قائمٌ كالمؤتَغـه(١) واستقبلتهم بالسيوفِ المسلمهْ
يقطعن كلَّ ساعدٍ وجُمجمهْ ضرباً فلا يسمعُ إلا غمغمه(٢)
لهمْ نهيتٌ(٣) خلفنا وهمهمهْ لم تنطِق في اللومْ أدنى كلمهْ

***

لما نزل الرسول مكة واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجَن في يده . فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له ، فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها. ثم وقف على باب الكعبة فقال : « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، صَدقَ وعدَه ، ونصرَ عبدَه ، وهزم الأحزابَ وحده . ألا كلُّ مأثرة أو دم أو مال يُدعى فهو تحت قدمَيَّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج إلا وقتيلَ الخطإ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مُغلَّظة ، مائة من الابل . أربعون منها في بطونها أولادها . يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظُّمها بالآباء . الناس من آدم ، وآدم من تراب . « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » ثم قال : يا معشر قريش ؛ ما ترون أني فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء . ثم جلس رسول الله في المسجد فقام اليه علي بن أبي طالب ، ومفتاح الكعبة في يده فقال : يارسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك . فقال الرسول : أين عثمان ابن طلحة ؟ فدُعِيَ له ، فقال : هاتِ مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بر ووفاء

قالوا : لما دخل عليه السلام البيت يوم الفتح رأى فيه صور الملائكة وغيرهم ، فرأى إبراهيم عليه السلام مصوَّراً في يده الأزلام يستقسم بها ، فقال : قاتلهم الله ! جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ! ما شأن ابراهيم والأزلام ؟ ! « ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » . ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست . وكان يقول وهو يشير إليها : « جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً »

قال الراوي : أراد فضالة بن عمير بن الملوّح الليثي ليقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلما دنا منه قال الرسول : أفضالة ؟ قال : نعم فضالة . يارسول الله قال : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ قال : لاشيء . كنت أذكر الله عز وجل . فضحك النبي ، ثم قال : أستغفر الله ! ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه . فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده من صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إليَّ منه . قال فضالة : فرجعت إلى أهلي فررت بامرأة كنت أتحدث إليها ، فقالت : هلمَّ إلى الحديث ، فقلت : لا ، وانبعث فضالة يقول :

قالت : هلم إلى الحديث فقلت : لا يأبى عليك الله والإسلام
لو ما رأيتِ محمداً وقبيلَهُ بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيِّناً والشرك يغشى وجهه الاظلام

قلت : هذه صفحة من أمجد صحف الاسلام ديناً ، وخلقاً ، وسياسة ، وأدباً ، وحماسة ؛ ليس لي فيها إلا تخليصها من أطواء السيرة ، وعرضها بأسلوبها ، لعل في الذكرى نفعاً :

وإذا فاتك التفاتٌ إلى الما ضي فقد غاب عنك وجهُ التأسِّي

أحمد الشايب

(١) المؤتمة : اسطوانة (٢) الغمغمة : أصوات غير مفهومة من اختلاطها (٣) النهيت : صوت الصدر

عقبة بن نافع

فاتح أفريقية وقاهر الروم والبربر

للأستاذ محمود الخفيف

فتى مات بين الضرب والطعن ميتة تقوم مقام النصر إن فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلا فرده إليـه الحفاظ المر والخلق الوعر



لئن كان ابن الوليد بجهاده فى الله قد سمى قاهر القياصرة ، ولئن كان سعد بما رابط وصابر فى أرض الفرس يوم التقى الجمعان قد استحق لقب مــذل الأكاسرة ، فإن البطل المجاهد عقبة ابن نافع الفهرى قد كسب لنفسه تحت راية الإسلام مرتبة لن تنزل به فيما أرى عن مرتبة ذينك البطلين . فهو فاتح أفريقية ، أمير المغرب ، قاهر البيزنطيين والبربر

حارب خالد قوماً هدهم الغرور والترف ، كانوا قبل لقاء المسلمين بأسهم بينهم شديد ؛ فلم يكونوا حين ساقوا جموعهم يدافعون عن عقيدة أو يذودون عن مبدأ ، بل لقد كانوا يقفون فى وجه عقيدة منبعثة من الصحراء ، الموت فى سبيلها أحب إلى أصحابها من الحياة . وكان المسلمون تحت راية خالد وأبى عبيدة يقتلون ويُقتلون وقد باعوا أنفسهم وأموالهم من الله بأن لهم الجنة ؛ كلمتهم كلمة أميرهم ، ووجهتهم وجهة خليفة رسول الله فيهم ، فلا تنازع بينهم ولا تنابذ ولا إحن ولا انقسام ...

وكذلك كان المسلمون فى القادسية كالبنيان المرصوص ، لم يعرف الخلف سبيلاً إلى صفوفهم ، ولا وجد الوهن طريقاً إلى قلوبهم ، يسقطون عشرات ومئين ولا تسقط الراية ؛ ويشترون الآخرة بالأولى فى إيمان ويقين ، وغاية المجاهد منهم أن يغلب أو يدفع عن نفسه الهزيمة بالموت !

أما عقبة فقد جاء دوره بعد أحقاد وأحداث فرقت كلمة المسلمين وجعلتهم شيعاً وكادت تأتى على بنيانهم من القواعد . جاء دور عقبة فى الجهاد بعد ما كان فى الاسلام من قتل عثمان ، وبعد ما كان من أمر الجمل وصفين . جاء دوره بعد أن عرف الاسلام الخوارج وغيرهم من الأحزاب ، وبعد أن عرف المسلمون طريقة أخرى فى الغنائم والأسلاب ...

وكان عقبــة يحارب الروم والبربر ؛ وكان البربر أولى بأس وعناد . جبلوا على الحرية فلا يكادون يعرفون ما الخضوع ، طبيعة نفوسهم كطبيعة بلادهم ، فيها مناعة الجبال ووعورة الجبال ، وفيها صرامة البيد وبساطة البيد ؛ فهم لذلك فى القوة كالعرب المهاجمين يطرحون نفوسهم تحت المنايا ولا يطرحونها تحت أقدام الفاتحين

وكانت البلاد التى أثخن فيها بخيله ورجله مترامية الأطراف مجدبة المطارح اللهم إلا واحة هنا أو غيضة هناك ، وبقاعاً خضراء قليلة على شواطئ البحر حول مجاري السيول والأنهار . وكانت تلك البلاد لامتـداد رقعتها وبعد ما بين أولها وآخرها أقساماً لـكل منها اسم يميزه ؛ فهذا هو أفريقية ، ثم هذا هو المغرب الأدنى ، ثم هناك من ورائه المغرب الأقصى ... لذلك كان عقبة وجيشه يحاربون فى هذه الفيافى المترامية عدوين : البربر الغلاظ ، والطبيعة القاسية !

ولد عقبة بن نافع الفهرى فى عهد الرسول ولم تعرف له على الأرجح صحبة ، فكان لذلك من التابعين . وكان عقبة — كما سيتجلى لنا من أعماله — يمثل الخلق العربى أحسن تمثيل . كان شجاعاً مقداماً بعيد الهمة ، صليب العزيمة ، صريم الخلق ، شديد الايمان لا يهاب قلبه الـكبير الموت فى أبشع صوره.. وكان فى إقدامه سريعاً ولـكنه كان وثيق الخطو تذكرنا وثباته وثبات خالد حين كان يقطع البيد والمفاوز ، وحين ذهب لحج ثم كان بعد قليل فى ساقة الجيش

بعـد أن تم للعرب إعلان كلمة الله فى مصر واتجهوا نحو الغرب جاؤا برقة فأذعنت لهم بعد جهاد ؛ وصالحهم أهل تلك البلاد على الجزية ودانوا لهم بالطاعة ، ولـكن الروم حين انحسر

(*) أجلت الـكتابة عن لنكولن إلى العدد القادم

العرب عن برقة عادوا يبنون سلطانهم هناك من جديد ، وقد أذاقوا البربر صنوفاً من العذاب فلم يستمعوا لهم إلى مظلمة أو يبالوا بما عسى أن تكون عاقبة أمرهم

وكان العرب فيما هم فيه يومئذ ، بعد مقتل عثمان من بغضاء وتنازع ؛ وما زالوا فى شقاقهم حتى تم الأمر لمعاوية فوجههم من جديد وجهتهم الأولى ضد أعدائهم

ولقد كان لعقبة فى فتح البلاد أول الأمر من مصر إلى برقة جهاد ، وكانت له خطوات بارعة ، ولكن أفعاله كانت لحقاً فى ذلك الفتح إذ لم تكن له القيادة يومئذ . ولقد بقى عقبة فيمن بقى من العرب فى حامية زويلا حتى كانت سنة خمسين للهجرة فأمده معاوية بعشرة آلاف ليغزو بهم أفريقيا !

أصبحت القيادة لعقبة ، وذلك ما طال انتظاره إياه ، وأحس هؤلاء الآلاف العشرة روحاً قوية تغمرهم وتشحذ عزائمهم تحت لوائه ، حتى كأن الواحد منهم بألف ، فما منهم إلا محب للجهاد ، مستهين بالأهوال ، مرحب بالموت كقائده . وزحف بهم عقبة فما شهد الروم ولا البربر زحفاً أشد هولاً من هذا الزحف .

لم تغن عنهم كثرتهم ، ولم تغن عنهم عدتهم ، وكانت أقواتهم فى بلادهم موفورة لهم ؛ ولا أقوات لهؤلاء العرب المستبسلين إلا ما يستلبون منهم من غنائم

وكانت الحرب طاحنة ، وكان الجهاد مريراً ، فالبربر أهل جلاد ومصابرة ، وهم خبيرون ببلادهم عليمون بمسالكها ؛ فكانوا إذا اشتدت عليهم وطأة محاربيهم اعتصموا بالبيد فضربوا فى أرجائها ، وبالكثبان فكمنوا من ورائها ، حتى إذا زحف العرب وقد أخذ منهم الجهد بعد أن لم ينل منهم الخوف ، وقد انطوت على السغب أحشاؤهم الضاوية ، وتقرحت من الحر أكبادهم الصادية ، برزوا لهم كأنما يخرجون من الأرض ، ولكن ليتركوا من سلاحهم وزادهم بعد القتال شيئاً غير قليل فى أيدى أعدائهم

وكان عقبة يقسو فى قتال هؤلاء القوم لما خبر من طباعهم ، ولما عرف من غدرهم ومكرهم ، فهم إذا غلبوا على أمرهم يضعون السلاح ولكنهم لا يضعون الانتقام ، فاذا واتتهم الفرصة نشوا كل عهد واستخفوا بكل ميثاق . وكانت سيوف العرب ونبالهم تفعل فعلها القوى فى هؤلاء القوم كما كانت تفعل فيهم عزيمة العرب ومضاء العرب . وظل الحال كذلك وعقبة يرسل عليهم من جنده ذات اليمين وذات الشمال حتى تم له الأمر ، على بعد الشقة وترامى البيد وصرامة القتال ؛ فلما أشرف على موضع كان غير بعيد من موضع قرطاجنة القديمة ابتنى للعرب قاعدة جديدة ابتنى عقبة القيروان ليقيم فيها المسلمون إذ لم يحب لهم أن يقيموا بين هؤلاء البربر . وكان موضعها بعيداً عن البحر حتى لا تطرقها مراكب الروم ، وهى فى البر بحيث تتوسط البلاد وتكون معقلا لصد البربر . وكان الموضع الذى اختاره أجمة عظيمة تسكنها السباع والحيات والأراقم ؛ ولعل هذه الخلائق روعت ، وقد أحاط جيش عقبة بالمكان ، فنفرت أسراباً تحمل صغارها هاربة إلى الصحراء ، وكان عقبة قد دعا الله أن ترحل ؛ وأسلم من البربر كثير ممن شاهدوا هذا الرحيل ؛ وهل يكونون من الوحوش والأفاعى أشد قسوة ؟ واختطت المدينة وشيد بها عقبة داراً للأمارة ، وبنى مسجداً ، وبنى الناس بيوتاً لهم ؛ واستقامت المدينة سنة خمس وخمسين وصارت تجاوب مآذنها مآذن الكوفة ودمشق والفسطاط ، كلما أذن المؤذنون ورفعوا أصواتهم يذكرون اسم الله ...

* * *

وهل كان لعقبة أن يقنع بما وصل إليه من فتوح وقد ضاقت البيد عن همته ؟ لقد عول على مواصلة الزحف ليحمل كلمة الله ، ويعلن اسم الله فى مواطن جديدة ؛ ولكن معاوية يجعل أمر مصر وأفريقية لمسلمة بن مخلد ؛ ويستعمل مسلمة على أفريقية مولى له هو أبو المهاجر ؛ ويقبل أبو المهاجر فلا يرعى لعقبة مقاماً فيوثقه ويسيء إليه كأن بينهما ترات ! ولكن الليث فى الحديد لن تنخلع عنه طبيعته ، فما يزال عقبة صبوراً لا يعرف استخذاء ولا مسكنة . ويطلقه أبو المهاجر ليرحل عن تلك البلاد ، فيرحل عقبة وفى نفسه حنق أى حنق ، وقد تعاظمه الأمر وهو الفاتح القاهر ؛ ولكن الأرض لله يورثها من يشاء ، والأيام دول بين الناس . رحل عقبة برغمه وقطع بلاداً دانت من قبل لسيفه حتى جاء دمشق فعاتب معاوية عتاباً شديداً على ما كان من أمره بعد ما أبلى فى الله من بلاء ؛ وأراد معاوية أن يخفف عنه بعض ما به فوعده أن يرسله بعد حين إلى القيروان من جديد

وإنا لنحار فيما صنع معاوية ! هل كان يخشى قوة عقبة ويشفق أن يعظم ويعظم حتى يخرج عن سلطانه ؟ أم كانت تلك

هي فعلة مسلمة جازت على معاوية دون أن يتدبر لها ؟ الحق أنا لفي حيرة مما صنع ...

وكانت لأبي المهاجر سياسة في أفريقية غير سياسة عقبة ؛ جمل السياسة والملاينة في موضع السيف ، واتصل بكبراء البربر وخفض لهم جناحه وصانعهم في أكثر الأمور . وكان يسفه آراء عقبة عندهم كما كان يسفهها عند المسلمين ، وكان لا يقر له بفضل أو يترك أحداً من شيعته دون أن يلحق به أذى حتى عظم ذلك على الناس . ولكن البربر أحبوا سياسته وصانعوه مثلما صانعهم . وكان كبيرهم في ذلك رجل اعتنق الاسلام من قبل يقال له كسيلة ؛ وكان كسيلة هذا به كبرة مبعثها الفظاظة والغلظة ، وكان بطبعه أنوفا عيوفا لا يطيق أن يغلب على أمره .

وراح أبو المهاجر يعد الفتوح إلى المغرب وقد انحاز إليه البربر ، فحارب الروم في قرطاجة ولكنه لم يقو عليهم ؛ على أنه مد سلطان المسلمين قليلا إلى الغرب ، ولبث في تلك البلاد بضع سنين أقرب إلى الدعة منها إلى الجهاد ، وقد فترت في المسلمين حميتهم إلا قليلا ؛ وكانوا يذكرون أيام عقبة وإقدام عقبة فتنطوي على الهم قلوبهم . وهم لا يعلمون ما تأتي به الأيام ...

***

ولكن للدهر صروفه وتقلباته ، فقد مات معاوية وصارت الخلافة لابنه يزيد . وفي سنة ثنتين وستين للهجرة أعيد عقبة إلى أفريقية . وجاء يسعى إليها يطوي البلاد طيا ، وفي قلبه من الحماسة للجهاد مثل ما فيه من الكيد لأبي المهاجر . وهل كان يستطيع عقبة أن ينسى ما كان من أبي المهاجر ، وقد كان يحز في نفسه ما صنعه به منذ أخرج من أفريقية ؟ أوثقه اليوم عقبة كما أوثقه هو من قبل ، وشد عقبة وثاقه ، وبالغ في الكيد له فكان يحمله في غزواته مقرناً في الأصفاد !

وفرح المسلمون للقاء قائدهم ، وانبعثت في قلوبهم الحمية ، واجتمعوا تحت لوائه يبدأون الزحف من جديد ؛ وعاد للقيروان عزها ومنعتها ؛ وألقى الرعب في قلوب البربر والروم وهم كما علموا لا قبل لهم بعقبة ؛ وكان عقبة يضمر الحقد لكل من كانت له صلة بأبي المهاجر ، وفي طليعة هؤلاء كسيلة رأس البربر

رفع اللواء واستؤنف الزحف ، وحلا الجهاد للصابرين . أنظر إلى عقبة يستخلف بالقيروان زهير بن قيس البلوي ويحضر أولاده فيقول : « إني قد بعت نفسي من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله » ثم يوصي بما يفعل بعده ويتقدم على رأس جيشه يخوضها حروباً مستمرة متوالية ...

الشقة بعيدة ، والعدد متكاثر له في الشعاب والقلل مخابئ . رفقاً يا عقبة بالبواسل القليلين ! ولكنهم على قلتهم كالسيل الأتي لا يصرفهم عن وجهتهم شيء ، ولا تقف من دونهم عقبة . هاهم أولاء يقربون من مدينة باغاية وفيها من الروم حشد عظيم ، والبربر من ورائهم يعركونهم ويتربصون بهم الدوائر ؛ ولكن العزم المصمم لا يعرف الحوائل . لقد التقى الجمعان واشتد القتال وزلزل الروم زلزالاً شديداً ؛ وكثرت مغانم المسلمين وكثر عدد صرعاهم ، واعتصم الروم بالمدينة فحاصرها عقبة ثم كره المقام عليها فاستأنف الزحف

رفقاً بالبواسل القليلين ! بعدت الشقة وقلت القلة ! ولكن عقبة لا يعرف النكوص ولا يخاف الموت وقد باع نفسه من الله ؛ ميدانه بعد باغاية بلاد الزاب ، وهي بلاد واسعة بها مدن وقرى . سار عقبة وجيشه حتى جاءوا مدينة أربة قصبة تلك الديار ، فوقف له الروم وظاهرهم عليه البربر واعتصموا بالجبال ، ثم التحموا بالعرب في عدة معارك آثروا بعدها الفرار من الموت ، تاركين الكثير من أسلحتهم وخيلهم ...

إلى أين يا عقبة بعدها بالكرام الصابرين ؟ إلى تاهوت ، ويا للهول ما كان في تاهوت ! تكاثر العدد واستقتل البربر ، ولكن العرب صابرون ؛ أحدق الخطر بالبواسل الأنجاد ، ولكن لهم في عقبة وبلاء عقبة الحصن القوي والمعتصم الأمين . وما هي إلا غمرة ما لبثت أن انجلت على وميض السيوف والتماع الأسنة ، وعاد النصر إلى صفوف المجاهدين المستبسلين

والقائد الظافر بعد هذا النصر يطفر من الحماسة والجيش من ورائه يهبط الوهاد ويركب النجاد ، وقد عظم بعد ما بينه وبين القيروان ؛ ولكن ماله وللقيروان الآن وقد أصبحت البلاد كلها له ، وعرف الاسلام سبيله إلى قلوب المهتدين من أهلها ؟ سار الجيش حتى نزل على طنجة ، فأحسن يوليان بطريق الروم لقاء عقبة وقدم له الهدايا واستفهمه عقبة عن الأندلس ، ولكن أين السفين ليحمل الفاتحين ... ؟

وماذا بعد طنجة للغرباء الظافرين ؟ نزل بهم عقبة — أو نزل

اسكندر العرب كما يسميه جيبون — على بلاد السوس الأدني ومعظم أهلها من البربر ولهم بأس شديد، إذ لم يكن لهم كغيرهم في البلاد الأخرى كبير صلة بالروم؛ وكانوا كفاراً لم يعتنقوا النصرانية؛ فما زال بهم المسلمون حتى دانوا لهم، وآمن منهم من آمن بالكتاب وهرب من نجا من السيف إلى الجبال والمهامه، ثم إلى بلاد السوس الأقصى، وهي بلاد ذات خصب يكثر عدد ساكنيها من البربر. وأين المفر من عقبة وجيش عقبة، وهل ثمة ما يمنعه أن يغزو السوس الأقصى؟

احتشدت له البربر هناك في أقصى الأرض جموعاً هائلة، وقاتلوه قتالاً شديداً تجلى فيه بأسهم وشجاعتهم، ولكن عقبة لم يزل بهم حتى فرق جموعهم وأذهب ريحهم، وأرسل الخيل من ورائهم تطاردهم في الجبال والصحراوات وقد كثر ما غنمه منهم، وأخذ يعلن فيهم دين الله. وتقدم بعد ذلك فاذا الخضم الفسيح يمتد أمام بصره! أنظر اليه وقد وقف على شاطئ المحيط برهة ثم غمز جواده فنزل به في الماء حتى جاوز الماء صدره، وشهر سيفه ورفع إلى السماء بصره، ثم استمع اليه يقول: «يارب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك»

لولا البحر لمضى عقبة الفاتح مجاهداً في سبيل الله، وهل كانت به حاجة إلى هذا القول وله من غزواته ما هو أبلغ من كل كلام؟ إنها لعمري قصيدة رائعة لا تزال الدهر يرويها ولا تزال في سجل البطولة رائعة المقاطع رنانة القافية! وماذا أبلغ من تلك القلة تصل ما بين المشرق والمغرب، وتقاتل البربر والروم في بلاد مجهولة المسالك بعد ما بين قاصيها ودانيها؟ وأي بلاد هي بل وأي قوم! لم يلق المسلمون في أي موطن في مشرق الأرض مثل مالاقوا هنا من عراك وبلاء؛ بل لم يلق غير المسلمين من الغزاة قبل بلاء هو أشد مما لقي العرب في بلاد المغرب من بلاء. كانت القبائل الموتورة تنزل من الجبال كما تنزل الكواسر فتنقض على جناحي الجيش الغازي مرة، أو تأتيه من خلفه مرة، بينما يتعرض القلب لقتال شديد من المتصدين له. ولو كان على رأسهم غير عقبة لما جاوزوا برقة إلا قليلاً

وقف البحر في وجه عقبة وما استعصى عليه غير البحر، فكان لا بد من الرجوع. فأدار البواسل المجاهدون وجوههم يريدون القيروان ولم يلاقوا في أوبتهم عنتاً أول الأمر؛ حتى أمن عقبة واستخف بالأمر فأرسلهم إلى القيروان قبيلاً يتلوه قبيل

ولكن البربر قلوبهم مطوية على الحقد، كما كانت نفوسهم مفطورة على الغدر، وكان كبيرهم كسيلة يتحين الفرصة ويتهيأ للانتقام. كانت بينه وبين عقبة أشياء فهو من شيمة أبي المهاجر، أسلم في عهده وحسن إسلامه، فلما عاد عقبة استخف به وبالغ في إيذائه؛ حتى لقد أمره مرة أن يسلخ الشياه مع السالخين وهو يقول هؤلاء غلماني يقومون بما تريد، ولكن عقبة يأبى إلا أن يذله. ولقد نصح له أبو المهاجر أن يحسن معاملة عقبة وقبح فعله على ما بينهما من خصومة، ولكنه أبى واستكبر استكباراً. وعاد أبو المهاجر فأشار عليه أن يوثقه ولكنه أعرض حتى عن هذا

ليت عقبة سمع ما أبدى له من نصح فرعاه واتبعه، أجل ليته تدبر ما أشار به أبو المهاجر، إذاً لنجا مما كان يدبر له.

قصد عقبة في أوبته تهوذا وفيها للروم جيش وحصن؛ لم يكن معه إلا بقية جيشه الفاتح، فاستهان الروم بالغازي وأغلظوا له القول، بل لقد وصل بهم الأمر إلى السباب وهو يدعوهم إلى الاسلام؛ فوقف ليذيقهم بأس سيفه، ولكنهم كانوا قد أخذوا للأمر عدته من قبل، فبينهم وبين كسيلة مؤامرة محكمة. وأقبل كسيلة في هذا الموقف الذي يطيش فيه الكمي، فأصبح عقبة بين نارين: الروم من ورائه والبربر الأشداء من أمامه؛ ولكن قلبه لم يخلق له الفزع؛ تقدم ليلقى كسيلة ففر ريثما يتكاثر حوله البربر؛ وبلغه حينئذ من أبي المهاجر أنه ينشد في وثاقه:

كفى حزناً أن تردى الخيل بالقنا ... وأترك مشدوداً علي وثاقيا
إذا قمت عناني الحديد وأغلقت ... مصارع من دوني تصم المناديا

سمع عقبة ذلك فغلبت عليه شيمته العربية وأطلق خصمه من وثاقه وقال له: «الحق بالمسلمين وقم على أمرهم وأنا أغتنم الشهادة»! ولكن أبا المهاجر يطمع في الشهادة كما يطمع عقبة فوقف يقاتل تحت لوائه، وكسر البطل المجاهد عقبة غمد سيفه على ركبته وحمل على الأعداء، واحتذى العرب حذوه وتكاثرت جموع الروم والبربر، ودارت رحى الحرب والتمعت البيض، وبرقت الأسنة، وتطاير العثير، وعلا الضجيج، وطاب الموت في سبيل الله، وانجلت الغمرة فاذا العرب جثث طريحة لم يفلت منهم إلا من أسر؛ واغتنم عقبة الشهادة، واغتنمها معه أبو المهاجر. وعرف ذلك البطل كيف يموت ميتة لا يدرك معناها إلا البسلاء

الخفيف

قبل انبثاق الفجر

للأستاذ محمد سعيد العريان



— « أبي ! »

— « سلمان ! »

— « ما أريد يا أبي أن أكون بعد اليوم قطين النار ! »

— « وَيْ ! ما تقول يابني ؟ لقد نذرتك للنار قبل أن تخرج إلى الحياة فأنت هبة الرب إلى أبيك ، وأنت وفائي للرب بما نذرت . أضلالاً بعد هدى ، وكفراً بعد إيمان ... ؟ »

— « إن روحي لتتمرد على هذه العبودية ؛ فما أرى هذه النار المعبودة تملك لي نفعاً أو تمنعه ؛ إنني أنا أوقدها وأذكيها ، ولو شئت لصببت عليها ذَنوباً من ماء يردّها رماداً رطبا ! »

— « أيْ بُنيّ ، إنه دينك ودين آبائك . أيّ نازية نزتْ بك فتمردت على ربك ؟ »

— « هيهات مني ما تريد يا أبي ، وبرغمي هذا العصيان ! إن في السماء إلٰهاً يقتضيني حقه من العبادة والتقديس ، وإن صوته ليهتف بي في سدفة الليل ، وفي وحدة القلق ، وفي ظلمة اليأس ؛ فما أجد لي طاقة على الافلات من صوت الله ... ! »

***

جثا الشيخ الأصبهاني بين يدي ربه مطأطئاً رأسه في ذلة وانكسار ، وبسط ذراعيه إلى النار في ضراعة واسترحام يسأل الهدى لولده الذي يؤثره بالحب من دون مايتمتع به من زينة الحياة . وراح اللهب المتراقص يمكس على وجهه المتغضّن أضواء تكشف عما يعتلج في نفس الشيخ من حسرة وأسى

وعلى مقربة من مجلس الشيخ جلس فتاه الأمرد « سلمان » معتمداً رأسه بين راحتيه وسبح في أحلامه . كان ما يزال يرن في أذنيه صدى تلك الأنغام الندية التي سمعها منذ قريب في معبد المسيحية على أطراف المدينة ، فشغل بها عما أرسله أبوه لقضائه من حاجته ... وهَفَت نَفْسُ الفتى إلى زورة ثانية لرهبان المعبد ، يستمتع فيها بما استمتع منذ ليال من عذب الأناشيد وحلو النغم ، وبما يسمع من أحاديث الرهبان عن الرب الموجود في كل مكان ولا تراه العين ...

وغدا الفتى مع الصبح على الكنيسة ، يشهد مع الرهبان صلاتهم ويستمع إلى أناشيدهم . لقد عاش قطين النار في المجوسية بضع عشرة سنة لم يحس فيها بمثل هذا الجلال الروحاني الذي يغمره وهو يستمع إلى أناشيد النصرانية بين جدران هذا المعبد القائم على حدود الصحراء . فما فرغ الرهبان من صلاتهم حتى دلف الفتى إلى كبيرهم يسأله أن يعقد بينه وبين هـذا الدين آصرة ... وربت الراهب على كتف الفتى وهو يقول : « لله هذا الايمان في فتى مثلك ريان العود لم تفتنه مباهج الحياة عن معرفة الرب الأعظم .. ما اسمك يافتى ؟ »

— « سلمان الفارسي ! »

— « ليباركك الله يا سلمان وليمنحك التوفيق والهدى ! »

واعتنق سلمان النصرانية عن إيمان وتقى ؛ ولكن الفتى لم يقنع بما أفاء الله عليه حتى يعرف أين أصل هذا الدين فيسعى إليه

وفارق الفتى أصبهان وخلّف وراءه مولده ومرْباه وأباً له جاه وسلطان ومال ، لم يكن أحدٌ أحبَّ إليه من ولده . وتلفّت الفتى إلى وراء ، فتحدرت على خديه دمعتان وهو يقول : « وداعاً يا بلادي الحبيبة ، وداعاً لا أدري متى ألقاك منه إلا أن يأذن الله ...! » وتلاشت آخر كلماته في زفرة حزينة ، ثم طأطأ رأسه ومسح دمعته واستأنف سيره إلى دمشق ، إلى حيث يعرف أصل هذا الدين ...

***

والتقى سلمان وأسقف الكنيسة في دمشق ، فلزمه يستمع إليه ويأخذ عنه ويصلي معه ؛ ولكن سلمان لم يجد في الأسقف ما كان ينتظر أن يجد في رجل نذر نفسه لله ؛ لقد كان رجل

سوء يأمر بالصدقة ويرغِّب فيها ، فإذا اجتمع إليه شيء منها اكتنزه لنفسه فلا يتصدق به ، فإن المال عنده لأكداس ، وإن المساكين لعلى الأبواب يستنـدون الأكف ويبيتون على الطوى؟

وضاقت نفس الفتى بما وجدت فلم يجد حيلة لنفسه مما رهق نفسه ؛ لقد فرَّ من المجوسية إلى دين البر والرحمة والسلام ، فما وجد عند أهله شيئاً من البر والرحمة والسلام ؛ وعاد التمرُّد إلى الفتى وشغلته أشجانه فما يستبين طريق الرشاد ...

— « أى ربى ، إنك لتسمع دعائى ، وإنى لأراك فى قلبى ، ولـكنى لا أجد سبيلاً إليك . فى بيت النار سلخت بضعة عشر عاماً من الشباب ألتمس الزلفى إليك بين البخور واللهب فما بلغت إليك ؛ وفى معبد المسيحية بين الهيكل والصليب وتماثيل القديسين ركعت ألتمس الزلفى إليك فما بلغت إليك ... تنزهْتَ يا رب أن تأمر بعبادة النار وإنها لجمر ودخان ، وتقدست يا إلـهي أن تكون عبادتى لك سجوداً للتصاوير وركوعاً للصليب ، وخشوعاً لتمثال العذراء ، وحرصاً على جمع للمـال فى القلال ليحرم منه الفقير والمسكين ... ! »

« ربى ، سألتك الهدى فأَنِر سبيلى ! »

***

وكانت الفتنة تعصف عصفها فى كل مكان ، والشهوات يتسلط سلطانها على كل نفس ؛ والناس فى الشرق والغرب ، فى فارس وقسطنطينية ، وفى بغداد ودمشق ، وفى الحبشة وبلاد العرب ، تعيش عيش البهم : لا وازع من دين ، ولا حرج من ظلم ؛ فلم ينج من فتنة الشهوات إلا من عصم الله ... والفتى « سلمان » من أشجانه فى همٍّ ناصب ، يتوزعه الشك واليقين ، ويتعاوره الإيمان والكفر ، ويراوح القلق بين نفسيه فى وحدته واجتماعه ؛ فما يجد له منجاة من أشجانه إلا الصبر والاستسلام حتى يجد لنفسه فرجاً من ضيق ...

وكان ثمة أربعة من الرهبان جمعتهم على دين الرب عقيدة راسخة ، وقلوب عامرة ، وإيمان بالله وطيد ؛ وكان لهم فى كل عام مزار يجتمعون إليه أياماً ثم يذهب كل إلى واديه . كانوا من الصلاح والخير وصفاء النفس بقية من الحواريين المخلصين ، عرفوا دين السلام عرفان الحق ، فأقاموا على هدى المسيح خالصاً يعبدون الله لا شريك له ؛ فاطمأنت نفوسهم على قلق الحياة ، واستراحت قلوبهم على شغب الفتنة ، فأسموا آذانهم عما ابتدع الرهبان فى الدين وما زادوا ونقصوا ، فبقوا على المسيحية الأولى حنفاء لله ، يدعون إلى الله ما قدروا على الدعوة ، أو يلزمون صوامعهم لتسبيح الديان

***

واستجاب الله دعاء « سلمان » فوصل بهم حبْله ليهدوه سبيل الرشاد

كانوا أربعة تفرقت بهم البلاد : فراهب فى دمشق ، وراهب فى الموصل ، وثالث فى نصيبين ، ورابع في عمُّـورية من أرض الروم . قد تقدمت بهم السن حتى أشرفوا على الآخرة ، ولـكنهم جِدُّ حِـراصٍ على الحياة ، لأن لهم فى الحيـاة أمنية موروثة يستشرفون إليها من بعيد

ولقى « سلمان الأصبهانى » أولهم فى دمشق فلزمه ، فلما صفا بينهما المورد جلس الراهب يتحدث إلى فتاه :

— « أىْ بنىّ ، إنها فتنة الحياة للأحياء ، ولـكن صبراً صبراً يا بنى ؛ إن شماعة من النور تلوح من بعيد ، وإنه ليوشك أن يشرق بعدها صبح أزهر . هنا من هذه الصحراء سينبثق النور الأعظم الذى يغمر الدنيا ويشرق بالخير والسلام على البشرية كلها ، إنه نبى قد أظل زمانه ... يا ليتنى فيها جذع ... ! »

وانتفض الفتى وقد غمرته موجة من السرور فهزت أعطافه فمال على الراهب وقد أمسك بكلتا يديه يهزهما فى فرح ونشوة وهو يقول :

« ... نبىٌّ قد أظلّ زمانه ؟ من هذه البادية ؟ حدثنى يا أبى إن حديثك لينفذ إلى قلبي بكل مسرات الحياة : »

وابتسم الراهب وربت على ظهر الفتى وهو يقول : « صبراً ، صبراً يا بنىّ ... إن حديث هذا النبى لمسطور في فؤادى ، وإنى به لمؤمن قبل مبعثه ، إنها لأمنية الحياة يا بنى أن أعيش حتى أراه ... ! »

ولـكن الراهب الشيخ لم تمهله المنية حتى يحقق أمله ، فلم يلبث أن ذهب إلى ربه !

عاد السلام والأمن إلى قلب الفتى الفارسى ، وتقشعت ظلمات الشك والحيرة فى نفسه ، ولـكن الأمل الجديد الذى بعثته فى

نفسه كلمات الشيخ لم تدع له أن يستقر ، فقرر رحلة ثانية من دمشق لعله يعرف جديداً من راهب الموصل عن النبي الذى أتى وقته ليرسم للانسانية الضالة حدود سعادتها فى معانى البر والرحمة والمساواة !

فتًى لدْن العود غض الاهاب ، يهاجر هجرتين فى سبيل الله ، من أصبهان إلى دمشق ، ومن دمشق إلى الموصل ، وليس معه مال ولا زاد ، إلا الايمان والتقى وقلب عامر بمحبة الله ؛ وقد خلف وراءه المال والأهل والسيادة ، وأباً لم يكن أحد أحب إليه من ولده !

***

— « سيدى ! »

— « ممن أنت يا فتى ؟ إن في وجهك لَنَضرةَ أبناء الدهاقين والسادة ؛ ولكن عليك من وعثاء السفر مثل أبناء السبيل ! »

— « سيدي ! ... »

— سمعاً يا بنى ! »

— « أنا رسول (فلان) إليك — يرحمه الله — أفتأذن لى أن أقيم عندك لآخذ عنك من أمور ديني ... ؟ »

— « سهلاً وكرامة يا ولدى ، بارك الله عليك ! »

— « أبى ، إن الفتنة لتعصف عصفها ، وإن شهوات الناس لتبلغ بهم مبلغ الحيوان ، أفترى للانسانية منقذاً من ضلالها يهديها سواء السبيل ؟ »

— « أراك تعرف بعض ما أعرف يا بنى ؛ وإنك لتستشرف إلى أمل قريب . إن نبيًّا قد أظلّ أوانه ، إن لم يكن فكأنْ قد ... يا ليت لى فسحة فى العمر حتى أراه فأومن به ! إن موجة الاصلاح ستمد مدها عما قريب من هذه الجزيرة العربية حتى تفيض على البشرية جميعها من برها خيراً ورحمة ، وستغسل هذه الموجة أدران البشرية وتمسح على قلبها بالطهر القدسى حتى يمتلئ العالم سلاماً ومحبة ...

« سيمتد بك العمر يا بنى — إن شاء الله — حتى ترى هذا النبى ، فلا تتلبثْ فى اتباع دعوته ، إنه يدعو إلى خير الدنيا وخير الآخرة ... أتراك ستعرفه يا بنى حين تلقاه إن وصفتُ لك من خبره ... ؟ »

***

وآثر راهب الموصل جوارَ الله ، وخلّف الفتى الفارسيّ وليس معه إلا ربه ؛ فأزمع الرحلة ثالثة إلى نصيبين

وأقام « سلمان » عند راهب نصيبين ما شاء الله أن يقيم ، لا يشغله من دنياه إلا ذكر الله ، وأمل جياش يخفق به قلبه الكبير ، أن يرى ذلك النبي الكريم الذى تُنميه الصحراء لينشر الخصب والرخاء فى ربوع البشرية ويغسل نفوس الانسانية من أدران الشهوات

ثم هاجر هجرته الرابعة إلى عَمُّورية بعد ما فارق صاحب نصيبين إلى جوار ربه ...

« ... أيْ بنىّ ، والله ما أعلم اليوم أحداً على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك أن تأتيه بعدى ، ولكنه قد أظل زمان نبي ، وهو مبعوث بدين ابراهيم — عليه السلام — يخرج بأرض العرب ، مهاجَرُه إلى أرض بين حَرَّتين ، بينهما نخل به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة . فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل ... »

وأقام سلمانُ بأرض عمورية ما شاء الله وهو يعمل لمعاشه ، وإن الأمل العذب فى لقاء النبى العربى ليداعبه فى يقظته وفي أحلامه ؛ واجتمع له مما يعمل بقرات وغنيمة ، فظل يتربّص حتى مر به نفر من تجار العرب ، فساومهم أن يعطيهم بقراته وغنيمته ويحملوه إلى بلاد العرب ... وسار الركب منطلقاً إلى الصحراء يحمل سلمان إلى أرض الميعاد ... !

يا للفتى مما احتمل فى سبيل الله !

خمس رحلات بلا زاد ولا مال ، وليس له من أمل فى دنياه إلا ربه ، وكل شأن من شئون الحياة يتصاغر فى عينيه حتى أهله ووطنه وجاه أبيه ... !

العثير تثيره الرياح إلى الحلقوم والخياشيم ، وذرات الرمل الساخنة تلطم الوجوه بمثل أطراف الأبر ، والشمس الحارة ترسل من أشعتها سهاماً من نار تشوى الوجوه والأقفاء ، والماء فى القِرب يوشك أن يجف من حر الصحراء ، والحادى يحدو البُعْران فى طريق لم يذلَّل بعد للأسفار ، والفتى على بعيره شارد الفكر مذهوب اللب ...

هذه رحلته الخامسة فى سبيل الله ، وقد خلّف الدنيا كلها

وراءه لا يقيم لها وزناً ولا تخطر له على بال ، لأنه مقبل على مهبط الوحي وأرض النبوّة ... والحادي يحدو وفي نبراته حنين ، وفي نغماته حزن وأسى ؟ فهتف الفتى وقد هاج الحداء ذكرياته :

« يا لأبي الشيخ المسكين ! يا لوطني الذي فارقته منذ سنوات ولا أدرى متى أعود اليه ... ! ربّ ، في سبيلك هجرتي وإليك وجهت وجهي ، فاكتب لي الكرامة والظفر بلقاء نبيك المختار ، وأسبغ رحمتك يارب على أصبهان . إن في أصبهان أبي ... وإن لي بأصبهان هوى الحبيب إلى الحبيب ... ! »

***

ومضى الركب إلى غايته ، فلما بلغ وادي القرى ، همس الركب بعضهم إلى بعض يتآمرون على الفتى الفارسيّ ؛ فباعوه من رجل يهودي عبداً ... !

لقد بلغوا بالفتى حيث أراد ولكنهم جعلوا غُلاً في رقبته ، والفتى راضٍ صابر ، لأنه مؤمن بقضاء الله ، لأن له أملاً يريد أن يبلغ إليه فلا عليه مما يناله في سبيله ... رحمة الله له !

وأرسل الفتى أذنه وراء كل اثنين يتهامسان ، لعله يسمع نبأ عن النبي العربي ... وبلغ في النهاية ما أراد : هذه هي الأرض الموعودة ، أرض بين حرّتين ، بينهما نخل به علامات لا تخفى . إنها هي ، فأين هو ؟ فإنه لفي رأس عزق يعمل فيه ذات يوم لسيده بعض العمل ، وسيده جالس تحته ، إذ جاءه النبأ :

هذا رجل قادم يتحدث إلى سيده حديثاً ذا بال : « إن بني فلانة يجتمعون اليوم بقباء على رجل قدم عليهم من مكة يزعم أنه نبي ... ! »

يا للبشرى ! أيكون هو النبي الموعود ؟

وسمعها الفتى فانتفض انتفاضة أوشك منها أن يسقط على سيده ، فما هو إلا أن تمالك حتى نزل عن النخلة يستمع النبأ

— « ما ذا تقول يا رجل ؟ »

هكذا أقبل سلمان على القادم يستنبئه وإن سيده ليشهد . فما إن سمعه يسأل حتى غضب فلكمه لكمة شديدة وهو يقول :

« ما لك ولهذا ؟ أقبل على عملك ! »

قال سلمان : « لاشيء ، إنما أردت أن أستنبئه عما قال ! »

ثم دار على عقبه ليخفي عبرة تنحدر على خده ، وإن صدره ليجيش بعواطف شتى . فلما كان المساء جمع شيئاً من طعام كان له ثم ذهب إلى محمد بقباء :

« سيدى ، إنه قد بلغني أنك رجل صالح ، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة ، وهذا شيء كان عندي للصدقة فرأيتكم أحق به من غيركم ... ! »

وتناول النبي الكريم من يد الفتى الفارسي ما قدّم إليه ، فدفعه لأصحابه لم يأخذ شيئاً منه . وتحققت للفتى أمارة ...

ثم انصرف الفتى فجمع شيئاً وعاد إلى رسول الله يقول :

« سيدى ، إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة ، فهذه هدية أكرمتك بها ... ! »

فمد النبي إليها يده فأكل وأكل أصحابه معه . وتحققت أمارة . . .

وطغى شعور الفرح على سلمان حتى أنساه قيد الرق وذل الإسار ، فسار خلف النبي يتبعه لينظر منه شيئاً قد بقي من أمارات النبوة . فإن النبي ليمشي إذ انحسر رداؤه عن ظهره فرأى ...

وتحقق الوعد المأمول فما تلبّث الفتى حتى أكب على النبي الكريم يقبله ويبكي ...

وآمن سلمان الفارسي بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم . وانبثق الفجر الذي كان يرقب شروقه منذ سنوات وسنوات ، وأضاء في قلبه النور الذي غمر البشرية كلها فحدّد لها حدود سعادتها ورسم لها غايتها . ولم يمت سلمان حتى انتشر الصبح وأشرق على ربوع فارس وأصبهان ، وانتظمتها الدولة الإسلامية فصارت جزءاً من الوطن الإسلامي الذي يعيش فيه سلمان الفارسي

وما زال النور ينتشر وينتشر حتى عم أقطار الأرض . ومات محمد بن عبدالله ولكن شريعته ظلت باقية تمدّ مدّها ذات اليمين وذات الشمال ، حتى عبرت المحيط ، وجازت الجبال ، وحطّمت الحدود ، وأزالت السدود ، ورسمت حدود (الدولة الإنسانية) التي ما زال المصلحون يعملون جاهدين ليبلغوا إلى تحقيقها كي يعم السلامُ الأرض وينتشر الأمن والرخاء ؛ ولن يبلغوا إلى تحقيق هذه (الوحدة الإنسانية) إلا أن يعملوا على شريعة محمد . حينئذ تمّحي الجنسيات ، وتزول العصبيات ، ويذهب الطغيان ، ويعيش الناس إخواناً متحابين كما ينبغي أن يعيش أبناء الإنسانية

« شبرا » محمد سعيد العريان

البيئة الإسلامية

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى



يعجبنى من عادة « الرسالة » فى إخراج عددها الهجرى الممتاز أنها توجه قراءها فى أنحاء العالم الإسلامي العربى مرة فى العام على الأقل إلى موضوع هو أجل ما ينبغى أن يشغل بال المسلم : موضوع الإسلام والحياة به وله والجهاد فى سبيله

والمسلمون اليوم ينقصهم مذكر مؤثر يذكرهم بدين الله وبحقه عليهم : حق العمل وحق الجهاد . والعمل هو من الجهاد أو هو أكبره كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رجع من إحدى غزواته : (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) والمسلمون اليوم قد أضاعوا الجهادين ، فلا هم يجاهدون العدو فيؤدوا الجهاد الأصغر ، ولا هم يجاهدون النفس ويقومون بحق الله فى أنفسهم وفى الناس فيؤدوا الجهاد الأكبر . وليس ينقص المسلمين العلم بما عليهم لله فى أنفسهم وفى إخوانهم ، فإنهم يعلمون من ذلك ما إن عملوا به لكفاهم ، ولكن ينقصهم العمل بما عندهم من العلم المستفيض فيهم

والعجيب من أمرهم اليوم أنه لا يحول بينهم وبين العمل المنجى إلا صغائر الشهوة يعجزون عن مخالفتها ، وحقائر المغريات يضعفون عن مقاومتها . وأعجب من هذا أن كثيرين منهم حين يطيعون المغريات يظنون بأنفسهم الحكمة ويحسبون أنهم يتابعون الصواب . وهذا شر ما فى الأمر كله وأفظعه وأهوله ، فإنه يدل على مبلغ بعدهم عن الدين الذى ينتسبون إليه وقربهم من الشرك الذى يبرأون منه ؛ وظنهم هـذا بأنفسهم يزيد فى يأس اليائس منهم ويجعل عبء المتصدى لهدايتهم ثقيلاً لا يقوم به من ولى العزم إلا من يلحظه الله بتوفيق وتأييد

وعبء رد العاصي إلى الطاعة والضال إلى الهدى والمخطئ إلى الصواب عبء ثقيل على أى حال ، لكن شتان بين من يقر بخطئه أو بمعصيته يود لو خرج من كل ذلك ، وبين من يجادل فيما هو عليه لا يرى به بأساً إن لم يره عين الخير . فالأول ليس بينه وبين الطاعة أوالهدى أوالصواب إلا العادة ، وليس أمام الداعى إلا أن يحرك فيه دواعى التغلب على العادة ويدله على الطريق حتى يتغلب بالفعل ، فتنقلب العادة عوناً له بعد أن كانت عوناً عليه . أما الآخر فأصعب الصعب فى أمره إقناعه بخطئه أو ضلاله ، وتحريك عوامل الأسف والندم فيه حتى يصبح كأخيه ليس بينه وبين الاستقامة إلا أن يجاهد العادة حتى يصبح سلطانها معه بعد أن كان عليه

والصنف الأخير من المسلمين قد أخذ يكثر كثرة تضيق منها الصدور وترتاع لها القلوب ، ولم يكن الحال كذلك منذ ثلاثين عاماً أو أقل . كان هذا الصنف موجوداً لكنه كان قليل العدد قليل الجرأة خافت الصوت ؛ وكان ما يسمى بالرأى العام ضدهم إذ ذاك فى الجملة ؛ كان يدعهم وشأنهم ما داموا متزوين ، لكنهم كانوا إذا حاولوا الظهور ولو باسم الإصلاح والتجديد لقوا منه عنتاً غير قليل

والرأى العام ليس وليد نفسه ، ولكنه وليد بيئته . ولقد كانت البيئة فى ذلك الحين لا تزال دينية الروح إسلامية النزعة إلى حد كبير ؛ لكنها الآن قد تغير روحها وانعكست الآية فيها فى المدن ، ويوشك هذا التغير أن يتخطى المدن إلى القرى على أمواج الراديو وأفلام السينما وصفحات الصحف ولو بالتدريج . فهذه الثلاثة هى أهم مكونات البيئة اليوم ، وقليل منها الآن ما لا يمكن أن يوصف بأن فيه من الإسلامية كثيراً أو قليلا

فالسينما أكثر أفلامها مصنوع في الغرب وأقلها مصنوع فى الشرق . ومع أن هذا الأقل مصنوع فى مصر التى تطمع أن تتزعم الأقطار الإسلامية إلى الخير والعزة والمجد ، فإنه وذلك الأكثر المصنوع في الغرب سواء فى مجافاته للدين ومنافاته لما يليق ، بل قد يبذ الشرق الغربى فى ذلك كعادته فى الإفراط والتفريط . لا يكاد الوالد الحريص يجد بين جميع ما يعرض فى مصر من الأفلام ما يمكن أن يروح عن أولاده بأخذهم إليه من غير

أن يعرضهم بذلك إلى تلويث الذهن وتدنيس الخاطر. بل لقد أصبحت السينما وخصوصاً ما تخرجه مصر من أفلامها خطراً حقيقياً على الأخلاق فى هذا القطر وما يتأسى به من الأقطار. فلقد كانت هناك مسارح للتهتك والخلاعة منزوية فى أماكنها التى كنا نحذرها ونحن صغار، فأصبحنا وليس يغنى التحذير من مفاسدها شيئاً بعد أن أعطتها صناعة السينما قوة التكاثر كما تتكاثر الجراثيم فصارت تنتشر بأفلامها فى المدن والقرى، تنشر عدوى الفساد الخلقى كما تنتقل الجراثيم فتنشر عدوى الأمراض

وما يقال فى تأثير السينما يمكن أن يقال مثله فى تأثير الراديو مع اختلاف فى المقدار. فهو كالسينما من العوامل الفعالة الطارئة على البيئة الإسلامية، وهو جدير أن يغير منها إما إلى الخير وإما إلى الشر، لكنه الآن إلى الشر أقرب. فإنك إذا استثنيت ما يذاع من القرآن الكريم والقليل من محاضرات الإرشاد، تجد الغالب على إذاعاته المجون والخنوثة والاستهتار. خذ بيدك أى برنامج عادى للإذاعة فى أى يوم واحسب ما للهزل فيه وما للجد، تجد ما للهزل أضعاف ما للجد، وتجد أكثر هزله هزلاً غير برىء، بل بعض جده جداً غير برىء كذلك

على أن المصيبة بالراديو أعظم من المصيبة بالسينما من بعض الوجوه، فإنك تستطيع أن تتقى شر السينما فى خاصة نفسك بالقعود عن الذهاب بأولادك إليها، وإن كان فى ذلك شىء من العنت. لكن ماذا تصنع وهذا الذى تهرب منه بحرمان نفسك من تسلية السينما يدخل عليك وسط دارك من الراديو وأنت بين أهلك وذويك؟ إن مجون الريحانى وأضرابه وخلاعة مصابنى وأضرابها تلاحق المسلم بالراديو فى عقر داره. وإذا أمكن التحرز من ذلك إلى حين باغلاق الراديو فلابد أن يأتى يوم يمل الإنسان فيه الرقابة، ويترك الراديو كالورد الخبيث مل الراعى ذود القطيع عنه. على أن المسألة ليست مسألة فرد أو أفراد يعرفون الخطر ويستطيعون توقيه بشىء من كبت الرغبة وضبط النفس، ولكن المسألة مسألة الجماهير التى لا تستطيع تمييزاً ولا امتناعا. فإذا لم يكن ما يذيع الراديو سليماً طيباً كان الراديو شراً ووبالاً على الناس ينقلهم خلسة عما ألفوا من الخير إلى ما لا يريدون أن يألفوا من الشر ومذاهبه، وينبه فيهم من نزعات السوء ما لم يكن لولا الراديو ليتنبه فيهم. والراديو الآن يخلط الصالح بالسىء إلا أن سيئه أكثر من صالحه، وهو على أى حال كان إلى الآن عاملاً على تغيير البيئة فى الأقطار الإسلامية تغييراً يبعد بها عن الإسلام

وغير الراديو والسينما من مكونات البيئة الحديثة ينحو منحاهما وإن لم يبلغ مبلغهما من القوة والذيوع. ولعل أهم هذه هى الصحف وهى مثلهما قوة هائلة تعمل فى كيان البيئة، إما بتعمير وإما بتدمير. ولقد كان عهد ليس للصحف فى البيئة الإسلامية من أثر، ثم جاءت الصحف وعرفها الناس لكنها فى أول عهدها لم تكن تجرؤ على الخروج عن مألوف الناس من فضيلة ودين. بل لقد كانت الكلمة العليا بين الصحف إذ ذاك للإسلامية منها أيام كان المؤيد واللواء ليس لهما فى ميدان الصحافة قريع. وكانا رحم الله أيامهما وعوض المسلمين خيراً منهما مهما اختلفت بهما سبل السياسة لا تختلف بهما سبيل الدين. فكانا لا يكادان يشيمان الخطر على الدين من ناحية ولو من بعيد حتى يهبا لاتقائه وتنبيه الناس إلى الاستعداد له قبل وقوعه. ثم ذهبت بهما الأيام فكأنما ذهبت بذهابهما ريح الدعوة لله والمنافحة عن الإسلام. وكثرت الصحف حتى صارت عشرات بعد آحاد، لكنها كانت حرباً على الاسلام فى غالبها. كانت بين مهاجم له ومعين عليه بالسكوت أو بنشر الرد الضعيف بعد الهجوم العنيف؛ وقل بينها ما كان يهب للدفاع حيناً بعد حين. أما الثبات فى الدفاع والصمود للخصم صمود المؤيد مثلا لرينان وهانوتو فلم يكن فى القائمين على الصحف الاسلامية من يجشم نفسه ذلك. وكان من أثر توالى الهجوم وتلكؤ الدفاع أن دخل الخصم من حصون البيئة الاسلامية حصناً بعد حصن. فذهب الحجاب وكأنما ذهب بذهابه الحياء؛ وجاء السفور وكأنما جاء بمجيئه الفجور. وكان الفجور يكاد يكون وقفاً على الرجال فأصبحوا بعد أن فشا الرقص والاختلاط يغلبهم عليه النساء

إنا لله. لشد ما غفل عن دينهم المسلمون حتى أتوا من حيث يحتسبون ومن حيث لا يحتسبون! ماذا كان عليهم لو أنهم عملوا بدينهم وأطاعوه فكفوا أنفسهم كل هذه المصايب والويلات؟ إن الرجل اليوم ليأمر ابنه فلا يسمع له، ولا يجرؤ على أن يأمر ابنته خوفاً من أن تجترئ وتجاهره بالعصيان، كأنما إقراره إياها على خطأ لا يجعلها ترتكب غيره من الأخطاء، أو كأنما مجاراته إياها فيما لا يرضى الدين سيجنبها الهوة التى لا بد أن يتردى فيها كل من يعصى الدين

لقد كانت البيئة الاجتماعية يغلب عليها الشر قبل الاسلام ، فلما جاء الاسلام طفق يجتث منها أصول الفساد ، وطفق يصلح ويهذب ويطهر حتى ذهب عنها الرجس ، وشاع فيها الطهر ، وعم فيها النور ؛ وأصبحت من ينشأ فيها ينشأ سليماً صحيحاً قوياً كالزرع فى التربة الطيبة يأتيه النور من كلّ مكان . ثم أراد الله الذى يعلم أن الانسان ابن بيئته أن يديم للانسان نعمة إصلاحها فأقام حولها وفيها الحدود حداً بعد حد كحصن اجتماعى بعد حصن يقيها تطرق الفساد . فجلد على الخمر ، وجلد ورجم على الزنا ، وحرم الخلوة ومنع الاختلاط إلا لضرورة ، واحتاط في المنع فضرب الحجاب . وقطع يد السارق بعد أن منع الربا ، وأوجب الزكاة . فكانت بيئة طاهرة زكية يزكو فيها النشء كما يزكو النبات فى البلد الطيب . فلما أصلحها للناس أمرهم أن يحافظوا على صلاحها بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الحدود ، وأنزل عليهم (ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين) فأحسنوا وأطاعوا ما أقام بينهم الرسول . فلما علم صلى الله عليه وسلم أنه مفارقهم عن قريب حج بهم حجة الوداع وخطبهم خطبة الوداع التي لا يكاد يحفظها الآن مسلم :

(أيها الناس اسمعوا منى أبين لكم فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا فى موقفى هذا

أيها الناس ! إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ...

أيها الناس ! إنما المؤمنون إخوة فلا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفسه . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فلا ترجعن بعدى كفارا ، يضرب بعضكم رقاب بعض ، فانى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده : كتاب الله وسنة نبيه . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ...)

هذا بعض ما عهد الرسول به إلى المسلمين فى ذلك الموقف العظيم . فلما قبض صلى الله عليه وسلم أحسن المسلمون خلافته وأحسنوا السمع والطاعة لله ولرسوله وللخليفة الأول من بعده ؛ وسار فيهم رضى الله عنه متأسياً بالرسول ، حاملا إياهم على الحق ضاربا لهم المثل بنفسه ، جاعلاً طاعة الله أول الأمر وآخره

(أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فاذا عصيته فلا طاعة لى عليكم . ألا إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه)

فلما قبض رضى الله عنه خلفه فى المسلمين من كان يرعاهم رعى الأم ولدها ، ويذودهم عن المهالك ذود الراعى غنمه (اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها فانها طلعة ، فانكم إلا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية . إن هذا الحق ثقيل مرىء ، وإن الباطل خفيف وبىء ؛ وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ، ورب نظرة زرعت شهوة ، وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلا) . وكان أكبر ما يحرص عليه رضى الله عنه ألا يتطرق إلى البيئة الاسلامية خلل أو فساد وأن يقى ضعيف النفس من المسلمين شر المغريات ، حتى أنه لما سمع المتمنية تتمنى نصر بن حجاج دعا به ، فلما رآه نفاه من الأرض، وأمر ألا يغيب رجل فى الغزو عن بيته فوق أربعة أشهر كما أمر ألا ينزل المسلمون منازل المترفين في البلاد التى يفتحونها مخافة أن يخرجوا من أخلاقهم شيئاً فشيئاً إذا اختلفت بهم البيئات

ثم كان أن جاءت الفتن وتغير الحال ووجد الشيطان سبيلاً إلى تلك البيئة الإسلامية المصونة عن طريق الهوى . وترخص الخلفاء بعد عهد الراشدين واحتالوا على الجمع بين هواهم وبين الدين ، وهيهات ؛ فكان منهم من امتدح وتمنى المادح عليه ألا يُحد فى الخمر فقال ذلك حد من حدود الله لا سبيل إلى إبطاله ، ولكن سأحتال لك فكتب إلى عامله على بلد الشاعر المتهتك : من أتاك بابن هرمة سكران فاجلده مائة واجلد ابن هرمة ثمانين ! وظن ذلك الأحمق أنه لم يبطل حد الله حين أفتاه شيطانه بهذا وقد أبطله بالفعل أيما إبطال إذ كان الناس يمرون على ابن هرمة مطروحاً فلا يمسونه ويقولون : من يشترى ثمانين بمائة ؟ ومع ذلك فقد كان ذلك الخليفة العباسى يوصف بفقه ويلحق بالعلماء

مثل هذا النوع من الحكام وهذا الضرب من الاحتيال على إبطال أحكام الله حين تخالف منهم هوى أو شهوة هو الذى أفسد البيئة الإسلامية بعد إصلاحها ، ففسد بفسادها الناس ، فذهبت عنهم العزة وذهب ملكهم عن أقطار استعمرها آباؤهم بالدين وحسن الطاعة لله والنزول على أمره . ولن يستقيم للناس حال حتى ترد البيئة إسلامية خالصة كما كانت (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله)

محمد احمد الغمراوى

التصوير التوضيحي في المخطوطات الإسلامية

للدكتور أحمد موسى



أتى على الباحثين فى تاريخ الآثار والفنون الاسلامية حين من الدهر قصروا فيه جهودهم على درس ما كان بارزاً من تلك الفنون للعيان فى المبانى والآثار الظاهرة ذات الوجود المادى الضخم ، مما شاهدوه من المساجد والمنائر والعمائر وكل ما بناه رجال التاريخ الإسلامى لتتخذ مكاناً بيناً فى نظر الحاكمين والمحكومين ؛ لأن الفنون الجميلة كانت ذات صفة يأبه لها الملوك والأمراء ويجيزون عليها أربابها ؛ فلم يكن للفنان المسلم مجال يظهر به الفن لعامة الشعب ، بل كان كل همه أن يتقدم إلى ملك عظيم بثمرة نبوغه الفنى ليكافئه عليها . كما أن الملوك اتخذوا عادة تشييد البناء وما يتبعها من التزيين والتزويق والتأثيث تخليداً لأسمائهم وذكر عهودهم وما اشتهروا به من الغنى والقدرة على تسخير المواهب فى تمجيد الدين تارة والمجد الدنيوى تارة أخرى

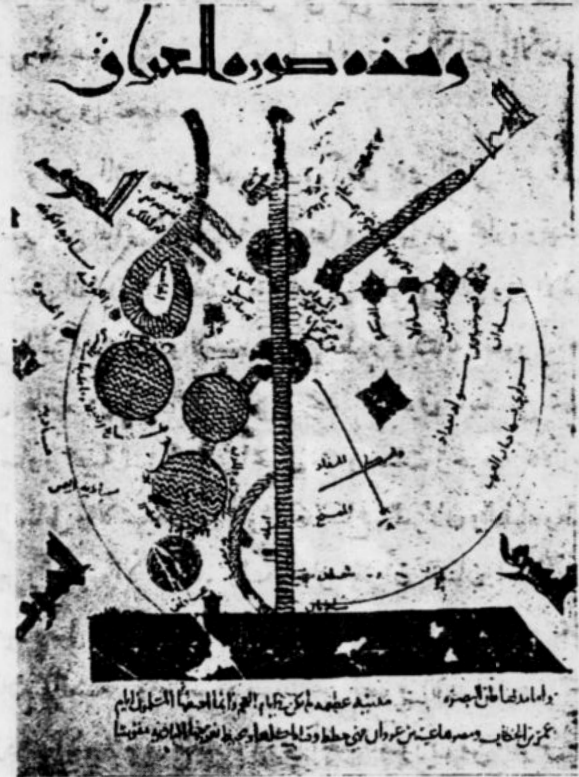
وعند ما انبرى مؤرخو الفنون الإسلامية إلى تقسيمها وتبويبها وتحديدها بعد انتشار الاستشراق فى أنحاء أوربا المتحضرة، وبعد أن طاف فريق كبير من علماء الشرقيات بلاد الإسلام وعادوا بدراسات متوافرة ومُثل للآثار التى وقعت أبصارهم عليها ودرسوها فى حواضر الشرق القريبة والبعيدة - طبق فريق منهم على تلك الفنون القواعد التى اتبعها علماء الفن الأوربى فى ترتيب الآثار ، فجعلوا أقساماً خاصة للعمارة ، وأخرى للنحت والرسم البارز والحفر ، وثالثة للتصوير وغيرها لأنواع التحلية والنقش والزخرفة

وكان هؤلاء العلماء يزعمون أن الدين الإسلامى يحرم التصوير مع أنهم رأوا آثاره ، ومع أن الدين لم يكن ليمنع هذا الفن إلا من ناحية واحدة خشية أن يتجه التأويل إلى عبادة الأصنام . هذا فى الوقت الذى لا يوجد فيه نص يتنافى مع تقدير الجمال الخالص الذى كانت نفس النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة رضى الله عنهم مشبعة به ، بدليل ما ورد من الآيات والأحاديث والتفاسير فى تمجيده

وجعل المؤرخون همهم مقصوراً على تلك الآثار ؛ ثم خصوا كثيراً من المبانى الاسلامية بزخارفها وما فيها من نجارة وقيشانى وأشغال المعادن ؛ كذلك ما كان على الحلى والحلل وفى الأقمشة من الخز والديباج والاستبرق من تطريز وكتابة وصور . هذا إلى جانب دواوين الشعر التى لم يجد المسلمون مانعاً من تحليتها بتصاوير عجيبة للنبات الذى اتخذوا منه وحدات زخرفية كالأزهار والسنابل والأشجار ، والحيوان كالسباع والغزلان والظباء وطيور البر والبحر والأسماك . ولكنه لوحظ أن الفنان أمسك يده حينما وصل إلى تصوير الانسان ، لا خشية الكفر ولكن خشية الملام والفتنة . واستمر الامساك عن تصوير الانسان حيناً حتى ازدهر الاسلام فى بغداد ، فنرى أحد المصورين من الفرس يزين قصر أحد الملوك المسلمين فى بغداد بفصول من قصة يوسف وزليخا توضيحا وشرحاً لديوان الشيرازى الذى جعل من تلك السورة القرآنية ملحمة شعرية أتى فيها على وصف الغرام الذى كان مستولياً على فؤاد تلك الأميرة المصرية نحو ذلك النبى العبرى

إلا أن هناك جانباً من الفن الاسلامى لم يُلتفت إليه كثيراً قد اهتدينا إليه ، وهو ما زينت به كتب العلماء والمؤرخين والأدباء من الصور التوضيحية فى الكتب . وكان أولها القرآن الكريم الذى بذلت الجهود فى تزويقه وتزيينه وتحليته ، وإن لم يكن بنصوصه فى حاجة إلى التجميل والتزويق . ولا تزال نسخ عدة منه الزينة الكبرى والحلية المثلى لكثير من المتاحف ودور الكتب فى الشرق والغرب ، التى اتخذت وجوده فيها مفخرة وبهجة ودليلا على الغنى الفنى والثروة الأدبية .

ولم يكن فى استطاعة بعض المتزمتين من رجال التفسير أن يمنع فريقاً من الفنانين من إدخال التصوير فى الكتب ، بدليل ما جاء فى مقامات بديع الزمان المتوفى سنة ١٠٠٧ م ومقامات الحريرى[1] (١٠٥٤–١١٢١م) التى تجلى فيها التصوير بالألوان لتمثيل مغامرات البطل المشهور أبى زيد السروجى وغيره



١ — صورة العراق — منقولة من كتاب صور الأقاليم السبعة

وشمل غيرهما من الكتب ككليلة ودمنة ، وبعض أجزاء الأغانى[2] للاصفهانى (٨٩٧–٩٦٧م) وألف ليلة وليلة ، كثيراً من الصور الرائعة التى دلت إلى حد بعيد على الدقة والتذوق .

ولا يمكننا أن ننكر أن فنانى الفرس كانوا أسبق إلى التصوير من سواهم ؛ فقد أعطاهم الشعراء الفحول كالفردوسي المولود سنة ٩٣٩ م ، وعمر الخيام المولود فى القرن الحادى عشر ، والسعدى (١١٨٤ – ١٢٩١ م) وحافظ المتوفى سنة ١٣٨٩ م وغيرهم ، موضوعات منوعة توحى إلى المصور فكرة الرسم لتوضيح النصوص . فالشاهنامة وحدها وهى تنطوى على جزء عظيم من

(١) راجع مقدمة : De Sacy, Maqamat el Hariri, Paris 1882

(٢) انظر الصورتين الافتتاحيتين للجزء الثانى والرابع المحفوظين بدار الكتب المصرية (مخطوطات)

تاريخ إيران ، أشبه شيء بالياذة هوميروس ، وفيها من أخبار الملوك والأمراء وخدع الحروب وحيل السياسة ووصف الأقطار ومواقع البلدان وجمال التصور وفتنة الجبال والوديان ما جعل التصوير فيها أمراً محتماً . وكذلك ما ورد فى شعر السعدى[1] من النوادر والقصص فى بستان الورد . دع عنك رباعيات الخيام[2] وما اقتضته من تصاوير تمثل الشاعر الفنان المحب للخمر المفتون بالجمال المسحور برشاقة التكوين الجسمانى ، وهو يطرق باب الحان ليوقظ رفاقه لمعاقرة أقداح الشراب قبل بزوغ ألوان الفجر ، فلم يكن للمصور بد من الخضوع لذلك الالهام الشعرى الموسيقى القوى فى سبيل الحب واندفاع النفس . وهذا هو الذى حدا بالمصورين إلى تصوير الانسان فى أوضاع مختلفة أهمها أوضاع الحرب والحب ، ولا أجمل من تلك الصورة التى رسمت توضيحاً لقول الشاعر :

لم يخلق الرحمن أجمل منظرا ... من عاشقين على فراش واحد

لأن المصور قد أوتى من نقاوة الالهام وطهارة الروح وسمو الخيال وتمجيد الجمال ما جعل صورته آية فى العفة وجميل الظن مع اجتماع الحسن والشغف الظاهر فى أعين العاشقين .

من أجل هذا كله وجب على القارئ كلما قلب بين يديه كتاباً إفرنجياً مصوراً أو مزيناً بالرسوم ؛ أن يتذكر أن هذا الفن وهو توضيح النصوص بالتصاوير ، إنما هو اقتباس من فن شرقى قبل كل شيء ، وأن الذى فكر فى تزيين دواوين الشعراء وكتب القصص والتاريخ بالصور كانوا من أهل الشرق كالهنود والفرس وبعض السوريين ، فى الوقت الذي لا ننكر فيه على بعض علماء اليونان أنهم وضحوا كتباً من تآليفهم برسوم تعين على فهم النصوص دون أن يكون لهذا أثر كبير فى ابتكار المشارقة لفنون تحلية الكتب

وإننا لا نذكر أن هذا البحث لا يزال بكراً ، لم تتجه إليه الأنظار ولم يطرقه باحث ، كما أننا لا نذكر أنه كتلك الموضوعات التى سبق البحث فيها فلا تكلف كاتبها مجهوداً كبيراً ، إنما نذكر

(١) راجع Der Fruchtgarten von Saadi, Ottokar Maria, Wien 1852.

(٢) راجع : Christensen, Omar Khajjams Rubaijat, Kopenhagen 1903.

أنه قد آن لنا أن نختط خطة أخرى فى دراسة الآثار الاسلامية ؛ فندرس الطريف الجديد

ولما كانت العلوم التطبيقية أول ما اتجه إليه نظرنا فى هذا البحث ، وكان أقدم الكتب المخطوطة فى هذا الموضوع حسب ما عثرنا عليه ، كتاب أبى زيد البلخى (نسبة إلى بلخ فى جنوب أفغانستان) رأينا أن نبدأ بتعريف إحدى صوره وهى صورة العراق فى زمانه ، والتى قصد بها أن تكون خريطة لتلك البلاد ، وهى الخريطة التى اصطحبها ياقوت الحموى الإغريقى الأصل (١١٧٩ — ١٢٩٩م) أثناء رحلته فى سوريا وفلسطين كما ذكر ذلك فى كتابه إرشاد الأريب ، عند ما نوه بذكر كتاب البلخى ، مما يدل على قيمته فى عهده

وقد جعل البلخى للأنهار صورة تشبه الخطوط الغليظة المهشرة رمزاً للماء ، وأحاط المدن والمعالم بدائرة تحدد القطر المقصود بالوصف ، ورسم نهر دجلة وسطه فقسم البلاد إلى قسمين ، وأظهر مصبه فى الخليج الفارسى عند شط العرب ، ورمز للمدائن بمربعات ومتوازيات أضلاع ودوائر ذات مساحات مختلفة تناسبت على ما يظهر مع قيمتها الدنيـة ، ولا يضيره أنه جعل الخريطة بأكملها منحرفة نحو خمس وأربعين درجة عن الأفق . ومن المدن الواضحة على الخريطة بغداد والبصرة كما يتضح من النظر إليها

والخريطة الثانية مختارة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للشريف الادريسى المولود حوالى عام ١١٠٠ ، وهو من أمهات الكتب فى علم وصف الأرض ومن أبرزها تأليفاً وأعرقها أثراً منذ القرون الوسطى . وقد نقل إلى كثير من اللغات الأوربية لاسيما اللاتينية والايطالية والفرنسية ، وضعه الادريسى تلبية لرغبة الملك رودرجو (روجر الثانى ١٠٩٧ — ١١٥٤ م) ملك صقلية ونابولى ، الذى كلفه بعد دعوته إلى بلاطه وضع هذا الكتاب ، وفرغ من تأليفه فى منتصف القرن الثانى عشر المسيحى . والمؤلف عالم مغربى من مواليد ثغر سوبتا ، ذو ثقافة عربية أندلسية وذهن أوربى ، وكان فى مقدمة الرحالة الجغرافيين الذين جابوا الأقطار ، وهو سابق على

الرحالة ليفنجستون [١] (١٨١٣ — ١٨٧٣) والرحالة ستانلى [٢] (١٨٤١ — ١٩٠٤) وغيرهما من الذين قرروا أنهم كانوا أول من اكتشف منابع النيـل ، ووضعوا هم ومن سبقهم أسماء ملوكهم وأمرائهم على البحيرات التى رسمها الادريسى فى إحدى خرائطه الفذة (ش٢) لسبعة قرون قبل مولد هؤلاء المستكشفين . فبينما ترى بحيرتى فيكتوريا نيانزا (أصلها أوكاريو نيانزا) وألبرت نيانزا (أصلها موتان نزيجا) اللتين تتكونان من المياه المنحدرة من جبال القمر قد تغير اسمهما فى الجغرافية الحديثة ، لا ترى الادريسى يفكر فى إطلاق أسماء بعض خلفاء المسلمين أو أمرائهم على تلك البحيرات التى لا يبعد أن يكون قد رآها بعينه كما رسمهما بيده ، وترى نهر النيل بعد تدفقه من تلك البحيرات والتفافه فى وادي السودان وعبوره القطر المصرى ينصب فى البحر الأبيض المتوسط الذى هو جزء من بحر هائل أحاط بالخريطة الشاملة لبقع بيضاء تمثل الجزائر وأشباهها .

وإذا انتقلنا إلى فنون المقاتلة التي كانت ولا تزال شاغلة لأذهان الملوك ، نجد سفراً شاملا لطرقها وقواعدها ، اسمه كتاب



٢ — خريطة الأدريسى — منقولة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق

(١) راجع The last journals of Daurid Luirinstone in Central Africa, publ. by H. Waller, 2 Vols., Lond. 1874.

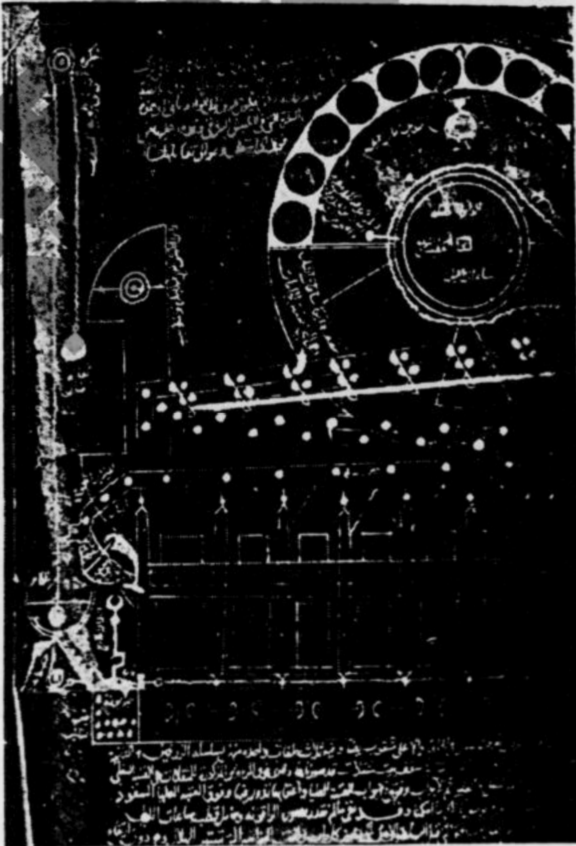
(٢) راجع Henry Morton Stanley, Through the dark Continent, Lond. 1878.

السؤال والأمنية فى أعمال الفروسية لمحمد بن زين الدين العثمانى ، يرجع تاريخ تأليفه إلى القرنَ الخامس عشر الميلادى ، وهو مزين بتصاوير توضح فصوله . والصورة (ش٣) تبين فارسين وقد امتطى كل منهما ظهر جواده وربط ذيل كل منهما بالآخر حتى لا يفترا ولا يبتعدا ؛ فيتمكن كل فارس من مبارزة خصمه ، ووقف الجوادان على أرض مزروعة ذات زهر ، وكان المصور حريصاً على تجميل الخيل وسروجها كما تلاحظ على اللوحة

ومما يثبت نجاح المسلمين فى العلوم الفلكية والميكانيكية التي بنى عليها فن التوقيت بالساعات بعد المزاول ، ما نراه فى الصورة الرابعة المنقولة من كتاب علم الساعات والعمل بها تأليف رضوان ابن محمد الخراسانى ، والتى تمثل دائرة عليها ساعات النهار الإثنتا عشرة ، وساعات الليل نظيرتها فى النصف الأعلى من الدائرة حيث ترى قنديلاً معلقاً بسلك رفيع . وإلى اليسار ثقلان معلقان بسلك آخر ، أحدهما توسط ارتفاع الصورة ، والآخر قريب مَن أسفلها ، وهما متصلان بالسلك المرتكز على بكرة فى الركن الأعلى الأيسر .



٣ — الفارسان — منقولة من كتاب السؤال والأمنية



٤ — صفحة منقولة من كتاب علم الساعات والعمل بها

وعند الثقل الأسفل تشاهد طيراً كان المقصود منه أن ينقر بمنقاره لتحديد الوقت . أما المجارى الرفيعة التى توسطت الصورة حيث النقط البيضاء المستديرة ، فهذه كانت طريقا لأثقال تمر منها فى أوقات معينة ، مارة بفتحة فى رأس الطائر الذى ترى عند قدميه وعاء نصف مستدير لجمع هذه الأثقال

والصورة الخامسة مأخوذة من فصل من كتاب السر الروحانى فى علم الكيمياء القديمة الذى يرجع تاريخ تأليفه إلى القرن السابع عشر الميلادى ، وكتب فيها السويد في الطبايع فى العمل الأول ، وبالنظر إليها ترى رأس الغول فى الركن الأعلى الأيسر ، وهو عبارة عن وجه مستدير لآدمى له عينان واسعتان مستديرتان وأنف أفطس وأسنان فظيعة ، وإلى جانبه عقاب واقف على قوس وآخر على شجرة مثمرة وهو أسود اللون ، قال المؤلف : « وقد طار الناس من هذا السواد الأول ، وأما الغراب الثاني فمنقاره أحمر » ، وفى وسط الصورة على اليسار ترى رجلا قد وقف إلى فرن ، ووضع على رأسه غطاء أشبه بالقاووق

وأمسك بيسراه شيئاً يخيل إلينا أنه بوتقة ليصهر فيها المادن الخسيسة بقصد تحويلها إلى ذهب ، وفى الوسط غراب أسود حالك السواد ، وطير مقفص على اليسار . وعند ذيله وعلى يمين الصورة تشاهد حوضاً رقد فيه إنسان بعينين مفتوحتين ورسمت أعضاؤه بكيفية لا تخرج عن طريقة رسم التوصيلات الكهربائية اليوم ، وكتب إلى جانب الحوض حمام مارية حيث تسلب روح الانسان بطريقة السالب والموجب ، أما الركن الأيسر فهو ملىء بصور الآلات والأدوات إلى جانب الرموز الكيميائية القديمة

ينتج مما تقدم أننا قد اهتدينا بالبحث إلى باب جديد من الفنون الإسلامية تناولناه بشيء مبسط من التسجيل العلمى ، لم تشرئب أعناقنا إلى قباب المساجد ، ولا إلى رؤوس المآذن ، ولا إلى سقف العمائر لنجده ، ولكننا وجدناه فى الكتب المهملة والكنوز المتروكة ، حيث نجدّ فى البحث والتنقيب عن معالم



٥ — الكيمياء القديمة — منقولة من كتاب السر الروحانى

١٠ . ٣٢

جديدة للحضارة الإسلامية المسجلة عن طريق الفن فى مؤلفات المسلمين ، الشاملة لعلوم الطب والجراحة والنبات والحيوان مما لا يتسع المجال هنا لذكره وإيضاحه . فان كتبنا اليوم لنفتتح هذا البحث فاننا نكتب ليكون استهلالاً لسلسلة بحوث تدل على عظمة الحضارة الاسلامية عن طريق التسجيل الفنى ، مؤملين أن يتناول المسلمون فى نهضتهم مؤلفات أجدادهم بتلك الروح التى تناولها بها أهل أوروبا ؛ فيكون لنا بعث وإحياء لا يقلان عن بعث وإحياء أوروبا فى عصر الرفعة أو ما يمهد السبيل إلى نظيره

أحمد موسى

الحائز على دبلوم الدراسات العليا لتاريخ الفن العام
وأجازة الدراسة الأركيولوجية الاغريقية
ودكتوراه الفلسفة من جامعة برلين

قتيبة الباهلي

البطل الفاتح

للمستشرق الانجليزي هـ. أ. ر. جب
الأستاذ بجامعة إكسفورد

إن انتصار الجيوش الإسلامية في آسيا الوسطى أيام عهد الوليد الأول إنما يرجع قبل كل شيء إلى التعاون التام بين عبقرية الحجاج الحكيمة ومهارة قتيبة الحربية. ولقد بولغ — من بعض النواحي — في كفاية قتيبة بن مسلم الباهلي في قيادته الجحافل، وإن كانت المصادر العربية لا تنكر الحقيقة الواضحة في أن مقدرته لا ترتكز كل الارتكاز على العبقرية. ويتجلى لنا مراراً كثيرة إلى أي مدى كان دؤوب الوالي على الاهتمام بتقدم جيوشه، وما كان يأخذ به نفسه من وضع خطة القتال، ولو أن فضل إظهارها وانتهائها بالنصر المؤزر يرجع في الحقيقة إلى قتيبة. ويظهر أن الحجاج كان كبير الثقة في قائده إلى غير حد، وكما أنه لم يكن ليتوانى عن تعنيفه ولومه وتحذيره إذا جدّ ما استدعى ذلك، كذلك كان لا يحجم عن إظهار تقديره لنجاح قتيبة. وسرعان ما أدرك العرب في جميع البقاع أن مقدرة الحجاج تشد من أزر قائدهم وإن استترت، فكان ذلك الإدراك مبعث كثير من هذه الهيبة التي حالت دون حدوث أي خُلف في حياته

أما العامل الثاني الذي ساعد في الواقع على تلك الفتوح فقد كان ما قام به قتيبة خلال متابعته الفتح من توحيد جهات خراسان، وتأليفه الفرس والعرب، وقيس واليمن. ولم يكن من الهين عليه أن يستبقي حماسة جنده — التي لا يعرف التخاذل إليها سبيلاً — إزاء معارك طويلة الأجل حامية الوطيس، وهيهات أن يقتصر تفسير هذا الحماس على أنه الرغبة في الغنيمة الوفيرة فحسب. وليس من البعيد أن يكون مرجع نجاح قتيبة في الغالب إلى مقدرته الإدارية أكثر من رجوعه إلى حكمة قيادته. ويظهر أنه أدرك أن استتباب سلامة ودعائم الحكومة العربية في ولاية خراسان ينبغي أن يقوم — طوال حكمها — على تعاون الشعب الفارسي الذي يؤلف الغالبية العظمى في الإقليم: الأمر الذي لم يقم به حتى الآن أمير عربي في الشرق

ولقد أظهرت حدة النضال الحزبي عظيم الخطورة في الاعتماد على عون العرب فحسب، وعلى الأخص في وجه حركة كتلك التي أضرم لهيبها يزيد. ومن ثم فقد اكتسب قتيبة — بعمله الإيجابي هذا — ثقة الفرس وكافأها من جانبه بالثقة أيضاً. حتى ليكاد يخيل إلينا أنه باستماله — طول حكمه — لموظفين من الفرس وتقديمه الولاة الايرانيين إنما كان يدعم «العشيرة» التي كان يحتاج إليها بين العرب. وعلى الرغم من أن ذلك قد جلب عليه سخط العرب وكان عاملا قوياً في إسقاطه، إلا أنه في ذلك كان أول دافع لإثارة الشعور باسترجاع العاطفة القومية في نفوس فرس خراسان.

كذلك كان مركز آسيا الوسطى مشجعاً للمودة إلى محاولة ضم بلاد ما وراء النهر الغنية إلى المستعمرات العربية، وإن كنا في شك غير قليل إزاء الأخبار المتعلقة بمدى اهتمام العرب بهذه الناحية. ففي سنة ٦٨٢ م، بينما دبّ الضعف الداخلي في الصين من جراء مكائد الامبراطورة ڤو Wu، وبينما كانت يداها مصفدتين بحروبها مع التبت قام الأتراك الشماليون أو الشرقيون باسترداد استقلالهم، ولم تفلح الامبراطورية الجديدة مطلقاً في بسط نفوذها ثانية على الأقاليم الغربية في الخانات السابقين، غير أنها مدّت حكمها — بواسطة الحملات المتواصلة — على القبائل العشر التي تنزل إيلي Ili وتشو Chu التي يقال إنها «قد تلاشت في أغلبها» وفي سنة ٧٠١ م غزا الأتراك الشرقيون سُجْديانا Sogdiana، بيد أنه ليس ثمت داع للاهتمام جدياً بالقول بأن قوات المهلب قد تأثرت بهذه الغزوة، ولو أنه كثيراً ما رُدِّد هذا القول، ولا بد أن التدمير والخسارة اللذين كانت تتسم بهما هذه الغزوات بلا استثناء قد ساعدا على إضعاف موارد أمراء الرعية الذين كان لهم نصيب وافر في اختيار ابن الخان ليقود القبائل العشر. وعلى أية حال فإن الحرب الدائمة التي كان يثير ضرامها الأتراك الشرقيون ضد التركش Türgesh من ٦٩٩ إلى ٧١١ م قد حالت في الواقع بينهم وبين إرسال نجدات إجابة لاستغاثات كانت تصلهم من سجديانا بطلب العون [١] منهم. كذلك لم يكن

(١) Chavannes : Documents sur les Tou-Kiue occidenteaux (طبعة سنت بطرسبرج سنة ١٩٠٣) PP. 42, 282. Marquart : Die Chronologie der Alttürkischen Imschrifter (ليزج ١٨٩٨) P. 15. راجع كذلك الطبري ج٢ ص١٠٧٨ و١٠٨٠

من المستحيل على التركش التدخل فى سجديانا خلال هذا العهد نفسه (١)

ويقصد مؤرخو العرب — بلا استثناء — بكلمة « الترك » جميع السكان المحليين الذين لا يستبعد أنه كانت فيهم إبان ذلك الوقت عناصر تركية . والواضح أن الاشارات العرضية إلى الخاقان إنما هى نعوت نخر (اللهم إلا إذا أمكن إرجاعها إلى الرؤساء المحليين وذلك أمر بعيد الاحتمال) ؛ وإن قصة ٩٨ هـ التى اتخذتها فكرة التدخل دعامة لها إنمـا هى من نسج خيال باهلى بحت ، وخلاصة القول أن تجربة العرب فى السنوات الأخيرة ترينا أنه كان من المحال على قتيبة أن ينعم بهذا المجد الباذخ من النصر لو أن كتائب كبيرة من الترك وقفت وراء سجديانا تشـد من أزرها فى مقاومتها . وتقع فتوح قتيبة بطبيعة الحال فى أربعة أوقات هى :

١ — سنة ٨٦ هـ (٧٠٥ م) حيث استرد إقليم طخارستان الأدنى

٢ — فتح بخارى من ٨٧ — ٩٠ هـ (٧٠٦ — ٧٠٩ م)

٣ — تركيز نفوذ العرب فى وادى جيمون وامتداده إلى صغد بين سنتى ٩١ و ٩٣ هـ (٧١٠ — ٧١٢ م)

٤ — الحملات على ولايات تركستان ، من ٩٤ — ٩٦ هـ (٧١٣ — ٧١٥ م)

***

أما عن إقليم طخارستان الأدنى فقد كان الجهد قبل قتيبة منصباً على كبت كل ثورة تنشب فى هـذا الاقليم . وفى ربيع السنة السابعة والثمانين للهجرة (٧٠٥ م) التأم الجيش وسار من « مروروذ » وطالقان إلى بلخ ، ولقد خضعت المدينة — كما ورد فى إحدى روايات الطبرى — دون نضال ما . وتشير رواية أخرى إلى شبوب ثورة بين بعض السكان ، وقد يمكن عدّ هذه الرواية وإن لم تكن فى وضوح الباهلية — كسابقتها لورودها على لسان أخى قتيبة ولأنه يُرى من ورائها لاقامة دعوى باهلية على البرامكة . ولقد يكون هـذا الرأى هو الأدنى إلى الصحة ما دمنا نسمع

(١) كما يرى ذلك الأستاذ هوتسما ، راجع Gotting. Gelehrt Anz. 1899. PP. 386 - 387.

من أن بلخ قد أضحت خربة بعد أربع سنوات من ذلك (١)

وتلا إخضاعَ بلخ إخضاعُ تيش Tieh ملك شغانيان الذى يحتمل أنه تعاون مع الفضل فى الهجوم على ترمذ قبل ذلك بعام واحد . ويظهر أن الدافع له على عمله هذا إنما هو الصراع مع ملك شـومان فى الأودية العليا لنهرى سرخان والينجاليا ، وكان يأمل أن يستخدم ضده الجيوش العربيـة جزاء مساعدته إياها . وحقيقة الواقع أن الفضل قد دبّر حملة ضد شومان قبل استغاثته ، وكانت قد خرجت تحت إمرة قتيبة الذى كان أكثر الجميع استعداداً للنهوض بها ما دامت تؤكد سلامة الوصول إلى الطريق الجنوبي للبوابة الذهبية . وبعد أن فرغ قتيبة من إخضاع ملك غِسلَشْتان Ghislashtan الذى كان من نبعة تركية كما يذكر يوان شوانغ Yuan Chwang . وآب قتيبة بمفرده إلى مرو تاركا جيشه يسير تحت إمرة أخيـه صالح الذى قام بعـدة غزوات صغيرة أثناء الطريق .

وإنه لمن الواضح الجلىّ — على الرغم من زعم البلاذرى — أن هذه الغزوات لا بد أنها قد وقعت فى الأقاليم المجاورة لنهر جيحون ، ومع ذلك فان فى رواية الطبرى نقصاً (٢)

وهكذا فإن قتيبة لما عزل (رينزك) فى بادغيس قلب الثورة أمضى شهور الشتاء فى مفاوضته عن طريق « سليم الشير » وهو فارسى نافذ الكلمة قد برهنت حنكته — أكثر من مرة — فى تصريف أصعب المفاوضات على حاجة قتيبة القصوى إليه . وقد أغرى « نيزك » على التسليم ، وسيق إلى مرو وقرّت الأعماد على ألا يدخل قتيبة بادغيس بشخصه . ومع ذلك فإن الحاكم — من باب الاحتياط — قد أمر أن يصحبه (نيزك) فى جميع حملاته ، ومن ثم فإنه — على الأقل فى هذه اللحظة — كان قد أمن من خطر اندلاع ثورة فى خراسان بطريقة شريفة لكلا الجانبين ؛ وقام ابن بيروز قافلاً إلى الصين ينتظر سنوح فرصة تكون أكثر مواتاة له (٣) .

ا . ه . جب

(١) راجع الطبرى ج ١ ص ١٢٠٦

(٢) من قراءات برتولد فى Turkyestan v' Epokhu Mongolskavo Nashystviy P. 91. N. 5 and P. 76. (سنت بطرسبرج ١٨٩٨)

(٣) الطبرى ص ١١٨٤ و ١١٩٠ والهمدانى فى كتاب البلدان

مظاهر الحكم في مصر الأموية

للدكتور حسن إبراهيم حسن
أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب



كانت لمصر في العصر الأموي بعض مظاهر عامة لا يستطاع إغفالها كظهور الروح القومية بين المصريين ، وعلى الأخص بعد كتابة الدواوين بالعربية في عهد الوليد بن عبد الملك ابن مروان سنة ٨٧هـ بعد أن كانت تكتب بالقبطية ، وما انطوى عليه هذا العمل من إقصاء القبط عن كثير من مناصب الدولة ، وكانوا يقومون بجباية الخراج ، وإليهم تسند الوظائف الكتابية ؛ مما أدى إلى إحياء روح القومية عند القبط ، ودفع بهم إلى الصياح والقيام في وجه الولاة ، وما كان أيضاً من اشتداد العمال في جمع الخراج وظهور روح العصبية بين القبائل العربية ، وكان لهذا العصر مزاياه ومظاهر حضارته ، فقد امتاز بعض ولاته بعطفهم على القبط ، فسمح مسلمة بن مخلد (٤٧ — ٦٢ هـ) لهم بأن يبنوا كنيسة في الفسطاط

ولقد ولي مصر في هذا العصر رجال عرفوا بالكفاية والدراية وحسن السياسة فنشروا العدل بين الناس ، وأتوا بضروب من الإصلاح تشهد بمبلغ اهتمامهم بترقية الزراعة والصناعة وفن العمارة وغيرها

ومن بين هؤلاء مسلمة بن مخلد [1] فقد بنى بالروضة مقياساً للنيل وداراً للصناعة [1] ، ورد الروم على أعقابهم حينما نالوا البرلس ، واهتم ببناء المساجد وإصلاحها ، فأمر في سنة ٥٣ هـ بجامع عمرو ابن العاص فهدم وبني من جديد ، وأمر في السنة نفسها ببناء منارات المساجد كلها

ولقد وفّى شروط النيابة عن الامام فكان يقيم الصلاة بنفسه طول مدة ولايته ، ونظم الأذان فكان مؤذنو الجامع العتيق يؤذنون الفجر إذا مضى نصف الليل ، فاذا فرغوا من أذانهم أذن كل مؤذن في الفسطاط في وقت واحد ، وأمر ألا يضرب بناقوس عند أذان الفجر .

وكان عبد العزيز بن مروان من أحسن الولاة الذين حكموا مصر في هذا العصر . جاء في صحبة أبيه مروان حين جاء لاسترداد هذه البلاد من عامل عبد الله بن الزبير ، وبقي فيها شهرين . ولما عزم مروان على العودة إلى الشام جمل صلاة مصر وخراجها إلى ابنه عبد العزيز ، وكان بعض المصريين في ذلك الوقت على الشنآن لمروان ولبني أمية ، فخاف عبد العزيز عاقبة مُقامه في هذا البلد وأفضى بذلك إلى أبيه ، فرسم له هذه الخطة المثلى التي ينبغي أن يسير عليها ، فيتألف قلوب المصريين على اختلافهم . وتبين له أن هذا الأمر لا يمكن تحقيقه ، إلا إذا أسرهم عبد العزيز بجوده وإحسانه ، وجذبهم إليه بالمودّة ولين الجانب والبشاشة ، وبين لكل زعيم أنه من خاصته ، وبهذا وحده يتفانى الجميع في خدمته ، ويجمع الكل على طاعته . يقول الكندي [2] قال عبد العزيز : « يا أمير المؤمنين ، كيف المقام ببلد ليس به أحد من بني أمية ؟ » فقال له مروان : « يابني عُمّهم باحسانك يكونوا كلهم بني أبيك ، واجعل وجهك طلقاً تصفُ لك مودتهم ، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصّتُك دون غيره يكن عيناً لك على غيره وينقاد قومه إليك . وقد جعلت معك أخاك بشراً مؤنساً ، وجعلت لك موسى ابن نصير وزيراً ومشيراً وما عليك يابني أن تكون أميراً بأقصى الأرض . أليس ذلك أحسن من إغلاقك بابك وخمولك في منزلك ؟ »

هذه هي النصيحة الذهبية التي زود بها مروان ابنه عبد العزيز عند توليته أمر مصر . ولم يفت مروان أن يزيد ابنه من النصائح

(١) ذكر السيوطي (ج ٢ ص ٥) أن مسلمة ولي مصر من ٤٧ — ٥٩ هـ وهذا خطأ

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٦

(٢) الكندي : ص ٣٨ — ٤٠ والمقريزي : الخطط ج ١ ص ٣٠١ والانتصار لابن دقماق ج ٤ ص ٦٢ — ٦٣

في وصية أخرى ما يكفل له الراحة والطمأنينة فى هذا البلد عند رحيله إلى الشام ، فلقد أوصاه بتقوى الله فى السر والعلانية وبالبر بالفقراء ، وبتنفيذ وعده إذا ما وعد ولو حال دون ذلك شوك القتاد ، وأن تكون المشورة رائده قبل الفصل فى أمور الدولة ، وبذلك تلهج الألسنة بالدعاء له ويأمن الفتن والقلاقل [١]

ولقد عمل عبد العزيز بنصائح أبيه فنجحت سياسته فى مصر النجاح كله ، وأتى في عهده بكثير من ضروب الاصلاح فبنى مقياساً للنيل ، وزاد في الجامع العتيق من ناحية الغرب ، وأدخل فى شماله رحبة فسيحة [٢] وأقام على خليج أمير المؤمنين قنطرة عند الحمراء القصوى بطرف الفسطاط وكتب عليها اسمه وذلك سنة ٦٩ هـ [٣] ، واتخذ حلوان داراً لاقامته بعد أن أصيب بداء الجذام على ما يخالف قول المؤرخين من أنه انتقل إليها لتفشى الوباء فى الفسطاط ، وأنشأ بها بركة كبيرة ساق إليها الماء من العيون القريبة من المقطم على قناطر aqueducts تصل عيون الماء بالبركة . وفى حلوان غرس عبد العزيز النخيل والأشجار وبنى المساجد والعمارات الفخمة . حتى قيل إنه بذل فى سبيل ذلك مليون دينار [٤]

ولقد بلغ من عنايته بفن العمارة والتماثيل أن ابتنى فى الفسطاط حماما لابنه زبّان ، وأقام على باب هذا الحمام تمثالاً عجيباً من زجاج على شكل امرأة وأطلق عليه أبو مرة ، وباسمه تسمت القيسارية التى كانت ملكا لعبد العزيز باسم قيسارية أبى مرة ، وكانت تعرف فى زمن ابن دقماق (المتوفي سنة ٧١١ هـ) بحمام بثينة [٥]

نعم ! لقد طالت ولاية عبد العزيز على مصر فأتيح له أن يأتي بكثير من الاصلاح ، واستطاعت البلاد فى أيامه أن تظهر بمظهر النشاط الأدبي والمادى . ولقد بالغ الشعراء فيما أتاه هذا الوالى من أعمال البر والاحسان والكرم ، فقال بعض المؤرخين إنه « كان له ألف جفنة تنصب حول داره ، ومائة جفنة تحمل على العجلات ويطاف بها على قبائل مصر . وفى ذلك يقول الشاعر :

كلُّ يومٍ كأنه يومُ أضحى عند عبد العزيز أو يومُ فِطر
وله ألف جفنة مترعاتٍ كلَّ يوم تمدّها ألف قِدر [١]

هـذا وبالرغم من أن خراج مصر كان إلى عبد العزيز بن مروان ، فقد قيل إنه لم يترك عند وفاته من المال غير سبعة آلاف دينار عدا أملاكه فى حلوان ، وقيسارية أبى مرة وما خلفه من الثياب والخيل والرقيق . فلا غرو إذا أجمع الناس على محبته ورضوا عنه وعن ولايته . ورثاه الشعراء أحسن رثاء فقال سليمان ابن أبان الأنصارى :

فمن ذا الذي يبنى المكارم والعُلا
ومن ذا الذى يُهْدَى له بعدكَ السَّفر
فكنتَ حليفَ العرف والخير والندى
فمُتَّ جميعاً حين غيَّبكَ القبرُ
فبعدك لا يُرجى وليدٌ لنفعةٍ وبعدك لا ترجى عوان ولا بكر

تلك هى مصر فى فترة من حياتها الإسلامية الزاهرة فى عهد عبد العزيز بن مروان من بنى أمية .

حسن ابراهيم حسن

(١) الكندى ص ٤٨ ، والمقريزى فى الخطط ج ١ ص ٢١٠
(٢) الانتصار لابن دقاق ج ١ ص ٦٣
(٣) الانتصار لابن دقاق ج ٤ ص ٦٣ ، ١٢٠
(٤) أبو صالح الأرمنى ورقة ٥٢ ب ، ١٥٣
(٥) الانتصار ج ٤ ص ١٠٥

(١) الكندى : ص ٥١ — ٥٢

التصوف الإسلامي
نشأته وأصوله

للمستشرق الانجليزي الدكتور رينولد نيكلسون
الأستاذ بجامعة كمبردج



يعدّ الصوفيون الحسن البصري واحداً من جماعتهم . والواقع أنه كان إلى حد بعيد يعلّق أهمية عظمى على الاستقامة النفسية، ولم يكن قانعاً بالعبادات الظاهرية فحسب . ولقد قال : « مثقال ذرة من الورع السالم خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة[1] » بيد أنه على الرغم من أن بعض أقواله الواردة في التراجم المتأخرة تؤيد الزعم القائل بأنه كان صوفياً عميقاً ، إلا أنه ليس ثمت شك في أن تصوّفه — إذا جاز أن ينعت بهذا الاسم — كان من النوع الشديد الاعتدال ؛ وأنه كان في حاجة قصوى إلى الحمية والهيام اللذين نجدهما عند الصدّيقة الورعة رابعة العدوية التي تربطها به الأقاصيص[2]

ولقد اختلف الصوفية أنفسهم في تفسير أصل اسم «الصوفي» وذهبوا في ذلك مذاهب شتى متباينة ، ومن بين الاشتقاقات التي ذكرت ثلاثة تستحق عناية الباحث وهي التي تربطها بكلمة

(١) القشيري : الرسالة القشيرية ص ٦٣ السطر الأخير (ص ٥٤ طبعة مصر ١٣٤٦ هـ)

(٢) مما هو جدير بالملاحظة أن القشيري المتوفى سنة ١٠٧٣ م وأحد القدامى الذين كتبوا عن التصوف لم يدرج الحسن البصري بين مشايخ الصوفية الذين ترجم لهم في رسالته (ص ٨ — ٣٥) ولم يتجاوز ذكره إياه ست مرات خلال رسالته ، ولم يزد القشيري على ما جاء به الكامل من أقوال الحسن شيئا

« سوفوس[1] » اليونانية (المقابلة لـ wise في الانجليزية) أو صفا[2] أو « صوف »

أما الاشتقاقان الأولان فلا يدعمها أي أساس لغوي[3] ولسنا بحاجة لنقاشهما . ولو أن الاشتقاق من « صفا » مقدم لدى من يعتد به من شيوخ الصوفية ، ومقبول على العموم في الشرق[4] . والسبب في هذا الترجيح يتضح لنا من مثل هذه التعاريف كقولهم : « الصوفي من يحفظ قلبه صافياً لله[5] » و« الصوفية الاصطفاء » وإذا فهمناها على هذا الاعتبار فقد صارت الكلمة دلالة سامية هيأتها للاختيار دون سواها

ومهما يكن الأمر فإنه يمكن إرجاعها إلى أصل ضئيل ، ذلك أنه كان من مألوف عادات المتقشفين والزهاد عادة في العصور الأولى من الإسلام وهي لبس الصوف لما كانوا عليه — كما يقول ابن خلدون — من مخالفة الناس الذين يرفلون في الثياب الغالية ، ولهذا فإن اسم « صوفي[6] » الذي يدل لأول وهلة على المتقشف المرتدي الصوف صار كمدلول القاووق على الرهبان الكابوشيين ؛ وطبقاً لما يذكره القشيري أصبح هذا اللفظ شائع

(١) Cf. Noeldecke : Sùfi. (Z. D. M. G.) vol. 48. P. 45.

(٢) يقول أبو الفتح البستي :

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا ... فيه وظنوه مشتقاً من الصوف
ولست أنسب هذا الاسم غير فتى ... صافى فصوفي حتى سمي الصوفي

(٣) يقول القشيري (ص ١٢٦ س ٣) وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق . والأظهر فيه أنه كاللقب ، فأما قول من قال إنه من الصوف وتصوف إذا لبس الصوف ... فذلك وجه ، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف ؛ ومن قال إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوفي ، ومن قال إنه من الصفاء فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة ؛ وقول من قال إنه مشتق من الصف فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى فالمعنى صحيح ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف المترجم

(٤) وردت الاشارة إلى كلمة « صفاء » ١٣ مرة في التعاريف المتعلقة بكلمتي « صوفي والتصوف » في كتاب تذكرة الأولياء للمتصوف الفارسي المعروف فريد الدين العطار المتوفى حوالي ١٢٣٠م بينما كلمة « صوف » لم تذكر إلا مرتين فقط

(٥) قائله جنيد البغدادي (+ ٩٠٩ — ١٩١٠م) أحد مشاهير شيوخ الصوفية

(٦) يمكن أن يقرر الآن في اعتقاد جازم أن كلمة « صوفي » نشأت في الكوفة إبان القرن الثاني للهجرة ، وكانت في بادئ الأمر مقصورة على متصوفي العراق ، ومنذ ذلك الوقت أخذ التطور الأول للتصوف في الظهور في الآراء الشيعية والافريقية

التداول قبل نهاية القرن الثانى للهجرة أعنى منذ عام ٨١٥ م ؛ مع أنه فى خلال هذا الوقت أخذت حركة الزهد فى الإسلام تصطبغ إلى حدّ ما بصبغة جديدة[1] . ولا بد أن معنى صوفى — بفرض وجود الكلمة إذ ذاك — قد أصابه بعض التغيير . ويخيل إلىّ أن هذا اللقب الذى نحن بصدده الآن يبين نقطة انتقال من الزهد السنى ، وأنه — كما يقرّر الجامى — قد أطلق أولاً على أبي هاشم الكوفى المتوفى قبل سنة ٨٠٠ م الذى أسس « خانقاه » للصوفية فى الرملة بفلسطين . ومهما يكن الأمر ، فإن الفارق بين الزهد والتصوف (ذلك الفارق الذى هو على وجه العموم كالتفرقة بين الحياة الطهرية Via Purgative وبين طريق الكشف Via Illuminative فى التصوف الغربى فى القرون الوسطى) أقول إن هـذا الفارق قد أخذ فى الظهور قبل انصرام العهد الأموى ، وسرعان ما تقدم فى صـدر العصر العباسى تحت تأثير الأفـكار الأجنبية وعلى الأخص الفلسفة اليونانية . ولندع الـكلام عن مدى تطوّر هذه الحركة الأخيرة للـكلام عنها فى فرصة أخرى وسنتناول الآن فى إيجاز أصل الصوفية كما تسمى عادة ، والظاهرة الأولى للدوافع الخاصة التى قامت عليها

***

أما فيما يتعلق بأصلها فلسنا نستطيع أكثر من نقل اللاحظات التى قدم بها ابن خلدون لفصله عن الصوفية فى مقدمة كتابه التاريخى الجليل[2] حيث يقول : « إن هـذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة ، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية ، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة ، وكان ذلك عاماً فى الصحابة والسلف ، فلما نشأ الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوّفة »

من هذا يتضح لنا أن التصوف — إذا لم يكن فى أصله تطوّراً لحركة الزهد التى كان الحسن البصرى ممثلها البارز كما رأينا — قد نشأ على كل حال من هـذه الحركة وتفرع عنها . ولم يكن التصوف نظاماً تأملياً كهرطقة المعتزلة ، ولـكنه إيمان عملى وقاعدة للحياة ، فيقول الجنيد[1] : « ما أخذنا التصوف من القيل والقال ولـكن من الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات »

وكان الصوفيون القدامى زهاداً نسّـاكا ، كما كانوا أيضاً أكثر من ذلك ، ذلك أنهم إما طلعوا على الناس بالجوهر الروحى والرمزى الموجود فى الإسلام ، أو أنهم أدخلوه فيه إذا لم يكونوا قد وجدوه حينذاك . ويقول السهروردى[2] : « التصوف غير الفقر ، والتصوّف غير الزهد ، والتصوف اسم جامع لمعانى الفقر ومعانى الزهد مع مزيد وإضافات لا يكون بدونها الرجل صوفيا وإن كان زاهداً فقيرا » ثم يمضى بعد قليل فى شرح الخلاف فى قوله : « الفقير فى فقره متمسك به متحقق بفضله ، يؤثره على الغنى متطلعاً إلى ما تحقق من العوض عند الله لحديث[3] نبوي ، فكلما لاحظ العوض الباقى أمسك عن الحاصل الفانى ، وعانق الفقر والقلة ، وخشى زوال الفقر لفوات الفضيلة والعوض ، وهذا عين الاعتلال فى طريق الصوفية ، لأنه تطلع إلى الأعواض وترك لأجلها ، والصوفى يترك الأشياء لا للأعواض الموعودة ، بل للأحوال الموجودة ، فإنه ابن وقته ، وأيضاً ترك الفقير الحظ العاجل ، واغتنـام الفقر اختيار منـه وإرادة ، والاختيار والإرادة علة فى حال الصوفى ، لأن الصوفى صار قائماً فى الأشياء بإرادة الله لا بإرادة نفسه ، فلا يرى فضيلة فى صورة فقر ولا فى

(١) يقول السهروردى « لم يكن هذا الاسم (الصوفى) زمن رسول الله (صلى الله عليه وسـلم) وقيل كان زمن التابعين ، ونقل عن الحسن أنه قال رأيت صوفياً فى الطواف ... وما روى عن سفيان أنه قال : لولا أبو هاشم الصوفى ما عرفت دقيق الرياء » وهـذا يدل على أن هذا الاسم كان يعرف قديماً ، وقيل لم يعرف هذا الاسم إلى المائتين من الهجرة لأنه فى زمن الرسول كان أصحابه يسمون الرجل صحابياً ، وبعد انقضاء عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سمى من أخذ منهم العلم تابعياً » المترجم

(٢) المقدمة (طبعة بيروت ١٩٠٠) ص ٤٦٧ وص ٨٥ — ٨٦ ج ٣ من ترجمة De Slane الفرنسية ، وقد أسهب السهروردى فى شرح التصوف فى كتابه عوارف المعارف (المطبوع على هامش الاحياء للغزالى طبعة مصر ١٢٨٩ هـ) ج ١ ص ١٧٢ وما يليها ، راجع أيضاً ما كتبه الأستاذ براون عن القشيرى فى كتابه A Lit. of History of Persia ج ١ ص ٢٩٧ — ٢٩٨

(١) السهروردى : عوارف المعارف (على هامش الاحياء) ص ١٣٦

(٢) السهرودي : شرحه ص ١٤٥

(٣) إشارة إلى الحديث النبوى الشريف « يدخل فقراء أمتى الجنـة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام » المترجم

صورة غنى ، إنما يرى الفضيلة فيما يوفقه الحق فيه ويدخله عليه »

ومفتاح التصوف نكران الذات وعدم الأثرة أو بمعنى آخر « الحب » ومع أن هذه الفكرة ليست غريبة بأكلها ، إلا أنها كانت بعيدة جداً عن أن تكون معروفة للمسلمين الأتقياء الذين كانوا متأثرين تماماً بقوة الله وبطشه أكثر من رحمته وغفرانه ..

وإن جل تاريخ التصوف لهو مناهضة التفرقة غير الطبيعية بين الله والإنسان ، وتبعاً لذلك لا أرى ثمة ضرورة تدعونا للبحث عن أصل المذاهب الصوفية في غير الاسلام ، على الرغم من أنه من الخطل ألا نذكر الأثر المسيحى الذي أثر ولا بد في الحركة في طورها الأول .

أما الطابع التفكيرى الذى أشربوه شيئاً فشيئاً ، والذى بدلهم على مر الزمن فقد كان بين مد وجزر وارتفاع وانخفاض طوال العصر الأموى وطيلة قرن تقريباً بعد تقلد بنى العباس مقاليد الخلافة والحكم . ولا يزال الصوفيون الأوائل ينهجون منهج السنة ، فصلتهم بالإسلام نسبياً كصلة متصوفي الأسبان فى القرون الوسطى فى الكنيسة الكاثوليكية . ذلك بأنهم كانوا يعلقون كبير أهمية على بعض النواحى الخاصة فى التعاليم الإسلامية ويولونها جل اهتمامهم بدرجة تجعل النواحى الأخرى تكاد تكون فى حيز العدم . وهم لا ينهمكون فى علم الكلام Dialectic ولكنهم يكرسون أنفسهم لمسائل تتعلق باللاهوت العملى ، وإن نكرانهم للذات وتقشفهم البالغ أقصى نهايته وتقواهم الحادة واعتزالهم ... كل هذه الأمور جعلت خواص رسائلهم الأولية توصف بالذهول

ترجمة : ع . ع

من شهداء الإسلام

عمار بن ياسر

للأستاذ كامل محمود حبيب

« أبشروا آل عمار فإن موعدكم الجنة »
(حديث شريف)



وقف بباب دار الأرقم رجل آدم طوال أصلع أشهل العينين بعيد ما بين المنكبين... وقف يردد بصره فيما حوله وإن الشيطان ليوسوس له يريد أن يثنيه عن عزمه ، وإن قلبه لينتفض مما استولى عليه من الرعب . وكيف لا يستلبه الفزع من بعض عقله وهو فى هذا البلد وحيد ؛ فما من عشيرة تحميه ، وما من أهل يدفعون عنه الأذى ؛ وقريش من ورائه فى الصولة والسلطان أشداء على صحابة محمد ورفاقه ، يصبون عليهم فنونا من القسوة والعذاب فى غير رحمة ولا شفقة ؟ واصطرع في رأس الرجل عاملان : هنا النبى الكريم يشرق النور الإلهى من جبينه فيسطع متألقاً يجذب اليه جماعة ممن رضى الله عنهم ، وهناك قريش لا تستطيع أن تنزل عن كبريائها فى هوان وذلة وهم سادة القوم وأمراؤهم فكيف يلقون السلم فى ضعة ؟ كلا ، بل أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون

أفينكص الرجل على عقبيه ليتردى فى الغواية مرة أخرى ويعكف على أصنام من حجارة لا حول لها ولا طول ، أم يندفع

فيلج باب دار الأرقم ليلقى محمداً ... ثم يتلظى — بعد حين — بنار يؤجج سعيرها وتنبعث من قلوب عليها أقفالها ... قلوب قريش المغيظة المحنقة ؟ وأطرق يفكر ما يطمئن إلى أمر ...

وجذبه من أخيلته صوت أقدام تسير اليه فى وناء وثبات ... فاذا صهيب بن سنان أمامه ، فاندفع يحدثه : « ماتريد ياصهيب ؟» قال صهيب « بل ماذا تريد أنت يا عمّـار» قال : « أريد أن أدخل على محمد فأسمع كلامه » قال صهيب : « وأنا أيضاً ، فورنى لقد دفعنى قلبى إليه وإن خواطرى لتضطرب فى خيالى خشية مما ألاقى بعد» ثم انطلقا جنباً إلى جنب إلى حيث النبى فأسلما معاً ، وما استطاعا أن يبرحا الدار حتى خيم الظلام على الأرض ، فخرجا يتسللان ...

وأشرق نور الايمان فى قلب عمّار بن ياسر فما استطاع أن يكتم نزوات الفرح والغبطة فى قلبه ، فراح إلى أبيه (ياسر) وأمه (سميّـة) يحبّـب إليهما الاسلام فأسلما . وانطلق هو يعلن عن إسلامه فى جرأة لا يرهب القوة الثائرة ، ولا يخاف العذاب الأليم

وافتنّ آل حذيفة فى تعذيب آل ياسر — وما آل ياسر سوى عمّار وأمه وأبيه — لا يتورّعون من شر ... لقد مات ياسر فى العذاب ، وماتت سمية إثر طعنة من يد أبى جهل ؛ وعمار يشهد فما وهن وما استكان ، فأغلظوا عليه وفى قلوبهم مراجل من الغيظ يُحمى عليها بنار من الصلف كلما خبت زادها الشيطان سعيراً .

وفى ذات مرة أخذوا يغطونه فى الماء المرة بعد المرة فما تركوه حتى نزل عند رأيهم وقد بلغ به الجهد مبلغه ، وهم يقولون له : « اللاّت والعزى إلهـك من دون الله » فيقول هو : « نعم » ويقولون له : « هذا الجعل إلهـك» فيقول : « نعم» . وحين انفلت من بين أيديهم استشعر وبال أمره فراح يكفر عن خطيئته بعبرات الأسى والندم ، ويستغفر الله أن زلّ لسانه ، وفى قلبه حسرات وحسرات . ولقيه رسول الله (ص) وهو فى أحزانه ما يستطيع أن يكفكف بعض عبراته فجعل يمسح عن عينيه وهو يقول : « ما وراءك ؟ » قال عمّار : « شرٌّ يا رسول الله ، والله ما تركتُ حتى نِلتُ منك وذكرت آلهتهم بخير » فقال : « وكيف تجد قلبك ؟ » قال : « مطمئن بالإيمان » قال « فإن عادوا فعد » فانطلق عمار وقد مسحت كلمات النبى (ص) على أحزانه

وانطلق الفوج الأول من المسلمين إلى الحبشة فراراً من أذى قريش وخوفاً من الهوان والفتنة ، وعلى أثره الفوج الثانى وفى أكبادهم حُرَق أن نأوا عن وطنهم وأولادهم وعشيرتهم ، وعمار صابر على أذى الكفار يتحمله فى جلد وصمت على حين لا يستطيع أن يصبر عن مشرق النور والرحمة من وجه النبى (ص) ، وما يزيده العذاب إلا إيماناً بمحمد (ص) ودين محمد

وهاجر عمار — فيمن هاجر — مع النبى (ص) إلى المدينة فهبطها ضُحى ، فما تلبث حتى أخذ يشيد للرسول مسجداً يقيم فيه الصلاة فى غير حذر ولا رِقبة ، وفى نفسه اللذة والطرب وهو ينشد : « نحن المسلمون نبتنى المساجدا » ورسول الله يردد : « المساجدا » واندفع القوم يشد بعضهم أزر بعض يحمل كل واحد منهم لبنة لبنة غير عمار فهو يحمل لبنتين لبنتين ، وراع القوم أن يجهد عمار نفسه فتنقل الحديث فى همس : « إن عماراً يريد أن يقتل نفسه فهو يحملها فوق طاقتها ! » وسمع النبى (ص) الحديث فراح ينفض التراب عن رأس عمار وهو يقول : « ويحك ابن سمية ! تقتلك الفئة الباغية ! »

ولصق هو بالنبى ما ينأى عنه فى سلم ولا حرب لأن قلبه وإيمانه لا يطاوعانه على أن يفعل ...

***

ولحق النبى الكريم بالرفيق الأعلى فبكاه عمار — فيمن بكى — سحاً وتسكاباً ، وفى قلبه — من أثر الفراق — جرح ما يندمل إلا أن يلحق بسيده ، ثم هو لم يستشعر الوهن ولا الضعف فى دينه

وارتد مسيلمة وقومه حين انفرجت الثُّـغرة بموت الرسول فاندفع إليهم عمار — فيمن اندفع — ثائراً هائجاً يهدر يريد أن يؤدب قوماً على عصيانهم ، وحين وجد فى المسلمين هوادة وفتوراً ارتقى هو شرفاً عالياً ثم أخذ ينادى وقد قطعت أذنه : « إلىّ ، إلىّ يا معشر المسلمين ، أنا عمار بن ياسر ، أمن الجنة تفرون ؟ هلموا إلىّ ! » ثم اندفع إلى الصفوف يفرق ما اجتمع منها كأنه فتى فى الثلاثين ، وهو قد شارف السبعين من سنى حياته

***

رحم الله عمر بن الخطاب فلقد كان بصيراً بأقدار الرجال حين أمّر عمار بن ياسر على الكوفة وكتب إلى أهلها : « ... أما بعد ، فاني بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً وعبد الله بن مسعود وزيراً ومعلماً ، وإنهما لمن النجباء من أصحاب محمد من أهل بدر فاسمعوا لهما وأطيعوا واقتدوا بهما ... »

لقد تأمر عمار على الكوفة فما أخذته كبرياء المنصب ، ولا روعة الإمارة ؛ ثم عزله عمر فما استولى عليه اليأس ، وما حمل لأمير المؤمنين فى قلبه حفيظة ولا حقداً ، بل قال : « والله لقد ساءتني الولاية بقدر ما ساءنى العزل » واندفع على سننه لا يجد الخور ولا الفتور إلى نفسه سبيلاً

يا عجباً ! يا عجباً ! يتغلغل الايمان فى القلب فيحجب الانسان عن لذاذات الحياة ومباهجها لينقله إلى لذاذات ومباهج أخر هى لذاذات قلبه ومباهج دينه ؛ ثم ينزع عنه أطماع الدنيا وشهواتها فاذا سواء لديه أن يكون له ملك لا ينبغى لأحد من بعده ، أو يكون فقيراً لا يستطيع السبيل إلى اللقمة يقيم بها صلبه إلا بشق الأنفس

***

ووقعت الفتنة الكبرى بين المسلمين ، فانشقت العصا ، وغدا كل حزب يزعمون أن الحق إلى جانبهم ، فانضم عمار إلى عليّ وأصحابه وهو يقول : « تالله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمت أنّـا على حق وأنهم على باطل » وراح يدفع عن الحق فما يهن ولا يستكين . وإنه فى يوم صفين لعلى رأس رجال من أصحاب النبى كأنه علم ، إن تيامن تبعوه وإن تياسر تبعوه ، وهو يحرضهم بقوله : « أتفرون من الجنة والجنة تحت البارقة . اليوم ألقى الأحبة : محمداً وحزبه » وفى يده حربة ترعد وهو ينادى : « ألا مَنْ يبارز ؟ ألا مَنْ يبارز ؟ »

« ويحك ابن سمية ! تقتلك الفئة الباغية ! »

وشهد هذا اليوم مشهداً مروعاً من مشاهد الحرب تنفطر له الأكباد ، هو قتل عمار بن ياسر ! لقد رماه أبو العادية المزنى بالرمح على حين غفلة منه فهوى إلى الأرض ... ثم أكب عليه آخر فاحتز رأسه فى غلظة وجفاء ... وانطلقا يختصمان لدى معاوية فى رأس عمار وكل واحد منهما يقول : « أنا قتلته » علّهما يصيبان أجراً . وعند معاوية عمرو بن العاص وابنه عبد الله ورجال من خاصته والمقربين إليه ، فقال عبد الله : « ليطب به أحدكما نفساً لصاحبه ، فانى سمعت رسول الله (ص) يقول : تقتله الفئة الباغية » وقال عمرو بن العاص : « والله إنهما ما يختصمان إلا فى النار ، ووالله لوددت أنى متّ قبل هذا بعشرين سنة » فاربدّ وجه معاوية وهو ما يستطيع أن يدفع عن نفسه بعض ما أصابها ، وفى قرارة نفسه أن جيشاً من أقوياء المسلمين وأشدائهم ما يقدر على أن ينال منه بعض ما يناله حديث عمرو بن العاص وابنه إن هو شاع بين جنوده

وهناك فى العراء وقف عليّ بن أبى طالب عليه السلام بإزاء جثمان عمار بن ياسر يقول وفى قلبه الأسى والحزن على أن فقد صاحب رسول الله وحبيبه : « إن امرءاً من المسلمين لم يَعْظُم عليه قتل ابن ياسر ، وتدخل به عليه المصيبة الموجعة لَغيرُ رشيدٍ . رحم الله عماراً يوم أسلم ، ورحم الله عماراً يوم قُتل ، ورحم الله عماراً يوم يبعث ؛ لقد رأيت عماراً وما يذكر من أصحاب رسول الله (ص) أربعة إلا كان رابعاً ولا خمسة إلا كان خامساً ، وما كان أحد من قدماء أصحاب رسول الله يشك أن عماراً قد وجبت له الجنة فى غير موطن ولا اثنين ، فهنيئاً لعمار بالجنة ... »

وانطوت صفحة بيضاء ناصعة من صفحات الاسلام وانقض ركن من أركان الايمان الثابت ... فرحم الله عماراً

كامل محمود حبيب

ابن البناء المراكشي

للأستاذ قدري حافظ طوقان

كان ابن البناء من علماء القرن الرابع عشر للميلاد ، نبغ في الرياضيات والفلك وله فيهما مؤلفات قيمة ورسائل نفيسة تجعله في عداد الخالدين المقدمين في تاريخ تقدم العلم

ومن المؤسف ألا يُعطى نتاجه حقه من البحث والتنقيب ، ولولا بعض كتبه التي أظهرها المستشرقون الذين يعنون بالتراث العربي لما استطعنا أن نعرف شيئاً عن مآثره في العلوم . وعلى الرغم من قلة المصادر فقد استطعنا أن نجمع بعض المعلومات عن حياته وآثاره ، ورأينا أن الاخلاص للحقيقة يدعونا إلى إنصافه وعرض سيرته على الباحثين فقد يكون في هذا العرض ما يحفز البعض إلى الاهتمام بتراث ابن البناء وإزالة ما أحاط هذا التراث من غيوم الغموض والاهمال

وُلد ابن البناء في غرناطة في النصف الأخير من القرن الثالث عشر للميلاد ؛ واسمه أبو العباس احمد بن محمد بن عثمان الأزدي وكنى بابن البناء لأن أباه كان « بناء » كما اشتهر بلقب المراكشي لأنه أقام مدة في مراكش ودرّس فيها العلوم الرياضية . وقد نبغ على يديه علماء كثيرون لمعوا في ميادين العلوم وكان أحدهم أستاذاً للمؤرخ الشهير ابن خلدون

كان ابن البناء منتجاً وكان عالماً مثمراً ، فقد أخرج أكثر من سبعين كتاباً ورسالة في العدد والحساب والهندسة والجبر والفلك والتنجيم ضاع معظمها ولم يعثر العلماء الإفرنج والعرب إلا على عدد قليل منها ، نقلوا بعضه إلى لغاتهم . وقد تجلى لهم منها فضل ابن البناء على بعض البحوث والنظريات في الحساب والجبر والفلك

لقد قامت شهرة ابن البناء على كتابه المعروف بـ « كتاب تلخيص أعمال الحساب » الذي يعد من أشهر مؤلفاته وأنفسها ؛ وبقي هذا الكتاب معمولا به في المغرب حتى نهاية القرن السادس عشر للميلاد كما حاز على اهتمام علماء القرن التاسع عشر والقرن العشرين . ويعترف سمث وسارطون بأنه من أحسن الكتب التي ظهرت في الحساب ، وهو يحتوي على بحوث مختلفة تمكن ابن البناء من جعلها (على الرغم من صعوبة بعضها) قريبة التناول والمأخذ . أوضح النظريات العويصة والقواعد المستعصية إيضاحاً لم يسبق إليه فلا تجد فيها التواء ولا تعقيداً

في هذا الكتاب بحوث مستفيضة عن الكسور وقواعد لجمع مربعات الأعداد ومكعباتها ، وقاعدة الخطأين لحل المعادلات ذات الدرجة الأولى والأعمال الحسابية . ولولا أن الأتيان على هذه القاعدة يستدعي استعمال خطوات قد لا يجد فيها الكثيرون طرافة أو متاعاً لأتينا عليها تفصيلا . وفي هذا الكتاب أيضاً طرق لإيجاد القيم التقريبية للجذور الصماء ، فلقد أعطى قيماً تقريبية للجذور التربيعية لبعض المقادير ، وكانت هذه القيم موضع دهشة العلماء الرياضيين وإعجابهم

وهناك قيم أخرى تقريبية للجذور التكعيبية لمقادير جبرية أخرى ، وهذه العمليات بالاضافة إلى عمليات القلصادي أبانت طرقاً لبيان الجذور الصماء بكسور متسلسلة

وكتاب التلخيص هذا كان موضع عناية علماء العرب واهتمامهم يدلنا على ذلك كثرة الشروح التي وضعوها له ، فلقد وضع عبد العزيز علي بن داود الهوازي أحد تلاميذ ابن البناء شرحاً . وكذلك لأحمد بن المجدي شرح ظهر في النصف الثاني من القرن الرابع عشر للميلاد . ولابن زكريا محمد الأشبيلي شرح موجود في مكتبة أكسفورد .

وللقلصادي شرحان أحدهما كبير والآخر صغير ؛ وقد زاد على شرحه الكبير خاتمة تبحث في الأعداد التامة والزائدة والناقصة . وظهر لنا في أثناء مطالعاتنا في مقدمة ابن خلدون أن هناك شرحا لكتاب التلخيص وضعه ابن البناء اسمه كتاب رفع الحجاب ، « وهو مستغلق على المبتدىء بما فيه من البراهين الوثيقة المباني . وهو كتاب جليل القدر أدركنا المشيخة تعظمه ، وهو كتاب جدير بذلك ، وإنما جاءه الاستغلاق من طريق البرهان ببيان علوم التعاليم لأن مسائلها وأعمالها واضحة كلها وإذا قصد شرحها

فإنما هو إعطاء العلل فى تلك الأعمال وفى ذلك من العسر على الفهم ما لا يوجد فى أعمال المسائل ... »

وقد رغب العالم (ووبكه) أن ينقل محتويات كتاب التلخيص إلى الفرنسية فحال موته دون ذلك . وأخيراً نقله (أريستيد مار) إلى الفرنسية فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر للميلاد . ويقضى علينا الواجب العلمى أن نشير إلى أن بعض علماء الغرب أغاروا على الكتاب المذكور وادعوا لأنفسهم دون أن يذكروا المصدر الذى اعتمدوا عليه ونقلوا عنه . وكان الرياضى الفرنسى الشهير (شال) أول من أشار إلى هذا فى رسالة قدمها إلى المجمع العلمى فى أوائل النصف الثانى من القرن التاسع عشر للميلاد

ولابن البناء كتب ورسائل فى الحساب كرسائل « مقالات فى الحساب » التى تبحث فى الأعداد الصحيحة والكسور والجذور والتناسب ، وكتاب تنبيه الألباب ، ورسالة فى الجذور الصماء وجمعها وطرحها ، وكذلك له رسائل خاصة بالتناسب ومسائل الأرث

ولم يقف نتاج ابن البناء عند هذا الحد ، بل وضع كتابين فى الجبر أحدهما يسمى كتاب الأصول والمقدمات فى الجبر والمقابلة ، والثانى كتاب الجبر والمقابلة

وفى الهندسة له رسالة فى المساحات ، أما فى الفلك فله مؤلفات وأزياج عديدة ، منها كتاب اليسارة فى تقويم الكواكب السيارة ، وكتاب تحديد القبلة ، وكتاب القانون لترحيل الشمس والقمر فى المنازل ومعرفة أوقات الليل والنهار ، وكتاب الاسطرلاب واستعماله ، وكتاب منهاج الطالب لتعديل الكواكب . ويقول ابن خلدون إن ابن البناء اعتمد فى هذا الكتاب على ازياج ابن إسحق وأرصاد أخرى لفلكى كان يسكن صقلية . وقد توفق ابن البناء في هذا الكتاب إذ استطاع وضع بحوثه فى قالب حبب إليه الناس فى المغرب ورغبهم فيه وجعلهم يتهافتون عليه ويسيرون بموجبه فى بحوثهم الفلكية وعمل الأزياج

أما فى التنجيم فله مؤلفات كثيرة عُرف منها مدخل النجوم وطبائع الحروف وكتاب أحكام النجوم وكتاب فى التنجيم القضائى وله كتاب اسمه (كتاب المناخ) ويقول الدكتور سارطون إن كلمة (almanac) مأخوذة عن هذه الكلمة (المناخ) والله أعلم

« نابلس » قدرى حافظ طوقان

من التاريخ الإسلامي

هجرة معلم

للأستاذ علي الطنطاوي



يرى كلّ من يعبر البادية من شرقها إلى غربها (إذا هو قارب الساحل) سلسلة طويلة من الجبال تلوح له، من مسيرة أيام، زرقاء كأنها معلقة فوق الأفق، أو غارقة في السماء. ولكنّ هذه الجبال تَضِح كلما دنا منها وتستبين، حتى إذا بلغها ألفاها بناء عظيماً من الصخر الأصمّ، إذا حاول أن يتقصى بنظره أعاليه سقط عقاله عن رأسه ولم ير شيئاً، لأن أعاليه غائبة وسط السحاب المتراكم، فيقرّ في وهمه أنما هو جدار قائم يمسك السماء أن تقع على الأرض، ويقف حياله خاشعاً خاضعاً شاعراً بالمذلة والهوان ...

هذه هي السلسلة الهائلة التي تخرج من الجنوب (من البحر) ثم تضطجع على الرمال بصخورها وجلاميدها، وأوديتها التي لا قرار لها، وذراها التي ليس لها عدد، وسفوحها التي يضل فيها الهدى، وثناياها التي تموت فيها الحيـاة، وصمتها المهول، وجلالها الخالد ... تضطجع متمددة بهذا الجسم الأزلي الجبار، حتى تصاقب الشام وتبلغ مشارفه، فتهبط سفوحها مترفقة سهلة متتالية حتى تفنى في تلك السهول الخضراء ...

***

إذا قدر لك أن تتوغل في هذه الأودية العميقة الموحشة، ثم تتسلق هـذه الجبال ترتقي من ذروة إلى ذروة حتى تبلغ تلك القُـنن الشامخة التي لا يعلوها شيء، رأيت فيها طوداً باذخاً قد شهق واستطال في السماء واستعرض حتى ضاعت جوانبه في هذه الجبال التي تتشعب من حوله صاعدة منحدرة في تسلسل واتساق كأنها الأمواج العظيمة في البحر الهائج الغضوب لولا أن ماءها الرمل والحصى وجلامد الصخر، وأن عمر الموج ساعة وأنها من لدات الدهر ... كما ضاعت أعاليه في الغمام المسخر بين السماء والأرض ...

على ضهر[(١)] هذا الطود فوق قامة من تلك القلعات الراسيات كانت ترقد القرية ببيوتها ودروبها وبساتينها متوارية مختبئة ضالة في فلوات السماء، تشرف على الأرض من فوق السحاب فلا ترى منها إلا خيال هذه الصحارى الواسعة، يبدو من بعيد موشى بالرمال الخالدة المتسعرة الملتهبة، والسراب الذي يظلّ أبداً لامعاً خادعاً كأنه الحياة الدنيا ...

هـذه الصخور وهذه الأودية وهذه الصحراء ... هي عند أهل هذه القرية الوجود كله!

***

في طرف من أطراف هـذه القرية كان يجثم بيت صغير منفرد قائم على شفير الوادي ... إذا أنت دخلته لم تجد فيه إلا طائفة من الأولاد يجلسون على حصير قد مات وفني وتقطعت أوصاله من قبل أن يولدوا ... وشابا على حشية قد طمنها الزمان فنثر أحشاءها. والشاب غضّ الاهاب، لدن العود، حديث السنّ، ولـكن نظرة واحدة إلى عينيه تريك أنه قوي الارادة، ماضي العزيمة، وأن له وقار شيخ في السبعين من عمره ...

وبيد الشاب عصا طويلة يشير بها ويهزّها فوق رءوس الصبية، وينال بها من أبشارهم، على حين يجيـل فيهم نظرات مشتعلة يتطاير منها الشرر الأحمر، تلذع أفئدتهم كلذع العصا أجسامهم ...

تلك هي مدرسة القرية، وهؤلاء هم تلاميذها؛ أما الأساتيذ فعقيل صاحب المدرسة، وزميله الشاب: كليب!

***

وكانت أمسيّـة طلقة أراق عليها الربيع بهاءه ورواءه، فصرف كليب التلاميذ، ووقف على باب المدرسة — على عادته

(١) الضهر (بالضاد) أعلى الجبل كما في اللسان والتاج، ولعل منها (ضهور الشوير) من سواحل الشام

فى كل مساء — ينظر إليهم وهم يقفزون من عتبتها ، مفاريح بالنجاة من المعلم وعصاه الطويلة ، وسحنته المكفهرة المقلوبة أبداً ، مماريح يضحكون للحرية والجمال والانطلاق ، يعدون إلى القرية عـدواً … حتى إذا غيبتهم هذه الجدران فى أطوائها ، ولم يبق منهم فى الرحبة أحد ، وسكنت الحركة فيها وسكتت الضوضاء التى انبعثت من أفواههم الصغيرة ، وحناجرهم الدقيقة الرنانة … زفر كليب (المعلم الشاب) زفرة أليمة اقتلعها من أعماق صدره ، وألقى عصاه وولى وجهه شطر الصحارى البعيدة ، يفتش فيها عن الطريق إلى أمنيته التى طالما جاشت فى نفسه ، وعاودته وكرّت عليه ، حتى أمست له فكرة لازمة[1] وبات لا يعرف غيرها ، ولا يفكر إلا فيها ، ولا يعيش إلا لتحقيقها ، وطالما حلم فى نومه وفى يقظته أنه قد بلغ أمنيته ، فتنعم بهـا ومرح فى جناتها ، ولكن الحلم يتصرم وتعود الحقيقة الواقعة بوجهها الكالح القبيح ، فيرى أنه لم يصل إلى شيء

ولّى وجهه شطر الصحارى ، ولكنه لم ينظر إليها ، وإنما جاز به خياله فيافيها المهلكة ، وقفارها الواسعة ، إلى تلك البلاد التى يسمع عنها ويتسقط أحاديثها ، ويحمـل لها فى نفسه أجمل صورة تنفرج عنها مخيلة شاعر ملهم ، أو مصوّر فنان[2] ، إلى البلاد التى يعرش فيها الياسمين ، وينمو الآس ، ويزهر التفاح والسفرجل ، وتسيل الينابيع متحدرة من أعالى الجبال الشجراء … فوقف يحلم بالوصول إليها ، ويتأمل صورتها التى صنعها خياله ، وأقامها أمام عينيه ، خاشعاً خشوع العـابد فى محرابه ، مشوقاً شوق المحبّ المتيم إلى صاحبته ، مستغرقاً استغراق الصوفى فى مراقبته ، والحالم فى أحلامه ، لا يحس مما حوله شيئاً !

وظل واقفاً شاخصاً إلى الأفق ، غارقاً فى تأملاته ، حتى لاح على الأفق من ناحيـة الشرق سواد خفيف ، لم يلبث أن اشتد حتى شمل الصحارى النائيـة ، ثم امتد حتى عمّ القفر كله ، ثم تسلّق السفوح حتى غمر القمم الواطية ، ثم وصل إلى الذرى العالية فلفها هى والقرية في ثوبه القاتم ، وأحال الكون كله كتلة من الظلام … عند ذلك انتبه كليب ، وأفاق من ذهلته ، فذهب إلى منزله خائباً يجرّ رجله جرًّا وبات أرقا مسهداً ينتظر انبلاج الفجر ، ليحمل عصاه ويعود إلى صبيانه …

***

لم يكن كليب جاهلا ولا محمقاً ، وإنما كان أديباً أريباً فطناً ذكياً من أبلغ الناس لساناً ، وأجرئهم جناناً ، وكان من أحفظهم لكتاب الله ، وأبصرهم بالشعر ، وكان فتى بادى الفتوّة ، قوياً ظاهراً القوة ، لا يعرف اللهو ، ولا يميل إلى اللعب ، ولكنه يعرف الجد فى أموره كلها ويحب النظام ، ويميل إلى الصدق ، ويأخذ تلاميذه وأصحابه بشيء من القسوة أحياناً ، واللين حيناً ، وكان يجنح إلى الحزم ولو اضطره الحزم إلى كثير من الشدة والصرامة ، ولم يكن يؤخذ عليه إلا هذه الأمنية التى كانت تخرج به في كثير من أيامه عن الوقار والحزم ، وتدنو به أحياناً من اليأس والضعف وتعرضه على عيون الناس خفيفاً طياشاً ، وهو الرزين الوقور ، وتلقى الخلاف بينه وبين شريكه وزميله عقيل الذي كان أعرق منه فى الصناعة ، وأعلى فى السن وأكثر اختباراً للحياة ، وإن كان دونه فى مضاء عزيمته ، وقوة شخصيته ، حتى لقد اضطر عقيل إلى لومه مراراً . وحاول مرة أن يسخر من هذه الحماقة التى ملأت رأسه ، وأن يصرفه عنها ، وأن ينتزع من نفسه الرغبة الأمارة والسلطان … فكان يستمع إليه ساكتاً جامداً كالصحراء … فتجف الكلمات على شفتى عقيل ، ولا يجد ما يقوله فيصمت هو أيضاً ويعاودان العمل

وكثيراً ما كانت تطغى على كليب أحلامه فتغلب عليه وتستأثر به فينسى حاضره الواقع ، ويعيش فى مستقبله المأمول ، فيحس كأنه فى دست الملك لا على حشيّة المعلم ، وأن أمامه الحاشية والأعوان ، لا الأولاد والصبيان . فيرفع صوته آمراً ناهياً ، ويستغرق فى أمره ونهيه ، ويعجب التلاميذ وتتحرك فى نفوسهم طبائعهم العابثة فتستبق القهقهات إلى شفاههم ثم تجمد عليها يردها خوفهم من هذا المعلم العابس وخشيتهم إياه ؛ ثم تغلبهم طبائعهم فينفجرون ضاحكين صائحين … فيتنبه المعلم الشاب ، ويزعق فيهم فيكفون ويسكتون ، ويتكرر ذلك ويقصه الأولاد على آبائهم وأهليهم فيكذبونه بادى الرأى ، ثم يصدقونه ثم يشيعونه فى البلد ، فيصبح ملء الأفواه والأسماع أن كليباً المعلم الشاب قد

---

(١) idée fixe

(٢) ماقى استعمال هذه الكلمة بأس ولو كره المتحذلقون

أصابه طائف من الجن ، فيأسفون ويحزنون لما عرفوا فيه من البلاغة وما آنسوا فيه من الرجولة والحزم ، ولكنهم لا يعجبون وهل يعجب الناس من معلم يجن ؟ إنما يعجب الناس من المعلم إذا بقي عاقلا وهو يعاشر أبداً هؤلاء التلاميذ ...

***

وفي ذات صباح غدا التلاميذ على مدرستهم فلم يجدوا معلمهم الشاب ، وكان من دأبه أن يسبقهم . فانتظروه فلم يحضر ، فذهبوا يطلبونه في بيته . فعلموا أنه باع بيته ليلاً وقبض ثمنه ، ففتشوا عنه في كل مكان يظنون أنه يأوي إليه . فتشوا في كل زقاق من أزقة القرية ، وفي كل ذروة من هذه القرى القريبة منها ، وكل صخرة من هذه الصخور القائمة من حولها . فلم يجدوا له أثراً !

ولما راح الرعاة في المساء سألوهم عنه ، فقالوا : لقد رأيناه منذ الصباح ينحدر وحده ، يقفز من حجر إلى حجر ، فحييناه فلم يرد علينا تحيتنا لأنه كان ذاهلاً ، قد تعلق بصره بالأفق النائي ... ونظن أنه سار يومه كله ، ولن تدركوه أبداً لأنكم لا تدرون أي سبيل سلك !

فاسترجع أهل القرية واستعبروا أسفاً على أن جُن هذا المعلم الشاب ، وأيقنوا أنه سيموت في هذه البادية وحيداً فريداً شريداً ...

***

سار كايب يومين كاملين على غير ما طريق مسلوك أو جادّة واضحة ، يبتغي المنازل والمنحدرات ، تسلمه كل ذروة إلى التي تحتها ، وكل سفح إلى الذي يليه ، لا يحس تعباً ولا يخشى أذى لأن آماله قد ملأته شجاعة وصبراً ؛ ثم إنه كان في أول الطريق فهو لا يزال نشيطاً قويًّا ، ولا يزال زاده كاملاً ؛ ثم إن الحر لم يكن قد غمر هذه الجبال وهي بعد في أواسط الربيع . فلما بلغ الصحراء — والصحراء لا تعرف ، إذا تسعرت شمسها وحميت رمالها ، ربيعاً ولا خريفاً — ولما أوغل فيها واحتواه جوفها ، ونفد ما حمل من الزاد ، والتهبت شمس الضحا التهاباً ، وغلى الهواء غلياناً ... جففت هذه الشمس أحلامه الندية ، وأحالتها بخاراً ، وطيرت أمانيه من رأسه ووضعت عقله في جلده ومعدته ، فواجه الحقيقة الواقعة ؛ فإذا الصحراء الرحيبة الرهيبة تضيق به ، وإذا هو يرى حيثما تلفت شبح الموت المروّع بعظامه البادية وفكيه المرعبين وجمجمته الفارغة ، يتراءى له على الأفق البعيد ، يرقب أن يعانقه قبل أن يصل إليه ، ويتمثل ذلك في خاطره فيشعر ببرودة هذه العظام البادية تسري في جسمه ، ويتصورها ملتفة حول عنقه فيحس بالقشعريرة تمشي في أعضائه ، فيغض بصره عن الأفق فيتراءى له الشبح في هذه الرمال ، ويخيل لنفسه أنها ليست إلا قبراً مفتوحاً ، فيكاد الخوف من الموت يهوي به ويقصف ركبتيه ، فيرفع نظره عن الأرض فيتراءى له الشبح في هذه الشمس التي تسكب عليه وعلى البادية وهج جهنم ، فيغمض عينيه فيتراءى له الشبح في الجوع الذي يلهب أمعاءه والعطش الذي يحرق جوفه والضلال يملأ يومه وغده ... ثم يزول النهار ويشتد أوار الشمس ، ويبلغ لسان لهيبها قرارة دماغه ، فينسى الجوع والعطش ولا يدنى إلا شبراً من ظل ... فيعدو كالمجنون ها هنا وها هناك ؛ والصحراء مبسوطة كالكف ليس فيها غار يأوي إليه ، ولا صخرة يستظل بها ، ولا بشر يلجأ إليهم ، ولا شجرة يستذري بها ؛ فينبش في الرمل بيديه وأظافره ليجد في بطن الأرض رطوبة يدس فيها أنفه ليريح رائحة الحياة ، ويوالي النبش بجنون ثم يطمر رأسه في الرمل فلا يزيد على أن يدفن نفسه حيًّا في رماد حار ... فيجفو الرمل وينطلق يعدو حتى ينقطع ويملوه البهر ويحس بأنه سيختنق ، فيقبل من ضيقه يلطم وجهه بكفيه ، وينتف شعره بيديه ... ويلعن المجد والسلطان ويلعن هذه الصحراء ويلعن نفسه حين استجاب لهذه الحماقة نخاض الصحراء وألقى بنفسه في جوفها الملتهب ..: يندم أشد الندامة ، ويتمنى لو وجد إلى العودة سبيلاً ، وهيهات أن يجد إلى العودة من سبيل ، لأن بينه وبين القرية هذه السفوح التي لا آخر لها ، وهذه الصحراء وهذه الأودية ، فإذا قطعها واستطاع أن يعرف طريقه بين آلاف التلال المتشابهة وآلاف الصخور المتشاكلة لم يعرف طريق النجاة من سخرية قومه وهزء صبيانه ، وهو ما لا يطيقه أبداً ولا يصبر عليه ، ويرى الموت أخف منه حملاً وأحلى مذاقاً ... وراح يذكر تلاميذه الصغار وطاعتهم إياه وحبهم له ، ويذكر بغضاءهم وعصيانهم ، ويذكر براءتهم وسذاجتهم ، ويذكر خبثهم وشيطنتهم ، ويذكر لينهم ويذكر قسوتهم ؛ فإذا هو يشعر بالحب لهم ، ويغمره هذا الحب ويكون لقلبه برداً وسلاماً ، ولمعدته ريًّا وشبعاً ، ولروحه حياة ، وينظر بعين الحب إلى قريته ، ويعرضها كلها بطرقها وبيوتها وبساتينها ، وهذه المعابر التي سلكها مرات لا يحصيها عد ، ويرى

داره ويبصر كل حجر فيها وكل زاوية منها ... ثم ينظر إلى هذه الصحراء المترامية من حوله فإذا بها قد ابتلعت هذا الحب وجففته ، وحياة الحب حياة قصيرة المدى ... وإذا به يحس بالألم ويشم من حوله رائحة الموت ويرى نفسه نبتة اجتثت من الأرض وقطعت جذورها ، ثم ألقيت على هذه الرمال التي يشوى عليها اللحم [1] لتجف وتعود حطبة يابسة ، بعد إذ هي غصن مورق فينان ، ويخيل إليه أنه فقد حياته كلها حين فقد بلده وأهله وسعادته ، فيلقى نظره على هذه الجبال التي خلفها بعد يومين فإذا هي بعيدة ، بعيدة جداً تبدو له من خلال السراب اللامع كأنها صورة الأمل المنير لا تكاد تظهر ... فيسترجع نظرته اليائسة مغسولة بدموع الندم ، ويوغل في جحيم الصحراء تائهاً يائساً يمشي إلى ... الموت !

***

حتى إذا أطفلت الشمس ، ثم ضعفت وشحب لونها ، ثم أسلمت الروح ، فلبس السكون كله ثوب الحداد ، ثم برد الرمل واستحال إلى فراش لين جميل ، ولاحت في السماء النجوم واضحة قوية ... شعر المعلم الشاب بالراحة ، فاستلقى على قفاه يتنفس الصعداء من هول هذا اليوم ... ويتأمل النجوم ... ويبصر امتداد الأرض والسماء من حوله ، فيعجب من جمال الصحراء وبهائها ، وينتشي بنسيمها الرخي الناعش ، وسكونها الشامل ، وجلالها المهيب ، ولا يستطيع أن يتصور كيف كان هذا العالم الجميل الفتان ، يموج قبل ساعات بأشباح الموت ، وتهاويل العذاب !

ورجع الليل إلى الفتى المعلم حماسته ونشاطه ، وأترع نفسه قوة وحياة ، فرأى أمله الذي بخرته شمس الضحا قد عاد رطباً ندياً ، فجلس وحيداً بين هذه المخلوقات العظيمة : النجوم والسماء ، والليل والصحراء ، يناجي أمانيه ، ويرسم طريقه إليها ... وكان الليل ساكناً هذا السكون العميق ، الذي لا تعرفه المدن ، ولا تدريه القرى ، ولا يقدر عليه البحر ، وإنما تعرفه الصحراء العظيمة بصمتها وضجيجها ، وقسوتها ولينها ، فراقه هذا السكون ، وملك عليه لبه ، فأصغى إليه إصغاء شديداً ، فكان يسمع فيه نشيداً سرمدياً متصلاً ، له من الروعة في القلب ، والأثر في النفس ، ما لا يكون لهذه الموسيقى المتكلفة الهزيلة ، الصاخبة الضاوية ، التي تخرج من أفواه ضيقة ، أو آلات حقيرة جامدة ، وإن هي عظمت فإنما تخرجها أغصان الدوح الذي يرتل ترتيلة العاصفة ، أو السحاب التي يغني أغنية الرعد ، أو البركان الذي يزأر زئير الموت ... أما الصمت فهو نشيد الصحراء الخالد ، وأغنية الوجود كله !

غير أن هذا الصمت ينقطع فجاءة ، ويحمل نسيم الليل الهادىء إلى أذن المعلم الشاب صدى أصوات بعيدة وعميقة ، كأنها خارجة من أجواف النيران ، أو من بطون القبور ... فلم يدر أهي من صنع الواقع ، أم هي من تزوير الخيال ... ولم يحفلها ، لولا أن النسيم حملها إليه كرة أخرى ، وهي أقوى وأشد وضوحاً ، ثم تبين فيها حداء حلواً ، فتخيل القافلة ، وهي تضرب في الرمل الناعم البارد ، والإبل وقد راقها هذا الحداء ، فمدت أعناقها وأوسعت خطوها ، وهي طربة سكرى بخمرة الألحان ، ولمس الفرج يأتيه من حيث تأتي القافلة ، وأرهف أذنيه يتسمع هذا الصوت الذي يدنو أبداً يحمل إليه الأمل والسعادة ، فاذا بالصوت يتخافت ثم يضمحل ، وهو أشد ما يكون طرباً به وسروراً ، ويسيطر على البادية هذا الصمت العميق ، فيألم المعلم الشاب ويحس بالخيبة تحز في قلبه ، ويضيق بهذا الصمت الذي كان ينعم به منذ لحظات. تنعقد السحب فتحجب عن عينيه هذه النجوم المتلألئة ، أو يخيل إليه أنها حجبت عنه ، فيدور ببصره فلا يرى إلا مخلوقاً واحداً هائلاً يحف به من كل مكان ، فيحس بالرعب ، وتثقل عليه هذه الوحدة الموحشة تحت ظلمات ثلاث : ظلمة الليل ، وظلمة الصمت وظلمة الخيبة ... ويهم بالتصريخ ، ولكنه يقر ويسكن حين يرى هذه النجوم قد ظهرت دانية قريبة ، كأنما هي قد استقرت على الأرض ، على قيد ذراعين منه ، تتراقص على ظهر اللجة السوداء ، تحاول أن تخترق حجب الظلام بأشعتها الكابية الكليلة ، ولا ينفك يحدق فيها ، حتى تختلط أفكاره في رأسه ، ويحس بأنه قد هوى في واد مظلم سحيق ... ثم لا يحس بعد ذلك شيئاً ، لأن النوم قد غلب عليه وهو في مكانه !

ويشعر المعلم الشاب بيد قوية تهزه هزاً فتقف كل شعرة في جسمه ، ويفيق مذعوراً يظن أن الجن تداعبه وتوقظه ، فيضغط جفنيه ضغطاً شديداً ، ويستر وجهه بكفيه ، ولكن هذه اليد تقبض على كفيه فتنترهما نترا ، وتخالط أذنه أصوات عجيبة ولغط وضوضاء ، فلا يشك في أنها أصوات الجن ، ويفتح عينيه مضطراً فإذا هو مسحور ، قد بلغ منه السحر أن حجب عن عينيه هذه

(١) لا على المجاز ، بل الحقيقة التي رأيناها في بوادي الحجاز رأى العين

الظلمة الثقيلة التي كان يغيب في أثنائها ، وطمس أضواء القافلة الكليلة التي كانت تتراقص أمام عينيه ، وبدّل كل شيء في لحظة واحدة ... فاذا الدنيا ممتلئة إشراقاً وضياء ، وإذا هو قد انتقل من الصحراء القاحلة الجرداء ، إلى دنيا تمور بالأحياء ، وتموج بالناس ، فيبالغ في فتح عينيه ، وقد كاد يجن لفرط الدهشة ... ولا يشك أن هؤلاء الذين يرى طائفة من الجن ... ثم يعود إليه وعيه ، ويصحو من نومه ، فيتلو قول الله تعالى (يرا كم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) ، فيعلم أن ليس هؤلاء جناً ، لأن الجن لا يمكن أن يراهم بشر ، ولكنه لا يزال على شكه ؛ أين هو ؟ وما هذا الذي يرى ؟ فيقول لمن كان يوقظه :

— أسألك بالذي تحلف به ، إلا ما أخبرتني أين أنا ؟

— أين أنت ؟ أنت في هذه البادية !

— في هذه البادية ؟ ! وما هذا الـ ...

— ويحك يا رجل لقد حبست القافلة

— اسقوني شربة ماء

فيمضي الرجل ليأتيه بالماء ، ويحدث كليب نفسه :

— إذن ، فأنا قد نمت إلى الصباح

— خذ اشرب ...

— الحمد لله ! أشكركم

— لقد حبست القافلة

— وماذا تريدون مني ؟

— نريد أن نعرف من أنت ... إنا لنظنك عيناً للعدوّ ، فمن أين أتيت ؟

— أتيت من أعالي هـذه الجبال أريد الشام فضللت ونفد زادي ، وصهرت دماغي شمس الأمس ، فعدت أركض على غير هدى حتى انتهيت إلى هـذا المكان ... ولست عدوًّا لأحد

— وما اسمك ؟

— إسمي كليب ، من آل أبي عقيل ... وأريد الشام ، فهل تمنون عليّ فتحملوني معكم ؟ هذه هي دراهمي !

ويفرغ كيسه على الرمل ، فتتكوّم الدراهم والدنانير ، تنعكس عليها أشعة الشمس فيخطف بريقها البصر !

— وفـر عليك دراهمك ، إنا لا نرزؤك شيئاً ، أنت في حمى هذا السيد ، فاركب جملك راشداً

ويطغى الفرح على نفس المعلم الشاب ، حين يقدمون إليه هذا الجمل القوي البازل ، وينسيه أن يسأل عن هذا السيد الذي أصبح في حماه ، وأن يشكره . ويعلو متن الجمل براعة الأعرابي وخفة الشاب ... ويسير به الجمل ، وهو يقلّب بصره في هـذه القافلة العظيمة ، فلا يستطيع أن يدرك به آخرها ، أو يحيط بها ، ويأخذه العجب حين يرى من حوله مدينة كاملة برجالها ونسائها وبيوتها وحاجاتها وجندها وحماتها ، تتنقل تحت عين الشمس ... ثم يشرع الحادي بأغنيته فيصغي إليها كليب حيناً مأخوذاً ...

***

طوت القافلة الفلوات ، تتجنب الطرق المسلوكة ، وتنأى عن القرى القليلة ، القائمة في الصحراء بين دمشق ويثرب ، لئلا تجد فيها ما تخشاه في هذه الأيام المضطربة الحافلة بالثورات والحروب ... وكان أصحابها دائبين ينزلون النهار إلا أقله ، ويمشون أكثر الليل وجانباً من النهار ، يتجنبون حرّ البادية ، ووهج الشمس ، حتى رأوا (بصرى) تلوح لهم في اليوم السادس عشر ، يبسم طيفها خلال أشعة الطفل ، فوثبت إليها قلوبهم ، وطارت أمانيهم ، وجدت القافلة المسير ، دأب المسافر إذا دنا من بلد ، أو شارف غاية . وكان المعلم الشاب أشدّهم طرباً وفرحاً ، فطفق يحدق في هذا الطيف ، ويتأمل هذه الرمال ، يستمتع بأحلامه البهيجة الحبيبة ، فيرى الرمال إذ تمتد في اتزان عجيب ، من قلب الجزيرة إلى أسوار (بصرى) يحملها هذا التيار المنبثق من قلب بلاد العرب ، فيصبها في أرض الشام فتغمرها بروح الجزيرة ، وتعلمها معاني الرمل ، ومن معاني الرمل أن تكون الأمة مجتمعة كالرمل ، كثيرة كالرمل ، خالدة كالرمل ، صابرة كالرمل ...

ويغيم طيف المدينة ويظلم ثم يختفي في ثنايا الليل ، ولكن المعلم الشاب لا يزال ممعناً في التحديق ، قد نسي القافلة ، وغفل عن الزمان ، فلم يبصر اختفاء المدينة ، وإنما كان يبصر أحلام الجزيرة ، التي استهوته حتى استسلم إليها ، ووضع في يدها قياده فساقته إلى عالم ناء لا يدرك العقل قراره ، ولا يبلغ غوره ، عالم يفيض بالفتون والجمال والسحر ، فظل يستمتع بفتونه وجماله أمداً طويلاً ... ثم قادته الذكرى إلى ماضي الجزيرة ، فإذا هو يراها ممحلة جدبة ، قد تعرّت من الخضرة ، كما تعرت من الحضارة ، وغاضت فيها ينابيع الماء ، كما غاضت ينابيع العلم ... ثم يرى رجلين

يسيران من (أم القرى) إلى تلك (المدينة) الناعمة بين الحرّتين فينبت الزهر تحت أقدامهما، وتخضر الرمال التي يطؤونها، وتكتسي البادية من حولها أثواب الحياة. ويرى هذا الرجل يستقر في تلك (المدينة) فيبعث من بين حرتيها صيحته القوية، فيوقظ النيام، ويحيي الجماد، ويبعث في النفوس الفضائل والأمجاد، فإذا الجزيرة برملها وصخرها، وشمسها المحرقة، وجبالها الصلداء، تسير وراء محمد (أعظم إنسان، وأفضل نبي) لتحمل الحياة إلى سهول الشام والعراق... يا عجباً! يا عجبا... الصحراء القاحلة، تمنح الحياة السهول والبساتين؟!

رأى الجزيرة تمشي وراء محمد (صلى الله عليه وسلم) لتكون موقدة المعركة الحمراء التي أكلت الظلم والرذيلة والطغيان... ثم تمشي مرة ثانية لتكون رمالها بذور الأزاهير والأشجار في السهول الخضراء... ثم تمشي مرة ثالثة لتكون قرائحها وأدمغتها مادة هذه الصحف المجيدة البيضاء، ثم... ثم... ثم بالغ رفيقه في هزه، فانتبه كليب

— أفي كل يوم إغفاءة، أو إغماءة؟ مالك أيها الرجل؟

— ...

— انزل، هذه أسوار بصرى!

***

نزلت القافلة تحت أسوار (بصرى) في موهن من الليل، فلم تبصر في بصرى إلا قطعة من الظلام الراكد، ولم تجد أثراً لذلك الطيف البرّاق الزاهي. الذي كان يتراءى لها راقصاً على أشعة الطفل... فهجعت مكانها تنظر الصباح

نامت القافلة يحرسها الحراس، ونام كليب نوماً عميقاً لا يطفو على وجهه حُلم، حتى أحس بأنفاس الفجر الباردة على خديه ففتح عينيه، فرأى طلائع الفجر تضطرب تلقاء المشرق في خطوط ضعيفة، كأنها أضواء المصابيح الكليلة، فراقته وتعلق بها بصره وما شيء يمتلك لب الرائي، ويأخذ عليه مشاعره مثل انبلاج الفجر في الصحراء، حين يكون سفير النور، ومهبط الآمال على هذه النفوس التي ملّت ظلام الليل، وما يعيش في الظلام من مصائب وأوهام... ولم يستطع كليب أن يحمل وحده كل هذا الجمال، وأحب أن يجد صديقاً يشاركه حمل الشعور، فكان يلقي على رفيقه النائم، من غير أن يحوّل وجهه عن المشرق:

— ما أجمل هذا!

وكان صوته هامساً خافتاً، كأنه كان يناجي نفسه، فإذا لم يجبه أحد، وطغى عليه شعوره، عاد يقول:

— ما أجمل هذا! ألا ترى؟

وكان الفجر قد انبلج، واستوى عموده، وامتدت خيوطه فإذا هي تملأ الفلاة كلها، وتحسر عن هذه المشاهد التي كانت مخبوءة وراء حجاب الليل، فإذا هي بارعة فتانة، ولم يكن صاحبنا المعلم قد رآها من قبل، فشُده حين ظهرت له بغتة، كأنها لوحة فنية أزيح عنها غطاؤها، أو كنز فتح له بابه، أو متحف فيه كل جميل أخذ أضيئت له جوانبه، فلم يدر أين كان هذا كله مخبوءاً، وحارت نفسه بين خضرة البساتين التي تحف بالبلد، أينعم النظر إليها ويذوق حلاوتها بعد هذه الأيام الطويلة التي ذاق فيها مرارة البادية، ويصغي إلى تهامس أوراقها المتلاصقة، ونجوى أفنانها المتعانقة، أم يتأمل هذه البنى العظيمة التي أودعها الفنانون من البيزنطيين أبدع ثمرة من جنى قرائحهم الخصبة، ونزلوا لها عن أجمل نتاج لعبقريتهم ونبوغهم، لتكون عروس البادية، تخطر بعظمتها وجمالها، وتتهادي بزخرفها وزينتها على الرمال الخالدة..

وكان الفجر قد امتد إلى نفس المعلم الشاب، فأضاء له عوالمها كما أضاء هذا العالم، وحسر له عن آماله التي كانت مختفية في ظلام الأسفار، كما كانت هذه المشاهد غائبة في سواد الليل، فعاد إليها، وتمثلها قوية ظاهرة، وأحس كأن فجر حياته الماجدة قد انبثق، لختم صفحة هذا الليل الأسود الذي قضاه معلماً في أعالي الجبال، ليفتح صفحة النهار الوضاء الذي يقضيه في المدن الكبيرة أميراً عظيما، وتلهى بأحلامه عن هاتين اللوحتين اللتين حار بينهما أولاً: اللوحة التي وشّاها الربيع، واللوحة التي زينها الفن، وانطلق يفكر في دمشق، ماذا تكون إذا كان هذا كله لقرية من قراها؟

***

بقيت القافلة في (بصرى) ريثما باعت واشترت، وقضى تجارها وطراً من الربح والكسب، ثم توجهت تلقاء دمشق، وكان المعلم الشاب يكلف ذهنه ضروباً من الكدّ ليمثل له صورة لدمشق تشبه ما كان يسمع عنها من الأخبار التي كانت تشيع في الأرض حتى تبلغ تلك الذرى العالية التي لا تهجع عليها قريته

فتنشر فيها مكبرة منفوخة مكسوّة بأنواع المبالغات ، تصوّر له دمشق جنة كالتي وعد المتقون ، لها من العظمة والجلال ماتتضاءل أمامه عظمة (المدائن) التي كان يتحدث بها المجاز من قومه عن المجاز ، وتخيّل له من جلال الخليفة وضخامة سلطانه ما يصغر معه ملك كسرى ويهون ... ولم لا ؟ وملك كسرى كله عمالة من عمالات الخليفة ، وولاية من ولاياته !

كان المعلم الشاب يكدّ ذهنه ليتصور دمشق ، ويتبين طريقه إلى النجاح فيها ، وكان يحسب لطول ما عزم على السفر وتردد فيه ، ولعظم ما لاقى من الأهوال والمشاق ، أنه ليس بينه وبين المجد والولاية إلا أن يهبط دمشق ، فإذا هو والٍ أو أمير ...

وكانت القافلة قد علت نشزاً من الأرض فانكشفت أمامها دمشق العظيمة أقدم بلدان الأرض وأجملها ، وهي في مثل حلّة العروس يضحك في أعطافها الجمال تميس بثوب العرس الأبيض الشفاف الذي نسجته أكفّ الربيع من زهر المشمش الهفهاف تموج في خديها دماء الشباب ظاهرة في زهر الدرّاق الأحمر الفاتن ، وعبق أزهارها يعطر الجوّ كله ، الأرض والسماء والجبال والصحاري المجاورة ... فأخذ كليب بها أخذاً ورقص لها قلبه ، وفتن بها فتوناً . ومَنْذ الذي يرى غوطة دمشق — وهي في ثوب الربيع — ثم لا يرقص لها قلبه ولا يفتن بها فتوناً ؟ ومنذا الذي يقطع عرض الفلاة حيث يمتدّ ظل الصخرة القائمة جنة حادرة ، ويرى الحشيشة الخضراء روضة ناضرة ، ويرى البئر الآسنة مورداً صافياً ... ثم يطل على الغوطة جنة الأرض حقاً [1] وروضة الدنيا بأشجارها المزهرة ، وطيبها وعطرها ، وفتونها وسحرها ، ثم لا يجنّ بها جنوناً ؟ وهل عدّ العرب الغوطة إحدى الروائع الأربع (chef d'æuvre) في متحف الطبيعة إلا بعد نظر وفكر ؟ كان كليب سابحاً في أحلامه ، وهو أشد ما يكون بها استمتاعاً حينما ارتفع هذا الغبار من ناحية الشرق عالياً عريضاً . راع القافلة فوقفت تنظر إليه مذعورة ، فجفا أحلامه ووقف مع القافلة ينظر ، فإذا الغبار يعلو ثم تضربه الرياح فيتفرق ، ثم يعود فيجتمع ... ويفزع رجال القافلة الكبيرة ، ويظنون الظنون ، ويصغى كليب إلى حديثهم فيفهم منه أنهم لا يدرون ماذا يراد بهم . ولا يعلمون ما هذا الغبار ، ويوغلون في الحديث ويتشقق بينهم ، فيكشف لكليب عن أشياء كثيرة لم يكن يعرفها وهو في قريته العالية ... يعلم كليب أن الدولة في أزمة من هذه الأزمات الخطرة التي تعرفها الدول حين تعصف بها عواصف الانقسام والحرب الداخلية ، وأن عبد الملك قلق مسهّد لا ينام الليل إلا لماماً ، فإذا هجع رأى شبح ابن الزبير ينقض عليه فقام مرتاعاً يخشى أن ينتزع منه الشام ومصر كما انتزع الجزيرة كلها والعراق وخراسان ، وصار الحاكم المطاع في شرق البلاد وجنوبها وطالت مدته وامتد كلمته ...

ثم تنقطع أحاديث القوم ، وينظرون إلى الغبار الداني وسيوفهم في أيديهم ، ومقاتلتهم أمامهم مستعدون للقتال ، فينشق الغبار عن الراية الأموية التي يبعث مشهدها الطمأنينة في نفوسهم ، ويخرج من تحته بضع مئات من جند الشام يخالطون القافلة الكبيرة ويكشفون أمرهم على عجل ، فيعلم رجال القافلة أنهم حيال فرقة من حرس الصحراء ، خرجت من دمشق منذ أسبوع لتجول في هذه الفلوات القريبة ، تقيم المواصم والمخافر ثم تعود لتفسح المجال لفرقة أخرى ، فتجاوزت حدها ، وأمعنت في الضرب إلى الجنوب حتى دخلت في أرض ابن الزبير والتقت بهذه الفرقة الحجازية التي كسرتها وردّتها على أعقابها ، ولحقتها لتقضي عليها

وهز هذا الحديث القصير رجال القافلة ، فاصطفوا للقاء الفرقة الحجازية التي دنا غبارها ، وتلفتوا يفتشون عن الرجل الذي يقودهم إلى المعركة ويشق لهم طريق الظفر ، ويلزمهم طاعته إلزاماً ، ولن يكون هذا الالزام إلا بقوة الشخصية ، وبلاغة اللسان ، وكبر النفس . وكانت ساعة انتظار وتردد توجهت فيها الأنظار إلى كثير من السادة ، فخيبوا رجاء الناس فيهم ، وأوشكت الفرقة الحجازية أن تصل . وهم على جمودهم وانتظارهم ، عند ذلك تقدم كليب الذي كان يغالب نفسه ويقسرها على السكون ويمسك بركان حماسته أن ينفجر ، تقدم حين عجز عن ضبط نفسه ، ففتح له طريقاً وسط الفرسان ، وقد رأى أمانيه أدنى إليه من أنفه ، ومضى فيه مضيّ السهم حتى صار في رأس القوم ، وهم يعجبون منه ، وينتظرون أن يقودهم كل رجل في القافلة إلا هذا الشاب الذي أمضى طريقه كله صامتاً حالماً لم يتحدث بحديث ، ولم ينطق بكلمة ، والذي يظنونه عيياً لا يبين ولا يعرب عن نفسه . ولكن عجبهم لم يطل ، فان الفتى انطلق يخطب فيهم خطبة صارخة مجلجلة

(١) لا يعرف الجنة إلا من رآها

تلهب كلماتها النهاباً ، وتحرك جلها الجلاميد الصم ، وتدع الجبان المخلوع القلب وهو البطل الحلاحل . وكان صوته القوى يدخل إلى حبات القلوب فتصيبها منه رجفة كما يرجف الرجل يمسك بسلكة الكهرباء ؛ وكانت إشارات يده وسمات وجهه تنطق بمعانيه قبل أن ينطق بها لسانه ، فتحرك الناس وتقودهم حتى كأنهم معلقون بأصبعه . ولم ينته المعلم الشاب من خطابه حتى كان القوم قد خلعوا نفوسهم التى أضناها طول السفر ، وأرمضها حر الصحراء ، وأضعفها التردد والإحجام ، ولبسوا نفوساً جديدة ماضية لا تعرف التردد ، قوية لا تعرف التعب ، مؤمنة بالظفر لا شك عندها فيه . ولم ينته من خطابه حتى كان الجند الحجازيون قد وصلوا . فأطلق من فيه صرخة الحرب ، وأغار كالقضاء النازل ينشد أنشودة الموت والجند ومسلحة القافلة من ورائه تردد النشيد فتميد له البيد . فلم تكن إلا جولة واحدة حتى آثر الحجازيون السلامة ، ففروا لا يلوون على شيء . واستراحت القافلة حيناً . ثم أخذت طريقها إلى دمشق يقدمها كليب (المعلم البطل)

* * *

كانت دمشق فى زلزال شديد ، وكان أهلها فى هيجان واضطراب ، ينتظرون المعركة الفاصلة بينهم وبين ابن الزبير ، لينجو العالم الاسلامي من هذا الانقسام الذى ينكره الاسلام ويأباه أشد الاباء ؛ وليعود إلى الوحدة التى جعلها أساس الحياة الدنيوية للمسلمين ، كما جعل التوحيد أساس الدين ... ولكن أهل دمشق فزعون مشفقون على الخلافة الأموية أن تنهار وتتحطم وهم بُناتها وحُماتها ، يرقبون الأحداث ، ويتسقطون الأخبار ، ويُعدّون نفوسهم للتضحية الكبرى فى سبيل المبدأ القويم ، والغاية الساذجة كدأب المسلمين في كل عصر وآن .

وكان (قصر الخضراء) مثوى الخلافة ، وسرة الأرض ، فى حركة دائمة ؛ فمن مجلس يجمع للشورى ، إلى ألوية تعقد للدفاع . وكذلك كان قصر (مستشار الدولة روح بن زنباع) الذى أمّه كليب المعلم الشاب صبيحة وصوله إلى دمشق ، يقوده إليه زعيم الجند الذين أنقذهم كليب ، وأعانهم على عدوهم ، ليلقى عند روح جزاءه .

وكان قصر روح قائماً فى ظل المسجد ، دانياً من باب الفراديس يجري من تحته بردى متواريا فى حمى القصر ، ثم يظهر كرة أخرى ، يتحدر ويهدر هديراً سائغاً عذبا ، وسط جنة دانية القطوف متشابكة الأفنان ، قد اتخذ فيها مجلس يقوم على سيقان من خشب الجوز المنقوش ، منغمسة فى بردى تغسلها أمواهه دائماً وتداعبها أمواجه الصغيرة ، فتقرصها ثم ترتد عنها ضاحكة مقهقهة ، وسماء هذا المجلس أغصان الأشجار قد تعاطفت وتعانقت ، يزينها الياسمين بزهره الناعم العطر ، وحول هذا المجلس إطار من الورد والنسرين والسَّيسنبر والنرجس والبنفسج ، فهو جنة تنعم فيها العين بهذه الأزاهير المؤتلفة الألوان ، المختلفة الأشكال ، تمايل وتتهادى حين يمسها هذا النسيم الرخيّ ، فيفوح من أعطافها هذا الشذا الطيب ، الذى ينعم الأنف برياه ، كنعيم الأذن بهذه (الاوركستر) الآلهية ، التى تعزف ألحان الفطرة الجميلة الساحرة على حناجر البلابل والشحارير ؛ وبردي فوق هذا كله يعزف لحنه السرمدى ، وتنعكس على صفحته المتموجة ألوان الزهر ، فيكون منها لوحة فنية تزرى بألوان الغروب فى لجّة البحر .

والقصر طبقتان من الرخام الأبيض والأسود والجزع ، له رواق على بابه ، قائم على أساطين من المرمر قد استفرغ صنعها وتزيينها عبقرية البنائين والمهندسين فبدت آية معجزة فى لغة البناء تحس لدقتها وأحكامها كأنها هى حية ناطقة نشوى بخمرة هذا الأريج العطر الذى يفوح من أشجار البرتقال والليمون المطلة بالزهر التى تنافس بعطرها الورد والياسمين ، وأشجار المشمش التى تظهر بزهرها الأبيض الشفاف كأنما هى فى حلة فى الثاج الحيّ المعطر ، وأشجار الدراق التى تبدو بزهرها الأحمر كأنما هى محب ورّد وجنتيه الخجل ، وأشجار الحور سكرى تميس بثوبها الجديد الذى خلعته عليها أيدى الربيع ... يتوّج هذا كله منارة المسجد الشاهقة فى السماء ، تنشر فى الدنيا كلها العطر السماوى الخالد ، وتريق عليها السمو والجلال ، فتتطهر الأرض من الشرك والرذائل ، وتتطهر النفوس من المطامع والشهوات ، وتهبُّ على الوجود نسمة من نسمات الجنة حين يخرج منها النداء : « الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ! »

* * *

كانت دمشق (وما تزال ، وستبقى دمشق) جنة الأرض ، ودرّة تاجها ، وواسطة عقدها ، ليس فى الأرض أجمل منها

ولا أحفل بكل محبوب ساحر أخاذ، مما يشمّ أو يرى أو يسمع ... وكان قصر روح من أجمل ما في دمشق، وكان فوق الجمال جليلاً فخوراً بساكنيه، يملؤه الحجاب والجند وذوو الحاجات، فلا ينصرفون إلا وافرين غانمين شاكرين. كان محط الجمال والجلال، ولكن كليباً (المعلم البطل) لم يحفل شيئاً من هذا، ولم ينظر إليه، لأن من عادته ألا ينظر إلا أمامه، لا يلتفت يمنة ولا يسرة لئلا يشغله عن غايته شاغل، أو يعوقه معوق. وكانت آماله هي غايته، فمضى إليها قدُماً، لا يبصر إلا ظهر الجندي الذي سبقه ليدله على الطريق في هذا العالم الصغير، حتى دخل على المستشار ..

* * *

ندع كليباً في حضرة روح بن زنباع مستشار الدولة، ونقفز قفزة واحدة إلى واسط مدينة الحجاج، نقطع في هذه القفزة سنوات طويلة مليئة بالأحداث الجسام، من قتل مصعب وعبد الله ابني الزبير، إلى عودة الوحدة الإسلامية على يد البطلين عبد الملك والحجاج ... فنرى في شوارع واسط الفسيحة شيخاً أعرابياً جافياً يتلفت تلفت المشدوه الذي لم يبصر في عمره مدينة كبيرة، يتوسم في وجوه الناس بفضول ظاهر، فيفرون منه حتى زال النهار، وكلّت رجلاه من المسير فجلس في ظل دار من هذه الدور الجديدة، كئيباً حزيناً

— مالك ياعمّ ؟

— ... .

— مالك ؟ أخبرني ما شأنك ؟

فيرفع الأعرابي رأسه ويحدّق في وجه الرجل، حتى يطمئن إليه، ولا يرى فيه ما يريبه، فيقول له :

— أريد أن تدلني على رجل يدعى كليب بن يوسف الثقفي، من الطائف

فيضطرب الرجل، ويسأله :

— أتدري ويحك ماتقول ؟ ابن يوسف الثقفي ؟ أخو الحجاج ؟

فلا يسمع الأعرابي هذه الكلمة حتى يسرى عنه، وينطلق ضاحكاً بملء فيه، ويقول :

— بل هو والله الحجاج، كنا نسميه كليباً، قاتله الله ما أشد عقوقه ... ألا تخبرني أين هو هذا الخبيث ؟

— قبحك الله من أعرابي جاهل، أبهذا تصف الأمير ؟

ويتلفت إلى كل جهة، وقلبه يكاد ينخلع من الرعب يخشى أن يسمع حديثهما أحد، ثم يقول للأعرابي هامساً :

— اخفض من صوتك ... سألتك بالله !

— ولم ويحك ؟

— ألا تعرف من هو الحجاج ... ؟ ألست من سكان هذه الأرض ؟

فيعود الأعرابي إلى الضحك وقد راقه ما يسمع ويقول له :

— بل أنا من سكان السماء ؛ هبطت الساعة من أعالي جبال الطائف ؛ أما الحجاج فأنا أعرف الناس به : معلم صبيان أحمق !

— ويلك يا أعرابي، هو والله أمير العراقين، وقاتل ابن الزبير، وسيف الخلافة الأموية ومثبت أركانها

— إنك تهزل !

— وهل في هذا هزل ؟ سل ويلك من شئت !

— كليب أمير العراقين ؟ يا ضيعة شيبتك يا عقيل ! ... ويلك يا هذا، دلني عليه ... دلني عليه ...

* * *

— ... ...

— ... ...

— أدن يا عقيل !

— أوَ قد عرفتني ؟

— وهل ينكر الحجاج أصدقاء كليب ؟ كيف تركت صبياننا ؟

— ما أنت والصبيان ؟ أنت أمير العراقين ... ولكن خبرني ويحك يا كليب، كيف بلغت هذا كله ؟

— بلغته لأني (أردت) أن أبلغه

ولم يدرك عقيل ما شأن الارادة هنا ؛ فانطلق يضحك يحسبها نكتة، ثم سكت فجأة وقال :

— ولكنه شيء عظيم والله يا كليب ! أين هذا من ذاك في الطائف ؟

— وا شوقاه إلى داري في الطائف، وإلى أيامي مع الصبيان ! لقد خلّفت فيها ربيع حياتي يا عقيل، لقد خلفت فيها ربيع حياتي ... والآن يا مرحباً، يا مرحباً برفيق الشباب ... (١)

« بيروت » **علي الطنطاوي**

(١) روى التاريخ أن الحجاج كان يدعى في صغره كليبا وكان معلم صبيان في الطائف، وهذا كل ما روى التاريخ !

خالد بن الوليد وأمير حمص

رواية شعرية في فصل واحد

بقلم السيد محيي الدين درويش

« قواد العرب المسلمون مجتمعون للمداولة فى حرب الرومان »

أبو عبيدة :

أرى الرومان قد حشدوا جنوداً   يضيق السهل عنها والفضاء
كأن الليل يزحف وهو داجٍ   ونحن على جوانبه ضياء
ولولا الصبرُ والإقدامُ فازت
جيوش الشرك وانكشف الغطاء

عمرو :

صدقت (أبا عبيدة) ما ونينا   ولم يُفْلَلْ لضرمتنا مضاء
وكنا كالصواعق غاضبات   تميد الأرضُ منها والسماء
ولكن كان جمعهم عديدا   فلم يوهنْ صفوفهم اللقاء
ولو أوتوا قلوباً لا تبالى   لحاق بقومنا منهم بلاء
رأيت الجند بالعزمات يسمو   وحقٌّ له مع اليأس الشقاء
و (خالد) لِمْ تأخر ؟

أبو عبيدة :

لست أدرى   سأصبر علَّ يحمله المساء
أتانى من (أبي بكر) كتاب   فزال الكرب عنى والعناء
يبشرنى بمقـــدمه نصيراً   بروحى منه ذيّاك السناء
هو البطل الذى قهر الأعادى   وليس له سوى التقوى وقاء
تعالى الله حين مضى سريعاً   ووجه الأرض تخفيه الدماء
رأينا كيف تُنْتزَعُ المعالى   ويرفع فى السماء لنا لواء
(تسمع ضجة)

ماذا ؟ هتاف ؟ ما الخبر ؟

عمرو :

لعـــل (خالداً) حضر

أبو عبيدة :

تبيّـــنوا ماذا جرى   لم يبق لى من مصطبر
(تهليل من الداخل ونشيد من قبل القادمين)

الجنود :

جردوا البيض وسيروا للكفاح   فنادي الحرب بالأعراب صاح
إن نيل المجد فى الدنيا متاح   لشعوب زانها العزم الخطير

* * *

سوف باقى (الروم) أنواع البلاء   من كماة نافسوا الشهب علاء
نحن مر المجد بل رمز الإباء   لا نبالى ما حيينا بعسير

* * *

أنتم الأبطال آساد العرين   من رأى الآساد يوماً تستكين
فاشحذوا العزم ولبوا مسرعين   لبناء المجـــد والعز الأثير

* * *

(خالدٌ) قائدنا يوم اللقاء   ولنا من سيفه أقوي مضاء
زلزل الفرس فمغناهم خلاء   ومضى فى نهجه غير حسير

خالد :

سلام عليكم ليوث العرين   ونسل الكرام من الفاتحين

أبو عبيدة :

عليك السلام زعيم النضال   وسيف الإله على الكافرين
أطلت علينا الغياب فأمست   تسافر نحو (العراق) العيون
علام التأخر ؟

خالد :

شأنٌ عجيبٌ   وشكٌ تغلغل فيه اليقين

أبو عبيدة :

فديتك هات الحديث العجيب   وأدل برأيك للمسلمين

خالد :

الله أكبر تم الفتح وارتفعت   على (العراق) بنود النصر والظفر
خضنا معارك يرتاع الحديد لها   حيث المنية لا تبقى على بشر
فاهتزت الأرض لما ثار ثائرنا   وأصبحت دولة الأوثان فى سقر
رام الأعادى بنا كيداً وما علموا   أن العروبة لا تخشى من الخطر
وعدت نحوكم بالجيش مرتقياً   صحراء تزخر بالويلات والغير
لا ماء فيها ولا رغدٌ يلوح بها

أبو عبيدة :

ماذا شربتم إذن ؟

خالد :

كنا على حذر
أعطشت أنيقنا ثم ارتوت عَـلَلاً   وكنت أنحرها فى وقدة السُّعُر
سريت خمس ليال ما شكا تعباً   منا امرؤٌ

أبو عبيدة :

يالكم من فتية صُبُر

خالد :

أصليت (بهراء) حرباً فاستكان لنا
قوم سما مجدهم فى سالف العُصُر
و (مرج راهط) قد ريعت فوارسه
من بأسنا وكذا (بصرى) على الأثر

أبو عبيدة :

يحيا البطل سـيف الله

الجميع : يحيا يحيا يحيا يحيا

خالد :

نبئونى عن حالكم إن قلبي ... يتنزى شـوقاً إلى الهيجاء

أبو عبيدة

قد قهرنا الرومان فى (أجنادين) ... وأضحي (اليرموك) مثوي العناء

داهمونا بجيشهم فغـدونا ... نتراءى كالشـامة البيضاء

قد قسمنا جنودنا وصمدنا ... فملأنا الوهاد بالأشـلاء

خالد :

ما أراكم قد أصبتمُ بانقسام ... إنمـا الانقسام رأس البلاء

أجمعوا أمركم وكونوا بناء ... هـازئاً بالعواصف الهوجاء

إنمـا الفوز للقوى فسيروا ... نبتنِ العز فى ذرا الجوزاء

وامهروا المجد بالدماء تفوزوا ... فى جنان الخلود بالآلاء

السلاح السلاح يا قوم إنى ... سـوف أغدو أمير هذا اللواء

أبو عبيدة :

يحيـا القائد يحيا خالد   الجميع : يحيا يحيا يحيا يحيا

(يذهبون إلى الحرب وتنشب المعركة ثم يعود خالد بعد جلاء العدو)

خالد :

لك الحمد رب الكون تم لنا النصر ... وقام عمود الحق وانقمع الكفر

ورف على الأكوان نور (محمد) ... فأشرقت الدنيا ولاح بها الفجر

فعاد لنفسي زهوها ورجاؤها ... وقرت بي العينان وابتسم الثغر

تمنيت أن ألقى الشهادة راضياً ... ولله أمر لا يغالبـه أمر

وأوردت نفسي مورداً دونه الردى ... فأخطأنى والهفتا ذلك الأجر

عجبت من (الرومان) هانت نفوسهم ... فلم يثبتوا عنـد اللقاء وهم كثر

لئن هيمن الضعف المهين على امرئ ... فأجدى لهذا المرء من عيشه القبر

(دمشق) عروس الشام دانت لحكمنا ... وأرجو (بحمص) أن يطالعنا النصر

جندى :

سيدى قد أتى من الرومان ... فارس لا تمـله العينان

يرتجي أن يراك

خالد : أدخله حالاً ... لنرى ما يرومه من شان

(يدخل أمير حمص)

الأمير :

أيهـا القائد رفقاً بشَجٍ ... فلقد كنت نصير البائسين

إننى سيد (حمص)

خالد : مرحباً ... بفتى (غسان) وضاح الجبين

أوضح الأمر وقل لى ما الذى ... تشتكيه كي أبيد الغاشمين

صلة تجمعنا من (يعرب) ... لم يبدد عقدها مر السنين

الأمير :

قد أتيت اليوم أشكو ملكا ... آثر البغي وراع الآمنين

قيصر الروم (هرقل)

خالد : ويله ... سـيرى فى الغد عقبى الظالمين

الأمير :

قد بنى فى (حمص) قصراً شامخاً ... يتمايا عن ذراه الناظرون

دوحة (المياس) تهفو حوله ... ومياه النهر تروى الظامئين

ومضى يمعن فى آثامه ... لا يبـالى بانتقاد اللائمين

فاستثارت (حمص) من أعمـاله

كيف ترضى (حمص) فعل الجاهلين ؟

إنما (حمص) منارٌ للألى ... عزمهم فى الروع يأبى أن يلين

لم يكن يدرى (هرقل) أننا ... لا نبـالى ما حيينا بالمنون

عرب من آل (غسان) لنا ... طأطأ النـاس جميعاً خاشعين

أنتم إخواننـا أهلاً بكم ... وليمت فى كيده ذاك اللعين

إن يُفرق بيننا الدين فقد ... وحـد الجنس قلوب المخلصين

قد أتينا اليوم نرجو عطفكم ... وغدونا فى ذراكم لاجئين

أنتم السادة

خالد :

لا تخشى الأذى

قد وجدت الأهل

الأمير :

دمتم فائزين

خالد :

قد نهى الاسلام عن إيذائكم ... وقضى ذلك خـير المرسلين

الأمير :

سوف نُمضى معكم عهداً على ... أن تصونوا دمنا

خالد : … لنا نمين

شـيمة العرب وفاء بالذى … وعدوا لا درّ درُّ الناكثين
أيُّ شأن لعهود قُطعت … ثم أضحت تُرّهات بعد حين !
لا تغُرَّنك قصامات غدت … شَركاً تُنصبُ للمستضعفين !
إرجـع الآن (لحمص) إننى … قد تصبَّانى لمرآها الحنين
بشر الأقوام أنا فى غـد … سوف نبدو فى رباكم فاتحين

(يذهب الأمير ويدخل القواد)

أبو عبيدة :

سـلام يا أمير المسلمينا … له أرَجٌ يفوق الياسمينـا

عمرو :

لقد خضعت لعزتك البرايا … ودان لك الأعادى صاغرينا
فكنت القائد النَّدْب المرجّى … وكنت أمامنا حصناً حصينا

قائد :

وكيف نخاف للأعداء بأساً … وسيف الله والإسلام فينا ؟

خالد :

أراكم قد بلغتم فىَّ حدًّا … تسامى فوق وصف الواصفينا
ألستم عدتى عنـد الرزايا … ألستم فى الحوادث لى يمينا
حمدت جهادكم والهول باد … وقد جنت بوادره جنونا
وزلزلتم صروح الكفر لما … أتيتم كالصواعق راعدينا
تفرَّدت العروبة بالمعالِى … سلوا الأحقاب عنها والسنينا
ألم تملأ زمازمها البرايا … وتتركْ فى الزمان لها رنينا
فويلٌ للألى غمزوا قناها … لقد سلكوا سبيل الجاهلينا
إليك (أبا عبيدة) خذ كتابا … أتانى من أمير المؤمنينا
أتانِى ناعياً

أبو عبيدة : … من ذا توارى ؟

خالد : … (أبو بكر) إمام المصلحينا

هوى طودٌ من الاسلام فابكوا … مى الأخلاق والحلم الرزينا

أبو عبيدة :

سنذكره على مَرٍّ الليالى … ونذرف بعده الدمع السخينا
وأيٌّ خليفة أضحى بديلاً … لخير النـاس أخلاقاً ودينا ؟

خالد :

هو الفاروق منضور السجايا … إمام لا يرى فى الحق لينا
أناط بك القيادة فاستلمها … فإنك كنت فى الدنيا أمينا
وأعلمه بأمر الفتح حالاً

أبو عبيدة : … معاذ الله أن أنسى الجهودا

أأغـدو قائد الأبطال حقًّا … و (خالد) يملأ الدنيا رعودا
وكيف أرى البنود علىَّ تهفو … وسيف الله قد هزَّ البنودا ؟
تقدم أيها البطل المفدَّى … فقد ذللت بالعزم الحـديدا
أشر للدهر يخضع للمعالى … وأومْ للأنام تكن عبيـدا
وسر بالمسلمين إلى الثريا … فقد كنا ولم نبرح جنودا

خالد :

(أبا عبيدة) ما حاربت مرتقباً … طيب الثناء ولم أطمع إلى الرتب
ولا صبوت إلى الدنيا وزخرفها … ولا سموت إلى مال ولا نشب
فى ذمة الله ما قدمت من عمل … تبقى مآثره دوماً على الحقب
عسـاه ينفعنى إما قدمت إلى … ربي ويعصمنى من سورة الكرب
بذلت نفسى قرير العين مغتبطاً … حتى تعالى لواء العرب فى السحب
ولم أكن غير جندى أهاب به … إلى الجهاد يقينٌ غير مضطرب
والآن سيروا إلى (حمص) فان بها … هان المسير وتم النصر للعرب

« حمص » … محى الدين الدرويش

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧


الرسالة
العدد ٢٤٧
السنة السادسة

6 me Année, No . 247

Lundi - 28 - 3 - 1938

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ٢٤٧ « القاهرة في يوم الاثنين ٢٦ محرم سنة ١٣٥٧ — ٢٨ مارس سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـــرس

حول الكعبـــة

للدكتور الحاج عبد الوهاب عزام



الليل مهوَّد وسْنان، ترى العين سكونه، ويُحس القلب سكينته؛ ونسيم السَّحر يسري رفيقاً ينفح الخليقة لا أدري أيبغي إيقاظها أم إنامتها؛ والقمر ينضح الكون بأشعته يخفق مع النسيم نوره؛ وقد أصحت السماء إلا قَزَعاً في الأرجاء؛ وتبدو في سكون الليل ونور القمر قمم الجبال: غندمة وأبي قبيس وأجياد[1]

استغرقت الخليقة في أحلامها الجميلة، وشُغل الليل بشعره البليغ، ففيه إصاخة الشاعر للمعنى الجميل المخترع

ولكن طرق مكة لا تنام، ولا تفتر عنها الأقدام، فأنظر في ضوء القمر، وفي ظلال الدور، زرافات متمهلة أو مسرعة، ذاكرة أو صامتة، تؤم البيت الحرام

(١) جبال في مكة

الليل هاجع ، والخليقة نائمة ، ولكن هذه القلوب الوالهة لا تهجع ؛ ولكن هذه العيون الباكية لا تغمض ، ولكن هذه الزفرات المردّدة لا تسكن ، ولكن هذه الألسنة الذاكرة لا تفتر . قد استوى ليلها ونهارها ، وعشيها وأبكارها

هذا هو المسجد الحرام ! فهل تقع العين إلا على مُصلٍّ خاشع ، وطائف بالكعبة واله ، وقارئ تنطق بضراعته الآيات ، وداع يرسل قلبه في كلمات ؟

كم قلب محزون حمل إلى هذا الجناب شكواه ، وفؤاد معذب بث في هذه الساحة نجواه ! وكم آثم حط في هذا الفناء الأوزار ، ليمحقها بالتوبة والاستغفار ! وكم دَنِس جاء ليتطهر من هذا النهر ، وكم يائس ورد يستقي الرجاء ، ومحروم أقبل يستدر العطاء ! وكم نفس مظلومة ترفع ظلاماتها ، وأخرى ظالمة تعترف بجناياتها ! وكم مكلوم جاء بجراحاته ، وأرسل آهاته وأنانه ! وكم ناكل يحمل قلبه كسيراً ، ويسيل دمعه غزيراً . كلٌّ ضارع على هذا الباب ، ضائع عند هذه السدّة ، يهاب هذا العِظَم ، ويرجو هذا الكرم . أكداس من الآلام والآمال ، وأشتات من الهموم والأمانيّ ، والشكران والشكوى ، والدعاء والنجوى ، والتضرع والحمد !

ووراء هؤلاء في المشرق والمغرب قلوب توجهت شطر هذا البيت كما تتوجه الإبر (١) إلى القطب ، وتنزع إليه نزوع الغريب إلى ولده وداره . فكم مصلّ في أرجاء الأرض ولّى هذا الجناب وجهه وقلبه ! وكم داع قصد هذا القصد على بعد المزار ونأى الديار ! أترى الدعوات تهفو على الكعبة مع هذا النسيم ، والصلوات تتنزل عليها في هذا الضوء ، وأسراب الآمال طارت من المغرب والصين لتطوف مع الطائفين ؟ أترى سوداوات القلوب اجتمعت فكانت هذا البناء ، أم أماسيّ العيون تراكمت فكانت هذه البنيّة السوداء ؟

أنظرُ فلا أجد في هذا البناء تمثالا ولا صنما ولا وثنا ولا صورة ولا نقشاً . إنما هو التوحيد في خلوصه ، والعقيدة في يسرها ، والاسلام في فطرته . بيت لعبادة الله يؤمه عبّاد الله ، تجتمع حوله القلوب ، وتلتقي فيه الدعوات ! بيت من التوحيد محضٌ ، وبناء من الأخوة بلمس

(١) إبر المغناطيس

ما أروع هذا مشهداً ! صلاة ودعاء ، وطواف وبكاء ، يسيل بها الأصباح والأمساء . من لي بالخلوة في هذا الزحام ، والوحدة في هذه الكثرة ، والسكون في هذا العباب ، والقرار في هذا المحشر ! بل من لي بأن أقف على الساحل من هذا البحر لأرى وأسمع !!

صعدت إلى مصلى الشافعي فوق زمزم فإذا هو خلاء ، فأشرفت على هذا الجمع أرى جموعاً متوحدة ، ودعوات متجسدة ، وألفاظاً تنطق بمعنى واحد ، وظلالا يمدها نور واحد . وكان للقلب مجال بين الكثرة والوحدة ، والظهور والخفاء ، والوجود والفناء . وليت اللحظات امتدت فاتصلت بالأزل والأبد !

وينبعث في هذا الدويّ ، بل يشع بين هذه الأصوات صوت الأذان : «الله أكبر . الله أكبر» ، وينتظم شعار التوحيد هذه الأصوات ؛ فإذا الدعاء صمت ، والحركة سكون ، وإذا هذا الجمع نفس واحدة تصيخ إلى صوت واحد

ما أجمل هذا الصوت وما أروعه ! عظمة الله تغشى هذا المشهد ، وكلمة التوحيد تملأ هذا المسجد . قلت لنفسي : « ليت الإنسان يستمع أبداً إلى أذان الفجر في جوار الكعبة ! » قالت : « أما الأذان فهو دائم موصول لا تخلو منه ساعة من ليل أو نهار . فالأوقات في أقطار الإسلام مختلفة ، فما يسكن أذان في بلد إلا ارتفع أذان في آخر أبد الدهر . تكبير دائم لمن كان له سمع ، وذكر مستمر لمن كان له قلب . وأما الكعبة فأنت في جوارها كل حين إن لم تكن أسير البقاع ورهن الحجب »

هلم إلى الرحيل ! طفت طواف الوداع ، وأديت مع الجماعة صلاة الصبح ، وقد أُعدت السيارات والرفاق ينتظرون ؛ ولكن النهار لم يسفر فما يعجلني عن هذا المكان ؟ هلم قد حان الرحيل وليس من الذهاب بد . ولكن الرحيل يمكن إرجاؤه لأتزود للبين نظرات ، وأجمع للفراق ذكريات ... قد حان الرحيل ولا مناص :

خرجت أمشي يقول قلبي للرَّجـل : بالله أنظِريني

رحم الله حافظاً الشيرازي الذي يقول :

وكيف يطيب العيش في منزل المنى
وأجراس هذا السَّفر للبين تقرع (١)

عبد الوهاب عزام

(١) يعني أجراس القافلة

مجد العرب والاسلام

للأستاذ اسماعيل مظهر



كانت رومية قد لفظت آخر أنفاسها عندما اقتلع زعيم حربي من الهمج المتبربرة تاج الإمبراطورية الرومانية من رأس إمبراطور صبيء أبيض الوجه، وضّاح الجبين، ليضمه فوق رأسه الكث الشعر، الملبَّد الفودين

أما الزمان فسنة ٤٧٦ بعد الميلاد. وأما المسرح فدرجات قصر رافِتّنا الرخامية

كان الانحلال قد امتد إلى عظام رومية ينخرها منذ سنين، فأخذت مِرّتها تضعف وقواها تتبدد شيئاً بعد شيء. أما آخر مشهد من مشاهد هذه المأساة التي مثلتها رومية على مسرح هذه الدنيا، فقد مرّ مرور الحلم ولم يأبه له إنسان. وهنالك انسدل الستار على تلك المدينة القديمة وانطوت صفحتها الخالدة. أما المستقبل فكان طوع يمين تلك الشعوب الفتية القوية التي انحدرت من الشمال

خرجت تلك الشعوب من خلال المفاوز الجبلية المثلوجة، وانحدرت من هضاب الشمال الهاوية، وشقت طريقها إلى الجنوب حيث الأراضي الشامسة والحقول الخصبة. ولقد ركب بعضهم متن العباب على سفائن أشبه بالحيتان الضخام، وامتطى آخرون عجلات من ذلك الصنف الذي يستخدمه البدو إذ يرعون أنعامهم. ولقد اتخذوا في جوانب الطرق المرصية التي أنشأها القياصرة العظام محاطّ يضربون فيها خيامهم، وكان البحر المتوسط مرمى أنظارهم؛ ذلك بأن رومية لم تجمع ثروتها الضخمة إلا من شطآنه

مضوا يهيمون في كل واد غاصبين مقاتلين، فنشروا الرعب والفوضى في ربوع المدائن القيصرية؛ وكانوا في جهالة، فساء تصرفهم، وفسدت أعمالهم؛ وقد تمضي عليهم فترة يتفرقون فيها أشتاتاً، ثم تنجدهم موجات جديدة من الهمج أمثالهم هابطة من الشمال أو من الشرق. ونُسِيَ القانون الروماني فأصبح الحق للأقوى، واحتكمت تقاليد العشيرة البدائية في الجماهير، تقاليد أولئك الذين نشّأتهم صحراء غوبي المجدبة في جوف الصين

وظل العالم الحاف بالبحر المتوسط خمسة قرون ميداناً لتنقل تلك القبائل الهمجية ووحداتها الحربية. على أنهم إن ظلوا أمناء لتقاليد حياتهم البدائية، واحتفظوا بروح العشيرة، فإنهم في خلال تلك الخمسمائة من السنين كانوا قد تقبلوا أثارة مما خلف العالم الروماني الإغريقي من صور الثقافة

***

طوى رومية ظلام القرون؛ فلما طواها خيم على أوربا ظلام الجهل والهمجية. ذلك الجهل وتلك الهمجية كانا طابع الشمال، فعملت رومية جاهدة في أن تصد طغيانهما عن الجنوب قروناً عديدة؛ فلما لفظت رومية آخر أنفاسها، استباحت فوضى الشمال حضارة الجنوب

وكانت الغابات المرطوبة على عهدها لم تتغير، والخرائب المغبرة الحزينة على سابق حالها مذ سكنها البوم وأخذت تسبح في أفنيتها وتنتقل في كرومها القديمة. ولقد ألفتها الذئاب الجارحة تعيش جماعات متعاونة على الصيد والافتراس. أما المزارع فكانت رقعاً تتخلل الأرض الحجرية، حيث القرى بأكواخها المشيدة في لبنات مِلاطها الطين وسقوفها من البوص والهشيم، تقوم هنالك في سفح قصر منيف ذي أبراج ضخام لسيد من أسياد القطائع

أما الرعاة فكانوا ينامون في العراء، وفي الوديان المخيفة الموحشة؛ مايؤنسهم من شيء إلا المفترس من الحيوان والجارح من الطير. ذلك لأن مفاوز الغابات كانت مآهلهم الأمينة ومرابيهم الأصيلة

وهنا وهنالك كنت تقع على ذلك التراب الأبيض الساقي تتخلله قطع من الأحجار، إن نمت عن شيء فعن أن التراب

والأحجار إنما هى بقايا طريق رومانى براه الزمان بين الفينة والفينة كان يمر بذلك الطريق يهودى من بنى إسرائيل ومن ورائه شرذمة من الخيل ؛ أو تاجر تحيط به كتيبة من حملة الحراب ، وأقل ما يكون حدوثاً أن يثير غبار ذلك الطريق كتيبة لسيد من أسياد القطائع ، فإذا مرت اجتمع من حولها أهل الحقول ينظرون مأخوذين من رجال تلك الكتيبة الأشداء ، يؤخذون بمرأى الدروع السود المصفحة بالحديد ، واللافع الكبيرة التى يغشى أطرافها الفراء

قلّ من أهل الريف من رأى أكثر من ذلك ؛ اللهم إلا أن يكونوا قد رأوا علامة الصليب الكبيرة التى تشير إلى التقاء الطرق وتفرعها فى نهاية الوادى . أما ما وراء التلال فكان مجهولاً بل كان عدواً مخيفاً . ولم يكن لهم اتصال بالعالم الخارجى عن عالمهم هذا ، اللهم إلا عن طريق الرهبان لا بسى المسوح ، أولئك الذين كانوا يجوبون الأنحاء حفاة من دير إلى دير ، أو عن طريق شاعر من مؤلفى الأغنيات ، يمر عجلان إلى اللهو ليتناول وجبة فاته أوانها

ذلك بأن أهل أوربا فى عصور الظلام عاشوا مدفونين فى وديانهم التى نشأتهم ولم يروا مما وراءها شيئاً . قال حراث من أهل ذلك العصر انحدرت إلينا كلماته : « إذا تنفس الصبح خرجت تواً أقود الثيران إلى الحقل ، ثم أضمها فى المحراث ، لأن واجبى أن أحرث كل يوم حقلا ، وإلى جانبى ولد لى أبحّ صوته البرد والصياح . فاذا فرغت من عملى ذاك ملأت المذاود بالدريس وسقيت النَّعم ثم أخرجت الرَّوْث . يا لله ! إن هذا العمل المرهق شاق ، ولكننى لست حراً »

وكثيراً ما كان القحط يحط عليهم . فأيام ممطرة حين البذار ، أو فساد فى المحصول ، أو سوس ينخر القمح ، أو جفاف أو حرب ، كل سبب من أولئك كان كافياً وحده أن ينشر الجوع والبلاء

قيل : « كان الطباشير يطلب من الأرض ويمزج بالدقيق ليصنع خبزاً . لقد اصفرت وجوههم وانحطت قواهم ، حتى لقد عجزوا عن أن يجروا أنفسهم من فوق الأرض جراً . وهيئت حفر ليسحب إليها المحتفرون ويلقون فى جوفها . وكانت هذه المصائب تلابسها مصائب أكبر وكوارث أعظم . فإن الذئاب وقد أنسوا على جوانب الطرق كثيراً من الجثث ، ملكتهم الشجاعة وأغواهم ضعف الناس ، فراحوا يهاجمون الأحياء . أما مواد الطعام فقد خص بها الأقوياء ليظلوا قادرين على العمل ، لعل الحقول تزرع ولا تبور »

وقيل : « رئى رجل فى سوق « تونير » حاملاً لحماً مطبوخاً ليبيعه فى سوق المدينة . فلما سئل فيه ادعى أنه لحم حيوان . ولكن ذلك لم ينجه فسيق إلى السؤال ، وهنالك لم ينكر جريمته فأحرق حياً . أما اللحم البشرى الذى أتى به الرجل فقد دفن باسم العدل والقانون . غير أن رجلا غيره نبش ذلك اللحم وأكل منه ، فكان جزاؤه الموت إحراقاً »

وفى مثل تلك الفترات كان الطاعون من بلايا الأحياء . فانهم كانوا يزحمون الأكواخ والدساكر ، حتى أن أسراً برمتها كثيرا ما كانت تذهب فريسة ذلك المرض ، فيتركها الباقون ويهجرون المنازل والربوع فزعاً من الموت وفراراً من البلاء . وكان المرضى يحملون إلى الكنائس ابتغاء الشفاء ، فتنتشر العدوى فى أولئك الذين أتوا ليؤدوا فريضة الصلاة عبادة خالصة لوجه الله

قال أرديكوس فيتالس أحد مؤرخى القساوسة : « عمّ بلاء المرض فقضى بأهل بيوت كثيرة ، كما أن الجوع قد أفنى المرضى ؛ فلما أن خربت النيران الأرض ، خرج الأكثرون هائمين على وجوههم . فلما رأوا أن الأبرشيات قد طمست معالمها ودرست آثارها ، فروا من الكنائس الخاوية هرباً إلى حيث لا يعلمون »

***

هذه صورة مما كان فى أوربا الغربية ، لما انفلق صبح الزمان عن غلام يتيم من أبناء قريش ؛ فلما شب وترعرع ، ثم تفتى(١) وكاد يكتهل نزل عليه الوحى ليبشر بدين جديد ، وليؤدى الرسالة الربانية للناس أجمعين ، وكانوا من الهمجية على مثل ما رأيت فى أوربا ، يقتلون أولادهم خشية الإملاق ويئدون البنات ويعبدون أصناماً كثيرة تبول الثعالب برؤوسها ، ويدينون بقوى سحرية ، ويؤمنون بظواهر الطبيعة كآلهة . غير أنهم بالرغم من هذا صدقوا وآمنوا بما أنزل إليهم . فإن صلابة محمد فى نصرة الحق شدخت يافوخ الشرك والوثنية

(١) أى صار فتى

أدى محمد رسالته على خيرما تؤدى رسائل الوحى ، فلما قبض كان نور الإسلام قد انبلج فاعتنق أكثر العرب ذلك الدين القيم وآمنوا بالقرآن وآيتهما : « أن لا إلــه إلا الله ، وأن محمداً رسول الله »

وما لم يتح لنبى قريش أن يتم فى حياته ، أتمه من بعده خلفاؤه العظام . فان رجال تلك الصحراء ، وعلى رؤوسهم خوذات الحرب ، قد امتطوا صهوات جياد قضيفة صغيرة الحجوم ، أوظهور إبل عجاف ، وخرجوا من فضائهم الأرحب ليغزوا ويمعنوا فى الغزو ، تعزيزاً للإسلام ونشراً لكلمة الله . ولقد اتقدت فى جوانحهم نار الحمية فانتشروا فى الأرض ومشوا فى مناكبها ، وتنقلوا فيها من مكان إلى مكان ، بسرعة أقلقت أهل العالم القديم

بدأت الغزوات فى حكم الخلفاء الراشدين ، أصحاب محمد المقربين منه . وفى أقل من قرن من الزمان رفعت راية الإسلام على الدنيا جميعاً من السند إلى جوف الصين ، ولمعت سيوفه فى مفاوز القوقاز وأغوارها ، وسقطت مصر فى يد العرب ، وتبعها شمال أفريقية ، ثم الأندلس

ومنذ فاتحة تلك الغزوات طغى مدها العظيم على وديان أورشليم الصخرية فاكتسحها ، وأحاط الإسلام بهيكل المسيح . أما طغيان الإسلام على أوربا جميعاً فلم يصده فى الظاهر غير عقبتين : شارل مارتل فى الغرب ، وحصون بوزنطية فى الشرق . أما السبب الحقيقى فى وقوف ذلك المدّ الإسلامى العظيم عند ذلك الحد ، وهبوطه بعد أنه كاد يبلغ الذروة العليا ، فيرجع إلى أن أصحاب محمد قد انقسموا أحزاباً وتفرقوا شيعاً ، واختص كل حزب منهم بجزء من الأرض المغزوة . ولو أنهم ظلوا مجمعين على كلمة الإسلام إذن لاندحر شارل مارتل ، وإذن لاندكت حصون بوزنطية ، وتحقق بذلك وعيد معاوية للامبراطور الرومانى إذ قال له فى كتاب أرسل به إليه لما علم بعزمه على غزو الشام إبان خلافه مع على بن أبى طالب : « لئن تممت على ما بلغنى لأصالحنّ صاحبى ، ولأكوننّ على رأس طلائعه إليك ، ولأجعلن القسطنطينية الحمراء حُمامة سوداء ، ولأخلعنك عن عرشك خلع الإسطفلينة ، ولأرسلنك فى الجبال ترعى الإبل »

لو لم ينشق المسلمون لتحقق هذا : « ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم »

ولقد كانت تلك الغزوات سبباً فى أن يقف العرب ، وهم يحملون أرقى الأديان وأمجد المدنيات ، وجهاً لوجه أمام أولئك الهمج الذين ثبتوا أقدامهم فى خرائب الامبراطورية الرومانية ، واعتنقوا دين عيسى فأصبحوا نصارى . وتجاورت قوات أوربا وقوات آسيا . فان طلائع قوى النصارى كانت تلحظ عن كثب مقدمة معاقل الاسلام

أما فى الغرب ، حيث شهدت الأندلس معارك أوربا والاسلام ، فان نصارى الفرنجة ، وقد انتهزوا فرصة اضطرام نار الخلاف الموروث بين القبائل منذ الجاهلية ، كانوا قد استردوا مفاوز « البرنيز » ، ومضوا يتقدمون بتؤدة ، مثبتين أقدامهم فى شبه الجزيرة خطوة بعد أخرى . ذلك على الضد مما كان فى الشرق . فان المسلمين كانوا قد تقدموا نحو أوربا مخترقين آسيا الصغرى

فيما بين هذين الطرفين : الأندلس غرباً ، وآسيا الصغرى شرقاً ؛ وفى وسط تلك الشقة ، كان للإسلام اليد العليا : فى الأرض كما فى البحر . ذلك بأن العرب قد ألفوا البحر بسهولة ، وشقوا عبابه مرحين . وابتنوا البوارج الفخام ، فتحولوا شيئاً بعد شىء من غزاة فاتحين بحد السيف ، إلى غزاة فاتحين بسلاح التجارة . ومن ثم ثبتوا أقدامهم فى جزر البحر المتوسط ، وبخاصة صقلية ، وركبوا متن نهر « التيبر » حتى بلغوا جدران رومية

ولم يمض غير قليل حتى أخذ العرب عن الشعوب التى غزوها مبادىء الثقافة القديمة ، واخترقت قوافلهم تلك الصحارى الشاسعات من بلاد الهند إلى أسواق حلب والاسكندرية ؛ وازدانت قرطبة والقاهرة بالقصور الشامخة ودور العلم الفخمة ، وحكم هارون الرشيد فى بغداد

وهدأت الحالة واستقرت الأمور على امتداد التخوم . ذلك بأن المسلمين كانوا أحد ذكاء وأكثر معرفة وأعرق مدنية وأعظم قوة من جيرانهم همج النصارى

حوالى ذلك الزمن بدت فى أوربا بوادر جديدة ، فان شارلمان ملك الفرنجة وحفيد شارل مارتل كان قد بدأ فى تنفيذ خطته . فان متابعة الحرب والمغازى المتتالية ، واستئثار رجل واحد بالحكم كان سبباً فى أن تتكون إمبراطورية لم يدم بقاؤها أكثر من

جيل واحد ، وفى أثناء ذلك اتجه شارلمان ونبلاء جيشه نحو الشرق ، ونصب أعينهم مدينة بوزنطية

أما الذين اتزنت عقولهم فقد اعتقدوا أن عمل شارلمان إنما هو بداءة النظام وقائحة حكم القانون ، ذلك بأن آخر حكومة منظمة كانوا يذكرون قيامها ، إنما هى حكومة الأمبراطورية الرومانية . ولذا اعتقدوا أنه ما من حاكم يصلح للحكم إلا عاهل قيصرى ، يملك زمام الأمر ويجمعه فى يده . ولقد صحت نظرتهم فان موت شارلمان كان سبباً فى أن تتمزق تلك الأمبراطورية وتذهب بدداً

بذهاب الأمبراطورية التى شيدها شارلمان عادت لأوربا عصور الظلام . فتفرقت الأمم وتنازعت الشعوب ، من غير أن تعرف أمة أو يفقه شعب للخلاص طريقاً . لقد اقتتلوا كما اقتتل آباؤهم ، بشراهة الذئاب . وفيما هم على حالهم تلك ، ممزقة وحدتهم متفرقة كلمتهم ، هبطت عليهم من الشمال عشائر من الهمج هم الدانيون والنورمان ممتطين عباب الماء

برزوا إلى مسرح الحوادث العالمية ، وكأنهم برزوا من أغوار البحار المجللة بالظلام والضباب ، متلهفين إلى أرض مشمسة خصبة ، هى أرض الجنوب ، وكانوا غير مدجنين ، يلبسون جلود الثعالب وإهاب الحيتان ، ومن فوقها الذهب اللامع ، وفى أيديهم سيوفهم الطويلة وحرابهم المسنونة وفؤوسهم الغليظة ، فخربوا ودمروا وأحرقوا ، واستقروا فى النهاية حذاء الشواطئ

ظلام من فوقه ظلام ، من فوقه ظلام . وفى ذلك الوقت تخيل إنسان من طيبي النصارى خيالا ، واعتقد بأن نهاية العالم أي القيامة ستكون سنة ألف ، أى فى اليوم الأخير من القرن العاشر الميلادى ، وارتقب الناس ذلك اليوم ، وأمضوا الليلة الأخيرة ساهرين ، يتوقعون النفخة فى الصور ، ليهرعوا جميعاً إلى موقف الحساب ، ولكن ذُكاء بزغت فى نهاية الأفق صامتة كعادتها ، منمشة كعهدها ، وظهرت الأرض لابسة حليتها المعروفة ، فلم يتغير بها من شىء

ظلام فى العقيدة وظلام فى الفكر وظلام فى الحضارة . تلك كانت حال تلك البقعة التى نعرفها باسم أوربا فى أواخر القرن الحادى عشر المسيحي . فكيف كان العرب والاسلام ؟

***

فى أواسط القرن التاسع الميلادى أى فى عهد الخليفة المأمون العباسى ، عاش محمد بن موسى الذى ألّف فى علم الجبر وعنه أخذت أوربا فى أواسط القرن الرابع عشر ، فان مقالته فى ذلك العلم قد ترجمت إلى اللاتينية واتخذت أساساً لتدريس الجبر فى عصر النهضة العلمية فى أوربا . وعقب عليه محمد بن جابر البتّانى المتوفى سنة ٩٢٩ ميلادية وهو صاحب الزيج المشهور المعروف باسم زيج الصابي ، وله عدا الزيج شروح على المجسطى وشرح مقالات بطلميوس ومقالة في الفلك والجغرافية ؛ ويقول فيه المؤرخ أوليرى : « كان زيجه أضبط ما وجد من نوعه عند العرب ، وله عدة مستكشفات رياضية وفلكية ظلت العمدة فى علم الفلك عهداً طويلا فى القرون الوسطى وفى مدارس أوربا على الأخص ؛ وكان يلقب ببطلميوس العرب لثبات قدمه فى علم الفلك وتضامه فيه »

وفى حدود سنة ٨٢٨ للميلاد أمر الخليفة المأمون بقياس درجة من الهاجرة لاستقراء جرم الكرة الأرضية ، وقام بهذا العمل أربعة من علماء الهيئة مدونة أسماؤهم فى صفحات التاريخ

قال أبو الفدا :

« قام بتحقيق حصة الدرجة طائفة من القدماء لبطليموس صاحب المجسطى وغيره ، فوجدوا حصة الدرجة الواحدة من العظيمة المتوهمة على الأرض ستة وثلاثين ميلا وثلثي ميل . ثم قام بتحقيقه طائفة من الحكماء المحدثين فى عهد المأمون وحضروا بأمره فى برية سنجار وافترقوا فرقتين بعد أن أخذوا ارتفاع القطب محرّراً فى المكان الذى افترقوا منه . وأخذت إحدى الفرقتين تسير نحو القطب الشمالى والأخرى نحو القطب الجنوبى ، وساروا على أشد ما أمكنهم من الاستقامة حتى ارتفع القطب للسائرين فى الشمال وانحط للسائرين فى الجنوب درجة واحدة . ثم اجتمعوا عند المفترق وقابلوا على ماوجدوه فكان مع إحداهما ستة وخمسون ميلا وثلث ميل ، ومع الأخرى ستة وخمسون ميلا بلا كسر ، فأخذ بالأقل »

قيل : « واشتغل الرازى بالكيمياء واستكشف ما سماه «زيت الزاج» وهو الحامض الكبريتيك والكحول . استحضر الأول باستقطار كبريتات الحديد واسمه فى العربية الزاج الأخضر

فلما استقطره خرج منه سائل سماه زيت الزاج . ولا تزال الطريقة التي اتبعها الرازي في استخراج ذلك الحامض متبعة في استخراجه إلى اليوم . أما الكحول فقد استحضره باستقطار مواد نشوية وسكرية مختمرة

وقيل : « أسس المأمون الخليفة العباسي مدرسة بغداد سنة ٢١٧ه (٨٣٢م) وسماها بيت الحكمة وعهد بها إلى عناية يحيى بن ماسويه الذي توفي سنة ٨٥٧م . وكان من المؤلفين في السريانية والعربية . أما مقالته في الحميات فقد كانت العمدة في دراسة تلك الأمراض زمناً طويلاً . وقد نقلت من بعد إلى اللاتينية والعبرية

ويعتقد المؤرخون أن أكبر الأعمال التي قام بها بيت الحكمة شأناً ترجع إلى الجهود التي بذلها تلاميذ يحيى بن ماسويه ومنهم الرجل الفذ أبو زيد حنين بن إسحاق العبادي المتوفى سنة ٨٧٦م فقد نقل فضلاً عما نقل من المؤلفات الطبية ، جزءاً من منطق أرسطو (الأورغانون) وبعد أن درس أبو زيد في بغداد رحل إلى الاسكندرية ، وعاد منها مزوداً بكل ثمار الدرس التي كانت شائعة في عهده متقناً للغة اليونانية التي استخدمها في النقل إلى السريانية والعربية

ثم قيل : واجتمع معه في بيت الحكمة ابنه إسحاق وابن أخته حبيش الأعسم الدمشقي . وترجم حنين إلى العربية مقالات إقليدس وبضعة مؤلفات عن جالينوس وأبقراط وأرخميديس وابولونيوس الفرغايوسي ، وهو أكبر من اشتغل بالهندسة في العالم اليوناني بعد إقليدس . ولقد ترجم أبو زيد عن غير هؤلاء كما ترجم الجمهورية ، وكتاب طيماوس لأفلاطون وقاطيغورياس والموسيقا والماغنا موراليا أي الأخلاق الكبير عن أرسطوطاليس وتعليقات طيموستيوس على المقالة الثلاثين من الفيزيقا . كذلك ترجم كتاب أرسطوطاليس في المعادن ، وهو كتاب ظل زماناً طويلاً مرجعاً من أهم المراجع في درس الكيمياء ، وعن أصله اليوناني أخذ بولس الأجانيطي

ومما انحدر إلينا من أنبائهم أن إسحاق بن حنين قد ترجم إلى العربية — فضلاً عن الطب — كتباً من أشهر ما حوت حكمة الأقدمين ؛ منها السوفسطائي لأفلاطون ، والميتافيزيقا والروح (ده أنيما) والكون والفساد ، وإرمانوطيقا ، أو باري أرمنياس أي العبارة لأرسطوطاليس ؛ كما نقل تعليقات عن فرفوريوس الصوري والاسكندر الأفروديسي وأمونيوس

وقيل : كان من عظماء المشارقة في عهد نهضتهم قسطا بن لوقا وأبو بشر متى بن يونس ويحيى ابن عدى وابن ناعمة وثابت بن قرة وجابر بن حيان والفارابي وابن سينا والغزالي وغيرهم

هذه أثارة مما كان في الشرق ، بل إشارة إلى بعض ما وصل إلينا من أخبارهم وما انحدر إلينا من أحوالهم بعد أن اتخذ هولاكو من كتبهم قنطرة عبر عليها أحد الرافدين . ولك أن تقيس ما انبعث على يد العرب والإسلام من أنوار العلم والمدنية ، على ما بعث أهل أوربا في ذلك العهد من ظلام على أهل الشمال

* * *

أما في الغرب — أي في بلاد الأندلس — فقد أرسل العرب على ذلك العالم الميت المظلم الذي نعرفه الآن باسم أوربا أول شعاع من أشعة النور . وليس لنا أن نأتي من عندنا بكلام نبين به عن أثرهم في تحضير العالم الحديث بل نترك الكلام للأستاذ « درابر » في كتابه « نماء أوربا العقلي ص٣٠ ج ٢ » قال :

« لما ثبت قدم العرب في بلاد الأندلس ، بادروا إلى العمل على نشر العلم والحضارة ، وقد نقلوا معهم إلى الغرب جميع المبادئ التي قامت عليها حضارتهم في أسيا . وكان أول ما التفتوا إليه نشر المعرفة وتظليلها بحمايتهم . وقد ازدهرت في عهدهم المدن وأقرب مثال لها قرطبة ، فقد كانت تتألف من مائتي ألف بيت ويسكنها مليون من النسمات . ويكفي أن تعرف أن شارعها الأكبر كان يطول عشرة أميال وبضاء ليلاً للمارة بمصابيح كبيرة ، وذلك مشهد من مشاهد الحضارة لم تعرفه مدينة لندن إلا بعد ذلك العهد بسبعمائة عام . وكانت طرقاتها مرصوفة بالأحجار في حين أن باريس ظلت قروناً بعد حضارة العرب في الأندلس مبركاً للمياه والأوحال التي تغوص فيها الأرجل إلى الركب في فصل الشتاء . ولم يقتصر الأمر على قرطبة ، بل إن غرناطة وأشبيلية وطليطلة كانت مدناً تعد أشباهاً لقرطبة ونظائر . وكانت قصور الأمراء مثلاً من الفخامة الشرقية ، بل كانت متاحف للفنون الرفيعة وعنواناً على حضارة عريقة ، في حين أن المنازل التي سكنها أمراء ألمانيا وفرنسا وانجلترا لم تكن تفضل حظائر الماشية في شيء ، فهي بلا مداخن أو نوافذ ، وكان المخرج الوحيد

الذى يسلم إلى فضاء الجو كوة فى أعلى السقف يتصرف منها الدخان »

ولقد وصف المؤرخون قصور أمراء الأندلس وصفاً يقصر عن إدراك حقيقته الخيال ؛ فهل علمت أن قصورهم كانت مجهزة بأنابيب معدنية لتوزيع الماء على الأجنحة المختلفة ، وأن الماء كان يجرى دافئاً فى أثناء الشتاء وبارداً مثلوجاً فى أثناء الصيف ، وأن جهازات التهوية الصناعية كانت فى الأشياء التى اخترعها العرب فى فن البناء واستخدمت لأول مرة فى قصور الأندلس ؟ قيل إن من المفاخر التى كان يزهى بها أصحاب القصور ما تحوى من المكتبات النادرة . ويكفى أن نعرف أن مكتبة الخليفة الحاكم رصدت كتبها فى فهرس بلغت مجلداته أربعين مجلداً

كان قصر الحمراء مقر عبد الرحمن الثالث وما تزال آثاره حتى اليوم تحفة نادرة من تحف الفن العالى . كانت واجهته مقامة على ١٢٠٠ عمود من الرخام جلبت من مختلف بقاع العالم المتمدين : من اليونان وإيطاليا وأفريقية ؛ وكان البهو الأكبر مغشى بالذهب الخالص ؛ وكان بالقصر ٦٣٠٠ من الحاشية والخدم ، ومن حوله تكنات بها ١٢٫٠٠٠ من الحراس لباسهم من الحرير ومعاطفهم مطرزة بالذهب

كل هذا المجد يصغر ويتضاءل إلى جانب ما خلف ابن باجة ، وابن الطفيل ، وابن رشد وغيرهم من صور الفكر التى أصبحت بعد زمان النور الذى استهدى به العقل الأوربى وعنه أخذ ليؤسس نهضة أوربا الحديثة .

ثم نمنا واستيقظ الزمان ، ورحنا فى سبات وعجلة الدهر من حولنا تدور ، حتى أصبحنا ولسان حالنا يقول مع شاعرنا حافظ :

لم يبق شىء من الدنيا بأيدينا	إلا بقيـة دمع فى مآقينا
كنا قلادة هذا الدهر فانفرطت	وفى يمين العلا كنّا رياحينا
كانت منازلنا بالعز شامخـة	لا تطلع الشمس إلا فى مغانينا
والشهب لو أنها كانت مسخرة	لرجم من كان يبدو من أعادينا
فلم نزل وصروف الدهر ترمقنا	شزراً وتخدعنا الدنيا وتلهينا
حتى غدونا ولا مال ولا نشب	ولا صديق ولا خل يواسينا

هذا طرف من مجد العرب والاسلام وصورة تذكرنا أننا كنا منائر الأرض وحماة الحضارة والعلم والثقافة والمعرفة . فلنذكر هذا ولنذكره دائماً عسى أن تنفعنا الذكريات

اسماعيل مظهر



تمر بى فى الحياة لحظات أود فيها لو أسأل الله أن يفك أجزائى ويعيد بنائى ، « طبقاً لشروط أخرى ومواصفات جديدة » كما يقال فى لغة أهل العمارة والهندسة ؛ ولكن ... سرعان ما أذكر كلمة « باسكال » : « لو أن أنف كليوباترا كان أكبر قليلاً مما كان لتغير وجه التاريخ » . هذا صحيح . ومن يدريني . لعل قائلاً يقول فى أمرى غداً : « لو أن أنفه كان أصغر قليلاً مما كان لتغير وجه الأدب العربى الحديث » . ولكن الواقع الذى أوقن به أن تركيب الإنسان كتركيب العقاقير . فقليل من « السلامكى » على قليل من الشمر والينسون ينتج « مليناً » للأمعاء . كذلك حياة كحياتي مع قليل من ميولى وقليل من مطالعاتى ... ينتج أدباً كأدبى ... فكيف إذن يغير الله بعض عناصر تركيبى دون أن تتغير النتيجة كل التغيير . وما الذى يحمله على ذلك ، إلا رغبتى ؟ ومتى كنا نخلق طبقاً لرغباتنا ؟ لقد قرأت يوماً كلمة عنى فى إحدى الصحف قيل فيها : « إنى أريد أن أعيش لفنى ، ولفنى فقط » . فابتسمت وقلت : « أنا أريد ؟ » كلمة أريد « تبدو ساذجة مضحكة من أفواه البشر وهم فى حضرة « القدر » ! ما أنا إلا تركيب كيميائي مثل ذلك الملين ، « لا بد له » بهذه العناصر مجتمعة « أن ينتج هذا « المفعول » الذى يسمونه « الفن » أو « الأدب »

لا فرق فى نظر « الطبيعة » بين « النحلة » و « الأديب » . كلاهما مخلوق يتنقل بين أزهار ، لينتج عسلاً آخر النهار . ومن هذه « المادة » الحلوة يصنع أحدهما بناء فصيلته ، ويقيم الآخر بناء أمته . ولو سئلت « نحلة » عن رأيها فيما تفعل لما وجدنا عندها رأياً ولا إرادة . إنما هى تفعل ما تفعل بدافع من تركيبها « البيولوجى » . كذلك « الأديب » مدفوع إلى التفكير والانتاج بحكم هذا التركيب . ولطالما تفجرت ثائراً : « لماذا ولمن أقتل نفسى بهذا العمل المضنى ؟ » . فأسمع الجواب من أعماق : « إنك لا تنتج لشىء ولا لأحد ، ولكن لأنك لا تستطيع أن تفعل غير ذلك . ما أنت إلا نحلة تفرز الأدب شاءت أو كرهت .

توفيق الحكيم

الهجرة المحمدية أساس الحضارة الإسلامية

للأستاذ محمد لطفي جمعه

— ١ —



دعا نبينا محمد عليه الصلاة والسلام العرب فلبى دعوته الكثير، وتلكأ القليل ممن أعمتهم الأغراض والمنافع وأضلهم تنازع السلطان والسيادة . وقد أتى محمد بكتاب وآيات بينات ومبادئ كانت عقول العرب وطبائعهم مستعدة لقبولها وفهمها قبل نقدها نقداً ينتهي بالقبول والانضمام إليها . وكان نبأ ظهوره (عم يتساءلون ؟ عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون !) النبأ الأعجب ، مما سجل في تاريخ الانسانية . ولم ينقض عليه جيل من الزمان حتى ثل عروشاً كانت ثابتة الأركان ، وحطم دولاً عالية البنيان ، واكتسح ممالك وامبراطوريات رفيعة الذرى مترامية الأطراف ، ومحا معتقدات عريقة في القدم ، وهدم ديانات مرت عليها الأجيال والحقب ولم تنل منها مانالة الاسلام في عشرين سنة . ويدهش المؤرخ العصري أن يعلم أن سائر الأديان نمت وترعرعت في ظل حاكم ناصر أو ملك قاهر ، اعتز به الدين وتأيد حتى رسخت قوائمه وثبت سلطانه ، ماعدا الاسلام . فكان الملوك والأمراء والأقوياء يقاومونه فيتغلب عليهم ، ثم يحمي المنسوبين إليه فيعتزون به ويستظلون بظله ويعظمون في أكنافه . وكان أول من علا شأنه بذلك الدين العرب أنفسهم ، فلم يكونوا قبله في المكان الأرفع ولا المنزلة السامية من الوجود التاريخي ، فنصرهم نصراً خارقاً ، حتى أصبح علمهم عالياً خافقاً ، في آسيا وأفريقية وأوربا . وإن سر هـذا النجاح وسببه وأساسه هو الهجرة المحمدية التي انتقل بها محمد من مكة الجامدة الآسنة الراكدة العاصية المستغرقة في الماديات المتشبثة بالسلطة الدنيوية الآخذة من الملذات والأسمار بأوفر نصيب ، إلى المدينة الهادئة الهينة اللينة التقية النقية العفيفة المتعلقة بالمعاني والأرواح والمثل العليا الطاهرة

— ٢ —

يفني البرايا ويأتي الوقت مختلفاً ليخرج الدهر تاريخاً من الأمم

يدل استقراء التاريخ الخاص والعام على صدق القانون السبعي، ومقتضاه أن تكون الفترة الفاصلة بين جسام الحوادث سبعمائة عام تقريباً . وقد حددت أعمار تلك الفترات تحديداً دقيقاً في كثير من كتب التاريخ كتجارب الأمم لابن مسكويه ، ومروج الذهب للمسعودي ، ومقدمة ابن خلدون ، وابن الأثير ؛ ومن كتب الأفرنج حوليات تاسيت الروماني وتاريخ انحلال رومة لجيبون . ومن قبل هـذه التواريخ العالمية أشارت التوراة والتلمود والمشناة وتفاسير الأحبار إلى هـذا القانون . يقول بلا كنهيم : «إن تاريخ العالم مقسم إلى فترات قد تدوم الواحدة منها حوالى سبعة قرون ، وقد تنقص أو تزيد قليلا . فقد أسست روما قبل المسيح بسبعة قرون ودام سلطانها ونفوذها سبعمائة عام ، وفي نهايتها ظهر المسيح بدين جديد ينطوي على حياة جديدة ، وكان ظهوره مؤذناً بزوال تلك الدولة الرومانية العظمى التي حكمت العالم بالحديد والنار بعد أن فتحته بالقوة والحيلة . وظهر الاسلام في نهاية القرن السابع المسيحي ودامت عظمة الدول الاسلامية سبعة قرون . وفي سنة ٧٥٠ م نقلت الخلافة إلى بغداد بقيام دولة بني العباس ، ثم هاجمها المغول وقضوا عليها وعلى حضارتها » اه

ولم يظهر المغول وحدهم لمناوأة الإسلام ، فقد ظهر الصليبيون ونهضت أوروبا الحديثة تلك النهضة التي دامت سبعة قرون كانت نهايتها الحرب العظمى في أوائل هذا القرن . وقد بدأت نهضة الاسلام الحديثة في أوائل القرن الرابع عشر للهجرة . ومن العجيب أن تطبيق هذه النظرية السبعية أو القانون السبعي صحيح في حياة الأمم إذا أخذت كل منها على حدة ، فقد استمرت عظمة الأغريق الحربية والبحرية وعهد الفلاسفة سبعمائة عام ، ودولة الفرس عمرت سبعة قرون من أول تأسيسها لعهد كسرى ،

ومضى على حكم الملوك فى انجلترا سبعة قرون، وبقيت إيرلاندا تحت الانجليز مثلها . ونحن نذكر هذا القانون السبى لا لأهمية خاصة به، وإن كان فى ذاته ظاهرة تاريخية عجيبة تدل على دقة نظام الكون والعالم وخضوع حياة الأمم لمقاييس من الزمان وموازين فى الأعمال، ولكن نذكره لملاقته بظهور الإسلام ونهضته وهبوطه، ثم بداية عهد الإحياء الذى ينبىء بالتجدد والبعث فى المائة الرابعة عشرة. وقد أوضح صحة هذا القانون أوزقالد شبنجلر فى كتابه « انحلال الغرب » وهستن شمبرلين فى « أسس القرن التاسع عشر » وولز فى كتابه « صورة العالم فى المستقبل » فليرجع إليها من يشاء من القراء

— ٣ —

إذن كانت بعثة الرسول وهجرته حادثين محتمين، فكتب لها التوفيق والنجاح على الرغم مما اكتنفهما من مظاهر الضعف. وقد أخطأ من ظن عداوة قريش للنبى وصحابته هزيلة أو وهمية، أو أن زعماء الوثنية كانوا ضعفاء النكاية، فقد كان المجتمع القرشى تام التكوين الاقتصادى والسياسى بالنسبة لحالة الحضارة المعاصرة، وذا نظم حكومية وإدارية بارعة[1] . من ذلك أنهم جعلوا جائزة مالية لمن يطارد المهاجرين ويظفر بهما وهو ما تلجأ إليه شرطة الحكومات الغربية الحديثة. ومن الثابت أن محمداً وأبا بكر كانا منفردين لا ثالث لهما بعد أن تركا بطل الإسلام وسيفه ولسانه على ابن أبى طالب فى فراش النبى ليخدع المتآمرين بأن النبى ما زال فى داره ولم يغادر فراشه . وإن شجاعة على فى إيثاره وإقدامه على التضحية بنفسه لا تقل عن شجاعة أبى بكر فى مصاحبته. وكان من المستطاع أن يُغتال علىّ فى فراش محمد ظناً من أهل الوثنية أنه المقصود بأسيافهم وخناجرهم . ولكن حياة علىّ كانت ضرورية للاسلام فأنقذه الله وهو الفرد الراقد المستسلم لقضائه وقدره . أما محمد وأبو بكر فلم يكونا هاربين ولا مدبرين لينجوا بحياتهما من أخطار محققة محدقة، ولكنهما كانا قاصدين إلى طيبة ليفتتحا عهداً جديداً ويستهلا عصر كفاح وجهاد وجلاد وسلسلة انتصارات لم يسبق لها مثيل فى تاريخ المعتقدات الدينية

— ٤ —

فطن القرشيون بما ركب فى غريزتهم من الذكاء وبعد النظر وسعة الحيلة إلى أن ظهور هذا النبى قرين زوال دولتهم المدنية التى نظموها على نسق يشبه نسق المدن الأغريقية. وكان اليونان زعماء النقل البحرى كما كان العرب زعماء النقل البرى وحلقة الاتصال بين الشرقين الأقصى والأدنى، وإبلهم سفائن الصحراء حقيقة لا مجازاً، كما كانوا مخالطين لكل شعوب البحر الأبيض وشواطئ المحيط الهندى والخليج الفارسى والبحر الأحمر، ومطلعين على شؤون الأمم . فلما أدرك سادتهم وحكامهم أن دولتهم قد آذنت بزوال حصروا همهم فى ملاينة النبى وإغرائه ؛ فلما لم ينفع الاغراء والاستدراج لجأوا إلى التهديد والوعيد، ثم إلى المقاطعة والتضييق فى شعاب مكة وغيرها، ثم إلى التآمر والانتقام، فهاجر النبى من مكة، لأن الله هداه إلى أن ما بقى من عمره المبارك كاف لتعميم الدعوة ومقاومة ذلك البلد القوى الشكيمة الذى تألب نساؤه ورجاله على النكاية به، ليحتفظوا بكيانهم القوى. كان المكيون محافظين ورجعيين فلم يرقهم أن يسلموا قيادهم للأحرار والمتطرفين من حزب محمد وأبى بكر وعلى وعمر وعثمان . وقد تعجب الأجيال التالية وأنسال المستقبل وأخلافهم كيف لم يقبل عرب قريش وخصوصاً أهل مكة على العقيدة الجديدة . والسر فى ذلك أن أرستوقراطية مكة حرصت على مالها وسلطتها ونفوذها وقوتها، ورأت في القرآن والدعوة المحمدية ما يزعزع أركان كيانهم الاقتصادى ويهدمه وهم أصحاب رؤوس أموال وعباد للمادة، حتى إن معبودهم هُبل لم يكن يتكهن إلا بعد أن يدفع السائل لسادنه سلفاً دراهم معدودة . وكان للمال وأرباح التجارة وفوائد الربا واكتناز الذهب والفضة أكبر الشأن، ولكن محمداً وأصحاب محمد جعلوا المال فى الدرجة الأخيرة من الاكتراث، واتخذوه وسيلة لا غاية » وقد روى عن حاتم الأصم تلميذ شقيق البلخى أنه سار إلى المدينة فاستقبله أهلها، فقال أين قصر رسول الله حتى أصلى فيه ؟ قالوا ما كان له قصر، إنما كان له بيت لاطئ بالأرض. قال فأين قصور أصحابه رضى الله عنهم ؟ قالوا ما كان لهم قصور، إنما كان لهم بيوت لاطئة بالأرض » وكثير من المؤرخين يغفلون العامل الاقتصادى فى حياة العرب قبل الاسلام وبعده، مع أنه

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام تأليف كوسان

بجانب الثورة الاجتماعية التى أحدثها الاسلام قلب نظام المال رأساً على عقب ، وحارب الرأسمالية ، وحرم الربا ، وقدح فى البخل ، وشرع الصدقة والزكاة ، وحض على صلة ذوى القربى ، ونظم المواريث ورتب حقوق المرأة ، وألف القلوب بالبذل وبسط اليد للبعيد والقريب . وبالجملة أوجد طبقة جديدة من أوساط الناس لمقاومة عبادة المال ، وحطم المثل العليا التى كان المكيون يمجدونها . ولم يكن هـذا الانقلاب بالشيء القليل . والذى غاظ أهل مكة وأحنقهم وأحرق أكبادهم أن محمداً بلغهم أن هذا التبديل ليس من عنده ، ولـكنه من عند الله ، فهو أمر محتوم واجب التنفيذ ، لأن إرادته أقوى من إرادة كل هذه الأوثان المسكرة فى الكعبة والمنتشرة فى الحواضر والبوادى العربية

— ٥ —

يدهش المؤرخ من قدرة محمد على مواجهة الشدائد والاضطلاع بأعقد المشاكل ، فهذه المدينة التى هاجر إليها ولم يكن يعرفها من قبل إلا بالوصف والتصور بعد زيارته الأولى وهو طفل فى حضانة أمه ، كانت تضم إلى جانب الأنصار عناصر قوية وعنيدة من اليهود والمنافقين والمعادين من المترددين وغيرهم ، وهى طبقات ثلاث يستطيعون أن يتغلبوا على المهاجرين والأنصار . وكان المنافقون واليهود والمعادون من حلفاء قريش أقوياء وأغنياء ، والمهاجرون والأنصار ضعفاء وفقراء ، حتى اضطر محمد لوضع نظام المؤاخاة . وقد اضطر بعض المهاجرين للعمل البدنى لقاء أجور من التمر ، ولـكن محمداً رأى أشد الخطر فى اليهود الذين جمعوا بين المـال والذكاء والجاه ودين منزل سابق لدين محمد ودين سلفه الناصرى ، إلى حيلة واسعة ، ثم خيبة أمل يعقبها حقد دفين ورغبة شديدة فى الانتقام . فقد عرف اليهود في محمد النبى المنتظر ، ولـكن كبرياءهم أبت أن يطأطئوا رؤوسهم أمامه ، لأن القرآن أذاع حقيقتهم فامتـدح أنبياءهم وانتقد أطماعهم وعرض بأخلاقهم . وقد أعماهم مالهم ، وأضلتهم شهواتهم ، وأصبحوا لا يقدرون الرجال إلا تبعاً « للرصيد » الذى يملكه أحدهم . ولم يكن محمد عميلاً لهم إلا فى الاقتراض منهم ولو برهن بعض دروعه . ولم تكن له فى صناديقهم وخزائنهم ودائع ضخمة ولا هزيلة ، لأن كل ما كان يصل إلى يده ينفقه فى سبيل الله وفى حشد الجيوش وإعداد الحملات الموفقة ؛ فما زال يعالنهم حسب أمر ربه وطاعة لوحيه ، حتى حاربوه فى السر والعلن ، فدسوا له السم ، وأعانوا عليه أعداءه ، وحرضوا جيشه على الفتنة ، وألفوا حزباً من « دعاة التردد والهزيمة » وهم المنافقون ومن لف لفهم وتواطأوا على خذلانه ؛ فلم ير بدأ من ضرورة طردهم من الجزيرة وإقصائهم وقطع دابرهم ، فسبق حكام ألمانيا الحديثـة بألف وأربعمائة عام فى الوصول إلى الحقيقة المطلقة ، وهى أن العنصر المعادى فى الوطن يعمل على تدميره وتخريبه ويعطل حياته بعرقلة التعاون . فكانت موقعة خيبر موقعة حاسمة فى تاريخ الإسلام بل فى تاريخ العالم . أما النصارى فقد أوصى بهم خيراً . وكانت بيت المقدس فى أيدى المسلمين منذ الفتح العربى ؛ وكان الخليفة عمر يرعى حرمة الأماكن المقدسة النصرانية أيما رعاية وقد سار خلفاؤه من بعده على آثاره وسننه

قد ندهش لتسامح الإسلام مع المعتقدات الأخرى فى حين أنهم لم يألوا جهداً فى النيل منه . وفى الحق أن محمداً جاء بالقرآن مصدقاً للتوراة والإنجيل وقال الله عنه إنه خاتم الأنبياء والمرسلين ؛ وقد أمر باحترام النصارى واليهود وسماهم أهل الكتاب تمييزاً لهم عن عبدة الأوثان ؛ وقد اتبع المسلمون ما أمرهم به نبيهم حتى هذا العهد الأخير . وكان ضلع المسلمين فى صدر الإسلام مع النصارى بالتخصيص بدليل آية « غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » وقد نال اليهود ما استحقوا بعد أن خانوا أمانة الله ونكثوا بالعهود وحاربوا نبيه

حرمت الشريعة الإسلامية الربا كما أن الشريعة المسيحية حرمته تحريماً لا يوصف ، وكانت متشددة فى ذلك ما استطاعت ، فكانت النتيجة أن اليهود انبروا فى الميدان وظلوا قروناً عديدة محتازين التجارة يجنون ثمارها ، لا يشاركهم فى ذلك مشارك ولا يزاحمهم مزاحم . وكانت الشريعة الإسلامية قائمة على تكريم العلم ، والقرآن حافل بالآيات التى تحث عليه ، وكذلك الحديث ، فقد جاء فيه : « أطلبوا العلم من المهد إلى اللحد . واطلبوا العلم ولو فى الصين . والحكمة ضالة المؤمن . ويوزن مداد الحكماء بدم الشهداء يوم القيامة . والعلماء ورثة الأنبياء . وما خلق الله شيئاً أفضل من العقل »

— ٦ —

من أعمال نبينا عليه الصلاة والسلام تأسيس الرابطة الاسلامية التى جمعت بين قلوب المسلمين فى أنحاء العالم جمعاً إنسانياً ، فجعل العقيدة الروحية فوق الرابطة الجنسية ، وجعل للإنسانية مثلاً أعلى بجانب حب الوطن فقال إنه من الايمان ، وحض على الأخاء وحب البشرية . وما كانت تلك الجامعة الاسلامية سوى الشعور بالوحدة العامة المتفقة مع فكرة التوحيد ووحدة الوجود . نعم كانت الجامعة الإسلامية العروة الوثقى لاانفصام لها ، وقد أنشأها النبي منذ شرع يجاهد بالمدينة فالتف حوله المهاجرون والأنصار والمؤمنون من كل طبقات المجتمع ، ففيهم الرقيق أمثال بلال ، والسادة الأعيان كعثمان بن عفان ، والأبطال كخالد بن الوليد . وقد ولدت تلك الجامعة التى ربطت بين قلوب المسلمين فى المدينة المنورة وهى التى أعانت على هزيمة المشركين بعد قتالهم وتأسيس الحضارة الإسلامية التى يفخر بها العالم

وفى أثناء الهجرة المحمدية أعد محمد وسائل الاستيلاء على مكة ، فقبل صلح الحديبية ونفذ بنوده بالدقة ، ونقض حياة القرشيين بالحرب والحيلة ، وقلب هزيمة أحد انتصاراً سياسياً باهراً ، واستعمل سلاح الدعاية فغزا عقولهم وقلوبهم وأخلاقهم قبل أن يغزو بلادهم ، وهزم إرادتهم قبل أن يهزم جنودهم ، وهدم حصون نفوسهم ، وحطم مثلهم العليا البالية قبل أن يهدم قلاعهم أو يحطم أصنامهم وأوثانهم طائعاً للوحى الإلهى ، وتابعاً للمشورة الحسنة من صحابته حتى الأجانب منهم كسلمان الفارسى الذى وهبه لقب الأمارة ، كما فعل بعده ملوك أوربا إذ جعلوا بيسمارك « برنساً » أو أميراً ، فقال محمد : « سلمان منا آل البيت » . وكان فى كل هذا إنساناً سامى الأخلاق كيِّساً ، مهذباً ناضج الرأى ، لين العريكة سمحاً ، لم يجد فيه خصومه عيباً . وهكذا شهد له الأغيار بعد انقضاء الأجيال فقال ولز فى تاريخه العام : « كان محمد أكثر الأنبياء نجاحاً » ولا عجب ولا غرابة فمحمد هو الإنسان الكامل

— ٧ —

كان محمد عليه الصلاة والسلام نبياً مرسلاً ومصلحاً ومشترعاً ، وجاء دينه وهو الأوحد الذي انطوى على شرائع وقوانين سياسية واجتماعية واقتصادية تقوم اعوجاج الفطرة البشرية ، وتؤهل الفرد للمعيشة فى المجتمع الإنسانى عيشة راضية راقية ، ومكنت لتابعيه تأسيس أعظم دولة عرفها الشرق والغرب . وقد طبقت قواعده وظهرت مزاياه الصالحة فى الحروب والمعاهدات والمعاملات الدولية وأثناء السلم ؛ ولو نفذ بنصوصه لأغنى العالم عن نزاع الرأسمالية والعمال ، ولانمحت المشاغبة من الوجود ، لأن أحزاب الشمال فى أوربا ولا سيما روسيا لايعلقون إلا ببعض قواعده التى تقر العدل والرحمة والمساواة وضمان حرية الفرد وسعادته

وما كان يبغض شيئاً بُغضه الشرائع والقوانين الجامدة التى تقيد العقل فتقوده صاغراً أعمى . وليس القرآن إلا كتاب هدى للمؤمنين ورحمة وليس عثرة فى سبيل ترقى المجتمع والآداب والشرائع والقوانين والمدارك العقلية . ونحن الآن فى القرن الرابع عشر الهجرى وقد بدأت فيه نهضة الإسلام حقاً كما بدأت نهضة أوروبا فى القرن الرابع عشر المسيحى . ومتى وضع الإسلام فى البوتقة وأخرج منه ما علق من الأباطيل الخداعة ، عاد إلى أصله وهو توحيد الله تعالى والايمان بأن محمداً هو رسول الله عليه الصلاة والسلام

محمد لطفى جمعة

* * *

أهم المراجع :

سيرة النبي تأليف بوله ؛ دستور المدينة : لويلهاوزن ؛ إنحلال الغرب : لشبنجلر ؛ العرب قبل الاسلام : پرسيفال كوسان ؛ الطبقات الكبرى : لابن سعد ؛ السنة المحمدية : جولد زيهر ؛ كتب السيرة وتاريخ مكة : للأزرقى

إلى الأمة الإسلامية في عامها الجديد

للأستاذ محمد عرفة
أستاذ بكلية اللغة العربية



للشعوب أخطاء كما للأفراد أخطاء، وشر هذه الأخطاء ما يقع في القواعد الاجتماعيـة ، إذ الخطأ فيها تكون له نتائج سيئة الأثر تتجـرع الأمم غصصها ما دامت فيها هذه الأخطاء.

وخير ما يسديه إلى أممهم رجال الاجتماع والعلماء بروح الجماعات وطبائع الشعوب أن يصلحوا لهم هذه الأخطاء ليجنبوهم شرورها ، ويصلحوهم بإصلاحها . إن لكل خطأ مهما كان أضراره ، فالرجل إذا أخطأت الجادة تردى صاحبها في الحفرة أو تعثر بحجر ، والمرء إذا أخطأ في تجارته منيت بالبوار ، وصاحبها بالخسار ؛ وإذا أخطأ في طعامه وشرابه ولباسه فقد الصحة وعاودته الأوجاع والأسقام

هذه أضرار تنشأ عن الأخطاء ، وهي وإن كانت شديدة ولكنها لا تبلغ ضرر خطأ الجماعة في قاعدة اجتماعية ، لأن الضرر يكون عاماً بقدر ما في هذه الجماعة من عموم دائم بقدر ما في الخطأ من مكث ، بالغ في الشدة بقدر ما في الخطأ من انحراف عن الصواب . وإن الأمة الاسلامية لها أخطاء في القواعد الاجتماعية تجني منها الألم والحسرة . وقد رأيت أن أصلح لها خطأ من هذه الأخطاء وأجعل ذلك هدية مني إليها في مستهل هذا العام الجديد . وسأذكر هذا الخطأ وإصلاحه بعد أن أذكر بين يديه مقدمة

إن كل شيء في الكون يتنازع الوجود ، والبقاء في هذا التنازع للأقوى ، وقد كان الفرد قبل تكون الجماعات ينازع الفرد ، ثم التمس أسباب القوة بالاجتماع ، وقد أخذ الاجتماع أشكالاً عدة من الأسرة والعشيرة والبطن والقبيلة ، وقد كان النزاع بين الأسرة والأسرة والقبيلة والقبيلة نتيجته غلبة الأقوى تبعاً لقانون إنما العزة للكاثر ؛ ثم أخذ الاجتماع شكلا أوسع بالمدينة والمملكة فكان أهل كل مملكة يكونون وحدة مستقلة تجلب لنفسها الخير وتدفع عنها الضير ، ثم جاء الدين الاسلامي فكون وحدة إسلامية لم تبلغ وحدة من العظم والتجانس ما بلغته هذه الوحدة

عمل الاسلام على غرس المحبة والتضامن بين أجزاء هذه الوحدة فقال : لن يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه

وقال : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً .

وقال : ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى

أحب المسلم أخاه المسلم وساد على المملكة الاسلامية المحبة والسلام فتعاونوا على جلب المنافع ودفع المضار

لقد أتت هذه الوحدة بالمعجزة الاجتماعية العظمى فقد كان العرب قبل الاسلام ينتقصون من أطرافهم ، وكان من بجوار الشام عمالاً للروم ، ومن بجوار الفرس عمالاً للفرس . فلما جاء الاسلام أعز الله به العرب والمسلمين ، فلم تمض عشرون سنة من عمره حتى هدد هؤلاء الأقلون المملكتين المتاخمتين الفرس والروم وانتقصوهما من أطرافهما ، ثم عقب ذلك أن ورث ملك الأكاسرة ومعظم ملك القياصرة

هذه المعجزة الاجتماعية إذا بحث المرء عن سببها وجدها في الوحدة الاسلامية ، فقد بدل الاسلام تفرقهم اجتماعاً ، وبغضهم حباً ، وحربهم سلماً ، وبعد أن كان بأسهم بينهم شديداً حول هذا البأس إلى الآخرين ، لذلك منّ الله على المسلمين بهذه الألفة (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلكم تهتدون)

(لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم)

للغرب طمع في الشرق من قديم ، وقد غالبه مرات وهو

يحقق . قامت الحروب الصليبية ، وزحف الغرب على الشرق وهاجمه في عدة من ثغوره وبلدانه ولكنه لم تجده هذه المحاولة وهذه المهاجمة ، فعاد إلى الحيلة ورأى أنه يستطيع أن يدرك بالحيلة ما عجزت عنه القوة

الغرب عالم واسع العلم لا يسير إلا ومصباح العلم أمامه يهديه السبيل ، ويبصره مواقع أقدامه ، نظر إلى الجسم الاسلامى فرأى أنه ليس يضيره أن يبتر منه عضو من أعضائه ، إنما الذى يضيره ويقدره عليه هو إضعاف روحه ؛ وقد رأى روحه الوحدة الاسلامية فعمد إليها وسماها تعصباً دينياً ممقوتاً ، وسمى التعاون الدينى تعصباً إسلامياً همجياً . وأسبغ عليه ماشاء من نعوت الذم والوحشية ، فدخل ذلك على الشرق — وهنا وصلنا إلى ما نريده من الخطأ الذى وقعت فيه الأمة الاسلامية — فآمنت بنظرية الغرب ، وسمتها تعصباً دينياً ، وخجلت من أن توصم بالتعصب الدينى ، فتركت هذه الوحدة المقدسة ، ونفرت من هذا التعاون الاسلامى ، فلما ضعفت الروح سهل التغلب على الجسم

كان على المسلمين أن يعلموا أنه لا مقاومة فى الوجود إلا بوحدة . وقد ظهرت هذه الوحدة بمظاهر مختلفة منها الوحدة الجنسية ومنها الوحدة الوطنية ، ومنها الوحدة الدينية ، وإذا استمسك الغرب بالوحدة الجنسية أو الوطنية لما فيها من الإقدار على الكفاح فى هذه الحياة ، فعلى المسلمين أن يستمسكوا بما صبوا فيه من وحدة إسلامية ليقدروا أيضاً على الكفاح فى هذه الحياة

كان على المسلمين أن يعلموا أن التعصب الدينى موجود فى أمم الغرب التى تعيب المسلمين بالتعصب الدينى ، يظهر ذلك فى أعمالهم وكثير من نواحى حياتهم ، وأقرب ذلك تطوع بعض الأوربيين والأمريكيين فى جيوش الأسبانيين ، والفرنسيين ضد الريفيين المسلمين الذين كانوا يدافعون عن وجودهم ، فلو أن التعاون الدينى كان نقيصة كما يزعمون لما نهوا عنه غيرهم وأتوه هم

كان على المسلمين أن يعلموا أن الوحدة الجنسية والوطنية فى أوربا قد أتت من الفظائع ما لم تأت بمثله ولا بأقل منه الوحدة الاسلامية فى الاسلام ، وآية ذلك معاملة الألمان لليهود ، وتلك الحروب الطاحنة تؤجج نارها العصبيات القومية أو الجنسية . ليس فى الوحدة الدينية ما يمكن أن تؤخذ به إلا أنه قد يكون فى الوطن الواحد أديان مختلفة؛ والوحدة الدينية ربما عادت بين هذه الوحدات، ولكن الاسلام قد احتاط لذلك ، وأوصى المسلمين بهم وأوجب أن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم

حافظ الاسلام على أهل الذمة وذوى العهود والمواثيق من ذوي الأديان المخالفة (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون)

على الأمم الاسلامية أن تقلع بعد اليوم عن هذا الخطأ وأن تعلم أنها وقعت فيه فى بعض تلك الموجات التى تنمر الأمم فتلهيها عن مصالحها ، ولا يخافن أهل الذمة فى بلاد المسلمين وذوو العهود مع المسلمين من إحياء الوحدة الاسلامية فانها تقوى جيرانهم وأهل عهدهم ولا تصيبهم بأذى لأن الاسلام كما قدمت يوصى بأهل الذمة وبالوفاء بالعهود

محمد عرفة

من ثمرات الهجرة

جهـــاد شهيد

للأستاذ سعيد الأفغاني

كلما أظل الكون عام جديد التفت المسلمون إلى الماضي البعيد يستوحونه العبرة ويتلقون منه الدرس . وكم في صدر الاسلام من عظات ، وكم فيه من دروس ينقضي الزمان وهي لا تنفد وإنها لتجود على كل ناظر فيها بما يحفز الهمة ويوقظ الوجدان ويملأ النفس حمية والقلب خشوعاً . وما أحرى الأقطار العربية عامة أن تتأمل في تاريخها المجيد وخاصة ما حف بحادث الهجرة الكبرى من أذى واضطهاد ، ظفر من بعدهما المؤمنون الصابرون ، لنستشعر القوة والاقدام وهي تكافح من طغيان المحتلين وكيدهم ما ينفد معه الصبر وتعيا الحيلة وتكل القوى . ومتى رأوا ما فعلت العقيدة والاخلاص في نفوس أسلافهم ، الذين كانوا أضعف منهم اليوم وأفقر وأقل عدداً ، مضوا في جهادهم مستعينين بالله ، وليس بينهم وبين النصر إلا أن يفعلوا ما فعل الأولون

سمع دعوة الاسلام فانشرح لها صدره ، وطرب قلبه ، ودخل في الدين الحق فأشرب حبه والإخلاص له والاستماتة من أجله ، وشمل أهل بيته ما شمله من رحمة الله فاغتبطوا ذكوراً وإناثاً بما ساق إليهم ربهم من خير

وكان نعيمه من الدنيا أن يرى رسول الله أو يجلس معه أو يستمع إليه ، وهو يجد في ذلك لذة تغمر وجوده كله فيذهل عن الدنيا وما فيها من متاع ولهو ليغرق في غيبوبة روحية سامية ، يسمع الموعظة فيلتهمها التهاماً ثم لا يلبث أن يندفع عاملاً بها بحماسة جامحة تثير عاطفة الخير في كل قلب . وكان في سيرته مثلاً كاملاً للمسلم الحق الذى آمن بالله فعبده مجتهداً حق العبادة ، وأحب الخلق جميعاً فمنحهم من نفسه الرحمة والخير والحب والإحسان

ولقد رقق من نفسه ما كان بلغه من سيرة الرسول في مكة ، وما تحمل هو وأصحابه من أذى المشركين واضطهادهم في سبيل الله ، حين دعاهم إلى الخير فصدوا عنه مستكبرين ، وعرض عليهم الإسلام فأسمعوه في دينه وإلـهه ما يكره ، ثم زادت وقاحتهم فرجوه وشتموه وأخرجوه وأجاعوه ؛ وهو مع أصحابه الأخيار صابر ساكت يدعو لهم وينتظر فرج ربه

وكان أنس بن النضر على عقيدة في الله راسخة وإيمان صليب ، ملك عليه الإسلام لبه وتمكن حب الله وحب رسوله من قلبه ، وهو مع كونه من خيار الأنصار قولاً وعملاً ومع فرط محبة النبي له ، شديد الحسرة على أنه لم يكن ممن أوذى في الله بمكة ، وأنه فاته بذلك شرف عظيم استأثر به المهاجرون الأولون ؛ ولم يكن يعزيه إلا أنه يتلبث حتى تكون فرصة سعيدة يخرج فيها عن حق الله في ماله وأهله ودمه

وكانت النفرة الأولى إلى بدر ، حيث تصاول الخير والشر كفاحاً ، وحيث وقف المؤمنون صفاً واحداً سلاحهم التقوى وإيمان بالله لا يتزعزع ، واثقين بأنه لابد ناصرهم مع قلتهم وضعفهم على الشرك وأهله الذين خرجوا بطرين مستطيلين ، عادين على الله وعلى رسوله والمسلمين . ولقد صدق المسلمون يومئذ الحملة وأخلصوا النية ، وأرخصوا في سبيل الله دماءهم وأموالهم فنصرهم الله النصر المؤزر ، ورجعوا إلى المدينة مغتبطين بما أذل الله من الباطل ورفع من الحق ، وما مكّن لهم من صناديد قريش حتى أوسعوهم قتلاً وأسراً

وكان صاحبنا أنس قد عاقته العوائق عن شهود بدر ، فلما بلغه ما كان ثمة من جهاد واستماتة ، وما حل بالقوم من رحمة الله ورضوانه ، حزن حزناً ما حزنه أحد قط ، وكلما سمع من النبي صلى الله عليه وسلم ما خص الله به أهل بدر من الفضل والخير ، تقطع قلبه حسرات على ما أخطأه من فرصة كان يترقبها بفارغ الصبر منذ عرف الإسلام ، لذلك أراد أن يأخذ على نفسه عهداً يُشهد عليه الله والنبي والمسلمين ، حتى لا يصيبه في المستقبل ما أصابه في الماضي ؛ فهرع إلى رسول الله مُنصرفَه من بدر وإن سيماءه لتفصح عن ندم شديد وعزيمة صادقة وحماسة متأججة ، عرف ذلك في وجهه كل من رآه ، فلما وقف على النبي في أصحابه قال له :

« يا رسول الله ! غبت عن أول قتال قاتلت به المشركين ، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرينّ ما أصنع »

***

لبث أنس ينتظر مواتاة الفرص حتى بلغ أهل المدينة ما جمع لهم أبو سفيان من الخيل والرجْل ، وما طابت به نفوس المشركين من ربحهم في العير لينفق على حرب النبي وأصحابه ، وكان ذلك

خمسين ألف دينار . وما كانت قريش ولا حلفاؤها لتسمح بهذا وهم التجار الحراص على المال(1) ، لولا ما ملأ صدورهم من الغيظ والحنق والكره للمسلمين على ما فعلوا بهم يوم بدر

شاور الرسول أصحابه فيما يصنع فكان الرأى أن يتحصنوا بالمدينة ، حتى إذا أتوهم قاتلوهم عنها . وكان من قول عبد الله بن أبي : « يا رسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم ، فوالله ماخرجنا إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منهم . فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا »

وأنى لهم أن يجمعوا على هذا الرأى وفيهم من يتلهف شوقاً إلى حرب المشركين « فقد كان رجال من المسلمين أسفوا على ما فاتهم من مشهد بدر لما سمعوا النبي يخبر بفضل من شهدها وعظيم ثوابه ، فودوا غزوة ينالون بها مثل ما ناله البدريون وإن استشهدوا » ؛ فلم يعجبهم ما قال المجربون من الرأى الهادئ الخير ، وتغلبت عواطفهم الجياشة ، واشتد بهم الظمأ إلى الشهادة حتى قالت طائفة منهم :

« إنا نخشى أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج جبناً عن لقائهم فيكون هذا جراءة منهم علينا »

وقال حمزة : « والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفى خارج المدينة »

وقال النعمان بن مالك : « يا رسول الله لا تحرمنا الجنة ، فوالذى نفسى بيده لأدخلنها » الخ

ووافق هؤلاء مشيخة من المهاجرن والأنصار فكانت غزوة أحد ، وكان أول الناس إسراعاً إليها وأشدهم فرحاً بها أنس وأخته ، وخرج إليها كثير من الأحداث والنساء ، فأبلوا فيها البلاء المحمود ، دفاعاً عن دينهم وذياداً عن نبيهم وشوقاً إلى ما عند الله

***

شب القتال ؛ وكان المشركون ثلاثة أمثال المسلمين أو يزيدون ، ونصر الله المسلمين أول الأمر ، حتى إذا ترك الرماة مواقفهم التى أمرهم الرسول بلزومها كان ما هو معلوم للجميع ، وزلزل المسلمون زلزالاً شديداً وكثر فيهم القتل وانهزم فريق وثبت فريق

وأشيع أن رسول الله قد قتل وأسقط فى أيديهم . هنالك كان الامتحان الأعظم للبطولة والإخلاص فمحص الله للشهادة الأخيار ، وذاد القرومُ البواسل عن الرسول ذياد المستميت ، وعمد النساء إلى السلاح يأخذنه من المنهزمين فقاتلن به حتى كانت ضروب الشجاعة والبسالة التى أتاها النساء فقط ، صفحة مجيدة تتقطع دون الظفر بها رقاب الفحول المذاويد الأبطال ؛ وكان من ثبت من الصحابة نفراً ضئيلاً وقع عليهم نعى الرسول وقوع الصاعقة فحاروا فى أمرهم بعد أن ترك أكثرهم القتال ووهنت نفوسهم وألقوا بأيديهم ؛ إذ ذاك ، يدركهم الله بهذا البطل المجاهد المغوار ، أنس ابن النضر يسألهم فيم جلوسهم والحرب قائمة ؟ فيقولون : قتل رسول الله ! فيزداد حمية واستبسالاً ويهتز من فرعه إلى قدمه وتتجسد فيه معانى الجهاد السامية فتتألق عيناه ويلتمع وجهه ويكاد دمه ينفر من عروقه وترتسم عليه سمات الصلابة والعزيمة والاندفاع ويفتر ثغره عن هذه الكلمات الملتهبات تذكرهم بالواجب الذى ذهلوا عنه ، وتحفزهم إلى الشهادة ، وتدفع أجبن الناس إلى اقتحام الغمرات

« فما تصنعون بالحياة بعده ؟ ! قوموا فموتوا على ما مات عليه ، أفلا تقاتلون على دينكم وعلى ما كان عليه نبيكم حتى تلقوا الله عز وجل شهداء » ثم قال : « اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعنى أصحابه) وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعنى المشركين) » انقضت على سامعيه لحظة كانوا منها فى مثل لجج النور من كلماته ، فألهبهم ودفعهم إلى الموت دفعاً ؛ ثم انطلق نحو جموع المشركين فالتقى فى طريقه سعد بن معاذ فقال له : « يا سعد ؛ الجنة ! ورب النضر إني لأجد ريحها من دون أحد » ورمى بنفسه وسط الجموع الحانقة الظافرة ، ضارباً وطاعناً ، فأشرعت إليه الرماح وأصلتت عليه السيوف وسالت منه الدماء على جوانبه ، وهو لا يحس لتلك وخزاً ولا يشعر لهذه بألم ، ولا ينفك منقضاً على الأعداء مقتحماً صفوفهم ، يوسعهم تقتيلاً وإثخاناً ، غير آبه للرماح تتناوشه ، ولا للسهام تنفذ فيه ، ولا للسيوف تقطّع منه ، وإنه مع هذا كله لا يرى أنه بذل فى الله طائلاً ، وكلما ازداد الدم منه انصباباً زاد على أعدائه كراً وإقداماً حتى أكرم الله هذه الروح الزكية فسالت على قِصَد القنا وظُبي السيوف فاستأثر سبحانه بها ، وأنالها ما تمنت من الشهادة لتنعم بلقائه وجواره فى عليين

---

(1) أنظر شرح ذلك وافياً فى كتابنا (أسواق العرب فى الجاهلية والاسلام) ص ١١٦ وما بعدها

ولقد أحمى بكلماته تلك أنوف المهاجرين والأنصار ، فمشوا على أثره وكروا ثانية على العدو ، واجتهدوا فى القتال ؛ إلا أن أحداً ما بلغ مبلغ أنس رحمه الله ورضى عنه ، حتى إن سعد ابن معاذ — على ما أبلى فى العدو يومئذ — ليحدث عنه بعد الحرب فيقول : « ما استطعت يا رسول الله ما صنع »

***

انقضت المعركة حافلة بضروب البطولة ، وطفق المسلمون يتحرون قتلاهم لمواراتهم التراب ؛ وإنهم لفى شأنهم إذ وقفوا على جثة لم يعرفوا صاحبها لأن السيوف والرماح لم تبق على شىء من ملامحه قط . يا للهول ويا للبسالة ! بضع وثمانون بين طعنة برمح أو ضربة بسيف أو رمية بسهم ، يتلقاها رجل واحد فقط ، ثم هو بعد ذلك لم يشف صدور أعدائه الحنقين عليه لما ملأ قلوبهم حرداً وغيظا من كثرة ما فعّل فيهم ، لم يبرِّد أكبادهم كلُّ ما نالوا منه ولم يُذهب غيظ قلوبهم قتله ، بل شوهوا الجثة ومثلوا بها ، لقد بلغ من المسلمين هذا المنظر أمداً بعيداً ونفضهم نفضاً من شدة التأثر ، وعظمت رغبتهم فى معرفة صاحب الجثة ، ولبثوا مدة لا يهتدون إليه ، حتى تقدمت امرأة مجاهدة تحدّرت منها العبرات الحرار ، وهي تحدق فى أنامل الشهيد ثم قالت : « هو أخى أنس بن النضر ، عرفته ببنانه ! »

***

رجع المجاهدون الأبرار ، الذين اصطفاهم الله رسلاً إلى الإنسانية المعذبة يفيضون فيها الرحمة ، ويشيعون العدل والإحسان ، رجعوا إلى المدينة يحفهم رضوان الله وتتنزل عليهم رحمته ؛ وقد خلفوا فى أحد سبعين بطلاً استماتوا بإخلاص ليجعلوا كلمة الله هى العليا ، فنعمت أرواحهم بالشهادة . ولئن كان من بقى منهم على قيد الحياة قد أبلى البلاء الحسن وبذل طاقته ومجهوده ، فان الحسرة لتذيب كبده على أنه لم يحظ بما حظى به إخوانه من شرف الشهادة ، ولم يخفف من حسرتهم إلا أملهم فى أن يكرمهم الله بها فيما ينتظرهم من معارك

لكن الله سبحانه رضى عن هؤلاء وأولئك ، وأنزل فيهم قرآناً ما يزال الناس يتلونه والعبرات تجرى غزاراً من مآقيهم ، وما زال هذا الصوت الإلهى المقدس يهيب بالمسلمين والمستضعفين مدوياً فى الآفاق :

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يُقاتلون فى سبيل الله فيقتُلُون ويُقتَلون ، وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم »

ونحمد الله على أن هذا الفيض المقدس من شرف الدفاع ، ما زالت أمداده متصلة باستمرار ، وما زال الشهداء يتوافدون على ميادين الجهاد ؛ وما برحت هذه الطائفة المختارة من المسلمين تتكالب عليها الأعداء من كل جانب ، وما انفكت عرضة لتألبهم وهمجيتهم وضراوتهم والله يمتحن الخلف بما امتحن به السلف ، ويخص من شاء منهم بكرامته . ففى كل بلد إسلامى ميدان جهاد وشهداء دفاع ، وفى كل بقعة عربية عدد مستبيح وقافلة تستشهد ولن تزال إلى قيام الساعة تستشهد ، ولن تزال إلى قيام الساعة تتأسى بتلك العصبة الطاهرة من شهداء أُحد ومجاهديها ، ولا تفتأ منا طوائف تترى على آثار من سلف من أولينا كما خلت مواضع فى الصف أحتلها فوج ؛ ولم ينس الناس بعد تلك الأرواح البريئة التى صعدت إلى بارئها فى العراق وسوريا وفلسطين ومصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، وهى تكافح أحفاد الصليبيين من بريطان وفرنسيس وطليان وإن هذه القوافل لتستمر فى تلبية نداء ربها بتهافتها على الشهادة ، كلما ردّدت المحاريب ما أنزل الله فى أبطال أُحد :

« من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا »

فيا أيها الشهداء المخلصون الأبرار من لدن أُحد وبدر إلى معارك فلسطين وساحات المغرب الأقصى اليوم !

ويا أيتها الحلقة النورانية التي انتظم فيها أنس بن النضر وعبد الرحمن الغافقى ... حتى عمر المختار وعز الدين القسام وفرحان السعدى ومن يخلف هؤلاء وأولئك فى مشارق الأرض ومغاربها !

هنيئاً لكم الكرامة فى دار الخلد ، فقد غضبتم للحق وحميتم الحرمة وحفظتم البيضة ، وجردتم سيوفكم تذودون لصوص الأعراض والأموال والأديان من ذئاب البشر الجائعة الضارية ، وتدافعون عن الشرف والنبل والخير والمثل السامية ، حتى أسلمتم أرواحكم وقدمتم على ربكم بدمائكم تشكون وحشية الطامعين وفظائع المحتلين

يا أيها الشهداء المجاهدون : لا حرم الله دنيانا من أمثالكم فأنتم منار الهدى ومصابيح الظلام . وعليكم رحمة الله ورضوانه

(دمشق) معيد الأفغانى

محمد في أطوار حياته

دراسة تحليلية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

(قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون)
(سورة يونس — ١٦)



بعث محمد صلى الله عليه وسلم فكانت معجزته الكبرى هذا القرآن الكريم بفصاحته الباهرة وما جاء به من تشريع قويم في أصول الدين وفروعه ، على أنه كان مع هذا يلجأ إلى العقل فيستمين به في تأييد رسالته ، وإلى العلم فيستخدمه في إثبات نبوته ، وإلى هذا تشير تلك الآية الكريمة من سورة يونس (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون)

فهو يقيم في هذه الآية دليلاً على صحة نبوته يستند إلى دراسة تاريخه قبل النبوة وبعدها ، وإلى دراسة نفسه في هذين الحالين ، والدراسة الأولى فرع من علم التاريخ ، والدراسة الثانية فرع من علم النفس ، وسنقوم الآن بهاتين الدراستين ، ونتتبع فيهما أطوار حياته صلى الله عليه وسلم

الطور الأول : ولد صلى الله عليه وسلم يتيماً عائلا ، لم يرث من والده شيئاً ، لأن أباه مات قبل جده عبد المطلب وهو شاب لا يكاد يجاوز حد العشرين ، فلم يرث شيئاً من مال أبيه ، ولم يتمكن من أن يجمع شيئاً لابنه . بل مات بعد شهرين من حمله ، ثم لم تلبث أمه أن ماتت بعد موت أبيه ، فكفله جده عبد المطلب ، ثم كفله بعد وفاة جده عمه أبو طالب

وكانت قريش تعيش في مكة عيشة متحضرة تعتمد على العمل والكسب ، ولا تعرف ما تستنه البادية العربية في معيشتها من الغزو والنهب ، فنشأ محمد صلى الله عليه وسلم على غريزة قومه ، محباً للعمل ، راغباً في الكسب الحلال ، وهو الذي قال بعد هذا في رسالته : أطيب الحلال أن يأكل الرجل من عمل يده ، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده

فلما بلغ مبلغاً يمكنه معه أن يعمل عملاً أخذ يرعى الغنم مع إخوته من الرضاع في البادية ، ثم مضى في هذا العمل بعد أن رجع إلى مكة ، فكان يرعى الغنم لأهلها على قراريط يأخذها منهم ، كما روى هذا الامام البخاري في صحيحه

وكان في هذا الطور يميل إلى شيء من اللهو البريء ، وتدركه عناية الله فيه كما تدرك كل شاب موفق ، وقد حكى عن نفسه في ذلك بعد رسالته فقال : لما نشأت بُغِّضت إليّ الأوثان وبُغض إليّ الشعر ، ولم أهمّ بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين ، كلّ ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بسوء بعدهما حتى أكرمني الله برسالته ، قلتُ ليلة لغلام كان يرعى معي : لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمرَ كما يَسمر الشباب ، فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفاً بالدُّفوف والمزامير لعُرْس بعضهم ، فجلست لذلك فضرب الله على أذني فنمت ، فما أيقظني إلا مسُّ الشمس ، ولم أقض شيئاً ، ثم عراني مرّة أخرى مثلُ ذلك

الطور الثاني : فلما بلغ صلى الله عليه وسلم اثنتي عشرة سنة أخذ يعمل في التجارة مع عمه أبي طالب ، فسافر معه إلى الشام للتجارة وهو في هذه السن ، ولما حذق التجارة انفرد بنفسه عنه .

وكان في مكة سيدة تاجرة ذات شرف ومال تدعى خديجة بنت خويلد من بني أسد بن عبد العزّى بن قصي ، وكانت تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه ، فسمعت عنه من الأمانة والصدق ما رغبها في أن تستأجره للتجارة في مالها ، وكانت سنه في ذلك الوقت خمساً وعشرين سنة ، فاستأجرته ليخرج في مالها إلى الشام للتجارة ، على أن تعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره ، فسافر إلى الشام مع غلامها ميسرة ، فباعا وابتاعا وربحا ربحاً عظيماً ، فسرت به تلك السيدة الكريمة ، وكان زوجها قد توفي ولم تتزوج بعده فأرسلت إليه تخطبه لنفسها وكانت سنها نحو الأربعين ، فقام مع

أعمامه حتى دخل على عمها عمرو بن أسد فخطبها له منه عمه أبو طالب ، فزوجها عمها له ، وصارت بهذا زوجه خمساً وعشرين سنة ، وكان يعمل فى مالها ويأكل من نتيجة عمله ، على أنها ما كانت تضن عليه بشىء منه

الطور الثالث : وكان فى نفسه صلى الله عليه وسلم ميل إلى عبادة ربه ، وإلى العزلة عن ذلك المجتمع الموبوء برذائل الجاهلية ، فلما رزقه الله بتلك الزوج الكريمة ، وصار له مال يساعده على قضاء حاجة نفسه من عبادة ربه ، كان يقصد كل سنة فى شهر رمضان إلى غار حراء ، فينقطع فيه للعبادة ، وكانت قريش تفعل ذلك في جاهليتها ، ولم يبتدع منه صلى الله عليه وسلم شيئاً جديداً لم يكن يفعله أحد من قومه

وكان يخلو بهذا الغار فيتعبد فيه الليالى ذوات العدد ، فتارة عشراً ، وتارة أكثر إلى شهر ، ويأخذ لذلك زاده ، فإذا فرغ رجع إلى زوجه فيتزود لمثلها

وهذا الطور آخر أطواره قبل النبوة ، فإذا أردنا أن نستخلص منها شيئاً من خصائصه صلى الله عليه وسلم فيها وجدناه رجل عمل يعتمد على نفسه ، ويأخذ فى ذلك بما اشتهر به قومه من الحذق فى التجارة ، والرحلة فيها إلى الأقطار القريبة والنائية ، لا يشغلهم عنها شاغل ، ولا يهتمون بغيرها مما كان يهتم به غيرهم من العرب ، حتى عيرهم بهذا بعض شعرائهم فقال :

ألهى قصياً عن المجد الأساطيرُ   ورشوةٌ مثل ما ترشى السفاسيرُ
وأكلها اللحم بحتاً لا خليط له   وقولها رحلت عيرٌ أتت عيرُ

وكان فى هذه الحياة العملية من أحسن قومه خلقاً ، وأصدقهم حديثاً ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال ، حتى كان من أفضلهم مروءة ، وأكرمهم مخالطة ، وخيرهم جواراً ، وأعظمهم حلماً ، فأحبوه وركنوا إليه ولقبوه الأمين حتى غلب على اسمه هذا اللقب

وكان على علمه بفساد ما عليه قومه من عبادة الأصنام وما إليها يكتفى من هذا بالعزلة التى أخذ نفسه بها ، ويأخذ بما يأخذ به بعض الناس من الاهتمام بإصلاح نفسه وعدم الاهتمام بإصلاح غيره ، وكأنه كان يضن بذلك الحب الذى يحبوه قومه به أن يفسده بتخطئتهم ، وتسفيه ما ألفوه من عبادة أصنامهم ، فقضى لا يهمه إلا أمر نفسه ، ولا يعنى بشىء من أمر غيره ، اللهم إلا بعض الأعمال الصالحة التى كان يقوم قومه بها ، فكان يشاركهم فيها ويقوم بنصيبه منها ، كما حصل منه فى حلف الفضول بدار عبدالله بن جُدْعان التَّيمى ، وكان المتحالفون فيه بنى هاشم وبنى المطلب ابنى عبد مناف ، وبنى أسد بن عبد العزَّى ، وبنى زهرة ابن كلاب ، وبنى تيم بن مرَّة ؛ تحالفوا وتعاقدوا ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه حتى ترد إليه مظلمته ، فحضر محمد صلى الله عليه وسلم هذا الحلف مع أعمامه وقال فيه بعد رسالته : « لقد شهدت مع عمومتى حلفاً فى دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لى به حُمُرَ النَّعَم ، ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت »

ولم يعن صلى الله عليه وسلم فى هذه الأطوار بشىء من الفصاحة والبلاغة ، ولم يحاول أن يكون بين قومه خطيباً أو شاعراً ، بل كان يكره الشعر كرهه لعبادة الأصنام ، مع أن الجزيرة العربية كانت تعج فى ذلك الوقت بالشعراء والخطباء ، ولكن قريشاً كانت لا تعنى بشىء من ذلك ، وإنما كانت تعنى بالمال والتجارة عناية أبناء عمومتهم من اليهود ، حتى كان حظها من الشعر دون حظ غيرها من القبائل ، وإن كانت لغتها أفصح اللغات العربية ، وإن كانت مواسم الأدب وأسواقها لا تقوم إلا فى بلادها

وقد قضى محمد صلى الله عليه وسلم فى هذه الأطوار أربعين سنة من عمره ، قضاها على ما وصفنا فى حياة هادئة ، وعيشة مطمئنة ، لا تحدثه نفسه فيها بشىء مما حصل منه بعدها ، ولا تطمح فى أمنيتها وقناعتها إلى أكثر مما وصلت إليه فيها

الطور الرابع : وقد بلغ صلى الله عليه وسلم أربعين سنة فإذا به ينتقل فجأة من تلك الحياة الهادئة إلى حياة عنيفة يشتد فيها الخصام بينه وبين قومه ، وينقلب ما كان فيه من عدم المبالاة بأمرهم حرصاً على مودتهم إلى اندفاع شديد نحو الاهتمام بأمرهم ، وإن أدى هذا إلى انقطاع تلك المودة التى كان يحرص عليها ، وكان فى أهنأ ما يكون من العيشة بها بينهم ؛ وإذا به وهو ذلك الأمى الذى لم يجلس إلى معلم ، ولم يشتغل فى تلك الأربعين سنة إلا بما ذكرنا من التجارة ورعى الغنم ، ينقلب إلى خطيب لا يدانيه

خطيب فى فصاحته ، وعالم لا يدانيه عالم في علمه ، وبيده كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، يدعو به الناس أجمعين ، ويهديهم إلى دين الله الصحيح ، وترك ما دخله من التغيير والتبديل والتحريف ، ويجلب على نفســه بهذا عداء الوثنية وزعمائها من قومه ، وعداء المجوسـية وزعمائها من الفرس وأكاسرتها ، وعداء النصرانية وزعمائها من الروم وقياصرتها ، وعداء اليهودية وزعمائها من اليهود وأحبارها

فما هذا كله ؟ وما هذا الذى جعل من محمد الأمين بين قومه عدوهم اللدود وخصمهم المنيد ؟ لقد اختلفوا عند بناء الـكعبة وهو ابن خمس وثلاثين سـنة فى الحجر الأسود أيهم يرجعه إلى موضعه من الـكعبة ، ثم اتفقوا على أن يحكموا بينهم أول داخل إليهم ، فلما دخل إليهم قالوا : هذا الأمين رضيناه ، هذا محمد ، فبسط رداءه ووضع الحجر عليه ، وقال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، وأمرهم برفعه حتى انتهوا إلى موضعه ، فأخذه ووضعه فيه

فما هذا الذى جعله بعد هذا يعرض نفسه لأن يتهموه بكل شنيعة من القول ؟ فيقولوا عنه مرة إنه ساحر ، ومرة إنه شاعر ، ومرة إنه كاهن ، ومرة إنه مجنون

إنه لم يفعل هذا من نفسه ، ولو أنه خلى ونفسه لمضى فى تلك الحياة الهادئة إلى نهاية أمره ، وإنما كان يعمل فى هذه الحياة الجديدة بأمر طرأ عليه ، وغير من نفسه ما شبت عليه فى تلك الأربعين سنة

فبينما هو في غار حراء قائم فى بعض الأيام على الجبل إذ ظهر له شخص وقال : أبشر يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله إلى هذه الأمة ، ثم قال له : إقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، لأنه كان أمياً كما سبق ، فأخذه فغَطّهُ بالنَمَطِ الذى كان ينام عليه حتى بلغ منه الجهـد ، ثم أرسله ، فقال : إقرأ ، فقال : ما أنا بقارىء ، فأخذه فغطه ثانية ثم أرسله فقال : إقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، فأخذه فغطه الثالثة ثم أرسله فقال : « إقرأْ باسم ربكَ الذى خلقَ ، خلقَ الإنسانَ من علقٍ ، إقرأْ وربكَ الأكرمُ ، الذى علمَ بالقـلم ، علمَ الإنسانَ ما لمْ يعلمْ »

فرجع بها صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده مما ألم به من الروع ، فدخل على خديجة زوجه فقال : زمّلونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه روعه ، فأخبرها الخبر ، وقال لها : لقد خشيت على نفسى ، فقالت له : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصِلِ الرَّحِم ، وتحمل الـكلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فلا يسلط الله عليك الشياطين أو الأوهام ، ولا مراء أن الله اختارك لهداية قومك

ثم ذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان امرءاً قد تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الـكتاب العبرانى ، فكان يكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيـك ، فقال : يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره خبر ما رأى ، فقال له : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى ، ثم قال : يا ليتني فيها جذعاً إذ يخرجك قومك ، فقال : أومخرجى هم ؟ قال : لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عودى

وقد حقق الله نبوءة ورقة بهذه الهجرة التى نحيي ذكراها كل سنة

وهذا هو حكم التاريخ وعلم النفس فى رسالة محمد صلى الله عليه وسـلم ، وهذا يا إلـهى بعض جهادى فى نصر دينك أشكو إليك ما ألقاه بسببه من أذى ، وهو لذتي فى هذه الدنيا إذا التذ قوم بمتاعها ، وأنت حسبى ونعم الوكيل

عبد المتعال الصعيدى

دراسات أدبية

مقتل الحسين

وأثره في الأدب العربي

للأستاذ ضياء الدين الدخيلي

هذا المحرم قد وافتك صارخة ... مما استحلوا به أيامُـه الحرم

يملأن سمعك من أصوات ناعية ... في مسمع الدهر من إعوالها صمم

تنعى إليك دماء غاب ناصرها ... حتى أريقت ولم يرفع لـكم علم

جاء المحرم فالمساجد العراقية مجللة بالسواد، والوجوه تعلوها الـكآبة، هنا وهناك عويل ونواح يكربان القلب. الصدور موجعة بضرب الأيدى، والمتون مكلومة بالدم بالسلاسل النحاسية، والنفوس فزعة جزعة قد تملـكها الهلع إذ خلبتها الألسن الذلقة التي لم تدع أسلوباً لتهويل فاجعة كربلاء إلا ركبت سبيله الأوعر والأشد إيلاماً والأنكى لذعة ولوعة. مواكب تجلببت السرابيل المضاعفة من الحزن خنقها الأسى فلا تأسى، ورؤوس تشج بحد السيوف، ودماء تراق على مذبح فاجعة كربلاء، فما قيمة العبرات والزفرات والدموع المنصبة على أقدام هذه المأساة المؤلمة التي لم يع التاريخ أفجع منها ولا أكثر جلبة من تبعاتها. ففي إيران والعراق والهنـد وسورية والحجاز وهنا وهناك مآتم ومناحات تعقد لتسكب العبرات وتنفث الزفرات، فكأن نفس الشرق الحالمة بالأشباح والرؤى، المفعمة بالطموح وأحلام الغيب، المتبرمة بالحياة وأحكامها التي ترزح بأعبائها — وجدت في هذه المأساة مجالاً واسعاً لإعلان عويلها والتنفيس عن كربها

وإن شيعة العلويين التي لم تهيمن على مقدرات البلاد ولم تسيطر على أزمة الحـكم وتقبض على السلطة الزمنية إلا قليلاً، بقيت طوال الدهر ناقمة ساخطة على الدهر الهازل، ساخرة من أقداره الملوءة بالمهازل، فشاعرها (السيد جعفر الحلى صاحب ديوان سحر بابل وسجع البلابل) يقول:

وجه الصباح عليّ ليل مظلم ... وربيع أيامي على محـــرم

بي قرحة لو أنهـا بيلملم ... نسفت جوانبه وساخ يلملم (١)

ما خلت أن الدهر من عاداته ... تروى الـكلاب به ويظما الضيغم

ويقدم الأموى وهو مؤخر ... ويؤخر العلوى وهو مقـدم

مثل ابن فاطمة يبيت مشرداً ... ويزيد في لذاته متنعم

ويضيق الدنيا على ابن محمد ... حتى تقاذفه الفضـاء الأعظم

خرج الحسين من المدينة خائفاً ... كخروج موسى خائفاً يتكتم

وقد صبغ المحرم أدب الشيعة بصبغة سوداء قاتمة بالـكآبة، حمراء ملطخة بدم الشهداء، كالحة تعلوها شارات التكدر والانزعاج من الوضع الراهن الواقعي، وهذا الأدب الباكي تسوده الأحلام بفردوس مفقود أسسه العدالة، يرجع فيه حق الحكم إلى أهله وذويه الشرعيين، لذلك فهو أبداً يندب (صاحب الزمان) الذي غاب عن الأنظار ليعود فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملأت جوراً وعسفاً. وسوف يعم في عهده الأمان ويسود السلام المجتمع حتى ترعى الشاة مع الذئب، فاسمع السيد حيدر الحلى يندب الامام الغائب:

مات التصبر في انتظا ... رك أيهـا المحيي الشريعة

بك تستغيث وقلبهـــا ... لك عن جوى يشكو صدوعه

ما ذا يهيجك إن صــبر ... ت لوقعة الطعن الفجيعه

حيث الحســـين بكربلا ... خيل العدى طحنت ضلوعه

والشيعة تعتقد أن حكم اليوم مضرج بدماء الأبرياء، ملطخ ببقع سوداء من قضاء الجور والشبهات. وفي الحق أن الأدب الشيعي خير مثال لأدب التشاؤم الساخط على الحياة الحالم بالمثل الأعلى. ولا أريد أن أصدر حكماً عاماً شاملاً على أدباء الشيعة وأكسوهم بهذه الصبغة الحالـكة، فمن قرأ غزليات السيد محمد السعيد الحبوبي الشاعر النجفي (طبع ديوانه في بيروت) وأسام سرح الطرف بين موشحاته الرقيقة وروضياته وخمرياته وجدها ضاحكة متهللة طروباً، ومن خير ما يمثل الحياة المرحة البهيجة (وعسانا أن نتحدث إلى قراء الرسالة الـكرام عن أدب هـذا الشاعر العبقرى). إنما أعنى هذا القبيل الذى أترع أدبه بالعويل والنياحة، وعلى رأس هذا الرعيل السيد حيدر الحلى، وهاشم الـكعبي، وصالح الـكواز، وصالح القزويني العلوي، وابراهيم الطباطبائي، وجعفر الحلى، ورضا الهندى، وكاظم الأزرى وعبدالمطلب الحلي، وعبد الحسين الأعسم، وهؤلاء شعراء مطبوعون

(١) جبل

لهم دواوين مفعمة بالأدب المشبع قوة وحيوية ؛ وقد أقاموا على شواطئ الفرات فى غضون عصر النهضة دولة للشعر يدعمها خصب القرائح ورصانة الأساليب ومتانة السبك ودقة المعنى وسمو الخيال . وإنه لمن المعقوق أن تتغافل عن دراسة أدبهم الأقلام العربية النزيهة بعصر ، وإنك إذا تصفحت ما خلفوه من شعر محكم الأثر ، قوى البيان ، فخم التعابير ، جزل الألفاظ ، وجدته طافحاً بالتهريج والتنديد بالأمويين وما استباحوه من الدماء المحرمة في كربلاء ، وما انتهكوه من حرمة ذرية الرسول ، فترى المحرم قد صبغ أدبهم بصبغة خاصة لا تجد نظيرها فى كثير من الآداب العالمية ، وقد مزجوا بشعرهم الوجدانى قصصاً ووقائع تاريخية فاستحدثوا لوناً يختلف عما ألفناه فى أقسام الأدب العربى من قبل . وقد قرأت للأستاذ الزيات فى كتابه (فى أصول الأدب) كلمته الآتية ، قال عند استعراضه العوامل المؤثرة فى الأدب : « وتأثير الأديان فى الأدب أمر ثابت بأدلة الطبع والسمع فإنها تخلق موضوعات جديدة لمصنفات جديدة ، وتؤثر فى الأخلاق والعواطف تأثيراً يتردد صداه فى مناحى الأدب ... فأن فى كل دين من الأديان السماوية قسماً وجدانياً اجتهادياً يختلف أبناؤه فى فهمه اختلافهم في الطبائع والنازع والغاية ، فأشعار الخوارج مثلا تنضح بالدماء وتطفح بالحماسة لتعصبهم وتصلبهم وجعلهم غاية الإسلام جهاد مخالفيهم فى الرأى ، وأشعار الشيعة تفيض باجلال زوج البتول وصهر الرسول وتمجيد ذكرى بنيه وتمثيل آلامهم ورثاء من قتل من أعلامهم »

وما لوّح إليه الأستاذ الزيات حقيقة راهنة تعضدها قواعد علم النفس وأصول التربية الحديثة وقواميس الاجتماع ويدعمها الوجدان بأنصع برهان ؛ فها هى ذي المجاميع المشحونة بالقصائد العصماء التى تتفجر حزناً لمقتل سيدنا الحسين عليه السلام ، ومن أحدثها (لواعج الأشجان) تأليف العلامة السيد محسن العاملى ، و (مثير الأحزان) وحسبك بأسمائها معرفاً بما انطوت عليه صدورها من مآس .

هذا عدا الدواوين المسودة بنعى شهداء هذه الوقعة ، وقد كان حامل لواء هذه السرايا هو الشريف الرضى (موضوع دراسة الدكتور زكي المبارك ضيف العراق الكريم فقد أخذ اليوم فى تحليل أدبه الخالد فكانت أبحاثاً ممتعة أصبحت محور الحديث والمناقشة فى الأوساط الأدبية هنا) ، وقد كان الشريف الرضي مفجوعاً كليم الفؤاد فتجد شعره فى رثاء الحسين طافحاً بالأنين والحنين ، قال فى قصيدة مقصورة :

وضيوف لفلاةٍ قفرة ... نزلوا فيها على غير قرى
لم يذوقوا الماء حتى اجتمعوا ... بحِدا السيف على ورد الردى
ووجوه كالمصابيح فمن ... قمر غاب ونجم قد هوى
غيرتهن الليالى وغدا ... جائرَ الحكم عليهن البِلى
يا رسول الله لو عاينتهم ... وهم ما بين قتالٍ وسِبا
من رميض يمنع الظل ومن ... عاطش يُسقى أنابيب القنا
ومَسوقٍ عاثر يسعى به ... خلف محمول على غير وطا
جزّرُوا جزر الأضاحى نسله ... ثم ساقوا أهله سوق الإما
واقتيلاً قوّض الدهر به ... عُمُد الدين وأعلام الهدى
غسلوه بدم الطعن وما ... كفّنوه غير بوغاء[1] الثرى

وشاعر علوى آخر لا يقل فى جودة شعره وروعة شوارده عن أبى الطيب المتنبي ، ولربما يجوزه فى حماسه الملتهب وطموحه المتوثب المتحفز للانتقام فى المستقبل الغامض ، ذلك هو السيد حيدر الحلى ولد عام ١٢٤٦ وتوفى سنة ١٣٠٤ ، وبلده الحلة مدينة كبيرة تقع على أحد فروع نهر الفرات قرب موقع بابل التاريخية ، وقد نبغ فيها عدد غفير من الشعراء النابغين . وإن شاعرنا هذا يمتاز بفخامة التعابير وروعة الأحلام ودقة الوصف والتصوير والمقدرة على التهويل وإلباس الحوادث جلباب الضخامة والجسامة ونحت هيا كل الأشباح والأخيلة من مادة الواقع ولكن بتكبير وتعظيم ، وله براعة ممتازة فى استنهاض الراقد وتحذير الغافل عن الخطر الداهم ولو كان موهوماً ، وقد عاش مفجوعاً بواقعة كربلاء التى تركت فى نفسه أثراً عميقاً فظهر هذا الانفعال النفسانى جليا فى مراثيه . فاسمعه ينوح على شهيد الإباء ، وديوانه كما سلف نواح وتهديد وزمجرة ووعيد :

وادعت حولى الشجا ذات طوق ... مات منها على النياح المجوع
شاطرتنى بزعمها الداء حزناً ... حين أنت وقلبى المفجوع

(١) البوغاء : التربة الرخوة كأنها ذريرة ، وتأتى كفن من دون تضعيف متعدية لواحد فاذا ضعفت عديت إلى اثنين كسرب

يا طروب العشيّ خلفك عني لم يهجني صبابة وولوع
لم يرعني نوى الخليط ولكن
من جوى الطف[1] راعني ما يروع
أي يوم بشفرة البغي فيه عاد أنف الاسلام وهو جديع
أينما طارت النفوس شعاعاً فلطير الردى عليها وقوع
قد تواصت بالصبر فيه رجال فى حشا الموت من لقاها صدوع
سكنت منهم النفوس جسوماً هي بأساً حفائظ ودروع

وقوله يعرض بالهاشميين وتثاقلهم عن نصرته :

لتلو لوى الجيد ناكسة الطرف
فهاشمها فى الطف مهشومة الأنف
ويا مضر الحمراء لا تنشرى اللوا
فان لواكِ اليوم أجدر باللف
ألستم إذا عن ساقها الحرب شمّرت
وعن نابها قد قلصت شفة الحتف
سحبتم إليها ذيل كل مفاضة[2]
ترد الظبا بالثم والسمر بالقصف
فكيف رضيتم من حرارة وترها
بماء الطلى[3] منكم ظبا القوم تستشق

ثم يتجه إلى الامام على بن أبي طالب ويخاطبه مخاطبة الأحياء على الأساليب الشعرية المتبعة

أبا حسن أبناؤك اليوم حلّقت
بقادمة الأسياف عن خطة الخسف
لقد حشدت حشد العطاش على الردى
عطاش وما بلّت حشاً بسوي اللف
فتلك على الرمضاء صرعى جسومهم
ونسوتهم هاتيك أسرى على العجف[4]
وهل زحف هذا اليوم أبق لحيهم
عميد وغي يستنهض الحى للزحف

***

(١) الطف : المكان الذى قتل به الحسين (٢) درع واسعة
(٣) الرقاب وهى من مثانات قطرب . قال عبد الرحمن السنهورى :
ولد الظبية يدعى بالطلا والراح ان تطبع تسمى بالطلا
وجمع أعناق الأنام فالطلي تقودها أزمة الأقدار
(٤) العجف الابل المزال

وله من أخرى :

عثر الدهر ويرجو أن يقالا تربت كفك من راج محالا
لا أقالتنى المقادير إذا كنت ممن لك يا دهر أقالا

وتسمع هنا لكبرياء نفس الشاعر قمقمة وجلجلة ، وأى تعاظم يطاول بالمرء الدهر ويجعله عرضة لسخط الشاعر وغضبه بحيث يوقف موقف الذل والاستكانة حتى يطلب إقالته من عثرته

أزلال العفو تبغي وعلى أهل حوض الله حرمت الزلالا
الطاعين إذا شبت وغى والمطاعيم إذا هبت شمالا
إن دعوا خفوا إلى داعى الوغى وإذا النادى احتبي كانوا ثقالا
وقفوا والموت فى قارعة لو بها أرسى ثهلان لزالا

وقوله حرمت الزلال يلوح إلى قتل الحسين وأصحابه عطاشاً وذلك من مآسى الواقعة التى أخذت مجالا لمناحة الشعراء

وقوله من أخرى :

وخائضين غمار الموت طافحة أمواجها البيض بالهامات تلتطم
مشوا إلى الحرب مشى الضاريات لها
فصارعوا الموت فيها والقنا أجم
ولا غضاضة يوم الطف إن قتلوا صبراً بهيجاء لم تثبت لها قدم
فالحرب تعلم إن ماتوا بها فلقد ماتت بها منهم الأسياف لا الهمم
أبكيهم لعوادى الخيل إن ركبت رؤوسها لم يكفكف عزمها اللجم
وللسيوف إذا الموت الزؤام غدا فى حدها هو والأرواح يختصم
تنعى إليك دماء غاب ناصرها حتى أريقت ولم يرفع لكم علم
مسفوحة لم تجب عند استغاثتها إلا بأدمع ثكلى شفها الألم
حنت وبين يديها فتية شربت من نحرها نصب عينيها الظبا الخذم
موسدين على الرمضاء تنظرهم
حرى القلوب على ورد الردى ازدحموا
سقياً لثاوين لم تبلل مضاجعهم إلا الدماء وإلا الأدمع السجم
أفناهم صبرهم تحت الظبا كرماً حتى مضوا ورداهم ملؤه كرم

***

وقد افتتح هذه القصيدة بحماسة تذكر بفخر التنبي وتهديده ووعده ووعيده قال :

إن لم أقف حيث جيش الموت يزدحم
فلا سـمت بى فى طرق العلى قدم

لا بد أن أتداوى بالقنا فلقد … صبرت حتى فؤادى كله ألم
عندى من العزم سر لا أبوح به … حتى تبوح به الهندية الخذم
لا أرضعت لى العلا ابناصفو درّتها … إن هكذا ظل رحى وهو منفطم

ولربما أكثرنا من الاستشهاد بالقطوعات الرثائية التى هى من هذا الفرع الغض النضير بشعريته وإهابه الجهم الكالح بمؤداه الباكي بمغزاه ومعناه ، ونظن أن فى هذا النوع طرافة وجدّة عند قراء (الرسالة) الكرام

وبعد فانك واجد هـذه الوقعة قد أثرت أثرها فى الأدب وأنشأت جانباً خاصاً له مميزاته ومزاياه تربطه صلة قوية العرى محكمة الحلقات ، وليس هذا القسم من الشعر ثمرة الأيام الأخيرة ، كلا فانه يمتد إلى عهد دعبل الخزاعى وتائيته التى مطلعها :

مدارس آيات خلت من تلاوة … ومنزل وحى مقفر العرصات

والحسن بن الضحاك الذى يقول :

ومماشجاقلبي وكفكف عبرتي … محارم من آل النبيّ استحلتِ

وجعفر بن عفان الشاعر العباسى الذى يقول من قصيدة :

ليبك على الاسلام من كان باكياً … فقد ضيعت أحكامه واستحلت
غـداة حسين للرماح درية … وقد نهلت منه السيوف وعلت
وغودر فى الصحراء لحماً مبدداً … عليه عتاق الطير باتت وظلت

وسليمان بن قتة العدوى مولى بنى تميم وذلك حين مرّ بكربلا بعد قتل الحسين بثلاث ، فنظر إلى مصارعهم واتكأ على فرس له عربية وأنشأ يقول ، وقيل إنها لأبى الرجح الخزاعى ، وقال ابن الأثير إنها للتيمى تيم مرة قال وكان منقطعاً لبنى هاشم :

مررت على أبيات آل محمـد … فلم أرها أمثالهـا يوم حلتِ
ألم تر أن الشمس أضحت مريضة … لفقد حسين والبلاد اقشعرت
وكانوا غياثا ثم أضحوا رزية … لقد عظمت تلك الرزايا وجلت
وإن قتيل الطف من آل هاشم … أذل رقاب المسلمين فذلت
وقد أعولت تبكى السماء لفقده … وأنجمنا ناحت عليـه وصلت

وعقبة بن عمرو العبسى وهو أول من رثى الحسين فيما حكاه سبط ابن الجوزى عن السدى :

مررت على قبر الحسين بكربلا … ففاض عليه من دموعى غزيرها
ومازلت أبكيه وأرثى لشجوه … ويسعد عينى دمعها وزفيرها

وآخر من عبد القيس قتل أخوه مع الحسين :

يا فرو قومى فاندبى … خير البرية فى القبور
ذاك الحسين مع التأوه … والتفجع والزفـير

والفضل بن عباس :

أعينى إن لا تبكيا لمصيبتى … فكل عيون الناس عنى أصبر

وبديع الزمان الهمذانى :

يا لمـة ضرب الزما … ن على معرسها خيامه
لله درك من خُزا … مى رمضة عادت ثغامه
لرزية قامت بهـا … للدين أشراط القيامه
لمضرج بدم النبوة … ضـارب بيد الأمامه
متقسم بظبا السيوف … مجرع فيهـا حمامه

والسيد الحميرى :

أمرر على جدث الحسـين وقل لأعظمه الزكية
يا أعظما لا زلت من … وطفاء ساكبـة روية

وبعد فهذه صفحات من أدبنا القوى طوى المدارك المفرقة بين أمة الضاد التى أثارت دخان هذا الشعر — ما دهمنا من خطر الغرب ، فنحن ندرسها للتاريخ لا أكثر ، فقد درّ الهاشميون والأمويون وقبرت معهم منازعاتهم حول الملك

العراق — النجف الأشرف … ضياء الدين الدخيلى

مقالة تذكارية

ابن سينا

بمناسبة انقضاء تسعمائة سنة على وفاته

للدكتور زكى على

في سنة ١٩٣٣ خطر لكاتب هذه السطور بينما كان يقوم ببعض الأبحاث فى معهد تاريخ الطب بفينا أن يُحيي ذكرى طبيب الإسلام الأشهر « ابن سينا » فى الوقت المناسب بنشر بعض الرسائل العلمية عن حياته فى المجلات الطبية وغيرها

وجرى وقتئذ بينى وبين الأستاذ ماكس نويبرجر — وهو من أشهر علماء تاريخ الطب اليوم — حديث فى هذا الشأن لفت نظرى فى سياقه إلى رسالة لأحد الأطباء من الأتراك الكماليين حاول فيها أن ينسب ابن سينا إلى العنصر التركى تمشياً مع نعرة الجنس التى تغلغلت فى تركيا الكمالية وشوّهت فى كثير من الأحيان وجه الحقائق التاريخية تبريراً لغاية قومية

وقد نشرت « الرسالة » فى أحد أعدادها فى الصيف الماضى نبأ مؤداه أن جامعة استانبول احتفلت بإحياء ذكرى « ابن سينا » أنبغ طبيب فى الإسلام . ولما كان ابن سينا فارسى الأصل فقد أراد الكماليون بعملهم هذا تجريده من فارسيته وإقامة الدعوى الباطلة على أنه ينتمى إلى الجنس التركى ، وبذلك تكون عبقريته النادرة من مفاخر القومية التركية ؛ وفى هذا افتيات على التاريخ والعلم لا تبرره العصبية الجنسية

***

يلقب ابن سينا فى الشرق « بالشيخ الرئيس » وفى الغرب « بأمير الأطباء » حيث عرفته أوروبا باسم Avicenna واسمه الكامل أبو على الحسين بن عبد الله بن الحسن بن على بن سينا ، وقد أجمع المؤرخون على اعتبار شخصيته إحدى الظواهر الفكرية العجيبة التى سجلها تاريخ الطب والفلسفة كما أنه من أعظم العلماء الذين أنجبهم الشرق إذ جمع فى نفسه شخصية الطبيب والفيلسوف والشاعر والفلكي والسياسى والعالم بطبقات الأرض ، وبلغ بذلك ذروة النبوغ وقمة الشهرة بين علماء الإسلام شرقاً وغرباً ؛ وحسبك ما ذكره عنه الطبيب المؤرخ الأمريكى كامستون إذ قال : « يعتبر ابن سينا معجزة من معجزات العقل الراجح ويجوز أنه لم يسبقه ولم يظهر بعده من العلماء من يدانيه فى حدة الذكاء وسرعة نبوغ العقل بالنسبة للعمر مع عزم ونشاط لا يعرف الملل وهمة شاسعة الحدود »

ولد ابن سينا بقرية تسمى « أفشنة » بالقرب من « حرميثن » من أعمال بخارى وذلك سنة ٩٨٠ م (٣٧٠ هـ) وكان أبوه من بلخ ثم انتقل إلى مملكة بخارى فى زمن نوح بن منصور من الدولة السامانية وكانت يومئذ غاصة بالعلماء فوجهه أبوه إلى من حفظه القرآن وعلوم الأدب

وظهرت بوادر نبوغ ابن سينا وعبقريته منذ الطفولة فما بلغ العاشرة من عمره حتى حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب ودرس النحو والأدب والفقه ، ثم تعمق الفتى فى دراسة شتى العلوم بحماسة وجد بالغين ، فأتى على منطق أرسطو وفلسفته وأكب على تحصيل الهندسة والطبيعة والفلك فأتقن ذلك كله ولم يتجاوز السادسة عشرة . وكان من نعومة أظفاره يحس من نفسه ميلاً خاصاً إلى دراسة الطب فأقبل على تعلمه بسرعة غريبة إذ أكمل معارفه فيه واشتهر أمره كطبيب بارع ونطاسى ماهر بعد أن جاوز عمره الثامنة عشرة بقليل . وصادف إذ ذاك أن مرض السلطان نوح بن منصور حاكم بخارى لذلك العهد ورأى أطباؤه أن يستشيروا ابن سينا فى أمر معالجته ، فاستدعى صاحب الترجمة فأشار بعلاج حاسم كان فيه شفاء السلطان فأحسن مكافأته وسمح له بالاطلاع على نفائس مكتبته الخاصة التى حوت كثيراً من الكتب العلمية النادرة فوعى ابن سينا زبدة ما فيها وعكف على الدرس والبحث سنوات ما كان يذوق فيها طعم النوم إلا غراراً ، ومما قاله عن نفسه : « لازمت العلم وكنت كلما أحار فى مسئلة ترددت إلى الجامع وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل حتى يفتح لى المنغلق منه ويتيسر المتعسر . وكنت أشتغل ليلاً فى دارى بالكتابة والقراءة فإن غلبنى النوم أو شعرت بضعف عدلت إلى شرب قدح من الشراب ريثما تعود إلىّ قوتى ثم أرجع إلى القراءة ، فإن غلبنى النوم حلمت بالمسائل التى كنت أعالج حلها حتى إن كثيراً منها اتضح لى بالمنام »

وأخذ ابن سينا فى التأليف وهو فى الحادية والعشرين من عمره فصنف موسوعة علمية ضمنها كثيراً من العلوم الطبيعية وكتب فى الفلسفة وما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) عدة رسائل

وفى غضون تلك المدة صار ابن سينا مضرب المثل فى البراعة الطبية وذاع صيته لما أوتيه من النجاح فى علاج المرضى الذين كانوا يفدون إليه من فجاج الأرض ، وله في ذلك كثير من النوادر العجيبة التى تناقلها الرواة والمؤلفون (١)

ثم لما بلغ صاحب الترجمة الثانية والعشرين من عمره نكب بوفاة والده فانتابته بعد ذلك الشدائد ، وزاد فى محنته وأهواله أن اضمحلت الدولة السامانية وكانوا حماته الذين تعهدوه بالرعاية والتشجيع ، فخرج من مملكة بخارى قاصداً « كركانج » عاصمة « خوارزم » التى كان يحكمها الأمير على بن مأمون ، غير أن الضيق لازمه فتنقل فى البلاد شريداً ثم ألقى عصا الترحال فى « جرجان » حيث كان يقصد أميرها « قابوس » الذى اشتهر بتأييده للعلماء فصادف وصوله سقوط قابوس عن عرشه وحبسه فى بعض القلاع وما لبث أن مات ، فتألم ابن سينا لذلك ألماً شديداً وأنشأ قصيدة قال فيها :

لما عظمت فليس مصرٌ واسعى لما غلا ثمنى عدمتُ المشترى

ثم هام على وجهه فى الآفاق إلى أن وصل أخيراً إلى « حمدان » ودخل فى خدمة أميرها شمس الدولة وعالجه علاجاً ناجحاً إذ كان يشكو مرضاً شديداً بالمعدة ، فأحسن الأمير صلته وقلده الوزارة ولم تمنعه أعمال الدولة ومهام المنصب عن مواصلة نشاطه الطبى وأبحاثه العلمية ، فألف فى ذلك الوقت الجزء الأول من كتابه الأشهر « القانون فى الطب » ، وكان يقضى النهـار فى مباشرة شئون الدولة ويحيى الليل بالمحاضرة والتدريس وإملاء المذكرات على تلاميذه ، فإذا انتهى من محاضرته استبقى مستمعيه وهيّأ مجلس الغناء والأنس والموسيقى ترويحاً للنفوس من عناء الدرس

على أن هذه الحياة الحافلة بالعلم والعمل والنشاط ما لبثت أن عصفت بها رياح الفتن السياسية ودسّ أعداء صاحب الترجمة له واتهم بأن له صلة سياسية وثيقة بأمير أصفهان وسجن فى إحدى القلاع وهناك لازم التأليف . ثم إنه أفلح أخيراً فى الفرار من سجنه بعد أن تنكر فى زى الصوفية وقصد أصفهان حيث استقبله أميرها بكل أنواع الحفاوة والإكرام وصار موضع إكبار الجميع وصحب السلطان في كثير من غزواته إذ كان طبيبه الخاص ووزيراً للدولة وعكف على إنجاز مؤلفاته العديدة فى مختلف العلوم وفي مقدمتها كتابه « القانون فى الطب » الذى أذاع اسمه وخلّد شهرته فى الشرق والغرب مدى ستة قرون ، ودوّن كتبه فى الفلسفة والفلك وعلم النفس وفقه اللغة والعلوم الطبيعية والكيماوية وغيرها ، ولم ينقطع برغم هذا كله عن ممارسة مهنة الطب التى فاق فيها كل معاصريه وأوصله نبوغه فيهـا إلى مكانة ليس وراءها غاية

وقد أنهكت الجهود الجبارة والعمل الشديد المتواصل قواه فمات ولم يتجاوز عمره السابعة والخمسين سنة ١٠٣٧م

ويمتاز ابن سينا بغزارة مادته الأصلية فى التأليف ، وتنوع العلوم والفنون التى ترك فيها آثاراً قيمة ، وضخامة كثير من كتبه النفيسة التى كانت بمثابة دوائر معارف شاملة

ولا جدال فى أن كتابه « القانون فى الطب » — وهو أهم مؤلفاته ، وأضخمها إذ يحتوى على نحو مليون كلمة — الفضل الأكبر فى ذيوع تعاليم ابن سينا وآرائه الطبية فى كل الأقطار ، ثم فى بقـاء تأثيره نافذاً متسلطاً على مصير الطب في الشرق والغرب مدى عدة قرون . وقد نوه الطبيب المؤرخ الإيطالى كاستليونى فى كتابه « تاريخ الطب » المطبوع سنة ١٩٣١ بأن تميز « قانون ابن سينا » على كل ما سواه من كتب الطب فى العصور الوسطى راجع إلى دقة ابن سينا فى الشرح والتحليل بطريقة تهذيبية تعليمية بارعة ، وإلى إتقان تبويبه وتقسيمه وترتيب المواضيع الطبية التى عالجها بحيث كفى الأطباء فى ذلك العصر مؤونة البحث فيما عداه »

وقد دون ابن سينا فى « قانونه » كل علوم الطب إلى زمنه ، ونقحها وزاد عليها آراءه وملاحظاته ومشاهداته الأكلينيكية ، ويقع فى خمسة كتب أساسية . وبقى هذا الكتاب يدرس في جامعات أوربا زهاء ستة قرون ، واستمر المرجع الأساسى فى تدريس الطب بجامعتى مونبلييه ولوفان حتى ختام القرن السابع عشر .

---

(١) ذكرنا شيئاً من ذلك فى رسالتنا « الطب العربى وتأثيره فى مدنية أوربا » طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٣١

وترجم «القانون» إلى اللاتينية فى طليطلة فى القرن الثانى عشر نقله چيرار دى كريمونا ثم ظهرت له بعد ذلك طبعات لاتينية أخرى تعد بالعشرات. ونشرت منه طبعة عربية فى روما سنة ١٥٩٣، وفى بولاق بمصر سنة ١٨٧٧، وظهرت له فى أوربا عدة شروح، كما ترجمت أجزاء منه إلى الفرنسية والألمانية والانجليزية وغيرها من لغات أوربا، وترجم أيضاً إلى التركية والفارسية (١)

وقد أحصى العلامة الألماني وستنفلد من مؤلفات ابن سينا مائة وخمسة فى علوم الطب والفلسفة والدين والفلك واللغة والأدب والموسيقى والهندسة والمنطق والعلوم الطبيعية وغيرها، ونكتفى هنا بذكر أسماء بعضها: فمن كتبه التى نقلت إلى اللاتينية وغيرها من لغات أوربا، بعد «القانون» كتاب «قلب الانسان» و «الأرجوزة فى الطب» و «الشراب» و «مختصر الحيوان» «والحجر الفلسفى» و «السماء والعالم» و «النفس» و «ما بعد الطبيعة» و «الطبيعيات» و «الكيمياء» و «المنطق» و «الحدود» و «التعريفات» و «الفلسفة الأولى»

ثم كتاب «الشفاء» فى الفلسفة وترجم إلى اللاتينية بعنوان Liber Sufficientis ولا يزال الأصل العربى موجوداً. وله فى الفلسفة أيضاً كتاب «النجاة» و «الإشارات» ورسائل فى الإنصاف والمسائل العشرين، والمباحثات، والجوهر الذى لا يتحرك، وتقسيم العلوم الفلسفية، وحد الجسم، وشرح كتاب النفس لأرسطو وما بعد الطبيعة، وكل هذه لا تزال باقية

ومن كتبه فى الفقه والتوحيد الإلهيات والجانة الإلهية ثم له القصيدة العينية الشهيرة فى النفس التى مطلعها:

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

وفيها يقول:

إن كان أرسلها الإله لحكمة

طويت عن الفطن اللبيب الأروع

فهبوطها إن كان ضربة لازب لتكون سامعة بما لم تسمع

وتعود عالمة بكل خفيــــة فى العالمين نخرقها لم يرقع

وهى التى قطع الزمان طريقها حتى لقد غربت بغير المطلع

فكأنهــا برق تألق للحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمع

وفى المنطق كتاب الإشارة وكتاب المشرقيين ورسالة العروس؛ وله في العلوم الطبيعية والرياضية والآداب والسياسة والفقه والموسيقى واللغة العربية وعلومها مؤلفات كثيرة بعضها موجود فى مكاتب أوروبا وبعضها مفقود

وقد ترك ابن سينا وصفاً علمياً صحيحاً لتكوين الجبال، ذكره درابر ووشنجتون، واعتبره جاريسون الأمريكى مبرراً لتسمية ابن سينا «أبا علم طبقات الأرض» (الجيولوجى)

ويضيق بنا المقام هنا عن ذكر آراء ابن سينا الفلسفية ولهذا نقتصر على إيراد المهم من مشاهداته واكتشافاته الطبية

امتاز ابن سينا على أبقراط وأرسطو وجالينوس بدقتــه فى مناقشة الحالات المرضــية ومهارته فى فن تشخيص الأمراض (Semiologie) ومبحث أسباب المرض (aetiologie) وهو أول من وصف مرض الالتهاب السحائى «السرسام الحار» وصفاً صحيحاً وميزه عن الأمراض الحادة المصحوبة بالهذيان، وكان ذلك يلتبس على أطباء اليونان؛ كما أنه أتقن وصف سير هذا المرض والانذار فيه. ومما يدل على دقة ملاحظاته الاكلينيكية ذكره أن التهاب البلورا «ذات الجنب» والتهاب الرئة «ذات الرئة» قد تنتج عنهما أعراض سرسامية بهيئة مضاعفات، وأن التهاب السحايا فى تلك الحالات يعتبر نذيراً سيئاً إذ تعقبه الوفاة عادة.

وأجاد ابن سينا أيضاً فى شرح أمراض الجهاز التنفسى، وقال بضرورة التميز عن تشخيص ذات الجنب بين التهاب البلورا الحقيقى، وبين الالتهاب البسيط للعضلات بين الضلوع وبين التهاب المنصف الصدري (الحيزوم) وخراج السطح الأعلى للــكبد.

وأتقن ابن سينا وصف الأمراض العصبية، وبوجه خاص الأشكال المختلفة للشلل وللفالج النصفى ولشلل الوجه (اللقــوة) واهتدى إلى التمييز بين نوعى اللقوة: المركزى والموضعي وشرح باسهاب التشخيص التميزى بينهما

(١) عنى بعض علماء أوربا فى السنوات الأخيرة بالتعمق فى دراســة مؤلفات ابن سينا الطبية والفلسفية ونشرها فحبذا أن تعني الحكومة المصرية باعادة طبع كتاب «القانون» طبعة حديثة إحياء لتراث العظماء من السلف

ومما أشار إليه ابن سينا أن المخ والعظام خلافاً لرأي القدماء قد تكون مقراً للأورام

وكان يعالج تشوهات السلسلة الفقرية بالرد العنيف وهى طريقة أعاد إدخالها فى العلاج الجراح الفرنسى كالو سنة ١٨٩٦ . ولابن سينا طريقة شائقة طريفة فى وصف الأمراض العقلية ، وله الفضل فى ابتكار كثير من طرق العلاج النفساني

وكان جالينوس يقول بأن السكتة (ضربة الدم أو النقطة) يندر أن تكون مسببة عن البليثورا وهذا خطأ ، نخالفه ابن سينا وقال بالعكس ، مستنداً إلى مشاهداته الإكلينيكية ، بأن البليثورا من أكثر الأسباب المهيئة لحدوث السكتة

ومما ذكره ابن سينا ولم يسبقه إليه أحد أن الحصبة أكثر ما تكون عدواها فى الربيع والخريف وأنها أكثر وقوعاً فى هذين الفصلين ، كما ذكر أن الأطفال يصابون بها أكثر من البالغين

ودرس ابن سينا بدقة أمراض الكبد وطريقة فحصه ووصف بمهارة أعراض اليرقان بأنواعه بما يتفق والأوصاف الحديثة ؛ وشرح عند الكلام على أمراض المعدة ، أعراض ضيق البوّاب والقرحة المعدية وأفاض فى شرح أضرار إدمان الكحول على الكبد ، وعلّل السبب الفيزيولوجى لتلافيف الأمعاء . وتكلم ابن سينا طويلاً عن استطالة عنق الرحم وعن أورام الرحم وسقوطه وصلابته وعن خطر سرطان عنق الرحم

ووصف طريقة علاج البواسير بالشق ، وأشار عند الكلام على الدُبَيلة (تجمع الصديد في جوف البلورا أو الإمبيما) بعلاجها بالشق عليها لتفريغ الصديد ، وذكر طريقة رد خلع الكتف بالضغط المباشر . وأما فى علم الديدان فهو أول من وصف الدودة المعروفة باسم الفرنْتيت أو العِرْق المدينى Vera medinensis

ثم إن أوصاف ابن سينا فى التشريح أكمل فى بعض الأحيان من أوصاف جالينوس . وذكر بُورْتال أن ابن سينا كان ذا معرفة تامة بتشريح القزحية وإنسان العين والقناة الدمعية وأنه أول من اكتشف اندغام عضلات العين

وقد أدخل ابن سينا فى مادة الأدوية عدداً كبيراً من العقاقير الطبية التى لم تكن مستعملة من قبل

« جنيف » زكى على

العداء والفنـــاء

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

عفا الجانى وقـد بلغ التشفى ... وبعض العفو من فرح الشَّمات[١]

(الناظم)

قـد يُعَزِّيك شامت يتشفى ... باجتـلاء الآلام لا بالعزاء

(الناظم)

مقدمة القصيدة :

إن العفو لا يكون من المظلوم المجني عليه وحده بل قد يكون أيضاً من الجانى الظالم إذا أقنع نفسه أنه المظلوم ، أو إذا أقنع الناس كي ينال عطفهم ومساعدتهم له فى ظلمه وشره . وكثيراً ما يساعد الناس الشرير فى شره اعتقاداً منهم أنه هو المظلوم أو . لأن مساعدته فى العرضد المظلوم فرصة لاراحة ميل كثير من الناس لالتذاذ القسوة كما هو الحال فى مرض السادزم عند إطلاق هذا المصطلح عليه فى المعنى الأعم ؛ وهذا النوع من العفو الذى يجود به الظالم إنما هو من فرح الشماتة ، وهذا الشعور يشبه شعور الشامت الذى يعزي المصاب ويخفي فرح الشامت ويظهر الأسف ، وهو إنما يعزى كى يرى آلام المصاب أثناء التعزية . وهذه القصيدة تصف النفس الانسانية بين عواطف الخير والعمر ، وقد تجتمع الأضداد منها فى نفس واحدة من غفران وشمات ، ومن حقد الحياة وصفح الممات ، كما تصف عبث شقاء الحروب بين الأمم التى يتحالف بعدها الخصوم ويتعادى الأصدقاء

القصيدة :

إذا ما دنا الموت من هالك ... وأيقن ألا يطول البقاء

وقد زال ما كان مِنْ نشوة ... ومن شِرَّةٍ نال عنها العزاء[٢]

ولاح له عيشـــه ماثلا ... وقد بُزَّ عما جناه الرياء[٣]

وأفْهِمَ ما كان من حرصه ... وأبصر ما قـد طواه الخفاء

يُرَى آسفاً أنْ عدا أو جنى ... وأنْ كان منه الأذى والعداء

وليس يُرَى آسفاً لاغتفار ... دعاه قـديماً فلَبَّى الدعاء[٤]

فليس على صفحه آسـفاً ... ولـكنْ على النَّيْلِ ممن أساء[٥]

أيأسف أنْ ضاع ثأر سُـدَى ... ومُتِّعَ خصم له بالبقاء[١]

عدوان عاشا على إحنة ... وباعا السماحة بيع الإماء[٢]

أباحا النِّفَاقَ وكيد اللئام ... لنيل الحطام وكسب الهباء

إذا ما دنا الموت من واحـد ... أيشمت خصم له بالفنـاء

أيفرح مثل الجبـان استراح ... وبُشِّرَ بالأمن بعـد العداء

أيطعنه طعن نذل خصيما ... صريع التراب مُراق الدماء

ومرأى الحِمام كرأى السَّقَام ... يُذِلُّ العُتُلَّ ويُخْزِي الجفاء[٣]

هو الموت يَشْفِي قلوب العدى ... ويختم بالصلح حرب البقاء

وقد يُطْلَبُ الصلح من فرحة ... تعير الشماتة ثوب السخاء[٤]

وكم من عـــداء غدا أُلْفَةً ... فيا عبثـا إذ تراق الدماء

كم احتربت أمم ثم عادت ... كأنْ لم تذق فى الحروب الشقاء[٥]

ألم تسمع الأرض نوح الجريح ... يُوَدِّع حتى جنون الرجاء

أما اختلطت بالصديد الدماء ... أما أفعم الموت نَتْنَ الهواء[٦]

وكم عُنُقٍ لقتيـــل ، به ... عضاض عدو صريع العداء[٧]

عضاضٌ يحاول خلد الضغائـــن فى جسد خَلْقُهُ للفنـاء

فيا عبثاً لجهود الأنام ... سيمضى الرخاء ويمضى العناء

ويُصْبِحُ من كان خصماً لدودا ... عزيزاً ويُبْغَضُ إلْفُ المساء[٨]

عبد الرحمن شكرى

(١) الشمات : هو الشماتة

(٢) نشوة الحياة سكرة غرورها والشرة بكسر الشين نشاط الشباب الحيوى (٣) بز خلع ونزع

(٤) أى لا يأسف إذا فقد شرة الحياة على فلتات اغتفاره فى الماضى

(٥) النيل من العدو وإصابته بالعمر

(١) هـذا التساؤل معناه هل يخالط اغتفاره أسف الحقد لضياع ثأره وبقاء خصمه وقد قلنا فى المقدمة أن الصفات المتضادة قد تختلط فى النفس

(٢) الأماء : الجواري . الأحنة : الحقد

(٣) السقام بفتح السين السقم والعتل الغليظ الشديد الجافى

(٤) السخاء الكرم : أى أن الصلح قد يكون من فرحة الشامت بالظفر فيظن العفو كرما

(٥) احتربت تحاربت قال البحترى (إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها)

(٦) الصديد هو القيح وأفعم ملأ وأترع والنتن خبث الرائحة

(٧) العضاض العض وقد لوحظ بين القتلى بعد المعارك قتيلا أنشب أسنانه فى عنق قتيل آخر قبل الممات واستمر فى الموت على هذه الحالة

(٨) أى بين مساء وصباح يصير العدو صديقاً والصديق عدواً وكأنما قد ضاع شقاء القتلى سدى



مقهى صورات

للفيلسوف الروسى تولستوى

كان فى بلدة صورات من أعمال الهند مقهى يجتمع فيه المسافرون من جميع أطراف العالم فيتحاورون ويتسامرون

وفي يوم من الأيام هبط إلى هذا المقهى عالم روحانى فارسى أفنى حياته فى درس اللاهوت وفى التأليف فيه . ومن كثرة ما فكر وقرأ وكتب وناقش اختلط عليه الأمر وأصبح لا يعتقد حتى بوجود إله . فلما سمع الشاه بذلك نفاه عن بلاد فارس

وكان لهذا الرجل عبد أفريقى لا يفارقه لحظة ، فلما دخل سيده المقهى جلس هو على صخرة بجانب الباب تحت أشعة الشمس يطرد عنه الذباب . فلما استوى الفارسى على أحد المقاعد طلب من النادل كوباً من الأفيون . ولم يكد يفرغ من شربه حتى أخذ الأفيون يعمل عمله فى رأسه ، فقال يخاطب عبده من الباب وقد كان مفتوحاً :

« قل لى أيها العبد البائس هل تعتقد بوجود إله ؟ »

فأجاب العبد : « طبعاً » . وفى لمح البصر أخرج من منطقته تمثالاً صغيراً من الخشب وقال : ها هو ذا . ذلك هو الإله الذى حمانى وحرسنى من يوم ولدت . وكل واحد من بلدنا يعبد الشجرة التى منها صنع هذا الإله .

دهش كل من كان فى المقهى لهذه المحاورة الشاذة بين الفارسى وعبده . وما أتم العبد كلامه حتى انبرى له واحد وكان من أتباع برهمة إله الهنود وقال : « أيها الغبي الحقير ! أتعتقد أن فى الامكان أن يحمل الله فى منطقة رجل ؟ لا يوجد غير إله واحد هو برهمة ، إنه أعظم من جميع العالم ، لأنه خلقه . برهمة هو وحده الإله المظيم ، ولأجله شيدت المعابد على ضفاف الكانج وفيها يعبده البراهمة كهنته الحقيقيون الذين هم وحدهم يعرفون الإله الحقيقى دون سواهم . لقد مضى عشرون ألف سنة على ظهوره ، وبالرغم من الفتن والثورات المتوالية ظل هؤلاء الكهنة قابضين على ناصية الأمور ، وما ذلك إلا لأن برهمة قد حرسهم وحماهم طوال هذه السنين »

قال ذلك البرهمى وهو يعتقد أنه أقنعهم جميعاً ، إلا أن صيرفياً يهودياً كان حاضراً فأجابه قائلاً : « كلا ، ثم كلا . إن معبد الإله الحقيقى ليس فى الهند ، والإله الحقيقى ليس إله البراهمة ، وإنما هو إله إبراهيم واسحق ويعقوب ، ولا يحمى أحداً غير شعبه المختار ... بنى اسرائيل . إن شعبنا هو شعبه الذى يحبه ، وما تشردنا فى أنحاء العالم إلا لأنه يريد تجربتنا . ولقد وعد بجمع شتات شعبه فى أورشليم ، وعندئذ — فى معبد أورشليم ، أعجوبة العالم القديم بعد رده إلى سالف عزه ورونقه — سوف يحكم الاسرائيليون جميع الأمم »

وهنا أجهش اليهودى بالبكاء ، وأراد أن يستمر فى الكلام إلا أن مبشراً إيطالياً قاطعه قائلا : « إن هذا الذي تقوله ليس حقاً ، لأنك تنسب الظلم إلى الله جل جلاله . وإنه لمن المستحيل أن يحب الله شعبك أكثر من بقية الشعوب . إن كان حقًّا ما يقال من أن الله فى القديم قد فضل الإسرائيليين واصطفاهم على باقى العالمين ، فإنه قد مضى ألف وتسمائة سنة على خروجهم عليه وإغضابهم إياه ، مما أدى إلى هلاكهم وتشريدهم فى بقاع الأرض حتى لا ينتشر مذهبهم . ولقد اضمحل إلا من بعض أنفاس

تصمَّد هنا وهناك . إن الله سبحانه وتعالى لا يفضل أحداً على أحد ، ولكنه يدعو هؤلاء الذين يفنون الخلاص إلى أحضان كنيسة روما الكاثوليكية ، ولا خلاص لمن كان خارج حدودها »

فالتفت قسيس بروتستانتي — اتفق أن كان حاضراً — إلى المبشر الايطالي بوجه ممتقع وأخذ يقول له :

« كيف جاز لك أن تقول أن لا خلاص إلا لمن كان تابعاً لمذهبكم ؟ لا يخلص إلا هؤلاء الذين يخدمون الله من صميم قلوبهم كما جاء في الانجيل وكما أشار به المسيح » .

عندئذ التفت إلى هذين المسيحيين ، تركي من موظفي الكمارك في صورات ، وقد كان جالساً في المقهى يدخن في (غليون) ، وقال لهما بلهجة المسيطر :

« اعتقادكم في الديانة المسيحية باطل . لقد حل محلها قبل ألف ومائتي سنة دين صحيح هو دين محمد (ص) . ليس لك إلا أن تجيل بصرك في أرجاء العالم لترى انتشار هذا الدين الصحيح في أوربا وآسيا ، حتى في بلاد الصين المستنيرة . لقد قلتما أنتما إن الله غضب على اليهود وازدراهم ، وذكرتما على سبيل المثال حالة اليهود الآن وما يقاسونه من ذلة ومسكنة ، فأحرى بكما أن تعترفا بصحة دين محمد لأنه هو الوحيد الظافر المنتشر طولاً وعرضاً . لا ينجو سوى تابعي محمد (ص) خاتم أنبياء الله »

وهنا أراد الفارسي ، وهو من أتباع الرسول العربي (ص) أن يتكلم ؛ إلا أن جدالا عنيفاً شجر بين جميع الأجانب الموجودين المنتمين إلى مذاهب شتى ، فقد كان بينهم مسيحيون من الحبشة ، ولاميون من تيبت ، واسماعيليون ومجوس ؛ وكان جدالهم في الله وكيف يجب أن يعبد ؛ وكل يؤكد أن الله الحقيق لم يعرف ولم يعبد إلا في بلده

لم يبق واحد في المقهى لم يشترك في هذا الجدال والصياح إلا صينياً من أتباع كونفوشيوس . كان جالساً يرشف الشاي ويستمع إلى المتكلمين دون أن ينبس ببنت شفة . فلما رآه التركي جالساً على هذه الحالة تقدم إليه محاولاً اجتذابه إلى رأيه بهذه الكلمات : « أنت لم تنطق أيها الصيني العزيز حتى الآن بكلمة ، ولم يكدر صفوك كل هذا الصخب ، ولكنك إن تكلمت فني وسعك أن تؤيد ما أقول . لقد حكى لي بعض التجار الصينيين الذين يطلبون مني المونة ، أنكم معشر الصينيين تعتقدون على كثرة ما عندكم من الأديان والمذاهب أن الديانة الاسلامية هي أفضل الديانات وأنكم تعتنقونها عن طيبة خاطر . أيد إذن كلماتي وأبن لنا رأيك في الله الحقيق ونبيه »

فهتف القوم صائحين : « حسن ، حسن » ثم التفتوا إلى الصيني وقالوا « أسمعنا رأيك في هذا الموضوع »

فأغمض الصيني عينيه وأخذ يفكر ثم فتحهما ثانية وأخرج يديه من كمي ردائه العريضين وطواهما على صدره وأخذ يتكلم بصوت هادئ رزين :

سادتي : يظهر لي أن الذي يحول دون اتفاق الناس في قضايا الدين يرجع خاصة إلى الزهو الفارغ . فإن تفضلتم فأصغيتم إلى فسأقص عليكم قصة توضح لكم ما غمض من هذه المشكلة :

تركت الصين قاصداً هذه البلاد على ظهر باخرة انكليزية طافت حول العالم . وقدرست هذه بنا الباخرة على الساحل الشرقي من جزيرة صومترا لنفاد الماء . وكنا جماعة من مختلف الأجناس ، وكان الوقت ظهراً ، فنزلنا إلى البر وجلسنا تحت شجرة من شجر جوز الهند على شاطئ قريب من القرية . ولما جلسنا تقدم نحونا رجل أعمى علمنا بعدئذ أنه فقد بصره من كثرة ما حدق في الشمس محاولا سبر أسرارها ومعرفة كنهها . سعى كثيراً للوصول إلى مبتغاه وأطال التحديق في الشمس دون أن يدركه إعياء حتى أحرق وهج الشمس عينيه فأصبح أعمى . وبعد ما فقد بصره صار يكلم نفسه قائلا : « نور الشمس ليس سائلا ، إذ لو كان كذلك لكان في الامكان صبه من آنية في أخرى وتحريكه كما يحرك الهواء الماء ؛ ولا هو نار ، إذ لو كان ناراً لأطفأه الماء ؛ ثم هو ليس روحا لأنه منظور ، ولا هو مادة لأن المادة تنقل ؛ وبما أن نور الشمس ليس سائلا ولا ناراً ولا روحا ولا مادة فهو إذن لا شيء »

على هذه الطريقة كان يحاور . وبنتيجة تحديقه المستمر في

الشمس وكثرة تفكيره فيها كما أسلفنا فقد بصره وعقله وأصبح لا يعتقد بوجود الشمس

وكان لهذا الأعمى عبد يقوده ، فلما اقتربا منا أجلس العبد صاحبه تحت شجرة وارفة ، ثم التقط جوزة من الأرض وأخذ يصنع منها سراجاً : ابتدأ أولا بتقشير الجوزة ، ثم أخذ ليفة فبرمها ثم عصر دهناً من الجوزة فى القشرة ، ثم نقع الفتيلة فيها فأصبح له من ذلك كله سراج يضيء له الظلام

وهنا تنهد الأعمى وقال لعبده : « ألم أكن على حق حين قلت لك يا عبد أن لا وجود للشمس ؟ ألا ترى هـذا الظلام الدامس ؟ ومع ذلك يقول الناس بوجود شمس ! إذا كان صحيحاً ما يقولون ، فما هي ؟ »

قال العبـد : « لا أعرف ما هى الشمس . تلك ليست مصلحتى ، ولكنى أعرف ما هو النور . ها قد صنعت نوراً أستطيع به أن أخدمك وأن أجد كل ما أطلبـه فى الكوخ »

وهنا التقط العبد قشرة الجوزة قائلاً : « هذه شمسى »

وكان رجل أعرج جالساً وإلى جانبه عكازه ينصت إلى هذا الحوار الشائق ، وما كاد يلفظ العبد كلمته الأخيرة حتى أغرق فى الضحك وقال يخاطب الأعمى :

يظهر أنك ولدت أعمى ! ولما كنت لا تعرف ما هى الشمس فسأقول لك ما هي . الشمس كتلة من نار تخرج من البحر كل صباح ، وترتفع ثم تهبط كل مساء ، وتتوارى بين جبال جزيرتنا . لقد رأى الناس جميعاً هذا ، ولو كنت بصيراً لرأيتها أنت أيضاً

ثم أعقبه سماك كان يستمع إلى الحديث موجهاً الكلام إلى الأعرج :

« يظهر لى أنك لم تر ما وراء جزيرتك . ولو طفت كما طفت أنا فى زورق الصيد لعلمت أن الشمس لا تغيب فى جبال جزيرتنا ، ولكنها كما تشرق من البحر كل صباح ، تغيب فى البحر كل مساء . إن هـذا الذى أقوله لك صحيح لا شك فيه لأني أشاهده بعيني كل يوم »

وهنا قاطعه هندي كان من جماعتنا قائلاً : لشدّ ما يدهشنى أن أسمع هذا الهراء من رجل عاقل مثلك ! كيف يجوز لكتلة نار أن تهبط فى الماء ولا تنطفىء ؟ الشمس ليست كتلة نار أبداً بل هى إلـه يدعى « ديفا » وهو ما ينفك يركب عجلة يدور بها حول جبل فيدو الذهبي فتهجم عليه فى بعض الأحيان الحيتان المشئومتان (راكو وكيتو) وتبتلمانه ؛ وعند ذلك تصبح الأرض فى ظلام . إلا أن كهنتنا لا ينفكون يصلون ويضرعون لذلك الإله حتى يطلق سراحه . لا يظن أن الشمس تضيء بلدته وحدها إلا من كان غبياً مثلك لم يبرح جزيرته قط »

فقاطعه ربان سفينة مصرية وقال له : « أنت أيضاً مخطىء ، ليست الشمس إلهاً ولا هى تدور حول الهند ولا حول جبلها الذهبي فحسب » لقد طوفت كثيراً فى البحر الأسود وعلى طول سواحل جزيرة العرب ، ورأيت أيضاً مدغشقر وجزائر الفيليبين ، وفى كل هذه الأماكن تبزغ فيها الشمس ، مما يدل على أن الشمس لا تضيء الهند وحدها ولكن تضيء الأرض كلها ؛ ولا هى تدور حول جبل واحد وإنما تشرق فى الشرق الأقصى وراء جزر اليابان ، ثم تغرب بعيداً ... بعيداً فى الغرب وراء الجزر البريطانية . ولهذا السبب يسمى اليابانيون بلدتهم « نيبون » ومعناه « مولد الشمس » . أعرف هذا جيداً لأنى رأيت كثيراً ، وسمعت أكثر من جدى الذى ركب البحار كلها »

وكان يريد المصرى أن يستمر في حديثه لو لم يقاطعه بحار انكليزى كان فى سفينتنا قائلا :

« لا يعرف أحد عن حركات الشمس قدر ما يعرفه الناس في انكلترا . ليس للشمس مشرق ولا مغرب ، وإنما هى تدور دائماً حول الأرض . إن هذا الذى أقوله لا شك فيه . ألم ننته الآن من طوافنا حول العالم ومع ذلك لم نصطدم بالشمس ؟ أينما حللنا وجدنا الشمس تطلع صباحاً وتغيب مساء كشأنها هنا ! .

وأخذ الانكليزى عصاً وراح يرسم دوائر على الرمل ليرينـا حركات الشمس وكيف تدور حول الأرض ، إلا أنه لم يستطع شرحها بوضوح فقـال مشيراً إلى ربان السفينة : أترك شرحها إلى هذا الرجل فهو أعلم بذلك منى »

وكان ربان السفينة رجلا ذكياً يصغى إلى الحديث بسكون دون أن ينبس بكلمة ، فلما طُلب منه الكلام اتجهت الأنظار إليه وبدأ يقول :

« أنتم تحاولون التضليل وما تضلون سوى أنفسكم . إن الشمس لا تدور حول الأرض ، بل الأرض هي التي تدور حول الشمس مرة في كل سنة ، وتدور حول نفسها مرة في كل أربع وعشرين ساعة . فيتضح من هذا أن لا فرق بين اليابان وجزر الفيلبين وسومطرا وأفريقيا وأمريكا وأوربا وغيرها ، فإن نصيب الجميع من أشعة الشمس واحد . فالشمس إذاً لا ترسل نورها على جبل واحد ولا جزيرة واحدة ولا بحر واحد حتى ولا على أرض واحدة ، وإنما تستضىء بنورها جميع الكواكب أيضاً . فلو نظرتم في السموات عوضاً عن نظركم إلى الأرض لأدركتم كل هذا ولما زعمتم بعد ذلك أن الشمس تضىء لكم أو لمدينتكم فقط »

هكذا تكلم الربّان الحكيم ، وإذا تكلم فإنما يتكلم عن خبرة واسعة من كثرة ما ساح في البحار ومن طول ما حدّق في السموات

***

هذا الذي قيل في الشمس يقال أيضاً في الدين . إن السبب الذي يحول دون اتفاق الناس في مسألة الدين إنما هو التفاخر وما يسببه من شحناء . كل رجل يريد إلهاً له ، أو على الأقل إلهاً خاصاً لأمته ، وكل أمة تريد أن تحصر في معبدها الله الذي لا يسعه العالم

وما هذه المعابد بالنسبة إلى العالم الذي خلقه الله ليجمع فيه الناس أمة واحدة وديانة واحدة ألا وهي الإنسانية ؟

لقد شيدت المعابد الإنسانية على غرار هذا المعبد الذي شيده الله للناس ، كل معبد له أحواضه وأقبيته وصوره ومحوته ونقوشه وكتبه ومذابحه ومحاريبه وكهنته . ولكن أيوجد معبد له حوض كحوض الاقيانوس أو قبو كقبو السموات ؟ وأين تلك المصابيح الباهتة التي تضئ المعابد الإنسانية من الشمس والقمر والنجوم ؟ أو تلك الصور الجامدة من رجال أحياء تعمر قلوبهم بالحب ؟

وهل يوجد وصف في أي سفر من الأسفار عن كمال الله وحسنه أروع أو أبسط من هذه النعم التي أسبغها الله على عباده لخيرهم وسعادتهم ؟ وهل من تضحيات أسمى وأرفع من هذه التي يقدمها الرجال والنساء على مذبح الحب ؟ ثم ما هذه المذابح المنصوبة في الكنائس إذا قيست بقلب رجل كريم يطفح حباً وحناناً وقد رضى الله به مذبحاً لتقديم القرابين له

كلما سما الإنسان في فهم الله ازداد به علماً ، وكلما ازداد به علماً اقترب منه ، وذلك باحتذائه إياه في إحسانه وعطفه وحبه

ليكف إذن ذلك الذي يرى نور الشمس يغمر العالم عن احتقار ذلك الرجل الخرافي الذي يرى في معبوده قبساً من هذا النور . ليكف حتى عن ازدراء الكافر ، لأنه أعمى ولا يرى الشمس ألبتة »

هكذا تكلم الصيني تابع كونفوشيوس ، فصمت كل من كان في المقهى ولم يعد أحد يدعى أن ديانته هي الفضلى

يوسف روشا



توحيد برامج التعليم في الشرق

علمنا أن الأستاذ الجليل محمد العشماوي بك وكيل وزارة المعارف يفكر في عقد مؤتمر عربي شرقي في القاهرة لدراسة الحالة العلمية والثقافية في البلاد الشرقية لمعالجة مشاكل التعليم معالجة تقوم على أساس صالح، وتستند إلى هدى القواعد التي تقررت في التربية الحديثة بما يلائم روح الشرق ويتمشى مع شخصيته.

ولعل الباعث لهذه الفكرة ما لقيه المؤتمر الطبي العربي الذي عقد أخيراً في بغداد من النجاح وما ترتب عليه من النتائج الطيبة التي قوت الروابط وأحكمت الأواصر.

وتتجه الفكرة لعقد هذا المؤتمر على أن تقوم هيئات المعلمين في مصر بتوجيه الدعوة إلى مثيلاتها في أنحاء الأقطار الشرقية، على أن تقوم الحكومة المصرية برعاية المؤتمر من الناحية المادية، وبكل مايتصل بتكاليف المؤتمر. وقد علمنا كذلك أن بعض الهيئات المشتغلة بشئون التعليم مهتمة جد الاهتمام بإخراج هذه الفكرة إلى حيز الوجود في وقت قريب، ولا شك أن انعقاد هذا المؤتمر سيكون له شأن كبير في التقريب بين الأمم الشرقية، وأن اتحاد برامج التعليم فيها سيكون أكبر عامل في إيجاد الوحدة العربية التي تتلهف عليها النفوس منذ أزمان

المؤتمر الدولي للجذام

انعقد في يوم ٢١ مارس في مدينة القاهرة المؤتمر الدولي للجذام، وهو المؤتمر الذي نظمته الحكومة المصرية بالاشتراك مع الجمعية الدولية للجذام، فكان أول مؤتمر من نوعه وفي أهميته وخصوصاً أن مرض الجذام مرض خبيث لم يكتشف للآن المصل الواقي من شره، وكل وسائل العلاج المعمول بها الآن إنما هي عزل المرض وهي في الواقع طريقة للوقاية لا للعلاج، فمن صالح الانسانية ومن البر بها أن يجتمع أعلام الطب من كل دولة للبحث في شأن هذا المرض العضال

ولقد تفضل جلالة الملك فافتتح الجلسة الأولى للمؤتمر، وقد رفعت بهذه المناسبة أعلام الدول التي اشتركت فيه على دار الأوبرا الملكية، ويبلغ عدد تلك الدول ٥٥ دولة ويبلغ عدد الأعضاء الذين اشتركوا فيه حوالي ثلثمائة. وقد أقام معالي وزير المعارف حفلة تعارف بين الأعضاء بفندق الكونتننتال، ثم أقام الوفد الفرنسي حفلة أخرى ألقى فيها «عمدة باريس» خطبة نوه فيها بأهمية عقد الاجتماعات العلمية الدولية لخير الانسانية عامة وخصوصاً لبحث الأمراض المستعصية مثل الجذام، وأشاد بفضل مصر في كرمها ودعوتها، ثم وجه الدعوة للمؤتمرين بالنيابة عن الحكومة الفرنسية وعن بلدية باريس أن يكون الاجتماع الثاني للمؤتمر في مدينة باريس آملا أن تجاب الدعوة.

وقد شكر له الدكتور محمد خليل عبدالخالق بك سكرتير عام المؤتمر تلك الدعوة ووعد بعرضها على لجنة تنظيم المؤتمر المصرية

القرآن في نظر الغربيين

ألقى الدكتور خالد شلدريك محاضرته الثالثة بقاعة المحاضرات بدار المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين بالقاهرة في موضوع «القرآن الكريم في نظر الغربيين»، وقد بدأ محاضرته بالكلام عن الأناجيل والكتب السماوية المنزلة، ثم تكلم عن الحروب الصليبية وتأثيرها في نهضة الغرب وإيقاظ الشعوب الأوربية، فان الصليبيين نقلوا من فلسطين المدنية والثقافة وكثيراً من المعارف والمظاهر التي لم تكن تعرفها أوربا في ذلك العهد، حتى لقد كانت تغط في نوم عميق من الجهل، وترسف في قيود التعصب المقوت والتدهور الأخلاقي. ثم انتقل الأستاذ المحاضر إلى الكلام عن ضعف الدعاية الاسلامية في أوربا، وعدم وجود

تراجم صحيحة للقرآن غير ترجمة « بكتول » الذى اعتنق الديانة الاسلامية عام ١٩٠٩ ، وقد أطلق على كتابه اسم « ترجمة معانى القرآن » ، ولكن من المتعذر على كل أوربي اقتناء نسخة من هذه الترجمة لفداحة قيمتها ، ثم ألمع إلى استعداد الأوربيين والأمريكيين لدرس تعاليم الدين الحنيف إذا ماوجدوا إلى ذلك سبيلا

ثم ختم محاضرته بالاشارة إلى إيجاد جبهة دينية منيعة لصد التيارات الشيوعية والاشتراكية وغيرها من المذاهب الاجتماعية الجديدة التى تخالف الأديان السماوية ، وتهدم البادىء الصالحة ، والأخلاق والعقائد . وبهذه المناسبة نقول : إن القائمين بالأمر فى مصر قد عادوا يهتمون بمسألة ترجمة معانى القرآن ، وهم يرون إدخال عناصر جديدة مهمة فى اللجنة التى كانت قد تألفت لذلك من قبل

اللغة الايرانية والحروف اللاتينية

تريد الدولة الإيرانية أن تصنع بلغتها صنيع تركيا الجديدة ، فهى تعمل على أن تخلص معجمها من الألفاظ المستعارة والدخيلة وأن تكتبها بحروف لاتينية كما فعلت الحكومة التركية منذ سنوات . وقد عقد فى ١٨ الجارى مؤتمر لغوى برياسة جلالة الشاه ، وجرى البحث حول تنقية اللغة الإيرانية من الألفاظ الأجنبية ، وقد استعان المؤتمر ببعض الممرنين على انتقاء ألفاظ إيرانية قديمة لتستعمل مكان الكلمات الأجنبية ؛ ولكن لما طرحت على بساط البحث قضية استبدال الحروف اللاتينية بالحروف الإيرانية الفارسية ، لاقت معارضة قوية بحجة أن هذا التغيير يفقد اللغة الإيرانية قيمة مؤلفات أثرية واجتماعية لا يمكن نقلها إلى الإيرانية بحروف لاتينية ؛ ولذلك تأجل البحث فى هذه المسألة إلى وقت آخر حتى يتم النظر فى هذا الاعتراض القائم

ترجمة القرآن فى ألبانيا

اتجهت الأفكار فى بولونيا إلى تعريب القرآن ونقله إلى لغة البلاد وهى اللغة الأرناؤوطية ، وقد جاء فى البريد الأخير أن الحكومة هناك دعت رؤساء الدين إلى اجتماع عام فى دار الحكومة حضره جلالة الملك احمد زوغو ، وقد تناول البحث ترجمة القرآن ، ولعل من المعلوم أن اللغة الأرناؤوطية تكتب بحروف لاتينية من قبل الحرب العالمية ، وليست مسألة ترجمة القرآن إلا مظهراً من مظاهر نهضة شاملة فى النواحى الاسلامية تقوم بها الحكومة فى تلك البلاد

الكشف عن مسجد الحجاج

كانت دار الآثار فى بغداد قد قررت فى السنة الماضية أن تأخذ على عاتقها القيام بأعمال التنقيب فى أطلال « واسط »

وقد جاء فى البريد الأخير من بغداد أن التنقيبات التى أجريت كشفت عن مسجد صغير ومسجد كبير ومقبرة وضريح وحصن وسوق ، وقد عرضت الآثار التى استخرجت من الآثار المذكورة فى غرفتين من غرف دار الآثار العربية

ولم تترك هذه التنقيبات مجالاً للشك فى أن المسجد الذى كان قد اكتشف فى السنة الماضية هو المسجد الذى شيده الحجاج بن يوسف الثقفى عند تأسيس المدينة ، وقد أسفرت أعمال الحفر عن وجود ثمانية صفوف من الأعمدة الحجرية الضخمة ، ويبلغ قطر كل منها تسعين سنتيمتراً ، والقسم الأعظم منها منحوت ومزخرف بأشكال بديعة . وقد أدى اكتشاف مسجد الحجاج بهذه الصورة إلى تعيين موقع قصر الإمارة ، وتتوقع دار الآثار أن التنقيبات التى ستجرى خلال هذا الموسم وفى المواسم القادمة ستسفر عن نتائج علمية مهمة تتصل بتاريخ القرن الأول للهجرة

تذكارات مدام كورى

أذاعت الآنسة إيف كورى من لندن عن والدتها مدام كورى مكتشفة الراديوم ، فذكرت كيف كان والداها يدينان بالعلم ويخلصان له ، ويعرضان حياتهما للخطر الشديد فى سبيل استكناه أسراره ؛ فلما اكتشف اثنان من العلماء الألمان عنصر الراديوم سنة ١٩٠٠ ظل اكتشافهما بدون قيمة حتى أجرى آل كورى تجاربهما فى جسميهما فوجداه يحرق ويحترق . ولم يقف فقر آل كورى فى سبيل النجاح المنشود ، بل كانا يجريان تجاربهما فى بيت خرب (غير مبلط) ذي شبابيك مهشمة (بدون زجاج) وكانت لهما طفلة غير إيف ، كانت صرخاتها تشحذ فيهما همة العلماء الراسخين فى العلم ، وقد حدث أن منحت إحدى الجمعيات

آل كورى مدالية علمية ذهبية ، فسخر بها الوالد العالم ، ودفع بها إلى الطفلة تلعب بها ، وهو ينظر إلى جدران غرفته وشبابيكها ويتنهد من أعماقه ، ولولا أن أسعفه الحظ فنال جائزة نوبل للعلوم مرة ونالتها زوجته مرة أخرى ، لما عرف العالم قيمة الراديوم إلى اليوم

الإذاعة المصرية

أخذت محطة الإذاعة المصرية تنشط من سباتها قليلاً ، وأخذت تعنى بنواحى الجد من الحياة ، لكنها لم تنتبه بعد إلى أنها أداة هامة من أدوات تربية الذوق المصرى من جهة وأداة هامة من أدوات الإعلان عن مصر من جهة أخرى — فهى ما تزال تذيع الاسطوانات الرقيعة وما تزال تحجم عن معاملة المغنين الذين هم من الطبقة الأولى كما يقولون

والمزعج أنه قد تقرر أن يكون لمصر موجة خاصة قوية (١٠٠ كيلو) يمكن بها أن تسمع مصر فى اليابان وأمريكا ، فماذا تذيع مصر على هذه الموجة وزعماء الأدب والفكر لا يزالون بعيدين عن هذه المحطة ؟ ويجمل أن ننبه محطتنا إلى إذاعاتها من قاعة يورت ، وما تجره هذه الإذاعات من أوخم العواقب على سمعة الأخلاق فى مصر ، فإنه يقصد إلى هذه القاعة أناس من المهرجين الصاخبين ، وهم يذهبون إليها ثملين عادةً ، فإذا أخذتهم النشوة خرجت من أفواههم عبارات وأصوات تحسبها لا تشرف مصر فى آفاق العالم ... فلتفهم محطة الإذاعة هذا

ولقد نشرت الاذاعة البريطانية تقريرها عن سنة ١٩٣٧ ، فإذا دخلها ٣٫٣٥٦٫٠٧٤ جنيهاً ، أفيدرى القارئ كم من هذه الملايين خصص (للبروجرام فقط) إنه ٥١ ٪ من مجموع الدخل أى ١٫٧٢٩٫٦١٥ جنيهاً ، والجمهور مع ذاك يطلب المزيد !

هل قتل جوركى ؟

حوكم فى روسيا فى الأيام الأخيرة طائفة من كبار الأطباء الذين كانت تستعملهم الحكومة فى طبها القضائى . وقد صدر الحكم بإعدامهم رمياً بالرصاص . والتهمة التى وجهت إليهم هى أنهم قتلوا أو تسببوا فى قتل جوركي العظيم (أديب الصعاليك) الذى توفى منذ عامين والذى كان أعظم رجل يعيش فى روسيا إن لم يكن فى العالم أجمع ، كما تسببوا فى قتل ولده وقتل كثيرين من عظماء روسيا . وقد ذكرنا فى هذا الباب كيف استبعدت الحكومة المخرج الكبير مايرهولد حين أحست أن هواه ليس فى صفها فيما ينتجه للمسرح السوفييتى — وهذا دليل على أن المتهم الأصلى فى هذه المحاكمات الأخيرة لم يؤخذ بجرمه ، لأنه الحكومة نفسها . وفى الحق لقد كنا دائماً ندهش لموقف جوركي من الطاغية ستالين ومن الثورة البلشفية نفسها ، وكنا نجزم أنه موقف منافق لا ينطوى إلا على التسليم الذي يشبه تسليم العجائز ، ولا يبعد أن يكون ستالين قد عرف ذلك من سيد أدباء الروس فدبر له هذه القتلة الشنيعة بأيدى أولئك الأطباء المساكين

مصر والثقافة العربية فى اليمن

أوفدت الجامعة المصرية منذ عامين بعثة من أعضاء هيئة التدريس بكليتى العلوم والآداب إلى اليمن ، وقد انتهت من دراسة طائفة كبيرة من المسائل التى وقفت عليها فى بلاد اليمن دراسة علمية بحتة ، ولا تزال بعض تلك المسائل قيد البحث والدراسة

وقد أعدت البعثة تقريراً أولياً عن الأعمال التى قامت بها فى بلاد اليمن ، والابحاث التى وفقت إليها وقامت بها على الهضاب المرتفعة وداخل وديان حضرموت

أما فيما يتصل بالثقافة العربية فى تلك البلاد ، فإن عضو كلية الآداب يضع تقريراً فى هذا الشأن ، ومما قال فيه : إن العراق أكثر عناية بإذاعة الثقافة العربية فى تلك البلاد ، وإن المستقبل لها فى اليمن ، على أن فى إمكان مصر أن تنشئ العلاقات بينها وبين اليمن بتقوية محطة الإذاعة اللاسلكية المصرية ، ووضع برنامج تعنى فيه الحكومة بأمر الثقافة التى تلائم اليمنيين ؛ وفى إمكان مصر كذلك أن توفد البعثات العلمية إلى تلك البلاد ، وأن تعد برنامجاً لمحاضرات تلقى فى مصر عن اليمن يتناول فيها المحاضرون حال تلك البلاد من مختلف الوجوه

ومما يجمل ذكره أن بعثة من مختلف المعاهد الانجليزية قد زارت اليمن ، وقامت بعدة أبحاث ودراسات وأن النتائج التى انتهت إليها هذه البعثة تتفق تماماً والنتائج التى انتهت إليها بعثة الجامعة المصرية التى أذيعت منذ حين فى الأوساط العالية العلمية والأدبية

محاضرات فى النبات المصرى القديم

تقيم فى مصر الآن السيدة فيفى لورنت تكهولم، إحدى الأجنبيات المشتغلات بالنباتات المصرية القديمة والحديثة. وهى زوج المرحوم العلامة جنار تكهولم أستاذ علم النبات بكلية العلوم الأسبق بالجامعة المصرية، ومؤسس هذا العلم فيها سنة ١٩٢٥

وقد دعت الجامعة هذه السيدة لإلقاء محاضرات فى هذا العلم على طلاب السنتين الثالثة والرابعة بكلية العلوم

وكان زوجها قد حضر إلى مصر بعد أن رشحته جامعة سويدية لكرسى النبات فى الجامعة المصرية، وبعد وفاته ظلت زوجه تقوم بأبحاثها فى هذا الموضوع، وقد زارت مختلف الممالك الأوربية استزادة فى هذا الباب، ووفقت لطائفة من المجموعات النباتية النادرة التى تعد ذات قيمة فنية كبيرة فى الأوساط العلمية.

وقد أعدت طائفة من البحوث فى هذا الموضوع واعتزمت تضمينها عدة مؤلفات، فرأت الجامعة إزاء القيمة العلمية التى تعود على مصر سواء فى الدراسات الجامعية أم فى الدعاية فى الخارج، أن تطبع هذه الكتب على نفقتها

وقد هيأت المؤلفة، مجلدها الأول، ويقع فى حوالى ٦٠٠ صفحة، على أن توالى هذا العمل العظيم

موسوعة ثقافية عن الهند

صدرت بالإنجليزية موسوعة ثقافية عن الهند اشترك فى تأليفها كبار الأدباء الهنود وفلاسفتهم وعلماؤهم وكهنتهم وموسيقيوهم، وساعدهم على ذلك أدباء وعلماء عالميون. فمن الهنود الشاعر الكبير رابندرانات طاغور، والفيلسوف راضا كرشنان، والموسيقى ديليب روى. ومن الأجانب رومان رولان، والسير جون مارشال ... الخ. وقد تناولت الموسوعة ديانات الهند وكتبها المقدسة وتاريخها القديم والحديث وعلومها وآدابها وفنونها، وقد خصت كاهنها الأكبر (راما كرشنا) بجزء عظيم من مجلداتها الثلاثة. وقد أثار صدور هذه الموسوعة الحافلة البحث القديم المتعلق بمنشأ الحضارة على وجه الأرض، أهو العراق كما برهن على ذلك الأستاذ الأثرى ليوناردولى الذى اكتشف آثار أور، والذى أيده فى هذا الرأى الدكتور محمد عوض محمد، أم كان منشأ هذه الحضارة فى مصر كما برهن على ذلك أكثر علماء الآثار وفى مقدمتهم المرحوم الدكتور أليوت سميث الأستاذ بمدرسة الطب المصرية (قبل ثلاثين سنة)، أم أن تلك الحضارة قد نشأت فى الهند فى مقاطعة البنجاب وحوض نهر السند كما يقول بذلك أحد محررى الموسوعة الهندية وهو السير جون مارشال؟

والعجيب فى ذلك الحوار أن كلا من محبذى إحدى هذه النظريات يستند فى صحة ماذهب إليه إلى تقدير السنين المدى لعمر الحضارة التى نشأت فى إحدى هذه الجهات، والجميع لا يرجعون بها إلى أكثر من ستة آلاف سنة. فهل فاتهم أنه قد اكتشف فى البدارى (المدينة المصرية ذات التاريخ المعروف) مجموعة أثرية من أدوات الانسان الأول يرجع تاريخها إلى ماقبل ١٢٫٠٠٠ سنة؟

نسبة بيت شعرى

فضيلة الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدى:

اطلعت على كلمتك فى بريد الرسالة الغراء عدد (٢٤٥) تسائل فيها قراء الرسالة عن نسبة البيت:

له حاجب عن كل أمر يشينه ... وليس له عن طالب العرف حاجب

فأعجبني منك تلك الدقة الأدبية. والبيت كما يقول أبو هلال العسكرى فى كتابه ديوان المعانى (ج ١ ص ٢٣) لأبي الطمحان مولى ابن أبي السمط. قال أبو هلال: وقول أبي الطمحان مولى ابن أبى السمط:

فتى لا يبالى المدلجون بنوره ... إلى مابه ألاّ تضىء الكواكب

له حاجب عن كل أمر يشينه ... وليس له عن طالب العرف حاجب

والحق ما يقوله أبو هلال فقد عرف مروان بن أبى حفصة وروى له فى ديوانه ولقبه بأبى السمط (ج ١ ص ٦٥) فلو كانت الأبيات له لما خفى عليه، وقد اتفق مع الرواة فى رواية البيتين معاً، وأبو هلال أحق بالقبول من كتاب البلاغة فى هذا المقام. أما أبو الطمحان فهو حنظلة بن الشرق القينى أدرك الإسلام ومات قبل الهجرة: ذكره أبو تمام فى حماسته وابن حجر فى الأصابة وضبطه القاموس

عبد الحسيب طه

تطور يتطور تطوراً

الألفاظ العربية قسمان : قسم نبت فى (الجزيرة) فى الجاهلية وقسم نشأ فيها وفى غيرها من البلاد الاسلامية فى وقت (الحضارة العربية) . وكتبُ اللغة المعروفة بالمعجمات حرصت على تقييد القسم الأول . والقسم الثانى (أى جلّ الكلمات العربية) إنما هو فى مؤلفات العلم والأدب والمصنفات الخاصة ، وهو ينتظر معجماً عاماً شاملا ينتظمه — وهمة العرب تلك الهمة — يوم القيامة إن شاء الله تعالى ...

ومن هذا القسم لفظة (التطور) وقد حسب الأستاذ أسعد خليل داغر صاحب (تذكرة الكاتب) وفاضل معروف من مراسلى (الرسالة) فى (دار السلام) فى هذه الأيام — أنها عصرية جرَدِيّة ، فغلّطاها

قال الأول : « ويبنون فعلا من الطور بمعنى الحال على تفعّل فيقولون تطورت الأمور وهم فى غنى عن مخالفة المنقول والمسموع بما فى اللغة من الأفعال التى تفيد هذا المعنى »

وقال الثانى : « ورأيته يمر على كلمة تطوّر فى دفاتر التلاميذ فلا يصححها ، فحاسبته أشد الحساب ، فقال : إن الله يقول فى كتابه العزيز : (وخلقنا كم أطواراً) فقلت : نعم إن الله خلقنا أطواراً ومن أجل ذلك لا يصح أن نتطور يا أستاذ »

وهذه اللفظة — التى غلط هذان الفاضلان فى تغليطها — عربية كيّسة حضرية من (بنات الحضارة) وشيخة مسنة عمرها ألف سنة

قال السبكى فى (طبقاته الكبرى) : « من كرامات هذه الأمة التطور بأطوار مختلفة وهذا الذى تسميه الصوفية بعالم المثال »

وقال ابن خلدون فى (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر) : وتطوروا — يعنى العرب — بطور الحضارة والترف فى الأحوال »

وقال أبو البقاء فى (كلياته) : « وإيجاد شىء لا عن شىء محال بل لا بد من سنخ للمعلول قابل لأن يتطور بأطوار مختلفة »

وقال الشوكانى فى (البدر الطالع) فى سيرة أبى الفضل الجدالى : « ثم رحل نحو المملكة المصرية وتطور على أنحاء مختلفة »

فوجب — وهذه أقوال القوم — أن يقبل الأديب العربى (التطور) غير متوقف ولا متلوّم

(***)

الوصل والفصل

قال أحد الفضلاء فى الجزء (٢٤٥) من (الرسالة الغراء) :

« طابت السهرة وطابت ثم طابت » والقائل من الأساتذة الأدباء فكيف عطف (طابت) الثانية على (طابت) الأولى وبين الجملتين كمال الاتصال وهو ظاهر مثل الشمس فى اليوم غير المغيم فكيف هذا العطف والاتصال كامل ؟ !

ومن أمثلة الفصل عند كمال الاتصال فى كلام الله : « أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون » « فمهّل الكافرين أمهلهم رويدا »

وقد قالوا فيما نحن فيه لخطر شأنه ، وعظم قدره : « قيل لبعضهم : ما البلاغة ؟ قال : « معرفة الوصل من الفصل » وهذا القول فى (العقد) . وفى (دلائل الاعجاز) : « العلم بما ينبغى أن يصنع فى الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها قد بلغ من قوة الأمر أن جعلوه حداً للبلاغة ؛ ذلك لغموضه ودقة مسلكه ، وإنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معانى البلاغة . واعلم أنه إنما يعرض الإشكال فى (الواو) دون غيرها من حروف العطف »

وعبد القاهر فى طبّ الكلام حذام

فالأديب الأريب لا يصل ما يجب فصله ، ولا يقطع (من) يجب وصلها أو وصله ...

« الاسكندرية » (***)

تصحيح

فى النقلة (٣٥٦) : « كأنّ دنيته عليه » وهي : كأن دنيّةً عليه . وفى النقلة (٣٥٨) : « حرمته مَأوَاة ومرعاه » وهى : حرمته ماءه ومرعاه



نوابغ الشـــباب

للأستاذ قاسم جودة

يشتمل هـذا الكتاب على عشرة تراجم من سير الأبطال والعباقرة « الذين كان الشباب صفة بارزة تقترن بما قدموا من خير ، أو بذلوا من جهد ، أو بلغوا من نجاح ، أو أبدوا من وطنية وشجاعة ، أو كسبوا لأنفسهم من فخر التضحية ، وشرف الجهاد » وقد أحسن المؤلف الفاضل إذ حرص على أن يكون هؤلاء النوابغ « من آفاق متباعدة ، وأجناس مختلفة ، وأزمان متباينة ، ففيهم رجل السياسة ، ورجل الحرب ، ورجل الموسيق ورجل الشعر ، وفيهم العربي والمصرى والانجليزى والفرنسى واليونانى ، وقد تفاوت بينهم الزمن من عهد الحضارة الإغريقية القديمة ، إلى عهد الحضارة الآلية في القرن العشرين »

فأنت فى استجلاء هذا الكتاب تستجلى ألواناً من الرغبات والأهواء فى نفس الشباب العبقرى ، وتتبين وجوهاً واتجاهات تتباعد فى أشكالها بعوامل الزمان والمكان ، وتقف على عبقريات فنية تتوزع فى نواحٍ مختلفة من نواحى الحياة ، ثم أنت بعد هذا كله إزاء صور دقيقة رائعة كلها الفن والاتقان . وناهيك بصور تتجلى فيها شخصيات الاسكندر المقدونى الفاتح العظيم ، وطرفة بن العبد الشاعر القتيل ، وموتسارت طفل المعجزات ، وتوماس تشاترتون شهيد الأنفة وصريع الفاقة ، ووليم بت السياسى المنيف ، ومصطفى كامل فخر الشباب المصرى فى الوطنية وكيتس شاعر الحق والجمال ، وجان دارك رمز الايمان والتضحية وأندريه شنييه نصير الحرية والدستور ، وجينمر فارس الهواء الأعظم

ولقد نهض المؤلف بموضوع كتابه خير نهوض وأكمله ، فإنه شاب يتوثب للمستقبل ، ويتحفز للغد ، ولا شك أن الشباب خير من يفهم الشباب ويقدره حق قدره ، ثم هو أديب واسع الثقافة ، شامل المعرفة ، تتصل دراسته واطلاعه بكثير من الثقافات الأوربية الحية ، ومن ثم أمكنه أن يوفى القول عن شخصيات كتابه وهم — كما قال — من آفاق متباعدة ، وأجناس مختلفة ، وأزمان متباينة ؛ وإذا كانت التراجم بطبيعتها — كما قال كارليل — أكمل الوضوعات نفعاً ، وأعمها لذة ومتعة للنفوس ، فإن لهذا الكتاب ميزة ظاهرة يتميز بها فى نهجه وأسلوبه وتراجمه ، إذ جمع مؤلفه الفاضل « بين البحث التحليلى العميق ، وبين الجانب القصصى الطريف ، فليست فصول الكتاب بالتحليل العلمى الجاف ، ولا بالقصص التاريخى البحت ، ولكنها تجمع بين الفضيلتين ، ففيها نصيب للباحث المدقق الذى يطلب الحقيقة التاريخية فى مصادرها الثابتة ، وفيها حظ آخر للقارئ السطحى الذى ينشد المتعة الخفيفة وتزجية الفراغ » ومن هـذه الناحية كان الكتاب رغبة كل قارئ ، وقد أحسنت دار الهلال فى اختياره هدية لقرائها الكرام

السـير

للأستاذ محمد سعيد لطفى

نقرأ فى هذا الكتاب نخبة طيبة من المحاضرات التى أذاعها الأستاذ الفاضل محمد سـعيد لطفى من دار الأذاعة المصرية على جمهور المستمعين ، وهى محاضرات تدور على سـيرة الرسول

صلى الله عليه وسلم وسير بعض أصحابه وقرابته ، ومن جاء بعده من الخلفاء الراشدين ورجال بني أمية وبني العباس حتى نهاية الخليفة الأمين ، وما كان بينه وبين أخيه المأمون من حروب على الملك ، وتطاحن على السلطان

ولقد عنى الأستاذ الفاضل وهو يتحدث عن سير هؤلاء الأشخاص بالكشف عن مواهبهم الشخصية ، ونزعاتهم الذاتية ، وخصائصهم التي تميزوا بها في حكمهم وسياستهم ، وما قاموا به من الأعمال الجليلة ، والأحداث الحافلة ، فجاء كتابه من وراء هذا صفحة مشرقة رائعة من التاريخ العربي ، تكشف عن كثير من النواحي القوية فيه ، وتعطي القارئ فكرة شاملة عن هذا التاريخ الحافل بالجلائل والأحداث

أما أسلوب الكتاب فأسلوب عربي سليم ، جزل متدفق ، تطل منه شخصية الأستاذ سعيد لطفي ، وتظهر فيه روحه ومشربه ، وهي روح تفيض بالدين واليقين ، وتمجد القومية العربية . ولقد أعجبني الأستاذ إذ رامى في مسلكه أقدار المخاطبين ؛ فتنكب التعسف والأثقال ، وابتعد عن الحشو في الرواية التاريخية على نحو ما هو شائع في المصادر القديمة ، بل نهج نهجاً قصصياً سائغاً يصفه هو لك إذ يقول : « رويت التاريخ كما تتحدث ساعات التسلية ، فلم أرهق المستمعين ، ولم أذكر اسماً إلا لضرورة ، ولا بلداً إلا لحادث جلل ، ونزهت من تناولت سيرهم جميعاً عما لهج به الحاسدون ، وأدخله عليهم الأعداء والموتورون »

وقد أحسن المؤلف الفاضل إذ عنى بإيراد كثير من الخطب والأشعار والرسائل والوصايا التي تعتبر من وثائق التاريخ العربي ، ثم في الوقت نفسه تعتبر من النصوص الأدبية الرائعة ، ومن ثم لم يكن الكتاب كتاب تاريخ وسير فحسب ! بل كتاب أدب وتاريخ ، ينفع الأديب كما يفيد المؤرخ ، ولاشك أن في الكتاب هفوات ولكنها طفيفة ، ولعل الوقت ينفسح لنا فيما بعد فنتناول الكتاب بفصل شامل على صفحات الرسالة

محمد فهمي عبد اللطيف

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧ ﴾



6 me Année, No . 248

Lundi - 4 - 4 - 1938

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

الرسالة

مجلة أسبوعية للأدب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٢٤٨ « القاهرة في يوم الاثنين ٣ صفر سنة ١٣٥٧ — ٤ ابريل سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـــرس

محنة شهـــــر !!

ذلك الشهر كان شهر مارس ! ومارس في أساطير الأولين إله الحرب ! ابتليت فيه مصر الوديعة بسطوة الهوى على الرأي ، وعدوان الشهوة على الخلق ، فجاءها بالخلاف وذهب بالأمن ، وابتدأ بالصراع وانتهى إلى الفجيعة . فليت شعري ماذا جنى الزاعمون[1] على الناس من بلايا الناس ؟

كانت مصر طوال هـذا الشهر كالبركان الجهنمي الثائر ، يغلي بالحميم ويرمي بالحُمم ويطغى بصهيره الخانق على المغاني والربوع فيهلك الأموال ويزهق الأنفس ، ثم يكون ظلاماً في الأرض ، وقتاماً في الجو ، ونتناً في الهواء ، ومواتاً في الطبيعة

وكانت الأمة المسكينة تنفق على معارك الانتخاب الدائرة بين الأحزاب أكرمَ ما تملك من المال والدم والخلق ، وهي لا تدري لهذه الضحايا الغالية التي لا ثواب عليها ولا عوض منها ، حكمةً ظاهرة ولا ضرورة ملجئة

وكان المرشَّحون المتنافسون يتعاقبون على الدوائر الانتخابية تعاقب السنين المواحق ، فلا يتركون وراءهم إلا أُسَراً تتفرق ،

(١) زعم على الناس : تأمر عليهم وترأس

ووشائج تتمزق، وضمائر تُشترى، وذمماً تسرق، وعصبية تثور، وأحقاداً تُبعث، وأموالاً تُهلك، ودماء تسفك، وأعمالاً تبور.

فتعالوا نناشدكم الله يا نوابنا وأحزابنا وزعماء الرأي فينا. هل تشعرون بثقل هذه الأوزار التي حُمِّلتموها في سبيل التكالب على النيابة والتسابق إلى الحكم؟

ألا تريدون أن تنسوا أن العضوية في مجلس النواب أو في أندية الأحزاب ليست إلا وصفاً يتمّ العنوان، ومنصباً يلازم الغنى، ووسيلة تعين على العيش، وطريقة تؤدي إلى الجاه؟

ألا تحبون أن تذكروا أن النيابة عن الأمة معناها حلول أمة في فرد، واستيعاب فرد لأمة؟ فهواها غالب على هواه، ورضاها مقدَّم على رضاه، ورأيها مستبد برأيه، وصوتها مجلجل في صوته، وهمها شاغل لفراغ باله؟ فإذا مثل النائب في المجلس دور الكُمْبَرْس، أو وقف في المناقشة موقف الإمَّعة، كانت نيابته بعد انتخابه مصاباً بعد مصاب، وويلاً بعد عذاب، وكفراً بعد خطيئة؟

ألا تودون أن تفهموا أن البرلمان بالأمس كان حَسْبُهُ أن يكون مظهراً من مظاهر الاستقلال، وعنواناً من عناوين الدولة، وأن العضو فيه كان حَسْبُه أن يشارك في أبهته، ويشرب أكواب الليمون في ردهته، ويفتح مغاليق الأمور بقوته؟ أما اليوم فهو تعبئة لكفايات الشعب، وتجميع لرغبات الأمة، وتهيئة لقواها العاطلة وأسلحتها الكليلة أن تضمن لنا حق الحياة والكرامة، وللوطن حق العزة والسلامة؟

الأُسُود الروابض على حدود الوادي تتحلب أفواهها شرهاً إلى افتراسه، والنسور الحوائم على حواشي الوطن تترقب الفرص لانتهاسه، وطاغية روما الطموح ينذر الناس أنه يرصد الأُهب في البر والبحر والسماء لحرب جديدة. فهل يشق عليكم أن تدركوا أن للنائب في هذا الوقت العصيب عملاً غير الحفلات والوساطات والغنيمة، وأنه إذا دخل المجلس من غير مبدأ، وجرى فيه إلى غير غاية، واستغل حقوقه من غير عمل، كان داخلاً في غير أهله، ونازلاً في غير ملجئه؟

***

أحزابنا متعددة كتعدد الأحزاب الأوربية في البرلمانات الديمقراطية العظيمة، ولها بمقتضى هذا التعدد أندية وصحف وأتباع؛ ولكنها تختلف عن أحزاب الأمم بأن ليس لها خطة في الإصلاح مرسومة، ولا غاية في السياسة معلومة؛ فهي إلى اليوم تتميز بالأسماء لا بالبرامج، وتتقارع بالمقالات لا بالخطط، وتتنافس في بلوغ الحكومة لا في خدمة الأمة

من أجل ذلك كان مرشَّحو الأحزاب لا يجدون ما يقولون في خطبهم الانتخابية غير الجمل الجُوف، والوعود المبهمة، والتهم الجريئة، والدعاوى العريضة، والعيوب الخاصة، حتى تركوا البلاد من صعيدها إلى ريفها ضجة من البذاء، وغمة من البلاء، ومِزَقاً من الأعراض والخلق

على أننا نرجو أن تكون هذه المحنة آخر المحن، وأن تموت في سبيل الوطن هذه الحزازات والإحن، وأن تنكشف عماية الحيرة عن عيون الأمة فتبصر وجه الرأي الذي تستقيم به الحال، ويستقر عليه الأمر؛ فقد عودنا شهر مارس أن يكون حميد الأثر في الحياة المصرية. ففي مارس من عام ١٩١٩ استيقظ أبو الهول، وشبت ثورة النهضة، وتنافس في الجهاد النساء والرجال، وتعانق على الوداد الصليب والهلال، وتسابق إلى الاستشهاد الشيوخ والأطفال، وسالت أنفس الشباب ضحايا على مذبح الحرية!

وفي شهر مارس من عام ١٩٢٢ ألغيت الحماية، وأعلن الاستقلال، وصدر الدستور!

وفي شهر مارس من كل عام تتجدد الحياة، وتهتز الأرض، ويورق الشجر السليب، ويمرع الوادي الجديب، وينشد الربيع الباكر أناشيد الجمال والحب والأمل!

احمد حسن الزيات

داء الشعور بالحقارة أيضاً

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

قرأ أديب مقالة داء الشعور بالحقارة فقال إن الصفات التى ذكرتها صفات شائعة فى النفس الإنسانية . وكأنه بهذا القول يريد أن ينكر أن في النفس ما يصح أن يسمي داء الشعور بالحقارة . فذكرت الأديب بأن صفات الخير والشر كلها موجودة فى كل نفس ، فلكل نفس منها نصيب قل أو كثر ، ولكن هذه الحقيقة لا تمنع من تفاوت النفس تفاوتاً عظيماً حسب نصيبها من صفات الخير أو الشر . ولا نريد أن ننكر أن جرثومة الحقارة تلفى حتى فى النفوس العظيمة ؛ هذا أمر نريد أن نثبته وإلا ما استطاع القارئ أن يعترف بما ذكرناه فى مقالنا من أن داء الشعور بالحقارة قد يصير وباء فى بعض البيئات ، وأن له عدوى كعدوى الأمراض الجثمانية ؛ فلولا هذه الجرثومة التى تشترك فيها النفوس قاطبة ما استطاعت نفس أن تؤثر فى نفس أخرى وأن تحملها على محاكاتها فى الأفعال أو الأقوال الناشئة من شعورها بالحقارة

إن صفات الخير أو الشر شائعة فى النفوس الإنسانية ؛ وهذا سبب العدوى وسبب المحاكاة . ولكن شيوع صفة من الصفات فى النفوس لا يجعلها مرضاً مزمناً ، وإنما تصير تلك الصفة مرضاً إذا غلبت على النفس وصارت محور أعمالها وأقوالها وطغت على كل صفة أخرى أو حاولت هذا الطغيان وتملكت المشاعر . وفى هذه الحالة يكون الداء النفسى فى أشد حالاته ، ولكن له حالات أخف وأهون

وقد ذكرنا أن ذيوع داء الشعور بالحقارة يكون أعظم فى الأمم التى ظلت مغلوبة على أمرها عصوراً طويلة ، غلبة تشعرها الذلة والمسكنة سواء أكان الغالب قاهراً أتاها من الخارج أوحاكماً من أبنائها . وتظهر أعراض هذا الداء إذا قلت وطأة تلك الغلبة أو زالت أسبابها وزادت الحرية ، فتبرز وتعظم صفات القلق والألم والحقد والحسد خشية أن يفطن أحد إلى ما يشعر به صاحب داء الشعور بالحقارة في سريرة نفسه . وقد يكون شعوراً غامضاً لا يتبينه تماماً فيتماظم تماظماً لا اطمئنان فيه ، لأنه تساوره الأحقاد والحسد فينم تماظمه عما يبطنه من الشعور وما يعالجه من داء الحقارة . وفى بعض النفوس يظهر الداء بمظهر التواضع وتحقير النفس تحقيراً يخالطه الحقد والحسد والقلق ، فتنم هذه الصفات أيضاً عما يعالجه المرء فى سريرة نفسه من الشعور بالحقارة . وقد يعالج هذا الشعور وهو لا يدركه ولا يفطن له تماماً ، وقد يدعى المتواضع المصاب بداء الحقارة أنه أكرم خلقاً من المتماظم بهذا الداء . ولم نقل إن داء الشعور بالحقارة لا يظهر إلا فى تلك الأمم التى ظلت مغلوبة على أمرها عصوراً طويلة ، وإنما قلنا إن ذيوعه فيها أكثر ، وصفاته ومظاهره أكثر تنوعاً وتعدداً ، وأعراضه أشد : من حب للظهور ومن دس وكيد وحقد وحسد . ولم نقل إن الكيد والحقد والحسد والتنافر ليس لها إلا هذا السبب وإلا هذا المصدر ، فلها أيضاً أسباب أخرى ، ولكن إذا ظهرت الصلة بينها وبين داء الشعور بالحقارة فى مثل تلك الأمة أو البيئة الموصوفة كان هذا الداء هو سببها ، وحتى فى حالات الأفراد المصابين بهذا الداء فى بيئة سليمة منه قد تظهر صلات هذه الصفات بداء الشعور بالحقارة ظهوراً ليس مثله ظهور . أما فى البيئات الموبوءة فليست الصعوبة فى معرفة صلات هذه الصفات والمظاهر بالداء ، وإنما الصعوبة فى حصرها وعدها لم شعثها وتشعبها تشعباً عظيماً ؛ وهذا التشعب والتفرع قد يبعدها عن أصلها لكثرة الفروع وفروع الفروع حتى يخيل للرائى أن لها أسباباً أخرى غير داء الشعور بالحقارة الذى هو منبتها وجذرها وجزعها فى تلك البيئة ، فتتكاثر صفاتها أمام الباحث تكاثر الظباء على خراش . على أن العقل لا يجد صعوبة فى أن يفهم منشأ هذا الداء فى الأمم التي ظلت مغلوبة على أمرها عصوراً طويلة تشعرها الذلة والمسكنة ، ثم جاءت الحرية . ومن لوازمها أن يخفى الحر ما يشعر به من صفات متوارثة أو غير متوارثة ، وهذه الرغبة فى إخفاء ما فى نفسه من داء الشعور بالحقارة قد تصير داء يتلمس كل وسيلة شريفة أو دنيئة ، وقد يشرف بصاحبه على الجنون أو يبلغه ، وقد يدفع إلى الجرم . وفى اعتقادى أن مباهاة التعس للتعس من فقراء الفلاحين مباهاة ربما دعت إلى الجرم والإثم من أجل سبب تافه إنما تنشأ من هذا الداء ومن هذه

المؤثرات الاجتماعية القديمة الحديثة . وكذلك حب الظهور الذي قد يودى بالأملاك ويؤدى إلى خراب الأسر إنما هو داء الشعور بالحقارة الخفي يبرز فى شكل تعاظم مصحوب بالقلق والحقد والحسد . وهذه المظاهر تشاهد أيضاً فى نفوس بعض الوظفين والطلبة وسكان المدن الكبيرة . ولا بد أن نقول مرة ثانية إن صلات هذه الصفات بداء الشعور بالحقارة فى بيئة اعتورها ذل ثم حرية بعد ذل طويل ، صلات ظاهرة لا تنكر ، وإن تلك الصفات ليست فى شكلها الذى تشترك فيه النفوس البشرية عامة بل زادت واشتدت حتى صارت داء ، وإنه لا يرجى رقى ولا تصلح تربية ولا يصلح تعليم ولا ترجى ثمراته كلها إلا إذا عولج داء الشعور بالحقارة وأعراضه

وكانت الحرية الكاشفة عن هذه الصفات الكامنة أشبه الأشياء فى فعلها بالخمر التي تظهر الصفات الكامنة ؛ فإذا كانت فى طبع المرء شراسة أظهرتها الخمر إذا سكر ، وإذا كان في طبعه إسراف زادته الخمر إسرافاً حتى يكاد السكران يخلع كل ثيابه ويتصدق بها على الناس ؛ وإذا كان في طبعه ميل إلى الإجرام دفعته الخمر إلى ارتكاب الكبائر

وليس بين القراء من لم يشاهد مريضاً بداء الشعور بالحقارة ، ولكن ذيوع هذا الداء فى بيئة يجعله مألوفاً ألفة تفقده الغرابة ، فلا يشعر به الإنسان فى تلك البيئة إلا إذا بحث عنه وتعمد الفطنة له

وكلما كان المصاب بداء الشعور بالحقارة مفلساً من العلم أو الذكاء كانت لجاجته فى جداله وحديثه أعظم ، وكان غضبه إذا خولف أشد ، وكان ادعاؤه العلم بكل شئ أوفى وأتم ادعاء ، وكان حقده على من يخالف رأيه أبعد أثراً وأطول عمرا وأعمق مقراً من نفسه ، حتى ليكاد يأتى ربه يوم القيامة وأوضح أثر في نفسه حقده على من خالفه فى رأيه فى الحياة الدنيا . والويل لك إذا عاشرت من اشتد به داء الشعور بالحقارة ، فإنك إذا عاونته حقد عليك من أجل فضلك عليه الذى يهيج شعوره بدائه ، وإذا لم تعاونه حقد عليك أيضاً من أجل حاجته إليك التى تهيج شعوره بدائه . وكلما كان المصاب بداء الشعور بالحقارة مفلساً من المال ادعى الثروة ، وقد يبلغ به داء الشعور بالحقارة منزلة يضن فيها بما معه من المال على عياله كى يظهر به فى المجالس والنوادى ، وبين الغرباء ، بمظاهر الأريحية والسخاء والثروة . وهو يتلطف ، وقد يتذلل لمن يريد أن يقنعه أن صفات الأريحية والسخاء من صفاته وإن لم يكن من طبعه إلا الشراسة والحقد . وهو يحقد على كل من لا يمكنه من الظهور بمظهر التعاظم والأريحية ومن لا يهيئ له السبيل إلى ذلك ، وعلى من لا يضحى بكل شئ فى سبيل تهيئة وسائل الظهور له ، وعبثاً تحاول أن تظفر لدى من اشتد به هذا الداء بوفاء أو ود ، وعبثاً تحاول أن تفهمه حقيقة الأمر ، فإنه يخادع نفسه حتى يعتقد أنك تحسده على ماله من مظاهر العظمة أو الأريحية أو الذكاء النادر أو على منزلته فى قلوب الناس . وفى البيئة التى يذيع فيها داء الشعور بالحقارة يعتقد كل إنسان أنه عظيم الشأن ، أو يحاول أن يعتقد هذا المعتقد وأن يحمل الناس على اعتقاده ، ويرى أن أكبر جريمة فى العالم هى أن يجيد إنسان أو أن يظن أن إنسانا أجاد (وإن لم يكن قد أجاد) فى عمل أو قول أو جهد أو رأى أو صنع ، سواء أكانت الأعمال والأقوال مما يرجى فيه الخير للجميع أو مما فيه خير خاص ، وسواء أكان فيها نفع للمريض بداء الشعور بالحقارة أو لم يكن فيها نفع ، وهذا الحقد الذى يشعر به هؤلاء قد يخفى نفسه ويظهر بمظهر العبث ؛ وقد لا يخفى نفسه . وقد يدعى الغيرة على الخير والفضل ، وقد لا يدعى ، وهو دائماً كالحيوان فى الغابة متحفز للوثوب والظهور إذا أتيحت الفرص ، فإذا لم تتح الفرص لم يثب . وكثيراً ما تراه فى أوجه أصحابه عبوساً خاصاً ينم عن جنون الحقد ، وفى مثل هذه البيئة لا يعد المريض بداء الشعور بالحقارة المشقة مشقة إذا كانت من أجل إحباط عمل زميل أو غير زميل ، كأنما تلك البيئة رقعة الشطرنج بين يدى لاعبين ماهرين لا يبقى كل منهما ولا يذر

ولعل السبب فى أن الإنسان فى تلك البيئة التى اعتورها ذل طويل ثم حرية لا هم له إلا منع غيره من الظهور (وكلما كان الظهور بالإجادة فى صنع أو قول كان الخوف منه أعظم) أقول لعل السبب هو الرجوع بالسريرة وبالنفس إلى عهود ذلك الذل الطويل وطغيان الذين ظهروا فى تلك العهود طغياناً سبب ذلك الذل الطويل وسبب داء الشعور بالحقارة ؛ وربما ظهر الظاهرون فى تلك العهود بقدرة أو إجادة فأصبح المرضى بداء الشعور

بالحقارة ، حتى بعد تلك العهود القديمة البائدة ، يكرهون كل ظهور بقدرة أو إجادة لأن فيه مذلة لأنفسهم

وهؤلاء الناس قد يتعاونون في إظهار من برز بقدرة أو إجادة ولكنهم قلما يفعلون ذلك إلا إذا كانوا يرجون في إظهاره إظهاراً لأنفسهم وإبرازاً لها واكتساباً لأنفسهم شيئاً من الشهرة بالاجادة التي لصاحبهم ، أو إذا كانوا يرجون منه أن يعاونهم بقدرته على الظهور وإشباع نهمتهم منه

ويبدو داء الشعور بالحقارة أيضاً بين طائفة الخدم والحشم والرعاع فيحسبون أنهم يخفون ما يشعرون به من ضعة منزلتهم الاجتماعية بمحاكاة من هم أرفع منهم منزلة في اللباس أو في فتل الشارب أو في التنحنح أو في الفكاهة أو في التعالي والتعاظم على أصحاب الحاجات وكل من يريد مقابلة مخدوميهم . وإذا كان المخدوم أيضاً مصاباً بداء الشعور بالحقارة ويخفيه بالسفاهة حرت وصرت لا تدري أيأخذ الخادم من أخلاق مخدومه أم يأخذ المخدوم من أخلاق خادمه . وكثيراً ما يتخذ كل منهما الآخر نصيراً في خصوماته التي يخلقها من أجل شعوره بالحقارة . والفلاح الذي يغري المجرمين والأشرار بمن لا يحييه وهو جالس على المصطبة ولا يتزلف إليه مثل الموظف الصغير المنزلة أو كبيرها الذي يغري الأشرار ممن لا يتزلف إليه

وهذه الطوائف كلها تجني على الصغار بتأثير قدوتها فيهم . وكثيراً ما يكون سبب إساءة التلميذ أدبه رغبته في حب الظهور الناشئة من هذا الداء . وحب الظهور صفة عامة في النفوس كما قلنا ، ولكنها في البيئات المريضة بداء الشعور بالحقارة تتخذ شكلاً وضيعاً خاصاً وهي تكون مصحوبة بالصفات النفسية الوضيعة التي ذكرناها . ومما يدل على أن داء الشعور بالحقارة ينشأ بسبب عصور الغلبة التي تشعر بالذلة والمسكنة أن صفاته تكثر وتشيع بين العبيد وأبناء الأرقاء ، أو من كان أجدادهم أرقاء في العصور الغابرة وبين أبناء الشعوب التي ظلت مغلوبة على أمرها عصوراً طويلة خلقت التواء في الخلق ولؤماً . ولعل هذا الأمر يفسر ما نقرأ في محاكمات قضايا الروسيا من أعمال أبالسة أدنياء كانوا أرقاء أو مغلوبين على أمرهم عصوراً طويلة ، فلما نالوا الحرية أظهرت ما كمن في نفوسهم ، وهذا سواء أكانت هذه الأعمال قد فعلها من نسبت إليهم أم أنهم حملوا على الاعتراف بها كذباً بوسائل جهنمية ، ولا ينفي هذا الاستنتاج أن السياسة الدولية وعمالها السريين قد يستبيحون كل جريمة ضرورية وغير ضرورية في تنفيذ أغراض السياسة السرية وملحقات تلك الأغراض

ومن التلاميذ الصغار من يصاحب أهل الفساد أو المصابين بداء الشعور بالحقارة ، فيريد أن يخفي التلميذ شعوره بالنقص أو الفساد الذي لحقه بإساءة أدبه . وكثيراً ما يحاكي الصغار هذه الطوائف حتى من كان منها من الرعاع فيحاكونهم في مشيتهم وإشاراتهم وأقوالهم ، ويحسبون أن تلك المحاكاة تكسبهم رجولة وبطولة من غير أن يشعروا أن الرعاع أو من هم أكبر منهم منزلة وأعظم علماً من المصابين بداء الشعور بالحقارة يصدرون ويردون في أقوالهم وأعمالهم وإشاراتهم وحركاتهم وهم مُسَيَّرُون لا مخيرون ، وأنهم في كل هذه الأحوال طوع شعورهم بالحقارة وطوع الرغبة في ستر ذلك الشعور فكأنهم لعب خيال الظل يحركها المحرك من وراء ستار

عبد الرحمن شكري

صفات النساء النفسية

بين سذاجة الطفولة وعبقرية الفكر

للدكتور جميل صليبا

كثيراً ما بحث الأدباء في النساء وصفاتهن وما يحمد ويذم من أخلاقهن، فوصفوا المرأة الصالحة والزوجة الموافقة، كما أفاضوا في ذكر صفة المرأة السوء وشرها. فأحسن النساء عندهم من كانت شريفة في قومها، كاملة في عقلها، فصيحة اللسان صادقة محبة لزوجها، حافظة لسرها؛ وشرهن من كان كلامها وعيداً وصوتها شديداً، تدفن الحسنات وتفشي السيئات، صخوب غضوب ضيقة الباع. إلا أن هذه الصفات التي ذكروها لم تبن على استقراء علمي ولا تحليل نفسي. فما هي صفات النساء وما هي أنواعهن عند العلماء؟

بينما كنت ذات مرة ألقي درساً في علم النفس على تلاميذ لم يتجاوزوا الثامنة عشرة من سنهم قال لي أحدهم بعد أن ذكرت صفات الحوادث النفسية: هل تنطبق هذه الصفات على المرأة، أم في الأرواح تذكير وتأنيث؟

إن هذا السؤال — بالرغم من سذاجته — يتضمن شبهة فلسفية عميقة. فهل تشعر المرأة كما يشعر الرجل؟ وهل تفكر كما يفكر أو تريد كما يريد؟ وهل تختلف مشاعرها عن مشاعر الرجل كما يختلف جسمها عن جسمه؟

قال بعضهم: إن الفرق بين المرأة والرجل في الحس والفكر والإرادة عظيم جداً، وإن المرأة كانت في الجماعات الابتدائية للرجل لا فرق بينها وبين العبد، حتى لقد ذكر لكوفه Legouvé أن أحد المجامع المقدسة في القرون الوسطى تناقش في هذا السؤال: هل للمرأة نفس أم ينفرد الرجل وحده بهذه الصفة الإلهية؟ وقد ساقهم إلى هذه المناقشة ماجاء في التوراة عن خلق المرأة من ضلع من أضلاع الرجل، وقول آدم: هذه عظم من عظامي ولحم من لحمي، وعدم قوله إنها ذات نفس شبيهة بنفسه

وزعم آخرون أنه لا فرق بين الرجل والمرأة في الحس والعقل والإرادة، وأن الفرق بين الرجال أنفسهم أكثر من الفرق بينهم وبين النساء. فمما قاله أفلاطون: لا فرق بين الرجال والنساء. يجب أن يكون عدد النساء في جيش الجمهورية مساوياً لعدد الرجال. ويجب عليهن أن يتعلمن استعمال السلاح وركوب الخيل. وينبغي لهن أن ينزعن ثيابهن لممارسة الرياضة البدنية وألا يخجلن من ذلك كله لأن أحسن ثوب يصون المرأة هو ثوب الفضيلة. ومما قاله كوندورسه: يجب أن يكون التعليم واحداً بالنسبة إلى الجنسين لأن المرأة مساوية للرجل. ومما قالته مدام (نكردوسوسور): إن البنات لا يختلفن عن الصبيان أبداً قبل العاشرة من السن

فالباحث عن حقيقة المرأة إما أن يكون مثل بوسويه الهازئ بزينة النساء وزهوهن فيقول لهن: لا تنسين يا سيداتي أنكن خلقتن من ضلع زائد من أضلاع آدم؛ وإما أن يكون مثل أفلاطون الخيالي فيتصور مدينة فاضلة قائمة على سواعد الرجال والنساء معاً. وهذه المباحث الأولية لا تكشف الغطاء عن حقيقة المرأة، بل هي على مثال ما ذكره سائر الأدباء أقوال خطابية لا توضح الأمر بل تزيده ظلاماً، حتى لقد قال (ريدرو) في ذلك: «إذا كتبت عن المرأة فاغمس ريشتك في قوس قزح ثم رش على أوراقك غبار أجنحة الفراشة، لأن المرأة هي موجود إلهي»

فلنرجع إلى علم النفس ولنسأل ما هي حقيقة المرأة ولندرس أحوالها النفسية على ضوء العلم الحديث

***

إن تحليل صفات النساء يكشف لنا عن أنواع مختلفة، ويمكننا إرجاع هذه الأنواع إلى أربعة:

١ — المرأة الطفل ٢ — المرأة الحساسة
٣ — المرأة الحساسة الذكية ٤ — المرأة المفكرة

ولنبحث في كل من هذه الأنواع على حدة:

١ — المرأة الطفل: إن هذا النوع من النساء مشتت الفكر والقلب معاً؛ فلا هو منظم الحكم، ولا هو ثابت الحس، بل يتبدل من صورة إلى أخرى بحسب الأهواء والعواطف. وقد وصفه (ديكنس) في روايته دوريت الصغيرة (La petite Dorit). ويبين العلماء أن له نوعين: المرضي والطبيعي. فالمرضي يعرف بشدة قبوله للتلقين، والطبيعي يشتمل على النساء الخفيفات العقل الكثيرات الزهو اللواتي يتنقلن كالطير من فنن إلى آخر؛ أو يشتمل على النساء الواسعات الخيال الكثيرات القلق والعظيمات الأمل؛ فإذا تكلمن مزجن الحقيقة بالخيال وأسرعن في التعبير عن أفكارهن أو تقدمت الألفاظ عندهن على الفكر. وقد يملن إلى الاطلاع ويرغبن في الكشف عن خوافي الأمور، إلا أن ميلهن هذا بعيد جداً عن

محبة العلم ، فهن يرغبن فى المعرفة لا للمعرفة نفسها بل لحاجة فى نفوسهن تدفعهن إلى الحديث . وإذا رغبن فى شىء مجرداً عن المنفعة المباشرة رضين بالقليل منه واكتفين باليسير . قلت لطفل مرة : إذا أعطيتك ثلاث برتقالات وأخذت منها واحدة فكم يبقى معك منهـا ؟ فقال على الفور : كيف تقول لى إنك أعطيتنى ثلاث برتقالات وأنت حتى الآن لم تعطنى شيئاً ؟ فالمرأة الطفل لا تختلف عن هذا الطفل فى طلب العلم . إنها تفضل المحسوس على المجرد ، والقريب النفع على البعيد القصد . فهى إذن مثل هذا الطفل الذى لا يعرف الحساب إلا إذا تذوق حلاوة البرتقالة

٢ — المرأة الحساسة : يختلف هذا النوع عن الأول بشدة العاطفة وعمق الشعور وتغلب القلب على العقل . إن المرأة الحساسة لاتقيس الأشياء إلا بمقياس العاطفة ولا تزنها إلا بميزان الهوى . فـكل ما وافق هوى من نفسها صحيح ، وكل ما أعرضت عنـه فاسد . لقد جاء فى بعض روايات (جورج ساند) شىء من صفات هذه المرأة . إنها تنسى هواها القديم عند وقوعها فى الهوى الجديد، ولا تهتم بوقوعها فى التناقض وانتقالها من ضد إلى آخر . نعم إن الرجل نفسه خاضع لمنطق العواطف ولـكنه يحاول فى كل حال من أحواله أن يبرر عواطفه ويجعل هواه معقولا . مثال ذلك : أن (ألسست) Alceste يقول عن نفسه إنه لا يحب سيليمين Céliméne إلا ليرجع إليها الفضيلة المفقودة ، فهو إذن يجد لهواه سبباً معقولا . أما المرأة فلا تهتم بهذه الوساوس ولا تميل إلى سفسطة التشكك ، بل تعلن الأمر كما هو ؛ فاذا كرهت رجلاً كان قلبها وحده مبرراً لها فى كرهها ، وإذا أحبت شخصاً لم تبحث عن الأسباب الباعثة على تعلقها به ؛ بل تصغى إلى نداء قلبها من غـير أن تجد حاجة لتحكيم العقل . إن هذا النوع من النساء شبيه بالنوع الأول فى خوفه من التجريد ، وعدم ميله إلى الحق . إن فـكرة العدالة مفقودة عند هذين النوعين ، والنساء على الأغلب لا يملن الى العدالة المجردة ، بل يفضلن عليهـا عدالة القلب . من ذا الذى يستطيع أن يقنع الوالدة أن ابنها لا يستحق النجاح فى الفحص ؟ العدالة ضيقة النطاق ، وقلب المرأة أوسع من أن يتقيد بهذه الحدود الضيقة . قد تكون العواطف للعقل نوراً وللإرادة قوة ، وقد يبعث الهوى على التضحية الخالصة فيذهب إلى ما وراء العدالة ويكشف الحجاب عن ذخائر القلب فينشرها ويذيبها ولكنه كثيراً ما يشوش أحكام العقل فيملأها ظلاماً .

٣ — المرأة الحساسة الذكية : وقد تكون العاطفة مصحوبة بقوة من الذكاء خفية لا تخلو من الدقة وحدس الحياة ، فتربط المرأة عواطفها بأفكارها وتريد أن تتغلب بها على مشاكل الحياة . إن هـذا النوع من النساء قوى الملاحظة والانتباه والذاكرة ، واسع الخيال شـديد الحس ، إلا أن قوة الحـكم عنده مشوبة بدخان العاطفة وسائق الغريزة . لذلك تجده قوى الشعور بالمنفعة كثير الميل إلى العمـل . كالزوجة التى تشعر بالرابط الاجتماعى وتقدره حق قدره وتبدل بعواطفها العفوية بالفكرة الاجتماعية أو الخلقية أو الدينية ؛ وكالوالدة التى تدرك نظام الحياة فتتصور مثلا أعلى له ثم تهىء أولادها للفوز فى هذا النظام الجديد ؛ فهى تشعر بمشاكل الحياة وتريد أن تتغلب عليها بقوة الذكاء والإرادة . فكم شاب لم يتطلع إلى المعالى إلا بتأثير والدته ! وكم رجل لم يقدم على المغامرات السياسية أو الماليـة إلا بدافع من زوجته ! وكثيراً ما تكون المرأة هى القوة المحركة والدماغ المفكر والعقل المدبر ، ويكون الرجل هو الآلة المتحركة والواسطة المبلغة .

٤ — المرأة المفكرة : إن هذا النوع الأخـير أقرب إلى الاهتمام بالمباحث العلمية من الأنواع السابقة ؛ فهو محب للاطلاع ميال إلى المعرفة ؛ إلا أنه كثيراً ما يضطرب أمام إشراق الفكر ويعجز جسمه اللطيف عن تحمل أعباء البحث . والسبب فى ذلك أن النساء عشن حقباً طويلة تحت وصاية الرجال بعيدات عن الحرية والحياة ، فلا غرو إذا ترددن فى البحث وشعرن بالقلق فى فضاء الفـكر . وبالرغم من ذلك فان البنات أكثر اتبـاعاً للنظام من الصبيان . وقلما تجد فتاة تفضل الكسل على الاجتهاد ، بل إن أكثر البنات يصغين إلى أساتذتهن ويكتبن الأمالى، ويحفظن دروسهن ؛ إلا أنهن لا يزلن حتى الآن أقل جرأة فكرية من الصبيان ، لأنهن يعتمدن على الذاكرة أكثر مما يعتمدن على قوة الحكم .

وقد تبين لعلماء العصر أن استعداد المرأة للرياضيات قوى جداً وأن فى وسعها أن تتعود التفكير المجرد ، إلا أنها لا تزال قليلة الثقة بنفسها فلا تبحث إلا فى الأشياء العملية النافعة أو فى الأمور المحددة . ومع أن مدام بيير كورى قد توصلت فى العـلوم التجريبية الى درجة عالية فإن تلميذات فرع العلوم فى الجامعات أقل ثقة بنفوسهن من التلاميذ ، لأن التجريب العلمى يحتاج الى جرأة وتنظيم ، وهذان الأمران لا يزالان حتى الآن بعيدين عن المرأة .

ومما يؤيد هذا أيضاً أن النساء اللواتي اشتهرن بالفلسفة (كهيباتيا) وغيرها لم يبدعن مذاهب جديدة بل إتبعن المذاهب القديمة وحللنها وهذبنها. فالمرأة أقرب الى الاتباع منها الى الابداع. وهي لا تقبل الحقائق المؤقتة، بل تريد أن يكون كل شيء نهائياً فتسبغ على الحقائق العلمية حلة دينية وتقلب النسبي الى مطلق. إن تلاميذ الفلسفة يفضلون الكليات الفلسفية على الجزئيات، فيضخمون الفكر البسيطة ويعممونها حتى تشمل الكون كله. أما تلميذات الفلسفة فيملن الى الجزئيات ويرغبن في التحليل دون التركيب: فعقل المرأة عقل تحليلي، أما عقل الرجل فعقل تركيبي. نعم إن المرأة واسعة الخيال، ومن صفات الخيال الواسع أن ينشيء ويبدع، إلا أن خيال المرأة يصلح لتبديل صور الأشياء وتغيير حقائقها لا لإنتاج الفرضيات المنظمة وإصلاح الواقع بها.

***

تلك هي أنواع النساء من الوجهة النفسية. فالمرأة الحساسة تصلح للشعر والموسيقى والتصوير والتمثيل، والمرأة الحساسة الذكية تصلح للحياة العملية من تجارة وإدارة، والمرأة المفكرة تصلح للعلم والفلسفة. وقد تمتزج هذه الصفات فتجتمع في امرأة واحدة، فيكون منها نوع معتدل صالح للقيام بجميع الأعمال.

وقد أخذت صفات المرأة تتبدل في الهيأة الاجتماعية الحديثة لأنها قد شاركت الرجل في جميع الأعمال من تجارة وصناعة وإدارة واقتصاد وسياسة، فساقها التطور إلى استبدال كثير من صفاتها القديمة بصفات جديدة، فاستبدلت بالحياء الجرأة، وبالخشية الاقدام، وبالسكون الحركة، وبالسذاجة الحيلة، وبالعبودية الحرية، وبالعاطفة العقل. وأعتقد أن هذه الصفات الجديدة لا تفسد جمال المرأة بل تزيد سحرها قوة، لأن العلم لا يجفف القلب بل يبدد ظلمات الغريزة، وينير طرائق العقل، ويكشف عن جمال الأشياء، ويولد في المرأة صفات نفسية مشابهة لصفات الرجل في تفكيره وانفعاله وفعله؛ ويقلب حياة المرأة الاتباعية الى حياة مفعمة بالحرية والإبداع. وما أدرى لعل التطور يكشف لنا في المستقبل عن نوع جديد أكمل من هذه الأنواع الأربعة تتحد فيه العاطفة بالفكر والإرادة بالعقل. إن الأحلام ليست أقل تأثيراً في التطور من اشتباك الأسباب الحقيقية واختلافها.

جميل صليبا

رئيس التعليم الثانوى بدمشق



رأيت في نومي البارحة رؤيا أفزعتني: رأيت أني تزوجت. ولم تبين الرؤيا كيف تم ذلك، ولكن وجدت نفسي على فرُش وثيرة من الدمقس الأزرق في حجرة جميلة ذات سجُف من حرير متألق متماوج الألوان كرقبة اليمامة. وسمعت حولي من يقول:

— هذا جهازها — جهاز من؟ — عروسك

— ومن الذي زوجني؟ وممن العروس؟

— من بيت حسب ونسب. ذات جمال ومال وحلاوة لسان. وهي فرصة كان لا بد من انتهازها. وقد علت بك السن وكاد يفوت أوان الزواج

— ومن انتهز لي هذه الفرصة؟

— أولاد الحلال، من قرائك المعجبين الذين يهتمون لأمرك

— شيء لطيف. وهؤلاء القراء المعجبون الذين زوجوني، كيف فعلوا ذلك؟ وأين وجدوا لي هذه العروس..؟

— لا شأن لك بكل هذه التفاصيل. ولا تشغل بالك إلا بما أنت فيه من نعيم مقيم

— والعروس؟ أسبق لي رؤيتها؟ — لا. ستراها الليلة

— عجباً! وكيف يزوجونني ممن لم أرها ونحن في القرن العشرين؟ آه أيها الناس! إن هذا جاوز الحدود...

— هي أيضاً لم ترك — أقرأت كتبي؟

— لو كانت قرأت كتبك لما تزوجتك

— وكيف إذن أقنعوها؟

— قالوا لها عنك كل شيء إلا الأدب والتأليف. فقد وجدوا من الحكمة وأصالة الرأي كتمان ذلك عنها إلى أن يتم العقد ويتعذر النقض

وفتحت عيني في الصباح وأنا أقول: «اللهم أحمدك على استيقاظي قبل تمام العقد، وقبل مواجهة الفتاة بذلك العيب الذي لا يغتفر! نعم ان المرأة لن تتغير. إن شئون الفكر عندها شيء مخيف وكم من شعراء وأدباء أخفوا على نسائهم كنوز عقولهم ولم يظهروا لهن إلا كما يردنهم: رجالاً مبتذلين كقفة الرحال!»

توفيق الحكيم

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ١٤ —

نحن فى اليوم الرابع من أيام المؤتمر الطبي العربى الذى بثّ الابتهاج والانشراح فى أرجاء بغداد ، وأنا أمضى إلى مدرج كلية الطب لألقى محاضرتى عن المصطلحات الطبية فأجد اسمى فوق اللوحة آخر الأسماء ؛ وأتلفت فأرى فتاة من قريبات ليلى جاءت لتسمع محاضرتى فأحقد على منظم المنهج ، لأن هذه الفتاة قد تضجر فتنصرف قبل أن تسمع صوتى ، فأنتهز أقرب فرصة وأدخل فى مناقشة حامية مع الدكتور فؤاد غصن ؛ وينهزم الدكتور فؤاد غصن ، فتصفق تلك الفتاة . وما أسعد الخطيب الذى تصفق له فتاة بغدادية ساجية الطرف مصقولة الجبين !

رباه ! متى يُعقد المؤتمر الطبي مرة ثانية ولو فى الصين ؟!

ويقوم سعادة الأستاذ على الجارم بك فيلق محاضرته فى صوت مطلول كأنداء الصباح

ثم يقوم فضيلة الشيخ السكندرى فيلق محاضرة نفيسة جداً تضج لها الأرض وتطرب السماء ، ويصيح الدكتور القيسى : تحيا مصر ! تحيا مصر !

وأقبل عليه أشكره على التحية التى وجهها إلى مصر فيقول : كنت أظن الذكاء المصرى خرافة أذاعها المصريون . واليوم رأيت وتحققت أن المصريين أذكياء وعلماء ، وقد تبددت الصورة المشوهة التى ارتسمت فى ذهنى بسبب الجموح الذى شهدته فيمن عرفت من الطلبة المصريين في باريس

وأعتذر عن جموح شبابنا فأقول : لا تلم شبابنا على المرح والطرب ، فنحن شعب طال عهده بالهموم والأرزاء فهو يروح عن نفسه بتكلف السرور والارتياح . أما سمعت قول شاعركم الزهاوى فى مخاطبة أم كلثوم :

يا أم كلثوم إنّا أمةٌ رزحتْ تحت المصائب أحقاباً فسلّينا

ويجيء دورى فى الخطابة فأعتلى المنبر فى زهو وخيلاء . ثم يروعني أن أرى الناس ينصرفون ، فأذكر أن الموعد حان للغداء فى مضارب بنى تميم ، وأن المستمعين الكرام يفهمون جيداً أن الغرق فى المرق أشهى وأطيب من بلاغة سحبان !

ويرى سعادة الدكتور عبد الواحد الوكيل بك أنى متألم متوجع فيهمس فى أذنى أن المدرج لم تبق فيه فتاة واحدة. فأسأل: وكيف ؟ فيجيب بأن وعورة البحث الذى ألقاه الشيخ السكندرى أملَّتْ جميع الفتيات فانصرفن عابسات . ويسرنى ألا تشهد فتاة هزيمتى فأقول : إلى الغد ، إلى الغد ، يا حضرات الزملاء !

وقبل أن أدخل فى تفاصيل ماسأراه ، أذكر أني زرت ليلى شفاها الله فى مساء ذلك اليوم فحدثتنى أن خطبة الشيخ السكندرى ملأت مسامع أهل بغداد ، ولكنها أنكرت أن يتحذلق الشيخ السكندرى فيقول :

إن الأوكسيجين مثنًى أو كسيج ، وإنه يرفع بالألف وينصب ويجر بالياء

فأصرخ فى وجه ليلى : هذا كذب ، هذا افتراء !

ثم أعرف بعد ذلك أن هذه دعابة ثقيلة أذاعها مصرى خبيث يقيم فى بغداد

ولم أنجح فى إقناع ليلى بأن هذا افتراء على الشيخ السكندرى إلا بعد أن هددتها بالغرق فى دجلة ، وليلى تحبنى يا بنى آدم ، فلا تستغربوا أن يهولها هذا التهديد

* * *

ثم أخرج للبحث عن سيارة تنقلنى إلى مضارب بني تميم ، فلا أجد غير سيارة بالأجرة ، فأتردد ، لأنى لم أدخر درهما واحداً فى بغداد ، فقد أنفقت مالى على المطابع ، وعند الله جزائى

وأهم بالزهد فى الوليمة التميمية فأسمع صوتاً يقول : سيارتى فى خدمتك يا دكتور زكي . فأنظر فاذا طبيب لا أعرف اسمه ، ولو عرفته لشرفت به هذه المذكرات ، فأقول : ولكن معى صديقان فضيلة الشيخ السكندرى والأستاذ عبد المنعم خلاف . فيقول : سيارتى فى خدمتكم جميعاً يا مولاى

وقبل أن أدخل فى التفاصيل أذكر أنى أعطف على عبد المنعم خلاف لسببين : أما السبب الأول فلا أذكره ، وهو يعرف ما أعنى . وأما السبب الثانى فهو أن الشقيّ يشغل نفسه منذ أشهر طوال بالبحث عن مصدر الوحى : الوحى الهائل الخطير الذى جعل الدكتور زكى مبارك يكتب ثلاث مقالات في كل يوم بالرغم من اشتغاله بالتدريس والتأليف . وسيموت الشقى قبل أن يعرف مصدر الوحى . وسيموت قبله مصريون آخرون يهمهم أن يعرفوا

كيف استطاع الدكتور زكي مبارك أن يكون أصدق من استرقّتْ بغداد

ونمضى فى السيارة على غير هدى فى صحبة الطبيب النبيل الذى ينقلنا إلى مضارب بنى تميم ؛ ثم تلفت فجأة فنرى نحو عشرين سيارة تتعقبنا فنعرف أننا ضللنا مع أننا فى رحاب عقرقوف الذى خلّد اسمه أبو نواس فى رحلته إلى مصر ، مصر التى فيها الزمالك ومصر الجديدة وحلوان ، والتى تسدل ستائرها على الجدائل المعطرة التى تشعثت بعد رحيلى إلى العراق

رباه ! إنك تعلم أن الظلام فى مصر الجديدة أندى وأطيب من النور الوهاج ، فمتى ترجعنى إليه !

ونصل إلى مضارب بنى تميم فنرى أفواجاً من الفرسان ينتظروننا على طول الطريق وهم يحيوننا بأناشيد كلها رفق وحنان . وفى زحمة الاحتفال يجيء طبيب نبيل فيدعونى للتسليم على سيدتين كريمتين ، لا أذكر اسمهما تأدباً ، ولو شئت لقلت إنهما من النفحات الربانية ، وقد رحلت الأولى إلى القاهرة وبقيت الثانية فى بغداد . فإليهما أقدم تحيتى وثنائى ، والأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف . وعد الساط ، أو السماطان ، أو الأسمطة ، كما يشاء كرم الشيخ حسن سهيل

ثم يشيع بين الجمهور أن رجلاً غرق فى المرق ، فيصيح الطفل الجميل الذى اسمه عمر : بابا ، بابا ، أحب أن أطمئن على الدكتور زكى مبارك . فيقول سعادة وزير مصر المفوض فى العراق : اطمئن يا بُنىّ ، فان الدكتور مبارك من كبار السابحين!

ويقف عميد بنى تميم ليخطب فيشتد التصفيق ؛ ويقف الشيخ السكندرى ليخطب فيشتد الهتاف ؛ ثم يقول صديق كريم بصوت جهورى : الدكتور زكى مبارك باقى كلمة العراق ، فيتلفت وزير المعارف قائلا : ماذا ؟ ماذا ؟ فيجيب الصديق الكريم : الدكتور زكى مبارك يخطب باسم العراق : فيقول معالى الوزير : نعم ، نعم ، من حق الدكتور زكى مبارك أن يخطب باسم العراق

وألقى خطبة رنانة أشكر فيها إخوانى المصريين وأقول إن حياتى طابت فى العراق وإننى لا أحب الرجوع إلى مصر . فأرى دموع الشيخ السكندرى تتحدر وأسمعه يقول : وهل نسيت سنتريس ؟ !

فأقول بصوت صاخب : ونسيت سنتريس !

ومن واجبى أن أسجل فى هذه المذكرات أنى لم أر فى حياتى أياماً أطيب من أيام العراق . وسأظل من أنصار العراق فيما بقى من حياتي . حيّا الله العراق ، ونصر الله العراق !

* * *

أما بعد فنحن فى منتصف الساعة التاسعة من مساء ١٢ فبراير سنة ١٩٣٨ وهو مساء لم تشهد مثله بغداد منذ أجيال . وهذه سهرة فى بهو أمانة العاصمة أقامها الطبيب الشاب الدكتور شوكة الزهاوي . وهذا الدكتور زكى مبارك الملحد الفاجر فيما يزعمون ، يتلفت عن صاحبة العينين فلا يرى صاحبة العينين . ولكنه يرى الطبيب النبيل الذى سيقبل من أجله ثرى بغداد يوم يفارق بغداد ، فيستشير صديقه فيما يأتى وما يدع ، فيعرف أن السهرة تنقسم إلى قسمين : قسم عربى وقسم أفرنجى ، فأقول : النبي عربى ، ولسان أهل الجنة فى الجنة عربى

وأمضى إلى القسم العربى فأجد الوزراء جميعاً وعلى رأسهم فخامة الرئيس . وأخرج عن وقارى فأمضى إلى رئيس الوزراء وأقول : سيدى ، أتسمح بأن أسجل فى مذكراتى أن إيثارك الجلوس فى المرقص العربى هو فى ذاته تزكية نبيلة للثقافة الذوقية فى حياة العروبة ؟ فيبتسم ابتسامة القبول

وأعود إلى مكانى وأجعل قلبي كله للمرقص ، وما هو فى الحقيقة بمرقص ، ولكنه مَغْنى كما يعبر المصريون . وأنظر فإذا فتاة مليحة جداً تجلس بين القيان وعليها سيما الدَّل ، فيزعجنى أن تعجز عيونها الساحرة عن الاستبداد بألباب الناس ، فأنظر إليها بترفق وأرفع الكأس ، فتنظر بحنان وترفع الكأس ، ولا يكفينى ذلك ، بل أصنع الصنيع نفسه مع سائر القيان ؛ ويتقدم رجل لم تذهب الكأس بوقاره فيقول : يا دكتور مبارك ، إن مكانك قريب جداً من فخامة رئيس الوزراء ولعله يتأذى من مداعبة القيان ، وأنا أرى أن ما تصنع لا يليق بمقامك

فقلت فى عبارة صريحة : إن ما أصنع هو الذى يليق بمقامى

فتلعثم الرجل وقال : لطفاً يا سيدى ، لطفاً ! ولكن هل أستطيع أن أعرف جوهر رأيك فى هذه القضية ؟

فقلت وأنا أجدّ كل الجدّ : لستُ يا سيدى بفاجر ولا أثيم وإنما أنا رجل مؤمن ، ومن واجب المؤمن أن يتوجع لآلام المنكوبين ، وهؤلاء المغنيات والراقصات يعانين أبشع نكبة قاستها الإنسانية ، فهنّ مسئولات عن الوصول إلى قلوب الناس . ويا ويل مَن يحكم عليه الزمن بأن يكون من صنعته أن يُرضي الناس ؛ والناس ياسيدى يغلب عليهم اللؤم فلا يقابلون من يخطب

رضاهم بغير الجحود ، فهل يسوؤك وأنت عراقى كريم أن أكون من الكرماء ؟ هل يسوؤك أن أدخل السرور على قلب فتاة بائسة قضى عليها الزمن الجائر بأن تطلب رضاى ورضاك ؟

فهدأ الرجل قليلاً ثم قال : وما رأيك فى هذا ؟

فقلت : وما هذا ؟

فقال : أما رأيت الراقصة ترفع الثوب عن فخذيها في وقاحة وسفاهة ؟

فقلت : نعم رأيت ، ثم رأيت ؛ ولكن من الملوم ؟ إن الراقصات يعرفن أن فينا الغوىّ والسفيه والمجرم ، فهن يتقربن إلينا بتزيين الرجس والدعارة والفحش . ولو كنّ يعرفن أننا جميعاً نغار على الكرامة لما جاز لإحداهن أن تكشف عن قدم أو ساق

ويقوم المغنى المطرب محمد القومبانجى فينشد :

أأحبابنـا قد فرّق الدهر بيننا

فأصيح : قد جمّع الدهر بيننا

فيعرف أنه لم يراع المقام ثم تكون أغانيه بعد ذلك ضرباً من الارتجال

وأنتقل من مكانى لأرى كيف تموج الدنيا فى الرقص الأفرنجى فأعثر على الراقصة التى كنت أداعبها بالكأس منذ لحظات ، وأحييها فلا تردّ التحية ، كأنها ظنت أننى كنت فى مداعبتها من الماجنين

إننى أفهم حالك أيتها الصبية المسكينة ، ويسرنى أن أراك تتمنعين فالناس كلهم وحوش . ولا أستثنى نفسى فلتحذرى وليحذر أمثالك من حسن الظن بالناس

طوّفت بالرقص الأفرنجى لحظات لأرى صاحبة العينين ، ولم أجدها فأين ذهبت ؟ أين ذهبت ؟ دلونى فقد عيل صبرى . وفوق أى مخدّة نام ذلك الخد الأسيل ؟ يرحمك الحبُّ يا قلبي !

***

تحيا انجلترا ! !

كذلك قلتُ ، فدهش السامرون

تحيا بريطانيا ! !

كذلك قلتُ ، فتعجب السامرون .

تحيا بريطانيا العظمى ! !

كذلك قلتُ ، فضجّ السامرون

ومالىَ من ذنبٍ إليهم علمتهُ سوى أننى قد قلت يا سرحة اسلمي
نعم فاسلمي ثم اسلمي ثمت اسلمي ثلاث تحيات وإن لم تَكلمي

لقد كنت من أعضاء الحزب الوطنى ، وكنت من أوفى الناس لمبادئ مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش . وكنت أذيع مبادئ الحزب الوطنى بلباقة فى الجرائد الوفدية ، وكان الوفديون يعرفون صدق وإخلاصى ونزاهتى فيتسامحون ويدعوننى أذيع فى جرائدهم ما أشاء . ولما أمضيت معاهدة التحالف بين انجلترا وبين مصر قررت أن أؤلف كتاباً أدعو فيه المصريين إلى أن يتذكروا دائماً أن انجلترا كانت غزت مصر ورزأتها بالاحتلال

فما الذى جدّ فى أفق السياسة حتى أهتف بحياة انجلترا فى بغداد؟

ما الذى جدّ حتى يتغير زكى مبارك الذى أضاع نفسه فى مصر بفضل حرصه على مبادئه الوطنية وانعزاله عن الأحزاب التى تملك مصاير الأمور فى أكثر الشؤون ؟

فقد كنت ألمح من بُعد فتاة تسارقنى النظر بعينين زرقاوين ، وكنت لا أملك الانتقال إليها ولا تملك الانتقال إلىّ ؛ وكان جارى رجلاً ظريفاً كسائر البغداديين ، فترك مقعده عمداً لأستطيع دعوة الفتاة إلى جوارى . ولم تنتظر الفتاة الدعوة ، فما هى إلا لمحة طرف حتى كان وجهها إلى وجهى ، وكلمتنى بالانجليزية فلم أفهم ، فاستوضحتها بالفرنسية فلم تفهم ، فقالت بلسان عربى ملحون مامعناه : أرجوك أن تطلب من سليمه باشا أن تغنّى :

على بلد المحبوب ودّينى

ودار الصوت على الحاضرين ويدها فى يدى ، وعينها فى عينى ؛ وتلطف الكرام الكاتبون فلم يسجلوا غير الجميل

وبعد لحظات همّت الفتاة بالانصراف ، فجذبتُ يدها أقبلها فسمحت بعد تمنع واستحياء

ولم يكُ غير موقفنا فطارتْ بكل قبيـلةٍ منا نَواها
فواهاً كيف تجمعنا الليالى وآهاً من تفرقنا وآها

***

ثم يجئ اليوم الخامس فألقى محاضرتي فى كلية الطب ، وأعربد على الدكتور عبد الواحد الوكيل وعلى الأطباء المصريين ، وأزعم أن أساتذة الطب فى مصر من أكسل الناس ، ولولا ذلك لنقلوا علوم الطب إلى اللغة العربية . ويصفق الحاضرون ، ويقبل الجارم لتهنئتى فأقول : أنا تلميذك . فيقول : لقد بذذت أساتذتك .

ويجئ المساء فأذهب إلى الحفلة التى تقيمها الجمعية الطبية المصرية ، فأراها وا أسفاه حفلة مصرية حقاً وصدقاً ، فلا شراب

ولا رقص ولا غناء ، فأقول فى نفسى فضحتمونا يا ناس !

ولكن الدكتور عبد الواحد الوكيل ينقذ الموقف فيلقى خطبة يقول فيها إن الجمعية الطبية المصرية عرفت أنها تعجز عن إقامة حفلة كالتى أقامها معالى أمين العاصمة ، أو حفلة كالتى أقامها سعادة رئيس الجمعية الطبية العراقية ، فقررت أن تقيم حفلة ترقص فيها الخطب ويغنّى فيها البيان

الله أكبر ! الله أكبر !

وكذلك قضينا ثلاث ساعات فى سماع الخطب والقصائد ، ثلاث ساعات قضيتها فى كرب ، لولا الخطبة الظريفة التى ألقاها سعادة العشماوى بك ، ولولا الوجه الأصبح الذى كنت أتعزى بالنظر إليه

***

ويجيء اليوم السادس وهو رحلة إلى السدة الهندية وأطلال بابل

وأصل إلى القطار فى آخر ثانية ، فقد كنت فى شواغل غرامية عاقتنى عن مراعاة الموعد ؛ ولكن حظى كان سعيداً ، ولا أذكر كيف ، فقد تتأذى بذلك بعض الوجوه الصِّباح . ويمر القطار على قرية اسمها الاسكندريه فأقول : لعل هـذه هى البلدة التى ينسب إليهـا أبو الفتح الأسكندرى الذى روى عنه عيسى ابن هشام فى مقامات بديع الزمان ؛ وأملأ عينى من نخيلها وأكواخها لأكتب عنها كلمة فى الطبعة الثانية من كتاب (النثر الفنى)

ثم يقذفنا القطار إلى السدة الهندية ، وليتنا غرقنا هناك !

والسدة الهندية قنطرة ظريفة على الفرات ؛ وللفرات فيها هدير جذّاب يذكر بهدير النيل على الرياح المنوفى بالقناطر الخيرية . وقد وقفت على السدة الهندية لحظات ظفرت فيها بموعد سأنعم به يوم أعود إلى وطني ، إن كان لى إلى أرض الوطن معاد

لا تحزن يا قلبى ، فليست هذه أول غربة ، فقد كنت غريباً فى كل أرض حتى فى سنتريس !

لا تحزن يا قلبى ، فأقرب النـاس إلى الله هم الغرباء ، لأن الغريب يؤدى امتحاناً فى كل لحظة ، وتدرسه العيون فى كل مكان ، ويؤدّى حساباً إلى كل مخلوق ، ويعجز عن إصلاح ما يُفسد المفترون

لا تحزن يا قلبى ، فـكل غيم يتلوه صحْو ، وكل ليل يعقبه صباح .

لا تحزن يا قلبي ، فأنا بجانبك أرعاك وأواسيك ، وسأكفنك بدموعى إن قضى الله أن تموت غريباً بين القلوب

لا تحزن يا قلبى ، لا تحزن يا قلبي !

ما هذا ؟ ما هذا ؟

أتريد أن تفرّ من قفص الضلوع ؟

والى أين ؟ حدثنى الى أين ؟ الى أين يا جاهل ؟ فأنت تجمح الى قلوب عرفت من بعدك كيف يحلو اللهو ، وكيف تقرع الكأس بالكأس ، وكيف تطيب الأسمار والأحاديث . الى أين ؟ حدثنى الى أين ؟ وهل لك وطنٌ أيها القلب ؟

حدثني أين وطنك فقد نسيت ! أيكون وطنك بين تلك القلوب الغوادر التى تضن عليك بخطاب تكاليفه عشرة فلوس ؟ أيكون وطنك عند تلك الإنسانة الغادرة التى قطعت حبل الودّ لأنى دعوتها لزيارتك متنكرة فى بغداد ؟

أين وطنك يا قلبي ؟ أحب أن أعرف أين وطنك لأمضى معك اليه . أهو مصر ؟ كذبت ، ثم كذبت ، فلو عرفتك مصر حق معرفتك لكان لك اليوم مكان مرموق ، ولكنك فى مصر منبوذٌ مجهول

قلبي ! قلبي ! رحمةُ الله عليك ، فقد سعد ناس بالرفق المزيف ، وشقيت أنت بالرفق الصحيح

وقد وصل ناسٌ لأنهم كذبوا ، وتخلفت أنت لأنك صدقت .

ونعِمَ ناسٌ لأنهم خانوا ، وشقيت أنت لأنك وفيت

وتقدم ناسٌ لأنهم هزلوا ، وتأخرت أنت لأنك جَدَدْت .

وانتفع ناسٌ لأنهم غدروا ، وخسرت أنت لأنك وفيت

قلبي ! قلبي ! أحسن الله إليك !

أنظر يا جاحد ! فها نحن أولاء فى رحاب أسد بابل ؛ وهذه صاحبة العينين . نعم هذه صاحبة العينين ، أما ترى يا قلبي ؟ أما ترى يا جاهل أن صاحبة العينين تُنـحّى زوجها بعنف لتظهر فى الصورة بجانبك ؟ اعترف يا جاهل بأن الله رعاك حين كتب أن تظهر فى صورة عالية فى رحاب أسد بابل وفى جوار صاحبة العينين .

اعترف يا جاهل بأنك كنت فى إحدى لحظاتك أسعد القلوب

مولاتي صاحبة العينين :

أعترف بأنى آذيتك ببعض الإيذاء ، أو كل الإيذاء ؛ ولكن الشاعر مغفور الذنوب ، لو تعلمين ؛ وقد قرأ النـاس مذكراتى

فى مجلة الرسالة فعرفوا من أنتِ . فهل أطمع يوماً فى أن تعرفى من أنا ؟ وهل يعرف زوجك الفضال أننى شاعر لا يهمه غير أنس الروح بالروح ؟

المهم عندى يا مولاتى أن يعرف أبناء العروبة أن الجمال غير مقصور على من أنجبتْ لندن وباريس وبرلين ، وأن فى بغداد ودمشق وبيروت ومكة والمدينة وصنعاء والقاهرة والاسكندرية والمنصورة ودمياط وتونس ومراكش والقدس وما شاء الهوى من الحواضر العربية أرواحاً فيها جمال وصفاء

مولاتى صاحبة العينين :

لست بالرجل الفاجر ، كما يزعم المرجفون ، وإنما أنا رجل شاعر يؤمن بأن من الوطنية أن يحبِّب العرب فى بلادهم بالاشادة بما فيها من صباحة وملاحة وأخلاق

فهل أستطيع أن أمرّ على بلدكم الجميل فى طريقى الى مصر ، مصر التى فيها الزمالك وحلوان ؟ مصر التى فيها شارع فؤاد ، والتى فيها الزيات ومحمد الهراوى ومحمد عبد الوهاب ومدحت عاصم والمخلوق السخيف الذى اسمه عبد الله حبيب ؟ مصر التى فيها أحمد فريد رفاعى وطه حسين وإبراهيم مصطفى وأمين الخولى وعبد الحميد العبادى وأحمد أمين ؟ مصر التى فيها المكتبة التجارية والجامعة المصرية ؟ مصر التي فيها هوى القلب وشفاء الفؤاد ؟

مولاتى صاحبة العينين :

أنا أشرف من العصابة التى حرستْك منى ، فاسمحى لى بتقبيل قدميك قبل أن أموت ، ولكن ... ولكن ...

ولكن أينسيني حديث العينين وصاحبة العينين ما شهدت يوم زيارة القوة الجوية العراقية ؟

إن تلك الزيارة تمثل روح العصر أصدق تمثيل ، فقد كان المفروض أن يحلق فى الجو بعض أعضاء المؤتمر الطبي ، وكان المظنون ألا تظهر هذه الرغبة إلا عند عدد قليل من الأعضاء

ثم ظهر أن الناس كلهم يريدون امتطاء الطيارات حتى خشينا ألا يمر ذلك اليوم بسلام

وما كان يهمنى أن أشترك فى هذه النزهة فقد عرفت أمثالها من قبل وسجلتها فى كتاب ذكريات باريس ، ولكني رجوت أن يكون هذا الزحام فرصة أداعب فيها فتاة أو فتاتين أو ثلاث فتيات ، ثم هالنى ألا أرى غير جماعات من « الخناشير » كلهم شُعثٌ غُبرٌ كأنهم قدموا من البيداء ، ومزاحمة هؤلاء ضرب من الضياع

ومع ذلك صممت على الاشتراك فى هذه النزهة ، ولكنى لم أفلح ، فما كانت طيارة تنزل حتى يهجم عليها الناس كالوحوش ورجعت أتعثر في أذيال الخيبة فما كدت أصل إلى باب المطار حتى سمعت رجلا يقول :

— أتريد أن تطير يا دكتور ؟

— نعم ، يا سيدى ، أحب أن أطير !

فدعانى إلى سيارته فركبت ومضينا الى ناحية قصيّة يقطب طيارة وقال : « هذه فى خدمتك فادع الى مصاحبتك من تشاء » فنظرت فإذا سيدة « نائمة » فأخذتها معى وطرت

وعند النزول رأيت السيارة وصاحبها فى انتظارى فركبت معه الى المقصف وأجلسنى مع جماعة من الضباط ، ثم قال بعد تناول الشاى والحلوى والفاكهة : « خذ حريتك يا دكتور وطوّف حيث شئت »

فلما تركته كان أكبر همى أن أعرف من هو ، فسألت فعرفت أنه سعادة أمير اللواء حسين فوزى باشا رئيس أركان الجيش

ومع هذا يعجب ناس حين يروننى أطيل القول فى الثناء على العراق وأهل العراق

* * *

انتهت أيام المؤتمر ، سقاها الغيث ، ولكن جدَّ ما لم يكن فى الحسبان ، فقد أذاع رئيس الجمعية الطبية العراقية أن البصرة هى المدينة التى وُلدت فيها ليلى المريضة فى العراق . وكنت خليقاً بأن أعرف ذلك من قبل ، ولكن ليلى لم تحدثنى عن وطنها الأول ، ولم أسأل عنه ظمياء ، فرأيت الفرصة سانحة لأن أمضى مع أعضاء المؤتمر لرؤية الثرى المندى بالمطر والريحان ، الثرى الطاهر الذى عرف النعيم يوم كان يتخطر فوقه ذلك القد الرشيق إلى وطنك ياليلاى ، الى البصرة ، الى النخيل ، الى شط العرب الذى تحترب فى سبيله أمم وشعوب ، الى وطن الجاحظ ، الى وطن المبرد ، إلى وطن مولاى الحسن البصرى أمتطى القطار فى ظلام الليل

« للحديث شجون » زكى مبارك

قضية اللغة العربية

للأستاذ أحمد خاكى

١ — *التقدم واللغة* : يذهب الجمهرة من المربين فى العصر الحديث الى أن الغاية من التربية ينبغى أن ترمى إلى تدريب الطفل على أكثر أنواع المهارة التى تتطلبها حياته الحاضرة والمستقبلة، والتى تقتضيها الحضارة وطلب الرزق. بل لقد آمن الكثير منهم بأن الحضارة فى نفسها تقوم على المهارة فحسب ، وأن العصر الحالى يمتاز فيما يمتاز به بتلك الوجهة الآلية التى تلزمنا بها حاجات الحياة ، وأن التقدم رهين بما تحسنه الجماعة من أنواع المهارة ، وأننا لن نبلغ المثل الأعلى الذى يحدونا الى التقدم حتى نتقن أكبر عدد منها

ويذهب أصحاب اللغات الى هذا الرأى فيما يتصل بتعليمها . فقد أمّن هؤلاء على كل ذلك وزادوا عليه أن تعليم اللغات هو فى نفسه ضرب من ضروب المهارة التى يجب أن يكسبها المتعلم حتى يوفق بين نفسه وبين البيئة التى يعيش فيها . بل هو لا بد مرغم على كسبها اذا هو تطلع الى لون من ألوان الحياة أزهى من ذلك الذى اعتاده آباؤه وأجداده . فاللغة عند هؤلاء شبيهة بالمشى أو الجرى أو تناول الطعام أو احسان الرماية أو الطيران . فهى لا محيص للناشىء من أن يتلقنها فى بيئته ، بل هو مجبول على تلقنها ما دام يرى أن حياته تقوم على الاجتماع بسائر الأفراد ، وأن اتصاله الفكرى مع من حوله لا يستقيم الا اذا تلقن لغتهم كتابة وقراءة وحديثاً . واللغة فوق ذلك مهارة سامية جديرة بالإحسان لأنها تتحمل فى أطوائها تراث المدنيات التى تحدرت الينا ، ولأنها — اذا كانت أجنبية — مفتاح لمدنيات أخرى تغلغلت فى تاريخ البشرية نفسه

واللغة بعد ذلك دليل على التقدم الفكرى لأنها الوسيط الذى تتجسد فيه الأفكار والآراء . وليست اللغة من ذلك الوجه إلا رموزاً أطلقت على المعانى التى تتدفع فى نفس الإنسان . وهي التى تسيطر على موارد تلك المعانى ومصادرها . فكل كسب لتلك المهارة التى نسميها « اللغة » انما هو تحديد لغذائنا الفكرى . وكل تحديد لتفكيرنا انما هو فتح جديد للمنطق والفلسفة بل فتح لسائر العلوم

فاذا كانت اللغة تفيض بالمفردات التى تصف كل فكرة دقيقة من تلك الأفكار ، وإذا كانت ألفاظها قد تطورت مع الحضارة حتى كانت كفيلة بأن تصف المعانى التى تنثال فى خواطر المتحضرين ، كان ذلك دليلاً على كفايتها فى مسايرة التقدم العقلى . وليست قضية اللغة عندنا قضية ألفاظ فحسب ، ولا هى قضية تراكيب ، إنما القضية عندنا فى كفاية تلك الألفاظ وهذه التراكيب . فهل استطاعت هذه أن تساير الحضارة الحديثة ؟ وهل استطاعت أن تنقل معانيها إلينا ؟ ذلك ما نشك فيه

ونحن نشك فى شىء آخر غير ذلك . إنه لا يمكن لغة أن تساير الحضارة أو الثقافة إلا إذا كانت مرنة تتسع لكل معنى حديث . وتلك المرونة التى تظهر بجلاء فى لغة كالانجليزية قد فقدت مكانها فى لغة كالعربية . وهى قد فقدت مكانها فى لغات أخرى قبل لغتنا لأنها قعدت عن أن تماشى الحضارة فى تقدمها . وأخص ما تمتاز به الانجليزية هو ذلك الاستيعاب الذى يظهر في كل وجه من وجوهها ؛ فهى قد استوعبت ألفاظاً من كل قطر حلت فيه فئة من الانجليز . وألفاظها تواتى المتحدث بها فى كل موضوع يطرق ، لكننا نتشكك كثيراً فيما إذا كانت العربية والانجليزية سواء . فالعربية غير مرنة ؛ وهى لغة تقليدية تتولى عن الألفاظ الدخيلة ؛ وقد بدأت تساير الحضارة الحديثة منذ وقت قليل لما يكف لتغذيتها بألفاظ تطلق على المعانى التى تتجدد فى كل ساعة من ساعات الحضارة

لم يكن لنا أن نذكر كل ذلك لولا أننا نؤمن بأن فى اللغة استعداداً لقبول كثير من الإصلاح . ولعل أفعل إصلاح اللغة أن نبدأ بتفهم طرق التدريس التى من شأنها أن تجعل اللغة لغة أفكار ومعان قبل أن تكون لغة ألفاظ ومفردات ، وتفهم طرق التربية التى تكسبها مرونة اللغات الأخرى . ويستطيع المعلمون أن يتغلبوا على تلك العقبات التى يلقونها اذا هم وجدوا أمة من أهل الرأى تجاهد معهم فى هذا السبيل . على أننا سوف نكتفى فى مقالنا هذا بذكر وجه آخر من علاقة اللغات، ثم بتحديد أغراضنا من دراستها . وسوف نعالج فى مقال آخر الوسائل التى نراها

٢ — *وحدة اللغة* : وفى كل الذى أسلفنا أكبر من دليل على أن عنايتنا باللغة ينبغى أن تحل عندنا المكانة الأولى بين مختلف

المواد التي نعلمها . فهي حقيقة بالتقدير إذا تحدثنا عن أي مثل أعلى عالي ؛ وفي دراستها توحيد للمعنى السامي الذي ما زال يلعب بخيال الانسانية ، والتقدم الفكري رهين بالتقدم اللغوي ، ولأن اللغة أساس صالح لتلك المواد ، ولأنها تتحكم في تلقينها وفي تلقفها ، فانا نرى أن إصلاح التعليم في مصر رهين بإصلاح أساليبنا في تعليم اللغة العربية وفي تغيير وجهتنا فيما يختص بالأغراض التي نرى إليها

بل اللغة العربية متصلة وثيق الاتصال باللغات الأجنبية التي نعلمها اتصالها بتعليم المواد الأخرى . وإذا نحن نظرنا إلى تلك المواد نظرتنا إلى مجموعات متوافقة من الأفكار والمعاني استطعنا أن نرى كيف تحدد اللغة تفكيرنا ، وكيف تواتينا المقدرة على تفهم تلك المواد إذا كانت اللغة مهارة مكسوبة أحسناها . فاللغة في مفرداتها وصيغها تكوّن وحدة عامة متصلة الحلقات مشتبكة الأطراف ، وهي في نفسها نتيجة لنماء العقل ونشاط التفكير . وليست مفردات اللغة كما قدمنا إلا رموزاً للأفكار التي يلتف بعضها حول بعض في حياة الانسان العقلية ، والتي تتألف حولها كثير من شعاب الدواعي . وحين يدرج الناشئ في السنين الأولى من طفولته يكسب كثيراً من تلك الأفكار التي يحاول أن يعبر عنها ، فما تزال حائرة تتردد في نفسه حتى تستقر في تلك الرموز التي تواضع عليها الناس ، وتصبح بعد ذلك مادة للحديث والتفكير والكتابة ، وتصبح سبيلا إلى تفهم التاريخ والجغرافية والطبيعة وغير ذلك

ولعل الطفل في حياته اللغوية يمثل الانسان الأول في كسب اللغة واصطناع ألفاظها ، فهو يتدرج في تعلمها من المحسوسات الى المعقولات ، وهو يحسن كل الاحسان أسماء المرئيات ، لكنه يعاني غير قليل من الجهد في تفهم المعاني . وقد مر الانسان الأول في مثل عصر الطفولة حينما كان العالم نفسه طفلا ، وحين دفعته الحاجة الى أن يتعلم الأسماء كلها . وتعقدت اللغة في أطوار الانسانية حتى انحدرت الينا وهي على ما هي عليه من التعمق والاغراق ؛ وحتى أصبحت دراستها تقتضي نصيباً كبيراً من الحس المرهف والتفطن الدقيق

فلغة الإنسان إذن وحدة في ذاتها تتألف من شتات من الجزئيات ، ولغته الأصلية هي التي صاحبت تكوينه العقلي . منها يستمد أفكاره ومنها يكون صوره العقلية ، بل هي التي توحي إليه ما توحيه الكلمات من حب وبغض وسرور وحزن . ففي ألفاظها كل المعاني التي تجيش بصدره ، وفي أعطافها ما يحرك قلبه ويهز فؤاده

ولأن اللغة وحدة في ذاتها تجد بين لغة الإنسان الأصلية وبين لغته الدخيلة أو الأجنبية كثيراً من الوشائج والأسباب ، فلا يستطيع متحدث أن يعالج الكلام عن الثانية إلا إذا بدأ بالأولى ، ولا يستطيع متعلم أن يقرب لغة أجنبية حتى يتخذ الأصيلة عوناً على تفهمها . فاللغة الأصيلة هي السجل الذي تنتظر فيه مراحل تفكيره ، وهي المرآة التي تنعكس عليها حياته العقلية والحسية في وقت معاً

من أجل ذلك كانت اللغة الدخيلة عالة في أفكارها ومعانيها على اللغة الأصيلة ، وكان حرياً بها أن تكون كذلك عند الناشئين ؛ فالحق أن الأفكار والمعاني لا تعرف ألفاظاً تحدها في موضع ضيق تتقيد به ؛ ولأن اللغة الأصيلة نتيجة لتفكير الإنسان ، ولأنها ثمرة لتقدمه العقلي كانت خليقة أن تكون أساساً لتعليم اللغة الأجنبية كما كانت الأساس في الدراسات الأخرى ، وخليقة أن تمتاز بالجلاء والوضوح ، وأن يعنى بها المربون أول شيء لأنها تتدخل في تعلم اللغات الأخرى وفي إحسان العلوم ، بل في نمو الإنسان وتفكيره

ولقد ذهب الى هذا الرأي كثير من الذين بحثوا دراسة اللغة وأخرجوه للناس كما لو كان كشفاً من كشوف العلم الحديث ، وكانت الجمهرة من علماء التربية يرون منذ بضع سنين أن اللغات منفصلة ، وأن الإنجليزية مثلاً لا تستقيم إلا إذا حبسنا تفكير الناشئ عن العربية في دروس الإنجليزية . وقد كان يشوب ذلك كثير من الخطأ ، فلم يكن يعترف عقل المتعلم بتلك الحدود المفروضة التي ضربت عليه ، وقد كان يخترق تلك الحدود ، وكانت اللغة العربية تلتقي بالإنجليزية في تفكير الطفل مهما حاولنا المباعدة بينهما . وقام في السنين الأخيرة علماء مثل الدكتور (وست) صاحب الطريقة المشهورة يعترفون بتلك الصلة ويستعينون بها في تعليم الانجليزية . وحدث على أثر ذلك انقلاب سريع في أساليب التعليم عندنا ، وغدا للعربية وزن في تعليم الانجليزية في الست السنوات الدراسية الأولى

وعندنا أن موطن الإصلاح الأول هو اللغة العربية . وإصلاح مثل ذلك لن يتناول طرائق التعليم ، ولا أساليب الدراسة فحسب

بل لابد له أن يتأصل فى مادة التفكير التى يتغذى بها التلاميذ . إصلاح مثل هذا سوف تتأثر به الجغرافية والتاريخ والكيمياء والفلسفة والمنطق ، وكذلك سوف تستقيم به طرق التدريس التى نجاهد فى إدخالها على اللغة الانجليزية . ولعلنا لا نغلو كثيراً إذا قلنا إنه أساس كل إصلاح آخر

٣ — *الأغراض من تعليم اللغات* : ولأن يكون كلامنا محدداً ، ولئلا نخلط بين اللغة الأصيلة واللغة الدخيلة ، نرى أن نعالج الغرض الذى ينبغى أن نلتزمه فى تعلم اللغة العربية والغرض الذى ينبغى أن نلتزمه فى تعلم اللغة الانجليزية

فإذا كان بين اللغة الأصيلة واللغة الدخيلة مثل تلك الصلات الفكرية ، فإن بين الاثنتين فروقاً تحدد السبل التى نتخذها فى تعليم كل منهما . فللغة كما قدمنا آثار تختلف على حياة الإنسان لها أثر عقلى عميق يكاد يحكم نمو إدراكه وتطور تفكيره . ولها بعد ذلك أثر حسى يتصل اتصالاً وثيقاً بفكرة الجمال التى يكسبها من الشعر والأدب . ثم إن لها أثراً عملياً أو نفعياً يفيد منه فى حياته كأى مهارة أخرى . وهذه الأنواع الثلاثة من الآثار هى التى تختلف على متعلم اللغة إذا أحسنت تنشئته على الأصول النفسية التى جهد فى استنتاجها الذين أوتوا العلم من المعلمين والمربين .

ونحن فى حديثنا عن اللغات يجب أن نفرق بين هذه الآثار وارتباطها باللغة العربية أو باللغة الأجنبية . أما اللغة العربية فإنه يتمثل فيها كل الآثار التى ذكرنا . لها أثر عقلى يصاحب الإنسان عند النشأة الأولى ويلازمه فى كل طور من أطوار حياته ، ولها كذلك أثر حسى يمحضه الشعور بالجمال ويفيض عليه كثيراً من ألوان السرور ، ولها أثر ثالث عملى لأنهما وسيلة الكتابة والحديث بين الأفراد والجماعات . أما أثر اللغة الأجنبية عندنا فهو نفعى أو قل عملى . حقاً قد يكون لها أثر عقلى إذ تتدخل فى تربية الانسان ونمائه ، وقد يكون لها أثر حسى إذا أحسن تعلمها . ولكن وجهها النفعى أوضح وجوهها ، وانما يتعلم المرء اللغة الأجنبية لتكون صلة بينه وبين فروع المعرفة التى اتسعت لها ، وحسبه أن يحسن قراءتها . ولعلها تصبح مادة زاخرة توحى اليه العواطف ، وربما أصبح بينها وبين تفكيره صلات ولكنها على الحالين لن تدرك ما تبلغه لغته الأولى التى درج عليها والتى كانت أقرب الى عقله وقلبه ووجدانه .

فاللغة الأصيلة واللغة الدخيلة تختلفان فى تقديرنا اختلافاً شاسعاً . الأولى صاحبة الأثر العقلى الذى يدفع بتفكير المتعلم الى نواحى التقدم ، والثانية تستمد وجودها كأداة للتفكير من اللغة الأولى . واللغة الأصيلة ذخيرة تتجلى فيها آيات الجمال بما فى تراثها من أدب وحكمة ، وتتبلج فيها بدائع الشعر بما تتحمله من وحى وإلهام . أما الثانية فلن تبلغ هذا الأثر الا اذا أحسنها المتعلم كل الاحسان ؛ وليس يبلغ ذلك الا الخاصة الذين لا يقمون للعلم فى حسبان . وهى عند كافة المتعلمين بعيدة عن نطاق الجمال والالهام غير قريبة من مواطن التفكير الدقيق أو جادة التفطن والتفصيل . واللغة الأصيلة واللغة الدخيلة بعد كل ذلك جديرتان أن نحسنهما قراءة ومطالعة ، لأن احسان قراءة الأولى واجب حتم ، ولأن قراءة الثانية هو سبيل الاتصال بحضارة أصحابها .

وفيما أسلفنا من حديث عن آثار اللغات مواضع نتعرف منها الغاية من تعلم اللغات كل منها على حدة ، فالمطالعة أو قل القراءة المستوعبة هى الغاية من تعلم اللغة الأجنبية ، لأن إتقانها هو السبيل الى فهم ما يكتب فيها ، ولأننا فى تعليمنا اللغة الأجنبية نرى الى أن نفتح للمتعلم أبواب تلك اللغة حتى يتصل بثقافتها . نحن نتعلم اللغة الانجليزية لنقرأ مؤلفاتها ، ونحن نحسن الفرنسية لكي نلم بحضارة الفرنسيين ؛ وليست الفرنسية ولا الانجليزية إحداهما ولا كلتاهما بضرورة لازمة لحياتنا العقلية أو لتربيتنا النفسية ؛ واذن فيجب أن تدور جهودنا فى تعليم إحدى هاتين اللغتين حول تلك الغاية المثلى : يجب أن تدور حول المطالعة لأنها الغاية النفعية التى تحدثنا عنها . وليست الكتابة ولا الخطابة ولا تذوق الأدب بما فيه من قصص وتمثيل من شأننا فى تعليم الانجليزية ، فاذا جاء كل هؤلاء فانما يأتى بعد المطالعة لا قبلها

أما اللغة الأصيلة — وهي العربية عندنا — فينبغي أن تكون الغاية من تعليمها فوق ماذكرت . إن القراءة جزء من الغاية التى ننشدها اذ نعلمها . نحن نعلم العربية لنخرج مفكرين يحسنون تصور الكلام ويجيدون التعبير عما فى نفوسهم . بل يجب أن نعلمها حتى يتذوقوا التراث الأدبى الذى تزخر به اللغة نفسها . واذن فدراسة العربية ينبغى أن تكون تدريباً فكرياً وتدريباً نفسياً وتدريباً عملياً أيضاً ، وتتشعب هذه الأغراض وتتعقد

فلسفة التربية

تطبيقات على التربية فى مصر

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ١٣ —

« إن مصر لتدين لعظائها الفلاحين بأكثر مما تدين لغيرهم ! »
« جاكسون »

« ولا بد من أن يطلب غداً أولئك الذين يخلقون ثروة الأمة شيئاً أكثر من الكلمات ! » « جاكسون »

« قد تستطيع أن تسوق الجواد إلى النهر ؛ ولكنك لا تستطيع أن تجعله يشرب منه » « مثل سائر »

٣ – التعليم الالزامى والديمقراطية

رأيت فى المقال الماضى انقسام عقلية المثقفين القلائل فى الأمة إلى معسكرين متباعدين ، وتبينت ما في ذلك الانقسام من ضعف يؤثر فى وحدة الأمة ويعرقل نهضتها ، وسترى اليوم ناحية أخرى هامة وخطيرة هي ناحية التعليم الإلزامى …

١ – كلمة الديمقراطية

وأحسب أنك تدرى تماماً كلمة الديمقراطية فى ذلك المجال بعد كل ما قدمنا من قول ! بل وأحسب أنك تذكر يقيناً عبارة الرئيس « وشنطن » فى المقال الماضى ، وما فيها من مبدأ عظيم يجعل مقياس نجاح الحكومة منحصراً فى دائرة زيادة خير أولئك الذين لا تكاد توجد عندهم ضرورات الحياة الأولية فحسب ، لا أولئك الذين عندهم الكثير وأكثر من الكثير ! ! وإذاً فلن تعجب إذا عرفت أن الديمقراطية تطالب هنا بمساواة « الجميع » فى فرصة إظهار الكفايات ، وتنظر للتربية كوسيلة جوهرية تتوم للشعب مقام الصلاحية للبقاء عند الحيوان ، وترتق به من مستوى العجماوات إلى مستوى الإنسان ، وتسد ما بينه وبين الطبقات الراقية من هوة سحيقة مليئة بالبؤس والشقاء ، والفوضى والاضطراب ؛ وتؤهله أخيراً لأن يحقق معنى الحياة الديمقراطية بمطالبها الاجتماعية والسياسية على أصح وجه تنشده هذه الحياة !

٢ – التعليم الحاضر

فترى هل حقق التعليم الإلزامى المصرى الحاضر مطالب الديمقراطية الصحيحة أو نهج على الأقل نهجاً قوياً نحو تحقيقها ؟ ذلك هو السؤال الذى يجب أن نسأله ، والذى ينبغى أن نستمع فيه لإجابة النظار والمدرسين والفلاحين قبل أن نستمع لاجابة النواحى الأخرى ، والذى يجب أن نستوحى فى فحصه مبادئ الديمقراطية أكثر مما نستوحيها فى غيره ، فترى ماذا عسى أن يكون الجواب ؟

أحسب الأمر واضحاً لا يحتاج إلى جلاء ، فأكثر من خمسة وثمانين فى المائة من سكان هذا البلد أميون بكل مافى الأمية من معنى الفقر الأدبى المروع ، وميزانية التعليم الالزامى ضئيلة إذا قيست بميزانية بعض النواحى الأخرى التى تقل عنها فى الضرورة والخطورة ؛ هذا إلى أننا كثيراً ما نبعثر ألوف الجنيهات فى الكماليات التافهة غير ناظرين إلى حاجة مثل هذا التعليم إليها ، ومع ذلك فتعليمنا الالزامى الحاضر ما يزال مشوباً بألوان من النقص يسيرة وعسيرة ، وحسبك أن تعلم أولاً أن « مبدأ المساواة في فرصة إظهار الكفايات » مهدوم حياله من أساسه لأن المتخرج منه لا يستطيع قط أن يطرق باب التعليم الابتدائى وما

ويكون من مظاهرها الكتابة والقراءة والخطابة . ولكل من هذه الغايات أصول تمتد الى أعماق الفكر وتتصل بأطوار النفس

أما الأغراض التى نرمى اليها اليوم فهي قاصرة لأنها تقف عن أن تدرك كل تلك الغايات . إن تعليم العربية عندنا يقتصر على تلقين ألفاظ غير محددة وهو يخلو من الرياضة الجمالية التى ينبغى أن نرمى اليها . أما وجهتها النفسية فهى لا تعلو الى أن تكافىء حاجات كل يوم فضلاً عن حاجات النفس العميقة . ولا يستطيع معلم أن يقول انه يتجه اتجاهاً فكرياً فى تعليم الألفاظ ولا إنه يصطنع الدقة فى تلقينها الا قليلاً

أغراضنا اذن من تعليم العربية كما نعلمها الآن غير واضحة . وهى فى الحق شعبة من اتجاه الكتاب والمفكرين عندنا عامة . ولكننا نلخص الأغراض التى يجب أن تحل عندنا فى التدريب العقلى أولاً وفى الرياضة الجمالية الحسية ثانياً وفى الانتفاع بها ثالثاً

أحمد خاكى

بعده من فني أو ثانوي أو جامعي إلا فيما شذ وندر[1] ، وبذلك أصبح الذكاء الشعبي محروماً من الدخول في حومة الثقافة الراقية الواسعة والتلذذ بما فيها من نعيم ، وخدمة الوطن عن طريقها خدمة نافعة ! ثم حسبك أن تعلم أن أحد نظار مدارس هذا التعليم قد كتب إليّ مقرراً أشياء كثيرة خطيرة ، أهمها قلة مرتبات المدرسين بالقياس إلى عملهم المرهق الذي كثيراً ما يقفز إلى ٤٨ حصة في الأسبوع[2] !! وكثرة أعمال الناظر (أو رئيس المكتب) الإدارية إلى جانب أعماله كمدرس مما يحول بينه وبين القيام بواجبه على النحو المنشود ، وسوء أماكن الدراسة وقذارتها وعدم وجود الأفنية والمظلات ، وتعسف حضرات المفتشين أحياناً وأخذهم المدرس باللوم أمام التلاميذ !! وجمع الكتب من الأولاد في آخر الدرس ، وعدم اتفاق بعض هذه الكتب ومادة المنهج المرسوم !! ثم خروج المتخرج منها أخيراً دون أن يحذق أبسط تعاليمها وهي القراءة والكتابة ، نظراً لحشو المنهج بالمعلومات غير اللازمة من ناحية ، ولعدم استطاعة المدرسين البؤساء التعساء القيام بمهنتهم كما ينبغي من ناحية أخرى ...!!

هذا وقد بحث الأستاذ « جاكسون » تلك الناحية في رسالته الآنفة فراح يقول : كيف يكون التعليم مجدياً وهو إلزامي بكل ما في الإلزام من معنى ؟ إن التعليم الحق هو ما أتى من « الداخل » فحسب ، وكل تعليم لم يأت من هذه الناحية لا يكون أكثر من طلاء خارجي كله تشدق بالألفاظ وغرور وكبرياء لا يجديان فتيلا . ولذلك ما يلبث أن يسقط غير تارك وراءه إلا المكر والاجرام إذا لم يحل محله غرس خلق متين ، وإذاً فكان الأفضل أن يترك القروي في مثل هذه الحال ليتعلم من الرياح والنجوم والذوق العام ، وأن يبقى أمياً بريئاً ساذجاً لا يعرف كيف يعلو على أهله ويحتقر الفأس والأرض ، ولا كيف ينزح إلى المدينة ليعيش عيشة أرقى وأنظف !!

لذلك كله لم يستسغ الآباء بعد هذا التعليم ولم يشعروا شعوراً كافياً بالحاجة القصوى إليه ، ويساعدهم على ذلك ضعف الدعاية اللازمة ، وعدم جاذبية المدرسة ، واشتراك الناظر والمدرسين في صب هذا « الالزام » على رؤوسهم ورؤوس أولادهم[1]

٣ — العلاج

وينحصر العلاج الناجع الذي يراه الدكتور « جاكسون » لتدارك هذا الموقف في ناحيتين . الأولى تغيير المنهج بحيث يلائم حاجات البيئة ولا يبدو كأنه مفروض من سلطة متعسفة ؛ ويتأتى ذلك باشتماله على دراسة عملية للتربة أو الدورة الزراعية ، وأنواع الأسمدة ، وحياة الحشرات والنباتات والزهور ، والقيم الغذائية للمواد المختلفة ، وأصول صحة المنزل في الدائرة القروية الممكنة ؛ كل ذلك إلى جانب القراءة والكتابة والمعلومات الأخرى التي تقرب بينه وبين الطبقات الأرقى وتحببه في العمل والعاملين ، وتسد الهوة بينه وبين أبناء الأثرياء المنعمين !

أما الناحية الثانية : فتتلخص في دعاية واسعة النطاق غايتها تحبيب الشعب في ذلك التعليم بكل الوسائل حتى لا يكون هناك إلزام بالمعنى المكروه . ويحسن أن تكون هذه الدعاية عن طريق زعماء الشعب أنفسهم ونوابه وكل من يجلهم ويقدر كلمتهم ، آناً بالحضور الشخصي وآناً بالإذاعة ، كما يحسن أن يشترك في هذه الدعاية أغنياء القرى وذوو النفوذ بها ، وأن تصطحب الدعوة فكرة دينية أو وطنية ، وأن يقضى فيها نهائيًّا على القول القائل بأن معنى التعليم هو إلقاء الفأس وإمساك القلم ؛ وبهذا وبغيره يصبح التعليم ضرورة لدى الفلاح ، فيسعى إليه بنفسه ، ويعتبره فريضة دينية أو وطنية !

٤ — الحاجة الى مدارس جديدة

على أن الإصلاح لا ينبغي أن يقف عند هذا الحد . إذ يجب

---

(١) ليس لخريج التعليم الالزامي في الغالب إلا الحقل أو الأزهر أو تجهيزية المعلمين وبالمثل ليس لخريج التعليم الأولى إلا مثل هذا الطريق . ولا يكاد يدخل التعليم الابتدائي إلا أبناء الموسرين ومن إليهم ، والهوة سحيقة جداً بين هذا التعليم والتعليم الالزامي !!

(٢) ويوجد بجانب هذا التعليم نظام التعليم الأولى . وبالرغم من أنه يشابه التعليم الالزامي في المنهج وكفاية المدرسين إلا أن أجر المدرس فيه وعمله غيرهما في التعليم الالزامي . وحسبك أن تعلم أن المدرس بالتعليم الأولى قد يمتد أجره الشهري إلى ثمانية أو عشرة جنيهات بينما لا يمتد أجر المدرس الالزامي إلى أكثر من أربعة جنيهات وربع جنيه ! هذا إلى أن عمل ذي الأجر الأكثر لا يزيد على ٢٨ حصة ، وإلى أن نظام تثبيت ناظر الالزامي عسير للغاية وفي كل ذلك بالطبع من إماتة نشاط المدرس وإخلاصه ما فيه

(١) كثيراً ما يسوق المدرسون الأولاد إلى المدرسة بعد الامساك بهم في بيوت أهليهم . وكثيراً ما يحرر الناظر بنفسه إنذارات مخالفة قانون الاجبار . والعجيب بعد هذا أن محاكمة المخالفين لهذا القانون يطول أجلها أحياناً وتنتهي بضياع نصف السنة أو جلها على المتعلم

أن يختلف تعليم القرية تماماً تبعاً لاختلاف بيئتها ، ويجب أن يكون المحور الأساسى فيه هو ربط عمل المدرسة بعمل الحقل ، ويجب أن تتجدد المدرسة ذاتها فى نظامها العام والخاص تجدداً يزيل طابعها القديم فى نفوس الفلاحين . يجب أن يكون البناء جذاباً ويجب أن تزاد الثقافة الفنية للمدرسين على نحو خاص يمكنهم من النجاح التام فى أداء مهمتهم العظيمة الخطيرة[1] ويجب أن يكون بالمدرسة استعداد تام للخدمة الطبية ، وأن يكون التعليم الدينى بها على وجه منتج ومفيد لا لمجرد آيات تقرأ وتحفظ فحسب ؛ هذا إلى وجوب نزول المدرسين بها إلى العمل مع التلاميذ حتى يضربوا لهم المثل الصالح فى حب العمل وتقديره ، وإلى وجوب تزويد كل ولد أو بنت بكتب الحفظ كالدين والأدب والعلم ، على أن يكون بالمدرسة ذاتها مكتبة عامة للتلاميذ والأهالى والخريجين جميعاً ...

ذلك من ناحية ، ومن ناحية أخرى ماذا يمنع أن تكون المدرسة مركزاً لتعليم الآباء والأمهات تعليماً خاصًّا ، ولإدخال السرور والابتهاج على أهالى القرية بما تقيمه فى الآن بعد الآخر من مباريات طريفة ؟ وماذا يحول بين رجالها وبين جمع الحكم والأغانى والذكريات والأشغال المحلية بين جدرانها حتى يخرج التلميذ عارفاً بحياة بيئته وبتاريخها وبشتى نواحى النشاط فيها ؟ إننا بهذه الطريقة نجعل المدرسة خير صديق للقرية ، ونجعل الحياة فى القرية ذاتها محبوبة لا تدعو إلى تفضيل حياة المدينة عليها

قد يقول قائل إن هذا مشروع ضخم وفى القطر حوالى ثلاثة آلاف وأربعمائة قرية ! ؛ وهو بالفعل كذلك ولكنه بعد ضرورة ملحة فى القرن العشرين ! ، قرن المدنية والنور ! وإذا فلتضغط الحكومة مصروفاتها الكمالية ضغطاً ، فإنها إن فعلت استطاعت — مع الخطة الحكيمة — أن تنفذ هذا المشروع فى بضع سنين !

٥ — تعليم البالغين فى السويد وانجلترا

أما تعليم البالغين فيتطلب مجهوداً آخر . وها هى السويد قد أسست حوالى ٥٤ مدرسة لإشغال فراغهم بدراسة اللغة والاقتصاد المنزلى والرياضة والموسيقى وأشغال الإبرة والخشب والمعادن . وها هى انجلترا تبعث بمحاضر كفؤ ليحاضر طلبة أمثال هذه المدارس بها فى شئون عامة كالطفولة والتمريض ، وآداب اللياقة ونحوها ، وكثيراً ما يستمان هناك بالراديو فى نشر الثقافة القروية الملائمة[1]

فترى ماذا يمنع مصر من الأخذ بمثل هذا النظام ؟ وكيف السبيل إلى الاستفادة من مشروع « المجموعات القروية » مثلا إذا لم توجد أولا العقول المتهيئة للاستفادة والفهم ؟

خاتمة

يجب إذاً أن نتيح للفلاح حياة أرق ، وألا نتخذ من عدم شكواه وسيلة إلى إهماله . إن النور سيطرق بابه عاجلا أو آجلا ، وسوف لا يرضى حينئذ بحظه الراهن قط . بل هو على النقيض سيطالب بحيـاة أكثر تنوعاً ، وبعمل أقل إرهاقاً ، وبفرصة لكفاح أبنائه أكثر اتساعاً . نعم لا بد من أن يطلب غداً أولئك الذين يخلقون ثروة الأمة شيئاً أكثر من الكلمات ! .

« يتبع » **محمد حسن ظاظا**

مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية الأميرية

(١) اعترف لى بعض حضراتهم أن مقرر التاريخ يحوي دروساً عن الاسكندر ومينا وتحتمس وغير هؤلاء مما لم يحتنوا دراسته

(١) وتقوم جمعية « نهضة القرى » فى مصر بتكليف الطلبة بنشر بعض نواحى هـذه الثقافة بين البالغين ، ولكن ما يزال الأمر محتاجاً إلى دقة الحكومة وحزمها وإشرافها

رسالة الأديب الى الحياة العربية

للكاتبة النابغة الآنسة «مى»

« نبشر أصدقاء « مي » وعشاق أدبها بانكشاف الغمة عن صحتها وحريتها ؛ فقد استطاعت أن تلقى هذه المحاضرة القيمة فى ٢٢ من شهر مارس فى العروة الوثقى بالجامعة الأمريكية على حفل حاشد من أعيان الفضل والأدب فكانت أقطع الحجج على ما أرجف به المرجفون من أصحاب الهوى والطمع . وإنا ليسرنا أن ننقل إلى قراء الرسالة هذه المحاضرة عن جريدة المكشوف اللبنانية ليروا أن (مي) لا تزال على عهدهم بها تشع بالنور ، وتنفح بالعطر ، وتنبض بالحياة »

سلاماً يا وست هول ، يا موطن الفكر والرأى والحياة المنظمة فى كرامة وحرية ! كم من مرة جلست بالخيال بين جدرانك أتبادل والجمع الحاشد قوة الحيوية ، وآخذ قسطى مما يعج فى فضائك من فائدة علمية واجتماعية ! كم من مرة عدت بالذكرى إليك أصغى بخشوع إلى رسالات الفضل والعلم والتهذيب يتلوها هنا العلماء والمفكرون والمصلحون !

سلاماً أيتها « العروة الوثقى » ، الساهرة على وظيفتك فى تنوير الأفهام ، الحريصة على غايتك فى إحكام الرابطة العلمية والأدبية بين أقطار الشرق العربى ! كم من صيحة أرسلها أقطابك وأتباعك وأنصارك من على هذا المنبر المضياف ، فمضت كالطير تسبح فى القريب والبعيد من الأجواء حاملة رسالة العلم الصادق والبحث الرصين والخير العميم ، فكونت فى أوساط قصية مواطن للفكر والرأى والحياة المنظمة فى كرامة وحرية !

ولئن أنا شكرت لك تشريفى بدعوتك واقتراح الموضوع ، فإنى كذلك شاكرة لأنك أفسحت لى مكاناً كريماً بين كرام ضيوفك ، عاملة بيدك القوية الوفية على إحكام الرابطة بينى وبين قومى ؛ وأشكر لكم أيها السادة والسيدات تفضلكم بالحضور .

إن اسم « العروة الوثقى » يلهم الفرد أنه ينقلب أمة عند ما يخاطب الأمة

وما أجله موعداً موعدنا الليلة ! فنحن فى مطلع الربيع ، إذ باشرت الأرض إخراج زينتها وعرض مباهجها ، ونشرت السماء كواكبها وشموسها وأقمارها وضاءة فى رحيب الأفلاك ، وسرت الحياة نامية في فتى الغصون ، واهتزت الأرواح مترنحة لاستيعاب جديد النفحات . كذلك الشعوب العربية استيقظت من شتاء حالك الظلام طويل الأمد ، وانبرت تستقبل الفصل الجديد من حياتها ، متعهدة براعم الأمل والجد فى نهضتها ، ساعية إلى ازدهار ثقافتها ازدهاراً عامراً بهيجاً

الربيع يزف إلى الأرض رسالته ، ووست هول اليوم كما فى الأمس وفى الغد ، يؤدى الى المجتمع رسالته ، و « العروة الوثقى » تواصل العالم العربى برسالتها ، فماذا ترى تكون رسالة الأديب إلى الحياة العربية ؟

أيها السادة والسيدات :

إذا نحن تنحينا فى بحثنا عن الرسالة المثلى ، رسالة الأنبياء ، وجدنا أن الرسالة فى معناها الضيق هى الصفحة التى يكتب فيها الكلام المرسل ؛ بيد أن معنى الرسالة أرحب من ذلك وأشمل ، إذ لكل فرد ، وكل كائن ، وكل شىء ، رسالته فى معرض الوجود : فالشمس تؤدى رسالتها نوراً وحياة ، والزهرة تؤدى رسالتها عطراً ووسامة ، والجبال والوهاد تؤدى رسالتها تبياناً لطبقات الأرض وتنوع الخليقة ، والمروج والسهول تؤدى رسالتها خصباً وغذاء ، والسبل تؤدى رسالة الحركة والانتقال ، والانتقال يؤدى رسالة الأخذ والعطاء والتعاون المتبادل بين الأحياء

ولكل جمهرة من الناس فى كل بقعة من بقاع الأرض شؤون عدة ، إذا ما عولجت واستثمرت ونظمت وحسن التصرف فيها ، أصبحت تلك الجمهرة شعباً فأمة ، وصارت تلك البقعة بلداً فدولة ، وفى كل بلد صناعة ، وتجارة ، وعمارة ، وميكانيكا ، وإدارة ، وقوانين

ولكل أمة عادات وتقاليد وتاريخ وتربية وحكمة وثقافة وآداب وفنون . الشؤون المحسوسة ، على تعددها وعلى ما بينها من فروق ، متشابهة واحدة فى كل قطر ؛ وأخص خصائص الوحدة والتشابه نجده فى التقدم العلمى والميكانيكى ، وفى الحضارة الآلية السائدة فى كل مكان

ترى ما هو الفرق بين مخاطب بالتلفون ، ومخاطب بالتلفون ؟ بين مستمع إلى إذاعة راديو ، ومستمع إلى إذاعة راديو ؟ وبين راكب دراجة أو سيارة أو طيارة ، وراكب دراجة أو سيارة أو طيارة ؟ ليس من فرق بينهما من حيث الخدمة التى تؤديها الآلة . أجل ، ثمت فرق فى الغرض الذى نستخدم له الآلة ؛ وهذا ليس

موضوع البحث ؛ إنما الفرق كل الفرق في الشخصية التي تستعمل الآلة ؛ والشخصية لا تتكون إلا من العوامل الأدبية : التاريخ ، الاختبار ، الذكرى ، اللغة ، الفن ، الأدب

الأدب إذن من أهم المقومات للشخصية ؛ وربما كان الأصح أن أقول إنه حجر الزاوية في تكوين الذاتية الفردية والذاتية القومية بالتبع . والفرق بين الشخصية والذاتية فيما أظن هو أن الشخصية تتكون مما يحيط بنا ويتقلب علينا من شؤون وأحوال ، في حين أن الذاتية هي مانظل عليه دائماً في صميمنا في جميع الشؤون وفي جميع الأحوال . فما أبعدنا بهذا التعريف عن التعريف الشائع أن الأدب هو المستظرف من الشعر والنثر ، وأنه صناعة لفظية حذقت حيلة النكتة والتورية ، واستسيغت منها البلاغة والحلاوة في وصف مجالس الأنس ، وتصوير جمال النساء ، وشرح لواعج الحب والغرام . كل هذا من الأدب بلا ريب ، وله أهميته ، وهو ذو إغراء ؛ ولكنه وجه فقط من الوجوه العديدة في الأدب . ولئن اقتصر كل من العلوم والمعارف على نفسه دون غيره تقريباً ، فميزة الأدب في أنه يحتضن الكثير من المعارف والعلوم ، وله أن يتغذى بها جميعاً ليعالجها على طريقته الخاصة ، فلا يكون بعد إلا أدباً

ولكم كانت المنتجات الأدبية والصور الخيالية سابقة للبحث العلمي ومعينته على الخروج من حيز القياس والإفتراض إلى حيز التطبيق العملي والاختراع ! أليس أن شاعرية الشعراء طارت إلى أجواز الفضاء قروناً طوالاً قبل اختراع الطيارات ؟ وفيالق العشاق (والعشاق شعراء وأدباء دواماً) ، ألم تناج أرواح الأحباب برغم شاسع الأبعاد قبل أن يصبح الراديو أداة من أدوات المنزل ؟ ومن ذا الذي يقرأ ولو كتاباً واحداً من كتب الأديب الفرنسي جول ڤرن الذي وصف الانطلاق من الأرض إلى القمر وصفاً علمياً قبل أن يقوم علماء الستراتوسفير برحلاتهم الجوية ، وحدث عن سلك أعماق البحار في سفن ذات أجهزة ميكانيكية دقيقة قبل أن تحتوي أساطيل الدول على غواصات ترقب ما يجري في قلب اليم وعلى صفحة الماء ؟ من ذا الذي لا يذكر الكاتب الإنكليزي المعاصر ولز ، ومؤلفاته ذات الصبغة العلمية المتنبئة بمستقبل حياة ميكانيكية صرفة تترتب عليها حياة اجتماعية متوافقة ؟ لست من أشياع ولز ، ولكني أشير إلى نظرياته شاهداً على رحابة الميدان للأدب

وإذا نحن عدنا إلى الكتب الدينية الثلاثة : التوراة، والإنجيل، والقرآن ، وجدناها متفقة على جعل الفردوس الأرضي في شرقنا الأدنى . فكان لنا أن نقول إن مجد الآداب كمجد النبوات وكمجد الحضارات أشرق من بلادنا ، وكانت اللغات السامية أول أداة للإفصاح عنه

التوراة مليئة باللهجة الأدبيـة . والتوراة كتبت أولاً باللغة العبرية . والإنجيل ملىء باللهجة الأدبية ؛ والسيد المسيح تكلم بالآرامية والسريانية والعبرية ، قبل أن يكتب الإنجيل باليونانية واللاتينية لينقل بعدئذ إلى مختلف اللغات . والقرآن ملىء باللهجة الأدبية ؛ والقرآن هو الكتاب العربي المبين والمستودع الخالد لهذه اللغة التي لا تموت مهما توالت عليها القرون وتناهبتها تصاريف الحدثان

ترون من كل هذا أننا معشر الشرقيين عريقون في الأدب ، وإن أدياننا عمدت إلى اللهجة الأدبية لتكون أسرع اتصالاً بالنفوس وأبرع استيلاء على المشاعر . ولئن أجمع نفر من علماء اللغات في الغرب على أن اللغات السامية حماسية ، غنائية ، بيانية ، خطابية ، أكثر منها اختصاصية علمية ميكانيكية ، فنحن نعتز بذلك . لأن اللغة الأدبية هي لغة النفس ، لغة الجوهر ، لغة البقاء . واللغة المحتوية على الجوهر لا تضيق دون العرض والطارىء والإضافي . وليس لنا إلا أن نتابع الجهود التي باشرناها أفراداً وجماعات علمية — ناهجين نهج أسلافنا الذين نسخوا وترجموا ونحتوا واشتقوا وعربوا — لنجعل أداة اللغة كافية وافية في تأدية كل مستحدث من المعاني والمسميات والاختراعات العصرية . ولنا من اتساع اللغة ومرونتها ما يمكننا من صوغ المفردات وسبك القوالب على طريقة ترضي من الناحية الواحدة مولانا سيبويه ، وترضي الواقع والذوق من الناحية الأخرى ، فلا يكون اسم الراديو مثلاً : الطمطمان ، ولا يكون التلفون : أرزيزاً

ومعلوم أن الأدب كاللغة ، حليف التقهقر والتطور في الشعوب التي تعالجه . وآدابنا في تاريخها الطويل أصدق شاهد على صحة هذه النظرية لأنها ازدهرت ثم لازمها الجمود وفقاً لارتفاع الدول العربية

وهبوطها . وصدق تلك النظرية أظهر ما يكون فى عصرنا الحاضر .

نظرة إلى البلدان العربية ، فاذا نرى ؟ بعد هجعة ثلاثة قرون أو تزيد استيقظت الشعوب العربية ، وحركات اليقظة لا تكون منتظمة فى بادئ الأمر ، وإرادة المستيقظ لا تكون مستقرة ثابتة ، وبصيرته تظل وقتاً ما غائمة غير صافية ولا نافذة . المستيقظ يلبث حيناً حائراً بين خيالات الليل وحقائق النهار ، ولكن كم فى خيالات الليل من حقيقة ، وكم فى حقائق النهار من خيال ! شعوبنا على همّها وتحفزها ما زالت قلقة مضطربة ، وأدبنا على وفرة جهوده وغزارة مادته ما فتئ مضعضعاً ، غير واثق من نفسه ، غير مستقر . فما هى حاجتنا اليوم من الناحية الأدبية ؟

إذا كان الأدب صورة للشخصية العامة من خلال الشخصية الفردية الخاصة بحسناتها وسيئاتها ، بحوافزها ومعلوماتها ، بنورها وظلامها ، بتقاليدها وأوهامها ، بخوالجها وممكناتها ، بيأسها ورجائها — إذا صح ذلك ، وهو صحيح — فنحن نحتاج اليوم إلى صوت الأديب وإلى رسالة الأديب .

المعترضون يقولون : ولكن الأقطار العربية متعددة ولكل قطر حياته الخاصة ولهجته الخاصة . أفيكون إذن لكل قطر أدبه الخاص ؟

كيف لا ؟ وهل غير ذلك فى الامكان ؟ أو ليس هذا هو شأن سائر الآداب ؟ أو تتكون الثروة الأدبية واسعة فى اللغة الواحدة إلا بتعدد الآداب المحلية وتنوعها ؟ أو ليس لكل من أميركا ، مثلا ، وانكلترا واسكوتلاندا وإيرلندا ، أدب خاص مجموعها يكون آداب اللغة الانكليزية عموماً ؟ وفى كل هاتيك الأقطار الغربية لهجة محلية هى غير اللغة الانكليزية ، والشعب يتخاطب بلهجته وباللغة الانكليزية ، ويكتب بهذه اللغة وبتلك اللهجة على السواء . فعلام نحن نشكو مما يراه الآخرون شيئاً جد عادى ؟ ومن المشاكل والمصالح والآلام والآمال ما هو مشترك بين جميع البلاد العربيــة . فرب زفرة حزن أو صيحة استبسال وجدت صداها متردداً فى ملايين القلوب العربية ! ورب رسالة أدبيــة انطلقت من قطر واحد ، فاجتاحت عديد الأقطار العربية المتناثرة من شواطئ الاطلانطيق إلى خليج العجم !

أجل ، نحن فى حاجة إلى أقلام تخاطبنا باللغة العربية ببيان جيل يصور شخصية الأديب ، ويشرح حالة الأمم ، وينشر أمامنا صحيفة الأزمنة الثلاثة : الماضى والحاضر والمستقبل . فالماضى ينبثق انبثاق الينبوع فيخصب النفوس . وكما يكتنه الأديب ذخائر الماضى فكذلك هو يطلع على شؤون الحاضر ، متصلا بكبار الحوادث التى تهز قومه فى النقمة وفى النعمة ، فى السخط وفى الرضى ، وإذ يرى الحوادث داخلة فى دور الغليان ، والشعوب فوارة صاخبة كالحمم فى فوهة البركان ، وإذ يشهد الظلم والعذاب والمرض والنفاق فيبحث عن الانصاف والصحة والصدق والانشراح — عندئذ تتم فى داخله عملية عجيبة ، ولا العمليات الكيميائية . يخيل إليه أن موسيقى شائعة رائعة تنطلق من الأزمنة والحوادث والشعوب موحية إليه سر الفن الجميل فينقل الينا منها ما ينقل ، جاعلا لكل شىء أهمية خاصة تهز منا المشاعر ، وتستثير الحماسة ، وتكيف الآراء . ومن معالجة الأديب للأزمنة والحوادث والشعوب ينبعث لنا المزيج الفتان فيلفتنا إلى أن فى طبيعتنا رحاباً لم نكتشفها وإن فى أرواحنا ممكنات توسع أمامنا أفق الحياة .

وإذ يحدثنا الأديب عن النظريات والمذاهب والشخصيات نتحزب مختارين لها أو عليها ، فننكر نظرية ونؤيد نظرية ، نمقت شخصية ونحب أخرى محاولين الاندماج فيهـا ، ندحر مذهباً وننتصر لغيره تائقين إلى نشره فى الملأ مع رفاق نوليهم الثقة . كذلك الأديب يجوز بنا بحر الحياة المكفهر كسفينة استغنت عن الشراع والقلوع وعن الرياح المؤاتية ، لأن له من نفسه القوة التى تسوقه إلى الأمام . وليس من اختبار يمر به إلا تأثرت به كتاباته ، فلا نفتأ نتطلع إلى كل ما يحدث له متسائلين عن سر قوته فى الناعة ، وعن سر قدرته فى الإبداع ، ذلك السر الدفين ، ذلك الجوهر المكنون المعرض عن كل تأويل وتفسير ، السباق إلى أجواء من التفكير والإحساس والتكوين ، لا نأبه لوجودها إلا بعد أن يجول جولته فيها

وسرعان ما يتصل الحاضر بالمستقبل فى فن الأديب : جيل جديد يتخرج على آثاره وعلى مؤثراته ، فيشب حاملاً معه الفكرة التى تنيل الحياة قيمة فى تذوق الجمال الحسى والأدبى ، وفى ممارسة الجمال تأملاً وسعياً وجهاداً ، رافعاً بيده مشعل الحب العتيد للوطن ، والرجاء ، والتقدم ، وللشهامة وللبطولة ، ولإرضاء غريزة الحرية !

رســالة الأديب تعلمنا أن لـكل قطر من الأقطار العربية حضارة غابرة حلت محلها الحضارة العربية ناسخة عنها وعن غيرها لتسبكها فى قالبها وتدمغها بطابعها الخاص . رسالة الأديب تعلمنا أن الغرب الحاذق عرف كيف يقتبس عن حضارتنا يوم كانت حضارته وثقافته وشيكة . ولـكن ما أغزر ما استفاد وما أخصب ما أنتج ، وما أبدع ما ابتكر ! وإن الحضارة العربية كانت الصلة المتينة بين الغرب الجديد وحضارة اللاتين والأغارقة . وها هو ذا الغرب يرد إلينا الآن دينه كشماع من الشكر بما ينشره بيننا من ثقافة ، فعلينا أن نأخذ عنه بمثل المهارة التى أخذ بها عنا !

رسالة الأديب تعلمنا أن الحضارة الميكانيكية أدوات نستعبدها ونستخدمها ، لا أدوات تستخدمنا وتستعبدنا . وإنه لا يكفي أن يضغط امرؤ على الزر الـكهربائي فينال سحرى النتائج ، وأن يمتطى سيارة أو طيارة فيطوى شاسع الأبعاد ، وأن يرقص رقصة ويصغى إلى إذاعة ويتعمل التأنق والحذلقة متكلما بخليط من لغتين أو ثلاث — لا يكفى كل ذلك ليكون شخصية ممتازة ترهب هيبتها الأكوان

رسالة الأديب تعلمنا أن الحضارة الآلية التى ألفناها ولم يكن يحلم بها أجدادنا تجعلنا اليوم أشـد احتياجاً منا فى الماضى إلى ثقافة أدبيــة تدعم الحضارة الآلية وتكون لها ركناً ركيناً . وإن هذه الحضارة الآلية المتنقلة بسرعة من بلد إلى بلد ومن جيل إلى جيل ، ننعم بها — ونشقى ! — دون أن يكون لنا يد فيها . أما الثقافة الأدبية فيجب أن يحصلها كل فرد يوماً فيوماً ، وساعة فساعة ، مدى الحياة

رسالة الأديب تعلمنا أن للعالم العربى على تعدد أقطاره وحدة واحدة تشغل مكاناً فسيحاً فى القارتين الآسيوية والأفريقية . ويستطيع أن يقول هـذا القول علماء الجغرافيا وعلماء التاريخ وغيرهم . ولـكن للأديب فناً مغرياً ينيلنا الثقافة والفائدة ، بينا نحن نرتع فى بحبوحة من اللذة والمتعة فى جو ممتنط أخاذ هو فى الواقع جو الحياة

رسالة الأديب تعلمنا أن نفاخر بلغتنا العربية الممتازة على سائر اللغات بأنها ولدت قبل لغات قديمة اندثرت منـذ قرون ، وما زالت العربية تفيض حياة ، مجارية حتى أحدث اللغات بالقوة والمرونة والجزالة والرشاقة . كل أمة تسمى الآن إلى نشر لغتها بين الأمم الأخرى ، باذلة فى سبيل ذلك المـال والإغراء والدعاية والجهود . أما نحن فانتشار لغتنا شىء واقع ، وميزتها هـذه تربط بين الأقوام العربية برباط قوى جاعلة الفرد الواحد منا ملايين

رسالة الأديب تعلمنا كيف نخلق حضارة أدبية ، إذ بهـا لا بغيرها تقاس مواهبنا ، ويسبر غور طبيعتها ، وهى التى تثبت وجودنا ، وتنطق بلساننا مترجمة عن مبلغ الانسانية فينا

رسالة الأديب تعلمنا حب العزلة والسكون ، وترجعنا عن الفخفخة وهوس الظهور ، فنعتكف على أنفسنا نعالج ممكناتها للظفر بمحمود النتائج . فالسنبلة المتمايلة على صفحة المروج ، حاملة بشائر الحياة ، لا تولد حبتها ولا تنضج إلا فى أحشاء الأرض ، فى جو الوحدة والهدوء والـكتمان

رسالة الأديب تعلمنا ألا نخشى كارثة ، ولا نتهيب مغامرة . كل زمن خطير فى التاريخ كان زمن اضطراب وكوارث ، وأعظم فوائد الانسانية نجمت عن عصور العـذاب والخطر . الخطر مرهف ، ولا يعرف شأن ذى الشأن إلا يوم الـكريهة . والعاصفة لا تقتلع إلا ضعيف الأغراس ؛ أما الأشجار ذات الحيوية العصية فالأعاصير تلح عليها وتهزها هزاً عنيفاً فلا تزيدها إلا قوة ومناعة

رسالة الأديب تردنا عن عديد الشخصيات القومية التى تجذبنا من كل صوب لتركزنا فى شخصيتنا القومية الأبية

رسالة الأديب تعلمنا كيف نفهم كل شىء ونستفيد من كل شىء ، باحثين عن الصواب والـكمال خلال كل نقص وكل زلل ، نازعين إلى الجمال الحسى والأدبي حيال كل دمامة خَلقية وخُلقية مساجلين النفوس والعناصر ، مناجين المنظور وغير المنظور ، لنجعل من حياة متناثرة متداعية ، حياةً متناسقة متماسكة

أى شىء لا تعلمنا رسالة الأديب ؟

إنها قوة تستفز قوتنا ، وموهبة تحفز مواهبنا ، وصرامة تردنا عن الحقارة ، وبسالة تدفعنا إلى البسالة ، وعذوبة تؤاسى أحزاننا ، وأغرودة تطرب أشجاننا ؛ وهى عالم مستقل متماسك يسوقنا إلى تكوين عالمنا المتآلف المستقل !

نحتاج إلى الأديب يأخذ منا ويعطينا ، فيرسـل صوته أريباً رصيناً مسيطراً أخاذاً حضاناً !

ونحتاج إلى رسالة الأديب قويمة غنية عنيدة ملهمة لتوقف قوميتنا فى مكانها المشروع فى معرض القوميات بميدان العمران العظيم !

« مى »

التاريخ فى سير أبطاله

ابراهام لنـــــكولن

هدية الأحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

— ٦ —

يا شباب الوادى ! خذوا معانى العظمة فى نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامى العظيم



وما حيلة الطب فى نوازع توبق الروح ، وهواجس تعمى القلب؟ وإن بدت آثار هذه وتلك فى نواحى البدن عجز الطبيب ، ولا عجب أن يعجز ، وجاء الصديق ليفعل مالم يستطع الطبيب أن يفعل ، وهو خبير بالعلة عليم بموضعها من نفس صاحبه

باع سبيد حانوته وعول على الرحيل إلى كنتوكى فعرض على صاحبه لنكولن أن يذهب معه إلى هناك عله يشفى مما به فى تلك الأحراج التى درج منها أول ما درج . دعاه سبيد أن ينزع نفسه وجسمه من ذلك البلد الذى يكربه العيش فيه بعد أن كان منتجع آماله ومهوى خواطره ، ورحل ابراهام مع صديقه وقد اخترم الهم جسده فزاده نحولا على نحول ، وزين له الشيطان أن يطلب النجاة من الحياة ... !

ولبث فى كنتوكي أياماً ، لقى فيها من كرم صاحبه وكرم أمه وأخته ما هون عليه أمره شيئاً قليلا ، وصاحبه لا ينفتأ يسرى عنه وينصح له ، وهو يشكو إليه اضطراب أعصابه ويظهره على هواجس نفسه ، ويذكر له والألم يبرح به فعلته التى فعل وكان فيها غير كريم ، بل وكان من الضالين ... بيد أنه لم يلبث وقد كان يلتمس العون من صديقه أن رأى ذلك الصديق فى حاجة إلى من يعينه ، فقد طاف به على حين غفلة طائف من الحب ملك عليه قلبه وعقله !

وانقلب الأمر فغدا لنكولن هو الناصح ، وراح يجهد أن يهدى صاحبه حينا وسوست إليه نفسه معانى كتلك التى كانت تجول فى خاطره هو : معانى الحيرة والتردد والشك . فلقد أصبح سبيد يحار فى أمر حبه كما أصبح ينتابه الخور كلما اتجه فكره إلى الزواج شأنه فى ذلك شأن ناصحه . وكان فيما يسديه ابراهام من نصح لصاحبه مسلاة له أو شاغل يشغله عن وجده ؛ على أنه وهو فى كنتوكى كتب رسالة فى الانتحار ترينا أن النقمة أو اليأس كان قد أوشك أن يذهب عنه . خذ لذلك مثلا قوله : « إنى لم أصنع فى الحياة شيئاً يذكِّر أى إنسان أنى عشت . ومع هذا فان ما أعيش من أجله هو أن أربط اسمى بحوادث يومي وجيلى ، وأن أقرن ذلك الاسم بصنيع فيه لمن حولى من الناس جدوى »

ولما عاد إلى سبرنجفيلد ظلت كتبه مدة أكثر من عام تترى على صاحبه ، وفيها من حسن النصيحة وقوة الاقناع ورقة العاطفة ما يكشف لنا عن حقيقة نفسه ويصور نزعات وجدانه . كان يعزو ما بات صاحبه يشكو منه إلى اعتلال أعصابه وإلى ما تحدثه الوحشة والبعد عن الخلان وأحاديثهم فى مجالس لهوهم من انقباض وضيق ، وإلى ما تركته الوراثة فى طبعه من شدة التأثر وقوة الانفعال ؛ وكان يكتب ذلك في جلاء وقوة حجة هما من أبرز صفاته . وكان عجباً أن نرى مثل ذلك من لنكولن ، فنرى فيه العالم النفسانى ، والشاعر الرقيق العاطفة ، وهو الذى علم نفسه بنفسه ... !

وتزوج سبيد بعد ذلك وبقى لنكولن حيث هو ، موقفه اليوم من مارى عين موقفه عقب ذلك الفرار الشائن ؛ فماد إليه بذلك ما شغلته عنه قصة صاحبه زمناً من هموم نفسه ! وأصبح فإذا هو ضائق بوساوسه . وزاده تبرماً بحاله وإنكاراً

لشأنه ما كان يسمعه من صاحبه عن سعادته الجديدة بين يدى زوجه ... لذلك لم يكن عجيباً أن يلتمس السكينة من جديد عند فتاة ناهد كان قد عرفها قبل أن يعرف مارى . بيد أنه كان يتجه بينه وبين نفسه إلى مارى ، فهو لا يستطيع أن يبتعد بخياله عنها . قال فى كتاب من كتبه : « يخيل إلىّ أنه ينبغى أن أكون جد سعيد لولا تلك الفكرة الملازمة لى ، ألا وهى أن هناك شخصاً غير سعيد عملت أنا على أن يكون كذلك . إن تلك الفكرة ما تزال تريق روحى ؛ ولا معدى لى عن أن ألوم نفسى حتى على مجرد الأمل فى السعادة فى حين أنها على ما هى عليه »

وكان لنكولن يحدث نفسه أنها لا تزال على الرغم مما حدث بحيث يتأتى لهما أن يتصلا إن هما أرادا ذلك . وكانت هى من جانبها تحس أن ما كان منه من هجران وقطيعة قبيل ما استعدا له من زفاف قبل ذلك بعام ونصف عام لم يصل على شناعته إلى مثل الصدمة القاضية ...

ودبر رجل من صحابتها وزوجه أن يدعواها إلى مأدبة على جهل كل منهما بدعوة الآخر . وتم ذلك فالتقيا وتضاحكوا جميعاً بعد أن ذهبت عن ابراهام وصاحبته ربكة المفاجأة . وكان ذلك اللقاء والخطوة الأولى نحو التئام الصدع واجتماع الشمل ؛ إذ أصبح لنكولن يرى حقاً عليه أن يصلح ما أفسد وأن يضع حداً لما هو فيه من ضيق وشقاء

وحدث بعد ذلك أمر غريب فى ذاته ، على قدر غير قليل من الأهمية من حيث نتيجته : ذلك أن إبراهام ، وهو الرجل الذى ملك القلوب بدماثته ورقة حاشيته ، قد دخل غير متردد ولا هياب فى مبارزة تدور على السيف ! وكان لتلك المبارزة سبب يدهش له الإنسان أن كان مبعثه شخص مثل لنكولن ! فلقد نشر ابراهام فى إحدى الصحف كتاباً على لسان أرملة وجهته إلى أحد رجال السياسة تسفه فيه آراءه التى أذاعها ، وكان التهكم لاذعاً والنقد قاطعاً ، فأثار الكتاب فضول الناس كما أثار ضحكهم وإعجابهم ؛ ووردت على الصحيفة ردود قوامها المجانة والمعابثة وكلها غفلاء من أسماء أصحابها ... وكان لمارى فى هذه الردود نصيب . وثارت ثائرة ذلك السياسى وراح فى المدينة يتهدد ويتوعد ؛ وجاء صاحب الصحيفة فعنفه وتهدده بالانتقام إلا أن يعرف صاحب هذه المجانة . وعرض صاحب الصحيفة الأمر على لنكولن فقال له فى غير وناء ولا استخذاء : إنه يأخذ الأمر على عاتقه ، وإنه لذلك فى حل من أن يذيع اسمه . وتم ذلك فكانت المبارزة ... فلقد تحداه ذلك السياسى أن ينازله ، وشاع أمر ذلك فى الناس فاحتشدوا ليشهدوا ما يكون بينهما ...

وكان لإبراهام من طوله وفتوته وقوة ساعديه ما يضمن له الفوز على منازله القصير ؛ فتناول سيفاً طويلاً ولم يزد ـ والناس يتطلعون ـ على أن ضرب به غصناً فوق رأسه فألقى به بعيداً . ثم جلس وفى عينيه أنه يريد أن يلقى إليهم حديثاً وراح يحكى ويستجمع الأمثال ... ! وتداخل الناس وسووا ما كان بين المتخاصمين ، وانقلب الجد الصارم إلى فكاهة عابثة

بيد أن للحادث نصيبه من الأهمية ؛ فلقد ترك فى حياة لنكولن صفحة ظل يندى لها جبينه أبداً ، كما حق لمارى أن تتحدث إلى الناس أن إبراهام ما فعل هذا إلا دفاعاً عنها وحفاظاً أن ينالها شىء من غضب ذلك السياسى . وطاب إبراهام بذلك نفساً . وقربت الأيام بينهما حتى باتا من جديد يأخذان الأهبة للزواج . وما هى إلا أيام حتى ربطهما ذلك الرباط المقدس وهو يومئذ فى الثالثة والثلاثين

واستنشى ابراهام نسيم الراحة أن أخذت تتزايل هواجسه ويتضاءل هوانه على نفسه ، وأخذت تعود إليه ثقته بتلك النفس سيرتها الأولى ، وإن كان الذين شهدوا العروسين حين عُقِد قرانهما رأوا لنكولن وعلى وجهه سحابة من الكآبة والوجوم كانت تنقشع حيناً على ما يتكلف من بشاشة ثم تعود فتنعقد !

وأقام لنكولن أول الأمر وعروسه الطموح المستعظمة فى حجرتين صغيرتين فى نزل كانا يدفعان أجراً لهما أربعة دولارات كل أسبوع . وعظم ذلك على مارى فشكت إلى زوجها ولم يمض على زواجهما غير قليل ، وهو يلقى إليها المعاذير مشيراً إلى ضيق رزقه وإلى ما لا يزال يقتضيه الوفاء من ديونه ... وبسط الله له رزقه بعض البسط ، فانتقل الزوجان إلى بيت صغير استطاعا أن يدفعا فى غير عسر أجر إقامتهما فيه

وأخذت مارى فى بيتها الجديد تدبر شؤونه وترعى أمره ، وقد اتخذت لنفسها سلطة ربة البيت لا تتنازل عنها فيما عظم أو هان من الأمور ، حتى لقد كانت تأخذ زوجها بألوان من الشدة والعنف حينما كانت تدعوه إلى كيت وتصرفه عن كيت ، ورائدها

فى ذلك النظام كأدق ما يكون النظام . وكان يصل بها الغضب أحياناً إلى هياج شديد ، وذلك حين كانت ترى من بعلها أن يأبى إلا أن يرسل نفسه على سجيتها ، فكثيراً ما لا يعبأ بما صالح الناس عليه أذواقهم من أوضاع وتقاليد يلزمونها وهم جلوس إلى مائدة الطعام ، أو وهم سامرون فى الثوى . وهل كان يستطيع ابن الأحراج أن يتكلف ما لم يجر فى طبعه ؟ ولكن امرأته لا تفتأ توجهه إلى العناية بهندامه وتحثه على النظام وأنه ذلك خليق به وله فى الناس مكانته ؛ وهى تريده على أن يحمل الأمر على الجد وهو يجاريها ليخفف من حدتها ثم لا يستطيع بعد ذلك أن يغير من طبعه . وكان إذا اشتد بها الغضب يلاطفها ويضاحكها ليصرف عنها غيظها ، فان عجز عن ذلك خرج من المنزل فمشى ساعة أو بعض ساعة ...

وحق لزوجه أحياناً أن تغضب منه ؛ فهو سخى اليد وإن كانت به خصاصة ، وهى لا تريد أن تبسط يدها إلا بقدر ما تستطيع . وهو يلقى الناس فى البيت فى هيئة تنم على عدم المبالاة ، فثيابه مهدلة وشعره أشعث ، وعباراته ساذجة ، وهو يستلقى على ظهره أحياناً ويتمدد على الأرض وفى يده كتاب لا يصرف وجهه عنه ؛ ويتدخل أحياناً فيما ليس من أمره فيحلب البقرة فى الحديقة ، ويحمل اللبن فى وعائه بين يديه ويهرول به إلى الدار على أعين السابلة والجيران !

ولكن زوجه على الرغم من ذلك تحبه وتكبره ، وتنتظر ما يخبئه له الغد من جاه وسلطان كأنها تعلم الغيب أو كأنها ترى مالا يراه الناس . وكتب لنكولن إلى صديقه سبيد ينبئه أنه رضى النفس قرير العين ، ويعتذر له من عدم زيارته إياه بفقره وشواغله ، ثم يبشره أن قد صار لهما غلام ...

ذلك ما كان من أمر لنكولن فيما هو متصل بحياته الشخصية ؛ بيد أن زواجه من تلك المرأة كان حادثاً عظيم الأهمية فى حياته ؛ فلقد مر بك من صفاتها أنها امرأة ذات طمع وطموح . وأنها كانت ترى بما يشبه الالهام الطريق المؤدية إلى عليا المراتب ، وما كانت تقنع بما هو دون مرتبة الرياسة ! لذلك كانت لزوجها خير معين حين تقدمت خطواته فى ميدان السياسة . وكثيراً ما كانت ترده إلى الطريق السوى إن هو أوشك أن يتنكبها . ويتجلى ذلك فى عدة مواقف سيأتى حديثها بعد حين ...

نرجع بالحديث بعد ذلك إلى حياته العامة فى السياسة والمحاماة .

أما فى السياسة فقد ظل ينتخب نائباً عن سنجمون ، كلما تجدد الانتخاب ، حتى لقد ظفر بثقة الناس أربع مرات متوالية . وأما فى المحاماة فقد تركه شريكه ستيوارت إلى وشنطون حيث اتخذ مقعده فى المجلس العام للولايات ؛ فعمل مع شريك آخر قبل زواجه من مارى بثلاث سنوات ؛ وكان هذا الشريك يدعى لوجان ، وكان لوجان من أكبر المحامين شهرة فى المدينة ، وكان له من صفات النظام والدقة والإلمام بأوضاع المهنة ومطالبها ما كان يعوز صاحبه لنكولن . وكانت له فى العمل الرياسة . ورضى لنكولن بمكانه منه ولم يجد فى ذلك غضاضة إذ لم يكن منه بد ؛ وأخذ يتعلم عنه ويكتسب بمصاحبته المرانة والخبرة ؛ وهو قانع بنصيبه من الأجر ، وإن كان يرى من زميله أنه لا يعدل فى ذلك وإن كان لا يميل كل الميل . ولم يكن ثمت ما يحول دون استمرارهما معاً لولا أن فرقت بينهما ريح السياسة إذ كان كل منهما ينتمى إلى حزب يخالف حزب الآخر ...

ولما قضى الأمر بينه وبين لوجان ، اتخذ له زميلاً آخر . وكان هذا الزميل شاباً دونه فى العمر بعشرة أعوام اسمه هرندن . وكان هرندن هذا من أشد الناس إعجاباً بأبراهام ومن أعظمهم محبة له وإكباراً ، فتوثقت عرى الصداقة بينهما . وكانت لأبراهام الرياسة هذه المرة ، وعظمت ثقة كل من الرجلين بصاحبه . وكان أصغرهما موفور الحظ من النشاط والذكاء ، كما كان كزميله فى مذهبه السياسى ومن الداعين إلى القضاء على العبيد ...

وعرف إبراهام فى المحاماة بما لم يعرف به أحد قبله فى المدينة ؛ فهو بسيط فى كل شىء ، يحمل الأمر أمر ذمة وإخلاص قبل أن يكون أمر قانون ومغالبة ؛ وينظر فى تنازع الناس نظرات يوحى بها قلبه قبل أن يرسمها عقله . يرد كل شىء إلى طبيعته إذ كان يقيس الأمور بما كان يدور فى نفسه ، ولا يتردد أن يفصل بين المتنازعين بما لو فكر فيه غيره لعده من ضروب الخيال والوهم ... ولكن لنكولن كان له من إنسانيته خير سند ، ومن حسن طويته خيرها

جاءه ذات مرة رجل يطلب إليه أن يدافع عنه ليرد له مبلغاً من المال عند خصم له ؛ فلما سمع لنكولن قضيته قال : « إنى أستطيع أن أربح قضيتك وأعيد إليك تلك الدولارات الستمائة ، ولكنى إن فعلت ذلك جلبت الشقاء إلى أسرة أمينة ، ولن

أستطيع أن أتبين سبيلي إلى ذلك . لذلك أحس في الميل إلى أن أنصرف عن قضيتك وأجرك . على أني أبثك نصيحة لا أسألك عليها أجراً : إذهب إلى بيتك ففكر في طريقة نزيهة تكسب بها ستمائة دولار » ... بذلك وبأمثاله اتخذ أبو الأمين سبيله إلى قلوب الناس ، فما منهم إلا مكبره ومحبه . وكان الناس يجيئونه ليحكموه فيما شجر بينهم ، وكلا الخصمين يعلن أنه راض بما يقول سلفاً ؛ وسرعان ما كان يحسم النزاع بينهم كأنهم منه حيال قاض لا محام ! وهو لا يسألهم أجرا على ذلك ، وحسبه من الأجر منزلته في قلوبهم ...

وكان يرفع الكلفة بينه وبين الناس كأنه أحدهم مهما كانت درجتهم ؛ وكذلك كان يفعل مع صاحبه هرندن ، فهو لا يستحي أن يسأله ويستفهمه أن أشكل عليه أمر أو التوت عليه فكرة كأنه تابعه ! فإذا ساق إليه الله رزقاً عده وقسمه نصفين ونادى صاحبه : « هذا نصفك » ؛ كل ذلك دون أن يكتب شيئاً أو يطلب من صاحبه كتابة ، فما كانت بهما حاجة إلى ذلك وكلاهما يبذل من الاخلاص والود بقدر ما يبذل صديقه

وكان صديقه يراه الناس في المحكمة يدس أوراقه في جيبه حتى لينبعج وينتفخ ، ويرونه يدسها في قبعته كأنه يجعل منها قبعة وحقيبة . كان لا يعني في شيء بمظهر وإن حرص كل الحرص في كل شيء على الجوهر ... وكان في عمله كما كان في منزله ، يأبى إلا أن يرسل النفس على سجيتها ؛ وسيظل كذلك حتى تتحقق له كبرى الرياسات .. ولله ما كان أعظم تلك البساطة منه في كل شيء ! وهل ثمت بين المتكلف المتصنع وبين الصعلوك من كبير فرق ؟ إن أمرهما واحد فيما أرى وإن بلغ من تمويه أولهما ما يكفي لأن يحجب عن الأعين حقيقته ...

(يتبع) الخفيف

حلبي يزور باريس

في سنة ١٨٦٧

للدكتور حسين فوزي

تتمة مانشر في العدد ٢٤٥

وينتقل بنا الخواجا فرنسيس من أشور لمصر ليونان لروما ، فيقول في فلاسفة الإغريق :

فذاك أريسطو وذا إقليدس ذو منطق هـذا وذا مهندس
وهو ذا سقراط ذاك الأنفس من كان للآداب دوماً يغرس

ثم يكون من سوء حظ ديوجنيس أن يجيء في الشطرة الخامسة ، فتسلبه القافية الرائية مصباحه ، ولا يبقى له من فلسفته الكابتة إلا أن يكون :

وذا ديوجنيس ذو التعري !

ورحالتنا رجل حساس بجمال فن التصوير ، فهو يأمرنا :

أن نعرج نحو مكان الصور حتى نرى أجمل صنع البشر
حيث عينه الفنانة لا تخفى عليها خافية :

فهناك كل بطل مبارز يلوح في أعضائه البوارز
وكل خود ذات طرف غامز وأجفن عن الهوى روامز
وطلعة تخسف وجه البـدر

لاشك أنك تعبت من التجوال — أو من الشعر ! — والخواجا فرنسيس يشعر بذلك تواً ، فهو يلاحقك بشعره الفلسفي إذ يقول :

تبا لنفس حظهـا يصرعها وكل مايلزها(كذا!) يلذعها
آفتهـا تضجر يتبعهـا فأينما سـارت أتى يصفعها
وربما يلحقهـا للقبر

أظن أننا لن ننتهي بسلام من خمسائية الملم فرنسيس ، وقد تكفي الإشارة إلى أنه ينتقل بك فيها من حديقة «اللوكسمبور» إلى متحف « كلسوني » ومن دار البلدية إلى « بولفار ميخائيل إلى لقا ينبوعه الجميل » . ولا ينسى أن يعرج بك على حديقة النبات ومتحف التاريخ الطبيعي حيث يدور بك شعراً في أقسامه من الجيولوجيا ، إلى المعادن ، إلى النبات ، إلى الحيوان . ثم هو

يأخذ بيدك إلى متحف « الفنون والصناعات » ، وينتهى بك إلى باريس فى الليل حيث يرى « الكل يمشون بها أزواجاً — ويدخلون فى الصفا أفواجاً »

والآن وقد اجتزنا محنة شعر الخواجا فرنسيس ، يمكننا أن نتمتع دون وجل ببقية نثره . فنعود إليه فى أول وصوله إلى باريس عند « انفلاق الصباح » تلك المدينة ذات الشوارع « رحبة العرض ، مستقيمة الطول ، حسنة التمهيد والتخطيط ... جامعة لكل شروط النظافة والاتقان . فلا يقوم هناك للجيف الطاعونية انبعاث ، ولا للأقزار (كذا) الوبائية حشر » — لاشك أن صورة عمران العثمانيين لسوريا ماثلة لعين الحلبيّ المسكين وهو يكتب هذه الفقرة !

ودخل رحالتنا إلى مسارح باريس التمثيلية منها والغنائية ، فوجد الفرنسيين فيها « جامعين إلى دست واحد ما تفرقت قطعه فى رقاع السنين . وهكذا يحلون هذه الاستحضارات (ليفكرنْ صاحبنا بالمندل) والاستظهارات بقلايد الآداب ، وفصاحة اللغة ويرخونها بآلات الطرب وحسن الصوت ، بحيث أن المشاهد لا يعود يدرى بأى حاسة يستقبل وقوع الطرب (بحاسة الشم غالباً !) أبعينه أم بأذنه . فيرحل حاملا فى دماغه نهاراً من الأدوار الأدبية ، وفى أعينه انبهاراً من الأضواء الطبيعية ، وفى قلبه أنهاراً من ينابيع الطرب والحبور »

ولا شك أن ضوضاء باريس فى سنة ١٨٦٧ كانت شديدة على آذان هذا الحلبيّ — ليت شعرى ماذا يقول لو عاد إلى باريس سنة ١٩٣٨ ! — « حينما تكون الأعين راتعة فى تلك الآفاق الزاهرة ، تكون الآذان عرضة لالتطام تموجات الضوضاء الباريسية ، واصطدام تلك الرجات التى تبتلع لعلمات الرعود ، وتهتضم طلقات الصواعق . فهناك ألوف المركبات مندفعة على الدوام اندفاع الأمواج إزاء مهب العواصف ، وألوف صنوف العربات منسحبة وراء خيولها الجامحة (تصور ألوف الخيول الجامحة وسط المدينة العامرة !) انسحاب السحاب بأزمة الرياح »

وعن العمل والعمال والنشاط البادى فى كل مظاهر الحياة : « وهناك لا يفتر صياح ربوات أعمال الأيدى مطلوقاً من أفواه الآلات والأجهزة ، ولا تكف ألوف المعامل البخارية صافرة بأبواقها النارية لتدعو فرسان العقول — لاحظ اللغة التصويرية ! — إلى مواصلة النزال فى حومة الابداع والاختراع ، تسديداً لواجبات القرائح ، وتشييداً لنظام الجماعة . وهناك الجميع يجرون إلى الأمام ، الجميع يحركون ، الجميع يتسارعون ، الجميع يشتغلون ، الجميع متعاضدون سوية ، منضمون إلى قوة واحدة ، للركض إلى اقتحام كل المصاعب ، والوصول إلى قمة الكمال والجمال ... فكم سرور واندهاش للأعين إذاً ، عند ما ترى هذه الأمة الفرنساوية تتموج على بعضها كقصمة واحدة ، بدون نزاع فى جزئياتها ، ولا انقسام فى كلياتها ، سابحة فى بحور الأمن والسلام ، بدون خوف من واثب أجنبي أو حسود غادر » ونسى الخواجا فرنسيس سياسياً فى برلين اسمه بسمارك يتربص بفرنسا ؛ ويرسل « أولان » بروسيا يقتحمون باريس بعد أربع سنوات من كلامه عن « الواثب الأجنبى ، والحسود الغادر » ، ويعقدون تاج الأمبراطورية الألمانية على رأس غليوم الأول فى قصر فرساى . لذا واصل رحالتنا كلامه عن « عدم خوف الأمة الفرنساوية من وحش مفترس ، أو جبار مختلس — بالذات ! — رافلة بأذيال الحرية الكاملة » — فى عهد الأمبراطور نابليون الثالث تلك الحرية الكاملة !

أما عن أنوار باريس — ويقينا إن باريس كانت جديرة باسم « مدينة النور » حتى فى ذلك الوقت — فالخواجا يحدثنا عن « الأنوار الغازية المندفعة من أفواه ربوات أنابيبها تحت أشكال ألسنَ نارية تدعو باردى الروح إلى الدخول فى كرة التمدن المتوقدة بلهيب الحكمة والآداب »

ورحالتنا الحلبى مدرك تمام الادراك أن « كل هذا الجمال العجيب والكمال الغريب الذى رقت إليه هذه المدينة المعظمة » إنما هو نتيجة ارتقاء « العقل عندهم فى طريق التقدم والنجاح ، ولم يصعد العقل إلى القمة العالية إلا بدرج المدارس التى لا يفتر تشييدها ، ولا يكف نظامها . فيوجد عندهم لكل قسم من العلوم مدرسة تحيط به وتجمع شمله جمعاً لا يقبل التفريق »

ثم هم « أقاموا فى كل جانب من المدينة مكتبة عظيمة ، معدة لقبول الجمهور مطلقاً . فيدخلون الناس إليها أفواجاً ، ويقرأون ما يريدون ، وينسخون ما يشتهون بكل راحة وهدوء بال ...

ولما كان يوجد جانب كبير من العلوم يستلزم كونه عملياً وعيانياً بعد كونه نظرياً ، فقد شادوا لذلك محلات مخصوصة يسمونها بالموزيوم ، وأشحنوها من كل المواد الضرورية لدراسة موضوعها » وقد وجدها الخواجا فرنسيس مقسمة إلى ما يشتمل على « الاستحضارات التاريخية جيلاً فجيلاً ، وأمة فأمة ، إن يكن بالنظر إلى أعمال الأيدي ، أو إلى الأديان والعقايد ، أو إلى العادات .. وما يشتمل على المواد التي يتألف منها جسم الأرض وما يشتمل منها على الأجسام المشرحة مع كل أعضائها وأجهزتها حيث يتأمل الانسان كل نواميس نموه منذ كونه دودة وليس بانسان ، إلى كونه إنساناً عظيما ... وما يشتمل على العالم النباتي بكل طوايفه ... أو العالم الحيواني بكل أجناسه وأنواعه ... حتى يدرك نظام حيوة كل نوع وفرد ، فيعلم أخيراً أن الحيوان كلما انتصب هيكله ارتفع نوعه . حتى إذا ما وقع رأسه عموداً على محور سلسلته كان إنساناً »

وقد رأى أن « هجوم الناس على العلوم والمعارف يشبه انحدار الغدران من أعالي الجبال . فترى الآباء يسرعون إلى وضع أولادهم في المكاتب حالا بعد فطامهم (أى والله !) . »

ومن أدق ما لاحظه المعلم فرنسيس اهتمام الفرنسيين بدراسة لغتهم ، إذ يجب « أن يعلم كل منهم قواعد لغته وفهم أصولها . والذي يجهل ذلك يعتبر عندهم كالحيوان العديم النطق ، لعدم معرفته صحة النطق ... وكلما ازداد الشخص معرفة وتمعقاً بلغته ، ازداد اعتباراً وكرامة وارتقاء ، إلى أن يجعلوه قاضياً في محكمة اللغة إقرأ : (Membre de l'Académie Française) . »

وكيف يرى الخواجا فرنسيس الحلبي كل ذلك ولا يفكر في ضعة الشرق وانحطاطه ، أو لا يقارن بين ما ينال العالم في فرنسا وبين ما يصيب من له في الشرق « هوس في العلم ، فيعيش مقطوع الخرج ، وربما يحتقر ويهان . ولا يحصل على شيء من الجوائز سوى قول الناس عنه : هذا نحوى بارد ، أو شاعر مشمر ، أو بعرفينو ، أو فلفوس . وإذا كان يروى شيئاً من التاريخ يقول عنه : هذا حكا كاتى » . وخواجتنا العلامة لا يدعك تتساءل عن أصل هذه الكلمات ، فهو يفتح قوساً ليقول لك بأنه « يوجد كثيرون يقلبون شاعر إلى مشمر ، وعارف إلى بعرفينو ، وفيلسوف إلى فلفوس ، وحكاياتي (كذا !) إلى حكا كاتى ! »

ولقد لاحظ رحالتنا والألم يحز في فؤاده أن مركز الطلبة غير محترم في باريس . وتفسير ذلك عنده « أنه مالم يحصل الدارس أولا على شهادة مدرسية ، فانه لا يمكنه الحصول على ثمرة دراسته وجائزة أتعابه . كما أنه بدون رنين هذه الشهادة لا يسمع أحد به ، فلا يوجد له اعتبار ، وربما كان ساقطاً من أعين الناس لكونه دارساً . سيما إذا كان يدرس الطب أو الشريعة » . وسترى أن طلبة الطب والحقوق في عصرنا إنما يحتفظون بسمعة قدمائهم السيئة . وإليك تفسير الخواجا فرنسيس ، وهو ينطبق في بعضه على العصر الحاضر :

« وما ذاك إلا لأن صيت درسة (طلبة) هاتين الصنعتين لا يوجد عندهم أقبح منه . ولا جرم في شيوع هذا الصيت الردى لأنه يوجد حقيقة قسم كبير من هؤلاء الدارسين مطلوق العنان إلى ارتكاب الكباير والجرايم ، عوض الانكباب على الدراسة والمطالعة . فترى جماعة هذا القسم تايهين في عالم الشهوات ، وضاربين في أودية المعاصي . فهم يطوون النهار ويحيون الليل ما بين الدساكر والخمارات ومحلات الانهماك على الفساد ... فتراهم هنالك مفصوصي العرى ، محلولي الثياب ، مشوشي الشعر . وبرانيطهم مقلوبة إلى الوراء كأنها مجفلة من أماراتهم »

وكان من سوء حظ المعلم فرنسيس أن يشهد Chahut جامعياً في داخل قاعة المحاضرات : « وقد شهدت شيئاً من ذلك ضد أعظم معلمي النباتات عندهم . وهو أنني دخلت إلى القاعة المعدة للخطابات ، حينما كان المعلم مزمعاً أن يفتتح كلامه على النباتات . فرأيت المحفل مضاعف الاحتفال . أى أنني وجدت عدداً وافراً من الدارسين الذين لم أصادفهم قط في محلات الدراسة . فحالما دخل المعلم لابساً ثيابه الرسمية ، وصعد على منبر الخطابة ، أخذ هؤلاء الدارسون يصيحون ضده ، ويصفرون ويزمرون ويدبدبون بأرجلهم حتى لم يتركوا له سبيلا للفظ كلمة . وكلما رأوا شفتيه تتحرك أوتهم على الحركة أزادوا الضوضاء والصراخات . وفي أثناء ذلك دخل رئيس المدرسة نفسه ليرجوهم أن يستمعوا لهذا المعلم . فما نجم عن دخوله سوى تضاعف مربع الحركة ، ولم يلبثوا أن هبط الخطيب من منبره فانفض المجلس » .

لا حاجة إلى وصف الخواجا فرنسيس بأنه رجل ساذج فقد « عرته حينئذ جودة البهتة وصار مهوى لتيار الاقشعرار ، وكان

قلبه يقابل ارتجاف المحل بارتجاف الرعدة » . ولدى خروجه سأل البعض عن « سبب اندفاع هذا البركان البليغ ، فقيل له إن هؤلاء الدَّرَسة يمقتون كل معلم يدقق مسايل الامتحان لكونهم لا يدرسون إلا نادراً وقليلاً . ولذلك يريدون عزل هـذا المعلم أو تنكيس أعلامه لشدة تدقيقه عليهم فى الامتحان النباتى بحيث لا يمكنهم احتمال ذلك لضعف دراستهم » . ويغلب على ظنى أن السبب فى هذا الـ Chahut كان سياسيًّا . وأقرب الحوادث من نوعه إلى أذهاننا مظاهرة طلبة الحقوق ضد البروفسور جيز أيام كان يدافع عن قضية النجاشى فى عصـبة الأمم . نعم إن قسوة الأستاذ فى الامتحان ربما ساعدت على تظاهر الطلبة ، ولـكنها لا يمكن أن تكون سبباً بعينها . وما رآه الخواجا فرنسيس يرجع فى ظنى إلى الشعور الجمهوري الذى كان ينفجر من آن لآخر بعد قلب الجمهورية الثانية وتنصيب البرنس نابليون إمبراطوراً باسم نابليون الثالث

وواضح أن الخواجا فرنسيس رجل قليل التسامح . فهو الدارس — برغم الثلاثين وبلّـغها — يجارى الرأى العام فى الزراية بالدَّرسة حتى لينتقد لباسهم . ولا شك أن هذا الحلبى لابس القنباز كان آخر الناس أهلية للحكم على لباس الطلبـة فى باريس ؛ وهذا الشرق كان آخر من يحق له أن يحجر على حرية الطالب الباريسى ؛ ومع ذلك يقول : « والنظر الساذج إلى أولئك الدارسين يوشى بقبح سلوكهم ، لأن ملابسهم تعبر عن منافسهم ، فهم يلبسون بنطلونات هكذا ضيقة حتى تكاد تتمزق بين أفخاذهم ، وسترات هكذا قصيرة حتى لا تخفى شيئاً من الإليتين إلا قليلاً ، وشعورهم طويلة منفوشة ، وبرانيطهم عريضة كثيرة الانفراج هضيمة الـكشح . وكلما كانت البرنيطة تامة فى هذا الشكل كان صاحبها أكثر تقدماً فى ذلك الضرب ، حتى تخال البعض من هـذه البرانيط نظير غمامة سوداء على رأس حاملها ، فمتى لاح هكذا شخص قال الناس : هو ذا الدارس ! »

فالمعلم فرنسيس يأسف على وجود « هكذا سرب بين دُرْس الطب والشريعة أوجب سقوط الجميع من أعين العامة مدة الدراسة مع أن جماعة القسم الأكبر — والذى عليه المعول — لا يسلـكون تلك الطريق ، بل يسيرون فى سبيل مضاد على الخط المستقيم ، وعوض أن يطفئوا بمياه الشباب لهبات الشهوات إنما يستقطرونها بأنابيق أدمغتهم المضطرمة بنار الاجتهاد والحمية »

ويستطرق رحالتنا من كلام عن الدرسة المجتهدين إلى ختام وصفه النثرى لباريس حيث له حديث طويل عن « بحار التمدن المتدفقة من محابر رجالها ، وأنهـار الأدب جارية من ينابيع أفكارهم » وعن « ممالك الأباطيل والأضاليل ، وعروش الحقائق والهدى » . ثم يتحدث فى لغة سامية عن الفكر « وقوته التى تغلب جميع القوات ، ولا تعرف رادًّا إذا جمحت ، ولا صادماً إذا اندفعت » . ويضرب لهذه القوة أمثلة أجاد اختيارها حقاً ، فهو يقول : « أى قوة أوقفت حركة الأرض بعد ما أدارها غاليلى (جاليليو) على محورها ، ودفعها تكر على محيط دايرة البروج . وأى قوة هدمت بناية الإصلاح بعـد ما أشادها فكرهوس (Jean Hiiss, de Prague) . وأى قوة أوقفت دوران الدم فى أوعيته بعد ما أجراه فكر هارفى (Horvey) . مع أن ذلك حبس وذاك حرق (جان هوس أحرق على ما أذكر) وذا اضطهد »

« ولما عرف بنو الغرب كونهم محملين بقوة الفكر ، أخذوا يهذبونها ويثقفونها ، ويستظهرون نتائجها بدون التفات إلى تهديدات المغرضين ، أو معارضات المبغضين » . وبذلك « بلغوا هذا المبلغ العظيم من الفلاح والنجاح ، وتركوا بقية العالم يتقهقر وراءهم ، ويتساقط تحت أحمال كبرائه ، وأثقال ثقلائه ، فاقد التفـكير وعديم النطق »

وهذه الإشارة المستترة إلى « تساقط الشرق تحت أحمال كبرائه وأثقال ثقلائه ، فاقد الفكر وعديم النطق » تشترى كل كبوات الأسلوب عند الخواجا فرنسيس ، فهو رجل سليم التفكير جدير بالتهنئة على كتابه الساذج ، ولو أن هذه التهنئة « تشيح بوجهها » أمام شعره . وإذا كان نثره « يصدمنا » بصوره العنيفة المزدحمة ، فإن خلوه من التسجيع الذى كان ضرورة من ضرورات الـكتابة فى عصره ، يشهد للخواجا فرنسيس بروح استقلالية مشكورة ، كنا نود أن نراها تعمل على إقصائه نهائياً عن الشعر بعد أن عصمته من السجع

ويختتم الرحالة كتابه بفصل إضافى عن معرض باريس العام فى سنة ١٨٦٧ . ولـكن هذا الفصل لا يمكن أن يزيد معرفتنا بالخواجا فرنسيس ... حتى ولا بذلك المعرض

حسين فوزى

ربيع !

للأديب صلاح الأسير

« إلى الأستاذ أمين نخلة »

حَلِمَ الوردُ بالصباحِ ، وجُنَّ الـــغصنُ شوقاً لزقزقاتِ الطيورِ
وارتمى العصفُ حائراً يتلوّى في دروبٍ محفوفةٍ بالعطورِ
يرقبُ القاصِفَ السخيَّ من الرعـــدِ ترامى على يدِ الزمهريرِ
ورُؤى النورِ هوَّمتْ في الروابي تحملُ الفجرَ في الفم المقرورِ
أتعبتها الرياحُ ، أتعبها البر دُ فلاحتْ مزروراتِ الثغورِ
فإذا الغابُ قطعةٌ من سوادٍ وإذا الأفقُ مكفهرُّ الستورِ
وإذا الناسُ تائهون حيارى رهبوا غمرة الظلام الضريرِ
وإذا النهرُ صاخبٌ يدفعُ الصخـــرَ ، ويرمى بنفسه في الصخورِ

***

وتراءى الربيعُ ، في الرونقِ الضا حي سخيَّ الأجواء رحبَ المرادِ
يزرعُ الدفءَ في الفضاءِ ويهفو خاضباً بالطيوبِ وجهَ الوهادِ
ويريقُ الهناءَ ملءَ مرادِ الـ أرضِ خصباً وملءَ ظنِّ العبادِ
فترى الدوحَ واثباً في الأعالي أخضرَ الزهو ضاحكَ الميلادِ
يحضنُ الطائرَ الذي ضاق ذرعاً ببروقِ الشتاءِ والأرعادِ
ويطيبُ الهواءُ في موكبِ الصحـــوِ ويسرى العبيرُ في كلِّ وادِ
فترى الغابَ نضرةً والورودَ الـــحمرَ عرساً يغصُّ بالأورادِ
وإذا الكونُ حالمُ النعمِ الخضـــرِ تعالت صلاتُه في النجادِ

***

يا بناتِ الربيعِ غنينَ أحلا مي وغنينَ بالهوى والهناءِ
واستبقنَ الشعاعَ في الروضِ والثمـــنَ خفافاً بواكرَ الأنداءِ
ما ترينَ الفراشَ يرقصُ في الز هرِ خفوقَ الجناحِ غضَّ الرواءِ
واثباً يلتقى المنى تتهادى دون أجوائه الرحابِ النوائى
والنسيمُ الندىُّ ينفحُ بالطيـــبِ وجوهَ العرائسِ الزهراءِ
يا بنات الربيعِ رفرفن في الجوِّ وداعبنَ رفرفاتِ الهواءِ
والتقين الربى تضيعُ بها العـــينُ نداءً لغفوةٍ خضراءِ
فكرةٌ أنتِ حارَ في فهمها الكو نُ وأعيا بها رحيبُ الفضاءِ

***

يا ربيعي تنامُ أنتَ وفي الكو نِ ربيعٌ يموج حلوَ البرودِ
وعذارى الربيعِ في القريةِ الوا هي يغنين خافقاتِ النهودِ
يا ربيعي أفقْ ودعْ لي صباحي تائهاً في رحابه والنجودِ
حالمَ ألتقيكَ في ولهِ الحـــيرةِ رؤيا على الربيع الجديد
أنتَ منى هوايَ أنت أغانيَّ وحلمٌ رأيتُ قبلَ وجودي
أنتَ طيفُ الإلٰه في عالمِ البكـــرِ وأسطورة الزمان البعيدِ
قمْ بنا نحضنُ الربيعَ وأغدو في ربيعين ، يافعٍ ووليد
وأنا ابنُ الربيعِ إلفُ الضياءِ الســـمحِ وابنُ الجمالِ ، تربُ الخلودِ

« بيروت » صلاح الأسير

إلى ...

للأستاذ إبراهيم العريض

تعالَيْ فإن الليلَ يبسطُ ظلّه لكي يتملّى ناشئُ الزهرِ حِلَّه
وإن فؤادي برعُمٌ في يدِ الصبا سأعدمُ نشراً منه إن لم أطله
وثمّتَ سرٌّ كامنٌ فيه كالشذا ولم أتنشّقْ منه إلا أقله
طوى باكياً كالزهرِ أوّلَ صفحةٍ من العمرِ حتى يضحكَ العمرَ كله
ولحنٍ كترجيعِ الربابِ إذا انثنى عليه بخمسٍ مُطربٌ فاستهله
يوقّعه قلبي على وترِ الهوى تباعاً ... فأقضى ليلتي أتولّه
ولا من نجيٍّ إذ أحاولَ بثّه كأحسنِ ما بثَّ المحبُّ هوىً له
سوى شبحٍ أن يطرفِ العينَ لحه أيُنكِرُ دمعي في الضلوعِ محله

إبراهيم العريض



شارلس لام يروي عن شاكسبير (١)

قصة الشتاء

للأستاذ دريني خشبة

أحب ليونتس ملك صقلية زوجه الحسناء الفاضلة هرميون حباً يقرب من العبادة

وكان صديقه بوليكسينز ملك بوهيميا أحب الناس إليه بعد هرميون، لأنه رفيق الصبا وخدن الشباب وزميل المدرسة ... فلما فصلت الأيام بينهما لارتقائهما أريكة الملك، ظلا يسقيان فروض الصداقة، ويرعيان عهود المودة، ويتبادلان الهدايا والتذكارات والحلى

ثم دعا ليونتس صديقه لزيارته، وألح في دعوته، فأقبل بوليكسينز ليحل ضيفاً على البلاط الصقلي، ولقيه الملك لقاء المشوق السهام، وقدمه إلى زوجه هرميون أعز صديق بل أعز شقيق

وأخذا يتنادران في النهار ويسمران في الليل، ويقص أحدهما على الآخر ذكرياته، ويستعيدان مُلَح الطفولة ورقائقها، ويستعرضان صور الشباب الوارف الفينان، وهرميون أثناء ذلك تصغي إليهما وتقبل على حديثهما وتسر به، وكان زوجها يوصيها خيراً بضيفه فكانت تحتفي به، وتبتكر الأساليب لإدخال السرور على نفسه

واستأذن ملك بوهيميا صديقه في الأوبة، فأبى ملك صقلية إلا أن يَتلبّث... فألح ملك بوهيميا وأبى إلا أن يعود... وهنا سأل ليونتس زوجه هرميون أن تطلب إلى بوليكسينز أن يبقى... فلما فعلت لبّى ملك بوهيميا، ونزل عند رجائها، وأجل سفره إلى موعد آخر

وا أسفاه !!

لقد نفثت ثعابين الغيرة سمومها في قلب الملك، واحتلكت الحياة في عينيه، ولم يفتأ يسائل نفسه لِمَ قَبِل ملك بوهيميا رجاء هرميون بمجرد أن كلمته، مع أنه لم يقبل رجاءه هو ؟!

« إن في الأمر شيئاً، وإن وراء الأكمة ما وراءها .. هذا لا ريب فيه ! لقد زاد عطف هرميون على هذا الضيف الثقيل، حتى شككت في أن يكون العطف حباً ... وهذه النظرات التي كانا يتخالسانها في حضرتي ... وهذه الضحكات الفضية التي كانت هرميون تسقسق بها في هواء المكان الذي كان يجمعنا وبوليكسينز ... ! »

وعلى هذا النحو راح الملك يجتر شكوكه ويوسع آفاقها ويلقي في نارها وقود الظن حتى أنضجت فؤاده، وحتى غدا بسببها وحشاً مغيظاً محنقاً، ينظر إلى هرميون الجميلة الفتان الحَصَان الطهور، نظرته إلى المرأة الفاسقة الساخرة الملوك وينظر إلى صديقه العف الحبيب، كما ينظر إلى عدوه الفاجر اللدود

وأرسل الملك إلى أحد رجالات بلاطه — السيد كاميللو — فبث إليه خبيئة صدره، وأمره أن يدس السم لملك بوهيميا في طعامه

وشاءت العناية ألا يمتثل كاميللو أمر مولاه، وشاءت كذلك أن يلقي كاميللو بالسر كله إلى ملك بوهيميا، وأن يحذره مغبة البقاء في ضيافة ليونتس؛ فيدبران الأمر معاً، ويفران في جنح الظلام إلى بوهيميا

ويثور ثائر الملك لهذا الفرار، ويكبر في روعه فيكون برهاناً جديداً لما دار في خلده من شكوك وريب، فيذهب من فوره إلى مخدع الملكة، حيث جلست تصغي إلى قصة ظريفة يلقيها عليها ابنها ماميليوس ... الطفل اليافع الجميل ...

وكان الملك مقطب الجبين عابس الوجه، يضطرب في قلبه بركان من الغضب، وتتدفق في أعصابه سيول من الحُمم، فتقدم كالوحش المجروح فانتزع ماميليوس، وأسلمه لمن يعنى به ... ثم أمر فسيقت الملكة إلى غيابة السجن

(١) خدم شارلس لام وأخته ماري لامب أدب شاكسبير بتلخيصه نثراً ليسهل تناوله على القراء . ونحسب أن قراء العربية أولى بذلك من الانجليز وها نحن أولاء نضع بين أيديهم (قصة الشتاء) نموذجاً لما فعل شارلس، وهي من أمتع درامات شاكسبير التي يمزج فيها الخيال بالواقع، والأسطورة بالحقيقة

وأرسل الملك سيدين من رجاله — كليومين وديون — إلى دِلفوس ليستوحيا له كهنة أبوللو فى أمر زوجته ، وفى حقيقة ما اتهمها به ... هل صحيح أنها خانته مع صديقه ، أم هى براء من هذه الجريمة الشنعاء ؟

***

فى تلك اللجة من الدموع ، وفى هذا الليل الزاخر من الأحزان ، وضعت هرميون فى سجنها السحيق أنثى ... كانت سلوى باكية لأمها المسجونة ؟

وهكذا ضم السجن ضحيةً أخرى ... مولودة شقية لا ذنب لها ولا جريرة ولا إثم ... أرسلها القادر إلى هذه الدنيا المموجة القاسية لتكون حياتها مأساة !

وكان للملكة صديقة من نساء سادة البلاط تحبها وتخاص لها الود ، تدعى ليدى بولينا ، زوجة أنتيجونوس الصقلى

فلما علمت بما أجاء الملكة فى سجنها من المخاض ، وما تلا المخاض من وضع ، ترقرقت دموع الألم فى أغوار قلبها من أجل مولاتها ، وانطلقت إلى السجن خفية ، فقالت لليدى أميليا ؛ السيدة الطيبة القلب المنوط بهـا السهر على الملكة : « أحسبك ياعزيزتى الليدى تشركيننى فى الألم لما أصاب الملكة ! » فلم يكن إلا أن تفجرت الدموع من عينى أميليا جواباً على ماقالت بولينا.. فقالت لها وقد سرها ما رأت من بكائها : « إذن تذكرين لها أننى هنا ... وأننى مستعدة لأن أذهب بالطفلة إلى الملك فأدافع عن هرميون ، وألق إليه بابنته عسى إن هو رآها أن ترق ماقسى من قلبه ، وتنير ما تدجّى من نفسه ، وتظهر له ما خفى عليه من برهان ربه » فأجهشت أميليا ، ودعت للسيدة ، وشكرت لها مجازفتها ، ثم ذكرت أن الملكة كانت تفكر فى مثل هذا

ودفعت الملكة بطفلتها إلى بولينا فذهبت بها إلى الملك رغم ماحذرها به زوجها من مغبة الإقدام على هذا الجنون ، خشية أن يُبطش بها ؛ فلما مثلت بين يديه كشفت عن المولودة البائسة فصاحت وأعولت ، ثم وضعتها عند قدميه ، وانطلقت تدفع عن صديقتها الملكة مارماها به من الفحش ، وطلبت إليه أن يرحم الطفلة بالعطف على أمها ... وكانت تتدفق فى دفاعها كالسـيل ، وترق فى استعطافها كالنسيم ، ساكبةً أثناء هذا وذاك دموعها تنثرها على كلماتها ، وتنضح بها عباراتها ، عسى أن يلين فؤاد الملك

ولكن الملك وا أسفاه لم يزدد إلا عتوًا ولم يزده ما صنعت بولينا إلا استكباراً ، فأمر زوجها أن يذهب بها من بلاطه ... وأن يتركاه إلى شيطانه

ثم دعا الملك إليـه أنتيجونوس — وهو زوج بولينا — فأمره أن يحمل الطفلة إلى البحر ، وأن يقلع بهـا ليتركها عند أول شاطئ ٍ وديعةً مظلومة بين أيدى القضاء والقدر

وأتمر الرجل النبى بأمر الملك ، فحمل المولودة فى يديه الجبارتين ، وألقاها على صدره الصخرى ، ومضى بها إلى ... البحر !

وهكذا فصـل الملك بينه وبين قطعة فؤاده فى ثورة الغضب الجامح ، غير منتظر عودة رسوليه بنبوءة أبوللو من دلفوس

ولم يكن بحسبه هذا ، بل أمر بقضاة المملكة وذوى الرأى فيها فاجتمعوا فى حشد عظيم لمحاكمة الملكة .. لمحاكمة هرميون .. بأعين الرعية ، وعلى ملأٍ من الجمهور

ولغطت ألسن السوء بما اتهم به الملك زوجته ، وراجت شائعات الضلالة ، وأهرع الناس من كل فج ليشهدوا مليكتهم التقية النقية تقف موقف الاتهام الوضيع ، والشك الزري ، ثم لتسمع بعد هذا الحكم الذى لا تدرى هل يكون عليها أم لها

وصمت الناس حتى لكأن على رؤوسهم الطير

وجلس القضاة فوق المنصة الكبرى وليس فى خد أحدهم قطرة من دم

وصدئ البريق فى عيونهم فانبعثت منها ظلمات من ورائها ظلمات !

وفغر الناس أفواههم حين شاهدوا الملكة المظلومة تبكي ، وهى برغم بكائها جميلة فينانة ريانة رائعة ... لأنها بريئة

وحضر الملك فلم يتحرك أحد للقائه ... وجلس فوق عرشه الصَّلف ، وأخذت نظراته تزيغ هنا ، ثم تشرد هناك ... كنظرات الذئب قد فجأه ضبع ! !

وحينما دق كبير القضاة بيـده على المنضـدة مؤذناً ببدء المحاكمة ، شهد الناس سيدين من خيرة ساداتهم يشقان الجموع المحتشدة ، ويذهبان إلى هيئة المحاكمة صمدا ، ثم يتجهان ناحية الملك

أوه ! ! إنهما كليومين وديون قد عادا من دلفى !

تُرى ماذا فى هـذا الظرف الكبير المختوم بخاتم كاهن أبوللو الأكبر ؟ !

قال الملك : « افتح يا كليومين بإذنى ، واتلُ على الناس نبوءة دلفى ! ! »

وفض كليومين الظرف الكبير ، ونشر الصحيفة البردية ، وراح يتلو :

« بريئة هرميون »

« لا وزر على بوليكسينز »

« كاميللو من الرعايا المخلصين »

« ليونتس ظالم غيران[1] »

« سيعيش الملك بلا وارث إن لم تعد طفلته المفقودة ! ! »

وتبسم الملك مستهزئاً ، وظن أن النبوءة رجس من عمل هرميون وتلفيق أصدقائها ، ثم أمر القاضى الأكبر أن يأخذ فى المحاكمة ليتبين الرشد من الغى

وحينما دق القاضى بيده مؤذناً بدء المحاكمة ، إذا رجل طويل يقدم حتى يقف تلقاء الملك وهو يلهث ، فيقول

— مولاى ! الأمير يا مولاى ! ماميللوس !

— ماله يا رجل ؟

— ما ... ما ... ت ! !

— مات ؟ وله ؟

— حزناً على أمه الملكة يا مولاى ! لقد هاله أن تقف هذا الموقف لتفضح ظلماً فى شرفها وعرضها ... آه ياحبيبى الأمير ... آه يا أعز الناس علىّ ! ! »

وزاغت الأبصار كلها ... واستخرط الناس فى البكاء ... ووجم القضاة فلم ينبسوا بكلمة

أما الملكة ، أما هرميون المسكينة ، فقد ذاب قلبها ، ووهى جلدها ، ولم تطق أن تسمع أن ولدها الوحيد الحبيب قد لفظ نفسه الأخير وجداً عليها ، ورثاء لها ، فنظرت إلى الدنيا كأنها تسوخ تحت قدميها ، وإلى السماء كأنها تطوى من فوقها ، وإلى الناس كأنهم عيون ودموع وقلوب كسيرة مُفجَّعة ... فخرّت مغشياً عليها

وانتفض قلب الملك !

وتفجرت فى أغواره شآبيب الرحمة ، وانسرقت عبرة من عينه تغلى كالمهل لتكفر عن خطيئته ... فأشار إلى بولينا ومن معها من وصيفات الملكة ، فحملنها ، وأوصاهن بها خيراً

وأخذ الجمع الحاشد يتمزق أباديد

ولم يمض غير قليل حتى عادت بولينا وفى وجهها سحابة حزينة باكية ، وفى جسمها رجفة عظيمة ، وفى عينيها دموع سخينة حرار ... وفى فمها نعى هرميون ! !

ماتت هرميون إذن ، وخلّفت هذه الدنيا السمجة الملوءة بالرذيلة وراءها ... خلفتها للملك الغيار المسكين الذى لم تنفعه أن تتحرك الشفقة فى فؤاده حينما سمع بموت وليّه ماميللوس ، ولم ينتفع كذلك أن يؤمن ببراءة هرميون بعد إذ رماها بأم الموبقات

وذكر ليونتس طفلته التى نفاها وراء البحر مما جلبت عليه مظنّةُ السوء فى أمها من خبال ، فصار شجوه شجوين ، واعتاج فؤاده بهمّين ، وود لو يعطى عرشه وملكه لمن يرد إليه المولودة التى لا يعرف لها اسماً ، ولا يكاد يذكر لها رسماً

ولكن هيهات ! فهاهى ذي السنين تمر ، والأيام تكر ، والملك المسكين يتلظى بنار الشجو والشجن ، ويغص بآلام الأسى والحزن فهو من عيشه فى سجن ، ومن قصره فى قبر ، ومن ضميره فى عناء ، ومن ذكرياته فى بلاء ، ومن رعيته فى شهود عليه بما قدمت يداه ! !

* * *

أما أنتيجونوس الذى ذهب بالطفلة وراء البحر ، فقد أقلع فى سفينة دفعتها الرياح ، وما زالت تدفعها ، حتى أرست على شاطىء بوهيميا ! حيث يحكم الملك بوليكسينز بأمره ... وهنا ... نزل الرسول الشقى بالأميرة الصغيرة إلى البر ، وما كاد يُصعّد فى حدوره حتى لمح غابة قريبة فجعل يدلف نحوها ، وفى ذراعيه الوديعة المسكينة تبكى وتصيح من الجوع ... أو ... من هذا الصدر البارد الذى لم يعرف حنان الأم ، ولم يجش فيه لبنها ومحبتها !

وتحت دوحة باسقة وارفة الظلال وضع أنتيجونوس الأميرة الصقلية ، وعاد أدراجه إلى البحر ... لكنه لم يبلغه ... وكيف يبلغه وهذا الدب المنتقم قد ترصده ، حتى إذا بعد عن الطفلة انقض عليه ، وأعمل فيه أنيابه ومخالبه ، وطهر ظهر الأرض من روحه المظلمة الظالمة التى لا تعرف الحنان !

وذهب الدب بعد إذ اغتذى وشبع

وبرز من الغابة رجل راع مجدود[1] طيب القلب كان مختبئاً ثمة من الدب ؛ وكان بكاء الطفلة يحز فى صدره ويذيبه وجداً عليها ...

واحتملها فى يديه الرحيمتين ، وراح ينظر فى وجهها الصغير

(١) غيران ومغيار وغيور بمعنى

(١) حسن الحظ



محاضر ألماني في القاهرة

دعت كلية الآداب بالجامعة الأستاذ الدكتور أدولف جروهمان لإلقاء بعض محاضرات عن « الادارة العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة » والمحاضر من أعلام الاستشراق في ألمانيا ، وأستاذ الثقافة الاسلامية واللغات السامية بجامعة براغ بتشكوسلوفاكيا ، وهو يعني بناحية دقيقة في التاريخ الاسلامي وهي دراسة أوراق البردي العربية ، وعلى الرغم مما يكتنف هذه الناحية من البحث من الصعوبات الجمة فقد ذللها ببحوثه التي نشرها في مؤلفاته وفي المجلات الكبرى التي تعني بالدراسات الشرقية . ومن ثم عهدت إليه الحكومة المصرية بدراسة أوراق البردي العربية المحفوظة في دار الكتب في القاهرة وهو ينوي إصدارها في سبعة مجلدات مع التعليق عليها ، نشر منها حتى الآن ثلاثة باللغة الانجليزية مع مقارنتها بأوراق البردي اليونانية المتعلقة بهذه الناحية الجديدة بالبحث في تاريخ مصر الاسلامية . وقد ترجم الجزءين الأولين منها الدكتور حسن ابراهيم أستاذ التاريخ الاسلامي بكلية الآداب

وقد تناول الدكتور جروهمان في محاضرته الأولى كُوَرَ مصر كما كانت إبان مجيء العرب معتمداً في ذلك على ما جاء في المصادر اليونانية والسريانية وما عثر عليه في أوراق البردي العربية الموجودة في مصر وفي دور الكتب الأوربية ومكانها الكبرى كالمتحف البريطاني ومكتبة بودليان وأكسفورد وسُون وليبزج وغيرها

ومصر كما صورها الدكتور جروهمان في هذه المحاضرة تختلف عن مصر الحالية تمام الاختلاف في كوَرها وبلدانها ، وتختلف عن مصر القديمة التي وصفها ستانلي ليبدبول في كتابه « سيرة القاهرة »

وألم الدكتور أدولف في المحاضرة الثانية بالجزية عند العرب وهو يسوق رأياً طريفاً في الصلة بين كلمة « جزية » و « كسية » ويتناول فيها نظام الضرائب والحركة المالية في مصر في عهد عمرو ابن العاص ومن خلفه وفي العصر الأموي

والمحاضر الدكتور جروهمان واسع الاطلاع في الثقافات العربية والأوربية الحديثة منها والقديمة ، وقد دلّل له بحثه الشائك نظرهُ في كثير من المصادر الجمة في مختلف اللغات الخاصة بهذه الناحية

ميزانية التعليم في انجلترا لسنة ٣٨ — ٣٩

قدرت ميزانية التعليم في إنجلترا للعام الدراسي ٣٨ — ٣٩ بهذا الرقم العجيب : (٥١٫٠٠٢٫٣٣٠) أي بما يزيد على مجموع ميزانية الحكومة المصرية كلها بأحد عشر مليوناً من الجنيهات .. وبما يزيد على ميزانية التعليم في إنجلترا للعام المنصرم (٣٧ — ٣٨) بمبلغ ٢٫١٦١٫٤١٣ من الجنيهات ؛ وهاك بعض الأرقام العجيبة في توزيع هذه الملايين الضخمة من الجنيهات

٣٥٫٥١٣٫٠٠٠ للتعليم الأولى والابتدائى (Elementary)

١١٫٦٨٠٫٠٠٠ « العالي

ويتعجب ، وينظر إلى لفائف الحرير الجميل والدمقس المفتل ويطرب ... ثم جلس ليصلح من شأنها ما علمته الأبوة الساذجة فاكتشف كنزاً من در وياقوت وجوهر ، وورقة كانت هرميون قد شبكتها في صدر ثوبها بدبوس وكتبت عليها ... برديتا ... وكليمات أخريات عرف منهن الراعي أن اسم لُقيته برديتا ، وأنها من نسل الملوك الصيد

وخفق قلب الرجل واشتد وجيبه ، وابتسم للدنيا وابتسمت الدنيا له ، وطبع قبلة على جبين الطفلة فسكنت ... وهرول بها إلى كوخه ... وهناك ...

(لها بقية)　　　　　　　　دريني خشبة

٧٫٨٨٧٫٠٠٠ لماشات المدرسين

٥١٤٫٦٥٠ للرياضة البدنية والرحلات

ولم يسبق أن أرصدت إنجلترا مبلغاً كهذا للتعليم إلا في سنة ١٩٢١ — ٢٢ وبزيادة ١٢٫٣٣٥ جنيهاً على المبلغ الحالي

مجلة لكلية الآداب

لا تكاد توجد جامعة في أوروبا أو أمريكا إلا ولجميع كلياتها مجلات راقية تمثل الحياة الجامعية وتحدد مدى النشاط الجامعي وتسجله ؛ والجامعة الأميركية المصرية تصدر مجلة التربية الحديثة مقتدية في ذلك بجامعات أوروبا ، ولسنا ندري ماذا يمنع كلية الآداب المصرية من إصدار صحيفة دورية وهي بهذا العمل أولى دور العلم في مصر ؛ وهذه صحيفة دار العلوم تصدر حافلةً بالبحوث القيمة وتتبارى فيها أقلام المجدين

أما كلية اللغة العربية فقد علمنا أنهـا جادة في إصدار صحيفة باسمها ... ولا غرو ، ففيها وفي دار العلوم تحيا العربية وتتجدد

ضرائب الأطيان في مصر الرومانية

لعل كثيرين من القراء يحسبون أن بدعة تعداد الأمم هي سنة مستحدثة لم تعرفها إلا الشعوب الحديثة . لا . ليس الأمر كذلك . فقد ثبت أن قدماء المصريين كانوا أول من وضع نظام التعداد ، وكانوا يجرونه كل أربع عشرة سنة . ولم يكونوا يقتصرون على تعداد الأنفس فقط ، بل كانوا يحصون كل شيء في الوطن المصري : الناس والحيوان والمنازل والحدائق ودور الصناعة والمدارس والعاهات ... الخ ، وكانوا يتخذون من هذا التعداد ميزاناً لفرض الضرائب التي كانت في الغالب قاصرة على الأرض وتجارة الوارد . وكانت ضرائب الأطيان في مصر القديمة مضبوطة عادلة ، لكنها لم تبلغ الدقة المتناهية إلا في زمن البطالسة — فلما غزا الرومان مصر اعتمـدوا في ربط الأموال على الأرض على النظام البطليموسي ، وبهرهم هذا النظام فاستعملوه في إيطاليـا وطبقوه في كل مستعمراتهم ، مستعينين في ذلك بموظفين من المصريين . وقد تنبه العلماء المصريون إلى هذا الموضوع فألفوا فيه كتباً جيدة وأول هذه الكتب ألفه الأستاذ ولكن سنة ١٨٩٩ ، وفي سنة ١٩٣٦ خصص له الأستـاذ جونس هوبكنز مجلداً من كتابه (التخطيط الاقتصادي في رومة القديمة) . وقد صدر هـذا الشهر كتاب (الضرائب في مصر — من عهد أغسطس إلى عهد ديوقليانوس) لمؤلفه العلامة شرمان لي روى ولاس . والكتاب يتناول غير هذا عصراً من أسود العصور التي رزحت تحتها مصر والتي كانت تعتبر فيهـا بقرة حلوباً للدولة المستعمرة أو كما كان يتبجح الرومان فيقولون (القمح في مصر !) Corn in Egypt.

فتاة انكليزية تكتب عن مصر

تناولنا في عدد مضى كتاب المستر روم لاندو (البحث عن الغد) الذي تناول فيه مؤلفه أثر التدين في الشرق الأدنى ، وبخاصة في مصر والأقطار العربية ، والذي نقل منه الأستاذ العقاد صوراً سريعة لقراء الرسالة في عددها الهجري ... وقد كنا نقرأ عنـه فصلاً في إحدى المجلات الانجليزية فراقنا من المحرر أن يستدرك على المؤلف أنه لم يندمج في الشعوب التي زارها ، بل قصر مقابلاته على الفئة الراقية ، أو أعلام المثقفين ، الذين يهمهم بالطبع أن يعطوا لمحدثهم صورة جميلة عن بلادهم قد لا تكون صادقة . وأشارت المجلة بهذه المناسبة إلى كتاب طريف عن الفتاة المصرية Newsgirl in Egypt يسـد النقص الكبير الذي أخذته على كتاب المستر روم لاندو . والكتاب للمؤلفـة الاجتماعية النابغة باربارا بورد Barbara Board التي أتت إلى مصر لتشهد حفلات زفاف حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، والتي لم تنزل في فنادق القاهرة الفخمة كما يفعل سائر السياح ، بل نزلت ضيفة على عائلة من الفلاحين في بيت ريفي مطل على النيل فكانت تتغلغل منه في صميم الحياة المصرية التي تمثلها غالبية من المصريين الفلاحين . ثم ذهبت المؤلفة من ذلك البيت في رحلة طويلة إلى ... الخرطوم ! فاختلطت ببنات جنسها في جميع المدن والقرى المصرية ، ووصفت طبائعهن وأفراحهن وأحزانهن ، وتكلمت طويلا عن الفوكلور المصري وترجمت منه كثيراً من النكات والأغاني والمواويل وأغاني الزار وأناشيد الذكر وأغاني الكنائس البروتستنتية ...

ولم تهمل المؤلفة نهضـة الفتاة المصرية المتعلمة ، بل تناولتها في إسهاب وإطناب وإعجاب

تيسير قواعد النحو واشتراك البلاد العربية فيه

اقترحت إحدى الدوائر المختصة بدراسات اللغة العربية فى وزارة المعارف على الوزارة أن تعنى منذ الآن ، وقبل أن تمضى اللجنة التى تألفت لتيسير قواعد النحو والصرف وغيرها من علوم اللغة فى عملها ، بإشراك الأقطار العربية في أعمال تلك اللجنة منذ بدايتها

وبررت هـذا المقترح بأن مسألة القواعد مسألة لا تتعلق بالمصريين وحدهم ، وإنما هى مسألة جميع الأقطار العربية والمشتغلين بلغة العرب فى متباين أنحاء العالم ؛ وإذا أقدمت الوزارة على استدعاء أئمة اللغة ، وذلك بتوجيه الدعوة الرسمية إلى وزارات المعارف فى الأقطار التى يعنيها الاقتراح ، فان الوزارة تكون قد وفرت على نفسها عناء عرض المقترحات التى تقرها لجنة التيسير على الناطقين بالضاد فى المستقبل ، وحتى إذا ما تم عرض القرارات يكون المشتغلون بمثل تلك الشئون على بينة من الأبحاث والدراسات ، وبهذا يتم تنفيذ ما يقترح فى أقرب فرصة

وينتظر أن يكون هذا الاقتراح موضع النظر والدراسة حتى إذا وافقت الوزارة عليه وجهت الدعوة إلى الحكومات العربية بندب الذين يقع عليهم الاختيار لتمثيلها فى اللجنة المشار إليها

حصة مصر !

من أمتع الكتب التى أخرجتها المطابع الإنجليزية فى الأسبوع الفارط كتابان ، أحدهما عن اليابان وعنوانه : (إلى أين أنت ذاهب : إلى اليابان ؟) للكاتب اللبق وللارد پرس Willard Price ، والآخر عن الولايات المتحدة واسمه (نهضة أمريكا نحو القوة) أو تاريخ حديث لأمريكا : للكاتب المحقق و . ا . وود وارد . والكتابان متشابهان من حيث الموضوع ، وكل منهما يبشر بالوطنيـة الإنجليزية بين الإنجليز مع ضرب المثل من الخارج كما يعبرون . ومن أروع ما قرأناه فى الكتاب الأول ما ذكره المؤلف عن طرائق وزارة المعارف اليابانية فى بث روح الوطنية فى نفوس النشء . وأحسن ما ذكره فى هذا الباب هو أن هذه الوزارة حتمت أن يكون فى صلب جداول توزيع الحصص فى المدارس اليابانية حصتان يطلق على كل منهما (حصة اليابان !) كما تقول حصة الحساب وحصة اللغة وحصة التاريخ ... الخ . وفى هذه الحصة يتناول المدرس أحاديث حرة عن الوطن اليابانى وعن روح التضحية وعن الأمبراطور وعن أعداء اليابان وعن الجيش وعن الأسطول والطيران . وقد لوحظ أن هاتين الحصتين صارتا أحب الحصص إلى نفوس الطلاب لمـا يتناوله المعلمون من هذه الأحاديث الحرة ، ولأن امتحاناً لا يعقد فيما يلقنه التلاميذ فيهما

فما قول رجال التربية عندنا فى إدخال هذا النظام فى المدارس المصرية فتكون فى جداول توزيع الحصص (حصة لمصر ؟)

الوعظ السلبي فى المساجد المصرية

ما تزال طائفة كبيرة من خطباء المنابر فى المساجد المصرية تخطب المصلين خطباً سلبية عقيمة تضيق بها نفوس المصلين ، وأقبح شىء فى هؤلاء الخطباء أنهم لا ينون يسبون المصلين الذين يخطبونهم سباً قد يصرف المتمردين منهم عن غشيان المساجد بسبب هؤلاء الخطباء الذين يتهمون المصلين بالزنا ومعاقرة الخمر وسوء الفهم وقلة الصلاة ... الخ ، ويبدو أن شيئاً من التبعة فى هذا ، إن لم يكن أكثرها ، واقع على عواتق هذه الفئة المستنيرة المثقفة من وعاظ الأزهر العلماء ... ذلك أنهم لا يعنون بالاتصال بهؤلاء الخطباء أو جمعهم فى صعيد واحد وتلقينهم مبادئ الوعظ الحديث وأساليب الخطابة وطرق الإلقاء ، ثم معاونتهم فى تحضير خطبهم ليلحظوا أن يتفوق الجانب الايجابى فيها على الجانب السلبي . وحبذا لو تعاون الأزهر ووزارة الأوقاف فيعملا على تجديد عقلية هؤلاء الخطباء

الحسين بن على

مقالة الأديب الشيخ ضياء الدين الدخيلى : (مقتل الحسين وأثره فى الأدب العربى) فى (الرسالة الغراء) — ذكرتنى ببيتين من قصيدة لزيد الموصلىّ النحوى المعروف بـ (تَمرْزَكَّه) فى أبى الضيم (الحسين بن على) — رضى الله عنهما — فرأيت روايتهما فى (الرسالة) :

فلولا بكاء المزن حزناً لفقده ... لمـا جاءنا بعد (الحسين) غمامُ

ولو لم يشق الليل جلبابه أسًى ... لما انجاب من بعد (الحسين) ظلام

(الاسكندرية) ... (***)

مستشرق فرنسي كبير يحاضر بالجامعة المصرية

يلقي العلامة المستشرق الأستاذ ليفي بروفنسال أستاذ « تاريخ الغرب الإسلامي » بجامعة الجزائر والسوربون ونزيل مصر الآن محاضراته عن « الحضارة الاسلامية في أسبانيا » تحت رعاية كلية الآداب

والأستاذ بروفنسال متخصص في تاريخ المغرب والأندلس وله في ذلك عدة مؤلفات وبحوث قيمة نذكر منها « تاريخ أسبانيا في القرن العاشر » و« النقوش العربية في أسبانيا » وهما بالفرنسية و« فهرس المجموعة العربية بمكتبة الاسكوريال » كذلك وفق الأستاذ بروفنسال إلى إصدار طبعة جديدة لتاريخ دوزى الشهير عن الأندلس وإصدار الجزء الثالث من تاريخ البيان المغرب لابن عذارى ، وهو الآن يعني بنشر مؤلف أندلسي نفيس برعاية الجامعة المصرية هو « كتاب الذخيرة » لابن بسام عن نسخة كاملة وفق إلى اكتشافها

وسيبقى الأستاذ بمصر بضعة أسابيع أخرى إجابة لدعوة الجامعة المصرية

المجلس الدولي للاتحادات العلمية

طلب المجلس الدولي للاتحادات العلمية في لاهاي إلى الحكومة المصرية أن تتخذ التدابير لكي تكون الهيئات العلمية في مصر على اتصال به ، تأييداً للروابط العلمية والثقافية ، ورغبة في تبادل الآراء والنظريات

وقد أحيل هذا الطلب إلى وزارة المالية ، فوقع اختيارها على الدكتور حسن صادق بك المدير العام لمصلحة المناجم والمساحة ليكون رابطة الاتصال العلمية بين مصر وهيئة هذا المجلس الدولي

ومما يذكر أن هذه الهيئة تبحث في العلوم المختلفة كالفلك وطبقات الأرض والجغرافيا وغيرها

خطأ في نسبة شاهد نثري

ذكروا من شواهد الأسلوب الحكيم قول القبعثرى للحجاج « مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب » وقد قال له الحجاج متوعداً : « لأحملنك على الأدهم » يريد به القيد لا الفرس الأدهم ، وأول من نسب هذا إلى القبعثرى الخطيب القزويني في كتابيه (تلخيص المفتاح ، والايضاح) وتبعه في ذلك أصحاب الشروح والحواشي ، وذكروا أن القبعثرى كان من رؤساء العرب وفصحائهم ، ومن جملة الخوارج الذين خرجوا على الامام علي رضي الله عنه

والحقيقة أن هذه النسبة خطأ ، وأن هذه المحاورة كانت بين الحجاج والغضبان بن القبعثرى الشيباني ، لا القبعثرى نفسه ، وقد ذكر هذا أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن الشريشي في شرح مقامات الحريري (١٢٧ جـ ٢) وذكره الجاحظ في البيان والتبيين (٢٠٠ جـ ١)

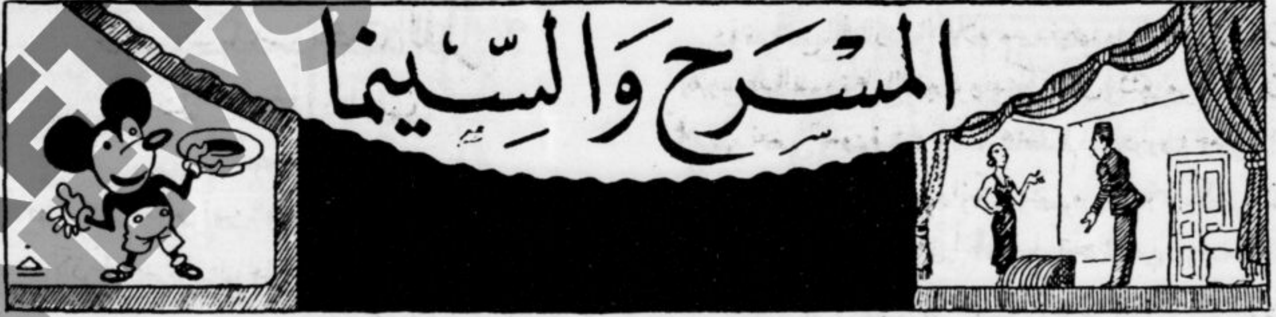
والحقيقة أيضاً أن الغضبان بن القبعثرى لم يكن من الخوارج المعروفين ، وإنما كانت تهمته عند الحجاج أنه أرسله إلى عبد الرحمن ابن محمد بن الأشعث ليأتيه بخبره حينما بلغه خروجه عليه ، وقد كان مع عبد الرحمن سعيد بن جبير والشعبي وغيرهما ممن لم يكن من أولئك الخوارج الذين خرجوا على الامام علي وغيره ، فلما وصل إلى عبد الرحمن قال له : ماوراءك ياغضبان ؟ قال : شر طويل ، تغدَّ الحجاج قبل أن يتعشاك ، ثم انصرف إلى الحجاج وكانت مقالته قد وصلته من جواسيسه قبل أن يصل إليه ، فأمر به فوضع القيد في رجليه ثم سجنه

عبد المتعال الصعيدي

تصويب

وقع في قصة (هجرة معلم) للأستاذ علي الطنطاوي في العدد الممتاز أخطاء مطبعية غيرت المعنى هذا صوابها :

الصفحة	العمود	السطر	
٥١٠	٢	٢٩	فيكون (صوابها) فيلسون
٥١٤	١	٧	الصلداء («) الصلدة
٥١٥	١	٢٣	بأشجارها المزهرة ، وطيبها وعطرها (سقطت منها جملة هذا صوابها): بأشجارها المزهرة المتعانقة ، وأدواحها الباسقة ، وعيونها الدافقة ، وأنهارها الرائقة ، ووردها وزهرها ، وعنبها وخمرها ، وطيبها وعطرها ، وفتونها وسحرها
٥١٦	١	٢٥	الغاية الساذجة (صوابها) الغاية السامية
٥١٧	٢	٢٦	أين هذا من ذاك («) أين هذا من دارك



الفرقة القومية

برنامجها ورواية طيف الشباب

عادت الفرقة القومية إلى إتمام موسمها الثالث وقد افتتحته بتمثيل رواية « طيف الشباب » لمؤلفها الأديب الذائع الصيت مارسيل بانيول ترجمة الأستاذ أحمد بدرخان

أرجئ الكلام عن موضوع هذه الرواية ، لأن ظاهرة غريبة ظهرت فى الفرقة حملتنى على الوقوف حيالها موقف الواجم المبهوت . وبيان الاستغراب فى هذه الظاهرة أن الفرقة بشرتنا بأنها ستتحفنا بتمثيل اثنتى عشرة رواية في الفترة الباقية من الموسم وهى لا تزيد على الشهر الواحد إلا بضعة أيام فقط ، وأن أربعا من هذه الروايات وضعت وترجمت حديثاً ، والثمانى الروايات الباقية مثلت من قبل

للإدارة الفنية فى الفرقة القومية الحرية فى استعادة تمثيل الروايات الناجحة ، ولكن ما بالك بالروايات الموضوعة التى سيعاد تمثيلها وهي التى بلغت من تفاهة المعنى وسخف المبنى ، وهزال الفن مبلغاً حفز جميع النقاد المسرحيين بدون استثناء إلى ابداء استهجانهم لها وعدوا قبول الفرقة إياها لايتفق وتقدير فن التمثيل ، ولا يحقق الغرض الثقافى الذى رمت إليه وزارة المعارف من إنشاء الفرقة ؟

ما هو السر يا ترى فى عودة الفرقة إلى احتضان هذه الروايات وإحيائها من جديد ؟ بل ما هو الباعث على جمع رمم روايتى « اليتيمة ، وبناتنا سنة ١٩٣٧ » وكان الواجب أن تبقى مدفونة فى الرماد ؟ أهو التحدى للنقاد وإهمال آرائهم ودراساتهم أم الاستهتار بالغاية الثقافية التى أسست الفرقة من أجلها ؟

نحاول أن نجل الفرقة عن هذا التدهور ، ونؤثر لها السلامة على التورط فى النعرات ، ولكن الواقع صارخ لا سبيل إلى السكوت عنه

ليس الطريق إلى معرفة نجاح الرواية أو فشلها هى القروش التى يجمعها بائع التذاكر ، أو حشر ردهة الأوبرا ومقاصيرها بمعارف هذا الممثل أو أصدقاء ذاك الموظف ، ولا بالمقالات المأجورة التى تنشر كالاعلانات

لا ، ليس السبيل إلى ذلك إلا بالاستماع إلى أقوال الناقدين والأخذ بالرأى الناضج

كنت أوثر الكلام عن رواية « طيف الشباب » لسببين : الأول أن المترجم متشبع بروح المؤلف ، لم يجنح عن البساطة فى الكلام الذى يعرب به عن الغاية من الفكرة الأساسية ، ولم يطمس معالمها بالألفاظ المتقعرة النابية التى يتوسل بها فقراء الذهن عشاق التزمت

والسبب الثانى أن المترجم فنان سينمائى ، يحسن الاختيار ويقدر ما هو صالح ونافع تقدير فنان خبير ، يصطفى بعقل وتدبر الرواية التى تجمع بين المعنى والمبنى ، والفكر والصيغة

كان يطيب لى أن أهيب بالفرقة أن توكل اختيار الروايات الغربية إلى أمثال الأستاذ احمد بدرخان وتترجم بسلاسة وبساطة كما ترجمها هو ، وأن أقول لها أشياء أخرى عن الروايات الموضوعة التى تتخبط فيها تخبط الضال فى غابة كثيفة بليل مدلهم الظلام

ولكن مالى أنصح الفرقة وأهديها ، ما فائدة الكلام فى إدارتها ورجال لجانها ، في ممثليها وممثلاتها ؟ لم العناء فى ذلك ؟ بل ما الفائدة منه مادامت تعمل وفق البداوات والنزوات ؟ ولم لا أقول لها أنت خير الفرق التى ماتت وأفضل الفرق السائرة فى طريق الموت ؟

حبيب الزحلاوى

كيف تكتب قصة الفلم ؟

بقلم محمد على ناصف

قصة الفلم : تعتبر قصة الفلم أهم النواحى الفنية فيه ؛ فإن من الميسور الآن أن تجد لأى فلم المخرج الذى يحوّله ، والمدير الذى يتفهم إدارته ، والممثل الذى يحسن تمثيله ، ولكن ليس من السهل أن توفق إلى السيناريو الجيد الذى يبنى عليه عمل كل من هؤلاء ؛ ويقولون إن القصة الضعيفة تقتل النجم الكبير A weak story hills a great star ومثل هذا القول لم يكن على هذه الدرجة فى بدء صناعة السينما حيث كان الممثل هو أول وآخر من يحفل به ؛ ولكن أهمية الكاتب أصبحت ملموسة بعد أن صار الفلم ناطقاً ؛ وبعد أن ارتقت السينما وأخذت اتجاها أدبياً رفيعاً يظهر أثره يوماً بعد يوم

فمن نتائج الفلم الناطق أنه أشرك الأذن مع العين فى تذوق فائدة السينما ؛ والأذن – علمياً – أشد انتقاداً من العين ، لأنه من الجائز ألا تلمح عينك قبح وجه يخفيه طلاء متقن جميل ، ولكنك لن تستطيع أن تحمل أذنك على الإعجاب بقول قبيح تستمعه فى مناسبة جميلة

وقد أصبح الحوار فى الأفلام بعد تثقيفها من الخطورة بمكان لأنه يساعد الصورة على التعبير ، وقد يكون فى كثير من الأحيان أهم من نفس الصورة ؛ ولقد شاهدنا فلم « روميو وجوليت » فكان إخراجه قوياً وتمثيله رائعاً وتصويره جيلاً ، ولكن كان أهم ما بالفلم حكم شكسبير التى أنطق بها أشخاص روايته الخالدة

كاتب الفلم : يخطئ من يحسب أن كل من له دراية بكتابة الرواية أو المسرحية أو كل من له اسم كبير فى عالم الأدب يمكن الاستفادة منه فى كتابة قصة الفلم ؛ وقد وقع فى هذا الخطأ كثير من المشتغلين بالأفلام فى بدء عهودها فتعاقد هؤلاء مع موريس مترلنك ، أرنولد بنيت ، سير جلبرت باركر ، سومرست موغام ، ألينور جلين ، كدنان دويل وغيرهم ؛ ولكن واحداً من هذه العقود لم يجدد مرة أخرى ؛ وقد أصبحت حقيقة ملموسة أن أشهر كتاب القصة السينمائية ليسوا من الأسماء المعروفة فى عالم الأدب إلا أن تكون الشهرة الأدبية قد جاءت ملحقة بالشهرة السينمائية

ولقد اقتنع جميع الكتاب المعاصرين الذين تخرج مؤلفاتهم فى السينما بأن كتابة الأفلام شىء يختلف عن كتابة الكتب فسلّم أكثرهم مؤلفاتهم إلى أيدى كتاب الاستديو من غير قيد ولا شرط

محمد على ناصف

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧



الرسالة
السنة السادسة
العدد ٣٤٩

6 me Année, No . 249

Lundi - 11 - 4 - 1938

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٤٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٠ صفر سنة ١٣٥٧ — ١١ ابريل سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهــرس

كلمــة فى أوانهــا

ليس من دأبنا أن نعرض للسياسة إلا من حيث اتصالها بالخلق أو بالأدب . والخلق والأدب موضوع السياسة العليا التى لا تتحزب ولا تتعصب ولا تعرف تخوم المكان ولا حدود الزمن ؛ ولكن بينهما و بين السياسة الدنيا تفاعلاً وتبادلاً لا يفتران ! فهي تؤثر فيهما وهما يؤثران فيها ؛ وهى تغير منهما وهما يغيران منهـا . والخلق بخاصة مساك الأمة ومِلاك الأمر . ولم تُؤتَ النهضات القومية فى الشرق إلا من جهـة فساده . ذلك لأن الحال فى الأمة العائدة أو الناشئة التى يخرج أهلها وُحداناً من ظلام الجهل والغفلة ، أن يسعى المرء فيها ليغنى ، ويغنى ليتزعم ، ويتزعم ليحكم ، ويحكم ليستبد ، ويستبد ليطغى ، ويطغى ليتأله . سلسلة من الغرائز الجافية الرذيلة حلقاتها الشهوة والطمع والغلبة والأثرة والجموح والبغى ، يصل بينها جميعاً أنانية غالبة وفردية أصيلة . فالأهل والأصحاب والأحزاب إنمـا يتعاملون بغير الحق ويتجادلون بغير المنطق ، ابتغاء الفوز من وراء الباطل ، والغلبة من طريق القوة ؛ لأن (الأنا) لا يعرف (الغير) ، والذات لا تدرك المعنى ، إلا إذا أضاء العلم ما حولها فظهرت الأشخاص ، وبانت

الفروق ، ووضحت الحقوق ، وتميزت المعالم . وحينئذ يقول كل امرئ لنفسه أول مرة : إن فى العالم ناساً غيرى ، وإن لهم حقاً كحقى . ومتى شعر المرء بالناس ، وفطن إلى وجود الحق ، تولدت فيه معانى الانسانية والديمقراطية والحرية والعدل ، فيصبح خالصاً للجماعة إذا سعى ، وللوطن إذا تزعم ، وللدولة إذا حكم

* * *

نحن إلى اليوم لم نخرج عن ذواتنا فى العمل والسياسة والحكومة . نقيس كل شيء بمقياس الفائدة الخاصة ، ونحمل كل أمر على محمل الهوى الفرد ، ونغلّب إرادتنا على إرادة الأمة فى الحق المشاع ، حتى اقتنع المستريب بأننا تعلمنا الكلام ولم نتعلم العمل ، وحذقنا فنون الدعاية ولم نحذق أصول الحكم ، وحفظنا مصطلحات الدستور ونسينا مبادئ الشورى

كان ذلك محمولاً والجهل غاشٍ على العيون رائن على الأفئدة ؛ أما الآن فقد تنبه الغفلان وتذكر الناسى . تنبه الغفلان إلى أن من استطاع أن يرفع المظلوم يسهل عليه أن يخفض الظالم ؛ وتذكر الناسى أن له دستوراً يجعل مصدر السلطات فى فم المحكوم لافى يد الحاكم . فمن ذا الذى يوسوس إليه شيطانه أن يرفع فى وجه الأسود وأشبال الأسود عصا القطيع ؟ ومن ذا الذى يسول له طغيانه أن يرتفع على كواهل الشعب ليقول : أنا سيد الجميع !

* * *

لقد كان لبعضكم يا زعماء الساعة أخطاء على الأمة فى بعض الأمور ملكت عليها الصبر ولم تملك لها المغفرة . وقد أتاح لكم القدر العجيب هذه الفرصة لتصححوا بصواب اليوم خطأ الأمس ، وتبددوا بيقين الحاضر ظنون المستقبل . فهل تدعونها تمر كما يمر أريج الطِّيب بالرجل الأخشم [1] ؟ إن بعضكم بلغ ساحل الحياة ، وبعضكم جاوز حد الثروة ، وكلكم تفرّع ذروة الجاه ، فماذا يخزلكم عن ابتناء المجد المؤثل وابتغاء الذكر الخالد ؟

نريد أن يكون الزعيم لجنسه لا لنفسه ، ولشعبه دون حزبه ، ولغده قبل يومه ، حتى يتذوق هذا الشعب المجهود لذة الأخوة فى ظل الوطن ، وعزة الحرية فى كنف الدستور ، وجمال المساواة فى حمى الحكم الصالح

نريد أن تلغوا سياسة الخطب ، وتقصّروا ألسنة الوعود ، وتخفتوا ضجيج المظاهر ، وتكفوا عن كرامة الناس صلف المنصب وزهو السلطان وبطر الجاه ؛ فإن المصرى أكره الناس للزعيم المغرور والوزير المتغطرس والنائب الأَثِر

نريد أن تفتحوا لمصر عهداً جديداً من الهدوء والاستقرار ، تدخلونه فى ثياب الإحرام صدوركم نقية من أحقاد الحزبية ، ونفوسكم بريئة من شهوات العصبية ، وميولكم نزيهة عن خسيس المطامع ، فتصرفون القوى إلى الإنتاج ، وتوجهون الجهود إلى الهدف ، وترصدون ملكات الأمة وكفاياتها لطرد الجهل منها ، ودفع الفقر عنها ، ومعالجة المرض فيها ، لتعيش كما تعيش الأمم الحية صحيحة الجسم سليمة الروح متماسكة الوحدة

* * *

إن الوزارة متسقة الأعضاء متحدة الهوى ، وإن المعارضة نزيهة الأغراض مريرة القوى ، وإن الأحزاب متقاربة الميول مستقلة الرأى ، وإن الأمة يقظة الفؤاد كلوءة العين ، وإن العرش من وراء كل أولئك محيط ، يُقوِّم الصعَر ، ويسدد الخطى ، ويرقب الأمور ، ويجمع الهوى الشتيت . فهل آن لنا أن نحيا حياة العاملين الأعزة فى وطن صريح الاستقلال قوى الشوكة ، لا سلطان لقوة خارجية عليه ، ولا سيادة للغة أجنبية فيه ، ولا استبداد لشركة أوربية به . وهل آن لنا أن نتمتع بحرية مهذبة الأطراف مأمونة السفه ، ينعم الفرد فيها بنفسه ، ويأمن بها على رأيه ، فى مجتمع راقى الطبقات مثقف النواحى ، يؤلف نافره الخلق ، ويرفه حياته الحب ، ويؤويه إلى كنفه إلهٌ وعَلَمٌ ومَلِك ؟

احمد حسن الزيات

(١) الاخشم هو الذى فقد حاسة الشم أو ضعفت ه

مع فتـــاة

حديث غير مفيد

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

دق التليفون قبيل الظهر ، ودعيت إليه ، فسمعت صوتاً كدت أنساه من طول العهد به يسألني : « هل تستطيع أن تهبني من وقتك الثمين دقائق ؟ إن بي حاجة إليك فلا تخيب أملي فيك »

فشوقني ذلك إلى لقائها ، وإن كانت قد جفتني و نَبَتْ بي بلا موجب أعرفه ، فذهبت إليها ، وقلت وأنا أحدق في وجهها متفرساً :

« والآن ما الذي زوى بين هاتين العينين الجميلتين مذ كنتُ هنا آخر مرة ؟ »

قالت وهي تبتسم وتمد إليّ يدها بصندوق السجاير :

« خمّن وأراهن أنك لن تقع على الصواب ! »

قلت وأنا أشعل السيجارة على مهل :

« أهو شيء عجيب جداً إلى هذا الحد ؟ »

قالت : « نعم وجديد أيضاً »

وكانت مقطبة على الرغم من ابتسامها ، ولكن وجهها كان كأنه في هالة . فقلت : « إن هذا الذي أطالعه في محياك الوضيء لا يكون إلا من شيء واحد . فن هو ؟ لا تطيلي عذابي »

قالت وهي تتنهد : « إنك لا تعرفه ... شاب أصغر مني ... قد يكون هذا جنوناً مني .. ولكنه هو أيضاً مجنون .. بالآثار .. »

قلت : « إن في الدنيا ضروباً شتى من الجنون ، فلا تخشى أن أنكر عليك أو عليه شيئاً ، ولكن الذي لا أستطيع أن أفهمه هو أن تضيعي وقتك مني وحقك أن تكوني معه »

قالت : « هذا ما أردت أن أتحدث معك فيه ... إن له صديقاً حميماً من علماء الآثار ... لا يفترقان ... ولا كلام لهما إلا في هذه الآثار ... وأنا أزعم أني لا أبالي ... ولكنه يبدو لي أن هـذا الحال غير طبيعي »

قلت : « غيرى ؟ ؟ »

قالت : « نعم ، إلى حد ما ، وإنها لسخافة ، ولكن هذا هو الواقع ، ولا حيلة لي أراها »

قلت : « الحكمة القديمة تقول إن الإنسان لا يحيا بالخبز وحده ؛ أما الحكمة الجديدة فتقول إنه لا يحيا بالحب وحده »

قالت : « أعرف هذا ولكن ... »

فقاطعتها وقلت : « ولكن يا فتاتي الغيرى يجب أن تعلمي أن للصداقة — كما للحب — مطالبها ومقتضياتها ؛ ومن الجلي أن هذه الصداقة تنيله ما لا يسعك أنت أن تنيليه . وإذا كان لي رجاء ، فهو ألا تحاولي أن تستحوذي على هـذا الشاب ، فإن من الخطأ الذي تقع فيه المرأة كثيراً أن تحاول أن تبلع الرجل... ومن يدري ... لعل المرأة كانت أسبق من الرجل إلى أكل اللحم البشري ، وعسى أن تكون هي التي علمته ذلك ... ولكننا ارتقينا يا فتاتي الجميلة ... خرجنا من عصور الاستيحاش ... ثم اسمعي ... لا تصدق أن من الممكن إدماج حياة في حياة ، وأن اثنين يمكن أن يكونا واحداً ... تذكري ما تعلمت من علم الحساب ... وخير من هذا ، وأجلب للراحة أن توطن المرأة نفسها على أن للرجل حياته المستقلة ... فان محاولتها الاستحواذ على الرجل تؤدي إلى جعل الحب آفة ، والعكس أولى بأن يكون »

فقالت بلهجة مبطنة بالمرارة : « إن من الطبيعي ولا شك أن يكره الانسان المشاركة »

قلت : « الرغبة في الاستحواذ مرة أخرى ... ولكن هل أنت مشاركة فيه ؟ هل في وسعك أن تنتنيه عن صديقه وأن تحلي محله ، وتشبعي الجوع الذي يحسه من هذه الناحية ؟ لا أظن فاقنعي بنصيبك منه ، ودعي له البقية التي لا يكون في مقدورك أن تسدي الفراغ فيها ... إن من العسير أن تصبيه في القالب الذي يروقك ... صعب جداً أن تغيري الناس ... كل ما يمكن أن تنجحي فيه هو أن تسيئي إليه وتنفريه ... فما دام يشعر بالحاجة إلى صديقه هذا فدعيه له ، ولا تطمعي أن تسلبيه منه الآن ... إنك جديدة عليه فاتركي الوقت الكافي للتكيف .. ومن يدري .. إنه لا يجد فيك الآن كل ما تصبو إليه نفسه ... قد يستغني بك عن الدنيا قاطبة فيما بعد ... بعد أن تتكشف له نواحي نفسك

شيئاً فشيئاً ... ولكن من يدرى أيضاً ... قد يتبين أنك أنت أيضاً لا تجدين عنده كل ما تطلبين من الحياة ... قد تجدين مثلا مجرد مثل ... أنك لا تستغنين عنى ، وأن بك حاجة ولو قليلة إلى صداقتى الفارغة . على كل حال ، لقد احتجت اليوم إلىّ ، ولو أنه كان حسبك من كل ناحية لما دعوتنى إليك »

وتناولت فنجان القهوة ، ورشفت منه رشفة ثم أعدته وقلت :

« وياسميحة ، كلمة أخرى ... إن من الخطر أن تتزوج المرأة رجلا أصغر منها ... واسمحى لى بأن أكون فظاً فان صداقتنا تعطينى هذا الحق ، وأنت أعز علىّ من أن أهمل فتح عينيك على الحقائق . نعم ، خطر كبير هذا ، فان المرأة تفقد جمالها بأسرع مما تفتر عواطف الرجل وتضعف قواه »

قالت : « يكفى ، فانى لا أجهل هذا »

قلت : « حسن ... إذن تعالى نتمشى »

ولكنها فى الطريق لم تكن خيراً منها فى البيت ، كانت قلقة مضطربة على الرغم من تكلفها الابتسام ، وحرصها على التظاهر بأن لا شىء يثقل عليها أو يكربها ، فاضطررت أن أقول لها : « إن من واجب المرأة حين تحب رجلاً أن تحرص على إسعاده ، كما تطلب أن يحرص هو على إسعادها ، والرجل على كل حال لا يستطيع أن يفهم لماذا يكون هو المعطى والواهب والمضحى دائماً ؟ »

قالت : « إن كثيرين من الرجال يفعلون ذلك ولا يتململون »

قلت : « ندع أنهم ليسوا رجالاً بخير معانى اللفظ ، وندع أن فتاة مثلك لا يرضيها واحد من هؤلاء الرجال المهازيل ، ويكفى أن أنبهك إلى أن هؤلاء الذين تذكرينني بأمرهم ساخطون ناقمون في قلوبهم ، وأنهم يحسون بأن عيشتهم سوداء ، ولا يشعرون برضى حقيق ، وإن كانوا لضعفهم لا يجرءون أن يظهروا لنسائهم ما يخفون من أمرهم عليهن ، ولو أتيحت لواحد منهم فرصة التمرد لتمرد وجازف ... وهذا يحدث كثيراً ... ومجازفة الضعيف الخائف أفظع من مجازفة القوي المطمئن الواثق بنفسه ... فلا تنسى هذا ... »

قالت : « لماذا تتكلم هكذا ... إنى لا أحاول أن أتحكم فيه أو أسيطر عليه »

قلت : « قد يكون هذا صحيحاً ، ولكنك تحاولين أن تغنميه أن يرضى نفسه من ناحية لا تستطيعين أنت أن ترضيه منها ... تحاولين أن تخطفيه من أصدقائه الذين يحس ويعرف أن به حاجة إليهم ... إن الرجل ليس كالمرأة ، وهو لا يفهم الحب كفهمها له ، والحب ليس كل شىء فى حياة الرجل ، وإن كان كل شىء فى حياة المرأة ؛ ثم إنه شىء لا دوام له فى الأغلب والفتور يعروه على الأيام ؛ وهذا الاستحواذ الذى تغرى به طبيعة المرأة ليست له ثمرة إلا إعلال من الجانبين ... أظن أن كلامى ثقيل عليك جداً ، ولكن ماذا أصنع وأنا مدعو لأكون ثقيلاً ؟ كالطبيب ... جعلت منى طبيباً لك لا صديقاً ، وما حيلة الطبيب إلا أن يثقل على الناس بما يعليه عليه علمه وفنه ؟ »

ولكنها لم تسمع ولم تقتنع ، وأبت إلا أن تطيع طبيعتها . ولها العذر ، وتزوجت الرجل ، وفرقت ما بينه وبين صديقه العالم بالآثار

وبعد سنتين اثنتين لا أكثر دقت لى التليفون مرة أخرى فأحسست بأن الصوت معروف ، ولكني لم أذكره حتى قالت اسمها ، ودعتنى إليها ، ولكن هذا حديث آخر يطوى ، فلنرجئه إلى وقت غير هذا ...

إبراهيم عبد القادر المازني

شـــق وسطيح

وابن خلدون والقرآن والعربانيون

لأستاذ جليل

طالعتُ في شبابي الجزء الأول من (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر) وهو المعروف عند الناس بمقدمة ابن خلدون. وقد وعيتُ يومئذ مباحثه، وقيدت الذاكرة ما استطاعت من فوائده — وإنها وأبيك لكثيرة — ثم فرّ جلّها، وقرّ بعضها و «اختلافُ النهار والليل يُنسي[1]» كما يقول شاعرنا (أحمد الثالث[2]). فلما قرأت في مقالة (التنويم المغناطيسي وقراءة الأفكار في القديم) في (الرسالة) الهادية الموقظة هذه الجملة: «ولابن خلدون بحث عن الكهانة خذله فيه التحقيق» تذكرتُ كتاب عبد الرحمن، ورجعت إليه أنشد حديثه عن الكهانة والكهان. وذهبت أتلوه تلاوة المتبصر، فلما تممته لم أتمالك أن كررت عبارة تلك المقالة: «... خذله فيه التحقيق» فقد ألفيتُ العبقرى الألمعي إمام الباحثين الناقدين، ومعلن مغالط المؤرخين قد جرّه الضلال بجرير[3] طويل، وقاده الوهم والخيال قَوْدَ الذلول، فتقبّل — مطمئن النفس — شعبذات الكهانة ومخارق العرافة وخزعبيلات[4] العائفين، وآمن بشق وسطيح. وهذه طائفة مما قال:

« إنّا نجد في النوع الإنساني أشخاصاً يخبرون بالكائنات قبل وقوعها مثل العرّافين والناظرين في الأجسام الشفّافة كالمرايا وطساس[5] الماء، والناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها، وأهل الزجل في الطير والسباع، وأهل الطَّرْق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى. وهذه كلها موجودة في عالم الإنسان لا يسع أحداً جحدُها ... »

« إن للنفس الإنسانية استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية التي فوقها، وإنه يحصل من ذلك لمحة للبشر في صنف الأنبياء »

« وإن هنا صنفاً آخر من البشر — يعني الكهان — ناقصاً عن رتبة الصنف الأول — يعني الأنبياء — »

« وهذه القوة التي فيهم مبدأ لذلك الإدراك هي الكهانة »

« ونفوس الكهنة لها خاصية الاطلاع على المغيبات »

« ثم إن هؤلاء الكهان إذا عاصروا زمن النبوة فإنهم عارفون بصدق النبي لأن لهم بعض الوجدان من أمر النبوة »

« قد كان العرب يفزعون إلى الكهان في تعرّف الحوادث، ويتنافرون إليهم في الخصومات ليعرفوهم بالحق فيها من إدراك غيبهم، وفي كتب الأدب كثير من ذلك. واشتهر منهم في الجاهلية شق بن أنمار وسطيح بن مازن، وكان يُدرج[1] كما يُدرج الثوب، ولا عظم فيه إلا الجمجمة ... ومن مشهور الحكايات عنهما تأويل رؤيا ربيعة بن نصر وما أخبراه به من ملك الحبشة لليمن وملك مضر من بعدهم وظهور النبوة المحمدية في قريش. ورؤيا الموبذان[2] التي أوّلها سطيح لما بعث إليه بها كسرى عبدَ المسيح فأخبره بشأن النبوة وخراب ملك فارس. وهذه كلها مشهورة، وكذلك العرافون كان في العرب منهم كثير وذكروهم في أشعارهم »

فهناك عند ابن خلدون الكهانة تعلم الغيب، وهي نبوة ناقصة، وهناك الكاهن كأنه مرشح نبي ... وقد قال في تضاعيف كلامه متبجحاً على المسعودي بعلمه وتحقيقه: « وقد تكلم عليها المسعودي في (مروج الذهب) فما صادف تحقيقاً ولا إصابة، ويظهر من كلام الرجل أنه كان بعيداً عن الرسوخ في المعارف فينقل ما سمع من أهله ومن غير أهله »

ومن قول المسعودي في الكهانة في (المروج):

« ذهب كثير أنّ علة ذلك علل نفسانية، وأن النفس إذا

---

(١) والعجز: (اذكرا لي الصبا وأيام أنسي)

(٢) أحمد الأول هو أبو الطيب المتنبي والثاني هو أبو العلاء والثالث أحمد شوقي والثاني والثالث هما التلميذان الأكبران للأول، ومن كبار تلاميذ المتنبي الشريف الرضي، بيد أن التبنية عنده قليلة

(٣) الجرير: الحبل

(٤) الخزعبل والخزعبيل: الباطل أو الأباطيل والخزعبيلة: الأضحوكة

(٥) الطساس: جمع طسة مثل الطس لغة في الطست: إناء من نحاس لغسل اليد

(١) درجه: طواه، لفه

(٢) الموبذان: (بضم الميم وفتح الباء وحكي فتح الميم أيضاً، وحكى كسر الباء أيضاً): فقيه الفرس وحاكم المجوس كقاضي القضاة للمسلمين (التاج)

قويت وزادت قهرت الطبيعة ، وأبانت للانسان كل سر لطيف ، وخبرته بكل معنى شريف ، وغاصت بلطافتها فى انتخاب المعانى اللطيفة البديعة فاقتنصتها ، وأبرزتها عن الكمال »

فإذا قال المسعودى مثل هـذا فزل وضل فان ابن خلدون لم يهتد . وما حديث أحدهما بأصدق من حديث صاحبه . إنهما فى باب الكهانة والكهان سيّان

* * *

وشقّ وسطيح اللذان آمن بهما ابن خلدون ، وصدق كونهما وأسطورتيهما هذا بعض ما قيل فيهما :

قال الدميرى فى (حياة الحيوان الكبرى) :

« كان شقٌ شقَّ إنسان ، له يد واحدة ، ورجل واحدة ، وعين واحدة . وكان سطيح ليس له عظم ولا بنان ، إنما كان يطوى مثل الحصير ، وكان وجهه فى صدره ، ولم يكن له رأس ولا عنق »

وقال ابن منظور فى (لسان العرب) :

« سطيح هذا الكاهن الذئبى من بنى ذئب كان يتكهن فى الجاهلية ، سمى بذلك لأنه لم يكن بين مفاصله قصب تعمده ، فكان أبداً منبسطاً منسطحاً على الأرض لا يقدر على قيام ولا قعود ، ويقال : كان لاعظم فيه سوى رأسه »

وقال الثعالبى فى (ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب) :

« سطيح الكاهن كان يُطوى كما تُطوى الحصير ، ويتكلم بكل أعجوبة فى الكهانة ؛ وكذلك شق الكاهن ، وكان نصف إنسان »

وقال الزبيدى فى (تاج العروس) : « شق كاهن قديم معروف قاله ابن دريد ، وحديثه مستوفى فى الروض للسهيلى ، وإنما سُمى شقا لأنه ولد شقا واحداً ، وكان فى زمن كسرى أنو شروان »

وقال الشريشى فى (شرح المقامات الحريرية) :

« سطيح الغسانى أكهن الناس ، كان يُدرج جسده كما يدرج الثوب خلا جمجمة رأسه ، وإذا مُست باليد أثرت فيه لِلينِ عظمها »

وقد زلق قلم ابن خلدون فقال : « كان سطيح يدرج كما يدرج الثوب ، ولا عظم فيه إلا الجمجمة » وكأنه استحى أن يذكر أن شقا كان شقا : ذايد واحدة وعين واحدة ورجل واحدة ... فلم يعرّفه بحليته[1]

* * *

وأسطورتا هذين الكائنين العجيبين اللتان أشار إليهما ابن خلدون — ذكرهما مؤرخون ضالون كثيرون ، وأدباء ناقلون غير محققين ، ومفسرون ومحدثون ، منهم ابن اسحق صاحب السيرة ، وابن عبد ربه فى العقد ، والماوردى فى أعلام النبوة ، والرازى فى مفاتيح الغيب ، وابن منظور فى اللسان ، وابن عربى فى محاضرة الأبرار ، والألوسى فى بلوغ الأرب وغيرهم . ومما قيل فى الأسطورة الأولى ، وهو من (سيرة) ابن هشام :

« إن ربيعة بن نصر ملك اليمن رأى رؤيا هالته ، فقال سطيح فى تأويلها : أحلفُ بما بين الحرّتين[2] من حنش ، لتهبطن أرضكم الحبش ، فليملكُنَّ ما بين أبينَ إلى جُرَش[3] . فقال له الملك : فتى هو كائن ؟ أوفى زمانى هذا أم بعده ؟ قال : لا ، بل بعده بحين ، أكثر من ستين أو سبعين ، يمضين من السنين . قال : أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع ؟ قال : لا ، ينقطع لبضع وسبعين من السنين ، ثم يُقتلون ويخرجون منها هاربين . قال : ومن يلى ذلك من قتلهم وإخراجهم قال : يليه أرم بن ذى يزن ، يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك أحداً منهم باليمن . قال : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟ قال : بل ينقطع . قال : ومن يقطعه ؟ قال : نبي زكيّ ، يأتيه الوحى من قبَل العليّ . قال : وممن هذا النبي ؟ قال : رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر يكون الملك في قومه إلى آخر الدهر . قال : وهل للدهر من آخر ؟ قال : نعم يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، يسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون . قال : أحق ما تخبرنى ؟ قال : نعم ، والشفق والغسق ، والفلق إذا اتسق ، إن ما أنبأتك به لحق »

وقال شق للملك مثل قول سطيح

---

(١) الحلية : الهيئة

(٢) الحرة من الأرضين الصلبة الغليظة التى ألبستها حجارة سود نخرة والجمع حرات وحرار (اللسان) والحرات فى (الجزيرة) كثيرات

(٣) أبين مخلاف باليمن منه عدن وقال عمارة الشاعر أبين موضع فى جبل عدن . وجرش من مخاليف اليمن من جهة مكة (معجم البلدان)

ومما جاء فى الأسطورة الثانية : « أن الموبذان رأى رؤيا أفزعت كسرى فسئل عنها عبد المسيح بن عمرو بن نفيلة الغساني فقال : عِلمُ هذا عند خالى سطيح . قيل : فأته وسلهوأت بجوابه . فقدم على سطيح ، وقد أشفى على الموت فقال (أرجوزة) مطلعها :

أصم أم يسمع غطريف اليمن ؟ يا فاصل الخطة أعيت من ومن

فلما سمع سطيح شعره رفع رأسه فقال : عبدالمسيح ، على جمل مشيح ، إلى سطيح ، وقد أوفى على الضريح . بعثك ملك بنى ساسان ، لارتجاس الايوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان . رأى إبلا صعاباً ، تقود خيلا عراباً ، قد أقحمت فى الواد ، وانتشرت فى البلاد . ياعبد المسيح ، إذا كثرت التلاوة ، وبعث صاحب الهراوة ، وفاض وادى السماوة ، وغاضت بحيرة ساوة ، وخمدت نار فارس فليست بابل للفرس مقاماً ، ولا الشام لسطيح شاما . يملك منهم ملوك وملكات ، على عدد الشرفات ، وكل ما هو آتٍ آت »

* * *

ذانك شق وسطيح ، وتانك أسطورتاهما . والإسلامية غير مفتقرة إلى إعلام كاهن ، وخبر عرّاف . إن ضياء الشمس مستغن عن شهادة (الدساسة[1]) وهذا قول الاسلامية فى الكهانة والغيب :

فى الحديث : « من أتى كاهناً أو عرّافاً فقد كفر بما أُنزِل على محمد ، أى من صدقهم[2]

«من أتى عرّافاً فسأله عن شىء لم يُقبل منه صلاة أربعين ليلة»

« نُهى عن حلوان الكاهن » أى أجرته . وفى (النهج) :

« أيها الناس ! إياكم وتعلُّم النجوم إلا ما يُهتدى به فى برّ أو بحر فانها تدعو إلى الكهانة ، والمنجم كالكاهن[3] »

قال الشيخ محمد عبده فى شرح هذا الكلام : « الكاهن من يدعى كشف الغيب ، وكلام أمير المؤمنين حجة حاسمة لخيالات المتقدين بالرمل والجفر والتنجيم وما شا كلهما ، ودليل واضح على عدم صحتها ومنافاتها للأُصول الشرعية والعقلية »

(١) الدساسة : دويبة لا ترى شمساً إنما هى مندسة تحت التراب أبدا (الأساس)

(٢) قال ابن الأثير : والحديث الذى فيه من أتى كاهناً قد يشتمل على اتيان الكاهن والعراف والمنجم

(٣) الاسلامية تؤيد معنى هذه الأحاديث الواردة هنا ، وتؤيد قول النهج — وهو من كتب إخواننا الامامية — وإن لم تصح النسبة للرسول وصاحبه

وقال الشيخ محمد عبده فى (شرح مقامات الهمذانى) :

« ويروى لنا من شعره ما يمتزج بأجزاء النفس رقة ، ويغمض عن أوهام الكهنة دقة — أراد بالكهنة أصحاب دعوى علم النجوم وأسرارها . واستطلاع المغيبات مما تفيضه أرواحها . وقد جاء الدين الاسلامى بتكذيبهم والنهى عن الاشتغال بمذاهبهم فى أوهامهم غير أنه بقى ذكرهم في الكلام من قبيل ضروب الأمثال »

وقال ابن أبى الحديد فى الشرح الكبير للنهج : « إن المعلوم ضرورة من دين رسول الله إبطال حكم النجوم وتحريم الاعتقاد بها ، والزجر عن تصديق المنجمين »

وابن خلدون الذى آمن بالكهانة قد كفر بالنجامة وفنّد مقالة النجامين أو المنجمين فى فصل طويل فى كتابه — تفنيداً :

متكهّن ومنجم ومعزّم وجميعُ ذاك تحيُّل لمعاش[1]

* * *

نجىء إلى الغيب

فى (مسند الربيع بن حبيب) :

« عن عائشة : من زعم أن محمداً يعلم ما فى غد فقد أعظم على الله الفرية ، لأن الله تعالى يقول : « قُلْ لا يعلم من فى السموات والأرض الغيبَ إلا الله[2] وما يشعرون أيّان يُبعثون »

وفى (كتابِ الله) :

« قُلْ لا أقولُ لكم عندى خزائنُ الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول إنى ملك ، إنْ أتبعُ إلا ما يوحى إلىّ »

« ولا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول إنى ملك »

« قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ، ولو

(١) أبو العلاء ، عزم الراقى وعزّم — بالتشديد — قرأ العزائم

(٢) فى (رسالة الغفران) لأبى العلاء أحمد بن سليمان : « وأما الحكاية عن أصحاب الحديث أنهم صحفوا رخمة فقالوا : رحمة فلا أصدق بما يجرى مجراها ، والكذب غالب ظاهر ، والصدق خفى متضائل ، وكذلك ادعاء من يدعى أن علياً (عليه السلام) قال تهلك البصرة بالزنج فصحفها أهل الحديث بالريح ، لا أومن بشىء من ذلك . ولم يكن على (عليه السلام) ممن يكشف له الغيب ، وفى الكتاب العزيز (لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله) وفى الحديث المأثور : لا يعلم ما فى غد إلا الله) ولا يجوز أن يخبر مخبر منذ مئة سنة إن أمير حلب (حرسها الله) فى سنة أربع وعشرين وأربعمائة — اسمه فلان بن فلان ، وصفته كذا ، فان ادعى ذلك مدع فانما هو متخرص كاذب »

كنتُ أعلم الغيبَ لاستكثرتُ من الخير وما مسنى السوء ، إنْ أنا إلا نذيرٌ وبشيرٌ لقوم يؤمنون »

« عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رَصَداً ليعلمَ أن قد أبلغوا رسالاتِ ربهم ، وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً »

قال الكشاف : « أى هو (عالم الغيب) فلا (يظهر) فلا يطلع و (من رسول) تبيين لمن ارتضى ، يعنى أنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى الذي هو مصطفى للنبوة خاصة لا كل مرتضى ، وفى هذا إبطال للكرامات لأن الذين تضاف إليهم — وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل ، وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب . وإبطال الكهانة والتنجيم لأن أصحابها أبعد شيء من الارتضاء وأدخله فى السخط (فانه يسلك من بين يديه) يدى من ارتضى للرسالة (ومن خلفه رصداً) حفظة يحفظونه من الشياطين يطردونهم عنه ، ويعصمونه من وساوسهم وتخاليطهم حتى يُبلّغ ما أوحى به إليه (ليعلم) الله (أن قد أبلغوا رسالات ربهم) يعنى الأنبياء ليبلغوا رسالات ربهم كما هى محروسة من الزيادة والنقصان »

والغيب فى كلام الله هو الوحى ، وحى النبوة كما قال الزمخشرى : (حتى يبلغ ما أوحى به إليه) لا كل غيب كما يظهر من كلام (الكشاف) في أول تفسيره . وقد جاء فى (فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير) : « وهو ما يتعلق برسالته كالمعجزة وأحكام التكاليف وجزاء الأعمال وما بينه من أحوال الآخرة لا ما يتعلق برسالته من الغيوب كوقت قيام الساعة ونحوه » وجاء فى (جامع البيان) — وهو تفسير ابن جرير الطبرى : « فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فأعلم الله (سبحانه) الرسلَ من الغيب الوحى ؛ أظهرهم عليه بما أوحى إليهم من غيبه ، وما يحكم الله فانه لا يعلم ذلك غيره . قال ابن زيد : « ينزل من غيبه ما شاء على الأنبياء ، أنزل على رسول الله الغيبَ القرآنَ ، وحدثنا فيه بالغيب ، بما يكون يوم القيامة »

وفى (موضوعات على القارى) :

« قد جاهر بالكذب بعض من يدعى العلم فى زماننا وهو متشبع بما لم يعط أن رسول الله كان يعلم متى تقوم الساعة . وهؤلاء الغلاة عندهم أن رسول الله منطبق على علم الله سواء بسواء ، فكل ما يعلمه الله يعلمه رسوله ، والله تعالى يقول : (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مَرَدوا على النفاق لا تعلمهم ، نحن نعلمهم ؛ سنعذبهم مرتين ثم يُردُّون إلى عذاب عظيم) وهذا فى (براءة) وهى من أواخر ما نزل من القرآن . هذا والمنافقون جيرانه فى المدينة »

فاذا كان صفوة النوع الانسانى ، وسيد المرسلين والنبيين والمظيمين هو كما قال الله ، فهل يعلم الغيب رسول أو نبى أو صحابى أو (ولى) أو (غوث) من الأغواث أو (قطب) من الأقطاب أو (بدل) من الابدال أو كاهن أو منجم أو دجال أو شق أو سطيح أو سقط أو مليص [1] ؟

أين عقول الناس ؟ أين عقول الباحثين ؟

***

وحديث الكاهنين (شق وسطيح) يبعثنا على أن نختم القول فيه بهذه السطور :

أسلوب القرآن هو أسلوب المبتدِع ، لا أسلوب المتبع ، والدليل الدينى أنه وحى الله ، والبرهان العقلى أنه الكتاب العبقرى ، والعبقرى فى الدنيا مقلَّد لا مقلِّد ، ومتبوع لا تابع .

قال أبو العلاء احمد بن سليمان فى (رسالة الغفران) :

« أجمع ملحد ومهتد ، وناكب عن المحجة ومقتد ، أن هذا الكتاب الذى جاء به محمد بهر بالإعجاز ، ما حُذى على مثال ، ولا أشبه غريب الأمثال . ماهو من القصيد الموزون ولا الرجز ، ولا شاكل خطابة العرب ولا سجع الكهنة ، وجاء كالشمس اللائحة (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون [2]) وإن الآية منه أو بعض الآية لتمترض فى أفصح كلام يقدر عليه

---

(١) شق — فى اللغة — جنس من أجناس الجن ، والشق من كل شيء نصفه إذا شق ، والسطيح الذى يولد ضعيفاً لا يقدر على القيام والقعود ، والسطيح المستلق على قفاه من الزمانة . والسقط — مثلثة — الولد لغير تمام وأمه مسقط ، والمليص الذى ألقته أمه مضغة وهي مملص ، ولولا اقتصاد من صاغ حكاية شق وسطيح فى الخبث لسمى صاحبيه سقطاً ومليصاً فجاء بعده مؤرخون وراوون يقولون : قال سقط ، حدث مليص...

(٢) قبله : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله)

المخلوقون فيكون فيه كالشهاب المتلألئ في جنح[1] غسق »

وقال أبو بكر محمد بن الطيب البلاقلاني في كتابه (إعجاز القرآن) :

« إن نظم القرآن على تصرُّف وجوهه واختلاف مذاهبه ، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم — يعني العرب — ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز في تصرفه »

ذلك هو (الكتاب) وذلك — كما قال هذان الإمامان — أسلوبه ، وقد أقبلت (أو أدبرت) طائفة من المربانيين — أعني المعروفين بالمستشرقين — تقول : (ليس أسلوب القرآن مبتدعاً وإنما قلد فيه سجع الكهان) وتلقف قولهم أو تخليطهم — جاهلين عَمِهين — متلقفون

وقد قالت تلك الطائفة الغربية مقولتها وأتمها من المربانيين المحققين يقولون كما قلتُ قِدْماً وأقول اليوم : إنه لم يثبت من منثور الجاهلية شيء ، فكيف اهتدت الفئة الضالة إلى أصل الأسلوب القرآني ؟ وإلامَ استندت ؟ وعلام بنت مزعمها ؟ ؟

إن كان هاديَ القوم شق وسطيح وخُنافر الحميري وسَواد ابن قارب وطَريفة وعُفيراء وأمثالهم من الكاهنين والكواهن وكانت الحجة تلكم الأساجيع — فقد ضلّ هاديهم ، وأودى الدليل .

إن سجع الكهان إنما قلد مفتعلوه في الاسلام نهج القرآن كما كان يقلده المخرق (المختار بن عُبيد الثقفي) الكيساني . والقرآنُ — كما قال ابن خلدون — لا يقلَّد ، فكان سجع الجماعة ذاك الكلام البهرج[2]

وإن القوة التي أبدعت في العربية ذلك (الكتاب) وأخرجت من العرب تلك الأمة فإن القوة التي فطرت من العدم وجوداً ومن العربية (قرآناً) ومن العرب أولئك (الأصحاب) صفوة الناس وجوهر البشرية — هي ربة ذلك الأسلوب

إن نهج القرآن هو نهج المبْدِئ المبتدع ، لا طريق المقلِّد المتبع ، وإنه لوَحْيُ الله ، وإنه لكتابُ الدهر

القارىء

(١) الجنح — بالكسر وبضم — : الطائفة من الليل

(٢) البهرج : الرديء . في (اللسان) : قيل هي كلمة هندية أصلها نبهله وهو الرديء فنقلت إلى الفارسية فقيل نبهره ثم عربت بهرج

ليلى المريضة في العراق

للدكتور زكي مبارك

— ١٥ —

إلى البصرة ، إلى البصرة ! إلى المدينة التي تجرى من تحتها الأنهار . إلى مهد ليلى يطيب الإسراء

ولكن لابدّ من السلام على ليلى قبل الرحيل ، فقد صبرت النفس عن لقائها ثلاثة أيام ، بسبب حادثة وجدانية لا أجرؤ على تدوينها في هذه المذكرات ، وهي حادثة ضجّت لها أرجاء العراق ؛ ولكن لاموجب لتدوينها ، لأني أحب أن تموت وهي في المهد ، فقد تطويني طياً فأخرج من خدمة الحكومة المصرية وأفتح مكتب تصوير في بغداد ؛ وفي مصر رجل عظيم يعرف ما أعنى ، ويفهم كيف تستطيع هذه الحادثة أن تهدم ما بنيت من آمال

وأشهد أني كنت أملك نسيان ليلى أسبوعاً أو أسبوعين ، ولكن وقع ما لم يكن في الحسبان

وتفصيل ذلك أني رجل محزون ، محزون ، محزون ، ولوشئت لكررتها ألف مرة ، ولكني من أقدر الناس على الفرار من أحزاني . ولعلي أشبه الرجال بالشاعر الذي يقول :

جنَت عليّ الليالي غير ظالمةٍ ... إني لأهلٌ لما ألقاه من زمني
فما رأيتُ من الأخطار عادية ... إلا بنيت على أجوازها سكني
ولا لمحتُ من الآمال بارقةً ... إلا تقحمتُ ما تجتاز من قنن
أحلتُ دنياي معنًى لا قرار له ... في ذمة المجد ما شرَّدت من وسن

ولكن أحزاني تحقد على تجلدي أبشع الحقد. فتجمع جيوشها وتهجم عليّ من حين إلى حين ، وقد انتصرتْ في هذا اليوم مع الأسف الموجع ، فلم أجد مفراً من السلام على ليلى ، علّها تجفف دموعي وتبرّد أحزاني

إليك يا ليلى المرجع ، وإليك يا ليلى المآب

***

دخلت على ليلى في المصرية لأقضي في رعايتها أربع ساعات إلى أن يحين الموعد لقطار البصرة فماذا رأيت ؟ ماذا رأيت من ليلى ربة العطف والحنان ؟

تلقتني غاضبةً بعينين تقذفان بالجمر المتوقد ، وتحت قدميها ظمياء

— من أتى بك إلى هذه الدار ؟

— من أتى بي إلى هذه الدار ؟ هذه دار ليلاي !

— ليلاك ؟ وهل يمكن لرجل مثلك أن يطمع في أن أكون ليلاه ؟

— سيدتي ، ماذا حدث ؟ خبريني فقد طار صوابي

— وهل تجهل ما حدث ؟ اسأل قلبك إن كان لمثلك قلب !

— إن قلبي يشهد بأنني وفيٌّ أمين

— وفي مثل ما صنعت تكون الأمانة ، ويكون الوفاء ! !

— سيدتي ، ماذا حدث ؟ خبّريني فقد طار صوابي

— هل تنكر ما شاع عنك ؟

— وما الذي شاع عني ؟

— يقول أهل بغداد إنك كنت مثال السخف في سهرات المؤتمر الطبي . ويقولون إنك لم تترك سيدة إلا قبلت يديها ، وربما أوغلت في السخف فقبلت جبينها وخديها

كذبوا ، فأنا لم أغازل أكثر من عشرين سيدة

— ما هذا التظرف السخيف ؟

— ليلى ، إسمعي ، أنت حمقاء

— أنت وحدك الأحمق

أنا وحدي الأحمق ؟ صدقتِ يا ليلى ، فلو كنت أعقل لرأيت لنفسي ألف مذهب في الحياة غير مداواة الملاح !

— قلت لك إني أبغض هذا التظرف السخيف

— وهو كذلك ، تركت التظرف السخيف ، تركت التظرف السخيف ، ولكن اسمعي يا ليلى ، سأرحل عن بلادكم بعد شهرين أو ثلاثة ، وستبكين أيامي

— أبكي أيامك ؟ وهل كانت لك مني أيام يطول عليها البكاء ؟

— ليلى ، اسمعي واعقلي ، أنا لا أنكر ما وقع مني في سهرات المؤتمر الطبي ، ولكني رجل حزين يداوي جراح قلبه بالعبث والمجون

— أعرف أنك حزين ، لأني أعرف المرأة التي كوت قلبك

— ما كوى قلبي أحد ، وإنما هموى هموم رجال لا تعرفينها يا حمقاء

— أنت وحدك الأحمق

— شيء غريب ! أهذا أدب النساء في بغداد ؟

— هذا هو أدب النساء في بغداد ، وستعرف عواقبه بعد حين

— ليلى ، يظهر أنك امرأة كسائر النساء

— النساء أشرف من الرجال

— المرأة أجمل من الرجل ، ولكن الرجل أشرف من المرأة ، لأنه يحتمل مصاعب وأرزاء لا تحتملها المرأة ، ولو كنت في مكاني يا لئيمة ...

— أنت وحدك اللئيم

— من أين تعلمتِ هذه الألفاظ الغلاظ ؟

— تعلمتها منك !

— هل يسرك أن نفترق ؟

— في أمان الله !

***

وخرجت من غرفة ليلى والدمع في عيني ، فهذه آخر مرة أرى فيها المرأة التي آنست وحشتي في بغداد . نعم هذه آخر مرة أرى فيها المرأة الجميلة التي عرفتُ بها كيف استطاع العراق أن يسيطر على الآداب العربية مئات من السنين . هذه آخر مرة أرى فيها المرأة الحلوة العذبة التي جمحت قلبي أطوع قلم ، وجعلت بياني أعظم بيان . هذه آخر مرة أشرب فيها صُبابة الكأس ، وألقي سيفي وأطوي لوائي ، إلى آخر الحياة ، إن كان لمثلي بعد ليلى حياة ! !

وفي تلك اللحظة بكت السماء على غير موعد فظننتها تبكي لبكائي ، أنا العاشق المسكين الذي لم يحفظ له جميل

وقد سقطتُ على السلم مرتين ، فرأيت من الحزم أن أجلس لحظة في الحجرة التي تقارب الباب إلى أن تجف دموعي وترجع قواي

وما كدت أجلس حتى أدركتني ظمياء وهي تقول في تلهف :

عيوني ! دكتور زكي ! عيوني ، تعال ، تعال

ومدت يدها لترجعني إلى ليلى ، فدفعتها بعنف ، وخرجت

***

وفي أثناء الطريق عاد صوابي ، وقد عجبت من أن يعود بهذه السرعة ، ولكن قلب المحب له أحوال ... وتذكرت أن ما وقع من ليلى غير مستغرب من النساء ، فإن من هوى المرأة أن تجحد

الجيل . تذكرت أن المرأة يؤنسها ويبهجها ويرضيها أن تنكر على الرجل كل شيء ، وهي تجد لذة في الجحود وتستروح به كما تستروح بعض الأفاعي بسواد الليل

وتذكرت أخطائي في معاملة النساء ، فقد كنت دائماً أعامل النساء معاملة وحشية ، لأنني عشت دهري مدللاً بين الملاح ، ولكن هذا الدلال كانت له عواقب سود ، فقد أضاع عليّ فرصة سأندبها ما حييت : أضاع عليّ المرأة الجميلة التي اتصلت بها منذ سنين بشارع الباطنية ، المرأة التي قسّم الله جسمها أجمل تقسيم ، وصاغها على أفضل نظام ؛ المرأة التي كانت تقول في كل لحظة : إيش سوّيت لي ؟ إيش صنعت لي ؟ وكنت يومئذ جاهلاً . وأي جهل أقبح من دعوة المرأة إلى حفظ الجميل ؟ وقد حملني هـذا الجهل على هجر تلك المرأة بقسوة وعنف .. ثم تطلّع إليها القلب بعد ذلك ، ولكني واحر قلباه عرفت أن رجلاً تزوجها ونقلها إلى دمياط

وكانت تلك المرأة على جانب عظيم من العفاف ؛ ولكني لا أزال أسأل : كيف كان يجوز في شريعتها أن تتمدد أمامي على السرير في غير ريبة ؟ وكيف كان يطيب لها أن تعرض عليّ محاسن جسمها في غير سوء ؟

أحب أن أعرف ما اختلف وما ائتلف من سرائر النساء ، فمتى أعرف ؟

أخشى أن يكون مصيري مصير الفرّاء الذي مات وفي نفسه شيء من حتّى !

والعشاق كالنحويين يموتون وفي أنفسهم أشياء
وحالى أغرب الأحوال ، لأني نحويٌّ وعاشق

* * *

وتذكرت أن ليلى كانت قد رقّت ولطُفت في الأيام الأخيرة ، فكنت أنعم منها بفنون من الأنس لا تحيط بها أوهام ولا ظنون . وتذكرت أني سأكون ألأم الناس إذا نسيت تلك المعاني الوجدانية التي كنت أتلقاها من عيني ليلى في كل لقاء ، وتذكرت أنها عراقية ، وأهل العراق كأهل بدر تُغفَر لهم جميع الذنوب

أرجع إلى ليلى ؟ أرجع ؟
لا . لن أرجع

ولكن ليلى مريضة ، وهجر المريض لا يستبيحه طبيب أمين

أعود إلى ليلى أعود
أعود إلى ليلى ، أعود

أعود إلى المرأة التي قالت إنها تشتهي أن تموت ورأسها إلى صدري . أعود إلى المرأة التي ملأت رأسي بالنور ، وغمرت قلبي بالحنان . أعود إلى المرأة التي أعزتني أكرم إعزاز ، ورعتني أشرف رعاية . أعود إلى ليلى ، أعود إلى ليلاى

وفي أي قلب غير قلبي تحيا معاني الوفاء ؟

سيموت الرفق يوم تموت ليلى ، وسيموت الشّعر يوم أموت

أعود إلى ليلى ، أعود

ولكن ليلى أهانتني وجرحتني

لا بأس ، فليس يعيب الرجل أن تهينه الملاح . وأي هوان أقبح مما استبحت لنفسي في حيّ الحلمية يوم رجوت إحدى معشوقاتي أن تسمح لي بتقبيل نعليها

وكانت قبلة شهية جداً

أعود إلى ليلى ، أعود

أعود إلى الغرفة التي تزدان بمؤلفاتي وهي في صوان خاص ، وقد وُشّيت بالذهب وأُسدِلت عليها ستائر الحرير الشفاف ، ثم أرى ما تصنع ليلى ، فعهدي بها تنظر إلى الصوان الذي يضم مؤلفاتي وتقول : هذا زكي مبارك العالم وهو رجل محترم ، ثم تشير إلي وتقول : وهذا زكي مبارك العاشق وهو رجل سخيف :

عفا الله عن ليلى الغداة فإنها إذا وُلّيتْ حكماً عليّ تجورُ

وما هي إلا لمحة طرف حتى كنت عند ليلى فرأيت المسكينة في حالة تثير الدمع من أقسى الجفون

ونظرت إليّ ظمياء في حنان وهي تقول : لقد صح أملي فيك فقد أكدت لليلى أنك سترجع وما كانت تصدّق أنك سترجع

وتسكت ليلى فلا تتكلم ، كأنها تقاسي نوبة إغماء ، ثم تفتح عينيها بتكلف وتقول :

— أنتم يا رجال ليس لكم أمان !

وأكاد أصعق ، لأني سمعت هذه العبارة مليون مرة ، ولعلها أول جملة سمعها آدم من حوّاء

— ليلى !
— مولاي !

— مولاك ؟ وكنت من لحظات ترفضين أن تكونى ليلاى ؟

— إن رجوعك بهذه السرعة يشهد بأنك عليل ، وقد صدق خصومك فى لبنان حين سموك « قيس المريض فى العراق »

— سنفترق فى حزيران

— ومن يضمن أن نحفظ العهد إلى حزيران ؟

— تأدبى ياليلى ، فستبكين أيامى بالدمع

— تأدب أنت ، فستبكى أيامى بالدم

— الرجل أوفى من المرأة

— لم يخلق الله أغدر من الرجال

— المرأة سخيفة

— الرجل أسخف

وعند هذا الحد تدخلت ظمياء وهى تقول : أتريدون أن تمثلوا الرواية من جديد ؟ أنا لا أسمح لكم بهذا العبث ، اسكتى يا ليلى اسكت يا زكى

وقد عجبت من أن تكون لظمياء هذه السيطرة ، وأن ترفع الكلفة فى مخاطبتى مع أنى أستاذ عظيم . فقلت : وما شأنك أنت يا بنت ؟

فأجابت : احفظ أدبك ، فأنا حارسة هذا البيت ، وأنا ستّ الكُل .

— ست الكل ؟

— نعم ست الكل ! ألا تفهم ؟

ثم رفعت يدها ولطمتنى لطمة غارت منها ليلى ، فنظرت إليها بغضب وقالت : الغزَل ممنوع فى هذا البيت !

وكانت ظمياء كالعصفورة التى يفزعها المطر فتفزع إلى نوافذ البيوت وتزقزق لترحمها القلوب ، فتدخلتُ لإنصافها وقلت : ما هذا غزَلاً ، إن هذا إلا تأديب

— ولن أسمح ليد أن تؤدبك غير يدى

— شرع الله ولا شرعك يا ليلى

فلطمتنى الشقية لطمة أحر وأعنف

ولم أفكر فى الدفاع عن نفسى ، وإنما أخذ قلبى يسأل : أى الكفين أندى وأرق ؟ كف ليلى أم كف ظمياء ؟

إن عينى تعودت كل هند جمعت كفها مع الرفق لينا

ومن الواضح أن هذا الاعتداء كان إيذاناً بانتهاء الخصام

وفى لحظة واحدة تحولت الدار إلى بحر يموج بالبهجة والانشراح

* * *

— ليلاى !

— مولاى !

— أنا أحبك !

— وأنا أبغضك !

— سمعت أنك بصرية

— أبى بصرىٌّ أما أمى فموصلية

— وأنا أستأذنك فى زيارة البصرة

— لا تفعل

— ولماذا ؟

— البصرة لا تزار فى هذه الأيام ، وإنما تزار فى الموسم

— أي موسم ؟

— موسم التمر ، حين تذهب الصبايا إلى النخيل مع تباشير الصباح ، موسم العيون والقلوب ، موسم الصيد يا جهول

— جهول ؟ وأنا أستاذ عظيم ؟

— الأساتذة أجهل الناس ، لأنهم يكتفون بما فى الكتب من وصف الأشياء ، ويجهلون حقائق الأشياء

ولكن أنا أحاول الوصول إلى حقائق الأشياء

— وإذاً فلن تصلح للأستاذية

— وكيف ؟

— ألم تفهم يا غافل أن الرجل لا يصلح للأستاذية إلا إذا كان قطعة من الثلج ؟ الأستاذ الحق فى بلاد الشرق هو الرجل الذى يحفظ

— ولا يعقل ؟

— ليس من الضرورى أن يعقل ، لأنه لا يشترط فى الأساتذة عندنا أن يكونوا يعقلون . الأستاذ الحق يا غافل هو الرجل الذى يضيع نصف الوقت أو كل الوقت فى التبرم بالمجتمع ، ويقول فى كل حين :

هذا الزمان الذى كنا نحاذره فى قول كعب وفى قول ابن مسعود
إن دام هذا ولم يحدث له عوض لم يُبك ميت ولم يُفرح بمولود

أو كما قال : يهمنى أن أعرف شيئاً فى هذا الموضوع يا ليلى ،

فأنا طبيب أضاعه الأدب ولم يبق أمامه غير احتراف التدريس

— زين ، زين ! وأنا أعلمك ، ولكن ادفع الثمن

— وما هو الثمن ؟

— قبّل يدى

— أقبّل يديك ورجليك يا ليلى

— اسمع يا زكي

— أنا الدكتور زكى

— لن تكون دكتوراً إلا يوم تصبح مثال الغباوة والجهل

— وهو كذلك . هاتى ما عندك يا داهيه !

— اسمع أيها الطفل الكبير ! إن الأمم المتأخرة تعيش بعقل القرن التاسع قبل الميلاد ، يوم كانت الأستاذية وقفاً على الكهان ، والكهان كانوا قوماً منافقين ، وإليهم كان الأمر فى التعليم والتثقيف ؛ وهم الذين سيطروا على المصريين والآشوريين والكلدانيين . ومن واجبى أن أحذرك عواقب الثقة بأهل عصرك من أهل الشرق ، فهم يتظرفون ليقال إنهم متمدنون . والبرهان على ذلك أنهم لا يشهدون لمحة من ضوء الفكر إلا أطفأوها بالبصق لا بالماء . فاحترس يا غافل من الثقة بأهل زمانك فانى أخشى أن أسمع من أخبارك ما يسوء بعد حين

— سيدتى ! إن مصر تحضرت وهى تقود الشرق

— لن أصدق أن مصر تحضرت إلا يوم يقام المرقص فى ميدان الأزهر كما يقام المرقص فى ميدان السوربون

— أنت سخيفة يا ليلى !

— وأنت أسخف !

— أنت لئيمة

— أنا أعرف ما تريد ، أعرف أنك تريد أن أعرك أذنك ، ولكنى لن أفعل

— ولماذا يا شقية ؟

— لأنك جهول

— أنا عالم علامة

— لو كنت عالماً لما فضحت نفسك بنشر أحاديث الحب فى الجرائد والمجلات

— إذاً ماذا أصنع ؟

— اكتم غرامك ونافِقْ ، كما يصنع فلان الذى يلقى الله بالفجور ويلقى الناس بالعفاف

— ولكن أنا أحب أن ألقى الناس بالفجور وألقى الله بالعفاف .

— غلَبتنى أيها المؤمن ، فإن الذى يصلح ما بينه وبين الله لا يضره أن يفسد ما بينه وبين الناس

— وآية ذلك يا مولاتى أن تلاميذى لم يفسد رأيهم فىّ أبداً ، فما اشتغلت بالتدريس فى معهد إلا شهدت أحجاره بأنى أصدق من عرف من المدرسين

— أنت إذاً موفَّق

— تحبيننى يا ليلى ؟

— أنا أبغضك !

— ولكن أنا أحبك !

— أمامك دجلة ، فاكرع منها كيف شئت !

— أستأذنك فى السفر إلى البصرة

— فى رعاية الله وأمان الهوى

— ألا تغارين من سفرى إلى البصرة ؟

— أنا لا أغار عليك !

— أنت إذاً لا تحبيننى !

— ما أنكر أنى أحبك بعض الحب ، ولكن لا موجب للغيرة ، فقد ضمنت أن تكون لى طول عمرك . ولقد قيدت قلبك بقيود من حديد . أما سمعت ما قال أحد فضلاء المحاضرين بمحطة الاذاعة الفلسطينية ؟

— وماذا قال ؟

— قال إنك تحبنى ، وأننى وهبتك الخلود ، وما يقال فى فلسطين تسجله السماء

— وأقول فى البصرة إنى أحب ليلى ؟

— قل فى البصرة إنك تعبد ليلى ليكرموك

— وأنت تحبيننى ؟

— أنا أبغضك

إلى البصرة ، إلى البصرة ! إلى وطن ليلى التى تبغضنى أمتطى قطار المساء ، وأنا على موعد مع صاحبة العينين ، فما الذى سيحدث فى القطار وفى البصرة ؟ أمرى إلى الله وإلى الحب !

« للحديث شجون » زكى مبارك

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٢٥ —

« معذرة إلى القراء من هذه الفترة التي انقطعت فيها عن الكتابة ، وأشكر لهم . وعليّ العهد لهم أن أوالي الكتابة حتى أفرغ من هذا التاريخ . ومعذرة ثانية إلى صديقي الأستاذ محمود أبورية مما كان مني إليه ، وسيأتيه ردي بعد قليل »
العريان

الرافعي والعقاد

لما مات المرحوم شوقي في خريف سنة ١٩٣٢ ، اهتزت لموته المجامع الأدبية في مصر والشرق ؛ فما تجد من كاتب أو أديب من أبناء العروبة إلا اهتم لهذا النبأ واحتفل به . وتهيأت « المقتطف » لكتابة فصل أدبي عن أمير الشعراء ، فأفرغت بضع عشرة صفحة من العدد الذي كان موشكاً أن يصدر ، وأبرقت إلى المرحوم الرافعي في طنطا أن يكتب هذا الفصل ويرسله إليها في أيام قبل أن يتم طبع العدد

ولم يكن بين الرافعي وشوقي من صلات الود ما يتيح له أن يعرف شيئاً من حياته يعينه على دراسة أدبه ؛ ولا كان الرافعي مستعداً لهذه الدراسة ولا تهيأت له من قبلُ أسبابها ودواعيها لينشئ موضوعه على الوجه الذي يرضاه في ذلك الوقت العاجل . وإن الرافعي لكثير الأناة والتأنق فيما يكتب ، فلا يبدأ في إنشاء موضوعه حتى يخلّي له فكره أياماً وليالي ، يبحث ويوازن ، ويزاوج ويستنبط ؛ ثم يتهيأ للكتابة وقد استوى الموضوع في فكره كأنما قرأه لساعته في كتاب . ولكن كل أولئك لم يمنع الرافعي أن يجيب محرر المقتطف إلى ما طلب ، وأرسل مقاله في الموعد المضروب . وكانت دراسةً أعتقد أن أحداً من كتاب العربية لم يكتب مثلها عن شوقي أو يبلغ ما بلغ الرافعي بمقاله ، فأنصف شوقي ، وجلّى عبقريته ، وكشف عن أدبه وفنه ومذهبه . دع عنك بعض هنوات قليلة لا تغض من قيمة هذا البحث الفريد

(*) راجع العدد ٢٤١ من الرسالة

وكان مما أخذ الرافعي على شوقي وسماه غلطاتٍ في النحو أو اللغة ، أن شوقي ابتدأ بالنكرة في قوله :

ليلى ! منادٍ دعا ليلى نخفّ له نشوانُ في جنبات الصدر عربيد

وهي هناة صغيرة قد يجد لها بعض العلماء بقواعد العربية وجهاً من التعليل وباباً من العذر

والعقاد أديب له شهرته العريقة في عداوة شوقي والزراية بأدبه وفنه ؛ فما يعرف أدباء العربية أحداً كان أبلغ عداوة لشوقي أو أحدّ لساناً في نقده من العقاد !

ولكن العقاد لم يكد يفرغ من قراءة مقالة الرافعي في المقتطف ، حتى تناول قلمه ليكتب كلمة يرد بها رأي الرافعي في نقد هذا البيت ويعتذر عن شوقي ... وكان للعقاد نصيب من التوفيق فيما كتب !

ليت شعري ، أفعلها العقاد دفاعاً عن شوقي وهو مَن هو في عداوته ، أم تحدياً للرافعي ؟

أفلم يجد العقاد في بضع عشرة صفحة يكتبها الرافعي مباهياً بشوقي ، مفاخراً بأدبه وفنه وعبقريته شيئاً يستحق الرد والتعليق غير هذه الكلمة ؟ هذا سؤال سألته نفسي يومئذ ، وأحسب أن كثيراً من القراء سألوه أنفسهم ؛ ولكن جواب هذا السؤال معروف لكل من يعرف ما كان بين الرافعي والعقاد ، ثم ما كان بين العقاد وشوقي منذ قريب !

وقال لي الرافعي : « ماذا ترى فيما كتب العقاد ؟ »

قلت : « أنا وهو على رأي واحد فيما يردّ به ! »

فط شفتيه ساخراً وهو يقول : « أخطأت ، وأخطأ العقاد ، وأخطأ المتأخرون من علماء النحو في العربية ... ليس الرأي ما يقول العقاد وتوافقه عليه ... »

وتملكه عناده وكبرياؤه ؛ فأنشأ مقالة طويلة مسهبة يرد بها رأي العقاد ، ويصر على تخطئة شوقي في الابتداء بالنكرة ، ويتهم المتأخرين من علماء النحو بالغفلة وقلة البصر بأساليب العربية ؛ ثم يفيض ويسترسل في بيان أوجه الابتداء بالنكرة وما يصيب منها وما يخطئ

وإذا لم يكن لي في هذا المجال أن أصرح بالرأي فيما كتب الرافعي في هذا الموضوع ؛ فإن لي أن أرد كل شيء إلى أسبابه ، فأزعم أن الرافعي لم يكتب ما كتب خالصاً لوجه العربية ، ولكنها الكبرياء والاعتداد بالنفس وخوف الهزيمة أمام العقاد في معركة أدبية ! ...

ولست أكتم هنا أن الرافعي كان يسيء الظن بفهم العقاد لقواعد اللغة ؛ فما يرى له شيئاً من مثل ما كتب في ذلك الموضوع مما يشير إلى بصره بقواعد العربية إلا اتهمه بأنه يستمين فيه بأصدقائه من أهل العلم بهذه اللغة . وأحسبه قال لي مرة : إن الذي يمين العقاد في ذلك هو صديقه الأستاذ عباس الجمل !

وانتهت هذه المعركة الصغيرة ولم تسفر عن أشلاء ، ولكني أحسب أن الرافعي نفسه لم يكن مقتنعاً بما كتب في الرد على العقاد فبقي في نفسه شيء يحمسه إلى معركة جديدة ، فلم يلبث إلا قليلاً ثم كانت المعركة الفاصلة ...

وحي الأربعين

وكانت هدنة استمرت بضعة أشهر ، ثم أصدر العقاد ديوانه « وحي الأربعين »

ومضى أسبوع أو أسابيع بعد صدور الديوان ؛ ثم كان عيد من الأعياد ، فغدوت على بيت الرافعي لأهنئه ، ثم خرجنا نطوف ببيوت بعض الأصدقاء ؛ حتى انتهى بنا الطواف إلى دار صديقنا الأديب الأستاذ حسنين مخلوف . والأستاذ مخلوف أديب مطلع ، لا يفوته كتاب مما تخرج المطبعة العربية . فلم يكن ثمة بدٌّ من الحديث في الأدب ، وفي الشعر ، وفي المطبوعات الجديدة ، وهو حديث يحلو للرافعي ، ويحلو لمخلوف ، ولو استغرق هذا الحديث سحابة يوم العيد من الضُّحا إلى العصر ، والبطن خاو يطلب الطعام ، ورائحة الشواء تفوح في بيت المضيف وفي بيوت الجيران !

وسأل الرافعي مضيفه : « ماذا عندك من الجديد في الكتب؟ »

وضحك مخلوف وهو يغمز بعينه ويقول : « وحي الأربعين ! »

ووجد الرافعي طلبته ، فدعا بالديوان الذي يود أن يقرأه منذ أيام ويمنعه من شرائه أنه كتاب العقاد ... !

وجاء الديوان فوضعه الرافعي بين يديه وقال : « لست أريد أن أتجنى على العقاد الشاعر أو أحكم في ديوانه برأي قبل أن تتهيأ لي أسبابه ؛ وإني لأخشى أن أفتح الكتاب فتقع عيني أولَ ما تقع على أردإ ما فيه فأحكم على الديوان ببعضه ، وقد يكون فيه الجيد ، وما هو أجود ، وما تتقاصر أعناق شعراء العربية دون الوصول إليه . وإن بيني وبين العقاد لسابق عداوة ، وأنتما بريئان من التهمة وسوء الظن ؛ فدونكما الديوان فقلّبا فيه النظر ، وتداولا فيه الرأي ، ثم دُلاني على أجود ما فيه لنقرأه معاً فنحتكم له أو عليه مجتمعين ؛ ثم يكون ما اتفقنا عليه من الرأي في هذا الجيد المختار هو الرأي في الديوان كله ، من غير أن يتغلب الهوى أو تتحكم الشهوة ... ! »

ورضينا رأي الرافعي ، فأخذنا الديوان نقلبه صفحة صفحة ، ونقرأه بيتاً بيتاً ؛ والرافعي منصرف عنا إلى كتاب بين يديه ... ومضت فترة ، واستبطأنا الرافعي فيما دعانا إليه فقال : « أحسبكما لم تجدا ما تطلبان ! ولن تجدا ... ... إذن فلنقرأ الديوان معاً من فاتحته ؛ فما أحسب الشاعر يختار فاتحة الديوان إلا من أجود شعره ... ! »

وتناول الديوان يقرأ منه ونستمع إليه . ووقفنا عند أشياء ، وتداولنا الرأي في أشياء . وكان أكثرنا حماسة في النقد هو الأستاذ مخلوف . ومضت ساعات ونحن نقرأ ، ولكل رأي يبديه . ثم طوينا الديوان وأخذ الأستاذ مخلوف يتحدث في موضوعه ...

وقال الرافعي يخاطبه : « ... وما دمت على هذا الرأي في الديوان فلماذا لا تنشره ؟ إن لك لساناً وبياناً ، وإنه لنقد يستحق أن يقرأه أدباء العربية ... ! »

وتردد مخلوف قليلاً ثم سمع مشورة الرافعي ... وتهيأ لكتابة نقده ...

ومضى أسبوع ، ثم نشر « المقطم » في صدره مقالا مجوّداً للأستاذ مخلوف في نقد ديوان وحي الأربعين ، تناوله بأدب وهدوء في بضعة عشر موضعاً ، وأرجأ بقية النقد إلى عدد تال .. ومضى يومان وكتب العقاد في صحيفة الثلاثاء من جريدة الجهاد ردّه على مخلوف ...

لم يكن مخلوف حين كتب مقاله الأول للمقطم مقدِّراً أن الأستاذ العقاد سيتناوله بهذه القسوة ، ولكنه فوجئ مفاجأة شديدة بما كتب العقاد ...

لم يرد العقاد على مخلوف ردَّ الأديب على ناقده ، ولكنه راح يتهكم عليه ويسخر منه ويستهزئ بعلمه وأدبه ومقدرته على فهم الشعر . وإذ كان مخلوف من مدرسي اللغة العربية في مدارس الحكومة ، فإن العقاد قد انتهزها سانحة ليطعن على مدرسي اللغة العربية في مدارس الحكومة ، ويلحد في كفايتهم وعلمهم ، ويعود بالسبب في ضعف اللغة العربية في المدارس على مخلوف وزملاء مخلوف . ولم تسلم مدرسة دار العلوم ، ولا واحدٌ من

مدرسي اللغة العربية ، من تهكم العقاد وسخريته في هذا المقال ، لأن واحداً منهم كتب ينقده ويحاول ردّه إلى الصواب فيما رآه أخطأ فيه ... !

وكتب مخلوف مقاله الثاني يردّ مطاعن العقاد ، ويتمم ما بدأ في نقد وحي الأربعين ؛ ولكن المقطم أغلقت دونه الباب ولم تنشره ، كرامة للعقاد وحرصاً على مودته ...

وغضب مخلوف وتألم ، ولكنه طوى صدره على ما فيه ...

وكنا جماعةً من مدرسي اللغة العربية نصلي الجمعة كل أسبوع في مسجد المنشاوي بطنطا ، فلقينا هناك مخلوف ؛ فما رآه المدرسون حتى انهالوا عليه وركبوه بالعتب القاسي ، وكلهم قرأ مقال العقاد في الطعن على مدرسي اللغة العربية بسبب مخلوف ، وما منهم من قرأ مقال مخلوف إلا قليل . وحاول مخلوف أن يعتذر ، ولكن اعتذاره ضاع بين ضجيج إخوانه وحملتهم عليه فلم يستمع له أحد !

وقلت للرافعي مازحاً ولقد لقيته بعد ذلك : « لقد كنت أنت السبب فيما نال مخلوفاً من إخوانه ، وفيما نال مدرسي اللغة العربية من لسان العقاد ؛ فأنت الذي هِجْتَ مخلوفاً إلى هذه المعركة ، فانتهت إلى ما انتهت إليه بينه وبين إخوانه ؛ وكانت سبباً فيما كتب العقاد عن دار العلوم ومدرسي اللغة العربية ... »

وكان لمخلوف عند الرافعي منزلة ، ولدار العلوم في نفسه مكان . ولكنه أجابني : « وما ذا عليّ أنا فيما كتب مخلوف ، وفيما ردّ العقاد ؟ »

قلت : « لولاك لم يكتب مخلوف فيتعرض لما تعرض له من لسان العقاد ومن عتب إخوانه . ولولا ما كتب مخلوف لبقيت دار العلوم بريئة من العيب لم يطعن فيها العقاد ولا غير العقاد ! »

وقصدت فيما قلت — ومعذرة إلى الأستاذ العقاد — أن أهيج الرافعي للكتابة عن العقاد ، فيشهد أدباء العربية معركة جديدة بين الأديبين الكبيرين يكون لهم من ورائها نفع ومتاع ولذة ... وبلغت ما قصدت إليه ، ووعد الرافعي بأن يكتب ما في نفسه من ديوان وحي الأربعين ، ولكن على شرط : أن أشتري له نسخة على حسابي من الديوان ، لأن عليه قَسماً من قبل ألا يدفع قرشاً من جيبه في كتاب من كتب العقاد ... !

ونفّذت الشرط ، وتهيأ الرافعي للكتابة عن وحي الأربعين ؛ ومضت أيام ، ثم دعاني ليملي عليّ مقاله الأول في نقد وحي الأربعين

« شبرا » محمد سعيد العريان



كنت أشكو ذات يوم عسراً في الهضم وقلة في النوم ، وأضيق ذرعاً بالأدب والأدباء ، وإذا بزائر أديب يلح في طلب رؤيتي ولا يريد أن ينصرف حتى يجاب إلى ما طلب . وعلمت أنه ممن لم يسبق لهم أن رأوني ؛ فخطر لي خاطر سريع : ناديت تابعاً لي وأجلسته إلى مكتبي وطلبت إليه أن يقابل الزائر باسمي ، وانتحيت أنا جانباً أقرأ إحدى الصحف . ولم يلبث الزائر أن دخل وسلم على تابعي في احترام قائلاً :

— يا أستاذ ! إني سعيد جداً إذ استطعت أن أراك . فأنا من قرائك المدمنين ، اقتنيت كل كتبك ، وطالما رسمت لك في مخيلتي صورة أراها الآن طبق الأصل ... فالحمد لله لم يخب ظني في شيء . إني أراك الآن كما تخيلتك بين سطورك

فطرحت من يدي الصحيفة ونظرت إلى الرجل محلقاً . أهذا الرجل جاد صادق ؟ لاشك عندي في ذلك ، فكلامه مفعم بالحرارة والاخلاص ، ولكن كيف انطبقت تلك الصورة « طبق الأصل » على غير « الأصل » بهذه السهولة ؟ ! وجعل هذا الزائر يكثر من ترديد اسمي ويسبغه في اقتناع على سكرتيري الجالس إلى مكتبي ، فشعرت بخلجة من شك هزت نفسي . ماذا بقي مني إذن ؟ هذا هو « توفيق الحكيم » إلى مكتبه كما يعتقد الآن هذا الزائر ، وتلك صورته كما ظهرت له من بين السطور . أما أنا فشيء لا علاقة له بهذا الرجل ولا بما قرأ . إسمي قد انفصل عني وانتزع مني في تلك اللحظة كما تنتزع الأمضاء عن « الكمبيالة » . وما أنا في تلك الساعة إلا كتلة من لحم ودم ملقاة على مقعد ! وقد خيل إليّ أن لفظ « توفيق الحكيم » ليس أكثر من « ماركة » توضع فوق كتب ، مثل ماركة « الفابريكة » فوق علب « السردين » . إن بعض « الأسماء » لتتخذ لها أحياناً حياة مستقلة عن أصحابها . وهذا « الاسم » هو وحده الذي يباع ويشرى في سوق المكاتب والوراقين ، ولدى الصحف والمجلات ؛ أما الشخص فقد لا يعني أمره كثيراً من الناس . ولأول مرة أدركت أني غير موجود في نظر الجمهور باعتباري « شخصية آدمية » ؛ إنما الذي يعاملونه هو « الشخصية المعنوية » ، فمثلي في ذلك إذن مثل شركة « النور » و « الغاز » و « المياه »

توفيق الحكيم

إبراهيم بك المويلحى

١٨٤٤ - ١٩٠٦

بقلم حفيده ابراهيم المويلحى



السيد إبراهيم المويلحى بن السيد عبد الخالق بن السيد إبراهيم بن السيد أحمد ابن السيد الشريف مصطفى وكيل المويلح. ينتهى نسبه إلى الحسين من جهة أبيه ، وإلى الحسن من جهة أمه

فأسرة المويلحى يمتد نسبها إذن إلى الصادق « محمد صلى الله عليه وسلم » وإلى الصديق « أبي بكر » . وهذا النسب ثابت ثبوتاً قضائياً يرجع إلى أحكام شرعية مصرية ، لا إلى مجرد « الثبوت الإداري » المعروف فى مصر

والمويلحى نسبة إلى المويلح « بلدة فى جزيرة العرب على شاطىء البحر الأحمر كانت تابعة لمصر فى عهد « على بك الكبير » حتى سنة ١٨٩٢ ميلادية ، ثم ضمت إلى ولاية الحجاز

وقد انقسمت هذه الأسرة قسمين أحدهما فى مصر والآخر فى المويلح

وأول من وفد إلى مصر من المويلحيين السيد أحمد المويلحى بعد خدمة أداها لمحمد على باشا الكبير فى تسكين فتنة الوهابيين ثم أقام بها ، وأسس بيتاً تجارياً بجهة التربيعة بالقاهرة

ورزق السيد أحمد المويلحى بالسيد إبراهيم المويلحى جد صاحب هذه الترجمة ، فشب على حب الأدب وأولع به . وكان لا يخلو مجلسه من الأدباء والشعراء يطارحهم ويذاكرهم ، فكانت ألسنة الوجهاء تلهج بذكر أدبه وشعره ، حتى بلغ أمره « حبيب أفندى » كخيا المغفور له « محمد على باشا » فجعله كاتبه

ولقد أدى إبراهيم خدمة جليلة لوالى مصر « محمد على » فحفظها له البيت الخديوى ، فانتفع بها المترجم له فى حالة عسره كما سيتبين لك فيما بعد

ورزق السيد إبراهيم بالسيد عبد الخالق الذي انتحى ناحية الاشتغال بالتجارة فشب على حبها وأفرغ همه فيها ، فذاعت شهرته بصناعة نسج الحرير التى كانت رائجة بمصر فى ذاك الوقت فجمع ثروة طائلة

ثم أنجب ولدين هما « إبراهيم » صاحب هذه الترجمة ، و « عبد السلام » واستقر رأيه على أن يجعل من إبراهيم رجلاً تجارياً . فبعد تعليمه العلوم الابتدائية فى البيت ، أخذ يوجهه نحو الاشتغال بالتجارة ، وأبقاه فى محله التجارى وأرسل أخاه « عبد السلام » إلى الأزهر ليكون عالماً . ولكن شاءت إرادة الله أن يكون إبراهيم هو العالم والأديب ، وأن يتفرغ عبد السلام فيما بعد للتجارة ومزاولتها ، فنهض فيها نهضة إبراهيم فى العلم والأدب

فكان إبراهيم مولعاً بالأدب والشعر منذ حداثة سنه ، وقد ورث ذلك عن جده ابراهيم ، ومن حسن حظه أن كان بجوار محله التجارى عطار لم يحضرنى اسمه كان من العلماء الأعلام الذين لم تتغلب عليهم التجارة فتنسيهم العلم ، فتتلمذ عليه إبراهيم بغير علم من والده ، فدرس عليه علوم الأدب والبلاغة والنحو والعروض حتى نبغ فيها

ومن نوادر ماروى عن رغبته فى العلم والتحايل على الحصول عليه أنه كان معه بواب للمحل يدعى « على الأشمونى » فكان يتفق معه على أن يقف على ناصية الطريق حتى إذا ما رأى والده السيد عبد الخالق مقبلا نحو متجره راكباً مطيته يهرع إلى السيد إبراهيم المنشغل بدرسه ليقطع عليه لذة الدرس وينبهه إلى حضور والده السيد عبد الخالق ، فيذهب إلى المتجر متظاهراً بمداومة العمل

وما كان يخطر له ولا لوالده أنه سيجعل الأدب مهنته ، وهى

يومئذ مهنة الفقراء ، ولكن الأقدار ساقته إلى الاشتغال بها . فكان من أعظم نوابغها

وظل إبراهيم فى حجر والده آمناً سعيداً حتى توفى الوالد سنة ١٢٨٢ هجرية (١٨٦٥ ميلادية) فتولى هو تجارة أبيه وقبض على ثروته التى تبلغ ثمانين ألفاً من الجنيهات ، وجرى على خطته فى العمل حيناً فازداد تقدماً وصار عضواً فى مجلس التجار وعضواً فى مجلس مصر الابتدائى

ولا يفوتن القارىء أن كل هذه المشاغل لم تحل دون ميله للأدب والشعر إذ كانت هذه الملكة تنمو فيه شيئاً فشيئاً بين مشاغل السياسة والادارة والتجارة ، فاتفق مع المرحوم « عارف باشا » أحد أعضاء مجلس الأحكام وصاحب المآثر الكبرى فى نشر الكتب على تأسيس « جمعية المعارف » وكان جل همها نشر الكتب النافعة وتسهيل اقتنائها ، ثم أنشأ « إبراهيم بك » مطبعة باسمه سنة ١٢٨٥ هجرية (١٨٦٨ ميلادية) لتطبع تلك الكتب ، وتعد من أقدم المطابع المصرية ، وكانت كثرة العمل فيها تدفع الجمعية إلى طبع جزء من كتبها فى بعض الأحيان بمطابع أخرى ولا سيما « المطبعة الوهبية »

ولا شك فى أن هذه الجمعية كانت صاحبة اليد الطولى فى نشر كثير من الكتب القيمة ككتاب « تاج العروس » و « أسد الغابة » و « رسائل بديع الزمان » و « سلوك المالك » و « ألف با » و « محاورات الأدباء والشعراء والبلغاء » وغيرها مما جعل لهذه الجمعية شأناً كبيراً فى تاريخ النهضة الأدبية الحديثة

أما صاحب الترجمة ففى السنة الثانية من إنشاء مطبعته اتحد مع « محمد عثمان جلال بك » لإصدار جريدة عربية سماها « نزهة الأفكار » ولم يكن من الصحف العربية يومئذ بمصر إلا « جريدة وادى النيل » و « الجريدة الرسمية »

ولسوء الحظ لم يصدر منها إلا عددان ، ثم أظهر المرحوم « شاهين باشا » للخديو إسماعيل تخوفه مما سوف تثيره مقالاتها من الأفكار وتولده من الفتن ، فأصدر الخديو أمراً بالغائها . وظلت المطبعة على ما هى عليه من طبع الكتب الأدبية والتاريخية والفقهية لجمعية المعارف ، كما كان يطبع المترجم كتباً على نفقته الخاصة

وكانت مضاربات البورصة حديثة العهد بمصر ، وقد تشدق الناس بمعجزاتها فى سرعة الإثراء . ولما كان إبراهيم طلاباً للعلا لم يكتف بما عنده من الرزق الواسع وحدثته نفسه بطلب المزيد ، فاندمج فى صف المضاربين ، يربح تارة فيطمع فى المزيد ، ويخسر أخرى فيطلب التعويض . وما هلت سنة ١٢٨٩ هجرية (١٨٧٢ ميلادية) حتى استنزف ثروته ، وأثقل بالديون وكاد البيت يتزعزع ، فرأى الخديو إسماعيل من اللازم أن يقيم أود ذلك البيت المشهور بعزه وجاهه فقال لشريف باشا وثابت باشا : « إن ما سأصنعه لهذا البيت واجب على ذمتنا ، فإن جدهم خدم جدى خدمات جليلة »

ثم طلب استدعاء إبراهيم وعبد السلام ، فلما مثلا بين يديه قال : من منكما الأكبر ؟ فقال إبراهيم : عبدكم يا مولاى . فسأله : كيف تسير أعمالكما التجارية بعد موت أبيكما ؟ فقال إبراهيم : إن علمها عند عبد السلام (وقد ذكرنا من قبل أنه هو الذى مارس التجارة وأدارها) لأنى انقطعت للعلم والأدب . فالتفت الخديو إلى عبد السلام ، فتقدم وبسط الحالة التجارية والمالية . وهنا تناول الخديو ورقة وخط فيها بيده الكريمة سطرين وناولها إبراهيم ليسلمها لرئيس الديوان

وبعد أن قام الأخوان بواجب الشكر ذهبا توًّا إلى حيث أمرا وهما لا يعلمان ما خبأته لهما الأقدار !

وكم كانت دهشتهما عندما علما أن بالورقة أمراً كريماً بتعيين إبراهيم عضواً فى مجلس الاستئناف براتب شهري قدره أربعون جنيهاً ، وبصرف أربعة آلاف جنيه لعبد السلام ليسدد ما عليهما من ديون ، وليتمكن من إقامة ما اعوج من شئون التجارة ، وبالإنعام على كل منهما برتبة بك من الدرجة الثانية

ولم يكتف إسماعيل باشا بكل هذا ، بل أبى عليه كرمه إلا أن يصدر أوامره إلى جميع من فى قصوره من النساء بأن يعدلن

عن لبس الأنسجة الأوربية إلى الأنسجة المصرية من صنع المويلحي ، وألا يدخل تشريفات السيدات سيدة مرتدية غير هذه المنسوجات ، كما أمر بصنع كمية كبيرة منها لإرسالها إلى معرض فينا فى تلك الأيام

ومازال المترجم له فى وظيفته بمجلس الاستئناف حتى آلت رياسته إلى المرحوم « حيدر باشا يكن » فوقع بينهما شقاق انتهى باستقالة « إبراهيم بك »

ولكن عناية الخديو إسماعيل مازالت ترعاه ؛ فأمر باعطائه مصلحة تمغة « المشغولات والمنسوجات » على سبيل الالتزام (الاحتكار) على أن يؤدى للحكومة جُملا

ولما سقطت وزارة « نوبار باشا » سنة ١٢٩٦هـ سنة ١٨٧٩م التى كان فيها عضوان أجنبيان ، وخلفتها وزارة « شريف باشا » المعروفة باسم الوزارة الوطنية ، وهمت بإنشاء اللائحة الوطنية لتأسيس مبادئ الحكومة الدستورية — وقع الاختيار على المترجم له لوضع هذه اللائحة

ولما أن استقرت الوزارة الجديدة طلب المرحوم « راغب باشا » ناظر المالية وقتئذ من الخديو إسماعيل أن يكون إبراهيم بك معه فى المالية لما يتوسمه فيه من النجابة والنباهة وعلو الهمة وسداد الرأى ، فلم يمانع الخديو وسر بهذا الاختيار ، وأصدر الأمر بتعيينه ناظراً للقلم العربي بها . وهنا تجلى نبوغه وظهرت جدارته فأحيلت إليه نظارة قلم « العرضحالات » مع ملاحظة (قلم تركى المالية) وعين عضواً فى مجلس تسديد الديون السائرة

ولما تنازل الخديو عن العرش سنة ١٨٧٩م كما هو معروف ، وصدرت أوامر السلطان بنفيه ، طلب الإذن من السلطان بالاقامة فى استانبول أو أزمير ، فلم يصادف هذا الطلب قبولاً . فلما علم الملك « أومبرتو Umberto » ملك إيطاليا بهذا الرفض ، طيب خاطر صديق والده ، ووضع تحت تصرفه سراى « الفافوريتا La Favorita » بضواحى نابولى

على أن هذا النفى لم ينسه ذكر إبراهيم فبعث يستقدمه إليه . فلبى إبراهيم الأمر ، واستعفى من مناصبه وظل فى معية إسماعيل بضع سنوات كان يقوم فى أثنائها بوظيفة كاتب يده « سكرتيره العربى » يكتب عنه الرسائل إلى الملوك والأمراء ، كما كان يقوم بالتدريس لنجله سمو البرنس أحمد فؤاد « المغفور له صاحب الجلالة فؤاد الأول » وقد أرسل ابراهيم بك كتاباً إلى ابنه المرحوم السيد محمد بك المويلحي بتاريخ ١٥ مارس سنة ١٨٨٠ يطلب منه الاسراع بارسال بعض كتب النحو الصغيرة لهذا الغرض

وفى نفس هذه السنة أى سنة ١٨٨٠ م أنشأ جريدة « الاتحاد » بإيطاليا ، وأصدر منها ثلاثة أعداد كانت مقالاتها شديدة اللهجة على سياسة الدولة العلية مما جعل السلطان عبد الحميد يطلب من سفارته بايطاليا إيفاد مندوب من قبلها لدى الخديو إسماعيل ليرجوه أن يأمر « سكرتيره » بالكف عن نشر تلك الجريدة .

وفى أثناء إقامة الأسرة الخديوية بايطاليا مرضت إحدى الأميرات من زوجات سمو الخديو إسماعيل « بالروماتزم » ، ووصف لها الأطباء بلدة « بورسة » خشية عليها من المكث فى الجو الذى هى فيه . فأشكل الأمر على الخديو ، وبث همه إلى « سكرتيره » وطلب منه أن يكتب لجلالة السلطان عبد الحميد رسالة يشرح له فيها حالة المريضة بذلك الأسلوب المتين الساحر

فكتب إبراهيم بك رسالته المشهورة عن لسان الخديو إسماعيل التماساً لدخول حرمه الآستانة وأفرغ فيها كل ما أوتى من بيان

ولما ترجت وعرضت على السلطان عبد الحميد تأثر بها وأرسل برقية إلى سفيره فى إيطاليا بدعوة حرم الخديو إسماعيل إلى الآستانة للاستشفاء بمياه « بورسة » المعدنية

وقد يلذ القارئ أن يطلع على هذه الرسالة وهى رسالة طويلة نقتطف منها ما يأتى :

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى أمير المؤمنين ، وإمام المسلمين ، وخليفة رسول رب العالمين ، أطال الله بقاءه ، وجعلنى من كل مكروه فداءه . من عبد اكتنفه حرمان الرضا من ولى نعمته ، ومالك ناصيته ، فساعته شهر ، وليلته دهر ، وعبرته نهر ، وكذلك جواب دعائه جازعاً مما يقاسى من غضب أمير المؤمنين وقد قال الله تعالى حاثاً على العفو : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس .. » وأمير المؤمنين أولى العالمين فى الاقتداء بآى الكتاب العزيز . وإنى أتضرع إلى

مقام خلافتكم العظمى ، وسلطنتكم الكبرى متوسلا بجناب صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم أن يلحظ ما أعرضه لدى سدتكم الملوكية بعين الرضا ، ولو أن العذر إقرار بالذنب لملأت الصحائف أعذاراً ، ولعرضت التوبة ليلا ونهاراً

وهبني يا أمير المؤمنين جئت بكل ذنب . أليس في سعة عفوكم وساحة إحسانكم ما تغفر به الذنوب ! وأمير المؤمنين أعلى نظراً أن يؤاخذ بقول وهو إفك الوشاة ، أو يعاقب بكلام وهو بهتان السعاة ، من الذين اتخذوا حرفتهم أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه ، بعد أن أفنيت حياتي لهذا البيت المعمور في خدم قدمتها ، وأوامر أطعتها ، ونواهي امتثلتها ، موالاة جعلتها شرطاً سادساً لديني ومعتقدي ، وإتباعاً لقوله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » ... إلى أن قال في آخرها :

« ... وإني أذكر أمير المؤمنين — فإن الذكرى تنفع المؤمنين بقوله تعالى : « واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام » وإن بين جلالتكم وبين رعيتكم ، وهذه المريضة فرد من أفرادهم — الرحم الديني — الذي هو أولى بوجوب الصلة من رحم النسب ، قال تعالى : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » أي واتقوا في أخوتكم في الدين برعاية عهودكم وحفظ حقوقكم ، فعلمنا أن الأخوة الدينية تقتضي مزيد الشفقة والرحمة ، ولا معنى للرحمة والشفقة إلا أن تنقذ المؤمن من المهالك ، وتؤمنه من المخاوف ، وتخلصه من الآفات ، وأن توصل إليه المبرات ما استطعت ؛ ولا يكمل عبد من الإيمان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . وإني أتوسل إلى الله أن يلحق أمير المؤمنين بنزاهته وشفقته ورحمته وعدله وإيمانه ورعايته ، ما في يديه من ودائع الله التي هي أرواح المسلمين وأعراضهم . وصمته : الاستمرار على حرمان هذه المريضة من علاجها الممكن ، فإنها إنما تدخل تحت سطوة السلطنة العظمى وقوة الخلافة الكبرى ، في بلدة صغيرة من ممالك الدولة العثمانية

«ولو شاهد أمير المؤمنين هذه المريضة المسكينة وهي سائلتي : بماذا أجاب الخليفة ؟ أيرضى أمير المؤمنين أن أقول لها : قد أغضى عن الإجابة !؟ وهو تصريح بهتك الحجاب أو الموت — كبرت كلمة تخرج من الأفواه ! — فإذا قالت : فأين الدين والإيمان والحديث والقرآن والعدل والإحسان ؟ فلا مساغ يا أمير المؤمنين للجواب !

« يا خليفة رسول الله : هذه فرد من أفراد رعيتكم ، وقال صلى الله عليه وسلم : « وكل راع مسؤول عن رعيته » فالتمس من أعتاب مولانا المعظم أن يصدر أمره العالي بما يوافق شفقته وإرادته وأن يصفح عن عبده . وإني لممتثل لجميع أوامر مولانا أمير المؤمنين ، أعدها فرضاً واجباً ، فإن الحياة والله لا تصفو لعبد سدتكم وفي التصور أن ولي نعمته منغض عنه

«وأنا واقف على البعد أتلقى أوامركم بفريضة الامتثال ، وإن لم يصادف تضرعي ودعائي قبولاً فإني أخشى أن هذه المريضة وهي في الاحتضار ، تمد يدها بكتاب الله قائلة : بيني وبين أمير المؤمنين هذا الكتاب العزيز في الدنيا والآخرة . والأمر لله من قبل ومن بعد ... ! »

« البقية في العدد القادم » إبراهيم المويلحي

جولات فى الأدب الفرنسى الحديث

تطور الحركة الأدبية

فى فرنسا الحديثة (١)

عبادة الذات

موريس باريس M. BARRÊS

١٨٦٢ — ١٩٢٣

للأستاذ خليل هنداوى

يقول « بورجيه » فى مقدمته لرواية (التلميذ) إن الإنسان أصبح اليوم « عدمياً لطيفاً » وقد استحال آلة فساد ناعمة الملمس ، ويوشك أن يكون كل منا هذا الإنسان . وهذه الآلة قد خلقها شك « رينان » ، ولكن شك « رينان » لم يكن شكاً لئيماً ولا متشائماً . وإنما كان شك « ستندال » و « نيتشه » هو الشك الأكثر طغياناً . على أن تأثير « ستندال » لم يبلغ أشده إلا فى مطلع عام ١٨٨٠ ، وتين وبورجيه ومن يتبعهما من الأنصار يمجدون فيه قدرته على التحليل النفسي ، ويندهلون بهذه العاطفة الذاتية التى تهيمن على تفكيره . « فالعاقل عنده ليس إلا من يعمل كمثل عمله ، يفتش فى هذه الحياة عن لذة عقلية صافية » ولم يعط ستندال مذهبه تحليلاً فلسفياً ولذلك لبث تأثيره ضيقاً ، بعكس نيتشه الذى أعطى مذهبه قوة وتأثيراً . فنيتشة يتسامى بقوة ويهاجم شريعة العبيد التى أخذت بعد انتشار المسيحية تستعبد الناس . فالمحبة والمساواة والأخوة كلمات جبن وأوهام باطلة تجرب باطلاً أن تحتال على أنظمة الحياة وتتلاعب بها . ونظام مذهبه المقاتلة وسحق الضعيف وظفر القوى الذى يستحيل بعد خروجه من المعركة إنساناً كاملاً وسيداً . يقول زرادشت : « لقد مات الإله — الإله المسيحى . إننى أعلمكم الإنسان الكامل ، الإنسان هو شيء يجب أن يفوق نفسه » وقد ذاع هذا الإنسان الكامل فى الطبقات المثقفة خلال سنة ١٩٠٠ وفى هذا التاريخ نقلت آثاره وترجمت . وموريس باريس — فى رواياته الأولى — حاول أن يكسو هذه الذاتية الخارقة رداء فنياً ، فكتب عدة روايات وأعطاها عنوان « مقالات فى عبادة الذات » يتخللها تحليل بعيد يقذف بالنفس إلى عالم العزلة « وإنما يجب أن نحس أكثر ما يمكن عند ما نحلل أكثر ما يمكن » قد يكون هذا ، ولكن ينبغى عبادته ، لأنه هو الذى يمنحنا معرفة أنفسنا معرفة صحيحة ، ويجعلنا نعرف « ذاتاً » أفتى معنى وأكثر تنوعاً وأكثر تأثيراً من ذات منظمة مأمورة . ألا فلنقدس اختلاط قوى النفس ، فهذه هي اللعبة ، أو معرفة هذه اللعبة التى هى ملح الحياة ، أو على الأقل التمرين البسيط للعقل الذى ليس بخداع

وفى هذا كله شك ؛ وإن ذات « باريس » كما يقول أناطول فرانس مزيج من اضطراب وحيرة واختلاط . وإن من العمل الظافر العمل على احتوائها . إن تهكماً دائماً يحيط بها ويلتهمها . على أن فى عبادة الذات شيئاً آخر ...

وقد يخاطب « باريس » فئة مثقفة تائهة فى الثقافة الإنسانية ، ويجد أن تعليل (الذات) المصنوعة فى العزلة البعيدة عن الكتب إنما هو راحته فى هذا التيه : « إن قوة العقل والإحساس تمت وحدها بهؤلاء الذين يعيشون باتصال صادق مع أنفسهم ، وهذا هو مذهب الشعراء والمتصوفين . وهذا وحده يستطيع أن يلقينا خارج دائرة الشك ، ويقودنا إلى مثل أعلى . إننا بالانطلاق من هذه الذات الحالية نصبح رجالاً ساعين هذا المجتمع ... رجالاً لما يتكونوا ! » وقد تكون هذه الذات شديدة الاختلاف عن الإنسان الكامل (لنيتشه) الذى لا نظام له إلا الكمال المتكبر الأنانى ! على أن امتحان الذات ينبغى أن يرافقه شيء من الامتحان والبلاء . وذواتنا محدودة بأشياء وراثية . ومعرفة الذات تنتهى دائماً بأن تخلق لنفسها فضيلة ومراجعات جديدة ... وقد جهد (باريس) عند ما تطور أن تكون هذه الفضيلة خلل آثاره الشكوكية ، وفى هذه الآثار ما يرفع من الشك إلى الإيمان ومن التعليل إلى التأليف ؛ والتعليل ليس فى كل صورة مميتاً للكسل ؛ هو بنقصه جهد يُقاد إما بمنطق مدرسى جاف ، أو بمنطق أسمى لشجرة تتحرى النور وتذهب إلى غايتها الباطنية « إننى لن أذهب باستقامة إلى الحقيقة كالسهم يريد هدفه . فى أكثر الأحيان يخطئ

(١) عن الأستاذ « دانيال مورنى »

السهم المرمى . ولكن تمليل الذات بأناة ويقين يقود إلى هـذه النتيجة حيث — الذات — مهما كانت مختلفة ودقيقـة فهى ليست بمختلفة ولا بدقيقة إلا لأنها ليست إلا مظهراً . « الذات — خاضعة للتعليل — بقليل من الجد تفنى ولا يبقى إلا المجتمع الذى هى منه نتيجة ثانية . وبرغم الهوان والتصاغر ، فإن فكرتى التى تعاظمت من قبل لكونها حرة تصل إلى أن تعلن وتثبت اتصالها بهذه الأرض وبهؤلاء الموتى الذين — قبيل ولادتى — قد سيطروا عليها فى أشكالها وألوانها

المجتمع خصم للفرد

الفلاسفة والمؤرخون والنقّاد

إن خير المؤلفين — فى الفئة الواقعية — الناشدة للحقيقة لم يكونوا ذوى نزعة فردية . ولم تقدم دراساتهم إلى نتائج كنتائج نيتشه ، فالمجتمعات عندهم لا يقودها إلى الأمام رؤساء ولا رجال عبقرية ؛ ولكن المجتمعات تصنع نفسها بنفسها وتذود عن نفسها بنفسها ، لا بالعقل وحده لأنه قد يكون خاطئاً ، ولا بالإرادة وقد تكون عمياء ، ولكن بغريزة حية توفق الحياة الاجتماعية بوسائل الحياة ، وهى تنشأ من التقاليد ، وهذه تستطيع بل ينبغى أن تتطور وأن تتحور ! ولكن لا يمكن حذفها ولا قلبها دفعة واحدة كما أنه لا يمكن تبديل مناخ ولا صفة أرض ولا أخلاق ذرية ما . وإنما يجب أن نفهم هذه التقاليد عند ما نرغب أن نفهم حياة شعب ما

وهذه خلاصة آراء المؤرخين فى ذلك العصر ، ولا سيما (تين) الذى حاول أن يطبق هذه الآراء فى كتابه (أصل فرنسا الحديثة) ففرنسا الحديثة ينبغى أن تكون وليدة فرنسا الغابرة ، وهذه كانت بائسة ذليلة ، ولكن يجب إيجاد علاج لها ، وهذا العلاج إنما يستمد من تقاليدها وعاداتها لا من أفكار مجردة . إن فلاسفة القرن الثامن عشر قد أوجدوا (الخير لذاته) لكل الناس فى أى قطر من الأقطار فلم يُفض قولهم هذا إلا إلى نظم خيالية ، فالمذاهب المجردة لم تكن إلا كلمات عاجزة ، إنها لم تولد الثورة ولكنها ولدت مملكة الذعر والرعب الأعمى ، وفلاسفة القرن الثامن عشر وزملاؤهم الثائرون لم يحسنوا معرفة نظام الحياة الاجتماعية وهو الثابرة من أجل البقاء !

هنالك فلاسفة قد أخطأوا فى تفكيرهم فى المجتمعات على نسق تفكيرهم فى العلوم المنطقية ، إذ فى الحقيقة ليس هنالك أفراد للعالم النفسانى والروائى ، ولا يغنى فيهم أن نتكلم عن أثر البيئة فيهم ، لأنهم ليسوا إلا جزءاً من البيئة ، أو نقطة من مذهب هو جزء من القوات المؤثرة لا يمكن حله إلا بحل المذهب كله

يعلن (جابريال تارو) فى كتابه (شرائع التقليد) و (الرأى والجماعات) بأن منطق الجماعات لا يلتقى مع منطق الفلاسفة . فالناس لا يفكرون ولكنهم يقلدون ؛ وهم لا يتحققون ولكن يتبع بعضهم بعضاً ؛ وهم يتشابهون

فالعالم (البيولوجى) لا يدرس حركة القلب كما يدرس الرياضى حركة كتلة ثابتة على حالة واحدة . كذلك الحوادث الاجتماعية لها خصائص خاصة ، وطبيعتها تختلف بالعمق عن حوادث الحياة الفردية المدروسة عند علماء النفس إذ ليست كلها مجموعة وحدات ، فالمجتمع باستطاعته أن يحلل الفرد ، ولكن الفرد لا يحلل المجتمع

(يتبع) خليل هنداوى

التاريخ في سير أبطاله

ابراهام لنــــكولن

هدية الأحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

— ٧ —

يا شباب الوادي ! خذوا معانى العظمة فى نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامى العظيم



وعادت السياسة تتطلب منه جهداً غير يسير ؛ فهو اليوم يتحفز لأن يخطو خطوة جديدة وله من امرأته حافز ومن طموحه حافز ... تطلع لنكولن إلى مقعد فى ذلك المؤتمر الذى كانت تمثل فيه الولايات الأمريكية جميعاً والذى كان يعقد لينظر فى الشؤون العامة لتلك الولايات ومقره وشنجطون . وما كان ابراهام ليستبعد الشقة أو ليستعظم الفكرة ، وقد قضى ثمانية أعوام في مجلس المقاطعة

ولكن رجال حزبه وجهوا أنظارهم إلى رجل غيره من أفراد ذلك الحزب ؛ وتقدم ذلك الرجل ليأخذ الطريق على ابراهام ولكنه لم يظفر بالترشيح ، ورشح رجل غيره وانتخب ؛ واضطر هو أن ينتظر عامين حتى جاء دوره فانتخب ؛ وظل بذلك لنكولن أربعة أعوام يتطلع إلى مقعد فى المؤتمر ؛ ولقد آلمه وكدره أن يأخذ الطريق عليه رجلان من حزبه يراهما دونه ؛ ولكن زوجه الوثابة ما كانت لتعرف الملل فيما تتجه إليه من الأمور

سنحت الفرصة بعد تلك الأعوام الأربعة ولكنها أوشكت أن تفلت منه هذه المرة أيضاً لولا ما كان من مهارة زوجه ولباقتها فى التأثير على رجال الحزب حتى ظفر آخر الأمر بالترشيح . ولما تم له ذلك راح يخوض المعركة وأمله فى الفوز عظيم ...

وعجب الناس أن رأوا لنكولن يومئذ يعمل على كسب التأييد بوسائل منظمة وهو الذى اعتاد من قبل أن يصدر في أعماله عما تمليه عليه المواقف فى غير تدبير أو ترتيب ... عجب الناس أن رأوه يرسم الخطط ويسدد السهام فلا تخطئ مرماها ، وكأنه فى هذه المعركة الانتخابية قائد فى معركة حربية يدبر الهجوم ويعد الدفاع وهو بصير بالموقف خبير بما يدور حوله ، يميز باللمحة الخاطفة ما يأخذ مما يدع ، ويتبين — مهما اشتد من حوله ضجيج الموقف — الطريق المؤدية إلى النصر

كتب إلى جميع أصدقائه فى نواحى الدائرة يطلب إليهم العون ويسألهم أن يدلوه على مؤيديه ليكتب إليهم ، وعلى مخالفيه لينتهى إلى إقناعهم الوسيلة ؛ وراح يتحدث فى الأندية ، ويخطب فى الجماعات ، لا يدع فرصة ولا يتخلف عن موعد ، وله من نباهة الذكر وطيب السمعة ومن محبة الناس لشخصه ما ينزله على الرحب أينما حل ... وهل كان الناس يعرفون فى خلقه غميزة ؟ هل كان الناس يعرفون عن « أيب » الأمين إلا ما يحببه إلى قلوبهم ؟ هل كان يجهل خاصة الناس وعامتهم المحامى الصادق السر ؟ وهل كان ينسى العامة ذلك الرجل الطيب القلب الذى يجلس بينهم كأنه أحدهم ، فيشاركهم أفراحهم وأتراحهم ويبادلهم وداً بود وحباً بحب ، ويبثهم من نصائحه ما ينير لهم سبيلهم ، ويسمعهم من طريف أحاديثه وروائع أقاصيصه ما يبهجهم ويسرى عن نفوسهم ... ؟

لم ينسه الناس ولم يجهلوه ، ولكن للسياسة أحكامها ولها غرائبها ، وكم تأتى رياحها الهوج على ما بين الناس من مودة ، وكم تترك ألاعيبها وأضاليلها الناس فى عماية وغواية ! وكم تصدم

الشهوات فى معركتها عن الحق وهم يعلمون ! أجل كم يَظْهَرُ فى السياسة الباطل على الحق ، وكم يُدَلَّس الرأى بالهوى ، وكم يضيع ما تواضع عليه الناس من أصول الفضائل فيما تُزيّن لهم من أوهام وأحلام ، وما توحى إليهم من غرور العيش ومطامع الحياة ؛ وكم يذهب ما درج عليه العرف وما نشأ عليه الذوق وما نمت عليه المشاعر هباء فيما تأتى به السياسة من بهتان !

هذا لنكولن راح يطعنه منافسه فى عقيدته ويلجأ إلى الدين فيتخذ منه سلاحاً فيكيد له به كيداً أليماً ؛ وهو لا يرعوى عن غيه بوازع من خلق أو بدافع من حياء ! أجل إن من كان له من حسن سيرته ونقاء طويته وصدق إخلاصه درع يرد عنه السهام مهما كانت صنوفها ، خليق ألا يأبه لما يتقول عليه المبطلون ؛ بل إنى لأعتقد أنهم يحسنون إليه من حيث أنهم يريدون إساءته ؛ إذ هم يشعرون الناس أنهم يتصيدون له العيوب حيث يرونه خلواً من العيوب ؛ ويلفقون له النقائص إذ يرونه يغيظهم بكماله ويسمو عليهم بفضائله ، ويباعد بينه وبينهم بأن يعرض عما يأفكون ... بيد أن للإشاعة دويها ، ولها مهما بطلت مجراها وإن تاهت آخر الأمر عن مرساها ؛ وذلك هو ما غاظ ابراهام وآلمه وتركه فى ضيق مما يفعل منافسه .

وكان ذلك المنافس من الحزب الديموقراطى وهو رجل من رجال الوعظ الدينى يدعى كارتريت كان مما عرف عنه تدفق نشاطه وتوثب حيويته وذلاقة لسانه فيما ينافح عنه مما يزجيه من الآراء ؛ وهو اليوم يستعدى على ابراهام مواهبه ويسلط عليه لسانه فى غير إعياء أو سأم ؛ يتهمه بالزيغ والإلحاد مشيراً إلى بعض ما كتبه لنكولن من قبل من رسائل نقدية حمل بها على بعض رجال الدين أن رآهم ينقمون على الناس فجورهم وينكرون عليهم فواحشهم دون أن يقوموا بنصحهم أو يعملوا على خلاصهم مما هم فيه

ذهب لنكولن مرة إلى حيث انضم إلى جماعة يستمعون إلى منافسه فى حديث دينى ! وبعد هنيهة قال منافسه : « ليقف كل من يريد أن يحيا حياة جديدة وأن يسلم إلى الله قلبه وأن يذهب إلى الجنة » ... ثم أردف قائلاً : « ليقف كل من لا يريدون أن يذهبوا إلى الجحيم » ... ووقف الناس جميعاً ما عدا لنكولن فاتجه الرجل إليه وقال : « هل لى أن أسألك يا مستر لنكولن إلى أين أنت ذاهب ؟ » ونهض لنكولن فقال : « أتيت هنا لكى أستمع فى احترام ، ولم أكن أعلم أن الأخ كارترايت سيعمل على إفرادى هكذا ؛ إنى أومن أنه يجب أن تطرق المسائل الدينية بما هى جديرة به من التوقير . يسألنى الأخ كارترايت فى غير التواء إلى أين أنا ذاهب ، وإنى أجيبه فى غير التواء أيضاً أنى ذاهب إلى المؤتمر »

وجلس لنكولن بين ضحكات الإعجاب تنبعث من جوانب المكان ، وقد كسب عدداً جديداً من المؤيدين

وعلم لنكولن أن خصومه يرمونه فيما يرمونه به من الأباطيل بأنه أرستقراطى لا يحفل رجاء العامة ولا يستجيب لهم دعاء ؛ وأن هؤلاء الخصوم يتلمسون البرهان على دعواهم في زواجه من مارى ، فدفع تلك التهم عن نفسه بإشارته إلى حياته الأولى حيث كان « غريباً لم يلق حظاً من التعليم ، معدماً يعمل فى قارب نظير أجر لا يتجاوز عشرة دولارات كل شهر »

وتم لابراهام النصر وكان يومئذ فى السابعة والثلاثين ؛ ورأى الناس وهم يعجبون أنه حصل على عدد من الأصوات لم يتسن لرجل قبله من رجال حزبه أن يظفر بمثله ؛ وكان الحزب قد أعطاه مائتى دولار لينفق منها فيما يتطلب الانتخاب من أوجه الانفاق ولكنه رد إليهم المبلغ بعد الانتخاب ولم ينقص سوى ثلاثة أرباع الدولار ، قائلاً إنه لم تكن به حاجة إلى النقود حيث أنه كان يتجول على جواده وأنه كان ينزل ضيفاً على أصدقائه ...

وفرحت مارى بالنصر وحق لها أن تفرح ولها فى الجهاد نصيب ، ولها فى المستقبل آمال . أجل أحست مارى أنها تخطو خطوة واسعة نحو هدفها ، وهل كان ذلك الهدف إلا كرسى الرياسة يتربع عليه زوجها ؟ إنها ما تفتأ تستحثه وتشد أزره وتحذر أن ينصرف عن وجهته ؛ عرض عليه قبل الانتخاب أن يشغل وظيفة حاكم مقاطعة النيوس ، ولكنها صرفته عنها ليستقيم على الطريق ويدلف إلى الغاية ...

صار لأبراهام اليوم بين رجال حزبه شأن غير شأنه بالأمس وأصبح له فى السياسة مكانته وخطره . على أن مهنته لازالت هى المحاماة وسيظل محامياً حتى تنتهى إليه الزعامة ، وتلقى إليه قضية البلاد الكبرى وتتوافى له أسباب تلك الرسالة التى هو مؤديها فى غد إلى أبناء وطنه جميعاً

وكانت مسألة العبيد قبيل انتخابه قد عادت تظهر في وضع جديد؛ ذلك أن إحدى الولايات وهي تكساس كانت قد انسلخت عن المكسيك أو كادت، فلما أرادت أن تنضم إلى الولايات المتحدة أعلنت المكسيك حقها عليها، ولكنها لم تعبأ بذلك الحق وجعلت الأمر للسيف؛ وخاضت بذلك المكسيك غمار حرب ضد تكساس وضد الولايات المتحدة التي كانت تعاونها من قبل على الاستقلال لتضمها إليها. وكان أهل الولايات الجنوبية يحبذون ضم تكساس إلى الاتحاد لكي يطبعوها بطابعهم ويضيفوها إلى الولايات التي يسمح فيها بمبدأ اقتناء العبيد؛ ولكن أهل الولايات الشمالية كانوا يتنكرون لذلك ويرغبون عن الحرب؛ وكان لنكولن ورجال حزبه ضد هذه الحرب وهم في ذلك يشايعون كلي زعيم الهوجز والمرشح يومئذ لرياسة الولايات؛ ولقد تغلب الحزب الديموقراطي، ففشل كلي في الانتخابات بسبب آرائه عن تلك الحرب.

ولقد كان لنكولن قبيل انتخابه للمؤتمر ينقم على تلك الحرب ويدعو إلى انتخاب كلي للرياسة؛ لا يفتأ يلقي الخطب وينشر الدعوة بكل ما يملك من الوسائل. ولم تكن نقمته على الحرب تشيعاً منه لزعيم الهوجز فحسب، بل لقد كان يكرهها لأنها تمكن لأهل الولايات الجنوبية في مسألة العبيد وهو يمقت تلك المسألة من أعماق قلبه؛ وإن نفسه لتنفر منها منذ ذهب إلى أورليانز ورأى ما لا ينساه من منظر هؤلاء البشر يساقون في الأغلال إلى حيث يباعون في الأسواق كما تباع الدواب

وما أصل تلك المشكلة التي تظهر في ميدان السياسة حيناً بعد حين؟

بدأت مشكلة العبيد من عهد بعيد ولقد كانت تلك المشكلة بعد استقلال الولايات الأمريكية عن انجلترا من أشد المشاكل خطراً حتى لقد كان الناس يرونها عقبة تحول دون بقاء الاتحاد. جلب التجار منذ بضعة قرون من أفريقيا طوائف من الزنوج باعوها في أمريكا، ورأى سكان الولايات — وجلهم من الأوربيين المهاجرين إليها من أوطانهم — في اقتناء هؤلاء العبيد ما يهون عليهم الكدح في طلب العيش ونظروا إليهم نظرتهم إلى الدواب، فأخذوا يشترونهم ويسوقونهم إلى الأدغال والأحراج يشقونها تحت إمرتهم. ولما كان أهل الولايات الجنوبية أهل زراعة فقد كان اقتناء العبيد عندهم أمراً أساسياً يقوم على الضرورة إذ لا تستقيم حياتهم إلا به؛ ومن ثم لم يكونوا ينظرون إلى مسألة العبيد تلك النظرة الانسانية التي أخذ ينظرها بعض الناس بعد الاستقلال، فمنطقهم يقوم على المادة ويستند إلى الوقائع، ولا عبرة بعد ذلك بآراء المشفقين العاطفين...

ولما أعلنت حقوق الانسان في مستهل الثورة، كان في مقدمتها أن الناس جميعاً أحرار ومتساوون في الحقوق وليس لأحد أن يسلبهم حقوقهم. وقد أخذ أهل الولايات الشمالية بهذه المبادئ فيما يتعلق بالعبيد فأعتقوهم، ولم يكن السود عند أهل الشمال في الجملة سوى خدم في المنازل، وذلك لأن أهل الشمال كانوا أهل صناعة أكثر منهم أهل زراعة، فلم يكونوا كأهل الجنوب يرون اقتناء العبيد أمراً جوهرياً بالنسبة إلى حياتهم، لا تتطلب زراعة القمح عندهم جهداً عسيراً ومن ثم فلا يتطلب استخدام العبيد؛ ولكن القطن في الجنوب يستلزم اقتناء هؤلاء السود الأقوياء الذين يتحملون الجهد ويقوون على الحر ويرضون بالقليل

وفي غداة الاستقلال هدد أهل الجنوب أهل الشمال أنهم ينسحبون من الاتحاد إلا أن يترك لهم حق اقتناء العبيد قائلين إن السود عندهم ليسوا مجرد رجال بل هم بعض أدواتهم، وخيل للناس أن الاتحاد منفصمة عراه لا محالة؛ وأشفق الزعماء أن يضيع الاستقلال الذي اشتروه بدمائهم وأموالهم؛ لذلك لم يروا بداً أن يتهاونوا بعض الشيء وأن ينصوا في القانون أنه لا يسمح بعد عشرين عاماً باستجلاب طوائف من السود من أفريقيا؛ ومعنى ذلك أنهم يسلمون ولو إلى حين لأهل الجنوب بامتلاك العبيد، ويسلمون بذلك في صورة شرعية!

وتزايد إقبال الولايات الجنوبية على اقتناء العبيد حينما ازدادت أوروبا إقبالاً على طلب القطن، وقد أخذت الآلات تعمل عمل الأيدي وعلى الأخص في حلج القطن؛ وكان كلما ازداد طلب القطن ازداد حشد السود لزراعته وجمعه فكانوا يساقون إلى الحقول جماعات تحت إمرة رئيس من البيض، وإنهم لينظرون في فزع إلى ما في يده من سوط طالما ألهب جلودهم فزقها وأدماها؛ فاذا

غابت الشمس جيء بهم كالقطيع فأدخلوا فى حظيرة تأويهم جميعاً حتى الصباح ...

ولم يكن أحد من السادة أهل الجنوب ليسأل عما يفعل بعبيده؛ ولو أنه ساقهم إلى الموت كما يسوق كلابه لما أحس بينه وبين نفسه أنه يأتى أمراً منكراً ؛ وكان يمن عليهم هؤلاء السادة أنهم يطعمونهم ويسقونهم كأنما هم يريدونهم أن يعيشوا بلا طعام ولا شراب ! ولا تسل عما كانوا يلاقونه من صنوف العذاب إذا بدا لهم أن يظهروا ما ينم على استيائهم أو حتى على مجرد تألمهم لما يصب عليهم من وصب ؛ بل ما كانوا يعانونه من بلاء إذا انتشرت الحمى وفشت فيهم وهم جموع متقاربون ...

وكانوا فى الأسواق يحشرون كما تحشر الخيل عارية أجسادهم فيباعون ، وكثيراً ما كان ينتزع المرء من أخيه وأمه وأبيه ، وكثيراً ما كانت ترسل الفتاة إلى مزرعة وأختها إلى مزرعة وأهلوها إلى حيث لا تعلم لهم مستقراً ولا مستودعاً . ولقد تسنى لابراهام أن يرى هاتيك الأسواق فى رحلته إلى نيو أورليانز فاستقر فى نفسه الألم ؛ وكأنه رأى لساعته أن رسالته فى غد تحرير هؤلاء المساكين . وكثير من عظماء النفوس تقع فى نفوسهم الفكرة فى سرعة كلمحة البرق ، وتظل تلك الفكرة وإن لم يشعروا بها فى أعماق وجدانهم كالبذرة فى أعماق التربة ، وما تزال تنمو تلك الفكرة وتنمو حتى تملك عليهم آخر الأمر مشاعرهم فتحركهم وتوجههم حتى لا يكون لهم لغد من أمل فى الحياة سوى إبرازها ثم الدفاع عنها ، ثم التضحية من أجلها ثم الموت فى سبيلها إن لزم الأمر ...

ذلك ما كان من أمر لنكولن فيما اعتقد ، وإن لم يشعر هو فى صدر شبابه أنه عامل فى غده للقضاء على العبودية ؛ ذلك ما كان من أمره وإن لم يلق باله إلى ذلك الأمر . إن نفسه لتجيش بكراهة هذا النظام ، وإن إنسانيته لتنفر بطبيعتها من تلك الوحشية ، ثم إن قلبه الكبير ليتمنى أن يخلص هؤلاء التعساء مما هم فيه من عذاب ومذلة ، وما ذلك لعمرك إن لم يكن هو الارهاص ؟

ولم يكن للعبيد حق حتى فى الهجرة ، وكان إذا أبعد أحدهم إلى إحدى الولايات الشمالية التى أطلقت العبيد أعيد إذا عرف إلى سيده ومالكه بأمر القانون فلا ينفعه الفرار إلا أن يفر إلى الموت ...

ولقد أدى ما كان عليه العبيد إلى ظهور دعوة فى الشمال إلى تحريرهم ولكن أصوات الداعين كانت خافتة ، كما كان عددهم ضئيلا ، إذ كانوا يحسون ما تنطوى عليه دعوتهم من جرأة ، وكانوا لا يأمنون أن يأتيهم الموت من كل مكان ، فأهل الشمال مع أنهم لم يتمسكوا بالعبيد يخشون أن تؤدى الدعوة إلى تحريرهم إلى القضاء على الاتحاد ، وأهل الجنوب كانوا كما علمنا يرون حياتهم فى بقاء العبيد . لذلك كان الداعون إلى التحرير عرضة لسخط الجانبين . ولقد حدث أن أصدر أحد الرجال من ذوى النفوس الكبيرة صحيفة تدعى « المحرر » كان يندد فيها بما يلاقى العبيد ويدعو إلى تحريرهم ، أيام كان لنكولن فى الحادية والعشرين من عمره ، فلما اشتدت حملاته هاجه الناس وحطموا دار الصحيفة وألقوا بأدوات الطباعة فى مجرى مائى ، ولفوا حبلا حول وسطه وسحبوه فى الطرق تنكيلا به وزجراً لغيره

لذلك لم يكن عجباً أن تقدم الشكاوى إلى مجالس المقاطعات الشمالية يومئذ ضد حركة التحرير والداعين إليها خوفاً على الوحدة أن تتصدع . ولقد رأينا لنكولن يقدم احتجاجاً إلى مجلس مقاطعة الينوس هو وصديق له يدعى ستون وفيه يخطو خطوة جريئة فيعلن رأيه فى صراحة قائلا إن مسألة العبيد لا تقوم على شىء من العدالة ، ولكنه يشير إلى مراعاة القانون فى النظر إلى تلك المسألة خوفاً على كيان الاتحاد

وها هو ذا اليوم يختار عضواً للمؤتمر وهو فى السابعة والثلاثين وقد عادت المعضلة تظهر بسبب ما حدث فى تكساس ومحاولة ضمها إلى الولايات

« يتبع » الخفيف

الفصـــول

للأستاذ عبد الرحمن شكري

طيرى أمانيَّ النفوس وغرِّدى   فلقد دعاك الروض خير دعائه

هذى عيون للطبيعة قد رنت   فى الزهر من أكمامه وخبائه

بَسَطَ الربيعُ على الحياة رِداءه   ياليتها أبداً تُرَى بردائه

بل ليته بُرْدٌ تَخيط على هوى   هذي النفوس لكى تُرى بروائه

والشى لولا أن يَرُوعَ بفقده   ما شاق عند قدومه بلقائه

***

لا كالشتاء تزايلت أوراقه   كتزايل المهجور عن قرنائه

تتناثر الأزهار عن أفنانه   كتناثر اللذات من أهوائه

وتخال إذ دَلَفَ الشتاء كأنما   ساق السنا بِدَبُوره ورُخائه

هَرَبُ الضياء من السحاب وريحه   هَرَب الكعاب من الهوى وقضائه

فر الخريف من الشتاء وخلفه   عادٍ يريد لحاقه بجرائه

مثل المريض يفر من عادى الردى   هيهات ذا والدهر من أعدائه

راع الشتاء بقرِّه فكأنما   أنفاس ثغر الموت قرّ هوائه

والريح مثل فم الشتاء وصوتها   شكوى العجوز يخاف من أبنائه

نَقِمَ العُقُوقَ فقام يشكو أمره   للناس ينشد آسياً لبكائه

والأرض تنظر فى فروج أديمها   نظر الفقير إلى ثقوب ردائه

من بعد ما نفدت نفائس كنزه   سَرَفاً وشح العيش بعد سخائه

وكأنما دجن الشتاء مُقَطِّباً   ذكرى العجوز لزهوه وفتائه

وكأنما دوح الخمائل فى الدجا   نشوى شياطين انتشت بسقائه

شربت من الإظلام حتى أكثبت   تبغى النهوض كمُكْتَئِب من دائه

فى كل غصن في الظلام نواظر   كنواظر للغيب خلف كِفائه

وكأنما دوح الظلام ثواكل   لبست حداد الثُكلِ فعل نسائه

تحنو عليك غصونها فكأنما   تبغى سرار السمع من إصغائه

والدوح يهفو كالمؤرَّقِ فى الكرى   يلوى على الأفنان فضل كسائه

تتردد الأرواح فى أفنانه   كتنفس الرعديد فى لأوائه

وكأن فى إطراقها وسكونها   فِكَرُ الصبيح لروحه وندائه

ياليت بعض العمر تُقْطَعُ بِيْدُهُ   وثباً ويُمهلُ فى سنىٍّ رخائه

كالسِّفْرِ تقرأ بَعْضَهُ مُتَرَيِّثاً   جذلا وتطوى بعضه لهرائه

أو ليت حادى الأرض يعكس سيرها   عن بعض دورتها بوقع حدائه

أو ليت هذا الدهر عقرب ساعة   يَلْوِى به عن نحسه وشقائه

آمال أمس كزهرة قد صَوَّحَتْ   عود الربيع مُجَدِّدٌ لرجائه

يا نفس لا تأْسَىْ لعمر قد مضى   بربيعه زمن أتى بشتائه

تَتَشَوَّفين إلى قديم عهوده   نَظَرَ الغريق إلى السُّهَى وسمائه

بُشْرَاكِ خلف الموت لو تردينه   نبت الربيع يروق فى غلوائه

كالطير بعد الصيف تترك عشها   نحو الجنوب ترود أرض ثوائه

***

عطف النسيم على الأزاهر هامساً   أنَّ الربيع سعى إلى ندمائه

أنَّ الربيع أخا الصبيحة مُقْبِلٌ   إقبال وجه الحِبِّ فى لألائه

كالطائر بَشَّرَتِ النُّوَّمَ بأَنْ بدا   فجرٌ لِعيدٍ كان قيد رجائه

والقلب مثل الطير فى وَضَح الضُّحَى   يتلو على الإصباح آيَ غنائه

وكأنما أُمُّ الخلائق دوحة   من قبل آدم فهي من قربائه

تشدو كشدو الأم ناح وليدها   تحنو عليه لصونه ووقائه

والريح طير شاد فى أفنانها   وكرا كأن الزهر من أبنائه

وكأن أجنحة الملائك نسمها   نسم يطب برفقه وصفائه

وكأن ينبوع الحياة غديرها   خُلْدُ الصِّبَا فى جرعة من مائه

والقلب مثل النهر باشَرَ ماءَهُ   جسم الحبيب تراه فى سودائه

أهْوَاكَ يا روح الربيع فهَيِّئِى   جسماً لجسم الغيد فى لألائه

ثم اخطرى بين الخمائل فى الضحى   رقص الدلِّ بحسنه وبهائه

فلعل فى قبلات ثغرك بُرْءَ ما   أعيا الأنام بِحُكْمِهِ وقضائه

أرد الخلود بقبلة وبضمة   تروى ظماء الخلد من لمائه

والزهر يبعث بالطيور إلى الضحى   تُفْضِى إلى الآفاق من أنبائه

الأرض أم للخلائق كلهم   والشمس بعلٌ شاقها بفتائه

فالناس والأطيار فى وَضَح الضحى / والزهر فى الأكمام من أبنائه
النار والأمواه من آبائنا / والنار والأمواه من آبائه
يهنيك يا دوح الخميلة بعده / نسيان نيسان وطيب هوائه
تنسى الربيع كأنه مازفه / نغم البلابل فى مثير حِدائه
لا تمنع المشتاة عَوْدَ زهوره / وأريج نسمته وحَلْيِ كسائه
ياليت طيب العمر يُنسى وِرْدُهُ / فأبيتُ مثلك لا أحن لمائه
لكنّ طيب العمر ليس بعائد / لأخى صدًى يظْميه صوْبُ بكائه
وترى لحالات النفوس تغيرا / في روضه وبمائه ونمائه
فكأنما للكون روح خُلْقُه / يبدو لنا فى غيمه وضيائه
تتغير الأشياء فوق وجوهه / لتغير الأشجان فى حوْبائه
من لي بأجنحة الزمان أهيضها / كى لا يطير بصفوه ورخائه
أوليته الفردُ الحبيسُ أقيمُه / كيما أُراح لشدوه وغنائه
كى يذكر العهد الأنيق وأوجهاً / كانت تُطِلُّ على وذيلة مائه
خلع الجمال قناعه وسعى إلى / عُشّاقِهِ وعُفَاتِهِ وظِمَائِهِ
والمرء لولا صيفه وربيعه / ما ذاق حُلْمَ السعد فى لأوائه
والروض باب للجنانِ وثغرة / منها ترى الفردوس خلف فنائه
وكأنما صبغ الأزاهرَ صابغٌ / فتكاد تأخذ منه إثر طلائه
والضوء غُدْرانٌ ترقرق تبرُها / وأراق منها الأُفْقُ فَضْلَ إنائه
واللونُ شِعرٌ للطبيعة وقعه / فى العين وقع اللحن فى سودائه
شهد الشتاء بأن أُفْقَ سمائه / أدنى إلينا من قَصيٍّ فضائه
والنفس تعظم فى الربيع كأنها / فى زهره ونسيمه وصفائه
والضوء خمر للنفوس ونشوة / ودم الحياة يشام فى أثنائه
والأرض كالحسناء قُدَّ قميصُها / فبدت محاسن جسمها ووَضائه
فكأنما رفع الربيع حجابها / فانجاب ستر الحسن عن حسنائه
والضوء كالحسناء بُزَّ رداؤها / فأماط عنها العُرْيُ ستر غطائه
والقلب مثل الطير هِيضَ جناحه / فى نَزْوِهِ وحنينه وغنائه
والطير أفواه الرياض فشدوها / أبدا يزجّى الدّهْرَ وَقْعُ حدائه
وكأنما نغم الخفيف هواتف / فى القلب تدوى منه فى أنحائه
والضوء من خَلَلِ الغصون كأنه / طير الفَرَاشِ نراه من شجرائه
وكأنه والقلب يذكو شجوه / شرر الغرام يطير من حوبائه
نَثَرَتْ ذُكاء على البسيطة عسجدا / فاذخر ليوم الدجن كنز ثرائه
ولكل شىء منطق يشدو به / والنفس تعرف كنه سحر غنائه
تتلو عليك الطير طِيبَ ثماره / وأريجَ روضته ورقة مائه
والحسن ظل للسعادة فى الورى / إن السعادة لا تُرَى بفِنائِهِ
ظل الجنانِ على البسيطة واقع / فاستقبل اللذاتِ من آلائه
فكأنها كون حلمت بحسنه / حتى نُقِلْتَ إلى ذرى خضرائه

* * *

وكأنما زهر الخميلة إن بدا / حُلُمُ الهوى فى طيبه ووضائه
والطير أرواح الزهور وصيفها / عهد الشباب يروق فى لألائه
ضحك الزمان فذاع من ضحكاته / صيف يعيد الحب فى غلوائه
والقيظ يزفر بالهجير كأنما / يتنفس الولهان من بُرَحائه
فكأنما مرح الحياة وحسنها / لهب ترقرق فى خفيٍّ دمائه
وكأنما نغم الطيور أريجها / يُسْقاهُ زهر الروض فى أندائه
فَيُحِيلُهُ نشرا يَضُوعُ ورونقا / يشتار منه النحل أزْكَى عطائه
ودت ذوات الحسنِ أن حُلِيَّهَا / كحُلِيِّهِ ورداءها كردائه
مَرَحُ الكعاب الرُّودِ فى خطراتها / كالنهر يرقص فى ترقرق مائه
والريح تعبث بالغصون كأنها / طفل يعيث على رءوس إمائه
وترى جذور الدوح مثل أصابع / بسط الشحيح يصون كنز ثرائه
وكأنما نغم البلابل مَطْرَةٌ / فوق اللجين شجا مُرِنٌّ إنائه
تَنْدَى على القلب الجديبِ فينثنى / روضاً يرفُّ بزهره وأضائه
والزهر فى وَضَح الصبيحة قد صحا / صحو المفيق من الكرى وقضائه
وجلت ذُكاء ندى الزهور كأنها / أم الوليد تزيل فضل بكائه
حتى إذا اشتد الهجير حسبته / نشوان أثمله اللظى ببقائه
وإذا الأصيل علا السماء حسبته / ذا لوعة حانت نوى قربائه
وحمى على قُبَلِ الظلام ثغوره / كمعشّقٍ متستّرٍ بردائه
وتراه يرنو للنجوم كأنها / حُلُمٌ يُطِلُّ عليه فى حوْبائه



شارلس لام يروى عن شاكسبير

٢ – قصة الشتاء

بقلم الأستاذ دريني خشبة

وهرول بها إلى كوخه ولقي زوجته هاشًّا، ثم دفع بالطفلة الميمونة إلى صدرها اللطيف قائلاً: «أرضعيها يامويسا... أرضعي ابنة الملوك الصيد» ونظرت الراعية إلى بارديتا تارة، وإلى طفلها أخرى، وكأنما جزعت أن تشركه هذه الغريبة النازحة في لبنه، فقال الراعي وهو يوشك أن يجن: «أرضعيها يا مويسا فقد حملت إلينا كنزاً وجعلتنا سادة الرعاة!». فانبلجت إشراقة سعيدة في أسارير المرأة، وأبرزت ثديها الكبير الممتلئ باللبن فدست حلمته في فم الطفلة...

وخشي الراعي أن يبدو عليه الثراء المفاجئ إذا هو تصرّف في شيء من جواهر الطفلة بالبيع أو بغيره، فرحل عن الإقليم كله، ونزح إلى طرف سحيق ناء في أقصى حدود بوهيميا. وهناك تلبث غير قليل ثم باع جزءاً من الكنز الملكي الكريم، وابتاع بما حصل في يديه من ألوف قطعاناً كثيرة. وما هي إلا سنون حتى درّت له أخلاف الثروة، ونضر الله الأرض تحت رجليه بالرزق، فعاش عيشة راضية مُخفرجة، وعلَّم بارديتا ونشأها بين الضأن البُهْم، فشبت في هواء الطبيعة الحر الطليق وفي ميدانها السندسي الواسع، لا صديق لها إلا كلبها الأمين الوفي، ولاحديث إلا الأحلام الخافتة تتردد في فم القمر الصامت، ولا أطماع إلا أن تكبر البهم وتدر ألبانها

وشبت جميلة ناصعة كتمثال المرمر قد صقلته يد فنانة صناع... رزينة كأنما أوحي إلى قلبها الصغير الخلي أنه مسرح لمأساة صامتة ومعبد لآلهة وسنانة تجثم فيه لحينها!

وكان لملك بوهيميا ابن مولع بالصيد، يرتاد من أجله المسايل والوديان ومشارف الجبال. فبينا هو يصيد يوماً في ذلك الصقع إذا عيناه تقعان فجأة على بارديتا، وإذا هو يقف مسبوهاً زائغ البصر يعبد الفتاة البارعة الفينانة، ويردّد عينيه في عالم جسمها الزاخر بأمواه الجمال...

لله لحمها الوردي. وجبينها السَّنِيّ، وفمها الخمريّ القرمزي وشعرها المُنْدَوْدِن الذهبي، وطرفها الساجي! ولله هذا الحمل

كالطفل يُبْصِرُ في الوذيلةِ وجهه … فيخال ذاك الوجه من قرنائه
تحكي النجومُ الزُّهْرُ في دوراتها … رقصَ المدلِّ بعيشه وروائه
والنجم من خَلَلِ الغصون كأنه … ثمرٌ تدلَّى من عليٍّ سمائه
والحي يحيا كالذي هو ناظر … كالأفقِ يَرْسُمُ في متون نهائه
والزهر يحلم بالفرادس طرفه … حلم الغريب بأهله وفنائه
حسب الطيور تحاملت عن قلبه … وبدت تبوح بشجوه ورجائه
والقلب مرآة الزمان فصيفه … في صيفه وشتاؤه كشتائه
والكون مرآة الفؤاد فقبحه … وجماله في حسه ورخائه
والضوء خمر للربيع فلا تعفْ … جُرَعاً تُنيلُ الخلد من صهبائه
هذي الطيور لسانه وغناؤها … مستأنف من شدوه وغنائه
والزهر في حر الهواجز نائم … سحرته باللحظات عين ذُكائه
والأرض تحلم بالجِنانِ فصيفها … حُلُمٌ يزيح القلب عن ضَرَّائه
بَسَطَ الجمالُ على الفضاء جناحه … فالصيف من لألائه وروائه
فكأنه مَلَكٌ يُحلِّقُ فوقها … فتصيب من آلائه وعطائه
يا ليت أن المرء في أرجائها … مُتَفَرِّقٌ في أرضه وسمائه
حتى يصير من الجمال بمنزل … في مائه ونسيمه وهوائه
وتظل تسمو النفس في آفاقه … كالطير حَلَّقَ في أديم فضائه

عبد الرحمن شكري

الناعم القطيفي الذي سلبته لها الطبيعة من خوخ بوهيميا ! لقد ملأت بارديتا قلب فلوريزيل وعينيه ، وسرت كالحميا فى دمه ، فنقلته من دنيا إلى دنيا ، ومن مُـلك إلى مُلك ، وركبت له قلباً غير قلبه ، وإحساساً مرهفاً غير إحساسه ؛ وسرت فى خياله طيفاً معبوداً جمل الحياة جميلة مثلها ، حبيبة لأنها فيها ...

وهكذا عمر قلب الفتى بحب الفتاة ، فبات لا يفكر إلا فيها ، ولا يتوجه بأحلامه إلا إليها ... وأخذ يكثر الصيد فى هذه الجهة ويتردد على هيكل غرامه المقدس لينشق عبيره ، وينعم بأرج الحب فى أكنافه ... ثم لم يطق أن يظل هذا حاله ، فتنكر فى ثياب شعبية ، وصار يتردد على كوخ الراعى فيحدثه ويسمر إليه ، وآنس فيه لطفاً وظرفاً وتأدباً ، فمال إليه ، واطمأن فؤاده لصحبته ... وكان فلوريزيل فتى مشرق الشباب حلو الفم ، يتحدث فتنجذب إليه الأسماع ، ويصمت فتسرح فى وجهه العيون

وانى الفتاة فنمت عيناه المدنفتان بكل ما فى قلبه ، وجميع ما يتأجج بين أضلاعه ففتحت له قلبها الخلى ... وهرول هو من عينيها الصافيتين الساحرتين ، ومن فمها القرمزى المُـتَمتم ، إلى أبعد أغواره ...

وذكر لها أن اسمه دوريكليز ... !

* * *

وطال غيابه من حضرة أبيه الملك ، وتعدد ، وأصبح لا يهمه أن يغشى المجالس الملكية ، فجمجمت نفس أبيه بأشياء فراح يدبر أن يعرف منها ما حرص ابنه أن يخفيه عليه

وأرسل عيونه فى عقبيه ، فعرفوا ما بينه وبين برديتا

ودعا الملك إليه صديقه كاميللو ، كاميللو المخلص الذى أنقذه من السم فى بيت ليونتس ملك صقلية ، فكشف له عما في نفسه وذهبا متنكرين فى إثر فلوريزيل إلى كوخ الراعى ... والد برديتا فيما زعم له الزاعمون

وكان عيد الصوف الذي يجزون فيه الأغنام ، وكان الكوخ وما حوله فى حركة صاخبة ومرح ، وكان المدعوون جالسين إلى الموائد الحافلة بالآكال والأشربات والأشواب المعممة بالحبب ، وكان الولدان والعذارى والغانيات يرقصون على نغم النساى فوق العشب الأخضر ؛ وكان بائع متجول يجلس فى ناحيـة وقد التف حوله فتيان وفتيات يشترون ويشترين ، هذا رباطاً وهذه قفازاً ... وكان فلوريزيل قد انتحى وبرديتا ناحية ، وراحا يتناجيان ويتباثان ، غير ممشين بهذا الحفل الراقص ، المائد بالأذرع والسيقان ، المائس بالقدود والنهود

ودلف الملك نحو الجهة التى اعتزل ابنه الناس فيها ، ودلف وراءه كاميللو ، ثم جلسا عن كثب ، بحيث يسمعان نجواهما

— عجباً يا كاميللو ! إن هذا الجمال وهذا السمت كثيران على ابنة راعٍ نشأت بين البهم ، وشبت فى جنبات المروج !

— ولم يا مولاى ؟ أليس الرجل أغنى رعاة بوهيميا ؟ إنه ملك القطعان ، وابنته من أجل ذلك ملكة اللبن والقشدة !

— إن فلوريزيل يجلس بين يديها كالحَمل !

— وليس هذا عجيباً أيضاً ، لأنها خبيرة بتأديب الذئاب !

وتبسم الملك ثم ترك صاحبه وقصد إلى الراعى فسلم عليه ثم قال :

— عمرك الله أيها الأخ ! من هذا المدنف المتبول الذى يناجي فتاتك الهيفاء ؟

فقال الراعى : « ذاك الفتى ! إنهم يدعونه دوريكليز ، وكل منهما يهيم بصاحبه كما ترى ... ولست أدرى أيهما أسعد بإلفه من الآخر ؟ بيد أننى لا أشك فى أنه إذا اختارها لتشركه فى حياته فإنه يفوز بشيء عظيم جداً ، لأن وراءها كنزاً لا يحلم مثلُه بمثله ! ! »

ويمم الملك شطر الحبيبين فقال يخاطب ابنه وهو يمضغ كلماته ويمطها ، حتى لا ينكشف أمره : « أنت أيها العاشق الصغير ، فيم اعتزالك هذا العيد بما فيه من لهو ومرح وقصف وعزف ! ويحك ! لقد جاء علىّ حين من الدهر أحببت فيه كما تحب أنت اليوم ... وكنت أسجل حبي بالهدايا والتذكارات ، فما لك لا تشترى لحبيبتك من البائع المتجول كما يشتري الولدان لعذَاراهم ؟ »

وقال فلوريزيل ، وهو لا يدرى أنه يخاطب أباه ومولاه :

« تالله يا أبتاه الشيخ لو اطلعت على ما فى جوانحنا لاستقللت الدينا بأسرها هدية لحبيبتى برديتا . وإن هديتى لها هى هنا ... فى هذا المكان الأمين ... فى قلبى »

ثم التفت إلى الفتاة وقال : « أوه يا برديتا ! إصغى إلى يا حبيبتى ! لقد سأل هـذا الرجل الشيخ أن أقدم لك هدية كما كان يفعل إذ هو فتى ذو صبابة وذو هوى ! فهأنذا أقدم لك فؤادى بين يديه وأجعله شاهدى ؛ وهأنذا أعلن أمام الملأ أننى أكون أسعد الناس لو رضينى أبوك زوجاً لك ، ويسعدنى أن يبارك هذا الشيخ عقد حبنا وصحيفة ارتباطنا ! ... »

ولم يطق الملك على تصرف ابنه صبراً . فانتزع دِمَامه[1] ، وكشف عن حقيقته ، ثم صرخ بابنه قائلاً : « بل أشهد على صحيفة طلاقكما أيها الشقى ! ما شاء الله يا ولى العهد ! لم يبق إلا أن تنسى دمك الملكى فتلطخه بدم هذه الراعية ! تلك الغجرية التى استهوت فؤادك وسَبَت لُبك ! الويل لك يا فلوريزيل ! إنى أنذركما معاً ! حذار أن يرى أحدكما الآخر ، وإلا كان الموت جزاءكما تجرعانه يا شقيين ! أتسمع أيها الراعى ! ذُدِ ابنتك عن سيدك أو ادفع رقبتك ثمناً لعصيانك

ثم أمر كاميللو أن يتبعه مصطحباً فلوريزيل ، وامتطى هو جواده ، وذهب يعدو به ، وكأنه شيطان على فوهة بركان !!

وغلى الدم الملكى في عروق پرديتا ، فوقفت تردد عينيها فى أثر الملك وتقول : « ويحك ! أيهذا الملك ! على هينتك ، فوالله ما أزعجتنى غضبتك ، ووالله لقد هممت أن أقول لك كما قلت لى ، وإن الشمس التى تشع بأضوائها على قصرك هى هى التى تشع بلألائها على كوخنا هذا الهادىء الصغير ! ولكن ! وا أسفاه ! لقد أيقظتنى لهجتك الجافة ذات الصرير من أحلامي السعيدة التى رفعتنى حيناً إلى مصاف الملوك ! فيا أحلامى ... وداعاً ... ووداعاً أيها الأمير ! وداعاً يا مولاى . ! أتركنى أرجوك !

أتركنى لخرافى ونعاجى الحبيبة أرعاها وأحتلبها ..! وأبكى معها فوق المروج الخضر والعشب الحلو !

وانهمرت عبراتها فجأة ، فوجم ولى العهد المعذب ، ووقف كاميللو ساهماً متأثراً ... ثم خطر له أن ينقذ الحبيبين ، وأن يصل حبلهما المقدس ، لأن قضيتهما من قضايا القلوب التى لا سلطان لأحد عليها ، والتى لا تقوى على فصمها حتى يد الموت التى هدّد بها الملك المغيظ المغضب

وكان كاميللو قد علم بما كان من حزن ملك صقلية وتوبته وحسن إعذاره وجميل إنابته ، بعد موت هرميون ، وكان الشوق إلى الوطن والحنين إلى الأهل قد برّحا به ، ففكر لِتَوّه أن يفر بالحبيبين من وجه ملك بوهيميا ، إلى رحاب ملك صقلية ، حيث تقى شفاعة ليونتس ، من غضب پوليكنسيز ، وحيث تتيح[2] الفرصة للود القديم فيحيا ويتجدد ، وتتهيأ القلوب للمصافاة فتنسى

وعرض عليهما مابدا له من الفرار فانشرحا له ووافقا عليه ؛ ثم كلم الراعى فى شأنه ونعمه وقطمانه فتركها فى عهدة صديق له وجمع ما خف حمله من ماله وما احتفظ به من جواهر پرديتا وثيابها التى وجدها فيها والورقة التى كتب عليها اسمها وشىء من نسبها وحديث مأساتها ... ثم لاذ الجميع بالفرار

وكانت مجازفة مليئة بالشجن ، فى طريق محفوفة بالمخاطر

واستأذن كاميللو على صديقه ملك صقلية ، فتلقاه بعينين باكيتين محزونتين ، وضمه إلى صدره كأنما كان يعانق أشباح الذكريات الحبيبة ، ويضم طيف الماضى العزيز ...

— مرحباً كاميللو ... مرحباً بحبيبى المخلص ، ومشيرى الأمين .

— مولاى ! ...

ثم انحبس منطق الرجل فلم يزد على هذا ، وترك لدموعه أن تتكلم !!

ولما هدأ ، وسكنت نفساهما ، قدّم إليه كاميللو ولى عهد بوهيميا ، ابن صديقه الأعز ، وحبيبه الأوفى ، پوليكسينز ! فتبسم له الملك ، وتلقاه بالأهل وبالسهل ، ثم طبع على جبينه قبلة التكفير عما ظن بأبيه من سوء . وقدم فلوريزيل فتاته پرديتا قائلاً : « خطيبتى الأميرة پرديتا يا مولاى ! » وهش لها الملك وبش ، ولكن سرعان ما تبددت ابتساماته فى جو من الذكرى دَهَم فؤاده فجأة !

لقد نظر الملك إلى الفتاة الجميلة الرائعة فكأنما وقف فى ظهيرة غائمة قاتمة فوق قُلّة جبل ، ينظر إلى أشعة الشمس تنمر سهلاً نائياً كله ورود ورياحين وأزهار !

لقد ذكر ماضياً سعيداً حافلاً بالهناءة عند ما رأى پرديتا !

لقد رأى فى عينيها أحلامه المواضى الرائعات !

لقد أحس بقلبه يثب من صدره إلى حدقته ليرى إلى الأميرة القادمة ؟ !

وَىْ ! تُرى ! هل من الجنة آبت هرميون !

أليس هذا هو طيفها الحبيب يتمثل له فى هذه العذراء الفتان ؟

ولحظ الراعى ما بدء الملك من پرديتا فوجب قلبه ، وطفت ذكرياته القديمة فوق بحر لجى من عباب نفسه ، لكنه صمت مع ذلك ولم ينبس

« يتبع » دريني خشبة

(١) الدمام ما طلى به الوجه وغيره ونحن هنا نترجم بها كلمة المكياج التى تزيد على الدمام بالشارب المصطنع واللحية وشعر الحواجب والرأس . وحبذا لو وافقنا علماء اللغة فخصصوا الدمام (للمكياج) والتطرية (للتواليت)

(٢) تاح يتوح ويتيح تهيأ



الحركة الفكرية والجامعية فى مصر

أصدرت الحكومة المصرية فى هذا الشهر كتاباً للدعاية عن مصر باللغة الانجليزية هو Egypt to doy وقد شمل كثيراً من نواحي النشاط الاقتصادى والعلمى والاجتماعى فى القطر ، وكان مما اشتمله هذا السفر مقالة للدكتور محمد مصطفى زيادة الأستاذ المساعد بكلية الآداب عن النهضة الفكرية فى مصر جاء فيه: « كان تأسيس الجامعة المصرية عام ١٩٠٨ أحد العوامل الفعالة الحيوية فى قيام النهضة الذهنية فى أرض الفراعنة ، أما قبل هذا التاريخ فكانت مدرسة الشيخ محمد عبده الأزهرية (المتوفى سنة ١٩٠٥) والمدارس العليا التابعة لوزارة المعارف المصرية هما القوى الوحيدة التى شنت حرباً عواناً صالحة على الجمود المُرْدي الذى كان ضارباً بجرانه على البلد ؛ بيد أن كانتا القوتين قد عاق تقدمهما طبيعة مجالها ووجودها ، مثال ذلك أن مدرسة الشيخ عبده كانت تتألف من شرذمة ضئيلة من المصلحين الغيورين الذين حاولوا — متفرقين — القيام بتغييرات شاملة فى نواح عدة رغم ما كانت تهدّدهم به الرجعية والجمود ، ومن ثم فانه على الرغم من أن مشكلة التقدم الفكرى كانت أقرب الأمور إلى نفوسهم إلا أن اتساع مدى مثلهم العليا لم يسمح لهذه الناحية إلا بالقدر الضئيل من اهتمامهم . أما المدارس العليا التى كانت تابعة لوزارة المعارف فإنها لم تستطع أن تتزعم الحركة الفكرية ، ولا تُؤوى إليها النهضة الذهنية فى البلد ، ومرجع ذلك وجودها بالكيفية التى كانت عليها ؛ إذ أن مهمتها كانت تخريج موظفين مدنيين وحكوميين لمصالح الحكومة المختلفة .

ومن الحق أن تضخم عدد طلاب هذه المدارس الذين كانت توفدهم الجامعة إلى أوربا عاماً بعد عام للحصول على درجات وإجازات جامعية قد عاد على مصر بالفائدة المرجوة التى تكافىء المهمة التى أدوها للدولة ، إلا أن عدد هؤلاء الجامعيين كان محدوداً على العموم ، كما أن التعليم الجامعي فى مصر كان « واردات غير منظورة » فكان داعياً لضرورة إيجاد جامعة واحدة على الأقل فى مصر . وكان إنشاء الجامعة القديمة بدء ظهور معهد على فريد ولم تعقه صعاب المصلحين والمدارس العليا ، بل كان له أثره الصالح وفائدته المرجوة فى مصر ؛ بيد أن الجامعة وجدت عقبة مالية كأداء فى سبيلها إذ كانت تقوم على هبات شرعية سرعان ما اتضح أنهـا غير كافية ؛ ولكن لحسن الحظ أمكن التغلب على هذه الصعوبة عام ١٩٢٦ م حينما أشرفت عليها الحكومة — بإيحاء المرحوم الملك « فؤاد » الذي كان أول راع للجامعة وأول حادب على التعليم — وجعلتها فى سلك المنشآت الحكومية ومنذ ذلك الوقت والجامعة تخطو نحو الكمال . كما أن مبانيهـا الفخمة فى الجيزة دليل ملموس على النهوض بالحركة الفكرية

وبفضل رعاية الحكومة لها زادت ماليتها من ١٠٫٠٠٠ جنيه فى سنة ١٩٢٥ إلى ٢٧٨٫٧٨٦ جنيه مصرى عام ١٩٣٢ كما أن عدد طلابها النظاميين يشير إلى روح التقدم السريع ، فلقد كانوا ١٠٧ طالب قبل سنة ١٩٢٥ ثم ما لبث أن بلغوا ٢٣٨١ فى ١٩٣٢ ، وكان هذا العدد موزعاً بين كلياتها الأربع إذ ذاك وهى : الآداب ، والعلوم ، والحقوق ، والطب ، وإن كليتى الآداب والحقوق لهما من الجامعة القديمة ، أما الطب والعلوم فمن آثار الجامعة الجديدة وإن كانتا فى أصلهما مدرستين عاليتين

وفى سنة ١٩٣٥ ضمت للمدارس العليـا الأخرى للجامعة ، فأصبحت الآن تضم بين جوانبها سبع كليات هى : الآداب ، والعلوم ، والحقوق ، والطب (بما فيهـا الصيدلة وطب الأسنان والطب البيطرى ومدرسة الممرضات) ، والهندسة ، والزراعة ، والتجارة . وبلغت ماليتها ٨٥٠٫٠٠٠ جنيه فى ١٩٣٦ . وعدد طلابها النظاميين فى العام الدراسى الحالى ٦٧٨١ طالباً

نظم الامتحانات ورابطة التربية الحديثة

تعقد رابطة التربية الحديثة ، برياسة الدكتور أحمد عبد السلام الكرداني بك مدير معهد التربية للبنين ، اجتماعاً في الساعة الخامسة من يوم الأربعاء المقبل بمدرسة فاروق الثانوية بالعباسية

ويثير الأعضاء في هذا الاجتماع موضوع الامتحانات في مصر ، وقبل المناقشة يتكلم الأستاذ الدمرداش محمد مراقب الامتحانات المساعد في نظم الامتحانات المتبعة في مصر ورأيه الشخصي فيها . ويتكلم كذلك الدكتور عبد العزيز القوصي في موضوع أثر الامتحانات في التربية

وبعد هذا يطرح الموضوع للمناقشة . وهو من الموضوعات القوية الحساسة التي ترتبط بها النهضة التعليمية في البلاد ارتباطاً وثيقاً

فان الاعتراضات المختلفة ترد على نظم الامتحان . وكثيراً ما أخفق فيه النوابغ ، وجازه المتأخرون الضعاف

وعند علماء النفس أن نظام الامتحان في بعض صوره جدير أن يربي عند التلاميذ الخوف والجبن والتملق . وهو عند آخرين لا يمكن أن يعتبر مقياساً صحيحاً للتفوق بين الأقران

ويراه فريق من علماء التربية شراً لابد منه ، بينما يراه آخرون نظاماً تلعب فيه الصدفة دوراً عظيم الأهمية

محطة اذاعة مصرية بوليسية

تعنى محافظة العاصمة باستخدام الوسائل والاختراعات الحديثة التي تعين رجال البوليس على أداء أعمالهم بالقدر الذي تسمح به ميزانيتها

وقد ارتأت الحكمدارية أخيراً أن تستعين بالإذاعة اللاسلكية للبحث عن المجرمين الفارين ، وإذاعة التعليمات على رجال البوليس في مختلف المناسبات ، فأنشأت محطة خاصة بها في إحدى غرف الدور الأول بالحكمدارية لإذاعة أوامرها على موجة خاصة بجهازات رجال البوليس ، وستذاع هذه التعليمات بواسطة « شفرة » خاصة لا يعرفها إلا البوليس

وأعدت الحكمدارية جهازات التقاط في جميع سيارات البوليس ، وفي أقسامه المختلفة ، لالتقاط ما تذيعه المحطة

وقد جهزت الحكمدارية غرفة الاذاعة بثلاث آلات للتليفون ، لتلقي الأخبار المراد إذاعتها من أقسام البوليس في أنحاء القاهرة كما جهزتها بآلة للتلغراف لتلقي الأخبار من الأقاليم

وقد اقتبس هذا النظام من بعض دوائر البوليس في أوربا ، والمنتظر تعميمه في إدارات البوليس في بعض المدن الأخرى

مؤتمر المستشرقين في دورته العشرين

تلقت الحكومة المصرية دعوة للاشتراك في الدورة القادمة لمؤتمر العلماء المستشرقين الدولي وهي الدورة العشرون المزمع عقدها في مدينة بروكسل في الفترة القائمة بين ٥ و١٠ من سبتمبر القادم

كتاب عن قناة السويس

قالت جريدة « الديلي ميل » في عددها الصادر في ٤ أبريل إن وزارة الخارجية منعت نشر بعض فقرات جوهرية من كتاب : « رواية قناة السويس » الذي يتضمن تاريخ الدسيسة السياسية الدولية التي أدت إلى حفر القناة والاشراف عليها ، ثم قالت إن هذا المنع قد يؤدي إلى عدم طبع الكتاب

وقد توفي السر جون دافيز أحد مؤلفي هذا الكتاب ، وعلى ذلك سيكون رفيقه المستر جريتول والناشرون أصحاب الحق في تقرير نشر الكتاب ، ولما كان السر جون دافيز سكرتيراً خاصاً للمستر لويد جورج في أثناء توليه رياسة الوزراء فقد رأى قبيل وفاته أن يعرض الكتاب على وزارة الخارجية لتوافق عليه

وقد قال أحد موظفي الوزارة : « لقد درسنا الكتاب بعناية وهو يتعلق بمسألة معقدة جداً لها تأثير كبير في السياسة الدولية فرؤي أن هناك بعض فقرات في الكتاب غير مرغوب فيها لأنها من قلم رجل كان يشغل فيما مضى منصباً رفيعاً في الحكومة بحيث يحتمل أن يعتقد العالم أن هذه الآراء تعبر عن آراء الحكومة ، ونحن نعرف أن السر جون دافيز كان قبل وفاته لا يعرف هل يسحب كتابه جملة أو يعدل الفقرات التي يعترض عليها »

وقد علمت جريدة « الديلي ميل » أن جزءاً من الكتاب يتعلق بمستقبل القنال عند ما ينتهي أجل الامتياز بعد ثلاثين سنة

رسالة مصري في باريس

سيدي صاحب « الرسالة » :

بعث إليّ شيخي وصديقي الأستاذ (لويس ماسينيون) بالجزء الأخير من المجلة النفيسة التي يخرجها في باريس « مجلة الدراسات الإسلامية » Revue des Etudes Islamiques (Année 1937. Cahiers II-III)

وموضوع هـذا الجزء رسالة مسهبة فى الشعائر الخاصة بالجنازات فى مصر لهذا العهد . وأما صاحب الرسالة فشاب مصرى يدعى م . (؟) جلال ، وهو ممن يأخذ العلم فى باريس عن الأستاذ لويس ماسينيون ثم الأستاذ موس Mauss (مدرس علم الاجتماع فى الكوليج دى فرانس)

والرسالة تعرض «الطقوس» الخاصة بأحوال المرض والاحتضار فضلاً عن أحوال الموت والجنازة . ثم تبين الإضافات التى بين تلك « الطقوس » والشؤون الاجتماعية والدينية والأخلاقية

ثم تبسط ألوان الشعور وضروب العقائد التى ترجع إليهـا تلك الشؤون . والرسالة ذيلان : مضمون الأول طائفة من المراثى القومية التى تغنيها النائحات (المدادات) ، ومضمون الثانى مجموعة من الصور الشمسية تبرز للعين مثل مائدة الغسل ، والصلاة فى المسجد ، وموكب المشيعين « والمدادة » والدفن ، وإطعام الفقراء ، إلى غير ذلك مما له علاقة بشؤون الموتى

وقد فرحت بقراءة هذه الرسالة فرحاً شديداً ، ذلك بأنها مؤلفة على طريقة استقام عمودها ، وهي طريقة البحث عن أحوال الشعب وتصوراته ؛ وهذا النوع من التأليف العلمى له مكانة رفيعة فى جامعات الفرنجة على حين ليس له فى جامعتنا قليل من الحظ ، حتى أن كل ما يتصل بشؤون الشعب المصرى من أعمال ووجدانيات ومعتقدات إنمـا ينتهى إلينا على أقلام نفر من البحاثين الغربيين

فلا يحسن بنا اليوم أن نغفل رسالة الأسـتاذ م . جلال ، إذ انصرف إلى اثبات ناحية من خصائص الشعب المصرى ربما لا يتاح لها أن تبقى على حالها . ثم إنه يحق لنا أن نذكر للأستاذ ماسينيون عنايته بنشر الرسالة ورعايته لهمة المؤلف ... واسلم سيدى الأستاذ لمن يخلص لك الود بشر فارس

حول المؤتمر العام للأدب العربى فى تونس

فى العدد ٢٤٣ من الرسالة نشرنا خبراً تلقيناه من تونس بأن السيد محمد الفاضل بن عاشور يسعى لعقد مؤتمر عام للأدب العربى لتوحيد طرق الثقافة ودراسة الآداب العربيـة فى جميع أقطار العروبة الخ . وقد كتب إلينا الأستاذ الشيخ محمد الشاذلى السنوسى يقول إنه هو صاحب الفكرة ومقترحها ويؤيد قوله بنشرات المؤتمر وأقوال الجرائد . وسواء أكان المقترح هذا أم ذاك فإن موضع الفخر هو فى تنفيذ الاقتراح وإنجاح الفكرة . إن الآراء كثيرة والأحلام أكثر ، والعبرة بالعمل لا بالقول ، وبخاتمة السعى لا بالشروع فيه . ونحن نتمنى لهذا المشروع الخطير النجاح على أى يد وبأى صورة

الاحتفال بتوزيع جوائز مختار

كانت جمعية أصدقاء مختار قد نظمت مسابقة لهذا العـام موضوعها « جحا وحماره » فتبارى فيها كثير من الفنانين المصريين وفاز بعضهم بالجوائز المرتبة والتى تبرع بها هذا العام حضرة النائب المحترم محمد شعراوى

وقد دعت الجمعية نخبة من رجال الأدب والفن مصريين وأجانب لحضور الحفلة التى أقيمت لتوزيع الجوائز على الفائزين وبعد أن ألقيت الكلمات المناسبة فى موضوع المسابقة بدئ فى تقديم الجوائز للفنانين وتولت ذلك حضرة صاحبة العصمة السيدة الجليلة هدى هانم شعراوى وألقت كلمة طيبة

ثم ألقى الأستاذ على الديب كلمة الفن فى موضوع « جحا وحمارة » ومما قاله :

« موضوع جائزة مختار هذه السنة (جحا وحماره) موضوع وفقت فى اختياره جماعة أصدقاء مختار كل التوفيق . إن شخصية جحا إثبات لناحية الخيال الفذ ، وإظهار لما فيها من سعة فى التصوير وقوة فى التخيل ومبالغة فى التعبير وظرف فى الأداء ، ولا أشك فى أن الاتصال على تنفيذ هذه الفكرة وتبادلها — بالبحث والتصوير والتخيل بين شبابنا الفنى فى هذه السنة ، والذى كان مرجعه إلى ما فيها من طرافة ومجون — هما أقرب ما يكون إلى طبيعة المزاج المصري — سوف يحدو جماعة أصدقاء مختار إلى التوفيق دائماً فى اختيار موضوعات تعبر عن صور من الحيـاة والتفـكير المحلى . وشخصية جحا شخصية محبوبة فى مصر معروفة عن طريق كتاب يسمى « نوادر جحا » ويقال إن اسم جحا الحقيقى هو نصر الدين خوجه أحد شيوخ الترك الذين عاشوا فى أوائل القرن الثامن الهجرى . وكان مشهوراً بالدعابة والتظرف

ويغلبون رواية أخرى ، وهو ما أعتقده شخصياً .. أن جحا شخصيته خيالية من اختراع الشيخ نصر الدين خوجه . وكان نصر الدين هـذا شيخاً عالماً وكان يشتغل بالتدريس — وكانت

النكتة ألزم له من طعامه وشرابه . وفى يوم من الأيام استقر رأيه على أن يقوم برحلة تعليمية بين أهل القرى والأرياف يلقنهم فيها دروساً فى التهذيب ، وقد وجد أن أحسن الطرق التى يصل بها إلى نفوس العامة بالمعانى والحكم هى أن يضمنها قصصاً ونوادر فكاهية تحمل المغزى أو المعنى الذى يريد الوصول به إلى أذهانهم فاخترع الشخصية الخيالية (جحا) وجعله بطل قصصه »

السير جرافتون اليوت سمث

لأول مرة يؤلف كتاب بالانجليزية عن العلامة صديق المصريين أليوت سمث الذى قضى أحسن شطر من حياته الطويلة العامرة يؤكد لعلماء الأنترويولوچيه (تاريخ الانسان الطبيعى) أن الحضارة الانسانية نشأت أول ما نشأت على ضفاف النيل وبأيدى المصريين ، معارضاً فى ذلك الأستاذ ليوناردولى مكتشف آثار أور والذى يقول بأن العراق هو منشأ هذه الحضارة . والأستاذ السير جون مارشال الذى يقول إنها إنما نشأت فى السند وفى مقاطعة بنجاب . وقد اشترك فى ترجمة حياة الأستاذ إليوت سمث طائفة كبيرة من زملائه العملاء الذين ما زالون يتمتعون بحياة مليئة حافلة . وذكروا أنه ولد سنة ١٨٧١ بمدينة جرافتون باستراليا ، ومنها كان اسمه . وكان أبوه من المهاجرين الذين ضاق بهم سبيل العيش فى انجلترا فرحلوا إلى استراليا . وما زال دائباً حتى صار ناظر مدرسة جرافتون ، ثم ناظر مدرسة سدنى . وقد التحق إليوت سميث بمدرسة سدنى الطبية فأبدى ميلا خاصاً إلى التشريح واتصلت أسبابه بأسباب أستاذ هذا الفن فى المدرسة البروفيسير ج . ت . ولسن الذى اتخذه مساعداً له حتى نال الدكتوراه فى التشريح . وفى الخامسة والعشرين وضع الأستاذ إليوت رسالة صغيرة عن (المخ) فأحدثت ثورة فى عالم الطب ، وكانت نواة لمعلوماتنا عن التلافيف والمادة السنجابية . ثم رحل إلى انجلترا فى سنة ١٨٩٦ وقد سبقه إليها اسمه فصار يتردد بين جامعتى أكسفورد وكمبردج لمجرد البحث العلمى . وظل دائباً على بحوثه ثلاثة أعوام حظى بعدها بشرف الزمالة فى جامعة سنت جونس وذلك لما حاز من إعجاب الأستاذ ماكالستر رئيس مصلحة التشريح الانجليزية الذى اختاره لتدريس علم التشريح بمدرسة الطب المصرية سنة ١٩٠٠ . وقد ابتدأت شهرته كعالم عالمي مصرولوجى منذ ذلك التاريخ فقد أكب على الموميات وجماجم المتحف المصرى يشرحها ويستنتج من تراكيبها عجائب الحضارة المصرية ، وكان البرق يطير بحوثه إلى جميع أنحاء العالم فينتفع بها العلماء ويجرى وراءها صيت مصر وينتشر اسمها فى الآفاق — ثم هال الانجليز ألا ينتفعوا بالملهم العبقرى فاستدعوه لكرسى الأستاذية فى جامعة منشستر ثم لرياسة فرع التشريح بجامعة لندن حتى وافاه أجله سنة ١٩٣٧

الشريعة الاسلامية فى كلية الحقوق بباريس

أخذ يلقى دروسه فى مدرسة الحقوق بباريس الأستاذ لطفى الدكتور فى الحقوق وفى الطب ، والعضو المراسل للجنة الاشتراع الأجنبي والحق الدولى فى وزارة الحقانية الفرنسية ، وقد كان الدكتور لطفى قنصلاً عاماً لتركيا فى باريس قبلا

وسيبحث فى هذه الدروس أهمية الفقه الاسلامى وتأثيره فى حضارة شعوب الشرق والبلدان الممتدة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، واشتراع تلك الشعوب . وسيبحث أيضاً التحول الحالى فى الاسلام والبلدان المنفصلة عن السلطنة العثمانية

ويقسم الدكتور لطفى بلدان الشرق إلى ثلاثة أقسام ، من الوجهة القانونية ، وفقاً لمزاولتها العمل بالتدقيق بمقتضى الشرع الاسلامي ، كالحجاز وشرق الأردن واليمن الخ ، أو بمزاولتها الشرع المختلط على ما هو جار فى مصر وسورية وفلسطين ، أو بمزاولة الشرع الغربى كتركيا وألبانيا

ومما لا شك فيه أن هذه الدروس ستلقى إقبالاً عظيماً وستمكن الطلبة الفرنسيين من التعمق فى معرفة البلدان الشرقية

وفاة الأستاذ محمد لبيب البتانونى

فقدت مصر فى الأسبوع المنصرم عالماً من خيرة علمائها ومؤلفاً بحاثة من كبار المؤلفين فيها وهو المغفور له الأستاذ محمد لبيب البتانونى بك

ولقد عرف عن الفقيد خلال حياته الحافلة بجلائل الأعمال شغفه بالعلم والأدب وتوفره على البحوث التاريخية التى كانت تزدان بها صور الصحف والمجلات لأكثر من ثلاثين سنة خلت . ذلك إلى ما ألفه من كتب الرحلات التى دل فيها على طول باعه فى الأدب وسعة علمه بالتاريخ وقدرته على وصف عادات الأمم وطبائعها

كتاب للتلاميذ الانجليز عن نهر النيل

الانجليز هم أبرع الأمم فى ابتكار الأساليب الفعالة فى تربية أبنائهم . والتلميذ الانجليزي لا يعيش فى انجلترا فقط ، بل هو يعيش بخياله فى العالم أجمع ، وهذا الخيال المغناطيسى هو من صنع الأساتذة البارعين الذين يتخذون من خيال الصغير طريقاً إلى عقله . والكتاب الذى يصدر للصغار فى انجلترا عن النيل ليس كهذه الكتب الجافة المتحجرة التي تصرف للتلاميذ المصريين بل هو أشبه شيء بمجلة راقية تفنن فى تنسيقها المصور والرسام والجغرافي والمؤرخ ورجل التربية ورجل المطبعة فجاء آية فى الابتكار وسلامة الذوق ..... فهذا هو النيل في عهـد الفراعنة ، وهذي هى الأهرام والبرابى والمعابد والمسلات والعواصم للمصرية القديمة ... ثم هـذا هو النيل فى عصر البطالسة وفى العصر الرومانى وفى العصر العربى ... ثم ذاك هو النيل فى عصر محمد على وإسماعيل وفى العصر الحديث ، وهذه هى خزاناته وسدوده والمدن القارّة على حفافيه ... الخ وذلك كله على لوحات تبلغ إحداها ستة أقدام طولا مزدانة بالألوان الطبيعية الجميلة الزاهية التى تنطبع بمجرد النظرة فى خيال الصغير فلا يحتاج إلى قراءات طويلة مملة

وتصدر فى مصر مجلة للتلاميذ لا بأس بهـا إذا عنيت قليلا بمـا هو مصرى وقللت من هذا السخف الذى تدأب فى ترجمته عن الـكتب الأوربية المقررة وغير المقررة . فهل فـكر القائمون عليها — وهم من خيرة رجال التربية المصريين — فى إصـدار أعداد ممتازة بالألوان على نسق كتاب النيل الذى سيصدر فى انجلترا للأطفال الانجليز ؟ عندنا الزراعة المصرية والصناعة المصرية وطرق المواصـلات والموانئ والحدائق المصرية الناشئة ودور الـكتب ومصر القديمه ... الخ . فماذا يمنع رجال المجلة من تخصيص أعداد ممتازة تتناول هذه الموضوعات !!

لقب شيانج كاى شك وأعماله

اشتهر هـذا العصر بطائفة من الزعماء كان لهم أثر بعيد المدى فى توجيه شعوبهم توجيهاً سيذكره التاريخ بمـا يستحقه من فخر ومجد ... والذى يلفت النظر أن كلا من أولئك الزعماء اشتهر بلقب عرفه به العالم أجمع . فهتلر هو الفوهرر ، وموسولينى هو الدوتشى ، ومصطفى كمال هو الأتاتورك ، وغاندى هو المهاتما ، وكان يطلق لقب النمر على كليمنصو ... أما القائد الصينى شيانج كاى شك فلقبه چنر السِّيمو أو القائد العام . وتاريخ حياة شيانج هو قصة البطولة التى يفخر بهـا كل شرقى والتى ينبغى أن تكون مثالاً لـكل من ينشد المجد لبلاده . وقد طلب إليه مرة أن يلخص هذا التاريخ فذكر أنه ولد فى شيكيانج وأنه تربى تربيته العسكرية فى اليابان وأنه تتلمذ للدكتور صن — يات — سن Sun - Yat - Sen — ثم سكت !! وقد اشترك فى الثورة على الأمبراطورية وبناء الجمهورية ، فلما مات الدكتور صن يات سن أصبح هو زعيم الصين وجامع كلمتها بعد انتصاره حربياً على خصومه . ويُعرف جيشه باسم (هوامبو) وهو أقوى فرق الصين وأكثرها نظاماً . ولو كانت الجيوش الصينية على نظام الهوامبو لما استطاعت اليابان اجتياح منشوريا ولا إذلال الصين . وقد تعلق الصينيون بشيانج تعلقاً عجيباً أظهره فى أعين العالم بمظهر الدكتاتور مع أنه أشد الناس مقتاً للاستبداد ، ومقته للاستبداد هو الذى أخجل القائد سيوليانغ فأطلق سراحه بعد أن اعتقله ومضى هو فسلم نفسه له بعد ذلك

ولا تنقص الهزائم المتوالية فى ميدان الصين من قدر شيانج ، لأن الجيش الصينى كما وصـفه أحد قواده لحم ودم أمام قوى ميكانيكية فتاكة

هذا وقد صدر بالانجليزية كتاب قيم عن تاريخ حياة هذا البطل لمؤلفه العلامة الأستاذ هولنجتن . ك . تونج

الشنتو SHINTO

ما كادت صيحة النورديين تهدأ فى ألمانيا بعد طرد اليهود منها حتى ارتفعت فى اليابان صيحة تشبهها فى النعرة والتغنى بالمحتد وتأليه الأرومة والتبرؤ من الانتساب إلى الصينيين فى المنصر ، والادعاء بأنهم (أى اليابانيين) سلالة مستقلة لا عن الصين فقط بل عن جميع البشر ، لأنها منحدرة مباشرة من الآلهة ... ! وهذه دعوى عريضة جديدة ، كان الناس يضحكون من قدماء المصريين واليونانيين حين ادعوها ... وقد اتسعت آفاق الشنتوزم فشملت ديانة اليابانيين ووطنيتهم وفدائيتهم ومذاهبهم السياسية والاجتماعية ، وتغلغلت فى جميع مرافقهم الحيوية ... من عنابر المصانع ... إلى رمال الصحراء التى يقرأون فى صفحتها الغيب ... ومهما حاول اليابانيون التبرؤ من منشئهم فالثابت هو أنهم مزيج من المغول والآينو وأقوام البحار الجنوبية . كما أن الألمان ليسوا من سلالة نوردية خالصة ، وكما أن اليهود ليسوا شعب الله المختار



مفــــرق الطريق

مسرحية في فصل واحد للدكتور بشر فارس

نقد بقلم الأستاذ زكى طليمات

مفتش شئون التمثيل بوزارة المعارف

أصدر الشاعر الأديب الدكتور بشر فارس كتابه « مفرق الطريق » وهى مسرحية طريفة قدم لها بتوطئة بليغة فى المذهب الرمزى ويقينى أن المؤلف ، وقد أحس غموض المنهج الذى انتهجه فى كتابة مسرحيته ، كما عرف جدته على الناطقين بالضاد ، لم يأل جهداً فى الشرح والتبيين مفصحاً عن ماهية (الرمزية) فى عالم الأدب وفى عالم الفن ، كاشفاً عنها سجف الغموض والإبهام ، وغايته من ذلك تيسير الفهم على القارئ إذا ما طالعه الإبهام وحيره انقلاب المعانى ، وقد طاح به الشغف بين سطور الرواية ، فجاءت التوطئة بحثاً شائقاً فريداً فى بابه باللسان العربى ، خصباً فى معارفه، محكماً فى تعابيره، بليغاً فى الدعاية لهذا المذهب الأدبى الطريف

ونبادر بتسجيل ما وضعه المؤلف فى توطئة كتابه وصفاً للرمزية بأنها (استنباط ما وراء الحس من المحسوس ، وإبراز المضمر وتدوين اللوامع والبواده بإهمال العالم التناسق المتواضع عليه اختلاقاً يكد أذهاننا طلباً للعالم الحقيقى الذى نضطرب فيه ، تدهشنا ظواهره وتردعنا بواطنه وتعجزنا مبادئه) . إذ أن فى هذا الوصف ما يكشف للقارئ عن الكثير مما يتضمنه هذا المقال . وبالقياس إلى هذا الوصف أو التعريف نصدر رأياً فى المسرحية ومكانها من الرمزية فى هذا المقال ، على أن نعالج مذهب الرمزية فى بحث آخر موعدنا به العدد القادم :

الحادثة فى هذه الرواية ضئيلة ليس فيها شىء من المشوقات أو المفاجآت ، ولو وجدت لما أعرناها كبير انتباه ، ولما جعلنا منها قياساً للحكم على طرافة الرواية ، إذ الحادثة فى هذا النوع من الروايات وسيلة لا غاية نأتى بلخصها فى سطور عابرة :

(سميرة) تتحدث مع (الأبله) الذى يومئ ولا يجيب ، ثم يأتى (هو) شاب ظريف فيتبادل مع (سميرة) الحديث ، حديث الماضى والحاضر ، وترتفع أصوات ناى من مكان لا يرى ، فهى تارة نائحة وأخرى شجية ليسدل الستار بعد ذلك وقد غابت سميرة فى طريق ، وانحدر (الأبله) و (هو) فى طريق آخر !

أما إطار الرواية ، فقد أتى المؤلف على وصفه فى البيتين إذ قال :

(فى مفرق الطريق أى حيث ينفرج يميناً مناراً وصاعداً ، ويساراً مظلماً ومنحدراً ، يلتقى العقل والشعور فيتجاذبان المرء ، ولكل منهما خطة من القوة والغلبة ، وأما الجانب المظلم فحيث يقهر الشعور العقل فينحدر المرء وقد عمى رشده إلى غاية تحترق عندها النفس ، أما الجانب المنار فحيث يصرع العقل الشعور فيسلك المرء فى صعود مثلوجة يحيا عندها بنجوة من الاحتراق)

وهو وصف معبر للمعالم المعنوية التى تجرى فيها حادثة الرواية وهى معالم أقامها الرمز عن طريق الاضاءة فى صعود الحظ أو هبوطه؛ وبهذا برز للرمزية فى الرواية طابع مرئى من حيث المبنى ، وهو سبيل التعبير فى الرواية عن المعنى

وما كان للمؤلف ، لولا حرصه على تيسير الفهم على القارئ للرواية ، أن يورد بعد ذلك فى تبيينه أوصاف شخصيات الرواية ، إذ أن فى حوارها المقتضب والمضطرب ، والذى يشير ولا يبين ، ما يكفى للابانة عن أنها شخصيات تتحرك وتتكلم فى إشراق روحانى وبإيحاء من العقل الباطن ، وتبدر منها اللوامع النفسية متجردة من السجف والأقنعة

(سميرة) المحور الأساسى فى الرواية ، هى الرمز الحى للانسان الذى ينتهبه الماضى بحلاوته والماضى بمرارته ، وفيها يتجلى الصراع الذى لا ينقطع عن القيام بين العقل والعاطفة ، وهو صراع لم يكتب لأحدنا أن يكون فى منجاة منه ، وإنما تختلف مواقفنا منه

باختلاف انفعالات وملابسات الأحوال .

أما باعث الخامد ومثير الماضي فهو الشخصية التي أطلق عليها المؤلف اسم (هو) ، فمنه ينطلق التيار فتختلج (سميرة) مترنحة بين العقل والعاطفة ، ويقطب (الأبله) وجهه وقد ساورته المخاوف

وما (الأبله) ، وهو الشخصية الثالثة في الرواية إلا رمز لمسكة العقل التي نجدها بعد أن يعيينا الضرب في مفاوز العاطفة الضالة فنتعلق بها لنستريح ونريح

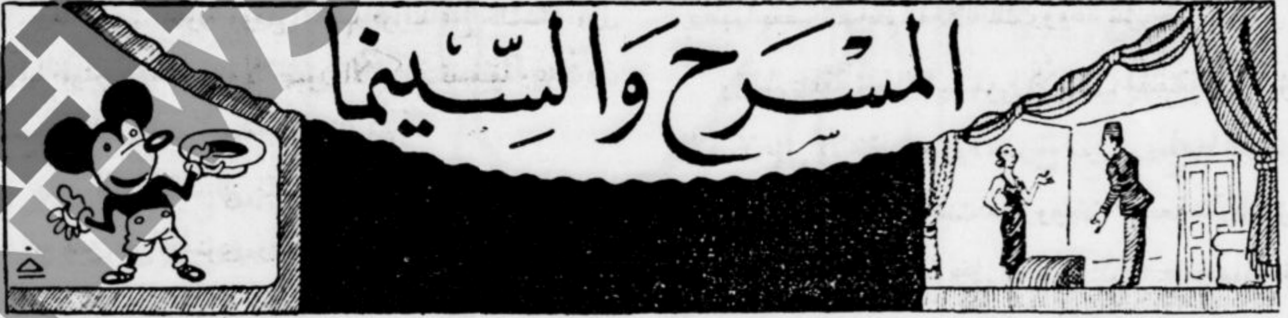
وتهب أنفاس المؤلف على هذه الشخصيات نافخة فيها حياة غزيرة متدفقة فإذا بها تتحرك في رمز وتتكلم في رمز وسط الإطار الذي ابتدعه المؤلف في حذق ، فجاء الإطار والعقل رمزاً للنور والطريق الصاعدة، والعاطفة رمزاً للظلمة والطريق المنحدرة . وهكذا يبدو الرمز كاملاً من حيث المبنى والمعنى . وتستقر الرواية بذلك في صميم الرمزية ، وقد تسامت على الرمزية السطحية المقصورة على الرمز بشيء إلى شيء آخر دون إظهار المبهم والمغلق من خلجات النفس ولوامعها

وأسلوب (مفرق الطريق) فصيح وبليغ ، بل إنه لمتطلع إلى الشأو البعيد ، الذي قد يراه بعض القراء تفاصحاً . وربما يؤاخذ هذا الأسلوب من جانبهم بأنه أسلوب مكبوت النغم مقبوض الإيقاع إذا قورن بالأسلوب الذي كتب به شعراء الرمزية ، إلا أن واجب الإنصاف يقضي بأن نشير إلى أن الشعر شيء والنثر في مسرحية كهذه شيء آخر . هذا مع العلم بأن الشاعرية كامنة في تضاعيف حوار هذه المسرحية

وبشر فارس كتب مسرحيته هذه متثبتاً من صيغ الرمزية وفقيها في ضروبها ... ولا أدري ، لو طالت مشاهد هذه الرواية أكان النفس يواتيه بمثل ما واتاه الآن . فلا تلمح العين طغيان الصناعة الحاذقة على الإلهام المحض الذي يورد الشيء وهو لا يدري أسبابه وبواعثه ! !

وجملة القول أن (مفرق الطريق) حدث جديد في تأليف المسرحية المصرية ، جدير بالعناية من الكتاب ومن رجال المسرح ، وحري بالثناء وكل ما أرجوه أن تطالع هذه المسرحية النور يوماً على المسرح ، وأن تجد المخرج المسرحي الذي يحسن فهمها ليحسن تفهيمها للجمهور .

زكي طليمات



حظ العلماء والأدباء في السينما

اشتهرت السينما فى بادئ الأمر بوصف أنها وسيلة للتسلية حظ الجماهير منها أكبر من حظ الخاصة والمثقفين . فكانت أكثر الأفلام رواجاً وازدياداً تلك التى تدور حول حياة رعاة الأبقار والأفلام البهلوانية والأفلام المسلسلة ذوات الموضوعات الغثة التافهة . فلما ارتقت الصناعة ارتقت معها الأفكار ولكن هذا التطور كان يسير تدرجاً وغايته الأولى هى توفير « المتعة » مع الارتقاء إلى أفق أوسع

وقد بدأ أولا حظ الملوك ذوى العروش والتيجان والقصور ، فنى هذا الوسط متعة وبهرج وجاه يلذ الأعين ويخطف الأبصار . ومن الملوك الذين أخرجت حياتهم وأعمالهم على الشاشة قيصر روسيا ، وهنرى الثامن ، وكاترين الروسية ، وكليوباترا ، وفكتوريا رجينا ، ومارى الاسكتلندية ، وكرستينا السويدية . ومن هؤلاء من أخرج عدة مرات فى أفلام مختلفة فى عهدى السينما الصامتة والناطقة

وبجانب أفلام أصحاب التيجان تلتقى أفلام الساسة والقادة فهؤلاء يثيرون الحروب ويتحكمون فى مصائر الشعوب ويغيرون معالم الأمم ، ولكل واحد منهم ناحية خاصة تثير فى المرء الشعور وتدفعه إلى الاستطلاع ، ومن القادة الذين أخرجت حياتهم على الشاشة نابليون ، ونلسن ، وغاريبالدى ، ولافاييت ، وبانشوڤيلا المكسيكى . ومن الساسة دزرائيلى ، وريشيليو ، وبارنل الايرلندى ومترنيخ النمسوى ، وبسمارك ، وأندرو جاكسون الأمريكى ، ولنكولن

وقطعت السينما خطوة أخرى فشملت حياة الفنانين وسيرهم وهذه لاتخلو كذلك من المآسى والغراميات والمؤثرات التى يطرب لهـا الجمهور . ومن هؤلاء الفنانين الذين شاهدنا عنهم أفلاماً : موزار ، وشوبيرت ، ورجراند المصور ، وفاجنر ، وستراوس ، ودافيد جارك الممثل . وهناك مشروعات أخرى لاخراج حياة بتهوفن ، وليزت ، ونيجفسكى ، وساره برنار

وكان العلماء والأدباء حتى هـذه المرحلة أقل هؤلاء الناس حظاً من حيث الاهتمام بأشخاصهم فى عالم السينما وإن كانت أعمالهم هى المادة التى تفخر وتحيا بها السينما ؛ ويرجع عزوف رجال السينما عن إخراج سير العلماء والأدباء إلى أن حياتهم فى الغالب حياة جافة تخلو من النعومة ومن النساء ومن الحوادث التى تثير فى الناس غرائز الاستمتاع والبهجة ؛ ولكن السينما كما قلنا فى تدرج وفى اطراد ، فلا بد لها أن تبلغ هذا الأمر فتظهره فى الثوب الحقيقى به وتبرز النواحى الانسانية فيه فتعوض بها النواحى السفلى التى تثيرها حادثة غرام أو معركة أو حريق



الفريد نوبل العالم الكيمائى صاحب الجوائز المعروفة باسمه وستخرج حياته على الشاشة

وقد نجحت المحاولة ووفق أصحابها فرأينا على الشاشة أول ما رأينا فولتير ثم باستير وزولا يلهبون الأكف تصفيقاً ويملأون السمع والقلب والبصر حكمة وموعظة وفخراً

ومن المشروعات التي تشغل الأذهان الآن في عالم السينما إخراج فلمين عن تولستوي وألفريد نوبل العالم الكيمائي مخترع الديناميت وصاحب الجوائز التي باسمه لخدمة العلم والأدب والسلم

العلامة فرويد وينوى إخراج فيلم عن مذهبه فى التحليل النفسى

ولكن الخطوة الأكثر تقدماً نحوالرقي هي الاشتغال باعداد فلم عن مذهب العلامة سيجموند فرويد فى التحليل النفسى؛ وصاحب الفكرة هو الممثل الألمانى كونراد فاليت الذى يعتمد فى إخراج هذا الفلم على المخرج الكبير الكسندر كوردا صاحب شركة أفلام لندن

وهكذا تتطور السينما من حسن إلى أحسن فتتوطد مكانتها كوسيلة ثقافية فضلاً عن وظيفتها كوسيلة استمتاع

محمد على ناصف

جماعة أنصار التمثيل والسينما

فى السابع عشر من هذا الشهر تحتفل جماعة أنصار التمثيل والسينما بيوبيلها الفضى فى حفلة تقام بدار الأوبرا الملكية تفضل برعايتها حضرة صاحب الجلالة الملك ووعد بتشريفها

وقيام جماعة أنصار السينما من الأسباب الحقيقية التى تحمل الانسان على الاعتقاد بوجود مسرح مصرى، لجدها المتواصل وعملها المنتج؛ وقد أخرجت عدة روايات ناجحة ما تزال تمثل للآن على مختلف المسارح. وعلى الرغم من كونها جماعة هواة فقد أفاد المسرح على يديها ما لم يفده من أكثر المحترفين جماعات وأفراداً. وكثير من الفنانين الذين تعتمد عليهم مسارحنا قد بدأوا طريقهم بين هذه الجماعة

ونصيب السينما من عملها لا يقل عن نصيب المسرح فقد أخرج على أيدى أعضائها عدة أفلام من أنجح أفلامنا المصرية

وقد بدأ حماسها يشتد ونشاطها يزداد أخيراً لما تشرفت به من الرعاية الملكية السامية فى أكثر من مناسبة، تلك الرعاية التى تشمل الآن العلوم والفنون وتبشر لها بعهد زاهر سعيد فى العصر الفاروق المجيد

والرسالة تتقدم بهذه المناسبة بالتهنئة إلى جماعة أنصار التمثيل والسينما راجية لها اطراد التقدم والنجاح

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧


الرسالة
مجلة اسبو
لوم والفنون
السنة السادسة
العدد ٢٥٠

6 me Année, No . 250

Lundi - 18 - 4 - 1938

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العــــدد ٢٥٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٧ صفر سنة ١٣٥٧ — ١٨ ابريل سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

شركة تنشيف الريق !.

للأستاذ عبد العزيز البشرى

أكثرت الصحف فى هذه الأيام من ذكر مقابلات لحضرة صاحب المعالى وزير الأشغال ، خاصة بتخفيض ثمن المياه فى القاهرة ، كما تردد خبر اجتماعات اللجنة المؤلفة لهذا الغرض من قديم الزمان ، وسالف العصر والأوان ! . ولقد زعم لي زاعم من المؤرخين أصحاب الإحصاء أن اجتماعها الأخير كان الاجتماع الـ ٤١١ ، ٠٣٢ ، ٦٢٤ ، ٨٥٣ ، ٤٧١ ! .

فتري هل آن أن ينجح المسعى ، وتحط الشركة من أثمان الماء ، فقد مضي على سكان القاهرة ستون عاماً ، وستون عاماً غير قليل ، وهم يغصون بماء النيل . وكأن الشاعر كان ينظر بلحظ الغيب إلى القاهريّين ومايعانون من شركة المياه حين قال :

نفرّ إلى الشراب إذا غصصنا فكيف إذا غصصنا بالشراب؟

تُرى هل ينجح السعى هذه المرة ويحق لساكن القاهرة أن يتمثل بقول الشاعر :

فساغ لى الشراب وكنت قبلاً أكاد أغص بالماء الفرات ؟

الفهـــرس

يا قومنا : أقسم لكم بالله تعالى ، غير حانث ولا آثم ، إن الشركة ليست تأتينا بالماء من إڤيان ، ولامن إكس ليبان ، ولا من ڤيشي ولا من بلاد اليابان حتى يُلتمس لها العذر ، بنفقات النقل فى البر والبحر ، وأجور الحزم واللفّ والتعبئة والصفّ ، والتأمين خوف الغرق والحريق ، وما عسى أن يدركه من العطب فى أثناء الطريق . وناهيكم بحساب ما قد يكسد فى الأسواق منه ، وما قد يبور فى المتاجر بانصراف (الهواة) عنه . ومن يدرى فلربما ظهرت (ماركة) ماء جديدة . (موديل سنة ١٩٣٨ أو ١٩٣٩) ، فيها من المزايا ما ليس فى هذا الماء ، فى ريّ العطاش وبلّ صدَى الظِّماء !

ليست تجيء بشيء من هذا حتى تغلو هذا الغلوّ فى الأسعار ، توقِّياً للنفقات وتوقياً للخسار . إنما تدفع إلينا الماء من نيلنا الذي يشقّ مدينتنا ، والذى يجرى بين أيدينا ، والذى طالما طغى وزاد ، حتى أغرق البلاد ، وأهلك العباد ، وأتى على اليابسة والخضراء ، وألقى بربَّان الخذور إلى متن العَراء . بل إن من يرى متدفقه في دمياط أو فى رشيد ، ليحسب أنه ماض لريّ العالم القديم والعالم الجديد . وتراه يغذوا فى شمالنا وجنوبنا ألف ترعة ، فإذا جازبنا ضيقت الشركة ذرعه ، وباعتنا ماءه (بالشربة والجرعة ! حتي أصبحنا ، ونحن نغدو على حافتيه ونروح ، نتناشد قول الشاعر :

يا مسرحة المـــاء قد سُدَّت موارده
أما إليك طريق غير مســدود ؟

* * *

حقاً يا سيدتى الشركة ، لقد سامتنا (عداواتك) رهقاً وعذابا ، وجرّعتنا من نيلنا علقماً وصابا ، وكان من قبل سكراً مذابا ، وكان شهدًا وجُلاَّبا ، لقد ساغ ورداً وحلا شرابا ! .

* * *

حقا ، يا سيدتى الشركة ، إنك لتروّقين الماء ولكنك تعكِّرين النفوس ، وتملأين الآنية ولكنك تخلين الجيوب حتى من الفلوس !

* * *

يا سبحان الله ، يا شركة ! تعطيننا الماء وتقتضين الذهب ، ولو كان مالنا نيلا لجفّ يا شركةُ من كثرة النزع ونضب ! إرحمينا ، يا شركة ، واعملى معنا بالمثل الذى قالته العامة من قديم الزمان : « المية ما تفوتشى على عطشان » !!!

وبعد ، فعندى ، يا سيدتى الشركة ، أكثر من هذا ، ولكن :

فى فمى ماء وهل ينـــطق من فى فيه ماء

* * *

ونرجع إلى سياقة الحديث فنقول : أفآن لوزارة الأشغال أن تنجز الوعود ، ولشركة المياه أن تعدل عن دلّها المعهود ، فتترفق فى ثمن المـاء ، وتخفّف عن كواهلنا ما يهدّدها من الأعباء ، فقــد اعترانا الداء من ناحية الدواء . ولله در شاعر الغبراء :

من غصّ داوى بشرب المـاء غصته
فكيف حال الذى قد غصّ بالماء ؟

فإن فعلت وإلا فقد طابت الهجرة إلى البرارى والقفار ، لنتعوّض عن ماء النيل ماء الآبار والأمطار . وإني لأخشى أن تلاحقنا الشركة هناك ، وتبسط علينا سوط (الاشتراك) ، بعد أن تحوز ماء الغمام فى مواسير ، وتختم بالعداد على كل بير . فالشركة وراءنا ولو تعلقنا بالسحاب ، أو تدسّسنا فى التراب ، وأمرنا إلى من له المرجع والمآب !

* * *

أرجو أن تنصفينا ، يا شركة المياه ، وتفرّجي عنا من هذا الضـيق ، وإلا اضطررنا إلى أن ندعوك « شركة تنشيف الريق » ... والسلام

عبد العزيز البشرى

قضية اللغة العربية

للأستاذ أحمد خاكي

يرى الكاتب أن اللغة ينبغي أن تكون لغة معان قبل أن تكون لغة ألفاظ . وأن تعليمها ينبغي أن يرمي إلى ثلاثة أغراض : أولها التدريب العقلي ، وثانيها الخبرة الحسية أو الجمالية ، وثالثها الوجهة النفعية . وهو يبحث في بعض وسائل تعليم اللغة العربية وينقدها في هذا المقال

١ – أصول نفسية لتعليم اللغات

إذا نحن عالجنا الوسائل التي تكفل إدراك الغايات من تعلم اللغة العربية ، وجدنا أنها شعبة من الخطط العامة التي ترسّمها المربون وعلماء النفس في العصر الحديث . ويسيطر على التربية في هذا العصر مدرستان متكافئتان من مدارس الفكر : أولاهما يتزعمها فرويد ، وثانيتهما كان زعيمها بافلوف

ويذهب الأولون إلى أن النفس جماع الغرائز والميول الفطرية ، وهذه تأتلف في أحيان وتختلف في أحيان أخرى . ولقد اتجهت التربية في هذا العصر وجهة من يحاول أن ينشئ تلك الميول سواء أكان ذلك بالاستعلاء بها أم بالتهدّي إليها . وقامت فلسفة التربية على أساس من تلك الغرائز المتوافقة المتناكرة ، بل لقد كان فتحاً جديداً في التربية أن أصبح الطفل موضع العناية عند المربين . ولعل روسو وأضرابه من فلاسفة القرن الثامن عشر كانوا أول من نادي بتربية الطفل كطفل ، وأول من هيأ السبيل للعلماء المحدثين . على أن تلك المسألة قد اختلجت بين الفلسفة والأدب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، حتى قام فرويد يؤصل أصولها النفسية في السنوات القليلة الماضية . وهنا ظهرت في التربية مبادئ الحرية التي تحاول أن تساير ميول الطفل وغرائزه ، وذهب المربون يصطنعون وسائل التعليم على هدى تلك المبادئ الحديثة ، فأفلحوا في اصطناع الكثير منها فيما يتصل بكل فروع المعرفة ومنها اللغات .

والطفل عند هؤلاء عامل كبير في تربية نفسه ، فليس هو جهازاً مستقبلا ، وليس موقفه سلبياً محضاً ، وليس ينعم بتلك القابلية التي تستوعب أيّ شئ وكل شئ من غير أن يكون له من نفسه سلطان على ما يعلم وما يعمل ، وإنما نفسية الطفل عندهم فعالة مؤثرة ، فهو تتنازعه الهواجس والعواطف والميول . وعلينا نحن أن نبسط له من العلوم ما يتروّاه وينعم به . أما وسائلنا فخيرها ما ساير ميول الطفل حتى يدفعه الشوق إلى الاستزادة من ألوان المعرفة ، وحتى يصبح تعليمه داخلياً فعالاً لا خارجياً لا يكاد يتدسّى إلى الصميم

وإلى جانب تلك المدرسة النفسية الغامرة ظهرت مدرسة أخرى تؤمن بالغرائز وبالميول أيضاً ، لكنها تؤمن فوق كل ذلك بما يسمونه الأفعال المنعكسة reflex actions وتلك مدرسة العالم النفسي بافلوف ؛ فلا يذهب هؤلاء في تقدير الغرائز مثل ما يذهب أصحاب فرويد ولا يمعنون في تقديرها مثلما يمعن الأولون ، وإنما يضمونها جنباً إلى جنب مع الأفعال المنعكسة التي يستطيع أن يكسبها الطفل ، ويؤمن هؤلاء بأن الغرائز والميول قابلة للتعديل عند الإنسان وأنه قد يكسب نوعاً خاصاً من المهارة إذا هو وضع تحت مؤثر دائم متكرر . فالتقليد والتكرار والمراجعة كل أولئك جديرة بأن ترشد المتعلم إلى إحسان المهارات وهي جديرة بأن تكون أساساً ثابتاً لعلوم كسب المهارة

ومدرسة بافلوف ومدرسة فرويد كلتاهما على حق . وهما في ذاتهما تمثلان وجهتي نظر مختلفتين لكنهما متكاملتان . أما الأولى فهي تمثل الحرية في التربية ، وأما الثانية فهي تمثل النظام . الأولى تعترف بملكات الطفل وقواه ، والثانية تحاول أن تشيع نظاماً خاصاً يأتلف تلك الملكات ، والأولى تسمح للطفل بأن ينمي كل ما وهب من مدارك ، والثانية تربط تلك المدارك بعضها ببعض حتى تصبح موثوقة الأجزاء مرتبطة الأطراف

والآراء النفسية التي يذهب إليها الفريقان تخلق دستوراً بأ كمله تتجلى فيه أحسن الوسائل لتعليم اللغات ، فاللغة من ناحية ينبغي لها أن ترتبط بالميول والغرائز التي تجتمع لدى الطفل . وينبغي أن تكون مادتها بحيث تهز مشاعره وتحرك أعطاف قلبه ، وهي من ناحية أخرى إحدى المهارات التي يكسبها الأطفال كأي فعل منعكس آخر ، ولن يتأتى ذلك حتى يكون إحسانها نتيجة لمؤثر أو باعث شديد دائم متكرر . من هذين الوجهين ينبغي لنا أن نثبت الوسائل التي تكفل إدراك الغايات من تعلم العربية . وسنرى في نقد وسائل التعليم الحاضرة أنها بعيدة كل البعد عن ميول التلاميذ من جهة ، وأنها لا تقوم على بواعث شديدة متكررة من

جهة أخرى ، وأن تعليمها عندنا لن يستقيم حتى نداول بين هذين الوجهين من وجوه التربية الحديثة

٢ — طرق التعليم

تتصل طرق تعليم اللغات إذن بميول الانسان وغرائزه . وقد بحث المربون أقرب تلك الميول وأكثرها مواتاة فوجدوا أن اللعب يجلوها ، واتخذه كثير من المربين وسيلة من وسائل التعليم ، واللعب بمعناه النفسى فيض من النشاط الذى يغمر نفس الطفل ، وهو أشد أثراً فيها من العمل . فالعمل يفرض فرضاً لكن اللعب بادرة من وحى النفس ، وللعمل غرض قد يكون نفعياً يفسد النشاط ويخبث النفس ، ولكن اللعب لا يعرف لنفسه حدوداً ، ولا ينقلب شراً إلا إذا أصبح عبثاً غير محمود . وفي اللعب تتنظر قوى الأطفال بأكملها وتتوافى مداركهم ، واللعب فى المدرسة الحديثة وسيلة للعمل فاذا أفلح معلمو اللغات فى اتخاذه وسيلة لتعليمها حققوا ما ذهب إليه علماء النفس وربطوا اللغة بالميول الفطرية ربطاً محكماً لا انفصام له

ولعل القصة أول أنواع اللعب التى نستعين بها فى تعليم اللغة . وعند الطفل ميل طبيعى للتمثيل . ولسنا نقصد بالتمثيل ذلك النوع المسرحى الذى يحسنه الممثلون ، وإنما نقصد ما يميل إليه الأطفال من إحلال أنفسهم محل بطل القصة أو بطلتها . وأنت إذا بحثت عقيدة الطفل — بل إذا تعمقت عقائدنا الأدبية — وجدت أنها خليط من الحقيقة والخيال . فى القصة يتمثل القارئ أو السامع نفسه فى الشخصية الروائية التى يميل إليها . فالبطل ينقذ فتاة ، والبطل يقود أمة نحو المجد ، والبطل كثير الحيطة أيد شجاع ، وخلال القصة تنمو عقيدة الطفل حتى ليحسب الخيال واقعاً ، وحتى ليتداخله الزهو فيخال نفسه بطلا . ذلك عندنا نوع اللعب الذى يدفع بالناشئين إلى القراءة ، فهو يستغرق تفكيرهم ، وهو يستهلك جهدهم . وهو بعد ذلك دعامة لا تزايل من دعامات اللغة

ولسنا ندري من اللوم على حالة الكساد التي قضت على أدب الطفولة عندنا ، لكنا نرى عند الطفل الانجليزى آلافاً من الكتب الجميلة التى تزخر بالصور والرسوم . والطفل الانجليزى يتمتع فى صباه بما يرى وما يقرأ ، وهو يندفع وراء القراءة بوحى نفسه ، لأن كل هذه الكتب تصادف هواه ، لكن الطفل المصرى محدود الاختيار . فالمدرسة لا تعترف بما يقرأه فى الخارج مهما بلغت عنايته بالقراءة ، وهو لا يجد إلا قليلاً من القصص المترجم إذا شاء أن يقرأ ، وإنه ليصرفه عن القراءة تبرم بعض المدرسين بالقصة ووصفها بأنها نوع من أنواع العبث . هذا على أنه لا يجد « مكتبة » من القصص ، لأن وزارة المعارف هى التى تحكم مصاير الأمور فى التعليم ، ولأن وزارة المعارف لم تتضمن مركزيتها الاعتراف بالقصة أداة للتعليم فى العربية ، ولو أنها اعترفت بها أداة للتعليم فى الانجليزية منذ زمن بعيد

عالج المسترمان Mann خبير التربية هذه المشكلة فى تقريره عندما تحدث عن الفرق بين لغة الحديث ولغة الكتابة فى مصر . وعنده أنه لن ترقي لغة الكتابة فى مصر ولن ينقص الفرق بينها وبين لغة الحديث حتى تخلق أدباً قائماً للأطفال يتضمن مادة جذابة توافق عقل الطفل . وينبغى لكتب الطفولة فى رأيه « أن تحتوى تلك القصص ذات اللون الخاص التى تتمثل فى أدب كل شعب من الشعوب » . والحق أن العربية ذات أدب شعبي تمثله كتب كألف ليلة وليلة . لكن ألف ليلة وليلة طبع بالانجليزية مئات المرات فى أشكال وأحجام جميلة مختلفة . وقد بلغ من عنايتنا الضئيلة بمثل هذا الكتاب أننا بدأنا الآن فقط بترجمة ترجماته الانجليزية إلى العربية . ومثل هذا يقال فى القصص الأخرى التى انتقلت فى عصر النهضة من الشرق إلى الغرب

ولقد يطول الحديث بنا إذا نحن استرسلنا فى الكتابة عن تقصيرنا فى خلق أدب الطفولة . وحسبنا أن نقول إن وزارة المعارف هى الهيئة الوحيدة التى تستطيع أن تخلق مثل هذا الأدب . وما دامت المركزية أصلاً من أصول إدارة التعليم عندنا فوزارة المعارف هى التى تستطيع أن تنتخب مدرسين وكاتبين تحبسهم على عمل مثل هذا . ولا غناء عندنا فى جهود فردية محمودة يقوم بها الفينة بعد الفينة أفراد متحمسون

***

والتمثيل المسرحى نفسه وسيلة تكفل حرص الأطفال على تعلم اللغة . ولسنا نقصد بذلك أن يكون له — كما له اليوم — إدارة خاصة مركزية . ولا أن يكون قاصراً على بضعة أفراد من التلاميذ يمثلون فصلاً أو فصلين فى العام لأن ذلك قد ساير المدارس الثانوية عندنا منذ نشأتها إلا أنه لم يفد اللغة إلا قليلاً . وإنما نقصد بالتمثيل المسرحى أن يكون لكل مدرس اتجاه خاص يحبب إلى تلاميذه

ممارسة التمثيل . فإذا هو أمدهم بالقصص المسرحية العربية وعاونهم على تمثيلها من غير مسرح ولا ستائر كان فى ذلك إدراك للغرض من تعلم اللغة ، وكان فيه رياضة جمالية سامية . وخيال الطفولة ضمين بأن ينشىء مسرحاً خيالياً ، وكفيل بأن يسير بالقصة إلى حد كبير من الإتقان

والتمثيل راسخ كوسيلة من وسائل تعليم اللغة لأنه يقوم على التقليد ؛ والتقليد ميل غريزى هو الأساس الأول لدروس كسب المهارة . فإذا اتخذنا التمثيل ذريعة لتعليم اللغة أوفينا على الغاية مما نرمى إليه من تعليم العربية ؛ وأدركنا في نفس الوقت غرضنا الحسى أو الجمالى الذى أسلفنا الحديث عنه

ومثل ذلك فكرة الموسيقى والأناشيد وإلقاء الشعر والخطب عند الأطفال . والذى قلناه عن التمثيل ينطبق جميعه على كل هؤلاء ؛ وليس يكفينا فى هذه المرة أيضاً أن تكون هناك إدارة مركزية للموسيقى تلقن عدداً من الأطفال بضعة أناشيد كل عام ، بل الذى يعنينا أن تكون الأناشيد والموسيقى من بين الكفايات التى يحسنها المدرسون حتى يوفقوا بينها وبين دروس العربية ، وحتى يتخذوها مُعيناً على إحسان التوقيع وإتقان الخطابة ، والسيطرة على مخارج الحروف والكلام . دع عنك ما تراه الطفولة فى كل ذلك من الترفيه ، وما تجده من الدواعى إلى الاستزادة من معين اللغة

فإذا درج الطفل إلى الصبا بعد ذلك كان فى الأدب مجال واسع لتحبيب اللغة إليه . والأدب الذى ندعو إلى دراسته هو الأدب الذى لا يقف جامداً عند سير الشعراء والأدباء ، ولا يتغير بعصور السياسة ، ولا تتقطع بصاحبه الأسباب دون تذوق الجمال . والناشىء الذى قضى أيام الطفولة فى جو خيالى من القصص والغناء والتمثيل خليق به أن يصل ذلك بالأدب الموروث ، وأن يتأتى لأدب الرجال بما يزخر من شعر سام وبما يحتوى من نثر علمى منتظم

ينبغى أن يكون من أغراض الأدب أن نحيط المتعلم علماً بما ازينت به اللغة من جمال ، وأن نروض الفتيان على أسرار القول المتسق . والعبث بعينه أن نحاول تحفيظهم أين ومتى مات الأدباء والمتفننون . والعبث بعينه أن نفرض عليهم استذكار سير الأدباء وما اتصف به شعر كل منهم من جزالة اللفظ ، وما يترقرق فى كلامهم من رقة المعنى ولطف الروح ، وألا يكون ذلك إلا كلاماً يرددونه كالببغاوات ابتغاء النجاح فى الامتحان . بل الخير كل الخير أن ندفع بهم فى غمار المأثور من الأدب نعلمهم الأصول ونزكيهم فى نفس الشعر ونفس القصص ونفس المقامات حتى يخلق كل واحد منهم لنفسه مزاجاً أدبياً أو فنياً خاصاً فيما يتصل بشئون اللغة والأدب

ولعلنا نستطيع بعد الذى أسلفنا من وصف الاتجاه الحديث فى تعليم اللغات أن نلمس موطن العلة فى أساليبنا الحاضرة . وبين الذى فصلناه وبين الذى يقع الآن اختلاف عريض ليس من سبيل إلى تلافيه حتى تتكثر الجهود بعد الجهود ، وحتى تقوم مدرسة من مدارس الفكر لتخلق جواً آخر غير الذى تعيش فيه اللغة . وقد تحدرت فى أصول التعليم عندنا تقاليد ما زالت تنكر على الطفل حياته الوجدانية الخاصة ، فلم يقم إلا القليل بيمثون القصص التى توائم الطفولة . ولم يدرك أحد بعدُ العلاقة بين اللعب الحر وبين اللغة ، ولا نحسب أننا فى حالة نتوقع فيها أن نقيم العلاقة بين اللغة وبين الموسيقى والغناء ، فإن هذا أمل غير قريب التحقيق

على أن الذى نراه قريب التحقيق هو شىء واحد ينتظم كل ما ذكرنا . فإن المعلمين يخلطون دائماً بين الوسيلة وبين الغاية . ويؤمنون بأن الذى اتخذوه وسيلة إنما هو غاية فى نفسه . فقد اتخذ المعلمون الأقدمون النحو وعلوم البلاغة وسائل لتقويم اللسان وسلامة المعنى ، ويتخذها المعلمون المحدثون غايات فى نفسها يعقدون فيها أعسر الامتحانات . ولو أنهم علموا أن إحسان القول وإتقان القراءة والكتابة هي نفسها الغايات لتغيرت نظم التعليم عندنا ولتهيأ جو صالح يتحول فيه تعليم اللغات إلى المرتبة التى نبغى

***

ولشد ما يعجب المرء حينما يمر بنظرة عجلى على الكتب التى يدرسها تلاميذ المدارس الثانوية فى مختلف الفرق . وأشهد أنى لأتردد كثيراً أن أعقد موازنة بين الكتب العربية التى يدرسونها والكتب الانجليزية . ولعلك تدرك قليلا من مثل هذا التردد إذا علمت أن التلميذ في السنة الأولى يقرأ حوالي أربعمائة صفحة من الانجليزية وهو يقرأ مثل هذا القدر فى السنة الثانية ، ويزيد على الخمسمائة فى الثالثة ثم يربى على الستمائة فى الرابعة . أما إذا سألتنى ماذا يقرأ هؤلاء فى العربية أجبتك بأن التلميذ لا يقرأ نصف هذا

الحبشة تهدد مصر
بمنع زيادة النيل سنة ٨٤٧
لأستاذ جليل

المفاوضات والمخاوضات[١] بين (الحليفة) بريطانية ! و(الجارة) إيطالية ! « يا جارتا ما أنت جارة[٢] ! » — بعثتني على أن أنشر في (الرسالة) الغراء هذه الكلمة ذات المنوان تبصرة وذكرى

***

قال شاعرنا شوقي :

مصر الرياض ، وسودانها عيون الرياض وخلجانها
وما هو ماء ولكنه وريد الحياة وشريانها
تتمم مصر ينابيعه كما تمم العين إنسانها
وأهلوه منذ جرى عذبه عشيرة مصر وجيرانها[٣]

إذا لم يعتقد المصرى أن السودان مصر وأن مصر السودان ، وإذا لم يؤمن بوحدة وجودها

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرته أبصرتني وإذا أبصرتني أبصرتنا[٤]

***

(١) تخاوضوا : تفاوضوا ، وبينهما مفاوضة ومخاوضة ، وخاوضه في البيع : عارضه ، وخوضه في الماء (الأساس ، التاج) . والمعضلة هي في الدأماء ... البحر

(٢) (جارتا) ياء المتكلم قلبت ألفاً (ما) تعجبية مبتدأ (أنت) الخبر (جارة) تمييز . يتعجب من حسن جوارها عادا إياها من أهل البيت ... لا جارة مجاورة فقط ...

(٣) من قصيدة ختامها :

ودعوى القوى كدعوى السباع من الناب والظفر برهانها

(٤) قيل : للحلاج

إذا تبدّى حبيبي بأى عين أراه ؟
بعينه لا بعيني فما يراه سواه[١]

فإن المصرى إذا لم يعتقد ذلك الاعتقاد ، ويؤمن بتلك (الوحدة) إيمانه بالله ورسوله وقرآنه فهو كافر حقّ كافر بالمصرية .

وما أريد في هذه الكلمة أن أثبت أن الكون حقيقة وليس بوهم ، وأن شمساً في السماء تطلع علينا كل يوم ، فإن البديهيات اليقينيات هن بديهيات يقينيات

وليس يصح في الأفهام شيء إذا احتاج النهار إلى دليل[٢]

وبعد فهذا خبر في كتاب (التبر المسبوك) للعلامة (السخاوى) في الصفحة (٧٠) في رسالة من (النجاشي) ملك الحبشة إلى الملك الظاهر (جقمق) ملك مصر المعظم في سنة (٨٤٧) أرويه ليتلوه المصرى متبصراً فيه ، مفكراً في بعد مراميه .

قال النجاشي متهدداً متوعداً :

« وليس يخفى عليكم ولا على سلطانكم أن بحر النيل ينجرّ إليكم من بلادنا ، ولنا الاستطاعة على أن نمنع الزيادة التي تروى بها بلادكم عن المشى إليكم ، لأن لنا بلاداً نفتح لها أماكن فوقانية يتصرف فيها إلى أماكن أُخَر قبل أن يجيء إليكم ، ولا يمنعنا عن ذلك إلا تقوى الله تعالى . وقد عرضنا على مسامعكم ما ينبغى إعلامه ، فاعملوا أنتم بما يلزمكم »

هذا كتاب النجاشي ، وهو لا يحتاج إلى تفسير ولا هامش ولا تعليق . وإنه ليدمغ باطل ألف مقالة ومقالة — مثل ألف ليلة وليلة — ينمقها ويلفقها سوفسطائى[٣] منحط في هوى العدو « أكل من حلوائهم ، فانحط في أهوائهم » ليبرهن أن الإنسان مالكَ الماء ، متمدناً (أوربياً) لن يقتل أخاه الإنسان — وإن ناكره[٤] وخاصمه — بالعطاش[٥]

« ﻫ »

(١) محي الدين بن عربي

(٢) المتنبي

(٣) في (المحصل) : السوفسطائية الذين قدحوا في الحسيات والبديهيات . وفي (التعريفات) : السفسطة قياس مركب من الوهميات والغرض منه تغليط الخصم وإسكاته

(٤) ناكره : حاربه

(٥) إشارة إلى صحف كانت تهون أمر السودان وبتره وتقول مثل هذا القول

القدر في فرقته . ويا لضياع مجهود البلاغة والنحو لو لم يستعن بعض هؤلاء التلاميذ بالمجلات وروايات الجيب ثم بعد ذلك بالأدب الرخيص

ولنا حديث آخر عن تعليم النحو والقواعد ، واتصال ذلك بفكرة الأفعال المنعكسة نرجو أن نزجيه إليك في الأسبوع القادم إن شاء الله .

أحمد مناكى

في المذهب الرمزي

للأستاذ زكي طليمات

مفتش التمثيل بوزارة المعارف

« كتبنا في العدد الماضي نقداً (لمفرق الطريق) وهي مسرحية تنزع نزعة رمزية في مبناها ومعناها كتبها الأستاذ بشر فارس فجاءت تحفة فنية رفيعة . ومقال اليوم بحث في الرمزية على القدر الذي لا تضيق به صفحات الرسالة » زكي

الرمزية إحدى الاتجاهات النفسية في الإفصاح والتبيين ، فهي وسيلة من وسائل التعبير عن خلجات النفس تتجاوز الرمز بشيء إلى شيء آخر ، إلى إظهار الغامض والمبهم والتائه في مغلفات الروح ، وتسجيل أصداء العقل الباطن

الرمزية عريقة في الإنسان

ليس الرمز بالشيء الجديد في نتاج الشعور الإنساني . ولو رجعنا إلى الوراء نتأثر مصدر الرمز لوجدناه بعيداً في أغوار الشعور الإنساني منذ القدم ؛ فقد سجل الإنسان الغابر في أجواف الماضي بالنقش على الحجر والحفر على جدران المغاور ، خلجات نفسه ونجوى التائه فيها ، بعد أن أعياه الفكر في الكشف عنها ومعرفة بواعثها ، فجاءت رموزاً توميء ولا تفصح الافصاح كله عن أصداء النفس ولوامعها . بل من الرمز انبثقت العقائد لدى الزنوج . وما سائر طرائق الوثنية إلا رموز متتابعة لحيرة النفس أمام عجزها عن تفهم المظاهر الطبيعية الغامضة وقصورها عن إدراك أسرار القوى الخفية كالقدر والحياة والموت والبعث

فلما كد الذهن مستنبطاً أوضاعاً للحياة مصطنعاً دعائم المدنية ، وتقدم شأن العلم فحسر اللثام عن حقائق لم تتح معرفتها للأولين ضعفت النزعة إلى الرمز بعض الشيء ، ولازمها الضعف منزلاً بها الشحوب والهزال كلما دق الفكر في وضع الصيغ واستنباط القيم ، وكلما كشف العلم عن حقول جديدة خفية من مظاهر الكون . وسرعان ما شغل الإنسان بالملموس من الأشياء عن التفكير وراء اللمس والحس ، وصارت خلجات النفس تصدر مصنوعة في قوالب ، فكانت (كلاسيكية) التفكير والأدب والفن وقويت دعوة العلم بعد أن هيمن الإنسان على القوى الطبيعية فنظم عملها ، وسخرها لمنفعته ولرفاهيته هازئاً بما راعه من جبروتها الأول ؛ ولكن لينلق سخريتها أحياناً وهو كظيم حينما يعاودها هذا الجبروت ، وهو طبيعة فيها ، فينفلت قيادها من يده وتطغى على قدرته . وبلغت هذه الدعوة أوجها في أوائل النصف الأخير من القرن الماضي بعد أن سخر البخار في وسائل النقل وإدارة الآلة ، وجاء العلم (بالمعمل) يفسر الغوامض ويحلل المركبات فقويت نزعة الإنسان إلى الأخذ بما ينتجه التحليل ، وصار العقل الصرف هو الميزان لديه في الحكم على كل ما يقع عليه الحس وما لا يقع ، فاستنبط الفكر متأثراً (بالمعمل) ، واقعية الأدب والفن ، وهي النقل المجرد عن الطبيعة في المحسوس والمرئي الظاهر من الأشياء ، وبذلك كمل طغيان المحسوس على ما وراء الحس

بيد أنه على الرغم من طغيان المحسوس على ما وراء الحس فإن النزعة الرمزية لم تمت في النفس ، بل كانت لها يقظات خلال هذه المراحل المتوالية من التقدم الذهني ، ترفع صوتها كلما راعها القصور عن إدراك كنه الحالات التي تعترضها

وما (رومانسية) الأدب والفن إلا مظهر شاحب من هذه الحالة ، وهي نزعة حطمت في وقت ما القوالب والصيغ الكلاسيكية التي هي من فعل الفكر الخالص ، وأرسلت من القلب خلجة إحساسية مترعة ، وكان ذلك في أواخر القرن السادس عشر في انجلترا ، ثم في أوائل القرن التاسع عشر في فرنسا

وليس هذا بالأمر المعجيب المستغرب ، فالانسان يحيا بغرائزه أحياناً أكثر مما يعيش بعقله الخالص . وآية ذلك أن الإنسان ما برح يخاف الموت وهو موقن بعقله أنه نهاية محتمة على كل حي

وكان بعد ذلك أن أفلس العلم في كثير من المسائل الحيوية على الرغم من اختراع الكهرباء وتنظيم شئون الحياة ، فقلل العلم من غلوائه في تفسير كل شيء ، وأخفت من صوته في دعواه الكشف عن كل غامض ، وسرعان ما استيقظت نزعة الرمز من جديد ، وبرز لها طابع في أدب أهل الشمال من أوروبا ، وهم قوم يسكنون بلاداً يخفي الضباب معالمها في وضح النهار ، وتطغي قتمة السحب على زرقة السماء طوال العام إلا أشهراً معدودة

هنريك ابسن وشعراء الرمزية

فطلع (أبسن) — وذلك في أقصى الشمال ببلاد النرويج — بروايات رمزية أهمها (براند) و (بيرجينت) ، وانحدرت الرمزية

إلى البلجيك وهولندا ، فلاقت مستقراً خصباً إذ الطبيعة فى تلك البلاد تبدو كأنها غارقة فى التفكير والتروى والمراجعة ، وسرت عدوى الرمزية إلى فرنسا فطبعت أدبها وفنها ردحاً من الزمن يحتفظ منه واعية الأدب بأسماء (فيرهارين) و (رودنباخ) و (فان لربرج) و (رامبو) و (فيرلين) و (مالارميه) فى الشعر ، ثم (ماترلنخ) فى الروايات التمثيلية . وكانت الحقبة الأخيرة من القرن الماضى عصر ازدهار للأدب الرمزى فى فرنسا ، وكانت الحركة فى صميمها نزعة إلى التحرر من أدب الواقع والملموس إلى ارتياد آفاق جديدة طلباً للبحث عن الغامض من العواطف والتائه من الخلجات فى منعطفات الروح ومثانى المادة ؛ وهاديهم فى البحث والتنقيب الإحساس المرهف والإدراك المحض (والتخيل المنسرح) ، وصاغوا ما انتهوا إليه فى أسلوب طريف مترع بالأخيلة مشرق بالروحانية . إلا أنه كان للبعض منهم شطحات فى الخيال ، وجولات بعيدة فيما وراء المادة ، وغوص عميق فى متاهات القلب لم يخرجوا منه بكثير يؤبه له

ولا يتسع هذا المقام للإحاطة بالرمزية فى آداب الأمم الأخرى

الرمزية فى الأدب الاسلامى

أما فى العربية الاسلامية ، فالصوفية أبين مظاهر الرمزية . إلا أن الرمزية كانت لدى العرب علماً وليست فناً ؛ وبين العلم والفن فارق معروف ، ولذلك لم تفرض طابعها على كثير من الأدب الاسلامى ، وإن استقامت لها طريقة فى شعر (الخيام) وأمثاله ، ومن أخذ عنهم ، أو نحوا نحوه

والرمزية عند (الخيام) ضرب من الفورة الحسية حلت فيها عبقة روحانية

ولعل السبب فى أن الأدب العربى لم ينحرف إلى الرمزية الغامضة فى كثير من نتاجه ، ويخرج عن الواقعية و (الكلاسيكية) يرجع إلى الطبع البدوي الذى يميل إلى الوضوح والبساطة ، وإلى طبيعة البلاد التي نشأ ودرج وشب فيها ، حيث الشمس تسطع من أول النهار إلي آخره في سماء صافية متدخلة فى الثنايا والشقوق ، كاشفة عن ظواهر الأشياء فى جلاء ساطع ، كما أن الأدب الإسلامى لم يخرج عن الأوضاع الذى أورثه إياها الأدب الجاهلى ، واقتصر أمر التوليد فيه على التنميق فى الصيغ الشكلية

ويقيني أننا نتحرج إذا قضينا بأن الأدب العربى أو الاسلامى لم يعرفا الرمزية فى تراثهما الكبير ، إذ أن معين هذين الأدبين هو نفس المعين الذى أخذ منه الأدب الأوربى ، ألا وهو النفس البشرية . ومابرح البحث والاستقراء يتعقبان مخلفات الأدب العربى والاسلامى ، وهى مخلفات ، ويالللأسف ، ما برحت مشتتة فى دور الكتب ما بين أوربا وأمريكا ليلقيا كل حين ضوءاً جديداً عليها

هذا والرمزية كما أسلفنا شيء كامن فى النفس ، تبدو صريحة كلما استشفتها الرغبة الذهنية إلى التطلع إلى ما وراء المحسوس ، وهو الباطن الثائر فى أعماق النفس ، أو كلما أحست النفس بهزيمة العقل أمام الغامض من الأمور . وها نحن أولاء فى القرن العشرين ، وهو قرن أصبحت للعلم فيه دولة ، ومع ذلك فقد قامت نظريات جديدة تدحض نظريات علمية وفلكية اتفقت عليها الآراء وقطعت بصحتها منذ مئات السنين . وهناك بديهيات عديدة ما برح للعقل فيها حيرة . ولم يبالغ (بوانكاريه) حينما قرر أن تقدم العلم تقدم آلى عجيب ، إلا أنه عجز عن أن يكشف الكشف الكامل عن كثير من الحقائق

الرمزية فى الأدب العربى المستحدث

أما ما يحضر أذهاننا من آثار الرمزية فى الأدب العربى المستحدث فينحصر فى كتابات (جبران خليل جبران) وهو لبنانى المولد عاش دهراً طويلاً من حياته فى المهجر الأمريكى فتأثر بكثير من كتاب الغرب ، واستقامت فى كتاباته طريقة رمزية تخالطها نزعة رومانسية . وقرأنا بعد ذلك شعراً رمزياً فى الأداء للدكتور بشر فارس وذلك منذ عشر سنوات فى مجلة المقتطف

وفى مؤلفات (توفيق الحكيم) نلمح الرمزية لامعة فى بعض ما أخرجه للمسرح ، ولا سيما فى روايته (شهر زاد) . وليس فى هذا ما يبعث على العجب ، فلتوفيق الحكيم نزعة صوفية أصيلة ، كما أنه أحسن استيعاب مسرحيات الايطالى (بيراندللو) ، وهو أبرز مؤلفى المسرحية الرمزية فى هذا العصر ؛ وتفهم مسرحيات الفرنسى (لونورمان) ؛ وليست مؤلفات (فرويد) و (بيرجسون) مما لم يحسن مطالعتها

فبشر فارس وتوفيق الحكيم يفترقان من مصدر واحد ، الأول يكتب متثبتاً بما تلقنه ، والثاني يؤلف بطبعه وخياله ، إلا أن لكل منهما طرائقه فى التعبير عن رمزيته ، وكلاهما يعيش بذهنه فى أوربا ويحيا بجسمه فى القاهرة .

زكى طليمات

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

– ٣٦ –

وحي الأربعين

أصدر العقاد ديوانه « وحي الأربعين » في سنة ١٩٣٣ ؛ والسياسة المصرية يومئذ تسير في طريق معوج ، وحكومة صدقي باشا تمكن لنفسها بالحديد والنار ، و « الوفد » ومن ورائه الأمة كلها يجاهد حكم الفرد ويكافح للخلاص ، والعقاد يومئذ هو كاتب الوفد الأول ، يكتب المقالة السياسية فترن رنيناً ويلقفها آلاف القراء بلهفة وشوق في كل مدينة وكل قرية ؛ فلا عجب أن يكون العقاد بذلك عند عامة القراء هو أبلغ من كتب وأشعر من نظم ، حتى ليؤول أمره من بعد إلى أن ينحله الدكتور طه حسين بك الوفديُّ المتحمس ، لقب أمير الشعراء ، تملقاً للشعب ونزولاً على هواه ... !

ولقد يكون العقاد يومئذ على حقيقته هو سيدَ الكتاب وأمير الشعراء أو لا يكون ؛ ولكن هذه هي كانت منزلته عند الشعب يومئذ ؛ فلا يعاديه أحد إلا كان عدو الأمة ، ولا يعرض له أحد بالنقد في أي منشآته الأدبية أو السياسية إلا كان في رأي الشعب « دسيسة » وطنية أو صنيعة رجعية ...

هذه هي كانت الحقيقة في تلك الحقبة من التاريخ التي امتزج فيها الأدب بالسياسة امتزاجاً جعل طائفة كريمة من الأدباء يؤثرون الصمت واعتزال الأدب على أن يزلوا بأنفسهم إلى معترك لا يعرفون أين تبلغ بهم عواقبه . ولكن الرافعي رجل – كان – لا يعرف السياسة ولا يخضع لمؤثراتها ؛ فهو لا يعتبر إلا مذهبه في الأدب وطريقته ؛ وسواء عنده أكان رأيه هو رأي الجماعة أم لا يكون ، ما دام ماضياً على طريقته ونهجه . ولقد قدمت القول بأن الرافعي كان يتربص بالعقاد منذ قريب لينزل إليه في معركة حاسمة تنقع غلته وتبرئ ذات صدره ، فما إن تهيأت له الأسباب بصدور « وحي الأربعين » حتى تحفز للعراك . وكان ما بين العقاد ومخلوف هو السبب المباشر الذي ألهب حمية الرافعي فنزل إلى الميدان مستكملاً أهبته مزوداً بسلاحه ، غير مكترث بما قد يناله من غضب الآلاف من القراء الذين يقدسون العقاد الكاتب تقديساً أعمى فلا يفرقون بين العقاد السياسي والعقاد الأديب ... !

وأرسل الرافعي يستدعيني إليه ذات مساء ، فرحت إليه بعد العشاء بقليل ؛ فإذا هو جالس إلى مكتبه ، وعلى مقربة منه « وحي الأربعين » وإن عليه لثوباً أحمر في لون عرف الديك ، وفي عينيه فتور وضعف ينبئ عن السهر والجهد العميق ؛ فإنه ليبدو في مجلسه ذاك كأنه عائد لساعته من معركة حمراء ... !

قال : « لقد فرغت من قراءة الديوان منذ قليل ، وإن لي فيه لرأياً . فهل تساهرني الليلة حتى أملي عليك ما أعددت في نقده ؟ »

كانت هذه أول مرة يملي الرافعي عليَّ فيها من مقالاته ؛ فكانت فرصةً سعيدة لي ، أشهد فيها الرافعي حين يلتقي الوحي ، وأصحبه في سبحاته الفكرية يقتنص شوارد الفكر وأوابد المعاني . وكانت فرصة سعيدة له : أن وجد يداً غير يده تحمل له القلم حين يكتب ليفرغ لنفسه ، ويخلو بفكره ؛ وما تعوَّد قبلها أن يكتب وفي مجلسه إنسان . وإن أثقل شيء عليه أن يكتب بيده ، ولكن أثقل من ذلك عليه أن يعرف أن عيناً تلاحظه وهو يكتب ، فما زال يكتب لنفسه منذ بدأ متبرماً بهذه المهمة ، ضيق الصدر بما يبذل في الكتابة من جهد . وإن خطه لأردأ خط قرأت في العربية ... حتى اصطفاني لهذا الواجب ، فلزمته ثلاث سنين لا يهم بكتابة مقال إلا دعاني ليمليه عليَّ ، حتى انتقلت من طنطا فعاد إلى ما كان من عاداته : يملي على نفسه ويكتب لنفسه ، ولم يسترح إلى كاتب بعدي يشركه في جلوة الوحي وخلوة الكتابة !

* * *

وجلس فأملى عليَّ مقاله في نقد « وحي الأربعين » ، من قصاصات في يده لا تزيد إحداها على قدر الكف ، فما فرغ من الإملاء حتى أذن الفجر ، وحتى كانت هذه القصاصات بضعاً وعشرين صفحة كبيرة ، تشغل بضعة عشر نهراً من جريدة البلاغ .

وكانت ليلة تحملت فيها من الجهد والمشقة ما لم أتحمل فى ليلة غيرها فقمت منهوك القوة عيّان ، وقام الرافعي فى مثل نشاط الشاب في عنفوانه ، كأنما كان عليه عبء فرماه عن كتفيه ... !

وكان بين البلاغ والعقاد خصام ، وكان بينه وبين الرافعي مودة ، فما كادت تصل إليه مقالة الرافعي فى البريد المستعجل ظهر ذلك اليوم ، حتى أعلن عنها وبشر القراء أن ينشرها فى غد ... وشغلت من البلاغ ثلاث صفحات فى يومين ... وكان نقداً مراً حامياً اجتمع فيه فن الرافعي ، وثورة نفسه ، وحدة طبعه ، وحرارة بغضائه ، ولكنه كان نقداً منزهاً عن العيب

أستطيع أن أقول ويقول معى كثير من أدباء العربية : إن هذه المقالة هي خير ما كتب الرافعي فى نقد الشعر ، وأقربها إلى المثال الصحيح ، لولا هفوات قليلة يعفيه من تبعتها أنه إنسان !

من قرأ « على السَّفُّود » فعابه على الرافعي وأنزله غيرما كان ينزله من نفسه ، فليقرأ مقال الرافعي فى نقد « وحى الأربعين » ليرى الرأى المجرّد فى شعر الأستاذ العقاد عند الرافعي ...

ومضى يوم واحد ، وظهرت صحيفة الثلاثاء من جريدة الجهاد وفيها رد العقاد على الرافعي ، وقد نفذ إليه من باب لم يحسب الرافعي حسابه ، فتغير وجه الحق ، ودارت المعركة حول محور جديد ...

كان عنوان مقالة العقاد « أصنام الأدب » فيما أذكر ، وكان مدار القول فيها هو الطعن على رجلين : هما إسماعيل مظهر ، والمهزار الأصم مصطفى صادق الرافعي . وكان أكثرها سباباً وشتيمة وأقلها فى الرد والدفاع . على أن العقاد لم يردّ رأى الرافعي فيما أخذ عليه من مآخذ إلا فى مواضع قليلة ، وترك الرد فى أكثر ما عاب عليه الرافعي ، مستعيضاً عن الرد بالشتم والسباب ... !

وإذا كان السبب مفهوماً فى طعن العقاد على الرافعي وشتيمته إياه ، فأى سبب حمل العقاد على أن يشرك الأستاذ إسماعيل مظهر مع الرافعي فيما وجّه إليه من الشتم والتهمة ؟

جواب ذلك يفهمه من يعرف أن الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب العصور ، هو طابع كتاب « على السفود » وناشره ومروّجه . أفنستطيع أن نحكم من هذا بأن العقاد لم يكن يعنى الرد على مقال الرافعي الأخير وحده ؛ ولكنه وجدها فرصة لتصفية الحساب القديم كله بينه وبين الرافعي وصاحبه الذى أغراه على كتابة « على السفود »

وكان الباب الذى نفذ منه العقاد فى الطعن على الرافعي ، هو اتهامه فى وطنيته ، وإيهام قرائه بأن الرافعي لم يكن لينقده إلا لأنه هو العقاد السياسى الوفدى عدو الحكومة المتسلطة على الناس بالحديد والنار ! وحسبك بها من تهمة حين يقولها العقاد !

إن للعقاد مفاجآت عجيبة فى النقد ، تمثل العقاد الكاتب المرن المحتال فى أساليب السياسة ، أكثر مما تمثله ناقداً محيطاً يدفع الرأى بالرأى والبرهان بالبرهان !

وقرأت مقالة العقاد فى الرد على الرافعي ، فوجدت أسلوباً فى الرد لم أكن أنتظره ، يؤلم ولا يفحم ، ويقابل الجرح بالجرح لا بالعلاج . فما فرغت من قراءة المقال حتى تمثل لى الرافعي مربّد الوجه من غيظ وغضب ، مزبد الشدقين من حنق وانفعال ؛ فسرنى أن أسعى إليه قبل ميعادى لأراه فى غيظه وحنقه وانفعاله ، فانتهزت ساعة فراغ فى الظهر ، فمضيت إليه فى (المحكمة) ؛ فما كاد يرانى مقبلا عليه حتى هتف بى وهو يبتسم ابتسامة المسرور ثم قال : « أقرأت مقالة العقاد ؟ » قلت : « نعم » قال : « فماذا رأيت فيها ؟ » قلت : « لقد كان شديداً مؤلماً ! » فضحك وقال : « والله ما رأيت كاليوم ! لقد ضحكت حتى وجعنى قلبي من شدة الضحك ... إنه لم يكتب شيئاً ، ولم يرد على شيء ؛ إن سبابه وشتمه لن يجعله عند القراء شاعراً كما يشتهى أن يكون ، وإن حسب أنه به يكسب المعركة . لقد حق عليه ما قلت فيه ، وإنه ليعترف . إن فراره من الرد إلى السباب والشتيمة ليس إلا اعترافاً بالعجز ... »

قلت : « إذن فأنت لا تنوى الرد ؟ »

قال : « وأى شيء تراه يستحق الرد فيما كتب ؟ »

قلت : « ولكن القراء لن يفهموا سكوتك على وجهه ، ولن يسموه إلا انسحاباً من المعركة ... ! أفترضى أن يقال عنك ... ؟ »

وبدا على الرافعي كأنه اقتنع ، وهاجته كلماتى مرة أخرى إلى النضال . ومعذرة ثانية إلى الأستاذ العقاد !

إن معركة تدور رحاها بين العقاد والرافعي جديرة بأن

يحتفل لها الأدباء وأن تنال من اهتمامهم أوفى نصيب ، وإن لهم فيها لمتاعاً ولذة وفائدة . وما كان لى أن أقنع وقد هجت هذه المعركة بما فيها من متاع ولذة وفائدة بأن تنتهي من أول شوط ! »

وقال لى الرافعى : « فهل توافيني الليلة لأملى عليك ؟ »

فواعدته وذهبت إليه فى المساء ، فأملى علىّ فصلا من نسخته الخاصة لكليلة ودمنة ، بعنوان « الثور والجزار والسكين ! » ثم أتمه مقالا فى الرد على العقاد . وكان فصلا قاسياً عنيفاً ، ليس من مذهب المقال الأول ولا نهجه ، إذ لم يكن المقصود به النقد وحسب ، بل الرد والسخرية والإيلام ، ثم قطع السبيل وتدعيم الدليل وتقرير المعنى فيما قدّم من مواضع النقد

ثم رد العقاد ليعلن انسحابه من المعركة ، شاكراً للذين أيدوه ، معتذراً عن عدم الاستمرار فى مناقشة دعوى الرافعى ! واستمر الرافعى يكتب حتى فرغ ...

وكان النصر للرافعي عند طائفة ، ولكنه خسر عطف الآلاف من أصدقاء العقاد الكاتب الوطني الكبير ، إذ لم يروا عداوة الرافعى له فى الأدب إلا دسيسة سياسية من خصوم العقاد !

* * *

وانتهت المعركة الأخيرة بين الرافعى والعقاد ، ولكن الرافعى لم يقتنع بما نال من النصر عند الصفوة من القراء الذين يفرقون بين الأدب والسياسة ، إذ كان على يقين أنه وإن كانت له الغلبة ، قد خسر أكثر الطائفتين من قرائه لأنهم على مذهب العقاد السياسى ، فظل مغيظاً محنقاً إلى حين ...

ومضت سنتان ، وتقلبت السياسة المصرية من تقلباتها ، فاذا العقاد الذى كان كاتب الوفد الأول ، خارج على الوفد ، يطعن عليه وعلى رئيسه ؛ وأنصار الوفد ما يزالون إلى يومئذ أكثر الأمة ... ووجد الرافعى فرصة سانحة لينتقم ، وليستخدم السياسة فى النَّيل من خصمه فى الأدب ، فيكيل له صاعاً بصاع ، ويحاربه بمثل سلاحه ؛ فكتب مقالاً بغير توقيع فى كوكب الشرق ، جريدة الوفد ، بعنوان : « أحمق الدولة ! » وكان مقالا له رنين وصدى ...

ونشر فى (الرسالة) يومئذ كلمات تحت عنوان « كلمة وكليمة » عرّض فيها بالعقاد الخارج على الوفد تعريضاً أليماً يؤذيه ، لم ينتبه إلا القليل .

وكان مقاله عن العقاد فى كوكب الشرق ، وكلماته فى الرسالة سبباً فى أن يدعوه الأستاذ توفيق دياب ليحرر فى الجهاد بأجر كبير ؛ ولكن لم يتم بينهما اتفاق

ولم تكن تسنح للرافعي سانحة لغيظ العقاد إلا انتهزها ، فما كتب الرافعى عن شاعر من الشعراء بعد ذلك إلا جعل نصف كلامه تعريضاً بشعر العقاد . ومن ذلك ما كتب عن الشاعر المهندس على محمود طه فى القطم ، وما نشره عن الشاعر محمود أبو الوفا فى الرسالة ، ومقالته « بعد شوق » معروفة لقراء الرسالة عامة ؛ وكلها تعريض بشعر العقاد الذى نحله الدكتور طه حسين إمارة الشعر فى يوم من الأيام بعد شوق !

* * *

والمداوة بين الرافعى والعقاد من المداوات المشهورة بين أدباء الجيل ، ولها أثر أى أثر فيما أنتج كل من الأديبين الكبيرين فى أدب الوصف ؛ ولا تدانى هذه المداوة فى الشهرة إلا المداوة بين الرافعى وطه حسين

وأحسب أنه كان فى الإمكان أن يجتمع العقاد والرافعى فى تحرير الرسالة لولا ما كان بينهما من خلاف وعداوة . قال لى الأستاذ الزيات مرة منذ عامين : « وددت لو يكتب العقاد فى الرسالة ! ولكنما يمنعنى من دعوته إلى ذلك أننى لا أستطيع أن أنشر له وللرافعى فى عدد واحد ! »

قلت : « فما يمنع ؟ »

قال : « أنت تعرف أخلاق الرافعى ، وأنا أعرف أخلاق العقاد ، وإن لكل منهما اعتداداً بنفسه بازاء صاحبه ، فأى المقالين أقدم وأيهما أؤخر فى ترتيب النشر ؟ إن تقديم مقال على مقال ليس شيئاً ذا بال ، ولكنه بين الرافعى والعقاد له شأن أى شأن ! »

وظل الأستاذ الزيات معنياً بهذا الأمر ، حريصاً على أن يجمع بين الأديبين الكبيرين فى مجلته ، وهو يلتمس السبيل إلى ذلك فلا يوفق ، حتى مات الرافعى فانحلت المشكلة ؛ ودخل العقاد ، ولكن بعد ما خرج الرافعى !

رحم الله الراحل ، ونفع بالباقي !

محمد سعيد العريان

عبقرية الشريف الرضى

للدكتور زكى مبارك

« قبل نهاية هذا الشهر يصدر فى بغداد كتاب فى جزأين للدكتور زكى مبارك . وهذه فاتحة ذلك الكتاب ، وهى تشرح مذهب المؤلف فى دراسة الأدب العربى وطريقته فى التأليف »

أما بعد فهذا كتاب « عبقرية الشريف الرضى » وما أقول إنى شغلت به نفسى سنة كما قلت يوم أخرجت شرح « الرسالة العذراء » ، ولا سبع سنين كما قلت يوم أخرجت كتاب « النثر الفنى » ، ولا تسع سنين كما سأقول باذن الله يوم أُخرج كتاب « التصوف الإسلامى »

فما شغلت نفسى بكتابى هذا غير خمسة أشهر . ولكنها من أشهر بغداد لا أشهر القاهرة ولا باريس . وما كان لى فى بغداد لهو ولا فتون ، فكانت الليلة فى بغداد كليلة القدر ، خير من ألف شهر ، والتوفيق من أشرف الأرزاق

وكتابى هذا هو مجموعة المحاضرات التى ألقيتها فى قاعة كلية الحقوق ، وكانت تلك المحاضرات من أشهر المواسم فى حياتى ، فقد كان أصدقائى يخشون أن يمل الجمهور بعد أسبوع أو أسبوعين ، ولكن الجمهور كان يزداد إقباله من أسبوع إلى أسبوع ، ولم ينقذنى منه غير التصريح بأنى أنفقت كل ما كنت أملك ، ولم يبق إلا أن أستريح !

ومحاضراتى بكلية الحقوق فى بغداد هى الموسم الثانى بعد محاضراتى عن « المدائح النبوية » وهى المحاضرات التى ألقيتها باسم الجامعة المصرية فى قاعة الجمعية الجغرافية بالقاهرة ، فهل يتسع العمر لموسم ثالث فى القاهرة أو فى بغداد ؟

لا تسألونى كيف ظلمت نفسى فأعددت هذه المحاضرات وأنشأت منها مقالات كثيرة جداً نشرتها صحف مصر ولبنان والعراق ورججت الحياة الأدبية فى بغداد رجاً عنيفاً ، فذلك كان أقل ما يجب أن أصنع فى مقابل الثقة التى شرفتنى بها حكومة العراق ؛ وذلك كان أقل ما يجب أن أصنع لأحفظ لنفسى مكاناً بين الأساتذة المصريين الذين تشرفوا بخدمة العراق من أمثال محمد عبد العزيز واحمد حسن الزيات والسنهورى وعبد الوهاب عزام ومحمود عزمى ؛ وذلك كان أقل ما يجب أن أصنع فى خدمة تلاميذى وتلميذاتى فى بغداد ، وقد رأيت فى وجوههم وجوه أبنائى وبناتى فكلفت نفسى فى خدمتهم فوق ما أطيق

لا تسألونى كيف ظلمت نفسى فأنفقت من العافية ما أنفقت؟ فقد ساءنى أن أعرف أن « دار المعلمين العالية » لها فى بغداد تاريخ ، فكانت تفتح ثم تغلق ، وتفتح ثم تغلق ، فاستعنت الله وانتفعت بعطف معالى وزير المعارف الأستاذ محمد رضا الشبيبى وأريحية الأستاذ طه الراوى ومودة الدكتور فاضل جمالى ، وعولت على همة زميلى وصديقى الدكتور متى عقراوى ، وأقمنا للدار المعلمين العالية أساساً من متين التقاليد الجامعية ، فأغنينا مكتبتها بالمؤلفات القديمة والحديثة وعلمنا طلابها كيف يبحثون ويراجعون ، وغرسنا فيهم الشوق إلى التحقيق والاستقصاء

ورأيت أن يكون من تقاليد هذا المعهد العالى أن يخرج فى كل سنة كتاباً عن شاعر أو أديب أو مفكر لم يدرسه أحد من قبل ، فألفت كتابى هذا عن الشريف الرضى . فإن ترفقت شواغلى بمصر وأذنت لى بالرجوع إلى بغداد فسأخرج فى كل سنة كتاباً جديداً . وإن أبت تلك الشواغل أن أتمتع مرة ثانية بالاستصباح بظلام الليل فى بغداد فسيذكر من يخلفنى أنى طوقت عنقه بطوق من حديد ، وأن لا مفر له من أن يشقى فى سبيل « دار المعلمين العالية » كما شقيت

وإنما نصصت على هذه المعانى فى مقدمة هذا الكتاب لأجتدي العطف على « دار المعلمين العالية » . وممن أجتديه ؟ من حكومة العراق ، فما يجوز أن يغلق هذا المعهد ، وإنما يجب أن تبذل الجهود ليصبح منافساً قوياً لكلية الآداب بالجامعة المصرية

قد يقول قوم من خلق الله : ولماذا ابتدأت بالشريف الرضى ! إن قالوا ذلك ، فالجواب عند الأستاذ عباس محمود العقاد ، فهو يذكر جيداً أنى قلت له يوم أخرج كتابه عن ابن الرومى : كان الأفضل يا أستاذ أن تنفق هذا الجهد فى دراسة أشعر الشريف الرضى

إن قالوا ذلك فالجواب عند الأستاذ الدكتور طه حسين ، فهو يذكر جيداً أنى نبهته إلى أن الاهتمام بدراسة شعر الشريف الرضى كان أولى من الاهتمام بدراسة شعراء القرن الثالث

إن قالوا ذلك فالجواب عند نادى الموظفين بالقاهرة فقد طلب فى سنة ١٩٣٢ أن ألقى محاضرة عن أعظم شاعر فى اللغة العربية فكانت محاضرتى عن الشريف الرضى

ابتدأت بالشريف الرضى على غير موعد ، فقد رأيتنى فجأة بين دجلة والفرات ، فتذكرت أن قد جاء الأوان لدراسة هذا الشاعر الذى تعصبت له منذ أعوام طوال

ويشهد الله وهو خير الحاكمين أنى لم أفكر فى إنصاف الشريف الرضى إلا يوم قدم لى الدكتور شريف عسيران نسخة من كتاب الأستاذ المقدسى عن أمراء الشعر فى العصر العباسى ، فأزعجنى أن يهتم بابن المعتز وينسي الشريف الرضي ، مع أن ديوان ابن المعتز لا يساوى قصيدة واحدة من قصائد الشريف

فمن شاء له هواه أن يزعم أن لى غاية فى التعصب للشريف الرضي فليتق الله فى نفسه ، وليذكر أن الدكتور زكى مبارك لو كان أنفق نشاطه في الاتجار بالتراب لأصبح من كبار الأغنياء ، ولكنه بلا أسف سيموت فقيراً لأنه أنفق نشاطه فى خدمة الأدب العربى

والأدب العربى خليق بأن يكون له شهداء ، وأنا فى طليعة أولئك الشهداء

سيرى قراء هذا الكتاب أننى جعلت الشريف أفحل شاعر عرفته اللغة العربية ، وقد سمع بذلك ناس فذهبوا يقولون فى جرائد بغداد : أيكون الشريف أشعر من المتنبى ؟

وأستطيع أن أجيب بأن الشريف فى كتابى أشعر من المتنبى فى أى كتاب . لن يكون المتنبى أشعر من الشريف إلا يوم أؤلف عنه كتاباً مثل هذا الكتاب . والقول الفصل فى هذه القضية أن المتنبى فى بابه أشعر من الشريف ، والشريف فى بابه أشعر من المتنبى ، وكل عبقرى هو فى ذاته أعظم الناس لأن ميدانه لا يجاريه فيه أحد سواه ، والشريف بهذا المعنى أفحل الشعراء لأنه جرى فى ميادين سيظل فارسها السباق على مدى الأجيال

وما الذى يضر أنصار المتنبي حين أُقدّم عليه الشريف ؟

هل فيهم من يحفظ ديوان المتنبي كما أحفظ ديوان المتنبى ؟ إن سجلات كلية الآداب بالجامعة المصرية تشهد بأنني كنت أول من دعا إلى الاحتفال بمرور ألف سنة على وفاة المتنبى ، ولى على ذلك شهود منهم الشيخ السكندرى والأستاذ عباس محمود والدكتور منصور فهمى

وما الذى يضر أهل العراق من أن أهتمّ بشاعر لا يعرف العراقيون موضع قبره على التحقيق ؟ أليس من العجائب أن يعرف العراقيون قبر معروف الكرخى ويجهلوا قبر الشريف الرضى ؟

إن هذا هو الشاهد على أن العوام أحفظ للجميل من الخواص !

إن كان خصومى فى بغداد دهشوا من أن أتعصب لشاعر رضى عنه ناس وغضب عليه ناس فليذكروا أننى كنت كذلك طول حياتي فوضعت بالنقد قوماً ورفعت آخرين ، وفقاً للحق لا طوعاً للأهواء

وأنا والله راض بأن يغضب علىّ أهل بغداد ، فقد غضبوا على أبي طالب المكي فمنحوه الخلود

أنا أحب الخصومات لأنها تذكي عزيمتى ، ومن أجل هذا أنظر نظر الجزع إلى مصير خصوماتى فى بغداد ، فلن يكون لي فى بغداد خصوم بعد ظهور هذا الكتاب ؛ وإنه لقادر على أن يفجر العطف فى القلوب المنحوتة من الجلاميد . سيذكر أدباء بغداد أننى أحببت شاعراً هو من ثروة العروبة وثروة العراق . سيذكر أدباء بغداد أننى وفيت لمدينتهم السحرية حين اهتممت بشاعر كان أصدق من عرف النعيم والبؤس فوق ثرى بغداد

وكتابى هذا تطبيق لما شرعت من قواعد النقد الأدبى ، تلك القواعد التى أذعتها فى كتاب (الموازنة بين الشعراء) ، وهو من أجل هذا لون جديد فى اللغة العربية . وسيكون له تأثير شديد فى توجيه الدراسات الأدبيــة ، وقد يصلح ما أفسد الزمان من عقول الباحثين

وبيان ذلك أنى لم أقف من الشاعر الذى أدرسه موقف الأستاذ من التلميذ كما يفعل المتحذلقون ، وإنما وقفت منه موقف الصديق من الصديق . والتشابه بينى وبين الشريف الرضى عظيم جداً ؛ ولو خرج من قبره لعانقنى معانقة الشقيق للشقيق ، فقد عانى فى حياته ما عانيت في حياتى : كافح فى سبيل المجد ما كافح وجهله قومه وزمانه ، وكافحت فى سبيل المجد ما كافحت وجهلنى قومى وزمانى

وهذا الترفق فى معاملة الشريف ليس نزوة شخصية ، وإنما هو وثبة علمية ، فما كان يمكن أن أكون وفياً للبحث إلا إن سايرت الشاعر الذي أعرض عقله وروحه على تلاميذى . وهذه هي المزية التى أنفرد بها بين أساتذة الأدب العربى

سايرت الشريف مسايرة الصديق للصديق : فإن آمن آمنت ، وإن كفر كفرت . إن جدّ الشريف جددت ، وإن لعب لعبت . إن عقل الشريف عقلت ، وإن جن جننت . إن قال الشريف إن غاية الرجل العظيم هى الحرب ، قلت : صدقت . وإن قال : إن الحياة هى الحب ، قلت : والحب الحياة !

ولكنى مع هذا عاملته معاملة الصديق الأمين فنبهته إلى عيوبه بتلطف وترفق ؛ نبهته تنبيهاً دقيقاً جداً لا يفطن إليه إلا الأذكياء ، وفى بنى آدم أذكياء . نبهته إلى عيوبه أكثر من ستين مرة ؛ وما أظنه يحقد علىّ ، لأن الصديق الذى فى مثل حالى تنفر له جميع الذنوب

والشواهد فى هذا الكتاب كثيرة جداً ؛ وذلك هو أسلوبى فى البحث ، فأنا أشغل القارئ بالشاعر الذى أدرسه أكثر مما أشغله بنفسى ، وهذه إشارة أرجو أن ينتفع بها المتحذلقون

اعتمدت على طبعة بيروت وصححت ماصادفنى فيها من أغلاط ، وشرحت ما يجب شرحه من الأشعار خدمة للقارئ الجاحد الذى لا يفهم قيمة الوقت الذى ينفقه الشارح فى تحديد المعانى ؛ وصححت الكتاب كله بنفسى تصحيحاً دقيقاً . فإن رأى فيه القارئ أغلاطاً فذلك ذنب العجلة لا ذنبى . وأدخلت فنوناً من الذوق على الطباعة فى بغداد سيذكرها أصحاب المطابع بغداد !

هذا كتابى ، أقدمه بيمينى فى تهيب واستحياء ؛ فإن رضيت عنه فذلك لطف ورفق ، وإن غضبت عليه فلست أول حسناء تجحد الجميل

اصنعى فى ودادى من التنكر والتقلب ما شاء لك الدلال . أما أنا فأشهد أنك صنعت بقلبى وعقلى ما عجزت عنه القاهرة وباريس !

أنت مظلومة يا بغداد ، وأنا مظلوم يا بغداد ؛ والظلم يجمع بين القلوب ، نصرك الله ونصرنى ، ورعاك ورعانى ، إنه سميع مجيب . وعليك منى السلام .

زكى مبارك



سألنى الأستاذ أحمد أمين من أيام عن فكرة غريبة قال إنها جالت بخاطره ؛ وخاطره هذا كنز لا يفنى من الأفكار الغريبة . قال :

« ترى ماذا يفعل الانسان إذا علم أنه سيموت بعد عام ؟ »

فقلت له : الجواب يتوقف على معرفة نوع هذا الانسان وطبيعته وعمله

فقال : « أنا وأنت مثلاً . ماذا كنا نصنع ؟ »

فأجبته على الفور :

أنا وأنت ؟ كنا ننكبّ فى الحال على التأليف والكتابة ليل نهار . فقال فى دهشة :

— كنت أحسبك تقول العكس ، وترى أن قرب الموت قد يجعلنا نطلق العمل ونفزع إلى حياة اللهو والمتعة ، أو على الأقل حياة الهدوء والراحة

— نحن يا صديقى نفعل ما يفعله كل أب بار . فما الذى يصنعه الأب البار بأبنائه حينما يدنو منه الموت ؟ ألا يتمنى أن يتركهم وقد اكتمل نضجهم ؟ ألا يفكر ليل نهار فى إتمام تربية هذه الأكباد حتى تقوى على المشي فوق الأرض ؟ وأنا وأنت لسنا أكثر من آباء ، لنا أكباد تمشي لا على الأرض ... لكن على الورق .... فكيف نموت وفى خزائن أحدنا صفحات من كتاب لم يكتمل فى « ضحى الإسلام » أو فى « النقد الأدبى » ، وعلى مكتب الآخر قصص تعج بأشخاص نصف أحياء يطالبون بحقهم فى الحياة ، ويمسكون بتلابيب « مؤلفهم » لا يدعونه يموت قبل أن ينفخ فيهم بعض الروح ؟ إنه ليخيل إلىّ أحياناً أن حياتنا متصلة بحياة إنتاجنا ، وإن فى أعماق كل « خلاّق » شبه غريزة داخلية تدفعه إلى الانتاج البطىء أو السريع طبقاً لطول حياته أو قصرها . إنا قد بعنا أنفسنا لشيطان « التأليف » ، ولن يتركنا هذا « الشيطان » فى راحة إلا عندما نلفظ النفس الأخير !

توفيق الحكيم

المخـــترعات
وكتاب الفصول والغايات
لباحث كبير

(اللزوميات) هى عبقرية المعرى[١] فى النظم ، و (الفصول والغايات) هى عبقريته فى النثر . والعبقريتان فى أكثر المقاصد والمرامى تلتقيان . وفى هذه العبقرية (المعجزة الأحمدية) يقول أبو العلاء :

« إن شاء الملك قرب النازح وطواه ، حتى يطوف الرجل فى الليلة الدانية بياض الشفق من حمرة الفجر ، طوفه بالكعبة حول قاف ، ثم يؤوب إلى فراشه والليلة ما همّت بالإسحار ، ويسلم بمكة فيسمعه أخوه بالشام ، ويأخذ الجمرة من تهامة[٢] فيوقد بها ناره فى يبرين[٣] وقاصية الرمال »

وقد شاء الله أن يكون فى هذا الزمان كل ذلك ، فإن المرء ليسرى[٤] من (الاسكندرية) طائراً إلى (قاف) سلع ، الجبل فى المدينة (يثرب) ؛ ثم يؤوب ويأوى فى فراشه والليـلة ما همت بالإسحار ، وطوفه حول (قاف) القصاصين و(قاف) بعض المفسرين — أى حول الكرة الأرضية — فى يوم أو ليلة هو فى الغد ، و « مهما تعش تره[٥] »

وإن المصلى (أو غير المصلى) ليسلم فى مكة فيسمعه أخوه فى (سان فرنسيسكو) وأخوه الذى هو فى (طوكيو) ، ويسمعه كل صاحب (مِصْوان[٦]) فى الأرض

(١) احمد بن عبد الله بن سليمان ، وفى مقـدمة (القاموس) ومقالة (شق وسطيح) فى الجزء الماضى من الرسالة : احمد بن سليمان ، وسليمان جده
(٢) تهامة : مكة ، وبلاد شمالى الحجاز
(٣) يبرين من أصقاع البحرين ، ويبرين قرية من قرى حلب (معجم البلدان)
(٤) سرى وأسرى لغتان (الكشاف) وكلتاهما فى (الكتاب)
(٥) مهما حرف فى الشرط بمنزلة ما ، والهاء فى تره للسكت ومفعول تر محذوف والتقدير : ما تعش تر أشياء عجيبـة ، أى ما دمت تعيش ترى شيئاً عجيباً (الميدانى)
(٦) وضعت (المصوان) لأداة الراديو وأنا أكتب هذه الكلمة عجلا ، وقد يجلب البحث والتفكير أحسن منها

وإن مركونى — وهو فى سفينته فى ميناء فى إيطالية — قد أضاء بشرارة — لا بجمرة — مدينة (سدنى) فى استرالية

هى العبقرية وهم العبقريون يقذفون بالقول فيفسره الدهر بعد أحقاب أو يحققه

وقد شاء الله (جلت قدرته) أن يجىء فى هذا الزمان ما تخيله أبو العلاء فى وقته

وقد شاء الله (عظمت منته) أن يظهر اليوم هذا الكنز العظيم : كتاب (الفصول والغايات) المكتنز بالفوائد ، محققاً مضبوطاً مشكولاً مشروحاً يشرح الصدر ، ويسر العين ، ويبهج القلب ، وينور العقل

وهذا القول فى هذا الكتاب حق كله ، ولم يُهده مُهد إلى فيقول الإهداء : هات الثناء . بل افتلذت ، اقتطمت ثمنه (والله) من عيشى[١] ، ومن قوتى ، وكنت لعقلى وروحى من المحسنين . وفى سبيل أبى العلاء والعلم الصومُ ووهنُ الجسم

(الاسكندرية) (***)

(١) قال الزمخشرى : أهل الحجاز يسمون الطعام عيشاً

فلسفة التربية

تطبيقات على التربية فى مصر

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ١٤ —

« إذا لم تكن البطالة ناشئة عن نقص فى الشخص نفسه ، فهى ناجمة من غير شك عن خطأ فى روح تعليمه !! » (١)

« إن من يأنف اليوم من حمل الفأس ومن تلويث يديه بالطين لن يصلح غداً لاصلاح أمره إذا ما ضاقت به الحياة وقسا عليه القدر ! »

« لقد أنفدتم الحماس والأسفاه ، وجعلتم يقبلون على العلم بخمود دائب ، وتحجر متواصل ، وبطء شديد ! »

« من رسالة الدكتور جاكسن »

٤ — المتعلمون العاطلون

تبينت فى المقال السابق بعض نواحى الضعف فى التعليم الازهرى وبعض وجوه الاصلاح ، وسترى اليوم ناحيـة أخرى جديرة بالدرس والعلاج نظراً لما فيها من خطر شديد على كيان المجتمع القائم حاضره ومستقبله :

١ — العاطلون

أترى أولئك المتعلمين العاطلين ؟ أتسمع عن جيوشهم فى كل مدينة من مدن القطر ؟ أتلحظ حقدهم على كل حكومة لم تسلكهم فى سلك الموظفين المجدودين ؟ أتتبين تقاعدهم وتسكعهم وعجزهم عن المجاهدة فى الحياة إزاء الأجنبي الدخيل ؟ ثم نفورهم كبراً وتيهاً من أعمال البيع والشراء وغير البيع والشراء ، مما يظنون أنهم لم يخلقوا له فى كثير ولا قليل ؟

ذلك هو المشكل الذى نبسطه اليوم ونعالجه على ضوء التربية والتعليم ! والذى ينبغى على الدولة أن توليه من عنايتها نصيباً موفوراً نظراً لأن أولئك المتعلمين العاطلين خير تربة صالحة لإنماء المبادئ والأفكار التى فيها كما قلت الخطر كل الخطر على كيان المجتمع نفسه حكومة وشعباً !

تُرى بِمَ نجمت هذه البطالة ؟ ومن هو المسئول عنها ؟ أفى البلد أزمة اقتصادية عنيفة فهم لا يجدون فيها عيشا ؟ وما بال أولئك « الأجانب » يملأون المتاجر والمصارف ويقومون بمختلف المشروعات وينجحون فيها كل النجاح ؟ ألست ترى إلى الرومى أو غيره يدخل البلد فقيراً معدماً ثم يغدو بعد سنين صاحب متجر عظيم ومُلكٍ أعظم ؟ إن الخير فى هذا البلد كثير ، والعيش يسير ، ولكن العيب والأسفاه فى المتعلم نفسه وما قد طُبع عليه من كره للعمل والعاملين ، وعشق « للديوان » الثابت والراتب المضمون !! ولذلك يقول الدكتور « جاكسون » : إن الخطأ إنما يقوم فى روح التربية المعطاة وما يوحيه من أن المدرسة تأخذ بالأيدى من « الطين » حيث الجهد والنصب ، إلى « المكتب » حيث الراحة والكلام !! ألست تسمع أنشودة « الوظيفة » من أمك وأبيك وأقاربك وذويك ؟ ألست ترى « للموظف » قدراً فى المجتمع دونه قدر التاجر أو الصانع أو الفلاح ؟ ألست ترى طابع « الحكومة » يميز حامليه ويملأهم عجباً وتيهاً وزهواً وفخرا ؟ ألست ترى حولك كثيرين ممن يرون فى « العمل » حطة لهم ولعائلاتهم مع أنه قد يكون السبيل الوحيد لمعاشهم ؟ وأخيراً ألست تشاهد المئات من خريجى المدارس الزراعية والتجارية والصناعية يتكالبون على الوظائف الفنية وغير الفنية ، مع أن الدولة قد أنفقت عليهم الألوف لتجعل منهم طبقة فنية راقيـة تأخذ بيد مرافق البلد الاقتصادية وترقيها ، وتحررها من قيود الجهل والتقاليد ، وتطبعها بالطابع القوى المنشود ؟ (١)

٢ — العلاج

تلك إذاً هى « الفكرة الخاطئة » التى يجب أن نمحوها محواً بمختلف أساليب التربية والاقتصاد ، لأن التربية لا تستطيع

(١) هذا إذا نحينا الأزمات الاقتصادية جانبا ...

(١) والعجيب أن العشرات من هؤلاء الفنيين ممن يدخلون الحكومة لا يلتحقون بأعمال تتفق وثقافتهم ! فكثير منهم كتاب لا أكثر ولا أقل ، وكثير غير هؤلاء يعملون فى أعمال تخالف أعمالهم الفنية الخاصة مخالفة كبيرة أو صغيرة . ومنهم من لا يتاح له استعمال ثقافته إلا فى ناحية ضيقة محصورة كمعاونى الزراعة الذين يبخرون الأشجار فحسب ، أو ينبهون الحكومة إلى دود القطن ... ! ومعنى ذلك أننا تنفق الالوف المؤلفة فى بناء المدارس الفنية وفى تعليم المئات دون أن نعمل على استغلال هذه الثقافة الفنية الواسعة إلى أبعد حدودها ... ألست ترى هـذا عجبا ؟ أعرف أحد خريجى المدارس الصناعية الذين يئسوا من الوظيفة فنصحه البعض أن يؤسس مصنعا للسبك فأسسه بالفعل ونجح فيه نجاحا مبشراً بكل فوز ، ولكنى حين أسأله عن رأيه فى الوظيفة أسمع منه ميلا شديداً إلى ترك المصنع والالتحاق بها ... !

وحدها أن تصلح كل شئ . يجب أن نحسّن الأسواق القائمة ، وأن نفتح أسواقاً جديدة ، وأن نعمل كما يقول الأستاذ جاكسون على زيادة « الطلب » ليرتفع أجر العامل ويغريه بالعمل وترك الحكومة ، كما يجب كذلك أن نجمل مدارسنا الفنية مسلحة بكل تجديد كهربائى أو ميكانيكى لتستطيع أن تواجه حاجات العصر ، وأن تصمد لمنافسة المحصولات الرخيصة التى تمطرنا بها أوربا وأمريكا واليابان ، وأن نحول مدارسنا الالزامية والابتدائية والثانوية إلى نظام آخر يسمح بكثير من « العمل » اليدوى ما دام العاطلون من خريجى هذه المدارس أكثر عدداً وأفدح خطراً من خريجى المدارس الفنية . أفى المدارس الالزامية « عمل » بالمعنى الساذج البسيط ؟ وهل فى المدارس الابتدائية غير ساعتين للعمل فى الأسبوع منفصلتين تماماً فى « عملهما » عن المواد الأخرى ؟ وهل يعدو « العمل » فى التعليم الثانوى « اللهو والفراغ » عند أغلبية الطلبة الساحقة ؟؟

٣ — الصعوبة القائمة

وهناك فضلاً عن ذلك صعوبة كبرى هى قبول المدارس الثانوية لعدد عظيم من الطلبة لا تستطيع أن تقبله فيما بعد الجامعة والمدارس العالية لأنها لا تتسع له . ويقول بعض حضرات النظار إن حوالى ٣٠٪ من طلبة البكالوريا يقمون فى هذا الشكل ، ويمضون حياتهم فى يأس وقنوط وألم وشقاء . وإذاً فإما أن ينقص عدد الملتحقين بالمدارس الثانوية حتى يستطيعوا أن يجدوا لهم منفذاً فى التعليم العالى ، وإما أن يصبح التعليم الثانوى نفسه غاية ووسيلة معاً لا وسيلة تمد الناشئ للجامعة فحسب . والحل الثانى أليق بمصر ، لأن خمسا وعشرين مدرسة ثانوية للبنين ، وسبعا أخرى للبنات ، ليس بالعدد الكثير على بلد سكانه خمسة عشر مليوناً ! ! وإذاً فلننظر فيما ينبغى أن يكون عليه هذا التعليم :

٤ — الإصلاح المنشود

ينبغى أولاً أن يسود فيه الشعور بأنه إعداد للحياة لا للدراسة العليا فحسب . ويتأتى ذلك فيما يرى الدكتور جاكسن بوضع أساس عملى لا يجنى على « كيف » التعليم فيه ، وذلك بأن ندخل فيه الزراعة والطباعة وأشغال الخشب والحديد على نحو « جدى » مع تعديل المقرر أو بالأحرى تخفيفه تخفيفاً مناسباً . فمثلاً فى السنتين الأولى والثانية : عشرون درساً للغات من أربعة وثلاثين ، ودرس رسم واحد ، ودرس أشغال لا يقوم به إلا قلائل لا يفيدون . فماذا يمنع من استعمال اللغة فى تجارة عملية بدلا من قصرها على هذه الحصص الكثيرة التى لا تؤدى بالطالب بعد تسع سنوات إلى القدرة على كتابة خطاب تجارى صحيح النحو مستقيم المعنى؟[1] وماذا يحول بين الطلبة وبين جمعهم لحروف مجلتهم وطبعهم لها بأنفسهم ؟؟ ولم لا يزرع الطلبة حديقة المدرسة ويسهرون على تهذيب أغصانها وإروائها بدلا من رجل واحد تعينه المدرسة لهذا الشأن ؟ وكيف يتكلم المدرس عن الذباب وخطره والمدرسة ذاتها لا تعمل على منعه من دخول الفصل ؟؟

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يجب أن يعنى التعليم بغرس الروح الاجتماعية عن طريق « دراسة المشروعات » والجميات العلمية والرياضية والفنية التى تسودها روح التعاون والمحبة والتضحية واحترام القانون[2] ، ويجب أن يتاح للمدرس من الوقت ما يساعده على الاشراف التام على أعمال هذه الجميات و « العيش » فيها كمرشد حكيم ؛ هذا مع غرس السرعة والابتكار والذوق فى نفوس الطلبة تلبية لحاجات « رجال الأعمال » الذين يريدون كل حاضر البديهة ، حكيم التصرف ، جميل الذوق وديع المحضر ، مطيعاً للقانون !

٥ — التوجيه المهنى

ثم لا ينبغى أن يقف الأمر عند ذلك . إن مصر لفى حاجة كبرى إلى توجيه أبنائها توجيهاً سليماً يتفق وميولهم النفسية ، ويضمن على الأقل نجاحهم فى عملهم وثقافتهم إن لم نقل نبوغهم فيها . والشبان عندنا لا يطرقون أبواب المدارس المختلفة جرياً وراء إشباع ميولهم الشخصية بقدر ما يطرقونها تحقيقاً لمطامعهم القاصرة فى مهن محترمة كالقضاء أو الطب أو المحاماة ! أليس عندنا من يدخل الحقوق ليكون نائباً أو وزيراً ، ثم يفشل أخيراً فى

(١) وهم يدخلون فى أمريكا الكتابة على الآلة مع دراسة اللغة نحواً وهجاء ، فيقومون بثلاث عمليات فى عملية واحدة

(٢) وفى المدارس أساليب من هذا النشاط كثيرة ، ولكن ما يزال ينقصها الروح الاجتماعى الصحيح بحيث تكاد تكون قشوراً أكثر منها لباً

موقفه أمام القاضي ويخاطبه كما يخاطب التلميذ الأستاذ؟[1] أليس عندنا من يدرس الفلسفة ليدعى فيلسوفاً، ثم لا يكون بينه وبين الفلسفة الصحيحة إلا هوة سحيقة من الجهل والاعوجاج؟ كم من مئات الحقوقيين قد أثبت له قدراً في عالم القانون؟ وكم من خريجي التجارة أو الهندسة قد سجل لبلاده فخراً في مجال دراسته الخاصة؟ إنها إذاً لآفة كبرى يجب علاجها علاجاً علمياً صحيحاً ينحصر فيما يسمي الآن «بالتوجيه المهني!» ويستطيع الأستاذ في ذلك التوجيه أن يدرس ميول الطالب الحقيقية لا الوهمية أو المصطنعة، وأن يقدم له النصح والإرشاد على أساس هذه الدراسة يستطيع أن يختبر ذكاءه وميله الأدبي أو الفني أو العلمي باختبارات خاصة يجرونها الآن في أوربا وأمريكا؛ ويستطيع أن يلاحظه ويدرسه عن كثب طيلة أعوام الدراسة ليضم إلى نتائج هذه الاختبارات درايته الشخصية؛ ويستطيع أن يقول له أخيراً عليك بالآداب أو الحقوق أو الطب أو الصناعة أو التجارة، لأنك لا تليق ولا تنبغ، ولا توفق ولا تسعد، إلا في ذلك الذي دلتني عليه دراستي العلمية وخبرتي الشخصية؛ ثم يستطيع باتصاله بذويه أن يسدي لهم النصح في مستقبل ولدهم حتى لا يقفوا عثرة في السبيل كما أراد لي والدي يوماً أن أدرس «التجارة» وأنا لا أهضم «الحساب» على الاطلاق!، وأخيراً يستطيع الناظر عملاً برأي الأساتذة أن يزود تلميذه بخطاب خاص يحمله كشهادة محترمة لرؤساء المعاهد أو الأعمال التي يريد أن يطرقها كيما يكون «واسطته» فيها...

وبذلك وبغيره نوجد أعمالاً للعاطلين، وتوفيقاً ونبوغاً للمتعلمين!...

«يتبع» **محمد حسن ظاظا**

مدرس الفلسفة بشبرا الثانوية الاميرية

(١) ويرجع جلوس المثقفين عندنا في المقاهي وانحرافهم الخلقي إلى أسباب أهمها أن المدرسة لم تحببهم في العلم للعلم، وأنهم لم ينشدوا مهنتهم عن ميل صحيح فيهم، وأنهم يلقون في عملهم اليومي ما ينفرهم من الاشتغال في فراغهم بما يفيد، وهذه الأسباب جديرة بكل إصلاح لأن العمل إذا لم يغرم به الانسان وهو محب له كان مصدر شقاء وانحراف لصاحبه، وترجع أغلب أعمال الموظفين الفاشلة إلى هذا النوع من العمل البغيض.

إبراهيم بك المويلحي

١٨٤٤ – ١٩٠٦

بقلم حفيده ابراهيم المويلحي

تتمة ما نشر في العدد الماضي

ثم سافر إبراهيم بك إلى باريس سنة ١٨٨٤ م وحرر العدد الرابع من جريدته «الاتحاد» بعد صمت أربع سنوات وطبع منها أعداداً كثيرة، وكانت أشد لهجة من أخواتها فاستشاط السلطان غيظاً وحنق على إبراهيم حتى أنه أرسل إلى «أسعد باشا» سفير الدولة العلية في باريس بمذكرة مستعجلة يريد بها إبلاغ رغبته إلى الخديو إسماعيل بأن يأمر سكرتيره «إبراهيم بك» بالكف نهائياً عن إصدار جريدة «الاتحاد» المحررة تحت رعاية سموه

فلما تفاوض «أسعد باشا» مع الخديو أعلمه بأن لا يد له فيها مطلقاً وأنه برئ من تلك الظنون. فما كان من السفير العثماني إلا أن طلب من الحكومة الفرنسية، بناء على رغبة السلطان، نفي المترجم له من فرنسا

ولما كان هذا النفي غير مسبوق بأي محاكمة فقد انبرى المسيو بود دي مورسلي Baude de Maurceley يدافع عن إبراهيم ويستنكر وقوع مثل هذا الإجراء ويأخذ على وزير الداخلية الفرنسية تسليم إبراهيم لأسعد باشا بهذه السهولة، في مقال نشر في حينه في جريدة «الفيجارو» عدد ٣٣١ سنة ١٨٨٤ م اختتمه بقوله: «إني أسأل بصراحة المسيو ولدك روسو Waldack Rousseau عن الضرر الذي يسببه وجود إبراهيم بك في باريس. أم هل فقد بلدنا الجمهوري «حق الاقامة» فيه وأضحى غير قادر على منح الضمان الكافي للمحكوم عليهم سياسياً! وإلا فما هو الأمان الذي يمكن أن يجده عندنا كل غريب فقد حق التمتع بمصالح بلده؟ ألا يظن حضرة وزير الداخلية أنه من السذاجة أن ننال بسهولة وبدون محاكمة إبعاد صحفي فرنسي غير راض عن سياستنا الحالية من استانبول أو لندرة مثلاً، لأنه يصدر جريدة عدائية هناك؟!»

إن القبض على إبراهيم بك ونفيه بدون محاكمة لا يعد فقط عملاً استبدادياً ، بل أمراً منكراً ربما استحق الاستجواب عنه فى البرلمان »

فلما رأى إبراهيم بك نفسه مرغماً على ترك فرنسا بأمر السلطان ، سافر تواً إلى « بروكسيل » فكتب إليه السيد جمال الدين الأفغانى لما كان بينهما من روابط الصداقة أيام كانا فى مصر ، يشير عليه بالتوجه إلى لندرة ليتحدا فى الدفاع عن حقوق الأمة ونصرة الدين . فاستصوب إبراهيم هذه الفكرة ولاسيما أنه كان غيوراً على دينه ، شديد الحب لوطنه . فأبحر إلى « لندرة » وتسنى له التعرف هناك باللورد تشرشيل واللورد سالسبورى وأخذ يعاون السيد جمال الدين فى تحرير « العروة الوثقى » وأنشأ لنفسه جريدة « الأنباء » ثم « عين زبيدة » وأفاض فيهما ولاء خالصاً للسلطان ، وأظهر حرصاً على صيانة الدولة بانتقاده الشديد لسياسة غلادستون نحو الدولة العلية فى ذاك الوقت

وبلغ مسامع السلطان عبد الحميد أمر هاتين الجريدتين فسر من خطة إبرهيم هذه وأرسل إليه يستقدمه بواسطة سفيره فى لندرة

ولما كان إبراهيم بك لا يتوقع هذا العفو السريع سنة ١٣٠٣ هـ — ١٨٨٥ م ظن أنها مكيدة من السلطان ليتمكن بها من الانتقام منه ، فامتنع عن الذهاب إليه ، وكلف ابنه السيد محمد بك المويلحى — الذى كان بصحبته فى انجلترا — السفر إلى استانبول ليستطلع جلية الأمر

فتوجه محمد بك إلى الآستانة عن رغبة والده ، وأرسل إليه خطاباً يطمئنه فيه من جهة السلطان

فدخل إبرهيم بك الآستانة وكتب إلى جلالة السلطان الخطاب الآتى يشكره فيه على عفوه عنه ويعتذر عن تأخره فى المثول بين يدى جلالته : « المعروض على سدة أمير المؤمنين ، وخليفة رسول رب العالمين ، أن العبد لا يصف عفو أمير المؤمنين إلا كما قيل لأخ جلالتكم فى الخلافة المعتصم العباسى : « لو علم الناس ما تجدون من اللذة فى العفو لتقربوا إليكم بالذنوب » . والحمد لله على تلك النعمة التى أسداها أمير المؤمنين لعبده الصادق . وإنما كان تأخيرى عن التشرف بسدة الخلافة لأمور هامة فى فائدة الدولة والملة قد تم بعضها . وإنى ألتمس أن أعرضها على ذات مولانا المقدسة حفظها الله للإسلام »

وبعد أيام طلب السلطان مثوله بين يديه ، فأكرم مقابلته وعينه عضواً فى مجلس « انجمن المارف » سنة ١٣٠٣ هـ — ١٨٨٥ م . وكان ناظرها وقتئذ العالم الجليل المغفور له صاحب الدولة منيف باشا ، فقدر إبرهيم حق قدره ، وقربه إليه وعرفه بالشيخ الشنقيطى اللغوى الشهير

وتصادق المترجم له مع إبرهيم بك أدهم صاحب جريدة « الحقائق » التى كانت تصدر فى استانبول ، فكان ينشر فيها وصف جلال الموكب السلطانى فى كل مرة يذهب فيها لتأدية فريضة الجمعة

ومكث إبرهيم بك فى وظيفته هذه عشر سنوات تقريباً من سنة ١٨٨٥ هـ — ١٨٩٥ م . حدث فى أثنائها أن كتب بعض الجواسيس إلى السلطان عبد الحميد تقريراً جاء فيه أن إبراهيم بك لا يزال يراسل الجرائد فى مصر خفية بما لا يتفق وسياسة السلطان ! فما كان من جلالته إلا أن أرسل إلى صاحب المطوفة « كامل بك » ناظر الضبطية لاستجواب صاحب الترجمة والتحقيق معه فيما وصل إلى السلطان

ولقد كان هذا الجاسوس صادقاً فى تقريره . وهكذا كانت خطة إبرهيم بك فى جميع مراحل حياته السياسية لا يعرف التملق ولا التزلف ، ولم تحِدْه تلك الرتب والإنعامات الشاهانية عن طريقته المثلى فى حبه لمصلحة البلاد والدفاع عنها وانتصاره لها

وقد رأى شطط السياسة من جراء ما يزينه المتلفون حول عرش جلالته ، فأخذ ينشر مقالاته الانتقادية فى القطم ، وكان يذيلها بأمضائه المستعار : « أحد العثمانيين الأفاضل »

وكان إبرهيم بك فى اليوم الذى قبض عليه فيه يحمل مسودة مقالة كان يريد نشرها ، فأسقط فى يده وأخذ يجهد فكره فى التخلص منها بأية وسيلة ! واتفق أن كان الناظر فى هذه الساعة مشغولا بتحقيقات أخرى — وما أكثر التحقيقات فى الآستانة — فأمر بأبقائه فى غرفة تجاور غرفة التحقيق ريثما ينتهى من استجواب الذين بين يديه

ففكر إبرهيم بك ، وهو المنزل فى الغرفة ، أن يتخلص من

المقلة التي في جيبه خشية تفتيشه ، فهم بحرقها ، لحدثته نفسه أن رائحة الدخان قد تبعث الشك في إدانته ، كما خشي تمزيقها خوف وصول بعض وريقاتها إلى يد بعض الجواسيس المنتشرين بدار الضبطية . وبينا هو في شغل شاغل إذ سمع صياح ديك فنظر حوله فرأى نافذة صغيرة بحواجز حديدية ، ففتح زجاجها وأطل من بين قضبان النافذة فرأى ذلك الديك وحوله أفراخ كثيرة ينقرن في الأرض بحثاً عن القوت ؛ فما كان منه إلا أن أخذ يقطع الورقة قطعاً صغيرة ويضعها في فمه حتى تمتزج بلعابه فيمضغها حتى تصير على شكل الحب ثم يرمي بها إلى الأفراخ فتتسابق إلى ابتلاعها حتى أتت على آخرها ، وأغلق النافذة وحمد الله

وبعد ساعة تقريباً اقتيد إبرهيم بك إلى غرفة التحقيق وابتدىء بتفتيشه فلم يعثروا على شيء ، وبعد مناقشات طويلة أسفر التحقيق عن براءته مما جاء في تقرير الجاسوس ، وطير الخبر إلى جلالة السلطان فأمر باستدعائه إلى « المابين » ، وأنعم عليه بالرتبة الأولى من الصنف الثاني سنة ١٣١١ هـ — ١٨٩٣ م . وصاحبها يلقب « بسعادتلو أفندم » وهي توازي رتبة الميرميران الملكية التي يلقب صاحبها بلقب « باشا »

وفي نفس هذه السنة قدم الخديو « عباس الثاني » ومعه بعض الوجهاء من المصريين لزيارة الآستانة والتشرف بمقابلة جلالة السلطان « لعرض الشكر والعبودية على أعتاب الخلافة السنية » فرأى ابراهيم بك من واجبه كمصري مقيم في استانبول أن يتشرف بمقابلة سمو الخديو عباس ، فذهب إلى القصر الكائن « بدفتر دار بروني » الذي يقيم فيه سموه ، ولكن « محمود باشا شكري » أشار على سمو الخديو عباس باشا الثاني لشيء في نفسه من جهة إبراهيم أن يمتنع عن مقابلته تجنباً لخطره وسطوة قلمه . فسوّف الخديو تحت هذا التأثير مقابلة إبراهيم الذي خرج حانقاً والشرر يتطاير من عينيه !

ولما كان يعلم أن جلالة السلطان سيدعو سمو الخديو والوفد الذي جاء معه إلى سراي « يلدز » مرت بخاطره فكرة جهنمية يستطيع بها تحريك غضب عبد الحميد عليهم أجمعين ! فحرر عريضة من تلقاء نفسه اختلقها اختلاقاً ، كأن هؤلاء الوجهاء يرومون رفعها إلى الأعتاب الشاهانية وبعث بها إلى المقطم فنشرها ، والتقطتها التلغرافات الأجنبية وترجمتها الصحف الإنجليزية وعلقت عليها ما شاءت أن تعلق ، وذهب سفير انجلترا في تركيا بأمر من رئيس الوزارة الانجليزية إلى الصدر الأعظم ليستفسر عما أجاب به السلطان على هذه العريضة التي قد تسبب توتر العلاقات بين بريطانيا العظمى والدولة العلية

فحدث من جراء هذه العريضة أن امتنع السلطان عن الإنعامات التي كان يرغب في الإنعام بها على من كان بمعية سمو الخديو كما هي العادة في مثل هذه الظروف ، إرضاء لخاطر انجلترا حتى لا تعتقد أن لهذه العريضة أثراً في نفسه

وإليك صورة هذه العريضة بعد ديباجة الحمد والثناء :

« إن الله عز وجل نظر إلى العالم نظرة رحمة فاختارك يا أمير المؤمنين من بين البرية خليفة على عباده ، وجمع فيك شرائط الخلافة وبسط لك من القوة والسطوة ، وآتاك من الحزم والعزم وأصالة الرأي ما يفتخر به هذا العصر على سائر الأعصار ، وقرن طاعتك بطاعته وطاعة نبيه في كتابه العزيز ، وجعل حبك إيماناً والخروج عن أمرك مروقاً من الدين ، وحبب إليك الإقدام لمصلحة الإسلام . دأب الخلفاء السابقين ، وأودع في يديك أرواح المسلمين وأموالهم تحكم فيها عن رضى وتسليم منهم . وقد عاهدوك على بذل دمائهم في طاعتك بأيمان البيعة التي ربط الله بها لك القلوب على المحبة في خلواتها ونجواها

فالمسلمون كلهم قاصيهم ودانيهم مجمعون على الانقياد لك في السر والعلانية لا يميل بهم عن هذه السنن قول ولا فعل لتوقف سعادتهم على طاعتك في الدنيا والآخرة

هذا ما جعل الله لك يا أمير المؤمنين ، وقد جعل لهم بهذا من جانب جلالتك أن تكلأ بيقظاتك بلاد الاسلام بعيدها وقريبها من طوارئ السوء وغوائل الشر على نسق واحد لا فرق بين مطلقها وممتازها ، وأن تدفع عنها كل صائل ومحتال ، وأن تذود عنها بالحجة والسيف والقلم وما يمكن أن يدافع به مادياً ومعنوياً

هذه مصر — أيد الله بك مقام الخلافة ، وثبت بك أركان السلطنة ، ونصرك النصر الوشيك — فريدة التاج العثماني ، والقسم الأكبر من السلطنة السنية والطريق الأعظم إلى الحرمين الشريفين . قد أصبحت تمديد الفزع الصارخ إلى عظمتك ، وتنظر كالمغشي عليه من الموت إلى حياتها في يدك الكريمة ؛ فامنن

عليها بالحياة يا أمير المؤمنين ، وخلصها ممن تجاسر على حوزة الإسلام بلا حجة ولا قوة ، وفى يد جلالتك الحجة والقوة ، وهذه أرواحنا رهينة ثلاثة أحرف من عظمتك ، فأمرنا بما تريد لتخلص الاسلام المتخبط فى تلك الأشراك . وقد بقينا ياأمير المؤمنين سنين عدة معلقين لا ندرى أنحن تحت حكم الخلافة والسلطنة السنية فتطمئن قلوبنا ، أم تحت حكم هذا الذى دخل فى يوم على وعد أن يخرج فى غده فبقى إلى الآن تخفق راياته على مساجد المسلمين فى بلد هى عش الأولياء ومرقد آل البيت النبوى ومجد جدك السلطان سليم خان ؛ فطفق هذا الداخل يستهوينا باسم الحرية التى لا توافق قيودنا الدينية ولا عاداتنا الأدبية فمال إليه جماعة منا ، ويوشك إن استمر فى سيره أن يفسد الحاسيات والأخلاق بهذا التساوى المخالف للتفضيل الإلهى

فالآن قد وفدنا على دار الخلافة مع سمو وكيلك المطبوع على محبة جلالتك ، المفتخر بنظرات الرضى عليه من ألطاف عظمتك ، الواقف موقف السمع والطاعة لأوامرك ، راجين من السدة السنية إجراء الوسائط الفعالة لإخراج هذا الداخل على وطننا وإبعاده عن الأراضى المقدسة التى يدأبون على التدخل فيها ، فانهم إذا استمروا — لا قدر الله — فى البقاء بمصر سهل عليهم الدخول فيها وفى غيرها لطبيعة الموقع

ونسأل الله أن يؤيد جلالة مولانا الخليفة الأعظم وينصره على الباغين »

وفى أوائل سنة ١٨٩٥ م سئم العيشة فى جو استانبول المكتظ بالجواسيس المختنق بالفتن والوشايات وشعر بالحنين إلى وطنه بعد طول الغربة . فعزم على الرحيل إلى مصر ودبر طريقة سفره فى الخفاء على باخرة بخارية قادته إلى الاسكندرية

ولما علم جلالة السلطان عبد الحميد بخبر اختفائه وسفره إلى مصر بدون أن يقدم استقالته ، بعث يستعلم بواسطة « مختار باشا » المندوب فوق العادة للباب العالى عن السبب الذى جعل ابراهيم بك يترك وظيفته فى « أنجمن المعارف »

فأبدى إبراهيم أسفه لمختار باشا وأفهمه أن قدومه إلى مصر إنما هو من باب الحنين إلى الوطن والشوق إلى رؤية ابنيه « محمد » و « خليل » ، وأنه لا يدرى كيف يشكر السلطات على نعمه

ولما كان ابراهيم بك مشغوفا بالتحرير أخذ ينشر فى المقطم من وقت إلى آخر مقالته الانتقادية فيما رآه فى الآستانة العلية مدة إقامته فيه تحت عنوان « ما هنالك » ثم جمعها وطبعها كتابا سنة ١٨٩٦ ميلادية . فبعث السلطان عبد الحميد بأمره بإرسال جميع النسخ التى فى حيازته إلى « المابين » ؛ فخضع ابراهيم لأمر جلالته وأرسلها جميعاً إليه ماعدا بضع نسخ كان قد وزعها على عائلته وأصدقائه . لذلك يندر وجوده

وفي سنة ١٨٩٨ م أنشأ جريدة أسبوعية سماها « مصباح الشرق » وقفها على خدمة الأدب ونصرة الدين والدفاع عن حقوق الدولة العلية . وكان يعاونه فى تحريرها ابنه السيد محمد بك المويلحي . وكان طلاب الأزهر يقفون على باب المطبعة الساعات الطويلة ينتظرون صدور أعدادها بفارغ الصبر ، وكانت تباع بقرش صاغ واحد ، وكان يعز مطلبها فى اليوم الثانى من صدورها حتى كانت تشترى بخمسة قروش

وكان ابراهيم بك يسافر من وقت إلى آخر للآستانة لعرض ولائه على الأعتاب الشاهانية ، وليتسنى له الاطلاع بنفسه على ما فى الجو السياسى من أخبار ، فكان فى كل مرة يعود مثقلا بالانعامات والعطايا حتى نال « الرتبة الأولى من الصنف الأول » وصاحبها يلقب « بسعادتلو أفندم حضرتلرى » وهى توازى رتبة « روم ايللى بكاربكى » الملكية . لكنها تتقدمها فى التشريفات

وقد نال حظوة عليا لدى حضرة صاحب السمو الخديو عباس الثاني حتى إنه كثيراً ما كان يكلفه بأعمال سياسية هامة ، فكان يقوم بها خير قيام فنال بذلك ثقته . ولم يقف دون رغبة سموه إلا مرة واحدة غضب عليه فيها بضعة أشهر ثم رضى عنه فكتب إليه الخطاب الآتى :

« قد وضعنى ولى النعمة فى بودقة الامتحان وأوقد علىّ بنار غضبه زماناً طويلا كما اقتضته حكمته ، حتى إذا صفانى وخاف على أن أحترق نقلنى كما اقتضته رحمته وسمته . فأشكر ولى النعم شكرين : شكراً على تصفيتى وتهذيبى ، وشكراً على رضاه عنى

وقد بعث الله لنبيه الملكين جبريل وميكائيل فشقا صدره صلى الله عليه وسلم ، وأخرجا ما يكون بناموس الطبيعة فى قلوب البشر ، ثم ختماه على الحكمة . وكذلك فعل ولى النعم : بعث

إلى عبده[1] فأصبح قلبي مختوما عليه بطابع الإخلاص والقيام بفروض الخدمة لدرجة التفانى فيها . فلو ذوبونى لم يجدوا فى تركيب صدري إلا ثلاثة أشياء : الوفاء والدعاء والولاء ، لولى النعماء كل هذا انتهى وتم على موجب الحكمة العالية حكمة ولى النعم الذى اعتنى بتربية عبيده على هذا الأسلوب الحكيم .

لخدمة الأعتاب السنية هى قبلتى التي أوجه وجهى إليها ، وأصرف عزمي إليها . وهذا اعتقادى وهذا قولى وهذا خطى على ذلك والله شاهد ووكيل »

وفى سنة ١٩٠٣ كف عن إصدار الجريدة فجأة ؛ وهكذا كان إبراهيم بك يعطل كل جريدة ينشئها إذا نال منها غرضه وكان يرسل فى بعض الأحيان بمقالاته السياسية إلى بعض الجرائد كالمؤيد والمقطم عند ما كان يرى أن حقاً للأمة هضم

ثم أنشأ جريدة « المشكاة » باسم ابنة « السيد خليل بك المويلحى » و « حمدى بك يكن » ولم يصدر منها إلا أربعة أعداد فقط سنة ١٩٠٥ . وفى أواخر سنة ١٩٠٥ اعتلت صحته فاعتزل السياسة ليعالج مرضه حتى وافته المنية في ٢٩ يناير سنة ١٩٠٦

***

ولقد كان المرحوم سريع الخاطر ، طيب اللسان ، شديد الميل إلى النقد والمداعبة لا يفرق فى ذلك بين قريب أو صديق حتى قيل فيه : « لم ينج من قوارص قلمه إلا الذي لم يعرفه »

وكان سريع الفهم ، قوى الاحاطة بخفايا الأمور ، وغوامض السياسة ، ولقد تقلب فى أعمال كثيرة بين تجارية وحكومية وصحافية وسياسية ، لكنه لم يبلغ الهدف الذى كان يرمى إليه فى كل واحد منها مع شدة ذكائه وحدة ذهنه . ولعل السبب فى عدم ثباته هذا يرجع إلى طموحه إلى النجاح السريع ورغبته في بلوغ الدرجات العلى طفرة واحدة ، فانه لو ثبت فى عمل واحد لبلغ أوجه

ويجمل بنا أن نقول قبل أن نختم ترجمته إنه كان مشغوفاً بتعلم اللغات الأجنبية حتى حذق التركية ومهر فى الفرنسية وتعلم الانجليزية في آخر سنى حياته عليه رحمة الله

ابراهيم المويلحى

(١) هو أحمد بك العريس

أبى !!

للأديبة بهية فرج الله زكى

أبي ! سلاماً من وراء دجلة ! سلاماً عليك من قلب وحيدتك ! سلاماً من قلب جريح ! سلاماً على الروح السابح فى لجة الأبد ، سلاماً على الجسد الهامد فى التراب !

أبي ! لقد مات أبى ، وطار البرق الحزين ينعى بقية الأمل إلى القلب الحزين .. مات أبي ، وفى مصر خمدت جذوة حياته الذاكية ، فانطفأ في العراق مصباح رجائى المشتعل .. مات ، وقد كان وهو حى رسول البسمات إلى الثغور ، فأصبح وقد مات رسول الدموع إلى العيون

أبي ! حتى فى ساعة الموت لا أراك ! وفى ساعة الوداع لا أطبع على جبينك القبلات ، وفى ساعة الرحيل إلى المثوى البعيد ، يحول دونى ودونك البحر المائج والبلد السحيق !

أبي ! يا منى النفس ، ويا روحا ضاقت بها حدود الأرض فطلبت فسحة الحياة فى السماء . لماذا استسلمت للكرى فنمت نوم الأبد ؟ لماذا تركتنى وحيدة وكنت بك جماً لا يخذل . . صوتى يملأ الفضاء ، وتجاوب أصداءه الأرض والسماء . ولكنى لا أسمع جواباً ، فأين أبى ؟

أبي ! كنت تستلهم السماء خبر الغيب ، فهل قرأت فى لوح الأجل موعد هجرتك من دنياك الفانية إلى عقباك الباقية ، فبكيت حين تحرك بى القطار ، وأنت الرجل الجلد الذى يسخر بالعواصف ، وجريت مع القطار وأنت الرجل الرزين الذى تخضع جوارحك أبداً لعقلك الكبير ، وأتبعتنى النظر الحائر وما حيرك الدهر المضطرب بالحادثات ... بلى لقد أحسست بالموت فكتمت سر الموت عن الأحياء

أبي ! لأنك تحب العراق آثرت الرحيل إلى العراق ؛ البلد الذى لم تبخل عليه بفلذة كبدك ، البلد الذى خلت فيه حياة خصيبة لأملك الروحى ... فلماذا تركتنى فى وطن قلبك ونزحت أنت إلى وطن الخلود

التاريخ فى سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الأحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

— ٨ —

يا شباب الوادى ! خذوا معانى العظمة فى نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامى العظيم

نجح لنكولن فى الانتخاب ، فظفر بمقعد فى المؤتمر ظل ينزع إليه سنوات أربعا طويلة ؛ وكان هذا النجاح كفيلاً أن يبث فى قلبه من الغبطة والبهجة بقدر ما بثه فيه الانتظار الممل من السأم والضجر ، ولكنه كتب إلى صديقه سبيد ينبئه أنه لم يهتز كثيراً للنجاح كما خيل إليه قبل أنه فاعل إذا ظفر . وتلك حال من حالاته العجيبة ، بل هي حال من حالات النفس البشرية تدعو إلى العجب والاعتبار ! فكثيرا مايتمنى المرء ما ليس فى يده حتى لتكون سعادته كلها مجتمعة فى أن ينال ذلك الذى يتمناه ، فإذا اقترب من بغيته أو شبه له أنه مقترب راح يطفر من الفرح ، ورأي فى كل شيء حوله معانى الحبور والغبطة ، وإذا بعد عن ضالته أو خيل إليه أنه مبتعد ، ضاقت فى وجهه الدنيا وبات من همه كأنه فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج ؛ حتى إذا قدر له آخر الأمر أن يرسو على الشاطئ وأن يلمس بيده مبتغاه وقف حياله وقفة من لم يجد شيئاً ، وفتح عينيه على الحقيقة كمن يفيق من حلم ذابت ألوانه وتلاشت أطيافه وتبددت رؤاه ... ذلك هو غرور الحياة ، ولكن ما ألذه من غرور ! وما الحياة فى جلتها إن هى خلت من هاتيك الأحلام ؟

وانقضى عام بين نجاحه وذهابه إلى المؤتمر . ولقد صحبته زوجه إلى وشنجطون العظيمة ، وزارت البيت الأبيض ، ولعلها كانت تحدث نفسها فى زهو أنه في غد مقر بعلها . ومشى ابن الأحراج فى المدينة تستوقف الأبصار هيئته إذ كانت لا تزال روح الغابة تصحبه كأنما هو نوع من الشجر جيء به إلى غير منبته ... وسرعان ما أنس الناس به ، فهم إذا جلسوا إليه يشعرون أن روحاً قوياً يسرى إليهم منه وإن لم يتبينوا ما هو ؛ وكذلك أخذت تطل عليهم نفسه فى فيض من قصصه ..

أما فى المجلس فقد كان أول الأمر بحيث لا يحسب أحد أنه سيكون يوماً من النابهين ، ولكنه ما لبث أن بدد هذا الزعم بخطاب احتفل له وجعل له كثيراً من الأهمية ، يتبين لنا ذلك فيما كتبه فى هذا الشأن إلى صديقه هرندن ؛ وكان الخطاب يدور حول الحرب القائمة في تكساس ، وجه فيه لوماً عنيفاً إلى رئيس الاتحاد أن خرج بهذه الحرب عن الدستور كما فرط بها فى جانب العدالة والخلق

قال لنكولن : « ليذكر الرئيس أنه يجلس حيث كان يجلس وشنجطون ، وليجب إذا ذكر كما كان يجيب وشنجطون ، وكما أنه لا يليق بأمة أن تهرب من الحق ، والله لا يسمح أن يُهرَب منه . كذلك ليتجنب الرئيس الهرب والمراوغة ؛ فإذا استطاع بعد ذلك أن يقيم الدليل على أن الأرض التى سالت عليها الدماء أول ما سالت هى أرضنا فإني موافقه فيما يسوق من مبررات . ولكنه إن عجز عن ذلك أو أحجم عنه فإنى حينئذ خليق أن آخذ على اليقين ما يقوم فى نفسى فعلاً مما هو أكثر من الظن ، فأرى أنه يشعر بخطئه ، وأنه يشعر أن الدم الذى سال فى تلك الحرب هو كدم قابيل يستصرخ السماء ضده »

أبى ! لن أنسى ما حييت رسالتك ، رسالة المحبة والسلام ، وسأظل ذاكرة إلى الأبد ما سطرته إلى يدك وأنت تعالج الموت : « عاشرى الناس بروح المحبة . كونى قدوة حسنة ، ارفعى الفوارق الموجودة بين الناس . . . إننا كلنا أوراق أغصان شجرة واحدة . . . »

أبى ! سأعيش كما عشت بهذه المبادئ ، وسأموت لها . وإذا كان الوفاء هو دين الميت على الحى ، فان دينى الذى لا أمطله جهاد كجهادك ، ودعوة إلى الحب كدعوتك ، وذكرى طيبة ترضيك ، وعمل فى سبيل الانسانية يرضى الله

أبى ! سلام عليك فى الذاهبين ، سلام على قبرك بين قبور المخلصين ، سلام على وحيدتك الجريحة ، سلام على بغداد التى أحببتها وسأحبها من أجلك !

بهيجة فرج الله زكى
مدرسة بمدارس العراق

ولكن تلك الحرب كانت فى نظر الناس أمراً مستساغاً لأنها ستضم إلى الولايات أرضاً جديدة ، كما أن جيوش الولايات كانت ظافرة فيها . من أجل ذلك لم ينل ابراهام بخطابه من الرئيس ، كما أنه لم يظفر بتأييد أو قبول من جانب زملائه . ولقد أحس هو بضعف موقفه ولهذا جمل الأمر فى المهاجمة أمر خلق لا أمر سياسة ؛ وأخذ يندد بضم تكساس على رغمها ويستنكر ذلك الفعل على الأخص أن كان صدوره من دولة تدعو إلى الحرية وتباهى العالم بأنها أرض الحرية

وكان مما جاء فى ذلك الخطاب قوله : « إن من حق أية أمة فى أية جهة إذا أحست فى نفسها الميل واستشعرت القوة أن تثور فى وجه الحكومة القائمة وتعصف بها ، ثم تقيم بعد ذلك من الحكومات ما يكون أكثر ملاءمة لها » . وإنا لنراه بذلك يجمل للثورات صفة شرعية ، كما أننا نفهم من هذا المبدأ مبدأ آخر جاء ضمنه ألا وهو مبدأ سلطة الأمة ووجودها فى أساس كل سلطة !

تلك هى خطبة لنكولن التى احتفل لها وافتتح بها عمله فى المؤتمر ؛ تراها وإن لم تصب بموضوعها موضع العطف من نفوس أعضاء المؤتمر ، قد رفعت ذلك المحامى فى أعين رجال السياسة ، وعلم من لم يكن يعلم منهم مقدار ما أوتيه ابن الأحراج من قوة البادهة ومتانة الحجة وفصاحة اللسان ، ومقدار ما رزق من قوة الجنان ويقظة الوجدان ، ورأوا فيه إلى جانب القصاص الذى لا يبارى ، الخطيب الذى يعرف كيف يسحر السامعين وإن كانوا عن آرائه معرضين . !

وكم للتاريخ من مواقف تدعو إلى العجب ! فهذا لنكولن اليوم فى المؤتمر يندد بالحرب ، وقد تعاظمه سفك الدماء وإزهاق الأنفس ؛ وهذا لنكولن يقرر حق الشعوب فى اختيار ما ترضى من الحكومات ... ولسوف يتخذ أهل الجنوب فى غد من أقواله حجة عليه ؛ يوم يهمون بالانسلاخ من الاتحاد وهو يأبى عليهم ما يبتغون ، ويعمد إلى الحرب فيصليهم ناراً حامية ويسفك الدماء ويزهق الأرواح حتى يكرههم على الاتحاد وهم صاغرون !

وتهيأت له الأسباب ليسير فى البلاد فيزداد بالناس اتصاله ويستزيد منهم أعواناً له ومحبين . فلقد انتهت وهو فى المؤتمر مدة الرئيس القائم وأخذت البلاد تنتخب رئيساً جديداً ؛ وكان حزب الهوجز الذي كان أبراهام من أفراده قد رشح للرياسة أحد زعمائه ويدعى تيلور . وهل نسى إبراهام تيلور وقد كان رئيسه فى الحرب ضد الصقر الأسود ؟ على أنه على الرغم من محبته لتيلور يأسف أن يراه ممن يتملكون العبيد على نمط أهل الجنوب ... ولكن لا ضير الآن فهو ممن لا يريدون أن تزداد ولايات العبيد ، كما أنه أقل من منافسه من الحزب الديمقراطي تشيعاً لمبدأ اعتناقه العبيد وأضعف منه استمساكا به ...

أخذ لنكولن يجوب البلاد شرقاً وغرباً ويخطب فى الناس مؤيداً رجل حزبه ؛ فكان إذا قام فى جماعة لم يروه من قبل جذب إليه الأنظار بطول قامته وغرابة ملامحه ، فإذا أطلق العنان لكلامه سرت فى الجموع منه روح عجيبة لا يدرون كنهها وإن أدركوا فعلها ... ورأوا عينيه تلتمعان حتى ما يعرف الناس أنهم رأوا مثلهما قبل ، وأبصروا فى ملامحه معانى أبلغ من كل كلام ، وأعمق أثراً من كل حجة ... والخطيب ينتقل بهم من مثل إلى مثل ومن حكاية إلى حكاية ؛ ثم يرسل الجملة بين حين وحين ، فإذا هم يضحكون ملء نفوسهم ؛ وهو فى حماسته يشمر ردنى حلته ويفعل مثل ذلك بقميصه . ولقد يحل رباط عنقه أو ينتزعه من موضعه كأنه مقبل على مبارزة ! ولا يكاد يفرغ من خطابه حتى يهرع الناس إليه متدافعين بالمناكب لكى يزدادوا نظراً إليه من كثب ... وظفر تيلور بالرياسة ، وعرف لإبراهام يده وحسن صنيعه ...

وكان مما صادفه فى تجواله هذا أن استمع فى بوستن إلى خطبة من أقوى الخطب التى وجهت ضد امتلاك العبيد ، وقد ألقاها رجل من كبار الداعين إلى التحرير ، هو سيوارد ذلك الذى سيكون له فى غد شأن فى هذا الأمر مع لنكولن حين يهم بتأدية رسالته . استمع لنكولن إلى الخطبة فى بوستن واستشعرتها نفسه ، وكان مما عقب به عليها قوله : « أعلن أنك محق . لقد آن أن نطرق معضلة العبيد وأن نلقى إليها من اهتمامنا بأكثر مما كنا نفعل من قبل »

وفى عودته إلى وشنجطون أخذ يعضد حركة أخرى كانت موجهة ضد العبيد على يد داعية آخر من دعاة التحرير ، هو

ولت الذى كان يدعو بكل قواه إلى منع انتشار العبيد فى الأراضى التى تستخلص من المكسيك ؛ وفى المؤتمر تقدم لنكولن يطلب القضاء على العبودية فى ولاية كولومبيا وفى عاصمة البلاد ، وكان فى مقترحه عادلا يجمع إلى العدالة الكياسة وبعد النظر ، ولكن ذلك المقترح وا أسفاه قد حيل بينه وبين أن يكتسب الصفة الشرعية إذ عمل رجال المؤتمر على تأجيله مخافة أن يثير من الجدل مالا يحبون ، حتى أوفى دور الانعقاد على الانتهاء فاعتذروا من عدم النظر فيه على الرغم مما بذله لنكولن من جهود وما أنفقه من حيلة ...

وانقضت أيام ذلك المؤتمر ، وهو المؤتمر الثلاثون فى تاريخ الولايات وعاد لنكولن وهو يخطو إلى الأربعين ليعيش من جديد فى سبرنجفيلد ...

عاد ابراهام الى سبرنجفيلد وهو يحس بينه وبين نفسه مرارة الهزيمة فى السياسة ، فلقد خذله رجال المؤتمر فى مقترحه كما رأينا وأعرضوا عن خطبته التى وجهها ضد الحرب فى تكساس ، تلك الخطبة التى لامه عليها الكثيرون من رجال حزبه حتى هرندن نفسه أحب أصحابه اليه

لذلك انصرف عن السياسة وعاد من جديد إلى المحاماة ؛ بيد أن رجال حزبه يزينون له أن يطلب منصباً رسميا ويشيرون إلى حقه فى ذلك وهو من جانبه لا يحجم فيطلب الى الرئيس أن يهيء له منصباً ثم يزيد فيطلب منصباً معينا لا يلبث أن ينافسه فى السعى إليه آخرون حتى يفلت من يده ، ويريد الرئيس أن يجامله فيعرض عليه منصباً غيره ؛ ولكن زوجه تقف بينه وبين هذا المنصب ، وتصر على موقفها معلنة أنها لن تقبل لزوجها عملا يعود بهما إلى الأدغال حيث كان مقر ذلك العمل واحدا من تلك الأصقاع الداخلية ؛ ويرفض إبراهام المنصب آخر الأمر . وهكذا نرى زوجه للمرة الثانية حريصة على أن توليه القبلة التى لا ترضى له غيرها قبلة ..

وكانت المحاماة وظيفته الطبيعية إذا فرغ من السياسة الى حين ؛ فما باله يريد أن يتنكب طريقه ويستبدل بعمله عملا آخر لا يتصل بطبعه ولا يستقيم مع خلقه ؟ ما باله يريد أن يحيد عن الغاية وقد قطع فى سيره اليها شوطاً ليس باليسير ؟ ترى ماذا كان يحدث لو أنه كان غير وجهته واتخذ له غاية غير غايته ؟ ولكن الدهر يضن به ويدخره لغد ويأبى أن يغير تاريخ قومه بطمس رسالته ...

عاد من السياسة الى المحاماة عودة ظن الناس معها أنه لن يقرب السياسة بعد ذلك ؛ وكان قد ترك العمل كله لصديقه هرندن ؛ وهو اليوم فى المحاماة أعظم خبرة من ذى قبل وأكثر معرفة بأحوال الناس وشئون حياتهم

وكان من أبرز صفاته سرعة أُلفته للمواقف الجديدة فى حياته ، وترك مواضيها حتى تبعثها الأسباب . لذلك أقبل على المحاماة إقبالا لا يظن امرؤ معه أن قد كانت له صلة بمهنة سواها ، وكأن العمل فى السياسة لم يكن إلا عارضاً مر وانقضى فليس اليه رجعة . هذا والسياسة مستكنة فى نفسه ومعضلة العبيد فى أعماق وجدانه تنتظر أول صيحة لتبرز من جديد وهى أعظم قوة وأشد وضوحا وأكثر اقتراباً من الغاية ...

وضاق إبراهام ذرعا بما تثيره زوجه من عوامل الشقاق فهى ما تفتأ تريه التبرم والسخط وتأخذه بألوان من العنف يوشك أن ينفد لها صبره ويطيش حلمه ، لولا أنه يعود بالسبب على مزاجها الحاد ؛ وإن كان ليسأل نفسه بين حين وحين أهى مغضبة عليه حانقة لما أصاب من فشل فى السياسة ، فما تزال تتعلق بأوهى الأسباب لمجادلته ومغاضبته وقد صغر فى عينها وهان لديها شأنه ؟ ... ولكنه يحس من زوجه أنها على شغفها بتمنيه تضمر له المحبة والاعجاب كعهده بها فيطمئن قلبه ويرد الأمر فى هذا الشقاق الى ما يعرف من طباعها

ولكن الشقاق متصلة حلقاته وان وهت دواعيه ؛ والمدينة أضيق فى عينه اليوم منها قبل ، وهو ابن الاحراج والغابات والبقاع المترامية ؛ وهو الذى لم يألف الاستقرار فى موطن . لذلك عول على أن يعمل فى المحاكم المتجولة فيقضى أشهراً بعيدا عن المدينة وعن بيته ، يتبع المحكمة أينما سارت ، إذ كانت المحاكم يومئذ فى تلك الأصقاع هى التى تذهب إلى الناس !

وبرزت فى المحاماة مواهبه من جديد وظهرت خلاله ، وأخذ ينشر مبادئه بالعمل لا بالقول . جعل الحق رائده والصدق شعاره كما جعل مرد كل شىء عنده إلى معانى الانسانية والفضيلة لا إلى أصول القانون وملابساته . وليس معنى ذلك أنه أهمل جانب القانون

كلا إنما كان يهمل جانب القانون إذا أدت ملابساته إلى التعمية وإظهار الباطل فى زائف من ثياب الحق ؛ ولذلك جعل الفضيلة فوق القانون ، والصدق فوق المهارة فى الحوار واللباقة فى المجادلة . وكان يحث أصدقاءه من المحامين ومحبيه من الناشئين على ألا يفرطوا فى جنب الفضيلة قائلا فى صراحة وفى بساطة : ان هناك رأيا شائعاً فى الناس مؤداه أن المحامي رجل يتهاون عادة فى حق الأمانة ؛ ولذلك فلا بد من أن يتمسك المحامي بالأمانة فيما صغر أو كبر من الأمور لكى يدرأ تلك التهمة الشنعاء عنه وعن طائفته . ومن عباراته الشهيرة فى ذلك قوله : « يجب أن تبث فى المهنة روح الفضيلة لكى تطرد تلك الروح الأدنين » وقوله ينصح أحد الناشئين : « إعمل على أن تكون محامياً أميناً . فاذا لم تستطع أن تكون أميناً وأنت محام فخير لك أن تكون أميناً وألا تكون محامياً »

أما عن مسلكه فى معاملة الناس فظل هو هو الرجل المتواضع القنوع . كان يرضى بالقليل من الأجر إذ كان يعتبر طلب الأجر الباهظ من أكبر آثام المهنة . ويذكر أنه دافع مرة عن حق رجل فى مبلغ ستمائة دولار ولم يتقاضه أجراً على ذلك سوى ثلاثة ونصف ! ويذكر أيضاً أنه لم يتفق على الأجر مرة . فلما ربح القضية أرسل إليه موكلوه خمسة وعشرين دولاراً ، فرد إليهم عشرة منها قائلاً : إن ما بقى هو ما يستحقه !

وكان أيما حل يأسر القلوب بسجاياه ، فهو لا يتكلف ما ليس له . ولذلك كان يخالط الناس كأنه أحدهم ، يضاحكهم ويلاطفهم ويسرى عنهم بأقاصيصه ، والناس يفطنون إلى عذوبة روحه وطيب قلبه ويقظة وجدانه ، فيفرحون أن عرفوه ويحرصون أشد الحرص على مودته . ولا فرق عنده بين غنيهم وفقيرهم أو بين كبيرهم وصغيرهم ، حتى الصبية كان يغمرهم بعطفه فيذهب أحياناً إلى جماعاتهم يتفرج على ألعابهم لحظة ، ثم إذا هو بينهم طفل كبير . ولا عجب فقد كان قلبه الكبير مليئاً بمعانى الانسانية فى نسقها الأعلى . وتلك لعمرى هي العظمة الحق التى تعمر قلوب بعض البشر فتسمو بهم عن بشريتهم وهم بين الناس يعيشون كما يعيشون

وكان فى المحكمة كما كان فى خارجها الرجل المتواضع العف يدخل وجيوبه منتفخة بأوراقه ، وقبعته ثقيلة بما حوت ، لا يعرف أبهة المظهر وقد سلم له الجوهر ، ولا يدرى ما التطاول والتعاظم وقد عظم حتى صارت العظمة هي كما يفعل !

كان الصدق فى الدفاع أول وسائله فى الاقناع . وقد يتبين له أثناء دفاعه أن الحق قد ألبس عليه بالباطل فيترك القضية لأنه لا يستطيع أن يلائم بينها وبين طبعه ، أو أن يرفعها إلى مستوى حماسته وصدق شعوره . على أنه ما كان ليفعل ذلك لو أنه استطاع . وكان المنطق السليم والانصاف بعد ذلك أدواته ووسائله ؛ يضاف إليهما الدراسة الدقيقة لما ينهض له ، والاحاطة بجميع تفاصيله . هذا إلى ما امتاز به من صفاء الذهن صفاء يساعده على تبين الطريق إلي غايته في يسر ووضوح ، حتى ما يلتوى عليه أمر أو يعزب عن ذهنه حادث

وعرف عنه فيما عرف الأناة حتى لقد كانت تغضب منه زوجه وترميه بالبلادة . وكثيراً ما تبرم صديقه هرندن وتملل لأناته . فانظر ألى إبراهام يسأله أن يأتيه بمبراة وسكين فاذا أحضرهما قال له : إن سلاح تلك المبراة أقصر وأحدوا ملك تظنها بذلك أنفع من السكين إذ هى أسرع ، ولكن أيتهما أبعد من الأخرى غوراً إذا نفذتا فى جسم ؟ ويقتنع صاحبه بعدها أن التأنى فى الأمور أبعد فى سبر الأمور غوراً ، ولا يشتكى بعد من أناته ويطيق معه صبراً !

وكان مما يهابه منه المحامون تهكمه ، فهو يعمد فى دفاعه أحياناً إلى التهكم اللاذع فيزلزل به قدمى خصمه حتى ليذهل عن رشده بين ما ينبعث من جوانب القاعة من الضحكات ...

وكان إذا جاءه أحد الناس يطلب إليه المدافعة عنه استفهمه حتى يستقصى خبره ، وهو على طيبة قلبه يقرأ فى وجه محدثه أمارات الكذب إذا هم أن يكذب ، فما يزال به حتى يرده إلى الصدق فى مهارة دون أن يسيئه فى شعوره ! فهو وإن لم يك من الماكرين لا يقدر أحد أن يمكر به . فاذا جاء دور الأجر طلب إلى موكله أن يدفع مايستطيع . فان كان موكله مملقاً فكثيراً ما كان يكتفى من الأجر بالثواب وبالجميل يغرسه فى قلبه . ذلك ما حدث حين قام يدافع عن ابن متحديه القديم أرمسترنج وقد اتهم فى جناية فانه لم يتقاضه على تبرئته أجراً إلا المودة

« يتبع »

الخفيف

تطور الحركة الأدبية
في فرنسا الحديثة(١)

فردیناند برونتيير F. BRUNETIÈRE

١٨٩٤ — ١٩٠٦

للأستاذ خليل هنداوى

— ٢ —

نقده التطورى

كان (برونتيير) فى نقده معارضاً أشد المعارضة للنقد المنفعل وزعيمه (جول ليمتر). والنقد الشكي وصاحبه (أناطول فرانس)، كان يؤمن بأن فى خارج عوالمنا حقيقة معهودة وأن ليس حقاً أن تكون الآراء مختلفة وأنواع المذاهب عميقة التباين إلى غير حد. إذ فى الإمكان أن تعرف — وبمقياس خاص — أن محلل فنحدد تاريخ أثر ما، وأن نفسر أخلاق كاتبه، وندرس تاريخ بيئته كما صنع سانت بوف وأن نعمل خيراً مما عملوا. يمكننا هذا ويجب أن نناقشه. أما النقاد المنفعلون فيميلون على ألا يبدوا إلا انفعالاتهم دون أن يجزموا بها. على أن هنالك قواعد كثيرة مرهقة دقيقة تخص الأدب والفن، تجبرنا على أن نناقش الآثار الأدبية ونعمل على تصنيفها وبحسب هذه القواعد شن (برونتيير) الغارة على الواقعية والرمزية، وهنالك شيء غير هـذا يتعلق بالقواعد الفنية

فنظرية الفن من أجل الفن نظرية خطرة يجب ألا تقفنا مجردين إزاء الخير والشر فى الأخلاق، إن أرادوا أو لم يريدوا، فإن أثراً ما قد يثير تأثيراً حسناً أوسيئاً. ومن واجبهم أن يقضوا عليـه مهما كانت بواعث المؤلف إذا كان تأثيره تأثيراً خطراً. والناقد فى نظريته هذه يوافق تلميذ بول بورجيه.

وقد أراد — برونتيير — أن يعطى نقده صفه علمية، وقد زعم أنه اكتشف قانوناً يحيط بالأنواع الأدبية ويصنفها، يقول: إن الأنواع الأدبية مهما كانت البواعث عليها من ضرورة أوحاجة أوبيئة، فهى مثل الأنواع الحية للأحياء التى درسها « داروين ». « كل شيء يتطور. لا شيء يبقى ساكناً. كذلك الأنواع الأدبية تتطور، تمشى حيناً إلى صلاح وحيناً إلى فساد، وقد درس الشعر العاطفى والقصصى وبنى نقده على مذهبه التطورى.

وإذا لم يبق لبرونتيير شيء من هـذا المنطق العلمى فإن تطوراته جاءت تحتوى تنظيماً للتغيرات الأدبية، تصنف الآثار الأدبية كما يصنف علم الطبيعة أنواع الأحياء. وكان لنقده تأثير كبير فى الأندية الأدبية. ولم يكن هذا النقد يعتمد على الأحوال العلمية فحسب، بل كان يرجع إلى التاريخ وإلى معرفة واسـعة للآثار والنصوص. وذلك ما كان مجهولاً قبله، ولقد كان قبل كونه نقاداً محارباً نقاداً قاسياً ذكياً. فهو وحده أعلى شأن الكتاب المهملين وشأن كل الحركات الفكرية المهجورة لأنها لم تأت فى أثر مذكور، أو قول مأثور. وكان ذا موهبة خطابية يعلمها من كان يشهد محاضراته، وتشهد عليهـا تلك الأفواج الكثيرة التى كانت تسحرها لهجته وبفتنها بيانه

أدب الحياة

إن المدرسة الرمزية كالمدرسة البرناسية تعمل على الانطلاق من حياة الجماعات، لا يؤلف أصحابها إلا لأنفسهم خاصة. فهم ينظمون شعراً لفئة خاصة، وإذا هم ترنموا بالحياة لم يترنموا بالحياة العامة التى يظهر فيها القطيع الإنسانى قطيعاً بائساً يمشى على إيقاع القوات الحاكمة. والعودة إلى الأدب الإجتماعى ومحو التشاؤم (البرناسى) قد ولدا مدارس وآثاراً تريد أن تترنم بالحياة وتملأها شدواً وحناناً وجمالاً. وقد أسس (بوهيلي ومونتفور وموريس) مذهباً بعيد للإنسانية جمالها البطولى، وينظم الروابط التى تصلها بالوجود، وينير شعاعها القوى في الطبيعة. وهـذا الشاعر (فرناند جيك) يذود عن الإنسانية التى تحتل مكانها فى الوجود بواسطة الإنسان. وبعد هذا فإن الوحدة التى أعلنها (جول رومان) والتى تسعى إلى التعبير بصورة رمزية لا عن نفس ولا عن أنفس، ولـكن عن النفس الإنسانيـة عامة التى تبدو حيناً متحدة وحيناً منقسمة. هى النفس الحقيقية العميقة من

(١) عن الأستاذ « دانيال مورنى »

النفوس البشرية ؛ ومن أظهر آثاره فى هـذه المعنى (الجيش فى المدنية)

ومثال ذلك من الشعراء مقاطيع (أميل فار هارم) الشاعر البلجيكى . ولد فى (سانت راماند) بالقرب من (أنفرس) سنة ١٨٥٥ . وقد درس الحقوق فى أول عهده ثم وقف حياته كلها على الشعر ، ودرس خلال ذلك أسرار النفوس الخفية . ومات سنة ١٩١٦

عاش « فارهارم » وتثقف في بلد هادئ ، وفى قلب أسرة متدينة غنية بالعافية مطمئنة القلب . ونشأ هو درّيساً مرحاً وإنساناً يجنح إلى الطرب . وبعد أن قل ميله إلى المدرسة الكلاسيكية ونزوعه إلى لامرتين وهوجوأخذ ينظم شعراً واقعياً حساساً . ولكنه استنفد قواه ، أوأن قواه كانت أضعف مما كان يظن ، فأصابه بلاء فى صحته ، حتى أصبحت أعصابه المتوترة لا تستطيع أن تحتمل أية ضجة ، لا وقع لحن ولا وطء قدم . وهذا بلاء تولد عن بلاء نفسى . فلقـد كانت طفولته مشحونة بالأساطير ، طافحة بالتقوى والاعترافات والصلوات ! ولكنه شك فجأة وجرب باطلاً بأن يستعيد إيمانه ، فكان أن فرّ الإيمان وأقبل الألم

فأخذ يجد فى السياحة فى أطراف البلاد طالباً التعزية لنفسه فكتب ونظم ... وفى هذه الفترة أصاب وطنه أزمات اجتماعية عنيفة حتى أقوت القرى من سكانها ، وعفت المدن بمن استهوتهم بألوانها . ولكن (فارهارم) عاوده الشفاء رويداً رويداً ، فعاد يجد الحب والإيمان . أما الحب فلم يتكلم عنه إلا بمقاطيع محجبة ولكنه يبدى إيمانه به . فالمدن قد فتحت أذرعها إلى القرى لتخليها من أهلها ولكنها — برغم عيوبها وشرورها — قد أوجدت العزم والقوة . وإنها لقوة مشوشة ، ولكنها جيلة مخصبة لأن البرية المنجذبة أخذت تموت . فلنترنم الآن بالقوة التى تحيي الموات . هذه هى ألحان الحياة الحاضرة ...

ولكن شفاءه لم يجعل منه إنساناً صافى الشعور . فقد ظل على ارتعاشه وهيامه الباطل . وقد علمنا أن له — منذ طفولته — إحساساً عصبياً عنيفاً ، وبعض الذكريات من هذه الطفولة قد ولدت فيه أنواعاً من حب الأسرار ناهيك بطغيان المخيلة عليه . وقد جرى خلف مدارس أدبية حديثة ، فاستمد من شوبنهاور ومن بودلير ومن فرلين ومن مالارمى . فكان هو ومعه فئة من بنى قومه أسسوا الفن الحديث في بلجيكا الحديثة ، وكانوا ينشرونه فى المجلات الرمزية . وهذه الرمزية كان مزاج شاعرنا يميل إليها

هنالك صور مفاجئة تتولد من نفسه فى ظلمة نفسه بصيحة من نفسه ، أو حلم أو حالة مجهولة ، ومنها تتولد صور أخرى تحف بها فتكون قصيدة رمزية ، لأنها ليست مظهراً عددياً للتأمل . ولكنها نوع من هذا الهيام الباطنى حيث كل خيال يعكس حالة من حالات النفس ، وكل نغمة تمثل فكرة موزونة

وهكذا قدر لشاعرنا أن يعبر فى ديوانيه « القرى الباطلة » و « البرارى الهائمة » عما لا يقدر عليه شاعر آخر من ممان تفر من الوضوح ومن التعبير الواضح . فكان بهذا شاعر المطر والريح والسكون وكآبة الهجر والعزلة . وكان بهـذا شاعر الكآبة المنجذبة الشاردة للأشياء . ولكن سرعان ما شفى من هذه الحالة النفسية فلم يعـد يميل إلا إلى الطرب والنور . وبدلا من تلك المطاحن السوداء والمآسى وحفارى القبور وكل ما يمت على الأسى أخذ ينظر إلى السنابل المتحركة والمطاحن الفرحة ويسمع الصراصير ويفهم كل أشكال النور والخصب وفرح الحياة . ألم يكن يجد فى كل حالة شقاء له وكمداً دون أن يقدر على الفرار من هـذا الكمد ! كان يحيا في عالم صاخب ، ومذ عاد إليه إيمانه الاجتماعى وتفاؤله نشأ عنده ميل إلى كل ما يرن ويدوى ، وإلى كل ما لا يسقط كالسهم فى النور . وإنما ينساح كالجدول المنساب فى الغابة . فتش فوجد الشعر العاطفى هو الذى يقدر أن يعبر عن هذا الشعر للحياة الهامسة المضطربة ، هذا الشعر الخطابى حيث تدور الفصاحة فيه وتسيطر عليه . وأطياف من الصور القاسية التى تنتهى بالذوبان فى شبه وحدة متحركة فى الايقاع الناعم القاسى لحياة لا تجرى على نظام متبوع !

« يتبع » خليل هنداوى



رسالة الشعر



البـــاحث

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

المقدمة

قد صور كثير من المفكرين والشعراء حياة الانسان عصراً بعد عصر كأنها حياة إنسان واحد أو كأنها بحث متصل دهراً بعد دهر ، وهذا البحث هو ما يزكون به حياة الانسان وما يعذرون به شقاءها وآلامها ويأملون آمالاً كباراً من وراء تقلب الانسانية فى بحث الحياة . ومن هذه الآمال رجاؤهم أن يعم الشعور بوحدة الانسانية على اختلاف الأجناس والشعوب والمطامع والضرورات والمطالب والنزعات النفسية ، ويأملون إذا عم هذا الشعور بوحدة الانسانية أن يقلل الاحساس العام بوحدتها من البغضاء والشرور والحروب والآلام والجشع ، وأن يؤدى إلى التعاون على الحياة بدل التقاتل عليها . وهذا البحث الانسانى المستفيض دهراً بعد دهر للحياة وما يدعو إليه من الاحساس بكل شعور وكل حالة من الحالات كى يعم مبدأ وحدة الانسانية هو الذى دعا إلى تخيل إنسان يعيش دهراً بعد دهر فى كل حال وفى كل مكان حتى يملأ العطف قلبه ويرى أن نشدان الحق غاية الحياة ، وعلى فرض أن هذا الأمل الكبير فى أن يعم الاحساس بوحدة الانسانية حتى تنمحى شرور الجشع في التقاتل عليها لن يتحقق فان بقاءه كمثل أعلى مما يخالط مرارة الحياة بحلاوة منه

وعلى فرض أن المثل الأعلى لا يكون فى تحقيق وحدة الانسانية ؛ فى القصيدة مثل آخر وهو أن نشدان الحق هو الشعلة المقدسة التي ينبغي أن يرعاها الفرد ، وأن ترعاها الانسانية عامة

القصيدة

بينما كنتُ سائراً لاح شيخ　　ذو سكون ونظرة هوجاء[1]
ويكاد الضـــياء ينفذ منه　　فهو بين الأنام صنوُ الهواء[2]
باحث فى السماء يطلب شيئاً　　غاب عن عين غيره فى السماء

(١) هوجاء ، لأنها لا تستقر لتطلعه إلى ما ينشده من الحق في كل ناحية
(٢) صنو : قريب

وهو فينا جزء من الزمن الأ　　ول ذكرى لسالف الآباء
وجهه رائع كوجه أبى الهو　　ل رأى ما مضى على الغبراء
قلت ياشيخ ما دهاك وما شأ　　نك بين الأموات والأحياء
قال من يدرس الحياة طويلاً　　لَخَلِيقٌ بضَحْكَةِ الجهلاء
كنت والكون فى الطفولة أغدو　　وشـــباب الأيام فى الغُلواء
وصرعت المنون حتى لأنسا　　نِيَ طولُ الحياةِ حُكْمَ الفناء
دُوَلٌ قد أتت وأخرى تَقَضَّتْ　　وبقائي بين الأنام بقائى
وشهدتُ الصروف من قبل عادٍ　　والمنـــايا تَجُرُّ ذيل العَفاء
أَنْشُدُ الحقَّ لستُ أَلْوِى إلى البا　　طل فالحق يُطَّبى بالرجاء[1]
عشت دهري بالبحث والأمل الحا　　و ولولاه لم أفُزْ بالنجـــاء
من سهام المنون إنَّ سهام الـــموت فينا كثيرة الإصماء[2]
هِمْتُ يوماً من قريتى أنشد الحـــق . لعلى أراه فى الدهماء
عِفْتُ بيتى و بلدتى وهجرت الا　　أهل أبغى رىَّ النفوس الظِماء
ظمأ النفس مثـــله ظمأ الجســـم　　وداء النفوس كالأدواء
زعم الناس بى الجنونَ وخالوا　　طالب الحق أخرق الأحياء
كلما لاح شامخ قلت إن الـــحق يغدو مِنْ خَلْفِهِ بإزائى
ورَعَيْتُ الظلماء عَلِّى أراه　　خارجاً من سرائر الظلماء[3]

(١) يطبي : يستمال　　(٢) الاصماء : إصابة المقتل ضد الاشواء
(٣) على : أى لعلي

وجزعت الصحراء أرجو لقاء
منه يُرجَى فى وحدة الصحراء(١)
ولكم غُصْتُ فى العُبَابِ عليه إنما الدر منه فى الأحشاء
وأثَرْتُ الأصداء أبغى جوابا لسؤالى فى منطق الأصداء
وسألت الرياح عنه فَصَمَّتْ عن دعائى فلا تُجيبُ دعائى
وسألت السماء تبرز وجهاً
منه يَبْهَى فى الأفق جَمَّ الضياء(٢)
وأعارَتْنِيَ الطيورُ جناحا أرتجي منه لقية فى الفضاء
طالما خاب ناشد الحق لكـن رجائى كما عهدتُ رجائى
قد يجئ الصباح منه بوجه طالما كان مُضْمَراً فى الخفاء
أو تُبِينُ الأحلام منه ضياء فى سماء الأحلام مثل ذُكاء(٣)
قد صحبت الانام طرًّا كأنى بينهم في تلَوُّنِ الحرباء
كان لى نوح فى السفينة خدْناً فنجونا من مُهْلِكِ الأنْوَاءِ
وحبانى أشور فى نَيْنَوَى العُظْـمَى بِسَيْبٍ من جوده وثناء(٤)
ورآنى فرعون أقْدَمُ فى الجيش مُشِيحاً ورافعاً للواء(٥)
وتَجَلَّى آمون فى معبد الأقصر يقضى فى شعبه بالقضاء
ولكم جُلْتُ فى أثينا وأفلا طون يتلو فصاحة الحكماء
ورأيت الرومان فى رومة العُظْـمَي عظامَ الأعمال والأهواء
وصحبت المسيح فى القُدْسِ دهراً وحبانى من روحه بالصفاء
وعبدت النيران قِدْماً ولكن قد سما بى الإيمان للسمحاء(٦)
وحمدت النعيم والترفَ الوا فر قِدْماً فى صحبة الخلفاء
وحَسَوْتُ النعيم والبؤس حتي لم أدَعْ كأس لذة أو شقاء
وصحبت العبيد فى ظُلُمَاتِ العيش حتى جُنِنْتُ بالضَّرَّاء
وألِمْتُ الآلام طرًّا وَلَقِيتُ عذاباً أُتيح للتعساء
وصحبت الوحوش فى البيد حتى أَنِسَتْ بى الوحوش فى البيداء
وأرقت الدماء فى الحرب حتى جُنَّ قلبى من نشوة الهيجاء
لم أدع خَطْرَةً أُتِيحَتْ ولامعنى ولا فكرة من الأراء
أو شعورا أو هاجسا أو طموحا لا ولا مَشْهَدًا تركتُ لرائى
أنشد الحق بالتقلب فى العيش وأبغى سريرة الأشياء
أنت أيضاً شهدت هذا جميعا غير أنْ لا تُعَدَّ في الفطناء
قال ماقال ثم غاب عن العيـن كما يخفت الصَّدَى فى الهواء(١)

عبد الرحمن شكرى

(١) جزعت : قطعت (٢) يبهى : يحسن
(٣) ذكاء هى الشمس
(٤) نينوى : مقر ملك الآشوريين ، والسيب العطاء
(٥) مشيحاً : المشيح المانع لما وراءه من إقدامه وإقباله
(٦) يراد بالسمحاء الديانة الاسلامية

(١) خفوت الصوت تضاؤل جرسه ، وفى البيت تشبيه انمحاء الصورة أو الخيال من العين بانمحاء الصوت من الأذن

في سكون الليل

للأستاذ ابراهيم العريض

غفا الكونُ .. إلا مايكونُ من الصبا
إذا حرَّكت مهدَ الزهورِ النواعس
تخالينها — يا ميُّ — طُهراً مجسَّما على كل غصنٍ فى الخميلة مائس
ويحبسُ من أنفاسها الليلُ ريثما يخالطها بردُ الندى المتقارس
فتُرسِلَ طيباً حولها فى دوائرٍ تدورُ إلى أن يغمرَ الطيبُ هاجسى
وقد سكنت حتى المياهُ كأنها هنالك تُصغى فى الظلام لهامس
يصقِّلها مرُّ النسيم فتنجلى بها صورُ الأشياء شبهَ رواكس
وينظرُ فى مرآتها النجمُ حائراً فليس يرى إلا شرارةَ قابس
أزعمُ أن اللهَ أبدعَ هذه لنقضِى ريحانَ الصبا فى المجالس
ولا طيرَ إلا وهوَ طاوٍ جناحَه على الرأسِ حتى المنكبين كبائس
تخالينَه من هيئة الشكل ناعساً ولكنهُ — يا ميُّ — ليسَ بناعس
فإن لذكرى كل لحنٍ شدا به سحابةَ يومٍ هزَّةً فى المغالس
تؤرِّقُه تلك الهواجسُ موهناً فيشفِقُ من جرَّاء تلك الهواجس
وكم دوحةٍ فى الروض حالَ سوادُها بأنوار بدرٍ شعَّ بين المغارس
فألبسَها من نسجِه بعد عُريها وشاحاً لجينيَّ السنا كالعرائس
وتحتَ شُعاع البدرِ أسفرتِ المنى وعاينتُها تحنو حُنوَّ الأوانس
تعالى هُنا نخلُدْ من العُمْرِ ساعةً يداً بيدٍ فى نجوةٍ وتهامس

ابراهيم العريض



شارلس لام بروى عن شاكسبير

٣ـ قصة الشتاء

بقلم الأستاذ دريني خشبة

تتمة

والتفت الملك إلى فلورزبل يقول : « مرحباً بك يا ابن أعز الأحباب وأوفى الأصدقاء ! لقد فقدت محبة أبيك الذى أهفو إليه وأحن له ، وبنفسى ما ألقى من الشوق للقائه ! ولكن ... بحسبي أن أنظر اليك فكأنما أنظر إليه ... وبحسبى أن أنظر إلى الأميرة الجميلة ، فكأنما أنظر إلى هرميون !

— ومن هرميون يا مولاى ؟

— هرميون ! وبلاه علىّ ! إنها زوجتى المغفور لها يا بنى ! لقد ماتت منذ ست عشرة سنة ... وفقدت كل شىء بموتها ! حتى ابنتي الوحيدة التى لا أعلم أين تعيش اليوم إن كانت ما تزال حية ! آه يا هرميون ! لشد ما تشبهك هذه الأميرة الصغيرة ! ولشد ما تنطبق صورتها على صورتك فى ذهنى المعذب بذكراك ! آه يا بُنيتى ! أين أنت اليوم لأفتديك بملكى ونفسى ! »

ثم انحدرت عبرات من عينى الملك ، فازدحمت الآلام فى قلب الراعى ، وتأكد أن ابنة الملك هى برديتا الحبيبة التى وجدها فى الغابة ؛ ثم جعل يستعرض براهينه ، فذكر الجواهر التى كانت الواحدة منها تشرى له قطيعاً بأكله ، وأيقن أنها لا تكون إلا مما يقتنى الملوك ... ثم ذكر ما هو مكتوب فى الورقة فلم يزده إلا ثقة فى حقيقة ما حدس ...

وتقدم الراعى إلى الملك واستأذنه فى الحديث فأذن له ، فأخذ يسرد قصة برديتا كيف تركها رجل فى ظل دوحة على الشاطئ البوهيمى ، وكيف قتل الدب هذا الرجل واغتذى به ، ثم كيف سمع الطفلة تبكى وتئن من البرد والجوع ، وما كان من ذهابه بها إلى زوجته ، وما وجده فى ثيابها من الجواهر واللآلئ وغالى الحلى ، وما وجده مكتوباً فى ورقة مثبتة فى صدرها بدبوس

ولم يكد الراعى يبرز الورقة وما تبقى معه من الجواهر ، ولم يكد الملك ينظر إلى الجواهر فى يديه ، حتى أهرع إلى برديتا وهو يصيح : « ابنتى ! ابنتى ! ابنتى ! تعالى يا برديتا ! تعالى إلى صدر أبيك الشقى ! » ثم ضمها إلى صدره ، وراح ينشج نشيجاً مؤلماً ويذرى عبراته الحرار على صدر الفتاة المشدوهة ، التى تركت نفسها حائرة مستريبة فى حضن الملك ، وهى لا تفهم من هذا المشهد المؤثر شيئاً مطلقاً ...

إذن قد عرف الملك جواهره التى أهداها بيديه إلى هرميون ليلة زفافها ! فهذه آية لا يسمو إليها الشك ...

وكانت بولينا — زوجة أنتيجونوس حاضرة — وهى التى حملت برديتا من السجن لتلقى بها بين يدى الملك — فلما أخذت الورقة من يد الراعى لم تشك فى أنها هى نفس الورقة التى كتبها زوجها[1] وثبتها بيده فى ثوب الطفلة ... فكانت هذه آية أخرى . وبالرغم مما علمت بولينا من أمر زوجها ، وما صنع به الدب ، فانها فرحت بعودة برديتا فرحاً أنساها أشجانها

وآية ثالثة ... فقد ذكر الملك الشطر الأخير من نبوءة دلفى « سيعيش الملك بلا وارث إن لم تعد إليه طفلته المفقودة ! » فأيقن أنها هى ، وأن أبوللو لم يكذب !

وفى هذه الثورة الهائلة من الوجد الجارف ، والذكريات المؤلمة ، تقدمت بولينا إلى الملك ببشرى رائعة !

ذلك أنها كانت قد حرست على تخليد ذكرى هرميون ، فكلفت المثال الصناع الشهير جوليو رومانو بنحت تمثال للملكة المغفور لها ، فجاء التمثال طبقاً لهرميون الخالدة ، ثم توسلت إلى الملك أن يتفضل فيذهب إلى منزلها ، ليرى أن تمثال هرميون هو صورة حقيقية لبرديتا !

(١) ذكرنا أن هرميون هى التى كتبت هذه الورقة ولكنا عدنا إلى قصة شاكسبير نفسها فعلمنا أن أنتيجونس هو الذى كتبها

وذهب الجميع الى بيت پولينا ... وأزاحت پولينا الستار فبدا التمثال الرائع ... ووقف الملك مسبوهاً أمامه يتأمله ...

وذكر الملك أن هرميون تبدو فى التمثال أكبر من سنها الحقيقية ، فلفتته پولينا إلى أن المثال قد أضاف الى عمر هرميون هذه الست عشرة سنة !

ولاحظت پولينا ما انتاب الملك من الحزن ، فاستأذنته فى إسدال الستار على التمثال ... وهنا — يدور هذا الحديث الباكى :

— لا ... لا تسدلى الستار يا پولينا ! ليتنى مت قبل هذا !! أنظريا كاميللو ؟! ألا ترى إليه كأنه يتنفس يا صديق ؟! ألا ترى إلى عينيها كأنما تتحركان وترنوان ؟! ... لا تسدلى الستار يا پولينا ! إنى أحس كأن عشرين سنة تتكلم من فم هذا التمثال ! أوه — هاهى ذى الحياة تدب فيه ! فياللناحت الذى يضع الأنفاس فى الصخر ؟! ليهزأ بى من يهزأ ، فلا بد أن أقبل الشفتين الحمراوين !

— مولاى ... حاشاك يا مولاى ... إن الزيت ما يزال غضًا وقد تعلق الحمرة بفمك ! فلأسدل الستار ، فهذا خير !

— لا ... ليست هذه السنون العشرون ! ! »

وبينما كان الملك يتكلم ، كانت پرديتا الحزينة ساجدة أمام التمثال تبكي وتصلى ، وتتمتم باسم أمها الميتة

وتوسلت پولينا إلى الملك مرة ثالثة فى أن تنزل الستار على التمثال رحمة به ... « وإلا ، فأذن لى يا مولاى أن آمر التمثال فيتحرك ويتكلم ، فإنى قد عُلّمتُ من السحر ما أصنع به هذا ! »

وعجب الملك ، ثم أذن لها ... « لأنى مستعد أن أرى بعينى وأن أسمع بأذنى ! »

وهتفت پولينا بأسماء كثيرة ، فسمع الواقفون موسيقى عذبة تنسكب فى آذانهم وتدب منها فى أرواحهم ، ثم أشارت إلى التمثال فنزل من فوق قاعدته المرمرية ، وخطر نحو الملك ، ثم ألقى ذراعيه على عنقه وقبله ... وضمه فى حنان وعطف ، وتركه وتوجه نحو پرديتا فاحتضنها كذلك ، وطبع ألف قبلة على خديها وفمها وجبينها ، ثم جمل يتكلم فيقول : آه يا ابنتى ! الحمد للآلهة فقد عدت أخيراً إلىّ ! ... »

مرحى پولينا مرحى !!!

لم يكن هذا تمثالا كما زعمت پولينا ، بل كانت هرميون نفسها !

إى والله ! كانت هرميون لأنها لم تمت ، كما زعمت پولينا للملك ، لكى تنقذ الملكة من سجنها السحيق ، ومن مأساتها الدامية

وعاشت هرميون مع پولينا طوال هذه السنين مفضلةً ألا تعود إلى الملك الذي تأكد من براءتها ، لأنها لم تشأ أن تنفر له ما صنع بابنتها ... فلما أُعلن عن عودة پرديتا ، دبرت پولينا هذا اللقاء العجيب !

***

وفزع پوليكسينز لما علم من هرب ولى عهده . وتأكد أن كاميللو أبق به إلى صقلية ، فاقتص آثارهما — فيا لمحاسن الصدف ؟!

لقد وصل پوليكسينز فى هذه اللحظة السعيدة التى التق فيها الأحباب ، واطمأنت عندها القلوب !

وعرف أن پرديتا لم تكن راعية شاء ولا رفيقة بُهْم ... وأنها ابنة صديقه الأعز ملك صقلية ، فلم يكن أحب إلى نفسه من أن تكون زوجة ولى عهده .

دريني خشبة



معرض الفن بكلية الحقوق

أقامت لجنة الفنون الجميلة بكلية الحقوق معرضها الأول السنوى الشامل لمجهودات طلابها وأساتذتها في التصوير والرسم؛ وقد وفقت هذه اللجنة الفنية المباركة التي يرأسها الدكتور على أبو هيف أجمل توفيق فى بلوغ الغاية التى تنشدها، واستطاعت أن تقدم من الفن الجميل آيات إذا كان هـذا يومها فأكرم بغدها

وإن المجموعة الأولى التى قدمها الدكتور أبو هيف ليتجلى فيهـا روح الفنان الموهوب فلقد وفق فى إبراز المعاني الخفية فى جلاء ووضوح، ولعل الناحية التى يبدو فيهـا فنه هى الناحية الغريزية فى النفس، فإن الناظر ليرى فى عينى صاحبة «نشوة الألم» كل المعانى التى تجول فى خاطرها فهي تكاد تثب وثوباً من مقلتيها، أما صورة «الندم» فقد كان أولى بها أن تسمى «بالذكرى» أو «الحنين» إذ يتبين الناظر فى ضم ذراعى صاحبتها معانى اللهفة الحائرة، أو كأنها تخشى أن تنسرب من نفسها نشوة لحظة فهى تضم ذراعيها فى قوة وتشبكهما على صدرها. وتتجلى مقدرة الأستاذ الفنان في تصوير الناحية الجنسية Sex فى صورته الفحمية الرائعة «نداء الذكريات» ففيها استلهام لماض معسول، وانتشاء بذكرى عابرة عاطرة، كما استطاع فى هـذه الصورة نفسها أن يبرز بدائع التكوين الجسدى وروائع الفتنة. وهناك ناحية أخرى لازم التوفيق فيها الدكتور أبا هيف، تلك هى نقوشه الرائعة لصور الطبيعة، فلقد جلى خبايا الحسن والروعة فيها فى دقة بالغة فى «فجر الربيع» وفى «سكون الصباح وسحر الغروب» وكلها تنطق بأنه فنان ملهم عرف فى هـذه الصور وغيرها كيف يوفق بين الألوان وا-تناق الظلال والأضواء كما يبدو ذلك فى «هيكل الحب» وهى صورة غلب فيها خيال الشاعر على إدراك الفنان فجاءت مزيجاً من الاثنين معاً

ويطول بنا الكلام لو وقفنا عند مجموعة كل طالب فنان، وحسبنا أن نشير هنا إلى أن هذه الصور تدل على نبوغ كامن فى نفوس لاينقصها غير التشجيع والأخذ بيدها فى هذه الطريق فإنها ولاشك ستبدع وستكون للفن الجميل خير معوان

ويغلب على الطلبة في هذه النواحى الميل لصور الطبيعة، وعلى الأخص مناظر النيل الساحر فى مختلف الأحوال، ففيها بذلك روح مصرية جميلة نرجو أن تجد من الحدب ما يأخذ بها فى سبيل التقـدم ومعارج الكمال. ومن هؤلاء كمال مجيب وزكي واعيش وإحسان والدالى والسمنودي ودسوقي وحتاتة ويحيى سامى وحنفى وحمزة ومدكور والشموتى. وإن ما أبدعته ريشة الفنان الشاب إحسان أحمد ابراهيم لما يدل على روح فنية أصيلة يرجى منها الخير، والحق أن ما عرضه آية فى بابه يستحق عليه التهنئة ويستأهل عليه الثناء، وصوره هذه تشير إلى نبوغ فطرى فيه سيؤتى أكله فى القريب إذا والى العناية بهذه الناحية. ولقد أجاد وأوفى فى الإبداع فى «الغروب بالأقصر» فإن تمانق الشمس بالمياه فى هذه اللوحة لما يلهم الخاطر شتى المعانى وتتدفق حيالها الأخيلة الرفافة، فهذه الشمس معبودة المصريين القدماء تحنو على المياه التى مدت متنها مركباً ذلولا لفراعنة مصر وكأنها تهمس فى أذنها بمعانى الخلود، وتنغم أغنية العصور فى مسمع الدهر

كذلك استطاع الأستاذ لوسيان شيرون الأستاذ بكلية الحقوق أن يقدم باقة عطرة من صوره للآثار المصرية والاسلامية وهى على قلتها تنبىء عن مقدرته التامة التصويرية، كما تشير ليله للآثار.

ع . حبشى

ألدوس هوكسلي

إذا عد الثلاثة الأوائل من زعماء الفكر فى انجلترا فى العصر

الحديث فلا شك أن ألدوس هوكسلى يكون ثالثهم ؛ وأولهم — فيما نرى — هوبرنر دشو . وثانيهم هو هـ . ج ولز — وقد نظم برتراند رسل بهذا الترتيب ، وهو على كل حال رابعهم ، وله مزاياه التي يتفرد بها بينهم ... وألدوس هوكسلى هو ابن العلامة الأشهر توماس هوكسلى الذى اهتدى إلى نظرية النشوء قبل أن ينشر داروين كتابه (أصل الأنواع) بثمانية أعوام ، والذى لولاه ولولا كتاباته الخالدة لم يكن لداروين هذا الذكر وذاك الخلود ... وهوكسلى الصغير هو أحد الكتاب الشباب ، وإن يكن قد جاوز الأربعين ، الذين برزوا إلى الوجود بعد الحرب الكبرى ، والذين ثاروا على القديم تلك الثورة الهدامة التي كادت تأتى على أسس الأدب الانجليزى المحافظ . وقد اشترك مع هوكسلى فى هذه الثورة لورنس وجويس و فلسفها شو ، لكن لورنس وجويس كانا يتخذان فى ثورتهما سلاحاً من العاطفة مسنوناً ، ومادة من الجنس يتغلغلان بها إلى أعماق القلوب ، وكذلك كان يفعل هافلوك أليس ، وما يزال ؛ إلا أن أليس عالم يحلل النفس وكأنه فى معمل من هذه الحياة ، وقصته (أوليبز) آية علمه ، وقصته الجديدة (رقصة الحياة) آية أخرى... وألدوس هوكسلى تأثر من صنف أليس ، وعالم مثله ، وبينه وبين ولز صداقة حميمة ، ويحسبه القارئ من تلاميذ شو ، لكنه فى الحقيقة تلميذ السويدى العظيم هنريك إبسن ، وقد ظل طوال حياته الأدبية متأثراً بطريقته فهو يهدم ولا يبنى ، ويشخص ولا يصف العلاج ... ولكن انقلاباً عظيما حدث فجأة فى حياة هذا الأديب الكبير ، فقد أصدر كتاباً جديداً له أسماه الغايات والوسائل Ends & Means تناول فيه علل الحياة الحاضرة من سياسة وتعليم واقتصاد وأطماع فجمل يبدئ ويعيد فى أسبابها ، ثم يشرع بعد ذلك فى وصف الدواء لكل حالة . وقد فزع هوكسلى فى مقدمة كتابه من الحالة المخيفة التي انتهى إليها العالم جملة والأفراد متأثرين بما يرون من أعراض العلل التي تنتاب الأمم فى موكبها المضطرب الذى تسير فيه إلى نكبة محققة ... وقد اعتدل هوكسلى فى مؤلفه الجديد فيما يخص الأديان ، بل هو يعترف أن التدين سيلعب دوره الخطير فى رد العالم إلى التعقل ، ويبدو هنا أنه تأثر بالأديب الفيلسوف الفرنسى الكبير برغسون الذى وقف لوالد المؤلف ولداروين بالمرصاد ، يرد نظرياتهم المادية ، ويقفها صامتة جامدة أمام حججه الروحية التي لم يستطيعا نقضها ، والتي جاء مؤلف هوكسلى يؤيدها ويبشر بها ... وينعى هوكسلى على طرق التعليم والتربية المنتشرة فى العالم اليوم أنها رثة بالية ، وأن مكروب الفساد الذى ينخر فى كيان البشرية فى هذا العصر ينتشر من رممها ويتكاثر فيها ، ودليله أن أرقى الأمم وأقواها ، وأكثرها مدنية ومدارس وجامعات هى التي تهدد سلام العالم وتتربص بغيرها الدوائر ، وتعد أدوات الدمار لساعة الجد ؛ ولو كانت وسائل التربية والتثقيف ناجعة لما نامت الملائكة واستيقظت الشياطين وتأججت الحفائظ بالعداوات بين الدول ... وهوكسلى هنا يبدو من أنصار فكرة السلام العالمى ، بل هو من دعاة البشرية التي بحّ صوت ولز بتحبيذها ... وقد وجم الرأسماليون الانجليز من صيحة هوكسلى ، وبدأوا يسفهون فلسفته الاجتماعية الجديدة ، وهذا لأنه عاب توزيع الثروة العالمية بين الأمم ، وصرح بأن استئثار بعض الدول دون البعض بخيرات الأرض هو شلل لنشاط أمم ناهضة عاملة ، كما أنه تخمة تشل نشاط الأمم المالكة

وسنعود إلى هذا الكتاب القيم حين نفرغ من قراءته

الحبشة بعد الفتح الإيطالى

قام الميجر ا . و بولسون نيومان الإنجليزى برحلة طويلة فى بلاد الحبشة بعد استقرار الفتح الإيطالى فيها استغرقت ثلاثة أشهر (من مارس إلى يونيه سنة ١٩٣٧) متبعاً طريق الغزو التي سار فيها الجنرال بادوليو مبتدئاً من مصوع ومارّاً بعدوه وأكسوم وماكالى وكوارم ... إلى ديسى . ثم إلى أديس أبابا ثم إلى لهمتى (!) فساىو فجمبيلا لحدود السودان ، ثم انثنى بطريق الجنرال جرازيانى إلى مقدشو على المحيط الهندى . ثم ركب الطائرة من قسمايو في (الصومال) فطاف بمقاطعة أوجادن إلى دردوا وإلى هرر ومن دردوا بالسكة الحديدية إلى جيبوتى وبالباخرة إلى الميناء الإيطالى الجديد عند عصب . وقد كان أهم ما لفت نظر الميجر بولسون هو زوال روح الجفاء بين الأحباش المقهورين والايطاليين الغزاة ، وهذا النشاط العجيب الذى يبديه الإيطاليون فى تحضير الحبشة وترقية مرافقها الحيوية وانتشار المدارس الايطالية فى أرجاء إمبراطورية أسد يهوذا . وقد ألف الميجر فى رحلته هذه

كتاباً هو أحسن ما وصفت به الحبشة إلى اليوم . وبالرغم من أن المؤلف إنجليزي فالكتاب موضوع فى أسلوب حي وروح غير عدائي .

كتاب جديد للمستر ولز

من أنشط المؤلفين فى العصر الحديث وأكثرهم إنتاجاً هو الكاتب الأشهر هـ . ج ولز الذى لا يكاد يمضى عام إلا ويتحف قراءه — وهم عشرات الملايين — بكتاب جديد تحتاج قراءته إلى عام أو أكثر من عام ؛ وأحسن ما ألف ولز هى طوبوياته التى يدفع بها الإنسانية إلى السبرمان . وقد دعا فى السنوات الأخيرة إلى وجوب عالية التعليم وهى عالية لا تفهمها القومية ولا تريد أن تستسيغها ، لأنها نقيض لها ، فالعالمية هى الديمقراطية بين الأمم ، أما القومية فهى الاستبداد بين الأمم ، وسلاح الأولى السلم والصالح العام ، أما سلاح الثانية فالحرب والتغلب والتبرير . وولز من أجل ذلك يدعو إلى وجوب جعل التعليم عالميًّا ، وانتزاع أخبار الحروب والصدام بين الأمم وتراجم الطغاة والمستبدين من صلب منهاج التاريخ الذى يدرس للتلاميذ فى مدارس العالم قاطبة حتى لا تخدعهم الكبرياء الوطنى عن صالح البشرية العام . وهو يدعو أيضاً إلى تأليف موسوعة عالمية تبشر بالأخاء الإنسانى وتكون إنجيلاً حديثاً يوجه البشرية ويمهد لحكومة عالمية تحل محل عصبة الأمم التى ماتت ورنقت الغربان الجائعة فوق جيفتها تنوشها وتمزقها . وقد طاف ولز أنحاء العالم وراح يدعو إلى مذهبه فى جامعاته ، وقد حاضر فى أمريكا وفى انجلترا وفى فرنسا فنور الأذهان لما دعا إليه ، ثم جمع محاضراته وأحاديثه ومقالاته وأصدرها فى كتاب واحد سماه World Brain وهو اسم غريب تشوهه الترجمة

رابطة التربية الحديثة

زار مصر الأستاذ برفيه مدير معهد جان جاك روسو وكان من أثر زيارته أن اقترح إنشاء فرع فى مصر لرابطة التربية الحديثة يكون من أغراضه مناقشة شئون التربية والتعليم والوقوف على التيارات المتصلة بها فى العالم الحديث وإحداث تجارب فى هذا الصدد محليا ، وعقد الاجتماعات الدورية الخاصة ، وإلقاء محاضرات عامة ، وعقد المؤتمرات ، ونشر البحوث الفنية ، وإنشاء مكتبة لهذا الغرض ، والاتصال بالهيئات التربوية فى الخارج

وقد أنشئت فعلا هذه الرابطة من كبار رجال التعليم وألف مجلس إدارتها من صاحب العزة الدكتور احمد عبد السلام الكردانى بك ناظر معهد التربية . والأستاذ اسماعيل القبانى ناظر مدرسة فاروق الأول الثانوية ، والدكتور عبد العزيز القوصى الأستاذ بمعهد التربية ، والأستاذ محمد فريد أبو حديد الموظف بالمعارف ، والدكتور سيد أبو باشا ناظر مدارس النيل ، والدكتور أمير بقطر الأستاذ بالجامعة الأميركية ، والآنسة أسماء فهمى ، والآنسة سمية فهمى ، والأستاذ محمد عبد الواحد خلاف مدير التعليم بالجمعية الخيرية الإسلامية ، والأستاذ احمد خلف الله المدرس بالجامعة ، والأستاذ على النحاس بمعهد التربية للبنات ، والاستاذ رياض عسكر وكان أول ما فكرت فيه موضوع الامتحانات فى مصر على نحو ماذكرناه فى العدد الماضى

ذكرى الرافعى

اعتزمت مصلحة الإذاعة الفلسطينية بالقدس الاحتفال بذكرى المرحوم الرافعى لمناسبة مرور عام على وفاته فى ٩ مايو سنة ١٩٣٨ ودعت بعض أدباء المصريين للمساهمة فى هذا الاحتفال . وإنه لوفاء يستحق الإشادة والذكر كنا نرجو أن تكون محطة الاذاعة المصرية أسبق إليه إحياء لذكرى فقيد العروبة الكبير الذي نشأ فى مصر وكانت لها حياته وفيها مثواه . على أن الوقت ما زال متسعاً لتفكر محطة الاذاعه المصرية فى القيام بهذا الواجب ؛ جرياً على سنتها فى الاحتفال بذكرى الخالدين من أدباء العربية ، ومنها الأسوة فى الاحتفال بذكرى الشاعرين الكبيرين شوقى وحافظ إبراهيم

مدرسة الخدمة الاجتماعية فى خدمة الفلاح

أنشئت مدرسة الخدمة الاجتماعية فى القاهرة لإعداد الشباب لخدمة المجتمع ، واستغلال جهودهم للصالح العام . وكان طبيعياً أن تتجه الفكرة فى المدرسة إلى تنظيم دراسة الخدمة الاجتماعية فى القرية فوضعت لذلك برنامجاً منظماً وافياً يشمل كل نواحى القرية ويدرس أكثر المشاكل الريفية دراسة عملية قائمة على الخبرة والتجارب ونظرة إلى هذا البرنامج تبعث فى نفوسنا الاطمئنان على ما تقدمه الخدمة الاجتماعية فى القرية :

تقدمة عن تاريخ الفلاح . اقتصاد زراعى وتعاون ومسائل صحية . التعليم . تجميل القرية والسكن . ترغيد الحياة الريفية الأمن العام . الفلاح والدولة . مسائل اجتماعيـة . الخدمات الاجتماعية فى الريف

وقد بدأت هذه الدراسة الريفية يوم ١٣ أبريل وتستغرق نحو شهرين وتلقى المحاضرات فى أحد مدرجات كلية الطب ويقوم بإلقائها نخبة ممتازة من المتصلين بشئون القرية والمهتمين بانهاض الفلاح ، نذكر منهم الآنسة ابنة الشاطئ وإبراهيم رشاد بك والدكتور محمد خليل عبد الخالق بك والدكتور على بك حسن والدكتور حلمى السعيد والدكتور القللى بك والدكتور عبدالله العربى بك والدكتور مأمون عبد السلام والدكتور احمد حسين

وإلى جانب هذه الدراسات العلمية المنظمة تقوم المدرسة بزيارات عملية للريف

كتاب شواهد القبور

نشر الأستاذ جاستون فييت مدير الآثار العربية « كتاب شواهد القبور » وهو السفر التاريخى الذى يسجل فيه هذا العالم ما يعثر عليه من شواهد القبور فى العهود الاسلامية المختلفة فى مصر ، ونورد فيما يلى نموذجاً من هذه الشواهد ، وما كتب عليها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، هذا قبر محمودة بنت عبد الله بن موسى بن خالد توفيت يوم الجمعة لأربعة عشر ليلة خلت من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين وثلثمائة »

وكتاب الشواهد موضوع باللغتين العربية والفرنسية ويقع الجزء الخامس منه — وهو الذى صدر أخيراً — فى نحو مائتى صفحة حافلة بما وجد على القبور من مثل هذه النقوش ، كما ألحق بها رسوم واجهات هذه القبور فى نحو خمسين صفحة من الورق الفاخر المصقول

اشتراك مصر فى معرض البندقية الفنى الدولى

يقام معرض الفنون الجميلة الدولى المعروف باسم « البينالى » فى مدينة فنيسيا في الصيف القادم ويعد هذ المعرض من أكبر معارض الفنون الجميلة وتشترك فيـه الدول كلها فيمثلها كبار الفنيين من مصورين ومثالين

وقد قررت وزارة المعارف المصرية الاشتراك لأول مرة فى هذا المعرض ، تخصص للفنانين المصريين جناح كبير تعرض فيه مبتكراتهم التى عنى بانتقائها الأستاذ ريمون مراقب الفنون الجميلة فى الوزارة

وألفت لجنة من حضرات الأساتذة محمود سعيد ومحمد ناجى ومحمد حسن وراغب عياد ويوسف كامل وأحمد صبرى ولبيب تادرس وسعيد الصدر وعلى الديب ومحميا سعد من رجال الفنون المصورين والمثالين لترتيب المعروضات وتنسيقها فى المعرض

جائزة للتعاون الدولى

نظم « مركز نشر الفكر الفرنسى » مباراة لنيل جائزة « رحلة الى فرنسا » مقدارها عشرة آلاف فرنك

وهـذه الجائزة تمنح لشاب مصرى يضع أحسن بحث فى الموضوع الآتى :

« الإبانة على نور الحوادث والتجارب بعـد الحرب ، عن مدى التضامن الاقتصادى وقوته ، الذى يربط الأمم بعضها ببعض حتى ولو تغاضت عنه »

ويجب أن يكون المتبارون مصريين ، دون الخامسة والثلاثين من العمر ، وأن يكونوا من تلاميذ مدرسة عالية أو من خريجيها ، وان يقدم كل منهم « بحثه » فى هـذا الموضوع قبل ١٠ مايو القادم ، إلى عميد مدرسة الحقوق فى الجيزة ، على ألا يزيد هذا البحث على خمس وعشرين صفحة ، مكتوبة بالآلة الكاتبة ، وأن يقدم منه ثمانى نسخ ، ولا ينبغى أن تذيل هـذه النسخ بتوقيع صاحبها ، بل يجب أن ترفق برسالة فيها اسم صاحبها ، وتكتب « البحوث » باللغة الفرنسية أو باللغة العربية مع ترجمتها بالفرنسية

لعبة الشطرنج عند قدماء العراقيين

أثبتت الآثار القديمة المكتشفة أخيراً فى العراق أن سكان العراق القدماء كانوا يلعبون الشطرنج ، وأن هذه اللعبة كانت إحدى وسائل اللهو عندهم . وقد أثبت هذا معهد الأبحاث التاريخية وبعثة بنسلفانيا الأمريكية التى تباشر أعمال التنقيب فى العراق . وقد وجدت بعض القطع فى شمال العراق . ويرجع عهـدها إلى أربعة آلاف سنة ق . م . ويدل وضع هذه القطع على أنها استعملت كثيراً فى اللعب

تعداد سكان العراق

ظهر من السجلات الرسمية أن النفوس المسجلة فى العراق فى الوقت الحاضر بلغت ١٫٨٤٦٫٩١٥ نسمة من أهالى المدن و١٫٥٢٣٫١٩٦ نسمة من المشائر فالمجموع ٣٫٣٧٠٫١١١ نسمة. وتقدر النفوس غير المسجلة من سكان المدن بعشرة فى المائة أى ١٨٥٫٠٠٠ نسمة، ومن المشائر بستين فى المائة أى ٩١٤٫٠٠٠ نسمة، فيكون مجموع النفوس غير المسجلة ١٫٠٩٨٫٠٠٠ نسمة ومجموع نفوس العراق ٤٫٤٦٨٫٠٠٠ نسمة

وفاة المغنى الشهير شالياپين

توفى المسيو فيدور شالياپين المغنى الروسى الذائع الصيت. وقد ولد فى بلدة كازان بروسيا أول فبراير سنة ١٨٧٣ واشتغل عدة أشهر « صبياً » لصانع أحذية ثم موظفاً صغيراً فى السكك الحديدية وتلقى مبادئ الموسيقى الأولى عند انضمامه إلى فرقة المرتلين بكنيسة بلدته كازان ولما بلغ السابعة عشرة من عمره انضم إلى فرقة تمثيلية متنقلة، وكان يقوم فيها بالغناء والرقص. وتلقى الدروس الموسيقية الأولى على الأستاذ أوستانوف فى مدينة تفليس سنة ١٨٩٢ وظهر لأول مرة في دار الأوبرا فى رواية «حياة القيصر» بمدينة بتروجراد ١٨٩٤ ثم أخذ يتنقل فى جميع دور الأوبرا فى روسيا، وكان ظهوره لأول مرة خارج روسيا فى لاسكالا دى ميلانو وتنقل بعد ذلك فى عواصم أوربا وأميركا وكانت أولى رواياته السينمائية رواية « دون كيشوت » وله عدة مؤلفات منها « صفحات من حياتى» و «الرجل والقناع » وكان يميل إلى الرسم والتصوير وصيد السمك

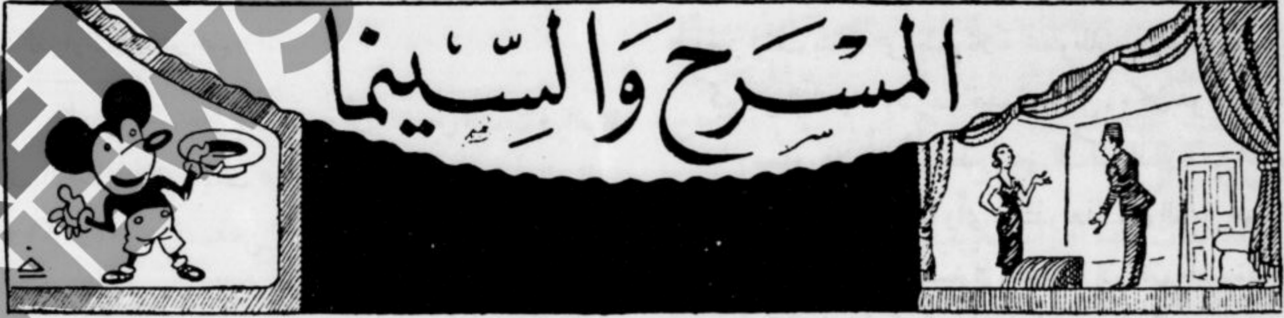
المطابع السارقة

إلى مجلة الرسالة الغراء

يرى الأستاذ المازنى أن « تنظيم النشر » فى مصر يكفى لازالة أسباب الشكوى التى يشكوها الكتاب والمؤلفون، وأن هذا التنظيم وحده هو أعود عليهم بالربح والجدوى. وللأستاذ الحق فى هذا الرأى، غير أن علة أخرى لم ينتبه إليها مع أنها من أكبر أسباب الغبن الذي أدرك الأدباء العرب فى هذا العصر حدثنى أحد باعة الكتب فى الجزائر بأنه كان سافر إلى مصر ليقف بنفسه على طبع ثلاثة مخطوطات، وتعاقد مع مطبعة كبيرة فى القاهرة. وشرعت هذه فى العمل، وكان هو يتردد عليها صباح مساء. فلاحظ أنها تطبع ضمن الكمية المطلوبة من النسخ، فذكر لصاحب المطبعة ما رأى فاعتذر هذا بأن العامل هو الذى أخطأ، وتعهد بإعدام النسخ الزائدة، إلا إن كان حضرة العميل في حاجة إليها. فأكد له هذا أنه لا يريدها. ثم حدث للعميل ما حمله على زيارة مطبعة أخرى. ولم يكد يدخلها حتي استولت عليه الدهشة، فقد رأى أكواماً من اللازم المطبوعة من نفس الكتاب الذى يقوم هو على طبعه، وذلك لأن المطبعة الأولى بعد ما افتضح أمرها صارت كلما طبعت ملزمة نقلت الحروف مصفوفة مربوطة إلى هذه المطبعة الأخرى فتطبع فيها العدد المسروق. قال الراوى: وقامت بيني وبين صاحب المطبعة الأولى خصومة حادة عنيفة كادت تنتهى إلى المحاكم. ولكنها سويت على صورة غريبة صرت بموجبها شريكا له فى السرقة، فقد ناولنى كمية مهمة من الكتب القيمة التى طبعها أخيراً على نفقة أصحابها المؤلفين المشهورين. قال: « ومنذ ذلك اليوم أصبحت من عملائه الكثيرين المنتشرين فى كثير من البلدان العربية والإسلامية ... » قلت: « وهل كل هذا صحيح ... » قال: « نعم. وهنالك أصحاب مطابع أخرى، وهنالك ناس ينسجون على هذا المنوال. وفى القاهرة رهط من الناس (ومنهم أصحاب مكتبات يحترفون ترويج الكتب المسروقة ووسقها إلى خارج القطر المصرى ... »

لقد ارتبت لأول مرة فى صحة هذا الكلام وما لبثت أن استيقنت عند ما اطلعت على حوادث أخرى من هذا القبيل؛ فقد عرض علينا ذات يوم أحد باعة الكتب فى فاس قائمة بأسماء كتب قيمة طبعت ولا يزال بعضها يطبع فى القاهرة (وهى بأقلام أئمة الأدب فى العصر الحديث) بأسعار مخفضة إلى حد غير معقول. فقلت لايخلو الأمر من إحدى اثنتين: إما أن تكون هذه الكتب فى منتهى الرداءة طبعاً، وورقاً أو أن عارضها قد ارتبكت أحواله المالية وأشرف على الافلاس فهو يبيعها بأي ثمن

ثم عرفت أنه لا هذه ولا تلك وإنما هذا الرجل هو أحد عملاء المطابع السارقة ... وكان أحد المتعهدين فى الجزائر



السينما فن وذوق وليست أكاذيب وجهالة

أجازت الحكومة المصرية فى الشهر الماضى لشركة «راديو» الأمريكية أخذ فلم عن الحياة المصرية وتطوراتها من نوع الأفلام التى تخرجها هذه الشركة بعنوان « دورة الزمن » The March of Time ولقد شهدنا عدة أفلام من هذا النوع نذكر منها فلماً جيلاً عن تركيا ؛ والرأى الذى استخلصناه بعد رؤية عدة حلقات من « دورة الزمن » أن هذه الأفلام تقوم على أساس تاريخى صحيح وأنها ليست من نوع أفلام الدعاية الهزيلة أو من نوع الأشرطة الاخبارية العادية . على أننا نشفق مع ذلك أن تخطئ الشركة المصادر التى تستقى منها مادة الفلم أو أن تعتمد على ما تلفقه عادة الأفلام الأجنبية عن مصر وشعبها ؛ وكثيراً ما رأينا القوم يصوروننا قبائل رحلا فى بلد صحراوى تناثرت فيه بعض المدن المليئة بالمآذن والقباب ، وفيما عدا ذلك فرمال وجمال وخيام . فلعل أولى الأمر لا تفوتهم مباشرة هذه الحقائق ومعالجتها بما يكفل لنا كرامتنا ولتاريخنا وقائعه الصحيحة

ولهذه المناسبة أذكر كثيراً من الأفلام التي مسخت الحوادث وشوهت من حقائق التاريخ فاساءت إلى بعض الشعوب . وأول ما يعنينا من هذه الأفلام فلم مصرى حديث الانتاج كان من شخصياته الرئيسية شخصية كسرى وقد أخرجت بشكل مزر غضب له إخواننا الايرانيون . وقد كتبت رأيى فى هذا الفلم فى العام الماضى من تقرير قدمته إلى لجنة تشجيع السينما بوزارة الداخلية طلبت فيه منع مثل هذه الأفلام وهذا الفلم على الخصوص الذى حاول أصحابه أن يعرضوه على رغم حقارته بمعرض البندقية الدولى . وقد صادرت الحكومة هذا الفلم ولكنها مصادرة جاءت متأخرة

تقدم مثل هذه الاساءة إلى قطر صديق فى غير ضرورة يبيحها الفن أو الذوق أو حتى التقدير التجارى . وقبل عرض هذا الفلم بزمن قصير يحمل لنا البرق خبر شجار كبير حدث فى إحدي دور العرض بأمريكا الجنوبية بين جماعة من الأهالى وفريق من إخواننا السوريين المستوطنين هناك عند عرض شريط عن مصر قابله الأمريكيون بسخرية استفزت إخواننا السوريين فثاروا لكرامتنا وقابلوا المعتدين بالضرب

نسمع هذا فى الوقت الذى تقدم فيه هذا المثل غير اللائق لإيران

***

وطالما تولدت الأزمات المشابهة فى كثير من الأفلام ، ومن ذلك أن شركة برامونت قد أخرجت فلماً عرض باسم « مات الجنرال فى الفجر » وفيه تحقير للشعب الصينى . فما أن علمت الحكومة الصينية بأمر هذا الفلم حتى بعثت للشركة إنذاراً بسحب

قد عرض مجلة الرسالة (التى يصدرها فى القاهرة الأستاذ الزيات) على صغار الباعة والمتعهدين بثمن بخس جداً ... وتبين أنه كان يستوردها من مكتبة بالقاهرة لها صلة وثيقة بمطبعة سارقه كانت « الرسالة » تطبع فيها قبل أن تتخذ لنفسها مطبعة خاصة . وأكثر هؤلاء «العملاء» ينشرون الدعوة ضد مطبوعات «لجنة التأليف والترجمة والنشر» في القاهرة . وسبب ذلك (فيما يظهر) هو أنهم لم يستطيعوا أن يسرقوها ... وهذه الأشياء فضلا عن كونها تؤذى سمعة مصر أذى شديدا ، فهي ضربة قاضية على الحركة الأدبية فى مصر والعالم العربى . ونعتقد أنه لابد للحكومة المصرية أن تعالج هذه الحالة بما تراه ناجعاً . لكى تسير حركة النشر فى طريقها المشروع

« وهران » الوفاق محمد السعيد الزاهرى

هذا الفلم من جميع أسواق العالم وإلا تحرم الحكومة الصينية عرض أى فلم فى المستقبل من إنتاج شركة برامونت . وقد انصاعت الشركة للأمر لأنها لا تستطيع أن تضحى بسوق كبيرة مثل الصين . وقد أخرجت نفس الشركة قبل ذلك فلماً آخر يسىء إلى أسبانيا بعنوان «الشيطان امرأة» مثلته مارلين ديتريش وشهده الجمهور المصرى فمنع عرض هذا الفلم بأسبانيا وأرسلت حكومتها احتجاجاً قابلته الشركة بالاعتذار والأسف

***

وهناك حكومات يقظة تتنبه إلى الأمور قبل وقوعها، ومثل ذلك مافعلته الحكومة التركية مع شركة مترو إذ أعلنت هذه أن من مشروعاتها الكبيرة إخراج فلم بعنوان «أيام موسى داغ الأربعون» وفى تصوير هذا التاريخ ما يجرح الشعور التركي ، فلما علمت الحكومة التركية بنية الشركة نصحتها بالعدول عن المشروع واستجابت الشركة فعلا للنصيحة ودفن المشروع

وقد كانت شركة (فوكس — القرن العشرون) قد انتوت إخراج سلسلة من الأفلام الشرطية على غرار أفلام « شارلى شان » الشرطى الصينى لبطل يابانى للأفلام الجديدة اسمه «موتو» وقد أخرجت الشركة بالفعل أول هذه الأفلام Think fast Mr. Moto ولم يعرض فى بلادنا بعد ، ومثل الشرطي اليابانى المثل المعروف بيتر لور . وقد طلبت الحكومة اليابانية بعد إخراج هذا الفلم من الشركة المذكورة أن تطلعها على موضوع كل فلم من هذا النوع للموافقة عليه قبل البدء فى إخراجه . وقد أدى هذا التدخل إلى وقف سلسلة مستر موتو

الرأى الذى نخرج به أخيراً أن السينما كأى فن يجب أن يقوم على الحقائق . فاذا أهملت الحقيقة عن غير عمد فيجب على الأقل ألا يهمل الذوق . فاذا لم يراع هذا أو ذلك فقد فقدت السينما وظيفتها وفائدتها وأصبحت شيئاً يستحق المصادرة والمحاربة

محمد على ناصف

فى السينما

اخطار السينما

تثبت احصاءات شركات التأمين بالولايات المتحدة أن مبالغ التعويض التى دفعت فى العام الماضى ضد أخطار السينما تقل ٤٥٫٠٠٠ جنيه عنها فى عام ١٩٢٩ . ففى هذا العام بلغ عدد الاصابات ٧٧٠٠ إصابة وقف فى العام الماضى عند ٤٥٠ فقط .

ومع ازدياد الانتاج السينمائي وقطعه مراحل كبيرة كانت تعتبر من المعجزات وخاصة في إخراج حوادث الحرب وتصوير نكبات الطبيعة من زلازل وعواصف وسيول فان هذا الاحصاء يدل دلالة قاطعة على تقدم الصناعة وأمنها

ومن أشأم الحوادث فى تاريخ السينما موت المخرج كينث هوكس من تصادم طائرتين أثناء إخراجه فلم «رجال مجازفون» وكذلك الحوادث التى اقترنت ببعض الأفلام مثل : « ملائكة الجحيم » و « ثورة على السفينة بونتي » و « الطريق الخافى » و « الوريثة المتشردة » والفلم الأخير يعرض الآن بالقاهرة

وتعتبر الاحصاءات أن استديوهات شركة وارنر أكثر الأستديوهات أخطاراً وتتبعها شركة مترو جولدوين . وقد اعتبر إخراج فلم « فى شيكاغو القديمة » لشركة (فوكس — القرن العشرون) شيئاً يشبه المصادفة لعدم حدوث أى إصابة رغم تعدد حوادث الفلم من حريق وفيضان وثورة قطعان الماشية واجتياحها آلاف الخلائق ، أما أكثر الأفلام أخطاراً فهى أفلام رعاة الأبقار

فى المسرح

ايفور نوفيلو من أبرز شخصيات المسرح الانجليزى

انتقل ايفور نوفيلو بموسيقيته Crest of the Wave من مسرح درورى لين إلى تريتهام هيل لاجراء بعض الاصلاحات بالدرورى قبل أن يفتتح فيه مسرحيته الجديده

ويعتبر نوفيلو من أسعد رجال المسرح فى جميع العصور فهو فى الخامسة والأربعين من عمره يؤلف مسرحياته ويلحنها ويخرجها ثم يمثلها . ولا تزال فرقته منذ سنة ١٩٣٥ دائمة العمل فى موسيقياته الثلاث الأخيرة لا يقف عملها إلا فى الفترات التى بين مسرحية وأخرى ؛ ويقدر له العارفون أن روادمسرحه في هذه المدة بلغوا ١٫٧٥٠٫٠٠٠ وانه أحيا ٧٥٠ حفلة متوسط دخل الحفلة الواحدة ٦٠٠ جنيه

وبعملية بسيطة يكون دخله فى هذه المدة ٤٥٠٫٠٠٠ جنيها دفع منها ضرائب فقط ٦٧٫٥٠٠ جنيه

***

تمثل الآن على مسارح برودواى مسرحية « النساء » وجميع شخصياتها نساء وقد رفض الرقيب الانجليزى تمثيلها على مسارح انجلترا إلا بعد تعديل منظر لفتيات مجتمعات فى قاعة نوم ولكن المؤلف رفض اجراء هذا التعديل .

***

يعتبر هـذا الموسم من أكسد مواسم التمثيل فى أمريكا ، ولذلك فان قيام مسرحية ناجحة وسط عدة مسرحيات فاشلة شىء يقابل بالضجة والتهليل ، وهـــذا ما لقيته مسرحية Gm Borrowed Time التى اقتبسها للمسرح بول اوسبورن من رواية لورنس أدوارد انكنس ومثل الدور الأول فيها بنجاح كبير دادلى دبجز الممثل المعروف فى السينما والمسرح

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾


الرسالة
مجلة … والفنون
العدد ٢٥١
السنة السادسة

6 me Année, No . 251

Lundi - 25 - 4 - 1938

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العــدد ٢٥١ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٤ صفر سنة ١٣٥٧ — ٢٥ ابريل سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـرس

شم النسـيم ...

اليوم يا صديقى يوم شم النسيم ! وشم النسيم فى مصر هو عيد الطبيعة والناس ؛ والناس الذين يعيدون هذا العيد هم سكان هذا البلد الأمين من كل جنس ونحلة ؛ وهو بهذه الخصيصة يكاد لا يشبهه عيد من أعياد الأمم . فإن أعياد الأمم إما أن تقوم لذكرى دينية فتكون لأهل هذا الدين ، وإما أن تقوم لذكرى وطنية فتكون لأهل هذا الوطن . أما عيد شم النسيم فهو عيد إنسانى اشتراكى سمح ، يفتح قلبه لكل دولة ، ويخلص حبه لكل ملة ، ويبذل أنسه لكل جنس . فالمصريون على اختلاف الأديان ، والأجانب على تباين الأوطان ، يتلاقون فيه على بساط الربيع إخواناً فى المودة ، أخداناً فى السرور ، يتساقون راح الأنفس ، ويتطارحون حديث القلوب ، ويتجردون من فوارق الدنيا ليقفوا أمام الطبيعة الصريحة أطهاراً من رجس الحياة ، أحراراً من إسار المادة ، يرتعون فى الجنة التى خلق فيها أبوهم الأول ، وينعمون بالصفاء الذى نشأت فيه أسرتهم الأولى

هذه الخصيصة التى تفرد بها هذا العيد إنما اكتسبها من طبيعة هذا الوطن الأريحي الذى طبع بنيه وساكنيه على فيض نيله وخصب واديه ورحب صحرائه وصفو سمائه

واعتدال جوه ووداعة طبيعته ، فجعل المصري والرومي يعيشان فى قرية ، والمسلم والمسيحى يصليان فى كنيسة ، واليهودى والألمانى يعملان فى متجر ، والتركى والأرمني يسكنان فى دار ؛ ثم يلح على هؤلاء جميعاً بالخلط والمزج والتوحيد حتى تتشابه الألوان ، وتتعرب الألسنة ، وتتقارب الطباع ، وتتحد العناصر ، فيدخلوا صرحاء خلصاء فى هيكله النقى القوى المقدس

***

فى هـذا اليوم وحده من دون أيام السنة تغلق القاهرة دواوينها ومدارسها ومتاحفها ومصارفها ومتاجرها ومصانعها وحوانيتها، ثم تخرج إلى الرياض والخلوات ، خروج الحجيج إلى عرفات ؛ ولـكنه حجيج وثنى لا يؤمن فى ذلك اليوم إلا بأفروديت وباخوس (١) ، فيتفيأون ظلال الروض ، ويتشربون أشعة الربيع ، ويستروحون أرج النسيم ، ويجتلون جمال الطبيعة المتبرجة فى الزهر والنهر ، ويستوعبون أسرار الحياة المبثوثة في السماء والأرض ، ويتطلَّقون من عقال الهم والوقار والـكلفة ، فيطيشون كالفراش ، ويهتفون كالطير ، ويطفرون كالأطفال ، ثم تدركهم ضرورة الحياة فيجلسون للموائد حِلَقاً وسلاسل يتهنأون بضروب الآكال وصنوف الأشربة ، حتى إذا تضلعوا شِبعًا وتحببوا رِيا (٢) قرت فيهم فورة المرح فأووا إلى أحضان الطبيعة الخادرة من حر الظهيرة . وحينئذ ترى أشتاتاً من خلق الله قد ضرب على آذانهم الـكرى أو الـكِظَّة أو السكر أو الفتور ، فأصبح الناس والطير والشجر قِطعاً من مادة الأرض لا يميز بعضها من بعض رقي النوع ولا سمو الفكر ولا غرور الفلسفة

***

لا أزال أشعر بحلاوة هذا الموسم فى القرية . فقد كان الشباب والأيفاع يعتقدون أن فى العشرة الأخيرة من شهر رمضان تُفتح فى السماء (طاقة القدر) لمن كتب الله لهم السعادة ، وأن فى العشرة الأولى من المحرم تطوف (بغلة العشر) فى أعقاب الليل وهى موقرة بالذهب على من كتب الله لهم الغنى ، وأن فى يوم شم النسيم تهب نفحة من الفردوس لا يتنسمها إلا من كتب الله له القوة ؛ فكانوا إذا تنفس صبح ذلك اليوم أفعموا خياشيمهم بريح البصل ليدرأوا عن أعصابهم خمود العام كله ، ثم يخرجون إلى القنوات والنهيرات يستحمون فى مائها الجارى ، ويمشون هوناً على حافى الحقول وضفاف الترع وحواشى البساتين يجمعون الفلية والحبق والورد وزهر النارنج وورق الليمون ، ثم ينسقون منها باقات يشدونها بأعواد السِّعد وسعف النخل ، ويدسون فيها أنوفهم من لحظة إلى لحظة ؛ ثم يقفون فى مهب النسيم الفَواح يعبُّونه عباً بالخياشيم والحلوق لعلهم يجدون فيه تلك النسمة الهاربة من ريح الجنة فيمسهم منها (عِرق الصِّبا) ، ثم يسيرون صامتين مستغرقين نشاوى يتشممون ذلك السر الإلهى المكنون فى أنفاس النهر ، وفى عبير الزروع ، وفى فوحة الرياحين ، كما يتلمس الـكيميائى الخبير إكسير الحياة فى عصير العقاقير وحَلَب الأنابيق ومزيج الأشربة

فإذا أحسوا نشـوة فى الروح وفتوة فى الجسم وقوة فى الأعصاب لطول ما استنشقوا الهواء الخالص ، واستيقنوا الأمل الخادع ، تسلقوا أشجار التوت فجنوا منه أطيبه ، وخضبوا أناملهم بجناه ، ونقشوا طواقيهم بصبغه ؛ ثم رجعوا إلى القرية يخطرون فى مطارف الصبا الغريض ، وكأن فى نفوسهم بالياً قد تجدد ، وفى نفوسهم ذاوياً قد انتعش . فيأكلون البيض الملون والخس الطرى والسمك المملح ، ثم ينامون وهم معتقدون أنهم ادخروا لبقية العام من القوة والصحة والفراهة مالا يهن على طول العناء وسوء الغذاء ومس المرض

ذلك شم النسيم بخصيصته ودلالته ، تراه فى المدينة والقرية يوم الصفاء المشترك والأنس المشاع . ولقد كانت لى فيه ذكرى أوذكريات لا تزال مشرق النور والسرور فى نفسى . وما كان أحب إليّ أن أقصها عليك ؛ ولـكن الصفحة قد نَفِدت ، وساعة الطبع قد أفدَت ، ورئيس المطبعة يقول : هات !

احمد حسن الزيات

---

(١) أفروديت إلهة الجمال ، وباخوس إله الخمر

(٢) تضلع من الطعام امتلأ حتى تمددت أضلاعه . وتحبب من الشراب صار بطنه كالحب وهو الخابية

البحث عن غــــد

— ٢ —

للأستاذ عباس محمود العقاد

أجملنا في المقال السابق حديث مؤلف الكتاب مع الأستاذين الكبيرين شيخ الجامع الأزهر ومدير الجامعة المصرية

وقد تحدث المؤلف إلى فئة من المصريين النابهين غير الأستاذ المراغي والأستاذ أحمد لطفي السيد فقال عن الدكتور حافظ عفيفي باشا إنه أول سفير مصري في بلاط « سان جيمس » وإنه طبيب أطفال مشهور، وكان وزيراً للخارجية في سنة ١٩٢٨ وله مكانة عالية لبعده عن التحيز ووقوفه موقف الحيدة واطلاعه الواسع في شؤون الثقافة المصرية

قال المؤلف : « ولما أخبرته بزيارتي للشيخ المراغي قال : إنني عظيم الإعجاب بالشيخ المراغي ، وهو عندي أصلح الرجال في وقتنا هـذا لقيادة حركة الاصلاح في التعليم الديني . وقد ترك الطلبة هناك عادة الجلوس على الحصير وأصبحوا يجلسون على الكراسي ، وتعودوا أن يضعوا الكتب على المناضد بدلاً من وضعها على الركب ! وهـذا كل ما هنالك من الصبغة العصرية الحديثة . فهي لم تتجاوز ذلك إلى أساليبهم وأنظمتهم ولا إلى روح تعليمهم ودراستهم ، ولا يزال الأزهر حتى اليوم معنياً بالمراسم الدينية والآراء الجدلية . والشبان يضيعون هناك سنوات غالية من أعمارهم كانوا خلقاء أن يتعلموا فيها أموراً أنفع لهم ولبلادهم على التعميم . أما مدارسنا المصرية فهي على نقصها لا تنى تتقدم تقدماً مطرداً في سبيل التفكير العلمي الملائم لزماننا ، وهذا في حين أن الأزهر لا يزال على سنة القرون الوسطى علماً وعملا . ومن تقاليده أن يقع الاختيار على معلميه من بين تلاميذه وطلابه المتخرجين فيه ، وسيظل متخلفاً ماداموا مصرين على هذه التقاليد . ولا رجاء لنا في نهضة روحيـة صحيحة من جانب الدين ما دام المعلمون الدينيون بيننا ينشأون على غير النشأة المستنيرة التي ينشأ عليها الأساتذة الآخرون »

قال المؤلف : فسألته : ولماذا تحسب أن هذه النهضة الروحية ضرورية ؟

فقال : لأن الفلسفة المستقرة وراء الحياة المصرية لا بد لها من أساس روحية ، ولا تقوم هذه الآساس إلا على الإسلام ؛ وينبغي أن تقوم على إسلام صريح لا خرافة فيه . وإنما أعني بما أقول أن تربيتنا الدينية يجب أن تكون على طبقة من الاستنارة تضارع تربيتنا في الثقافة العامة . وقد جاءت قوة الإسـلام الدافعة في عصره الذهبي من حقيقة واحدة : وهي أنه كان ديناً جد بسيط وجد واضح ، خلواً من التعقيد والإبهام ، فأخرج للدنيا ثقافة رفيعة ، وحول القبائل المتبدية في فترة وجيزة إلى أمم متحضرة تعيش عيشة المدنية . ولابد للإسلام في نهضته المقبلة من قيادة أتباعه مرة أخرى إلى الحضارة الصحيحة ؛ ولن يتسنى له ذلك إلا إذا اطرح الآراء الجامدة العتيقة والتجريدات المتخلفة من عقائد القرون الوسطى وليست هي من جوهر الدين في شيء . عندئذ — وليس قبل هذا — يعود الإسلام وهو تلك القوة الروحية التي تفتقر إليها البلاد أشد افتقار »

فعاد المؤلف يسأل الباشا : وما هي إذن مسألة الغد في مصر المقبلة ؟

فأجابه الباشا : مسألة الغد هي التعليم ثم التعليم كرة أخرى . وعلى أساتذتنا الدينيين والمصريين معاً ألا يقصروا تربيتهم على اقتباس العلم وحده ، بل يضيفوا إليه اقتباس الخلق والتهذيب . وعليهم أن يردوا الشعب إلى فضائل الشجاعة والصدق وحب الخير وحب الفن والمعرفة ، ونظافة العقل والبدن ، وهي الفضائل التي كانت مبعث القوة في الإسلام . وعلى شباننا المتعلمين وهم أشباه متعلمين أن يذكروا أبداً أن الأمة من الأمم لا يجوز لها أن تنعت نفسها بالتحضر والمدنية ما عاش أبناؤها على تلك الحالة المحزنة التي يعيش فيها الفلاحون ، ولا تغيير لها قبل انقضاء زمن مديد في التثقيف والتهذيب »

وسأله المؤلف : أيوجـد في مصر أناس عندهم من البصيرة والشجاعة الأدبية ما يتطلبه التصدي لإصلاح البـلاد والجهر بحاجاتها ؟

قال الباشا : نعم . هناك أناس من هؤلاء ، وأذكر لك على

سبيل المثال أسماء أصدقائى لطفى السيد وحسين هيكل ومصطفى وعلى عبد الرازق وطه حسين

* * *

وهنا انتقل المؤلف إلى رواية الحديث الذى جرى بينه وبين الدكتور طه حسين، وقد بدأه الدكتور بكلام يدل على تغير الشبان من الوجهة الدينية

فسأله المؤلف: أترى أن الدين لا يدخل عندكم فى حياة الشباب؟

قال الدكتور: على النقيض. إن له لدخلا فى حياتهم، لأن للشباب تناقضاً معروفاً، ومن تناقضه عندنا مسلكه فى أمر الدين، فالشبان المصريون فى مقاومتهم للنفوذ الأجنبى، وفى شعورهم الوطنى يصدرون عن عقائد آبائهم وتقاليد أسلافهم. ولم هذا؟ لأن القرآن فى الشرق الأدنى هو الأساس الوحيد الذى يقام عليه بناء أمة؛ وقد أصبح شبابنا المصريون فى حياتهم الدارجة شعبة صغيرة منقطعة عن سائر الأمة. إلا أنهم يجدون أنفسهم فى القرآن على ملتقى واحد مع كل فلاح وكل بدوى فى الصحراء؛ وهم - باعتمادهم على القرآن - يهيئون لسواد الجماهير أن يحالفوهم فى المعركة السياسية، وإنما يأخذون من القرآن أسلحتهم السياسية ولا يستمدون منه عتاد الروح»

فقاطعه المؤلف سائلاً:

وما هو موقفهم إذن من الناحية الروحية؟

فأجاب الدكتور: «أما من الناحية الروحية فهم واقفون فى العراء. لم يهضموا فلسفتهم العقلية الحديثة لأنهم تلقوها فى الغرب بعقولهم ولم يشركوا فيها قلوبهم وضمائرهم، ولكنهم قد انحرفوا عن جادة آبائهم فهم بمعزل عن كل مَعْلم من المعالم الروحية، وإن كان هذا لا يعنى أنهم بمعزل عن الدين فى آمالهم ومخاوفهم»

فسأل مؤلف الكتاب: أتحسب إذن أنهم يثوبون إلى الدين فى أزماتهم الحاسمة؟

قال: فضحك الدكتور طه حسين وقال: هـذا ما أعنيه تماماً، فقبل الدخول إلى مشرحة الجراح، وقبل الدخول إلى حجرة الامتحان، يثوب المتطرف منهم فى الإيمان بالعقل إلى الإيمان بقوة فوق متناول التفكير، أو بقوة تمين الجراح وتلهم الأستاذ الممتحن وتوحى إلى المسئول كيف يجيب، ويعود بخفاء إلى اسم الله ...»

* * *

وبعد مناقشة فى رأى الشيخ المراغى وفيما يحسن بالرجل المصرى أن يتخذه من موقف فى أمور الدين ختم الدكتور حديثه قائلاً ما معناه: إن المصريين فرديون متفرقين، ولكنهم فى المجتمع منساقون مسلسون

* * *

وبين الكبراء الذين حادثهم «روم لاندو» على ماهر باشا وأحمد حسنين باشا قبل أن ينتدب الأول لرآسة الديوان الملكى فكانت خلاصة الحديث الذى أفضى به على ماهر باشا أن الشعور الوطنى قد طغى بعد الحرب على كل شعور آخر، وأن الجيل الحديث سيعود كرة أخرى أدراجه إلى حظيرة الدين، وأن أناساً من أبنائه يتعطشون — حتى فى هذه الآونة — إلى مورد للدين يكشفونه بأنفسهم لأنفسهم وإن كانوا لا يزالون قلة بين المجموع

قال على باشا: «نحن عرضة لكثير من الأفكار، وفى الحياة المصرية حركات كثيرة النقائض والأضداد، والعلم بالنتائج مستحيل. إلا أننى أحسب أننا على حق حين نري أن النزعة الدينية أقوى فى طائفة من الجيل الحديث مما كانت قبل بضع سنوات»

وسأل الأستاذ لاندو: «ماذا يصنع الآن لتحويل الوجهة التى كانت منصرفة كلها إلى الناحية السياسية؟»

فأشار على باشا إلى الخطة التى أعدها حين كان على رأس الحكومة لإنشاء معسكرات فى أرجاء البلاد يتعلم فيها الشباب الرياضة والأخلاق الرياضية ويأوون إليها فى كل شهر أربعة أيام، ويتلقون فيها دروساً ومحاضرات عامة فى علم الاجتماع وشؤون الثقافة ومعارض التاريخ

ولما سأله المؤلف عن مصير هذا الاقتراح، قال: إن الوفد أبطله حين تولى الحكومة. وعقب المؤلف قائلاً: «إن من تقاليد السياسة المصرية — أو السياسة فى معظم الأقطار الشرقية — أن الحكومة الجديدة تبطل ما استطاعت من أعمال الحكومة السابقة

ثم سأل: « ولكن الوفد له هو أيضاً مقترحاته للسمو بالجيل الحديث وتحويل جهوده . أليس كذلك ؟ فقد سمعت بالعناية المبذولة فى الألعاب وضروب الرياضة ! »

قال الباشا: نعم . إلا أن النظام الحاضر يجمل باله قبل كل شىء إلى إنجاب « الأبطال » الذين يحرزون الجوائز فى المباريات الدولية ولا يعطى الجمهور نصيبه من الرعاية ، ولا يلتفت إلى الأخلاق كما يلتفت إلى الأبدان . وما كان التعليم المتجه إلى إحياء الحاسة الدينية الاجتماعية يوماً من الأيام شاغلاً ينفع الأحزاب السياسية فى غايتها من الدعاية ، فلا سبيل إلى هذا التعليم إلا على أيدى حكومة غير حزبية أو حكومة قومية »

***

أما أحمد حسنين باشا فقد بدأ الكلام معه على تعليم صاحب الجلالة الملك فاروق . ثم استطرد إلى السماحة الدينية ومذهب الباشا فيها ، وهو مذهب يشبه مذهب محيى الدين بن العربى . وقد كانت لرحلاته فى الصحراء يد قوية فى هدايته إلى تلك الطريق الروحية

سأله الأستاذ لاندو: لقد أُخبرت أن الملك يؤدى جميع فروض الصلاة بانتظام ، فهل تعتقد أن صاحب الجلالة ذو سليقة دينية ؟

فقال الباشا: « أعتقد ذلك . وقد قال لى منذ أيام لجأة خلال الحديث: إنه يشعر براحة حقيقية فى الصلاة . وهذا شىء جدير بالتنويه والملاحظة من شاب يقوم بأعباء الملك فى سن الفتوة ، ولا سيما وصاحب الجلالة غير مطبوع على الانزواء أو الخيالات العاطفية ، ولكنه نشيط إلى الرياضة لا يميل إلى النزعات الخفية الغامضة ، وهو يحمل مصحفاً صغيراً لا يفارقه ؛ وأعلم أنه شديد الحب له والإيمان به »

***

وسنعود فى المقال التالى إلى التعقيب على أمثال هذه المباحث التى يتصدى لها بعض السائحين ، وإلى بيان الحقيقة فيما يلمحونه أو يخيل إليهم أنهم يلمحونه من دلائل الحياة الروحية وبواعث التغيير والتجديد فيها .

عباس محمود العقاد



لبعض القراء ملاحظات تدل أحياناً على جهل مروع بطبيعة الأدب . من ذلك أنهم يعيبون على الأديب تحدثه عن نفسه . أمثال هؤلاء القراء لا بد أن يكونوا من تلاميذ المدارس أو المتخرجين فيها حديثاً . فهم يخلطون بين « معلم المدرسة » وبين « الأديب الفنان » . فمهمة « المعلم » الأولية أن يلقن أصول المعارف وأن يفرغ فى أذهان النشء مادة بعينها بغير أن يكون لشخصه دخل فى الأمر . أما « الأديب أو الفنان » فلا يلقن شيئاً ولا ينبغى له . لأنه يخاطب قوماً مفروضاً فيهم أنهم قد جاوزوا مراحل الدرس ؛ فهو يخرج لهم عصارة العلوم والمعارف والتجارب مقطرة من خلال « نفسه » . إن كل ما نطلبه ونرجوه من رجال الأدب والفن أن يحدثونا عن كل خلجة من خلجات نفوسهم ، وكل دقيقة من دقائق حياتهم ، وكل لمحة من لمحات أبصارهم ، وكل ناحية من نواحى إحساسهم . إن « نفس » الأديب العارية هى كل ماينبغى له أن يضعه تحت أنظارنا . ومن لم يفعل ذلك فليس مطلقاً بأديب . فالأديب هو الآدمى الوحيد الذى خلق لكى يفتح لنا نفسه لنرى من خلالها النفس البشرية قاطبة . ويتحدث لنا عن نفسه فنرى من خلال حديثه كل تجاريب الإنسانية الشاعرة . وإن كل رجال الأدب العظام ليسوا إلا آدميين حدثونا طول حياتهم عن أنفسهم ، بوسائل شتى . وأنا كقارئ لا يروقنى شىء مثل قراءة المذكرات التى يكتبها الأدباء والعظماء عن حياتهم الخاصة . والاعترافات والرسائل التى تتناول مسائل تمس أشخاصهم . فنحن فى تلك الكتابات المجردة عن أثواب التكلف والصناعة نستطيع أن نهبط إلى أغوار تلك النفوس الرحبة الفنية ، كما يهبط الغواص لجأة إلى أعماق البحار ، فيفاجئ اللآلئ فى أصدافها لم تمسها بعدُ يد غريبة ، تنتزعها لتدخل عليها بهرج الصاغة . إن الفنان إذ يحدثنا عن نفسه وفنه وحياته الخاصة إنما يقدم لنا مادة فنية غير مصنوعة . إنه يترك رداءه الرسمى ليخرج إلينا بثياب البيت فى غير كلفة كأنه صديق ، وهذا منتهى الاخلاص منه ومنتهى التكريم لنا ؟

توفيق الحكيم

مظاهر القسوة والرحمة
في الحضارات

للأستاذ عبد الرحمن شكري

أشرت في مقالة (مجد العرب والاسلام)[1] إلى محاولة بعض المؤرخين الأوربيين إصغار مظاهر القسوة في الحضارات الأوربية وإعظامها في الحضارات الشرقية. ولسنا نريد أن ننكر مظاهر القسوة في الحضارات الشرقية، وإنما نريد ألا يكون هناك لبس، وألا تختفي الحقيقة التاريخية، وهي أن الحضارات الأوربية لم تكن مظاهر القسوة فيها أقل من مظاهرها في الحضارات الشرقية. فكل تمثيل قرأنا عنه في حضارة شرقية قرأنا مثله في الكلام عن الحضارات الأوربية. ولا يمكن تقصي كل مظاهر القسوة في الحضارات؛ ولا يفيد الانسانية إخفاء الحقيقة، والمؤرخون الذين يخفونها قد يفعلون ذلك بحسن نية لأنهم يغالطون أنفسهم فيكونون كمن يجهل الحقائق وإن كانت ماثلة أمامه. وهذه ظاهرة كثيراً ما تشاهد في الحياة فيحسبها الناظر سوء نية وكذباً متعمداً وما هي كذلك، وإنما هي المغالطة للنفس التي تجعل المؤرخ يفرق بين النفوس البشرية ونزعاتها في الشرق، وبين النفوس البشرية ونزعاتها في الغرب. كما يفرق المؤرخون في بعض الأحايين بين العقول البشرية وملكاتها وطرق تفكيرها في الشرق وبينها في الغرب، ويبالغون في اختلاف طرقها بحسن نية، وإن كانت المبالغة خطأ في البحث والاستقراء

كنا نقرأ عن الحضارة الإغريقية أنها منبع الرحمة والنور في العالم القديم والحديث؛ وكان بعض المؤرخين لا يسهبون في وصف مظاهر القسوة فيها، وإن كانت موصوفة في مراجع التاريخ، وإنما هم يهملون وصفها عند إثبات أن الحضارة الإغريقية منبع الرحمة والنور في العالم، فلا يذكرون أن تلك الحضارة كانت مؤسسة على عرق جبين الأرقاء ودمائهم، ويهملون ذكر ما كان يحدث في المحاكم الاغريقية إذا ادعى أحدهم دعوى على رجل وأنكر هذا الرجل الدعوى وجيء بالأرقاء الذين يملكهم هذا الرجل المنكر وعذبوا بأصناف من العذاب القاسي الشنيع كي تؤخذ اعترافاتهم وهم يعذبون حجة على سيدهم. وكان السيد إذا اعترض على تعذيب أرقائه عُدَّ معترفاً أو شبه معترف يخوفه من أن يبوح أرقاؤه وهم يعذبون بما يؤدي إلى إدانته. ومن أمثال تلك القسوة في الحضارة الاغريقية ما كان يلاقيه الأرقاء في المحاجر والمناجم، ومثلهم مثل الأرقاء في مناجم الرومان. ويكفي وصف ما لاقاه جنود أثينا الأسري عندما حاولوا غزو سراقوسة في صقلية وفشلوا واستخدموا في المحاجر والمناجم أرقاء. ومن مظاهر القسوة أيضاً معاملة المدينة الظافرة للمدينة المغلوبة على أمرها إذا ثارت على سيدتها، فقد كانت المدينة الظافرة تقضي في بعض الأحايين بقتل جميع الرجال وبيع الأطفال والنساء في سوق الرقيق. وهذه المعاملة تذكرنا بما كان الاغريق في العصور الحديثة يشنعون به على الأتراك ومعاملتهم لرعاياهم من الاغريق؛ إلا أن تلك المعاملة القاسية القديمة كان يعامل بها الاغريق الاغريق. وحتى في المدينة الواحدة كان الحزب السياسي إذا ظفر عامل الحزب المخاصم له أشنع معاملة. وهذا كان حال الحضارة الاغريقية التي كانت بالرغم من ذلك منبع الرحمة والنور في تاريخ الحضارة الأوربية. فإذا انتقلنا إلى حضارة الرومان وجدنا أن مظاهر القسوة لم تكن أقل منها في الحضارة الاغريقية، فكان الأرقاء يعاملون معاملة قاسية بالرغم من القوانين التي أصدرت لحمايتهم. وكانت الأحزاب السياسية يقسو بعضها في معاملة بعض قسوة شنيعة. وكان الظفر الحربي الروماني نذير القسوة الشنيعة حتى بعد ذلك الظفر عند الاحتفال به وبعد الاحتفال به. وكانت الخوازيق التي يُعَيَّرُ بها الأتراك والشرقيون من العقوبات الرومانية؛ وكذلك الصلب والتمثيل بالمصلوبين وهم مصلوبون. وكانت ميادين الكوليسيوم معرضاً لجنون قسوة النفس الانسانية حتى صارت من ملذات الجمهور الروماني رؤية الوحوش وهي تفترس أجسام الأحياء وتمزقها تمزيقاً، ورؤية حرق الأحياء كما كان المسيحيون يُحرَقون. ولم تكن مظاهر القسوة في الحضارة مقصورة على حضارة أوربا الوثنية، بل كانت على أفظع شكل حتى عند المتدينين من القائمين بأمور محاكم التفتيش الذين كان بعضهم يبكي رحمة بمن يعذبونهم فلا يزيدهم بكاء الرحمة إلا رغبة في تعذيب ضحايا تلك المحاكم اعتقاداً أن ذلك التعذيب وأن تلك القسوة رحمة بالضحايا. ويقولون إن تعذيبهم في الحياة الدنيا يقلل من عذابهم في الآخرة، فيكون

(١) انظر العدد ٢٤٦ من الرسالة

تعذيبهم فى الحياة الدنيا رحمة بهم ، ولم تكن مظاهر القسوة مقصورة على طائفة دينية دون الطوائف الأخرى بل اشتركوا فيها جميعاً . كما أن القوانين التى كانت تطبق فى الامور غير الدينية كانت مثقلة بروح القسوة والتعذيب . ومن العجيب أن المؤرخين الذين ينعون على الدولة الاسلامية تنفيذ الحدود ينسون أن القوانين الاوربية والمحاكم الأوربية كانت إلى قبيل الثورة الفرنسية توقع عقوبات هى نفس الحدود التى ينتقدونها فى الدولة الاسلامية . فاننا نقرأ فى مؤلفات ماكولى وغير ماكولى من المؤرخين عن قطع الأيدى وجدع الأنوف وصلم الآذان وغير ذلك من أجزاء الجسم ، وقراءة وصف العقوبات التى وقعت بعد فشل ثورة دوق مونموث تكفى للدلالة على أن المؤرخين ينسون ما كان فى الحضارات الأوربية من مظاهر القسوة عند ذكرها فى الحضارات الشرقية . فاننا نقرأ كيف كانت أجسام الأحياء تقطع وتنصب أجزاؤها على النصب والمبانى والأعمدة وعند ملتقى الطرق ، فمن رءوس وأحشاء وأرجل وأيد منصوبة نتنة كانت تفسد الهواء فى انجلترة بعد ثورة دوق مونموث وغيرها من الثورات الفاشلة . والمستعمرون الأوربيون فى أمريكا حتى المتطهرون منهم لم يقصروا فى مظاهر القسوة . وقد استعرض فان لون المؤرخ الأمريكى مظاهر القسوة فى الحضارة الأوربية والأمريكية فى كتابه المسمى (تحرير الانسانية) ولا تزال آلات التعذيب فى المتاحف الأوربية الخاصة بها تدل على أن النفوس فى أوربا لم تكن أقل قسوة من النفوس فى الشرق ؛ ولا نريد ذكر هذه الحقائق للغض من فضل الحضارة الأوربية . وإنما نريد تصحيح ما يشيعه بعض المؤرخين بحسن نية أو بسوء نية فيضلل ما يقولون ويؤدى إلى تخليد قسوة النفس الانسانية ، وربما كانوا أبعد الناس عن الرغبة فى تخليدها

والحقيقة أن النفس الانسانية إذا غضبت قست وأجرمت حتى ولو كان غضبها للحق أو الحرية أو الوطنية أو كرهاً للظلم . ولعل أكبر انتصار للنفس الانسانية فى المستقبل يكون انتصارها على نفسها بمنعها من الاجرام والقسوة الهمجية الوحشية عندما تنغضب للحق أو الحرية أو الوطنية أو كرهاً للظلم . أنظر مثلا ما ارتكبه ثوار الثورة الفرنسية من شرب للدماء ، وتمزيق أجسام الأحياء ، وأكل للحوم البشرية وسلخ لجلودها والتذاذ باراقة الدماء والفخر بما كانوا يسمونه الغنائم والأسلاب من أحشاء نتنة ورءوس كانوا يضعونها على الرماح . ولم يفعل كل هذا أناس شرقيون ولا أناس من قبائل نيام نيام فى أواسط أفريقيا بل أناس غضبوا للحرية وكرهوا الظلم وكانوا يدعون إلى الحرية والإخاء والمساواة وإلى محو الشر . وهذه الثورة الفرنسية كانت مقدمة للديمقراطية الحديثة ، ولكن بعد أن كره العالم اسم الحرية زمناً وارتضى الحكومات المطلقة زمناً بسبب هذه الفظائع وهذه النذالة فى الاجرام والقسوة

ثم انظر إلى فظائع الحروب الاستعمارية وفظائع الحرب الكبرى فقد قاسى من أجلها من المحاربين ومن الأطفال والنساء آلاماً كثيرة عدد لم يقاس مثله فى الحضارات الشرقية بشهادة بعض المؤرخين الموثوق بقولهم وبشهادة المفكرين مثل هالدين وليونارد وولف

ثم انظر إلى مستقبل الانسانية وما هو منظور أن تقاسيه من الويلات بسبب الحضارة الأوربية وجشعها ومخترعاتها مما يُنسى المفكر كل مظاهر القسوة فى الحضارات الشرقية التى ينتقدها بعض المؤرخين الأوربيين . والحقيقة أن النفس الانسانية فى السلم والحرب وفى أعمالها وأقوالها اليومية لا تزال أكثر ولوعاً بالقسوة مما يظن المستعرض لها بنظرية سطحية عجلى ، كما هى أكثر ولوعاً بالمجون وقصصه وأعماله مما يظن المستعرض للأكاذيب المقررة التى هى طلاء الحضارة والتى تخفى مظاهر القسوة والمجون فى أعمال النفوس البشرية

وإنى ما ذكرت تنور المتوكل الذى عذب فيه وزيره محمد ابن عبد الملك الزيات إلا ذكرت الغلاف الحديدى ذا المسامير الذى كان يوضع فيه الأحياء فى أوربا . وما ذكرت الرقيق فى الدول الشرقية إلا ذكرت أن الرقيق كان شائعاً فى أوربا وأمريكا إلى عصور قريبة ، وإلا ذكرت أنه عند ما بدأ الرحماء يدعون إلى تحرير الرقيق ووجدوا نصراً من رجال الدين فى أوربا ألفوا أعداء من رجال آخرين من رجال الدين كانوا يتذرعون بآيات من الكتاب المقدس من العهد القديم كى يزكوا بها الاستعباد ، وذكرت ما كان يقاسيه الرقيق فى الحضارات الأوربية مما يطول شرحه ووصفه ، وذكرت أن الكنيسة نفسها كانت تشترى الرقيق من الغلمان الصغار الملاح وتخصيهم ، وكانوا يسمون خصيان الكنيسة ؛ وكانت تفعل ذلك كى يرق صوتهم فيرتلون الآيات فى الصلوات

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ — ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٢٧ —

فترة جمام

نفض الرافعي يديه من المعركة بينه وبين العقاد، ثم فاء إلى نفسه، وعاد إلى دار كتبه يطالع ويقرأ ويتزوّد ... واختفى اسمه من الصحف والمجلات أشهراً، كان في أثنائها يتهيأ لإتمام كتابه «أسرار الإعجاز»، ويعمل في الوقت نفسه على جمع ما نشر من المقالات في الفترة السابقة وترتيبها، ليخرجها كتاباً يسميه «قول معروف ...»

على أن عنايته بشأن هذين الكتابين: أسرار الإعجاز، وقول معروف — لم يمنعه أن يكون له في كل يوم ساعات محدودة للقراءة والاطلاع. وكانت هذه الساعات المحدودة في أكثر لياليه تمتد من المغرب إلى منتصف الليل. وأستطيع أن أقول: إن هذه الفترة على ما كان يبذل فيها من جهد، كانت فترة جمام وراحة، لم ينعم بمثلها فيما بقي من حياته. وكنت بصحبته يومئذ قريبَ العهد، ولكني كنت ألصقَ أصحابه به؛ فكان لي وله كل يوم ساعات: يقرأ لي وأستمع إليه في داره، أو أماشيه في الجبال أو أجالسه في القهوة، أو أصحبه إلى السيما. وكان عليّ في هذه الفترة وفيما بعدها من الزمن، أن أقرأ ما يهدَى إليه من الكتب، لأشير له إلى المواضع التي يجدى عليه أن يقرأها، ضنًّا بوقته على قراءة ما لا يفيد. وكان لي وله في ذلك فائدة أيُّ فائدة؛ وكثيراً ما كان يدفع إليّ بعض ما يرد إليه من الرسائل، لأرى رأيي فيه وأشير عليه بالجواب أو أتولى ذلك بنفسي. وكانت هذه الفترة ذات أثر كبير في تكويني وتوجيهي في الأدب توجيهاً لم أكن أقصد إليه؛ كما تأثر هو بصحبتي في هذه الفترة تأثُّراً وجّهه في أدب الانشاء توجيهاً لم يكن يُعرَف به منذ نشأ في الأدب قبل ذلك بثلاثين سنة؛ فبدأ أسلوبه أكثر استواء عند عامة القراء، وكان قبلها يُتَّهَم بالغموض والتعقيد؛ كما عالج القصة فنجح فيها إلى حد بعيد، إذ كانت القصة — وما تزال — أحبّ ألوان الأدب إليّ، على حين كان الرافعي لا يؤمن بفائدة القصة ولا يعترف بخطرها بين أبواب الأدب الحديث. فما هو إلا أن حملته على محاولتها فأنشأ قصته الأولى؛ ثم كأنما اكتشف نفسه من بعدُ فصار ماينشىء من القصص هو أحبّ منشآته إليه، وخطا بها إلى نفوس القراء خطوات ...

ومن طريف ما يُذكر في هذا الباب أنني كنت أنشئ القصص لمجلة الرسالة، لا أكاد أعنى بشيء غيرها من موضوعات الأدب، وكان حُسن وقْعها عند القراء يدفعني إلى الاجادة والاستمرار؛ ولكن قارئاً واحداً كان يعيب عليّ ما أكتب، ولا يرضى مني أن تكون القصة هي كل ما أعالج من فنون الأدب، وكثيراً ما كان يقول لي: «يابني، إن لك بياناً وفكراً ومعرفة، فلماذا لا تحاول أن تكون أديباً؟ إنه لا يليق بك أن تكون القصص هي كل ما تحاوله من ضروب الإنشاء. وإن فيك استعداداً لأكثر من ذاك...!» وما زال يلحّ عليّ ويكرر هذه اللامة حتى وقع في نفسي أنني أسيء إلى نفسي بمحاولتي أن أكون قصصياً؛ فانصرفت عن القصة، وكانت أحبّ إليّ، إلى فنون أخري من الأدب، إلا ما أنشىء من «القصص المدرسية» التي

بصوت عذب شبيه بأصوات النساء. وكان بعضهم يهلك من عذاب الخصى

وبعد فان مثل المؤرخين الأوربيين الذين ينكرون أو يصغرون من أمر مظاهر القسوة في الحضارات الأوربية ويكبرون أمرها في الحضارات الشرقية مثل كل إنسان في هذه الحياة الدنيا، فان كل إنسان في هذه الحياة الدنيا يصغر ويُهوّن من أمر مظاهر القسوة التي ترتكبها نفسه ويكبر من أمر مظاهرها الصادرة عن نفوس غيره من الناس. وهو يفعل ذلك إما غفلة وعن حسن نية، وإما يفعل ذلك وهو يدرى ما يفعل. ولن تنصلح الانسانية إلا إذا امتنع تضليل النفس هذا

عبد الرحمن شكري

أؤلفها لتلاميذي على أنها وسيلة من وسائل التربية لا باب من الأدب . ثم لم يمض بعد ذلك إلا قليل ، حتى كانت القصة هي أكثر ما يمالج الرافعي من أدب الانشاء ، وكان له فيها فَوَاقٌ متبسّق . وحلّت القصة محلها من تقديره بين أبواب الأدب ..!

وإذا كان في أذني الرافعي ذلك الوقر الذي يقطعه عن دنيا الناس ، فان أسلوبه في الكتابة كان بعيداً عن فهم الكثير من ناشئة القراء . فلما اصطفاني بالودّ ، أخذت على نفسي أن أكون أذنه التي يسمع بها ما يقال عنه ، وما يرى القراء في أسلوبه ، فكنت إذا جلست إليه ليملي عليّ أحاوره فيما يدق على الأفهام من أسلوبه ، وما تنبو عنه أسماع القراء . ثم لا أزال به حتى يغير العبارة فيجعلها أدنى إلى الفهم وأخف على السمع . وكان ينكر ذلك عليّ أول أمره ، بما فيه من اعتداد بنفسه وكبرياء ، وكان أحياناً يوشك أن يغضب ، وأنا أتلطف له وأحتال عليه ؛ ثم لم يلبث أن رضي ذلك مني ، فكان يملي على العبارة من المقال ، ثم يسألني : « ما ذا فهمت مما كتبت ؟ » فاذا كان يطابق ما في نفسه مضى في إملائه ، وإلا عاد إلي ما أملاه بالتغيير والتبديل حتى يتضح المعني ويبين المراد . وبدا في النهاية أن يسميني — على المزاح — : العقل المتوسط من القراء ... !

* * *

لم يُنشر للرافعي في هذه الفترة شيء ذو بال ، إلا أحاديث كان يمليها على بعض المرتزقة من كتّاب الصحف الأسبوعية . وكان له طائفة من هؤلاء الكتاب يعطف عليهم ويعينهم على العيش ، فكانوا يغدون إليه في المحكمة ليسألوه حديثاً فيملي عليهم جوابه ثم يذهبون لينشروه حيث يشاءون ويقبضوا أجره

في هـذه الفترة ، وكَلَ إليه الأديب حسام الدين القدسي الورّاق تصحيح كتاب « ديوان المعاني » لأبي هلال العسكري ، وكان قد وقع منه على نسخة خطية فطبعها بأغلاطها وتصحيفها ، ثم بدا له قبل أن يتم طبع الديوان أن يلجأ إلى الرافعي ليصحح له أغلاطه ويتم نقصه على أن ينشره في الجزء الأخير من الكتاب

وقبِل الرافعي هذا التكليف على قلة أجره ، ليقرأ الكتاب قبل أن يقرأه الناس ، وليستمتع بلذة المماناة في تصحيحه وتصويب خطئه ؛ وإنها لرياضة عقلية ممتعة ، لا يستشعرها ولا يقوي عليها إلا القليل من الأدباء . ومضى في هذا العمل شهراً أو يزيد ، وكنت معه فيه ، ثم انتكثت المعاهدة التي كانت بينه وبين القدسي فترك له كتابه بعد أن أصلح منه جزءاً غير قليل . وقد استطعت في تلك الفترة التي صحبت فيها الرافعي وهو يحاول تصحيح الكتاب أن أعرف مقدار اطلاعه وسمة علمه وقوة بصره بأساليب العربية ؛ وقد رأيت منه في هذا الباب أشياء عجيبة من قوة الحافظة ، وسرعة الاهتداء إلى مراجع البحث ، ومهارة الاستدلال على مواضع النقص ، حتى لكأنني بازاء مكتبة دقيقة الترتيب منتظمة التبويب ما شئت من بحث هَدَتْك إليه قبل أن تبحث عنه . على أنه كان أحياناً يعرف موضع النقص من الكتاب ثم لا يهديه البحث إلى تتمته ، فيضع فكره موضع فكر المؤلف ليستقيم المعنى ويتساوق الكلام وأكثر ما كان يقع ذلك في الشعر المشطور . وقد حدث مرة أن ظلّ الرافعي يبحث يوماً كاملاً عن تمام بيت من الشعر في مظانه من كتب العربية ؛ فلما أعياه البحث جعل تمامه من نظمه ثم مضى إلى تصحيح ما بعده من الكتاب . وفجأة ترك ما هو فيه وقال : « اسمع ! ناولني الكتاب الفلاني » فمددت يدي إلى موضعه من المكتبة فناولته إياه ، فأخذ يتصفحه قليلا ثم قال : « لقد وجدته ... هذا هو البيت الذي كنت أبحث عنه وتمامه . عد إلى ما كتبت من قبل لتصححه ! » وعدت إلى ما كتبت ، ورجعت النظر في الكتاب الذي بين يديّ ، فاذا تمام البيت فيما كتبت وفي الكتاب سواء ، لا يختلفان إلا في حرف الجر ... أكان فضل هذا إلى ذاكرة الرافعي ، أم إلى قوة بصره بالشعر وبأساليب البيان ؟

* * *

ولم يكتب الرافعي في هذه الفترة التي سبقت اشتغاله بالرسالة ، إلا بضع مقالات في البلاغ ؛ وكان لكل مقال حافزه وداعيه :

كان السيد حسن القاياتي يكتب في جريدة « كوكب الشرق » كلمات في موضوعات شتى من وحي الساعة وخواطر الحياة . فبدا له يوماً أن يكتب في الموازنة بين قول الله تعالى : « ولكم في القصاص حياة ... » وقول العرب : « القتل أنفى للقتل ! » فانزلق إلى رأي ... وكان محرر الكوكب في ذلك الوقت هو الدكتور طه حسين ، وهو من هو عند الرافعي في

دينه وفى أدبه وفي إيمانه بقدس القرآن ... ولم يكن الرافعى يواظب يومئذ على قراءة كوكب الشرق

وجاء البريد ذات صباح إلى الرافعى برسالة من صديقه الأستاذ محمود محمد شاكر ، يلفت نظره إلى ما كتب الأستاذ القاياتي وإلى ضلاله فى تفضيل الكلمة الجاهلية على آية القرآن .. ودفع إليَّ الرافعى برسالة الأستاذ شاكر وهو يقول : « أتصدّق هذا ؟ أيجرؤ أحد أن يقولها ، أم هى مبالغة وتهويل من محمود ؟ أم هو لم يفهم ما كتب الكاتب المسلم وحمل كلامه على غير ما يريد ؟ »

ثم بعث فى طلب الجريدة التى نشرت هذه الضلالة فجيء بها . فما كاد يقرؤها حتى اربدّ وجهه وبدا عليه الغيظ والانفعال ، ودار لسانه بين شدقيه بكلام ، ثم لم يلبث أن نهض مغضباً إلى الدار قبل موعده ، فانقطع عنى يومين ثم أرسل يستدعينى إليه ، فأملى عليَّ مقالة طويلة بعنوان : « كلمة مؤمنة فى رد كلمة كافرة ! »

وكانت مقالة من عيون مقالات الرافعى ، نشرتها البلاغ فى صفحتها الأدبية . وقد أورد فيها بضعة عشر رأياً فى بيان إعجاز الآية ومبلغها من البلاغة بإزاء الكلمة الجاهلية ، وقد جعلها من بعدُ فصلاً من شواهد كتابه « أسرار الاعجاز » الذي لم يطبع بعد ...(١)

وقرأ الأستاذ القاياتى مقال الرافعى فى الرد عليه ، فاقتنع بها فيما بينه وبين نفسه ، واعترف على نفسه فى خلوته ، ولكنه لاذ بالصمت ، وكانت كرامته الأدبية أعز عليه من كرامة القرآن ، فلم يردّ عليه ولم يعترف علانيةً بما كان من خطئه فيما ازلق إليه ..!

وفتح مقال الرافعى أبواباً من القول لطائفة من الأدباء ؛ إذ كان فيما ردّ به الرافعى أن كلمة « القتل أنفى للقتل » ليست جاهلية كما يعرف قراء العربية عامة ، ولكنها نشأت في العصر العباسى لمثل ما استعملها له الأستاذ القاياتي فى معارضة القرآن ، وأسندها مخترعها إلى حكيم الجاهلية أكثم بن صيفيّ ليتمّ له قصده ؛ وجازت دعواه على قراء العربية حتى كشف الرافعي عن زيفها بعد ألف سنة !

كان تاريخ هذه الكلمة ميداناً للقول والمعارضة أياماً بين الرافعى وبعض الأدباء ، ثم لم ينته إلى خاتمة ؛ إذ كان الذى يعارض الرافعى فى موضوعها ليس أهلاً لمناظرته ، فلم يلبث أن شمر بالإعياء من أول شوط ، فكتب إلى الرافعى رسالة خاصة فى البريد يستعفيه ويعتذر إليه أنه مشغول البال بالاستعداد للزواج ...

* * *

وفى هذه الفترة تم إنشاء « المجمع اللغوى » وكان الرافعى يمنى نفسه بأن يكون من أعضائه ، فحال بينه وبين ما يتمنى أنه لا يسمع ؛ وإن لم يمنعه أن يكون عضواً فى المجمع العلمى العربى بدمشق ، وقد اختير له هو والمرحوم حافظ بك إبراهيم قبل ذلك بسنوات ، فلم يشهد جلسة من جلسانه ، ولم يشترك فى قرار قرره ، ولم يبعث إليه برسالة واحدة فى موضوع من موضوعات العلم العربى ...

وساء رأى الرافعى فى المجمع اللغوى من يوم إنشائه ، ولم يمنعه من الحملة عليه أنه كان موعوداً بأن يُختار فيه عضواً مراسلاً كما أنبأه صديقه فارس نمر باشا عضو المجمع

وافتتح المجمع ، وكان أول محرراته الأدبية برقية بالشكر إلى المرحوم الملك فؤاد

ولقيت الرافعى ذات مساء ؛ فإذا هو يرفع إليَّ جريدة البلاغ قائلاً : « إقرأ ؛ هذا أديب صغير يهاجم المجمع اللغوي فى يوم إنشائه ، ويزعم أنه لم يستطع أن يكتب برقية بريئة من الخطأ ليشكر بها منشئه ... ! »

وقرأت ، فإذا نقد عنيف ، وتهكم مر ، وسخرية لاذعة ... كانت كلمة صغيرة ولكنها ذات شأن ، وقد اختار كاتبها أن يكون توقيعه (أديب صغير) مبالغة فى السخرية والتهكم ... وأخذ الكاتب على المجمع بضع غلطات لا يتنبه لمثلها إلا أديب دارس ، له فى العربية مكان ...

وقال الرافعى : « ماذا رأيت ؟ » قلت : « نقد مر لا يبلغ به هذا المبلغ على إيجازه إلا أديب كبير ! » قال : « فمن تظنه ؟ » وكان سؤاله مشعراً بجوابه ، ولكننى كذّبت نفسى ... أيكون هو ؟ وما يحمله على أن يخفى عنى ؟ لقد كان معي أمس ، وأمس

(١) نحسن الظن كثيراً إذا زعمنا أن هذا الكتاب الفريد فى موضوعه وفى تأليفه ، سيلقى من عناية أدباء العربية ما يحملهم على محاولة طبعه فى يوم قريب ... !

الأول ؛ فلماذا لم يحدثني بشيء فى ذلك ؟

وقلت للرافعى : « أو تعرف كاتبه ؟ » قال : « حاول أن تفكر ... لقد حاولتُ فلم أوفق ! » وكان حسبي هذه الكلمة لتزول كل شك فى نفسى ، فما كذب علىّ الرافعى قبلها قط ... ! ولم أعرف إلا بعد أيام أنه هو ...

ورد المرحوم الأستاذ حسين والى ، وعاد الرافعى يرد ويتهكم ويسخر ، ويتحدّى المجمع اللغوىّ كله أن يرشده إلى الأطوار الاجتماعية التى مرَّت بها كلمة (حظِىَ) حتى ساغ للمجمع من بعد أن يستعملها بمعنى (ظفر) فى برقية الشكر إلى جلالة الملك ... وسكت المجمع ، وسكت الأستاذ حسين والى ، وظل الرافعى (الأديب الصغير) يكتب حتى جاءه الرجاء أن يسكت فسكت !

مقالات (الأديب الصغير) فى نقد المجمع اللغوى هى آخر ما كتب الرافعى فى النقد على أسلوبه وطريقته

***

ومما كتبه فى تلك الفترة بحث طويل فى البلاغة النبوية أنشأه إجابة لدعوة الهداية الإسلامية بالعراق ، لتنشره فى ذكرى المولد النبوى . وقد لقى الرافعى من العناء فى إنشاء هذا الفصل مالا أحسب غيره يقوى عليه . وحسبك أن تعلم أن الرافعى لم يتهيأ لكتابة هذا الفصل حتى قرأ صحيح البخارى كله قراءة دارس ، وأنفق فى ذلك بضعة عشر يوماً ، وهو وقت قليل لا يتسع للقارئ العجل أن يقرأ فيه صحيح البخارى قراءة تلاوة ؛ فكيف به دارساً متمهلاً يقرأ ليتذوّق بلاغة الأسلوب ودقة المعنى ؟ ولكن ذلك ليس عجيباً من الرافعى الذى كان يقرأ كل يوم ثمانى ساعات متوالية لا يمل ، فلا ينهض عن كرسيه حتى يوجعه قلبه !

وكتب الفصل بعد ذلك فى ثلاثة أيام ، ثم دفعه إلىّ لأكتبه بخطى ولم يمله على ، فأنفقت في كتابته ثلاثة أيام أخرى

هذا الفصل يملأ نحو عشرين صفحة من صفحات الرسالة ، ويصلح أن يكون خاتمة لكتاب إعجاز القرآن — لو قدر لإعجاز القرآن أن يطبع طبعة جديدة — فإنه أشبه بموضوعه وفيه تمامه

وما فرغ الرافعى من كتابة هذا الفصل ، حتى أحس بحاجته إلى الراحة بعد ما بذل من جهد ، فأغلق دار كتبه وخرج إلى الشارع يشم الهواء ، ثم لم يكد يأتى المساء حتى جاءه البريد برسالة من جمعية الكشاف المسلم بالشام ، تطلب إليه أن يعدَّ لها موضوعاً تنشره فى صحيفتها لمناسبة المولد النبوى كذلك ... !

وضاقت أخلاق الرافعى ، فهم أن يأتى الرسالة ليفرغ لنفسه بضعة أيام للاستجمام ، ثم تحرّج ، فعادت إليه ابتسامته وهو يقول : « سأعملها قُرْبَى إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، ولو رمى بى هذا الجهد المتواصل إلى تهلكة ! » وعاد إلى مكتبه وهو متعب مكدود ... ثم أملى علىَّ مقالة « حقيقة المسلم » الذى أعاد نشره فى الرسالة بعد ذلك وجمعه إلى وحى القلم

وكتب بضع مقالات أدبية فى مجلة المقتطف

ثم دعته (الرسالة) ليكتب فصلاً عن الهجرة فى العدد الممتاز الأول لسنة ١٣٥٣هـ ، فكان ذلك أول عهده بالكتابة فيها ، ثم اتصل بها حبله ، فظل يكتب لها كل أسبوع مقالاً أو قصة من قصصه المتعة ، لا يفتر عن هذا الواجب إلا أن يمنعه المرض أو تشغله شاغلة من شواغل الحياة . ومات وهو يتهيأ لكتابة مقاله الأسبوعى لها ، ولكن القضاء عاجله فخلفه على مكتبه ورقة بيضاء .. !

« لها بقية » محمد سعيد العريان

آراء حرة ، لعلها طلائع معركة !

بين العقاد والرافعى

للأستاذ سيد قطب

— ١ —

قرأت ما كتبه الأستاذ سعيد العريان تحت هذا العنوان فى الرسالة ، كما قرأت كل ما كتبه عن «مصطفى صادق الرافعى»

قرأته تحت تأثير عامل نفسى خاص ، ذلك أنه كان لى رأى فى المرحوم صادق الرافعى ، لعل فيه شيئاً من القسوة . ولما كنت على ثقة أن هذا الرأى لم يتدخل فى تكوينه عندى أى عامل خارجى ، وإنما كان نتيجة لعدم التجاوب بين آثاره الأدبية وبينى ، فقد كنت فى حاجة لأن أسمع من أصدقاء الرافعى ما عساه يخفف شدة هذا الحكم ، ويكشف لى عن بعض حياة الرجل التى اشتركت فى تكوين أدبه ، فلعل فيها تفسيراً وتبريراً لما كنت أراه فيه ، مما يستدعى قسوة الحكم ، وشدة النفور

وكنت أخذت ألمح من كتابات الأستاذ سعيد أنه صديق له ، مطلع على الكثير من أسرار حياته ، وعوامل إنتاجه ، فقلت : اتبعه فلعلك منقلب صديقاً للرافعى أو محايداً بالنسبة له !

والقصة بين الرافعى وبينى أننى قرأت له أول ما قرأت كتابه : « حديث القمر » فأحسست بالبغضاء له . أجل بالبغضاء ، فهى أصدق كلمة تعبر عن ذلك الإحساس الذى خالجنى إذ ذاك . ولم تكن ثارت بين العقاد وبينه إذ ذاك خصومة ، ولم أكن سمعت شيئاً عنه من العقاد أوسواه ، مما قد يكون سبباً فى هذه البغضاء . ولو خالجنى هذا الشعور بعد خصومته للعقاد لوجدت بعض التفسير ، فأنا لا أنكر أننى شديد الغيرة على هذا الرجل ، شديد التعصب له ، وذلك نتيجة فهم صحيح لأدبه واقتناع عميق بفطرته ، لا يؤثر فيه أن تجف العلاقات الشخصية بينى وبينه فى بعض الأحيان

ولقد كنت أكره نفسى بعد ذلك على مطالعة الرافعى ، فتزداد كراهية لهذا اللون من الأدب ، دون أن أجد التعليل . ذلك أننى كنت إلى هذا الوقت أديباً يتذوق فحسب ، لا ناقداً يستطيع التعليل ، ويصبر على التحليل

والرجل قد مات فما تحسن القسوة عليه ، ولكن لا يصح أن يكون الموت معطلاً للنقد ، ولهذا سأتحدث عنه كما لو كان حياً ، لأن الذى يعنينى منه هو إنتاجه الأدبى ، وما يبدو من نفسه خلال هذا الانتاج

كنت أشك فى « إنسانية » هذا الرجل ، قبل أن أشك فى قيمة أدبه ؛ وكنت أزعم لبعض إخوانى فى معرض المناقشة ، أنه خواء من « النفس » . وأن ذلك سبب كراهيتى له ، ولو أننى لم أره مرة واحدة ، ولم أجلس إليه

ولذلك كان همى أن أبحث فيما كتبه الأستاذ العريان عن حياته ، لا عن أدبه ؛ وكان يهمني أن أعثر فى ثنايا هذه الحياة على « نفس » وعلى « إنسانية »

ولهذا اغتبطت ، إن لم أقل دهشت ، حينما رأيت الأستاذ سعيدا يذكر للرافعى « حباً » ويحدثنا عن مظاهر هذا الحب وخطواته . ذلك أن خيالى المنبعث من قراءتى للرافعى لم يكن يطوع لى أن ألمح إمكان وجود هذه العاطفة فى حياته ؛ فالحب يتطلب قلباً ، وكنت أزعم أن ليس للرجل قلب ؛ والحب يقتضى « إنسانية » وكنت افتقدها فيه

إلى هذا الحد كان الحكم قاسياً على الرجل ، وإلى هذا الحد كان تشاؤمى فى تقديره

ولقد ظللت هكذا حتى استطعت أن أكون ناقداً ، لا يكتفى بالتذوق والاستحسان أو الاستهجان ، ولكن يعلل ما يحس ويحلله فماذا كانت النتيجة ؟

لقد عدلت حكمى قليلا ، وخفت حدته ، ولم أعد أستشعر البغض والكراهية للرجل وأدبه ، ولكن بقى الأساس سليما

كنت أنكر عليه « الانسانية » فأصبحت أنكر عليه « الطبع » ، وكنت لا أجد عنده « الأدب الفنى » ، فأصبحت لا أجد عنده « الأدب النفسى »

الرافعى أديب معجب ، فى أدبه طلاوة وقوة ، ولكنه بعدُ أدب الذهن لا أدب الطبع ؛ فيه اللمحات الذهنية الخاطفة ، واللفتات العقلية القوية ، التى تلوح للكثيرين أدباً مغرباً عميقاً

لذيذاً ، ولكن الذى ينقصها أنه ليس وراءها ذخيرة نفسية ، ولا طبيعة حية

لم يكن يعنى الرجل فى أدبه الحقيقة الأزلية البسيطة ، بقدر ما يعنيه أن يصور الحقيقة الوقتية محكمة النسج ، رائعة المظهر ، تشبع الذهن ويستطيبها ، ولكنها لا تلمس القلب أو يسيغها

وكثيراً ما يختلط أدب الذهن وأدب الطبع ، إذا كان مع ذكاء وقوة . وما من شك أن الرافعي كان ذكيا قوى الذهن ، ولكنه كان مغلقاً من ناحية الطبع والأريحية

أترى كبير فرق بين حكم الأديب وحكم الناقد ؟

قد يكون ، ولكنهما قريبا المأخذ ، متحدا الاحساس .

* * *

وبعد فما كان يمكن أن يتفق العقاد والرافعي فى شيء ! فلكل منهما نهج لا يلتقى مع الآخر فى شيء

العقاد أديب الطبع القوى والفطرة السليمة ، والرافعي أديب الذهن الوضاء والذكاء اللماع

والعقاد متفتح النفس ريان القلب ، والرافعي مغلق من هذه الناحية متفتح العقل وحده للفتات والومضات

والطاقة العامة لكل منهما فى ناحيته متفاوتة بعد ذلك ، فطاقة العقاد النفسية أقوى من طاقة الرافعي الذهنية ، وعالم العقاد والحياة فى نظره أشمل وأرحب بكثير من العالم الذى يعيش فيه الرافعي ويبصر الدنيا على ضوئه

وإذا لم تكن كلمة اليوم تتسع لضرب الأمثال ، فستتسع الكلمات المقبلة للمثال بعد المثال

* * *

إنما يعنينى اليوم ما كتبه الأستاذ سعيد العريان !

ففيما كتبه وهو أخص أصدقاء الرافعي مصداق لكثير مما تخيلته فيه ؛ وفيما كتبه عن العقاد أشياء كثيرة تستحق المراجعة ؛ وسأبين هذا وذلك

فى إباء الرافعي أن يشترى كتاب « وحى الأربعين » مع حاجته لنقده مايشير إلى ضيق الأفق النفسى الذى كان يعيش فيه ، وتصوير للون من الحقد الصغير قلما يعيش فى « نفس » رحبة الجوانب متفتحة للحياة مستمدة لقبول صورها المختلفة المتعاقبة ؛ وهذا ما كنت أتصوره من أدبه

وفى البواعث التى تدعوه لنقد وحى الأربعين كما صورها صديقه ما يصور نظرة الرجل إلى النقد والأدب والغاية منهما ، ومدى نظرته العامة للحياة ، واتساع مداها فى نفسه ، وهو لا يبعد كثيراً عن المدى الذى تصورته له

وفى اختيار الظروف السياسية للنكاية ، دون أن يكون وراءها عقيدة ما ، إلا شفاء الحزازات ، كالمقال الذى كتبه فى الكوكب ، وكلمة وكليمة بالرسالة ما يؤيد خلو الرجل من « العقيدة » وهى الملازمة « للطبع » المفقود فى الرافعي ، فدوافعه فى الأدب لم تكن دوافع العقيدة والانطباع ، بمقدار ما هى وليدة الفكر والتوليد والماحكات

ويخطئ من يعتقد أن ما أقوله هنا مقصود به شخص الفقيد ولكنه شيء لابد منه لتقدير أدبه على حقيقته

* * *

وفيما كتبه الأستاذ سعيد عن العقاد كثير من الجهل بطبيعة العقاد ودوافعه فى الحياة ، وعوامل الكتابة فى نفسه

والأستاذ معذور فى هذا لأنه لم يختلط بالعقاد أولاً ، ولأن نفسه لم تتفتح لأدب العقاد فيفهمه ثانياً

ولقد كان يعيش فى بيئة الرافعي وجوه ، ويلوح لى من كتابته أن ذلك يلائم جوه الخاص ، ويناسب بيئته الروحية

وأول ما يخطئ فيه اعتقاده أن طعن العقاد على الرافعي من ناحيته الوطنية ، فى رده على نقد وحى الأربعين ، كان حيلة أملتها البراعة السياسية

ووجه الخطأ هو تصوير العقاد كالرافعي فى هذه الحلة النفسية وفى وسائل الصراع ، واستعمال الحيل الذهنية ، والمناسبات العارضة لكسب القضية !

والذين يفهمون العقاد لايعرفون فيه هذه الصفة . ولكنهم يعرفون طبيعة قوية مخلصة ، لا تتذرع بالحيل الذهنية ، والبراعة السياسية العارضة ، ولكنها تتذرع بنفوذ الادراك ، وعمق الاحساس ، وشمول الشعور . فاذا اتهم العقاد الرافعي بأن نقده

لوحى الأربعين منشؤه ضغينة شخصية ، وإيحاء سياسى كما فعل ، فإنما هو معتقد هذا فى صميم نفسه ، وما يعنيه ما ينال الرافعى من الناحية السياسية ، قدر ما يعنيه « كشفه » من الناحية النفسية ، وتصوير البواعث التى تهيجه لهذا النقد اللاذع

وما عن مبدأ خلق يصدر العقاد فى هذا ، ولكن عن طبع قوى يخلق المبادئ الخلقية ، ويختار منها ما يناسبه ، ويرفض مالا يرتاح إليه ، ولو تواضع الناس عليه !

ويخطئ الأستاذ سعيد كذلك فى تسمية ما كتبه العقاد فى رده شتما وسباً للرافعى ، كما أخطأ فى تسمية ما كتبه عن مخلوف سباباً وشتائم

ويبدو أننا فى حاجة لتحديد معنى السب والشتم فى لغة الأدب ، بعيداً عن لغة القانون

فى حاجة إلى بحث هذا الموضوع على ضوء من علم النفس وعلم الأخلاق وتطبيقهما على العالم الأدبى ، فطالما سمعت وصف الكلام بهذين الوصفين ، مستمداً هذا الوصف من ألفاظ الكلام دون بحث أسبابه ، والحالة التى يعالجها

وطبيعى أن الحكم على الكلام وحده ، مجرداً عن بواعثه وملابساته حكم شكلى ، إن أرضى ذوى المواهب الذهنية ، فلن يرضى ذوى المواهب النفسية ؛ وإن أرضى العقل فلن يرضى القلب

وفى هذا عودة إلى الفوارق الأساسية بين مدرسة العقاد ومدرسة الرافعى !

كتب الرافعى عن وحى الأربعين كلاماً يعترف الأستاذ ببواعثه الأصلية ، والعقاد يعرف هذا ، ويعتقد فى صفات الرجل النفسية ، وفى نصيبه من الطبع السليم والفهم المتفتح أشد مما أعتقد أنا . ودواعيه لذلك الاعتقاد كثيرة ومفهومة ، فإذا كتب يصور الرافعى كما هو فى خيال العقاد ، وكما هو فى الحقيقة ، فليس الذنب ذنب العقاد فى قسوته ، فإنما هو يصور حقيقة ، أو على الأقل ما يعتقد هو أنه حقيقة

وإذا كتب عن « مخلوف » يتهكم به ، ويشنع بسوء فهمه للأدب ، فبعث ذلك عظم الفرق بين طاقة العقاد وطاقة مخلوف ، والحنق على أن يكون مثل هذا ناقداً لمثل ذاك

والحق أن هذا مما تضيق به الصدور . وقد كنت أنا لا العقاد مستمداً للثورة والحنق ، لو تناول بعض هؤلاء أدبى بمثل هذا الضيق فى الفهم ، والاستغلاق فى الشعور ، أو بمثل التلاعبات الذهنية ، واللفات البهلوانية ، التى تناولوا بها أدب العقاد

ثم لا بد من عتب على الأستاذ سعيد فى أن يسمح لصداقته للرافعى أن تعدو على التقدير الصحيح للعقاد ، فيعرض بلقب « أمير الشعراء » الذى « ينحله » الدكتور طه حسين بك للعقاد « تملقاً » للشعب ونزولا على هواه

وما أريد أن أبحث عن بواعث الدكتور طه لإطلاق هذا اللقب ، فصلتى بالدكتور لا تزال حتى اليوم لا تسمح لى بتفسير حقيقة بواعثه . والحكم على النيات عمل عسير لا يصح الاستخفاف به ، ولكننى أتحدث عن مظهر هذا التصرف لا عن باعثه . ورأيى أن هذا اللقب غير لائق بالعقاد ، لأن المسافة بينه وبين شعراء العربية فى هذا العصر أوسع من المسافة بين السوقة والأمراء

وإننى لأكررها مرة أخرى ، وأعنيها فى معرض الحقائق الواقعة لا معرض الجدل والمناقشة

قد يكون هناك كتاب يتقاربون مع العقاد ، ولكن ليس هناك شعراء فى لغة العرب يتقاربون مع العقاد

ولقد كنت هممت بإصدار بحث عن الشعراء المعاصرين ، ونظرت فى أدب جميع الشعراء الأحياء — وأنا من بينهم — ولكن عاقنى عن إصداره أن لم أجد نقط اتصال بين العقاد الذى سأكتب عنه أولاً ، وبين جميع الآخرين من الشعراء

الفرق هائل جداً ، وأكبر مما يتصوره الأكثرون ، بين طاقة هذا الشاعر والطاقات الأخرى

وسيغضب لقولتى هذه كثير من أصدقائى الشعراء المعاصرين ، ولكنهم ليسوا أكرم على من نفسى ، وأنا حسن الظن بشعرى ، — وليعذرنى أنصار مبدأ التواضع — ولكننى حين أضعه أمام شعر العقاد يتلاشى ، وتحتبس نفسى عن التعبير حتى يسكن صدى شعر العقاد فى نفسى !

هذه كلمة حق وعقيدة . وسأتولى شرح الأمثلة التى تثبت كل ما أسلفته من آراء

(حلوان) سيد قطب

الرئيس الوزير إدوار هريو
رجل الأدب

بمناسبة زيارته لمصر

للأستاذ عبد العزيز عزت



هناك ثالوث من المعارف لا تنفصم أجزاؤه، إذا تحقق فى رجل كانت له صفة الإنسانية الخالدة! هذا الثالوث هو الفلسفة والسياسة والأدب؛ ذلك لأن الفلسفة تصقل الفكر إلى درجة يرتفع بها عن اضطراب مفردات الوجود الجزئية، إلى نوع من التجريد العقلى تنفذ به القريحة إلى صميم الأصول التى تحدد الأشياء فى جوهرها الدائم، واقعية كانت أم فرضية. والسياسة ضرب من المعرفة أخطأ مكيافللى فى تعريفها حين قال: «إنها وسيلة للكذب والخداع»؛ لأنها عند المفكر الأول للبشرية أفلاطون الالهى — إذ استعرنا لغة الفارابى — : هى وسيلة لتحقيق منطق العالم فى مجال عالم الاجتماع الإنسانى، فيسوده نوع من الانسجام يوجب استقرار النظام فيه؛ وتتحقق فيه «ذروة» الكمال فتستقيم حياة الإنسان. لهذا كانت السياسة هى بيت القصيد فى فلسفة أفلاطون، وكانت «المدينة» كنظام اجتماعى — إذا استعرنا لغة فستيل دى كولانج — هى المحور الأساسى الذى تدور حوله فلسفات الإغريق فى العهد القديم. والأدب، يكفى لتعريفه أن يلق القارئ نظرة إلى جدول موضوعاته فى مؤخر كتاب العلامة الكبير لانسون عن «الأدب الفرنسى» ليرى انفهاق نواحيه والتى فى صلبها الفلسفة والسياسة؛ وذلك لأن الأديب يجب أن يعيش لتحقيق فكرة معينة فى مجتمع معين، وتأكيد مذهب ونزعة واضحة فى الفكر لا يحيد عن دعمها مرة واحدة فى بلد من البلاد، وإلا كان قلمه رخيصاً لا قيمة لما يسطره فى أسواق الأدب الرفيع؛ لأن الأدب إذا قام على العجز فى الإبصار والإدراك بمعنى أن يذهب الأديب إلى ترديد «الماضى» دون أن تدفع به عين التفكير فى حركتها إلى الأمام، كان أدبه مستذلاً تسوده النزعة التاريخية، لا يبصر قارئوه أبعد من أنوفهم؛ وإذا نظروا خلال ذلك الأدب لن يروا أمامهم إلا سراباً. وثانياً ينتاب هذا الأدب العجز فى الإدراك بمعنى انعدام الخلق الوطنى فيه، بأن يعمد واضعوه إلى تقليد الأجانب فى أدبهم معتمدين فى ذلك على الترجمة والاقتباس، فيكون بذلك أدبا «قردياً» كله المحاكاة والتنافر مع أول إحساسات أهل الوطن، لأن الأدب كأساس نتاج فكرى يتعلق بالمشاعر والمواطف، فهو خاص له لون معين يشتق من طبائع الأمم ومميزاتها. (إقرأ كتاب فكتور هوجو وعنوانه «الأدب والفلسفة» وأيضاً ما كتبته مدام دى ستايل عن الأدب والسياسة)

فالفلسفة، والسياسة، والأدب، تتميز بعضها عن بعض ولكنها لا تنفصل، «كالمثلث» إذا ضاع أحد أضلاعه، انعدمت وحدة الوجود الهندسى فيه. كذلك «الرجل» بالمعنى الأدبى هو ذلك الهيكل الفكرى الذى تحقق فيه المعارف الثلاث. وليس فى عصرنا هذا رجل يتمثل فى شخصه ثالوث هذه المعارف الثلاث وانسجامها كالرئيس هريو، فهو بحق رجل الفلسفة والسياسة والأدب

أما عن فلسفته: فذهب يسمى إليها عند مفكر مصرى هو فيلون الأسكندري الذى جعل منه موضوعاً لكتاب طريف يمثله فى حياته الأولى. وفى دراسته هذا الفيلسوف أكبر دليل على تحقق صفة الرجولة والإنسانية فيه، لأن فيلون يوحد فى شخصه وفى انسجام تام عناصر فكرية مختلفة النزعات، فهو يهودى النشأة، مصري الشاعر، يونانى الثقافة. هو عالَم مستقل بذاته يتوسط بين العالم اليونانى القديم، وبين عالم التفكير فى القرون الوسطى. ففى دراسته إلمام بما تقدم وما تأخر من

المعارف فى تطور التفكير عند بنى الإنسان حتى ظهور العهد الحديث . وفى دراسته أيضاً توفيق بين الإلهام والعقل وبين عالم الشهادة وعالم القداسة ، وبين الفلسفة والدين ، وبين العقلية اليونانية والعقلية الشرقية . وبفضله أصبحت الأسكندرية العامرة ، منارة العلم ومنبع النور فى الايمان والتجريد الفكرى . فاهتمام الرئيس هريو بفيلسوف كهذا يدل على مبلغ ما هو عليــه من العلم الغزير وسعة الاطلاع ، وحاسة « توحيد ما اختلف » مما ساعده وأهله ليكون رئيساً لمجلس النواب الفرنسى يقيم الانسجام بين ما تباين من نزعات الأحزاب ، وأهواء السياسة ، وجموح مناقشاتها المسيرة ، لتسير فى هدوء إلى سبيل الحق الذى يعلو على شهوات التخصيص الضيق فى أصول الحكم

وهو في كتابه هذا يعرض أولاً لمقارنة يهودية التوراة فى عهد فلسطين بالمعتقدات اليونانية ، ثم مقارنة يهودية الأسكندرية — وكفرع — بنفس تلك المعتقدات الإغريقيــة ؛ وفى موضع ثالث يتطرق إلى تحليل منهج فيلون وآرائه الثابتة فى مجال الإلهيات ، فيعرض لنظرية التأليه عنده ، وتحديد فهمه لطبيعة الأفكار والأعداد ، ويثبت تأثره بفلسفة الفيثاغوريين ؛ ثم ينتقل بالكلام أو شرح جوهر النفس وتشعب نشاطها ، وعلى الخصوص وصف حياتها « القابلة » التى تتمثل فى انفعالاتها وشهواتها الثائرة المريضة ، ثم يعرض إلى مذهبه فى الأخلاق وطبائع الفضائل وأصول التخلق فى الحياة وما بعد الحياة ، ثم يشرح أخيراً آراءه فى السياسة ، فينقد مبادئ الاستبداد والتزعم الجامح

وأما عن أدبه : فهو أدب بنى على النبل والورع ؛ لم يقصد به فرض وهم فى الزعامة على الأدب فى فرنسا ، لأنه يعرف أن الزعامة تاج يكلل به الناس رؤوس من يتوسمون فيهم أهلية هذه الزعامة ، فهى « تسعى » إليهم ، دون أن تفرض على الناس فرضاً . وهذه الزعامة لم تقم يوماً ما على الغرور الفكرى ، ولا على مهاجمة الناس فى معتقداتهم وأديانهم ؛ ولم يكن التجديد فى الأدب يوماً هو الانسلاخ عن تراث الآباء والأجداد والذهاب لما يمجه ذوق البلاد من التواء وغموض فى التصور عند الفرنجة ، وإنما هو الاقرار بفضل من تقدم من السلف الصالح ، وفهم الحاضر الفكرى فهما يكفل الانتاج العقلى فى المستقبل القريب . فبهذا تحفظ روح الأمة ومشاعرها ، صافية من غير امتزاج ، وتسير إلى الأمام فى غير ما ترقيع ولا ابتذال

لهذا ذهب الرئيس هريو إلى أدب قومه ، واختار من بين فتراته حقبة من الزمان هى الحد الفاصل بين نوعين فى الأدب الفرنسى : نزعة المحافظة على القديم التى تتمثل فى أدب القرن السابع عشر الميلادى عند راسين ومليير وبوالو ، ونزعة « الإصلاح » فيه عند كتاب القرن الثامن عشر مثل روسو وفلتير ومنسكيو . هذه النزعة الثانية نزعة « حربية » لم تنسجم وطبيعة التفكير الأدبى ، فقضت على الأدب « الرفيع » بثورتها ؛ لأن مجاله أصبح مهزلة لتراشق خطباء الثورة بما يمجه كل ذوق أدبى سليم ، ويأباه كل عُرف فى التصور والتأدب . وقضت عاصفة السياسة على الاستقرار الأدبى ، وحرمته الخضوع لمذهب واحــد معين يمثل مشاعر أمة واحدة معينة ، له لونه وصبغته الخاصة ، وأصبحت أقلام الأدباء كسهم الريح فى أعلى المنــازل تعصف به الزوابع فى كل اتجاه ، فهى تباع وتشــترى بيع الأنقاض فى أسواق السلع البائــة ، تدور وتتذبذب فى سائر الأحزاب ، دون استقرار محدود على مبدأ واحد ثابت لا يتغير

هــذه الفترة التى ذهب إليها الرئيس هريو هى مبدأ القرن التاســع عشر ، إذ هدأت عاصفة الثورة الفرنسية بأدبهــا « الوهمى » وإذ ابتدأ ظهور المذهب الرومانتيكى أى « التخصيص فى الأدب » (بمعنى أن يكون للأديب مســحته الخاصة الغالبة وحريته الكاملة فى تصوير وتســطير ما يشاء ويهوى ، دون أن يخضع مثلاً لقانون الوحدات الثلاث الذى نجده مثلاً عند راسين ، والذى يتأثر هو فيه بتعاليم اليونان ، وخاصــة أصول « التراجيدى » عند أرسطو وسوفكليس وأوربيدس فى العهد اليونانى القديم) ، بفضل ما كتبه شاتوبريان ، وعلى الخصوص الشاعر الخالد فكتور هوجو فى « مقدمته » لرواية كرمويل .

واختار الرئيس هريو من أدباء هذه الفترة مدام دي روكامييه ، كموضوع لرسالته الكبيرة لدكتوراه الدولة ، ومدام دى ستايل ، كموضوع لرسالته الصغيرة

كانت الرسالة الأولى من الضخامة بحيث طبعت فى جزئين ،

واضطر الرئيس « هريو » أن يعيد طبعها « مخفضة » عند « بايو » لتكون فى متناول كل قارئ مثقف ، بعد أن حذف كثيراً من « الهوامش » التى ما كانت فى واقع الأمر إلا « زينة » فى رسائل مدرسة السربون ، وغرضه الأول فيها لم يقتصر على دراسة هذه الأديبة وتحليل شخصيتها فى ذاتها ، بل كان مع ذلك دراسة الروح العامة للأدب فى ذلك الزمان ، وحل المناسبات الاجتماعية التى ساهمت فى نضوجها الفكرى . وليس أدل على صحة كلامنا من عنوان الرسالة نفسها وهو : « السيدة ركامييه وأصدقاؤها » . والغرض الثانى إثبات أثر مدينة ليون التى ولدت فيها هذه السيدة فى تكوينها الأدبى ، والحياة الأدبية لهذه المدينة خلال ما كتبته



هى عنها فى زياراتها المتعددة لها فى ذلك العهد . والغرض الثالث هو شرح أهمية اتصالها بمؤسس مذهب الرومانتيزم شاتوبريان وما كان له من الأثر فى توجيه تفكيرها الأدبى والسياسى

والرسالة الثانية ، تعرض للصداقة المتينة التى كانت بين السيدتين ركامييه ، ودى ستايل ، واتحادهما فى نزعة العداء ضد مبادئ نابليون بونابارت . فهي رسالة تبحث أيضاً في أدب نفس ذلك العهد وفى نفس الجو الأدبى ؛ غير أنها تمتاز بكونها شرحا لبعض مخطوط لم يطبع حتى ذلك التاريخ ، يوجد في المكتبة الأهلية بباريس فى نحو ٢٩٧ صفحة بعنوان « منتخبات لآراء سياسية » فيها تعرض مدام دى ستايل عن « حلمها » السياسى وهو إمكان تحوير مبادئ الدستور القائم إبان ذلك ، وإحلال جمهورية تثبت على أصول العقل . ففى القسم الأول من هذه « المنتخبات » تشرح مبادئ الثورة والشروط اللازمة لتحقيق مبادئها . وفى الجزء الثانى تعرض للأصول العامة العقلية لإمكان تحقيق الجمهورية . وفى القسم الأخير تبسط أهمية أصول العقل فى تغيير الحالة العامة فى فرنسا فى ذلك الحين . فهى بهذا المخطوط تكتب على طريقة أفلاطون فى « جمهوريته » فترسم فرضاً سياسياً وإن كان يسوده الخيال ، إلا أنه مع ذلك يحدد لنا نزعاتها الخاصة فى الحكم ، وكيف أنها تميل فى نزعاتها إلى نوع معين من الديمقراطية لا نبنى مباشرة على مبادئ الثورة الفرنسية بل على أصول التفكير والعقل الخالص

أما عن سياسته : فنقول إن السياسيين فى أغلب أمم الأرض فى زماننا هذا هم أكثر الناس جهلا بالسياسة وأصولها ، وهذا الجهل راجع فى نظرى إلى أن السياسة أصبحت مجالاً للدجل والتهريج لا يطرق بابها إلا أصحاب الفراغ والجدة فى كل شيء . ومن ادعى من رجالها العلم والفهم فى مجالها ، رجع فى علمه وفهمه هذا إلى مفكرى العصر الحديث ، أولئك الذين يشرعون باسم المادة والاقتصاد ، مع أن السياسة عند أهلها من آباء التفكير وخاصة أفلاطون الإلهى ، تقوم على فهم طبيعة الانسان الخاصة وتخلقه . لهذا كانت السياسة هى بيت القصيد فى الفلسفات القديمة وكانت تتضمن دراسة هـذا العلم ، ودراسة الآداب ، وعلى الخصوص دراسة الأخلاق ؛ وكان لا يمكن أن يسمى الرجل « سياسياً » إلا إذا بلغ الخمسين من عمره ، بعد أن عرك الحياة ووقف نظرياً وعملياً على طبائع الناس وتضارب ميولهم ، وتباين تخلقاتهم ، وأضاف إلى علمه بجوار منطق العقل ، منطق الحياة . أما اليوم فهى لا تلم إلا « القش » « والرماد » فى كل هيئة اجتماعية من الذين يؤمنون بما يوحى إليهم رجل كمكيافلى أن السياسة هى « مكر ولؤم وخداع » ، عوضاً من أن تكون « فلسفة ، وأدبا ، وأخلاقا »

لهذا كان الرئيس هريوليس من المحدثين فى السياسة ، لأنه يسير وتعاليم اليونان القدماء ، فهو لم يتعجل أن يطرق بابها ، فيصيبه ما يصيب أهلها الآن من ابتسامات تقديرية لو فهمها الرجال

منهم لاحمرت لها وجوههم . فبعد أن مهد لنفسه النضوج الفكرى بثقافة جامعة وافية فى الفلسفة والأدب ، طرق مجال الخدمة الاجتماعية عملياً فى عمادة مدينة ليون ، فأثبت ماهو أهل له من العلم ، وإحكام الادارة ، وتصريف أمور الحياة بين الناس ، حتى إذا كان فى نحو الأربعين من عمره انتخب مباشرة عضواً فى مجلس الشيوخ الفرنسى عن منطقة الرون ، متخطياً مجلس النواب ، فكان أصغر عضو في ذلك المجلس عام ١٩١٢ ؛ ثم تطرق بعد ذلك إلى منصب الوزارة ، ثم إلى رياسة الوزراء ، ثم إلي رياسة النواب ، فكان فى كل مرحلة منها « الفيلسوف العادل » ، « الموحد لما اختلف » . ولعب بجوار ذلك دوراً لا يستهان به فى تنظيم الحياة لداخلية لأمته إبان الحرب العظمى عندما ولاه الرئيس الوزير بريان وزارة الأشغال والمواصلات والمؤونة ؛ ويمكن أن يتصور خطر هذا المنصب ، والقتال قائم على قدم وساق

وباعتباره « عمدة » لمدينة ليون ، يكفى هذا أن يرفع نظر المصريين إليه ، لأن لهم فيها ذكريات تتعلق بتاريخهم فى العهد الحديث . فالرجل الذى قاد الجنود المصرية فى ساحة الوغى ، وأثبت للعالم سمو الروح الحربية عند المصريين ، ووضع أسس الامبراطورية المصرية ، هو القائد سيف Sêve أو سليمان باشا الفرنساوى الذى ترك وطنه فى مدينة « ليون » ، بعد انهزام نابليون ، ليعمل لحساب مؤسس الأسرة العلوية الكريمة ، فكان عند حسن ظن محمد على باشا فيه ؛ فحقق ما رسم له خالق مصر الحديثة ومشيد عظمتها . كذلك ساهمت ليون بعلمائها الأعلام وعلى الخصوص الأستاذ لامبير فى خلق مدرسة للفكر فى مصر تتمثل فى ذلك الشباب النابه الذى ورد شرعة العلم من سنين فى هذه المدينة ، والذين أصبحوا الآن من قادة الفكر فى مصر ، فى الفلسفة الإسلامية ، وفى عمادة الحقوق ، وفى بطولة المحاكم المختلطة ، وفى زعامة المحاماة والثقافة . والجيل فى أمر هذه المدرسة ، أن أهلها يعملون على إعلاء كلمة الوطن فى نبل وهدوء وورع ، دون أن يتخذوا من العلم سبيلا وضيماً لمهاجمة معتقدات أهل البلاد ودينها ، وتصويرها فى حفلات عامة كقبائل المتوحشين لا هم لساكنيها إلا التفكير فى المأكل والمشرب كما يفعل هذا الكثير من متخرجى السربون وجامعة باريس ، وهو ما لا يليق بشباب يدعى الثقافة والفهم ، ومكتوب على جواز سفره أنه « مصرى » ! ؟

عبد العزيز عزت
عضو بعثة الجامعة المصرية لدكتوراه الدولة

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ١٦ —

خرجت من منزل ليلى نشوان ، نشوان إلى حد الجنون . والمرء فى العراق لا يكون إلا فى حالين اثنين : حال تحدثه فيه النفس بالغرق فى دجلة من الفرح ، وحال تحدثه فيه النفس بالغرق فى دجلة من الغيظ . فالمرء فى العراق إما أن يكون سعيداً كل السعادة ، وإما أن يكون شقياً كل الشقاء

وكذلك حال ليلاى ، فهى قد ترقّ وتلطُف فأدخل دارها بُعَيْد الغروب ولا أخرج إلا قُبَيْل الشروق ؛ وقد تقسو وتعنف فتطردنى من دارها بلا ترفق ولا إشفاق

خرجت من منزل ليلى نشوان ، فقد رضيتُ عنها ورضيتْ عنى ، ولكن الحادث الأخير ترك فى القلب عقابيل ، فأخذت أحترس ، وهل يتفق الحب والاحتراس ؟

نعم يتفق الحب والاحتراس ، ولكن يضيع النعيم . فالمحب المحترس يثق بنفسه ، ولكنه لا يثق بمن يحب ... وليلى بدأت تعد ذنوبى ولكن من أى تاريخ ؟ منذ اليوم الذي اطمأنت فيه إلى عودة العافية !

فمن أنا في دنياى ؟ من أنا فى دنياى ؟

لقد كنت أرجو أن تعمى ليلى عن عيوبى ، ولكن هكذا كنت فى حياتى ، فما أذكر أبداً أنى عانيت الظلم إلا على أيدى ناس أحببتهم واستقتلت فى الدفاع عنهم . كنت كالسيف يلقيه صاحبه بعد أن يفله القتال . كنت كالغصن المثمر يؤخذ للوقود بعد انتهاب ما يحمل من ثمرات . كنت وكنت ، فما أشقانى وما أعظم بلائى !

كذلك دار رأسى وأنا ماض إلى قطار البصرة . وما أدرى كيف صاغ الله عقلى على هذه الصورة ، فعقلى لا يغفو أبداً ؛ وهو دائب على الدرس والتحليل ، وليس من الزهو أن أذكر أن أعظم ما يساورنى من المعضلات الفلسفية أهتدى إلى حله فى أحلامى ،

والمسيو ماسينيون يذكر ذلك ، فقد كانت لى معه مواقف يوم كنت تلميذه فى باريس

أمسيت أحقد على ليلى ، ولكن لا بأس ، فقد وثقت بى ، واطمأنت إلى ، فأخذت تصادق من أصادق ، وتمادى من أعادى ؛ وليس ذلك بالقليل ، فما الذى يمنع من أن أحتمل مايثور فى صدرها أحياناً من براكين ؟

أليست عراقية ؟

بلى ، هى عراقية

وأنا رأيت الأعاجيب فى العراق

فمنذ ليال أويت إلى فراشى فى منتصف الليل والسماء صاحية ، ثم انتبهت على الروع والفزع ، فقد كان المنزل ترج سقوفه وحيطانه بعنف ، فأوقدت المصباح وأنا خائف أترقب ، ثم عرفت بعد التأمل أن الصحو أعقبه غيم ومطر وصواعق

ولما خرجت فى الصباح رأيت الشمس آست ما جرح الليل ، وكأن لم يكن شىء !

ذلك هو العراق

وكذلك تكون ليلاى فى العراق

فما الذى يمنع من الصبر على دلالها أو أذاها شهراً أو شهرين حتى تملّ هى من النضال ؟

إن بعض المرضى يحبهم أن يثوروا على الأطباء . ومن واجب الطبيب أن يرحب بمثل هذه الثورة ، لأنها بشير العافية . وستذكر ليلى أنى كنت من الصابرين ، وأنى منحتها عطف المحب ورفق الطبيب ! ولن أفارق بغداد قبل أن تبذل فى سبيلى غاليات المدامع ، إن كتب الله أن تأخذ عن طبيبها أدب الصدق والوفاء

لن أنساك ياليلى فقد عادَيتُ فيك وعُوديت

وأحمل فى ليلى لقوم ضغينــةً وتُحمل فى ليلى علىَّ الضغائنُ

ولكن هل تفهمين أو تعقلين ؟

أما والله لو تجدين وجدى جمحتِ إلىَّ خالعــة العذار

* * *

كانت هــذه الخواطر السود تنتاش قلبى وأنا فى طريقى إلى المحطة ، ثم تفجر الحنان فى قلبى على غير انتظار ، فقــد سمعت المذياع يرسل هذه التغريدة رحمة للقلوب

« ليه تلاوعينى ، وانت نور عينى »

وهى من تغاريد أم كلثوم ، وكأنى أسمعها أول مرة ، فرجعت على نفسى باللوم وقلت : كذلك يكون العقاب ! وهممت بالرجوع إلى ليلى لأقول :

« ليه تلاوعينى ، وانت نور عينى »

ولكن تذكرت أن الوقت لايتسع للقيام بواجبين فى وقت واحد : عتاب ليلى وملاقاة صاحبة العينين التى أرجو أن أدفع بوجهها المشرق وحشة الطريق وظلام الليل

ودار ذهنى يحاور ويجادل :

— كيف تشرك بليلى هذا الإشراك ؟

— أنا أشرك بليلى ؟ معاذ الحب !

والحق أنى أشرك بهوى ليلى ، ولكن هذا الشرك هو طريق إلى التوحيد . أنا أحب جميع الملاح لأهيِّئ قلبى لحب ليلى . أحب من أجلها كل ما فى الوجود ، وأصفح من أجلها عن جميع الذنوب

وصاحبة العينين ستسألنى عن ليلى ؛ والسؤال عن ليلى ، من ذلك اللسان الألثغ اللجلاج هو فى ذاته زُلـفى إلى ليلى . وأنا أيضاً رجل مكروب تضيق به دنياه ، والضلال فى هوى العيون قد ينسينى كروبى؛ وليلى يسرها أن أعيش أطيب العيش ، وهى تعرف أنى لا أحيا بغير الحب والنسيم ، شفاها الله وشفانى

طوّفت بجميع أرجاء المحطة لأرى صاحبة العينين ، ومارأيت صاحبة العينين

فتشت جميع دواوين القطار لأرى صاحبة العينين ، ومارأيت صاحبة العينين

ورأى حيرتى ناظر المحطة فقال فى تلطف : ضاع منك شىء ؟

فقلت : لا ، ما ضاع منى شىء ، وإنما أخاف وحشة الطريق وظلام الليل

فتعجب الرجل من هذا الجواب المضحك وانصرف

فهل رأى الناس حالاً مثل حالى ؟ هل رأوا من قبلى رجلاً يرحِّب بالشِّرك فيعزّ عليه الشرك ؟

إن الحب يريد أن أذهب إلى البصرة وليس فى قلبى غير ليلاى

* * *

وكان لى فى القطار رفيقان : أولهما الدكتور عبد المجيد القصاب ، وهو طبيب يمثل عذوبة الروح ، وصفاء القلب ، وهو من خيرة الذين عرفتهم فى العراق ، وثانيهما السيد ظالم وهو صحفى أديب لانعرف في صحبته ضجر السفر ولاطول الطريق ، وليس فيه غير عيب واحد هو التجنى على الموسيقار محمد عبد الوهاب والفناء المطلق في أغانى أم كلثوم

جلس حضرته يدندن ، ولـكن كيف ؟ بعد أن لبس عباءة فضفاضة جعلته نسخة من سلطان زنجبار

وأمسى ديواننا فى القطار قريب الشبه بالغرفة التى يجلس فيها أحمد رامى بدار الـكتب المصرية ، الغرفة التى ترقّ فيهـا الدندنة وتشتبك حتى لتحسبها خيوط العنكبوت ، الغرفة الجذابة التى يحرم دخولها على أحمد الزين ثم يحلّ ويباح لمن يسألون عن رباعيات الخيام أو تأملات لامرتين

وظالم ورامى يشتركان فى صفات كثيرة أهمها تشويه الوجه ورخامة الصوت

— يا سيد ظالم !

— نعم ، ياسيدنا البيه !

— هلم بنا إلى العشاء

— عشاء إيه ، انت عاوز تخرب جيبك ؟

— أخرب جيبى ؟ وكيف ؟

— العشاء فى القطار غال جداً

واعترض الدكتور القصاب فقال : أما يسرك أن تصنع مثل الذى كنت تصنع فى قطار ليون ؟

— لا بأس إذاً تنتظر إلى أن يقف القطار فى المحطة المقبلة

وفى المحطة تقدمت فلاحة في خمار أسود ومعها ماعون هائل من اللبن الرائب ، فاشتريناه بعشرة فلوس ، وتقدم طفل ، وفى يده رغيفان ؛ فساومناه ، فاشتط فى الثمن ، فقاومناه ، فقبض على الرغيفين بأسنانه والقطار يمشى ، فرميناه بعشرة فلوس وانتزعنامن أسنانه الرغيفين ! !

ما أظرف العبث فى قطار البصرة وما أحلاه ؟

وفهم الرفيقان أنى ميت من الجوع فلم يأخذا من الطعام غير لقمتين

وما كاد الطعام يستقر فى جوفى حتى هجم النوم هجوماً لم أشهد مثله منذ أعوام طوال ، فعرفت أن ذلك اللبن الرائب أراح أعصابى ، وهى أعصاب أرهقها النضال وسهر الليالى

اتكأت على المرفقة ونمت وأنا جالس ، نوماً شهياً جداً ، ولم يعكر نومى غير الجدل السياسى الذى أثاره الدكتور القصاب مع رفيق غاب عنى اسمه ، وكانا يتحدثان عن المعارك الحزبية فى دمشق

وفى تلك الغفوة الشهية صاح صديق :

دكتور ، دكتور ، أنظر ، أنظر ، أنظر

فنظرت من نافذة القطار فاذا صاحبة العينين فى سيارة مغروزة فى الوحل

وهممت بالنزول من القطار لأرى هذه المرأة كيف أنفع فى الشدائد !

ثم تذكرت أننى أيضاً فى سيارة مغروزة فى الشوك ، هى سيارة الحب

ونظرت إلىّ المرأة نظرة الملهوف

ونظرت إليها نظرة الغريق

نظرتْ ونظرتُ ، ثم نظرتْ ونظرتُ

وأنقذ القطار الموقف فسار لا يلوى على شيء

— دكتور ، دكتور

— نعم ، نعم

— أنظر ، أنظر

ففتحت عينىّ فاذا الشمس أشرقت وإذا سرب من الظباء الوحشية يجول فى البيداء ، وهى أول مرة أرى فيها الظباء الوحشية ذات الأجياد والعيون

أتكون هذه الظباء الوحشية هى البشير بالاقتراب من الظباء الأنسية ؟

هو ذلك ، فلم يبق بيننا وبين الأنس بوجوه أهل البصرة غير ساعتين

* * *

الله أكبر ولله الحمد !

هذه هى البصرة ، هذه هي البصرة ، وما تخوننى عيناى

هذا هو البلد الطيب ، بلد المبرد ، المبرد صاحب الـكامل فى اللغة والأدب والنحو والتصريف

وبفضل الكامل للمبرد وصلت إلى منصب الأستاذية في الأدب العربي ؛ وبفضل الكامل للمبرد صحبتُ الشيخ سيد المرصفي سبع سنين ؛ وبفضل الكامل للمبرد استطاعت القاهرة أن تزاحم البصرة ، فسيذكر التاريخ أن الأزهر جاس على حصيره الممزق رجل أعلم من المبرد ، هو الشيخ سيد المرصفي أستاذي وأستاذ الأساتذة طه حسين وعلى عبد الرازق وأحمد حسن الزيات ، وأول أستاذ تصدر لتدريس الأدب بالأزهر في العصر الحديث

الله أكبر ولله الحمد !

هذه هي البصرة ذات النخيل

هذه هي المدينة التي تجري من تحتها الأنهار

هذه شقيقة الفيوم ، على أزهاره وأشواكه أذكى التحيات

هذه هي البصرة ، وما تخونني عيناي

فاذا قيل إن منظر القناطر الخيرية على النيل منظر لا ثاني له في الوجود ؛

وإذا قيل إن شواطئ الاسكندرية في الصيف لا ثاني لها في الوجود ؛

وإذا قيل إن حيّ الشانزليزيه في باريس لا ثاني له في الوجود ؛

وإذا قيل إن السهل الذي تصادفه بعد الانحدار من جبل لبنان منظر لا ثاني له في الوجود ؛

وإذا قيل إن مفترق الطرق بين شارع عماد الدين وشارع فؤاد شيء يفوق الظنون ؛

وإذا قيل إن الغبوق بمصر الجديدة والصبوح بالزمالك نعيم يذكّر بنعيم الفراديس ؛

وإذا قيل إن صبايا المنصورة لها مذاق لاثاني له في عالم الجمال ؛

وإذا قيل إن مناظر الكروم في بوردو لاشبيه لها ولامثيل ؛

وإذا قيل إن بني المصريين بعضهم على بعض معنى فريد في الوجود ؛

وإذا قيل إن قبة الجامعة المصرية أعظم قباب الشرق ؛

وإذا قيل إن زكي مبارك أسعد من استصبح بظلام الليل في بغداد ؛

إذا قيل ذلك أو بعض ذلك فاعرف أن مدينة البصرة هي شيء فريد في دنيا الشرق ، ودنيا الغرب . هي غريبة الغرائب ، وأعجوبة الأعاجيب . هي فوق الأوهام والظنون ، وإن جهلها فريق من أهل العراق

ما هذه المدينة ؟ ما هيه ؟

لقد استأنست كل الاستئناس حين عرفت أن اللغة العربية لا تزال تسيطر على مثل هذا الثغر الجميل

لقد كبرت وهللت حين رأيت وطن المبرد والجاحظ والحسن البصري وإخوان الصفاء

لقد كبرت وهللت حين عرفت أن للعروبة مواطن لا تقل روعة عن القناطر الخيرية

ثم غلبني الحزن حين تذكرت أن مناظر شط العرب تشبه مناظر القناطر الخيرية في الحظ . فمن شط العرب تغافل الشعراء ، وعن القناطر الخيرية تغافل الشعراء

ليس على شط العرب قصور ، وليس على القناطر الخيرية قصور .

الله أكبر ولله الحمد !

هذا طريق النخيل ، وهو صورة أروع من غابة بولونيا ، ولكن أين الظباء ؟

وهؤلاء البصريون وفي عيونهم السحر الحرام أو الحلال ، ولكن أين الشعراء ؟

* * *

عرفت في البصرة رجلين :

الأول هو السيد تحسين علي ، حاكم البصرة ، أو متصرف البصرة

والسيد تحسين عليّ هو مَلَك في صورة إنسان

هو تحفة من الأريحية العربية التي جاد بها الله على الوجود

السيد تحسين عليّ هو الشاهد على أن شعراء العرب لم يكونوا في مدائحهم من الكاذبين

السيد تحسين عليّ هو الخليق بأن يقال فيه أطهر من الماء ، وأرق من الهواء

السيد تحسين عليّ هو مجموعة من الخلائق والطباع : فيه أدب مصطفى عبد الرازق ، وتباله محمد العشماوي ، وتغافل منصور فهمي ، وطيبة محمد جاد المولى ، وسماحة علي الزنكلوني ، وذكاء لطفي السيد ، وسذاجة زكي مبارك ، وعقل زكي مبارك ، إن كان له عقل !

وبفضل السيد تحسين على عرفت من البصرة في يومين ما لا يعرفه غيري في سنين

أكتب هذا والدمع في عيني ، فالدنيا ألأم وأغدر من أن تسمح لي بملاقاة هذا الرجل مرة ثانية . فإن كان هذا آخر العهد فحسبي من الوفاء أن أسجل ثنائي عليه في هذه المذكرات ، ولها قراء يعدون بالألوف

يا سيد تحسين

سلام عليك ، سلام رجل مصري يحفظ عهد العراق

أما الصديق الثاني فهو الدكتور عبد الحميد الطوخي ، وما أدري إلى أي بلد أضيف هذا الطبيب ، فقد عرف المنصورة وشبين الكوم والقاهرة وبغداد والبصرة والموصل ، فهو بالاختصار رجل مخضرم : فيه رقة المنصورة وأدب شبين الكوم وعقل القاهرة وذكاء بغداد وظرف الموصل وكرم البصرة ، هو شخصية دولية يحسب لها المنصف ألف حساب

وبفضل هذا الطبيب قضيت يومين في ابتسام ، فقد ترك سيارته تحت تصرفي يومين ، وكانت فرصة تذكرت فيها الزميل الغالي على الجارم بك ، فمهدي به يهرب مني ، لأني كنت أرجو أن ينقلني بسيارته من وزارة المعارف إلي محطة المترو ، وكان ذكاؤه يسعفه بالهرب مني ، فكان يقول : يا دكتور زكي ، أنا رائح عند العشماوي بك ، ثم يروح ولا يعود !

ولما قدم الجارم بك بغداد كنت أنتظر أن ينتفع بخبرتي فيسألني عن الحياة العلمية والأدبية والفلسفية ، ولكنه لم يسألني إلا عن شيء واحد ؛ لم يسألني والله العظيم إلا عن أسعار البنزين في بغداد ! !

* * *

نحن في البصرة

إي والله ، نحن في البصرة

وفي تلك المدينة تسأل سيدة نبيلة عن طبيب ليلى المريضة في العراق

وتطلب أن تراني وحدي ، فأذهب إليها وحدي ولا يكون معنا ثالث غير زوجها الشهم النبيل

ويدوم المجلس ساعات وساعات في جدل هو أنضر وأشرف ما عرفت العقول

وتجرى على لسان تلك السيدة ألفاظ يوحيها روحها الشفاف فيبتسم زوجها وهو جذلان

وفي غمرة تلك النشوة أنظر ساعتي فأرى الموعد اقترب للمحاضرة التي دعاني إليها سعادة الأستاذ عبد الرزاق ابراهيم مدير المعارف بالبصرة . وتمد تلك السيدة يدها لتوديعي فأبكي لأني لا أضمن الرجوع إلي البصرة ، أنا الطائر الغريب الذي لم ينعم في البصرة بغير سواد العيون في غفوة الزمان ، وهو لا يغفو في العمر كله غير دقائق

وبعد لحظات أكون في نادي البصرة فأرى الناس في انتظاري بالمئات ، إن لم أقل بالألوف . وهناك أرى فتاة جميلة هي بنت عمة ليلى ، فتسرع إلى لقائي بعد انتهاء المحاضرة وهي تقول :

حافظ على شبابك يا دكتور ، فاني أخشى أن يودي التأليف بشبابك

فأتلطف وأقول : لا تخافي على شبابي يا بنيتي ، فهو باق ما بقيت عيون الظباء

وتشجع الفتاة فتقول : أخشى أن يقتلك التأليف !

فأتشجع وأقول : لا تخافي عليّ يابنيتي فأنا لا أخاف الموت ، وإنما يخافني الموت

ويروعها ذلك فتقول : وكيف ؟

فأجيب : لأن الموت جبان وهو يخشى أن أكتب ضده في الجرائد والمجلات !

* * *

أفي الحق أنني زرت البصرة ورأيت شط العرب ، ونعمت بكرم السيد تحسين على ، ومروءة الدكتور عبد الحميد الطوخي ، وأدب السيد عبد الرزاق ابراهيم ، ورأيت بنت عمة ليلى ، وشربت الشاي في منزل السيدة التي تغار من ليلى ؟

لا تصدق ذلك يا قارىء هذه المذكرات ، فتلك أحلام رأيتها في نومي ولن تعود

إن سمعت أيها القارىء أن جرائد البصرة اعتركت في سبيلي أسابيع وأسابيع فلا تصدق

إن سمعت أيها القارىء أنني كحلت عينيّ بتراب البصرة فلا تصدق

إن سمعت أيها القارئ أنني عرفت السيد تحسين علي فلا تصدق

إن سمعت أنني زرت قريبات ليلى فى البصرة فلا تصدق

إن سمعت أنني ألقيت فى البصرة محاضرة سمعها مئات أو ألوف فلا تصدق

إن سمعت أن حاكم البصرة ودعني على المحطة فلا تصدق

إن سمعت أنني عانقت عشرين نخلة فى البصرة فلا تصدق

إن سمعت أن أنهار البصرة داعبتني بالمدّ والجزر فلا تصدق

إن سمعت بأن أسماك شط العرب قبلت يدي وخدي فلا تصدق

إن سمعت بأني لم أنفق درهماً واحداً فى البصرة فلا تصدق

إن سمعت أن البصرة هدتني بعد ضلال فلا تصدق

إن سمعت أنني ودعت البصرة بالدمع السخين فلا تصدق

أيها القارئ!

أنا ما رأيت البصرة، ولا رآني أهل البصرة؛

وشاهد ذلك أنني لا أزال في عقلي؛ ولو أنني رأيت البصرة لخبلني حسنها فأصبحت من المجانين

أيها القارئ!

أما سمعت أنني أخترع الأقاصيص؟ فلتعرف أن زيارة البصرة من تلك الأقاصيص

متى أعود إليك أيتها البصرة مرة ثانية؟ متى أعود؟ متى أعود؟

« للحديث شجون » زكى مبارك

التاريخ فى سير أبطاله

ابراهام لنـــكولن

هدية الأحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

— ٩ —

يا شباب الوادى! خذوا المعانى المعظمة فى نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامى العظيم



وكان لنكولن يرى فى هذا الطواف مدرسته التي يتلمس فيها المعرفة وأي معرفة هو أحق بها من دراسة طباع الناس والوقوف من كثب على أحوالهم بل والنفاذ إلى سرائرهم وخلجات نفوسهم؟ أى معرفة هو أحق بها من هذه وهو فى غد رئيس الولايات ومحطم الأصفاد؟

لذلك كان فى طوافه إذا فرغ من عمله يغشى المجالس وينطلق إلى البلاد القريبة فيسمع ويري، ويأخذ بقسط من الأحاديث، ويدلى برأيه إذا عن له أن يبدى آراءه فى أمر ويستفهم الناس ويسألهم عن أمانيهم؛ وله مما يأتى إليه من القضايا هاد يرشده فى تطلعه وتقصيه

ويظل هذا شأنه حتى ينتهي دور المحكمة فيعود إلى سبرنجفيلد وتنظر زوجه فاذا هو يدخل الباب وفى عينيه الحنين إلى زوجه وأولاده ، وفى أساريره من البشر بقدر ما في جيبه من المال ؛ ثم يدفع إليها بعظلة قديمة مهلهلة حائلة الصبغة يمسكها بعضها إلي بعض بخيوط ورقع ، ويلقى إليها حقيبة اتخذها من رقعة بساط قديم بها من الأوراق ما ضاقت عنها جيوبه وما صغرت دونها قبعته ، ويقبل على بنيه فيرفعهم على كتفيه وذراعه كالعملاق وهم فرحون يتسابقون إلى محادثته حتى لتضيع كلماتهم فيما يثيرون من زياط ، وأمهم تكظم الغيظ لهذا الخروج على النظام

وكانت مدرسته فى المدينة إذا فرغ من قضاياه الكتب يستوحيها ، وإن له فيها لغنية ومتعة . وما تلك الكتب التى يقرأ اليوم ؟ إنه شكسبير العظيم الذى رفع المرآة فانعكست فيها الطبيعة واضحة سافرة كأتم ما يكون الوضوح والذى مست ومضة من عبقريته القلب البشرى فأنارت أكثر نواحيه ، وهو مولع منذ حداثته بدراسة النفس البشرية والنور إلى أعماقها ، ومن غير شكسبير يهديه السبيل ؟ لذلك كان إذا تناول كتاباً من كتب القانون ساعة أو بعض ساعة ثم ألقاه عمد إلى مأساة أوملهاة من آثار شكسبير فأكب عليها ونسى كل شيء سواها ؛ فاذا أتى عليها فكر وفكر وظل شاخصاً ببصره فى ثرى الأرض أو فى لازورد السماء كأنما أخذته عن نفسه حال ...

وكانت له في بعض آثار بيرون متعة ، ومن بينها قصته العظيمة « دوجوان » وهو بين هذا وذاك يقلب صفحات التاريخ العام وصفحات تاريخ بلاده يستزيدها معرفة بأحوال الأمم ويرى فيها خطى البشرية فى شتى مراحلها . أو ليس الزمان يسير به ليضعه بعد سنوات على رأس أمته ؟

ومن عجيب أمر هذا المصامى أنه تناول فيما تناول من الكتب كتب العلوم وأخذ يدرسها وقد جعل لها ساعات من فراغه ، فهذا علم النبات له نصيب من جهده ، وذاك علم الحيوان له نصيب ، ثم هذه الكهربة تصيب من عنايته حظاً ليس باليسير !

ولكن فيم العجب ؟ وهل تضيق العبقرية عن شيء ؟ انى وإن كنت أسلم بما للبيئة من خطر وبما للميل النفسى من أثر فى توجيه المرء ، أعتقد أن العبقرية إنما هي فوق ذلك ، وأن العبقرى مهما تناول من الأعمال فانما ينفذ إلى لبابها بقوة نفسه . وهذا لنكولن لو لم يكن المحامي أو رجل السياسة ما قعد به شيء عن أن يكون الشاعر الفحل ! أو لو أنه أفرغ إلى العلم جهده وجعل للدراسة والتحصيل وقته لكان لنا منه العالم الفذ أو الفيلسوف المبتدع . ولقد تأتى له أن يقول الشعر فى بعض المناسبات فجاء شعره صورة من نفسه تشعرك ببساطة العظمة والسمو

وإنك لتحس الشعر فى نفسه وتراه ينظر إلى الحياة والناس نظرة الشاعر ؛ ولكن خياله لا يطغي على عقله كما أن عقله لا يأتى على نوازع قلبه . وإنى أراه فى ذلك أكثر الناس شبهاً بجوت شاعر ألمانيا الأكبر ، ذلك الذى كان يجمع بين اللمعة الخيالية والنظرة العلمية والحكمة العملية ...

وكان ابراهام قد بلغ أشده واستوى ، وأخذت نظرته إلى الحياة والناس تزداد عمقاً وهو فى أول العقد الخامس ؛ وصار يحس كأن شيئاً يقلقه ، شيئاً خفيًّا لا يدرك كنهه يقلقه ويحرك نفسه وينقبض له صدره أحياناً ؛ فهل أخذت السياسة تدب فى نفسه من جديد فهو يتأهب ويتحفز ؟

ولاحظ أصحابه أن أمارات الحزن التى ارتسمت على وجهه منذ حداثته أخذت تزداد وضوحاً ، فهو على الرغم من عذوبة روحه فى أحاديثه وطلاقة بشره فى قصصه ، تنطوى نفسه على كثير من الهم لا يعرف مبعثه ؛ وهو إذا خلا إلى نفسه فكر وأمعن فى التفكير ، وقد تربَّد وجهه وانعقدت عليه كآبة مخيفة ينزعج لها خاطر من يراه ؛ وكثيراً ما وافاه صديقه هرندن وهو على هذه الحال ؛ وكثيراً ما سمعه يغمغم بمثل أنين المحزون ...

وهو يدعى منذ زمن « أبى العجوز » أطلقها عليه الناس وهو فى ريعان فتوته وربيع حياته ، وذلك لما كان يظهر على وجهه من تجاعيد هي من أثر الهم لا من أثر السنين ؛ وكان يسره أن يستمع هذا الاسم الجديد كما كان يسره أن يسمعهم يدعونه باسمه الآخر « أبى الأمين »

ما باله اليوم مهموماً وقد بسط الله له رزقه كثيراً حتى لقد باتت تجدى عليه المحاماة — على قناعة فى الأجر — ما يزيد على خمسمائة من الجنيهات كل عام ؟ أجل ما باله مهموماً وقد استطاع أن يلقى عن كاهله ذلك العبء الذى آده حمله زماناً ، فلقد خرج

من الدين الأهلي ؟ يا ويح نفسه من هذا الهم الدفين الذي يتزيد منه على الأيام ...

ليس غير السياسة يلقي بنفسه في غمرتها لتقوم أحداثها بين نفسه وبين همومها . ليس غير السياسة تشغله عن وساوسه وتباعد بينه وبين امرأته التي ما برحت تنغصه وتضايقه في غير موجب

إن زوجه تعيش اليوم من وراء كده في رغد ؛ فهو يلقي إليها كل ما تصل إليه يده لا يسألها إلا أن تدفع له ثمن ما يطلب من الأشياء وهي قليلة ؛ وما كانت له بالمال حاجة وهو الذي لا يعرف أبهة المظهر ولا تغتره شهوات الحياة . حسبه من المال مايسد به رمقه ويستر به جسده ، وأمر ذلك موكول إلى امرأته ؛ ثم ما يفرج به الكرب عن بعض المساكين وهو يفعل ذلك في كثير من الأحيان على كره منها . أما هي فلا ترضى بغير فراهة المظهر وأناقة المنظر ؛ تروح وتغدو في مركبة هي اليوم بعض ما تملك ، وما رأى الناس زوجها في تلك المركبة قط ؛ وتلبس من الثياب ما تحكي به أهل باريس ، وتقتني من الأثاث ما تدل به على كثير من الزوجات ... تفعل ذلك وإن كان زوجها ليطلع على الناس في حلل تطاول عليها العهد وقبعة متضعضعة متغضنة ؛ على أنها تراه في ذلك هو الملوم ، فهي مازالت تهيب به أن يغير من عاداته وأن يعنى بهندامه ، وهو لا يحفل إلا النظافة ، حتى أنها لم تجد بداً آخر الأمر من أن تسكت وهي كارهة ...

ولقد كان يهرب من المنزل أكثر الوقت ، فيقضي النهار كله في محل عمله أو يقضي طرفاً منه في أنحاء المدينة في بعض المنتديات أو في بعض الحوانيت ، يتحدث إلى هذا ويسأل ذاك عن حاله ، ويستشيره هؤلاء في أمر قضائي ، وينعقد غيرهم حوله حلقة يتساقطون فيها الحديث ، ثم يعود إلى منزله فيمضي الوقت في القراءة أو في ملاعبة أولاده ؛ وإنه ليحذر في هذه الملاعبة أن تدخل زوجه الحجرة فجأة فتراهم يركبون ظهره وهو يزحف بهم على البساط ، فتصرخ وتمكر عليهم صفوهم !

عجيب أمر تلك المرأة التي تحب بعلها وتعلي قدره ثم هي لا تفتأ تمد له من أسباب الشحناء والشقاق ما يخيل إليه أنها تبغضه ، لولا أنه يعتقد أنها ما اختارته زوجاً — على الرغم مما وقع يومئذ منه في حقها — إلا لما تضمر من محبته والإعجاب به ...

دخلت عليه مرة ومعه رجل من أصحابه ، فسألته عن أمر كانت طلبت إليه قضاءه ، فلما علمت أنه لم يقضه عنفته وولت محنقة فجذبت الباب وراءها فأحدث ضجة مزعجة ؛ ونظر لنكولن إلى صاحبه وقد قرأ في وجهه الدهش ، فقال وهو يبتسم ليخفي بابتسامته ما به : إن الأمر هين ، وإن هذه عادة امرأته مردها إلى حدة مزاجها ولن يكربه ما فعلت بالباب فلعله يكفكف من حدتها

هذا طرف من حياة لنكولن في سبرنجفيلد بعد أن عاد من وشنجطون ، وبعد أن انتهت الدورة الثامنة لطواف الهيئة القضائية في تلك الأصقاع ؛ وإنه ليتطلب مخرجاً من هذه المدينة وما كان له من مخرج إلا أن تستثيره السياسة من جديد ...

وآن للسياسة أن تدعوه إليها ، وقدر لتلك الدعوة أن تجيء عن معضلة العبيد ، فلقد بانت تلك المعضلة وهي كبرى المسائل القومية لامناص من مواجهتها إذ صارت تحمل في تضاعيفها كل ماعداها من المسائل

ازداد ثراء أهل الشمال بسبب الصناعة ، واتسع نطاق التعليم عندهم ، وقوي نفوذهم وتسامت إلى الحياة نظرتهم ، لذلك شاعت في الشمال حركة الدعوة إلى تحرير العبيد وتعالت أصوات الداعين واشتدت على الأخص حركة النادين بألا يسمح بعد بانتشار العبيد في ولايات جديدة

وبقي أهل الجنوب أهل كسل وخمول ، لا تزال حياتهم تقوم على الزراعة ، والزراعة عندهم تقوم على أيدي العبيد ، وازداد طلب القطن فاشتدت الحاجة إلى العبيد ؛ لذلك ازدادت في الجنوب حركة التمسك بالعبيد ، واشتدت على الأخص حركة النادين بوجوب السماح للعبيد بالانتشار فيما عساه أن يضم إلى الاتحاد من ولايات

وماذا يخيف أهل الشمال من انتشار العبيد ؟ إن للمسألة وجهاً آخر إلى جانب الوجوه الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية ، وجهاً لا يقل خطره إن لم يزد عن هاتيك الوجوه ؛ وذلك أن التمثيل النيابي في أحد مجلسي الاتحاد ، وهو المجلس الأدنى ، كان قائماً كما رسم الدستور على قاعدة لمسألة العبيد فيها دخل كبير ؛ وذلك أن كل ولاية كانت ترسل إلى ذلك المجلس من الممثلين عدداً يصغر أو يكبر حسب عدد سكانها . ومن عجب الأمور أن العبيد ، ولم يكن

لهم حق فى شىء حتى فى أنفسهم ، قد أقيم لهم وزن فى هذا الباب فقيس عدد السكان فى الولايات بما يقطنها من بيض وعبيد على أن يعد كل خمس من العبيد بثلاثة من البيض ؛ ومعنى هذا أن انتشار العبيد يزيد عدد ممثلى الولايات الجنوبية فى المجلس الأدنى للاتحاد ؛ أما فى المجلس الأعلى (مجلس الشيوخ) فكان يمثل كل ولاية عضوان صغرت تلك الولاية أو كبرت ...

ولقد كان أهل الشمال فى الأصل أكثر عدداً من أهل الجنوب فكانت لهم بذلك أغلبية فى المجلس ولكنها كانت أغلبية صغيرة ؛ ولقد أخذ عددهم يزداد كما ذكرنا فظلت لهم الغلبة ؛ ولكن أهل الجنوب يريدونها أن تكون لهم ولن يتسنى لهم ذلك إلا بانتشار العبيد

لذلك نرى أن معضلة العبيد كبرى المعضلات وأنها ناجمة من عوامل أساسية ترجع إلى كيان الاتحاد نفسه ولمن تكون السيطرة فيه : لأهل الشمال أم لأهل الجنوب ؟ وهما قسمان متباينان مزقت بينهما عوامل البيئة ، هذا إلى ما فى المعضلة من عناصر خلقية إنسانية لها نصيبها من الخطر والاعتبار

ولما تقدمت بالاتحاد السنون أصبحت مسألة العبيد بحيث أن أدنى اضطراب فيها يؤدى إلى زلزلة فى هيكل الاتحاد كله ! ولقد فطن قادة الرأى إلى ذلك من أمر بعيد ، وذلك حينما انضمت ولاية جديدة هى ولاية مسُّورى إلى الاتحاد عام ١٨٢٠ ولنكولن يومئذ فى الثانية عشرة ، فلقد أصدر المجلس قراراً خطير الشأن عرف باسم « اتفاق مِسُّورى » ، ومؤداه أنه لا يسمح بانتشار العبيد شمال خط عرض ٣٦ أعنى أن هذا الخط يفصل بين الولايات التى يسمح فيها بنظام العبيد والولايات التى يحظر فيها ذلك النظام

منذ ذلك اليوم يعمل الساسة على توطيد هذا الاتفاق وكان من أكبر الداعين إلى مراعاته دوجلاس ذلك الذى رأيناه منذ أعوام يجلس إلى جانب لنكولن نائباً فى مجلس مقاطعة ألينوس . ومما يذكر له فى هذا الصدد قوله : « إن هذا الاتفاق أبدى وجوهرى »

ولقد رأينا فيما سلف كيف كان دوجلاس ينافس ابراهام وهو يمد عينيه إلى الهدف ، ورأينا كيف كان يأخذ الطريق على منافسه فى كل شىء . وها هو ذا اليوم وله فى الحزب الديمقراطى مركز الصدارة ، يرج البلاد رجة عنيفة بخطوة جريئة من خطواته طلبت ولاية واسعة فى الشمال الغربى هى ولاية نبراسكنْسيكا إلى الاتحاد أن يضمها إليه ، فسرعان ما عادت مسألة العبيد إلى الظهور كما عادت من قبل فى عدة حوادث وآخرها أخذ تكساس من المكسيك

عادت المشكلة وتفاقمت ، فهذه الولاية تقع شمال خط عرض ٣٦ ومع ذلك قام رجال الحزب الديمقراطى يدعون إلى جعلها ولاية من ولايات العبيد ! ولا تسل عما قام فى الشمال إزاء ذلك من هياج وغضب ونفور ، وهنا يخطو دوجلاس خطوته فيعلن أن قيام العبيد فى ولاية أو عدم قيامهم أمر يجب أن يترك الخيار فيه إلى الولاية نفسها ولا عبرة بعد ذلك برأى مجلس الاتحاد . بذل دوجلاس كل ما فى وسعه وهو يومئذ عضو فى مجلس الشيوخ حتى أصدر المجلس قراراً بذلك ، على الرغم من اتفاق مسورى وعلى الرغم من تصايح أهل الشمال وانزعاجهم

وسرت فى الشمال موجة من الهياج والسخط لن يصفها كلام ؛ ورأى كل من له حظ من الفكر أن هذا القرار الذى بذل دوجلاس ما فى وسعه لاستصداره هو الجمرة التى سوف تتوهج بعد حين فتندلع منها نيران الحرب الأهلية . ولقد كانت هذه الخطوة من جانب دوجلاس ، وما أعقبها من حوادث ، سبباً فى عودة لنكولن كرة أخرى إلى ميدان السياسة وقام بين الرجلين من جديد جلاد وصراع

« يتبع » الخفيف

تطور الحركة الأدبية
في فرنسا الحديثة(١)

فردناند برونتيير F. BRUNETIÈRE

١٨٩٤ — ١٩٠٦

للأستاذ خليل هنداوى

— ٣ —

خلال العوالم النفسية

إن علم النفس — في كلا العصرين الدرسى والابداعى — لم يصل إلى القول بأن كل شيء فى النفس الانسانية واضح جلى . وكورني وديكارت يؤمنان بهذا الوضوح . أما راسين ومدام ثايت وروسو فلا يؤمنون إيمانهما

يقول هرميون لأوريست :

— من قال لك ... إننى قلت لك إننى قتلت (پاروس) ولكن هذا ليس إلا جزءاً من نفسى الذى أبغضه وأريد نسيانه وأريد جزءاً آخر يقول عكس هذا

والأميرة (كلاڤ) لا تعرف ولا تريد أن تعرف لماذا لم تحب (كلاڤ) ولماذا أحبت (آخر) بدلا منه . إنها تناضل ولكنها لا تستطيع أن تفسر أسباب هذا النضال

أصحاب المدرسة الابداعية قد أحبوا الأهواء المضطربة ، وملأوا رواياتهم بالمشاعر المظلمة ، والنفوس التى يناقض بعضها بعضاً ، ولم يجهلوا أن كل شخص إنما هو عالم بذاته بل جملة عوالم مختلفة . ولكن هؤلاء كأولئك قد جربوا أن يعملوا من هذه العوالم عوالم عقلية حيث يمكن النفاذ بوضوح من الأعمال إلى الأسباب . وقد أعطوا أمثلة على ذلك أسلوبهم الذى يعبر ـ بنظام عن الفوضى ـ وبوضوح عن التشويش

وهكذا كان علم النفس فى المدرسة الاتباعية واضحاً لأنه يرى أن كل شيء يمر بالنفس ، وكل شيء فى النفس بالشعور . وبين المادتين — سواء تماسكا أو اتحدا — يمكن دائماً أن نجد مذهباً واضحاً قابلا للتحليل . ولكن هذه النظرية (الديكارتية) قد تحورت فى القرن الثامن عشر (إذ ليس الإنسان ما يريد أن يكونه ، أو ما تسمح له نفسه بأن يكون . فالمادة تعمل فيه وتؤثر فيه وهو يحتمل تأثير المناخ والبيئة ، وهو يخضع لجسده ولكل ما يؤثر فى جسده . وإن للمناخ والوسط تأثيراً كافياً وباستطاعتهما أن يغالبا الطبع الذاتى ، ناهيك بأن التأثيرات التى تأتى من الجسد هى حالات وصدف تفر من كل منطق ، ولقد تكون حياتنا الباطنة — فى كثير من مواطنها — خالية من العقل

فالورائة التى جعل منها ـ زولا ـ قاعدة علم النفس تستطيع أن ترتب الحوادث النفسية على حوادث سابقة . وأصحاب هذا المذهب يخضعون التحليل العلمى للمنطق العقلى ، ويرجعون الحوادث النفسية لحالات عضوية خاضعة لنظم المادة . ولكن هذه المادية قد حطمت والتحليل العلمى قد نوقش فكان صبيانياً !

وها هنا تظهر مبادئ علم النفس الدرسى التى ظن أنها تهدمت . فان بعض علماء ماوراء الطبيعة من الألمان — كشوبنهاور وهارتمان — جربوا بأن يقولوا : ان العالم لا يُقاد بالعقل ، وإنما يقاد بالإرادة دون ان تحسب حساب نفسها ، ودون أن تقلق لكونها حقة منطقية . ولقد كان لفلسفة « شوبنهاور » تأثير ذائع فى فرنسا حول سنة ١٨٨٠ وهى ولا ريب تمت بصلة الى علم ما وراء الطبيعة . ولكنها تعتمد فى كثير من أصولها على نظريات نفسية طبية .

فإن آثار العالم — شاركو — ١٨٧٠ — ١٨٩٠ تعمل على إثبات النظرية القائلة بأنه يمكن أن ينشأ فى العقل من موضوع واحد أفكار وإرادات مجهولة لا يعيها العقل الواعى ؛ ولكنها تؤثر فى الجسم تأثيراً أشد وأوسع مدى من تأثيره

والعالم — ريبو — بدرسه لأمراض الذاكرة والإرادة يثبت أن فينا — ذاكرات — لانعيها ولكنها تحيا فى أنفسنا منتحية بعيدة ، وباستطاعة داء ما أن يوقظها ويحييها . (وبطرس جانى) أقر بأنه يمكن فى المكان الواحد أن تقيم نفوس متعددة ، كل نفس لها عالمها ، وكل نفس تظهر بدورها . والفلاسفة أنفسهم يغادرون العالم الواعى ويفتشون عن المسائل الكبرى فى عالم غير واع حيث لا سلطة للعقل ولا للمنطق . والطبيب الكبير

(١) عن الأستاذ « دانيال مورنى »

(فرويد) انطلق إلى دراسة الغريزة الجنسية وقال : ان فينا كائنين ، كائناً طبيعياً يلائم طبيعتنا ، وكائناً سطحياً يأتى بتأثير التربية والمجتمع . وشعورنا لا يريد أن يعرف إلا الثانى ، ولكن الأول هو الذى يبقى قادراً قاهراً . وهو الذى يطلب إلينا فى أعماق أنفسنا حركة أو حلماً أو جنوناً أو جريمة . وهذا التحليل النفسى — فى عدم الوعى — لا يبقى مغلولاً فى درس الحالات الشاذة . والفيلسوف — برغسون — يجد أن الشعور أو الوعى إن هو إلا جزء من كوننا العقلى وليس له دور لتحليل شىء أو عمله أو تفهمه . دوره دور عملى ... وهو يوضح فى بعض الأحيان نقطة الأشياء التى يجب أن نعمل عليها ، والناحية من الفكر الذى يستطيع أن يعمل . ولكن عقلنا وشخصيتنا قد يفوقان هذا القسم غير الواعى . وعند برغسون وغيره من الفلاسفة يصبح غير الواعى شكلا من الحياة الروحية ، والينبوع الخفى العريض العميق حيث تجرى رقة حياتنا الواعية المنطقية ... ونحو هذا الينبوع اتجه الرمزيون — منذ أعوام — والروائيون

المؤثرات الأجنبية فى الأدب الفرنسى

لم تكن رواية تولستوى ودوستوفسكى رواية رمزية ولا مبهمة ولا رواية لاشعورية . على أنها في بعض نواحيها تحمل طابع الثقافة الفرنسية المدرسية على أنها أثرت فى الطريقة التى جاءت بها الرمزية . فأشخاصها — ولا سيما أشخاص تولستوى — هم أقل اعتناء بالأفكار من المثل الأعلى ، وأقل ضجراً فى تحليل أنفسهم من أن يجدوا فى أنفسهم بساطة عميقة . ويظهر أنهم يجهدون النفوس ليتفوقوا على ذواتهم الفكرة المعقدة ليبلغوا ذاتاً بسيطة غريزية حيث يجدون سبب حياتهم . فعقلهم وإرادتهم الفكرة تعترضهما اندفاعات لذة عابرة يحتملانها بتوبيخ ولذة . هذه رواية نفوس ابتدائية أو وحى نفوس قد تكون كثيرة الدعوة إلى المثل الأعلى ، ولكنها عاجزة عن إيجاد مثلها الأعلى فى الثقافة العقلية

وهنالك تأثير (إبسن) ورواياته المسرحية ! فى مسرحياته موضوعات شديدة عنيفة لأنه كتب فى بلد ذى تقاليد راسخة ، وأخلاق مفرطة . عمل (ابسن) على تحرير الفرد من حالة خانقة ومن أنانية متسيطرة . أراد أن يحيا الانسان حياته فلا تكون المرأة عبدة للرجل ولا الأبناء عبيداً للآباء والأجداد . وهذه الموضوعات كانت سبب نجاح (ابسن) وقد لا يكون فيها مايغرى كثيراً ولكن فى (ابسن) شيئاً وعبقرية . فان أشخاصه فى الوقت الذى يعرفون فيه بوضوح ما ذا يريدون ، وعند ما يفهمون أنفسهم ، ويتفاهمون ما بينهم تراهم لا يحللون أنفسهم ، ولا يتناجون ما بينهم محللين أنفسهم كالأشخاص فى المسرح المدرسى والحساب الذى يحملونه منهم يبدأ ثم ينتهى قصيراً . ولقد يخونون أنفسهم وقد تكون هذه الخيانة اندفاعية . وعملهم لا يظهر إلا لكى يعبر عن ضجرهم ، وكثيراً ما لا يفهمون أنفسهم ، ولا يفهمهم غيرهم . يشعرون بأنهم وحدهم ويحسون أنهم منقادون بما لا يُعرف نحو ما لا يُعرف فى خباية من الأسرار والحرقة مما لا يندى منه الرواية إلا قليلاً . ثم يأتى زمان يحسون فيه رموزاً — رموزاً لا أفكارا صافية ، ولكنها هادئة لا مضطربة . الحياة ليست خلاله منتظمة ولكنها معكوسة فيه كثيراً ، والفن أو عدم الفن يشدد تأثير العمق والأسرار

« يتلى » خليل هنداوى

في عيد الربيع

البعث*

للأستاذ محمود الخفيف

خالِسِ الزَّهرَ في مُتوعِ نهارهْ   واستشِفَّ الخفيَّ من أسرارهْ
مُدَّ عينيكَ في مطارفه الخضـ   ـرِ مَليًّا واستشعِرِ الحسنَ وانشَقْ
نفحةَ الخلدِ من شذى نُوّارهْ

هو ذا البعثُ هزَّ كلَّ مكانٍ   ومشى في الرياض جمَّ المعاني!
أطلِقِ النفسَ في مواكب آذا   رَ وغيِّبْ وساوسَ القلبِ واطرحْ
خلجاتِ الهمومِ في تيّارهْ

سرِّحِ العينَ هل ترى غيرَ بِشْرٍ   ونماءٍ في كلِّ وادٍ وسِحْرٍ؟
والنِّباعِ وطيلسانٍ ووَشْيٍ   وتهاويلَ تلمحُ النفسُ فيها
من معاني الربيع رُوحَ ابتكاره

الضحى زاخرٌ بفيضِ الحياةْ   والروابي مِسكيّةُ النسماتِ
تنهلُ النفسُ من جمالٍ وعطرٍ   وسنًا ساحرٍ تُطيفُ بروحي
لمعُ الوحيِ من وراء ستاره!

يقظةٌ في الرياض توقِظُ حِسّي   وطُيوفٌ بها تملَّكُ نفسي
يخفقُ القلبُ للجمال ويهفو   للضحى مثلَ زهرةٍ نبَّهتها
نفحاتٌ من دِفئِه وازدهاره

نثرةٌ ها هنا ونقشٌ بديعٌ   واتساقٌ هُنا وحشدٌ جميعٌ
زينةٌ صاغها الربيعُ فنونًا   هيَ في العينِ بهجةٌ وهي لحنٌ
ملكَ القلبَ واستوى في قراره

زهراتٌ فيهنَّ يغرقُ طرْفي   تتحدّى ألوانُها كلَّ وصفِ
طاف بالنفس عندهنَّ شعورٌ   أين منه البيانُ؟ أين القوافي؟
أين نورُ الصباحِ من أنواره؟!

خطراتٌ تميلُ بي للسجودِ   ورؤًى من وراء هذا الوجود!
شاع في نفسيَ الجلالُ ومسَّتْ   من هدى الباريءِ المصوِّرِ قلبي
لمحاتٌ تُشتامُ في آثاره

يا رُبوعًا أفوافُها سحرتني   زحمةُ الحسنِ حولَها شغلتني!
تتبارى جموعُها باسماتٍ   وادعاتٍ في زهوها خفِراتِ
شاقها للربيع طولُ انتظاره

املأي القلبَ من حديثِ الشبابِ   وأفانينِ لهوِهِ المستطابِ
إيه يا زهرةَ البنفسجِ هاتي   ما تحفظينـــه وأفيضي
من حديث الهوى ومن أخباره

وصِفي يا ورودُ وردَ الخدودِ   ورُواءَ الصِّبا وطهرَ الوعودِ
هيهِ! هذا الرفيفُ هاجَ فؤادي   هاتِ! هاتِ الحديثَ حلوًا نديًّا
كنسيمِ الربيعِ في أسحاره

صوِّري لي من الجمال الشفاها   حالماتٍ رفَّتْ عليها مُناها
هدهدي القلبَ بالثغورِ الأقاحي   روِّحيه بهمسةٍ من عتابِ
كم عصرتُ السُّلافَ من قيثاره

العصافيرُ في العِشاشِ تغنّي   ما أرى مثلَ لحنِها أيَّ لحنِ
فرحٌ صادقٌ ولهوٌ غريرٌ   وهناءٌ ونشــوةٌ وزِياطُ
يرغبُ القلبُ بينها عن وقاره!

واليماماتُ قد ذكرنَ الهديلا   فنظمنَ الغناءَ لحنًا جميـــلا
ناعماتٍ في أيكها خافضاتِ   يملأُ السمعَ من غناها حنينٌ
لو حكى العودُ شجوَه لم يجاره

والفراشُ الطروبُ حلوُ الطوافِ   في الربا، في البطاح، حولَ الضفافِ
حائمٌ خافقٌ بعيدٌ قريبٌ   جَدَّ في الروضِ سابحًا وتهاوى
حائرًا بين زهره وثمـــاره

فرحةٌ هزَّ سحرُها كلَّ حيٍّ   صُغتُ لحني من لحنها العبقريِّ
تتوالى الأيامُ كرًّا ويبقى   سحرُ هذا الجمالِ يُبهجُ نفسي
كلما طاف طائفٌ من نهاره

هالِ.ها(*) يا بواسمَ الزهراتِ!   هالِ.ها. يا سواجعَ الأيكِ هاتي!
ما غدٌ؟ هذه الهنيهةُ حسبي   واعظًا، بتُّ بعدَه لا أبالي
بصروف الزمان أو أكداره

الخفيف

* بدأت في مستهل الربيع وحالت دون إتمامها شواغل حتى جاء نشرها في عيد من أعياده

* نستعير هذه الكلمة من أستاذنا الجليل محمد فريد أبو حديد وقد ابتدعها كلمة نداء مرحة تقوم مقام كلمة Heigh ho الانجليزية

شوقي والرافعي

في النحو

لأستاذ جليل

قال الأستاذ محمد سعيد العريان فى مقالاته الأنيقة (الرافعية) فى (الرسالة) الجامعة الغراء : « وكانت — يعنى مقالة الرافعى فى شوق فى المقتطف — دراسة أعتقد أن أحداً من كتاب العربية لم يكتب مثلها عن شوق أو يبلغ ما بلغ الرافعى بمقاله. وكان مما أخذ الرافعى على شوق وسماه غلطات فى النحو أو اللغة أن شوق ابتدأ بالنكرة فى قوله :

ليلى ، مناد دعا ليلى نخف له
نشوان فى جنبات الصدر عربيد

أقول : الحقّ أنّ مقالة الأديب الكبير الأستاذ الرافعى في (أمير الشعراء) — رحمة الله عليهما — هى من أبلغ ما قال القائلون فى شوقي ، وأما قول الأستاذ محمد سعيد : إن شوقياً ابتدأ بالنكرة فى قوله : ليلى ، البيت ، فهناك اشتباه والأشياء تشتبه. وهذا البيت لم يروه الأستاذ الرافعى ، والذى أورده فى مقالته فى المقتطف الغراء فى أبيات وخطّأ (محبوبته) وصوّبها الكاتب المشهور الأستاذ (العقاد) هو هذا :

إن رأتنى تميل عنى كأن لم تك بيني وبينها أشياء

وابن مالك يقول : « وبعد ماض رفعُك الجزا حسن » ويقول ابن عقيل : « إذا كان الشرط ماضياً والجزاء مضارعاً جاز جزم الجزاء ورفعه ، وكلاهما حسن » وأدق من قولى ابن مالك وابن عقيل قول تلميذ (الخليل) فى (الكتاب) « وقد تقول : « إن أتيتنى آتيك أى آتيك إن أتيتنى » ، قال زهير :

وإن أتاه خليل يوم مسألة
يقول : لا غائب مالى ولا حرِمُ »[1]

(١) الخليل : المحتاج ذو الخلة ، والحرم بمعنى الحرام أى إذا سئل لم يعتل بغيبة مال ولا حرمه على سائله (الشنتمري)

وفى (كتاب الله) : « من كان يريد حرْثَ الآخرة نزِدْ له فى حرثه ، ومن كان يُريد حرث الدنيا نؤتِهِ منها ، وماله فى الآخرة من نصيب »

فالرفع حسن والجزم أحسن ، وللنحاة فى الترجيح أقوال

وأما قول شوق : «ليلى مناد دعا ليلى نخف له الخ» وابتداؤه بالنكرة فنذَر الكلام فى ذلك لابن الدهان وقد استجاده الرضى فنقله فى (شرح الكافية) : « قال ابن الدهان — وما أحسن ما قال : إذا حصلت الفائدة فأخبر عن أى نكرة شئت ، وذلك لأن الغرض من الكلام إفادة المخاطب ، فإذا حصلت جاز الحكم سواء تخصص المحكوم عليه بشىء أو لا . فضابط تجويز الإخبار عن المبتدا وعن الفاعل سواء كانا معرفتين أو نكرتين مختصتين بوجه أو نكرتين غير مختصتين بشىء — واحد : وهو عدم علم المخاطب بحصول ذلك الحكم للمحكوم عليه . فلو علم فى المعرفة ذلك كما لو علم قيام زيد مثلا فقلت : زيد قائم عُدّ لغواً ، ولو لم يعلم كون رجلٍ ما من الرجال قائماً فى الدار جاز لك أن تقول : رجل قائم فى الدار ، وإن لم تتخصص النكرة بوجه ، وكذا تقول : كوكب انقض الساعة ، قال الله تعالى : « وجوهٌ يومئذٍ ناضرة »

***

الحديث عن (شوق) ذكّرنى عبارات من مرثيّة قيلت فيه :

بُلبُلُ (الكرْمة) ولّى ! أين غاب البُلبُل ؟
أين غاب البُلبُلُ ؟ !
زَهَرُ (الكرمةِ) يبكى بدموعٍ ظاهراتٍ فى الصباح !
فَنَنُ (الكرمة) آسٍ : لا اهتزازٌ ، لا ارتياحٌ ، لا طرَب !
بَهجةٌ زالت ، وجاءتْ وَحشةٌ ، وعَرا (الكرمةَ) حزنٌ لا يَريمُ[1] !
أبا على ، الشعرُ بعدكَ ما نطق !

الاسكندرية * * * *

في كلمة (المخترعات وكتاب الفصول والغايات) : « ويأوى فى فراشه » وهى : (ويأوى إلى فراشه) وفيها : «المصوان» وهى (المصوات) بالتاء.

(١) لا يريم : لا يفارق

في المذهب الرمزي

تعليق

للدكتور بشر فارس

قبل أن يندفع قلمي في التعليق أحب أن أشكر لصاحب « الرسالة » انبساطه إلى مسرحيتي « مفرق الطريق » إذ سمح بنشر نقد مسهب لها لأسبوعين مضيا ، ثم بحث مستفيض في المذهب الرمزي لأسبوع مضى ، وكلاهما من قلم الأستاذ زكي طليمات مفتش التمثيل بوزارة المعارف . وكأن صاحب « الرسالة » يُصِرُّ أن تُنقل الأساليب المستحدثة على يده إلى قراء العربية . أليست « الرسالة » رسالة ؟

والحق أني ما كنت لأتوقع أن يهتز القراء حتى النقاد لمسرحيتي ذهاباً مني أنها تنحرف عن ألوان الأدب المعروفة عندنا انحرافاً شديداً فلن يكون مصيرها سوى الضياع ، حتى فوجئت بطائفة من الرسائل والمقالات جعلتني أري الشرق العربي غير نفور مما يهجم عليه من باب كان مغلقاً ، بل غير جزوع مما يحمِّل الفهم بعض المشقة . وإليك دليلا على هذا ما بعث به الأستاذ أمين الريحاني : « تصفحت الرواية أولا بشيء من الاستغراب والدهش . ثم قرأتها لأفهمها ففهمتها — أظن — واستكبرتها على صغرها . ثم أعدت قراءتها للمرة الثالثة متلذذاً بمحاسنها الفريدة الجمة ، برقائقها الصوفية ، وحقائقها المادية ، ونظراتها الفلسفية ، وروائعها الفنية .. » . فإني لفرح بهذا الأمر لأني حققت ما قلت في توطئة المسرحية : « وعندي أنه قد حان الزمن الذي فيه أصبح الإيجاز والإيماء في الانشاء الرفيع أحب إلى القارئ العربي المهذب من التطويل والتذييل ... »

هذا وقد خطر لي أن أصنع للمسرحية توطئة جامعة أبسط فيها طريقة المسرحية لأهيئ الأذهان إلى الوقوف عليها ، لا تطاولاً مني ، معاذ الله ! ولكن تلطفاً في استدراج القارئ إلى القراءة وكشفاً عن نزعة قلمي . وإذ لم أجد بداً من إطلاق عنوان على تلك الطريقة دونت هذه الجملة : « هذه قصة تمثيلية على الطريقة الرمزية — إذا شئت . » أتدرى لم قلت « إذا شئت » ؟

إن لفظة الرمزية في الأدب الحديث تصرف ذهنك على الفور إلى الطريقة التي ابتكرها نفر من شعراء الفرنسيين خاصة حول سنة ١٨٨٦ ، تمرداً على الأسلوب الوضعي الجامد الذي كان له الأمر في ذلك العهد ، وانقلاباً إلى وحي الوجدان : إلى تغليب الإحساس على العقل . وروّاد الرمزية (ألويزيوس برتران) و (جيرار دي نرفال) ولا سيما (بودلير) الفحل . وأما أبطالها فـ (أرتر رامبو) و (بول ڤرلين) و (مالارميه) ثم (لافورج) و (كاهن) و (رودنباخ) و (فرهارن) و (مورياس) و (ستوارت مِرِل) و (هنري دي رينييه) و (ديجاردان) و (سامان) وغيرهم . وسرعان ما انتحى المذهب نواحي مختلفة بالإضافة إلى الأداء وإن استقامت جميعها على عمود واحد من الاستلهام . وإذا نحن وقفنا عند أبطال المذهب أصبنا (رامبو) يعول على السحر اللفظي ، و (ڤرلين) على الترنم ، و (مالارميه) على الايهام . وقد دُوِّنت هذه النواحي إلى جانب ما وقع بين أصحابها من المناظرات في مجلات صغيرة أنشئت للدفاع عن الرمزية وبثها فضلاً عن هدم الشعر الاتباعي القائم ، اذكر منها : le Symboliste, la Cravache, le Scapin وكان لأجل « الرمزية » — فوق هذا — قهوات يجتمعون فيها ، قد أدركت واحدة منها في باريس قبل أن تنقلب قهوةً حديثة ، وكان اسمها Caboulade ، وهي اليوم le Panthéon

وقد راسلت « الرمزيةَ » في الشعر « رمزية » في الموسيقى والفن تأخذ مأخذها . وأمهر الموسيقيين الرمزيين (كلود ديبوسي) ، وأبرع المصورين (بوفيه دي شاڤان) ، والنحاتين (رودان) معلم جبران خليل جبران

ثم إن « الرمزية » الشعرية امتدت إلى ما يلي فرنسا شمالاً وجنوباً . فظهر في ألمانيا (رِلكه) و (ديمل) ، وفي انجلترا (ييتس) ، وفي البرتقال (أوجينيو دي كاسترو)

وأما مصادر هذه « الرمزية » فيتنازعها الأدب والفلسفة والفن والموسيقى . وإذا نحن قررنا أن الرمزية إنما هي — آخر الأمر — التعبير عن الحياة الباطنة رجعنا خاصة إلى تأويل (بودلير) : « الفن الخالص أن تخلق سحراً يوهم ويوحي فيضم في آنٍ الذات والموضوع » ، وإلى قولة (شوبنهور) : « العالم هو ما يتمثل لي » ، وإلى منهج نفر من المصورين الانجليز الوسومين

بهذا اللقب Pre-Raphallite Brotherhood ، وهو منهج يصمد إلى سنة ١٨٤٨ وقوامه أن المصور ينبغى له أن ينبذ القواعد المضبوطة ليترك عينه تقرأ على هواها فى صحيفة الطبيعة . ثم إلى ثورة (ڤجنر) على الأوبره التقليدية وإدراجه « المنصر الإنساني الخالص » أو « Rein menochlick » فى المأساة الموسيقية

***

تلك هى الرمزية الأولى في الأدب الأفرنجى الحديث ولاسيما فى الشعر . وقد انحلت إلا قليلاً عند مختتم القرن التاسع عشر . إلا أنها شقت طريق أدب العصر ، وخلفت مذهباً آخر هو مذهب ال Surréalisrne (ماوراء الواقع) . بل إنك ترى الأدب والفلسفة وعلم النفس والموسيقى والفن حتى الرقص تجرى اليوم إلى غاية واحدة ، وكل واحد منها يؤثر فى الآخر . وكان بودى أن أشير إلى كل هـذا حتى يأتى اليوم الذى فيه يتاح لي أن أكتب رسالة ضافية فأشرح هـذا الجانب من الثقافة الحديثة . ولكنى أخشى الإطالة وأكره أن يتطرق الملل إلى قراء «الرسالة» . وجل ما أثبته اليوم أن الظاهرة الغالبة على آداب هـذا العهد وفنونه فى بلاد الفرنجة إنما هى الرغبة فى الفرار ، لا الفرار من الدنيا أنفةً ومرضاً نفسانياً على النحو الابتداعى (الرومنتيكى) ، ولكن الفرار من المنقول والمصطلح عليه ، ومن القواعد القائمة والصناعة الموقوفة ، ومن العالم المتناسق المختلق اختلاقاً بكد أذهاننا ، ومن الطبيعة البشرية الموثوقة ، ومن العقل المتصلب والمنطق المتجمد واليقين الملفق

***

أتدرى لمَ قلت : « ... إذا شئت » ؟

إنى أردت أن أستدرك ، محاذرة أن ينصرف ذهن القارئ إلى الطريقة الرمزية الأولى خاصة . وقد أضأت هـذا الاستدراك بخمس صفحات بسطت فيها وجهة الأسلوب الذى أجريت عليـه المسرحية ، فجاء حديثي عن الفلسفة والأدب كالتأسيس ، وكلامى على التصوير والموسيقى والرقص كالتمثيل . ثم إنى لم أعرض لتاريخ الرمزية لأن التوطئة رسالة فنية لا شأن للنقد فيها . على أن ذلك الأسلوب إنما هو أسلوب « انساق له قلمى ورفت إليه نفسي بعد التحصيل والروية والاجتهاد » وإن كان متأثراً بالرمزية الأولى ولا سيا بالمذهب الذى خلفته . وهذا الذى حملني على أن أختار لفظة « الرمزية » دون غيرها فضلاً عن أن المسرح الحديث لا يزال يحمل هذه اللفظة عنواناً له

حقاً إن الرمزية الأولى كانت قد أوحت مسرحيات مثل Llbu (لميترلنك) و Intérieur و la Petite Bête (لبول فور) و Roi (لجارى) مثلت كلها فى Théâtre d'Art و Théâtre de l' æure . غير أن المسرح الحديث وإن سماه أهل الفن « المسرح الرمزى » من باب الاصطلاح لينهض على عناصر تزيد على التى عرفتها الرمزية الأولى : ينهض على نتائج علم النفس الحديثة (تجارب «شاركو» فى التنويم والإيهام ، و«ريبو» فى أمراض الذاكرة والإرادة الشخصية ، و « فرويد » فى أحوال العقل الباطن ، و« برجسون» فى تغلب المضمر الذى فى النفس على البارز) ونظريات الفلسفة (الإدراك بالبصيرة لا بالعقل على نحو ما يرى « برجسون» ثم الشك فى العلم المطلق والرفع عن المواضعة حسب مذهب علماء الطبيعة لهذا العصر) وقصص جماعة من الروس مثل « دوستيوفسكي وتولستوى وجوركى » ففيها يبرز الخلق كأنهم على فطرتهم ، ولكنها فطرة من صفت نفسه حتى أنها تأبى القناعة بثقافة الذهن وحده) ، ومسرحيات أدباء الشمال مثل «بيورنسن» ولا سيما «إبسن» حيث المغالبات النفسانية تصرع قوى الحيـاة الاجتماعية ، ثم قصص فئة من الانجليزيات مثل « كاترين منسفلد» و«ڤرجينيا وولف» لـما يطرد فيها من التأثرية المحضة . ثم أضف إلى هذه العناصر ما انبثق من جانب الفنون الأخرى كالتصوير التعبيري والموسيقى التأثرية والرقص الإيهامى والمسرح الرمزي الحديث على ألوان . ولا أحب أن أفيض فى هذا الموضوع الجديد . وحسبى أن أذكر أسماء بعض رجاله النابهين ، وهم : (إبسن) و (هوبتمن) و (ميترلنك) وإن رجعت طريقته إلى الرمزية الأولى ، و (هنرى باتاى) أحياناً ، و (لينورمان) وإن كانت طريقته قريبة المأخذ ، و(كلوديل) وإن نزع إنشاؤه إلى ماوراء الطبيعة على مثال إنشاء صاحبه ڤاليري الشاعر ، و (جانتيون) مؤلف قصة « مايا » التى شهدتها ثلاث مرات فى مسرح (مومبارناس) فى باريس سنة ١٩٣١ ، و (جان كوكتو و(جيرودو) و(ريستلى) أخيراً و(أليس جرنستبرج)[1]

(١) وفي « مقتطف » دسمبر سنة ١٩٣٧ مسرحية فى فصل واحد لهذه المؤلفة منقولة عن الانجليزية بقلم الآنسة ميترفا عبيد

و (بيرندللو) المظيم ثم (روبندرونات توجور) إذا شئت ، وإن كانت مسرحياته تشف عن وثبات الصوفية الهندية

كتبت « هذه قصة تمثيلية على الطريقة الرمزية — إذا شئت . غير أن النقاد وقفوا عند مفاد الرمزية الأولى أو كادوا سواءا أهملوا الخوض في مفادها أم خاضوا . وممن خاض الأستاذ صدبق شيبوب في صحيفة « البصير » (٨ ابريل ١٩٣٨) والأستاذ زكي طليمات في مجلة « الرسالة » . ثم إن الأستاذ ميخائيل نعيمة كتب إلى يقول : « ... ومسرحيتك هذه تدرج على الطريقة الرمزية ، طريقة فاليري (الشاعر المذكور فوق هذا الكلام) وهى كزىّ جديد فى الأدب العربى حقيقة بأن نؤهل بها . . . ووقعت فى مقدمتها (يعنى توطئتها) على أدق وأجمل بيان قرأته فى العربية عن الطريقة الرمزية وغاياتها . . . »

إلا أنه لايفوتنى أن أذكر أن ناقداً واحداً تنبه لما أردت . فقد نشرت صحيفة (الجورنال ديجبت le journal d'Egypte) البارزة فى القاهرة ، يوم (١٩ ابريل ١٩٣٨) ، مقالا غزيراً باللغة الفرنسية للأستاذ إدجار جلاد ، جاء فيه أن الرمزية فى « مفرق الطريق » بين التأثيرية والتعبيرية وأنها تتميز بالبصيرة الشرقية فهى لا تماثل الرمزية الأولى

أن أدفع وهماً ذلك الذى بعثنى على كتابة هذا التعليق . وقبل الخروج منه أحب أن أشكر للأساتذة ميخائيل نعيمة وزكي طليمات وصديق شيبوب فضلهم . وهل للأستاذ زكي طليمات أن يأذن لى فى أن أكاشفه بأنى فرحت فرحاً شديداً لما أصبته يستعمل فى مقاليه بعض تراكيب جرت على قلمى فى توطئة المسرحية ، منها : « المحسوس وما وراء الحس » ، « لوامع النفس » ، « منعطفات الروح ومثانى المادة » ، « التخيل المنسرح » ، وما فرحى إلا لأنى أرى تراكيب اجتهدت فى سياقها تنطلق على قلم كاتب مِفَنّ ، وكنت أخشى أن تموت يوم ولدت . ثم هل للأستاذ زكي طليمات أن يفسر لى قوله فى بحثه فى المذهب الرمزى « إن ب . ف . يكتب متثبتاً بما نافه ؟ » وفى « لسان العرب » « وقد لقننى فلان كلاماً تلقيناً أى فهمني منه مالم أفهم (1) »

بشر فارس

(١) وثمة شيء آخر — ذكر الأستاذ طليمات أن جبران خليل جبران من رواد الرمزية فى الأدب العربى المستحدث . والذى يبدو لى أن جبران إنما جرى على منهاج (وليم بليك) الانجليزى William Blake (١٧٥٧ — ١٨٢٧) ذلك الشاعر الصوفى والفيلسوف المحدث القلب





وفاة الأستاذ السكندرى



نعى يوم الثلاثاء الماضى الأستاذ الشيخ أحمد الاسكندرى بك ، وكان وقع نعيه أليماً ، فالفقيد أستاذ جليل من المثقفين والمتعلمين ، وكان لايزال كثير النشاط ، متوفراً على البحث والدرس ، وآخر مواقفه المشهودة تمثيله لمجمع اللغة العربية الملكى فى المؤتمر الطبي العربي فى بغداد حيث أعلى صوت مصر ورفع كلمتها

تخرج الفقيد فى دار العلوم سنة ١٨٩٨ ، واشتغل بالتدريس فى المدارس الأميرية حتى عين أستاذاً للأدب العربي فى دار العلوم سنة ١٩٠٧ ، وفى سنة ١٩١١ انتدبته وزارة المعارف للسفر إلى مؤتمر المستشرقين

وفى سنة ١٩٣٤ استدعته الجامعة المصرية لتدريس الأدب العربى بكلية الآداب . ثم اختير عضواً فى المكتب الفنى بوزارة المعارف . وكان عضواً فى مجمع اللغة العربية الملكى منذ نشأته . وفى فبراير الماضى اختير عضواً فى المجلس الأعلى لدار الكتب

ولم يكن الفقيد إبان اشتغاله بالتدريس بالمدرس الذى يحصر جهده فى دائرة المدرسة ، وإنما دأب — حياته — على دراسة اللغة العربية وآدابها ، وكان أثره بارزاً فى توجيه الدراسات العربية توجيهاً حديثاً ، فهو مؤلف كتاب « الأدب العربى فى العصر العباسي ، وكتاب « الوسيط » الذى اتخذه كثير من المؤلفين في تاريخ أدب اللغة العربية مرجعاً ومنهجاً ، فكان بمثابة الأصل الذى قام عليه كثير من الكتابات فى الآداب العربية . وهو أول المؤلفين الحديثين فى فقه اللغة ودراسة اللهجات، وأول من قام بتدريس فقه اللغة فى دار العلوم

ولجهود الفقيد فى الدراسات الأدبية واللغوية أخذ مكانة ممتازة بين العلماء وأفسحت له الأوساط العلمية صدرها فكان فيها السبّاق . وهو آخر طبقة جليلة من الأعلام الذين أنجبتهم دار العلوم مثل المهدى والخضرى وحفنى ناصف ، فكان لهم فى الدراسات العربية أثر خالد

ومما يذكر أن كثيراً من جهود الأستاذ السكندرى فى دراسة اللغة العربية قام عليها نتاج مجمع اللغة العربية ، فمحاضر الجلسات وصحيفة المجمع زاخرة بآثاره ودالة على وفرة علمه

جزى الله الفقيد خيراً عن خدمته للغة كتابه الكريم

أسبانية فى نظر الرحالين المسلمين

سيدى صاحب الرسالة

بعث إلى صديقى (هنرى بيريس) Henri Pérès بكتاب غزير المادة يقع فى مائتى صفحة من القطع الكبير ، ظهر فى باريس فى مختتم سنة ١٩٣٧ على يد الناشر Adrien Maisonneuve وعنوان الكتاب l'Espagne vue par les voyageurs Musulmans de 1610 à 1930 (أسبانية في أعين الرحالين المسلمين من سنة ١٦١٠ إلى سنة ١٩٣٠)

والأستاذ (هنرى بيريس) مستشرق فرنسى معروف وهو من أساتذة كلية الآداب فى الجزائر ، وله طائفة من المباحث

تعرض خاصة للأدب العربى ولا سيما الحديث منه . وأما الكتاب الذى بين يدى فيسرد تأثرات من رحل من المسلمين إلى أسبانية ونظراتهم . وإليك أسماءهم : الوزير الغسانى (القرن السابع عشر) الزّيّانى والغزّال (القرن الثامن عشر) ، الكردودى وابن التلاميد التركزى الشنقيطى والوردانى واحمد زكى باشا (القرن التاسع عشر) محمد فريد وأحمد شوق ومحمد كرد على ومحمد لبيب البتنونى وسعيد أبو بكر ومصطفى فرّوخ (القرن العشرون)

وقد جاء السرد على الطريقة العلمية بما قام عليه من المراجع وما غلب عليه من التحليل البعيد الغور . وكثيراً ما نقل المؤلف إلى اللغة الفرنسية بعض النصوص العربية من شعر ونثر تتناول وصف الطبيعة أو النظر فى الأخلاق والتاريخ والفن على وجه عام

وفى رأى المؤلف أن المسلمين الذين دونوا رحلاتهم الأسبانية ينقسمون قسمين : أما الأول ، وامتداده من سنة ١٦١٠ إلى سنة ١٨٨٥ ، فأصحابه عدوا أسبانية وطناً مغتصباً وأهله إخواناً أفسدت النصرانيـة نزعاتهم وبدلت من عاداتهم ، ثم كتبوا ما كتبوا وهمُّهم تقرير الملموس دون تدوين المحسوس . وأما القسم الثانى فأصحابه — وفى مقدمتهم أحمد زكى باشا فى كتابيه « السفر إلى المؤتمر » ثم « الرحلة الكبرى » والبتنوني « رحلة الأندلس » ، ومصطفى فرّوخ — « رحلة إلى بلاد المجد المفقود » بيروت — فقد عدوا أسبانية « الفردوس المفقود » فأطلقوا ألوان شعورهم تحسراً على ما ضاع وفخراً بما كان وغضباً مما حدث وفيهم المؤرخ والشاعر والسياسى والاجتماعى والفنان . ثم رأوا أهل أسبانيا قوماً لهم معايب ومحاسن . أما هذه فترجع فى الغالب إلى أرومتهم العربية ، وأما تلك فتصدر فى الغالب عن الحضارة الأوربية وعن العنصر الأسبانى الأول . فجاءت كتابتهم أقرب إلى التأثر منها إلى التفكر ، وطريقتهم ألصق بالذاتية منها بالموضوعية على ما يطرد فى رحلاتهم من ألوان الوصف الدقيق للأخلاق والعادات والعمران واللغة والفنون

واسلم سيدى الأستاذ ، لمن يخلص لك الود بشر فارس

بعثة المرحوم مرى ونتائج رحلتها العلمية

تلقت إدارة الأحياء المائية منذ أسبوع ثلاث رسائل جديدة من بعثة السر جون مري العلمية البحرية عن نتائج رحلتها الأوقيانوسية

وإحدى هذه الرسائل وضعها المستر (ماكان) من أعضاء البعثة عن « نجوم البحر » ، وهى من الأحياء المائية التى تعيش فى المحيط الهندى ، وقد ذكر فيها أن البعثة أحصت من هذه الأحياء ١١٦٠ نوعاً تنقسم إلى ٥٣ قسما منها ١٨ نوعاً جديداً كشفتها البعثة فى رحلتها الأخيرة إلى الأوقيانوس الهندي ، وأطلق على أحد هذه الأنواع اسم الكولونل سيول رئيسها ، وسمى نوع آخر باسم الدكتور حسين فوزى مدير إدارة الاحياء المائية وكان من أعضاء البعثة المصريين ، وسمى نوع آخر باسم الدكتور عبد الفتاح محمد « من الأعضاء المصريين أيضاً » ونوع باسم السفينة « مباحث »

والرسالة الثانية وضعها الدكتور محمود رمضان عن الأحياء المائية ذوات القشور كالجمبرى ونحوه

والثالثة وضعها الدكتور ستوبج الأستاذ فى متحف التاريخ الطبيعى فى لندن عن نوع من الأحياء المائية يدعى (البترويودا)

مؤتمر مشاكل الشباب — دعوة مصر للاشتراك فيه

تلقت وزارة الخارجية دعوة موجهة إلى الحكومة المصرية للاشتراك فى مؤتمر دولى (لدراسة مشاكل الشباب) يعقد فى غضون الصيف القادم بنيويورك

وقد أحالت الخارجية تلك الدعوة إلى وزارة المعارف ، فرأت إخطار الجامعة المصرية بنبأها حتى إذا رغبت فى الاشتراك فيه اتخذت التدابير لإيفاد من ترى إيفادهم لتمثيلها فى المؤتمر المشار إليه

وقد درجت أمريكا على عقد دورات هذا المؤتمر فيها وأخذت فى بث الدعاية له فى الممالك والحكومات المتباينة . ولم تغفل أوساط الشباب وبيئاته بل تمنحهم امتيازات تحببهم فى السفر إليها للاستفادة منه

ويتناول المؤتمر بالبحث والدراسة كل ما يتصل بحياة الشباب ومشاكله ، وتوجيه الرغبات للحكومة بحلها على ضوء النظريات العلمية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية الجديدة

مصر والآداب الفرنسية

نشرت جريدة « الجورنال » مقالة مسهبة للمسيو فرنسوا بياترى بعنوان « مصر والآداب الفرنسية » امتدح فيها سير الحياة العلمية والأدبية فى مصر وأظهر ما للمدارس الفرنسية من الشأن العظيم ، وقال إن عدد الأساتذة والمدرسين فيها يبلغ ٢٤٨٥ منهم ٧٨٢ من الفرنسيين و ١٧٠٣ من المصريين والسوريين وأما

مجموع عدد الطلبة فيها فيبلغ ٥٢٤ر٤١ منهم ١٩٦٥ من الفرنسيين ثم نوه بمزايا التفاهم والاتفاق بين البعثات الفرنسية الدينية والعلمية ووصف ما انطبع فى نفسه من زيارته الأخيرة لمصر حيث كان من أعظم بواعث سروره أن يرى أن أثبت وأرسخ تحالف هو التحالف المسكرى الأدبى

أبو تمام أيضاً

سيدى الأستاذ

فى الرسالة (٢٥٠) كتب المخرج المسرحى الكبير الأستاذ زكى طليمات كلمة بديعة عن المذهب الرمزي فى الأدب. ولقد تناولت كلمته الأدب الاسلامى فذكر الخيام وشعر الخيام

فليسمح لى إذن بأن أذكره بشاعر آخر هو — فى نظرنا — خير من يمثل الرمزية فى الأدب العربى كله. وهذا الشاعر هو حبيب بن أوس الطائى المعروف بأبى تمام. فرمزية أبى تمام هذا تستحق منا — فى الحقيقة — جزءاً غير صغير من عنايتنا إذا نحن نظرنا فى الرمز بصفة خاصة، وفى الشعر العربى بصفة عامة

فإذا اتسع لهذا القلم العاجز صدر الرسالة الفاضلة، استطعنا أن نهدى إلى الأستاذ طليمات باقة صغيرة من رمزية أبى تمام، كرمز تقدير له ... والسلام عليكم ورحمة الله

م. وهبه
نزيل بالقاهرة

حول الدوس هكسلى

اطلعت فى عدد الرسالة الأخير فى باب «البريد الأدبي» عن «الدوس هكسلى» على بعض أخطاء أحب أن أصححها لكانتها فقد ذكر أن «أوليسيس» من تأليف «إليس» والواقع أن أوليسيس كتاب شهير من تأليف جريس وهو أهم مؤلفاته وترجم إلى لغات كثيرة. والخطأ الثانى أنه ذكر أن إليس ألف كذلك «قصة» رقصة «الحياة» ورقصة الحياة ليست قصة وإنما هي كتاب فلسفى لها فيلك أليس. أرجو ياسيدى الأستاذ أن تنبه صديقنا لما ذكرت ولأخطاء مماثلة عن الدوس هكسلى نفسه منها أنه حفيد هكسلى الكبير لا ابنه كما ذكر الكاتب الفاضل ... ودمت للمخلص الشاكر

ناجى

معهد الشواذ — تأليف لجنة لدراسة المشروع

عهدت وزارة المعارف إلي لجنة من موظفيها، دراسة مشروع انشاء معهد للشواذ، مؤلفة من حضرات الأساتذة ناظر معهد التربية ومراقب التعليم الابتدائى وأحد أساتذة معهد التربية، وناظر فاروق الأول الثانوية، ومدير متحف التعليم الذى يتولى أعمال السكرتيرية

وستكون مهمة تلك اللجنة دراسة المشروع من حيث حاجة البلاد إليه، ووضع البرامج والخطط الدراسية اللازمة له، والنظام الذى يتبع فيه وإعداد المدرسين الذين تتألف منهم هيئة التدريس

ويظهر أن الرأى متجه إلى إيفاد بعثات للتخصص فى شئون الشواذ، وقد طلب إلى اللجنة المشار إليها إنجاز مهمتها على وجه الاستعجال، حتى تتمكن الوزارة من تنفيذ المشروع في السنة الدراسية القادمة

كتاب هندى عن مدنية الغرب

زار الدكتور ف. كارا كا — وهو من خيرة المثقفين الهنود — طائفة من ممالك الغرب ليخبر مدى ما بلغته من المدنية ومقدار ما أدركته من الحضـارة، ثم عاد ليكتب مؤلفه (Igo weat) أو رحلته إلى الغرب. وقد صدر هذا الكتاب منذ أسبوعين فأثار ضجة كبيرة وكان لصدوره صدى عظيم خصوصاً فى انجلترا. فقد أرسل المؤلف لسانه فى الحضارة الانجليزية، ونال منها بقلمه ما لم ينل منها قلم آخر من قبل. وقد تصفحنا الكتاب فرأينا المؤلف يكتب كوطنى هندى ينقم على الانجليز كل ما تلقى الهند من مصائب ويعزو إليهم تأخرها وانحطاطها بما سلطوا عليها من رجال (الطبقة الثانية) كما يسمى القائمين بالأمر منهم فى بلاده، ويقصد بهم هذه الفئة المسكرية التى تتكلم بالسيف وبالمدفع، وتحكم الملايين من بنى جلدته بالحديد والنار، وتضحك على عقول أغنياء الهنود باللآلئ والأحجار الثمينة، في حين تنكر الخبز على الفقراء والملح على المعوزين

وليس على المؤلف فى هذا ملامة، ولا عليه من تثريب لكن الملامة والتثريب فى هـذه النظرة السوداء القاتمة التى ينظر بها المؤلف إلى أرقى حضارات التاريخ، ثم هذا التقدير الوجدانى المتقزز لثمرات تلك الحضارة ... ومادام يفكر الهنود بمثل تلك العقلية فلن يخلصوا من ربقة الاستعباد ... وقد شهدنا كيف انهزم مغزل غاندى أمام أنوال لانكشير، وكيف انكمش غاندى وتقاعس، لأنه لم يتخذ الوسائل الحديثة لتدعيم الحركة الهندية، بل آثر عليها المغزل والعصيان المدني والصوم ... وهي وسائل ضعيفة واهية هي إلى الشعر الصوفى أدنى من البخار والكهرباء والغازات.



١ – حياتي

بقلم موسوليني وترجمة الأديب محمد عبد الحميد

٢ – جمال الدين الأفغاني

بقلم الأديب محمد سلام مدكور

كتابان يعرضان لك سيرة رجلين أولهما خالق أمة وثانيهما باعث نهضة . وما أحوجنا أن نلم بسير الرجال في نهضتنا الحالية

نقرأ في الكتاب الأول حياة موسوليني كما كتبها بنفسه أو كما أملاها ؛ وشخصية موسوليني لاشك من الشخصيات الجديرة بالدراسة من حيث كونه أحد عظماء هذا الجيل من ناحية ، ومن ناحية أخرى من حيث كونه من الرجال الذين تمس أعمالهم في بعض وجهاتها مصر من بعيد أو من قريب

أجل يعتبر موسوليني مهما تكن نظرتنا معشر المصريين إلى سياسته من كبار عظماء هذا الجيل إن لم يكن في طليعتهم . فهو رجل درج في عيش الفاقة ، ثم كان في مستهل حياته من الأوزاع والهمج ؛ ولكن كانت تتأجج في صدره شعلة الحماسة ، تلك الشعلة التي لا تقوم عظمة بدونها ؛ وتجهمت له الأيام وتحدته الصعاب فمضى لا يعرف سهلا ولا صعباً حتى خلق من حالة أشبه بالعدم أمة قوية تتشكل سياسة العالم الآن حسب ما تأتيه من حركات ، وتضطر أعرق الأمم جاهاً وأعظمها سلطاناً أن تخفف أمامها من غلوائها ، وأن تخفي سيفها وراءها وتتقدم إليها بغصن الزيتون ؛ والرجل دائب العمل يأتي من ضروب النشاط والمغامرات ما يحمل حتى أكبر أعدائه على الاعجاب بمقدرته وبيقينه وبتفانيه في خدمة بلاده ...

والفاشية نظام تردد اسمه في الشرق وأقبل على دراسته أهل السياسة وأهل الثقافة ؛ وأكبر ظني أن دراسة نظام كهذا النظام لابد أن تستند قبل كل شيء إلى دراسة حياة صاحبه ، بل إن دراسة هذه الحياة أمر جوهري لمن يريد أن يعرف حقيقة هذا النظام وينفذ إلى لبه . ولئن سلمنا بأن صاحب الدعوة قد يتعامى عامداً أو غير عامد عن بعض سوآتها ، فاننا من ناحية أخرى نسلم أن صاحب الدعوة أدرى بحقيقتها وأعرف بخفاياها من سواه

لذلك أرى أن القارئ يصيب من مطالعة هذا الكتاب غرضين : معرفة موسوليني وتفهم الفاشية . وكلاهما ليس بالهين . وهو أثناء ذلك يستمتع ساعات من الزمن بتلك الروح القوية

وفاة الشاعر محمد اقبال

يعز على الرسالة أن تنعى لقرائها وللعالم الاسلامي خاصة والعالم الانساني عامة وفاة الشاعر الفيلسوف محمد إقبال الهندي الذي وقف ذكاءه المتوقد وعلمه الواسع وشاعريته السماوية على الإشادة بفلسفة الإسلام ومقاصده العالية ، ودعوة المسلمين إلى أن يعتصموا بها فلا يتهافتوا في مهالك العصر الحاضر . ولم يقصر في دعوة البشر كافة إلى الوئام والسلام والسمو فوق السفاسف التي يعتركون عليها والمذاهب المعوجة التي يوغلون فيها . وقد خلف إقبال للأدب والفلسفة كتباً كثيرة في الأوردية والفارسية والانجليزية هي تراث عظيم من شاعر فيلسوف كبير . وستقفي الرسالة في أعدادها التالية حق الرجل النابغة الذي عرفه قراؤها فيما تُرجم من شعره ورُوي من أخباره

تطالعه من بين سطور الكتب ، روح موسوليني ، ثم بتلك الحوادث العظيمة كالزحف على روما ومغالبة الصعاب حين القيام بأعباء الحكومة ؛ ثم الكفاح والجلاد للمحافظة على البنيان بعد إقامته وتدعيمه والعمل على إعلانه

من أجل ذلك أتقدم بالثناء والشكر للأديب المعرب لاختياره هذا الكتاب . أما من حيث الترجمة فليس لدى الأصل حتى أراجع عليه التعريب ، ولكني أميل إلى الاعتقاد أن من يضطلع بنقل مثل هذا الكتاب الفذ ، وله من شرف غرضه حافز ، جدير أن يتوخى الأمانة وأن يتحرى الدقة . وأما من حيث الأسلوب فاني أجدني مضطراً أن أصارح المعرب الفاضل أني كنت أحياناً بعسر على فهم بعض الفقرات ، كما كان يلتوى على بعضها كما أنى كنت أقف عند بعض الكلمات التي وضعها في العربي كما هي في الأصل إذ لم يجد لها مرادفاً عربياً ، ولكنه كان حرياً أن يشرح المراد منها ، على أن هذا على أي حال يسير إذا قيس إلى مابذل من جهد محمود

***

أتحدث بعد عن الكتاب الثاني «جمال الدين الأفغاني» وقد حببه إلى عدة أشياء : أولها أن مؤلفه الشاب الأديب محمد سلام مدكور أحد تلاميذى ، حضر على دروساً في التاريخ أيام كنت أقوم بالتدريس في الأزهر ، وأشهد لقد توسمت فيه النجابة يومئذ ورجوت فيه وفي بعض زملائه الخير . واليوم أقرأ له مؤلفاً فأغتبط وأفخر ، وأي شيء هو أحب إلى المدرس من أن يرى ثمرة من ثمار غرسه ؟

وحبب إلى الكتاب بعد ذلك أن يضعه أحد أبناء الأزهر عن جمال الدين ، فيكون الكتاب بذلك . فضلاً عن أنه علامة اجتهاد ، دليل عرفان للجميل نحو أحد بناة هذا الجيل . ومن كجمال الدين أحق بعرفان الجميل وتخليد الذكر على يد الأزهريين خاصة وبنى مصر والعالم الشرقي عامة ؟ ثم عطفني على الكتاب فوق ذلك أنه يدور حول تلك الشخصية الفذة المحبوبة ، فلقد كان جمال الدين رحمة الله ورضوانه عليه قبساً من روح الشرق انبعث في ظلمة الأيام والتمع كما يلتمع الشهاب في دجنة الليل ، وراح يعمل وحده ويبذر بذوره أينما حل ! أجل كان جمال الرجل الذى يظهر حين تتهيأ الظروف وتصبح بحيث لابد لها من رجل ؛

وأحسبني لا أغالي إن قلت إن نهضة الشرق الحديث إنما هي من صنع يده ؛ ولذلك فأنا أعده من رجال العالم المعدودين إن كانت له في تاريخ العالم حركة تركت أثرها في دورانه ...

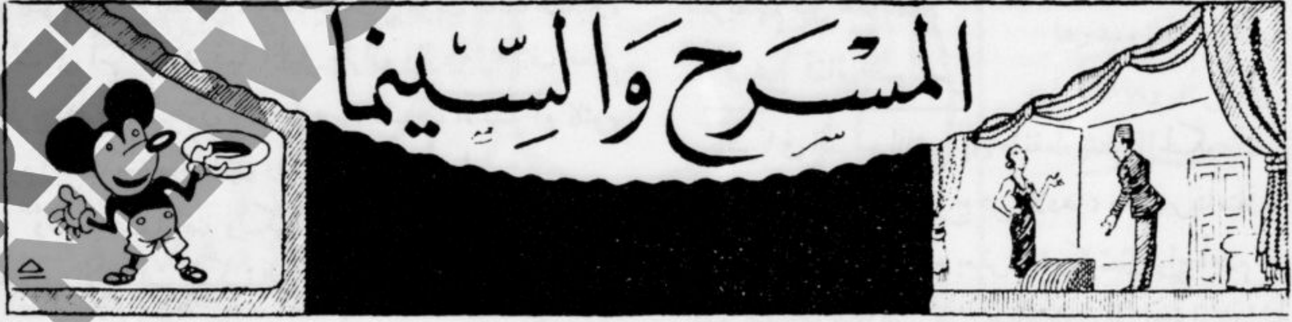
ولقد قدم هذا الكتاب بكلمة طيبة أحد رجال الأزهر الأماثل هو : الأستاذ الجليل مصطفى عبد الرازق بك ، وإني أشاركه رجاءه وعطفه على المؤلف الشاب ...

وبعد ، فقد عودت طلابي ومنهم المؤلف الذكي أن يسمعوا مني كلمة الحق في جلاء ، وأنا موقن أنهم اعتادوا ذلك وراضوا أنفسهم الفتية التوثبة عليه . لذلك أصارح سلاماً في جلاء أنه كان يستطيع أن يظهر الكتاب في ثوب أجمل من هذا الثوب فالكتاب بذلك جدير . كذلك كان يستطيع أن يتدارك كثيراً من الأخطاء المطبعية لو أنه أتى إلى عمله من الاهتمام أكثر مما فعل . فليسمع لومى على تقصيره ، وليأخذ نفسه بعد اليوم بتحري الدقة والإتقان ، هذا إلى أن أسلوبه وإن كان راقني في كثير من مواضعه ، يتطلب التهذيب في بعض النواحي

أما عن البحث في ذاته فحسبه في هذا المجال وفي هذه العجالة أن أعلن إليه أنه جاء على خير ما يرجى ممن كان في سنه وفي مثل درجة ثقافته . وهو يبشر بالتفوق في المستقبل إن شاء الله . ولقد أعجبني أنه لا يقتصر على مجرد سرد الحوادث فانه يقف ليرينا أثر تلك الحوادث في مجرى التاريخ

أنني على مدكور وأرجو الخير منه ومن زملائه من ناشئة الأزهر الحديثين . ولعل الله يجعل منهم في غد رجالاً أفذاذاً يعود بهم الأزهر المعمور سيرته الأولى من الزعامة في حياتنا الفكرية فذلك لعمري خير ما نرجو وما نرضى .

الخفيف



جولات ومطالعات
في المسرح والسينما

الرواية المصرية

أقامت جماعة أنصار التمثيل والسينما فى السابع عشر من هذا الشهر حفلة تمثيلية كبرى بدار الأوبرا بمناسبة انقضاء ربع قرن على تأسيسها ، وقد مثلت خمسة فصول من مسرحيات مختلفة سبق للجماعة إخراجها . ولست أدري إذا كانت الجماعة قد قصدت بهذا الاختيار أن تعرض جميع أنواع الرواية المسرحية أم أن المصادفة هى التى جعلت هذا البرنامج شاملا للرواية الغربية المترجمة والرواية المصرية المؤلفة والرواية الممصّرة أو المقتبسة عن فكرة أجنبية

وسواء كان ذلك عن قصد أو مجرد مصادفة فان هذا العرض الموجز قد جعلنا نتدبر على ضوئه مسرحنا وما يعانيه من فقر إلى الرواية المصرية الصميمة

اختص بالنجاح الأكبر فى الحفلة فصلان من روايتى « حادث الطربوش » ، « إلى الأبد » المصرتين ، وأتى بجاحاً وسطاً فصل من رواية « دافيد جارك » الانجليزية . وكان أقل الفصول نجاحاً فصلان من الروايتين المصريتين « عبد الستار أفندى » ، « الواجب »

وقد اتفق أن تكون درجات النجاح فى هذه الفصول خاضعة لسلطان الرواية وقوتها فحسب ، لأن الممثلين هم أنفسهم فى معظم الفصول ، وقد سبق لهم القيام بهذه الأدوار فتفهموها وأجادوا تمثيلها ، وهى كذلك روايات مثلت مراراً واختيرت من بين روايات الجماعة الناجحة ، واختير منها بعد ذلك أحسن فصولها

فهذا التفاوت فى النجاح يجعلنا نوقن بحاجتنا إلى الرواية المصرية الصحيحة كما يجعلنا نوقن بأن فى حياة كل شعب ذخيرة للرواية ، فاذا أعوزتنا حقاً البيئة الخاصة فأمامنا البيئة العالمية التى نقلنا ولا نزال ننقل عنها روايات بأسماء مصرية نجحت بطابعها المصرى نفس نجاحها بطابعها الأجنبى الأصلى

إن أكثر الكتاب اليوم لا يكتبون لجمهور خاص ولكنهم يعالجون المجتمع العالمى ويحلقون فى آفاق واسعة ليشمل نجاحهم هذه الآفاق ؛ فالكاتب الأمريكى مثلا لا يقصر كتابته على المجتمع الأمريكى لأنه يفهم غيره من المجتمعات الأخرى ، ولأن هذه المجتمعات كلها تلتقى وتتشابه فى نواح كثيرة ، وقد أصبحت بعض النزعات تؤثر فى العالم جميعه وتقرب من أبعاده . فالذى يحدث هنا جائز حدوثه هناك ، والرجل الذى تلقاه فى هذا البلد يذكرك بمن لقيته فى بلد آخر

فلم نقف إذن عند عبد الستار أفندى الكاتب بوزارة الأوقاف وعم سيد البواب ، وست أمينة الخاطبة ، والحاج حسن العمدة الخ لم نذهب فى كتابتنا إلى حيث لا نستطيع الحراك ؟ لم نماذج شخصيات لا لبس فيها ولا غريب من ورائها ولا تنطوى على شىء يجهد الفكر أو يكسبه جديداً ؟ !

أنا لا أستطيع أن أنكر حاجتنا إلى الرواية المصرية القحة ، ولكن لتحقيق ذلك علينا أن نسلك الطريق الصحيح إليها . فنحن شعب قليل الحركة ، كثير الآمال والأحلام ، فيجب أن تكون هذه الآمال والأحلام الميدان الأول للرواية ذات البيئة المصرية الخاصة . يجب أن نعالج النفسية المصرية بالكشف والتحليل فهذه خطوة يتبعها التوجيه العملى الذى يخلق الحياة والحركة قوام الرواية ومساكها ، أما أن نبعث الرواية فى حياة فقيرة تافهة ونقيم الشخصيات على حركة راكدة خاملة فان ذلك هو العبث والجهد الضيع

فى المسرح

شهدت فى الأسبوع الماضى حفلة غنائية أحيتها الآنسة

أم كلثوم بمسرح الحديقة . وقد أحسنت وأطربت فنانتنا الكبيرة ودلت على أنها تتعهد فنها الجميل بالمران والرعاية بخلاف معظم المطربين الذين يسمجون يوماً بعد يوم . فصوت الآنسة أم كلثوم اليوم أعذب منه منذ عامين وأكمل منه منذ أعوام

وقد نجحت الحفلة ولكن لم يكن من دلائل نجاحها هذا الصياح والأصوات المنكرة التي كانت تصدر من بعض الحاضرين عقب وقبل نهاية كل مقطع غنائي على اعتبارها علامات الإعجاب والاستحسان

وقد اعتاد جمهورنا هذه العادة القبيحة التي لا تمت إلى الفن ولا إلى الذوق بأوهى سبب ، بل إن مقاطعة المطرب في غنائه بمثل هذا الصراخ إنما هو بالنسبة إلى الغناء « نشاز » يثقل على السمع ويزعج المنتشي ويقضي على انسجام الفني

ولقد لاحظت على بعض هؤلاء الناس كأنما هم مكلفون بمثل هذه العادة حتى لقد تساءلت هل هذا جمهور طرب أو جمهور مظاهرات ؟ !

وأحسب أن هذه عادة تقليدية صرفة لا علاقة لها بالحس ، لأن الجمهور المجتمع حول آلة الراديو هو من نفس الجمهور الذي يستمع إلى المغني مباشرة ولكنه لا يجاريه في تهليله وصراخه ، وقد يستنكر منه هذا العمل

فالفارق بينهما أن هذا قد ألف هذه العادة عند ما يحتويه مع المغني مكان أو مسرح ، في حين أن الآخر لم يألف ذلك حين يستمع إلى الميكروفون

وأنا لا أنكر أن العامل في ذلك عامل فسيولوجي له أثره ، ولكن هذا الصراخ والأنين والتهريج ليس لها من مصدر غير اعتلال الذوق وعدم القدرة على ضبط النفس والأنانية . ويكفي مصداقاً لذلك أن نفكر في أن أمثال هؤلاء يسيئون إلى كل من معهم وقد يسيئون إلى آلاف أو ملايين المستمعين إلى الراديو ، كما أنهم يسيئون إلى المغني نفسه فوق إساءتهم إلى أنفسهم بتعريضهم لمثل هذا اللوم

فلم عن قناة السويس

أشرنا في العدد الماضي إلى ما تفعله بعض الحكومات إزاء الأشرطة السينمائية التي تخرج عن بلادها ، وقد ضربنا مثلاً بتركيا واليابان حين علمتا باعتزام بعض الشركات إخراج أفلام تسيء إليهما فتدخلتا لدي الشركات تدخلا أدى إلى احترام هذا الحق

وقد حمل إلينا البريد منذ أيام نبأ اعتزام المخرج المعروف داريل زانواك إخراج فلم باسم « السويس » يدور حول شق قناتها وحوادثها التاريخية . ولقد قيل إن مشروع الفلم على وشك البدء في التنفيذ فقد رصد له ميزانية قدرها مليونان من الدولارات وفوتح الممثل المعروف جورج أرليس للقيام بشخصية دزرائيلي والممثلة الفرنسية سيمون للقيام بشخصية الامبراطورة أوجيني

فلعل حكومتنا تفعل مثل الحكومات الأخرى فتطلب ضماناً لرعاية كرامتنا في هذا الموضوع الذي يخصنا . ومثل هذا التدخل يفيد ولا يأتي بضرر وخاصة أن الفلم ضخم وتأثيره تابع لهذه الضخامة

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧


الرسالة
مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون
العدد ٣٥٢
السنة السادسة

6 me Année, No . 252

Lundi - 2 - 5 - 1938

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ٢٥٢ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢ ربيع أول سنة ١٣٥٧ — ٢ مايو سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـــرس

هل تقوم للأدب دولة ؟

معالى مصطفى عبد الرازق بك



صديقنا صاحب المعالى الشيخ مصطفى عبد الرازق بك وزير الأوقاف إمام من أئمة الدين ، وعَلَم من أعلام الأدب ، وسَرِى من سَراة الأمة ، نشأ بحكم ولادته على النبل كما ينشأ ابن الملك على المُلك ، فهو فى خُلقه وسَمْته يجرى على سَراح الطبع الجميل ، لا يتكلف ولا يتطبع ، ولا يتصنع ، ولا يقلد . وقلما تجد فى مصر من ظفر بما ظفر به هو من إطباق الناس على اعتقاد سماحته وسراوته وفضله . ولعلك تدرك السر فيما تعرف من خلاله إذا علمت أن بيت

عبد الرازق نمط لا واحد له فى تقاليده وتربيته وبيئته . فهو وحده لا يزال يمثل نوعاً من الفتوة الإسلامية له خصائصه وله سننه : يرى العزة فى سمو الإنسانية فيه ، لا فى إفراط العصبية عليه ؛ ويجد المزية فى سؤدد الفكر المهذب والخلق السجيح ، لا فى سطوة المال المكنوز والجاه المتسلط ؛ ويمثل المدنية الحديثة تمثيل المعدة الصحيحة للطعام الهنىء فلا تكون إلا مدنيتَه الخاصة فيها سره وعليها طابعه ؛ ثم يسير فى سبيل الحياة على سَنَن واضح من شهامة القلب ونزاهة النفس وشرف اللسان وثبات العقيدة وكرم التضحية ، كأنما يستجيب إلى صوت فى دمه ، ويمشى على دليل من طبعه

ساهم فى جهاد الدستور والحرية بالنفس والمال ثم عف عن الغنيمة ، وشارك فى ثقافة العقل والروح بالتشجيع والإنتاج ثم عزف عن الشهرة ، وتهافتت من حوله بيوتُ المجد على الأضواء الغربية الخادعة فأضل بعضَها الغشا ، وأحرق بعضَها اللهب ، وبقى هو على شرقيته ومصريتـه قوى الدعائم رفيع الذرى تَضُوع فى أبهائه نفحة الإسلام ، وتهش على موائده أريحية العروبة ، وتخفق فى جوانبه روح مصر

والشيخ مصطفى يلخص فى شمائله أمجاد هذا البيت ، فهو سر وراثته وعطر أرومته وجملة ماضيه . فإذا جلست إليه فى ألفة أو كلفة غمرك منه شعاع لطيف يملك نفسك من غير سطوة ، ويبسط شعورك من غير خفة ؛ ثم تحس فى تواضعه سمو الكبرياء ، وفى وداعته أَنَفَةَ العزة ، وفى بساطته جلالة النبل ؛ فلا تستطيع أن ترد هـذه الخلال فيه إلى الحد الذى تواضع عليه الناس فى تعريف الخلق ؛ إنما تنتهى إلى أن شخصيته الجذابة واحدة الطراز لما تهيأ لها من أثالة المنبت وزكاوة العِرق وسعة الثقافة وسلامة الفطرة وجمال القدوة

رأيت الشيخ مصطفى طالباً فى الأزهر ، وعرفته أستاذاً فى الجامعة ، وزرته عضواً في الوزارة ، فلم أجده فى كل حالة من هذه الحالات إلا على الوجه الذى نقى به الدنيا : لم يتغير فيه لسان ولا عين ولا مَخيلة ؛ ومزية المعدن الكريم ثبات وجهه على لونه ، وبقاء جوهره على نقائه . ولو أن وجوه الناس تثبت على تقلب الحظوظ لما تنكر صديق لصديق ولا تجهَّم وطنى لوطن

* * *

لله ما كان أنبل وأجمل حين دخلت على الشيخ الوزير مكتبه فى الوزارة من غير وقفة على حاجب الباب أو جلسة لدي مدير المكتب ! لقـد كان فى زيه الوطنى الجميل ملء العين والنفس والشعور ، يوزع التحيات على عادته ببسماته الرقيقة ونظراته الوديعة وكلماته الحلوة ، فيجعلك تشعر أن الوزير منك ، وأن الوزارة لك ، وأن الأمر بينك وبين أولياء الحكم كما يكون بين الأب وأعضاء الأسرة .

كان سرورى وأنا أهنىء صاحب المعالى وزير الأوقاف أقرب إلى أن يكون سروراً بنفسى ؛ فقد وقع فى وهمى أننى أساهم فى هذه الوزارة بنصيب مبهم شائع لا أجهله ولا أدريه . ولعل مبعث هذا الوهم أن الوزير أزهرى وصديق وأديب ، وصلته بالناس من جهة الثقافة أو الصداقة أو الأدب يجعلها وفاؤه الطبيعى أدنى إلى النسب الشابك والقرابة الواشجة

* * *

أما بعد فإن استيزار أميرين من أمراء الأدب لهو فتح مبين لدولة القلم . فإن النهضات العلمية والأدبية فى تاريخ الفكر لم تزدهر إلا فى حمى ملك أو كنف وزير . والوزراء الأدباء أمثال ابن العميد والصاحب ابن عباد والمهلبى وابن زيدون وابن الخطيب لا يزالون عناوين فاصلة فى تاريخ الأدب . فإذا ناط رجال الثقافة والصحافة آمالهم بوزير الخير مصطفى ، وبوزير الجمال هيكل ، فإن دلالة الحال تعلن أن مواتاة هذه الفرصة فى صباح عهد الفاروق حين صدقت النيات على الاستقرار ، وتهيأت النفوس للعمل ، إيذان من الله بتيسير السبل لأمة العلم أن تنهض ولدولة الأدب أن تقوم .

احمد حسن الزيات

في خيف منى

للدكتور الحاج عبد الوهاب عزام



هذا ثاني أيام التشريق؛ ومنى غاصّة بمضاربها؛ قد اجتمع إليها الحجيج من أرجاء الأرض، واختلط فيها وفود المسلمين من كل الأقطار. تجاورت القباب واشتجرت الأطناب، وتمعجت السبل بينها تجور بالسائر، وتمدل بالسالك، إن لم يكن خبرَها وعرف بالعلامات مسالكها، إلا مَهْيعاً يتوسط البقعة تُفضي إليه المسالك فيقصد فيه السابل على بينة

زخرت مِنى بالحجيج، وازدحم الموسم بأهله. وقد أدينا بحمد الله المناسك ولم يبق إلا رمى الجمار، وهى أمر أمَم لا يشغل نزّال منى إلا قليلاً. فهناك سعة للتزاور والتعارف، وهناك فسحة لتبادل الآراء والتشاور في خطوب المسلمين

خرجت فى رفاقة بعض الاخوان العراقيين أبتغى زيارة بعض الأجلاء من علماء الفرس، فلما لقيت الشيخ وبلغ الحديث منتهاه رغبت أن أرى من وجوه المسلمين وجهاً معروفاً فى مجامع الحج منذ سنين لا يخلو منه موسم، ولا يجهله محفل. وقد رأيته فى عرفات ضارباً خيمه على الجادة فنزلت إليه فى نفر من رفقائى حجاج الجامعة وأنسنا به حيناً. وبينا أنا بالمشعر الحرام من مزدلفة رأيت خطيباً واعظاً يتكلم على جماعة باللغة الأردية، فدلفت إليه فإذا هو ذلك الوجه المعروف غير المنكر، وأنا أرجو ألا يفوتنى فى منى لقاؤه؛ ومضربه فى منى أرفع المضارب، يلوح للسائر عالياً متميزاً تخفق عليه رايته. فليس على من يبغى المسير إليه إلا أن يذهب إلى مسجد الخيف ثم ينظر إلى سفح الجبل ليرى فسطاطاً كبيراً قد احتل من السفح مستوى لا يتسع لغيره، فليس هناك فسطاط سواه. فإذا تأمله أبصر الراية الأفغانية فعرف أنه منزل السيد محمد الصادق المجددى

أخذت سمت المكان حتى قاربت المسجد فلقيني جماعة من حجاج الجامعة والأزهر فصمدنا إلى الفسطاط في شَرَف يطل على الموسم كله وينظر إلى مسجد الخيف من كثب. لبثنا قليلاً ثم هبطنا إلى فجوة بين الصخور تُسمى غار المرسلات؛ يقال إن السورة الكريمة «والمرسلات عرفا» أوحيت إلى صاحب الرسالة صلوات الله عليه هناك. وقد اجتمع الناس يمنعهم الشرطة من الدخول إليه والتمسح به كما كانوا يفعلون. فوقفنا وقفة قضينا بها حق الذكرى العظيمة، ثم سرنا مُصعدين فى الجبل وهو جبل شاهق أدكن عظيم الصخور كثير القَلَع[1]. فما زلنا نصعّد حتى لاح لنا الموسم جميعه، وزُويت لنا أطرافه؛ فيالك مشهداً جليلاً رائعاً! فهذا مسجد الخيف وهو مسجد برّىّ معطل من الزينة وفراشه الحصباء: بناء كبير يحيطه جدران مديدة بيضاء، يتوسط صحنه الفسيح مصلى عليه قبة ومنارة، وفى جانبه القبلى سقيفة على ثلاثة عقود. وقد راقني منظره من سفح الجبل تتجلى فيه فطرة الاسلام وطبيعة البداوة

وهذا المحصَّب عن شمالنا حيث العقبات الثلاث التى ترى فيها الجمرات. وإلى اليمين يمتد وادى منى بين سطرين من الجبال الشاهقة يساير فيه الطرفُ أسرابَ الخيام إلى أن يكِلّ. وهناك تبدو دار الملك عبد العزيز التى ينزلها أيام الموسم. وهنالك بناء أبيض يلوح بين الأشجار هو (السبيل) المصرى: مورد عذبٌ يستقى منه الحجاج، يزدحمون عليه النهار كله وطرفاً من الليل. وإنها لبرّةٌ عظيمة

وأما الجبل الشامخ الذي يمتد على جانب الوادى الأيسر فهو ثبير. وكم ردد التاريخ والشعر ذكر ثبير!

ترادفت الذكر وتوالت العبر فى هذه البقعة المقفرة التى تخصب بالجماعات كل عام منذ عهد الجاهلية، فكأنى بالقبائل تلتقى تتناشد الأشعار، وتتفاخر بالاحساب، ويضمون عنهم العداوة والحرب إلى حين، وقد تنلبهم الضغائن فيفجأ بعضهم بعضاً غير مراعين

(١) القلع: الصخور الكبيرة تقلع من الجبل

حرمة الشهر والمكان كما أغارت هوازن على خزاعة بالمحصّب من منى فقال أحد بنى عدوان :

غداة التقينا بالمحصّب من منى ... فلاقى بنو العنقاء إحدى العظائم

وكأنى بهم ينحرون ويذبحون ويضيفون ويطعمون ، ويشرّقون بقايا اللحم على سفح الجبل .

وكأنى بفتيان قريش وشعراء مكة فى الجاهلية والاسلام يقضون حق المكارم والفتوة ؛ يضيفون ويطعمون ويشيدون بالمفاخر ويتناشدون الشعر ويتناقلون الأخبار ، وينزع بهم الشباب فيتغزّلون ويرون فى الموسم على جلاله وحرمته شملا من الأحبّاء يجتمع ، وشملا يفترق، فيشيد الشعر بفرحة اللقاء ولوعة الفراق ، فهذا عمر بن أبى ربيعة يقول :

نظرت إليها بالمحصّب من منى ... ولى نظر لولا التحرج عارم

فقلت : أشمس أم مصابيح بيعة ... بدت لك خلف الستر أم أنت حالم

بعيدة مهوى القُرط إما لنوفل ... أبوها و إما عبد شمس وهاشم

ومن قبل تذكر المجنون فى هذا المكان ليلاه :

وداع دعا إذ نحن بالخيْف من منى ... فهيج أطراب الفؤاد ومن يدرى

دعا باسم ليلى غيرها فكأنما ... أطار بليلى طائراً كان فى صدرى

وهذا العرجىّ — وغفران له — يقول :

فى الحج إن حجت وماذا منى ... وأهله إن هى لم تحجج ؟

وأنا أقول ما قال عطاء حين استوقفه ابن سريج فغنّاه أبياتاً منها بيت العرجى قال :

« الخير كله والله عنى ، لا سيما وقد غيبها الله عن مشاعره »

والعرجىّ هو القائل :

عوجى علىّ فسلمى جبرُ ! ... فيم الوقوف وأنتم سَفر ؟

لا نلتقى إلا ثلاث منى ... حتى يفرّق بيننا النفر

ورحم الله جريراً ! كان أرشد من هؤلاء : لقيه الفرزدق بمنى فأنشده :

فانك لاقٍ بالمنازل من منى ... فخاراً ؛ فخبرنى بمن أنت فاخر ؟

فقال جرير : « لبيك اللهم لبيك »

نبهتنى تلبية جرير فقلت : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك الخ كم فى هذه الخيام من قلوب وردت هذه المشاهد ورود القطا الظماء ! وكم من نفوس هجرت خفض العيش إلى مشقة الأسفار ، وغربة الديار، لتنعم بالذكر والتوبة فى هذه البقاع المقدسة . لو نفض كل قلب هنا آماله وآلامه لسامت هذه الجبالَ جبالٌ من أحزان البشر وأمانيهم حملها أصحابها إلى سدة الخالق العظيم يستغفرون ويتضرعون ، ويسترحمون ويتذللون . سرائر لو اجتمعت فى هذه الساعة لتمثل فيها تاريخ البشر . لو اجتمعت ! لو تشاكى أصحابها وتناجى أربابها ! لو تشاكى المسلمون فى هذه البقعة وبث بعضهم لبعض خبايا قلبه ، وتشاوروا فيما يحزبهم ! أجل ، هذه خيام مجتمعة ، وجماعات مختلطة ، وبينها تعارف وتزاور ، ولكن أين هذا مما يريد الاسلام ونريد ؟ لا بدّ أن ييسر لكل حاج السير والزيارة ، ويمكّن من أن يلقى من يشاء حين يشاء . إن مئات الآلاف من الحجاج لا تتيسر لهم مقاصدهم ولا تُكفل راحتهم إلا فى نظام دقيق وترتيب حسن . وذلك لمن شاءه جدُّ يسير . وعلى المسلمين جميعاً أن يعملوا له . لماذا لا يكون فى منى مجمع مسقوف يسع الحجاج جميعاً يقفون أو يجلسون فى راحة ونظام ، فيسمعون جميعاً إلى الخطباء من زعماء المسلمين يرفعون أصواتهم بالمجاهر ! لماذا لا يكون هناك مدرّج ينحت فى الجبال ليسع الألوف المؤلفة ؟ هذا أمر حتم لا بد أن تتخذ له الأهبة .

طالت بى الوقفة وأصحابى على مقربة منى ! فقلت : هذا أمر له غير هذه الوقفة . ثم التفتّ فإذا أعرابى بجانبى تفترّ شفتاه عن أسنان ناسمة وفى فمه عود

قلت : ما هذا ؟ قال : بشام . قلت ، الذى يقول فيه جرير :

أتذكر إذ تودّعنا سليمي ... بفرع بشامة ؟ سُقى البشام

قلت : وما هذا ؟ مشيراً إلى شجرة صغيرة من الشجر الذى يسمى السنط فى مصر . فقال : سَلَم . فتذكرت قول القائل :

ويوماً توافينا بوجه مقسم ... كأنْ ظبية تعطو إلى وارق السلم

وقول الحجاج : والله لأعصبنكم عصب السَلَمة الخ

قلت : أتستطيع أن تأتينا بأعواد من البشام ؟ قال : إنه على الربع الآخر ، وأشار إلى الجبل بمنى سفحه الآخر . فتذكرت الآية الكريمة : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون » والربع المكان المرتفع

قلت لأصحابى : لو اتسع الوقت لأخذنا كثيراً من اللغة عن هذا الأعرابى . فمن كان يظن أن هذه ألفاظ ميتة فى المعاجم فليعلم أنها لا تزال حية فى أفواه كثير من العرب . وحان الرجوع فرجعنا إلى الخيام

عبد الوهاب عزام

أبو العلاء حرب الظالمين

لأستاذ جليل

من (عبقرية) نابغة العرب أبو العلاء حَرْبُ الظالمين [١] وعدوُّ المستبدين، ونصير البائسات والبائسين، وخصيم المترَفين والباخلين، ومقرِّع المستكبرين والمدَّعين، ومجلُّ التواضع والمتواضعين، ومهجِّنُ الشراب الحرام والشاربين. وأقواله في (اللزوميات) في هؤلاء المذكورين مشهورة؛ ولم يغفل (نابغة العرب) في (الفصول والغايات) — عبقريته في النثر — عنهم. وفي الآيات البينات بعض ما قال فيهم:

— ١ —

« يا بُغاة الآنام، وولاةَ أمور الأنام، مرتع الجور وخيم، وغبّه ليس بحميد، والتواضع أحسن رداء، والكبر ذريعة المقت، والمفاخرة شر كلام. كلنا عبيد الله »

— ٢ —

« ما بيتٌ يأتلق فيه الياقوت، وللزِّرياب [٢] حواليه شماع، يسكنه ظالم جبار يسفك [٣] الدم، ويسفح دموع الباكيات [٤]، ويشرب كاسات الرحيق — بأعز عند الله من ناسجة الغبار [٥] فياويح جائر — إذا حكم — عات [٦]! »

— ٣ —

« إذا أصبح النصح ثقيلاً، والمساجد قالاً وقيلاً، وصارت الإمارة غلاباً، والتجارة خلاباً — فالبيت المحفور، خير لك من مشيدات القصور، والفقير أربح صفقة من ذي التاج »

— ٤ —

« إني لوَغد [١] وقد عرفت نفسي بعض العرفان، وحقرتها وهي جديرة بالاحتقار. خلقتني كما شئت، وأعطيتني ما لا أستحقه منك. ولعل في عبيدك من هو مثلي أو شر. في خزائنه بدَرٌ [٢] اللجين والعقيان لا يطعم منها المسكين، ولا يغاث اللهوف »

— ٥ —

« إن من يفتقر إليّ لفقير، فأغن (اللهمّ) كلّ مسكين. وبئس البيت المسكون، بيت تحت الغبراء [٣] يكون، لا أس له ولا عمود، إنما هو من هباء، ليس بالطِّراف [٤] ولا الخِباء [٥] ولأعمالُ الصالحات خير ما راح إليه من السوام [٦]. فكن أيها الرجل من الصالحين، وإذا رأيت الملأ [٧] يبرمون أمراً فقل: لَعِب الولدان خراج [٨] »

— ٦ —

« أطعم سائلك أطيب طعاميك، واكس العارى أجدّ ثوبيك، وامسح دمع الباكية بأرفق كفيك »

— ٧ —

« ما ريّا قُطُر [٩]، ورائحة حبيب عطر، بأطيب من ثناء

---

(١) فلان حرب فلان أي محاربه

(٢) الزرياب: الذهب أو ماؤه، ويقال: صبغ يقع فيه ماء الذهب

(٣) بكسر العين وبالضم، وعن يحيى بن وثاب (لا تسفكون دماءكم) بالضم

(٤) الله أكبر! الله أكبر!

(٥) ناسجة الغبار: العنكبوت

(٦) العاتي: المتجاوز الحد في الظلم قال:

أدعوك يا رب من النار التي أعددتها للظالم العاتي العتي

(١) أأنت الوغد يا أبا العلاء فما هؤلاء الناس إذن؟ أنت إنسان كامل، أنت ملك

(٢) البدرة: كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار ج بدر وبدور

(٣) الغبراء: الأرض لغبرة لونها أو لما فيها من الغبار

(٤) الطراف: بيت من أدم، والأدم الجلد

(٥) الخباء أحد بيوت العرب من وبر أو صوف (وفي القاموس أو شعر) وقد يستعمل في المنازل والمساكن

(٦) السوام: الابل الراعية، والابل مال القوم. وفي اللسان: أكثر ما يطلق المال عند العرب على الابل لأنها كانت أكثر أموالهم

(٧) الملأ: رؤساء الناس ومقدموهم الذين يرجع إلى قولهم. الزعماء ورجال السياسة ...

(٨) خراج: الفداء: اسم لعبة لهم معروفة، وهو أن يمسك أحدهم شيئاً بيده ويقول لسائرهم أخرجوا ما في يدي، وخراج بكسر الجيم بمنزلة دراك وقطام. وفي (اللزوميات):

أرى الناس في مجهولة، كبراؤهم كولدان حي يلعبون خراج

(٩) الريا: الرائحة. القطر — بضم الطاء وسكونها — . العود الذي يتبخر به، وقد قطر ثوبه، وتقطرت المرأة؛ والعود في القاطر المجامر

مستطر [١] ، يُثنى به برّ على مُبرّ [٢] ؛ وذكر الله مراتع القلوب يستعذبه الأوّاب ، ويسكن إليه الصالحون . فاغسل الحوب [٣] بأن تتوب ، ولا تمرُكْ ذنبك بجنبك [٤] ، فتصرّ على سخط ربك ، وإلى السوق تحمل الوسوق [٥] ، فما كان جيداً نفق ، وما كان رديًّا زهد فيه . وإنما أنت درهم إن اتقى وضح ، وإن فسق زاف [٦] »

— ٨ —

« خافوا الله وتجنبوا المسكرات : حمراء مثل النار ، وصفراء كالدينار ، وبيضاء تشبه الآل [٧] ، وكميتا وصهباء [٨] ، وكلّ ما أدرك من الألوان . لو كانت أقسام اللب كرهاق الحصى [٩] ، والسكرة من الجرع بمثل ذاك لقلت : إن النّغبة الواحدة حرام . ولو هُجر أب لجناية ولد لحرم العنب لجريرة الدام . وهل لها من ذنب ؟ إنما الذنب لعاصر الجون [١٠] ، ومستخرجها وردية اللون ، وحابسها فى الدّن ، ومنتظارها برهة من الدهر ، وشارُبها وردْ العطشان . فاجتنبوا ما يذهب العقول ، فبها عرف الصواب »

— ٩ —

« أحسن الفضل ما شهد به الملأ لغير شاهد ؛ إذ كان الغائب كثير العائب ، والحاضر يُلقى بالوجه الناضر ؛ والدعوى رأس مال قلما ربح تاجره وإن صدق . وأحب لابن آدم أن تكون مناقبه

(١) مستطر : مكتوب
(٢) المبر : المحسن المفضل . أبر فلان على أصحابه أى علاهم وفاقهم ، ومن أحسن إلى الناس أبر على غيره
(٣) الحوب : المأثم ، الذنب العظيم ، وفتح الحاء لغة تميم
(٤) عرك ذنبه بجنبه إذا احتمله ، عرك بجنبه ما كان من صاحبه كأنه حكه حتى عفاه أى لا تنس ذنبك ، ولا تستهن بخطيه ولا تمش أمره
(٥) الوسق : الحمل عامة ، والجمع أوسق ووسوق
(٦) زاف الدرهم رد لغش فيه فهو زائف
(٧) الأصمعى : الآل والسراب واحد ، السراب الذى يجرى على وجه الأرض كأنه الماء وهو نصف النهار ، وفى السراب والآل أقوال
(٨) الكميت الخمر سميت بذلك لكلفتها ، قال قوم : معرب واصله كيتة أى مخلط كأنه اجتمع فيه لونان سواد وحمرة (الصهباء) : خمر من عصير عنب أبيض
(٩) رهاق الحصى — بضم الراء وكسرها — مثل زهائه ، يقال : القوم رهاق مئة أي زهاء مئة ومقدار مئة
(١٠) الجون : الأسود المشرب حمرة

كمناقب الطِّرف الرائع [١] والسيف الحسام تذكر ، وهما صامتان »

— ١٠ —

« قد يكون الخمول داعياً للنباهة كالنار ستر ضوؤها باليبيس [٢] فاظهر ذلك لمبأ »

* * *

أبو العلاء حسنة من حسنات سيدى وسيده (محمد) — صلى الإلـه على محمد — هداه (كتاب الله) فكان من المهدين ومن الأئمة الهادين ، وكان (والله) رهين المحبسين أزهد الزاهدين . واستضاء بالقرآن وبلاغة القرآن فأضاءت أقواله وأشمت وبهرت الناظرين والسامعين

نوّر القرآن قولاً فعلا ، وسما صاحبه فى القائلين
إنما القرآن هدى الناطقين . إنما القرآن نور العالمين
غثّ قولٌ لم يهذبه (الكتاب)

القارىءُ

(١) الطرف : الفرس الكريم ، فرس رائع يروعك (يعجبك) بعتقه وصفته
(٢) اليبيس : ما يبس من العشب والبقول التي تتناثر إذا يبست ، أو هو عام فى كل نبات يابس

فلسفة التربيـــة

تطبيقات على التربية فى مصر

للأستاذ محمد حسن ظاظا



« ترجع بعض أسباب « الاضراب » إلى أن الطلبة يتصورون نظام المدرسة مفروضاً عليهم ، ويتصورون أنفسهم جزءاً منفصلاً عن ذلك النظام . ! »

« لا يستطيع ذو الساعد القوى إلا أن يوجد فى المدرسة نظاماً آلياً لا روح فيه . ! »

« يجب أن يعرف الطلبة أنهم عندما يثورون ويضربون إنما يفعلون ذلك ضد أنفسهم . ! »

« لسنا نريد أولئك الأساتذة الذين يلقنون الطلبة العلم فحسب ، ولكن أولئك الذين يحدثونهم أيضاً فى أشياء كثيرة ويوحون إليهم أمثل أساليب الحياة . ! »

« من رسالة الدكتور جاكس »

٥ — النظام

تناولتُ فى المقال السابق أزمة المتعلمين العاطلين ببعض الشرح والتعليل ، وقدمت بعض ما ينبغى أن يُؤخذ به درءاً للخطر وتلافياً لنتائجه القريبة والبعيدة ، وسأتناول اليوم ناحية أخرى هامة هى ناحية النظام المدرسى وأثره فى نفوس النشء :

١ — النظام الحاضر

ولعلك تدرى ما هو النظام الحاضر وما هى نتائجه ! لعلك تعرف أن « الآلية » تغلب على ذلك النظام إلى حد خطير يجعل المدرسة غير محبوبة ، ويجعل « الإضراب » محتملاً لأهون الأسباب ! ولعلك تعلم فداحة نسبة الغياب والتأخر فى معاهدنا وكثرة ما نحتاج إليه من عقاب وخصم وتنبيه وتحذير فى كل صباح ! أجل ، ولعلك تعرف بعد هذا ما قد يحدث من هروب بالليل أو بالنهار ، ومن « تزويغ » من بعض الدروس إذا اقتضى الحال ! ومن حلول الفوضى والاضطراب إذا غفلت عين الناظر أو الأستاذ ، واختفت العصا وزال الوعيد والتهديد والرفض والانذار ! ! أجل ! ولعلك تعلم أيضاً أن المدرس قد يلقى من العناء فى حفظ نظام الفصل بعض ما يلقى من العناء فى التدريس !

وأنه يحتاج أحياناً لأن يكون شرطياً أكثر مما يحتاج لأن يكون أستاذاً ! ! لعلك تعرف ذلك كله ، ولعلك تدرك منه أن « النظام » قائم عندنا على القوة والإرهاب أكثر مما هو قائم على الرغبة والشعور ، وأن ما يشوب حياتنا خارج المدارس من فشل أو فوضى بسبب انعدام المنطق فيها إنما يرجع إلى أن المدرسة لم تفلح بعد فى غرس النظام فينا وجعله دماً يجرى فى العروق قبل أن يكون مظاهر وقشوراً ! ! وإلى أنها لا تزال تبدو كريهة غير محببة ولا مغرية ، يبهظنا نظامها ، ويرهقنا عملها ، وتثقلنا واجباتها ، ولا نرى فيها بعد هذا من المتعة والنعيم ما قد يخفف من هذا الإرهاق وذلك الإبهاظ ! !

أترى لو كان الأمر على غير ما أقول : أكان الطلبة يضربون ويتركون فصولهم لمجرد استقبال زيد أو عمرو مهما قيل فى ضعف الادارة المدرسية أو الإشراف الوزارى ؟ ؟

أترى لو كان حب النظام متغلغلاً فى نفوس الطلبة : أكانوا يهددون بالإضراب كلما عنت لهم حاجة ، فإذا ما أضربوا انقلبوا إلى جماعات ثائرة متمردة ، وأعلنوا على المدرسة معاملها وأثاثها — وأحياناً ناظرها ومدرسيها — حرباً عواناً لا تبق ولا تذر ؟

ذلك إذاً نظام آلى تمسنى مبغوض ! ، وتلك إذاً نتائج خطيرة تسود حياتنا الخاصة والعامة وتجعل الفشل والاضطراب نصيبنا المحتوم ؛ وإذا كان « النظام الحق » سر عظيم من أسرار النجاح تتحلى به الشعوب العظيمة كالإنجليز والألمان ، فما أحوجنا فى نهضتنا الحاضرة ومركزنا الحربى الدقيق إلى التحلى به والأخذ بروحه وتفاصيله ... ! ؟

سبيل الاصلاح

ويرى الدكتور جاكسون أن الاصلاح إنما يتأتى عن طريق تعليم الطلبة كيف يحترمون « السلطة المشروعة » إذ ما معنى أن يتملك زمامهم نفر من خطبائهم ومهيجيهم ، ويقف ناظرهم وأساتذتهم عاجزين حتى عن توجيه الكلام إليهم ؟ ؟ كذلك يجب ألا نقبل أبداً التهديد بالاضراب كوسيلة منتجة تحقق لهم طلباتهم ؛ وإنما يجب أن نعاقب الداعين إلى الخروج على سلطة الناظر عقاباً صارماً رادعاً ، وألا نستجيب إلى طلباتهم إلا إذا اتخذوا فى رفعها ومناقشتها الطريق المشروع والأسلوب اللائق

بطلبة يتثقفون ويتهذبون ! ؛ أما نظام المدرسة الذى له ضلع كبير فى تلك الحالة الشاذة فيجب أن يتبدل بحيث يصبح أكثر مرونة ، وبحيث يشعر الطلبة أنفسهم أنهم جزء فيه لا يتجزء ! ؛ وبذلك يصبح إضرابهم موجهاً ضد أنفسهم ، ويصبح إخلاصهم للمدرسة خير ضامن لانتظامهم فى عملهم واحترامهم لقانونهم .

ويتطلب ذلك النظام الجديد منا أن نفهم الطفل خطأه قبل أن نثور عليه ونصخب فى وجهه ؛ وأن ننشد منه الطاعة المصحوبة بالرضا والاحترام قبل أن ننشد منه الخضوع الممزوج بالرهبة والخوف ؛ وأن نعامله معاملة ديمقراطية ونعرف له حقه كعضو فى جسم حى متعدد الأعضاء ؛ وأن نقنعه بأن خطأه إنما يعود على المجتمع الذي هو عضو فيه مما قد يثير غضب هذا المجتمع عليه ؛ وأن نجعل لجسم المدرسة غاية سامية فى رأسه ونطالبه بالمساهمة فى تحقيقها كعضو فعال فى ذلك الجسم ؛ وأن ندخل فى المدرسة ذاتها من أساليب المتعة والإغراء والجمال [1] والفن ، ما يزيد فى تحمسه لها وشغفه بها حتى يعز عليه أن يتركها أو أن يعبث بجلالها ووقارها ؛ وأن نقدم له مدرسين من طراز خاص يستطيعون أن يمتزجوا بنفسه ، وأن يحدثوه فى أشياء كثيرة ، وأن يلقنوه أمثل أساليب الحياة ؛ وأن نربط ما بين بيته وبين المدرسة برباط متين ، فيلتقى الناظر والمدرسون فى الآن بعد الآخر بأهله مجتمعين مع أهل زملائه فى ساحة المدرسة حيث يدور النصح والارشاد ، ويتحقق تعاون المدرسة مع البيت على نحو مأمون [2]

وأن ندفع به إلى مختلف الجمعيات المدرسية حيث توفر له مجتمعاً صغيراً له غاية ولافراده من الحقوق والواجبات والقانون والنظام ما يؤهله لأن يكون عضواً حياً فى جسم حي [3]

وأنْ نتيح له من ألوان الرياضة البدنية ما ينمى جسمه ويقوى عضله ويروح عن نفسه ويعلمه أنّ الخسارة بحق خير من الفوز بباطل ، وأنّ المرمى واحد والجميع يعملون متعاونين من أجله [1]

وأن نقدم له من الجوائز الأدبية والمادية ما يثير فيه روح المنافسة الشريفة ، ويحببه فى العمل الذى قد جوزى عليه خيراً ، ويجعل مجده الشخصى عائداً على مجد المدرسة كلها بالعظمة والخير .. !!

بذلك وبغيره نوجد فى المدرسة نظاماً حياً يمتد من الملعب إلى حجرة الدرس ، ويتحقق فى حضور الرقيب كما يتحقق عند غيبته ، وبذلك وبغيره نستطيع أن نخرج الرجل الاجتماعى المنشود الذى يرعى قوانين أمته ، ويطيع عرفها ، ويندمج فى وحدتها الكبرى غير ناظر إلى رياسة تذيع اسمه ، أو منصب يدر عليه الخير ، أو شخص يحسده ويسعى إلى تحطيمه بالمنافسة الشريفة وغير الشريفة .!!

ولعلك تعرف بعد هذا أن قوام ذلك النظام المنشود إنما هو الناظر والمدرسون ، فترى ماذا يمنع نظارنا ومدرسينا من أن يوجدوا هذا النظام فى معاهدهم ؟ ذلك ما أدعوك اليوم إلى التفكير فيه ، وما سأحاول أن أعرض لبعض نواحيه فى العدد القادم . .

« يتبع » **محمد حسن ظاظا**

مدرس الفلسفة بشبرا الثانوية الأميرية

---

(١) ويلاحظ أن الكثير من مدارس الوزارة مستأجر . وبعض هذا الكثير قصور لها جلالها وجمالها التاريخيان من غير شك ولكن نظامها المدرسي والصحى لا يلائم العمل الدراسى قط . لذلك يحسن بالوزارة أن تعمل عاجلا على أن تكون جميع مدارسها من النوع المنشود .

(٢) ويحسن أن يكون ذلك عدة مرات فى العام الدراسى وأن يقوم الطلبة أنفسهم بادخال اللهو والسرور على أهليهم وأن يخطب الناظر والمدرسون فى موضوعات تتصل بتربية الطلبة ومستقبلهم .

(٣) ويوجد بعض هذه الجمعيات بالمدارس ولكن لا ينتسب اليها مع الأسف إلا القليل . ونادر جداً أن يتوفر فى هذه الجمعيات الروح الاجتماعى المنشود .

(١) وكثيراً ما نطفى الرياضة على العلم عند بعض لا عبينا فيصبحون أبطالا فى الكسل الدراسى والرسوب ويجدون مع هذا من المدرسة تهاونا ما دامت تريد « الكأس » على أيديهم ! !

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

- ٢٨ -

« قرأت كلمة الأستاذ سيد قطب (بين العقاد والرافعي) فى العدد السالف من الرسالة ؛ وأنا أعمل الآن عمل المؤرخ لحياة قد استأثر بها التاريخ ، والأستاذ قطب يريد أن يكون ناقداً ، وفى مذهبه أنه « لا يصح أن يكون الموت معطلا للنقد » ... وفى مذهبنا أنه لا ينبغى أن يكون بينى وبينه جدال يعطل التـاريخ ؛ ومع ذلك فان ما أتى به من النقد ليس بشىء عندنا . ولقد مات الرافعى ولـكنه خلف طائفة كريمة من الأدباء ، كلهم أمين على أدبه حريص على تراثه ؛ فلا جرم أن يتولى تزييف هـذا النقد أو تعديله رجل غيري ممن خلف الرافعي لهم أدبه أمناء عليه ، لأفرغ لما أنا فيه ؛ فلينتدب له صديقنا (الأستاذ محمود محمد شاكر) ، فتلك من أمانات الرافعى فى عنقه »

العريان

الملاح التائه

بعد ما أنشأ الرافعى مقالة « وحى الهجرة فى نفسى » للعدد الممتاز من الرسالة فى سنة ١٣٥٣ﻫ ، أهدى إليه الشاعر المهندس على محمود طه ديوانه « الملاح التائه » ، وأحسبه طلب إليه أن يكتب عنه . وكان بين الرافعى والشاعر المهندس صلة قديمة من الود ، أظنها نشأت فى حجرة الأستاذ فؤاد صروف محرر المقتطف ، حيث كان الرافعى يقضى أكثر أوقات فراغه كلما هبط إلى القاهرة لعمل من أعماله . وهناك كان يلتقى الرافعى ، وصروف وإسماعيل مظهر ، ومحمود شاكر ، والملوف ، وغيرهم من أدباء العربية ، فيحتدم الجدل ساعات فى موضوعات شتى من الأدب . ولم يكن للرافعى ندوة أدبية يقصد إليها كلما جاء القاهرة منذ هجر فلانة — أحبّ إليه من دار المقتطف ، ثم صار له ندوة ثانية من بعدُ حين اتصل سببه بالرسـالة ؛ فـكان يقضى وقته بين عيادة الدكتور شخاشيرى فى فم الخليج ، وعبد القادر حمزة والمازنى فى البلاغ ، وإخوان صروف فى المقتطف ، والزيات فى دار الرسالة . ولم يلتق إلا مرة أو مرتين بالأستاذ أحمد أمين والدكتور عزام فى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، عندما كانت اللجنة قائمة على طبع كتابه وحى القلم

قلت : إنه كانت بين الرافعى والشاعر على محمود طه صلة من الود ، ومنها أن الشاعر المهندس وضع له رسماً (تصميما) للبيت الذي كان فى نيته أن يبنيه لينتقل إليه وينقل دار كتبه قبل أن يموت . ولهذا البيت قصة لم تتم ، لأن هذا البيت لم يتم ... فقد كان كل ما ادخره الرافعى من جهاده بضعاً وثلاثين سنة ، بضع مئات من الجنيهات ، اشترى بنصفها قراريط لينشئ فيها حديقة وبيتاً يسكنه — إذ كان وما زال إلى أن مات يسكن بيت أبيه — وبقى معه بعد ذلك قدر من المال لا يكفى نفقات البناء والانشاء ، فآثر أن ينتظر حتى يجتمع إليه شىء ، وأسلف صهرَه ما بقى عنده من المال إلى أجل ، وفى النفس أمل ... ثم ... ثم جاءت الأزمة فأكلت ثروة صهره جميعها لم تُبق منها على شىء ، وضاعت ذخيرة الرافعى فيما ضاع ولم يستطع المدين وفاء الدين ، فلم يبق للرافعى من جهاده وما ادخر إلا الأرضُ الخربة ، والأمل فى عطف الله ، وخطوط تبين حدود البيت وحجراته وأبهاءه وحديقته ، مرسومةً على ورقة زرقاء ... !

وجاءه ديوان الشاعر على محمود طه ، وديوان الماحى ؛ فدفعهما إلىّ لأختار له ما يقرأ من كليهما . ولم أكن أعرف يومئذ ما بينه وبين الشاعر المهندس ، ولـكن رأيى فى ديوانه وافق هواه ؛ فما فرغت من قراءته حتى دفعته إليه وعلى هامشه إشارات بالقلم ، وما دفعته إليه حتى تهيأ للـكتابة عنه ...

وأنشأ مقالة مسهبة نشرها فى المقطم ، تحدث فيها عن الشعر حديثاً يبين مذهبه وطريقته فى فهم الشعر وفى إنشائه ؛ ثم انتهى إلى الشاعر المهندس يمدح ويثنى ، وينتقد وينصح ... وكان مؤمناً بما كتب ، ولـكن إيحاءات من الواعية الباطنة [1] كانت تملى عليه بعض الحديث فى التعريض ببعض الشعراء المعاصرين ...

وتناول الأستاذ المازني ديوان « الملاح التائه » فى البـلاغ بعدما تناوله الرافعى ، فعاب عليه أشياء كان يمتدحها الرافعى ،

(١) الواعية الباطنة : هو تعبير الرافعى عما يسمونه فى علم النفس بالعقل الباطن

وأخذ على الشاعر أنه كثير العناية باللفظ والعبارة وجزالة الأسلوب؛ فكانت مقالة الأستاذ المازني حافزة للرافعي على أن ينشىء مقالة للرسالة في الرد عليه، جعل عنوانها «الصحافة لا تجنى على الأدب ولكن على فنيته»؛ فبهذه المقالة كان الرافعي يقصد الأستاذ المازني، دفاعاً عن صديقه الشاعر، أو دفاعاً عن مذهبه في الشعر.

وكانت هذه أولى مقالات الرافعي في الرسالة بعد فترة من مقالة «وحي الهجرة» وقد أنشأها على نهجه القديم، وحاول فيها فناً من التهكم في قصة اخترعها عن الأصمعي الراوية في عهد الرشيد

* * *

في الرسالة

كان الرافعي مفتوناً بمقالاته الثلاث التي أنشأها في هذه الفترة: البلاغة النبوية، وحقيقة المسلم، ووحي الهجرة. وكان حسن وقعها عند كثير من القراء حافزاً له على الاستمرار في هذا الباب من الأدب الديني، فعقد النية على أن يكتب السيرة النبوية كلها على هذا النسق الفلسفي، ليجعلها كتاباً بعنوانه، يتناول سيرة النبي المعظم — صلى الله عليه وسلم — على طريقة من التحليل والفلسفة، لا على نسق من الرواية. فأنشأ بعد ذلك مقالاته: «سمو الفقر»، و «الانسانية العليا»، ثم بان له من بعدُ أن هذا الفن من الانشاء عسر الهضم عند كثير من قراء الرسالة، فتركه إلى موضوعات أخرى يعالج بها بعض مشاكل الاجتماع في الحياة المصرية، على أن يكتب ما يتيسر له من المقالات النبوية نجوماً في فترات متباعدة حتى لا يمل قراءه أو يثقل عليهم.

وسأتحدث من بعدُ عن كل مقال من المقالات التي أنشأها للرسالة في الفترة التي صحبته فيها، لعل ذلك يعين على فهم أدب الرجل ودوافعه ومعانيه؛ ولعله يبلغ بي الوسيلةَ إلى الذين لا يفهمون أدب الرافعي ثم يحاولون أن يتحدثوا عن أدب الطبع وأدب الذهن، أو الأدب الفني والأدب النفسي ...

ولكن عليّ قبل أن أبدأ هذا الحديث، أن أصف الرافعي حين يهم بموضوعه، ثم حين يفكر فيه، ثم حين يتهيأ لكتابته، ثم حين يمليه عليّ من القصاصات المبعثرة على مكتبه، فان ذلك من الموضوع فاتحته وأوله:

* * *

اختيار الموضوع كان أول عمل يحتفل له الرافعي؛ وإذ كان لم يعمل في الصحافة قبل اشتغاله بالرسالة، فإنه لم يتعود من قبل أن يفتش عن الموضوع؛ ولم يكن يحاول الكتابة إلا أن يدفعه إلى الكتابة دافع يجده في نفسه قبل أن يطلبه؛ فلما دعاه الزيات ليكتب للرسالة موضوعاً كل أسبوع، راح يلتمس الموضوعات التي تصلح أن يكتب فيها للرسالة. وكان يضيق بذلك ويتحير، ثم لم يلبث أن تعودها، فكان يرسل عينه وراء كل منظر، ويمد أذنه وراء كل حديث، ويرسل فكره وراء كل حادثة، ويلقى باله إلى كل محاورة، ثم يختار موضوعه مما يرى ويسمع ويشاهد ويحس، ثم لا يبدأ أن يجمع له فكره ويهيئ عناصره إلا أن يجد له صدى في نفسه، وحديثاً في فكره، وانفعالا في باطنه. وكثيراً ما كان يعرض له أكثر من موضوع؛ وكثيراً ما كان يرخ عليه فلا يجد موضوعه إلا في اللحظة الأخيرة، واللحظة الأخيرة عنده قبل موعد إرسال المقال بثلاثة أيام!

فمن ذلك، ومن خشية الإرتاج والحرج، كان دائماً في جيبه ورقات، يكتب في إحداها عنوان كل ما يخطر له من موضوعات الأدب، ليعود إليها عند الحاجة؛ ويتخذ الورقات الباقية مذكرة يقيد فيها الخواطر التي تتفق له في أيّ من هذه الموضوعات أين يكون. وبلغ بذلك أن يجتمع عنده في النهاية ثَبتٌ حافل بعناوين مقالات لم يكتبها ولم يُفرِغ لها باله، وورقاتٌ أخرى حاشدة بخواطر ومعان شتى في أكثر من موضوع واحد، لا تربط بينها رابطة في المعنى ولا في الموضوع. ومن هذه الورقات، ومن فضلات المعاني في المقالات التي كتبها وفرغ منها — كان يختار «كلمة وكليمة» التي كان ينشرها في فترات متباعدة من الرسالة كلما وجد حاجة إلى الراحة من عناء الكتابة. فهذه الكلمات هي إحدى ثلاث: خواطر مبعثرة كان يُلَقَّاها في غير وقتها، أو عناوين موضوعات لم تتهيأ له الفرصة لكتابتها، أو فُتاتٌ من مقالات كتبها وفرغ منها وبقيت عنده هذه المعاني بعد تمام الكتابة إذْ لم يجد لها موضعاً مما كتب

وبسبب أنه كان يقيّد عناوين الموضوعات التي كان يختارها ليكتبها في وقتها، كان يَعِد قراءه أحياناً بموضوعات ثم لا يكتبها

ولا يفي بما وعد ، لأنه لا يملك منها إلا عنواناً في ورقة بيضاء ؛ ومن ذلك مقالة (الزبّال الفيلسوف) التي وعد أن يكتبها حين أنشأ للرسالة قصة « بنت الباشا » ثم مضت ثلاثة أعوام ووافاه الأجل وما تزال مقالة الزبال عنواناً في رأس ورقة تحته نثار من الخواطر والمعاني التي كان يدخرها إلى يومها المؤمَّل !

ولقد وجدتُ على مكتبه في طنطا غداة نعيه كثيراً من هذه الورقات ، تشير إلى كثير من أمل الأحياء وإلى كثير من خداع الحياة ... !

***

... فإذا تم له اختيار الموضوع الذي يتهيأ لكتابته ، تركه للفكر يعمل فيه عمله ، وللواعية الباطنة أن تهيئ له مادته ؛ ويدعه كذلك وقتاً ما ، يطول أو يقصر ، يقيد في أثنائه خواطره لا تكاد تفلت منه خاطرة ؛ وهو في ذلك يستمد من كل شيء مادة وَحي ، فكأن في كل موجود يراه صوتاً يسمعه ، وكأن في كل ما يسمعه لوناً يراه ، وكأن في كل شيء شيئاً زائداً على حقيقته يملي عليه معنى أو رأياً أو فكرة ...

فإذا اجتمع له من هذه الخواطر قدر كاف — والقدر الكافي لتجتمع له هذه الخواطر هو يومان أو ثلاثة — يأخذ في ترتيبها معنى إلى معنى ، وجملة إلى جملة ، ورأياً إلى رأي . فهذه هي الخطوط الأولى من هيكل المقالة

ثم هو يعود بعد ذلك إلى هذه الخواطر المرتبة — بعد أن ينفي عنها من الفضول ما يدخره لـ « كلمة وكليمة » أو لموضوع آخر — فينظر فيها ، ويزاوج بينها ، ويكشف عما وراءها من معان جديدة وفكر جديد ؛ ولا يزال هكذا : يزاوج ويستولد ، ويستنتج من كل معنى معنى ، ويتفطر له عن كل رأي رأي ، حتى تستوي له المقالة فكرة تامة بعضها من بعض ، فيكتبها

إلى هنا يكون قد انتهى عمل الذهن ، وعمل النفس ، ويبقى عمل الفن والصناعة لتخرج مقالة الرافعي إلى القراء في قالبها الأخير الذي يطالع به الأدباء ... وبيني وبين القراء ميعاد ...

« شبرا » محمد سعيد العريان



أذكر أني ما قرأت بعض فقرات من « يوليوس قيصر » لشكسبير ، إلا غمرني حزن حقيقي . قصة أخرى أذكر أيضاً أنها كانت تترك في نفسي عين الأثر : هي رواية فرنسية تسمى « نابليون المسكين » لكاتب فرنسي يسمى « برنارزيغر » يصور فيها الامبراطور سجيناً في جزيرة سانت هيلانة ، وقد قصت أجنحة هذا النسر الهائل ، وقلمت مخالبه ، وأمسى مخلوقاً بائساً يهزأ به خادمه ويخفي عنه غليونه الذي يدخن فيه ، ويهمله سجانه الانجليزي ويدعه يتقلب طول الليل على مضجع الألم من مرض أضراسه ، فلا يرحمه ولا يحضر له طبيباً ولا دواء ، ويلقبه « بالدب » الذي وضع في أنفه حلقة من حديد ويسمح لبعض الزائرين من السائحين أن ينظروا إليه خلسة من ثقب باب حجرته ، كأنه أسد هرم رابض في قفصه بحديقة الحيوان ، هذا الذي كان وحده يقيم العروش ويثل العروش ، ويدب بحذائه العسكري على أديم أوروبا فتهتز لشيته التيجان على رؤوس الملوك . وكان يقول في صوته الحديدي : أنا وحدي « أوروبا » ، فتقول له أوروبا كلها : بل أنت « العالم » . نعم لا شيء يؤلم نفسي مثل رؤية « العظيم » يرى سقوطه بعينيه ، ومع ذلك لقد احتفظ هذا العظيم بكبريائه حتى النفس الأخير . فلقد كان يصر على أن يلقب بالامبراطور ، ولقد خاطبه في ذلك مرة حارسه الانجليزي قائلا له : إمبراطور على من ؟ وإمبراطور على ماذا ؟ فلم يجد منه إلا تشبثاً . فأذعن رفقا به أو سخرية منه ، وترك له هذا اللقب الذي لا يغني ولا يفيد . ولبث هذا البطل المهجور يعيش في هذه الجزيرة المهجورة إلى أن مات ، لا بين قصف المدافع ودوي الأبواق ودق الطبول وهتاف العالم من جميع الأركان ، ولكن بين سكون النسيان ، لا يشيع جثمانه العظيم غير خادم وسجان . يالقسوة القدر ! ان السماء لتنتقم أحياناً من العظيم الذي يتوهم أنه غير وجه العالم بأعماله ، فتؤخر موته بضعة أيام عن الوقت الذي كان ينبغي فيه أن يموت ، حتى يرى بعينيه قبل أن تغلقا أن العالم بخير لم يتغير فيه شيء بذهابه ، ولم تخفت ضحكاته ولم تقف عجلاته برحيله.

توفيق الحكيم

آراء حرة

بين العقاد والرافعي

للأستاذ سيد قطب

— ٢ —

في كلمة الأستاذ سعيد العريان الأخيرة، وردت الجمل الآتية يصف نقد الرافعي لوحي الأربعين

« وكان نقداً مراحاماً اجتمع فيه فن الرافعي، وثورة نفسه، وحدة طبعه، وحرارة بغضائه، ولكنه كان نقداً منزهاً عن العيب »

« أستطيع أن أقول ويقول معي كثير من أدباء العربية، إن هذه المقالة هي خير ما كتب الرافعي في نقد الشعر، وأقربها إلى المثال الصحيح »

« من قرأ « على السفود » فعابه على الرافعي وأنزله غير ما كان ينزله من نفسه، فليقرأ مقال الرافعي في نقد « وحي الأربعين » ليرى الرأي المجرد في شعر الأستاذ العقاد عند الرافعي »

وفي هذه الكلمة نفسها يقول عند رد العقاد:

« قرأت مقالة العقاد في الرد على الرافعي، فوجدت أسلوباً في الرد لم أكن أنتظره، يؤلم ولا يفحم، ويقابل الجرح بالجرح لا بالعلاج

ويسمى الرد كله: « طعن العقاد على الرافعي وشتيمته إياه »

ويقول عن المقالة كلها: « وكان أكثرها سباباً وشتيمة، وأقلها في الرد والدفاع » ... الخ ... الخ

* * *

هذا ما يراه الأستاذ سعيد في نقد الرافعي ورد العقاد. فمن شاء أن يعرف ما هو نقد الرافعي، فليسمع نماذج منه تعطي صورة كاملة عنه، لأنها منتقاة من نواح مختلفة فيه، لتمثل « فنونه » كلها. وإني لأستميح قراء الرسالة المعذر، حين أستبيح أسماعهم وأذواقهم في سماعها، وقد اختصرت على أقلها إفحاشاً وها هي ذي:

١ — « وما يخيل إلي في شعر العقاد إلا أنه مستنقع اخضرت ضفتاه، فهذا الجمال القليل فيه لا يكشف عن سر ورونق وإمتاع، وإنما يزيد في القبح والشنعة. وما هو المستنقع إلا البعوض والملاريا والطحلب والوخم والعفن. ولو أنك كنت شاعراً دقيق الحس، مصفى الذوق، عالي البيان، ثم قرأت شعر العقاد لرأيت من ألفاظه ألفاظاً تلسع الذوق لسع البعوض، ومن شعره أبياتاً تنهق نهيق الضفادع التي هي حمير الماء

٢ — يقول العقاد عن حبيبته:

فيك مني ومن الناس ومن كل موجود وموعود تؤام

فلا يرى الرافعي في هذا البيت الفريد إلا أن يقول:

« قلنا فإن « من كل موجود » البق والقمل والنمل والخنفساء والوباء والطاعون والهيضة وزيت الخروع والملح الانجليزي إلى واوات من مثلها لا تعد، أفيكون من هذا كله في حبيب إلا على مذهب العقاد في ذوقه ولغته وفلسفته ؟ »

٣ — يقول العقاد في طرافة ودعابة عن حسان شاطئ استانلي

ألقى لهن بقوسه قزح وأدبر وانصرف
فلبسن من أسلابه شتى المطارف والطرف

فلا يجد الرافعي في هذه الطرافة إلا أن يتلاعب بالألفاظ فيقول:

« فقزح لا يلقي قوسه أبداً، إذ لا يفصل منه. قال في اللسان « لا يفصل قزح من قوس » فاذا امتنع فكيف يقال: « أدبر وانصرف »

أما قزح العقاد، فلعله الخواجة قزح المالطي، مراقب المجلس البلدي على شاطئ استانلي الذي قيلت فيه القصيدة

٤ — ويسمع العقاد صيحات الاستنكار لهو الشواطيء وما تعرض من جمال، فيصيح صيحة الفنان الحي المعجب بالحيوية والجمال:

عيد الشباب ولا كلا م ولا ملام ولا خرف

فإذا الرافعي يقول:

« إن غاية الغايات في إحسان الظن بأدب العقاد أن تقول إن في هذا البيت غلطة مطبعية، وأن صوابه

عيد الشباب فلا كلا م ولا ملام (بلا قرف)!

* * *

هذه نماذج منوعة من ذلك النقد الذي ينال الرضاء والاستحسان من أصدقاء الرافعي ، ومن أبناء مدرسته ، ويعتبر « نقدا منزها عن العيب » !

وهذا هو الكلام الذى يعتبر رد العقاد عليه « سبابا وشتيمة » !

ومثل هذه الآراء الغريبة تثير الحنق وتستفز النفوس ، ومع هذا فسأحاول أن أناقشها بهدوء ، وأن أخلص منها إلى البرهنة على ما سبق أن أسلفته من رأى فى الرافعي

فأما المثال الأول فما أدرى ماذا أسميه إن لم أقل عنه : « إنه إفحاش » أو إنه « سباب وشتائم » بتعبير أصدقاء الرافعي وهو وأمثاله يؤلف نصف النقد في أوائله وأوسطه وأواخره ، فلنمر عليه مر الكرام

وأما المثال الثانى فهو مصداق رأيي فى أن الرافعي أديب الذهن لا أديب الطبع ، وأنه تنقصه « المقيدة » التى هى وليدة الطبع . أو . لا . فأى « طبع » سليم يتجه إلى تفسير بيت غزلى فى معرض إعجاب شاعر بحبيبته ، واستغراق فى شمول شخصيتها بأن « كل موجود » هو البق والقمل والنمل ... الخ » ؟ غافلا عما فى هذا الإحساس من « حياة » و « استكناه » لجوهر الشخصية ، و « خيال بارع » تثيره طبيعة فنية ، فيرى في هذه المرأة من متنوع الصفات ومختلف النزعات وشتى المزايا ، عالما كاملا من كل موجود وموعود ؟

أحد أمرين :

إما أن الرافعي ضيق الإحساس مغلق الطبع بحيث لا يلتفت إلى مثل هذه اللفتات الفنية بالشعور

وإما أنه يدرك هذا الجمال ، ولكنه يتلاعب بالصور الذهنية وحدها ، غافلا عما أحسه وأدركه

وهو فى الحالة الأولى مسلوب « الطبع » ، وفى الثانية مسلوب « المقيدة » . فأيهما يختار له جماعة الأصدقاء ؟

والمثال الثالث فيه تلاعب وروغان ، وهو فى هذه المرة (التلاعب) أخس من السابقة . ففى الأولى كان تلاعبا بصور ذهنية ، وهو هنا تلاعب بألفاظ لغوية !

أولا فهذا الذى يغفل عن طرافة هذا « الخيال » الذى يتصور « قزحا » ملقيا بقوسه لهؤلاء الحسان ، وهن يتناهبن هذه الأسلاب ، بينما هو مدبر منصرف ، مغلوب على أمره ، لا يستطيع النصفة ممن غلب جالهن جماله !

ألا تستحق مثل هذه الطرافة ، ومثل تلك الحيوية من الناقد إلا أن يذهب إلى القاموس أو اللسان ، ينظر هنالك هل يفصل قوس عن قزح أولا يفصل ؟ ثم يكمل الكلام بتهكم بارد لا يرد على الفطرة المستقيمة فى معرض هذا الجمال !

أهذا هو النقد الذى هو « أقرب إلى المثال الصحيح » ؟

وما قلته فى المثال الثانى يقال بنصه هنا ، فلترجع إليه جماعة الأصدقاء !

والمثال الرابع يغنينا الرافعى عن الحديث فيه ، فهو لم يزد على أن أورد البيت ، ثم استغلق دون استيعاب ما يعبر عنه من روح الفنان الحى ، الموكل بالجمال حيثما وجد وكيفما كان ، الهازىء بخرف التقاليد ، وقيود العرف ، ولم يجد ما يقوله إلا « بلا قرف » وهو قول لا نمليق لنا عليه

***

هذه نماذج يبين أولها شتائم الرافعى وسبابه ؛ ويمثل الثانى تلاعبه بالصور الذهنية ، واستغلاق طبعه دون تملى الإحساس الفنى ؛ ويمثل الثالث تلاعبه بالألفاظ اللغوية ، والوقوف بها دون ما تشمه فى الخيال من صور طريفة ؛ ويمثل الرابع هروبه من مواجهة النقد الصحيح إلى المراوغة وكسب الموقف - فى رأيه - بنكتة أو تهكم أو شتيمة

وليس فى نقده كله إلا أمثلة لتلك النماذج ، وهى كلها لا تستدعى ردا من النقود . وإنى لأعجب كيف رد العقاد على مثل هذا ، وكيف عنى أن يناقش ما لا يناقش من الآراء والتحايلات

لقد قلت فى كلمة سابقة : إننى أنا — لا العقاد — كنت مستعدا أن أثور وأن أستهزىء ، لو تناول متناول أدبى يمثل هذا الضيق فى الفهم والاستغلاق فى الشعور ، أو يمثل تلك التلاعبات الذهنية واللغوية ، واللفات البهلوانية

وإننى لأكرر ما قلته ، وأعجب من بعض أصدقاء الرافعى : كيف كانوا يريدون من العقاد أن يقابل مثل هذا بالنقاش الهادىء « ويرد الجرح بالعلاج لا بالجرح » . ولماذا أيها المنصفون يطلب من العقاد وحده أن يلتزم جانب النقد الأدبى مع من لا يلتزمه

***

وبعد فقد اخترت أن أثبت رأيي فى الرافعى من نقده الذى استحق إعجاب أصدقائه ، وفى مرة أخرى سأصل هذا الرأى معززا بانتاجه الطبيعى الخالص من فورة الخصومة وحدة النزال

« حلوان »

سيد قطب

رسالة الأديب
إلى الحياة العربية
للدكتور بشر فارس

الأديبة تريحنا من الأدباء :

القصر تدخله فيروعك الرواق الممدود والجدار المنطلق والسقف المقبَّب، ثم الطنافس كأنها من بطون النوق، والمصابيح كأنها انسلت من أعطاف القمر ، والأسرّة كأنها من عضل الزنج منحوتة . فإذا طرفك تنهكه الغلبة ؛ حتى إذا انثنى إلى الخدر وارتفع له ستاره كان كالسنبلة تلطمها السَّموم فيغيثها البلل . الخدر : زهر مطروح، وإبريق مترع نصفه ، وكأس تنظر أين شاربها ، ومقعد مقتضب ولكنه وثير ، ووساد كأنه خدود جمعت ، وباب هنالك تدفعه بنفثة

فبورك اليوم الذى فيه حنَّت أنامل ميّ إلى قلمها !

***

وبعد، فقد ألقت الآنسة ميّ فى قاعة الجامعة الأمريكية ببيروت محاضرة موضوعها « رسالة الأديب إلى الحياة العربية » ، وقد نشرتها « الرسالة » (رقم ٢٤٨) وإذا هى محاضرة تسيل رقة وتثب خفة ، فيها من الحقائق النواهض ما يكشف للذهن عن أفق منبسط وهّاج .

وثمت ثلاث حقائق لم ينصرف قلم الآنسة ميّ إليها؛ فهل لى أن أبينها هنا ؟

***

الأدب صناعة !

كذلك كان عند الأمم الراقية وفيها العرب أصحاب لغتنا . وكذلك هو اليوم فى بلدان الفرنجة. و« الصناعة » لفظ له مدلول معين . إنما مداره هذه المجموعة من القواعد والشرائط . ومن الشرائط أن تكون منجذباً إلى الأدب سليقة ، وأن تنصبه فوق كل شيء ، وأن تبذل فى سبيله ما عزّ عليك من متاع أو مطلب ، وأن تنصرف إليه لوجهه . ومن القواعد أن تملك اللغة التى تكتب بها ، وأن تكون مطلعاً على آدابها واقفاً على فنونها ، وأن تكون — فوق هذا — طلاباً للعلم ، مأخوذاً بحمىّ الاستطلاع المتصل ، مستقيماً فى الأداء ، رغاباً فى التطلع إلى التمام .

قواعد وشرائط هيهات أن تكون من مستحضرات الذهن النظرى ، بل هي من مستخلصات تاريخ الآداب عامة .

هل الأدب صناعة في الشرق العربي ؟ إنه لصناعة عند فئة ممن يقبلون عليه وقلوبهم تحدثهم بقدره . غير أن العدد الأوفر من كتابنا وشعرائنا إنما يهجمون على الأدب من غير بابه .

أليس الأدب أن تقبض على قلم وتفرش ورقة وأنت عارف كيف ترفع الخبر وتخفض المضاف، وإن حيرتك حروف الجرّ أو أدار عقلك وصل الجمل وفصلها ؟ أما الذى ينشى الورقة فما لا شأن للقارىء فيه . أنا أكتب ، وأما أنت فالقراءة القراءة ، بل عليك أن تكبرنى . لمَ ؟ لأنى أكتب ؛ لأنى أديب . أين الشهادة بأنى أديب؟ إن صحيفة كيت وكيت تنشر لى. إن لى كتاب كذا وكذا ... ماشاء الله ! ماذا تقول ؟ « الأدب صناعة » ؟ ها ها ! الأدب وحى ! الأدب زير يرشح وأنا الطست من تحته ! أجل أنا أقرض الشعر وإن لم أقوّم أوزانه ! الشعر موسيقى وأذنى دف تنقره وثبات روحى اللطيفة . أجل أنا أحلل فلسفة برجسون وإن لم أقرأ أفلاطون ولا بلوطينس ولا سبينوزا ولا دركايم . إنى أتسلق الدار وأعف عن إتيانها من مولجها . أجل أنا أؤلف مسرحيات وإن لم أقرأ مسرحية أفرنجية واحدة . لا حاجة بى إلى من يدلنى على الطريق . أنا « موهوب » . أجل أنا أصف الصور والتماثيل التى فى معارض الفن وإن لم ألح من متحف « اللوفر » سوى طرفاً من سلمه . الأدب تهويل على الناس ، يا صديقى . أجل أنا أزلق إلى النمز مجمع اللغة العربية وإن لم أقرأ « القرآن » ولا « المخصص » ولا « مغنى اللبيب » وإن جهلت كيف أطلب مادة أدب فى القاموس المحيط . أنا أنشىء افتتاحيات سياسية ، والسياسة مدرجة إلى كل شيء

***

الأدب غذاء !

أن تشرح روحى وتزيد فى علمى وترهف إحساسى وتصقل

إذا كي ثم تدفعني إلى حيث أفلت من قيود المادة ، ذلك الذى أرقبه منك خاصة أيها الأديب . أما أن تقصر أدبك على الترويح عن نفسي كأنك بيفاء يسلي عجوزاً عن شمطها فلى عنك فى ذلك غنى . أليس بين يدىّ « روايات الجيب » ومجلة « اللطائف » والصور المتحركة الأميركية و « الكسار » والزمار البلدى ورقص البطن فضلاً عن القهوات وما يقع عليها من غرائب المخلوقات ؟

كأنى بك تكتب وتلق فى اعتقادى أنك ممن يقود فكرى فتغوينى وتفسد علىّ معنى الأدب . وإن قُلتَ : إنى لم أُهيَّأ بعد لتاقى أسرار فنك لقعود فهمى عن النفوذ إلى مخبآت الضمير ، فما رسالتك إذن ؟ أترفعنى إليك أم تنخفض إلىّ ؟

خبّرنى، هل رأيت — حياتَك — الزهرة تميل إلينا لنسترو ح شذاها أم هل رأيت البحر يأتينا فى بيوتنا لنركبه إلى الشطء المجنون إليه ؟ روّضنى على التفكير . خذ بيدى . خذ بما تيسر لك منى نحو ذلك الضوء الذى تراه (من باب الفرض على الأقل) ثم تأتّ لعيني وتلطف فى فتحها. إن الغشاوة التي تركبها إنما أمرها موكول إليك . وما هى بالمستعصية والله ! ولكن إياك والسطو على تآليف غيرك ولا سيما الفرنجة ، فانما روحك التى ألتمسها فيما تكتب ، ومن روحى إلى روحك رسول ، ألسنا من جبلّة واحدة ؟

***

المرأة قوام الأدب !

المرأة عندنا لم تعرف بعد ما المرأة . فإن كانت مثقفة فإنما يشغلها التحرر والنسج على منوال الأفرنجية فى مظاهرها . وإن كانت أميّة فإن هى إلا عَرَض فى عينيها . آه لو عرفت المرأة أن الأدب منها وإليها ! لأن بين يديها مفتاح الغبطة والألم . ومن ذا الذى يلقّنها هذا غير الأديب ، بل من ذا الذى يَقِفُها على وليجة نفسها غيره ؟

الجانب الأعظم من أدبنا أشبه شيء بصحراء رُباها متناسقة ورمالها متناسبة وليس فيها بئر ولا نخل ، حتى إذا جُزتَها وفوّزتَ أصبت عند مخرجها آباراً مهجورة ونخلاً تكاد الوحدة تصرعه . إن البيئة الشرقية مقسمة قسمين : هنا الرجال وهنالك النساء . وما أدرى حتى اليوم كيف يستمرىء الرجال العيش على هذا النحو الشاذ. ولذلك ترى أدبنا المحدث غير طبيعي فى جملته؛

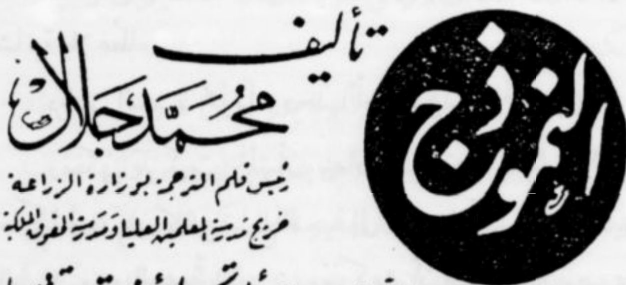
أما الشعر فمصنوع ، وأما القصص فلفّق ، وأما الرسائل فجافة

وإذا فُوِّض إلى الأديب أن يرشد المرأة إلى سريرة نفسها ، فما وكل إلى المرأة بعد هذا أن تلهم الأديب من طريق مباشر أو غير مباشر ، وأن تهذب القارئ بلطف حسها فتقوم مقام الهمزة الدقيقة تصل بين الأدب الحق والمتطلع إليه

بشر فارس

رَجْع : فى مقالى المنشور فى العدد الماضى من الرسالة (٢٥٠) وعنوانه « فى المذهب الرمزى » (تعليق) ، بعض هفوات ، منها : وكان لأجل ، والصواب : لأهل — Caboulade ، والصواب : Capoulade — Raphalite ، والصواب : Raphaelite — أو Rein menochliek ، والصواب : أو rein mensehlich — الطبيعة البشرية الموثوقة ، والصواب : الموثقة — l'aeure ، والصواب : l'Oeuvre بين التأثيرية ، والصواب : التأثرية — أن أدفع وهماً ، والصواب : وهماً ممكناً

ب . ف



ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ١٧ —

أمرى إلى الحب !

أمرى إلى الهوى !

بل أمرى إلى الله الذى يقلّب القلوب

***

كانت ليلتى فى قطار البصرة ليلة شاتية ، وما كنت أخذت أُهبتى لمكافحة البرد فى قطار البصرة ، وهل كنت أعلم أن البرد فى قطار البصرة له تواريخ ؟

لقد عشت دهرى مفتوناً بشبابى ، لأنى نشأت فى أسرة كان أكثر رجالها من المماليك

وكذلك زيّن لى الفتون أن أمتطى قطار البصرة فى ليلة شاتية بلا غطاء

دخلت البصرة محموماً ، دخلتها أهذى هذيان المحمومين

ولكنى تذكرت فجأة أن سعادة السيد عبد الجبار الراوى حاكم الحلة كان كلفنى تبليغ التحية إلى سعادة الدكتور عبد الحميد الطوخى مدير الصحة بالبصرة ، وتذكرت أن هذا الطبيب مصرى صقله العراق ، وأنا على كل حال أحب المصريين ، فقد شاع فى بقاع الأرض أنى مصريّ ، ومن واجبى أن أحب مصر وفاء أو رياء .

ذهبت محموماً للتسليم على هذا الطبيب فكاد يطير من الفرح بلقائى . فقلت له : هوّن عليك ، فما جئت إلا لأبلغك تحية حاكم الحلة ، الحلة الجميلة التى تشبه شبين الكوم حاضرة المنوفية

وما هى إلا لحظة حتى نقلنى هذا الطبيب إلى حاكم البصرة ، وإلى مدير المعارف بالبصرة ، وكان اليوم كله طوافاً بما فى البصرة من غرائب وأعاجيب

وعند الغروب لقينى الدكتور عبد المجيد القصاب فقال : ارجع بنا إلى بغداد . فقلت : لا أستطيع . فقال : إنك ستلقى كلمة مصر فى تأبين المغفور له ياسين باشا الهاشمى ، واسمك فى منهج الاحتفال .

فقلت : أعرف ذلك ، وأفهم قيمة الشرف الذى أظفر به فى حفلة يخطب فيها فخامة رئيس الوزراء ، وفخامة نورى باشا السعيد ولكنى محموم ، وما أستطيع أن أعاقر البرد فى قطار البصرة ليلتين متواليتين

وأرسلت برقية اعتذار ، وأويت إلى فراشى بالفندق أعانى الغربة والمرض والحب . وشاع فى البصرة أنى مريض ، فتفضل حاكم البصرة ومرّ بالفندق فترك لى كلمة عطف ، وتفضل مدير الصحة بعيادتى فأزعجه حالى

وفى الصباح أفقتُ ، فكان أكبر همى أن أزور قبر أستاذى فى التصوف ، مولاى الحسن البصرى ، ولكن كيف ؟ لقد قضيت ليلتى محموماً وقضت السماء ليلها فى بكاء

وأويت مرة ثانية إلى الفراش لأن المطر جعل ذهابى لزيارة قبر الحسن البصرى غرضاً عزيز المنال

وطلبت الجرائد لأتلهى بها فرأيت فى جريدة « الناس » وجريدة « الثغر » أنى سألقى محاضرة بنادى البصرة ، فذهبت فى الموعد وتكلمت نحو خمسين دقيقة عن ماضى البصرة ، ثم مضيت إلى الفندق فأخذت أمتعتى لأعاقر البرد من جديد فى طريق إلى بغداد

هل يعرف قارئ هذه الذكرات كيف يشقى من يقضى ثلاث عشرة ساعة فى القطار وهو محموم ؟

علم ذلك عند الأستاذ النبيل الذى يدير إحدى المدارس فى بغداد فقد أخرج ما فى حقائبه من أغطية وملابس وألقاها فوق جسمى لأنجو من البرد الذى قتل أخانا أبا الدرداء

صرعنى البرد فى الذهاب والإياب ، وأضرعتنى الحمى فلم أدخل بغداد إلا وشفتى يزينها عُقْبُول ، والعقبول هو التشقق الذى يصيب الشفاه من وَهَج الحمى ، ومنه جاءت عقابيل الحب ، وكذلك اجتمعت العقابيل فى قلبى وشفتى ، وهو أول حادث يقع فى التاريخ

كان هذا العقبول مزعجاً ، فقد كان كل من يرانى يحسب أنى أُصبت بأخت بغداد ؛ ولو صح ما حسبوا لكانت نكبة ، فأخت

بغداد إذا أصابت الشفة كانت نذيراً بالحرمان من جميع أخوات بغداد

ومن أجل هذا المقبول حبست نفسي في المنزل أسبوعين قضيتهما في إنجاز كتاب « عبقرية الشريف الرضي »

ولكن هذا الحبس كانت له أيضاً عقابيل ، فقد اشتغلت بالسياسة العراقية مع أني طلقت السياسة المصرية منذ أعوام طوال

وتفصيل ذلك أن مجلس النواب كان يستعد لدرس معاهدة الحدود بين العراق وإيران ، وكان شط العرب محور النزاع ، شط العرب الذي تغنَّيت به في البصرة ونشرت ثنائي عليه جريدة البلاد

كان العراق في فَوْرة ، وكنت في فورة ، وما أشقى من يضطرم صدره تحت سماء العراق !

ومضيت إلى رئيس الكتاب بالمجلس النيابي ، وهو صديق عزيز ، فطلبت تذكرة لحضور تلك الجلسة التاريخية . وكنت أول من دخل شرفة المجلس في ذلك اليوم ، فهالني أن أرى خريطة شط العرب مرقومة بالطباشير على لوحة سوداء

كان الجو كله دخاناً في دخان ، وكنت أكاد أختنق

ثم وقف وزير الخارجية يخطب ، وما كان أروعه في ذلك اليوم ، فقد بدد ما ران على صدري من ظلمات

وتدفق الخطباء بين معارض وموافق ، وكانت جلسة برلمانية حقًّا وصدقاً . كانت جلسة صريحة أبدى فيها النواب آراءهم بألفاظ لا مداورة فيها ولا التواء

خطب وزير الخارجية خطبتين في ذلك اليوم وكان بالتأكيد أشجع الخطباء . ولن أنسى أنه قال : كان في يقيني أن أقترح جعل هذه الجلسة سرية ، ثم رأيت أن تكون علنية ليرى الجمهور بعينه أن الحكومة حريصة على أرض الوطن كل الحرص

وسألت أحد الصحفيين عن هذا الرجل فقال : أما تعرفه ؟ هذا زميلك

فقلت : وكيف كان زميلي ؟

فقال : هو سوربونيٌّ مثلك ، هذا توفيق باشا السويدي خريج السوربون

السوربون ! السوربون !

رعى الله عهدي يوم كنت أجول فيها وأصول !

***

خرجت من مجلس النواب منشرح الصدر . ولقيني أحد النواب فقال : كيف رأيت ؟ فأجبت : رأيت وجه الحق . ولكن آذاني أن تكون حجة الموافقين على معاهدة الحدود مقصورة على أن إيران جارة عزيزة . فما الذي كان يضيركم لو قلتم إن إيران أمة إسلامية ، وإن المسلمين يجب أن يتسامح بعضهم مع بعض ، نحن مسئولون عن الأخوة الإسلامية أمام الله وأمام التاريخ .

مسئولون أمام الله الذي يكره أن يبغي المسلمون بعضهم على بعض ، ومسئولون أمام الماضي الجميل الذي تعاونت فيه الأمة العربية والأمة الفارسية فأنجبتا أشرف ذخيرة من ذخائر الأدب والتشريع . إن المداوة بين العرب والفرس أجج جذوتها ناس من الأدباء ، فما الذي يمنع من أن يقوم فريق من الأدباء المصلحين فيخلقوا الحب بين إيران والعراق ؟

إن فرنسا لها مدرسة لنشر اللغة الفرنسية في إيران

فما الذي يمنع أن تقوم الحكومة المصرية أو الحكومة العراقية بإنشاء مدرسة لنشر اللغة العربية في إيران ؟

حدّق النائب في وجهي طويلاً وقال : هذا رأي وجيه ، ولكن الظروف ...

فقلت : أي ظروف ؟ إن أوربا يسرها أن نتمزق . وهي قد استطاعت بالفعل أن تؤلب المسلمين بعضهم على بعض وأن تضرب العرب بعضهم ببعض . وإذا استمر الحال كذلك ربع قرن فلن تجد من يردّ عليك السلام في مصر ، ولن أجد من يردّ عليَّ السلام في العراق

***

الحمد لله . تم الصفاء بين إيران والعراق ، ومرت معاهدة الحدود بسلام ، والله المسئول عن هداية العرب والمسلمين

ولكن شط العرب الذي عجز عن تكدير السلام بين العراق وإيران استطاع أن يكدر السلام بيني وبين ليلاي

كنت انقطعت عن زيارة ليلى إلى أن يذهب المُقبول الذي شوه شفتي ، فاستوحشت ليلى لغيابي ، وأرسلت ظمياء للسؤال عني ، فطار بي إليها الشوق ، فلما وقع بصرها على شفتي قالت : ما هذا الذي بشفتك ؟

فأجبت : هذا عقبول

فقالت : أما آن لك أن تتوب ؟

فقلت : ما ذا تعنين ؟

فأجابت : ما هذا ُعقبولا يا حضرة الدكتور

فقلت : وما هو ؟

فأجابت في سخرية : هذه عضة سمكة من أسماك شط العرب !

فأقسمت بالله والحب أنني ما حاولت الصيد في شط العرب حتى تمضني السمكات

وطالت اللجاجة بيني وبين ليلى ، وحملني الغضب على أن أقول: اسمعي ، أنا مستعد لما هو أخطر من ذلك

فقالت : إيش لون ؟

فقلت : أنا مستعد لتقبيل ثغر الحية

فقالت وعيناها تقذفان بالشرر المتوقد : لن تقبل ثغر الحية .

فانزعجتُ وعرفتُ أنه وعيد

وانقضت السهرة في كلام تافه ، وعند الانصراف لم تسألني ليلى متى أرجع ؟

* * *

آه ، ثم آه !

كانت ظمياء خدعتني حين قالت إنها وصلت مع ليلى إلى القاهرة في آذار شهر الأزهار والرياحين ، فقد عرفت أن آذار القاهرة غير آذار بغداد . عرفت بالتجربة أن المراقيين على حق حين يحكمون بأن « آذار ، شهر الزوابع والأمطار » فقد قضيت هذا الشهر في كروب وأحزان

ولـكن أي كروب وأي أحزان ؟

كنت أذهب لتأدية الدروس في الصباح ، وكنت أذهب بعد العصر إلى المطابع لأصحح تجارب كتابي ، ثم أرجع قبيل المغرب إلى البيت لأعاني وحشة الليل ، الليل الهائل ، ليل بغداد

وزاد الكرب أني انقطعت انقطاعاً تاماً عن المصريين والعراقيين

انقطعت عن المصريين للسبب الذي شرحته في كتاب « ذكريات باريس » وهو سبب يؤذيني أن أسجله مرة ثانية في هذه الذكريات ، وأنا في الواقع أنسى مصر حين أفارق مصر ، لأني أفهم أن مصر حين ترسلني إلى باريس أو بغداد لا تريد إلا أن أفهم باريس أو بغداد . ومصر لا تلعب ، فهي تحب لأبنائها أن يفهموا روح الغرب وروح الشرق ، وأنا فيما أزعم مصري تحبه مصر ، وإن كانت لا تلقاني بغير العبوس

وانقطعت عن المراقيين لأن حسابي عندهم أثقل من الجبال .

ولن أنسى السهرة التي قضيتها في منزل السيد محمد حسين الشبيبي فقد قضيت ثلاث ساعات وأنا أتدفق كالسيل دفاعاً عن الآراء التي أذعتها في مؤلفاتي ، وآذاني ذلك الجهد فرضت يومين

أين أذهب ؟ لا أدري أين أذهب

كنت أدّخر ليلى لأيام الشقاء، وهي الآن في تغضب وتعتب.

كانت ليلى تقول حين أهمّ بالخروج : فراقك صعب سيدي ،

وهي اليوم لا تقول شيئاً من ذلك ولا تسأل متى أرجع

كانت ليلى تقول : «ليش ماجيت عندنا من زمان يا دكتور؟»

وهي اليوم تسأل فيما أظن — وبعض الظن إثم — متى أرحل عن بغداد

عافاك الله يا ليلى وأسبغ عليك نعمة العافية !

* * *

تباركت يا ربي وتعاليت

فما عانيت في حياتي بلاء إلا رأيت ما يصحبه من محمود العواقب.

فبفضل تغضب ليلى وتعتبها عرفت سراً من أغرب الأسرار ، عرفت كيف ظل المراقيون أكثر من ثلثمائة سنة يغنون هذين البيتين :

ولي كبد مقروحة من يبيعني ... بها كبداً ليست بذات قروح

أباها عليّ الناس لا يشترونها ... ومن يشترى ذا علة بصحيح

لقد هدني غضب ليلى فلم أعد أعرف للحياة أيّ مذاق ، وجزعت على ما صرت إليه أشدّ الجزع ، فهذا الربيع يفيض على أرجاء العراق أرواح الابتهاج والانشراح ، وقلبي وحده يعيش بلا ربيع

وجاء (نيسان ، شهر الزيادة والنقصان) فلم يهشّ له قلبي ، وبقيت أعاني ألم الوحشة والانفراد

كنت أستطيع غشيان بعض الملاهي لأنسى هوى وما في ذلك ما يضيرني ، فقد كان السيد جمال الدين الأفغاني يجلس في قهوة متاتيا بالقاهرة يوم كان الجلوس في مثل تلك القهوة شيئاً

غير لائق ، وكان يقول : من حق الفيلسوف أن يجلس فى قهوة متاتيا ، وأنا دكتور فى الفلسفة ومن حقى أن أجلس فى قهوة متاتيون !

ولكن ملاهي بغداد فيها أغانٍ وألحان ، وقد صرت بعد غضب ليلى مرهف الحس إلى حد مفزع ، وأخشى أن أسمع الغناء مع الناس فتفضحنى عندهم دموعى

وكان يتفق أن أسمع المذياع من حين إلى حين فأنوهمه يدمدم :

ولى كبد مقروحة من يبيعنى بها كبداً ليست بذات قروح

ومن غريب ما وقع أن غضب ليلى قوبل بعوض مزعج هو كرم أهل العراق

كنت أدخل المطاعم للغداء أو للعشاء فأجد من يدفع عنى من حيث لا أعرف . وكثر ذلك حتى أضجرنى ، وما كنت بخيلاً حتى أنكر الكرم ، ولكن قلبى كان يهتف بقول الزميل القديم :

آل ليلى إن ضيفكمُ واجد بالحى مذ نزلا

أمكِنوه من ثَنِيَّتِها لم يرد خمراً ولا عسلا

وفى حومة من هذه الحرب الوجدانية سمعت أن جماعة من الأطباء كتبوا يشكوننى إلى الجمعية الطبية المصرية ، وهم يزعمون أنى حنثت فى اليمين ، فقد أقسمت كما أقسموا ألا أفشى سراً لمريض ، ولو كانوا يعقلون لعرفوا أن مرض ليلى أصبح معضلة دولية، ولكن هل يعقل من فى قلوبهم مرض ؟

آه ثم آه من حقد الزملاء

***

لم تسألنى ليلى متى أرجع ، ولكن لا بدّ أن أرجع

وهل هنت على نفسي إلي هذا الحد ؟

ما هنت على نفسى . فقد رعاني الله فعشت طول حياتى عزيزاً ، ولكن هذه فرصة أختبر فيها أخلاق . هذه فرصة ثمينة قد لا تعود . إن ليلى تحقد علىّ ، وتتهمنى بخيانة الحب ، ومن واجبى نحو الأخلاق أن أرحم من يرتاب فى أخلاق ، فما ارتاب فى أخلاق غير الضعفاء والمساكين

ولكن ليلى لها تاريخ ، وأشقى الناس من يعشق امرأة لها تاريخ

وتاريخ ليلى ابتدأ فى القاهرة واستفحل فى بغداد ، ومن الواجب أن أكون على بينة من تفاصيل ذلك التاريخ ، وعلم ذلك عند ظمياء

***

— إيش لونك يا دكتور !

— أعانى ظلام الحب وظلام الليل ، وإيش لون ليلى ؟

— إستراحت لمكايدتك فدبت فى روحها العافية

— وكذلك أبنى الأصدقاء ليهدمونى يا ظمياء

— لا تندم على ما صنعت من جميل

— سمعت وأطعت يا بنيتى الغالية ، ولكن أحب أن نرجع إلى حديث ليلى مع الضابط عبد الحسيب

فانشرح صدر ظمياء وأخذت تقول ...

« للحديث شجون » زكى مبارك

أهمية الترجمة وحركاتها في التاريخ

الترجمة فى الاسلام

صفاتها وفهمها في أوربا

للأستاذ عبد العزيز عزت

كذلك كلما فتح العرب الممالك الواسعة فى مشارق الأرض ومغاربها[١] واختلطوا بأهل تلك البلاد ، وكان بينهم من يسمو عليهم فى الحضارة والفهم ، أحس العرب بجهلهم وما يخضعون له منذ زمان بعيد من عرف الحكم المتقطعة والأوامر والنواهى التى لا تؤدى إلي خلق دورة كاملة للتفكير فى موضوعات معينة ، لأنهم قوم رحل يعشقون الحرية التى جعلتهم شعباً ملهماً تتقد فيه المشاعر وتسمو فيه البلاغة ، وينضج فيه الشعر ، ويسبح فيه الفكر بين الذاكرة والخيال دون أن يهبط إلى ظاهرات الوجود الدنيوى ليحلل عناصرها ويعسعس عن منطق الترابط العقلى بينها . عقلية يسودها الماضى بعرفه وذكريات أبطال القبائل ، والمستقبل تحت عبء القضاء والقدر[٢] ؛ رحبوا لهذا بخلق هجرة العقل ، بعد أن مهدت لذلك من قبل هجرة الإيمان لسيد الخلق عليه السلام

فابتدأ تاريخ العقل عندهم حينما أسس المأمون « ديوان الترجمة » ببغداد عام ٨٣٢ ميلادية ، وكان أغلب هذا الديوان من النصارى كحنين بن اسحاق ، وابنه اسحاق ، وحبيش ، وقسطا بن لوقا وغيرهم فذهب هؤلاء المترجمون إلى فلاسفة اليونان يتوسلون ويستجدون فطربوا على وجه الخصوص لأفلاطون وارسطو ، فترجموا للأول خاصة مايتعلق بعهد الشيخوخة ، لأن علماء تاريخ الفلسفة كأستاذنا روبان يقسم افلاطون إلى ثلاثة أقسام : عهد الشباب ويتأثر فيه بسقراط فى جمال الأخلاق وطبيعة الفضيلة ، وعهد الرجولة وفيه يبسط آراءه فى نظرية المعرفة وماوراء الطبيعة وطبيعة النفس وملكاتها ، وعهد الشيخوخة وهو أهم عهوده لأنه يلخص العهدين السابقين بل كل الفلسفة اليونانية إلى عهد افلاطون ، كما نجد ذلك فى « طيماؤس » ، وكذلك فيه يضع كتبه فى السياسة كالجمهورية والسياسة والقوانيس ، فترجمة العرب لافلاطون وأن قلت فى الكم فإنها عظمت فى الكيف ، هذا من الوجهة المباشرة ، أما من الوجهة غير المباشرة فلقد ترجم كذلك العرب كتبا وإن لم تكن لأفلاطون إلا أنها تمت إلى فلسفته بصلة وصلات « ككتاب « الاثولوجيا » الذى نسب خطأ لارسطو وهو لفلوطين ، وهو « الشيخ اليونانى » على حد تعبير الشهرستانى الذى ينتمى لمدرسة الاسكندرية ، وكذلك « كتاب العلل » لبرقلس ، وفلسفة كل منهما تنتمى إلى فلسفة افلاطون ، وبجوار هذا كان للمسيحية أثر لا يستهان به عن طريق المترجمين لأن أغلبهم كان من المسيحيين والكل يعرف الاتصال الوثيق بين التثليث فى المسيحية وخصوصا تثليث القديس اوغسطين ، والتثليث الافلاطونى[١]

وترجموا كذلك لأرسطو ، وهنا نجد الكم يسبق الكيف لأن كل مؤلفاته قد ترجمت إلا ما كتبه فى السياسة وهذا الاستثناء راجع فى نظرى إلى أن سياسة أرسطو سياسة « مغلقة » تختص بما للمجتمع اليونانى القديم من نظم مدنية خاصة ، وإنها كذلك تقر الرق والاستعباد ، وهذا يناقض مبادىء الاسلام التى تصرح أن لا فرق لعربى على أعجمى إلا بالتقوى . وإنها أيضاً تعطى الوجه الاقتصادى فى المدينة أهمية كبرى بينما نجد عند فلاسفة الاسلام الأثر ظاهراً فى تغليب الوجه السياسى لأنهم يرددون كثيراً : « الناس على دين ملوكهم »[٢] وهذا راجع بطبيعة الحال إلى أهميته من أن الخلافة فى الاسلام الذى يشتق من أهمية رئيس القبيلة فى النظام الاجتماعى لمعيشة العرب فى البيداء

وسبب سيادة أرسطو عند العرب ترجع فى نظرى إلى أنهم وجدوا فى منطقه أداة للجدل ونشر تعاليم الاسلام عن طريق الاقناع لا عن طريق السيف كما يفهم بعض المغرضين ، لأن عبقرية هذا الشعب هي : البلاغة والبيان وقوة الحجة . وصحة نظرى هى أن القرآن الكريم هو إعجازهم ؛ ثم إن القرآن نفسه

---

(١) إقرأ كليمان هوار الجزء الأول « تاريخ العرب » وأيضاً الكتاب الحديث فى نفس الموضوع لحتي

(٢) إقرأ لكليرك الجزء الأول فى كتابه « الطب عند العرب »

(١) اقرأ بيكافيه فى التقرير الرسمى لمدرسة الدراسات العليا فى سنة ١٩١٧ — ١٩١٨ وعنوانه « التثليث الفلوطينى والتثليث المسيحي »

(٢) أنظر ابن خلدون مثلا فى مقدمته

يصرح قائلا فى سورة « البقرة » بند ١٨٩ ، ١٩٢ « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » ويقول : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » . ويقول : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغيّ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم » ؛ وكذلك فلسفة أرسطو فى مجموعها أقرب إلى عقولهم البدوية من فلسفة أفلاطون لأنها نسبياً أقل تجريداً [1] ، ويذكر أيضاً أن عقلية العرب عقلية « جامعة » وفلسفة أرسطو تنسجم وهذه الصفة لأنها موسوعة عامة للمعارف ، ولكن بالرغم من هذه الرغبات فى فلسفته ضاع أرسطو على حقيقة أمره فيما بينهم ، لأنهم ألبسوه زياً مخالفاً لزيه اليونانى الأصيل ، فأرسطو العرب شخصية جديدة أقرب إلى أفلاطون منها إلى أرسطو نفسه ، وهذا راجع فى نظرى إلى أن علم الالهيات عن أفلاطون وعند فلوطين « على وجه الخصوص » أقرب إلى تعاليم الاسلام منه عند أرسطو ، وهذا العالم كان طوال العهد اليونانى ، والقرون الوسطى ، بل حتى عند ديكارت فى العهد الحديث عندما يتكلم عن تقسيم العلوم [2] أساساً لسائر العلوم والفلسفات ، وبجوار ذلك هناك سبب آخر هو انتشار مذهب أفلاطون وفلوطين فى بلاد الشام والعراق إبان الترجمة اليونانية في القرن السابع والثامن كما يؤكد هذا فرنسوا نو ، وتأثر المترجمين المسيحيين بهذا التراث ، بعد ذلك إبان ترجمة القرن التاسع الميلادى في عهد المأمون

ونشعر أنه من العبث بعقول القراء أن نسرد حوادث تاريخ هذه الترجمة فنذكر مثلا : حياة كل مترجم وما ترجمه ومحتويات كل كتاب ، فهذا ممل ، ولأن الحوادث لا قيمة لها مطلقاً فى ذاتها فهم يجدون هذا مثلاً فى القسم الأول لكتاب كارادي فو عن ابن سينا ، وفى كتاب « الطب عند العرب » بجزئيه للكلرك وعند رييه ، وعند منك ... وهلم جرا

(١) اقرأ أستاذنا العلامة لاسباكس أستاذ الفلسفة بجامعة كليرون ، ورئيس المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية ، والسكرتير السابق للوزير بريان فى كتابه المعنون : « التفكير فى شمال أفريقيا »

(٢) إقرأ ليار ، مدير جامعة باريس السابق

ونكتفى بما قدمنا من الصفات الأساسية من ناحية اختصاصنا — الفلسفة — والمهم من ذلك فى نظرى أن يقف القراء على الفهم الأوربى الحديث للتراث الاسلامى الذى بنى على هذه الترجمة ، وهذا الفهم يتشعب خلال ثلاث مدارس نكتفى اليوم ببسط فهم المدرسة الأولى :

مدرسة الفيلسوف رينان

ولد رينان (أرنست) فى بلدة ترجييه من مقاطعة بريتانيا فى غرب فرنسا عام ١٨٢٣ ، وتربى فى هذه البلدة تربية « دينية » سواء فى عائلته أم فى مدرسة هذه البلدة أم فى جو هذه المقاطعة التى يتغلغل فيها المذهب الكاثوليكى إلى أبعد مداه كما شاهدته بنفسى منذ عامين . ثم ذهب إلى باريس ليتعلم فى مدرسة القساوسة ، وما كاد ينتهى بنجاح فى دراسته ورسم قسيساً حتى غلبت على أفكاره تلك النزعة « الغبية » نزعة الكفر والإلحاد ، فترك حياة الدين والايمان ، ودخل الحياة الدنيا غير آسف على ما فرط فيه من قبل ، وحاز درجات علمية ممتازة من الجامعة والتحق بعد ذلك بالصحافة ؛ ثم ساح ورحل فى بلاد الشرق فكان فى سوريا عام ١٨٦٠ ، وفى فلسطين عام ١٨٦٣ حيث كتب « حياة المسيح » ثم عين أستاذاً فى « مدرسة الكليج دى فرانس » . وبين عام ١٨٦٣ ، ١٨٨٣ ألف « تاريخ أصول المسيحية » وبين عام ١٨٨٧ ، ١٨٩٣ ألف كتابه العظيم « تاريخ بنى اسرائيل » وبعد سنة ظهر له « محاورات ومنتخبات فى الفلسفة » وفي سنة ١٨٨٣ « ذكريات الطفولة والشباب » وفى عام ١٨٩٠ « مستقبل العلم ... » وغير ذلك . ومات فى عام ١٨٩٢ ، والذى يهمنا بالنسبة للتراث الاسلامي أنه عرض فيما تقدم من المؤلفات وفيما سنذكره بعد ذلك لحياة محمد عليه الصلاة والسلام ، ولأصول الاسلام ، وللعقلية السامية ، وللاسلام والعلم ، ولفلسفة ابن رشد ، وناقش الشيخ الأفغاني فى جريدة « الديبا » [1] ، ولكن كل دراساته ومناقشاته هى طعن فى الاسلام ونبيه وأهله ومبادئه . فمثلا يقول فى كتابه دراسات فى تاريخ الأديان (صفحة ٢٠٠) « لم يعرف الشرق مطلقاً فى تاريخه تلك العظمة العقلية الخالصة التى

(١) انظر كتاب أستاذنا الفيلسوف الجامع بين الحضارتين ، فضيلة مصطفى بك عبد الرازق عن رسالة التوحيد بالفرنسية

لا تحتاج إلى الرجوع إلى المعجزات ، ويصعب عليه تصور فيلسوف لا يمهد إلى التهريج ، ولم يصل الشرق مطلقاً إلى درجة التجريد العقلي لأنه نظر إلى الطبيعة والتاريخ بعيون صبيانية ...» (وفي صفحة ٢١٠) يصور النبي عليه السلام كرجل مخادع دجال يخترع الكذب باسم الملاك جبريل . (وفي صفحة ٢٤٥) يروى أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يربي ديكا عجوزاً احتفظ به ليدفع عنه سوء الدين ، ويصد عنه خطر النظرات الحاسدة . ثم بعد أن يتحدث في هذا الكتاب عن رفق النبي صلوات الله عليه ، بالحيوانات والأطفال والنساء يتخذ من هذا الرفق آية لإثبات ضعفه ، وينتهي (في صفحة ٢٥٠) بأن يقرر أن الذي أسس الاسلام وشيد صرحه هو سيدنا عمر رضوان الله عليه لأنه يماثل كما يذكر القديس بولس في المسيحية

ويحمل هذا الرجل عقله ونزعته هذه في فهم ما ترجم من الفلسفة في الإسلام فيسطر في نفس الكتاب (صفحة ٢٠٠ الملاحظة الأولى في الهامش) ما ترجمته : « عند ما اتخذ العرب من أرسطو معلماً لهم في المعارف ، اخترعوا له خرافة تجعل منه نبياً ، وتصوروا أنه قد انتزع من السماء حيث كان يلتصق بعمود من نار » ويذكر كذلك رينان في كتابه «مقالات ومحاضرات» أن الفلسفة الإسلامية ما هي إلا الفلسفة اليونانية « مخطوطة » بحروف عربية ، لم يهضمها العرب لأن الإسلام دين لا يسمح بحرية التفكير وروح النقد ، وعند ما يدرس هذه الفلسفة يدرسها بحركة « عكسية » لا تتفق وأولى مبادئ تاريخ الفلسفة كعلم محترم له أصوله في البحث لأنه يبتدئ بدارسة ابن رشد مع أن فلسفته لا تنفصل مطلقاً عما تقدمها من فلسفات ، وكل الناس يعرف معركة « التهافت » و « تهافت التهافت » ويصوره رينان في كتابه « ابن رشد ومذهبه » صفحة ٥٢ أنه لا يعرف كيف يكتب ولا كيف يفكر ، وأن لغته لغة همجية ، ومؤلفاته لا قيمة لها . نقل عن مؤلفات نقلت هي بدورها عن مؤلفات أخرى نقلت عن الأصل اليوناني . وفي كتابه « تاريخ اللغات السامية » صفحة ٢٩١ يشك بوجه عام في علم فلاسفة الإسلام لأن علمهم كان بالواسطة، علم منقول بنى على جهلهم باللغة اليونانية

آراء هذا الرجل بهذا الأسلوب أفسدت الاستشراق الفرنسي « عدة من الزمن » من بعده ، حيث سار على نهجه ومبدئه (منك) في « الفلسفة العربية واليهودية » ، وكليمان هوار في كتابه «تاريخ العرب» وخصوصاً الجزء الثاني، وكازانوفا في « محمد ونهاية العالم » ، وجوتييه تلميذه الأصيل في رسالة عن « ابن رشد » . وسبب الضلال في هذا الاستشراق يرجع أولاً إلى ذلك المذهب الذي انتشر في زمان هؤلاء الناس ، وهو المذهب الوضعي الذي ينكر أهمية الأدباء ، ويهاجم أصول العقل التجريدي ويقر بعكس ذلك دراسات الظاهر الخارجية في الطبيعة والانسان بمنهج التجربة ، وأمله أن يجعل من علوم الإنسان الأدبية علوماً لا تقل في دقة أبحاثها عن علوم المادة . لهذا شجع هذا المذهب النزعة الإلحادية في فرنسا إبان ذلك العهد ويقول رينان بهذا الصدد في كتابه « مقالات ومحاضرات» صفحة ٤٠٦ ما ترجمته : «أقول دائماً ولست بحاجة أن أكرر إن العقل البشرى يجب أن يتنزه عن كل المتقدات الدينية ، وأن يحصر مجهوداته في مجاله الخاص وهو إقامة العلم الوضعي » . وسبب آخر أن في زمان رينان ضاعت هيبة الاسلام والمسلمين في فرنسا لفتحها بلاد الجزائر بحد السيف وظهور كتب عن تلك البلاد تمثلها في حالة وحشية وتأخر وانحطاط، ككتب القائد دوما ؛ وهذا ما قوى النزعة المداثية للاسلام ، فرينان يقول عن غايات العلم في الكتاب المتقدم ذكره صفحة ٤٠٠ ، ٤٠١ : « العلم هو روح المجتمع لأن العلم هو العقل وهو يخلق التقدم الحربي والرقي الصناعي ... ولو أن عمر وجنكيزخان وجدا أمامهما المدافع مصوبة لما تقدموا خطوة واحدة عن حدود الصحراء »

وسبب ثالث أن دراسات الاستشراق في عهد رينان لم تكن متقدمة بشكل يوجب احترامها العلمي ، بل كانت في الغالب تراجم وتعليقات لبعض مفكرى العرب قام بها أعضاء « الجمعية الأسيوية » . ورينان نفسه يكتب تارة في الأدب ، وتارة في الفلسفة ، وتارة في الدين ، وتارة في اللغة ، مما دعا بيكانيه أن يحكم في أحد كتبه القيمة أنه رجل « يقلب أوضاع الأشياء والمسائل » وزد على ذلك اختمار النزعة الصليبية في عقله الباطن وتملكها على أفكاره في الحكم على من يخالف تعاليم دينه الأول قبل إلحاده وكفره

وزندقته فهو مثلا (كما يذكر هو فى كتابه «مقالات ومحاضرات» صفحة ٣٠٦، ٣٠٧) لا يتصور أن مسلماً مثل الشيخ رفاعة الطهطاوى يؤلف كتاباً عند عودته إلى مصر من باريس (على ضفاف السين) يشرح لبني وطنه حياته كطالب فى فرنسا وفهمه لحالة العلم فيها وسبل الحياة فى مرافقها . وسبب أخير أن « أشباه المستشرقين » هؤلاء آمنوا إيماناً مطلقاً بما يروى لهم فى كتب تاريخ الفكر الاسلامى معتقدين « أن صاحب الدار أدرى بما فيها » مع أن هؤلاء المؤرخين أبلغ منهم فى التسكع فى هذا الباب . فرجل كالشهرستانى يكتب فى الفلسفة عن طريق السماع والرواية وعدم الرجوع إلى ما ترجم من النصوص الفلسفية . وعند ما يكتب عن أفلاطون يخطئ حتى فى كتابة اسمه مما دعا أحد هؤلاء المستشرقين – كما يؤكد مهرن – فى مجلة جامعة لوفان أن يعتقد أنه يبسط آراء الشيخ اليونانى « صاحب التاسوعات» وعند مايعرض للكلام عن أرسطو يصوره كإله الفلاسفة ؛ ويذهب لابن سينا للتحدث عنه ، رجل كالقفطى إذا تحدث عن الفلسفة تركها وترك أصولها وتكلم عن الفلاسفة في حياتهم الخاصة وأنسابهم وأمهاتهم وأولادهم وغير ذلك من تافه الأمور ؛ ورجل كالفارابى تختلط فى ذهنه فلسفة أفلاطون وأرسطو فيعمد إلى التوفيق السقيم بينهما مع أن الأصول الأولى للعقلية الفلسفية هى الدقة فى الادراك والتصور ، والتمييز بين تنوع الآراء المتقاربة ووضع حد فاصل بين المعتقدات والمذاهب (اقرأ نظرية أرسطو فى التعريف). فانعدام الفهم الفلسفى فى عقلية بعض من اهتم بالفلسفة من المسلمين ضلل المستشرقين الأولين . واستمر هذا الضلال فى الفهم إلى أوائل القرن العشرين حيث ظهرت مدرسة جديدة فى فرنسا تحترم تعاليمها فى الاستشراق لأن أفرادها بنوا العلم وحده دون أغراض تخرج عنه فى نزعاتهم الفكرية . وهذه المدرسة مهدت بدورها لمدرسة ظهرت فى أوائل هذا العام فقط هى أبلغ من الأولى ، سنعرض لها فى وقت آخر إن شاء الله

« يتبع »

عبد العزيز عزت
عضو بعثة الجامعة المصرية لدكتوراه الدولة

التاريخ فى سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الأحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

— ١٠ —

يا شباب الوادى ! خذوا معانى العظمة فى نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامى العظيم

وما كان دوجلاس ليعجز عن أن يبرر عمله أو أن يتلمس له الأوجه القانونية ؛ وإذا عجز دوجلاس عن هذا فمن يقدر عليه ؟ وإنه لأعلم الناس يومئذ بألاعيب السياسة وأضاليلها ، يصدر فى ذلك عن طبع وعن خبرة ويسدد الرمية فى لباقة وخفة..

ولم يكن اهتمام دوجلاس بتلك المسألة إلا جزءاً من خطته التى رسمها وأراد أن يدلف بها إلى الغاية التى لا يرى دونها غاية ؛ وهو يتحرق شوقاً إليها ويتقطع تلهفاً عليها ؛ ولايفتأ يتبين السبيل المؤدية مهما كانت وعورة مسالكها . والآن تسنح الفرصة فيقتنصها وهو باقتناص الفرص جد خبير . موه على الناس أنه يمكن لسلطان الأمة إذ يرد مسألة العبيد إلى رأى الأمة ، وأنه بذلك يجعل كلمة الشعب هى العليا لا كلمة مجلس الاتحاد . وهو إنما يرمى إلى كسب قلوب أهل الجنوب الذين كانوا من أول الأمر يرون أن يكون لكل ولاية من الحرية ما لا تتلاشى معه شخصيتها فى الاتحاد ، والذين يريدون أن يتخلصوا اليوم من قيود اتفاق ميسورى ...

وإننا لنلمح فيما فعل دوجلاس مهارة الرمية ، كما نلمح فيما يقول حذق السياسى وفكره وسعة حيلته . وكم فى الحياة له من نظراء ممن يأخذون فى سياستهم بآراء أستاذهم الأكبر مكيافلى لا يحيدون عنها ولا يفوتهم شىء من تفاصيلها ودقائقها كأنما عاد أستاذهم نفسه يصرفهم ويوجههم ؛ ولقد برع دوجلاس فى هذا المضمار فأنه ليجعل الغاية هى عنده كل شىء ولا عبرة بعد ذلك بالوسيلة . وهل كان مثله من السذاجة والبساطة بحيث يتمسك بشرف الوسيلة ويرعى جانب الفضيلة فيؤدى بذلك إلى فوات الفرص وضياع الغاية ؟ كلا إنما كان هو أقوى من أن يتطرق إليه مثل هذا الضعف وأذكى من أن تنطلى عليه مثل هذه البلاهة

ولكن لنكولن لا يعرف المراوغة ؛ ولا يدرى ما الالتواء . فهل له طاقة بمناضلة ذلك القزم الماكر المخاتل ؟ وماذا يجدى على ابراهام طوله والمسألة اليوم مسألة مدافعة ومقارعة ، وليست هى مسألة مكافحة ومصارعة ، كما كان الحال يوم لف ذراعه الطويلة حول أرمسترنج وألقى به على الأرض ؟ ... إن الفرق بين الرجلين هو الفرق بين الطبيعتين ، فهذا ماكر محتال غامض كالبحر ، وذلك بسيط ساذج صريح كوجه السهل ...

خطا دوجلاس خطوته وحمل المجلس على الأخذ برأيه فترك لأهل كنساس أن يختاروا ما تكون عليه ولايتهم إذا ضمت إلى الاتحاد ؛ وجرى الانتخاب التمثيلى فيها على أساس التسليم بمبدأ العبيد أو رفضه ؛ ولو أنه تركت الولاية وشأنها حقا لهان خطب ذلك الانتخاب ولم دون أن يعقب ضررا ، ولكن كثيرين من أنصار التحرير ومن المنادين بمقاومة انتشار العبيد من أهل الشمال هاجروا الى تلك الولاية ليشتركوا فى الانتخاب ، كما هاجر اليها كذلك عدد عظيم من أهل الجنوب وفى أيديهم أسلحتهم . والتقى الفريقان هناك وبينهما من البغضاء والشحناء ما أوقد نار الحرب وذلك أن أهل الجنوب قد حالوا بقوة السلاح بين خصومهم وبين مايخوله لهم القانون من التصويت ففاز بالغلبة رجل من أنصار اعتناق العبيد ؛ ولكن أهل الولاية ومناصريهم من أهل الشمال احتشدوا فى مكان آخر واختاروا رجلا من دعاة التحرير ، فقامت لذلك الحرب بين الحزبين ولبثت نارها مشبوبة بينهما زهاء عامين. وفطن الناس إلى أن هذه الحرب انما هى مقدمة الحرب الأهلية الكبرى

انتهت فى تلك الأثناء مدة مجلس الشيوخ ، وانصرف الأعضاء الى البلاد يدعون لأنفسهم من جديد ؛ وكان دوجلاس نائباً عن شيكاغو فى شمال الينوس ، فذهب إلى هناك يدعو لنفسه ، ولكن هاله ما رآه من انصراف الناس عنه ، فهو أينما تولى يجد من الناس نفورا وإعراضا بل إنهم كانوا يجبهونه بالسوء من القول ويظهرون

له ماباتوا يضمرونه من حقد ومقت .

وإنه ليجزع ويستولى عليه الحنق إذ يرى الرايات فى شيكاغو منكسة فى هامات السفن ، ويرى الجدران وعليها عبارات صارخة تلذع قلبه ، ويسمع النواقيس تجلجل فى الجو فى نغمة حزينة كأنما أصبحت المدينة في مأتم شعبي وهو يحاول أن يخطب الناس وهم يرعدون فى وجهه ويسلقونه بألسنة حداد ، حتى يرغموه على الرحيل وقد امتلأ قلبه عليهم غيظا كما امتلأ منهم كمدا .

وينتهى به المسير إلى سبرنجفيلد ولو كان يعلم الغيب لتحول عنها ، ففى تلك المدينة سيأفل نجمه وسيمد ما بينه وبين غايته . وكانت المدينة يوم وصوله إليها تموج بالناس إذ كانت فى موسم سوق من أكبر أسواق الزراعة . ولقد خيل إليه أن له فى وجود هذا الجمع الحاشد فرصة ...

وكان حزب الهوجز يومئذ فى الشمال فى أخريات خطواته إلى الفناء ؛ بينما كان يولد حزب آخر سيأخذ عما قريب مكانه هو الحزب الجمهورى ؛ وكان لنكولن هو الرجل الذى اتجهت إليه أنظار أهل المدينة ليكون لسانهم فى الحزب الجديد . لهذا ولما اشتهر به بينهم من خلال أكبروها ، لم يجدوا من هو أقدر منه على مدافعة دوجلاس ؛ وهكذا التقى الرجلان من جديد فى عراك عنيف ولم يلتقيا منذ كانا نائبين فى مجلس القاطعة

وقف دوجلاس يخطب ، وكان وهو في صغر جرمه قزم أو كالقزم ، ماردا جبارا برأسه الضخم ولسانه الذى لا يقف ، ونشاطه الذى لا يفتر ، ودهاؤه الذى لن ينخلع عنه ، ومهارته التى لا تغيب ولا تتخلف مهما تعقد الموقف ، والتوت مذاهب الكلام

ولقد كان دوجلاس فى الحق من أقوى الرجال فى عصره إن لم يكن أشد منهم جميعا قوة ، وكان الحزب الديموقراطى يباهى به ويفخر وهو يعتقد أن لم يبق بينه وبين كرسى الرياسة إلا خطوات مع أنه لم يكن قد خطا الأربعين بعد ...

أخذ يخطب ويدافع عن رأيه فى حماسة وكياسة وإنه ليشعر أنه يطلق آخر سهم فى كنانته ! وكان محور دفاعه أنه يعمل على توطيد سلطة الشعب : وكانت العبارات معسولة والحجج تأتى فى روع السامعين أن لا سبيل إلى رفضها إذ لم يكن ثمة من سبيل إلى نقضها

وجاء دور لنكولن فى اليوم التالى ، واحتشد الناس ليروا ماعساه أن يقول فى الرد على هذا الداهية ، ووقف ابن الأحراج يقابل الدهاء بالصراحة ، والمكر بالصدق ، والغرض بالإخلاص ، والمراوغة باليقين ، والباطل بالحق ، والدليل الأعرج بالمنطق الأبلج ، ومن وراء هذا كله عبقرية دونها كل تأهب بل وكل كفاية ، واستمع الناس إليه ثلاث ساعات وبعض الساعة ومنافسه يعض على نواجذه وينقم على تلك الأقدار التى ألقت به بين براثن ابن الغابة ...

بدأ خطابه بقوله أنه لايتوخى إلا الحق ولا رائد له إلا الصدق ، فإذا أحس مستر دوجلاس خطأ فأنه ليسره أن يرده لساعته إلى الصواب . ولقد استغل دوجلاس هذا الحق وجعل يقاطعه بين حين وحين ليلويه عن قصده وليلبس عليه الأمر حتى ضاق لنكولن بتلك المقاطعة فصاح قائلا : أيها السادة ! إنى لا أستطيع أن أنفق وقتى فى مساجلات ، وعلى ذلك فإنى آخذ على نفسى المسئولية أن أحق الحق وحدى فأعفى بذلك القاضى دوجلاس ضرورة تلك التصحيحات المنيفة » ... وأخذ بعدها يتكلم والأبصار شاخصة إليه والسكون شامل مع شدة ازدحام المكان ، والخطيب المرتجل لا يعرف اضطرابا ولا اعوجاجا ، يهدر كالسيل لا يصرفه عائق عن وجهه ، وكأنما كان ينطق عن وحى ، فما سمعه الناس من قبل يقول مثل هذا الكلام ولا رأوه يبين مثل هذه الابانة ؛ وهو فى حركاته وإشاراته ونبرات صوته ،وفق توفيقا ماشهد الناس مثله من قبل

وفرغ من خطابه وهو فى قلوب قومه أرفع قدرا وأكثر محبة عما كان ومنافسه مبتئس زائغ البصر ، موزع الفؤاد بين كلمات الاستحسان تنثر على صاحبه كما ينثر الزهر وكلمات الاستهجان تصوب إليه كما تصوب السهام .. ونظر فإذا هو بما أدلى من حجج كالعنكبوت اتخذت بيتا ، ولم يبق فى قلوب الناس من أثر لما ردده من عبارات معسولة تدور حول سلطة الأمة ، إذ لم يترك له ابراهام دليلا إلا سفهه وأظهر للناس ما يقوم عليه من بهرج وما يستتر وراءه من طلاء . وبهذه الخطبة فتح لنكولن فصلا جديدا فى تاريخ حياته وقطع شوطا كبيرا عوض عليه مافات من ركود ...

ومهما يكن من تفوقه ونباهة شأنه فى هذه الخطبة ، فإننا نستطيع أن نعود بالسبب إلى حد كبير — على صفاته الأساسية

التي فطر عليها ، وفي مقدمتها تبين مايعرض له والنفاذ إلى جوهره ثم الاستمانة بذلك على توضيح ما يريد أن يقول في يسر وبساطة ومع توخي الصدق والأمانة كما يفعل حين ينهض في المحكمة للدفاع ، هذا إلى لقانة عجيبة يميز بها في سرعة الصواب من الخطأ والحق من الباطل ، وذهن منطقي كأنه الميزان الدقيق يحس قبل أن يدرك أن هذا عليه مسحة الشك وذاك عليه نور اليقين

قال يرد على دوجلاس قوله أن من الامتهان لأهل كنسسكا أن نعتبرهم غير جديرين بأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ، « انى أسلم أن المهاجر الى نبراسكا جدير أن يحكم نفسه ولكنى أنكر عليه الحق في أن يحكم شخصاً آخر بغير رضاء ذلك الشخص » ولقد كانت عبارته هذه كالرمية القاتلة فهي تهدم مابنى دوجلاس من أساسه ولاتدع لمبدأ سلطة الأمة الذي نادى به أى قيمة . وقال في رده على دوجلاس إذ يدعى أن الحكومة إنما أقيمت لصالح البيض لالصالح الزنوج « انى أوافق على ذلك من حيث الواقع في ذاته ، ولكنى أرى في هذه الملاحظة التي ساقها القاضي دوجلاس معنى هو عندى مفتاح تلك الغلطة الكبرى (ان كان ثمة من غلطة كهذه) التي فعلها في قرار نبراسكا ؛ انها تدل على أن القاضي لايقوم في ذهنه مؤثر حتى يريه أن الزنجي انما هو انسان وعلى ذلك فليست تقوم في رأسه فكرة عن ضرورة وجود العنصر الخاقي عند التشريع له » ...

وبعد الخطبة وقف دوجلاس ليرد ولكن مذاهب القول التوت عليه وخانته بديهته فجمل بينه وبين الناس موعداً في المساء لايخلفه ، وحل المساء وارتقب الناس ولكنهم لم يجدوا الخطيب ..

وبعد ذلك باثنى عشر يوما ذهب لنكولن ليخطب في بلدة أخرى هي بيوريا ؛ ولقد تبعه دوجلاس الى هناك لعله أن يظفر هذه المرة . ولم يرتجل لنكولن كما ارتجل في سبر نجفيلد بل قرأ من أوراق ؛ ويشهد الذين سمعوه في المرتين أنه كان يوم ارتجل أعظم شأنا وأبعد أثراً ؛ أجل كانت خطبته الثانية أحسن بناء وأحكم نسجاً وأقوى منطقاً ولكنها لم تكن أكثر سحراً ...

ولقد بدأ دوجلاس في بيوريا كما بدأ في سبر نجفيلد واستمر يخطب ساعات ثلاثا ، ورد لنكولن في المساء فاستغرق خطابه مثل هذا الزمن . ومما جاء فيه قوله عن قرار نبراسكا « ان هذا القرار يعلن الحياد ولكنه يضمر حماسة حقيقية لانتشار العبيد لايسعنى إلا أن أمقتها ، لما تنطوى عليه العبودية في ذاتها من جور قبيح ، وأمقتها لأنها تسلب نظامنا الجمهوري الذي نسوقه للعالم مثالا من أثره الحق في الدنيا ، وأمقتها على الأخص لأنها تدفع كثيراً من رجالنا الأخيار الى حرب صريحة ضد المبادىء الأساسية للحرية المدنية ، وهم يوجهون انتقادهم الى اعلان الاستقلال ويصرون على اعتقادهم أنه ليس ثمت من مبدأ حق تقوم عليه أعمالنا وأنه ليس إلا المصلحة الشخصية » وقال في معرض آخر : « ان مبدأ حكم الشعب نفسه مبدأ صحيح ؛ هو مبدأ صحيح دون أدنى شك وهو الى الأبد صحيح .. ولكن إذا كان الزنجي رجلا ، أليس بقدر مافي المبدأ من صحة — نرى أننا إذا حرمناه من أن يحكم نفسه إنما نحطم بذلك مبدأ سيادة الشعب ؟ حينما يحكم الرجل الأبيض نفسه يكون ذلك مبدأ سيادة الشعب ، ولكنه حينما يحكم نفسه ويحكم في الوقت ذاته رجلا آخر فأن ذلك يكون أكثر من سيادة الشعب فهو الاستبداد ... ليس في الناس من يتوفر لديه الخير ليحكم غيره دون رضاء ذلك الغير ، هذا هو المبدأ الأول والمرفأ الأمين للنظام الجمهوري الأميركي » .

ذلك منطق ابن الغابة وتلك آياته وهو الذى نشأ كما رأينا عصامياً في أوسع معنى لتلك الكلمة ! انما يصدر الرجل عن طبع ويترجم عن فطرة مثله في ذلك مثل غيره من أعلام البشر وقادة القافلة في طريق الانسانية ...

يتبع — الخفيف

هل ينبغي أن تزاحم المرأة الرجل؟

للآنسة زينب الرافعي

قامت فى كلية الآداب بالجامعة المصرية مناظرة بين طائفتين من طلبة الكلية وطالباتها حول الغاية التى تتعلم من أجلها الفتاة: أهى تتعلم لتزاحم الرجل فى ميدانه ، أم لتشق طريقها لنفسها فى الحياة؟ والمقالة التالية هى كلمة الآنسة الأديبة زينب الرافعى فى هذه المناظرة ، ولها كانت الغلبة . والآنسة زينب هى كريمة الفقيد الكريم المرحوم مصطفى صادق الرافعى

رجل وامرأة: هذه قسمة الطبيعة ، فهل كانت عبثاً ؟

رجل وامرأة: هما العنصران اللذان تتكون منهما الانسانية، فهل أخطأت الطبيعة حين جعلت معنى الانسانيـة يتكوّن من عنصرين لا عنصر واحد ؟

عجباً ! إن الانسان لا يمكن أن يقهر الطبيعة وهو جزء منها ، لأنه خاضع لسلطانها ، لأنها بقوانينها الصارمة تسيطر عليه وتوجهه وجهته من غير أن يكون له اختيار

إن القوانين لا توضع لمصلحة فرد واحد ، ولـكنها تشرع لمصلحة الجماعة عامة ، والقانون الذى فرضته الطبيعة على البشرية أن الانسانية اثنان: رجل وامرأة ، فكيف تريدونه على ذلك التفسير الخاطئ حين تقولون إن الانسانية رجل ورجل: رجل له شارب ولحية ، ورجل ناعم أمرد ...

اذكروا لى إنساناً واحداً يستطيع أن يقول بعقل: لماذا يمشى الناس على أرجلهم ولا يمشون على أيديهم ؟ قد تـكون الأرجل أقوى وأشد صلابة من اليدين ، وهى بذلك أقدر على عمل الأيدى ، ولـكن الطبيعة خلقت الرِّجلين ليمشى بهما من يريد أن يمشى ، وخلقت اليدين لتعمل ؛ فما أحمق من يتخيّـل إنساناً يستطيع أن يجعل رجليه لغير المشى ويديه لغير ما تعمل اليدان ! هكذا خلقت الطبيعة الانسان ، والطبيعة قانون عام مطاع لا يجدى أن يتمرد عليه متمرد ...

ولـكن تعالوا حدثونى حديثكم عن المعنى الذى تريدون حين تزعمون أن من حق المرأة أن تنافس الرجل فى ميـدانه ، وأن تضطلع بما يضطلع به من العمل ؟

أتريدونها أن تحمل الفأس ، وتجرى خلف المحراث ، وتحرس قنطرة الترعة ، وتمهد السكك الزراعية ... ؟

أم تريدونها على أن تعمل بالمنشار ، وتدق بالقدوم ، وتصعد على الخشب الممدود فوق العمائر لتبنى ، وتحفر حيطان البيوت لتضع أسلاك النور وأنابيب الماء ... ؟

أم تريدونها على أن تقف فى خطوط النار وفى جرابها سيف يلمع ، وعلى كتفها بندقية تقذف بالشرر ، أو تجري على الصخر وراء المـدفع وفى يدها زناده ، أو تحفر الخندق بيديها الناعمتين لتصد عدوان المغير ، أو تبنى الثكنات لتقيم فيها أخواتهـا العسكريات الرشيقات الخفيفات الأجسام ... ؟

حدثونى أيها المؤيدون ، أتريدونها لهذا الهون عليكم وتُبتذل وتذل ، أم تريدون لها النعمة والصون والعزة ؟

ما أهون شأنك عند نفسك أيتها الفتاة لو لبيت هذا النداء !

***

أسمع همساً تختلج به الشفاه : إنهم يقولون : لسنا نريد لها هذا . فحدثونى ماذا تريدون ؟ أتريدونها للقضاء والنيابة ، ولادارة الأعمال فى المتاجر ، وللـكتابة والحسابة ، وللقيام على شئون الطلاب فى المدارس والـكليات ، وللدفاع عن المظلومين في المحاكم ، ولتخطيط الصورات الهندسية للبناء ؟

حسَـن ! قد يكون هذا خيالا لذيذاً يداعب كل فتاة فى أحلامها ، ولـكن ... ولـكن ليس الرجال جميعاً نواباً ، وقضاة ، وتجاراً ، وكتبة وحسبة ، ومعلمين ومحامين ومهندسين

إن هذه الوظائف على كثرتها لا يقوم بها إلا ربع الرجال ، وثلاثة أرباعهم لغير ذلك من المهام الشاقة والأعمال المضنية، فخبرينى يافتاة: أتريدين أن تكونى رجلا كاملا يقوم بواجباته كلها ويحتمل ما عليه من تكاليف الرجولة بشقائها وآلامها ؟ أم تريدين أن تكونى ربع رجل ؟ يا لها من صفقة خاسرة ! إن أعدى أعداء المرأة لا يَنْـتَقِصُ من مكانتها الاجتماعية بأكثر من دعواه بأنها نصف الرجل ، فما لك ترضين بالأقل لتعودى ربع رجل ...؟

***

لا يا أختى ، إن لك وظيفة أخرى غير مزاحمة الرجل فى ميدانه ، وإنها لأجل شأناً وأعظم خطراً من كل ما يقوم به الرجال

من أعمال . إن لك وظيفة الأم التي تلد الرجل ، ووظيفة المربية في البيت التي تربي الطفل لتخلق منه الرجل ، ووظيفة الزوج التي تملأ قلب زوجها بأفراح الحياة لتشد فيه عزيمة الرجل

إنك سيدة الرجل فلا تبتذلي نفسك دون ذلك لتوهمي الرجل أنه خير منك

ثم ما ذا ؟ سأحاول أن أمزق النقاب قليلاً لأتحدث إليكم في جرأة الفتاة التي تعتز بأنها فتاة ، لأقول لكم إن المرأة لم تخلق لتقوم في الحياة بوظيفة الرجال : المرأة التي يستهويها الثوب الأنيق فتقف أمام المرآة طويلا تنظر إليه ، وتنظر إلى نفسها فيه — هذه المرأة لا تعرف قيمة الزمن ، والزمن هو الميزان في كل الأعمال

ستحاول فتيات من زميلاتي أن يعترضن ، ولكن هذه هي الحقيقة . لقد خلقت المرأة وليس أحب إليها من زينتها شيء . الزينة لنفسها لا لشيء آخر ، وكأن كل أنثى تشعر في أعماق نفسها أنها ليست شيئاً بغير الزينة . أجمل الجميلات وأدمُ الدميات في ذلك سواء ، فأين هذا من خشونة الرجل ؟ أترونها بذلك تصلح لأن تزاحمه وتعمل في ميدانه ؟ هيهات يا أختاه ! وحذار أيتها الفتاة أن يخدعك معسول المنى ... إن مكانك هناك ...

هناك على العرش في مملكة البيت أيتها الملكة

إلى هنا أقف قليلا لأنظر في وجوهكم ووجوهكن أثر الاقتناع ومظاهر الطمأنينة إلى عدل الطبيعة

هل بلغتُ موضع الاحساس من نفوسكم ؟

إن شفاهاً تبتسم ، وإن همْساً يتطاير من هنا ومن هناك . إسمعوا :

هذه فلانة ناظرة مدرسة ثانوية من مدارس الحكومة ، في الدرجة الرابعة أو الثالثة لا أدري ، تقبض كل شهر خمسين جنيهاً ، وتحكم على عشرين أو ثلاثين من خيار المعلمين والمعلمات ، وتسيطر بإرادتها على بضع مئات من بنات الطبقة العالية في مصر ، تلميذاتها ، ولها في البيت ولد ، ولها زوج !

أتحسبون أن هذه السيدة سعيدة بما بلغت من جاه وما أدركت من نجاح في مزاحمة الرجل ؟

واوحمتاه لها مما تعاني ، وألف رحمة للأمة منها ، وألف ألف لزوجها المسكين ، وما شئتم من الرحمات فاستمطروها على ولدها المحروم ، اليتيم في حياة أبويه

أتعرفون من يقومُ لها بشئون البيت ! لو كان هو زوجها لقلنا : شيء مكان شيء ! ولو كان له امرأة أخرى لقلنا : قد انتصف لنفسه ! ولو كان في البيت مديرة مصرية لقلنا : ذهبت واحدة لعمل وحلت أختها في عمل غيره . ولكن . . . واأسفاه ! إنّ في البيت مديرةً حقاً ، ولكنها مديرةٌ أجنبيةٌ ، مديرةٌ لا تعرف من لغتنا ، ولا من تقاليدنا . ولا من دياناتنا ؛ مديرة ليس لها عواطفُ الأم ، ولا حنانُ الزوجة ، ولا غيرةُ الأخت ، حتى ولا شعور التراحم بالرابطة الوطنية ...

لقد ذهبت السيدة الجليلة لتزاحم الرجل ، ولكنها أخلت مكانها لأجنبية ، لقد باعت أمومتها واشترت الوظيفة ، لقد جحدت وطنيتها حين جحدت أنها امرأة ... ليت شعري أليست تَغارُ هذه المرأة ، أليست تغار على زوجها حين استهانت بالرابطة التي بينهما فاستأجرت له زوجة ؟ أليست تغار على ولدها الذي تجاهلت حقه في حنانها فاستأجرت له أما ؟ أليست تغار على بيتها الذي لا تحل فيه إلا كما يحل المسافر في فندق ؟ أليست تغار على وطنها حين أفسحت لامرأة أجنبية أن تكون مكانها سيدة بيت ؟

ليست هذه وحدها التي خرجت لتزاحم الرجل في ميدانه فما زحمت إلا نفسها . إنهن كثيرات أيها السادة ، وإن أسفي لشديد ؛ نعم نجحَت بضعُ نساء في مزاحمة الرجل ولكن بعد ما أسلمن بيوتهن إلى الأجنبيات . لكأني بكل امرأة من هذا النوع تهتف في أعماق نفسها قائلة : « لقد احتلّ الرجال مراكز الأعمال جميعاً فَلْيَجلُوا عنها بقوة المرأة . ولا علينا بعد ذلك أن تحتل الأجنبيات كل بيوت مصر ! »

علموا لنا أولا مديرات البيوت وربات المنازل وأمهات الرجال وزوجات الأبطال ، ثم ادعوا بعد ذلك واستطيلوا وقولوا يجب أن تنزل المرأة إلى ميدان الرجل لتزاحمه حتى تجليه . ربوها أولا على أن تؤدي وظيفتها الأساسية ، وظيفة الأم الصالحة التي تنشيء للأمة الرجال . ووظيفة الزوجة المسعدة التي تملأ بيتها أفراحاً ومسرة ، ووظيفة سيدة البيت التي تديره وتدبّره لتجعله جنة الأسرة ؛ ووظيفة المرأة الكاملة التي هي الحنان والعطف والرحمة والمحبة ، بإزاء الرجل الذي هو العقل والحزم والقوة واليد العاملة ؛ فاذا بلغتم الغاية من كل ذلك فافتحوا لها الباب وقولوا : اذهبي إلى الطريق راشدة فاصنعي ما تريدين ، وزاحمي الرجل إن وجدت السعادة في زحامه

(يتبع) زينب الرافعي

ذكرى قاسم أمين

للأستاذ على الجارم بك

ملّ من وجدِه ومن فرط ما به وأراق الشرابَ من أكوابه
وإذا القلب أظمأته الأماني فماذا يريده من شرابه ؟
وإذا النفس لم تكن منبتَ الأنـ ـس ، تناءى القريبُ من أسبابه
وأشدُّ الآلام أن تلزمَ الثغـ ـر ابتساماً والقلبُ رهنُ اكتئابه

* * *

كلما اختال فى الزمان شبابٌ عصفت ريحُه بلَدْن شبابه !
والنبوغ النبوغُ يمضى وتمضى كلُّ آمال قومِه فى ركابه
غَرِدٌ ، ما يكاد يصدح حتى يُسكتَ الدهرُ صوته بنعابه
وحَبابٌ ، إذا علا الماء ولى فاسأل الماء : هل درى بحبابه ؟
وسفين ، ما شارف الشطَّ حتى مزَّق اليمُّ دُسْرَه بعبابه
بخل الدهرُ أن يطوِّل للعقـ ـل فيجري إلى مدى آرابه

* * *

كلما سار خطوةً وقف المو ت فسدَّ الطريقَ عن طلابه
وابتداء الكمال فى عمل العا مل بدءُ الشكاة من أوصابه
ضلةً نكتم المَشيب فيبدو ضاحكاً ساخراً خلالَ خضابه
أين من يستطيع أن يرشد الدنيـا ، وسوطُ المنون فى أعقابه ؟
أيها الموت أمهل الكاتبَ المسـ ـكين يُرسلْ أنفاسه فى كتابه

* * *

آه لو يشترى الزمان قريضى بسنين تعدُّ لى فى حسابه !
ماحياتى ، والكونُ بعدُ جهاد لم أزل واقفاً على أبوابه ؟
تظمأ النفسُ فى حياة هى القفـ ـر فترضى بنهلة من سرابه
أنا قلبى من الشباب ، وجسمي أثخن الشيب رأسه بحرابه
أملٌ هذه الحياة ! فهل يسـ ـخر بى الموت دون وشك طلابه ؟
كلما رمتُ لمحة من سناه هالنى بعدُه وطول شِعابه
ما الذى تبتغى يدُ الدهر منّى ودمى لا يزال مِلءَ لعابه ؟
دع يراعى يا دهر يملأ سمع النـ ـيل من شدوه وعزفِ ربابه
كلُّ شىء له نصاب سوى الفن فلا حدَّ ينتهى لنصابه

* * *

عصفت صيحة الردى بخطيب وهو لم يبدُ صفحةً من خطابه
سكتةٌ أسكتت نشيج خضمّ عقد النوءُ لجه بسحابه
سكتة أطفأت منار طريق كم مشت مصر فى ضياء شهابه
ومضى « قاسم » وخلف مجداً تفرع النجم راسيات قبابه

* * *

قد نكرناه حين قام ينادى وفهمنا معناه يوم احتسابه
ربَّ مَن كنتَ فى الحياة له حر باً شققت الجيوب عند غيابه
وتحدّيتَ شمسه ، فاذا ولى تمنيت لمحة من ضبابه
لم يفز منك مرة بثناء فنثرت الأزهار فوق ترابه
يُعرف الوردُ حينما ينقضى الصيـ ـف ويُبكى النبوغ بعد ذهابه
كم ندبنا الشباب حين تولى وشغفنا بالبدر بعد احتجابه
كتب الله أن يعيش غريباً كل ذى دعوة إلى الحق نابه
لا ترى فوق قمة الطود إلا بطلا لا يهاب هولَ صعابه
كلُّ ذات الجناح طير ، ولكن عرف الجو نسره من غرابه
كم رأينا فى الناس من يبهر العيـ ـن وما فيه غير حسن ثيابه
يملأ الأرض والسماء رياء وعيوبُ الزمان ملء عيابه

* * *

نقد الناس « قاسماً » فرأوه أصبر الناس فى تجرع صابه
حجة الجاهل المراء ، فان شا ءوا سموا أسدها بسبابه
قد يغشى الوجدان باصرة العقـ ـل فيعميه عن طريق صوابه
صال بالرأى « قاسم » لا يبالى ومضى فى طريقه غيرَ آبه
كم جرىءٍ لا يرهب السيف إن سل ونكس يخاف مسَّ قرابه
والشجاع الذى يجاهر بالحق ولو كان فيه مرُّ عذابه
كيف يهدى النصيح إن رِيع يوماً من قِلًى من يحب أو إغضابه
وطريق الاصلاح فى كل شعب عسِر المرتقى على مجتابه
يمشق الشعب من يدلله زو راً يمذِق من سخفه وكذابه

* * *

قمتَ للجهل تقلمُ الظفر منه وتنفضُ الحداد من أنيابه
فى زمان كان القديم به قد ساً يذاد الجديد عن محرابه
يا نصير النساء والدين سمح لو وعينا السرىَّ من آدابه
قد خشينا على الحمائم فى الدو ح أظافيرَ بازه أو عقابه
إن أردت الظباء تمرح فى السهل فطهّر أكنافه من ذئابه

* * *

إلى المجهـــول

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

المقدمة

الولوع بالمجهول من أمور الحياة والطبيعة والنفس والكون والشغف باستطلاعه وكشفه هو الذى أخرج الانسان من المعيشة فى الكهوف ومن حضارة العصر الحجرى من عصور الحضارة وأزال عنه خوفه من مظاهر الطبيعة ببحث تلك المظاهر ، وهو الذى أدى به إلى كشف القارات والبحار وزاد علمه بالسماء ، وعلمه ركوب الهواء فى الطائرات حتى طمع فى الوصول إلى الأفلاك ، وذلك الولوع بالمجهول هو الذي جعله يخترع مخترعات الحضارة التى زادت حياته بهاء ومتعة وراحة ولذة ، وجعله يجد لذة حتى فى ركوب الأخطار من أجل كشف مغاليق الكون والحياة والطبيعة ويستشعر اللذة حتى فيما قد يصيبه من الألم أو الهلاك فى أثناء بحثه المجهول من أمور الحياة والكون ، والولوع بالمجهول هو الذى أدى إلى سيطرة الأمم القوية التى تمكنت من كشف المخترعات التى زادتها قوة واستعلاء ، وإذا بحث مماييز أبناء الدول القوية التى تمتعت بالثروة والسطوة والعلم والحضارة عن أبناء الأمم المتأخرة التى لا تزال تعيش فى الكهوف أو الغابات أو فى المدن أو الأحياء المتهدمة القديمة الفقيرة الموبوءة بالأسقام والأقذار المغلوبة على أمرها لرأيت أن صفة النفس التى ميزت أبناء الشعوب القوية السعيدة المسيطرة على الحياة والناس هى الصفة التى تجعلهم يجدون لذتهم فى كشف مغاليق المجهول من أمور الحياة، والامة التي تريد أن تعلو وأن تأخذ مكانتها تحت الشمس ينبغى أن تهيء لأبنائها نوعاً من التربية والتعليم يبث فى نفوسهم حب استطلاع المجهول وكشف مغاليقه . أما التعليم الذى لا يبث هـذه الصفة فى النفوس فهو تعليم لا يليق إلا بالذين يجدون لذتهم فى حياة الخمول من المألوف الذى أصبح كالمخدرات ، وكلما كان فقدان صفة حب استطلاع المجهول من النفوس أوضح وأظهر من أجل المؤثرات التاريخية المذلة المؤخرة كان ذلك أدعى إلى إصلاح نظم التعليم ، وإلى اتخاذ التربية التي تزيل هذه المؤثرات . والمراد بهذه القصيدة الدعوة إلى بث صفة حب استطلاع المجهول في نفوس النشء لأن نفوس النشء تحب استطلاع الغريب والمجهول بطبيعتها وترى لذتها فى ذلك قبل أن تعلمها التقاليد والأوضاع الخمول والقنوع بالمألوف ، ومن الخطأ أن يظن أحد أن عاطفة الشغف بالمجهول لا تنمى بالتربية وأنها قوة طبيعية فى الأمم القوية فحسب ... لا ... بل إن أسلوب التربية والتعليم قد يقوى هذه العاطفة التي هى أساس الرقي العلمى والاجتماعى الصحيح، وهذا الأسلوب من التربية ألزم فى الأمم الضعيفة لشدة احتياجها إليه

القصيدة

(الخطاب موجه إلى المجهول)

يحوطنى منــك بحر لست أعرفه
وَمَهْمَهٌ لست أدرى ما أقاصيه(١)

أقضى حيـاتى بنفس لست أعرفها
وحَوْليَ الكونُ لم تُدْرَكْ مجاليه(٢)

ياليت لى نظرة فى الغيب تسعدنى
لعل فيــه ضياء الحق يبديه

إخال أنى غريب وهو لي وطن
خاب الغريب الذى يرجو مُقَاصِيه(٣)

أو ليت لى خطوة تدحو مجاهله
وتكشف الستر عن خافي مساعيه(٤)

كأن روحى عُودٌ أنت تُحْكِمُهُ
فابسط يديك وأطلق من أغانيــه(٥)

والروح كالكون لاتبدو أسافله
عند اللبيب وَلاتبدو أعاليه(٦)

(١) المهمه القفر (٢) المجالى مباديه
(٣) قاصاه باعده والمراد بالغيب هنا المجهول لا غير
(٤) تدحو تبسط
(٥) يخيل للمفكر أحياناً أن خواطر النفس وأفكارها ريح تهب عليها أو يد تحركها كما تحرك يد الموسيقى أوتار عوده
(٦) لأن اللبيب أدرى من غيره بعظم الروح

كم ضراء وسط المدائن أذكي
من ضراء الضرغام فى وسط غابه

وشباك من الجرائم والختـ
ـل حواها شيطانهم فى جرابه

وإذا ما الحيـاء لم يستر الحسـ
ـن فماذا يفيده من نقابه ؟

***

قمت تدعو البنات للعلم فانظر
كيف حلقن فوق شمٍّ هضابه

وزها النيل بابنة النيل فاختـا
ل يجرُّ الذيولَ من إعجـابه

وغدا البيت جنةً بالتى فيـــه
خصيباً بالأنس بعـد يبابه

يافتى الكرد، كم برزت رجالاً
من صميم الحمى ومن أعرابه

نسب المرء ما يعدّ من الأعـ
ـمال لا ما يعدّ من أنسابه

كم سؤال بعثت إثر سؤال
أيقظ النائمين رجع جوابه

كنت فى الحق للإمام نصيراً
والوفى الصفىّ من أصحـابه

نم هنيئاً فمصر نالت ذرا المجـ
ـد وفازت بمحضه ولبـابه

منك عزم الداعى وفضل المجلىّ
ومن الله ما ترى من ثوابه

على الجارم

وأكبر الظن أنى هالك أبدا شوقاً إليك وقلبي فيه ما فيه
من حسرة وإباء لست أملكه يأبى ليَ العيش لم تُدْرَكْ معانيه
وأنت فى الكون من قاص ومقترب
قد استوى فيك قاصيه ودانيه[1]
كأنني منك فى ناب لمُفْتَرِس المرء يسعى ولغز العيش يُدْميه
كم تجعل العقل طفلاً حارحائرهُ ورب مُطَّلِب قد خاب باغيه
لو النبال نبال القوس مُضْمِيَةٌ
كنت ادُّرِيتَ بسهم القوس أرميه
أو كان للسحر سهم نافذ أبدا لكان لى منه سهم صال راميه
يا مُصْلِتَ السيف قد فُلَّتْ مضاربه
ورامِيَ السهم قد خابت مراميه
قلبي يحدثنى أن لا يليق به رضا بجهل ذليل اللب يرضيه
قد ثار ثائر نفس عز مَطلَبُها وطار طائر لب فى مراقيه
كالنسر لا حاجب للشمس يحرقه
ولا الصواعق والأرواح تَثْنيه[2]
وأنت كالليل والأفهام حائرة مثل العيون علاها منك داجيه
ليل مهيب كليل البحر حندسه تكاد تسمع منه صوت طاميه[3]
فليت لى فكرة كالكون واسعة
أدحو بها الكون تبدو لى خوافيه
ليس الطموح إلى المجهول من سفهٍ ولا السمو إلى حق بمكروه
إن لم أنل منه ما أروى الغليل به قد يحمد المرء ماء ليس يرويه
والقانعون بما قد دان عَيْشُهُمُ مَوْتٌ فإن خضوع اللب يُرْدِيه[4]
ياقلب يهنيك نبض كله حُرَقٌ إلى الغرائب مما عز ساميه
فالعيش حب لما استعصت مسالكه
تجارب المرء تُدْميهِ وتُعْليهِ
كم ليلة بتها ولهان ذا أمل لم يُسْلِ قَلْبِيَ أنْ غابت أمانيه
لعل خاطر فكر طارقي عرضاً يدنو بما أنا طول العمر أبغيه
يوَضِّحُ الغامض المستور عن فِطَنٍ وأفهم العيش تستهوى بواديه

عبد الرحمن شكرى

(١) أنت الخطاب كله موجه إلى المجهول
(٢) الأرواح الرياح
(٣) أشد ما يكون الليل روعة الليل فى وحشة البحر ولذلك يشبه به المجهول (٤) دان خضع وذل

شعر ابن تسعين!

كتاب الفصول والغايات

يا صاحب الرسالة الغراء :

إليك من شيخ قعيدة داره ، رهين كتبه وأسفاره ، تحية الأديب للأديب ، ومناجاة القريب للقريب . وبعد فإني لما قرأت فى رسالتكم الاعلان عن كتاب « الفصول والغايات » لشيخ المعرة حكيم الشرق اقتنيت منه نسخة وقرأتها فرأيت الشيخ الحكيم قد أتى فيه بالعجب العجاب ، ورأيت الشيخ الفاضل الزناتى قد أحكم فيه الصنيع ، وفاق كل أديب ضليع ، كيف لا وهو تلميذ شيخى اللغة المرصفى والشنقيطى لذلك فقد جئت بأبيات مدحاً في الكتاب وناشره . وإنى مرسلها إليك لنشرها ، ولا أظنك إلا فاعلا إن شاء الله ، وإنى وقد جاوزت التسعين من عمرى لم أنشر شيئاً من شعرى قبل اليوم ، وها هي ذى الكلمة

أين منى أبو العلاء أحييـه وأهديه أصدق التهنئات
أنا فى مصر وهو فى الشام رهن القبر أعظم بفرقة وشتات
نال منه يراع كل غبي ورموه بأشنع السيئات
فتصدى لنصره المعيّ هو «محمود» عصره ابن «زناتى»
وانتضى ماضى اليراع فأبدى عن «كتاب الفصول والغايات»
كان هذا الكتاب رجم ظنون وشكوك تحتاج للاثبات
فجلاه للناس صفحة حق نضرَتْ بالعظات نَوْرَ العظات
وأفانين تبهر العقل لم تخطر لندب سواه منتظات
وتولى تفسيره ببيان واضح اللفظ ناضر الكلمات
فغدا فى صنيعه عبقرياً جل قدرا عن ناشرى الهفوات
ناشرى الكتب للتجارة لا للعلم مملوءة من الغلطات
جاعلى النظم فى الطباعة نثرا ونثير الكلام مثل الرفات
ونظمت القريض طوعا لوجه العلم ماقلت فيه «خذه وهات»

محمد بن علي الدرعي



وزارة المعارف وجائزة نوبل

رأت وزارة المعارف أن تعمل على حث المؤلفين المصريين على الاشتراك فى جوائز نوبل جهد الطاقة ، ومهدت لذلك بأن فكرت فى أن تكل إلى الشعبة المحلية للمعهد الدولى للتعاون الفكرى فى مصر مراقبة ماينشر كل عام من المؤلفات والبحوث العلمية والأدبية التى تمتاز بالدعوة إلى تحقيق المثل الأعلى فى الحياة الإنسانية وتخصيص جائزة محلية كل عام لصاحب أحسن كتاب يمتاز بالطابع الشار إليه توطئة للاشتراك فى مسابقة نوبل العالمية

وترى وزارة المعارف أنه يجب على أغنياء المصريين أن يساهموا بنصيبهم فى هذا الباب ، فليست التبرعات وقفاً على إنشاء المساجد والمستشفيات وتقديم الكؤوس للألعاب الرياضية ، وإنما يجب أن توجه أيضاً إلى تشجيع الانتاج الأدبى والفنى بأن يقوم الأغنياء بوقف جوائز شعبية باسمهم إلى جانب الجوائز الحكومية

ويمكننا تلخيص الشروط لجائزة نوبل فيما يلى :

١ — ليس من حق الأكاديمية السويدية أن تتخذ الخطوة الأولى فى الترشيح للجائزة مهما تمتع الشخص بالمؤهلات اللازمة وإنما يجب أن تنتظر حتى يقدم إليها الاسم طبقاً لأحكام مؤسسة نوبل

٢ — لا يشترط من جهة المبدأ أن تترجم مؤلفات الترشيح للجائزة ، لأن بالأكاديمية السويدية خبراء فى اللغات المختلفة . كذلك لا يشترط أن يكون لهذه المؤلفات جمهور كبير من القراء فقد حدث أن منح الشاعر الفرنسى (مسترال) جائزة نوبل سنة ١٩٠٤ مع أنه كتب مؤلفه بلغة مقاطعة البروفنس وهى لغة يتكلمها عدد محدود جداً من الفرنسيين

٣ — تمنح جائزة نوبل الخاصة بالآداب لمن يصنف مؤلفا فى السنة السابقة للطلب مباشرة يعود بالنفع على الانسانية ويقودها إلى المثل الأعلى ؛ غير أن اختيار هذا المؤلف قد يكون فوق الطاقة لكثرة ما ينشر من المؤلفات الأدبية فى كل عام

ولذلك يمكن القول بأن هذه الجائزة أصبحت تمطى مكافأة على إنتاج نوابغ الأدباء فى كل حياتهم إذا امتازت بقربها من المثل الأعلى

ميزانية التعليم

خصص لميزانية وزارة المعارف فى السنة المالية الجديدة أربعة ملايين و ٣٥٦ ألف جنيه بزيادة قدرها ٣٣٦ ألفاً و ٥٠٠ جنيه تقريباً على ما كان مخصصاً لها فى الميزانية السابقة

وفيما يأتى توزيع هذا المبلغ على أنواع التعليم المختلفة

شؤون التعليم — للادارة العامة والبعثات العلمية ٣٢٠ ألف جنيه وللمدارس العالية ٣٧٦ ألفاً ، وللتعليم الثانوى ٧٤ ألفاً وللتعليم الابتدائي للبنين ٦٨٨ ألف جنيه ، وللتعليم الفنى ٥١٤ ألفاً ولمدارس البنات ٣٨٤ ألفاً وللتعليم الأولى مليون و٤٤٢ ألف جنيه وللفنون الجميلة ٤٧ ألف جنيه

الاعانات — وبلغت قيمة الاعانات المقرر منحها فى العام الجديد مليون و ١٩٤ ألف جنيه وهى :

٢٦٩ ألف جنيه للجامعة المصرية و ٨٢٦ ألفاً لنفقات التعليم لمجالس المديريات و ٦٥ ألفاً للتعليم الثانوى الحر للبنين ومثلها للتعليم الابتدائى الحر وكانت فى العام الحالى ٣٢٥٠٠ لكل منهما و ٥٤ ألفاً لمدارس البنات الحرة وكانت ٢٧ ألفاً فى العام الماضى و ١٠ آلاف جنيه للمدارس الأولية الحرة و ٨٥٠٠ جنيه للمدارس الصناعية والملاجىء و ٢٥٠ جنيهاً لمدارس الصناعات الحرة النسائية و ١٥ ألف جنيه للجنة الأهلية الرياضية البدنية ومثلها للفرقة القومية للتمثيل و ٤٨٠٠ جنيه للمدرسين الصناعيين بالاسكندرية و ٣٥٠٠ جنيه لدار الكتب الملكية و ٦٥٠٠ جنيه لدار التمثيل الملكية و ٢٠٠٠ جنيه لجمعية محبي الفنون الجميلة

و ٢٣٣٠ جنيهاً للمدرسة الفاروقية البحرية و ١٥٠٠ جنيه لكل من الجمعية الملكية الجغرافية والمجمع العلمي المصري و١٢٠٠ جنيه لكل من الجمعية الطبية ومرتبات الطلبة في المدارس الصناعية و ٢٣٠٠ لمعهد الطلبة المصريين بلندن و ٥٠٠ جنيه لكل من الجمعية الزراعية ومعهد التعاون الفكرى وجمعية علم أوراق البردى و ٤٥٠ جنيهاً للجمعية الجغرافية الملكية و ٧٠٠ جنيه إعانة فرقة الكشافة والمرشدات و ٤٠٠ جنيه لكل من معهد التربية الدولى بسويسرا والأندية الفنية و ٣٠٠ جنيه لنادى الألعاب الرياضية و ٢٠٠ جنيه لكل من المجمع المصرى للثقافة العلمية وجمعيتى المعلمين الملكية والوسيقى المصرية ومدرسة جبل سينا والنادى الرياضى المصرى ببرلين وجمعية الفنانين المصريين ومرتبات لطلبة دار العلوم و ٢٥ ألفاً مصاريف المدارس التابعة للسكك الحديدية وخصص لجوائز الطلبة ٩٥٠ جنيهاً علاوة على ٣٠٠ جنيه لجوائز التفوق

ومما يلفت النظر هنا أن الإعانات — على ضخامة المبلغ المرصود لها والذى يزيد على ربع ميزانية المعارف كلها — لم يُنظر فيه إلى ما ينبغي لتشجيع الأدب والتأليف ، فليس فيها شيء مقرر لتشجيع ذوى المواهب من المؤلفين ورجال الآداب ، على حين تكثر الآلاف لتشجيع الرياضة البدنية والنوادى والجمعيات ؛ وتلك ملاحظة نسوقها إلى وزير الأدباء معالى الدكتور هيكل باشا

الثقافة الموسيقية فى مصر

تشتغل وزارة المعارف ، بإعداد مشروع واسع النطاق ، يتجه إلى رفع مستوى الثقافة الموسيقية بصفة عامة ، وذلك بإقامة دراسات تثقيفية للموسيقيين المحترفين الذين يزاولون تلك المهنة ، ينتظم فيها الراغبون فى زيادة ثقافتهم الموسيقية بالمجان . وستكون تلك الدراسات فى إحدى مدارس الوزارة بالعاصمة .

وتلق تلك الدروس فى مساء يومين من كل اسبوع . وهى دراسات لجميع المواد الموسيقية التى يحتاج إليها رجل الموسيقى فى مزاولة مهنته ، وإلى جانب هذا تدرس اللغة العربية والخط

وتقرر أن توزع برامج الدراسة على عامين تعقد الوزارة فى نهايتهما امتحاناً يمنح الفائزون فيه درجة فى الموسيقى

وستشرع الوزارة فى تنفيذ هذه الخطة ابتداء من أول الدكتور القادم على أن يشرف حضرة مدير ادارة التفتيش الموسيقى بالوزارة على هذا المشروع

الموسيقى العربية للبارون رودولف ديرلانجيه

لا يتلفت أحد منا إلى التراث العلمى الذى خلّفته الثقافة العربية إلا تحسّر على نصيبه من الاهمال . والحق أنّ نواحى جمّة من ذلك التراث أصبحت موضع بحث وتنقيب ، إلا أنها لا تظفر بما يليق بها من العناية . وفى مقدمة تلك النواحى الموسيقى . على أنى لا أجهل أن نفراً من المشتغلين بالموسيقى عندنا مثل الأستاذ كامل الخلعى والأستاذ منصور عوض راحوا ينظرون فى بعض أوضاع الموسيقى العربية بدراية ، كما أنى لا أجهل أن فئة من المستشرقين كتبوا رسائل عالجوا فيها تاريخ الموسيقى العربية وخصائصها ، أذكر منهم : Kosegrten و Saloadar و Daniel و Collangettes و Carra de Vaux و Massignon ولا سيما Farmer .

ولكنّ النظر فى أوضاع الموسيقى العربية والالمام بتاريخها وخصائصها لا يزالان على شيء من الاضطراب . ذلك بأن المصادر العربية الخاصة بالموسيقى تكاد تكون كلها مطوية . وأعنى بالمصادر هنا تلك التى أجراها أصحابها على الطريقة العلمية . وأما المصادر الأخرى وعلى رأسها كتاب الأغاني لأبى الفرج فإنما تسوق الأخبار المتصلة بالموسيقى وإن اندست فى تلك الأخبار مصطلحات وفوائد علمية

والحاصل أنّ فى نشر أمات تلك المصادر خيراً وأن فى بحثها بحثاً مطرداً فائدة جليلة . كل هذا لم يفطن له معهد الموسيقى العربية القائم فى مصر لأنه بينه وبين العلم الخالص أشياء، ولكن الذى فطن له رجل أجنبى عنا هو : البارون رودولف ديرلانجيه رحمه الله

وضع البارون خطة سديدة إذ رأى أن ينقل المؤلفات الجليلة إلى اللغة الفرنسية ثم يلحقها بمجمل شامل يعرض نواحى الموسيقى العربية علماً وعملاً .

وقد ظهر المجلد الأول من هذه المجموعة سنة ١٩٣٠ مطوياً على الجزء الأول والثانى من « كتاب الموسيقى الكبير » للفارابي وهذا المجلد الثانى فيه الجزء الثالث من كتاب الفارابى ثم رسالة فى الموسيقى من كتاب « الشفاء » لابن سينا . ويتناول الجزء

٤ • ١٠

الثالث من كتاب الفارابى التأليف الموسيقى من لحن وإيقاع وقرع ومن الجموع الكاملة والناقصة والمتلائمة والمتنافرة . وأما رسالة ابن سينا ففيها مباحث فى الصوت وسببه وثقله وحدّته ، وفى الأبعاد وتقسيمها وتجزئتها وتضعيفها ، وفى الايقاع وفى الشعر وأوزانه

ثم إن فى ختم هذا المجلد حواشى يشرح فيها بعض الملتويات ويلوّح فيها إلى الأصول اليونانية

وعسى أن يواصل أصحاب البارون درلانجيه وأعوانه نشر المجموعة ، فالعالم العربى المهذّب يرقب رسائل الكندى صفىّ الدين وعبد الحميد اللاذقى وغيرهم . ولا يفوتنى أن أرغب إلى من سيتم نشر المجموعة أن يعمل كتاباً قائماً برأسه يثبت فيه المصطلحات الموسيقية الواردة فى التآليف العربية مع ما يراد منهــا فى اللغة الفرنسية حسبما نقل . وفى ظنى أنه يبذل بهذا مالا ينهض به شكر؛ ذلك بأن اللغة العربية لهــذا العهد مفتقرة إلى التعابير الفنية والاصطلاحات العلمية

بشر فارس

الفلم المدرسى ونصيب مدارسنا منه

يرجع الفضل فى استخدام السينما فى المدارس إلى المستر بروس وولف بعد الحرب الكبري مباشرة (١٩١٩) حين وضع — بمساعدة زوجته — أفلامه المدرسية الناجحة : معركة جتلند بين الأسطولين الإنجليزى والألمــانى ، وغزو اللنبى لفلسطين ، والحرب بين آلهة الخير وآلهة الشر Armageddon ... الخ وقد لقى المســتر وولف من إقبــال المدارس وتعضـيد الحكومة ما جعله يبتكر من الأفلام ما هو الآن ضرورة من ضرورات الحياة المدرسية فى انجلترا . بل لقد عظم أثر هذه الأفلام لدرجة أنها توجه التعليم وجهات خاصة فى بعض الأحيان . وقد كان أول أفلام مستر وولف فلماً مساحيًا على السطوح والدوائر والمثلثات ... الخ . وبالطبع لم ينجح هذا الفلم ولذا آثر الأفلام الأفلام الجغرافية والتاريخية بعد ذلك . وقد أشرنا فى هذا الباب إلى الفلم التربيوى الذى قامت به شركة الفحم الإنجليزية والذى كان له أكبر الأثر فى تحسين أسلوب المعيشة والتربية فى البيئة الإنجليزية هذا فى انجلترا ... فماذا عندنا فى مصر ؟ لقد كانت وزارة المعارف تحض على استعمال السينما فى المدارس ، فأين هى الأفلام المدرسية التى عرضت ؟ لقــد قامت وزارة الصحة بعرض بعض الأفلام السقيمة للتنوير العام ، فلم يكن لها أى أثر ، وهكذا صنعت وزارة الزراعة ... ولسنا ندرى ماذا يمنع وزارة المعارف من إلقاء مهمة إخراج أفلام مدرسية على عاتق ستوديو مصر على أن يعاونه معهد التربية فى ذلك ... إنها بهذا تفتح حقلاً جديداً لاستوديو مصر وتضمن الأفلام التربوية الناجحة للمدارس المصرية

شذوذ العبقرية فى الهند

فى الأنباء البرقية أن السيدة سوباروبان قد انتخبت نائبة فى البرلمان الهندى عن مدينة مدراس ... ومنذ شهرين كانت تزور مصر إحدى الزعيمات الهنديات فلم يمنعها زهوها الوطنى أن تعير نساءنا المصريات بتخلفهن عن أخواتهن الهنــديات فى مضمار الحياة ، لأن المرأة الهندية قد نالت من الحقوق المدنية مالا تزال المصرية تحلم به وتعتبره طوبى ! وقد منع كرم الضيافة السـيدة المصرية من الرد على الزعيمة الهندية ... ونحن من جانبنا لانجمل لنهضة المرأة الهندية تلك الأهمية التى تصورتها لها زعيمة الهند ، ولا يمنعنا من التمسك بهذا الحكم انتخاب السيدة سوباروبان للبرلمان الهندى . ونحن إنما نستند فى رأينا إلى التقاليد والعادات والمعتقدات الهندية نفسها . فالمرأة الهندية تشارك الرجل فى التطهر ببول البقر وتقديس البقرة كما تشاركه فى إذلال الأنجاس وتفضيل الفيران عليهم . وقد كان خيراً للهند ألف مرة لو عملت نائبة مدراس فى محاربة الآفات الهندية ولم تقحم نفسها فى الميدان السياسى ... وتعليل هــذا بسيط ... فالبيئة الهندية مشهورة بالشذوذ ولا سيما فى خلق العبقرية ... فالهند الفقيرة المجدبة من الثقافة قد أعطت العــالم رجالاً أفذاذاً عبقريين فى ثقافتهم وفى عملهم كالشاعر المسلم المرحوم إقبال والشاعر الهندوكي طاغور والمرحوم أجاديز بور العالم النباتى ... ثم السياسية سوباروبان ، ومن أجل ذلك فنحن متفائلون جداً بنهضة المرأة المصرية ولو لم تدخل البرلمان

تركيا والاسلام

أدلى السيد اسماعيل ولى الله الصحفى الهندى والمحرر بجريدة « انديان نيوز » التى تصدر فى دربان بجنوب افريقية الى جريدة

« جمهوريت » لدى عوده الى بلاده بما يأتي : « قبل أن أحضر الى بلادكم طفت ببلاد العرب ومصر وسورية . وقصدى أن أعرف بتركيا العالم الاسلامي في الشرق بحيث أقوم الرأى الخاطئ الذى كونه عنها . لقد اقتنعت كل الاقتناع منذ اليوم الأول لوصولي الي مدينتكم بأن الأتراك — على نقيض الدعايات السلبية التى راجت عنهم في العالم الاسلامى — لا يزالون مسلمين كما كانوا فى الماضى ، وإنكم مع محافظتكم على إسلامكم قد كيفتم أنفسكم وفق مقتضيات الحضارة الاوربية . وانا لنرجو أن يجرب جميع مسلمى الشرق هذه التجربة التى نجحت فيها تركيا . ان عدد مسلمى جنوب افريقية يبلغ ١٢ مليون نسمة منهم ٨ ملايين من أهل البلاد الاصليين ومليونان من الاوربيين و ١٥٠٫٠٠٠ من الملمين . أما الباقون فصينيون ويابانيون وأفراد من أجناس مختلفة . وينقسم المسلمون الى فريقين احدهما فريق المسلمين الهنود أمثالنا الذين يقطنون البلاد منذ ستين عاما . والآخر هو فريق المسلمين المولودين فى جاوا — وهذه المناطق سريعة التقدم وأهم انتاجها الذهب . ويعنى المسلمون الهنود بالتجارة ويمارسون المهن الحرة

ونحن مسلمى جنوب افريقية الهنود نشعر نحو تركيا بحب عظيم ، ومرشدكم العظيم أتاتورك شخصية عظيمة يعجب بها العالم أجمع . ولقد ظهرت فى جريدتنا عدة مقالات عن زعيمكم العظيم . وإنا لعظيمو الارتياح نحن المسلمين الى ما أحرزته تركيا من أسباب التقدم . وآمل أن يحقق وطنكم لنفسه حياة رغيدة . إن هذه أول مرة وطئت فيها أرض تركيا والأثر الذى خلفته فى نفسى هذه الزيارة هو أن الجميع هنا يعملون بنشاط ولا يتمرغون فى حمأة الخمول كما كانت الحال فى عهد السلطنة

كتابان فرنسيان عن مصر

نال المسيو جان مازويل الاستاذ بالجامعة المصرية الدالية الفضية من الجمعية الجغرافية بباريس وجائزة الكسندر اكان للكتابين الذين تقدم بهما الى « السوربون » ونال بهما لقب الدكتوراه. وهذان الكتابان يدوران حول بعض المسائل الجغرافية الطبيعية والاقتصادية المتعلقة بعصر إبان حكم والى مصر الكبير محمد على باشا ، وقد بحث المسيو مازويل فى أول هذين المؤلفين عن الاكتشافات العظيمة فى صحراء العرب وبلاد النوبة ، وتكوين برزخ السويس وأعمال الرى والصرف وقناطر الدلتا ودرس فى مؤلفه الثانى زراعة قصب السكر وأنواع السماد ، كما تحدث عن السكر فى مصر من الناحية الاقتصادية وأظهر الدور المهم الذي يؤديه محصوله

تصويب

كتب (أستاذ جليل) في العدد السالف من الرسالة ، ينبهني إلى خطأ وقعتُ فيه عند الحديث عما كان بين الرافعى والعقاد حول مقالة الرافعى عن شوقى فى المقتطف سنة ١٩٣٢ ؛ والصواب ماقال الأستاذ الجليل ؛ فإن مدار الحوار بين الأديبين كان حول تخطئة الرافعى لشوقى فى رفع جواب الشرط من قوله :

إن رأتنى تميل عنى كأن لم يك بينى وبينها أشياء

وكان ردّ الرافعى على العقاد — لتقرير هذه المسئلة من مسائل النحو عندما يكون فعل الشرط ماضيا ، وفى هذا الرد كان ما كان من رأيه فى المتأخرين من علماء النحو .

ولقد نبهتنى كلمة الأستاذ الجليل إلى شىء كنت أُنسيتُه ؛ ذلك أن تخطئة الرافعى لشوقى فى الابتداء بالنكرة من قوله :

ليلى ! منادٍ دعا ليلى فخفّ له نشوان فى جنبات الصدر عربيد

لم تكن مما كتبه للمقتطف ، ولكنه نشرها فى عدد يناير سنة ١٩٣٣ من مجلة (أبولو) فى الرد على الأستاذ على محمد البحراوى فى مقال تناول به مقاله للمقتطف عن شوقي ؛ ثم كان جدال بين الرافعى وأديب من أدباء العراق حول تخطئة شوقى فى هذا التعبير ، وتنقّل هذا الجدل حيناً بين أبولو والمقطم ...

هذا صواب ما اشتبه علىّ عند رواية هذا الخبر ، أشكر للأستاذ الجليل أن نبهنى إلى إثباته ؛ وعذرى فى هذا الاشتباه أن الجدال فى هاتين المسألتين كان يدور حول محور واحد ، هو مقالة الرافعى فى المقتطف ، فاختلط فى ذاكرتى شىء بشىء . . ؟

محمد سعيد العريان

شكر واعتذار

استدرك الصديق الدكتور ناجى على كلمتنا عن هوكسلى بعض مآخذ سماها أخطاء ، وكان قليل جداً من حسن التفات الصديق يكفى لإدراك أن ما ند قلمنا فيه جاء عن طريق السهو ، فقد وضعنا أليس مكان جويس فى الاشارة إلى قصة أوليسز ، وقد

كتبنا عن هافلوك أليس وجيمس جويس أكثر من عشرين نبذة في بابي (من هنا ومن هناك) و (البريد الأدبي) وكتبنا عن أوليسيز لجويس أكثر من مرة، ومن الأعداد التي نذكرها في ذلك (١٥٠ — ١٥٣ — ١٥٤) وذلك عقب نشر القصة.

أما أن هوكسلي هو حفيد هوكسلي الكبير أو ابنه فما ذكرت هو الذي أعرفه، وقد ثار جدل في ذلك بيني وبين الصديق الكبير الأستاذ سلامة موسى فأقنعني أنه ابن هوكسلي الكبير وليس حفيده، وتثبت بذلك فأثبته في كتابه القيم (في الأدب الانجليزي الحديث ص ٩٣) فقد ولد هوكسلي الكبير سنة ١٨٢٥ وتوفى سنة ١٨٩٥، وقد نيف هوكسلي الصغير على الخامسة والأربعين ومن هنا كان اقتناعي بما ذكر الأستاذ سلامة ... على أن ملاحظة الدكتور قد أثارت في فضولا غريباً جعلني أكتب إلى ألدوس هوكسلي أسأله في ذلك (!!)

أما كتاب رقصة الحياة فأكبر ظني أنها غلطة الصفاف (المحترم) الذي جعلني مرة أقتل ولد لأن حضرته أغفل سطراً بأكمله فأوقعني بغفلته في (شر أعمالي!)

ولكن يا دكتور ناجي! لي رجاء بعد ذلك ... هل تتفضل بتسجيل ملاحظاتك الأدبية القيمة على صفحات الرسالة بالنيابة عني حتى يأذن الله بشفائي مما أصبت به وسأستشيرك فيه!

الشاكر لك

صديقك المجهول

حول كلمة « هال . ها »

سيدي الأستاذ الفاضل محرر الرسالة

قرأت في عدد الرسالة الماضي قصيدة « البعث » وقد أعجبني استيعاب الشاعر محاسن الربيع ومناحي الجمال فيه كما طربت لقوة مبناها وغناها باللفظ الجميل كما يَغنى الربيع بالورد الناضر والزهر الباسم. إلا أنه لفتتني فيها كلمة « هال . ها » وتعليق الشاعر الفاضل عليها أنها كلمة نداء مرحة ابتدعها الأستاذ أبو حديد وتقوم مقام كلمة Sdeigh-Sdo الانجليزية، وأخشى أن هذا التعليق بعيد عن الصواب. فالكلمة الانجليزية ليست نداء مرحاً وإنما هي تعبير يقال عند خيبة الأمل أو انكسار النفس من الحزن أو الأسف أو ما إليها

على أن ابتداع الأستاذ الفاضل أبي حديد لكلمة « هال . ها » لتقال في معرض المرح لم يبلغ من التوفيق ما يجيز استعمالها في هذا المعنى. فكلمة (هال) تقال لزجر الابل، وذلك بعيد عن المعنى الذي يقصده الشاعر

والله يحفظ السيد الجليل

محمد عبد الغني حسن

تاريخ الأمة المصرية

أثنى المسيو جابرييل هانوتو في الأكاديمية الفرنسية على الجزء الرابع من كتاب « تاريخ الأمة المصرية » وهو الذي ينشره برعاية جلالة ملك مصر

وقد خصص هذا الجزء للفتح العربي من سنة ٦٤٢ ميلادية إلى الفتح العثماني في سنة ١٥١٧ وهو من تأليف المسيو جاستون فييت مدير الآثار العربية في القاهرة



الاسلام في العالم *

تأليف الدكتور زكى على

مؤلف هذا الكتاب من الشبان القلائل الذين عرفوا بالانكباب على معالجة الشؤون والمشاكل الاسلامية ، يعالجها طوراً بالكتابة فى صحف الشرق والغرب ، وآونة بالخطابة على المنابر فى المجامع . ولطالما قرأ له المصريون كثيراً من المقالات القوية فى الصحف العامة تنبىء عن اهتمامه القوى بهذه الناحية. والمؤلف إلى جانب اهتمامه بالناحية الاسلامية « طبيب » دقيق النظرة . ولقد ظهر أثر تفكيره العلمى الصائب فى كتابه الذى أخرجه هذا الشهر وهو : Islam in the World والذى يعد محاولة طيبة من الدكتور زكى على ، له الجزاء الأوفى عليها

ولقد أوضح المؤلف في مقدمته الدافع على ذلك فقال : « فى سنة ١٩٣١ غادرت مصر إلى أوربة لأول مرة فى بعثة طبية وقد كنت موظفاً كطبيب امتياز وطبيب تخدير فى مستشفى قصر العينى بالقاهرة ... ولم أكن أتوقع أن ستلح علىّ رغبة عنيفة لمسائل أخرى غير الطب ... غير أنى اكتشفت أن فى أوربا جهلا مطبقاً وعدم إدراك للاسلام . ذلك الدين الذى أومن به ، وألفيت أن العلاقات بين الغرب والعالم الاسلامى فى حال من المرض الشديد تستأهل بحث أسبابها ومعالجتها » ولم يحاول المؤلف أن يأتى بآراء جديدة فى سِفْرِه هذا ، ولم يعمد إلى محاولة ذلك عمداً ، بل لقد ذهب يعرض آراء الغربيين عرضاً دقيقاً ويستخلص من ثنايا كتاباتهم عن الاسلام ما يدحض به كل شبهة تحك فى نفس أحدهم ، فهو يرى أن النظام الدينى والاجتماعى فى الاسلام ليس بالضيق أو ما يُشتَم منه ريح التزمّت والجمود ، بل إنه فى جوهره مرن ، كما أنه يعمل على النهوض بالحياة الانسانية

ويستعرض المؤلف فى كتابه هذا حياة الرسول لأنه يرى أن لا بد لدراسة هذا الدين وتفهّم مراميه من تفهم حياة صاحبه ، وتلك هى الطريقة التى سار عليها سير أرنولد فى كتابه Preaching of Islam فلقد مهد لانتشار الاسلام بفصل عن « محمد كداعية » وفائدة هذا أن يربط القارىء بين المظاهر العامة والذاتية فى حياة الرجل الذى حمل عبء الرسالة وأداها صادقاً أميناً ، وكان فى حياته الخاصة والعامة المثال الكامل للانسان الفاضل ، والصورة الواضحة الحق للرسول والنبى المبعوث ، وما كان ينطق عن الهوى (إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى)

ثم يعرض المؤلف للاسلام من حيث هو دين ونظام اجتماعى يربط بين الطبقات ويوحد بينها ويتجه بمراميها إلى الغاية المنشودة من الرسالة ، ولقد كتب أحد المستشرقين مرة يقول « إن حياة الشرق تتمثل فى كتابين لاثالث لهما ، أما أولهما فالقرآن ، وأما ثانيهما فكتاب ألف ليلة وليلة » ... كذلك يتجلى طابع الاسلام الحق وجوهره الخالص من كل زيف أو شائبة فى القرآن وهو « كتاب اضطمّ على مبادىء القانون الاسلامى العام : فهو قانون لدين اجتماعى مدنى تجارى حربى فقهى خلقى تشريعىّ سياسىّ ؛ وهو بعد ذلك كتاب له تأثيره الدائم على أذهان المؤمنين الذين هيهات أن يتنكّب بهم الطريق لو أنهم ثابروا على اقتفاء خطاه وأوامره ، وليس فى هذا الكتاب ماينافض العقل » بل إنه ليشجّع الاجتهاد والتخريج . ثم يعرض المؤلف للجهاد (ص ٣٣) فيرى أنه حرب دينية دفاعية ، والجهاد شرعا الحرب في سبيل الدين والذب عن حياضه ، وادخال القوم الجاحدين به فى شريعته .

* Islam in the World ، طبع فى لاهور بالهند (١٩٣٨) ، مكتبة الشيخ محمد أشرف فى سوق كاشميرى

ويتناول الدكتور زكي نظام الحكومة والدولة فى الاسلام وهو من النواحى الهامة فى تاريخ هذا الدين كان له أثره البعيد فى آسيا وأفريقية ، فيتعرّض للجزية والزكاة والخراج ، وهى الأسس الاقتصادية التى تقوم عليها الحكومة فى الدول الاسلامية ، ويرى المؤلف أن الجزية ليست ضريبة تستؤدى من أهل الذمة كعقاب لهم بل إنها كانت نظير القيام على حفظ حقوقهم وبدلا من قيامهم بالخدمة الحربية المفروضة على كل مسلم (ص ٥٥) ، وان مرمى النظام الاسلامى وغايته ومجهوده أن يمد يد العون للنوع البشرى ليوفر له أسباب الراحة الروحية ، ويرقى به فى سبيل الكمال والسعادة .

ومن الفصول القوية التى دبجها الدكتور زكي على فصله عن تطوّر الاسلام Ovolution of Islam ، وهو يلمّ فيه بما انتاب الاسلام والمسلمين من أهوال جسام فى عصور التاريخ المختلفة ، فلقد اشتدت عداوة المغول له فقاموا بتدمير مراكزه الكبرى فى قسوة لم يعرف التاريخ لها مثيلا حتى ليكاد ينكرها من يقرأها بعد حدوثها كما يقول ابن الأثير ، وإن الدارس لتاريخ المغول فى الشرق والمماليك فى مصر ليرى هذه الضراوة الشديدة من ضراوة التتر ومحالفتهم لدول الغرب المسيحية للقضاء على الاسلام ممثلا فى دولة المماليك ، ولم يخفف من حدتهم هذه اسلامهم .

وكذلك انتابت الاسلامَ أخطارٌ جمة تعرّض لها فكان ذلك الصراع العنيف بين الشرق والغرب ، يدفع كلا الجانبين حماسة دينية وتعصّب مُلِح ، وهذا هو المعروف بالحروب الصليبية ، فلقد امتشق فيها الغربُ الحسام ضد الشرق والاسلام واتحدت شعوبه المتنافرة تحت الصليب تدفعها من الخلف حينا روح دينية ، وأحيانا كثيرة تحثها المطامع السياسية ، ولكنها فى كل ذلك تلبس مسوح الدين . ويرى بعض الكتاب أن هجوم التتر وتدميرهم الخلافة العباسية فى بغداد انما هو ضرورة اقتضتها حياة القوم فلقد انغمروا فى بلهنية من العيش وأغـرقوا فى اللذات ورفاهية المادة ، فكان تجديد الاسلام بتدمير هذه الحضارة وإقامة أخرى مكانها وزعيم هذا الرأى الكاتب الفرنسى Cahun ومهما يكن من صواب رأيه أو خطله فإن الحقيقة الواضحة هى أن الاسلام لم يَفْـنَ بعد هذا الهجوم بل تجدّد وعاد قويا

أما دراسته عن « الاسلام فى الغرب » فيعرض فيها لآراء الكتاب الأوربيين أمثال رينان وولسون كاش وأرنولد وكريمر ويظهر فى تضاعيف هذا الفصل ما انطوت عليه نفس الكاتب من حماسة بالغة للإسلام خرجت به أحياناً من موقف العرض إلى الدفاع ، فأكرم بهذه الروح التى أملت عليه ما أملت من نقاش ودفاع كريمين . وبهذا الفصل يختم المؤلف الفاضل القسم الأول من كتابه وقد خصصه للتعريف بالاسلام ثم ، يليه القسم الثانى والأخير منه وهو دراسة تحليلية للنواحى الفكرية فى الاسلام ومستقبله فى العالم كدين وكنظام اجتماعى وسياسى ، وهو ينظر بعين الرضا والاطمئنان للحركة التجديدية فى الأدبين الفارسى والتركي ومايترتب عليهما من إحياء للماضي الحافل بصور المجد والعظمة

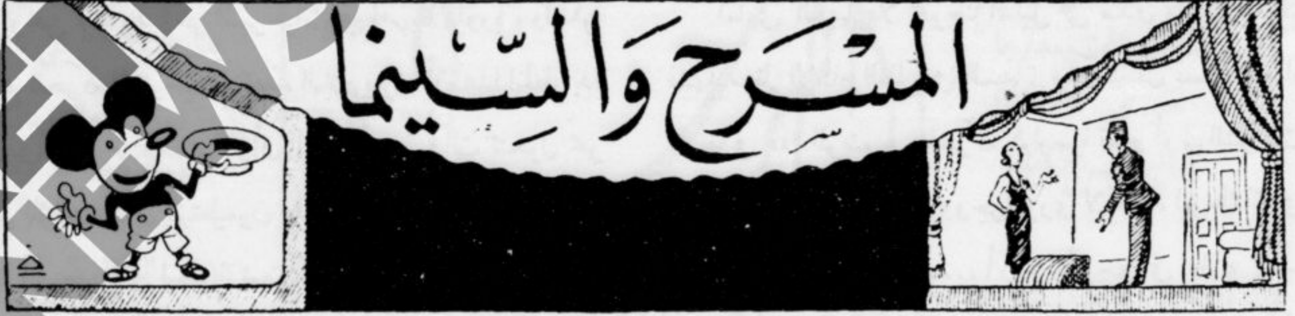
ويختم المؤلف كتابه بدراسة قيمة عن (الاسلام فى العالم) فيرى أنه لا يستطاع الفصل بين السياسة والدين فيه بل إنهما ليتعاونان معاً فى ميادين الاستقلال الاقتصادي والسياسى والاجتماعى (ص ٣٩٧) ويضرب المثل على صحة هذا بالملك العظيم ابن سعود فلقد نجح في إقامة دعائم مملكته على أسس مستمدّة من القرآن والسنة ، حتى لقد أصبحت الحجاز اليوم حكومة رشيدة قوية محترمة ، وفى ذلك أبلغ دليل على تعاون السياسة والدين وعدم تضاربهما ، على عكس الواقع فى الغرب حيث لا يستطاع — بحال من الأحوال — التوفيق بين الدولة والكنيسة .

ويتساءل المؤلف فى ختام بحثه هذا : هل يمكن إيجاد التعاون والتوفيق بين الاسلام والغرب ؟ ... ونظرته لهذه الناحية نظرة التفائل ؛ ويذهب مدللا على رأيه هذا بحجج بعضها فى حاجة إلى نقاش وإن كانت تنتهي أخيراً إلى الموافقة على رأيه .

***

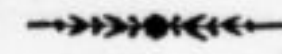
وبعد فهذا عرض موجز لكتاب ألفه شاب مصرى أوقف جهده وقلمه وتفكيره على ناحية يستأهل من أجلها شكر الشرقيين والناطقين بالضاد فى كل صقع وناد بلا تفرقة بين الملل والأديان ، ذلك لأن الشرق اليوم هو العالم الاسلامى

حسن حبشي



عصر السرعة والأعصاب المكدودة

وأثره فى الانتاج المسرحى والسينمائى



اشتهر هذا العصر بأنه « عصر السرعة » ومن علاماته المميزة — وقد تكون إحدى النتائج القريبة لهذا الوصف — توتر الأعصاب



فالبنية الانسانية طاقة إذا أجهدت تنبهت أعصابها وأرهفت واشتدت قابليتها لكل مؤثر، ومن مجهدات الأعصاب فى هذه الأيام تعدد المطالب التى لم تجعل حداً لحاجات الناس بل أطماعهم، وكثرة الأزمات فى شتى نواحى الحياة، وترقب الحروب والانقلابات يوماً بعد يوم، وضعف الوازع الأدبى بفضل أخلاق الساسة ومعاملات الدول بعضها لبعض وعدم احترام التعهدات والوعود، وتهديد البطالة لكل آمن أو شبه آمن، وتفشى المخدرات والأمراض، وكثرة الضوضاء، وعدم الاستقرار، وتسلط المادية ... الخ

كل هذه الأمور أفقدت النفس مساكها والأعصاب احتمالها وظهر أثر ذلك فى جميع مرافق الحياة

ففى الشارع — كثيراً ما يقابل المرء أناساً وجهاء وغير وجهاء يتحدثون إلى أنفسهم بصوت مسموع، ويضحكون من غير دافع إلى الضحك، ويشيرون بأيديهم إشارات لا تصدر إلا عن مخبول أو مذهول

وفى المرقص صدف الناس عن الرقص التصويرى الشعرى وأفتنوا فى الرقصات التوقيعية العنيفة

وفى اللعب ازدادت أحابيل المشعوذين، ومارسوا كل عمل شاذ لا يكاد يخطر على عقل سليم

وفى المعرض — تقدمت الرسوم « الكاريكاتيرية » لأنها الوسيلة الوحيدة لرسم الأفكار الخاصة التى لا تظهر فى الطبيعة

وفى الموسيقى لم تفلح الآلات الوترية الهادئة فى هذا الجو الصاخب المخمور حيث أفلحت آلات « الجاز » العنيفة المدوية

وفى المكتبة اختفى الكتاب الجيد بين آلاف من الكتب الفارغة التى استعصى على أصحابها عمق الفكرة فسبحوا على قشورها

والمسرح والسينما قد ظلا صورة حسنة لهذا العالم ينقلان أحسن ما فيه، ويقدمان له المثل الصالح الممتاز

ولكن هذه النزعة المجنونة قد بدأت تؤثر فيهما وتفسد عليهما رسالتهما السامية

ازدادت فى الأيام الأخيرة الأفلام من نوع :

My Mon Godfrey, Theodora Goes Wild
The Auful Truth, Woman Chases Man
Easy Living, Panger-Love At Worla
Nothinq Saered, True Confession

وكل هذه أفلام تدور إما حول عائلة كل أفرادها مجانين أو رجل غير مكاف أو امرأة مطلقة البدوات، أو فكرة لا يمكن أن يبتكرها غير امرئ مخدر الأعصاب مخمور

وموضع الخطر فى هذا الأمر أن هذا النوع من الأفلام هو أكثرها نجاحاً اليوم

ونحن لم نشهد آخر المسرحيات فى أمريكا وأوربا ، ولكن المتتبع للحركة المسرحية فى هذه البلاد يعرف أن هذا الخطر بدأ يدب فى المسرح كذلك ، وأن البيئة الأدبية بدأت تتحول نحو بعض المؤلفين الذين يستطيعون هذا النوع من الكتابة ، ولم يبق هناك أى حرج فى استعمال بعض الاصطلاحات التى اقتضاها هذا التجديد ؛ فكلا المؤلف والناقد يقول :

Hysterical Comedy, Crazy Comedy . أى ملهاة جنونية ، ملهاة هستيرية

وإذا تعذر علينا أن نشهد هذه المسرحيات فإننا نعرف شيئاً عنها مما يحمله البريد . وقد يسهل أحياناً تكوين الفكرة من معرفة العنوان . فمن أسماء بعض هذه المسرحيات التى لقيت نجاحاً عاصفاً فى كلا أمريكا وانجلترا فى السنوات الأخيرة Whoopee Room Service, Three Men OM A Horse . وأخيراً Idiot's Delight, Oh Letty

وتقدم القوم خطوة أخرى فافتتح بعض الأمريكيين أخيراً مسرحاً لتمثيل الروايات المسرحية التاريخية القديمة كروايات شكسبير بالملابس العصرية

أما فى السينما فلا يحوجنا الدليل على صدق ماتقول . فاننا نشهد معظم الانتاج العالمى فى السينما . ويمكننا أن نعمل احصاء طريفا فى هذا الموضوع . فشركة كولومبيا تعتبر أولى الشركات تقدما فى ابتكار أنواع الخبل ، وجريجورى لا كافا ، ليوماك كارى ويـلى رجلز ، ميتشل ليش ... أبرع المخرجين فى ادارته . أما ممثلوه فكثيرون ، أشهرهم كارول لومبار ، ايرين دن ، جين آرثر ميريام هوبكنز ، بت دافيز . ثم جون باريمور ، شارلز لاوتون ، فردريك مارش ، وليام باول ، روبرت مونجمرى (ويلاحظ أن النساء فى المرتبة الأولى) .

وهناك « فرق » من المخبولين أشهرهم الأخوة ماركس والاخوة ريتز والثلاثة المشعوذون مو ، لارى ، جيرى .

هذا غير عشرات من الممثلين الكوميديين الذين لا يكاد يخلو فلم واحد من وجود بعضهم .

وأخيراً لا يسعنا بعد هذا الكلام الطويل إلا أن نرجو ونأمل أن ينتج لنا المسرح والسينما أحسن ما فى هذا العالم ويدعا أسوأ ما فيه

محمد على ناصف

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧


الرسالة
السنة السادسة
العدد ٢٥٣

6 me Année, No . 253 — Lundi - 9 - 5 - 1938

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٥٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ٩ ربيع أول سنة ١٣٥٧ — ٩ مايو سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهرس

مصطفى صادق الرافعى

بمناسبة ذكراه الأولى



فى مثل هذا اليوم من العام المنصرم سكن لسان وجف قلم وانقطع وحى . وفقد البيان الملهَم والفكر المنير خسارة إنسانية لا يسهل العوض منها ولا العزاء عنها .

والرافعى وأمثاله من عباقرة العلم والأدب والفن والمال ، ثروة من ثروات الأمم لا تُكتسب بالحيلة ولا بالإرث ، وإنما هى نفثات من روح الله تنسِم على الأنفس المختارة فتجعل طبيعتها بين النور والطين ، ومنزلتها بين السماء والأرض ، ورسالتها رفع الناس إلى الملائكة بالمجد ، وتنزيل الملائكة على الناس بالخير . فإذا جاء أجلهم عاد ذلك النور الإلهى إلى مصدره ، وهو أشد مايكون نزوعاً إليه وعلوقاً به ؛ ثم لا ينبثق مرة أخرى

إلا حين يأذن الله لخليقته أن تهتدى ولأرضه أن تصلح

لذلك كان أسى الأمم الداكرة الشاعرة على نوابغها أسى خالداً يستمر فى ذاكراتها، ويتجدد فى ذكرياتها، ثم يتردد على عواطفها كلما صبت إلى أمام فلم تجد الهداة، وهفت إلى فوق فلم تجد الأجنحة

على أن النابغ فى أمم الشرق يعيش وكأنه لم يولد، ثم يموت وكأنه لم يعش. ذلك لأن الحياة فيها لا تزال نوعاً من السكر الغليظ يذهل الناس عن الوجود أكثر العمر، فاذا أفاقوا — وقليلاً ما يفيقون — عربد بعضهم على بعض!

كذلك عاش الرافعى ومات! وكذلك يعيش أشباهه ويموتون! وما حيلة الزهرة الفواحة إذا أنبتها القدر القاهر فى قفار الأرض بين سَفْي الرمال ولفح السمائم؟

***

رحم الله الرافعى لقد كان فى الكتابة طريقةً وحده! وحسب الكاتب مزية ألا يكون لأسلوبه ضريع فى الأدب كله. فإذا قيل لك إن الرافعى قديم الأسلوب فى التفكير والتعبير فاحمل ذلك على الحسد الذى لا حيلة فيه، أو على الجهل الذى لا حكم معه. وتستطيع أن تتحدى من تشاء أن يدلك على كاتب يترسم الرافعىُّ مواقع قلمه أو قدمه. إنما هى شنشنة من ضعاف الملَكة وقاصرى الأداة، يرمون من يجيد لغته بالتخلف، ومن يتعهد كلامه بالتكلف، ومن يؤثر أدبه بالمحافظة

أسلوب الرافعى يمتاز بالسلامة والسلاسة والإيجاز والعمق. وهذه المزايا نتائج حتمية لاكتمال عدته وغزارة مادته وصفاء ذوقه وذكاء فهمه. وأشد ما يروعك منه قوة الفن وحركة الذهن. فأما قوة الفن فهى الأستاذية التى تخلق المادة، وتصنع القالب، وتضع اللفظ، وتحدد الرسوم، وتوضح الفروق، وتتصرف بمفردات اللغة تصرف المصور البارع بألوان الطيف، وتخيِّل إليك أن الصناعة طبع والمعاناة سليقة. وأما حركة الذهن فهى حركة الغواص الدائب لا يقف عند السطح، ولا يستقر على القاع، وإنما يضرب بيديه القويتين فى أغوار البحر، وقد انقطع عن شواغل الناس بالعين والأذن. على أنها حركة الروية لا حركة العبقرية؛ فمعانيه تقطر ولا تفيض، ولكنها على طول الرشح واعتصار القريحة تصبح منهلا طامي الجوانب صافى المورد

كان يحمل الفكرة فى ذهنه أياماً يعاودها فى خلالها الساعة بعد الساعة بالتقليب والتنقيب والملاحظة والتأمل، حتى تتشعب فى خياله وتتكاثر فى خاطره؛ ويكون هو لكثرة النظر والإجالة قد سما فى فهمها على الذكاء المألوف. فإذا أراد أن يعطيها الصورة ويكسوها اللفظ، جلاها على الوضع الماثل فى ذهنه، وأداها بالإيجاز الغالب على فنه، فتأتى فى بعض المواضع غامضة ملتوية وهو يحسبها واضحة فى نفسك وضوحها فى نفسه. وذلك عيب المروِّين من صاغة الكلام وراضة الحكمة، كابن المقفع والمتنبى، وبسكال وبول ڤاليرى. ومنشأ ذلك العيب فيهم أنهم يطيلون النظر ويديمون الفكر ويعمقون البحث حتى تنقطع الصلة بين عقولهم وعقل القارىء، وتتسع المسافة بين معانيهم وألفاظ اللغة، فيكتبون وأفهامهم سابقة سبوق الروح، وأقلامهم متخلفة تخلف الجسم. ويزيد فى هذا الغموض أن سعة العقل فى النوابغ تستلزم ضيق اللسان. فلا ترى الفضول والثرثرة والرغوة والغثاء إلا حيث يضحَل الذهن ويقصر النظر وتنزر المادة. والرافعى كان يقتصد فى أسلوبه، لأنه ينفق عليه من جهده ومن ذوقه ومن فنه ما يجعله أشبه بومضات الروح ونبضات القلب ونفحات العافية. فهو يفصل اللفظ على قدر المعنى تفصيل (المودة) الفاشية اليوم؛ يقصُر ولا يطول، ويضيق ولا يتسع، ولكنه على ضيقه وقصره يظهر الجسم الجميل على أتم ما يكون حسناً وأناقة

وهو بعد ذلك أسلوب جيد التقسيم سليم المنطق، إلا أنه بعيد الإشارة يستسر جماله على القارئ العجلان والفهم البطىء. فإذا روَّى فيه الناقد المتذوق انكشف له فى كل كلمة سر، وطالعته فى كل فقرة آية. ولعل النفس الشاعرة لا تجد فيه من أنوثة العاطفة ما تجده النفس المنطقية من فحولة الفكرة. ومرجع ذلك فى الرافعى غلبة الفكر على الشعور، وسطوة الفن على الطبيعة...

(للكلام بقية)

احمد حسن الزيات

البحث عن غد

للأستاذ عباس محمود العقاد

- ٣ -

كان مستر « روم لاندو » على صواب فى اهتمامه بالناحية الروحية من حياة الشرق الأدنى فى العصر الحاضر ؛ وقد أحسن تعليل هذا الاهتمام حين قال فى مقدمة كتابه : إن الشرق الأدنى هو الذى رسم للعالم الإنسانى مجراه فى طريق الحضارة والتهذيب . فلو خلت الدنيا من ثلاث « قارات » كاملة لما تغيرت ثقافتها الروحية إلا قليلاً ، ولكنها لو خلت من أمم البقاع المحصورة بين البحر الأبيض والبحر الأحمر والخليج الفارسى ، لكانت أديانها غير هذه الأديان ، وآدابها غير هذه الآداب ، وثقافتها غير هذه الثقافة ، ومعانى الحياة والمثل العليا فيها غير ما نعلمه من معانيها ومثلها العليا فى عصرنا الحديث

قال : « نعم حدث فى القرن الخامس عشر بعد كشف أمريكا وإخراج العرب من الأندلس أن المحور قد تحول نحو الأقطار الغربية ، ولكن الأمر لم يحتج إلى أكثر من ثلثمائة سنة لاتجاه « الرقاص » إلى الشرق من جديد . وجاءت حملة نابليون المصرية وما وراءها من آماله فى الهند وما نجم عنها من كشف الحضارة المصرية التى طال العهد بنسيانها فأنشأت عهداً جديداً له شأنه وخطره فى بلاد الشرق الأدنى »

ونحن الشرقيين يحق لنا أن نغتبط بما لبلادنا من الشأن الحاضر أو المنظور فى حياة العالم الروحية ، ولكننا خلقاء ألا ننظر إلى الأمور بالعين التى ينظر بها الغربيون ، فإنهم يبالغون ولا ريب فى استضعاف شأن الحياة الروحية كما يرونها فى أنحاء أوربا وأمريكا ، لأنهم سئموها وعالجوا أكاذيبها ومواطن القصور منها ، فكان استضعافهم إياها داعياً إلى التحول بالرجاء إلى غيرها ، وكان من جراء ذلك هذا الاقبال على مسائل الشرق الأدنى ولا سيما المسائل الروحية . وقد وجد بينهم أناس تحولوا إلى الشرق الأقصى والهند خاصة لتعليل أنفسهم بشىء من الرجاء وشىء من الثقة واليقين ، فهى حيرة تهديهم تارة إلى هنا وتارة إلى هناك .

ولا ينبغى لنا أن نجعل هذه الحيرة مقياسنا ومعيارنا فى تقويم ما لنا من قيمة ، وعرفان ما لنا من وزن وأمد . ونعتقد نحن خلافاً لما يعتقده بعض الأدباء الأوربيين أن البلاد الغربية ليست من النضوب الروحى بالحال التى يتخيلونها ، وليست من الركون إلى المادة والضرورات العملية بالموضع الذى يضعونها فيه . وينفعنا نحن الشرقيين أن نذكر ذلك لأننا محتاجون إلى بقية باقية فى الغرب من زاد الروح والذهن والخيال ، فإذا اعتقدنا فى الغرب النضوب والاقفار فلا ربح فى ذلك لنا بل فيه الخسارة والفوات لا جدال

لنا أن نعرف قيمتنا ، ولكن ليس لنا أن نجهل قيمة غيرنا . ومن الحسن أن نحيط بما يكتبه الأجانب عنا لأنهم يرون ما يخفى علينا أحياناً من أحوالنا وخطواتنا لفرط الألفة وتكرار النظر بغير انقطاع ، كما يعرف المسافر العائد إلى أبنائه كم طالوا وكم كبروا وهم لا يلتفتون إلى ذلك . ولكن المرجع إلينا آخر الأمر فى الشعور بحقيقتنا ، والنفاذ إلى سريرتنا ، والمقابلة بين أمسنا وغدنا . ولا ضير فى قليل من الثقة — بل قليل من الغرور — يزيد على المقدار ، فإن المبالغة فى الثقة خير من المبالغة فى فقدها على كل حال

***

وصاحب كتاب « البحث عن غد » رجل يشعر بالإسلام والشرق الأدنى شعور المودة والترفق ، ولا يتعصب عليهما أو يتعصب لأعدائهما . فهو من ثم غير متهم فى مقاصده ونياته ، وغير بعيد عن أسباب الفهم الصحيح والحكم العادل ، ولكنه ينشد الحقيقة على طريقته العاجلة التى يتسع لها وقته فى رحلاته الكثيرة ، فهو أقرب إلى الأنباء الصحفية منه إلى المباحث العقلية والدروس العلمية أو الفلسفية . وهكذا ينبغى أن نتلقى آراءه وأحكامه ، وننظر إلى أغراضه ومناحيه

قصد البحث عن حياتنا الروحية فماذا صنع ؟ ذهب إلى السفارة المصرية فى العاصمة الانجليزية وتسلم منها كتب التوصية المعهودة وأسماء الأفراد المعهودين !! ولو قيل المستر « روم لاندو » إن مصرياً أراد البحث فى حياة انجلترا الروحية فذهب إلى السفارة البريطانية ليسألها عن وجهات الفكر والروح فى بلادها لابتسم وأدرك نتيجة البحث لأول وهلة ، ولكنه رجل صحفى أو شبيه بالصحفيين ، فهذه أقرب الوسائل إلى إنجاز عمله وجمع المادة اللازمة

لتأليفه . وكذلك كان فى كتبه السابقة حينما تناول الأقطاب الروحيين المقيمين فى باريس أو لندن أو نيويورك : سبيله إليهم كسبيل الصحفيين إلى المحادثات وجمع المعلومات

لو ذهب مصرى إلى السفارة البريطانية يسألها عن رجال الفكر والروح والخيال من الانجليز لما ذكرت له اسم لورنس أو اسم موجهام ، ولعلها لاتذكر له حتى اسم برنارد شو ومن إليه من الأدباء الذين لايلتزمون التقاليد ولايدخلون فى السجلات الرسمية . وهى لاتهمل ذكرهم لأنها تجهلهم أو تستخف بأثرهم بين قرائهم ، ولكنها تهملهم لأن وظيفتها توجب عليها أن تلتزم التقاليد ولاتعترف بماوراءها من وجهات الأفكار ومذاهب الضمائر

ومن المعقول أن تسأل السفارة أو وزارة الخارجية فى إنجاز عمل أو الارشاد إلى من ينجزه ويتولى تسهيله . أما الارشاد إلى نزعات الفكر والروح ، فالسفارات والوزارات لاتتولاه وإن عرفت طريقه ، لأنها لاتدل على شىء إلا كان داخلا فى حدود المرسومات المحدودة ، حتى لو ظهر عليه لون من الشذوذ

ولهذا لانعجب أن يتحدث الكاتب عن « قدم المادة » وماقيل عنها فى الجامع الأزهر كأنه فتح جديد فى تفكير المسلمين ، مع أن المسلمين يعرفون مذاهب القائلين بالقدم والحدوث منذ مئات السنين . ومع أن المفكرين المعاصرين لا يحفلون بقدم المادة وحدوثها ولايشغلهم من صفاتها شىء أهم من هذه الصفة التى تجلى عنها البحث فى الاشعاع والتقريب بين المادة والقوة بهذه المثابة حتى أصبحت وكأنها معنى من المعانى وعدد من أعداد الرياضة والحساب

فلو أن « الباحث عن غد » وصل إلى الجامع الأزهر ووجد فيه البحث قائماً على اختلاف هذه الفروض فى كنه المادة لجاز له هذا الدهش الذى أفرط فيه حين علم عما قيل عن قدم المادة من قول صحيح أو غير صحيح . أما الدهش لأمر تكلم فيه المسلمون قبل ألف سنة فماذا فيه من البحث عن غد؟ وماذا فيه من النزوع إلى الجديد ؟

كذلك يغلو الكتاب الأوربيون على هذه الشاكلة فى قياس الحركات الذهنية بما تثيره من الضجيج بين رجال الدين أو بين طلاب المعاهد الدينية . ومن ذلك مثلاً اعتقادهم أن الأستاذ على عبد الرازق قد غير فى قواعد الدين يوم قال إن الخلافة ليست من مراسم الاسلام . وما اعتقدوا هذا الاعتقاد إلا لأنهم حسبوا أن الضجة التى أثيرت حول كتابه كان مبعثها التعصب والغيرة على الدين . ولم يعرفوا الحقيقة التى يعرفها معظم المصريين ، وهى أن السياسة لعبت لعبتها فى هذه المعمعة من مبدئها إلى منتهاها . فلو أن الأستاذ على عبد الرازق أعلن رأيه قبل بضع مئات من السنين يوم كان الأمراء المصريون يسعون فى إضعاف الخلافة لقوبل كتابه بالترحيب والمكافأة الجزيلة . ولو أن المسألة مسألة قديم وجديد وتغيير فى الأصول الدينية لكان الأولى أن يثير من الغضب يومذاك أضعاف ما أثاره فى عصرنا هذا ، ولكنها مسألة لها موقعها من السياسة ومن مآرب العيش عند بعض الناس فكان من جرائها ما كان

لهذا نقول إن حكم الأوربيين ولا سيما المستشرقين على شؤون مصر وشؤون الشرق العربى كافة أضعف الأحكام وأبعدها عن حساب العوامل الصحيحة والبواعث الخفية ، بل ربما كانت أبعدها عن البواعث الظاهرة فى كثير من الأحيان . وما كتبهم فى هذه الأغراض إلا طائفة من « الكتالوجات » على طراز آخر غير الطراز التجارى أو الطراز السياسى ، ولكنه مثله فى الجوهر وطريقة التحضير

ونخص المستشرقين بالخطأ مع أنهم أحرى أن يقتربوا من الصواب ويرجحوا إخوانهم الأوربيين الآخرين بمعرفة اللغة والاطلاع على التاريخ ، إذ الواقع أن « الاستشراق » قد نشأ قديماً فى بيئة التبشير ولا تزال فيه جذوره ومراميه ؛ وكل ما يعنى المبشرين هو مراسم الدين وتقاليد المساجد والكنائس والعبادات . فاذانشبت مشاجرة فى مسجد أو كنيسة فذلك أدنى إلى ملاحظتهم من اختلاف مقاييس الفكر ودعائم الضمير ، لأنهم هم أنفسهم يعيشون فى هذه البيئة وما يحاذيها من طبقات الأدب وطبقات التفكير ، فهم معرضون لأخطاء أعظم من التى يتعرض لها الأوربيون الجاهلون بلغات الشرق وتواريخه الأدبية ، لأنهم ينظرون مغرضين وفى أعينهم قصر وعلى أعينهم غشاوة لا تميز الحقائق ولا تنفذ إلى ما وراء القشور

وعلى هذا يصح أن نحيط بما يكتبه الأوربيون عنا لنعرف منهم ملاحظاتهم التى تخفيها الألفة والنظر المتكرر إلى المتواتر من أحوالنا ، ولا يصح أن نقوم آراءهم وأحكامهم بأكبر من هذه القيمة أو نسومها بغير هذا السوام

عباس محمود العقاد

تأملات في الأدب والحياة

للأستاذ اسماعيل مظهر

المدنيات وبيئاتها

لكل مدنية من المدنيات بيئات عديدة ، ومن هذه البيئات ما هو طبيعى فطرى ، ومنها ما هو اكتسابى

أما الطبيعى فكالموقع الجغرافى ، وطبيعة الأرض وما يحيط بها من البحار ، وما يتخللها من الأنهار ، ومايبرز فوقها من الجبال ، وما ينبسط فيها من السهول ، وما ينزل بها من المطر ، وما يهب عليها من الرياح ، وما ينبت فى الأرض من الأشجار ، وما يتخلل جوها من الرطوبة ، وما يذيع فيه من حرارة أو برودة . وأما الاكتسابى فكالمعتقدات العامة والشرائع الموروثة والأديان والعادات وطبيعة الحكم وصفة الحكومة وأخلاق الطبقة الحاكمة إلى غير ذلك

أما البيئة الطبيعية فقلما تتغير ؛ وإن تغيرت فان تغيرها لا يتناول الجوهر الثابت ، وإنما يتناول العرض ، فازدياد هبوب الرياح أو قلة الأمطار أو تغير الطقس من جفاف إلى رطوبة ؛ أو من حرارة إلى اعتدال ، قد يؤثر فى الأمزجة بعض الشىء ؛ ولكن الأثر لا يتناول الطبع الثابت فى الأنفس بما يغير من طابع مدنية أصيل فى الجبلة . ذلك على العكس من البيئة المكتسبة ، فان زوال معتقد من المعتقدات ، أو انهيار دين من الأديان ، أو شريعة من الشرائع ، أو عادة من العادات ، وحلول غيرها محلها ، قد يلبس مدنية من المدنيات ثوباً جديداً ويدمغها بميسم له سمات خاصة . على أن هذه السمات قد تتكيف بما يلائم وحى البيئة الطبيعية ، غير أنه يكون مختلفاً عن السمات التى تتسم بها المدنية فى ظل معتقدات أو أديان أو شرائع انهارت وقامت أخرى على آثارها

على هذا نستطيع أن نقضى بأن انحلال المدنيات إنما يتناول بيئاتها المكتسبة ، لأن انحلال بيئاتها الطبيعية مستحيل تقريباً . أما السبب فى أن تظل شعوب أزماناً طويلة في ركود بعد انحلال طور من أطوارها المدنية ، فيرجع فى الغالب إلى انعدام المنبهات التى تبعث فى الأنفس حب المجد والعظمة وعلو الذكر والسيادة العالية . وهذه صفات إن انحلت بانحلال وجه من وجوه المدنية فان بعثها يكون رهن ظروف لا يمكن التكهن بها

التفكير المستقل

« أرثر شوبنهور » فيلسوف ألمانى ولد بمدينة دنتزج سنة ١٧٨٨ ، وتوفى سنة ١٨٦٠ . ولقد كتب مؤلفات أشهرها وأعمقها كتابه « العالم إرادة وفكر » ولقد نال هذا الفيلسوف شهرته فى مصر خاصة والشرق عامة بنظريته فى القوة ونظريته فى المرأة ، إذ نزع إلى أفكار وتأملات ألبسته فى الأذهان ثوباً من التطرف كانت له جدته وطرافته فى عصر كنا فيه مقيدين بقيود تخلصنا من أكثرها فى عصرنا هذا . غير أن لهذا الفيلسوف الفذ تأملات فى الحياة والفكر قلما عرفنا منها شيئاً . ومن أطرف ما خص بتأملات هذا الفيلسوف من نواحى الحياة ناحية الفكر المستقل ، أو التفكير المستقل الذى يكون خالصاً لك من التأثر بأفكار الغير ونظرياتهم . ونقتطف هنا لقراء الرسالة فقرات من مقاله فى هذا الموضوع وهو من أمتع ما كتب شوبنهور قال :

« كما أن أغنى خزائن الكتب وأحفلها بالمؤلفات لا تكون مفيدة — إذا لم ترتب — فائدة أخرى قليلة العدد حسنة الترتيب . كذلك الحال فى ما تحصل بالدرس من المعلومات ، فإنها مهما غزرت وكثرت لا تفيدك إن أنت لم تصقلها بفكرك الخاص فائدة معلومات قليلة تعهدتها بالصقل والتأمل الطويل فيها . لأنك بالتأليف بين معلوماتك ، ومقارنة كل الحقائق التى تقع لك مقارنة تفكير وعمق ، إنما تستطيع أن تهضم المعارف التى تحصل عليها فتصبح ملكاً لك وطوع قوتك . فإن الإنسان ينبغي له أن يدرس . ولكن ما يدرسه لا يصبح ملكاً خالصاً له إلا إذا فكر فيه وأطال التأمل له »

« إن الفرق بين الأثر الذى يحدثه التفكير الذاتى ، والأثر الذي تحدثه القراءة فى الفكر ، كبير جهد الكبر . ذلك بأن التفكير الذاتى وحده هو الذي له القدرة على أن يمد آفاق الفكر في نواح مختلفة تزيد فى قوة الابتكار في الذهن حتى يتسنى له أن يختار حراً طليقاً أى طريق يسلك ، وينظر فى أى جهة يختار »

« إن القراءة تفرض على الذهن أفكاراً ، هي بذاتها غريبة متنافرة بعيدة عن المتَّجه والمنْحى الأصيل لفكر القارئ ؛ فيكون مثلها كمثل الخاتم أن يطبع الشمع بنقوشه الخاصة . وإن لذلك على العقل من الأثر ما يعادل أثر الأشياء الخارجية على الأجسام، فيظل العقل مضطراً إلى التفكير في هذا ساعة وفي ذاك أخرى ، من غير أن يكون له رغبة في الاكباب على التفكير في كليهما أو القدرة على استيعابهما . أما إذا مضى العقل يفكر لذاته فإنه إنما ينساق إلى التفكير في أشياء تفرضها عليه السليقة وتدعوه إليها الفطرة . وإنَّ لي أن أقول إن كثرة القراءة تجرد العقل من مرونته . ومثلها في ذلك كمثل الثقل الثَّارز الشديد إذا وضع على فُوَّهة نبع فائض ، فإنه يثقله ويعيق جريانه . وعندي أن أقوى الوسائل التي تصد الفكر عن الوصول إلى الأفكار المبتكرة هي أن تلجأ إلى كتاب تقرأ فيه كلما أردت أن تنفق وقتاً أو تقطع مرحلة من فراغك . وهذا هو السبب في أنَّ كثيراً من حملة الشهادات العليا يكون عادة أقل ذكاء وأكثر بلادة مما هم إذا تركوا على الفطرة »

« كرستوفر مارلو » وكتاب فوست

هو من كبار كتاب الدرامة من الانجليز ، وهو من المتقدمين على شكسبير . ولد في سنة ١٥٦٣ ، أو سنة ١٥٦٤ ، ودرس في كمبردج ثم هبط لندن واستقر بها . وله كثير من المؤلفات أهمها كتاب « فوست » الذي نسج على منواله جوته الألماني . ولعل كثيراً من القراء لا يعرفون أن لهذا المؤلف الانجليزي خطر السبق في صياغة تلك الدرامة العظمى التي خلدت اسم جوته في التاريخ ، وغشت على اسم مارلو بسحابة من النسيان . وننقل هنا قطعاً مما كتب « مارلو » عسى أن ينتبه بعض الأدباء إلى دراسة ذلك الرأي الأدبي الجليل :

فوست في حجرة درسه :

فوست — والآن ، أمن المحتوم أن تحل على فوست اللعنة ، وألا يكون من الناجين ؟ ماالذي يحملني إذن على أن أفكر في الله والسماء ؟ ألا بعداً لمثل هذه التخيلات الدنية ، ومرحباً باليأس ، باليأس من الله . والثقة في بعل . لا تتقهقر ، بل تشدد يافوست وكن قويَّ الارادة . لماذا تضطرب ؟ ها هو ذا شيء يرن في أذني صداه . « أقلع عن هذا السحر وارجع إلى الله ثانية » ، أيرجع فوست إلى الله مرة أخرى ؟ إلى الله ! إنه لا يحبك . إن الله الذي ينبغي أن تخدم وتعبد ، إنما هو شهوتك الذاتية ، إذ فيها قد انغرس حب بعل وتأصل . وله سوف أشيد مذبحاً وكنيسة ، وأقرب له دم الأطفال فائراً حاراً

يدخل مَلَكان : مَلك الخير ، وملك الشر

ملك الخير — فوست ! أقلع عن هذه المهنة الساقطة .

فوست — الندم . الصلاة . التوبة . ماعندك منها ؟

ملك الخير — نعم : إنها الأسباب التي تأخذ بيدك إلى السماء .

ملك الشر — إنما الأوهام ، وثمرات الجنة والسِّ ، هي التي تخلِّط العقل ، وتجعله أجنح إلى التصديق بها ، والاعتقاد فيها

ملك الخير — فوست ! فكر في السماء ، وفي أشياء السَّماء .

ملك الشر — كلا يافوست ! بل فكِّر في العزة والمال .

يخرج الملكان

فوست — في المال ! لِمَ ذا ؟ ان ضيعة إمْبيدِن ستصبح ملكاً لي . ما الذي سيكون في مستطاع الله أن يفعل بي إذا ما أيَّدني مفستوفيليس وأخذ بيدي ؟ إنك ناج يافوست . لا تكثر من شكوكك . تعالَ . تعالَ يامفستوفيليس ، وقص على أخبارك السارة عن إبليس العظيم . إن الليل لم ينتصف بعد . تعال . تعال يا مفستوفيليس !

يدخل مفستوفيليس

والآن خبرني ، ما الذي يقوله سيدك إبليس ؟

مفستوفيليس — قال إني سأكون في خدمة يا فوست طوال حياته ، على أن يشتري خدمتي له بثمن هو روحه .

فوست — إن فوست قد جازف فعلاً بهذا وبذلك

مفستوفيليس — ولكن تذكر يافوست أنك لابد من أن تهب روحك مخلصاً ، وأن تكتب بالهبة صكاً يكون مداده من دمك ، فان هذا الضمان يطلبه إبليس العظيم . أما إذا رفضت فسوف أعود إلى جهنم .

فوست — تأنَّ يامفستوفيليس وخبرني : أي خير يستمد سيدك من روحي ؟

مفستوفيليس — يزيد بها ملكوته .

فوست — أهذا هو السبب فى أن يبلونا و يمتحننا كما يفعل ؟

مفستوفيليس — دعك من هذا وخبرنى هل أنال روحك لأ كون لك عبداً وأقف على خدمتك وأمنى عليك من العطايا أ كثر مما يصل إليه خيالك ؟

فوست — نعم . سأهبك إياها .

مفستوفيليس — إذن اطعن ذراعك بشجاعة ، وقيد روحك واعترف بأن من حق إبليس العظيم أن يستحوذ عليها يوماً مّا لتكون له . وهنالك ستكون عظيما كإبليس نفسه .

فوست — (يطعن ذراعه) مفستوفيليس ! حباً لك أقطع ذراعى ، وبدمى الصميم أسجل أن روحى أصبح ملكاً لإبليس العظيم ، للمَلَك الأكبر الهيمن على دار الظلام المستديم . أنظر ! ها هو ذا الدم الذى يقطر من ذراعى ، لعل فيه كفاء لغرَضى

مفستوفيليس — إنما هو لزام عليك أن تكتب به صك هبة

فوست — نعم . سأفعل . (ويكتب) غير أن دمى يَتَخثّر سريعاً ، ولا أقدر أن أكتب به أزيد مما كتبت

مفستوفيليس — سأحضر لك قبساً من نار يحلله ويجعله صالحاً (ويخرج)

فوست — أى شىء ينذر به تخثر دمى ووقوفه عن الاندفاق ؟ أينذر بأنه لا يريد أن يكون مداداً لكتابة هذا الصك ؟ لِمَ لا يعود إلى الجريان والتدفق حتى أقدر على تحرير الصك به ؟ « إن فوست يهبك روحه » : آه . عند هذا وقف دمى . ولكن لماذا لا تعقل يا فوست ؟ أليس روحك ملكاً لك ؟ إذن فاكتب ثانية — « إن فوست يهبك روحه »

(يدخل مفستوفيليس حاملاً جرات ملتهبة)

مفستوفيليس — فوست ! هذه نار . تقدم وضعْها على الدم

فوست — لقد أخذ الدم يصفو مرة أخرى . وإذن ينبغى لى أن أتم الأمرَ سريعاً (ويمضى فى الكتابة)

مفستوفيليس — (مبتعداً) لم أتق من حيلة إلاّ أخذت بها لأنال روحه

فوست — لقد انتهى الصك ، ووهب فوست روحه لإبليس العظيم . ولكن أى أثر ذاك الذى انطبع على ذراعى ؟ أين أطير ؟ أين أذهب ؟ أإلى الله ! إنه سوف يلقى بى فى جهنم ! لقد غشتنى حواسى . ليس من شىء على ذراعى . ذلك ظاهر . لقد كان هنالك شىء مكتوب على ذراعى . أين أطير ؟ أين أذهب ؟

مفستوفيليس — سأبحث عن شىء يهدئ روحه ويرضى عقله . (يبتعد ثم يخرج)

* * *

هذه قطعة مما كتب « مارلو » الأديب الإنجليزى . ولا شك عندى أن فى خياله وسياقه لشبهاً بما كتب « جوته » . وأن مقابلة أدبية بين ما كتب الأديب الإنجليزى والخالد الألمانى ، لموضماً للدرس ومجالاً لخلق صورة من الأدب حديثة

اسماعيل مظهر

باقة من الفلسفة الإسلامية

الفيلسوف ابن مسكويه

وكتابه تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق

للأستاذ محمد حسن ظاظا

« ولا ينبغي على أية حال أن نشكر له فقط محاولته إقامة نظام خلقي بعيد عن نزعات الدينيين وزهد المتصوفة ، بل ينبغي كذلك أن نسجل له ، في الرسم الذي وضعه ، الذوق السليم والثقافة الواسعة » (دي بور)

نعرض اليوم بإيجاز لفيلسوف إسلامي أخرج للناس دستوراً إيجابياً أخلاقياً طريفاً قوامه المنطق الصحيح والذوق السليم ، بحيث لو تبعوه في حياتهم لنالوا به السعادة الحق دنيا وأخرى . ونعني به الفيلسوف « أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه » صاحب « كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الاعراق » ، وهو الكتاب المعروف الذي نصح الإمام « محمد عبده » بتدريسه في الأزهر إلى جانب الإحياء للغزالي ، والذي قام المرحوم « على باشا رفاعة » بنشره وتبويبه ، والذي شرع الزعيم الخالد « سعد زغلول » في اختصاره والتعليق عليه دون أن يتمه

١ — عصره

عاش ابن مسكويه في العصر العباسي الثالث أي في العصر الذي يمتاز بشدة ضعف الخلافة العباسية وبقيام دويلات لا يعترف أكثرها للخليفة بغير السلطة الاسمية . ويهمنا من هذه الدويلات الدولة البويهية (٣٢٠—٤٤٧هـ) لأن ابن مسكويه عاش ومات في كنفها . وكانت هذه الدولة مظهراً قوياً للنشاط الفارسي الذي كان يرمي إلى الانفصال عن حكم العباسيين واستعادة مجد الفرس القديم . وكان ملوكها يحبون العلم والأدب ولا يستوزرون أو يستكتبون إلا عظماء الأدباء كالمهلبي وابن العميد وابن عباد وغيرهم . وكانت مجالسهم أبداً حافلة بكبار الشعراء والعلماء والفلاسفة ومن على شاكلتهم . لذلك لا عجب أن يمتاز هذا العصر بنضج العلم ، وتكوين المعاجم اللغوية ، واستقرار الانشاء على أسلوب مثالي . ولا عجب أن تنمو الفلسفة وتزهر ، وتستقر قواعد الطبيعيات والطب ، ويتسع خيال الشعراء ، ويظهر الشعر الفلسفي ، وينمو فن التاريخ والجغرافيا ، ويظهر النقد الأدبي ، وتؤلف القصص المجازية ، وتنتشر المكاتب حاوية لألوف المخطوطات[1] » أجل ولا عجب أن يظهر أمثال ابن سينا وابن مسكويه والهمذاني والخوارزمي ، والمتنبي وأبي فراس والأصفهاني والقالي والثعالبي والتوحيدي والصابي والشريف الرضي والتنوخي والطبري

على أن الحالة الخلقية لذلك العصر لم تك لتساير الحالة العلمية رقياً ونجاحاً . ويلوح ذلك في ميكيافيلية السياسة وعبث الكبراء والعظماء على السواء . وما بالك بحكم قاس عنيف يصلب ويمثل ويبتر ويستمع للوشايات والدناءات ، وتمتد يد بطشه وغدره إلى الوزراء والأمراء والسلاطين القريب منهم والبعيد ؟ وما بالك بعظماء وكبراء يقول « الثعالبي » في أحد مجالس لهوهم : « أنهم أخذوا بفن من الانخلاع عجيب ، وبطريق من الاسترسال رحيب ! ؟ » ويقول في مجلس آخر :

فكان الذي لولا الحياء أذعته ولا خير في عيش الفتى إن تسترا !

وفي مجلس ثالث :

« ولم نزل نشرب الراح إلى أن باح الصبح بسره ، وقام كل منا يتعثر في سكره[2] ! ؟ »

٢ — حياته

وعسير جداً أن نتلمس حياة ابن مسكويه فيما ترك من كتب أو فيما ذكر عنه الكتاب والمؤرخون . وكل ما قد استطعنا كشفه من المؤلفات والتراجم العديدة التي اطلعنا عليها هو أنه ولد حوالي عام ٣٣٠ هـ ومات في ٩ صفر سنة ٤٢١ هـ (١٦ فبراير سنة ١٠٣٠ م) ، وكان مولده « بالري » في أسرة فارسية[3]

(١) انظر تاريخ آداب اللغة العربية للمرحوم جورجي زيدان

(٢) ويروي صاحب شذرات الذهب أن الوزير المهلبي المتوفى سنة ٣٥٢هـ كان يجتمع عنده القضاة والفقهاء ليلتين في الأسبوع » وما فيهم إلا أبيض اللحية طويلها ، فاذا تكامل الأنس وطاب المجلس ولذ السماع وأخذ الطرب منهم مأخذه خلعوا ثوب الوقار ، ووضع في يد كل واحد منهم طاس من ذهب مملوء شراباً قطربلياً ، فيغمس لحيته فيه بل ينقعها حتى تشرب أكثره ، ثم يرش بعضهم بعضاً ويرقصون بأجمعهم ! — (ص٣٦٣ج٢) — (أما أقوال الثعالبي الآنفة فباليتيمة)

(٣) ومعنى مسكويه بالفارسية « رائحة المسك » كما أن معنى سيبويه « رائحة التفاح »

شريفة . وسرعان ما يترك والده أمه فيبقى هو راعياً لها حتى تتزوج بغير أبيه فيتركها وينزح إلى بغداد شاباً . وهناك يتصل بالوزير « المهلبي » حوالى سنة ٣٤٨ ﻫ ويدخل فى خدمته ككاتم لسره ، ويبقى إلى جانبه ينادمه ويسامره حتى عام ٣٥٢ ﻫ وهو عام وفاة الوزير ؛ ومن ثم يعود إلى الرى حيث يلتحق بخزانة الوزير العظيم « ابن العميد » وينال ثقته ومحبته وصداقته ، ويبقى معه حتى عام سنة ٣٦٠ ﻫ لينتقل بعد وفاته إلى خدمة ولده الوزير « أبى الفتح » . وقد بقى فى خدمة هذا الشاب حتى تنكر له الدهر ودخل الوزير السجن سنة ٣٦٦ ﻫ . ثم التحق بعدئذ بخدمة الملك الظافر « عضد الدولة » الذى استولى على بغداد وغدر بسلطانها عز الدولة أشنع غدر ، كما التحق بعده بخدمة صمصام الدولة وشرفها حتى عام ٣٧٩ ﻫ ، وهو العام الذى دخل فيه فى خدمة « بهاء الدولة » واختص به وعظم قدره عنده . وهكذا انتقل ابن مسكويه من خدمة وزير إلى سلطان حتى هرم وشعر بدنو الموت ، فانتقل كما يقول صاحب « روضات الجنان » إلى « أصبهان » حيث مات عام ٤٢١ ﻫ ، وحيث دفن فى « محلة خاضو » بقبر مشهور معروف ...

٣ — ثقافته وأخلاقياته

وقد تثقف ثقافة أدبية واسعة ، ونهل من مجالس العلم ومكتباته ، وعنى عناية خاصة بالأخلاق فدرس حكمها عند الفرس والعرب والهنود والروم ، وجمع ما راقه من هذه الحكم وأخرجه فى كتاب لا يزال مخطوطاً . هذا إلى أنه قرأ ما قد خلفه أرسطو وأفلاطون وجالينوس فى هذه الناحية ومحصه تمحيصاً . وكأنما دفعته تربيته العائلية السليمة ، وقلبه الكبير الحى ، وتجربته الأليمة فى مجالس السلاطين والوزراء ، إلى إنقاذ عصره والعصور التى تليه من السياسة الخرقاء والأخلاق المعتلة ، فراح يقرأ فى الأخلاق ويؤلف ، ويخرج للناس كتباً فيها من المنطق الصحيح ما يهديهم إلى « كالعلم الإنسانى » ، ويأخذ بيدهم إلى طريق الفضائل والعلوم لتتم لهم السعادة التى ينشدونها عبثاً فى تلك الخيرات الوهمية الخارجية ، خيرات « الكون والفساد » . وقد تجلت هذه النزعة فيما ترك من عهد عاهد فيه نفسه « أن يجاهدها ويتفقد أمرها ما استطاع ، فيعف وتشجع ويحكم ، ويقتصد فى مآرب بدنه حتى لا يحمله السرف على ما يضر جسمه أو يهتك مروءته ، ويحارب دواعى نفسه الذميمة حتى لا تقهره شهوة قبيحة ولا غضب فى غير موضعه ، ويستبصر فى اعتقاداته حتى لا يفوته بقدر طاقته شىء من العلوم والمعارف الصالحة ، ليصلح أولاً نفسه ويهذبها ويحصل له من هذه المجاهدة ثمرتها التى هى العدالة[1] ... الخ » .. أقول تجلت هذه النزعة فى ذلك العهد الطريف ، وتجلت كذلك فى كتابه التاريخى المعروف « تجارب الأمم وعواقب الهمم » وهو الكتاب الذى فضح فيه بجرأة وصراحة الكثير من رذائل السلاطين الذين خدم أولادهم وأحفادهم[2] كما تجلت على الخصوص فى كتابه العظيم الذى نحدثك عنه الآن :

٤ — كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق

ويعتبر هذا الكتاب أهم كتبه الأخلاقية وأطرفها وأكملها[3] ونظراً لأن ابن مسكويه كان أديباً شاعراً يحذق العربية والفارسية على السواء ، فإن أسلوبه فيه يمتاز بالسلاسة والرقة والعذوبة على غير عادة الفلاسفة الاسلاميين . وقد أعجب « الطوسى » به كل الاعجاب فترجمه إلى الفارسية وقال عنه :

بنفسى كتاب حاز كل فضيلة ... وصار لتكميل البرية ضامنا
مؤلفه قد أبرز الحق خالصاً ... بتأليفه من بعد ما كان كامنا
ووسمه باسم الطهارة قاضيا ... به حق معناه ولم يك مائنا
لقد بذل المجهود لله دره ... فما كان فى نصح الخلائق خائنا

والكتاب بعد هذا ست مقالات تدور كما قلنا حول الأخلاق الايجابية للانسان ، أى الأخلاق التى تليق به من حيث هو حيوان ناطق . ولذلك نراه يفرق فى المقالة الأولى بين النفس

---

(١) أنظر الارشاد لياقوت ، والمقابسات للسندوبى

(٢) وقد أعجب المستشرقون بذلك الكتاب وبدقته العلمية فطبعته لجنة جيب التذكارية ، ومجده الأستاذ « مرجليوث » فى مقدمة لكتابه الانجليزى (سقوط الخلافة العباسية) وفي كتابه « محاضرات فى مؤرخى العرب »

(٣) وله غير هذا الكتاب كتاب « جاويدان خرد » أى — العقل الأزلى — جمع فيه آداب العرب والفرس والهنود والروم وجعله مصداقاً لقوانين الخلقية التى ذكرها في « التهذيب » ، وله كذلك رسالة صغيرة فى السعادة كتبها لصديقه ابن العميد لا تخرج فى معناها عما فى التهذيب ، وكتاب ثالث يسمى « بالفوز الأصغر » ويعتبر أساساً لفلسفته الخلقية وإيمانه الدينى الفلسفى . وهذان الأخيران مطبوعان . أما الأول فما يزال مخطوطاً بمكاتب أوربا ولاسيما مكتبة باريس الأهلية

والجسد تفريقاً يثبت به روحانية الأولى وخلودها واحتياج قواها المختلفة إلى كمال خاص يتفق وما فيها من عقل مسيطر وفكر مقدس . وتراه يتناول فى الثانية خلق الانسان وقابليته للتغير والتهذيب ومدى أثر المعرفة فى العمل الخلقى ، ويتأدى من ذلك إلى « المنزلة الرفيعة » الجديرة بالانسان وماذا عسى أن يعوقنا عنها . أما المقالة الثالثة فلا تتناول غير موضوع السعادة بالبسط والمناقشة والعرض . وأما المقالة الرابعة فتحدد الأعمال الخلقية وتميزها عن غيرها وتنتهي بنا إلى المقالة الخامسة التى يبسط فيها أنواع المحبة بوجه عام ومحبة الصديق على الخصوص . وأخيراً تأتى المقالة السادسة لتبين لنا طريق حفظ الصحة على النفس ومعالجتها إذا مرضت

ويطول بنا المقام إذا أردنا أن نبين وجه الطرافة والجمال والاتساق فى هذه المقالات البعيدة فى منهجها عن منهج الدينيين — (كالبصرى فى كتاب أدب الدنيا والدين [1]) — ، والمعتمدة فى طريقتها على الاستقراء العلمى الدقيق الذي « يكاد » ينطق بالتطور ، والذى يرسل البصر فى الكون كله ويحدد للإنسان ماهيته وعمله فيه !

أما مصادره فى ذلك الكتاب فهى تلك الثقافة الخلقية الواسعة التى استمدها من الأمم الأربع ، والتى يلوح فيها القرآن متفقا مع أرسطو وإفلاطون وجالينوس وغيرهم من حكماء اليونان على الخصوص .

وإذا حاولنا أن نعقد مقارنة بين هذا الكتاب وبين كتاب أرسطو « إلى نيكوماخوس » : وجدنا ابن مسكويه يبز المعلم الأول أحيانا فى الوضوح والانسجام ، ويتفوق عليه في فصول خاصة كفصل الصداقة والصديق ، ويزيد على فصوله فصولا أخرى جوهرية كفصلى « دفع الأحزان » و « حفظ الصحة على النفس السليمة » ! !

لذلك ننصح القارىء العزيز بقراءة هذا الكتاب مرة ومرة ومرة ، ويجعله دستورا له فى حياته كإنسان يرنو إلى السعادة الحق دنيا وأخرى » ونختم هذا التعريف الموجز بقول ابن مسكويه لابن العميد :

لايعجبنك حسن القصر تنزله فضيلة الشمس ليست فى منازلها
لوزيدت الشمس فى أبراجها مائة مازاد ذلك شيئاً في فضائلها

أو بقوله لعميد الملك :

فانظر إلى سير القوم الذين مضوا والحظ كتابتهم من باطن الكتب
تجد تفاوتهم فى الفضل مختلفاً وإن تقاربت الأحوال فى النسب
هذا كتاج على رأس يعظمه وذاك كالشعر الجافى على الذنب [1] ! !

محمد حسن ظاظا

مدرس الفلسفة بشبرا الثانوية الأميرية

(١) انظر على الخصوص كلامه فى دفع الغم والحزن ووجوب عدم الخوف من الموت ، أو كلامه فى خلود النفس ، أو رأيه في اختيار الصديق والاحتفاظ به .

(١) انظر ارشاد الأديب لياقوت — ترجمة ابن مسكويه .

التصاوير والتماثيل
فى الحضارة الاسلامية

التصوير فى الكتب

لأستاذ جليل

التصوير فى (الحضارة الإسلامية) فى الحجر والكتاب — كثير . وإذا جدّ واستمر بحثُ النابشين وتنقيب المفتشين ظهرت نفائس مضمرات ، وبدت بدائع مكنونات ، وعرف الناس من آثار تلك المدنية المحمدية ما لم يكونوا قد عرفوه

وإن (كتاب الله) لم يذمم فى آية من آياته تحسيناً ولا تجميلاً ، ولم يحرّم تصويراً ولا تشكيلاً . وهل الخط أو التسطير إلا تدبيج وتصوير ؟ وهل الكتابة أصلها إلا صور ؟ وهذه قصور المروانية والعباسية — والقوم حماة الدين وخلفاء المسلمين — فيها الأشكال والتهاويل[١]

« من كل شىء يُرى فيها تماثيل[٢] »

وقد زار مسلم عربى منذ أشهر قصر هشام بن عبد الملك الذى كشفه المنقبون فى ناحية أريحاء من أعمال فلسطين[٣] فى السنة الماضية فشاهد صوراً ناتئة لوجوه أناس عرب فى بقايا الغرف والجدران

قلتُ يوما لدار قوم تفانوا   أين سكانك العزاز علينا
فأجابت : هنا أقاموا قليلا   ثم ساروا ، ولست أعلم أينا[٤]

وكان فى رِفاقته أحد معارفه فقال مستعجبا : ماهذا ؟ خليفة مسلمين ، وأمام دين ، وصور وتماثيل ! !

فقال المسلم العربى مفاكها مازحا : لم يكن (المحرّم) قد نجم ودُوّنت كتبه فى أيام هشام ...[١]

وجاء فى تاريخ بغداد لابن الخطيب فى وصف دار الخلافة :[٢]

« وفيها — أى دار الشجرة[٣] فى دار الخلافة — شجرة فى وسط بركة كبيرة مدورة ، فيها ماء صاف ، وللشجرة ثمانية عشر غصنا ، لكل غصن منها شاخات كثيرة[٤] ، عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة ، وأكثر قضبان الشجرة فضة ، وبعضها ذهب ، وهى تتمايل فى أوقات ، ولها ورق مختلف الألوان يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجر ، وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر . وفى جانب الدار يمنة البركة تماثيل خمسة عشر فارسا على خمسة عشر فرسا قد ألبسوا الديباج وغيره ، وفى أيديهم[٥] مطارد على رماح يدورون على خط واحد فى (الناورد)[٦] خببا وتقريباً[٧] فيظن أن كل واحد إلى صاحبه قاصد ، وفى الجانب الأيسر مثل ذلك »

وذكر ابن أبى الحديد فى (شرح النهج) الكبير : « إنه كان على سيف عضد الدولة بن بويه وأبيه ركن الدولة صورة على (رضى الله عنه) ، وكان على سيف ألب أرسلان وابنه ملكشاه صورته »

وروى صاحب (النفح) عن بدر الدين بن الحسن الأربلى المتطبب وصف تصاوير فى حمام رآه فى بغداد فى (دار الملك شرف

---

(١) التهاويل : زينة التصاوير والنقوش والوشى ، واحدها تهويل . والتهاويل الألوان المختلفة من الأصفر والأحمر . (اللسان) . هولت المرأة بحليها وزينتها إذا راعت الناظر إليها (الفائق)

(٢) عبدة بن الطبيب ، وصدر البيت (فيها الدجاج وفيها الأسد مخدرة) قال الأنبارى : فيها الأسد مصورة . ويروى فيها الذئاب ، وبعد البيت :
فى كعبة شادها بان وزينها   فيها ذبال يضىء الليل مفتول

(٣) فلسطين من أجناد الشام فى النهاية : « الشام خمسة أجناد : فلسطين والأردن ، ودمشق ، وحمص ، وقنسرين ، كل واحد منها كان يسمى جنداً أى المقيمين بها من المسلمين المقاتلين » والشام من غزة إلى الفرات طولا . وقد مزق المغيرون هذا الاقليم العربى الصغير أى تمزيق ! مزق الله ملكهم !

(٤) تفانى القوم أفنى بعضهم بعضاً . ومراده فنوا (العزاز) من جمع العزيز فى (المطمح) للفتح : وللوزير جهور بن محمد بن جهور وقد وقف على قصور الأمويين (فى الأندلس) وقد تقوضت ابنيتها ، وعوضت من أنيسها بالوحوش أفنيتها : قلت يوماً إلخ

(١) استخلف هشام — كما قال الطبرى — سنة (١٠٥) وتوفى سنة (١٢٥)

(٢) أبو نصر خواشاذة خازن عضد الدولة قال : طفت دار الخلافة عامرها وخرابها وحريمها وما يجاورها فكان ذلك مثل مدينة شيراز (تاريخ بغداد)

(٣) كانت شجرة من الفضة وزنها (٥٠٠) ألف درهم ، عليها أطيار مصوغة من الفضة تصفر بحركات قد جعلت لها (تاريخ بغداد)

(٤) شاخات : رفارف

(٥) المطرد من الرمح ما بين الجبة إلى المالية ، والجبة من السنان ما دخل فيه الرمح

(٦) ناورد : لفظ فارسى وهو فى لغتهم بمعنى القتال ، وجولان الخيل فى الميدان ، وفى اللغة الجديدة ناورد جنك ، وجولان اسب . وبالمعنى الثانى استعمله المولدون وغيرهم (شفاء الغليل)

(٧) الخبب : السرعة وقيل هو مثل الرمل ، ورمل هرول ، والتقريب المدودون الاسراع ، قرب الفرس إذا رفع يديه معاً ووضعهما معاً

الدين هرون بن أمازير الصاحب شمس الدين محمد الجويني) تُدهش مبصريها ، وتعجز واصفيها ، وقد يجد الفتيان الشُطّار والمتفننون من رجال الليل مايشبهها اليوم في بيوت في (باريس) .. وربما لايجدون . وهي الحضارة ، وهو التفنن فيها ... وهذا ماتسهل روايته من وصف الأربلي :

« وأبصرت مياهه وشبابيكه وأنابيبه المتخذ بعضها من فضة مطلية بالذهب وغير مطلية ، وبعضها على هيئة طائر إذا خرج منها الماء صوت بأصوات طيبة . ثم أراني — يعني سائس الحمام — نحو عشر خلوات ، كل خلوة أحسن من صنعة أختها . ثم انتهى بي إلى خلوة عليها باب مقفل بقفل حديد ففتحه ، ودخل بي إلى دهليز طويل ، كله مرخم بالرخام الأبيض الساذج ، وفي صدر الدهليز خلوة مربعة ، ورأيت من العجائب في هذه الخلوة أن حيطانها الأربعة مصقولة صقالاً لا فرق بينه وبين صقال المرآة ، يرى الإنسان سائر بشرته في أيّ حائط شاء منها . ورأيت أرضها مصورة بفصوص حمر وصفر وخضر ، ومذهبة ؛ وكلها متخذة من بلور مصبوغ ، بعضه أصفر ، وبعضه أحمر ؛ فأما الأخضر فيقال : إنه حجارة تأتي من الروم ، وأما الذهب فزجاج ملبس بالذهب ؛ وتلك الصور في غاية الحسن والجمال على هيئات مختلفة في اللون وغيره . وكل محاسن الصور الجميلة مصورة في الحائط »

* * *

وهذا خبر عن مصنِّف مصوِّر في العلم قد أرصن تأليفه وتصويره أيما إرصان ، وكأنه آخر ماقيل في أمريكة وأوربة في توضيح الكتب بالصور . وإني لأرويه مؤيداً ومسانداً المقالة الجديدة المفيدة : (التصوير التوضيحي في المخطوطات الإسلامية) التي أطرفها الناس في (الرسالة) الغراء الأديب المتفنن الدكتور أحمد موسى ، والتي زيّنت لي تصوير هذه السطور :

قال ابن أبي أصيبعة في كتابه : (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) في سيرة رشيد الدين بن الصوري[1] : « ولرشيد الدين ابن الصوري من الكتب كتاب الأدوية المفردة . وهذا الكتاب بدأ بعمله في أيام الملك المعظم ، وجعله باسمه واستقصى فيه ذكر الأدوية المفردة ، وذكر أيضاً أدوية اطلع على معرفتها ومنافعها ، لم يذكرها المتقدمون . وكان يستصحب مصوِّراً ، ومعه الأصباغ والليق[2] على اختلافها وتنوعها ، فكان يتوجه رشيد الدين ابن الصوري إلى المواضع التي بها النبات مثل جبل لبنان وغيره من المواضع التي اختص كل منها بشيء من النبات ، فيشاهد النبات ويحققه ، ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله ، ويصور بحسبها ويجتهد في محاكاتها . ثم إنه سلك أيضاً في تصوير النبات مسلكاً مفيداً ، وذلك أنه كان يري النبات للمصور في إبّان نباته وطراوته فيصوره ، ثم يريه إياه وقت كماله وظهور بزره فيصوره تلو ذلك ، ثم يريه إياه وقت ذُويّه ويبسه فيصوره ، فيكون الدواء الواحد يشاهده الناظر إليه في الكتاب وهو على أنحاء ما يمكن أن يراه به في الأرض ، فيكون تحقيقه له أتمّ ومعرفته له أبين »

* * *

إنّ التصوير غير الشركي وغير المهري لَمُباح . وإن التصاوير والتماثيل إنما هي محاسين وتزايين « قلْ من حرَّم زينةَ الله » ، وإذا كان ذلك للهدْي والتذكير والتعليم والتثقيف فقل بالوجوب

القارئ

(١) مولده في سنة (٥٧٣) وتوفي سنة (٦٣٩) خدم بصناعة الطب الملك العادل أبا بكر بن أيوب ، ثم خدم بعده لولده الملك المعظم عيسى بن أبي بكر ، وشهد معه مصافات عدة مع الفرنج لما نازلوا ثغر دمياط ، ولم يزل معه إلى أن توفي وملك بعده الملك الناصر داود فأجراه على جامكيته — جرايته — وفوض إليه رياسة الطب الخ (عيون الأنباء)

(٢) الليق — بالكسر — شيء أسود يجعل في الكحل . قال الزمخشري ، وهو بعض أخلاطه (التاج)

الرافعي

بعـــد عام

للأستاذ محمد سعيد العريان

في صباح الاثنين ١٠ مايو سنة ١٩٣٧ نُعى المرحوم مصطفى صادق الرافعي إلى أدباء العربية ، فجأة وبغير إنذار ؛ فسكت القارئ وتلفت السامع ، وتغشى السامرين من أهل الأدب سكونٌ ووحشة وانقباض

وطالت فترة الصمت ، والسامرون في غشيتهم لا ينطقون ، إلا نظرات شاردة ، وخواطر تصطرع وتموج ، وذكريات تنبعث محرقة لاذعة ، تذكّر بما كان وتنبّه إلى ما ينبغي أن يكون ...

وهمس هامس : « يرحمه الله ! لقد كان رجلاً للدين وللعربية هيهات أن تجد بديلا منه أو ينقضي زمان من عمر التاريخ ! »

ثم عاد الصمت ، وعاد السكون ، إلا النظرات الشاردة ، والخواطر المائجة ، والذكريات والأماني ...

وهتف هاتف في جلال الصمت وفي وحشة السكون : « إن للفقيد لحقاً على اللغة ، وحقاً على المسلمين ، لا يجزئ فيهما أن تقول : يرحمه الله ! »

وتدانت الرءوس ، وتجاوبت النظرات ، وانثالت الأفكار ، وتزاحمت الأماني ؛ ثم لم يلبث أن عاد الصمت ، وعم السكون !

ثم عاد القارئ يقرأ ، وأنصت السامع يسمع ، وانتحي اثنان يداولان الرأي في شأن من شئون الأدب ، وتماسك اثنان يفاضلان بين الجديد والقديم ؛ وغامت في سماء النـدى غمْغمة ، وانعقدت على رءوس السامرين عجاجة ، وضج المكان كسالف عهده ، واختلطت الأصوات فما يبين صوت من صوت ، واشتغل كل بما هو فيه ...

وصاح صائح في نبرة اليائس المحزون : « ويحكم يابني عدنان! لقد شغلتكم دنياكم عن الوفاء ، وفتنتكم الحياة عن ذكر الموت ! لقد كان هنا إنسان منكم ، وإنه لأرفعكم صوتاً ، وأبلغكم بياناً ، وأبعدكم غاية ومدى ؛ فهلا ذكره منكم إنسان ... »

ورفت العيون ، واختلجت الشفاه ، واهتزت الرءوس ، وانبعث صوت السامرين يحوقل ويسترجع في همس خافت ، وقال قائلهم : « يرحمه الله ! لقد كان ... ! »

***

يرحمه الله ! يرحمه الله !

هذا كل وفاء العربية للراحلين من أدبائهـا : يتهاوَوْن من الذروة إلى بطن الوادي فرداً فردا، وإخوانهم على الطريق ينظرون إليهم في بلادة وصمت ؛ لا تشيّعهم منهم قدم ، ولا تتبعهم عين باكية ، ولا يذكرهم منهم إنسان !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

هذا كل تراث الأديب في العربية لبنيه وأهله ، هو خصْمهم من الطعام والشراب والثياب وتكاليف الحياة ، وفيه العِـوَض كلُّ العِـوض من عائلهم الذي طواه الموت بين الصفائح والتراب !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

هذا هو الخلود الذي ضمنتْه العربية لمن يموت من أدبائها وهو في ميدان الجهاد يكافح الفقر والمرض وشئون العيال ، ويبذل نفسه لينشىء أدباً يسمو بضمير الأمة ، ويشرع لها طريقاً تسير فيه إلى عظمة الخلد وسعادة الأبدية ومجد التاريخ !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

هذا كل ما تستطيع العربية من كلمات العزاء، وكل ما يملكه أدباء العربية من أساليب المواساة، وكل ما يقدر عليه ناطق بين ، وصديقٌ يتحبّب ، وحبيبٌ يشعر أن عليه حقّـا لمن يموت من أهل البيان !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

صوت ماله صدى ! وتراث ليس فيه غـناء ، وطعام لا يهنأ ولا يمرأ ، وخلود لا يدوم إلى غد ، وعزاء لا يجفف دمعة ولا يخفف لوعة ولا ينفذ إلى قلب طفل سلبه الموتُ أباه وسعادة دنياه !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

... خلُّوا عنـكم أيها الأدباء الـكبار ، وأيها الشعراء العظام ، وأيها الخطباء المصاقع ؛ خلُّوا عنـكم عناءها ، سيرحمه الله وإن لم تقولوها ؛ سيرحمه بما جاهد ، وبما بذل ، وبما عانى ، وبما تحمّل من جهد التضحية ومشقة الحرمان ؛ وسيرحمه ثانيةً بما لقي من

العقوق وكان بَرًّا ، وبما لقى من الغدر وكان وفيًّا ، وبما قوبل من إنكار الجميل وكان من أهل الجميل ؛ وسيرحمه بدموع هؤلاء اليتامى ، وبأنات هؤلاء الأيامى ، وبدعوات كثير من أهل الإيمان وَفَوْا له ماوسعهم الوفاء !

* * *

مضى عام منذ مات الرافعى ، فهل سأل أحد : كم خلّف وكم ترك ؟

سأحدثكم وإن لم تطلبوها إلىّ ... ...

أما المال فلا سبد ولا لبد ، وأما الأدب فثروة للرواة ومحزنة للولد ، وأما العيال ... واحزنا لو كان يجدى الحزن :

هذا « سامى » كبيرهم فى بعثة الجامعة بأمريكا ما زال بينه وبين الغاية خطوة ؛ وهذه « سعدية » الصغيرة تلثغ فى الراء وتضم شفتيها على الباء ؛ وبينهما ثمانية يقوم على شئونهم « محمد » الله لهذا الشاب العائل ؛ لم يكد ينعم بقرب الأهل بعد فراق سبع سنين في فرنسا لدراسة الطب ، حتى كان عليه عبء الأسرة كله ، فكأنما كان هو فى تلك الغربة وديعة إلى أجل ، وذخيرة إلى ميعاد ؛ وعاجلته تبعات الحياة وما زال فى باكر الشباب !

والحكومة .. ؟ خلِّى عنك ياوزارة الحقانية ، خلِّى عنك يا وزارة المعارف ، خلّ عنك يا وزير المالية ... الله أكرم !

لقد تصرّم من عمر الرافعى فى خدمة الحكومة ثمان وثلاثون سنة ، ومات ولم يجاوز السابعة والخمسين ؛ فأى مكافأة وأى جزاء ؟ بضعة عشر جنيهاً فى كل شهر ، تأبى الحكومة إلا أن يكون لها فيها ميراث ...

إنه الرافعى ، إنه الرجل الذى كان اسمه فى مقدمة الأسماء المصرية التى تؤكد زعامة مصر للأمم العربية ، وترفع اسمها وتبني مجدها المتاز ، وتسن طرائقها التى يحتذيها الأدباء فى العالم العربي . إنه هو ... ولكنها هى مصر ... !

وكتب رئيس الرافعى فى وزارة الحقانية كتاباً غداة منعاه إلى وزارة المالية ، يصف لها من حال الرافعى ومن خبره ، ويقترح ... يقترح أن تنزل الحكومة عن نصيبها من الميراث فى (معاش) الرافعى لأولاده ... ولكن وزير المالية يأبى ... ولكن الله أكرم ... !

« يرحمه الله ! يرحمه الله ! »

ذلك كان جواب الحكومة المصرية ... !

* * *

لقد مضى عام ، فهل تذاكر أدباء العربية فيما عليهم للرافعى ؟ وهل ذكرت الأمة والحكومة ماعليهما من واجب الوفاء للرافعى ؟

لقد تداعى الأدباء إلى ميعاد يحتفلون فيه بتأبين الرافعى ، وجاء الميعاد وتخاذل المدعوُّ والداعى ؛ وترادف ميعاد وميعاد وميعاد ، ومضى عام ، وعلى مكتب كل أديب دعوةٌ لتأبين الرافعى ، وفي ذيل كل دعوة جواب المدعو بخطه أو بلسانه : « يرحمه الله ! يرحمه الله ! »

وعند دكاكين الورّاقين أسئلة عن كتب الرافعى ، ولكن السوق ليس فيه كتاب من كتب الرافعى ؛ وقال قائل : « أعيدوا طبع الديوان ، أعيدوا طبع إعجاز القرآن ، أعيدوا .. أعيدوا .. »

وقال الطابع والناشر والورّاق : « يرحمه الله ! يرحمه الله ! »

وعلى مكتب الرافعى كتبٌ لم تطبع ، وقصاصات لم ترتَّب ، وثمرة عقلٍ خلاّق كان يجهد جهده ليضيف كل يوم إلى العربية ثروة جديدة وفكراً جديداً . وقلنا : « يا وزارة المعارف ، هذه كتب إن لم تخرج للناس سبق إليها العثّ والفيران فيضيع على العربية كنز مالها منه عوض ! » ولكن وزارة المعارف فى أحلامها الهنيئة لا تسمع ولا تجيب ، إلا همساً فى أمثال أنفاس النائم تردّد قول الناس : « يرحمه الله ! يرحمه الله ! »

* * *

وفى الأمة مع ذلك أدباء ، وفى الأمة كتاب وشعراء ، وفى الأمة ناشئة غافلة ما تزال ترجو الخلود فى الأدب ...

وفى الأمة عقول ناضجة فى أجسام مهزولة من الفقر والجوع ؛ وفى الأمة رءوس ممتلئة على أنامىّ تضطرب كل مضطرَب للبحث عن القوت

وفى الأمة ... وفى الأمة رءوس فارغة على أجسام تكاد تتمزق شبعاً ورياً ؛ وفى الأمة ... وفى الأمة قلوب خاوية فى أناسىّ تتمرغ بين وسائد الدمقس وحشايا الحرير ...

وفى الأمة ... وفى الأمة مع ذلك من يتساءل مدهوشاً : « لماذا ... لماذا لا نجد فى الأمة العربية شعراء وكتاباً ومنشئين كبعض من نقرأ لهم من أدباء الغربيين ... ؟ »

يرحمك الله يا مصطفى ... ! بل يرحمك الله أيتها الأمة !

« شبرا »

محمد سعيد العريان

مصطفى صادق الرافعي

بمناسبة مرور سنة على وفاته

للأستاذ فليكس فارس

سئل الرافعي ماذا يريد أن يقال عنه بعد الموت ، فكتب جوابه قبل وفاته بشهرين صفحة بارزة بين خالدات آثاره : ومما جاء فيها :

(وبعد الموت يقول الناس أقوال ضمائرهم لا أقوال ألسنتهم إذ تنقطع مادة العداوة بذهاب من كان عدواً وتخلص معاني الصداقة بفقد الصديق ويرتفع الحسد بموت المحسود وتبطل المجاملة باختفاء من يجاملونه .)

ثم أورد بعض الكلمات التي اعتقد أنها ستقال عنه : كمعجزة الأدب وحجة العرب ومؤيد الدين الخ .. ليستطرد قائلا :

(أما أنا ، فاذا ترى روحي وهي في الغمام وقد أصبح الشيء عندها لايسمى شيئاً إنها سترى هذه الأقوال كلها فارغة من المعنى اللغوي الذي تدل عليه لاتفهم منها شيئاً إلا معنى واحداً هو حركة نفس القائل وخفة ضميره ، فشعور القلب الثائر هو وحده اللغة المفهومة بين الحي والميت) ...

***

أي أخي مصطفى ، إذا كنت أصبت باستجلاء نفسك وهي لم تزل أسيرة جوارحك ، فانك خدعت باطلاقك حسن ظنك على الناس أجمعين ، لأنك اتخذت تجردك مقياسا فحسبت أن خصومك سينصفونك بعد موتك كما أنصفت أنت من جادلتهم وجادلوك وأردت أن تفهمهم وما أرادوا أن يفهموك .

لقد كانت تنقطع فيك مادة العداوة بذهاب من كان عدواً ، لأن عداءك كان ناشئاً عن اعتقادك بتفوق أسلوبك وروعة مذهبك ، فما ناضلت حين ناضلت إلا عن سلسلة ثقافة تواصلت حلقاتها منذ نشأ الأدب العربي الصميم حتى انتهى إلى قلمك . أما هم فقد كان عداؤهم ضغينة لأنهم أحبوا أنفسهم واستغرقوا في أنانيتهم ، لذلك قضت عليهم طبيعة نفورهم منك بأن ينتابوك وأنت مغيّب في التراب .

إن الحسد لا يرتفع بموت المحسود كما كنت ترى ، لأن مادة الحسد مستمدة من صغار الحاسد فلا تزول إلا بزواله .

إنني لأرى روحك الآن تستشف هذه الحقيقة وهي من عيوب التراب لايتملص منها في الحياة إلا الأرواح التي لم تطمع من الدنيا إلا بما تتزوده منها للآخرة .

وإنني لأراك لاتأبه لما يقال عن بيانك وأسلوبك ولهجتك فانها أدوار بلاغ لالهامك ، وإلهامك وحده هو ما يقوم في نفسك الآن ، فأنا أشعر بأن الكلمة التي أكتبها لذكراك لن تجتاز الحد القائم بين الظاهر والخفي ، إنها لكلمة تزحف زحفاً في عالم التلمس والاستقراء موجة ذاهبة في خضم الآراء المتضاربة تقذف بالأحياء إلى طلب الرقي وهم متجهون إلى القبور .

أما الكلمة المجنحة التي تبلغ روحك أيها الأخ الحبيب ، الكلمة المأخوذة (من اللغة التي يتفاهم بها الأحياء والأموات) فإن روحي قد هتفت بها بالصرخة الصماء وبالدمعة العمياء منذ بلغها رجوعك إلى مصدرك ، ولما تزل تهتف بها كلما ارتادت أجواء الشعور والتفكير

أفما قلت إن روحك ستبحث من وراء الحجاب عن الثمرة السماوية المسماة القلب في الناس وعن كل كلمة دعاء وكلمة ترحم وكلمة خير . وإن ذلك ما تذوقه الروح من حلاوة هذه الثمرة

لقد عرفت يا مصطفى ، وما أقل من يعرفون هذا في الحياة ، قيمة عطف الروح على الروح في هذه الدنيا وبخاصة قيمة هذا العطف يتراءى على ضفاف نهر الموت مناجياً الأحباب الراحلين

إذا كان في كل عطف من حي إلى حي نشوة وقوة وأمل ، فلا ريب في أن كل خفقة شوق من محب إلى ميت عزيز تحمل إليه الدعاء والترحم والخير

هنالك لا تغني نفس عن نفس شيئاً ، ولكن عطف الأرواح الأسيرات على الروح المنطلقة في العالم الخفي ليس إلا مما كسبت هذه الروح من إخلاصها فحق لها أن تجزى بما سعت وبما اكتسبت

***

كنت أعتقد أن الرافعي كاتب له شأنه في محيطه الخاص ، وأنه رجل بيان فخم ، ولكنه يدور ضمن حلقة ضيقة من العلم ، فكنت

مسيئاً إلى نفسي بهذه الفكرة لأنني ما بنيتها إلا على مقال أو بعض مقال وقع نظري عليه منذ سنوات عديدة في لبنان

ومنذ سنتين أو أكثر شغفت بمطالعة رسالة الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات لعبقرية هذا المفكر المجدد وحسن اختياره . وفي أحد أعداد الرسالة قرأت (رؤيا في السماء) للرافعي فكنت كلما قرأت سطراً بعد سطر أحسبني أشهد أحلاماً غائرة في سريرتي تنقلب أشباحها حقائق ماثلة لعياني ، وما أتيت على آخر المقال حتى هتفت قائلا : هذا هو مثال الأدب العربي الذي يمكننا أن نواجه به الآداب العالمية في نهضتنا . واندفعت أترجم (رؤيا في السماء) إلى اللغة الفرنسية ثم نشرتها مقدماً بها إلى أدباء الغرب حجة على من يدعى منهم أن الأدب العربي ليس إلا عالة على آدابهم

ومضى شهر على ظهور الترجمة في المجلة الأسبوعية الفرنسية في القاهرة ، فإذا برجل مهيب الطلعة يدخل عليّ ويتقدم مصافحاً مقدماً نفسه (مصطفى صادق الرافعي) فبادرت إلى معانقته وبدأت أتكلم مرحباً ، فإذا به يتفرس فيّ ويبدى إشارات من لم يفهم ما أقول ، وكان يرافق الرافعي الأستاذ كامل محمود حبيب فأشار إليّ بأن نابغتنا أصم وعليّ أن أخاطبه بالقلم

ومنذ ذلك اليوم لم يحضر الرافعي مرة إلى الاسكندرية دون أن يشرفني بزيارته ، وقد كان هو الساعي إلى تعريف الأستاذ الزيات والأستاذ حافظ عامر بك بي فتسنى لي أن أجتمع مراراً بثلاثة أفذاذ لكل منهم لمعان في آفاق النهضة الأخلاقية الأدبية وقد كلفوني باجماع الرأي ترجمة كتاب زرادشت للفيلسوف الألماني نيتشه

وفي أواخر ابريل سنة ١٩٣٧ جاءني مصطفى في الاسكندرية وهو يتأبط وحي القلم هدية إلى تحمل كلة من خطه أحتفظ بها بين ذخائر من فقدت من أهلي

وأمرنا اليوم معاً نتحدث كعادتنا ، أكتب فيتكلم ، ومما قاله لي أن إحدى الصحف كلفته كتابة مقال عنوانه المرحوم (مصطفى الرافعي بقلم مصطفى الرافعي) على نحو ما كتب (ويلز) وأن الفكرة راقت له ولكنه يريد أن أتولى أنا كتابة هذا المقال فقبلت مشترطاً أن أكون وضميره المكين المستنطقين إذا هو أصر على إقامتي حكماً بينه وبين الحياة ، فضحك وقال : ما اخترتك لهذه المهمة إلا لعلمي بأن المحبة أشد صرامة في حكمها من العداء

وما كان الرافعي مخدوعاً بما أضمره نحوه من إخلاص مجرد وقد تحقق أنني قدرت روحه قبل أن أتعرف إلى شخصه

ولما حان ميعاد انصرافه شيعته وأنا أحس بغصة شعرت بمثلها في كلمة الوداع التي ألقاها إليّ وهو يزودني بآخر نظرة لم أزل أراها أمامي كآخر شرارة من أصفى الأنوار التي شاهدتها في حياتي

وفي أول مايو سنة ١٩٣٧ أخبرني صديق أن أحد أصحابه استعاد السمع وهو مصاب بالصمم بوضع صفحة من الجلاتين (وهو الجلاتين المستعمل لمردات السيارات) بين أسنانه وطيها قليلا حتى تنحدب بين الفم والصدر فيؤثر عليها اهتزاز الصوت تأثيره على ساعة الحاكي فيصل إلى طبلة الأذن الداخلية بواسطة أعصاب الفكين

بادرت بالكتابة إلى مصطفى وبت أنتظر الجواب بذاهب الصبر فوردني منه بعد يومين الكتاب الآتي ، وهو مؤرخ في ٢ مايو أي قبل وفاته بأيام قليلة :

عزيزي الأستاذ فليكس فارس

سرني كتابك لأنه كتابك ، وقد جربت الفائدة فاذا هي قريب مما وصفتم ، غير أن الصوت يبلغ إلى الدماغ مصمتاً غير مبين كأنه لا حروف فيه ، وتلك هي العلة من أولها . وسأزاول المران على هذه الطريقة ، فلعل لها عاقبة إن شاء الله ، ولعل فائدتها تأتي بالتدريج !

لماذا تفتر في ترجمة نيتشة فأصبحت تظهر وتختفي ...

أما اعترافات فتى المصر فهي جيدة جداً ، ولو كان مؤلفها هو المترجم لما استطاع أكثر مما استطاع المترجم الشيخ فليكس فارس

رسالتك وترجمة رؤيا في السماء قرأها الأستاذ الفرنسي فأعجب بهما ، وقد سلمت الأصول للدكتور محمد ليرسلها إلى أستاذ الآداب في جامعة ليون

وحفظك الله للمخلص

مصطفى صادق الرافعي

طنطا في ٢ مايو سنة ١٩٣٧

مرت السنة على وفاة الرافعي وهو — بعد أن وفى قسط جهاده وانسحب من معاكس الاظلال في هذه الحياة — لم يعد إلا صورة

حفرها الحب فى قلوب أهله وأصحابه ، وإلا كتباً ورسائل وقصائد تتداولها الأفكار في العالم العربى ، فإن أنا أتناول الكلام عنه الآن فلا أواجه الصورة المحفورة منه فى أعماق القلب لأن النظر إليها يخرس بيانى ولا يستنطق سريرتى إلا الكلمة المجنحة الصامتة التى أناجيه بها ، بل أواجه منه التراث الأدبى الفخم الذى أقام به لنفسه خلوداً آخر قد لا يهتم له الآن بقدر ما نهتم له نحن لأنه يشق لنا أفقاً واسعاً من آفاق الضحى فى النهضة العربية الحديثة

لقد كان الرافعى فى الطليعة من قادة الرأى والبيان ، اختطت له فطرته العربية وثقافته العربية منهجاً لم يقتحم صعابه إلا النزر اليسير من حملة الأقلام فى بلاد العرب

وقد ظهر هذا العبقرى بشخصيته الفذة فى حقبة من الزمن كان الأديب فيها متلمذاً لمدرستين : إحداهما مدرسة الأدب العربى تحاول إنهاض اللغة من كبوتها وقد طالت قروناً فتحصر كل همها فى تنميق العبارات وتصحيح المفردات والتملص من الأسلوب السقيم الذى طغت فيه على البيان أسجاع المتحزلقين واجتاحته الألفاظ العامية . والأخرى مدرسة الأدب الدخيل تغترف من معين الغرب أوشالا تريقها بياناً مقلقلاً لا يمت إلى العربية الفصحى بسبب ، وليس فيه من الألفاظ الصحيحة ومتانة الأسلوب ما يقوى على اقتناص روائع التفكير من بيان الأجانب

كان الرافعى فى تلك الفترة يخطو خطواته الأولى بعيداً عن المدرسة الثانية متصلا بالمدرسة الأولى بجامع اختيار الألفاظ وتنميق الأسلوب غير أنه ند عن هذه المدرسة بإرسال نظراته إلى أغوار الأدب العربى القديم غير واقف عند لامعات الأصداف الطافية على سطوحه

إن للآداب أنواعاً من الجمال لا يمكن للنفوس على اختلاف أذواقها أن تتفق على ترجيح إحداها ، وليس للمتأدب المنصف ، إذا هو أدرك هذه الحقيقة ، أن يتعصب لذوقه فيضع فى ميزانه عبقريات الأدباء بالمقابلة والترجيح

لئن سر العبقرى الحقيق أن تتناول الأقلام تحليل تفكيره وخياله وديباجته بعرضها على الفن ، (بالرغم من أن الفن نفسه ليس ناموساً ولا قاعدة ولا مقياساً) ، فإن هذا العبقرى ليأنف أن يحشره كاتب فى كفة ميزان ليضع فى الكفة الأخرى عبقرياً آخر يطمح إلى الحط من قيمته وقدره

ما ضر الكاتب المتحزب لو قال إن مثله الأعلى من العبقريين يتدفق إنسانية وشعوراً دون أن ينكر هذه الصفات على أنداده بل على كل ذى قلب شاعر ورأس مفكر فى هذه البلاد ...

والله ، إننى لا أدرى أية نسمة مشئومة تهب على هذا الشرق العربى مقحمة الحزبية ميدان الأدب نفسه ، وما الأدب الرفيع إلا النسب الشريف والرابطة المكينة بين النفوس الحساسة الحائرة فى هذه الحياة تتلمس حقيقة القلب وتتطلع إلى أنوار الفكر

أفلا يكفى الأدباء ما يعانونه من مجتمع لما يزل فى بدء تكوينه وتكاد كتلته الكبرى تتبرأ من بيانهم ، حتى ليقوم التحاسد بينهم فيتنا كرون ، وعهدنا بالأدب دولة يتساند جنودها على المرتقى ولا يستغنى حامل أكبر مشعل بينهم عن أنوار أصغر الشاعل المتألقة حوله فى اعتكار الظلمات

إن دولة الأدب ديمقراطية فى روحها ، بل اشتراكية ، بل إباحية بأعمق معاني الكلمة ، لأن لا حطام فيها لمالك ولا تخوم لحد شخصية تجاه شخصية أخرى ، وما الفكر إلا نسمة لا نعرف لها مهباً ولا ندرك لها مستقراً

وعندى أن كل أديب ينشىء لنفسه بلاطاً لينظر إلى من حوله نظرة الأمير إلى أتباع يسيرون فى ركابه ، إنما هو مدع دخيل يسد على نفسه كوى الالهام ويقيم بغروره عقبة فى سبيل اعتلائه

الأدب رسالة لخير الأمة وخير المجتمع الانسانى ، والأدباء متضامنون فى تأدية هذه الرسالة وإن اختلفت مراتبهم ، وأرق الأدباء مرتبة من يرسل نظراته مفتشاً عن أديب يحاول الصعود ليمد إليه يده ويسدد خطاه ويصحح أخطاءه ، لا من يزدرى أترابه المساوين له ويحتقر المتحفزين للحاق به

إن أقطاب الأدب قادة فيالق فى عالم التفكير ، وشر القواد من احتقر الجنود لأن عظمته تقوم على شجاعتهم ، وخلوده يبنى على كواهلهم

فاذا كان الرافعى لم يسلم فى حياته الأدبية من ثورات غضب حولت عبقريته إلى النضال المنيف ؛ فما كان ذلك إلا لأنه وهو يتسلق المرتقيات ويمد بساعديه إلى ما فوق لم تعثر يداه إلا على أرجل ترفس استكباراً وحسداً ، فاضطر إلى تصفيح قبضتيه فولاذاً

البقية فى العدد القادم

فليكس فارس

هل ينبغي أن تزاحم المرأة الرجل؟

للآنسة زينب الرافعي

(بقية ما نشر في العدد القادم)

وأنا موقنة أيها المؤيدون أنكم يومئذ لن تسمعوا من المرأة إلا رأياً واحداً عن وظيفتها في الحياة؛ ستقول لكم كلمتها الحاسمة في هذا الموضوع حين تقول: « إنني ملكة في مملكتي الصغيرة فهيهات أن أخضع للاغراء فأنزل إلى مرتبة السُّوقة في الأعمال!! »

أرأيتم تلك المديرة الأجنبية التي استخدمتها تلك السيدة الرَّجُلَة لتدير بيتها، أرأيتموها هناك إلا لتطلّع على عوراتنا وتكشف عن عيوبنا حتى إذا عادت إلى قومها قالت مالا يسركم أن يقال!

***

لقد ذهب فلان إلى أوربا فعاد بزوجته أجنبية، ومثل فلان هذا كثير من شباب مصر، وتسأله: لماذا آثرتها على بنات العم وبنات الخال؟ فيجيب: لقد تزوجت أجنبية لأني لم أجد مصرية واحدة أهلا لأن تكون لي زوجة!

لماذا؟ لجمالها؟ لا، إن في مصر لجميلات يُزْهين على جميلات العالم. لأدبها؟ لا، إن المصرية لأكثر أدباً من صاحبته، إن مقاييس الآداب تختلف باختلاف البلاد، فما رآه منها لا يمكن أن يُعدّ أدباً عند المصري. لثقافتها؟ لا، إن الرجل المصري لا ينظر إلى ثقافة المرأة حين يهمّ أن يختار الزوجة. لحسبها وأهلها؟ ولا هذه أيضاً أيها السادة، فليس يبحث عن الحسب والأهل من لا يعرف خالاً لأولاده. إذن فلماذا لماذا؟

لشيء واحد أيها السادة، قد يكون له شبهةُ من الحق في الاحتجاج به، هو أنها سيدة بيت، وسيدات البيوت بين بنات مصر قليل.

وبلى عليكن أيتها المصريات! أين حيلتكن في مزاحمة المرأة الأجنبية التي غلبتكن على قلب أبناء العمومة وأبناء الخئولة من المصريين فاستأثرت باحترامهم من دونكن؟

أرينا أيتها الفتاة كيف تنجحين في هذه المزاحمة بادئ بدء. فإذا بلغت الغاية فانظري إلى الناحية الأخرى وطالبي بما شئت من الحقوق في مزاحمة الرجل ...

***

أراني أنظر إلى موضوعي نظرة محلية، وأحصر فكري منه في محيط ضيق؛ وظني أن منافسيّ في الرأي لا يعنون إلا الكلام العام في المحيط الكونيّ العام إذ يتحدثون عن مزاحمة المرأة الرجل في ميدانه

معذرة: إن بيتي يحترق، أفيكون من حقي حينئذ أن أتحدث في شئون جاري وأنا أولى بنفسي وأحق بالنظر إلى شأني الخاص؟

كم يغيظني ويُحرجُ صدري أن يسألني سائل: لماذا تؤهلين نفسك من وظائف الحياة بعد التعليم؟

ليس عندي إلا جواب واحد أيها السائلون الملحفون، هو جواب كل مصرية تعتز بجنسها وتباهي بكرامتها: « إنني أؤهل نفسي لأكون امرأة، امرأة كاملة تعلم أن الطبيعة زودتها بأسلحتها لتكون امرأة وحسب، فاذا انحرفت بي ظروف الحياة فكنت غير ذلك فلا عليّ، ولكنكم تسألونني عما أريد، فهذا ما أريدُه وما عليّ أن أعمل له، وعلى الله ما سيكون! »

حدثوني عن المتعلمات اللاتي يعملن عمل الرجال: كم واحدة منهن نجحت في إنشاء بيت وتكوين أسرة؟ لديكم الاحصائيات العامة فارجعوا إليها ثم حدثوني حديثكم.

ستحاول واحدة أن تفلسف وتملل وتزعم وتدعي، ثم تقول في النهاية: إن هؤلاء لم يخفقن في حياتهن حين أخفقن في إنشاء بيت، إنهن لم يظفرن بالأزواج ولكنهن ظفرن بما هو أغلى عند المرأة من الأزواج!.

أحقاً تقلن يا زميلاتي؟ فليكن! ولأزعم ممكن أنهنّ حين أخفقن في إنشاء البيت ظفرن بما هو أغلى، وأغلو في الزعم فأقول إنهن ظفرن بما هو أغلى وما هو أغلى، وإن خيراً للمرأة أن تكون رَجُلَة من أن تكون زوجة. ولكن .. ماذا يكون إذا صارت هذه هي القاعدة؟ أيتها الطبيعة، لِدِي للأمة أطفالاً من غير أمهات، لأن النساء يتأبين على وظيفة الأمومة، أو فاعدلي أيتها الطبيعة وقولي للرجال:

لماذا لا يلدون للأمة ما دام للنساء عمل غير الأمومة ...؟

أنني أستحى لكم أيها المؤيدون ! إنني لأشفق عليكم أن تكون هذه وظيفتكم في غد !

وإني لأخاف يا زميلاتي العزيزات لو صحت هذه الدعوة أن أراكن وحدكن في الميدان وقد هرب الرجال إلى البيوت ليقوموا بعمل آخر ... ! أرأيتن لو أن الرجل آمن وأطاع وأعطاكن الحق في أن تعملن عمله في السوق ، وفي الديوان ، وفي الحقل ، وخلا لكن الميدان فليس فيه إلى جانبكن رجل واحد ، أكنتن حينئذ تصررْن على هذه الدعوى فتزعمن أنكن أقدر على عمل الرجال ؟ أم تمدن ممولات باكيات تشكون عسف الرجل وقسوته وجبروته ؟

وهل تطيب لكن الحياة يومئذ بناحيتيها : ناحية العمل وناحية العاطفة ؟

الآن لا أسمع إلا جواباً واحداً : لقد انتصرْت ، لا ، بل قد انتصرت الطبيعة ، لا ، بل قد انتصرت المرأة وعزّت مكاناً عند نفسها وعند الرجال .

* * *

ولكنْ صوتاً واحداً فرداً ما زال يهمس هناك ، إنني أسمع من يقول : وحين يذهب الرجال إلى الحرب فلا يبقى في المدينة إلى جانب النساء أحد إلا ... ؟ وحين تأكل الحرب الشباب فيربى النساء عدداً على الرجال ؟ هذا سؤال ...

إن في الاسلام العلاج لكل مشكلات البشرية ، وهذه مشكلة أعد لها علاجها منذ ألف وثلثمائة وخمسين سنة ، يوم أعطى المرأة التي لا تجد لها زوجاً ، الحق في أن تطالب أختها المتزوجة — أعني أختها في الانسانية ... أن تطالب أختها هذه بنصف رجلها أو ثلثه ، أو ربعه ، ولا تبذل نفسها في عمل ما لا ينبغي أن تعمل ، أعني عندما أباح تعدد الزوجات للرجل الواحد

إن تعدد الزوجات ضرورةٌ لِتُعالَج ضرورة ، وهو نعمة على المرأة وإن عدّتها أكثرُ النساء نِقمَة ، وما يجعلها نقمة إلا لأن أكثر الرجالِ مع الأسف لم يفهم حكمة الله فيما أباح وشرع . اسألوا المرأة التي تكسِدُ سُوقها في مثل هذه الضرورات الحربية ولا تجد من يعولُها : أخير لها أن تكون بلا زوج ، أو أن يكون لها نصف زوج ؟ إنكم تعرفون الجواب .

ولكن مالنا نتحدث عن الضرورات ، ومالنا نستشهد بفلانة وفلانة ممن زاحمن الرجال فزحمنهم ، وطاولنهم فطُلْنَ عليهم . إنني لا أريد أن أعرِضَ لذلك .

هبوا أن المرأة تقوى على عمل الرجل كالرجل ، بل هبوها أقوى منه ، وهبوا نساءً كثيراتٍ نجحن فيما أخفق فيه الرجال وبرزن فيما قصّروا فيه ، فهل هؤلاء كل النساء وكل الرجال ؟ وهل هذ يعطينا الحق في أن نقول لكل امرأة : إنك تستطيعين أن تكوني رجلا إذا أردت ؟ هيهات إلا أن يستطيع كلُّ رجل أن يكون امرأة وأمًّا ومدبرة بيت .

هيهات ! هيهات ! إن المرأة هي المرأة ما في ذلك شك ، وإن كل امرأة لَتشعُرُ في نفسها بأنها امرأة ، حتى لو استطاعت أن تصطنع لوجهها شاربا ولحية ، ولكنها مع ذلك تحاول أن تكون رجلا ، وفي هذه المحاولة نفسها البرهانُ كلُّ البرهان على أنها لا تستطيعُ ، ولقد يدفعها الغلوّ في هذه المحاولة إلى أن تبالغَ في كل ما يُخَيَّل إليها أنها تقترب به من صفات الرجولة ، حتى لَتُوشِكُ أن تكون رجلا أكثرَ من الرجل ... !

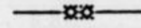
هذه الأذرع العارية ، وهذا الصدر المكشوف ، وهذا الصوت الذي يجلجل في الترام وفي السيارات العامة بالأحاديث الخاصة ، إن هو إلا مظهر من مظاهر المرأة التي تَزْعُم لنفسها أنها لن تبلغ منزلة الرجل إلا أن تخلع الحياء الذي هو أخص صفات المرأة وأجمل زينتها .

ماذا أقول وبماذا أتحدث ؟ أراني قد وصلت إلى موضع الاقناع في نفوسكم ولما أنته إلى ما أريد ، فحسبي هذا الآن وحسبكم ، وحسبُ كلُّ فتاة أن تعلم أن الله خلقها أنثى وركّب فيها غرائز الحب والرحمة والحنان والعطف والمواساة والترفُّق ، هذه الصفات التي اجتمعت للفتاة ، وإنها لفي كل فتاة ، هذه الصفات ليست من صفات القاضي ، ولا النائب ، ولا الحاكم ، ولا المدير ، قد تكون الرحمة شيئاً جميلاً ولكن الحاكم الصارم أقرب إلى عدل السماء

كلية الآداب — زينب الرافعي

عدو المرأة

للسيدة وداد سكاكيني



ما لأيدينا حيلة بأبي العلاء ، فلقد أتي على وفاته ألف سنة أو ما يزيد . لقد كانت المرأة بغيضة إلى نفسه ، كريهة على سمعه ، ولو استطاع أن يبيد من الدنيا كل أنثى لفعل . فواحربا مما في لزومياته عن بنات حواء ! ما لنا حيلة به فلقد مات وخلد علينا مقابح الوصف ومطاعن الهجاء . ولعل له عذراً في امرأة أساءت إليه فعد كل النساء مسيئات ، وغضب عليهن ، وقد عرفه القوم فيلسوفاً متشائماً ناقماً على الحياة والناس أجمعين . ثم أتى على أدب العرب حين من الدهر استراحت فيه المرأة من أعدائها والساخرين منها حتى كان زمننا وجاء توفيق الحكيم

يقول الناس عن توفيق الحكيم إنه عدو المرأة ، ويقول هو ذلك عن نفسه تياهاً مباهياً ، ثم جد في قوله حتى كتب قصته (عدو المرأة) فعجبت له وقد ألقى سلاحه أمام ناتالي الراقصة البولونية ، وعجبت من مذهبه في البغضاء فسألته هل أبغض أمه وأخواته وخالاته وعماته ؟ وهل كان رجلاً من حمل به ثم ولده فملأ الدنيا بتوفيق الحكيم وشغل الناس بأدبه الرفيع ؟

إذا أقام توفيق الحكيم على رأيه واستبد به فليعش في عالم غير عالمنا ، فإن من جنسنا الشمس والأرض ، ومن أنوثتنا الحياة. وليحص الأسماء في المعاجم فيجد فيها الكثير مؤنثاً كالمرأة ، وليترك الزهرة لا يشمها والتفاحة لا يأكلها ، وليعش وحده في كون من الرجال ممن طالت لحاهم وعرضت مناكبهم وخشنت أصواتهم وقست قلوبهم ، وليترك النساء الرعابيب ، والغيد الأماليد لغيره من الرجال

ولكن على رسله ! ألم تلهمه المرأة رواياته الرائعة ، ومقالاته البارعة ؟ ألم تكن شهر زاد من النساء ؟

إن من عرف باريس وفيها الغواني الحسان لا يكون عدو المرأة إلا إذا نهل منها حتى ارتوى وقاء كالمثخن الجريح يخرج من القتال وهو عدو له ، ولكنه لا يظل محارباً عاطلاً ، فأهل الفروسية أبداً يدفعهم الشوق إلى استعادة الحرب

المرأة ريحانة من السماء عطر الله بها جنات هذه الأرض وجملها فيض الحنان وفتنة الوجود . أتماري - وأنت تنشد الحق - في سلطانها المطلق ومعانيها التي لا تحد ؟ انظر إلى المتنبي فإن خلود شعره من وحي خولة . وتطلع نحو بيرون فقد مات في سبيل امرأة من اليونان . وتذكر وريث التاج بالأمس أدوار كيف انطلق من قيود العرش ليخضع للمرأة . وإذا كنت مسلماً فإن رسولك أحب كثيراً من النساء

لِمَ تصيخ بسمعك إلى أعداء المرأة وغلاظ القلوب ؟ ألا سامح الله المعري وشوبنهور ، فلقد أورثاك الشنآن ، وطبعاك على التشاؤم . إنهما يسولان لك هذه البغضاء ليعطلا قصصك من مباهج الأرواح ، ومتع الحياة . إنهما يريدانك على الخمول والفتور ، ولئن كنت في ريب مما أقول ، فاجمع كتبك واحرقها ثم أعد صفها وطبعها ، وهي خلو من ذكر المرأة ، كل من فيها من الأبطال ، رجال في رجال ، ثم انظر ماذا يكون ، إنها ستبلى ويعلوها الشحوب ، وهي معلقة بأبواب الوراقين ، حتى إذا يئس الباعة من عرضها على المعرضين عنها نبذوها وراءهم ، وطرحوها جنبات الدروب حتى يمر بها الكانس فيلمها ويرميها في مطارح الإهمال والبلى . وستمر بك أيام أشد سواداً من الليل تهدهد كبرياءك وتخمد صيتك ، فينساك بعدها الناس ، وتنطفئ من الأدب العربي الحديث شعلة ساطعة ، فإذا صرت إلى هذا الدمار جن جنونك ، وضربت بيدك منضدة الكتب ، فمادت بما عليها واندلع الحبر من دواتك على القراطيس البيض ، فيثور ثائرك وتحطم قلمك وتقذف به إلى حيث لا تمسك به ماحييت

أنت يا عدو المرأة فيك طبع المرأة . يقول الفلاسفة الذين أفسدوا قلبك عليها : إذا أجابت المرأة بلا فإنما هي قائلة في سرها نعم . وإذا أبغضت فقد أحبت ، وإن كثيراً من النساء لن يكرهن الرجال فهوين على أقدامهم مقبلات ، وما أنت يا توفيق الحكيم إلا أشد محب للمرأة وأصدق نصير لها ، تملأ أحلامك بالرواء والبهاء ، وتطوف بروحك كما يطوف الجمال بفنك ، وتراها تسكب في فكرك سراجاً وهاجاً يضيء عبقريتك ، ويلهمك البراعة والابداع . ومن يدري فلعل وراء آثارك العظيمة امرأة تهزك وأنت تحلم ، وتوحي إليك وأنت تكتب ، من عندها تتفجر

بين الرافعي والعقـــاد

للأستاذ محمود محمد شاكر

قرأت ما كتب الأستاذ سيد قطب في العددين السالفين من الرسالة، وكنت حرياً ألا أعبأ بما يكتب عن الرافعي في أوانِ حولِ وفاته، وقد تهيأ أهله وأحباؤه وأصحابه تتلفت قلوبهم لذكراه الأولى بعد أن سله الموت من بينهم اغترارا

والأستاذ سيد قطب قد أبى له حسن أدبه، وجميل رأيه، ومروءة نفسه، ونبل قلبه، وشرف مقصده، وإشراق نقده، إلا أن ينبش ماضي الرافعي وما سلف من أمره، ليستخرج حلية يتحلى بها إذ يكتب عن خصومة بين رجلين: أما أحدهما — أنسأ الله في أجله وأمتع به — فما برح يتلطف للناس بما يستجيد من عمل يجدد به مطارف آخرته؛ وأما الآخر — رحمة الله عليه — فبين يدى ربه يتقرب إليه بعمل قد أبلى به أثواب دنياه. فلولا أن الميت لا يدفع عن نفسه في ساعة موته مثل الذي كان يدفع في أيام حياته، وأن ذكر الحي أقرب إلى الناس من ذكر الميت — لكان جديراً بنا أن ندع الأستاذ المهذب الفاضل يتكلم بالذي يهوي على ما خيلت له. فليس للأدب اليوم من الحرمة، ولا فيه من النبل، ولا عليه من الحياطة والحرص، ما يحفز أحداً للمراصدة دونه أن يُمتهن أو يسترذل

هذا ...، وقد جمل الأستاذ الفاضل يستثير دفائن الإحن والأحقاد كانت بين الرافعي والعقاد، ليتخذ منها دليلَهُ الذى يفزعُ إليه في أحكامه!! على الرافعيّ. لا بل على قلب الرافعيّ ونفسه وإيمانه بعمله وعقيدته فيه!! ثم لم يرض بذلك حتى نفخ فيها من روح الحياة، ما جملها ممّا يكتب الأحياء عن الأحياء للإيلام والأثارة، لا للجرح والتعديل والنقد؛ وكأن الفتنة عادت جَـذَعةً بين الرافعي نفسه وبين العقاد. ولقد بدا لبعض الناس رأيٌ فيما كتب الأستاذ المهذب، ولكنا نفيناه إذ سُئلنا عنه، فنحن نعلم أن العقاد لا يرضى اليوم أن يكتب مثل هذا الذى كُتب عن الرافعي. ولقد ساء ظن امرئٍ بالعقاد ألا تكون للموت في نفسه حرمة، حتى يكون هو يعين عليه أو يرتضيه أو يسكت عنه إلا سكوت الغضب والاستهانة

فنحن إذ نكتب في ردّ كلام هذا الأستاذ الفاضل سيد قطب لا نبغي أن نسدّد له الرأى فيما يجب أن يرى، فما علينا ضلّ أو اهتدي، ولا أن نقيم مذهب الرافعيّ على أصله وقد ذهب سَببهُ وبقى أدبه؛ ولا أن نسوء العقاد حفيظة نتوارثها له عن الرافعي أو من ذات أنفسنا، فما من شيمتنا مثل ذلك؛ كلاًّ، بل نكتب لنميط الأذى عن حُرَم الموت، وكفى بالموت حقاً وجلالاً

ورحم الله الشعبيّ فقد كان يقول: «تعايش الناس زماناً بالدين والتقوى، ثم رفع ذلك فتعايشوا بالحياء والتذمم، ثم رفع ذلك فما يتعايش الناس اليوم إلا بالرغبة والرهبة. وأظنه سيجيء ما هو أشد من هذا» ولقد جاء وفات ما نحن فيه ظنونَ الشعبي. فما يتعايش الناس اليوم إلا بثلب الموتى!

وإلا فما الذى رمى في صدر الأستاذ سيد قطب بهذه النضبة الجامحة من أجل العقاد؟ ألم يكتب الرافعي للعقاد يوم كان يملك يكتب ويقول؟ أولم يكتب العقاد للرافعي ما كتب؟ ثم نامت الثائرة ما بينهما زمناً كان حده الموت. يقول الأستاذ: إنه — هو لا العقاد — «كان مستعداً للثورة والحنق، لو تناول بعض هؤلاء — يعني الرافعي ثم مخلوفاً — أدَبه! بمثل هذا الضيق في الفهم، والاستغلاق في الشعور ...» أفكان كلام سعيد العريان — وهو يؤرخ أحقاداً قد سلّها الموت إذ سَلّ أسبابها — هو الذى أثار هذا الحيّ المستعد للثورة على ذلك الميت العاجز عن دفع الثورة؟ ثم ما الذى يحمله على أن يُلبسَ هذه الثورة جلد النقد؟ والعجب أن يثير ما كتب «سعيد» حبًّا

نبوغك، ومن أنوثتها لمع نجمك حتى شهدناه مشرقاً في آداب العرب، متألقاً في سماء هذا العصر. ومن غيرك أجدر بأن يحب المرأة ويحن إليها ويحنو عليها؟ بل ما يليق بالكاتب المبدع أن يعيش في الأرض التي لا تمطرها المرأة وتزهو على حواشيها النضرة

ليس كل النساء كجوديت؛ ولكم بين الرجال من هو «لاندرو»؟ ولن تكون الحرب إلا ليكون السلم؛ فإذا شئتها عواناً مأيمة كحرب البسوس فستجدنّ من بيننا الكثيرات تقول كل واحدة لك: أنا عدوة الرجل

«دمشق» وداد سكاكيني

ليس شيئاً فى الخصومة بين الرافعى والعقاد ، وهو ليس يثير العقاد أحدَ طرفى الخصومة ، وهو الذى يملك أن يقول لسعيد أخطأ أو أصاب ... ! أشهد أن ما بالاستاذ قطب النقد ، ولا به الادب ، ولا به تقدير أدب العقاد أو شعره . فما هو إلا الانسان وجه يكشفه النور ويشف عما به ، وباطن قد انطوى على ظلماته فما ينفذ إلى غيبه إلا علم الله

وأنا أقدِّمُ بين يدى كلامى حقيقة لابدّ من تقريرها عن الرافعى والعقاد ، وذلك أن الرافعى — رحمه الله — لو كان يرى العقاد ليس بشيء ألبتة ، وأن أدبه كله ساقط ذاهب فى السقوط ، وأنّ وأن ... مما كان يكتب ليغيظ به العقاد من جراء العداوة التى ضربت بينهما — لما حمل الرافعى عناء الكتابة فى نقد العقاد وتزييف أدبه وإبطال أصل الشعر فى شعره. ولو كان العقاد يرى الرافعي بعض رأيه الذى كتب لما تكلف الرد على الرافعي ولا التعرض له . وكم من رجل كتب عن الرافعى وعن العقاد ونال منهما وأوجع ! ولأنه ليس يدخل فى حسابهما ، ولا يقيمان لأمثاله وزناً ، ولا يعبأان بقوله ونقده وثورته — فقد تركاه يقول فيكثر فيملُّ فيسكُت . ولم يكن بين أحد منهما وبين مثله كالذى كان بين الرافعى والعقاد

فالرافعى والعقاد أديبان قد أحكما أصول صناعتيهما ، كلٌّ فى ناحيته وغرضه ، وأفنيا الليالى والأيام والسنين فى ممارسة ما هو فيه وإليه ، وكلاهما يعلم عن عمل صاحبه مثل ما يعلم عنه ، ولا يُظن بأحدهما أنه يجهل قيمة الآخر . فلما كانت العداوة بأسبابها بينهما بدأت قوّة تعارضُ قوة ، ورأىٌ يصارع رأياً ، وكان فى كليهما طبيعة من العنف والعُرام والحدّة ، وولع العقاد بإرسال العبارة حين يغضب على هِينتها صريحة لا صنعة فيها ، وأُغرى الرافعي بالسخرية والمبالغة فى تصوير ما نصبه لسخره وتهكمه على طريقة من الفن ؛ فمن ثمّ ظهرت العداوة بينهما فى النقد وفى أذيالها أذى كثير وغبار ملؤه القوازع والقوارص من اللفظ ، وعلى جنباته صور ينشئها أحدهما لصاحبه للكيد والغيظ والحفيظة ، لا يراد بها إلا ذلك . ولقد شهدت أن الذى كان يكتبه الرافعى عن العقاد لم يكن عندى مما يحملنى على الحط من منزلة العقاد التى كان ينزلها فى نفسى ؛ بل أستيقن أن الذى يكتبه إنما يراد به النيل من غيظ العقاد لا من العقاد نفسه . وعلى مثل ذلك كنتُ أجد ما يكتبه العقاد عن الرافعى ، فلم يكن نيل العقاد من الرافعى — وأنا أحبه — مما يحملنى العداوة له أو يدفع بى إلى الغيظ والحنق والثورة

وخليق بنا وبآدابنا أن نطوى الآن سيئة رجلين قد تفارط أحدهما فى غيب الله ، وبقى الآخر تحوطه الدعوة الصالحة بطول البقاء وامتداد الأجل وسداد العمل

والكلمة الأولى من كلمتى الأستاذ سيد قطب ، إنما تدور رحاها ورحى (بغضائه) للرافعى — أو كما قال — عن نفى الانسانية عن ذلك الانسان رحمة الله عليه ، وخلوه من النفس ، وفقدانه الطبع ، وفقره إلى الأدب النفسيّ — وما إلى ذلك من لفظ قد ضل عنه معناه ، وتهافت عليه حده — وأنه كان (رحمة الله عليه) ذكياً قوي الذهن ، ولكنه كان مغلقاً من ناحية الطبع والأريحية ، وأن أدبه كان أدب الذهن لا أدب الطبع ، فيه اللمحات الذهنية الخاطفة ، واللفتات العقلية القوية ، ولكن الذى ينقصها أنه ليس وراءها ذخيرة نفسية ، ولا طبيعة حية ، إلى غير ذلك مما حفظه الأستاذ من شوارد اللفظ ، وأوابد المعانى ... وأسمع جعجعةً ولا أرى طحناً

وأنا كنت أنتظر بالاستاذ أن يأتى فى كلمته الثانية بشىء من النقد يُنسى إليه ما قدم فى الاولى من سوء العبارة وشنعة اللفظ فى ذكر الرافعى الميت ؛ ولكن خاب الفأل ، وجاءت الثانية تدل من يغفل عن الدلالة البينة ، على أن هذا الاستاذ الجليل لا يزال يستملى ما يكتب من بغضائه . وهان شيئاً أن يكره الاستاذ الجليل رجلا كالرافعى حتى يأكله السلّ من بغضه ؛ ولكن الامر كل الأمر حيث ذهب يزعم فيما يكتب أن هذه البغضاء التى يستملى منها هى النقد ، وأن أحكامه على الرافعى إنما هى أحكام قاض قد لزم المتهم حتى أنطقه وأشهد عليه لسانه ، فاستوعب كلامه ، واستنبط الحجة عليه من ألفاظه ، واستوثق للتهمة من قوله ، ثم بنى (الحيثيات) من فحوى عباراته ، ثم حكم وما حكم على المتهم إلا كلامُه ، ولا شهد عليه إلا لسانُه

فلهذا كان علينا لزاماً أن ننظر فى الذى أتى من كلام الرافعى ، ثم قوله فى فيه ، واستنباطه الدلائل منه ، وتحليله نفس الرافعي من لفظه حتى جعله مستغلق الطبع مسلوب المقيدة . ثم هو فوق ذلك لايزال يبدئ ويعيد فى كلامه ذِكرَ أصدقاء الرافعى

أهمية الترجمة وحركاتها فى التاريخ

٢ ـ الترجمة فى الإسلام

صفاتها وفهمها في أوربا

للأستاذ عبد العزيز عزت

نظرية رينان

وتتلخص آراء رينان ومدرسته فى فهم التراث الإسلامي الذى بنى على الترجمة فى القرن التاسع الميلادى فى ثلاثة أفكار يجدها القارئ فى المحاضرة التى ألقاها رينان بباريس عام ١٨٨٣ (٢٩ مارس) ، وعنوانها « الإسلام والعلم » ، والذى أوحى إليه هذه المحاضرة هو مرور الشيخ الأفغانى بباريس فى ذلك الحين . فرينان نفسه يقول فى كتابه «مقالات ومحاضرات» صفحة ٤٠٣ « منذ شهرين عرفت الشيخ جمال الدين بفضل مساعدنا الفاضل المسيو غانم ، وقليل من الناس تركوا فى نفسى أثراً كأثره . ان مناقشاتى المتعددة معه هى التى دعتنى أن أحول موضوع محاضرتى عن العلم والاسلام » هذه المحاضرة رد عليها الشيخ الأفغانى بتاريخ ١٨ مايو سنة ١٨٨٣ فى جريدة الديبا وعقب على هذا الرد فى اليوم التالى رينان فى نفس الجريدة :

أولا — يقول رينان ما ترجمته : « يمكن أن يقرر الانسان بسهولة تامة التأخر الواقعي لبلاد الإسلام ، وتدهور الحكومات القائمة على هذه البلاد ، و « انعدام الفكر » فى تلك الشعوب التى تخضع لهذا الدين فقط فى ثقافتها وفى تعليمها ، لأن الطفل المسلم حتى العاشرة أو الثانية عشرة من عمره يلحظ فيه نوع من الذكاء ، وفجأة عند ما ينتبه إلى تعاليم دينه ، تأخذه نزعة صوفية تنتقل به إلى نوع من الاغماء العقلى كنتيجة لتلك النعرة الجنونية : ان الاسلام هو الحق والحق وحده . لهذا يشعر المسلم فى أعماق نفسه بنوع من الاشمئزاز للتعلم والعلم ، وكذلك لفكرة الجنس والقومية لأن الأسلام يرفع الفوارق بين الأمم (١) »

ثانياً — يقول رينان ما ترجمته « إذا كان فى الحضارة الاسلامية علماء وفلاسفة ، وكانت هي أثناء عدة قرون سيدة الغرب المسيحى ، وإذا وجد حتى عهد ابن رشد تراث فلسفي يسمى تراثا عربيا « لأنه كتب بالعربية » ، فكل هذا في واقع الأمر كان تراثا يونانيا فارسيا أو بالأصح يونانيا ، لأن العنصر الأساسى فيه أقبل من بلاد اليونان . إن الفلسفة وجدت دائما فى بلاد الاسلام ولكنها بعد عام ١٢٠٠ طغت عليها الموجة الدينية وقضت عليها ، وساد بعد ذلك علم « النجوم » لأنه وسيلة لتحديد أوقات العبادات (٢) »

ثالثاً : يقول رينان ماترجمته « حركة الترجمة العجيبة التى وجدت إبان ذلك كانت كلها من وضع الفرس والنصارى ، واليهود والحرانيين ، والاسماعيليين ، والمسلمين الذين ثاروا على دينهم ، وهذه الحركة لم تلق من علماء الاسلام إلا كل اضطهاد ، لأن الاسلام فى واقع الأمر يعادى دائماً العلم والفلسفة ، وانتهى بالقضاء عليهما . الاسلام صارم يتحكم فى العبد وفى دنياه وفى آخرته ، هو ذلك القيد الثقيل الذى لم تصب بمثله الانسانية فى تاريخها ... لا يمكن أن نطلب من العلم ولا من الفلسفة احترام الاسلام ، كما لا يمكن أن نطلب من المكتشفات الحديثة والعلم الحديث احترام رجال الدين عامة (٣) »

(١) أنظر كتابه « مقالات ومحاضرات » صفحات ٣٧٦ و ٣٧٧

(٢) أنظر فى نفس المحاضرة وفى نفس الكتاب المتقدم ذكره صفحات ٣٧٨ و ٣٨٦ و ٣٨٩ و ٣٩٠

(٣) أنظر نفس المحاضرة فى كتابه « مقالات ومحاضرات » صفحات ٣٩٢ و ٣٩٤ و ٣٩٥ و ٣٩٦

وأصحابه ويسخر منهم ويتحداهم ، ويحملهم على مركب وعر ، ويضطرهم بين خُطتى خسف فى أحكامه على الرافعى ، ويخيرهم أن يختاروا للرافعىّ طرفاً من طرفين يحسب أنه يُلزمهم شناعةً من شناعاته التى سمّاها أحكاماً على الرافعى . وسنتولّج فيما لانحب ، لا كرامةً للأستاذ الجليل أو استجابة لدعائه ، بل لميط الأذى عن نفس مطمئنة لحقت بالرفيق الأعلى راضية مرضية

ولولا أن يقال هَجَا نميراً ... ولم نسمع لشاعرهم جوابا

رغبنا عن هجاء بنى كليب ... ...

محمود محمد شاكر

الرد على نظرية رينان

أولا — إن مايأخذه رينان على بلاد الأسلام من تأخر لايمكن أن يرجع إلى الأسلام ومبادئه ، لأن هذا الدين وهذه المبادىء كانت في يوم ما من أيام التاريخ وسيلة للانتشار والحضارة والتقدم أثناء ازدهار الأسلام خاصة فى عهد الرشيد والمأمون وهو مايشابه عهد شرلمان فى أوروبا ، وأن هذا الانتشار وهذا التقدم كان له الأثر الطيب الذى لم ينكره الأوربيون أنفسهم خصوصاً فى حركة الترجمة التى قام بها علماء اليهود الأعلام في أسبانيا وآباء الكنيسة إبان القرن الثالث عشر الميلادى ، وأن مرجع هذا التأخر يعزي فى واقع الأمر إلى أسباب تاريخية محضة لا مذهبية هى : أن إغارة الترك والتتار والمغول ، وهى أمم من « غجر » الشعوب بائسة فى الفهم والحضارة ، قد عاقت تقدم الإسلام ومنعت ازدهاره (اقرأ فاجيرى عن الإسلام) ، وبجانب هذا فان الإسلام دين كسائر الأديان الأخرى كاليهودية والنصرانية ، فما يؤخذ عليه يمكن أن يؤخذ على هذه الأديان ؛ ومع ذلك فهو يمتاز عنها بأنه لا يمكن للباحث أن يعثر فيه على نص يحرم به العلم والتعلم كالذى نجده مثلاً فى « الإنجيل » باب القديس بولس ، البند الخامس . ثم لا نجد فى الاسلام قوة تتوسط بين الله والعبد تسيطر عليه باسمه تعالى كسيطرة الكنيسة إبان القرون الوسطى . وكذلك فى العهد الحديث نجد فرقاً بين أن يطلع القارىء على ما كتبه شيخ الاسلام فضيلة الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغى عن « الأخاء فى الاسلام » — وقانون الكنيسة الصادر فى ٥ سبتمبر سنة ١٩٠٨ الذي به يحرم بيوس العاشر على أتباعه المساهمة فى الحركة العلمية الحديثة ، واضطهاد روح التجديد فى كل شيء .

ثانياً — أما أن تكون الثقافة الإسلامية فى أساسها ثقافة يونانية ، فهذا ليس بعيب على الإسلام ، لأن المطلع على نهضات الأمم فى التاريخ يقرر أن هذه النهضات بنيت دائماً على عنصرين أولاً : عنصر الإيمان الذى هو السبيل الوحيد للتسيطر على النزعات الجامحة « لقطيع » البشر والوصول بهذا الجمع الحاشد من عباد الله إلى أنبل الغايات الدنيوية والأخروية . وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق الدين [1] والثاني : هو عنصر العقل الذى هو السبيل لتهذيب ملكات السادة من الناس ومن يتصدى للرياسة وهذا عن طريق العلم ، والعرب فى هذا الباب أصل من الرومان والأمم الأوربية الحديثة أولا : لأنهم خلقوا هجرة الإيمان بخلق دين « جديد » يمثل « عبقريتهم الخاصة » وطابعهم الخاص وفرضوه على الناس بالخيار ، وهذا مالم يصل إليه من تقدم ذكرهم من الشعوب . ثانياً : أنهم مهدوا لخلق هجرة العقل وهم فى ذلك مثل سائر الأمم وإنما فاقوهم فقط فى أن ترجماتهم كانت أكمل وكانت أصح ، وعن هذه الترجمة نقلت الترجمات اليهودية والنصرانية ، وعن هذه الترجمات الأخيرة خلق أرسطو من جديد فى أوروبا إبان القرن الثالث عشر فكان « بدعة » وثنية فى وسط سادت فيه المسيحية بنزعتها الصليبية ، وهذا مهد حرب العقل الحديثة بين باكون وديكارت من ناحية ، وأرسطو العربي المغترب من ناحية أخرى [2]

ثالثاً — أما أن يأخذ رينان على حضارة الإسلام أنها حضارة بنيت على عناصر خارجية كالفرس والنصارى واليهود ... وهلم جرا ، فالتاريخ يحدثنا أن الحضارة المسيحية فى القرون الوسطى بنيت أيضا على مثل ذلك ، فالمذهب الرسمى للتفكير في المسيحية هو مذهب للقديس توماس (اطلع على مكتوب الكنيسة الصادر فى ١٤ يناير سنة ١٩٠٤) وهذا المذهب يتأثر بمذهب أرسطو وبنى فى أصله على حركة الترجمة فى القرن الثالث عشر فى باريس ، وزعيم هذه الحركة وأستاذ القديس توماس نفسه : هو القديس البير الكبير وهو ألمانى الأصل وساعده فى أبحاثه علماء اليهود فى اسبانيا لأن علم العرب انتقل إليهم فى ذلك الحين ، (اقرأ منك فى كتابه « الفلسفة العربية واليهودية ») ولهذا عندما يهتم الكردينال مرسيه بإصلاح التعليم الكاثوليكى ضد حركة التجديد فى القرن العشرين يقول حسب تعاليم الكنيسة بتعلم اللغة العربية حتى يقف المسيحيون

---

(١) اقرأ جوسان « نفسية الجوع البشرية »

(٢) اقرأ أستاذنا جلس بالكليج دى فرانس « نزعة الفلسفة فى القرون الوسطى » وأيضاً « أثر فلسفة القرون الوسطى على فلسفة ديكارت » وأيضاً مقالة بويح « هل قرأ باكون الكتب العربية »

فى أوروبا على وصول مذهب القديس توماس (إقرأ مكتوب الكنيسة الصادر فى ٢٧ مارس سنة ١٩٠٦) ، ثم إن المناصر الخارجية فى أى زمان وفى أى مكان هى قانون عام بين الأمم لتبادل الثقافة. فالآن الخبراء الماليون ينتقلون من وطن إلى وطن فى أرقى الأمم المتحضرة ، والجنود المأجورة أو المساعدة فى الحروب تفعل مثل ذلك ، وفى فرنسا مثلا الآن كثير من زعماء الفكر من أصل أجنبى كالفيلسوف الخالد برغسون وكذلك مدام كريبه ، العلامة المشهور ميرسن ، بل إن أستاذ اللغة الفرنسية نفسها فى السربون (سيبويه الفرنسى) من أصل خارجى وهو العلامة فرتينا ستروفسكى ، ومع ذلك فإن أحداً من الناس لا يمكن أن يشك فى أن هناك حضارة فرنسية قائمة وأن أثرها معروف فى العالم

ومجمل القول أن رينان هذا رجل يؤمن قبل كل اعتبار بالمذهب الوضعى ، وهو مذهب « العلم » الحديث الذي يبنى على المنهج التجريبى الرياضى فى العلوم الطبيعية ، ويسعى أن يجعل من علوم الإنسان الأدبية علوماً لا تقل دقة فى أبحاثها عن العلوم المتقدمة . وهذا الفهم فى نظر أتباع هـذا المذهب يناقض فى أصوله ما ساد فى تاريخ البشرية من نزعات الفكر التى تتلخص فى نظرهم فى نزعة دينية قالت بالوثنية تارة ، وبعبادة مظاهر الطبيعة تارة أخرى ، وبالتأليه تارة ثالثة ، ونزعة تجريدية خالصة يمثلها المهد اليونانى وهى تبنى كأساس على منطق أرسطو ، والفلسفة الاسلامية تتبع هذا المهد . لهذا خرج رينان على المسيحية ، ولهذا أيضاً اعتبر الترجمة فى الاسلام كنقل حرفى أى الفلسفة اليونانية « مخطوطة » بحروف عربية ، وهـذه الترجمة ما هى إلا ترجمة مؤلفات أرسطو « بالذات » ، وتعاليم هذا الفيلسوف هى « الوحيدة » التى سادت التراث الاسلامى من أوله إلى آخره ، وأن هذه الفلسفة لاقت الاضطهاد من علماء الاسلام لأن هذا الدين ضد حرية الرأى والتفكير ، فعداء رينان للاسلام وترجمته وفلسفته ، عداء يتعلق إذاً بمذهبه العام الذى ساد فى فرنسا فى أواخر القرن التاسع عشر . لهذا لزم أن يضاف إلى ردود من عقّب على كتاباته من المسلمين رد جديد ملخص يشتق من طبيعة الآراء والمعارف فى القرن العشرين .

عبد العزيز عزت
عضو بعثة الجامعة المصرية لدكتوراه الدولة



فى ورقة منفصلة بين مخلفات « بتهوفن » وجدت هذه الأسطر الدامعة : « الحب ، ليس غير الحب ، هو وحده الذى يستطيع أن يجعل حياتك سعيدة . آه يا إلهى ، دعنى أجدها أخيراً ، تلك التى فى مقدورها أن تدعم فضائلى ، تلك التى قد سُمح لى أن تكون زوجتى »

ومات بتهوفن ولم يُسمح له . أترى الطبيعة عدوة الفنان، تضن عليه بما تمنحه للآخرين ؟ نعم . إنها لتقسو عليه، وإنها لتغار منه أحياناً وتقول له فى لغتها الصامتة البليغة :

— أنت تطلب إلىّ أنا أن أمنحك الحب ؟ لا ، إنى أمنحه كل الناس إلا أنت . إنى أمنحه أولئك المساكين الذين لا يستطيعون أن يخلقوا شيئاً ؛ أما أنت فتستطيع أنت نفسك أن تخلق « الحب » . إنك مثلى عبقرية خالقة . كل عملك فى هذا الوجود أن تصنع « الحب » وتمنحه الناس .

وهكذا تتخلى الطبيعة غالباً عن الفنانين العظام ، وتتركهم يبحثون سدى عن السعادة فلا يجدونها كما يجدها الآخرون ملقاة كالفاكهة الناضجة ساقطة تحت الأشجار . إنما هى شىء بعيد ، كلما مدوا إليه أيديهم ابتعد عنهم وتركهم يائسين . عندئذ ينكبون طول حياتهم على كنوز نفوسهم وحدائقها اليانعة يستخرجون منها للناس فاكهة من ذهب وفضة ، تقصر الطبيعة أحياناً عن تقديم مثلها . ولكن الطبيعة تنظر إلى الفنان نظرة التشفى مع بسمة السخرية

— أفهمتنى الآن ، وعلمت أن كلينا يعيش فى الحرمان ، وأن سر وجودنا أن نعطي ولا نأخذ ؟

فيقول لها الفنان فى نبرة ألم :

— نعم ، ولكنك أنت الطبيعة . أما أنا فآدمى مسكين . إنك لا تتألمين ، أما أنا فأتألم ؛ إذ أرى الحياة تزول من تحت قدمى، ولم يسمح لى بحظ قليل من الهناء الذى يسخى به على الآدمين ! على الآدميين ؟ ومن قال انك منهم ؟ عند ما وضع على منكبيك رداء « العبقرية والخلود خلع عنك فى الحال بعض خصائص الآدميين !

توفيق الحكيم

ايضاح وتعليق

بحث في الرمزية

للأستاذ زكي طليمات
مفتش التمثيل بوزارة المعارف

نشر الأستاذ الدكتور بشر فارس تعليقاً ضافياً فى المذهب الرمزى نشرته الرسالة فى عددها رقم ٢٥١ جاء تكملة لبحثه القيم الذي صدر به روايته « مفرق الطريق »

والحديث فى الرمزية شيء يطول ، فلا تحلو مطالعته في مجلة تحرص على أن تقدم لقرائها نبعة من كل ينبوع

بيد أنه يعنيني من تعليق الأستاذ شيئان لهما اتصال وثيق بما سبق أن نشرته عن الرمزية فى هذه المجلة منذ ثلاثة أسابيع ..

الأمر الأول هو ابتهاج الدكتور بشر بأن رانى أعمد إلى بعض تراكيب جرت فى توطئة مسرحيته المذكورة فى التعبير عن معان وألوان فى الرمزية . وهأنذا أبادر بتسجيل ما يزيد فى ابتهاج الأستاذ الدكتور ، بل ويبعث زهوه ، فأصرح بأننى حقاً عمدت إلى اقتباس تركيبين أو ثلاثة تراكيب وجدت فيها التعبير الكامل عن خلجات وآراء كانت تجول فى نفسى منذ أن كنت أدرس الرمزية فى الاخراج والتمثيل فى معاهد أوربا . ولا يسعنى إلا أن أهنئ الأستاذ الدكتور على توفيقه فى إيجاد هذه التراكيب وإطلاقها حية قوية تنبض بالمعنى البكر ، وتشق طريقها بين التراكيب الفنية والأدبية لتستقر فى صلب اللغة العربية

أما الأمر الثانى ، فالتباس عرض للأستاذ الدكتور حينما أردت أن أفرق بين طبع الدكتور فارس وطبع غيره ممن عالجوا الرمزية من قريب أو من بعيد ، فأجريت فى مقالى الثانى ما نصه: « فبشر فارس وتوفيق الحكيم يغترفان من مصدر واحد ، الأول يكتب متثبتاً بما تلقنه ... »

ولا يسعني أن أعلق على هذا قبل أن أبدى عجبى من ذلك الالتباس الذى خالط ذهن الدكتور ؛ إذ المعنى جلي واضح العبارة ، يزيده إيضاحاً ما أوردته فى صلب ذلك المقال ، وفى تقدى السابق لمسرحيته « مفرق الطريق » الذى نشرته الرسالة قبل بحثى فى الرمزية .

قلت : إن بشر فارس وغيره من الكتاب الشرقيين يغترفون من معين واحد ؛ وإذا اغترف كاتب من معين ، فمعناه أنه تلقن مبادئ وأساليب معينة . إلا أن هناك من يكتب وقد أخذ متثبتاً بما تلقنه ، ومن يكتب وقد خالط ما تلقنه خيال طارئ

هذا وقد أعطيت الشيطان حقه حينما أنصفت بشر وتوفيق الحكيم بما نصه : « إلا أن لكل منهما طرائقه فى التعبير عن رمزيته » فالأستاذان كاتبان مجيدان فى الرمزية ، ولكل منهما سحره فيما يكتب ، ولا يضير الاثنين أنهما يصدران عن نبعة واحدة مادامت طرائق كل منهما تحمل طابع شخصية مستقلة

وزيادة فى الإيضاح أقول إن منحى بشر فارس في الرمزية هو منحى يقوم على التأثر الدفين تمازجه الوجدانيات والفلسفة ، فى حين أن منحى الأستاذ توفيق الحكيم يأخذ سمت السخرية بالمواطف ليدلل على إفلاسها أو ليناقش عابثاً هازئاً بمدركات مجردة ؛ وكانا الرمزيتين لها طلاوتها ، ولها فلسفتها ، ولها أسلوبها فى الكشف عن الغامض والمبهم والتائه فى لفائف الروح

أما ما ذهب إليه الدكتور فارس من أن مسرحيته تستقر فى الرمزية المستحدثة Néo-symbolisme فأمر لا يغير شيئاً من منحى مسرحيته مادامت تصمد إلى الرمزية الأولى التى شرحناها أنا والدكتور بشر . فروايات « إدمون روستان » مثلاً تعتبر من صميم الرومانسية ، وهي مع ذلك من الرومانسية المستحدثة (Néo romantisme) كما يقول النقاد

وما الرمزية إلا خلجة من خلجات النفس خرجت ولها طابع خاص لم يلبث أن خالطته ألوان نفسية جديدة قد تحور من مظاهرها وتبدل من أشكالها ، ولكنها لا تطغى على صميمها ؛ وشأنها فى ذلك شأن أية عاطفة بشرية . ولو أردنا أن نحصى الألوان التى داخلت الرمزية منذ نشأتها لتعذر علينا البحث ولأعيانا الأمر ولوقفنا موقف من يريد أن يقسم الشمرة الواحدة من الرأس إلى أربعة أقسام كما يقول الفرنسيون !

يبقى بعد هذا أن أبدى سرورى بأننى كنت فى طليعة من نوه بمقام مسرحية « مفرق الطريق » وأنا الرجل الذى يشغله

جوله في معرض الفنون (١)

بقلم نصرى عطا الله سوس

يقول بول فاليرى فى معرض الكلام عن قصيدته « المقبرة البحرية » إنه ليس من حق الشاعر أن يفرض على قارئه معنى خاصاً لقصيدته ولا أن يفسرها له. فالشاعر قد فسر شعوره فى أبياته فما معنى تفسير هذه الأبيات بعد ذلك ؟ إن التفسير لا يكون إلا فى حالة العجز والقصور. فلكل قارىء أن يستخلص مايشاء إلا إذا كان ممن عناهم المتنبى بقوله : —

ومن يك ذا فم مر مريض ... يجد مراً به الماء الزلالا

فالشاعر قيثارة تستنطقها الطبيعة ألحاناً تختلف النفوس فى تلقى موحياتها وتفسير معانيها؛ والنفس الانسانية أوسع وأرحب من أن يحدها تفسير. وما يجهله الانسان من نفسه ومما حوله أكثر مما يعرفه معرفة اليقين. والفن رسالة توحيها النفس الباطنة أكثر مما توحيها النفس الواعية. والنفس الباطنة كثيراً ما تلغز وترمز دون أن توضح

وكان الموسيقى الكبير « رافيل » يقول : ليس هناك « فنون » بل هناك « فن » ، فن واحد يبدو طوراً ألحاناً خالصة، وطوراً كلمات منظومة ، وطوراً خطوطاً وألواناً ، صور مختلفة تعبر فيها الروح القوية عن مشاعرها وإحساساتها — ومن هنا ترى أن ماقاله بول فاليرى عن الشاعر ينطبق تماما على الفنان. ولما كنت أعتقد أن الفن تعبير قبل كل شىء ، فقد ذهبت إلى معرض الصور وأنا أقول لنفسى : « انتبه . تبين أى الصور ستوجه نفسك إلى نواحى جديدة فى الحياة لم تسعفك تجاربك بتمليها ؟ وأى الصور ستجدد وتعمق إحساساتك بما عرفته وخبرته . . »

* * *

يتفاوت مستوى الإجادة الفنية بين العارضين تفاوتاً كبيراً؛ فالى جانب الصور القوية الناضجة نجد صوراً تذكرنا بما كنا نلقاه فى كتب المطالعة الابتدائية من صور ؛ ولا ندرى كيف تسربت هذه إلى المعرض . ونسبة العارضين من الطلبة كبيرة جداً . وقد راعنا فقدان الروح الفنية بينهم تماما . والفنان كالشاعر يولد ولا يصنع . ومدارس هؤلاء تعلمهم إتقان الرسم والتعبير ، ولكن التعبير عن ماذا ؟؟ هذا ما نحب أن نسأل عنه فنانى الجيل المقبل . . وأغلب من حادثتهم من العارضين لايهتمون إلا بطريقتهم فى رسم الصورة. وهذا قصور بارز ، ولعله أكبر آفة تحل ببعض الفنانين المعروفين . فكل يريد أن يكون زعيم مدرسة وصاحب طريقة خاصة يعرف بها وتنسب اليه. وهذا جميل ومعقول بشرط أن يكون تلقائياً ويتطلبه مثل الفنان الأعلى ومنزعه. وأما أن يركب الفنان الشطط لالغاية أكثر من الشهرة والاختلاف عن غيره ، فهذا مالا يرضاه الفن . فلست أدرى ماالذى يدعو الأستاذ راغب عياد مثلاً إلى أن يقصر فنه على دراسة الأسواق وما شاكلها من نواحى الحياة المصرية التى سيأتى عليها الزمن بعد حين . قيل لنا إن عياداً يود أن يخلق فناً محلياً . وهذه رغبة نبيلة دون شك ، ولكن الفن المحلى الذي يموت لتوه إذا نقل إلى بلد آخر ، غير جدير باسم الفن . ومحلية الفن لاتتنافى مع عالميته . فالفن الإغريقى القديم له مميزات خاصة (وكذا المصرى القديم والإيطالى فى عهد النهضة) تمليها البيئة التى نشأ فيها ، ولكن هذا لم يمنعه من أن يكون فناً عالياً يدرس ويستوحى فى كل مكان

ويظهر أننا نخطيء فهم كلمة « محلى » كثيراً . فالفنان عالمى الذات بطبعه وروحه؛ والفن القوى يحقق شرطين : (١) القدرة على البقاء والاستمرار (٢) العالميه . ولكن عندما يعمد الفنان إلى رسم رقصات روحه وهمسات نفسه مضطر إلى أن يختار لها أشكالا وألوانا مما حوله أى من البيئة التى يعيش فيها . وكذا « روح العصر » تدفع الفنان إلى أن يبرز ويؤكد بعض نواحى الحياة ويترك بعضها . فهو يبين لنا تفاعله مع عصره بتوجيه

(١) معرض القاهرة الثامن عشر . افتتح يوم ١٦ ابريل سنة ١٩٣٨ وتنتهى مدته يوم ٨ مايو سنة ١٩٣٨

السرح عن كل شىء عداه . ويسرني أيضاً أن أرى هذه المسرحية تشغل تفكير نخبة من الأدباء أمثال أمين الريحانى ، وميخائيل نعيمة ، وحافظ محمود ، وكامل محمود حبيب ، والأب العلامة الكرملى ، وصديق شيبوب وغيرهم . وأعجب وفى مصر نخبة من الأدباء الذين يجردون أقلامهم لكل حادث أدبي ، كيف أن هذه المسرحية الطريفة لم تحرك أقلامهم بالكتابة لها أو عليها ، والرواية كما قلت من قبل حدث فى الأدب العربى الحديث ! زكى طليمات

الأنظار إلى ما هو خافٍ ، وتشنيع ما هو مستهجن ، وتمجيد كل ماهو نبيل ، وهكذا . ولكن عناصر الحياة هي هي فى كل زمان ومكان . والبيئة والعصر عاملان لا يكتمل فن بدونهما ، ولكن جوهر الفن واحد فى كل زمان ومكان

وحسبنا بعد ذلك أن نذكر أهم الفنانين :

لامراء فى أن الأستاذ محمود بك سعيد أبرز العارضين وأعمقهم شاعرية وإحساساً ، وفنه يفرض نفسه عليك فرضاً : فن ممتلئ قوة ودماً ، ورسوم تكاد من فرط حيويتها تترك لوحاتها وتشارك الأحياء حركة وكلاماً . والفنان يشعرك أنه يحب الحياة حباً لا نهاية له ، ويمجد جمالها تمجيداً تقصر عنه الكلمات وتقربه الألوان إلى النفس بعض الشيء ، وألوانه القوية تقول لك إنه يعتقد أن الحياة جميلة غنية محببة عميقة لا تعرف نفسه سبيلاً إلى الارتواء والاكتفاء مهما عب من معينها . ويجتمع عند الأستاذ سعيد خواص قلما تجتمع عند غيره ، أهمها التوفيق بين التعبير العاطفي القوي مع محاكاة الطبيعة . وفنه خير مثال للتعريف القائل بأن الفن هو الطبيعة وشعور الفنان مجتمعين

ولا أعرف أقصداً أم صدفة جاءت لوحات السيدة إيمي نمر قبالة لوحات سعيد بك ، وفن السيدة الفاضلة فن قوي ولكنه نقيض فن سعيد تماماً . ألوان سعيد تدل على الحيوية والفرح ؛ أما فن السيدة ايمي فهو قاتم حزين ، وألوانها توحي للنفس تأمل الفيلسوف الزاهد الذي يركز بصره على الناحية القاتمة من الحياة . وأي نفس لا تهش لمنظر البحر ويطربها انعكاس الألوان والأضواء على سطحه ، وتسلسل أنغامه ، وجيشان أمواجه وما ترسم على وجهه الريح من رموز وأسرار ، ولكن الفنانة تتغاضى عن كل هذا وترسم لك « منظر تحت سطح البحر » وماذا تعرض عليك ؟ عدة هياكل عظيمة « ومنظر طبيعي » يمثل الخريف بأقفاره وسهومه ووجومه ، « والأمومة » يخالط الأم فيها البؤس والشقاء وعبء الأمومة مع ما فيها من حنان ، « ومكتوفة اليدين » أبلغ ما يمثل لك الحيرة والبؤس والأسى وتفاهة الحياة مجتمعة — ولوحاتها تدل على أن طاقتها الفنية عميقة جداً

وفن السيدة برسيلون نوس (مصرية) فن ناضج ، ويتمثل نضوجها فى اختيار الألوان بحيث تعبر عن الجو العاطفي للصورة . وأحسن مايبدو هذا فى « الكهولة » حيث يغلب اللون الأصفر المزوج بالأحمر ؛ وفى « الرجل والزجاجة » — أما « رأس صعيدي » فتمثل روح الوجه القبلي تماماً ، و « رأس امرأة مصرية » تكاد تنطق روعة وشباباً . وبالجملة فهي رسامة شاعرة

وقد قال لي بعض من يعرفون الأستاذ حسين محمد بدوي إنه لا يعرض « فناً » وإنما يعرض طريقته الخاصة . وعلى كل فرسومه تدل على مقدرة فائقة ، ولكن هذا ليس كل شيء ، فما فائدة مقدرة لا يعرف صاحبها كيف يستخدمها . وطريقة الأستاذ لا تتفق إلا وموضوعات وحالات نفسية معينة لو تمدتها إلى غيرها تضر ولا تنفع . ولو عنى الأستاذ بهذه الناحية لكان فنه أوقع وأمتع وأبدع . وفن الأستاذ نجيب أسعد يغري بالمقارنة بفن الأستاذ حبيب جورجي ؛ إلا أن الأخير أرحب روحاً وأعمق نفساً . فمناظر الكنائس والأديرة التي رسمها الأستاذ جورجي يبدو فيها جلال الدين وقداسته . أما تلك التي رسمها الأستاذ أسعد ففيها تبدو الوحشة والكآبة التي تخيم على مثل هذه الأماكن . وهناك رسوم تدل على تمكن أصحابها من الرسم ، ولكن تنقصهم الرحابة الفنية . وأهم هؤلاء هم الأساتذة محمد محبوب ، ولبيب أيوب (وحسبه « العود » فهي لا عيب فيها) ونعيم جاب الله ، وإن كانت رسوم الأخير تدل على فهم تام بطبيعة الألوان وذوق دقيق فى اختيارها

وهناك طبقة أخرى اكتفت بأن حاكت الطبيعة محاكاة تامة ، ولوحاتهم تدل على تمكن من الصنعة ودقة ملاحظة ، ولكن لا أثر للفن فيها ، لأن الفن شيء والمحاكاة الفوتوغرافية شيء آخر . وأبرز هؤلاء الأساتذة ادموندصوصه ، وهيدايت دانش وجورج صباغ

وعدد الصور الآدمية Portraits فى المعرض كبير جداً . وهذه ناحية من نواحي الفن التي يقل فيها المجيدون ، لأن الغرض منها ليس نقل الملامح فقط بل نفسية الشخص ومميزاته الخلقية . ولذا فالفنان مجبر على دراسة من يتصدى لرسم صورته دراسة نفسية عميقة قبل أن يتناول ريشته . ولهذه الكثرة تفسير نفسي مقبول ، وهي أن النوازع النفسية التي تدفع الفنان إلى رسم الأشخاص تختلف ، وبعض هذه الدوافع تنتج فناً أصيلاً ، وبعضها ينتج فناً زائفاً — مثال هذه الأخيرة حب المدح وحب السيطرة والتملك . والفنان الأصيل يحلل مشاعره قبل أن يرسم

وهناك فنان شاب هو موريس فريد ، ولفنه ميزات بارزة أهمها اندماجه النفساني فى جو الموضوعات التي اختارها للوحاته ، وألوانه

وخطوطه تمتازان ببساطة معبرة تلائم روح المناظر الطبيعية التى تمثل سلام الطبيعة وسكونها وصفاء شمس مصر

أما فى فن النحت فمن أحسن العارضين الفنان الشاب فتحى محمود على؛ وحسبه «الأمومة»، ففيها كل العناصر التى يتألف منها الفن الناضج؛ وأديب يس يوسف وإن كان فنه فجاً بعض الشيء إلا أنه يحتوى على العوامل التى تصلح أساساً متيناً لفن قوى ممتاز، والفنان الايطالى فيتوريو روسين

* * *

وأرجو أن يتاح لى أن أنشر فى الرسالة قريباً سلسلة من المقالات أبين فيها فلسفة الفن الحديث وأصوله ومذاهب الفنانين المختلفة ومميزات كل مدرسة، وأعرض للنواحى البارزة لفن كل أمة. ورغبتى المتواضعة هى أن يتاح لدارس الفن ومحبيه الاطلاع على هذه النواحى ودرسها فقد لاحظت أنها مجهولة تماما بين كل من تعرفت اليهم. كما أن صور أغلبية من لا أعرفهم لا تدل على عرفانهم إياها

نصرى عطا الله سوس

بعد عام

مصطفى صادق الرافعى

للأديب أحمد فتحى

تلكَ أنغامُهُ، وهذا نشيدُهْ ... زَنَ فى مِسمَعِ العُلَى ترديدُهْ
أسعدَ الليلَ بالأغاريد، حتى ... غمر الليلَ بالمنى. غِرِّيدُهْ!
هاكَ أعوادَهُ تمايلُ فى الرَّوْ ... ضِ، فتهفو إلى ذراها ورودُهْ
كلما همَّ بالغناء تثنَّى ... مثل ليلاىَ فى المشارفِ عُودُهْ
طائر دفَّ فى الدُّجى بجناحَيْـ ... ـهِ على النَّهْلِ يُسْتَساغ ورودُهْ
كلما شارف المواردَ رَدَّتْـ ... ـهُ شجونٌ يضجُّ منها جليدُهْ!
قبَّلَ الطلُّ خدَّهُ، وتمادى ... نحو ثغرٍ يحكى الرُّضاب بَرودُهْ
وترامى الدجى على قدميـه ... والليالى كأنهن عبيدُهْ!
وهو هيْنٌ ما يَرُدُّ سؤالاً ... بيض أفكارِهِ سواء وسُودُهْ
إن طوَتْ ذِكْرَهُ الليالى فما زا ... لَ عزيزاً، قديمُهُ، وجديدُهْ

* * *

إيه يا مصطفى، وقد ضوِىَ العا ... مُ، ورفَّتْ على البرايا بنودُهْ
كيف أصبحْتَ فى مكانك بالخلْـ ... ـدِ، وأينَ صلاتُهُ وسجودُهْ
عيشُنا عارياتُ ربك فى الدُّنْـ ... ـيا، وللمتقين فيها خلودُهْ
يعشقُ الناسُ فى مباهجهِ المجْـ ... ـدَ ويَنفى طريفَهُ وتليدُهْ
ما ترى فى معاشرٍ جحدوا الشِّعْـ ... ـرَ وقد طابَ فى ذراهم جحودُهْ
إنَّ منه لحكمةً تترك القلْـ ... ـبَ قعيداً يملُّ منه قعودُهْ!
فيمَ سعْىُ الأنام والعيش نجمٌ ... يبهر العين نحسه وسعودُهْ
زخرفٌ كلها الحياة احتواها ... أملٌ يخدعُ الرجالَ شرودُهْ!
ما ترى العينُ غير مُلْكٍ من الوهْـ ... ـمِ تناهتْ سهولُهُ ونجودُهْ
سَرِّحِ الطرف، هل ترى غير خلق ... يتباكى شقيُّهُ وسعيدُهْ!!
كذب كلها الحياة، وعمرٌ ... ليس يبقى قصيرُهُ ومديدُهْ!

* * *

يا فقيدَ البيان، والشعرِ وحىٌ ... من عيونِ السماء تهمى قصيدُهْ
قد حفظنا عهودَهُ، لم نضعها ... ولقد طالما أضيعتْ عهودُهْ
ظلَّ فينا القريضُ قُدْسَ تراثٍ ... أنا بشَّارُهُ، وأنتَ لبيدُهْ!
شدَّ ما ضلَّ فتيةٌ رغبوا التحْـ ... ـويرَ فيه، وشاقهم تجديدُهْ
زعموا الشعر كالثياب، بعصرٍ ... يتشهَّى استحداثها فيه غِيدُهْ
قلَّدوا الغربَ فى نظم القوافى ... وهى عقدٌ ما ينبغى تقليدُهْ!
أين تلك الحصباءُ من ذلك الدُّرْ ... رِ صحيحاً يتيمُهُ وفريدُهْ!!

* * *

يا حبيبَ القرآن، وهو بيانٌ ... لاحَ إعجازُهُ وعَىَّ حسودُهْ
لم تزلْ هاتفـاً به تتغنَّى ... يبعثُ السِّلمَ فى النفوس نشيدُهْ
لك من طهر آيه بركاتٌ ... تُجزلُ الأجرَ للتقى وتزيدُهْ
إن شكوتَ الجحودَ فى ظل دهرٍ ... قد تساوتْ جِراؤُهُ وأسودُهْ!
فلكَ الغايةُ التى وَعَدَ اللهُ ... ويا حُسْنَ ما أعدَّتْ وعودُهْ
جنَّةً عرضُها السمواتُ والأرْ ... ضُ، وظلاً ما ينطوى ممدودُهْ

«القاهرة» أحمد فتحى



مطالعات فى « ألف ليلة وليلة »

عبد الله البرى وعبد الله البحرى

قصة فلسفية دينية

للدكتور حسين فوزى

—

إننى أراه هذا الصياد المعدم وقد عاد من صيده فارغ الجعبة ينتظره بالبيت تسعة عيال وأمهم التى وضعت فى هذا اليوم بالذات مولودها العاشر . أراه فى عودته واقفاً بباب الخباز وسط الزحام وكان « وقت غلاء ، ولا يوجد عند الناس من المؤن إلا القليل فى تلك الأيام » (١) ، يرمق الأرغفة المتراصة بنظر زائغ ، ويستعبر رائحة « العيش السخن » تشتهيه نفسه . أراه ماثلاً أمامى هذا الصياد « الغلبان » خرج صباح اليوم بأن الشبكة « على بخت المولود الجديد » فلا تصيد إلا رملاً وحصى وأعشاباً . وهو يتساءل « كيف يخلق الله هذا المولود من غير رزق » وقد حفظ من أقوال الأقدمين : « من شق الأشداق ، تكفل لها بالأرزاق . فالله تعالى كريم رزاق »

وإذا بالخباز يناديه ويسأله إن كان يطلب خبزاً . ثم يلح عليه فى أن يحمل منه ما يريد فهو صابر عليه حتى يأتيه الخير . ويرضى الصياد على شريطة أن يقدم شبكته رهناً ، فيرفض الخباز احتجاز الشبكة التى يقوم عليها أود الصياد ، ويعطيه خبزاً بعشرة أنصاف فضة ، ويقدم له عشرة أنصاف فضة « ليطبخ بها طبخة » . على أن يجيئه بسمكه فى الغد .

وفى اليوم التالى يخفق فى صيده كما أخفق فى اليوم السابق ، فيخجل أن يقف بباب الخباز . بل هو يعجل بخطاه أمام حانوته ولكن الخباز يناديه قائلاً « ياصياد ، تعال خذ عيشك ومصروفك فإنك نسيت » . ودام الحال على هذا أربعين يوماً حتى سئم الصياد هذه الحياة ، وود أن لم يكن المخبز فى طريقه إلى البحر حتى لا يضطر إلى المرور بالخباز الكريم . ولكن زوجه تشجعه على المضى إلى البحر ، وتشكر الله الذى قيض لهم هذا المحسن

ويذهب الصياد إلى البحر فى اليوم الواحد والأربعين وهو يدعو الله أن يرزقه « ولو بسمكة واحدة يهديها للخباز » : وإذا بالشبكة متثاقلة يسحبها فى مشقة . حتى إذا هى عادت إليه ألفاها تحمل . . . حماراً ميتاً ! وهرب من الرائحة الكريهة إلى ناحية أخرى من الشاطىء . وتثاقلت عليه الشبكة أكثر من المرة السابقة ، حتى إذا ماجذبها إليه خرج منها رجل حسبه الصياد « عفريتاً ممن اعتاد سليمان أن يحبسهم فى القماقم يرمى بها إلى البحر » . وصاح الصياد :

— الأمان ، ياعفريت سليمان !

فيجيبه الرجل :

— تعال ياصياد ، لاتهرب منى فأنا آدمى مثلك . خلصنى لتنال أجرى .

يخلصه الصياد و يعلم من أمره أنه ليس عفريتاً من الجن . فيسأله عمن رماه فى البحر ، ويجيبه بأن البحر مقره ومثواه . فهو من « أولاد البحر » وقع بالشبكة صدفة ، وكان بوسعه أن يقطعها ليخلص نفسه ، لولا أنه « راض بما قدر الله » . ويسأل الصياد أن يعتقه « ابتغاء لوجه الله » . ويتفق وإياه أن يجتمعا فى ذلك الموضع كل يوم ، فيأتيه الصياد بفواكه البر « وعندكم منها العنب والتين والبطيخ والخوخ والرمان وغير ذلك » ويأتيه هو

(١) الفقرات الموضوعة بين أقواس مقتطفة من النص الأصلى للقصة كما هى دون تبديل . وكذلك الأحاديث باقية كما هى فى الأصل . وكل ما اتخذته بشأنها هو ترتيبها حسب الأوضاع العصرية المتبعة فى القصص .

« بمعادن البحر من مرجان ولؤلؤ وزبرجد وزمرد وياقوت وغير ذلك » .

ويقرآن الفاتحة ، ويخلصه الصياد من الشبكة ثم يتفقان أن ينادى الصياد عليه من البر كما أراد ، قائلاً « أين أنت ياعبد الله يابحرى ! » فيلبى .

— والآن مااسمك أيها الصياد ؟

— اسمى عبد الله

— أنت إذن عبد الله البرى ، وأنا عبد الله البحرى . إنتظر حتى آتى لك بهدية

ويختفى عبد الله البحري فى الماء هنيهة تبدو لعبد الله البرى كأنها دهر . ويتأسف على تركه هـذا المخلوق يفلت من يديه ، وكان فى استطاعته أن يأخذه إلى المدينة يعرضه فى الأسواق ، ويدخل به « بيوت الأكابر »

ويعود عبد الله البحري باللؤلؤ والمرجان والزمرد والياقوت ملء اليدين . ويعتذر لأخيه عبد الله البري عن عدم تمكنه من أن يحمل إليه أكثر من ذلك . ولو أن « عنده مشنة لملأها له » ويتواعدان على اللقاء فى الأيام التالية

وغدا عبد الله البرى رجلاً واسع الثروة بفضل صداقته لسميّه البحرى . وقد أخفى سره إلا عن الخباز الذى أحسن إليه فى عسره . وراح يقاسمه الجواهر البحرية

ولكن هذه الثروة المفاجئة تستثير شكوك الناس . وينتهي الأمر إلى أن يتهمه شيخ الجوهرية بسرقة حلى ابنة الملك . ويقتاده الحرس إلى القصر ، فتنكر الأميرة أن هذه جواهرها . وترسل إلى والدها من يقول له بأن بعض اللآلئ أجمل من لآلئ عقدها . فيغضب الملك وينهر شيخ الجوهرية وأتباعه . فاذا اعتذر الرجل بأن « الصياد كان فقيراً فاستكثرنا عليه هـذا الغنى المفاجئ » صاح الملك فيه وفيمن حوله : « أتستكثرون النعمة على مؤمن ؟ اخرجوا لا بارك الله فيكم »

وسأل الصياد عن قصته فسردها عليه . وهنا يطاطئ الملك الحكيم رأسه هنيهة ثم يرفعه قائلاً :

— يا رجل ، هذا نصيبك . ولكن المال يحتاج إلى الجاه ، وأنا أسندك بجاهى

ثم يزوجه ابنته ويقيمه وزيراً له ، ويحنو على أطفاله العشرة وتكون زوجة الصياد موضع تكريم الملكة « فتنعم عليها ، وتجعلها وزيرة عندها »

وغداة الزواج يطل الملك من النافذة فيرى وزيره وصهره عبد الله حاملاً على رأسه « مشنة » ملأى بالفواكه فينكر عليه ذلك ، ويجيبه صهره بأن لا قبل له بإخلاف ميعاد صديقه عبدالله البحري ، خصوصاً فى الظرف الحاضر إذ يحق له أن يتهمه بأن « إقبال الدنيا عليه ، قد ألهاه عنه »

يحافظ عبد الله البرى على عهد صاحبه البحرى ، ويواصل قسمة الجواهر بينه وبين صاحبه الخباز . ثم ينتهى إلى التحدث بشأنه مع الملك الذى يقول له « أرسل إلى صاحبك الخباز وهاته لنجعله وزير ميسرة »

وربما حسبت القصة منتهية عند هـذا الحد . والواقع أن مجرد استقرار الحال قد يؤذن بختامها ، فعبدالله البرى يذهب كل يوم بسلة الفواكه يستبدلها بجواهر البحر . وحين تخلو البساتين من الفواكه يحمل إلى صاحبه الزبيب واللوز والبندق والجوز والتين . ويدوم الحال على هذا عاماً تتطور القصة فى آخره تطوراً جديداً أسرده عليك

جلس عبد الله البري ذات يوم على شاطئ البحر يتحدث إلى صديقه عبد الله البحرى فيبادره هذا قائلاً :

— يقولون يا أخى إن النبى صلى الله عليه وسلم مدفون عندكم فى البر ، فهل تعرف قبره ؟

— نعم ، فهو فى مدينة يقال لها طيبة

— وهل يزوره أهل البر ؟

— نعم .

— هنيئاً لكم يا أهل البر بزيارة النبى الكريم . فمن زاره استوجب شفاعته . هل زرته أنت يا أخى ؟

— لا ، فقد كنت فقيراً لا أجد ما أنفقه فى الطريق . ولم أصبح غنياً إلا منذ عرفتك . والآن وجبت علىّ زيارته بعد أن أحج إلى بيت الله الحرام . وما منعنى عن ذلك إلا محبتى لك

— وهل تفضل محبتى على زيارة قبر رسول الله الذى يشفع لكم يوم العرض على الله ؟

— إن زيارته والله مقدمة عندى على كل شىء . وأطلب منك إجازة أزوره هذا العام

— أعطيك الإجازة بزيارته . وإذا وقفت على قبره فاقرئه مني السلام . وعندي أمانة فادخل معي في البحر حتى آخذك إلى مدينتي وأدخلك بيتي ، وأعطيك الأمانة لتضعها على قبر الرسول

— يا أخي ، أنت خلقت في الماء ، ومسكنك الماء فهو لا يضرك . فهل إذا خرجت منه إلى البر يصيبك ضر ؟

— نعم ، يجف بدني وتهب عليّ نسمات البر فأموت

— كذلك أنا ، خلقت في البر ومسكني البر . فإذا دخلت البحر يدخل الماء في جوفي ويخنقني فأموت

— لا تخف ، فإني آتيك بدهان تدهن به جسمك فلا يضرك الماء ، حتى لو قضيت فيه بقية عمرك

وعبدالله البري رجل كله إيمان واستكانة . فهو راض أن يأتيه بذلك الدهان يجربه . ويحمل عبدالله البحري « المشنة » ويغوص في البحر . ثم يعود بها ملأى « شحماً مثل شحم البقر ، لونه أصفر كلون الذهب ، ورائحته زكية » . ويخبر صاحبه بأنه شحم نوع من الأسماك يقال له « الدندان ، أعظم أصناف السمك خلقة »

— وهو أشـد أعدائنا علينا ، وأكبر من أي دابة من دوابكم في البر . ولو رأى الفيل لابتلعه

— وماذا يأكل هذا المشؤوم يا أخي ؟

— يأكل من دواب البحر . أما سمعت المثل القائل : مثل سمك البحر ، القوي يأكل الضعيف ؟

— يا أخي ، إني أخاف إذا طوفت معك في البحر أن يصادفني هذا النوع فيأكلني

— خفف عنك ، فإنه متى رآك عرف أنك ابن آدم فخاف منك وهرب . فالدندان أشد ما يكون خوفاً منكم . لأن شحم ابن آدم سم قاتل له . بل يكفي أن يسمع صياح ابن آدم فيموت هلعاً

« وتوكل عبدالله البري على الله ، وخلع ملابسه ودفنها في رمال الشاطئ . ثم دهن نفسه بشحم الدندان وغاص في الماء . وفتح عينيه ومشى يميناً وشمالاً والماء لا يضايقه . وجعل ينزل إلى القرار ثم يرتفع بكل سهولة »

واندفع عبدالله البحري أمامه دليلاً له في تلك النزهة البحرية النادرة . فرأى عن يمينه وشماله جبالاً . وشاهد أصنافاً عديدة من الأسماك « البعض كبير ، والبعض صغير . منها مايشبه الجاموس ، ومنها مايشبه الكلاب ، وشيء يشبه الآدميين . وكلما قرب عبدالله البري من نوع هرب هذا منه . فيسأل صاحبه :

— يا أخي ، ما لي أرى كل هذه الأسماك تهرب منا ؟

— مخافة منك يا أخي . فجميع ما خلقه الله يخاف ابن آدم

ووصلا إلى جبل عال ، فمشى عبدالله البري بجانب الجبل . وإذا بصيحة عظيمة اتجه إلى مصدرها بنظره فرأى شيئاً أسود منحدراً نحوه من الجبل ، وهو « أكبر من الفيل والجمل » . وسمع صديقه عبدالله البحري ينادي عليه :

— دونك وهذا الدندان ، فهو متجه إلينا في طلبي ليأكلني . صح به !

وصاح عبدالله البري فزعاً وطائماً في آن واحد . فإذا بالدندان يقع ميتاً . يتعجب عبد الله البري ويقول : « سبحان الله ! لم أضربه بسيف ولا بسكين . وها هو ذا على ضخامة جسده لا يتحمل صيحتي ! »

ويدخل الصاحبان مدينة « بنات البحر » ، فيهتم عبدالله البري بأمر هذه الإناث لا ذكور لها ويتساءل كيف تستطيع أن تخلف نسلاً

— إنهن منفيات في هذه المدينة بأمر ملك البحر . ولا يمكنهن الخروج من هذا المكان ، أو تلتهمهن دواب البحر

— هل في البحر غير هذه المدينة ؟

— كثير

وجعل عبد الله البري « يتفرج على عجائب البحر » . وقد رأى لبنات الماء « وجوها كالأقمار ، وشعوراً كالنساء . ولهن أيد وأرجل نابتة في بطونهن ، وذنب كذنب السمك امتد من مؤخرهن » . وكان هذا شأن رجال المدن البحرية

— يا أخي ، إني أرى الإناث والذكور مكشوفي العورة .

— لأن أهل البحر لا قماش عندهم

— وكيف يصنعون إذا تزوجوا ؟

— أهل البحر — فيما عدا المسلمين منهم — لا يتزوجون. وكل من تعجبه أنثى ...

وما زال عبد الله البحري بصاحبه يدور به على المدائن وأهلها في أغوار البحر مدى ثمانين يوما . فيسأله عبد الله البري

— يا أخي ، هل بقيت في البحر مدائن ؟

— لو كنت فرجتك ألف عام ، كل يوم على ألف مدينة ، وأريتك فى كل مدينة ألف أعجوبة ، لما أظهرتك على قيراط من مدائن البحر وعجائبه .

— يكفينى هذا ، فقد سئمت أكل السمك ، وأنت لا تطعمنى صباحا ومساء إلا سمكا طريا ، لا مطبوخا ولا مشويا . فرجتنى على مدائن كثيرة ، فأين مدينتك منها ؟

ويبلغان مدينة عبد الله البحرى ، فيقوده إلى مغارة ويقول له :

— هذا بيتى . وكل من أراد أن يكون له بيت ذهب إلى الملك وعين الموضع الذى اختاره مسكناً . فيرسل معه الملك طائفة من السمك تعرف بطائفة « النقارين » ، لأن لها مناقير تفتت الجلمود

وإذ يدخلون البيت ، تتقدم ابنة عبد الله البحرى وتبادر أباها بالسؤال ، وقد نال منها العجب أن ترى مخلوقا لا ذنب له :

— يا أبى ، ما هذا الأزعر الذى جئت به ؟

— هذا صاحبي البري يا بنيتى ، من كنت أجىء لك من عنده بالفاكهة البرية . تعالى سلمى عليه

وتتقدم إليه الغادة ، وتسلم عليه « بلسان فصيح ، وكلام بليغ » وتقدم له القرى ، سمكتين كبيرتين « كل واحدة منهما مثل الخروف » فيأكل متبرما بهذا السمك النيء

وتحضر امرأة عبد الله البحرى ، وهى « جميلة الصورة . ومعها ولدان ، كل ولد فى يده فرخ سمك يقرش فيه كما يقرش الإنسان فى الخيار » . وما أن رأت عبد الله البرى حتى صاحت :

— أى شىء هذا الأزعر ؟

وتتقدم هى وولداها ، يطيلون النظر إلى مؤخرة عبد الله البرى ويقولون « أى والله إنه لأزعر » ويتضاحكون طويلا حتى يضيق ذرع عبد الله البرى بهذا الضحك فيلتفت إلى صاحبه ويقول :

— يا أخى ، هل جئت بى إلى هنا سخرية أولادك وزوجك ؟

ويعتذر عبد الله البحري عنهم مؤكداً له أن المخلوق الذى لا ذنب له فى البحر نادر . وأنه إذا وجد واحد من غير ذنب فإنهم يأخذونه للسلطان ليضحك عليه . فلا تؤاخذ هذه المرأة وهؤلاء الصغار ، فعقولهم كما تعرف ناقصة »

وبينما هم فى الحديث يفد عليهم عشرة أشخاص كبار شداد ، ويقولون لعبد الله البحرى « لقد عرف الملك بأنك جئت بأزعر من زعر البر ، وهو يريد أن يراه حالا »

ويأخذونه إلى الملك فيتلقاه ضاحكا وهو يقول « مرحباً بالأزعر » . وجمل من فى حضرة الملك يتضاحكون مرددين « أى والله إنه لأزعر ! »

ويقص عبد الله البحرى على الملك قصة صاحبه ، ثم يستأذنه فى أن يعود به إلى البر « لأنه سئم أكل السمك نيا ، ولا يحب أكله إلا مطبوخا ومشويا » . ويأذن الملك له بالرحيل بعد أن يزوده بهدية عظيمة من درر البحر وجواهره

ثم يعود به عبد الله البحرى إلى مغارته ، ويسلمه الهدية التى يرجو أن يوصلها إلى قبر النبى ، ويصطحبه عائداً إلى البر

وبينما هما فى طريقهما وسط الماء ، يلتفت عبد الله البرى إلى جماعة من أهل البحر يغنون ويرقصون حول سماط ممدود من السمك . فيسأل عما إذا كان عرساً هذا ، ويجيبه عبد الله البحرى : إنما هو مأتم

— أو إذا مات عندكم ميت تفرحون له ، وتغنون وتأكلون ؟

— نعم . وأنتم يا أهل البر ، ماذا تفعلون ؟

— نحن نحزن عليه ونبكى . وتشق النسوة جيوبهن ، ويلطمن ويندبن الميت

وهنا يحملق عبد الله البحرى فى صاحبه البرى ، ويستأذنه فى أن يسترد الأمانة . وعند وصولهما إلى البر يقول له :

— لقد قطعت صحبتك وودك ، فلن ترانى بعد اليوم

— لم هذا الكلام ؟

— ألستم يا أهل البر أمانة الله ؟

— نعم

— كيف يحزنكم أن يأخذ الله أمانته ؟ وكيف أعطيك أمانة النبي وأنتم إذا أتاكم المولود تفرحون به ، وقد أودع الله الروح فيه أمانة . فاذا استردها تندبون وتولولون ؟ كلا ، مابى حاجة إلى صحبتكم بعد اليوم يا أهل البر !

ويختفى عبد الله البحرى وسط الأمواج

ويعود عبد الله البرى إلى صهره الملك يقص عليه ما رأى من عجائب البحار

وقد لبث زمناً طويلا يذهب إلى الشاطىء ينادى صاحبه عبد الله البحرى فلا يلبى النداء

وتنتهى القصة بالصيغة التقليدية إذ تقول بأنه أقام والملك نسيبه

وأهلهما فى أسعد حال ، حتى أتاهم هادم اللذات ، ومفرق الجماعات ، وماتوا جميعاً . فسبحان الحي الذى لايموت ، ذى الملك والملكوت

أما أن الموت مفرق الجماعات فليس من شك فى ذلك . ولو أنه يشترك فى هـذا مع الحياة ذاتها ، فقد تكون الحياة مفرقة الجماعات ، ويمتاز الموت عنها بأن تفرقته نهائية لا مرد لها فى هذه الدنيا

وأما أن الموت هادم اللذات ، فهو أيضاً نهاية الآلام . وصاحب أو أصحاب قصص « ألف ليلة » هم آخر من يتكلمون عن اللذات ، وعن أن الموت هادمها . فان أبطال قصصهم يلاقون الأهوال ، ويعانون آلام النوى والبعاد والفقر ، وغير هذا من متاعب الحياة . نعم إن القصص تنتهى فى الغالب إلى خاتمة سعيدة ، يحاول المؤلف أن يلقى فى روعنا دوامها حتى مجيء مفرق الجماعات وهادم اللذات ، إلا أن هذا أمر نشك فى صحته كثير الشك

وهذه مسألة ثانوية على أية حال . والأهم لنا أن نكشف عما فى قصة « عبد الله البرى ، وعبد الله البحرى » من نفحة دينية عميقة ، تجعل لها مقاما خاصا بين قصص « ألف ليلة »

فهذا رجل معدم كثير العيال تقول القصة بأنه لا يمتلك إلا شبكته ، يروح بها كل يوم إلى البحر . فان اصطاد قليـلا باعه وأنفق على أولاده بقدر ما رزقه الله . وإن اصطاد كثيراً « طبخ طبخة طيبة ، واشترى فاكهة ، وما زال يصرف حتى يأتى على آخر ما معه وهو قائل فى نفسه : رزق غد يأتى غدا » ويوم تضع زوجته مولودها العاشر يخرج على بركة الله تعالى إلى البحر « على بخت هذا المولود الجديد » فتقول له امرأته « توكل على الله »

يمارس هذا الرجل الفقير وزوجه إذن فضيلة من الفضائل الدينية بإيمان كامل . ولـكن التجربة فى الولد العاشر كانت شديدة الوقر على الصياد . فقد مضى عليه أربعون يوماً لايجد فى شبكته رزقا .

وهنا تنتقل بنا القصة إلى طبقة اجتماعية أرق قليلاً من طبقة الصياد . وتقدم لنا مثلا جديداً من أمثلة الطيبة والورع فى صاحب الخبز الذى يتكفل بأود الصياد وأسرته أربعين يوماً دون تذمر وفى لباقة مؤثرة إذ يؤكد للصياد أنه لايعطيه إحساناً . بل هو محاسبه يوماً على ماقدم من خبز وعشرات فضة ، ولـكن عندما يأتيه الخير ، لاقبل ذلك . ولندع القصة نفسها تتكلم ، فتفصح لنا عما انطبعت عليه نفس هذا الخباز من الخير :

« ووقف الصياد ينظر ويشم رائحة العيش السخن . فصارت نفسه تشتهيه من الجوع . فنظر إليه الخباز وصاح عليه : تعال ياصياد . أتريد عيشاً ؟ فسكت . فقال له : تكلم ولا تستح فالله كريم . إن لم يكن معك دراهم فأنا أعطيك ، وأصبر عليك حتى يجيئك الخير »

ثم انظر إلى امرأة الصياد يشكو لها زوجها أمره مع الخباز فتقول له : الحمد لله الذى عطف قلبه عليك . هل آذاك بكلام ؟ فيجيبها : كلا ، وهو يقول لى دائماً ، انتظر حتى يأتيك الخير . وأنا أسألك ، متى يجيء الخير الذى نرتجيه ؟ ويكون رد الزوجة : الله كريم . فلا يتردد الصياد فى القول : صدقت . ويحمل شبكته إلى البحر فى اليوم الأول بعد الأربعين .

فاذا بها تصيد حماراً ميتاً « منفوخاً ورائحته كريهة » فيقول « لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » ثم يكاد إيمانه يتزعزع وهو يخاطب نفسه « قد عجزت وأنا أقول لهذه المرأة ، مابقى لى رزق فى البحر ، دعينى أترك هذه الصنعة . وهي تقول : الله كريم سيأتيك بالخير . فهل هذا الحمار الميت هو الخير ؟ »

ويتوجه فى غم شديد إلى مكان آخر مبتعداً عن رائحة الحمار ويلقى شبكته فتحمل إليه الخير كل الخير ، فى صورة سميّه البحرى يبادله فاكهة البر بجواهر البحر .

ويقينى أن صاحب القصة لم يختر اسم عبد الله اعتباطاً . وهذا الاسم يعزز ماأنا ذاهب إليه من أن القصة يحركها روح دينى ، ويسرى فى أعطافها إيمان عميق . فلم يختص المؤلف عبد الله البرى وعبد الله البحري بهذا الإسم . فهذا الملك يسأل صهره عمن يكون صديقه الخباز وما اسمه ، فيجيبه الصياد « اسمه عبدالله الخباز . وأنا اسمى عبدالله البرى . وصاحبي اسمه عبد الله البحرى » فيقول الملك « وأنا اسمى عبد الله ، وعبيد الله كلهم إخوان »

وهانحن أولاء نرى شخصاً آخر من أشخاص القصـة — وليس من الطبقة الفقيرة كالصياد ، ولا من الطبقة الوسطى كالخباز ، بل هو ملك البلاد بالذات — مفعماً إيمـاناً وثقة بالله ، فهو قائل لشيخ الجوهرية ومن جاءوا يتهمون الصياد بالسرقة « ياقبحاء ! أتستكثرون النعمة على مؤمن ؟ لـماذا لم تسألوه أولا ؟ ربمـا رزقه الله من حيث لايحتسب . أخرجوا ، لابارك الله فيكم »

وهو القائل بعد سماعه قصة الصياد « يارجل ، هذا نصيبك ولكن المال يحتاج إلى جاه ، فأنا أسندك بجاهى » ثم يزوجه الأميرة ابنته

وماذا تتوقع أن يكون اسم الأميرة بعد هذا ؟ أم السعود ! لو أن كاتباً رمزياً كتب قصة الايمان لما اختار للأميرة اسماً أفضل من هذا . « أم السعود » ، السعود الذى يلمع فى طالع المؤمن القانت .

وتعال معى إلى القسم الثانى من القصة ، ماذا نرى؟

هذا عبد الله البحرى يسأل صاحبه عن قبر النبى ويقول : « هنيئاً لكم يا أهل البر بزيارة هذا النبى الكريم » . ثم يدعو عبد الله البرى أن يغوص بصحبته فى أغوار البحر ليحمله هدية إلى قبر النبى

وتتجه القصة بعد ذلك اتجاهاً فلسفياً واضحاً لمن يطالع ما وراء السطور . فهذا البحر مظهر من مظاهر الكون تتضاءل حياله الأرض التى نعرفها . وها هو ذا « الدندان » أكبر أحيائه طرا يأكل من دواب البحر « أما سمعت المثل القائل : مثل سمك البحر القوى يأكل الضعيف ؟ » حكمة الخالق يصدع بها المخلوق

ويخشى عبد الله البرى إذا نزل مع صاحبه إلى البحر « أن يصادفه هذا النوع فيأكله » . وهنا يكشف صاحب القصة عن مرماه الفلسفى ، إذ يؤكد لنا بأن « الدندان » يموت لساعته إذا أكل ابن آدم . وليكفى أن يصيح فيه الانسان صيحة ليموت . أى تأمل ما تميز به الانسان الضعيف بجسمه، فهو يستطيع بعقله أن يتغلب على المخلوقات الأخرى . وهذا عبد الله البرى يسبح فى أمواه البحر فيرى جميع الأحياء البحرية تهرب منه . ويسأل صاحبه عن هذا فيجيبه « مخافة منك ، لأن جميع ما خلقه الله يخاف ابن آدم »

ويشهد بطل القصة عجائب البحار كما تخيلها المؤلف . وخياله فى أغلبه شبيه بتخيلات الشعوب الفطرية التى ترى فى آلهتها صوراً مما تشاهده حولها ، إنساناً أو حيواناً أو جماداً . ففى هذا البحر الخيالى جبال ووهاد ومدائن . وفيه « شىء يشبه الجاموس وشىء يشبه البقر، وشىء يشبه الكلاب ، وشىء يشبه الآدميين » وخيال صاحب القصة قائم على الـ anthropomorphisme حسب ما اصطلح عليه الباحثون في نفسية الشعوب الفطرية . فهو يصور بعض الأحياء البحرية تصويراً آدمياً مع تغيير طفيف اقتضته حياتها فى الماء : كالزعنفة الذنبية ، وتلك الأطراف النابتة من بطونها . ولهذا التصوير أصل من الواقع . وربما سمع صاحب القصة أو رأى نوعاً من الفقم يعرف بالدوجونج Dugong لا تزال تعرض بعض نماذجه على شواطئ المحيط الهندى باعتبارها « أبناء البحر وبناته » . وقد عرض علىّ بعض اليمانيين فى عدن ذكراً أو أنثى من تلك الحيوانات اللبونة على هذا الاعتبار

وللقارئ أن يفاضل بين قصة « عبد الله البرى وعبد الله البحري » وبين قصص « السندباد » — وربما عالجت تلخيصها على هذه الصفحات يوماً — ليرى فى هذه الأخيرة خيالاً أغزر مادة وأبرع أسلوباً . وفى رأيى أن الخيال فى قصص « السندباد » غاية ينتهى إليها الوصف . بينما هو فى قصة « عبد الله » واسطة لغاية هى مانحن بسبيله من المرامى الفلسفية للقصة

وأود بهذه المناسبة أن أشير إلى قصيدة « شيلر » وعنوانها « الغواص » (١) . وفيها يرسم لنا خيال الشاعر « الرومانتيكى » صورة لأعماق البحر من نوع يختلف كثيراً عما نحن بصدده فى قصة « عبدالله البحرى » . إذ يطلق « شيللر » العنان لخياله فى أسلوب جمع كافة المميزات الشعرية . بينما ينهج صاحب قصة « ألف ليلة » نهجاً واقعياً مباشراً فى وصف عالم البحار . كأن عبدالله البحرى أحد الأدلاء يشرح للسائح عبدالله البرى ما تقع عليه باصرته تباعاً

ورغم هذا الأسلوب الواقعى ، يلقى علينا المؤلف درسه الدينى من طرف خفى . ويظهرنا على قدرة الخالق بما يسرده علينا من وصف أنواع غريبة من المخلوقات . وإذ يبدى عبدالله البرى عجبه لكثرتها ، يجيبه عبدالله البحري « وأى شىء رأيت من العجائب . أما سمعت المثل القائل : عجائب البحر أكثر من عجائب البر ؟ » . وهذه حقيقة لا مغالاة فيها ، يعرفها كل من درس علم الأحياء

ويدخل الصديقان مغارة عبدالله البحرى . وهنا منظر عائلى كله أنس وبهجة . تأمل كيف تتندر الأسرة بالضيف «الأزعر»

---

(١) أعبر رجائى أن يتفضل حضرة الدكتور محمد عوض بترجمة هذه القصيدة لمجلة « الرسالة » . ومع يقينى بأن ترجمة كائنة ما كانت لا تستطيع أن تبز على توقيعها الموسيقى الرائع ، إلا أن ما نعرفه عن مترجم « فوست » و « هيرمن ودوروتيا » يدفعنا إلى الأمل أنه لا يحرم قراء العربية من قصيدة شيلر Der Taucher



المغرب الأقصى كما هو اليوم

في الأسبوع الماضي ألقى ضيف مصر الكريم الأستاذ محمد المكي الناصري مدير معهد الابحاث المغربية في تطوان محاضرة عن « المغرب الأقصى كما هو اليوم » بدأها بالكلام عن المغرب قبل دخول الاسلام إليه وقال إن هذه الكلمة كانت تطلق على الجزائر وتونس ومراكش قبل أن يفصلها الاستعمار الأوربي بعضها عن بعض فأصبحت كلمة المغرب تطلق على مراكش فقط.

ثم تكلم عن حدود البلاد ومناخها وخصب تربتها وغناها بالمعادن ومما هو كفيل بايجاد نهضة زراعية وصناعية كبيرة لو أتيح لها ما تصبو إليه وتجاهد من أجله وهو نيل الاستقلال التام وإدارة شؤونها بنفسها. ثم تكلم عن أهل البلاد وعناصرهم الأولى قبل الاسلام وقال إن الفتح الاسلامي لما دخل هذه البلاد وحد عناصرها المختلفة

ثم ألقى المحاضر نظرة على الأسر التي تعاقبت على الحكم في المغرب. ثم تكلم عن عهد الاحتلال الحالي وأفاض في وصف مطامع المستعمرين وجشعهم وقال إن فرنسا لما دخلت البلاد أدخلت نظاماً من مقتضاه إيجاد سلطتين سلطة مغربية والأخرى فرنسية وهما سلطتان متباينتان كثيراً ما تتغلب إحداهما على الأخرى ولهذا قضى على الوحدة فتجزأ المغرب وأعطيت لفرنسا المنطقة السلطانية ولأسبانيا المنطقة الخليفية واعتبرت منطقة طنجة منطقة دولية

وتوجد بجانب كل إدارة وطنية إدارة أخرى أجنبية تهيمن عليها وتكاد تجعلها صورية، فالسلطة التشريعية في يد الأجانب، أما السلطة التنفيذية فيوجد في كل مدينة إلى جانب الحاكم الوطني حاكم يطلق عليه لقب « الباشا » وحاكم القرية يلقب « بالقائد » ويلقب الحاكم في المنطقة الخليفية (بالمراقب) وفي المنطقة السلطانية

وانظر إلى دخول ولدي صاحب البيت « وفي يد كل ولد فرخ سمك يقرش فيه كما يقرش الإنسان في الخيار »

فهذه القصة اشتملت على عناصر كثيرة تجعلها في رأيي من أحسن قصص « ألف ليلة وليلة » بل ومن أفضل القصص في آداب العالم. كتبت بأسلوب واقعي يتجنب فيها الكاتب الارتفاع الشعري. وصاحب القصة مع هذا يتدرج بك من عالم الواقع حيث الصياد كثير العيال يكدح لكسب قوته وقوتهم، إلى عالم بين الواقع والخيال حين يقع عبد الله البحري في شباك عبد الله البري، إلى عالم كله خيال حين ينزل الصاحبان إلى أغوار البحر يتجولان في أرجائه دون أن يغير في أسلوبه كأن الأمر عادي، وكأن الصاحبين غادرا البصرة أو مسقط إلى بلاد السند أو زنجبار

والكاتب في هذا لا يغفل عن غرضه الفلسفي الأول: قدرة مبدع الكون، وقوة الايمان، والخضوع لأحكامه. ومع أنه لا ينسى أن يميز الانسان على سائر المخلوقات كما رأينا، إلا أنه يلقي عليه درساً كبيراً تختتم به القصة. ذلك حين يغضب عبد الله البحري إذ يسمع بأن الانسان يبكي موتاه، وهم في البحر يفرحون إذا ما استرد الله أمانته، أي « الروح التي أودعها الجسد ».

لا مراء إذن في أن قصة « عبدالله البري وعبدالله البحري » من أولها إلى آخرها تختلج بروح ديني عميق تميزت به عقائد أهل الشرق عن عقائد أهل الغرب. هو روح استكانة المخلوق للخالق، واعتباره الخضوع لأحكامه صورة مثلى للايمان

ولسنا في حاجة أن نعرف إذا كان صاحب القصة قصد إلى ذلك أو لم يقصد. فأمامنا القصة بنصها في الجزء الرابع من كتاب « ألف ليلة وليلة ». وقد حللنا العناصر التي تتألف منها واستخرجنا من بين سطورها ذلك الروح بلا عناء، ودون أن نجد فيها ما يناقض أو ما يضعف الاستنتاج الذي خرجنا به. حسين فوزي

(بالحاكم) وأسهب فى وصف مساوئ هـذه الادارة المزدوجة وقال إنه توجد هناك محاكم للأحوال الشخصية تصدر أحكامها وفقاً لمذهب الامام مالك وتوجد إلى جانبها « محاكم القواد » للفصل فى قضايا الجنح والسرقات وغيرها . ويوجد مجلس أعلى تستأنف إليـه أحكام محاكم الجنح ومجلس شرعى تستأنف إليه أحكام المحاكم الشرعية

ويوجد قسم كبير من الأراضى موقوف على التعليم الدينى ولكن الاحتلال وضع يده عليها فحول كثيراً منها فى غير الوجهة التى أوقفت عليها ماعدا المنطقة الخليفية فقد سلمت الأراضى الموقوفة فيها إلى يد الخليفة . وقال إن التعليم فى البلاد ينقسم إلى ثلاثة أقسام رسمى ودينى ووطنى ؛ فالرسمى مهمته الكبرى فى المنطقتين هى بث روح الاستعمار بين الأهالى ، وقد استصدروا أمراً فى المنطقة الخليفية بتعريب التعليم فيها ولا يزال السعى مبذولاً لتنفيذه ، أما التعليم الوطنى فيشمل جميع البلاد ، ولكن الاستعمار أصدر أمره فى اكتوبر الماضى بأن يقتصر هذا التعليم على مادة تحفيظ القرآن فقط ، وأما التعليم الدينى فنحن نطالب بتجديده وتنظيمه وفق النظام المتبع فى الازهر الشريف فى مصر

وبعد ما تكلم المحاضر عن كثرة الأحزاب فى المغرب قال إن البلاد فيها نهضة أدبية وفنية وفيها كثير من الأدباء والمثقفين الذين يعتمد عليهم فى الجهاد لتخليص بلادهم من أيدى المستعمرين . وقد تألفت فيها كتلة العمل الوطني لهذا الغرض بزعامة الأمير محمد بن عبد الكريم المعتقل الآن ، وهى تتأثر فى عملها بمصطفى كامل وسعد زغلول وغيرهما من زعماء الشرق

وهنا قويت حماسة الخطيب البليغ فاندفع كالسيل يقول إن ما ننتظره الآن من المشارقة ومن مصر خاصة باعتبارها زعيمة الشرق أن يتجهوا بأبصارهم الى بلاد المغاربة باعتبارها أوسع رقعة فى بلاد شمال أفريقية ومن أكثرها تمدنا ورقيا وأقواها جلداً على الجهاد فى سبيل رفعة شأن الاسلام

فلسطين والأستاذ الأكبر شيخ الأزهر

فلسطين (فيها بيت المقدس) وفى هذا موطن (الإسراء) ومتَّصَلُ (قوة الأرض) ب (قوة السماء) « سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى »

إنما (القدس) منزل الوحى مغنى كل حبر من الأوائل عالم
كُنفت بالغيوب فالأرض أسرار (م) مدى الدهر والسماء طلاسم
وتحلّت من (البراق) بطغراء (م) ومن حافر البراق بخاتم (١)

فإذا قرأت اليوم الكتاب المبين من الأستاذ الأكبر (الشيخ محمد مصطفى المراغى) إلى رئيس الوزراء فى الدولة المصرية فقل : إنمـا هو شيخ الإسلام يغضب للدين ، وإنمـا هو إمام المسلمين يرفرف — وقلبه خافق — على إخوته المؤمنين ، والله تعالى يقول : « إنما المؤمنون إخوة » ، فالملّة ملّته ، والأمة أمته ، والقوم فى الدين إخوته . وليست هذه المائدة بأول يد لمصر على فلسطين ، فشكراً ثم شكراً ، ثم شكراً . محمد اسعاف النشاشيبى

تقريب مناهج التعليم بين مصر والشرق العربى

أشرنا من قبل إلى الاتجاه الذى بدا أخيراً فى وزارة المعارف وهو التقريب بين المناهج التعليمية فى مصر والبلدان العربية الشرقية ، والاقتراح القائل بوجوب عقد مؤتمرات دورية تضم المبرزين فى شئون التربية والتعليم فى الحكومات المختلفة ، ليتذاكروا فيما يتصل بالنهضة العلمية والتعليمية

ونضيف اليوم أن صاحب المعالى محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف ، قد طلب الملف الخاص بتلك الفكرة ، وباحث فيها صاحب العزة وكيل الوزارة

وقد وافق معاليه على الاقتراح من حيث المبدأ ، وطلب وضع تفاصيل للتنفيذ ، حتى يمكن البدء به فى أول فرصة مناسبة

العلاقات الثقافية بين مصر والمغرب الأقصى

قدم إلى مصر الأستاذ محمد المكى الناصرى مدير المعهد الخليفى للابحاث الاسلامية فى مدينة تطوان للتفاهم على إيجاد علاقات علمية وثقافية بين مصر وبلاد المغرب الأقصى وتمكينها بين البلدين الشرقيين الاسلاميين بواسطة وزارة المعارف المصرية والأزهر ومن المشاريع التعاونية التى قدم للتفاهم عنها الاتفاق مع

(١) شاعر الاسلام أحمد شوقى رحمه الله

مشيخة الأزهر على العمل لنشر الثقافة الاسلامية فى بلاده بالطرق النظامية الحديثة التى أدخلت على الأزهر. وإرسال بعثة من بعض أصحاب الفضيلة علماء الأزهر لتدريس علوم الشريعة واللغة وفق هذه الأنظمة وبصفة رسمية، والعمل لنشر ثقافة الأزهر والاسلام بصفة عامة

ومن هذه المشروعات أن يقبل الأزهر بعثة من الطلبة المغاربة الذين أتموا دراساتهم فى مدارس الحكومة هناك لدراسة علوم الشريعة والتخصص فيها . وقبولهم بكلية الشريعة الأزهرية بصفة نظامية . وستوفد هذه البعثة رسمياً حكومة المغرب

بين العقاد والرافعى

جاءتنا المقالة الثالثة من مقالات الأستاذ سيد قطب ، فرأينا إرجاء نشرها إلى العدد القادم احتراماً لذكرى الرافعى . ونذكر بهذه المناسبة أننا تلقينا عشرات من المقالات فى هذا الموضوع لم يراع كاتبوها الأفاضل خطة الرسالة فى اجتناب فحش القول ومفسول الكلام . لذلك نستميحهم العذر إذا لم ننشر منها إلا ما نرى فيه فائدة للقراء وخدمة للأدب

حول كلمة « هال ها » أيضاً

سيدى الاستاذ الجليل صاحب الرسالة

بعد التحية : لاحظ الأستاذ محمد عبد الغنى حسن فى العدد الأخير من الرسالة (٢٥٢) على الشاعر « الخفيف » بُعْد كلمة « هال » عن المعنى الذى يقصده . وقال فى ختام كلمته تلك إن كلمة « هال » هذه تقال لزجر الإبل . والذى أعرفه أن الكلمة التى تقال لزجر الإبل ليست « هال » ولكنها « هلا » وقد استعملها المرحوم شوقى بك فى مسرحيته الخالدة « مجنون ليلى » حيث قال :

هلا هلا هيا اطو الفلا طيا
وقربى الحيا للنازح الصب

ولقد خشيت أن يكون الأستاذ الفاضل قد اشتبه عليه الحديث ولكننى اتهمت نفسى فعمدت إلى كتب اللغة أستلهمها الصواب فأيد القاموس والصحاح رأيى . فهل للأستاذ الفاضل أن يدلنى على المرجع الذى قرر أن كلمة « هال » تستعمل لزجر الإبل أو الخيل بدلاً من « هلا » وله منى مزيد الشكر وخالص التحية

عبد المؤمن محمد النقاش

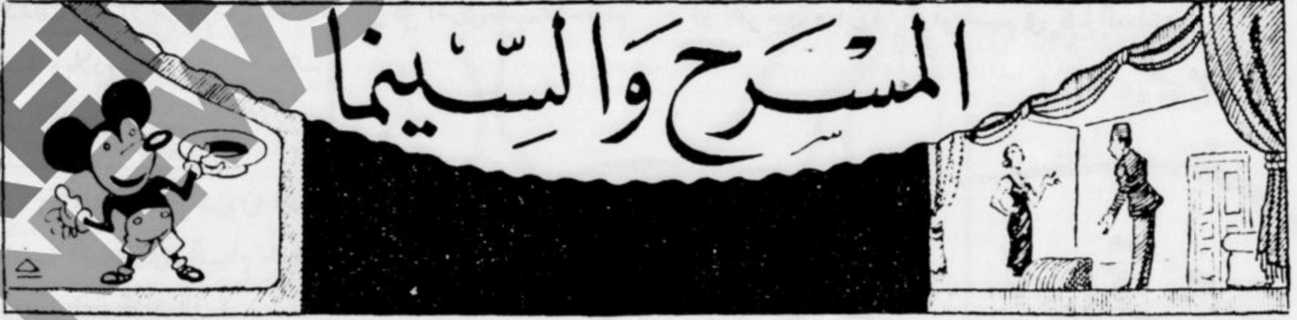
الموسيقى العربية للبارون رودولف ديرلانجيه

قد نشرنا فى العدد الماضى من الرسالة (٢٥٢) نقداً بقلم الأستاذ بشر فارس الدكتور فى الآداب من جامعة باريس فى المجلد الثانى من مجموعة التآليف الموسيقية العربية المنقولة إلى اللغة الفرنسية على يد البارون رودولف ديرلانجيه . وقد سألنا بعض القراء عن ناشر هذه المجموعة وعن اسمها باللغة الفرنسية . ونحن نذكرها هنا :

Baron Rodolphe d'Erlanger — La Musique arabe. Tome II. Edition Paul Geuthner, Paris.

ذكرى الرافعى فى محطة الإذاعة الفلسطينية

سافر أمس إلى فلسطين الأستاذ محمد سعيد العريان ، إجابة لدعوة مصلحة الإذاعة الفلسطينية بالقدس ؛ ليذيع فى تمام الساعة السابعة من مساء اليوم (الاثنين ٩ مايو) من محطة القدس ، حديثاً أدبياً عن فقيد العربية الكبير المرحوم مصطفى صادق الرافعى ، لمناسبة تمام سنة على وفاته



جولات ومطالعات

في المسرح والسينما

بقلم محمد علي ناصف

اللغة العربية في السينما

اقترح بعض حضرات النواب المحترمين سن قانون يقضي بوجوب استعمال اللغة العربية في مختلف الشركات والمتاجر التي تنشأ في مصر سواء كان أصحابها أجانب أم مصريين. وهذا واجب مشكور أعتقد أن إهماله هو إهمال لكرامتنا ونسيان لقوميتنا وإلغاء لأبسط قواعد استقلالنا

وليس يخفى أن مثل هذا القانون المقترح يحتاج إلى خطوات أو مهلة محدودة يتم في نهايتها تنفيذه. ولكن هناك نواحي أخرى لا يحتاج الأمر فيها لرعاية لغة البلاد واحترامها إلى مثل هذا الامهال، كالسينما مثلا

فالأفلام الأجنبية التي تعرض بمصر وترد إليها من عدة أمم مختلفة، تعرض هذه الأفلام بداهة بلغتها الأصلية، ولكنها تصحب بترجمة على نفس الشريط بلغة ثانية. المفهوم بداهة وعقلا أن هذه الترجمة تكون بلغة البلاد التي تعرض فيها الأفلام. فالفلم الانجليزي مثلا حين يعرض بفرنسا تصحبه ترجمة فرنسية والعكس. والفلم الألماني يشهده الجمهور الايطالي بترجمة إيطالية والعكس

ولكننا مع الأسف الشديد والعجب الأشد نختلف عن الأمم جماء؛ فالترجمة التي تصحب كل فلم أجنبي يعرض بمصر تكتب باحدى لغتين إما الفرنسية وإما الانكليزية كأنما هذه الأفلام لا تعرض للمصريين، وكأن المصريين الذين يدفعون — شعباً — إلى أصحاب هذه الدور ويتسامحون — حكومة — مع الشركات المنتجة فلا تقيدها بضرائب مرتفعة ولا بنسبة تحدد من إنتاجها ولو بحجة حماية الانتاج المحلي كما تعمل دول كثيرة؛ وفي مقابل هذا الكرم لا تكون إلا الاساءة وإلا الاهمال

وما من أحد يستطيع أن يصف هذا الأمر إلا بأنه إساءة وإهمال. فأي عذر تتعلل به هذه الشركات أو أصحاب هذه الدور الذين ينتفخون على حسابنا ومن أيدينا؟

إن العذر الوحيد الذي قد يقوم نصف قومة في مثل هذه الحالة هو أن تكون لغة البلد غير معروفة إلا لدى قلة لا تستأهل جهداً خاصاً، ولكن شيوع العربية على ألسنة الملايين وبين كثير من الشعوب ينفي مثل هذا العذر. ولقد رأينا بعض الأفلام القليلة النادرة الترجمة إلى العربية على نفس الشريط فكانت مؤيدة لوجهة نظرنا في هذا الموضوع وهي الوجهة التي قدرها أصحاب هذه الأفلام من حيث ضمان مصلحتهم المادية فضلا عن مصلحتهم الأدبية في اكتساب احترامنا وودنا

هناك حقاً لوحة صغيرة من القماش توضع بأحد جانبي الشاشة لعرض ترجمة عربية ركيكة مقتضبة نسميها ترجمة على سبيل المجاز؛ وكثير من الدور لا تكلف نفسها وضع هذه اللوحة فتكتفي بانعكاس الترجمة على الحائط.

ولكن هذه الوسيلة الحقيرة لا تجدر مطلقاً بلغة البلاد لغة الدين والعرش والحكومة. هذه الوسيلة الثانوية جديرة بأية لغة أخرى يشاؤها صاحب الفلم، أما لغة البلاد ففوق مشيئته ولها المكان الأول، وإلا فنحن في غنى عنه وهو ليس في غنى عنا. ولقد اجتمعت في هذه الوسيلة كل النقائص؛ فهي تجهد بصر المتفرج باضطراره أن يتتبع الصورة والترجمة في اتجاهين بدلاً من اتجاه واحد، كما أن الترجمة كثيراً ما تتخلف عن الصورة أو تتقدمها لأن لكل منهما جهازاً خاصاً — فيضيع بذلك كثير من الفائدة على متتبع الفلم، هذا فضلاً عن نقص الترجمة وعدم الاعتناء بها

إننا لن نسكت بعد عن هذه المهزلة ونرجو ألا يسكت عنها

كذلك أولو الأمر ورجال الصحافة . وكل امرىء يهمه احترام نفسه وبلاده .

الأديب والمخرج

فى حديث عن شئون المسرح والسينما للأديب الانجليزى وليام جراردى مؤلف كتاب الشهر (ابريل) My Wife's The Least of It يرى الأديب أن الوضع الصحيح لمخرج المسرحية أو الفلم أن يكون نفس المؤلف لأنه أقدر من أى إنسان آخر على اختيار الممثلين لشخصياته التى خلقها وعرف صفاتها وللمناظر التى رسمها وتمثل مشتملاتها ودقائقها وللجو الذى ابتدع فيه الحوادث . وهذا رأى له رونقه وبريقه ولكنه يفتقد الحقيقة فى كثير من نواحيه .

فالاخراج فن آخر غير فن التأليف . وهو ليس مقصوراً على اختيار الممثلين ورسم المناظر وحبكة الجو . ولكنه يشتمل على أمور كثيرة لا يستطيع اكتناهها أى فرد بينما قد يستطيع القارئ العادى أن يفهم ما كتبه وماتمثله المؤلف من كل سطر ومن كل شخصية من شخصياته ، وقد لا يعوزه تصور الجو الحقيق للحوادث وكذا تعرف الممثلين الذين يليقون بشخصيات المؤلف . وكثير من المخرجين يخلقون من أعمال المؤلف حياة أخرى هي فى الواقع أقوى من الحياة التى تدب بين سطور كتابه وإن كنت لا أنكر أن كثيرين من المخرجين يمسخون بعض المؤلفات لأسباب شتى بعضها يخرج عن طاقة الاخراج

وبعض المؤلفين يخرجون مسرحياتهم أو أفلامهم بأنفسهم ولكن أكثر هؤلاء ليسوا فى المرتبة الأولى بين الأدباء أو المخرجين وندر من يوفق منهم فى كلتا العمليتين

محمد على ناصف



﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى ٧ ﴾


الرسالة
مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون
السنة السادسة
العدد ٢٥٤

6 me Année, No . 254

Lundi - 16 - 5 - 1938

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العدد ٢٥٤ « القاهرة في يوم الاثنين ١٦ ربيع أول سنة ١٣٥٧ — ١٦ مايو سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهرس

مصطفى صادق الرافعي

بمناسبة ذكراه الأولى

— ٢ —



كان الرافعي رحمه الله حجة في علوم اللسان، ثقةً في فنون الأدب، عليما بأسرار اللغة، بصيراً بمواقع اللفظ، خبيراً بمواضع النقد، محيطاً بمذاهب الكلام. وقلما تهيأ هذه الصفات لغير المطبوعين من الأدباء الذين تعاطوا مهنة التعليم فاستنزفوا أيامهم في درس القواعد وحفظ الشواهد وفقه النصوص بحكم الصنعة. فكنت إذا ذاكرته في شيء من دقائق النحو وخواص التركيب وفروق اللغات وجدته على ظهر لسانه كأنما انصرف من مراجعته لوقته. ودراسة

الكاتب أو الشاعر للغته وفنه هي في رأيه ورأى الحق شرط لوجوده؛ فلا يكون النبوغ والأستاذية بدونه، ولا تجزى الطبيعية ولا المحاكاة عنه. وكان — شهد الله — في بينه وبين أخصائه يرفع أدب العقاد لوضوح هذه المزية في كل ضرب من ضروبه.

ولقد بلغ علم الرافعي بالعربية وآدابها حد الاجتهاد والرأي، فكان يقف في التعليل والاستنباط من ثقاتها ورواتها موقف الند: وقد يتعظّم أحياناً فيقف منهم موقف الأستاذ. فهو في أدبه مطلق الحرية مستقل الارادة في حدود المأثور من بيان العرب؛ ولكنه في فلسفته مقيد النظر مسيَّر الفكر لنزوله في الرأي على حكم الدين

على أنك لا تعدو الصواب إذا قلت إن حرية أدبه أشبه بعبودية فكره، لأن مصدرهما وموردهما واحد هو القرآن. والقرآن من جهة الأدب غاية الجمال، ومن جهة الفضيلة غاية الخير، ومن جهة الفلسفة غاية الحق. لذلك كان قوله في القديم والجديد قول العربي الذي يؤمن أن لغته التي تكلم بها الله نامية بذاتها لأنها حية، ومتطورة بطبعها لأنها قوية؛ وكان قوله في المرأة والرجل قولَ المسلم الذي يعتقد أن دين الله حق لا يُبطِله قدم، وأن شرعه قانون لا يعطله شهوة. وما دام العرب أحياء فأدبهم متجدد، وما دام القرآن خالداً فدينه قائم

على هذين القطبين كانت تدور فلسفة الرافعي الأدبية والاجتماعية. ولعلي تساهلت إذ قلت فلسفة الرافعي، فليس للرافعي فلسفة؛ إنما هي فلسفة القرآن وأدبه قام منها مقام ابن رشد من أرسطو: يقرر ويحرر ويدافع من غير أن يكون لمنطقه حكم ولا لرأيه اعتراض

***

كان الرافعي في بعض حالاته يفتنُّ في الصورة التي يرسمها افتنان المصور الخيالي. يضيف إليها من المشاهد ما لا تقره الحقيقة، ويضع فيها من الألوان ما لا تعرفه الطبيعة. وقصده القاصد من ذلك أن يريك قدرة ذوقه على الملاءمة، وقوة ذهنه على التوليد، ويعطيك للشيء أو للشخص صورة إذا لم تكن كانت، فهي التي ينبغي أن تكون. فهو إذا كتب في موضوعٍ ما سمح لعاطفته أن تجمح، ولهواه أن يدفع، ولفنه أن يزخرف، ثم يستخدم براعته في التدليل على صحة العاطفة ونزاهة الهوى وصدق الأداء، فيكون من امتزاج الخيال بالواقع، واشتباه الغلو بالقصد، والتباس البهرج بالصحيح صورة غامضة الدلالة، خافتة الروح، ولكنها بديعة الإطار، رائعة اللون، منمنمة الخطوط؛ وذلك أكثر ما تراه في حديث القمر والسحاب الأحمر، والمساكين، وأوراق الورد. أما إذا اتصل فنه بشعوره، وافتنانه بطبعه، ورأيه باعتقاده، فانك ترى الاشراق في اللفظ، والجلال في المعنى، والسمو في الروح، والإعجاز في الصنعة.

وهنالك تجد الرافعي في جلوة الإلهام التي تشهده هو نفسه فيقول لي ولمن يأنس إليه: إن حالا تشبه حالات الوحي تقوم به في بعض ساعات الليل حين يكتب في إعجاز القرآن أو في الدفاع عن أدبه، فلا يكون فيما ينشئ إلا وسيطاً ينقل عن قوة من وراء الغيب. وأكثر ماوقع له ذلك في كتابيه (تحت راية القرآن) و(وحي القلم). وكان من شذوذ العبقرية في الرافعي اعتداده بنفسه إلى حد الصلف، واعتقاده بالغيبيات إلى حد السذاجة. وله في ذلك حوادث وأحاديث ربما عرض لها صديقنا العريان في ترجمته له

والرافعي بعد ذلك كله كاتب من الطراز الأول قلما يجود بمثله هذا العصر المجنون الذي يتبجح بالسرعة ويريد أن يأخذ حظه الضروري من المعرفة مختصراً في رسالة، أو معتصراً في مقالة

***

هذه كلمة مجملة كتبناها عفو الخاطر وفيض الذاكرة في ناحية من نواحي أدب الرافعي، اعتمدنا فيها على خلاطه وحديثه وقراءته؛ أما دراسة الشرح والتفصيل، والنقد والتمثيل، والدعوى والدليل، فتلك لها طريقة غير هذه الطريقة، ومناسبة غير هذه المناسبة. ولعلي أرجع إلى الرافعي في عدد قريب فأعلن ما أفضى به إلى من الرأي الحق في خصميه طه والعقاد

احمد حسن الزيات

مات الرجل العظيم

محمد إقبال

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —

فى اليوم الحادى والعشرين من أبريل الماضي والساعة خمس من الصباح ، فى مدينة لاهور مات رجل كان على هذه الأرض عالَماً روحياً ، حاول أن يُنشئ الناس نشأة أخرى، ويسنّ لهم فى الحياة سنة جديدة؛ وسكن فكرجوّال جمع ما شاءت له



محمد إقبال

قدرته من معارف الشرق والغرب ، ثم نقدها غير مستأسر لما يُؤثر من مذاهب الفلاسفة ، ولا مستكين لما يُروى من أقوال العظماء ؛ ووقف قلب كبير كان يحاول أن يصوغ الأمة الاسلامية من كل ما وعى التاريخُ من مآثر الأبطال وأعمال العظماء ؛ وقرّت نفس حرّة لا يحدّها زمان ولا مكان ، ولا يأسرها ماض ولا حاضر ، فهى طليقة بين الأزل والأبد، خفّاقة فى ملكوت الله الذى لا يُحدّ

مات محمد إقبال الفيلسوف الشاعر الذى وهب عقله وقلبه للمسلمين وللبشر جميعاً . الرجل الذى كان يخيّل إلىّ وأنا فى نشوة من شعره أنه أعظم من أن يموت، وأكبر من أن يناله حتى هذا الفناء الجثمانى

فاضت روح الرجل الكبير المحبوب فى داره بلاهور ورأسه فى حجر خادمه القديم الوفىّ (الاهى بخش) وهو يقول : إنى لا أرهب الموت . أنا مسلم أستقبل المنيّة راضياً مسرورا

كنت أقرأ كلام إقبال فى الحياة والموت، وأرى استهانته بالحِمام، واستهزاءه بالذين يرهبونه . وما كان هذا خُدعة الخيال، ولا زُخرف الشعر فقد صدق إقبال دعوته فى نفسه حين لقى الموت باسما راضياً

جد المرض بإقبال منذ سنة ، وكان يقترب إلى الموت وهو متقد الفكر ، قوى القلب ، يصوغ عقله كلمات يوقظ بها النفوس النائمة ، وينثر قلبه شَرراً يشعل به القلوب الهامدة . وكان يعنى بنظم كتابه (آهنكَ حجاز) : لحن الحجاز . وكان قلب الشاعر يهفو إلى الحجاز وقد تمنى فى خاتمة كتابه (رموز بى خودى) أن يموت فى الحجاز . ومما نظمه فى أشهره الأخيرة :

آية المؤمن أن يلقى الردى باسم الثغر سروراً ورضا

وقد أنشد هذين البيتين قبل الموت بعشر دقائق ، وهما مما أنشأه أخيراً :

نغمات مضين لى ، هل تعود ونسيم من الحجاز سعيد ؟

آذنت عيشتى بوشك رحيل هل لعلم الأسرار قلب جديد !

وآخر ما أنشأ من الشعر بيتان أترجمهما نثراً :

« قد أعـدّت جنة لأرباب الهمم ، وجنة أخرى لعُبّاد الحرم . فقل للمسلم الهندى لا تحزن، فكذلك للمجاهدين فى سبيل الله جنة »

— ٢ —

كان تشييع إقبال إعرابا رائعاً عما للرجل الفذ فى قلوب أهل الهند عامة ومسلميه خاصة . احتشدت عشرات الألوف تودّعه بالبكاء والزفرات ، وشاركت النساء بالعويل والنحيب ، وتنافس الحاضرون فى حمل النعش فوضع على خشبتين طويلتين ليتسنى لكثير من المشيّعين أن يشرفوا بحمل الرجل العظيم إلى مثواه الأخير . وقد بلغت الجنازة شاهى مسجد وخلفها زهاء أربعين ألفاً ، فوقف الناس ساعة كاملة حتى تيسر لهم أن يصطفوا للصلاة على الفقيد الجليل، ثم نقلت الجنازة الى حديقة متصلة بالمسجد . وهنالك والساعة عشر إلا ربعاً من المساء غربت شمس إقبال فى جدثها ، وطُوى الجهاد الذى ملأ الدنيا فى لحده ، وأدرجت الحكمة والشعر والحرية التى تأبى الحدود والقيود فى جَنَبَتها

وضع محمد إقبال فى قبره

وغشى القبر الذى تضمن روضة الشعر بضروب الزهر والريحان ، ثم نثرت عليه أزهار أخرى من أقوال الخطباء والشعراء الذين أطافوا بالشاعر الخالد

وتجاوبت أرجاء الهند بأقوال الكبراء يعربون بها عما أحسوا من لوعة ، وما دهى الهند من مصيبة ، بموت شاعرها الأكبر . اجتمع على هذا المسلمُ وغير المسلم ؛ فهذا جواهر لال نهرو يقول : « لقد دهتنى وفاة إقبال بصدمة هائلة . شرفتُ بلقاء إقبال

ومحادثته منذ قليل ؛ وكان مستلقياً على فراش المرض ، ولكن كان لفكره العالي ونزعته الحرة في قلبي أثر بليغ . لقد فقدت الهند بفقد إقبال كوكباً لألاء مضيئاً ، ولكن شعره سيخلد في قلوب الأجيال الآتية ، وذكراه العظيمة لن تموت »

وهذا الدكتور محمد عالم يقول :

« لا تستطيع أرض البنجاب أن تخرج إقبالاً ثانياً في عصور طويلة » . ويضيق المجال عن الإكثار من أقوال أعلام الهند في فقيدهم

وأرخ بعض الشعراء وفاة إقبال (سنة ١٣٥٧) في قوله :
تاريخ « بور إقبال شاعر مشرق » — كان إقبال شاعر الشرق . وأرخ آخر بقوله : كنه علامة إقبال سوى بهشت برين : ذهب العلامة إقبال شطر الجنة العالية .
ترك الشاعر النابغة ابنين وبنتاً وأخاً وثلاث أخوات

— ٣ —

ولد محمد إقبال في سيالكوت سنة ١٨٧٦ م من عشيرة قديمة دخلت في الاسلام منذ ثلاثة قرون، وكانت تقيم في كشمير ثم اضطرتها الحوادث أن تهاجر إلى البنجاب واستقرت أسرة اقبال في سيالكوت

وبدأ تعلمه في البلد الذي ولد به ، ودرس على العالم الكبير مير حسن فأذكى في قلبه حب الآداب الشرقية . ثم انتقل إلى لاهور للدراسة العالية فكان من أساتذته السير توماس ارنولد أستاذ الفلسفة الاسلامية . وقد سمعت أرنولد يفخر بأن اقبالا تلميذه . وفي ذلك الحين شدا اقبال الشعر ، فرجا الناس فيه شاعراً خطيراً . ونال درجة أستاذ في الأدب (M.A) وصار مدرس الفلسفة في إحدى الكليات

وسنة ١٩٠٥ م سافر إلى أوربا فتعلم في كمبردج القانون ، ثم ذهب إلى ألمانيا فدرس الفلسفة . وبعد ثلاث سنين من خروجه من وطنه رجع إليه مرجواً لأمته محبباً إليها . وعمل في المحاماة وقصده الناس لاستشارته والاستعانة به في كثير من الأمور التي كانت تهم المسلمين . وما زال نجمه يسطع ، وصيته يذيع ، وشعره يجوب أرجاء الهند ويستقر في كل قلب حتى اجتمعت قلوب المسلمين عليه ، ورددوا أقواله في خطبهم ومقالاتهم ، وتقيلوه في أعمالهم ، وكأنما أذكى الشاعر العبقري في كل قلب جذوة ، وملأ كل رأس فكراً ، وكل نفس حرية وعظمة ، حتى مات وكلٌّ يتشبه به ، ويطمح إلى أن يكون من المهتدين بهديه

وسأعود إلى الكتابة عن فلسفته وأدبه ان شاء الله

والله يعوض الأمم الاسلامية ويعزيها عن اقبال بالاستجابة لدعوته والسير على أثره

عبد الوهاب عزام



منذ عشرة أعوام عُقدت معاهدة على جبل « أولمب » بين « أبولون » و « كوبيدون » تتعلق بي . ولا أعرف على وجه التفصيل نصوص تلك المعاهدة . فلقد كانت معاهدة سرية . ولكن يخيل إلي أن « آله الفن » أراد أن يعتبرني من « مناطق نفوذه » ، فحرم على إله « الحب » أن يلقي سهما واحداً من قوسه الذهبي إلى هذه المنطقة . وقد تبين لي في مواقف كثيرة من حياتي أن إله « الحب » قد احترم حقاً هذه المعاهدة. وفي أحيان أخرى رأيت كأن « كوبيدون » ينظر إلى « قلبي » نظرات ملؤها المطامع الاستعمارية ، وأنه يتحين الفرص والظروف . وإله الفن ، كما هو معلوم ، ينادي دائماً بالحرية ، إذ لا فن بغير حرية مكفولة في كل زمان . وإله الحب ينزع إلى السلطة والسيطرة والعنف والتقييد بالسلاسل والأغلال . ولست أدري لماذا يذكرني هذا الصراع بينهما بالصراع القائم بين « انجلترا » و « ايطاليا » ؟ فانجلترا بلد الديمقراطية والحرية ، وايطاليا رمز الدكتاتورية والسلطة الطاغية . ولقد وقع حديثاً نزاع بين الطرفين ، فأغفلت المعاهدة وألقيت السهام ، وأعلن الدكتاتور أنه افتتح المنطقة « الحرام » . فلم يعترف له منافسه بهذا الفتح . وسارت الأيام سيرها وأنا راض مطمئن اطمئنان « النجاشي » المسكين ، إلى أن قرأت في البريد الأخير أن انجلترا ستحمل العالم على الاعتراف بالفتح الايطالي « للحبشة » ، فوضعت يدي على « قلبي » وأدركت أن « الحرية » الجميلة ليست إلا حَمَلا ضعيفاً تنتظره دائماً أنياب الذئب ، وأن « المعاهدات » ليست إلا « محطات » انتظار لساعات الوثوب

توفيق الحكيم

صفحة من تاريخ

استيطان العرب لمصر

للدكتور حسن إبراهيم حسن
أستاذ التاريخ الاسلامي بكلية الآداب

كان العرب فى مصر جلّهم من الجند المقاتلة وقت الفتح ، ولم يزد عددهم على ستة عشر ألفاً فى هذا الوقت . ولم تكن سياسة الخلفاء الراشدين تسمح بنزول الجنـد فى ريف مصر بقصد إقطاعهم الأراضى حتى لا يصرفهم ذلك عن الجهاد . وزاد عدد الجند العرب فى مصر فبلغ أربعين ألفاً فى عهد معاوية بن أبى سفيان

ولا شك أن هذا العدد أخذ يزداد بازدياد العنصر العربى فى مصر ، وهذا نتيجة طبيعية لما كان من لحاق نساء الأجناد وأولادهم للإقامة معهم فى هذا البلد ، واتخاذهم إياه وطناً جديداً ، وما كان أيضاً من التزاوج والاندماج فى سكان البلاد الأصليين . ولعل العرب لم يفطنوا لأمر إحلال الـكتائب بعضهم محل بعض فى الأقاليم الإسلامية ، الهم إلا ما كان من تناوب الأجناد الإقامة فى الثغور كل ستة أشهر . وليس لدينا من المعلومات التاريخية ما يثبت أن قاعدة استبدال الـكتائب فى الولايات كانت معروفة عنـد غير العرب كالرومان والفرس . بيد أن عدم احتمال هذا الأمر أقرب إلينا من جواز احتماله لما كان يتطلبه من كثرة الأسفار

غير أن العرب فى مصر — على الرغم من زيادة عددهم كما بينا — كانوا فى أوائل القرن الثانى للهجرة من القلة بحيث رأى عبيد الله بن الحَبْحَاب عامل الخراج على مصر أن يشير على الخليفة هشام بن عبد الملك أن يأذن له فى إسكان العرب من قيس فى أرض الحوف الشرقى ، وأكد للخليفة أن نزولهم لا يضر بسكان البلاد . وكان يقيم فى هذه الـكورة نفر يسير من جديلة

نزلت قيس جهة بلبيس . وسرعان ما قارب عددهم خمسة آلاف ، وأخذوا يستثمرون الأرض ويتجرون فى الإبل والخيل ، وكانوا يحملون عليها غلات أرضهم إلى القلزم حيث تشحن إلى بلاد العرب . هذا وقد كان لقيس [1] ضلع كبير فى الفتن التى أقامها المصريون فى وجه الولاة حين هموا بزيادة الخراج [1]

ولقد وفدت القبائل العربية على مصر تدريجيًّا ، فجاءت قبيلة الـكنز من ربيعة فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى فأقاموا فى الصعيد ، واندمجوا فى السكان بالمصاهرة ، وكانت لهم ضلع فى الثورات والفتن التى قامت بمصر وعلى الأخص فى أواخر عهد الفاطميين إذ ثاروا على صلاح الدين الأيوبى بعد أن تولى الوزارة بقليل

على أن اندماج العرب بالمصريين اندماجاً فعليًّا لم يتم إلا بعد أن أسقط المعتصم العرب من الديوان ، وأحل مكانهم جنداً من الأتراك ، فانتشر العرب فى الريف واحترفوا الزراعة وغيرها طلباً للرزق ؛ وازداد اندماجهم فى السكان بالمصاهرة ، ومن ثم أخذ التمييز العربى يتلاشى شيئاً فشيئاً ، وبدأ ظل الولاة من العرب يزول بإحلال الولاة من الأتراك محلهم ؛ ولم يحكم مصر بعد ذلك عربى إلا إذا استثنينا عنبسـة بن اسحق (٢٣٨ — ٢٤٢ هـ) والخلفاء الفاطميين

تم فتح مصر على أيدى جند العرب ، ولم يشأ عمر أن يقطعهم أرضها ليكونوا على أهبة الاستعداد لتلبية نداء الجهاد وفتح البلاد المجاورة لمصر لتأمن مصر نفسها وليستقر بذلك سلطان العرب فيها . وقد فتح العرب في ولاية عمرو بن العاص الأولى بلاد برقة سنة إحدي وعشرين للهجرة وطرابلس فى السنة التالية وغزوا إفريقية سنة ٢٧ هـ تحت قيادة عبد الله بن سعد (٢٥ — ٣٥ هـ) والى مصر إذ ذاك ، وهزموا الروم فى هذه البلاد وقتلوا ملكهم ، وخربوا قاعدة ملـكه وتوغلوا فى بلاد إفريقية وصالحوا أهلها [2] ، وغزوا بلاد النوبة سنة ٣١ هـ حتى وصلوا دنقلة ، وفى هـذه السنة اشتبك الأسطول المصرى مع أسطول الروم فانتصر الأول فى واقعة ذات الصوارى ، ثم غزوا طرابلس مرة أخرى فى ولاية عمرو بن العاص الثانية

ويظهر لنا أن هـذه الغزوات لم يكن القصد منها الاستعمار لهذه البلاد وإدخالها فى حوزة العرب كما كانت الحال بالنسبة إلى مصر ، وإنما كان قصد الخلفاء وولاتهم على مصر القيام بها لتأمين

---

(١) قال الـكندى (ص ٩٤ — ٩٦) : إن قيساً قامت فى وجه مروان ابن محمد آخر خلفاء بنى أمية حين جاء إلى مصر هارباً من وجه العباسيين =

= وقال المقريزى (الخطط ج ٢ ص ٨) : إن قيساً هذه مالأت مروان

(١) أنظر الـكندي ص ٧٦ والخطط للمقريزى ج ١ ص ٨٠ — ٨١

(٢) قيل إن أهل إفريقية صالحوا عبدالله بن سعد على ٢,٥٠٠,٠٠٠ دينار ثم شرطوا له بعد أن توغلت جنوده فى داخل البلاد ٣٠٠ قنطاراً من الذهب على أن يخرج من بلادهم ففعل بعد أن أقام المسلمون سنة وثلاثة أشهر

فلسفة التربيـــــة

تطبيقات على التربية فى مصر

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ١٦ —

« كاد المعلم أن يكون رسولا ..! » « شوقى »

« إنما الصعوبة هى في إيجاد أولئك الأساتذة الأفاضل الذين يستطيعون أن يحملوا الشعلة وأن يناولوها غيرهم بجرأة وحماس وإخلاص وإقدام . ! »

« قد نبنى المدارس وننفق فى تشييدها وإعدادها ملايين الجنيهات، ولكنا قد نعجز مع ذلك عن تكوين الرجل المنشود! »

« أفضل النظم جدير بالفشل التام إذا لم يقم بتنفيذه من هو كفؤ له . ! » « من رسالة الدكتور جاكسون »

٦ — المعلمون

رأيت فى المقال السابق بعض أسباب فشل النظام فى المعاهد الدراسية وتبينت أثراً لمسئولية النظار والمدرسين فى ذلك الشأن . وسترى اليوم ناحية أخرى لها من الخطورة والطرافة في عملية التربية ما يجعلنا نهتم بها كل الاهتمام ، ونصرح فيها بأشياء ما كنا لنذكرها لولا حرصنا على المصلحة العامة ، ولولا أملنا فى أن يقابل الجميع الحقائق — على مرارتها — بصدر رحب وتقدير نزيه :

١ — مفارقات

قال المرحوم شوقى بك :

قم للمعلم وفِّه التبجيلا ... كاد المعلم أن يكون رسولا !
أعلمت أشرف أو أجلّ من الذى ... يبنى وينشىء أنفساً وعقولا !

وأحسب أن معنى ذلك الشعر العذب واضح لا يحتاج إلى بيان ، وصادق لا مبالغة فيه ولا تهويل ! فترى هل يشعر المعلم عندنا بكل ما فيه من معنى ؟ أو هل تساعده الظروف على أن يتمثل به ويحققه فى حياته الخاصة والعامة ؟ ذلك هو السؤال العسير الذى فكرت فيه كثيراً وتألمت من أجله طويلاً ، ولست أدرى متى يقف تفكيرى فيه وألمى من أجله !!

إن المعلم أيها القارىء هو الطرف الأول فى عملية التربية والتعليم ، فإذا لم يستطع أداء عمله كما ينبغي فقل على الأمر السلام ! فترى هل يجوز أن يكون ذلك الطرف مجرد ناقل علم فحسب ، ما إن يدخل الفصل حتى يتكلم ويتكلم ، ويكتب بالحك ويكتب ، ثم يخرج ويدخل هكذا كل يوم ويخرج ، دون أن تقوم بينه وبين الطلبة عاطفة من ود ولا وشيجة من إخاء ؟؟

وترى هل يجوز أن يكون ذلك الطرف متبرما من عمله ، ساخطاً عليه ، ثائراً على القدر الذى ابتلاه به ، حاسداً لنظرائه فى المهن الأخرى حيث الراحة والجاه ، والكسب الوافر والنعيم الوموق[1] ؟؟

وترى هل يجوز ألا يقبل ذلك الطرف على تلك المهنة الخطيرة إلا مضطراً لا ميل يدفعه ، ولا غرام يحببه ، بل هى الوظائف قد أقفلت بعد الجامعة أبوابها فى وجهه ، وهو « المعهد » قد فتحها

(١) أذكر أنى كنت أستمع يوما مع بعض الزملاء إلى محاضر يتحدث عن حياة الأرواح فى العالم الآخر ويقرر أن هناك مدارس ومعلمين ، فما كان من الزملاء إلا أن ضجوا وتبرموا خيفة أن يكون نصيبهم بعد الموت هو تلك المهنة الشاقة التى ملأت عليهم حياتهم هما وشقاء وعسراً ونصباً !!

مصر من الغرب والجنوب ولذلك كان فتح بلاد المغرب

وكان العرب يقنعون بما يصيبونه من الأسلاب والغنائم وظلوا على ذلك حتى تحولت وجهة نظر الخلفاء ، فأخذوا يهتمون بأمر بلاد المغرب بوجه خاص، فأرسلوا إليها الجند للمحافظة عليها، وقلدوا ولايتها ولاة مستقلين فى الحكم عن أمراء مصر أو نائبين عنهم فى حكم هذه البلاد إذا جُمع بين مصر والمغرب لوال واحد[1]

وقد قام المصريون بدور هام فى الغزوات البحرية فى هذا العصر ، فقد بنى مسلمة بن مخلد (٤٧ — ٦٢ هـ) فى جزيرة الروضة داراً لصناعة السفن وإصلاحها . وكان لبناء هذه الدار فوائدها فى حروب مصر البحرية ، فقد غزا رودس الأسطول المصرى، جهزه عقبة بن نافع سنة ٤٦ هـ وتم له فتحها سنة ٥٣ هـ ولما جاء عهد سليمان بن عبد الملك (٩٦ — ٩٩ هـ) أصبح لمصر أسطول قوى شارك أسطول الشام فى غزو القسطنطينية وإن كانت هذه الغزوة قد عادت على الأسطولين المصرى والشامى بالفشل

ولقد خاض الجند العرب غمار الفتن السياسية التى قامت في هذا العصر بين الخلفاء الأمويين والخارجين عليهم ، وكذا بين بنى العباس ومناوئيهم ، وكان لتدخلهم أثر ظاهر فى هذه الفتن .

حسن إبراهيم حسن

(١) جمع مسلمة بن مخلد والى مصر الصلاة والخراج والمغرب فأقام بمصر وبعث مولاه أبا المهاجر ديناراً عنه فى المغرب ، وذلك فى خلافة معاوية بن أبى سفيان

ورحب به نائماً وآكلا ودارساً دون ما أجر[1] ؟ ؟

وترى هل ينبغى أن يكون « بعض » هذا الطرف فى المدارس الأهلية ، وهى لا تقل عن مدارس الحكومة فى عدد طلبتها ، مجرد طالب عيش لا يفقه من أمور التربية شيئاً ، ولا يدرى عن طبيعة الطفل قليلا ولا كثيراً ، ولا يستطيع إلا أن يرسل القول محفوظاً ، فلا عقلا يكوّن ، ولا شخصية يبنى ، ولا خلقاً يغرس ، ولا نظاماً يصون[2] ؟؟

٢ — أسباب :

تلك حقائق مرة لها خطورتها الكبرى فى عملية التربية كما قلنا ، وهناك من الحقائق غيرها مالا يتسع المجال لذكره أو ما لا يليق به أن يذكر !! ، ولما كانت التربية الصحيحة شيئاً آخر غير حشو العقول بالكتابة والقول ، وتنفير القلوب بالجمود واليأس ، وتشويه الشخصية بالجهل والحق ، فمن الخير أن نتلمس بعض أسباب هذه الحقائق علنا نستطيع أن نجد لها علاجا .

أتعرف ماذا هو عمل المعلم فى المدارس الثانوية على وجه الخصوص ؟ أتعرف أنه دروس تُحضّر ، وحصص تُدرَّس ، وكراسات تصحح ، ثم أعمال إدارية أو كتابية بغيضة يملأ فيها الأستاذ الكشوف بالأرقام المجموعة وغير المجموعة ، ثم ينقلها إلى كشف آخر وكشوف أخرى ، ثم يبعث بها ثلاث مرات فى العام إلى أولياء الأمور كما لو كان كاتباً يسجل ويجمع ويكتب كل شئ حتى العنوان ؟؟

ثم أتعلم ماهو قدره فى عين الدولة والمجتمع بعد كل هذا العناء الذى يبذله ليل نهار ، ومع خطورة وشرف المهنة التى ينسب إليها ؟؟

(١) وقد بدأت الوزارة تعمل على إصلاح ذلك الحال باختيار نخبة خاصة من خريجى الجامعة ليلتحقوا بالمعهد .. ، ولكن مما لاشك فيه أن كثيراً من رجال التعليم الحالى لم ينشدوا مهنتهم عن ميل صحيح أو لم يجدوا فيها ماقد يخلق فيهم من الرضاء والارتياح ما يشجعهم على تحمل مشقاتها باسمين والقيام بأعبائها مطمئنين . وحسبك أن تقوم بعمل استفتاء عام كما فعل مرة أحد الزملاء فلن تجد جواب الأغلبية الساحقة خارجا عن دائرة الأسف والسخط والندم واليأس . فهل بهذه الروح ينبغي أن يعمل المعلمون ؟ وهل بمثل هذه الروح نستطيع أن نرجو إصلاحا للأجيال القادمة والحاضرة ؟؟

(٢) لقد رأيت وسمعت من أحوال بعض المدارس الاهلية كل عجيب مضحك . وسأفرد مقال العدد الآتى انشاء الله لهذا الشأن. ولكنى أعترف هنا أن قليلا من حضرات الأساتذة غير الفنيين فى هذه المدارس يبذل من المجهود الخصب ما يكشف عن حسن استعداده وقوة خلقه . وجدير بالدولة على أية حال أن تقوم هنا بتصفية سريعة مضبوطة لا لين فيها ولا هوادة ، وأن تدبر بقدر المستطاع عملا لمن لا يصلحون لهذا العمل الفنى الدقيق

لعلك تدرى أن قدره في عين المجتمع دون قدر رجل العدالة أو رجل الطب بكثير؟ هذا ينطق بالحق وذاك يعنى الجسم، أما هو فماذا يفعل غير إلقاء الدروس ؟ وعسير عليك جداً أن تفهم الناس أن التعليم قد يغنينا عن القاضى[1] أو الطبيب دون أن يغنى كل من هذين عن الأستاذ . وعسير عليك جداً أن تدخل فى الأذهان أن صاحبنا يبنى وينشئ أنفساً وعقولاً كما قال أمير الشعراء

ثم لعلك تدرى أن قدره فى عين الدولة كان وما يزال دون قدر رجال القضاء وغير رجال القضاء ؟ وأين المسكين من أولئك وهؤلاء ؟ ألم يخطب يوماً أحد الزعماء ليعبر عن جماعة المعلمين بمثار الجد وسوء الفعل كما لو كانوا جماعة من العمال أو الزراع ؟ أولم يرتفع صوت المعلمين مدوياً طالباً المساواة والانصاف دون أن تستجيب له الحكومات بتلك السرعة وهذه الأريحية التى تستجيب بهما لرجال القضاء أو النيابة أو المحاماة ؟ أولا ينظر المعلم اليوم إلى زميله بالأمس فى الدراسة الثانوية فيجده فى مجال القضاء يقفز القفزات ، أو فى ميدان الجيش يتناول « العلاوات » ، وهو هو فى فناء المدرسة تمضي عليه السنون فى الدرجة الواحدة ، وتتسع الهوة المالية والاجتماعية بينه وبين زميليه هذين ، إلى حد يخيل إليه أن لاعدل هناك ولا مساواة ، مع أنه يبذل من الجهد ويؤدى من الواجب ، ما لا يقل قيمة وضرورة وقدراً عن أعمال هذين الندين العزيزين ؟[2]

قل ما شئت وما لم تشأ فى ذنب المعلم وتقصيره ، ولكنك لن تستطيع أن تقول إنه فوق البشر فلا يؤذيه الظلم ولا يميته الاغفال ... ! ثم أنت تنشد بعد ذلك للتعليم إصلاحاً ! أفلا يليق بك أن تتدبر هذا الأمر بنتائجه البعيدة والقريبة قبل كل شئ وبعد كل شئ ؟

محمد حسن ظاظا

مدرس الفلسفة بالمدارس الأميرية

(١) أثبت الاحصاء أن التعليم يقلل من الجرائم الكبرى أيما تقليل وصدق المثل القائل إن من أقام مدرسة فقد أغلق سجناً ، أو القائل إن من هدم ركناً من أركان الجهالة فقد شيد ركناً من أركان الوطن !

(٢) وقد بدأ فعلا تنفيذ « الكادر الجديد للمعلمين » ولكن هوة ما تزال سحيقة بين رجال القانون ورجال التعليم . وما زلت أعرف كثيرين قد مضى عليهم أكثر من العشرين عاماً وهم ما زالوا فى الدرجة السادسة ، وما زلت أجد حظ المعلم فى مجانية المدارس مغبوناً إلى حد مروع وأعتقد بعد هذا أن كل إصلاح ميئوس منه إذا لم يسو بين المعلم وبين غيره من رجال الدولة تسوية عادلة

بين الرافعي والعقاد

للأستاذ محمود محمد شاكر

— ٢ —

نقل الأستاذ الأديب سيد قطب في كلمته الثانية بعض ما نقده الرافعي في قصيدة للعقاد في ديوانه بعنوان (غزل فلسفي ؛ فيك من كل شيء) ، وذلك حين يقول في حبيبته :

فيك مني ومن الناس ومن كلِّ موجودٍ وموعودٍ تُؤام

فقال الأستاذ قطب : فلا يرى الرافعي في هذا البيت الفريد إلا أن يقول : « قلنا فإن (من كلّ موجود) البق والقمل والنمل والخنفساء والوباء والطاعون والهيضة وزيت الخروع والملح الانجليزي إلى واوات من مثلها لا تمدّ ، أفيكون هذا كله في حبيب إلا على مذهب العقاد في ذوقه ولغته وفلسفته ؟ »

ثم يعودُ فيقول : « إن هذا المثال هو «مصداق رأيي في أن الرافعي أديب الذهن لا أديب الطبع ، وأنه تنقصه « العقيدة » ! التي هي وليدة الطبع أولاً ؛ فأيّ « طبع » سليم يتجه إلى تفسير بيت غزليّ في معرض إعجاب شاعر بحبيبته ، واستغراق في شمول شخصيتها بأن « كلّ موجود » هو البق والقمل والنمل .. الخ » غافلاً عما في هذا الاحساس من « حياة » ! « واستكناهٍ » ! لجوهر الشخصية ، و « خيالٍ بارع » تثيره طبيعة فنية ، فيرى في هذه المرأة من متنوّع الصفات ومختلف النزعات وشتى المزايا عالماً كاملا من كل موجودٍ وموعود

أحد أمرين :

إما أن الرافعي ضيق الاحساس مغلق الطبع بحيث لا يلتفت إلى مثل هذه اللفتات الفنية بالشعور

وإما أنه يدرك هذا الجمال ، ولكنه يتلاعبُ بالصور الذهنية وحدها ، غافلاً عما أحسّه وأدركه

وهو في الحالة الأولى مسلوب « الطبع » وفي الثانية مسلوب « العقيدة ! » فأيهما يختارُ له جماعة الأصدقاء »

ثم أتمّ الأستاذ علينا نعمة نقده بأن قال « إن هـذا المثال « يمثل تلاعب الرافعيّ بالصور الذهنية ، واستغلاق طبعه دون تملي الإحساس الفني »

وقد آثرنا أن ننقل في كلامنا كلّ هذا لا نبدّله ولا نحرّفه لنقطع بذلك مادة الشك في صحة النقل من كلام الأستاذ قطب ، وليجتمع للقارئ فكرهُ على رأي متصل حين ينظرُ في أعقاب كلامنا بالتعرُّف أو الانكار

ونحن حين قرأنا قصيدة العقاد لأول مرة في مجلة المقتطف (يناير سنة ١٩٣٣) زعمنا أنها قصيدة مؤلّفة من مادة غير مادة الشعر ، وأن الغزل الفلسفي الذي فيها حديث يتهالك ، والفلسفة منطق يتماسك ، فهي على ذلك ليست من شعر ولا فلسفة . وهذا هو بديهة الرأي لمن يقرأ هذه القصيدة ويتدبر معانيها ، ويقيسها إلى غرض صاحبها فإنه سماها أول ما سمى « غزلاً فلسفياً » ثم أتبع هذا — وفي رأسها — مما يشبه التفسير لهـذا العنوان ، وما يتضمن فحوي القصيدة ، ويحدد جملة معانيها ، وذلك قوله : « فيك من كل شيء »

ولسنا الآن بسبيل من نقد القصيدة كلها ، وبيان ما أشرنا إليه قبل في أثنائها وتضاعيفها ، وإنمـا نجتزىء بالقول في البيت الذي نقده الرافعي ، ثم عقب على نقده الأستاذ سيد قطب بما شاء له « طبعه» المفتوح غير المغلق ، و«عقيدته» الكاملة غير المسلوبة، و « خياله البارع » غير المتخاف

وهذا البيت بعينه :

فيك مني ومن الناس ومن كلِّ موجودٍ وموعودٍ تُؤام

إنما هو تكرار لقوله في صدر القصيدة : « فيك من كل شيء » حين أراد الشاعر أن يزيده بياناً ووضوحاً ، ويجلوه جلاء المرآة لتصف شخص صاحبته ، أو كما قال الأستاذ القطب (لاستكناه جوهر شخصيتها !)

وقد ذهب الرافعي في نقد هـذا البيت مذهب العربي حين يسمع الكلام العربيّ لا ينحرف بألفاظه إلى غير معانيها ، ولا يتسع في معاني الألفاظ بغير دلالة ظاهرة أو مُسوّغ مُضمر ، ولا يقبض من معانيها إلا بمثل ذلك مما يجيز انقباض بعض معاني اللفظ عن سائره . وقد قال العقاد لصاحبته في الغزل الفلسفيّ « فيك من كلّ شيء » و « فيك من كل موجود » . والعرب

والفلاسفة جميعاً يزعمون أن لفظ (كلّ) إذا دخل على النكرة أوجب عموم أفرادها على سبيل الشمول دون التكرار . فكذلك أوجب الشاعر على صاحبته أن يشمل (جوهر شخصيتها) جزءاً من كلّ ما يمكن أن يسمى (شيئاً) ، ومن كل ما يسوغ أن يسمى (موجوداً وموعوداً) . وهذا الاطلاق من (فيلسوف يتغزَّل) يقتضى شمول الأفراد من (كلّ شيء) ، ومن (كلّ موجود) . وليس يشك أحد — ممن لم يسلبهم الله « الطبع » و « العقيدة » ولم يحرمهم « الخيال البارع » — فى أن ما ذكره الرافعىّ فى كلامه — من البق إلى الملح الانجليزى — شيء من الأشياء وموجود من الموجودات . والفيلسوف حين يتغزل لن يريد هذا بغير شك ، ولكن أين تذهب بمعنى اللفظ (كلّ) فى العربية ؟ وفى حدود الألفاظ التى تدور على ألسنة الفلاسفة ؟ وأى دلالة توجب قبض معنى الشمول من هذا اللفظ ؟ أو أىّ مُسَوِّغ يجيز الحد من الاحاطة التى يقتضيها هذا الحرف فى مجرى قول الشاعر « فيك من كل شيء » وفيك « من كل موجود » ؟ !

هذا بعض القول فى فساد ألفاظ هذا البيت ، وبطلان معنى الفلسفة فيه . ولا يفوتنى فى هذا الموضع أن أدل على موضع الضعف فى فهم الأستاذ قطب لكلام الرافعى . فالرافعى يقول : « قلنا ، فإن من — كل موجود — البق ... الخ » ، والأستاذ الأديب البارع يقول وكأنه يشرح معنى الرافعى : « فأى طبع سليم يتجه إلى تفسير بيت غزلى ... بأن « كل موجود » هو البق والقمل ... الخ » ؟ غافلاً عما فى هذا الإحساس من « حياة » و « خيال بارع » ، تثيره طبيعة فنية ، فيرى فى هذه المرأة من متنوع الصفات وشتى المزايا عالماً كاملاً من كل موجود وموعود » . والرافعى رحمه الله لم يقل إن (كل موجود) هو البق ... الخ ، وإنما قال إن من (كل موجود) ، أى من أفراد الموجودات ما يسمى بقاً ... الخ ، فالحرف (من) فى كلام الرافعى ليس هو الحرف (من) الذى فى شعر العقاد حتى يجوز ما ذهب إليه الأستاذ قطب بما ساء من تعليقه

وقد أطلت القول فى تقرير نقد توحى بصحته سلامة الفطرة ، وحسن الذوق ، وصفاء القريحة ، ويوجبه اصطلاح المنطق ، وحد الكلام ، وإتقان الفلسفة ، ويقتضيه ما ذهب الشاعر يسرده مما هو « فى صاحبته » معدداً مبيناً مفصلاً حتى انتهى إلى إجمال المعانى فى هذا البيت . فقد قال لها : فيك من الشمس والبدر ، ومن الربيع والشتاء ، ومن غناء الطير ونوح الحمام ، ومن انسياب الماء ، ومن طبائع الوحش ، ومن حركة الأسماك ، وفيك من جوارح الطير ، ومن النمام ، ومن نار الحياتَيْن ، ومن الموت الزؤام ، ومن نقص الدنيا ، وكمال الآخرة ، ومن الملائكة ، ومن الشياطين ، ومن الخمر ، ومن القوت ، ومن الماء ، ومن الجوع ، ومن الأرض ، ومن السماء ، ومن عمل الأيام والدهور ، ومن الهندسة ومن الفن ... ثمّ

« فيك منى ومن الناس ومن كل موجود وموعود تؤام » ! !

أفلا يدل هذا على أن الشاعر الفيلسوف كلَّ التفصيل فرمى بالجملة فى (كل شيء) من (موجود وموعود) بعد الذى تعب فى بيانه وتفصيله وذكره وتمداده ؟ ؟ وأى شيء بقى له لم يعدده من متنوع الصفات ومختلف النزعات وشتى المزايا والعالم الكامل » ! إلا هَناتٌ هينات كذا وكذا ... وما ذكر الرافعى

هذا ... وقد اقتصر الأستاذ على نقل بعض كلام الرافعى فى نقد هذا البيت ونحن نتمه للقراء بعد ذلك :

« إن ذلك المعنى الذي بَنى عليه هذا المسكين غزلَهُ الفلسفى قد مرّ فى ذهن أعرابىّ لم يتعلم ولم يدرس الفلسفة ، ولا قرأ الشعر الإنجليزى والفرنسى والألمانى والفارسى ، وليس له إلا ذوقه وسليقته وطبيعته الشعرية ، فصفى المعنى تصفية جاءت كأنما تقطر من الفجر على ورق الزهر بقوله :

فلو كنتِ ماء كنتِ ماء غمامة ولو كنتِ درًّا كنتِ من درة بكر
ولو كنتِ لهواً كنتِ تعليل ساعةٍ
ولو كنت نوماً كنتِ إغفاءة الفجر
ولو كنت ليلاً كنت قمراء جُنْتُبَتْ
نحوس ليالى الشهر ، أو ليلةَ القدر

(ولو كنت كنت) هذا أبدع عنوان لأجمل قصيدة فى فلسفة الغزل . وانظر كيف جعل الأعرابى حبيبته أصفى شيء ، وأغلى شيء ، وأسعد شيء ، وكيف صورها شعراً للشعر نفسه . ثم قابل هذا الذوق المصفى بذوق من يجعل حبيبته من كل شيء ، ومن كل موجود وموعود تؤاماً وزؤاماً وبلاء عاماً » انتهى كلام الرافعى

فإن شئت أن تعرف كيف يتناول الشعراء هذا المعنى المغسول من الشعر « فيك من كل شيء » فانظر حيث يقول جرير ، وهو فيما نعلم أول من افتتحه :

ما استوصف الناسُ (من شيء) يروقهم إلا أرى أمَّ عمرو فوقَ ما وصفوا

كأنها مُزنةٌ غرّاء واضحة أودرة لايوارى ضوءها الصدف

وقد أحسنَ جرير تحديد المعنى وتجريده من اللغو (من شيء يروقهم) وجمل فى صاحبته من ألوان الجمال ما تهفو إليه نفوس الناس على اختلاف أذواقهم وتباين أنظارهم . وكأن أبا نواس نظر إلى هذا المعنى حين قال :

لك وجه محاسن الخلق فيه ماثلاتٌ تدعو إليه القُلوبا

على أن جريراً قد ناقض وأحال وأفسد ما استصلح من شعره حين رجع فقال فى البيت الذى يليه : « كأنها مزنة ... أو درة » فإن هذا الحرف (كأن) للتشبيه ، والتشبيه يدعى قصور المشبه عن المشَبَّه به ، وهو قد ادعى أنه يرى صاحبته فوق ما يصف الناس (من شيء) يروقهم أو يروعهم أو يفتنهم

ثم جاء مسلم بن الوليد بعقب جرير يقول :

مثالها زهرة الدنيا مصوَّرةً فى أحسن الناس إدباراً وإقبالا

أستودع العينَ منها كلما برزت وجهاً من الحسن لا تُلقى له بالا

فالعين ليست ترى شيئاً تسرُّ به حتى تُريني لما استودعتُ تمثالا

ففارق مسلم جريراً حيث جعل صاحبته (زهرة الدنيا مصورة) أى محاسنها وتهاويل جمالها ، وأنه يجد عندها تمثالاً لكل حسن تسر به العين

ثم جاء أبو نواس فألبس الشعر والمعنى من توليده وحسن مأخذه ولطف عبارته فقال :

لها من الظرف والحســن زائدٌ يتجـدَّدْ

فكل حُسْن بديع من حُسنها يتولّدْ

ثم جاء أبو تمام فقَصَّر ، ولم يحسن اختيار اللفظ ، وأضعف روح الشعر فيه فقال :

أنظر فما عاينت فى غيره من حَسَن فهو له كله

وتناوله البحترى ، فزاد فيه معنى ، ولم يجوِّد نسجه فقال :

وأهيف مأخوذ من النفس شكله ترى العينُ ما تحتاجُ أجمعُ فيه

فالزيادة فى قوله « مأخوذ من النفس شكله » وهى جميلة لولا شناعة قوله (مأخوذٌ) ، ولو عدل فيها إلى مثل نهجه فى صفة الخمر

أُفرغتْ فى الزجاج من كل قلب فهى محبوبة إلى كلِّ نفس

لأجاد وبذَّ من سبقه . وقد فطن ابن الرومى إلى معنى البحتري فاتخذه لنفسه وسَبق حين قال :

وفيك أحسن ما تسمو النفوس له فأين يرغب عنك السمع والبصر

وقد قصر ابن الرومى فى الشطر الأول عن المعنى الذى أراده البحترى ، ولكنه جاوز البحتري ورمى به خلفه فى مقابلة قوله (ترى العين ما تحتاجُ أجمعُ فيه) بما قال (فأين يرغبُ عنك السمعُ والبصرُ)

ثم أدار ابن الرومى هذا المعنى ونقَّلَهُ من سواه حين قال :

لا شيء إلا وفيه أحسنهُ فالعينُ منه إليهُ تنتقلُ

فوائد العين منهُ طارفةٌ كأنما أُخرياتهُ الأُوَلُ

ولقد كنت أتعجب لبيت العقاد كيف نزل مع كل هذا الشعر ، وكيف خفى عنه موضع التقييد من مثل قول جرير « من شيء يروقهم » ، وقول مسلم (زهرة الدنيا) و « شيئاً تُسرُّ به » وما إلى ذلك ، ووجهتُه مع سائر القصيدة فلم يزل مختلاً ناقصاً معوجاً لا يستوى . وزادنى عجباً قوله فى نهاية الشعر (تُؤام) ، ولم أجد للفظ معنى ولا رأيت له وجهاً يتوجهُه مع مقاصد الغزل الفلسفى حتى وقعت لى أبيات ابن الرومي فإذا قوله (تؤام) ترجمة للفظ آخر هى لفظ (معاً) فى قول ابن الرومى ينحو إلى هذه المعانى بعينها

فالعين لا تنفكُّ من نَظَرٍ والقلب لا ينفكُّ من وَطَرِ

ومحاسن الأشياء فيكِ (معاً) فَلاَ لَتيك مَلاَلَتى بَصرِى

مُتعات وجهكِ فى بديهتها جُدُدٌ وفى أعقابها الأُخَرِ

فكأنّ وجهكِ من تجدُّدِهِ مُتنقّلٌ للعين فى صُوَرِ

وقول ابن الرومى (ومحاسن الأشياء فيك معاً) هو عمل الشعر فى معنى غسيلٍ قدَّم به العقاد لقصيدة غزل فلسفىّ وهو قوله : « فيك من كل شيء »

ورحم الله الصولى الذى يقول :

أعرفُ منها شبهاً في كلِّ شيء حسنِ

فقد أتى بالمعنى عامياً لطيفاً مجذوفاً غير صنيع ، وهو على ذلك أرق من فيك منى ومن الناس ...

فهذا مذهب الشعر من لدن جرير إلى يومنا هذا ولم نستقصه في غرض واحد من أغراضه ، وذلك مذهب العربية في معاني ألفاظها ، وسبيل الفلاسفة في تحديد معانيها ، وفي ثلاثتها قَصَّر بيت العقاد وفسد واستحال معناه وتهالك منطقه . فمن أين يمكن وصف الرافعي — إذا نقد هذا البيت — بأحد أمرى الأستاذ قطب : إما أن يكون ضيق الاحساس مغلق الطبع بحيث لا يلتفت هذه اللفتات الفنية بالشعور ... (وأين وأنى وكيف نجدها يا أستاذ الأستاذين ؟) وإما أنه يدرك هذا الجمال ولكنه يتلاعب بالصور الذهنية وحدها ، غافلا عما أحسه وأدركه ... وما ندرى كيف كان يحسه الرافعي رحمه الله ؟

أكان يحسه ويدركه بقوة الجوع والعطش في البيت الذي يليه

كيف بي أعزلُ إن أغنيتني أنتِ ، حتى عن شرابي والطعام !

وأخيراً ، فقد خير الأستاذ قطب أصدقاء الرافعي بين أن يحكموا عليه باحدى كلمتيه أن يكون رحمة الله عليه مسلوب « الطبع » أو مسلوب « العقيدة » وقد تبين بعد الذى قلنا أن نقد الرافعي نقد « محكم » في سياق العربية ، وفي جوهر الشعر ونزيد فنقول إن قارئ القصيدة (غزل فلسفى) حين يقرؤها إلى أن ينتهي إلى هذا البيت : « فيك مني ومن الناس ... » لا يجد فيها من « الحياة » ولا من « الخيال » ولا من « غنى الشعور » ولا من « الاحساس الفنى » — إلى آخر ما يتنبل به الأستاذ قطب — ما يجعل نقد هذا البيت بعينه دليلا على ضيق الاحساس واستغلاق الشعور ، والغفلة عن الجمال ، وفساد الانسانية في قلب ناقده

وعلى هذا فقد سقط الدليل الأول من أدلة أحكامه على الرافعي وبان في ذلك ما امتاز به الرافعي من الدقة وصدق الاحساس في إدراك معانى الشعر وما فيه من غضارة ورُوقة وجمال

محمود محمد شاكر

بين الأديب وبين الناس

للآنسة فلك طرزى

(مهداة إلى الأستاذ توفيق الحكيم)

سيدى الفاضل صاحب الرسالة الغراء :

القطعة الأدبية التى أبعث بها اليوم إليك لتنشر على صفحات مجلتك الراقية ، استوحيتها من السلسلة الأدبية الأولى التى ينشرها تباعاً الأستاذ توفيق الحكيم في الرسالة تحت عنوان « من برجنا العاجى »

وقد كتبتها يوم كنت في حلوان أنعم بجو هذه المدينة الساحرة وأنفس عن صدري بنشق أرج النسيم المعطر بعبير الزهر المتدلية عناقيده وباقاته في روضات حدائقها النضرة ، فأشعر بأثر الصحة يتغلغل بين جوانب هذا الصدر قوياً حاراً يبعث فيه السرور والبهجة والنشاط . ولا غرو فان أسعد أيام حياتى الماضية هى تلك التى قضيتها على شاطىء وحدة هذه المدينة الفاتنة تحت بواسق نخيلها وفي ظل صمتها وسكونها

كتبتها يومئذ ثم حالت شواغلى دون نشرها فطويتها بين أوراق إلى أن عثرت عليها اليوم بينما كنت أقلب في هذه الأوراق ، فرأيت أن أرسلها إليك لتنشرها في « رسالة » الفن العالى والأدب الصادق الحى ، ولو أن نشرها سيجيء متأخراً

لو علم النـاس كيف يعيش كل أديب أو مفكر في هذا الوجود ، ولو علموا نوع الحياة التى يقضيها هذا الأديب أو ذاك المفكر مرتبكا حائراً بين متناقضات تتركب منها نفسه ، لكفوا عن توجيه اللام إليـه ، ولاقتصروا عن نعته بمختلف النعوت والصفات التى لا تنطبق ألبتة على حقيقته مكتفين بالاقرار أن نفسه غير نفوسهم ، وأن إحساسه لأبعد غوراً وأعمق نفاذاً من إحساسهم ؛ ولكن يظهر أن الحياة التى منحهم إياها القدر حين شيعهم إلى باب الوجود قائلا لهم : اذهبوا فان لكم الحياة ولكن ... قد غشت أبصارهم بغشاوة الجهل فلم يدركوا مغزى « لكن » هذه التى يخفى باطنها وينم على معان كثيرة فاتهم إدراكها ، كما فاتهم أيضاً رؤية البسمة الساخرة التى ارتسمت على ثغره الهازىء المتهكم ساعة شيعهم إلى باب الوجود ! فما علموا أن القدر منحهم أشياء وسلبهم شيئاً هو أعظم أشياء الدنيا

وأغلاها قيمة ! وما دروا أن القدر حرمهم نعمة لا يبلغ قمتها العالية سوى من ذاق مرارة الألم التي يولدها الفكر والاحساس ، ومن شعر بقلبه يهتز بين جنبيه مختلجاً حائراً بين إحساس وإحساس وبين فكرة وفكرة

غير أن « لكن » نابتة كما قلت ياسيدى قد نطق بها القدر أيضاً حين دفع بالأدباء والمفكرين إلى الوجود وأرفقها بصيحة ألقاها فى وجوههم قائلاً : « إذهبوا فإن لكم الفكر ولكن.. » فبلغت « لكن » هذه من شدة دويها مبلغاً جعلهم شديدى الإنصات إليها ، حريصين على ألاَّ يفوتهم سماع الصدى الهائل الذى ينبعث من انفجاره فى أنفسهم ، فيتفتح فيها من جراء هذا الانفجار منافذ وأبواب على العالم الغامض . لينطبع على صفحات هذه النفوس كل صورة ومشهد من صوره ومشاهده ، وكل ما يحوى من حقائق مُرة لاذعة ، وخيالات جميلة عذاب

ولا إخال الجماعة الذين أدركوا معنى « لكن » هذه وسبروا غورها العميق فعرفوا أن باطنها يحوى متعاً من الحياة قد سلبهم إياها الفكر والشعور ليمنحهم نعمة الشقاء وقمة الألم — قد يحسدون يوماً من الأيام بقية الناس الذين نعموا بالحياة وبكل ما تحويه الحياة وحرموا نعمة واحدة هى أسمى النعم وأرفع اللذات وأعنى بها نعمة الشعور الذي يولد التفكير الصحيح

وإذا حملهم أحياناً فيض شعورهم لشدة ما ينتابهم من جرائه على حسد أولئك ، فإن هذا الحسد لا يدوم إلاَّ لحظات ، ولا يطول أكثر من فترات . ذلك لأن « النوع » الرفيع العالى الذى يطبع سعادة جماعة الفكر والأدب بطابعه السحرى ، لا يستطيع غيرهم من الناس إدراك كنهه العميق وليس بوسعهم بلوغ قمته العليا

وهل بامكان البواعث التى يسعد بها الناس أن تبعث فى نفس الأديب أو المفكر أية سعادة ما ؟

وهل تسر هذا الأديب أو ذاك المفكر نفس المسرات التى يغتبط بها بقية الناس ؟

قد تسعد الأديب ذات البواعث التى تسعد الناس ، وقد تسره الأسباب التى تسرهم ، غير أن ما يميزه عنهم ويجعل فروقاً بين سعادته وسعادتهم وسروره وسرورهم هو ما يمكن أن تخلفه هذه السعادة وذاك السرور فى نفسه من عميق الأثر وما قد ينتج عن هذا الأثر من معان وفكر قد تحولها — أى السعادة والسرور — إلى عكسهما بعد أن يخضعهما الأديب إلى قوانين التحليل والتدقيق

ولكم سخر أدباء من سعادة كثير من الناس وفضلوا عليها شقاوتهم وحيرتهم ! ولكم لام المفكرون ونقدوا أساليب ووسائل يستعين بها أشخاص لبلوغ أمنية السعادة المنشودة دون التفريق بين أسلوب وأسلوب والتدقيق بين وسيلة ووسيلة !

فاذا كان الفكر الانسانى قد حكم على كل مفكر وأديب أن يحبس نفسه فى مقر ذاته العميق ، وأن يرسل نبرات صوته بين أرجاء السكون الذى يملأ هذا المقر ، ثم لا يسمع غير صدى هذه النبرات !

وإذا كان قد قضى عليه أن يعيش فى تلك العزلة الموحشة عزلة نفسه التى يحرسها « تنين » الوحدة ، فعزاؤه عما فاته من متع الحياة أنه يصغى فى كل لحظة من لحظات عمره القصير بعدد السنين المديد بمقدار الدقائق إلى كل همسة من همسات ضميره ونفسه ، وينصت إلى كل نغمة من نغمات الحياة التى لا تنفك أوتار قلبه تعزفها على قيثارة الضلوع

فلتغنِّ إذن بين جدران أنفسنا الشاهقة ، ولترسل ألحان هذه الأغانى موسيقى تحوى أنغام الحياة على أنواعها فتتحول عند سقوطها فى القاع — قاع أنفسنا — صوتاً قوياً تنبعث منه نبرات الحياة حارة بليغة

« دمشق » فالك طرزى

آراء حرة

بين العقاد والرافعى

للأستاذ سيد قطب

كنت قد أعددت هذه الكلمة قبل أن أقرأ كلمة الأستاذ سعيد العريان الأخيرة ، ومقدمته لها . فلما قرأتها لم أجد أن أغير فى كلمتى شيئاً ...

وبتى أن الأستاذ يقول عما كتبت : « ومع ذلك فان ما أتى به من النقد ليس بشىء عندنا » . فان كان يكفى فى الحكم أن يقول الانسان هكذا فيكون ذلك قضاء ، فانا — على طريقته — لاتتكلف أكثر من حذف أداة النفى فنقول : هو « (بشىء) عندنا » وبذلك تنتهى !

وبتى أنه عرض بى فى ثنايا مقاله بعد ماتخلى عن الرد وقال إنه مؤرخ .. تعريضا غير لائق . فما مثلى بمن يحتاج لمن يفهمه أدب الرافعى وليس فيه شىء لمثلى غير مفهوم ، وماهو بصاحب طريقة فى الفكر والفن ، إنما هو صاحب طريقة فى التعبير ، وأنا أحد الاخصائيين فى اللغة التي يعبر بها

على أن هناك مايضع حداً للجدل . أليس الأستاذ سعيد العريان يفهمه ؟ . بلى . فأنا إذن من باب أولى أفهمه .

سيد قطب

— ٣ —

حين قال الأستاذ سعيد العريان عن نقد الرافعى لوحى الأربعين : إنه بلغ فيه ذروته ، وجمع كل فنونه ، كان صادقاً فى قوله ، وكنت مخطئاً فى الاعتراض عليه ، كما اتضح لى الرأى فى هذا الأسبوع الأخير !

وحين قلت : إن الرافعى أديب « الذهن » لاأديب «الطبع» وأنه ينقصه « القلب » المهيأ للحب ، وأنه لايعنيه إلا أن يصور الحقائق الوقتية الصغيرة فى صورة خلابة ، لم يكن هذا المعنى واضحا محدداً فى ذهنى كما اتضح فى هذا الأسبوع الأخير !

وحين ذكرت أن الرافعى ذكى ، قوى الذهن ، كنت متسامحا جد التسامح أو مبالغاً جد المبالغة ، ولم أعلم ذلك كله علم الأسبوع الأخير ! وإليك البيان ...

حينما أمسكت بالقلم لأكتب الكلمة الأولى بهذا العنوان ، كان فى ذهنى ونفسى صدى مطالعاتى القديمة للرافعى ، وهو صدى غامض يدل على الجملة ، ولا يمد الناقد بالتفصيل .

وحينما كتبت الكلمة الثانية ، لم يكن بين يدي إلا نقده لوحى الأربعين ، فأبديت رأيي فيه كما رأى قراء الرسالة

ولكنني حين رحت ألتمس الأمثلة من بعض كتب الرافعى وأخترت أن أبدأ « برسائل الأحزان » ، اصطدمت بالرافعي من جديد ، واختلف الصدى الغامض القديم ، عن الصوت الواضح الجديد . (أحسست صدق الأستاذ سعيد فى نعته لنقد وحى الأربعين ، فإنه — على مابه — فى الذروة من نتاج الرافعى كله كما قال !

وأحسست أننى أخطأت فى عدم تحديد « الذهن » الذى قلت إن الرافعى يصدر عنه فى أدبه ، فمن الذهن ماهو سليم أو مريض ، وماهو مشرق أو خابٍ ، وما هو متفتح أو مغلق ... إلى مالا نهاية له من ألوان الأذهان !

وأحسست أننى خدعت فى « قياس ذكاء » الرافعى ، ومعرفة طبيعته ودرجته ، حتى ردتنى إلى القياس الصحيح « رسائل الأحزان » ! وإننى لأحس بالغضاضة فى هذا التراجع ، فيعزينى عنه « الصدق » الذى أعبر عنه حين أنصت لاحساسي وأصور حقيقة رأيي .

* * *

الرافعى أديب الذهن ، ولكنه الذهن الملتوى المماطل الداحل الذى لا يستطيع أن يسلك أقرب طريق إلى ماريد ، بل يتخذ الدروب والمنحنيات ، ويلتف حول نفسه ، ويعصر نفسه ، مرة ومرة ، قبل أن يصل إلى الحقيقة الهينة الصغيرة ، التى تعثر بها الأذهان المستقيمة مدى ذراع .

والرافعى يصدر فى أدبه عن ذكاء ، ولكنه ذكاء اللمحة والومضة ، لاذكاء الاشراق والصفاء . الذكاء الذى يخبط بجناحه هنا ، ويخبط بجناحه هناك ، فيهيء للناظر أنه يرفرف ويطير ، والواقع أنه مكب على الثرى ، وما هى إلا خفقات الجناح

والرافعى فى رسائل أحزانه يتراءى كأنما يتمطى فى أغلال ، أو يتنزى فى وثاق ، يحاول أن يتفلت من هذا وتلك ، وهو يُنفض رأسه ويضرب بقدميه ، ويضرّس أنيابه ، فى حركات عصبية ، ليخلق اللفظة بعد اللفظة ، والجملة بعد الجملة ، والخاطرة بعد الخاطرة ، في جهد وعناء !

وإنك لتسأل بعد قراءتها : أهذه رسائل حب ؟ أو ذكرى حب ؟ وأنت خليق أن تفتقد فيها الانسان قبل الفنان

***

إسمع قصيدة صدر بها أحد كتبه ولا شك أنه معجب بها ، إسمع الشعر الذي يعجب من ينقد شعر العقاد في الحب :

من لمحب ومن يعينه ؟ والحب أهنأه حزينه
أنا ما عرفت سوى قسا وته فقولوا كيف لينُه
إن يقض دين ذوى الهوى فأنا الذى بقيت ديونه
قلبي هو الذهب الكر يم فلا يفارقه رنينه
قلبي هو الألماس يعـ رف من أشعته ثمينه
قلبي يحب وإنمـــا أخلاقه فيه ودينه

فهذا الشاعر الذى ينقد شعر العقاد فى الحب ، هو الذى يعجبه ما يقلد من شعراء الدول المتتابعة والماليك فى مصر ، وشعراء أواخر العهد العباسي فنسمع رنين شعرهم فى :

« إن يقض دين ذوى الهوى فأنا الذى بقيت ديونه »

يعجبه هـذا الذى لا يرتفع مستواه الفنى على أن يذكر « قلبه » فى سوق « الجوهرات » من الذهب والألماس ، معتقداً أن تلك « المعادن » أثمن من « القلوب » لأنهـا تقوّم بالمال الكثير فى السوق

وما عن تهكم أصدر فى هذا التعبير ، فهى حقيقة تمززها الأمثلة الكثيرة فى « الرسائل » وسيأتى هذا فى موضعه

أما القصيدة بعد هذا فخطبة منبرية ، لا تعرف إن كان صاحبها محباً حياً يثير الحب فى نفسه وأعصابه دفعات الحب ، وينبه خوالجه وخواطره ، ويعمق إحساسه بالحياة ، ويضاعف شعوره ، أم إنه واعظ يدعو فى جفاف وجفوة إلى « عدم الاعتداء على الأعراض » بأسلوب لا يتصل بالقلوب ، كمعظم خطباء المساجد فى هذه الأيام :

يا من يحب حبيبـه وبظنه أمسى يهينه
وتعف منه ظواهر لكنه نجس يقينه
كالقبر غطته الزهو ر وتحته عفِنٌ دفينه
ماذا يكون هواك لو كل الذى تهوى يكونه
دع فى ظنونك موضعاً إن الحبيب له ظنونه
وخذ الجميل لكى تزيـــن الحسن فيه بما يزينه

إن تنقلب لص العفا ف لمن تحب فمن أمينُه

الخ ... الخ

ولعل أصدقاء الرافعي في نشوة حين يطالعهم بهذه الصورة الذهنية :

كالقبر غطته الزهو ر وتحته عفِنٌ دفينه

ولكن أين هذا أيها « الاحياء » فى عالم الحب الحى ، وإن هو إلا « اللعب على الحبل » فى هذا الميدان ؟

***

ثم ماذا ؟ ثم اسمع الشاعر الذى لا يعجبه شعر العقاد فى الحب :

حسناء خالقها أتم جمالها سألته معجزة الهوي فأنالها
لما حباها الله جل جلاله بالحسن منفرداً أجل جلالها
تضنى المحب كأنما أجفانها ألقت عليه فتورها وملالها
هيفاء قد شب النسيم قوامها غصناً فإن خطر النسيم أمالها
سيالة الأعطاف أين ترنحت تطلق لكهربة الهوى سيالها

هكذا نعود إلى شعراء الدول المتتابعة فى التكلف والمعانى المطروقة التى يباع كل عشرة منها بقرش فى هذه الأيام ! ولا نرتفع عن « الأجفان التى تلقى على المحب فتورها وملالها » ، ولا عن « النسيم الأعمى أو الأصم أو الثقيل الحس الذى يحسب المحبوبة غصناً ، لعماه أو صممه أو ثقل حسه ، فيميلها عند مروره !

وهكذا لا ندخل أبداً فى زحمة الحياة وتياراتها ، ولا نحس الحياة فى خالجة أو خاطرة ، ولا « نعيش » فى هذا الحب عيشة الأحياء الذين يتأثرون بحسهم وأعصابهم وخوالجهم بجانب أذهانهم ، أو حتى الأحياء الذين تلتفت أذهانهم وحدها إلى صور الحياة وأشكالها ، ودوافعها وأمواجها ولو لم يندمجوا فيها ، ويتأثروا بها !

ولكن لا ، فقد كسبنا التفاتة ذهنية رخيصة ، لا بل التفاتة عرفية أو كلامية ، فان هذه الحبيبة لما « انفردت » فكانت لها صفة « الوجدانية » فى الحسن « أجل جلالها » الله « جل جلاله » فليلق بالهم إلى ذلك علماء « الكلام » ، فما كتب إلا لهم

وحتى لا تفهم أن الشاعر قديم ، اقرأ التجديد الذى تندق دونه الأعناق !

سيالة الأعطاف أين ترنحت تطلق لكهربة الهوى سيالها

أفبعد « الكهرباء » وهى آخر ما كشف من قوى الطبيعة قولة لقائل من المجددين الذين ينقدهم الرافعي النقد الشديد ؟

فمن يكن فى شك أو ظل من شك فليقرأ ، ليعرف أنها لم تكن خطرة عابرة فى التجديد ، وإنما هى عن تعمد وسبق إصرار

يا نجمة أنا فى أفلاكها قمر من جذبها لى قد أضللت أفلاكى

هناك الكهرباء ، وهنا الجاذبية ، أبعد هذا يكون شك أو ظل من الشك ؟ لا . وألف مرة لا !

ولا شيء وراء هذا العبث الذى لا نريد له نقاشاً وإن كان فيه — لو شئنا سلوك طريقة الرافعى فى النقد — مجال لعشرات الغمزات والتهكمات

* * *

وقد قلت لك : إن الرافعى يغالى « بالجوهرات » فاسمع :

يقول للصديق المفروض أن هذه الرسائل تكتب إليه . إنه سيقص له قصة حبه لا بالترتيب

« فإن هذا مما يحسن فى تاريخ صخرة تتدحرج ، أما أنا فسأقدم لك تاريخ لؤلؤة فريدة »

ولست أدري الفرق لدى الفنان « الحي » بين أن يقص تاريخ صخرة وتاريخ لؤلؤة إلا أن يكون « الثمن » هو الفارق بينهما .

أفهم أن يقول : « إن هذا مما يحسن فى تاريخ صخرة ، أما أنا فسأقدم لك قصة حياة . أو قصة بنية حية يدخل فى تأليفها ودوافعها شيء غير الزمان والمكان ، هو الحس والشعور . أو تاريخ نبتة تنمو من داخلها أكثر مما تنمو في خارجها » أو أى تعبير آخر يدل على أن القائل يستشعر الحياة فى أعماقها ، أو ظواهرها على الأقل ، ويرى « القلب » شيئاً حياً ، جماله فى حياته ، وإن لم يقوّم فى سوق الجوهرات بعشر ماسة أو قطعة صغيرة من الذهب ! ثم اسمع : يقول فى إحدى الرسائل : « أما سمعت بذلك الأعرابى الذى قيل له : ما بلغ من حبك لفلانة ؟ » فقال : والله إنى لأرى الشمس على حائطها أحسن منها على حيطان جيرانها ... ، قد والله صدق وبرت يمينه » فإن فى كلمته الشعرية لأثراً من « عينيه » ، إذ يرى الشمس على حائطها كالشمس على « البلور الصافى » لا على الحجر والمدر »

إن الأعرابى ليرتفع إلى الذروة الفنية فى قولته الساذجة ، ويخيّل إليك الحياة المشرقة فى « ضميره » ، — لا عينيه وحدهما — وهو ينظر إلى الشمس على حائط حبيبته ويكشف عن « الخصوصية » الدقيقة التى ترى « شمس حبيبته » وكأنها خلقة خاصة بها لا يشاركها فيها سواها ... الخ ما يتسع له التصور من ألوان الامتياز الوجدانى فى هذا الأعرابى

ولكن صاحبنا لا يرى فى هذا إلا أن « الشمس على حائطها كالشمس على البلور الصافى ، لا على الحجر والمدر »

فمدار الجمال إذن هو نفاسة ما تطلع عليه الشمس وثمنه فى السوق ، ولا شك أن البلور أغلى من الحجر والمدر !

ولعله هو أو أحداً من أصدقائه لا يستطيع أن يصدق أن الشمس على « الحجر والمدر » الرخيصين أجمل ؛ أو على الأقل قد تكون فى وضع ما أجمل من الشمس على « البلور » الغالى الثمن ، وذلك عند « الطبع » الحى ، الذى يعيش فى الحياة الرحبة ، لا فى سوق الجوهرات !

واسمع ... فى رسالة أخرى :

« ثم يجرى كلامه فيها شعراً خالداً مطرداً كنهر الكوثر فى رياض الجنة ، حافتاه من ذهب ، ومجراه على الدر والياقوت »

أرأيت ؟ الذهب والدر والياقوت !

ولا يتشكك صاحبنا فى أن النهر الذى حافتاه من ذهب ومجراه علي الدر والياقوت أجمل من النهر الذى حافتاه من العشب الأخضر ، ومجراه على الرمل والطين .

لا يلتفت إلى أن الأول مصنوع قد يبهج العين لحظة ثم لا تحس وراءه حياة ، ولا معني أعمق من ظاهره ، فتمله النفس ؛ أما الثانى فهو لا يأخذ « العين » بالبريق والوهج ، ولكنه يملأ « النفس » بالروعة والجمال ، ويتيح لها التأمل العميق فى الطبيعة ، والاندماج بين الحياة الجارية فى النهر والحياة الجارية فى النفس ، لقرب النشأة والتكوين

لا لا . فالمهم هو البريق الذي يخلب الحس ، والأهم هو « السعر » المقدر للياقوت والطين . وشتان شتان !

* * *

وبعد فقد كان فى هذه الأمثلة الكفاية لتوضيح نظرتى فى الرافعي والبرهان عليها ، وكل مثال يغني عن سواه . وقد تعمدت أن أختارها من اللفتات الصغيرة الخاطفة ، ومما يستجاد عند مدرسته ، وهى أدل على طبيعة الفكر ومعدن الذهن

ولكن لدى أمثلة فى نهج آخر يؤدى إلى النتيجة نفسها ، وموعدى مع قراء الرسالة فى ذلك كلمة أخرى بعد أن طال هذا المقال

(حلوان) سيد قطب

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ١٨ —

— كان فضيلة الشيخ دعاس الميسوى والد عبد الحسيب يقيم بالزمالك ، أعنى فى بولاق

— ما هذا الخلط يا ظمياء ؟

— كنا نفهم أنه يقيم بالزمالك ، ثم عرفنا أنه يقيم فى بولاق ، وقد فهمنا أن سكان بولاق يحبون أن يسموا محلتهم زمالك

— شىء غريب !

— وما وجه الغرابة فى ذلك ؟ إن بولاق تشرف على النيل كما تشرف عليه الزمالك

— ولكن بولاق فى الضفة الشرقية ، والزمالك فى الضفة الغربية ، فبولاق شرق ، والزمالك غرب ، والشرق والغرب لا يلتقيان

— إيش لون ؟

— هذه معان لا يفهمها غير الفلاسفة يا ظمياء

— وكنت أذهب فى صحبة ليلى إلى منزل الشيخ دعاس الميسوى ، وكان شيخاً يقارب الستين ، ولكنه كان أعجوبة الأعاجيب فى منازلة النساء . كان يصوّب بصره إلى ليلى ويقول: « يا بنت يا كهرباء » وكانت ليلى ترتاح لهذا الوصف الطريف . ولعلها كانت تود لو سمعت هذه العبارة الطريفة من عبد الحسيب ، وكانت السيدة نجلاء ...

— هل تعرفين شيئاً من تاريخ نجلاء ؟

— أعرف كل شىء : كانت فتاة خفيفة الروح عرفها الشيخ دعاس وهو يصطاف في لبنان قبل الحرب بأعوام طوال ، فتزوجها ونسى من أجلها زوجته وأبناءه في (شمون)

— وهى أم عبد الحسيب ؟

— بالتأكيد ، وعنها ورث خضرة العينين

— فهمت . هاتى بقية الحديث

— وكانت ليلى ترفض الجلوس على المائدة مع الشيخ دعاس وابنه عبد الحسيب ، ثم استأنست بعد حين ، فقد اطمأنت إلى شرف القلوب فى ذلك البيت . وكان فضيلة الشيخ دعاس يتناول على المائدة دواء كُميت اللون يصلح الأمعاء . وكان هذا الدواء يُحفَظ فى صِوان خاص ويُقدَّم إليه فى الغداء والعشاء . وفى ظُهر يوم طُرق الباب وأعلن الخادم قدوم الشيخ الزنكلونى فأسرعت ربة البيت وأخفت زجاجة الدواء . ودخل الشيخ الزنكلونى فرأيناه رجلاً عليلاً وعجبنا كيف يبخل عليه الشيخ دعاس بقطرة من الدواء الذى يصلح الأمعاء

— عمن تلقيتِ دروس اللؤم يا ظمياء ؟

— تلقيتها عن طبيب مصرى يقيم في بغداد

— وأين عيادة هذا الطبيب ؟

— هو طبيب بلا عيادة ، على وزن وزير بلا وزارة

— فهمت . ويسرني أن يكون تلاميذى جميعاً أذكياء . وماذا صنع الشيخ الزنكلونى حين رأى ليلى ؟

— قبّل جبينها وقال : أنت درية ؟ فلما عرف أنها فتاة من العراق قبّل جبينها مرة ثانية وقال : أنا أحب العراق ونسائم العراق وجميع ما يرد من وطن أبى حنيفة النعمان . إسمعى يا بنيتى ، أنا من الشافعية ، ولكنى أستظرف الحنفية

وهنا تدخل الشيخ دعاس فقال : ولكن أبو حنيفة كان يبيح النبيذ

فثار الشيخ الزنكلونى وقال : هذه دسيسة مذهبية ، فما أباح أبو حنيفة النبيذ ، وإنما أباح العرقسوس

وتشجعت ليلى فقالت : رحم الله أبا حنيفة فقد كان يعرف أن العرقسوس يصلح الأمعاء

وكانت أول مرة فهم فيها الشيخ دعاس أن ليلى لم تكن من الغافلات

ثم دعانا الشيخ الزنكلونى لزيارة منزله فى حارة أم الغلام

— وزارته ليلى هناك ؟

— وعدتْ ثم أخلفتْ ، فقد رابها تظرف المشايخ

— ضيعتم فرصة ثمينة يا ظمياء . فما الشيخ الزنكلونى متظرفاً وإنما هو ظريف

— سنزوره حين نرجع إلى مصر يا مولاى

— ومتى ترجعون إلى مصر ، يا ظمياء ؟

— حين تسمن الأسماك

— ومتى تسمن الأسماك ؟

— حين ينضج التوت

— ومتى ينضج التوت ؟

— حين تعقل ليلى وترجع إلى التلطف مع طبيبها النبيل

— إذاً لن ينضج التوت ولن تسمن الأسماك

— صبراً يا دكتور فان الله مع الصابرين

— سأصبر يا طفلتى الغالية ... ولكن كيف كانت ليلى مع عبد الحسيب ؟

— كانت تتغطرس عليه كما تتغطرس عليك ، فتتجاهل ما تملى عليه الصبابة من نظرات وأحاديث . والمحبون يتغطرسون لأنهم أذلاء ، ولو كانوا على شيء من العزة لاحتقروا الكبرياء . وهـذا هو السبب فى أن الأحباب يُحرم بعضهم عطف بعض . فالحبيب يريد أن يذل له المحب ، والمحب يريد أن يذل له الحبيب ؛ وفى ظلمات هذا العناد السخيف تنفصم الأواصر والصلات . وكان المسكين عبد الحسيب يسلك إلى قلب ليلى كل سبيل . كان يحتال ليظفر منها بابتسامة . كان يُغرب فى سرد أخبار الشيخ كراوية

— ومن الشيخ كراوية يا ظمياء ؟

— أستاذ كان يدرس اللغة العربية بمدرسة المساعى المشكورة بالزقازيق .

— أنت جاهلة يا ظمياء ، فمدرسة المساعى المشكورة فى شبين الكوم لا فى الزقازيق

— أؤكد لك أنهـا فى الزقازيق . ولك أن تسأل ليلى فعندها الخبر اليقين

— إذا أخذت العلم عن ليلى فعلى العلم العفاء

— وكان عبد الحسيب يقف فيقلد صوت الشيخ كراوية وهو ينشد قول جرير :

إن العيون التى فى طرفها حور   قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لاحراك به   وهنّ أضعف خلق الله إنسانا

وكان يصوّب بصره إلى ليلى حين يصل إلى عبارة « وهن أضعف خلق الله إنساناً » ، وكان يرضيها أن ترى هيامه بها فتبالغ فى التغطرس والازدهاء

وفى إحدى المصريات دخل عبد الحسيب غضبان فانزعج الشيخ دعاس وانزعجت السيدة نجلاء ، فنظرت إلى وجه ليلى فرأيته يشبه دجلة فى أيام نيسان

— إيش لون ؟

— وأنت يا مصرى تقول « إيش لون ؟ »

— إيش لون ؟ إيش لون ؟

— دجلة فى نيسان تحاول من فرط الشوق والحيوية أن تلطم وجه بغداد

— وكانت ليلى تحب أن تلطم وجه عبد الحسيب ؟

— كانت تهمّ بافتراسه لأنها كانت تنكر أن يدرك معنى البؤس وهى فى دنياه

— كانت تحبه ؟

— وأي حب ؟ وهل فى الدنيا فتاة تحبس قلبها عن فتى وافر الرجولة متين الأخلاق ؟

— وماهى أسباب ذلك الغضب الذى سيطر على عبد الحسيب؟

— قال إنه تلقى محاضرة فى مدرسة البوليس ألقاها الصاغ على حلمى عن « القوة المنوية » فثار صدره وعجب كيف يعجز عن التسلح بالقوة المنوية ، وجلس على المائدة وهو فى غاية من العقل ، فلا نوادر ولا فكاهات ، ولا الشيخ كراوية ولا عبد الله شعيب . فعرفت ليلى أن الشاب ابتدأ يحاربها بلا رحمة ولا إشفاق . آه ، ثم آه !

— لا تتأوهي يا ظمياء فقد مزقت قلبى

— تحبنى يا مولاى ؟

— استحى يا ظمياء فأنت فى حضرة طبيب

— وبعد ليال دعتنا السيدة نجلاء لسماع المغنى عبد اللطيف البنا فى ملاهى المعرض فسمعناه يقول :

« سلامة القلب من حبك يا قاسى »

فتحدرت مدامع ليلى وأصابها إغماء . وكانت ليلة قضيناها فى كروب وأشجان . وفى الليـلة التالية صممت ليلى على أن نذهب وحدنا إلى ملاهى المعرض ، فسمعنا أم كلثوم تغنى

يا للى شغلت البـال   ياليتْ أكون على بالك
الوجـد له أحوال   يا ليتنى أعرف حالك

فأخذت ليلى تبكى بكاء لاتجود بمثله عيون الأطفال ، فخشيت أن نفتضح وأخذتها فى سيارة إلى النزل الذى كنا نقيم فيه بشارع قصر النيل ، وانحبسنا عن جميع الناس ثلاثة أسابيع

— ثم ماذا ؟

— ثم تفضل الشيخ دعاس والسيدة نجلاء والآنسة درية بالسؤال عنا فتشجعت ليلى وسألت عن عبد الحسيب ، فابتسم الشيخ دعاس وقال : تحبينه يا ليلى ؟ فقالت : ما أحبه ، وإنما أشتهى أن يحدثنى مرة ثانية بحكايته يوم تشيطن فأخذ زجاجة الزيت وملأ بها حابر زملائه من التلامذة الأقباط حين كان تلميذاً بمدرسة المساعى المشكورة الثانوية

وقهقه الشيخ دعاس وهو يقول : وما رأيك يا ليلى إذا كان التلامذة الأقباط أصبحوا يرحبون بوضع الزيت فى محابرهم على أيدى التلامذة المسلمين ؟

ولم تفهم ليلى ما يريد ، فاستطرد الشيخ دعاس قائلا : نحن ائتلفنا يا بنيتى على يد الشيخ الصالح سعد زغلول ، وأنا وضعت قواعد الائتلاف قبل سعد زغلول، فزوجتى نجلاء كانت مسيحية وأسلمت لتربط بين مصر ولبنان . فما رأيك لو خطبتك لعبد الحسيب ؟

فاستأنست ليلى وقالت : هل قرأت يا فضيلة الشيخ أخبار عمر بن أبي ربيعة ؟

فقال : ما قرأتها ، لأن أخبار عمر بن أبى ربيعة لا تدرس فى الأزهر الشريف

فقالت ليلى : كان ابن أبى ربيعة يستهوى جميع النساء اللائى يشهدن موسم الحج ، إلى أن فتنته امرأة عراقية ، فراودها عن نفسها فاستعصمت ، فخطبها لنفسه فأبت وقالت : تعال إلى العراق واخطبنى من أهلى . وكان ابن أبى ربيعة ماجناً فلم يتبع معشوقته إلى العراق ، وحرمه المجون من التشرف بمصاهرة أهل العراق . فان كان عبد الحسيب صادقاً فى حبي فليمض إلى العراق وليخطبنى من أهلى هناك

وعرف الشيخ دعاس أن هزل الحب جد ، فانصرف وهو مكروب !

— ثم ما ذا يا ظمياء ؟

— ثم انتظرنا أسابيع فلم يسأل عنا الشيخ دعاس ولا ابنه عبد الحسيب ، فرجعنا إلى العراق ونحن نبكى سلامة الأخلاق فى بلاد الفراعين

— شيء مزعج ، شيء مزعج !

— لا تحزن يا مولاى ولا تبتئس ، فقد وقعت أعاجيب

— أفصحى يا ظمياء

— فى اليوم الثالث والعشرين من تشرين الأول سنة ١٩٢٦ طرق الباب زائر غريب، فنظرنا فاذا هو الضابط عبدالحسيب بعينيه الخضراوين وقوامه الرشيق ؛ وهجمت ليلى عليه فقبلت جبينه وخديه بلا تهيب ولا استحياء ، ودعوناه للنزول فى ضيافتنا فرفض، وقال إنه جاء لخطبة ليلى، وإنه ظفر بدبلوم مدرسة البوليس، وإنه مرشح لرياسة نقطة النمناعية ، فنظرت ليلى إليه بعينى اللبؤة العادية وقالت : لن أقبل يدك أو أختبر أخلاقك!

— ثم ماذا ؟

— ثم استيأس الشاب المسكين وقال : وبأى صورة أعيش فى بغداد ؟ فقالت ليلى : ذلك إلىّ

— ثم ماذا ؟

— ثم تحمّلتْ ليلى بأهلها ومعارفها إلى نورى باشا السعيد وكان يومئذ وكيل القائد العام ، وكان برتبة زعيم فألحق الضابط عبد الحسيب بالجيش العراقى بحجة التقريب بين مصر والعراق

— شيء جميل !

— انتظر يادكتور ، فقد أفسدتْ ليلى كل شيء

— وماذا صنعت الحمقاء ؟

— بثّتْ من حوله العيون لترى كيف يفكّر وكيف يصنع، فصح عندها أنه كافر بالحب وكافر بالمروءة فأصلته نار الصدود

— ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم رحل المسكين إلى مصر بدون أن يستأذن رئيسه نورى باشا السعيد

— ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم خلت حياة ليلى من حبيبها الغالى فلم تعد تعرف طعم الحياة وحالفها الضنى والنحول

— ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم علم الشاب المسكين بمرض محبوبته الغالية فلاذ بأمه الرءوم فمضت إلى الأستاذ خليل مطران تستفتيه ، فكان من رأيه

أن يُنتقم من لبلى بطريقة دولية تضج لهـا المشارق والمغارب ، وصح عنده أن تغنى السيدة نادرة هذا البيت :

يقولون ليلى فى العراق مريضة فياليتنى كنت الطبيب المداويا

ولم يقف عند هذا الحد ، بل أشار بوضع هذا الصوت فى شريط « أنشودة الفؤاد »

— ثم ما ذا يا ظمياء ؟

— ثم تنكّر أهل العراق لذلك الشريط وقاوموه غيرةً على ليلى فلم يعرض فى بغداد غير مرات معدودات

— ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم لطف الله بليلى فجاء الدكتور زكي مبارك لمداواتهـا منتدباً من الحكومة المصرية

— وما الرأى ياظمياء إذا عُوفيت ليلى ومرض الطبيب ؟

— الأمر يومئذ لله

* * *

ليلى ، ليلاى

أنت تعلمين أننى تركت فى سبيلك وطنى وأهلى . أنت تعلمين أن صحتى اعتلت وأننى أعيش على منقوع الفواكه منـذ أسابيع وأسابيع . أنت تعلمين ما أنا صائر إليه إن دام هـذا الصدود . أنت تعلمين أنى ضحية الواجب والعقيدة والوجدان . فما هذا التجنى ياليلى وأنا ما خنت العروبة ولا كفرت بالحب ؟

أحبك ياليلى ، أحبك ، فاصنعى بقلبى ومصيرى ما شئت وشاء الهوى وشاء الدلال

أحبك ياليلى فى غضبك ورضاك . أحبك حباً ماسبقنى إليه سابق ، ولن يلحقنى فيه لاحق . أحبك ياليلى وأحب من أجلك جميع مافى الوجود حتى قيظ بغداد . أحبك ياليلى وأرى وجهك مسطور الملامح والتقاسيم فى كل ماتقع عليه عيناى . أحبك وأحب من أجلك نعيم الحياة وبؤس الحياة ؛ وما أحب الحياة لنفسي ياليلى فقد شبعت منها ورَويت ، وإنمـا أحب الحياة ليبقى لك فى الدنيا محب صادق يرى الضلال فى هواك أشرف من الهدى، ويرى الظلام فى هواك أكثر إشراقاً من بياض الصباح

أحبك ياليلى وأتمنى ألا تحبينى ؛ فما يرضينى أن تعانى فى الهوى بعض ما أعانى

أنا أكره لك يامعبودتى أن تذوقى ملوحة الدمع ، وأن تهيمى بعدَ نجوم الليل ، وأن تقفى موقف الجمود أمام الأزهار والأشجار والأنهار فلا تدركين كيف يبتسم الوجود

* * *

— ظمياء !

— عيونى !

— ظمياء !

— عيونى ، دكتور زكى ، عيونى !

— خذى بزمامى إلى الجحيم

— وأين الجحيم يا مولاى ؟ حماك الله ونجاك !

— أين الجحيم ؟ أماتعرفين؟ خذى بزمامى إلى دار ليلى عـلنى أعرف مصيري فى هوى تلك الظلوم

— فى هذا المساء ؟

— فى هذه اللحظة

— إنتظر حتى أراها وأرجع إليك، فان اصطدام العاشقين فى فورة الغضب قد يحملك على أن تمن عليها أو تجرها إلى أن تمن عليك ، والمن يصنع بالحب ما تصنع النار بالحلفاء

« للحديث شجون » زكى مبارك

مصطفى صادق الرافعى

بمناسبة مرور سنة على وفاته

للأستاذ فليكس فارس

بقية ما نشر فى العدد الماضى

لكل كاتب منهجه، ولكل مفكر تقديره . وما أذهب إليه فى تحديد الرافعى هو ما تيقنته فيه قبل أن تنشأ بيننا أية علاقة شخصية ، إذ رأيت فيه الأديب المطبوع المتمرد على كل مشايعة وتقليد . فهو مثال جديد للأدب العربى القديم يستلهم أجواء الشرق ويُلبس تفكيره حلة من لغة الجنان لا يسع كاتباً من عباقرة سائر الأمم أن ينسج على منوالها

الرافعى هو أحد أعلام العرب المدودين ، أحد الأئمة السائرين فى الطليعة من فيالق الأدباء فى عصر النهضة الجديدة . ولا يجوز لأى كاتب منصف أن يصوره للتاريخ متخلفاً خطوة واحدة عن رفاق جهاده . فمن الجناية على الحق أن نقيم فى وهمنا حلبة نستركض عليها عباقرتنا ونتسلى بالنظر إليهم كأنهم جياد السباق يتجهون إلى أمد واحد . فليس الأدب حلبة اختط الراهنون عليها طريقاً واحداً لتغلب فريق على فريق ؛ إن الادب إلا أجواء تتطاير فيها القرائح فراشات تستهويها أنوار وأنوار ... ولكل نور جذبته، ولكل نور جماله ، إذا هو اقتاد المنجذب إليه نحو الحق والخير . وما أدري أن بين كتابنا وشعرائنا أمواتاً وأحياء من يبز مصطفى فى إيمانه ووطنيته وقوميته وإشراق بيانه ومتانة أسلوبه ولطافة شعوره وعمق تفكيره

هذه قطعة (رؤيا فى السماء) إن وجدت لها مثيلا من حيث الفن بين ما كتب أشهر الرمزيين من أبناء الغرب ، فانك لن تجد ما يشبه روعة بيانها ولا إشراق إلهامها وقد تلألأت فى سطورها من الأحاديث الشريفة ، ومن حكم السلف الصالح ما يدفع بك وأنت تتلوها إلى السجود كأنك تصلى بأصوات القبور المتعالية من خفايا فطرتك وأعماق روحك

اسمع صرخة الإلهام فى روح الرافعى تخرج من فم ملاك يؤنب رجلا فضل العزوبة على الزواج ووقف فى البرزخ الفاصل بين العالمين متخذاً من تنسكه وتعبده زلفى إلى الحق

قال الملاك : (جئتَ من الحياة بأشياء ليس فيها حياة ، فما صنعتَ للحياة نفسها إلا أن هربت فيها وانهزمت من ملاقاتها؛ ثم أنت تؤمل جائزة النصر على هزيمة .. عملت الفضيلة في نفسك ونشأتك ، ولكنها عقمت فلم تعمل بك . لك ألف ألف ركعة ومثلها سجدات من النوافل ، والخير منها كلها أن تكون قد خرجتْ من صلبك أعضاء تركع وتسجد)

أسمعت كيف يعتز الرافعى عن أيمانه فيدعوك إلى الإيمان ؟ فاسمع الآن كيف يهيب بالشباب إلى إقامة الوطن المنشود !

(يا شباب العرب ، لم يكن المسير يعسر على أسلافكم الأولين كأن فى يدهم مفاتيح من المناصر يفتحون بها . أتريدون معرفة السر ؟ السر أنهم ارتفعوا فوق ضعف المخلوق فصاروا عملاً من أعمال الخالق . غلبوا على الدنيا لما غلبوا فى أنفسهم معنى الفقر ومعنى الخوف والمعنى الأرضى . وعلمهم الدين كيف يعيشون باللذات السماوية التى وضعت فى كل قلب عظمته وكبرياءه القوة القوة يا شباب العرب ! القوة التى تقتل أول ما تقتل فكرة الترف والتخنث . اجعلوا رسالتكم إما أن يحيا الشرق عزيزاً وإما أن تموتوا)

أسمعت كيف يلهب الرافعى النفوس شوقاً إلى المظمة التى تكشف لك فى آن واحد عظمة الحياة الدنيا ومجد الحياة الخالدة ؟ فاسمع الآن كيف يصور لك الرافعى سعداً بأسطر وهو من يكاد ينوء التاريخ بإحصاء صفاته

« إن سعدا العظيم كان رجلا ما نظر إليه وطنى إلا بعين فيها دلائل أحلامها ، كأنما هو شخص فكرة لا شخص إنسان . فاذا أنت رأيته كان فى فكرك قبل أن يكون فى نظرك، فأنت تشهده بنظرين أحدهما الذى تبصر به والآخر ذاك الذى تؤمن به . رجل الشعب الذى يحس كل مصرى أنه يملك فيه ملكا من المجد . وقد بلغ فى بعض مواقفه مبلغ الشريعة فاستطاع أن يقول للناس: ضعوا هذا المعنى فى الحياة وانزعوا هذا المعنى من الحياة)

أسمعت الرافعى فى مجال العقيدة الروحية والوطنية ؟ فاسمعه الآن كيف يسبر غور معضلة الانتحار بقوله :

(وليس يخيب الانسان إلا خيبة عقل أو إرادة ؛ وإلا فالفقر

والحاجة والمرض والاختلال والذل والبؤس والعجز عن الشهوة وفساد التخيل، كل ذلك موجود في الناس يحمله أهله راضين به صابرين عليه، وهو الغبار النفسي لهذه الأرض على نفوس أهلها ويا عجبا ... إن العميان هم بالطبيعة أكثر الناس ضحكاً وابتساماً وعبثاً وسخرية، أفتريدون أن تخاطبكم الحياة بأفصح من ذلك..)

هذه عبارة من بحث طويل فى الانتحار قد لا تجد ما يضاهيه من أبحاث الغرب تحليلاً وتصويراً واستنتاجاً

هـذا هو الرافعى الفيلسوف، فاسمع الآن إلى قلب الرافعي يتدفق حناناً ورقة وهو يصف طفلاً ماتت أمه:

(وطفت عليـه الدموع، فتناول منديله ومسحها بيده الصغيرة، ولـكن روحه اليتيمة تأبي إلا أن ترسم بهذه الدموع على وجهه معانى يتمها. ونهض الصغير ولم ينطق بذات شفة، نهض يحمل رجولته التى بدأت منذ الساعة)

(انتهت، أيها الطفل المسكين، أيامك من الأم، هذه الأيام السعيدة التى كنت تعرف الغد فيها قبل أن يأتى معرفتك أمس الذى مضى إذ يأتى الغد ومعك أمك. وبدأت، أيها الطفل المسكين أيامك من الزمن وسيأتى كل غد محجباً مرهوباً إذ يأتى لك وحدك، ويأتى وأنت وحدك)

وهذه عبارة من مقال (عروس تزف إلى قبرها)

(ودخلت أعودها فرأت كأنني آت من الدنيا، وتنسمت مني هواء الحياة كأنني حديقة لا شخص. ومن غير المريض المشفى على الموت يعيش بقلوب الناس لا بقلبه)

إلى أن قال:

(وباقتراب الحبيب المحتضر من المجهول يصبح من يحبه فى مجهول آخر فتختلط عليه الحياة بالموت، ويعود فى مثل حيرة المجنون حين يمسك بيده الظل المتحرك ليمنعه أن يذهب، وتمروه فى ساعة واحدة كآبة عمر كامل تهيىء له جلال الحس الذى يشهد به جلال الموت ...)

وهذا أيضاً مقطع من (لحوم البحر)

(الفتاة ترى فى الرجال العريانين أشباح أحلامها، وهذا معنى السقوط، والمرأة تسارقهم النظر تنويماً لرجلها الواحد، وهذا معنى المواخير ...

(أين تـكون النية الصالحة لفتاة أو امرأة بين رجال عريانين؟ يا لحوم البحر، سلخك من ثيابك جزار ...

(والبحر يعلم اللائى والذين يسبحون فيه كيف يغرقون فى البر لو درى هؤلاء وهؤلاء معرة اغتسالهم معاً فى البحر لاغتسلوا من البحر، فقطرة الماء التى نجستها الشهوات قد انسكبت فى دمائهم وذرة الرمل النجسة فى الشاطىء ستـكبر حتى تصير بيتاً نجساً لأب وأم.

(يا لحوم البحر سلخك من ثيابك جزار ...)

هذه نماذج تلمح الرافعى من خلالها لمحاً، نضمنها هذا المقال لتشهد هى له بأنه الـكاتب المطبوع على سجية نفسه، والمفكر المبتكر للمعانى من حياة الشرق نفسها، لا مما صوّره عباقرة الغرب من حياتهم فى تآليفهم. وإذا أنت أردت أن تعرف الرافعى وتحيط بآفاق تفكيره وشعوره فإنك لتجد فيما كتب ما يستطير لبك ويشغل ذهنك حولاً كاملا. ولـكن يكفيك لتخشع أمام الرافعى وتعلم فى أى مقام يضعه بيانه من الأدب العالمى، أن تقلب مصنفاته ساعة فترى كأن أناملك تفتح لك من كامنات نفسك ما كنت تحس به غماماً فإذا هو الفلك الخفى يدور أمامك بكواكبه ويبهرك بأنواره ...

إن كتابنا البارزين ممن أجادوا لغات الغرب ووعوا تواريخها لا يسعهم، إذا نحن استثنينا النذر اليسير من المجددين بينهم، أن يلبسوا تفكيرهم وشعورهم بياناً عربياً دون أن تظفر من هـذا البيان صور وانطباعات تنقل إليك روائح أصلها. فان فى أدبنا اليوم ارتشاحات فرنسية وانكليزية وألمانية وروسـية الخ ... ولـكم من قطعة أدبية لولا تفتك بعبقرية كاتبها لحسبتها مترجمة عن اللغة الأجنبية التى يجيدها لا مستلهمة من أجواء بلاده وأدب قومه. ولـكم من رواية يكفيك أن تبدل الأسماء العربية فيهـا بأسماء إفرنجية ليصح أن يدعى تأليفها إلى كاتب أجنبي بصـور أخلاق الغرب ونظمه وعاداته

إذا كان التفكير العلمي المحض مشاعاً بين الأمم ولا قبل لك بالتمييز بين اكتشاف وفق إليه جرماني، واكتشاف آخر يظفر به لاتيني أو عربي، فليس الحال كذلك في الأدب، لأنه خطرات أفكار، وسانحات شعور، تخرج من صميم الفطرة وتتخذ حتما الصور والألوان الخاصة بلغة كل شعب وتقاليده وأخلاقه، فليس هنالك أدب عالي كما أنه ليس هنالك فن عالي وموسيقى عالية بما تدل عليه هذه الكلمة من الاطلاق. غير أن هنالك آداباً وفنوناً وموسيقى تبلغ الذروة من الإبداع، فإذا نقلت إلى أمة غريبة عن منشئها احتفظت بالقدر الكافي من الجمال لتؤثر في نفوس الأمة الغريبة

إن بين آثار كتابنا في هذا الزمان قطعاً فنية تتدفق روعة وجمالاً، ولكنك لاتجد إلا اليسير منها مايمكنك أن تنقله إلى لغة أجنبية دون أن يقول لك أهلها إنهم قرءوا مثلها في مؤلفات كتابهم...

لكأن العناية قد أرادت بعث الأدب العربي صافياً ليجمع ما انفرط من شمل هذه الأمم التي تناهبت الأذواق العربية بيانها، فأرسلت من اختارت في مطلع نهضتنا يبعثون لغة الجنان بعد طول هجوعها، يبعثونها ملهمة من الوحي ومما أبدعه استغراق المتقدمين حين كان شعورهم تسبيحاً وتفكيرهم صلاة وسجوداً. يبعثونها لا يكدر نهرها المتدفق ينبوع دخيل، ولا تشوه أساليبها عجمة، ولا يحتل إعجازها بإيجازها وإحكامها، ما لا قبل لها به من الأساليب الغريبة. لكأن العناية أرادت أن تفتح آذان الجيل الناشئ إلى أصوات الأجيال المتوارية، فاختارت لها رسلها وفي طليعتهم الرافعي، أنشأته في بيئة خاصة، وقضت له بألا يجول إلا في دوائر الأدب العربي، وبلته بالصمم كيلا يسمع صوتاً إلا صوت نفسه تتجاوب أصداء العروبة فيها من جميع حقبها وأطوارها، ليصرخ صرخته المدوية كأنها هتفة بوق النشور في هذه الشعوب التي أضاعت استقلال تفكيرها، فتناهب بيانها الغريب من كل بيان حتى فقدت ثقتها بنفسها فقضت على ميزاتها وعزة حياتها

فليكس فارس

التاريخ في سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الأحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

— ١١ —

يا شباب الوادي! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم

والحق أن مسألة العبيد تزداد تعقيداً كلما تقدمت الأيام؛ ولكن ابراهام لم يكن الرجل الذي يضل السبيل إذا تعقدت من حوله مسالكها. رأى بنافذ بصيرته أن السماح بانتشار العبيد وراء الحد الفاصل معناه سيادة أهل الجنوب وبقاء نظام العبيد إلى أمد بعيد؛ ورأى كذلك أن الدعوة إلى التحرير تؤدي لا محالة إذا اشتدت إلى انسحاب أهل الجنوب من الاتحاد فينهار البناء، وتعصف بالوحدة القومية الأنواء. إذاً فلينتظر وليحذر وليترقب ما تأتي به الأيام...

انصرف دوجلاس ولكنه قبل أن ينصرف أبى إلا أن يأتي ما يدل على طبعه، فلقد نقض العهد وأتى بعد يومين خطاباً جديداً حاول فيه أن يدافع عن آرائه، ولم يستطع لنكولن إلا أن يظل عند كلمته، فأبى أن يتكلم وقد جمل بينه وبين خصمه ميثاقاً أن يقطعا حبل الجدل

ولقد كان لانتصار لنكولن على دوجلاس العظيم ذلك السياسي الملحوظ المكانة أثر بعيد في حياة ابن الغابة قاطع الأخشاب بالأمس وعامل البريد، وفتى الحانوت البائس الفقير؛ ذلك أنه ازداد ثقة بنفسه فأخذ يشتد طموحه ويمتد بصره؛ وازدادت كذلك ثقة الناس فيه واشتد إعجابهم به واطمئنانهم إلى مقدرته وجدارته

ولذلك نراه يخطو خطوة جديدة في مضمار السياسة فيطمع أن ينتخب عضواً لمجلس الشيوخ ويأمل بذلك أن يعود إلى وشنجطون. وهل كان يرى نفسه دون دوجلاس مقدرة ومكانة

وهو قاهره على أعين الناس فى أمر له عند الناس خطره ؟ ولقد انتخب أول الأمر عضواً فى مجلس المقاطعة ولكنه ما لبث أن استقال منه وأخذ يدعو لنفسه ليختار عضواً فى مجلس الشيوخ للولايات ... وكان منافسه فى هذا شيلدز ، ذلك الرجل الذي تحداه من قبل إلى مبارزة بالسيف لما كتبه لنكولن عنه فى إحدى الصحف وعدّه هو إهانة له

وكان الذين ينتخبون عضو مجلس الشيوخ هم أعضاء مجلس المقاطعة ، وكان المجلس يومئذ يجمع أنماطاً من الرجال فرقت بينهم الأهواء وباعدت الآراء ، ففيهم بقايا حزب الهوجز الذين يمقتون التطرف ، وفيهم الديمقراطيون أنصار مبـدأ العبيد ، وفيهم المعارضون لقرار نبراسكا ، وفيهم غير هؤلاء وهؤلاء ممن تتذبذب سياستهم حسب ما يقوم فى رؤوسهم من الآراء فى مسألة العبيد

وكاذ يظفر ابراهام بما يتوق إليه وبما باتت زوجته تمنى النفس به لولا أن دعا الديمقراطيون فى اللحظة الأخيرة إلى رجل غير لنكولن ومنافسه ؛ وعندئذ أشار لنكولن على نصرائه أن يمنحوا هذا الرجل الجديد أصواتهم ليفوت الأمر على منافسه الأول إذ كان هذا من أصحاب دوجلاس بينما الآخر ممن يعارضون قرار نبراسكا ؛ وهكذا يذوق لنكولن مرارة الفشل من جديد ؛

ولـكن الفشل هذه المرة لم يبلغ من نفسه ما كان يبلغه فى الأيام السالفة ، فهو اليوم مطمئن إلى نصيبه من رضاء الناس وإلى حظه من الصيت والنفوذ . لقد قابل الأمر بدون اكتراث لو لا ما أظهرته زوجته من غضب وحنق ، على أنها ما لبثت أن رضيت وسكنت ثورتها ، ذلك أنها كانت تكاد ترى رأى العين ما ينتظر زوجها من مستقبل عظيم ...

ولم يصرفه الفشل عن السياسة كما كان عسيًّا أن يفعل فى ظروف غير هذه ؛ فلقد عرف أن فشله يومئذ إنما يرجع إلى أسباب لا يستخذي لها ، ومن أهم تلك الأسـباب ما فعله دعاة التحرير ، فلقد حشروا اسم لنكولن على غيرعلم منه فى معضديهم وراحوا يباهون به الأحزاب ؛ ولقد أدى هذا إلى انزعاج كثير من الديمقراطيين إذ حسبوه قد مال إلى الطفرة فى مشكلة العبيد، كذلك أنكر الهوجز عليه أن ينحرف عن سياسته القائمة على الحذر ، ولقد كانوا يحبون منه اكتفاءه بمقاومة انتشار العبيد ، أما أن يميل الى التحرير فجأة فيعمل مع المتطرفين على القضاء على الاتحاد فذلك ما لا يقبلونه منه ؛ وهكذا أخذ على الرجل ما لم يجنه فأصابه من الخذلان ما أصابه ...

لا جرم أنه اليوم رجل سياسة أكثر منه رجل محاماة ، ولا جرم أن معضلة العبيد قد صار لها المكان الأول من همه فهو لن يرجع حتى ينفس عن صدره بمـا يفعل فى هذه المعضلة التى صارت المحور الذى تدور عليه سياسة الاتحاد ، والعقدة التى يتوقف على حلها مصير البلاد ؛ وإنا لنرى فيه الرجل الذي يتطلبه الموقف شأنه فى ذلك كغيره من عظماء الرجال الذين يظهرون فى فترات الزمن ليتم بهم للتاريخ وسيلة تحركه، إذ يصبح لديه الرجل العظيم والفكرة العظيمة ، فما أن يتمثل العظيم الفكرة ويمزجها بنفسه حتى يقدم لا يلويه شئ عن الغاية فيصل أو يهلك دونها ويذر البقية لمن يليه ...

على أنه كان فى سنه يومئذ قد وصل من المحاماة إلى أوج الشهرة، فكان وهو فى السابعة والأربعين الرجل الذى يظفر فى مهنته باطباق الناس على توقيره وإجماعهم على التسليم له بالنبوغ وطول الباع وسعة الخبرة، هـذا إلى ما انفرد به من سجايا جعلته بينهم وكأنه أكثر من أن يكون منهم ! ...

وتوافت له فيما توافى من أسـباب العظمة تلك الخصلة التى لا تقوم عظمة بدونها ؛ والتى تجعل العظيم يظهر بين الناس وفيه شئ يحملهم على إكباره طائعين أو كارهين ؛ شئ يحسونه وإن كان أكثرهم يجهلونه، شئ مبعثه ذلك السر العجيب الذى نعبر عنه بقولنا روح الرجل العظيم والذى يسميه بعض الناس الحماسة ويسميه بعضهم الإخلاص ويسميه آخرون الإيمان والذى هو فى الحق مزيج من هذا كله لاندري كيف يتم، مزيج ينبض به قلب العظيم ويجرى فى نفسه جريان الدم فى عروقه ... ومن الناس من وهبوا الذكاء الحاد والمهارة الفائقة ولـكنهم حرموا تلك الخصلة فما استطاعوا فى أعمالهم أن يرقوا بأنفسهم إلى مستوى أعلى من مستوى غيرهم ؛ ومنهم من لم يعظم ذكاؤهم ولـكن يمس قلوبهم قبس من ذلك السر العجيب فاذا هم غير النـاس ، ثم إذاهم فوق

الناس ... ومن هؤلاء النفر ذلك الرجل الذى درج فى الغابة والذى بنى نفسه فسار فى الحياة على نهج من قلبه وعلى دليل من طبعه، ذلك الرجل الذى لا يذكر لأحد عليه يداً والذى تنكرت له الأيام وعركته المحن فبقى كما يبقى الجوهر الحر لا تترك فيه النار من أثر إلا البرهان القاطع على أنه جوهر حر لا مظهر ...

وتشاء الأقدار أن تقوم عظمة أمريكا على كاهل رجلين من أبنائها درجا فى مدرج الشعب وبرزا من صفوف العامة وهما جورج وشنجطون وابراهام لنكولن؛ أما أولهما فيرفع القواعد ويقيم الصرح، وأما الثانى فيمسكه أن ينهار؛ وتكون بذلك عظمة أمريكا عظمة ذات أصالة إذ لم تنشأ عن تقليد أو تستند إلى مبهرج من سلطان زائف، ويكون صرحها كالجبل الذى هو من أوتاد الأرض، لا كالبناء الذى يقوم على أسس يجوز عليها أن تجتث من فوق الأرض ...

ومضت الأيام تسير بابن الغابة سيراً معجلا وثيقاً ليؤدى رسالته، ولعله أشرف من حاضره على ما يعده له الغد القريب. أجل لعله أخذ يدرك أن مسألة العبيد مفضية حتماً إلى خطوة واسعة يخطوها غداً فيحس بعدها أنه ترك فى تاريخ بلاده ما تذكره به الأجيال. اقرأ كتابه إلى صديقه سبيد تقع فيه على رأيه وتتبين كثيراً مما كان يجول فى نفسه، قال: «فى عام ١٨٤١ قمنا معاً برحلة مملة على صفحة ماء منخفض فى قارب بخارى من لوسفيل إلى سان لويس، ولعلك تذكر كما أذكر أنه كان على ظهر القارب عشرة أو اثنا عشر عبداً مقرنين فى الحديد. ولقد كان هذا المنظر مبعث عذاب مستمر لى، وإنى أبصر شيئاً مثله كلما لمست نهر الأهايو أو أى جهة من جهات العبيد. وخلاف الجيل منك ياصديق أن ترى فى أنى لا أهتم بذلك الشىء الذى ينطوى على قوة تكربنى والذى لا يفتأ يسبب لى الكرب. لقد كنت حرياً أن تتبين إلى أى حد يقتل سواد الناس فى الشمال مشاعرهم حتى يستطيعوا أن يحتفظوا بولائهم للدستور وللوحدة»

فى هذه الكلمة القصيرة، ينجلى لنا رأيه فى مسألة العبيد فهى مبعث ألم فى نفسه، ألم استقر فيها منذ القدم فما يبرحها، وهو على الرغم من هذا الألم يحرص على الوحدة وعلى الدستور وفى ذلك تلخيص دقيق لمنهاجه الذى سيأخذ به نفسه حين يهم أن يهوى بالضربة الحاسمة فهو ضنين بالوحدة أن تتزلزل كما هو حريص أن يمحو كل أثر للعبودية فى البلاد ...

لن يضيره اليوم ألا يصل إلى مقعد فى مجلس الشيوخ بل ربما كان الشر فى أن يظفر بهذا المقعد، فلقد كانت له بعد فشله جولات لها خطرها فى حياته، جولات تنتهى به حتماً إلى رياسة الجمهورية فلم يبق ثمة على الدرب إلا مرحلة ...

وكثيراً ما يبتئس المرء إذا فاتته فرصة كأنما أغلقت بفواتها مسالك الفوز من دونه، وهو لا يدرى أنه ربما كان الخير فى فواتها؛ والحياة مليئة بالأمثال حافلة بالعبر؛ والعظماء وحدهم هم الذين لا يلويهم فوات الفرص وإن ابتأست لفواتها أحياناً نفوسهم، بل إنهم ليحمون على الشدائد ويستمرون على الكفاح ويستشعرون اللذة فى النصر، كما يستشعرونها فى ركوب الصعاب إلى ذلك النصر، ولن ينقص منها ما قد يصيبهم من خذلان

ولقد كان لنكولن من هؤلاء البواسل الأفذاذ الذين لا يحفلون الصعاب، والذين لا يحول بينهم وبين وجهتهم خذلان مهما عظم؛ بقى فى سبر نجفيلد بعد فشله ليكون فى المدينة زعيم الحزب الجديد الذى تستقبل البلاد مولده؛ وهل كان غيره تجتمع عليه القلوب والأهواء؟

كانت البلاد تستقبل حزباً جديداً هو الحزب الجمهورى؛ ولقد تألف هذا الحزب من عدة عناصر يجمع بينها حرصها على مقاومة انتشار العبيد حسبما جاء فى اتفاقية سورى، فكان ينتظم عدداً من الموجز وعدداً من الديمقراطيين وجماعة من دعاة التحرير؛ وكان قيام هذا الحزب فى تاريخ البلاد فاتحة فصل جديد كما كان فى تاريخ لنكولن مبدأ عهد جديد

(يتبع) الخفيف

الرافعي

في ذكراه الأولى

للأستاذ محمد سعيد العريان

« نص الكلمة التي أذاعها الأستاذ محمد سعيد العريان من محطة الاذاعة الفلسطينية بالقدس في مساء الاثنين ٩ مايو سنة ١٩٣٨ لمناسبة تمام سنة على وفاة فقيد الأدب العربي المرحوم مصطفى صادق الرافعي »

سيداتي ، آنساتي ، سادتي

سلام الله عليكم أهل هذه الأرض الطيبة ... ومعذرة ، وشكراً ...

لكأني بكم ترهفون السمع لتسمعوا ما يمكن أن أحدثكم به عن الرافعي في ذكراه الأولى ، وما أنا بمستطيع في هذه الفترة القصيرة من الزمن أن أبلغ ما أريد وتريدون من الحديث عن الرافعي

لم يكن الرافعي أديباً كبعض من تقرأ لهم من أدباء الصحافة ولكنه كان علماً من أعلام الأدب ، وإماماً من أئمة الدين ، وبرهاناً من براهين العربية يجالد به حين يعوزها البرهان

ولقد يكون من فضول القول أن أتحدث إليكم عن أدب الرافعي ، وآثاره الأدبية بين أيديكم وتحت أعينكم ؛ وإنكم لتعرفون أدبه وتعرفونه بأدبه . ولكني قد صحبت الرافعي عمراً من عمري ، فعرفته أكثر مما يعرفه الناس ؛ فليكن حديثي الليلة عن الرافعي الذي عرفته ...

لقد سمعت إسم الرافعي لأول مرة منذ بضع عشرة سنة ، وكنت يومئذ غلاماً حدثاً ، لا أكاد أفهم ما يأتي إليّ ، سمعت به وأنا طالب في الصفوف الأولى ، فسمعت اسماً له جَرْس ورنين ، وله نشيد تتجاوب أصداؤه في جوانب نفسي ، فحُبِّب إليّ من ذلك اليوم أن ألقاه ...

وقال لي رفيق : « وَيْ ! أتعرف من ذلك الذي أخذت عليه الطريق عامداً ؟ » قلت : « صه ، لا يسمعك فيسوءني جوابه ! » قال : « لا عليك ! إن في أذنيه وقراً فلا يسمع ! »

وتبدلت في نفسي صورة بصورة ، واعى ألم ليحل في نفسي من بعده ألم آخر ... وعرفت وقتئذ لماذا لم يرفع عينيه إليّ ولم يردّ التحية ...

ولقيته بعد ذلك مرات كثيرة في الطريق ، وفي القهوة ، وفي السيما ؛ وقرأت له مرات أكثر في الكتب ، وفي الصحف وفي المجلات ، وعرفته ولم أزل كل يوم أزداد عرفاناً به ، ولكني لم أعرفه العرفان الحق إلا بعد هذه الحادثة بعشر سنين ... حين جلست إليه لأول مرة في دار كتبه من داره ، عرفته على حقيقته وفطرة نفسه ، فكأنني لم أعرفه قبل ذلك اليوم ... وما فارقته من بعد حتى فرق بيننا الموت . رحمه الله !

إنني لأحس حين أذكره الساعة كأنني لست وحدي ، وكأن روحاً حبيبة تطيف بي وترف حولي بجناحين من نور ، وكأن صوتاً ندياً رفيع النبرات يتحدث إليّ من وراء الغيب حديثاً أعرف جرسه ونغمته ؛ وكأن عينين تطلان عليّ من عالم غير منظور لتأمراني أمراً وتلهماني الفكر والبيان ؛ ولكنني لا أرى ؛ ولكنني لا أسمع ؛ ولكني هنا وحدي ، تتغشاني الذكرى فتخيِّل إليّ ما ليس في دنياي . هيهات هيهات لوهم الأماني !

لقد كان هنا صوت يتجاوب صداه بين أقطار العربية . لقد كان هنا إنسان يملأ فراغاً من الزمان . لقد كان هنا قلم يصر صريراً فيه رنات المثاني ، وفيه أنات الوجع ، وفيه همسات الأماني ، وفيه صرخات الفزع ؛ فيه نشيج البكاء ، وفيه موسيق الفرح .. خفت الصوت ، ومات الانسان ، وتحطم القلم ؛ ولكن قلب الشاعر مازال حياً ينبض ، لأن قلب الشاعر أقوى من الفناء

في كل يوم يموت أديب من أدباء العربية وينشأ أديب ؛ فأين ، أين الأديب الذي يقوم لما كان يقوم له الرافعي ؟ أين ... أين الأديب الذي ينتدب بعد الرافعي ليقف لكل من يحاول التفحم على قدس القرآن ؟ أين ... أين الأديب الذي يقف قلمه وبيانه للدفاع عن العرب والعربية والاسلام ؟ أين .. أين الكاتب الألمي الذي يصور طهر الحب ، وسمو الانسانية ، وآلام البشرية وأفراح الحياة ، فتنبثق نوراً في كل قلب ، وتتفجر شعوراً في كل وجدان ؟ أين خليفة الرافعي الذي يقوم على سداد هذا الثغر المعطل ؟ أين حامل اللواء ، وأين صاحب القلم ؟

لقد كان الرافعى عصراً بتمامه من عصور الأدب ، وجيلاً بناسه فى تاريخ العرب ، وفصلاً بعنوانه فى مجد الاسلام

* * *

كانت الدنيا تموج من حوله بأناسيها وحوادثها ، وتضطرب حواليه فى أمانيها ونوازيها ، وتصطخب فى محيطه بشهواتها ونوازعها ؛ وهو وحده يعيش من هذا المحيط المضطرب المائج المصطخب فى دنيا وحده لا يسمع إلا همسات روحه ، ولا يحس إلا خلجات قلبه ، ولا ينظر إلا الهدف الذى يسعى إليه . وهيأه القدر بوسائله العجيبة لهذه الوحدة العقلية منذ صباه حين سلبه السمع ، فعاش حياته بعيداً عن دنيا الناس ، ومضى فى طريقه كما يمضى عابر السبيل : لا يُلقى باله إلى شىء مما حواليه أو يبلغ إلى غايته ...

* * *

لم يكن الرافعى ليعرف شيئاً فى سياسة الحكومات العربية المتعاقبة ، ولكنّ له هدفاً عاش يسعى جاهداً لتحقيقه : هو أن يبعث الحمية الإسلامية فى نفس كل مسلم ، ويوقظ النخوة العربية فى قلب كل عربي ؛ فكان بذلك رسول العروبة والاسلام إلى كل مسلم وكل عربى ؛ فلا جرم كان بذلك أحب كتاب العربية إلى كل مسلم وكل عربى

حياته الأدبية كلها تدور حول هذا المحور ، ومنشآته الأدبية كلها يسعى بها إلى هذا الهدف ، ومعاركه الطاحنة كلها تنشب فى هذا المعترك ؛ وما عادى عدواً قط من أدباء العربية إلا للدين أو اللغة أو القرآن ؛ وما اتخذ صديقاً من رجال الأدب أو السياسة إلا للدين أو اللغة أو القرآن

وليس من عجب أن تكون فلسطين هى أسبق بلاد العربية إلى تجديد ذكرى الرافعى ؛ فقد كانت فلسطين هى أحب بلاد العربية إلى الرافعى ؛ وما أحسبه كتب شيئاً يتصل بشأن خاص من الشئون القائمة فى بلد من بلاد العربية ، وإن له فى فلسطين لمقالات يذكرها كل عربى فى فلسطين !

لقد حاول كثير من مؤرخى الأدب أن يتحدثوا عن الرافعى فى حياته ؛ فقالوا شاعر . وقالوا كاتب . وقالوا أديب . وقالوا عالم . وقالوا مؤرخ . ولكنهم لم يقولوا الكلمة التى كان ينبغى أن تقال :

لقد كان شاعراً ، وكاتباً ، وأديباً ، وعالماً ، ومؤرخاً ؛ ولكنه بكل أولئك ، وبغير أولئك ، كان شيئاً غير الشاعر والكاتب والأديب ، وغير العالم والمؤرخ ؛ كان هبة الله إلى الأمة العربية المسلمة فى هذا الزمان ، لينبهها إلى حقائق وجودها ، وليردها إلى مقوماتها ، وليشخص لها شخصيتها التى تعيش باسمها ولا تعيش فيها ، والتى تعتز بها ولا تعمل لها

وكان يشعر أنه وحده فى الميدان والجميع إلبٌ عليه ، فعاش حياته كلها يصارع ويكافح ، ويقاوم ويناضل ، حتى خر صريعاً وفى يده الراية ؛ لم يتركها حتى انتزعها الموت من يده !

كثر ما قال عنه أعداؤه وغير أعدائه فى حياته : إنه حديد اللسان . إنه لدود الخصام . إنه لا يرعى اعتباراً مما تقوم به الصلات بين أهل الأدب ، حين ينزل إلى معترك من معارك النقد ... صدقوا ، ولكن ... أرأيت مرة على البدوى الثائر لعرضه أن يسفك الدم ؟ إنه هو هو ؛ فمن ذلك كانت شدته وصرامته ولدده فى الخصام : فى سبيل القرآن ، ومن أجل العروبة ، ولكرامة الإسلام . كان ذلك عرضه الذى يحرص عليه أن ينتهك ؛ فمن ثم كانت خصوماته الأدبية كلها فيها معنى الدم !

الدين ، واللغة ، والقرآن ، أو العروبة والإسلام : ذلك كان مذهبه فى الأدب ، وله كان جهاده ؛ حتى فى الحب — وللرافعى حب مشهور — وحتى فيما أنشأ من رسائل الحب ، لم يكن الرافعى يعتبر إلا مذهبَه والهدَف الذى يسعى إليه : للدين ، واللغة ، وللقرآن ...

من شاء فليقرأ كتبه الثلاثة فى فلسفة الجمال والحب ، ليرى فيها كيف تسمو روح العاشق على شهوات البشرية حتى تتصل بخالقها الأعلى ؛ ثم ليرى العربية أسلوباً جديداً ، فيه عمق الفن ، ودقة التعبير ، ووضوح الأداء ، حتى فى الترجمة عن أعمق ما تجيش به خفايا النفس الإنسانية

* * *

ولأدب الرافعى ميزة ليست لكثير من أدباء الجيل ؛ فهو أدب عليه طابع الخلود وتلك آداب إلى زوال . هذا أدبه بين أيدينا وتحت أعيننا ، ما تزال تدفعنا إليه دوافع من أنفسنا فى فترات متقاربة أو متباعدة ، لنعيد قراءته ونتملى ما فيه من جمال

الى الشباب

بين جوته وإيكرمان

للأديب نصرى عطا الله سوس

جينا — الثلاثاء ١٨ سبتمبر سنة ١٨٢٣

فى صباح الأمس وقبل أن يعودجوته إلى (فيمار) حظيت مرة أخرى بسعادة الحديث معه ؛ وماقاله لى هذه المرة لا يُثمن بالنسبة لى؛ ويجب على جميع شعراء الشباب الألمان أن يلموا به بداء بسؤالى عما إذا كنت قد كتبت شعرا هذا الصيف، فقلت كتبت بعض القصائد ولكن كان ينقصني على العموم الؤاتاه الضرورية، فقال جوته : حذار من محاولة كتابة موضوع كبير . إن هذا هو ما يضر بأ كبر المعقول عندنا حتى أولئك الذين يمتازون بأذهان حادة ومجهودات جدية ؛ ولقد عانيت شخصياً هـذه العلة . وإنى لأعرف كم من أضرار أوقعت بى . وأى شىء لم أتركه يسقط فى البئر . ولو كتبت كل ما وددت أن أكتب ما كفانى مائة مجلد. يجب أن ينال الحاضر حقوقه . فالأفكار والاحساسات التى تجول فى نفس الشاعر يوماً بعد يوم يجب عليه أن يعبر عنها — ولكن إذا شغلت رأسك بموضوع كبير فلن تعيش أي فكرة أخرى بجواره . كل الأفكار ترفض وتصد، حتى لذة الحياة نفسها تفقد وقتئذ . وأى مجهود عقلى تبذل كي تنظم وتلم شعث موضوع كبير ! وأى قوة وأية طمأنينة تحتاج حتى يتسنى لك التعبير عنه فى سلاسة لائقة ! وإذا خانك التوفيق فى أى جزء منه فكل مجهودك ضائع . وإذا عالجت موضوعاً كبيراً ولم تكن على معرفة تامة بكل تفاصيله فسيكون إنتاجك ضعيفاً وتستهدف للملام . فبدلا من المكافأة والسيادة جزاء على ما بذل من مجهود وتضحية لا يحظى الشاعر إلا بالانزعاج وشلل قواه العقلية . وهاك « أرنست هاجن » ذهن رائع ... هل قرأت كتابه « الفرد وليسنا » هناك نبذ بلغت الغاية من السمو ، نبذ فخمة ولكن الكتاب لا يرضى أحداً . وأى مجهود وقوة أنفقها الكاتب ! لقد أنهك نفسه ! إنه يكتب مأساة الآن » وهنا ابتسم جوته وسكت برهة فقلت : « إذا لم تخن الذاكرة ، فأنت قد نصحت هاجن بمعالجة الموضوعات القصيرة » فقال جوته : « حقاً ! لقد فعلت ، ولكن هل يتبع الناس نصائحنا نحن الشيوخ ؟ كل يظن أنه أدرى بنفسه من الآخرين . وهكذا يفشل البعض فشلا نهائياً بينما يشرد البعض الآخر فى مهامه الزلل لمدة طويلة — لقد كان الماضى زمن العثار ... ماضينا نحن الشيوخ . وما فائدة أبحاثنا وأغلاطنا إذا سار الشباب فى الطريق نفسه من أوله مرة ثانية ؟ بهذه الطريقة لا يمكن أن نتقدم أبداً . لقد كابدنا أغلاطنا لأننا لم نجد طريقاً واضح المعالم نسير فيه؛ ولكن ذلك الذى يأتى أخيراً ليس فى حاجة لأن يبحث ويدل . بل يجب أن يتبع تعليمات الشيوخ كي يسير فى الطريق السوى من المبدأ. ولا يكفى مطلقاً أن نخطو خطوات قد تؤدى إلى غاية يوماً ما ، بل يجب أن تحمل كل خطوة غاية فى حد ذاتها »

« تأمل هذه الكلمات وتبصر كيف تعمل بهـا . إنى لست

وصدق وقوة . وذلك أدب الأدباء ، ما يكاد القارئ ينتهى منه إلى ما يريد حتى ينساه فلا يعود إليه ولا يذكره ، على ما فيه من لذة ومتاع !

لم يكن الرافعى يكتب تلك الكتابة الصحافية السوقية التى تلتمس للهو وإزجاء الفراغ ؛ ولكنه كان يكتب ليضيف ثروة جديدة إلى اللغة ، وينشىء أدباً يسمو بضمير الأمة ، ويشرع طريقاً تسير فيه إلى عظمة الخلد ، وسعادة الأبدية ، ومجد التاريخ

الرافعي ! رحمه الله ! لقد عاش فى خدمة العربية سبعاً وثلاثين سنة من عمره القصير ، وصل بها حاضرها الماثل بماضيها البعيد ؛ فهي على حساب الزمن سبع وثلاثون ، ولكنها على الحقيقة شطر من عمر الزمان ، وباب من الأدب ، وفصل فى تاريخ الاسلام

لقد عاش غريباً ومات غريباً ؛ فكأنما كان رجلا من التاريخ بُعث فى غير زمانه ليكون تاريخاً حياً ينطق بالعبرة ويجمع تجاريب الأجيال ، يذكّر الأمة العربية الإسلامية بماضيها المجيد ؛ ثم عاد إلى التاريخ بعد ما بلّغ رسالته ... لقد خفت الصوت ، ولكنه خلّف صداه فى أذن كل عربى ، وفى قلب كل مسلم ، يدعوه إلى الجهاد لمجد العرب ، ولعز الإسلام .

« القدس » محمد سعيد العريان

قاقاً عليك ، ولكن نصائحي ستساعدك على إنهاء مرحلة لا تلائم مركزك الحالي . فإذا ما عالجت الموضوعات الصغيرة ، وإذا ما كتبت ما يعرضه عليك « الحاضر » يوماً بعد يوم فستنتج جيداً . وكل يوم سيجلب لك سعادة جديدة . إبعث بما تكتبه إلى المجلات ولكن لا ترضَ أبداً بكتابة ما يفرضه عليك الآخرين . إتبع وحي نفسك دائماً »

« إن في الدنيا من العظمة والفن والحياة والتنوع بحيث لا يمكنك أن تفتقد بواعث الشعر ؛ ولكن الشعر يجب أن يكون له بواعث ... أعني أن الحقيقة يجب أن تمد الشاعر بالدافع والمادة . إن الحادثة المعينة تصبح حادثة عالية وشعرية إذا ما تناولها شاعر . كل قصائدي لها بواعث ، وقدمت إليها الحياة الحقيقية ، ولها في ذلك أسس ثابتة . أنا لا أعير أي اهتمام للشعر الذي ينتزع من الهواء »

« إن أحداً لن يقول إن الحقيقة تنقصها روح الشعر ، وهنا يثبت الشاعر مقدرته بتمكنه من فن تناول الموضوع العادي من وجهة نظر خاصة بحيث يصبح مهمًّا . الحقيقة يجب أن تمد الشاعر بالدافع إلى الموضوعات التي يود التعبير عنها . النواة ووظيفة الشاعر هي أن يخلق من هذه المواد وحدة جميلة حية . هل تعرف « فرنستين » ؟ إنه يدعى شاعر الطبيعة . لقد كتب أرق ما يمكن من القصيد عن زراعة حشيشة الدينار . لقد اقترحت عليه أن يؤلف أغاني على ألسنة أرباب المهن المختلفة ، خصوصاً النساج . وإني لواثق من أنه سيجيد ، لأنه عاش بين هؤلاء منذ صباه . ولذا كان سيد مادته . تلك هي ميزة الموضوعات الصغيرة . كل ما عليك أن تختار ما تعرفه جيداً . ولكن هذا لا يتأتى في الموضوعات الصغيرة ، في هذه الحالة لا يمكنك أن تتفادى أي جزء . وكل ما يتعلق بتوحيد مادة الموضوع وما يدخل ضمن عناصره يجب أن يصور بدقة ... وفي زمن الصبا ينظر الشباب إلى الأشياء من ناحية واحدة ؛ والموضوع الكبير يتطلب إمكان النظر من نواحي عدة ... ومن هنا الفشل ! »

وأخبرت جوته أني كنت أفكر في كتابة قصيدة طويلة عن الفصول أضمنها الكلام عن أعمال وملاهي الطبقات كلها فقال : « هذا في قلب الموضوع . قد توفق في بعض الأجزاء ، ولكن قد تخفق في البعض الآخر عند ما تكتب عما لم تبحثه أو تخبره جيداً ، وقد تكتب عن (السماك) جيدا ، ولكن قد يخونك الحظ في الكتابة عن (الصياد) . وإذا أخفقت في أي جزء فالنتيجة هي الفشل مهما أجدت في بعض الأجزاء . وبذا تكون قد أنتجت إنتاجاً مبتوراً . اكتب كل جزء على حدة واقتصر على ما تعرفه . ومن المؤكد أنك ستنتج ما يرضى . وأحذرك خاصة من « الابتكارات » لأنها قد ترمى إلى التعبير عن فكرة خاصة عن العالم ، والشباب قلما يكون من النضج بحيث يوفق في هذا . فضلاً عن أن الشخصيات والآراء التي يضمنها ابتكاراته تنفصل عن عقل الشاعر وتحرمه من « الامتلاء » اللازم لكتاباته المستقبلة . وأخيراً ، كم من الزمن يفقدني الابتكار والترتيب والتركيب . هذا ما لا يعدحنا أحد عليه ، حتى ولو كتبنا بنجاح . ولكن في حالة ما يعطي الشاعر المادة تكون الأمور أحسن وأسهل[1] . فإذا ما مُد الشاعر بالشخصيات والحقائق يكون عمله أن ينفخ الروح فيها فقط ، فيحتفظ بامتلائه ولا يفقد كثيراً من الزمن والمجهود . إني أنصح دائماً باختيار الموضوعات التي طرقت قبلاً . فكم من « أفيجينيا » كتبت ولكن كلهن مختلفات . كل شاعر يتناول القصة حسب طريقته . عليك أن تترك التفكير في الموضوعات الكبيرة الآن . لقد آن لك أن تعيش ذلك الطور البهج من الحياة ، ولأجل أن تصل إلى هذا فعالج الموضوعات الصغيرة ... »

.... وكنا نسير في الغرفة جيئة وذهوبا ولم يسعني إلا التسليم شاعراً بصواب كل كلمة . ومع كل خطوة كنت أحس نفسي أسعد وأنشط . ويجب أن أعترف أن الخطط الكبيرة واللاتي لم يمكني أن أخلص الى فكرة واضحة بصددها لم تكن بالعبء الهين علي

إني لأشعر أن كلمات جوته زادتني حكمة سنوات ، وعرفت ما في مقابلة الأستاذ الحق من التوفيق والخير

نصري عطا الله غطاس

(الرسالة) سألنا بعض القراء عن عنوان الكاتب الأديب فنرجو أن يبعث به إلينا

(١) يقصد جوته الهيكل العظمى للموضوع كما فعل هو في فاوست وكما فعل شكسبير في أكثر ما أنتجه



رسالة الشعر



ذكرى سيد الوجود

محمـــــــد

للأستاذ أنور العطار

نَحْنُ فِي مَوْلِدِ الْمُتَوَّجِ بالنُّو ... رِ وفِي لَيْلَةِ الرِّضا والمَغانِمْ
حَفَلَتْ بالطُّيُوبِ فالعالَمُ الوا ... سِعُ حَقْلٌ مِنَ الأَزاهِيرِ فاغِمْ
والنُّجُومُ المُفَضَّضاتُ عُيُونٌ ... شاخِصاتٌ والكائناتُ مَباسِمْ
كُلُّ مَنْ فِي الوُجُودِ رانٍ أَخِيذٌ ... ذاهِبُ اللُّبِّ مُسْتَطارٌ ساهِمْ
طَفَحَ الكَوْنُ بالأَذى والضَّلالا ... تِ وضَجَّتْ رِحابُهُ بالمآثِمْ
فَمَنِ الحامِلُ البَشائِرَ لِلأَرْ ... واحِ ، مَنْ ذلكَ الحَبِيبُ القادِمْ
وَهَبَ البُرْءَ للقلوبِ الوَجِيعا ... تِ ، ونَحَّى عَنِ الحَياةِ المَظالِمْ
وأَعادَ الإِنْسانَ رُوحاً نَقِيًّا ... خالِصاً من حُقُودِهِ والسَّخائِمْ
صَفْوَةَ الخَلْقِ أَيُّ نُورٍ على الأُفْـــقِ بَهِيٍّ ، جَمِّ التَّلامِيعِ ، حائِمْ
سَطَعَتْ مِنْ سَناكَ هذي السَّماوا ... تُ وَرَفَّتْ بكَ الدُّنا والعَوالِمْ
أَنْتَ نَجْوَى الأَرْواحِ فِي كُلِّ جِيلٍ ... وَشُعاعُ الهُدَى ، وَرَوْحُ النَّواسِمْ
تَتَناجَى بِكَ القُلُوبُ الحَيارَى ... وَتَغَنَّى بِكَ النُّفُوسُ الهَوائِمْ
يا سَماءَ الجَلالِ يا رَفْرَفَ الخُلْـــدِ وَيا صُورَةَ النَّعِيمِ الدَّائِمْ
لَأَصُوغَنَّ مِنْ نَداكَ الأَناشِيـــدَ ، وَأَفْتَنُّ فِي ضُرُوبِ المَلاحِمْ
كُلُّ بَيْتٍ يَكادُ يَقْطُرُ بالرِّفْـــقِ وَيَخْضَلُّ بالدُّمُوعِ السَّواجِمْ
يا نِداءَ المُعَذَّبِينَ الأَسارَى ... وَدُعاءَ المُرَوَّعاتِ النَّوادِمْ
كُلُّهُمْ راكِضٌ إِلَيْكَ يُرَجِّيـــكَ ، وكُلٌّ مُوَلَّهٌ بكَ هائِمْ
ظَفِرُوا مِنْكَ بالسَّماحاتِ تَتْرَى ... وَغَنُوا بالرِّضا الشَّهِيِّ المَناعِمْ
صُغْتَ لِلنَّاسِ شِرْعَةً من علاءٍ ... وحَنانٍ وطِيبَةٍ ومَراحِمْ
الهَدايات حانِياتٌ عَلَيْها ... والعِنايات طائِفاتٌ حَوائِمْ
لُذْتَ بالغارِ تَتَّقِي شِرَّةَ النَّا ... سِ وَتَنْسَى العُدْوانَ مِنْ كُلِّ ناقِمْ
وَحِراءٌ بكَ اسْتَطالَ عَلَى النَّجْـــمِ وَتاهَتْ بِهِ الصُّخُورُ الجَواثِمْ
يَشْتَهِي الخُلْدُ لو تَغَلْغَلَ فِيهِ ... حُلُماً فاتِنَ المَسَرَّاتِ ناعِمْ
ضَمَّ فِي ساحَتَيْهِ نوراً من اللَّـــهِ تَسامَتْ بِهِ العُلَى والمَكارِمْ
وَبِنَفْسِي عَناكِبٌ ناسِجاتٌ ... لكَ سِتْراً يَقِيكَ من كُلِّ آثِمْ

* * *

سَعِدَتْ بالهُدَى رِحابُ الصَّحارَى ... وَتَلالَتْ فِيها المَوامِي الطَّواسِمْ
أَعْشَبَ القَفْرُ وازْدَهَى الصَّخْرُ الصَّـــلْدُ وَفاضَتْ مِنْهُ العُيُونُ النَّواجِمْ
وَتَنَدَّتْ هذي الرِّمالُ العَطاشَى ... كاللآلي فَرائِداً وتَوائِمْ
تَتَغَنَّى والكَوْنُ يَهْتِفُ جَذْلا ... نَ فَتَهْتَزُّ فِي العَلاءِ الغَمائِمْ
فَهْيَ حُلْمٌ عَلَى اللَّيالِي جَمِيلٌ ... وَهْيَ نايٌ عَلَى مَدَى الدَّهْرِ ناغِمْ
اسْمَعِ الرَّمْلَ يَمْلَأُ الأَرْضَ تَسْبِيـــحاً بِصَوْتٍ مُجَلْجِلٍ كالزَّمازِمْ
رَعَدَتْ فِي مَداهُ تَكْبِيرَةُ اللَّـــهِ وَسالَتْ بِهِ الجُيُوشُ الخَضارِمْ
قَهَرَتْ بالكَتائِبِ الغُلْبِ كِسْرَى ... وَهِرَقْلاً وَكُلَّ مَلْكٍ ضُبارِمْ
رَفْرَفَتْ رايَةُ النَّبِيِّ عَلَيْها ... فاسْتَظَلَّتْ بِها الذُّرُ القَشاعِمْ
فإذا الكائِناتُ تَسْبَحُ بالنُّو ... رِ وَتَفْتَرُّ عَنْ ثُغُورٍ بَواسِمْ

فَعلى الأُفْقِ مِنْ سَنَاهَا رُسُومْ ... وَعَلَى البِيدِ مِنْ رُؤَاهَا عَلائمْ

* * *

يا صِحَابى وَمَعْشَرِي وَقَبيلى ... آنَ أنْ تَستفيقَ تِلكَ الصَّوارِمْ
صَدَأُ الدَّهْرِ لم ينَلْ مِنْ ظُبَاهَا ... فَهْيَ مَسْنُونَةُ الشِّفَارِ حَوَاسِمْ
فامْنَعُوهَا غُمُودَهَا وَكَرَاهَا ... واسْتَثِيرُوا بِهَا دَفِينَ العَزَائمْ
لا تَنَامُوا عَلَى الإسَارِ وَتَغْفُوا ... فلقد مَلَّتِ القُيُودُ المعَاصِمْ
وَانفُضُوا عَنكُمُ الرُّقَادَ وَهُبُّوا ... لم تَلِنْ هذه الحيَاةُ لنَائمْ
يا لَحُلْمٍ مُلَفَّقٍ قَدْ أَضَعْنَا ... فى رُؤَاهُ تِيجَانَنَا والعَوَاصِمْ
فَنِيَتْ فى دُجَاهُ قَافِلَةُ المجْـدِ وَمَاتَتْ فيهِ النُّفُوسُ القَوَاحِمْ

* * *

يا نبيَّ الهُدَى لَقَدْ ذَلَّتِ العُرْ ... بُ وَقِيدَتْ إلى الرَّدَى بالشَّكَائمْ
سُلِبَتْ حَقَّهَا وَدِيسَ حِمَاهَا ... وَاسْتَكَانَتْ لِكُلِّ أَرْعَنَ ظَالِمْ
يا سَمَاءُ اهْبِطِي وَيا أَرْضُ مِيدِي ... غَصَبَ الأَلْأَمُونَ مَجْدَ الأَكَارِمْ
أَيْنَ قَوْمِي وَأَيْنَ مُلْكٌ على الدَّهْـرِ أَضَاءَتْ بِهِ اللَّيَالِي القَوَاتِمْ
زَيَّنُوا مَفْرِقَ الزَّمَانِ وَتَاهَتْ ... بِهِمُ هَـذِهِ النُّجُومُ الحَوَالِمْ
يا بَقَايَا السُّيُوفِ، رَمْزَ الأَضَاحِي ... وَشِعَارَ الفِدَا، وَسِرَّ العَظَائمْ
أَوْقِدُوهَا حَمْرَاءَ تَلْتَهِمُ الأُفْـقَ فَتَشْوَى بِهَا اللَّظَى والسَّمَائمْ
وَامْنَحُوهَا دِمَاءَكُمْ تَتَنَزَّى ... وَامْهَرُوهَا أَرْوَاحَكُمْ والجَمَاجِمْ
وَامْلِكُوا الأَرْضَ أَنْتُمُ سَادَةُ الأَرْ ... ضِ، وَأَنْتُمْ بنو اللُّيُوثِ الضَّرَاغِمْ
أَنْتُمُ الأَسْبَقُونَ فى حَلْبَةِ العِزِّ ... بِكُمْ تَنْجَلِي العَوَادِي الغَوَاشِمْ
... كَذَبَتْنَا أَحْلامُنَا وَالأَمَانِيُّ ... فيَا ضَيْعَةَ الذَّلِيـلِ الحَالِمْ
وَخَسِرْنَا أَمْجَادَنَا وَعُلانَا ... وَذَلِلْنَا كَمَا تَذِلُّ البَهَائمْ
وَأَفَقْنَا نُهْبَى لِكُلِّ أَثِيمٍ ... وَحِمَانَا والسَّاكِنُوهُ غَنَائمْ
يا لَرَبْعٍ مُهَدَّمٍ مُسْتَبَاحٍ ... دَنَّسَتْ قُدْسَهُ نِعَالُ الأَعَاجِمْ
وَهُوَ عَرْشُ الشُّمُوسِ، مَهْدُ البَهَالِيـلِ، وَمَثْوَى المُنَافِحِينَ الصَّلادِمْ
قَدْ نَحِجْنَا من البُكَاءِ كَأَنَّا ... قد سَلَبْنَ النُّوَاحَ هَذِي الحَمَائمْ
وَلَهَوْنَا عَنِ العُلَى بِحَزَازَا ... تٍ شِدَادٍ لَهُنَّ فِعْلُ الأَرَاقِمْ
وَأَقَمْنَا على العَوِيلِ كَأَنَّا ... حَشْرَجَاتٌ تَضِيقُ عنها المآتِمْ

بغداد **أنور العطار**

فراش الربيـــع

للأستاذ محمود الخفيف

طِرْ من الحقلِ إلى الرَّوْضِ المَرِيعْ ... باحثاً عن نَشْرِهِ
أفْضِ للزَّهرِ بأسرارِ الرَّبيعْ ... واسْتَرِق من عِطْرِهِ
وافِهِ بَيْنَ شتيتٍ وَجميعْ ... واقتبِسْ وَشْيَ الضُّحَى من سِحْرِهِ

* * *

مِلْ إلى الجدْوَلِ وارقُصْ حَوْلَهُ ... غازِلِ الشَّاطِئَ واشْهَدْ صُوَرَهْ
ثِبْ إلى الدَّوْحِ تَفَيَّأْ ظِلَّهُ ... لاعِبِ الغُصْنَ وداعِبْ ثَمَرَه
مَلْعَبٌ يَصْبُو لهُ ... كلُّ قَلْبٍ خَبَرَه
خُـذْ جَنَاهُ كلَّهُ ... زَهْرَهُ أو شَجَرَه

* * *

تَتَوافَى لَكَ أسبابُ المُنَى ... أيُّهَا الرُّوحُ الدَّؤوبُ الحائمُ
فهُنَا حيناً وحينـاً هاهُنَا ... نازِحٌ طوْراً وطوْراً قادِمُ
أمشوقٌ هائمُ ؟ ... أم خَلِيٌّ ناعمُ ؟
أمْ شَرُودٌ أنـــتَ لاهٍ سائم ؟

* * *

أنْتَ يا رَفَّافُ مَوْصُولُ الجذلْ ... أيُّ هَمٍّ شغلكْ ؟
ثَمِلٌ تَرْقُصُ من فَرْطِ الثَّمَلْ ... إذ تُلَقَّى أمَلكْ
يا طليقاً ما دَرَى مَعْنَى المَلَلْ ... أيُّ حُسْنٍ رائع لم يَكُ لك ؟

* * *

يا طَرُوباً ليسَ يدرِى ما الشَّجَن ... وَيْكَ يا هَيمانُ وَيْكَ!
رَفَّ فى مَرْآكَ مَطْوِيُّ الزَّمَنْ ... فحَنَتْ روحى عليك
ما لِقَلْبى بين شَجْوٍ وسَـكَنْ ... خافِقاً يَهْوِى إليك؟

* * *

ذِكَرَ العَيْشَ الذى لو يُشْتَرَى ... اشترى الأيامَ مِنْهُ بالسِّنين!



التصوير التوضيحي

في المخطوطات الاسلامية

للدكتور أحمد موسى

— ٢ —

كان من حسن الحظ أن ساهمنا فى العدد الممتاز الذى أصدرته مجلة الرسالة بمناسبة العام الهجرى بموضوع أتينا فيه على بعض ماللعرب فى مختلف الفنون التصويرية لتوضيح النصوص وتصوير كتب العلم والأدب مما يجلو غوامضها للقراء والراغبين فى العلم، فنشرنا بضع صور ضوئية منقولة عن بعض المخطوطات القيمة في علم تخطيط الأرض والفروسية والتوقيت والكيمياء . وقد وعدنا القراء فى ختام المقال السابق باستيفاء هذا الموضوع الطريف حقه من البيان . وها نحن أولاء قد وفقنا بعد البحث إلى ثلاثة كتب مخطوطة زينها مؤلفوها بالتصاوير والأشكال الحقيقية تارة والرمزية طوراً ؛ ففى كتاب « نهاية الإدراك فى دراية الأفلاك » لمؤلفه قطب الدين محمد بن مسعود الشيرازى جملة صور فلكية أهمها صورة كسوف الشمس وقد جاء فيها :

« لكون القمر هو الكاسف والتوالى من المغرب إلى المشرق وهذه صورة الكسوف ، الفصل الرابع فى أزمان مابين الخسوفين والكسوفين ، أما الأول فمعرفته مبنية على معرفة حدود الخسوفات وهى مقدرة باثنى عشر جزءاً من بعد القمر عن إحدى المقدتين

فيكَ مَرْآهُ وفى دُنيا الكرى ... وادِّكارِ النفْسِ حيناً بعدَ حين

* * *

حينما كُنَّا صغيرين معاً ... لا نمَلُّ الوثْبَ فى ظلِّ الشَّجَرْ

و نرَى الرَّوْضَ جميعاً مرتعاً ... كم تملَّيْنَا بِهِ أبْهَى الصُّوَرْ

زهرَتى فيهِ تبدَّتْ أرْوَعا ... من سَنا الصُّبْحِ ومِنْ سِحْرِ الزَّهَرْ!

* * *

آه ! كم توجعُ نفسى «حينما» ... يا خَلِيًّا لَيْسَ يدْرِى ما بِيَهْ

وَيْكَ يا قلْبِى ! أتهفو كلَّما ... طافَتِ الذِّكْرَى وتصبو ثانيه؟!

كُفَّ ياقلْبُ عن الشكوى فما ... ينقعُ الآلُ قُلُوباً صادِيَهْ

* * *

كم جهَدْنا وجَرَينا فى الضُّحَى ... لا نرَى فى لهونا إلا لديك

ومَلِلْنا الرَّوْضَ إلا مسرَحا ... تتهاوَى فيهِ بالأيدى عليك

* * *

أنا يا هيمانُ عنِّى واقتربْ ... كالرؤى طافت بحُلْمِ الناعسِ

هِجْتَ يا لاعبُ نفسى لِلَّعِب ... ماغَنَى لى من زمانى الدَّارسِ؟

* * *

ويك ! إنا نلعب اليومَ كما ... قد لعِبْنا أمس فى غَيْرِ مَلَلْ

نَبْدَأُ الشَّوْطَ ونَمْضِى كلَّما ... رَفَّ يا رَفَّافُ للنفْسِ الأمَلْ

* * *

لهْوُنا اليوْمَ بِهاتيك المنى ... تتراءى بيْنَ نَشْرٍ وعَدَمْ

نَحْنُ كالأطفالِ إلا أننا ... نَقتُلُ اللذَّةَ فيها بالألم !

نقْرَعُ السِّنَّ على مافاتنا ... ونذوقُ الصَّابَ مِن كأسِ النَّدَمْ

* * *

رِفَّ يا لاعِبُ وارتع وانعَم ... واقْضِ من عيشك فى الزَّهْرِ الوطَرْ

اجْتَنِ اللَّذَّاتِ واخْتَرْ واغنَم ... لَكَ فى نورِ الضُّحَى عُمْرُ الزَّهَرْ

* * *

وَيْحَ لِلْإنسانِ ما أَجْدَرَهُ ... بهيامٍ مِثْلِ هذا ومِراحْ

عُمْرُهُ المكْدُودُ ما أقصَرَهُ ... خفقاتٌ من مَساءٍ وصَباحْ

الخفيف

فى أى جهة كان ، لأن عرضه إذا جاوز هـذا الحد زاد على



ش ١ — مقر النيرين فى وقت الكسوف

نصفى القطرين ، لأن غاية عظم نصف قطر دائرة الظل وهو إذا كان القمر فى حضيض التدوير ست وأربعون دقيقة . وغاية عظم نصف قطر القمر ثمانى عشر دقيقة، والعرض المساوى لمجموعهما وهو أربع وستون دقيقة إنما حصل على بعد اثنى عشر جزءاً وكسر من العقدة أو على بعـد إحدى عشرة درجة ونصف بالتقريب يكون العرض درجة فبعد تجاوز العرض عن الحد يزيد على نصفى القطرين ولا يمكن الخسوف حينئذ وبهذا الاعتبار ينقسم المائل إلى أربعة أقسام ... الخ[١] »

وقد زين هذا المتن بصورة القمر والشمس من أعلاه والأرض من أسفله ، ورسم دائرة كبرى كتب على محيطها الفلك المثل ومر محيطها بمركز الشمس ، وداخلها دائرتان متساويتا القطرين تقابل محيطاهما فى مركز القمر . وكتب على محيط اليسرى منهما منطقة ممثل القمر ، وعلى اتجاه مركز القمر وفى استقامة اتجاه مركز الشمس رسم الأرض مبيناً مركزها ، وعلى محيط الأرض

(١) راعينا أن يكون النقل طبق الأصل

اختار موضع الناظر ، كما أظهر مخروط القمر ومخروط الظل

ويرى الناظر المتأمل أن هذه الصورة لا تختلف شيئاً عن التصوير العلمي لمقر النيرين فى وقت الكسوف ، فضلا عن الدقة التى اتبعها المؤلف فى رسم الدوائر الست بالرغم من أن عصر المؤلف يرجع إلى القرن الخامس عشر الميلادى

أما الكتاب الثانى فهو فى الكيمياء القديمة ويرجع تاريخ تأليفه إلى القرن الخامس عشر على الأرجح ، وهو يتناول ضمناً تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب. ونص الصفحة التى ننقلها هو « صفة ما نقل من صحف ووسيموس وأوتاسيا : خـذ من حجر — كا — ما شئت وهو الكبريت الأحمر الذى لا يخلو منه مكان والتى من الكبريت الأبيض مثله واسحقه فانه يذهب



شكل ٢ — تحويل الزئبق إلى ذهب

بصلابته والتى مثلهم زيبقاً بحذروا عملهم فى النار ساعة ثم أعيد

عليهم السحق والسقى إلى أن يعجبك لونه ، فألق منه على حجر (؟) يصير ذهباً إبريزاً والحمد لله تعالى ... » وتحت هذا المتن متن آخر انفصل عنه بصورة تمثل ستة رجال بوجوه كاملة الاستدارة (ش ٢)، وإلى يمين هذه الرؤوس صورة الهلال وإلى يسارها صورة البدر ، وإلى يمين ويسار المتن وقف رجلان أمسك كل منهما بسلسلة التفت حول عنق الستة الرجال الذين وضع كل منهم يسراه على صدره . وفى نهاية الصورة رموز شملت بعض حروف إغريقية وهيروغليفية وعربية ، فكانت إلى الطلاسم أقرب منها إلى الكلام المفهوم . ويرى المتأمل فيها بعض صور أشبه شيء برسم القلب والسيف والصليب

والصورة (ش ٣) منقولة عن كتاب صور الكواكب لعبد الرحمن بن عمر الطوسى ويرجع تاريخه إلى منتصف القرن السابع عشر الميلادي . وهى تمثل النسرين الواقع والطائر . وقد جاء فوق صورة النسر الأيمن ما أوله : المجرة عند القدر الخامس بينهما مقدار شبر من رأس العين ... الخ وحلّى كل نسر منهما بعدد الكواكب المشرقة فى بدنه وجناحيه وذيله ومخالبه



شكل ٣ — عن كتاب صور الكواكب للطوسى

يرى القارىء مما تقدم أن التصوير كان مستعملا عند العرب لتفسير ما غمض فى المؤلفات العلمية بقصد تمام التوضيح على قدر ما سمحت به وسائلهم ولا سيما فى علمى الكيمياء والفلك ، فإن أدوات الرصد كانت معدومة تقريباً ، ولم يكن لدى الفلكي منهم سوى قواعد الحساب على الطريقة القديمة ، كما كانت الأدوات الكيميائية ووسائل الصهر غير موجودة بالصفة التى نراها الآن

وإذا كان العرب قد اجتهدوا فى تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب وأخفقوا ، فان نظريات الكيمياء والطبيعة الحديثة أثبتت إمكان تحويل المعادن بالصهر . ولا ننس آخر الأنباء من أن عالماً ألمانياً هو الأستاذ ميتا أمكنه تحويل الزئبق إلى ذهب بالحرارة ، فكأنه بذلك سجل الأقدمية لعلماء العرب

وفى مقالنا القادم سنتناول ناحية أخرى من نواحى التصوير الإسلامى

أحمد موسى



كارنا و كونتى

للشاعر الفيلسوف رابندرانات طاغور الهندى

للأديب شكرى محمد عياد

(كان لكونتى ملكة «بنداوا» قبل زواجها ولد هو كارنا الذى أصبح فى رجولته قائداً لرهط الكيراويين ، ولكى تدفع عن نفسها العار هجرته عند مولده فرباه حوذى اسمه أجيراتا)

كارنا — إننى أنا كارنا ، ابن الحوذي أجيراتا ، أجلس هنا على ضفاف الكنج أعبد الشمس الغاربة ، فمن أنت ؟

كونتى — إننى أنا المرأة التى فتحت عينيك لأول مرة على هذا النور الذى تعبده

كارنا — لست أفهم ، ولكن عينيك تصهران قلبي ، كما تقبّل الشمس ثلجاً على قمة جبل ، وصوتك يبعث فى حنايا صدرى حزناً أعمى ، ثوى السر فيه بنجوة من ذكرياتى الأولى . خبرينى أيتها المرأة الغريبة ، أى لغز يصل مولدى بك ؟

كونتى — صبراً جميلاً يا بنى . سوف أجيبك حين تنسدل أجفان الظلام على عيون النهار المستطلعة . أما الآن فاعلم أننى كونتى

كارنا — كونتى ! أمُّ أريونا ؟

كونتى — نعم بلا ريب ، أمُّ غريمك أريونا . ولكن لا تُبْغِضَنِّى لذلك يا ولدى . إننى ما برحت أذكر يوم السلاح فى هاستينا ، حين قفزت إلى الحلقة فى جرأة وأنت غلام مغمور ، فكنت كشعاع الفجر بين نجوم الليل . آه ! من كانت تلك المرأة التى قبلت عيناها جسدك العاري الرشيق من خلال دموع كانت تباركك وهى جالسة بين نساء القصر الملكى وراء السجوف ؟ كيف ؟ لقد كانت أم أريونا ! حينذاك برز البرهمى أستاذ السلاح وقال : « ليس لشاب وضيع النسب أن يبارى أريونا » فوقفت لا تتكلم ، كسحابة برق تألق عند الغروب بنور مكتوم . ولكن من هى المرأة التى اشتعل قلبها لعارك وغضبك وأرسل فى سكون لهيبَ النار ؟ هى أم أريونا !

رعى الله دريوجانا الذى عرف قدرك ، وتوجك ثمة ملكاً على الأنجا ، فكسب للكرواسى بطلا . لقد ملأ الفرح قلب أجيراتا ، فشق الحشد نحوك ، فهرعت إليه وألقيت عند قدميه تاجك ، وإذا البنداويون وأصحابهم هازئون ضاحكون . ولكن امرأة واحدة من بيت البنداويين توهج قلبها فرحا بما فى تواضعك من كبرياء البطولة — لقد كانت أيضاً أم أريونا !

كارنا — ولكن ماذا جاء بك هنا وحدك يا أم الملوك ؟

كونتى — لقد جئت أسألك معروفا

كارنا — مرينى ، وأيما سمحت رجولتى وشرف الشاترى فسوف ألقيه عند قدميك

كونتى — لقد جئت لآخذك

كارنا — إلى أين ؟

كونتى — إلى صدرى الظامئ لحبك يا بنى

كارنا — أيتها الأم السعيدة بخمسة ملوك أشاوس ؛ كيف تجدين فى قلبك متسعاً لحبى وما أنا إلا قائد وضيع النسب ؟

كونتى — إن مكانك فيه قبل كل أبنائى

كارنا — ولكن بأى حق أحتله ؟

كونتى — بحقك الموهوب من لدن الله فى حب أمك

كارنا — ها هى ذى غبشة المساء تنتشر على الأرض ، والسكون يرين على الماء ، وصوتك يرجع بى إلى دنيا من الطفولة تتناهى فى الذكريات . فليكن هذا حلما ، أو فليكن شعاعاً من حقيقة منسية ، ولكن تعالىْ وضعى يمناك على جبينى . إن الناس يتناقلون أن أمى هجرتنى . وكم من ليلة زارتنى فى نومى ، ولكن

حين كنت أصيح بها : « إرفعي عنك القناع ، أريني محياك ! » كان شبحها دوماً يتلاشى . فهل زارني الليلة عين ذلك الحلم وأنا يقظان ؟ أنظرى ! هاك المصابيح تلوح عن بعد وراء النهر مضاءة فى خيام ابنك ؛ وعلى هذه الضفة خيام أصحابى الكيراويين كأمواج عاصفة فى البحر علقها ساحر . لماذا يجيئنى صوت أم غربى أريونا برسالة من الأمومة المنسية ، فى رهبة هذا المرج حيث يدوى طنين معركة الغد ؟ ولماذا يسكب لسانها فى أسمي هذه الموسيقى فيجتذبنى إليه وإلى إخوته ؟

كونتى — إذن فلا تتريث يا بنى ، تعال معى !

كارنا — أجل ، سوف أجئ ولن أسألك سؤالا ، فلا تساورك إذن ريبة . إن روحى تستجيب لندائك ، والكفاحُ فى سبيل النصر والذكر ونارُ الشنآن قد عادت أمام عينى أوهاماً وضلالات ؛ كما يتلاشى هُذَاء الليل فى جلال الفجر . خبرينى أنَّى تقودينني ؟

كونتى — إلى الضفة الأخرى من النهر حيث تشتمل هذه المصابيح فى شحوب الرمال المروِّع

كارنا — أوَسوف أجد هناك حتى الأبد أمي المفقودة ؟

كونتى — آه يا بنى !

كارنا — إذن فلماذا طردتنى شريداً جُثّ من أرض أجداده ، صعلوكاً يرجحِنُّ فى تيار من الخزيان ؟ لماذا ضربت بينى وبين أريونا هوة لا تُجتاز ، ورددت أزكى ميول الدم إلى أنكى عواطف البغضاء ؟ إنك تبقين صامتة . إن عارك يسرى فى الظلام البعيد ويبعث فى أطرافى رعدة لا ترى . أبداً لا تذكرى لى ما جعلك تسلبين ولدك حب أمه ! ولكن خبرينى لماذا جئت اليوم تسترجعيننى إلى أطلال سماء تلت عروشها بيديك ؟

كونتى — إن لعنة تحل علىّ هى أشق من لومك . إنى وإن تكنّفنى خمسة أبناء ليرفرف قلبى كعقاب أم حرمت بنيها ؛ ومن هذا الجوح الذي انشق على أول أبنائى ، ولّت كل مسرات حياتى . فى ذلك اليوم اللعين حين خنت أمومتى ، لم تكن أنت تستطيع أن تفوه بكلمة . واليوم تضرع إليك أمك الغادرة أن تمنحها من لدنك ألفاظاً كريمة . دع غفرانك يحرق قلبها كالنار ويلتهم خطيئته

كارنا — أماه ، تقبلى منى دموعى ؟

كونتى — ما كان أملى من المجيء أن أعيدك إلى ذراعى ، بل لأعيد إليك حقوقك . تعال وتقبل كابن ملك مكانك بين إخوتك

كارنا — إنه أحب إلى أن أكون ابن حوذي . إني لا أتوق إلى مجد نسب أعظم من نسبه

كونتى — فليكن ذلك كما تريد . ولكن تعال واسترجع مملكتك فهى حقك !

كارنا — أتعزينى بمملكة وأنت التى استكثرت علىّ حب أم ؟ إن صلة الرحم التى اجتثثت جذورها قد ماتت ، ولن تستطيع أن تحيا مرة أخرى . لى العار إن أنا ناديت أم الملوك أماً ، ونبذت أمى فى بيت الحوذى !

كونتى — أنت عظيم يا بنى ! لكم ينمو قصاص الله من بذرة ضئيلة إلى حياة حافلة ! ها هو ذا الوليد الذى نبذته أمه يعود فينبعث من ظلام الحادثات رجلاً يسحق إخوته

كارنا — أماه لا تخشى شيئاً ! إنى لعلى يقين من أن النصر للبنداويين ، وفى هذا الليل الهادئ الساجى يَتلى قلبى بموسيقى من المغامرة اليائسة والنهاية الغامضة . لا تسأليني أن أنسل من بين أولئك الذين حقت عليهم الهزيمة ؛ فليكسب البنداويون العرش إذا لم يكن من ذلك بد ، ولأبعد أناصر اليائسين والمحزونين . لقد تركتِني للخزى ليلة ميلادى ، عارياً غير مُسمَّى ؛ فاتركينى مرة أخرى بغير شفقة أنتظر الهزيمة والموت فى هدوء !

شكرى محمد عياد





فى معرض الفنون

سيدى صاحب الرسالة

فى « الرسالة » رقم ٢٥٣ مقال عنوانه : « جولة فى معرض الفنون » بقلم نصرى عطا الله سوس . وقد كنت أعددت للرسالة مثل هذا المقال ، فاذا المقال المنشور يوافق ما كنت أعددته ، فرأيت إهماله . غير أنى أحب أن أزيد على ما جاء فى مقال الأستاذ نصرى عطا الله سوس النفيس أن أبرز ألواح المعرض إنما هى من صنع السيدة إبى نمر وطريقتها التأثرية الرقيقة البعيدة عن تعقيدات « المدارس » ، ثم الصديق محمود بك سعيد وإن أصبح ينسج على منوال واحد من التعبير ، ولكنه تعبير قوى أقرب إلى فن النحت التمثيلي منه إلى التصوير . ثم إني لأشارك الأستاذ سوس فى ذهابه إلى أن أسلوب إدمون صوصة لا يعدو المحاكاة الضاربة إلى « الفوتوغرافية » . وأما جورج صباغ فأسلوبه فوق هذا ، لأن محاكاة الطبيعة عنده إنما يجرى بين جوانبها ماء الفن ، إلا أنه فن يرجع إلى الحذق والدراية لا إلى التأثر الدفين واستلهام ما وراء المنظور وتدوين اللوائح والهواجس . وذلك لأن جورج صباغ — على نباهته — أو قل من أجل نباهته يندرج فى سلك « الأكاديميين »

بقى أن الأستاذ سوس وعدنا أن ينشر فى الرسالة « سلسلة من المقالات يبين فيها فلسفة الفن الحديث وأصوله ومذاهب الفنانين المختلفة ومميزات كل مدرسة ، إلى غير ذلك مما يتصل بالتصوير والنحت والرسم » لأنه « لاحظ أنها مجهولة تماماً بين كل من نعرف إليه » . وهذا قول حق ، فان من المتعذر على ناقد الفن أن ينشىء المقالات وجمهور القراء عن أصول الفن وتاريخه متغافلون قليلا أو كثيراً . ولقد أفضت فى هذا الموضوع لسنتين مضتا فى صحيفة الأهرام (١٨ مايو سنة ١٩٣٦) : « على هامش معرض الصور » . فعسى الأستاذ سوس أن ينبرى للكتابة فيما يشغل صدره وصدر المشتغلين بالفن أو بنقده .

بشر فارس

المصريون واللغة الحبشية

من مآثر الشباب المصرى الذين يطلبون العلم الرفيع فى جامعات أوربا ذلك السِّفر النفيس الذى نشره لشهرين مضيا الأستاذ الدكتور مراد كامل وهو ممن بعثته الجامعة المصرية لتلقى اللغات السامية فى ألمانيا

وموضوع هذا السفر (ويقع فى ٣٨١ص من القطع الكبير) « تاريخ اليهود » ليوسف بن كريون المشهور بيوسفوس، وقد طبع باللغة العبرية غير مرة وباللغة العربية مرتين . وأما باللغة الحبشية فلم يطبع منه سوى صفحات معدودة ، فرأى الدكتور مراد كامل أن يطبع الترجمة الحبشية لهذا الكتاب، واعتماده فى ذلك على اثنتى عشرة مخطوطة أصابها فى برلين وفرانكفورت أم مَيْن ولندن وباريس وشتراسبرج . وقد عمل للكتاب مقدمة علمية غاية فى الدقة وصف فيها المخطوطات وبحث فى الأصل العبرى والترجمة العربية له ، ثم زاد على هذا جدولاً أثبت فيه ماسقط فى النص العربي وهو مدون فى النص الحبشى ، ثم ماسقط فى هذا وهو مدون فى ذاك إتماماً للفائدة

ونشر الكتاب دليل ناهض على رسوخ الدكتور مراد كامل فى معرفة الحبشية والعبرية والعربية وتمكنه من فن الاستشراق وأساليب البحث العلمى وطرق معارضة الأصول ونشر المخطوطات. ثم إن هذا السِّفر النفيس نال به ناشره الدكتوراه فى العلوم الفلسفية من جامعة توبنجن بألمانيا على يد المستشرق الكبير الأستاذ لِتمن من أعضاء مجمع اللغة العربية الملكى . وسيقفل الدكتور مراد كامل إلى مصر بعد أشهر معدودة ليقوم بتدريس

اللغات السامية فى الجامعة المصرية ، وهو يطبع الآن فى ألمانيا رسالة أخرى لنيل إجازة التدريس العالى (الأجريجاسيو) ، وموضوع الرسالة « الفعل الرباعى فى اللغات السامية »

مستشرق يسطو على كاتب شرقى

نشر المستشرق الفرنسى الأستاذ إميل درمنجيم فى المجلة الفرنسية le mois (عـدد مارس ، ابريل ١٩٣٨) بحثاً عنوانه : « الحالة الحاضرة للأدب العربى » وقد نقلته جريدة «المكشوف» البيروتية الى اللغة العربية . والحق أن هذا البحث لا يعدل المباحث القويمة التى يكتبها كبار المستشرقين أمثال كراتشكوفسكى وجبّ وماسينيون وكامفماير ؛ وإنما هو عرض جاف لا ينم على اتصال بالحياة العربية ، ولا على تفهم لأسرار اللغة العربية ، ولا على تذوق لتآليف كتابنا المحدثين . والسبب فى ذلك أن المؤلف لم ينظر فى الأصول نفسها ولم يدرس حياتنا الاجتماعية عن كثب ، ولـكنه اعتمد على ثلاثة مباحث ، فجاءت كتابته ضرباً من الفضول . وأما المباحث الثلاثة فالـكتاب الذى ألفه كامفماير وخميرى باللغة الانجليزية سنة ١٩٣٠ وعنوانه « الزعماء فى الأدب العربى الحديث » ، ثم المقالات التى نشرها الأستاذ جِبّ فى « صحيفة مدرسة اللغات الشرقية » حول الأدب نفسه ونقلتها جريدة السياسة إلى العربية ، ثم المحاضرة التى ألقاها الأستاذ الدكتور بشر فارس فى معهد الدراسات الاسلامية فى السوربون ثم نشرتها « مجلة الدراسات الاسلامية » لمنشئها الأستاذ ماسينيون سنة ٩٣٦ (الجزء الثالث) فى باريس . ولما كانت هذه المحاضرة موقوفة على الأدب العربى الحديث جداً وتتناول موضوعات مهمة مثل الصعوبات التى يلقاها الـكاتب العربى الحديث فى ميادين اللغة والثقافة والاجتماع، فقد سطا عليها المؤلف بغير دراية دفينة بالموضوع ، فأخذ منها كلامه على المشكلات اللغوية ، ومصاعب الحياة الاجتماعية ، وطرائق الكتاب فى التأليف ، وألوان معالجة الموضوعات وخصائص الأساليب من قديمة وحديثة ، وتأثير اللغة الافرنجية فى الانشاء العربى ، وظواهر النضال القائم بين أنصار التقليد وأنصار التجديد . وكأن المؤلف شعر بأنه غلا فى الأخذ فذكر صاحب المحاضرة مرةً واحدة فى الهامش . وذلك لأنه اقتبس عنـه نصف صفحة كاملة بحروفها عند الكلام على جمود اللغويين عندنا ، فلم يكن بد من الاشارة إلى الأصل . فان آنهم بعض كتابنا بالسطو على تآليف المستشرقين ، فهؤلاء المستشرقون يسلطون أيديهم على تآليف بعضنا ! ب . س

كتابة الهمزة

فى (الهلال) الغراء — جزء مايو ٣٨ — هذا القول لسعادة الدكتور بهى الدين بركات باشا : « ان الهمزة وطرق رسمها من المسائل المعقدة التى يبذل تلاميذ المدارس مجهوداً شاقا فى فهمها وحفظ قواعدها . ومع ذلك فكثيراً ما يقع الخطأ فيها حتى من جهات لا ينتظر أن تقع فيه . وإلا فما القول فى أن وزارة المعارف تحتفل بعيد المدرسة الخديوية المئينى وتوزع على طلبتها السابقين استمارات تكتب فيها لفظ (يعلوها) خطأ ، اذ ترسمها على (ألف) بدل الواو

أقول : كتابة (يعلأها) والهمزة فوق الألف مثل كتابة (يعلؤها) والهمزة فوق الواو ، كلتاهما صحيحة . ومن قول ابن قتيبة فى ذلك فى (أدب الـكتاب) : « وإنما اختار الألف لأن الوقوف على الحرف اذا انفرد وأبدل من الهمزة — على الألف ، وكذلك يكتب منفرداً ، فتركه على حاله إذا أضيف »

وقاعدة الهمزة أسهل قاعدة فى الدنيا ، وتعليمُ معظمها الطلابَ لا يقتضى أكثر من ربع ساعة . وهذه قاعدتها بالقول المسهب : دع الهمزة ، وتلفظ بالكلمة تلفظا مقبولا ، ثم ضعها فوق حرف العلة ان كان

تصويب

جاءت « من عبقرية نابغة العرب » فى مقالة (أبو العلاء حرب الظالمين) فى أول المقدمة لاقواله وانما هى العنوان الثانى ، وفى الشذرة (١٠) « سترضوؤها » وهو ضوؤها ، وفى الشرح « الفداء » وهو الغراء

بين العقاد والرافعي

قرأت ما كتبه « العضو المنتدب » الأستاذ محمود محمد شاكر فرأيت أنه في الصفحتين الطويلتين اللتين كتبهما ، لم يقل في الموضوع الذي أكتب فيه شيئاً ، إنما هو تعريض وغمز ولمز ، وجمل إنشائية ، وقولة مأثورة من هنا وبيت شعر من هناك على نظام موضوعات الانشاء ، مما لا يتمشى وروح العصر الذي نعيش فيه . ولا أستطيع أن آخذ نفسي به

وقد آثرت أن أذكره برأس الموضوع الذي نتحدث فيه : فهو « أدب العقاد وأدب الرافعي ، ومايدل عليه أدب كليهما من نفسه » . ثم أنتظر أن يكتب شيئاً في الموضوع ، فان فعل ناقشته وإن لم يفعل فهو وشأنه ، وسأستمر في طريق

وتلك خطتي كذلك مع من كتب في العدد نفسه ، يعرّض بين السطور !

سيد قطب

حول كلمة (هال ها)

أشكر للأستاذ محمد عبد الغني حسن لقاءه الكريم لقصيدتي « البعث » ، وأعتذر من إبطائي في الرد على رأيه في كلمة (هال ها) وبعد فأجيبه أن هذه الكلمة كما ذكرت ابتدعها الأستاذ فريد ، ومادام الأمر أمر ابتداع فلا محل إذاً لردها إلى أصل لغوى. وإذا صح ماذكره الأستاذ من أن كلمة هال نداء لزجر الابل فإنها محض مصادفة ، إذ لم يدر بخلد الأستاذ فريد عند كتابة هذه الكلمة في رواية « ميسون الغجرية » أي أصل لغوى كما أخبرني بذلك

وأما من حيث معنى كلمة Heigh Ho الانجليزية فهي أيضاً كلمة مبتدعة في تلك اللغة ، فمدار معرفة معناها على استعمالها . وقد استعملها شكسبير وغيره في بدء أغانيهم التي يريدون بها التعبير عن المرح والانطلاق من القيود كما جاء في رواية As you like ولقد رجعت إلى قوم من أهل تلك اللغة فاتفقوا على أنها لا تستعمل إلا في بدء الأغنيات . أما عن معناها بالضبط فلم أظفر منهم بتحديده ، ومرجع ذلك إلى أنها كلمة سماعية مبتدعة جرت في الأغاني دون أي اشتقاق لغوى ... هذا وللأستاذ الفاضل شكري على اهتمامه ودقته والسلام

الخفيف

جوائز وزارة المعارف لوضع كتاب في تاريخ الأدب المصري

من الفتح الاسلامي

رأى معالي وزير المعارف تمكيناً للدراسات المصرية وتشجيعاً للبحث الأدبي وضع مسابقة في تاريخ الأدب العربي في مصر من الفتح الاسلامي إلى الآن

ويتلخص موضوع هذه المسابقة فيما يأتي :

« للأدب العربي في مصر طابع خاص اختلف في العصور الأولى للفتح الاسلامي عنه فيما تلا ذلك من العصور وهو يتناول إنتاج الكتاب والشعراء الذين وفدوا من البلاد العربية والاسلامية إلى مصر وأقاموا بها كما يتناول إنتاج الكتاب والشعراء المصريين الصميمين

وقد تأثرت مصر بالطابع العربي في أدبها في حقب مختلفة ، وأثرت في الأدب العربي بتفكيرها وثقافتها وبحكم البيئة المصرية في حقب مختلفة أخرى

والذي تطلبه وزارة المعارف وضع رسالة في نحو ٦٠٠ صفحة من القطع المتوسط حرف مطبعة بولاق بنط ١٥ تتناول تاريخ الأدب العربي في مصر مقسما قسمين : أدب المصريين الصميمين ، وأدب غير المصريين ممن قاموا بمصر وأثروا فيها أو تأثروا بها ، مع إظهار صلة الأدب من إنتاج هؤلاء وأولئك بالحياة العامة اجتماعية وسياسية واقتصادية ، وإظهار الصورة التاريخية التي يرسمها هذا الأدب المصري في عصوره المختلفة

أما الجوائز المقترحة فثلاث مجموعها ٥٠٠ جنيه توزع بين الفائزين حسب رأى لجنة التحكيم على أن تقدم الرسائل إلى الوزارة في ميعاد لا يتجاوز آخر يناير سنة ١٩٣٩

عصر الفيلسوف ابن مسكويه

سيدي الأستاذ الفاضل محرر الرسالة

بعد التحية : ذكر حضرة الصديق الفاضل الأستاذ محمد حسن ظاظا في العدد الماضي من الرسالة الغراء أن ابن مسكويه عاش في العصر العباسي الثالث أي في العصر الذي يمتاز بضعف الخلافة العباسية . ولعل حضرته يقصد العصر الرابع لأن ابن مسكويه عاش من سنة ٣٣٠ إلى سنة ٤٢١ . وهذه الحقبة من العمر تقع في العصر الرابع لا الثالث

وقد ذكر حضرته أيضاً أن هذا العصر يمتاز بتكوين المعاجم اللغوية، وهذا الكلام القليل يحتاج إلى تفصيل؛ فإن علماء اللغة فى هذا العصر لم يبلغوا فى الكثرة والاحاطة ما بلغه علماء العصور التالية إلى القرن التاسع الهجرى

وأشهر لغويى العصر الرابع ابن دريد صاحب الجمهرة، والأزهرى صاحب التهذيب، والجوهرى صاحب الصحاح. أما علماء العصور التالية فأشهرهم ابن سيده صاحب المحكم وقد عاش فى القرن الخامس. والصاغانى صاحب مجمع البحرين، وقد عاش فى القرن السابع. وابن الأثير صاحب النهاية، وابن مكرم صاحب لسان العرب وقد عاشا فى القرن السابع أيضاً. والفيومى صاحب المصباح وقد عاش في القرن الثامن. والفيروزبادى صاحب القاموس وقد عاش فى القرن الثامن وأدرك طرفاً من التاسع

(المنصورة) محمد عبد الغنى حسن

ما تهم معرفته كل أديب عربى

تلوت فى جريدة المكشوف الأدبية كلمة تحت هذا العنوان منقولة عن حديث للأستاذ فؤاد أفرام البستاني، وللأستاذ حفظه الله عندى مكانة متينة واعتقاد حسن بما يكتب ويقول، لأنه لا يقول إلا بعد تثبت، ولا يكتب إلا بعد دراسة وافرة. يعالج كل ذلك بصبر وجلد ونشاط. وقد وقع عندى موقع الغرابة رأى له فى المستشرقين لا أدرى كيف كونته له نفسه

يقول: « وإن أذكر شيئاً من هذه المؤلفات المفيدة على ما فيها من خطأ وصواب فلا بد من أن أنوه بمعلومات الأب — لامنس — وهى فى نظر كبار المشتغلين بالأدب العربى فى ذروة الأبحاث العلمية ... »

فالأب — لامنس — مستشرق كبير ولا سبيل إلى الشك فيه. ولكن هل كتب تاريخ العرب بالروح المجردة التى ينبغى أن يكتب بها؟ (ولا سيما فى المسائل الاسلامية التى بالغ فى التعصب عليها، مما جعل المؤرخين وعلى رأسهم المستشرقون يشكون فى أمانته العلمية ويتهمونه بركوب متن الشطط). وهل يغنى فى الرجل سعة اطلاعه وقوة حجته عن الأمانة التى أفسدها؟ (وهو الذى كان يسلب العرب الفضائل والصفات الخلقية الجليلة التى أجمع المستشرقون على نسبتها إليهم، وكان فى خصومته هذه يعمد فى بعض الأحيان إلى السفسطة والمغالطة [1])

ومثل هذه المغالطات فى تفهم التاريخ، أو قل فى تأويله بحسب النزعات الشخصية لا يغنى عنها ذكر كلمة — على ما فيها من خطأ وصواب — لأننا نفهم من الخطإ والصواب شيئاً غير هذه المغالطات المبنية على حاجات هى فى نفس يعقوب. وإذا كانت هذه طريقة الأب — لامنس — فى كتابة التاريخ الاسلامى، فهل ياترى من المعقول أن تصبح آثاره في ذروة الأبحاث العلمية، والأبحاث العلمية لا يجليها عادة إلا عقل متجرد عن كل هوى، وروح طهرت نفسها من كل درن موروث

ويتم الأستاذ المحدث كلمته: « أما ما ينقل فى بعض الصحف العربية من ابحاث لغوستاف لوبون وسيديو وريتان، يهول ناقلوها بنعوت المستشرقين يلصقونها بأولئك المؤلفين، فلقد كان من الخير للاستشراق والناقلين وللصحف أن تدعها فى أماكنها من زوايا المكاتب. » وهذه كلمة ثانية كشفت عن السر الذى أملى الكلمة الأولى لأن التاريخ الذى كتبه هؤلاء المستشرقون هو تاريخ كأنما سطره الغرب للعرب. لأن هؤلاء استطاعوا أن يتجردوا من العوامل الموروثة والتقاليد المذمومة، فكتبوا كما أوحى إليهم ضميرهم، ولم تعمهم محاسن النصرانية عن محاسن الاسلام، ولم يطمس التعصب على قلوبهم شأن من طمس عليهم. ولا أدرى أكان هؤلاء ممن يسرون ما لا يعلنون، أم كانوا يخادعون فيما يسطرون؟ ولا أدرى أية حاجة تدفعنا الى إيثار المصادر التى تنهج نهج الطريقة الأولى فى الطعن على العرب والنيل منهم واعتبار هذه الطريقة الطريقة العلمية الصحيحة؟

أرجو من الأستاذ الكريم أن يفسر الأسباب التى دعته إلى إيثار هذا الرأى إذ ليس من الحق اعطاء نتيجة من غير أسباب. وأرجو أن يفيدنا عن قيمة النصوص التاريخية التى اعتمد عليها كل من أصحاب الطريقتين وعن العوامل التى جملته لا يزكى أصحاب الطريقة الثانية. حتى إذا كان فى رأيه ما يعتقد به العقل المجرد أودعنا ما عندنا من كتبهم فى زوايا المكاتب، وإن أراد أطعمناها النار!

حقاً لقد تركنا المستشرقين فى حيرة من أمرهم، فهم إن كتبوا بما يلائم هوانا وعزنا قلنا عنهم: انهم يخادعون ويكذبون؛ وإذا

(١) من فصل نشر فى مجلة المقتطف عن الاب — لامنس —

سطروا بما يجردنا من كل فضل وعزة رفعنا على فضلهم مناراً .
وأقمنا لعلمهم علماً !

أما وقد كذبوا علينا مراراً فليخطئوا مرة
واحدة خليل هنداوى

نباتات الزينة العشبية

ظهر حديثاً فى عالم المؤلفات الزراعية كتاب « نباتات الزينة العشبية » للأستاذ محمد كامل حجاج . والمؤلف هاو كبير ومحب عظيم للنباتات . وهو يكرس لها وقته وجهده وماله . وقد سلخ الشطر الأكبر من حياته فى دراسة نباتات الزينة دراسة عملية مستفيضة يحدوه شغف عظيم بها وحب طبيعى لها حتى أصبح ثقة من ثقاتها القليلين فى مصر

قدم للكتاب بمقدمة وجيزة ضمنها نبذة صغيرة عن تاريخ الحدائق بمصر ، وكذلك شيئاً عن المناخ والتربة وما ينجح من النباتات بمصر ومالا ينجح بها والظروف الملائمة لها ، ثم عن الأكثار والأسمدة مما لا غنى عنه لمبتدئ مسترشد

وبعد ذلك قسم النباتات إلى صيفية وشتوية وتكلم عن كل منها فى ترتيب أبجدى شامل . ولم ينس فى الآخر أن يخص تزيين الشرفات والموائد بوضع صفحات شائقة قيمة

ويمتاز الكتاب بشيئين بارزين :

أولهما : الايجاز التام فى الشرح والأداء إيجازاً لا يخل عادته

ثانيهما : كثرة الصور الجميلة الواضحة مما يندر أن نصادف مثلها فى مؤلفاتنا العربية

فالكتاب يصح أن يكون مرجعاً سهلا ثميناً للهاوى والمحترف . وأعتقد أنه سد ثغرة كبيرة كانت شاغرة فى فلاحة الأزهار .

محمد بهجت

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾


الرسالة
العلوم والفنون
السنة السادسه
العدد ٢٥٥

6 me Année, No. 255
Lundi - 23 - 5 - 1938

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ٢٥٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٣ ربيع الأول سنة ١٣٥٧ — ٢٣ مايو سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـــرس

جوائز وزارة المعارف

تشجيع التـــأليف

أخذ صاحب المعالى الأديب الوزير هيكل باشا ينجز الملفوظ والملحوظ من وعوده . وكانت نفوس الأدباء ترقب هذا الإنجاز منذ قيل إن الأمر قد استوثق للحكومة أو كاد . ورأى الأستاذ الوزير أن يبدأ سياسة الإنعاش الأدبي بالجوائز ، لأنها لا تزال منذ كان الأدب أشد القوى المحركة له ، وأقوى العوامل المؤثرة فيه ؛ بلهَ الامكان والسرعة ، لأن سَنّها لا يحتاج إلى تصديق وزير المال ولا استشارة وزير العدل . ولكن الجوائز المالية لا تبلغ الغاية من وجودها إلا إذا قامت على فكرة صالحة وسارت على طريقة مؤدية . فهل الجوائز التى يقترحها وزير المعارف بنجوة عن مرامي الظنون ودواعى الفشل ؟

يقترح معالى الوزير جوائز وقتية عامة على وضع كتاب فى (تاريخ الأدب العربى بمصر من الفتح الإسلامى إلى الآن) ، وجوائز دائمة خاصة لتشجيع الإنتاج بين المدرسين بالمدارس الرسمية والحرة ؛ والفكرة التى أوحت إلى معالي الوزير هذين الاقتراحين

سليمة مستقيمة لا غبار عليها ولا جدال فيها. فإن الأدب المصرى لا يزال بجانب الأدب العراقى والأدب الأندلسى مطموس الأثر مجهول التأثير مشتت المادة؛ فدراسته على الطريقة العلمية تثبيت لمعنى القومية فى نفوس النشء، وكشف لناحية خصيبة من نواحى الأدب. وإن المدرسين كما قال قرار الوزير «هم فى جميع البلاد المتحضرة مصدر التجنيد العلمى والفكرى والعملى فى توجيه الحياة الاجتماعية إلى أحدث المبادئ وأدق الآراء العلمية والأدبية والفنية» فينبغى «حفزهم إلى البحث والتأليف فى موضوعات اختصاصهم وما يتصل به، بما يؤدى إلى تقوية شخصيتهم العلمية وتكوين ذخيرة من الرسائل العلمية والأدبية تدعو إلى نشاط التفكير العام»

بقى أن ننظر فى الطريقة التى تريد الوزارة أن تسلكها إلى تحقيق هذه الفكرة. فهي ترى أن تصل إلى غايتها من طريق المسابقة والتحكيم، وتنقسم فى ذلك الهيئات الأدبية الرسمية التى استشارتها إلى فريقين: فريق الجامعة، ورأيه اختيار لجنة من الباحثين المعروفين تضع هذا الكتاب المقترح فى سنة وأربعة أشهر ثم تعطى ألف جنيه مكافأة على وضعه؛ وفريق دار العلوم وتفتيش اللغة العربية فى الوزارة، ورأيه أن يترك وضع الكتاب إلى المسابقة الحرّة، فإن فى ذلك حفزاً لهمم الشباب، وتوخياً لمعنى العدل، ومنعا (لاحتكار علمى) دلت السوابق على وقوعه بحكم العادة أو النفوذ أو المجاملة. وكلمة (الاحتكار) التى جرت على لسان دار العلوم تنم عن شيء من الحنق الدفين على اختيار اللجان الأدبية، فقد أصبحت هذه اللجان وقفاً على نفر من الأدباء لا تنظر الوزارة إلا إليهم، ولا تعتمد فى أعمالها إلا عليهم. كأنهم طائفة المستوزرين لا تحل الأزمات إلا بهم، ولا تؤلف الوزارات إلا منهم. ومرجع هذا الجمود إلى العادة الآلية التى تسير عليها السياسة والإدارة فى الحكومة

وفى رأينا أن إطلاق المشروع فى مسابقة أو تقييده فى لجنة لا يخلو من غميزة، فإن الموضوع المقترح لا تجدى فيه المسابقة ولا تؤدي، إذ الأدباء القادرون تعودوا ألا يدخلوا المسابقات تنزيهاً لكبريائهم الفنية عن حكم الأشباه، وضنا بجهودهم المضنية على تحكيم المصادفة، واكتفاء بما أخذوا به أنفسهم من الانتاج الذاتي المستمر. والجائزة بعد ذلك كله ضئيلة لا تغرى إرادة الكاتب وإن ضمنتها قدرته. أما غير هؤلاء فسيعالجون الموضوع معالجة الدارس الناشىء، يستزيد من دراسته ومعاناته علماً وفهماً لنفسه، ولكن ما يكتبه فيه قد يكون بعيداً عن قصد الوزير وخدمة الأدب وفائدة القارئ، لما يعوزه من اللقانة الخاصة التى يكتسبها فقيه الموضوع بالمران والزمن. تلك حال المسابقة؛ أما تأليف اللجنة فقد يكون أوجه الرأيين لو جرى الأمر فيه على مقياس الكفايات لا على تمثيل الهيئات وتمييز المناصب. ومن قبلُ أراد صاحب الجلالة المغفور له الملك فؤاد تأليف كتاب جامع فى تاريخ إسماعيل، وكتاب ثبت فى تاريخ مصر؛ فجاءه عن طريق المسابقة كتاب الأيوبى، وعن طريق الاختيار كتاب هانوتو؛ والفرق بين العملين هو الفرق بين السيرة والتاريخ، وبين الحيرة والخبرة

ولكن أخوف الخوف — إذا غاب هذا الرأى — أن ينتهى الأمر إلى لجنة من اللجان الرسمية المحفوظة فلا نضمن التشجيع ولا الإجادة

ولعل أجدر الوسائل بالنظر أن تنشئ الوزارة هيئة أدبية دائمة تنتج وتقترح وتراقب، ثم يوضع فى يديها ست جوائز مقدارها ثلاثة آلاف جنيه، ويكون من عملها غربلة ما تخرج المطابع فى كل عام، ثم توزيع هذه الجوائز على المجلين فى فنون الأدب المختلفة فى احتفال رسمى عام. ذلك أدنى إلى إنهاض الأدب وتجديده وتسديده. ولو أن مجمع اللغة العربية أُلف على غير الأسلوب الذى تؤلف به اللجان الرسمية لكان خليقاً بهذا الأمر، ولكن... وهيهات أن تبرأ أقوالنا وأعمالنا من لكن !!

الإصلاح المنشئ والإصلاح الآلي

للأستاذ عباس محمود العقاد

الإصلاح إصلاحان: منشئ تسيطر به الإرادة على العوامل الخارجية، وآلي بعيد من هذه السيطرة لأنه يبدأ بالتسليم وينتهي بالتسليم، وينقاد للعوامل الخارجية في الأساس والجوهر، ولا يجترئ على مخالفتها وتعديلها إلا فيما هو عرض من الأعراض

الإصلاح في الحالة الأولى هو مسألة حية أو مسألة نفسية، والاصلاح في الحالة الثانية هو مسألة عدد أو مسألة تطبيق حسابي قلما تشترك فيها الارادة الإنسانية إلا بالمقدار الضروري الذي لا يمكن منعه، لأن تجريد الأعمال الانسانية من إرادة وشعور كل التجريد أمر لا يستطيعه الانسان، إذ هو مستحيل

مثال ذلك فندق في مدينة يراد إصلاحه واستحداث نظام غير نظامه

فملي قواعد «الاصلاح الآلي» كل ما يفكر فيه المصلحون أن يعرفوا أن أثاثه قديم فهو محتاج إلى التغيير، وتلك معرفة لا تفتقر إلى ابتكار عظيم

وأن يعرفوا أن عدد النازلين به يزداد فهو محتاج إلى بناء جديد فيه كذا من الجوانب وكذا من الحجرات، وتلك معرفة أرقام وتطبيق حساب

وأن يعرفوا أن الخدم مقصرون أو قليلون، ومن السهل أن يصل الانسان إلى هذه المعرفة بغير قدرة على الانشاء والاختراع

أما الاصلاح على قواعد الانشاء والاختراع فهو يتناول فن البناء وموقع الفندق وموافقة الاضاءة والتهوية لأحدث الكشوف العلمية، ودراسة النفوس وما تهواه من منظر ورياضة وطعام وأساليب في الخدمة، وإقداماً على سبق جميع الفنادق الأخرى في الرغبات والمحسنات، وتفكيراً في ترجيح المدينة كلها على المدن المرتادة للسياحة والتفرج والاستشفاء، لا يقتصر على انتظار السائحين والمتفرجين والمستشفين حتى يصلوا بحكم العادة إلى المدينة، فيجدوا الفندق الذي لا بد أن يجدوه

كل إصلاحنا نحن يكاد ينحصر في القواعد الآلية، ولا يجترئ على جانب الابتكار والاقتحام إلا من بعيد، وبعد فوات الأوان.

وقد ألقيت من يدي كتاب «على هامش السياسة» لمؤلفه صاحب السعادة حافظ عفيفي باشا وأنا أضيف مثلاً جديداً على الأمثلة العديدة التي ترجح ما أقول

قرأت فيما قرأت من هذا الكتاب فصل التعليم الجامعي فاذا بالاصلاح المنشود ينحصر:

«أولاً» في أن يجد جميع من أتم سلسلة من حلقة هذه الدراسة المكان الذي يطلبونه في السلسلة التالية، بمعنى أنه يجب أن توجد محال كافية في المدارس الثانوية لمن ينتهي بنجاح من الدراسة الابتدائية، وأن يجد من ينتهون بنجاح من الدراسة الثانوية الأمكنة اللازمة لهم في المدارس العالية مندمجة في الجامعة أو منفصلة عنها الخ الخ»

و «ثانياً» في إيجاد التناسق المرغوب فيه بين أجزاء التعليم فلا تنشئ مدرسة ابتدائية أو ثانوية من الآن إلا بعد أن تنشئ عدداً من المدارس العالية الخ

و «ثالثاً» يجب أن يراعى في هذا التعليم بجميع أجزائه ألا يزيد عدد الفرقة عن الحد المعقول الذي يسمح للمدرس بمراقبة سير تلاميذه، والذي يمكنه من متابعة الإشراف عليهم وتعهدهم وإدراكه مواطن الضعف والقوة في كل منهم

و «رابعاً» ألا يزعج التلاميذ والمدرسون بنقلهم من بلاد إلى أخرى لتمضية الامتحان في حرارة الصيف المحرقة حيث يحشرون في أماكن تقام للضرورة تحت الخيام الخ

وقس على ما تقدم سائر الاصلاحات المنشودة في نظام التعليم الجامعي وما يترقى إليه من تعليم المدارس الابتدائية والمدارس الثانوية أي انه إصلاح «ضابط» أو رئيس ضباط في مدرسة واحدة أو مجموع مدارس مختلفة، وليس باصلاح سياسي يضع البرامج وينشئ العقول والنفوس

انتقل من مشكلة التعليم الجامعي والتعليم كافة في نظر سياسي مصري إلى هذه المشكلة بعينها في أنظار الساسة الأوربيين،

واجتهد أن تقيس المسافة الشاسعة التي تفرق بين النظرتين

مشكلة التعليم فى الغرب هى : هل يتعلم الشاب على أساس الحرية الفردية ، أو على أساس غلبة الدولة وانغماس الفرد فى الأمة أو فى الهيئة الحاكمة ؟ فاذا تعلم على أساس الحرية الفردية فالنتيجة تشمل كل نظام فى الأمة من حقوق دستورية، وحقوق اجتماعية وطموح إلى النقد ، وقدرة على المخالفة ، وإيمان بالتقدم والفكر الانسانى والمناقشة العقلية

وإذا تعلم على أساس غلبة الدولة ، فالفضيلة الكبرى هى الطاعة والإذعان والإيمان بعصمة القادة ، وأن التقدم الإنسانى وهم من الأوهام ، وأن القوة هى السلطان الأعلى فى الزمن القديم وفى الزمن الحديث ، وأن التواريخ والآداب لا ينبغى أن تفهم ولا أن تدرس إلا على هذا الاعتبار

مشكلة التعليم فى الغرب هى : هل يتعلم الشاب على دين العصبية الوطنية والغلو فى تمجيد الذات وتغليب الوطن على جميع الأوطان ، أو يتعلم الشاب على دين المعاونة الانسانية والعقائد التى تمثلها عصبة الأمم ويبشر بها دعاة الوحدة العالمية

مشكلة التعليم فى الغرب هى : هل يتعلم الشاب على اعتقاد أن الآداب والفنون والأديان هى ترجمان طبقة واحدة أو سلاح طبقة واحدة فى حرب الطبقات ، أو يتعلم الشاب على اعتقاد أن الآداب والفنون والأديان هى ثروة بنى الانسان جميعاً من قديم الزمان ، وستظل ثروتهم جميعاً إلى آخر الزمان

تلك هى مشاكل التعليم الحقيقية أو هى بعض مشاكله الكثيرة فى العهد الحاضر ، وليست هى عدد الفصول وعدد المدارس والمدرسين وأماكن الامتحان

ومشكلة الامتحان عندهم ليست هى الخيام التى تقام أو لاتقام ، وإنما هى البحث فى الوسيلة الصحيحة لاختبار الملكات الذهنية والنفسية : هل هى بالسؤال والجواب ، أو هى بالملاحظة الطويلة فى أثناء العمل ، أو هى بالاختبارات « الإيحائية غير المباشرة » التى تكشف القوى الكامنة دون سؤال صريح فى ظاهر الموضوع

وقبل أن يصلوا إلى مشكلة الامتحان تقوم مشكلة أخرى وهى مشكلة المواد التى يجري فيها الامتحان وتقسيم الدارسين على حسب تقسيم الدروس

فهل العقول الانسانية لاتنقسم إلا إلى عقل عالم وعقل أديب ! أو هناك أقسام شتى يدخل فيها العقل الفنان ، والعقل الصانع ، والعقل الادارى ، والعقل المشارك فى الداورات الاجتماعية الذى يربح بحسن الدخول بين الناس مالا يربحه أعلم العلماء ولا أبرع الأدباء بالنجاح فى ميادين العلوم والآداب ؟

وهل حتم على العقول الانسانية جميعاً أن تتذوق الرياضة والجغرافيا والكيمياء وإلا كانت ناقصة معيبة ، أو هناك عوالم للتفكير والشعور وراء الرياضة والجغرافيا والكيمياء ، وهناك عقول تصلح لهذه العوالم وان كانت لا تصلح لما عهدناه من برامج الدروس

تلك أيضاً بعض مشاكل التعليم التى تدخل فى نطاق من يصلحون البرامج وينشئون الأفكار ، ولكنها لاتدخل فى وظيفة الضابط أو كبير الضباط

أذكر أن إصلاح التعليم العالي عرض للبحث منذ سنتين ، فكان بعض المصلحين « على الترتيب والتعقيب وخط المسطرة والبركار » يقولون إننا نبدأ بالتعليم الابتدائى حتى نعرف مانحتاج إليه فى المدارس العالية ، كأنما المسألة مسألة بيت يبنى الدور الأرضى منه قبل أن تبنى الأدوار العليا ، أو كأنما المسألة مسألة طريق لا تصل إلى الميل الثانى منه قبل أن تجتاز الميل الأول ، أو كأنما هي أعمار لا تكون فى الثلاثين إلا بعد أن تكون فى العشرين ، وهي ليست بهذه ولا هذه ولا تلك ، وإنما هى مسألة غاية تترتب عليها البداية ونعرفها قبل أن تخطو خطوة واحدة فى طريقك إليها ؛ ومن ثم وجب أن تبدأ بالتعليم العالى ثم تعلم التلاميذ فى المدارس الابتدائية وفى المدارس الثانوية ليستعدوا له وينتهوا إليه ؛ ولا ضرورة على الاطلاق لانتظار السنة الأولى الابتدائية وأنت تفكر فى تقرير المناهج الجامعية ، وإنما هى ضرورة وهمية عندمن يمشون على المسطرة ولايخرجون على الترتيب المرسوم!

* * *

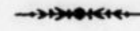
علينا أن نصلح المصلحين ونداوى أطباءنا وليس هذا بميسور أو علينا أن نكسر المسطرة القديمة ونترقب نوازع الاقتحام فى الجيل الجديد وان طاشت فى بداية اقتحامها ، وذلك أيسر الأمرين .

عباس محمود العقاد

المذهب الرمزي

أهو نزعة سليمة في التفكير ؟

للأستاذ عبد العزيز عزت



يعزو المذهب الرمزي اسمه الفرنسي Symbolisme إلى موريا‌س في نشرة طبعها عام ١٨٨٦[١] وفي أحد أعداد جريدة هذا المذهب عند أوائل ظهورها، واسمها «الرامز» Symbobste — بطبيعة الحال — يجد القارئ مكتوباً فيها — بحبر ! — ما ترجمته : «الشيء الموجود ما هو إلا مظهر ، مظهر خدّاع ، لأنه يكفي أن تتغير حالتي النفسية حتى يتغير وجوده » — هكذا ! — ويقول العلامة مارتينو مدير جامعة بواتييه في كتابه وعنوانه « المذهب البرناسي والرمزي » ما نصه : « إننا نجد عند فرلين ، وعند ملارميه ، وعند رامبو وكثير من الرمزيين ، أن الشيء الواقع ومثوله ، حاضراً كان أم ماضياً ، لا قيمة له مطلقاً »

ولكن إذا كان المذهب الرمزي يبلغ من العجز أن يتعامى وينكر وجود الأشياء الواقعة ، ويجعلها إضافية إلى عوارض النفس وانفعالاتها ، فماذا يستعيض بها يا ترى ؟؟ يجيب مدير الجامعة السابق في نفس الكتاب صفحة ١٤٠ بقوله : « إن عباقرة هذا المذهب يحلون هواجس النفس وشؤم التصور وإبهام الطلاسم وضعف الإقدام ، في مكان الرأي الواضح »

وعليه ؛ فالمذهب الرمزي في الأدب وفي غير الأدب من فن ودين ، هو نوع من الغمز واللمز في التفكير ، لا يستقيم له عود ولا تمتد له ظلال . ذلك لأنه مبدأ بني على الالتواء والغموض الفكري ، تنعدم فيه الصراحة ، ويفسد فيه الوضوح ، ويختل فيه ثبات الآراء بالمعنى الأفلاطوني . ولما كانت الصراحة والوضوح هما أساسي الحقائق الفكرية الثابتة التي بدونهما لا يستقيم للعقل منطق ، ولا للشعور انسجام ، كما يؤكد هذا ديكارت في كتابه المنون « مقال عن المنهج » في إحدى قواعده الأربع العقلية ؛ ولما كانت الحقيقة والفضيلة متكافئتين متعادلتين في فلسفة ديكارت ، فقد أضحى هذا المذهب يتناقض وأول أصول العلم الحديث ، ويتعارض وبديهيات مبادئ الأخلاق ، هذا من الوجهة النفسية

والرأي صحيح إذا نظرنا إلى المسألة من وجهة تطور التفكير الانساني ، على صفحة الزمان ، وتسلسل المعارف البشرية وتعاقب الملكات النفسية التي عملت على خلق التراث البشري في التاريخ . هذا التطور يؤكد لنا منطقاً لا يحيد مجراه ، فلا تختل له حقبة من الزمن ولا « ينفك له تماسك في دورته ، قد عبر عنه أبو التفكير الانساني الحاضر القائم في العلوم والآداب (أوجست كنت) في كتبه المتعددة ، وخاصة في كتابيه « الفلسفة الوضعية » و « التفكير الوضعي » (وهو بالخص كل فلسفته) ، فهو يثبت أن الانسانية تطورت في ثلاث حالات : الحالة الأولى وتسمى حالة « التصوف » أو « الدين » ، والحالة الثانية « التجريد العقلي » التي تتمثل في الحضارة اليونانية القديمة وعلى الخصوص في فلسفة أرسطو العظيم ، والحالة الثالثة تسمى بالحالة « الوضعية » التي تحتل حالة العلم في زماننا هذا أي عهد التجربة الذي يقوم على ملاحظة مظاهر الطبيعة ومظاهر النفس لتحديد « علاقاتها » وصوغها في قوانين خاصة ، أو لا تؤدي حتماً إلى قوانين عامة بها ، ولكن للانسان أن يستغلها عملياً ويتنبأ بما سيؤدي إليه نشاطها في المستقبل القريب والبعيد [١]

والذي يهمنا من هذه الحالات الثلاث ، هي الحالة الأولى لما بينها وبين المذهب الرمزي من التشابه . فأوجست كونت يعرفها قائلاً : « إنها تمثل مظاهر الوجود ، كاحساسات نتخيلها . فهي بهذا الاعتبار في مقدور تصورنا ، تتوقف على إدراكنا لها بالبصيرة » : أي إن الأشياء على اختلافها لا قيمة لوجودها الذاتي ، ولكن بالنسبة إلى حالة النفس وأهوائها في مناسباتها المختلفة . ويقول إنها حالة نفسية تسود عند الزنوج والقبائل المتوحشة لعجزهم عن فهم المظاهر الخارجية ، ولقصر أفهامهم عن إدراك المعاني النفسية المجردة ؛ لهذا يستعيضون عن ذلك برموز يقدسونها لمدلولاتها ، وبحركات وطقوس يرددونها في مناسبات معينة ، ظناً منهم أنها تفي بما يرتسم لها من عقيدة في أذهانهم ، وبعناصر الطبيعة يفرضون عليها

(١) اقرأ مكسيم فرمون في كتابه « الرمزيون » صفحة ٢٢

(١) اقرأ أيضاً مقدمة « علم الطب التجريبي » لكلود برنار)

الحياة ، ثم يؤلهونها باعتبارها قطب الاتصال الروحانى بنفوسهم الحائرة !

كذلك المذهب الرمزي يمثل نوعاً من الدخول إلى النفس والتغلغل فيها ، ونوعاً من الحرية الجامحة فى إمكان التصور والتعبير لمظاهرها التى لا تستقر على قرار . لهذا كان « الرامز » لا يخرج إلى الناس فى وضوح العقل وانسجام المنطق ، فهو أضعف من أن يرتفع إلى هذا المستوى الانسانى وكان لا يتبادل الخير وفضل المعاملة الفكرية مع بنى الانسان فى المجتمعات البشرية ؛ وكان لغموض إحساساته الانسانية وتضارب نزعاته لا يقبل على تفهم أمر الوجود العالمى ماديا كان أم تاريخياً وإنما كان يمثل حالة نفسية هى أقرب إلى المرض منها إلى شىء آخر ، يسودها محض الخيال والوهم والأنانية الفردية بعينها ، لأن العالم فى كل نواحيه وفى كل مدلولاته الصحيحة ، وكذلك التراث الانسانى الذى اتفق على استقامته العلماء والحكماء منذ العهود الأولى يصبح باطلا ؛ ويجب أن تبتدئ الخليقة دورتها من جديد ، وأن تتخذ فى ذلك من « هواجس » هذا الرامز أسسها الأولى . وليس بعد ذلك من دليل على الخروج على إجماع السلف والخلف وقلب الحقائق والوجود فى كل شىء ؛ فالتاريخ يكذب ، والمنطق يحتضر ، والاجماع ينكر ... وإنها لنزعة تذهب بالانسانية إلى عهد تهيم فيه على وجهها فى الأرض ، فلا تخرج عن حد الفطرة والعراء !

وثالثاً — فان الرأى صحيح كذلك من الوجهة الاجتماعية ، لأن العلم فى نظر أبى الاجتماع الحديث (دركيم) هو التعاون المشترك بين العلماء . ونشوء المدارس الفكرية ، التى تبنى إقامة قوانين ثابتة لمظاهر الوجود فى كل شىء ترتكز على نظريات يدعمها البحث والاستقصاء . وهو أيضاً إشراك الناس فى مفهوم الحقائق المكتشفة ، ورفع الغموض والالتباس عن أفهامهم ليقروا فى إجماع الحقائق واضحة . فالعلم إذاً مظهر من مظاهر الاجتماع البشرى مهمته خلق التماسك الفكرى فى عقلية الفرد عن طريق الوضوح ، وخلق نفس هذا التماسك فى عقلية الأفراد عن طريق ثبات الآراء والنظريات ، لأنه كلما رفع الجهل والغموض والابهام عن عقول الناس زاد « الوفاق » فيما بينهم ، لاتحادهم فى نفس وجهات النظر والتفكير

وأكبر دليل على صحة ما نقول هو أنه عندما ساد مذهب السوفسطائية فى المجتمع اليونانى القديم الذى يرتكز على مبدأ « الشك » ومرض « الحيرة » الفكرية ، لأنهم كانوا يبشرون بنظريات يصح أن يلقنوا الشبيبة نقيضها فى الغد ، فالعلم فى نظرهم هو علم « الفرد » وعلم « المناسبات » ، وعلم الفصاحة والثرثرة والرغاء ، لهذا ساد الفهم « النسبى » للحقائق فى ذلك الزمان ، وأدى المنطق الفاسد إلى سوء الأخلاق لعجزهم عن تصور علم واحد ذى منهج واحد يوجد بين الناس ويوجه أفكارهم إلى الغايات المتحدة فى الفهم ، فلزم للقضاء على السوفسطائية قيام ثلاث ثورات لتنظيف المجتمع اليونانى من أدران أفكارهم : الأولى ثورة سقراط فى الأخلاق ، والثانية ثورة أفلاطون فى الطبيعة ، والثالثة ثورة أرسطو فى المنطق . والمذهب الرمزى كالسفسطة ينعدم فيه الفهم الاجتماعى ، لأنه يرجع الحقائق إلى محض « الفرد » أى هواجس نفس الرامز وتصوراته الملتوية وغموض إحساساته التى تخرج عن أساليب المنطق ، وتتناقض وعرف المجتمعات البشرية . لهذا كان هو مذهباً أنانياً أشد خطراً من الشيوعية بل ومن الفوضوية ؛ لأن هذه المذاهب على ما بها من قبح ودنىء تبنى فى النهاية نوعاً من الخير للمجموع فى نظامها الخاص المبتور

ويؤيدنا فى رأينا هذا مدير جامعة بواتييه السابق الذكر ، فى كتابه صفحة ١٤٢ إذ يقول : « المذهب الرمزى مذهب ثورى يركن إليه الشبان باسم التجديد لهدم النظام السياسى والاجتماعى والعقلى والفنى الذى قد ورثوه عن سلفهم الصالح فى بلادهم . ولهذا يجب أن يتخذ القائمون بالأمر فيها الحذر من مثل هذه النزعات الطائشة والصرخات الجامحة ، التى تبنى قلب نظم المجتمعات الهادئة التى تساير التطور العام لدورة النشاط المتزن فى سائر أمم العالم »

« ويقول هذا العلامة كذلك فى صفحات ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ من نفس الكتاب : إنه بالرغم من قيام مبادئ الحرية التامة فى التعبير عن الآراء فى بلد كفرنسا ، وبالرغم من أن هذا البلد يعيش خاضعاً لمبادئ الثورة الفرنسية التى يدين بها نظام الحكم الجمهورى فيها ، فإن المذهب الرمزى عند ما ابتدأ ظهوره

وأخذت « أبواقه » ترتب الدعاية والنشر له ، قامت قائمة الناس في فرنسا وسموه « النزعة الجنونية » لما يتضمنه من القضاء على الروح الاجتماعية والتضامن بين أهل البلد الواحد . ولهذا أجمعت الناس في فرنسا على جوحه وشره الفتاك ، وقاوموه بكل ما عندهم من قوة ، وأمكنهم — كما يذكر العلامة المدير — أن يقضوا عليه في عشرة أو خمسة عشر عاماً من ولادته ، ودفنوه « غير مأسوف عليه »

وأقول بعد ذلك : إن مذهب « الرمزية » من أصول الكثلكة [1] . فهي تذهب إلى نوع من التصوف يغمض كثيراً على عقول تابعيها . لهذا تعمد لتقريبه إلى أفهامهم إلى رموز خارجية محسوسة ، كل منها له معنى بعيد يكفل لهم نوعاً من الترجيح في التصور . وهي في هذا تسير على الخصوص مع تعاليم القديس أوغسطين الذي كان يعتقد أن ليس هناك دين صحيح أوباطل ، إلا وله ولتابعيه اتفاق محدود على رموز معينة لها مدلولات خاصة تنحصر فيها أفهامهم . وهذا ما دعا بعض الناس الى اتهام الكاثوليكية بالوثنية ، وعلى الخصوص عند ما صرح رؤساؤها بأن المذهب الغالب في تعاليم الكنيسة هو مذهب القديس توماس ؛ لأن هذا الحبر الكبير كان يخضع في تعاليمه إلى فلسفة أرسطو . والكل يعرف أن هذه فلسفة أرسطو هي فلسفة الصنم ، لأن أساسها كأساس سائر الفلسفات القديمة . وكذلك فلسفة ديكارت في العهد الحديث هي علم الألهيات ، وهذا العلم تنحصر ابحاثه في تحديد طبيعة العناصر الأولية التي بها يجب أن يتحقق الشكل الكامل في الهيولا العارية فيبدو ناصماً كحقيقة وكغرض . وصحة قولنا هذا تؤيده نظرية تقسيم العلوم في هذه الفلسفات ، وما كتبه على الخصوص العلامة المشهور رافينسون وهاملان عن أرسطو .

عبد العزيز عزت
عضو بعثة الجامعة المصرية لدكتوراه الدولة

(١) إقرأ كتاب القسيس جيرودون وعنوانه « شرح المذهب الكاثوليكي » طبعة « بلون » صفحات ٣٢٨ ، ٣٨٢ ، ٣٢٠ . وأيضاً « قاموس الرمز » لقساوسة البندكتين للقديس لويس



ينبغي أن نحترم أولئك الذين يحترمون الفكر . رأيت هذا الأسبوع واحداً من هؤلاء : هو طبيب فاضل ، طلبني في منزلي بالتليفون مرات ، ثم زارني في مكتبي مرتين دون أن يظفر بلقائي . ولم ييأس ، فحضر الثالثة فوجدني ، وأخبرني أنه يحتفظ بكل كتبي إلا كتاباً واحداً ، بحث عنه كثيراً فلم يجده . وهو يدفع فيه الآن أبهظ ثمن حتى لا تنقص مجموعته المجلدة أفخر تجليد . فلم يؤثر في نفسي أيضاً هذا الكلام ، وأحلته في اختصار إلى مكتبة باعته النسخة بضعف ثمنها . وإذا بخطاب شكر واعتراف بالجميل يصل الى من هذا الرجل في اليوم التالي . شكر على ماذا ؟ لست أدري . ولكني تأملت قليلا فخجلت . إن هذا الرجل يحترم الفكر في ذاته وينفق في سبيله الجهد والمال . إن هذا الرجل يشكرني وقد دفع ثمن النسخة بينما أراني قد أهديت كتبي تورطا أو حمقا الى أناس لم يمنوا حتى بارسال بطاقة شكر . وتذكرت أولئك الذين لا يفعلون شيئاً إلا أن ينتظروا أن نهدي اليهم كتبنا ليقرأوها متفضلين ، أو لا يقرأوها مهملين . مثل هؤلاء ينبغي أن نحتقرهم مهما كانت مكانتهم . إن الفكر ما ارتفع قدره يوما إلا على أيدي رجال من طراز ذلك الطبيب الفاضل . وما صغر شأنه إلا على أيدي هذه المخلوقات التي تبذل مالها في كل شيء إلا في كتاب !

ولقد سرت عدوى هذا « التسول » الأدبي إلى الهيئات العلمية والثقافية . فقد جاءني كذلك هذا الأسبوع خطاب من دار الكتب الحكومية تطلب نسخاً من كتابي الجديد هدية أو « صدقة » ! وقد علمت أن الدار لها « مال » مخصص لاقتناء الكتب . ولكن ماذا نقول في زمن هانت فيه قيمة الفكر حتى بين الهيئات العلمية الرسمية ؟ إلا فليعلم الناس منذ اليوم أني سأبطل عادة « الهدايا » ابتداء من كتابي القادم ، وأني لن أقدم جهدي إلا لقرائي المخلصين الذين يقدمون إليّ جهدهم وعنايتهم ومالهم . أما الآخرون فلن أعترف لهم بوجود . وإني منذ اليوم لن أحترم إلا من يحترم فكري ويسعى إليه ويبذل فيه ما يستطيع

توفيق الحكيم

قاسم أمين

هل كان كردياً ؟

لأستاذ جليل

قرأت في (الرسالة) الغراء قصيدة (الأستاذ على الجارم بك) في (ذكرى قاسم أمين) العالم الفقيه المشهور ، فلما جئت إلى هذا البيت :

يا فتى الكرد ، كم بزت رجالا من صميم الحمى ومن أعرابه[١]

استعجبت من القول ومن القائل . والأمر حقيق (والله) بالاستعجاب والاستغراب ؛ فاني أعرف المعرفة البلينة أن (قاسماً) كان عربياً مصرياً ، ولم يكن كردياً ولا أرمنياً ، وقد ولد في مصر في القاهرة ، وتثقف فيها ، وعمل لسلطانها ، فكان قاضياً يحكم بين الناس بالعدل ، وكان خدين إمام المسلمين كلهم أجمعين وسيد العرب المصريين في زمانه الاستاذ الامام (الشيخ محمد عبده) وحميم تلميذه نبي الوطنية العربية المصرية (سعد) العظيم . وكتب بالعربي كتباً ، ولم يكتب بالكردى سطرا ؛ ولن يضيره عند الله ولن يضع منه عند العقلاء أن القوم لم يعقلوا مقاصده فضلوا ولم يهتدوا . وذهبنا[٢] نردد صباح مساء قول أستاذ الدنيا جار الله[٣] «استعذ بالله من شر ما أنت راء ، فان الدنيا كل يوم إلى وراء» وأبصر بحرُ الاسكندرية في صَيفه في سِيفه[٤] مشاهد لم يبرح من أجلها ملتجئاً مصطخب الموج مزمجراً يوشك أن يعيدها نوحية ... وها قد أقبل الصيف وبدت هناك جنادعه[١] ...

وربما أراد الأستاذ الجارم أن يقول : (يا فتى أصله من الكرد) فلم ينجده الوزن الموروث هو وأخته القافية المتقفاة منذ أكثر من (١٤٠٠) سنة . فهو يعني — إن أراد ذاك القول — أصل الرجل لا الرجل

وهذا القول مفنَّدٌ قائله مدفَّع فالمرء بفضله وفصله[٢] ، لا بزخرفه وأصله . والأمة إنما هي بلغتها وأدبها وعقيدتها ومصلحتها . وقد قال أحمد بن الحسين الهمذاني صاحب الرسائل والمقامات: «المرء من حيث يوجد، لا من حيث يولد . والانسان من حيث يثبت . لا من حيث ينبت » وقاسم قد وُجد وولد في مصر ، وثبت ونبت في مصر . وإنا إذا فتحنا هذا الباب وأنشأنا نقول : يافتى الأكراد ، ويافتى الأتراك ، ويافتى الأعراب ، ويافتى الاغريق ، ويا فتى الشركس ، ويا فتى الألبان ، ويا فتى الفرس ، ويا فتى الهند ، ويا فتى الصومال ، ويا فتى المغرب ، ويا فتى الشام ، فقد تشظت الأمة (العربية المصرية) — يا أخا العرب — وهفت هُفُوّاً[٣]

وإذا أحب الناس أن يفتشوا عناصرهم ، ويفحصوا مستقصين عن جراثيمهم صاروا إلى المقالة العربية المشهورة التي لخصها ابن خلدون وأوضحها الأئمة دروين والأستاذ (أرنست هيكل) وهكسلى وبخنر وغيرهم وفصلوها تفصيلا . وهذا تلخيص المقالة :

« أنظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج . آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش ومالا بذر له . وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط . ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب

(١) وردت (بزت) في البيت بالزاى . وبزه يبزه بزا غلبه وغصبه ، وبذ — بالذال — القوم يبذهم بذا سبقهم وغلبهم ، والعرب تقول : بذ فلان فلاناً إذا ما علاه وفاقه في حسن أو عمل كائناً ما كان كما قال (اللسان)

(٢) ذهب يفعل بمنزلة طفق يفعل وليس ثم ذهاب (الزمخشرى)

(٣) صاحب الكشاف والأساس والفائق

(٤) نزلوا بالسيف : بالساحل ، وهم أهل أسياف وأرياف ، وحكى الفارسى : أساف القوم : أتوا السيف (الأساس ، اللسان)

وقد زين لى ذات يوم شيطان من الانس أن أذهب إلى ذاك السيف والمصيفون والمصيفات مسيفون ومسيفات فذهبت ، ولما شاهدت ما شاهدت هربت وأنا أقول : ياله من مشهد ! اللهم اشهد ...

(١) يقال : رأيت جنادع الشر أى أوائله (اللسان) وفى (مجمع الأمثال) بدت جنادعه : يضرب مثلا لما يبدو من أوائل الشر

(٢) لا أصل له ولا فصل أى لا نسب له ولا لسان (الأساس)

(٣) هفا الشىء فى الهواء إذا ذهب ، وهفت الصوفة فى الهواء تهفو هفواً وهفواً (الفائق ، اللسان)

لأن يصير أفق الذى بعده ، واتسع عالم الحيوان ، وتعددت أنواعه وانتهى فى تدريج التكوين إلى الانسان »

وقد سمعت العلامة الأستاذ الكبير السيد عبد العزيز الثعالبي أيده الله وقواه يقول في أحد مجالسه فى الاسكندرية :

« إن الناسخين حذفوا عبارة مهمة من قول ابن خلدون مستحين منها »

« والله لا يستحى من الحق » وهل فى الدين والعلم حياء يا أبناء ... يا عترة الفلّحس واخوة الرُّباح [1]

والأمة الفرنسية — وما غيرها إلا مثلها — ملفقة مؤلفة (كما ذكر كاتب فى مبحث فى مجلة أسبوعية قبل الحرب المعلومة — من ثلاثة وعشرين جنساً ، منها العربى . وكل واحد من القوم يقول اليوم منتفخاً : أنا فرنسي ، أنا فرنسى . أنا ابن الغول (Gaulois) . وقد يكون (المقيم) فى تونس ووالى الجزائر والضيزن [2] الفرنسى فى المغرب الأقصى (مَرّاكُش) المنكمشون [3] الجادون فى تثبيت دين محمد ... وإرساخ اللسان المبين ... فى الأقاليم المغربية — من قحطان . وقد يكون ظهراء (الظهير البربري) من قريش الظواهر أو من قريش البطاح [4]

فهل نقول لهم : يا سلالة عدنان ، ويا فتيات قحطان ...

وبعد فالقصيدة علَوِّية جارمية ، وعربية عُلْوية [5] والأستاذ الجارم أديب كبير ، و (عربى مصرى) كريم ، وما ظلم علىّ قومه العرب المصريين ، ولكن القافية — والقصيدة على الباء — كانت من الظالمين ...

الاسكندرية

* * *

(١) (الفلحس) : الكلب ويوصف به الحريص . (الرباح) : القرد وهو بضم الراء وتثقيل الباء وتخفيفها . وقد حملتنا نفرة الناس من أسماء ذوى القربى على استعمال لفظين غريبين لهذين القريبين ...

(١) يقال : جعلت فلاناً ضيزنا لفلان وهو أن ترسل بنداراً — حافظاً — ثم ضاغطاً عليه ، وهو الآخذ على يديه دون ما يريده (الفائق)

(٢) انكمش فى سعيه وتكمش : أسرع (الأساس)

(٣) قريش الظواهر الذين نزلوا بظهور جبال مكة ، وقريش البطاح هم الذين نزلوا بطاح مكة : الشعب : بين أخشبيها : جبليها (اللسان)

(٤) غنى النعمان بشيء من دالية النابغة فقال : هذا شعر علوى أى عالى أى عالى الطبقة ، وقبل من عليا نجد (الأساس)

١٠ • ٥٤

فلسفة التربية

تطبيقات على التربية في مصر

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ١٧ —

« يجب أن يكون « الربح » آخر ما يفكر فيه أصحاب المدارس الحرة ! ! »

« أترى تلك مدارس للتربية والتعليم . أم هى مزيج من الفوضى والاضطراب ، والغش والخداع ، والحشو التافه والاعداد السقيم ؟ ؟ »

٧ — مثال سيء للتعليم الحر

أشرت من قبل إلى بعض نواحى النقص فى « التعليم الحر » ووعدت القراء بكشف ما أعلم من أسرار هذا التعليم فيما بعد ، وأنجز اليوم وعدي فى حدود تجربتي الماضية القاسية التى كنت فيها ناظراً لإحدى مدارس جمعية تعمل فيما تدعى للخير وكرم الأخلاق ! !

١ — وظيفة التعليم الحر

وأحسبك تدرى — قبل أن أتكلم — أهمية التعليم الحر فى بلد لا تستطيع معاهد حكومته أن تتسع لأكثر من نصف النشئ الراغب فى التربية والتعليم ! بل أحسب أنك ترى معى أنه ما دام الأمر كذلك فيجب ألا تقل مدارس ذلك التعليم عن مدارس الحكومة ولاسيما فى الغاية النزيهة ، والنظام المأمون ، والكفاءة المنشودة . ولكن الأمر ياعزيزى كان وما زال على غير ما يجب أن يكون ! أو قل إنه ما زال مضطرباً فى الكثير من هاتيك المدارس التى لم يؤسسها أصحابها إلا لتكون لهم تجارة رابحة قبل أن تكون للوطن حصناً وللتربية موئلا [1] . وهأنذا أخوض بك فى مثال سيء لهذه المدارس مؤكداً أن بعض ما به من شر موجود فى غيره وغيره من مدارس العواصم والمراكز ، وأنه لا يكاد يخلو من هذا الشر إلا مدارس تلك الجميعات الخيرية

(١) وغير خاف عمل مدارس التبشير فى المراكز الصغيرة

المحترمة ، أو مدارس اولئك الذين للعلم عندهم كرامة ، وللخلق رهبة وجدارة !

٢ — مثالنا السيء

ويؤسفني كل الأسف أن أرى نفسي مضطراً — إزاء المصلحة العامة — إلى أن أصرح بهذه الحقائق القاسية التى لا تشرف هذه المدارس ولا ترضى أصحابها . وأعلم تماماً أن بعض هؤلاء الأصحاب والمديرين سيثور على ، وسيحاول عبثاً أن يدافع عن نفسه وعن مدرسته بمختلف الأعذار وشتى الادعاءات . ولكن ما حيلتى وهذه الحقائق الصارمة الصارخة تعلن عن وجودها على لسان المدرسين والطلبة وأولياء الأمور جميعاً ؟ ؟

مثالنا السيء هو جمعية تعمل للخير وكرم الأخلاق كما قلت ، وتتخذ من بعض الشخصيات الكبيرة الساذجة أصناماً تتقدم بها للجمهور كيما يغفل عن أسرارها ومخازيها . وقد رأت هذه الجمعية أن المدارس من أربح الوسائل وأشرفها مظهراً ، فراحت تفتح منها ما تستطيع فتحه وتحشد فيها ما يزيد على الألف تلميذ وتلميذة ! ! فهل تدرى من يدبر أمور هؤلاء التلاميذ ؟ ومن يقوم بتعليمهم ؟ وأين تذهب أموالهم ؟

أما المدبر أو المدير كما يدعونه فهو رجل متعلم ولكنه عجيب الأطوار ، محب للسلطة والاستبداد ، سماع للأكاذيب والوشايات ، معتوه أو كالمعتوه ، لأنه سب يوماً أمامى وأمام التلاميذ جميعاً فى (طابور) الصباح أستاذ الدين ورئيس « المطبخ » سبًّا مقذعاً بينما كان الأستاذ المسكين واقفاً وسط التلاميذ ، ولأنه أخذ هراوته مرة وجرى بها خلف خادم صغير على مرأى من بنات المدرسة وكن واقفات يتأهبن لسماع نصائحه الغالية فى الفناء الكبير ! ثم هو فضلاً عن ذلك مادى جشع قد احتكر لنفسه إيراد المطعم والمقصف وتنظيف الأحذية لقاء ما يقوم به من إدارة بريشة وإشراف نزيه ! . وقد لا يكون فى ذلك إثم كبير لو لا ما يقدم للتلاميذ من طعام سيء ، ولو لا ما يحملهم به على هذا الطعام وذلك التنظيف من ألوان العسف والامتهان والحرمان والتعنيف مما لا أول له ولا آخر [1]

(١) ولا تذكر هذه الحقائق إلا كمثال لأنواع الاستغلال المرذول فى هذه المدارس ، ولأنواع الشخصيات التى لا تستطيع بحالتها هذه أن تنجح فى كسب احترام المدرسين وهم عماد المدرسة

وأما المدرسون فهم مجموعة متنافرة يطغى فيهم العنصر غير الفنى على الفنى ، لأن فيهم راسب الكفاءة والبكالوريا أو حاملها مع فريق من سيدات ورجال التعليم الإلزامى ممن لم يجدوا عملاً فى الحكومة فجاءوا إلى هذه المدارس الابتدائية الأهلية يلتمسون فيها عيشاً [1] . ويضاف إلى أولئك وهؤلاء واحد أو اثنان من الفنيين لإدارة حركة المدرسة بهذا « الطقم » العجيب الذى لا استعداد فيه للتعاون والعمل بتلك المبادىء التى اصطلح الناس على أنها أصول للتربية الصحيحة والتعليم السليم ! فماذا تريد بعد هذا وقد رأيت الرأس ممتلاً والأعضاء خائرة منهوكة ؟ قل ماشئت من إرهاق لهؤلاء المدرسين ومن امتدابهم ليعملوا ككتبة فى شئون الجمعية الخاصة والعامة . وقل ما شئت من تضافر القوى فى الجمعية على امتهان المدرس ذى الكرامة وإحراجه بتلفيق التهم ونصب الأشراك . وقل ما شئت من تدخل المدير العجيب فى الشئون الفنية الخاصة وصبغه للنظام العام بهراوته المضحكة وبشخصيته المادية المتناقضة وبميوله النهمة الغادرة ، حتى لتشعر أنك فى عصابة أو مارستان . ثم قل أيضاً ما شئت من التظاهر أمام حضرات المفتشين بما ليس موجودا ، ومن وضع خزانات بغير ماء فى المراحيض كدليل على النظافة وتوفية الشروط !! .

أما التلاميذ المساكين فما أقل ما يتناولون من الكتب والكراسات ! وما أكثر مايدفعون من الضرائب والاتاوات ! وما أشد ما يتحملون من الكلمات والضربات ! وما أخطأ ما يعاملون به من طرق لا تكوّن العقل ولا تبنى الشخصية ولا تهذب الشعور !

ستعجب مما أقول ، وستتخيل أنه إنما كان بالأمس البعيد ولا وجود له اليوم . وسأقول لك إنى لمسته بيدى منذ عامين اثنين ولقيت منه الأمرين وخرجت ثائراً عليه عندما لم أقو على العيش

(١) ولا يزال فى المدارس الثانوية الأهلية الكثير من غير الفنيين ، وأقصد بهم من لا يحملون دبلوماً فى التربية والتعليم ، أو من يحملون دبلوماً لا يصلح للمدرسة التى يعملون بها . والواقع أن مشاكل التربية الحديثة تتطلب الالمام الواسع بعلمى النفس والتربية لا مجرد التجربة التى لا يسندها دليل . ويخطىء من يظن أن كل حامل علم قادر على أن يكون مدرساً بالمعنى الصحيح . إذ لا بد هنا من تدريب كاف تحت إرشاد أستاذ قدير . لذلك كان الخطر من ازدحام المدارس الأهلية بغير الفنيين غير يسير ، وواجب الحكومة كما قلت هو أن تدبر لغير الفنيين أعمالا تناسبهم ، وتسلح جميع المدارس بالمعلم الكفؤ ، والوزارة سائرة فى هذا الطريق ولكن سيرها لم يزل بطيئاً

فيه . وإذ كانت الوزارة قد خففت كثيراً من مثل تلك الفوضى بأعمال رقابة التعليم الحر فإن العيب لم يزل جسيماً ، ومجال التلاعب والعبث واسع عريض ، وممارسة التربية كفن صحيح سليم لا تكاد تتحقق فى هذه المدارس إلا فيما شذ وندر[1]

وقد تسأل بعد هذا عن تلك الأقوال الكثيرة التى تجنيها الجمعية من إعانة الوزارة ومصروفات التلاميذ ؟ وسأقول لك سل العمارات الشاهقة التى يبنيها المدير أو يفاوض فى شرائها . وسل المدرسين المساكين الذين يتناولون الأجر الضئيل ويشاهدون التضخم المائل الشديد . وسل تلك الأبنية الرطبة القذرة التى يحشدون فيها التلاميذ بغير حساب !!

ثم ليت الوقت يتسع لأقص عليك طريف ما يحدث فى تلك الدور ، أو ليته يسمح بإخبارك أن الطلبة فى المدارس الثانوية الأهلية كالوحوش يرهبهم الناظر لأنه يبنى ما لهُم ، ويخشاهم الأستاذ لأنهم لا يرهبون أحدا ؛ ثم ليته يتسع أو يسمح بذكر هاتيك المخازى الكثيرة التى أسمع عنها كل يوم هنا وهناك فحسبك اليوم ذلك ، وإلى اللقاء حيث أحدثك عن ناحية أخرى

(يتبع) محمد حسن ظاظا

مدرس الفلسفة بشبرا الثانوية الأميرية

---

(١) والسر فى ذلك واضح . فغاية المدرسة هى الكسب لا التعليم ، وصاحب المدرسة يريد أن يستغل المدرسين والطلبة إلى أبعد الحدود . وكلما شعر المدرس بالظلم والارهاق احتقر صاحب المدرسة وتبرم بعمله وأداه على نحو ميكانيكى بحت . ولولا تدخل الوزارة أخيراً فى ضبط مرتبات المدرسين لظل أغلبهم لا ينال أجره كاملا

وأعتقد بعد هذا أن بعض المدارس التى تعطيها الحكومة إعانات سنوية تستطيع أن تستغنى عن هذه الاعانات تماماً بمصروفات التلاميذ ولكن مال الوزارة فيما يبدو كثير !

بين الرافعى والعقاد

للأستاذ محمود محمد شاكر

— ٣ —

ثم ماذا ؟ ثم يقول الأستاذ سيد قطب فى ثالث أدلته على أحكامه : « يقول العقاد فى طرافة ودُعابة عن حِسان شاطئ استانلى ! !

ألقى لهُن بقوسه   قُزحٌ وأدبر وانصرفْ

فلبسْنَ من أسلابه   شتّى المطارف والطُّرفْ

فلا يجد الرافعى فى هذه الطرافة إلا أن يتلاعب بالألفاظ فيقول : فقزح لا يلقى قوسه أبداً إذ لا ينفصل منه . قال فى اللسان : « لا يفصل قُزَح من قوس » . فاذا امتنع فكيف يقال : « أدبر وانصرف » . أما قزح العقاد ، فلعل الخواجه قزح الناطي مراقب المجلس البلدى على شاطئ استانلى الذى قيلت فيه القصيدة

ثم يقول إن هذا المثال « فيه تلاعب وروغان ، وهو فى هذه المرة (التلاعب) أخسُّ من السابقة ، ففى الأولى كان تلاعباً بصور ذهنية ، وهو هنا تلاعبٌ بألفاظ لغوية ! »

أولاً ، فمن ذا الذي يغفُل عن طرافة هذا « الخيال » الذى يتصور « قُزحاً » ملقياً بقوسه لهؤلاء الحسان ، وهن يتناهبن هذه الأسلاب ، بينما هو مدبر منصرفٌ ، مغلوب على أمره ، لا يستطيع النصفة ممن غلبَ جمالهنّ جماله !

ألا تستحق مثل هذه الطرافة ، ومثل تلك الحيوية ! من الناقد إلا أن يذهب إلى القاموس أو اللسان ، ينظر هنالك ، هل يفصل قوس عن قزح أو لا يفصل ؟ ثم يكمل الكلام بتهكم بارد لا يرد على الفطرة المستقيمة فى معرض هذا الجمال ! !

أهذا هو النقد الذى هو « أقرب إلى المثال الصحيح » ؟ وماقلته فى المثال الثانى يقال بنصه هنا ، فلترجع إليه جماعة الأصدقاء.

ثم يعود فيقول عن هذا المثال أنه يمثل « تلاعبه بالألفاظ اللغوية ، والوقوف بها دون ما تُشيعُهُ فى الخيال من صور طريفة » انتهى كلام الأستاذ الجليل

***

ومن أعجب العَجَب أن يُعدّ اعتراض الرافعي ونقده هذا البيت تلاعباً بالألفاظ اللغوية ، ولا يكون هذا الشعر نفسه قد بُنِي على التلاعب في غير طائل ، وعلى تكلف اللفظ لترميم قافية البيت . وأول ما نقول في هذا أننا نخالف بعض رواة العربية ثم الرافعي في أن يلزم أحد هذا الحرفين صاحبه على كل حالة وفي كل ضرب من ضروب القول

وبيان ذلك أن لأصحاب العربية في هذا الحرف (قُزَح) ثلاثة أوجه من الرأي :

الأول : أن (قُزَح) اسم شيطان ، أو اسم ملك موكل به

والثاني : أن (القُزَح) هي الطرائق والألوان التي في القوس ، والواحدة قُزْحة

والثالث : أن يكون من قولهم : قزح الشيء وقحز إذا ارتفع

قلت : وكأنهم أرادوا أن يجعلوه معدولا به عن (قازح) ، وهو المرتفع

ففي الوجه الأول لا يضير أن ينفصل الحرفان ؛ إذ كان (قوس) اسم جنس ، و (قزح) اسم علم بعينه ، وأضيف أحدهما إلى الآخر إضافة نسبة . فهو بمنزلة قولك (كتاب محمد) . ومن هنا جاز أن يبدلوا تسمية العرب الأوائل فقالوا له : « قوس الغمام » و « قوس السحاب » . ويقول ابن عباس رضي الله عنه : « لا تقولوا قوس قُزَح ، فان قزح من أسماء الشياطين . وقولوا (قوس الله) عز وجل . وعلى هذا يجوز قول القائل : « ألقى قُزح قوسه » باضافة القوس إلى ضميره . على أن الشيطان ، أو المَلَك الموكل بالقوس قد ألقى (قوسه)

وأما الوجه الثاني والثالث فلا يجوز الفصل معهما ألبتة على إرادة (الاسم) الذي تعرفُ به هذه الطرائق المتقوّسة التي تبدو في السماء . فان الحرفين على حالهما ينزلان منزلة الكلمة الواحدة إذ ذاك . وللقول في هذا مجال ليس هنا مكانه ولا أوانه

ونحن نرى أن العقاد قد ذهب — وإن لم يرد ذلك — إلى الوجه الأول ، وأن شعره يحمل على رأي جائز في العربية

هذا ، وقد ذهب الرافعيُّ في نقد بيت العقاد إلى رأي أصحاب اللغة في امتناع الفصل بينهما ، وأن الحرفين كالكلمة الواحدة على تتابعهما . وعلى ذلك لا يقال « ألقى (قُزح) قوسه » وأولى إذن ألا يقال إن (قُزَح) أدبر وانصرف ، لأنه ليس بذاته يدُلّ على معنى ، أو يقع اسماً لشيء بعينه ؛ فهو إذن لا يجوز عليه الاسنادُ إسناد الخبر أو الفعل كالالقاء والادبار والانصراف. فأين التلاعبُ في هذا الرأي بالالفظ اللغوي ؟ ولو قد كان وقع في بعض كلام الرافعي فصل أحدهما عن الآخر لأمكن أن يقال إنه يتلاعب باللفظ ، ولكن ذلك لم يكن ... !

وأما الأستاذ العقاد فقد نقد رواية قمبيز في سنة ١٩٣٢ ، وجعل من ملاحظاته أن هذه الرواية « لم تخلُ من مخالفة للنحو والصرف في القواعد المنصوص عليها » ، وأتى في هذا الموضع من نقده بما خطأ فيه شوقي ، وليس بخطأ

يقول شوقي على لسان أحد المجان (ص ٣٢)

أَلْـقَـدَحا أَلْـقَدَحا الخمرُ تنفي التَّرَحا
قصراً أرى أم فَلَكا وشجراً أم قُزَحا

ثم علق (شوقي) في الوجه (٣٢) نفسه فقال : « قالوا : إن قزح لا يفصل من قوس ، ولكن الناظم لم ير بأساً في فصله لسهولته وكفاية دلالته » انتهى . ونحن نجيز هذا في العربية ولا ننكره

قال ذلك شوقي في التعليق ، ثم جاء الأستاذ العقاد في كتابه (رواية قمبيز في الميزان) يقول ص ١٥ « ... ويقول (قُزَح) ولا تذكر قُزَح إلا مع قوس » . وبَيَّنَ أن كلام الأستاذ العقاد ليس عربي العبارة ، فإن أصحاب العربية منعوا (فصل) قُزَح من قوس ، ولم يمنعوا (ذكر) قزح إلا مع قوس . والفرق بين اللفظين كبير . وبينَ أيضاً أن هذا ليس نقداً فإن لم يأت بأ كثر من تكرار ما ذكره شوقي في تعليقه ، وكان الوجه أن يبين فساد رأي (الناظم) إذ لم ير بأساً في الفصل للعلة التي ذكرها

ومع ذلك ... فقد كان نقد العقاد في يونيه سنة ١٩٣٢ ، ولم تمض ستة أشهر أي في يناير سنة ١٩٣٣ حتى فصل العقاد نفسه بين (قزح) وقوس في شعره هذا !! فلعل هذا أن يكون بالتلاعب بالألفاظ اللغوية أشبه ، وبتصريف النقد على الهوى أمثل .

وأما بيتا العقاد :

ألقى لمنْ بقوسه قزحُ وأدبر وانصرف
فلبسن من أسلابه شتى المطارف والطرف

فقد بنيا على ألفاظ يدفع بعضها بعضاً عن معنى يولده — من

لفظ (القوس) التي هي من آلات القتال. وكان سبيل التوليد هكذا: القوس من آلات القتال، واستعيرت للطرائق في السماء مضافة إلى (قُزَح)، فيكون ماذا لو أنشأ من لفظ هذا القوس صورة للقتال بين (قُزَح) وبين جيلات شاطىء ستانلي؟ ويكون ماذا لو زعم أن الجيلات انتصرن على (قُزَح) صاحب القوس، فألقى سلاحه ثم أدبر وانصرف؟ ويكون ماذا لو جعل ألوان (قوس قزح) أسلاباً كأسلاب المحاربين في القتال ظفر بها الجيلاتُ بعد انهزام (قزح)؟ ويكون ماذا لو زعم أنهن اتخذن هذه الألوان مطارف وطرفا يلبسنها ويتحلين بها؟ وهكذا

وهو توليد كما ترى وتوليد من لفظ واحد. ونحن لا نرى بأساً — وإن كنا لا نرتضيه — أن يأتي الشاعر بالمعاني مولدة من ألفاظ اللغة، فإن من بعض اللفظ في العربية لما يُضرم الفكر ويُورث المعاني ويستفزُّ الخيالَ الي أعلى مراتبهِ. على أن هذا لا يتحقق إلا أن تستقيم الطريقة للفكرة، ويتراحب المجال للمعاني، ويسمو المدى بالخيال، على أن تصحّ المقابلةُ بين معاني اللفظ وسائر الصور التي تتولد منه

والمقابلة في هذا الشعر فاسدة باطلة. فهي مقابلة بين (قزح) وبين الجيلات على شاطىء استانلي، ثم بين الطرائق المقوسة ذات الألوان في السماء (القوس) وبين ما ترتديه الجيلات من مطارفهن. وكان حق المقابلة أن يكون (قزح) هذا مشهوراً بالجمال موصوفاً به، حتى إذا ما ذكر في معرض الكلام عن الحسان الجيلات تمت المقابلة بينه وبينهن. فإن لم يكن ذلك كذلك، فلا أقل من أن يكون في الشعر ما يدل على سبب (حالة الحرب) التي أنشبها الشاعر بين حسان شاطىء استانلي، وبين العم (قزح)، ثم ما كان من علة لالقاء سلاحه ثم انهزامه وإدباره

فأما إذ لم يكن (قزح) جيلاً، ولم يأت الشاعر بسياق جيد لهذا التوليد، فقد بطلت الأفعال التي أسندها إلى (قزح) من إلقاء قوس وإدبار وانصراف، وما أضافه إليه من الأسلاب، وصار كله لغواً لا فن فيه. وهذا الضرب خاصة من ضروب الشعر الذي يتضمن التصوير والوصف لا يأتي جيده إلا على دقة الملاحظة، وتقدير النِّسب بين الألفاظ والمعاني والصور. فلو اقتصر الشاعر فجعل (قزح) يهدى إلى الحسان محاسين قوسه، فاتخذن منها (شتى المطارف والطرف) لكان أجود وأقرب إلى الاتقان. أما إعلان الحرب بينهما فليس جيداً ولا براعة فيه كما رأيت

وقد أجاد ابن الروى — ويقال إنها لسيف الدولة — إذ يقول:

وقد نشرت أيدى الجنوب (مطارفاً)
على الجو دُكناً، والحواشي على الأرض
يطرّزُها (قوس السحاب) بأصفر
على أحمر في أخضر وَسْط مُبْيضِ
كأذيال خودٍ أقْبَلَتْ في غلائل
مُصَبَّغَةٍ والبعض أقصر من بعض

وهو قريب جيد في الوصف

ونحن لا نذهب مع الأستاذ قطب فيما يتخير من اللفظ لوصف هذا الشعر وما فيه، بذكر (الطرافة) و (الدعابة) و (الخيال) و (الحيوية) و (معرض الجمال)، وما إلى ذلك من ألفاظ لو أقيم ضدها مكانها لقام، إذ كان لا يبين أسبابها ولا يوجه معانيها ولا يأتي كلامه في مثل ذلك إلا على طريقة صاحب كتاب (الوشي المرقوم في حل المنظوم) إذ يقول: «أولا فنذا الذى يغفل عن طرافة هذا «الخيال» الذى يتصور «قزحاً» ملقياً بقوسه لهؤلاء الحسان ... الخ»

وقد وضح الآن أن ليس في كلام الرافعي تلاعب بالألفاظ اللغوية، وأنه ليس في هذه الألفاظ ما يجعلها «تشع في الخيال صوراً طريفة»، وذلك لما ذكرنا من تخالف ألفاظها وتدافعها وبُعد صورها عن جودة التوليد، إذ كانت هذه الصور مولّدة من اللفظ على غير نسق متصل أو طراز جميل

ثم .. أتى الأستاذ قطب بالمثال الرابع فقال: «ويسمع العقاد صيحات الاستنكار للهو الشواطىء، وما تعرض من جمال، فيصيح صيحة الفنان الحى المعجب بالحيوية والجمال:

عيد الشباب، ولا كلا م، ولا ملام، ولا خَرف

فاذا الرافعي يقول: «إن غاية الغايات في إحسان الظن بأدب العقاد أن تقول إن في هذا البيت غلطة مطبعية، وأن صوابه:

عيد الشباب، فلا كلا م، ولا ملام، (بلا قرف)!

ثم يقول بعد إن هذا المثال يغنيه الرافعي عن الحديث فيه

« فهو لم يزد على أن أورد البيت ، ثم استغلق دون استيعاب ما يعبر عنه من روح الفنان الحى ، الوكل بالجمال حيثما وجد ، وكيفما كان ، المازئ بخرف التقاليد ، وقيود العُرْف ، ولم يجد ما يقوله إلا « بلا قرف » وهو قول لا تعليق لنا عليه »

ثم يعود فيقول : إن هذا يمثل هروب الرافعى « من مواجهة النقد الصحيح إلى المراوغة وكسب الموقف — فى رأيه — بنكتة أو تهكم أو شتيمة »

وأنا لا أعجب لكلام الأستاذ سيد قطب ، لأنه على طريقته فى حل المنظوم ، وإن أعجب فعجبي لصاحب « وحى الأربعين » كيف ارتضى أن يثبت البيت فى قصيدته ، وفى عقب هذه القطعة بالذات ، وينتقل من الوصف والتأمل وإمتاع النظر ، وإمداد الفكر بأسباب من الجمال ، أو كما يقول الأستاذ قطب من الطرافة والدعابة والخيال والحيوية ! إلى صيحة الاستنكار والتفزع بقوله : « فلا ملام ولا كلام » ثم الغضب الذي لا يتورع فى قوله : « ولا خرف » . إن هذا الانتقال ليس من منطق الفن ولا من نهجه وسبيله

وما أظن الرافعى أراد أن ينقد البيت — لأنه ليس بسبيل مما يحسن أن يُنقد ، وإنما وضعه هكذا للعقاد وهو يريد ما قلناه فى كلمتنا الأولى مما جرَّته العداوة التى اضطرمت بينهما

* * *

وبعد فقد قرأت كلمة الأستاذ الجليل المهذب سيد قطب فى البريد الأدبى من العدد السالف من الرسالة ، وقد أعلن فيها بعض رأيه فيما نكتب ، وحكم بحكمه على ما قلناه ، وحاول أن يتهكم ، ووعظ وذكر . ونحن ندعه لما به عسى أن يرى يوماً غير هذا الرأى ، وله الشكر أحسن أو أساء

محمود محمد شاكر

بين العقـــاد والرافعي

للأستاذ سيد قطب

— ٤ —

الآن تحدث الأستاذ شاكر — حديثاً ما — فى الموضوع الذى نحن بصدده ، وإن كان حديثاً « رافعيا » على الطريقة التى يبنت مافيها من استغلاق وقصور ، ولكنه على أية حال شيء غير اللمز والتعريض — وإن لم يخل منهما — فالآن يستطيع الانسان أن يلقى باله إلى هذا الذى قيل

ولما كانت لى بقية من حديث عن الرافعى ، فسأجعل نقاشى مع الأستاذ شاكر ، بقية لهذه البقية فى كلمة أخرى

وعدت أن أعرض من أساليب الرافعى نماذج غير ما عرضت تأخذ فى نهج آخر ، ولكنها تصل إلى الهدف الأول ، من إثبات طبيعته كما عرفتها ، بالنماذج والأمثلة

وأنا ماض فى طريقى هذا ، لا يحولنى عنه ما يبدو من بعض أصدقاء الرافعى من تعريض أو إثارة ؛ ولن يستفزني ما يكتبون فأحيد عن نهجى الهادئ

وطريقتى فى هذا الموقف أن الرافعى قد مات ، وله نوع من الأدب ، فسأناقش أدبه هذا ، وما يدل عليه من نفسه وذهنه نقاش الناقد المطمئن لما يقول

وله أصدقاء أحياء ، فسأناقشهم حسبما يكونون هم : نقاداً أو متهجمين . ولن أخلط بينه وبينهم فى الحساب ، فلا ذنب للرجل فيهم ، ولا تبعة عليه بعد موته فيما يصنعون !

تلك طريقتى . وهى ترضينى ...!

* * *

قلت : إن الرافعى أديب الذهن ، ولكنه الذهن الملتوى الماظل الداخل . واليوم أقول هذا ، وأزيد عليه : أنه « الذهن الشكلى » الذي تلهيه الأشكال والسطوح عن الكنه والأعماق ، والذى لا يلمح فرقاً بين صورة وصورة ، ما دام ظاهرهما متشابهاً . فإن أراد أن يطبق أمراً على أمر ، أخذ فى قياس الزوايا والخطوط ولم يلق باله لحظة إلى ما فى طبيعة كلا الأمرين من خلاف أو زيادة ونقص في بواطن الأجزاء . وإليك البيان :

« القمر » كوكب لا يشرق إشراقه إلا في الليل والظلام ،
و « الحبيبة » تعود الناس أن يشبهوها بالقمر
و « هي » لا تشرق إشراقها إلا في إبان « الحب »

فاذا شاء الأديب أن يعقد من هذه الأطراف تشبيهاً ، وجد قمراً يشرق إذاجن « الظلام » ، ووجد حبيبة تشرق إذا « توهج الحب » فكان لا بد له من التصرف في التشبيه

ولكن الرافعي لا يتصرف ؛ فما دام القمر يجلوه الظلام ، فالحب إذن « ظلام » لأنه يجلو حبيبته ، وسينساها متى انقطع عهد الحب وتختفي من أفقه ، كما أن القمر يختفي إذا طلع الصباح . وهكذا يقول :

يا من على الحب ينسانا ونذكره لسوف تذكرنا يوماً وننساكا
إن « الظلام » الذي يجلوك يا « قمر » له « صباح » متى ندركه « أخفاكا »

فأما البيت الأول فأخوذ عن العقاد الذي لا يعجب الرافعي شعره ! وأما الثاني فهو الذي يعنينا . وفيه ترى « الذهن الشكلي » الذي يستسيغ أن يجعل فترة الحب « ظلاماً » كالليل ، وفترة انقطاعه « نوراً » كالصباح ، لا لشيء إلا لأن القمر المشبه به يشرق في الليل ويخبو بالنهار

والحب الذي هو ظلام ، لا يحتاج للتعليق ، فما يوجد حب في الدنيا تظلم به الأرواح ولكن الرافعي هكذا يقول ... !

وليست هذه خطرة عابرة تلتمس لها الأعذار فان لها أشباهاً في هذه « الخاصية »

يقول الرافعي عن « حبيبته » بعد عدة جمل مملوءة بقياس الأبعاد والجهات والزوايا :

« فكأنها في كل ذلك دائرة مرسومة من الفكر ، لا يهديك البحث إلى موضع طرفيها وهي محيطة بروحك من ثلاث جهات ، فلم يبق لك إلا الجهة التي تتصل روحك منها بيد الله »

فدعك من مدلول هذا الكلام وقيمته من « إنسان يحب » أو « يصف الحب » ؛ ودعك من أنه كلام ذهني لا ينبض بحياة ، ولا يدل على خلجة في الشعور ، أو نبضة في الضمير ، ولا يتعدى أن « متكلماً » يصور في « الذهن » أشكالاً تقع أو لا تقع ، ولكنها يمكن عقلا أن توجد ، كفروض المناطقة

دعك من كل هذا ، وتعال انظر كيف يتصور الرجل العوالم الروحية ، أو العوالم الذهنية ... إنه يتصور لها جهات . ولا بد أن تكون هذه الجهات أربعاً كالموسومة في علم الجغرافيا بالجهات الأصلية ، وإنه متى أحيط الانسان بثلاث منها فلن تبق له إلا واحدة وهي الجهة الرابعة !

ولا يتأتى له أن للحياة — ولا سيما في فترة الحب — ألف جهة وألف منفذ ، وأنها تؤتى من هذه الجهات والنافذ ، ومن مسارب أخرى ومنعرجات وكُوًى ومداخل لا عداد لها . لأن الذي يتأتى له ذلك لا بد له من « نفس » ، ومن « حس » . أو لا بد له على الأقل من « ذهن » مشرق مرهف ، لا تحده الأشكال الصماء

على أن هناك خطأ نكشفه من باب الدعابة ، « فالدائرة » ليست لها أربع جهات كما تصور الرافعي ، حتى إذا أحيط الانسان من ثلاث لم تبق إلا الرابعة ، إنما يكون ذلك في « الأشكال » الأخرى ، كالمربع والمستطيل ! !

وبسبب من هذا يأخذ قوله عن الناس :

« وألبسهم على تفصيلهم قصاراً أو طوالا ، كما خرجوا من شق المقص : المجتمعين من الليل والنهار تحت مسمار الشمس »

أرأيت إلى « استيفاء الأشكال » في التشبيهات ؟ الليل والنهار كالمقص ، في تفصيل الناس قصاراً وطوالا ... لا بأس ! ولكنه تذكر أن للمقص المستعمل « الآن » مسماراً في وسطه فلا بد إذن من « مسمار » في المشبه ! وهذا المسمار هو الشمس . وبذلك يتم « الشكل » بالدقة بين عمل المقص ، وعمل الليل والنهار ، وبين تركيبه ، وتركيبهما مع الشمس كذلك !

ولن يخطر على بال الرافعي أن الليل والنهار تحت الشمس من الظواهر الأزلية العميقة ، وأن بناءها هكذا عمل سرمدي دائم من بدء الخليقة إلى نهايتها . أما بناء المقص فهو شكلي وقتي ؛ ليس بلازم أن يكون هكذا أبداً ؛ كما أنه ليس بلازم أن يكون « التفصيل » بأداة واحدة هي المقص وهي على هذا الشكل ؛ وما بين يوم وليلة تتغير الأدوات والآلات ! فما تكون الشمس إذ ذاك ؟

لا . لا شيء من ذلك يخطر على الذهن ، ما دام الشكل مستوفى بكامل أجزائه وأوضاعه . وتلك هي العناية بتصوير الحقيقة

الوقتية العارضة دون التفات إلى الحقيقة الأزلية الدائمة . وهذا ما أشرت إليه فى أول مقال !

ويبدو لى أن الرافعى كان شديد الأثر فى تلاميذه من ناحية « الأشكال » ؛ فها هو ذا الأستاذ سعيد العريان يكتب عنه فى كلمته الأخيرة بالرسالة فيقول :

« فكان يرسل عينه وراء كل منظر ، ويمد أذنه وراء كل حديث ، ويرسل فكره وراء كل حادثة ، ويلق باله إلى كل محاورة »

فهو قد أراد بهذا أن يستوفى جميع أشكال التنبه والاستيعاب دون أن يلاحظ الصدق والواقع وما يمكن تحققه من هـذه الأشكال بالنسبة لمن يتحدث عنه . ذلك أن المرحوم مصطفى صادق الرافعى لم يكن « يمد أذنه وراء كل حديث » كما يعرف من يعرفه ؛ ولم تكن هذه الحاسة من أدواته فى التنبه والتأمل ، فكان من « الصدق » ألا تذكر دون أن يضيره هذا أو يعيبه ، إذ كان هذا مما لا يعاب . غير أن حب استيفاء جميع الأشكال والفروض هو الذى يدفع الأستاذ سعيداً إلى هذا التفصيل

وليس ذلك بقليل الدلالة على هذه الظاهرة فى مدرسة الرافعى ؛ وما قصدت باثباتها أن ألمز الرجل كما قد يفهم بعض ذوى الطبائع المنحرفة ، فأخلاق — على الأقل — لا تسمح لى باللمز ، ولكنى أردت إثبات الظاهرة فى أحد تلاميذه ، بفلتة عارضة غير ملتفت إليها ، وهى عميقة الدلالة على اتجاه المدرسه كلها

***

وقد أسلفت أننى تلقيت نبأ « حب الرافعى » بكثير من الدهشة لأن « الحب » يتطلب « قلباً » وهو ما كنت أفتقده فيه

والآن أقول : إننى بعد أن خصت عن هذا « القلب » فى « رسائل الأحزان » لم أجد له ظلا ؛ ثم وجدت هنالك رجلا لا « يفهم » عن الحب شيئاً ، ولا يدرك أثره فى « النفس الحية » ولو من باب الدراسة والملاحظة

وإليك البرهان :

ليس أدل على الجهل بطبيعة الحب من تصوره ظلاماً كما مر وهو النور المشرق الذى يفتح النفس والذهن والعين على عوالم لا عداد لها ولا شطآن . فاذا جاز أن نقول من باب الدعابة : إن التشبيه هناك كان أعز على الرافعى من الحب ، وإن « الصنعة حكمت » كما يقولون ! فكيف نقول فى تشبيه الحب بعد ذلك بالموت حين يقول :

« ولكن هناك موتاً لا ينقل من الدنيا إلى الآخرة ، بل من نصف الدنيا إلى نصفها الآخر ... وهو فى أسرار الانسانية عكس ذلك (الموت) لأنه أظهر ما خفى وهو الحب »

فما معنى أن الحب « موت عكس الموت ؟ » وأنه لا ينقل من الدنيا إلى الآخرة ولكن من نصف الدنيا إلى نصفها الآخر؟ ألعب بالألفاظ أم « شقلبة » فى الأشكال ؟ وعلى أية حال فأين الحب فى كل صوره وأشكاله ، من الموت فى كل صوره وأشكاله ، حتى يسوغ لإنسان أن يجد وجهاً للشبه بين هذا وذاك ؟

إن الحب من صميم الحياة بكل ذراته وآثاره ؛ ولن يكون موتاً أبداً ، لا فى الخارج ولا فى الضمير . وألف سفسطة فى التخريج لا تفسر اقتران الحب بالموت فى «ذهن» من الأذهان !

ويقول :

« وما من أحد فى الأرض يستقيم طبعه على الجمع بين هم الحب وهم الحياة ، فان قام بواحد زاغ من الآخر لا يبالى به ، إذ هما حقيقتان متدافعتان ، كتيارى الكهرباء ، لو أمكن شيء من المستحيل ، لما أمكن أن يطردا فى سلك واحد ، اطرادها فى السلكين »

هذه قولة الرافعى وهى دليل لا ينقض على أنه لم « يحس » الحب فى حياته ، ودليل كذلك على أنه لا « يفهم » إحساس الحب فى سواه ، ولا يحسن تعليل ظواهره وتفسير دوافعه ، ككل ذى ذهن مشرق مستقيم

هو يرى أن الذى يحب يستخف بهموم الحياة ، حتى يخيل اليه أنه نسيها . فيفهم من ذلك أن هم الحب قد طرد هم العيش ، لأنهما متناقضان متدافعان . وذلك فى « الظاهر » وفى « الشكل » صحيح

ولكن الحقيقة الباطنة أن الحب يضاعف القوى الباطنة ، ويفسح فى الحياة ، ويعمق جوانبها ، فتخف تبعاً لذلك على النفس هموم الحياة ، حتى يخيل لصاحبها ذاته أنه ينساها

فليس عن تضاد بين الهمين ولا تدافع ينشأ هذا الشعور ، ولكن عن فسحة فى النفس ، وقوة فى الحس ، لا تضيق ولا تتبرم بهموم الحياة ، لأن النفس أصبحت أكبر وأرحب منها ، فلا تحس بها . وكل شيء نسبى بين القوة والمقاومة

وهذا هو التعليل « الانسانى » والتعليل « النفسى » الذى لا يدركه أدباء الذهن الكليل . ومن هذا النحو قوله :

« فان فى كل عاشق معنى مجهولا ، لا يحده علم ، ولا تصفه معرفة ، وهو كالمصباح المنطفىء ينتظر من يضيئه ليضيىء ، فلا ينقصه إلا من فيه قدحة النور ، أو شرارة النار . وفى كل امرأة جميلة واحدة من هذين »

فهكذا يتصور الرافعي أن المحب عند تهيئه للحب ، يكون كالمصباح المنطفىء الخامد الهامد،وقدحة النور أوشرارة النار ، إنما تأتى له من « الخارج » وليست كامنة فى « ضميره » . وهذا التصور يتمشى مع خواء الرافعى وسطحيته

أما الحقيقة الروحية التى يفهمها ذوو « النفوس » فهى أن الحب فيض في النفس ، وامتلاء فى الشعور ، يحس معه الانسان أنه بحاجة إلى صلة إنسان آخر ، لكى يفيض على هذا الانسان من القدر الفائض فى نفسه ويعطيه مما يزخر به شعوره ؛ فالمصباح حين التهيؤ للحب لا يكون منطفئا خامدا هامدا بل يكون موقدا مشرقا يبحث عمن يفيض عليه من نوره . ويبذل له من اشراقه ووميضه . وحقيقة أن « الجميلة » التى يصادفها إذ ذاك تزيد فى اشراقه وتوهجه ، ولكن كما يزيدالزيت فى لألاء المصباح الموقد ، لا كما تصنع الشعلة فى المصباح المنطفىء

وهذا هو الحب فى الحياة ، أما الحب فى « الذهن » وحده فقد يكون ذاك !

* * *

والرافعى في زحمة الحب ، وفى فيضه وانبساطه ، لاينسى عالم الحقد الضيق ، ولارقعة الغيظ المحدودة ، فتلمس فى كلماته ونبراته صوت تضريس الأسنان من الحنق ، وتنزى الأعضاء من الضغن ، وذلك شأن غريب

نعم غريب ، فقد كان مفهوما أن يبلغ به الضغن والحقد على العقاد أن يحجم عن شراء « وحى الأربعين » كما حكى تلميذه العريان ، ولكن الذى لا يفهم أن تلازمه طبيعة الحقد وهو فى معرض الحب . والحقد تيبس فى الشعور

ومن أراد أن يعرف أهم أسباب الحقد فى نظر الرافعى ، وأظهر دوافعه ، فليعلم أنه فوقان إنسان على إنسان في النتاج الأدبى ! ولعل هذا سبب ما بينه وبين العقاد ! فهو يقول عن « حبيبته »

« ولو أن الله مكنها من لغة كتابه الكريم ، لغص منها فى هذا الشرق العربى كل كاتب وكاتبة غصة لا تساغ ولا تتنفس »

أى لو أن هذه المرأة كانت متمكنة من دراسة اللغة العربية لما كان الأثر الذى تخلفه فى نفس كل كاتب وكاتبة بلا استثناء إلا الغصة التى لا تساغ ولا تتنفس

هكذا لا تسمح طبيعة الحقد الأصيلة أن تتصور أن إجادة الأديب تهيئ له معجبين بأدبه ، أحباء اليه ، كلا ، بل لا بد من الغصة فى صدورهم . وأية غصة ؟ هى التى لا تساغ ولا تتنفس ...

وهكذا كان الرافعي مع العقاد !

إن فلتات اللسان ، تظهر كوامن الانسان ؛ وهذه فلتة كشفت عن الرافعى فى أعماقه ، وأرتنا أهم عناصر حقده ، ولكنها ليست الوحيدة فاسمعه يقول :

« نصيحتى لكل من أبغض من حب ، ألا يحتفل بأن صاحبته « غاظته » وأن يكبر نفسه عن أن يغيظ امرأة . إنه متى أرخى هذين الطرفين سقطت هى بعيداً عن قلبه ، فانها معلقة إلى قلبه فى هذين الخيطين من نفسه »

أرأيت ؟ ... إن الحبيبة بعد انقطاع الحب ، لا تتعلق بنفس من كان يحبها إلا بخيطين اثنين : غيظها له ، وغيظه لها ! ولا شىء وراء ذلك !

أما أن تكون معلقة بالذكريات المختلفة الألوان ، وبالساعات والدقائق والثوانى التى ضمتهما فى عمرهما ، وبالآمال المحطمة فى قلوبهما ، وبالفجيعة الدامية فى حبهما ، وبالصور المتعاقبة من إقبالها وإدبارها ... ومن . ومن . مما لا يستطاع حصره بعد أن تهدأ فورة الحب فى النفس ، ويأخذ المحب في الاستعادة والتذكر والاحصاء والتسجيل — أما كل ذلك فلا وجود له عند الرافعى. وإنما يوجد خيطان اثنان من نسيج واحد ، هو نسيج الغيظ والغل والحقد ، والتيبس فى الشعور !

* * *

وبعد فقد طال الحديث ، ووراء هذه الأمثلة التى ضربتها ، أمثلة أخرى من نوعها ، وفى كل صفحة من الكتاب أمثال غيرها فلا داعى للتكرار

على أن هناك حديثاً عن « ذوق الرافعي » فى التعبير وذوقه فى النقد وموعدى به كلمة أخرى

(حلوان) سيد قطب

نزاهة النقد

للأستاذ عبد الفتاح غندور

رأينا ما كتبه الأساتذة خصوم الرافعي وأنصاره فسرنا أن نلتمس النقد وساءنا أن نجد ما لا يرضى . وما كان لمثلي أن يلج هذه المعركة ناقداً أو حكماً قبل أن تنتهي لئلا يفوتني شيء من مواقفها فأصدر عن جهل فيما أحكم وأقايس ، فأقع في ألسنة النقاد وأقلامهم ، ويالها من ورطة حامية الوطيس إذ ذاك . غير أني آثرت الإقدام إذ وجدتني مضطراً — بعد تفكير — لتقديم رأيي قبل أن تنتهي هذه المعركة ، ويلوح لي أنها لا تنتهي ، لعلي أصل إلى بعض ما يمكن أن يصل إليه حكم عدل وناقد بريء . فأقول :

قبل كل شيء يجب أن نعرف أن كل إنسان يستطيع أن يسيء وليس كل إنسان يستطيع أن يحسن . وإذاً فلا يصح أن يعتبر السوء يوماً ما أداة لمفخرة أو تكأة لمكرمة ، لأن الناس كلهم فيه سواء ولأنه سوء أيضاً؛ وعلينا أن نتوسع في معنى السوء — كما نتوسع في معنى الحسن — ولندرك جميع شظاياه التي تفتك وتؤذي . وإذا توسع الأديب في ذلك أدرك الخطر وتسنى له أن يطير — كما يطير في كل مجال — إلى خيالاته العذبة ليفصل على جسم هذه الحقيقة ثوباً يليق، حتى إذا ما رأى حقيقة ماثلة بثوبها الخيالي الفخم أعطى كل شيء حقه ثم اهتدى إلى أن هذا الضرب من المعاملة الخشنة لا يجدي ولا يفحم ، بل يؤذي ويؤلم ، ولا سيما إذا كان مصدره الأدب والأدباء والنقد والنقاد

عاش الرافعي ليكتب أدبه ثم يموت ؛ وقد أراد الله للرافعي أن يكون في هذه الدنيا عجباً ، وشاء أن يجعل أدبه نسخة عجيبة لم ينسج على منوالها قلم لتكون مشكلة من المشاكل التي يختلف عليها الناس فيذهبون في تأويلها مذاهب شتى ، وللناس مذاهب فيما يعشقون

أما الرجل فقد مات،وأما أدبه فموجود ، وأما آراء الناس فيه فكثيرة ؛ ويعجبني التقدير للجهد والاحترام للأدب والإنصاف في النقد والحسن في الخلق . وإذا تم للرأي هذا القانون الكامل أصدر عن روية ونقد في نزاهة وسبر غور الموضوع كالطبيب الماهر الذي يعرف كيف يحتال للجراحة وتفاصيلها ليصح المريض على يديه لا ليموت . وبعد ما مات الرافعي جعلت أرقب أقوال الناس ، أرهفت أذني وأيقظت نفسي ؛ وكان أن كتب الزيات وغيره مقالاتهم في هذا الشأن فجثمت لقراءتها والتأمل فيها فاجتمع لي بعض الرأي ، وأعقب ذلك فترة طويلة كان العريان فيها يكتب تاريخ الرافعي . على أنني كنت أرقب حلول مفتتح هذا العام لأقرأ مقالات الأدباء بمناسبة مرور عام على وفاته ، فظفرت في الرسالة بمقالة عنوانها « بين الرافعي والعقاد » للأستاذ سيد قطب فالتهمتها التهاماً ؛ ثم عدت مرة أخرى أروي تأملاتي فيها فلذ لي من الأستاذ أدبه وذكاؤه وصراحة ضميره ، وتمنيت أن لو ضم إلى ذلك حسن المواجهة ولين المجابهة تجاه أخيه الأديب الذي هو شريكه في الشعور والفكرة والقلم . وأخذت أفكر في حسن هذه المواجهة وكيف يجب أن تكون ؛ وقلت ما كان ضره لو قال قولاً أرق وأحسن وأدعى لحرية النزاهة : ياليته ويا ليته ...

وأستميح الأستاذ أني كنت أخذت عليه ما كتب كما أخذت على الأستاذ محمود محمد شاكر ما أملاه في الرد أيضاً ، ولكنه معذور بعض العذر لأن الجروح قصاص . ولو كتب الأستاذ شاكر رداً جميلاً أرق مما كتب فهل كان الأستاذ قطب يستمر ويزداد في غلوائه يا تُرى ؟ ولا أدري هل يَحُجُّني الأستاذ شاكر بأن الأستاذ قطب قد شن الغارة دفعة وغلا ثم غلا وتحدى أصدقاء الرافعي فكان لزاماً أن نحفظ كرامة الرجال وكرامة الشعور فرددنا عليه بما يلائم المقام ؟

وهنا يجدر بي أن أذكر ما كان وقر في نفسي تجاه أستاذي الكبير « الزيات » حفظه الله عند ما كتب الأستاذ قطب حديثه هذا ... ليغفر لي سوء ظني على رغم أن لي مندوحة عن هذا الغفران بالتوبة المستورة ، ولكن الأديب يلذ له إظهار ما يخفيه الناس. قلت في نفسي كان يحسن بأستاذنا أن يعتذر من نشر مقال الأستاذ قطب أو يكتب له كلمة على الأقل في هذا المعنى يبين له فيها وجه

الأجحية وحسن الاختيار فى العدول عن هذه الخطة لا حباً للرافعى ، ولا بغضاً للأستاذ قطب ، بل تحرياً للأولى واحتياطاً لما سينجم عن ذلك كله. وللمصدر العدد ٢٥٣ والعدد ٢٥٤ وقرأت مقالى الأستاذ الزيات عن الرافعى أخذتنى — والله — هزة الطرب ونشوة الأدب لما فيهما من الصفاء النقدى النزيه الذى لاتشوبه ثورة ولا تخالطه كدرة ، حتى لكأن هذين المقالين صورة روحية للرافعى لو صُبتا فى قالب الحياة لكانتا هما الرافعى نفسه . لا تؤاخذنى ياصاحب الرسالة فيما رميتك من سوء الظن .

وما كنت أدرى أن سماءك الصافية ستندفق وابلا من الخير والجمال والحياة تعلمنا فيه — معاشر المتأدبين — كيف نرتع فى رياض الأدب الجميل الذى لا تصلح له إلا ملائكة السماء أو ملائكة الأرض ليكون مثلا أعلى للناس دائماً

ما ذا يضيرنى إذا قلت للمخطئ إنك مخطئ بدلا من أن أقول له إنك غبى ... بليد ... لا، بل يجب علىّ — وأنا أديب — أن أحتال فى إفهام المخطئ خطأه من غير أن أصارحه به ما دام هناك شعور رقيق وإحساس مرهف . وما دمنا نحمل بين جوانحنا الانسانية المتأدبة التى تحتّم علينا الاحسان والرفق والمودة فلن نجد إلى غيرها سبيلا

أرأيت ما الذى أثار الرافعى والعقاد تلك الثورة المشهورة؟ أليس رضاء النفس والشهوة والكبرياء بما حصل ، أليست تلك زلة الانسانية التى ابتلى الله بها البشر ؟

آه ! ما أحوجنا إلى أدب صاحب الرسالة عسى أن نلتقى جميعاً ذلك اللقاء المحبب ونضم تلك الأجنحة بعضها إلى بعض لتطير فى آفاق الجمال واللذة والنور وندخل فى عالمنا الحافل الملىء بأعاجيب السحر وأناشيد الخلود ، ذلك خير مستقراً وأحسن موئلا

وأخيراً أرجو الأستاذ قطب أن يُحسن بى الظن ما استطاع ، وألا يظن أنى قصدته وحده فيما كتبت . إن ذلك عام ما خصصت به أحداً ، وإنما كان الأستاذ قطب السبب فى ذلك ليس غير ، فله شكرى وأخوتى ومحبتى هو وإخوانه الأدباء

« دمشق » عبد الفتاح غندره

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ١٩ —

طال انتظاري ولم ترجع ظمياء

وانقضى مساء وصباح ، ومساء وصباح ، ولم ترجع ظمياء

ومضت ثوان ودقائق وساعات وأيام وليال ولم ترجع ظمياء

وتقلبت دجلة من حال إلى أحوال ولم ترجع ظمياء

وطافت بالأشجار والأزهار والرياحين أطياف البؤس والنعيم ولم ترجع ظمياء

وطوّفت بجميع المعانى ، وتذوّقت صنوف اللواعج ، وتشوفت إلى جميع المطالع ، ولم ترجع ظمياء

وتلقيت مئات الرسائل فلم تكن من بينها رسالة عطف أو اعتذار من ليلى أو ظمياء

أيكون هذا آخر العهد بليلى وظمياء ؟

إنى إذاً لمن الهالكين . كتب الله لوطنى وأهلى جميل العزاء !

* * *

ولكن ما السبب فى هذه القطيعة الباغية ، وما أذكر أنى أسأت أو جنيت ؟

أيكون السبب تلك الكلمة الفكاهية التى داعبت بها ليلى بعد رجوعى من البصرة ؟

ربما كان ذلك ، فالمزاح كان ولا يزال من أشنع البليات ، وما استطاع إنسان أن يجرح قلبى إلا عن طريق المزاح. والأحباب ينسون واجب الأدب فيتطاول بعضهم على بعض باسم المزاح ؛ وذنبى فى هذه القضية غير مغفور ، لأنى انقطعت لدراسة الفلسفة عدداً من السنين ، وكان الظن أن أفهم أن المزاح على لطفه لا يخلو من أشواك ، وقلب ليلى رقيق تؤذيه خطرات النسيم ، فكيف لا يؤذيه المزاح ؟

لو رجعت إلى ليلى لأحسنت الاستغفار من ذنبى ، ولكن متى أرجع ؟

لقد داعبتنى ليلى ألف مرة فتقبلت دعاباتها بأحسن القبول ،

وكنت لجهلى أحسب أن ليلى سيرحب قلبها لمثل ما رحب به قلبي
فكيف أخلفت ظنونى يا مُنية النفس ويا روح الفؤاد ؟

ماهذا ؟ أنا داعبت ليلى قبل ذلك فلم تغضب ، فكيف تكون الدعابة الأخيرة بداية البؤس ونهاية النعيم ؟

إن من واجبي نحو هواى أن أدرس هذه القضية حق الدرس

وقد بدأت أفهم أن كلام الجرائد والمجلات أفسد مابينى وبين ليلى كل الإفساد ، فقد مضت الشهور الطوال والجرائد تهتف باسمى فى الصباح والمساء ، وظن الأدباء العراقيون أن الفرصة سنحت لتصفية ما بينى وبينهم من حساب ، وكنت أقرأ ما أقرأ وأنا أبتسم . كنت أقول : هذه يقظة أدبية واجتماعية أردّ بها ديونى إلى العراق . كنت أقول : هذه أقلام صدئت وقد حان لها حين الصقال ، فليكن أدبى هو ذلك الصقال

كنت أقول وأقول ، ولكن التفكير فى جوهره غير سليم

ما الذى كان يمنع من دفع مفتريات بعض الجرائد والمجلات ؟

ما الذى كان يمنع ؟ كنت مشغولا بواجبات ثقال تكاد تقصم ظهرى . ولكن هل تفهم ليلى أنى مشغول وأن لى منهجاً يفرض ألا أخرج من بغداد إلا وفى حقائبي خمسة مجلدات ؟

ينبغى أن أعترف بأن مركزى بين الأطباء لم يتزعزع بسبب الأدب وحده ، وإن كانت حرفة الأدب قادرة على زعزعة العروش ، وإنما وقعت النكبة وتقوضت عيادتى بشارع الدابغ وعيادتى بشارع فؤاد لعدم اكتراثى بما يكتب فى الجرائد ، وعدم اهتمامي بما يتقول الناس

وأصل البلية أنى كنت أحسن الظن بعقول بنى آدم — وهذا أعظم خطأ ارتكبته فى حياتى — فقد كنت أظن أن الناس يميزون بين الحق والباطل فيا يقرأون ؛ وكنت أتوهم أن أكاذيب المفترين لا تضرني ، فكنت أقرأ ما يكتب عنى بلا اكتراث ، وأقول : هذه مفتريات ليس لها أساس ، وما قام على غير أساس فصيره التهدم والزوال

وظل الحال على ذلك بضع سنين وأنا أصمّ أذنىّ عن الأقاويل والأراجيف إلى أن دخل عيادتى مساء يوم مريض له شأن فى المجتمع ، ويكفى أنه أستاذ فى أحد المعاهد العالية ، فلما فحصته وشخصت له المرض اطمأن واستراح ، فدعوته لتناول فنجان قهوة بالمكتب فتفضل بالقبول ، وفى الناس من يتفضلون بالقبول وأنت المتفضل عليهم بالمعروف

وفى أثناء الحديث فهمت أن زوجته عليلة وأنه كان يود أن أمضى لعيادتها لولا خوفه من كلام الناس . وبعد مراجعته فهمت أن مركزه العلمى لم يعصمه من تصديق كل ما يكتب فى الجرائد. وعرفت بعد فوات الوقت أن الاعتماد على عقول بنى آدم ضرب من الخيال

إن من الجريمة أن نسكت عما يكتب عنا فى أمة لا تنقد ما تقرأ ، ولا تمحص ما تسمع . ومن الجريمة أن نسعى إلى الشهرة فان الشهرة أصل كل بلاء ، والرجل المشهور يصدق الناس فيه كل بهتان ، ولا سيا فى الأمم التى تضعف فيها الثقة بالأخلاق ، ومصر التى نحبها راضين أو كارهين مبتلاة بهذه البلية ، فأهلها لا يصدقون أن العبقريين والنوابغ أصحاب أخلاق ، وما أزعم أنى نابغ أو عبقرى حتى أصبح أهلا لتلك الظنون ، ولكني بالحق أو بالباطل صرت من أشهر الرجال ، وللشهرة عقابيل

* * *

كنت أستطيع مع كثرة الشواغل أن أدفع مفتريات بعض الجرائد والمجلات ، ولكن صرفنى عن ذلك إيمانى بأن ليلى صديقة غالية ، وأنها خليقة بألا تفتح أذنيها لما يصوّبه الحاقدون من دسائس وأضاليل . ثم كتب الله أن أتلقى عن ليلى درساً لم أظفر بمثله وقد قضيت عشرين عاماً فى الحياة الجامعية. تلقيت عن ليلى درساً عظيما جداً ، وأنا أقدمه إلى قراء هذه المذكرات بالمجان وإن كنت دفعت ثمنه من دمعى ومن دمى ، أنا العاشق الذى يعانى ظلام الحب وظلام الليل

استمع هذا الدرس يا قارئ هذه المذكرات . استمع فما أرجو منك جزاء ولا شكوراً ، وإن كنت أشتهى أن تسكب على قبرى دمعة يوم أموت ؛ وسأموت ، فلكل أجل كتاب

تعلمت عن ليلى أن الصديق فى حاجة إلى حراسة ، وأستطيع أن أقول إن حراسة النغم أسهل من حراسة الأصدقاء ، ولا يغفل عن حراسة صديقه إلا غافل أو جهول ، وقد خلق الله لكل صديق أذنين طويلتين ، وهاتان الأذنان لهما سمع دقيق ، والصديق يحسبك من بعض ما يملك ، فهو يسمع فيك كل قيل ، كما يسمع

فى داره أوهام المهندسين ، وكما يجتلب لأملاكه صغار الساحين ، وهو يفرح لما يساق إليك من زور وبهتان ، لأنه من بنى آدم ، وابن آدم حيوان ضعيف لم يعش بفضل القوة كما عاشت الأسود ، ولم يعش بفضل الجمال كما عاشت الغزلان ، وإنما عاش هذا الحيوان الضعيف بفضل المكر والدهاء

استمع هذا الدرس يا قارئ هذه المذكرات من الفيلسوف المودَّع ، فما فى دنيا كم ما يشوقنى يا بنى آدم حتى أستطيب فيها العيش

استمع يا غافل يا جهول

ليس فى أصدقائك من يسره أن تكون أعظم منه علماً أو جاهاً

ليس فيهم والله من يسره أن يكون إخلاصك فى هواه أعظم وأروع

فالصديق — وا أسفاه — يتشهى أن يثبت لديه أنه أعظم منك فى كل شيء ليتصدق عليك بالعطف والحنان.

الصديق يرضيه أن يقول « أعطيتُ » ويؤذيه أن يقول « أخذتُ »

والأصدقاء يملكون فى إيذائك ما لا يملك الأعداء

العدوّ متهَم — بفتح الهاء — وتجريحه إياك يتلقاه الناس ساخرين .

أما الصديق فؤتمن — بفتح الميم — وتجريحه إياك يتلقاه الناس بالقبول

وللأصدقاء أساليب فى تجريح من يصادقون ، ويا ويل من ابتلته المقادير بلئام الأصدقاء ! يترفق الصديق فيقول : أنتم تعلمون أنى شديد العطف على فلان لما بيننا من متين الصلات ، وهو والله رجل مفضال لولا كيت وكيت !

ويتلطف الصديق فيقول : لا تثوروا على فلان فهو عبقريٌّ وللعبقريين بَدوات !

وتزداد البلية بالأصدقاء حين تصبح ولك نصيب من المجد . فالصداقة توهمهم فكرة المساواة فى الحظوظ والدرجات ، فان تقدمت وتخلفوا لم يكن معنى ذلك عندهم أنك أخذت ماتستحق ، وإنما كان معناه أنك خدعت زمانك فانخدع ، وأن لك وسائل يعفون عنها لأنهم على تخلفهم شرفاء !

والصديق لا يصدّق أنك تصل إلى منازل المجد بالجهاد وسهر الليل وإقذاء العينين تحت ضوء المصباح ، وإنما يتخيل أنك اغتصبت المجد بالتهويل والتضليل ، ولا يرى لك رأياً طريفاً أو فكرة عبقرية إلا حدثته النفس بأن يغض منها بالتصغير والتزييف .

وأخطر أعدائنا هم الأصدقاء الأعزاء الذين جاريناهم فى ميادين المجد . فهؤلاء لا يتصورون أبداً أن ميادين الجهاد فيها سابق ومتخاف . ولعلهم كانوا يظنون أن من حقهم علينا أن نتخاف ليتقدموا . ولو أننا فعلنا طائعين لما ظفرنا منهم بكلمة تفصح عن حفظ الجميل ، ويكون فيها معنى العزاء ، وإنما نلقى منهم الصلف والاستطالة والكبرياء والعدوان

والأصدقاء يصنعون بمصايرنا ماتصنع جراثيم المرض المدفون ، فهم يقتلوننا عن طريق الاغتيال ، وما نجد فى إدانتهم شاهداً واحداً حتى نقدمهم إلى ساحة الجزاء

وفى الدنيا السخيفة تقاليد تحمى الصديق الخادع من انتصاف الصديق الصدوق . والتفكير فى محاسبة الصديق هو فى ذاته بلية ، لأنه يفتح الباب لأهل اللغو والفضول ، ويعرضك لمآثم الشبهات ومنكرات الأراجيف

والعدو اللئيم هو فى الأصل صديق حميم ... ولكن كيف؟ كان صديقاً يحب أن تكون فى خدمته كيف شاء ، وحين يشاء ؛ فلما التويت عليه بفضل مالك من وجود خاص تنكّر وتغير ومضى يضع فى طريقك الأشواك بلا رحمة ولا إشفاق

الصديق الحق هو الذى يعتقد أنك أفضل منه وإن كان فى الواقع أفضل منك

هذا هو الصديق . ولكن أين من يعرف هذا المعنى النبيل ؟

أين الصديق الذى يعرف قيمة التضحية بأهواء النفس ؟

أين الصديق الذى لا يريد أن يتخذ من شهرتك لوحة إعلانات؟

أين الصديق الذى يفهم أن من حقك أن تناضل لتسود ؟

أين الصديق الذى يدرك أن المودة كالصلاة يفسدها الرياء ؟

أين الصديق الذى يري عيوبه ويعمى عن عيوبك ؟

بل أين الصديق الذى لا تخاف من أن يتزيد عليك؟

وا أسفاه لقد انقضت أحلامى وأوهامي . كنت أرى الجمال

فى وجوه الناس ، فأصبحت لا أراهم إلا وأنا متفزع متخوف كالذى يمسُّ الحية فى غسق الليل . كنت كالطفل يأنس بجميع الوجوه ، ويتسمع لجميع الأصوات ، ويتشوف إلى كل ما فى الوجود ، ثم أمسيت وأشهى مُناى ألا يطرق بابى طارق ، وأن لا تقع عينى على مخلوق

كذلك ابتدأت ، وكذلك انتهيت ، وعند الله والحب جزائى

***

آه ، ثم آه ! !

ماهذه الخطوط التى أسود بها وجه القرطاس ؟

هذه الخطوط هى نصيبى من حب ليلى ومن عبث ظمياء

وتلك نهاية من يحسب أن نهار الحب لا يعقبه ليل

تلك نهاية العاشق الغافل الذى قضى الأعوام الطوال فى عبادة الجمال

ولكن ماهذا اللؤم الذى ينحدر إليه قلبى ؟

أمن أجل أيام فى معاناة الصدود أكفر بالصداقة وبالحب ؟

أحبك ياليلى ، أحبك يا ليلاى

أحبك يا مسكينة لأنى من المساكين

أحبك يا شقية لأنى من الأشقياء

أحبك يا ليلى وسأنحت لك صنما من ضلوعى

أحبك يا ليلى وسأنزف دمى قطرة قطرة ثم أتخذ من حديده خاتما أقدمه إليك يوم يحين الفراق ، وما أصعب الفراق !

أحبك ياليلى وسأرقم اسمك الجميل على خد القمر وجبين الشمس

أحبك ياليلى وسأترحم عليك فى صلواتى كما أترحم على أبى وأمى

أحبك ياليلى وسأستعذب فى سبيلك محنتى وعذابى

أحبك يالئيمة يا غادرة يا ظلوم ، وأصفح من أجلك عن أهل اللؤم والغدر والظلم والجحود

أحبك ياليلى ، أحبك ، وما أتصدق عليك بالحب ، فأنا أهفو إليك بلا وعى ولا إحساس . وقد حاولت مليون مرة أن أتوب من هواك فما صحّت لى توبة ، ولا نفعتنى عظة ، ولا عصمنى عقل ، ولا هدانى وجدان

أحبك يا روحى ويا ضناى . أحبك أصدق الحب ، وأبغضك أعنف البغض ، ولو رأيتك فى هذه اللحظة لروّيت روحى بدمك الغالى ، ولكن متى أراك ؟ تلك أوهام وأضاليل !

لقد نجوت من يدى ياشقية ، فعليك غضبة الله ولعنة الحب !

***

أتريد ليلى أن أنتحر ؟

هيهات ثم هيهات ! فأنا طبيب ، ومن الحق أن أداوى الناس وأنسى نفسى

قرأت « شريعة الحب » فقرة فقرة ، وهى مسطورة على قبر الحلاج ، وقد فهمت من أسرار الحروف أن الحب له دواء . ودواء الحب أن تخلق لنفسك شواغل جديدة تصرف قلبك عن إطالة التفكير فيمن تحب

وكذلك فعلت فأقبلت على شهود موسم الحفلات فى بغداد وهو موسم لا يعرف قيمته الا من يراه

شهدت بعض الحفلات التمثيلية التى أقيمت فى المدارس الثانوية ، فعرفت أن التمثيل سيكون له مستقبل فى بغداد . ورأيت أهل العراق يخشون ما يخشاه أهل مصر من اختلاط الجنسين ، ولكن أهل مصر احترسوا بعض الاحتراس ، فهم يؤلفون للمدارس روايات تمثيلية تخلو من المرأة ؛ وليت أهل العراق يصنعون مثل هـذا الصنيع إلى أن يفصل الزمن فى قضية اختلاط الجنسين ، فقـد رأيتهم يمثلون فى المدارس روايات فيها المرأة ، والمرأة فى هذه الحال شاب يلبس ملابس النساء . وأنا أرجو زملائى من نظار المدارس في العراق أن يفكروا فى هذه القضية ، فظهور الشبان فى ملابس النساء لا يقل قبحاً عن ظهور النساء فى ملابس الرجال. وما أقول إن الرجل أشرف من المرأة من حيث الجنس فلكل جنس خصائص ، وإنما أريد أن أقرر أن شرف الرجل فى الرجولة وشرف المرأة في الأنوثة ، فالمرأة تجرم حين تلبس ثوب الرجل ، والرجل يجرم حين يلبس ثوب المرأة . والاشارة فى هذا الموضوع الدقيق تكفى للبيان

وشهدت حفلة توزيع الجوائز بكلية الحقوق . وكانت حفلة رائعة خطب فيها الدكتور محمود عزمى خطبة جيدة ، ولكنه لم يراع براعة المقطع ، فقد ختم الخطبة باعلان الوفاة ، وفاة أحد المتخرجين. وصح للأستاذ محمود درويش أن يقول « ماهو خوش مقطع هذا » وعند تلاوة القسم أقسم المتخرجون دفعة واحدة بلا خشوع ،

وكان الرأي أن يقسموا واحداً واحداً . وقد تذكرت القسم الذى أقسمته على يد الأستاذ الدكتور طه حسين يوم ظفرت بالدكتوراه الأخيرة فى كلية الآداب ، فقد ترددت وتهيبت ، لأنى كنت أخشى أن يربطنى القسم وحدى ، فلتذكر ذلك أحجار كلية الآداب بالجامعة المصرية ، إن كان للاحجار وجدان

وألقى الطالب حازم المفتى خطبة فصيحة نوه فيها بالأواصر العلمية بين مصر والعراق . وهنا أذكر أن العراق شرف مصر حين ائتمنها على كلية الحقوق ، وهو شرف عظيم جداً ، ومن واجب الأساتذة المصريين أن يتذكروا فى كل لحظة قيمة هذه الثقة الغالية . من واجبهم أن يفهموا أن من الشرف أن يموتوا فى سبيل تلاميذهم فى العراق

ومن حسن الحظ أن ذلك الطالب نص على أن مصر تفقهت على يد الشافعى وقد رحل اليها بعد أن تفقه بالعراق

ولو كان لى مجال بين الخطباء فى ذلك اليوم لأضفت إلى هذا أن علماء مصر ظلوا مئات السنين وهم يهتفون : « قال البصريون وقال الكوفيون » وحصير الأزهر يشهد ، وهو فى هذا الباب من أصدق الشاهدين

أعتقد أن العراق أدى حق الأخوة حين وثق بمصر ، ولم يبق إلا أن يؤدى المصريون واجبهم فى حمل الأمانة وحفظ العهد

وخطب معالى وزير المعارف خطبة وجيزة جداً أعلن فيها ارتياحه إلى تبادل العطف بين الأساتذة والطلاب ، وهو معنى شريف

وبعد توزيع الجوائز وتناول الشاى غنى الأستاذ محمود توفيق مع فرقة الاذاعة أغنية طريفة . ثم غنت المطربة زكية جورج أغنية فيها اسم « ليلى » فاشرأبت أعناق الحاضرين للبحث عن مكانى ، وصاح سعادة الأستاذ تحسين ابراهيم : أين الدكتور زكى مبارك ؟ فتقدمت على استحياء والدمع فى عيني ، وشكرت المطربة ، ورجوتها أن تغنى : « على بلد المحبوب وديني »

فلما وصلت إلى عبارة « وعيني تبق فى عينيك » نظرت إلى وحدقت بعطف وحنان ، وفهم الحاضرون الاشارة فضجت أكفهم بالتصفيق ، ورأيت موقفى صار فى غاية من الحرج فانسحبت وحرمت نفسى بقية الأطايب التى وعد بها منهج الاحتفال

وبعد أسبوع حضرت حفلة توزيع الجوائز بكلية الطب فرأيت الطلاب فى صف والطالبات فى صف ، وراعنى أن يكون الطالبات جميعاً من البيض ، فيارباه كيف جعلت ليلاى بالعراق سمراء ! ... أحبك ياليلى وأحب شعاع السمرة وهو يتموج فى سرائر وجهك الجميل !

وأقسم المتخرجون اليمين واحداً واحداً . وليتهم أقسموا دفعة واحدة ، كالذى وقع فى كلية الحقوق ، فقد قضيت نحو ألف ثانية وأنا أسمع « وأقسم أن لا أفشى سراً لمريض » وأدرك الأستاذ مهدى كبة حيرتى وذهولى فقال : تلك عاقبة من يفشى أسرار مرضاه من الملاح

فضحتنى يا ليلى ، شفاك الله وعفا عني !

ولما خرجت من الحفلة مضيت إلى محطة الاذاعة ، مضيت أستجدى الصوت المأثور :

يقولون ليلى فى العراق مريضة ... فيا ليتنى كنت الطبيب المداويا

ولكن سكرتير الاذاعة فى هذه المرة رجل له وجه الجاحظ ولو شئت لقلت إنه الصفوانى . وقد اعتذر عن إذاعة ذلك الصوت لأنه لا يريد أن يحول أهل العراق إلى مجانين . كأنه يعقل !

وخرجت مع الأستاذ ابراهيم حلمي راجياً أن يكون في سمره الطريف ما يخفف حزنى ، فما خف حزنى ولا تزحزح ، ورجعت إلى البيت وأنا مكروب

وقمت قُبيل الفجر مرتاعاً لطرق الباب ، فتدثرت وخرجت فاذا الجار العزيز يسأل عن حالى وفى ذراعه زوجته المصرية النبيلة التى رعت غربتى أكرم رعاية . فقلت : خير ! ما عندك يا سيد داود ؟ فأجاب : لقد استيقظت السيدة وهى مرعوبة ، لأنها سمعتك تصرخ : آه ، آه : يا ليل يا ليل ! وقد حسبناك مريضاً فحضرنا للاطمئنان عليك

فقلت : أنا بخير كما ترون ، وصوبت بصري إلى الزوج وقلت : الرفق لا يستغرب من عراقى مثلك . ونظرت إلى الزوجة وقلت : الأزهار المصرية رقيقة الأوراق

أنا كنت أقول : آه آه ؟ هذا صحيح ، ولكنى ما كنت أقول : « ياليل يا ليل » ؛ وإنما كنت أقول : « يا ليلى يا ليلى »

فضحتنى يا ليلى عند جيرانى ، وقد شفاك الله ، فمتى يمن على بالشفاء ؟

وفى ظهر ذلك اليوم المنيف مضيت لشهود حفلة الطيران ، وهى حفلة سنوية يستبق إليها أهل بغداد من رجال ونساء ، أقيمت الحفلة فى المطار المدنى ودامت ثلاث ساعات شهدت فيها الأعاجيب وعرفت أن فتيان العراق يعرفون معنى السيطرة على الهواء ، وكان فى المنهج صورة طريفة من التقاط الرسائل ، فألقيت بنفسى فى ساحة المطار وقدمت رسالة إلى الله عز شأنه أدعوه أن يزيح الكرب عن أهل فلسطين ، فإن شكاياتهم من الظلم كدرت جميع الناس ، وآذت المنصفين من أحرار اليهود . وأشهد صادقاً أنى رأيت ناساً من بنى إسرائيل يتوجعون لمصير العرب فى فلسطين ، وفلسطين الشهيدة لا تدافع اليهود من العرب ، وإنما تدافع اليهود الأجانب الذين يدخلون عليها بلا تسليم ولا استئذان فيغرسون الحقد على سائر اليهود فى الأقطار العربية . وشهدت الطيران القاصف ، طيران الهجوم ، فتمنيت لو ساد السلام وتحول الطيران فى جميع بقاع الأرض إلى وسائل اقتصادية

وشهدت تشكيلات الأسراب فرأيت كيف تقام الخطوط الهندسية فى أجواز الفضاء وفى الناس من يعجز عن إقامة الحدود الهندسية فوق القرطاس !

ورأيت الطيران الأهوج فتمنيت لو سموه طيران القلوب . فليس لأحوال القلوب ميزان !

كانت حفلة الطيران ممتعة من كل جانب . وقد خبلت عقلى فلم أتنبه إلى أن مكانى كان قريباً جدًّا من مكان جلالة الملك . ولو كنت تنبهت لتشرفت بمصافحته وهنأته بما وصلت إليه القوة الجوية فى العراق

وبعد أيام شهدت حفلة الكشافة ، وهى تجل عن الوصف ، وهى الشاهد على أن شبان العراق نقلوا إلى بلادهم أقوى مظاهر التمدن الحديث

وبفضل هذه الحفلة عرفت كيف أنشئ فى دار المعلمين العالية فرعاً للألعاب الرياضية

كان فى الحفلة كشافون وكشافات ، وكان من تقاليد الكشافين أن يحيوا المقصورة الملكية ، فيرد عليهم جلالة الملك بتحية أرق وألطف ، أما الكشافات فكن يمررن على المقصورة الملكية بلا تسليم

آه ثم آه من دلال الملاح !

* * *

داويت قلبى بهذه الشواغل التى أتاحها موسم الحفلات فى بغداد وحسبت أنى نجوت من عقابيل الصبابة الباغية

ولكن هيهات

ثم لطف الله فحضرت ظمياء

— إيش لونك يا دكتور ؟

— بخير وعافية ياظمياء ، لولا الذى تعلمين ، وإيش لون ليلى ؟

— فى عافية الفرس الجموح

— ومتى أراها يا ظمياء ؟

— لن تراها إلا إذا استغفرت من ذنوبك ؟

— وهل للأطفال ذنوب يا ظمياء ؟

— اسمع يا دكتور ، إن الدسائس حولك كثيرة جدًّا ، وليلى توجه إليك تهمات تهدّ الجبال

— أنا متهم يا ظمياء ؟ متهم فى بغداد ؟ وعند ليلاى ؟ آمنت بالله ، وكفرتُ بالحب !

— تشجع واحتمل الصدمات ، فقد عشت دهرك من الشجعان ومن الصابرين

— وكيف تتهمنى ليلى يا ظمياء ؟

— هى تتهمك ، ولك أن تدافع عن نفسك إن استطعت !

— أفصحى يا ظمياء ، فقد طار صوابى

— اسمع يا دكتور ، إن ليلى توجه إليك التهم الآتية ، وكلها مزعج مخيف

أما التهمة الأولى فهى :

(للحديث شجون) زكى مبارك

التاريخ فى سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الأحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

يا شباب الوادى ! خذوا معانى العظمة فى نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامى العظيم ... ...

— ١٢ —

وحدث أن كان مولد الحزب الجديد فى نفس العام الذى كانت تختار البلاد فيه رئيساً جديداً للولايات ، فكان النشاط السياسى بذلك مضاعفاً ؛ وأحس الناس جميعاً أن مسألة العبيد قد أصبحت القطب الذى يدور عليه هذا النشاط السياسى فألقوا بالهم إليها على نحو لم تسلف بمثله فترة فى تاريخ البلاد

وعرف الحزب الجديد كما أسلفنا باسم الحزب الجمهورى ؛ ولقد أخذ الداعون إلى إنشائه ينشرون الدعوة له فى كل ولاية ؛ وكان أول اجتماع أهلى لهذا الحزب عام ١٨٥٦ فى مدينة فيلادلفيا ؛ أما عن مذهب الحزب فقد اجتمع أيضاً مرة أول الأمر على فكرة نجملها فى العمل على مقاومة انتشار العبيد كما جاء فى اتفاقية مسورى ؛ وكان هؤلاء الأنصار فى الولايات أخلاطاً من الأحزاب الأخرى تراهم وإن اتفقوا على المذهب أو كادوا ، لا يزالون مختلفين فى الوسيلة

ولم تك الينوس تلك الولاية التى ينتمى لنكولن إليها بدعاً من الولايات . ولقد دعا أنصار الحزب الجديد فيها إلى اجتماع تمهيدى يتدارسون فيه الأمر ويحددون الغاية ويسددون الوسيلة؛ وانعقد هـذا الاجتماع فى مدينة ديكاتور وشهده لنكولن فيمن شهده من رجال السياسة البرزين ؛ وأدلى إليهم بما يرى ، وفطن المجتمعون إلى سياسته التى لن يتحول عنها والتى تتلخص فى أمرين : مقاومة انتشار العبيد والمحافظة على كيان الاتحاد ...

ولكن لنكولن لا يزال من الوجهة الرسمية من رجال حزب الموجز ، فهو لم يعلن انفصاله عنهم بعد ؛ فلما كان يومئذ فى طواف قضائى وقد دعا أنصار الحزب الجديد فى الينوس إلى مؤتمر عام يعقد فى مدينة بلومنجتن ؛ ووضع صديقه هرندن اسمه فى الداعين إلى المؤتمر دون أن يرجع إليه ؛ فجاءه البرق بموافقته وبذلك أصبح ابراهام عضواً فى الحزب الجديد

واحتشد رجال هذا الحزب فى بلومنجتن لينظروا ماذا يرون ؛ وتطلعت أنظار المؤتمرين إلى لنكولن وفى روع كل منهم أنه رجل الساعة وأنه ابن بجدتها ؛ وبدأ فقال لمن حوله : « دعونا نجعل حجر الزاوية فى بناء حزبنا الجديد إعلان الاستقلال » وهو يريد بإعلان الاستقلال ذلك الحادث التاريخى الذى ظهرت به الولايات المتحدة كأمة مستقلة فى هذا العالم ؛ وكأنه يشير إلى ما يتضمن الاستقلال من معانى الوحدة والإخاء والحرية والمساواة ، تلك المبادئ التى جعلها رجال الثورة شعار ثورتهم ... وأصدر المؤتمرون قرارهم فقالوا : « أجمعنا أمرنا على أننا نعتقد وفق آراء ومجارب جميع رجال السياسة البرزين من كافة الأحزاب فى السنوات الستين الأولى للحكومة ، أن المؤتمر فى ظل الدستور يملك السلطة التامة ليوقف انتشار العبيد فى الولايات ؛ وأنه كما سيحرص على كافة الحقوق الدستورية لأهل الجنوب ، نعتقد أيضاً أن العدالة والإنسانية ومبادئ الحرية كما نص عليها فى إعلان استقلالنا وفى دستورنا القومى وما نتوخاه لحكومتنا من نقاء ودوام ؛ كل أولئك يستدعى أن يكون تنفيذ السلطة بحيث يمنع انتشار العبيد فى الولايات التى تعد حرة حتى الآن »

وإننا لنرى سياسة لنكولن واضحة تمام الوضوح فى هذا القرار الذى أعلنه المؤتمرون ؛ وفى ذلك الدليل على أنه كان غداة المؤتمر الرجل الذى ينبض بمبادئه كل قلب ويتحرك باسمه كل لسان! ونحن إذا نظرنا إلى مبادئ الحزب الوليد فى جميع الولايات نجدها لا تختلف كثيراً عما جاء فى قرار رجال الينوس ، وبعبارة أخرى نجدها لا تختلف كثيراً عما يرى لنكولن ، وفى ذلك دليل آخر على عبقرية الرجل وعلى أصالته ...

ونظر إبراهام إلى المؤتمر فإذا رجاله على اتحادهم فى الغاية ، يختلفون فى الوسيلة التى تتحقق لهم بها تلك الغاية وأذاهم باعتبار ما سلف ، فئات متباينة آراؤها ؛ وإنه ليخشى الخلف فى الوسيلة

إلى ضياع الغاية ، بل إلى طمس صُوى الطريق وركوب الظلام وفى ذلك سوء المنقلب ؛ وإنه ليتحرق شوقاً أن يرى هؤلاء القوم وقد اجتمعت على الوسيلة كلمتهم كما اجتمعت على الغاية ؛ إنهم إذاً لفائزون ، وإن لم يرهم بذلك لبأساً يهون كل أمر عسير ، ثم إنهم لخطب فادح لا يطيقه المتمسكون بالعبيد من أهل الجنوب

وكأنما أحس المجتمعون بما أحس ، وإلا فماذا دعاهم أن يهتفوا به ؟ لقد تجاوبت باسمه جنبات المجتمع ، فراح الرجال يتصايحون لنكولن ... لنكولن ... نريد أن نسمع لنكولن ! وما كان له أن يتخلف وهو الخطيب الذى تهيب به مثل هاتيك المواقف وتواتيه عبقريته كلما أحست نفسه جلال الحادثات ! لذلك ما لبث أن وثب من مكانه ووقف فيهم وقفة الخطيب وهو لا يدرى ماذا يقول . وسكتت الأصوات بعد جلبة ، واستقر الرجال بعد أن كان بعضهم من فرط السرور والحماسة يموج فى بعض ...

وقف الخطيب أول الأمر صامتاً كأنما أغلقت من دونه مسالك القول ؛ والناس ينظرون إلى قوامه السمهرى وقد مال برأسه إلى الخلف وبرز بصدره إلى الأمام ، والتمعت عيناه وتشكلت أساريره فبدت فى مظهر يقصر عن وضعه معنى الجمال . وصفه أحد الحاضرين فقال : « كان فى تلك اللحظة أوجه من رأت عيناى أبداً »

وتكلم فاذا المستمعون كأنهم رجل واحد ، لا فرق بينه ولا اختلاف ، وقد سرت إليهم من الخطيب موجة قوية من السحر ! وسرى إليه منهم تيار شديد من الحماسة ؛ وهو يرسل فيهم القول يجمع بين العاطفة تهز المشاعر ، والحجة تبهر العقول ، والأمثلة تبهج النفوس ؛ وكانت تشتد العاطفة حيناً فتفيض عيون ، ويلتمع الدليل آونة فتصفق الأكف وتنطلق بالهتاف الحناجر ، ويروق المثال أو تملح النكتة بين هذا وذاك فتجاجل الأفواه بالضحكات .. والخطيب يلعب بالأفئدة ويستهوى المشاعر ويستمر لا يفتر حماسه ، ولا يكل منطقه ، ولا يضعف صوته ، والسامعون مأخوذون عن أنفسهم بما يقول حتى لقد ألقى مندوبو الصحف أقلامهم وأقبلوا بعقولهم وقلوبهم عليه يحرصون ألا تفوتهم كلمة من هذا السحر الحلال ...

ذلك ابن الغاب قاطع الأخشاب ! ذلك هدية الاحراج إلى عالم المدنية ؛ كأنما قد هيأته الأقدار لرسالته فبعثته من موطنه قوياً قوة الطبيعة واضحاً كالشمس لا يحجبها غيم ، ولكن أودعت فى نفسه سراً عميقاً تحس لديه بما تحس به إذا وقفت فى مدخل الغابة

أوضح فى خطابه سياسته فلم يترك مجالاً للبس أوشك ؛ وكان إلى التحذير والانذار أقرب منه إلى التفاؤل والتمنى ؛ حذر الناس أن يشتطوا فيؤدى شططهم إلى انسحاب أهل الجنوب من الاتحاد فانه ليحس فى الجو ما يسبق العاصفة ، وأنذرهم أن يتهاونوا أو يتخاذلوا فتذهب ريحهم وتضيع أصواتهم بدداً ؛ وهو فى كل ما زجى من القول صريح كأعظم ما تكون الصراحة ، واضح كأتم ما يكون الوضوح

تعرض لمسألة كنساس فقال فى قوة اليقين وفى جلال الحق ؛ ستكون كنساس حرة ؛ وأردف فذكر السامعين أن الخروج على اتفاقية مسورى والسماح بانتشار العبيد وراء الحد الفاصل مؤد حتما إلى جعل مسألة العبيد مسألة قومية عامة ، ولذلك فانه للفوز أبداً أو الهزيمة أبداً ، فانه ليشعر بتزايد قوى المتمسكين بمبدأ انتشار العبيد بينما يتراخى الداعون إلى مقاومة تياره . وكان فى خطابه يبدو منه ما يبدو من رجل مقبل على موقف حاسم فى تاريخ حياته ، ففى نبراته رنة الاخلاص ، وفى مقاطعه وابتداءاته لهجة اليقين وبينات الحرص الشديد أن يتدبر كلامه المنصتون ، وعلى وجهه علامات الاهتمام حيناً وأمارات القلق حيناً ومخايل الحذر والخوف واللهفة أحياناً ، وكذلك العظيم إذا تكلم كان كلامه من وجدانه ومن لبه ، وكانت حركاته حركات جوانحه وخفقات قلبه

ولقد تنبأ ذلك الرجل العظيم فذكر للناس أن مسألة العبيد سوف لا تحل حتى تنتهي إلى أزمة تجتاز بفضل إرادة الأمة ، فان تلك الارادة متى أوقظت اجتاحت الصعاب ؛ وكأنه كان يرى ما سيحدث عما قريب فى صورة حرب أهلية ضروس

وانجلت المعركة الانتخابية عن فوز بيو كانون مرشح الحزب الديمقراطى ، ولقد ظهر فيها على منافسيه أحدهما مرشح الحزب الجديد ، والآخر مرشح حزب آخر كان يعرف بالمحايد ، ويضم عدداً كبيراً من الموجز ، ولكن نجاح الحزب الديمقراطى كان ينطوى على معنى الضعف ، فان ثلث أصواته انضمت إلى الحزب الجديد كما أن هذا الحزب قد نال على حداثته عدداً من الأصوات

بل فى مقداره عدد أصوات الحزب الفائز ، حتى لقد اعتبر الكثيرون من المفكرين أن الفوز الحقيقى إنما هو للجمهوريين

ولقد انضم إلى هذا الحزب الوليد كثير من أهل الثقافة وأولى الأبصار ، فكان من رجاله فى مجلس الشيوخ نفر من الأماثل الذين أشربت قلوبهم حب بلادهم والذين فطرت نفوسهم على العدالة وجبلت على الرحمة والانسانية ، والذين كانوا يمقتون نظام العبيد من أعماق وجدانهم إذ يرونه نظاماً لا يوائم ماينشدونه لوطنهم من نهوض وقوة ...

وبدرت يومئذ فى البلاد بوادر الظلمة الكبرى فلقد تلاحقت الأحداث وجرت الشائعات بالسوء وانبعثت الأحن والحزازات وتنابذ الناس وتباغوا وأصبح بأسهم بينهم شديداً ؛ فما هى إلا رجفة ثم ينفجر البركان ويزلزل البنيان ...

وكانت أولى تلك الأحداث ما كان فى مجلس الشيوخ فلقد كان فى المجلس رجل يدعى سمنر عرف بقوة الجنان وذلاقة اللسان وتوقد القريحة ، وهو ممن يكرهون أشد الكراهية نظام العبيد، حمل فى جرأة وقوة على قرار نبرسكا، وأهاب بالناس أن يتمسكوا باتفاق مسورى. ولقد كانت لهجته لاذعة وحجه قاطعة وعباراته مقذعة ؛ فلما كان ذات يوم بعدها جالساً إلى مكتبه فى المجلس يكتب فى سكون هجم عليه عضو من أهل الجنوب فضربه على أم رأسه بعصا غليظة فسقط على الأرض مغشياً عليه ، فكانت الضربة فى الواقع أولى ضربات الحرب الأهلية ، فأهل الجنوب بدل أن يستنكروا هذه الفعلة هللوا لها واعتبروا صاحبها بطلا جديراً بالتوقير . وقدم له جماعة من الطلبة عصا ذات رأس من الذهب ؛ أما أهل الشمال فلك أن تتصور مقدار مابلغته الفعلة من نفوسهم وما تركته من الغيظ فى صدورهم فذلك مالا ينهض لتصويره كلام

وحدث بعد ذلك حادث آخرج البلاد من أركانها ، وذلك أن أحد العبيد ، رحل مع سيده إلى ولاية من الولايات الشمالية الغربية ، وكانت أسرة ذلك العبد معه، وكان عبداً ذكياً له حظ من التعليم أدرك أنه وراء الحد الفاصل بين ولايات العبيد والولايات الحرة ، فرفع أمره إلى القضاء يطلب أن يتمتع هو وأسرته بالحرية ما داموا فى ولاية حرة ؛ وانتقلت القضية من محكمة إلى محكمة حتى استقرت فى المحكمة العليا فى وشنجطون ؛ وأصدر القاضى الأعلى حكمه ، فقضى بأنه ما كان لأى عبد زنجى أن يرفع قضية أمام محكمة من محاكم البلاد كما يفعل الرجل الأبيض ، وأنه ليس للمؤتمر ولا لأى مجلس من مجالس الولايات أى سلطة تخوله أن يمنع أى شخص أن يعود بعبيده من الولايات الحرة إلى ولايات العبيد . . .

ولقد هز هذا الحكم البلاد هزا عنيفاً ؛ واستقبله أهل الجنوب طربين يطفرون من الفرح ، أما أهل الشمال فكان فى نفوسهم غمة وفى حلوقهم شجى ؛ ذلك أنهم رأوه يجعل اتفاق مسورى اتفاقا غير دستورى ، كما رأوه يقضى على قرار نبراسكا الذى يجعل لمجلس الولاية الحق فى تقرير ما يريده فى مسألة العبيد ؛ وبه أصبح العبد كقطعة من الأدوات ليس له حتى فى نفسه أى حق أو شبه حق

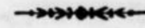
وكان خطر هذا الحكم أنه صادر فى تلك المسألة التى تشغل الأذهان من المحكمة العليا للبلاد ، وأن صدوره جاء فى تلك الآونة التى كان الخلاف فيها على أشده بين الناس ؛ وسرعان ما انتشر بين الطبقات صغيرها وكبيرها ، وانشغل به الساسة عن كل أمر سواه فلا حديث لهم أينما تلاقوا إلا ما يحمل من المعانى ؛ أدرك الجميع أن قد أزفت الآزفة واقترب اليوم الذى يحتكم فيه الفريقان إلى السيف ؛ وأيقن لنكولن أن الحوادث تؤيد ما ارتآى ولعله كان يحس بينه وبين نفسه أن قد اقتربت الساعة التى يتناول فيها معولا لا ليقطع به الأخشاب كما كان يفعل من قبل بل ليهوى به على ذلك النظام البغيض فيضربه الضربة الحاسمة . . .

« يتبع »

الخفيف

أسبوع فى فلسطين ..

للأستاذ محمد سعيد العريان



لما بلغتنى دعوة مصلحة الإذاعة الفلسطينية بالقدس ، لأذيع حديثاً عن المرحوم الرافعى لمناسبة تمام سنة على وفاته ... تهللت نفسى وسُرِّى عنى وقلت : هذا قطر من أقطار العربية لم يزل على وفائه لكاتب العربية والإسلام ...

ثم عادت إلىّ الذكرى ، فتغشانى خزىٌ وألم حين ذكرت أن مصر العربية المسلمة لم تستطع — بعد عام — أن تقوم للرافعى ببعض حقه حتى فى الدعوة إلى حفلة تأبين تذيع فضله وتذكر به... إلا محاولات فاشلة لا تغنى ولا تقوم ببعض الوفاء !

وازدحمت فى رأسى صور وخواطر، وتتابعت على عينى ذكريات وذكريات، وتدافعت إلى صدرى آلام وأشجان ؛ وقالت لى نفسى: بعض هذا يا صاحبى ؛ وماذا كنت تنتظر أن تصنع مصر للرافعى ؛ وإن بينه وبين كل أديب فى مصر ثأراً لا يخفف الموت من عنفوانه وشدته !

وكأنما كانت مقالة صديقى الأستاذ سيد قطب فى ذلك الوقت لتذكرنى بالحقيقة التى يعيش فيها بعض أدبائنا حين يحاولون أن يجعلوا من بعض المداوات الأدبية ثأراً يتوارثه الأبناء عن الآباء، فيجعلون من دروسهم الأدبية إلى تلاميذهم ما كان بينهم وبين الموتى من العداوة والبغضاء !

... وهممت أن أعتذر إلى الداعى من حياء وكبرياء ، خشية أن يسألنى سائل هناك : ما ذا فعلت مصر للرافعى ولها كانت حياته وفيها مثواه ؟ فتمنعنى العزة القومية أن أتهم قومى بالعقوق ونكران الجميل

ولكنى جمت عزيمتى وأقنعت نفسى بأن العلم لا وطن له ، وأن بلاد العربية كلها وطن واحد لمن يستشعر فى نفسه عزة المسلم ومجد العربى . وأجبت الدعوة ...

وكنت ثالث ثلاثة من المصريين دعتهم مصلحة الاذاعة بالقدس منذ كانت لإذاعة أحاديث أدبية ؛ أما السابقان فهما الدكتور هيكل باشا والأستاذ المازنى .

* * *

فلسطين هى تلك البلاد المقدسة التى تربطنا بها أواصر وثيقة منذ أقدم عصور التاريخ ، من أيام الفراعين ، إلى صدر الاسلام، إلى عهد صلاح الدين ، إلى تاريخ المماليك ، إلى زمن محمد على وابراهيم الفاتح ... إلى اليوم الذى مزقت فيه الحرب العظمى دول الاسلام ، وتوزعتها أطماعُ السياسة الأوربية !

بيننا وبينها وحدة الدين ، وآصرة اللغة ، وعاطفة الجوار ، وواشجة الدم والنسب من لدن عمرو بن العاص إلى عهد الفاروق . لا يفصلها عن مصر فاصلٌ من جبل أو بحر أو حد مصنوع ، إلا أن تكون تلك القناة الملونة فى التاريخ — قناة السويس — التى كان إنشاؤها غُنما للعالم وغرماً على مصر ؛ ومنها كان الرمز الأول للقطيعة بين مصر وبلاد الاسلام ، حين شاعت على ألسنة المصريين تلك الخدعة المأثورة : « مصر قطعة من أوربا ! » فكانت دسيسةً سياسية بارعة ، فرّقتْ بين الأخوين لأبٍ وأمّ حيناً من الزمان !

* * *

ركبت القطار من محطة القاهرة فى منتصف الساعة السادسة من مساء السبت ٧ مايو ، وفى وهمى أننى مسافر إلى بلد بعيد ؛ فما أشرق صباح اليوم التالى حتى كنت فى مدينة القدس المطهرة عاصمة فلسطين ، قبل أن تبلغ الساعة التاسعة . ست عشرة ساعة بين القاهرة والقدس ، فى قطار يدب على رمال الصحراء دبيب السلحفاة بطيئاً وانياً ويقف فى الطريق أكثر من أربع ساعات

إن المسافر من القاهرة إلى بعض الأقاليم الجنوبية من مصر نفسها لا يبلغها فى ست عشرة ساعة فى القطار السريع ؛ وإنك مع ذلك لتسأل نفسك : كم مصريًا رحل إلى هذه البلاد الشقيقة ليتعرف إلى أهله من أهلها ؟ فلا يأتيك الجواب بما يؤكد لك معنى من معانى الاخاء والقربى بين مصر وفلسطين !

لماذا لماذا ؟ لأن السياسة التى تسيطر على مصر وفلسطين لا يرضيها أن تكون بين مصر وفلسطين رابطة من الود والاخاء . وقد بلغت هذه السياسة فى مصر ما لم تبلغه هناك ، فنسى المصريون

إخوانهم فى فلسطين ولم ينس الفلسطينيون إخوانهم على ضفاف النيل ، وفى كل سنة يفد إلى مصر مئات من شباب فلسطين ، وأدباء فلسطين ، وتجار فلسطين ، ليمتعوا أنفسهم برؤية إخوانهم وأهليهم فى وادى النيل ، ثم يعودون إلى بلادهم ينتظرون ردّ الجميل فلا يجدون الجميل !

ست عشرة ساعة ، لو اطرد الطريق وقلت محطات الانتظار مابلغت ثمانى ساعات ، هى كل ما بين مصر وفلسطين .

ما أقرب وما أبعد !

وصل بى القطار المصرى إلى محطة القنطرة على القناة ، فى منتصف التاسعة مساء ؛ وركبتُ من ثمّة قطار فلسطين ، فلم يتحرك للسير قبل منتصف الثانية عشرة . ثم مضى بنا بين كثبان الرمل فى صحراء سينا إلى غايته . فلم يكن لنا مع الظلام الدامس ووحدة مناظر الصحراء ، إلا أن نأوى إلى مضاجعنا — غير الوثيرة — فما استيقظت إلا فى الخامسة صباحاً وقد اجتزنا الحدود المصرية ووقف القطار فى (غَزّة) أولى مدائن فلسطين . ونبهتنى أصوات الباعة على رصيف المحطة ؛ ففتحت النافذة لأستقبل أول شعاعة من أشعة الشمس البازغة من وراء الجبال ، تداعب أجفان النائمين خلف نوافذ القطار ؛ وهبّ النسيم ندياً معطّراً بأزهار النارنج كأنه يحمل أريجاً من أنفاس أهل الجنة . وسرّحتُ الطرف فيما أمامى ؛ فاذا صفحة مشرقة تتحدث عن جمال الطبيعة وقدرة الخلاّق ، لم ير المصريون لهاشبيهاً فيما رأوا من جمال الطبيعة المصرية بين الأسكندرية وأسوان .

بيوت مبعثرة على رؤوس التلال وفى سفوح الجبل ، وسهول رملية فيحاء قد نبتت فيها شجيرات القمح والشعير ، وحدائق خُضر ناضرة قد ملأتها أشجار البرتقال والنارنج والمشمش ، ونخلة قائمة هنا ، وخيمة مضروبة هناك ، وكروم زاحفة على الأرض ، وأعشاب نامية على الصخر ، وأخاديد خدّدتها الأمطار فى خدود الجبال ؛ والقطار يسير فى طريق ملتوية بين منحنيات الجبال ، صاعداً منحدراً ، ومشرّقا مغرّباً ؛ كأنما اتخذوا له هذا الطريق ليجلوا على المسافر كل ما يمكن أن تجتليه العين من رُواء الطبيعة فى فلسطين ؛ فما ملأت النظر إلى هذه المشاهد الفاتنة واقفا فى نافذة القطار ثلاث ساعات ، حتى وصلت إلى محطة اللّد فى الساعة الثامنة صباحاً ؛ ومحطة اللّد هى المحطة المركزية فى فلسطين ، ومنها تتفرع سكة الحديد فروعها إلى مختلف أنحاء البلاد ، أو يستمر القطار سائراً فى طريقه إلى دمشق ...

وانتظرت فى محطة اللّد زهاء ساعة ، قبل أن يتحول بى القطار فى طريقة إلى القدس المطهرة ؛ وفى الطريق بين اللّد والقدس ، صحبنى شاب من أدباء فلسطين أُنسيتُ اسمه ؛ فأخذ منى فى حديث طويل عن السياسة وآخر أنباء الثورة ومصير فلسطين ؛ وكان يتحدث إلى فى حماسة وقوة وانفعال كأنه خطيب على رأس كتيبة يحمّسها إلى الجهاد ؛ فوالله ماأدرى أكانت شدة أسره فى الحديث أم روعة المناظر من حولى أحب إلىّ ...

واقتربنا من بيت المقدس فسكت محدثى قليلاً ثم سأل : هل لى أن أتشرف بمعرفة سيّدى ؟ قلت : مصرى ! قال : نعم لقد عرفت ذلك من حديثك ، ولكن ... يخيّل إلى أنى أعرف أكثر من ذلك عن سيدى ... ولولا أن الجرائد تقول إن الأستاذ سعيد العريان لا يقدم إلى القدس إلا غداً ، لقلت إنك هو ... إننى أعرفه بصورته من مجلة الرسالة ... !

وكانت أول تحية كريمة يلقانى بها أديب من شباب فلسطين ، وكانت مفاجئة ؛ فأحسست شيئاً من الخجل والارتباك ، لم أجد معهما إلا أن أمد يدى إلى صحفة فى يده مستأذناً ، فدفعها إلى ؛ وفيها قرأت أننى قدم إلى القدس فى صباح الغد ... وهو الموعد الذى كنت حدّدته من قبل لمحطة الاذاعة ، ثم بكرت فى السفر قبل ميعادى بيوم ...

إننى لم أكن أقدّر — وأنا من أنا فى نفسى — أننى سأجد من يعرفنى فى فلسطين أو يهتم لمقدمي ؛ ولو أننى بلغت بنفسى من الغلو أقصى ما تبلغ إليه أمنية شاب مثلى ، لكان ما رأيت من حسن استقبال المقدسيين وحفاوتهم فوق ما تبلغ منية المتمنى ولا أزهو بنفسي فأزعم أننى أهل لبعض ما لقيت ، ولكنه كرم الفلسطينيين العرب يأبى إلا أن يستمان فى كل مناسبة وكل مجال

وفى دار شيخ أدباء العروبة الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى كان مقامى طول المدة التى قضيتها فى فلسطين . لقد دخلت فلسطين وأنا خفيف الظهر فما فارقتها حتى كان علىّ من الدين لهذا الرجل الكريم ما ينوء به كاهلى ؛ فشكراً له ثم شكراً ثم شكراً ... ومعذرة إليه إن عجزت عن الوفاء !

وصحبتْنى طائفةٌ كريمة من الأدباء فى غُدُوى ورواحى ، تهيّئُ لى أسباب التمتع في الرحلة بين المشاهد المقدسة والبيوت الأثرية ، فزرت المسجد الأقصى ، وقبة الصخرة ، ومصلَّى عمر ،

وكنيسة القيامة ، ومسجد المسيح ، وبيت لحم ، والتحف الإسلامى ، وكلية الروضة ، والنادى المصرى ؛ وتمتعت برحلات عدة كان رفيقى فى أكثرها الأستاذ الأديب إبراهيم طوقان وكيل القسم العربى في محطة الإذاعة . ولن أنسى ما حييت فضله وفضل الأصدقاء الكرام : الدكتور إسحاق الحسينى ، والشيخ يعقوب البخارى افندى ، والأستاذين داود حمدان ، وعبد الحميد يس ، وغيرهم من أدباء فلسطين وأهل الرأى والجليل

وإذا كان لى أن أذكر شيئاً بخصوصيته فى هذه الرحلة ؛ فان اليوم الذى خطبتُ فيه فى كلية روضة المعارف الاسلامية بالقدس سيظل أبقى أثراً وأخلد ذكراً بين أيامى

وكلية روضة المعارف الاسلامية فى القدس ، هى مدرسة حرة يشرف على شئونها المجلس الاسلامى الأعلى ، ولها منهج خاص يُعِدُّ شباب العرب ليكونوا فى مستقبل أيامهم رجال العربية والاسلام . ومدير هذه المدرسة هو الأستاذ عبد اللطيف الحسينى ورئيسها الأستاذ الجليل الشيخ محمد الصالح افندى ، وتضم بضع مئات من فتيان العرب جمعتهم إلى منهل في الثقافة العربية الإسلامية أكثرَ ملاءمة لحال البلاد فى هذه الأيام . وفيها طائفة من المدرسين الأكفاء عرفت منهم الأستاذ عبد الفتاح لاشين المصرى ، والأستاذ عبد الرحمن الكيالي الفلسطينى ، وهما من خريجى مدرسة دار العلوم فى مصر

زرت الكلية صباح الاثنين ٩ مايو مع الأستاذ طوقان ؛ وما بدٌّ لمن يزور فلسطين من أهل العربية من زيارة هذه الكلية ... وقضيت ساعة ... ثم انصرفت على موعد للغداء وإلقاء محاضرة فى بهو المحاضرات بالكلية عن : « المثل الأعلى للشاب المسلم » بعد ظهر الأربعاء

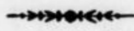
لا تحدثنى عن شباب مصر وطلبة العلم فى مصر إذا ذُكر شباب فلسطين وطلبة العلم فى كلية الروضة . هنا شباب يحسنون الزينة ويفتَنُّون فى وسائل الأناقة والتجمُّل ، وهناك رجال قبل سنّ الرجال يعرفون لأى غاية يتعلمون ، ويفكِّرون لغدهم قبل أن يفكروا فى مطالب الصِّبى وأمانىّ الشباب ...

وعرفت أولَ من عرفتُ في فلسطين ، شبابها العربى المسلم فى كلية الروضة ...

(لها بقية) محمد سعيد العريان

رسالة مسلمى الصين الى مسلمى العـــالم

عن حقائق الحرب الصينية اليابانية القائمة



إخواننا الأعزاء المسلمين فى العالم

أصدقاءنا الأجلاء المحبين للسلام

السلام عليكم وعلينا وعلى جميع المظلومين والمنكوبين فى العالم!

إن بلاد الصين الجمهورية تحب السلم كما أحبته وهى ملكية . فهى تسير على نصيحة الحكماء الصينيين بعدم القتال وتقليل الجيش ، وكانت تحسن معاملة البلاد المجاورة لها شاعرة بالشرف المشترك حريصة على حياة الجميع ، وهذه كلها حقائق تاريخية لدى الأمم الاسلامية

إن اليابان أخت الصين الصغيرة مشتركة معها فى الجنس واللغة مجاورة لها كالشفة والسن ، وهى متقدمة اليوم باستثارتها من الآداب والتعاليم الصينية

هذا وإن اليابان تذكر دائماً ولا تنسى تلك الفكرة الاستعمارية القديمة فكرة الآباء والأسلاف ، فبدأت تثير الحرب بينها وبين الصين منذ ٣٠٠ سنة ، ولكن لم تصل إلى حلمها هذا لقلة قوتها فى ذلك الوقت . وقد تضاعف جهدها فى هذه الأيام القريبة للسعى فى إبادة الصينيين فاتكأت على قواها الحربية سائرة على طريقة غير مشروعة وأخذت أراضى صينية كثيرة منذ ٦٠ سنة وقهرت أهاليها واستبدت بسكانها . على أن حكومة الصين الملكية فى ذلك الوقت تساهلت وتجاوزت عن هذا الاعتداء ، فاضطرب الشعب كله وهاج هائجه واتحد وثار سنة ١٩١١ على تلك الحكومة الملكية الاستبدادية المفرطة

ولما قامت على أنقاض الملكية حكومة صينية جمهورية سارت تلك الحكومة الجديدة في طريق البناء والعمران . وبعد القضاء على مبدأ الملكية وانحدار المحافظين عليه . جاءت الحرب العظمى فانتهزت اليابان فرصة سوء الحال فى الصين وكثرة مشاغل الدول ففرضت على الصين معاهدة تحتوى على ٢١ مادة كلها ترمى إلى إخضاع البلاد اقتصادياً وأدبياً ، وأجبرت الحكومة الصينية على قبولها وتوقيعها . فثار لذلك الطلبة الصينيون ونشروا دعاية وطنية

وبدءوا حركة المقاومة واجتهدوا في المخالفة والكفاح فلم تنجح اليابان كما كانت ترجو وتتمنى

وفي سنة ١٩٢٣ حدث في اليابان زلزال شديد فعاونتها الصين والصينيون بكل قواهم وعطفوا عليها وجمعوا الأموال لمساعدتها ولكنها جزت الحسنة بالسيئة فأرسلت سنة ١٩٢٦ جيشاً كبيراً إلى الصين ليمنع تقدم الجيش الصيني الذي أرادت الحكومة الصينية أن تخمد به المكين

واتفق أن كتب رئيس وزراء اليابان الأسبق عريضته السرية التي عرضها على امبراطور اليابان في شأن استعمار الصين فآسيا كلها، وقال فيها :

« إن في خطة امبراطوريتنا الثالثة أن نستعمر منشوريا ومنغوليا والصين كلها . ولكن قبل أن نستعمر الصين الداخلية يجب أن نستعمر منشوريا ومنغوليا كما أننا نستعمر آسيا بعد أن نملك الصين كلها ليعلم العالم بذلك أن آسيا الشرقية آسيانا فلا يعتدي عليها أحد »

وبهذا ترى اليابان تصرح بارادتها في استعمار آسيا كلها

ولما كان الفيضان سنة ١٩٣١ عم أغلب البلاد الصينية وشمل أكثر من ١٠٠ مليون نسمة عطف عليها العالم أجمع وساعدها مادياً وأدبياً إلا اليابان التي لم تحرك ساكناً في تلك المساعدة ناسية حق الجوار متناسية الجميل ، لم تفعل هذا فحسب بل قد اغتنمت تلك الفرصة وتلك الحالة المحزنة في الصين واحتلت مكدون عاصمة منشوريا ورفضت قرار عصبة الأمم بل وانسحبت منها كأنها تثور على العالم أجمع

وبعد ذلك حاصرت اليابان سواحل الصين وضربت شنغهاي واحتلت ولايات الصين الشمالية الأربع وكونت حكومة غير مشروعة . وهي مع ذلك تساعد على نشر المخدرات في المناطق التي احتلتها وتساعد المهربين بجنودها المسلحة وترسل الجيوش إلى الصين بدون استئذان وتطير في الجو الصيني بطائراتها ، فاحتجت حكومتنا على هذا التصرف السيء غير المشروع وفاوضتها ، ولكن الاحتجاج والمفاوضة لم يجديا نفعاً ولا فائدة

لم تزل اليابان تسير على خطتها الاستعمارية فبعثت رسلا إلى شمال الصين يحرضون حكام الولايات الشمالية على الانفصال عن الصين فلم ينجحوا . فغيرت خطتها البطيئة الخفية بالسريعة المكشوفة فأرسلت جيوشها فاحتلت مدينة وانبين بجوار بكين (٧ يوليو سنة ١٩٣٧) وقت استعراض الجيوش اليابانية قرب لوكاوتشا و ، ولم ينجح الصينيون في منعهم ، فكان ذلك بدء الحرب المدمرة الطاحنة الغاشمة المخربة الحالية

والآن لا يمكن أن يصبر أحد من الصينيين على اعتداء اليابان على بلادهم ، وليس ذلك من جهة الوطنية فقط بل ومن جهة الانسانية والحق أيضاً . فالحكومة الصينية لا يمكنها السكوت على ضياع بلادها واقتطاعها جزءاً جزءاً مع حبها للسلم ، لأن الصبر على ذلك يهين الحق ويعذب الانسانية ويسم الصينيين بسمة الجبن فلابد إذاً من المقاومة ، وقد قال القائد العام المارشال تشانج كاي شيك : لا نترك السلم ما كان لنا أمل فيه ولا نقوم بالتضحية ما دام وقتها لم يحن . والآن قد انقطع أمل السلم وحان وقت التضحية فبدأت تتجمع قوات الحكومة الجرارة في الدفاع عن البلاد حتى تنال الفوز الأخير ولو غرقت البلاد الواسعة العريقة في الحضارة كلها والأهالي جميعاً في الدماء

لهذا قد اتحدت الصين حكومة وشعباً في الدفاع عن البلاد ومقاومة اليابان

والمسلمون في الصين كذلك متحدون مع غيرهم في الدفاع عن الوطن لأنهم يعرفون أن حب الوطن من الايمان وأن الجهاد في سبيل الحق والانسانية هو الجهاد في سبيل الدين الصحيح

وقد اشترك بعضهم في الحرب تحت إمرة القواد المسلمين المشهورين ، وقام غيرهم على إنقاذ المنكوبين وشئون التمريض وغير ذلك وسعى آخرون في نشر الدعاية للصين واتحاد المسلمين في العالم ليقفوا إلى جانب المسلمين في الصين في وجه المعتدين المخالفين للانسانية والحق والدين الصحيح

والآن لا يمكننا أن نصبر على اعتداء دولة أجنبية على وطننا ولا على إضرار المعتدي الأثيم باخواننا المسلمين في بلادنا ، فلذلك وضعنا هذا الخطاب لنبين لاخواننا المسلمين في العالم ومن أحب السلام والحق ما لاقاه المسلمون وغيرهم في الصين من المحنة العظمى والحرب المشئومة رجاء أن يحكموا بالعدل وأن يقوموا بعمل إيجابي يعاقب به المعتدي أدبياً ومادياً فيعاديه السلام العالمي ويحقق



رسالة الشعر



مصطفى صادق الرافعى

للأستاذ فليكس فارس

تواريتَ فى الملأ الارفعِ فأنتَ هُناكَ وأنتَ معى
هتكتَ عن الروحِ سترَ الترا بِ وسترُ ترابى لم يُقشعِ
أماطَ القضا أحدَ البرقُعيـ نِ وما زلتُ أُدرج في برقعى
ورسمُكَ قد غارَ فى ناظرى وصوتُكَ قد غارَ فى مسمَعى
فأَصبحتَ أَقربَ منى إلى قَرارةِ نفسىَ فى أضْلُعى
كأنكَ من قبلُ كنتَ الخيا لَ فصرتَ اليقينَ بما لا أعى

* * *

أراكَ ، فيا ويحَ مَنْ لا يرى حبيباً تولّى ولم يرجعِ
يسائل عنه طِباقَ الثرى وليس سوى الوهمِ فى المضجعِ
أراكَ طليقاً كما كنتَ فى حياتك فى عيشِكَ الموجعِ
وما يأسرُ الدهرُ غير الأُلى يضلّون فى العالمِ الأخدعِ
فَمَن عاش عبداً بدنيائه سيُبعثُ عبداً على المَطلعِ
ومَنْ لم يكن ههُنا أروعاً فليسَ هنالك بالأروعِ

* * *

عرفتك يا مصطفى مثلما أراكَ وقد جُزتَ للمصرعِ
عرفتك روحاً يدور بها من الدهرِ جيشُ الشقا المُفزعِ
وأنتَ تحدّى صروفَ الزما نِ وتهزأُ فى حصنكِ الأَمنعِ
وكيف تصيبك فى مقتلٍ إذا لم يَكُنْ فيكَ من مطمعِ
غنمتَ من الأرضِ أرواحها وعفتَ التهاويلَ للمدّعى
إذا الروحُ نالت معانى الوجو دِ تخلّت عن الحرفِ والمقطعِ

به غرض الاسلام الأسمى لأن الله يأمرنا بالتعاون على الخير والمصلحة إذ قال : (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) وقال سبحانه وتعالى أيضاً : (إنه لايحب المعتدين)

نور محمد دابوسين	محمد ابراهيم شاه كوجين
ناظر مدرسة المعلمين الاسلامية بشنغهاى	رئيس البعثات الصينية
ورئيس الجمعية الاسلامية الصينية	بالأزهر الشريف بمصر

* * *

هذه هي مقدمة الكتاب الذى وضعه الحاج الامام الأستاذ نور محمد دابوسين والحاج الأستاذ محمد ابراهيم شاه كوجين والذى ترجمه الأستاذ أبو بكر الصينى من اللغة الصينية إلى اللغة العربية وهذا الكتاب مشتمل على مقالات خطيرة مفصلة متعلقة بالحرب الصينية اليابانية القائمة الآن وأسبابها ونتائجها المتوقعة من الوجهة العسكرية والاقتصادية والسياسية .

وفيه فصل يبين فظائع اليابانيين فى الصين منذ بدأت الحرب إلى الآن من تدمير المدارس والجامعات والمساجد والمباني الخيرية والمصالح الأدبية وقتل الطلبة والشبان والمدنيين غير المحاربين والفجور بالنساء والفتيات ونهب الأموال والحلى واستعمال الغازات السامة فى الحرب وغير ذلك

وفيه فصل عن استماتة الصينيين فى دفع الأعداء عن وطنهم العزيز واستشهاد المسلمين منهم فى محاربة اليابانيين وهم تحت إمرة قواد مسلمين وغير مسلمين فى الجنوب والشمال وعددهم يفوق المليون . وجهاد القائد المسلم المشهور فى الصين الجنرال عمرباى تسون هسى ودفاعه عن الوطن بكل قواه . فاذا انتصرت الصين انتصر المسلمون فيها

وفيه فصول أخرى

هذا وقد كتب الأستاذان فى آخر الكتاب رجاء المسلمين فى الصين إلى المسلمين في العالم ألا يشتروا بضائع اليابان ولا يبيعوا إليهم المعادن ولا المواد الغذائية حتى يرجع اليابانيون عن خطتهم الاستعمارية وأن يساعدوهم أدبياً ومادياً بواسطة (جمعية الهلال الأحمر) بكل ما يستطيعون

وبما أننا مسلمون فعلينا واجباتنا الدينية ومنها المعاونة على البر والتقوى لا على الاثم والعدوان — بذلك ننشر هذه الصيحة العالية بين المسلمين كي تجد صداها الحسن عندهم وردهم الجميل عليها

(***)

لم يطب للنبوغ فيك مقام...

لحن حزين هزته ذكرى الأديب العربي الخالد مصطفى صادق الرافعي

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

لم يَطِبْ للنُّبوغ فيك مُقامُ   لا عليكَ – الغداةَ – مِنّي سَلامُ
المناراتُ تنطفى بين كفّيـ   ـكِ! ويزهو بشاطئيكِ الظلامُ
والصدى من مناقر البوم يحيا   ويموتُ النشيدُ والإلهامُ
قد حبوتِ النعيبَ ظلّكِ لكنْ   أين قرّتْ بشطّكِ الأنغامُ؟
في هجير الأيام تمضي أغانيـ   ـكِ حيارى، يؤجّ فيها الضرامُ
عبرتْ مسبحَ الجداولِ، والنهـ   ـرِ، وغابتْ كأنها أوهامُ
تَسْكبُ السحرَ من شفاهٍ عليها   مَصْرَعُ السحرِ: لهفةٌ! وأُوامُ!
تَسْكبُ العطرَ والخمائلُ صُفْرٌ   ماتَ في الأيكِ نورُها البسّامُ!
تَسْكبُ البُرْءَ من جراحٍ عليها   تُرْعِشُ العمرَ شَكْوةٌ وسَقامُ!
أنتِ يا (مصرُ): واصفحي إن تعتّبـ   ـتُ واشجاكِ من نشيدي الملامُ..
.. قد رعيتِ الجميلَ في كل شيء   غيرَ ما أحسنتْ به الأقلامُ!
من روابيكِ خفَّ للخلدِ رُوحٌ   قد نعاه لعصركِ الإسلامُ
لبِستْ بعدَه العروبةُ ثوباً   صِبغُ أستارِه أسًى وقَتامُ
لم تُفِقْ من شجونها فيه (بغدا   دُ) ولا صابرتْ أساها (الشامُ)
وعلى (بلدةِ المعزِّ) دموعٌ   خلّدتْ ذِكْرَه بها الأهرامُ
صاحبُ المعجزاتِ أعيتْ حجا الدُّنـ
ـيا، وعيّتْ عن كشفِها الأفهامُ
يَخبأ الحكمةَ الخفيّةَ في الوحـ   ـي كما تَخبأ الشذى الأنسامُ
ويَزُفُّ البيانَ كالسلسلِ المسـ   ـكوبِ تهفو بشطّه الأحلامُ
فإذا رقَّ خِلْتَه قبلَ الفجـ   ـرِ على نارها يلذُّ المنامُ
أو حديثَ النسيمِ للزهرةِ السكـ   ـرى، من الطلِّ كأسُها والمُدامُ
أو حفيفَ السنابلِ الخضرِ .. رفّتْ
في رُباها قنابرٌ ويمامُ
أو دعاءَ النُّسّاكِ.. أبلّتْ صداهمْ   في حمى الله سَكْرةٌ وهُيامُ
وإذا ثارَ خِلْتَه شُهُبَ الليـ   ـلِ أطارتْ لهيبَها الأجرامُ
أو شُواظاً مسطّراً ... قذفتْه   من لظى العقلِ هَيْجةٌ وعُرامُ
أتعبَ الجاهدينَ خلفَ مراميـ   ـهِ بقصدٍ منالُه لا يُرامُ
أصيدُ الفكرِ والبراعةِ والوحـ   ـيِ .. على كِبْرِه يُفَلُّ الحُسامُ
حيّرَ النقدَ أن تروغَ المعاني   عن مريديه، أو تندَّ السهامُ
فانزوى الحاسدون.. إلّا فضولاً   لا يُداريه عائبٌ شتّامُ
قد سقاهم من سِنّه مَصْرعَ الرُّو   حِ وإن لم تُلاقِه الأجسامُ
فلتقمْ بعد موتِه ثورةُ الشا   نئِ فقد فارقَ الوغى الصمصامُ
وله الشأنُ .. عِزّةٌ وخلودٌ   ولهم شأنُهم صدًى وكلامُ
إيهِ يا ساقيَ «المساكين» كأساً   لم تُسَلْسِلْ رحيقَها الأيّامُ

وعاينتِ الحقَّ نورَ الهدى   بكلِّ مُصَلٍّ على مركعِ

***

فقدناك يا مصطفى جامعاً   شتيتَ بني العُربِ في الأربعِ
فقدناك تهدي شعوباً مضت   إلى القفرِ للمنبتِ المُمرعِ
بدا الآلُ يشعلُ سُعّارَها   فقُدتَ العطاشَ إلى المنبعِ
ورحتَ تَرُمُّ من صرحِهمْ   بنا أنهارَ من متنِه الأنصعِ
وغيرُك قد ضلَّ عن ردمِه   فرقّعَ بالحجرِ الأسفعِ
وطفلُ العروبةِ في بعثِه   يسيرُ ضلولاً على المهيعِ
هديتَ الرضيعَ إلى أمه   وغيرُك أهداه للمرضعِ

***

فقدناكَ يا مصطفى صورةً   لجيلٍ بأصلابنا مُودَعِ
لجيلٍ سيعرفُ أنسابَه   فينكرُ كلَّ دخيلٍ دَعي
إذا نازعته الدُّنى روحَه   يهبُّ بهوجائه الزعزعِ
يثورُ وفي قلبِه ربُّه   فيمشي على السيفِ والمدفعِ

***

سلامٌ على غائبٍ حاضرٍ   تكفكفُ ذكراه من أدمعي
إذا ما سلا الناسُ موتاهمُ   بنسيانِ فقدهمِ المفجعِ
سلوتُك بالذكرِ يا مصطفى   وأنتَ بروحي فأنت معي

فليكس فارس

قد جعلتَ الآلامَ وحيَك حتى ... فجرتْ نبعَها لكَ الآلامُ
ما الذى كان فى سحابتكَ الحمـــراء إلاّ الشجونُ والأسقام
كنتَ فى عزلةٍ مع الوحى تشكو
ولشكواك كادَ يبكى الغمام
تمسحُ الدمعَ من عيونِ اليتامى ... وببلواك ينشجُ الأيتام !
صنتَ عهدَ البيانِ لم ترخصِ القوْ ... لَ ، ولا شابَ سحرَكَ الإعجام
وتفردتَ بالصياغةِ .. حتى ... قيلَ فى عالمِ البيانِ : إمامُ !
ووهبتَ (الفرقانَ) قلبَكَ .. حتى ... فاضَ من قدسهِ لك الإلهام
فبعثتَ الإعجازَ كالشمس منه ... يتهدّى على سناه الأنامُ
فقمِ اليومَ ! وانظرِ الشرقَ . ضاعتْ
منْ يديهِ مواثقٌ وذمامُ
مزّقت قلبَه الذئبُ من الفتـــك .. ونامَ الرعاةُ والأغنام !
فى (فلسطين) لو علمتَ جراحٌ ... ما لها فى يدِ الطغاةِ التئامُ
وطنُ الوحى . والنبواتِ والإلـــهام .. أودى ! فعاثَ فيه الطغامُ
جذوةٌ فى جوانحِ الشرقِ تغلى ... فيروعُ الثرى منها اضطرامُ
يذبحُ القومَ فى المجازرِ فرطُ الظـــلم فيها - كأنهم أنعام
ويهان (المسيحُ) فى موطنِ القدْ ... سِ ، ويشقى بأرضهِ الإسلام
وحماةُ البيانِ خرسٌ .. كأنّ الذّ ... ودَ عن كعبةِ الجدودِ حرام!
إيه يا «مصطفى» وفى القلبِ أشجا ... نٌ ! وفى الصدرِ حرقةٌ وضرام
ليتَ لى سمعَك الذى كرّمَ اللـــه صداه ! فمتَ فيه الكلام
كنتَ والوحىَ عاشقين فماذا ... بعدَ نجوى السماءِ يبغى الغرام؟
كنتَ والوحى فى سكونِ نبىٍّ ... عادهُ فى صلاته إلهام
تتلقاهُ خاشعَ الهمسِ عفّاً ... مثلما رفّ بالغديرِ حمامُ
لا ضجيجٌ ! ولا اصطخابٌ ! ولكنْ
هدأةُ الروحِ قد جلاها المنامُ
هكذا نعشُكَ الطهورُ تهادى ... كالأماني ، لا ضجةَ لا ازدحام!
فاذهبِ اليومَ للخلودِ كما كنـــت .. تناديك هدأةٌ وسلام
لم يمت من طواه فى قلبه الشر ... قُ ! وغنى بذكرهِ الإسلام !

محمود حسن اسماعيل

راقصـــة

للأستاذ محمود غنيم

يا منظراً ما أجملَه ... هنا الغرامُ والوَلَه
أتلك أنثى خطرتْ ... أم فتنـــة منتقله
مقبلـــةٌ مدبرةٌ ... مائلةٌ معتـــدله
كأن تحت أخمصيـ ... ـها جمرةً مشتعله
باسمةٌ يحسبها ... كل فتى تبسم له
تدورُ حول نفسها ... كما تدورُ العجله
وتنثنى كأنها ... عن نفسها منـــذهله
أبدلهـــا خالقهـــا ... بكلّ عظمٍ عضله
يا حسنها إذ عرّكتْ ... أنملةً بأنمـــله
أناملٌ من فضةٍ ... لينـــةٍ منفتله
جميعُ ما فى جسمها ... يغريك أن تقبّله
كم مقلةٍ شاخصـــةٍ ... همّتْ به لتأكله
والسحرُ طلّ السحرِ فى الأ ... نوثةِ المكتمله
من ترمِهِ بلحظهـــا ... أدنت إليـــه أجله
كم ارتقت مسرحها ... فصيّرته مقصله
دقتْ على مسرحها ... بساقهـــا منفصله
كأن فى المسرح حرْ ... باً هى فيها البطله
زلزلةٌ قد أحـــدثت ... فى كل قلبٍ زلزله
تستر نصف جسمها ... غـــلالةٌ مشكّله
يشفُّ عن أعضائهـــا ... من تحتها مفصّله
جسم كموج عيلمٍ ... تسبح فيـــه الأخيله
تحسَبُ فيه كلَّ عضـ ... ـو وحدةً منفصلـــه
فليس بين خصرها ... وبين صدرها صله



فى تاريخ آداب اللغة العربية

الأستاذ كارل بروكلمن حجة المستشرقين العليا فى الآداب العربية، واسمه معروف مستطير فى الدوائر العلمية سواء فى الغرب أو فى الشرق العربى . وقد ظفر بتلك النباهة من طريق تآليف غاية فى التدقيق العلمى والاطلاع الوافر . وعلى رأس هذه التآليف كتابه الفريد أيام برنز (سنة ١٨٩٨) « تاريخ الآداب العربية » باللغة الألمانية . وقد استفادمن هذا الكتاب الخصب عددغير قليل ممن ألفوافى الموضوع عينه . وإذا نفقى على بروز الكتاب زمن رأى صاحبه أن ينشر له تكملة يورد فيها ما فاته ويستدرك ما فرط منه ويثبت ما جاء به العلم منذ سنة ١٨٩٨ . وقد ظهر من التكملة الجزء الأول وبعض الجزء الثانى . وستقع التكملة فيما يزيد على ألفى صفحة من القطع الكبير . ومما نذكره اليوم على سبيل الإشارة — مرجئين الكتابة إلى حين صدور التكملة كاملة — أن الأستاذ كارل بروكلمن أثبت فيما أثبت من المصادر والمراجع طائفة من المؤلفات أصحابها علماء وأدباء من لبنان والشام والعراق ومصر خاصة ، منهم : حفنى ناصف وجورجى زيدان وأحمد الاسكندرى ومصطفى صادق الرافعى وأحمد زكي (باشا) وأحمد حسن الزيات وطه حسين وسلامه موسى وزكى مبارك ومحمد فريد وجدى وبشر فارس ثم شفيق جبرى وفؤاد أفرام البستانى والأب الكرملى ومعروف الرصافى

جوائز وزارة المعارف لتشجيع التأليف بين المدرسين

أصدر صاحب المعالى الدكتور حسين هيكل باشا وزير المعارف القرار التالى :

بما اننا نرى ضرورة العمل على تشجيع الانتاج بين المدرسين بمدارس الوزارة وبالمدارس الحرة من طريق حفزهم إلى البحث والتأليف فى موضوعات اختصاصهم والموضوعات المتصلة بها بما يؤدي إلى تقوية شخصيتهم العلمية وزيادة حيوية دروسهم وتكوين ذخيرة من الرسائل العلمية والأدبية ، تدعو إلى نشاط التفكير العام ، اذ ينتفع بها الطلاب والجمهور المثقف على السواء ، وتكون بعيدة عن التقيد بالمناهج وان اتصلت بموضوعاتها

وبما أن المدرسين والأساتذة هم فى جميع البلاد المتحضرة مصدر التجنيد العلمى والفكرى والعملى فى توجيه الحياة الاجتماعية إلى أحدث المبادئ، وأدق الآراء العلمية والأدبية والفنية

بما أننا نرى من خير ما يمهد لهذه الغاية ، ويدفع إلى السير فى طريقها رصد جوائز سنوية تمنح للمدرسين الذين يضعون رسائل فى موضوعات علمية أو أدبية على أن يكون لنيل هذه الجوائز أثر فى تقدير كفاية المدرس وما يستتبعه هذا التقدير من التشجيع قرر

المادة ١ — تعقد وزارة المعارف كل عام مباريات للتأليف بين المدرسين تخصص لها جوائز ثمان قيمة كل منها مائة جنيه ، تمنح للمتبارين الذين ترى لجان التحكيم أن رسائلهم جديرة بالمنح ويكون تخصيص هذه الجوائز على الوجه الآتى :

جائزة للموضوعات الأدبية ، وجائزة للموضوعات الاجتماعية،

فى مرقص لا يعرف الـ ... هم فؤادٌ نزلَه
كأنه فى بقعةٍ ... عن الدنى منعزله
بين الدنى وبينه ... ستائرٌ منسدله
الهمّ فيه واقفٌ ... خجلانَ يُخفى خجلَه
دعنى أضلّ ساعةً ! ... عبءُ التقى ما أثقلَه
ما كنتُ من أهل المُسُو ... ح والذقون المسبلَه
كم وَرَعٍ مصطنَعٍ ... وعفةٍ مُفتعَله

محمود غنيم
(كوم حماده)

وجائزة للموضوعات الفلسفية ، وجائزة للموضوعات الجغرافية ، وجائزة للموضوعات التاريخية ، وجائزة الموضوعات الطبيعية ، وجائزة للموضوعات الرياضية ، وجائزة للموضوعات المتصلة بالتربية وعلم النفس

المادة ٢ — يشترط فى الرسائل التى يتقدم بها واضعوها لنيل الجائزة أن تكون باللغة العربية وان تكون موضوعاتها بعيدة عن التقيد بالمناهج وإن اتصلت بموضوعاتها ، بعيدة عن طبيعة الكتب المدرسية ، وإن تبدو فيها روح الابتكار فى طريقة معالجة الموضوع على الأقل ، وأن يكون لها اتصال بحياة البلاد العلمية والأدبية أو تاريخها القومى ، وأن تصطبغ بالصبغة القومية فى الأمثلة والتطبيق ، وأن يراعى فى التأليف التبسط واستيفاء البحث من جميع أطرافه والأمانة العلمية فى إيراد الآراء والنظريات ، وأن يتبع واضع الرسالة أسلوب البحث العلمى الحديث ، وطرائق النقد الحديثة فى ايراد نظرياته ومناقشتها . كما يشترط أن تكون الرسائل قد وضعت خصيصا لهذه المباريات ولم يكن قد سبق طبعها ونشرها ، والا تقل عن مائتى صفحة من القطع المتوسط

المادة ٣ — تحدد لهذه المباريات فى كل عام مدة غايتها ستة شهور تبتدىء فى أول يونيو وتنتهى فى آخر نوفمبر ، يتقدم فيها المتبارون برسائلهم للوزارة غير مطبوعة

المادة ٤ — تشكل فى كل عام عقب انقضاء الأجل المحدد للمباراة لجان للتحكيم ، تقوم ببحث الرسائل التى تقدم فى المباراة ويكون أعضاؤها من الإخصائيين فى موضوعاتها

المادة ٥ — يجوز للجان التحكيم الا تمنح جائزة ما عن كل أو بعض الرسائل إذا لم تتوافر فيها الشروط المطلوبة ، أو اذا لم تصل الرسالة إلى المستوى الجدير بالجائزة

كما يجوز لهذه اللجان أن تقسم الجائزة الواحدة على أكثر من رسالة إذا تساوت قيمتها العلمية أو تقاربت

المادة ٦ — تتولى وزارة المعارف نفقة طبع الرسائل التى تنال الجوائز ونشرها وتحفظ للمؤلف قسطا من أرباحها

المادة ٧ — على وكيل الوزارة تنفيذ هذا القرار

مشروع المسابقة فى تاريخ الأدب العربى المصرى

نشرنا فى العدد الماضى خبراً عن مشروع المسابقة التى وضعه معالى الدكتور هيكل باشا وزير المعارف فى موضوع « تاريخ الأدب العربى بمصر من الفتح الاسلامى إلى الآن » وقد رأى معالى الوزير أن يستطلع آراء المشتغلين بالدراسات الأدبية فى المشروع قبل إقراره . وقد تلقى ردود الأساتذة وكلها متفقة على تشجيع الفكرة واعتبارها عاملاً قويًّا من عوامل التمكين للمعانى القومية والنهضة الأدبية . ويمكن تلخيص مختلف الآراء فيما يلى :

يؤيد فكرة المسابقة تفتيش اللغة العربية ، وأساتذة دار العلوم ، والأستاذ أمين الخولى من كلية الآداب

ويؤيد بحث الموضوع ويخالف فكرة المسابقة ويطلب اختيار لجنة من الباحثين المعروفين الدكتور طه حسين بك والأستاذ أحمد أمين . وتخالف دار العلوم فكرتهما وترى أن فيها تثبيطاً لهمم الشباب وتحقيقاً لما يصح أن يسمى احتكاراً علميًّا

ويطلب تفتيش اللغة العربية مد المدة إلى سنة ، ويتفق معه فى ذلك الأستاذ أمين الخولى ؛ ويطلب الدكتور طه حسين بك والأستاذ احمد أمين جعل المدة سنة وأربعة أشهر . وترى كلية الآداب زيادة المبلغ المقرر للجوائز . وترى تفتيش اللغة العربية وضع برنامج للمتسابقين ، فى حين يرى الأستاذ الخولى ترك الحرية المطلقة لهم

وستؤلف لجنة لبحث هذه الآراء برياسة وكيل الوزارة ثم تقدم تقريرها الى معالى الوزير ويصدر القرار على أساسه

شاعرة مصرية تفوز بجائزة الشعر الفرنسى

وزع فى الاسبوع الماضى « بيت الشعر » وهو الهيئة التى تضم شعراء فرنسا جوائزه السنوية برياسة المسيو فالى بابيس السكرتير العام السابق للكوميدى فرانسيز

وقد منح الشعراء الفرنسيون الجوائز الثلاث المخصصة لأبناء فرنسا أما الجائزة الرابعة ؛ وهى جائزة ادجار بو المخصصة للشعراء الأجانب الذين ينظمون الشعر باللغة الفرنسية وقدرها خمسة آلاف

فرنك — فقد منحتها السيدة نيلي فوشيه زنانيرى على كتابها الأخير « الظهر تحت السماء المحرقة »

وتدألتى المسيو فالى بابيس كلمة قال فيها : « إن هذه الجائزة — وهي موجودة منذ عشر سنوات — تفوز بها اليوم لأول مرة شاعرة مصرية . وكان الذين نالوها قبل الآن من الشعراء البلجيكيين والسويسريين واللبنانيين والكنديين

وإننا لنغتبط اليوم بأن تنال هذه الجائزة شاعرة مصرية ، هى السيدة نيلي فوشيه زنانيرى ، من أجل كتابها الممتع الطريف وكانت قد تقدمت لهذه المسابقة عدة مرات وها هي الآن تجنى ثمرة ثباتها ومواهبها الشعرية الصافية الفياضة بالشعور

وإننا سعداء اليوم بأن تكون جائزتنا من نصيب مصر ، حيث للثقافة الفرنسية مكانة كبيرة ، وحيث يقابل الكتاب والمحاضرون الفرنسيون بكثير من الحفاوة »

ثم هنأ المسيو فالي بابيس الصحافة المصرية على نموها وازدهارها فى السنوات الأخيرة وأشار إلى أن المسيو روبير فوشيه صهر السيدة الفائزة ومدير مكتب « الأهرام » فى باريس انتخب من بين ٢٥٠ من الصحافيين الأجانب سكرتيراً عاماً لجميعهم . وهكذا فان الصحافة المصرية والشعر المصرى يحتلان مكانة عالية فى باريس

وأشار السكرتير العام بعد ذلك إلى أن السيدة زنانيرى منحت الجائزة باجماع الآراء ، بين ٤٦ متسابقاً أرسلوا ١٥٠ مؤلفاً

وقد أرسل « بيت الشعر » كتاباً رسمياً إلى محمود فخرى باشا وزير مصر المفوض فى باريس يبلغه فيه أن الجائزة منحت لشاعرة مصرية

بين الرافعى والعقاد

قرأت ما يدور الآن من الجدل بين أنصار الرافعى وأنصار العقاد ، وقد أردت أن أدلى بهذه الكلمة الصغيرة فى البيت الذى يطعن فيه أنصار الرافعى من قصيدة العقاد فى الغزل الفلسفى :

فيك مِني ومن الناس ومن كلّ موجود وموعود تؤام

فقد ذهب الرافعى رحمه الله فى نقده إلى أن من كل موجود البق والقمل والنمل والخنفساء والوباء والطاعون والهيضة وزيت الخروع والملح الانجليزى ، إلى واوات من مثلها لا تمد ، أفيكون هذا كله فى حبيب إلا على مذهب العقاد فى ذوقه ولغته وفلسفته ؟

ورأيى فى هذا أن العقاد يمشى فى بيته مع بعض الفلاسفة الذين يزون كل شيء فى الطبيعة جميلا ، ويذهبون فيها مذهب الهيام الذى يبدى كل شيء فيها حسناً ، وهذا شأن كل محب مع حبيبه إذ يبلغ به الهيام فيه إلى حد لا يرى فيه نقصاً أو عيباً ، بل إلى حد أن يرى نقصه كمالاً وجمالاً :

وعينُ الرضا عن كلّ عيب كليلة
ولكنّ عين السخط تُبدى المساويا

فبيت العقاد من هذه الناحية منسجم مع موضوع قصيدته فى الغزل الفلسفى ، ولم يكن فيه محتاجاً إلى تقييد جرير فى قوله :

ما استوصف الناس من شيء يرُوقهمُ
إلا أرى أمّ عمرو فوق ما وصفوا

لأن جريراً لم يكن يتغزل على ذلك النحو الفلسفى ، وإنما كان يذهب فى غزله المذهب الظاهر فى الشعر العربى

ولا بد أن نشير بعد هذا إلى أن كل شيء فى هذا الكون لا يخلو من حسن يسوغ إجراء بيت العقاد على عمومه ، وقد ذهب إلى هذا بعض العلماء فى تفسير قوله تعالى : (الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين) قال العلامة الزمخشري : إنه ما من شيء خلقه إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة ، وأوجبته المصلحة ، فجميع المخلوقات حسنة ، وإن تفاوتت إلى حسن وأحسن

عبد المتعال الصعيدى

حول الفيلسوف « مسكويه » وعصره

سيدى الأستاذ الفاضل محرر الرسالة الغراء

بعد التحية : أشكر لكم وللأخ الفاضل الكريم الأستاذ محمد عبد الغنى حسن ما قدمتماه من استدراك جميل حرصتم فيه من جانبكم على أن تسموا الفيلسوف « بابن مسكويه » بدلا من « مسكويه » ، وحرص حضرة الأخ الكريم على أن يجعل حياته فى العصر « الرابع » لا « الثالث » ، وعلى أن هذا العصر لم يكن عصر تكوين للمعاجم اللغوية بالمعنى المضبوط

فأما استدراككم بشأن الاسم فما رأيكم في أن كثيراً من المؤرخين والمترجمين القدماء والمحدثين قد ذكر الرجل مجرداً عن

« الابن » فدعاه آناً « مسكويه » ، وآناً « أبو علي أحمد بن محمد ابن يعقوب مسكويه » ؟ وما رأيكم أن من بين من دعوه كذلك القفطي وياقوت وابن أبي أصيبعة والوزير أبو شجاع والمستشرق مرجليوث ؟ وما رأيكم في أن « التوحيدي » « معاصره » كان يدعوه دائماً « بمسكويه » كما جاء في كتابه المخطوط « الامتاع والمؤانسة » وكتابه المطبوع « المقايسات » ؟ وما رأيكم في أن مخطوط « جاويدان خرد » وهو أقدم مخطوط يحمل اسم الفيلسوف ينص على أن الرجل كان يسمي نفسه بهذا الاسم ؟

وأما استدراك الأستاذ الصديق بشأن العصر فلست أذكر في الواقع المؤرخ الذي أخذت هذا الأمر عنه . وأحسب أنه قد تقيد في قوله بالقوة والضعف أكثر مما تقيد بالزمن نفسه . وها هو كتاب الفصل في تاريخ الأدب العربي يعتبر أن شعر ابن سينا وهو معاصر لمسكويه يقع في العصر العباسي الثاني لا الثالث ولا الرابع

وأما استدراكه بشأن تكوين المعاجم اللغوية فالواقع أني لم أعن بدرس هذه الناحية لأنها على هامش بحثي . ولكني على أية حال اعتمدت فيما ذكرت على مؤلف ثقة هو المرحوم جورجي زيدان القائل في كتابه : آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٢٢٣ أن هذا العصر يمتاز بنضج العلم وتكوين المعاجم اللغوية ؛ فإذا كان الأستاذ الفاضل يرى أن علماء اللغة في هذا العصر لم يبلغوا من الكثرة والاحاطة ما بلغه علماء العصور التالية فأظن أن كلام زيدان لا يبقى مع ذلك صحيحاً

محمد حسن ظاظا

(الرسالة) لعل القراء الفضلاء يشاركوننا في تحقيق هذا الخلاف

اكتشاف آثار مدينة من قبل المسيح

كتب إلى جريدة الديلي تلغراف مراسلها من نيويورك يقول إن الأثريين الأمريكيين الباحثين قرب شاطئ البحر الأحمر اكتشفوا آثار مرفأ كان زاهراً هناك حوالى ألف سنة إلى ثمانمائة سنة قبل المسيح

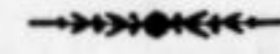
أما المدينة المكتشفة آثارها فهي ازيونجيبر التي يدعوها العرب تل الخليفة . وهي واقعة عند الطرف الشمالي لخليج العقبة . ويرجع الفضل في اكتشافها إلى جهود الدكتور جلوك مدير المعهد الأمريكي للأبحاث الشرقية في القدس



عصفور من الشرق

تأليف الأستاذ توفيق الحكيم

بقلم الأستاذ محمود الخفيف



هذه نفحة أخرى لصاحب أهل الكهف وشهر زاد ، نفحة فيها روح توفيق الحكيم وفن توفيق الحكيم ، حتى لو أن الكتاب الذي يزجيها إليك كان غفلاً من اسم مؤلفه ما استطعت أن ترده إلا إليه ...

ولقد انتظرت هذا الكتاب منذ أن أعلن عنه ، فلما تفضل مؤلفه الفاضل بإرساله إلى أقبلت عليه فتلوته ، ولشد ما رغبت لو أنه طال عما هو عليه ليطول بذلك استمتاعي بتلك اللذة الساحرة التي لن يظفر بها المرء إلا في أمثال تلك القصة من الآثار الفنية العالية ؛ وهأنذا أقدم الكتاب لقراء الرسالة لا أبتغي إلا أن أدلهم على متعة قوية أحب لهم — من فرط ما أعجبت بها — أن يشاركوني فيها

ولو كان المجال هنا مجال نقد يبسط موضوع الكتاب ويعرض لدقائق الفن فيه ، لخشيت أن يحملني إعجابي به على الغلو ، ولكني الآن بنجوة من هذا ، فقصاراي هنا الوصف المحدود ؛ ذلك أن الكتاب كغيره من الآثار القيمة جدير أن يفرد له صفحات أوسع من هذا المجال الذي تتركه لي الرسالة اليوم ...

قوة هذا الكتاب وخطره منحصران فيما يتضمنه من فكرة تستطيع أن تجملها في مسألة هي روحية : الشرق ومادية الغرب ؛ أما القصة في ذاتها فبسيطة سهلة لا التواء فيها ولا جلبة ولا حركات مثيرة ولا مفاجآت قوية ولا غير هذه من ضروب الاستهواء التي نصادفها في بعض القصص ؛ ولقد جاءت تلك البساطة نوعاً من الجمال في الكتاب فكان كآثار راسين سحره في عمق الفكرة ودقة الفن لا في مثيرات الحكاية

هذا محسن فتى شرقي يقيم في باريس ويعرفه الناس بأنه « عصفور من الشرق » تقع عيناه على حسناء من حسان باريس فتستأثر بلبه ويأخذ حسنها بمجامع قلبه ؛ فإذا به يعيش بخياله الشرقي وروحانيته الشرقية عيشة أهل الجنة على هذه الأرض ؛ وتتهيأ له سبل الاتصال بالفتاة ومجالستها ومصاحبتها حتى يصطدم بالواقع ويرى أنها لا تحبه وأنها تخدعه فيكون موقفه — كما صوره المؤلف — موقف آدم عند خروجه من الجنة ...

تلك هي الحادثة ، وهي كما ترى بسيطة غاية البساطة ، ولكنها على بساطتها مليئة بألوان السحر والفن فوصف شعور محسن في حبه يبهج النفس ويملأها نشوة ، وبراعة الحوار والمناجاة هي السحر بعينه ، بله دقة الفن وحسن سبكه

على أن خطر الكتاب وقيمته — كما قدمت — في فكرته ؛ ولقد استطاع قصاصنا الكبير أن يدلي بآرائه على ألسنة أشخاص صورهم أحسن تصوير وأبرعه ، فهذا هو محسن وهذا هو أندريه الغربي الذي لا يعرف خيالاً ولا شعراً ؛ والذي يعتبر نقيضاً لمحسن يهزأ به وبأحلامه يسوقهما المؤلف لترى فيهما روح الشرق وروح الغربي ، ثم هذا ايفانوفتش الروسي العامل الذي يجري المؤلف على لسانه الجزء الأكبر من فلسفته ، ثم هذه هي سوزان الباريسية الحسناء التي أحبها محسن ، إلى غير هؤلاء من الأشخاص الذين صورهم المؤلف أصدق تصوير وأجمله ؛ ولو أني أردت أن أدلك على مواضع الجمال والقوة فيما جرى على ألسنتهم من آراء لدللتك على الكتاب كله ، ولست — شهد الله — أغلو في ذلك ولا أسرف ؛ ولم يقتصر المؤلف الفاضل في تصوير حياة الغرب على الآراء التي أجراها على ألسنة هؤلاء الأشخاص ، بل لقد صور لنا عدة مناظر من الحياة ذاتها كالأسرة التي كان

بعيش فيها قبل انتقاله إلى النزل وكالمسرح وحفلات الموسيقى وغيرها فأحاط كتابه بجو بديع ؛ ولم يكن — شأنه فى ذلك شأن الفنان المتمكن من فنه — يعرض من الصور والمناظر إلا ما يستلزمه إبراز الفكرة الفلسفية التى تدور عليها القصة ؛ انظر إلى الولد الصغير يوحى إليه بمحاربة البوش والشيخ المسن يبدى تذمره واستياءه إذ يعرض لحال العمال وربة الأسرة تخشى أن يرحل محسن إلى جهة أخرى ولا مرتزق لهم إلا ما يدفع من أجر ، تر صوراً قوية أخاذة لحياة الغرب يقدمها المؤلف بين يدى فكرته فى مهارة تحملك على الاعجاب ...

ولقد كان فى التعبير عن فكرته بهذه الطريقة موفقاً جهد التوفيق ، فليس أوقع من الايحاء والاشارة فى تصوير المعنى الفلسفى المراد ؛ تجد ذلك فى الشعر وهو الصور القائمة على اللفظ وتجده فى التصوير بالألوان ، وتجده فى الموسيقى ؛ ولعمرى ما يستطيع عالم من علماء النفس مهما اتسعت آفاق علمه أن « يصور » لك الأنانى أو الخاتل أو الغيران أو الجشع أو اللئيم أو غير هؤلاء كما يستطيع أن يفعل رجل الفن ، فرسم الصور الحية عمل ذلك الفنان ومنها تأخذ من المعانى ماشئت وشتان بين الصورة الحية والمعانى المجردة ؛ وهل قامت عظمة شكسبير ودكنز وجوته وهوجو وراسين وأضرابهم إلا على ذلك الفن الذى يخلق من المعانى الحياة ؟ وإنك لتستطيع أن ترد نجاح توفيق الحكيم ونباهة شأنه إلى هذه الموهبة الفنية أكثر مما ترده إلى أى شىء آخر

وأحب أن أشير هنا أن شخصية محسن هى كما يدرك القارئ دون عناء شخصية المؤلف نفسه تتجلى هنا كما تجلت فى قصة « عودة الروح » كما أحب أن أشير على الرغم من ضيق المجال أن هذا الكتاب يقدم لنا دليلا جديداً على أن فن توفيق الحكيم فى القصة فن غير مقصور على ناحية معينة ، ولقد قدم لنا فى أهل الكهف وشهر زاد لونين من ألوان القصة المسرحية ، ثم أرانا فى عودة الروح لوناً من ألوان القصص غير المسرحية ، وفى يوميات نائب فى الأرياف أتى بنوع جديد يعد من القصص الاصلاحية ، ثم هو فى هذه القصة الأخيرة يأبى إلا أن يبتدع فهو كما ترى لا يتخصص فى نوع واحد ، ولكنه مع ذلك يسمو فى كل نوع سمواً يشعرك فى كل قصة كأنه أوقف على لونها فنه ومواهبه ، ولقد يحسب بعض النقاد هذا مستحيلا أو يعدونه نقصاً ويستشهدون على ذلك بأن كثيراً من كبار القصاصين يقتصر الوحد منهم على لون لا يحسن غيره ، ولكن توفيق الحكيم يقيم الدليل القاطع على غلوهم فى هذا الزعم ، وما ذا عسى أن يحول بينه وبين الاجادة فى كل نوع والمسألة كلها مسألة قصص وهذا فن ركب فى فطرته وإن له من قوة روحه وعمق فلسفته وسعة ثقافته لمعين لا ينضب ؟ إننا لا يسعنا كما أسلفت فى معرض آخر إلا أن نعتز بفن توفيق الحكيم كمظهر من مظاهر نهضتنا الثقافية وما أحوجنا إلى أمثاله فى جميع نواحى حياتنا الأدبية والعلمية . أجل ما أحوجنا إلى أمثاله النابغين الذين يردون بالعمل الناضج الفذ على الذين يرموننا بالقصور وينكرون علينا استعدادنا للتفوق . فليتقبل منى الأستاذ النابه هذه العجالة تحلة معجب وتحية صديق

الخفيف

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾


الرسالة
مجلة اسبوعية
لوم والفنون
العدد ٢٥٦
السنة السادسة

6 me Année, No. 256

Lundi - 30 - 5 - 1938

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٥٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ٣٠ ربيع الأول سنة ١٣٥٧ — ٣٠ مايو سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـــرس

حول اقتراح وزارة المعارف

توحيد الثقافة العامة

ونريد بالثقافة العامة القدر المشترك من المعرفة بين النشء فى طورى التعليم الابتدائى والثانوى . وهذا القدر أشبه بانموذج يُطبع عليه آحاد الشعب فيتحدون فى الهوى ويتفقون فى الطبع ويتقاربون فى الرأى ويتسايرون إلى غاية واحدة تتجه إليها القوى وتصلح عليها الجماعة . وهذا المثال أو المنوال فقدته مصر والعالم العربى منذ اقتبسنا المناهج الحديثة فى التعليم ، والنظم الأوربية فى الحكم ، فكان فى كل قطر من أقطار الإسلام ثقافتان مختلفتان فى الخطر والأثر ، إحداهما تقوم على الدين المشروع والسنة الموروثة وما يتصل بهما من خصائص الجنس وتقاليد الشرق وأساطير التاريخ ، والأخرى تقوم على أساس سطحى من أدب الغرب ومدنيته وعقليته ونظمه . والثقافة الأولى غالبة لصدورها عن الفطرة والعقيده والوراثة والبيئة . أما الثانية فكانت لنبوها عن الطباع تنال العقول والقلوب فى أناة ورفق ، وتغزو الرسوم والأوضاع فى حذر وحيطة ، حتى تم للغرب فتح الشرق فنشر فيه حضارته وثقافته بالإيحاء والإغراء والقوة .

وهنالك أخذ التنازع بين هاتين الثقافتين يفعل فى الحياة فعله ، فغير الوجهة وعوّق السير وشعَّب الرأى وشتت الوحدة ؛ فلم يكن للقائمين على سياسة التعليم بد من الطب لهـذه العلة تفادياً لما ظهر من سوء أثرها فى سياسة الدولة وإنهاض الأمة

وهاهى ذى وزارة المعارف تفكر أخيراً فى توحيد القالب الثقافى فى المدارس المدنية والمعاهد الدينية على وضع لا تزال تفاصيله مجهولة ، لأن الفكرة ما برحت تتردد بين دار الوزارة وإدارة الأزهر . فإذا عرضنا لها اليوم فإنما نعرض للأساس الذى لا يتغير فى التفصيل ولا فى الجملة :

ليس بسبيلنا أن نبحث في أى الثقافتين أدنى إلى الإصلاح وأولى بالأخذ ، فإنا نؤمن بأن لقانون التطور حكما لا يدفع ، وأن للتلاقح الاجتماعى بين الحضارات والثقافات أثراً لا ينكر فى تمدن الإنسان وتقدم العالم . ولكننا نعتقد أن تغليب التعليم المدنى بمناهجه الحاضر على التعليم الدينى أمر لا يُغِبُّ غير الضرر ؛ فإن التعليم المدنى لا يزال عاجزاً يتلمس طريقه المطموس بين الاضطراب والفوضى ، لا يقف عند تقليد ، ولا يطمئن إلى تجربة ، ولا يستقر على نظام . وقد أسفرت أكلافه وجهوده مدى نصف قرن عن جيل مشيأ(١) الخلق مشوش العقل ناقص الكفاية مشكل الوضع ، فلا هو قارئ ولا أمىّ ، ولا هو شرقي ولا غربى ، ولا هو دينٌ ولا ملحد . وقد وسمه كلُّ عمل بالعجز ، ورماه كل مشروع بالفشل ، فلم يستطع إلا بث الضجر فى الناس ، ونشر الفساد فى المجتمع ، وإشاعة السخط على الحياة .

وأما التعليم الدينى فكان على جموده وقصوره أهدى سبيلاً إلى الإصلاح ، وأرجى منفعة للأمة ؛ فقد دأب دهره الطويل يثقف الأفئدة ، ويقوّم الألسنة ، ويزود أتباعه بالأسلحة المواضى لمحاربة الرذيلة والأمية ، فيرجعون إلى قومهم فى المدن والقرى والضياع يتغلغلون فيها تغلغل النيل ، فيرشدون الغوى ، ويعلمون الجاهل ، ويؤاسون المصاب ، وينشرون ظلالاً من الدين والمعرفة والمدنية على حياة الفلاح فيسعد بالسلام والوئام والبركة ، بينما تجد (الأفندية) يتسكعون على أفاريز الطرق ، أو يتقممون(١) على موائد المقاهي ، ينتظرون وظيفة يعيشون عليها ، أو جريدة يدخلون فيها

***

على أن التعليم الدينى ليس صالحاً كله ، والتعليم المدنى ليس فاسداً كله ؛ وملاك الأمر هو مزج الخير فى هذا بالخير فى ذاك ، فيكون منهما قوام صالح تتماسك عليـه الأخلاق وترتقى به المدارك . وليس فى التعليم الأزهرى خير إلا فى عناصره الأساسية الثلاثة : الدين والعربية والشرقية . فاحتفظوا بها واجعلوا ماعداها درَج الرياح . اجعلوها بعد تنقيتها وتقويتها أساساً للثقافة العامة ، فإن فى الدين رياضة الروح ، وفى العربية ثقافة الشعور ، وفى الشرقية سلامة الشخصية . ولا يضيرنا إذا قام التعليم على هـذه الأسس الثلاثة أن يكون ما نتعلمه أوربياً محضاً لا أثر لعلومنا فيه ، ولا صلة لكتبنا به

نريد أن تبسط (المعاهد) سلطانها على التعليم فى هذه الأمور الثلاثة ، ثم تعلن للمدارس إذعانها فيما عدا ذلك . ولا يتحقق هذا السلطان إلا إذا كان لمادتي الدين واللغـة حظ موفور من منهج المدرسة وكفاية المدرس وعناية الوزارة

فإذا سار الأمر فى تعليمهما على الوجه الذي يسير عليـه فى المدارس الابتدائية والثانوية ، اضطربت القواعد فى الجامعة الأزهرية وأصابها من وهن الأساس وتصدع الجوانب ما أصاب كليـة الآداب فى الجامعة المصرية ، فتبنى على الرمل ، وتعتمد على الخواء ، وتكتفى بهذه العناوين الضخمة والألقاب الفخمة والمظاهر الخداعة ، ثم لا نكون قد فعلنا أكثر من أننا عمدنا إلى نظام مستقر يفيد بعض الفائدة ، فحولناه إلى نظام مضطرب يضر كل الضرر

هـذه كلمة عجلى فى المشروع لا فى الموضوع كتبناها توطئة لما ستنشره الرسالة متى وقفت على قرار الرأى فيه

(١) المشيأ : الممسوخ

(١) تقمم إذا قعد يطرد عن نفسه الذباب من التبطل

الماضي والحاضر

للأستاذ ابرهيم عبد القادر المازني

لقيت مرة صديقاً قديماً أثيراً عندي فسألني : « يا أخي أين أنت » قلت : « حيث تراني » قال : « إنا لا نجدك في أي مكان » قلت : « ذاك لأنك تبحث عني في حيث يوجد الناس عادة ، وأنا لا أحب أن أكون حيث يكثر الناس ويزدحمون كالمواشي في الحظائر »

بعد هذه الفاتحة ذهبنا نتمشى واستطردنا في الطريق من حديث إلى حديث فكان مما أذكر أني قلته له أني حر كهذا الهواء لا سلطان لأحد عليّ غير طبيعتي — أعمل ما أشاء ، وأترك ما لا أرضى ، ولا أكون في أي حال إلا على هواي . وأنا حريص على هذه الحرية الشخصية وضنين بها وفي سبيلها ومن أجلها أهمل ما يعنى به الناس غيري ، وأصرف نفسي عما تتعلق به النفوس مخافة أن يجني ذلك على حريتي ولو استطعت أن أبت صلتي بالعالم وأحيا بمعزل عنه لفعلت

وكان صديقي يسمعني أفشر وأمعر على هذا النحو ، فيقول : «صحيح صحيح » ولم أكن أعلم في تلك الساعة أني أفشر أو أمعر ولا كان قصدي إلى شيء من ذلك، وإنما كنت أتكلم بأول ما يجري في الخاطر كما هي عادة الناس حين يتحدثون ، فقلما يكلف الناس أنفسهم في المجالس عناء يستحق الذكر في التفكير فيما يقولون

وعدت إلى البيت وخلوت بنفسي وشرعت أراجعها وأحاسبها قبل النوم على عادتي فاني أعنى في آخر كل ليلة بتدبر ما كان مني في يومي ، وأكره أن أنام قبل أن أفرغ من هذا الحساب ، وما دامت صفحة اليوم قد انطوت فلماذا أبقيها مفتوحة . فأنا كالتاجر أو البنك الذي يحب أن يسوي حسابه يوماً فيوماً ويصفي ماله وما عليه في آخر كل نهار

وفي ساعات هذا الحساب الليلي الذي لا يحسه أو يدرى به أحد، يخيل إلى أني أخرج نفسي وأجلسها وأجلها أمامي وأقدم لها سيجارة أو أناولها فنجان قهوة وأحييها وألاطفها أولا كما يقضي بذلك الذوق والأدب بين المتمدينين ، ثم أفرك كفي وأقول لها بابتسامة عريضة : « والآن تعالي نتحاسب قليلا » فتمتعض أو على الأصح لا يبدو عليها أنها ترتاح إلى هذا الحساب الذي لا أختار له إلا وقت النعاس ، ولكنها لا تبدي لي هذا النفور بل تبتسم متكلفة مثلي وتقول : « ألا ترى أن الوقت متأخر قليلا » فأقول : « أشكر لك هذا الرفق ولكنا ما زلنا قبل نصف الليل فلا بأس من حديث قصير » فتقول : « ولكنك تعبت في يومك ... اشتغلت كثيراً وكددت رأسك جداً ، فخير لك أن ترتاح وفي الصباح ... قبل طلوع الشمس تكون قد استمدت نشاطك وانتعشت فنستطيع أن نتحدث كما تشاء ... هذا فيما أعتقد خير لك » فأقول لها : « إنك يا نفسي طول عمرك رقيقة عطوف ولولا هذا لما رضيت أن أتخذك ولما طالت بيننا الصحبة إلى اليوم ولكن لماذا نرجئ إلى الغد ما نستطيع أن نفعله اليوم كما يفعل التلميذ البليد » فتقول : « إن المدارس لا تعلم حكمة الحياة وليس صحيحاً أن على الانسان أن يتقي إرجاء ما يمكن عمله وإنما الحكمة أن يرجئ إلى غد كل ما يمكن أن يرجئه مما يريد أو يجب أن يفعله اليوم ، ولا سبيل إلى الراحة في الدنيا بغير ذلك وإلا صرنا كالآلات لا نستطيع أن ننعم بحياة أو أن نحس لها طعماً وأصبحنا كالذي زعموا أن زوجته فتحت له دكاناً وأقامته فيه وحده ولم يكفها هذا فجعلت تكلفه أن يعمل كل ما يخطر لها فأصبح الرجل لا يعرف رأسه من رجليه فهو أبداً رائح غاد يعمل في الدكان أو في البيت أو يجري في الطريق ليقضي حاجة مستعجلة فشكا إلى بعض إخوانه ما تجشمه زوجته من الجهد والكرب وما تحرمه من الراحة فسأله صديقه ولماذا لا تطلقها وتريح نفسك من هذا العناء كله ؟ فكان رد المسكين : « وهل تركت لي وقتاً أطلقها فيه »

فضحكت فقالت نفسي : « إنك تضحك ولكن هذا حال من يقبل على العمل إقبالك ويعمل بما علموه في المدرسة من عدم إرجاء ما يمكن عمله »

وتظل نفسي تحاورني وتداورني على هذا النحو وبأمثال هذه السفسطة لتهرب من الحساب فيضيق صدري بها وأهم بزجرها بعنف لولا أن هذا لا يليق وأقول الحق إني أساعدها أحياناً على الهرب لأني في تلك الأحيان أشعر بأن الحساب سيكون عسيراً عليّ أيضاً وأن الموازين ليست خفيفة عندي

وفى تلك الليلة قلت لها بلهجة رقيقة : « هل كان من الضرورى جداً لسعادتك أن تجرى لسانى بهـذا الكلام الفارغ »

فسألتنى : « أى كلام فارغ » فقلت : « إنى حر كالهواء وإنه لا سلطان لأحد علىّ وإنى وإنى إلى آخر ما أطلقت به لسانى من الهراء »

فقالت متهربة : « إن هذه لهجه فى خطاب النفس لا أظنها لائقة »

فقلت بضجر : « لا تحاورينى كما يفعل هذا الضمير التعب» فغمزت بعينها إن هس لئلا يتنبه الضمير الراقد فتكون ليلتنا سوداء ثم قالت بصوت مسموع : « ولكن أى كلام ليس أكثره على الأقل فارغاً »

قلت : « صحيح ولكن أنى حر كالهواء؟ هذا لا يطاق ولا أدرى كيف أزدرده صديق بلا اعتراض »

قالت : « إما أن الصديق لم يفهم أو لم يدرك حق الادراك واما إنه فهم وآثر المجاملة وإتقاء المصادمة أو هو كغيره يفشر ويعمر فهو يحملك جميل الصبر على فشرك لترده إليه حين يفشر هو»

فكادت تفحمنى ولكنى كابرت وقلت : « ولكنى لا أحب أن أكون فشاراً »

قالت : « لا عليك فما أراك كنت فشاراً جدا . إن كل ما قلته هو أنه لا سلطان لأحد عليك غير طبيعتك وهذا صحيح وهو يصدق فى كل حالة وعلى كل إنسان »

فسكت وما ذا عسى أن أقول ، وخطر لى أنى قد أباهى ماشئت بحريتى المزعومة فى التصرف فلن أكون إلا مخادعاً لنفسى فى حقائق الحياة وما دام أنى مسير بطبيعتى التى تسيطر علىّ وتوجهنى فأنا لا أستطيع أن أكون إلا ما تسمح لى به هذه الطبيعة فأنا أبدا مقيد بها وفى سجن منها لا باب له ولا أمل فى فكاك أو خلاص فى هذه الدنيا . وقد تثور نفسى وتمور عواطفى وتفور خواطرى ولكنها لا تستطيع أن تفعل ذلك إلا بالقدر الذى تسمح به طبيعتى الخاصة وإلا فى محيط هذا السجن . ومهما تكبر البحيرة وتعظم فان لها من شطئانها حواجز ولا بد من زلزال يغير معالم الأرض لتغير هذه الحواجز أو توسيعها أو إبعادها وعلى أنها تبقى بعد ذلك حواجز إلا إذا غارت البحيرة كلها واختفت من الدنيا

وخيل إلىّ وأنا أفكر فى هذا أن طبيعتنا أو فطرتنا تجعلنا فى حياتنا خاضعين لسلطان يد أو أيد تمتد إلينا من وراء القبور وأن المـاضى هو الذى يسيطر علينا لا الحاضر وأنه ليس لنا أن نتجه فى سيرنا فى هذه الدنيا إلا إلى حيث تدبرنا هذه الأيدى الخفية التى تمتد من ظلام الماضى

وتذكرت وأنا أدير هـذا المعنى فى رأسى كيف تزوجت ، وأقص الخبر لأن له دلالته وعلاقته بهذا المعنى . كنت صبياً فى الرابعة أو الخامسة — لا حين تزوجت من فضلكم — فزارنا خالى وامرأته ومعهما طفلة لهما منّ الله بهـا عليهما فتناولها أبى ووضعها على حجره وقبّلها ، وأخذ يداعبها ويلمس خدها الطري الصغير بأصبعه الناشف الكبير لتبتسم ثم ردها إلى أمها ونظر إلى أمى وقال : « هذه إن شاء الله لابننا »

ولم أشهد أنا هذه الجلسة فقد كنت فى الكتّاب ولكنهم دعونى حين صعدت إلى رؤية « عروسى » فلم أزد على النظر إليها ثم انصرفت عنها غير عابىء بها لأنها لا تستطيع أن تلاعبنى ولم أكن أعرف فى ذلك الوقت أن هذه التى احتقرتها هى التى ستكون زوجتى يوماً ما . ولو أن أحداً بيّن لى هذا يومئذ وكشف لى عن الغيب فيه لمـا فهمته . وقد قصت أمى على ما دار فى هـذه الجلسة فيما بعد ولم يخطر لى قط أن أشك فى صدقها ، فقد كانت رحمها الله لا تكذب . ولا تعرف المحاورة والمداورة أو اللف إلى أغراضها . وقد مات أبى بعد سنوات قليلة ولم يعش لينعم بهذا الزواج الذى رتبه وقرره لابنه الذاهل فى طفولته . ولكن ابنه — وأعنى نفسى — ظل بعد أن سمع هذا الحديث وعرف رغبة أبيه يدور فى نفسه أن أباه كان يشتهى أن يزوجه هـذه الصغيرة بعد أن يكبرا فاتجهت نفسى مع هذا الخاطر وصرت أنظر إلى بنت خالى نظرتى إلى زوجتى المستقبلة . وكانت امرأة خالى على عادة بعض الأمهات — تبديها لى تارة وتحجبها عنى تارة فأثمرت هذه المحاورة ثمرتها وتعلقت نفسى بالفتاة وصبوت إليها فلما صرت ذا عمل أكسب منه رزقى حققت رغبة أبي وهكذا سيطرت علىّ إرادة أب مات قبل سنوات عديدة ، وقولوا ماشئتم

فى تأويل ذلك ، فلن تخرجوا به عن كونه مظهراً لتحكم الموتى فى الأحياء

ومنذ بضع سنوات قليلة دعانى صديقى الأستاذ سليم بك حسن العالم الأثرى المشهور إلى زيارة ما كشف عنه من الآثار القديمة عند الهرم فى المنطقة التي اتخذتها الجامعة لحفائرها ، وقد طاف بنا ساعات طويلة وهو يشرح ويفسر ، ولكنه لم يستوقفنى من كل ما رأيت سوى أثرين أو نوعين من الآثار : فأما الأول لجدران بيوت قديمة لعلها كانت سكنى لكهنة المابد أو خدمهم ، وقد وقفت مذهولاً أمام هذه الجدران فقد سكنت بيوتاً جدرانها مدهونة على هـذا النحو وبهذه الألوان عينها . والذين سكنوا البيوت القديمة قبل أن ترتفع هـذه العمائر الجديدة يعرفون ولا شك كيف تدهن الجدران من الداخل باللون الأبيض أو الوردى أو الأزرق ، وكيف يجرى خط عريض بلون آخر كالحزام للجدار وفوقه خط آخر ، وتحت هذين على مسافة عشرين سنتيا أو نحو ذلك خط عريض آخر ، وكيف يملأ ما بين الخطين العريضين بالرسوم أو النقوش أو يترك ما بينهما بياضاً

هذا الذوق فى زخرفة الجدران ليس جديداً وإنما هو ذوق انحدر إلينا وورثناه من آلاف السنين وعشرات القرون . وقد طغت علينا فى السنوات العشر الأخيرة موجة من الغرب ، فنحن نقلده فى هندسة البناء وفى طراز الزخرفة ، ولكنا بدأنا نستنكر أن نظل مقلدين ونستهجن أن نفقد بذلك خصائصنا القومية وذوقنا الخاص الذى نتميز به بين الأمم . وعسير أن يتنبأ المرء بما تؤدى إليه هذه النزعة الجديدة إلى التحرر من أسر الغرب والرغبة فى أن نرجع إلى ما تمليه علينا طبيعتنا ومزاجنا القومى الخاص ، ولكن المهم أن هذا التقليد ليس إلا نتيجة الشعور بقوة الغرب وضعفنا حياله وتوهمنا من أجل ذلك أن كل ما درجنا عليه مظاهر للتأخر ، وأن بقاء ذلك معناه بقاؤنا متأخرين فيجب إذن أن نعجل بتغييره بل بمحوه . ولكنا سنستقر على الأيام فتتغلب علينا خصائصنا أو تؤثر على الأقل فيما ننقله ونقلد به الأمم الأخرى .

وما الحاجة إلى الذهاب إلى الهرم للعثور على مثل لتحكم الميت فى الحى وسيطرة الماضى على الحاضر؟ هذه الأديان كلها فى الدنيا جميعها أهى وليدة العصر الحاضر؟ الاسلام والمسيحية واليهودية والبوذية والكونفشيوسية وغيرها ، أحدثها يرجع إلى أكثر من خمسة عشر قرناً . ولست أصدق أن فى الدنيا ملحداً بالمعنى الصحيح ، ورافضاً لكل دين وكل عقيدة . كان لى صديق لا يزال يفاخر بأنه ملحد لا يؤمن بشىء ، وكنت ألومه وأقول له ماذا يعنى الناس منك إذا كنت تؤثر لنفسك أن تكون ملحداً . الحمد ما شئت فان هذه جنازتك كما يقول الانجليز ، ولكن أرح الناس من الانفعال عليهم بهذه الآراء التى لا يرتاحون إليها . فكان يضحك منى ويصر على حماقة الفاخرة بشدة إلحاده . ومضت سنوات والتقينا على ظهر باخرة ذاهبة إلى جنوه ، واضطرب البحر عصر يوم ورمانا لجه بالزبد ، وأنا ممن لا تدور رؤوسهم فى البحر مهما بلغ من اصطخاب أمواجه ، ولكن صاحبى الملحد أصيب بدوار شديد ألزمه سريره ، فقلت أزوره لأطمئن عليه ولأرى ماذا أستطيع أن أصنع له ، فدخلت عليه فألفيته ممتقع اللون جداً من طول ما جشأت نفسه ونهضت بلا انقطاع تقريباً ، وكان مغمض العين ولكن شفتيه كانتا تتحركان أو تختلجان بما لا أسمع من فرط الخفوت ، فملت عليه لأسمع ما هو قائل حتى كادت أذنى تمس فمه ، فاذا به يذكر الله ويتوسل إليه أن ينقذه ويخفف عنه . وقد ترددت بعد ذلك ، أأعيره بما سمعت منه أم أدعه لنفسه ؟ ثم رأيت أن أتركه وشأنه وأن أدع الأيام ترده إلى اتزان الحكم واجتناب التطاول بعقله القاصر المحدود على ما لا يدرك

ولغاتنا ... أليست شجرة أصلها فى الماضى السحيق ... وكل لغة تتحكم فى عقول أبنائها وتصوغها لهم وتصبها فى قوالبها ، ونحن نفكر على طريقة خاصة يضطرنا إليها احتياجنا إلى التعبير وفق أحكام خاصة للغتنا الموروثة بألفاظها ونحوها وصرفها وتراكيبها وقوالبها ومجازاتها ، أى أننا نفكر على نحو ما كان يفكر الأقدمون من أبناء هذه اللغة . ولا سبيل إلا إلى ذلك ولا مهرب منه

ونظام الوقف ماذا هو ... إنه ليس إلا نظاماً يستطيع به رجل مات أن يحكم إرادته بعد زواله وخروجه من الدنيا فى أجيال متعاقبة من الأحياء . ومن كان يشك فى أن الموتى يتحكمون فى الأحياء فليذكر هذا الوقف . رجل له مال سيتركه ويرحل عن الدنيا وكأنما يعز عليه أن يده سترتفع وأن ماله ستتولاه أيد غير يديه فينشئ وقفاً يقضى فيه بأن يرث الذكور ولا يرث الاناث

أو يرث الاناث ولا يرث الذكور ، ويخرج طبقة ويدخل طبقة ويهب من يشاء ويحرم من يشاء، ويتحكم بهذه الوسيلة في إرادات ناس لم يرهم في حياته ولم يعرفهم ولم يحبهم أو يكرههم ... أليست هذه يداً ممتدة من وراء القبر توجه الأحياء إلى حيث تريد ، وتصرفهم عما لا تريد ؟ وهنا موضع التحرز من خطأ قد يسبق إلى الأوهام، فلست أحاول أن أنتقد نظام الوقف أو غيره من النظم، وإنما أنا أسوق مثالا لسيطرة الماضي على الحاضر وخضوع إرادات الأحياء لإرادات من أدرجوا في القبور . وامل لو كنت ذا مال لسرني أن أنشئ وقفاً وأن أعطي وأمنع ، وأنعم على هذا وأبخل على ذاك ، فان السرور بذاك التحكم طبيعي والأمم التي لا تعرف الوقف تعرف ما يشبهه مثل الوصية، وليس الوقف إلا ضرباً من الوصية أو لعل العكس هو الأصح

ولا يتسع المقام لتقصي وجوه الحياة ومبلغ السيطرة الواقعة عليها من الماضي . ثم إن هذا لا ضرورة له فإني أظن الأمر واضحاً وفي وسع من شاء أن يقيس على ما ذكرت

وليس معنى هذا أن حياتنا تتغير وأن الحاضر صورة دقيقة من الماضي وأن عصراً يذهب وآخر يجيء ، بلا اختلاف ولا تفاوت ولا تقدم . كلا فان القول بهذا لا يكون إلا سخافة . ونحن نشهد التطور بأعيننا في زماننا فمن التعنت أن يحاول أحد أن ينكر أنه لا يزال يحدث في الدنيا . وإنما معنى ما أسلفت من الأمثلة أن الكتلة البشرية لا ترمي بزمامها إلى كل من يدعوها إلى تغيير حالها وذلك بأن تقاومه وتناهضه ما وسعتها المقاومة لأنها تجري على عادة ، والحرص على العادة أسهل من الأخذ بالجديد غير المألوف، ولكنها مع ذلك تتزحزح شيئاً فشيئاً عن مألوفها ولكن ببطء شديد ، أو قل ببلادة إذا شئت . فلا يستطيع من يدعوها إلى الجديد أن يحملها على الأخذ به كلا ، فانها لا تستطيع ذلك ولا تقوى عليه ، ولهذا نرى الدعاة إلى الجديد يسرفون في الطلب ونرى الجماعة البشرية تسرف في الرفض أو المقاومة وبذلك ينتهي الأمر بالوصول إلى حد وسط معقول

وقد كانت الكتل البشرية فيما مضى تنتظر أن يجيء الدعاة إلى التغيير من أبنائها، ولكنا صرنا في زمن توثقت فيه الصلات بين الأمم قاطبة وصرنا لفرط السهولة في الاتصال وسرعته كأننا أمة واحدة، فاذا قام داع إلى جديد في انجلترا فان صوته يسمع في الوقت نفسه في مصر والصين ، وقد لا يحدث في مصر والصين مثل الأثر الذي يحدثه في بلاده؛ والأمر في هذا يرجع إلى درجة التهذيب في كل شعب ومبلغ استعداده لتقبل الدعوات الجديدة لا إلى بطء وصول الدعوة ، ومن هنا قلت حاجة الأمة إلى داع خاص من أبنائها، لأن كل داع إلى جديد في أي قطر تبلغها دعوته كما تبلغ أهله ، ومن هنا أيضاً صار التطور في زماننا أسرع لأن وسائل التبليغ والالحاح على الشعوب صارت أسهل وأسرع وأقوى وأفعل، وحسبنا الصحف والمطابع والاذاعة اللاسلكية مما لم يكن له وجود في الماضي

رأيت منذ أيام سيدة عجوزاً من معارفنا تمشي في الطريق مع زوجها الهرم وفتاتها الناهد ، وكنت أعرف هذه الأسرة شديدة الحرص على تقاليد الحجاب . ولكن الزمن جرفها بسرعة التطور الحادث فيه فخرجت الأم العجوز سافرة تنافس بنتها الحديثة في الزينة وسار معهما الأب الهرم لا ينكر شيئاً من هذا الذي كان مثله قبل عشر سنوات يدفعه إلى التفكير في القتل . فهذا مثال لسرعة التطور من جراء السهولة التي تصل بها الموجات الجديدة من الأمم الأخرى

وأعود الآن إلى بداية الكلام فأقول إن هذه الخواطر وأمثالها أرتني أن الحرية التي أزعمني ناعماً بها في حياتي أكثرها وهم ومغالطة للنفس في حقائق كبيرة ، والقصد على العموم أولى وأسلم ، وإن الحياة لأسر ، وكثير على الأسير أن ينادي أنه حر طليق وفي يديه الحديد وله حين يتحرك صلصلة ورنين

ابرهيم عبد القادر المازني

لو كنت الرافعى!

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

كنت أقرأ بعض كتابات الرافعى رحمه الله فى بعض أعداد الرسالة حركنى إلى قراءتها أنى وقعت على « وحى القلم » فى مجلد واحد نسيه الأستاذ عزام عند الدكتور الدرديري فى جمعية الشبان المسلمين، فأخذته أجيل الطرف فيه ، وكان كتابي وحى القلم قد استعاره أخ لى فلم أقرأه مجموعاً وإن قرأت أكثره متفرقاً فى « الرسالة »

قرأت من تلك المقالات الحسان مقالة « دعابة إبليس » ولقد ضحكت لبعض تصويره للمواقف مالم أضحكه من زمن طويل؛ وسرنى أن إبليس شغله الأوربيون يوم الأحد فترك الرافعى يكتب هذا المقال بعد أن ظل يحاوره ويداوره ويماجزه حتى كاد يعجزه ، لو لا أن الأوربيين لم يتركوا له وقتاً يوم الأحد!

ورجعت إلى المنزل أردد هذا المقال فى خاطرى وأجد له تطبيقات وتوجيهات عندى . ومن ذا الذى لا يشاغله إبليس ويماجزه فيما يروم وفيما يحاول ؟ ومن ذا الذى لا يسخر منه إبليس إذ يخدعه المرة بعد المرة عن الشيء بعد الشيء بنفس الطريقة وبنفس النتيجة ؟ ومن ذا الذى كلما خدعه إبليس مرة لم يزل يرجو ويؤمل أن تكون تلك آخر مرة ثم يقع فى نفس الشرك الذى وقع فيه من قبل — وهو يعلم أنه قد وقع من قبل فيه — يستزله الشيطان بالأمل والرجاء حتى يقع؟... كلنا ذلك الرجل. فليس فينا مثلاً من لم يخدع مرة بعد المرة عن صلاة العشاء وهو متعب لينام، أو لكى يؤديها بعد فى جوف الليل فيجتمع له بذلك مع الفريضة التهجد ، فينام ولا يقوم — إن نام — إلا بعد الفجر . وليس فينا من لم يخدع عن الفجر ، بل عن الصبح بتسويفه القيام خمس دقائق يتذوق فيها فى يفظته بقية الراحة التى كان يجدها فى نومه أو ليهدأ فيها جسمه ، أو ليجف فيها عرقه ، فلا يستيقظ بعدها إلا عند طلوع الشمس . كلنا ذلك الرجل على اختلاف تجاربنا مع الشيطان . وللشيطان طريقته فى خدع كل إنسان ، لكننى لا أشك فى أنه وإن اختلفت خدعه وطرائقه التى يستزل بها الناس، لايزال يسوى بينهم جميعاً فى شيء واحد هو كرُّه على الواحد منهم المرة بعد المرة بنفس الأسلوب وبنفس النتيجة؛ فاذا خطر لأحدهم فى موقف وقفه من قبل أن هذا من الشيطان وأن الشيطان خدعه بهذا من قبل ففوت عليه غرضه ، مهد له الشيطان سبيل الانخداع عن طريق الرجاء وأوقع فى نفسه أنه إن يكن فاته ما فاته فى الماضى فان ذلك لن يفوته هذه المرة فسيستيقظ أو سيكتب أو سيعمل عمله الذى ينوى ، ولكن فقط بعد أن ينام أو يهدأ أو يستريح أو يفرغ مما هو فيه من موقف فى قصة أو فى لعبة أو فى حديث . فينام أو يهدأ أو يستريح أو يفرغ ولكن غالباً مع تفويت ما كان يعنى به نفسه أن يعمله بعد النوم أو الهدوء أو الراحة أو الفراغ. وهكذا دواليك. وليس أعجب فى العراك بين خصمين من هذا النوع من الخدع والانخداع بين الشيطان والإنسان ، فلو وزن كيد الشيطان هذا بأى ميزان غير ميزان الإنسان لشال فيه أقبح الشيل . وما كان للشيطان أن يغلب الإنسان أبداً بهذا النوع من الكيد بادى الضعف لو لا أن الإنسان يمين الشيطان على نفسه بتصديقه إياه فيما قد ثبت له بالتجربة أنه يكذبه فيه . وما أظن الحديث الشريف : « لايلدغ المؤمن من جحر مرتين » إلا منظوراً فيه فى باطن الأمر إلى سد هذا الباب من كيد الشيطان وهو أوسع أبواب كيده . ولكن ما أبعد الإنسان من الوجهة العملية عن صفات الإيمان!

رجعت إلى المنزل ولمقال الرافعى هذا صدًى يتردد فى قلبى وذهنى . وكنت أجد فى نفسى إعجاباً بطريقته فى التصوير وحنكته فى التعبير وغوصه فى التفكير . وكانت طرفة الطرف عندي فى ذلك المقال الطريف خاتمته حين اشتد عجب الرافعى من ترك إبليس إياه يوم الأحد ، يوم عطلة الأوربيين كأنهم لم يتركوا له وقتاً ! وهى مفاجأة لم يكن يتوقعها القارئ ، تدل على لطف ما للرافعي من فن . وتصورته وهو يكتب جاهداً ليفرغ من مقاله قبل أن يسترد إبليس بعض وقته الذي استغرقه الأوربيون ذلك اليوم ! وإذا كنا كلنا سواء في الانخداع لإبليس فلسنا كلنا سواء والرافعىُّ فى عدم الإلقاء إلى إبليس باليدين وفى التيقظ له وانتهاز الفرصة منه إن لاحت كما انتهز هو انشغال إبليس بالأوربيين يوم الأحد فكتب — رحمة الله عليه — للرسالة ذلك المقال الطريف

دخلت المنزل وفى النفس ميل إلى القراءة فذهبت إلى أعداد الرسالة ألتمس ما كتب الرافعى فيها . وقبضت منها قبضة فإذا بيدى الأعداد ١٣١ إلى ١٤٠ فقرأت مقالة « اجتلاء العيد » ، وكنت وأنا أقرأه أعجب لانثيال كريم المعانى على ذلك العقل ، وانحياز نبيل العواطف إلى ذلك القلب ، أو بالأحرى تجدد عجبى مما جمع الله للرافعى رحمه الله من حظ فى عمق الفكرة ونبل العاطفة ودقة العبارة ، وعجبت لبعض من لا يقدرون الرافعى كيف لم يقرأوا له ، أو كيف وقد قرأوا لم يقدروا ما كتب عن الطفولة يوم العيد فى مقالة « اجتلاء العيد »

ثم أخذت فى قراءة المقال الثاني من مقالات المشكلة ، انظر إلى استخراجه معنى النيب من كلام المصلح المنتظر ، ونابتة القرن العشرين ، وإذا بصوت أسمعه رفع عينى وأرهف أذنى ، وأصغيت أتسمع لذلك الصوت ولآخر يجيبه ، ولم يستغرق الصوتان إلا هنيهة أرخيت بعدها جفنى أتأمل رنين الصوتين فى نفسى فوجدتها مهتزة بمعان شعرت أنى لا أحسن تصويرها لو حاولت . فقلت : قضية ولا أبا حسن لها . لو كنت الرافعى !

وكان الصوت ينادى : « ما ـ ما » وكان الذى يجيبه صوت أمه هبت من منامها تقول : « نعم ـ حاضر » وقد رشح الصوتان إلى من خلال الجدار

كان الصوت صوت ابنى المريض قد تماثل للشفاء بحمد الله ينادى أمه لبعض شأنه ، فكان جوابها ذينك اللفظين تنفصل بينهما لحظة . وكان أحد اللفظين جواباً على النداء الذى سمعت ، والثانى على الطلب الذى لم أسمع ؛ وكان حس حركة في الغرفة يشير إلى بقية الجواب . وكان للنداء والجواب وقع فى نفسى وشجن لا عهد لى به . ولست أدرى أهى الرقة التى يجدها الوالد لطفله المريض ، أم هي روح الرافعى فى ماقرأت وفى ما كنت أقرأ هيأت نفسى فازداد تأثرها بذينك الصوتين حتى جاشت لها ؛ لكن الذى أدريه أنى لو كنت الرافعى فى ساعتى الحاضرة لأخرجت للناس من خير ما أخرج لهم رحمة الله عليه فى « وحى القلم »

محمد احمد الغمراوى

من أسبوع العروبة والاسلام بالعراق

رسول المجد (١)

للأستاذ عبد المنعم خلاف

يا مجد مولانا محمد ! لقد فنيت فى تصويرك ألفاظنا المسموعة والمقروءة ، ولكن كلماتنا النفسية الهائلة بقيت كما هى مكتومة لم يقرأها الناس ولم يسمعوها ...

وهأنذا أسأل قلمى الميت الجامد التافه ... ومدادى الأسود المظلم ، أن يعينا على تصويرك أيها المجد ، وتصوير فتنة النفس وسحرها بك ...

ولكن تُرى هل القصب الميت يتكلم ... والحبر الأسود ينير ؟ تُرى هل تسمح الأقدار أن نكشف العلاقات الخفية بين نفوسنا وبينك على ضيقنا ورحابتك ؟

هيهات . هيهات ... فإن تلك منطقة حرام على النطق والتصوير بالكلام !

* * *

يا مجد محمد ! تجسم تجسم بأشكال القرن العشرين وأثوابه .. أخرج من الكتب والتاريخ مرة أخرى ... عُدْ عجيباً غريباً كما بدأت غريباً عجيباً ... كن أجساداً تمشى على الأرض فى أشخاص أبنائك الذين أضواهم جوعهم إليك ... كما تمثلت فى أجساد أبى بكر وعمر وعثمان وعلى والحسين وخالد وسعد والمثنى وابن عبد العزيز وعلى الرضا والرشيد وصلاح الدين وغيرهم وغيرهم من الرجال المصابيح الذين لم تر لهم الدنيا شبيهاً إلا تحت جناحك ..

يا مجد محمد ! إنك مجد دنيا عاجلة فاتنة يحن أبناؤها إليها ويحبون أن يتحدثوا عنها أحاديث البطولة والجيوش والقواد والعلماء وفتوح الأقلام وفتوح السيوف ...

كما أنك مجد دين وروح وأخرى وملكوت خفى يتصل بالنبوة والرسالة وما وراء الطبيعة ... إنك مجد الظاهر والباطن والمعلن والخفى ...

(١) ألقيت فى حفلة جبهة الهداية الاسلامية مذاعة بالراديو العراقى

إنك محمد اليتيم الفقير الراعي الحيي الأمي الذي وقف وحده في جوف الصحراء يقول للعالم الأرضي كله : إلى أين أيها العالم ؟ إلى أين ؟ أنت مصروف عن وجه الله ذي الجلال ، وعن الحق الذي قامت به السموات والأرض .. !

إنكم جميعاً أيها الناس تطلبون الله .. ولكنكم جميعاً أخطأتم السبيل إليه . فليس الله حجراً ينصب ويعبد ، وليس إلهاً خاصاً ببني إسرائيل يحب الدم والذهب ، وليس له صاحبة ولا ولد ، وليس كوكباً يشرق ويغرب وينطفئ يا عبدة الكواكب ، وليس يرمز إليه بالنار التي توقد من الطين وشجر الطين أيها المجوس ، وليس يطلب عذاب الجسد أيها الهنود ، وليس القوة كل شيء في سياسة الحياة أيها الرومان ، وخففوا من الفلسفة الشاردة وبلبلة الأفكار أيها اليونان ...

فتقول له الوثنية العربية والجاهلية العريقة : يا ابن أبي كبشة .. أأنت تكلم من في السماء ؟! أألقى الذكر عليك من بيننا ؟ ! إنك لمجنون ... إن أنت إلا ساحر ... إن أنت إلا مسحور ...

وتقول له الأديان والمذاهب والفلسفات : من أنت أيها الصحراوي الأمي حتى تكون المهيمن على الأديان والمذاهب وصاحب البلاغ الأخير من السماء إلى الأرض ؟ ماهي ثقافتك ؟ أتعرف فلسفة سقراط وطب بقراط وحكمة أفلاطون وأفلوطين ..؟

فيقول لهؤلاء جميعاً : « لو شاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله »

« إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ ... » « إنما أعظكم بواحدة : أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ... »

وتقول له السماء : « وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن » . « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا » « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا »

فيمضي في طريقه المملوء بالأشواك والأوعار والمؤامرات والمكايدات حتى يظهر الله كتابه ويبسط سلطانه على مراكز الحضارات . وها أنتم أولاء تسمعون صدى ذكراه في جوف الليل .. بعد ألف وكذا من السنوات . وسيسمع الدنيا حديثه دائماً سيداتي سادتي :

لماذا ندير حديث الذكرى المحمدية مثنى وثلاث ورباع وأكثر ؟

لماذا نملأ الأجواء بضجة التهليل والتمجيد لروح محمد ومجد محمد ؟

لماذا نرغم بغداد ودمشق والقاهرة وصنعاء وأنقرة وطهران وكابل وكل عاصمة عربية وإسلامية على السجود تحت أقدام مكة والمدينة ؟

لماذا ننثر من تراب مكة والمدينة قبضات في أجواء العالم الاسلامي حتى تكتحل به كل عين ويتوضأ منه كل وجه وتمتلئ به كل رئة ؟

لماذا نرسل من أرواحكم الآن أيها السامعون والسامعات وفوداً وفوداً إلى أرض محمد ومعاهده ومواقع جهاده ومشاهد تاريخه ؟

لماذا كل هذا ؟

كل هذا لأننا نريد ونتوقع أن يرجع مولانا محمد إلى الأرض مرة ثانية في أشخاصكم أنتم أيها المسلمون ، لأن الأرض حبلى مجنونة تلد كل يوم فرادى وتؤامى من الجرائم والنكبات والشناعات والقساوات وحرب الآراء والجماعات ؛ ولن ينقذها إلا دكتاتورية رحيمة عادلة معقولة مثل دكتاتورية محمد كما يقول برناردشو الكاتب الأشهر ... ولأننا نريد أن يؤمن المسلمون بأن المستقبل لهم لا محالة إذا ما بدأوا نهضة نفسية مبنية على تعاليم رسولهم التي تميت النزعات الآثمة الدنيئة التي تدور حول حب الحياة حباً يذهب أخص مميزات طالبي المجد ...

ولأننا نريد أن تثبت دعائم النهضة العربية والاسلامية في النفس أولا حتى لا تعبث بها الرياح أو يتسرب إليها السوس

وقد ضربت وضرب كثيرون على أوتار جديد في أحاديث الذكرى النبوية ، ذلك لأننا نريد أن يفهم المسلمون أن الاسلام إن لم يكن مطلوباً ضرورياً لنا كدين نحن مقتنعون بصحته ، ومكلفون التعبد به حتى نصنى نفوسنا ... فهو على أقل تقدير أولى المبادئ التي يجب أن نعتنقها حتى نزيح عن أنفسنا وديارنا كابوس الاستعمار وضغطه الذي لا يرفعه عنا إلا مبادئ الاسلام

العملية الصارمة التي أولها امتلاك كل منا نفسه ووضعه قلبه على كفه ، واعتبار كل منا نفسه قوة هائلة تستطيع أن تفعل الأعاجيب في الأرض

ومتى امتلك المرء نفسه وملكها لمحمد ، فلا والله أن تصل إليه قوة أرضيــة بسيف حديدي أو ذهبي ... ومتى وضع كل امرئ قلبه على كفه ، فليست هناك قاذفات قنابل أو مدمرات بارود تستطيع أن تدنو من ذلك القلب الصغير الذي صنعه الله من معدن سماوى لا يصل إليه كيد إلا من داخله ...

وإلا فخبروني لماذا حتم القرآن في بعض آياته وظروفها على المسلم ألا يفر أمام عشرة من المشركين بل يجابههم ويجالدهم حتى يقتلهم أو يقتل ؟

وخبروني : كيف حلا لأهل بدر وهم ثلاثمائة ليس معهم إلا فرسان وسبعون بعيراً أن يقابلوا جيش المشركين ، وهو ألف معهم عتادهم وخيلهم ورجلهم ... ثم تنتصر الفئة القليلة وتأ كل أرض بدر سبعين جسداً من يآفيخ الشرك ؟

بل خبروني كيف حلا لسبعين عراقيًّا ومثلهم من الفلسطينيين ومثلهم من الأردنيين والسوريين أن يواجهوا جبابرة البر والبحر في ثورة فلسطين الماضية ؟

وكيف استعصى على مالكة العباب والتراب والسحاب والكلاب البوليسية أيضاً أن تتعقب تلك الشراذم المفرقة على شعاب الجبال كالنسور والصقور ، والتي تدير رحى ثورة ما عرف التاريخ لها مثيلاً في ضلاعة الرجال وصبرهم وإيمانهم بحقهم ؟

وقد أخبرني هنا في العراق أحد كبار الصقور الذين كانوا يجاهدون في الثورة الماضية قبل تدخل ملوك العرب ، أنهم كانوا يفعلون الأعاجيب ... وأن الأقدار الإلـهية كانت معهم بالتوفيق والالهام، وأنهم لم يعرفوا تفسير آيات الجهاد التي وردت في القرآن الكريم ، والتي تجرد المسلم من منطق الضعف ووسواس الحذر إلا في هذه الثورة ... وأنهم اكتشفوا سرًّا خطيراً هو أن المسلمين يستطيعون أن يفعلوا أشياء عظيمة تثبت كيانهم وتعجل استقلالهم وتعيد إليهم مجدهم، ولكنهم يجهلون أنهم يستطيعون ، أو لا يجهلون ... ولكن سادتهم وكبراءهم ورجال سياستهم هم سبب الضعف والشلل وأصل الخوف والبلاء ، وأنهم يفرطون ولا يستطيعون أن يلعبوا أدوارهم في الوقت المناسب ، وأن سياستهم — إن كانت لهم سياسة — مكشوفة يقصد بها الشهرة وأنهم غافلون عن الأسباب السريعة التي تحيل النفوس الخزفية إلى نفوس حديدية ، وأنهم يجهلون بتاتاً روح «محمد» ، أو يعرفونها ولا يستخدمونها خوفاً من الاتهام بالرجعية والتعصب ... وأنهم فوق ذلك وأدهى من ذلك متفرقون مختلفون متناطحون كالثيران التي في المجزرة وهي لا تعلم لماذا هي في المجزرة !

أيها السادة :

إننا لسنا هازلين في نهضتنا . لقد طال رقودنا وركودنا وقد عزمنا أن تحيا أولاً جامعتنا العربية المكونة من ثمانين مليوناً هم في مركز الأرض كما تحيا أي جامعة ... لنؤدي رسالتنا السامية في الحياة . ولن يعوقنا عائق مهما كان ملفقاً بالحديد والنار والذهب لأننا القوة التي اختارها الله لحمل رسالته الأخيرة وقوة الله لا تغلب « والله أعلم حيث يجعل رسالته » وقد تكهرب الجو وتكهربت نفوس المسلمين والعرب ، وامتلأت الأفواه باللعنات والسخط والحقد ، ودب دبيب إحساس جديد في جميع الأقطار العربية . وأقسم بالقدر وقوانينه وبسنن الله التي لا تتخلف نتيجة فيها عن مقدماتها ... أني أحس أن الزمن يتمخض عن شيء هائل ! وأن أجواف المسلمين وقلوبهم تغلي الآن لأنهم يوقدون على قلوبهم بالحديد والنار في فلسطين !

أيها المسلمون ! أيها العرب ! تربصوا واستعدوا واغسلوا قلوبكم بتراب محمد الذي في كل ذرة من ذراته قطرة دم مقدس هريق في سبيل مجدكم وعزكم . ولا تهابوا شيئاً ولا تفرضوا الفروض الوهمية أيها السياسيون

يا أسبوع الذكرى ... ذكرى مطهر الأرض من قذارة الروح وقذارة العقل وقذارة الجسم ... طهر نفوس المسلمين ، واغسلها من الأوهام والضعف والجهالات !

أيقظهم من تخدير البنج المعطر الذي خدرتهم به سحرة أوربا لاجراء عملية جراحية عظيمة في جسومهم إلا وهي إخراج

قلوبهم العظيمة الموروثة من ميراث محمد ، ووضع قلوب صغيرة حقيرة منخوبة كافرة فى موضعها !

ارفع عن عيونهم المناظير الملونة المكبرة للتوافه التى تريهم الهر أسداً والحبل جبلا ، والجزية حرية ، والرصاص ذهباً !

ارفعها عن عيونهم حتى لا يخدعوا بالعناوين التى لا وراء منها وحتى لا يخدعوا بالتراب المزوق عن اللباب المحض والصفو الخالص ؟

يا أيتها الأيام السبعة كونى صلوات سبعاً تعيد إلى المسلمين الايمان بأن منقذهم فى السياسة والأخلاق والاقتصاد والحرب والسلم لن يكون غير محمد صاحب الذكرى ورجل الدنيا !

إجعلى صباحاتك السبع إشراقاً وضياء بالأمل والعمل

إحفظى كل كلمة من كلمات الخطباء الشعراء والمنشدين من الضياع. سجليها فى أعصاب سامعيها حتى تستحيل إلى أجراس دائمة الرنة والدعوة إلى استحضار صوت النبى فى الضمائر آمراً : جاهدوا وادأبوا وكابدوا ، صارخاً : طالبوا وغالبوا وصابروا ورابطوا . كونوا نظيفى المادة قديسى الروح . كونوا علماء وجنوداً وتجاراً. كونوا تجاراً ... كونوا تجاراً ... ولا تعبدوا الوظائف الحكومية التى يؤكل فيها الخبز بدموع الذلة وخيانة الواجب

أيها السادة :

يجب ألا يتغير المثل الأعلى الذى وضعه مولانا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم للمسلمين لأنه المثل الأعلى للانسانية . ويجب أن يفهم كل مسلم ذلك حتى يعرف قيمته ومركزه فى البشرية ، كما يجب على أرباب الأديان الأخرى أن يرحبوا بعودة المسلمين لدينهم ، فمن الخير لأرباب الأديان أن يعود قلب المسلم كما كان فى عهده الأول

وليعلموا يقيناً أن المسلم بغير دينه يكون وحشياً متعصباً مؤذياً أنانياً قذراً ... أما بدينه فهو إنسان رحيم قائم على نفسه وعلى الناس بالحق والعدل كما أوصاه الله

وليعلم المسلم أن أول ما يبدأ به فى الاصلاح : البيت . البيت

عبد المنعم خلاف

فلسفة التربية

تطبيقات على التربية فى مصر

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ١٨ —

« ... وثقافة الانسان لا تقدر بمقدار ما قرأ من الكتب وما تعلم من العلوم والآداب ، ولكن بمقدار ما أفاده العلم ، وبمقدار علو المستوى الذى يشرف منه على العالم ، وبمقدار ما أوحت إليه الفنون من سمو فى الشعور وتذوق للجمال ! »

« أحمد أمين »

« للرجل المثقف جسم خاضع لارادته ، وعقل صاف متئد القوى سهل العمل ملىء بما فى الطبيعة من حق عظيم وقوانين كلية ، هذا إلى امتلاء بالحياة المنسجمة الخادمة لضميره الحى ، وإلى حب للجمال وكره للقبح ، وإلى احترام للنفس وللناس ، وإلى وفق تام مع الطبيعة يفيدها فيه ويستفيد منها ، ويسير معها كوزيرها أو ترجمانها وهى كأمه الحنون ! »

« هكسلى »

٨ — خريج اليوم

أقرأت هذين القولين العظيمين فيما مرَّ عليك من قواعد وأصول ؟ وهل أدركت ما يرميان إليه من معنى سام دقيق هو قوام الشخصية الكاملة التى تنشدها التربية الحديثة فى الجماعة الديمقراطية ؟ إن يكن أفليس من الخير أن أبحث معك عن نتائج ذلك « المجهود الهائل » الذى تبذله الدولة فى التربية والتعليم ، كيما نستطيع أن نقدر هذه المدارس بطرائقها ، وتلك المعاهد بأساليبها ؟ . أليس من الخير أن ننشد جماعة « الخريجين » لندرسهم ما داموا هم غرض التربية الأول والأخير ؟ ألحق أن كل نظام يغفل درس نتائجه وتقويمها وتقديرها قدرها الصحيح يعرض نفسه دائماً لآفة الرجعية والجمود والفشل والاضطراب ! فترى ماذا عسانا واجدين إذا شئنا أن ندرس « خرِّيج اليوم » على ضوء هذه الأصول العامة التى قدمنا بها لذلك النقد المر البرىء ؟ سأحاول جهد المستطاع أن أرسم لك صورة واضحة شاملة ترى فى خطوطها المتكسرة ظلا لما يمكن أن يكون عليه « السواد الأعظم » من مدارسنا . ولك بعد هذا أن تحكم على ذلك المجهود الهائل » بما تريد ، وأن تلتمس لملاجه كل ما يمكن أن يفيد !

١ — الشخصية الكاملة

ولقد علمت فيما مضى أن التربية الصحيحة تنشد تكوين « الشخصية الكاملة » بكل ما فى الكمال من معنى ، وأن كمال الشخصية إنما ينحصر فى « عقل » منطقى سليم التفكير مستقل الحكم رائده الحق وحده ، وفى عاطفة مصقولة مهذبة تغذى الخلق القويم وتسكب على الحياة من أسرار الجمال ما يعلوها نعيما ورغداً ونخاراً وشرفاً ، وفى جسم قوى العضلات مفتول الساعد يقوم كهيكل مقدس للروح الخالدة وكأساس وطيد للعقل السليم والعاطفة المستقيمة ، أجل ! لقد علمت ذلك فيما مضى ، فتعال إذا يا صاح نبحث عنه فى تلك الشخصيات القائمة فى « الديوان » وغير الديوان علّنا نسمع أو نرى ... ! !

٢ — العقل

وقد مر بك أيضاً أن « العقل » هو ما جعل الإنسان إنساناً ، وأنه يجب أن يقوم فى النفس مقام السائق فى العربة ، حتى لا يجمح بها جوادها ! وأنه يجب أن يصيب من الغذاء الصالح كل ما يشبع نهمه المطلق حتى يستطيع صاحبه أن يدعى بحق أنه يحيا حياة إنسانية رفيعة ، وأن غايته الفريدة إنما هى « الحق البريء » فى شئون الكون وشئون الحياة على السواء ! وأن الخطأ الذى قد يتعرض له فى أحكامه الخاصة والعامة يمكن أن يُجتنب بقوانين المنطق وطرق التدريس إذا حَسُنَ استعمالها ؛ وأن وأن وأن مما قد لا يتسع الوقت لذكره ! فأين ذلك كله أو بعضه يا عزيزى فى « خريج » ذلك التعليم ؟؟ أين هو العقل المسيطر ؟ وأين هو العقل العاشق للعلم ؟ وأين هو العقل السليم فى أحكامه ؟ وما لحياتنا تمج بأنواع الفوضى ؟ وما لعقولنا تمتلئ بالقشور والسطحيات ؟ وما لها تخطئ كل يوم فيما تكيف به الحوادث والحقائق خطأ قوامه الجهل أو الميل أو ماشئت غيرهما ؟ لست أتكلم عن سواد الشعب ولكنى أتكلم عن المثقفين وحملة الشهادات المتوسطة والعالية ! أين فيهم ناشد الحق للحق وحده ؟ وأين فيهم محب العلم للعلم فحسب ؛ وما بالهم لا يقرأون بعد تخرجهم ولا يبحثون ولا يؤلفون ؟ ؟ ومالك لا تجد فى أيديهم — إذا وجدت — غير الأوراق التافهة من كتب ومجلات ؟ ؟ وما لك لا تجدهم إذا بحثت عنهم فى غير أوقات عملهم — إلا مكدسين فى القهوات يتكلمون كثيراً فى غير ماشيء ، ويضحكون كثيراً على لاشيء ؟ ! مالهم لا ينتظمون فى الجمعيات الاصلاحية المختلفة ؟ وما لنواديهم تبقى خاوية على عروشها بينما هم يعمرون ما تحتها مقاهٍ وحانات ؟ ! ثم ما لآرائهم الاجتماعية والسياسية تضطرب فهي آناً مع الحق الذى لا تعرفه ! وآناً مع الحق الذي لها فيه غنم أو لذويها فيه نصيب ! وآناً ثالثاً مع كل قوى التعبير جعجاع القول مموه الخطابة زائف المنى ؟ ! الأدب الرفيع فى مصر هل له حياة عند غير أهله وعارفيه وهم أقل القليل ؟ والعلم الدسم فى مصر هل يجد له شارباً حتى من أولئك الذين درسوا فيه شيئاً ، فلما نالوا « الشهادة » وكسبوا الوظيفة ركلوه بأرجلهم ومضوا يشبعون كل شيء غير العقول ؟ !

ذلك وكثير غيره واقع وملموس ! ! فالمتعلمون هنا يتعلمون للعيش فحسب ؛ والعلم عند أكثرنا وسيلة لا غاية قط ، والطريقة التى « نتعاطاه » بها كانت وما زالت فى بعض نواحيها رثة بالية لا تحببنا فيه ولا تحببه فينا ، ولذلك ما نلبث أن نهجره وما يلبث أن يهجرنا ! . ومن هنا لا تعجب قط إذا أدركت فى متعلمينا عقول العصافير ، وسمعت منهم زقزقة الطير ، وتبينت فى أنوفهم هذا الكبرياء وذلك الغرور ، ولاحظت فى حياتهم هذا الاقفار الأليم من « دنيا العقل » وسلطان العلم !

لست أنكر أن فى الجامعة بعض ما قد يبشر بجيل جديد ! ولكنى ما زلت أخشى أن تطغى الحياة القاسية على الشباب الموموق فتزيل من نفسه ذلك التعلق بالحياة العلمية كما قد أزالته حتى فى الكثير من رجال البعثات أنفسهم !! ذلك أن هذا التعلق مصطنع ودخيل وحديث ، ولذلك ما يلبث أن يخمد فى الكثيرين فاذا هم يسيرون فى التيار العام ناسين أو متناسين آمالا باسمة وأطماعاً هائلة !! ولست أنكر أن فينا من يؤلف وينتج ويخرج من الآثار الأدبية والعلمية كل ثمين قيم ؛ ولكن ألا ترى معي أن علمنا مازال عالة على علم الغرب ، وأن تآليفنا يقل فيه « الابداع » أيما قلة ، وأن الكثير من رجالنا إما « ممرين » فحسب ، وإما « ملخصين » لا غير ، وإما « قارئين » مع « الهضم » أو « عدمه » ؟ ثم ألا ترى معي أيضاً أن الدولة مقصرة فى حق

رجال الأدب والعلم أيما تقصير ، وأنها إذا كانت لا تعمل على تكوينهم تكويناً سليما ، فهي ماتزال تتركهم يكافحون الحياة القاسية بسواعدهم ، وينفقون زهرة عمرهم ويوجهون نشاط عقولهم وقلوبهم إلى كسب قوتهم وقوت عيالهم فحسب ، وإن هي تنبهت وقصدت إلى الأخذ بيدهم ، فقلّ أن يأتي ذلك منها خالصاً سليما ، لأنها إما أن تعطيهم الأجر الضئيل ، وإما أن تقذف بهم فى عمل بغيض لاصلة له بعلمهم أو فنهم قط ، وإما أن تسيء تقدير عملهم بالقياس إلى الأعمال الأخرى ، إلى حد يزهق نفوسهم ويميت حماسهم (١)

وها أنت ترى أن « المعلمين » فى مصر هم خير رجال العقل وأجدر الناس جميعاً بالمساعدة والتشجيع ، وأن النهضة العلمية إنما قامت وتقوم على كواهلهم

فماذا فعلت الدولة لهم وماذا قدمت غير ذلك العمل المرهق الذى يحرق أعصابهم (٢) ، وغير ذلك الأجر الضئيل الذى لا يقارن بأجر غيرهم من رجال الدولة العاملين (٣) ؟! وإلى اللقاء حيث أحدثك عن نواحي أخرى ...

« يتبع » محمد حسن ظاظا

مدرس الفلسفة بشبرا الثانوية الأميرية

---

(١) ونذكر بالشكر والتقدير مسابقة الوزارة الأخيرة فى التأليف

(٢) وقد فصلنا الكثير من أمره في المقال الأسبق

(٣) وتجرى الوزارة رغماً عن عدم مساواتهم فى كدرهم بكادر رجال القضاء على نظام الترقية تبعا للأقدمية . ومعنى هـذا أن المدرس الشاب المتلئ نشاطاً وحماساً والذى يستطيع أن يضاعف مجهوده العلمى أضعافاً مضاعفة أملا فى حسن الجزاء وزيادته لا أمل له فى الترقية قط إلا عند مايحل دوره . ومن هنا ينشأ اليأس ويؤدى العمل بنفس غير راضية ولا مطمئنة . والحق أنه قد آن الأوان للعناية التامة بهذه الناحية ، لأن المعلم لا يستطيع على أى حال أن يقدم أكثر مما يأخذ ... ! !



ما أجمل « المكرسكوب » إذا وضع إلى جانب « الكمنجة » ! ! فى مصر والشرق العربى قلما نجد هذا المنظر . فان رجل العلم ذا النفس الحساسة بالجمال الفنى قليل . أعرف مع ذلك واحداً هو الدكتور حسين فوزى مدير إدارة الأبحاث المائية فى الاسكندرية ، فهو عندى أثمن ما فى الاسكندرية . ما أكاد أضع قدمى فى هذه المدينة حتى أسرع إلى « معمله » أشاهد أسماكه الغريبة تلعب فى أحواضها البلورية ، وأراقب مخلوقاته العلميـة تنبض تحت المكرسكوب . إلى أن يحين وقت الغداء فيخلع رداء المعمل الأبيض ويقودني إلى مسكنه حيث يطعمني خير الطعام ويحمل « الكمنجة » ويعزف لى إحدى « سونات » بيتهوفن التى أحبها . على أن هناك متعة نفسية أخرى طالما انتظرتها منه وطالما أغريته بها : القلم . لكنه كان يماطلني ويهرب منى كالعصفور الذى يهرب من الشبكة ؛ وأخيراً وقع وحمل القلم ونشر كتابه « سندباد عصرى » يصف الجانب الانسانى من رحلته العلمية فى بعثة السر جون مرى إلى المحيط الهندي ، بأسلوب كالبحر الذى أمامه زاخر بعناصر الحياة وأنواع الصور مع خفة روح ورشاقة تعبير

وذهبت مع الدكتور فوزى منذ أيام أقدمه إلى وزير المعارف فابتدره الوزير قائلا :

— حذار من توفيق الحكيم أن يفسد عليك العلم ويغريك بالأدب !

فابتسمت أنا ابتسامة ماكرة . وأخرج صاحبي من تحت إبطه « كتابه » وقدمه دليلاً ناطقاً على أن الافساد قد تم وأن الأغراء قد حصل !

أما أنا فسرورى كذلك قد تم . فانى سوف أرى فى زيارتى القادمة للاسكندرية « المكرسكوب » و « الكمنجة » و « القلم » جنباً إلى جنب : أجمل رمز لاجتماع العلم والفن والأدب فى كائن آدمى واحد . وتلك إحدى معجزات الظروف التى لم تتهيأ إلا لمثل « إينشتين » اللاعب بالفكر واللاعب بالكمنجة . أما اللعب « بالقلم » فلم يغره به بعد شيطان من الشياطين ! فطوبي لحسين فوزي الذى اكتملت فيه الهبات الثلاث !

توفيق الحكيم

محمد إقبال (*)

شاعر الاسلام وفيلسوفه

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —

ينتسب إقبال إلى أسرة قديمة برهمية دخلت فى الاسلام منذ ثلاثة قرون . وكانت تقيم فى كشمير ، ثم اضطرتها الحادثات أن تهاجر إلى البنجاب . واستقر بيت إقبال فى سيالكوت من إقليم البنجاب حيث ولد سنة ١٨٧٦ ؛ وبدأ تعليمه فى هذا البلد وظهرت فيه مخايل النبوغ ، وكان يسبق أقرانه ويظفر بمكافآت الحكومة التى تمنحها النابغين من التلاميذ . وفى سيالكوت درس الأدب الفارسيّ والعربى على مير حسن أحد الأدباء النابهين

ثم انتقل الشاب النجيب إلى لاهور فدخل كلية الحكومة ولقى بها السير توماس آرنولد فأخذ عنه الفلسفة . وقد سمت الأستاذ آرنولد يفتخر بأن إقبالاً تلميذ له . وأتم إقبال دراسته متفوقاً ظافراً بالجوائز الكثيرة . ثم نصب مدرساً للفلسفة فى الكلية الشرقية بلاهور

وقد شدا إقبال الشعر وهو تلميذ فانتظر الأدباء منه شاعراً عظيماً . وفى سنة ١٩٠٥ سافر إلى أوربا فدرس فى كمبردج ثم فى ميونخ حيث نال درجة دكتور فى الفلسفة . وكان فى أوربا مثال الجد والمثابرة وموضع ثقة أساتذته . وقد استخلفه أستاذه آرنولد حينما غاب عن كمبردج شهوراً . ولم ينس فى أوربا أن يدافع عن الإسلام ويبين مزاياه فألقى فى انكلترا محاضرات فى هذا الموضوع

ورجع الدكتور إقبال إلى الهند سنة ١٩٠٨ فأحسن قومه استقباله راجين فيه خيراً لأمته ودينه . وعمل فى المحاماة واستعانه المسلمون فى كثير من شؤونهم . ومازال يزداد مكانة فى السياسة والأدب حتى بلغ ما بلغ من المجد وذاع صيته فى الهند وغيرها . ولا يتسع المجال لتفصيل الكلام فى تاريخه وسياحته فى الهند والأفغان وفى الأندلس وأوربا وذهابه إلى مصر والقدس

بدأ إقبال نظمه فى اللغة الأوربية فنشر فى الصحف وأنشد فى المجامع قطعاً كثيرة جمعها بعد فى ديوانه الذى سماه (بانك درا) أي (صوت الجرس)

فى هذا الديوان أول أشعاره ، ولكنه لم يكن أول دواوينه إنتشاراً . وهذه كتب إقبال على ترتيب نشرها :

١ — أسرار خورى
٢ — رموز ابن خورى
٣ — بانك درا
٤ — پيام مشرق
٥ — زبور عجم
٦ — جاويد نامه
٧ — مسافر
٨ — ضرب كليم
٩ — بال جبريل

وقد مات وهو ينظم : أهلك حجاز

ومن هذه المنظومات السبع ثلاث فى اللغة الأوردية ، هي : بانك درا ، وضرب كليم ، وبال جبريل . والأخريات فى الفارسية وله غير ذلك مؤلفان باللغة الانكليزية ، الأول تطور ما وراء الطبيعة فى فارس ، والثانى : محاضرات حاول فيها أن يبني العقائد الاسلامية على فلسفة جديدة وجعل عنوانها : إصلاح الأفكار الدينية الاسلامية

فأما منظوماته : بانك درا ، وزبور عجم ، وضرب كليم ، فقد ضمنها قطعاً كثيرة تبين عن مناح كثيرة من فلسفته وعواطفه يتناول فيها العالم والانسان والأخلاق ، ويحاول جهده إيقاظ الشرقيين عامة والمسلمين خاصة ، وتبصيرهم بطرائق الحياة وإشمال الحماسة والغيرة والاقدام فيهم

وأما منظومتاه الصغيرتان : مسافر وبال جبريل فقد سجل فى الأولى ما أثارته فى نفسه زيارة أفغانستان إذ دعاه ملكها المرحوم نادرشاه هو وبعض مفكرى الهند ليستشيرهم فى إنشاء جامعة فى كابل ، وفى الثانية مشاهده فى بلاد الأندلس

وأما جاويد نامه فهي رحلة فى الأفلاك ، دليله فيها جلال الدين

(*) ذلك نص المحاضرة التى ألقاها الدكتور عبد الوهاب عزام بدعوة من جماعة الأخوة الاسلامية في دار الشبان المسلمين . وقد سمعها كثير من رجال الأقطار الاسلامية فى مصر

الروسى لقى بهـا عظماء المسلمين من ملوك وأدباء وعلماء ، ومنهم بعض رجال العصر . كالسيد جمال الدين الأفغانى وسعيد حليم باشا ومهدى السودان وقد سماها باسم أحد أنجاله جاويد ، وأراد بها بناء جيل جديد

وأما پيام مشرق فقـد جعله جواباً للشاعر الألمانى الكبير جوته عن ديوان الغرب الذى أسف فيه لما أصاب المدنية الغربية وتمنى أن يمدها المشرق بعقائده وعواطفه

وإذا عبرنا هذين الكتابين عرفنا فلسفة إقبال وآراءه ومذاهبه فى الحياة وخياله وفنه فى الأدب :

نشر پيام مشرق سنة ١٩٢٣ وكتب على صفحته عنوانه : « ولله المشرق والمغرب » وكتب تحت اسم الكتاب « فى جواب الشاعر الألمانى جوته » . والديوان أقسام :

الأول : لاله طور : أى شقائق الطور ، وفيه ١٦٣ رباعية

والثانى : أفكار ، وفيه عناوين مختلفة مثل الوردة الأولى ، تسخير الفطرة وهى محاورة بين آدم وإبليس ، فصل الربيع ، الحياة الخالدة ، أفكار النجوم ، محاورة العلم والعقل ، الحكمة والشعر ، قطرة ماء ، العبودية

والثالث : من باقى — أى الخمر الباقية ، وهي قطع متشابهة فيها نزعة التصوف ممزوجة بفلسفة الحياة

والرابع : نقش فرنك ، وفى هـذا القسم يتكلم عن عظماء الفلاسفة والشعراء فى أوربا ويبين رأيه فيهم

وهذه أمثلة من شعر إقبال فى هذا الديوان بعد أن تذهب الترجمة النثرية بكثير من جمالها وروائها

الحياة

بكى سحاب الربيع فى جنح الليل فقال : هذى الحياة بكاء مستمر فتلألأ البرق الخاطف :

قد أخطأت ! إنهـا لمحات من الضحك

ليت شعرى من روى للبستان هذا الحديث فهو حوار مستمر بين الندى والورد

اليراعة

سمعت اليراعة تقول : لست كالنملة ينال الناس شرها ؛ ولست كالفراشة تصطلى بنار غيرها . أنا أشتعل بنفسى ولا أحمل لأحد منّا . إذا سار الليل أحلك من عين الظبي أنرت بنفسي لنفسي الطريق

الحقيقة

قالت العقاب بعيـدة النظر للعنقاء : إن الذى تدركه عينى سراب . أجابت العنقاء : أنت ترين ذلك ، ولكنى أعلم أنه ماء . فنادت السمكة من لجة البحر : هنا وجود لاشك فيه ، وهو فى هياج واضطراب

الحكمة والشعر

ضل أبو على فى غبار الناقة ، وأمسكت يد الرومي ستر الهودج . هذا غاص حتى ظفر بالجوهر اللألاء ، وذلك دار مع الغثاء على وجه الماء . الحق إن لم تكن فيه حرقة فهو حكمة ، وهو شعر إذا قبس من القلب ناراً

الوحدة

ذهبت إلى البحر فقلت للموج المصطخب : أنت فى سعى دائم فما خطبك ؟ فى جيبك آلاف اللآلئ فهل فى صدرك جوهر من القلب كالذى فى صدرى . فاضطرب وجزر ولم يحر جواباً

* * *

ذهبت إلى الجبل فسألت : ماهذا الجمود ؟ ألا ينال سمعك صيحات المكروبين وآهات المحزونين ؟ إن يكن العقيق الذى فى أحجارك قطرات من الدم فحدثنى فإنى محزون

فانقبض وصمت ولم يحر جواباً

***

قطعت طريقاً بعيدة ... وسألت القمر : يا جوّاب الآفاق ! هل قُدر لك فى سفرك قرار ؟ العالم حديقة ياسمين من شعاع وجهك ، فهل نور وجهك من قلب يتجلى ؟ فرأى رقباء بين الأنجم فلم يحر جواباً

* * *

تخطيت القمر والشمس إلى حضرة الخلاق فقلت : ليس فى عالمك ذرة تعرفنى . العالم خلو من القلب وأنا قبضة من التراب ، ولكنها كلها قلب

إن هذه المروج جميلة ولكنها ليست أهلاً لنغماتى . فتبسم ولم يحر جواباً

نسيم الصباح

إنى آتية من صفحات البحار وقمم الجبال ولكن لست أدرى من أين أهب . إنى أبلغ الطائر المحزون رسالة الربيع وأنثر فى داره فضـة الياسمين . وأتقلب فى المرج وألتف على أغصان الشقائق

فأبعث اللون والرائحة من مسامّها ، وأتملق رفيقة رفيقة بأوراق الورد والزهر حتى لا أثقل على أغصانها ، وإذا رأيت شاعراً هاجته هموم العشق خلطت بنغماته نفساً بعد نفس

العشق

عندى خبر هذه الكلمة الأخاذة للقلوب التى هى سر وليست بسر . أنا أنبئك من سمعها وأين سمعها ! استرقها الندى من السماء فأوحاها إلى الورد ، وأخذها عن الورد البلبل ، ونمّتها عن البلبل ريح الصبا

نغمة حادى الحجاز

يا ناقتى الخطّارة وظبيتى المطارة
وعدّتى والشارة
والمال والتجارة يا دولتى السيارة !
حتى الخطى قليلاً منزلنا قريب

***

جميلة الرواء مطرية الرغاء
محسودة الحسناء وغيرة الحوراء
بنية الصحراء !
حتى الخطى قليلاً منزلنا قريب

***

كم غصت فى السراب فى وقدة اليباب
وسرت لم تهابى فى الليل كالشهاب
والنوم عنك نابى
حتى الخطى قليلاً منزلنا قريب

***

قطعة غيم غادى سفينة الرواد
كالحظر فى البوادى تمضين فى سداد
فلذة قلب الحادى !
حتى الخطى قليلاً منزلنا قريب

***

هيامك الزمام وسيرك الأنغام
يتعبك المقام لا الجوع والأوام
والسفر المدام
حتى الخطى قليلاً منزلنا قريب

***

ممسية فى اليمن مصبحة فى قرن
ترين حزن الوطن كالحز تحت الثفن
إيه غزال الحسن !
حتى الخطى قليلاً منزلنا قريب

***

بدر السماء نعسا خلف التلال خنسا
والصبح قد تنفسا مزق هذا الغلسا
والريح تزجى نفساً
حتى الخطى قليلاً منزلنا قريب

***

لحنى دواء السقم والروح ملء نغمى
يحدو الركاب كلمى من جارح وبلسم
هلم بنتَ الحرم !
حتى الخطى قليلاً منزلنا قريب

(البقية في العدد القادم) عبد الوهاب عزام

حول المذهب الرمزى

للأستاذ محمد فهمى

تناول الأستاذ عبد العزيز عزت المذهب الرمزى فى مقاله الأخير بالعدد « ٢٥٥ » من الرسالة « الغراء » فجاء بآراء تجعل القارئ يقف متسائلاً ... ماذا يقصد الأستاذ عزت بهذا ؟ ! هل يقصد الرمزية فى الفلسفة أم يقصد الرمزية فى الأدب والشعر ؟ فان كان يقصد الأولى فانه لم يحدد غرضه ، لأن ماساقه من آراء العلامة مارتينو فى كتابه « المذهب الرمزى والبرناس » « إننا نجد عند فرلين وعند ملارميه وعند رامبو وكثير من الرمزيين أن الشىء الواقع وقبوله حاضراً كان أم ماضياً لا قيمة له مطلقاً » وليس فى هذا اشارة إلى رمزية فى الفلسفة . اذن فالأستاذ يقصد رمزية الأدب والشعر وهو ما يفهم من ثنايا مقاله ومن الأمثلة التى ساقها وأسماء زعماء الرّمزية الذين ذكرهم . ومن العجيب أن يخلط الأستاذ فى الاستشهاد والرد والتجريح هذا الخلط الذى يبعده عن خاصيّة تحديد الموضوع تلك الخاصية التى يتوخاها كل دارس للفلسفة مثل الأستاذ الفاضل .

فالمعروف أن الفلسفة شىء والشعر والأدب شىء آخر . وأن المذاهب الفلسفية غير المذاهب الأدبية وان كان التفاعل متصلاً بين هذه وتلك ، ولكن عن طريق الاحتكاك والتأثير لا عن طريق الاندماج ؛ فلكل ميدانه ومنطقته . فالفلسفة مظهر نشاط التفكير العقلى ؛ وأما الآداب والشعر فمظاهر لانفعالات الحسّ وهواجس الروح

فما شأن آراء أوجست كونت « فى كتبه المتعددة عن الفلسفة الوضعية والتفكير الوضعى برمزية الأدب والشعر ؟ ! وما شأن رأى أبى الاجتماع الحديث « دوركيم » فى العلم برمزية الأدب والشعر ؟ ! وما كانت الرمزية التى تناولها الأستاذ مذهباً من مذاهب العلوم ! بل ما شأن مذاهب فلاسفة السوفسطائيين والثورات الثلاث التى أثارها على التعاقب سقراط وأفلاطون وأرسطو ؟ ما شأن كل هذا بالمذهب الرمزى الذى يتحدث عنه الأستاذ فى مقاله ؟ حقاً لقد هدّمت هذه الثورات الثلاث الكثير من آراء السوفسطائيين حتى صدّعت مذهبهم ، ولكن هل غيرت أو هدّمت فن سوفوكليس واريستوفان ويوريبيد ؟ كلاً ، لأنها كانت ثورات فى الفلسفة ولم تكن ثورات فى الفنون والآداب ! وقد عاصر هؤلاء الأعلام فى الأدب الاغريقى كلا المذهبين السوفسطائى والسقراطى فما تهدم فنهم بهذا ولا بذاك !

وأظننا لسنا بحاجة إلى القول أن العلم شىء والأدب شىء آخر . فالعلم لا وطن له ، وإن النظرية العلمية يبتكرها عالم فى أى بلد من بلاد العالم ، وعند ما تثبت بالتجربة والبرهان تصير ميراثاً مشتركاً لكل عالم على وجه الأرض من أى مملكة هو ولأي جنسية يتبع وبأىّ دين يدين . وما هكذا الشأن فى الأدب . فلكل أمة أدبها ونوازعها ومظاهر بيئتها وتراث تاريخها ودياناتها وتقاليدها . فكيف يسوق الأستاذ تلك الآراء والأدلة الطويلة العريضة لرجال الفلسفة والعلم فى موضوع هو من أخص خصائص الآداب والشعر !!؟

أما استشهاد الأستاذ برأي العلامة « مارتينو » « ... فان المذهب الرمزى عند ما ابتدأ ظهوره وأخذت أبواقه ترتب الدعاية والنشر له قامت قائمة الناس فى فرنسا وسموه « النزعة الجنونية » لما يتضمنه من القضاء على الروح الاجتماعية والتضامن بين أهل البلد الواحد ، ولهذا أجمع الناس فى فرنسا على جوحه وشره الفتاك وقاوموه بكل ما عندهم من قوة ، وأمكنهم — كما يذكر العلامة المدير — أن يقضوا عليه فى عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً من ولادته ، ودفنوه (غير مأسوف عليه) »

هكذا يقول العلامة مارتينو الذى يستشهد به الأستاذ عزت .

وما أظن العلامة المدير إلا ناقداً مجرحاً قاسياً ، أو مفكراً قريب الشبه بطائفة المحافظين عندنا الذين يقيمون الدنيا ويقعدونها « دنياهم وحدهم طبعاً » كلما نشأ اتجاه جديد سواء فى الأدب أو الشعر أو الاجتماع . وإلا كيف ساغ للعلامة الكبير أن ينساق مع رأى الناس في تسمية الرمزية « النزعة الجنونية » إذ على هذا القياس يكون من ذكرهم فى كتابه « المذهب البرناسى والرمزى » من الأعلام أمثال فرلين وملارميه ورامبو وكثير من الرمزيين إلا مجانين ! ولا أظن العلامة الكبير يوافق على هذا ولا الناس فى فرنسا ولا القراء ولا الأستاذ عزت !

ثم ما ذا يقصد من أن المذهب الرمزى قضى عليه فى عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً من ولادته ؟ هل معنى هذا أن آثار الرمزيين قضي عليها تماماً « غير مأسوف عليها » وإنها الآن فى

حيز الكتابات الهيروغليفية قبل اكتشاف شمبليون لحجر رشيد؟ أم أن الرمزية قد قضى عليها كمذهب قائم بذاته له أنصاره ومدرسته! إن كان الأخير فهذا أمر طبيعي وهو مآل كل مذهب قائم الآن. فالآداب والشعر تتغير بتغير المجتمع والبيئة في الأمة في عصورها المتعاقبة. وإنك لتشاهد الآن في انجلترا أن مذهب الرمانتيكية وكان من أعلامه شكسبير وملتون، وفي فرنسا هوجو ولامارتين، قد أخلى الطريق لغيره من المذاهب التي خلفته شأن مذهب الرمزية وكل مذهب أتى أو قائم أو سيأتي...

ولكن لا ينكر أحد فضل الرومانتيكية في الأدبين الانجليزي والفرنسي وأنها كانت من العوامل المؤثرة في نشوء المذاهب التي أعقبتها. وهكذا فعلت الرمزية إذ أثرت فيما خلفها من المذاهب

بل إن مذهب السوفسطائيين في الفلسفة الذي ذكره الأستاذ في مقاله كان له أكبر الفضل في نشوء الفلسفة السقراطية وتلك الآراء والتعاليم القيمة التي ابتدعها سقراط وحمل لواءها أفلاطون من بعده؛ ثم كانت أساساً لتلميذه الفذ أرسطو. ولا يخفى أن من السوفسطائيين من كانوا يلمسون الحقيقة في بعض المواقف حيث يخطئها سقراط نفسه. «أنظر محاورة بروتا جوارس» بين سقراط وشيخ السوفسطائيين الذي سميت المحاورة باسمه

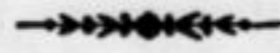
ولعلي في هذه الكلمة قد جلوت بعض نواحي الأشكال والغموض اللذين أثارهما مقال الأستاذ عزت الأخير؛ ولعله في مقالاته الآتية يتفضل بمراعاة التحديد وعدم الخلط بين المذاهب الفلسفية وآراء الفلاسفة وبين المذاهب في الآداب والشعر

«القاهرة» محمد فهمي

أسبوع في فلسطين

للأستاذ محمد سعيد العريان

تتمة ما نشر في العدد الماضي



لن أتحدث عن مشاهدات في هذه البلاد رأيتها بعيني، فذلك شيء يستطيعه كل ذي عينين؛ وفلسطين اليوم هي فلسطين التي رآها من قبلي عشرات من الكتاب والرحالين وتحدثوا عن مشاهدها وآثارها ومعالمها؛ فهذا المسجد الأقصى، وهذه قبة الصخرة، وذاك مهد المسيح في بيت لحم، وذلك — فيما يزعمون — مصعده ومسراه على الطور، وهذا حائط البرق، وذاك مصلَّى عمر، وتلك كنيسة القيامة... مشاهد كما وصف الواصفون وتحدَّث الرحَّالون وتغنَّى الشعراء؛ فلس بيَ من حاجة إلى الاعادة والتكرار. ولكني سأتحدث عن المشاهدات الأخرى... مشاهدات رأيتها بفكري وسمعت صداها في نفسي، وتحدث معناها إلى قلبي...

لقد أحسست أول ما هبطت هذه البلاد كأنما نضوت عن جسدي ثوباً كان يحتويني فأنا فيه غير من أنا: حسًّا ومعنًى وفكرة؛ فما ألقيتُه عن جسدي حتى تواثبت نفسي منطلقةً على سجيتها في عالم غير محدود، لا تعرفه ولا تنكره، ولكنها فيه هي شيء غير ما كانت في هذا الثوب الذي يضم أطرافي منذ ثلاثين سنة أو يزيد...

أمصري أنا؟ لا؛ إن وطني لأكبر من ذاك. إن لي أهلاً هنا وأهلاً هناك. إن تراث الأجيال ليتحرك في دمي الساعة فيذكرني مالم أكن أعرف. ما هذا...؟ لكأن لي في كل مكان ذكرى قريبة وما رأته عيناي قبل أن تراه عيناي. إن قوة من وراء التاريخ تربطني إلى هذا المكان، وتستوقفني عند ذاك الأثر، وتقف بي عند ذلك المنعطف، وتذكرني بشيء في هذا الحي. إن هنا قبساً من روح أعرفها ترفّ حولي، ونفحةً من عطر أتنسَّمها تلامس روحي، وإن لي هنا لخفقة قلب، وإن لي هناك لدمعة عين، وإنني لألقى خواطر وذكريات لم تكن من خواطري وذكرياتي؛ وإنني لأحس... وإنني لأشعر... فما أشك أن لي

تاريخاً قبل تاريخي فى هذا المكان ، وأن لى ذكريات أبعدَ من ذكرياتي فى هذا الحى ، وأن الماضى الذى كان قبل أن أكون ، هو إرث فى دمى تحدَّر إلىّ فى أصلاب أسلافى ذكرياتٍ غامضة لا تكاد تبين إلا خفقات فى القلب وزفرات فى الفؤاد ... !

أيها البلد الطيب ! أيتها الأرض المقدسة ! لقد عرفت بك أهلي ووطنى وتاريخ قومى . لست من فرعون ولا فرعون منى . كفرت بالوطنية إن لم أومن بأنى منكِ فى أهلى ووطنى ... !

يابلاد العربية والاسلام ، انشرى لواءكِ وابعثي ماضيك حتى تنتظم رايتُـك كلَّ مسلم وكل عربى !

ياأهل العربية والاسلام ، لستم من الوطنية فى شىء حتى تؤمنوا أن وطنكم هو كل بلاد العربية والاسلام !

ياأهلى وإخوانى على ضفاف النيل ، لقد عققتم إخوتكم عقوقاً غير جميل حين زعمتم أن أرومتكم غير الأرومة التى أنجبت عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعبيدة بن الجراح !

يا أساتذة المدارس المصرية ، لقد ظلمتم التاريخ ظلماً غير قليل حين ذهبتم تزعمون لنا منذ كنا أننا من سلالة خفرع ومينا وأمون!

وياقومى وعشيرتى هناك ، معذرة إليكم مما كان ، وعهداً علىَّ أن أكون ، وإلى اللقاء ! إلى اللقاء تحت راية الاسلام ...!

***

هذا شاب من أدباء فلسطين يحدِّثنى عن مصر ، وعن أدباء مصر ، وعن السياسة فى مصر ، وعن النشاط العلمى فى مصر ، حديث العارف المتتبِّع ، لا يفوته شىء مما يعرفه المصريون عن أنفسهم ؛ بل مما لا يعرفه المصريون أنفسهم ... فماذا يعرف المصريون عن فلسطين ؟

وهذه جرائد مصر ، ومجلات مصر ، ومطبوعات مصر ، تملأ السوق فى فلسطين ؛ فهى فى كل دار ، وفى يد كل قارىء . فماذا يقرأ المصريون من جرائد فلسطين ، وماذا يعرفون عن أدباء فلسطين ؟

« مصر زعيمة الشرق العربى ! »

هذه عبارة تسمعها بين كل اثنين يتحدثان عن مصر والأقطار العربية ؛ فهل عقلها من قالها ؟ وهل عَناها من تحدث بها ؟ ... أما هناك فَنَعم ؛ فما يقولها عربى فى غير مصر إلا مؤمناً بها مستيقناً حقيقتها ؛ وأما هنا فهل تسمعها إلا فى معرض الزهو والعُجْب والخيلاء ... ؟

مصر زعيمة الأقطار العربية ، ما فى ذلك ريب ولا جدال . ولكنها زعامة الجاه والغنى والصيت البعيد ... زعامة ليس لها تكاليف ، وليس عليها واجبات ، وليس من ورائها مشقة ... زعامة الدعاوى الفارغة ، والتشدّق الكاذب ، ولغو الأحاديث ... وإلا فهل ذكرت مصر ما عليها للأقطار العربية حين سرَّها أن يقول القائلون إن مصر زعيمة الأقطار العربية ؟

ومعذرة يا بلادى ! إنك لأهلٌ للزعامة والجاه والسلطان ولكن ... ولكنك لا تريدين أن تفرضى على نفسك ما تفرضه الزعامة على أهلها من مشقات وتكاليف . وهيهات هيهات أن تدوم الزعامة لزعيم لا يفرض على نفسه أن يبذل أكثر مما ينتفع ... وفى الحياة عبر وأمثال ...

***

وجلستُ فى مجلس طائفة من الأدباء أستمع إلى أحاديثهم ومداولاتهم ، فإذا شباب هناك يسبقون الكهول عندنا فى البحث والمطالعة والاستقراء ، وإذا علم وأدب واطلاع ، وإذا طرائق فى البحث لا يعرفها إلا الأقلون من أدباء المصريين ... وسمعت أسماء كتب مصرية جديدة فى السوق ، لم يعرفها بعدُ فى مصر إلا مؤلفها والصفوةُ من أصحابه . ودار جدال حول معارك أدبية فى جرائد مصر لم يكن مبلغ علمى بها إلا عنوانها وكاتبها ... وجرت مصاولات ، وتداولت آراء ، وتنوعت أساليب الحديث ؛ وخرجتُ بالصمت عن لا ونَعم ، وطارت خواطرى إلى مصر ، وإلى مجالس الأدباء فى مصر ، وإلى حظ الأدب والأدباء فى مصر ؛ وأطرقتُ من حياء ...

مصر زعيمة الأقطار العربية . نعم ، إن فيها لكُـتاباً وأدباء وشعراء ، وإن فيها لجرائد وكتباً ومجلات ، وإن فيها لتعليما ومدارس وجامعتين ، وإن فيها لمطابعَ تخرج كل سنة مئات من الكتب فى مختلف العلوم والفنون والآداب ، ولكن ... ولكن مصر ليس فيها قراء ...

مصر ! ... إن لمصر فضلا على العالم العربى لا ينكره جاحد ، ولكنه فضل المطبعة والجريدة والكِتاب لا فضل المصريين ...

مصر ...! هل يعلم كتابها وشعراؤها ومؤلفوها أن كتبهم ودواوينهم ومؤلفاتهم أشهر وأذيع فى الأقطار العربية منها فى بلادهم ؟

رجاء إليكم أيها الكتاب والشعراء والمؤلفون : لا تسموها زعيمة الشرق العربى ، ولكن سموها « مطبعة » الشرق العربى !

***

ولا تجلسُ إلى عربىٍّ فى فلسطين إلا سمعت له حديثاً فى سياسة بلاده ، ورأياً فى سياسة بلاده ، وحماسةً فى الدفاع عن حق بلاده . وفى مصر (كانت) حركة وطنية ، وكان لها حدَّةٌ وشدّة ، فما طغت فى يوم من أيامها على آراء المصريين ولا فرضت سلطانها على مجالسهم بمقدار ما شغلت الحركة الفلسطينية خواطر العرب فى فلسطين . وتسأل : لماذا ؟ فيجيبك قائلهم : « لقد كانت ثورتكم الوطنية فى مصر للاستقلال ، والاستقلال عندكم ترف سياسى ؛ ولكن ثورتنا الوطنية فى فلسطين للحياة . إن السياسة العامة فى فلسطين هى سياسة كل فرد فى أهله ، وفى دينه ، وفى ولده ، وفى حقله ، وفيما يملك ؛ إننا إن لم نكافح كفاح الموت فى هذه الثورة الوطنية ، فلن تجد منا غداً عربياً واحداً فى فلسطين ... ! »

وصدق القائل ؛ فما فى فلسطين اليوم ثورة وطنية كبعض ما نعرف من الثورات السياسية فى التاريخ ، ولكنه جهاد الأحياء للحياة ، كما يجاهدون للطعام والشراب ، فاما ظفروا فعاشوا فى بلادهم آمنين كما يعيش كل شعب فى بلاده ؛ وإما ... وإما كانت فلسطين هي الأندلس الثانية : لا يُذكر فيها اسم الله ولا ينطق فيها بكلمة التوحيد ... !

***

وحاولتُ أن أعرف فى فلسطين من حال المرأة العربية المسلمة التى سمعت بجهادها وبسالتها فيما تنقل جرائدنا من أخبار الثورة العربية فى فلسطين ؛ فاذا بينى وبينها حجاب ؛ فلا ترى فى الطريق واحدة منهن فى مثل حال أختها المصرية : تسير فى الطريق شبه عارية فى ثوب مهلهل إن لم يشفّ يصفْ ، ولكن وجوهٌ إلا يكن عليها حجاب فان فيها حياء... إلا وجوهَ الغواني من بنات صهيون ونساء المهاجرين

***

ومحطة الاذاعة فى فلسطين غيرها فى مصر ؛ فهى هناك مصلحة حكومية وهنا شركة يربطها بالحكومة عقد تجارىّ ؛ على أن أول ما تلاحظه من الفرق بين المحطتين هو عناية محطة فلسطين بالأدب والأدباء وإغفال شأنهما فى مصر ؛ فلولا محاضرة أو محاضرات يذيعها كل سنة من محطة القاهرة الأساتذة طه حسين والمازنى وهيكل والبشرى — ليس غير — لما درى السامع من بعيد أن فى مصر أدباً وأدباء . على أن أكثر ما تذيعه القاهرة من موضوعات الأدب بعيد عن مناسباته ؛ فما هو إلا إعلان عن كتاب، أو تعريف بانسان، أو حديث معاد، أو خطبة منبرية ذات مواعظ وأمثال ... أو فكاهة رخيصة ... وقلما يتنبه القائمون على تحضير برنامج الاذاعة فى محطة القاهرة ، إلى مناسبة من المناسبات الأدبية العامة ليجعلوا لها موضعها من البرنامج فى ميعاده ، إلا أن يتقدم إلى ذلك من يتقدم من الأدباء وفى يده موضوعه كأنه طالب إحسان !

وأحسب ذلك يرجع إلى سببين : أولهما أن الأدب فى مصر عامة ليس له سوق نافقة بحيث يغرى محطة القاهرة بالحرص على إرضاء مستمعيه . والثانى أنه ليس فى القائمين على شئون محطة القاهرة أديب متخصص له فى الأدب معرفة واطلاع يحملانه على أن يعدّ نفسه واحداً من الأسرة الأدبية فى مصر بحيث يعرف اتجاه الجماعة فى الأدب فيسير مع تطوراتها على نهج سواء

على أن الاذاعة اليوم هى وسيلة من أجدى الوسائل فى نشر الثقافة وتوجيه الرأى العام ؛ فما ينبغى أن يحملها انصراف جمهور المستمعين عن الأدب على إغفاله ؛ فإن لها من السلطان ما تستطيع به أن تحمل مستمعيها على العناية بالأدب والأدباء لو سارت على برنامج مرسوم إلى هدف مقصود . ثم إن مصر ليست هى وحدها التى تستمع إلى محطة القاهرة ، ولكن أقطاراً أخرى من أقطار العربية لها علينا من الحقوق الأدبية ما يحملنا على إرضاء مستمعيها وكلهم يرفعون الأدب أسمى مكان

وإذ ذكرت هذا فما ينبغى أن يفوتنى ذكر الشاعر الأديب الأستاذ إبراهيم طوقان وكيل القسم العربى فى محطة القدس ؛ فانه من خيرة شباب فلسطين ثقافة وأدباً وتحصيلا ، وله فى الأدب آثار باقية ؛ وبمثله فى محطة القاهرة يمكن أن نتلافى هذا التقصير فى حق الأدب والأدباء

***

والمصريون فى فلسطين عدد غير قليل يعيشون فى أمن وسعة

ولهم في القدس نادٍ جميل في حيٍّ عامر يتبعه مدرسة ليلية وفرقة كشافة. دعاني إلى زيارته سكرتيره الأستاذ عبد الفتاح لاشين المصري المدرس بكلية الروضة في مساء الأربعاء ١١ مايو فذهبت إليه مع الأصدقاء الأساتذة عبد الرحمن الكيالي، والشيخ يعقوب البخاري، وداود حمدان؛ فوجدت النادي مزيناً أبدع زينة احتفالا بالمولد النبوي، وثمت شيوخ يقرءون قصة المولد، والنادي مزدحم زاخر بالمصريين وضيوفهم من الفلسطينيين، يستمعون إلى ترتيل القارئ في خشوع وإيمان؛ واستقبلتنا فرقة الكشافة على الباب استقبالا مصرياً كريماً. ثم ودَّعنا أعضاء النادي بعد مجلس قصير، بكثير من الحفاوة والاكرام

***

وكان آخر طوافي في القدس، في القنصلية المصرية. وما أنكر أنه كان عليَّ أن أجعل أوَّل خُطاي إليها غداة مقدمي، وقد كان ذلك في نفسي، لولا أنني كان لا بد لي من رفيق يرشدني إلى الطريق، وكان احتياجي إلى الرفيق هو الذي جعل زيارتي للقنصلية آخر طوافي؛ فمعذرة إلى الأستاذ الأديب محمد حامد بك قنصل مصر في فلسطين الذي جعل أول لقائه إياي عتاباً كريماً كان له في نفسي موقع جميل، وكانت تحية صريحة لا تكلف فيها ولا رياء

زرت القنصلية في مساء الأربعاء ١١ مايو، فوافقنا الأستاذ متري بك وكيل القنصل خارجاً لبعض شأنه؛ فما رآنا حتى بدأنا بالتحية، وتقدمَنا عائداً إلى دار القنصلية، فقضينا في كرمه وقتاً ما ثم لم يلبث أن حضر القنصل، فما درى بمقدمنا حتى صعد إلى غرفته محتجاً على أن جعلتُ زيارته آخر طوافي؛ ثم عاوده كرم المصري فأرسل يدعونا إليه...

وكانت جلسة ممتعة، شهدتُ فيها ما لم أكن أتوقع، ولقيت ولقي أصحابي من عطف الأستاذ حامد بك وكرمه وأدبه ما أحرص على ذكرياته كأجمل ما شاهدت في فلسطين

والأستاذ حامد بك أديب واسع الاطلاع على رغم منصبه السياسي؛ وإنه لتوفيق عجيب أن يكون قنصلنا في فلسطين العربية له مثل حظ الأستاذ حامد بك من الاطلاع في الأدب وفي الثقافة العربية. ولقد عجبت — شهد الله — أن يبلغ هذا المبلغ في الأدب مصري من رجال السياسة؛ وكان آخر ما يدور في خاطري حين هممت بزيارة القنصلية أن يكون لي هناك حديث في الأدب وفي شئون الأدباء كالذي دار في مجلس القنصل الأديب...

وأكثر من يذكر الفلسطينيون من رجالات مصر الراحلين، محمد عبده، ورشيد رضا، والرافعي، ولهم في نفوسهم منزلة من التقديس تضعهم في صف الخالدين من أبطال العربية والاسلام

وأحب كتاب العربية إليهم أسرة الرسالة، فهم يعرفون كتابها فرداً فرداً، ويقرءون لها ما يكتبون بشوق، وقلما تجد شاباً من شباب فلسطين لا يقرأ الرسالة ويحتفظ بمجموعاتها. وهم يعجبون أشد العجب حين يسمعون أن طائفة من شباب مصر لا يقرءون الرسالة! وأحسب لو أن أملهم تحقق وصارت نسبة قراء الرسالة من المصريين تعدل نسبتهم في فلسطين لكان على الرسالة أن تطبع من كل عدد مائة ألف في الأسبوع...

وأكثر من يذكرون من الكتاب المصريين هم الأساتذة أحمد أمين، وعزام، والمازني، والزيات، وهيكل؛ ولولا سابقة للدكتور هيكل في الدعوة إلى الفرعونية لكان أحب الكتاب المعاصرين إلى أهل فلسطين؛ فما يغيظهم شيء فيما تكتب الصحف المصرية ما تغيظهم هذه الدعوة، وما يرونها إلا وسيلة إلى تمزيق الوحدة العربية التي يدعون إليها ويرشحون مصر لزعامتها، وإلا سبباً إلى تقطيع الأواصر بين مصر وبلاد الاسلام

***

وركبت القطار عائداً من محطة اللِّد، بعد زيارة قصيرة للأخ الأديب الأستاذ داود حمدان، ورياضة ممتعة في سيارة الأستاذ النشاشيبي بين اللد وبيت المقدس

وتحرك بي القطار عائداً إلى مصر ظهر يوم الخميس ١٢ مايو، فبلغت محطة القنطرة قبيل الغروب... ومعي من الذكريات لهذه البلاد المقدسة أغلى ما يحرص عليه إنسان...

أيتها الأرض الطيبة! أيها الاخوان الكرام! يا بني قومي هناك، وداعاً وداعاً إلى لقاء قريب، والسلام عليكم ورحمة الله

« شبرا » محمد سعيد العريان

بين الرافعي والعقاد

للأستاذ محمود محمد شاكر

— ٤ —

وبعد ، فقد فرغنا فى الكلمات السالفة من الحديث فيما هو « بين الرافعىّ والعقاد » ، ممّا جاء فى كلام الأستاذ الفاضل سيد قطب . ثم رأينا الأستاذ يبدأ ضرباً من القول هو إلى رأيه فى كلام الرافعى وحده ، ليس يدخله ذكر العقاد إلا قليلا . وقد كان بدء حديثنا محدداً بالرافعى والعقاد معاً . فنحن نرى أن عملنا قد انتهى إلى نهايته فى هذا الغرض من القول ، ولذلك ، ليس يضيرنا الآن أن نسكت إلى حين يفرغ الأستاذ سيد قطب مِمّا يسر الله له القول فيه مما يسميه نقداً

وأول ما يجب علينا أن نقوله للأستاذ الفاضل بعد الذى كتبناه أنه يسيء بنا الظنّ بلا دليل ولغير عِـلّة . يتزعّم أن فى حديثنا (غمزاً ولمزاً وتمريضاً به) وكذا وكذا ، ونحن نكرم أنفسنا وقلوبنا وضمائرنا وألسنتنا عن هذه الضرب من القول ، ولو أردناه لمضينا على عادتنا من التصريح دون التلويح ، ولقلنا له من القول ما هو حق لا كذب فيه ... حق يدافع عن حقيقته بالبيـان والحجة والوضوح ، والأدب الذى يعفُّ عن دنيّات المعاريض وسفاسف الأخلاق

وليعلم الأستاذ قطب أنى إذا أحببت لا أغـلو ، ولا أتجاوز حد الحب الذى يصل القلب بالقلب ، ويمد الروح بالروح ، ويجمل النفس فى فرح متصل بسببه ، أو حزن آت بملته ، فهذا أخلق الحب أن يخلو من سوء العصبية ، وفساد الهوى ، وقبح الغرض . فلا يجدنى أرفعُ الرافعى عن الخطأ ، ولا أجـله عن الضعف ، ولا أنزهه عما هو فى عمل كل إنسان حىّ ناطق يأمل ويتشهى . مما يسمى بأسمائه حين يعرض ذكره . وفى كل أحد ممن خلق الله على صورة (الانسان) ضروب من الشمائل والسجايا والأخلاق والآداب ، ليس يطلع ظِلمها إلا الله جل جلاله ، وربُّ رجل ساف كنور الفجر يخبأ من ورائه مظلمة من سواد الليل

ولقد عرفنـا الرافعى زمناً — طال أو قصر — فأحببناه ومنحناه من أنفسنا ومنحنا من ذات نفسه ، ورضيناه أباً وأخاً وصديقاً وأستاذاً ومؤدباً ، فلم نجده إلا عند حسن الظن به فى كل أبوّته وإخائه وصداقته وأستاذيته وتأديبه . ولقـد مات الرافعى الكاتب الأديب وهو على عهدنا به إنساناً نحبه ولا نتزهه ، ثم جاء الأستاذ سـيد قطب بحسن أدبه يقول فى الرجل غير ما عهدناه ... يؤوّل كلامه ويأخذ منه ويدع ويتفلسف ويحلل ويزعم القدرة على التولج فى طويات القلوب وغيب النفوس فيكشف أسرارها ويميط اللثام عما استودعت من خبيئاتها ، ثم هو فى ذلك لا يتورع ولا يحتاط ، ولا يَرعى زمام الموت ، ولا يُوجب حق الحىّ

لقد كتب الأستاذ ما كتب ، فقرأ كلامه من قرأ ، أفيجد فى هؤلاء من يقول له أصبتَ ؟ ومن يقول له أحسنتَ ؟ ومن يزعم أن ليس له مندوحة عما اتخذ من اللفظ فى ذكر الرافعي وصفته والحديث عنه وعن أدبه وشعره ؟ أما يجدر بالأستاذ الفاضل أن يعود إلى بيته هادئ النفس مُخَلًّى من حوافز الحياة الدنيا ، فيقرأ ما كتب مرة أو مرتين ، ثم يرى هـذا الذى ترك الدنيا بالأمس وحيداً ، وخلف من ورائه صغاراً وكباراً من أبنائه وحفدته وأصحابه واللائذين به ، ثم يراهم يقرأون ما يكتب عن أبيهم وجدهم وصاحبهم بالأمس ، ثم يراهم والدمع يأخذهم بين الذكرى المؤلمة والألم البالغ ! ولو فعل ، لعرف كيف أخطأ ومن أين أساء ، ولوجده لزاماً عليه أن يقدُر عاطفة الحى ، إن لم يعظِّم حرمة الموت . وهـذا أمر لا نطيل القول فيه ولا نكثر من لوم الأستاذ عليه ، فإن مرجعه إلى طبيعته وما تضمره نفسه ، وإلى تقديره لعواطف الناس

ومهما يكن من شيء ، فسندعُ الأستاذ سيد قطب يقول ما يقول ، ويذكر من رأيه فى الرافعي ما يذكر ، ويصف أدب الرجل وذهنه وقلبه ونفسه بما يوحى إليه ، لا نعقب على شيء منها حتى يفرغ ، وحتى يستوفى مادته ، ويضع بين أيدينا كل حججه فى فن الرافعى . فيوم ينتهى نبدأ نحن القول فى الذى قال ... لا نرد بذلك عليه قوله ، أو نسدد له رأيه ، فمالنا بذلك حاجة ولا لنا فيه مآرب ، ولكنا نريد إذ ذاك أن نضع رأيه بمنزلة الرأى يقول به فئة من الناس ، أو شبهة تحيك فى صدر جماعة من

بين العقـــاد والرافعى

للأستاذ سيد قطب

— ٥ —

يقول العقاد فى قصيدة « خليج ستانلى » :

هذى معارض صـنـعة ... لله تبهر من وصف
حى الجـــال كما بدا ... أولا فدونك والجيف !

يقول هذا وهو يقف أمام هذه « المعارض » وقفة الفنان الحى ، المتذوق لـكل صنوف الجمال فيها ، المتنبه لومضاته وخفقاته، لا تكاد تعزب عن نظره ولا عن حسه لفتة من لفتات الجمال فى هذا الخضم العارى . ثم يسمع من ناحية أخرى صيحات « الخرف » التى لا تقدر هذه المعارض ، وتنحي باللاعة على بروز هذا الجمال ، فيصيح بهم : هذه معارض للجمال يتملاها الأحياء المعنيون بالحياة ، فمن شاءها فليحىّ الجمال فيها ، ومن أبى أن يعجب بالحياة الخافقة فليس له إلا أن يوكل نفسه بالجيف الهامدة !

ولـكن « الرافعى » لا يلقى باله إلى شىء من هذه اللفتات ، فيأخذ منخره بين أصابعه ويزم شفتيه ، ويشيح برأسه ، ويروح يتصنع التأفف والمبالغة فيه ، لأن هناك رائحة لا يطيقها فى كلمة « الجيف ! »

طيب ! . ولا بد أن صاحبنا بلغ من إرهاف الحس — ولا سيما حاسة الشم — إلى درجة شديدة ، تقرب من الدائرة المرضية فالذين يبالغون فى التأفف كثيراً ما يكون الارهاق بلغ بهم إلى حد مرض الأعصاب، وهو عذر على أية حال . ولا بد أنه متجنب فى أعماله الخاصة كل ما تنبعث منه أية رائحة !

ولـكن ماذا عساك قائل ، إذا رأيت هذا الرجل الذى يمسك منخره بأصابعه ، لأن فناناً تهكم بخصوم الجمال ، فجعلهم ممن لا يحسنون إلا ملازمة الجيف ، إذا رأيتـه هو نفسه يصف فم حبيبته مستجملاً — وألق بالك إلى هذا — بأنه « حانة » !

أى والله ... « حانة » هى فم حبيبة « الرافعى » ، حانة ينبعث من روائحها ماينبعث ، ويفوح منها مايفوح ، ويمج بين جدرانها ما يمج . وفيها « من كل شىء » كما يفهم الرافعى وتلميذه الأستاذ شاكر . « من كل شىء » على حقيقتها وبمدلولها كما أوّلاه فى تعسف واستغلاق

وما أبعد بك فهذه قولته :

« مسكرة للعاشقين كأن نهر الخمر فى الجنة جعل فما لهذا العاشق حانة »

ولعل أحداً من المتعسفين فى التأويل والتخريج ، حسب الأهواء والميول ، يروح يقول لك : يا لله ! إن نهر الخمر الذى فى الجنة هو الذى جعل فما حانة . فهي حانة من خمر الجنة لا من خمر الدنيا !

ولـكن أفما كان هناك معدى عن هذا التمييز وهذا التشبيه ؟ ألا يمكن أن تكون مسكرة حتى يكون فما حانة ، لا كأساً لطيفة ، ولا قارورة مختومة ، ولا دناً أو « برميلاً » من الخمر ؟ ولا يكون حانة كاملة بما فيها من الدنان والـكؤوس والشاربين والندمان ، وبما فيها من عبث الشاربين وأنفاسهم وما يلى ذلك من عواقب السكر وصرعة الخمر

الذى لا يطيق أن يرى فنان خصوم الجمال بأنهم غير أحياء وأنهم موكلون بالجيف ، هو الذى يطيق أن يري حبيبته نفسه بأن فيها حانة بما فيها ؟ !

هوذلك . لأنه لاعقيدة فيما يكتب، فهو ينقد لشفاء الحزازات ويتلمس مواضع التشنيع التى لا سقطة فيهـا على الحقيقة ، وإن كان له هو على غرارها — مع الفارق — سقطات وسقطات !

***

ويقول العقاد متفكها ، فى فصل يسميه « فكاهة » ويمنون له بهذا العنوان

الأدباء ، فعلينا أن نبين مواضع الخطأ إذا أخطأ ، ومكان الصواب إن أصاب ، وذلك غاية مانستطيع

أما ما يوعدنا به الأستاذ الفاضل ، وما يسخر به ويتهكم ، ومايضمر لنامن (بقايا) كلماته !! فليقل فيه ما شاء كما يشاء، وسنرده على قدره وفى حد طاقتنا وآدابنا ، ولو اجتمع للأستاذ كل سلطان يستطيع به أن يسيء ، فأساء إلينا بمثل الذى أساء به إلى الرافعى رحمة الله عليه ، فنحن لا نزال — مع كل ذلك — نحترمه ... إذ ليس فى طاقتنا أن نفعل شيئاً إلا أن نحترمه كل الاحترام

محمود محمد شاكر

من رأى زهرة الجمال فهذى زهرة القبح أسفرت تتحدى
طلعة الشؤم من رآها يخلها خلقت من وجوه سبعين قردا!

فما يلمح الرافعى هـذا القول ، حتى يغرق فى ضحك مصطنع طويل ؛ وهو يقول وما الفرق بين أن تكون طلعة الشؤم هذه خلقت من وجه قرد ، أو من سبعين أو سبعمائة ؟

والمسألة هنا ليست هكذا ، فوجه القرد ليس كل ما فيه قبيحا ، فشدة الاحتياط في « الفكاهة » جعل العقاد « طلعة الشؤم » مؤلفة من القبح المستخلص من وجوه سبعين قردا ، ليكون قبحا خالصا مركزا !!!

وهي على كل حال « فكاهة » والاغراق فيها يزيد حسن وقعها ، ولا يعطل من قوتها شيئاً ، وهو كل المقصود بالفكاهات.

أما الرافعى الذى يعيب ذلك فاسمعه يقول جاداً لا متهكما ولا متفكها . « وأصعب ما تكون الانسانية على من يعظم بحيوانيته وحسب ، فتراه وكأن مئة حمار ركبت منه فى حمار واحد ، ولكنه حمار عظيم ... »

أرأيت إلى حمير الرافعى المائة ، وعلمت ما شأنها هنا ؟

إنها لمجرد المبالغة فى شدة الحيوانية . والمبالغة فى موضع الجد والقصد ، لا فى موضع الدعابة والنادرة

فلماذا يباح للرافعى فى الحمير ما لا يباح للعقاد فى القرود ؟ وهذه سبعون وتلك مائة . وهذه قرود تحمل الدعابة والخفة فى اسمها وجسمها ، وتلك — أعزك الله — حمير تحمل الغباء والثقلة فى « صورتها ونمتها ؟

إنه التعنت ، وشفاء الحزازات التى علمت سببها فيما أسلفت من حديث

* * *

وبعد فما أعني النقد بما أوردت من كلام الرافعى هذا ، فمثله لا يعد نقدا ، والذى يعنى بهذه المآخذ لا يكون إلا سخيفا ؛ وإنما أردت فقط أن أصور هذا العنت الذى كان الرافعى يلج فيه وهو واقع فى شرمنه ، وأن أبين كيف يصنع الحقد ببعض الناس ، وكيف ينكشف « الذوق » المتصنع عن ثقلة وغفلة

وأحسب أننى حتى الآن قد أوضحت رأيي فى الرافعى بالأمثلة الكافية كما وعدت فى أول مقال . وبقى أن أوضح رأيى فى العقاد على ذلك النحو

ولكنى قبل هذا سألقى نظرة على ما كتب الأستاذ محمود محمد شاكر متقيدا فى هذا بوعد أسلفته فى الكلمة الفائتة ، أكثر من اقتناعى بأن هناك ما يستأهل هذه النظرة

فلننظر ماذا قال ؟

* * *

كنت في حاجة أن أستعير أسلوب العقاد فى الرد على الرافعى وأمثاله ، أواجه به الأستاذ شاكر ، إذ كان الموقف لم يتغير . ولكنى لحسن الحظ أهدأ من العقاد ، وطبيعتى أقل حدة وضراما فلهذا كان أسلوبى هنا غير ما يحتاج إليه الموقف !

والأمر بينى وبين الأستاذ شاكر يمكن تقسيمه وتبويبه للاختصار

فهو « أولا » راح يطعنني فى « حسن أدبى ، ومروءة نفسي ، ونبل قلبي ، وشرف مقصدى ، فيما كتبت . وراح يتهمنى بمجانبة « الدين والتقوى ، والحياء والتذمم » . وبأنه ليس ما بى « هو النقد ولا الأدب ، ولا تقدير أدب العقاد وشعره ، فما هو إلا الانسان وجه يكشفه النور ويشف عما به ، وباطن قد انطوي على ظلمائه فما ينفذ فى غيبه إلا علم الله »

وكل ذلك والأستاذ شاكر لا يعرفني ، ولا يعرف شيئاً عن أدبي ولا نفسى أو قلبي ، ولم تكن التهمة فى فهم الأدب أو فهم الحياة ، حتى يكون له مبرر فى مجال النقاش الأدبى ، وإنما هى تهمة خلقية محضة ؛ وأنا إنما كان حديثى عن نفس الرافعى فى أدبه

فماذا كنت أصنع للأستاذ ؟

أكنت أرد عليه شتائمه وأكيل له صاعاً بصاع ؟ إذن فما أنا بخير الرجلين !

أكنت أنفى عن نفسى هذه التهم ؟ ... لأنا إذن ظالم لنفسى فما هى مما يستحق النفى . وأنا أعرف نفسي ودوافعها فى الحياة — وهذا حسبي — وهناك مئات يعرفوننى معرفة الحقيقة والتقدير ، وهنالك ألوف يعرفون بالقراءة ونقد الكلام ما يجب أن يعرف ، فما بى من حاجة بعد هذا كله إلى كلام

ولقد رددت على الأستاذ سعيد العريان ما عرض بى من جهل بأدب الرافعى . ولم أرد على الأستاذ شاكر فيما عرض بى من

شتائم خلقية ، إذ كان الأول بسبب من الموضوع الذى أتحدث فيه ، وإذ كان بينى وبينه من الصلات ما يبيح لى أن أتعتب عليه بشدة . فأما الأستاذ شاكر ، فلم يكن له عندى هذا ولا ذاك ، فتركته يقول :

على أنه ماذا يورد من حجة على انزلاقه إلى الطعون الشخصية الوبيلة ؟ إنه حدثنى عن الرافعى الميت فى إبان ذكراه الأولى

ولقد لقينى أديب كبير بعد هذا ، فقال يتفكه : إن هؤلاء الجماعة يجلسون فى المأتم ويرجمون المارة بالحجارة ، فاذا رجمهم الناس ، صاحوا وولولوا ، وملأوا الدنيا تسخطاً ونعياً على الأخلاق لأن الناس لا يقدرون حرمة المأتم ، وهم الذين استهانوا بهذه الحرمة حينما رجموا المارة !

ولقد كان ذلك فكاهة وحقاً !

فالمسألة أن الأستاذ سعيد العريان كان يكتب عن الرافعى ، حتى لقد بلغ رقم مقالاته السادس والعشرين ، فما رأيت ما يدعو أن أكتب أو أعلق ، فهو صديق وتلميذ يقوم بحق الوفاء ، وهو على هذا مشكور مبرور ؛ ولكنه بعد ذلك انحرف عن نهج المؤرخ إلى نهج الناقد ، فقال عن نقد الرافعى لوحى الأربعين إنه منزه عن العيوب ، وقال عن رد العقاد إنه سباب وشتائم ، فكان ذلك حكماً لا تاريخاً ؛ وقال عن دوافع العقاد للرد وطريقته كلاماً لا يصدق على العقاد ، ويخطئ تفسير دوافعه فى الحياة حسبما أرى ، وأنا بذلك أدرى

وعندئذ فقط تدخلت ، لأعيد إلى الأذهان شيئاً من النقد « المنزه عن العيوب » ولأفسر دوافع العقاد وخطته فى الحياة ، ولأبين الفوارق الأصيلة بين مدرسة العقاد ومدرسة الرافعى فى الأدب وفى الحياة

هكذا كان تدخلى ، وهو مفهوم ، ولم تكن هناك حاجة للتخمين والتأويل

* * *

وهو « ثانياً » شاء أن يدافع عن الرافعى ، وأن يثبت له ما نفيت عنه من الطبع والعقيدة فقال كلاماً لا أحسبنى قلت سواه فيما كتبت !

فهو قد قال : إنه كان للرافعى رأى فى أدب العقاد غير ما أبداه وإنما الملاحاة وحب الغيظ والكيد ، هى التى جعلته يقول ما قال . وحكم على العقاد كذلك بما حكم به على الرافعى

فأما الشطر الأول فهو اعتراف يؤيد رأيى ، فى أن الرافعى لم يكن يصدر عن عقيدة فيما يكتب . وذلك حسبى

وأما الشطر الثانى فهو الذى أنكرته من قبل على الأستاذ سعيد ، وهو الذى لا زلت أنكره ؛ لأننى أعلم من حقيقة رأى العقاد فى الرافعى ، ما يؤكد نعته له ، ورده عليه . وما كان هذا الرأى ليختلف لو لم تقع بينهما جفوة وملاحاة ، إن صح أن التعبير عن هذا الرأى كان يمكن أن يتغير ، من لفظ قاس مكشوف ، إلى لفظ لين ملفوف

وليس العقاد هو الذى يبدى رأياً ويبطن آخر ، فهو رجل عقيدة يهمه التعبير عنها ، ولو لاقى فى ذلك كل عنت وملاحاة

هذا رأيى فى صاحبى ، لا زلت أنافح عنه ، وذلك رأيه فى صاحبه وهو به أعرف !

* * *

وهو « ثالثاً » أخذ نفسه بابطال ما أوردت من نقد لنقد الرافعى . فلننظر ماذا قال

إنه راح يتقصى ماقيل فيما يقرب من قول العقاد :

فيك منى ومن الناس ومن كل موجود وموعود تؤام

سائراً فى تقصيه على النسق الخالى من كتب النقد العربى لقدامة وأبى هلال العسكرى ، ومن ينقلان عنهما ... من تتبع المعنى تتبعاً زمنياً ، وحسبان كل شاعر متأخر أخذ هذا المعنى عن شاعر متقدم ، وزاد فيه أو نقص ، وتصرف أو ولد ... الخ

وليس هنا مجال انتقاد هذا المذهب فى النقد ، ولكنى أكتفى باثبات سوء رأيى فيه ، وظنى به القصور والجمود

إنما يهمنى ما قال الأستاذ من أن العقاد ذكر « من كل شىء » دون أن يضع للفظ المطلق شيئاً من الحواجز والحدود التى تمنع إرادة الاطلاق والتعميم ، فلم يبق إذن بد من أن يفهم الرافعى ، وأن يتابعه هو فى الفهم ، أن « من كل شىء » تشمل ما ذكر من قاذورات وأوحال

ويبدو لى أن الحواجز والحدود المقصودة لا يمكن أن تكون إلا من نوع الحواجز التى توضع للخيول والكلاب فى السباق ، أو الحبال والأسلاك الشائكة التى تصدم الجسم وتخز اللمس !

ويبدو لى كذلك أن « الذوق الانساني » الذى يمنع إرادة مثل تلك القاذر ، هو الأمر الوحيد الذى لا يحسب حسابه عند الرافعى وبعض متابعيه . وإلا فقد كان حسب الأستاذ أن يحيل حديث الرافعى فى هذا إلى ثورة حقده، وحبه للمكيدة والاغاظة، فيخرج من تلك الأشواك التى ألقى بنفسه فيها دون حساب !

ثم ماذا ؟

ثم ذكرنى بشىء كنت قد نسيت الالمام به ، بعد ما التفت خاطرى إلى فساده وسوء دلالته على فهم الرافعى للأدب الحى . وذلك بقية ما كان قد عقب به على هذا البيت من أن أعرابياً قال وقال ... فجمل حبيبته «أصفى شىء ، وأغلى شىء ، وأسعد شىء»

هذا فى الواقع مفرق الطريق بين الرافعيين والعقاديين ؛ أو بين المدرسة القديمة والمدرسة الجديدة على الاطلاق . ولا بأس من توفية الكلام فيه بعض حقه ، وربما عدت إليه فى كلمة منفصلة أو فى ثنايا كلمات أخرى

المبالغة عند المدرسة القديمة هى مناط البلاغة ، لا يستثنون من هذا إلا ما اعتبروه مغالاة ، تمس العرف أو الدين ، أو تناقض الحس والمشاهدة . والصدق الجميل هو مناط الاستحسان عند المدرسة الحديثة

فليس يهم الشاعر المجدد فى هذا العصر أو فى قديم الزمان ، أن يجمع فى حبيبته كل ما تفرقه الأوصاف فى الجميلات ، ولكن يهمه أن يصور محاسنها هى ، الخاصة بها ، وأن يعبر عن شخصيتها ومميزاتها كما هى فى نفسه

ومن هنا يختلف فى وصفه حبيبة عن حبيبته ، لأنه لا يتحدث عن تمثال من الرخام ، ولكن عن إنسانة حية تعيش فى نفسه بمميزات خاصة . هذه المميزات قد يكون بعض العيوب فيها أعز على نفسه من بعض المحاسن ، وأدعى لتعلقه بها ، كالوالد لا يحب أبناءه لهدوئهم وآدابهم وحدها ، وقد يكون الطفل المتعب أو الشاذ أكثر استمتاعاً بعطفه ، وقد يكون حبه لهم على حسب ما بذل مع كل منهم من جهد ، وما أنفق من علاج ، وتلك من أسرار النفس الانسانية

الصدق الجميل ، الذى يعبر عن الحقائق النفسية ، ويصور الحياة المتدافعة المتماوجة هو الذى أملى على العقاد ما كتب عن حبيبته ، لأنها كانت هكذا فى نفسه ؛ فما يهمه أن يختار لها أجود النعوت ، وأحسن الأوصاف ، بقدر ما يهمه تصويرها على حقيقتها فى نفسه

فمن شاء أن يلتمس المبالغة وجمع الصفات المستحسنة وحدها من كل ما يتخيل فيه الجمال ، فسبيله إلى ذلك شاعر آخر غير العقاد ، ممن لا يحبون بقلوبهم وأعصابهم ، بل بأذهانهم وأسماعهم. وهذا مفرق الطرق ، والرمز الذى لا يخطىء فى تمييز المدرستين

ثم شاء أن يتحدث عن قصة « قزح وقوسه » على مثال ما تحدث عن « من كل شىء » فلم يشأ أن يفهم ما فى هذه الدعابة من طرافة وحيوية ، لأن « قزحاً » هذا ليس « مشهوراً » بالجمال حتى تصلح المقابلة بينه وبين الجميلات

فهنا رجل يتصدى للنقد ، ولكنه يتوكأ على أحكام السلف ، فان وجد فيها أن قزحا مشهور بالجمال فذاك ، وإن لم يجده مشهورا فلا يمكن أن يكون جميلا ، ولا يستطيع هو أن يرى إن كان هكذا أو كان قبيحاً ، لأنه لا يستمد النقد مما يحس ويرى ، ولكن يستمده مما يقرأ ويحفظ

ومثل هذا لا نطمع أن يماشى العقاد فى سموه وتفرده ، ولا أن يتابع كذلك شروحنا للعقاد وطريقته ، ولكنى سأتحدث لمن يشاء أن يستمع

إن العقاد فنان دقيق الحسّ فى تمييز الألوان والأضواء والظلال ، وفى نفسه غرام بالنور يجعله يلتفت أبدا لومضاته وخفقاته (وقد وفيت شرح هذا فى محاضرة لى عن وحى الأربعين عام ١٩٣٤ نشرت وقتها بالجهاد ، فليرجع إليها من شاء)

ومن هنا كان انتباهه لقوس قزح وألوانه وأطيافه ، وكان تشبيه « مطارف الحسان وطرفهن » بهذه الألوان والأطياف ، التى زاحمن قزحاً عليها حتى ظفرن بها منه ، فألقى لهن بها وأدبر وانصرف ! ومن هنا كانت الطرافة والحيوية التى حسبنا الاشارة إليها تكفى أول مرة للفت النظر والفهم ، فأخطأنا التقدير

وقد فهم الأستاذ شاكر أننا نعنى بتلاعب الرافعى بالألفاظ ، أنه قال مرة إن قزحاً لا يفصل عن قوس ثم عاد ففصلها ! وما إلى شىء من هذا قصدت ، وما كان يمكن أن يفهم ما قلته على هذا الوجه . إنما عنيت بالتلاعب أن يترك الناقد هذه الطرافة فى الحس

والخيال ، ويعنى بتخريج الألفاظ اللغوية ، غافلاً عن النكتة المقصودة من فصل « قزح » عن « قوس » أو متجاهلاً لها ، وهو ما صنعه الرافعى

أما ما ذكره الأستاذ شاكر من قول شوقى ورأي العقاد فيه فالأمر فيه مختلف جداً . فشوقى فى بيته لا يذكر « قوس » أي ذكر ، وإنما يورد « قزحا » وحدها ويقصد بها « قوس » كما يفهم من معنى البيت :

قصراً أرى أم فلكا وشجراً أم قزحا ؟

فكان الحق مع العقاد أن يقول : « ولا تذكر قزح إلا مع قوس » ولكنه لم يوجب فى قوله هذه ألا تنفصل منها كما أوجبه الرافعى خطأ . وفرق بين تحتيم ذكرهما معاً وتحتيم اتصالهما كما لابد أن يفهم الأستاذ !

على أنه يبقى بعد ذلك كله أن كلام شوقي لم يكن يتضمن « نكتة » خاصة كالتى تضمنها كلام العقاد ، وتوجيه الكلام يقتضى بعض التصرف فى عرف الأحياء !

هذا حديث قد أطلت فيه ، ولكنه ليس موجها لأن يكون رداً على الأستاذ شاكر فيما كتب ، وإلا فالمسألة أهون من هذا ؛ إنما أردت به تصفية الموقف فى طرق النقد ، وما يجب أن يتوفر لها من فهم ودقة ويقظة ... وحياة !

(حلوان) سيد قطب

التاريخ فى سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الأحراج الى عالم المدينة

للأستاذ محمود الخفيف

يا شباب الوادى ! خذوا معانى العظمة فى نفسها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم ... ...

— ١٣ —

أحس لنكولن ذلك فهو وإن لم يكن يعرف الذهاب بنفسه يدرك اليوم أن قد صار له فى السياسة مكانة الزعماء ، فلقد انتشر اسمه خارج مقاطعة الينوس وتقبله الناس بقبول حسن ، فهم يضمرون لصاحبه المودة والإجلال . رشحه رجال الحزب الجمهورى فى مؤتمرهم الأهلى أثناء الانتخاب لمركز نائب رئيس الولايات على غير سعى منه إلى ذلك فنال من الأصوات عشرة ومائة وهو بعيد ؛ فلما جاءه نبأ ذلك تبسم ضاحكا وقال : « حسبت أول الأمر أن هنالك رجلا آخر عظيما فى مساشوست يدعى لنكولن »

ولقد تألمت نفسه وانكدرت لذلك الحكم ؛ تلمح ذلك فيما عقب به عليه ، إذ أخذ يقارن حال العبيد يومئذ بما كان يرجى لهم غداة إعلان الاستقلال قال : « فى هاتيك الأيام كان إعلاننا الاستقلال أمراً يعتبره الناس جميعاً مقدساً كما اعتبروه ينتظم الجميع ؛ أما اليوم فقد هوجم وسخر منه وأوّل وفق الأهواء ، ومزق شر ممزق ، حتى لو أنه أمكن أن يبعث صانعوه اليوم من مراقدهم لما أمكن أن يتعرفوه ؛ وذلك بما فعلنا من محاولتنا جعل عبودية الزنجى أمراً عاماً أبدياً . فإن جميع قوى الأرض لتظهر كأنها تتحدسربعاً عليه ؛ فإله المال (ممون) فى أعقابه ومن ورائه الطمع ، ثم من وراء هذا الفلسفة ، تتلوها جميع نظريات العصر التى تتكاتف جميعاً فى سرعة لتؤيد الصيحة ضده . لقد ألقوا به فى سجنه بعد أن فتشوه ولم يدعوا فى يده أى آلة ينقب بها الجدار ؛ وأغلقوا عليه الواحد بعد الآخر أبواباً ثقيلة من الحديد ؛ والآن يذرونه فى سجنه وعلى بابه قفل من الحديد ذو مائة مفتاح ، لا يمكن فتحه إلا أن تتفق على ذلك كل هاتيك المفاتيح ؛ وإنها لفي أيدى مائة من الرجال مختلفين مبعثرين فى مائة مكان مختلفة سحيقة ؛ وإنهم ليفكرون فوق ذلك ليتبينوا أى اختراع فى كافة نواحى العقل والمادة يمكن أن يضاف إلى ذلك ليكون استحالة هربه أكثر توكيداً مما هو عليه .

وحق لأبراهام أن ينطلق لسانه بمثل هذا الغضب ، وأن تجزع نفسه لهذا الحكم فإنه ليراه ينطوى على كثير من المعانى وكلها على غير ما يحب لحزبه الوليد وللقضية الكبرى التى يتوقف على مآلها مصير البلاد . أليس يقضي هذا الحكم بأن المجلس التشريعي للولايات هو الذى يحدد من غير قيد ماذا تكون عليه حال الولايات من حيث مسألة العبيد ؟ وإذاً فما قيمة اتفاق سورى ، ثم ما نصيب هذا الحزب الجديد من القرب أو البعد من روح

القانون وهو الذى يجمل اتفاق سورى القاعدة التى يصدر عنها فى أعماله ؟

إنها فى الحق لمعضلة ؛ ولـكن هل كان يضيق هـذا القلب الـكبير بالمعضلات ؟ وهل يتخاذل إيمانه لدى الصعاب وهو الذى يفل الصعاب وينهض لجسيات الامور ؟ كلا ، إنه ليحس قوة نفسه تعظم بقدر ما تعظم الشدائد . وهو كغيره من أولى العزم من الرجال لا يتذوق حلاوة النصر إلا فى مرارة المقاساة ...

وظلت الأحداث تأتى بعضها فى أثر بعض ، فهذه كنساس تتوثب فيها الفتنة ويتحفز الشر ، راحت تضع لها دستوراً فأخذت تختار من رجالها من يعقدون مؤتمراً لهذا الغرض ، فانظر كيف يحال بين الأحرار وبين أمانيهم بالقوة المادية فيجرى الانتخاب فيهـا على صورة تشمئز النفوس البريئة بالألم اللاذع أن ترى الأغراض الوضيعة تنزل فيها بالعقلاء من البشر إلى مرتبة البهائم ، وبيت النـاس وكأنما لم يكن الوجدان يوماً ناحية من نواحى نفوسهم . فهم فى ضراوتهم وبهتانهم يظهرون فى مظهر تخجل منه الآدمية التى تشعر بحقيقتها

ويأبى الرئيس بيوكانون إلا أن يعتمد قرار المؤتمر فيقبـل الولاية فى الاتحاد على أنها إحدى الولايات التى تأخذ بنظام العبيد كما جاء فى دستورها ! ولشد ما تألم لنكولن لهذا ، ولـكنه كان عنده ذلك الألم الذي يلد العمل ويبتعث الأمل ويغرى المجاهدين بالجهاد ؛ ولو لا أن كان من المؤمنين الصادقين لتطرق إلى نفسه الوهن ومشى في عزمه اليأس ...

ووثب لمناهضة دستور كنساس رجل آخر يعد موقفه فى ذلك غريباً لأول وهلة ، وذلك هو دوجلاس عضو مجلس الشيوخ ومنافس لنكولن الشديد البأس . رأى أن قرار المحكمة العليا قد قضى على ما راح يدعو إليه من توطيد مبدأ سيادة الولايات في تقرير مصائرها . ذلك المبدأ البراق الذى ظل يخلب به الألباب ويلوح به لأهل الجنوب ليكونوا عدته في الوصول إلى الرياسة . ولقد بات من أمره فى حيرة شديدة ، فهو يخشى أن يفقد محبة أهل الجنوب إذا عارض دستور كنساس ؛ بينما هو يخشى كذلك أن يفقد ثقة أهل الينواس إذا هو نسى مبدأ سيادة الولايات وسلطانها فيؤدى ذلك إلى خذلانه فى الانتخاب لمجلس الشيوخ وقد أوشكت مدته فيه أن تنتهى ...

ولـكنه آثر الآن أن يحرص على ثقة أهل مسورى فأعلن عداءه لدستور كنساس ، ووقف يحمل عليه فى المجلس حملات شديدة بعثت فى قلوب الديمقراطيين الغيظ وأثارت فى عقولهم الدهش ، فهذا الرجل الذى يعدونه من أقوى رجالهم لا يستحي أن يخرج عليهم على هـذه الصورة ولا يتورع أن يعارضهم فى فى غير هوادة كأنما انقلب بغتة فصار من رجال الحزب الجديد !

ولقـد هلل بعض زعماء الحزب الجديد لموقف دوجلاس واستبشروا به ، بل لقد أخذوا يمهدون السبيل لانضمام دوجلاس إلى حزبهم ليزدادوا به قوة ومنعة ! وراح جريلى أحـد رجال الصحافة من قادة هذا الحزب يدعو القراء إلى انتخاب دوجلاس وأخذ يثني على صفاته ويتوخى فى مديحه الأطناب والمغالاة . وكان هذا الرجل من أشهر رجال الصحافة فى الشمال وكانت له عند الناس مكانته ؛ كما كان لصحيفته عدد كبير من المعجبين

ولـكن ابراهام قد أنكر على نفسه أن يقبل ذلك من رجال حزبه . وهنـا تعود للظهور خصلة من أبرز خصاله ألا وهى الاستقامة إذا صح أن تعبر هذه الـكلمة عن المعنى الذى نريد ، والذى نراه ينحصر فى إطلاق النفس على سجيتها وسيرها على نهج من فطرتها فى غير تناقض أو تذبذب أو اضطراب . وما كان ابراهام يتكلف شيئاً لا يتحرك به وجدانه أو تستشعره نفسه ، ومن هنا كانت خطواته بطبيعتها مسددة إلى الغاية مفضية إليها مهما كثر ما يعترضه من الصعاب . ثم من هنا كان خطره إذا تحرك . انظر إلى قوله حين سمع بتلك الدعوة الجديدة : « لقد أتى جريلى بما لا يعد عدلا . إنى جمهورى من صميم الجمهوريين ولقد وقفت دائماً فى طليعة الصفوف عند المعركة . والآن أراه يفاوض دوجلاس خير من يمثل رجل الاتفاقات ، ذلك الذى كان مرة آلة أهل الجنوب والذى هو اليوم أحد معارضيهم ؛ ذلك هو الرجل الذى يحاول أن يضمه فى صفنا الأمامى ... انه يحسب أن مكانه الرفيع وشهرته وتجاربه ومقدرته إذا أحببت ، تقوم مقام حاجته إلى مركز جمهورى خالص ، بل وتزيد على ذلك ... ولذلك فأن إعادة انتخابه على أن يمثل قضية الحزب العامة أجدى علينا من انتخاب من هو خير منه من رجالنا الجمهوريين

الخلص الذين ليست لهم مثل شهرته ؛ ماذا تعني «نيويورك تريبيون» بذلك الاطراء والاعجاب والتعظيم الذي تزجيه دائبة لدوجلاس ؟ هل تعبر بذلك عن شعور الجمهوريين في وشنجطون ؟ هل وصلوا نهائياً إلى أن قضية الحزب الجمهوري على العموم تتقدم خيراً من ذي قبل بتضحيتنا هنا في الينواس ؟ إن كان ذلك كذلك فنحب أن نعلمه عاجلا ؛ على أني إلى الآن لم أعلم بجمهوري هنا يرغب أن ينضم إلى دوجلاس ؛ وإذا استمرت «التريبيون» ترن باسم دوجلاس في مسامع الخمسة أو العشرة الآلاف من قرائها في الينواس فأن ذلك يكون أكثر من أن نأمل معه أن يظل الشمل مجتمعاً ؛ إنني لا أشكو ولكني أرغب في أن أصل إلى بينة من الأمر »

ذلك هو لنكولن اليوم ؛ انظر كيف يجمع بين منطق المحامي وحصافة السياسي ، وانظر كيف يدفع عن نفسه بما نشأ عليه من دماثة ما يحس فيه عدواناً على شخصه ونيلا من كرامته ؛ فهو يطيق أن يكون دوجلاس خصما له ولكنه لن يطيق أن يراه مرشح حزبه في الينواس ؛ نعم انه لن يستطيع أن يحمل نفسه على الركوب معه في قارب واحد يراه يأخذ فيه مكان الربان وهو فيما يعتقد لا يرى كفايته تتقاصر عن ذلك المكان

وأرسل لنكولن بعض أصدقائه إلى الأقاليم الشرقية ليروا ما حال الحزب هناك ؛ وكان من هؤلاء صديقه هرندن ؛ وقد عاد إليه ينبئه بأن اسمه يقابل بالاحترام لدى الكثيرين من قادة الحزب بيد أنه يحمل إليه مع ذلك أنباء لا تسره ؛ فرجال الحزب منقسمون بعضهم على بعض ، فأن لجريلي آراءه ولستيورد أطماعه ولغيرهما من أساطين الحزب من أوجه الرأي ما يخشى منه انحلاله ...

هكذا صارت السياسة شغله الشاغل ، وهو لا يستطيع اليوم إلا أن يكون كذلك ؛ لا لأنه يتخذ من السياسة وسيلة إلى تحقيق أغراض شخصية كما عسى أن يفعل غيره ؛ ولكن لأن عقيدة تحرك نفسه وتستثير وجدانه ، ولأن رسالة من الرسالات الانسانية الكبيرة ينبض بها قلبه الكبير . وهل عهدنا عليه من قبل ما نحمل معه اشتغاله بالسياسة على غير محمله ؟ حاشا أن يكون ذلك من صفات أمثاله وإلا فما أضيع البشرية وما أهون أمرها .

على أنه لم ينفض يده من المحاماة بعد ؛ لحرفته التي يكسب منها قوته لازالت حتى اليوم هي تلك الحرفة التي مال إليها بفطرته والتي ارتفع بهـا إلى مستوى إنساني يحق معه لأربابها جميعاً في كل جيل أن يذكروا اسمه كعلم من أعلام المدنية ، وأن يضيفوه إلى ما يعتبرونه في مهنتهم من دواعي الشرف وبواعث المفاخرة

ومن أفعاله في المحاماة يومئذ حادثة نرويها لدلالتها على ما كانت تنطوي عليه تلك النفس الكبيرة من المعاني الانسانية ، تلك النفس التي لم يتطرق إليها ما يتطرق إلى النفوس في هـذا العالم الخبيث من خبائث تشوهها وأوشاب تذري بها وهي في حال غريبة ، تحار معها هل تعدها آدمية أم تعدها بهيمية ؟

وقع بصره في إحدى الصحف على جريمة قتل يدعى أحد المتهمين فيها أرمسترنج ، فدهش وتساءل هل يكون ذلك ابن متحديه ثم صديقه القديم عند ما كان فتى يبيع في الحانوت وهو غريب في نيو سالم . ولما تبين له أنه هو كتب إلى أمه يقول : « عزيزتي مسز أرمسترنج : علمت الآن بألمك العميق وبالقاء القبض على ابنك متهماً بالقتل ؛ ويصعب علي أن أصدق أنه عسى أن يرتكب ما اتهم به . إن ذلك لا يبدو ممكناً . وإني لأرجو أن يجري معه تحقيق عادل على أي حال ؛ وإن عرفاني بالجميل نحوك وما كان لي منك أيام شدتي من عطف طالت أيامه ليحدوني أن أتقدم في سماحة نفس بخدماتي المتواضعة لصالحه ؛ فأن هذا سوف يتيح لي الفرصة أن أرد بقدر ضئيل تلك المبرات التي نلتها على يديك ويدي زوجك المأسوف عليه ، حينما لقيت تحت سقفكم مأوى كريماً بغير مال وبغير ثمن »

وتبين لابراهام براءته فعمد في دفاعه إلى طمن حجج المبطلين من الشهود . ومن ذلك أنه سأل أحدهم كيف رآه ينفذ الجريمة فأجاب إنه رأى ذلك على ضوء القمر ، فطلب المحامي نتيجة ، ومنها تبين للمحكمة أن ليلة القتل كانت ليلة معتمة ؛ ودار الدفاع حول تسفيه آراء الشهود حتى أصدرت المحكمة حكمها بالبراءة

« يتبع » الخفيف

الأنباط

وأطلال بترا الخالدة

للاستاذ خليل جمعة الطوال

— ١ —



الأنباط قوم من العرب الساميين. ويذهب المؤرخ الشهير فلافيوس يوسيفوس، إلى أن نسبهم يتصل بنبايوت بن اسماعيل، ابن هاجر، (زوج سيدنا ابراهيم)،[١] ولكنّ المؤرخ الكبير مومسن يخالف هذا الرأى، فقد ذكر أن الآراميين قد انشأوا قديماً من رعاياهم مستعمرة فى خليج العرب لتربط طرقهم التجارية مع الجنوب. وقد نزح سكان هذه المستعمرة فيما بعد، واستوطنوا بترا الواقعة فى شبه جزيرة سينا، بين خليج السويس وأيلة، وأن هؤلاء الأنباط الذين يرجح أنهم أقرب إلى الفرع الآرامى منهم إلى أبناء اسماعيل[٢]. ولكن مومسن لايذكر إلى جانب هذا الزعم، الذى اتفق جمهور المؤرخين على تخطئته، أسباب نزوح هؤلاء القوم، وتاريخ نزوحهم، ولا أشار إلى عدد النازحين منهم، وفى ذلك كله مجالٌ طويل للافتراض والشك ... على أنه مهما يكن من الغموض والاختلاف فى نسب الأنباط إلى نبايوت أو غيره، فان المصادرَ جميعها متفقة على نسبتهم إلى الفرع السّامى، بدليل طراز معيشتهم البدوية، وعاداتهم وتقاليدهم العربية، وبدليل أنهم كانوا يتكلمون العربية، ولمْ يتكلموا الآرامية إلاَّ بعد احتكاكهم بالرومان[١]. وتدل الآثار والنقوش النبطية الكثيرة التى اكتشفت فى مدائن صالح على أن خط هجرتهم إلى بترا كان من الجنوب إلى الشمال، أى أنهم نزحوا من أواسط سهوب البادية واستوطنوا جنوب الأمارة الأردنية الحاضرة، وكانوا حيثما نزلوا يقيمون فى مضاربهم المصنوعة من الوبر والشعر؛ دون أن يمدوا إلى الكهوف، أو إلى إقامة الأبنية الحجرية. وإن فى خروجهم من قلب البادية لأكبر دليل على ساميتهم، وعلى نسبتهم إلى أصل عربى. أمّا المستر هورسفيلد فيخالف هذا الزعم فى مبدإ هجرتهم، ويزعم أنها كانت من الشرق لا من الجنوب[٢]

كان الأنباط فى أول أمرهم يشتغلون بالقرصنة على سواحل البحار وبالسلب والنهب، ولكنهم عند ما سكنوا بترا وأجلوا عنها الآدوميين، وجهوا هممهم نحو التجارة، لأنّ بلادهم كانت معقلاً للقوافل التى كانت تسير بين أواسط آسيا ومصر، ومركزاً لتبادل المتاجر والبضائع التى كانت تمر بها من الجزيرة والهند، وأهمها التمر، والبن والأبسطة، وريش النعام، والعاج والبخور، والتوابل، والبهارات — بالمنسوجات والمصنوعات الخزفية، والحرير، والأدوات التى كانت ترد من سواحل فلسطين الفينيقية، ومن سوريا، ومصر، فاثروا من ذلك ثراء طائلا، واستولوا على جميع الطرق التجارية، واحتكروا النقل عليها بغير منافس مدة طويلة من الزمن، حتى كانت جواسقهم تفهق بالمال، وآبالهم تنوء بالخير والرزق، فتجردوا عن بداوتهم وبدأوا بالتحضر رويداً رويداً فزادت معنوياتهم وقويت شوكتهم وهيبتهم، حتى لقد خطب البابليون ودّهم وتحالفوا معهم فتخوف منهم الأشوريون وسيروا إليهم عام ٦٤٦ ق. م. قلة من جيوشهم فغلبت ملكهم ناطمو، وأخضعوه لسلطتهم حيناً من الزمن. ولما اعتلى أشور بانيبال العرش الأشورى، جرد جيشه ثانية وأعاد الكرة على البابليين، فالتقى بهم فى عزاليا (٦٤٠—٦٢٨ ق.م) وقد انضم إليهم الأنباط، فدارت بين الفريقين رحى الحرب، وكان النصر أخيراً للأشوريين عليهم، وذلك للمرة التاسعة. فأسر واامرأة

(١) راجع: The Works of Flovious Josephus

(٢) راجع: Mommsen: History of Rome. Vol. IV. P. 133

(١) راجع: Bouchier: Syria asa roman Province 1916

(٢) راجع: تاريخ شرق الأردن وقبائلها تأليف اللفتنت كولونيل فردريك ج. بيك

يوتحا وأخته وأمه ، وحملوهن إلى الشام، وقطعوا إلى الأنباط موارد الماء جميعها ، وذلك لانضمامهم إلى أعدائهم البابليين ، ولأنهم أجاروا ملكهم « يوتحا » ، ولما اشتد بهؤلاء العطش ولم تنهم عن المال آبالهم المديدة التي نحروها، قبضوا على يوتحا وسلموه إلى أعدائه الأشوريين ، فأرسله إلى نينوى وشدوه من فكه إلى أحد أبوابها حيناً من الزمن

وفي عام ٣٣٤ ق . م . اكتسح الاسكندر المقدوني سوريا وفلسطين ، وكان الأنباط قد تحصنوا في بلدة غزة ، فلما جاءها قاومه النبطيون مقاومة شديدة ، ولكنه أخيراً تمكن من فتحها واكتساحها

وفي عام ٣١٢ ق . م . وجه ملك سوريا (أنتغونس) إلى الأنباط جيشاً لجباً مؤلفاً من ستمائة فارس وأربعة آلاف من المشاة وكان على رأسه القائد العظيم أثنيوس . فاخترق عمون ومؤاب بدون مقاومة ثم نزل بترا فجاءة واحتلها بسهولة ، ذلك لأن الأنباط كانوا يقاتلون في بعض الجهات الأخرى ، ولما عاد جيش النبطيين من جهاده حمل على الجيش اليوناني حملة غماء الجبين ، وهزمه هزيمة منكرة ، واستأصل شأفته ، حتى لم ينج من ذلك الجيش الجرار سوى خمسين فارساً

ثم جهز أنتغونس جيشاً آخر مؤلفاً من أربعة آلاف فارس ومثلها من المشاة بقيادة ابنه ديمتريوس ، وسيره ليثأر لأبطاله من الأنباط ، ولكن النبطيين هجروا المدينة (بترا) بأبلهم وأرزاقهم ولجأوا إلى الصحراء ، ولما دخلها ديمتريوس لم يجد فيها سوى المجزة ، الذين افتدوا أنفسهم بالمال، ورجع عنهم إلى دمشق

وفي عام ٢٨٦ ق . م . ارتقى عرش مصر بطليموس الثاني فأغار على بلاد الأنباط غير مرة ولم يتمكن من اكتساحها فعمد إلى محاربتهم اقتصادياً ، إذ استولى على طريق تجارة الهند ، فانحطت معنوياتهم ، ونالتهم الأزمة ، ثم دخل البطالسة حرباً جديدة ضد السلوقيين في سوريا ، فاستغل النبطيون هذه الفرصة إذ استرجعوا مكانتهم الاقتصادية وبسطوا نفوذهم حتى بصرى شمالا وفلسطين غرباً ، وأخيراً عهد إليهم المصريون البطالسة [1] بحراسة الحدود المصرية ، فصاروا أمة ذات هيبة وشأن

أما أشهر ملوكهم بعد ناطمو فكان (أرطاس الثاني) ، وفي عهد هذا الملك الذي امتد حكمه من (١١٠ – ٩٦) ق.م وفي عهد خلفائه : أوبيدس الأول ؛ وروبال الأول ؛ وأرطاس الثاني بلغت دولة الأنباط أوج رفعتها وعلائها ، إذ كانت متمتعة بالاستقلال الناجز التام ، كما كانت اقتصادياتها في حالة ممتازة ، وفي عهد اسكندر جانوس عمت الفوضى والانحلال الحكومة السورية البيزنطية ، واشتدت كراهية السوريين للمستعمرين البيزنطيين ، حتى إنهم كانوا عوناً لكل خارج عليهم أوطامع في مناوشتهم ، ولذلك لم يلق الحارث فيلهلين (٩٥ – ٥٠ ق . م .) مقاومة عنيفة . حين زحفه على الشام . بل سرعان ما سلم له السوريون مقادة أمرهم ومقاليد دولتهم ، ليتخلصوا من ظل الارهاق البيزنطي الممقوت . وقد تولى سوريا من بعد الحارث خمسة ملوك نبطيون ، وهم : مالك (٥٠ – ٣٨ ق . م .) وعبادة (٣٠ – ٧ ق . م) والحارث الثاني الملقب بفلوديوس (٧ ق . م – ٤٠ ب . م .) ومالك (٤٠ – ٧٥ ب . م) ودابل (٧٥ – ١٠٦) [1]

---

(١) راجع Palestin Exploroition P. 69

(١) راجع Journal of Egyption Archeslogy Vol. XV.

وقد كانت مملكة الأنباط ممتدة من جنوبي أرنون إلى مدائن صالح ، والجزء الجنوبي من شرقي الأردن الواقع شرق الخط الحجازي حتى دمشق وبصرى ، وجبل الدروز ، وفي عام ٦٧ ق . م. اتفق الحارث فيلهلين مع الفرس على أن يساعدوه في استرداد بلاده التي اغتصبها اسكندر جانوس ، فجهز جيشاً مؤلفاً من الأنباط والفرس يبلغ (٥٠ ألف محارب) ، وسار على رأسه لحصار أرسبيلوس في قصره ، ولكنه رجع من حصاره مغلوباً

وفي عام ٦٤ ق . م . بينما كان بومبي مشغولا بتسكين ثورة اليهود في فلسطين ، جهز جيشاً بقيادة ماركوس سكوروس ، وسيره لمقاتلة الأنباط ، فتصادم معهم على شواطئ الأردن ، فناوشهم طويلا ، ولكنه لم يستطع قط أن يخترق بلادهم ويتوغل في جنوبي شرق الأردن . وانتهت هذه المناوشات بتدخل انتيباتر الكاهن اليهودي ، إذ استطاع أن يقنع الملك النبطي (الحارث) بأن يدفع لسكوروس القائد الروماني مبلغاً معيناً من المال فدية لبلاده . (راجع تاريخ روما ص ١٣٨ — ١٣٩ لومسن) . وتخليداً لذكرى هذا الانتصار ضرب سكورس نقداً عليه صورة الحارث يقود جملا ، ويقدم إلى الرومانيين غصناً من الزيتون

وفي عام ٣٤ ق . م أهدى أنطوني ٦٧١ جزءاً من بلاد الأنباط إلى كيلوبطرا ، وهذه بدورها أهدته إلى هيرودس ؛ فكبر على الأنباط أن يروا بلادهم سلعة تتهاداها الملوك ، فجيش ملكهم المعروف « بمالك » عساكره ، وانقض بهم على كيلوبطرا فانتصر عليها في واقعة ، قرب السويس ، وأغرق أساطيلها التي كانت في البحر الأحمر . ولما بلغ أنطوني خبر اندحار معشوقته ، جهز جيشاً عظيما وسيره بقيادة هيرودس ليثأر لها من الأنباط ؛ وكان ذلك عام ٣٢ ق . م فانتصر عليهم في بادئ الأمر ، ثم امتد خط القتال حتى كانانا وهناك أديل للأنباط من الرومانيين في معركة حامية الوطيس ، ثم جهز هيرودس جيوشاً جديدة والتقى بالأنباط قرب مدينة عمان (عاصمة شرق الأردن الحاضرة) وفتك بهم فتكاً ذريعاً ، فانسحبوا حتى تحصنوا بأم الرصاص (قرب مدينة مأدبا) تدل على ذلك النقوش والكتابات النبطية التي اكتشفت فيها والتي يرجع عهدها إلى عام ٣٩ م

ولما اعتلى عرش الأنباط الحارث الثاني المعروف بفلوديموس أخذ يخطب ودّ الرومان الذين كان قد امتد نفوذهم إلى المملكة النبطية ، فزوج ابنته من هيرودس التراكي ، ولكنها لم تلبث أن طلقته هاربة إلى أبيها في بطرا ، لأنها اكتشفت علاقاته الغرامية مع هيروداس زوج أخيه ، فاستشاط الحارث غيظاً لشرف ابنته وانقض على هيرودس وهزمه (١)

أما اليونان فقد ظلوا يهتبلون السوانح ويتحينون الفرص المناسبة ليثأروا من الأنباط لهزيمتهم عام ٢٥ ق . م . حتى كان عهد تروجن فجهز عام ١٠٦ ب . م . جيشاً لجباً بقيادة أولوس كرنيليوس ، حاكم سوريا ، وسيره إليهم ، فقضى هذا الجيش على تلك المملكة العظيمة التي دام عهدها التاريخي زهاء ستة قرون وأقصى آخر ملوكها وهو دابل عن العرش

(يتبع — شرق الأردن) خليل جمعة الطوال

(١) راجع : The Works of Jasephus Books XV. & XIII



فرنتس شوبرت

للأستاذ محمد كامل حجاج

أتشرف بالتحدث اليوم ألى قراء الرسالة الأفاضل عن عبقرية نادرة ونابغة عالمى فى الموسيقى وقد عرفه الشعب المصرى أكثر من غيره من كبار الموسيقيين من كثرة عرض فلمه « السانفونى الناقصة » ولا يخفى عليكم أن السينما لا تتوخى الحقيقة دائماً بل يتعمد الانحراف مبرراً موقفه ولو بأضعف الأسانيد المشكوك فى صحتها إن كان فى سردها ما يشوق النظارة أو يترك فيهم أثراً عنيفاً

ولد المترجم له فى ٣١ يناير سنة ١٧٩٧ على مقربة من فينا وعاجلته المنية فى ربيعه الحادى والثلاثين أى سنة ١٨٢٨ وقد ترك بعد هذه الحياة القصيرة كثيراً من مختلف أنواع التلحين إذ بلغت مؤلفاته فى طبعة Mandezewiski سنة ٩٧ — ١٨٨٥ أربعين مجلداً

ولع منذ نعومة أظفاره بالموسيقى فتلقى تعليمه الأول على ميشيل هولزر وأخذ يدرس فى الوقت نفسه البيانو وعدة آلات وترية حتى أتقنها، وعهد إليه بدور الكمان الأولى فى الأوركستر وهو فى الرابعة عشرة من عمره، ثم تلقى دروس الأرمونى على أورجانست البلاط الأمبراطورى Rueziczka وتلقى الغناء والتلحين على ساليرى Salieri مؤلف أوبرا دانايد Danaides

ولقد أحصى ما ألفه فى سنة ١٨١٥ وكان فى ربيعه الثامن عشر فوجد ٦ مؤلفات للمسرح وقداسان و Stabat Mater و Salve regina (وهما نوعان من الموسيقى الدينية) و١٢ Wiener Deusche و ٨ Ecossaises و ١٠ تنويعات للبيانو و ٢ من السانفونى و ٤ سوناتات وأكثر من ١٣٠ من الأغانى المعروفة بالليدر فيكون المجموع ١٧٦ قطعة . وقد قال عنه بيتهوفن وهو على فراش الموت : « إن فى هذا العقل لشرارة ربانية »

كان أبوه صاحب مدرسة وتزوج مرتين رزق فيهما من الأبناء والبنات ثمانية عشر . وإنه لمن الصعب أن يميز الإنسان أدوار حياة قصيره ؛ ولكننا نستطيع أن نعتبر منها تاريخين بلغ فيهما أعلى ذرى مجده وهما سنة ١٨١٩ التى ظهرت فيها قطعته المشهورة « شكوى الراعى » وسمعها الجمهور لأول مرة وحازت قبولاً عظيماً وعام ١٨٢١ إذ مثلت فيها « ملك الأون » Roi des Aulnes وهى من أوبيراته الشائقة وقد غناها المغنى المشهور ميكاييل فوجل ، ومن هذا المهد ذاع صيته وملأ الآفاق . ولقد كان مثل موزار فى ذكائه المشتعل فى صباه المبكر ، ويظهر أن القواعد الابتدائية للفن قد نقشتها الطبيعة في عقله فما كان منه إلا أن يشعر بتطلبات الظروف مثل مبادئ العقل والأخلاق

ولقد قال أستاذه هولزر : « بماذا أستطيع أن أفيده ؟ إذ حينما أريد أن أعلمه شيئاً وجدته عالماً به من قبل » . ولرخامة صوته وذكائه الموسيقى عين منشداً فى كورس كنيسة الامبراطور وانتظم فى سلك طلبة المعهد الموسيقى الملحق بها إلى أن خرج منه سنة ١٨١٣ ، ثم جعله والده مساعداً له فى مدرسته ولبث فيها ثلاثة أعوام ولما كثر المعجبون به أرادوا أن يعرفوه للناس فأرسلوا جانباً من الليدر التى كتبها إلى جوته ولكنه لم يرد عليهم ، فلم ييأسوا وأرسلوها إلي المغنى الشهير ميكاييل فوجل فدهش منها وطفق يحضرها ويغنيها

وفى سنة ١٨١٨ استدعاه الكونت استرهازى ليعلم ابنتيه فذهب إلى قصر Zelesz بالمجر وقضي فيه الصيف فى هناءة وسرور معجباً بتلميذتيه . إن أعظم المراجع التاريخية لم تذكر شيئاً عن غرام شوبرت بكارولين ابنة الكونت استرهازى والبعض قال : إن هذه الاشاعة مشكوك فى صحتها إذ لم يؤيدها

أحد وغاية الأمر إنهم استنتجوا هذه الاشاعة من عناوين بعض القطع كالوداع وغيرها

وفى نوفمبر سنة ١٨١٨ رجع إلى ڤينا ورفض متابعة التدريس وطرده والده ، فأواه أصدقاؤه وتدبروا له فى شراء بيانو . فكان يستيقظ مبكراً ويبتدئ التلحين فى الساعة السابعة صباحاً ويستمر إلى الأولى بعد الظهر فى الخلاء أو فى المدينة أو فى نزهة أو فى المقاهى ، وكان يمضي السهرة كلها مع أصدقائه الحميمين مثل : Spaun و Lachner و Schober و Senn و Bauernfeld وغيرهم . وكانت هذه الفئة من الموسيقيين والشعراء يصرفون الليل فى إلقاء الشعر والغناء ، ويشربون ويمرحون ، وكانت كؤوس الجعة تدور طول ليلهم وفى بعض الأوقات يرقصون ، وكانت حفلات الشباب هذه الأدبية يعيدها شوبرت إذ كان لها بمثابة الروح للجسد ، وأطلق عليها اسم : « شوبرتياد »

وقال صديقه Spaun « كنا جميعاً أخوة أصدقاء » وكان شوبرت يحب أصدقاءه حباً جماً حتى أنه كان يسكن معهم ويشاطرهم ملابسه ونقوده . وكان يحب اجتماعات الفتيات ويرتاح لسمرهن ولكنه كان يتحاشى أن يقع فى حبائل الحب أو يعكر صفوه وخياله بآلامه لأنه كان يطمح إلى الرقى لأعلى ذروة فى الموسيقى

وفى أبريل سنة ١٨٢١ تعاون أصدقاؤه على طبع كراسة من الليدر فى محل Cappi et Diabelli وكتب السانفونى التى من مقام Si mineur ، وهى من أعمق مؤلفاته . وقد حاول أن يقترب من بتهوفن ولكن هيهات الوصول إليه

أصابه مرض شديد سنة ١٨٢٣ نخاب رجاؤه وانقطعت آماله فقال فى إحدى رسائله : « إننى لأتعس وأشقى رجل فى العالم ، فتصور بائساً لا تعتدل صحته قط ، وقد خابت آماله ولم تسبب له مسرات الحب والصداقة إلا المتاعب والآلام ، ولا أدرى إنساناً يفهم آلام أو سعادة مثيله . ويظن دائماً أن الواحد يتجه دائماً نحو الآخر وغاية الأمر أنهما يسيران جنباً إلى جنب ، فيالعذاب من يشعر بهذه الحقيقة المرة المؤلمة

رفضوا له أوبيرتين وهما « المتآمرون » و « فيراراس » ولكن الرحلة التى قام بها مع المغنى الشهير فوجل فى النمسا العليا قد صادفت نجاحاً عظيماً

وبعد عودته كتب ليدر « الطحانة الجميلة » وفيها صورة حية ناطقة للآلام الانسانية ولكن أوبيرا Rosamunde التى مثلت فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٢٣ وكان عليها إقبال عظيم لم تمثل إلا مرتين

ساورته الكآبة والحزن لتدهور صحته وفقره ، ولسوء حظه ما كان يجد من يشترى تآليفه ، ثم ذهب سنة ١٨٢٤ إلى قصر الكونت استرهازى وقضى به فصلاً ثانياً وكان يبحث فى مخيلته عن شىء يتعزى به وكان يتصنع السرور رغماً عن كآبته وآلامه، استمر فى العمل ولم يهجر المسرح وقد ربطته عرى الصداقة مع المغنية الشهيرة أناملدر هوبتمان وكانت تغنى فى مسرح « ملك بروسيا » . ثم قام برحلة جديدة مع فوجل المغنى ورجع ومعه عدة مخطوطات ثم أرسل إلى جونه كبير شعراء الألمان ثلاثاً من الليدر فلم يرد عليه وحاول أن ينال وظيفة الرئيس الثانى لكنيسة الملك فأخفق

(البقية فى العدد القادم)

محمد كامل حجاج
عضو مؤتمر الموسيقى العربية



رسالة الشعر



خواطر

دمشق

للأستاذ محمد بهجة الأثري

إلى صديقي العلامة الأستاذ محمد كرد علي ذكرى
احتفائه بالإخاء وتكريمه للصداقة ... ...

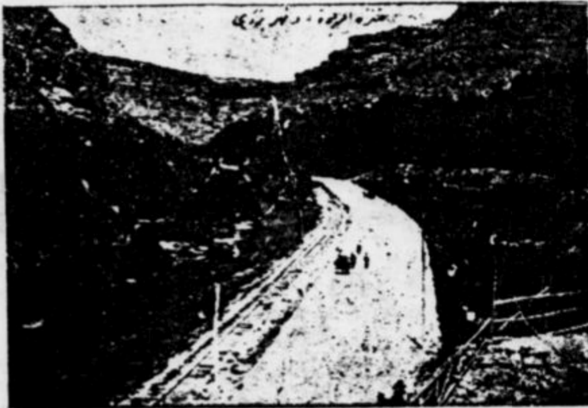
مَنْ عَذِيرٌ من الهوى ومُجِيرُ ؟   فَضَحَ الشَّوْقُ ما أجَنَّ الضميرُ
أنا في قبضة الجَمَالِ نَخُودٌ   تَسْتبيني وروضةٌ وغَدِيرُ



* * *

هذه (جِلَّقٌ)، تبارَكَ ربي !   بَلَدٌ طيّب وربٌّ غَفُورٌ
الهوى والهواء، والجدولُ الرَّقـراقُ والروضُ والسَّنَا والحورُ
حَيْثُما تغتدي فروضٌ أريضٌ   عَنْبَرِيُّ الشَّذا وماءٌ نَمِيرُ
وظِلالٌ ممدودةٌ وهْيَ تَنَدَّى   وشعاعٌ يرِفُّ وهْوَ مُنِيرُ
من سَنَا الشمسِ فوقَها ومن الزُّهْـر دنانيرُ عسجدٍ وعَبِيرُ
يُقْتَلُ القيظُ في ذَرَاها ولكنْ   في ذَرَاها يحيا الهوى ويَثُورُ
جئتُ آوي من الحَرُور إليها   وإذا في الحشا يشبُّ الحَرُورُ
أنا منها ومن مَهَاها اللواتي   يتكسَّرْنَ رقةً، مسحورُ
كلُّ بيضاء في لواحظ سُودٍ   رفَّ في خدِّها الدمُ المستحيرُ
في قَوَامٍ لَدْنِ المعاطفِ ريّا   نَ وخَصْرٍ من الضَّنى يستجيرُ
وصِبا ناضرِ الشبابِ غذاه   تَرَفُ العيشِ والنعيمُ الوثيرُ
وأديمٍ مُنعَّمٍ في حَبِيرٍ   يومَ العينَ ماؤه والحبيرُ
لمَّا كالسَّرابِ شفَّ فلم تَدْ   رِ أماءٌ لألاؤه أم نورُ
تنفثُ السحرَ في الخليِّ فيشجى   وتثير الهوى به فيثورُ
ولقد زانها النُّفُورُ، وحُسْنُ الـحُسْنِ في الغادة العَرُوبِ النفورُ
كرَّمَ اللهُ وجهَ كلِّ نوارٍ   صانها الطُّهْرُ والحياءُ الوَقُورُ !
لِيَ من هيكلِ الجمالِ المعاني   ولغيري ألفاظُهُ والقشورُ !

* * *



وطَنُ العُرْبِ جنَّةٌ و(دِمَشْقٌ)   رَفْرَفٌ أقدسُ المَطافِ طَهُورُ

شرقت بالرؤى مسارحها الخضـ ـر وروّى نعيمهن السرور

***

ربّ ناد تخذته في الروابي … أقرأ الحسن ثم وهو سطور
فعلى (الغوطتين) والشمس تبدو … وعلى (النيربين) وهي تغور
فإذا (جلق) رياضاً ودوراً … كالمصابيح حفها الديجور
عالم من زبرجد طاف بالد … ر وأذكاه بالرواء النور
ساحر المجتلى أطلّ عليه … (قاسيون) كأنه مذعور
يغرق الحس في سناه ويفنى … في تهاويل سحره التفكير

***

أنا إن أنس لست أنسى لياليّ (م) إذ البدر ضاحك والثغور
وكأن الأكوان في دافق النو … ر بحور قد أغرقتها بحور!
يمرح القلب في سناها كما يمـ … ـرح في الماء سابحاً عصفور
قد تفردن بالصباحة لولا … وجنات نازعنها ونحور!

***

حبذا (الشام): ماؤها وهواها … ومساري أنهارها والقصور
وميادين حسنها وهي شتى … ومغاني اللذات وهي كثير
جادها الغيث من معاهد لا اللطـ … ـف عداها ولا النعيم الوفير
محسنات الأوقات حتى ضحاها … وشحته بلطفهن البكور
وبنفسي هدير أنهارها السبـ … ـعة دوّامة عليها الطيور
تتلوّى كالأين ريع وتهتـ … ـز ارتعاشاً وترتمي وتمور
وهي آناً في السهل تعدو وآناً … في الروابي المسلسلات تغير
تغمر (الغوطتين) بشراً وزهواً … مثلما يغمر النفوس الحبور
وغدت فوقها الطيور تغنى … ربما يطرب الطيور الخرير
عشقت لحنها، وللطير لحن … يسكر السمع جرسه المخمور
حيث تغدو يلهيك منها سماع … ومن الروض مونق منضور
عرس قام للطبيعة فيها … يستخف الإنسان وهو وقور
تهزج الطير والأناسي فيه … ويمور السنا ويذكو العبير

***

قف تمتع مما تراه قليلاً … وقليل مما تراه كثير:
للأنوف الشذا أريجاً، وللسمـ … ـع الأغاني، وللحاظ البدور!

«بغداد» محمد بهجة الأثري

باقة غزل من شعر الصبا

للأستاذ عبد الرحمن شكري

يا أيها الخاذل النائي بجفونه
خلفت في العيش سحر المنظر البهج
خلعت حسناً على عيش كما خلعت
شمس الغروب على الآفاق من وهج

***

فرص الحياة قليلة … فالي م صدك يا حبيبي
بينا جمالك يانع … فينان كالغصن الرطيب
إذ لا جمال ولا صبا … يصبي القلوب إلى الوجيب
والعيش خالد في الشبا … ب فإن دنوت من المشيب
أحسست إقبال الردى … كخشوع قلبك في المغيب
فترى الحياة قصيرة … كتلألؤ البرق الخلوب
وإذا الحياة كنغبة الـ … ـعصفور روّع بالرقيب
متلفتاً يحسو ويخـ … ـشى أن يفاجأ من قريب
بينا تراه على الغديـ … ـر تراه في الأفق الرحيب

***

خلفت في القلب يا معذبه … ما خلفت نغمة من الجرس
ذكراك في نفس منصت يقظ … ذكرى غناء في الأذن كالهمس
كأنما القلب نحوكم أبدا … لينوفر دائر مع الشمس

***

كنت روضي والعيش صيف وفي … حافل بالنعيم والآلاء
فلئن عادت الحياة شتاء … أنت فيها كزهرة في الشتاء
فهي محبوبة وأندادها كثـ … ـر ومحبوبة بقفر عراء
وهي أشهى إلى النفوس وأحلى … لافتقاد الأنداد والأكفاء

***

أعر البدر طلعتك … علم النجم نظرتك
وامنح الصيف من روا … ئك والزهر نضرتك
وهب الطير شدو صو … تك والفجر غرتك

وإذا ما هفا النسيم فعلمه خطرتك   امنح الكون نشوتك علِّم السحر قدرتك

***

أرى الزهر غضاً يانعاً طله الندى   مَلِيًّا بأن يشجو ظِباء النواظر
فأحسبه دمعاً لذكرى غرامنا   وأنفاس أيام اللقاء الغوابر
أتذكر وعداً باللقاء بذلته   بمجتمع الأطيار بين الأزاهر
وليلا طرقناه سميرين فى الدجا   كاجال سر الوحى بين السرائر
طرقتك يا ليل اللقاء فرقتنى   بلذات حب كالنجوم الزواهر

***

يا زائري أعبقت منك محاسناً   كالزهر يترك نفحة المرتاد
أخصبت تربة أنفسٍ ظمآنة   شامت سناك فكان خير عهاد
وأفضت شؤبوب المحاسن والنهى
طيباً على المهجات والأكباد
يا زورة كالعيد إلا أنها   جَلَّت عن الفرحات والأعياد
يا ليت أن النفس درة غائص   أهديك من نفسى أعز عتاد

***

أنت عنوان لما أنشده فى الخطرات
كل كون كان أو لم يك من ماضٍ وآت
فيك لى منه أمانى النفوس الساميات
أنت فى الدهر ابتسام كابتسام الزهرات
ليت لي منك ائتلافاً كائتلاف النغمات

***

قد قلتُ للحب لا تعتب على سَكَنِي
لنبوة منه فى أيامك الاخَرِ
كم لى وكم لك من يوم لنا بَهِجٍ   بطلعة منه تحكي طلعة القمر
إنْ يَجْفُ قلبك كالأثمار يانعةً   ودون ذلك يُبْسٌ من نوى الثمر
فارجم بقلبك قلباً أنت مالكه   فإن قلبك مثل الماس فى الحجر

***

البدر يكسو الأشياء حُلَّتَهُ   وَشْيٌ من السحر حاكه القمر
فاكْسُ بأنوارك الورى حُلَلاً   كى لا يبين الشقاء والعُسُرُ

يا شمس حسن حياتنا ثمر   ينضج فى ضوء حسنك الثمر
أشعل بألحاظك الحياة فإ   ن الصخر إمَّا رمقته دُرَرُ
عَطَّرْتَ بُرْدَ الحياة قاطبة   فكل شىء لمسته زهر

***

عيناك عيناك منبت الذكَرِ   كالزهر فى قاع رائق الغُدُرِ
فنعسة الطرف أنه أبدا   كذاهل قد أصاخ للفِكَرِ
هل نعسة فى لواحظ حُلُمُ   بعالم الحسن طيب الخبرِ
بعالم أنت من بشائره   بشرى طيور الربيع بالزهَرِ
عيناك من لجة الزواهر أم   مقبوسة الضوء من سنا القمر
أم من غدير الحياة حَفَّ به   من هُدْبِ جفنيك باسق الشجرِ

***

فياليت لى من صخر قلبك آلة   فاتلو عليها نَغْمَةً أى نغمة
يئن أنين العود من شجو ضارب   فَيُسْعِدُ قلبى فى حنين وأنة

***

ياحسن من لى بسحر أتقيك به   فالحسن يسحرنا والسحر يرقينا
ياحسن هل أنت ناس ليلة سلفت   طاف الغرام بها ياحسن يسقينا
كأننا نَغْمَةٌ فى الليل سارية   تهفو وللليل أُذْنٌ فيه تبغينا
ورق فيه أديم البدر مؤتلقاً   حتى كأن سناه من تصافينا
وبت ألحظكم طوراً وألحظه   وفوق وجهك ضوء البدر يشجينا
ياحسن لا تحسبن البدر يشغلنا   ياحسن لولاك ما ابيضت ليالينا

***

ياعين من أهوى رعاك الكرى   فليلتى منكِ ليال طوالْ
عودى بلحظ صادق ضوءه   يجلو دجا العيش وليل الخبال
ياطاقة أبصر منها النعيم   فى جنة الخلد وريف الظلال
عودى بلحظ أحتسى خمره   فالكوثر العذب شهيُّ المنال
ولا يلن برقك لى خُلَّباً   أهكذا حَظِّىَ آلٌ فآلْ

***

صنم الملاحة والرشا   قة واللذاذة والألم
ناجيت قلبك كى يرق (م) فما أحس ولا رحم
يقسو فؤادك ياصَنَمْ   أوليس من حجر أصم

عبد الرحمن شكرى



توحيد التعليم في المدارس المدنية والدينية

أخذ صاحب المعالى وزير المعارف يدرس برامج التعليم فى المدارس المدنية والدينية ، بقسميها الابتدائى والثانوى ، قاصداً بذلك إلى وضع برامج يشترك فيها التعليم المدنى والتعليم الدينى

وقد كتب معالى الوزير إلى صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر يستطلع رأيه فى هذا الصدد ، تمهيداً لانتخاب لجنة من رجال المعارف والأزهر ، يعهد إليها وضع البرامج الملائمة . والغرض من تحقيق هذه الفكرة إيجاد التقارب بين عقول المتعلمين وخلق جيل جديد متفاهم ، لا تشعر جماعاته بفوارق بينها ، ولا تتعصب فيه كل طائفة لنفسها ، وبهذا تتفادى أسباب النفرة بين الجماعات المختلفة

الى الأستاذ فليكس فارس

جاء فى العدد ١٦٦ من الرسالة الغراء فى مقال الأستاذ الكبير (نهضة المرأة المصرية وكيف توجه للخير العام) ما يلى :

« لا ينهض بالشرق إلا حضارة شرقية تستمد نظمها من المبادئ الأدبية العليا التى أنزلت وحياً على رسله وأنبيائه ، وإلهاماً على فلاسفته وشعرائه »

وقد قامت اليوم دعوة تدحض هذه النظرية . وقد نشر فى الأهرام قريباً مقال عنوانه (هل يوجد اليوم شرق ؟) للاستاذ توفيق الحكيم وقد استشهد الكاتب فى هذا المقال بحديث نقله من كتابه الحديث (عصفور من الشرق) يدور بين روسى ومصرى

فإلى الأستاذ فليكس فارس الذى قال بأن الشرق لا ينهض إلا بحضارة شرقية أطلب أن ينفحنا برأيه ويدلنا على جواب شاف عما إذا لم يزل الشرق شرقاً والغرب غرباً ؟ وهل فى الامكان تلقيح الشرق بحضارة غربية ؟ وهل فى الامكان أن يلتقى الشرق مع الغرب ؟ وأى الحضارتين أفضل — إن كانت هناك حضارتان شرقية وغربية — الأولى أم الثانية ؟

إن قراء الأستاذ المعجبين بصدق آرائه وصواب نظرياته وصحة حججه ليرجون أن يرويهم بحديثه العذب وأدبه الفياض

عبد العزيز عبد الكريم

عصبون جابر لا أزيونجيير

جاء فى العدد الفائت من الرسالة الزاهرة فى البريد الأدبى ما يأتى

« إن الأثريين الأمريكيين الباحثين قرب شاطئ البحر اكتشفوا آثار مرفأ كان زاهراً هناك حوالى ألف سنة إلى ثمانمائة سنة قبل المسيح ! أما المدينة المكتشفة آثارها فهي أزيونجيير التى يدعوها العرب تل الخليفة ! »

وهذا كلام لا غبار عليه ، والاستكشاف حق ، والمدينة أثرية تضرب فى أعماق الدهر بتاريخ مجيد ، ولكن لفظها العبرانيّ السامىّ قد تناولته أقلام المترجين بالتحريف والتغيير

فقد جاء فى الاصحاح التاسع عدد ٢٦ من سفر الملوك الأول من التوراة ما يأتى بالنص العبرى : « فآنى عاشا همّلخ شلموه بعصيون جابر إشر أتْ ألوُت علْ شفة يَمْ سوُف بآرص أدوم » وترجمة ذلك : « وصنع الملك سليمان سفناً فى عصبون جابر التى تقع على شفة (شاطئ) بحر (سوف) بأرض أدوم

فالتوراة هنا حددت موقعها ، وجاء الاستكشاف مصداقاً لهذا التحديد ؛ وبحر سوف الوارد ذكره فى الآية هو البحر الأحمر ، ومعنى هذا « الهلاك » فى اللغة العبرية ، ولعله يشير إلى هلاك فرعون وجنوده عند ما اتبع سيدنا موسى فسمى لدى العبرانيين بهذا الحدث فى التاريخ والله أعلم !

أما عصبون جابر المدينة المستكشفة ، فقد ذكرت فى مواضع عدة من سفر الملوك بهذا اللفظ العبرانى الأصيل ، وهى من أعظم

الموانى الواقعة على خليج العقبة فى ذياك الزمان بأرض الآدوميين إذ كانت فى أيام سليمان عليه السلام مركزاً ممتازاً لتجارة الأعواد والأطياب والذهب الوارد من أوفيرا فى مملكة سبأ بالجنوب

« دار العلوم » محمد عبد الله العمرى

تبسيط قواعد النحو وطريقة الكتابة العربية

تشتغل وزارة المعارف بجمع المقترحات والبيانات المختلفة التى تتلقاها الآن عن المشروعين الخاصين بتبسيط قواعد النحو وطريقة الكتابة العربية

وتنوي الوزارة قبل اتخاذ قرار نهائى في هاتين المسألتين الاستئناس بآراء مجمع اللغة والمستشرقين

وينتظر أن يطول الزمن بهذين المشروعين نظراً لخطورتهما وصعوبة الوصول إلى الغاية التى تقصد إليها الوزارة

وقد يكون المشروع الأول أسهل من الثانى . ومهما يكن من أمرهما فان الاتجاه يذهب إلى تبسيط النحو فى المدارس المصرية ابتداء من العام الدراسي القادم حتى ترتفع شكاية الأساتذة من ضعف التلاميذ

جبران والرمزية

قرأت فى مجلة الرسالة الغراء فى العدد ٢٥١ مقالا للأستاذ بشر فارس ألمع فى هامشه إلى أن الكاتب الرسام جبران خليل جبران قد سار على نهج الشاعر الانجليزى وليم بليك Wiliam Blake فى رمزيته

وإنه لمن المعروف عن جبران أنه لم يكن رمزياً بالمعنى الدقيق الذى يفهم من هذا اللفظ ، بل كان أكثر ميلاً إلى الرومانتيكية منه إلى الرمزية ، وكثيراً ما كان يمزج بينهما فى كتاباته ، وعلى الأخص فى كتابيه النبي ويسوع ابن الآفاق . أما فى رسومه فقد كانت الرمزية غالبة فيها

والملاحظ فى الشاعر « بليك » أنه كان غامضاً مسرفاً فى الغموض والابهام لدرجة يتعذر معها الفهم والغوص على المعنى الذى يريده والفكرة التى يقصد إليها ، مهما أجهد القارئ عقله . فأنت إذ تقرأ ديوانيه أغانى الطهارة Songs of Innocence والاختبار Experience يبهرك ضوء قوى من الجمال ، ولكن أنى لك أن تعرف سر هذا الضياء وما الذي يبهرك من حسنه ؟ وقصاراك أن تستشمر كثيراً من اللذة المعنوية فى هذا الغموض وجماله .

وما كان جبران على هذا النهج فى الغموض والاسراف فيه . وقليلاً ما نعثر على قطعة كتابية حاكى فيها الشاعر الانجليزى الغامض . فهل للأستاذ بشر فارس — إذا تفضل — أن يفصح عما إذا كان الغموض والابهام من مستلزمات الرمزية ؟ وهل بدونهما لا تكون؟ وله وافر الشكر على غزير علمه والسلام

السيد كامل الشرقاوى
المفتش بوزارة المالية

العيد الألفى للجامعة الأزهرية

كان مجلس الوزراء قد قرر فى عهد المغفور له توفيق نسيم باشا تأليف لجنة لتنظيم المسائل الادارية والتاريخية الخاصة بالاحتفال بالعيد الألفى للجامعة الازهرية ، وهو الاحتفال الذي سيقام فى سنة ١٣٦٠ هجرية . وقد باشرت هذه اللجنة مهمتها بضعة أسابيع ثم أرجأت أعمالها بعد ذلك

وقد علمنا أن إدارة المعاهد الدينية تشتغل فى هذه الأيام بوضع مشروع جديد لاقامة مهرجان إسلامى كبير يليق بتاريخ أقدم جامعة إسلامية ، على أن يشترك العالم الاسلامى فيه

وسيعرض هذا المشروع بعد الفراغ منه على مجلس الوزراء للموافقة عليه واعتماد المبالغ الخاصة بتنفيذه

والمفهوم أن الرأى مستقر على توجيه الدعوة الى مختلف الجامعات العلمية الأوربية التى دعت الأزهر إلى الاشتراك فى حفلاتها

بين الرافعى والعقاد

فى هذه الصفحة من عدد (الرسالة) الغراء رقم ٢٥٥ قرأت دفاعاً كتبه الأستاذ عبد المتعال الصعيدى عن بيت العقاد :

فيك منى ومن الناس ومن كل موجود وموعود تؤام

ولست أريد أن أتناول البيت من نواحى ضعفه ليرى سيدى أن البيت يتداعى من أى ناحية أقمته ، ولكنى أريد أن أشير إلى آخر ما جاء فى كلمته حيث قال :

« ولا بد أن نشير بعد هذا إلى أن كل شيء فى هذا الكون

لا يخلو من حسن يسوغ إجراء بيت العقاد على عمومه ، وقد ذهب إلى هذا بعض العلماء فى تفسير قوله تعالى : (الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين) قال العلامة الزمخشرى : إنه ما من شىء خلقه إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة ، وأوجبته المصلحة ، فجميع المخلوقات حسنة ... »

وهى التفاتة جميلة حقاً لو لا أن قول الزمخشرى رحمه الله قد ضمَّ على تفسير لا يضل فيه رأي . ولسنا ننكر أن كل شىء مرتب على ما اقتضته الحكمة ، وهذا معناه الدقة فى الصنع والاحكام . وإن الانسان يدرس علوم النبات والحيوان ليرى فى بعض ما خلق الله ما يحير الألباب ، وهذه هى دقة الصنعة وجمال الخلق . وهذا هو مذهب الفلاسفة الذين يرون كل شىء جميلاً ...

أما الجمال الذى يجذب القلب ويأسر الفؤاد ، فأين تجده — ياسيدى — فى الدودة وفى الذبابة وفى ... وفى ... مما تشمئز النفس ويعافه الذوق وهى فى تمام التكوين وبراعة الخلقة

وإذا كان بيت العقاد هو على مذهب الفلاسفة — كما يقول الأستاذ الصعيدى — أعنى على مذهب التشريح ، فلعل الحبيبة كانت عالماً صغيراً فيه ... وفيه ... مما ذكره الأستاذ الرافعىُّ — يرحمه الله —

ولا زلت أصر على أن الشعر الفلسفى ليس شعراً إلا على مذهب ألفية ابن مالك

كامل محمود حبيب

وسام فرنسى للأستاذ توفيق الحكيم

منحت الحكومة الفرنسية الأستاذ توفيق الحكيم وسام « أوفيسيه دا كاديمي » . وقد أوفد المسيو دى فيتاس وزير فرنسا المفوض بمصر مسيو ليبريت لتقديم براءة هذا الوسام إلى الأستاذ الحكيم مع كتاب رقيق ذكر فيه النجاح الكبير الذى لقيته ترجمة « شهر زاد » و « عودة الروح » لدى الجمهور الفرنسى ، ونوه بتقديره الشخصى للكاتب الذى يعده من خيرة كتاب مصر البارزين، وشفع ذلك بأصدق تهنئاته

ذلك ما يلقاه أدباؤنا فى غير مصر . أما فى مصر فقد أرادت وزارة المعارف أن تشترى مقداراً من بعض كتب الأستاذ الحكيم جرياً على عادتها فى تشجيع الأدب من هذه الطريق ، فطلبت منه تسعين نسخة ! ! بثمن حددته لا يكاد يبلغ نفقة الطبع ، فلم يسعه إلا أن يرفض شاكراً لها حسن نيتها على كل حال !

بين أبى العلاء والخيام

كتب صديقنا الدكتور عبد الوهاب عزام مقالا تحليلياً فيما بين أبى العلاء وعمر الخيام من النظر المشترك فى بعض وجوه الفكر نشرته الهلال فى عددها الخاص بالمعرى الذى سيصدر فى أول يونيه ، ولكن وقع فيه من التقديم والتأخير والتحريف ماأخل بسياقه وشوه من معانيه ، فرأى الأستاذ أن يعيد نشره فى عدد الرسالة القادم

مكافحة الأمية

قدم صاحب المعالى وزير المعارف إلى صاحب المقام الرفيع وزير المالية مذكرة عن مكافحة الأمية ، عرض فيها للمشروعات المختلفة التى وضعها فى هذا الشأن وزراء المعارف السابقون منذ عام ١٩١٧ إذ كان صاحب الدولة المغفور له عدلى يكن باشا وزيراً للمعارف إلى عام ١٩٣٧

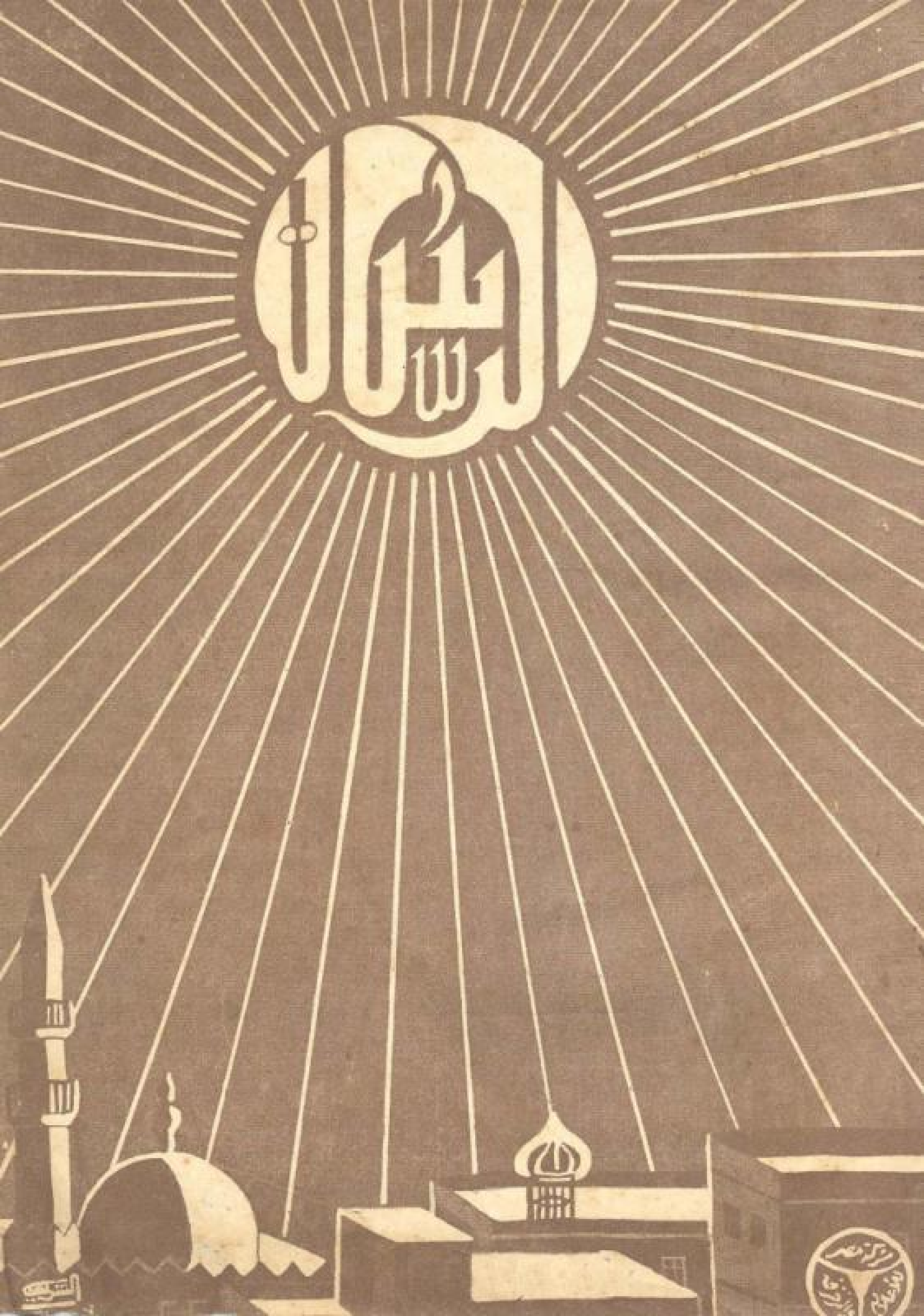
وقد ألمت الذكرة إلى أن المشروع الذى وضع فى العام الماضى يتطلب تنفيذه خمسة وعشرين عاماً ، بينما كان مشروع عدلى باشا يتطلب عشر سنوات فقط

وبعد أن بسط معالى الوزير الأسباب الداعية إلى القضاء على الأمية ، أخذ يشرح مشروعه الذى وضعه للقضاء عليها فى مدى خمس سنوات ، وقد قرر فيه أن يبدأ تعميم التعليم الالزامى فى المحافظات وعواصم المديريات والمراكز ، فالقرى الكبرى والصغرى فالكفور والعزب

ثم طلب إلى وزارة المالية ، فتح اعتماد قدره ١٥٠٫٠٠٦ ج فى الميزانية الجديدة . وهى النفقات اللازمة لانشاء ٤٠٠ مكتب

وعلى أثر اعتماد هذا المال ، تأخذ وزارة المعارف فى فتح هذه المكاتب ، للعمل فيها ابتداء من العام الدراسى المقبل

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾


الرسالة

6me Année, No. 257

Lundi - 6 - 6 - 1938

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٥٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ٧ ربيع الثانى سنة ١٣٥٧ — ٦ يونية سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـــرس

سحـــر الصحراء

للأستاذ عباس محمود العقاد

السحر هو أن يختار الإنسان الشيء وهو مرغم على اختياره، فهو مزيج من حكم الإرادة ومن حكم القضاء

ليس بسحر أن نختار الشيء ونحن قادرون على تركه

وليس بسحر أن نرغم عليه ولا رغبة لنا فيه

إنما السحر أن نرغب فى الشيء حتى نحاول أن نكف عن الرغبة فيه فنعلم يومئذ أننا غير أحرار، وأننا مسحورون أو مأخوذون

وإنما السحر أن نحسب أننا مكرهون على ذلك الشيء وأننا نضجر منه ونتململ ونفرح بالخلاص، حتى إذا أوشكنا أن نخلص منه علمنا أننا نكره الخلاص كما نكره البقاء

وحينما وجد السحر وجدت الحيرة فى أمره. فإذا فتن الرجل بالمرأة وحار الناس سائلين: والله ما ندرى ما يفتنه منها فذلك هو السحر

وإذا أقدم الرجل على الخطأ وهو يعلم أنه خطأ ويعلم أنه مدفوع إليه غير مختار فى الرجوع عنه، حائر فيما يدفعه إليه كما يحار من حوله فى سر اندفاعه، فذلك هو السحر

وقوة السحر أنه هو قوة الإنسان وقوة القضاء مجتمعتين، متحدتين، سائرتين في طريق واحد. فاذا تنازعتا فذلك هو ابتداء الخلاص منه أو ابتداء بطلانه وانحساره، ولو كان لا ينحسر إلا بهلاك المسحور

***

كذلك سحر الصحراء

تسأل لماذا يسكنها أبناؤها؟ وتسأل لماذا يألفونها وهي جرداء خاوية تلهبهم قيظاً في الصيف وتجمدهم قرة في الشتاء، وتظمئهم وتجيعهم إذا امتنع الغيث وهو كثير الامتناع مجهول المواعيد مكذوب الوعود؟

والصحراء – بعد – ساحرة لأنك تسأل هذا السؤال؛ فلو أنك استغنيت عن سؤاله وعلمت سبب هيام البدوي بقفاره وجباله لما كان ثمت سحر ولا ساحر، ولا باطن للأمر غير ما فيه من ظاهر، بل هو شيء يجري في مجراه، ولا يلتبس عليك أصله ومغزاه

لماذا يشرب الماء ويأكل الثمر ويستجيد الهواء حيث يجود، وينعم بالصيف والشتاء حيث تتهيأ فيهما النعمة، ويفعل ما ينبغي أن يفعل، ويسأل وهو لا ينبغي أن يسأل

لماذا؟ أتسأل لماذا؟ إن هذا لهو العجب الذي يحوجنا إلى استفسار، وليس هو هيام البدوي بالصحراء حين تكون على ما نهواه نحن ويهواه كل إنسان

***

عرفت الصحراء منذ الطفولة؛ وأحسبني ورثت عرفانها في دماء الآباء والجدود؛ وقاربت حدودها وشارفت أعاجيبها وهي مما يظهر على حافتها في بعض الأحايين

فعند ضاحية أسوان خيام يسكنها بعض البجاة، وكان على الجانب الشرقي منها بناء مسوَّر في وسطه فضاء فسيح، وفي وسط الفضاء خيمة يأوي إليها صاحبها ولا يأوي إلى ما بني من حجارة وحجرات، ونحن نحسب أن الإنسان لا يأوي إلى الخيمة إلا لقلة البناء. فها هو ذا رجل يؤثر الخيمة والبناء في وسعه وعلى مقربة منه: هنا بدأت في العجب في أمر للصحراء ونقائض أبناء الصحراء. ثم قرأت أن للصحراء سحراً فحسبت أنني وقعت على السبب وأبطلت العجب، ولم أدر يومئذ أن كلمة «السحر» إنما هي تلخيص الأعاجيب التي لا نفقه أسبابها، وليست هي بتفسيرها ولا بالدليل على إدراكها وتعليلها، ومضيت من ثم في سؤال الصحراء عن مفتاح سرها، وفي علاج الباب الذي أنكره ابن من أبناء الصحراء حيث قال:

ما إن سمعت ولا أراني سامعاً أبداً بصحراء عليها باب!

وكل صحراء عليها باب، وعلى بابها مفتاح، وهذا هو المفتاح الذي بحثت عنه فاهتديت بعض الهداية، ونفذت إلى بعض الاغلاق

***

كل صحراء عاش فيها الرعاة فإنما كان إجدابها على التدريج بعد أزمان طوال تبدلت فيها طبيعة الأرض والجو، فندرت الأمطار بعد كثرة، ويبست المروج بعد نضرة، وقلت الأرزاق بعد وفرة، ثم أجدبت بعد ذلك إلا من قليل زرع هنا وقليل ماء هناك، وأهلها مع هذا قادرون على تعويض ما فقدوه بالاغارة على جيرانهم من سكان الحواضر وأصحاب الأنهار والمزارع، حتى تأصلت عادة المعيشة، وتمكنت طبيعة الترحل، واستقامت البنية على هذه العادات والطبائع فجاءت ضرورة الانتقال بعد استقامة الطبيعة على هذه الأحوال، وفعل سحر الوراثة فعله غير مفطون إليه ولا مقدور على منعه، فكان منه ذلك القيد الذي يربط صاحبه في مكانه برضاه وهواه، ويلوح للناظرين كأنما يربطه هنالك على غير رضاه ولا هواه

وتنازع أبناء الصحراء حين قلت خيراتها فغلب الأقوياء منهم ضعفاءهم على جانب الخصب والري والرخاء، وتراجع الآخرون إلى جانب القفر كارهين حتى ألفوه طائعين، فذلك مع الوراثة هو السحر الذي يمتزج فيه الاكراه بالاختيار

***

على أن الوراثة – أو الألفة – عقدة واحدة من عقد السحر الكثيرة في كل صحراء، ولا سيما الصحراء التي هي أوفى إلى الجدب والخلاء، فمن عقدها ما يشبه التنويم المغناطيسي، ومن عقدها ما يشبه الخمر، ومن عقدها ما يشبه الشعوذة ولعب الحواة؛ وهذه عقد قلما يجمعها سحر واحد في نسق، فاذا اجتمعت فأخلق بفعلها أن يطغي على صواب العقول

***

ينام الانسان النوم المعروف بالمناطيسى إذا أثار نظره إلى الشىء الواحـد لا يتحول الشىء عن مكانه ولا هو يتحول عنه بنظره . وتنقضى هنيهات على ذلك فيخدر الحس وتشتمل عليه حالة من حالات الغيبوبة ، وتنقاد الواعية لذلك الذى نومها هذا التنويم انقياد المعبود للعابد أو المفتون للفاتن ، ملكها وملأها فلا مشيئة لها معه ولا فراغ لها من وحيه وسلطانه

فاذا تصنع الصحراء بالذى يدمن النظر اليهـا إلا أن تنومه هذا التنويم وتشمله بمثل تلك الفتنة وتقوده بمثل ذلك القياد !

انه لينظر إلى مائة شىء فيها فاذا هو ينظر إلى شىء واحـد لتشابه المناظر وتقارب الألوان والهيئات ؛ وإنه لينتقل ميلا بعد ميل وساعة بعد ساعة وكأنه قائم في موضعه لا يتزحزح منه قيد خطوة ، لأن العبرة بما يقع فى الواعية لا بما تقع عليه الأقدام ، وان النائم لينام بعد هنيهات قليلة فكيف يكون الحال بمن تنقضى عليه فى تلك النظرة أعوام ، ومن تنقضى على آبائه وأجداده فى تعاقب تلك الفتنة أجيال ؟ ؟

تلك هى العقدة المغناطيسية فى سحر الصحراء

أما عقدتها التى تشبه الخمر فا هى الخمر إن لم تكن نشوة الطلاقة وعزة الافلات من القيود ، وتوهم القدرة على كل مطلب فى غير حذر من رادع ولا مبالاة بملام ؟

تلك الطلاقة هى سكرة الآفاق الواسعة أو سكرة الصحراء التى لا تقوم فيها الحواجز ، ولا تصطدم فيها الحدود ، ولا يشعر فيها المرء بين الأرض المديدة والسماء الرفيعة بطغيان مخلوق أو خضوع مقهور

ثم شعوذة الحواة وحسبك منها السراب ! !

مضينا فيهابالسيارة من الضحى إلى الغروب ثمانى ساعات بين مرسى مطروح وسيوة فلم يغب قط عن أبصارنا منظر هذا السراب يعلو ويهبط ، ويبدو ويختفي ، ويتراءى حتى لا شك فى فى صدقه ، ويتوارى حتى لاشك في كذبه وزوره

السراب السراب ! ! ما أشبه الحقيقة فيه بالكذاب ، وما أولاه منا بالعجب العجاب !

لقد عدنا وعلى الأفق غاشية من سحاب رقيق فلم نر سرابا فى طوّل الطريق

فقلنا لبعض أصحابنا فى السفر : أرأيت كيف يكون النور سبيل الضلال فى بعض الأحايين ؟ ترجم هـذا لأعداء الحديث من الشعر وقل لهم : ان الذى يتحدث عن « ضلال النور » لا يتحدث بالأحاجى والألغاز ، ولا يقول إلا ما تبصره العين فكيف بالضمير وكيف بالخيال ؟ وقل لهم إنهم لا يفهمون الصحراء وهم يعيشون منها بين ذكريات النوق والوهاد ، وأساطير الأفراس والجياد . وقل لهم بالايجاز انهم لا يفهمون !

سراب الصحراء ، هذه الشعوذة البارعة

وخمر الصحراء ، هذه الشعشعة الصارعة

وغيبوبة الصحراء ، هذه المنومة الفارعة

وعراقة الصحراء هذه القديمة فى الآماء ، القديمة فى الآماد والأجواء ، القديمة فى العروق والدماء

ذلك هو سحر الصحراء !

عباس محمود العقاد

بين الشرق والغـــرب

للأستاذ فليكس فارس

« إذا لم تكن لنا قدرة على خلق حضارة شرقية فلنفعل على الأقل ما فعلت تركيا وتنخرط بكل بساطة في سلك الأمم الأوربية »

« توفيق الحكيم »

هذه كلة جمت خلاصة المقال الذى نشره في الأهرام تحت عنوان « هل يوجد اليوم شرق ؟ » كاتب مفكر له ثقافته الواسعة وعلمه العميق. وقد أعجبت بالمقال وما يعرض من الاعتبارات على المفكرين وشكرت لكاتبه صراحتــه ودعوته إلى الصراحة فى موقف يتحتم فيه على الشرق العربى أن يختط له سبيلاً سوياً فى ثقافته وحضارته

إن الأستاذ توفيق الحكيم لا يجهل أننا إذا عجزنا عن خلق الحضارة الشرقية وعن إحيائها بتعبير أصح فإن انخراطنا فى سلك الأمم الأوربية لا يوصلنا إلى الهدف الذى تتجه إليه الأمة التركية ولما تصــل إليه . فإن بين الفطرة التركية والفطرة العربية من الفروق مالا يصح معه أن يتخذ العرب الترك قدوة . لذلك ، لا أحسبنى مخطئاً إذا ذهبت إلى أن الأستاذ الحكيم لم يخيِّر العرب بين حضارتين ، إلا ليثبت لهم أن فى أعماق قلوبهم شرقاً لا حياة لهم إلا بالاتجاه إليه واستجلائه وراء ظلمات الأحقاب

***

كنت أخذت القلم لأجول جـولة بين نظريات الروسى والمصرى اللذين دفعهما الأستاذ الحكيم إلى حوار خطير بين الشرق والغرب ، ولـكننى تذكرت أننى كنت ناظرت صديق الدكتور اسماعيل أدهم منذ أشهر فى حفلة حافلة فى جمعية الشبان المسيحيين فى الاسكندرية وكانت الوجهة الإيجابية من الموضوع « من الخير لمصر أن تأخذ بالحضــارة الغربية » فرأيت أن آخذ من ردى على المناظر ماله صلة وثيقة بالمسألة التى أثارها مؤخراً الأستاذ الحكيم

***

بدأت فى الرد بالتفريق بين الثقافة والعلم ، فقلت إن العلم مشاع لكل الأمم ولـكل الأفراد فهم يتفقون فيه على ما بينهم من اختلاف بعيد فى نظريات الحياة فى حين أن الثقافة مستقرة فى الشـعور فهى (دماغ فى قلب) ولا قانون لها لأنها راسخة فى الفطرة ، والفطرة فى الفرد كما هي فى الأمم ميزة خاصة في الذوق واستعداد خاص لفهم الحياة والتمتع بها . فإذا كان العقل رائداً لبلوغ الحاجة ، فليست الفطرة إلا القوة المتمة للإنسان بتلك الحاجة بعد الظفر بها ؛ وكما أن لـكل فرد ثقافته التى تتجلى فطرته فيها ، هكذا لـكل أمة ثقافتها المستقرة فى فطرتها . فلا ريب إذاً فى أن سعادة الفرد والمجموع وشقاء كل منهما يتوقفان على ملاءمة الحياة أو عدم ملاءمتها لما فطرا عليه. وسواء أكان المرء مخيراً أم مسيراً فى إرادته وأعماله فإنه على الحالين غير مخير فى ذوقه فى الحياة وفى لذته وألمه منها . فكل فرد خالفت طريقة حياته ما استقر من الحوافز فى فطرته يفقد الشعور التام بتلك الحياة ويتعرض للسقوط فى المعترك . وهكذا الأمم إذا خدعت نفسها وسارت فى حياتها على ما يؤلم فطرتها فانها تفقد قوة الارتقاء بذاتها فتميت شخصيتها دون أن تتدفق إلى الانبعاث فى شخصية تستميرها من سواها

وبعد أن وضعت هذا الحد بين الثقافة والعلم توجهت إلى تحليل عناصر الحضارة فى الشعوب فقلت إن الخلاف الذي ينشأ بين باحثى مسألة الشرق والغرب إنما ينشأ من عدم التفريق بين المدنية الآلية وبين المدنية الأدبية . فعند مايقوم أنصار الاتجاه إلى مدنية الغرب بدعوة عامة إلى « التفرنج » يثور عليهم أنصار الحضارة العربية مسفهين رأيهم داعين إلى مقاومة هذه الحضارة على وجه التعميم أيضاً . وهكذا يقع الفريقان فى خطأ، لأن كلا منهما يؤاخذ الآخر بتطرف يرتكبه هو. ولو أنهما ميزا بين الحضارة الآلية المبنية على العلم وبين الحضارة الأدبية المبنية على الفطرة التى كونتها السلالة والاقليم وتسلسل حوادث التاريخ لتوصلا إلى حل الخلاف !

***

بعد أن مهدت للرد على مناظرى بهذه المقدمة وفصلت فيها فصلا تاماً بين الحضارة الآلية والحضارة الذهنية ، تناولت نظرياته متتالية واتجهت إلى تفنيدها. وهذه خلاصة من الرد أعرضها البحث من يقدرون خطورة هذه المسألة

***

بعد هذه المقدمة التى حددت فيها الثقافة ووضعت بينهما وبين العلم الوضعى ما أراه من فروق لا إخال مناظرى معترضاً عليها أتناول بحثه فى موضوع المناظرة سائراً معه خطوة فخطوة على السبيل الذى أدى به إلى الاعتقاد بأفضلية الثقافة الغربية على الثقافة الشرقية العربية

وأول عبارة أراه يذهب منها إلى الاختلاف معى هى قوله:

إن للشرق روحه الذى يستوحيه أبناؤه نزولا على فطرتهم، وللغرب منطقه الذى يستنير به أفراده نزولا على وحى مشاعرهم »

فمناظرى إذاً يبدأ بحصر المنطق فى الغرب منكراً على مصر وسائر الأقطار العربية أساس العلم، والعلم كما سبق أن أوضحت فى تحديده تجاه الثقافة، إنما هو مشاع بين كل ؛ الأمم وما اخترع الغرب المنطق ولا هو أوجد التفكير العلمى لنعترف له بثقافة قوامها التفكير ينفرد بها بين ما على الأرض من شعوب

ثم يجيء مناظرى بعد ذلك إلى تحديد الثقافة المصرية فيقول: إن الحياة العملية التى يحياها المصرى الآن تجرى على غرار ما كان يحياه أسلافه الفراعنة

وأنا لا أرى فى حياة المصريين اليوم أثراً من الحضارة الفرعونية، لا فى الحياة العملية ولا فى الحياة الأدبية، كما لا أرى شيئاً من حضارة الفينيقيين فى حضارة أهل سوريا ولبنان، وما تبقى من هذه الحضارات المستغرقة فى القدم إلا أهرام ومعابد وأعمدة وقصور وقبور

ولكننى لا أجد بداً من الاعتراف ببقاء رواسم للفطرة القديمة فى سرائر أبناء هذا العصر على ضفتى البحر الأبيض يتجلى فيها كثير من الصفات النفسية والجسمية التى اتصف بها أجدادهم الأقدمون

غير أن الثقافة التى يدور البحث عليها فى هذه المناظرة إنما هى العوامل التى تتوحد فى أى مجتمع، وتتماثل فى سريرة كل فرد من ذلك المجتمع؛ وهذه العوامل هى التى تقوم عليها الحضارات المختلفة بين الشعوب. ولا أرى داعياً للسير إلى أبعد من هذا التحديد بعد أن رأيت مناظرى الكريم يأخذ بمثله ويقف فى بحثه عند الثقافة الشرقية العربية دون تناول ثقافة الشرق الأقصى، فهو إنما يقصد الثقافة السامية العربية عند ما يقول بوجوب تلقيح « الذهنية » المصرية بثقافة غربية تبعث فيها النشاط وتدفع بالأمة إلى الحياة

أما السبب الذى يراه المناظر موجباً لهذا الانحراف إلى ثقافة الغرب فقائم على اعتقاده بأن الثقافة العربية ذاتية تدفع بالانسان إلى الذهاب مع الخيال، فردية تذهب بالفرد إلى الانعزال عن المجتمع، فى أنه حين يرى ثقافة الغرب أو « ذهنيته » تستجلى حقائق الحياة بالتفكير الفلسفى والبحث العلمى

وهنا نقطة الخلاف فى بحثنا

إن مناظرى يقول بكل جلاء إن المدنية الغربية مستمدة من الثقافة الآرية العلميـة، فى حين أن الشرق العربى يتوه ذاهباً وراء خياله

إذا صحت هذه المقدمة فللمناظر ملء الحق بدعوة مصر إلى الانسلاخ عن شرقيتها وعروبتها للأخذ بالعبقرية الآرية التى يراها مبعث العلم الصحيح ومنشأ التفكير النير المصيب، ولكن الأمر ليس كذلك، وإليكم البرهان أسنده أولا إلى حقيقة نطق بها مناظرى وأغفل الاسترشاد بها؛ فهو يقول إن عصرنا عصر العلم، ولقد بدأ ذلك العصر بثورة نفر من رجال القرن السادس عشر على العقلية القديمة التى تبحث عن علل الأشياء الأولى فسبروا سنن الطبيعة وأقاموا عليها المدنية الغربية مستمدة من الذهنية الآرية

إذاً إن أصحابنا الآريين كانوا يغطون فى نومهم، ولم تزل تراود أحلامهم الآلهة التى خلقتها عقلية التعاون فيهم فبلغ عدد هؤلاء الآلهة الثمانية آلاف فى الأساطير التى يراها المناظر غنية بالرموز والفن، وما هى فى نظر الشرقي العربي إلا دلالة فقر مدقع فى التفكير وجوح فى خيال لم يدرك شيئاً من الوحدة التى تقوم حقائق الأشياء عليها

وفى هذه الأثناء كانت الحضارة العربية تحتضن العلوم القديمة وهى ممثلة بأرسطو فى الاستقراء، وبأفلاطون في القياسات العقلية. وما كانت هذه العلوم فى ذلك العصر إلا فى طور التدرج الأولى فاستولى عليها التفكير العربى لا ليدفعها إلى الارتقاء فحسب بل ليستنبط ويعدل ويوجد. ومما يجدر ذكره هو أن العرب حين اقتبسوا من تراث اليونان ما يمزون به تفكيرهم العلمى لم تستهوهم الثقافة اليونانية ولا حضارتهم الأدبية إذ أحسوا بما بين الحضارة التى كانت تتمخض فى شعورهم وتقديرهم للحياة

وبين حضارة اليونان الاجتماعية من مهاو سحيقة فأعرضوا عن شعرهم وموسيقاهم ونظم اجتماعهم ؛ لذلك لا تجد فى شعر العرب شيئاً من إبهام بيندار وأوريبيد وهوميروس ، وهذا الأخير بقى مجهولا حتى ترجمه البستانى فى أوائل هذا القرن

فقد بز العرب من تقدمهم فى علوم الآلات وتوازن السوائل ونظريات الضوء والابصار والهندسة وعلم الهيئة فوضعوا علم الكيمياء واكتشفوا أجهزة للتقطير وأوجدوا الأسطرلاب ووضعوا جداول الأوزان النوعية والأزياج الفلكية ؛ وهم واضعوا علم الجبر والأرقام . وما كاد ينقضى القرن الثامن الميلادى حتى كان هرون الرشيد يسير شوطاً بعيداً فى مضمار الرقي ليسلم إلى المأمون سنة ٨١٣ المدينة التى أصبحت عاصمة العلم الكبرى فى فى ذلك الزمان .

ويذكر التاريخ أن هرون الرشيد كان أرسل إلى شارلمان ساعة تدل على الزمان بحركة من الشريط المربوط فأفزعت حركتها هذا الملك حتى أمر بكسرها .

أنعيد إلى الذكر ما أحيا من العلوم الفلسفية والعملية العباسيون فى آسيا والفاطميون فى مصر والأمويون في اسبانيا ؟

أبعد هذا يصح لقائل أن يقول ان رسالة الشرق روح وشعور فقط وان رسالة الغرب عقل ومنطق ؟

إن مناظرى قد ضيق عدسة منظاره وحدق على مجال من الزمان لا يزيد على قرن ونصف قرن متطلعاً إلى الرقى العلمى فى طوره الأخير ، فخيل له أن الغرب قد أوجد وأبدع وأكل بعقليته الآرية ، ثم التفت إلى الشرق العربي وهو خارج محطما من عبودية نيف وأربعة قرون ، فحسب ان السامية العربية هى ما لحه من عدسة منظاره .

ولقد شاء المناظر الكريم أن يقدم برهاناً على ان الحياة تقوم فى العالم كله على أساس غربى ومنطق غربى فقال : ان هناك تجربة نجحت إذ كانت الدولة العثمانية تمتد حتى الدانوب وتعيش على غرار شرقي فكانت منبعاً للفساد فى العالم ، فلما استقطعت عنها المجر ورومانيا والبلغار واليونان واليوغوسلاف فأخذوا بمدنية الغرب تقدموا ...

ونحن نجيب على هذا موافقين المناظر على قوله فان الدولة العثمانية التى « عاشت على غرار شرق » إنما كانت آرية فى روحها وما تسنى لها طوال حكمها الذى سحب أذياله قروناً أن تدغم فيها المنصر العربى السامى أو تندغم فيه فارتفعت عليه ولم تتمكن من الارتفاع به بالرغم من اعتناقها دينه المبين ...

وليت الدولة العثمانية بعد أن بنت سلطانها على السطوة عرفت أن تحتفظ به بالعمل على ترقية الشعوب المستظلة بعلمها . ليتها لم تكتف بالمظاهر معرضة عن الصفات العليا التى أنار الخلفاء الأقدمون بها وجه الأرض وأقاموا عليها أروع حضارة عرفها التاريخ ؛ إذن لما كانت الشعوب التي ذكرها المناظر لتتنفس الصعداء بزوال كابوس الدولة العثمانية عنها ، وما كان اليونان والبلغار وسواهم مرهقين متقهقرين لاتخاذهم الثقافة العربية فانهم ما عرفوها وما عملوا بها بل كان موقفهم شبيهاً بموقف بلاد العرب تجاه دولة بينها وبين العدد الأوفر من رعاياها مهاو وأغوار . تلك حقائق لم تخف على الداهية أتاتورك فانه عرف ما هى فطرة الشعب التركي وما هى الحالة الاجتماعية التى تتفق وما كمن فى حوافزه . ويعلم المفكرون ما رمى إليه هذا المصلح لدولته من إضعاف كل عنصر لا يجارى روحها حتى أنه ناصب العداء الحروف والألفاظ العربية التى كانت اللغة التركية فى عراك مستمر معها

أما ما يقوله المناظر عن أن اليابان نهضت بالمدنية الغربية بعد أن أعرضت عن منطق الحياة الشرقية ، ففيه حقيقة كبرى تقوم برهاناً على خطأ نظريته . فان اليابان لم تزل متمسكة بثقافتها كل التمسك وفى ذلك سر ارتقائها ، فهى لم تأخذ من الغرب إلا الآلة والآله فقط ، وما الآله إلا نتاج العلم العملى الوضعى الذى رافق الانسانية منذ اكتشف أول مكتشف شرارة النار في كهفه واتخذ فى الصوان فى العصر الحجرى أوائل الآلات للحرث والقطع ، وقد مرّ العلم على أدمغة جميع الشعوب على ممر الأجيال فليس للهندسة والكيمياء وعلوم الاحياء وسواها أى طابع قومى . ولو كان يصح أن تسند هذه العلوم إلى قوم دون سواهم لكان لنا أن نطالب بأن يطبع على كل آلة وجهاز إسم عَلَم من أعلام العرب ، إذ لولاهم لما كانت الحلقة الكبرى التى وصلت بين سلسلتى الماضى والحاضر ، ولكانت أوربا لم تزل أوروبا القبائل الغارقة فى بحر الظلمات

البقية فى العدد القادم

فليكس فارس

فلسفة التربية

تطبيقات على التربية فى مصر

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ١٩ —

« ... وثقافة الانسان لا تقدر بمقدار ما قرأ من الكتب وما تعلم من العلوم والآداب ، ولكن بمقدار ما أفاده العلم ، وبمقدار علو المستوى الذى يشرف منه على العالم ، وبمقدار ما أوحت إليه الفنون من سمو فى الشعور وتذوق للجمال ! »

« أحمد أمين »

« للرجل المثقف جسم خاضع لارادته ، وعقل صاف متئد القوى سهل العمل ملىء بما فى الطبيعة من حق عظيم وقوانين كلية ، هذا إلى امتلاء بالحياة المنسجمة الخادمة لضميره الحى ، وإلى حب للجمال وكره للقبح ، وإلى احترام للنفس وللناس ، وإلى وفاق تام مع الطبيعة يفيدها فيه ويستفيد منها ، ويسير معها كوزيرها أو ترجمانها وهى كأمه الحنون ! » (١)

« هكسلى »

٩ — خريج اليوم

عرضت عليك فى المقال السابق صورة لعقلية خرِّيج اليوم وما فيها من ضيق ونقص وجمود والتواء . وأحب اليوم أن أعرض عليك صورة أخرى لعاطفته بنواحيها الدينية والذوقية والخلقية لتتبين أنها مشوبة كذلك بألوان كثيرة من الشذوذ والانحراف

١ — العاطفة

وأحسب أنك تعلم جدارة العاطفة في حياة الإنسان، وأنها تلى «العقل» مباشرة فى الخطورة والأهمية ، وأن الحياة بدونها صحراء لا ماء فيها ولا شجر ؛ ولذلك تراهم يحرصون في الغرب على صقلها وتهذيبها وتهيئتها لأن تكون خير سند للعقل السليم والخلق القويم والذوق الجميل ، وخير معين يروى ظمأ الحياة ويسمو بها فوق الأدران والشهوات ، ويجعل نصيبها من الإنسانية الرفيعة موفور القدر عظيم الدرجات ! . فهيا إذاً نتحسس أثر « العاطفة » فى خريجينا لنرى إلى أى حد قد نجحت مدارسنا فى تكوين هذه الناحية الخطيرة من نواحى التربية والتعليم

(أ) الدين

والدين كما تعلم من أقوى مظاهر العاطفة ، ومن أبعدها أثراً في خُلق الجماعة والفرد ، ومن أعظمها قدراً فى تقدم الأمم وتأخرها . ولذلك قد عنيت الحكومات بنشره وتلقينه ودراسته واهتمت بجعله جزءاً أساسيًّا فى برامج التعليم الدينى والمدنى كيما يخرج النشء متمسكاً بدينه عارفاً لربه عاملاً بفضائل الكتب الدينية وأوامرها . ولكنك حين تبحث عن هذه الناحية فى مدارسنا وخريجينا ترى عجباً . فالدين فى المدارس المدنية ضئيل القدر سطحى النظرة ، لا شأن له فى نجاح التلميذ أو رسوبه ، والفروض الدينية من صوم وصلاة وإحسان مهملة إلى حد بعيد مع خطورة أثرها فى حياة المتخرج الحاضرة والمستقبلة ؛ ولذلك لا تعجب إذا رأيت الكثيرين من أولئك المثقفين لا يعرفون صوماً ولا صلاة ولا زكاة ولا إحساناً ! ولا يدركون من دينهم إلا ألفاظاً وقشوراً ، ولا يحملون له من العاطفة إلا ما لا ينفع فى كثير ولا قليل . ولا تعجب كذلك إذا وجدت بين المصلين من يصلى دون أن تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، ودون أن تصده عن الكذب والرياء والتملق والادعاء مما تزدحم به حياة الدواوين وغير الدواوين على السواء !. ثم لا تجزع بعد هذا إذا تلمست الصبر والثقة بالله والاتكال والاحتمال فى خريجينا دون أن تجد منها إلا أشباحاً متضائلة وصوراً متزايلة . وإذا تساءلت عن الزواج فسمعت من يقول لك ما ضرورته وما جدواه والأزمة شديدة والنساء كثيرات !! نعم لا تجزع يا عزيزى ولا تعجب فتلك جميعاً صدى لهذه التربية الدينيـة التى تغفل الدين وتتهم بالحشرات ... !

أما الدين فى المعاهد الدينية فأحسن حالا وأقوم سبيلا. ولكنك إذا شئت أن تتلمس فيه نقصا فستجد وا أسفاه شيئاً كثيرا ؛ ذلك أن خريج هذه المعاهد ما يزال مشوبا بضيق الأفق فى تفكيره وتعصبه ونظرته للحياة الحديثة إلى حد هو الجمود أو ما يشبه الجمود! وما بالك بصديق لى منهم دعوته إلى رؤية قطعة من الأدب الحديث على مسرح الأوبرا أو مشهد من مشاهد التاريخ على الستار الفضى

(١) نرجو أن يعذرنا القراء فى تكرير هذين القولين لأنا نريد أن نجعل منهما مقياساً نقيس به الحالة الثقافية للمتخرجين فى مختلف المدارس والمعاهد . وأحسب أن البون شاسع جدا بين خريجينا وبين دلالة هذين القولين

فكان جوابه أن فى القرآن ما يغنيه عن رؤية كل ما فى دور التمثيل والسينما ؟؟ وما بالك بأئمة المساجد فى القرى يتلون على الناس خطباً منبرية لا يهبطون فيها إلى مستوى عقلهم إلا فيما شذ وندر ؟؟ وما بالك بتلك الروح روح التعصب [1] الدينى — ينفثها رجال الدين فى الصدور فتقيم بين أبناء الوطن الواحد حاجزاً من الكراهية وعدم الثقة والمقت والازدراء ؟ وأخيراً ما بالك بذلك الصدر الضيق لا يتسع للنقد ولا للاجتهاد، وبتلك البدع الدينية الكثيرة التى ليست من الدين فى شىء، وبهذه وبتلك مما تعرفه أنت وتعلم أنه يغضب الله والرسول ؟؟

تلك ياعزيزى نتيجة التعليم الدينى فى معاهدنا قد عرضتها عليك فى شىء من الجرأة والحياء فهلا ترى أنها نتيجة أليمة تحتاج إلى التعديل السريع ما دام الأمر لا يقتصر هنا على علاقة المرء بربه، بل يمتد ويمتد إلى صلة الأفراد ببعضهم وإلى رقى الدولة وانحطاطها ؟؟

(ب) — الأخلاق المدنية

والأخلاق مظهر قوى للعاطفة ؛ فإذا هى فقدت منبعها الدينى فماذا يتبقى لها غير الضمير الشخصى والاجتماعى ؟؟ لنبحث إذاً فى أخلاق الخريجين الموظفين منهم وغير الموظفين فسنجد كذلك عجبا . كم منهم من « يشعر بواجبه » شعورا حقيقيا وينطلق إلى أداء هذا الواجب بإخلاص تام وهمة عالية ؟؟ وكم منهم قد وضع لنفسه « مثلا أعلى » فهو يسعى لتحقيقه، ويُصدر عنه فى جميع أفعاله، ويتحمل الآلام فى سبيل الذود عنه، ويعمل على نشره بين أهله وذويه متخذاً لنفسه فى حياته رسالة شريفة يحيا من أجلها ويموت ؟! الحق أننا مصابون فى هذ الناحية بأخبث الأمراض وأشنعها وأكثرها دمارا ووبالا . وحسبك أن تنظر فى قوائم الاهمال والتقصير، والتزوير والتدليس، والتلاعب والاختلاس، والأقارب والأصهار، حتى يقف شعر رأسك فزعا ورعبا من تلك الفوضى الخلقية التى تسيطر على رجالنا وتسير بسفينتهم إلى بحر الظلمات !! ألا يختلس المختلسون آلاف الجنيهات من مال الدولة الحرام ؟ ألا ينحط الخلاف السياسى إلى جرائم الافك والزور والكذب والاحتيال ؟ ألا تباع الضمائر والأقلام فى سوق المال

(١) المسلمون منهم والمسيحيون واليهود على السواء، وأظن أنه قد آن الوقت الذى يجب أن نترك فيه أمر الدين لله وننظر للناس من حيث خلقهم وكفاءاتهم فحسب

بيع الأغنام ؟؟ ألا ترتفع الشكوى لأولى الشأن دون أن يسمع سامع أو يستجيب مستجيب ؟ ألا يتخذ الأجانب من بعض رجالنا سواعد لهم فى الحكومة والشعب على السواء ؟؟ ألا يصبح رجل الحق أحيانا كاليتيم فى مأدبة اللئام ؟؟ ألا يميل ميزان العدل مرارا فإذا العدل ظلم والظلم عدل ؟ أليس فى المعلمين والأطباء والمحامين وغيرهم من يؤدى عمله أداء ناقصا مشوها لا يعدل مطلقا ما يتناول عليه من أجر ؟ أليس فى الموظفين من يكتم صوته ويطأطىء رأسه ويلوذ بالصمت الحقير إذا شعر أنه مهدد بمجرد النقل إلى بلد قريب فضلا عن الخصم أو الحرمان ؟؟ ثم ألا تذهب صيحات المصلحين عندنا كصرخة فى واد ؟ ألا يعف شيوخ رجالنا عن كل جديد يأتى من ناحية الشبان ؟ ألا تنمحى شخصيتنا المصرية فى رجال الثقافة المدنية محوا أليما ؟ ألا نقلد الغرب فى كل تافه حقير ؟ ألا نترك صناعاتنا المصرية تنتحر من أجل المظهر اللائق والبهرج المرذول ؟؟ ألا يصمت الثائر منا ويمحو شخصيته ويندمج فى التيار العام وكله يأس وعجز وأسى وقنوط ؟؟

ذلك طرف من خلق كثير من الخريجين فهل تراه يرضيك ؟ وإذا كان كل خريج زعيما للشعب فى دائرته فهل ترى للشعب زعماء صالحين [1] ؟؟ وحسبك اليوم ذلك وإلى اللقاء حيث أحدثك عن ناحية الذوق أيضا

« يتبع » محمد حسن ظاظا

(١) قال شوقى بك : وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم فأقم عليهم مأتما وعويلا

محمــــــد إقبـــال

شاعر الاسلام وفيلسوف

للدكتور عبد الوهاب عزام

بقية ما نشر فى العدد الماضى

ومن كلامه فى « نقش فرنك » وهو القسم الرابع من « بيام مشرق » :

جمعية الأقوام

يريد الرزّءون أن يسنوا سنة جديدة ليمحوا آية الحرب من هذا المحفل العتيق

فما عرف قبل اليوم أن جماعة من سرّاق الأكفان ألفوا جماعة لتقسيم القبور

نيتشه

خفق قلبه لضعف عناصر الإنسان، وخلق فكره الحكيم صورة أحكم وأمتن، فأثار بين الفرنج هياجاً بعد هياج: مجنون ولج مصانع الزجاج

إذا بغيت نغمة ففر منه، فليس فى نايه إلا قصف الرعد. قد دفع مبضعه فى قلب الغرب واحمرت يده من دم الصليب. هذا الذى بنى معبداً للصنم على قواعد الحرم، قد آمن قلبه وكفر دماغه

جلال الدين الرومى و هيجل

كنت ليلة أحاول أن أحل عقد الحكيم الألمانى. ذلك الذى خلع فكره على الأبدى كسوة الآنى، والذى أخجل العالم إذ ضاق عن سمة خياله. فلما نزلت فى بحره صارت سفينة العقل طوفاناً، ثم سحرنى النوم فأغمضت عينى عن الفانى والباقى، وازداد شوق وقدة فتجلى لى وجه الشيخ الإلهى: الشمس التى أضاءت آفاق الشام والروم، والذى وضع شعلته مصباح هدى فى هذه الدنيا المظلمة، الذى تنمو المعانى من كلامه كما تنمو شقائق النعمان

قال لى كيف تنام. استيقظ، إنك تجرى سفينة فى سراب. إنك تجتاز طريق العشق بالعقل. إنك تبحث عن الشمس بمصباح

***

وأما أسرار خودى ورموز بن خودى: أى أسرار الذاتية ورموز اللاذاتية (أو أسرار الأنانية ورموز الإيثار)، فهما المنظومتان اللتان شرح فيهما آراءه شرحاً مرتباً وجعل للبحث خطة واضحة

بين فى الكتاب الأول قوة الذاتية وضرورتها فى الحياة، ودعا إليها: هذه الحياة جهاد مستمر، والرجل الحى حقاً هو الذي يوقظ كل قواه، ويستخرج كل ما فى فطرته، ويتأهب بمواهبه وأدواته للجهاد. السكون موت، والتقليد فناء، والحركة حياة، والاستقلال وجود ... الخ

وبين فى رموز بن خودى كيف تلتئم هذه الفردية القوية الكاملة فى الجماعة، وكيف تقوى الجماعة وتضعف، وكيف تصلح وتفسد، وكيف تهتدى وتضل:

يشرح فى أسرار الذاتية بعد المقدمة موضوعات منها:

أصل نظام العالم من الذاتية، وتسلسل حياة أعيان الوجود موقوف على استحكام الذاتية

حياة الذاتية من تخليق المقاصد وتوليدها

الذاتية تستحكم من العشق والمحبة

« تضعف بالسؤال

« إذا استحكمت تسخر قوى العالم الظاهرة والخفية

فنى الذاتية من اختراع الأقوام المغلوبة ليضعفوا من طريق خفى أخلاق الأقوام الغالبة

أفلاطون الذى أثر فى التصوف والآداب الإسلامية ذهب مذهب الخروفية، والاحتراز من أفكاره واجب

ثم بين أن تربية الذاتية لها ثلاث مراحل: الأولى الطاعة، والثانية ضبط النفس، والثالثة النيابة الإلهية

فى المقطوعات الثانية يتكلم فى مثل هذه الموضوعات:

الأمة تظهر من اختلاط الأفراد، وكمالُ تربيتها من النبوة.

أركان الأمة الاسلامية — الركن الأول التوحيد — اليأس والحزن والخوف أمهات الشرور ، والتوحيد يزيل هذه الأمراض الخبيثة . الركن الثانى الرسالة — المقصود من الرسالة المحمدية تأسيس الحرية والمساواة والاخوة بين بنى آدم — الأمة المحمدية مؤسسة على التوحيد والرسالة فليس لها حدود مكانية . الأمة المحمدية ليس لها نهاية زمانية أيضاً — حياة الأمة تحتاج إلى مركز محسوس ، وهو للمسلمين البيت الحرام

خلاصة معنى الكتاب وتفسير سورة الاخلاص

وهذه أمثلة من أسرار خورى :

نهر الكنج وهملايا

قال نهر الكنج يوماً لجبل هملايا وهو يجرى فى سطحه ! أيها المتوج بالبرد من فجر الخليقة والمنتطق بالأنهار الجارية ، جعلك الله نجى السماء، ولكن حرمك التبختر فى العراء ، ماغناء الرقاد والرسوخ والرفعة ، وقد سلبت الحياة والحركة ؟ الحياة سعى دائم كالموج وجوده حركته الدائمة . فلما سمع الجبل تعيير النهر أرسل أنفاسه بحراً من نار وقال : يامن اتخذت صفحة مرآتى وأكنت مئات من مثاله فى صدرى . هذا التبختر زينة الفناء ! من ذهب عن نفسه فقد حرم البقاء . قد غفلت عن مقامك وخرت بزوالك ياوليد الفلك الرفيع ؛ إن خيراً منك الساحل الوضيع . قدمت نفسك قرباناً للمحيط ، ونثرت روحك لقاطع الطريق . كن فى بستانك ورداً ولا تذهب وراء القاطف لتنشر عبيرك . إن الحياة أن تنمو فى مكانك ، وأن تنشر العبير فى بستانك

خلت القرون وأنا فى طينتى ثابت القدم ، وتحسبنى إلى الغاية لم أتقدم ؛ كلا قد عظمت حتى بلغت السماء ،واستراحت على سفحي الجوزاء . ضل وجودك فى البحر الخضم . وصارت ذروتى مسجد الأنجم . عينى بأسرار الفلك بصيرة ، وأذنى بطيرانه خبيرة . احترقت بنار السعى الدائم فجمعت فى صدري الجواهر «فى صدرى حجارة ، وفى الحجارة النار ، وليس للماء إلى هذه النار سبيل » إن كنت قطرة فلا تزق نفسك بيدك ، بل جاهد اللجة وحارب اليم لحياتك . كن جوهراً لألاء ، يزيد جيد الحسناء ضياء ، أوارسم بنفسك وأسرع المطار ، وكن سحاباً يرى البروق ويعطر البحار ، ليستجدى البحر إحسانك ويشكو ضيقه عن إنعامك ويرى نفسه أقل من موجة لديك ، ويرتمى على قدميك

قصة الطائر الذى أنهكه العطش

بلغ العطش من طائر جهده فاضطرب نفسه موجة من الدخان فى صدره ، فأبصر فى بستان شذرة من الماس الوضاء ، نخيل اليه العطش أنها ماء ، وخدعت الطائر المجهود هذه الشذرة المتلألئة كالشمس فتوهم الحجر الصلب ماء سائلا ، وغره من هذا الجوهر بريقه فضرب بمنقاره فلم تنقع غلته . قالت الماسة : أيها الطائر المسحور ! لشد ما ضربت بمنقار الغرور ! لست قطرة من الماء ، ولا مشربة للظماء ليست حياتى من أصل غيرى . إن محاولة التقاطى جنون وغرور ، وغفلة عن الحياة الذاتية الظهور . إن مائى يكسر من الطير منقاره ، ويصدع من الانسان جوهر روحه . خاب أمل الطائر فأعرض عن هذه الشذرة الوضاءة ، وانقلب الأمل فى صدره حسرات ، واستحالت أنيناً هذه النغمات . ثم بصر بقطرة من الطل على فنن من الورد تتلألأ كدمعة من عين البلبل ضياؤها أفناناً فى وهج الشمس وهى من خوف الشمس فى رعده كوكب ولدته السماء فلبث لمحة فى نشوة الظهور والضياء ، وخدعته ألوان الأكمام والأزهار فلم يأخذ من الحياة نصيباً كدمعة العاشق العليل ، زانت الهدب لتسيل .

ويسرع الطائر إلى فنن الورد فيلتقط قطرة الندي

أيها المبتغي نجاة من الأعداء ! خبرنى أجوهر أنت أم قطرة من ماء . ألم تر إلى الطائر حين أذاب العطش مهجته كيف وقي بحياة غيره حياته ؟ لم تكن القطرة فى صلابة الجوهر ، ولكن كانت الماسة صلبة المكسر

فلا تغفل عن حفظ الذاتية لمحة ، وكن قطعة ماس لا قطرة كن ناضج الفطرة راسخاً كالجبال وتحمل بحاراً من السحاب المطال . وجد نفسك تقوى نفسك واستحل فضة بجمود زئبقك . أظهر نغمة الذاتية من أوتارها ، وتجل للناس بأسرارها

فى الكلام على الوقت

اسمع نكتة تضيء كالدر ، لتعرف فرق ما بين العبد والحر : العبد ضال فى الليل والنهار ، والزمان فى قلب الحر ضال. العبد ينسج من الأيام كفنه ويخيط الليل والنهار على نفسه ، والحر يخلع نفسه من الطين ثم ينسج على الزمان محرابه المتين . العبد طائر فى شبكة الصباح والمساء ، حرمت روحه لذة السبح فى الهواء وصدر الحر الهمام ، قفص لطائر الأيام . فطرة العبد تحصيل الحاصل ، وخواطره تكرار قاتل. مقامه من الجمود واحد ، وصوته بالليل والنهار ا كد. والحر كل حين خلاق ، يسكب نغمه مجددة فى الآفاق. فطرته لا تحتمل التكرار ، وليست طريقة خلقة البركار . العبد فى سلاسل من أيامه ، والقضاء والقدر ورد لسانه ، وهمة الحر مثيرة على القضاء قصور يده الحادثات كما تشاء . الماضى والآتى ماثلان لديه ، والآجل عاجل بين يديه ...

نضر الله عهداً كان سيف الزمان ، حليف أيدينا على الحدثان ، فبذرنا الدين فى أرض القلوب ، ورفعنا الحجاب عن وجه الحق المحجوب ...

وحلت عقدة الدنيا أناملنا ، ونضر وجه الأرض سجودنا ، وشربنا الصهباء من دنّ الحق ، ثم سرنا بنشوته بين الخلق . يامن أترعت كأسه الخمر المعتقة ، وأذابت كأسه الصهباء المحرمة ، وملأه الكبر والغرور ، فميّزنا بالفقر والمتربة . لقد كانت كأسنا كذلك زينة المحافل ، يوم كنا وصدرنا بالقلب آهل ، وثار من غبار أقدامنا عصر جديد ، ينجلى بكل أمل بعيد ، ورويت مزرعة الحق بدمائنا ، وسعد عبّاد الحق بيلائنا ، ودوى العالم بتكبيرنا ، وعمرت كعبات مَن ترابنا . وأنزل الحق كلمة (اقرأ) فينا ، ثم قسم رزقه بأيدينا . فإن يكن ذهب منا الخاتم والتاج ، فلا تحقر ذلك الفقير المحتاج . إن نكن بزعمك مفسدين ، وبالأفكار العتيقة مغرمين ، فنحن لا نزال الأحرار أنصار التوحيد ، قوامين على العالمين والله شهيد فرغنا من غم اليوم والغد ، وحالفنا الله الأحد ، فنحن فى قلب الحق سر مكنون ، ونحن ورثة محمد وموسى وهارون . لا نزال نورنا فى الشمس والقمر مصوناً ، ولا يزال سحابنا بالبرق مشحوناً إن ذات المسلم مرآة الحق . وإن وجود المسلم من آيات الحق

***

هذه أمثلة قليلة من شعر إقبال ، ولإقبال من الآراء والفكر والخيالات ما يستعصى على الحصر . ولكن يستطيع دارس شعره أن يقول إن أدبه يتناول العالم كله ، وأن فلسفته تقوم على قواعد أبينها القوة — قوة الفرد وقوة الجماعة وقوة الأخلاق — والاستقلال الذى لا يعرف التقاليد ، والحرية التى لا تضيقها قيود ، والجمال فى الأنفس والآفاق

ومقصده الأعلى تهذيب الإنسان وخاصة المسلم ، يشرح له من حقائق الحياة ، ويبين له من مثل الفضيلة ، ، ويكشف له عن أسرار الإسلام ومجد المسلمين الأولين حتى يملأه قوة وحماساً وأملاً وإقداماً ، ثم يوجهه فى معترك الحياة إلى الغاية التى عندها شرف الدنيا والآخرة . وليس يتسع المقام لتفصيل الكلام فى فلسفة هذا الرجل العظيم وأدبه . وعسى أن أوفق إلى الإفاضة فى ذلك من بعد : « إن الذى يعرف إقبالاً يعرف مصيبة العالم الاسلامى والأدب البشرى بموته »

عبد الوهاب عزام

في اللغة

مجبر ومجبور

لأستاذ جليل

اطلعت عند أحد معارفي من الطُّرَّاء[1] اللبنانيين في هذه (البحرة[2]) على كراسة ظهرت منذ أسابيع لفاضل كان قد جاء إلى مصر قبل الحرب الكبرى — أعادها الله جذَعة[3] — وكتب في مجلات القاهرة وجرائدها برهة، وهو الأستاذ (إدوار مرقص) من أعضاء المجمع العلمي العربي ومن المشهورين في بر الشام. والكراسة هي في اللغة ونقد كلمات، وقد تصفحت صفحات منها، فوجدته يقول في إحداها: «يقولون إنه مجبور على كذا، والصحيح مجبر عليه أي مكره عليه، والفعل أجبر»

وإن قول القائلين: (إنه مجبور على كذا) لصحيح، والتغليط غالط، فجبر مثل أجبر، وكان ابن قتيبة قال في كتابه (أدب الكتّاب): «ويجيء أفعلت مخالفة لفعلت نحو أجبرت فلاناً على الأمر وجبرت العظم» فقال البطليوسي في (الاقتضاب في شرح أدب الكتاب): «قد حكى أبو إسحق الزجاج وغيره جبرت الرجل على الأمر وأجبرته إذا أكرهته عليه، ومنه قيل للفرقة التي تقول بالاجبار: جبرية[4]، وجبرية لا تكون إلا من جبر»

وفي (القاموس): «وجبره على الأمر كأجبره»

وفي (اللسان)، قال الأزهري: «كان الشافعي يقول: (جبر السلطان) وهو حجازي فصيح. فهما لغتان جيدتان جبرته وأجبرته»

وفي (الفائق): «فقيل: يا رسول الله، أليس الطريق يجمع التاجر وابن السبيل والمستبصر والمجبور، المجبور المجبر على الخروج يقال: جبره على الأمر وأجبره» فسوّى الزمخشري بين اللفظتين ولم يقل أجبر هي أعلى وأكثر

وفي (الملل والنحل) للشهرستاني، — وهذا من مقالة الجهمية — وفيه مجبور: «إن الانسان ليس يقدر على كل شيء، ولا يوصف بالاستطاعة، وإنما هو مجبور في أفعاله لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار[1]، وإنما يخلق الله الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجمادات، وتنسب إليه الأفعال مجازاً كما تنسب إلى الجمادات كما يقال: أثمرت الشجرة، وجرى الماء، وتحرك الحجر، وطلعت الشمس وغربت، وتغيمت السماء وأمطرت، وأزهرت الأرض وأنبتت إلى غير ذلك»

فالمرء مجبر، مجبور كل المجبور كما تقول (الجهمية) الجبرية الخالصة. و (الأشعرية والماتُريدية) جبرية متوسطة

جَبْران: جَبْرٌ في الأرض، وجبر في السماء. فقل لي — يا أخا العرب —: هل يتحرر الانسان بعد آلاف من السنين أو بعد آلاف من القرون فيعود[2] يقدر أو يريد كما تقول (القَدَرِيّة)

«الاسكندرية» «***»

---

(١) يقال للغرباء الطراء (اللسان) وهو من تناء تلك الكورة إذا كان أصله منها، ويقال: أمن تنائها أنت أم من طرائها (الأساس)

(٢) البحرة المدينة، يقولون: هذه بحرتنا أي أرضنا وبلدتنا (الفائق)

(٣) أعدت الأمر جذعاً أي جديداً كما بدأ (اللسان) وطفئت حرب بين قوم فقال أحدهم إن شئتم أعدناها جذعة (الأساس) وقد ورد هذا القول في اللسان فحركت طاء طفئت بالضم وفاؤها بالكسر، والفعل هو ما سمي فاعله، وزيد قبله لفظة (إذا) فاضطربت الجملة

(٤) الجبرية بالتحريك خلاف القدرية والتسكين لحن أو هو الصواب والتحريك للازدواج (القاموس) في الفصيح — يعني الكتاب — قوم جبرية بسكون الباء، وهذا — أي لفظ الجبرية — في قول المتقدمين وأما في عرف المتكلمين فيقال لهم المجبرة (التاج)

---

(١) يقولون ليس للعبد قدرة وأن الحركات الارادية بمثابة الرعدة والرعشة (التاج)

(٢) العود بمعنى الصيرورة، وهو كثير في كلام العرب كثرة فاشية لا تكاد تسمعهم يستعملون صار ولكن عاد، ما عدت أراه، عاد لا يكلمني ما عاد لفلان مال (الكشاف)

بين الرافعي والعقاد

للأستاذ محمود محمد شاكر

— ٥ —

« تحرقك النار أن تراها ، بله أن تصلاها »

منذ تسعمائة سنة قال الخفاجي حين ذكر البلاغة :

« لم أر أقل من العارفين بهذه الصناعة ، والمطبوعين على (فهمها) و (نقدها) مع كثرة من (يدعى) ذلك ، ويتحلى به ، وينتسب إلى أهله ، ويمارى أصحابه فى المجالس ، ويجارى أربابه فى المحافل . وقد كنت (أظن) أن هذا شيء مقصور على (زماننا) اليوم ، ومعروف فى (بلادنا) هذه ، حتى وجدت هذا (الداء) قد أعيا أبا القاسم الحسن بن بشر الآمدى ، وأبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ قبله وأشكالهما حتى ذكراه فى كتبهما ، فعلمت أن (العادة به جارية) ، و (الرزية فيه قديمة) . ولما ذكرته رجوت الانتفاع به من هذا الكتاب ، أملت وقوع الفائدة به ، إذ كان (النقص) فيما أبنته شاملاً ، و (الجهل) به عامًّا ، والعارفون به قُرحة الأدهم بالإضافة إلى غيرهم ، والنسبة إلى سواهم »

***

ومع ذلك ... فالأستاذ سيد قطب أحد (الاخصائيين ! !) فى اللغة التى نعبر بها

عاد الأستاذ الفاضل سيد قطب بحديثه عن الرافعيّ ، ثم عقب عليه بالحديث عني وعما كتبت فى الكلمات السالفة . وكنت عزمت أن أدعه حتى يشفى ذات صدره من الرافعيّ ومنى ؛ وكنت أجمعت الرأى على أمر ، ثم هأنذا أتحلل من عزيمتى ... ومرة أخرى أقول كما قلت فى الكلمة الأولى : إنى سأتولج فيما لا أحب ... لا كرامة للأستاذ أو استجابة لدعائه بل لميط الأذى ... بل لميط الأذى حسبُ

ولقد علم من لم يكن يعلم أنى كتبت ماسلف هادئاً لا أهاجم ، إلا أن أرفق وأستأنى وأتصبر على كلام ينفد معه صبر الحليم ... وأنا وإن كنت لا أبالى بشيء مما يصف الأستاذ الكامل به كلامى فأنا لا زلت أحفظ للقراء عهدهم قِبَلَ الكتّاب ، فلا أدع القارئ عرضة لرجل يفهم القول الرفيع بالفهم الوضيع ، ولا لرجل يسيء القول فى الناس ويأبى عليهم أن يقولوا له أسأت فأجمل ، ولا لرجل يرى الظل ممدوداً له — زمن القيظ — فيتجنبه إلى وقدة الشمس ...

فهكذا أبى الأستاذ أن يأوى إلى مأوى بقيه ، وتجرد يختال علينا ، ويقتال إلى نفسه جريرة شر . وما ظنى وظنك برجل يصف الرافعىّ بألفاظ ملفقة ، وهى على ذلك بينة الدلالة على قبح الغرض ، سافرة عن شنعة الاساءة ، قليلة التذمم فى حق الأحياء بَلْهَ الأموات ممن لم تجف عن قبورهم بعدُ دموع أزواجهم وأطفالهم وذراريهم ومن يعتون إليهم بالحب والمودة والأخاء ؟

وما ظنى وظنك بانسان قد حُمِّل القلم ليستملى ، فيتنزل عليه القول من بغضاء مربدة باغية لا تتقى سوء المقال ولا مأثور الكلام ؟

وما ظنى وظنك بفهم يتمالى على سلاليم من الفوارص والقوارع ، لا تجد لها فى الذى تعرف سبباً قديماً أو علة محدثة تسوِّغ الأذى أو تحمل عليه ؟

ما ظنى وظنك بهذا الرجل الذى نترفق به ونستر (نفسه ودافعها فى الحياة) بالاشارة اللطيفة ، فيأبى إلا أن يترجم القول إلى غير معناه ... إذ يسمى ما كتبت له (شتائم) .. شتائم .. ! أنف فى السماء ... أأنا يدور فى نفسى أن أكتب للأستاذ الفاضل ما يسمي (شتائم) ؟ لأنا يا سيدى الأستاذ قطب أحسن ظناً بك من هذا . ولقد قلت ما قلت من أن الناس كانوا يتعايشون بالدين والتقوى ثم رفع ذلك — كما قال الشعبي — فتعايشوا بالتذمم والحياء ؛ ثم رفع ذلك ، ثم تعايشوا بالرغبة والرهبة ، ثم رفع ذلك ، وجاء زمان يتعايش الناس فيه (بِثَلْب الموتي) ... وهو زماننا هذا . ولو قد كنت (إخصائياً !) فى اللغة التى يعبر بها لما زعمت أنى (رحت أتهمك بمجانبة الدين والتقوى ، والحياء والتذمم) فأنا لم أقصد إلى ذلك ، فهو أمر قد فرغ من الحكم فيه صاحبنا الشعبي . وما كان قصدى إلا أن الذى كتبت أنت عن الرافعي الذى مات وسكت ، والعقاد الذى بقى يتكلم ، بل عنهما معاً فى قران واحد ، هو ثَلْب للموتى و زُلفى للأحياء . وحق لى أن أقول

ذلك فقد جمت بين الرجلين ، فوضمت الميت موضماً لا يتنزل إليه حيٌّ في الضمة ، ورفعت الحي مكاناً لا يسمو إليه أحد في الرفمة ، وضربت الكلام من هنا ومن هنا حتى استبان الغرض ...

أريد (الاخصائي !) الفاضل أن نبين له موضع الاشارة في كلامنا هذا ... ؟ إذن فليسمع

حين قرأت الكلمة الأولى من حديثه في الرسالة ، لم أشك ساعة أنه يختدع القارئ عن نفسه يتمنى أن يُفهمه أنه يريد النقد ، والنقد حسب ، ولا شيء غير النقد ! وألح في ذلك إلحاح الظنين في الاكثار مما ينفي الظنّة عنه ، غافلا عن أن تكلف نفي التهمة بالإلحاح يثير الشك ويوقظ الريبة في نفس من أراد الله له الخير ... ثم يشرع الأستاذ (الاخصائي في اللغة التي نعبر بها) يأتي بالشواهد من كلام الرافعي في نقد (وحي الأربعين للعقاد) ليثبت صدق ما ذهب إليه من الآراء في الرافعي

كان يشك في « إنسانية » الرافعي ، ويزعم أنه خواء من النفس

ثم قرأ ما كتب الأستاذ سعيد العريان فعدّل حكمه قليلا ! ولم يعد يستشعر البغض والكراهية للرجل وأدبه ، ولكن بقي الأساس سليما ... فما هو ؟

كان ينكر على الرافعي « الإنسانية » فأصبح ينكر عليه « الطبع »

وكان لا يجد عنده « الأدب الفني » فأصبح لا يجد عنده « الأدب النفسي »

وكان الرافعي ذكياً قوي الذهن ، ولكنه مغلق من ناحية الطبع والأريحية

والرافعي أديب الذهن الوضاء ، والذكاء اللماع !

والرافعي مغلق القلب متفتح العقل وحده للفتات والومضات .

هذا في المقالة الأولى ، ثم نزل درجة بالرافعي في الكلمة الثانية ، ثم لم يكد يرى الثالثة حتى زعم أنه حين عاد بعد ذلك فقرأ رسائل الأحزان أحس أنه (خُدع !) في — قياس ذكاء — الرافعي ! ومعرفة طبيعته ودرجته ! ولكنه يحس الغضاضة في هذا التراجع فيميزه « الصدق » ! الذي يعبّر عنه حين ينصت لإحساسه ويصور حقيقة رأيه ... وتأويل ذلك عنده في مقاله الثالث أنه أخطأ في عدم ! تحديد (الذهن) ... فمن الذهن ما هو سليم أو مريض ، وما هو مشرقٌ أو خابٍ ، وماهو متفتح أو مغلق ، (أو كما قال) ...

لقد قال في الكلمة الأولى ما رأيت ، ثم قال في الثالثة ما رأيت من تراجعه ؛ ولقد كان هذا التراجع في الثالثة مطوياً تحت الكلمات في الأولى وفهمناه وأدركناه ، وكان آخر الرأيين هو الغرض الذي يسمى إليه . وإلا فما أظن أحداً يستطيع أن يعقل أن (ناقداً) قد فرض على نفسه النقد — أي التتبع والاستيعاب وصدق النظر — يصف رجلا « بالذهن الوضاء » « والذكاء اللماع » والقوة في الذهن ، والتفتح في العقل ، ثم لا تمضي عشرة أيام ... فيقرأ أحد كتب هذا الرجل ، فيعود يقول في صفته إن ذهنه مريض غير سليم ، «خاب غير مشرق» ، « مغلق غير متفتح »

أريد الأستاذ (الأخصائي في اللغة التي نعبر بها) بياناً هو أوضح من هذا على سوء غرضه ..؟ الناقد رجل عدل مُنصف لا يزال يتتبع شوارد اللفظ ، وأوابد المعاني يستنبئها أخبار أصحابها ويستنبط من قلوبها أسرار كتابها ، ويكشف عنها خبيئة قائليها .. ، ثم يحكم مميزاً مقدرا لا يجورُ فيتجاوز الغاية ، ولا يحيف فيقعُ دون المدى . وقد حكم هذا (الاخصائيُّ !!) في كلمته الأولى حكمه الأول حين (استطاع أن يكون ناقداً ، لا يكتفي بالتذوق والاستحسان أو الاستهجان ، ولكن يعلل مايحس ويحلله) !! كما قال في بدء كلامه

أوليس يقتضي هذا — على الأقل — أن يكون قرأ كل ما طُبع من كتب الرافعي دون ما تفرق من كلامه في الجرائد والمجلات على كثرتها ..؟ بلى

أوليس يقتضي هذا — على الأقل أيضاً — أن يكون حين حُكمه قد استردّ شتات ما بقي في نفسه من آثار كلام الرافعي فيها ؟ قالوا بلى

أوليس يقتضي حق النقد والحكم — على الأقل أيضاً — ألا يصفَ الرافعي بالذكاء اللماع ، والذهن الوضاء ... وهذا

الكلام المفخم — إلا أن يكون ذلك من آثار ما قرأ له من شيء ..؟ قالوا بلى

إذن فكيف — في عشرة أيام ياسيدى — يستطيع كتاب واحد للرافعي هو « رسائل الأحزان » أن يقلب — هذا (الأخصائي في اللغة التي نعبر بها)، وهذا الذي (استطاع !! أن يكون ناقدا) — رأسا على عقب، فلا يكتفي بسلب النعوت المفخمة (كالوضاء واللماع والمتفتح) فيترك الذهن هكذا مجردا، بل يضع مكانها أضدادها فيجعله ذهنا « مربضاً خابياً غير لماع ولا وضاء، مغلقاً غير متفتح »

هآه ... إني لأشك كل الشك في براءة الأستاذ مما غاظه من كلمتي الأولى مما سماه (شتائم). ولقد شهدت مرة أخرى « أن ما بالأستاذ قطب النقد، ولا به الأدب، ولا به تقدير أدب العقاد وشعره، فما هو إلا الانسان وجه يكشفه النور ويشف عما به، وباطن قد انطوى على ظلماته فما ينفذ إلى غيبه إلا علم الله ». ولا زلت أقول له: « إنه لو عاد إلى داره مخلى من حوافز الحياة الدنيا» فقرأ ما كتب قراءة الناقد لوجد الاختلاط في لفظه بيناً، والغرض من ورائها متكشفاً . ولو شئنا أن نقول لقلنا فلم نكذب: إن كلامه لمشترك بين ضربين من العقل أحدهما ظاهر نعرفه ولا ننكره لأنه مما عهدناه زماناً، والآخر ظاهر أيضاً ... نعرفه وننكره، لأنه مما استحدث بعد الرافعي رحمة الله عليه

وأما الأديب الكبير! الذي لقي الأستاذ (الاخصائي في اللغة التي نعبر بها) فضرب لنا الأمثال « بالجماعة الذين يجلسون في المآتم ويرجمون الناس بالحجارة، فاذا رجمهم الناس صاحوا وولولوا، وملأوا الدنيا تسخطاً ونعياً على الأخلاق، لأن الناس لا يقدرون حرمة المآتم، وهم الذين استهانوا بهذه الحرمة حينما رجموا المارة ». فان شاء أن يختفي في ألفاظ الأستاذ (الاخصائي!) فهو عتيق جبنه، وإن شاء أن يظهر من ورائه فسيرى كيف عرفناه من لفظه ومن أمثاله

وأيما كان ... فالمثل فاسد من وجوهه كلها ... فان الأستاذ سعيد حين كتب لم يرجم أحداً، وإنما كتب تاريخاً؛ وحين قال إن رد العقاد على الرافعي سباب وشتائم، فهو لم يكن إلا كذلك، ولا يمكن أن يقال فيه إلا ذلك ... إذ ليس فيه شيء مما يسوغ أن يعد رداً أو نقداً ... حتى ولا على طريقة الأستاذ (الاخصائي!) في حل المنظوم ووصفه بالدعابة والطرافة والحيوية ... وما إلى ذلك من اللفظ الذي لا يتخذه ناقد إلا بعد الابانة عن حجته وسبيله. أو كما قال الأستاذ (الاخصائي!) في كلمته الأولى « في الناقد الذي لا يكتفي بالتذوق والاستحسان والاستهجان، ولكن يعلل! ما يحس ويحلله »

ومع ذلك فهل يرى أحد أن (حل المنظوم) في ألفاظ ملفقة مذيلة، ثم نعته بالطرافة والحيوية ... الخ، هو التعليل والتحليل الذي يتخذه النقاد أسلوباً لهم ؟

ومع ذلك أيضاً ... فلو فرض أن « سعيداً » رجم المارة، والمارة ههنا هم الأستاذ العقاد وحده، فلم تطفل الأستاذ (الأخصائي) فقاذف الأستاذ العريان ؟ ولم لم يدع ذلك للمرجوم نفسه ... ؟

ثم وراء ذلك كله .. تطفل (الأستاذ الأخصائي!) للقذف والرجم، فلم لم يخص سعيداً وحده دون أصدقاء الرافعي وأصحابه يتحداهم ويتناولهم بالأذى غير متذمم ... كأن أصدقاء الرافعي وأصحابه هم الذين كتبوا لسعيد ما كتب !!

***

وبعد فهذه كلمة كتبناها لنقرر حقيقة واحدة هي أن الأستاذ (الأخصائي في اللغة التي نعبر بها)، كان في أول حديثه عني — حين انتهى من حديث الرافعي — يضطرب ويؤخذ ويتناوح كأنه قصبة مرضوضة معلقة على عود هش قد يبس ... أريد أن أقول بلفظ آخر إنه كان يضطرب لأن حججه التي يتعلق بها حجج فاسدة، وإن أصل كلامه عن الرافعي خائر يتصدع، وإن فكره في الذي كتب لم يستقر على شيء صحيح لا يختلف عليه

وسيرى فيما يستقبل من كلامنا أنه قد عجز كل العجز عن الاتيان بشيء يمكن أن يسمى نقداً. وسيرى أيضاً أن النقد الذي نأخذ أنفسنا به لا يجور على العقاد، ولا يميل بنا إلى الرافعي. ويكفيه مما مضى في كلامنا وكلامه أن يعلم أنه نزه العقاد ورفعه أرفع درجة، وأننا لم ننزه الرافعي ولم نقل فيه بعض ما يقول هو في الشاعر الكبير صاحبه

محمود محمد شاكر

بين العقاد والرافعي

للأستاذ سيد قطب

— ٦ —

جاء في حديث الأستاذ سعيد العريان عما بين العقاد والرافعي :

« أصدر العقاد ديوان « وحى الأربعين » في سنة ١٩٣٣ ، والسياسة المصرية يومئذ تسير في طريق مموج ، وحكومة صدقى باشا تمكن لنفسها بالحديد والنار ؛ و « الوفد » ومن ورائه الأمة كلها يجاهد حكم الفرد ويكافح للخلاص ، والعقاد يومئذ هو كاتب الوفد الأول ، يكتب المقالة السياسية فترن رنيناً ، ويلقفها آلاف القراء بلهفة وشوق ، في كل مدينة وكل قرية ، فلا عجب أن يكون العقاد بذلك عند عامة القراء ، هو أبلغ من كتب وأشعر من نظم ، حتى ليؤول أمره من بعد إلى أن ينحله الدكتور طه حسين بك الوفدى المتحمس ، لقب « أمير الشعراء » تملقاً للشعب ونزولا على هواه »

ثم قال كلاماً آخر يمت إلى هذا الكلام ، ويضرب على نغمته ويرجع انتصار العقاد على الرافعي في المعركة عند غالبية القراء إلى هذه العوامل السياسية . وكان هذا وأمثاله من الأسباب الأولى التي حفزتني للكتابة في الموضوع الذي أكتب فيه ، لأنها ندت عن التاريخ إلى الحكم والتعليق والترجيح

***

يخطئ الذين يعتقدون أن العقاد يستمد قوته من ظروف طارئة أو قوى خارجة عن ذاته ، كالسياسة ، والحزبية ، والصحافة ... الخ

والبراهين على ذلك شتى

فلقد قيل إن العقاد كان قوياً بأن كان « كاتب الوفد الأول » ولكن العقاد خرج على الوفد أول الخارجين في إبان قوته وسطوته ، وبعد تجربة في الخروج عليه ذهب بها إلى عالم النسيان ثمانية من أعضائه يتابعهم ثلاثون من الهيئة الوفدية

وقد لقي من الكيد ، ووسائل النضال ، الظاهرة والخفية ، البريئة والشائنة ، ما لو وجه إلى هيئة كاملة لضعضعها . فما ذا كانت عاقبة هذا الخروج ؟

لقد بقي العقاد هو « الكاتب الجبار » ، وتضعضع خصومه ووراءهم قوة العدد ، وقوة الحكم ، وقوة المال ، وقوة الماضي الوطني ، وكل قوة مأمولة في الوجود !

ثم قيل : إن العقاد يستمد قوته من الصحافة ؛ ولكنه طوى قلمه عامين كاملين وكان ذلك بعض ما دبره له خصومه الأقوياء . فما ذا كانت العاقبة ؟

لقد بقي العقاد مع ذلك جهير الصوت ، مسموع الرأى ، وأخرج للناس في هذه الفترة ثلاثة مؤلفات : أحدها « سعد زغلول » وهو يكفي وحده لخلود كاتب عظيم ، وبقي خصومه يحسبون حسابه ، ويتوقون قلمه ، وبقي كل فرد في القراء يرتقب عودته إلى الميدان ... وقد عاد !

ثم لماذا يكون العقاد قوياً بالسياسة وحدها ، وخصومه — ومنهم الرافعي — كانوا يلجأون إلى الدين ، وهو أقوى أثراً من السياسة ، وأتباعه أكثر من أتباعها ، فلمَ لم تكن لهم الغلبة وسلاحهم أقوى وأبرز ؟

الحق ، أن كل هذه تملات وأوهام ، وخطأ في تقدير أسباب الغلبة ، ووسائل البروز ، وإغفال للقوى الذاتية الكامنة التي هي مدار كل نصر وظهور في عالم الوجود

ألف حزب سياسى ، وألف صحافة ، وألف مناسبة طارئة ، لم تكن كفيلة بإبراز العقاد ، لو لم يكن العقاد نفسه قوة من قوة الطبيعة ، وطاقة من طاقة الحياة ؛ ولو لم تكن في أطواء نفسه ومواهبه ، بذور العظمة ، وخميرة التفوق ، ودوافع النهوض

إنما انتصر العقاد لأنه يكتب في السياسة بالهام من الوطنية ، ثم يجنح بالوطنية إلى النزعة الانسانية ، وينفق في هذا كله من ذخيرة روحية لا تفنى

والحقيقة أن العقاد — مع هذا — مغبون أشد الغبن ، في مدى شهرته ، وفي نوع شهرته . مغبون لأنه في بيئة بينه وبينها عشرات الأميال من الفوارق والخطوات ، وقل فيها من يتابعه في سموقه ، أو يترسم خطاه على بعد المسافة . ومغبون لأنه ليس

معروفاً بخير ما فيه ، لأن خير إنتاجه يتطلب قراء من نوع مفقود أو شبه مفقود

ولو فهم ذلك بعض من نفسوا عليه وحقدوا ، لأراحوا بالهم بعض الشيء ، أو لعلهم كانوا يزيدون عداء وحقداً ...

* * *

ويخطىء الذين يحاولون أن يدرسوا العقاد — ولا أقول ينقدونه — وكل محصولهم من الثقافة ، كتب لغوية درسوها ، وكتب أدبية فهموها من آداب اللغة العربية . فليس العقاد أديب لغة وأديب أسلوب ، حتى تكفى اللغة ويكفى الأدب الخالص فى فهمه ، ولكن نتاج العقاد مجتمع ثقافات ودراسات قديمة وحديثة ، عربية وغير عربية ، مصهورة فى بوتقة طبيعة ممتازة ، ونفس رحبة ، وذهن مشرق ، ومواهب تنتفع بالثقافة ، وتعلو على حدود الثقافات !

ولقد رقيت إلى محاولة استيعاب العقاد — وأفلحت إلى مدى — على درج من دراسات شخصية جمة ، ليست دراسة الأدب العربي ولا اللغة العربية إلا أولى خطواتها . دراسات تشمل كل ما نقل إلى اللغة العربية — على وجه التقريب — من الآداب الأفرنجية : قصة ورواية وشعراً ؛ ومن المباحث النفسية الحديثة : نظريات العقل الباطن والتحليل النفسى والمسلكية .. الخ ومن المباحث الاجتماعية والمذاهب القديمة والحديثة ومن مباحث علم الأحياء — بقدرما استطعت — وما نشر عن داروِن ونظريته ومن مباحث الضوء فى الطبيعة ، والتجارب الكيماوية . ومما استطعت أن أفهمه عن اينشتين والنسبية ، وعن بناء الكون وتحليل الذرة ، وعلاقته بالاشعاع ... الخ

ولا أفصل أو أتوسع فى هذا ، فحسبي أن أقول : إننى انتفعت بكل معرب أو مؤلف ، عن النظريات العلمية والفلسفية الحديثة فى شتى أنواع الثقافة ، مدفوعاً فى ذلك بميل طبيعى ، كان يسيّرنى — دون إرادة — حينما أتناول صحيفة كالمقتطف مثلاً أن أبدأ بقراءة البحوث النفسية ، ومباحث علم الحياة ، وما قد تتضمنه عن علم وظائف الأعضاء ، وعن تحطيم الذرة ... وما أشبه ذلك قبل أن أتناول ما بها من بحث أدبى أو قصيدة !

وبكل هذه الثقافات بعد الثقافة الأدبية ، وبعد استعداد نفسى انتفعت فى فهم العقاد واستيعابه إلى حد ما . وسأزداد له فهماً كلما اتسع مدى ثقافتى ، وتفتحت جوانب نفسى ، وقويت نوازع الحياة فيها

فالذين يحسبون الأدب مادة لغة أو أسلوب ، ويستمدون على نفوس ضيقة وأذهان محدودة ، وثقافة من لون واحد ، لا يصح لهم أن يطمعوا فى دراسة العقاد ، ولا يجوز منهم أن ينقدوا العقاد ، لأن أدواتهم لا تزال ناقصة ، أو معدومة فيما يتصدون له . بينما الرافعى أستاذهم لغة وأسلوب متى فهما لم يبق شيء وراءهما غير مفهوم ؛ فهو سهل جداً لا يكلف مجهوداً ولا عناء .

واللغة والأسلوب وحدهما لم يكونا كافيين لدراسة أى شاعر عربى عظيم ، في وقت لم تكن الثقافة الإنسانية قد بلغت مبلغها الآن ، والذين يراعون اللغة والأدب المحض وحدهما لا يستطيعون دراسة المتنبى ولا المعرى ، بل لا يستطيعون دراسة ابن الرومى وأبى نواس ، لأن جداول من الفلسفة ومن الفلك والطب والتنجيم وسواها ، قد صبت فى ثقافاتهم ؛ فكان لابد من قسط يعادلها عند نقادهم مع الاستعداد النفسى الأصيل إذا شاءوا النقد على حقيقته

وأقرب مثل على فساد النقد الذى يتصدى له اللغويون والأسلوبيون ، ما أورده الأستاذ محمود محمد شاكر عن قزح وقوسه ، وناقشته فيه فى العدد الماضى . فهو يأخذ على العقاد نقده لبيت شوقى :

قصراً أرى أم فلكا وشجراً أم قزحا

وذلك لأن العقاد قد قال بعد هذا :

ألقى لهن بقوسه قزح وأدبر وانصرف

فلبسن من أسلابه شتى المطارف والطرف

وفساد هذا المأخذ أن الأستاذ لا يفرق بين صورة لغوية وصورة ذهنية خيالية . فلفظة « قزح » فى بيت شوقى ، لا تزيد على أنها « لفظة » لغوية ليس وراءها صورة ذهنية متخيلة مقصودة. فالمرجع فيها إلى القاموس ، والقول قول القاموس ؛ أما هى عند العقاد ، فتعنى « حالة » خاصة مطلوبة ، فيها قزح ملاك الألوان ، ممسكا قوسه ، وهؤلاء الحسان ينازعنه عليها ، فيغلبنه ، فيسلم

بالنبلة ، ويلقى قوسه وسلاحه وينصرف فلبسن منها شتى المطارف والطرف . فالمرجع هنا للذهن والذوق لا للقاموس

وقد عانى الرافعى ما عاناه شاكر ، وما تمانيه المدرسة الرافعية كلها فى تفسير العقاد ، لأن عدتها للنقد من استعداد طبيعى وثقافة مكسوبة ، شيء قليل

***

ولا حيلة فى فهم كثير من أدب العقاد بغير الاستعداد الطبيعى ، مع لون من ألوان الثقافة الإنسانية الحديثة . والأمثال على ذلك قد توضح ما سبق من إجمال . فها هى ذى قطعة من « وحى الأربعين » بعنوان : « سعادة فى قمقم »

هنـا قمقم سابح فى الدم ... أسائلُ عنه ولم أعـلم
جهلتُ خباياه حتى أنى ... عريف الطلاسم بالمعجم
ففيه كما قيـل مسجونة ... سعـادة بعض بنى آدم
تحن جنونا بنور الضحى ... وتذبل فى حبسها المظلم
وقد زعموا أن إطلاقها ... رهـين بهمة ذاك الفم :
بسر على شفتى فاتن ... يبـاح إلى شفتى مغرم
فهل أنت مطلقها منعما ... فديتك أم لست بالمنعم ؟
وما أنا بالمشتهى قبـلة ... ولا بالحريص على مغنم
ولـكنما أنا أبكي أسى ... لتلك الشهيدة فى القمقم !

فهل فهم الرافعيون شيئاً من هذه القطعة مع وضوح كل لفظة فيها وكل عبارة ؟ وكيف يستطيع فهمها من لم يدرس شيئاً عن نظرية فرويد فى « العقل الباطن » ويكون مع هذا على استعداد لأن يحس ، بأن النوازع والرغبات المكبوتة فى النفس والأشجان والبلابل والاضطرابات التى تعتريها فى إبان ضرام الحب ، تظل تعتلج فى النفس ، وتقلقها وتهزها هزا كمواد البركان المكتوم ، حتى ينفس عنها ، ويتاح لها التعبير ، فاذا هى سعادة وهدوء وراحة

هذا ما يقوله العقاد فى ثوب من الفن ، وجمال من التعبير ! عواطفه الثائرة ، وبلابله المضطرمة ، هي نفسها سعادة حبيسة إذا أتيح لها الكشف والتعبير ، وكيف يكون التعبير ؟ يكون بقبلة على « شفتي فاتن » تبيح السر إلى شفتى مغرم ، وعندئذ تنطلق « تلك الشهيدة فى القمقم التى يبكى لها أسى .

فهنا النظرية العلمية ، والحقيقة المدركة ، والفن العالى ، والدعابة القوية ، والنزل الشفاف ، تلتق كلها فى قطعة قصيرة ، يطلب بها قبلة !

وإليك مثالا آخر فى « عابر سبيل » تحت عنوان « ابنا النور — الزهر يخاطب الجوهر »

يا جوهر الحسن لا تضمنى ... لديك بالوضع المهان
فالزهر والجوهر المصفى ... صنوان فى النور توأمان
أشـــمة النور فى يدينا ... وديعة أو وديعتان
لكننا بيننا اختلفنا ... يا جوهر الحسن فى الصيان
تصونها أنت من بعيـد ... بالسيف والرمح والسنان
ولم تزل فى يدىّ كنزاً ... يصان بالعطف والحنان
ومعدن النور فىّ حى ... وفيك معنى الحياة فان
فيا زماناً بلا حيـــاة ... إنى حياة بلا زمان
كل له من أبيه حظ ... ونحن بالحظ راضيان

فن أين يدرك قارئ ما فى مثل هذه القطعة من جمال ، قبل أن يعرف المادة الخاصة لفهمها من دراسة « الضوء » وتوزيعه وأثره فى الأحياء وغير الأحياء ، ونصيب الزهرة منه ونصيب اللؤلؤة ، ثم يضيف إلى هذا عاطفته هو ، وإحساسه بمظاهر الحياة وعطفه على الزهرة الحية التى تحفظ كنز النور بالعطف والحنان ... الخ

***

وقد اخترت هاتين القطعتين ، تتطلبان دراسة علمية للنفس أو للضوء ، ووراءهما كثير مما يتطلب دراسات أخرى أعمق وأوسع وأرق فى مدارج المعرفة الانسانية ، فيحسن أن أنبه إلى أن هذه الدراسات ليست هى كل ما فى نتاج العقاد ، ولا هى خير ما فيه ، فان وراءها ذخيرة نفسية وطاقة روحية ، وإشراقاً ذهنياً ، وهذه المواهب هى التى تحيل تلك الثقافات فناً سائغاً ، ولكنه فن صعب المرتقى ؛ تبدأ درجاته بالثقافة وتنتهى بفسحة النفس ، ورحابة الحس ، وتوفز الشعور . وليس كل من درس تلك النظريات بقادر على فهم العقاد ما لم يكن ذا نفس وقلب وحياة !

وموعدى مع القراء كلمات أخرى ، لعلنى بها أوضح الفروق الأساسية بين المدرستين ، فينكشف سبب الخلاف الأصيل بينهما ، ومقدار أصالة كل منهما ، وحقه فى الحياة والاحترام .

(حلوان) سيد قطب

كلمة على الهامش

للأستاذ على الطنطاوى

أنا لا أحب أن أنزل إلى ميدان المناظرة بين الأستاذين الفحلين شاكر والعريان ، والأستاذ قطب ؛ لأنه لايقوم لأحدهما بَلْه أن بعينهما عليه معين ، على أن الحق لعمرى بعينهما . ومع الحق بيان يجلو الحق ، ولغة نخمة كأن فيها روحاً من روح الرافعي رحمه الله ، ولهذا البيان قراء يبلغون مائة الألف انعقدت قلوبهم على محبة الرافعي وإجلاله ، وآمن منهم من آمن بأن الرافعى رجل لم يكتب بالعربية من هو أبلغ منه بلاغة ... فما حاجة ضعيف مثلى أن ينزل إلى الميدان ؟

وفيم الخلاف ؟ فى (انسانية) الرافعى ! ...

الأستاذ قطب يشك فى (انسانية) الرافعى ... أى أنه يشك فى انه انسان ، فماذا يكون إذن ؟

ثم ماذا ؟ ثم انه (على رأى سيد قطب) تنقصه العقيدة ! والعقيدة مشتقة من العقد ، قال فى اللسان : عقد قلبه على الشيء لزمه ... واعتقد كذا بقلبه أى رآه ، فلابد إذن لتمام كلمة الأستاذ قطب من أن يبين الشيء الذى ينقص الرافعى رضى الله عنه اعتقاده ، وإلا فكلامه لامعنى له فى العربية .. فهل ينقص الرافعى العقيدة في الدين ، أو فى الوطنية ، أو ينقصه اعتقاد مذهبه فى الأدب . أو ماذا ؟

أو هى الفاظ تساق ولا يدرى لسائقها غاية إلا التهويل بها على القراء ؟

هذه مسألة لا يصح أن يكون عليها خلاف ، أو تدور عليها رحى مناظرة ...

أما جوهر الخلاف بين أدب الرافعى وشعر العقاد ، فهو الخلاف بين الأسلوب الذى يعتمد على البيان والصحة والصناعة والجمال ، وبين الأسلوب الذي يستند إلى المعنى المبتكر ، والصورة الجديدة ، لم يظهرهما لفظ قوى ، ولا أداء مستقيم . فالعقاد فى شعره مبتكر مجدد ، ولكنى أشبّه ألفاظه وهى تحمل معانيه ، بصبيان ضعاف مهازيل ، يحملون الصخور العظيمة فتسحقهم ويموتون تحت أثقالها ... كما أني أجد من الأساليب ما أشبه ألفاظه ومعانيه بعمالقة ضخام ، ولكنهم يحملون حفنة من الحصى

فالخلاف إذن على اللفظ والمعنى ، هذه المشكلة التى تكلم فيها الجاحظ ، ولم ينته القول فيها بعد . على ان فى إطلاق اللفظ والمعنى تجوزاً ، لأنه يستحيل أن يكون فى الوجود لفظ بلامعنى ، من يذكر كلمة السماء ولا يتصور هذه القبة الزرقاء ، أو يسمع اسم الكتاب ولا يذكر هذه الصحائف المجموعة ؟ كما يستحيل أن يكون معنى بلا لفظ ، لأن هذا المعنى يبقى خاطراً هاجساً فى نفس صاحبه لم يدخل نطاق الأدب . ولكن الكلام فى قطعتين أدبيتين ، إحداهما تزدان بالتعبير الجميل ، والأسلوب البارع ولكنها تصف شيئاً تافهاً ، أو تدور على معنى سخيف ، والثانية يتصور صاحبها ناحية من نواحى النفس البشرية ، أو ظاهرة من ظواهر الكون ، فتجيد التصور ولكنه يعجز عن التصوير ، فأى هاتين أسمى مقاماً وأدنى إلي الأدب الخالص ؟ هذه هى المسألة !

أما المتقدمون من نقدة الأدب العربى فأكثرهم على أن المعانى على قوارع الطرق ، وإنما يتفاضل الناس بالألفاظ . وليس معنى هذا احتقار المعنى وتهوين شأنه ، فإن للمعنى المقام الأول عند نقادنا . ونستطيع أن نقرأ الفصل القيم الذى عقده الامام الجرجانى فى الدلائل ، ولكن معناه أن الشعور بالجمال عام ، ولكن الناس يتفاضلون بالتعبير عنه ؛ إذا نظر جماعة من الناس إلى مغرب الشمس فى البحر ، أو بزوغ البدر من وراء الجبل ، أدركوا جميعاً جمال ما يرون (وإن كان كل يدرك على نسبة استعداده وهوى نفسه) ، وإن وقف جماعة فى موقف الوداع أحسوا جميعاً بالألم يغمر نفوسهم ، ولكن هذا الادراك وهذا الاحساس لا يسميان أدباً ، وإنما الأدب هو الصيغة اللفظية التى يعبر بها عن هذا الاحساس ؛ وعلى مقدار التوفيق فى هذه الصياغة تكون قيمة القطعة الأدبية

هذا هو الحق ، ولكن هذه الفئة من المجددين ، أرادت حين عجزت عن الأداء المستقيم والصياغة البارعة والديباجة الصافية أن تقلل من قيمتها وتحقرها ، وتسمى كل أديب يعرف للغته حقها وكل أديب آتاه الله ملكة قوية ، تسميه سطحياً فارغاً . ولقد

بلغ من فساد أذواق بعض هؤلاء المجددين أن قرأت مرة لواحد منهم فصلاً يقدم به لكتاب ، فوقع له فيه مجاز حلو أحسست لما قرأته بمثل ما أحس به حين تطلع علي من الطريق فتاة جميلة ، وعجبت له من أين جاء به ، ولكن عجبي قد بطل حين رأيته يعتذر منه ، ويريد أن يواريه كما يوارى المرء سوأته ، لأنه – زعم – يكون (بهلواناً) إذا جاء بمجاز حلو ، فليتصور القارئ أي شيء يكون الأدب إذا اطرّح المجاز واقتصر على الحقيقة ؟

هذا سر الخلاف في رأيي . والرافعيُّ رضى الله عنه ، بلغ في هذه الصناعة ، وفي توليد المعاني ، وفي نخل الألفاظ وتصفية الديباجة ما لم يبلغه كاتب عربي ، فلا عجب إذا أبغضه خصوم البيان العربي

* * *

والعجب من الأستاذ سيد قطب ! يأبى أن يناقش الأستاذ العريان لأنه لم يأت على أغراضه بدليل ... ثم ينقد أبياتاً للرافعي يقطر ماء السلاسة من أعطافها ، وتنطق كل كلمة فيها بألم صاحبها في حبه ، وعذابه في غرامه ، حين سمع أن للحب ليناً ووصالاً ، ولكنه لم ير إلا قساوته وجفاءه ، فهو يسأل المحبين كيف يكون هذا اللين ، وينظر حوله فإذا قد (قضى كل ذى دين فوفى غريمه) فيأسى ويألم لنفسه أن بقيت ديونه وحدها لم توف . ثم يمد يده ينظر هل من مسعد أو من معين ، ولكنه لا يريد مساعدة ولا عوناً ، هو هانئ بالحب لأن الحب أهناه حزينه ، قال :

من للمحب ؟ ومن يعينه ؟ والحب أهناه حزينه
أنا ما عرفت سوى قسا وته فقولوا كيف لينه
ان يقض دين ذوى الهوى فأنا الذى بقيت ديونه

فلا يجد نقداً لهذه الأبيات الثلاثة (وثالثها مأخوذ من بيت كثير المشهور ، لم يتنبه لذلك سيد قطب) إلا أنها تقليد لشعراء الدول المتتابعة والمماليك في مصر ...

هذا هو النقد الفني عند الأستاذ سيد قطب !

* * *

ويقول الرافعي رضى الله عنه :

قلبي هو الذهب الكريم فلا يفارقه رنينه
قلبي هو الألماس يع رف من أشعته ثمينه

فلا يفهم سيد قطب من هذا التشبيه البليغ إلا (أنه يذكر قلبه في سوق الجوهرات من الذهب والألماس معتقداً أن تلك المعادن أثمن من القلوب لأنها تقوّم بالمال الكثير في السوق) — مع أن الأستاذ قطب يدعى في رأس مقاله بأنه أفهم لأدب الرافعي من الأستاذ العريان، فهو إذن يتعمد أن يتظاهر بأنه لم يفهم هذين البيتين لغرض في نفسه ... ولا حيلة لنا معه في ذلك !

والأنكى من ذلك كله ... أن ينقص هذا البيت الذى يعدل والله قصيدة ، بل ديواناً من دواوين الغزل :

قلبي يحب وإنما أخلاقه فيه ودينه

إن انتقاد هذا البيت وتشبيهه وما بعده بالخطب المنبرية الجافة تحقير للحب ، وتنزيل له إلى حيث يخالف الدين والأخلاق حتماً ، ودعوى ضمنية بأن المحب لا يستطيع أن يحتفظ بخلق ولا دين !

* * *

على أن الرافعي رحمه الله عيوباً ومزايا . وليس إلا الله خالياً من العيوب ، والرافعي مِلْك للنقد ، ولكن للنقد شرائط ... أولها أن يلقى الناقد عنه هواه ، ويطرّح بغضاءه . فان البغضاء تدفع إلى الظلم ، والهوي يعمى ويصمّ !

دمشق علي الطنطاوي

ليلى المريضة في العراق

للدكتور زكي مبارك

— ٢٠ —

تأهبت ظمياء للكلام فاستوقفتها لحظتين لأنظر الأشرطة السينمائية التي يعرضها الشقاء أمام خيالي . فهالني أن أشهد ألوف المناظر وفيها المفرح والمحزن والأخضر والأسود ، وضجت في أذني تلك الكلمة الباغية التي قالها أحد الزملاء المصريين وقد ترامت الأخبار بما بيني وبين ليلى من خلاف ، قال ذلك الزميل وهو يلتهم حساء البقلة الحمقاء :

« كان رأيي من أول يوم أن الحكومة المصرية أخطأت في اختيار زكي مبارك لمداواة ليلى المريضة في العراق وهي تعلم أنه عجز عن مداواة ليلى المريضة في الزمالك »

أنا عجزت عن مداواة ليلى المريضة في الزمالك ؟

أنا ما عجزت ، وإنما رأيتها لئيمة لا تحفظ الجميل فضننْتُ عليها بالطب والدواء، وأخذت أدرس ماصرت إليه في هوى ليلى. فحب هذه المرأة هو أخطر ما عرفت في حياتي من ظلام وضلال

أحبك يا ليلى أحبك !

وإنما كان كذلك لأنه ابتدأ بالعطف ، عطف الصحيح على العليل ، والعطف يؤصّل جذور الحب ويهيّئ القلب للهيام العَصُوف

كانت ليلى تصح على يدى من يوم إلى يوم ، وكان حالي معها حال الجنّان الذي يتعهد إحدى الشجرات بالسقى والرعاية فتنمو عواطفه بنموها من حيث لا يعرف ، ثم تصبح الشجرة وهي معبودته من دون البستان

أحبك يا ليلى أحبك

ورأت ليلى شغفى فلم تفطن إليه ، ولعلها كانت تراه لوناً من ترفق الأطباء فمضت تناضلني نضال الصحيح للصحيح ، ولم تدر ما نقل المشرط إلى دمى ، وآه ثم آه مما ينقل المشرط ، فالناس لا يفهمون كيف يعيش العليل وجسمه موبوء بالجراثيم على حين تكون جرثومة واحدة ينقلها المشرط إلى جسم الطبيب وهو صحيح كافية لقتل الطبيب

الناس لا يفهمون هذه الظاهرة وهي عندهم من الغرائب ولكن تعليلها سهل . وهي أول درس تلقيته بكلية الطب في باريس

السبب يرجع إلى شعور الطبيب بخطر الجراثيم ، فهو حين يشعر بانتقال العدوى إليه ينفعل جسمه كله دفعة واحدة فيصرعه المرض

وهذا يشبه تمام الشبه ما يقع في عالم الأخلاق ، فالرجل صاحب الوجدان السليم تؤذيه الهفوة الصغيرة فيقضي سائر عمره في استغفار وقد يقتله تأنيب الضمير، ولا كذلك المريض بالجسم والوجدان ، فالأول يعاني العلل المهلكات ثم لا يموت قبل أوان الموت ، والثاني يُجرم نحو نفسه ونحو الانسانية ثم يعيش وهو مستور الحال ، لأنه يجهل خطر ما يصنع

ومن أجل هذه المعاني عشت شقياً في حياتي ، فأنا تلميذ قديم من تلاميذ الغزالي ، وكل شيء يجوز عندى إلا إيذاء الناس ، وقد يتفق في أحيان كثيرة أن أهجم على خصومي بعنف ، ولكنه عنف مصطنع ، لأني لا أحشو المسدس بغير البارود ، فيثور من حولهم الدخان ، ثم يسلمون لأن القذيفة لم يكن فيها رصاص

ويصنع خصومي غير ما أصنع ، لأني غبيّ وهم أذكياء !

هم يحشون المسدسات بالرصاص ثم يقذفون ، وكم يبقى الريشُ على النبال ؟ ! أولئك أعدائي ، والمداوة الأثيمة تستبيح كل قبيح

ولكن ما ذنبي عند ليلى حتى تفضحني بين قومي وتضيع مستقبلي في مداواة الملاح ؟

ما ذنبي عند ليلى التي هجرت في سبيلها وطني وأهلي ؟

ما ذنبي عند ليلى ؟ ما ذنبي عند عيونها السود وخدها الأسيل؟

ما ذنبي عند ثناياها العِـذاب وصوتها الرخيم ؟

أحبك ياليلى وأستعذب في هواك كل عذاب

— ظمياء ، ظمياء

— عيوني ، عيوني

— هاتي التهم الثقال التي تفضلتْ بها ليلاى . انقليها بترفق فما أحب أن أموت في بغداد ، فقبورها مهجورة منسيّة ، كأنها مقابر المحبين ، وليس فيها مسجد أستروح بأن يصلّى عليّ فيه يوم أموت ، فساجدها تعرف الجمال في القباب وتجهل الجمال في المحاريب

— أعرنى أذنيك يا دكتور

— أعرتك قلبي ، يا ظمياء

— أنت متهم عند ليلى بالشيوعية

— بالشيوعية ؟ وكيف سكتت عنى إذاً حكومة العراق ، وبصرها أحدّ من بصر ليلى ولها عيون تنقل إليها كل شيء ؟

— حكومة العراق تحارب الشيوعية الاقتصادية ، وأنت متهم بالشيوعية الوجدانية ، وليلى تعاقب على ذلك

— وأين شواهد هذا الاتهام الفظيع ؟

— ما ظلمتك ليلى ، وإنما ظلمت نفسك ، فأنت الذى تقول

أشباكَ ما خلفَ الستارِ وإنما خَلْفَ الستارِ لؤلؤٌ مكنونُ

والناس فى غفلاتهم لم يعلموا أنى بكل حسانهم مفتون

— ما قلت هذا الشعر يا ظمياء

— هو فى ديوانك المطبوع

— هذا شعر دسه السفهاء

— وكيف سمحت بنشره فى ديوانك ؟

— ما أذكر كيف سمحت ، فقد كنت عضواً في جمعية أبوللون ، وأرادت الجمعية أن تصحح انتسابى إلى الشعراء فلفقت باسمى طائفة من الأشعار وأخرجتها فى ديوان

— ولكن ليلى تقول إن فى نثرك ما يؤيد هذا المعنى

— وكيف ؟

— فى بعض ما نشرت في جريدة البلاغ مقال تقول فيه إن الأطلال تملأ روحك بالمعانى لأنها تعيد إلى خيالك تاريخها القديم يوم كانت ملاعب تمرح فيها الظباء

— هذا أيضاً مدسوس

— وكيف ؟

— كان لى بجريدة البلاغ زميل يعطف على أدبى ، هو الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى ، وكان يؤذيه أن تخلو مقالاتي من المعانى الوجدانية ، فكان يضع اسمى على بعض ما يبدع من صور الوجدان

— أنت تسيء الدفاع عن نفسك يا دكتور

— دليني كيف أدافع عن نفسى ، يا ظمياء ؟

— أما تعرف كيف تدافع عن نفسك ؟ أنا ألقنك الدفاع عن نفسك . قل إنك تعشق جميع الصور وتهيم بجميع المعانى

— هاتى يدك أقبلها ياظمياء

— أعجبك كلامى ؟

— ما هذا كلاماً ، إن هو إلا سحر مبين ، فأنا حقاً أعشق جميع الصور وأهيم بجميع المعانى ؛ وظواهر الوجود هي عندى صور شعرية تموج بألوان السحر والفتون . الدنيا يا ظمياء لوحة فنية صاغها بديع الأرض والسموات ، فما فيها من حسن فهو صنع فنان ، وما فيها من قبح فهو صُنْع فنّان ، فأنا أدرس المحاسن والمساوى بذوق واحد . وقد أتفلسف يا ظمياء فأزعم أن خَلْق الوجه الدميم أصعب من خلق الوجه الوسيم . وعلى أهل الدمامة أن يشكروا خالقهم فقد سوّاهم بعناية ، ثم تلطف فأباحهم التقلب فى بقاع الأرض ، وجعل لهم فى دولة القبح سلطاناً . فان لم يشكر هؤلاء القِباح خالقهم فسأشكره بالنيابة عنهم ، وسأتصدق عليهم بالعطف والحنان

— دكتور ، أنا أحبك !

— وأنا أبغضك يا ظمياء !

— أقول لليلى إنك أحسنت الدفاع عن اتهامك بالشيوعية فى الحب ؟

— ما تهمني ليلى ، وإنما يهمنى أن أحاسب خالق ليلى

— احترس يا دكتور ، فهذا كفران

— سأحاسب ربى قبل أن يحاسبنى ، فما قضيت شبابى فى دراسة الأدب والفلسفة إلا لأعرف كيف أناقشه الحساب ، وسوف تنظرين

— كفرت ، يا دكتور ، كفرت

— الكفر الحق هو أجمل صورة للايمان الحق

— وكيف ؟

— ما تعرفين كيف وأنت وصيفة ليلى وخدينة الدكتور مبارك ؟

— لست خدينتك

العفو ! العفو ! يا ظمياء

— تشتمني يا دكتور ؟

— إنما أداعبك يا ظمياء ، فاغفرى ذنبي

— يغفر الله لك

— ويغفر الحب ؟

— أسأل ليلاك

— غضبة الله ولعنة الحب على ليلاى !

***

— ظمياء !

— عيونى !

— تلك التهمة الأولى ، فأين التهمة الثانية ؟

— ليلى تتهمك بما اتهمتُ به الضابط عبد الحسيب

— وكيف اتهمت ذلك المسكين الذى سارت أخبار شقائه مسير الأمثال ؟

— اتهمته بخيانة العروبة

— وهي تتهمنى بخيانة العروبة وقد أذوَيت شبابى فى خدمة لغة القرآن ؟ ؟

— إن ليلى قرأت خطبتك فى نادى المثنَّى عن العروبة المصرية وقد نشرتها جريدة البلاد

— وما الذى عابته ليلى على تلك الخطبة ؟

— العيب فى ذلك أنكم فى مصر لا تفرقون بين العروبة وبين الإسلام

— هذا صحيح يا ظمياء

— وهذه جريمة عربية يا دكتور

— اسمعى يا ظمياء ، ثم بلغى ليلى ما أقول . العروبة يا طفلتى الغالية فى حاجة إلى أسناد قوية من الصداقة والعطف ، وأسناد العروبة لن تكون فى الممالك الأوربية ، وإنما ننشدها فى الممالك الاسلامية ؛ والسياسى الحكيم هو الذى يتعب في خلق الأصدقاء ، والأمبراطورية البريطانية لم تغنها جيوش البر والبحر والهواء عن التفكير فى خلق الأصدقاء . والاسلام قوة يتودد إليها هتلر وموسولينى ، وتشتق روما ولندن وباريس وبرلين فى التعرف إلى مدارج هواه ، وليس فى بلاد الله قوة سياسية إلا وهى تحسب ألف حساب لغضب المصحف فما ذنبى عند ليلى إذا أعلنتُ إسلامى ؟ ما ذنبي عند ليلى وأنا أخلق لقومى وقومها جيوشاً من العواطف والقلوب ؟

— ولكن الاسلام غير العروبة

— تلك ياظمياء دسيسة استعمارية ، هى دسيسة حيكتْ شباكها لتقويض الأمبراطورية العثمانية . وقد تقوضت لأن الأتراك عجزت حيلهم عن قرض خيوط تلك السياسة ، فهم اليوم أمة من الأمم ، وكانوا بفضل الاسلام سادة الشرقين

— إحترس يا دكتور فهذه سياسة ، والسياسة محرمة على الموظف

أعترف أنى موظف فى حكومة العراق ، ولكن لا خوف . فأنا أتهيب الشر فى كل أرض ، إلا فى العراق ؛ وأعتقد أن حكومة العراق لا تصادر حرية الرأى إلا إذا صدرت عن المنافقين ، وقد حمانى الله من النفاق . وقد عجب ناس من أن تسكت عنى حكومة العراق على كثرة ما قلبت من وجوه الآراء فى الصحف والمجلات . فليفهم الدساسون أن حكومة العراق فوق ما يظنون ، والله من وراء الدساسين محيط ، وسوف يعلمون

— إن العراق يثق بك ويعطف عليك يا دكتور

— وفى حماية تلك الثقة وذلك العطف أقول : إن أوروبا اللئيمة خلقت فكرة العروبة لتقسم أهل الشرق إلى عرب ومسلمين ، وقد أحسست هذا المعنى حين بدأت أتعلم اللغة الفارسية فى باريس سنة ١٩٢٧ فقد رأيت معجما فارسيا فرنسيا نشر منذ أكثر من أربعين سنة وفى مقدمته تحريض صريح على قطع الصلات بين العرب والفُـرس ؛ وأعتقد أن مقدمة ذلك المعجم هى السبب فى ثورة الأتراك والايرانيين على الحروف العربية

— أخطأ الأتراك وسيخطىء الايرانيون

— وماذا صنعنا لدفع هذا الخطأ ياظمياء ؟ لقد تجشمت مشيخة الأزهر ما تجشمتْ وأنفقت ما أنفقتْ ، لترسل بعثة من العلماء إلى الهند ، فهل فكرت هذه المشيخة في إرسال بعثة إلى تركيا أو إيران ؟ هل فكرت مشيخة الأزهر فى إرسال رجل أو رجلين لتذكير الفرس بماضيهم فى خدمة اللغة العربية ؟ هل فكرت فى إرسال وفد إلى الغازى مصطفى كمال يذكره بأن الحقد على العرب الذين خذلوا تركيا فى الحرب لا يصح أن ينسيه فضل العرب الأبرار الذين نقلوا إلى تركيا بذور الايمان بالله والرسول ؟

هل قام رجل مؤمن يقول للأتراك : هبوا سيئات الحاضر لحسنات الماضى ؟

هل قام رجل مؤمن يقول لأهل إيران : إن العرب إخوانكم فى الله فلا تجرحوا إحساسهم بهجر الحروف العربية ؟

لقد قمت بهذا الواجب وحدى فأقنعت وزيرين فى العراق ، وفكرتُ فى الهجرة إلى إيران لأصلح ذات البين بين العرب والفرس . ولكن كيف وأنا رجل يرهقه جدول الدروس وتنهب عافيته دفاتر التلاميذ ؟

لقد زار بغداد منذ أشهر صحفى إيرانى ودعانى الأستاذ ابراهيم حلمى للتسليم عليه ، فلم أستطع مخاطبته بغير الفرنسية ، مع أنه نشأ فى وطن كان بعض أهله لا يعرفون غير العربية ، ولذلك الصحفى جريدة تصدر بلغتين هما الفارسية والفرنسية ، ولو كنا حفظنا العهد لكانت اللغة الثانية عربية لا فرنسية

— يظهر أنك مؤمن يا دكتور

— أنا ملحد يا ظمياء ، فما يسرنى أبداً أن أحشر نفسي فى زمرة المسلمين الغافلين الذين يفكرون فى إصلاح الوثنية الهندية ويغفلون عن هداية الثائرين على الاسلام في بلاد كانت من الدرر اللوامع فى تاج الاسلام

— أنت مؤمن يا دكتور

— أنا كافر يا ظمياء

— أعوذ بالله !

— وأنا أعوذ بالشيطان !

— تعوذ بالشيطان ؟ يظهر أنك ملحد حقاً وصدقاً

— اسمعى يا ظمياء ، الشيطان مخلوق شريف لأنه لا ينافق ، فهو يعلن في كل وقت أنه من الضالين المضلين ، ولو كشف كل انسان عن سريرته كما كشف الشيطان عن سريرته لأصبحنا جميعاً من الملائكة لا من الشياطين

— أنت إذاً تعبد الشيطان ؟

— أنا أعبد الله وأحب الشيطان

— قف عند هذا الحد يا دكتور

— سمعت وأطعت

« للحديث شجون » زكى مبارك

التاريخ فى سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الأحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

يا شباب الوادى ! خذوا معانى العظمة فى نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم ... ...

— ١٤ —

وثمت حادثة أخرى لها دلالتها على عظمة الرجل ونبله وسمو نفسه ؛ ذلك أنه تقدم عن طيب خاطر ليدافع عن حفيد كارترايت ذلك الرجل الذى طعنه فى دينه قبل ذلك بعشرين عاماً وهو ينافسه فى الوصول إلى مقعد فى مجلس الولاية ؛ وكانت هذه التهمة أيضاً تهمة القتل ؛ ولشد ما تأثر كارترايت وهو اليوم شيخ كبير حينما شاهد حرارة دفاع خصمه لنكولن عن حفيده الذى ما لبث أن برئت ساحته ...

وأى شيء لعمرى أجل من هذا ؟ ألا إنه الخلق العظيم يبهج جماله النفوس ويملك طيبة الأفئدة، إن للناس فيه لقدوة أى قدوة، وإن لهم فى صاحبه لأسوة لن يتسنى لهم مثلها إلا فى الأفذاذ القليلين الذين ظهروا فى هذا الوجود برهاناً على أنه ثمة من صلة بين هذه الأرض وبين السماء !

وندير الحديث بعد إلى السياسة فنذكر أن المؤتمر الذى انعقد من الجمهوريين فى سبرنجفيلد عام ١٨٥٨ لترشيح عضو عن الولاية لمجلس الشيوخ قد اجتمعت كلمة رجاله على ترشيح لنكولن ، ولقد فعلوا ذلك فى غبطة وفى حماسة شديدتين

وهكذا اتفقت كلمة الجمهوريين على لنكولن يقدمونه لينافس دوجلاس رجل الديموقراطيين فى الانتخاب لمجلس الشيوخ ؛ فيلتقى بذلك الخصمان ويكون بينهما هذه المرة جلاد دونه كل ما سلف من جلاد ؛ وينتهى الصراع بينهما فاذا دوجلاس يرى نفسه وقد ابتعد عن الهدف بقدر ما اقترب منه ابن الأحراج، ثم إذا هو يفطن إلى طمنة سوف تحول بينه وبين غايته المرجوة فلا يظفر بها أبداً ...

وعرف لنكولن مبلغ ما ينطوي عليه الموقف من خطر ، وأدرك أنه ملاق منه رهقاً شديداً وعنتاً . ولكنه يحس في قرارة نفسه أن له في ذلك ما يشفي نفسه ، فهو يحمى على الصراع وهو لا تظهر مواهبه على أحسن ما تظهر إلا حين يتمشها ضجيج الموقف وتستثيرها حرارة الدفاع

وكذلك أشفق دوجلاس وأوجس في نفسه خيفة ، ولقد فطن وهو الخبير بأقدار الرجال ، البصير بأمور السياسة ، إلى دقة الموقف . وأدرك أن ابراهام اليوم غيره بالأمس ، فهو منه إذ ذاك حيال قوة لا تنفع معها حيلة ولا يجد في مكر أو دهاء ، قوة منشأها عقيدة صقلتها الأيام ووثقتها التجارب وأمدتها الفطرة بمثل ما تمد به التربة الصالحة الشجرة الطيبة من الغذاء الصالح ؛ فليس ثمت ما يحول بينها وبين امتداد الجذور وسموق الفرع . وكأنما كانت ماري يوم فضلت لنكولن على منافسه ورضيت به زوجاً ، تطلع على الغيب فترى هذا الصراع بين الرجلين ثم تصدر حكمها على هدي وبصيرة وعلى تجربة لا تدع مجالاً لوهم !

وهل كان انتخاب إبراهام لمجلس الشيوخ هو غاية ما يتمناه ؟ كلا فما أهون هذا الأمر إذا قيس إلى ما كانت تجيش به نفسه من آمال لم يكن يراها وقفاً على نفسه بل كان يراها لصالح غيره ؛ وهو لن يشعر لها بقيمة أو خطر إلا أن يتسع مداها حتى يشمل أمريكا كلها ؛ بل إنه ليرى رضاء نفسه في أن يشقى ليسعد بنو جنسه ...

لذلك لم يكن عجيباً أن يسير كما تملي عليه مبادئه وكما يوحي إليه قلبه ، لا كما يتطلبه الانتخاب من محاورات ومداورات وألاعيب وأكاذيب ومرونة وليونة وغير ذلك مما يتذرع به الكثيرون من أصحاب السياسة حين يجعلون غرضهم النجاح في المعركة فحسب . وما كان إبراهام يرى في الوصول إلى مقعد في الشيوخ إلا إحدى الوسائل لتحقيق غرضه الأسمى وذلك كما محصته الأيام هو حل معضلة العبيد مع المحافظة على كيان الاتحاد

وفيما كان رجال حزبه يقدمونه ، كان هو يعد خطاباً حاسماً يعبر به عما في نفسه ، ولقد ظل يثبت ما يجري في باله على قصاصات من الورق يدسها في قبعته ، حتى استوى له موضوعه فجمعه بعضه إلى بعض ولم يفض به إلى بعض خلصائه إلا قبل إلقائه ببضع ساعات ؛ ولقد أخذهم الدهش لما جاء فيه حتى أنه لم ير رأيه منهم سوى صديقه هرندون ؛ ولكن لنكولن كان إذا صمم على أمر لن يلويه عنه شيء فقال لهم « أي أصدقائي : إن هذا الشيء قد أجل مدة طويلة أرى فيها الكفاية ؛ ولقد حان الوقت الذي ينبغي فيه أن أنطق بهاتيكم العواطف ، فاذا قدر لي أن يكون مصيري السقوط بسبب هذا الخطاب فلأسقطن مربوطاً إلى الصدق ؛ دعوني ألقى حتفي في الدفاع عما أرى أنه العدل والحق ... »

ولما انعقد ذلك المؤتمر الجمهوري الذي كان ينتخب عضو الشيوخ قام فيهم لنكولن يلقي خطابه فقال : « حضرة الرئيس ، حضرات السادة رجال المؤتمر : إذا استطعنا بادئ ذي بدء أن نعلم أين نحن وإلى أي وجهة ، أمكننا أن نعرف ماذا نصنع وكيف نصنعه . إننا الآن بعد خمسة أعوام منذ تلك السياسة التي اتبعت مع وجود ذلك الوعد الوثيق الذي قصد به أن يوضع حد لذلك القلق الذي تبعثه مسألة العبيد ، ولكن هذا القلق طالما أخذت تلك السياسة تفعل فعلها لم يقتصر أمره على أنه لم يوقف فحسب ، بل لقد ظل يتزايد أبداً ؛ وفي رأيي أنه لن ينتهي حتى يفضي بنا إلى أزمة نجتازها . إن البيت الذي ينقسم بعضه على بعض لن يقوم ؛ إني أعتقد أن هذه الحكومة لا يمكنها أن تدوم ونصفها عبيد والنصف الآخر أحرار ، وأنا لا أبغي أن تنفصم عرى الاتحاد كما لا أبغي أن ينهار البيت ، ولكني أبغي ألا يستمر في انقسامه ؛ ولسوف يكون كله إلى هذا الجانب أو إلى ذاك ؛ فإما أن يحول خصوم العبودية دون أي انتشار لها في المستقبل ويضعوها حيث يرتاح الرأي العام إلى أنها وضعت في الوضع الذي يفضي بها إلى الفناء النهائي ، وإما أن يدفعها أنصارها إلى الأمام بحيث تصير قانونية في كل الولايات القديم منها والجديد والشمالي والجنوبي »

ذلك هو الخطاب الذي أفضى به لنكولن إلى رجال المؤتمر في صراحة وجلاء ؛ ولقد أشفق أنصاره من لهجته الحاسمة ثم من تلك العبارة التي اقتبسها من الانجيل وخافوا أن يحملها خصومه على غير محملها فيظنون وهو يريد بالبيت المنقسم على نفسه الولايات الأمريكية أنه يشير إلى قطع العقدة لا حلها وأن سبيله إلى ذلك الحرب ...

وكان دوجلاس قد نزل بشيكاغو يدعو إلى انتخابه للشيوخ ، فوجد في خطاب خصمه ومنافسه ، لنكولن ، فرصة ينتهزها فاتهمه أنه من دعاة التحرير بالقوة وأخذ يحذر الناس من انتخابه

واغتاظ لنكولن لتلك التهمة النكراء، ولكنه لم يستكثرها على دوجلاس، وإنه لواثق أن الأيام ستقذف بحقه على باطل خصمه فيدمغه فاذا هو زاهق

وما كان إبراهام ممن يقرون الثورة مهما بلغ من مقته لنظام العبيد، ولسوف يبقى دستوره هو حل تلك المسألة بما يتفق مع الصالح العام على أن يكون ذلك في كنف الاتحاد وتحت رايته التي لا يرضى إلا أن تظل خافقة عالية تجمع على محبتها وإكبارها أبناء الوطن كله

وعول دوجلاس أن يخوض المعركة على أساس خصومته لبيوكانون في مسألة دستور كنساس، لا على أساس مخاصمته لنكولن أو مخالفته فيما جاء في خطابه الجديد من آراء كأنه يستعظم أن يكون ذلك الرجل الذي ما زال شأنه منحصراً في ولايته نداً له؛ وإن كان دوجلاس ليحس بينه وبين نفسه مبلغ ما تنطوي عليه نفس الرجل من عظمة ومبلغ ما يحمله قلبه من إيمان

ولقد شاع خطابه في الناس وتناقلته الصحف في طول البلاد وعرضها، فكان ذلك أبلغ رد على ترفع دوجلاس وذهابه بنفسه؛ وأحس إبراهام مبلغ ما أحدثه ذلك الخطاب من أثر في البلاد، تبين ذلك في قوله: «إذا كان لي أن أمر بالقلم على صفحات تاريخي، وأمحو حياتي كلها عن الأنظار؛ وقد ترك لي أن أختار شيئاً أستثنيه من هذا المحو فاني أختار هذا الخطاب فأدعه للعالم لم تذهب معالمه

وليس في قوله هذا شيء من المغالاة، فان خطابه كان أكبر حافز لأولى الرأي أن يقفوا من مسألة العبيد موقف الذي يريد أن يصل إلى غاية، فلا تهاون ولا تلكؤ بعد اليوم، وإلا تفاقم الخطب واستعصي الحل، ودخلت البلاد في طور من الفوضى الجامحة فيأتي على الأخضر واليابس؛ كما أن هذا الخطاب كان أهم حادث في تاريخ حياته فبعده صار للسياسة كل همه، وبه قدر له أن يصير في السياسة من رجال أمريكا كلها لا من رجال الينواس فحسب ...

ولقد خطب لنكولن بعدها في شيكاغو يرد على ما اتهمه به دوجلاس؛ فأعلن أن الوثيقة الكبرى التي يجب أن يتقيد بها الأمريكيون ويسيروا على نهجها هي وثيقة إعلان الاستقلال وأنه يجب أن ينظر إلى مسألة العبيد نظرة إنسانية، وأن يراعى اتفاق مسوري فيما يشجر بين الفريقين من خلاف

وتكلم دوجلاس بعد ذلك في بلومنجتن ثم في سبرنجفيلد، ورد لنكولن عليه في المرتين، حتى بدا له فخطا خطوة لم يسبقه إلى مثلها رجل من قبله في التاريخ السياسي للبلاد، وذلك أنه أرسل إلى دوجلاس رسولاً يعلن إليه أنه يتحداه أن يلتقي رأياه في مبارزة خطابية يستمع فيها الناس إليهما ويحكموا بينهما حسبما يرون من كلامهما ...

ولقد ضاق دوجلاس بهذا التحدي وهو الذي يعرف أصالة صاحبه وشدة إيمانه ذلك الإيمان الذي رسخ حتى ما يُحتال عليه بحيلة أو تزعزعه مطاولة أو يفل منه جاه أو إغراء، والذي جعل كل وسيلة من وسائل المغالبة بحيث تكون منه كالموج من الصخر لا يلطمه إلا لينحسر عنه ولم يبق فيه من قوة الموج بشيء وأبى على دوجلاس كبرياؤه وغلواؤه أن يتخاذل فيتخلف عن هذا النزال فقبله على كره منه قال: «سوف تصبح يداى مليئة؛ إنه رجل حزبه ذو البأس؛ ملؤه الذكاء والحقائق والتواريخ ... وهو أمين بقدر ما هو أريب حذر، وإذا قدر لي أن أظهر عليه فسوف يكون انتصاري بشق النفس» وقال في موضع آخر «إني لا أحس — بيني وبينك — إني أرغب في الذهاب إلى هذا الجدال؛ إن البلاد كلها تعرفني ولقد سبق أن قدرتني وعرفت قدري؛ وأن لنكولن بالنسبة لي ليعد غير معروف، فاذا أتيح له أن ينتصر عليّ في هذا الجدل — وإني لأود أن أذكر أنه أقدر رجل في الحزب الجمهوري — فانه يكسب كل شيء بينما أخسر أنا كل شيء؛ أما إذا قدر لي الفوز فاني لن أغنم إلا قليلا؛ إني لا أحب أن أذهب في تلك المجادلة معه ... »

ولكنه على الرغم من ذلك لم يستطع إلا أن يجيبه إلى ما طلب؛ وحددت سبع مدن يلتقي فيها الرجلان فيتناظران والناس من حولهما يشهدون ما يكون بينهما. وفرح لنكولن وقد أتيحت له أعظم فرصة ليعبر عما في نفسه؛ وأي فرصة هي؟ ألم يك دوجلاس في الناس أكثرهم استفزازاً له وأدعاهم أن يبرز له ما استكن من مواهبه؟ ثم أليست هذه المجادلة كفيلة أن تجمع إلى أنصاره ومحبيه أنصار دوجلاس ومحبيه فيكون الكلام في حشد قلما يتسنى أن يلتقي على هذه الصورة؟ فاذا قدر له أن يكسب هذه القلوب أو أن يصل إلى إقناع هذه العقول فأي فوز هو وأي فخر؟

«يتبع» الخفيف

الأنبـــاط

وأطلال بترا الخالدة

للأستاذ خليل جمعة الطوال

— ٢ —

ديانة الأنباط

لقد كان للأنباط ديانة مستقلة ، لها آلهتها العديدون ، وطقوسها الخاصة . وتدل النقوش والكتابات النبطية المكتشفة على الهياكل والآثار العديدة فى بترا على أن الأنباط كانوا يعبدون الحية وبعض الأجرام السماوية . ففى طريق النبى هارون (الواقع بجوار بترا) لايزال أثر الحية قائماً حتى اليوم بشكلها المخيف ورأسها المتفرع ، وفى كثير من المعابد والمقابر ، كأم الصناديق والصياغ وقبر الحديقة — وهى من آثار بترا الرائعة — رسوم عدة للثعابين والنجوم وما إليها . وقد وجد على بعض المعابد النبطية ، فى حوران ، تماثيل وأسماء لآلهة كثيرة ، كاموس ، وأنى ، وبعلمين ، وفقرة وثينداريتيس اليونانى ، وآليت . أما أشهر هذه الآلهة فهو الإله (ديشوره [1]) إله الشمس ، وواهب السرور والخصب ؛ وهو عبارة عن حجر صخرى أسود طوله أربعة أقدام ومقعده قدمان ، ولا يزال موجوداً حتى الآن فى مزار النبى هارون ؛ والبدو هناك يحيطونه بكثير من التقديس والاكرام ، ويعتقدون فيه القوة على شفاء بعض الأسقام . ويقدر المستر جون وايتنج ثمن البخور الذى كان يحرق فى بترا فى المراسيم الدينية بعشرة آلاف جنيه فلسطينى ، وهى قيمة وإن كان فى تصديقها مجال كبير للافتراض والشك ، إلا أنها تدل على مقدار تغلغل الروح الدينية بين الأنباط . وذكر المستر . آدم سمث فى مؤلفه الجغرافية التاريخية للأرض المقدسة ص٦٢٨ : أنه قد بلغ من قيمة هذا الإله (ديشوره) أن أقيم له نصبان أحدهما فى روما والآخر فى بوتيولى

(١) راجع Robinson; Sarcophagus of ow etncient Civilization: P.P. 81. 104 & 232.

سيادة بترا التجارية

تقع بترا بحكم موقعها الجغرافى فى نقطة تجارية عظيمة ، وقد كانت حتى منتصف القرن الأول للميلاد نقطة التوريد والتصدير لمختلف البضائع الشرقية ، ومركزاً لتبادل المتاجر المختلفة التى كانت تمر بها سائرة بين الجزء الجنوبى لجزيرة العرب ، والهند ، ومصر ، وتدمر ، وفلسطين . ولما قدم إليها الأنباط وسكنوها سعوا إلى تحسينها وترقيتها ، فبنوا فيها القلاع والأبراج والمعابد والأسواق ، والمدارج الرائعة ، التى لا تزال قائمة حتى اليوم دليلاً على غابر مجدها ، وسالف عزها ؛ وقد ساعدهم على ذلك ميلهم الفطري لنقل المتاجر على قوافلهم ، وقلة المنافسين لهم ، وتفرع طرق تجارية عظيمه بين عاصمتهم وبين سائر الأقطار الأخرى ، فقد ذكر (موزل) فى كتابه الصحراء العربية ص ٥١٥ : أنه كان يوجد طريق معبّد بين تدمر وبطرا ، وأخرى بين بطرا وغزة إلا أن اشتطاط الأنباط فى الأجور الغالية التى كانوا يتقاضونها على النقل ، وكثرة المصارفات التى كانوا يرهقون بها المتاجر التى ينقلونها ، قد حدت بالناس إلى التفتيش عن طريق آخر لحمل البضائع الهندية ، فقامت بذلك تدمر وازدهرت حيناً من الزمن حتى عام ٢٧٣م . على حين تقهقرت حالة بترا التجارية الاقتصادية تقهقراً عظيماً . وفى عام ٤٥ م اهتدى هبالوس إلى طريقة الاستفادة من فعل الرياح الموسمية فى تسيير السفن ، فقل بذلك شأن الطرق البرية عامة ، وطريق بترا خاصة ، وقد كان ذلك نهاية لعصر بترا الذهبى

أسماء بترا التاريخية

يغلب على الظن أن أول من دعا بترا بهذا الاسم هم الرومان ؛ وذلك لأنها منحوتة فى الصخر الأصم ، ومعناه باللغة العربية « المدينة الحجرية » . وذكرتها التوراة فى سفر الملوك الاصحاح الرابع عشر ، والعدد السابع باسم (سالع) وفى اللغة العبرية باسم (سلاع) كما ذكرت أيضاً أن أمصيّا ملك يهوذا قد هجم على الآدوميين فى وادى الملح وذبح منهم عشرة آلاف رجل وأنه زحف على سالع (بترا) واحتلها ودعاها « يوقتئيل » . وذكر المؤرخ جورجى زيدان فى كتابه « تاريخ العرب قبل الاسلام »

نقلاً عن المقدسي والمقريزي : أن من أسمائها المشهورة عند العرب « الرقيم » . وقد جاء ذكرها أيضاً في القرآن الشريف في سورة الكهف . وذكر المستر باري في كتابه « التاريخ الروماني المدرسي » ص ٤٩٧ : أن الامبراطور هادريان قد زار بترا عام ١٢٩ م ، وأنها دعيت بهذا الاسم تخليداً لذكراه ، كما ذكر أيضاً أنه أمر بسك نقود جديدة باسم بترا الجديد ، وقد نقش عليها (هادريان متروبولس)

موقعها وأطلالها :

تقع بترا في الشمال الغربي من معان ، وعلى بعد ٢٦٠ كم من عمان عاصمة الامارة الأردنية ، وهي طريق صالحة لسير السيارات في حين الجفاف وانقطاع الأمطار الغزيرة حتى قرية وادي موسى التي تبعد عن بترا مسافة كيلو مترين ونصف كيلو متر ؛ وهي قرية صغيرة يعتني أهلها بتربية الدواجن ولا سيما الخيل والبغال والحمير ، التي يستفيدون منها في موسم السياح ، وفيها نبع ماء غزير يستقي منه أهلها ويستفيدون منه في زراعة بعض الخضر والحبوب . ويعتقد البدو الضاربون هناك أن النبي موسى قد مر بهذه القرية ابان خروجه من مصر يقود اثنى عشر سبطاً من أسباط بني اسرائيل ؛ وإذ كان العطش قد اشتد بهم فقد أمر بنحر ما معهم من الابل والنوق ، وبقرى أكراشها وشرب ما في داخلها من الماء ، ولكن ذلك (١) لم ينقع غلتهم ، فكثر تذمرهم عليه ، وعلا لغطهم ، فركع وصلى لله (٢) ، ثم انتصب وضرب بعصاه صخراً أصم كان إلى جانبه فتفجر منه ماء عذب زلال ، ودعى ذلك المكان بعين موسى . والبدو عامة يقدسون هذه العين ، ويعتقدون ان روح النبي موسى تقطن بجوارها وتحوم حولها دائماً وأبداً ، ولذلك أقاموا عليها قبواً صغيراً يلجأون اليه كلما انتابتهم آفة ، أو حز بهم مكروه ، لاعتقادهم أن روح النبي القاطنة حوله تشفيهم من أسقامهم ، وتسهل عليهم مشكلاتهم ومعضلاتهم . وكثيراً ما يحرقون داخل هذا القبو مقادير عظيمة من البخور ، وعرق الند الزكي الأرج ، ويضيئونه بمصابيح فخارية ، وزيت الزيتون الطيب النقي ، وذلك إجلالاً لروح النبي كليم الله . وقد حدثني بعضهم أنه في كل عام ينحر في هذا المكان ذبيحة أو أكثر ، ضحية عن موتاه ، وتقرباً إلى النبي في يوم تقوم فيه القيامة وينتصب الميزان . وتبعد هذه العين عن القرية مسافة ميل ونصف تقريباً .

وتحيط بوادي موسى الحقول النضرة ، والحدائق الجميلة ، من جميع جهاتها . ومما يزيد في جمالها الأخاذ انبساط أطلال بترا أمامها ، تلك الاطلال الجميلة التي كأنما فرغ من زخرفتها الدهان بالامس . وأي منظر أبدع وأجمل ، وأكثر روتقاً وبهاء من أن يستقبل الانسان منظر هذه الطلول المبثوثة المنضدة أمام وادي موسى في اتساق غريب وبديع تحار فيه العقول ! هناك تقع الغزالة بأشعتها الذهبية أول ما تقع على أجمل وأبدع هيكل طبيعي ، ظل قائماً ومحافظاً على استوائه طيلة هذه الأحقاب التي لم تستطع قط أن تنال منه شيئاً . قمم مشمخرة في الفضاء تنعكس عليها أشعة الشمس صباح مساء ، فترتد في شكل قوس قزح بل وأبدع منه ، ومن فوقها قبة السماء الصافية الزرقة ، وقد انبسطت تحتها حلة سندسية جميلة من الأعشاب الخضراء تنساب خلالها شعبة من الماء الضحل ، فتظهر فوقها كالحسام الصقيل فوق بساط بديع الوشي والحياكة تحوم فوقه أسراب الطيور البديعة الألوان ، المختلفة الحجوم ، الساحرة التغريد . إن منظر بترا من وادي موسى لمن المرئيات الجميلة التي تتوثب لها أحاسيس الحيوان الاعجم الهامد الشعور ، فكيف بفعلها في الانسان ذي الخيال المتوثب ، والاحساس المتيقظ ، والشعور المرهف ؟ وإن زورة هذه الأطلال الخالدة لأسنى ذخيرة يقدمها الشاعر إلى خياله ، والأديب إلى أدبه ، والرسام إلى فنه ، والعالم إلى سجله ومذكراته

يخرج السائح من وادي موسى ممتطيا فرساً يقودها دليل بدوي ماهر في حفظ الأسماء والمسميات ، ذكي يفهم من الاشارة الموجزة ؛ فيشاهد بعد مسير نصف ساعة قبوراً (بيلون المظيمة) وهي في طليعة الآثار ، وتتركب من حجر عديدة تزينها الأعمدة الجميلة المحفورة في الصخر الرملي الجميل ، والمسلات (المصرية الهندسة) الضخمة المدهشة ، تقوم بينها طائفة من التماثيل الفنية التي ما تزال

---

(١) لا نعتقد بصحة ذلك لأن موسى خرج من مصر بأسباطه فقط وبدون ابل ، ولأن الطريق التي سلكها ما تزال موضع الحدس والتخمين

(٢) راجع : Petra : by F. Atrash.

على روعتها وجمالها كأنما هي من عمل اليوم ؛ لم تشهد من الزمان احداثاً ، ولا من الأيام عبثاً ودولاً . ومما هو جدير بالذكر والمشاهدة عند زيارة هذه القبور مشاهدة صورة الحية الجميلة الرائعة التي تبلغ ثلاثة عشر متراً طولاً ، والتي يتفرع من عنقها سبعة رؤوس فاغرة الأشداق حتى لكأنما قد رتبت لأزدراد فريسة سائغة . وصورة أخرى تمثل جواداً ، وقد شدّ عليه سرجه وقرط لجامه ، وامتطى صهوته فارسٌ لم تبق الأيام من هيكله الرملي سوى بعض أطراف رأسه المهشم وأصابع قدمه المبتورة



شكل (١) باب السيق وفى آخره المعبد

السيق

ويبعد عن قبور بيلون مسافة ١٥٠ متراً تقريباً ، وهو نفق يخترق جبلين رمليين عظيمين ، كثير المنعطفات والتعاريج ، يبلغ أقصى اتساعه أحد عشر متراً ، وقد يضيق فى بعض الأماكن حتى لا يكاد يتجاوز الأربعة أمتار ، وبالرغم من وعورة هذا النفق فان خيول وادى موسى لاعتيادها عليه تسير فيه بكل سهولة . يبلغ طوله ميلاً وبعض الميل ؛ والراجح أنه كان مرصوفاً بالبلاط الرملي الجميل الذى لا يزال مطموراً تحت كثبان الرمال ورواسب المياه المتدفقة ، التي كانت تخترقه مارة من وادى موسى ، حتى تصب فى وادى العربة . وحوالى عام ٥٠ ق . م . عندما بنى الرومانيون معبد إزيس فى نهاية السيق (أنظر شكل ١) حولوا عنه مجرى الماء إلى أقنية فخارية رملية تمتد على جانبي السيق ، على طول كل من الجبلين العظيمين القائم بينهما ، وتوصل هاتان القناتان جبل خيتة بجبل الرملة ، وتوجد على امتداد كل منهما آثار جدران ضخمة متداعية ، كانت تقوم مقام السدود عند اشتداد تدفق الماء ، وعند حدوث الفيضان . ويبلغ علو كل من هذين الجبلين اللذين يخترقهما السيق نحو مائة متر تقريباً ، وينبت فى وسطهما فى بعض الجهات شجيرات صغيرة من الدفلى والتين البرى العاقر ، ومما لا شك فيه أنهما كانا مزينين بطائفة من التماثيل البديعة التي تدل عليها مواضعها المحفورة ، والتي عبثت بها الأيام فيما عبثت من آثار بترا الرائعة . وقد كان مدخل السيق سابقاً مزيناً بالأقواس الرملية الجميلة التي تشبه شكل قوس قزح ، وبالمحاريب الشاهقة الجميلة التي لا تزال آثارها الرائعة تنطق بسالف عظمتها وغابر مجدها بدليل ما اكتشف عليها من النقوش النبطية الكثيرة ...

(يتبع) خليل جمعة الطوال



فرنتس شوبرت

للأستاذ محمد كامل حجاج

بقية ما نشر في العدد الماضي

وقد أثر فيه موت بيتهوفن تأثيراً عميقاً ، وما فتئ يظهر عليه البشر والحنان ، ومن هذا الوقت ظهرت قطعة المرتجلة Impromptus والأوقات الموسيقية Moments musicaux . ولكنه كانت تزيد حالته سوءاً وبؤساً من يوم لآخر ، فكان يشرب لينسى همومه ؛ ثم كتب الأربعة عشر لحناً التي يقال انهم وجدوها في أوراق بيتهوفن ، وقد جمعت باسم « غناء البجع » أي الغناء الأخير، إذ يقولون ان هذا الطير يغني قبل موته . وفي ٢٦ مارس سنة ١٨٢٨ أقام حفلة موسيقية من مؤلفاته لأول مرة ، فكان الإقبال عظيما جداً والدخل وافراً . ولكن صحته كانت تتدهور من وقت لآخر حتى لزم الفراش في ١١ نوفبر ثم فاضت روحه المتألمة في التاسع عشر منه سنة ١٨٢٨ وأصدقاؤه يحفون به، ودفن بجانب بيتهوفن . وفي سنة ١٨٨٨ نقل الاثنان إلى المقبرة المركزية بفينا بجانب موزار وجلوك

وكانت هيئة شوبرت كألماني شريف ثقيل الحركة قليلاً، وكان ساذجاً مثل هيدن يلهو بأتفه الأشياء . له ولع شديد باجتماعات الأصدقاء التي تدار فيها كؤوس الجعة بكميات وافرة . يضع على عينيه نظارة. شعره جعد، كبير الوجه، غليظ الشفتين، ربعة ، كبير البطن. وكان متأجج الشاعرية نابغاً مبدعاً نقي القلب ملك الأغاني كما عبرت عنه مدام De Staël . ويظهر ان الحب لم يعبث بفؤاده إلا قليلا جداً . ومن صفاته المميزة انه كان ذا طبيعة سليمة كريمة مرهفة الحس لا تكتم في باطنها شيئاً . وقد قالت أخته كالآتي : « كان طيب القلب جداً يأنف من الحسد، وكان لا يكتم سروره وطربه عند سماع الموسيقى الراقية ، ويمسك بيديه رأسه ليتفرغ للاصغاء . وكان اعجابه بموزار وبيتهوفن لا حد له . وقد جرى ذكر بيتهوفن على لسانه وهو يلفظ النفس الأخير ، وهذا ما أولوه من أنه أراد أن يدفن بجانبه

كان شوبرت شاعر النفس، وقد قال عنه ليزت : «انه أكبر شعراء الموسيقى على الاطلاق » وكان اشهى مجتمع له هذا النادى الأخوى الصغير المؤثث بأفقر الأثاث ؛ وكان يرتجل فيه ألحانه الخالدة. وكانوا يسمون هذه الجلسات الرائعة «شوبرتياد» وكان النبوغ فيها ينير الشباب والصداقة . وقد قال ماير هوفر « إنني لا أنسى أبداً الساعات الهنيئة التي قضيناها في هذا المسكن الحقير ولم يكن عندنا غير بيانو ردىء ومكتبة فقيرة وأثاث حقير ونور ضئيل ؛ وفضلا عن ذلك فاني قضيت هناك أسعد أوقات حياتي »: وجاء في خطاب لصديقه الحميم شوبر Schober أرسله اليه في ٢ نوفبر سنة ١٨٣١ : « وددت لو كنت معنا لتنظر كيف تولد هذه الألحان الشجية وهي تموج بالفكر . وغرفتنا في Saint Pollen كانت محبوبة جداً ، وبها سريران وصفة ومدفأ حار وبيانو؛ وكنا نأتي بالجعة ليلا وندخن ونتسامر فيا سر في النهار ونطالع ؛ وحينما يحضر صوفي ونيفل نشرع في الغناء

كانت هذه الاجتماعات الفقيرة البريئة التي تجمع أصدقاء شوبرت وهم يمرحون ويتسامرون ويغنون مؤلفاته التي كان يرتجلها تعد من أسعد أوقاته وأعظم عزاء لبؤسه وشقائه وسط قومه الذين لا يفهمون موسيقاه الساحرة ولا يقدرونها

إننا نستطيع أن نميز في مؤلفات شوبرت عدة مجموعات غنية قيمة غير متساوية في القوة

أولا : موسيقى البيانو — ثانيا : التريو والكواتوور والكنتيت . ثالثا : السانفوني — رابعا : المؤلفات المسرحية . خامسا : أغاني الليدر . سادسا : الموسيقى الدينية .

إن موسيقاه للبيانو لجديرة بأن توضع في صف واحد مع شومان وشوبان وستيفن هيلير وهي تشمل السوناتات والفانتيزي و Impromptus أي المرتجله . وقد كتب عشر سوناتات أشهرها

الست الأخيرة . ولا نزعم أنه جدد فى الشكل شيئاً ولكنه بث فيها صفاته العادية من الحنان واسترساله فى التأملات والخيالات الرقيقة العاطفية؛ وأهم ما كتب فى السوناتات الخامسة . وهى من مقام لامينور. وأما القطع المسماة Impromptus فهى تستحق ما نالته من الشهرة والذيوع ، وفيها من المهارة الفنية السهلة مالا يوجد عند من سبقوه من كتاب قطع البيانو . ولكن بعض مواضيع منها يؤخذ عليها أنها عادية ، وهذا يرجع إلى سرعة الكتابة والتلحين ؛ ولكن بعض هذه الهنات لا تحجب فتنتها الساحرة . إن نظرنا إليها وجدناها كالماء الصافى العميق نشاهد فى قراره كل الخصال الشريفة المحبوبة التى تختلج فى روح شوبرت وهذا النوع يتفاوت فى الأهمية والقيمة

أما موسيقاه الخاصة بالآلات الوتريه فانه أظهر فى بعضها نبوغا مدهشا،ولو طال أجله لارتفع إلى ذروة الفن كبيتهوفن.وقد ابتدأ بكتب الكواتوور وهو فى الرابعة عشرة وله منها عشرون؛ وكتب كثيرا من التريو والكنتيت يعد بعضها من خير ما جادت به القرائح الجبارة ، ولاسيما ما كتبه منها سنة ١٨٢٤ وسنة ١٨٢٦ وهما الكواتوور en La mineur والذى من مقام مى مينور

ولقد ترك لنا شوبرت ثمانية سانفونيات الأولى كتبها وهو فى السادسة عشرة وأهمها اثنتان التى من مقام ut اى دو سنة ١٨٢٨ أو السنة التى مات فيها وقد هجرت فى أول الأمر لصعوبة توقيعها ثم عثر عليها شومان فى أوراق فردينان شوبرت وكان من المعجبين به . وقد أغدق عليها شومان من أنواع التقريظ ما شاءت له حماسته وقال انها تكاد توضع فى صف سانفونى بيتهوفن

الموسيقى المسرحية

كتب شوبرت ثمانية عشر مؤلفا للمسرح منها اثنان مفقودان ، وواحد لم يتم ، وأربعة منها أوبيريت ، واثنان موسيقى للمسرح وفيها كورس وفاتحات وانترا كت وميلودرام ورقص ويبقى بعد ذلك خمس أوبيرات بالمعنى الصحيح ، أهمها Alfonso et Estrella سنة ١٨٢٢ وفيرا براس سنة ١٨٢٣ وكل منهما ذات ثلاثة فصول . يتساءل الناس لِمَ لَمْ ينجح شىء من مؤلفات شوبرت المسرحية ؟ لأنه لم يوهب الذوق المسرحى ، وقد دهش منه ليزت إذ قال : « إن الذوق الأدبى الذى برهن عليه منذ صغره فى اختياره لمتون الليدر قد فارقه وخانه فى متون الأوبيرات إذ كان يظهر له الغث والسخيف قبيحاً حسناً ، وكان يكتب له متون أوبيراته أصدقاؤه الذين لم يضربوا بسهم وافر فى البيان ولهذه الاعتبارات لم تمش موسيقاه المسرحية

لقد نبغ شوبرت فى موسيقى الغناء حتى صاغها بمعنى عميق من التعبير الصوتى؛ وقد كتب نحو خمسين نشيداً (كور) لأصوات الرجال وعشرين لأصوات مختلفة ، ولكنه قبل كل شىء صاحب الصولجان فى الليدر التى سبكها فى نحو مائة شكل من التعبير إذ تناول جميع أنواع الشعر فلحنها على جميع أنواع الأوزان إذ عالج كل ماوقع فى يده من الشعر الوجدانى والقصصى والدرام ؛ ورغماً من مرونة عبقريته وسهولتها كان يسود على موسيقاه تعبيره الشخصى إذ كان الرجل الحساس فى القرن الثامن عشر

إن ليدر شوبرت تمثل كل صفات الابداع والابتكار التى أوجدتها الطبيعة فلا تجد فيها شيئاً مصطنعاً لأنها ليست نتيجة الثقافة ، ولم تتفتح فى حدائق المدنية بل تفجرت كالسيل فى محراب عميق بطبيعة لم تنتهك حرمتها ؛ وترى موج الالحان يسيل منها كمنبع لا ينضب ماؤه . تتسرب موسيقاه إلى أعماق النفس فتهيمن عليها ويشعر الانسان حينما ينصت إليها بتأثير لا يستطيع أن يثبت أمامه كما نفتتن بصباح جميل عليل النسيم من أيام الربيع وقد كسا الطبيعة بأبهى حلله وعطر الأرجاء بعبقه الشذى. وقد تناول فى تلحينه ليدر جوت وشيلير وهين وولترسكوت وأوسيان وغيرهم من الشعراء

الموسيقى الدينية

يذكر الناس أن شوبرت عرفنا بحالته النفسية فى خطابه الذى كتبه فى يولية سنة ١٨٢٥ عند ما لحن نشيد العذراء Ave Maria إذ قال : « لا يمكننى أن أتناول موضوعاً دينياً ما لم أشعر بالتقوى حينما تتملكنى. ولم يكفه أنه اقتعد أرفع مكانة فى الليدر والسانفونى وموسيقى الغرف بل أراد أن يثبت للجمهور مكانة لا تقل عنها رفعة فى الموسيقى الدينية

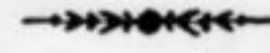
وخلاصة القول أن شوبرت يعد من أكبر الشخصيات التى يشار إليها بالبنان فى عالم الموسيقى . وقد اختطفته المنية وهو فى نضرة شبابه أى فى الواحدة والثلاثين ؛ ولو عاش لجلس مع كبار النوابغ فى صف واحد . وكأنه أحس بقصر عمره فطفق يسرع فى إنتاجه بشكل أدهش الناس كما فصلنا ذلك فى موضعه . وكان يتعزى فى بؤسه وسوء حظه وسقمه بأصدقاء حميمين يحيون معه هذه الحفلات الفنية البريئة حتى ينسوه آلامه . وهناك كان




حين أطرقت ملهمتي *

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

« لفها صمت عميق فى مساء يوم من أيام اللقاء فبدت فى هالة من الجمال الحزين ... أشبه ما تكون بأغنية سماوية على شفة ملاك نائم !! »



أطرقت كالخيال فى خاطرِ السَّا جِى، وكالنبْعِ فى الظلال الحزينه
تتملى فى صمتها ، ذات جَفْن شاعرٍ فى الدُّجى يُقاسى شجونه
أطرقت ! بالسكْرَبة النَّاى ! من يُذْ كِي هواهُ ؟ ومن يُناغى لحونهْ
مَنْ يواسيه إنْ طَغَتْ ثورةُ القلـب فهاجت لها الهمومُ الدفينهْ
من لهُ ؟ آهِ ! مَنْ لأنغامهِ السُّو دِ إذا شبَّتِ الليالى أنينهْ ؟
كم شدا فى ظلالها ناعِمَ اللَّحْـنِ ، وألقى على يديْها رنينهْ !
ناغماً بالهوى كَقُمْرِية الفجْـر ، طَرُوباً كالنَّحْلَة المفتونهْ
مالهُ عادها فصدَّت أمانيه وظلّتْ فى الصمتِ وَلْهى حزينه ؟

***

أطرقتْ فى الظلام كالأبدِ الوسْـنانِ ما فرّت الدياجى سِنينهْ
صَمْتةُ الغَيْب غلّقَتهُ يدُ اللَّـهِ ، وأخفت عن العقول كمينهْ
مِثْلَ رَيْحانةِ المساء جفاها نَسَمٌ منه ، فاستطابتْ سكونه
يعبقُ المرجُ فى الدجى من شَذاها وَهْىَ وسْنَى بين الروابى سجينه !

***

إيهِ مَنْ تُلهِمُ الأغاريد ، تَنْدى مِن صفاء .. يا بُؤسَ مَن تلهمينه !
ظمِئَ النَّايُ للتغنى .. فهاتى الـكأس ، وارْوِى لياعَهُ وحنينه
أنْتِ فى الصمت آيةٌ فجّرَ اللَّـهُ عليها من الجلال مَعينه
فاصْحَى ! أوْ فعاودِى الصبَّ بالسِّحْـر ! وناغِى هُيامَهُ وفتونهْ
بَيْتُ شِعرٍ على جبينكِ غافٍ أيقظ الصمت سرَّهُ وفنونهْ
وفؤادى الذى تكشَّفَ نجوا هُ ، وذرَّى على الخيال دفينه ..
وعلى الأعيُن السَّواجي صلاةٌ أنا منها فى خشعةٍ وسكينه
ما لُنسُّكِ كها وجودٌ ! ولـكن عابدُ الحسن ـ وحْده ـ تعرفينه
وعلى الصدْرِ هِزَّةٌ جاوَبتْها ضجةٌ فى مشاعرى مجنونه
خِلتُ منها وزفْرَةُ الصمت تغلى نارَ زِق من الأسى تنفخينه
وعلى الثغْرِ جدولٌ من أغانٍ آه لوْ فى جوانحى تَسْكبينهْ !

(*) من ديوان (هكذا أغنى) ... تحت الطبع

ونجل الميدر الشجية . تلقى دروسه الأولى بشكل ناقص لا يشمر ولكنه كان معلم نفسه . وكان أستاذه هولزر يبتدئ له بالقاعدة فيسبقه بتعريفها بالهامه وذكائه فكان يقول له : « إننى لا أستطيع أن أفيدك شيئاً ! » وقد وهب شاعرية موسيقية لم يوهبها غيره تفيض على تلحينه فتكسبه أرق العواطف وأبلغ التعبيرات وأدق الأوصاف ، هذا بخلاف رنة الحزن الحلوة التى تسود تلحينه وتصل إلى سويداء القلوب

كان طيب القلب مرهف الحس محباً للخير لا يحسد غيره من كبار الموسيقيين بل كان يعجب بهم ويغبطهم ؛ وكان محبوباً لدى الشعب قبل الاخوان . كانت موسيقاه فى تقدم مطرد نحو الرقى والكمال بدليل أن مؤلفاته فى سنيه الأخيرة كانت من أرقى ما كتب ؛ ولو طال عمره قليلا لأتى بالمعجزات والمدهشات **محمد كامل حجاج**

نشرَتْ مهجتي القِلاعَ على شَطِّـــيهِ ـ شوقاً ـ فرَحْمتا للسفينه!
لم تجدْ مَرفأً لديهِ سوى الصَّمْـــتِ ، وشَطٍّ مُغيَّبٍ ترقبينه!
وظلالٍ وراء كونٍ بعيـــدٍ فجَّر الصَّمْتُ فى رباها عيونه!
طيْرُها نام فى رُفاتِ الأغانى بعدما أسْكرَ التغنِّى غصونه!
فَلأىٍّ من الضِّفافِ سيمضى سابحٌ فى هواكِ لا ترحمينه!
قدهَجرْتِ الخيالَ والشِّعْرَ والصَّمْـــتَ ... وخلَّفْتِ ناره وجُنونه
وامَّحى كونُكِ المجسَّمُ ... إلا قبَسٌ من صَبابةٍ تُشعِلينه
رُحْتِ تُذكينهُ من النظرِ السَّا هى وفى مَعْبَدِ الهوى تُضرمينه!
رَحْمَةً بالحبيبِ يا هالةَ الوحْـــى! وزُفِّى ضِياكِ يُسْنى عيونه
وابْسِمى! أوتكلَّمي الا ..و إن شِئْـــتِ فلَحْظاً على دَمي تَنْشرينه
يَنْشُرُ السِّحْرُ والهوى والأمانى فوْقَ دُنيا بخاطرى مَخزونه
أوْ فَصَمْتاً ... ورَفْرِفى حوْل رُوحى
واسْكُبى الوحْىَ فى ظِلالِ السكينه
أنتِ نَسَّيتِنى هدوئى فى «الكو خِ» وأفْنَيْتِ لى ضجيجَ المدينه
وجعلتِ الأكْوانَ لحْناً خفيًّا ليتَ ـ يالوْعةَ المُنَى ـ تعزفينه
وترى ماتَ فى يدَىَّ حنيناً وغليلُ الهُيامِ أبلَى مُتونه
فابْعثِيهِ من البلَى يتغنَّى مثلَما كنتِ دائماً تسْمَعينه
لفْظَةٌ منكِ فِتنةٌ وحياةٌ تتهادَى بها الأغانى السجينه
أنتِ يا سلْوَتى على نَكَدِ الدنيـــا وصَفْوِى على الليالى الحزينه
شابَ عمرى وَلَاتَ .. والرُّوح أضحتْ
مِنْ أساها يتيمةً مسكينه
والرَّزايا أقمْنَ عُرْساً لحظِّى لا تَمنَّيْتُ مرَّةً تشهدينه!
أتَعايا بشقْوَتى! والمزامِيـــر بكَفِّى شَقِيَّةٌ مَوْهونه
يَتَسلَّى بنا الوُجودُ ... ولكنْ سُلْوَةُ الذِّئْبِ بالشِّياهِ السمينه..
وَتغنِّيهِ مُلْهَمِين حيارَى بيْنَ رِجْسٍ ، وغفلةٍ ، وضغينه
فاعذُرِينى إذا ألحت بِىَ النَّجْـــوَى لصوتٍ مقدَّسٍ تكتمينه
فأنا ظامئٌ ... وصَوتُكِ للرُّو حِ عبيرٌ تذيعُهُ (ياسَمينه)

محمود حسن اسماعيل

مداعبة صديق

للأستاذ محمود غنيم

تعزية موجهة إلى صديقنا الشاعر (...)
عن سبعة جنيهات احتال عليه دجال فسلبه
إياها أحوج ما يكون إليها

هوِّن عليك وجفِّفْ دمعك الغالى لا يجمعُ اللهُ بين الشِّعرِ والمالِ
إنَّا لفى زمنٍ فَقْــدُ النقودِ به يُدمِي العيونَ كَفقدِ الصحبِ والآلِ
أدُّ التعازى فى مالٍ وفى ولدٍ لا فرقَ ما بين أموالٍ وأنجالِ

* * *

مِنْ أين أصبحتَ ذا مالٍ فتُسْلَبَهُ يا أشبهَ الناسِ بى فى رِقَّةِ الحالِ؟
فيالها سبعةً من جيبك انطلقت وأنت أحوجُ مخلوقٍ لمثقالِ
فريسةٌ من فم السنور قد نُزِعَتْ شتَّانَ ما بين سِنَّوْرٍ ورئبالِ
عوِّذْ نقودكَ واعقِدْ حولها عُقَداً وثيقةً تتحدى كلَّ حلَّالِ

* * *

قالوا خلت يدُهُ من كل ماملكت فقلت بل رأسُه من عقله خالِ
لم يَبْقَ عندك ما تخشى عليه فنَمْ كما أنامُ قريراً ناعمَ البالِ
نفسى فداؤُكَ ليت اللصَّ صادفنى قد يغلبُ اللِّصَّ بالأفلاسِ أمثالى

* * *

ياليت شعرىَ ماذا أنت صانعُهُ؟ أتزمعُ الصومَ حتى شهرِكَ التالى؟
عش من قريضك فى رىٍّ وفى شبع إن كان ينتفعُ الظمآنُ بالآلِ
أقسمت ماسلبت تلك النقودَ يدٌ بل وَدَّعتْ هرباً من جيبك البالى
الذئب لا يشتهى لحمَ ابنِ جلدته فكيف غرَّرَ دجَّالٌ بدجالِ؟

«كوم حمادة» محمود غنيم



مجمع أدبي مصري

منذ دخل صاحب المعالي الدكتور هيكل باشا عضواً في هذه الوزارة وهو يفكر جدياً في إنهاض الأدب وتوجيه الثقافة إلى الوجهة المنتجة . وقد طالع بهذا العزم فريقاً من أصدقائه الأدباء فبحثوا معه الأمر ورسموا له مشروعاً . فلما ولي الأمر في وزارة المعارف عقد النية على دراسة هذا المشروع فأصدر القرار التالي بعد الديباجة

بما أنه قد لوحظ أن الحركة الأدبية في مصر وان كانت قد نشطت وأصبح لها أثر ظاهر في تثقيف الجمهور وتوجيهه ، إلا أنها لا تزال يعوزها التنظيم الذي يكفل لها اطراد التقدم وحسن التوجيه. وبما أنه قد نبتت فكرة الدعوة إلى انشاء مجمع أدبي مصري يقصد به على الأخص إلى تنظيم الحياة الأدبية في مصر وإيجاد صلة منظمة تربط الأدب والأدباء بالجهود التي تبذلها وزارة المعارف في تنشيط هذه الناحية وتعاون على تنمية الثروة الأدبية في البلاد — على غرار ما هو متبع في البلاد ذات النهضات الأدبية الكبيرة . وبما أننا نرى تكوين لجنة تقوم بدراسة هذا المشروع والتقدم باقتراحاتها في نوع الوسائل الكفيلة بتحقيق الأغراض المتقدمة

لذلك قرر :

مادة وحيدة — تؤلف لجنة برياستنا وعضوية : — حضرة صاحب المعالي الشيخ مصطفى عبد الرازق بك والدكتور طه حسين بك والأساتذة احمد امين وخليل مطران وعباس محمود العقاد وابراهيم عبد القادر المازني وتوفيق الحكيم : لبحث وسائل تنظيم الحركة الأدبية في مصر

الأدب العربي في مصر منذ الفتح الاسلامي

أصدر وزير المعارف القرار التالي . وهذا نصه بعد الديباجة .

بما أن للأدب العربي في مصر طابعا خاصا اختلف في العصور الأولى للفتح الاسلامي عنه فيما تلا ذلك من العصور ويتناول هذا الأدب انتاج الكتاب والشعراء الذين وفدوا من البلاد العربية والاسلامية إلى مصر وأقاموا بها كما يتناول انتاج الكتاب والشعراء المصريين

وبما أننا نرى ضرورة العناية بدراسة هذا الأدب في مختلف عصوره ، وعلى الأخص تاريخه وصلته بالحياة العامة المصرية — اجتماعية وسياسية واقتصادية — وإظهار الصورة التاريخية التي يرسمها هذا الأدب المصري في عصوره المختلفة

ولما كانت دراسة هذا الموضوع تتطلب الاستعانة برأى طائفة من المشتغلين بالأدب العربي في مصر لتعرف الوسائل التي تؤدي إلى حفز الهمم لابراز هذه الناحية قرر :

مادة وحيدة — تشكل لهذا الغرض لجنة برياستنا وعضوية : حضرة صاحب المعالي الشيخ مصطفى عبد الرازق بك ووكيل وزارة المعارف العمومية . والدكتور طه حسين بك . والأستاذ احمد أمين . والأستاذ علي الجارم بك . وأستاذ الأدب العربي بدر العلوم

وسائل مكافحة الأمية بين طبقات الشعب

أصدر وزير المعارف قراراً بانشاء لجنة لبحث وسائل مكافحة الأمية ، بين طبقات الشعب ، سواء منهم من كان في سن الالزام أو من تجاوزه . وهذا هو القرار :

بعد الاطلاع على التقرير المقدم من اللجنة التي عهد إليها بحث مشروع مكافحة الأمية

وبما أن جهد وزارة المعارف فى مكافحة الأمية بنشر المكاتب العامة يقتصر أثره على الأطفال الذين فى سن الالزام ، ومن نتيجة الاقتصار عليهم أن تبقى أغلبية الشعب الساحقة غارقة فى غمار الأمية

وبما أننا نرى ضرورة اتخاذ الوسائل الكفيلة بالقضاء على الأمية لتهيأ لسواد الشعب المصرى وسائل الاستنارة واكتساب قسط من الثقافة يرفع من مستواه ويصله بالحياة الصالحة الجديرة بالشعوب الناهضة

وبما أننا نرى تشكيل لجنة تعنى بدراسة هذا الموضوع من جميع نواحيه وتتقدم باقتراحاتها لتحقيق الغرض المتقدم

لذلك قرر :

مادة وحيدة — تشكل لهذا الغرض لجنة برياستنا وعضوية : وكيل وزارة المعارف ، الوكيل المساعد لوزارة المعارف ، مراقب التعليم الأولى ، محمد فهيم بك ، إبراهيم نكلا بك ، الأستاذ محمد مظهر

مشروع اعداد المعلمين لمدارس التعليم غير الأولية

بين المشروعات التى اشتغلت بها وزارة المعارف ، مشروع إعداد المعلمين للمعاهد غير الأولية . وقد اتخذت الوزارة القرار التالى فى صدد هذا :

بعد الاطلاع على الاقتراحات المقدمة من اللجنتين اللتين شكلتا لبحث موضوع إصلاح دار العلوم ومعهد التربية للبنين

وبعد الاطلاع على التقرير المقدم من وكيل الوزارة المتضمن رأيه فى وسائل إعداد المعلمين للمعاهد غير الأولية

وبما أننا نرى وجوب العناية القصوى بحسن إعداد المعلم وذلك بوضع الأساس الصحيح الذى يقوم عليه كل إصلاح فى وسائل التربية والتدريس

وبما أننا نرى — لتحقيق هذه الغاية — تشكيل لجنة تقوم بدراسة هذه المشروعات والاقتراحات وتتقدم برأيها فى خير الوسائل لحسن إعداد المعلم وإصلاح المعاهد التى تقوم بهذا الاعداد

لذلك قرر :

مادة وحيدة : تشكل لهذا الغرض لجنة برياستنا وعضوية وكيل وزارة المعارف . الوكيل المساعد لوزارة المعارف . مراقبى التعليم الابتدائى والثانوى وتعليم البنات والتعليم الحر بالوزارة . عميد كلية الآداب . عميد كلية العلوم . ناظر دار العلوم ناظر معهد التربية للبنين

حول الرمزية

يسألنى الأديب الفاضل السيد كامل الشرقاوى (الرسالة ٢٥٦)

« هل الغموض والابهام من مستلزمات الرمزية وهل بدونهما لا تكون ؟ »

فالرمزية — حسبما بينت فى الرسالة رقم ٢٥١ — على ألوان . فإن كانت الرمزية ناهضة على ما وراء الحس أو الطبيعة غلب الغموض بل قل الاستغلاق عليها (عند مالارميه وفاليرى وكلودبل مثلاً) ، وإن كانت ناهضة على التأثر والإيقاع والتخيل المنسرح قلّ الغموض فيها (عند فرلين ودى رينييه مثلاً) . وأما الرمزية الناهضة على الدقائق والخواطر والواردات من حيث القابلية والايهام والتلويح والتمثيل من حيث الأداء فإنما ينبسط على نواحيها ظل لطيف . ولتجدن بيان هذا فى « التوطئة » التى صنعتها لمسرحيتى « مفرق الطريق »

وأما قصة جبران و (وليم بليك) W. Blake فإنى لا أزال عند رأيى (ارجع إلى الرسالة ٢٥١) . ومما يعزز هذا الرأى قول (رودان) النحات فى جبران ، وتصيبه فى المقدمة التى عملتها فتاة أمريكية (لا يحضرنى اسمها الآن) لمؤلف لجبران يضم عشرين صورة وعنوانه : Twenty Drawings (وهو مطبوع فى الولايات المتحدة)

وبعد ، فهذه الرمزية تشق طريقها فى الأدب العربى ، إذ تطّرد الكتابة فيها (ولا سيما فى الرسالة) . إلا أن بعض ما كتب لا يمحصه نقد ولا يمدّه اطلاع ، وليس بالقارئ اللبيب حاجة إلى التنبيه

بشر فارس

بين الرافعى والعقاد

جاء فى مقال الأستاذ سيد قطب المنشور فى عدد (الرسالة) الغراء رقم ٢٥٦ ما يأتى :

« ... إنه راح يتقصى ما قيل فيما يقرب من قول العقاد : فيك منى ومن ... سائراً فى تقصيه على النسق الخالى من كتب النقد العربى لقدامة وأبى هلال العسكرى ومن ينقلان عنهما (كذا) ... من تتبع المعنى تتبعاً زمنيًّا وحسبان كل شاعر متأخر أخذ هذا المعنى عن شاعر متقدم وزاد فيه أو نقص ، وتصرف أو ولد ... الخ »

وأنا لا أريد أن أخوض غمار المعركة وقد أرادني الأستاذ الزيات على الصمت حيناً ، غير أنه يؤسفني أن أجد فينا من يحاول أن يحط من قدر القدماء من أجدادنا وأن ينظر إلى تراثهم الغالي نظرة احتقار وهو ما يزال فى أول الطريق ... ثم إنى أريد أن أنصف الأدب والتاريخ ؛ فالذى يقرأ هذه الفقرة من كلام الأستاذ قطب يخيل إليه أن قدامة بن جعفر كان يعرض للبيت من الشعر (فيتتبع المعنى تتبعاً زمنيًّا) وأنا قرأت كتابى نقد الشعر ونقد النثر لقدامة فما وقعت عينى على شيء من هذا ، بل هو نقد وتحليل يستطيع الأستاذ قطب أن يرى رأى الذين يفهمون الأدب لو قرأ فى المقدمة التى كتبها الدكتور طه حسين لكتاب نقد النثر الفقرة الأولى ص ١٧ والفقرة الأولى من ص ١٨ من طبعة دار الكتب المصريه ، ثم لو قرأ فى التحقيق الذى كتبه الأستاذ عبد الحميد العبادى الفقرة الأولى ص ٣٥ والفقرة الثانية ص ٣٦ من نفس الطبعة ... وإنى أرجو الأستاذ قطب أن يمعن فى قراءة كتابىّ النقد لقدامة لعله يرى خطأ هذا الرأى ، فهو فى كتابيه لم يكتب حرفاً فى الطريقة التى أشار هو إليها والتى لزمها القاضى الجرجانى فى كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه ، وهى طريقة لا تخلو من فائدة جليلة ...

أما أبو هلال العسكرى فلقد قرأت له كتاب الصناعتين ، وكتاب ديوان المعانى ، وكتاب محاسن النثر والنظم فما عثرت على شيء مما قال الأستاذ قطب

ولست الآن بسبيل أن أعرض لكل كتاب فأكشف عن الغرض الذى رمي إليه المؤلف وعن طريقة الكتابة وأبواب الكتاب ، ولكنى أريد أن أطلب إلى الأستاذ قطب أن ينبئنى عن تفسير قوله « ومن ينقلان عنهما » ثم عن مواضع النقل البارزة فى الكتب السابقة

فهل لى أن أسمع منه كلمة هادئة فى هذا الموضوع دون أن يتحدث عن القديم والجديد ، فهذا باب آخر ...

كامل محمود حبيب

تجميل وزارة المعارف وتشجيع رجال الفن

رأت وزارة المعارف أن فى مصر طائفة كبيرة من رجال الفن الذين يبتدعون مختلف اللوحات الفنية الرائعة والتماثيل المنحوتة الجميلة ، ثم لا يجدون الاقبال عليها مما يجعلهم فى حالة يستحقون من أجلها المعاونة حتى يمكنهم النهوض بفنهم

وقد اعتزمت الوزارة إزاء هذا تجميل مكاتب كبار الموظفين بوضع اللوحات الفنية لرجال الفن المصريين كما اعتزمت تجميل حديقتها بوضع التماثيل فيها

وتأمل الوزارة أن تحذو الوزارات والمصالح الأخرى ، والأسر الكريمة الراقية حذوها فى اقتناء تلك الآثار الفنية الرائعة التى يضيق عنها متحف الفن ، رغبة فى تربية ملكة الذوق السليم فى النشء من ناحية ، وفى تشجيع رجال الفن من المصريين على المضى فى ابتداعهم وإنتاجهم من ناحية أخرى

منح المجلس البريطانى لخمسة من طلبة الآداب

تلقت الجامعة المصرية ، كتاباً من المجلس البريطاني ، ذكر فيه أنه يمنح خمسمائة جنيه لخمسة من طلاب قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب ، تقسم بينهم بالمساواة فتتاح لهم بفضل هذه المعاونة المادية زيارة انجلترا لتوثيق عرى الصداقة وتمكين الأواصر العلمية بين مصر وانجلترا

وقد أعد لهم المجلس مقراً صيفياً فى أكسفورد لهذه الغاية ، وقد عرض هذا الكتاب على مجلس الكلية ، فتقبله شاكراً ، وسيعرض على مجلس الجامعة فى اجتماعه يوم الثلاثاء القادم ، ثم تختار كلية الآداب الطلاب الذين يسافرون فى هذه البعثة الثقافية

بين الرافعى والعقاد

قرأت ما كتبه الأستاذ كامل محمود حبيب فيما رأيته من صيحة قول العقاد :

فيك منى ومن النـاس ومن كل موجود وموعود تؤام

لأن كل شيء فى الكون لا يخلو من حسن يسوغ إجراء بيت العقاد على عمومه ، فلم يسعه إلا أن يعترف بعموم هذا الحسن ولكنه فسره بمعنى الدقة فى الصنع وجمال الخلق

وهو يرى أن هناك جمالين : أحدهما جمال بهذا المعنى الذى ذكره من دقة الصنع وجمال الخلق . وثانيهما جمال لم يستطع تفسيره ، بل قال إنه الجمال الذى يجذب القلب ، ويأسر الفؤاد ، ولا يمكن أن يجده الانسان فى الدودة وفى الدبابة وغيرها مما تشمئز منه النفس ، ويعافه الذوق

وإنى لأقول للأستاذ الفاضل إنه لا جمال فى الدنيا إلا بمعنى دقة الصنع ، وجمال الخلق ، وهو عام فى كل ما خلق الله تعالى ، وإن كان لكل نوع من ذلك جماله الذى قد يكون قبحاً فى غيره

ولا شىء بعد هذا فى أن يقول العقاد إن معشوقته فيها من كل شىء من هذا الكون الجميل ، وهذا كما تقول إن زيداً فيه جزء من كل حيوان فيصح لك هذا القول، لأن الحيوانية العامة جزء من زيد ، وهى جزء من كل حيوان

بل يجب أن نقبل هذا من العقاد كما نقبل منهم تشبيه الوجه الحسن بالبدر ، مع أنك إذا ذهبت تستقصى في البدر ما تستقصيه فى بيت العقاد يضيع منك هذا التشبيه الجميل ، ويكون لك فى البدر من الجبال والكهوف وما إلى ذلك ما فى بيت العقاد من الدود والذباب ونحوهما

على أن الأمر لا يقف فى بيت العقاد عند الصورة الحسية من معشوقته ، بل يتناول مع هذا صورتها النفسية، فهى حلوة ومرة ، وهى نعمة وبلاء ، وهى سعادة وشقاء ، وهي فى مرارتها أشد من الصاب ، وإن شئت قلت من الملح الانجليزى الذى تهكم به الرافعىّ رحمه الله ، وهى فى هذا حلوة وجميلة أيضاً ، ومثلها فى هذا مثل ذلك الممدوح الذى قال فيه بعض الشعراء :

هو عسل إذا ياسرته   وإن عاسرته فهو صاب

ولست بعد هذا فى حاجة إلى إعادة الكلام فى بيت الأستاذ العقاد ، وليس عندى من التعصب له أو للرافعى ما يدعونى إلى إطالة هذا الجدال

عبد المتعال الصعيدى

وفاة عالم بريطانى

فقدَ قسم العاديات المصرية والأشورية فى المتحف البريطانى ، عالما فى الآثار المصرية من العلماء الحديثين الذين كان يرجى لهم مستقبل عظيم ، بوفاة المستر الان وين شورتر الذى قضى نحبه بذات الرئة وهو فى الثانية والثلاثين من عمره

وقد التحق المستر شورتر بالمتحف البريطانى فى سنة ١٩٢٩ فوجه أكثر عنايته منذ ذلك الوقت ، إلى دراسة النصوص الدينية المصرية وقد وضع بضعة مؤلفات عن الحياة الدينية عند قدماء المصريين وأنجز أخيراً الجزء الأول من « كتالوج » أوراق البردى المصرى وفى عامى ١٩٢٨ و١٩٢٩ اشترك فى بعثة جمعية الاستكشافات بمصر



كيفما اتفق ATRANDOM

كتاب بالانجليزية للدكتور أحمد زكي أبو شادي

للأديب نصري عطا الله سوس

الدكتور أبو شادي شخصية فريدة كل مافيها معجب محبب، وهو مثال باهر للكاتب الذي يحيا حياة عامرة بمختلف أنواع النشاط الناهض. وحسب الطبيب الشاعر أنه إحدى الشخصيات القلائل التي تمددت نواحي أذهانها دون أن تطغى ناحية على أخرى. وهو مثل حي بليغ لاستحالة العداوة بين الفلسفة والدين والعلم والشعر. وإن الخلاف بين نوعين من أنواع المعرفة لايجد له مكاناً إلا في الذهن الكليل الذي لا يمكنه أن يفهم إلا جزءاً من كل، والذي توفرت له بعض المؤهلات ولم يتوفر له البعض الآخر؛ ولكن العقل الكبير يدرك بالبديهة قبل أن يثبت بالبرهان (إذا فرض إمكان الاثبات عن طريق العلم) أن العالم وحدة لا تتجزأ وأنه من المستحيل أن يناقض بعض أجزائها البعض الآخر

ويعجبني في الدكتور أبي شادي أنه كائن حي قائم بذاته يتفجر إيمانه بالحياة وربها وما بعدها من أعماق ذاته ولا يتقبل تعاليم السلف مغمض العينين. والاستقلال الذاتي صفة نادرة؛ ولكن الحياة بدونها تصبح باهتة رثة عديمة الطعم عديمة القيمة. وقد اتجه الدكتور إلى التأليف بالانجليزية وبين يدي الطبعة الثانية لكتابه «كيفما اتفق» وقد تناول بالبحث في كتابه هذا أهم المشاكل العالمية مثل تحسين النسل، العوامل التي يجب أن تتوفر في الشخص المتمدين، العبقرية، الديمقراطية والحكم المطلق، الدين، المساواة بين الجنسين، الاقتصاد، التعاون، والأخلاق، ويجب على كل شخص يحس بوجوده أن يدرس هذه الموضوعات ويكوّن له رأياً خاصاً فيها؛ وغرض الكاتب هو خير الفرد وسعادة المجموع. غير أني أختلف معه في بعض ما يقترحه من وسائل وغايات

تطغى شخصية العالِم في هذا الكتاب على ماعداها. وأي عالم؟ ذلك الذي لا يؤمن إلا بالعقل وحده والمنطق والمقاييس المضبوطة — وعهدي بأبي شادي شاعراً كبيراً ولكن شخصية الشاعر اختفت تماماً من هذا الكتاب، وفي هذا خسارة لا كسب. وقد تطرف الكاتب في بعض آرائه تطرفاً عنيفاً وهاجم بعض النواحي التي لا يسهل مناقشتها في مصر وإن كانت هذه النواحي أكثر الأشياء افتقاراً إلى البحث والتمحيص. ولا شك في أن كل مثقف يؤمن بما قاله المؤلف عن «الأساطير» وأن اعتناق الجماهير إياها مصدر الكثير من الضرر، ولكنه لن يجد من يؤمن بالعلم وحده. العلم الذي يتخذ المقاييس والرياضيات أساساً له — ومن العسف أن نهاجم عقائد الشخص العادي ونحاول تشكيكه فيها مهما كان فيها من خلط وزيف قبل أن نمده بما يشغل مكان هذه العقائد — والعلم لن يقوم مقام العقيدة، وكل حضارة لا تستند إلى إيمان قوي لا يمكنها أن تثبت لإرهاصات الزمن — ولا شك في أن العلم ركن قوي من أركان الحضارة ولكنه لا يمد الانسان بالايمان الذي يريح القلب ويطمئن الضمير، ولكن الايمان ينبع من أعماق النفس ولا حيلة للمنطق معه! وستمر دهور ودهور قبل أن يترجم الانسان العادي النور وتغريد الطيور وجمال الزهور إلى معان إلهية. ومن هنا صعوبة مهاجمة «الأساطير» في الوقت الحاضر — وعندي أن كل إصلاح لا يبتدئ بالفرد مصيره الفشل المحتوم — فيجب على المصلحين أن ينموا شعور الفرد بانسانيته وأن يستخدموا العلم في تحريره من ربقة المادة، وأن يفتحوا أمامه

سبيل تهذيب الضمير بواسطة الآداب والفنون حتى يتفجر إيمانه بالقوة الخالقة من أعماق ذاته المحرَّرة . وعندئذ يمكنه أن يُنزل الأساطير مكانها الحقيقية؛ ومتى وصل إلى هـذا المستوى وشمر بكرامته الانسانية فسيشعر بواجبه شعوره بحقه وسيفهم معنى الحياة الانسانية الحقة، ويخصص نفسه لخدمة مثلها العليا، ولن يؤمن بالدكتاتورية أو يسمح بها. أما الايمان بالعلم وحده فظهر من مظاهر الصلف والاغترار الذهني

وأعتقد أن العالم الذي حوى صدره علم الأوائل والأواخر ، والذي يقول « إن الحياة على هذه الأرض محض صدفة » أو يبلغ به التبجح إلى أن يقول : « إن الله عالم رياضي » إنسان بائس مسكين ، والشخص العادي الضعيف الذي يرى أن مظاهر القدرة الالهية مبثوثة في كل شيء أسمد منه بمراحل . والظاهر أن المؤلف تأثر بكتابات الذهنيين Rationalists ونظريات برتراند رسل عن وحدة الروح والجسم وهلا كهما معاً. وحسبي أن أذكر مثلامن هذه النظريات يرينا خلل وضلال القياس الذهني :

يقول رسل إن حالة « الاشراق والصفاء » والمعاني اللطيفة التي ترقرق في قلب الانسان أثناءها تشبه حالة السكر وما يخالج النفس أثناءها من نزوات، لأن السكر حالة شاذة تقع بواسطة مؤثر خارجي هو الخمر ؛ وكذا حالة الاشراق أيضاً لأنها تقع بواسطة مؤثر خارجي هو الصوم ! وهذا هو مايؤدي إليه الايمان بالعلم وحده

ولا شك أن هـذا الكتاب خطوة حسنة في سبيل توطيد العلاقات الثقافية بين مصر وبريطانيا؛ غير أن القارئ الغربي لن يجد في هذا الكتاب جديداً ولا يمكنه أن يتبين أن المؤلف رجل شرقي ، لأن «الشخصية» بمعناها الأدبي معدومة الأثر في الكتاب. وقد عالج المؤلف موضوعات معروفة مطروقة في الغرب ولا فضل له فيها إلا الجمع والترتيب والاختيار ؛ ثم عرض لبعض المظاهر الاجتماعية في مصر. ولعله ينحو في كتاباته المستقبلة نحواً جديداً بحيث تبدو فيها خصائص الروح الشرقية الحرة ، وهـذا ميدان واسع تعود الكتابة فيه بالفائدة على الشرق والغرب، لأن مظاهر العلم والفن والأدب في أوربا الحديثة متأثرة بمـا ترزح تحته هذه القارة من أنواع المحن والبلاء ، ولا يمكن للشخص الغربي المنشأ في حلقة هذه الظروف أن ينظر إليها نظرة أصيلة فاحصة ولكن الرجل الشرقي الذي لم يتأثر بهذه الظروف يمكنه أن ينظر إلى هذه الأحوال نظرة أقرب إلى الحق والصدق ، ويجب على الكاتب الشرقي أن يهدي إلى الغرب مما عندنا لا مما يستعيره منه

بقي أن نقول إن الشرق مفتقر إلى مثل هذا الكتاب أكثر من افتقار الغرب إليه ، ويقول المؤلف في مقدمته أنه يعني بكتابه القارئ العادي (الغربي طبعاً) ثم يعود فيقول إنه لا يعني بكتبه عموماً إلا الخاصة ، وإنه لا يهتم بسواد القراء في الشرق ؛ ولما كانت خاصتهم تعرف الانكليزية فلا ضير عليه في الكتابة بها ؛ ولكن المؤلف يدعو إلى التعاون العالمي، وهذا لن يكون إلا إذا ارتفع القارئ الشرقي العادي إلى مستوى القارئ الغربي العادي ولعلنا نرى الكتاب مترجماً إلى العربية بعد تعديل يلائم الشرق

نصري عطا الله سوس

بونا انطون

للآنسة وداد سكاكيني

لما قرأت رواية « بونا انطون » للاستاذ كرم ملحم كرم لمت بخاطرى رواية نوتردام دو بارى لشاعر الفرنسيس فيكتور هوجو ، وخفق أمام عيني مسوح الراهب كلود فرولو وقد ملأها الهواء فانتفخت حتى بدت وراء ظهره كالقربة ؛ تمثلته بالخيال يصعد بجلان سلالم الكنيسة ، لاحقاً بالراقصة الحسناء « ازميرالدا » ملحاً عليها بأن تحبه فيجثوا أمامها ضارعاً لهيفاً ، كما يجثو أمام المذبح فى المعبد ، ويناشدها الغرام الأثيم ثم يقول لها : تخيرى أحد أمرين : إما شهوتى العاتية وإما الموت الزؤام ، فاختارت الثانى فطوح بها هذا السفاح فى مهاوى الردى وقد اتهمها بالقتل ، وما قتلت إلا يده الجانية وغيرته الطاغية فهو الذى طعن حبيبها الأمير فوبوس من خلفه إذ كان إلى جنبها يناجيها فى ليلة هادئة مقمرة

ذكرت هذا كله حين قرأت رواية « بونا انطون » لنابغة القصة العربية فى لبنان كرم ملحم كرم وقلت : بأبى الحق وأمى إن جاء من أهله ! لقد كتب الأستاذ كرم روايته عن كاهن خبيث فصور لنا حياته الخفية التى لا يراها الناس ، وعبر عن نزواته الصارخة واحتياله الوضيع بأسلوب رشيق أخاذ . لقد كان هذا الأب يغدو كل صباح إلى سيدة مهذبة فاضلة فيباركها ولا يكاد يقترب المساء حتى يهب فى ديره إلى ارتداء قلنسوته ومسوحه فيمسح بيده طيباً ، وينطلق إلى بيت السيدة التى سبته وسامتها وخلبته براعتها ، فأصبح لها عاشقاً وامقاً ، فيبارك عليها مرة أخرى ويرمقها خلسة بعد خلسة بلحاظ لاهبة ذاهلة

كان هذا الكاهن يتابع زوراته واعظاً باسم الدين ، ذئباً فى صورة إنسان ، حتى كشفت المرأة الذكية عن نيته وطويته ، فاذا هو يحمل لها فى قلبه حباً أقوى من حب روميو ، ويكظم فى فى نفسه شهوة لها أشد من شهوة كازانوفا ؛ ولكن ماذا تفعل به وهى من المحصنات ولها زوج كريم ؟ فصدته عن السوء ، وكفته عما أخذ بأطرافه من مراودة عن نفسها ، فلم يستعصم ، وما يئس . وحين لم تستطع على جماحه كبحاً ، أمرت الخادم أن لا تفتح الباب للكاهن . فلما أحس مقتها ونفورها ، فار الدم فى عروقه من الغيظ وثارت فى صدره وساوس الحقد والثأر ، فآلى على نفسه أن يهدر سعادة المرأة الشريفة ويذيقها العذاب الأليم ، فنصب لزوجها شراك الشر وشباك الضلال ، بتسخير امرأة خليعة ماجنة تغريه بالمعصية وتغويه بالفجور ، وقد ترضاها الكاهن بشفاعته وغفرانه فأذعنت له وصرفت الزوج عن امرأته وبيته ، ثم عاود الكاهن زوراته لعل المحبوبة الأنوف تخفف من غلوائها وتفىء إلى حبه ، فتبرمت به وهدمت بعفافها زهادته الكاذبة وتبتله الموهوم

هذا طرف من سياق الرواية الطريفة « بونا انطون » وهى رواية حافلة بالتحليل العميق والوصف الدقيق ، وقد فاضت بالحياة الصاخبة ونضحت بالصراحة العارية . كل سطر فيها كالعرق النابض ، وكل قارىء لها كالطبيب الحاذق يستطيع أن يعرف حالة كل عرق فيصف دواء الأخلاق المريضة

لما نشر الأستاذ كرم ملحم كرم روايته فى بيروت قامت عليه قيامة رجل من رجال الكنيسة فأقام الدعوى على الأديب القصصى ، وادعى فيها أنه هو المقصود بالأب انطون ، وأخذ يؤلب الحكام عليه ويسخر بعض الموتورين لذمه وتسفيه روايته واستهجان ما فيها ، فذكرنى مرة ثانية بما كان من أمر القصصيين الغربيين وكيف أقام عليهم الدعاوى أناس ظنوا أنهم هم المقصودون فى القصص ، ثم خرج كتابها أبرياء ، ونفضوا عن أكتافهم غبار الاعداء ، فطاح به الريح وأذراه فى هبوبه وذهاب رغاؤهم وزبدهم ، وبقى القصاص وضاح الجبين مرهف القلم رفيع الهدف ، لأنه هو الذى ينفع الناس ، وهكذا خرج الاستاذ كرم ظافراً منبراً فى وجوه حساده وأعدائه ، وبقيت روايته حية خالدة

إن القصة العربية آخذة فى السمو والاشراق ، ولا يمضى عليها ردح من الزمن حتى تسابق القصة الغربية وتماثلها قيمة ومقاماً ؛ فالاقلام تمارسها بقوة ورغبة ، والقراء يتقبلونها بشوق ولذة . ولا بدع إذا نهضت القصة والرواية فى لبنان فان الاستاذ كرماً مهد السبيل لهذا الفن العريق وفتح فيه عهداً جديداً . وها إن الطبعة العربية فى لبنان تزجى الينا القصة أثر القصة ، والرواية تلو الروايه ، وقلم الاستاذ كرم لا ينقطع عن قرطاسه فما تقع عيناه على أحداث الحياة فى لبنان وما جاوره من بلاد العرب حتى يستوحى جوها ويستنطق بيئتها ، فيسبر غورها ، ويبادر إلى تصويرها بما فيها من قلق واضطراب ونقص وإخفاق . وان له من ثقافته الادبية وتضلعه من اللغة العربية وفطرته فى القصة معيناً لا ينضب . ومصداق القول قصصه العديدة الرائعة ورواياته ، وآخرها « بونا انطون » التى كتبها على ضوء الفن والواقع والجرأة وخلع عليها أسلوبه الحر الصقيل ، فنزهها عن مزالق اللهجة الصحافية والكلام الدخيل .

وداد سكاكينى


الرسالة
العدد ٢٥٨
السنة السادس

6 me Année, No. 258 — Lundi - 13 - 6 - 1938

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ٢٥٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٤ ربيع الثانى سنة ١٣٥٧ — ١٣ يونية سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهــرس

من ذكريات الريف

ليـــالى الحصاد ...

يا حبةَ الأمح زيدى ... واملى المخازن علينا
إنت دهب مَلو إيدى ... لُولاكْ مَرُحْنا وجينا
يا شمعة العز إيدى ... واجلى بنورك عِنينا
دا عيدْ حبايبى وعيدى ... يا رب عودُهْ عَلينا

***

بهذه الأغنية الرقيقة كان صوت أمينة الوترىُّ الرخيم يموج لذيذاً فى مِسمع الليل المقمر الساجي ؛ وكان أترابها يُرَجِّعن عليها اللحن ومناجلهن فى أيديهن تجز سيقان القمح فتسمع لها فى خلال النغم خشخشة آلة موسيقية غريبة !

كان ذلك فى ليلة بين أواخر مايو وأوائل يونية ، والزرع قد استحصد وتهالك بعضه على بعض من الذبول واليبس ، فلم يعد يقوى على حمل سُنبُله . وكان الحاصدون والحاصدات قد خرجوا عشاء إلى الحقول الذهبية ، في أيديهم المناجل ، وعلى أكتافهم الأردية ، وهم يوقّعون على طرق الربيع العشيبة أهازيج الجذل والأمل ، فباتت القرية هامدة كأنما ضرب على آذانها الموت فلا تسمع سامراً على مصطبة ولا نابحاً علي تل . فأخذني

منها ما يأخذ الساتر الوحدَ من الغابة اللفة أو المقبرة الفسيحة .

فخرجت أنشد الفرجة والأنس فى حقل من حقولنا القريبة ، وكنت أعلم أن فى حُصَّاده جوقة من الأوانس الحسان الوجه والصوت . فلما غمرنى ليل الحقول ، وملكنى سلطان الطبيعة ، أحسست فى نفسى دنيا جديدة لم أحسها من قبل فى نهار الناس ولا فى ليل القرية ! فقد كان القمر حينئذ فى الفخت يرسل أضواءه اللينة الرخية ، هادئة كإشعاع الحِلم ، شاحبة كإسفار الأمل ، فيلوّن الغيطان والغدران والطرق بلون الفضة الكابية ؛ ونسيم آذار الندىُّ العبهرىُّ ينفح بطراءة الفردوس الإنسان والحيوان والشجر ، فينتعش الهامد و يتنفس المكروب وتتندّى الحصائد ؛ فتسمع الجنادب تصر فى هشيم البرسيم ، والضفادع تنق على حفافى الترع ، والسواقي تنوح على رءوس الزروع ، والحاصدات يغنين فى مزارع القمح ، وطيور المساء تبغم على أعالى الدوح ، وكلاب الحراسة تنبح على أطراف البيادر ، فيكون من كل أولئك إيقاع موسيقىّ عجيب يبعث الروعة فى النفس، ويُلْقِى الشعر على الخاطر !

على أن هذه الأصوات المتجاوبة على نشوزها لم تكن هي مبعث السحر الذى غلب على مشاعرى ؛ إنما كان مبعثه ذلك السجوُّ العميق السحيق الذى ضرب على حياة الليل فهيمن على كل حس وسيطر على كل حركة ، فما نسمع الأصداء فى جوف هذا السكون ، إلا كما ترى الأنداء فى رمال المفازة

***

كنت أمشى بين هذه الظواهر الليلية وئيد الخطو رزين الخيال مرهف الحساسة ، لا أجد فى طبعى ما كنت أجد فى النهار من مرح الصبى وخفة الحداثة ؛ فكأنما يضع الليل من ثقله على الجسد والفكر والشعور فيتغلب على المرء الهدو، والبطء . ذلك إلى أن الجو الاجتماعي فى القرى لياليَ الحصاد ، يختلف عنه فيها أيام الجنى . فى حصاد القمح يأخذ القرويين حالٌ من التدين الذاكر الشاكر ، لأنهم يتقبلون فضل الله فى هذه الحبة المقدسة ليحفظوا بها البدن ، و يمسكوا عليها الروح ؛ فهى عندهم مرادفة للحياة، يسمون خبزها (العيش) و (النعمة) ، ويتحرون فى كسبها الحل والحرمة ، ويذكرونها فيذكرون الرزق والصدقة والزكاة والبركة

أما فى جنى القطن فيدر كهم مسٌّ من الطمع والغرور فيحبون الدنيا و يعشقون المال و يرغبون اللهو ويذكرونه فيذكرون الربا والثراء والرواج والزواج والهم

***

كنت لدى ساقية الغيط الراقدة فى كِلَّةٍ من أغصان الصفصاف المرسلة حين ارتفع صوت أمينة الحنون بالأغنية التى ذكرت بعضها فى مطلع هذا الفصل . وكان الحصَدَة من رجال ونساء يزحفون إلى القمح بمناجلهم صفاً فيتركونه وراءهم أضغاثاً من الحصيد منظومة الأسافل والسنابل ، ثم يعودون الحين بعد الحين فيركونها حُزَماً غليظة ويَدَعونها تنتظر النقل على الجمال إلى البيدر

وأجمل ما فى ليالى الحصاد منظر الحقول المنبسطة على مدى الطرف وقد ضربت فى صفرتها أضواء القمر فابيضت ابيضاض المصريات الحسان ؛ ومجالسُ الشباب والشوابّ على حصائد القمح الوثيرة يديرون بينهم سقاط الحديث الفكه ، و يتبادلون فى احتشام كنايات الغزل الحيي ؛ وغناء الفتيات وزمْرُ الفتية يتواردان على سمعك من قريب ومن بعيد ، فيفعلان فى نفسك ما لا يفعله الموسيقار الحاذق ؛ ثم نوم هؤلاء وهؤلاء فى الهزيع الأخير على فُرُش من الحصيد تكلاهم عين العفاف وتتمثل فى أحلامهم صور الفضيلة . فإذا ما تنفس الصبح على وجوههم المطلولة هبوا إلى القناة يتوضأون ويصلون ، ثم يعودون إلى مناجلهم على أنشط ما يكون الفتى ، وأرضى ما يكون المؤمن

***

أبداً لا أنسى أننى قضيت معهم تلك الليلة ، ثم نمت هذه النومة ، وقمت هذه القومة ، وأسفر عليَّ ذلك الصباح الضاحك المنضور فأبصرت مسالك القرية تسيل بحاملات الفطور للحصاد ، وسائقات الماشية للمرعى ، ولاقطات السنبل من بنات الفقر ، فكان لي من جمال تلك العشية وضحاها ، لذة لا أزال أنعم بذكراها ، وأتمناها !

احمد حسن الزيات

تأملات فى الأدب والحياة

للأستاذ إسماعيل مظهر

شذوذ

تاريخ الصراع الأدبى فى مصر ، وتاريخ الصراع السياسى ، يتلخصان فى معارك تقوم بين أشخاص ، ولقد أدركت هـذه الظاهرة النقد أيضاً . فتاريخ النقد فى مصر عبارة عن موازنة بين كاتبين أو شاعرين يحاول الناقد أن يعلى أحدهما على الآخر . أما مذاهب الأدب ومذاهب السياسة ومذاهب النقد . فهذه لاقيمة لها فى نظر الأديب ولا فى عرف السياسي ولا فى تقدير الناقد وعامة ذا شذوذ ، بل خروج على طبيعة الأشياء

أفهم أن يقوم الصراع الأدبي بين مذهبين يمثلهما كتاب أو شعراء يمتنقون في الأدب مذهباً محدود المرامي بيِّن الغايات . وأفهم أن يقوم الصراع السياسى بين أحزاب تقتتل على مبادئ عامة تتعلق فى أكثر الأمر بالخير المنشود للعـدد الأكبر من الناس . وأفهم أن يقوم النقد على فكرة منطقية يقتنع الناقد بصلاحيتها وحقها فى البقاء ، فيمضى فى نقد الكاتب أو الشاعر انتصاراً لتلك الفكرة . وأفهم فوق هذا كله أن يقتتل كاتبان ولـكن انتصاراً لمذهبين يمتنق كل كاتب مذهباً منهما ، والغلبة للأصلح من المذهبين . أما الذى لا أفهمه ولا أستطيع أن أفهمه يوماً من الأيام، فأن يتطوع ناقد لنصرة كاتب على آخر ، أوشاعر على شاعر غيره احتساباً لوجه الله الـكريم ، من غير أن يكون الناقد فى نقده مخلصاً أول شىء لمذهب بيّن فى الأدب يمتنقه الـكاتب المنتصر له

وما أبرئ نفسى ؛ فإن عدم قدرتى على فهم هذه الأشياء قوة لم أشهدها في نفسى إلا منذ عهد قريب ، وما بعثها إلا ذلك الصراع الذى قام على صفحات (الرسالة) بين أنصار صديقى الأستاذ العقاد، وصديقى المرحوم الأستاذ الرافعى، صديقان مات أحدهما وأدعو الله أن يمد في عمر الآخر . سكت أحدهما وطواه الزمن ، وصمت الآخر على ما كان بينه وبين الأديب الراحل تجلة للموت وتحية لذكرى أديب جاهد فى سبيل الأدب ، ودفناً لحزازات ما أجدر الموت أن يكون ماحياً لآثارها وذكرياتها

لقد صمت صاحب الحق الأول ؛ وما كان ليتكلم وقد خلا الميدان من مناظره ، وهو يعلم أن الـكلام فى مثل هذا الظرف جريمة فى شرعة الأدب ، بل خطيئة من النكرات

صمت صاحب الحق وتكلم غيره احتساباً ، وحاشا أن أقول هنا لوجه الله ، لأن الله لا يأمر بأن تنبش الحزازات وتحتفر الضغائن ويكشف عن السيئات دون الحسـنات . أم نقول قولة أنطونى على جثة قيصر : « إن الشر الذى يعمله الناس يعيش من بعدهم ؛ أما الخير فيدفن مع عظامهم ؟ ! »

ولست أدرى أى وصف توصف به هذه القضية لو تقدم بها خصم ثالث إلى مجلس حسبي ينصب لمحاكمة الأدباء ؟

لتغير التاريخ

قرأت ، كما قرأ غيرى ، قول بمض المؤرخين : « لو لم يكن كذا لتغير التاريخ » . وهو قول ظاهره خلاب جميل ؛ قول سمته الحق ، ولـكنى لم أر حقاً يراد به باطل أكبر من هذا الحق قيل مثلاً : لو أن أنف « إقليو فطرا » كان أقصر قليلا مما شاءت الطبيعة لتغير التاريخ . ولماذا؟ لأنها كانت بأنفها «الأقصر قليلا » تستطيع أن تنوى « أوكتافيانوس » كما أغـوت « أنطونيوس » من قبله . وإن نظرة أولية فى هذا الـكلام تدلنا على أن ما فيه من الحق إنما هو بمثابة البرق الخلب ، يبهر النظر ويأخذ باللب ، ثم لا يترك فى نفسك من الأثر إلا أثر اللمحة العابرة تستذكرها ، ولـكنك قلما تفكر فيها قليلا . فمن ذا الذى أعلمنا أن أوكتافيانوس ، قائد الرومان المظيم ، وأول أباطرتهم المظام ، كان يستنويه أنف دقيق ولا يستنويه أنف طويل ؟ وعلى أية قاعدة نحكم بأن ذلك القائد كان على استعداد لأن يُنوى ، دق أنف الملـكة المصرية أوكبر ؟ أما الحق فان أنف « إقليوفطرا » قد ظلم

وقيل أيضاً : لو لم يظهر نابليون لتغير التاريخ . وجملة ما فى هذا القول من الحق فى معتقدى أن التاريخ ما كان ليتغير إلا بأن يحذف منه اسم نابليون ليحل محله قائد آخر يفعل من الأشياء ويحدث من الأحداث ما قد أدت إليه أعمال نابليون بالذات ،

وما يصح عن نابليون يصح عن هنيبال وعن الاسكندر الأكبر وعن غيرهم من العظماء الذين نقول اعتباطاً إنهم غيروا التاريخ

لو صح قول القائلين: «لو لم يكن كذا لتغير التاريخ» لبدت الانسانية فى صورة مجاوات تضرب فى فيافٍ وقفار، وتخبط فى ظلمات مدلهمة خبط عشواء، تقبض على زمامها شهوات الأفراد وتقودها نزواتهم وانفعالاتهم، وتصرف أمورها أخيلة قلة من الناس فى مقدرتهم أن يخلقوا التاريخ ويبتكروا المستقبل ابتكاراً من غير أن يتقدم ذلك الابتكار أية مقدمات تسوق إليه، على العكس من كل تناسب فى نظام التطور الاجتماعى، وعلى الضد من المنطق المدرك من نظام الطبيعة

أما إذا أردنا أن تثبت هذا المذهب فينبغى لنا أن نحلل مثلا أو مثلين مما ذكرنا. أما مثل «إقليوفطرا» والقائد الرومانى، فان حوادث التاريخ ذاتها تدل على أن الحنق كان قد ملأ قلب أوكتافيانوس تلقاء ملكة مصر وزوجها أنطونيوس حتى ليتعذر معه أن يجد جمال إقليوفطرا أو فتنتها طريقاً إلى قلبه

كان أنطونيوس وأوكتافيانوس صديقين اقتسما القوة والبطش فى رومية، وقضى أنطونيوس على قتلة قيصر فى سلسلة من المواقع المشهورة، ثم نزا الشيطان بينهما ففرقت بينهما المكائد والدسائس، ثم تصافيا وتزوج أنطونيوس من شقيقة أوكتافيانوس توثيقاً لصداقتهما، ثم سافر إلى الشرق فالتقى بالملكة المصرية وتزوج منها وهجر رومية ومن فيها، ثم استبان الرومان أن ملكة مصر تحاول من طريق عشيقها الرومانى أن تذل رومية وأن تصبح ملكة الدنيا، فقام الصراع بين مصر ورومية وانتهى بمصرع العاشقين. فهل هذه مقدمات يمكن أن تؤدى إلى غير ما حكم به منطق الواقع؟ وهل كان من المستطاع أن يغير أنف الملكة المصرية من مجرى هذا التاريخ شيئاً، قصر أم طال؟

وكذلك الحال في نابليون. فإن الثورة الفرنسية وما طلّ فيها من الدماء وما أحدثت من تخريب وما ذاع فيها من الخيالات وشاع من الأوهام، وتفكك بلاد ألمانيا وضغط إيطاليا وانحلال أسبانيا، وتيقظ الروح الحربى فى فرنسا لما أن هاجها أعداؤها ومراجل الثورة يغلى فى بطنها؛ جماع هذا كان من شأنه أن يبعث «نابليوناً» مّا، لو لم يكن بونابرت لكان غيره، ولأحدث من الأحداث ما كان من الطبيعى أن يؤدى إلى نفس النتائج التاريخية التي أدت إليها أعمال نابليون هذا بالذات

وإن شئت فقل إن هذا كان شأن الاسكندر الأكبر. فان الصراع بين بلاد فارس وبلاد الأغريق فى آسيا الصغرى وفى أغريقية الأوربية بالذات من طريق البحر كان صراعاً مأثوراً بين الأمتين قبل عصر الاسكندر. وكذلك كانت السياسة التى اتبعها الملك فيلبس والده، فقد كانت سياسة حربية رمى بها إلى توحيد كل العالم الهلّينى تحت لواء مقدونيا، فجيّش الجيوش ونشّأ القواد وأحيا روح البطولة في رجاله، وهم بطبعهم من سلالة جبلية فيهم شيمة القبيلة وطابع العنصرية. ولما مات فيلبس ورث عنه الاسكندر فيما ورث جيشاً منظماً كان قد أعده للزحف على الشرق عشية مقتله. ولو أردنا أن نعدد الوقائع الكبرى فى تاريخ الاسكندر لما عدونا الثلاث عداً. هى: موقعة غرانيقوس وموقعة إسّوس وموقعة أربل. أما مابقى بعد ذلك فليست مواقع كبرى، وما عدا ذلك من حياة الاسكندر فحصار لبعض المدن ومخاطرات هى إلى الجنون أقرب منها إلى العقل. فهل جميع هذه المقدمات المادية الثابتة، والتى يزيدها ثباتاً تقلقل الامبراطورية الفارسية فى عصر دارا الثالث واستخدامه لمرتزقة من الأغارقة عملوا فى جيشه جنوداً وقوّاداً، كانت تمحي وتزول لو لم يظهر هذا الاسكندر؟ إني أعتقد أن الاسكندر لو لم يظهر لظهر غيره ففعل فعله، وبقى غدير التاريخ متدفقاً فى نفس الاتجاه وإلى الغايات التى رسمتها جميع هذه المقدمات التى ذكرنا

إن الانسانية ولا شك تقودها يد خفية، ما الاسكندر وهنيبال وأوكتافيانوس إلا ألاعيبها، ماهم إلا الكرات التى يضربها الصولجان إلى الأهداف المرسومة؛ ماهم إلا اللحن الذى يسجله القدر على صفحات التاريخ.

فلسفة وفلسفة

الصورة التى تلابس الفلسفة لا تحكمها الطبائع الخاصة لكل جيل من أجيال البشر ولا طبيعة البقعة التى يحتلها ذلك الجيل من كرة الأرض لا غير، بل إن للنظامات المدنية وأثر المعاهد فى حياة الحكومات والأفراد أثراً فيها كبيراً. أما إذا أردنا أن

بجلو عن هذه القضية فينبغى لنا أن نمضى فى مقارنة نسوقها فى الفارق بين أمتين كبيرتين من أمم العصر الحاضر ، امتازتا بضربين من الفلسفتين لـكل منهما طابع مستمد من خصائصهما الأصيلة ، هما انجلترا وألمانيا

إن نظرة دقيقة لتثبت لنا أن فلاسفة الألمان يشغلون فى عالم الآداب الانسانية مكاناً غير المكان الذى يشغله الانجليز . وأول شيء يستلفت النظر أن النبع الذى يفيض بالفلسفة فى انجلترا ، بصرف النظر عن بعض الشواذ ، لم يكن الجامعات الانجليزية ، ولا الرجال الذين اشتغلوا بمهنة التلقين فيها . هذا على العكس مما هو فى ألمانيا ، فإن كنز الفلسفة ومشعل الحكمة كان على الدوام فى أيدى أساتذة الجامعات

ونظرة أخرى . فانه لا شك مثلاً فى أن إسرافاً كبيراً يحل بالجهود العقلية، وانحرافاً عظيماً يعتور البحوث الفلسفية إذا لم يهيمن على أمثال هذه الاشياء النظام المدرسى والروح الأقاديمى . ولـكن فى التحرر من هذا النظام وذلك الروح لقيماً أخرى لها من الشأن مايعوض على الآداب ما تفقد بالتحرر من الروح الأقاديمي الصرف. فان الباحث الذى يلم بنفسه ويشمر بكرامة العصامية العلمية التى يحوزها بجهده الذاتى لهو بذاته من تدعوه «المفكر المستقل» المتحرر من آثار تلك الظاهرة التى تدعى الاتمارية ، ومعناها الأقرب الاتفاق بين فئات من المفكرين على الترويج لمذهب بعينه أوفكرة بذاتها أو نزعة ما . فان المفكر المستقل ، وتلك أولى مميزاته ، إنما يكب على درس مشكلات الفكر والحياة ، لا لأن من الواجب عليه أن يقول شيئاً فيها ، كما يحتم النظام على أصحاب الوظائف ، بل لأن تأملاته أدت به إلى إدراك معضلات حقيقية ، فهو يعمل على حل مُغلقها وفك طِلسماتها .

وفى الفلسفة الألمانية ظاهرة أخرى . فقد تقيدت تلك الفلسفة خلال عدة قرون متتالية بتقاليد خاصة وانتزعت اصطلاحات بعينها واستعمالات بذاتها ، تنزل من الفكر منزلة تسمو على عقول الأوساط من المتعلمين ، وتقيد عقول الخاصة بنظام يجعل الخروج على مقرراتها من أصعب الأشياء . وعلى الجملة تمتاز الفلسفة الألمانية باحكام الفكرة وأسلوب التفكير ، مشفوعة بقوة ممتازة فى التحليل المنطق ولـكن هذه المميزات لها ما ينتقصها . فقد قيل ، وقيل بحق ، إن الفلسفة فى ألمانيا يكتبها الأساتذة ، إما لأساتذة ، وإما لفئة يحاول أفرادها أن يصبحوا أساتذة . وكاتب الفلسفة الألمانى من أجل أن ينال الحظوة عند الخبراء بالفلسفة أمثاله ، يبتعد عن الاتصال بجمهور القراء ، فلا يكون لما يكتب أثراً فى الحياة العامة ولا في تكييف الذوق العام للأمة

هنالك مظهر آخر . فإن الفلسفة الألمانية لشدة ارتباطها بالنظام القائم فى بيئتها ، التصقت أيما التصاق باللاهوت ، وتلونت فى غالب الأمر باللون الذى يوائم ذوق الدولاب الحكومى . لقد اتخذت الفلسفة الألمانية وسيلة لصب النشء فى قوالب خاصة ترضاها الحكومة . لهذا اتصفت تلك الفلسفة بشيء من الجمود ولبست ثوباً حكومياً شل اتجاهاتها الطبيعية ، على الرغم من أنها كانت الأثر الفعال ترقية الأهلية الحكومية فجعلتها تتجه نحو المثل العليا

أما الفلسفة فى انجلترا ، وهى كذلك في فرنسا ، فقد كانت اللسان الناطق بالمعارضة لـكل المعتقدات الرسمية للدولة ، ومنابذة صور الفلسفة القديمة التى اتخذت معاقلها الحصينة فى حدود المؤسسات الكنسية . ولفظة فيلسوف فى انجلترا وفرنسا ، قد اقترنت دائماً بمعنى حرية الفكر والتحرر من قيود المأثور ، بل فهم منها معنى الألحاد ومعاندة كل ما تقرر فى الأذهان من العقائد والآراء . وعلى الرغم من مختلف الصور التى لابست الفلسفة الانجليزية منذ عصر هوبز إلى بنتام ، ومن لوك إلى هيوم ، فان الغرض الذى رمت إليه لم يتغير ، ولم يخرج يوماً على حرية الفكر وهي مصدر الابتداع والابتكار

ونحن إذ نرى أن الفلسفة الألمانية قد التزمت مصطلحات بعينها واتخذت لنفسها لهجة بذاتها . إذا بنا نجد أن الفلسفة الانجليزية قد كتبت باللغة الدارجة فى الأدب . وعلى الضد من هذا تجد الأولى ، فإنك لا شك واقع فى فلسفة « كنت » وفى كتابات الـكثيرين ممن عقبوا عليه ، على عبارات هى عند أهل لغتهم أنفسهم كتاب مغلق بسبعة أقفال

لقد اعتقد بعض النقاد ، ولعلهم اعتقدوا بحق ، أن هؤلاء الفلاسفة قد اكتفوا فى كتابة الفلسفة بأن يفهم بعضهم بعضاً ، غير آبهين بأن يفهمهم غيرهم . لقد هام فلاسفة الألمان بالغموض

حتى لقد نمتهم أهل بلادهم أنفسهم بأن فلسفتهم تعميه مقصود في سبيل العلم

في سبيل العلم ما احتمل غليليو ، فقد قال إن الأرض هي التي تدور حول الشمس ، على الضد من العقيدة اللاهوتية التي اعتنقتها الكنيسة الرومانية . لما همّ رؤساء الكنيسة باتهام غليليو كان مؤلفه قد ذاع في أنحاء أوربا ، فزاد ذلك غضبهم عليه وتبرمهم به . وكان على رأس الكنيسة « إربان الثامن » . ولم يكن بابا لاغير ، بل كان أميراً من بيت « بَرْبَرِيني » ، فأخذته العزة بالاثم وأمر بأن يمنح غليليو وكتابه هبة منه لمحكمة التفتيش

وعبثاً حاول « كاستلي » البندكتي أن يقنع رجال الكنيسة بأن غليليو يحترم الكنيسة ولا يهزأ بعبادتها ؛ بل سدى ضاعت كل جهوده في سبيل أن يثبت لرجال الدين إذ ذاك « أنه ما من شيء يمكن عمله ، من شأنه أن يمنع الأرض من الدوران » . ولكنه طرد ونفي منضوباً عليه مقصياً به عن الكنيسة ، وقسر غليليو على أن يقف أمام تلك المحكمة الرهيبة واحداً فرداً بلا مدافع أو نصير . وهنالك عذّب مراراً حتى اضطر إلى أن يعلن جاثياً على ركبتيه الاعتراف الآتي :

« أنا غليليو ، وفي السبعين من عمري ، سجين جاث على ركبتي ، وبحضور فخامتك ، وأمامي الكتاب المقدس الذي ألمسه الآن بيدي ، أعلن أني لا أشايع ، بل ألعن وأحتقر ، خطأ القول وهرطقة الاعتقاد بأن الأرض تدور[1] »

إنه ولاشك قد غُلبَ على أمره ، لأنه قسر على أن يظهر أمام كل الأجيال القادمة بمظهر الحانث بملء المضحي بعقله ويقينه ومن أجل أن يتم انتصار الكنيسة عليه ، وأن يودي بكل ما بقي له من شرف النفس ، اضطر برغم منه أن يقسم بأن يفضيَ إلى محكمة التفتيش بأمر كل رجل من رجال العلم ، يقول بهرطقة القول بدوران الأرض

ولقد أثار قسم غليليو هذا عجب الكثير من أهل زمانه ومن المؤرخين ، حتى أن ذلك كان سبباً في أن يتنكر عليه بعض أبناء عصر نعت « الشهيد » . غير أن هؤلاء لم يقدروا ظروف الرجل قدرها . فلقد كان شيخاً كبيراً عُمِّر إلى السبعين من السنين المثقلة بالهموم والأحزان ، وحطمته آمال الدنيا ومخاوفها ، وهدّمته متاعبها وواجباتها . وكم سعى متلهفاً من « فلورنسا » إلى « رومية » مكباً على وجهه ونصب عينيه تهديدات البابا ، بأنه إذا تأخر عن القدوم « أخذ في الأغلال » . وكان فوق ذلك مريض الجسم مهوك العقل ، سُلِّم إلى أعدائه بيد الذين كان من الواجب أن يحموه . ولم يكد يبلغ « رومية » حتى احتوته غرف التعذيب وانصبت عليه الآلام ألواناً . ولقد كان يعرف جيداً ماهي محكمة التفتيش . وكان يلوح له شبح « جيوردانو — برونو »[2] بين الهيب ماثلاً أمامه ، كأنما ذلك كان بالأمس الفارط ، وفي نفس تلك المدينة ومن أجل « هرطقة » العلم والفلسفة . وكان يتذكر أنه من قبل ثمانية أعوام أحيط برئيس أساقفة « إسبالاترو » وسلم إلى محكمة التفتيش متهماً بهرطقة العلم ، وبقي بين براثنها إلى أن مات في غيابات السجن ، وإن جثته أحرقت بعد الموت مع ما كتب برأي من « المؤمنين »

ولقد استمر اضطهاد « غليليو » كل أيام حياته ، بل بعد مماته . لقد بقي في المنفى بعيداً عن أسرته ، بعيداً عن أصدقائه ، مقصياً عن صناعته النبيلة ؛ وقسر على أن يظل خاضعاً لعهده بألا يتكلم في نظريته . ولما أن توسل إلى أعدائه ، وهو بعد يعاني أشد آلام المرض وأعظم تباريح السقام ، مقرونة بأقسى الآلام النفسية التي سببتها الكوارث التي نزلت بأسرته ، طالباً أن يمنح من الحرية بعض الشيء ، كان التهديد بالقائه في غيابات السجن ، الجواب على ملتمسه الصغير . ولما أن قررت لجنة خاصة عينتها السلطات الكنسية بأنه أصبح أعمى لا يبصر ، وأنه ذهب ضحية المرض والحزن ، منح بعض الحرية ، ولكن بحدود جعلت تلك الحرية استعباداً

ولقد أجبر على أن يواجه هجمات أعدائه على ذاته وعلى نظريته هجمات الازدراء والسخرية والتضليل ، من غير أن ينبس ببنت شفة أو يحرك بالرد لساناً . ورأى الذين محضوه الصداقة والحب والاحترام ، ينزل بهم العقاب الصارم والظلم الفادح . فنفى « كاستلي » . ورأى « ريكاردي » رئيس البلاط المقدس و « شيامبولي »

(١) يقال إن غليليو بعد أن أعيد بعد اعترافه إلى السجن ضرب الأرض بقدمه قائلا « ولكنها تدور »

(٢) فيلسوف أحرق حياً بأمر من محكمة التفتيش

سكرتير البابا بيمدها « إربان الثامن » عن وظيفتيهما محقرين، ورأى عضو محكمة التفتيش في « فلورنسا » يوبخ أقذع توبيخ لأنه أمر بطبع كتابه. وعاش ليرى الحقائق التي استكشفها تكتسح من الكليات الكنسية ومن كل جامعات أوربا، بل ليرى عضو محكمة التفتيش يأمر بأن يستبدل كل نعت طيب يرد به ذكره في أي كتاب يراد طبعه، بأخبث النعوت وأحط الذكريات

ومات غليليو. فطلب إلى رجال الكنيسة أن يدفن في مقابر أسرته في « سانتا كروتشي » فأبوا. وأراد أصدقاؤه أن يقيموا فوق قبره أثراً تذكارياً فلم يسمح لهم. وقال البابا « إربان الثامن » « لنيكوليني » وهو السفير الذي كلف بأن يعرض بعض المطالب الخاصة بغليليو الميت عليه ما يأتي:

« إنه لأسوأ مثل يعطى للناس ان نسمح بتكريم رجل وقف من قبل أمام محكمة التفتيش الرومانية لأنه روّج فكرة مثل فكرته الملوءة بالخطأ والكفران. ولم يقصرها على نفسه بل أقنع بهـا غيره، فأحدث بذلك أعظم فضيحة عانت أمرها النصرانية »

ونفذت إرادة البابا ورجال محكمة التفتيش، فدفن غليليو من غير تكريم بعيداً عن أسرته، ومن غير تأدية أي واجب دينى ومن غير أن يقام على قبره نصب أو تاريخ يشير إلى العظمة المخبوءة في ذلك الرمس الذي ضم رفاته

ومضى على ذلك أربعون عاماً جرؤ بعدها « بيروزى » أن ينقش على قبره تاريخاً يشير إلى حيث دفنت تلك العظام النبيلة. وبعد مائة سنة استطاع « نيللى » أن ينقل رفاته إلى مسقط رأسه ليضعها في مكان لائق بها، وأقام عليها نصباً. وكانت النار ماتزال مستعرة والعداء مستحكما، فقد طلب إلى رجال محكمة التفتيش أن يحولوا دون هذا التكريم « لرجل اتهم بمثل ما اتهم به غليليو من السيئات والخطيئات » ولهذا رفضت السلطات الكنسية أن يكتب على قبره الجديد أي تذكار مالم يعرض نصه على هيئتهم المختصة بمراقبة المطبوعات

فياله من علم ويالها من حياة!!

اسماعيل مظهر

فلسفة التربية

تطبيقات على التربية في مصر

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ٢٠ —

« ... وثقافة الانسان لا تقدر بمقدار ما قرأ من الكتب وما تعلم من العلوم والآداب، ولكن بمقدار ما أفاده العلم، وبمقدار علو المستوى الذي يشرف منه على العالم، وبمقدار ماأوحت إليه الفنون من سمو في الشعور وتذوق للجمال! » (١)
« أحمد أمين »

« للرجل المثقف جسم خاضع لارادته، وعقل صاف متئد القوى سهل العمل مليءٌ بما في الطبيعة من حق عظيم وقوانين كلية؛ هذا إلى امتلاء بالحياة المنسجمة الخادمة لضميره الحي، وإلى حب للجمال وكره للقبح، وإلى احترام للنفس وللناس، وإلى وفاق تام مع الطبيعة يفيدها فيه ويستفيد منها، ويسير معها كوزيرها أو ترجمانها وهي كأمه الحنون! » (١)
« هكسلي »

١٠ — خريج اليوم

« تابع ما قبله »

عرضت عليك في المقالين السابقين صورتين لخريج اليوم واحدة لعقله وأخرى لخلقه. وسأعرض عليك في هـذا المقال صورتين أخريين إحداهما لذوقه والأخرى لجسمه:

١ — الناحية الذوقية

وأحسبك لا تشك في جدارة هذه الناحية في حياة المثقفين وغير المثقفين على السواء، كما أحسبك ترى معي أن « الحياة الرفيعة » محتاجة إلى « فن » دقيق عظيم قوامه الذوق السليم والعاطفة المصقولة، والشعور الحي، والعقل المتزن جميعاً. فترى هل يعرف خريجونا هذا « الفن » في حياتهم الخاصة والعامة، كما يعرفه الانجليز والألمان والفرنسيون على الخصوص؟؟ الحق أن دراستي الاجتماعية في مختلف البيئات الأوربية قد كشفت لي عن فقر مدقع وفوضى أليمة يسيطران معاً على حياة المثقفين عندنا

(١) عذراً لتكرير هذين القولين في هـذا العدد أيضا لأنهما كما قلنا المقياس الذي نقيس به خريج اليوم

ويملأ آنها بشتى صنوف العبث والاسفاف والجهل والاضطراب ؛ وهاك بعض ما يثبت ما أقول :

الوقت والفراغ والذوق

والوقت كما تعرف سيف قاطع ؛ فهل ترى الخريجين يستغلون كل ساعاته ودقائقه فيما يعود عليهم بالخير ؟ ؟ ألا كم من ساعات وأيام وأسابيع تمر عليهم دون أن يخرجوا منها بشيء ! ! وألا كم من لحظات تسألهم عما يفعلون فيها فيجيبونك بأنهم إنما « يمضون الوقت » فحسب ، ومعنى هذا أن الوقت عند خريجينا لا قيمة له ولا خطر ، وأنهم لا يحرصون بعد إذ ينالوا درجاتهم العلمية على حسن الاستفادة منه في كثير ولا قليل ، فان هم قصدوا بعد ذلك إلى الترويح عن نفوسهم أثناء فراغهم من عملهم اليومي فقلما يأتي ذلك الترويح على ما ينبغي أن يكون ! ذلك أنهم قليلا ما يغشون الحدائق العامة، أو يزورون المعارض الفنية والمتاحف العلمية، أو يطرقون المواقع الهادئة الخالية من الحركة والضجيج، ونادرا ما يمارسون الرسم أو التصوير أو القراءة الأدبية أو الأشغال اليدوية الفنية وشبه الفنية ؛ وأغلب ما عساك واجدهم فيه بعد هذا هو المقاهي حيث يتحدثون حديثاً تافهاً أو يهذرون هذراً فجاً . أو المسارح الخليعة حيث يصفقون للرقص المبتذل ، ويضحكون على النكات السمجة ، ويعجبون بالفن الذى هو والتهريج سواء[1] ، أو دور السينما حيث يشهدون ما تزدحم به الحياة الغربية من حب غير مشروع ومن استهتار أليم يغذى خلق الفتيات والفتيان عندنا بأسوأ الدروس! أليس كذلك ؟ حدائقنا الجميلة العامة من يملؤها وينعم بها كل يوم وكل أسبوع غير الأجانب ؟ وتمثيلنا الفنى الراقي ألم يكد ينتحر تحت ضغط المسارح المبتذلة والأفلام الكثيرة ذات المعنى السطحي والعرض الخلاب ؟ ومعارضنا الفنية الراقية من يزورها ويطيل الوقوف فيها ويشجع ذويها بالشراء والاعجاب غير أقل القليل من المثقفين ؟ ومحاضراتنا العلمية أو الفنية من يتردد عليها ويستفيد منها غير جمهور « الطلبة » على وجه الخصوص ؟

والاطلاع الأدبي الفنى هل تجد له أثراً عند غير رجال الأدب كالمحامين والأطباء والمهندسين وغيرهم من أولئك المعتزين بثقافتهم ومهنتهم إعتزازاً لا يرون معه أن للأدب أو الفن فضل في الحياة أو نفع ؟ ومجالسنا الخاصة ألا يدور فيها الحديث التافه والنكات المبتذلة ، وألا يعلو فيها صوت المتحدثين أحياناً على صوت الغناء المنبعث من آلة الراديو حتى ليتعذر عليك أن تطرب للموسيقى والإنشاد وتتغنى فيهما تماماً وأنت في وسطها ؟ ثم ومنازلنا ؟ أفى كل منها مكتبة كما فى المنازل الأوربية ؟ وأتزين حجراتها تلك الصور البديعة التي لا يكاد يخلو منها منزل غربى ؟ وأخيراً أترى طريقة نقاشنا وأسلوب معاملاتنا يتفق وأصول الذوق السليم والحس الرقيق والشعور الحى ؟ أترى نرسل اللفظ بقدر وحساب ونعامل الزوجة والولد والخادم والقريب والبعيد بما ينبغي أن تكون عليه المعاملة المثلى ، فنعطى لكل حقه ، ونرعى لكل عهده ، ونحفظ فيما بين هذا وذاك قدرنا فى عين الجميع ؟

يقول الانجليز إن « الرجل الدمث » الأخلاق هو ذلك الذى يعطف على الخجول ، ويرحم السخيف ، ويرعى الجميع فلا يثير ما يجرح الشعور ولا يعلو لصوته فى المناقشات ، ذلك الذى لا يفخر بما يعمل ويبدو فى إعطائه كما لو كان هو الآخذ ، ذلك الذى لا يستمع للوشايات ويفسر كل شيء من ناحيته المشرقة! » فترى أين هو ذلك الرجل فينا ؟

ستقول إنك تطلب من التربية كل شيء وترهقها من أمرها عسراً ؟ . وسأقول وما جدواها إذا هى اكتفت بحشو العقول وتركت الذوق لجاء غير مصقول ؟ وهل نعيش فى حياتنا بالعقل فحسب ؟ ألا إن جانب العواطف والشعور أقوى فى الحياة من جانب العقل ، فإذا هى تركت هذا الجانب وأهملته فلن يكون تقصيرها إلا فادحاً شنيعاً ! إذ ماعسى أن تكون الحياة بغير عاطفة مهذبة وذوق سليم وشعور حى ؟ وإلى أين نلجأ فى صحراء « العقل » إذا لم نلجأ إلى واحة « الشعور » ؟ وكيف نوفق فى معاملة الناس وفى حفظ قدرنا بينهم إذا لم يكن لنا ذوق سليم وشعور حى ؟

٢ — الناحية الجسمية

أما هذه الناحية فأحسب الكلام فيها يسيراً ! . الرياضة عندنا غير محبوبة عند الأكثرية الساحقة ، والأقلية التى تمارسها

---

(١) ولا تزال أغلب رحلات خريجينا فى أوربا مشوبة مع الأسف بالاهتمام الزائد بهذه النواحى الفنة فى الحياة الأوربية . أما المعارض الفنية والعلمية فهم لا يزورونها إلا لماما ولا يعرفون عنها إلا قشوراً ، وحسبك أن تستمع إلى حديث حضراتهم لتصدق ما أقول

فى المدارس تسىء أحياناً استعمالها وقلما تستمر فيها إذا شغلتها الحياة وتقدم بها الزمن . ولذلك لا تعجب إذا رأيت أجسام الخريجين عندنا غير رياضية ، وإذا وجدت من الخريجين تقصيراً هائلاً فى أوليات الرياضة البدنية اليومية وفى كل مايقى الجسم غائلة الأمراض ويحفظ عليه مناعته الطبيعية ! وها أنت ترى أن الطلبة موبوئين بالعادات السرية ، وأن الخريجين مسرفين فى النواحى الشهوية عزاباً كانوا أو متزوجين ! وها أنت ترى أن طلبة المعاهد الدينية محرومين أو شبه محرومين من التربية الرياضية إلى حد عجيب كأن الدين لا يقر الرياضة ولا يعرفها ! وأن المدارس الأهلية كثيرة التقصير فى هذه الناحيــة إلى حد شديد ! ثم ها أنت ترى أن قليلاً منا من يدقق فى اختيار الغذاء اللازم لجسده ، ومن يعنى بتعرف حالته البدنية كل عام حتى يعد المدة لاتقاء الخطر ، وأن أقل القليل من ينامون مبكرين ويستيقظون مبكرين ولا يأكلون حتى يجوعوا فإذا أكلوا لم يشبعوا ... ! ثم ها أنت ترى أن الكهولة والشيخوخة يزحفان على شبابنا بسرعة عجيبة ، وأن الكثير من خريجينا يتناول الخمر إلى جانب التدخين فى سهولة ويسر ... !

فهل ترى بعد هذا أن مدارسنا قد نجحت فى تكوين « الشخصية الكاملة » المنشودة ، ذات العقل المنطق المستقل ، والعاطفة النبيلة المشبوبة ، والجسم السليم القوى ؟

« يتبع » محمد حسن ظاظا

بين الشرق والغـــرب

للأستاذ فليكس فارس

تتمة ما نشر فى العدد الماضى

يقول الناظر الكريم إنه كان يتمنى لو اتسع المجال لديه ليشرح لكم الثقافة الغربية والذهنية الآرية . فهو لم يزل يأخذ بالنظرية التى جاء الاستقراء العلمى واضحاً جداً لتبجح الآريين بها وما تلك النظرية إلا توهم اتخذ به نحو جبنو وأشياعه إذ قالوا بتفوق السلالة الآرية على سائر سلالات الأرض لتفردهم بشكل خاص فى جماجمهم، وبنوع خاص فى شعرهم، وبلون فارق فى جلودهم، فادعوا أن هــذا الشكل دون سواه من بنى الانسان يملك صفاء الذهن وقوة الاختراع والعبقرية بأنواعها . غير أن الاستقراء قد اضطر دهاقنة علماء — الأحياء — إلى الاعتراف بفساد هذه النظرية بعد أن رأوا أن الجماجم التى ينطح بها الآريون السحاب إنمــا يحمل مثلها تماماً أقزام أفريقيا الوسطى ، وأن شعورهم وجلودهم وسائر مميزاتهم الجسدية يتمتع بها كثير من القبائل والشعوب المنتشرة على وجه الأرض ...

ثم يقول الناظر لنا أننا إذا ما أخذنا بما اكتشفه الغرب من علم يمكننا التحكم بمقدراتنا فإننا نستطيع أن نغير عقليتنا لنقتبس طرائف الغرب التى توصلنا إلى خير النتائج

ولــماذا يجب أن تعمل الشعوب العربية على تغيير عقليتها وإنكار فطرتها وحوافزها التى تكونت من أعظم حوادث التاريخ طوال ألوف السنين مادامت هذه العقلية نفسها قد أنارت الدنيا بعلومها وآدابها واكتسحت الغرب كله بروحانيتها وشرائعها ؟

ولقد أورد الناظر استفهاماً إنكارياً بقوله ومتى أصلحت روحانية الشرق النفوس مادام العالم هو هو لم يتغير بشروره ؟

ونحن نقول له إن روحانية الشرق هى التى أسقطت ألوف الآلهة فى الغرب عن عروشها ، وأن الشعوب الآرية بدون استثناء أى عنصر منها إنمــا اهتدت إلى الحق والجمال فى منشأ حضاراتها بتفكير الشرق ووحيه وإلهامه

فاذا نحن رجعنا بالذكر إلى حضارة أوربا الوثنية التى بنيت

على خرافات الأساطير لا يسمنا بعد ذلك أن ننكر الواقع ونقول بأن الانسان كان سيهتدى دون أن يهدى

أما ما قاله الدكتور بازوفيل للمناظر مصرحاً له « بأنهم سيصلحون بالعلم من البشر ما عجزت الأديان عن إصلاحه منذ ألوف السنين » فنقول بطرح على بساط البحث مسألة خطيرة لا نرى بداً من إلقاء نور المنطق السامي عليها .

إن العقلية الآرية المعززة بالعلم والثقافة العالية ستقطع دابر الاجرام بوسيلة علمية هي تعقيم المجرمين .

وأنا أحد أبناء هذه الأمة العربية التي يدعي الآريون قصورها في ميدان التفكير ، أنا على ما أنا عليه من ضيق الاطلاع وفي قوى من رجال العلم من لا يُشق لهم غبار ، أستنير بعقليتي السامية وبإيماني في العربي المكين فأقول لعلماء الغرب لقد ضللتم وأقول بخاصة إلى الدكتور بازوفيل إنه مغرور بعلمه وإنه لا يداوى من العلة إلا أعراضها

إن الغرب يرى تكاثر عدد المجانين والبلهاء والمجرمين في شعوبه فلا يبحث عن منشأ العلة ليداويها بل يعمد إلى تعقيم ضحايا مدنيته وثقافته ظناً منه أن هناك بعضاً من الأسر المصابة بداء وراثي وإنه إذا قضى على تناسلها خنقت العلة في منشأها !

ويلٌ لهم ! إنهم إذا استمروا على هذه المعالجة فإنهم سيعقمون ثم يستأنفون التعقيم إلى أن يقضوا على النسل بحجة تحسينه

إن للأجرام وللجنون وللبله جراثيم لم تتولد أصلاً من الأرحام.

ليفتشوا على هـذا الجراثيم فانني أراها بعين الخيال الشرقي والالهام العربي مكبرة كالثعابين تتململ في المراقص وفي الحانات وفي المواخير التي أراها تكتسح هذه المعامل التي فتحت فيها الآلات أسواق النخاسة القاتلة ، أراها في كل مكان لا تسود عقليته الرحمة الموحاة من السماء ، بل أراها حتى على فراش الزواج الذى أصبح تجارة وشركة بين أنانيتين .

ليعقموا ما شاءوا من المجانين والمجرمين ، فإن هذه الحضارة التي أقامت العجل الذهبي لها إلهاً ستقذف للدكتور بازوفيل وإخوانه بألوف من الزبائن لا ينتهى عددهم حتى ترجع مدنية الغرب إلى عقلية الشرق وثقافته

أما فرويد فنظريته صحيحة في هذه الأمراض النفسية التي تفتك فتكاً ذريعاً في أبناء المدنية الغربية ، وما كانت مثل هـذه الأمراض لتعيب أبناء بلادنا في العصور الماضية إلا في القليل النادر لأن الذهنية الشرقية لم تحارب الغريزة الجنسية بل اعتبرتها جزءاً من إيمانها . وما التبتل إلا بدعة طرأت على تعاليم عيسى فاحتضنها الغرب وجعلها على ما هي والشرق منها براء ، وهذه شريعة النبي الكريم قد أتت بما لا حاجة لنا معه بمنظار الذهنية الغربية الذى كشف للعالم كما يقول المناظر إن الحياة الجنسية نور الحياة . وإنني لواثق من أن مثل هـذه الأمراض النفسية التي تنشأ من كبت الغرائز لا يمكنها أن تصيب مؤمناً عربياً يعمل بشريعته لأن الدين دين الفطرة قد أنزل لتنظيم قوى الحياة لا لقتلها

وأخيراً أراد المناظر الكريم أن يثبت لنا أن الموسيقى الغربية خير من موسيقى الشرق وحجته العلمية في ذلك أن الغناء العربي إنما هو هتاف بصوت واحد في حين أن الغناء الأفرنجي غني بما فيه من طباق بين عدة أصوات

ونحن إذا ما صرفنا النظر عن الغرائز المستقرة في العقل الباطني والتي يصدر عنها الفني الخاص بكل أمة وبحثنا الموسيقى من وجهة علمية استقرائية نجد أن الموسيقى العربية أصدق تعبيراً للطبيعة وأدق تصويراً للمشاعر بعديد نغماتها في الصوت المنفرد فان الموسيقى العربية تمثل في نغماتها السبع الأساسية ألوان الطيف يتفرع منها ما يزيد على السبعين نغمة تخضع مرنة ناعمة للعاطفة فتظهر خفاياها كصورة اختطفت عن الأصل جميع أنوارها وأظلالها. أما العروسان الغربية التي تسجن الصوت في مقام ونصف مقام أعلى وأدنى ، ولا تستوعب ربع الصوت وثمنه بل و ١٦/١ منه B تتناوله الموسيقى العربية إنما هي أشبه بالفرشاة الخشنة في يد رسام لا يمكنه أن يصور من المرئيات غير خطوطها الأولية .

إن الموسيقى الغربية رست على الطباق أو المطاوعة فكان لا بد لها من كبت النبرات الدقيقة المتمردة على الطباق ومن الاكتفاء بنغمات معدودات هي محل ثروتها . أما الموسيقى العربية فانها هتاف عميق من النفس منفردة تجاه الوحدة المتجلية في مسلمات الشرق ديناً وفناً. فهي وإن نقصها الطباق لعدم ملاءمته لحريتها ودقة نبراتها لا تزال حتى في دور انحطاطها اليوم، أغنى بأوزانها ونغماتها من الموسيقى الغربية الفنية بالصخب والفقيرة بالتنوع المنفرد !

إما أن تكون موسيقى الطبيعة أشبه بالموسيقى الغربية كما يقول المناظر فذلك ما لا نوافقه عليه وليس في الطبيعة أجواق تتوافق على الهتاف بنشيد يطربك فانك إذا ما أصغيت إلى بلبل

واستسلمت نبراته المتناسقة الصافية وهو منفرد يذهب إنشاده إلى أغوار مشاعرك فتشاركه بما يلهمه النشر من شعر حنينه كلمات وتلاعبه معانى لايدركها إلا المستغرق المطل على وحدة الوجود . ولكنك إذا وضعت عشرين بلبلا أو عشرين مداحاً من أنواع الأطيار وأطلقوا جميعهم أصواتهم فعندئذ ندرك أن الطباق ليس من روح الطبيعة بل هو من أوضاع فنانى الغرب الذين لم يهتدوا إلى الوحدة المليئة بالتنوع فاخترعوا لهم موسيقى مبنية على المطاوعة ليسدوا بجاعة إنشادهم المركب الفقير

وما أطول ما أقوله عن جهل للموسيقى الغربية فاننى قد ألفتها منذ كنت طفلا وقد ألفت أناملى طويلا استنطاق أوتار عودى العربى فأنا أفهم الأنغام التى قسمها الفارابي كما أفهم موسيقى موزار وبيتهوفن بل وموسيقى باغ أيضاً . ويمكنني أن أؤكد لكم أن الفن الغربي على ما بذل فيه من جهود لا يرتكز على أساس من الموسيقى الطبيعية التي تتجلى بكل روعتها فى الانشاد العربى المنفرد. ولو أن رجال الفن عندنا أدركوا هذه الحقيقة وانصرفوا إلى شرقية موسيقانا على أساسها دون أن يستهويهم ما يتوهمونه رائعاً فى الموسيقى الغربية لكانوا ينتزعون من الطبيعة أروع موسيقاها ولكن أكثرهم كمن لديه ثروة يطبق خزانته عليها ليذهب مستجدياً من الغريب كسرات تتخمه ولا تسد جوعه

لعلنى بعد هذا البيان الموجز تمكنت من إقناع مناظري الكريم

أولاً : إن العرب عند ما رقوا العلوم ونشروها وأوجدوا أهمها ، إنما عملوا بعقليتهم الشرقية العربية . وإننا لسنا بحاجة لتقليد الغربيين فى أسلوب تفكيرهم لنجاريهم فى مضمار العلوم . ومن العرب اليوم فى أوربا وأميركا ومصر وسائر الأقطار العربية علماء فى كل فن يفتخر العالم بأسره غربه وشرقه بسعة اطلاعهم وعبقريتهم وما بلغ هؤلاء الأعلام مقامهم إلا بعقليتهم العربية

ثانياً : إن العلوم الوضعية مشاع بين البشر جميعهم فليس على الأرض سلالة خصها الله بالعلم دون سواها

ثالثاً : إن لكل شعب ، فطرته وهي ميزة خاصة فى الذوق واختصاص فى فهم الحياة والتمتع بها ، وإن كل أمة تستبدل ثقافة غريبة بثقافتها إنما تؤلم فطرتها وتميت شخصيتها

رابعاً : إن الأخذ بالعلم عن أى شعب لا يستلزم مطلقاً اقتباس طرق حياته فى الأسرة والمجتمع وتقليد ذوقه وسكناته وحركاته فان العرب عند ما احتضنوا العلوم الاستقرائية عن اليونان لم يأخذوا الفطرة اليونانية ولا ذوقها ولا معتقداتها كما أن أوروبا عند ما تلقت هذه العلوم عن العرب لم تتعرب بل بقي فيها كل شعب محتفظاً بثقافته . هذا فضلاً عن أن فى الغرب ثقافات قد يراها من يحدجها من بعيد على شيء من التقارب غير أن من يدرسها عن كثب ليدهشه ما بينها من فروق تتناول صميم الذوق والعقيدة والشعور ، فأى هذه الثقافات يشار على الشرق بأن يتبع وهل يظن المناظر الكريم أن تجربة التقليد شيء جديد لم يتضح لنا زينه بعد . أفلا نرى فى كل بلد من هذا الشرق العربى عدداً من المتفرنسين والمتألنين والمتأنكلزين والمتروسين الخ خرجوا عن الثقافة العربية وامتنع عليهم أن يتصفوا بالثقافات التي استهوتهم فأصبحوا لا الغرب يعرفهم ولا الشرق يعترف بانتمائهم إليه . وهنالك ظاهرة غريبة نشأت من هذا التقليد وهي النعرة التي استحكمت بين هؤلاء المقلدين وهم أبناء البلد الواحد ؛ فانك لن تجد متفرنساً يمكنه الاتفاق مع متألن أو سواه من المستغربين

كل إنسان يجبن أمام الحوادث فى حياته فيلين لها حوافزه وفطرته إنما هو شخصية تائهة فقدت ذاتها ، إنما هو الشبح الباكى ، والحى المستجدي ؛ ولقد تلمع إحداق مثل هذا الانسان بالظفر والمجد ، ولكن أنوار السعادة تبقى منطفئة فى عينيه ، ونحن كأمة لا قبل لنا بأن نتحكم فى هذا الناموس الثابت لأن فطرتنا مقدورة علينا كامنة فينا ؛ كل أمة تحيا على غير ما تسوقها فطرتها إليها فهى أمة باكية بدموع صامتة ، هى أمة مستضعفة مستعبدة لا معنى لحياتها ولا سعادة لها فيها

إن شعوب الشرق العربى مسؤولة أمام تاريخها بالمحافظة على ثقافتها وإحيائها والأخذ بما وضع لها وحى أنبيائها وإلهام عباقرتها لتجديد حضارتها ، وإن كانت مدنية الغرب الحديثة ؛ ترى أن الارتقاء يقوم على العلم وحده ، على الاستقراء دون الاستلهام فان للشرق العربى المستحفز للوثوب دستوراً يتضمن الحكمة علمته وفى العمل بها العظمة الحقيقية لكل إنسان ولكل شعب وهي:

اعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ، واعمل لدنياك كأنك لا تموت أبداً

فليكس فارس

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي (١)

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٢٩ —

« مضى الأستاذ سيد قطب فيما سماه الموازنة بين الرافعي والعقاد على نهجه وطريقته ؛ وقد آثرت الصمت رعاية لما بيني وبينه من صلات الود ، وأغضيت فى سبيل ذلك عن أشياء تنالني من قريب أو من بعيد ...

« ولقد كان حرصي منذ بدأت هذا التاريخ أن أكون مؤرخا وحسب ، مجرداً من هوي الصاحب وميل الصديق ؛ فما كان من حسنات الرافعي أو عيوبه فقد رويته على ما رأيته ، إذ كان حق الأدب على أكثر من حقه . فلما كانت أولى مقالات الأستاذ قطب ، هممت أن أقول شيئا فخشيت ... وخشيت أن يكون لى فى الدفاع حماسة توقظ هواى وحبي للرافعي فتغلبني عاطفتى على روح التجرد الذي أحرص عليه حتى أفرغ من هذا التاريخ ... وكفانى الأستاذ شاكر هذه المئونة حين انتدب لتزييف هذا النقد

« ولكن الأستاذ قطب استمر مسرفا فى التجنى ، ومضى يقول ... ويقول ... ويتهمني فى النهاية بأنني انحرفت عن منهج المؤرخ ، وكنت عنده شبيها بمن يجلس فى المأتم ويرى الناس بالحجارة ... وعفا الله عنه ... !

« فان كان هذا هو كل عذر الأستاذ قطب من تمزيق أكفان الموتى بأظفاره فقد بلغ وأبلغ ، وسيذكر عذره هذا غداً فيما يؤثر من لطيف الأعذار ، ولكنه لن يبلغ من القوة أن يمحو التاريخ الذى كان ، وإن ساءه وأحفظه أن ينسب هذا التاريخ إلى صاحبه الذى يحاول أن يدفع عنه أو يدفع به ... »

« العريان »

عود على بدء

لم تكن الكتابة عند الرافعي فكرة ومعنى وعاطفة فحسب ؛ بل كانت إلى ذلك فناً وأسلوباً وصناعة ؛ والأدب العربي منذ كان إلى أن يُطوى تاريخه بين دفتين ، هو فكر وبيان ، ما بدٌّ من اجتماع هاتين المزيتين فيه ليكون أدباً يستحق الخلود . ذلك كان رأى الرافعي ومذهبه ؛ فمن ذلك لم يكن يعتبر المقالة وقد انتظمت فى خاطره معنى وفكرة ، مقالةً تستحق أن تكتب وتنشر إلا أن يهيئ لها الثوب الأنيق الذى تظهر به لقرائها ؛ وهذه هى المرحلة الأخيرة

وأول ما يعنيه فى ذلك هو بدء الموضوع وخاتمته ؛ لست أعنى العبارة التى يبدأ بها والتى يختم ، ولكنى أعنى طريقة البدء والختام فى الموضوع . شأنه فى ذلك شأن القاصّ : تجتمع له أسباب القصة بمقدماتها وحوادثها وما آلت إليه ، مرتبة ترتيب الحادثة بما بدأت وما انتهت ؛ حتى إذا أراد أن يحكيها لمن يسمع أو يكتبها لمن يقرأ ، قدّم وأخّر ، وأظهر وأخفى ، وبدأ القصة بما لم تبدأ ، ليعقد (العقدة) ويُرصد للحل والنفس مستشرفة إليه متطلعة إلى خاتمته ... وكذلك كان الرافعي يفعل فى مقالاته

... فإذا عقد العقدة ورتّب موضوعه ترتيب الفصول فى الرواية ، آن أوان الأداء فأخذ له أهبته ، فيطوى وريقاته ساعة ، ليرجع إلى كتاب أيٍّ كتاب من كتب العربية يقرأ منه صفحات كما تتفق ، لإمام من أئمة البيان العربى ، فيعيش وقتاً ما قبل أن يكتب فى بيئة عربية فصيحة اللسان . وخير ما يقرأ فى هذا الباب ، كتابات الجاحظ وابن المقفع ، أو كتاب الأغانى لأبي الفرج

وسألته فى ذلك فقال : « نحن بابنى نعيش فى جوٍّ عامى لا يعرف العربية ، ما يتحدث به الناس وما ينشئ كتاب الصحف فى ذلك سواء ، واللسان العربى هنا فى هذه الكتب . إنها هى البادية لمن يطلب اللغة فى هذا الزمان ، بعد ما فسد لسان الحضر والبادية ... »

على أنه كان لا يُفيد من هذه القراءة اليسيرة قبيل الكتابة إلا الجوّ البيانىّ فقط . أما حروف اللغة ، وأما أساليب اللغة فلم تكن تعنيه فى شىء ؛ فيقرأ عجلانَ غير متلبّث كما يطالع صحيفة يومية ، حتى يفرغ من الفصل الذى بدأ ؛ ثم يطوى الكتاب ويستمد للاملاء

وإذا كان كثير من الكتاب تزعجهم الحركة والضوضاء وتعوقهم عن الاستمرار فى الكتابة ، فان الرافعي كان — على ما فى أذنيه — يزعجه أن يمر النسيم على صفحة خده ... كان

---

(١) العدد ٢٥٢ من الرسالة

مكتبه إلى جانب باب الشرفة ، وكان لى نضد صغير إلى جانب مكتبه حيث أجلس ليملى علىّ ؛ فكان يلذنى أحياناً والجو حار أن أفتح باب الشرفة لأتروّح ، فلا تكاد تهب نسمة بجانبه حتى يكف . وعرفت عادته هذه فكنت أغلق الشرفة والنافذة معاً ، لأصلى حرّ الغرفة أربع ساعات أو يزيد حتى يفرغ من إملائه . وكان يؤذيني من ذلك أنني كثير التدخين ؛ والحر والمجهود العصبي يزيدان الرغبة فيه ، فلا يمضى ساعتان منذ بدأنا حتى يفسد جو الغرفة ، فأفتح الشرفة برهة لتجديد الهواء نتبادل فيها الحديث ثم أعود فأغلقها ليملى علىّ ... على أنه فى غير وقت الكتابة كان يحب أن يقضى فى الهواء الطلق أكثر وقته ، حتى فى برد الشتاء القارس ؛ فكان إذا فرغ من إملائه خرج إلى الشرفة البحرية يفتح صدره للهواء يعبه عبا كما يُقبل الشارب الحرّان على الماء فى يوم قائظ ...

ولم أكن أقاطعه حين يملى علىّ مقاطعةً ما ، إلا حين أشعر أنه يهم بالانتقال فى الموضوع من فصل إلى فصل ، فألتى إليه ما أريد أن أقوله مكتوباً فى ورقة ، لأحاوره فى عبارة أو لأستوضحه معنى ... ثم يعود إلى إملائه وأنا أكتب صامتاً وهو لا يرفع عينيه إلىّ ... كأنما يتحدث من وراء ستار إلى سامع غير منظور ، أو كأنه فى نجوى خاصة ليس فيها سامع ولا مجيب . ولقد كان يخيّل إلىّ أحياناً وأنا صامت فى مجلسى والقلم يجرى فى يدى على الصحيفة وأذنى مرهفة للسمع — كأنه فى شبه غيبوبة يتحدث إلى نفسه والمجلس خالٍ إلا منه ، فما أنا فيه بشىء إلا إدراكاً غير مجسَّد . وأحيانا أخرى كانت تتسع روحه وتنبسط حتى تشملنى ، فما أكتب كلاماً يمليه علىّ ، ولكن تمليه نفسي على نفسى وإن صوته ليرنّ فى أذنى بما سبق إليه خاطرى .

ولم يكن يملى مسترسلا ، ولم يكن يملى وانياً متمهّلا ، ولم يكن فى كل أحواله سواء ؛ فحينا يطاوعه القول ، وحيناً يتأبىّ عليه فيسكت وهو يدق على المكتب بحديدة فى يده ويغمغم بصوت لا يبين ؛ فاذا طال عليه الارتاج تناول كتاباً أىّ كتاب على مكتبه ، فيفتحه فيقرأ كلة أو سطراً أو جملة ؛ ثم يطوى الكتاب ويعود إلى الاملاء . ولقد يراه من يراه فى هذا الوقت فيحسبه على مما يقرأ وما به ذاك ، ولكنها كانت لازمة من لوازمه تعوّدها حين يُرتج عليه وتعوّد أن يجد فيها مفتاح القول ...

ولقد أرتج عليه مرة فطال به الصمت ، فمد يده إلى كتاب على مكتبه وهو يقول ضاحكا : « يا أخى ، لقد تعوّدتُها وما أجد لهـا علة ، وتعوّدت بها أن أجد ما أريد عند أول كلة أقرؤها ولو كان الكتاب معجماً لغويا ... » وكان الكتاب الذى مدّ إليه يده هو (القاموس المحيط) ، قلت : « إن في بعض الأشياء مثل المفاتيح المصبية ... » قال : « صه ، هذه هى الكلمة التى أريدها : المفاتيح المصبية ... » ثم طوى الكتاب وعاد إلى الاملاء

وكانت له عناية واحتفال بموسيقية القول ، حتى ليقف عند بعض الجمل من إنشائه برهة طويلة يحرك بها لسانه حتى يبلغ بها سمعه الباطن ، ثم لا يجد لها موقعاً من نفسه فيردّها وما بها من عيب ، ليبدل بهـا جملة تكون أكثر رنينا وموسيقى . وكان له ذوق فنى خاص فى اختيار كلماته يحسه القارىء فى جملة ما يقرأ من منشآته ، ولكنى كنت أجد الاحساس به فى نفسى عند كل كلة وهو يملى علىّ . هـذا الذوق الفني الذي اختص به ، هو الذي هيّأه إلى أن يفهم القرآن ويعرف سر إعجازه فى كل آية وكل كلة من آية وكل حرف من كلة . وحسب القارىءُ أن يعود إلى تفسير الرافعى لقوله تعالى : « ولقد راودته التى هو في بيتها عن نفسه ... »[1] ليرى نموذجاً من هـذا الذوق الفنى العجيب فى فهم اللفظ ودلالة المعنى ، يقابله وجه آخر من هذا الذوق فى اختيار ألفاظه عند الانشاء . وكان إلمـامه بمتن اللغة ، وإحاطته بأساليب العربية ، ومعرفته بالفروق اللغوية فى مترادف الكلام — معينة له عوناً كبيراً على البلوغ بعبارته هـذا المبلغ من البيان الرفيع . احتاج مرة أن يعبر عن معنى فى أسلوب من أسلوبه ، فأرتج عليه ، فأخذ يغمغم برهة وأنا منصت إليه ؛ فاذا هو يقرأ لنفسه من ذا كرته باباً من كتاب المخصّص لابن سيده ثم دعا بالكتاب فأخرجتُه إليه ؛ فما هو إلا أن فتحه حتى وقع على مراده ، فطوى الكتاب وعاد إلى إملائه ... وهو على صحة عبارته وسلامتها قلما كان يلجأ إلى معجم من المعاجم ليبحث عن كلة أو معنى كلة . ومع حرصه على أن يكون قوىّ العبارة عربىّ الديباجة قلما كان يستعمل عبارة من عبارات الأولين . وكم أجدّ على العربية من أساليبه ومعانيه . وكان له فى إنشاء (الكناية) إحسـاس دقيق . وأحسب لو أن واحداً من أهل البيان أراد أن يتتبع ما أجدّ الرافعى على العربية من أساليب القول ، لأخرج قاموساً من التعبير الجميل يعجز عن أن يجد مثله لكاتب من كتاب العربية الأولين ؛ إذ كان مذهب الرافعى فى الكتابة

(١) وحى القلم جـ ١ ص ١٠٦ : (سمو الحب)

هو أن يعطي العربية أكبر قسط من المعاني ويضيف ثروة جديدة إلى اللغة، وقد بلغ ما أراد. إنني لم أعرف كاتباً غير الرافعي يجهد جهده في الكتابة أو يحمل من همها ما يحمل؛ وما أعرفه حاول مرة واحدة أن يسخر من قرائه أو يشموذ عليهم ليملأ فراغاً من صحيفته يريد أن يمتلئ. على أنه أحياناً كانت تدعوه دواع إلى كتابة لم يتهيأ لموضوعها أو يفرغ لها باله، فيمليها على عجل بلا إعداد ولا توليد، ولكنك مع ذلك تجد عليهما طابع الرافعي وشخصيته، فتعرف كاتبها وإن لم يذيلها باسمه. والعجيب أن هذا النوع من المقالات التي كان الرافعي يكتبها بلا إعداد ولا احتفال كان أحب إلى كثير من القراء، وكان الرافعي يرتفع به عن منزلته درجات عند طائفة من القراء ...

والشاي أو القهوة هما كل المنبهات العصبية التي يطلبها الرافعي عند ما يكتب، وفنجانة أو اثنتان هما حسبه في هذا المجلس الطويل. وعلى أنه في أخريات أيامه قد ولع بتدخين الكركرة (الشيشة) فانه لم يكن يدخن إلا دخينة (سيجارة) أو دخينتين في مجلس الكتابة؛ فكان يشترى العلبة فتظل في درج مكتبه شهراً إذا لم يزره في مكتبه زائر ...

... فإذا فرغ الرافعي من إملاء مقاله، تناوله مني فطواه قبل أن يقرأه، ثم يودعه درج مكتبه إلى الصباح ويخرج إلى الشرفة يشم نسيم المساء ... ثم يأوى إلى فراشه ...

وأول عمله في الصباح بعد صلاة الفجر أن يعود إلى المقال الذي أملاه علىّ في الليل فيقرأه ويصححه ... ثم يسعى به ساعيه إلى حيث ينشر ... ويفرغ يوماً لنفسه قبل أن يهيئ فكره لموضوع جديد ...

مقالة ... هي عمل الفكر، وكد الذهن، وجهد الأعصاب وحديث النفس في أسبوع كامل؛ ولكنها مقالة ... ومع ذلك فقد أنشأ كتاب «رسائل الأحزان» في بضعة وعشرين يوماً، وكتب «حديث القمر» في أربعين، وكتب «السحاب الأحمر» في شهرين ...

وقال قائل من خصومه: «إنه يقاسي في هذه (الكتابة) ما تقاسي الأم من آلام الوضع ... !»

وقال الرافعيُّ يجيبه: «أتحداك أن تأتي بمثلها أو بفصل من مثلها ... وعلىّ نفقات القابلة والطبيبة متى ولدت بسلامة الله!»

(شبرا) محمد سعيد العريان

صحيفة أدب وأطلال

عطفة القاياتى

للأستاذ حسن القاياتى

عطفة القاياتى فيما نتشهى ونتوسل ، و « عطفة الألابلى » فيما تسمى ولا نحب ، تلك عطفتنا المتبدة ، قائمة حيث يحتضنها « باب زويلة » عند ملتقاه بالسكرية ، فهى على يُسرى المقبل من حى الحسين بن على ، الذاهب إلى « باب زويلة »

عن يسارى إذا دخلت من البا ب وإن كنت خارجاً عن يمينى

تلك « عطفة الألابلى » فى بُهرتها دارنا القديمة الصغيرة «دار القاياتى»: مسلك ضنك مُلتوٍ كمجرى النفس وجحر الأفعى؛ أشدُّ من عرين الليث ظلمة ورهبة، وأضيق مسلكا من لهاة الليث يتصدر العطفة ربع قديم عادى البنية ، ترحل عنه أهلوه من قدمه وخلوقته فهو خلاء قفر قام حرباً على المجتازين خشية التزلزل والتهادى .

أجل أيها الربع الذى خف آهله لقد بلغت فيك النوى ما تحاوله

ربع معطل خلاء، عُطّل من الغيد والصباحة ، لا يطل اليوم من شرفاته ولا نوافذه الحسن ، ولا تشرف كمهدها ربّات الدّل. فنوافذه الخالية الساجية كالعيون الثاكلة المفجعة لا يشرف منها الحب ولا تطّلع الفتنة

يُناوح هذا الربع المعطل بيت واهن متهالك ، طالما تهدم وابتنى، وابتنى فتهدم، أحوالاً وأفانين حتى انتسخ البيت الأصيل وأُعيد خلقاً آخر بالترقيع، فهو البيت وليس هو البيت كما قيل فى طيلسان ابن حرب :

بقى الرفو وانقضى الطيلسان ، لكثرة عرضه على الرفو والرفاء

يُسلم عطفتنا هذا الربع إلى ربع ثان يساوره أعرق منه فى البلى والخلوقة يملك حيزها الأكبر؛ شهدت بالأمس قُطّانه من الطبقة الدنيا المبتئسة يترحلون عنه خشية التداعى ويتناشدون بكاء على العطفة أو بكاء على الربع وعطفه

ما ربع ميّة معموراً يطيف به
غيلان أبهى رباً من ربعها الخرب

ثم تتسلسل يمنة ويسرة منازل العطفة بعد هذين الربعين بيتاً بيتاً فتنشأ كل هى كما تشأ كل أهلوها وهناً وضعة . وتناهيك ساكنو الربوع حتى تشافه بيتنا الصغير فإذا هو معها كما قيل للعبادى : أى حماريك شر ؟ قال : هذا ثم هذا . تشابهت هذه البيوت فى الرثاثة والزراية حتى لتحسبها من التشابه بيتا واحداً مردد الصورة ، أو تحسب كل بيت منها إبطاء مع جاره وصاحبه، وليس فى الحارة كلها بيت للقصيد

على هذا الذى نصف تمضى فتتصل الطليعة الأولى من حارتنا حتى تفضى إلى منزل قائم تبانك هذه الكلمة حديثاً عنه : منزل يتصدر كأنما تختتم به العطفة أو تُسد ، ولكنها تستمر فتطرد بعده ؛ بيد أنها تتشعب إلى شعبتين ، تأخذ إحداهما ذات اليمين والثانية ذات الشمال كما تبسط ذراعيك للعناق !

تبارك الله ما أشرف وأنبل ! ما شهدنا كهذه العطفة عطفة زهراء سامية ولا قطان عطفة جُلهم بل كلهم من الطبقة الدنيا المتواضعة الوادعة ، « إسكاف » إلى جانب « كناس »، و « نجار » لدى « أديب » ، وما إلى هؤلاء . أجل ، لقد تنجب الحارات ولا كمن أنجبت حارتنا من « عزام » الإسكاف و « موسى » الزّبال و « كريمة » النجار و « السيد » الشاعر

وما شر الثلاثة أمّ عمرو بصاحبك الذى لا تصبحينا

تلك حلية السكان فى عطفتنا . ألست تشهدهم أيها القارئ ملء النفس ، فكيف ظنك بزميلك الشاعر الفحل وقد خرج على هذا الملأ فى وجاهته وزينته؟ أليس يزدهيك منه أنه أظهر أهل الحى نبلاً وأبينهم وجاهة ؟

لم أر شيئاً حسناً منذ دخلت اليمنا
فيا شقاء بلدة أجل من فيها أنا

ليس هـذا وحده مما يشق على النفس والبصر فقد انتحى قاصية من العطفة حمام عتيق ومستوقد حمام سالت عليهما (الصحة) عجلات ومركبات تحمل القمامة ذهابا وجيئة ، حتى إذا التقت مركب فى مسالكها بمركب غصت بهما حلاقم العطفة وسدّ متنفس الطريق فقل فى حبسة بل غصة صادعة كغصة الماء لا يسيغها الماء !

لو بغير الماء حلقى شرق كنت كالغصان بالماء اعتصارى

إذا راح سدنة حامنا أو اغتدوا عليه يحملون قدور « الفول المدمس » المنتفخة السوداء فقل فى أشباه الحلاليف تحمل الحلاليف ! !

أما ابن الذي لا تنزل الدهر قدرُه … وإن نزلت يوماً فسوف تعود
ترى الناس أفواجاً إلى ضوء ناره … فنهم قيام حولها وقعود

على أننا وإن تناولنا قدور « الفول المدمس » بهذه الدعابة فما تتعمد لها فضيلة ولا ننفض من قدر ، تلك أسوة البائسين بالسراة ومائدة الفلوكين معاً والمالكين ، على حالة من الدنية شحيحة مناعة ليس لنا فيها طعام ابن جدعان ولا جفنة آل المحلق

نفى الذم عن آل المحلق جفنة … كجابية السَّيْح العراقى تَفهَقُ

لقد رمتنا هـذه الحضارة والدنية بمأدبات ومطاعم باخلة جُلّ ما تسمح به قدور وصحاف قدّرتها الصناعة تقديراً فهى دقيقة زهراء كالدراهم والدنانير ، غالية كأنما تطبخ فيها الدراهم والدنانير :

رأيت قدور الناس سوداً من الصَّلَى … وقدر الرقاشيين زهراء كالبدر
إذا ما تنادوا للرحيل سعى بها … أمامهم الحوليُّ من ولد الذر

يعصف بنا مستوقد الحمام عصفته ويهب إعصاره ، فحسبك أن تتعرف أن الله إنما أجرى الهواء طلقاً ليشتمّه الناس غيرنا نسيماً عليلا وحياة ولا نتجرعه نحن إلا حرقة أو غلة ، فهو زفرة حرّى أو تنهد . طالما أظلتنا غاشية كثيفة هوجاء من دخان هذا المستوقد بل جبل النار يظلم لها يومنا الطلق الأضحيان حتى ليخيل إلينا أن يومنا قد رغب عن لونه الأبيض الوضاح ، أو كأنما صيغت لنا خاصة شمس سوداء تقدُّ من أديم الليل ! !

أما وقع المجلات من مركبات (الصحة) زائرات المستوقد لا فى الفينات والفترات بل فى اليوم الأطول والليل الأليل فإنما يكون على أشده إذا تحين الأديب لخواطره الشعرية ساعة من فترة الأحياء وهدأة الحياة ! !

يميناً لقد عشت هذا الزمن الحفيل لا أتفهم كلة المعرى فى شعر « ابن هانئ الأندلسى » حيث يقول : « ما أشَبِّهه شعر ابن هانئ إلا برحى تطحن القرون » حتى إذا رصفت عطفتنا بالحجر وتخطرت عليها مركبات الصحة ، أيقنت أنما نحن فى مطحن للقرون

هذا بعد أن رصفت العطفة بالحجر ، أما قبل ذلك فقد كانت تستهل علينا السماء فى الشتوة شآبيب كأنما تخرقت بها السماء حتى تتوحل الأرض فأكثر مشية السكان إذ ذاك مشية المقيد فى الوحل

علىّ وإلا ما بكاء الغمائم … وفىّ وإلا فيم نوحُ الحمائم ؟

حمام السكرية وناهيك : حمام صحب الزمن حتى تحدث به التاريخ وظل ماثلا حتى زرناه ، انقسم بنصفين فهو حمامان ، قسم للجنس النشيط له باب من السكرية ، وقسم للجنس اللطيف الدخلة إليه من عطفتنا ؛ بيد أن شطره الجميل قد عطل عندنا من العمل فعطل الحي من الحسن

كانت تبتكر إلى حمام السكرية هذا أسراب من الغيد الفواتن بل زهرات الصباحة من كل رشيقة القد نفاثة العينين بالسحر ، فيلتقى لأجلهن عنده فصائل من عَبَدة الحسن رواد الغزل قوامها شباب من الطبقة الدنيا ، فاشاء الحسن ، لا ، بل ماشاء الفحش من كلة غزل حارة أو قالة عوراء إلى نظرة خائنة أو تجميشة باليد ، ثم ماشاء الشغب والفتنة من تهاتر وإلحاد فى الحسن . فكم صريع هناك فى معترك الغزل والجدل بأعين الفتيات الساحرات وأيدى « الفتوات »

فتية تلك للشغب والشر خليقة بهذه الكلمة الفكهة من زميلنا الأديب الأستاذ على شوقى قال :

« وملطمين » على الطريق تراهم … يتحرشون برائح أو غادى
فئة تقول لها إذا حييتها : … يا معشر السفهاء والأوغاد

إن للغزل فى مصر كلها مغانى ومواقف غراء مشهورة ، منها حمام السكرية . فإن عد العرب من مغانى صباباتهم ومآلف غزلهم بانة الوعساء والرقتين ، عددنا المحملين وبين النهدين ، أو تذاكروا « مجداً » « وسفح زرود » ، فخرنا « بالمحمدى » و « أبى السمود » ،

أفدى ظباء فلاة ما عرفن بها … مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ولا برزن من الحمام مائلة … أوراكهن صقيلات العراقيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية … وفى البداوة حسن غير مجلوب

لم يكن للعطفة فيما سلف عهد بالنور فكانت الحوذية والمكارون يربطون حميرهم ومركباتهم فى جنبتيها ، فإذا أقبل الداخل إلى أهله فى الظلمة لم يرعه إلا صدمة من مركبة مسندة أو ركحة من حمار مرتبط

أنا أعمى وصاحب القوم أعمى فدعونا فى ظلمة نتصادم
فاذا هو دامى الجبين ، دامى الفؤاد من شجى ولوعة

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

زيّن لنا هذا بل زين لنا حسن الجِدّ ولا نكذب الله، أن نكتب إلى ولاة الأمر فى طلب النور ، ونمى إلينا حديث ذلك الكاتب الكبير الذى طلب إليه أن يكتب رسالة إلى ولىّ أمر فى طلب النور للمساجد فارتج عليه ولم يدر كيف يكتب ، فبينما هو نائم جاءه إبليس فقال له أكتب : إن فى النور أنساً للسابلة ونفياً للريب والوحشة عن بيوت الله . فبدا لنا أن نساجل هذا الكاتب ونساير أسلوبه هذا فى استجداء النور لعطفتنا وبيوتنا لا لبيت الله ، وهممنا بأن أكتب هذه الكلمة على طرازه الابليسى؛ بيد أننى قنّيت الحياء فلم أكتب وليتنى كتبت :

أيتها الوزارة الأريحية :

نحن أهل « عطفة الألابلى » فى ظلمة مطبقة ، المشتكى إلى الله منها ثم إليك ، فهل أنت متسمحة فحسنة إلينا بخطرة من النور ولمحة من الضوء فان فى النور تنويهاً بمواقف الغزل عندنا والصبابة، وأنساً لمآلف الصبوة، وهداية لمواقع القبلات والنظرات فلا يجمل أن يسلم الجمال ومناغاته إلى الظلمة وحيرة الموقف وإلى مثل كلمة الشاعر :

وبان بارق ذاك الثغر يوضح لى مواقع اللثم في داج من الظلم

على أن فى النور عدا هاتيك الخلال النذير، من رمح الحمير ، والنجاة من المركبات .

فلما استجابت الوزارة لهذه الضراعة والتخشع بعد أن كتبنا إليها — ولكن فى غير هذه اللغة — استجابت لنا بمصباحين ضئيلين فاترى اللمح باهتى اللون كان العهد بالنور قبلهما أن تتحلل الظلمة تحته ، ولكنه نور افتر من « بارق ذاك الثغر » يتحلل تحت الظلمة

أما صرعى الكلاب والهررة الأليفة المفدّاة وما إليها من الفيران وبنات عرس فما تطوى لها جثة من جنبات العطفة وأقطارها ولا تكتم رائحة وإنما تحشر في بطون الهوام والطير وتصعد معها أرواح الساكنين من صرعى الجراثيم والعلل

ستقبرنى الطير كيلا أكون سواء وأمواتهم فى الرجم

ليست صناديق القمامة التى ترصدها الوزارة فى الطرقات والميادين إلا صورة كاذبة مختالة للنظافة كأنما تدفع بها عن العاصمة معرة النقص من القادرين أو تكف بها لذعة العيون والحدَق على فرط القذر والدمامة ، كما تعلق تميمة القروية البلهاء القزرة على محيّا وليدتها الدميمة خيفة العين

ليس لدينا شئ معجب بحمد الله بل كل ما تباشره العين مما يشق على النفس والبصر ، سوي مدرسة أولية وسبيل أثرى تحت المدرسة يتصدران العطفة . أما المدرسة فتحمل إلينا من ذكر العلم والتربية ماينذى على الكبد الحرّى برداً وروحا ؛ وأما السبيل فان يكن عطل آنفاً حتى ما يبض بقطرة ماء فى طاعة المدنية والوقاية فهو يذكرنا باحسان أسلافنا الأولين وبرهم كالمحيا الفاتن شيّع عهد الصبا والفتنة وغيض منه ماء الحسن رعا أذكرك بتقاسيمه أيام كان يشرق بماء الحسن والفتنة

تبتكر الشمس فيبتكر معها قطعان من الباعة والصناع من صائح بالبامية والقلقاس ، إلى مبيض النحاس ، فينعقون بسلمهم المتعارفة تناهق الحمر فيمنمون القائلة الشهية يومهم الأطول، حتى إذا تمشت الشمس إلى المغيب ، خلفتهم فصائل أخرى من الطراز الساخر تدق الدفوف، وتضرب بالكفوف ، ثم تتغنى بكل ماتتغنى به الاذاعة العامة ، فهم إذاعة متنقلة ليس يدرى المستمع إليهم : أباعة هم يتغنون ، أم مغنون يبيعون ؟ !

طال ليلى وبتّ كالمجنون واعترتنى الهموم بالماطرون

هذا بعض ما نلاقى فى عطفتنا وفى دارنا ، إلى أطفال من نشء الغوغاء والسوقيين، لهم عدة التراب كثرة، فى خسة التراب، مباءة أمراض، ومسيل أقذار، وخريجو شغب وقحة، ونبت تشردو جهل ، كأنما عوض أهلوهم بكثرتهم ما افتقدوا من عزة العلم والجلال

يا فراخ المزابل ونتاج الأراذل
إسمعوا لا سمعتمو غير زور وباطل

نشء من الغوغاء لهم على ضئولة الجراثيم فتك الجراثيم ، تفتك بالعلات ويفتكون بالعلات والجهالات

أليست هذه الطفولة العابثة اللاهية هى الطفولة العاطلة المتشردة حذوك النعل بالنعل ؟ وإذا كان يجمل بالدولة أن تحمل نشء الأمة على العلم والثقافة بسيف الاكراه القانوني فليس يستنكر عليها أن تحمل هذا النشء على حذق الصناعات والفنون بالاكراه القانونى ، ولئن كان العلم سبيل العيش والحياة ، فإن الصناعات والعمل عيش وحياة

(البقية فى العدد القادم)

حسن القاياتى

بين العقاد والرافعي

العقــــاد

للأستاذ سيد قطب

— ٧ —

عاد الأستاذ شاكر إلى خنته التي تركناه لها . وتركه من أجلها ، وما أحسبه ولا الأدب بنفيدين من هذه الخلة شيئا ، وما أحسبنى ولا رأيى بخاسرين بها كذلك . فيبقى إذن ، ما دام القول هكذا يريحه — وإنا لنبغى له الراحة إن شاء الله — ولسواه !

أما أنا فعلى منهاجى فى تقسيم الموضوع سأسير . فن ثم الأستاذ بشيء ، غير ما يخلو له أن يفرط علينا به . فأجعل ختام حديثى عن العقاد تقاشا له فيه ، كما صنعت فى ختام حديثى عن الرافعى ، وهذا آخر ما نستطيع أن نكرم الأستاذ به

وأما الأستاذ « الطنطاوى » فأنا أكرم « دمشق » وجيرتها أن أكسب خصومته إذا أنا شئت الجد فى وصف كلمته ، ووضعتها حيث ينبغي وضعها من الأدب والرأى ، فى مدارج الآداب والآراء . ولعلى بصمتى عنها أكون قد شئت له أفضل مما شاء لنفسه . وليسأل فى ذلك « المتقدمين من نقدة الأدب » الذين يقف عند آرائهم .

سيد قطب

من الناس من يقف عند ظواهر الأشياء والآراء ، كما يقف الميزان من الموزونات ، لا يميز بين أنواعها ، ولكن يميز بين كثافاتها . وهؤلاء هم « الشكليون » فى إحساسهم وأحكامهم ، وهم والميزان الميت الجامد سواء

وفى مثل هؤلاء يقول العقاد ، مصدراً عن « طبع قوى يخلق المبادئ الخلقية ، ويختار ما يناسبه ، ويرفض مالا يرتاح إليه ، ولو تواضع الناس عليه » كما قلت فى أول كلمة :

إنا نريد إذا ما الظلم حاق بنا — عدلَ الأناسىّ لا عدلَ الموازين
عدلُ الموازين ظلم حين تنصبها — على المساواة بين الحرّ والدون
مافرّقت كفة الميزان أو عدلت — بين الحلىّ وأحجار الطواحين

هؤلاء العادلون — على طريقة الموازين — يقولون : إن للعقاد مدرسة ، والرافعى مدرسة ؛ ولكل من المدرستين تلاميذ وأنصار ، فن الغلو إذن أن ينكر أنصار إحدى المدرستين طريقة الأخرى ، وأن يقسوا فى نقدها والزراية عليها

ومن هؤلاء من يقول عنا : « ويكفيه مما مضى فى كلامنا وكلامه أن يعلم أنه نزه العقاد ورفعه أرفع درجة ، وأننا لم ننزه الرافعى ولم نقل فيه بعض ما يقول هو فى الشاعر الكبير صاحبه » يقول هذا وهو يحسب أنه نصب ميزان العدالة الحساس فى تورع وتنطس وإحكام

المسألة أيها الناس ، ليست هى الاعتقاد فى أمر من الأمور ، ولكنها قيمة هذا الاعتقاد وحظه من البصيرة ، وحقه من الاحترام والبقاء . والمسألة ليست مسألة طريقة خاصة فى الأدب أو الرأى — أياً كانت قيمتها — ولكنها حقيقة هذه الطريقة وصلاحيتها للحياة والدوام

فلتكن للرافعيين مدرسة فى الأدب ، ولتكن عقيدتهم فيها ما تكون ، فيبقى بعد ذلك أننى حين أنكرتها عليهم ، لم أكتف بإشارات الصم البكم في القبول أو الانكار ، ولكنى نقدت ما فيها من نقص الحيوية ، واستغلاق الطبع ، وأتيت على هذا بالأمثلة التى تثبت موت هذه الطريقة ، وعجزها عن مسايرة الحياة . وهذا هو مناط الحكم ، وهذا هو « عدل الأناسى » الذى يحسب حساباً للكيف والنوع ، لا عدل الموازين الذى لا يحفل بغير الكم والوزن

أما قولة أحدهم إننى رفعت صاحبى ، ولم يقل هو فى صاحبه بعض ما قلت ، فلكأننا فى معرض مفاخرة على طريقة القدماء ، لا يهم فيها الواقع والصدق ، إنما يهم فيها الفخر و « النخع » ؛ وكأنما الحكاية كلام يقال ، ثم لا ينظر ما وراءه من دليل

أنا يا سيدى أقول ما أقول ، وأشفعه بالمثال والدليل ، فان كان لك قول فلتناقش هذه الأمثلة والأدلة ، أو لتأت بغيرها مما يدل على نقيضها . فأما التظاهر بالتورع والتنطس ! فقد يدل على غير العدالة النفسية التى لا تحفل الظواهر والشكليات ، متى قام لها من حقيقة الموضوع ما يدعمها ويقنع بها

ولعل الذين يعدلون — عدل الموازين — يقنعون بهذا ، ويفهمون أن المسألة ليست طريقة وطريقة ، ولا رأياً ورأياً ، وإنما هي قيمة هذا الرأى وتلك الطريقة

* * *

ومن الناس من هم عوام فى تقديراتهم الاجتماعية ، لا تبلغ قداسة الرأى عندهم ، ولا دفعة اليقين بأمر من الأمور ، أن يتغلبوا بهما على ما تواضع العوام عليه من رسميات وشكليات ، والموت عند هؤلاء يكفى لأن تطبق فمك عن كل حق ، وأن تضم شفتيك عن كل رأى ، ولو وجدت مناسباته ودواعيه

وفى هؤلاء يقول العقاد متعالياً على القيود الاجتماعية العامية :

أرى فى جلال الموت إن كان صادقاً جلالة حق لا جلالة باطل
فلا تجملن الموت حجة كاذب لمدحة مذموم ورفعة سافل

ومع تعديل فى كلمتى « مذموم وسافل » تنطبق الحالة على ما نحن فيه اليوم من حديث عن الرافعى ونقده وأدبه . فما دام الرافعى قد مات ، فيجب حينئذ أن يقول أنصاره عنه ما يقولون فلا نتعرض لتزييف مدائحهم فيه ؛ ثم لا يكتفون بهذا بل يقولون عن خصومه ما يقولون فلا نتعرض كذلك لشىء مما يقولون ! أليس الرافعى قد مات ؟ فلئن كان الموت هكذا فليبطلن إذن عمل التاريخ ، وعمل النقد ، ولتتحطم مقاييس الرأى ومعايير الأدب ، وليكون الموت « امتيازاً » من الامتيازات التى يلوذ بها كل مخطئ وكل متخلف !

والحمد لله أن بنا من الشجاعة ما نواجه به عامية العوام فى هذه الاعتقادات ، ونصدر به الرأى خالصاً من كل تنطس مصطنع ، وتكلف ذميم

***

ومن الناس من لا رأى له فيما يحس ويرى ، أو لا عقيدة له فى رأى أو اتجاه ، أو لا حماسة له فى عقيدة ، فهو من هذا يحسب الناس سواء كذلك ، ولا يستطيع أن يلمح فى عمل من أعمالهم دفعة اليقين ، وحماسة الاعتقاد ، ولا يفهم إلا أن خلفهم آخرين يدفعونهم ويزجونهم . ذلك أنه ناضب العقيدة ، فاتر الحماسة ، فقير العاطفة ، لا يفهم ما لم يكابد ، ولا يتخيل ما لم يحس

وليس عندى لهؤلاء ما أقوله ، لأنهم منطقيون مع نفوسهم ، ومع طبيعة مدرستهم .

ولكنى أقول لن يستطيعون أن يفهموا شيئاً عن دوافع النفوس الانسانية : إنه لم يكن من الحتم أن أنتظر تأذى العقاد مما كتب الأستاذ سعيد لأشعر أنا بالتأذى ؛ وأن العقاد ليس صاحب القضية وحده فيما يكتب عن أدبه وردوده ، ونقدسواه له ، وإنما صاحب القضية هو كل ذى رأى فيها ، وكل صاحب عقيدة فى الرافعى أو العقاد ، وتلك فسحة فى « النفس » لا نطمع أن تدركها المدرسة الرافعية . فبحسبها الفسحة فى تنميق العبارات وتبحبح الكلمات ، وتثنى الأساليب !

***

ثم نأخذ فى الحديث عن العقاد تكملة لحديث البارحة ، وتدليلا على ما أوردنا من نظريات مجملة ، فيما يصب فى نفس العقاد من ثقافات عالية ، وماينضح به أدبه من هذه الثقافات ، وما تخلقه طبيعته خلقاً من اتجاهات ، تبدو فيها آثار الثقافة البصيرة ، مما يحتم على دارسه — بله ناقده — الالمام بالمعارف الانسانية العامة ، فوق فسحة فى الضمير ، وتوفز فى الشعور .. يقول العقاد

بك خف الجناح يأيها الطير ر وما كنت بالجناح تخف
لطف روح أعار جنبيك ريشا فمن الروح لا من الريش لطف

فتحس هنا لطف الاحساس ، ونفوذ البصيرة ، ورفرفة الروح الفنية ، وهى تتبع القوى الحية الكامنة فى روح الطائر ، وترى رفرفتها من الداخل ، وتحس خفتها ورشاقتها فى ما هيتها الأولى ، حتى لتعير جانبيه ريشا

وهذه هى ميزة الفنان الحيّ فى الشعور بالحياة الباطنة لا بمظاهرها الخارجية وحدها ، وفى الالتفات إلى خلجاتها فى الضمير ، لا فى السطوح بمفردها

ولكنك خليق أن تجد بجانب هذه النظرة مصداقها من الروح العلمية ، فعلم وظائف الأعضاء يقول : إن الوظيفة تخلق العضو . فوظيفة الطيران هي التى خلقت الريش وقبله الجناح

وقد لا يكون الفنان الصادق فى حاجة للعلم بهذه النظرية ليقول هذا القول . ولكن المفسر والناقد فى حاجة ماسة إليها ، ليدركا جمال الخاطرة كاملا ، ويستوثقا من صدق الفطرة واضحاً ، ولكي لايخطر لهما أن ينظرا إلى الأشكال الخارجية وحدها فيريا الطائر يطير بالجناح ، فهذا إذن سبب الطيران !

ودراسة الأحياء هى « العلم » الذى يلذ لمادة « الفن » فالشاعر العظيم لا بد له من قسط منه ، لأنه أصيل فى طبعه ، إذ كانت « الحياة » أجمل ما يلفت نظره وحسه ، ويخالج وجدانه وضميره . وأنت واجد فى شعر العقاد لفتات شتى إلى دراسة الأحياء علما وفنا . وديوان « هدية الكروان » أحفل دواوينه بهذه الناحية فى دراسة الطيور والتطلع إلى الحياة النابضة فى ضمائرها وكيانها ، وإلى عوامل التفاؤل والاستبشار فى عيشها وتصرفاتها ، مع مزج ذلك بالنظريات الفلسفية منقولة إلى الصورة الفنية . وفى « وحى الأربعين » لفتات كذلك إلى الغرائز والطباع فى الأحياء عامة فى فصل « تأملات فى الحياة » وقد فصلت رأيى فيها فى محاضرتى عنه سنة ١٩٣٤ . وكذلك قد حوي «عابر سبيل» كثيراً من هذا.

يقف أمام « الجيبون » فى حديقة الحيوان ، فتنثال على نفسه الخواطر ، وتلمح فيها نظريات علم النفس الحديث ، إلى جانب الفلسفة الصوفية ، ومزاجهما الاحساس بالحياة النابضة فى ضمير هذا « الجيبون » ، والآمال المترائية فى خياله ، والأشواق الفائرة في أحلامه ، وهو يقفز ويرقص : وبجانب هـذا كله أثر الدراسة لدارون ونظريته :

أيهـذا الجيبون أنعم سلاما ... ياأبا العبقـري والبهلوان
كيف يرضى لك البنون مقاما ... مزريا فى حـديقة الحيوان !

***

ألعب الآن وانتظر بعد حقبا ... ترق فى « سلم الرق » وتعل
كيف لم تصعد السلالم وثبـا ... أيهـا الصاعـد الذى لايعل

***

يا عميد الفنون صبراً ومهلا ... وارض حظ الهتاف والتهليل
مرحباً مرحباً وأهلا وسهلا ... والهدايا ما بين لب وفول !

***

انتظر يا صديق شيئاً فشيئاً ... تطبخ القوت كله بيـــديكا
غير أني إخال ما كان نيئاً ... منه أجدى فى الحالتين عليكا

***

انتظر يا صـديق مليون عام ... أو ملايين لست والله أدري
إن تدانيت بعدها من مقامي ... فقصارى المطاف أن لست تدري!

***

واصطبر إن عناك نثر ونظم ... سوف تتلو نثراً وتنظم شعراً
وغـدا يطفر الخيـال ويسمو ... والذراعان لا تطيقان طفراً

***

وإذا ما درست أوزان رقص ... بعد لأى فالرقص فيك انطباع
هل تنال الكمال من بعد نقص ... إن أقلتك فـكرة لا ذراع

***

انتظر سوف تفهم الشيء باسم ... بعد رسم وغابر بعـــد حال
فاذا ما طلبت باطن فهم ... يا صـديق طلبت أى محال

***

ولا تقف الاشارة إلى نظرية النشوء والارتقاء فى هذه القطعة — بجانب الاحساس الفنى فيها — عند ظاهرها الذى يعلمه كل من سمع بها ؛ فالمقاطع من الرابع إلى الثامن تدل على فهم تام لها وهى تشير إلى أن الطبيعة لا تسرف فى المواهب ، فهى حين تمنح موهبة تسلب ما كان يقوم مقامها . فهذا الجيبون حينما يطفر خياله فى المستقبل فالذراعان لاتطيقان طفراً ، وحينما تقله الفكرة ستخذله الذراع . ثم هناك بيان لمدارج الرق بين الانسان والحيوان ، فهذا يفهم الشيء برسمه ، وذلك يفهمه باسمه ، وهذا يتذكر الحاضر وحده ، بينما ذلك يتذكر الغابر ويستعيده ، ثم فيها الاقرار بالعجز الانسانى أمام الغيب المجهول ، والسخرية بالمعرفة الانسانية القاصرة ، فقصارى الجيبون حين يصل إلى مرتبة الانسان أن يعرف الأشياء بالأسماء ويتذكر ما فات وأن تقله الفكرة لا الذراع ويطفر خياله ويسمو

فاذا ما طلبت باطن فهم ... يا صديق طلبت أى محال !

أو :

إن تدانيت بعدها من مقامي ... فقصارى المطاف أن لست تدرى!

وهناك الإيمان بالغريزة والإعجاب بطابعها الخالص :

وإذا ما درست أوزان رقص ... بعد لأى ، فالرقص فيك انطباع!

والنيء أجدى من المطبوخ فى حالتى هذا الجيبون الصديق.

وهناك بعد هذا كله ذلك التعاطف بين الحى والحى ، والشعور بالآصرة التى تربطهما ، واستعراض الآمال والأشواق فى أبى العبقري والبهلوان !

والقصيدة بقية تنحو هذه المناحى

وهذه قطعة واحدة من شعر العقاد ، تزدحم بكل هـذه الدراسات واللفتات ، وذلك بعض ماعنيناه برحابة نفسه ، وتوفر شعوره ، وصدق فطرته ؛ وذلك مالا يعنى المدرسة الرافعية ، لأنها مشغولة عن مثله بمآرب أخرى فى تطريز الأساليب وتوشية التعبير واستعارة الحكم والأقوال المأثورة

ولعل فى هذا رداً على « المتقدمين من نقدة الأدب » الذين يرون المعاني ملقاة على قارعة الطريق ... ! وقد تكون كذلك ولكن ليس كل من يمر بالطريق مفتوح العينين ليراها ويدرك ما فيها من جمال وتعبير عن حقيقة ثمينة ؛ حتى لا يكون أمامه بعد هذا إلا أن ينصرف لتجويد الأسلوب . وها هو ذا « الجيبون » فى حديقة الحيوان يمر عليه الرائح والغادى ، ويراه الرافعيون كما زاروا الحدائق . ولكن العقاد وحده هو الذى يقف أمامه ملتفتاً هذه اللفتات ، لأن فى نفسه ذخيرة ينفق منها ، وحياة يفيضها على ما يراه ؛ وتلك ميزته عمن عداه

« حلوان » سيد قطب

كلمة أخرى على الهامش

أهذا نقد ؟ أهذا كلام ؟

للأستاذ على الطنطاوى

أنا رجل له عمله الذى يملأ يومه ، ونهجه الذى يدير حياته ، وليس من عمله ولا فى منهجه الدخول فى هذه المناظرة التى يقوم سوقها بين الأستاذ الكاتب الفحل محمود شاكر ، وبين الأستاذ سيد قطب . وأنا رجل عرف شاكراً وعرف الرافعى العظيم رحمه الله ، وغدا لطول ما قرأ لهما ووثق بهما يقبل كل ما جاءا به . ولكنى لم أعرف الأستاذ قطب قبل اليوم [1] ولم أعلم له وجوداً ، فهو عندي كاتب جديد أرى اسمه للوهلة الأولى فلا أضمه في منزلة من نفسي ، ولاأجدنى من قرائه ، ولا أعلم لآرائه من القيمة والخطر ما يدفعنى إلى مناقشتها . فلا شأن لى فى هذه المناظرة ، وليس علىّ خوض غمارها ، ولكن ما قرأته للسيد قطب فى هذا العدد الأخير (٢٥٥) حفزنى إلى سوق هذه الكلمة أسأل فيها : أهذا نقد ؟ أهذا كلام ؟

لقد تعلمت (وعلمت تلاميذى) أن النقد يستند إلى دعامتين : دعامة من اللغة وعلومها — نحوها وصرفها وبيانها — يعرف بها خطأ الكلام من صوابه ، ودعامة من الذوق يعرف بها جماله من قبحه . أى إن النقد (علم) حين يدور على الخطأ والصواب ، و (فنّ) حين يبحث عن الجمال . أما (فنّ النقد) فلا يمكن الجدال فيه لأن أداته الذوق ، والذوق شيء شخصي ومداره على الجمال ، والجمال لا يتبع قاعدة ، ولا يعرف له مقياس . فإذا قال سيد قطب : إن هذا البيت من أبيات الرافعى قبيح ، كان معنى قوله أن هذا البيت لا يوافق المثل الأعلى الذى أتصوره أنا فى الشعر . وإذن يحق لغيره أن يقول له : بل هو جميل عندى . (أما علم النقد) الذى يستند إلى علوم اللغة فالجدال فيه ممكن بل واجب ، والحق فيه معروف ظاهر ، لأن لهذه العلوم قواعد وأسساً ، فما قام عليها فهو صواب ، وما حاد عنها فهو خطأ ...

فلننظر بعد هذا فى نقد الأستاذ قطب بيت الرافعى رضى الله عنه :

إن الظلام الذى يجلوك يا قمر   له صباح متى تدركه أخفاكا

حين يقول : (والحب الذي هو ظلام لا يحتاج للتعليق ، فما يوجد حب فى الدنيا تظلم به الأرواح ، ولكن الرافعى هكذا يقول) ...

فهل فى الدنيا قارئ يفهم أساليب العرب يذهب إلى أن المراد من هذا البيت تقرير أن الحب ظلام ؟ وهل يدل هذا على فهم صاحبه ووقوفه على علم البيان العربى وسنن العرب فى كلامها ؟ إن صغار الطلبة يعرفون من دروس البلاغة أن هذا (تمثيل) يراد منه تشبيه صورة كاملة بصورة كاملة ووضع أحداهما مكان الأخرى على الأسلوب المجازى المعروف ؛ ولا يمكن أن ينفك جزء من أجزاء هذه الصورة عن جزء . ومعنى هذا البيت : أن الحب الذى يجملك مثل القمر ، ملء ناظرى وملء الدنيا ، لابد أن تكون له نهاية ، شأن كل حب فى الدنيا ، كالليل يبدو فيه القمر مجلواً وضاء ، ولكن الصباح الذى لابد منه يخفى هذا القمر ويمحوه

وفي الكتاب المدرسى المقرر فى مصر لطلاب السنة الرابعة الثانوية ما يكفى العلم به لتجنب الوقوع فى هذا الخطأ الذى وقع فيه الأستاذ سيد قطب . ومن أمثلته أن تقول لمن يقصر فى عمله ويرقب (العلاوة) : إنك لا تجنى من الشوك العنب . فهل يصح لرجل أن يسخر مثلما سخر ، وأن يقول هذا خطأ لأن العلاوة ليست عنباً ؟ ولا دخل للعنب فى هذه المسألة ... أو تقول لتلميذ قصر فى الاجتهاد : الصيف ضيعت اللابن . فهل يجوز لناقد من طراز سيد قطب أن يقول له : هذا خطأ لأن الدراسة تكون فى الشتاء لا فى الصيف ، وأنه ليس فى مقرر الصف لبن ؟

أهذا نقد ؟ أهذا كلام ؟

***

ومثله انتقاد سيد قطب تشبيه الرافعي رضى الله عنه الليل والنهار بشقى المقص (المجتمعين تحت مسمار الشمس) ، ورده عليه بأن (الرافعى لم يخطر على باله أن الليل والنهار من الظواهر الأزلية العميقة . وأن بناءها هكذا عمل سرمدى دائم من بدء الخليقة إلى نهايتها) وإنهما ليسا شقى مقص

برافو سيد قطب ! لقد كشفت أميركا ؟

وما قولك بتشبيه شوق الشفتين بشقى مقص من عقيق . ألم يخطر على باله إن الشفتين ليستا شقى مقص وإنما هما شفتان ؟ والمجاز كله ؟ ألم يخطر على بال أصحابه أن له حقيقة قد صرفوه عنها ببراعتهم وحدة أذهانهم ؟ أنهدم المجاز كله يا سيد قطب ؟

(١) وليس يضره إن كنت لا أعرفه ، وكان فى ذاته شيئا ، وليس ينفعه أن يعرفه ألوف وهو ليس بشيء

ليلى المريضة في العراق

للدكتور زكي مبارك

بقية المقال العشرين

— ظمياء
— عيوني
— أترينني أحسنت الدفاع عن نفسي ؟
— بعض الاحسان
— وأنا مكتف بذلك ، فا هي التهمة الثالثة ؟
— ليلى تتهمك بالخداع
— وكيف ؟
— لا تدري كيف وأنت أعظم مخادع ؟
— آمنت بالله وكفرت بالحب ، أفصحي يا بلهاء
— اسمي ظمياء
— أفصحي يا ظمياء
— رأتك ليلى تقول في كتاب (الموازنة بين الشعراء) ان الدمع في عين العاشق كالسم في ناب الثعبان ، ثم شرحت رأيك فقلت ان العاشق يخدر محبوبته بالدمع كما يخدر الثعبان فريسته بالسم . وتقول ليلى إن هذا هو السبب في ألا تخلو قصيدة من قصائدك أو رسالة من رسائلك أو كلمة من كلماتك من ذكر الدموع. ولك كتاب اسمه (مدامع العشاق) وأنت في كل يوم تقول : « أكتب والدمع في عيني » أو تقول : « ودعت أحبابي بقلب خافق ، ودمع دافق » أو تقول « غسلوني بدموعي يوم أموت »

أو تقول : « ان ملوحة الدمع أشهى مذاقاً من الشهد » ولك من أمثال هذه التعابير عشرات أو مئات أو ألوف ، فأنت بشهادتك على نفسك مخادع عظيم

— ظمياء ، هذا دمي ، فكيف ترين ؟

— هو السم في ناب الثعبان ، وسنخلع أنيابك فلا تقول انك ثقبت لؤلؤة في بغداد

— أنت جاهلة يا ظمياء ، وليلى أجهل ، فا تعرف ولا تعرفين أن عرض بغداد هو عرضي ، وأن عرائس بغداد هن أخواتي وبناتي . لا تعرف ليلى ولا تعرفين أن كل مكان في بغداد هو عندي محراب ، وحيثما توجهت فثم وجه التاريخ ، وأهل العراق هم في أنفسنا حماة الأدب في العصر القديم وأنصار الأدب في العصر الحديث

والمصريّ في العراق يرى وجه مصر في كل مكان : يراه في المدارس والمعاهد والمكاتب والملاهي والملاعب والأغاني والأناشيد، وجرائد مصر ومجلات مصر تقرأ في بلادكم وكأنها عراقية لا مصرية ، فثقي يا ظمياء بوفائي وثقي بأدبي فسأحفظ ما طوقتم به عنقي من جميل

وقد نظرت فرأيت صحبة العراق كانت خيراً لكل من تشرف بها من أهل مصر ؛ وما عاش مصري سنة واحدة في العراق إلا أصبح وفي دمه ذخيرة من النار والحديد ؛ وما رأ كم مصري واستطاع أن يذكركم بسوء في سر أو علانية

فماذا تريد ليلى أن تصنع معي يا ظمياء ؟

ماذا تريد ليلى ؟ ماذا تريد ؟

إذا كان دمعي شاهداً على خداعي ، فأين أجد الشاهد على وفائي؟ إن النساك يتقربون إلى أربابهم بالمدامع ، فكيف لا يتقرب العشاق إلى أحبابهم بالمدامع ؟

أواه من مصيري في هوى ليلاي !

سأرجع إلى وطني وأهلي مصدوع القلب مفطور الفؤاد وستعيش ليلى بعافية ، وستنسى طبيبها الوفيّ الأمين

وكذلك كان حالي في كل أرض . كنت أغرس العافية في الأرواح والقلوب، وما عرفني إنسان إلا تحوّل من غيّ إلى رشد، أو من هدى إلى ضلال . كنت أذيع الشرك في قلوب الموحدين، وأذيع التوحيد في صدور المشركين ، كنت مَلَكاً ، وكنت شيطاناً، ثم أصبحت وأنا مجرد من سماحة الملائكة وسفاهة الشياطين أدبتني ليلى ، وبلائي في ذلك التأديب . أحبك يا ليلى وأهواك

أهذا نقد؟ أهذا كلام؟

إن الذي يجب الآن على الأستاذ شاكر وجوباً لا هوادة فيه ، هو ألا يخط في هذه المناظرة حرفاً بعد اليوم . كلا . ما هذه مناظرة ، ولا هذا مناظر [1] ! ولا أدب الرافعي بيت من الورق لينهار من نفخة ؛ إن أدبه قصر من الصخر ، سيبقى بقاء الدهر !

« دمشق » علي الطنطاوي

---

(١) إنما المناظر أو الناقد من أتقن وسائل النقد واستكمل أدواته ، وسبيل الاستاذ قطب إذا أراد نقد الرافعي رضى الله عنه أن يدرس كتبه كلها ويحكم عليه حكماً عاماً ، ويبحث في أسلوبه وفي ألوان أدبه ، ويشرح مزاياه وعيوبه لا أن يأخذ كلمة من هاهنا وبيتاً من هاهنا ليملأ بهذا النقد صفحات من الرسالة خير للقراء لو ملئت بما ينفعهم أو يمتعهم !

— وتحبنى أيضاً يا دكتور ؟

— وأحبك أيضاً يا ظمياء ، وأحب كل مخلوق فى العراق حتى القيظ والزوابع والأعاصير . أحب البلد الطيب الذى أرهف قلبي ، وصقل وجدانى ، واستطعت بفضل الله وبفضله أن أقنع أهلى فى مصر بأن لى قلباً يعرف معانى الشوق والوفاء

— دكتور

— ظمياء

— لقد أحسنت الدفاع عن نفسك فى هذه التهم الثلاث ، ولكن هناك تهمة رابعة لن تستطيع لها دفعاً ، لأنها فى خلقتك والخلقة لا تغيير لها ولا تبديل

— فهمت ، فهمت . إن الجرائد المصرية تصورنى دميم الوجه ولا ينبغى يا ظمياء تصديق كل ما تنشر الجرائد

— لا ، لا ، إن ليلى تراك أجل مخلوق ، ولكنها تقول إنك أخضر العينين ، وهناوجه الخطر ، فالعيون الخُضر تهتاج الثعابين، ومارأى ثعبان إنساناً أخضر العينين إلااغتاظ واهتاج واستعد للقتال

— ومن أجل هذا تثور علىّ هذه الرقطاء ؟؟ إسمعى أيتها الطفلة . اسمعى . اسمعى . إنى ورثت خضرة العينين عن أمي ، سقى قبرها الغيث ، وأمى ورثت خضرة العينين عن جدتى ، وكانت تركية الأصل ، فممن ورثت ليلى سواد عينيها ؟ إسمعى ياظمياء ، لقد أطلتُ التودد إلى أهل العراق ، وسأصارحهم اليوم بحقيقة لم يتنبه إليها أحد سواى . ليس فى العراق كله طرف كحيل إلا وهو مسروق من عيون الظباء ، وجبرتكم للصحراء هى التى مكنتكم من هذا الانتهاب الفظيع ، ولكن هذه السرقة لن تطول ، فسيأتى يوم قريب أو بعيد يشتد فيه ساعد « عصبة الأمم » المقيمة فى جنيف ثم تحول بينكم وبين انتهاب السواد من عيون الظباء

اخرجى ياظمياء ، ولا ترجعى إلىّ بعد اليوم ، فهذ آخر العهد

* * *

خرجت ظمياء محزونة وهى تعتقد أن ليلى جانية وأن العراق كله قد وقع فى سرقة دولية حين انتهب السواد من عيون الظباء

وبقيت أنا فى كروبى وأشجانى ، فأنا فى سريرة نفسى أعتقد أن الظباء هى التى سرقت سواد العيون من أهل العراق ، وقد عاش العراق كريما فى جميع عهود التاريخ ، فمن حنين غوانيه عرف الحمام كيف يسجع ، ومن صيال أبطاله عرف الدهر كيف يصول

ولكن كيف أصحح خطأى فأسترد ليلى واسترجع ظمياء ؟

كيف ؟ كيف ؟

إن ليلى لن ترجع بسهولة لأنها عراقية ، والعراق مفطور على العناد

أحبك يا ليلى ، أحبك يا روحى ، واشتهى أن أخاصرك مرة ثانية تحت ضوء القمر وفى سكون الليل . أحب أن أسامرك مرة ثانية تحت النجوم فى مطلع حزيران قبل أن أرجع إلى مصر وطن الجفاء والعقوق

أحبك ياليلى وأحب ذلك الطبع المتقلب الذى لايستقر على حال

أحب أن أنشدك مرة ثانية قول الشاعر احمد رامي :

يا من أخذت فؤادى أخذ العدو الحبيب

قلبي لديك فقل لى ما حاله فى القلوب

أحب أن أصرخ مرة ثانية ، أحب أن أصرخ صرخة الوجد فى رحاب الكاظمية .

أحب أن أفتق بصراخى قلبك الأغلف وأذنك الصماء

أحب وأحب ، ولكن أين السبيل إلى قلبك الظلوم !

* * *

طال شقائى بهجر ليلى ، فما ذا أصنع ؟

إن بغداد تحقد علىّ ويسرها أن يطول فى حب ليلى عذابى

فأين شفعائى إلى ليلاى ؟ أين لا أين ؟

الحمد لله والحب ! هذا خاطر لطيف قد ينفع بعض النفع ، إن ليلى لها فى الموصل بنات خالات ، وبنات الخالات يقدرن على ما يعجز عنه أبناء الأعمام والأخوال ، فلأمض إلى الموصل لأشكو إلى ظبيانه جروحى وآلامى

إلى الموصل ، إلى الموصل

إلى الموصل الجيل أمتطي قطار الصباح بين اليأس والرجاء

— ٢١ —

طال بلائى بغضب ليلاى ، وتهدم ما كنا رفعنا من صروح الأمانى ، وأمسى الحزن يصهر قلبي كلما تمثلت أطياف تلك الصروح

وطال حنينى إلى كلمة كانت تقولها ليلى في لحظات الصفاء ، وهى كلمة « تعال » فكنت أهوى إلى صدرها كما يهوى الطفل إلى صدر أمه الرءوم ، وما كان أدبي يسمح بأن أقترح شيئاً على ليلاى وإنما كنت أنتظر عطفها فى صمت كما ينتظر العشب جود السحاب

وكنت خدعتها فزعمت أن تقاليد الأدب فى فرنسا تقضى بأن يقبل الرجل يد المرأة ، وقد انخدعت فكنت أقبل يديها فى كل

لقاء ؛ ولكنى مع ذلك حفظت وقارى فلم أكن أقبل يديها فى السهرة الطويلة أكثر من سبعين مرة

وقد حلى الطيش فى إحدى الليالى على أن أقترح تقبيل خديها فرفضت

وعند ذلك أنشدت :

يا غزالاً لى إليه شافع من مقلتيه
والذي أجللت خديه فقبلت يديه
أنا ضيف وجزاء الضيف إحسان إليه

فقالت بعد تمنع : أقبلك أنا

فقلت : وما الفرق يا روحى ؟

فقالت : القبلة منك حب ، والقبلة منى عطف

فقلت : أقبلك قبلة عطف .

فقالت : إبحث عمن يصدق دعواك يا فاجر !

ورضيت بالقليل فقبلتنى ليلى قبلة كادت تشوى جبينى .

تلك قبلة العطف فكيف تكون قبلة الحب ؟

أشهد أن الله قدر ولطف !

ذلك نعيم ضاع ، وما أدرى كيف ضاع ، فما كانت هفوتى خليقة بأن تصيرنى إلى ما صرت إليه من الحرمان ، ولكن متى طاب زمانى حتى تطيب ليلاى ؟

آه من كيد الزمان ! وآه من غدر الملاح !

* * *

شاع فى بغداد أني ذاهب إلى الوصل لأستشفع بالحور العين من قريبات ليلى ، فللشقية هناك بنات خالات . وسمع بذلك أخ صادق فقال : خير لك أن تسافر إلى النجف ، فهو أقرب من الوصل ، وملاح النجف أرق وأظرف ، وهن يعطفن على بلواك ، وهذا اليوم أصلح الأيام

وسألت عن السبب فعرفت أن أهل النجف يحتفلون بميلاد الرسول في السابع عشر من ربيع الأول ، وفى المولد النبوى تزدحم ساحات الحرم الحيدرى بالعرائس فأختار من الشفيعات ما أشاء . . .

وماهى إلا لحظات حتى عبرت الجسر إلى الكرخ ، الكرخ الذى كان فيه قمراً بن زريق ، والذى سامرت فى رحابه قمراً غادراً لا يحفظ العهد ، ستفيض مدامعه بالدم يوم يتلفت فلا يرانى . وهل كنت إلا طيفاً زار فى السَّحَر بساتين الكرخ وبغداد ؟

ومن الكرخ ركبت سيارة إلى كربلاء

وفى الطريق مررت على الاسكندرية وكنت مررت عليها فى طريقى إلى الحِلة منذ أشهر ، ورجَّحت أنها البلدة التى ينسب إليها أبو الفتح الاسكندرى فى مقامات بديع الزمان ؛ ولكنى فى هذه المرة حاولت أن أعرف مكانها من الماء لأن عيسى بن هشام جملها من الثغور الأموية ، فاهتديت إلى أصلها بعض الاهتداء ، وقد أصل إلى جوهر الحقيقة بعد حين

لم أقض فى كربلاء غير لحظات ، وهى مدينة تحيط بها الخضرة من جميع النواحى ، وفيها قتل الحسين كما هو معروف ، وللحسين فيها ضريح لم أزره ولكنى شهدت قبته العالية ، وهى مكسوة بالذهب الوهاج ، وفى كربلاء ضريح آخر للعباس أخى الحسين ، وهذان الضريحان يفيضان النور على كربلاء ، وقتل الحسين كان نعمة على هذه المدينة ؛ فقد أصبحت بفضل مرقده من مواسم القلوب

ومن كربلاء أخذت سيارة إلى النجف فأسلمتنى إلى صحراء رأيت فيها الضب أول مرة ، فتذكرت ما صنع الشعوبية حين وصموا العرب بأكل الضباب واليرابيع ، والشعوبية كانوا جماعة من الأدباء لا يعرفون العواقب ، وقد زعزعوا ما كان بين العرب والفرس من متين الصلات وسيلقون جزاءهم يوم يقوم الحساب

وأخذت تلك الصحراء تصنع بخيالى ما صنعت البادية بين دمشق وبغداد فكان فيها ألوان من خداع السراب . وبعد ساعة رأيت فى الأفق ذهباً يتوهج ، فحدقت فيه النظر لحظات ولحظات فرأيته يزداد إشراقاً إلى إشراق . فصح عندى أنه ذهب القبة العالية ، قبة ضريح أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه وعطر مثواه

ثم عبرت إلى النجف وادي السلام وهو مقابر طوال عراض عرفت ملايين الناس من سائر الأجناس

وأهل النجف يعتقدون أن من يدفن فى وادى السلام لا يسأل فى البرزخ ، وهو اعتقاد لطيف ، فمن عزاء الانسانية أن تعتقد أن لها معتصما من الحساب ولو إلى حين

(للحديث شجون)

زكى مبارك

التاريخ فى سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الأحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

يا شباب الوادي ! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم ....

— ١٥ —

واتخذ دوجلاس للأمر عدته ، لم يدع وسيلة أو يغفل عن حيلة ، أما ابراهام فلم تكن به حاجة إلى ما يحتال به من أساليب التأثير المتكلفة الخادعة ، فما هو إلا أن ينصت له الجمع حتى ينبعث اليقين ما قر فى نفسه فيحرك به لسانه فاذا هو كالنهر الحادر يفهق بما لا يفتأ يواتيه به المنبع ، ويجيش بهذا الفيض ويهدر ، ويتدفق لا يصده عن وجهه شيء ...

وكان لدوجلاس من بعد الصيت ما جعل اسمه ملء الأسماع فى طول البلاد وعرضها ؛ وكان فى رأى الأمريكيين أقدر رجال حزبه وأكثرهم فطنة وأطولهم فى السياسة باعاً وأقواهم بمصاعبها اضطلاعاً ، بل لقد كان عند الكثيرين من ذوى الرأى أعظم رجال أمريكا كفاية وأعلاهم كعباً وأعزهم مكانة ، وكان يلقب « بالمارد الصغير » أن كان له على صغر جرمه وقصر قامته قوة المارد وسلطان المارد ودهاء المارد ، وكانت له حيوية غريبة تنقطع دونها حيوية الرجال ، وتتقاصر عنها هممهم . والحق لقد كان دوجلاس يومئذ أنبه الناس شأناً وأعزهم نفراً وهو من عهد قريب لم يكن يسمع به أحد خارج الينواس

لذلك كان للناس عجباً أن يطاوله ابراهام وأن يدعوه إلى نزال . وأخذ من لم يكن يعرفه منهم هذا الفعل من جانبه على أنه ضرب من الغرور أو نوع من الغفلة ، ولو أنهم عرفوا دخيلة صاحبهم الذى افتتنوا به وتبينوا ما هجس فى نفسه من الخواطر إزاء هذا التحدى الجرىء لأيقنوا أن جبروت ماردهم وأساليبه ما كانت لتغنى عنه شيئاً من هذا العملاق الذى درج من الغابة ليقف أمامه كأنه السنديانة !

وكانت أتاوا أولى المدن السبع التى اختيرت ميادين لذلك الصراع ؛ وقد جاءها الناس ليشهدوا ما لم تقع عليه من قبل أبصارهم أو تتعلق به أوهامهم ، وقد اتُّفِق أن يكون الكلام أول الأمر لدوجلاس فيخطب الجمع ساعة ، ثم يعطى من بعده ابراهام ساعة ونصف ساعة ؛ ويختتم دوجلاس هذا الدور بعده بحديث يستغرق نصف ساعة

وكان دوجلاس فى انتقاله بين المدن فى ألينواس يتخذ مركبة فخمة يجرها ستة من كرائم الخيل ، وحوله ثلة من الفرسان يتزيد بهم من الهيبة والأبهة ؛ وكان إذا دخل مدينة من المدن يقف فى مركبته وقد تكلف أكثر ما يطيق من الصرامة فما يكاد يلمحه الناس ويقبلون عليه مصفقين مهللين حتى تنقلب صرامته وسامة فيحيي الجموع بيديه وإيماءاته وابتساماته ، ويلتفت لهذا ويهش لذاك كأنه ملك يتدلى من عليائه ليطالع على شعبه ، وإذا هو حل بقوم أو سار إليه قوم عرف كيف يوحى إليهم تبجيله والاعجاب به ، فهو بين الصلف وخفض الجناح ، وبين الاحتشام والتبذل يحيي وجوههم وكبراءهم ويغمرهم بنعمة منه وفضل

أما لنكولن فكان ينتقل بين الناس كأحدهم ؛ وكثيراً ما يكون دون بعضهم ، فإذا أخذ مكانه فى قطار أو فى مركبة عامة مزدحمة كان بين ركابها كما كان بين الناس فى نيوسالم حين كان يدير الحانوت أو حين كان يوزع البريد يتبسط لهم فى القول ويسترسل معهم فى شتى الأحاديث ، ويقص عليهم من قصصه ، وإن له فى هذا كله لمتاعاً ولذة لن يحسها إلا من كان له مثل قلبه

والتقى الرجلان فى أتاوا ؛ واحتشد الناس فى الموعد المضروب فضاق بهم مكان الاجتماع ؛ وحانت ساعة الكلام ، فوثب المارد الصغير إلى موضع مرتفع أطل منه على الناس فتمزقت بالتصفيق أكف أنصاره وتشققت بالهتاف حناجرهم ، وهو يرسل نظراته فى جنبات المكان ويوزع إيماءاته هناك ، وهنا ، حتى سكنت ريحهم فبدأ الكلام ...

وكان يومئذ فى الخامسة والأربعين ، بادى الفتوة مرموق الشباب يتهلل وجهه لولا كدرة طفيفة هى مما فعلته به ابنة المنقود وسكنى المدن ولكنها كدرة كانت تنقشع حين تلهب بالحماسة وجنتاه ؛ وكان فى موقفه بارز الصدر قوى الكتفين

تتجه نظرات الإكبار إلى رأسه الضخم فما تلبث أن تلتقي بعينيه الزرقاوين السريعتين فترتد حاسرة كأنما غشيت من ضوء وهاج، وكانت تفتن الأنظار أناقة ملبسه ونظام هندامه، كما كانت تسحرها لفتاته وحركاته كأنما كانت تقع الأبصار منه على ممثل قدير عرف سبيله إلى قلوب محبيه فهو يحرص ألا ينحرف قيد شعرة عما يشيع في نفوسهم السحر من مظهره ...

وتكلم دوجلاس فكان في كلامه ثبت الجنان زلق اللسان وكانت له في هذا الاجتماع خطة بالغ في إحكامها وتسديد خطاها، ومؤداها أن يرمي لنكولن والمتشيعين له بأنهم من المتطرفين الذين يريدون حل مسألة العبيد بالقوة، ثم يحمل على بقية رجال الحزب الجمهوري فيرميهم بالتذبذب ... وراح يخطو في سبيل ذلك خطوات؛ فيتحمس ويعلو بصوته ويكثر من الإشارات، ولكنه كان يسمو بعباراته أحياناً فلا ترقى إليها أفهام الكثيرين؛ على أنه كان له من جاهه ونفوذه وهيبته في قلوب الجماهير عوض عن ذلك، فحسبهم أنهم يستمعون إلى ذلك الذي بات يتحدث باسمه كل إنسان، حسبهم أنهم يستمعون إلى دوجلاس السياسي الأشهر ورجل الثورة العزيز الجانب! وإن في كثير من النفوس البشرية لما يميل بها من غرائزها إلى الخضوع للسلطان والانقياد لكل ما يشير به ولو كان مما هو جدير أن يقابل بالعصيان

وجاء دور ابراهام فطلع على الناس بقامته الطويلة فهتف باسمه أنصاره وتحمسوا له، واتجهت إليه الأنظار وإنه ليبدو كأنما أخذته من الموقف ربكة فليس له تطلع دوجلاس وتحفزه! ونظر الناس إلى شعره الأشعث وإلى ملابسه المهدلة وخاصة إلى سرواله الذي يقصر عن ساقيه فيكشف عن جزء منها، وقارنوا دون أن يشعروا بين تلك الملابس وبين حلة دوجلاس الأنيقة فبدت أكثر حقارة مما هي عليه! وكانت تستقر الألحاظ برهة على محياه وقد ازدادت مسحة الهم فيه وضوحاً، وبدا عليه ما يشبه المسكنة والانكسار.. ولكن الناس على الرغم من ذلك يرتاحون إلى مظهر ذلك المحيا ويشعرون نحوه بالحب!

ويبدأ الخطيب في صوت أجش تتخلله حشرجة ثقيلة؛ ثم ما هي إلا برهة حتى تنطلق نفسه على سجيتها، فاذا ذلك المحيا يتهلل ويشرق وتتشكل أساريره بما يهجس في خاطره، وإذا تلك العينان الواسعتان المتسائلتان تنفذان بسحرهما إلى أعماق القلوب، وإذا الرجل يبدو في هيئة يتقاصر عن وصفها لفظ الجمال. وتتفتح مسالك صوته فينطلق رائقاً له رنين يتشكل حسبما يعبر عنه من المعاني، وكان يعلو صوته إذا تحمس فيدوي في أرجاء المكان

وينساب السيل لا يصده عن وجهه شيء ولا تمشي في صفائه كدرة على تدفقه وجيشانه! والناس مفتونون وإن هم لم يفطنوا على وجه التحديد إلى سر فتنتهم، فهم مأخوذون بما يسمعون عن أن يفكروا أو يحللوا؛ وإنهم لفي سكرة أشبه بما يجدون أنفسهم فيه عند إصغائهم إلى لحن من تلك الألحان التي تسحر الأنفس وتملك الألباب

تدافعت إلى ذهنه الألفاظ وتزاحمت عليه المعاني وقد أسفرت عن وجوهها ومشت إلى غايتها في غير تحرج أو التواء؛ ولقد برزت في ذلك اليوم مواهبه على أتمها فكان له ما شاء من سهولة اللفظ مع بلاغته ودقة النطق مع سلامته؛ هذا إلى يقين ينفث في قوله الحرارة؛ وتمكن يذيع فيه الروعة؛ وأمثلة يسوقها من الحياة العادية فتستقر في قلوب سامعيه ومعظمهم من عامة الناس ومن وراء ذلك العبقرية التي تستعصى على التحليل وتسمو على التأويل ...

ونزل لنكولن وله في قلوب السامعين من أنصاره وخصومه مكانة غير ما كان له قبل من مكانته، فلقد استطاع أن يقنعهم، كما استطاع أن يشعرهم بما هو أقوى من الاقتناع وأبعد أثراً ألا وهو الاعجاب؛ وإنهم ليتهامسون بعضهم إلى بعض قائلين: ليت لسادتنا وكبرائنا قلوبا مثل قلب ذلك الرجل ... مثل قلب أيب الأمين ...

وتكلم دوجلاس بعد ذلك مسافة نصف ساعة أعلن بعدها أن الاجتماع الثاني سوف يكون في فريبورت

ولقد ارتكب دوجلاس من الخطأ في هذا الاجتماع الأول ما عد عليه أنه أفحش أخطائه في ذلك الجدال؛ وذلك أنه أبرز مكتوباً موقعاً عليه باسم لنكولن يفهم منه أن إبراهام من زعماء المتطرفين؛ ولكن سرعان ما أقام إبراهام في دوره الدليل على أنه

زائف وأنه مما جاء فيه براء . وكانت لطمة قوية استخذى لها دوجلاس فى سامى منزلته ، وفقد بعدها ثقة الكثيرين ...

وحل موعد الاجتماع الثانى فتسابق الناس إليه أفواجاً وقد اشتهر أمر ذلك الصراع إذ لم تبق صحيفة إلا وقد أسهبت فى الحديث عنه ؛ وفى هذا الاجتماع طعن لنكولن خصمه تلك الطعنة التى سلفت الاشارة إليها ؛ فلقد أعد له سؤالا يلقيه عليه : أ إذا أرادت ولاية أن تلغى نظام العبيد فيها فهل هى مستطيعة أن تفعل ذلك دون أى حرج ؟ ولقد أنكر عليه أنصاره هذا السؤال إذ لم يفهموا الغرض الذى يرمى إليه منه ، وهو يعلم أن دوجلاس سيجيبه: بلى تستطيع الولاية ذلك . فقال لهم ولكنه بذلك يفقد عطف أنصار مبدأ التمسك بالعبيد من أهل الجنوب فلا يمنحونه أصواتهم إذا هو تطلع للرياسة ؛ ولن يضير لنكولن أن يظفر دوجلاس اليوم بمقعد في مجلس الشيوخ

ووجه لنكولن السؤال إلى دوجلاس فأجاب بقوله « نعم تستطيع الولاية أن تفعل ذلك فى غير حرج » ؛ وفرح لنكولن بتلك الاجابة التى يعلم أنها ستنفر أهل الجنوب منه . ولقد أيدت الأيام رأيه وبرهنت على بعد نظره. ومما قاله لنكولن فى ذلك «إن دوجلاس ليتبعه عدد كبير من العميان ، وإنى أريد أن أجعل بعض هؤلاء يبصرون »

وفى الاجتماعين الثالث والرابع لم يأت كلاهما بشىء جديد ؛ وإنما اجتهد لنكولن أن يدفع عن نفسه ما رماه به خصمه من الاتهامات ؛ وخرج لنكولن من هذين الاجتماعين وقد أضاف إلى أنصاره أنصاراً جديدين ...

وفى الخامس من هاتيك الاجتماعات اتخذ لنكولن خطة الهجوم ، بعد أن أخذ ينشر خصمه ويطويه في الاجتماعين الماضيين حتى دوّخه ، وكان هجومه تلك المرة شديداً ، ضاق به دوجلاس وانخلع عنه مكره ؛ عاب عليه إبراهام أنه لا يحفل بالاعتبار الخلقى من مسألة العبيد، مع أن هذا الاعتبار بعد الخروج على اتفاق مسورى ، هو السبيل الوحيد الذى يعوّل عليه فى منع انتشار العبيد ؛ وعلى ذلك يكون دوجلاس داعية إلى أن تصبح مسألة العبيد مسألة قومية عامة لا تحرج منها ولا تأثم فيها ..

وأحس دوجلاس مهارة الرمية وقوة الاصابة فراح يرد على رمية برمية، وعاد فاتهم لنكولن والحزب الجمهورى أنهم من دعاة الثورة وأنهم يدفعون البلاد إلى الدمار ...

ولكن لنكولن جعل الاجتماع السادس لتحديد مذهب الحزب الجمهورى فقال فى جلاء : إن الجمهوريين هم أولئك الذين يعتبرون نظام العبيد خطأ من النواحى الخلقية والاجتماعية والسياسية ؛ ولكنهم يتمسكون بدستور الاتحاد ويسيرون فى تحقيق أغراضهم على نهجه ؛ أما الذين لا يرون عيباً فى نظام العبيد فهم الديموقراطيون ؛ وهم ليسوا من الجمهوريين فى شىء ... لذلك ليس من الجمهوريين من لا يعبأون بالدستور فى موقفهم من نظام العبيد مهما بلغ من مقتهم لذلك النظام ...

وحار دوجلاس ماذا يفعل أمام تلك القوة وأمام ذلك الوضوح الذى لا يدع مجالا لمستريب فأخذ يداجى ويعبث وقد تثعلب بعد ما سبق أن استأسد

وضيق لنكولن عليه الخناق فطلب إليه أن يجيب على هذا السؤال البسيط فى غير مداجاة « أيعتبر نظام العبيد صواباً أم خطأ » ؟ وازدادت حيرة المارد الصغير وأحس أنه على جبروته يتلوى فى قبضة ذلك العملاق وكأنه أمامه جذع من تلك الجذوع التى ما كانت تقوى على فأسه مهما بلغ من متانتها يوم كان يضرب بفأسه فى الغابة قبل أن يعرف كيف يضرب بقلمه أو بلسانه

وعجب الناس لهذا الرجل الذى لا يرى نظيره فى الرجال ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون: ماذا دهى المارد الصغير ؟ وكيف تسنى لابن سبرنجفيلد المتواضع الذى لم يعرف سلطاناً ولا جاهاً أن يأخذ الطريق هكذا على ابن وشنجطون الجبار المدل بماله ومنعته ونفوذه ؟

ولكن هاجساً يهجس فى ضمائرهم أن للحق سلطاناً دونه كل سلطان، وعزة يستخذى أمامها كل اعتزاز، ومنعة تردعنها كل مطاولة ؛ وأن الباطل مهما تنمر واستعدى على الحق من أساليب بهتانه وألاعيب مكره ، لا يكون منه إلا كما يكون الليل من وجه الصباح ...

وأدرك الناس أن خير خادم للناس من يدرج من بينهم فيحس

إحساسهم ، ولا يزال مهما بلغ من سمو منزلته واتساع ثقافته ، قادراً أن يشاركهم عواطفهم وألا يضيق بأحلامهم وإن صغرت حتى يتلمس فيها السبيل إلى هديهم وشفاء أنفسهم ؛ وأى هذين الرجلين ينطبق ذلك عليه ؟ أهو دوجلاس الذى أثرى بغتة بحيلة لم تتطلب منه إلا أن يشترى قطعاً من الأرض بأبخس الأثمان ثم يعمل بنفوذه على أن تتخذ سكة الحديد فيها مجراها فيبيعها بما تمتلئ به خزانته ؟ والذي باعد بينه وبين الناس وتكلف مظهراً أرستقراطياً تطرب له نفسه ولا ترتاح إلا له ؟ أم هو لنكولن الذى ما برح يأكل من كده والذى ظل فى الناس على رجاحة عقله وعلو همته أحد الناس ، والذى لا يطيب له العيش إلا إذا استشعرت نفسه آمال الناس وآلامهم ، ولا يحلو له السمر إلا حيث يجلس فى قوم ارتفعت بينهم وبينه الكلفة وازدادت الألفة مهما يكن من الفوارق العلمية أو الفوارق المدنية ؟ ...

تحدث ابراهام مرة يصف دوجلاس فقال : لقد سوته الطبيعة بحيث أن ضربة السوط إذا نزلت على ظهره هو تؤلمه وتؤذيه ، بينما هى لا تؤلم ولا تؤذى إذا نزلت على ظهر أى شخص سواه » ؛ وما كان ابراهام مسرفاً فى قوله ؛ وما نحن بمسرفين إذا قلنا إن إبراهام قد سوته الطبيعة بحيث يحس ضربة السوط على ظهره هو إذا نزلت على ظهر أحد سواه من الناس ...

« يتبع »

الخفيف

الأنبـــاط

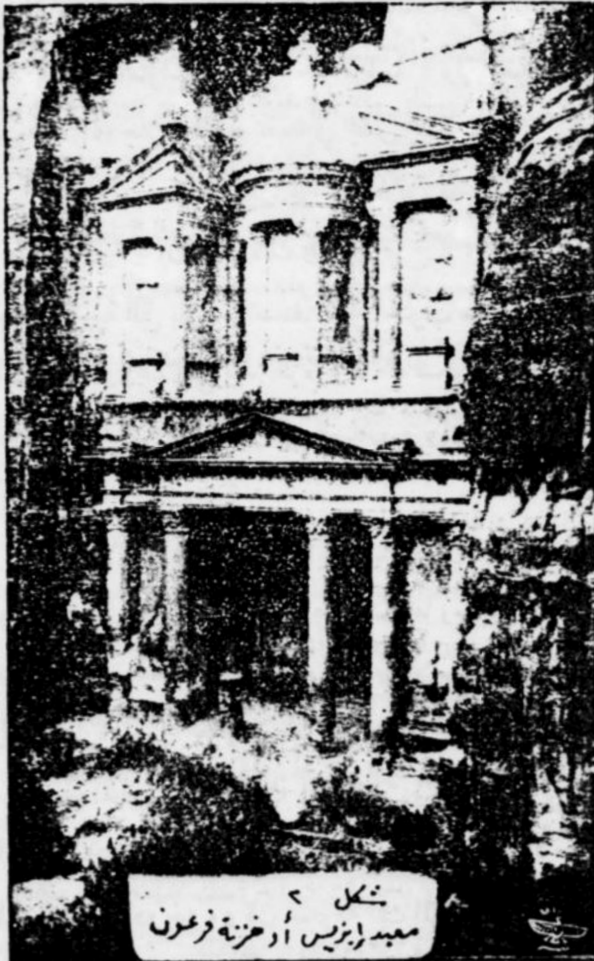
وأطلال بترا الخالدة

للأستاذ خليل جمعة الطوال

— ٣ —

معبد ازيس

وينتهى السبق أمام معبد عظيم هو فى الحقيقة أجمل وأخلد ما فى الشرق الأدنى من الآثار النبطية الرومانية الرائعة . وقد حفر — معبد إزيس — قبيل الفتح الرومانى (بقرن ونصف القرن



(شكل ٢ معبد إيزيس)

تقريباً) أي بين عام ٥٠ ق . م . و ٥٠ ب . م . وقد كانت بترا إبان ذلك فى أوج عظمتها . يبلغ علو هذا المعبد (٢٦) متراً ويتركب من طبقتين (انظر الصورة شكل ٢) أما الطبقة السفلى

فتتألف من ستة أعمدة رملية ضخمة متوجة بالتيجان الأغريقية الشكل ، ومن فوقها جميعاً قوس روماني مثلث غاية فى الرونق ، والزخرفة ، ويقوم المعبد فى وسط هذه الأعمدة الهائلة وهو بهو واسع كان يجتمع فيه المتعبدون لإقامة شعائرهم الدينية وإحراق البخور فى المجامر الحجرية المحفورة على جدرانه الأربعة ، وإلى جانبه غرفتان كبيرتان ، وهما للتعبد فى الأيام العادية

أما الطبقة العليا فتتألف من ثلاثة هياكل رائعة ، تقوم بين أعمدة رملية بديعة ، متوجة بالأقواس الرومانية المثلثة ، ويدعى الهيكل الأوسط بمزار إيزيس ، ولا يزال تمثال إيزيس قائماً فى وسطه برونقه وبهائه ، وتتوج هذا الهيكل قبة مخروطية الشكل يبلغ علوها ثلاثة أمتار ، ويسميها البدو قبة فرعون ، أو خزنة فرعون ، وهم يعتقدون أن فرعون قد وضع تحتها كنزاً ثميناً ، ولذلك فقد شوهوا جمالها بما أطلقوه عليها من الرصاص طمعاً فى الحصول على هـذا الكنز الموهوم ، بهدمها وتحطيمها . ويشتمل القسم العلوي أيضاً على تمثالين آخرين يحيطان بتمثال إيزيس من اليمين والشمال . ومما يدعو إلى الدهشة حقاً محافظة هذا المعبد بتماثيله وأعمدته على رونقه وبهائه طيلة هذه الأحقاب بالرغم من تعرضه لعوامل الطبيعة الهدامة ، ولعبث البدو السذج

الملهى الكبير

ويقع فى الجهة الغربية من معبد إيزيس — أو الخزنة — وعلى مسافة قصيرة منه ، وهو مدرج كبير يحتوى على (٣٤) صفاً مستديراً ، ويتسع لنحو ثلاثة آلاف متفرج . وقد حفر فى الصخر الرملي الملون حفراً متقناً فى المدة التى تقع بين ٤٠ ق.م و ٤٠ ب . م . وهو من الآثار الرومانية العديدة . ويقال إن هذا المدرج كان كسوق عكاظ لا يؤمونه إلا فى المواسم الخاصة به

أم الصناديق

تقع فى الجهة المقابلة (للملهى الكبير) وهي قبور هائلة الحجم محفورة فى جبل رملى كبير على شكل مساكن تتألف من ثلاث طبقات (انظر شكل ٣) عالية تتمثل فيها جميع تطورات الفن البيزنطى العربى ، وذلك باختلاف أعمدتها ، ونسق ترتيبها ، وطريقة حفرها ، إذ فيها البسيط الهين ، والعظيم الرائع ، ويتصل بعضها ببعض بمدارج صغيرة متعددة ، وإلى الجهة الشمالية من أمّ الصناديق مدرج صغير آخر كان يجتمع فيه النـاس عند



(شكل ٣ أم الصناديق)

حدوث وفاة أو جنازة . وفى أم الصناديق نقوش ورسوم كثيرة يمثل أحدها فتاة مستلقية على سريرها

قبر التماثيل

وهو بناية هائلة ، يبلغ علوها تسعة عشر متراً ، تحيط بها أربع أعمدة كبيرة ، وفى واجهتها بين الأعمدة ثلاثة تماثيل كبيرة ويقال إن هذا الهيكل الفخم ، (وأم التركمانية) التى تقع فى طريق الدير هما من القبور الخاصة بالعائلات الملكية والأرستقراطية . ويؤيد هذا النقوش النبطية الكثيرة المحفورة على عتبة التركمانية حفراً بارزاً . (شكل ٤) . ومن القبور العظيمة : (قبور السريان ، وأم الصياغ ، والسرايا ، والمدحلة) وسنأتى على وصفها جميعها فى مقال آخر



(شكل ٤ قبر التماثيل)

قصر فرعون (قصر البنت)

ويقع فى وسط الساحة الرومانية العامة (الندوة) ويمتاز عن غيره من الآثار بأنه مبنى من الحجارة الكبيرة وليس محفوراً

فى الصخور كغيره ، يبلغ علوه ٢٠ متراً . وقد تداعت أكثر جدرانه ؛ ويوجد فى وسطه أريكة حجرية ، ومقاعد صغيرة كثيرة ، وله مدخل كبير واسع تحيط به بعض شجيرات من المرعى . ويقابل هذا القصر مسلتان طويلتان : الأولى على بعد ٣٠ متراً منه ، وتعرف بمسلة فرعون ، وهى تتألف من تسعة أعمدة ، طول العمود الواحد نحو ثلاثة أمتار تقريباً . والثانية على بعد كيلو متر واحد من الأولى ، وهى أطول منها وأضخم ، وتدعى (مسلة النصارى) . والراجح أن هذه التسمية قد أطلقت عليها خلال عام ٤٦٠ ب . م . فى زمن أحد مطارنة اليونان ، كما تدل على ذلك الكتابات والنقوش التى عليها (شكل ٥)



(شكل ٥ قصر فرعون (قصر البنت)

السبق البارد

وهو محطة صغيرة للقوافل النبطية التى تروح وتغدو من الشمال ، تقع بين جبل البيدا وثغره ، وقد عثر الدكتور نيلسون فى هذا السيق على مخطوطات حجرية ذات قيمة فنية فى تاريخ الديانة النبطية ، إلا أنها — مع الأسف — قد نقلت إلى أوربا فيما نقل من آثار شرق الأردن الثمينة

المذبح الكبير

وهو من أماكن العبادة الرئيسية يقوم على جبل يبلغ علوه ١٥٠ متراً ، ويصعد إليه بمدرج طويل يزيد على ٢٥٠ درجة .

وهو عبارة عن حضيض محفور فى قمة الجبل المنبسطة ، عمقه قدم واحد ، وطوله ثمانية أمتار ، وعرضه ستة أمتار ، وتقوم فى وسطه حجرة ناشزة كانت هيكلاً للإله (ديشورة) ، ويقع المذبح فى الجهة الجنوبية من هذا الحضيض ، وهو مستدير الشكل ، وفى وسطه جرن صغير يتجمع فيه دم الذبيحة ويسيل فى قناة صغيرة ضيقة حتى الهيكل . وقد كان الناس يجتمعون على قمة هذا المذبح



(شكل ٦ المذبح الكبير)

مرة فى كل عام ، يقدمون قرابينهم وضحاياهم للإله ديشورة ويتلون أمامه صلواتهم وأدعيتهم الكثيرة ، وذلك فى طقوس وترتيبات عبادية خاصة

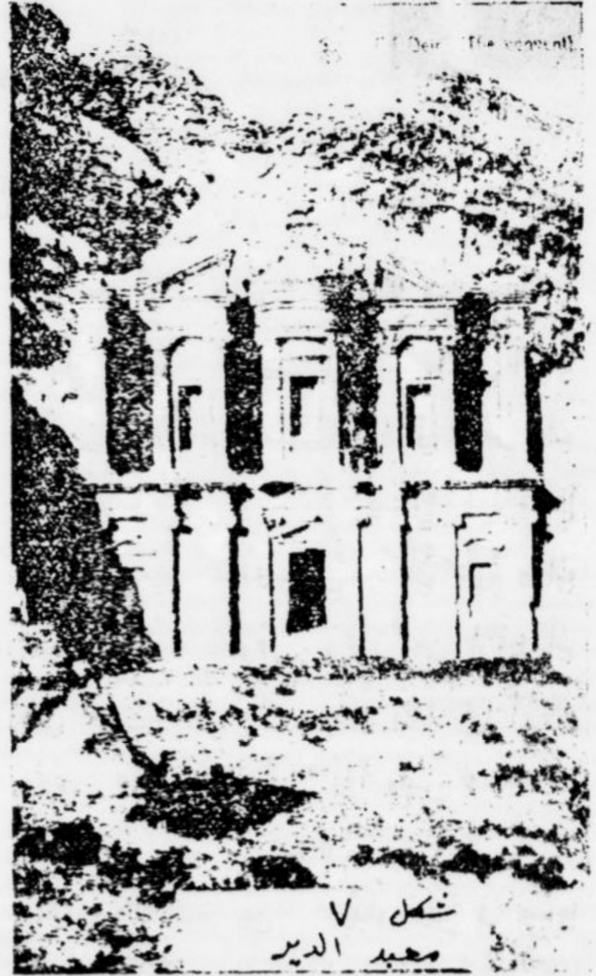
معبد الدير

ويقع فى أقصى الآثار من الجهة الشمالية ، وهو أعظم أطلال بترا روعة وبهاء ، ودقة وجمالا ، وضخامة وعلواً ، حفر خلال القرن الواقع بين ٥٠ ق . م . و٥٠ ب.م يبلغ علوه (٤٠) مترا ، وعرضه (٥٠) متراً . وهو يتألف من ثلاثة أقسام هى : البهو ، والهياكل ، والقبة ، (انظر شكل ٧) ، أما البهو فيقع فى القسم السفلى منه ، طوله (١٠) أمتار ، وعرضه (١٢) متراً ، وارتفاعه (١٤) متراً ، وتزين وجهه الأمامية ثمانية أعمدة إغريقية التيجان، ضخمة الشكل ، يربط بعضها ببعض أقواس جميلة ، تقوم بينها طائفة من التماثيل المشوهة ، وفوق البهو (الكنيسة) الهياكل الثلاثة وهى تشبه هياكل معبد إيزيس إلاَّ أنها أكبر منها حجماً أما القبة فتتوج الهيكل الأوسط منها ، وهى تتألف من قسمين يبلغ علوهما معاً تسعة أمتار ، ومحراب يناهز هذا العلوّ أيضاً . وتتسع مساحة القسم الأسفل من القبة لنحو (٥٠) رجلا أو أكثر . وهى ما تزال مشمخرة فى الفضاء ، ساخرة من عبث الأقدار وكر الحوادث الكبار .

أساطير طريفة

يسكن بترا فريق — عشيرة — من البدو ، وقدسلمت إليهم يد الدهر والأقدار أطلال حضارة عريقة ، لا عهد لهم بمرئياتها ،

ولا طاقة لهم على تقليدها؛ فاختلفوا فى تعليل تلك القوة الخفية التى شيدت ذلك البنيان المظيم الذى يعجزون عن تقليده، واختلفوا أيضاً فى تعليل مصدر تلك القوة الهائلة، فذهبوا لذلك يحيكون حولها مختلف القصص والأساطير، بالشكل الذى يمليه عليهم خيالهم وتصورهم، وبالكيفية التى توائم أذواقهم ومشاربهم فقالوا فى موضوع المسلتين:



(شكل ٧ معبد الدير)

« لقد كان لفرعون زوجتان، وقد خرجتا ذات يوم بطفليهما إلى الجبل المقابل للملعى، وحدث أن استهانتا بنعمة الله الكبرى على الانسان، إذ أنهما مسحتا غائط ولديهما بكسرة من الخبز، فعاقبهما الله بأن حولهما إلى مسلتين حجريتين.

أسطورة قصر فرعون

حدثنى أحدهم، قال: « كان لفرعون بنت بلغت سن الزواج، وقد حظر عليها والدها الخروج من القصر؛ وفى ذات يوم أجمت أمرها على أن تتزوج من الشخص الذى يستطيع أن يجر إلى قصرها ماء أحد الينابيع. فقام لهذه الغاية شخصان، وتمكن كل منهما من جر ماء أحد الينابيع إلى قصرها فى وقت واحد ويوم واحد. فسألت الأول: كيف تمكنت من جر الماء إلى قصرى فى مثل هذه المدة القصيرة؟ فأجاب: بقوتى وبقوة بطانتى وعشيرتى؛ ثم سألت الثانى. فأجاب: بعون الله الذي عضدني وعضد رجالي وجمالي؛ فسرت من جوابه، ودهشت لثقته بعون الله، وتزوجته. وفيماهى تفكر لتجمع عزيمتها على الزواج من أحدهما سقط جناح فراشة فى قناة الرجل الأول، فتعطل الماء فيها عن الجريان، ولم يستطع أحد أن يرجع الماء إلى مجراه، فتيقنت الأميرة أن الله قد قدر هذه الأعجوبة لتكون برهاناً لها على حسن اختيارها للرجل الثانى »

* * *

تلكم هى آثارنا، وذلكم هو تاريخنا، تشهد بمظمته هذه الأطلال الخالدة التى شدناها، وليس عاراً على من أهدى إلى الدنية هذه الثروة الكبرى، وأسدى إلى الانسانية مثل هذه الخدمات الجلى ليس عاراً عليه أن يستريح ريثما يستجم يسترجع نشاطه، فيميدها كرة عربية، وصرخة عالية تعيد إلى هذه الأطلال نطقها وماضيها

(شرق الأردن) خليل جمعه الطوال



رسالة الشعر



من مشاهد المسرح

قلب راقصة (١)

للأستاذ ابراهيم العريض

في مَسرحٍ للغرب حيث الشمسُ تشرقُ في الليالي
ورِواقُه كالموجِ يز خرُ بالنساء وبالرجال
يتضاحكونَ ... فلا ترى إلا الكواكبَ في اشتعال
والبنتُ يجذبُها فتا ها فهْي تخطر في اختيال
طوراً هُنا ، طوراً هُنا كَ ، لكل رُكنٍ فيه خال
والكلُ منهم مُشرِقُ الـوَجَنات محبُوبُ المثال
وقفَ الفتى الشرقيُّ لـكنْ قلبُه في غيْرِ حال
تحتَ الشُعاع يرى الجسو مَ كأنَّها بعض الظِلال
ويكادُ يفصح طرفُه عمَّا يكِنُّ من السؤال
« يا عينُ حسبك ها هُنا ما تنْشُدين من الكمال
تلك الحقيقـةُ بينَهم تنْسابُ في حُلل الجمال
هل ترْقُبين بأن يزا حَ الستْرُ إلا عن خَيالي»

***

ومضى يُحدّثُ نفسهُ لا يستقرُّ بِهِ مكانُ
ويرى بناظرهِ مفا تنَ ظلَّ ينكرُها الجنان
« ما هـذه إلا السما ء وتلكَ أنجمُها الحِسان
في كل رُكنٍ كوكَبٌ وبكل زاوية قِران »

حتى إذا أزِفَ الدخُو لُ وطال للجرَسِ الأذان
وتهلَّلَ البَهْوُ العظيمُ بسرِّ ماهمس البيانُ
فكأنَّ للأنغام أشْباحاً لها في الرقصِ شان
هي والصدى أبداً كنا رٍ يستقلُّ لها دُخان
دخلوا جميعاً صامتينَ ... كأنَّ صمتَهمُ بيان
فمشى يُوازنُ خَطْوَهُ ويميسُ من طرَفَيهِ بان
حتى تخيلَ أنَّهُ ملَكٌ وتلك هِيَ الجِنان
وثوى على كُرسيِّهِ بُهْراً وليس له لسان

***

وانجابَ ذاك السترُ عن غَيْداء ترفُلُ في صِباها
تمشي وئيداً والحريرُ يشِفُّ عن أدنى خُطاها
ملثُومةً كالوردةِ البيضاء في ورَقٍ حواها
حتى إذا وقفتْ إزاء الخَلقِ يبهرُهم سناها
نشرَتْ مُلاءتَها الرقيْقَةَ من حواشِيْها يداها
ومضت تُلوِّحُ باليدَيْنِ كأنها ترعى انتباها
وتدُورُ دَوْرتَها فينعكِسُ الضِّياء على حُلاها
كم بالغَتْ في الميْلِ حتى كادَ أن يُطْوى قفاها
ثمَّ استوتْ فَوْقَ الأصا بعِ كالحشائش في رُباها

(١) مهداة إلى روح الأستاذ الرافعي

يهتزُّ منها كلُّ عُضْـــوِ نِعمةً حتى حشاها
وتهمُّ طوراً أن يُوا زِىَ موْضِعُ الإبهامِ فاها
فترى تفتُّحَ جِسْمِها كالأقحُوانةِ فى نداها

***

كانت تمثِّـــلُ فِتنةً وتثيرُ فى الجمهورِ أُخرى
وكأنَّ بينَ ضُلوعِهم قلباً أبى أن يستقِرّا
يشتدُّ فى الخفقانِ عنـــدَ دُنوِّها حتى تمرّا
لا ، بل يُتابعُ مَوْطِئَ الـــخطُوَاتِ بالأنغامِ تترى
فإذا نأت أضحى بأعْـــيُنِهم يجاهِدُ مُستمِرا
حتى يُشاهِدَ من شبا بِكَ النواظِرِ ما تحرى
وكأنها أَلِفَتْ بهذا الــحالِ منهم فهْيَ سَكرى
تُغرى الشبيبــةَ بالفُتو نِ ولا تُبالى حينَ تُغرى
وتظلُّ تلعبُ بالمُــلا ءةِ حَوْلها طيًّا ونشرا
حتى إذا عطفَتْ قُبا لة ذلك الشرقىِّ صدرا
ألْقى عليهــا نظرةً كالطِّفلِ بل كانت أبَرّا
فتحِسُّ مُهْجَتَهــا لأوَّ لِ وَهْلةٍ بالحبِّ ... سِرا

***

بَقِيَتْ لَقًى مثلَ الفرا شَةِ فى تهافُتِها السريعِ
والناسُ تحسَبُ أنها بُهِرَتْ من الرَّقصِ البديعِ
لما رأوْها لا تُحَـــرِّكُ ساكناً غيرَ الضُّلوعِ
وعلى سِمَاطِ الصدْرِ فا كِهتانِ مِلءَ يدِ الخليعِ
حتى إذا أبدَتْ فُتو راً كالذى إثْرَ الهجوعِ
وتمايلت طرباً وهمَّتْ فى غِناها بالشروعِ
سادَ السكونُ على الجمو عِ كأنهم صُوَرُ الخشوعِ
غنَّتْ غِناءَ الأمِّ أوْ لَ ما تُهوِّدُ للرضيعِ
فتبُثُّ مافى قلبِهــا من صورةِ الأمَلِ الرفيعِ
أرأيْتَ نورَ الشمسِ صُبــحاً كيف يؤذِنُ بالطلوعِ
ومضت تُرجِّعُ باللُّحُو نِ كأنها طيْرُ الربيعِ
ظلَّتْ لها الآذانُ تَشْـــرَقُ كالنواظِرِ بالدموعِ

***

ما أوشكَتْ أن تنتهي من نبْرَةٍ يحلُو صداها
إذ رنَّ بالتصفيقِ ذا كَ البَهْوُ تصفيقاً تناهى
فتلفَّتتْ مُحمرَّةَ الــخدَّيْنِ من خجلٍ عراها
مضمومةَ الكفَّيْنِ فوقَ الــصدرِ — خائرةً قُواها
مُفترَّةَ الشفتَيْنِ عن بَرَدٍ جلا للثمِ فاها
فكأنَّما معنى الأنو ثةِ قد تجسَّمَ فى رُواها
والكلُّ يهتِفُ أن تُعا وِدَ فنَّها ويقولُ : واها
وتساقطتْ باقاتُ زهْــرٍ حولَها خَضِلٌ جَناها
فتناولتْ زهراً ولمَّـــا قرَّبتْهُ إلى لمـــاها
ألْقتْ بِهِ صَوْبَ الجمو عِ لمنْ تعلَّقهُ هواها
وإذا بزهرتِهـــا يفو زُ بها ... أتدري منْ فتاها؟
هُوَ ذلكَ الشرقِيُّ فى أحضانه عبقَتْ شَذاها

***

ثمَّ استقلَّ بهـا السِّتا رُ ... كأنَّه قبْرٌ حواها
وتألَّقَتْ في البَهْوِ أنْـــوارُ المشاعِلِ في قناها
وتحدَّثَ الجمهورُ عنـــها ساعةً حتَّى سَلاها
وانفضَّ ذاكَ الجمْعُ ... لا عادتْ تراهُ ولا يراها

البحرين فى ٢١ مارس سنة ١٩٣٨ — ابراهيم العريض



المصريون واللغة النوبية

فى الرسالة رقم ٢٥٤ أخبرنا القراء أن عالماً مصرياً — لا يزال شاباً — هو الأستاذ مراد كامل الدكتور فى الفلسفة واللغات السامية من جامعات ألمانية نشر « تاريخ اليهود » لابن كريون باللغة الحبشية

واليوم نشر الدكتور مراد كامل رسالة نفيسة على صغر حجمها فى « مجلة الجمعية الألمانية للاستشراق » الصادرة فى مدينة ليبتسش من مدن ألمانية (المجلد ٩١ ، الجزء الثالث) وموضوع الرسالة « تأثير اللغة العربية فى اللغة النوبية » وهى باللغة الألمانية

ويستهل الدكتور كامل بحثه بقوله : « إن عدد الألفاظ العربية التى فى اللغة النوبية موضع دهش عظيم ، ولا يوازن هذا العدد إلا بعدد الألفاظ العربية التى فى اللغة التركية، ذلك أن القسم العربى فى اللسان النوبى كبير أىُّ كبر ، حتى إن النوبى لا يستطيع أن يؤلف بعض جمل من دون أن يستعمل عدة ألفاظ عربية »

ويرد المؤلف هذا التأثير إلى الصلات التى بين بلاد النوبة ومصر : إما من طريق التجارة الجارية بين هذه البلاد ومدينتى أسوان وقنا ، وإما من طريق النوب الراحلين إلى القاهرة خاصة ليعملوا فيها « سفرجية » و « بوابين » ، وإما من طريق النوب الذين يطلبون العلم فى الأزهر وما أشبهه من المعاهد الدينية حتى إذا رجع القوم إلى بلادهم جلبوا إليها معهم جانباً من اللغة العربية

وبعد هذا التقرير الصحيح يأخذ المؤلف فى ثبت الألفاظ العربية التى تطرد فى اللغة النوبية مع تبيين التحريف واللحن المتطرقين إليها ، ومع إثارة الجدال حول ما يذهب إليه غيره من المستشرقين فى الباب نفسه (ب)

مشروع انشاء المجمع الأدبى

اجتمعت فى وزارة المعارف لجنة تنظيم الحركة الأدبية برياسة معالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا ، وبحثت أولاً فى مهمة المجمع وفى الوضع القانونى له ، ثم درست مسألة استقلاله بنفسه أو تبعيته لهيئة أخرى ، وقد اتجه الرأى فى هذه الناحية إلى الأخذ بالوضع الأول

وبعد أن وضع مشروع القانون بتأليف المجمع قرئ على حضرات الأعضاء فأقروا صيغته الأساسية ثم فوضوا إلى معالى الرئيس بحث هذا الموضوع قبل إقرار الوضع النهائى بتأليف المجمع

وقد تضمن هذا المشروع إدراج ٥٠٠٠ جنيه ميزانية سنوية للجنة ، منها ١٥٠٠ جنيه مكافآت للأعضاء بحسبان ١٥٠ جنيهاً لكل عضو ، و ١٥٠٠ جنيه لخمس جوائز سنوية تمنح إحداها لأحسن قصة تختارها اللجنة ، والثانية لأحسن كتاب فى الأدب ، والثالثة لأحسن كتاب فى الشعر ، والرابعة لأحسن كتاب فى الأدب التمثيلى ، والخامسة لخير كتاب أدبى يظهر كل عام فى العالم العربى و ١٢٠٠ جنيه لاصدار مجلة و ٨٠٠ جنيه مصروفات أخرى

تاريخ الأدب العربى فى مصر الاسلامية

اجتمعت بوزارة المعارف لجنة تاريخ الأدب العربى فى مصر الاسلامية التى ذكرنا خبر تأليفها فى عدد مضى ، برياسة صاحب المعالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف

وقد بدأ معالى الوزير هذا الاجتماع فتحدث عن ضرورة الالمام بتاريخ الأدب العربى فى مصر ، وأبان أن هذا واجب وطنى كما أنه واجب علمى ، وأنه يعتبر بمثابة الحجر الأساسى فى بناء القومية المصرية . وبعد بحث الموضوع من مختلف نواحيه تقرر ما يأتى :

أولاً — تأليف لجنة من كبار الباحثين تتولى إعداد فهرس واف بالمراجع التى يركن إليها الباحثون ، على أن تبادر بالقيام بعملها لتحقيق الغاية المقصودة من تأليفها

ثانياً — تنظيم دراسة للأدب العربي في مصر بكلية الآداب بالجامعة المصرية تبدأ بمعالجة العصور الأولى من تاريخ هذا الأدب ثم تتدرج إلى مايعقبها حتى يمكن في النهاية من كل هذه الدراسات تأليف مجموعة من الكتب تكون موسوعة تامة في تاريخ الأدب العربي المصري

ثالثاً — إثارة همم الشبان المصريين وتوجيه عنايتهم إلى بحث هذا الأدب بوضع جوائز سنوية قيمتها ٥٠٠ جنيه توزع على ثلاثة حسب تقدير لجنة التحكيم

وسيصدر في خلال هذا الأسبوع القرار الخاص بدعوة المتسابقين إلى الاشتراك في المسابقة ، وقد اتصل بنا أن الوزارة ستشترط في هذه الدعوة أن تكون الاجابة على هذه المسابقة في شكل رسالة جامعية يتوفر فيها التجديد والابتكار

وبهذه المناسبة نذكر أن هذه المسابقة ستكون سنوية في هذا الموضوع إلى أن يتم بعد سنوات وجود مجموعة كبيرة ثمينة من المؤلفات المصرية في هذا البحث الأدبي القوي

شارل موراس في الأكاديمية الفرنسوية

من أنباء باريس أن المسيو شارل موراس انتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسوية في الدور الأول بأكثرية ٢٠ صوتاً ضد ١٢ صوتاً للمسيو فرنان جريج وقد امتنع أربعة أعضاء عن الاقتراع

والأستاذ موراس في السبعين من عمره وهو من كبار رجال الفكر والأدب في فرنسا بل في العالم ، وهو يدير سياسة جريدة « الأكسيون فرانسيز » لسان حال الحزب الملكي مع زميله ليون دوديه منذ ثلاثين سنة وله فيها تلك المقالات السياسية اللاذعة

ولشارل موراس مؤلفات عدة منها : « طريق الجنة » « ثلاثة أفكار سياسية » — « شاتوبريان » — « ميشيلين » « المستقبل والذكاء » — « تحقيق عن الملكية » — « الموسيق الداخلية » — « كييل وطنجة » — « رحلة أثينا » — « من ديموس إلى قيصر » وغيرها

وقد أنشأ شارل موراس جماعة أصدقاء « الأكسيون فرانسيز » أي « العمل الفرنسوي » سنة ١٨٩٩ ، وهي جماعة أنصار إعادة الملكية إلى فرنسا . وهو صاحب حركة فكرية جديدة تقوم على أن الفكر الانساني لا يستطيع أن يدرك الأشياء المطلقة . وقدرأت الكنيسة الكاثوليكية من انتشار هذه الحركة ماحملها على توقيع عقوبة الحرمان على صاحبها . وقد اقتبس كثيرون من رجال الدول مبادئ موراس السياسية ولا سيما السنيور سالازار دكتاتور البرتغال الذي يجاهد بذلك نحوراً

الدكتور عبد الوهاب عزام في محطة الاذاعة الفلسطينية

دعت محطة الاذاعة الفلسطينية صديقنا الدكتور عبد الوهاب عزام إلى إلقاء محاضرة عن شاعر الاسلام المغفور له محمد إقبال الهندي في مساء اليوم الخامس عشر من شهر يونية ، وقد لبى الأستاذ الدعوة وينتظر أن يغادر القاهرة إلى القدس في مساء الغد

مؤتمر الجامعات

اشتركت الجامعة المصرية في مؤتمر الجامعات الذي سيعقد هذا العام ما بين ٦ و ١٠ يوليو سنة ١٩٣٨ في سويسرا والغرض من هذا المؤتمر تقريب وجهات النظر بين الجامعات المختلفة في العالم وتوثيق روابط الاتحاد والألفة بين الجامعيين في الأقطار المختلفة ، والبحث في الحالات الاجتماعية والصحية والفكرية

ولقد انتدبت الجامعة المصرية لتمثيلها في هذا المؤتمر حضرات الدكتور ابراهيم رفعت ومصطفى السمدني وابراهيم عبده والدكتور على طراف والدكتور محجوب ثابت . وسيعالج المندوبون المصريون الروح الجامعية في مصر منذ إنشاء الأزهر إلى اليوم من نواحيها المختلفة

جبران والرمزية

قرأت رد الدكتور بشر فارس على ما وجهت إليه من أسئلة عن الغموض في الرمزية ، وإنني أشكره على شرحه الوجيز لهذه النقطة . إلا أنني أعود فأقرر أن جبران لم يسر على نهج الشاعر الانجليزي وليم بليك في غموض أشعاره واستغلاق معانيها على القارئ مهما أجهد عقله في فهمها ؛ وهذه كتب جبران كلها — وتبلغ قرابة العشرين — يستطيع كل مثقف أن يفهم ما ترمى إليه وما تهدف له وإن كانت ذات رمزية ! أو رومانتيكية ، أو كليهما معاً

وإذا كان الدكتور ينسب طريقة جبران في الرمزية إلى

الشاعر الانجليزي بليك فما أولاه أيضاً أن ينسب كتابه «النبي» الرمزي والرومانتيكي معاً إلى كتاب الفيلسوف الألماني نيتشة «هكذا قال زرادشت !» . أما استشهاده بما قال النحات رودان وبما كتبته عنه فنانة أمريكية في مقدمته لكتاب لها (يضم عشرين صورة) فهو مما يؤيد رأينا : في أن رسوم جبران فقط كانت تغلب فيها الرمزية على ما عداها

وأما قوله إن الرمزية تشق الآن طريقاً في الأدب العربي ... (المستحدث) ... فهذا صحيح ولا يتفق مع قوله إن الرمزية في مصر لم تفهم بعد حق الفهم في طرائقها وتعبيراتها ووسائلها فكان نتيجة لذلك ما يشكو منه الدكتور من كتابات مضطربة ترى إلى غير هدف وتسير في غير طريق ؛ ولكن الواجب على زعيمي الرمزية في مصر : الدكتور بشر والأستاذ الحكيم أن يضعا عنها كتباً مطولة تكشف عن مناهجها وما يحيطها وما يندمج فيها من مؤثرات وما تؤثر هي به في الأدب وما تزيده تقدماً وشمولاً وإحاطة ... لا توطئات مركزة دسمة إن هي أفادت فئة من الأدباء المطلعين على الثقافات الأجنبية اطلاعاً واسعاً فهي لا تكفي مطلقاً ذوي الثقافات المتوسطة من الأدباء، بله عامة القراء

والرمزية — بعد — في الأدب العربي المستحدث في أول الطريق، فالحديث ذو شجون ولازم على من يشقون ويوسمون الطريق لها فيه أن يطيلوا الكلام والإبانة عنها للسالكين !

وما أحرى الدكتور بشر في هذا المقام — إذا تفضل — أن يوالي مجلة الرسالة الغراء بمقالاته الثمينة عن الرمزية يوضح طرائقها ويترجم لزعمائها وقادتها ومدارسها منذ نشأتها إلى الآن توطئة لتأليف رسالة عنها بقلمه الفذ

وإنا لنشكر الدكتور بشر كل الشكر على علمه الغزير ، وله منا سلام واحترام وحب

السيد كامل الشرقاوي

صاحب السمو الإمبراطوري ولي عهد إيران والعلم

كتب إلينا أحد الفضلاء من طهران يقول :

في الرابع عشر من الشهر الماضي زار سمو ولي العهد في إيران كلية العلوم العقلية والنقلية من كليات جامعة طهران زيارة رسمية يصحب سموه كبار رجال الحكومة

وكان معالي رئيس الوزراء (محمود جم) وفخامة وزير المعارف (حكمت) وسعادة رئيس الكلية (السيد نصر الله تقوى) والعلماء الأساتذة واقفين في باب الكلية في انتظار سموه

وفي الساعة التاسعة مساء وصل موكب سموه إلى باب الكلية فاستراح قليلا في غرفة خاصة ثم شرف بعد ذلك الخطابة وفيه كبار أساتذة الكلية وعدة من كبار أساتذة سائر الكليات الخمس الأخرى وعدة من ممثلي الصحف فشرف سموه الحاضرين بالتحية



(١) سمو ولي العهد في إيران (٢) الأستاذ الشيخ أبو عبدالله الزنجاني وبعض أساتذة الجامعة بأزيائهم الرسمية (٣) الأستاذ السيد كاظم عصار حين التحية

وقام بين يديه الأستاذ (فروز انفر) معاون الكلية فعرض خلاصة ما قامت به الكلية من الأعمال العلمية فلما فرغ شرف سموه الأساتذة بخطاب حكيم قال فيه : «إن العناية من جلالة الشاه كبيرة بهذه الكلية والأمل وطيد أن تعيد إيران مقامها الرفيع في العلم وأن تهيئ بهذا المعهد العلمي للعالم أساتذة كأسلافهم من أعلام الفرس المشهورين لتكون أفكارهم وآراؤهم خير هاد للأمم

ومن المزايا التي ميزت طلبة هذه الكلية عن طلبة العلوم في العصور السالفة شدة الاهتمام بتربيتهم الجسمية بالرياضة البدنية في جنب تربيتهم النفسية والعقلية

وأن الفرق بين هذا اليوم والأيام السالفة هو أن فضل كل شخص وشرفه من هؤلاء الطلبة قائمان بمزاياه الروحية من الخلق الحميد والعلم والأدب لا بالكساء الخاص والذهب

وليعلم الطلبة قبل كل شيء أن واجبهم الأول هو محاربة الأوهام والخرافات التي طالما أوهنت قوى هذه الأمة الروحية

من الحسن الجميل أن برنامج هذه الكلية شامل لجميع العلوم من الحكمة والأدب والتشريع والعلوم الرياضية

ويسرني أن أرى السادة الأساتذة باذلين جهودهم في تنوير أفكار الطلبة وصقل عقولهم وتربية نفوسهم ليهيئوا للمستقبل رجالاً يصبحون مصابيح للشعب الفارسي المجيد. ويجب على الأساتذة أن يجدوا غاية الجد حسب طاقتهم في تعريف هذا المعهد العلمي للشرق كافة، وأن يظهروا للعالم حقائق المعارف الاسلامية السامية التي طالما استترت وراء ستار الأوهام، ونطلب منهم أن يفصلوا لب الروحانية الحقة الاسلامية عن القشور الفاسدة بوسائل العقل والمنطق، وأن يهيئوا كل ذريعة للرقي العقلي والاجتماعي، ويكونوا قدوة صالحة للأمة وسعيهم مشكور إن شاء الله تعالى من جلالة الملك بقدر سعيهم

إنا نفخر كل الفخر بأن ديننا الشريف وهو الاسلام لا مثيل له بين الأديان السماوية، وحقائقه المضيئة وأصوله السامية توافق الرقي الاجتماعي، وهو دين التوحيد ودين العقل، فيجب على السادة الأساتذة أن يكونوا مبلغي هذا الدين الحنيف، وأن يكونوا أعلاماً يهتدى بهم، وأن يبثوا روحاً صالحة جديدة في الطلبة »

ثم زار بعد ذلك سموه خزانة كتب الكلية وبها كثير من النسخ النادرة النفيسة والمخطوطات الأثرية بخط (ياقوت) و (أتيرك) وآلات فلكية واسطرلاب أثرى نفيس ونسخة خطية من (ديوان) نظامي الشاعر الشهير، وهي نسخة أرسلتها الحكومة الفارسية إلى معرض لننكراد وكانت موضع إعجاب الزائرين، وهي تحتوي على صور بديعة من صنع أشهر المصورين في الصين والهند

من برجنا العاجي

اشتد الحر في البرج العاجي فلم يطب لراهبه المقام فيه. فأزمع السفر لتمضية الصيف في جبال الألب. وهو يودع قراءه إلى لقاء قريب

فرية أوربية

جاءنا من روما هذا الكتاب من الأستاذ صاحب الامضاء ننشره بنصه:

حضرة الفاضل الدكتور أمين حسونه

سيدي الدكتور! أحييكم أطيب التحية. وبعد فاليوم أطلعني مدير الإذاعة العربية بروما على خطاب منكم أدهشني بغرابته، فقد زعمتم في هذا الكتاب أن أحاديثي التي ألقيتها عن الأدباء الايطاليين قد اختلست كلها من سلسلة مقالات لكم كنتم واليتم نشرها في (الرسالة) الغراء. على أن الحق يا سيدي أن مطالعة مقالاتكم التي لا أرتاب في أنها كانت ممتعة قيمة ومنتجة خصبة، حظ قد فاتني. ولست أدري هل يؤلمكم أن أقول في صراحة وصدق إني ما قرأت لكم حتى اليوم كلمة واحدة في هذا المنحى من مناحي الأدب أو في غيره. ولكني على أية حال لا أقصد إلى إيلامكم، وإنما أقصد إلى دفع تهمة جاءتني (من الهواء)

بيد أني لا أعلم في الحق مما أبرئ نفسي؛ فقد جاء كتابكم الكريم خلواً من الاشارة الواحدة إلى الموضع الواحد من مواضع الشبه أو الشبهة. وكان خيراً لو دللتم على هذه المواضع ولو في إجمال وإيجاز، فاني أريد تقويض اتهامكم فلا أجد (أركانه) كما يقول أصحاب الفقه

إن الطعن على الناس جزافاً وبلا تعمق للحقائق زلل أخلق بالرجل الأريب ألا يتورط فيه. وإذن فلعلكم أن تراجعوا النفس فيما زعمتموه، أو لعلكم تشيرون كما قدمت إلى منمز في أحاديثي كلها أو بعضها في غير إبهام ولا غموض. ولكي أبسط لكم الأمر أقول إني تناولت في أحاديثي السالفة دانتي وبيراندلو ودانتزيو وبوكاشيو وبترارك ومكيافلي وأريوسطو، وتناولت في حديث واحد أعلام (الحركة الابداعية) فأي هذه الأحاديث يا سيدي تتهمونه أكثر من غيره؟ وأيها تحبون أن أبعث إليكم بنصه لتظهروا الناس على ما فيه من انتهاب لحقوقكم في التأليف

بل لتحاكمونى فيه إلى القضاء أيضاً إن كنتم صادقين فى اتهامكم وإن كنتم لا تبغون حقاً سوى الانصاف ؟

إنى لأعجل عليكم فى الجواب حتى لا يطول بكم السخط علىّ والاشفاق على حقكم حيث لا موجب لسخط ولا إشفاق . وإنى لأرجو مخلصاً أن تتقبلوا منى أوفى التبجيل

« روما » محمد أمين

(الرسالة) لا نعرف أحداً بهذا الاسم كتب فى هذا الموضوع فى الرسالة إلا (محمد أمين حسونه) وهو بالطبع غير (دكتور) . فاذا صح أنه هو الذى كتب ما كتب إلى مدير الاذاعة العربية بروما كان ذلك عجيبة من عجائب الأخلاق . فانه لم يكتب فى الرسالة إلا شيئا عن بيراندللو . وهذا الذي كتبه عن هذا الشاعر لا يصح عقلا أن يكون مصدراً لمحاضرات تناولت سبعة من نوابغ الأدب الايطالى ذكرهم الكاتب فى كتابه ! !

لجنة المجلة فى مجمع اللغة العربية الملكى

كان مما قرره مجمع اللغة العربية الملكى أن يخصص فى مجلته قسم بنشر البحوث والمقالات التى تلائم أغراضه مما تجرى به أقلام الباحثين والكتاب حرصاً على التعاون العلمى الذى يجب أن يكون بين أعضاء المجمع وغيرهم من أهل العلم والأدب ، والحريصين على خدمة اللغة العربية وإعلاء كلمتها

ولجنة المجلة تتشرف بدعوة الذين يقدرون ذلك التعاون العلمى قدره إلى إرسال مقالاتهم باسم رئيس لجنة المجلة بدار المجمع بشارع قصر العينى رقم ١١٠ بالقاهرة

ولما كان الغرض الأسمى خدمة اللغة العربية والمحافظة على سلامتها ، وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون ، مسايرة لها فى تقدمها ، ملائمة لحاجات الحياة فى العصر الحاضر ، مجانبة لما طرأ عليها من الفساد فى الألفاظ والتراكيب كان المأمول من حضرات الكاتبين أن يراعوا فى بحوثهم اللغوية هذه الأغراض السامية مع إيثار الطرافة والايجاز المفيد

هذا وإن للنشر فى المجلة مكافآت مالية معينة بحسب الصفحات للمقالات التى تقر لجنة المجلة صلاحيتها للنشر

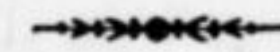
ومن شاء زيادة البيان فليتفضل بمكاتبة رئيس اللجنة بالعنوان السالف الذكر



على هامش السياسة

تأليف الدكتور حافظ عفيفي باشا

للأستاذ محمد سعيد العريان



على هامش السياسة . هكذا يسميه سعادة مؤلفه الكبير ، تواضعاً وعزوفاً عن التعاظم بالألقاب والأسامى ، تسمية متواضعة إن دلت على شيء فى موضعها فإنما تدل على خلق المؤلف وطبعه ، لكنها لا تدل على الموضوع الهامّ الذى يتناوله الكتاب. ولقد كان أقرب دلالة على موضوعه أن يسميه « فى صميم السياسة » فليست السياسة هى هذا التطاحن الحزبى الذى نشهده فى اجتماعات الأحزاب السياسية ، والتراشق بالتهم والسباب الذى نقرؤه فى مختلف الصحف الحزبية ؛ وليست السياسة هى هذه المظاهرات التى تمج بها الشوارع وتضج بالهتاف لفلان وفلان من رجال الحكم والسياسة . إنما السياسة حكمة وتدبير ونظر بعيد ، وتفكير فيما يعود على الأمة أفراداً وجماعات بالخير ...

إن لكل أمة هدفاً تسعى إليه ، ولكن هذه الأهداف جميعها تلتقى فى كل أمة عند معنى واحد ، هو التقدم بالأمة والسمو بها إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه ، والرقى بالشعب إلى المستوى اللائق به فى العلم والثقافة ، وفى الصحة العامة ، وفى شئون الاقتصاد ...

ولقد مضى على المصريين فترة غير قليلة وهم يجاهدون إلى غاية من غايات الشعوب الحرة ، هى الظفر بالاستقلال . وقد طالت هذه الفترة والمصريون فى جهادهم ، وتنوعت أساليب الكفاح والمقاومة ، حتى نسى المصريون ما وراء هذه الغاية ، إذ كان جهادهم للاستقلال وحده ، وطالت بهم الشقة حتى أوشك كثير منهم أن يوقنوا — سلباً أو إيجاباً — إن الاستقلال فى ذاته غاية ، فلما أذن الله أن تصل الأمة إلى هذه الغاية بعد طول الجهاد ، أحس الشعب بشىء من القلق السياسى ، وتوزعت خواطرَ الناس شئونٌ وشجون ؛ أما طائفة فقالت — وهي الأكثرية من الشعب — : وماذا أفدنا من الاستقلال ؟ وماذا حصّلنا بعد هذا الجهاد الذي أريقت فيه الدماء ، وبذلت فيه الضحايا، وتحملنا فيه ما تحملنا من العنف والمشقة ؟ ... وأوشكت هذه الطائفة أن تكفر بعد إيمان ، وتعتقد أن ما بذلت فى ساحة الجهاد منذ سنين وسنين لم يكن إلا عبثاً وجهداً بغير ثمرة ...

وأما طائفةٌ — وهم المؤمنون بحق هذه الأمة فى الحياة — فقد بعدت مرامى همتهم ، وانبسطت رقعة الأمل أمامهم ، فقالوا لأنفسهم : ها نحن أولاء قد اجتزنا الدرب الشائك ، ووقفنا على أول الطريق الذى يصل إلى المجد ويبلغ بنا مراقى السعادة ... وأعدت أهبتها للجهاد إلى هدف جديد ... فلم يكن ينقصها إلا الرائد الجرىء الذى ترسم خطاه فى هذا الطريق . وكان هذا الرائد هو مؤلف كتاب « على هامش السياسة »



على هامش السياسة كتاب تناول به مؤلفه أهم مسائلنا القومية فى الوقت الحاضر ، بأسلوب العالم الهادئ المتزن الفكر ، فوصفها وصفاً صادقاً ليس فيه مبالغة ولا إغراق ، ثم بين أسبابها وعللها ووسائل علاجها على ما هداه البحث . وتتلخص هذه المسائل فى أربعة أبواب : الصحة العامة ، والتعليم ، ومسائلنا المالية ، وسياستنا الاقتصادية

وقد تناول هذه الأبواب الأربعة فقسم كل واحد منها إلى فصول ، تقسيما منطقياً واضح الأداء ، بحيث لا يكاد يفرغ قارئه من قراءته حتى يكون قد ألمّ بموضوعه إلماماً لا يدعه فى حاجة إلى سؤال ؛ كأنما يتحدث عن كل طائفة وفى كل مسألة واحدٌ من أهلها ، فلا تفوته صغيرة أو كبيرة من مشاكلها وأمانيها

وإذا نحن قررنا أن هذه الأبواب الأربعة مما لا تتأتى دراستها

مجتمعة على هذا الأسلوب لشخص واحد إلا إذا قـدَّرله أن يكون متخصصاً — عرفنا مقدار الجهد الذى بذله المؤلف حتى انتهى بمؤلَّفه إلى هـذه الغاية من الكمال . وحمدنا له ما بذله من جهد وتضحية . وما لى طاقة فى هذا الحيز الضيق من الكلام أن أتحدث عن كل واحدة من هذه المسائل بذاتها ؛ إذ كان ذلك مما تضيق به صفحات الرسالة ؛ وإذ كانت كل مسألة من هـذه المسائل فى حاجة إلى عناية فى العرض والتعليق لا تجزى فيها سطور

وإننا لنغمط هذا الكتاب حقه بأن نسميه كتاباً ؛ فما هو إلا مصر الحديثة كلها فى مشاكلها وأمانيها ؛ وما ينبغى أن نقرأه على أنه كتاب فيه ما فى الكتب من رأى صاحبه مما قد يلذ أو يفيد ؛ ولكنه مجموع المسائل التى تشغل أفكار الطبقة المثقفة من المصريين عامة . ولسنا نغلو فى تقدير هذا الكتاب إذا قلنا إنه ينبغى على القائمين بشئون الحكم فى مصر جميعاً أن يقرءوه ليعرفوا كثيراً مما فاتهم إلى اليوم أن يعرفوه من واجبات الحاكم المصلح . على أنه فى جملته — على وفائه بما وُضع له — ليس إلا تنبيهاً إلى الكتَّاب ورجال الفكر جميعاً أن يتناولوا مسائلة بحثاً وتمحيصاً ودراسة ؛ فذلك هو الوقت الذى ينبغى أن ترسم مصر فيه لنفسه دستوراً قوميًّا تسير على نهجه إلى الغاية المأمولة فى السعادة والمجد ، وهذا الكتاب هو فاتحة البحث المنتج فى هذا الموضوع ...

***

ذلك عرض موجز لموضوع هذا الكتاب القيم ، لا يُعرِّف به كل التعريف ولكنه يدل عليه بعض الدلالة . وإنه لعجيب فى بلادنا أيُّ عجيب أن يكون من رجال الحكم والسياسة فى مصر من يرصد وقته لمثل هذا البحث والدرس والاستقصاء فى شئون لا تعود عليه فى خاصة نفسه بالفائدة العاجلة ؛ وإن أعجب منه أن يكون من هؤلاء الزعماء السياسيين عالم أو مؤلف أو أديب له فكر وبيان ومعرفة ؛ وأعجب من هذين أن يكون بحثه ودرسه واستقصاؤه فى شئون الطبقات الدنيا من الشعب بحيث يقف درسه على ما يهم سواد الناس ويكشف عن آلامهم وأمانى أنفسهم ...

ولكن هذه العجائب الثلاثة قد اجتمعت لسعادة الدكتور حافظ عفيفى باشا فى مؤلفه القيم « على هامش السياسة »

***

ليس هذا فقط هو شأن هذا الكتاب ، ولكن فيه شئوناً أخرى تستحق الملاحظة والتعقيب ؛ فقد تعودنا وتعود الناس جميعاً ألا يروا ما تقع عليه أعينهم مرات متكررة فى كل زمان ومكان ؛ إذ كان الإلف والعادة فى المشاهدة مما يحملان على الغفلة والتعامى ؛ فلن تجد كثيراً من الناس يعنون بالبحث والتدقيق فى شأن ألفوه إلف العادة ورأوه بأعينهم عشرات المرات حتى صاروا يمرون به فلا يحسون وجوده ، ولكن الشئ الذى يسترعى الملاحظة ويبعث على التحرى والتدقيق وتكرار النظر ، هو الشئ الغريب الذى تشاهده العين أول مشاهدة ... فنحن مثلا نعرف فلاحينا وأحوالهم ومعايشهم ، وما منا إلا من عرف قليلا أو كثيرا عن القرية المصرية وشئون أهلها ، ولكن قليلا منا من فكر فى شئون هؤلاء الفلاحين أو نظر إليهم نظر الانسان إلى أهله : يتعرف آلامهم ويفكر فى سعادتهم ... ومثل هذا الشأن شئون كثيرة فى حياتنا ، تسترعى اهتمام الأجانب والغرباء الذين يحلّون بيننا ضيوفاً كل عام ولا تثير أقل انتباه فينا ، إذ كان هذا مما ألفنا أن نراه أو نسمع به ، حتى أورثنا هذا الإلف بلادة فى الملاحظة ، فنمر به عميانا أو كالعميان ...

لذلك كان من عجائب هذا الكتاب أن نرى واحداً منا يحشد كل هذه المسائل فى كتابه ويتناولها بالبحث والتدقيق والملاحظة على هذا النحو البديع الذى تناولها به الدكتور حافظ عفيفى باشا فى كتابه ...

والحقيقة أن قارىء هذا الكتاب ليجد فيه أشياء كثيرة تدعوه إلى العجب والاعجاب ، وأشياء أخرى جديرة بأن تحمله على الفكر وإنعام النظر إلى مدى بعيد ...

ومن يدرى ؟ فقد يكون مما يتحدث به التاريخ غداً حين يذكر هذه الفترة فى الحياة المصرية ، أن كتاباً ألفه الدكتور حافظ عفيفى باشا ، كان هو الارهاص الأول لنهضة الاصلاح فى مصر المستقلة ؛ ورب كتاب ألفه مؤلفه لغير التاريخ فكان هو نفسه فصلا من فصول التاريخ ...

محمد سعيد العريان

***

ضاقت صفحة الكتب عن نشر كل ما كان معداً لها ؛ فالى الأعداد القادمة

{ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ }



6 me Année, No. 259

Lundi - 20 - 6 - 1938

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ٢٥٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢١ ربيع الآخر سنة ١٣٥٧ — ٢٠ يونية سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهــرس

بين العـــرب والفرس

بمناسبة المصاهرة الملكية

من دلائل التوفيق وبشائر النُجح فى توثيق ما أوهن الدهر من أواصر الأخوة بين دول الشرق الإسلامي، إصهارُ العرش الإيراني العريق إلى العرش المصرى المؤثَّل. فإن الغفوة الثقيلة الطويلة التى غفاها الشرق فى ظلال الضراعة والجهالة والخمول، قطعت الأسباب بين حاضره وماضيه، ومزقت الأوصال بين قاصيه ودانيه، فأصبح فلولاً لجيش باد، وطلولاً لمجد تقوض. فلما أذن الله لليل الشرق أن يُصبح، أيقظ العرب والترك والفرس، وهم الأمم الثلاث اللاتي سطعت بهن شمسه، وازدهر بمجدهن أمسه، وانتشر بفضلهن نوره، فانتعش ما ذوى من رجائه، وتجدد ماخوى من بنائه، وهبت العبقريات الساميَّة والآرية والطورانية تتفتح مرة أخرى فى ربيع الإسلام الدائم. وحضارة الإسلام، وإن شئت فقل حضارة الدنيا، كانت نتاجاً لازدواج الوحى العربى بالخيال الفارسى، نشأ منه هذا الأدب الإنسانى الذي حلل نوازع النفس، وهذا الفن العالمي الذى صور مدارك الحسّ، وهـذا التصوف

الفلسفى الذى ترجم غوامض الروح ، وذلك النظام الاجتماعى الذى جعل الحياة فناً وتمدين الناس طريقة .

نعم كان لابد للفرس من العرب ليبصروا نور الحق، ويدركوا سمو النفس ، ويعرفوا كلمة الله ؛ وكان لابد للعرب من الفرس ليعرفوا الدنيا ، ويذوقوا النعيم ، ويتملوا الملك . فلما جمع الله الشعبين العظيمين بالإسلام ، وربط بينهما بالضرورة ، نزت فى رأسيهما عصبية الدم النبيل وعزة النفس الحرة ، فأدلّ العرب بالدين والفتح والعروبة ، وتبجح الفرس بالسلطان التليد والتاريخ المجيد والحضارة الرفيعة ، فكان بين الأمتين ازورار طبيعى إذا اشتد كان عداوة ، وإذا خف كان مصانعة .

والشخصية العربية الغلابة التى استطاعت أن تذيب فى جنسها كل جنس ، وتبيد بلغتها كل لغة ، لم تستطع أن تعرّب الفرس ولا أن تقهر الفارسية . فبقى استقلال إيران فى القومية والطبيعة واللغة ، وزال أو كاد فى السياسة والعقلية والأدب . ثم تترّكت الخلافة فتترك هوى العرب ؛ وأرّث العثمانيون النار الخابية بين الشعبين بالخلاف المذهبى ، فانفرجت الحال وتنكر الأمر ، حتى قامت القيامة الصغرى فى الحرب العالمية الكبرى ، ووقف الشرق العزيز حيال الغرب المقتدر ، يحاوله فى وجوده ، ويصاوله على استقلاله ، فتخفف الترك من تكاليف الماضي المشترك ، وفروا بأنفسهم آوين إلى الأجواء الغريبه ، تاركين للعرب والفرس إنهاض الشرق الإسلامي اليوم ، كما أنهضوه من دونهم بالأمس ، فلم يكن للشقيقتين العريقتين بد من التكاتف على حمل هذه الأمانة العظيمة

* * *

إن الروابط الدينية والثقافية والتاريخية والاجتماعية التى تربط الفرس بالعرب لا يقوى على فصمها الدهر ، لأنها جزء من وجودهما العقلى والروحى لاسلطان لنعرة الجنس عليه ، ولا حيلة لأهواء السياسة فيه . وسيكون همُّ القيادة فى الشعبين إحكامَ هذه الروابط بالتآلف والتحالف والمودة، لأن وَحْدة الغرب تقتضى ضم الشتات بإزائها ، ونهضة الشرق تتطلب التكاتف على حمل أعبائها

* * *

إن مصاهرة إيران لمصر حادث جليل المغزى سيكون له فى سياسة الشرق الأدنى عظيم الأثر . وبحَسْبِك أن تعلم أن طهران كادت تنهج سبيل أنقرة فى مجافاة الإسلام ومجانبة العرب ، فاتصالها بالقاهرة المحافظة على عقيدتها وشرقيتها وتقاليدها يفصلها عن القافلة الشاردة، ويُمسكها على سَنَنِها الموروث، فتتطور ولا تتغير ، وتتقدم ولا تحيد . فإذا نظرتَ إلى ما وراء ذلك رأيت هذه العلاقة الملكية الكريمة سفير وئام وسلام بين دولتين تجاورتا خمسة عشر قرناً ولا تزالان تطويان الصدور على حزازات الماضى . وستكون فاتحة الخير أن ينعقد فى حاضرة النيل مجلس إسلامى عام ينتظم أقطاب الدين والعلم فى أقطار الإسلام ليديروا الرأى فيه على ما أصاب المسلمين من صَدَعات التشيّع وضلالات البدع واختلافات المذاهب . ومن اليقين الجازم أن الدين — وهو دستور الأمة الإسلامية — إذا خلص من شوائب الجهل والغرض ضمن لأهله وحدة الرأى ووحدة الهوى ووحدة الغاية

* * *

ذلك إلهام الله فى سياسة الفاروق المعظم . فهو يدبر الأمر ويمضيه على توجيه من فطرته ودليل من قلبه. وكأنما اصطفاه الله اصطفاء لهذه الساعة المشهودة من حياة الشرق ، فزوده بالقول الثابت والرأى الثاقب والسداد المرتجَل والتوفيق الملهَم . فهو يولى وجهه شطر النور الأزلى الأبدى الذى ينبثق فى مثل هذه الفترات المَرِيجَة فيبدد ظلام الحيرة ، ويجمع شتات الوحدة ، ويسدد الخطى الضالة فى الطريق الأمينة

إن دلائل الحال تعلن أن عهد الفاروق الموموق سيكون عهد الوحدة العربية ، والجامعة الإسلامية ، والعصبة الشرقية ؛ فهل آن لنصف الكرة الأول أن يهب من سباته . ويبرهن بيقظته على استمرار حياته ؟

احمد حسن الزيات

تأملات فى الأدب والحياة

للأستاذ إسماعيل مظهر

الشعر والمادة

إن بين كثير من الأمور النفسية والعاطفية ، وبين كثير من الماديات تقابلاً ، حتى يخيل إليك أن الأشياء النفسية والعاطفية كأنها ماديات تحولت أشياء معنوية ، أو كأن الماديات أشياء معنوية استحالت جمادات

من ذلك أن بين الشعر والمادة تطابقاً من حيث أن لكل منهما « ماهية » لم يتوصل العلماء إلى معرفتها فى المادة ، ولم يتوصل الأدباء والنقاد إلى معرفتها فى الشعر . فإذا قيل مثلاً إن الأشياء الظاهرة فى المادة إنما هى أعراض ينبغى أن يحملها جوهر فيه تكمن الماهية ، فكذلك يستطاع أن يقال فى الشعر إن كل الصفات التي يقول الأدباء والنقاد إن من الواجب أن تتوفر فى الشعر حتى يحكم عليه بأنه جيد ، إنما هى أعراض يحملها جوهر فيه تكمن ماهية الشعر

فإذا كان اللون والحجم والوزن والطول والعرض والثقل وما إلى ذلك جميعها أعراض ينبغى لكى تظهر لحواسنا أن تكون محمولة فى جوهر ذى ماهية خاصة ؛ وإذا كان الوزن والقافية واللفظ والصناعة والمعنى والخيال وما إلى ذلك جميعها أعراض يحملها جوهر ، ما تلك إلا تعبيرات عنه ودلالات عليه ، إذن فأين المادة وأين الشعر ؟

أليس فى مثل هذا التقابل بين الماديات والعاطفيات النفسية ، مواضع للتأمل ومواطن للاستبصار ؟

شاعرية الألفاظ

ما أقوى العلاقة القائمة بين الشعر وبين الحالات النفسية ! وعندى أن التأثر النفسى بالشعر أقوى الأسباب التى تدعونا إلى نقد الشعر . ذلك بأن المعايير النقدية التى يخضع الشعر لسلطانها ، على اختلافها وتباينها ، تتضاءل جميعاً إذا قيست بالمعيار النفسى .

على أن للمعيار النفسى فى نقد الشعر عوامل كثيرة ، منها الموسيقى المستمدة من القافية والروى ، ومنها قوة الخيال ، ومنها الاتجاه الذى يتوجه فيه الشعر إلى غير ذلك ، وجميعها عوامل تؤثر فى المعيار النفسى فى نقد الشعر . غير أن أقوى هذه العوامل تأثيراً معيار النقد النفسى للشعر ، إنما ينحصر فى شاعرية الألفاظ

فقد نسمع من كثير من النقاد أن هذا الشاعر بارد الأنفاس ، وأن ذاك غير ماهر فى اختيار الألفاظ ، من غير أن نحدد المعنى المقصود من أمثال تلك العبارتين تحديداً يرضاه المنطق وتقره طبيعة العقل ، إذ هى ترمى دائماً إلى تحديد معنى لكل لفظ مفرد ، وإلى تحديد معنى لكل عبارة تكونت من ألفاظ . فإذا أردنا أن نحدد ما يقصد من عبارات تجرى بها فى العادة أقلام النقاد والكتاب ، وجب أن نرجع بها إلى أصولها النفسية ، حتى نستطيع أن نفسرها تفسيراً منطقياً يقبله العقل وتقره ما فينا من طبيعة الميل إلى تحديد كل المعانى التى تتخذ الألفاظ والعبارات وسيلة إلى التعبير عنها

والواقع إننا نقول إن شاعراً بارد الأنفاس ، وإن آخر غير ماهر فى اختيار الألفاظ ، إنما نعبر بهذا عن حقائق نفسية ، تنزل من أنفسنا منزلة أبعد الأشياء اندساساً فى أغوار الفطرة. فقد نعلم أن من الحقائق النفسية ما دعاه النفسيون: « تداعى الأفكار » . فان اللفظ الجميل المعنى يدعو إلى الفكر دائماً كل المعانى الجميلة التى تلابسه أو تقاربه ، ولفظاً قبيحاً أو محزناً يدعو إلى الفكر كل المعاني التى تدانيه أو تمت إليه بسبب من الأسباب . مثل ذلك إذا قلت: « الشاطىء المخضوضر » دعت هذه العبارة إلى ذهنك كل المعانى الجميلة التى تلابسها . فالنهر المنساب والماء الصافى والظل الوارف وصوادح الطير والرضا النفسى والأخذة الروحية ، كل هذه المعاني تواتيك غير مختار لمجرد أن العبارة الأولى قد حملها وعيك فدعا معها جميع المعانى التى ترتبط بها وجميع الملابسات المرحة الجميلة التى تلازم الشاطىء المخضوضر . وإذا قلت القبر الصامت — أو — « الصحراء المجدبة » دعت هذه العبارة إلى وعيك جميع المعانى المحزنة التى تلابس القبر والصحراء المحزونة الصماء.

هذه الحقيقة النفسية لها فى نقد الشعر أعظم الأثر . فان لفظاً جميل المعنى حسن الملابسات يدعو إلى الذهن شتى المعانى الآخاذة

الجذابة ، إن ورد في سياق الشعر أحدث في النفس شعوراً بالرضى والجمال وزاد إلى موسيقى الشعر القائمة على جمال الوزن والقافية ، موسيقى نفسية تزيد الشعر تأثيراً في النفس ، وتفتق الخيال ، فيشرف الوعي من خلال ذلك اللفظ على آفاق من الجمال اللامتناهي تزيد من قيمة الشعر بقدر ما يكون لألفاظه من أثر في استدعاء ألوان الجمال او التأمل أو العظة أو الحكمة إلى غير ذلك . وعكس هذا تماماً ما يحدثه لفظ ردىء الملابسات فاسد المعنى . وهذا ولا شك ما يقصد النقاد إذ يقولون بأن الألفاظ شاعرية . على أن شاعرية الألفاظ إنما يحددها دائماً استعمال اللفظ في حيث ينبغي أن يستعمل فيكون مطابقاً دائماً لمقتضى الحال .

الشرق والثورة

حدثني صديق ممن تجمعني به ذكريات عزيزة : ذكريات الثورة المصرية ، عند ما كانت أنفاسنا حارة كاللهب المضطرم ، وكانت أرواحنا مشبوبة كاللظى المتأجج . لهيب الشباب ولظى الفتوة . لم يكن عهد الكهولة قد أصاب شيئاً من تأملنا أو حفزنا بعد إلى اللجوء إلى قواعد المرجحات العقلية التي هي عندنا اليوم أشبه شيء بقانون المرجحات الرياضية ، فاما أن نرضيها واما أن نعتقد اننا على غير صواب ، وإننا إلى الشطط أقرب . حدثني ذلك الصديق عن الشباب وعن أيام الجهاد المستمر والسعي المتجدد في سبيل إذكاء روح الثورة في نفس الجماهير ، وذكرني بما كان لنا من مواقف نعجب الآن كيف خرجنا منها وفينا نفس يردد أو عرق ينبض . كيف لم يحصدنا الرصاص . وكيف لم تسل أنفسنا على شفرات السيوف ؟ كيف هزأنا بالموت غير مقدرين أن الموت كان أقرب إلينا من حبل الوريد أشهراً طوالاً بل أعواماً ، وكيف خلصنا من جميع هذا بأرواح سليمة وجسوم لم يصبها كلمٌ واحد !

قلت له في خلال الحديث ما أشهى تلك الأيام ! فان للمخاطرة بالروح لجمالاً لا يدركه الانسان إلا بعد أن يفوز بالسلامة . ذلك جمال أشبه بجمال الفقر الذي لا يدركه الانسان إلا بعد أن يلوذ بالغنى . ولعل الأمر على عكس ما يخيل إلينا ؛ ولعل الواقع أن المخاطرة والفقد ليس فيهما من جمال ، وأن ما نستشعر من جمال فيهما بعد الفرار من آسارهما قد يكون جمال الذكريات الماضيات إذ تحيي في النفس جزءاً من ماضيها ، وتطبعها بطابع قديم كاد يبلى على الأيام .

قلت لصديقي من لنا بمثل تلك الأيام ؟

قال الصديق : نعم نحن في احتياج إلى ثورة . إلى ثورة طاحنة تمضي بكل ما يقف في طريقها ، وتأتي على كل ما يقاومها ؛ ثورة شيطانية لا عقل فيها ؛ ثورة مبرأة من الرشاد والحب والنهى . ثورة طائشة مجتاحة تأكل الحرث والنسل ؛ ولكنها ثورة لا تنال من الجسوم ولا من الحطام ؛ ثورة لا شأن لها بنظام قائم ولا بحكومة ولا بجيش ولا بأسطول ؛ ثورة منزهة عن السيف والمدفع ، وعن الدبابة والخنجر ؛ ثورة لا يقوم بها جمهور من الناس ولا جماعات منهم ؛ بل ثورة فردية يشنها كل فرد منا على نفسه ؛ ثورة نفسية يتسلح فيها كل فرد منا بالارادة ويروح يهدم من أخلاقه ومن ميوله ومن نزعاته التي كونها فينا تاريخنا القديم ؛ ثورة تقتل فيها الارادة حبنا للسلامة وتواكلنا على الأقدار وصمتنا عن الحق والحق مهضوم مأكول ، كأنما قد أصبحنا جميعاً شياطين خرساً ، والساكت عن الحق شيطان أخرس ؛ ثورة تحطم مُثُلنا الأخلاقية القديمة ، لتتبدل بها مُثلاً عليا من تلك المثل التي قادت أوائلنا بجيوشهم ومدنيتهم وعلومهم من شاطىء بحر الظلمات إلى جوف الصين

وكان صديقي يتكلم متهدج الصوت منفعل النفس ثائر الوجدان . فلما فرغ من حديثه ، شملنا صمت عميق ظل يسود مجلسنا حتى افترقنا لم يجر لساننا بكلمة واحدة

الطغرائي الشاعر

هو من أفذاذ الشعراء ، ومن أهل البيان الذين يشار إليهم بالبنان . أنكره أهل زمانه على القاعدة السائدة في هذه الدنيا . وليس في ذلك عجب ؛ ذلك بأن نكران الأفذاذ في زمانهم سنة أهل الشرق منذ أقدم عصورهم . وهذا الطغرائي على جلالة قدره يقول :

مالي وللحاسدين؟ لابرحت	تذوب أكبادهم وتنفطر
يغتابني عنـد غيبتي نفرٌ	جباههم إن حضرت تنعفرُ
ألسنة في إساءتي ذُلُقٌ	يقتادها من مهابتي حصر
أنام عنهم ملء الجفون إذا	أنارهم في المضاجع الابَر
يكفيهم ما بهم إذا نظروا	إليَّ ملء العيون لا نظروا
تغيظهم رتبتي ويكمدهم	جاهي فصفوى عليهم كدَر

فنعمة الله وهي سابغة عندي من الحاسدين تنتصر
يعجبني أنهم إذا كثروا قلّوا غناء وإن هم كثروا

وليس من عجب في أن يحقد جماعة على الطغرائي في زمانه، وليس من عجب في أن يقول فيهم الطغرائي هذه الأبيات وأكثر منها مما يتضمن ديوانه. ولكن العجب في أن يُهمل الطغرائي في زماننا فلا يتناوله كاتب بنقد ولا يذكره أديب ببحث، كأن هذا الشاعر العظيم من مطويات الأدب، تلك التي تطوى فلا تنشر، وتنسى فلا تذكر. ذلك في حين أن التأمل في شعر هذا الرجل الفذ يدرك فيه سراً قلما تقع عليه في غيره من الشعراء: لا في شعراء عصره ولا في الشعراء الذين تقدموه، ولا في الشعراء الذين تلوه. وعندي أن هذا السر لا يشاركه فيه إلا شاعر واحد هو أبو العلاء المعري. أما ذلك السر فهو الجمع بين قوة الشاعرية ودقة الاحساس وصادق الوجدان وبين هدوء الطبع. أما إن ذلك سر من أسرار العظمة في الطغرائي، بل لا نبالغ إذا قلنا إنه سر عظمته، فذلك بأن الشعر عاطفة وخيال وحركة نفسية جياشة دافقة سيالة، فاذا حكم هذه الصفات هدوء نفس طبيعي، صفا الشعر ورق وانساب انسياب الجدول المترقرق الهادئ، ولكنه في ترقرقه وهدوئه حادٌّ كالسيف قاطع كالفأس الباترة المحدودة

وأبو العلاء المعري إن شارك الطغرائي هذا السر، فلا شك في أنه في نفسية الطغرائي أرس وأذهب في الوجدان. فان أبا العلاء شاعر حكيم بطبعه متشائم بفطرته. حمل على المرأة وطغى على الانسانية، حتى لقد أراد أن يهدم كل قائم من غير أن يعرف كيف يقيم غيره، وأن يدك كل أساس عملي في الحياة من غير أن يرسم للحياة طريقاً جديداً. ذلك على العكس من الطغرائي فانه عاش مع المرأة واندفع في غمرات الحياة وشرب من أفاويقها حلوة ومرة، فكان من صميم أهل الدنيا. فاذا لازم أبا العلاء شيء من هدوء الطبع ظهر أثره في شعره فذلك طبيعي بمقتضى النشأة والاتجاه الفكري. أما أن يلازم الطغرائي ذلك الهدوء وتحكمه تلك الطمأنينة، وهو بعد مغمور في الحياة محب لما هائم بمباهجها لمّاحٌ لما فيها من مغريات ومفاتن، فذلك سر من العظمة لا تألفه في الشعراء

ولقد يظهر أثر هذا السر في مرثياته، وهي أبعد الأشياء عن أن يلزم فيها شاعر هدوء نفسه وطبعه فلا يغلب عليه خيال جماح إلى غايات من الشعر يسبح من خلالها الشاعر في عالم من الخيال البعيد الملق بآفاق الوهم القصية. وله في الرثاء مقطوعة رثى بها عزيزة عليه، تلمح من خلالها مقدار ما لاقى في فراقها من لوعة عميقة الأثر بالغة الخطر، ولكنك تلمح فيها أيضاً ذلك الهدوء النفسي الذي يبلغ من قرارة نفسك مبلغاً لا تبلغه ثورة الشعر:

لم أنسها والموت يقبض كفها ويبسطها والعين ترنو وتطرق
وقد دمعت أجفانها فوق خدها جنى نرجس فيه الندى يترقرق
وحلّ من المقدور ما كنت أتّقي وحُمّ من المحذور ما كنت أفرق
وقيل فراق لا تلاق بعده ولا زاد إلا حسرة وتحرق
فلو أن نفساً قبل محتوم يومها قضت حسرات كانت الروح تزهق
هلال ثوي من قبل أن تم نوره وغصن ذوى فيناته وهو مورق
فواعجبا أنّي أحم اجتماعنا ويا حسرتي من أين حلّ التفرق
أحنّ إليها إن تراخى مزارها وأبكي عليها إن تداني وأشهق
وأبلس حتى ما أبين كأنما تدور بي الأرض الفضاء وأسمق
وألصقها طوراً بصدري فأشتفي وأمسحها حيناً بكفي فتعبق
وما زرتها إلا توهمت أنها بثوبي من وجدي بها تتعلق
وأحسبها والحجب بيني وبينها تمى من وراء الترب قولي فتنطق
وأشعر قلبي اليأس عنها تصبرا فيرجع مرتاباً به لا يصدق

هذا شعر صادق الدلالة على الحقائق التي أحاطت بالشاعر وعلى الاحساسات التي اختلجت بها نفسه. قد تكون فيه لمحات من شعر الرثاء في شعر غيره من الشعراء؛ ولكن فيه إلى جانب هذا سر جديد عليك. ذلك ما تدرك من هدوء هذه النفس الثائرة كأنما ترى أرضاً انبسطت ونما فوقها العشب وغشيها الأزاهير، وأنت تسمع من تحتها دوى البراكين وهمهمة الزلازل تغلي في باطنها

ولقد حاولت أن أطلق على هذه الظاهرة العجيبة في شعر الطغرائي اسماً أميزها به، فلم أجد اسماً أطلقه عليها أجدر بها من أن ندعوها «الواقعية الشعرية» فانها والحق يقال أقرب الأشياء فهماً مما ندعوه «الواقعية في الفلسفة» على أن المقارنة بين واقعية الشعر وواقعية الفلسفة يحتاج إلى فراغ ليس هذا مكانه، أما إذا

أردت أن تقف على طرف مما ذكرت فاقرأ له المقطوعة الآتية :

أقول لنِضوي وهو من شجنى خلو
حنانيك قد أدميت كلى يا نضو
تعالى أقاسمك الهموم لتعلمى بأنك مما تشتكى كبدى خلو
تريدين مرعى الريف والبدو أبتغي وما يستوى الريف العراق والبدو
هناك نسيم الريح مثلك لاغبٌ ومثلى ماء المزن مورده صَفْو
ومحجوبة لو هبت الريح أرقلت إليها الفيارى بالموالى ولم يلْووا
صبوت إليها وهى ممنوعة الحمى لحتىّ مَ أصبو نحو من لاله نحو
هوى ليس يسلى القرب عنه ولا النَّوَى
وشجو قديم ليس يشبهه شجو
فأسر ولافك، ووجد ولا أسىً وسقم ولا برء، وسكر ولاصحو
عناء معنى وهو عندى راحة وسم زعاف طعمه فى فمى حلو
ولولا الهوى ما شاقنى لمح بارق ولا هدنى شجو ولا هزنى شدو

إن فى هذا الشعر لثورة يخيم عليها هدوء نفسى قلما تأنسه فى شاعر غيره . وعندى أن هذه الصفة لم تتجلَّ فى شعر الطغرائى بقدر ما تجلت فى لاميته المعروفة ، وإن لنا لعودة إليها نحلل فيها هذا الشاعر الكبير على ضوء هذه الحقيقة الملموسة فى شعره . ولقد يحفزنا إلى درس الطغرائى أنه شاعر فسيح الجوانب مديد الغايات وفي شعره تعلق بأسباب الأدب العالى ، وما أحوجنا إلى هذه الأسباب

إسماعيل مظهر

حـــواء

ديوان شعر طريف فى الغزل العرفانى من نظم الأستاذ الحومانى تحت الطبع ، تحمل الرسالة منه إلى قرائها عدة نماذج قبل صدوره

رَبَّ حواء !

ربَّ حواء ! حين صوَّرتَ حوّا ءَكَ هل كان قبلها تصويرُ ؟؟
والشعورَ اللاتى نشرتَ عليها هل طوى الليلَ قبلهن شعور؟؟
والعيون اللاتى شققتَ لها هل كان من قبلها عيونٌ حورُ ؟؟
أوَهل بعدها يشع على الأحـــداقِ من عالَم الملائك نورُ ؟؟
وترِينا كثغرها وكعينيـــها السموات أعينٌ وثغورُ ؟؟
كبُرت أن تكون قبلاً و بعداً والذى خصها بذاك كبيرُ ؟
هى بيت القصيد من شعركَ المنـــظوم والكونُ شعرك المنثور

انبئينى

أنبئينى عمـــا يجول بعينيـــكِ وما لا يجول من أسرار
لا بعينى اللأى من النور أشرفـــتُ على كنهها ولا أفكارى
كلما ضحِّتِ الحقيقـــة فى أذ نىَّ أخلدتُ للخيال السارى
وتسنمتُ ذِرْوة الأُفق الأعـــلى إلى كل كوكب سيّار
فأرتنى عيناىَ أنك فى آ فاقها بعض هـــذه الأقمار
وعلى الأرض بعض هذى التماثيـــلِ من الناس أو من الأحجار
وأرتنى عيناكِ أنىَ والكو نَ غريقانِ منكِ فى تيّار

الحومانى

قصة الكلمة المترجمة

(القتل أنفى للقتل)

لأستاذ جليل

تلاقت عبقرية الأستاذ (الرافعي) — رحمه الله — في الأدب وعبقرية الأستاذ (العريان) في الوفاء؛ وأوحت الأولى إلى الثانية (وحيها) فكانت (حياة الرافعي)، أو هذه (المقالات الرافعية) في (الرسالة الغراء) وقد رآها الناس في هذا العام نجوماً، وسيجتلونه بعد حين بدراً بل شمساً ذات أضواء في كتاب. ولم تجترئ هذه (المقالات) بخيرها العميم وفضلها العظيم — وإنهما لحسبان — بل جلب الخير خيراً، وساق الفضل فضلاً؛ فقال الأستاذ محمود محمد شاكر (مقاله)، وجادل الأستاذ سيد قطب (جداله)، ولو لم يكن الرافعيُّ قطب أقطاب ماحدّث عنه قطب... وما هذه الأحاديث التي أنصها اليوم في الرسالة

ونُصَّ الحديثَ إلى أهله فإن الوثيقة في نصّه[1]

إلا من إحسان تلك المقالات التي أفضل بها إلى العربية فتى الفتيان وسيد الشبان الأستاذ محمد سعيد العريان

***

أشار الأستاذ محمد سعيد في (المقالة السابعة والعشرين) من مقالاته الرشيقة الأنيقة الرافعية إلى حكاية الكلمة الفارسية (القتل أنفى للقتل) وإني لأظن أن كثيرين من الأدباء والباحثين يودون أن يعرفوا تلك القصة بكمالها، فهأنذا أحكيها، وسأروى طائفة من الأقوال في الكلمة الفارسية، وقد تقتضى الحال زيادة في هذا القصص للإفادة والتبيين و«الحديث ذو شجون» فأمليها

***

كتب صاحب (العثرات في اللغة والأدب) في الرابعة والرابعين من (عثراته) في جريدة (كوكب الشرق الغراء) في (٧ رجب ١٣٥٢) كلمة عنوانها (موازنة) قال فيها: «قالت العرب قديماً في معنى القصاص وأنه جُنّة من العدوان: (القتل أنفى للقتل)، ثم أقبل القرآن الكريم على آثار العرب فقال: «ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب» وقالت: (موازنة العثرات): «هي — أي عبارة القتل — كلمة عربية جاهلية» ثم سطرت شيئاً، محصوله[1] أن الكلمة الفارسية قد فاتت الآية القرآنية

والمقايسة بين الشيئين قد اختلف أيما اختلاف قدراهما، وتفاوتت كل التفاوت حالتاهما — تذكرنا بهذه الأملوحة في (عيون الأخبار) لابن قتيبة: «نافر رجل من جَرم رجلاً من الأنصار إلى رجل من قريش، فقال القرشي للجرمي: أبالجاهلية تفاخره أم بالاسلام؟

قال: بالاسلام

قال: كيف تفاخره وهم آووا رسول الله ونصروه حتى أظهر الله الاسلام؟!

قال الجرمي: فكيف تكون قلة الحياء ...؟»

أُفظمت (موازنة العثرات) وارتقب المرتقبون البيان الحق والقول الفصل في ذاك الهزل، فظهرت في جريدة (كوكب الشرق ١٢ رجب ١٣٥٢) كلمة عنوانها (قالته الفارسية، وتنكره العربية، القتل أنفى للقتل) أعلن فيها أن هذه المقولة ليست جاهلية ولا عربية ولا مولدة، وأنها مترجمة. ومما قالته الكلمة: «أجل العربية المحكمة البينة أن تقول هذا القول: (القتل أنفى للقتل) إنها لا تعرفه، إنها تنكره، ولو قالته — وهو يبدو حكمة ومثلاً — لرونه رواتها، فلا الميداني صاحب (مجمع الأمثال) عرفه، وقد جمع في كتابه أكثر من ستة آلاف مثل، ولا ابن عبد ربه سمع به، ولو نمى[2] في (الجزيرة) لانتظمته (جوهرة أمثاله) ولا أبو بكر البلاقلاني اشتمل عليه كتابه (إعجاز القرآن) ولا عبد القاهر أشار إليه في (دلائل الاعجاز) ولا (كشاف جار الله) وجدناه فيه. ودع كلام القائلين من (الكتاب) في إيراده معزواً إلى العرب وما سطروا. إنه قول ما قالته العربية ولا مولدوها، وإنما هو كلام فارسي نقله الناقل — وربما أخطأت

(١) رواه الزمخشري في الأساس

(١) محصول مراده فيه وجهان أحدهما أن يكون مصدراً وضع موضع الفاعل، والثاني أن يقال إن حصله بمعنى حصله بالتشديد (الأساس)

(٢) نمى ينمى، ومنه نامية الله خلقه لأنهم ينمون، وربما قالوا: ينمو نمواً (الأساس، اللسان)

الترجمة — ورائحتها فيه تكاد تفوح . ولو قالته العربية ما قالت : (القتل أنفى للقتل) وهي تريد أن القتل يزيل القتل ، أو يستأصله أو يفنيه ، ونفى القتل لا يبيده ، ونفى المجرم القاتل لا يريح الناس منه ... ومادة (ن ف ى) كاشفة ما يلتبس »

وقالت الكلمة : « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب — قول عربى ، قول قرآنى لا يستقل بوصفه — إذا احتيج إلى وصفه — إلا بلاغة النبى ، بل هو يصف نفسه ، ويعلن فضله ، وينادى إعجازه على إعجازه و (القتل أنفى للقتل) قول فارسى ، نقله مترجم عربى ، وفيه ضعف . معناه كريم ، ولفظه لئيم ، قاله (أردشير) الملك . قال الامام الثعالبي فى (الايجاز والاعجاز) : من أراد أن يعرف جوامع الكلم ويتنبه لفضل الاختصار ، ويحيط ببلاغة الايماء ، ويفطن لكفاية الايجاز — فليتدبر القرآن ، وليتأمل علوه على سائر الكلام ، فمن ذلك قوله (عز اسمه) : ولكم فى القصاص حياة . ويحكى عن أردشير الملك ما ترجمه بعض البلغاء أنه قال : (القتل أنفى للقتل) ففى كلام الله تعالى كل ما فى كلام أردشير وزيادة معان حسنة ، منها إبانة العدل بذكر القصاص ، والافصاح عن الغرض المطلوب فيه من الحياة ، والحث بالرغبة والرهبة على تنفيذ حكم الله والجمع بين القصاص والحياة ، والبعد من التكرير الذى يشق على النفس فان فى قوله القتل أنفى للقتل تكريراً ، غيره أبلغ منه »

وأشارت (الكلمة) في (الكوكب) إلى إيجاز الآية الكريمة وإعجازها ، وروت قولا لصاحب (دلائل الاعجاز) فى « الموازنة بين بعض الآى وبين ما يقوله الناس فى معناها » ونقلت كلام (الكشاف) فى تلك الآية المعجزة

ثم ظهر مقال بليغ فائق للأستاذ الرافعي (رحمه الله) فى جريدة البلاغ (١٥) رجب سنة ١٣٥٢ عنوانه (كلمة مؤمنة فى رد كلمة كافرة) قال فيه : « لقد تنبأ القاضى الباقلاني قبل مئات السنين بمقالة الكوكب هذى فأسلفها الرد بقوله : فان اشتبه على متأدب أو متشاعر أو ناشئ أو مرمد[1] فصاحة القرآن وموقع بلاغته وعجيب براعته — فما عليك منه ، إنما يخبر عن نفسه ويدل على عجزه ، ويبين عن جهله ، ويصرح بسخافة فهمه وركاكة عقله »

وقال الأستاذ الرافعى (رحمه الله) : أنا أقرر أن هذه الكلمة مولدة وضعت بعد نزول القرآن الكريم وأخذت من الآية ، والتوليد فيها بيّن ، وأثر الصنعة ظاهر عليها ، فعلى الكاتب أن يدفع هذا بما يثبت أنها مما صح نقله عن الجاهلية »

ثم أوضح (رحمه الله) وهن الكلمة الفارسية أيما إيضاح ، ثم أبان ببيانه العالى فضائل الآية الكريمة ومما قاله :

« ومن إعجاز هذه اللفظة أنها باختيارها دون كلمة القتل تشير إلى أنه سيأتى فى عصور الانسانية العالمة المتحضرة عصر لا يرى فيه قتل القاتل بجنايته إلا شراً من قتل المقتول ، لأن المقتول يهلك بأسباب كثيرة مختلفة على حين أن أخذ القاتل بقتله ليس فيه إلا نية قتله ، فعبّرت الآية باللغة التى تلائم هذا العصر القانونى الفلسفى ، وجاءت بالكلمة التى لن تجد فى هذه اللغة ما يجزئ عنها فى الاتساع لكل ما يراد بها من فلسفة العقوبة »

« إن لفظ (حياة) هو فى حقيقته الفلسفية أعم من التعبير (بنفى القتل) لأن نفى القتل إنما هو حياة واحدة ، أى ترك الروح فى الجسم ، فلا يحتمل شيئاً من المعانى السامية وليس فيه غير هذا المعنى الطبيعي الساذج ، وتعبير الكلمة العربية عن الحياة (بنفي القتل) تعبير غليظ عامي »

« جعلُ نتيجة القتل حياة من أعجب ما فى الشعر ، يسمو إلى الغاية من الخيال ، ولكن أعجب ما فيه أنه ليس خيالا بل يتحول إلى تعبير علمى يسمو إلى الغاية من الدقة ، كأنه يقول بلسان العلم : فى نوع من سلب الحياة نوع من إيجاب الحياة »

« فاذا تأملت ما تقدم وأنعمت فيه تحققت أن الآية الكريمة لا يتم إعجازها إلا بما تمت به من قوله (يا أولى الألباب) فهذا نداء عجيب يسجد له من يفهمه إذ هو موجه للعرب فى ظاهره على قدر ما بلغوا من معانى اللب ، ولكنه في حقيقته موجه لاقامة البرهان على طائفة من فلاسفة القانون والاجتماع هم هؤلاء الذين يرون إجرام المجرم شذوذاً في التركيب العصبى ، أو وراثة محتومة ، أو حالة نفسية قاهرة إلى ما يجرى هذا المجرى ، فمن

(١) مرمد فى رواية المقال فى البلاغ وفى النسخة المطبوعة من (إعجاز القرآن) وأظن أن أصلها مبتدئ ، وقد حرفت الكلمة فى مكان آخر فى كتاب الباقلانى : « وإن كنت فى الصنيعة مرمداً وفى المعرفة بها متوسطاً فلا بد من التقليد » والمرمد الفقير وبفتح الميم الثانية . الهالك وأرمد الله العين فهي رمدة وهو أرمد ورمد

ثم يرون أن لا عقاب على جريمة لأن المجرم عندهم مريض له حكم المرضى ، وهذه فلسفة تحتملها الأدمغة والكتب ، وهى تحول القلب إلى مصلحة الفرد ، وتصرفه عن مصلحة المجتمع ، فنبههم الله إلى ألبابهم دون عقولهم كأن يقرر لهم أن حقيقة العلم ليست بالعقل والرأى ، بل هى من قبل ذلك باللب والبصيرة ، وفلسفة اللب هذه هي آخر ما انتهت إليه فلسفة الدنيا »

« وانتهت الآية بقوله تعالى : (لعلكم تتقون) وهى كلمة من لغة كل زمن ، ومعناها فى زمننا نحن ياأولى الألباب ، أنه برهان الحياة فى حكمة القصاص نسوقه لكم ، لعلكم تتقون على الحياة الاجتماعية عاقبة خلافه ، فاجعلوا وجهتكم إلى وقاية المجتمع لا إلى وقاية الفرد »

هذا بعض ما قاله فقيد العربية الأستاذ الرافعى (رحمه الله وكافأه) ولما اطلع الأستاذ النشاشيبى على هذا المقال البليغ فى (البلاغ) بعث إلى هذه الجريدة بكلمة عنوانها : (إنها مترجمة) نشرتها فى ١٩ من رجب ١٣٥٢ بعد مقدمة منها ، ومما جاء فى تلك الكلمة : « قال الأديب الكبير الأستاذ مصطفى صادق الرافعي فى رده فى (البلاغ) على[1] كاتب فى (الكوكب) : (إن القتل أنفى للقتل مولدة وأنها مأخوذة من آية) ومعاذ الله أن تكون مولدة ، وأن تكون قد أخذت من آية ، ولو كان ذلك لوجدنا عليها مسحة[2] — وإن قلت — من الجمال القرآني وها هى ذى ، كما يراها رائيها ، لا تكاف أحداً فى البشاعة وصفها فهى ليست بعربية ولا بمولدة ، ولم تبصر فى يوم ضياء القرآن ، بل هى مترجمة ، وربما أخطأ الناقل فى الترجمة »

(للقصة بقية)

* * *

(١) فى القاموس واللسان : رد عليه : خطأه بالتشديد ، وللامام الجاحظ كتاب الرد على النصارى . وقد سمعت بعض الفضلاء يقول : لا يقال رد عليه بل رده ! وفى مقدمة (الكشاف) : ورد ورد عليه

(٢) على وجهه مسحة ملك ومسحة جمال أى أثر ظاهر منه ، ولا يقال ذلك إلا فى المدح (النهاية) الأزهرى : العرب تقول : به مسحة من هزال وبه مسحة من سمن وجمال (اللسان)

فلسفة التربية

تطبيقات على التربية فى مصر

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ٢١ —

« يجب أن تكون المدرسة صورة مصغرة للمجتمع المنشود »

« *** »

« الديمقراطية هى النظام الذى يمكن الجميع من تحقيق أقصى مجهوداتهم » « باستور »

« يجب أن تكون أعمال الفرد فى الجماعة الديمقراطية شائقة جذابة » « وولف »

١١ — سبيل الاصلاح

واليوم ماذا أقول ؟ لقد عرضت عليك فيما مضى صورة واضحة لشخصية خريج معاهدنا بما فيها من عقل وعاطفة وجسم ، وبينت لك أن هذه الشخصية لا تتفق وروح التربية الحديثة فى أقل القليل ، ولا تصلح لأن تحقق آمال الوطن فى صون الاستقلال وتزعم الشرق وإحياء المجد القديم ! فلم يبق اليوم إلا أن أسير معك إلى طريق الاصلاح علنا نصيب هنالك شيئاً :

١ — مجلس أعلى للتربية و التعليم

وكثيراً ما تناولت الصحف أمر هذا المجلس بالحديث ، ولكن قليلا ما عنيت الحكومة به وأخرجته إلى حيز الوجود ! وأنت لا تكاد تجد دولة راقية بغير هذا المجلس الخطير ، ولا تستطيع أن تتصور اتزاناً واستقراراً فى ناحية البرامج المدرسية إلا إذا كان مصدر هذه البرامج لجنة فنية راقية ثابتة تمثل جميع الهيئات المتصلة بنواحى التعليم كالمدرسين والنظار ، وعمداء الكليات ورؤساء النقابات ، ورجال الأعمال وزعماء الأحزاب والأديان ؛ فإذا ما أوجدنا مثل هذا المجلس أمكننا أن نوفق بين تجارب المدرسين والنظار ورؤساء الأعمال ، وبين الخطط الدراسية والمناهج التعليمية وحاجات البلاد ، وبذلك تكون لدينا غاية معلومة لها فلسفتها الخاصة ، وخطة مرسومة توصل إلى هذه

الغاية ، واستقرار دائم يساعد على إحكام التجارب وينذى مختلف النواحى بما يحقق نجاحها المنشود ! أما الاقتصار على عدة لجان تمحو اليوم ما قررته بالأمس ، وتسير بالسياسة العامة للتربية على غير هدى من التجارب الكافية أو الغايات الاجتماعية والاقتصادية والفنية المختلفة ، فذلك كما ترى فصل بين المدارس والمجتمع ، وإغفال لأسس وطيدة لا سبيل إلى النجاح والاستقرار بدونها

فترى هل يعمل معالى الوزير الحالى على تكوين هذا المجلس بعد أن توانى فى تكوينه الوزراء السابقون ؟ أملنا فى معاليه كبير !

٢ — قضية المعلمين

وأحسب أن أول ما يجب أن ينظر فيه هذا المجلس هو قضية المعلمين . وذلك أنك قد علمت فيما مضى أنهم اليد العاملة فى تكوين النشء الموموقين ، وأن عدم التدقيق فى اختيارهم ، وعدم إنصافهم فى أجورهم وترقياتهم وأعمالهم ، كل ذلك قد جعلهم متذمرين من مهنتهم ، ناقمين على القدر الذى ابتلاهم بها ، مؤدين لها أداء ناقصاً مشوهاً لا يكاد يتفق فى الكثير من الأحيان مع تلك الأصول النظرية العامة التى درسوها فى مدارس المعلمين ومعاهد التربية ! لذلك يجب أن تعمل الدولة على مساواتهم بطوائف القضاة والأطباء والمهندسين ؛ ويجب أن تقلل جهد المستطاع من عملهم الشاق العسير ؛ ويجب أن تحذف من حياتهم تلك الأعمال الكتابية الآلية التى تعطرهم بها إدارة المدرسة مراراً أثناء العام الواحد ! ، ويجب أن تشركهم إشراكا فعلياً فى وضع المناهج واختيار الكتب ، ويجب أخيراً أن تصغى لاقتراحاتهم كما تصغى لرجال الطب أو القانون !

أما المعلمون فيجب أن يتحدوا وينظموا أنفسهم تنظيما يعلى من شأنهم الأدبى والمادى ويرفع من قدر مهنتهم فى عين الحكومة والشعب ، كما يجب أن يحرصوا دائماً على التحلى بتلك « الشخصية الفنية » التى تنشدها الحياة الحديثة منهم كمثقفين بوجه عام وكمربين على وجه الخصوص !

٣ — مكافحة الأمية وتعميم التعليم الالزامى

ويلى ذلك فى الخطورة أو يعادله مكافحة الأمية وتعميم التعليم الالزامى مادمنا ننشد نهضة حقيقية قوامها الحياة الديمقراطية الصحيحة . ذلك أنه لا سبيل مطلقاً إلى الرقى المنشود إلا إذا تبدد ظلام الجهل وغدا الشعب مستنير العقل قوى الخلق مفتحة أمام ذكائه أبواب النشاط دون ما فارق بين غنى وفقير ! ، وإذا كانت الحكومة قد بدأت تفكر جدياً فى مكافحة الأمية فإن التعليم الالزامى ما يزال فى حاجة قصوى إلى الدعاية والمرونة والتعديل والاصلاح على النحو الذى بسطناه من قبل عند ما كنا نوجز آراء الدكتور جاكسون فى الموضوع

٤ — التعليم الحر

ولما كان التعليم الحر يقوم بنفس الوظيفة التى تقوم بها مدارس الحكومة فان العناية به ، والتدقيق فى الاشراف على رجاله ، والامساك عن صرف الاعانات للذين يستطيعون أن يستغنوا عنها تماماً بمصروفات التلاميذ ، أو للذين لا يستحقون منها شيئاً لأنهم محتالون أو شبه محتالين ! ثم الحرص على تسليحه بالمدرس الفنى الكفء عن طريق إعداد أكبر عدد من المدرسين فى معهد التربية بأقصى ما يمكن من السرعة ، كل ذلك يجب أن تحققه الحكومة فى القريب العاجل حتى لا يكون هناك وجود لمدارس تسيطر عليها الفوضى ويشيع فيها الحشو التافه والاعداد السقيم !

٥ — توحيد الثقافة :

ولما كان تباعد العقليات فى أبناء الأمة الواحدة يقسم الشعب إلى قسمين ويعرقل بذلك عملية الاصلاح والتجديد ، فالواجب هو المبادرة بتوحيد الثقافة على قدر المستطاع كيما يكون التفكير متحدا والقلب مشتركا والتقدم متجانسا لا تخلف فيه ! على أنه يجب أن نحرص فى ذلك التوحيد على طابعنا المصرى دون أن نتعسف فى الجرى وراء كل جديد أو فى التمسك بكل قديم !!

٦ — خطة الدراسة :

أما خطة الدراسة ذاتها فيجب أن تتغير وتتطور حسبما تتطلب النتائج الباهرة التى تمخضت عنها طرق التربية الحديثة كطريقة « المشروعات » أو طريقة « دالتن » ؛ وقوام الطريقة الأولى هو جعل الدراسة عملية تجريبية ترتبط فيها المواد ارتباطا معقولا ، ويقوم الطلبة بدراستها كما لو كانوا يتعاونون معا فى دراسة مشروع

ما تحت إرشاد مرب حكيم ؛ وقوام الطريقة الثانية هو الاعتراف « بفردية » الناشيء وتعويده على الدراسة الشخصية ، وفتح المجال أمام ملكاته وقواه كيا يصير فى طريقه الخاص مستنيرا بإرشاد صديق قدير هو الأستاذ المزيز !! هذا إلى أنه ينبغى كذلك أن نحرص على دراسة ميول الطلبة وعلى توجيههم توجيها سليما بفحص ذكائهم ، وكشف استعداداتهم ، وإسداء مختلف النصح لهم ولذويهم كيا يدرسوا وينبغوا ويوفقوا فى حياتهم الخاصة والعامة توفيقا سعيدا ؛ أما حشد الطلبة فى الفصول دون التفريق بين ذكيهم وغبيهم ، وصبهم جميعا فى قالب واحد تنمحى فيه شخصياتهم ، وتيسير العلم لهم وحشوه فى أدمغتهم على نحو يشل فكرهم ويميت حماسهم وشعورهم ، ثم جعل نظام المدرسة بعد هذا آليا لا وجود فيه للواجب والمسئولية والديمقراطية ، فذلك كما ترى أسوأ ما يمكن أن يتصور فى هذه الأيام التى تقدمت فيها بحوث التربية وعلم النفس تقدما عظيما ، والتى يدوى فيها صوت رجال التربية والاجتماع بضرورة جعل المدرسة صورة مصغرة للمجتمع البشرى فى تطوره وتجدده وعلاقات أفراده بعضهم ببعض وبالدولة !

٧ — مراعاة حاجات البلاد :

وينبغى بعد هذا أن نعمل على مراعاة حاجة البلاد من الخريجين فى مختلف نواحى النشاط المختلفة حتى لا نقع فيما نحن فيه الآن من أزمة المتعلمين العاطلين . وذلك بتحديد عدد المقبولين فى المدارس الفنية المختلفة حسبما تتطلب الحاجة المستنيرة بحقائق الإحصاء الماضى والحاضر ، وحسبما تدل دراسة ميول المتقدمين الحقيقية واستعداداتهم . أما ترك الأمر فوضى وقبول الطلبة فى كليات الطب والعلوم والزراعة والتجارة تبعا لارتفاع « مجموعهم » أو انخفاضه فذلك كما ترى السبب فى قلة التبرز عندنا وكثرة العاطلين .

٨ — الامتحانات

ويبقى أيضاً أن نغير نظام الامتحان عندنا تغييراً شديداً لأنه بصورته الحالية لا يدل على كفاية الطالب العقلية فضلاً عن الخلقية والذوقية ، ولا يفعل أكثر من تحويل نظام الدراسة إلى عملية « حشو » هائلة لا نظام فيها ولا هضم ! وحسبك أن ترجع لأقوال العلماء الكثيرين فى ذلك الموضوع لترضى بما أقول ، وحسبك أن تقرأ اقتراحاتهم بشأن هـذا التغيير لتعتقد أنه ينبغى لنا أن نهدمه هدماً !

٩ — تشجيع الخريجين

ثم لا نستطيع أن نختم القول دون الإشارة إلى وجوب تشجيع الخريجين على الحياة العلمية والعملية بتقديم الأعمال التى تساعدهم على تلك الحياة كما قد بسطت ذلك بإسهاب من قبل

١٠ — التربية الخلقية والدينية

كما لا نستطيع أن نختمه دون التنبيه على وجوب جعل التربية الخلقية والدينية أساسية ولا سيما فى مرحلتى التعليم الابتدائى والثانوى . وسبيل ذلك هو إدخال الدين فى الدراسة إلى جانب الأخلاق وجعل التقدير الخلقى جوهرياً فى النجاح أو الرسوب لا مجرد شكليات وقشور !

١١ — التاريخ والجغرافيا

وأخيراً ينبغى أن نعنى فى الثقافة العامة بجعل تاريخ مصر وجغرافيتها محوراً لتاريخ العالم وجغرافيته . كما ينبغى أن نعنى بإبراز أجمل عصورنا إبرازاً تاماً ، وبتكوين العاطفة الوطنية المتأججة فى قلوب النشء كيما نجد « رجالاً » يعيشون من أجل الوطن وفي سبيله يموتون ! ![1]

* * *

وبعد فتلك نظرة عاجلة فى فلسفة التربية النظرية والعملية قد طبقتها على تربيتنا تطبيقاً سريعاً حال وقتى الضيق دون توفية حقه من البحث والتفصيل ، فلعلى قد وُفقت ولو إلى حد التنبيه فحسب ! ولعلك قد استطعت أن تلحظ مجمل نزعتى العامة من هذا المقال ومن المقالات الكثيرة التى سبقته ، ثم لعلك قد سئمت هذه الدائرة وتريد منى دائرة أخرى ، فإلى اللقاء إذا حيث أحدثك عن شيء آخر ، ولك و « للرسالة الغراء » وافر الشكر وعاطر التحية

محمد حسن ظاظا

(١) والحق أن طرق التربية الحديثة قد تناولت بالتعديل طريقة العرض والتدريس فى كل مادة مما لا يتسع الوقت لذكره

ولا يخفى بعد هذا وجوب عنايتنا بالتربية الرياضية السليمة ووجوب إعدادنا بالتعليم الحربى لنظام الجيش

بين الغرب والشرق

للدكتور اسماعيل أحمد أدهم

— ١ —

« إن العقلية الغربية هي العقلية التي تنسق وحاجات هذه الحياة الدنيا . ونحن نتبع وحي هذه العقلية بحكم أننا وجدنا في هذه الحياة الدنيا . أما العقلية الشرقية فتلائم الحياة الباقية ، فإذا انتقلنا إلى الأخرى فهنالك نتبع وحي هذه العقلية » هابيل آدم

قرأت ما كتبه صديقي الأديب النابغة فليكس فارس في عدد الرسالة السالف في موضوع الشرق والغرب؛ وكان حريًّا بي ألا أرد على ما يكتبه صديقي ومناظري من ردّ لآرائي التي سبق أن أدليت بها في مناظرتي معه منذ عام أو أكثر من على منبر جمعية الشبان المسيحية بالأسكندرية والتي نشرتها في وقتها (المجلة الجديدة) ، لأني أعتقد أني في حينها أعقبت عليها بما رأيت فيه الكفاية لإثبات وجهة نظري في الموضوع [1] . ولكن مناظري وقد أخذ من ردّه عليّ ما رآه اليوم ذا صلة وثيقة بذلك الحديث الذي أجراه الأستاذ الكبير توفيق الحكيم على لسان الروسي والمصري حول الشرق والغرب في روايته « عصفور من الشرق » التي صدرت خلال الشهر الماضي . ولقد أثار الأستاذ فليكس فارس في مقاله مسائل أعتقد أني بينت زعمها ومجانبتها لحقائق الأمور في تعقيبي عليه ، لهذا عمدت بدوري إلى تعقيبي على رد مناظري الأستاذ فارس لآخذ منه ما يدفع آراءه التي يؤيد بها اليوم إيمانه بتفوق ثقافة الشرق

* * *

لكل شعب في العالم تراثه التقليدي الذي خرج به من ماضيه ، والذي يحف به في حاضره ، والذي يكمن فيه مقدمات مستقبله — تلك التي نطلق عليها اصطلاح « روح الأمة » — وهو الذي يربط ماضي جماعة من الجماعات بحاضرها ويمضي بها إلى مستقبلها . ومصر لم تخرج عن كونها مجتمعاً استوحى روح الشرق عصوراً متطاولة وخرج ككل أمة بثقافة تقليدية كونها على مدى تاريخه الطويل . وإن وقف مجتمع مصر اليوم من سير الزمن يطل على حاضر افتقدت فيه عناصر الحيوية في ثقافته التقليدية ، تلك الثقافة التي كوّنتها مصر بما ورثته عن أسلافها الفراعنة في أصول الفن الفرعوني القديم ومظاهر الحياة الماشية التي ترتكز عليها حياتها الاجتماعية . ويكفينا للتثبت من هذه الحقيقة أن نلقي نظرة على الملايين العديدة التي تنزل ريف مصر والتي تنتشر على ضفتي النيل من الشلال حتى البحر الأبيض المتوسط ، في حياتها الماشية التي يرتكز عليها المجتمع المصري ، وأن نرجع ببصرنا إلى الماضي بمدنه مستمدين من النقوش التي قرنت على الآثار والهياكل والتي انبثت على جنبات الوادي في مصر ، ومن الكتابات التي خطت على أوراق البردي والتي صورت حياة المصريين في العهد الفرعوني ، لنخرج بصورة تمثل وحدة الحياة الماشية في مصر من عهد الفراعنة إلى يومنا هذا . وذلك راجع إلى أن الحياة الماشية صورة من احتياجات البيئة التي يعيش فيها الإنسان ؛ والبيئة واحتياجاتها لا تزال على وتيرتها الأولى في ريف مصر حيث ينزل معظم أبناء مصر . خذ إلى جانب ذلك منطق التفكير وأسلوب الصياغة ، وأعني بذلك اللغة من حيث هي صوغ المعاني ، والدين ، مما اكتسبته مصر من العرب فكان ركناً من أركان الثقافة التقليدية لمصر . ولقد اختلطت هاتان الثقافتان ، الفرعونية من جانب والعربية من جانب ، فكان من ذلك مزيج . ذلك ما نعبر عنه بالثقافة التقليدية لمصر منذ أيام الفتح العربي

أما ما أثاره مناظري الأديب فليكس فارس من اعتراض على قولي إن الحياة الماشية التي يحياها المصري الآن تجري على غرار ما كان يحياه أسلافه الفراعنة بقوله وأنا لا أرى في حياة المصريين اليوم أثراً من الحضارة الفرعونية لا في الحياة العملية ويعني بذلك الماشية ولا في الحياة الأدبية ، فإني لا أجد صعوبة في دفع اعتراضه فأقول وأنا أرى في حياة المصريين اليوم أثراً

(١) كانت المناظرة مساء ٢٩ مارس سنة ١٩٣٧ بدار جمعية الشبان المسيحية بالاسكندرية ، وكان موضوع المناظرة « من الخير لمصر أن تأخذ بالحضارة الغربية » وكان يؤيد الوجهة الايجابية الدكتور اسماعيل أحمد أدهم ويعارضه الاستاذ فليكس فارس ، وقد نشرت المجلة الجديدة بعددها الصادر في مايو سنة ١٩٣٧ كلمة الدكتور أدهم في الموضوع ، ومن المهم أن نقول أن الآراء توزعت بين الرأيين بالتساوي في المناظرة

من الحضارة الفرعونية فى حياة الشعب الماشية ! !

وأظن أن إثارة الاعتراضات ودفع الاعتراضات لا يقوم على مجرد القول بأنى أرى أو لا أرى ، إنما تقوم على البحث والتحليل والنقد المستقصى . فإذا قلت إنى لا أرى بي حاجة لدفع اعتراض مناظرى ، فذلك واضح لأنه لم يأت بأكثر من قوله إنى لا أرى !

ومع ذلك أحب أن ألفت نظر مناظرى إلى أصول الرى عند الفلاح المصرى ونظام معيشته ومسكنه الريفى وجلبابه الأزرق وعاداته وتواكله وانصرافه عن كل شيء لقطعة الأرض التى يزرعها ، الشيء الذى لم يتغير فى مصر منذ سبعة آلاف سنة مما يتضح للباحث من أبسط مقارنة بين فلاح اليوم فى مصر الحديثة وفلاح الأمس البعيد فى مصر الفرعونية ، الشيء الذى يثبت أن الثقافة التقليدية تقوم على أساس من الفرعونية من ناحيتها الماشية ؛ وإذا قلت الفرعونية فانما أعنى أن وحدة الحياة الماشية تتمشى فى ثقافة المصريين التقليدية حتى العهد الفرعونى .

إذا صحّ هذا ، فكأن الثقافة التقليدية لمصر من ناحيتها الماشية فرعونية ، أما من ناحيتها العقلية فهى فرعونية تكيفت تبعاً لها الثقافة العربية تكيفاً يتلاءم وما تحتاج إليه الثقافة الفرعونية فى عهد الحكم الرومانى من ملابسات لتجارى فن الحياة فى ذلك العصر . ومن هنا قامت أو قل استمدت اللغة العربية فى مصر قدرتها على صوغ المعاني بما يتكافأ ومحيط مصر ، فكانت اللغة العامية فى مصر ، وهي فى الحقيقة الفرعونية الآخذة بأسباب التعرّب ، ثم كان الدين الاسلامى ومنطق التفكير مما يكافىء الطبيعة المصرية الفرعونية ، وهذا ما يثبته دخول الكثير من عادات وتقاليد المصريين فى تضاعيف العقيدة الدينية . يقول الدكتور سليم حسن بك عالم الآثار المعروف :

« إن كل ما كان يحرزه المصرى القديم من عادات وفنون ودين إلى عصر الفتح الاسلامى قد سلمه برمته إلى مصر الاسلامية ، اللهم الا اللغة والدين — على أن الأولى بقيت على قيد الحياة وأثرت فى اللغة العربية فى مصر إلى أن اندثرت فى القرن السابع عشر وأقصد بذلك اللغة القبطية . أما الدين المصرى القديم فقد ظهر عليه الدين المسيحي ثم الاسلامى لفظاً وشكلا . والواقع أن معظم الطقوس الدينية فى مصر الحديثة ترجع فى أصلها إلى مصر القديمة وهى تمد فى الدين الاسلامي بدعاً » وأنت ترى أن الإخصائيين فى مصر الفرعونية يحكمون لنا فى قضيتنا أن ثقافة مصر العقلية التقليدية فرعونية الأصل تكيفت تبعاً للثقافة التقليدية العربية تكيفاً يتلاءم وما تحتاج إليه الثقافة الفرعونية من ملابسات لتجارى فن الحياة فى عصر الفتح الاسلامى .

وهذه الثقافة التقليدية التى تماثل صورها فى سريرة كل مصرى هى قرارة الذهنية المصرية . ولا يمكن أن تتقطع أوصال هذه العقلية من حيث هي تنزل عند حكم فطرة الشعب ما لم يهتز لذلك المجتمع المصري هزاً عنيفاً ويدلف إلى حياة جديدة تتقطع معها أحكام البيئة والمحيط التى احتضنت ثقافة مصر التقليدية نتيجة لتكافئها معها . وما دامت لم تفز مصر بثقافة جديدة تهز المجتمع المصرى فى صميمه ، فليس هنا لك سبيل لتقطع ثقافة مصر التقليدية .

إذن فلننصرف الكلام عن ذلك ولنبحث فى هل هنالك من سبيل لتلقيح الثقافة التقليدية لمصر بعناصر أجنبية تبعث فيها النشاط وتدفعها لآفاق جديدة تتفق وحالات هذا العصر . وإذن يكون موضع الخلاف الأساسى بينى وبين مناظرى : هل من الخير لمصر أن تلقح ثقافتها التقليدية بعناصر من الثقافة الغربية لتساير مجرى الحياة ، أم تمضي في أخذها عن الثقافة الشرقية ؟

هذا هو موضوع الخلاف بين الشرق والغرب بالنسبة لمصر ، وإذا قلت مصر ، فانما أعنى مصر وحدها ، لأن لمصر ثقافتها التقليدية التى تباين ثقافة السوريين التقليدية أو ثقافة اللبنانيين التقليدية ، وما ينجح لمصر قد لا ينجح لغيرها

أما وقد وصلنا من البحث إلى هذا الحدّ ، فلننظر قليلا فى بحث معنى الثقافة ، لأنى أتبين خلافاً خطيراً بينى وبين مناظرى فى مفهوم الثقافة والعلم

وإنى لأشعر قبل أن أدلف إلى أغوار البحث بخطورة ما سأدلى به ، ذلك لأنى أجد التفرقة بين العلم الوضعى والثقافة اعتبارياً . وإن كانت صبغة العلم موضوعية وصبغة الثقافة تتسم بطابع الذاتية . ذلك لأنه لا يمكن فى عالمنا الحاضر التفرقة بين الثقافة والعلم ، لأن الأولى نتيجة للثانى ، وليس ذلك نتيجة لاغترار ذهنى ، وإنما نتيجة للنظر فى مجتمعنا الراهن حيث يسود

العلم الوضعي كل شيء، وينزل المنطق العلمي البحت أساساً لكل شيء . فان الحضارة الراهنة ... الآلية بصورها المادية نتيجة لاستخدام المنطق العلمي في استغلال الطبيعة لصالح الانسان ، وكانت نتيجة استخدام المنطق العلمي أن نشأت حضارة تغلبها النزعة المادية تنزل منها ثقافتنا المصرية منزلة التاج ، ولا يمكن لمجتمع أن يأخذ من العلم الوضعي نتائجه فيستخدمها دون أن يأخذ منطقه الذي يؤدي إلى هذه النتائج إلا ويكون عالة على الانسانية. وأرفع مثال ذلك اليابان التي ضربت بها مثلاً على أن أمة من الأمم لا تأخذ بالثقافة الغربية إلا وتنهض ، فان اليابان ما نهضت إلا بأخذ الآلة والآلة فقط ، ولذلك كان نهوضها آلياً لأنها لم تأخذ منطق التفكير الأوربي نتيجة لاحتفاظها بشرقيتها ومنطق تفكيرها التقليدي . وهذه حقيقة كبرى كما يقول مناظري ، ولكن تقوم برهاناً على صحة كلامي ، فاليابان اليوم عائشة عالة على أوربا وعلم أوربا ، لأنها لم تأخذ علم أوربا ومنطق تفكير أوربا ، فكان نجاحها وقفاً على الآلة التي استعبدت أهلها فعاشوا ثمانين مليوناً من البشر في مرتبة أحط من السوائم والحيوانات إذ لم يرتفعوا إلى مرتبة الشعور بالحياة الانسانية وكرامتها والنضال من أجلها كما هو الحال في أوربا حيث يعمل العامل للتحرر من استعباد الآلة

أظن أني خرجت عن الموضوع

إن ثقافة اليوم من حيث أنها تتبع العلم لا يمكن تخليصها من آثار العلم ، والثقافة الأدبية يغزوها اليوم العلم بمنهجه الصارم ومنطقه ، فمن الخطأ أن نفرق بين الثقافة من حيث أنها نتيجة معاشية وأسلوب في الحيـاة وبين العلم ومنطقه وهي أداة اليوم للعيش والحياة

إن الفرق بين الشرق والغرب ينحصر في هذا وحده : الغرب يقيم الحياة على أساس إنساني ويترك للعلم أن ينظم الصلات الانسانية بين البشر ؛ والشرق يقيم الحياة على أساس غيبي ويترك للغيبيات تنظيم الصلات بين البشر . الغرب يقيم حياته على أساس من التفكير في إيجاد التكافؤ بين حاجاته ومحيطه مستخدماً في ذلك العلم ؛ والشرق يقيم حيـاته على أساس من التواكل . ولهذا لما أخذت اليابان الآلة لم تعمل على إيجاد التكافؤ بين الحياة الجديدة التي دلف إليها اليابانيون وبين حاجات هذه الحياة الجديدة ، لأن التواكل هنالك يقوم مقام العمل والتفكير، فكانت نتيجة ذلك أن استعبدت الآلة أهل اليابان

لا أرغب في التوسع أكثر من هذا في هذا الموضوع الآن

* * *

في ضوء ما قدمت يفهم معنى عبارتي : « للشرق روحه الذي يستوحيه أبناؤه نزولاً على فطرتهم ، وللغرب منطقه الذي يستنير به أفراده نزولاً على وحي مشاعرهم » ، تلك العبارة التي جعلت مناظري يستغرب مقالي لأن فيه حصراً للمنطق في الغرب . وفي الواقع ما هو حصر للمنطق فيهم ، ولكن شاء الشرقيون أن يحصروه فيهم متابعة لدعوات خطيرة مثل التي يقوم بها اليوم الأستاذ فليكس فارس !

المنطق مشاع بين الأمم ، ولكن يجب أن تمرن الأمم عليه قبل أن تصبح متغلغلة في تفكيرها ، إذ ليس المنطق أسلوباً في التفكير يتبع وأقيسة يجري عليها ، إنما هي قبل هذا كله ميل عقلي واتجاه ذهني يمكن أن يكتسب

أما قول مناظري « وما اخترع الغرب المنطق ولا هو أوجد التفكير العلمي » فذلك مجانب للحقائق المعروفة في التاريخ من أن الاغريق هم أول من عرفوا المنطق وأوجدوا التفكير العلمي وعنهم أخذ العالم المنطق . ولا أظن أن هذا موضع نقاش ، وإنما يظهر أن الروح الشعرية تغلب مناظري فتجعله يتناسى كل حقائق العالم !

أقف عند هذا الحد في هذا المقال في دفع اعتراضات مناظري الأستاذ فليكس فارس ، ولنا في المقال الثاني عودة لموضوع الثقافة والعلم وثقافة العرب وثقافة الغرب

وأنتهز هذه الفرصة لأدعو أنصار الثقافة الغربية للكتابة في موضوع الأخذ بثقافة الغرب لهذا الشرق النائم ، وفي مقدمة هؤلاء أدعو صديقي الدكتور حسين فوزي صاحب « سندباد عصري » أن يبدي آراءه بصراحة في الموضوع ، ولعل في هذا النقاش يكون الحد الفاصل بين القول بالشرق والغرب !

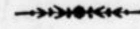
اسماعيل احمد أدهم

صحيفة أدب وأخلاق

عطفـــة القاياتي

للأستاذ حسن القاياتي

بقية ما نشر في العدد الماضي



إنا ليملكنا الزهو باطلا بالكمالي البحت من ابتناء الضخم وإصلاح الطرقات ولا نعمل على الحاجي الحتم من ابتناء النشء وإصلاح المقول، ولولا النبل فى بناة الأهرام لما فخرنا بالأهرام

يبني الرجالَ وغيره يبني القرى شتان بين قرى وبين رجال

ما أبين الرياء الخلقي والاجتماعي فينا ! هذه حالنا من القذر الجسماني والمنزلي والشعبي لا ما تسمع أيها القارئ، بل ما تشهد وما تلمس لا ما تحدث. وقد حدثني ناظر أولى أن طبيب مدرسته رأى إحدى النافذات فى المدرسة بدون أسلاك الدقيقة فغضب لصحة التلاميذ غضبة كادت تعطل الدراسة لولا توسل صاحب المدرسة إليه واستخذاؤه

إنا لأمة لا قوام لأمرنا ولا اعتدال ، فينا ينبت نَشْؤُنا على المذابل وشواطئِ المستنقعات، ولا يقنعنا الصلف أن يدرس هذا النشء إلا فى الروضات والجنات !

ونحن أناس لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أوالقبر

أما وقد أجرت كلمتنا حديث الحمامات القديمة فطالما عرفتنا وعرفناها كما عرف المصريون حماماتهم وعرفتهم . دخلنا نحن حماماتنا قديماً وآنفاً ودخل المصريون حماماتهم ، وتجردنا لها داخلين وتجردوا داخلين إليها وخارجين ، ودخلناها جنساً واحداً ودخلوها ومعهم الجنس اللطيف ، فان تصعَّد فى حمامنا نَفَس أو ندِيَ جبين فانما يتصعد النفس أو يندي الجبين فى الحمامات المصرية من بعض ما يجد أصحابنا من حرقة على الحسن التجرد السليب أو غضاضة على الحسن

ما أفتن الحمامات فى مصر، أندية ترفيه، ومجالي نعمة وغضارة! بل مبتعث حكمة آونة وعظة، يقبل عليها شيع متباينة من الناس حتى إذا نكَّرهم فى صورهم التجرد من الثياب وهى مظهر الجلال الزائف ، نكرهم فى نفسياتهم وطبقاتهم فلا يستبين للناظر المتوسم فيهم أيهم السيد السريّ ، وأيهم السوقي الزري، ومن العالم الخطير والعامى الفَدْم ؟ فربما شهد رجلا عليه مسحة من طراوة العيش وبضاضة المتجرِّد، وشهد آخر تعلوه طبقة من التقشف والشحوب وفقد الطرية والنضرة، فأقبل يحسب ذاك سيداً ضخما من رجالات الشعب ويعتبر هذا رجلا من عرض الجماهير أى رجل هذا، حتى إذا أفضت بهم خاتمة المطاف إلى ملابسهم ورجع كل مستحم إلى ثيابه وحليته فشد ما يهول هذا المتوسم بل يملأ فمه ابتسامة من أمر صاحبيه أن أمثلهما فى حكم نظره وتوسمه حوذى أو سائس بغل أو قرد ، وأن ثانيهما الزَّرى عنده سيد نبيل من تقتدى بهم الأمم ومحاضر الملوك

ترى الرجل النحيف فتزدريه وفى أثوابه أســـد هصور
ويعجبك الطرير فتبتليه فيخلف ظنك الرجل الطرير

أكبر اليقين لا الظن أن الله ينظر إلى خلقه كنظرتك إليهم فى حمامهم مجردين من كل عظمتهم المصنوعة الساحرة ، أنبلهم عنده أنبلهم نفساً لا ثوباً

أجل . إن الحمامات هذه خليقة بأن تُجدّ لنا هذه الحكمة والعظة :

إذا أنت وزنت الرجال وقدرتهم فانظر إليهم مجردين من كل مظاهرهم الخداعة كما تنظرهم فى حمامهم ، ثم ليكن قضاؤك على الألباب لا الثياب

ناهيك من الحمام بيت نخم أنيق يقطر بنضرة ورفاهية كما يقطر بماء وحرارة ، ويتنفس بدفء وفتور ساحر معجب كأنه فتور الجفون كله حسن وطلاوة وتنهدات كتنهدات الصبابة بيد أنها برد وغبطة ، ذلك إلى ما في سجيته من إرسال النفوس على السجية والتحلل ساعة من قيود الكلفة والتعمل الاجتماعي وخلع شيء من التوقر القائل فى خلع الأثواب إلى ما فيه من سويّة فى المكانة وأسوة بين الطبقات

بيد أن حمامنا القديم ربما تكشف عن هنات شائنة لو تجرد منها لكان نعيماً دنيوياً . أناشدك الله أيها القارئ ماذا أنت قائل إلا الشر فى ذلك البخور الكريه البغيض التى يحرقونه أويطلقونه كما يقولون ليطير الأرواح الخبيثة وقد شهد الله أنه من بغضه وكراهيته خليق بأن يطير الأرواح الطيبة قبل الخبيثة

ليس يَقَرُّ بعيني عصرى متأنق صقلته الحاضرة أن يشهد فى جنبات الحمام هذه الصراصر والحشرات سباحة حواليه تقذى

بها عينه ، ولا يطيب قلب هذا المتحضر أن يتولى نظافته وصقله شيخ متوقر أشمط اللحية فيمتهن جلال هذه السن أو يذكر به جده الأعلى فيفضي على استحياء

ضحوا بأشمط عنوان السجود به   يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً

حدثني أزهري عصري النزعة حلو الفكاهة حار النادرة قال : دخلت الحمام فاستدعيت الخادم « صاحب الكيس » فأقبل عليّ شيخ أشيب دالف يحبو إلى التسعين ذكرت به جدي الأعلى ، فلما دنا مني ليأخذ في مهنته جعلت أقطع النظر بينه وبين صورة في نفسي لأستاذي العالم في الأزهر أستاذ البلاغة ، فإن عليه مسحة منه أبيَنها هذه اللحية المسترخية ؛ ثم تقبلت خدمته على تكرُّه ومضض ، وقد رمت رأسي بالإطراق وكسر الجفون ذكرى جدي الأعلى وتشابه شيخي الأكبر . قال محدثي الرقيق : لم أكد أتعرف حاجة للحامات بخدمة هؤلاء الشيوخ الفانين خاصة وهذه اللحي المسترسلة حتى ابتدرت نظرة إلى ساحة الحمام فإذا الصراصر تمرح فيها فقلت : لقد علمت الآن : هذه الكانس لهذه الحشرات

ولحيـة يحملهـا مائق   مثل الشراعين إذا أشرعا

لو غاص في البحر بها غوصة   صاد بها حيتانه أجمعا

حُبّب إلى راقصة فنانة بعيدة مسرى الصيت من معبودات الجماهير كما يقولون أن تزور حمامنا هذا فكان لها ما تشهت من تلك الزورة ، فلما قضت منه كل حاجة خرجت إلى الطريق ، وكان قد تسمع إلى خبر زورتها هذه فصائل من ولدان الحارة ونشئها الصغار يحبو أكبرهم إلى العاشرة ، فلم تكد الفنانة تبدو خارجة من الحمام حتى تلقوها بالتحية فاصطفوا فريقين ، قطعة هنا وقطعة هناك ، وقد احتملوا بأيديهم الشموع موقدة تزهر نهاراً يحتفلون للزائرة المفداة ، وأقبلت هي بسامة الثغر مزهوة تخطر تخطرها على المسرح بين صفي نور وإجلال

لقد تقضى زمن بعيد من لدن هـذه الذكرى وما يتقضى العجب منها ، أتساءل : هل استخف الصبية لتحية هذه الفنانة نباهتها ، إذن فليس العجب أن تسحرهم النباهة وقد سحرت آباءهم من قبل ، إن النباهة لسحّارة ، وإن كانوا إنما احتفلوا لحسن في الراقصة وفن ، فما أبدع أن ترف حتى القلوب الطفلة على الحسن والفن

ومشبه بالغصن قلبي   لا يزال عليه طائر

إن الحامات قطعة من التاريخ القديم ، إن تمهدها العصر بالتطرية والصقل كانت قطعة من النعيم :

وحمـام دخلنـاه لأمر   حكى سَقَراً وفيه المجرمونا

فيصطرخون فيه اخرجونا   فإن عدنا فإنا ظالمونا

هذا عهد للمطفة ، ولقد تصرّم قبله عهد كانت تشهد فيه حياة شيخ معمم من كُشّاف الغيب طلائع المستقبل ، شرّق اسمه وغرّب ؛ وجاء الثناء على حذقة بالغيب من كل لغة ومنطق ، يفضي إليه الناس كافة من شرقي وغربي ، سيان في قصده حملة العمائم وحملة القبعات ، أهل ڤينا عنده وباريس ، كأهل أدفينا وسنتريس .

كنا نشهد الباريسية المتحضرة الحامية إلى جانب القروية المصرية داخلتين إلى الشيخ تستقرئانه رسالة المغيّب فنقول : آمنّا بالله ! ما أشبه الناس بالناس ! وما أقرب العلم من الجهل إذا تبرأ من العقل !

كان « السيد رمضان » صاحب ذلك البيت المتصدر نضر الله مثواه طليعة وعيناً على الغيوب والخفيات قلما تشهد في فصيلة الشيوخ والمعممين شيخاً مثله حلاوة شمائل ورقة هندام ، ذلك إلى أنه كان قرارة مزايا وملتقى خلال حسنة قلما تتهيأ لسيد غيره إلا بتوفيق من الله

كان السيد رمضان يحمل نفساً طروباً مرحة وأذناً موسيقية ، صَنّاع اللسان صَنّاع اليد بالبيان العربي الساحر والتغني ونقر الأعواد والموسيقيات ، كما هو صناع اللب بتكشيف المحجبات والخفايا ، إذا جسّ أوتاره لمس بها القلوب ، كما يلمس بأسراره الغيوب

فلمـا عبثن بأوتارهن   قبيـل التبلج أيقظنني

دعون هنـاك بأعوادهن   فأصلحنهن وأفسدنني

شدّ ما حفلت داره هذا المتجسس على الغيب في « ليالي حضراته » حتى فاضت بجمهرة ضخمة من العلية والسوقيين معاً ، وأمتها لأجلهم صفوة شائقة من نابغة المطربين في الشرق كله . ناهيك منها « يوسف » و « عبده » و « عثمان » و « صالح العربي » وأين عهد صالح ؟؟؟ فمن دون هؤلاء من المطربين إذ ليس فوقهم أحد ، ثم اختلف إليها معهم أسراب فاتنة من بنات الكناس وأسرى الحجال من كل مخبأة لعوب ميالة القد سحارة الطرف

وهي زهراء مثل لؤلؤة الغو   ص ميزت من لؤلؤ مكنون

حشدت هذه الغانيات هناك حتى غصت بها نوافذ بيت الشيخ

وشرفاته، وأقبل الذاكرون ومعهم المنشدون فذكروا كل شيء إلا الله ولم ينسوا النوافذ والشرفات

وكن متى أبصرتني أوسمعتن بي سعين فرقمن الكوى بالمحاجر

هنا لك كل ما خيل إليك من غمزات الجفون وعمل الفتون. بينا القوم على ذلك تكلمت الأوتار وتصعدت آهات المطربين الفتانة وتصعدت معها « أنفاس محترقة » من الحشيشة الباحة لتلك المهد فلم ينصرف القوم إلا بقلوب محترقة:

قالت حكمة عتيدة:

« لو أمكن الغيب من نفسه لاستبدل باسمه » أجل: لو أن الغيوب مما يستشف أو يقرأ لما استحقت أن تسمي غيوبا وإنما هي إذن شهود

لقد صبّ الله على هذا الشيخ المتأنق في مشافهة المغيّب قرويا حقيرا من صفوف النمال فطريّ الطابع فطريّ الروح واللُّب، فأخذ يقبل به في الخدعة ويدبر، فلم يعتصم ولا شافهه غيبه بدخيلة أمره مع هذا التحيّل عليه حتى استنزله هاتنا قرير العين عن ثلثمائة دينار مصرى كاملة زعم أنه مشترٍ له بها عقارا في الريف إذا هو رجع إلى أهله، فذهب بها طليقا مُرَفَّها إلى اليوم ولم يشتر لعلاّمة الغيب إلا العار والسوءة: فهل ترشد الأمة المخدوعة؟

إن العلم والعقل ينصرهما الدين لم يتيرا سبيلاً إلى الغيب فما أجدر الحاكمين بأن ينزلوا بالشعوذة فتكة صارعة تغسل معرة الاجتماع وتثلج صدر العلم والعقل

هذه التي نصف، عطفتنا « عطفة الألاديلى » فيما تُسمى و « عطفة القاياتى » فيما نريد، ضنكة مظلمة تأوى إليها مشتهاة فاتنة للأُلف كما يأوى النحل إلى بيته وخلاياه، ورُبّ مملول لا يستطاع فراقه

ولى وطن آليت ألاّ أبيعه وألاّ أرى غيرى له الدهر مالكا
وحبب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهمو عهود الهوى فيها فحنوا لذلكا

شيئان من هذه الحارة مكروهان عندنا جدٌّ بغيضين، ولا كتمان للحق، أول الشيئين الحارة نفسها، والثانى اسمها. أما الحارة فلسنا نملك تبديلاً لخلق الله فيها، وأما الاسم فهو لأسرة تركية عريقة كانت تقطن فيها وقد ترحلت عنها قديمًا فما يتمضغ اسمها أحد اليوم ولا يختلج به صدرٌ ولا فمٌ حتى لتحسب كلة « الألاديلى » هذه اللغز الذى لا يحل

من أجل ذلك مشى الحي إلى ولاة الأمر بمقترح شهي لديهم أن يأذنوا فى تسمية « عطفة الألاديلى »، « عطفة القاياتى » أنساً بجيرانهم المعاصرين لهم واستئناساً بأن ذكر بيت القاياتى قد صاحب التاريخ فى مصر فترة وامتضغ اسمه من قبل أيام كان جدهم الأعلى « شمس الدين القاياتى » قاضى القضاة بمصر ينزل فى هذه الأحياء فى سنة خمسة وثمانين وسبعمائة هجرية

مشي الحى بهذا المقترح المرجوّ إلى من يملك الأمر فلم يؤذن له أن يسمع ولا حظى عنده، والحاكم الله

إن كان ولاة الأمر قد اصطفوا « عطفة الألاديلى » لأنهم يُغلون بقدرها ويحتجزونها لتوسم « بعطفة الحرّية » أو « عطفة الاستقلال » ليوسم بها عهد الاستقلال والحرية فهنيئا لنا بالحرية والاستقلال وبارد هذا على الكبد، وإن لم يكن بهم إلا الضن علينا وحده فليعلموا أن سنة من يكتبون إلينا ويتحدثون عنا قد مضت بأن يكتبوا إلينا « عطفة القاياتى » ويقولوها، وألسنة الخلق أقلام الحق، فلن يكون إلا ما نريد، ولن يكون الاسم الذى يحمله صدر العطفة وهو « عطفة الألاديلى » إلا كذبا رسميا كالدم على قميص يوسف، ولن تكون عطفتنا إلا « عطفة القاياتى »

حسن القاياتى

بين الرافعي والعقاد

العقـــاد

للأستاذ سيد قطب

— ٨ —

لم يعجب الأستاذ « اسماعيل مظهر » ما نكتبه تحت هـذا العنوان . ونحن نأسف أن لم ننل إعجابه أو رضاءه ؛ ولكن يعزينا عن هـذا الفقدان أنه يعجبنا نحن ويرضينا — مع الأسف كذلك !

يقول الأستاذ :

« أما الذى لا أفهمه ولا أستطيع أن أفهمه يوماً من الأيام ، فأن يتطوع ناقد لنصرة كاتب على آخر ، أو شاعر على شاعر غيره ، احتسابا لوجه الله الكريم ، من غير أن يكون الناقد فى نقده مخلصاً أول الشىء لمذهب بيّن فى الأدب ، يعتنقه الكاتب المنتصر له »

هكذا يقول الأستاذ ، أما نحن فنقول :

« إن الذى لا نفهمه ، ولا نستطيع أن نفهمه يوماً من الأيام فأن يكون رجل كالأستاذ اسماعيل مظهر ، أو أقل منه درجات ، يقرأ ما كتبناه ، ثم لا يتبين منه أننا ننقد مذهباً معيناً فى الأدب ونمتنق مذهباً بيّناً منه كذلك ، وأن الكاتب الذى ننتصر له ، يمثل مذهباً بيّناً يدعو إليه منذ خمس وعشرين سنة ، وما زال يشرحه ويقرره ، ويعود إليه فى نثره وشعره كله ، وأننا من أخلص تلاميذ مدرسة هذا الكاتب لطريقته ، وأشد الناس فهماً لها ، واقتناعاً بها ، ونسجاً على منوالها »

ويتحدث الأستاذ عن الشذوذ فى نصرة كاتب على كاتب ، فإن شاء أن يعرف الشذوذ حقاً ، فنحن محدثوه عنه :

إنه يا سيدي فى تقديم هذه السوأة الأدبية الخلقية الانسانية المساة « على السفود » ، في تقديمها ذاته ، وفى طريقة تقديمها ، وفى نشرها ، دون تأذ ولا تأثم ، ولا خشية على آداب الحديث فى الأمة ، ولا آداب الطريق (ودعك من آداب النقد) ودون رحمة بأسماع الناس وأبصارهم وآنافهم !

وإذا شاء الأستاذ أن يعرف نوع هذا الشذوذ ، فليعلم أن هذه السوأة التى كشف عنها من قدّمها للناس ، لم يستطع أشد تلاميذ الرافعى إخلاصاً له أن يلامها ، ولقـد حاول أن ينحيها — فى خفة — عن أعين النظارة ، وهو يزن حسنات الرافعى ، ويزعم وزن سيئاته ، حتى لا تهبط هـذه السوأة بالكفة إلى الحضيض لو هى لامست الميزان . وكان هذا عدالة منه من هذه « المدالات » الفريدة التى يتشح بعض الناس بوشاحها

فالأستاذ سعيد العريان يقول : « من قرأ « على السفود » فعابه على الرافعى وأنزله غير ما كان ينزله من نفسه ... الخ »

وإذا قال الأستاذ سعيد مثل هذا ، وهو يدغم الكلام ، ويدحرجه ليبعد بهذه السوأة عن الأنظار ، فالذين لم يصابوا بعد بداء المدالة التاريخية يستطيعون أن يعرفوا مقدار شنعتها

ولولا أننى أكرم أسماع القراء وآدابهم وإنسانيتهم من التدهور أو التأذي والتأفف ، لنقلت لهم شيئاً من « على السفود » الذى لا يعتبر تقديمه ونشره وترويجه شذوذا ، ولا مناصرة لأديب على أديب ، ولا تدخلاً فى الشخصيات ، وإنما يعتبر نصرة لمذهب بيّن على مذهب بيّن فى الآداب والآراء !

أما قصة الموت والموتي ، فقد أسلفت الحديث عنها فى الكلمة الفائتة ، وبهذه المناسبة أقول للزميل الودود الأستاذ سعيد : إن زميله سيد قطب ليس هو الذى يمزق الأكفان بالأظفار ، والذى يمزق بظفره ، مخلوق آخر ، أكرم آدابى وآداب الناس أن أقول : إن الأستاذ أو أحد زملائه من فصيلته ! خشية أن نتدهور خطوة أو خطوتين بعدها فيصبح من النقاش « الأدبى » المعترف به ، أن يقول الواحد للآخر : « يا ابن الـ... » ويكون هذا من أساليب النقاد !

بقى الرجل « الذى له عمل يملأ يومه ونهج يدير حياته » . وقد أكرمته وأكرمت « دمشق عن مناقشة قوله فأبى ، وما زلت على رأيي الأول .

ولكنى أرى من حق سوريا الشقيقة علىّ ، وأنا ممن يحفلون بالدعوة إلى الرابطة الشرقية ، أن أنفى عن « دمشق » وأهلها ، ما قد يتبادر إلى نفوس المصريين من تقدير لها ولأهلها على أساس كلمات الأستاذ .

فليس كل من فى « دمشق » يجهل الأدب والأدباء فى مصر ، ولا يطلع على كل الصحف الراقية هنا ، حتى يكون ممن لم يروا « سيد قطب » إلا للوهلة الأولى . ولعل للأستاذ عذرا من « عمله الذى يملأ يومه ونهجه الذى يدير حياته »

وليس كل من فى « دمشق » يقرأ لكاتب معين « فيقبل كل ما جاد به » هكذا بدون تروٍّ ولا تفكير ولا رأى خاص . ولا يقرأ لكاتب معين ، فاذا ما قرأه « لم يعلم لآرائه من القيمة والخطر ما يدفعه إلى مناقشتها » مع أنها بين يديه ، وتحت سمعه وبصره

وأنا أعرف من معارفى وأصدقائى السوريين ، من لهم فكر ورأى ومن لهم شخصية مستقلة ، فليطمئن المصريون على عقيدتهم فى جيرتهم !

وليس أدل من صواب رأيى باديء ذى بدء فى ترك مناقشة هذا الأستاذ من ظنه أنه متى جاء لى ببيت لشوقى على مثال تشبيه الرافعى الذى انتقدته ، فقد انتهى القول ، وبطل الجدال ! لا . ياأخانا . يقول ألف رافعى ، وألف شوقى ، وبقى بعد ذلك مجال للنقد والتعليق والكلام ... !

وقد فهمت من كلامه أن « عمله » الذى يملأ يومه ، ونهجه الذى يدير حياته ، والذى يمنعه — وهو معذور — من متابعة خطوات الأدب والأدباء فى مصر ، وربما فى دمشق ، هو التدريس بالمدارس

فأنا — فى إخلاص — أقول لحضرته إنه يؤدى مهمة جليلة يجدر به الاقتصار عليها ، فليس من الضرورى أن يكون كل إنسان أديباً وناقداً ، والمدرس ليس عاطلاً ولا فارغاً ولا صاحب مهمة نافلة يتركها لسواها

فأما إذا لم يسمع هذه النصيحة ، وأصر على الاشتغال بالأدب فله ذلك ما دام القانون لا ينص على شروط معينة فيمن يشتغلون بالآداب ... !

***

وبعد فقد هممت أن أعاهد القراء على ألا أشغلهم بالالتفات إلى هذا الناس ، بعد ما أصبحت يائساً أشد اليأس من فهمهم لما أقول ، أو استعدادهم لمتابعة المدرسة العقادية فى خطواتها . لولا أننى أعتقد أن للرسالة قراء آخرين غير الرافعيين ، فلهؤلاء القراء أكتب ؛ ولولا أننى أضطر تأدباً أن أرد على من يوجه إلى الخطاب مهما كان شأن ما يقول

ولكن هذه فى الحق خطة متعبة ، وتأدب يكلف جهداً ومشقة ؛ وأغلب الظن أننى سأعدل عنه ، وسأسرع فى استعراض البرنامج الذى وضعته للبحث منذ المقال الأول ، وقصدى منه إبراز صورتين متقابلتين للمدرسة العقادية والمدرسة الرافعية ، فى فهم الأدب وفهم الحياة

ولولا أننى اعتدت أن أضع الخطة وأنفذها ، دون اعتداد بما يجد فى الطريق ، لآثرت الوقوف عند هذا الحد ، فقد فهم من لديه استعداد للفهم ، وبقى ناس لا حيلة فى تبديل طبائعهم وخلق نفوسهم وأذواقهم من جديد

والآن إلى تتمة الحديث :

***

يعنى العقاد — إمام المدرسة الحديثة — بالحياة النابضة فى ضمائر الأشياء قبل الحياة الظاهرة على سطوحها ، ويعنى بالحياتين معاً قبل العناية بأشكالها وصورها ، ويلتفت للخوالج النفسية قبل أن يلتفت إلى الصور الذهنية ، ويعنى بهاتين قبل العناية ببهارج الأسلوب وزخارف الطلاوة

ولا يعنى هذا أن الأسلوب الفخم والتعبير الجيد بعيدان عن شعر العقاد . ولهذا مبحث خاص ، سأفرد له كلمة ، ربما كانت الأخيرة

يؤم المسجد يوم الجمعة للصلاة حشد حاشد ، كلهم مصل ، وكلهم خارج من المسجد بعد الصلاة ، ويمر هذا المنظر على الشعراء والأدباء فى مصر وغير مصر ، ويتكرر الأسبوع تلو الأسبوع . ولكن العقاد وحده هو الذى يلتفت التفات الفنان المثقف ثقافة نفسية واجتماعية ، إلى ما يجول فى خواطر هؤلاء المصلين ، وما تهتف به نوازعهم فتكتمه عقولهم الواعية ، وما يسرب فى ضمائرهم أو يغشاها . ذلك أنه يروى فيتخيل ، ويلاحظ فينفذ ، ويحس فيحلل ؛ ثم هو بعد هذا وذاك يمثل ويجسم خفايا النفوس الإنسانية ، ويعرض نماذجها المختلفة فى معرضه الفنى الحافل بصور النفوس :

بعد صلاة الجمعة

على الوجوه سيمة القلوب فانظر إلى المسجد من قريب
وقف لديه وقفـــة اللبيب فى ظهر يوم الجمعة المحبوب
إنك في حشد هنا عجيب

***

هـذا الذى يمشى . ألا تراه كأنمـا قد حملت يداه
سفتجة [1] صاحبها الاله ؟ ذاك هو الدين . وقد وفاه
فليس للدائن بالمطلوب !

***

وذلك المبتسم الرصين كأنه بسره ضنين
أصغى إليه سامع أمين فهو إذا صلى كمن يكون
فى خلوة النجوى مع الحبيب !

***

وانظر إلى صاحبنا المختـــال فى حلة ضافيــــة الأذيال
أ كان فى حضرة ذى الجلال أم كان فى عرض أو احتفال
يزهى على المحروم والسليب !

***

وكم مصل خافت الدعاء كأنمـا نصٌ إلى السماء
رسالةً فى عالم الخفـــاء فلا يني يبدو لعين الرائى
كالمترجى أوبة المكتوب !

***

ورب شيخ من ذوى الخلاق [2] فرحان بالجمع وبالتلاقى
كأنه التلميـذ فى انطلاق بين تلاميذ له رفاق
عادوا إليه عودة الغريب

***

هذه هى الصور الباطنة لتلك السحن الظاهرة ، وليس فيها ما لا نعرفه الآن ، فى مشاهد الصلاة ، بعد أن أشار إليها العقاد. وهذه ميزة الشاعر ذى « النفس » الذى يلمح ما فى النفوس ، فيطلعنا على ما كان بين أيدينا غائباً عنا من صور الحياة وأنماطها ، لأنه يجلوه فى مرآة نفسه الخاصة

ثم يمضى بعد هذا الاستعراض ، بطرق الفلسفة العامة ، فى دعابة وفسحة فى النفس ، تتلقى هؤلاء الأحياء المختلفى المطامع والأهواء تلقى الوالد العطوف لأبنائه ، وهم يختلفون منازع واتجاهات ، وهو يبسم ابتسامة المهكم الرفيق

تجمعوا فى بيته تعـــالى وافترقوا فى جمعهم أحوالا
وهل نسوا فى أرضه النزالا فيحتويهم بيته أمثـــالا
على اختلاف السمت والنصيب !

***

لعلهم صلوا له ارتجالا فاختلفوا ما بينهم سؤالا
فلو أجاب السائلين حالا صب على رءوسهم وبالا
وألحق المخطئ بالمصيب

هذه قطعة واحدة من « عابر سبيل » يمسها مشهد مألوف للجميع . وهو « على قارعة الطريق » ولكن المارة لابد لهم من عين وذهن ونفس لتراه ثم تدركه ، ثم تتغلغل فيه . وأنت خليق أن تجد عند العقاد كثيراً من هذا النوع ولاسيما فى « عابر سبيل »

***

وللعقاد عناية بتصحيح مقاييس الأحكام على الطبائع والنفوس منشؤه أنه صاحب « نفس » خاصة ، و « طبع » أصيل ، فهو لا يتلقى المبادئ والأحكام من الخارج ، ولكن يفيض بها من الداخل ، ويسمع فيها منطق الحيـاة الخالدة ، ووحى الانسانية الدائمة ، لا منطق الفرد العابر ، ولا الجيل القاصر . ومن هذا النحو قوله عن « عدل الموازين » و « جلال الموت » وقد استعرضتهما آنفاً ومنه :

من ساء بالناس ظناً دون ما ألم أحق عندى بسوء الظن والتهم
أسيء ظنونك لكن مكرهاً أبدا كمن يظن بيمض الآل والحرم

هذه قولة رجل « إنسانى » تزخر نفسه بالعطف وتفيض بالثقة ، فينكر فلسفة سوء الظن ارتجالاً وتطوعاً ، فسوء الظن عنده بالانسانية أمر مكروه لا يقدم عليه الانسان وله منفذ إلى رجاء فيها ، كمن يظن بيمض الآل والحرم ، بعد ألا يجد بداً من الظنون ، وبعد أن ينفد معين الثقة والتعاطف والتنزيه الفطرى للآل والحرم ... ويقول :

إذا ما تبينت العبوسة فى امرئ فلا تلحَهُ واسأل سؤال حكيم
أجل سله قبل اللوم فيم انقباضُه وفيم رمى الدنيا بطرفِ كظيم
لعل طلابَ الخير سرُّ انقباضه وعلة حزن فى الفؤاد مقيم

---

(١) ورقة التحويل المالى
(٢) الخير الوافر

فما محمد العينان كل بشاشة ولا كل وجه عابس بذميم
قطوب كريم خاب فى الناس سعيه أحب من البشرى بفوز لئيم

وهذه قولة رجل، معنيّ بالغايات النفسية، لا بالمظاهر البادية على الوجوه ورجل يعدل « عدل الأناسي لا عدل الموازين » فى الحكم على قيمة العبوسة والبشاشة فى الجبين. ورجل عطوف يتقصى أسرار النفوس ويقدر أحوالها، ويوسع صدره لبدواتها ولا يتسرع فى سوء الظن بها، وبذلك ينفذ وصيته السالفة.

ويقول:

لا تقل: فاجر وبرٌّ. ولكن قل: هو الصدق والمراء صنوف
رُبَّ حق فيه نفيس ومرذو ل، ومِنْ يرجى ومِنْ يخيف
إنما الفاضل الذى فضله فى الخير والشر فاضل وشريف

وهذه أبيات لا تكتفى بتصحيح مبدأ فى الأخلاق، بل هى تخلق مبدأ. ويطول بنا الحديث لو ذهبنا نشرح هذا المذهب ونناقشه، ونوازنه بمذاهب الأخلاق، وتعريف الحسن والقبيح، وبيان أسباب هذا الحكم، الخ. فنكتفى بشرحها فى اختصار:

ليست عناوين الأخلاق المتواضع عليها هى الحكم الفصل فى تقدير قيمة هذه الأخلاق، فالصدق مثلا لا يعنى أن كل ما ينطوى تحته، فاضل وشريف، والكذب لا يعنى أن كل ما ينطوى تحته مرذول وخسيس، ومثلهما بقية عناوين الفضائل المتعارفة. إنما مناط الحكم على الصدق وعلى الكذب، أمر آخر غير عنوانهما. فنى الصدق ما هو شريف ومرذول، وفى الكذب كذلك ما يكون هذا أو ذاك؛ وفى سواهما مثلهما

وكم من كذبة عظيمة ألقاها مصلح، أوفاه بها بطل، أو زخرفها فنان، هى أشرف وأعظم، من « صدقة » حقيرة، ألقاها جاسوس، أوفاه بها مجرم، أو طرحها مطموس لا يعنى بها قصداً

وكم من « بوهيمية » عاش فى ظلها فنان تمده بالخصوبة والإلهام، هى أشرف من استقامة عاش فى ظلها جلف يقنع بها عن ضعف، أو انطماس بصيرة، أو فتور حيوية

وعلى أية حال فتلك نظرية تمر هكذا فى ثلاثة أبيات، بين الركود العقلى والنفسى فى مصر، ولو وجدت حياة زاخرة لكانت موضع جدل ومناقشة، ومثار انقلاب فى مبادئ الأخلاق. ولكننا فى مصر حيث الركود والاستهتار

والذى يهمنا منها الآن، هو دلالتها على طبيعة العقاد، التى لا تحفل الظواهر والأشكال، إنما يهمها تقدير العامل النفسى الباطن فى الأعمال والأقوال

***

ومثل هذه الخطرات هى التى يسميها بعض ذوى النفوس الضيقة، والأحاسيس الضامرة، فلسفة لا شعراً. ويعنون أنها صور عقلية عمل فيها الفكر وحده. وقد اتضح من شرحنا لها، أنها تقوم على العامل « النفسى » أول ما تقوم، وأن الطبع الحى البصير هو الذى يوحى بها

وكل ما ينقص هذه الخطرات لتكون من العاطفة فى الصميم، أن صاحبها لا يضع لها لافتة (يافطة) مكتوب عليها: « هنا شعر عاطفى »!

أما أصحاب النفوس، فيحسون ويقدرون: أى نفس تلك التى تلتفت مثل هذه اللفتات، وأى عاطفة عميقة فى ثنايا هذه الأبيات

« حلوان » سيد قطب

بين الرافعي والعقاد

في منطق التحليل

للأستاذ عبد الجليل محمد المحجوب

يريد الأستاذ « سيد قطب » أن يثير معركة تكون فاتحة لإظهار أدبه « النفسي » ، وترويجاً له بين الشباب الحديثين . ولا يمنعه الحذر أن يعلن هاته الظاهرة خشية الاستخفاف وضياع الأمل . وهو — كما يبدو من تحليل مقاله[1] — رجل خضوع لنفسه ، سهل الانقياد لعصبيته القديمة ؛ تؤثر فيه العلاقات الشخصية أكثر من علاقات الحقيقة بالعقل ، والإيمان بالقلب ؛ وبشريته المظامية تقوده للتقرب مما يدفعه إليه شعوره ، وعاطفته المتمردة . ويقول إن له أدباً وشعراً ، وملكة نقد وقادة تحمله يثور على كل من يتطاول إليه ، أو يحاول أن يمس عبقريته بخطأ شائن ، كما ثار العقاد على الرافعي ومخلوف إجابة لعلوّ النفس ، وحفظاً لها من النزول إلى عقلية السوقة . ويعيب على الناقدين — دون نفسه — جهلهم بطبيعة الكاتب ، وقساوتهم في الحكم قبل اتصالهم به واكتناه بواعثه !

ثم يذكر أنه كان « يكره نفسه على مطالعة الرافعي » لأنه عندما قرأ «حديث القمر» أحس بالبغضاء له ! ويكذّب الأستاذ سعيداً في تسميته ما كتبه العقاد في رده شتماً وسباً للرافعي . وفي تسمية ما كتبه عن «مخلوف» سباباً وشتائم » ويقول بعدئذ — في غير تحفظ — « إذا كتب (يعني العقاد) عن « مخلوف » يتهكم به ، ويشنع بسوء فهمه للأدب ، فبعث ذلك عظم الفرق بين طاقة العقاد وطاقة مخلوف ، والحنق على أن يكون مثل هذا ناقداً لمثل ذاك ...

« والحق أن هذا مما تضيق به الصدور الخ ... »

وحديث مثل هذا يفسر ، بكل صدق ، بأن حضرة الأستاذ سيد ليس له مبدأ في الجدال وأنه يتلاعب بالحقيقة ، فطوراً ينفيها ويكفر بها ، وطوراً يتوب ويعتذر !

وفي فقرة أخرى يأخذ على الأستاذ سعيد « تعرضه » بلقب « أمير الشعراء » الذي ينحله الدكتور طه حسين للعقاد « تملقاً » للشعب ونزولاً على هواه ، ويرى أن هذا « اللقب » دون منزلة العقاد لأن « المسافة بينه وبين شعراء العربية في هذا العصر أوسع من المسافة بين السوقة والأمراء »

وهذا — لو كان للأستاذ شيء من المنطق — يحط من منزلة العقاد إلى حدّ هائل ، إذ كيف وهو هو في علوه ورفعته لم ترض بأمارته سوقة ؟ ! !

كما أنه يحمل على الأستاذ سعيد أيضاً فيما كتبه عن العقاد لأنه « يجهل طبيعة العقاد ودوافعه في الحياة وعوامل الكتابة في نفسه » ويلتمس له العذر في ذلك لأنه « لم يختلط بالعقاد أولاً . ولأن نفسه لم تتفتح لأدب العقاد فيفهمه ثانياً » ويسمح هو لنفسه أن يكتب عن الرافعي ما يشاء وهو كما يعترف لا يعلم عن حياته شيئاً ولا يشعر في قراءته له بغير الكراهية والنفور ! ..

وأعجب من هذا أنه كان « ينكر » أن تكون للرافعي « إنسانية » و « نفس » ولكنه لما رأى الأستاذ سعيد يتحدث عن « حبه » و « عاطفته ، وحين استطاع أن يكون ناقداً أصبح ينكر عليه « الطبع » بدل « الانسانية » ويريد منه « الأدب النفسي » بدل « الأدب الفني » . وفي هذا تناقض وسقم في الادراك . تناقض لأن في « الأدب النفسي » : الأدب الفني ، وفي أدب الذهن : « أدب الطبع » . وليس من يشك في أن الفن صورة لشعور النفس ، والطبع صورة لذهن الإنسان .

ولعل حضرة الأستاذ سيد يذكر تجربة العالم Fopffer الذي أعلن هذه الحقيقة بكيفية مضحكة : فاستدعى خمسة وعشرين رساماً ، ورجا من كل واحد أن يصور له حماراً . وبعد الانتهاء لم يجد صورتين متماثلتين تماماً : فكل واحد صوره كما أوحاه إليه شعوره النفساني ، فهذا رسمه أبله . وذاك رسمه صبوراً . والآخر رسمه وديعاً . الخ . وكانت البراعة الفنية مترجمة عن خطرات النفس ، واحساساتها . ثم استدعى خمسة وعشرين كاتباً ورجا منهم أن

(١) الرسالة عدد ٢٥١

يكتبوا عن الحمار أيضاً فكانت النتيجة كالأولى . وساعتئذ قرر Topffer أن الفن صورة لإحساس النفس، وهما متلازمان تلازم العرض للجوهر . فما دام للانسان « فن » فلا بد أن تكون له « نفس »

وأما « الطبع » فهو خاصة من خصائص الذهن ، لأن الطبيعة أول ما تنشأ عن العقل ، وفي أرضه تنبت وتمد عروقها ، وللعالم النفساني R. André مائة وخمس وعشرون تجربة تؤيد هذا الاكتشاف ، منها : أنه وضع شيئاً من الحلوى في مكان مرتفع ، وجاء بطفل صغير ، وأغراه ليتناولها ، فجعل الطفل تارة يمد يديه ، وطوراً يقفز وأخرى ينظر إليها في صمت وسكون . ثم اهتدى إلى كرسي كان إلى جانبه ، وتمكن منها . فصار R. André كل يوم يضع قطعة أخرى من الحلوى ، والطفل يتناولها بالوسيلة المتقدمة بدون أدنى تفكير . ثم كان ذاك مرة كل أسبوع ، ثم كل أسبوعين ، ثم كل شهر . حتى كبر الطفل وأصبح يستطيع أن يتناول قطعة الحلوى بدون مساعد . ولكنه ظل على طبيعته المتادة يستعين بالكرسي .

وبعد حين أقصى عنه الكرسي ... فضحك الطفل ومد يده وتناولها . واستمر « R. André » على وضع قطع أخرى ، في أمكنة مختلفة ، واستمر الطفل على تناولها بيده . ثم أبعدها عنه حتى صار لا يستطيع أن يمسها بيده . وحينئذ فكر الطفل وأوحى إليه ذهنه أن يستعين بها ... وهكذا بقي « R. André » خمسين شهراً يكرر التجربة نفسها . وفي المرة الأخيرة أحضر جمعاً من علماء النفس والتربية وعلق قطعة من الحلوى في سلك مرتفع بحيث لا يقدر الطفل أن يتناولها ... وعند ما أمره بأخذها ، شرع يستعمل جميع الوسائل التي اعتادها قبلاً دون تفكير في إفادتها . وبعد لأي وقف قليلاً صامتاً ، ثم طفق يبكي ويلتفت إلى الحاضرين ... وعندئذ قام « R. André » وشرح أمره ، وصرح في النهاية بأن جميع الطبائع والعادات كالمشي ، والبكاء ، والضحك وما شاكلها منبعثة عن العقل . وعلى هذا فطبيعة الأديب مستمدة من الفكر ومسيرة بأوامره . كما يتعين أن يكون « أدب الطبع » جزءاً من « أدب الذهن »

وإني لأنصح لحضرة الأستاذ سيد قطب أن يرجع لمؤلف « R. André » (١) ، وإلى غيره من كتب البسيكولوجيا التطبيقية فإنه لواجد فيها ما يبطل زعمه ، ويعود به إلى حظيرة الحق والسكون

***

وبعد ، فهذه نظرة قصيرة أحببت أن أشعر بها حضرة الأستاذ بأنه — نظراً لكتابته (٢) وما حشاه فيها من « الأفكار » المضطربة مازال بعيداً عن النقد والحكم البريء ، عساه أن يجنح إلى السلم ، ويعدل آراءه على ضوء المنطق ، ويقين الملاحظة

وإن لي رأياً في أدب العقاد ، وأدب الرافعي ، كونته من مطالعتي لهما . سأعلنه متى قضت الظروف

« تونس » عبد الجليل محمد المحجوب

(١) Origine du caractère
(٢) « الرسالة » عدد ٢٥١

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

(بقية المقال الحادى والعشرين)

وفى وادى السلام يقول الأستاذ على الشرق :

ثلاثون جيلاً قد ثوتْ فى قرارةٍ
تزاحم فى عُرْبٍ وفُرْسٍ وأكراد
ففى الخمسة الأشبار دُكّتْ مدائنٌ
وقد طُويتْ فى حُفرة ألف بغداد
عبرت على الوادى وسَفَّتْ عجاجةٌ
فكم من بلاد فى الغبار وكم ناد !
وأبقيت لم أنفض عن الرأس تربهُ
لأرفع تكريماً على الرأس أجدادى

وكذلك كان الدخول إلى النجف من باب السلام ، أى الموت !

وبحثت عن فندق فكان فندق السلام فتشاءمت ، ثم أسلمت نفسى إليه ، لعلمى بأنى صائرٌ لا محالة إلى السلام ، أى إلى الموت !

ثم رأيت فندق السلام بالنجف شبيهاً بأخيه فندق السلام فى حىّ سيدنا الحسين بالقاهرة . رأيت الناس ينامون زرافات فى حجرة واحدة ، فأخذت أمتعتى وانصرفت ، وذهبت إلى فندق ثان فرأيته أعجب من الأول ، فمضيت إلى ثالث فرأيته أغرب من أخويه ، وانتهى بى المطاف إلى غرفة حقيرة فى فندق حقير هو أعظم الفنادق بالنجف

ولعل الفنادق كانت كذلك لقربها من وادى السلام ، فهي تروض المرء على قبول الدفن مع من يعرف ومن لا يعرف ، وتقرِّب إلى ذهنه صورة المساواة فى دنيا الأموات

***

كان غبار السفر الذى دام أكثر من أربع ساعات آذاني ، وكنت أحب أن أصلح من شأنى فى الفندق لأستعد لمقابلة البهاليل من آل ليلى ، فلم أجد فى الفندق ما يسعف ، ولكن لا بأس فسيلم النجفيون بعد ساعات أنى نزلت في فندق فيغضبون ويقولون (هذه فضيحة) وينقلون أمتعتى إلى منزل أحد الأصدقاء

وعندئذ أتذكر أن النزول فى الفندق كان عند أهل العراق علامة من علائم المسكنة ، يشهد بذلك قول الشاعر القديم

يا أيها السائل عن منزلى   نزلت فى الخان على نفسى
آكل من خبزى ومن كسرتي   حتى لقد أوجعنى ضرسى

ويشهد بذلك قول شاعر حديث هو الرصافي :

سكنت الخان فى بلدى كأنى   أخو سفر تقاذفهُ الدروبُ

وأصرخ فى وجه النجفيين قائلاً : إن المدينة التى تخلو من فندق نظيف لا تسمى مدينة ، والذين عاشوا فى أوربا كما عشتُ لا يستطيعون النزول فى منازل الأصدقاء ، والفندق النظيف هو المأوى الطيب للضيف ، والحكومة المصرية لا تنزل ضيوفها فى غير الفنادق ، لأنها تعرف قيمة الفنادق ، وكذلك تصنع حكومة العراق حين تستقبل ضيوفها فى بغداد

فيا أهل النجف ، تذكروا أن مدينتكم فى حاجة إلى فندق نظيف ، وتذكروا أن مثل ذلك الفندق ينقل مدينتكم من حال إلى أحوال

***

خرجت من الفندق أتلفت ذات اليمين وذات الشمال لأرى شبيهات ليلى ، شفا الله ليلى وشفاني ، ومنحنى وإياها العزاء يوم الفراق ، إن كان لنا سبيلٌ إلى التلاقى قبل الفراق

وساقتنى قدماى ، بل هداني قلبي إلى الحرم الحيدرى

وقفت بصحن الحرم كالأرقم ، والحمد لله على نعمة العافية ، وليته يتفضل بحفظ هذه العافية ولو عشر سنين لأداوى جميع المرضى من الملاح

وقلت فى نفسي : أنا تلميذ الشريف الرضى الذي يقول :

لو أنها بفناء البيت سانحةٌ   لصِدتُها وابتدعت الصيد فى الحرم

فإذا كان الشريف استباح الصيد فى الحرم النبوى فأنا أستبيحه فى الحرم الحيدرى

ودرت حول الضريح مرتين ، ثم وقع البصر على فتاة ساجية الطّرف مشرقة الجبين تخفق القلب

ثم وقفت

أصاول عينيها بعينى والهوي   يشيع الحيا فى فؤادى وأعضائى

وظنت الفتاة أنها أقدر منى على الفتون ، فحاولت قتلى ، ثم لطف الهوى فصرعتها ، فجمعت ما تبدد من قواها ، وفرت فرار الغزال المطعون

وعَدَوتُ لاقتناصها فلم أفلح . وكيف يعدو النشوان وهو كالقيد فى الشوك !

من أى سحر صيغت تلك العيون ؟

وإلى أية غاية تسير تلك العيون ؟

ولأية حكمة خلقت المقادير تلك العيون ؟

لقد أفلح الحساس الظريف الذى نقلنى إلى النجف ، وهو على ظرفه لئيم خبيث

وبالنجف الحارى(1) إن زرت أهله
مهاً مهملات ما عليهن سائس
خرجن بحب اللهو فى غير ريبة عفائف باغى اللهو منهن آيس

ثم طفت بالحرم مرة ثانية فوجدت ناساً يقرأون أدعيات وصلوات وحولهم نساء يبكين ورجال يبكون، فوقفت أسمع وأبكي، وهل فى الدنيا بلاء مثل بلائى ؟ أنا العاشق المهجور الذى غدرت به ليلاه . ولو كانت ليلى واحدة لصبرت ، ولكنهن ليليات !

فيا بديع الملاحات ويا فاطر السموات ، كيف ترى حالى !

ويا خالق النخيل والأعناب، كيف سكبت الصهباء فى روحى؟

ويامجرى الدمع فى الشؤون، كيف علمتنى وعلمت الحمائم النُّواح

وما الذى أعددت لتكريمى يوم ألقاك وقد سبّحت بحمدك فوق أفنان الجمال !

وما عندك لسلامتى من الناس ، وقد خاصمت فيك جميع الناس !

***

وطفت بصحن الحرم مرة ثالثة فوجدت ضريح الحبوبى الذى يقول :

اسقنى كأساً وخذ كأساً إليك   فلذيذ العيش أن نشتركا
وإذا جُدت بها من شفتيك   فاسقنيها وخذ الأولى لكا
أو تحسي خمرةً من ناظريك   أذهبت نسكى وأضحت منسكا
وانهب الوقت ودَعْ ما سلفا   واغتنم صفوك قبل الرَّنق
إن صفا العيش فما كان صفا   أو تلاقينا فقد لا نلتقى

وعند ذلك الضريح طال بكائي ، فهذا شاعر قضى حياته فى التغنى بالجمال ، ثم رآه النجفيون صوفياً فدفنوه بجوار أمير المؤمنين ، وأنا أفنيت شبابى فى التغنى بالجمال ولم أجد غير العقوق !

فمتى يعرف قومى أنى صوفىٌّ يؤمن بوحدة الوجود؟

ومتى يعرف قومي أنى أصدق تلاميذ ابن الفارض فى هذا الزمان ؟

اللهم لطفك ورحمتك ، فقد طال بلائى بالناس !

***

يئستُ من الصيد فى الحرم الحيدرى بعد فرار تلك الغزالة ، وبدأتُ أعتب على سيدنا على بن أبى طالب ، فمثلى لا يُكرَم فى رحابه بالماش والجُلاَّش ، وإنما يكرم مثلى بالهيام فى أودية الفتون ، وما كنت فى حياتى من الفاسقين ، وإنما كنت مؤمناً يتقرب إلى ربه بعبادة الجمال

وفى حومة هذا العَتْب تذكرت أن لى فى النجف صديقاً من تلاميذ الأستاذ محمد هاشم عطية هو السيد محمد تقى آل الشيخ راضى ، فقلت أذهب إليه عساه يجد السبيل إلى الظبية التى نفرت منى ، ولكنى ما كدت أصل إلى منزله بعد طول البحث حتى وجدته فى ارتياع ، فقد علم أن الشرطة فى النجف تبحث عنى ، لأنى فى ظنهم وردت النجف لمطاردة الظباء ، وقد رأى بفطرته السليمة أن ينفى الشبهة فدعا علماء النجف للتسليم على العالم العلامة الدكتور زكى مبارك !

وما هى إلا لحظة حتى كانت الدار تموج بالغرّ البهاليل من أقطاب النجف

وجلست بين القوم جلسة العالم الحق ، وما يصعب علىّ أن أمثل هذا الدور الفظيع ، فانتقدت صاحب مجلة الحضارة لأنه يدعو إلى تعديل المذاهب القديمة فى التعليم ، وقلت إن مذاهب التعليم فى النجف كمذاهب التعليم فى الأزهر لا ينبغى أن تزول

وعجب القوم من أن يصدر هذا القول عن رجل متخرج فى السوربون

ولكنى فى الواقع لم أكن مرائياً ، فقد صح عندى أن الأساليب الأزهرية والنجفية أساليب تنفع أجزل النفع فى رياضة

(1) الحارى نسبة إلى الحيرة على غير قياس . وفى معجم ياقوت (الجارى) وهو تحريف

المقل ، يضاف إلى ذلك أن الأزهر هو الذى حفظ اللغة العربية فى عهد المماليك ، وأن النجف هو الذى حفظ اللغة العربيـة فى عهد الأتراك ، ورعاية العهد توجب الابقاء على تلك الأساليب التى استطاعت أن ترسل النور الوهاج فى دياجير الظلمات

وبعد طول الحوار فهمت أن فى النجف ثورة فكرية تشبه الثورة التى وقعت فى الأزهر منذ أكثر من ربع قرن ، وعرفت أن طلبة العلم فى النجف يريدون أن يغيروا حالهم ليسايروا مناهج التعليم فى العصر الحديث

وقد تأكد ذلك المعنى حين قال الأستاذ الصورى : ما رأيك يا دكتور فى أن أخلع عمامتى ؟ فقلت : أنا أُبغض المعممين الذين يخلعون عماماتهم ! فقال : هل تعرف ما قلتُ فى العمامة ؟ لقد قلت : إنها منعت رزقى وفِسقى

فابتسمت وقلت : وكيف تعيش يامسكين بلا رزق ، وبلا فسق ؟ !

وتقدم الأستاذ البلاغى صاحب مجلة الاعتدال فقص أحاديث يشيب لها الوليد ، ومنها عرفت أن طلبة العلم فى النجف يعيشون فى بؤس . وقد طفر الدمع من عينى حين سمعت أن عالما نجفيا أشرت إليه فى كتاب (عبقرية الشريف الرضى) جلس فى صحن الحرم الحيدرى يبيع كتبه ليسدّ ما عليه من ديون ، ديون لم يجنها لهوٌ ولا مُجون ، وإنما جناها الخبز والماء

وكان هذا العالم المحقق لقينى فى الكاظمية منذ أشهر ، لقينى لقاء المساكين ؛ ولما لقينى فى النجف تبسم وقال : كنت فى الكاظمية غريباً ، وأنا اليوم فى بلدى ، وأنا حاضر لخدمتك

وكنتُ أحب أن أقبل دعوته الكريمة ، ولكنى واأسفاه كنت عرفت ترجمة حاله منذ لحظات ففررت من كرمه بترفق وتلطف

لا تحزن أيها الزميل ؛ فسيكون لى ولك مكانٌ بين الصابرين لا تحزن ، فالدنيا أحقر من أن يبكى على نعيمها أحرار الرجال لقد سمعت أنك بعت دارك بثمن بخس لتسدد ديونك . فهل علمت أن لك عُقبى الدار يوم يجزى الله الصابرين ؟

* * *

ثم مضيت فطوّفت بالنجف وحولى جيش من أهل العلم والأدب والبيان ، وفى أحد المنعطفات وقع البصر على طفلة من قريبات ليلى ، فمددت يدى أمسح خدها الأسيل فصرخت ، وتضاحك الرفاق ، ولكنى سأرجع باذن الله إلى النجف لأعرف أهل تلك الطفلة وأخطبها لأحد أبنائى ، وبيت أهلها يقع فى دربونة متصلة بدربونتين إحداهما توصّل إلى الرابطة الأدبية ، والثانية توصّل إلى الحرم الحيدرى ، ولذلك البيت روشن عليه بَرّادة ، وبداخله بئرٌ ومرداب ، وفوق الروشن حمامتان تسجعان ، وفوق عتبات ذلك البيت تتحدر مدامع العشاق

ياشبيهة ليلى فى حسنها ودلالها ولؤمها وغدرها ! ترفقى بقلبى فقد تركته فى الدّربونة لتدوسه فى كل صباح أقدامك الرقاق

ياشبيهة « كريمة » الغالية التى تداعب أباها فى الأحلام تذكّرى أن طيفاً زارك فى النجف ولن يعود . ياأخت «زينب» ، تذكري أن الرجل الذى مدّ يمينه ليمسح خدك الأسيل لم يكن فاجراً ، وإنما هو مجاهد ترك وطنه وأهله فى سبيل العقيدة والوجدان

اليك دمعى ياحلوة ياجميلة ، وهو دمعٌ تمرّد على الخطوب ، ثم أذلّته عيون الملاح . أحبك أيتها الطفلة الوسيمة وأشتهى أن أسمع صراخك مرة ثانية ، فما كان وحق الحب إلا صراخ الدلال

واستيقظت فى اليوم التالى مبكراً لأرى الكوفة ، ولأقف بأطلالها كما وقف أستاذى ماسينيون ، وكان أكبر همى أن أرى مسجد الكوفة الذى طُعن فيه أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، والذى فار فى زاويته التنُّور لعهد نوح عليه السلام ، والذي صلى فيه ألف نبىّ وألف وصىّ ، والذى فيه عصا موسى ، والذى هلك فيه يغوث ويعوق ، والذى يحشر منه يوم القيامة سبعون ألفاً ليس عليهم حساب ، وفى وسطه روضة من رياض الجنة

كذلك تقول الأساطير

وما كانت فى عينى وقلبى أساطير ، وإن كنتُ تلميذ منصور فهمى وطه حسين

لقد شهدت بعينى كيف طُعنَ على بن أبى طالب ورأيت دمه رأى العيان

ورأيت المكان الذى خطب فيه الحجاج خطبته المشهورة ، الحجاج الهائل الذى أصلح العراق ، وأفسد العراق

ورأيت قبر مسلم بن عقيل رسول الحسين ، ورأيت كيف يبكى الناس على قبره وكأنما قُتل بالأمس ، فتذكرت أن العراق

يحوى ثروة عظيمة جدًا من الحماسة الوجدانية ، وتذكرت أن العراق تغلب عليه سرعة الانفعال ، فهو يقتل المصلح بلا ترفق ، ثم يجعل البكاء عليه شريعة من الشرائع

تذكرت أن العراق كالقوة الكهربائية التي تحيي وتميت ، وهو ينتظر رجلا في طغيان الفرات وسماحة النيل

إن العراق من قوى العروبة والاسلام، ولكن أين من يعرف؟ لقد هداني العراق وأضلني، وكان على الدهر مصدر هداية وضلال

***

ثم مضيت ألتمس آثار الحيرة البيضاء ، مضيت ألتمس آثار الخورنق ، فلم أعرف ولم يعرف رفاقي أين الخورنق

وكان هيامي بأطلال الحيرة موسمًا من مواسم الشعر والخيال، وفي ذلك الهيام عرفت شيئاً من مدنية العرب في الجاهلية

ولو كان لي شيء من الأمر في حكومة العراق لأجريت نهر السدير من جديد لأنقش في وجه الزمن ذكريات النعمان

مضينا إلى أطلال الخورنق مع سائق جهول فقادنا إلى مكان موحش ، فقال الرفاق : ليس هذا مكان الخورنق . فقال السائق : أنتم تبحثون عن أحجار ، وههنا أحجار !

صدقت أيها الجهول ، فنحن نبحث عن أحجار ، ولكننا نبحث عن أحجار نواطق !

عندئذ تذكرت فراعين مصر ، فقد كانوا يدركون أن الزمن لئيم غدار ، وأن التاريخ كلام في كلام ، فبنوا أهرامهم وقصورهم بأساليب يعجز عن فهمها الزمان

وقد تقوضت آثار الملوك في المشرقين والمغربين وعجز الدهر الغادر عن هدم آثار الفراعين

ما أشقاك في دنياك وأخراك أيها النعمان ! أنت قتلت سِنِمَّار ليبقى سر الخورنق ، فهل بقي الخورنق ؟

ليتك استعنت الجندي المجهول في وادي النيل ، ليتك بنيت هرمًا يعجز اللئام عن نقل أحجاره ليبنوا بيوتهم الخاوية

أيها النعمان ، سلام عليك من شاعر مصري يبكي لمصيرك في التاريخ !

أيها النعمان ، أيها الملك العربي العظيم ، أين الخورنق وأين السدير ... ؟

إعترف أيها الملك بعظمة الشعر والشعراء ، فنحن الذين حفظنا مكانك في التاريخ ، ولولا الشعراء لطمس الزمن مكانك في التاريخ

وفدت على أطلال قصرك وأنا جائع ظمآن فما تزودت غير الأسى والأنين

وفدت على أطلال أنكرتها العين ، وعرفها القلب

وفدت على أطلال لم يعرفها جيرانك من أهل النجف ، وعرفها شاعر مصري مظلوم ينكره أهله ، كما أنكرك أهلك

فيا زميلي في البؤس والشقاء ، سلام عليك

ثم مضينا نمتع النظر بطغيان الفرات ، وأين طغيان الفرات من طغيان قلبي !

هذه الكوفة الاسلامية ، وتلك الحيرة الجاهلية ، وأولئك الغافلون من العرب والمسلمين . فيا رب الأرباب أنقذ عبدك المسكين من ظلم الجحود والعقوق

***

ورجعت إلى النجف أسأل عن أخوات ليلى ، ولكن كيف ؟ إن النجف كله يطارد العاشق المسكين الذي ضيع مستقبله في سبيل هواه

ويصمم النجفيون على إقامة حفلة تكريم للدكتور زكي مبارك فأرفض، لأن تلك الحفلة كانت توجب أن أتخلف عن دروسي في دار المعلمين العالية ، وتخلفي عن دروسي أمر مستحيل . وكذلك أقهر علماء النجف وأمتطي السيارة إلى بغداد

رجعت في زي المساكين لأني لم أجد الشفيع إلى ليلاي

رجعت ذليلاً مقهوراً ، فاذا أصنع ؟

آه من حبي وغرامي وبلواي !

لقد هجرتني ليلى وصدفت عني ظمياء

فلأذهب إلى الموصل لأستشفع بقريبات ليلى هناك

إلى الموصل الذي رقدت في ثراه عظام أبي تمام أمتطي قطار المساء ...

(للحديث شجون) زكي مبارك

التاريخ فى سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الأحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

يا شباب الوادى ! خـذوا معانى العظمة فى نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامى العظيم ....

— ١٦ —

وما كان إبراهام كما أسلفنا يطمع من وراء هـذا النزال أن ينال لنفسه شيئا ؛ وهل عُرفتْ فى خلقه غميزة منذ كان يقطع الأخشاب ليشترى بالمئات منه سروالا ؟ أو ليست كراهته لنظام العبيد ترجع إلى صـدر شبابه ؟ أو لم يتنز بالألم قلبه يوم سافر إلى نيو أورليانز فى تجارة لأحد الناس ورأى هنالك أسواق الرقيق ووقعت عيناه فيها وقعتا على تلك الفتاة التى عرضت نصف عارية على الأنظار كأنها مهرة كريمة ؟

منذ ذلك اليوم وهو يسير إلى غاية ، شعر بذلك أو لم يشعر به ؛ فلقد استقر فى نفسه مالا تقعـد معه عن العمل أو تنصرف عن الغاية ، فكانت ثمة عزيمة تهون أمامها جسيمات الأمور ، وكانت ثمة رسالة يحلو فى سبيلها الجهاد ويطيب الاستشهاد ؛ ومرد ذلك كله إلى قلب إنسانى كبير ونفس مطمئنة صابرة ، وبصيرة كأنما تشرف من حاضرها على المستقبل فلا تقف من دونها حجب الغيب ...

إنه اليوم كما أراد حزبه ينافس دوجلاس على مقعد فى مجلس الشيوخ فهل كان ذلك قصارى همه ؟ كلا . وما كان بعض همه أن يرق إلى كرسى الرياسة ذاته ؛ وإنما كان همه أن تتحقق مبادئه ولو بذل فى سبيلها نفسه ؛ ولن يكون مقعد الشيوخ أو كرسى الرياسة عنـده أمراً ذا بال إلا أن يكون وسيلة إلى السير بمبادئه إلى حيث يعتنقها الناس ؛ وإلا فما الجاه والثراء والحكم عنده إلا من صغيرات الأمور ؛ وهو إنما ينفر من كل أولئك بطبعه الذى يعزف عن الزهو ، ويتخوف دواعى البطر ...

وإن أمثال ابن الأحراج هذا فى تاريخ البشرية لقليلون ، ولـكنهم هم الذين رسموا لها طريقها ، وولوها قبلتها التى ارتضوها لها وأشاروا بأيديهم إليها ، وما كان أتعس البشرية لو أنها افتقدت هؤلاء الذين يتمثل بهم ضميرها أناساً يمشون على الأرض

قال إبراهام ذات يوم من أيام ذلك النزال « لست أدعى أيها السادة أنى غير أنانى ، ولن أتظاهر بأنى لا أحب أن أذهب إلى مجلس الشيوخ ، كلا لن آتى هذا الادعاء المنافق ، ولـكنى أقول لـكم إنه فى هـذا الجدال الصارم ، ليس يعنيكم ولا يعنى عامة الناس من هذه الأمة ما إذا كان القاضى دوجلاس أو ما إذا كنت أنا بحيث تستمعون عنا بعدهذه الليلة أو لا تستمعون . ربما كان هذا أمراً تافهاً بالنسبة لـكلينا ، ولـكنه إذا اعتبر من حيث علاقته بتلك المسألة العظيمة التى ربما كان يتوقف عليها مصير هذا الشعب فانه يكون فى حكم العدم »

هذا هو ابراهام رجل المبدأ لا يعنيه أن يظفر أو أن ينهزم ، وإنما تعنيه تلك المسألة العظيمة ؛ ولن يهدأ له بال حتى تحل أو تسير فى سبيلها إلى الحل

وأنى لدوجلاس أن يقف فى وجه تلك القوة المانية ؟ أنى له أن ينال من ذلك الذى يتكلم فيخيل إلى سامعيه كأن الأخلاق نفسها تقول كلمتها . حاول دوجلاس أن يعبر مرة عن عدم المبالاة من جانبه فى مسألة العبيد فانبري له ابراهام قائلا : « إننى أبغض مثل هذا المظهر ، مظهر عدم المبالاة ... إن من شأنه أن يضعف حاسة العدالة فى دولتنا ، وإنه ليعطى أعداء النظام الدستورى السلمى شبه حق أن ينظروا إلينا كأننا منافقون ، كما أنه فى نفس الوقت يمـد أنصار الحرية الحقيقيين بسبب وجيه لتشككهم فى إخلاصنا » ... وقال فى معرض آخر :

« إنكم باعتيادكم أن تطأوا حقوق غيركم إنما تفقدون بذلك حقيقة استقلالكم أنتم ، وتصبحون طعمة لـكل طاغية يخرج من بينكم . دعونى أخبركم أن مثل هذا إنما يمده لـكم منطق التاريخ ، إذا جاءت أدوار الانتخاب الآتية بحيث تجعل الحكم فى قضية درد سكت التالية وغيره من الأحكام أمراً يقبله الناس . إنكم تستطيعون أن تخدعوا كافة الناس ردحاً من الوقت وبعض الناس طول الوقت ، ولـكنكم لن تستطيعوا أن تخدعوا جميع الناس طيلة الأبد »

بمثل هذا المنطق السائغ، وبمثل هذه العبارات السهلة الأخاذة كان ابراهام يأخذ الطريق على دوجلاس فى غير مشقة ؛ وكان الناس كأنهم يلمسون الصدق فى هذه العبارات وأمثالها ؛ وهم واثقون من نزاهة غرضه وشرف مقصده ...

ويريد ابراهام أن يصور موقف كل من الولايات القديمة والولايات الجديدة من نظام العبيد، فيصل إلى غايته فى وضوح ويسر بعبارته الآتية التى أعجب بها السامعون، قال: « إذا أنا أبصرت ثعبانا قاتلا يزحف فى الطريق فأن أى رجل يقول بأن لي أن أعمد إلى أقرب عصا فأقتله ؛ ولكنى إذا وجدت هذا الثعبان فى السرير بين أطفالى فان المسألة تتخذ وضعاً آخر فانى ربما آذيت أطفالى أكثر مما أوذي الثعبان وربما عضني ذلك الثعبان . وتختلف المسألة أكثر من ذلك إذا أنا وجدت ذلك الثعبان فى سرير أطفال جارى وكنت على اتفاق وثيق مع ذلك الجار ألا أتدخل فى شؤون أطفاله مهما يكن من الأمر ... ولكن إذا كان هناك سرير قد صنع حديثاً وأزمع حمل الأطفال إليه واقترح أن يحمل إليه عدد من الثعابين توضع مع الأطفال، فليس فى الناس من يرى أن هناك اختلافا فى أى الطرق أسلك »

ولقد عرفنا فيما سلف من خلال ابراهام قدرته على التهكم ، ورأينا كيف يرشق خصومه فى ساحة القضاء بتهكماته حتى يزلزل أقدامهم ، كل ذلك فى عذوبة روح وترفع عن الاساءة وحذر شديد أن يجرح إحساس أحد ؛ وها هو ذا اليوم فى مناظرته دوجلاس يعمد إلى ذلك السلاح فى مهارة يضيق عنها ذكاء خصمه وتتخلف دونها بديهته ، ويذهل عندها مكره . استمع إليه كيف يسفه وسائله ويزيف آراءه، وقد رأى منه أنه غير رأيه وأنكر رأيا سالفا له « أقول إنك خلعت قبعتك ، وإنك تثبت أنى كاذب بوضعها على رأسك من جديد ؛ وهذا هو كل مالك من قوة فى هذا الجدال » ثم انظر إليه كيف يحمل الناس على الضحك بأن يستخرج من إحدي عبارات دوجلاس ما يشبه القانون الرياضى ، قال دوجلاس : « إذا كان النضال بين رجل من البيض وبين زنجى فاني أقف إلى جانب الأبيض ، أما إذا كان بين زنجى وتمساح فانى مع الزنجى » فأجاب ابراهام بقوله « يستنتج من ذلك أن الرجل الأبيض من الزنجى كالزنجى من التمساح ، وعلى ذلك فبقدر مايكون من الحق فى معاملة الزنجي للتمساح يكون منه فى معاملة الرجل الأبيض للزنجى »

ولم يدع إبراهام قولاً مما ساقه دوجلاس مساق المبادئ إلا حمل عليه وكشف عما فيه من بهرج ، ومن ذلك ما أعلنه دوجلاس فى مسألة نبراسكا وأبى إلا أن يسميه مبدأ سيادة الشعب ؛ قال إبراهام : « مبدأ سيادة الشعب معناه حق الشعب أن يتولى حكم نفسه ، فهل اخترع ذلك القاضى دوجلاس ؟ كلا؛ فلقد اتخذت فكرة سيادة الشعب طريقها قبل أن يولد صاحب مشروع نبراسكا بعصور، بل قبل أن يطأ كولبس بقدميه أرض هذه القارة ... فاذا لم يكن القاضى دوجلاس هو مخترع ذلك المبدأ فدعنا نتتبع الأمر لنتبين ماذا اخترع . أهو حق المهاجرين إلى كنساس ونبراسكا فى أن يحكموا أنفسهم وعدداً من الزنوج معهم إذا أرادوا ذلك ؟ يظهر فى وضوح أن ذلك لم يكن من اختراعه، لأن الجنرال كاس قد أعلن ذلك قبل أن يفكر دوجلاس فى مثله بست سنوات ... وإذاً فماذا اخترع المارد الصغير ؟ لم يخطر على بال الجنرال كاس أن يسمى اكتشافه بذلك الاسم القديم ألا وهو سيادة الشعب . أجل لقد استحى أن يقول إن حق الناس أن يحكموا الزنوج هو حق الناس أن يحكموا أنفسهم . وهنا أضع تحت أنظاركم اكتشاف القاضى دوجلاس بكل مافيه ؛ لقد اكتشف أن تربية العبيد والاكثار منهم في نبراسكا هو سيادة الشعب »

رأى دوجلاس يعمد إلى المداجاة ، ويجهد أن يلبس الحق بالباطل فشبهه بنوع خاص من السمك من خصائصه أن يفرز مادة سوداء كالمداد يضل بها الصيادين ، فهو لا يفتأ يرسل من العبارات الجوفاء مايرى به إلى التعمية وطمس الحقائق... والناس يضحكون مما يقول أبراهام معجبين به مستزيدين منه ...

ولقد رأى أبراهام فى ذلك الصراع فرصة قلما تتاح له مثلها فعول ألا يدع فى مسألة العبيد شيئاً غامضاً ، وأخذ يقلبها على وجوهها فى سهولة تستهوى الألباب ، تلمس ذلك فى مثل قوله عن التمسكين بمبدأ العبيد ، قال : « إن مبدأ الاستعباد عندهم يظهر لى كما يأتى : ليست العبودية صواباً من جميع الوجوه، وليست كذلك خطأ من جميع الوجوه ، وإن من الخير لبعض الناس أن

يكونوا عبيداً ، وأنهم في هذه الحال يكونون خاضعين لإرادة الله ... حقــًّا ما كان لنا أن نعارض مشيئة الله ، ولــكن لا تزال هناك صعوبة فى تطبيقها على بعض الحالات الخاصة ، فمثلاً لنفرض أن هناك شخصاً اسمه الدكتور روس الموقر يملك عبداً اسمه سامبو فانا نتساءل هل مشيئة الله أن يظل سامبو عبداً أم هى أن يطلق صراحه ؟ وإنا لن نظفر من الله باجابة مسرعة عن هذا السؤال ، ولن نجد في كتابه الانجيل جواباً لذلك ، أو لا نجد فى الغالب إلا ماهو من شأنه أن يثير الجدل حول معناه ... ولا يفكر أحد أن يسأل مارأى سامبو فى ذلك . وعلى ذلك يترك الأمر فى النهاية للدكتور روس ليفصل فيه ؛ وبينما هو يفكر فى الأمر تراه يجلس فى الظل وعلى يده قفازه يقتات بالخبز الذى يكسبه سامبو تحت الشمس المحرقة ، فاذا هو قرر أن مشيئة الله هى أن يظل سامبو عبداً فانه بذلك يحتفظ بموضعه المريح ؛ أما إذا قرر أن مشيئة الله هي أن يصير سامبو حرًّا فان عليه أن يخرج من الظل وينزع قفازه ويكدح من أجل خبزه ؛ فهل يفصل الدكتور روس فى الأمر بما تقضى به النزاهة التامة التى لا بد منها فى كل فصل حق؟ »

وانتهى ذلك الصراع الذى اشتهر أمره ، فكان نصيب الجمهوريين من المؤيدين مائة وخمسة وعشرين ألفاً ؛ ونصيب الديمقراطيين دون ذلك بأربعة آلاف ؛ ولــكن مجلس الولاية التشريعى هو الذى كان يختار عضو مجلس الشيوخ ، وكان بهذا المجلس أربعــة وخمسون عضواً من الديمقراطيين وستة وأربعون من الجمهوريين ؛ ولذلك فاز دوجلاس فصار عضو مجلس الشيوخ ! ولقــد عد انتصاره فى نظر بعض المؤرخين بعد هذا الصراع أعظم انتصار شخصى فى تاريخ أمريكا السياسى . . .

***

وهكذا يفشل ابراهام مرة أخرى فى الحصول على مقعد في مجلس الشيوخ ، ويحظى دوجلاس دونه بذلك المقعد ؛ ولــكن ابراهام على عادته لا يعبأ بهذا الفشل ، بل إنه ليستشعر الراحة بينه وبين نفسه أن استطاع أن يسمع تلك الآلاف صوته ؛ وإنه ليحس أن مبادئه قد أخذت سبيلها إلى قلوب الــكثيرين منهم على صورة طالما منى نفسه بها ، وأى شيء هو أحب إليه من ذلك ؟

لقد أصبح اسمه على كل لسان ، وصــار يعتبر من رجال أمريكا المعدودين ، وأضاف الناس فى الشمال إلى ألقابه لقباً جديداً فقالوا لنكولن « قاتل المارد » ، وطنطنت باسمه الصحف ؛ ومن ذلك ما قالته نيويورك ايفننج بوست ، « لم يصل رجل فى هذا الجيل إلى الشهرة فى قومه بمثل تلك السرعة التى وصل بها لنكولن فى هذا الانتخاب » ؛ وكتب إليه رجل غريب عنه يقول : « إن مثلك اليوم كمثل بيرون الذى أفاق ذات يوم من نومه ليجد نفسه ذائع الصيت ؛ إن الناس يستنبؤون عنك بعضهم بعضاً ، لقد قفزت دفعة واحدة من محام له الصدارة فى البنواس إلى الشهرة القومية »

أما هو فقد وصف شعوره يومئذ بقوله : « مثلى مثل الصبي الذى اصطدم أصبع قدمه بشيء آلمه ، فكان الألم أشد من أن يصحبه ضحك وكان الصبى أكبر من أن يبكى » ...

ولاقي إبراهام عنتاً من بعض خصومه في تبرسبرج ، فلقد أرادوا إيذاءه فتصايحوا ضده ، وأسمعوه من البذاء ما أعرض عنه إعراض المؤمنين الصابرين ... ولــكنه في أثناء استقبل استقبال الفاتحين فحمله شباب المدينة على أعناقهم والألوف تهتف به ؛ وهو ضائق بهذا يقبله على رغمه ولو أنه استطاع أن يفلت منه لفعل ذلك مسرعاً ولــكنه لا حيلة له فيه ؛ وما كان أشبهه ساعتئذ بالخليفة الثانى عمر حين صاح بقومه أن كاد يقتله الزهو !

أجل ؛ لقد تبرم لنكولن بهذا الزهو ، فما كان من شيمته أن يزهى ، ولا كان من خلقه أن يترفع أو أن يطغى ؛ بل كان لا يتزايد حظه من الصيت إلا تواضع ، ولا يعظم نصيبه من النفوذ إلا خفض جناحه وألان جانبه للناس جميعاً ، أولياؤه وخصومه فى الرأى فى ذلك سواء ...

وعاد إبراهام إلى سبرنجفيلد بعد أن قضى فى ذلك النزال أكثر من شهرين ؛ عاد إلى زوجه وأولاده فلقيته مارى راضية عنه على الرغم من إخفاقه فى الحصول على مقعد فى مجلس الشيوخ . أو ليست ترى الصحف كلها تذكر زوجها وترى أكثر صحف الشمال تطنب فى مدحه وتمده بطلاً من أبطال قومه ؟ أو ليست هذه هى النغمة التى يحلو لها سماعها ؟ وأى شىء أحلى فى قلبها وقعاً من أن ترى نفسها زوج رجل عظيم يعترف الناس بعظمته ...

وأقبل على المحاماة من جديد فلقد أنفق فى هذا الصراع من المال ما أرهقه من أمره عسراً ؛ هذا إلى أنه بانقطاعه طيلة تلك الأيام عن مهنته لم يكسب من المال شيئاً ؛ وهكذا يعود ابن الغابة إلى كدحه ليقيم أوده وأود أسرته بينما يذهب دوجلاس الثرى يرفل فى النعمة إلى وشنجطون ويجرر ذيل الخيلاء السابغ الضافى

(يتبع)

الخفيف

حديث الرمزية

للدكتور بشر فارس

حديث يأبى أنْ ينقطع سلكه ، إلاّ أنه منزّه عن الفضول واللغو لطرافته ثم لتنوع مستطرداته . ووراء الأمر ظاهرتان : الأولى انجذاب نخبة من الأدباء والقراء إلى الجديد كأنهم يفطنون أن أعواد بعض أساليب الإنشاء القائمة الآن قد شظفت أي شظفٍ حتى إنها أمست تعجز عن حمل الثمر ؛ أو كأنهم يلمحون في المذهب الرمزي بما قرأوا عنه — قلّ أو كثر — أداة فيها ما فيها من المتانة والاستقامة ، وإن بدت ضرباً من ضروب الافلات من قيود المنطق « الجليل » صاحب السلطان الأعلى في التأليف والتفكير . وأما الظاهرة الثانية فاستعداد القراء لتفهُّم مذهب لا يكاد يتصل بما ألفوه من الأدب العربي الحديث ، فكلنا نشأ على قراءة الهزْل الموضوعي عند المويلحي ، والتصنع اللفظي عند البكري ، والابتداعية (romantisme حسب ترجمة الأستاذ الزيات) المفرطة حتى الازعاج عند المنفلوطي . ثم قامت بعد ذلك طرائق ، فكانت الطريقة التحليلية الواقعية في مصر ، والطريقة التخيُّلية في المهجر

والظاهرتان دلالة على ارتجاج الذهنية الاتباعية ، وشهادة لارتقاء شأن الاستحداث المطَّرِد في الأدب . فأبْشِرْ بهما !

***

يقول الأديب الفاضل السيد كامل الشرقاوي في الرسالة (رقم ٢٥٨ — البريد الأدبي) « والرمزية — بعد — في الأدب العربي (المستحدث) في أول الطريق ، فالحديث ذو شجون ولازم على من يشقّون ويوسّمون الطريق لما فيه أن يطيلوا الكلام والابانة عنها للسالكين . وما أحرى الدكتور بشر في هذا المقام . . . أن يوالي مجلة الرسالة القراء بمقالاته . . . عن الرمزية يوضح طرائقها ويترجم لزعمائها وقادتها ومدارسها منذ نشأتها إلى الآن توطئة لتأليف رسالة عنها بقلمه . . . »

إني أشكر للأديب الفاضل رقة كلامه وحسن ظنه بي . غير أني أرى غير رأيه . فالذي عندي أن المنشئ المنصرف إلى الاستحداث في التأليف يُخرج ما يُخرج ثم يقبل النقاد ينظرون فيه ، ويُطلعون القراء على خصائصه ، ويدنون لهم طريقته إن هي بعدت عما خبروه ، ويسوقون لهم قصتها ، ثم يبرزون لهم انحراف المنشئ من هنا وهناك عن تلك الطريقة إن هو قدر على أن يدسّ فيما يكتب ما يشف عن شخصيته . هذا وإن ظفر إنشاؤه بالقبول وجدرت العناية بطريقته ، قام العلماء بتاريخ الأدب والمنقطعون للبحث في فنونه وأساليبه يؤلفون المقالات والرسائل ، فيدفعون إلى القراء ما غاب عنهم ، ويبذلون لهم ما أشكل عليهم

والذي جرى للرمزية أني ألَّفت مسرحية على طريقتها مع شيء من الاستقلال بما نفسي إليه ترفّ وقلمي له ينساق . ثم جاء النقاد فأحست فئة منهم بغرابة الطريقة عن أذهان قراء العربية ؛ فاستهل الأستاذ صديق شيبوب النقد بالكتابة في الرمزية (جريدة البصير) ، وأردف الأستاذ الفنان زكي طليمات النقد ببحث لطيف فيها قائم برأسه (مجلة الرسالة) ، ونشر الأستاذ أبو شهلا التوطئة التي عملتها المسرحية ذهاباً منه أنها وافية (مجلة الجمهور البيروتية) ، ونوّه بشأن هذه التوطئة الأستاذ الأب الكرملي والأستاذ الصيرفي (في المقتطف) والدكتور زكي حسن (في الأهرام) والأستاذ كامل محمود حبيب (في المقطم) والأستاذ ادجارجلاد في (Le Journal d'Egypte) ، ثم نبه الأستاذ نجيب شاهين إلى اتصال الرمزية بالتصوف وخروجها عن الوضوح التام (في المقطم)

ثم فزّ أحد من المتخرجين في كلية الآداب للجامعة المصرية ومن طلبة العلم في « جامعات فرنسا » ، وإذا هو يؤلف مقالة عجيبة قد بين مبلغ اضطرابها الأستاذ محمد فهمي في مجلة الرسالة (رقم ٢٥٦)

والرأي إذن أن للمنشئ عملاً وللناقد عملاً وللعالم ثالثاً ؛ غير أن المنشئ ربما حق عليه أن يؤلف المقالة أو الرسالة في الكتاب الذي يخرجه دفاعاً عنه أو توضيحاً له ، وذلك ما أقدمت عليه في مجلة الرسالة يوم آنست من جانب النقاد ميلا إلى إدراج الرمزية المستحدثة التي في « مفرق الطريق » في الرمزية الأولى إدراجاً لا استدراك فيه ، فشرحت يومئذ خاصية الرمزية التي في مسرحيتي وميزتها في تفاصيلها من الرمزية الأولى

(البقية في ذيل الصفحة التالية)



رسالة الشعر



الشعاع المقيـــد !!*

للأستاذ محمود حسن اسماعيل

« إلى هالة الوطنية التى تتفجر أنوارها من تمثال رســول الجهاد الأول مصطفى كامل ... وهو يرسف فى قيوده بين ظلام النسيان والجحود »

خُذْ أماناً منَ الشعاع المُقَيَّدْ   فهْوَ فى القَيْدِ جَمْرةٌ تَتوقَّدْ
مِلْءُ ذَرَّاتِهِ أناشيدُ مَجْـدٍ   بصداها مُحَرِّرُ النيل أنْشَدْ
ذَرَّةٌ تَرْعِبُ الحـديدَ عَلَى الصَّمْـ   ـتِ ! وَأُخْرَى فى الهوْل تَرْغى وَتَزْبدُ
غَلَّتَهُ بالأمْسِ كَفٌّ صَلولٌ   تَنْصُرُ البَغْيَ بالْحُسام المجرَّدْ
شَدَّ طُغيانَها عتىٌّ منَ الغرْ   بِ ، على النيلِ كم طغى وَتمرَّدْ !
ملَّكتهُ — والملكُ لله ! — دُنْيا   ظِلها عاجلُ الفناء مُبـدَّد
نَمضى فى مسابح الشَّرْق كالأقـــدار يُشْقى كما يَشاء ويُسْعدْ !
كم عَدا فاتِكاً ! وأحكمَ أغلا   لاً عليها الرِّقابُ فى الشَّرْق تَشْهدْ !
فى « فِلَسْطين » ظُلمُهُ أقلق الدُّنـــياَ وما هَزَّهُ الصُّراخُ المرَدَّدْ
وعَلَى « مصرَ » كم أذلَّ ! وأزْدَى !   وتَمَطَّى على النُّجوم وَهَدَّدْ !
عَبقرىٌّ فى الختْلِ يُدْمي ويَرْتَـــد على الجرْح باكياً يتوجَّدْ
كم سَقَى النيلَ مِن ضراوَتِه الهوْ   نَ وعيشاً من الذلَّةِ أنـكدْ !
وتمادَى ... فكُنْتَ يا « مُصْطفى » الهوْ   لَ على هوْلهِ تَثورُ وَترعدْ
فى غباءِ السِّنين ، والنيل مُغفٍ   وبَنُوه من سكرَة الضَّيم هُجَّدْ
قُمت كالعاصف المجلْجِل تَجتا   حُ فلا تنْثنَى ولا تتردَّدْ
تُلْبِسُ القيْدَ مِن جنانك قَيْداً   حَزُّهُ فى الحديدِ نَقشٌ مُخَلَّدْ
هَتفاتٌ بِحُبٍّ (مصر) وَموتٌ   فى هَواهَا ! ونَشوَةٌ ! وَتعبُّدْ

* من ديوان (هكذا أغنى) الذى يظهر هذا الأسبوع

يريد الأديب الفاضل السيد كامل الشرقاوى أن يؤلف المنشئ « كتباً مطولة عن الرمزية تكشف عن مناهجها وما يحيط بها لا توطئات مركزة دسمة إن هى أفادت فئة من الأدباء المطلعين على الثقافات الأجنبية اطلاعاً واسعاً فهى لا تكفى مطلقاً ذوى الثقافات المتوسطة من الأدباء ، بله عامة القراء »

إن الأديب الفاضل يومئ ههنا إلى « التوطئة » التى صنعتها بياناً للمسرحية ، وقوله فيها حق ! فانى أردت أن تكون التوطئة كما يصفها الأديب الفاضل ، وإنى لفرح بالنجاح إذ كنت أعلل النفس بأن أؤلف توطئة طريفة تدخل فى جانب الأدب « المركز الدسم » لا توطئة مقصورة على عرض المذهب الرمزى « من الخارج » كما تقول الفلاسفة ، بأن أسود تاريخها وألم تفاريقها فى أسلوب موضوعى يصيح : « إن هذه التوطئة ملفوظة من الكتب فما هى بثمرة تأمل وروية واجتهاد »

إنما المأمول فى المنشئ أن يدفع للقارئ غذاء روحانياً لا مواد كتب ، وكلما « دسم » الغذاء و« تركز » جعل المنشئ القارئ يشاطره فنه . وتلك غاية الانشاء العالى الناهض على الروية والتأثر الدفين

فأبعد — إذن — بأدب الاطلاع وأدب التسلية !

(الاسكندرية) بشر فارس

رجع — وأما الجدل الذى أثاره الأديب الفاضل حول طريقة جبران خليل جبران فليقف عند تمسك كل منا برأيه

وَصلاةٌ بمجدها.. كُنتَ فيها الـعابدَ الصبَّ، والشواطئُ معبدْ
وَذيادٌ عن حُرمةِ الوطن الشا كى بعزم «كنيلِه» ليس ينفدْ
وَدِفاعٌ عن الحِمى كُنتَ فيهِ ما لِغير الحمى تروم وتقصدْ
فارسٌ فى قتامَةِ النيل تمضى بشهابٍ من السَّماء مُؤيَّدْ
مشعلٌ فى يدَيْكَ شرَّدَ بالأضـواءِ جُنحاً على الشَّواطِيءِ أربَدْ
كُنتَ تَسرى به فتُنهضُ فانيـنَ عليهم شيخوخةُ اليأس تقعدْ
بضياء من الهدى أنعشَ الشَّرْ
قَ وطَرفُ الزَّمانِ فى «مصر» أرمدْ
وَبيانٍ كأنه لهبُ «البرْ كانِ» تختارُ جمرَه وتنضِّدْ
كلُّ لفظٍ من الصراحةِ سهمٌ فى حَشا الغاصبين ماضٍ مُسدَّدْ
هاتِ لى مِن صداهُ نبراً لعلِّى أنفثُ النَّارَ من صداى المغرِّدْ
هاتِهِ فالجحود وَاراه فى سجـن على شاطيءِ الليالى مُشرَّدْ
فى زوايا النِّسيان قبرٌ... وذكرٌ...
ورَخامٌ فى الصَّمْت لهفانُ مُكمَدْ
كاد ينضو الأستارَ عنه وينعى
أنا رَمزُ الفخار يا «نيلُ» فاشهَدْ!
أنا علَّمتُكَ الوُثوبَ على القَيْـد! وعلمتنى الأسى والتنهُّدْ!
ما الذى فى الضِّفاف نسَّاكَ رُوحاً
ذاقَ من أجلكَ الرَّدَى واستُشهدْ؟
أشيوخٌ على الكراسىِّ هاجُوا وَهيَ من بَغيِهم تميدُ وَترْعَدُ؟!
أم شبابٌ على ترابكَ يمشى حول ساقيهِ كالأسير المصفَّدْ؟
خانعٌ فى حِماكَ... ينتظرُ البَعْـث ليمضى إلى الامام وَينهدْ
علَّموهُ.. الأرزاقُ فى «مصر» رَهْنٌ برجاء! وذِلةٍ! وتودُّدْ!
كيف يُلقى بعزمه تحت نعليـه وفى الذلِّ يستنيمُ ويرقُدْ!!
ما الذى فى الضفاف نسَّاكَ يا «نيل» هوى ذلِكَ الشعاع المقيَّدْ؟
فَمنحتَ التمثال شبراً، عليه تائهُ الدود فى البِلَى يتمرَّدْ!
وَحرَمتَ الجهادَ فجراً من النو ر، يُهدِّي إلى عُلاكَ ويُرشِدْ؟!

محمود حسن اسماعيل

صوفية الفن

للأستاذ زكى المحاسنى

ما لعينيك تسموان إلى الجـو كطير لم يلق فى الجو حدّا
وتبيت الدجى كأنك شبْح خافق فى ظلامه ليس يهدا
شدّةَ الناس من لقاك فظنـوك سليباً فى جاحم تتردى
ورآك الحبيب تدلف سهـوان فبكّى وراح يلطم خدا
أنظرُ الغيبَ فى مداه فلا تمسـك عينى عن وجه الحلو ردا
أسمعُ اللحن خلفه فأرانى
هالكاً من صداىَ أبصرت ورِدا
وإذا تغنى الظلام ترنّحْـ تُ على عِطفه وقد نمت سُهدا
إن يقولوا إنى جننت يصيبوا فأنا قد فقدت بالعقل رشدا
والجميل الذى تحسر لو كا ن حبيباً لصار لى اليوم ندا
أنا روح خرجتُ منى إلى الأفـقِ البعيدِ البعيد قد عفت قِدا
طفت فوق الربى على الزهر أحنو وتخذت الغمائم البيض مهدا
وهفا بى إلى الجمال خيال فتراءى فماً وعيناً ونهـدا
والصباح الندىُّ عطر أنفا سى وكانت لى العشيات أندى

***

أيها الفن ما تقربت من عا ليك إلا وازددت بالقرب بعدا
أنا أهـواك فى السماء وفى الأر
ض وأسعى إليك ما اسطعت جهدا

زكى المحاسنى



مجلس اسلامى أعلى بمصر

يهتم العالم الاسلامي فى سورية والعراق وإيران والهند بالكتب التى أرسلها صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر إلى رجال الدين فى الأقطار الاسلامية يواضعهم الرأى فيها على إنشاء مجلس إسلامى أعلى بمصر لينظر فى إزالة ما أحدثته العصبيات والأهواء والبدع من الفروق بين أبناء الملة الواحدة ليعود المسلمون إخواناً فى الهوى والرأى والعقيدة . وقد علمنا أن أهم أغراض المشروع هى :

(١) تقوية روابط الأخاء بين المسلمين فى جميع أنحاء العالم

(٢) إيجاد التعاون بين الهيئات التعليمية فى البلدان الاسلامية على نشر الثقافة على وجه العموم والثقافة الاسلامية على وجه الخصوص

(٣) تبسيط الكتب الدينية ليتسنى لعامة المسلمين فهم دينهم على الوجه الصحيح

(٤) تقريب وجهات النظر بين الطوائف الاسلامية حتى يشعروا بالأخوة الاسلامية التى تساعد على التناصر والتضافر والوحدة

والمفهوم أن سيتألف هذا المجلس من علماء المسلمين فى جميع الأقطار الاسلامية على اختلاف مذاهبهم ثم ينعقد بالقاهرة فى وقت معين من السنة فتعرض عليه المسائل والمشاكل والمقترحات فيضع فيها الرأى الموفق

بين مصر والمغرب

قدم القاهرة منذ أسابيع الأستاذ محمد المكى الناصرى مدير معهد الأبحاث المغربية فى تطوان حاملاً من سمو مولاى الحسن خليفة المنطقة المغربية المشمولة بالحماية الاسبانية إلى رجال الحكومة المصرية وإلى قادة الفكر بمصر — هذا الكتاب الذى يحدد الغرض من مقدمه ، ونصه :

من سمو خليفة جلالة سلطان المملكة المغربية أعزه الله وأيد أمره « الحسن بن المهدى بن اسماعيل بن محمد » :

يعلم من هذا الكتاب الرفيع قدراً ومقاماً أننا أرسلنا حامله خديمنا الأرضى مدير معهدنا الخليفى بالعاصمة التطوانية الأستاذ الدراكة الألمعى الفقيه السيد محمد المكى الناصرى مبعوثاً خاصاً من سمونا المعظم إلى مصر القاهرة رغبة منا فى أن يقوم هنالك بتأسيس مثوى خاص لبعثاتنا العلمية التى عزمنا على إرسالها إلى القطر المصرى الشقيق ، وأن يضع الحجر الأساسى لمكتب ثقافى صرف ملحق بمعهدنا الخليفى نفسه لترتكز فيه العلاقات الثقافية التى تربط بين المغرب الجديد ومصر الحرة الناهضة ، الحاملة للواء الزعامة فى العالم العربى ؛ وبالاجمال أرسلناه ليتخذ كل الوسائط المناسبة التى تجعل نخبة مواطنينا المغاربة على اتصال تام بالنهضة العلمية الكبرى التى أمد الله بها وادى النيل المحبوب ، وليفسح المجال لمعهدنا الخليفى حتى يبلغ فى ميدان المعرفة أقصى ما يمكنه من كمال . فالرجاء من رجال الحكومة المصرية الموقرة ، ومن قادة الفكر المصرى العباقرة، أن يساعدوا مبعوثنا الخاص حامل هذا الكتاب السامى على مهمته الثقافية المجردة ، وأن يتفضلوا فيقابلوه بما هو أهله من العطف والتأييد والتقدير . أبقاهم الله تعالى لخير العروبة ومجد الاسلام، وحفظهم الله ذخراً للكنانة حتى يحرسوها على الدوام ، والسلام

تطوان فى ٢٨ محرم عام ١٣٥٧

وقد قدم الأستاذ المكى هذا الخطاب الملكى إلى صاحب المعالى الدكتور هيكل باشا وزير المعارف فصرح له بما يأتى :

« إن مصاير الأمم التى تتكلم اللغة العربية متحدة تمام الاتحاد من الوجهة الروحية ، ولذا فانا نغتبط كل الاغتباط بربط العلاقات

الثقافية مع جميع البلاد الشقيقة، وليس هذا الاتجاه اتجاه حزب من الأحزاب، بل هو اتجاه جميع الحكومات المتعاقبة فى مصر فهو اتجاه ثابت دائم. ونحن مستعدون كل الاستعداد لمساعدة المغرب الأقصى فى جميع ما يطلب من الناحية الثقافية سواء بارسال المدرسين المصريين إلى مراكش أو بقبول البعثات المغربية فى مصر. وإني لأغتبط بالموافقة على مطالبكم التى قدمتموها للوزارة، وكونوا مطمئنين إلى أن مصر ستقوم بأكثر مما تنتظرون منها»

وقد تم الاتفاق بينه وبين وزارة المعارف على إيفاد بعثة مغربية إلى مصر لا يقل عدد طلابها عن العشرين للدخول فى المدارس والمعاهد المصرية، وإيفاد بعثة من الأساتذة المصريين تنتدبهم الوزارة للتدريس فى المدارس المغربية. وسينفذ هذان المشروعان اعتباراً من بدء السنة الدراسية الجديدة

معهد للثقافة الإسلامية فى اليابان

تقدمت الثقافة الاسلامية فى حكومة اليابان خطوة أخرى فتألف فيها معهد رسمى للثقافة الإسلامية. والغرض منه تعريف البلاد الإسلامية والشرقية أحوال تلك البلاد وعاداتها وطبائع سكانها وتنمية الروابط الثقافية والأدبيــة بين اليابان والبلاد الإسلامية كافة

وقد تلقينا العدد الأول من مجلة يصدرها هذا المعهد باللغة العربية جاء فى مقدمته عن أغراض المعهد والمجلة ودعوتهما للبلاد الإسلامية ما يأتى:

«إن الأمم الإسلامية التى اكتسبت فضائلها النفسية من محاسن الدين الاسلامى الحنيف لابد لها أن تطرب لهذا الصوت الذى يناديها من أقاصى الشرق طالباً منها المعونة والتأييد لتحقيق غرض مشترك سام يجلب الخير والبركات لا على اليابان والشعوب الاسلامية فحسب، بل على العالم الانسانى بأسره

إن أملنا بشعور هــذا العالم السامى الحى وطيد بأنه سيتقدم نحونا بنفس الشوق الذى نتقدم نحن به إليه للعمل جنباً لجنب فى إنشاء عالم جديد يسوده السلام ويغمره الخير فى آسيا يعيش الجميع فى ظلاله بصفاء ووئام ويتمتع الكل بالراحة والنعيم المنشود والرخاء

إن هــذه المجلة ستعنى عناية خاصة فى أن تجعل نفسها همزة الوصل بين اليابان والاسلام وشعوبه ليعرف كل منهم الروابط الثقافية والودية ليتم التفاهم على أساس صحيح. وفى ذلك الخير للجميع والله ولى التوفيق»

التعاون العلمى بين مصر والأقطار الشرقية

تألفت فى دمشق هيئة أطلق عليهــا اسم «المكتب العربى القومى»، ومن أغراضه توطيد صلات العلم والثقافة بين البلاد العربية المختلفة

وقد طلب هذا المكتب إلى وزارة المعارف إمداده بما يصدر عن الجهات الرسمية العلمية والثقافية من مؤلفات وكتب وقوانين إلى غير ذلك لضمها إلى مكتبه

وقد كتبت وزارة المعارف إلى وزارة المالية تطلب إليها رأيها فى هذا الطلب، ذاكرة فى هذا الصدد أن ما يطلبه المكتب المشار إليه لا يكلف الحكومة شيئاً يذكر

رحلة علمية لدرس طرق القوافل

من أنباء لندن أنه وصل إلى ميناء سوثمبتون المستر سمبتش والمستر مور من الأمريكيان ثم سافرا إلى الاسكندرية بالطائرة «كابيلا». وسيقومان برحلة تستغرق ثلاثة أشهر من النيــل إلى دجلة والفرات يتفقدان فى خلالهــا طرق القوافل القديمة ويقارنان بينها وبين طرق النقل الحديثة التى تستعمل اليوم

سفر بعثة علمية ألمانية من كوبنهاجن الى جريتلند

من أخبار برلين أن بعثة علمية ألمانية سافرت أخيراً على الباخرة «جرترودراسك» من كوبنهاجن إلى جرينلند للقيام بمباحث جغرافية وجيولوجية ونباتية وحيوانية وقد وردت منها البرقية الآتية: «لا يوجــد الآن جليد على سواحل جرينلند الشمالية. وقد نزلنا إلى البر بكل راحة والطوالع حسنة للقيام بأعمال مثمرة والجميع فى خير حال»

الاستكشافات القطبية

تلقت وزارة الخارجية دعوة موجهة للحكومة المصرية، للاشتراك فى مؤتمر دولى خاص بالاستكشافات القطبية سيعقد

فى مدينة برجن عاصمة النرويج فى ١٥ مايو إلى ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٤٠ .

وقد أحالت وزارة الخارجية تلك الدعوة إلى الوزارات المختصة للوقوف على رأيها فى هذا الشأن ، وستعرض أيضاً على لجنة المؤتمرات والمعارض فى اجتماعها القادم

العالم العربى كما تصوره جريدة انجليزية

نشرت جريدة إيكونومست مقالا رئيسياً بحثت فيه أحوال العالم العربى وأشارت إلى الاقتراح القائل بوجوب عزل فلسطين عن جوارها بسياج من الأسلاك . لكنها أوضحت أن فلسطين غير قابلة للعزل على الاطلاق ، لأنها محاطة من كل جانب بالعالم العربى ، وما من حاجز مادى يستطيع أن يمنع مليون عربى مقيمين فيها من الشعور والتفكير والعمل بالاتفاق مع أربعين إلى خمسين مليون عربى يعيشون فى مناطق واسعة من الأرض الداخلية

ثم قالت إن اللغة العربية هى اللغة الوحيدة فى ذلك الفضاء الواسع ، بل هي أم اللغات الشائعة بين الأهالى الحاليين فى آسيا الجنوبية الغربية وأفريقيا الشمالية ما خلا بضع جزائر غريبة اللسان باق بعضها من الأزمنة السابقة لعهد العرب

فما هي الآمال القائمة اليوم فى بعض الصدور ؟ هل النزلاء الأوربيون الذين حلوا أخيراً فى مملكة العرب القديمة سيزيدون عدداً حتى يملأوا الأرض التى كانت إلى الآن عربية ؟ وهل يدفعون سكانها العرب أنفسهم على تخلية المدن والقرى والرجوع القهقري إلى الصحراء الجرداء القاحلة ؟

لا شك أن فى الدنيا بعض الصهيونيين يحلمون فى أن يجعلوا اللسان العبرانى لسان الشرق من حيفا إلى تل أبيب على الطرف الغربى من الصحراء السورية ، كما يوجد أيضاً بعض الفرنسيين الذين يحلمون مثل هذا الحلم ويرجون نقل لغتهم الفرنسوية من وهران والجزائر إلى الطرف الشمالى من الصحراء الأفريقية وتحويل من هنالك من البرابرة الذين لم يصيروا عرباً حتى الآن إلى فرنسيين

فهل هذه الأحلام الأوربية بالتوسع العظيم على نفقة العرب تخيلات وهمية أم سياسة عملية ؟

إن الرد على هذا السؤال يتوقف على كيفية تأثر العرب بهذا الاندفاع الأوروبى . ان اشتراك اللغة وحدها لا يترتب عليه اشتراك فى الشعور الاجتماعى ولا اشتراك فى الغايات ولا فى الأمانى . وقد كان العرب حتى الآن متباعدين . ويستدل على عدم تضامنهم باختلاف الألوان الكثيرة على خريطتهم الجغرافية

فان فى العالم العربى اليوم أربع دول : السعودية واليمن والعراق ومصر ، مستقلة استقلالاً تاماً ، وثلاثاً على مقربة من الاستقلال وهى سوريا ولبنان وشرق الأردن ، واثنتين ممنوعتين من الاستقلال مكرهتين على قبول نظام الحماية الفرنسوية وهما : تونس والمغرب الأقصى ، وثلاثاً محكومات فعلا بصفة مستعمرات مع أنهن فى الواقع ذوات أحكام مختلفة . ففلسطين تحت الانتداب البريطانى ، والسودان تحت السلطتين الانجليزية والمصرية ، ولوبيا تحت السلطة الايطالية . وأخيراً الجزائر فان فيها ثلاث مقاطعات معدودة فرنسية كأراضى فرنسا الأصلية .

« وهكذا نرى العالم العربى فى حالته الحاضرة لا يختلف عن أيام الصليبيين . بل إن الخريطة الحاضرة تشبه خريطة تلك الأيام إلى درجة مدهشة

ففى تلك الأيام كانت فلسطين وتونس كما هما اليوم النقطتين العربيتين اللتين رسخت فيهما قدم الغزاة الأوربيين ، وكانتا كما هما اليوم نقطتى الخطر الميت . ومنهما انبعث قبلا كما ينبعث اليوم النداء العام إلى تعاون العرب الذي كان محسوبا مستحيلا وقتئذ كما هو محسوب الآن .

ان النورمان أخرجوا من تونس بقوة منقذين أقبلوا لنجدتها عليهم من المغرب الأقصى . وصلاح الدين الأيوبى استطاع وقف الحملة الصليبية الثالثة بقوات متحدة تحت سيطرته من سوريا والعراق ومصر .

فهل ترى التاريخ يعيد نفسه ؟ — إن الأدلة التى تشير إلى ذلك عديدة .

الاجتماعية ، ولقد ظل الأستاذ سير دينسون روس أستاذ اللغة العربية بجامعة منشستر محرر هذه المجلة منذ نشأتها حتى العام الماضي ، ثم تولاها من بعده الأستاذ تيرنر وهو من أفذاذ المستشرقين الانجليز

نداءات الباعة في القاهرة

في العدد الأخير من مجلة مدرسة اللغات الشرقية بجامعة لندن بحث قيم طريف عن نداءات الباعة في شوارع القاهرة تحت عنوان A Selection of Cairo's Streets Ories وهو ما يسمعه الجالس على المقاهي أو الجائل خلال شوارع القاهرة ودروبها وأزقتها من مختلف النداءات التي يحاول الباعة أن يجتذبوا الجمهور بها إلى بضائعهم ، والتي يبذلون غاية جهدهم في تنميقها حتى تكون مشوّقة ، وهذا البحث جديد في بابه لم يلتفت إليه أو يُعْنَ به أحد قبل كاتبه مستر Heyworth Dunne ، فهذا المقال الطريف بما حوى من مختلف النداءات التي تقرب من مائتي نداء تصور جانباً من الحياة النفسية في القاهرة للباعة المتجوّلين ، ويطلّ القارىء منها على أساليب العيش في مصر ، إذ أنها تمثل صميم الحياة الاجتماعية ، ويذكرنا هذا البحث بكتيب صغير الحجم ألفه أحد الأمريكيين منذ أمد غير بعيد وقدمه رسالة لجامعة كاليفورنيا بأمريكا تناول فيه الأمثال الدارجة عند أهل الشام وترجمها إلى الانجليزية وعلق عليها ، فمنحته الجامعة لقب دكتور في الآداب

وعلى ذكر مجلة اللغات الشرقية نقول إن هذه المجلة إحدى نشرات جماعة المستشرقين القيمة التي تعنى بالدراسات الشرقية على وجه العموم ، فتلتقي على صفحاتها أقلام أعلامهم ، متناولة شتى جوانب الحياة الشرقية والتفكير الشرقي ممثلين في آدابه ودياناته وحركاته



التجربر في الشعر

ارجوحة القمر

للشاعر اللبناني صلاح لبكي

للأستاذ فليكس فارس

لا أحب هؤلاء المدعين التجديد في الانشاء المرسل والشعر المرسل الذين يحسبون أنهم يجيئون بالعجب العجاب إذا هم قلبوا أوضاع اللغة وتصرفوا بلهجاتها وروعة اتساقها، فكأن تفكيرهم وشعورهم لا يقويان على الظهور إلا إذا خلقوا لنا لغة جديدة تقوى على اقتناص شوارد الخيال وجامحات التفكير فيهم؛ وكأن البيان العربي الذي اتسع لأقدس وحي وأروع إلهام، قد فقد روحه وانحطم جناحاه في هذه الأيام

لا ريب في أن لشاعر الحضارة ما لم يكن لشاعر البداوة من الانطباعات الذهنية والتأثر؛ ومن وقف عند القديم في مجال التصور والانفعال كان مقلداً يجره البيان إلى المنى إذ لا يملك تحكيم معناه ببيانه

نحن اليوم في مرحلة يتنازع فيها إلهام الشاعر قوتان: قوة تفكيره وشعوره في بيئة تختلف عن البيئة التي ألهمت الشعراء الأقدمين، وقوة الأسلوب العربي الذي لا يسلس قياده إلا لمن اهتدى إلى مواضع المرونة في قوته

إن من الشعراء الذين وفقوا إلى حد بعيد في إلهامهم وبيانهم الأستاذ صلاح لبكي وهو ابن المرحوم نعوم لبكي صاحب جريدة المناظر (جدة صحف المهجر) الذي قضى حياته محلقاً في أجواء السياسة والأدب فما جاراه إلا العدد القليل في أوائل النهضة بلاغة وجراءة وإخلاصاً. وقد طوى جناحيه في أواخر أيامه على صخرة جرداء كانت كرسياً لأول رئيس للمجلس النيابي في لبنان

والأستاذ صلاح محام لامع قدير لم ينضب القانون معين شاعريته، فالشاعرية الأصيلة كدوحة السنديان تنشب أصولها في كل تربة وتتغذى حتى من الصخور

وقد نشر مؤخراً في ديوان صغير بعض مقطوعات تعد بحق من نماذج التطور الذي لم يضل سبيله في الشعر العربي فاسمعه يقول في مقدمته:

ورب شعر نام عنه القضا   مر بجيل بعد أجيال
يحمل مني زفرة مرة   مرثاة أحلامي وآمالي
ردده عني فتى لم تدع   منه الرزايا غير أسمال
مستأنساً بي جاهلا من أنا   إني أخو الباكين أمثالي

وإذا ما وصلت إلى مقطوعة العاصفة فاقرأها كلها فهي ستة أبيات تقرأ فيها قصيدة طويلة

إسمعي الإعصار يدوي في الجبال   إسمعي للغاب أنات طوال
إسمعي كم طائر تحت الظلام   تائه بلله القطر السجام
يتوخى مأمنا حتى الصباح   من ترى ينجيه من كف الرياح
إفتحي الكوة في وجه السما   وانظريها لبست ثوب الشقاء
وتوارت رهبة خلف الغيوم   بعد أن أطفأت الريح النجوم
أغلقي الكوة في وجه الرياح
للصباح
خبئي رأسك في صدري ونامي
يا غرامي

وعند ما تستوقفك قصيدة تشويق بمقدمتها الصوفية فاتل منها بصوت مرتفع هذه الأبيات لتشرك أذنك بما يتمتع به تفكيرك وشعورك من روعتها وسلاستها

رب يوم تمشين فيه إلى مغـــرب عمر الحياة دون رجاء
يلفح الريح في طريقك والقر   ويرسو عليك هم الشتاء
وتصيرين والضحى كبقايا   علم رث تحت ستر الخفاء
نسجوه لكل مجد فلم يخـ   ـفق بجو ولم يصن بدماء
وتبيتين دون ذكرى غرام   كان دفء الصبا عجوز شقاء
فتعالى إني فرشت لك الحب   وعطرت بالحنان هوائي
نتساقى الهوى ونذخر للتذ   كار نوراً لساعة الإمساء
حينما لا نعود نسكر بالحب   ويمسي التذكار كل العزاء

فليكس فارس

الحروب الصليبية (*)

فى نهاية العصور الوسطى

تاليف الدكتور عزيز سوربال

الدكتور عزيز سوريال عطية أحد القلائل — بين المؤرخين العالميين — الذين كرسوا جهودهم لدراسة الحروب الصليبية فى عهدها الأخير ، ولإيضاح الصراع الهائل الذى كان بين الشرق والغرب إبان العصور الوسطى ، والذى كانت تذكي حماسته عوامل مختلفة بعضها مادي وبعضها روحى . ولقد أصدر منذ بضعة أعوام كتابه عن « حرب نيقوبوليس الصليبية » فاقى من تحبيذ الهيئات العلمية والجامعات الأوربية ما دفع مؤلفه للسير في هذا السبيل الشائك برغم ما يعترض سبيل الباحث من عقبات كأداء تكاد تصرفه عن متابعة البحث فى تلك الناحية

واليوم يفاجئ المؤلف المصرى باحثي التاريخ بكتاب آخر يضعه فى مصاف أقطاب مؤرخى هذه الناحية الصعبة الولوج ، إذ أصدر فى الشهر الغابر كتابه الثانى الضخم « الحروب الصليبية فى نهاية العصور الوسطى » فى قرابة ٦٢٠ صفحة من القطع الكبير ، أصدرته مطبعة ماتيون فى انجلترا فى طبعة أنيقة ، ولقد شمل الكتاب من اللوحات الفنية الملونة وغير الملونة عدداً لا يستهان به ، وقد نقلت هاتيك اللوحات من المخطوطات الأصلية الموجودة فى المتحف البريطانى ومكتبة الفاتيكان بروما وليدن وغيرها من مكاتب أوربا ، ولا مشاحة في أن هذه اللوحات تعين القارئ على تفهم كثير مما يلقاه فى ثنايا هذا السفر الضخم ، كما أضاف المؤلف لكتابه خرائط عدة منقولة عن مخطوطات الرحالة التركى بيرى رئيس، الموجودة فى مكاتب برلين ودرسدن ، ولاشك فى أن الدكتور عطية قدذلل للقاريء السبيل بما قدمه له من خرائط رسمها بنفسه حتى يتفهم المرء من غير عسر مضمون أبحاث هذا الكتاب

وينقسم الكتاب إلى أربعة أقسام كبيرة ، استعرض المؤلف فى أولها تاريخ الشرق والغرب من حيث الحروب الصليبية وعلاقتها بالتاريخ العام فى تلك الفترة ، وشمل ثانيها تحليلاً للأصول الأوربية فى الدعاية لهذه الحروب ومشروعاتها المختلفة ، وألمّ المؤلف فى ثالثها بموقف الشرق بما فى ذلك أمم التتر والطوائف المسيحية الشرقية إزاء الحروب الصليبية ؛ أما الأخير فيفصل تاريخ الحملات الصليبية نفسها واحدة فواحدة . كل هذه المباحث فى عشرين فصلاً ، أضاف إليها الدكتور ع . س . عطية خمسة ملاحق منها ما هو منقول عن مخطوطات لاتينية لم تنشر بعد ، ورأت النور لأول مرة على صفحات الكتاب ، ومنها ماهو تحليل لما اكتشفه المؤلف من رسائل سلاطين المماليك فى ذلك العهد النائى لملوك أرغونة، وينتهى الكتاب بفهرس للمراجع الخطية والمطبوعة من عربية وتركية ولاتينية وفرنسية وانجليزية وإيطالية وألمانية . الخ

ولقد جاء فى تقدمة الناشرين : « إن مؤلف هذا الكتاب الهام — الذى برهن على مقدرته في تناول البحث بمجلده السابق عن حرب نيقوبوليس — يستعرض اليوم فى كتابه الحاضر ذلك التاريخ الذى تعتبر نيقوبوليس آخر فصل فيه ، ونحن نعتقد أن المشاق التى تجشمها فى هذا الصدد قد أسفرت عن عمل ذى قيمة علمية عظمى ، ولقد واصل المؤلف سلسلة دراساته لهذه الغاية فى المخطوطات » العربية بقارتى أوربة وأفريقية ، وهو إلى جانب إجادته لأحدث طرق البحث العلمى فى أوربة ، فانه يتكلم الانجليزية كلغته الأصلية ، ومن ثم كانت نتيجة بحوثه سفراً علمياً دقيقاً ، وهو بالاضافة إلى كل هذا صورة حية للكفاح بين الشرق والغرب فى القرن الرابع عشر ، وتصوير لحال العالمين الإسلامى والمسيحى فى ذلك العهد السحيق . ومن ثم لم تكن ثمت مندوحة عن هذا الكتاب للمؤرخ والسياسى ولكل مشتغل بدرس الشؤون العالمية وتفهم أصول الصراع الحاضر فى شرق البحر الأبيض المتوسط » هذه هى كلمة الناشرين ، أما نظرية المؤلف فتتلخص فى أن الحروب الصليبية لم تنته بسقوط عكا — وهى آخر حصن للصليبيين — فى يد المسلمين عام ١٢٩١ ، وإنما بقيت هذه الحركة قوية حتى سنة ١٣٩٦ ، يدل على ذلك الاهتمام الشامل فى أوربا بأمر غزوة بيت المقدس والحروب التى قامت بها الدول ضد المسلمين فى مصر وشمال إفريقية وسورية وتركيا ، فكأن المؤلف بذلك ينفى الفكرة التى شاعت بين المؤرخين فى هذه الناحية حتى وقتنا هذا ، وهو بذلك يضع أساساً جديداً لاستعراض تلك الدراسة. ومن رأيه أيضاً أن نتيجة هذه الحركة قيام الامبراطورية المصرية بالقضاء على ملك المسيحيين بالبحر الأبيض المتوسط وتوغل الأتراك فى أوربا نفسها

والمؤلف المصرى جدير بما أحلته إياه جامعات أوربة وتسابقها فى الاحتفاء به، وهو يعد كل شىء فخراً لمصر فى عالم البحث والتحليل

* Or Aziz S. Atiya : The Crusade in the Later Middle Ages (Methuen) 30

عصفور من الشرق

تأليف الأستاذ توفيق الحكيم

للأستاذ على الطنطاوى

الأستاذ توفيق الحكيم أكبر أدبائنا القصصيين . لا يكاد ينازع فى ذلك أحد ، ومن أكثر الأدباء إنتاجاً وأخصبهم قريحة . عالج أنواعاً من القصة فوفق فيها وأتى بالمعجب المطرب، ومن ذلك قصته الأخيرة « عصفور من الشرق » التى فرغت من قراءتها الآن ، فأحسست كأنى كنت في جنة سحرية ، ثم هبطت إلى الأرض ، وتمنيت لو طال نفس الأستاذ فيها حتى ما تنتهى .

وأكبر ما أعجبنى فيها هذه النظرة إلى الغرب وماديته ، وهذه القولة الجريئة فى بيان حقيقة الغرب وتخلفه فى ميدان الروح ، على سبقه فى مجال المادة، تلك التى لو قالها غير الأستاذ توفيق الحكيم لاتهمه هؤلاء المفتونون بالغرب من شبابنا بالجمود والرجعية وما إلى ذلك من الألفاظ التى حفظوها حفظ الببغاوات ، وما فتئوا يرددونها ترديد الحاكى ، فلما قالها الأستاذ الحكيم وهو الذى يعترفون بأدبه ، ويقرون بسمو منزلته ، ويتمثلون بأقواله ، سكتوا ولكن على مضض . وهذه ميزة كبيرة للقصة ترتفع فيها إلى صف القصص العالمية التى لم تنشأ لمجرد اللهو ، ولا لامتاع القارئ بالجمال الفنى ، وإنما جمعت إلى الجمال الفنى نظرة تحليلية إصلاحية عميقة ؛ غير أنى أخذت على القصة أشياء ، منها ما يتصل بالفن ، ومنها ما يمس الدين ، ومنها ما يعود إلى اللغة . أسأل عنها الأستاذ الكبير ، ليوضح منها ما خفى ، ويفتح ما استغلق

أولها : إن القصة تكاد تكون مؤلفة من حلقات ثلاث لا صلة بينها إلا صلة محسن الذى يمر فيها جميعاً ، أندره وأمه العجوز وزوجها الهرم ، ودارهم التى وصفها المؤلف وبيّن أنه لا مورد لشيخى الدار إلا ما يأتى من محسن ، وبدا للقارئ أن بين محسن وأهل الدار أكثر مما يكون بين مستأجر وبين أصحاب المنزل . فلما انتقل محسن إلى المنزل ، انقطع الحديث عن والدى أندريه وعن منزلهما ، على حين أن القارئ يتشوف للعودة إلى حديثهما ، وما كان من أمرهما بعد انتقال محسن

والحلقة الثانية : سوزى التى أحبها محسن وشغف بها ثم انتهت العلاقة بينهما على هذا الشكل ، ولم يرجع لها فى القصة ذكر ، مع أن القارئ يحب أن يسمع شيئاً عنها ويعجب من محسن هذا الذي كان مستهاماً عاشقاً ، لا يفكر إلا في هذه التى يحبها ، كيف ينساها أبداً ولا يجرى اسمها على لسانه ولا تمر صورتها فى جنانه ، ولا يبقى لها أثر فى نفسه ؟ ما هكذا عهدنا المحبين يفعلون ، فأى حب هذا ؟

والحلقة الثالثة : إيفان الذى أنطقه المؤلف بأصح الآراء وأتمها فى حضارة الغرب ومذاهبه الفكرية ، وهى حلقة منفردة عن الحلقتين ، ولكنها حلقة مفرغة ، ليس فيها نقص ولا خرم

أما ما يتصل بالدين ، فهو أن الأستاذ ينظر إلى السيدة زينب نظر المسيحيين إلى القديسين والشفعاء ، فيسميها حامية ، وينسب إليها الضر والنفع ، ويطلب منها ويتوسل إليها ؛ وهذا كله مخالف لروح التوحيد الذى جاء به الاسلام ، فليس فى الاسلام حماة ولا وسطاء بين الله وعباده ، ولا ينفع ولا يضر إلا الله ، وإذا كان الله يقول لرسوله الأعظم : (ليس لك من الأمر شيء) وإذا كان النبى يقول لابنته فاطمة : (يا فاطمة بنت محمد ، لا أغنى عنك من الله شيئاً) فماذا تصنع السيدة زينب للأستاذ الحكيم ؟ وكيف تحميه من الله الذى لا يشفع عنده واحد إلا باذنه ، فهل أذن لها الله بحماية الناس ، أم إن من الناس قوماً (شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) ؟

أما ما يعود إلى اللغة ، فشيء يعرفه الناس من لغة الأستاذ ، لا حاجة إلى بيانه

هذا وإنى أهتبل هذه الفرصة لأرفع إلى الأستاذ الكبير تحياتى وإكبارى

على الطنطاوى



6 me Année, No. 260 | Lundi - 27 - 6 - 1938

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر المالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ٢٦٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٨ ربيع الآخر سنة ١٣٥٧ — ٢٧ يونية سنة ١٩٣٨ » السنة السادسة

الفهـــرس

المعرفة سـيادة

للأستاذ عباس محمود العقاد

المسافة بين منشية الاسكندرية ومحطة الرمل قصيرة ، ولكنها على قصرها تريك من أى طريق سلكتها عظم المسافة بين الأمم التى تسود والأمم التى تساد

عشرون أو ثلاثون مكتبة فى هذه الطريق بين فرنسية وانجليزية وإيطالية ويونانية ، وفيها من الكتب الأدبى والقصصى والفلسفى والعلمى وكل ما يبحث فيه الباحثون ويصنف فيه المصنفون

والبلاد عربية ، فأين هى المكتبة العربية بين جميع هذه المكتبات ؟

لا ترى هناك مكتبة واحدة ؛ وإن رأيت بعض الكتب العربية فقد تراها معروضة فى إحدى الوجهات الأفرنجية فرعاً من الفروع الصغيرة ، لا أصلا من الأصول الكبيرة التى تتشعب عليها الفروع

لم هذا ؟

ألِأن الأسكندرية مدينة تجارية كما يقولون فلا شغل فيها للمصريين غير التجارة والسوق ، وغير البضاعة والأسمار ؟

إن كانت التجارة صارفاً عن الثقافة فالأجانب فى الأسكندرية تجار أو عاملون فى التجارة ، ولعلهم هم القابضون على أزمة السوق وهم الظافرون منها بحصة الأسد ، وما من أجنبي فى الاسكندرية إلا وهو طالب مال ومشتغل بحرفة من حرف الاتجار والصناعة .

فلم كثرت الكتب الافرنجية وقلت الكتب العربية فى المدينة ؟؟

أم هى كثرة الصحف والمجلات كما يقولون قد صرفت المصريين عن دراسة الكتب إلى لهو القراءة وتزجية الفراغ ؟

ليس هذا أيضاً بصالح لمعذرة ولا لتفسير ، فإن الصحف والمجلات الأجنبية التى تظهر فى القاهرة والاسكندرية ، أو ترد إليها من لندن وباريس وروما أكبر عدداً وأوسع انتشاراً من صحفنا ومجلاتنا العربية ، وهى مع هذا لا تصرف القراء عن مطالعة الآداب ومتابعة العلوم والأخذ بالنصيب المطلوب من الثقافات والفنون

لا هذا ولا « الأمية » سبب معقول لشيوع الكتب الأفرنجية وندور الكتب العربية فى عاصمة القطر الثانية ، أو فى عاصمة الثقافة الشرقية على عهد من عهود مصر الغابرة ، فان العارفين بالقراءة من المصريين فى الاسكندرية لا يقلون عدداً عن العارفين بالقراءة فيها من النزلاء والغرباء ، وإن كان فرق بينهما فى العدد فليس هو الفرق الذى يكون بين صفر وثلاثين

إنما الفرق الصحيح هو فرق بين أمم تسود وأمم تساد

أو هو فرق بين من يطلبون المعرفة شوقاً واستطلاعاً، ومن يطلبونها تكليفاً واتباعا ، لأن التكليف فرض على المسودين حتى حين يعرفون

بل هو فرق بين النفس التى يبقى فيها جانب يطلب الغذاء بعد أن تشبع المعدة بالخبز والماء ، وبين النفس التى يشبع منها كل جانب حين تمتلىء الأحشاء بالطعام والشراب

وذلك هو الفرق الصحيح لا مراء

* * *

وفي الطريق من مصر إلى الاسكندرية على جانب الصحراء أديرة قديمة نعلم عنها من كتب الأجانب ما لسنا نعلم من الكتب العربية جمعاء

ذهبت إلى الاسكندرية ومعى كتاب ضخم بالانجليزية عن هذه الأديرة يقع فى نيف وخمسمائة صفحة كبيرة بين كتابة ونقوش

لمن كتبه الكاتب ؟

وماذا يعنى القراء مما كتب ؟

كتبه للمعرفة، ويقرأه القراء للمعرفة ؛ وليس من سبب غير المعرفة يساوى الجهد المبذول فيه والثمن المقدور له والوقت الذى انقضى فى تحضيره وتأليفه وضبط نقوشه ورموزه وتواريخه

أما هذا السبب فلعله آخر الاسباب التى تدفع الجمهرة عندنا إلى فتح كتاب ، فضلاً عن تأليف كتاب

* * *

من يطلب المعرفة لفائدة يحصرها فى المأكل والملبس والمسكن وما هو فى حكم الطعام واللباس والبيوت ، فإنما هو مسوق إلى ما يطلب ، وإنما هو عبد فى جهله وعبد فى معرفته على السواء

ومن يطلب المعرفة لأنها المعرفة ، فذلك هو السيد وتلك هى السيادة؛ وحسبه أنه هو يريد أن يعرف ثم تأتى الفائدة فى الطريق ، وليس؛ يراد على معرفة شيء كما يراد على جهله ، لأنه مسوق بسلطان الضرورة القاهرة إلى ما يريد

ولست أعنى بسيادة العارف أن المعرفة سلاح فى يديه يصل به إلى السيادة كما يصل المرء إلى السلطان بالسيف والمال والحيلة

كلا . فلو كان كل ما فى المعرفة من سيادة أنها كالسلاح فى هذا المطلب لكانت أداة تؤدي إلى غيرها ولم تكن غاية تتأدى إليها المقاصد وتنتهى إليها اللبانات

ولكنما عنيت أن طلب المعرفة للمعرفة هو هو السيادة، وهو هو العلامة على أن الانسان «سيد»، يفهم ما يفهمه لأنه طبيعة فيه ووظيفة من وظائف عقله وتكوينه ، لا لأنه مغرى به إغراء الطمع، ولا لأنه مسوق إليه سوق الاجبار والاكراه

لم تعرف النفس ؟

ألا تسأل: لم تنظر العين ؟ ولم تسمع الأذن ؛ ولم يشم الأنف؟ ولم تدرك الحواس ؟

إن العين لا تنظر لسبب غير أنها حاسة فيها قوة النظر ، والأذن لا تسمع لسبب غير أنها حاسة فيها قوة السماع ، وكذلك الأنف وكذلك كل حاسة فى الانسان أو الحيوان

فما بالنا نبتغى سببا للعقل أو للبصيرة حين يدركان ويعرفان ؟

لماذا تنظر العين لغير علة ولا مطمع ولا فائدة، ثم نأبى على العقل أن يدرك ما يدرك إلا للعلل والمطامع والفوائد ، وإلا لهذه العلل

والمطامع والفوائد التي تحصرها في أضيق الحدود وأقرب الحاجات

لأحرى بنا أن نسأل : لماذا يحجم العقل عن المعرفة ، وأن نسأل لماذا تحجم العين عن النظرة ، وأن نسأل لماذا تعجز الحواس عن الادراك

عندئذ نفهم الجواب ولا يطول بنا العناء في فهمه ، فذاك أن الحواس عاجزة مكفوفة ، وأن العين عمياء ، وأن العقل معدوم أو ضعيف

أما أن نسأل لماذا يعنى العقل بالمعرفة فذاك هو اللغو والفضول ، وذاك هو السؤال الذي يشبه سؤالنا : ما بال العين تقع على ما تراه ولا تنحرف عنه ولا تأبى النظر إليه

حسب الشيء أنه يرى ليكون ذلك حقا له في رؤية العيون

وحسب الشيء أنه يعرف ليكون ذلك حقا له في معرفة البصائر والعقول

فان جعلنا للمعرفة ثمنا من الحطام أو ثمنا مما يشبه الحطام فهي إذن معرفة اضطرار أو معرفة عبيد وأتباع ؛ وهي إذن شيء وطبيعة السيادة شيء ، ولو نجح صاحبها في السيطرة على الآخرين كما ينجح الجبان في يده المدفع وخصمه أعزل من السلاح

قال الأستاذ طمسون عن آراء أرسطو في علم الأحياء ما معناه : إن الفضل كل الفضل للفيلسوف الاغريقي العظيم أنه شعر بالحاجة إلى مراقبة الحشرات والأسماك في الحاجات ، وفهم أن تقييد حركاتها وتسجيل ولاداتها ونحوها معرفة تحسن بالحكيم ؛ وليس الفضل أنه أتى بآراء في علم الأحياء يعول عليها الناس في العصر الحديث

ولو أن الفيلسوف الاغريقي لم يشغل عقله في زمانه إلا بما يفيد لتوه وساعته لما وصلنا إلى علم أحياء يفيدنا اليوم ، أو لا يفيد

ليست الآفة عندنا أننا مشغولون بالتجارة عن القراءة ، فالأوربيون أعظم منا اشتغالا بالتجارة واجتناء لخيراتها

وليست الآفة أن الصحف اللاهية تصرفنا عن كتب العلم والأدب والدراسة ، فان الصحف اللاهية سبقتنا في أوربا ويسبقنا بها الأجانب في بلادنا المصرية

ولكنما الآفة أن التجارة تجارتان : تجارة أحرار فهم مسيطرون عليها ، وتجارة اتباع فهي مسيطرة عليهم ، وأننا إذا طلبنا المال أو المعرفة طلبناهما مسوقين ولم نطلبهما طلب السادة الذين يملكون من أنفسهم بقية يشغلونها بما يحبون

عباس محمود العقاد

تأملات في الأدب والحياة

للأستاذ إسماعيل مظهر

أديب طبعة ثانية

عرضت في كلمة سابقة إلى تلك المعركة القائمة على صفحات الرسالة بين الأدباء حول أدب الأستاذ العقاد وأدب الأستاذ الرافعي رحمه الله ؛ وسقت نقدي مساق من لا يبرئ نفسه مما تناول ذلك النقد من رأي واتجاه . فلم أخرج ذاتي من مجال النقد الذي سقت ، معترفاً بأن ذلك رجوع إلى الحق ، واطمئنان إلى اتجاه جديد . ولكن هذا كله لم يرض الأديب سيد قطب فراح يتهكم ويسخر لا ليقول شيئاً جديداً ولا ليحاسب نفسه حساب الرجل القادر على كبح عواطفه ليجعل لعقله بعض القدرة على وزن الموقف بميزان لا يميل مع الهوى ولا ينساق مع الانفعال

غير أن انفعال الأديب سيد قطب فيما كتب لم يكن ليجعل لعقله محلاً من الأثر في صوغ المعاني التي أرادها ، فأخذ يرمي الجمل والكلم ذات اليمين وذات الشمال وعن أمام وعن خلف ، شأن الثائر لا شأن الناقد ؛ ثم خانته ثورته وخذله انفعاله ، فاستيقظ عقله الباطن استيقاظة طفيفة ، فرجع إلى قوله : « أنا » ، كأنما طبيعته لم تقو على احتمال تلك الثورة ولم تستطع مقاومة ذلك الانفعال ، فتبدت في ثوب ذي ألوان – ألقى إليه به قزح وأدبر وانصرف » – كان أبين لون فيه ذلك اللون الذي تتخيله من قوله :

« وإننا من أخلص تلاميذ مدرسة هذا الكاتب (أي الأستاذ العقاد) لطريقته ، وأشد الناس فهماً لها ، واقتناعاً بها ، ونسجاً على منوالها »

إذن فالأديب سيد قطب أشد الناس فهماً لأدب الأستاذ العقاد ، وليس ذلك فقط فهو أيضاً أشد الناس إقتناعاً بطريقته ؛ وليس هذا ولا ذاك فقط ، بل هو فوق هذا وفوق ذاك أقدر الناس على النسج على منوال الأستاذ العقاد . وإذن يكون الأديب سيد قطب ، أديب طبعة ثانية ؛ فهو باعترافه أديب ، غير أنه عبارة عن نسخة من أديب آخر ؛ أديب شخصية صورة من شخصية

أديب آخر ، وأدبه لوحة من أدب شخص آخر ؛ أديب أسلوبه كالطبعة التى يتركها فى الرمل قدم أديب آخر ؛ أديب نفسيته وطبعه وذاتيته كالصورة الوهومة التى تلتقطها المصورة الضوئية وتطبعها على الرق المعروف ، ولكنها صورة وهمية

هذه الصورة الوهمية ، قد أفرغ عليها الأديب سيد قطب صفات وحلاّها بفضائل ، لا أنكر أنه نسبها إلى الأستاذ المقاد ، كما لا أنكر أنه إنما نسبها إلى الأستاذ المقاد ، لتكون نسبتها إليه منصرفة بالتبعية إلى « الطبعة الثانية » من الأستاذ المقاد ؛ وتلك الطبعة هى الأديب سيد قطب

أما هذه الصفات وتلك الفضائل ، فلا أنكر أنها قد نحمت وحليت ، حتى إذا لابست أدب الأستاذ المقاد ، لابست بالتبعية « طبعته الثانية » سيد قطب . يقول الأديب سيد قطب فى مقاله الأخير :

« يُعنى المقاد (والأديب سيد قطب باعتباره طبعة ثانية) إمام المدرسة الحديثة (والأديب سيد قطب باعتباره إمام المدرسة الحديثة طبعة ثانية) بالحياة النابضة فى ضمائر الأشياء قبل الحياة الظاهرة على سطوحها ، ويعني بالحياتين معاً قبل العناية بأشكالها وصورها ، ويلتفت للخوالج النفسية قبل أن يلتفت إلى الصور الذهنية ، ويعنى بهاتين قبل العناية ببهارج الأسلوب وزخارف الطلاوة »

ثم يقول :

« وللمقاد (والأديب سيد قطب باعتباره طبعة ثانية) عناية بتصحيح مقاييس الأحكام على الطبائع والنفوس[١] ، منشؤه أنه صاحب « نفس » خاصة ، وطبع « أصيل »[٢] ، فهو لا يتلقى البادئ والأحكام من الخارج ، ولكن يفيض بها من الداخل ، ويسمع فيها منطق الحياة الخالدة ، ووحى الانسانية الدائمة ، لا منطق الفرد العابر ، ولا الجيل القاصر » — ومن عندنا — تمبيرات الاختلاجات المستقوية على النفسانيات فى كلن سمفص قرشت

(١) أليس هذا الكلام كقولك « أشكوك كوك لكى تنفك عن كلكي » ، وكقول البرابرة « أره بره كنكره ؛ كرا كرى مندره
(٢) سبحان الله من طبعك ؟ وهل يكون الطبع إلا أصيلا ؟

هذا الكلام المنلق بسبعة أبواب كما يقولون ، وأشباهه فى كلام الأديب سيد قطب كثير وكثير جداً وجداً كثير ، هو الذى يحاول أن يجلو به أستاذاً كالمقاد فى مجال الكلام عن مذهبه ، فإذا به يطمس المعانى ويرسل التعميمات التى لا حدود لها لتكون حدوداً لمذهب أدبى . غير أن لهذا الأمر حقيقة خفية ؛ حقيقة تختفى وراء هذه الضربات القاسية المصمّة التى تخرج من هذه الطبلة التى يضرب عليها الأديب سيد قطب . أما هذه الحقيقة فهى أن الأديب قطب لا يتكلم عن الأستاذ المقاد ، وإنما يحاول أن يتكلم عن نفسه متخذاً من الأستاذ المقاد دريئة يحتمى بها .

كيف لا والأديب سيد قطب « من أخلص تلاميذ هذا الكاتب لطريقته ، وأشد الناس فهماً لها ، واقتناعاً بها ، ونسجاً على منوالها » ؟ أما أن الأديب سيد قطب « أشد الناس فهماً لطريقة الأستاذ المقاد واقتناعاً بها ونسجاً على منوالها » فأمر جدلى ، ودعوى من السهل أن يدعيها أى إنسان ؛ والدعوى شيء وإثباتها شيء آخر . وأما أنه يتكلم عن الأستاذ المقاد ليتكلم عن نفسه ؛ وأما أنه لم يمدح الأستاذ المقاد إلا ليمدح نفسه ، وليقول صراحة إنه خليفة المقاد فى طريقته ، وإنه أشد الناس فهماً لها واقتناعاً بها ونسجاً على منوالها ، فدعوى نقولها ونثبتها بكلام ذلك الأديب نفسه .

وحيث أن الأديب سيد قطب أثار النقع متخذاً من خصومة أدبية قديمة بين أديبين ذريعة للكلام فى أشياء بعيدة عن مذهبيهما

وحيث أنه نصر الأستاذ المقاد على الأستاذ الرافعى رحمه الله فى حماسة منقدة دلت على أنه يحاول من ورائها كسباً أدبياً

وحيث أنه قضى بأن الأستاذ المقاد صاحب مذهب ، وأن مناظره لا مذهب له من غير أن يقيم الحجة على ذلك

وحيث أنه اتضح أن السبب فى ذلك إنما يرجع إلى غرض خفى هو أن يدعى لنفسه أنه أشد الناس فهماً لطريقة الأستاذ المقاد واقتناعاً بها ونسجاً على منوالها

وحيث أن المنطق يسلم بأنه لم يقصد من وراء ما كتب كله إلا بلوغ هذه الغاية الشخصية ، وهو أن يكون خليفة الأستاذ المقاد ، محاولاً أن يستل مجد أديب خدم الأدب ربع قرن ليدعيه لنفسه بيضع مقالات

لهذا كله يكون الأديب سيد قطب « طبعة ثانية » ولكنها طبعة مزورة من الأستاذ العقاد

هذا الاستقراء صحيح تحت مسؤوليتي ، ولا أتكلم في هذا الموضوع مرة ثانية . فإن الحقائق التي نمت عنها كلمات الأديب تجعل كل نقاش في الموضوع فاقد القيمة ، ما دام أن « أنا » هي المحور الذي تدور من حوله تلك البحوث

عن فولتير

(١) من أنت ؟ ومن أين أتيت ؟ وما هو عملك ؟ وما الذي سوف يحل بك ؟ عامة ذي أسئلة يتبغى أن يفكر فيها كل مخلوق في هذا الوجود ؛ ولكن لم يجب عنها كائن ما . أتساءل عن النباتات بأي سر تنمو ، وكيف أن الأرض الواحدة تؤتي بالثمر المتباين المختلف ؟ إن هذه الكائنات غير الحساسة — مع إيماني بأنها قد زوّدت بسر إلٰهي — تتركني أمامها شاعراً بالجهل العميق ، سابحاً في فروضي العميقة . إني أقف حائراً أمام هذه القطعان الغفيرة من الحيوانات ، فكلها ذات قدرة على الحركة والانتقال ، وفيها من الاحساسات ما أجد مثله في نفسي ، ولها انفعالات تمتد إلى حيث تكون الأفكار والذكريات . ومع هذا فانهم بأنفسهم أجهل مني بنفسي . فلأي شيء وجدوا ؟ وإلى أي شيء سوف ينقلبون ؟ لقد أظن أن السيارات وتلك الشموس العظيمة التي تملأ رحاب الفضاء ، يأهل بها مخلوقات مفكرة واعية . ولكن دونها حاجز أبدي يفصلني عنها ، فان واحداً من سكان تلك الكرات العظام ، لم يستطع الاتصال بعالمنا

قال رئيس الدير، متجلياً في الطبيعة ، للفارس: إن النجوم قد صنعت من أجل الأرض ، وإن الأرض والحيوانات صنعت من أجل الإنسان . ولكن هذه الكرة الأرضية الصغيرة إذ تدور مع بقية السيارات من حول الشمس ؛ وإن هذه الحركة المنتظمة المتسقة التي تسيرها الأجرام السماوية إذ ربما تستمر ولو لم يكن ناس ؛ وإذ كان في سيارنا الصغير من الحيوانات عدد أعظم من عدد أبناء آدم ؛ فقد أتصور أن رئيس الدير قد شمله حب الذات وعمّه الغرام بالنفس ، تخيل إليه أن كل شيء قد صنع من أجله. وإني لأرى أن الانسان عرضة لأن يلتهمه أي حيوان إذا لم يتقها بالسلاح ، وإن كل الحيوانات تأكله بعد أن يموت . من أجل هذا داخلني الشك في أن رئيس الدير والفارس هما سيدا الطبيعة. وباعتباري كائناً هو يحكم وجوده عبد لكل شيء يحيط به ، لاسيداً آمراً مطاعاً ؛ كائنا مكبّلاً حيث ذهب وكان ؛ كائناً تحيط به اللانهايات ، أبدأ بحثي عن طبيعة نفسي

٢ — ضعفنا

إني حيوان ضعيف؛ ولدتُ بلا قوة وبلامعرفة وبلا غريزة. كنت عديم القدرة حتى على الزحف إلى ثدي أمّي ، على الضد من كل ذوات الأربع . استوعبت قليلاً من الفكرات ، وحزت قليلاً من القوة عندما أخذت أعضائي تبرز وتتكون . ومضت القوة تزيد فيّ ، حتى إذا بلغت حداً اكتملت فيه ، أخذت من ثمّ في التناقص . وتلك القوة التي مكنتني من إدراك الفكرات أخذت بدورها تزيد وتستفحل حتى بلغت حدها الأقصى ، ثم أخذت تتخاذل بعد ذلك ، حتى لأشعر بأنها تفنى شيئاً فشيئاً

ما هي تلك القوة الآلية التي تزيد من قدرة أعضائي في حدود هذا الهيكل الجسمي ؟ إني لأجهلها . وأولئك الذين قضوا أعمارهم في الفحص عنها ، ليسوا أكثر مني معرفة بها

وما هي تلك القوة الأخرى التي تحمل الصور إلى ذهني ، ثم تخزنها في ذاكرتي ؟ أما أولئك الذين أُجِرُوا بالمال لكي يعرفوا شيئاً ، فقد ذهبت كدُودُهم أدراج الرياح . ونحن وهم في الجهل سواء بالمبادئ الأولية التي تقوم عليها طفولتنا

٣ — كيف أفكر

هل علمتني تلك الكتب التي حُبّرت في خلال الألفين الفارطين من السنين شيئاً ؟ قد تشبُّ في نفوسنا بعض الأحيان رغبة في أن نعرف كيف نفكر ، وقلما تقوم في أنفسنا رغبة في أن نعرف كيف نهضم أو كيف نمشي . لقد تساءلت ماهو عقلي ؟ والحق أنه سؤال كثيراً ما أربكني

لقد حاولت أن أكشف بقوة عقلي ما إذا كانت المصادر التي تجعلني أهضم وأمشي ، هي بنفسها المصادر التي تجعلني أتقبل الفكرات . ولم أستطع أن أدرك كيف وإلى أين تذهب تلك الفكرات عندما يمضي الجوع بنابه السام ، وكيف تعود وتتجدد بعد أن أسد نهمة الجوع بالأكل

استبنت فارقاً كبيراً شاسعاً بين الفكر والاغتذاء ، بغيره لا أستطيع التفكير ، حتى لقد اعتقدت أن فى كيانى مادة تفكر وأخرى تهضم . ومع هذا وبالرغم من أنى رضت نفسى دائماً على الاعتقاد بأن فى وجودى شيئين ، فإنى من الوجهة المادية أشعر شعوراً صادقاً بأننى شىء واحد . على أن هـذا التناقض يؤلمنى ويؤذينى .

سألت بعضهم ، وكانوا من أولئك الذين يفلحون الأرض ، أمنا العظمى ، عما إذا كان كل منهم شيئين ، وعما إذا كانوا قد استكشفوا بفلسفتهم الخاصة أن فيهم جوهراً خالداً باقياً ، ومع ذلك فهو مؤلف من لاشىء ولا امتداد له ، وأنه يؤثر فى أعصابهم من غير أن يلمسها ، وإن هـذا الجوهر قد حلّ فيهم بعد أن حملت فيهم أمهاتهم بستة أسابيع ؟ فظنوا أنى أهزل ، ومضوا يفلحون الأرض مبتسمين من غير أن يحيروا جواباً

٤ — أمن الضرورى أن أعرف

لما أن وجدت أن عدداً عظيما من الناس ليس لهم أية فكرة فى تلك المشكلات التى تساورنى، وهم مع ذلك لا تختلجهم الشكوك فيما يتاتى في المدارس أو فى الوجود عامة أو فى المادة أو فى الروح إلى غير ذلك ؛ ورأيت أنهم يهزأون من رغبتى التى تدفعنى إلى معرفة هذه الأشياء واستيعابها ، شرعت الريبة تداخلني فى ضرورة معرفتها ؛ وتخيلت أن الطبيعة قد أعطت لكل مخلوق نصيباً هو حقه الطبيعى غير زائد ولا منقوص ، وإذن تكون تلك الأشياء التى لا نستطيع أن نعرفها ، ليست من نصيبنا ، ولكن بالرغم من هذا اليأس ، فانى لا أقدر على أن أجرد نفسى من الرغبة في أن أتعلم ، فان حب الاستطلاع نزعة سوف تظل غير مكفية فى نفسى

٥ — أرسطوطاليس وديكارت وغسندى

بدأ أرسطوطاليس كلامه بالقول بأن الشك نبع المعرفة ، وتابعه ديكارت فانتقل بهذه النزعة خطوة أخرى حتى لقد علمنى كلاهما بألا أعتقد فى شىء يقولانه . وديكارت هذا على الأخص بعد أن ادعى أنه يشك ، مضى يتكلم بأسلوب تقريرى حاسم فى أشياء لا يفهمهما . يقول إنه موقن بالحقائق ، بينما نجده على خطأ كبير فى طبيعياته . لقد بنى ديكارت عوالم وهمية ، فان حلقاته الزوبعية وعناصره الثلاثة [١] ، أمور تثير الضحك ، حتى لقد أشك فيما قال فى النفس ، إذا قست علمه بها على علمه بالأجسام هو يعتقد ، أو بالحري يظن أنه يعتقد ، أننا نولد مزودين بفكرات غيبية، فهل يحق لى أن أقول بناء على هذا أن هوميروس قد ولد مزوداً بالالياذة ، وأنها كانت كامنة فى تضاعيف ذهنه . مما لا شك فيه أن هوميروس قد ولد وذهنه مهيأ لأن يستوعب فيما بعد فكرات شعرية ، بعضها جميل ، وبعضها متضارب ، وفى بعض الأحيان مصبوغة بالمغالاة ، وفى النهاية استطاع أن يؤلف الالياذة ، إننا إنما نولد فى هذه الدنيا وفينا البذرة التى تتمخض عما سوف نكون ، ولكن الحقيقة أننا نولد وليس فينا من الفكريات الفطرية أكثر مما كان عند روفائيل وميكال انجلو [٢] من أقلام وألوان عند مولدهما

يحاول ديكارت أن يوحد بين خيالاته تلك ، بأن يفرض بأن الناس يفكرون دائماً . من هنا أستطيع أن أفرض أيضاً أن الطيور تطير على وجه الدوام ، وأن الكلاب تجرى فلا تقف ، لأن فى الطيور القدرة على الطير ، وفى الكلاب القدرة على الجرى إننا لا نحتاج ، لكى نقتنع ، بما يتناقض هذه الأقوال ، إلا لفتة إلى تجاربنا ، وأخرى إلى الطبيعة البشرية، فليس فى الانسانية برمّتها واحد بلغ منه الجنون مبلغ أن يعتقد أنه مضى يفكر كل حياته ليلا ونهاراً بغير انقطاع ، من يوم أن كان جنيناً حتى مرضه الأخير ؛ أما الملجأ الذى يلجأ إليه الذين يدافعون عن تلك الأقصوصة ، فقولهم إننا نفكر على الولاء ، وبغير انقطاع ، من غير أن ندرك أننا نفكر ، ومن هنا يمكن أن نقول إننا قد نشرب ونأكل ونركب الخيل من غير أن ندرك أننا فعلنا ذلك ؛ وإذا كنت عاجزاً عن أن تدرك أنك تحوز فكرات ، فكيف تعتقد أو توقن بأن فيك منها شىء ؟ لقد سخر غسّندى من هـذا المذهب المتطرف ، جهد ما يستحق أن يسخر منه . ولكن أتعلم ما ذا كانت النتيجة ؟ كانت أن ديكارت وغسندي قد رميا بأنهما من الملاحدة المنكرين لله

اسماعيل مظهر

(١) يقول ديكارت إن المادة حلقات زوبعية وأن العناصر ثلاثة

(٢) رسامان عاليان عاشا فى القرون الوسطى

قصة الكلمة المترجمة

(القتل أنفى للقتل)

لأستاذ جليل

- ٢ -

قرأ الأستاذ الرافعي (رحمه الله) كلمة الأستاذ النشاشيبي فأرسل إلى الجريدة بمقالة عنوانها (ليست مترجمة) — البلاغ ٢٠ رجب ١٣٥٢ — قال فيها :

« قال الأستاذ الكبير محمد إسعاف النشاشيبي فى كلمة للبلاغ إن عبارة (القتل أنفى للقتل) ليست بعربية ولا مولدة بل هى مترجمة . ولكن هذه الكلمة لم يشر إلى أصلها غير (الثعالبي) وهو مع ذلك لم يقطع فيها برأى ، بل أشار إلى ترجمتها فى صيغة من صيغ التمريض المعروفة عند الرواة فقال : (يحكى فيما ترجم عن أردشير) و (يحكى) هذه ليست نصاً فى باب الرواية ، ولو كانت العبارة مترجمة لتناقلها الأئمة معزوة إلى قائلها أو لغتها التى قيلت فيها . ولقد ذكرها العسكرى في كتابه (الصناعتين) على أنها (من قولهم) أى العرب أو المولدين، ونقلها الرازى فى تفسيره فقال : إن للعرب فى هذا المعنى كلمات منها (قتل البعض إحياء للجميع) وأحسنها (القتل أنفى للقتل) وكذلك جاء بها ابن الأثير ، ولم يعزها . وكل ذلك صريح فى أن خبر الترجمة ما انفرد به إلا الثعالبي ، ولا يقوم الدليل على ترجمتها إلا بظهور أصلها الفارسى ! فان كان علم ذلك عند أحد فليتفضل به مشكوراً مأجوراً »

قلت : هذه أقوال الذين أشار إليهم الأستاذ الرافعى (رحمه الله) أرويها وغيرَها بعدها فوائدَ يرغب الأدباء فى علمها :

قال أبو هلال العسكرى فى (كتاب الصناعتين) : « والإيجاز القصر والحذف ، فالقصر تقليل الألفاظ وتكثير المعانى وهو قول الله (عز وجل) : — ولكم فى القصاص حياة — ويتبين فضل هذا الكلام إذا قرنته بما جاء عن العرب فى معناه وهو قولهم : (القتل أنفى للقتل) فصار قول القرآن فوق هذا القول لزيادته عليه فى الفائدة » ثم بيّن هذه الزيادة

وقال الرازى فى تفسيره (مفاتيح الغيب) : « اتفق علماء البيان على أن هذه الآية فى الايجاز مع جمع المعانى باللغة بالغة إلى أعلى الدرجات ، وذلك لأن العرب عبروا عن هذا المعنى بألفاظ كثيرة كقولهم : (قتل البعض إحياء للجميع) ، وقول آخرين (أكثروا القتل ليقل القتل) ؛ وأجود الألفاظ المنقولة عنهم فى هذا الباب قولهم : (القتل أنفى للقتل) ؛ ثم إن لفظ القرآن أفصح من هذا ، وبيان التفاوت من وجوه » وهي ستة وقد ذكرها ، منها : « أن قول القائل : القتل أنفى للقتل لا يفيد إلا الردع عن القتل ، وقوله (القصاص حياة) يفيد الردع عن القتل وعن الجرح وغيرهما فهو أجمع للفوائد . إن القتل ظلماً — قتلٌ ، مع أنه لا يكون نافياً للقتل . إنما النافى لوقوع القتل هو القتل المخصوص وهو القصاص ، فظاهر قولهم باطل ، أما الآية فهى صحيحة ظاهراً وتقديراً ، فظهر التفاوت بين الآية وبين كلام العرب »

قلت : نسبة الرازي قولهم (قتل البعض إحياء للجميع) إلى العرب باطلة مثل نسبة عبارة القتل إليهم ، فقد أطبق الأئمة المحققون على أن العربية الأولى ، عربية (الجزيرة) لم تقل فى وقت : (الكل والبعض) . قال الجوهرى في (تاج اللغة وصحاح العربية) : « وكل وبعض معرفتان ، ولم يجيء عن العرب بالألف واللام ، وهو جائز لأن فيهما معنى الاضافة أضفت أو لم تضف » ونقل قول (الصحاح) صاحب (المختار)

وقال ابن منظور فى (اللسان) : « وقال أبو حاتم : قلت للأصمعى : رأيت فى كتاب ابن المقفع : (العلم كثير ، ولكن أخذ البعض خير من ترك الكل) فأنكره أشد الانكار ، وقال الألف واللام لا يدخلان فى بعض وكل لأنهما معرفة بغير ألف ولام . قال أبو حاتم : ولا تقول العرب الكل والبعض وقد استعمله الناس حتى سيبويه والأخفش فى كتبهما لقلة علمهما بهذا النحو فاجتنبْ ذلك فانه ليس من كلام العرب »

وفى (القاموس) : « بعض لا تدخله اللام خلافاً لابن دُرُسْتُوَيْه[1] »

وفى (شرح القاموس) : « قال ابن سيدة : وفيه مسامحة ،

(١) هكذا قيده السمعاني وقال غيره هو بفتح الدال والراء والواو (ابن خلكان)

وهو فى الحقيقة غير جائز . وفى العباب : وقد خالف ابن درستويه الناس قاطبة فى عصره . وقال الناقدى :

فتى درستوى إلى خفض أخطأ فى كل وفى بعض
دماغُـه عفّـنه نومُـه فصار محتاجاً إلى نفض

وقال ابن أبى الحديد فى شرح النهج : « وقد استعملت فى كثير فيما يتعلق بكلام المتكلمين والحكماء خاصة ألفاظ القوم مع علمى بأن العربية لا تجيزها نحو قولهم الكل والبعض والصفات الذاتية والجسمانيات ونحو ذلك مما لا يخفى على من له أدنى أنس بالأدب ، ولكنا استهجنا تبديل ألفاظهم فمن كلّم قوماً كلّمهم باصطلاحهم »

وقد روى أبو العلاء هـذا البيت فى (رسالة الغفران) أسُتَحِيم :

رأيت الغنى والفقير كليهما إلى الموت يأتى الموت للكل معمداً

لـكنه قاله فى (الرسالة) قبل ذلك : « وكذلك قوله : الكل (أى قول ابن القارح) إدخاله الألف واللام مكروه ، وكان أبو على يجيزه ويدعى إجازته على سيبويه ، فأما الكلام القديم فيفتقد [1] فيه الكل والبعض »

وفى (المصباح) : « قال الأزهرى وأجاز النحويون إدخال الألف واللام على بعض وكل » وتجويز نحوى لا يثبت عربية قول بل يجيز أن يقوله المولد وإن لم يرد

فقولهم : (قتل البعض إحياء للجميع) مولد محدث ، وقد روى الجاحظ فى كتاب الحيوان هذا القول : « وقد قالوا : بعض القتل إحياء [2] ، وبعض العفو إغراء ، كما أن بعض المنع إعطاء . وهو كلام حسن من حكم المولدين المنشئين

* * *

وقال ابن الأثير فى (المثل السائر) : وهو — أى الايجاز بالقصر — أعلى طبقات الايجاز مكاناً ، وأعوزه إمكاناً ، وإذا وجد فى كلام بعض البلغاء فانما يوجد شاذاً نادراً . فمن ذلك ماورد فى القرآن الكريم (ولكم فى القصاص حياة) فان قوله تعالى (القصاص حياة) لا يمكن التعبير عنه إلا بألفاظ كثيرة . ولا يلتفت إلى ما ورد عن العرب من قولهم : (القتل أنفى للقتل) فان من لا يعلم يظن أن هذا على وزن الآية ، وليس كذلك ، بل بينهما فرق من ثلاثة أوجه » ثم ذكرها ثم قال : « وقد صاغ أبو تمام هذا المعنى الوارد عن العرب فى بعض بيت من شعره فقال :

وأخافكم كي تغمدوا أسيافكم إن الدم المغبر يحرسه الدم [1]

فقوله : إن الدم المغبر يحرسه الدم أحسن مما ورد عن العرب من قولهم : القتل أنفى للقتل »

وممن مشى وراء غيره فى نسبة العبارة الفارسية إلى العرب يحيي بن حمزة صاحب (الطراز) فقد قال : « ومن هذا قوله تعالى : (ولكم فى القصاص حياة) فانظر إلى اللفظة الجليلة كم يندرج تحتها من المعانى التى لا يمكن حصرها ، ولا ينتهى أحد إلى ضبطها ، فأين هذا مما أثر عن العرب من قولهم : القتل أنفى للقتل وقد تميزت الآية عنه بوجوه ثلاثة » ثم ذكرها

ومنهم الأسيوطى فقد قال فى (الاتقان) : وقد فضلت (يعني الآية الكريمة) على أوجز ما كان عند العرب في هذا المعنى وهو قولهم (القتل أنفى للقتل) بعشرين وجهاً أو أكثر ، وقد أشار ابن الأثير إلى إنكار هذا التفضيل وقال : لا تشبيه بين كلام الخالق وكلام المخلوق وإنما العلماء يقدحون أذهانهم فيما يظهر لهم من ذلك » ثم ذكر العشرين وجهاً

وصاحب (المفتاح) قال : « والعلم فى الايجاز قوله (علت كلمته) — فى القصاص حياة — وإصابته المحز بفضله على ما كان عندهم أوجز كلام فى هذا المعنى وذلك قولهم : القتل أنفى للقتل » ونقل القزوينى فى (التلخيص والايضاح) كلام المفتاح فقال : « عندهم »

وقد ذكر ابن الطقطقى فى كتابه (الآداب السلطانية والدول الاسلامية) قول الله وتلك العبارة قال : « قال الله تعالى : (ولكم فى القصاص حياة) وقيل : القتل أنفى للقتل » وروى بعد ذلك هذا البيت غير منسوب إلى أحد :

---

(١) افتقد : فقد

(٢) جاءت فى النسخة المطبوعة لفظة (الجميع) بعد لفظة (إحياء) وهى زيادة طبع أو نسخ

(١) قلت : رويت (المغبر) فى طبعة للمثل السائر و (المعتر) فى طبعة بيروتية ومثلها فى مختارات البارودى ، وفى شرح ديوان أبى تمام للصولى فى النسخة المخطوطة فى دار الكتب (عمرها الله) ووردت (المفتر) بالغين والتاء فى المختار من دواوين المتنبي والبحتري وأبى تمام لعبدالقاهر الجرجانى

بسفك الدما ياجارتى تحقن الدما   وبالقتل تنجو كل نفس من القتل

وهو أفصح من الكلمة الفارسية وأبين وأجود ، وهو محدث وأضبط الروايات فى نسب تلك العبارة رواية (غرر أخبار الفرس وسيرهم) للثعالبي . قال فى الصفحة ٤٨٣ : « فصول من كلام أردشير فى كل فن : القتل أنفى للقتل [1] الخ »

و (غرر أخبار الفرس وسيرهم) كتاب جليل ترجمه كله أجمع إلى الفرنسية هـ . زتنبرج H. Zotenberg وقد قال فى ترجمة عبارة أردشير :

"La mise a mort est la meilleur moyen de prévenir"

***

ونشرت البلاغ (٢٠ رجب ١٣٥٢) بعد مقالة الأستاذ الرافعى (رحمه الله) كلمة للشيخ عبد العزيز الأزهري ، عنوانها : (هى عربية) ومما قال فيها :

« نشرتم أمس فى صحيفتكم أن جملة (القتل أنفى للقتل) يراها الأستاذ النشاشيبي مترجمة فهي ليست عربية ولا مولدة فى رأيه . والذى أراه أنها عربية لما يأتى : أولا — لأنها وردت بين ثنايا عهد القضاء الذى بعث به سيدنا عمر إلى أبى موسى الأشعرى . ثانياً — لأنها مما يوافق طباع العرب قبل غيرهم موافقة تامة فليسوا بحاجة إلى من يقرضهم أمثال هذه المعانى التى طفحت بها سيرهم وأملتها الدماء المهراقة بين لابتى الجزيرة العربية . فهى عربية لامولدة ولامترجمة، وقد يكون المترجم كلمة أخرى تشبهها هى : الاستعداد للحرب يمنع الحرب ! فهـذه معقول أن تكون مترجمة وخاصة فى العصور الحديثة ! لا بالعصور القديمة أو الوسطى التى كانت تضطرم نيران الحروب فيها لأوهى الأسباب »

قلت : قال الشيخ عبد العزيز الأزهرى : (بين ثنايا عهد القضاء) والثنايا جمع الثنية . قال (الصحاح) : « والثنية واحدة الثنايا من السن ، والثنية طريق العقبة » . وقال اللسان : « كل عقبة مسلوكة ثنية وجمعها ثنايا . الثنية من الأضراس أول الفم ، وثنايا الانسان فى فمه — الأربع التى فى مقدم فيه ، والثنى من الابل الذى يأتى ثنيته ، وذلك فى السادسة ، ومن الغنم الداخل فى السنة الثالثة تيساً كان أو كبشاً »

فلا ريب أن الشيخ يريد أن يقول : (فى أثناء عهد القضاء) و « الثنى واحد أثناء الشيء أى تضاعيفه . تقول : أنفذت كذا فى ثنى كتابي » كما قال (الصحاح) ، وفى (الأساس) : « ومن المجاز فى أضعاف الكتاب : فى أثنائه وأوساطه »

وقال الشيخ عبد العزيز : « بين لابتى الجزيرة العربية » . والجزيرة العربية ليست بين لابتين وإن كانت فيها لوب كثيرة . ونحوها فى البر والبحر معلومة . والتى بين لابتين هى المدينة ، يثرب ، مُهاجَر سيدنا ومولانا رسول الله (صلوات الله وسلامه عليه) . وفى الحديث : « إنه حرم ما بين لابتى المدينة » وهما حرتان يكتنفانها . قال صاحب (النهاية) : « اللابة الحرة وهى الأرض ذات الحجارة السود التى قد ألبستها لكثرتها وجمعها لابات ، فاذا كثرت فهي اللاب واللوب مثل قارة وقار وقور ، وألفها منقلبة عن واو . والمدينة ما بين حرتين عظيمتين »

(للفصة بقية) (***)

(١) الأقوال الاغريقية والفارسية التى أخطأ كثير من الرواة فى نسبتها — لا تحصى ، ومنها هذا القول

جورجياس لأفلاطون

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ١ —

« تنزل « جورجياس » من آثار أفلاطون منزلة الشرف لأنها أجل محاوراته وأكملها وأجدرها جميعاً بأن تكون « إنجيلا » للفلسفة »

M. Renouvier

« إنما تحيا الأخلاق الفاضلة دائماً وتنتصر لأنها أقوى وأقدر من جميع الهادمين ! »

« جورجياس — أفلاطون »

نبدأ اليوم فنتقدم لقراء الرسالة الغراء ترجمة « محاورة جورجياس لأفلاطون » وهى من أجل وأكمل محاورات الفيلسوف الخالد إن لم تكن أجلها وأكملها جميعاً كما يقول الأستاذ « رينوفيير » ؛ ولقد شئنا أن نختار هذه المحاورة على وجه خاص لأننا وجدنا فيها الكثير الجم من تلك المبادئ الخالدة التى هي جديرة تماماً بإنقاذ العالم من بحر المادية الصاخب الذي يغرق فيه اليوم ، ومن تلك الفوضى الاجتماعية والسياسية والفكرية التي يعانى منها أشد العناء وينتحر على مذبحها انتحاراً أليماً !! ولما كان الكثيرمن القراء لا يعرف شيئاً عن هذه المحاورة فقد قصرنا هذا المقال على التعريف بها

مقدمة

ولد أفلاطون حوالى عام ٤٢٧ ق . م فى أسرة أرستقراطية عريقة . وشغف أثناء حداثته بالشعر ، ثم ما لبث أن تركه بعد أن عرف أستاذه سقراط وأعجب به وبحواره العذب الطريف ؛ وقد شهد فى عصره عهد فوضى الحكومات الأرستقراطية والديمقراطية ، كما رأى الكثير من أحوال أولئك السفسطائيين الذين كانوا ينادون بأن الفرد مقياس كل شيء ! وبأن الحواس أساس المعرفة ! وبأن حقائق الأشياء لا يمكن أن تعرف معرفة يقينية ! بل والذين كانوا يعلمون أبناء الأثرياء الفصاحة والبيان ليجعلوا منهم خطباء قادرين على إقناع الناس واستهوائهم آناً بالباطل وآناً بالحق ، كيما يفوزوا بمناصب الدولة وبعد الصيت وكيما يستطيعوا أن يدافعوا عن أنفسهم ويبرروا سلوكهم إزاء هجمات الخصوم والمنافسين ، وأمام القضاة والجماهير !

شهد أفلاطون ذلك كله ، وسمع بأذنيه قول القائلين بأن القوة حق ! ، ورأى بعينيه كيف زج « الشعب » بأستاذه العظيم سقراط فى السجن وكيف راح يستمع إلى تمويه « أصحاب الدعوى » ويصم أذنيه عن صرخة الحق التى كان يجلجل بها صوت ذلك الأستاذ المظلوم ! . فكان لنا منه تلك المحاورات الكثيرة التى جعل بطلها سقراط ، والتى تناول فيها أولئك السفسطائيين بالسخرية والتصوير ، والتى دعا فيها إلى تلك المبادئ التى كانت ولم تزل ولن تزال نوراً تهتدى الإنسانية بضوئه الساطع فى مجال العلم والفن ، والسياسة والاجتماع ، والآداب والأخلاق على السواء (١)

* * *

أما « جورجياس » فكان من أئمة السفسطائيين ومن أشهر خطبائهم ومعلميهم . ولد سنة ٤٨٥ ق . م . وزار أثينا حوالى سنة ٤٢٤ ق . م . وكان يدعى أن فى استطاعته أن يجيب على كل سؤال ! ، وكان يقول إنه ليس من الضرورى أن تعلم شيئاً عن الموضوع لتجيب على الأسئلة التى توجه إليك بشأنه ! ؛ ولقد حاول بعد هذا أن يثبت فى كتابه « اللاوجود » أنه لا يوجد شيء ! ، وإذا وجد فلا سبيل إلى معرفته ! ، وإذا أمكن أن يعرف فلا سبيل إلى إيصاله للغير ! ! (٢)

لذلك نرى أفلاطون يكتب عنه محاورة خاصة هى المحاورة التى نبدأ بتقديمها اليوم للقراء الأعزاء . وقد نُقلت هذه المحاورة إلى جميع اللغات الهامة كسائر محاورات أفلاطون . والترجمة التى سنعتمد عليها هنا هي الترجمة الفرنسية للدكتور « بول لمير

(١) ويلاحظ أن فلسفة أفلاطون تمثل العقل الفلسفى وهو فى دور التكوين (ولاسيما محاورات الشباب) بعكس فلسفة أرسطو التى تعطينا مبادئها ونتائجها على نحو ناضج تمام النضوج . ولذلك كانت قراءة أفلاطون بدقة مما يساعد كثيراً على تنمية روح الفلسفة والنقد لدى المختصين وغير المختصين على السواء

(٢) إذا شاء القارئ أن يزداد فهماً لعصر السفسطائيين فليرجع إلى كتب تاريخ الفلسفة المختلفة ككتاب تاريخ الفلسفة اليونانية للأستاذ يوسف كرم وكتاب قصة الفلسفة اليونانية للأستاذين أحمد أمين وزكى نجيب محمود

« Paul Lemaire » أستاذ الفلسفة المعروف . ولكنا نرجو على أية حال أن تصلنا قريباً ترجمة أخرى من باريس كيما نقارن الترجمتين ونخرج منهما بالنص المضبوط

وقد جاء فى مقدمة هذه الترجمة للأستاذ « بول » ما يلى :

موضوع المحاورة

« يصعب جداً تحديد الوقت الذى تحدث فيه سقراط مع السفسطائى ، وربما كان ذلك أثناء زيارة جورجياس لأثينا . وتعتبر هذه المحاورة من المحاورات التى ألفها أفلاطون فى شبابه . وهى تبدأ بوصول كل من سقراط وشيرون متأخراً ، وكانا يريدان سماع محاضرة لجورجياس

ومن ثم يريد سقراط أن يعرف من المحاضر مفتاح فنه وطبيعة تعاليمه ، فيطلب منه المناقشة . أما موضوع المحاورة فهو فن البيان ويريد أفلاطون أنه فن إقناع الناس بالحق والعدل لا بالباطل والظلم ، كما يرى أن وسائله فى الاقناع كثيرة ، إذ أنه إما أن يضع الظواهر مكان الحقائق ويشير إلى الحواس والخيال والشهوات ثم العقل ، وإما أن يشير إلى العقل ولكن بالمنطق السفسطائى الزائف كيما يخدعه . وبهذا يقتنع الشعب الوادع الجاهل ، المخدوع دائما بأولئك « الاستغلاليين » الذين يتملقونه ! ؛ والبيان بهاتين الوسيلتين دنىء حقير لا يعدو فن « الطبخ » فى كثير ! ولا يخرج عن أن يكون خطابا زائفا منصبا على اللذائذ والشهوات فحسب ؛ أما البيان الرفيع الصحيح فهو الذى يعنى فقط بنصرة الحق والعدل ؛ وتلك هى الناحية الايجابية فى المحاورة ، ذلك أن الخطيب الحق عند أفلاطون ، هو ذلك الصادق العادل الذى يستعين بالفلسفة فى دراسة العدالة ونشرها ، والذى يدعو لأن نكون أخيارا فى السر والعلن ، ولأن نكون عادلين دون أن نطمع فى الجزاء !

«ولم يكن أشجع بعد هذا ولا أجرأ من أن يعلن أفلاطون فى وقت اختفت فيه فكرة الواجب وانتهكت حرمة النظم والقوانين بالبلاد اليونانية ، أن الأخلاق الفاضلة تحيا دائما وتسود لأنها أقوى وأقدر من جميع الهادمين ! ، بل لم يكن أعظم ولا أجمل من أن تشيع هذه اللهجة السامية فى جمهور متكبر إعتاد السياسيون أن يتملقوه ، وامتلأ إيمانا « بحقه الأعلى » فى شئون الدولة الصغيرة والكبيرة بغير استثناء ! »

تحليل المحاورة :

أما الأستاذ « رينوفيير Renouvier » فقد حلل المحاورة تحليلا بديعا فى كتابه « Manuel, de, Philosophie » ولذلك قد آثرنا أن نقدم هذا التحليل للقراء كيما نعدهم للترجمة أتم إعداد :

يقول « الظلم أفدح الشرور ، وارتكابه أفدح من احتماله ! وذلك هو الموضوع الذى يدعمه سقراط ويدافع عنه أمام ثلاثة من السفسطائيين ! ، أحدهم جورجياس أستاذ البيان ، وكان يدعى أنه يعلم الناس العدالة وأنه يعرفها حق المعرفة ، ولكنه كان يقول إن البيان يعلمنا كيف نقنع الناس بالعدل والظلم ، وكيف ندهشهم ونذهلهم ونضللهم ونحكمهم ! ؛ ولذلك يريه سقراط أنه يجهل العدل. فيتقدم إليه متحدث آخر بحماس ، ويقول له إنه يعترف بأنه لا يعلم الناس العدالة وإنما يعلمهم فن القوة والسعادة ، وإنه يعتبر ظالما جبارا « كأرشليوس » (الذى قتل أخاه وعمه وابن عمه ليصل إلى العرش) — أسعد الناس ... فما يلبث سقراط أن يقرر أن الظلم شر ، وأن العقاب بسببه خير ، وأن أسوأ النفوس وأشقاها هى تلك التى تكون غارقة في بحر الظلم وتأبى مع ذلك أن ينقذها منقذ يبعدها عن العقاب ! ، وهنا يشك السفسطائى الثالث فى أن سقراط يعنى حقاً ما يقول و ... ، ثم يعلن أن الأفضل لنا هو أن نكون ذلك « المرقل » الذى تصبح إرادته قانونا ! ، وأن الضعفاء هم الذين يسنون القوانين ويسمونها عدلا ! ... ، وأن العدل فى الطبيعة هو حق « الأقوى والأحسن » فيسائله سقراط : إذا كان الأمر كذلك فهل تصبح إرادة « الجماعة » عدلا ما دامت هى الأقوى ؟ »

وهكذا يأخذ سقراط فى إحراج المتحدثين الثلاثة وفى تضييق الخناق عليهم حتى يفسد عليهم حججهم ، ويعلن « أننا نستطيع أن نستمد من العقل كل ما هو مشروع بالنسبة للجماعة والفرد ، وأن الشخص العفيف يكون عادلاً وطيباً وشجاعاً ، وأن غير العفيف يكون شقياً لا صديق له من الله والناس ، لأنه خارج عن نطاق ذلك الكون الذي قد ربط الحب بين أرضه وسمائه وآلهته وأناسه بصلات وثيقة اقتضاها نظامه العام ؛ فالظلم إذن أفدح الشرور لمن يرتكبه ، ولن يكون سقراط العادل شقياً فى يوم من الأيام ، لن يُسرق أو يجلد أو يباع بيع الرقيق ، ولكن

حول أصل قاسم أمين

للأستاذ محمد محسن البرازي

قرأت فى العدد رقم ٢٥٥ من الرسالة الغراء مقالة الأستاذ الجليل الذى أجهل اسمه — فهو لا يوقع اسمه — وأقر بفضله وأعجب بأدبه وسعة معارفه ودقة ملاحظاته. وعنوانها « قاسم أمين ، هل كان كردياً ؟ » وكنت اطلعت قبل ذلك على قصيدة الأستاذ الجارم بك

أما بيت القصيدة الذي يشير إلى أصل قاسم أمين الكردى :

يا فتى الكرد ، كم بززت رجالاً
من صميم الحمى ومن أعرابه

فقد كنت ، شأن الأستاذ الجليل ، استمجبت منه ومن قائله ؛ ولكن عجبي قد يختلف عن عجب الأستاذ بعض الاختلاف تعجبت من هذا القول ، بل استنكرته ، لأن فيه استخفافاً بقوم من الأقوام ، فكأن الأستاذ الجارم سامحه الله يقول فى بيته : « على الرغم من أنك كردى ، أيها القاسم الأمين ، فقد فقت العرب ، وعلى الرغم من أنك غريب فقد سبقت أهل البلاد »

إننى لا أدرى إذا كان قاسم أمين كردىّ الأصل حقاً أم عربياً . ولكنى أستفظع أن ينقص أصله لأنه كردى . فالكرد ليسوا من حيث المواهب والمؤهلات دون غيرهم من الشعوب .

ولئن كنت أسلم مع الأستاذ الجليل ويسلم كل رجل يدين بالديمقراطية ويخضع لسلطان العقل والعلم ، بأن « المرء بفضله لا بأصله » وأن « الانسان — كما قال بديع الزمان — من حيث يوجد لا من حيث يولد » . بيد أنى لا أرى مجالاً لهذا الاستشهاد بصدد أصل قاسم أمين ، لأنه ليس يزرى بقاسم أمين أن يكون كردياً لا من حيث العلم والفضل ، بل من حيث المنبت والأصل

فهل طيب الأرومة وكرم المنصر وقف على قوم دون قوم وعرق دون عرق ؟

إننى كما ينتقد الأستاذ الجليل من يقول من أبناء فرنسا مباهياً « أنا فرنسى ، أنا ابن الغول » آخذ أيضاً على كل من يقول من المتكلمين بالعربية : « أنا عربى ، أنا من نسل قحطان أوعدنان » بمعرض المفاخرة على غيره من أبناء العربية المستعربين ، أكراداً كانوا بالنسب ، أم شراكسة ، ألباناً ، أم صقلّيين

إنها العصبية تسربت إلى الأستاذ الجارم فى بيته « يا فتى الكرد » والعصبية نزعة قديمة بعثت حديثاً فى بعض البلاد ، كافحتها فى القديم الأديان السماوية العالمية كالإسلام ، والنصرانية ، وتحاربها الآن جميع المذاهب التى ترمى إلى التقريب بين بنى الإنسان وإحلال الوئام والسلام محل البغضاء والخصام

لقد كانت العصبية فى الجاهلية مبدأً سائداً تقوم عليه الحياة الاجتماعية والسياسية فقد كانت الوحدة القبلية قبل الاسلام شبيهة بالرابطة تجمع بين أفراد الدولة الواحدة فى عهدنا هذا . وقد بعثت العصبية من جديد فى عهد بنى أمية ، بالرغم من مخالفتها روح الاسلام لغاية سياسية ، خلاصتها دعم العرش الأموى ومقاومة خصوم الأمويين من آل البيت الذين كان أكثر دعاتهم وأقوي أنصارهم من غير العرب وجلهم من الفرس والاكراد

اضمحلت العصبية بعد بنى أمية . ولم يعد لها أثر يذكر إلا فى الأدب العربي . وخاصة فى الشعر لأسباب لا محل لتفصيلها الآن أجلها تقليد الأوائل ولا سيما الجاهليين

ولئن قامت فى بعض البلاد الأوربية نزعات ومذاهب تشبه العصبية العربية كالقومية . « racisme » فى ألمانيا فهي تبرر عند أربابها على الأقل بأسباب حيوية لا نظير لها فى البلاد العربية — ما خلا فلسطين التى نزلت بها من الصهيونية نازلة خاصة —

وهو يصور لنا فى هذه الخرافة ما تلقاه النفوس الظالمة الشريرة من عذاب الجحيم !

« لهذا يجب أن نحفظ أنفسنا من ذلك الشر . . . وأن نكسب الفضيلة بكل ثمن ، وأن نبحث عن فن يساعدنا على ذلك الاكتساب ونفنى حياتنا فى دراسته . . . الخ »

وتنتهي المحاورة بخرافة كما تنتهى أغلب محاورات أفلاطون .

فالذي يشقي ويذل هو الذى يسرقه أو يجلده أو يبيعه بيع الرقيق[1] ! . . .

فإلى اللقاء حيث أقدم لك أشخاص المحاورة وأبدأ الترجمة بعد إذ قدمت لها بتلك المقدمة

« يتبع » محمد حسن ظاظا

(١) لعل أفلاطون يعرض هنا بمن باعه يوماً بيع الرقيق !

فقد يكون للألمان بعض العذر بأن يتسلحوا بالقومية لمناوأة اليهود . لأن اليهود يتظاهرون فى كل بلد يقيمون فيه بأنهم من صميم أهله فى حين أنهم رغم السنين والقرون تمر عليهم ، ورغم ما يفيدون من البلاد التى تلقفهم وآباءهم قبلهم من حقوق سياسية ومدنية يظلون يهوداً قومياً وعاطفياً تجمعهم جامعة قومية يهودية ، ويبقون أمة داخل أمة . على أن العصبية أو القومية — أنى كانت وفى أى زمن وجدت — إذ تتخذ شكل رجحان عرق على عرق وجنس على جنس ، ممقوتة ظالمة خاطئة ، تنقضها الفكرة الحرة ويفندها العلم وتستنكرها المثل العليا الانسانية

لقد قام الاسلام الذى يدين به أكثر العرب على أساس غير قومي، فدين الاسلام كما قلنا فيما تقدم عالمي لا قومى، ومحمد (ص) لم يرسل للعرب وحدهم بل أرسل للبشر عامة ، ولا فضل فى نظر صاحب الرسالة « لعربى على عجمى ، ولا لعجمي على عربى ، ولا لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى » . ولكم نهى النبي (ص) عن العصبية بالتصريح ، فقال « ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتل عصبية »

فاستحقار الأقوام غير العربية بالنسبة للعرب لا يقره إذن الاسلام الذى رفع من شأن العرب وأكسبهم مجدهم الخالد

وفى نظر علماء الاجتماع والمتشرعين ما خلا الألمان لا تقوم الأمة على العرق والجنس، بل إن ما يكوّن الأمة حقاً الآن بعد أن ضعفت الرابطة الدينية ، ولم يعد الدين العنصر المؤلف للأمم ، هو الرضاء والرغبة في العيش عيشة مشتركة فى الحاضر، مضافة إلى ذكريات ماضية مشتركة ، وآمال مستقبلة واحدة (نظرية رنان)

إذن فلا الإسلام يقر مبدأ القومية وتفوق قوم على قوم أو جنس على جنس ، ولا العلم الحديث والمثل العليا الإنسانية تؤيد هذا المبدأ وهذه النظرية

ولئن كنا نستنكر ادعاء فئة من الغربيين تفوق العرق الآرى — والكرد آريون — على العرق السامى، فاننا نأنف أيضاً من الاعتقاد برجحان السامي على الآرى . فاستحقار الأقوام غير العربية بالنسبة للعرب لا يقره الإسلام الذى رفع من قدر العرب وأكسبهم مجدهم الخالد ، ولا يقبله العلم ، ولا يرضى عنه الشعور الإنسانى . بل إن فكرة الوحدة العربية التى تعلق عليها الأمم العربية آمالها لتحرر وتقوي وتستعيد مجدها الغابر ، لا يمكن أن تتخذ العصبية أو القومية لها سنداً . وليس من العقل والحكمة فى شىء أن يلهج بصددها بفكرة الجنس والعرق لأن الأقوام الآهلة بها البلاد الناطقة بالضاد مؤلفة من شتيت من الأجناس والأعراق . فالرابطة التى توحد بين أفراد كل أمة من هذه الأمم العربية ليست العصبية أو القومية ، والجامعة التى تقرب بين الدول والأقطار العربية لا يمكن أن تكون آصرة جنسية ، بل إنها رابطة سياسية عاطفية ، قائمة على الإرادة والشعور والمصلحة

اردت من عرض هذه الفكرة أو التذكير بها — لأنها ليست مجهولة — أن أؤيد ما جاء به الأستاذ الجليل من تفنيد التفريق بين أفراد الأمة الواحدة بحسب أصولهم ، وأبين الخطأ فى النظر — لقاسم أمين إذا عدّ كردياً — ولكن من يحسب غير عربى من أشباهه كرجل خامل بنسبه وإن كان نابهاً بحسبه .

فليس بضير القاسم الأمين رحمه الله أو غيره من رجال الأمم العربية أن يكون أصله كردياً ، بعد أن كان أمثال صلاح الدين بطل الشرق والاسلام والعرب ، وكثير ممن تلاه من الملوك الأيوبيين ذوى الفضل العميم على مصر والشام اكراداً ؛ بل له الفخر كل الفخر إذا جاز لانسان أن يفخر بأصله بجانب فضله أن يمت بالنسب إلى قوم أخرجوا أمثال هؤلاء الرجال وأشباه أولئك الأبطال الذين مازال تاريخ العرب والاسلام والانسانية يباهي بعظمتهم وعبقريتهم.

هذا وإني على يقين من أن الأستاذ العالم الجارم لم يقل البيت الذى حملنا على كتابة هذه الكلمة عن عصبيته ، أو إيمان بمذهب « القومية » بل اعتقادى أنه نظم هذا البيت من قصيدته تأثراً بنغمة طالما سمعها فى شعر العرب ، وتلذذاً من حيث لا يشعر بالطباق بين العجم (أو الكرد) والأعراب . وقصيدة شاعرنا اللغوى النحوى فى جلالة الملك فاروق سليل الأسرة العلوية الألبانية الأصل التى حبت مصر مجداً طريفاً يضاف إلى مجدها التالد ، دليل على أن العرب العاربة والعرب المستعربة فى نظره سواء

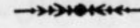
دمشق

محمد محسن البرازى
دكتور فى الحقوق
وأستاذ فى الجامعة السورية

بين الغـــــرب والشرق

للدكتور إسماعيل أحمد أدهم

تتمـة



كان ذلك منذ أشهر وكنت أحاضر جمهوراً من الأدباء بكلية الليسيه بالاسكندرية ، وكان موضوع المحاضرة « الحياة الانسانية بين قضاء وقدر الشرق ومذاهب الغرب في حرية الارادة » .

وقد جاء في محاضرتي كلام جيد عن الفروق بين أهل الشرق وبين أهل الغرب ، لهـذا رجعت وأنا أجول جولتي في كلام مناظرى الفاضل إليها آخذ منها لردّى على المناظر ما أراه ذا صلة وثيقة بالمسألة التي أثارها في العلم والثقافة

قلت في محاضرتي ما نصه :

(هنالك فرق أساسي في منطق التفكير بين الشرقي والغربي ، وهذا الفرق ينحصر في أن الشرقي يبدأ بحثه من الوحدة المتجلية حوله فينتهي للخالق ومنه للطبيعة . بعكس الغربي الذي يبدأ بحثه من التغاير الذي يكتنفه فينتهي للطبيعة ومنها للخالق)

هذا الفرق المشهود في أن الشرقي يبدأ من عالم الغيب لينتهي للعالم المنظور ، بعكس الغربي الذي يبدأ من العـالم المنظور لينتهي لعالم الغيب — كان سبباً لظهور اللاهوت عند الشرقيين والفلسفة عند الغربيين

وهـذا التباين في منزع التفكير ذهب بالعقل الشرقي إلى الاعتقاد بأن العالم حادث كما انتهى إلى أنه قديم عنـد الغربيين ، ذلك أن الشرقي بدأ بحثه من الخالق فانتهى كما انتهى متكلمة المسلمين إلى أن العالم حادث وأن الخالق مطلق التصرف في الـكون منفصل عنه ومدبر له ، وأنه السبب لـكل ما يحدث والعلة الأولى والأخيرة لـكل ما يكون وماسيكون ، بينما البحث عن التغاير المشهود في الـكون يدفع بالأخذ بأساليب الاستقراء والمشاهدة إلى جانب أسلوب الاستنتاج والنظر ، وهذا كله ينتهي بالانسان كما انتهى بمفكري الغرب إلى أن لـكل حادثة سبباً في الـكون ، وأن للعـالم وحدته وانسجامه ، وأنه خاضع لنواميس وسنن ثابتة لا تتغير لا في الزمان ولا في المـكان ، فإذا انتهى إلى الله قيده بهذه السنن والنواميس ، وتصبح بذلك إرادة الله مقيدة بنظام هذا الـكون وأفعاله قائمة على عنصر اللزوم والاضطرار

والانسان من حيث هو كائن في العالم المنظور ، فهو في نظر الشرقي خاضع لإرادة عليا ، هي إرادة الخالق الحرة ، هو الذي يقضي فيكـون ويقدّر فيحدث . وهـذه فكرة القضاء والقدر عند الشرقيين ، فإذا قضى الله أمراً فلا مردّ لقضائه ، وإذا أراد شيئاً قال له كن فيكون . غير أن الإرادة الإلهية لا تتعلق بالأمر الذي قضى بوقوعه إلا إذا تعلقت به إرادة الانسان المخلوق الذي وهبه الخالق حرية الارادة ، في أن تتعلق بالأشياء فكأن للانسان اختياراً ، غير أنه عند النظر مقيد بالعلم الإلهي الأزلي وبتعلق الارادة الالـهية لترجح

أما في نظر الغربي فالانسان وإن كان يتبع في تصرفاته وسلوكه نواميس الحياة ويخضع لها ، فإن في قدرة الانسان تغيير المقدّر له عن طريق معرفة النواميس المتحكمة في وجوده والعمل على إيجاد الملاءمة بين حاجات الانسان في الحياة ومطالبه في الوجود ، وبين المقدّر له عن طريق تغييره بتكافؤ وصالحه

وخلاصة القول أن في الشرق استسلاما محضا للغيب ، وفي الغرب نضالا محضا مع قوى الغيب ، وبين منطق الغرب وروح الشرق تسير البشرية في قافلة الحياة

هذا الـكلام الذي لخصت فيه في ختام محاضرتي كل ما قلته في ذلك المساء ، أجده بليغاً في الرد على مزاعم مناظري الفاضل . وخشية أن يقف بعض الناس عند ظاهر هذا القول فلا ينزلون إلى أغواره القصيّة ، أحب أن ألفت أنظارهم إلى أشياء .

١ — إن ما نعنيه باصطلاح الشرق والغرب لا يقوم على أساس من تقسيم العالم إلى شرق وغرب في تقويم البلدان ، إنما ترجع التفرقة عندنا إلى ما نلمسه من طابع ذهني للغرب ومنزع ثقافي للشرق ، على اعتبار أن هذا الطابع عام للغرب وذلك المنزع عام للشرق . غير أن هذا لا يمنع أن نجد مجتمعاً غربياً ينزع منزع الذهن الشرقي في قلب أوروبا في زمن من أزمنة التاريخ نتيجة لغلبة الطابع الشرقي لأسباب خارجة وطارئة على المحيط الاجتماعي والبيئة الطبيعية ، فمثلاً يمكننا أن نقول إن طابع التفكير في القرون الوسطى في أوربا كان شرقياً في العموم لغلبة المنزع الشرقي على الطابع الغربي نتيجة لبلوغ المنزع الشرقي شغاف أوربا وغزوها الغرب مع الدين المسيحي

٢ — إن هذا المنزع الثقافى والطابع الذهنى لكل من الشرق والغرب إذا اعتبرناه . من الخصائص الأولية لشعوب الشرق والغرب، فذلك لا يرجع لعوامل بيولوجية أوانتروبولوجية كما حاول أن يثبتها بعض مفكرى القرن التاسع عشر ، إنما هى ترجع لأسباب طارئة على المحيط الطبيعى والبيئة الاجتماعية فلهذا لا يرد علينا بما كتبه المناظر فى الرد على غوبنيو

٣ — إن الفلسفة الاسلامية التى ظهرت على يد الفارابى وابن سينا وابن رشد وغيرهم من أعلام الفلسفة الاسلامية ليست شرقية الروح لأنها وليدة الفلسفة اليونانية والمنطق اليونانى . ويمكنك بكل سهولة أن تنزل بخطوط فلسفة فلاسفة الاسلام لأصولها عن أفلاطون وأرسطو وفلاسفة الاسكندرية من الأفلوطنيين ، فمن هنا لا يعترض علينا بأن هنالك من الفلاسفة الشرقيين من علقوا إرادة الخالق بسنن الوجود وقوانين الكون كذلك لا يعترض علينا بالجانب العلمى من الثقافة الاسلامية لأنها نتيجة الأخذ بأساليب الفكر اليونانى

هذه أوليات ألفت إليها الأنظار حتى أكفى نفسى مقدماً الرد على ما سيثار حولها من رد وجدال

***

قد يكون من الأهمية فى مكان أن أستطرد قليلاً هنا وأنقل بعض فقرات من الأستاذ الحكيم استشهد بها على صحة ما أرى من الفرق بين منزع الفكر الغربى وطابع الذهن الشرقى

يقول الأستاذ توفيق الحكيم :

(إن الشرق قد حل معضلة وجود أغنياء وفقراء وسعداء وتعساء على هذه الأرض فى يوم ما ، هذا لا ريب فيه . إن أنبياء الشرق قد فهموا أن المساواة لا يمكن أن تقوم على هذه الأرض وأنه ليس فى مقدورهم تقسيم مملكة الأرض بين الأغنياء والفقراء فأدخلوا فى القسمة مملكة السماء ، وجعلوا أساس التوزيع بين الناس الأرض والسماء معاً ، فمن حرم الحظ فى جنة الدنيا فحقه محفوظ فى جنة السماء. هذا جميل. ولو استمرت هذه المبادئ وبقيت هذه العقائد حتى اليوم لما غلى العالم كله فى هذا الأتون المضطرم)

(إن مذاهب الغرب حينما نزلت الميدان تحاول إصلاح الحياة ألقت قنبلة المادية والبغضاء واللهفة والعجلة بين الناس . لقد أفهمت الناس أنه ليس هنالك غير الأرض ، يوم أخرجت السماء من الحساب، ذلك أن علم الاقتصاد الحديث لا يعرف السماء . أما أنبياء الشرق فقد ألقوا زهرة الصبر والأمل فى النفوس يوم قالوا للناس لا تتهالكوا على الأرض ، ليست الأرض كل شىء . إن هنالك شيئاً آخر غير الأرض يدخل فى التوزيع)

وليس من شأنى هنا أن أردّ على الأستاذ الحكيم آراءه وأقول له بأننا مادمنا فى الحياة فيجب أن نعمل من أجلها ومن أجلها وحدها ... اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، وإننا إذا لم نحل مشاكلنا على هذه الأرض فلن نحلها فى وقت من الأوقات ولن نحل !

ليس هذا ما يعنينى ؛ أما الذى يعنينى من هذا الكلام أن أستوضح الفرق وأستبينه بين منطق الغرب الاثباتى وروح الشرق الغيبى بملاحظة أن المنطق الغربى ينظر للحياة الانسانية كما هى ، وعن طريق العقل وحده يحاول معرفة حقيقته وتنظيم الصلات بين أفراد المجموع البشرى . بعكس الذهن الشرقى الذى يدخل عنصراً غيبياً فى الحياة الانسانية ، وعن طريق هذا العنصر الغيبى يحاول تفسير الحياة وتنظيم الصلات الانسانية وإقامة العلاقات بين أفراد الهيئة الانسانية

ولنا أن نخلص من هذا كله بأن الثقافة الغربية إنسانية وأنها انتمت إلى المرحلة الأخيرة من مراحل التفكير الانسانى الذى كشف عنه أوغست كونت ، بعكس الثقافة الشرقية التى وقفت عند حدود المرحلة الثانية حيث يمتزج فيها العالم المنظور بعالم ما وراء المنظور

وإذن من الخطأ التفريق بين مفهوم الثقافة ومفهوم العلم الوضعى باعتبار أن الثانى عام والأولى خاصة كما يريد أن يثبت مناظرى الفاضل ، والصحيح أن يقال إن العلم الوضعى رغم أنه عام يقوم بمنهجه الثقافى ، وإن العلم يتلون (بروح الأمة) وهذا ما نلمسه نحن المشتغلين بمسائل العلم من قيام مدارس علمية فى أمم متباينة الروح فتخرج متباينة المذاهب والطرائق والاتجاهات ؛ ولا أدل على ذلك مما نراه من مدارس فى العلم، كلٌ تحمل اسم أمة بعينها . مثال ذلك المدرسة الألمانية والمدرسة الفرنسية فى الرياضيات والطبيعيات وبقية فروع العلم مما يعرفه كل من درس العلم فى أوربا فى جامعاتها الكبرى

***

إذا صح ما ذكرته كله ولا إخاله إلا صحيحاً — فمن العجيب أن يناقشنا الأستاذ فليكس فارس الرأى فيما قلناه من كون الثقافة الشرقية ذاتية بكلام يلقيه على عواهنه دون أن ينظر إلى ما قدمناه من أدلة استفاضت بها كلمتنا التى أدلينا بها فى مناظرتنا معه والتى شغلت أكثر من ثلاث صفحات من النص الذى نشرته (المجلة الجديدة). ومع ذلك أحب أن أنظر فى كلام مناظرى الفاضل، وأول شىء ألمسه أنه يعترف ضمناً عا نقول حيث كتب يقول:

(ومما يجدر ذكره هو أن العرب حين اقتبسوا من تراث اليونان ما يعززون به تفكيرهم العلمي لم تستهوهم الثقافة اليونانية ولا حضارتهم الأدبية إذ أحسوا ما بين الحضارة التى كانت تتمخض فى شعورهم وتقديرهم للحياة وبين حضارة اليونان الاجتماعية من مهاو سحيقة فأعرضوا عن شعرهم وموسيقاهم ونظم اجتماعهم لذلك لا تجد فى شعر العرب شيئاً من إبهام بيندار وأوربيد وهوميروس)

وأنت ترى مناظرنا يعترف بأن العرب لم يتقبلوا تراث اليونان الأدبى، لوجود مهاو سحيقة بينهم وبين ثقافة اليونان التقليدية التى احتضنها روح اليونان، وهذا ما نقوله ونشرحه بأن ثقافة العرب ذاتية وأن الثقافة موضوعية عند اليونان. ولهذا لن تجد فى الأدب العربى شعراً قصصياً ولا شعراً تمثيلياً ولا شعراً تصورياً لأن القصص والتمثيل والتصوير يستلزم الانسحاب من آفاق الذات إلى رحاب الموضوعية، وليس هذا فى مكنة الذهنية العربية كما شرحنا ذلك فى توطئة كتابنا «الزهاوى الشاعر» الذى صدر منذ عام وفي دراستنا الانجليزية لشعر الدكتور أبو شادى

***

يتساءل مناظرى بعد ذلك أين كانت العقلية الغربية قبل عصر النهضة — الرينسانس — أيام كانت الحضارة العربية تحتضن العلوم القديمة، ويسبقنا بالجواب فيقول: إنهم كانوا يغطون فى نومهم، ولم تزل تراود أحلامهم الآلهة التى خلقتها عقلية التعاون فيهم، فبلغ عدد هؤلاء الآلهة ثمانية آلاف فى الأساطير. وأقول أنا رداً عليه: إنه لو قلب وجوه النظر في ما أدليت به فى مناظرتى ما يجده منشوراً بالمجلة الجديدة، فانه ليجد الجواب موجوداً على ما أراده، وإذا أراد أن ننقل له الكلام بحرفه نقلناه

قلنا هناك ما نصه:

«قامت المدنية الرومانية على تراث الاغريق، غير أن المسيحية سرعان ما غزت روما وهبت عليها حاملة معها نزعات المنطق الأسيوى والروح الشرقية، إلا أن الحضارة الرومانية ابتلعت المسيحية وامتصتها ومثلتها، وكان فى هذا الابتلاع والامتصاص والتمثيل بعض الخلاص لمنطق الغرب من روح النسك الأسيوية، ولو لم تكن المسيحية ديانة روحية صرفة قابلة للكثير من التفاسير مرنة بطبيعتها غير حاملة فى طياتها منطق حياة اجتماعية معينة ونظم وشرائع مخصوصة، لقام النضال بين منطق الغرب وأصول مجتمعه وبين روح الشرق وشرائعه التى هبت بها على أوربا ... ولقد نضب معين مدينة روما لعوامل داخلية فهاجمها البربر من الجرمان والصقلب والسلاف والهون، وسقطت إمبراطورية الرومان على ضفاف التبر ... فكانت عصور ظلام فى أوربا؛ غير أن الشعوب البربرية التى ورثت إمبراطورية الرومان احتفظت بالكثير من نظم الرومان الادارية وعاداتهم، ولم يعد ما أحدثه البرابرة فى أوربا سوى القضاء على التجارة الواسعة النطاق وعلى الادارة العامة، وبذلك قامت بيوتات تجارية صغيرة تستطيع كفاية أهلها بمنتجاتها، فكان ذلك مقدمة للعهد الاقطاعى. وهكذا قدر لهؤلاء البرابرة أن يركزوا الحياة الاقتصادية فى العمل الصغير، وبذلك وضعوا النواة لعهد الانتاج الصناعى

ثم طغت موجة العرب على الغرب ... غير أن الغربيين نجحوا فى وقف الموجة العربية عند ما تفاقم أمرها ... وكان نجاح شارل مارتل على العرب على نهر اللوار كنجاح الاغريق على الفرس سبباً فى إنقاذ العقلية الغربية من طغيان روح النسك الأسيوية... فى ذلك الوقت كانت العقلية الغربية رازحة تحت كاهل اللاهوت الكنسى الذى قام بروما رقيباً على النفوس والعقول محملاً بكل سيئات روح التنسك الأسيوية ... غير أن العقلية الجرمانية لم تر فى رقابة روما وتسلط البابا إلا روحاً أسيوية بعيدة عن طبيعة الذهن الغربى، فعملت كل الجهد فى تقطيع أوصالها، وبدأ عهد الإصلاح بالصراع بين الذهنية الجرمانية الخالصة ممثلة العقلية الأوربية وبين العقلية البابوية التى تحمل فى طياتها شيئاً من روح النسك الأسيوية ... فى ذلك الوقت شق لوثر طريقه وكان عصر الاصلاح الدينى وعهد الاحياء الفكري»

بين العقاد والرافعي

الرافعي ومظهر و«على السفود»(*)

للأستاذ سيد قطب

— ٩ —

أجلت الحديث في الكلمة الماضية عن طابع وناشر ومروج «على السفود» الذي يعيب «الشذوذ في نصرة أديب على أديب» ليعرف الناس من أين تصدر الآراء، وكيف تصدر؛ وكم من الأعاجيب يكمن في تقلب هذه الآراء وطريقة عرضها، كلما دعا الغرض إلى عرض جديد

وأغلب الناس ممن يقرءون الرسالة قد يكونون من غير المطلعين على هذا الكتاب، الذي قدمت له «المصور» وطبعته ونشرته.

وليس من المستطاع نقل عبارات منه اليوم إليهم في الرسالة، مما يصور شناعة التعبير، ويكشف مقدار التبعة في النشر، لأن «الذوق. والأدب. والخلق» لا تسمح باستعراض تلك الأساليب

(*) أجلت الكلام في شرح العقاد لأكشف عن منبت بعض الآراء في هذا الزمان

ولكني سأتلطف لقراء الرسالة في نقل بعض فصوله «البريئة» مع تقديم العذر، في شنعة هذه البراءة!

وسيعرف الناس كيف يكون الإنسان، سيئ الفهم، قاصر الاطلاع، ثم يناقش العلماء النيرى البصيرة المطلعين؛ ولا يكلف نفسه الاطلاع على أصل المسائل التي يناقش فيها، ويجد من الجرأة في نفسه أن يقول: إنه لم يطلع على هذا الموضوع، ولكنه يجزم بأنه كيت وكيت. أما الذي اطلع فهو جاهل و . . . و . . . الخ.

لشوبنهور رأي في الجمال يلخصه العقاد، في أن هذا الفيلسوف يقسم الدنيا إلى «فكرة» و «إرادة» ويقول: إن الدنيا في «الفكرة» هي الدنيا المكنونة قبل أن تظهر في حيز الأسباب والقوانين، وعلاقات الأشياء بعضها ببعض. وإن «الإرادة» هي هذه الدنيا التي نكابد أوصابها وقوانينها، ولا نذوق السرور فيها إلا لسبب من الأسباب التي تدور عليها أغراضنا وشهواتنا؛ ولما كان سرورنا «بالجمال» سروراً بلا سبب ولا منفعة فهو من قبيل الفكرة المجردة، ننظر إليها كما هي في عالمها المنزه عن الأسباب والعلاقات»

ثم يقول العقاد ما ملخصه: إن رأيه هو أن «الجمال» هو «الحرية» وأنه يلتقي في رأيه هذا مع رأي شوبنهور في نقطة ويختلف معه عند أخرى. فهما يلتقيان حين يقول شوبنهور: إن الفكرة لابد أن تكون بعيدة عن عالم الأسباب والضرورات، ومن ثم لابد أن تكون «مطلقة» من أسر الأسباب والضرورات؛ ويختلفان حين نذكر أن الحرية لا تكون بغير إرادة، وأن شوبنهور يخرج الجمال كله من عالم «الإرادة المسببة» إلى عالم «الفكرة المجردة»

ثم يرجح رأيه على رأي شوبنهور بأن الجمال يتفاوت في نفوسنا ويتفاضل في مقاييس أفكارنا، ولو كان المعوّل على إدراك «الفكرة» وحدها في تقدير الجمال، لوجب أن تكون الأشياء كلها جميلة على حد سواء

ثم يوضح هذا بأن الشجرة كفكرة، تستوي مع الإنسان كفكرة كذلك، ولكن جمال الأولى أقل من جمال الثاني — مع تساويهما لو أخذنا برأي شوبنهور — وذلك لأن الثاني

ومن هنا أرى عن حق أن مناظري الفاضل لم ينظر نظرة عميقة لكلامي، وما أتى به لا يعد نقاشاً لما قلته، لهذا أستحسن أن ينظر في كلامي وهو منشور بالمجلة الجديدة، ثم ينظر في كلامه المنشور بمجلة الرسالة وردي عليه قبل أن يكتب رده، فذلك أجدى لحسم نقط الخلاف في الموضوع

ويبقى بعد ذلك كلمة أو كلمتان في موضوع الموسيقى الذي أثاره المناظر ولم أجد له أصلاً فيما قلت، ومع ذلك فأنا عند ظن المناظر أنتدب له الدكتور حسين فوزي وهو إخصائي في فن الموسيقى وله من العلم الواسع في هذا الموضوع ما يمكنه من بيان نواحي الزيف في آراء المناظر، وهو على ذلك قدير

(الاسكندرية) اسماعيل احمد أدهم

١٠ ٦٧

أكثر حرية ، و « الحرية هي المعنى الجميل في الفكرة أو هي التي تهب الفكرة ما فيها من جمال »

وهذا — كما ترى — كلام واضح ، وهو كذلك دقيق . ولكن الرافعي لا يفهمه . وهو في عدم الفهم على درجات : بعضها يتعلق بالقصور النفسي عن تصور حالة من الحالات النفسية ، وهو ما نعذره فيه ، ولا نطالبه بفهمه . وبعضها يتعلق بالقصور في فهم الأسلوب والكلمات وهو ما لا ندري كيف نسميه .

والنوع الأول يبدو في تعليقه بالهوامش على أن السرور بالجمال سرور بلا سبب ولا منفعة ، فهو يقول : « وهل في الدنيا من يسر من الجمال « بلا سبب »

ونحن نقول له : نعم يا سيدي في الدنيا من يسر من الجمال بلا سبب ، لأن بداهته وفطرته ، تتصل مباشرة بالجمال في « عالم الفكرة » كما يشرحه شوبنهور ، فيحس بالسرور . وفي هذا العالم لا توجد « أسباب » فهذه إنما تتعلق « بعالم الإرادة » أي العالم الموجود في الخارج . وهي على كل حال مسألة تتطلب « نفساً » فلا على الرافعي منها

وهو يعلق على شرح العقاد « للفكرة » في رأي الفيلسوف الألماني بأنها بعيدة عن عالم الأسباب والضرورات ، ومن ثم لا بد أن تكون مطلقة من أسر الأسباب والضرورات . فيقول : « ففكرة من تكون هذه الفكرة البعيدة عن عالم الأسباب والضرورات ؟ وكيف تسمى فكرة ؟ »

وهذا القول غريب من رجل يدعي أنه يفهم الثقافة الاسلامية ويدافع عن علوم الاسلام . وفي الفلسفة الاسلامية كثير من هذه الباحث ، وقد ورد فيها ذكر « الهيولى » و « الصورة » وهي تقابل مع تعديل « الفكرة » و « الارادة » . وفي مباحث « علم الكلام » كثير من مثل هذه التعبيرات عند الكلام على صفتي « القدرة . والارادة » فمن العجب ألا يفهم إذن أن « الفكرة » بعيدة عن عالم الاسباب والضرورات . وهي على ضوء الفلسفة — وتمثل بها وحدها لما يدعيه الرافعي عنها — تمثل فكرة الخالق التي لا تتعلق بالأسباب والضرورات ، لأنه منزه عن الضرورات وهي في كلام شوبنهور تمثل فكرة القوة الخالقة - أيا كان اسمها - فدارس الفلسفة الاسلامية لا يعسر عليه فهمها ، ولا يسأل هكذا : « ففكرة من تكون ؟ »

وهذه أيضاً مسألة « ذهنية » تتطلب ذهناً مشرقاً . فلا على الرافعي منها كذلك !

إنما الطامة الكبرى أن يخطئ في فهم الكلمات المفردة . وهنا فليأخذ القراء حذرهم ، فانني سأنقل لهم بعض كلام الرافعي بنصه في هذا الموضوع — مع ما يتضمنه من شتائم « بريئة » إذا قيست إلى سواها ، ونحن نكتبه بنصه وبعلامات ترقيمه :

إنه يقول :

« بيد أن العقاد يقول بعد ذلك : « أين نتفق في هذا الرأي وأين نفترق ؟ (ماشاء الله أين يتفق العقاد وشوبنهور وأين يفترقان) وأين يتساوى القول بأن الجمال فكرة ، والقول بأن الجمال حرية ؟ يتساويان حين نذكر أن الفكرة في رأي شوبنهور لا بد أن تكون بعيدة عن عالم الأسباب والضرورات . ومن ثم لا بد أن تكون مطلقة من أسر الأسباب والضرورات »

« ثم أين يتعارضان . (المراحيضي ! وشوبنهور) ؟ يقول العقاد : يتعارضان حين نذكر أن الحرية لا تكون بغير إرادة ، وأن شوبنهور يخرج الجمال كله من عالم الارادة المسببة إلى عالم الفكرة المجردة »

« وما الذي يرجح رأي فيلسوفنا ! المراحيضي ! بأن الجمال هو الحرية ، على رأي شوبنهور بأن الجمال فكرة ؟ يقول العقاد : « يرجحه أن الجمال يتفاوت في نفوسنا ويتفاضل في مقاييس أفكارنا ! ولو كان المعول على إدراك الفكرة وحدها في تقدير الجمال لوجب أن تكون الأشياء كلها جميلة على حد سواء »

« ونوضح ذلك فنقول : لو كانت الشجرة جميلة لأنها فكرة فقط ، لما كان هناك داع لتفضيل فكرة الانسان على فكرة الشجرة (افهموا ياناس) ولصح لنا أن نزعم أن الناس أجمل من الأشجار (برافو مراحيضي) ولكننا نعلم أن فكرة الانسان غير فكرة الشجرة (تمام تمام !!!) وأن الفكرتين تتفاضلان في تقرير الجمال (صحيح لأن الشجرة تقدر جمال الناس كما يقدر الناس جمالها !) ولا بد أن يكون تفاضلها بمزية أخرى فما هي تلك المزية ؟

« قال المراحيضي . هي الحرية : فالانسان أوفر من الشجرة نصيباً من الحرية (برافو . برافو !) ولذلك هو أجمل منها (ياسلام ياسلام على هذا المنطق . في رأي من هو أجمل منها ؟ في رأي الجبل

بالطبع لأنه لا بد من حكم بينهما يحكم أيها أجمل . وإلا فما الذي يمنع الشجرة أن تحكم لنفسها كما حكم الانسان لنفسه ؟) »

والتعليقات التي بين أقواس كبيرة هي كلام الرافعي . وهي كلها قد نشأت من عدم فهمه للفظة واحدة في جملة العقاد : « لو كانت الشجرة جميلة لأنها فكرة فقط ، لما كان هناك داع لتفضيل فكرة الانسان على فكرة الشجرة » فالعقاد يريد بقوله « فكرة الانسان » الفكرة التي صورت إنسانا . وبقوله « فكرة الشجرة » الفكرة التي صورت شجرة . فيفهم صاحبنا « فكرة الانسان » بأن الانسان يفكر ، و« فكرة الشجرة » بأن الشجرة لها فكرة في رأسها ! ولما كانت الأشجار لا تفكر ، فقد راح يقول : (افهموا ياناس) وراح يقول : (صحيح لأن الشجرة تقدر جمال الناس كما يقدر الناس جمالها) . وراح يقول: (في رأى من هو أفضل منها ؟ في رأى الجبل بالطبع) لأن الجبل كذلك يفكر وله فكرة !

والمسألة هنا مسألة قصور في فهم ألفاظ ثم تعالم بعد ذلك وتهكم حيث يجب الخجل والانزواء

***

ثم ماذا ؟ ثم أخذ يجمل هو رأى شوبنهور (الذي لم يطلع عليه باعترافه في هامش الكتاب حين يقول : « نحن لا نثق أن ترجمة العقاد عن شوبنهور هي نص معاني شوبنهور ... إنما نذهب إلى (ما نظنه) الأصل في غرض الفيلسوف ») !

فماذا قال ؟

« فإن محصل كلام هذا الفيلسوف أن ما تراه بسبب من إرادتك وغرضك وشهواتك فجماله فيك أنت لا فيه ، لأنه في هذه الحالة صورة الاستجابة إلى ما فيك ، فلو لم يكن معك أنت هذا الغرض لم يكن معه هو ما خيل لك من الجمال ، فهو على الحقيقة « باعتبار الفكرة المجردة لا جمال فيه » (لاحظ هذا) إنما أنت صبغته وأنت أوقعته ذلك الوقع من نفسك فالنتيجة من ذلك أن الأشياء تحزننا (أي لا نراها جميلة) كلما ابتعدت من عالم الفكرة واقتربت من عالم الارادة ، وأنها تفرحنا كلما ابتعدت من عالم الارادة واقتربت من عالم الفكرة .

« وهذا الرأى هو الرأى الصحيح في معنى الجمال وبه يؤول اختلاف الناس في تقدير جمال الأشياء ، لأن الجمال في أهوائهم وأذواقهم ومعاني نظرهم »

وإن الانسان ليفغر فاه عجباً من هذا التلخيص الرافعي لنظرية شوبنهور بل هذا المسخ الذي يمسخه للفيلسوف المسكين . ويحار في السؤال من أين وكيف يلتقي هذا الملخص بأصل الرأى ، وما بينهما شبه ولا اقتراب في أى لمحة من اللمحات

ثم هذا الخلط بين الرأى الذي جاء به الرافعي وبين رأى شوبنهور ، ونسبة كلام إلى الرجل هو يقول ضده تماماً . الفيلسوف يقول : إن الأشياء « تسرنا » كلما قربت من عالم الفكرة وابتعدت عن عالم الارادة . فيقول الرافعي عنه : إن الأشياء « تحزننا » كلما ابتعدت من عالم الفكرة واقتربت من عالم الارادة . وهو عكس قول شوبنهور . ثم يعود فيقول : « وأنها تفرحنا كلما ابتعدت من عالم الارادة واقتربت من عالم الفكرة» وهو عكس كلام الرافعي الأول !! فأيهما يريد ؟ أغيثونا بالله يا أصحاب الفهم وقولوا لنا : متى تفرحنا الأشياء ومتى تحزننا ؟ وأى القولين ينسبه الرافعي لشوبنهور وأيهما ينفيه عنه ؟

ولا يقنع الرافعي بهذا ولكن اسمه يقول :

« على مثل تلك الطريقة من الغباوة . وسوء الفهم وقبح الاجتراء والغرور والحماقة ، تجد كل ما يولده العقاد ، أو أكثره ، ثم يزين له لؤم نفسه وعمى بصيرته أنه هو وحده الذي يهدى إلى سرائر الأشياء ويلهم حقائق المعاني ... الخ »

ولو لا أننا نسمو بآدابنا وآداب المجتمع ، لرددنا هذه الكلمات إلى من يستحقها — بعد هذا البيان — من الرجلين !

***

وبعد فقد نشر صاحب « المصور » هذا الكلام في مجلته ، ثم جمعه وطبعه وقدم له معجباً مستحسناً . فهل كان يا ترى يعلم هذا الخطأ في الفهم وذلك التخليط ، أم لم يكن يعلم ؟ وإن كانت الأولى فكيف لم ينبه صاحبه إليه ؟ وإن كانت الثانية ، فكيف يتفق هذا مع علمه واطلاعه ؟

ثم ألم يجد جملة نابية ، ولا لفظة خسيسة ، في هذا النقد ؟ بل ألم يجد فيه « شذوذا » ولم يلمح أن ليس وراءه انتصار لمذهب بيّن في الأدب ، وإنما وراءه ارواء حفيظة شخصية بحتة ؟

أفتونا أيها المنصفون ، المتعالون عن الشخصيات !

« حلوان » سيد قطب

كلمة ثالثة على الهامش

للأستاذ على الطنطاوى

لقد أكرم الأستاذ قطب دمشق وجيرتها ... وصمت عن تقويم كلمتى (ووضعها حيث ينبغي وضعها من الأدب والرأى فى مدارج الآداب والآراء ، وشاء لى بهذا الصمت أفضل مما شئت لنفسى) فلم يسعنى إلا أن أشكر له ما تفضل به علىّ وعلى دمشق التى لن تنسى له هـذا الفضل ... ولكن متى سألت سيد قطب تقويم كلمتى ومتى طلبت إليه رأيه فيها ؟ وهل بقى علىّ أن أصدر عن رأى سيد قطب فيما أكتب ؟ لا يا سيدى ، ما هكذا يكون النقد ولا هكذا تكون المناقشة . إني سقت رأياً إن كان خطأ عدتُ إلى الصواب الذى تكشفه لى فيه ، وإن كان صواباً وجب أن تعود أنت إليه فبين خطأه من صوابه ، وعدّ عن هذا الأسلوب أسلوب التعريض والسخرية ، واعلم أنى إن حططت عليك ساخراً ومعرضاً لم أدعك حتى تلتصق بالأرض ، وأنا من أقدر الناس على ذلك ، ولكن ذلك شىء يأباه الخلق الكريم ، وتأباه (الرسالة) ولقد كانت لى فى هذا الميدان جولات ، صرعت فيها كثيراً من الكتاب المدّعين المستكبرين ، ثم أقلعت عنها واستغفرت الله ، وأرجو ألا يضطرنى أحد إلى مثلها . ثم إن العهد بك تنكر من الأستاذ شاكر هذا الأسلوب ، فما لك لا تنكر على أحد شيئاً إلا عدت فانغمست فيه إلى أذنيك ؟

لقد أنكرت علىّ أن ذكرت المتقدمين من نقدة الأدب ، وما زلت تبدىء في السخرية وتعيد ، كأن ذكر هؤلاء المتقدمين جريمة فى شريعـة التجديد ... وها أنت ذا فى مقالك الأخير (العدد ٢٥٨) تقر بصحة مذهبهم فى اللفظ والمعنى وتثبته بقولك فى آخر مقالك : « قد تكون المعانى كذلك » — أى ملقاة على قوارع الطرق — وها أنت ذا تتبعه بفعلك : كانوا يأخذون البيت والبيتين فيتكلمون فيهما ، وأنت تفعل فعلهم ، تأخذ إذا تكلمت عن الرافعى بيتاً من الشرق وبيتاً من الغرب تتوهم أن فيه ضعفاً فتتخذه معولاً لهدمه ، ثم تأخذ للعقاد ما تظن أن فيه قوة وجمالا ، فتجعل منه وسيلة إلى مدحه ، فكأنك لم تسمع بنقد حديث ، ولم تدر به ... وإلا فأين شروط النقد ، وأين التجرد عن الهوى ، وأين (الموضوعية) فى البحث ، وأين الدراسة العامة التى تكشف عن أدب الأديب من كافة نواحيه ؟ أليس كلامك عن الرجلين هو المدح لهـذا والهجاء لذلك ؟ بل إنى لأظنك والله لا تريد بالعقاد إلا شرًّا حين تختار له ما اخترت

إنا والله نجل العقاد ، ونعرف له منزلته ، ونعده فى الأكابر من كتابنا ، ولـكن قوله :

أيهـا الجيبون انعم سلاماً يا أخا العبقرى والبهلوان

هذا الشعر يشين طالباً ذكياً لو نسب إليه فكيف بالعقاد العظيم ؟

دع الابتداء بـ (أيهذا) وما فى هذا الابتداء من ثقل واستكراه ، ودع الجيبون التى لو حلف متزوج بالطلاق على أنها لا تدخل شعراً لما أحسبه يحنث . وانظر فى (أنعم سلاما) قالت العرب عم صباحاً ، جاء فى اللسان : (وأنعم الله صباحك من النعومة ، وقولهم عم صباحاً كلمة تحية كأنه محذوف من نعم ينعم (بالكسر) كما تقول : كل من أكل يأكل فحذف منه النون والألف استخفافاً) فالنعومة فى قول العرب مسندة إلى الصباح الذى هو زمان فاذاً نعم صباح المخاطب كان سعيداً مسروراً فما معنى إسناد النعومة إلى السلام ، هل المعنى أنه يطلب من هـذا الجيبون أن يسلم سلاماً ناعماً ؟ وماذا يعنى بذلك ؟

وانظر فى قوله (يا أخا العبقرية والبهلوان) ، ودع كلمة (البهلوان) وما فيها من صحة وجمال ! وانظر إلى اقترانها بالعبقرى تدرك مبلغ ما فيها من الغرابة والثقل على السمع وما فيها من غموض المعنى ، حتى أن القارىء لا يفهمها إلا إذا قرأ كتاب دارون ... مع أن الشعر يجب أن يفهمه كل من كان ذا شعور مرهف ، وكان واقفاً على لغة هذا الشعر ، فاذا جاوز الأمر هذين الشرطين صار علماً منظوماً ! لا فرق بينه وبين ألفية ابن مالك مطلقاً والبنون فى قوله (كيف يرضى لك البنون مقاماً مزرياً) من

هم هؤلاء البنون ؟ إن الاقرار حجة قاصرة ، وإنا لنسأل الله السلامة من خذلانه ! إن هذه النظرية لم تثبت عند أصحاب العلم ولم تصبح بعد حقيقة علمية ، أفكلما ظهرت نظرية فى الفلك أو الطبيعة ، فنظمها أديب ، كان بنظمها شاعراً كبيراً ؟ فلم لا ينظم الدكتور ناجى إذن فى الطب ، والمهندس فى الهندسة ، وأبو شادى فى البكترلوجيا ، وعوض فى الجغرافيا ؟ وأى فرق بالله بين نظرية دارون ونظريات غيره من العلماء ؟

وتأمل قوله :

(يا عميد الفنون صبراً ومهلا) واترك مهلا التي لم تجىء إلا للقافية . وفكر فى هذه الفنون التى صار عميدها قرداً فى حديقة الحيوانات ثم انتقل إلى قوله :

مرحباً مرحباً وأهلا ومهلا والهدايا ما بين لب وفول

ألا تذكر بشاراً وربابة ربة البيت . . . أفيعقل أن يتصدر سيد قطب للنقد والكلام فى مثل الرافعى أبلغ من كتب فى العربية ثم يختار مثل هذا الشعر إلا أن يكون عدواً للعقاد يريد أن يذمه بما يشبه فى ظاهره المدح ؟ أو أن نكون قد فقدنا عقولنا فلم نعد نميز بين الحسن والقبيح ، ولم نعد نعرف أقدار الكلام ...

وبعد فانى أسأل الأستاذ البليغ صاحب الرسالة هذا السؤال الذى يتردد على فم كل قارئ للرسالة فى دمشق ؛ وأرجو أن يتفضل بالجواب : لماذا تنشر الرسالة هذه المقالات للأستاذ قطب؟ ألَلحقيقة ، والحقيقة لا ظل لها فى هذه المقالات ؟ أم من أجل الأستاذ العقاد وفيها من الايذاء للعقاد مثل ما فيها من المس بالرافعى؟ أم بغضاً بالرافعى والأستاذ صاحب الرسالة صديقه الحميم ، وهو شريكه فى التلبس بجريمة البلاغة والحرص على البيان المشرق الذى يسوء هؤلاء المجددين ؟ أم لماذا ؟

إننا لم نفد من هذه المقالات إلا فائدة واحدة ، هى أننا عرفنا أن الجديد إن كان كما يصوره سيد قطب فهو أهون شىء وأبعده عن الحق ، وإنا راضون بقديمنا ، مطمئنون إلى (رجعيتنا ...) عرفنا هذا ، أفلا يمفينا الأستاذ قطب من هذه المقالات ؟ ألا يتفضل فيعلم أن قراء الرسالة قد غدوا بفضل الرافعى والزيات وسائر من كتب فيها من البلغاء لا يعدلون ببلاغة القول وصفاء الديباجة شيئاً وأن كل سعى لتكفيرهم بالبلاغة و (التبشير) فيهم بهذا الجديد سعى ضائع !

فهل الغاية إذن ملء صفحات الرسالة بمقالات الأستاذ سيد قطب ؟

دمشق **على الطنطاوى**

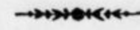
(الرسالة) والرسالة تجيب صديقها الأستاذ الطنطاوى بان من مبادئها أن تكون صورة صادقة لأدب العصر فلا تسجل مذهباً دون مذهب ، ولا تتوخى أسلوباً دون أسلوب . ومعارك النقد ظاهرة مألوفة فى عصور الأدب عفت الرسالة عنها حيناً ، ثم رأت من الخير أن تسجل هذه المعركة ؛ لأن أدب الرافعى وأدب العقاد يمثلان وجهتى الثقافة فى أقطار العروبة ؛ فالقول فيهما — إذا حسن — يعين المتأدب على الوجهة التى يوليها ، وينعش الأدب من الخمود الذى هو فيه . ومن حسن القول أن يتكلم الناظر فى الأدب بلسان الأدب ، وأن يعتقد أن أدب الرجل شىء آخر غير شخصه ، فلا ينبغى أن يدخل الناقد فى حسابه الحياة والموت ، ولا الصداقة والعداوة

أما رأى الرسالة فى الكاتبين العظيمين فقد سجلته فى افتتاحياتها . فهى لا تحمل من تبعات ما تنشر غير ذلك الذى رأت

بين العقاد والرافعى

كلمة على الهامش أيضاً

للسيد عبد الوهاب الأمين



أوقفتني كلمة الأستاذ على الطنطاوى فى التعقيب على المناقشة الأدبية الرفيعة بين الأستاذ سيد قطب والأستاذ محمود محمد شاكر حول منزلة العقاد والرافعى فى الأدب الحديث ، ولو لا أنى كنت أخشى أن أفسد هذا الحوار وهو فى عنفوانه بين الأستاذين لما ترددت فى أن أقول كلمة ، ولكنى احتبستها حتى قرأت تعليق الأستاذ على الطنطاوى فرأيت أن موقفى التزمت قد تحلل من قيوده

شاء الأستاذ على الطنطاوى أن ينتصر للأستاذ شاكر وأن يكتسب له النصر ، فلم يتوقمه ، بل أكده لزميله ، وليس فى ذلك بأس كبير ، فقد يكون الأستاذ شاكر عبر عن خوالجه تعبيراً محكماً تخيل إليه أن ذلك هو فصل الخطاب . والحق أن الأمر لم ينته ، وأن بوادر الحال تدل على قوة مستجدة فى كلام الأستاذ شاكر تنبئ بأن شدة المعركة لم تأت بعد ، ولكن الأستاذ على الطنطاوى يريد أن يظهر الأمر للقارئ كأنه انتهى

ثم ماذا ؟

يأتى الأستاذ الطنطاوى مدافعاً عن « إنسانية » الرافعى فلا يجد ما يقول سوي أن الرافعى صاحب عقيدة ، وأن العقيدة « مشتقة من العقد ، قال فى اللسان . . . » كأن الرجوع إلى اللسان مشكلة لا يتوصل إلى حلها إلا أمثال الأستاذ الطنطاوى ، ولست أدرى هل قرأ حضرته — على الأقل — كتاب « الآراء والمعتقدات » لكستان لوبون وهو كتاب ترجم منذ سنين ليعلم أن خلافاً فى أمور العقائد لا يحله الرجوع إلى اللسان ، ولو كانت الخلافات على العقائد تحل بالرجوع إلى القواميس لما قامت الحرب الأسبانية مثلاً !

ثم ماذا ؟

ثم يأتى كلامه فى الخلاف بين أدب الرافعى وشعر العقاد « فهو الخلاف بين الأسلوب الذى يعتمد على البيان والصحة والصناعة والجمال ، وبين الأسلوب الذى يستند إلى المعنى المبتكر والصورة الجديدة ، لم يظهرهما لفظ قوى ، ولا أداء مستقيم » فالأمر كله فى نظر الأستاذ الطنطاوى إنما هو أمر اللفظ القوى والأداء المستقيم . أما أننا نعيش فى عصر الحديد والنار ، العصر الذى يتطلب من أدبائنا أن يكونوا طليعتنا فى إدراك الوضع الحاضر والاستمداد له وتلقف الفلسفات التى تنطوى عليها حضارة هذا العصر ومدنيته ، فنتطلب من شاعرنا وأديبنا أن يكون شخصاً ذا رأى وعقيدة ، فهذا أمر إن جاء فى حساب الأستاذ فإنما يأتى فى الدرجة الثانية أو الثالثة . . . وهو إذا أراد أن يقول كلمته فى أمر اللفظ والمعنى فإنه يعود توا إلى الجاحظ والجرجانى ولا يزيد عليهما . . . أما الأعصر التى مرت على البشرية بعدهما فلا حساب لها عند الأستاذ . . . « أما المتقدمون من نقدة الأدب العربى فأكثرهم على أن المانى على قوارع الطرق (! . . .) وإنما يتفاضل الناس بالألفاظ » . ولسنا ندرى على قارعة أى طريق وجد المعرى معانيه فى لزومياته ورسائله ، أو المتنبى فى شعره الخالد !

ويعود حضرته فيؤكد ويقول « وإنما الأدب هو الصيغة اللفظية التى يعبر بها عن هذا الاحساس ، وعلى مقدار التوفيق فى هذه الصياغة تكون قيمة القطعة الأدبية » فالأمر كله على الثوب ورحم الله جحا وثوبه فى مأدبته المشهورة !

ولو كان نقد الأستاذ موجها إلى أحد أدباء العربية غير العقاد لجاز أن يوجه بعض التوجيه ، ولكن العقاد أديب لم يتهاون مطلقاً فى أمر اللفظ القوى والأداء المستقيم » وهو يتحرى ذلك فيما يكتب وينقد . وقد اضطر فى نقد له لجبران أن ينزل به لأنه كان فى نظره ليس بالمتين فى اللغة والاداء . وبيان العقاد فى العربية أنصع بيان وأقومه ، ويشهد بذلك كل « بيانى » ولو شئت لأتيت بالأمثلة ، ولكنها لن تغنى سادتنا « اللفظيين » لأن الفن فيها لا يستكنه بالرجوع إلى اللسان أو القاموس المحيط ! فاللفظ هو كل شيء فى أدب إخواننا أصحاب الرافعى . ولست أعلم ما رأى الأستاذ الطنطاوى فى كتاب « ألف ليلة وليلة » ، هل مرجع الأهمية فيه الصيغة اللفظية أم سمو الخيال ؟ وهل يرى الأستاذ أن قصيدة « ترجمة شيطان » للأستاذ العقاد هى « أشبه بالمالقة الضخام ،

ولكنهم يحملون حفنة من الحصى » أم أنها ملحمة لا مثيل لها فى العربية ؟

ولنأت مع الأستاذ الطنطاوى إلى آخر حديثه فنسمعه يقول عن نقد هذا البيت :

قلبي يحب وإنما أخلاقه فيه ودينه

« ان انتقاد هذا البيت وتشبيهه بالخطب المنبرية الجافة تحقير للحب ، وتنزيل له إلى حيث يخالف الدين والأخلاق حتماً ، ودعوى ضمنية بأن الحب لا يستطيع أن يحتفظ بخلق ولا دين ! »

هذا آخر سهم فى الكنانة !

فان لم ينفع كل ما قيل فهناك الدين ، وما أسهل ما ينقلب الأمر إليه فيكون العقاد وتلامذته كفرة جاحدين ! وكذلك كان الرافعى رحمه الله يقول عن كل ما يقع تحت مبضعه فى النقد؛ فطه حسين والعقاد وسلامه موسى وسواهم كفرة؛ وإذا أراد العقاد أن يجادله فى مفهوم إعجاز القران بلغة هادئة كلها منطق وحجج ، فذلك لا يؤدى إلا إلى اتهامه فى عقيدته الدينية . ولست أفهم كيف يرى إخواننا المعجبون بأدب الرافعى فى النقد كالأستاذ شاكر والعريان والطنطاوى أن نقد العقاد للرافعى ما هو إلا « شتائم » ، وماذا كانوا يقولون عنه لو أنه كتب فى ثلب الرافعى رحمه الله كتاباً ككتاب « على السفود » وأقل ما فيه : وغد ، ونذل ، وزنيم ؛ ولم يفعل العقاد عشر معشارها فى نقد الرافعي ؟ أكانت تبقى للعقاد حرمة عندهم ؟ أم كانوا يسقطون منه فضيلة القول الجميل كما يريدون أن يسقطوا منه كل فضيلة ؟

إن الأستاذ على الطنطاوى لا يتجنى على العقاد وسيد قطب فحسب، بل هو يبتنى سابقة غير محمودة فى النقد، فليس من المروءة تأليب الطبقة المحافظة على كل أديب مجدد ، وليس الدين مدار البحث فى أدب الرافعى وشعر العقاد، بل هو موضوع قائم بذاته متى جاء البحث إليه جاز أن يقول فيه الناقدون مقالهم ، أما ونحن الآن فى عصر لم نتخلص فيه بعد من عصبية جاهلية قائمة عند الأغلبية فان من الجناية التى لاجناية بعدها أن يدور الأستاذ الطنطاوى ويحوم حتى يأتى بالأمر إلى الدين ! فيتهم الأستاذ سيد قطب من طريق غير مباشر بعدم الرعاية للخلق الدينى

***

وبعد فإن الحديث حول الرافعى والعقاد الآن حديث ذو دلالة فى الأدب العربى المعاصر ، ودلالته هذه فى أنه يمثل عصرين يتطاحنان ، ولا ريب عندنا فى الغلبة لأحدهما . . . فالعصر الذى يمثله المرحوم الرافعى وإخواننا النافخون عنه عصر يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وهو فى حالة احتضاره يصحو صحوة الموت ليهدأ بعدها الهدوء النهائى ، والعصر الذى يمثله العقاد وزملاؤه عصر الحاضر والمستقبل ، عصر الأدب المنتج الخلاق ، لا عصر التقليد والاجترار ، عصر هضم الحضارة الغربية وتمثلها ، لا عصر ازدرائها والابتعاد عنها ؛ وهو بذلك العصر الذى سيعيش حتماً

وما دمنا فى الحديث عن العقاد فإن له كلمة تدخل فى حديثنا هذا ، فقد لقيه أديب مشهور فى أثناء نقده لشوقى بهذا البيت :

شوقى تولاه عباس فأظهره والیوم يحمله فى الناس عباس

فقال له : « بل إنه عصر يحمل عصراً ، ولا غرو هم تخفتها صيحة حق » فالأمر فى الخلاف بيننا وبين إخواننا المعجبين بأدب الرافعى كل هذا الاعجاب لا يقتصر على شخص العقاد أو الرافعى بل هو يمثل هذين العصرين المتطاحنين

بغداد عبد الوهاب الأمين

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ٢٢ —

ليت ليلى تعرف بعض ما ألاقى فى ليالى الصد من أهوال !

ليت ليلى تعرف كيف ندمت على التعرف إلى وجهها الجيل !

ليت ليلى تعرف كيف هدت عزمى وقوضت بنيانى !

ليتها تعرف أن هواها أورث جسمى وقلبى أسقاماً وعقابيل ستكدر ما بقى من حياتى !

وليتنى أعتبر بما صرت إليه فأتقى الله فى نفسى وأتصوّن عن الهوى والفتون !

ما أشد حزنى على ماضيعت من شبابى فى التغزل بالعيون السود!

ما أشد ندمى على الغفلة التى خضت أوحالها يوم وثقت بعهود الملاح ... !

سيطول بكائى على العافية التى بددتها تبديد المسرفين على أنفسهم وأنا أتنقل من أرض إلى أرض فى سبيل الجمال

سأكتوى بنار الحقد على الدنيا وعلى الناس كلما تفكرت فيما ردنى الحب إليه من ظلمات

لم يبق لى رجاء فى غير الله

ومن سوء البخت ألا أعرف الايمان إلا فى أيام الضر والبؤس !

إليك أرجع يا ربى ، أرجع مقهوراً مدحوراً بعد طول الهيام بأودية الضلال

إليك أرجع ، ولا فضل لى فى هذا الرجوع ، فقد انهد كيانى ، وانشقت مرارتى ، وصار من الموجع أن أحمل إلى فى كوباً من الماء

إليك أرجع ، فامنحنى من العافية ما أنقل به صور ذنوبى إلى ألواح خيالى ، عسانى أعرف كيف أستغفر وأنيب

***

لم أجد فى النجف شفيعاً إلى ليلاى ، فقلت أذهب إلى الموصل وتلك نهاية المطاف فى البحث عن الشفعاء

وعقدت العزم على السفر بالقطار الذى يقوم من بغداد فى الساعة التاسعة مساء

ولكن صديقاً موصلياً طرق بابى فى الساعة السادسة وعرف نيتى فى الذهاب إلى الموصل، فنهانى ، ولما استوضحت السبب قال : إن أهل الموصل يحقدون عليك ؛ فانزعجت وقلت : كيف ؟ فأجاب: أنت أطلت التشبيب بالعيون السود فغنمت عطف أهل البصرة وأهل بغداد ، وخسرت مودة أهل الموصل ، لأن عيونهم شُهْل لا سود ...

فقلت : أتغزل بالعيون الشهل وأتناسى العيون السود

فقال : كان ذلك قبل اليوم

وتركنى وانصرف

وكذلك قضيت نحو ثلاث ساعات فى كرب وبلاء

أشهد أن ذلك الصديق طيب القلب ، فما تعمد يوماً إيذائى ، ولكنه سيئ التصرف ، فهو يزورنى من حين إلى حين ليكدر صفائى ، وهو يجد لذة فى تنغيص من يعرف ، ويشعر بارتياح حين يستطيع إلقاء صديقه فى أتون العذاب

وقد وصل فى إيذائى إلى ما يريد وخرج وهو جذلان

وفى غمرة هذا الحزن المظلم دخل موصلىٌّ آخر ، موصلىٌّ كريم كاد أهله ينسوننى أهلى ، موصلى صيغ قلبه من العطف والحنان ، فشاع الأنس فى روحى حين اغتبقت بروحه الرفيق

وما هى إلا لحظات حتى كنت فى القطار وهو يحملنى التحية إلى أقربائه بالموصل الجيل

***

وفى القطار رأيت رجلا بيده مجلة تسمى (الأندلس الجديدة) وهى فيما أتذكر تصدر فى البرازيل ، وفيها رأيت مقالة فى تجريح صديقى العزيز الدكتور زكى مبارك ، فابتسمت وقلت : جرّحوه كيف شئتم فستطيب الدنيا يوم يصل إلى فؤاد ليلاه !

وكان رأسى قد أثقله النعاس فلم أعرف شيئاً من معالم الطريق

وصلت إلى كركوك بعد عشر ساعات في القطار، وكركوك هي (شهر زور) في كلام القدماء، وفيها تشهد العين لأول نظرة مشاعيل اللهب، لهب النفط، فيدرك العقل أن هذا اللهب هو الذي يجذب الفراش، الفراش البغيض الذي يفد من وراء البحار ليسيطر على ذخائر تلك الأرض، وبعض البلاد تؤذي أهلها بفضل ما فيها من ذخائر وكنوز، والجمال يجني على أهله في أكثر الأحيان.

ومضيت فسألت عن رئيس البلدية وهو الشيخ حبيب الطالباني فعرفني بأقربائه ودعاني للتنزه في حديقته الغناء، وهناك جرى الحديث عن اللغة العربية فعرفت أن أهل كركوك بعضهم من الأكراد وبعضهم من التركمان وأنهم يتكلمون الكردية والتركية بأسهل مما يتكلمون العربية

وبعد لحظات رجع أبناؤه من المدرسة فدعاهم للتسليم عليّ، فوقفوا صفاً في أدب واستحياء، فسألتهم أن ينشدوا شيئاً مما يحفظون، فأسمعوني نشيداً عربياً بديعاً، دلني على أن أطفال تلك الناحية سيكونون بإذن الله من سواعد العروبة بعد حين

وكذلك عرفت أن الحكومة العراقية تستطيع بسهولة أن تؤلف بين عناصر العراق، وأن تجعل منه شعباً موحد اللغة والتقاليد في زمن قليل. ويؤيد ذلك أن العروبة هي في الواقع فكرة لا جنس، والكردي يتحول بعواطفه إلى العروبة بلا عناء

ومنظر كركوك جميل ولكن أهلها يشكون قلة المياه، وفيها اليوم نحو أربعين ألفاً من السكان، ودورها تبلغ ثمانية آلاف، وبها حديقة للشعب، وفيها مكتبة، ولها ضواح صالحة لأن تكون من مرابع الابتهاج لو وجدت من يصلها بأصول التمدن الحديث

وفي شهر زور — وهي كركوك — يقول أحد الشعراء:

وعدتِ بأن تزوري بعد شهر   فزُوري قد تقضّى الشهر زُوري

وموعد بيننا نهر المعلّى   إلى البلد المسمى شهر زُور

فأشهُر صدك المحتوم حقٌ   ولكن شهر وصلك شهر زُور

خطرت ببالي هذه الأبيات وأنا أطوف بكركوك فحزنت، فذلك شاعر كان يشك في صدق ليلاه، كما أشك في صدق ليلاي. ورأيت أن أبحث عن قريبات ليلى هناك، ثم خشيتُ أن يصعب التفاهم باللغة العربية فمضيت إلى إربيل بلد المبارك بن حمد بن المبارك الذي يقول:

تذكّرنيك الريح مرّت عليلةً   على الروض مطلولاً وقد وضح الفجرُ

وما بعدت دارٌ ولا شط منزلٌ   إذا نحن أدنتنا الأمانيُّ والذِّكرُ

وصلت إربيل في وقت القيظ فلم أجد من النشاط ما أصعد به لرؤية القلعة التي تحدثت عنها كتب التواريخ، وإنما اكتفيت بزيارة المسجد وشهود بعض الأسواق. وراعني أن تقوم أكثر المنازل على ربوة عالية تستدرج شياطين الشعر والخيال

وفكرت في تلقف بعض المعلومات عن إربيل فلم أجد من يسعفني بما أريد، حتى الشرطي حارس الميدان لم يعرف شيئاً عن عدد السكان في إربيل ولم يستطع أن يرشدني إلى بعض المدارس، وهذا لا يمنع أن يكون في إربيل أدباء نرى آثار أقلامهم في بعض المجلات المصرية من حين إلى حين

* * *

ثم اتجهت نحو الموصل فراعني أن أرى حقول الحنطة على جانبي الطريق، وهي تشهد بما في تلك البقاع من خيرات، وراعني أن أرى السيارة تنتقل من نجاد إلى وهاد، ومن وهاد إلى نجاد كأننا في جبل لُبنان

الله أكبر ولله الحمد!

هذا مسجد النبي يونس، وهو فوق هضبة عالية، وكأنه نوتردام دي لاجارد التي تروع من يدخل مرسيليا أول مرة

وعند الجسر يستوقفني الشرطي ليسأل عن اسمي فأقول: زكي مبارك. فيسأل: الدكتور؟ فأقول: نعم! فيبتسم ويقول: عرفت أخبارك، ولكن حدثني عند من تنزل؟ فأقول: عند آل ليلى! فيقول: وهذا وجه الإشكال!

وسأعرف بعد أيام لماذا يهتم الشرطة بمعرفة أسماء من يدخلون كركوك وإربيل والموصل

ألقيت أمتعتي في الفندق وخرجت أدبر الوسائل للبحث عن قريبات ليلى. واتفق أن جلست لأشرب كوباً من الشاي في

إحدى القهوات ففاجأني الأستاذ محمد بهجة الأثرى وهو يقول : أتراك تفلت من يدى يا دكتور ؟ من جاء بك إلى الموصل ؟ أذو نسب أم أنت بالحى عارف ؟ ونقلنى إلى المدرسة الثانوية للتسليم على الأستاذ بهجة النقيب ، وهنالك طالعتنا مجلة الرسالة فقرأنا فقرات من حديث ليلى المريضة فى العراق ، وحددنا موعداً للتلاقى بنادى الجزيرة فى المساء

ولم تمض ساعات حتى تسامع أهل الموصل بقدوى على غير ميعاد ، فأقبلوا متفضلين للتسليم على الرجل الذى أحب العراق وأحبه العراق

تحدث أحدهم فقال : هل رأيت المنارة الحدباء ؟

فقلت : لا . فقال : لقد هم الدكتور عبد الوهاب عزام بصعودها ، وبعد أن صعد خمسين درجة دار رأسه فنزل

فقلت : يا فضيحة الجامعة المصرية !

وانتقلت إلى مجلس آخر فابتدرنى أحد الأدباء بهذا السؤال : هل رأيت المنارة الحدباء ؟ فقلت : لا . فقال : لقد همّ الدكتور عبد الوهاب عزام بصعودها ، وبعد أن صعد أربعين درجة دار رأسه فنزل

فقلت : يا فضيحة الجامعة المصرية !

وفى مجلس ثالث تحدث رجل فقال: هل رأيت المنارة الحدباء ؟ فقلت لا . فقال : لقد هم الدكتور عبد الوهاب عزام بصعودها ، وبعد أن صعد ثلاثين درجة دار رأسه فنزل

فقلت : يا فضيحة الجامعة المصرية !

ثم صممت على صعود هذه المنارة ولو كان فى ذلك حتفى ، لأنقذ سمعة الجامعة المصرية ، على حجراتها وغرفاتها ومدرجاتها أزكى التحيات !

سميت هذه المنارة حدباء لغلطة هندسية أورثتها الاحديداب ومن أجلها سميت مدينة الموصل « الحدباء » على طريق المجاز المرسل ، وباسم الحدباء سمى نوع من الخمر يستقطره الموصليون ، وكذلك انتقل الاسم من المنارة إلى المدينة إلى الشراب !

والمنارة الحدباء هى أعظم منارة فى أقطار العراق ، ودرجاتها فيما سمعت مائة وثلاث وتسعون درجة ، وهى منارة الجامع الكبير ابتدأت فزرت الجامع ، وهو قديم يرجع تاريخه فيما قيل إلى ثمانمائة سنة ، ولمحرابه قبة عالية ، وإقامة القباب فوق المحاريب طراز معروف فى العراق

وبذلك الجامع مقصورة خاصة بالنساء ، ولا تقام فيه الصلوات لهذا العهد إلا فى الجمع والأعياد

وفى أثناء الطواف سمعت هديلاً يسجع بحنين فاجع يذيب لفائف القلوب ، وسجع الحمام مألوف فى العراق وقد تحدث عنه مئات الشعراء ، ولكنه فى هذه المرة كان حماماً موصلياً يعيش فى البلد الذى نسب إليه أبو إسحاق

وقد نظرت فرأيت الهديل يسجع ويجانبه ليلاه ، فما الذى كان يصنع لو غابت عنه ليلاه ! ليتنى فى مثل حالك ، أيها الهديل البَـكّـاء !

ثم توكلت على الله وصعدت المنارة بصحبة جماعة من الرفاق يحملون المصابيح ، وآذانى أن أجد درجات المنارة مُهشّمة، وأن أعرف أن الصعود فوق الدرجات أمر صعب ، ولو أننى حاولت ذلك وأنا فى سنّ أصغر أبنائى لكان الخطب سهلاً ، ولكننى اليوم عالم علامة ، والعلماء العلامون يصعب عليهم السير فى الطريق فكيف يصعدون المنارة الحدباء ؟ !

وبعد أن صعدت نحو سبعين درجة شعرت بالتعب ، فقلت : أنزل !

وهل يعيبنى أن أعجز عن صعود منارة عجز عن صعودها الدكتور عزام ؟

وشجعنى على النزول أن الدكتور عزام صديق عزيز والتعالى عليه ينافى الذوق ، وهو بالتأكيد سينشرح صدره حين يعرف أننى عجزت عن صعود المنارة الحدباء ، والضعفاء يعطف بعضهم على بعض !

وبعد أن نزلت درجتين مرّ بالبال خاطر مزعج : وهو أن ليلى قد تسمع بهذه القصة فتعرف أن طبيبها أصبح من الأشياخ

وكذلك انطلقت إلى صعود المنارة بعزائم الشياطين

وقفت فوق المنارة ونظرت إلى الأرض فعرفت خطر ما أصيبت به من احديداب ، فالذى ينظر إلى الأرض من فوق تلك المنارة

يتوهم أنها ستسقط به، ولكن هذا الوهم لا يجوز على رجل مثلي!

ذلك كان من أمر الصعود، ولكن كيف النزول؟

إن النزول بدا لي أمراً خطيراً جداً، ومن كان في ريب من ذلك فليجرب، وقد خشيت أن تزل قدمي فأسقط، لأن دَرَج تلك المنارة أصبح خيالا في خيال

واقترح السيد محسن جومرد أن أضع يدي على كتفه فرفضت لأن الاعتماد على الغير عند الشدائد هو بداية الانخذال

***

نزلت من المنارة بلا مساعد ولا معين، فصح عندي أن عافيتي لا تزال باقية. وتطلعت إلى الهيام بأرجاء الموصل لأري ما فيها من بقايا السحر والفتون، ولأبحث عن الشفيعات إلى ليلاى

وبدأت فزرت قبر أبي تمام، وكنت كتبت كلة عن إصلاح قبره في جريدة الأفكار منذ ثمانية عشر عاما، وكان من رأيي أن تأليف كتاب جيد عن شاعرية أبي تمام أفضل من العناية بإصلاح قبره، فتى أشرع في تأليف هذا الكتاب؟

كنت مبلبل الخواطر فلم أقرأ الفاتحة على قبر أبي تمام، وإنما قرأت على قبر أبي تمام قول أبي تمام

أحبابَهُ لِمَ تفعلون بقلبهِ ما ليس يفعله به أعداؤهُ

وهاج حقدي على ليلاى فوقفت شارد اللب لا أعرف ما أصنع

ثم تلفت فرأيت جِنّيات الشط، شط دجلة، فسألت رفيقي:

ما بال هؤلاء الملاح يلقين الشط بلا احتشام؟

فأجاب:

« للحديث شجون »

زكي مبارك

حـــواء

ديوان شعر طريف في الغزل العرفاني من نظم الأستاذ الحوماني تحت الطبع، تحمل الرسالة منه إلى قرائها عدة نماذج قبل صدوره

في ليلة عرس

إسألي الروضةَ هل كا ن بها إلاكِ غرسي

وهل العطر الذي يع بقُ منهـا غير نفسي؟

زهرها الذابل يا مىُّ غـدِي والغضُّ أمسي

وعلى المخضرِّ من أو راقهـا سطرت يأسي

فبدت منه على وج ه السما صبغة وَرْسِ

وهوى كالزهَرِ المن ثور في ليـلة عرس

وتوارى لم يَرُق عي ناً ولم يعلق بحسّ

هو مثلي تعبق الآ فاق منـه وهو مَنسي

فراش يتبارى

ما تَمُرِّينَ بآما لىَ في الروض حياري

يترامين على الزه ر كبار وصغارا

ويساجلن دواليـ ـكِ على الدوح الهزارا

ويعـانقن متى شئـ ـن شقيقاً وبَهـارا

وإذا ألبسها من لونه الزهـرُ إزارا

وسقاها من سَقيط الطل شهداً وعقـارا

فبـدت ألوانها الزُه ـر لجيناً ونضـارا

ومضت تختال من غصـ ـن إلى غصن سكاري

تتبـدّى فوقه طو راً وطوراً تتواري

خِلتهـا في أُفُق الر ض فَراشاً يتبـارى

الحوماني

التاريخ في سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الأحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

يا شباب الوادي ! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم ....

— ١٧ —

عاد المحامي يكدح من أجل قوته كدحاً شديداً ، ويأخذ قسطه من النصب مع صديقه هرندن ؛ وكان قد تركه وحده طيلة ذلك الصراع المنيف ، فهو بذلك يخرج من جهد إلى جهد ؛ والناس يمجبون من تلك القوة البدنية التي ما زال يتمتع بها قاطع الأخشاب في الغابة بالأمس وهو اليوم قد ناهز الخمسين أو كاد

وإن به بعد عودته هذه لحاجة شديدة إلى المال فهو اليوم ذو عسرة ؛ وإنه لن يطلب المال ليستعين به في الوصول إلى جاه كما يفعل دوجلاس ومن على شاكلته من الناس ، بل لينفق منه فيما بانت تطلبه السياسة من أوجه الأنفاق ؛ وإنه ليفطن إلى أن عودته إلى المحاماة إنما هي إلى أجل قريب، فلقد خطا في السياسة خطوة لن يكون بعدها نكوص

ولم يجمل إبراهام للمحاماة كل همه كما كان يفعل من قبل حينما كان يمني بالفشل في السياسة ؛ فأن للسياسة اليوم نصيباً كبيراً من وقته ومن جهده ؛ فهو يقرأ الصحف قراءة تمعن ليرى ماذا يقول الناس في مسألة العبيد ، ولينظر في الأمر ليتعرف كيف يتطور وإلى أين يتجه البلاد فيه ؛ وهو يدعم بنيان حزبه في ألينواس ويمده ما استطاع من قوة يعتد بها في غد

ونظر الناس إليه اليوم نظرتهم إلى ذي جاه ، ويشيرون إليه في إعجاب وإكبار ، وهو يحس هذا فلا يزداد إلا دعة وليناً ؛ فيدل بذلك على أن عظمته عظمة حقيقية تبدو للناس في أبسط مظهر لها فتكون بذلك في أبهى مظاهرها ..:

والعظمة الحق كالذهب الحر في بساطة جوهره وبهاء منظره ولن يخرج الذهب عن صفته إذا وجد غفلاً من الزخرف ؛ والنحاس مهما أدخل عليه من النقش والزينة لن يكون إلا نحاساً؛ والعظمة الحق هي التي تخلق الرجال وتبنيهم ، وليست هي تلك التي يختلقها الرجال فيكون الواحد منهم بما يتصنع ويتكلف كالذي يخطر في حلة رائعة وهو لا خلق له ؛ فلا تخفى الحلة سمته ، ولا يكون منها إلا أنها تظهره أقبح منظراً وأحقر أمراً ؛ فهو إنما ينبه الناس بما ينتحل ويدعي لنفسه من أوجه الكمال إلى حقيقته فيرون أنه ليس بالكبير ولكنه يتكبر ، ولا تقع أعينهم منه إلا على مظهر وإن كان ليخيل إليه أنه جوهر ...

ولقد كان لنكولن يفعل الفعل أو يرى الرأي في أمر من الأمور عن لقانة مدهشة وطبع معجب بكماله ، فاذا رددت فعله أو رأيه على ما تواضع الناس عليه من عرف وما اتفقت عليه عقولهم وقلوبهم ما وجدت فيه شذوذاً ولا نقصاً ؛ بل إنك لتراه حقيقاً أن يسير الناس كما يرسم ، كأنه في أعماله كوكب في هذا الفلك الدائر يتحرك وفق نظام محدود فلا يضطرب ولا يتذبذب إلا أن ينفرط عقد ذلك النظام

وكان من أحب الأشياء إلى نفسه أن يرفع الناس بينهم وبينه الكلفة ، فهو يصاحبهم ويباشرهم كأنه أصغرهم قدراً ؛ وهو على كثرة بره بهم لا يبتغي على معروف جزاء . وكان إذا غشي مجلساً لهم رآهم يتنحون له عن مكان الصدارة فيأبى إلا أن يجلس حيثما اتفق له ؛ وإنه ليستحي أن يناديه الناس باسمه مجرداً عن كل لقب يراد به التعظيم وهو عندهم أبيب الأمين أو أبيب العجوز أو هما معاً ، وهي ألفاظ لها في أذنه سحر الغناء لأن فيها جمال الصدق وجلال التواضع ...

وحسبك دليلا على جمال نفسه وطيب عنصره أنه طلب إليه يومئذ أن يكتب كلمة فيها ملخص حياته لتكون مرشداً إلى ترجمة توضع له فلم يشر إلا إلى أنه نشأ في الغابة من أبوين فقيرين ، وأنه عمل منذ صغره على كسب قوته فساعد أباه تارة واشتغل أجيراً تارة ، وأنه تعلم القراءة والكتابة دون مساعدة تذكر من جانب غيره ، وأنه ذهب إلى نيوأر ليانز في تجارة لأحد الناس ، وأنه اشتغل بعدها صبياً في حانوت ، وأنه عمل في تخطيط الأرض وفي توزيع البريد، وأنه عالج المحاماة حتى حذقها، وأنه اختير عضواً

فى مجلس الولاية ... كل أولئك دون أن ترى فى كلمته هذه عبارة تشعر بفخر أو تنم على زهو ، حتى أنه ما استطاع أن يشير بكلمة إلى ما أصاب من نجاح فى السياسة ، وهو إن فعل لم يك يعدو الحقيقة فى شيء ...

رجع إبراهام إلى سبرنجفيلد ولكن اسمه ملء الأسماع فى كل مدينة من المدن الكبيرة وخاصة فى الشمال ؛ والصحف لا تفتأ تشير إلى ما كان بينه وبين دوجلاس ، ولا تكاد تذكر مسألة العبيد إلا مقرونة باسمه ؛ ثم إن مسألة العبيد تذكر اليوم معها مسألة أخرى هى مسألة الوحدة، فقد أخذت تزداد فى الجنوب دعوة الداعين إلى الانفصال عن الشمال ؛ وكان خصوم إبراهام يجتهدون أن يرجعوا إليه وإلى الحزب الجمهورى السبب فى هذا الانفصال إذا تم ، وكانوا يسمونه الجمهورى الأسود حنقاً عليه وكيداً له ...

وانهالت عليه الدعوات من مدن كثيرة فى الشمال ليخطب الناس فيهـا ، فأعرض أول الأمر عن إجابة هذه الدعوات قائلاً : إنه إن ترك عمله فى المحاماة مدة كما فعل من قبل فسوف يعدم قوته ؛ ولكن خصومه لن يدعوا الكيد له ولن يتوانوا عن تشويه مبادئه والطعن عليه بكل فاحش من القول وباطل من الاتهام ؛ وإذاً فالى مجادلتهم من جديد ما من ذلك بد ...

وكانت مارى على ما به من خصاصة تطلب منه الكثير من المـال لتظهر به فى المظهر الذى يليق بما أصبح له من مكانة ؛ وهى فى الوقت نفسه لا تنفك تستعجله فى السياسة وتحرص ألا يتهاون فى أمر من أمورها

ولقد عظمت ثقته بنفسه ؛ ولكن تواضعه يغلب عليه فيرى نفسه بين عاملين يتنازعانه، فبينماهو يفطن إلى قوته ويحس أن منطق الحوادث يسير به إلى حيث يصبح رجل الساعة ، إذا به — وكأنه يخشى الخيلاء — ينظر إلى نفسه نظرة لولا ماعرف عنه من الصدق والصراحة لأخذت على أنها نوع من الكربلجأ إليه لغاية فى نفسه. فهو يسر إلى صديق له أثناء منازلته دوجلاس أن امرأته تتوقع أن سيصبح رئيس الاتحاد، ثم يقول لهذا الصديق وهو يضحك ملء نفسه ويداه تمتقلان ركبتيه وهو مستلق على ظهره: «صور لنفسك ياصاحبي كيف يصير أبله مثلى رئيسا »

يالله لهذا الرجل ! ولكن المبدأ عنده كما أسلفنا فوق كل اعتبار آخر ، وما الرياسة عنده إلا غرور مالم تكن وسيلة إلى تحقيق ما استقر فى نفسه ، لذلك كان يجهد ويدأب كلما خاف على مبادئه أن تعصف بها الأهواء والمغالطات ، ولم يخطر بباله يوماً ما أن يخطو خطوة واحدة من أجل غرض شخصى

وكان لا يزال يرى فى دوجلاس أخطر خصومه ، لا لمـا كان بينهما من منافسة ، بل لما كان يمتاز به ذلك الرجل من المكر الشديد والقدرة على أن يخدع الناس فى سياسة بلادهم ليصل من وراء ذلك إلى تحقيق أطماعه الشخصية وهو لا يرعى فى الحق إلاً ولا ذمة

وكأن دوجلاس لم يكفه ما كان من جدال لحمل في أهاو على الحزب الجمهورى وقذفه بما شاء من اتهامات. فذهب لنكولن وخطب الناس فى كولبس وسنسناتى ، وفى هذه المدينة أعلن سياسته فى صراحة وجلاء، قال : « إنى أعلن أول الأمر لأهل كنتولى أنى كما يقولون — ولكن كما أفهم أنا — جمهورى أسود ؛ إنى أعتقد أن نظام العبيد خطأ خلقى وسياسى ، وإنى أود ألا تنتشر العبودية من بعد فى هذه الولايات المتحدة !

ولم يقتصر كلامه على نظام العبيد بل تكلم فى شؤون أخرى كانت تهم الناس، منها رأس المال ونظام العمل ، ولقد أطرب فى ذلك السامعين وملك مشاعرهم ؛ ولما رأى إقبالهم على هذا الحديث أعاده فى سوق جمعية زراعية فى حفل أقامته بعد ذلك بأسبوعين فقال إنه يرى رأس المال مديناً فى وجوده للعمل ، فالعمل لذلك أهم وأعلى منزلة، وإن خير عمل هو ما يقوم به الفرد الحر الذكى المستقل الذى يعد ذخر البلاد وعتادها ...

وفيما هو ينافح عن حزبه ويجادل خصومه فى مبادئه إذ وقع فى البلاد حادث جديد زاد هياجها ، وكان مثله مثل الزيت يلقى به على النار وذلك هو حادث چون برون ، فان هذا الرجل على كبر سنه قد أعلن الثورة لتحرير العبيد ، ولقد كانت له قبل ذلك بثلاث سنوات حركة جريئة لنصرة قضيتهم فى كنساس ، ولقد عول اليوم أن يذكى نار الثورة فى البلاد إذ لم يطق صبراً على بقاء هذا النظام البغيض ، وكان أهل الجنوب قد قتلوا ابنه من قبل وباتوا يتربصون به ليقتلوه هو ...

خرج هذا الرجل فى ثمانين لا أكثر من الرجال ، منهم خمسة من الزنوج ؛ وكان قلبه يفيض حماسة ، فأعلن خطته فى جرأة الأبطال واستهتارهم بالموت ، ألا وهى حق كل زنجى أن يثور على مالكه ، فليس أمام هؤلاء الزنوج غير القوة ؛ ولكن جون برون لم يكد يخطو الخطوة الأولى ويستولى على مركز يجعله قاعدة لحركته حتى غلب على أمره فحوكم وأعدم . . . ولقد قابل الموت بجنان ثابت ونفس هادئة . ولما حانت منيته استنزل لعنة الله على الظالمين أعداء الحرية . . .

واغتدى جون بجرأته ثم بميتته هذه بطلا عند دعاة التحرير فى الشمال ؛ وأخذوا ينظمون الأناشيد فى بطولته ويجعلونه رمزاً لأحرار الشمائل ومثالاً يجب أن يحتذيه كل من كان له قلب يخفق بحب الحرية . . . ويرى دوجلاس فى هذا الحادث فرصة يحذر أن تفوته ، فيعلن أن ذلك ليس بمجيب فلن تفضى مبادئ الجمهوريين إلا إلى مثله . . .

وأدرك لنكولن خطر التهمة ، ولو كان غيره مكانه لأخذته مما رمى المارد الصغير ورطة ؛ ولكن صوت الحق لا يضيع فى ضجيج الباطل ؛ فهذا لنكولن يتلقى دعوة من جماعة فى نيويورك فيلبى مسرعاً ويلقى خطاباً من أبدع وأروع ما واتته به عبقريته وفى جمع لم يسبق أن وقف فى مثله

احتشد لسماعه فى تلك المدينة العظيمة جمع من كبار الساسة وقادة الرأى وذوى الثقافة وأساطين الصحافة ، فكان لهذا الحفل بهم مهابة وجلال وخطر . . . واحتشد كذلك عدد هائل من عامة الناس ليروا لنكولن ، هذا الذى كان يشتغل نجاراً أول ما نشأ فاستطاع أن يرقى حتى يقف من دوجلاس الشهير موقف الند من نده وأن يظهر عليه فى الخطابة والمجادلة . . .

ولقد ارتاع فؤاده عند ما بلغ مكان الاجتماع وذلك حينما رأى هؤلاء السادة فى ملابسهم الأنيقة ، ورأى فى وجوههم نضرة النعيم وفى أحاديثهم وتحياتهم روح المدنية ؛ ولما نهض للخطابة شاهد بعض الناس علامات الحيرة عليه ، فقد كان على غير ما ألف مشغول البال بملابسه المهلهلة العتيقة التفصيل والحياكة والتى تبدو بمقارنتها بما يقع عليه بصره كأنما جيء بها من متحف وتطلع عامة الناس إليه فى دهشة ، وتقسمت ألحاظهم بين قامته الطويلة ويديه الكبيرتين اللتين تدلان فى جلاء على أنهما خلقتا للمعول لا للقلم ، ووجهه الصفار المسنون الذى تنشاه سحابة عميقة من الهم ، وعينيه الواسعتين اللتين تعبران عن وداعة الأطفال وحماسة الأبطال ، وأنفه الأشم الغليظ الذى يترجم عن صرامة عزيمته وشدته فى الحق ، وشعره الأشعث الذى يعلو رأسه الكبير فى غير نظام كأنه ألفاف النابة ...

وكان صوته فى أول الأمر خافتاً ، ولكنه أخذ يعلو حتى ملأ الأسماع . وصفه أحد الحاضرين فقال : « أخذ وجهه يضيء بما فى باطنه من نيران ... وجلجل صوته وعظمت قوة خطابته ، واتفق له إلى حد كبير مثل سهولة الانجيل البالغة .. وكان يسود المكان صمت عميق بينما هو يتكلم حتى لقد كان إذا سكت يسمع هسيس الغاز منبعثاً من ثقوب المصابيح ، فاذا تحمس السامعون دوت فى جنبات المكان رعود قاصفة من الاستحسان »

ولقد عد خطابه هذا من أبلغ الخطب السياسية قاطبة . قال عنه جريلى — وهو الذى رأيناه قبل ذلك بعامين يدعو إلى أن ينضم دوجلاس إلى الحزب الجمهورى ففقد بذلك مودته — : « ما من رجل استطاع أن يبلغ لأول مرة بخطابه إلى مثل هذا الأثر الذى بلغ إليه لنكولن أمام جمهور المستمعين فى نيويورك »

عاد لنكولن فأوضح خطة الحزب الجمهورى بما لا يدع مجالا من بعد لدسائس خصومه ، ثم استنكر ما فعله جون برون ومما ذكره فى ذلك قوله : « لا يمكننا أن نعارض فى الحكم على جون برون جزاء خيانته ولاية من ولايات الاتحاد ، لا يمكننا أن نعارض فى ذلك ولو أنه يوافقنا فيما يراه من خطأ نظام العبيد فان ذلك لا يبرر العنف وسفك الدماء والخيانة »

وأقبل عليه الناس كبيرهم وصغيرهم عالمهم وجاهلهم يهنئونه بما ظفر به من توفيق فى هذا الحفل المشهود ، ويعلنون إليه حبهم وولاءهم وإعجابهم بمبادئه . ولقد طار صيته بهذا الخطاب على نحو لم ير مثله من قبل ، وأخذ الناس يحسون أنه الرجل الذى تجتمع عليه القلوب والأهواء . ولقد رأى الصحف وهو فى طريقه إلى سبر نجفيلد تتحدث عن ترشيحه للرياسة فى الانتخاب الذى يحل ميعاده فى نهاية هذا العام ...

« يتبع » الخفيف

تطور الحركة الأدبية

في فرنسا الحديثة

بول فاليرى P. VALÉRY

للأستاذ خليل هنداوى

يمكن القول إن شعر « بول فاليرى » لا ينحدر من ينبوع واحد . فهو طوراً رفيق البرناسيين ، وطوراً رفيق الرمزيين ولا سيما « ستيفان مالارمي » يغشاه عطف ناعم ، وتكتنفه أحلام وتأملات ورموز . وشعر (فاليرى) الطافح بالإبهام يبقى محافظاً على إيقاعه الموسيقى ولمعان صوره . وهنا سر عظمة الشاعر ! وقد جرب (فاليرى) أن يودع شعره « إلهامات » تجدد لغة العاطفة . وهذه الإلهامات قد أغنت عن كل الحريات ، من الشعر الرمزي إلى البرناسي فالوجداني . ويرى فاليرى أن هذه الحريات لم تنقذ الشعر ولم تمتقه من قيوده ، إذ الشعر لا يمكن أن يولد إلا من حالة قهر أو من شدة ، من صراع ومن ظفر . وقد يمتزج سهله مع النثر . ومقاطيع المقبرة البحرية — إذاً — قد بنيت وتحدرت كالشعر المدرسى ، وفيها وفى حركتها قدرة — لو أنها دقت وانجلت — على أن تحمل الفكرة بوثبة لا تقهر ، حتى فى الوطن الذى لا تفهم فيه الفكرة . لأنه شعر حمل على الابهام . وفاليرى يعمل ضد المدرسة الرمزية والوجدانية باعطائه — الشعر — خاصة الترنم لا بالأهواء وإثارة المشاعر ولكن بالأفكار ! فالعاطفة يجب أن تقاد بالعقل . ويجب أن يكون محكوماً بصورة منظورة . على أن هذه الفكرة هى موقدة الشعر المدرسى . ولكن الشعر المدرسى لا يقيس من العقل إلا فكرة كبيرة واضحة . والعاطفة — وهي الشعر الصافى — إنما يجب أن تعبر عن العقل الصافى . وهذا العقل الصافى لا يربطه شىء بمنطق نصحائنا ، ولا بأي مظهر من المظاهر الواضحة لحياتنا العملية . فهنالك — فى منطقة منعزلة بعيدة عن أنظمة هذه الحياة أو سطحيات اللغة العامة ، هنالك عالم « للأفكار الصافية » . فإذا ما استطعنا أن نستنقذ أنفسنا من هذه العبوديات فى المظاهر بما أوتينا من جهد ندخل حالاً في عالم الشعر . . . الشعر الذى اكتشفه أفلاطون ووجده مصوغاً من النور ومن هذا الخلود الحى للرؤى العقلية . فى هذا العالم لا يفكر بمنطق كما يفكر نثرنا وشعرنا . وإنما هذه الرؤى العقلية تترابط ، أو تنحدر بحسب الايقاع الضرورى لها ، كالزهرة ثم الثمرة تنشآن من الغرسة ، لا كالقدوم يطرق المسمار . القصائد يجب ألا تفهم بالنظر فى بنائها الظاهر كأنه مشهد نحن غرباء عنه ، ولكن يجب أن تفهم بالتأمل في باطنها ، بجهد يجعلنا نحس أننا قادرون على خلقها فى أنفسنا !

الشعر خلق لا تأثير ولا حالات إحساس — كما هو عند الرمزيين — ولكنه قوة إحساس عقلى

إن شعر « فاليرى » هو أكثر تملقاً من شعر (مالارمى) بالعاطفة التى تنحدر إلى ماوراء الطبيعة. هو جهد يضمنا فى اتصال، — لا بأهواء إنسان ، ولا بهذا العدم الذى هو إنسان ، ولكنه يصلنا بنفس الوجود المنظور كامنة دقيقة من الأفكار السامية . وإن من الصعب التكهن عن مستقبل هذا النزوع المبتدع . فقد يمكن أن يتلاشى غداً ولا يبقى منه شىء . ولكن من المحتم الايمان بعبقرية فاليري الشعبية . . . ولا ينكرها عليه من لا يرون فى هذا النزوع إلا هزيمة متكبرة ، وإلا مقاطيع يتلقفها صاحبها من العمل المبهم وقبسات الجمال الخالد ، ولا يمكن جحود تأثير الشاعر الراهن ، ولكنه ما هو إلا شعر فئة مصطفاة ضئيلة العدد ، ولكن الذين يتلون سبينوزا وهيجل قليلون ، ولم يغض هذا من عظمتهما وعبقريتهما .

المذاهب الأدبية المضادة للمذهب المدرسى

لقد رأيت أن شعر « مالارى وبول فاليرى » ومن حذا حذوهما كان كله نزوعاً حاداً للانفصال عن تقاليد العقل والفن ، ومنها التقاليد التى تبدو لنا أنها متعلقة بطبيعة عقلنا ومعانينا . هنالك مدارس ترى أن هذه التقاليد ليست إلا اصطلاحات بل أبسط اصطلاحات وأكثرها سطحية

الموسيقى يجب ألا تكون إلا لذة الألحان، فكل الموسيقيين إذا وضعوا فيها أفكاراً وعواطف هى شكل مسهب لأفكارنا؛ والدهان يجب أن يكون اللذة الوحيدة للأشكال والألوان، فكل الدهانين إذا وضعوا فيه مواضيع، منها موضوع زهرة أو رجل والزهرة تلقن فكرة زهرة، والرجل فكرة رجل! أما الفن فيجب أن يكون محضاً أو صافياً، أى تنظيم ألحان وألوان وأشكال. يكفى نفسه ويبدع لنفسه شرائعه الخاصة دون أن ينشأ أى سأم من تشابهه مع الحقيقة العلمية. وهكذا نشأ فن محض فى أنواع الفن، ومنه الأدب الذى نشأت فيه مقاطيع وروايات يظهر أن هدفها ليس إلا إذهال نفس القارئ أو الناظر. وما شعر مالارمى أو فاليرى إلا مشاهد ذات لون خاص، طليقة من كل تقاليد العقل والفن، ومنها التقاليد القائمة على عقلنا وحواسنا. ونشأ بين الروائيين (بروست) صاحب كتاب «وراء الزمن الغابر» وهو الروائى الذى ماعاش إلا ليلاحظ نفسه أو يلاحظ غيره. وقد ذهل عن حياته ومطامعه وانجذب بتفهم نفسه وتفهم غيره. ولقد كان ملاحظاً محللاً تطغى فيه صفة التحليل على صفة الابداع، ولم يكن ميالاً إلى النظر العقلى أو النظرية الخفية، ليس هنالك فى تحليله مواضيع فوق الوضع، ولا منحدرات فى ظلمات اللاوعى ... وإن كان تحليله النفسى تحليلاً ظاهراً دقيقاً. وهو فى كل مظهر له يبدو أنه ينطلق عن الأسرار المجهولة فى النفس، وجل عمله يميل به إلى إظهار هذه الأسرار المتحركة وتوضيح المنطق الذى يقود حياته وحياة الآخرين. وهى ليست بأسرار خفية أو غير قابلة للتحليل؛ إننا نخفيها عن أنفسنا، و(بروست) يعمل على إظهارها من خفاياها. وقصصه إنما تخرج كحياة نفسه أو كالحياة. وهو لا ينتخب له طريقة معينة فى القصة، فقد تأتى قصصه اعترافية، وهو فيها البطل. وقصصه مما لا يمكن تقليدها لما فيها من قوة وتحليق!

منبل قنداري



رسالة الشعر



هكذا قالت بغى ... ! (*)

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

وَاسِ يا دَهرُ ! وكَفكِفْ من صُرُوفِي   وَأَعِنِّي !
طالَ بالعارِ عَلى الدُّنيا وُقُوفِي   لاَ تَلُمْنِي !
وَخَبتْ من خزيِها تحتَ شُفُوفِي   نارُ حُزْنِي !
ما الذى فى زَلَّةِ الجسم الضَّعيف   كانَ منى ؟
بِعتُ عِرْضى - يا إلٰهى - بِرَغيفِ   فاعفُ عنى ! ...

***

قيـلَ : إنَّ الرِّقَّ قد ذابتْ قُيُودُه   وَتَصَرَّمْ !
كذبوا ... هذا على جسمى حديدُه   يتضرَّمْ !
كلما هلَّتْ على رِجْسِي وُفُودُه   تتنــم !
غاصَ بِي فى الشَّهوةِ الدُّنيا عَبيدُه ...   رَبِّ فارْحَمْ !
وأنا ... كالعودِ يُشجِيهم نشيدُه   وَهوَ مُلْجَمْ ! ...

***

ساقَنى القُوتُ وَساقَتْكم إليَّ   شهوَاتُ !
جذَبتكم للهوى من شفتيَّ   جمَراتُ
أزهرتْ حُمْرتَهَا من رِئتيَّ   زفراتُ !
هى فى شرعِكمُ الجانى علَيَّ   صبوات
وَهى لحنُ الزَّادِ غنَّتْهُ لديَّ   قُبُلاتُ !

***

فى سبيلِ العَيْش يا شرْعَ التُّرابِ   ما أُكابِدْ !
حرَّمَ اللهُ ... وَحَلَّلْتُمْ ... شَبَابِى   لِلْمفاسِدْ !
وارْتَجَلْتُمْ شِرْعَةً سوَّتْ خَرَابى   بالمعابِدْ ...
فى زحامِ الإثمِ لا يطْرُدُ بابى   أيَّ قاصِدْ !
لا ... وَلا يُغْنى حيَاءٌ من عَذَابى   طَرْفُ زاهِدْ ...

***

أىُّ شَرْعٍ قالَ : فى القَيْدِ اسْلُكُوها ..   لِلفجُورِ ؟
وَإلى سِجْنِ المَواخيرِ ابعثُوها ...   لاَ الخُدورِ ! ...
ألِأنِّى كُنْتُ أُنثَى خدَعُوهَا   بالسُّفورِ ؟
حِينما العِفةُ هَاجتْ .... أغْرَقُوهَا   فى الخُمورِ ...
لَيْتَهم - لما أفاقَتْ - شيَّعُوهَا   لِلقُبورِ ! !

***

أنا رَيْحانَةُ عارٍ قد رَوَاهَا   إثمُ أرْضى !
بَعْدَ ما لَوَّثَ جانيها شَذاهَا   راح يُفْضى ...
نَجْمَةٌ كمْ أسْكَرَ الكون سَنَاهَا   ماتَ وَمْضي
هكَذا الدُّنيا على الدُّنيا هوَاهَا   راحَ يَقْضى :
حُرَّةٌ باللقمةِ العفراء - وَاهاً !   بِعتُ عِرْضى ! !

(المجمع اللغوى الملكى بمصر)   محمود حسن اسماعيل

(*) من ديوان (هكذا أغنى) الذى ظهر حديثاً

من وحى الصحراء

للأديب أحمد فتحى

ظَمِئتُ، على قربي، من النَّهل والعَلّ
فهل عافَ عذبَ الوِردِ ظمآنُ من قبلي؟!
وضقتُ بليلي، ساهداً، ولو أنني تعزّيتُ لم أشكُ التسهُّدَ في ليلي!
وغشّتْ حياتي وحشةٌ ليس ينتهي
مداها، ودوني سائرُ الصحبِ والأهلِ
وأقبلتُ، أشكو للصحارى لواعجي
وآنسُ بالإخلادِ في كنفِ السهلِ
وقلتُ أجيءُ البيدَ ملءَ سكونها وأسمعُ همسَ الريحِ في أذنِ الرملِ
تقبّلها طوراً، وطوراً تريدها تنقّلُ كالحسناءِ رِجلاً إلى رجلِ
وأبصرُ بالشمسِ التي ملّتِ النوى
إلى الغربِ تمشي مِشيةَ الواهنِ الكهلِ
أراها، حريقاً أضرمَ اللهُ نارهُ لتأكلَ آجالَ السنينَ على مهلِ!
أحسُّ لظاها في ضلوعي وتنثني ويبقى اللظى يغري مآقيَّ بالهملِ

***

نجيّةَ روحي لا عدِمتِ عواذلا!
فماذا يكونُ الحبُّ، إن يخلُ من عذلِ؟
وهل كان يغري الشاربين براحهم
سوى أنهم ليسوا من الراحِ في حلِّ؟!
وما أنا والعذّالُ، يمضي حديثهم
ويبقى حديثُ الحبِّ في قولهِ الفصلِ؟!
أصيخي إليَّ السمعَ، لا تتعجّلي بناتِ خيالي بل دعيها على رِسْلِ!
ولا تحسبي نجوايَ من عبثِ الهوى
ولغوِ حديثِ الشعرِ، في الجدِّ والهزلِ

فررتُ من الدنيا ومنكِ تشوّقاً إليكِ وللدنيا فيا للهوى النبلِ
أطهّرُ نفسي بالبعادِ، لعلّه يعلّمني صبري على الهجرِ والذلّ
وما الحبُّ إلا لهفةٌ، وتصبّرٌ وطغيانُ تبريحٍ على عاشقٍ مثلي
سموتُ بأفكاري إليكِ ولم أزلْ نجيّكِ في أحلامِ يقظانَ بالوصلِ
وأسرى خيالي طائفاً بكِ باسماً كما تبسِمُ الأزهارُ في الفجرِ للطلِّ
وظلَّ ينادي لطفَ حلمكِ في الكرى
إلى سابقاتِ العهدِ، بالوصلِ والشملِ
فهل لقيَ البرَّ السميعَ نداؤهُ
تُرى، أم يعودُ الطيفُ بالمنعِ والخذلِ؟!

***

نجيّةَ روحي قد رمتْ بي يدُ النوى بخيلاً من البيداءِ يجزلُ في البخلِ
تلفّتُّ حولي، لم أجدْ ليَ مؤنساً
وقد كان كلُّ الأنسِ لو شئتُ من حولي
وأصغيتُ للصحراءِ ينشدُ مسمعي
حديثاً، ومَنْ لي بالحديثِ بها، مَنْ لي؟!
هنا الصمتُ حرّانُ الجوانحِ مثلما يُصعّدُ صبٌّ زفرةَ الشوقِ للوصلِ
هنا ملعبُ الذكرى وميدانُها الذي
تشعّبَ بالعشّاقِ، سُبلاً إلى سُبلِ
ومسرحُ أفكارٍ تساءلُ عن هوًى بعيدِ المرامي لا قريبٍ ولا سهلِ
ومهبطُ إيحاءٍ ومذرفُ أدمعٍ تحيّرنَ بين الكبرِ في العينِ والذلّ
ومعبدُ حسنٍ قد تحكّمَ في الورى قضاءٌ جرى بالظلمِ حيناً وبالعدلِ
وروضٌ من الأوهامِ لاذتْ بظلّهِ
قوافلُ في الرمضاءِ، تحدى إلى الظلِّ
ودنيا من الحرمانِ ضجَّ ضجيجُها
تصايحُ بالزمرِ الطروبِ وبالطبلِ!!

***

نجيّةَ روحي يا مناها وسؤلَها هنيئاً لروحي بالأماني والسؤلِ
ترينَ شبابي ملءَ عينيكِ ناضراً يغنّي كما تشدو الطيورُ على النهلِ



توحيد الثقافة بين الشعوب الشرقية

تلقت وزارة الخارجية من وزير مصر المفوض ببغداد تقريراً عن زيارة صاحب العزة محمد العشماوى بك وكيل وزارة المعارف للعراق فى أثناء عطلة العيد الأضحى الماضى ، وعما نجم عنها من تفاهم مع رجال وزارة المعارف العراقية على الدعوة إلى مؤتمرات ثقافية ، تعقد كل عام لتوحيد الثقافة بين الشعوب الشرقية

وقد رفع صاحب العزة العشماوى بك وكيل المعارف إلى معالى الدكتور حسين هيكل باشا مذكرة يقترح فيها تشكيل لجنة لدراسة هذا الموضوع وقد جاء فى هذه المذكرة ما يأتى :

« عند وجودى فى العراق جرى الحديث مع كبار رجال التعليم فى موضوع توحيد المناهج والخطط في البلاد الشرقية ، بقصد توثيق الروابط الثقافية بينها وانتفاع البلاد الشرقية بموارد بعضها العلمية . وإن مثل هذه الفكرة تؤدى إلى التفكير فى بحث تمهيدى للدعوة لمؤتمر يدرس شئون التعليم بين أمم الشرق ووسائل التربية والسياسة العامة فى نشر الثقافة ، ويواجه بعض المشاكل التى تعرض لهذه الأمم وتكاد تكون متشابهة

وقد أثار هذا التفكير فى العراق وسورية اتجاه هذين البلدين للاستعانة بموارد مصر الثقافية، وسعيها لأن تقتفي أثرها فى نهضتها العلمية وترسم خطاها

وقد كان عقد المؤتمر الطبى فى بغداد من المناسبات التى أثارت هذا البحث ، وشجع نجاح المؤتمر على زيادة العناية بهذه الفكرة. ولما تشرفت بمقابلة صاحب الجلالة الملك غازى الأول ، أثار سعادة وزير مصر المفوض هذه الفكرة فلقيت من جلالته كل تشجيع

وإننى أري أن الوقت قد حان لاتخاذ خطوة تمهيدية لتحقيق هذا الغرض وذلك بأن يعهد إلى لجنة من كبار رجال التعليم فى الوزارة والجامعة بحث الفكرة من جميع نواحيها وتوحيد الموضوعات التى ينبغى العناية ببحثها ، حتى إذا أقرت هذه الفكرة بدأت مصر فى الاتصال بالبلاد الشرقية لمواصلة تنفيذها فى الوقت المناسب »

فلما عرض هذا الموضوع على معالى الدكتور حسين هيكل باشا رأى أن تحقيق هذه الفكرة يتمشى مع السياسة التى يعنى باتباعها فى هذه الأيام والتى ترمى إلى الروابط الثقافية بين ممالك الشرق المختلفة ولهذا أصدر معاليه قراراً بتشكيل

أعِنْدَكِ أنَّ القلب طفل وأنَّنِى أخافُ تبَاريحَ الغرام على طِفْلِي؟
تبدَّى له النيرانُ ورداً وإنَّهُ من الخوف والنيران بالورد فى شُغُل
فلا تَفْجَعِيهِ فى الأمانى وحُسْنِهَا ولا تُركِبِيهِ مَركَبَ الشَّطَطِ الهَوْل
خُذِيه حَنَاناً فى يديك ورحمةً ولا تُغْلِظِي يومًا لطفلك فى قَوْل
وغنى لَهُ الألحان فَرْحَى رقيقةً فَعَلِّي أن أحْظَى بأصدائها عَلِّ
وَرَاعِيه كالأمِّ الرَّؤوم تلَطفاً فوَيْلِي إذا ما اليُتْمُ رَوَّعَهُ وَيلِي
ولا تُشْبِهِي الصحراء فى جَدْبِ قَلْبِهَا
إذا جَاءَها الظَّمْآنُ للنَّهْلِ والعَلِّ !!

« القاهرة » احمد فهمى
مدرس بالتعليم الفنى والصناعى

لجنة لبحث الموضوع وفيما يلى نص القرار بعد الديباجة

المادة الأولى — تشكيل لجنة تمهيدية لبحث هذا الاقتراح على الوجه الآتى :

وكيل الوزارة رئيساً ، والوكيل المساعد وعمداء الكليات ومحمد فهيم بك والدكتور عبد السلام الكردانى بك والأستاذ نجيب حتاتة أعضاء

على أن يكون محمد فهيم بك سكرتيراً عاماً لهذه اللجنة

المادة الثانية — تكون مهمة هذه اللجنة بحث الفكرة من جميع نواحيها ، وتحديد الموضوعات التى يتعين العناية ببحثها حتى إذا أخذ بهذه الفكرة بدأت مصرفى الاتصال بالبلاد الشرقية لمواجهة تنفيذها فى الوقت المناسب

فلما وقف حضرات أعضاء البعثة الايرانية السامية على هذا المشروع أبدوا رغبتهم إلى وزارة المعارف أن توافى وزارة المعارف الإيرانية بجميع القوانين واللوائح والإحصاءات المختلفة عن الشئون التعليمية التى تضطلع بها وزارة المعارف والجامعتان المصرية والأزهرية، وذلك لتكون تحت نظرها أثناء البحث فى المشروع الذى يرمى إلى التعاون العلمى والثقافى بين البلاد العربية ومصر

وقد تقدم حضراتهم إلى سعادة وكيل المعارف بالمقترحات التالية التى تنمى تلك الروح بين مصر وإيران

أولاً — عقد اجتماعات دورية فى أوقات متباينة بين القاهرة وطهران تنتظم أساتذة الجامعات المصرية والايرانية دينية ومدنية

ثانياً — تبادل الأبحاث الخاصة بالكشف الأثرى الذى يتم فى كل من البلدين

ثالثاً — توطيد صلات العلم بين جماعات العلماء المشتغلين بالآثار والتاريخ والأدب فى مصر وإيران

رابعاً — تبادل المطبوعات التى تصدر فى كل من المملكتين

فى مؤتمر المستشرقين

ينعقد مؤتمر المستشرقين الدولى ببروكسل من اليوم الخامس إلى اليوم العاشر من شهر سبتمبر القبل ، ويمثل مصر فيه عميد كلية الآداب رئيساً ، والأساتذة أحمد أمين أستاذ تاريخ الآداب العربية بالكلية ، والدكتور عبد الوهاب عزام الأستاذ المساعد للغتين الفارسية والتركية فى هذه الكلية ، والدكتور سامى جبرة أستاذ تاريخ مصر القديمة ، ومسيو جاستون فييت مدير دار الآثار العربية والحفريات أعضاء

وسيتقدم الدكتور طه حسين بك إلى المؤتمر ببحث عن تبسيط النحو ، والأستاذ أحمد أمين ببحث عن امتزاج الثقافات فى البيئة المصرية ، وسيمثل الدكتور عبد الوهاب عزام الثقافة الفارسية ، والدكتور سامى جبرة ناحية الآثار الفرعونية ، ومسيو فييت ناحية الآثار الاسلامية

زيارة عضوين من البعثة الايرانية السامية لمجمع اللغة الملكى

زار حضرتا صاحبي السعادة الدكتور قاسم غنى والدكتور مؤدب نفيسى من أعضاء البعثة الايرانية دار المجمع الملكى للغة العربية يرافقهما معالى الدكتور هيكل باشا وزير المعارف

وكان فى استقبالهما صاحب السعادة توفيق رفعت باشا رئيس المجمع ، والأستاذ الشيخ عبد العزيز البشرى مراقب المجمع ، والدكتور فارس نمر باشا ، والدكتور منصور فهمى بك، وعلى الجارم بك، وأحمد العوامري بك، والشيخ إبراهيم حمروش والشيخ محمد الخضر حسين، من أعضاء المجمع. فزارا معهم غرفة معجم الدكتور فيشر اللغوى التاريخى وكان يشرح مافيها السعادتهما الدكتور منصور فهمى ، ثم زارا غرفة فيشات معجم الدكتور فيشر وهى تحتوى على معظم الألفاظ العربية ، وطافا بعد ذلك بغرف المكتبة واطلعا على كتب تاريخية قديمة وأخرى خطية مما يعنى به المجمع لحصر كلمات اللغة

وأعرب معالى الوزير عن رغبة المجمع فى ربط الثقافة الايرانية بالثقافة المصرية وأنه يسر المجمع المصرى أن يعين فيه أربعة أعضاء إيرانيون مراسلون وطلب إلى سعادة الدكتور قاسم غنى أن يقدم الأسماء التى يقع عليها الاختيار إلى المجمع لتتولى إدارته اتخاذ الاجراءات السريعة لتعيين حضراتهم فقدم سعادته كشفاً فيه أربعة أسماء فتسلمه الأستاذ الشيخ عبد العزيز البشرى

واتفق كذلك على تعيين أربعة أعضاء مصريين مراسلين للمجمع الايرانى

متحف التعليم الفنى

يفتتح — بعد أيام — معالى الدكتور حسين هيكل باشا وزير المعارف القسم الأول لمتحف التعليم الفنى المقام بسراى المعارف بأرض المعارض بالجزيرة ، وهو المتحف الذى وضعت نواته الوزارة فى العام الماضى عندما احتفلت بعيدها المئوى

ويشمل هذا القسم ثلاثين مجموعة ، يحتوى كل منها نماذج بالحجم الطبيعى . ومن أبدع تلك المجموعات مدرسة نموذجية كاملة فى الهواء الطلق ، وكذلك حجرة مذاكرة لطالب من الأرياف يتلق علومه فى معاهد التعليم بالقاهرة

وإلى جانب هذا طائفة كبيرة من النماذج المصغرة المجسمة ، والتماثيل والصور المصبوبة صباً فى غاية الاتقان ، والرسوم البيانية التى أعدت على أحدث الأساليب ، والطرائق الفنية التى تمثل اطراد النهضة التعليمية فى مصر فى العصور المختلفة

الى الدكتور عبد الوهاب عزام

قرأنا مقالكم الرائع المنشور فى عدد (٢٥٦) من الرسالة الزهراء عن فقيد الشعر والشرق محمد إقبال ، وعند ذكركم مؤلفاته رحمه الله ، لم تذكروا سفرين جليلين له نظمهما قبل كتابه الأخير (أرمغان حجاز) ، أحدهما باللغة الأردية أطلق عليه (صور إسرافيل) ؛ والثانى باللغة الفارسية سماه (پس چه بايد كرداى أقوام شرق) أى (وماذا يجب أن نعمل أيتها الأمم الشرقية) . وقد وضعه متأثراً بالحرب الايطالية الحبشية الاخيرة واندحار الأحباش كما هو معلوم

هذا ما أردت ملاحظته على مقال الأستاذ الكريم ، راجياً الالتفات إليه ، داعياً الله أن يفسح له المجال ، حتى يحدثنا عن شعر إقبال وفلسفة إقبال ، إنه سميع مجيب

(بغداد — كرخ) محمود العبطة

الكلمة الأخيرة الى الأستاذ سيد قطب

أكتب هذه الكلمة جواباً عما تفضل به الأستاذ الناقد الأديب ... سيد قطب فى الرسالة (٢٥٩) ثم لن أعود إلى الموضوع لأن الكلام فيه مع الأستاذ عبث ...

تضمن جواب سيد قطب أموراً ثلاثة :

أولها : أنه جعل جهلي بحضرته (جهلا بالأدب والأدباء فى مصر) ، وطمأن المصريين بأنه ليس كل شاكٍ مثل (على الطنطاوى) فى هذا الجهل ... ومعنى هذا أن (سيد قطب) هو (الأدب والأدباء في مصر) من عرفه فقد عرف ذلك ومن جهله فقد جهله ، وهذا من الادعاء وعوج الفهم بمكان ؛ وأنا بحمد الله أعرف أدباء مصر شعراءهم وكتابهم : أعرف شوقى وحافظ رحمهما الله والجارم ومحرم ورامى والمراوى ، وأعرف الرافعى رحمة الله عليه والعقاد والمازنى وهيكل والزيات وطه والبشرى وأحمد أمين وكثيرين لاجدى من عدّ أسمائهم ؛ وقرأت لهم (كل) ما كتبوه ولكنى لم أتشرف بمعرفة سيد قطب ؛ فهل يحوجهلى به علمي بكل أولئك ؟

وثانيها أنه لم يأخذ من كلامى أو لم يفهم منه إلاأني استدللت على صحة تشبيه الرافعى بأن لشوقي مثله ، مع أن كلامى بين أيدي القراء ، وأن الذى قلته هو أن الأستاذ سيد قطب لم يستكمل أدوات النقد ، ولم يرع المعروف من قواعد البلاغة ، وأنه اشتغل عنهما بما يبدئ فيه ويعيد من الدعاوى المريضة فى العلم والفن والتجديد ، فلماذا ترك ذلك كله من كلامى وأخذ مثالاً عارضاً جئت به ، وعلماؤنا يقولون : (ليس من دأب المحصل المناقشة فى المثال)

وثالثها أن الأستاذ ينصحنى بالاقتصار على التدريس وترك الأدب ، ويخرجنى من زمرة الأدباء ، وهذا كلام لا أحب أن أجيب عليه ، ولا أعود إلى البحث مع من يقوله ، لأنه لا يقوله إلا جاهل بأصول النقد بعيد عن المنطق ، لأن النقد لا يجيز شتم الخصم والكلام على شخصه ، وإنما يدعو إلى مناقشة الرأى الذى رآه ، والمنطق يقضى عليه أن ينظر فى كلامى ويرد عليه أو يدع ، ويذكره المنطق (لو كان من أهله) بأن إقرار التحكيم والاعتراف بكفاية القاضى وسلطانه ، مقدم على إصدار الأحكام . فمنذا الذى نصب هذا المحترم قاضياً بين الأدباء وحاكماً فيهم ؟

وآخر ما أقوله للأستاذ سيد قطب تحية و ... « سلاماً » !

على الطنطاوى

الى الأستاذ سيد قطب

عاب سيد قطب على الأستاذ شاكر أن نقده مملوء بالغمز واللمز والتعريض ، وعاب عليه أيضاً أنه لا ينفذ إلى صميم الموضوع عند ما يناقش . وكنا ننتظر من سيد قطب أن يرد على الكلمة التى كتبها الأستاذ الطنطاوى فى عدد مضى ، فيناقشها مناقشة هادئة تدل على أنه ناقد منصف ومناظر نزيه ... أو يتجاهلها فلا يذكر شيئاً . وإذا به يتصف بالخلة التى عابها على الأستاذ شاكر فيعرض بالأستاذ الطنطاوى تعريضاً ، ويكرم دمشق أن يكسب خصومته إذا وضعها حيث ينبغى وضعها من الأدب والرأى . فما ندرى أحسب سيد قطب أن كلة الأستاذ الطنطاوى وظيفة إنشاء ... أريد منه أن يتفضل فيدلى برأيه فيها ويضعها حيث ينبغى وضعها من مدارج الآداب ... ؟ وكأن دمشق قد فرغت من مشكلاتها ومصائبها ، وانتهت من قضية « المعاهدة » و « اسكندرونة » ولم يبق لها إلا أن تتفرغ لسيد قطب ! فنحن نريد أن يطمئن الأستاذ قطب وألا يجزع ، وأن يتنازل فيناقش الأستاذ الطنطاوى مناقشة هادئة منصفة أو يقبل ما جاء به ... ولن تغلق أسواق دمشق احتجاجاً بعد ذلك ... ! ثم لن ترسل البرقيات إلى عصبة الأمم ... ! فهل يكفى سيد قطب هذا التطمين ؟ إذن :

فقد وجدت مكان القول ذا سعة ... فان وجدت لساناً قائلاً فقل

(دمشق) صموع الدين المنجد

نداء الباطن

قرأت فى العدد الماضى فى البريد الأدبى كلة حول هذا الموضوع ، قال مسطرها : إن كاتباً انجليزيًّا نشر بحثاً ضافياً فى هذا الموضوع فى صحيفة إنجليزية ، وقد عنى فيه بالجانب النفسى عناية فائقة . ثم أثنى كاتب الرسالة على الباحث الانكليزى وأعجب بطرافة موضوعه

وأود — حفظاً لحق أدبى — أن أقول : إننى سبقت الكاتب الانجليزي إلى معالجة هذا الموضوع ، ولكني عالجته شعراً فى قصيدة تزيد أبياتها على الثلاثين ، بداءتها قولى :

نطقتمُ مقاطعَ لم أدرِها ... ولم تكشف النفسُ عن سرِّها
وصُغتمْ نفوسكم هتفةً ... تبينتكم من صدَي جارِها !

ولا أريد أن أثبت تمام القصيدة فى تلك الكلمة القصيرة ، وسوف أنشرها — إن شاء الله — فى ديواني عند طبعه

(الاسكندرية — الشاطبي) العوضى الوكيل

بين مذهبين

جاءتنا كلة بهذا العنوان من الأستاذ محمد سعيد العريان ، يرد بها على شيء تناوله به الأستاذ سيد قطب فى عدد الرسالة الماضى ، ولكنا لم نتمكن من نشرها لوصولها بعد إعداد هذا العدد وترتيب موضوعاته ، فوعدنا بنشرها العدد القادم

تصويب

فى (قصة الكلمة المترجمة) : « فى الرابعة والرابعين » وهى (فى الأربعة والأربعين) و « تذكرنا بهذه الأملوحة » وهي (بهذه الأملوحة) و « أبو بكر البلاقلانى » وهى (الباقلانى) و « نفى القتل لا يبيده » وهى (القاتل) وفى الشرح : « وإن كنت فى الصنيمة » وهى (الصنعة)

منزلة الأدب

القصة الأدبية دعامة قوية يعتمد عليها الأدب الحى ويرتفع بناؤه الشامخ الوطيد ، وهى لون جميل من ألوان الحياة الفكرية ومظهر خلاب من مظاهر الثقافة والتهذيب ...

وإن أدب القصة يحتل اليوم المكانة الأولى والمنزلة السامية بين الآداب الأخرى ، كما أن القارئ المصرى ينظر الآن فى القصة لا « للتسلية » فحسب بل ليجد فيها المتعة الأدبية والغذاء الروحى والحكمة الموفقة والموعظة الحسنة

وقد حمدنا لبعض كتابنا عنايتهم بذلك الضرب من الأدب ، وبذل الجهود السامية فى سبيل نصرته وتقوية أركانه ، ووضع ما يكفل له الحياة والنمو !

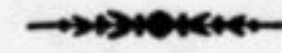
بيد أن هناك كتاباً قد وجدوا فى ترجمة القصة « البوليسية » سوقاً نافعة وربحاً وفيراً ، فحبسوا جهودهم عليها . وقد انزلق بعض كتاب هذه القصة فذكروا فى قصصهم ما يعبد طريق الشر والفساد ، ويبعث فى نفس القارئ — الشاب — العوامل المختلفة المتباينة ، وقد تؤدى هذه العوامل إلى الوقوع فى مهاوي الجريمة. وحسبك أن ترجع إلى تلك القصص لترى فيها فساد الرأى ،



سندباد عصرى

تأليف الدكتور حسين فوزى

للأستاذ محمد سعيد العريان



فى صيف سنة ١٩٣٣ خرج الدكتور حسين فوزى مدير معهد الأبحاث المائية فى بعثة من رجال العلم الأوربيين للاستكشاف ودراسة الأحياء المائية فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ؛ وقضت البعثة فى تجوالها تسعة أشهر ثم عادت ، وكان من نتائج هذه الرحلة كتاب سندباد عصرى . . .

ولكن كتاب « سندباد عصرى » لا يتحدث عن هذه الرحلة حديثاً علمياً ؛ إذ كان مؤلفه قد لخص أبحاثه العلمية ونتائجها فى تقرير قرّره من قبل ؛ ثم أنشأ هذا الكتاب من بعد ، ليقص به قصة هذه الرحلة كما هي فى شعوره وفكره ووجدانه ، بعيدة عن العلم ونظرياته وأبحاثه ونتائجه . على أنها ليست قصة بمعنى القصة تبدأ بَدْأها وتنتهى إلى نهايتها ؛ ولكنها خواطر وصور ومشاهدات مما اجتمع للمؤلف فى رحلته : مما وقع عليه نظره ، أو انفعلت به نفسه ، أو انطبع فى وجدانه ، أو بعث فى نفسه معنى من معانى الفن أو الشعر أو الجمال . فصول مفرّقة هى خفقات قلبه ، ونبضات روحه ، وخلجات نفسه ، وصورة من إحساسه وعواطفه فى هذه الرحلة منذ بدأت إلى أن انتهت

وقد قسّم المؤلف كتابه إلى مقدمة وأربعة أبواب : الباب الأول عبث وفكاهة ، والثانى صور ومشاهدات ، والثالث جِدّ ودراسة ورأى ، والرابع عواطف ومشاعر وخيال وفن ؛ وتحت كل باب من هذه الأبواب فصول عدة ، يتحدث كل فصل منها عن موضوع بذاته ، ليس بينه وبين سابقه أو لاحقه صلة ، إلا الصلة التى جمعت بين كل هذه المشاهد تحت عينى كاتب فنان له روح وعاطفة وفى نفسه شعر وفن

على أن ما يحكيه المؤلف أو يتحدث عنه فى هذه الفصول ليس هو مشاهداتٍ صامتة كبعض ما يصف الرحالون والروّاد ، ولكنها حكاية نفس رأت فتأثرت فالْتقتْ ظلالها وألوانها وعواطفها على ما رأته ؛ فما يصف المؤلف مشاهداته ، ولكنه يصف نفسه فى مشاهداته ؛ ومن ثَمّتَ فإن قارئ هذا الكتاب لن يعرف منه أولَ ما يعرف إلا نفسَ كاتبه قبل أن يعرف ما كُتِب عنه ؛ وهو بذلك كتاب له ميزته ، لأن فيه (صدق) الرواية ؛ وله خطره ، لأن فيه القدرة على خداع القارئ ليقوده إلى الإيمان بالرأى الذى لم يكن يؤمن به لو لم يتوقّ بالحذر واليقظة والانتباه . .

وأول ما تعرف من رأى مؤلف الكتاب ومن نفسه هو قوله الذى يصدّر به الكتاب :

وعدم التوفيق إلى فكرة صالحة ، تشاهد المجرم وقد صوره ألفاص فى صورة البطل الفذ ، وقدمه إليك فى مهارة وعبقرية ، بعد أن وضع على رأسه إكليل الغار

لا جدال فى أن ذلك الأدب الرخيص لا يؤدى إلى الغاية المنشودة ولا يحقق الرجاء المنتظر ، بل ينزلق بالقارئ إلى مكان سحيق لا نرجوه له . . .

وبعد . فنحن فى صدر طفرة جديدة وعهد جديد ، فيجب علينا أن نتخير نوع الغذاء الروحى لأبنائنا ، حتى يتسنى لنا أن نجعل منهم جيلاً جديداً له من نبل أخلاقه وحسن صفاته ما يحمله على النهوض والتقدم

« بنى مزار » الطهناوى

« درجتُ على حب الغرب ، والإعجاب بحضارة الغرب ؛ وقضيت أهم أدوار التكوين من عمري في أوروبا ، فتمكنت أواصر حبي ، وتقوّت دعائم إعجابي ؛ فلما ذهبت إلى الشرق ، عدت إلى بلادي وقد استحال الحب والإعجاب إيماناً بكل ما هو غربي ..! »

هذه الكلمة ، وفيها صراحة الرأي على ما يمكن أن يأتي هذا الرأي من شدة المقاومة ، هي نهج المؤلف ورائده ورفيقه طوال مدة الرحلة ؛ وهي نفسه الصريحة التي تتراءى للقارئ في كل صفحة من كل موضوع في كل فصل مما أنشأ المؤلف من فصول هذا الكتاب . وإنني — على يقيني بأن هذا الرأي لن يجد له نصيراً عند كثير من القراء ، وبأن حظه من الاستنكار سيكون أكثر من حظه من الرضا — أكاد أوقن بأن كثيراً من القراء سيخرجون من قراءة هذا الكتاب أكثر إعجاباً بالكتاب ومؤلفه على ما بينهم وبينه من اختلاف في الرأي والمذهب والعقيدة ، وأشد استمساكاً برأيهم ومذهبهم وعقيدتهم فيما بين الشرق والغرب . . .

وإنني لأبيح لنفسي وقد قرأت هذا الكتاب وحلّلت صداه في نفسي — أن أتقحم على قدس هذا الرأي في نفس الدكتور حسين فوزي ، فأزعم أنه مؤمن بالشرق وما فيه إيمان الرأي والعقيدة والدم الموروث ؛ وما هذا الرأي الذي يجهر به إلا صدى معكوس لبعض هذا الايمان ، أنشأه في نفسه إحساس قوي بمحبة هذا الشرق ، ورغبة غالبة في إنهاضه ، وأسف بالغ لما صار إليه ؛ ثم ثورة فائرة في أعماقه على أكثر ما يرى ويحس من عادات الشرقيين وتقاليدهم ؛ فلما همّ أن يصيح صيحته قائلا : « يا بني قومي ، ليست هذه روحانية الشرق وليست هذه مفاخره ... » عقّه البيان فلم يجد إلا هذه العبارة التي صدر بها كتابه يترجم عن ذات نفسه في لغة من لغة الغرب الذي تعلم فيه فتكلم بلسانه ...

على أن هذا الشرق الذي رآه الدكتور حسين فوزي بعينيه ليس هو الشرق الذي ندعو إلى إحياء مجده وتجديد حضارته . إن للشرق حضارة أخرى لا تجتليها العين ولا تدركها الشاهدة فقد درست معالم هذه الحضارة فلم يبق منها فيما تراه العين إلا أرض وناس ، وتاريخ يتحدث عن ماض يخزَى من ذكر حاضره . وليس الشرق هو هذا الهند الغارق في العبودية والأسر والهوان ، ولا هذه الجزر المبعثرة بين شواطئ المحيط الهندي والبحر الأحمر ؛ ولكن الشرق معنى عام إن لم يبد اليوم لعينيه فيما شاهد من نؤى وآثار وحجارة مركومة ، فان حريًّا أن يشرق في نفسه معناه إن حاول أن ينفذ بعينيه إلى ما وراء ما يرى من آثار وحجارة وناس ...

على أنني في هذا الموضوع لست أريد الحديث عن شرق وغرب ، فما هو إلا معنى يستتبع معنى ، وإنما أردت أن أعرض هذا المؤلف الجديد بما فيه من رأي صاحبه وفكره ، وأحسبني قد بلغت في ذلك مبلغاً ما

ولا يفوتني قبل أن أفرغ من هذا الحديث أن أنوه بالروح الأدبي الذي ألهم مثل الدكتور فوزي أن يؤلف هذه الفصول الشائقة في مثل هذه الرحلة العلمية ، على أن هذا الموضوع كان حقيقاً بأن يكون أقرب إلى الكمال وأكثر جدوى وفائدة لو أن مؤلفه (العالم) لم يضن بعلمه على قرائه فيما أنشأ من فصول هذا الكتاب . ولعله حسب ذلك مما لا يهم القراء ، على أنه كان عندي وسيلة يكمل بها ، فما أجل أن يكون بين علمائنا الأجلاء أديب مثل الأستاذ فوزي في دقة الملاحظة وصراحة الخلق وفكاهة الواقع وخفة الروح وسهولة الكتابة ، ليقدم لقراء العربية شيئاً من « الأدب العلمي » أو « العلم الأدبي » فان العربية في حاجة إلى هذا اللون الجديد من أدب الانشاء الذي لا يقدر على مثله إلا مثل الدكتور حسين فوزي في علمه وأدبه

وما أريد أن أتحدث عن هذا الكتاب في أسلوبه ولغته ؛ إذ لم يكن مما يعني الدكتور فوزي أن أتكلم في هذا الكتاب عن أسلوبه ولغته ؛ وإذا لم يكن من حقنا أن نتحدث عن مثل هذا الكتاب في أسلوبه ولغته ، لذلك ننفي النظر عما فيه من هذا الباب ، راجين أن يكون لنا حديث آخر عن كتاب آخر أو كتب أخرى يخرجها الدكتور حسين فوزي لقراء العربية ؛ فانه لما يؤسف قراء العربية أن يكون فيها مثل الدكتور حسين فوزي من الأدباء المجهولين لأنهم لا يخرجون ثمرات عقولهم إلى القراء ...

محمد سعيد العريان

فهرس الموضوعات للمجلد الأول من السنة السادسة

فهرس الكتاب للمجلد الأول من السنة السادسة